سلسلة نصوص تراثية للباحثين

(١٣٣٤)

المنافع في القرآن

من مصنفات التفاسير

(جمع موضوعي)

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٥هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

WWW.NSOOOS.COM

"السادسة أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن في ذلك لغيره، بل نهاهم عن ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه عليه السلام فقال:" فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى " «١». وقال عليه السلام: (احثوا في وجوه المداحين التراب) رواه المقداد. وسيأتي القول فيه في" النساء" «٢» إن شاء الله تعالى. فمعنى" الحمد لله رب العالمين" أي سبق الحمد مني لنفسي أن يحمدني أحد من العالمين، وحمدي نفسي لنفسي في الأزل لم يكن بعلة، وحمدي الخلق مشوب بالعلل. قال علماؤنا: فيستقبح من المخلوق الذي لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها **المنافع** ويدفع عنها المضار. وقيل: لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل، فاستفراغ طوق عباده هو محل العجز عن حمده. ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: (لا أحصي ثناء عليك). وأنشدوا:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح ... فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وقيل: حمد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فحمد نفسه عنهم، لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المنة. السابعة وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من" الحمد لله". وروي عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج:" الحمد لله" بنصب الدال، وهذا على إضمار فعل. ويقال:" الحمد لله" بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد، فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدت الله حمدا، إلا أن الذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله، والذي ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله. وقال غير سيبويه. إنما يتكلم بهذا تعرضا لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيدا، فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال. وفي الحديث: (من شغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين). وقيل: إن مدحه عز وجل لنفسه وثناءه عليها ليعلم ذلك عباده، فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبري:" الحمد لله"

---

(١). آية ٣٢ سورة النجم.

(٢). راجع ج ٥ ص ٢٤٦." [1]

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١/١٣٥

"قوله تعالى: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا) فيه عشر مسائل: الأولى:" خلق" معناه اخترع وأوجد بعد العدم. وقد يقال في الإنسان:" خلق" عند إنشائه شيئا، ومنه قول الشاعر:

من كان يخلق ما يقو ... ل فحيلتي فيه قليله

وقد تقدم «١» هذا المعنى. وقال ابن كيسان:" خلق لكم" أي من أجلكم. وقيل: المعنى أن جميع ما في الأرض منعم به عليكم فهو لكم. وقيل: إنه دليل على التوحيد والاعتبار. قلت: وهذا هو الصحيح على ما نبينه. ويجوز أن يكون عني به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء. الثانية- استدل من قال إن أصل الأشياء التي ينتفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلها- كقوله:" وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه «٢» " [الجاثية: ١٣] الآية- حتى يقوم الدليل على الحظر. وعضدوا هذا بأن قالوا: إن المآكل الشهية خلقت مع إمكان ألا تخلق فلم تخلق عبثا، فلا بد لها من منفعة. وتلك المنفعة لا يصح رجوعها إلى الله تعالى لاستغنائه بذاته، فهي راجعة إلينا. ومنفعتنا إما في نيل لذتها، أو في اجتنابها لنختبر بذلك، أو في اعتبارنا بها. ولا يحصل شي من تلك الأمور إلا بذوقها، فلزم أن تكون مباحة. وهذا فاسد، لأنا لا نسلم لزوم العبث من خلقها إلا لمنفعة، بل خلقها كذلك لأنه لا يجب عليه أصل المنفعة، بل هو الموجب. ولا نسلم حصر المنفعة فيما ذكروه، ولا حصول بعض تلك **المنافع** إلا بالذوق، بل قد يستدل على الطعوم بأمور أخر كما هو معروف عند الطبائعيين. ثم هو معارض بما يخاف أن تكون سموما مهلكة، ومعارضون بشبهات أصحاب الحظر. وتوقف آخرون وقالوا: ما من فعل لا ندرك منه حسنا ولا قبحا إلا ويمكن أن يكون حسنا في نفسه، ولا معين قبل ورود الشرع، فتعين الوقف إلى ورود الشرع. وهذه الأقاويل الثلاثة للمعتزلة. وقد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحابه وأكثر المالكية والصيرفي في هذه

---

(١). راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء.

(٢). راجع ج ١٦ ص ١٦٠." (١)

"الثانية- في قوله تعالى:" اسكن" تنبيه على الخروج، لأن السكنى لا تكون ملكا، ولهذا قال بعض العارفين: السكنى تكون إلى مدة ثم تنقطع، فدخولهما في الجنة كان دخول سكنى لا دخول إقامة «١». قلت: وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء: إن من أسكن رجلا مسكنا له إنه لا يملكه بالسكنى، وأن له أن يخرجه إذا انقضت مدة الإسكان. وكان الشعبي يقول: إذا قال الرجل داري

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٥١/١

لك سكنى حتى تموت فهي له حياته وموته، وإذا قال: داري هذه اسكنها حتى تموت فإنها ترجع إلى صاحبها إذا مات. ونحو من السكنى العمرى، إلا أن الخلاف في العمرى أقوى منه في السكنى. وسيأتي الكلام في العمرى في" هود «٢» " إن شاء الله تعالى. قال الحربي: سمعت ابن الإعرابي يقول: لم يختلف العرب في أن هذه الأشياء على ملك أربابها ومنافعها لمن جعلت له العمرى والرقبى والإفقار والإخبال والمنحة والعرية والسكنى والإطراق. وهذا حجة مالك وأصحابه في أنه لا يملك شي من العطايا إلا المنافع دون الرقاب، وهو قول الليث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قسيط. والعمرى: هو إسكانك الرجل في دار لك مدة عمرك أو عمره. ومثله الرقبى: وهو أن يقول: إن مت قبلي رجعت إلي وإن مت قبلك فهي لك، وهي من المراقبة. والمراقبة: أن يرقب كل واحد منهما موت صاحبه، ولذلك اختلفوا في إجازتها ومنعها، فأجازها أبو يوسف والشافعي، وكأنها وصية عندهم. ومنعها مالك والكوفيون، لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لا يدري هل يحصل له، ويتمنى كل واحد منهما موت صاحبه. وفي الباب حديثان أيضا بالإجازة والمنع ذكرهما ابن ماجه في سننه، الأول رواه جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (العمرى جائزة لمن أعمرها والرقبى جائزة لمن أرقبها) ففي هذا الحديث التسوية بين العمرى والرقبى في الحكم. الثاني رواه ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا رقبى فمن أرقب شيئا فهو له حياته ومماته). قال: والرقبى أن

---

(١). في بعض الأصول:" لا دخول ثواب".

(٢). راجع ج ٩ ص ٥٧." [1]

"قوله تعالى: (ومنافع) قال ابن عباس: المنافع نسل كل دابة. مجاهد: الركوب والحمل والألبان واللحوم والسمن. (ومنها تأكلون) أفرد منفعة الأكل بالذكر لأنها معظم المنافع. وقيل: المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح. الثانية: دلت هذه الآية على لباس الصوف، وقد لبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله كموسى وغيره. وفي حديث المغيرة: فغسل وجهه وعليه جبة من صوف شامية ضيقة الكمين ... الحديث، خرجه مسلم وغيره. قال ابن العربي: وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهاد والعارفين، وهو يلبس لينا وخشنا وجيدا ومقاربا «١» ورديئا، وإليه نسب جماعة من الناس الصوفية، لأنه لباسهم في الغالب، فالياء للنسب والهاء للتأنيث. وقد أنشدني بعض أشياخهم

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٩٩/١

بالبيت المقدس طهره الله:

تشاجر الناس في الصوفي واختلفوا ... فيه وظنوه مشتقا من الصوف

ولست أنحل هذ الاسم غير فتى ... صافى فصوفي حتى سمي الصوفي

[سورة النحل (١٦): آية ٦]

ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦)

الجمال ما يتجمل به ويتزين. والجمال: الحسن. وقد جمل الرجل (بالضم) جمالا فهو جميل، والمرأة جميلة، وجملاء أيضا، عن الكسائي. وأنشد:

فهي جملاء كبدر طالع ... بذت الخلق جميعا بالجمال

وقول أبي ذؤيب:

جمالك أيها القلب القريح «٢»

يريد: الزم تجملك وحياءك ولا تجزع جزع اقبيحا. قال علماؤنا: فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الافعال. فأما جمال الخلقة فهو

---

(١). شي مقارب (بكسر الراء): وسط بين الجيد والردى.

(٢). هذا صدر البيت، وعجزه كما في اللسان:

سنلقي من تحب فتستريح." [(١)]

"أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائما، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر. وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد. وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لجلب **المنافع** فيهم وصرف الشر عنهم. وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة، وهو مرئي بالأبصار موافق للبصائر. ومن جمالها كثرتها وقول الناس إذا رأوها هذه نعم فلان، قاله السدي. ولأنها إذا راحت توفر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها، لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسمنه وضروعا، قاله قتادة. ولهذا

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٠/٧٠

المعنى قدم الرواح على السراح لتكامل درها وسرور النفس بها إذ ذاك. والله أعلم. وروى أشهب عن مالك قال: يقول الله عز وجل" ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون" وذلك في المواشي حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه. والرو ا ح رجوعها بالعشي من المرعى، والسراح بالغداة، تقول: سرحت الإبل أسرحها سرحا وسروحا إذا غدوت بها إلى المرعى فخليتها، وسرحت هي. المتعدي واللازم واحد.

[سورة النحل (١٦): آية ٧]

وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم (٧)

فيه ثلاث مسائل: قوله تعالى: (وتحمل أثقالكم) الأثقال أثقال الناس من متاع وطعام وغيره، وهو ما يثقل الإنسان حمله. وقيل: المراد أبدانهم، يدل على ذلك قوله تعالى:" وأخرجت الأرض أثقالها «١» " والبلد مكة، في قول عكرمة. وقيل: هو محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظهر. وشق الأنفس: مشقتها وغاية جهدها. وقراءة العامة بكسر الشين. قال الجوهري: والشق المشقة، ومنه قوله تعالى:" لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس"

---

(١). راجع ج ٢٠ ص ١٤٧، ولعل الأثقال في الزلزلة: الكنوز.." [(١)]

"الخامسة- قال ابن القاسم وابن وهب قال مالك قال الله تعالى:" والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة" فجعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل، ونحوه عن أشهب. ولهذا قال أصحابنا: لا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، لأن الله تعالى لما نص على الركوب والزينة دل على ما عداه بخلافه. وقال في الأنعام:" ومنها تأكلون" مع ما امتن الله منها من الدفء **والمنافع**، فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها. وبهذه الآية احتج ابن عباس والحكم بن عيينة، قال الحكم: لحوم الخيل حرام في كتاب الله، وقرأ هذه الآية والتي قبلها وقال: هذه للأكل وهذه للركوب. وسيل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها، وتلا هذه الآية وقال: هذه للركوب، وقرأ الآية التي قبلها" والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع" ثم قال: هذه للأكل. وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعي ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم، واحتجوا بما أخرجه أبو د اود والنسائي والدارقطني وغيرهم عن صالح بن يحيى بن المقدام بن معد يكرب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير،

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٧١/١٠

وكل ذي ناب من السباع أو مخلب من الطير. لفظ الدارقطني. وعند النسائي أيضا عن خالد بن الوليد أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:" لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير". وقال الجمهور من الفقهاء والمحدثين: هي مباحة. وروي عن أبي حنيفة. وشذت طائفة فقالت بالتحريم، منهم الحكم كما ذكرنا، وروي عن أبي حنيفة. حكى الثلاث روايات عنه الروياني في بحر المذهب على مذهب الشافعي. قلت: الصحيح الذي يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة. أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل. إذ لو دلت عليه لدلت على تحريم لحوم الحمر، والسورة مكية، وأي حاجة كانت

إلى تجديد تحريم لحوم الحمر عام يبر وقد ثبت في الأخبار تحليل الخيل على ما يأتي. وأيضا لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها، وهو حمل الأثقال والأكل، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرحا به، وقد تركب ويحرث بها، قال الله تعالى:." (١)

"فإذا صارت بدنا هديا **فالمنافع** فيها أيضا ركوبها عند الحاجة، وشرب لبنها بعد ري فصيلها. وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال: (اركبها) فقال: إنها بدنة. فقال: (اركبها) قال: إنها بدنة. قال: (اركبها ويلك) في الثانية أو الثالثة. وروي عن جابر بن عبد الله وسيل عن ركوب الهدي فقال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهرا). والأجل المسمى على هذا القول نحرها، قاله عطاء بن أبي رباح. السادسة- ذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة لقوله عليه الصلاة والسلام: (اركبها). وممن أخذ بظاهره أحمد وإسحاق وأهل الظاهر. وروى ابن نافع عن مالك: لا بأس بركوب البدنة ركوبا غير فادح. والمشهور أنه لا يركبها إلا إن اضطر إليها لحديث جابر فإنه مقيد والمقيد يقضي على المطلق. وبنحو ذلك قال الشافعي وأبو حنيفة. ثم إذا ركبها عنده الحاجة نزل، قاله إسماعيل القاضي. وهو الذي يدل عليه مذهب مالك، وهو خلاف ما ذكره ابن القاسم أنه لا يلزمه النزول، وحجته إباحة النبي صلى الله عليه وسلم له الركوب فجاز له استصحابه. وقوله: (إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهرا) يدل على صحة ما قاله الإمام الشافعي وأبو حنيفة رضي الله عنهما، وما حكاه إسماعيل عن مذهب مالك. وقد جاء صريحا أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة وقد جهد، فقال: (اركبها). وقال أبو حنيفة والشافعي: إن نقصها الركوب المباح فعليه قيمة ذلك ويتصدق به. السابعة- قوله تعالى: (ثم محلها إلى البيت العتيق) يريد أنها تنتهي إلى البيت، وهو الطواف.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٠/٧٦

فقوله:" محلها" مأخوذ من إحلال المحرم. والمعنى أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق. فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه، قاله مالك في الموطإ. وقال عطاء: ينتهي إلى مكة. وقال الشافعي: إلى الحرم. وهذا بناء على أن الشعائر هي البدن، ولا وجه لتخصيص الشعائر مع عمومها وإلغاء خصوصية ذكر البيت. والله أعلم.." (١)

"الثانية- اختلف العلماء في البدن هل تطلق على غير الإبل من البقر أم لا، فقال ابن مسعود وعطاء والشافعي: لا. وقال مالك وأبو حنيفة: نعم. وفائدة الخلاف فيمن نذر بدنة فلم يجد البدنة أو لم يقدر عليها وقدر على البقرة، فهل تجزيه أم لا، فعلى مذهب الشافعي وعطاء لا تجزيه. وعلى مذهب مالك تجزيه. والصحيح ما ذهب إليه الشافعي وعطاء، لقوله عليه السلام في الحديث الصحيح في يوم الجمعة: (من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة) الحديث. فتفريقه عليه السلام بين البقرة والبدنة يدل على أن البقرة لا يقال عليها بدنة، والله أعلم. وأيضا قوله تعالى:" فإذا وجبت جنوبها" يدل على ذلك، فإن الوصف خاص بالإبل. والبقر يضجع ويذبح كالغنم، على ما يأتي. ودليلنا أن البدنة مأخوذة من البدانة وهو الضخامة، والضخامة توجد فيهما جميعا. وأيضا فإن البقرة في التقرب إلى الله تعالى بإراقة الدم بمنزلة الإبل، حتى تجوز البقرة في الضحايا على سبعة كالإبل. وهذا حجة لأبي حنيفة حيث وافقه الشافعي على ذلك، وليس ذلك في مذهبنا. وحكى ابن شجرة أنه يقال في الغنم بدنة، وهو قول شاذ. والبدن هي الإبل التي تهدى إلى الكعبة. والهدي عام في الإبل والبقر والغنم. الثالثة- قوله تعالى: (من شعائر الله) نص في أنها بعض الشعائر. وقوله: (لكم فيها خير) يريد به **المنافع** التي تقدم ذكرها. والصواب عمومه في خير الدنيا والآخرة. الرابعة- قوله تعالى: (فاذكروا اسم الله عليها صواف) أي انحروها على اسم الله. و" صواف" أي قد صفت قوائمها. والإبل تنحر قياما معقولة. وأصل هذا الوصف في الخيل، يقال: صفن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثنى سنبك الرابعة، والسنبك طرف الحافر. والبعير إذا أرادوا نحره تعقل إحدى يديه فيقوم على ثلاث قوائم. وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعري:" صوافي" أي خوالص لله عز وجل لا يشركون به في التسمية على نحرها أحدا. وعن الحسن أيضا" صواف" بكسر الفاء وتنوينها مخففة، وهي بمعنى التي قبلها، لكن حذفت الياء تخفيفا على غير قياس.." (٢)

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٢/٥٧

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٢/٦١

"قتادة في معنى نصف الذراع حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر آخر عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركت «١» أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى ها هنا) وقبض على نصف الذراع. قال ابن عطية: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك. ف"- ما ظهر" على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه. قلت: هذا قول حسن، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك في الصلاة والحج، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما. يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها: أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لها: (يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا) وأشار إلى وجهه وكفيه. فهذا أقوى من جانب الاحتياط، ولمراعاة فساد الناس فلا تبدي المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفيها، والله الموفق لا رب سواه. وقد قال ابن خويز منداد من علمائنا: إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك، وإن كانت عجوزا أو مقبحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها. الرابعة- الزينة على قسمين: خلقية ومكتسبة، فالخلقية وجهها فإنه أصل الزينة وجمال الخلقة ومعنى الحيوانية، لما فيه من **المنافع** وطرق العلوم. وأما الزينة المكتسبة فهي ما تحاوله المرأة في تحسين خلقتها، كالثياب والحلي والكحل والخضاب، ومنه قوله تعالى:" خذوا زينتكم «٢» " [الأعراف: ٣١]. وقال الشاعر:

يأخذن زينتهن أحسن ما ترى ... وإذا عطلن فهن خير عواطل

الخامسة- من الزينة ظاهر وباطن، فما ظهر فمباح أبدا لكل الناس من المحارم والأجانب، وقد ذكرنا ما للعلماء فيه. وأما ما بطن فلا يحل إبداؤه إلا لمن سماهم الله تعالى في هذه

---

(١). عركت المرأة: حاضت.

(٢). راجع ج ٧ ص ١٨٨ فما بعد.." [1]

"الرابعة- قوله تعالى: (لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه) دليل على أن الحد على قدر الذنب لا على قدر الجسد، أما إنه يرفق بالمحدود في الزمان والصفة. روي عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذيبه

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٢٩/١٢

للطير كان بأن ينتف ريشه. قال ابن جريج: ريشه أجمع. وقال يزيد بن رومان: جناحاه. فعل سليمان هذا بالهدهد إغلاظا على العاصين، وعقابا على إخلاله بنوبته ورتبته، وكأن الله أباح له ذلك، كما أباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من **المنافع**. والله أعلم. وفي" نوادر الأصول" قال: حدثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإيادي، قال حدثنا عون بن عمارة، عن الحسين الجعفي، عن الزبير بن الخريت، عن عكرمة، قال: إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان بارا بوالديه. وسيأتي. وقيل: تعذيبه أن يجعل مع أضداده. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد وقيل: لألزمنه خدمة أقرانه. وقيل: إيداعه القفص. وقيل: بأن يجعله للشمس بعد نتفه. وقيل: بتبعيده عن خدمتي، والملوك يؤدبون بالهجران الجسد بتفريق إلفه. وهو مؤكد بالنون الثقيلة، وهي لازمة هي أو الخفيفة. قال أبو حاتم: ولو قرئت" لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه" جاز. (أو ليأتيني بسلطان مبين) أي بحجة بينة. وليست اللام في" ليأتيني" لام القسم لأنه لا يقسم سليمان على فعل الهدهد، ولكن لما جاء في أثر قوله:" لأعذبنه" وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه. وقرأ ابن كثير وحده:" ليأتينني" بنونين. الخامسة- قوله تعالى: (فمكث غير بعيد) أي الهدهد. والجمهور من القراء على ضم الكاف، وقرأ عاصم وحده بفتحها. ومعناه في القراءتين أقام. قال سيبويه: مكث يمكث مكوثا كما قالوا قعد يقعد قعودا. قال: ومكث مثل ظرف. قال غيره: والفتح أحسن لقوله تعالى:" ماكثين" إذ هو من مكث، يقال: مكث يمكث فهو ماكث، ومكث يمكث مثل عظم يعظم فهو مكيث، مثل عظيم. ومكث يمكث فهو ماكث، مثل حمض يحمض فهو حامض. والضمير في" مكث" يحتمل أن يكون لسليمان، والمعنى: بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أي غير وقت طويل. ويحتمل أن يكون للهدهد وهو الأكثر. فجاء:" فقال أحطت بما لم تحط به" وهي:." (١)

"حين لا ينفعهم الإقرار، أي قالوا قال الحق. وقراءة العامة" فزع عن قلوبهم". وقرأ ابن عباس" فزع عن قلوبهم" مسمى الفاعل وفاعله ضمير يرجع إلى اسم الله تعالى. ومن بناه للمفعول فالجار والمجرور في موضع رفع، والفعل في المعنى لله تبارك وتعالى، والمعنى في القراءتين: أزيل الفزع عن قلوبهم، حسبما تقدم بيانه. ومثله: أشكاه، إذا أزال عنه ما يشكوه. وقرأ الحسن:" فزع" مثل قراءة العامة، إلا أنه خفف الزاي، والجار والمجرور في موضع رفع أيضا، وهو كقولك: انصرف عن كذا إلى كذا. وكذا معنى" فرغ" بالراء والغين المعجمة والتخفيف، غير مسمى الفاعل، رويت عن الحسن أيضا وقتادة. وعنهما أيضا" فرغ" بالراء والغين المعجمة مسمى الفاعل، والمعنى: فرغ الله تعالى قلوبهم أي كشف عنها، أي فرغها من الفزع

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٣/١٨٠

والخوف، وإلى ذلك يرجع البناء للمفعول على هذه القراءة. وعن الحسن أيضا" فرغ" بالتشديد.

[سورة سبإ (٣٤): آية ٢٤]

قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين (٢٤)

قوله تعالى: (قل من يرزقكم من السماوات والأرض) لما ذكر أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة مما يقدر عليه الرب قرر ذلك فقال: قل يا محمد للمشركين" من يرزقكم من السماوات والأرض" أي من يخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة من السماوات، أي عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من **المنافع**." والأرض" أي الخارجة من الأرض عن الماء والنبات- أي لا يمكنهم أن يقولوا هذا فعل آلهتنا- فيقولون لا ندري، فقل إن الله يفعل ذلك الذي يعلم ما في نفوسكم. وإن قالوا: إن الله يرزقنا فقد تقررت الحجة بأنه الذي ينبغي أن يعبد. (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) هذا على وجه الإنصاف في الحجة، كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق وأن صاحبه كاذب. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد، بل على أمرين متضادين، و أحد الفريقين مهتد وهو نحن والآخر ضال وهو أنتم." [١]

"فلا ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور وغير معان. وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان داود أشد ملوك الأرض سلطانا. كان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون ألف رجل، فإذا أصبح قيل: ارجعوا فقد رضي عنكم نبي الله. والملك عبارة عن كثرة الملك، فقد يكون للرجل ملك ولكن لا يكون ملكا حتى يكثر ذلك، فلو ملك الرجل دارا وامرأة لم يكن ملكا حتى يكون له خادم يكفيه مؤنة التصرف في **المنافع** التي يفتقر إليها لضرورته الآدمية. وقد مضى هذا المعنى في" براءة" «١» وحقيقة الملك في" النمل" مستوفى. قوله تعالى:" وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب" فيه مسألتان: الأولى- قوله تعالى:" وآتيناه الحكمة" أي النبوة، قال السدي. مجاهد: العدل. أبو العالية: العلم بكتاب الله تعالى. قتادة: السنة. شريح: العلم والفقه." وفصل الخطاب" قال أبو عبد الرحمن السلمي وقتادة: يعني الفصل في القضاء. وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل. وقال ابن عباس: بيان الكلام. علي بن أبي طالب: هو البينة على المدعي واليمين على من أنكر. وقاله شريح والشعبي وقتادة أيضا. وقال أبو موسى الأشعري والشعبي أيضا: هو قوله أما بعد، وهو أول من تكلم بها. وقيل:" فصل الخطاب" البيان الفاصل بين الحق والباطل. وقيل: هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل. والمعنى في هذه الأقوال متقارب. وقول علي رضي الله

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٩٨/١٤

عنه يجمعه، لأن مدار الحكم عليه في القضاء ما عدا قول أبي موسى. الثانية- قال القاضي أبو بكر بن العربي: فأما علم القضاء فلعمر إلهك إنه لنوع من العلم مجرد، وفصل منه مؤكد، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام، ففي الحديث" أقضاكم علي وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل" وقد يكون الرجل بصيرا بأحكام الأفعال، عارفا بالحلال والحرام، ولا يقوم بفصل القضاء. يروى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن حفر قوم زبية للأسد،

---

(١). راجع ج ٨ ص ١٧١ طبعه أولى أو ثانية.." [١]

"لا لشيطان لسليمان الخيل من البحر من مروج البحر، وكانت لها أجنحة. وكذلك قال علي رضي الله عنه: كانت عشرين فرسا ذوات أجنحة. وقيل: كانت مائة فرس. وفي الخبر عن إبراهيم التيمي: أنها كانت عشرين ألفا، فالله أعلم. فقال:" إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي" يعني بالخير الخيل، والعرب تسميها كذلك، وتعاقب بين الراء واللام، فتقول: انهملت العين وانهمرت، وختلت وخترت إذا خدعت. قال الفراء: الخير في كلام العرب والخيل واحد. النحاس: في الحديث:" الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة" فكأنها سميت خيرا لهذا. وفي الحديث: لما وفد زيد الخيل على النبي صلى الله عليه وسلم، قال له:" أنت زيد الخير" وهو زيد بن مهلهل الشاعر. وقيل: إنما سميت خيرا لما فيها من **المنافع**. وفي الخبر: إن الله تعالى عرض على آدم جميع الدواب، وقيل له: اختر منها واحدا فاختار الفرس، فقيل له: اخترت عزك، فصار اسمه الخير من هذا الوجه. وسمي خيلا، لأنها موسومة بالعز. وسمي فرسا لأنه يفترس مسافات الجو افتراس الأسد وثبانا، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شي خبطا وتناولا. وسمي عربيا لأنه جئ به من بعد آدم لإسمعيل جزاء عن رفع قواعد البيت، وإسماعيل عربي فصارت له نحلة من الله، فسمي عربيا. و" حب" مفعول في قول الفراء. والمعنى إني آثرت حب الخير. وغيره يقدره مصدرا أضيف إلى المفعول، أي أحببت الخير حبا فألهاني عن ذكر ربي. وقيل: إن معنى" أحببت" قعدت وتأخرت من قولهم: أحب البعير إذا برك وتأخر. وأحب فلان أي طأطأ رأسه. قال أبو زيد: يقال بعير محب، وقد أحب إحبابا وهو أن يصيبه مرض أو كسر فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت. وقال ثعلب: يقال أيضا للبعير الحسير محب، فالمعنى قعدت عن ذكر ربي. و" حب" على هذا مفعول له. وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان: أحببت بمعنى لزمت، من قوله»

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٥/١٦٢

:

مثل بعير السوء إذ أحبا

---

(١). هو أبو محمد الفقعسي، وصدر البيت

حلت عليه بالقفيل ضربا

والقفيل السوط. وفي كتب اللغة: ضرب بعير السوء ... إلخ.." [١]

"وقال مجاهد:" غير ممنون" غير محسوب. وقيل:" غير ممنون" عليهم به. قال السدي: نزلت في الزمنى والمرضى والهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه.

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٩ الى ١٢]

قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين (٩) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين (١٠) ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (١١) فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم (١٢)

قوله تعالى:" قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين" أإنكم" بهمزتين الثانية بين بين و" أإنكم" بألف بين همزتين وهو استفهام معناه التوبيخ. أمره بتوبيخهم والتعجب من فعلهم، أي لم تكفرون بالله وهو خالق السموات والأرض؟! " في يومين" الأحد والاثنين." وتجعلون له أندادا" أي أضدادا وشركاء" ذلك رب العالمين."" وجعل فيها" أي في الأرض" رواسي من فوقها" يعني الجبال. وقال وهب: لما خلق الله الأرض مادت على وجه الماء، فقال لجبريل ثبتها يا جبريل. فنزل فأمسكها فغلبته الرياح، قال: يا رب أنت أعلم لقد غلبت فيها فثبتها بالجبال وأرساها" وبارك فيها" بما خلق فيها من **المنافع**. قال السدي: أنبت فيها شجرها." وقدر فيها أقواتها" قال السدي والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم. وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها في يوم الثلاثاء والأربعاء. وقال عكرمة والضحاك: معنى" قدر فيها أقواتها" أي أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من." [٢]

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٥/١٩٤

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٥/٣٤٢

"التجارات والأشجار **والمنافع** في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد. قال عكرمة: حتى إنه في بعض البلاد ليتبايعون الذهب بالملح مثلا بمثل. وقال مجاهد والضحاك: السابري من سابور، والطيالسة من الري، والحبر اليمانية من اليمن." في أربعة أيام" يعني في تتمة أربعة أيام. ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوما، أي في تتمة خمسة عشر يوما. قال معناه ابن الأنباري وغيره." سواء للسائلين" قال الحسن: المعنى في أربعة أيام مستوية تامة. الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين. واختاره الطبري. وقرأ الحسن، البصري ويعقوب الحضرمي" سواء للسائلين" بالجر وعن ابن القعقاع" سواء" بالرفع، فالنصب على المصدر و" سواء" بمعنى استواء أي استوت استواء. وقيل: على الحال والقطع، والجر على النعت لأيام أو لأربعة أي" في أربعة أيام" مستوية تامة. والرفع على الابتداء والخبر" للسائلين" أو على تقدير هذه" سواء للسائلين". وقال أهل المعاني: معنى" سواء للسائلين" ولغير السائلين، أي خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل، ويعطي من سأل ومن لا يسأل. قوله تعالى:" ثم استوى إلى السماء وهي دخان" أي عمد إلى خلقها وقصد لتسويتها. والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال، يدل عليه قوله تعالى:" ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات" [البقرة: ٢٩] وقد مضى القول هناك «١». وروى أبو صالح عن ابن عباس في قوله:" ثم استوى إلى السماء" يعني صعد أمره إلى السماء، وقال الحسن. ومن قال: إنه صفة ذاتية زائدة قال: استوى في الأزل بصفاته. و" ثم" ترجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة، وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، على ما مضى في [البقرة] عن ابن مسعود وغيره." فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها" أي جيئا بما خلقت فيكما من **المنافع** والمصالح وأخرجاها لخلقي. قال ابن عباس: قال الله تعالى للسماء: أطلعي شمسك

---

(١). راجع ج ١ ص ٢٥٤ وما بعدها طبعه ثانية أو ثالثة.." [1]

"الرابعة- هذه الآية وما كان مثلها دليل على جواز ركوب البحر مطلقا لتجارة كان أو عبادة، كالحج والجهاد. ومن السنة حديث أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء. الحديث. وحديث أنس بن مالك في قصة أم حرام، أخرجهما الأئمة: مالك وغيره. روى حديث أنس عنه جماعة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٥/٣٤٣

أنس، ورواه بشر بن عمر عن مالك عن إسحاق عن أنس عن أم حرام، جعله من مسند أم حرام لا من مسند أنس. هكذا حدث عنه به بندار محمد بن بشار، ففيه دليل واضح على ركوب البحر في الجهاد للرجال والنساء، وإذا جاز ركوبه للجهاد فركوبه للحج المفترض أولى وأوجب. وروي عن عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما المنع من ركوبه. والقرآن والسنة يرد هذا القول، ولو كان ركوبه يكره أو لا يجوز لنهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم الذين قالوا له: إنا نركب البحر. وهذه الآية وما كان مثلها نص في الغرض وإليها المفزع. وقد تؤول ما روي عن العمرين في ذلك بأن ذلك محمول على الاحتياط وترك التغرير بالمهج في طلب الدنيا والاستكثار منها، وأما في أداء الفرائض فلا. ومما يدل على جواز ركوبه من جهة المعنى أن الله تعالى ضرب البحر وسط الأرض وجعل الخلق في العدوتين «١»، وقسم **المنافع** بين الجهتين فلا يوصل إلى جلبها إلا بشق البحر لها، فسهل الله سبيله بالفلك، قاله ابن العربي. قال أبو عمر: وقد كان مالك يكره للمرأة الركوب للحج في البحر، وهو للجهاد لذلك أكره. والقرآن والسنة يرد قوله، إلا أن بعض أصحابنا من أهل البصرة قال: إنما كره ذلك مالك لأن السفن بالحجاز صغار، وأن النساء لا يقدرن على الاستتار عند الخلاء فيها لضيقها وتزاحم الناس فيها، وكان الطريق من المدينة إلى مكة على البر ممكنا، فلذلك كره مالك ذلك. وأما السفن الكبار نحو سفن أهل البصرة فليس بذلك بأس. قال: والأصل أن الحج على كل من استطاع إليه سبيلا من الأحرار البالغين، نساء كانوا أو رجالا، إذا كان الأغلب من الطريق الأمن، ولم يخص بحرا من بر.

---

(١). العدوة: شاطئ الوادي. [.....]." [١]

"وأدخلته الجنة فإذا مات زاره ميكائيل كل يوم، فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه، فأوقفه بين يدي الله تعالى، فيقول: يا رب شفعني فيه، فيقول قد شفعتك فيه، فاذهب به إلى الجنة (. وقال الحسن: سبح اسم ربك الأعلى أي صل لربك الأعلى. وقيل: أي صل بأسماء الله، لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية «١». وقيل: ارفع صوتك بذكر ربك. قال جرير:

قبح الإله وجوه تغلب كلما ... سبح الحجيج وكبروا تكبيرا

[سورة الأعلى (٨٧): الآيات ٢ الى ٥]

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٩٥/٢

الذي خلق فسوى (٢) والذي قدر فهدى (٣) والذي أخرج المرعى (٤) فجعله غثاء أحوى (٥)
قوله تعالى: (الذي خلق فسوى) قد تقدم معنى التسوية في" الانفطار" وغيرها «٢». أي سوى ما خلق، فلم يكن في خلقه تثبيج «٣». وقال الزجاج: أي عدل قامته. وعن ابن عباس: حسن ما خلق. وقال الضحاك: خلق آدم فسوى خلقه. وقيل: خلق في أصلاب الآباء، وسوى في أرحام الأمهات. وقيل: خلق الأجساد، فسوى الأفهام. وقيل: أي خلق الإنسان وهيأه للتكليف. (الذي قدر فهدى) قرأ علي رضي الله عنه السلمي والكسائي (قدر) مخففة الدال، وشدد الباقون. وهما بمعنى واحد. أي قدر ووفق لكل شكل شكله. فهدى أي أرشد. قال مجاهد: قدر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة. وعنه قال: هدى الإنسان للسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراعيها. وقيل: قدر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسا، ولمراعيهم إن كانوا وحشا. وروي عن ابن عباس والسدي ومقاتل والكلبي في قوله فهدى قالوا: عرف خلقه كيف يأتي الذكر الأنثى، كما قال في (طه): أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»
[طه: ٥٠] أي الذكر للأنثى. وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له. وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه

---

(١). المكاء: الصفير. والتصدية التصفيق. قال ابن عباس:" كانت قريش تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون، فكان ذلك عبادة في ظنهم".
(٢). راجع ج ١٩ ص (٢٢٤)
(٣). التثبيج: التخليط.
(٤). آية ٥٠.." [1]

"ثناؤه على عظيم من خلقه، قد ذلله للصغير، يقوده وينيخه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شي من الحيوان غيره. فأراهم عظيما من خلقه، مسخرا لصغير من خلقه، يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته. وعن بعض الحكماء: أنه حدث عن البعير وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها، ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق. وحين أراد بها أن تكون سفائن البر، صبرها على احتمال العطش، حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العشر فصاعدا، وجعلها ترعى كل شي نابت في البراري والمفاوز، مما لا يرعاه سائر البهائم. وقيل: لما ذكر السرر المرفوعة قالوا: كيف

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٥/٢٠

نصعدها؟ فأنزل الله هذه الآية، وبين أن الإبل تبرك حتى يحمل عليها ثم تقوم، فكذلك تلك السرر تتطامن ثم ترتفع. قال معناه قتادة ومقاتل وغيرهما. وقيل: الإبل هنا القطع العظيمة من السحاب، قاله المبرد. قال الثعلبي: وقيل في الإبل هنا: السحاب، ولم أجد لذلك أصلا في كتب الأئمة. قلت: قد ذكر الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب، قال أبو عمرو: من قرأها أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت بالتخفيف: عنى به البعير، لأنه من ذوات الأربع، يبرك فتحمل عليه الحمولة، وغيره من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم. ومن قرأها بالتثقيل فقال: الإبل «١»، عنى بها السحاب التي تحمل الماء والمطر. وقال الماوردي: وفي الإبل وجهان: أحدهما: وهو أظهرهما وأشهرهما: أنها الإبل من النعم. الثاني: أنها السحاب. فإن كان المراد بها السحاب، فلما فيها من الآيات الدالة على قدرته، **والمنافع** العامة لجميع خلقه. وإن كان المراد بها الإبل من النعم، فلأن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوان، لأن ضروبه أربعة: حلوبة، وركوبة، وأكولة، وحمولة. والإبل تجمع هذه الخلال الأربع، فكانت النعمة بها أعم، وظهور القدرة فيها أتم. وقال الحسن: إنما خصها الله بالذكر لأنها تأكل النوى والقت، وتخرج اللبن. وسيل الحسن أيضا عنها وقالوا: الفيل أعظم في الأعجوبة: فقال: العرب بعيدة العهد بالفيل، ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه، ولا يركب ظهره، ولا يحلب

---

(١). في البحر المحيط: (قرأ الجمهور بكسر الباء وتخفيف اللام. الأصمعي عن أبي عمرو وبإسكان الباء. وعلى وابن عباس بشد اللام، ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي، وقالوا إنها السحاب (.)." [١]

"بالمعنى، لأنه لما ذكر ما تقدم من نعمه، دل بها على كرمه. وقيل: اقرأ وربك أي اقرأ يا محمد وربك يعينك ويفهمك، وإن كنت غير القارئ. والأكرم بمعنى المتجاوز عن جهل العباد.

[سورة العلق (٩٦): آية ٤]

الذي علم بالقلم (٤)

فيه ثلاث مسائل: الأولى: قوله تعالى: الذي علم بالقلم يعني الخط والكتابة، أي علم الإنسان الخط بالقلم. وروى سعيد عن قتادة قال: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش. فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من **المنافع** العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو. وما دونت العلوم، ولا قيدت

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٣٥/٢٠

الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا. وسمي قلما لأنه يقلم، أي يقطع، ومنه تقليم الظفر. وقال بعض الشعراء المحدثين يصف القلم:

فكأنه والحبر يخضب رأسه ... شيخ لوصل خريدة يتصنع

لم «١» لا ألاحظه بعين جلالة ... وبه إلى الله الصحائف ترفع

وعن عبد الله بن عمر قال: يا رسول الله، أأكتب ما أسمع منك من الحديث؟ قال: [نعم فاكتب، فإن الله علم بالقلم]. وروى مجاهد عن أبي عمر قال: خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده، ثم قال لسائر الحيوان: كن فكان: القلم، والعرش، وجنة عدن، وآدم عليه السلام. وفيمن علمه بالقلم ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه آدم عليه السلام، لأنه أول من كتب، قاله كعب الأحبار. الثاني: أنه إدريس، وهو أول من كتب. قاله الضحاك. الثالث: أنه أدخل كل من كتب بالقلم، لأنه ما علم إلا بتعليم الله سبحانه، وجمع بذلك نعمته عليه في خلقه، وبين نعمته عليه في تعليمه، استكمالا للنعمة عليه.

---

(١). في الأصول: (ألا) في موضع (لم لا)، ولعله تحريف.." [١]

"إذا يسروا لم يورث اليسر بينهم ... فواحش ينعى ذكرها بالمصائف

فهذا كله نفع الميسر، إلا أنه أكل المال بالباطل: الثامنة- قوله تعالى: (وإثمهما أكبر من نفعهما) أعلم الله عز وجل أن الإثم أكبر من النفع، وأعود بالضرر في الآخرة، فالإثم الكبير بعد التحريم، **والمنافع** قبل التحريم. وقرأ حمزة والكسائي"كثير" بالثاء المثلثة، وحجتهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الخمر ولعن معها عشرة: بائعها ومبتاعها والمشتراة له وعاصرها والمعصورة له وساقيها وشاربها وحاملها والمحمولة له وآكل ثمنها. وأيضا فجمع **المنافع** يحسن معه جمع الآثام. و"كثير" بالثاء المثلثة يعطي ذلك. وقرأ باقي القراء وجمهور الناس"كبير" بالباء الموحدة، وحجتهم أن الذنب في القمار وشرب الخمر من الكبائر، فوصفه بالكبير أليق. وأيضا فاتفاقهم على" أكبر" حجة ل"كبير" بالباء بواحدة. وأجمعوا على رفض" أكثر" بالثاء المثلثة، إلا في مصحف عبد الله بن مسعود فإن فيه" قل فيهما إثم كثير"" وإثمهما أكثر" بالثاء مثلثة في الحرفين. التاسعة- قال قوم من أهل النظر: حرمت الخمر بهذه الآية، لأن الله تعالى قد قال:" قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم «١» " فأخبر في هذه الآية أن فيها إثما فهو حرام. قال ابن

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٠/١٢٠

عطية: ليس هذا النظر بجيد، لأن الإثم الذي فيها هو الحرام، لا هي بعينها على ما يقتضيه هذا النظر. قلت: وقال بعضهم: في هذه الآية ما دل على تحريم الخمر لأنه سماه إثما، وقد حرم الإثم في آية أخرى، وهو قوله عز وجل:" قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم" وقال بعضهم: الإثم أراد به الخمر، بدليل قول الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلي ... كذاك الإثم يذهب بالعقول

قلت: وهذا أيضا ليس بجيد، لأن الله تعالى لم يسم الخمر إثما في هذه الآية، وإنما قال:" قل فيهما إثم كبير" ولم يقل: قل هما إثم كبير. وأما آية" الأعراف" وبئت الشعر فيأتي الكلام فيهما هناك مبينا، إن شاء الله تعالى. وقد قال قتادة: إنما في هذه

---

(١). آية ٣٣ سورة الأعراف.." [١]

"ذكرنا. والمحجور عليه في حق غيره العبد والمديان والمريض في الثلثين، والمفلس وذات الزوج لحق الزوج، والبكر في حق نفسها. فأما الصغير والمجنون فلا خلاف في الحجر عليهما. وأما الكبير فلأنه لا يحسن النظر لنفسه في ماله، ولا يؤمن منه إتلاف ما له في غير وجه، فأشبه الصبي، وفيه خلاف يأتي. ولا فرق بين أن يتلف ما له في المعاصي أو في القرب والمباحات. واختلف أصحابنا إذا أتلف ما له في القرب، فمنهم من حجر عليه، ومنهم من لم يحجر عليه. والعبد لا خلاف فيه. والمديان ينزع ما بيده لغرمائه، لإجماع الصحابة، وفعل عمر ذلك بأسيفع جهينة «١»، ذكره مالك في الموطأ. والبكر ما دامت في الخدر محجور عليها، لأنها لا تحسن النظر لنفسها. حتى إذ تزوجت ودخل إليها الناس، وخرجت وبرز وجهها عرفت المضار من **المنافع**. وأما ذات الزوج فلأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يجوز لامرأة ملك زوجها عصمتها قضاء في مالها إلا في ثلثها). قلت: وأما الجاهل بالأحكام وإن كان غير محجور عليه لتنميته لماله وعدم تدبيره «٢»، فلا يدفع إليه المال، لجهله بفاسد البياعات وصحيحها وما يحل وما يحرم منها. وكذلك الذمي مثله في الجهل بالبياعات ولما يخاف من معاملته بالربا وغيره. والله أعلم. واختلفوا في وجه إضافة المال إلى المخاطبين على هذا، وهي للسفهاء، فقيل: أضافها إليهم لأنها بأيديهم وهم الناظرون فيها فنسبت إليهم اتساعا، كقوله تعالى: (فسلموا على أنفسكم «٣») وقوله (فاقتلوا أنفسكم «٤»). وقيل: أضافها إليهم لأنها من جنس أموالهم، فإن الأموال جعلت مشتركة بين الخلق تنتقل من يد

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٦٠/٣

إلى يد، ومن ملك إلى ملك، أي هي لهم إذا احتاجوها كأموالكم التي تقي أعراضكم وتصونكم وتعظم أقداركم، وبها قوام أمركم. وقول ثان قاله أبو موسى الأشعري وابن عباس والحسن وقتادة: (أن المراد أموال المخاطبين حقيقة. قال ابن عباس: لا تدفع مالك الذي هو سبب معيشتك إلى امرأتك وابنك وتبقى فقيرا تنظر إليهم وإلى ما في أيديهم، بل كن أنت الذي تنفق عليهم. فالسفهاء على هذا هم النساء والصبيان، صغار ولد الرجل وامرأته. وهذا يخرج مع قول مجاهد وأبي مالك في السفهاء.

---

(١). راجع مادة سفع في القاموس والتاج.

(٢). في ط: تبذيره.

(٣). راجع ج ١٢ ص ٣١٨.

(٤). راجع ج ١ ص ٤٠٠." [١]

"ذلك مالك لأنه يستحب أن يكون الصداق معجلا، والإجارة والحج في معنى المؤجل. احتج أهل القول الأول بأن الله تعالى قال: (بأموالكم) وتحقيق المال ما تتعلق به الأطماع، ويعد للانتفاع، ومنفعة الرقبة في الإجارة ومنفعة التعليم للعلم كله ليس بمال. قال الطحاوي: والأصل المجتمع عليه أن رجلا لو استأجر رجلا على أن يعلمه سورة القرآن سماها، بدرهم لم يجز، لأن الإجارات لا تجوز إلا لأحد معنيين، إما على عمل بعينه كخياطة ثوب وما أشبهه، وإما على وقت معلوم، وكان إذا استأجره على تعليم سورة فتلك إجارة لا على وقت معلوم ولا على عمل معلوم، وإنما استأجره على أن يعلم، وقد يفهم بقليل التعليم وكثيره في قليل الأوقات وكثيرها. وكذلك لو باعه داره على أن يعلمه سورة من القرآن لم يجز للمعاني التي ذكرناها في الإجارات. وإذا كان التعليم لا يملك به **المنافع** ولا أعيان الأموال ثبت بالنظر أنه لا تملك به الأبضاع. والله الموفق. احتج من أجاز ذلك بحديث سهل بن سعد في حديث الموهوبة، وفيه فقال: (اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن). في رواية قال: (انطلق فقد زوجتكها فعلمها من القرآن). قالوا: فقئ هذا دليل على انعقاد النكاح وتأخر المهر الذي هو التعليم، وهذا على الظاهر من قوله: (بما معك من القرآن) فإن الباء للعوض، كما تقول: خذ هذا بهذا، أي عوضا منه. وقوله في الرواية الأخرى: (فعلمها) نص في الأمر بالتعليم، والمساق يشهد بأن ذلك لأجل النكاح، ولا يلتفت لقول من قال إن ذلك كان إكراما للرجل بما حفظه من القرآن، أي لما حفظه، فتكون الباء بمعنى اللام، فإن الحديث الثاني يصرح

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٥/٢٩

بخلافه في قوله: (فعلمها من القرآن). ولا حجة فيما روي عن أبي طلحة أنه خطب أم سليم فقالت: إن أسلم تزوجته فأسلم فتزوجها، فلا يعلم مهر كان أكرم من مهرها، كان مهرها الإسلام فإن ذلك خاص به. وأيضا فإنه لا يصل إليها منه شيء بخلاف التعليم وغيره من المنافع. وقد زوج شعيب عليه السلام ابنته من موسى عليه السلام على أن يرعى له غنما في صداقها، على ما يأتي بيانه في سورة (القصص) «١». وقد روي من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أصحابه: (يا فلان هل

---

(١). راجع ج ١٣ ص ٢٧١ فمن بعد. [.....]." (١)

"وذلك ليس مذهبا لأحد، فإن الذي يبيح لحم الكلب فلا يخصص الإباحة بالمعلم، وسيأتي ما للعلماء في أكل الكلب في" الأنعام" «١» إن شاء الله تعالى. وقد ذكر بعض من صنف في أحكام القرآن أن الآية تدل على أن الإباحة تتناول ما علمناه من الجوارح، وهو ينتظم الكلب وسائر جوارح الطير، وذلك يوجب إباحة سائر وجوه الانتفاع، فدل على جواز بيع الكلب والجوارح والانتفاع بها بسائر وجوه المنافع إلا ما خصه الدليل، وهو الأكل من الجوارح أي الكواسب من الكلاب وسباع الطير، وكان لعدي كلاب خمسة قد سماها بأسماء أعلام، وكان أسماء أكلبه سلهب وغلاب والمختلس والمتناعس، قال السهيلي: وخامس أشك، قال فيه أخطب، أو قال فيه وثاب. الرابعة- أجمعت الأمة على أن الكلب إذا لم يكن أسود وعلمه مسلم فينشلي إذا أشلي «٢» ويجيب إذ دعي، وينزجر بعد ظفره بالصيد إذا زجر، وأن يكون لا يأكل من صيده الذي صاده، وأثر فيه بجرح أو تنييب، وصاد به مسلم وذكر اسم الله عند إرساله أن صيده صحيح يؤكل بلا خلاف، فإن انخرم شرط من هذه الشروط دخل الخلاف. فإن كان الذي يصاد به غير كلب كالفهد وما أشبهه وكالبازي والصقر ونحوهما من الطير فجمهور الأمة على أن كل ما صاد بعد التعليم فهو جارح كاسب. يقال: جرح فلان واجترح إذا اكتسب، ومنه الجارحة لأنها يكتسب بها، ومنه اجتراح السيئات. وقال الأعشى:

ذا جبار «٣» منضجا ميسمه ... يذكر الجارح ما كان اجترح

وفي التنزيل" ويعلم ما جرحتم بالنهار «٤» ٦٠"] الانعام: ٦٠] وقال:" أم حسب الذين اجترحوا السيئات «٥» الجاثية: ٢١]. الخامسة- قوله تعالى: (مكلبين) معنى" مكلبين" أصحاب الكلاب وهو كالمؤدب صاحب التأديب. وقيل: معناه مضرين على الصيد كما تضرى الكلاب، قال الرماني: وكلا

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٥/١٣٤

(١). راجع ج ٧ ص ١١٥. [.....]

(٢). أشليت الكلب على الصيد دعوته فأرسلته، وقيل: أغريته.

(٣). الجبار: الهدر. الميسم: اسم لأثر الوسم وهو الكي والمعنى: أن من أهجوه يبقى هجوي له ظاهرا ولا يستطيع رفعه. والشطر الأول في الأصول (ذات جد منضج ميسمها)، والتصويب عن (الصبح المنير في شعر أبي بصير).

(٤). راجع ج ٧ ص ٥.

(٥). راجع ج ١٦ ص ١٦٥.." [1]

"يعم الطريق كلها، بل إنما جرت في مواضع يسيرة يمكن التحرز عنها- هذا- مع ما يحصل في ذلك من فائدة شهرة إراقتها في طرق «١» المدينة، ليشيع العمل على مقتضى تحريمها من إتلافها، وأنه لا ينتفع بها، وتتابع الناس وتوافقوا على ذلك. والله أعلم. فإن قيل: التنجيس حكم شرعي ولا نص فيه، ولا يلزم من كون الشيء محرما أن يكون نجسا، فكم من محرم في الشرع ليس بنجس، قلنا: قوله تعالى:" رجس" يدل على نجاستها، فإن الرجس في اللسان النجاسة، ثم لو التزمنا ألا نحكم بحكم إلا حتى نجد فيه نصا لتعطلت الشريعة، فإن النصوص فيها قليلة، فأي نص يوجد على تنجيس البول والعذرة والدم والميتة وغير ذلك؟ وإنما هي الظواهر والعمومات والأقيسة. وسيأتي في سورة" الحج" «٢» ما يوضح هذا المعنى إن شاء الله تعالى. السابعة- قوله:" فاجتنبوه" يقتضي الاجتناب المطلق الذي لا ينتفع معه بشيء بوجه من الوجوه، لا بشرب ولا بيع ولا تخليل ولا مداواة ولا غير ذلك. وعلى هذا تدل الأحاديث الواردة في الباب. وروى مسلم عن ابن عباس أن رجلا أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم «٣» راوية خمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:] هل علمت أن الله حرمها [قال: لا، قال: فسار رجلا «٤» فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:] بم ساررته [قال: أمرته ببيعها، فقال:] إن الذي حرم شربها حرم بيعها [، قال: ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها، فهذا حديث يدل على ما ذكرناه، إذ لو كان فيها منفعة من **المنافع** الجائزة لبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قال في الشاة الميتة.] هلا أخذتم إهابها فدبغتموه فانتفعتم به [الحديث. الثامنة- أجمع المسلمون على تحريم بيع الخمر والدم، وفي ذلك دليل على تحريم بيع العذرات وسائر النجاسات وما لا يحل أكله، ولذلك- والله أعلم- كره مالك بيع زبل الدواب، ورخص فيه ابن القاسم

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٦/٦٦

لما فيه من المنفعة، والقياس ما قاله مالك، وهو مذهب الشافعي، وهذا الحديث شاهد بصحة ذلك.

---

(١). في ج وع وك. وفي ا: طريق.

(٢). راجع ج ١٢ ص ٥٣.

(٣). الرواية: القربة التي فيها الخمر سماها مرة برواية ومرة بمزادة وهما بمعنى. وربما قالوا مزاد بغير (هاء) كما وقع في بعض النسخ.

(٤). في ج وع وك: إنسانا.." [(١)]

"التاسعة عشرة- اللام في قوله:" لا نشتري" جواب لقوله:" فيقسمان" لأن أقسم يلتقي بما يلتقي به القسم، وهو" لا" و" ما" في النفي،" وإن" واللام في الإيجاب. والهاء في" به" عائد على اسم الله تعالى، وهو أقرب مذكور، المعنى: لا نبيع حظنا من الله تعالى بهذا العرض. ويحتمل أن يعود على الشهادة وذكرت على معنى القول، كما قال صلى الله عليه وسلم: [واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب] فأعاد [الضمير] «١» على معنى الدعوة الذي هو الدعاء، وقد تقدم في سورة" النساء" «٢». الموفية عشرين- قوله تعالى:" ثمنا" قال الكوفيون: المعنى ذا ثمن أي سلعة ذا ثمن، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وعندنا وعند كثير من العلماء أن الثمن قد يكون هو ويكون السلعة، فإن الثمن عندنا مشترى كما أن المثمون مشترى، فكل واحد من المبيعين ثمنا ومثمونا كان البيع دائرا على عرض ونقد، أو على عرضين، أو على نقدين، وعلى هذا الأصل تنبني مسألة: إذا أفلس المبتاع ووجد البائع متاعه هل يكون أولى به؟ قال أبو حنيفة: لا يكون أولى به، وبناه على هذا الأصل، وقال: يكون صاحبها أسوة الغرماء. وقال مالك: هو أحق بها في الفلس دون الموت. وقال الشافعي: صاحبها أحق بها في الفلس والموت. تمسك أبو حنيفة بما ذكرنا، وبأن الأصل الكلي أن الدين في ذمة المفلس والميت، وما بأيديهما محل للوفاء، فيشترك جميع الغرماء فيه بقدر رءوس أموالهم، ولا فرق في ذلك بين أن تكون أعيان السلع موجودة أو لا، إذ قد خرجت عن ملك بائعها ووجبت أثمانها لهم في الذمة بالإجماع، فلا يكون لهم إلا أثمانها أو ما وجد منها. وخصص مالك والشافعي هذه القاعدة بأخبار رويت في هذا الباب رواها الأئمة أبو داود وغيره. الحادية والعشرون- قوله تعالى: (ولا نكتم شهادة الله) أي ما أعلمنا الله من الشهادة. وفيها سبع قراءات من أرادها وجدها في (التحصيل) «٣» وغيره.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٨٩/٦

(١). من ك.

(٢). راجع ج ٥ ص ٥٠ ففيها: (فإنه ليس بينه) وهو الشاهد. والأصول جميعا: (بينها) فلا شاهد.

(٣). وهو تحصيل المنافع على كتاب الدرر اللوامع. في قراءة نافع.." [1]

"أحكامه وأوامره ونواهيه. فإن قبل أمرا فحسن، وإن أبى فرده إلى مأمنه. وهذا ما لا خلاف فيه. والله أعلم «١». قال مالك: إذا وجد الحربي في طريق بلاد المسلمين فقال: جئت أطلب الأمان. قال مالك: هذه أمور مشتبهة، وأرى أن يرد إلى مأمنه. وقال ابن القاسم: وكذلك الذي يوجد وقد نزل تاجرا بساحلنا فيقول: ظننت ألا تعرضوا لمن جاء تاجرا حتى يبيع. وظاهر الآية إنما هي فيمن يريد سماع القرآن والنظر في الإسلام، فأما الإجارة لغير ذلك فإنما هي لمصلحة المسلمين والنظر فيما تعود عليهم به منفعته. الثانية- ولا خلاف بين كافة العلماء أن أمان السلطان جائز، لأنه مقدم للنظر والمصلحة، نائب عن الجميع في جلب المنافع ودفع المضار. واختلفوا في أمان غير الخليفة، فالحر يمضي أمانه عند كافة العلماء. إلا أن ابن حبيب قال: ينظر الإمام فيه. وأما العبد فله الأمان في مشهور المذهب، وبه قال الشافعي وأصحابه وأحمد وإسحاق والأوزاعي والثوري وأبو ثور وداود ومحمد بن الحسن. وقال أبو حنيفة: لا أمان له، وهو القول الثاني لعلمائنا. والأول أصح، لقوله صلى الله عليه وسلم: (المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدنا هم). قالوا: فلما قال (أدنا هم) جاز أمان العبد، وكانت المرأة الحرة أحرى بذلك، ولا اعتبار بعلة (لا يسهم له). وقال عبد الملك بن الماجشون: لا يجوز أمان المرأة إلا أن يجيزه الإمام، فشذ بقوله عن الجمهور. وأما الصبي فإذا أطاق القتال جاز أمانه، لأنه من جملة المقاتلة، ودخل في الفئة الحامية. وقد ذهب الضحاك والسدي إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله:" فاقتلوا المشركين". وقال الحسن: هي محكمة سنة «٢» إلى يوم القيامة، وقاله مجاهد. وقيل: هذه الآية إنما كان حكمها باقيا مدة الأربعة الأشهر التي ضربت لهم أجلا، وليس بشيء. وقال سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى علي بن أبي طالب فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمدا بعد انقضاء الأربعة الأشهر فيسمع كلام الله أو يأتيه بحاجة قتل!

(١). في ج وك وهـ وى: والحمد لله.

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٦/٣٥٧

(٢). كذا في الأصول وتفسير ابن عطية. إلا ب، ففيها: محكمة مثبتة. ولا وجود لهذه الكلمة في قول الحسن في المراجع.." [١]

"هذه ثمرة الاستغفار والتوبة، أي يمتعكم **بالمنافع** من سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم. وقيل: يمتعكم يعمركم، وأصل الإمتاع الإطالة، ومنه أمتع الله بك ومتع. وقال سهل بن عبد الله: المتاع الحسن ترك الخلق والإقبال على الحق. وقيل: هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود. (إلى أجل مسمى) قيل: هو الموت. وقيل: القيامة. وقيل: دخول الجنة. والمتاع الحسن على هذا وقاية كل مكروه وأمر مخوف، مما يكون في القبر وغيره من أهوال القيامة وكربها، والأول أظهر، لقوله في هذه السورة:" ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم" «١» [هود: ٥٢] وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى. والله أعلم. قال مقاتل: فأبوا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فابتلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرقة والقذر والجيف والكلاب. (ويؤت كل ذي فضل فضله) أي يؤت كل ذي عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله. وقيل: ويؤت كل من فضلت حسناته على سيئاته" فضله" أي الجنة، وهي فضل الله، فالكناية في قوله:" فضله" ترجع إلى الله تعالى. وقال مجاهد: هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه، أو عمل يعمله بيده أو رجله، أو ما تطوع به من ماله فهو فضل الله، يؤتيه ذلك إذا آمن، ولا يتقبله منه إن كان كافرا. (وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) أي يوم القيامة، وهو كبير لما فيه من الأهوال. وقيل: اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره: و" تولوا" يجوز أن يكون ماضيا ويكون المعنى: وإن تولوا فقل لهم إني أخاف عليكم. ويجوز أن يكون مستقبلا حذفت منه إحدى التاءين والمعنى: قل لهم إن تتولوا فإني أخاف عليكم. قوله تعالى: إلى الله مرجعكم) أي بعد الموت. (وهو على كل شيء قدير) من ثواب وعقاب.

[سورة هود (١١): آية ٥]

ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور (٥)

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٧٦/٨

(١). راجع ص ٥٠ فما بعد من هذا الجزء.." [1]

"ثمرات (رزقا لكم). (وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره) تقدم معناه في" البقرة" «١».

(وسخر لكم الأنهار) يعني البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا، والبحار المالحة لاختلاف **المنافع** من الجهات. (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) أي في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، والدءوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية. وقيل: دائبين في السير امتثالا لأمر الله، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران، روي معناه عن ابن عباس. (وسخر لكم الليل والنهار) أي لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضله في النهار، كما قال:" ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله" «٢» [القصص: ٧٣]. قوله تعالى: (وآتاكم من كل ما سألتموه) أي أعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئا، فحذف، عن الأخفش. وقيل: المعنى وآتاكم من كل ما سألتموه، ومن كل ما لم تسألوه فحذف، فلم نسأله شمسا ولا قمرا ولا كثيرا من نعمه التي ابتدأنا بها. وهذا كما قال:" سرابيل تقيكم الحر" «٣» [النحل: ٨١] على ما يأتي. وقيل:" من" زائدة، أي آتاكم كل ما سألتموه. وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما" وآتاكم من كل" بالتنوين" ما سألتموه" وقد رويت هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقتادة، هي على النفي أي من كل ما لم تسألوه، كالشمس والقمر وغيرهما. وقيل: من كل شي ما سألتموه أي الذي ما سألتموه. (وإن تعدوا نعمت الله) أي نعم الله. (لا تحصوها) ولا تطيقوا عدها، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها، كالسمع والبصر وتقويم الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق، [نعم لا تحصى] «٤» وهذه النعم من الله، فلم تبدلون نعمة الله بالكفر؟! وهلا استعنتم بها على الطاعة؟! (إن الإنسان لظلوم كفار) الإنسان لفظ جنس وأراد به الخصوص، قال ابن عباس: أراد أبا جهل. وقيل: جميع الكفار.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٣٥ الى ٣٦]

وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام (٣٥) رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم (٣٦)

---

(١). راجع ج ٢ ص ١٩٤.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٩/٤

(٢). راجع ج ١٣ ص ١٠٨.
(٣). راجع ج ١٠ ص ١٦٠. [.....]
(٤). من اوج ووى.." (١)
"سورة النحل
مكية إلا ثلاثة آيات في آخرها.

قوله تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه ... (١)﴾
ابن عطية: إخبار عن إتيان بما سيأتي على جهة التأكيد وإن كان الخبر حقا لأنه لوضوحه كأنه قد وقع وإنما يجوز ذلك عندي لمن يعلم قرينة التأكيد ويفهم المجاز وإن كان المخاطب لا يفهم المجاز فلا يجوز وضع الماضي بوضع المستقبل لأن ذلك يوجب الكذب.
قال ابن عرفة: عادة الطلبة يوردون عليه بقول أبي بكر لمن سأله النبي صلى الله عليه وسلم هذا هاد يهدي إلى الطريق، وقوله نحن ما وتقدم الجواب بأن كلام أبي بكر من استعمال الأعم في بعض [أجزائه*] والقرينة، وقول ابن عطية: من نقل اللفظ حقيقة إلى مجازه فلا بد فيه من الملازمة الذهنية.

قوله تعالى: ﴿فإذا هو خصيم مبين (٤)﴾
يتناول الطائع والعاصي، فالطائع مخاصم لإظهار الحق، والعاصي مخاصم بالباطل فهو من الكلام المتناول للشيء ونقيضه كقوله صلى الله عليه وسلم "إذا لم تستح فاصنع ما شئت".

قوله تعالى: ﴿لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٥)﴾
هذا ترق لأن الدفء ميسر قريب إذ ليس فيها إلا إزالة صوفها ووبرها والانتفاع بها فليس عليها فيه مضرة ثم الامتناع **بالمنافع** أقوى لأن تسخيرها والحمل عليها وهذا مما لا يقدر الإنسان على فعلها ولا ما أتيح له فيها تكلف ومشقة عليها ثم الإنسان ما لا يأكل منها أقوى من ذلك وأشد لأن فيه بها وهذا لا يقدر الإنسان عليه لأنها محرمة فكيف تذبح وما أباح الله لنا ذلك.

قوله تعالى: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦)﴾

---
(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٩/٣٦٧

وقدم الرواح وإن كان متأخرا في الوجود عن السراح لأن الجمال فيها [حظ*] الرواح أكثر لكونها ترجع مستعانة البطون، ورد بأن، قيل: هلا قصد الترقي فهو أحسن من التدلي، وأجيب: بأنه إنما قدم المؤخر لأن الجمال حين الرواح كثير والجمال حين السراح إنما يكون عن جمالها في الرواح فإن [...] بأنه سرحت من الغد جميلة وإن راحت ما فيه لم يكن بينها حين السراح جماله بوجه.." (١)

"للفاعل والمفعول؛ لأن الناس عام في الظالم والمظلوم، فيرد بها على ابن التلمساني شارح المعالم في قوله في المسألة الخامسة من الباب الرابع لما قال الفخر: إن المصدر يضاف للفاعل والمفعول قال: هو أن ذلك على سبيل البدلية لا على وجه المحبة وتقدم نظيره في سورة إبراهيم في قوله تعالى: (وتحيتهم فيها سلام). ابن الخطيب: وفي الآية حجة للمعتزلة في قولهم إن الله لا يخلق الشر وأن الظلم من فعل العبد لأجل إضافته إليهم، ورده ابن عرفة: بأن الإضافة تقع بأدنى ملابسة لقوله:

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحرة ... سهيل أذاعت غزلها في القرائب

فإنما أضافه إليهم لأجل انتساب الذي لهم فيه إلى مستوى إنك تقول غير فلان وثوب فلان وليس فيه إلا **المنافع**، وأما الأعيان فما يملكها إلا الله، وذكر الزمخشري هنا آثارا [عن*] أبي هريرة، وابن عباس [يقتضي*] عموم الهلاك في بني آدم وغيرهم بسبب شؤم [ظلم*] الإنسان، وكذا نقل ابن عطية: أن الحوت والطير يهلكان بسبب ظلم الإنسان.

ابن عرفة: وهذا ما يتم الاستدلال به إلا مع قيمة ما قاله الأصوليون فى أن قول الصحابة إذا كان دليله مخالفا للقياس كأنه يكون بحجة حينئذ لم يكن قاله من عنده، بل يكون سمعه من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأما إن وافق القياس فهو مذهب فلا يحتج به وهذا مخالف للقياس قال تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وأجاب ابن عطية: بأن هلاك من لم يظلم إنما هو بكونه لم يغير على الظالم، قلت: وبعضه ما تقدم في قوله تعالى: (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء) وفي قوله تعالى: (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) وأجاب ابن عرفة جوابا آخر وهو أن هلاك الظالم بظلمه وهلاك من لم يظلم إنما هو ابتلاء له فيعظم بذكره أجره ومثوبته فهو رحمة منه بهذا الاعتبار. قال الفخر: واستدل بعضهم بالآية على عدم عصمة الأنبياء، واستدل بها من جوز الردة على جميع الخلق لنسبة الظلم فيها إلى جميع الناس. ورده ابن عرفة بأن العموم في الآية إنما هو في المؤاخذة وأما الظلم فإنما ذكر على سبيل الفرض والتقرير [والتقدير*]، أي لو فرض وقوع الظلم من الجميع وأخذوا به لم يبق أحد ولا يلزم من فرض الشيء وقوعه

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٨/٣

كما قال تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا).

قوله تعالى: (لا يستأخرون).." [(١)]

"ابن عرفة: والإفادة على مذهب الفلاسفة حقيقة؛ لأنهم يجعلون لهذه الأشياء حياة وإدراكات تدرك بها الأمور، وعلى مذهبنا نحن فجائز [...].

قوله تعالى: ﴿إلا آتي الرحمن عبدا (٩٣)﴾

قال ابن عطية: استدرك بعضهم بهذه على أن الولد لا يكون عبدا.

ابن عطية: هذا انتزاع وهو انتزاع بعيد.

قيل لابن عرفة: وجه بعده أن العبودية بالنسبة إلى الله تعالى إنما هي بمعنى الخلق، والاختراع بالنسبة إلى الخلق بمعنى التملك وزيادة الخلق، وفي الثاني أعم [لاقترانها*] بملك **المنافع** خاصة، والتعليل بالعلة البسيطة أقوى من التعليل بالعلة المركبة.

قوله تعالى: ﴿لقد أحصاهم وعدهم عدا (٩٤)﴾

فسر بوجهين:

أحدهما: (أحصاهم) أي جمعهم، (وعدهم) أي عد لعادهم؛ فعلى هذا الإشكال في الآية كالجمع لا يستلزم العدة التي في أحصاهم أي علم جملهم وعدتهم؛ أي علم آحادهم، فيرده السؤال: وهو أن العلم بالجملة يستلزم العلم بالآحاد كما هو عند البصريين، فلا فائدة في قوله (عدهم)؛ فالجواب: أنه أتى به تنبيها على مخالفة القديم المتعلق بالجملة.

قوله تعالى: ﴿سيجعل لهم الرحمن ودا (٩٦)﴾

مع [أن*] المؤمنين يقع بينهم محض التباغض، فالجواب: إما بأن التردد موجود منهم لا في كلهم؛ ألا ترى أن ملة إبراهيم كل أحد يحبها.

قوله تعالى: ﴿فإنما يسرناه بلسانك ... (٩٧)﴾

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٣/٢٨

أخذ منه أنه ليس في القرآن أعجمي. ابن ريحان: إنه يؤتي فيه بالعجمي ويكون مدلوله عربي.

قوله تعالى: (لتبشر به المتقين).." [(١)]

"سورة الشعراء

قوله تعالى: ﴿ألم نربك فينا وليدا ... (١٨)﴾

قال ابن عرفة: إن قلت: ما وجه الربط بين هذه وبين قوله: (فينا)، قلت: أفاد الترتيب، تارة يكون للتعليم، وتارة يكون للاستخدام، فتربيته لنتخذه خديما فهذه نقمة، وتارة تكون نعمة، وهو أن يريه محبته وشفقته عليه، ولم يدخلها على ما بعد؛ لأنه يحنث عنه بالمخالفة، فإن قلت: ما أفاد قوله: (من عمرك)، دلنا: لفظ العمر نعمة؛ لأنه مأخوذ من العمرى المذكورة في الفقه، فإنها هبة **المنافع**، وذلك نعمة، فإن قلت: هلا قال: ولبثت فينا من عمرك أعواما، فهو داخل في باب النعمة والامتنان، قلت: لفظ العمر تغني عنه.

قوله تعالى: ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين (١٩)﴾

الظاهر أن الكفر فيه الإيمان، وحكى الآمدي وابن الحاجب عن المعتزلة امتناع اتصاف النبي بالكفر قبل النبوة وبعدها عقلا، وجوز عليهم ذلك أهل السنة عقلا، قالوا: لكنه لم يقع، وزعم فـرعون أنه وقع، وهذا لا أذكره بمحضر العوام، وهكذا هنا فإن الله تعالى عاصم من يريد بنبوته من كل بدع، ومن بعض الصغائر، وهي صغائر [الخسة*] فما بال الكفر، وهذا على أصل مذهبه.

قوله تعالى: ﴿قال فعلتها إذا وأنا من الضالين (٢٠)﴾

قال سيبويه: (إذا) جواب وجزاء، قال ابن الصفار: فهم الشلوبين على أنه شرط وجواب، فأخذ الجزاء بمعنى الشرط، فقوله: إذا أكرمك، لمن قال: أنا أزورك، معناه: إن تزرني أكرمك، قال في هذه الآية معناه: إن كنت فعلتها فأنا ضال، فلزمه إثبات الضلال لموسى صلى الله على نبينا محمد وعليه وعلى آلهما وسلم، وأجاب: بأن المعنى قوله: (وأنت من الكافرين)، بالنعم فقال موسى عليه السلام: إن كنت كافرا بأنعمك فأنا ضال، أي جاهل بأن الوكزة تقتل القبطي، ورده ابن الصفار، بأن الكفر إذا ذكر مطلقا فهو ضد الإيمان، وإن أريد به [غيره*] قيد له، وكذلك إنما هو على هذا المعنى، ولو سلمناه فـفيه عكس المعنى؛ لأنه إذا كان فعله ذلك كافرا بالنعمة عليه فليس من الضالين بل من المبين، وهذا [بناء*] على شرط وجواب، وقال: [لا

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١٣٥/٣

يحتاج*] إلى هذا بل مراد سيبويه في (نعم) إنها عدة وتصديق، وذلك لا يجتمع فيه بل هي تصديق لما مضى عدة في المستقبل، فقولك: نعم لمن قال: فعلت كذا تصديق، ولمن قال: افعله عدة، وكذلك إذا قال: أنا أزورك، فيقول: إذا أكرمك فهو جواب وجزاء، وإذا." (١)

"واللام، ولما ذكر لقاء الله والجنة والنار نكر الحق ليظهر الفرق والله أعلم مبين ذاته وأفعاله، وأنه الحق الذي لم يكن لغيره وإن كان حقا سواه قائما هو به وبإثباته لولي.

ابن عرفة: أراد أنه عرف الحق الذي هو صفة ذات وصفة نفس، لأن الوعد هو الكلام وكلام الله نفسي لا لفظي لكن ترد عليه تنكيرا في هذه الآية.

قوله تعالى: (فإما نرينك بعض الذي نعدهم).

قال ابن عرفة: هذه شرطية متضمنة مانعة الخلو من غير مقدمها ونقيض تاليها، أي فإما نرينك قبل وفاتك وبعض الذي نعدهم أو نتوفينك قبل ذلك فإلينا يرجعون فتنتقم لك منهم على كل حال لهم، قوله تعالى: (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ... (٧٨) .. أي إلا بأمر الله أو لا يخلق الله القدرة على ذلك.

قوله تعالى: (قضي بالحق).

راجع إما للحكم أو التنفيذ، والمراد به تنفيذ الحكم الواقع أزلا وهو إظهاره.

قوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ... (٧٩)﴾

قال الزمخشري: [الإبل خاصة*].

وقال ابن عطية؛ هي الأزواج الثمانية.

وقال الطبري: إن الأنعام في هذه: يعم البقر، والإبل، والغنم، والخيل، والبغال، والدواب، وغير ذلك.

ويحكي ابن [رشد*] في البيان قولا: بأن الأنعام يدخل تحتها الظباء.

قوله تعالى: (لتركبوا منها).

كان بعضهم يقول للفعل لأنه فعل للعلة لأن الله تعالى لا يفعل [للغرض*]، لكن أفعاله معللة شرعا.

قوله تعالى: (ومنها تأكلون).

هذا من عطف العام على الخاص لأن المركوب خاص ببعض الناس، وخاص بالإبل والأكل عام في جميع

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢٣٨/٣

الناس، وعام في جميع الأنعام.

قوله تعالى: ﴿ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ... (٨٠)﴾

من عطف الخاص على العام؛ لأن **المنافع** خاصة في جميعها من الصوف والوبر وغيره.." [١]

"أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢٦٦)

(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) الود الحب للشيء مع تمنيه والهمزة الداخلة على الفعل لإنكار الوقوع، والجنة تطلق على الشجر الملتف وعلى الأرض التي فيها الشجر، والأول أولى هنا لقوله (تجري من تحتها الأنهار) بإرجاع الضمير إلى الشجر من دون حاجة إلى مضاف محذوف وأما على الوجه الثاني فلا بد من تقديره أي من تحت أشجارها، وهكذا قوله الآتي فاحترقت لا يحتاج إلى تقدير مضاف على الوجه الأول. وأما على الثاني فيحتاج إلى تقديره أي فاحترقت أشجارها.

وخص النخيل والأعناب بالذكر مع قوله: (له فيها من كل الثمرات) لكونهما أكرم الشجر وأشرف الفواكه جامعين لفنون **المنافع** لما فيهما من الغذاء والتفكه، وهذه الجمل صفات للجنة والنخيل اسم جمع واحده نخلة أو جمع نخل الذي هو اسم جنس، والأعناب جمع عنب الذي هو جنس واحده عنبه.

(وأصابه الكبر) الواو للحال حملا على المعنى بتقدير قد وقيل غير ذلك وهذا أرجح، وكبر السن هو مظنة شدة الحاجة لما يلحق صاحبه من العجز عن تعاطي الأسباب، والمعنى كثرت جهات حاجاته ولم يكن له كسب غيرها.

(وله ذرية ضعفاء) حال من الضمير في " أصابه " أي والحال أن له أولادا صغارا عجزت عن الحركة بسبب الضعف والصغر. فإن من جمع بين كبر السن وضعف الذرية كان تحسره على تلك الجنة في غاية الشدة (فأصابها إعصار) الإعصار الريح الشديدة المرتفعة التي تهب من الأرض إلى السماء." [٢]

"مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون (١١٧)

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٤٠٣/٣

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٢٤/٢

(مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا) بيان لكيفية عدم إغناء أموالهم التي كانوا يعولون عليها في جلب **المنافع** ودفع المضار، قيل أراد نفقة أبي سفيان وأصحابه ببدر وأحد في معاداة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل أراد نفقة اليهود على علمائهم ورؤسائهم، وقيل أراد نفقات جميع الكفار وصدقاتهم في الدنيا، وقيل أراد نفقة المرائي الذي لا يريد بها وجه الله.

(كمثل ريح فيها صر) الصر البرد الشديد، وهو قول أكثر المفسرين، وبه قال ابن عباس وقتادة والسدى وابن زيد، وأصله من الصرير الذي هو الصوت فهو صوت الريح الشديد البارد، وقال الزجاج: الصر صوت لهب النار التي في تلك الريح وبه قال ابن الأنباري من أهل اللغة، وقيل هو الحر الشديد المحرق، فظرفية الريح له واضحة والتشبيه على الوجهين صحيح، والمقصود منه حاصل لأنها سواء كان فيها برد فهي مهلكة، أو حر فهي محرقة.

(أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصي (فأهلكته) أي الريح الزرع، ومعنى الآية مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وقت الحاجة إليها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار حارة فأحرقته أو أهلكته فلم ينتفع أصحابه بشيء منه بعد أن كانوا على طمع من نفعه وفائدته، وعلى هذا فلا بد من تقدير في جانب المشبه به فيقال كمثل زرع أصابته ريح أو مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح.

(وما ظلمهم الله) بأن لم يقبل نفقاتهم (ولكن أنفسهم يظلمون) أي بالكفر المانع من قبول النفقة التي أنفقوها، وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص، لأن الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول، وهذا في جانب المشبه وهم الكفار، وقوله سابقا (ظلموا أنفسهم) في جانب المشبه به وهم أصحاب الزرع فلا تكرار.." (١)

"على أن الإباحة تناولت ما علمنا من الجوارح وهو ينظم الكلب وسائر جوارح الطير، وذلك يوجب إباحة سائر وجوه الانتفاع فدل على جواز بيع الكلب والجوارح والانتفاع بها بسائر وجوه **المنافع** إلا ما خصه الدليل، وهو الأكل، والجوارح الكواسب من الكلاب، وسباع الطير.

قال: أجمعت الأمة على أن الكلب إذا لم يكن أسود وعلمه مسلم ولم يأكل من صيده الذي صاده وأثر فيه بجرح أو تنييب وصاد به مسلم، وذكر اسم الله عند إرساله، أن صيده صحيح يؤكل بلا خلاف، فإن انخرم شرط من هذه الشروط دخل الخلاف.

فإن كان الذي يصاد به غير كلب كالفهد وما أشبه ذلك وكالبازي والصقر ونحوهما من الطير فجمهور الأمة

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢/٣١٨

على أن كل ما صاد بعد التعليم فهو جارح كاسب، يقال جرح فلان واجترح إذا اكتسب، ومنه الجارحة لأنها يكتسب بها، ومنه اجتراح السيئات، ومنه قوله تعالى (ويعلم ما جرحتم بالنهار) وقوله (أم حسب الذين اجترحوا السيئات).

(مك‌ل‌بين) المكلب معلم الكلاب لكيفية الاصطياد ومؤدبها ومضريها بالصيد، وخص معلم الكلاب وإن كان معلم سائر الجوارح مثله لأن الاصطياد بالكلاب هو الغالب. ولم يكتف بقوله (وما علمتم من الجوارح) مع أن التكليب هو في اللغة التعليم، لقصد التأكيد لما لا بد منه من التعليم، وفسره في الجلالين بالإرسال فليتأمل مستنده في هذا التفسير، والتفاسير فسرته بالتعليم.

وفائدة التقييد المبالغة في التعليم لما أن اسم المكلب لا يقع إلا على التحرير في علمهم، وقيل إن السبع يسمى كلبا فيدخل فيه كل سبع يصاد به لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: اللهم سلط عليه كلبا من كلابك، قال في." (١)

"الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (١)

(الحمد لله) بدأ سبحانه هذه السورة بالحمد لله للدلالة على أن الحمد كله له وإن لم يحمدوه، وفيه تعليم اللفظ والمعنى مع تعريض الإستغناء ولإقامة الحجة على الذين هم بربهم يعدلون، والحمد اللغوي الوصف بالجميل ذكره الزمخشري في الفائق، وزاد صاحب المطالع وغيره كونه على جهة التعظيم والتبجيل أي ظاهرا وباطنا.

وأما الحمد الاصطلاحي فهو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعما، قاله الكرخي، وقد تقدم في سورة الفاتحة ما يغني عن الإعادة له هنا.

وقال أهل المعاني لفظه خبر ومعناه الأمر أي احمدوا الله، وإنما جاء بهذا النمط لأنه أبلغ في البيان من حيث إنه جمع الأمرين.

ثم وصف نفسه بأنه هو (الذي خلق السموات والأرض) إخبارا عن قدرته الكاملة الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلك وأوجده هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد، والخلق يكون بمعنى الإختراع وبمعنى التقدير، وقد تقدم تحقيق ذلك، وجمع السموات لتعدد طباقها وإن بعضها فوق بعض، وقدمها على الأرض لشرفها لأنها متعبد الملائكة ولم يقع فيها معصية، ولتقدمها في الوجود، قاله القاضي لقوله تعالى: (والأرض بعد ذلك دحاها) فإنه صريح في أن بسط الأرض مؤخر عن تسوية السماء.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣/٣٤٧

والأرض وإن كانت سبعة عند الجمهور فليس بعضها فوق بعض بل بعضها موال لبعض وإنما خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، فالسماء بغير عمد يرونها وفيه العبر **والمنافع**، والأرض مسكن الخلق وفيها أيضا ذلك.." (١)

"أعناب والزيتون والرمان) أي وأخرجنا شجرهما (مشتبها وغير متشابه) أي كل واحد منهما يشبه بعضه بعضا في بعض أوصافه، ولا يشبهه في البعض الآخر.

وقيل أن أحدهما يشبه الآخر في الورق باعتبار اشتماله على جميع الغصن وباعتبار حجمه، ولا يشبه أحدهما الآخر في الطعم، قال قتادة: متشابها ورقه مختلفا ثمره لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان، يقال مشتبه ومتشابه بمعنى كما يقال اشتبه وتشابه كذلك.

وذكر سبحانه في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع لأن الزرع غذاء، وثمار الأشجار فواكه، والغذاء مقدم على الفواكه، وإنما قدم النخلة على غيرها لأن ثمرتها تجري مجرى الغذاء وفيها من **المنافع** والخواص ما ليس في غيرها من الأشجار، وإنما ذكر العنب عقب النخلة لأنها من أشرف أنواع الفواكه، ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة **والمنافع** الكثيرة في الأكل وسائر وجوه الاستعمال، ثم ذكر عقبه الرمان لما فيه من الفوائد العظيمة لأنه فاكهة ودواء وقيل خص الزيتون والرمان لقرب منابتهما من العرب كما في قول الله تعالى: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت).

(أنظروا إلى ثمره) أي ثمر كل واحد مما ذكر يعني رطبه وعنبه، قاله محمد بن كعب القرظي قرئ ثمره بفتح الثاء والميم وبضمهما وهو جمع ثمرة كشجرة وشجر، وخشبة وخشب (إذا أثمر) أي إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضعيفا لا ينتفع به (وينعه) عن البراء قال: نضجه أي إدراكه كيف يعود شيئا جامعا لمنافع.

أمرهم الله سبحانه بأن ينظروا نظر اعتبار إلى ثمره إذا أثمر وإلى ينعه إذا ينع كيف أخرج هذه الثمرة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة ونقلها من حال." (٢)

"(وهذا) القرآن (كتاب أنزلناه) قدم صفة الإنزال لكون الإنكار متعلقا بها (مبارك) كثير البركة لما هو مشتمل عليه من **المنافع** الدنيوية والدينية (فاتبعوه) يا أهل مكة بالعمل بما فيه فإنه لما كان من عند الله

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٩٧/٤

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٠٨/٤

وكان مشتملا على البركة كان اتباعه متحتما عليكم (واتقوا) مخالفته والتكذيب بما فيه (لعلكم) إن قبلتموه ولم تخالفوه (ترحمون) برحمة الله سبحانه.." (١)

"(ولقد مكناكم في الأرض) أي جعلنا لكم فيها مكانا وأقدرناكم على التصرف فيها، وقيل المراد من التمكين التمليك (وجعلنا لكم فيها معايش) أي هيأنا لكم فيها أسباب المعاش. والمعايش جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطعوم والمشروب وما تكون به الحياة، وفي القاموس العيش الحياة وأيضا الطعام وما يعاش به والخبز، والمتعيش من له بلغة من العيش.

وقال الزجاج: المعيشة ما يتوصلون به إلى العيش وهو يعم جميع وجوه **المنافع** التي تحصل به الأرزاق من الزرع والثمار، وما يتحصل من المكاسب والأرباح في أنواع التجارات والصنائع، وكل ذلك بتمكينه سبحانه لعباده وإنعامه عليهم (قليلا ما تشكرون) الكلام فيه كالكلام فيما تقدم قريبا، وحقيقة الشكر تصور النعمة وإظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها.." (٢)

"متوسط بين الإفراط والتفريط فهو قاصد (لاتبعوك) أي لوافقوك في الخروج ولخرجوا معك طمعا في تلك **المنافع** التي تحصل لهم (ولكن بعدت عليهم الشقة) قال أبو عبيدة وغيره: إن الشقة السفر إلى أرض بعيدة، يقال منه شقة وشاقة، والشقة المسافة التي تقطع بمشقة. قال الجوهري: الشقة بالضم من الثياب والشقة أيضا السفر البعيد، وربما قالوه بالكسر فهي مشتقة من المشقة كما في السمين، والمراد بها غزوة تبوك فإنها كانت سفرة بعيدة شاقة وكانوا يستعظمون غزو الروم، لا جرم تخلفوا بهذا السبب.

(وسيحلفون) أي المتخلفون عن غزوة تبوك، وأتى بالسين لأنه من قبيل الإخبار بالغيب فإن الله أنزل هذه الآية قبل رجوعه من تبوك أي سيحلفون (بالله) اعتذارا عنه حال كونهم قائلين (لو استطعنا) أي لو قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج إليه فيه مما لا بد منه، وقيل: لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهتهم، حسبما عن لهم من الكذب والتعلل وعلى كلا التقديرين فقوله: (لخرجنا معكم) ساد مسد جوابي القسم والشرط جميعا وقد وقع حسبما أخبر به وهو من جملة المعجزات الباهرة.

وقوله: (يهلكون أنفسهم) بدل من قوله: (سيحلفون) لأن من حلف كذبا فقد أهلك نفسه، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: " اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع " أو يكون حالا أي مهلكين أنفسهم موقعين لها موقع

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٨١/٤

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٠٨/٤

الهلاك بسبب هذه الأيمان الكاذبة (والله يعلم إنهم لكاذبون) في حلفهم الذي سيحلفون به لك لأنهم كانوا مستطيعين للخروج.." (١)

"(وإذا ما أنزلت سورة) حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين أي

والحال إذا ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة من كتابه العزيز

(فمنهم) أي فمن المنافقين (من يقول) لإخوانه منهم (أيكم زادته هذه) السورة النازلة (إيمانا) يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين، ويجوز أن يقولوه لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم على الإسلام وتزهيدهم فيه، وقد تقدم بيان معنى السورة (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) حكى الله سبحانه بعد مقالتهم هذه أن المؤمنين زادتهم إيمانا إلى إيمانهم لتصديقهم بها، والزيادة ضم شيء إلى آخر من جنسه مما هو في صفته، وقد تقدم الكلام على زيادة الإيمان (وهم يستبشرون) أي والحال أنهم يفرحون مع هذه الزيادة بنزول الوحي شيئا بعد شيء وما يشتمل عليه من **المنافع** الدينية والدنيوية.." (٢)

"بالشمس يقال له ضياء وما قام بالقمر يقال له نور.

ومن هنا قال الحكماء إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس، والشعاع الفائض من الشمس قيل جوهر، وقيل عرض، قال الصاوي: والحق أنه عرض لقيامه بالأجرام، وضياء مفعول ثان إن جعل الجعل بمعنى التصيير، وحال أن جعل بمعنى الخلق، قال السدي: لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكي يعرف الليل من النهار وهو قوله (فمحونا آية الليل) الآية، قال ابن عباس: وجوههما إلى السموات وأقفيتهما إلى الأرض، وعن ابن عمرو مثله.

(وقدره) أي قدر مسير القمر في (منازل) أو قدره ذا منازل وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك إن الشهور المعتبرة في الشرع مبنية على رؤية الأهلة والسنة المعتبرة في الشرع هي القمرية لا الشمسية، ومنازله هي المسافة التي يقطعها في يوم وليلة بحركته الخاصة به وجملتها ثمانية وعشرون وهي معروفة منقسمة على اثني عشر برجا لكل برج منزلان وثلث منزل ينزل القمر في كل ليلة منزلا منها إلى انقضاء ثمانية وعشرين لا يتخطاه، فيبدو صغيرا في أول منازله ثم يكبر قليلا قليلا حتي يبدو كاملا، وإذا كان في آخر منازله رق واستقوس ثم يستتر ليلتين لا يبصر ولا يرى إذا كان الشهر كاملا أو ليلة إذا كان الشهر ناقصا.

والكلام في هذا يطول وقد جمع الشوكاني فيه رسالة مستقلة جوابا عن سؤال أورده عليه بعض الأعلام،

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٠٩/٥

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤٢٨/٥

وقيل إن الضمير راجع إلى كل واحد من الشمس والقمر كما قيل في قوله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها) وقوله (والله ورسوله أحق أن يرضوه) وقد قدمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير والأولى رجوع الضمير إلى القمر وحده كما في قوله تعالى (والقمر قدرناه منازل).

ثم ذكر بعض **المنافع** المتعلقة بهذا التقدير فقال (لتعلموا) بذلك التقدير." [1]

"إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون (٦) إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون (٧)

ثم ذكر سبحانه **المنافع** الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض من تلك المخلوقات فقال." [2]

"بمشيئة الله سبحانه، عن ابن عباس قال: يعني من عمل صالحا التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا يعمله إلا لذلك.

قال القرطبي: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة وكذلك الآية التي في الشورى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها) (ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها) كذلك (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها) وقيدتها وفسرتها التي في سبحان (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد).

(وهم فيها لا يبخسون) أي وهؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم في الدنيا لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها وذلك في الغالب، وليس بمطرد بل إن قضت به مشيئته سبحانه ورجحته حكمته البالغة.

وقال القاضي: معنى الآية من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا وهو ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والطيبات **والمنافع**، فخص الجزاء بمثل ما ذكره وهو حاصل لكل عامل للدنيا ولو كان قليلا يسيرا. أهـ.

وإنما عبر عن عدم نقص أعمالهم بنفي البخس الذي هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن إعطائه بالتوفية التي هي إعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل عن كونها مستوجبة لذلك، بناء

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٦/١٦

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٦/١٨

للأمر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة في نفي النقص، كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلا.." (١)

"(وما ظلمناهم) بما فعلنا بهم من العذاب والإهلاك (ولكن ظلموا أنفسهم) بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف ما يوجبه من الكفر والمعاصي.

(فما أغنت عنهم آلهتهم) أي فما دفعت عنهم أصنامهم أو ما نفعت، قاله أبو عاصم (التي يدعون) يعبدونها (من دون الله) أي غيره (من شيء) أي شيئا من العذاب، وبأس الله، ومن زائدة (لما جاء) أي حين جاء (أمر ربك) أي عذابه (وما زادوهم غير تتبيب) أي هلاك وخسران. قال ابن عمر: أي هلكة وقال ابن زيد: أي تخسير، وقيل تدمير، والتتبيب اسم من تببه بالتشديد، وتبت يده تتب بالكسر خسرت كناية عن الهلاك وتبا له أي هلاكا واستتب الأمر تهيأ ويستعمل لازما ومتعديا، يقال تببه غيره وتب هو بنفسه، والمعنى ما زادتهم أصنامهم التي يعبدونها إلا هلاكا وخسرانا، وقد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل **المنافع** ودفع المضار.." (٢)

"ونفضل الحب والثمر بعضها على بعض طعما وشكلا ورائحة وقدرا وحلاوة وحموضة وغضاضة وغير ذلك من الطعوم، وفضلها أيضا في غير ذلك كاللون والنفع والضر وإنما اقتصر على الأكل لأنه أعظم **المنافع**.

(إن في ذلك) المذكور (لآيات) دلالات على بديع صنعه وعظيم قدرته فإن القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل في الثمرات في الأكل فيكون طعم بعضها حلو والآخر حامضا وهذا في غاية الجودة، وهذا ليس بجيد، وهذا فائق في حسنه، وهذا غير فائق مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضى لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالى شأنه، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلا للسببين. إما اختلاف المكان الذي هو المنبت أو اختلاف الماء الذي تسقى به، فإذا كان المكان متجاورا وقطع الأرض متلاصقة والماء الذي تسقى به واحدا لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب.

(لقوم يعقلون) أي يعملون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكر في المخلوقات

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٦/١٥٤

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٦/٢٤٢

والاعتبار في العبر الموجودات، أي يستعملون عقولهم بالتفكر فيها، خص هذا بالعقل والأول بالتفكر لأن الاستدلال باختلاف النهار أسهل، ولأن التفكر في الشيء سبب لتعقله والسبب مقدم على المسبب، فناسب تقديم التفكر على التعقل.

قال الحسن: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم، فالناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم وتخشع وتخضع، وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع. وقال أيضا: والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا).." (١)

"(وآتاكم من كل) نوع وصنف (ما سألتموه) قال الأخفش: أي أعطاكم من **المنافع** والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر، وقيل المعنى من كل ما سألتم ومن كل ما لم تسألوه قاله ابن الأنباري: لأن نعمه علينا أكثر من أن تحصى؛ وقيل من زائدة وبه قال الأخفش، أي آتاكم كل ما سألتموه، وقيل للتبعيض أي بعض ما سألتموه، وهو رأي سيبويه.

قال عكرمة: أي من كل شيء رغبتم إليه فيه، وعن مجاهد مثله، وعن الحسن من كل الذي سألتموه، وقرئ (من كل) بتنوين، وعلى هذا ما نافية حرفية، أي آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له، أو مصدرية أو موصولة اسمية.

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أي وإن تتعرضوا لتعداد النعم التي أنعم الله تعالى بها عليكم إجمالا فضلا عن التفصيل لا تطيقوا إحصاءها بوجه من الوجوه ولا تقوموا بحصرها على حال من الأحوال.

وفي السمين: النعمة هنا بمعنى النعم به، وأصل الإحصاء أن الحاسب إذا بلغ عقدا معينا من عقود الأعداد وضع حصاة ليحفظه بها.." (٢)

"استدفئ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها، قال ابن عباس: دفء الثياب أي من الأكسية والأردية قال بعض المفسرين أن في الآية التفاتا من الغيبة في الإنسان إلى الخطاب في لكم فيقتضي أن المخاطب مطلق بني آدم المندرجين تحت الإنسان.

(ومنافع) أي ما ينتفعون به من الأطعمة والأشربة، قاله ابن عباس وهي درها وركوبها ونتاجها والحراثة ونحو ذلك، وقد قيل أن الدفء النتاج واللبن قال في الصحاح الدفء نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها، ثم

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٧/٧

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١١٩/٧

قال والدفء أيضا السخونة، وعلى هذا فإن أريد بالدفء المعنى الأول فلا بد من حمل **المنافع** على ما عداه مما ينتفع به منها وأن حمل على المعنى الثاني كان تفسير **المنافع** بما ذكرناه واضحا، وقيل المراد **بالمنافع** النتاج خاصة، وقيل الركوب.

(ومنها) أي من لحومها وشحومها (تأكلون) وخص هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت **المنافع** لأنها أعظمها، وقيل خصها لأن الانتفاع بلحمها وشحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من **المنافع** التي فيها، وتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للإشارة إلى أن الأكل منها هو الأصل وغيره نادر فالأكل من غيرها كالدجاج والبط والأوز وصيد البر والبحر يجري مجرى التفكه به، وقيل تقديم الظرف للفاصلة لا للحصر. ولما كانت منفعة اللباس أكثر وأعظم من منفعة الأكل قدمه على الأكل." (١)

"(و) ذكر (الزيتون) بعد الزرع لكونه فاكهة من وجه وإداما من وجه لكثرة ما فيه من الدهن والبركة وهو جمع زيتونة ويقال للشجرة نفسها زيتونة (١) (و) ذكر (النخيل) لكونه غذاء وفاكهة وهو مع العنب أشرف الفواكه (و) جمع (الأعناب) لاشتمالها على الأصناف المختلفة، وهي شبه النخلة في المنفعة من التفكه والتغذية.

ثم أشار إلى سائر الثمرات إجمالا فقال (ومن كل الثمرات) كما أجمل الحيوانات التي لم يذكرها فيما سبق بقوله ويخلق ما لا تعلمون ومن تبعيضية إذ كلها إنما يوجد في الجنة وما أنبتت الأرض بعض من كلها للتذكرة.

(إن في ذلك) الإنزال والإنبات (لآية) عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرد بالربوبية (لقوم يتفكرون) في مخلوقات الله ولا يهملون النظر في مصنوعاته، وقد ذكر لفظ الآية في هذه السورة سبع مرات خمس بالإفراد واثنتان بالجمع قال الكرماني: ما جاء الإفراد فلوحدة المدلول وهو الله تعالى، وما جاء منها بلفظ الجمع فلمناسبة مسخرات انتهى.

وختم هذه الفاصلة بالتفكر لأن النظر في ذلك يعني إنبات النبات بالماء يحتاج إلى مزيد تأمل واستعمال فكر، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها مقدار من الزمان مع رطوبة الأرض فإنها تنتفخ وينشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء وأسفلها تغوص منه عروق في الأرض ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطباع والطعوم والألوان والروائح والأشكال **والمنافع**.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧/٢٠٩

ومن تفكر في ذلك علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه شيء في شيء من صفات الكمال فضلا عن أن يشاركه أخس الأشياء في أخص صفاته التي هي الألوهية واستحقاق العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا ذكره الخازن وأبو السعود.

---

(١) وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتبه فوائد جمة للزيتون.." [١]

"الكلام المحكي عن موسى، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيذانا بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته، ونوقش بأن هذا خلاف الظاهر مع استلزامه فوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلم، ويجاب عنه بأن الكلام كله محكي عن واحد وهو موسى، والحاكي للجميع هو الله سبحانه. والمعنى فأخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث، والمعالجة.

(أزواجا من نبات شتى) أي ضروبا وأشباها من أصناف النبات المختلفة الألوان والطعوم والروائح **والمنافع**، فمنها ما هو للناس، ومنها ما هو للدواب، سميت بذلك لازدواجها، واقتران بعضها ببعض.

والنبات مصدر سمي به النابت، فاستوى فيه الواحد والجمع، وشتى جمع شتيت وزنه فعلى وألفه للتأنيث. وقال الأخفش: التقدير أزواجا شتى من نبات، يقال أمر شت، أي متفرق وشت الأمر شتا يشت شتا وشتاتا تفرق واشتث مثله، والشتيت المتفرق، وشتان اسم فعل ماض بمعنى افترق، ولذلك لا يكتفي بواحد، قاله السمين، قال ابن عباس: شيء مختلف.." [٢]

"(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) أي لم نخلقهما عبثا ولا باطلا بل للتنبيه على أن لهما خالقا قادرا يجب امتثال أمره، واللعب هو محط النفي وفيه إشارة إجمالية إلى تكوين العالم؛ والمراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها، والمعنى ما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب للعب واللهو، وإنما سويناهما لفوائد منها التفكر في خلقهما وما فيهما من **المنافع** التي لا تعد ولا تحصى وليستدل بها على قدرة مدبرها ولنجازي المحسن والمسيء على ما تقتضيه حكمتنا، واللعب فعل يروق أوله ولا ثبات له.

ثم نزه ذاته عن سمات النقص فقال:." [٣]

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢١٦/٧

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٤٢/٨

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣١١/٨

"الشعائر على العموم أو على الخصوص وهي البدن كما يدل عليه السياق واجبة أو مندوبة.

(منافع) ومنها الركوب والدر والنسل والصوف والوبر وغير ذلك مما لا يضرها (إلى أجل مسمى) وهو وقت نحرها، وقيل إلى أن تسمى بدنا، قاله ابن عباس، وعن مجاهد نحوه، وقال: في ظهورها وألبانها وأوبارها وأشعارها وأصوافها منافع إلى أن تسمى هديا، فإذا سميت هديا ذهبت **المنافع**.

(ثم محلها) أي حيث يحل نحرها حين تسمى (إلى البيت العتيق) المعنى أنها تنتهي إلى البيت وما يلية من الحرم، فمنافعهم الدنيوية المستفادة منها مستمرة إلى وقت نحرها، ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية.

وقيل إن محلها هاهنا مأخوذ من إحلال الحرام، والمعنى أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت، فالبيت على هذا مراد بنفسه. قال عكرمة: إذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها.." (١)

"(وإن لكم في الأنعام لعبرة) هذه من جملة النعم التي امتن الله بها عليهم، وقد تقدم تفسير الأنعام في سورة النحل، وهي الإبل والبقر والغنم.

قال النيسابوري: ولعل القصد بالأنعام هنا إلى الإبل خاصة لأنها هي المحمول عليها في العادة، ولأنه قرنها بالفلك، وهي سفائن البر، كما أن الفلك سفائن البحر. قال ذو الرمة:

سفائن بر تحت خدي زمامها

وبين سبحانه أنها عبرة وعظة لأنها مما يستدل بخلقها وأفعالها على عظم القدرة الإلهية، وخصها بالعبرة دون النبات لأن العبرة فيها أظهر، ثم فصل سبحانه ما في هذه الأنعام من النعم بعد ما ذكره من العبرة فيها للعباد فقال: (نسقيكم) بضم النون وفتحها.

(مما في بطونها) يعني اللبن المتكون في بطونها المنصب إلى ضروعها من بين فرث ودم، فإن في انعقاد ما تأكله من العلف واستحالته إلى هذا الغذاء اللذيذ والمشروب النفيس أعظم عبرة للمعتبرين وأكبر موعظة للمتعظين، وقرئ بالفوقية على أن الفاعل هو الأنعام، وذكره هنا بلفظ الجمع لأنه راجع للأنعام مرادا بها الجمع، وفي النحل قال: مما في بطونه بالإفراد نظرا إلى أن الأنعام اسم مفرد، ذكره زكريا في متشابه القرآن.

وقال الكرماني: إن ما في النحل مراد به بعض الأنعام وهو الإناث، فأتى بالضمير مفردا مذكرا، والمراد منه هنا الكل الشامل للإناث والمذكور، بدليل العطف في قوله الآتي: (ولكم فيها منافع)، فإن هذا لا يخص الإناث، وهذا العطف لم يذكر في النحل، ثم ذكر ما فيها من **المنافع** إجمالا فقال: (ولكم فيها) أي في

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٩/٤٨

ظهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأشعارها وهي حية (منافع كثيرة) ثم ذكر منفعة خاصة فقال: (ومنها تأكلون) بعد الذبح، لما في الأكل من عظيم الانتفاع لهم، وكذلك ذكر الركوب عليها لما فيه من المنفعة العظيمة فقال:." (١)

"(الزجاجة كأنها) والنور فيها (كوكب دري) منسوب إلى الدر لكون الصفاء والحسن والإشراق فيه ما يشابه الدر، وقال الضحاك: الكوكب الدري الزهرة، وقرئ دریء بكسر الدال أخذوه من درات النجوم تدرأ إذا اندفعت، قاله أبو عمرو، وقرئ بضم الدال مهموزا، وأنكره الفراء والزجاج والمبرد. وقال أبو عبيد: إن ضممت الدال وجب أن لا يهمز، لأنه ليس في كلام العرب. والدراري هي المشهورة من الكواكب، كالمشتري والزهرة والمريخ، وما يضاهيها من الثوابت.

وقال أبي: دري أي مضيء من الدرء بمعنى الدفع لدفعه الظلام. ثم وصف المصباح بقوله: (يوقد) وقد قرئ بالتاء على أن الضمير راجع إلى الزجاجة دون المصباح. وقرئ بالتحتية وتخفيف القاف. وضم الدال. وقرئ توقد على أنه فعل ماض. من التفعل. والضمير في هاتين راجع إلى المصباح. قال النحاس: وهاتان متقاربتان لأنهما جميعا للمصباح. وهو أشبه بهذا الوصف لأنه الذي ينير ويضيء وإنما الزجاجة وعاء له وقرئ على أنه فعل مضارع وأصله تتوقد.

(من شجرة) أي ابتداء إيقاد المصباح منها، وقيل يوقد من زيت شجرة (مباركة) أي كثيرة **المنافع** والبركة، وقيل المنماة. قال أبي: أصل المبارك الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له (زيتونة) الزيتون من أعظم الثمار نماء. قيل ومن بركتها أن أغصانها تورق من أسفلها إلى أعلاها. وهي إدام ودهان. ودباغ ووقود وليس فيها شيء إلا وفيه منفعة. وهي أصفى الأدهان وأضوءها.

وقيل إنها أول شجرة نبتت بعد الطوفان ونبتت في منازل الأنبياء. ودعا لها سبعون نبيا بالبركة، منهم إبراهيم، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهي شجرة (١) لا يسقط ورقها. وعن أسيد بن ثابت. أو أبي أسيد الأنصاري

---

(١) قد ورد في البخاري مرفوعا عن ابن عمر صريحا أن الشجرة التي لا يسقط ورقها هي النخلة. ولا يمنع هذا من مشاركة شجرة الزيتون لها في هذه الصفة.." (٢)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٩/١١٠

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٩/٢٢٥

"مسلوبة العقل والفهم، فلا تطمع فيهم فإن فائدة السمع والعقل مفقودة، وإن كانوا يسمعون ما يقال لهم، ويعقلون ما يتلى عليهم، ولكنهم لما لم ينتفعوا بذلك، كانوا كالفاقد له. ثم أضرب سبحانه عن الحكم عليهم، بأنهم كالأنعام، إلى ما هو فوق ذلك؛ فقال:

(بل هم أضل) من الأنعام (سبيلا) أي طريقا قال مقاتل: البهائم تعرف ربها، وتهتدي إلى مراعيها ومشاربها، وتنقاد لأربابها، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم؛ الذي خلقهم؛ ورزقهم، والمعنى أنها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم **المنافع** ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار ولأن جهالتها لا تضر بأحد وجهالة هؤلاء تؤدي إلى تهييج الفتن، وصد الناس عن الحق، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال، فلا تقصير منها، ولا ذم عليها، وهؤلاء مقصرون، ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم.

وقيل إنما كانوا أضل من الأنعام لأنه لا حساب عليها ولا عقاب لها، وقيل إنما كانوا أضل لأن البهائم إذا لم تعقل صحة التوحيد والنبوة، لم تعتقد بطلان ذلك، بخلاف هؤلاء، فإنهم اعتقدوا البطلان عنادا ومكابرة، وتعصبا. وغمطا للحق. وقيل إن الأنعام تسجد وتسبح، والكفار لا يفعلون ذلك، وقيل الملائكة روح، وعقل، والبهائم نفس، وهوى، والآدمي مجمع الكل ابتلاء، فإن غلبته النفس والهوى، فضلته الأنعام، وإن غلبته الروح وضلالتهم، أتبعه بذكر طرف من دلائل التوحيد مع ما فيها من عظيم الإنعام، وحاصل ما ذكر منها خمسة، فأولها الاستدلال بأحوال الظل فقال:." [1]

"(قل) يا محمد (ما أسألكم عليه) أي على القرآن أو على تبليغ الرسالة المدلول عليها بالإرسال أو على ما أدعوكم إليه (من أجر) أي عرض من عرض الدنيا قاله ابن عباس، والاستثناء في قوله (إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) منقطع أي لكن من شاء فليفعل.

وقيل هو متصل والمعنى إلا من شاء أن يتقرب إليه سبحانه بالطاعة، وصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود الحصول، ولما بين سبحانه أن الكفار متظاهرون على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمره أن لا يطلب منهم أجرا ألبتة، أمره أن يتوكل عليه في دفع المضار وجلب **المنافع** فقال:." [2]

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٩/٣١٤

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٩/٣٢٦

"(لأعذبنه عذابا شديدا) اختلفوا في هذا العذاب الشديد ما هو؟ فقال ابن عباس ومجاهد وابن جريج: هو أن ينتف ريشه جميعا وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين؛ وقال يزيد ابن رومان: هو أن ينتف ريش جناحيه وقيل: يحبسه مع أضداده، وقيل: أن يمنعه من خدمته وقيل: إلقاءه في الشمس وقيل: التفريق بينه وبين إلفه. وقيل: إلزامه خدمة أقرانه. وقيل: إيداعه في القفص. وقيل: طرحه بين يدي النمل ليأكله، وفي هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب، لا على قدر الجسد. وحل له تعذيب الهدهد لما رأى فيه من المصلحة، كما حل ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من **المنافع**، وإذا سخر له الطير لم يتم التسخير إلا بالتأديب والسياسة.

وعن الحسن قال: كان اسم هدهد سليمان غبر، قال الشوكاني: لا." (١)

"للذين تمنوا (ويلكم) كلمة زجر منصوبة بمقدر، أي ألزمكم الله ويلكم، قاله الزمخشري، ومثله في التبيان، وأصل ويلك الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرضي.

(ثواب الله) في الآخرة بالجنة (خير لمن آمن وعمل صالحا) مما أوتي قارون في الدنيا، لأن الثواب منافعه عظيمة، خالصة عن شوائب المضار دائمة، وهذه النعم على الضد في هذه الصفات فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل الذي لا يدوم، وهذا بيان للمفضل عليه.

(ولا يلقاها) أي هذه الكلمة التي تكلم بها الأحبار وقيل: الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة، وقيل إلى الجنة، والمعنى لا يفهمها ويوقف عليها ويوفق للعمل لها (إلا الصابرون) على طاعة الله، والمصبرون أنفسهم عن الشهوات، الراضون بقضاء الله في كل ما قسم من **المنافع** والمضار.." (٢)

"(وما يستوي البحران هذا) أي أحدهما (عذب فرات) شديد العذوبة (سائغ شرابه) مريء يسهل انحداره في الحلق لعذوبته (وهذا ملح أجاج) شديد الملوحة، وقيل هو الذي يحرق الحلق بملوحته فالمراد بالبحرين: العذب والمالح، فالعذب الفرات: الحلو، والأجاج: المر، وقرىء سيغ مشددا وقرىء ملح بفتح الميم، وقيل: المقصود من الآية ضرب مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر.

(ومن كل) منهما (تأكلون لحما طريا) وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل، وهذا وما بعد ذلك إما استطرادا في صفة البحرين وما فيهما من النعم **والمنافع**، وإما تكملة للتمثيل، والمعنى كما أنهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث إنهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات من الماء، لما

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٩/١٠

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٥٣/١٠

خالط أحدهما ما أفسده، وغيره عن كمال فطرته، كذلك لا يساوي الكافر المؤمن، وإن شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الأصيلة وحيازته لكماله اللائق دون الآخر، أو تفضيل للأجاج على الكافر من حيث إنه يشارك العذب في منافع كثيرة، والكافر." [1]

"خلو من **المنافع** بالكلية على طريقة قوله تعالى: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) الخ. قاله أبو السعود.

(وتستخرجون حلية) وهي اللؤلؤ والمرجان، وهو صغار اللؤلؤ، وقال الطرطوشي: هو عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكف وهكذا شاهدناه بمغارب الأرض كثيرا انتهى. والظاهر أن المعنى وتستخرجون منهما حلية، وقال المبرد: إنما تستخرج الحلية من المالح، وروي عن الزجاج أنه قال: إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا لا من كل واحد منهما على انفراده ورجح النحاس قول المبرد، ومعنى.

(تلبسونها) تلبسون كل شيء منها بحسبه، كالخاتم في الأصبع، والسوار في الذراع، والقلادة في العنق والخلخال في الرجل، ومما يلبس حلية السلاح الذي يحمل كالسيف والدرع ونحوهما.

(وترى الفلك فيه) أي في كل واحد من البحرين، وقال النحاس: الضمير يعود إلى المالح خاصة ولولا ذلك لقال: فيهما (مواخر) يقال: مخرت السفينة تمخر إذا شقت الماء بجريها فيه فالمعنى: وترى السفن في البحرين شواق للماء. بعضها مقبلة وبعضها مدبرة، بريح واحدة، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة النحل (لتبتغوا من فضله) أي فعل ذلك لتبتغوا، قال مجاهد ابتغاء الفضل هو التجارة في البحر إلى البلدان البعيدة في المدة القريبة كما تقدم في البقرة.

(ولعلكم تشكرون) الله على ما أنعم به عليكم من ذلك.." [2]

"قوله: خلقنا للإشارة إلى حصر الخلق لهذه النعم فيه تعالى، واستقلاله بها، فهو كناية عرفية، وقيل: تمثيلية، أي مما تولينا إحداثه، ولم يقدر على إحداثه غيرنا وقوله:

(أنعاما) مفعول خلقنا، وهي جمع نعم، وهي: البقر والغنم والإبل وإنما خصها بالذكر -وإن كانت الأشياء كلها من خلق الله وإيجاده- لأن النعم أكثر أموال العرب والنفع بها أعم، وقد سبق تحقيق الكلام فيها، ثم ذكر سبحانه **المنافع** المترتبة على خلق الأنعام فقال:

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٣٢/١١

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٣٣/١١

(فهم لها مالكون) أي ضابطون قاهرون، يتصرفون بها كيف شاؤوا، ولو خلقناها وحشية لنفرت عنهم ولم يقدروا على ضبطها، أو المراد أنها صارت في أملاكهم ومعدودة في جملة أموالهم المنسوبة إليهم نسبة الملك، وهذا أظهر ليكون قوله:." [1]

"الخيل، قاله الزجاج، وقال الفراء الخير والخيل في كلام العرب واحد، وأنها تعاقب بين الراء واللام فتقول انهملت العين وانهمرت وختلت وخترت، قال النحاس وفي الحديث، الخيل معقود بنواصيها الخير فكأنها سميت خيرا لهذا وقيل لما فيها من **المنافع** وعن بمعنى على، أي آثرت حب الخيل على ذكر ربي يعني صلاة العصر، وبه قال علي، وقال ابن عباس الخير المال، وقيل أحببت بمعنى لزمت، وقيل بمعنى قعدت من أحب البعير إذا سقط وبرك من الإعياء، وقيل بمعنى أردت.

(حتى توارت بالحجاب) يعني الشمس ولم يتقدم لها ذكر ولكن المقام يدل على ذلك، قال الزجاج إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر، وقد جرى هنا الدليل. وهو قوله بالعشي، والتواري الاستتار عن الأبصار والحجاب ما يحجبها عن الأبصار، قال قتادة وكعب الحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق وهو جبل قاف، وسمي الليل حجابا لأنه يستر ما فيه ويقال إن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه وفيه بعد وبرودة (١)، وعن ابن مسعود قال توارت من وراء ياقوتة خضراء فخضرة السماء منها، وعن ابن عباس قال كان سليمان لا يكلم إعظاما له فلقد فاتته صلاة العصر وما استطاع أحد أن يكلمه، وقيل الضمير للخيل أي حتى توارت في المسابقة عن الأعين، والأول أولى.

وقوله:

---

(١) قال المفسر (ص ١٦٨) " حتى توارت بالحجاب " قال قتادة وكعب: الحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق، وهو جبل قاف الخ. وكان تعليق الأستاذ طويلا وخلاصته أنه لا يوجد في الدنيا جبل اسمه جبل قاف، وقد حصرت جبال الدنيا الآن وعرف الإنسان جميع الجبال وأسماءها وأماكنها.." [2]

"(كتابا) بدل من أحسن الحديث أو حال منه (متشابها) صفة لكتاب أي يشبه بعضه بعضا في الحسن والإحكام، وصحة المعاني وقوة المباني، وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة، والدلالة على **المنافع** العامة، وقال قتادة يشبه بعضه بعضا في الآي والحروف، وقيل يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه، عن ابن

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٢١/١١

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٩/١٢

عباس قال: قالوا يا رسول الله لو حدثتنا فنزل (الله نزل أحسن الحديث) الآية.

(مثاني) صفة أخرى لكتاب وهو جمع مثنى أو مثنى وأنه من التثنية بمعنى التكرير أي تثنى فيه القصص وتتكرر فيه المواعظ والأحكام وقيل يثني في التلاوة فلا يمل سماعه ولا يسأم قارئه قرأ الجمهور مثاني بفتح الياء وقرىء بسكونها تخفيفا واستثقالا لتحريكها أو على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هو مثاني.

قال ابن عباس القرآن كله مثاني وعنه قال القرآن يشبه بعضه بعضا ويرد بعضه إلى بعض، وعنه قال كتاب الله مثاني ثني فيه الأمر مرارا وصح وصف الواحد بالجمع لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير ألا تراك تقول القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات فكذلك تقول أحكام وأقاصيص ومواعظ مكررات، ونظيره قولك الإنسان عروق وعظام وأعصاب.

أو منصوب على التمييز من (متشابها) كما تقول رأيت رجلا حسنا شمائل، والمعنى متشابهة مثانية.

قال الرازي في تبيين معنى مثاني إن أكثر الأشياء المذكورة في القرآن متكررة زوجين زوجين، مثل الأمر والنهي والعام والخاص والمجمل والمفصل، وأحوال السموات والأرض والجنة والنار، والنور والظلمة، واللوح والقلم والملائكة والشياطين والعرش والكرسي والوعد والوعيد والرجاء، والخوف، والمقصود في ذلك البيان أن كل شيء ما سوى الحق زوج، وأن الفرد الأحد الحق هو الله ولا يخفى ما في كلامه هذا من التكلف والبعد عن." (١)

"(ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا) فإن ذلك هو أعظم ما يرجونه من دفع الضرر عنهم، لأن الله سبحانه إذا غفر لهم ما هو الأسوأ من أعمالهم غفر لهم ما دونه بطريقة الأولى، واللام متعلقة بيشاؤون أو بالمحسنين أو بمحذوف قرأ الجمهور أسوأ على أنه أفعل تفضيل وقيل: ليست للتفضيل بل بمعنى سيىء الذي عملوا أو بهذا الاعتبار عم الأسوأ جميع معاصيهم وقرىء أسواء بألف بين الهمزة والواو بزنة أحمال جمع سوء.

ولما ذكر الله سبحانه ما يدل على دفع المضار عنهم، ذكر ما يدل على جلب أعظم المنافع إليهم فقال: (ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) إضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه بل من إضافة الشيء إلى بعضه قصدا إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل، قال مقاتل: يجزيهم

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٠٥/١٢

بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء، وعم الأحسن جميع حسناتهم، ولولا هذا التأويل لاقتضى النظم أنه يكفر عنهم أقبح السيئات فقط ويجزيهم على أفضل الحسنات فقط.." [1]

"(لهم ما يشاؤون عند ربهم) أي لهم كل ما يشاؤونه من رفع الدرجات، ودفع المضرات، وتكفير السيئات، وجلب **المنافع**، وفي هذا ترغيب عظيم وتشويق بالغ (ذلك) أي ما تقدم ذكره من جزائهم، وهو مبتدأ وخبره (جزاء المحسنين) أي الذين أحسنوا في أعمالهم، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، " إن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه، فإنه يراك " (١)، ثم بين سبحانه ما هو الغاية مما لهم عند ربهم فقال:

---

(١) سبق ذكره.." [2]

"هي التي توجد فيها **المنافع** الآتية كلها، وقوله: (لتركبوا منها) تفصيل لهذا الإجمال، ومن للتبعيض، وكذلك في قوله:

(ومنها تأكلون) أو لابتداء الغاية في الموضعين ومعناها ابتداء الركوب، وابتداء الأكل، والأول أولى. والمعنى لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها.." [3]

"(وجعل فيها رواسي) أي جبالا ثوابت، معطوف على خلق وقيل مستأنفة لوقوع الفصل بينهما بالأجنبي، والأول أولى، لأن الجملة الفاصلة هي مقررة لمضمون ما قبلها، فكانت بمنزلة التأكيد، ومعنى: (من فوقها) أنها مرتفعة عليها لأنها من أجزاء الأرض، وإنما خالفتها باعتبار الارتفاع فكانت من هذه الحيثية كالمغايرة لها وإنما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون منافع الجبال ظاهرة لطالبيها، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال كلها مفتقرة إلى ممسك، وهو الله العزيز المتعال، القادر المختار.

(وبارك فيها) أي جعلها مباركة كثيرة الخير بما خلق فيها من **المنافع** للعباد قال السدي: أنبت فيها شجرها (وقدر فيها أقواتها) قال الحسن وعكرمة والضحاك: قدر فيها أرزاق أهلها، وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار **والمنافع**، جعل في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد وقيل قدر البر لأهل قطر من الأرض والتمر لأهل قطر آخر، وكذلك سائر الأقوات.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١١٦/١٢

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١١٦/١٢

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢١٧/١٢

قيل: إن الزرع أكثر الحرف بركة لأن الله وضع الأوقات في الأرض، وقال ابن عباس أي شق الأنهار، وغرس الأشجار، ووضع الجبال، وأجرى البحار، وجعل في هذه ما ليس في هذه وفي هذه ما ليس في هذه، وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها.

(في) تتمة (أربعة أيام) أي في يوم الثلاثاء والأربعاء باليومين." [١]

"المتقدمين، قاله الزجاج وغيره، قال ابن الأنباري: ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام وإلى الكوفة في خمسة عشر يوما، أي في تتمة خمسة عشر يوما، فيكون المعنى: إن حصول جميع ما تقدم من خلق الأرض وما بعدها في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان ولولا هذا التقدير لكانت الأيام ثمانية يومان في الأول وهو قوله (خلق الأرض في يومين) ويومان في الأخير وهو قوله الآتي: (فقضاهن سبع سموات في يومين) وأربعة في الوسط.

وقال أبو البقاء: ولعل زيادة مدة الأرض على مدة السماء جريا على ما يتعارف من أن بناء السقف أخف من بناء البيت، وقيل: للتنبيه على أن الأرض هي المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين وكثرة **المنافع**، وقيل: لما فيها من الابتلاء بالمعاصي، والمجاهدات والمجادلات والمعالجات.

عن ابن عباس أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فسألته عن خلق السموات والأرض، فقال " خلق الله الأرض في يومين الأحد والاثنين، وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الثلاثاء وخلق يوم الأربعاء الشجر والحجر والماء والمدائن والعمران والخراب فهذه أربعة أيام فقال تعالى: قل أئنكم لتكفرون إلى قوله للسائلين، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم، والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق من أول ساعة من هذه الثلاث الآجال حين يموت من مات، وفي الثانية ألقى فيها من كل شي مما ينتفع به، وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة قالت اليهود ثم ماذا يا محمد؟ قال: ثم استوى على العرش، قالوا قد أصبت لو أتممت. قالوا ثم استراح، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم، غضبا شديدا فنزل: (ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب (٣٨) فاصبر على ما يقولون) أخرجه ابن جرير والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ في العظمة." [٢]

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٢/٢٢٨

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٢/٢٢٩

"بار بهم وقال السدي: رفيق بهم وقيل: حفى بهم. وقال القرطبي: لطيف بهم في العرض والمحاسبة، وقيل: في إيصال المنافع وصرف البلاء، وقيل لطف بالغوامض علمه، وعظم عن الجرائم حلمه، وقيل اللطيف من ينشر المناقب ويستر المثالب، أو يعفو عمن يهفو، أو يعطي العبد فوق الكفاية، ويكلفه الطاعة دون الطاقة.

وقال الجنيد: لطف بأوليائه فعرفوه ولولا لطفه بأعدائه ما جحدوه وقال جعفر الصادق: يلطف بهم في الرزق من وجهين، أحدهما أنه جعل رزقك من الطيبات، الثاني أنه لم يدفع إليك مرة واحدة فتبذره.

وقال الحسين بن الفضل: لطيف بهم في القرآن وتفصيله وتفسيره. وقيل: اللطيف الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله (١)، وقيل هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه، وقيل هو الذي أوقد للعلماء من الكتاب والسنة سراجا، وجعل لهم الصراط المستقيم والدين القيم منهاجا، وأنزل لهم من سحائب بره ومنه ولطفه وكرمه وإحسانه ماء ثجاجا وقيل غير ذلك.

وحاصل المعنى أنه يجري لطفه على عباده في كل أمورهم ومن جملة ذلك الرزق الذي يعيشون به في الدنيا وهو معنى قوله (يرزق من يشاء) منهم كيف يشاء فيوسع على هذا ويضيق على هذا، وفي تفضيل قوم بالمال حكمة ليحتاج البعض إلى البعض، كما قال ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، وكان هذا لطفا بالعباد ليمتحن الغني بالفقير، والفقير بالغني. وقيل ما يشاء من أنواع الرزق فهو -وإن كان يرزق كل ذي روح- لكنه فاوت بين المرزوقين في الرزق، قلة وكثرة وجنسا ونوعا لحكمة يعلمها هو.

(وهو القوي) العظيم القوة الباهر القدرة (العزيز) الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء.

---

(١) سقط من الأصل: وقيل: هو الذي يعين على الخدمة ويكثر المدحة، وقيل: هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيب من رجاه، وقيل: هو الذي لا يرد سائله ولا يؤيس آمله.." [١]

"(وهو الذي ينزل) بالتشديد والتخفيف سبعيتان (الغيث) أي المطر الذي هو أرفع أنواع الرزق وأعمها فائدة، وأكثرها منفعة ومصلحة (من بعد ما قنطوا) أي أيسوا عن ذلك، فيعرفون بهذا الإنزال للمطر بعد القنوط مقدار رحمته لهم ويشكرون له ما يجب الشكر عليه، والعامة على فتح النون، وقرىء بكسرها وهي لغة، وعليها قرىء لا تقنطوا بفتح النون في المتواتر ولم يقرأ بالكسر في الماضي إلا شاذا وما مصدرية أي من بعد قنوطهم.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٢/٢٩٢

(وينشر رحمته) أي بركات الغيث ومنافعه في كل شيء من السهل والجبل، والنبات والحيوان، وما يحصل به من الخصب أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاما أوليا، والمراد بالرحمة المطر، فذكر المطر بإسمين الغيث لأنه يغيث من الشدائد، والرحمة لأنه رأفة وإحسان.

(وهو الولي) للصالحين من عباده بالإحسان وجلب **المنافع** لهم ودفع الشرور عنهم (الحميد) المستحق للحمد منهم على إنعامه خصوصا وعموما، ثم ذكر سبحانه بعض آياته الدالة على كمال قدرته الموجبة لتوحيده وصدق ما وعد به من البعث فقال:." (١)

"(ومتاعا للمقوين) أي للمسافرين، قاله ابن عباس، يعني منفعة للذين ينزلون بالقواء وهي الأرض القفر، كالمسافرين وأهل البوادي النازلين في الأراضي المقفرة، يقال أرض قراء بالمد والقصر؛ أي مقفرة، ويقال أقوى إذا سافر أي نزل القوى، وخصوا بالذكر لأن منفعتهم بها أكثر من المقيمين، فإنهم يوقدونها بالليل لتهرب السباع ويهتدي الضال إلى غير ذلك من **المنافع**، وقال مجاهد: المقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخبز والإصطلاء والإستضاءة، وتذكر نار جهنم، وقال ابن زيد: للجائعين في إصلاح طعامهم، يقال: أقويت منذ كذا وكذا أي ما أكلت شيئا وبات فلان القوى أي جائعا.

وقال قطرب: القوى من الأضداد، يكون بمعنى الفقر ويكون بمعنى الغنى يقال: أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد، وأقوى إذا قويت دوابه وكثر ماله والمعنى جعلناها متاعا ومنفعة للأغنياء والفقراء لا غنى لأحد عنها، وقال المهدوي: الآية تصلح للجميع؛ لأن النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغني والفقير وحكى الثعلبي عن أكثر المفسرين القول الأول وهو الظاهر.." (٢)

"(إنه لقرآن كريم) أي كرمه الله وأعزه، ورفع قدره على جميع الكتب وكرمه عن أن يكون سحرا وكهانة أو كذبا، وقيل: إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق، ومعالي الأمور وقيل لأنه يكرم حافظه، ويعظم قارئه، وحكى الواحدي عن أهل المعاني: أنه وصف القرآن بالكريم لأن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بالدلائل التي تؤدي إلى الحق في الدين، قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى، والبيان والعلم والحكمة، فالفقيه يستدل به ويأخذ منه، والحكيم يستمد منه ويحتج به، والأديب يستفيد منه ويتقوى به، فكل عالم يطلب أصل علمه منه، وقيل: حسن مرضي أو نفاع جم **المنافع**، أو عزيز

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٠٣/١٢

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٨٠/١٣

مكرم، لا يهون بكثرة التلاوة، ولا يخلق بكثرة الرد، ولا يمله السامعون، ولا يثقل على الألسنة، بل غض طري يبقى أبد الدهر.." (١)

"والآخرين من الإنس والجن وجميع أهل السماء، وأهل الأرض.

(ذلك) يعني أن يوم القيامة هو (يوم التغابن) وذلك أنه يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضا فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، ويغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر، وأهل الطاعة أهل المعصية، ولا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار، فتركوا منازلهم التي كانوا يستنزلونها، لو لم يفعلوا ما يوجب النار، فكأن أهل النار استبدلوا الخير بالشر، والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب، وأهل الجنة على العكس من ذلك يقال: غبنت فلانا إذا بايعته أو شاركته، فكان النقص عليه، والغلبة والغبن فوت الحظ، كذا قال المفسرون، فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة، فإطلاق التغابن على ما يكون فيها إنما هو بطريق الاستعارة، وإن التفاعل ليس من اثنين، وكذا المغابنة على سبيل التجريد، قال ابن عباس يوم التغابن من أسماء يوم القيامة، وعنه قال: غبن أهل الجنة أهل النار.

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته) أي من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئاته (ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار) قرأ الجمهور يكفر ويدخله بالتحتية وقرىء بالنون وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم (خالدين فيها أبدا) حال مقدرة فيه مراعاة معنى من (ذلك) أي ما ذكر من التكفير والإدخال (الفوز العظيم) أي الظفر الذي لا يساويه ظفر، والعظيم أعلى حالا من الكبير الذي ذكر في سورة البروج، لأن ما فيها قد رتب على إدخال الجنات فقط، وما هنا قد رتب على الأمرين المذكورين، فهو جامع للمصالح من دفع المضار وجلب **المنافع**.." (٢)

"(والذي قدر فهدى) صفة أخرى للرب أو معطوف على الموصول الذي قبله، قرىء قدر مخففا ومثقلا، قال الواحدي قال المفسرون: قدر خلق الذكر والأنثى من الدواب فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها. وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والسعادة والشقاوة، وروي عنه أيضا أنه قال: قدر السعادة والشقاوة وهدى للرشد والضلالة، وهدى الأنعام لمراعيها وقيل قدر أرزاقهم وأقواتهم وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنسا، ولمراعيهم إن كانوا وحشا.

وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له وقيل خلق **المنافع** في الأشياء وهدى الإنسان لوجه

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٨٢/١٣

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٦٩/١٤

استخراجها منها، وقال السدي: قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر، وأقل وأكثر ثم هداه للخروج من الرحم.

قال الفراء أي قدر فهدى وأضل، فاكتفى بأحدهما.

وفي تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا والأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدر وهدى إلا بدليل يدل عليه، ومع عدم الدليل يحمل على م؛ يصدق عليه معنى الفعلين إما على البدل أو على الشمول، والمعنى قدر أجناس الأشياء وأنواعها وصفاتها وأفعالها وأقوالها وآجالها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له ويسره لما خلق له، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه.

ولما ذكر ما يختص بالناس أتبعه بما يختص بالحيوان فقال." [١]

"(والشمس وضحاها) أقسم سبحانه بهذه الأمور، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته وقال قوم إن القسم بهذه الأمور ونحوها مما تقدم ومما سيأتي هو على حذف مضاف أي ورب الشمس، وهكذا سائرها، ولا ملجيء إلى هذا ولا موجب له، وقوله: (وضحاها) هو قسم ثان، وقال الرازي المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي.

وقد أقسم تعالى بأنواع مخلوقاته المشتملة على **المنافع** العظيمة ليتأمل المكلف فيها ويشكر عليها لأن ما أقسم الله تعالى به يحصل منه وقع في القلب، وأقسم الله في هذه السورة بسبعة أشياء إلى قوله: (قد أفلح من زكاها) فأقسم بالشمس وضحاها فإن أهل العالم كانوا كالأموات في الليل، فلما ظهر أثر الصبح صارت الأموات أحياء، وتكاملت الحياة وقت الضحوة، وهذه الحالة تشبه أحوال القيامة، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها انتهى.

قال مجاهد أي ضوؤها وإشراقها، وأضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها، وكذا قال الكلبي، وقال قتادة: ضحاها نهارها كله، قال الفراء: الضحى هو النهار، وقال المبرد: أصل الضحى الصبح، وهو نور الشمس، وقيل الضحوة ارتفاع النهار، والضحى فوق ذلك.

قال القرطبي: الضحى مؤنثة يقال ارتفعت الضحى فوق الضحو، وقد تذكر، فمن أنث ذهب إلى أنها جمع ضحوة ومن ذكر ذهب إلى أنها اسم فعل." [٢]

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٥/١٨٧

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٥/٢٥١

"(الذي علم بالقلم) أي علم الإنسان الخط بالقلم فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب، قال الزجاج علم الإنسان الكتابة بالقلم قال قتادة: بالقلم نعمة من الله عز وجل عظيمة لولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من **المنافع** العظيمة." (١)

"(فالمغيرات صبحا) أي التي تغير على العدو وقت الصباح، يقال أغار يغير إغارة إذا باغت عدوه لقتل أو أسر أو نهب، وأسند الإغارة إليها وهي لأهلها للإشعار بأنها عمدتهم في إغارتهم، وصبحا منصوب على الظرفية قال ابن عباس صبحت القوم بغارة.

وعنه قال هي الخيل أغارت فصبحت العدو، وعنه قال إذا أصبحت العدو، وعنه قال الخيل تصبح العدو، وقال أيضا غارت الخيل صبحا، وقال ابن مسعود حين يفيضون من جمع، وإنما أقسم الله عز وجل بخيل الغزاة تنبيها على فضلها وفضل رباطها في سبيل الله، ولما فيها من **المنافع** الدينية والدنيوية والأجر والغنيمة.." (٢)

"" صفحة رقم ١٠١ "

في ذلك فساد ما في الأرض وانتفاء الاستقامة عن احوال الناس والزروع **والمنافع** الدينية والدنيوية

قال الله تعالى

) وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل (البقرة ٢٠٥

) أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء (البقرة ٣٠ ومنه قيل لحرب كانت بين طيء حرب الفساد

وكان فساد المنافقين في الأرض أنهم كانوا يمايلون الكفار ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم اليهم وإغرائهم عليهم وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم فلما كان ذلك من صنيعهم مؤديا إلى الفساد قيل لهم

) لا تفسدوا (

كما تقول للرجل لا تقتل نفسك بيدك ولا تلق نفسك في النار اذا أقدم على ما هذه عاقبته

و

) إنما (

لقصر الحكم على شيء كقولك إنما ينطق زيد أو لقصر الشيء على حكم كقولك إنما زيد كاتب

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣١١/١٥

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٥١/١٥

ومعنى

) إنما نحن مصلحون (

ان صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد

و

) الآ (مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها والاستفهام اذا دخل على النفي أفاد تحقيقا كقوله

) أليس ذلك بقادر (القيامة ٤٠ ولكونها في هذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها الا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم وأختها التي هي أما من مقدمات اليمين وطلائعها

أما والذي لا يعلم الغيب غيره

اما والذي أبكى وأضحك

رد الله ما ادعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ رد وادله على سخط عظيم والمبالغة فيه من جهة الاستئناف وما في كلتا الكلمتين ألا

وإن من التأكيدين وتعريف الخبر وتوسيط الفصل

وقوله

) لا يشعرون (

أتوهم في النصيحة من وجهين احدهما تقبيح ما كانوا عليه لبعده من الصواب وجره إلى الفساد والفتنة والثاني تبصيرهم الطريق الأسد من اتباع ذوي الأحلام ودخولهم في عدادهم فكان من جوابهم ان سفهوهم لفرط سفههم وجهلوهم لتمادي جهلهم

وفي ذلك تسلية للعالم مما يلقى من الجهلة فإن قلت كيف صح أن يسند (قيل) إلى (لا تفسدوا وآمنوا) وإسناد الفعل إلى الفعل مما لا يصح قلت الذي لا يصح هو إسناد الفعل إلى معنى الفعل وهذا إسناد." (١)

"" صفحة رقم ١٢٨ "

ولرهط حراب وقد سورة

في المجد ليس غرابها بمطار

---

(١) تفسير الكشاف . ١٠١/١

لأحد معنيين لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارىء
وهي أيضا في انفسها مترتبة طوال واوساط وقصار أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين
وإن جعلت واوها منقلبة عن همزة فلأنها قطعة وطائفة من القرآن كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه
فإن قلت ما فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سورا قلت ليست الفائدة في ذلك واحدة
ولأمر ما انزل الله التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج مسورة مترجمة السور
وبوب المصنفون في كل فن كتبهم أبوابا موشحة الصدور بالتراجم ومن فوائده ان الجنس اذا انطوت تحته أنواع وإشتمل على أصناف كان احسن وأنبل وأفخم من أن يكون بيانا واحدا
ومنها أن القارىء اذا ختم سورة أو بابا من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأهز لعطفه وأبعث على الدرس والتحصيل منه رو استمر على الكتاب بطوله
ومثله المسافر اذا علم انه قطع ميلا أو طوى فرسخا أو انتهى إلى رأس بريد نفس ذلك منه ونشطه للسير
ومن ثم جزأ القراء القرآن اسباعا واجزاء وعشورا وأخماسا
ومنها ان الحافظ اذا حذفه السورة اعتقد انه اخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة فيعظم عنده ما حفظه ويجل في نفسه ويغتبط به ومنه حديث أنس رضي الله عنه
٢٣ (كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا ومن ثمة كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل)
ومنها ان التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض
وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم إلى غير ذلك من الفوائد **والمنافع**
) من مثله (
متعلق بسورة صفة لها أي بسورة كائنة من مثله
والضمير لما نزلنا أو لعبدنا ويجوز ان يتعلق بقوله
) فأتوا (
والضمير للعبد فإن قلت وما مثله." (١)
"" صفحة رقم ١٥٥ "
المضاف إليه لكونه معلوما مدلولا عليه بذكر الأسماء لأن الإسم لا بد له من مسمى وعوض منه اللام

---

(١) تفسير الكشاف. ١٢٨/١

كقوله

) واشتعل الرأس (٤

فإن قلت هلا زعمت أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وأن الأصل وعلم آدم مسميات الأسماء

قلت لأن التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات لقوله

) أنبئوني بأسماء هؤلاء (

) أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم (

فكما علق الإنباء بالأسماء لا بالمسميات ولم يقل أنبئوني بهؤلاء وانبئهم بهم وجب تعليق التعليم بها

فإن قلت فما معنى تعليمه أسماء المسميات قلت أراه الأجناس التى خلقها وعلمه ان هذا اسمه فرس وهذا اسمه بعير وهذا إسمه كذا وهذا اسمه كذا وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من **المنافع** الدينية والدنيوية

) ثم عرضهم (

أي عرض المسميات

وإنما ذكر لأن في المسميات العقلاء فغلبهم وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت

) إن كنتم صادقين (

يعني في زعمكم اني استخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء إرادة للرد عليهم وان فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها ما يستأهلون لأجله ان يستخلفوا

فأراهم بذلك وبين لهم بعض ما اجمل من ذكر المصالح في استخلافهم في قوله

) إني أعلم ما لا تعلمون (

وقوله

) ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض (

استحضار لقوله لهم

) إني أعلم ما لا تعلمون (

الا انه جاء به على وجه أبسط من ذلك وأشرح

وقرىء (وعلم آدم) على البناء للمفعول وقرا عبد الله (عرضهن)

وقرأ أبي (عرضها) والمعنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها لأن العرض لا يصح في الأسماء وقرىء (أنبيهم) بقلب الهمزة ياء (وأنبهم) بحذفها والهاء مكسورة فيهما

وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا ياءادم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هاذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين - ٣٦

البقرة : (٣٤ - ٣٦) وإذ قلنا للملائكة . . . ." [١]

"" صفحة رقم ٢٧٦ "

بين مقل لا يطلب بذكر الله الا أعراض الدنيا ومكثر يطلب خير الدارين فكونوا من المكثرين

) آتنا في الدنيا (

اجعل ايتاءنا أي إعطاءنا في الدنيا خاصة

) وما له في الآخرة من خلاق (

أي من طلب خلاقي وهو النصيب

أو ما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب لأن همه مقصور على الدنيا

والحسنتان ما هو طلبة الصالحين في الدنيا من الصحة والكفاف والتوفيق في الخير وطلبتهم في الآخرة من الثواب

وعن علي رضي الله عنه الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة وفي الآخرة الحوراء

وعذاب النار امرأة السوء

) أولئك (

الداعون بالحسنتين

) لهم نصيب مما كسبوا (

أي نصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة وهو الثواب الذي هو **المنافع** الحسنة

أو من أجل ما كسبوا كقوله

) مما خطيئاتهم أغرقوا (نوح ٢٥ أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيهم منه ما يستوجبونه بحسب مصالحهم

---

(١) تفسير الكشاف . ١/١٥٥

في الدنيا واستحقاقهم في الآخرة

وسمى الدعاء كسبا لأنه من الأعمال والأعمال موصوفة." (١)

"" صفحة رقم ٣٤٢ "

قلت النخيل والأعناب لما كانا اكرم الشجر وأكثرها منافع خصهما بالذكر وجعل الجنة منهما وإن كانت محتوية على سائر الأشجار تغليبا لهما على غيرهما ثم أردفهما ذكر كل الثمرات

ويجوز ان يريد بالثمرات **المنافع** التي كانت تحصل له فيها كقوله

) وكان له ثمر (الكهف ٣٤ بعد قوله

) جنتين من أعناب وحففناهما بنخل (الكهف ٣٢ فإن قلت علام عطف قوله

) وأصابه الكبر (

قلت الواو للحال لا للعطف ومعناه ان تكون له جنة وقد أصابه الكبر وقيل يقال وددت ان يكون كذا ووددت لو كان كذا فحمل العطف على المعنى كانه قيل أيود احدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر

يأيها الذين ءامنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وممآ أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد ٢٦

البقرة : (٢٦٧) يا أيها الذين . . . . . .

) من طيبات ما كسبتم (

من جياد م كسوباتكم

) ومما أخرجنا لكم (

من الحب والثمر والمعادن وغيرها

فإن قلت فهلا قيل وما أخرجنا لكم عطفا على

) ما كسبتم (

حتى يشتمل الطيب على المكسوب والمخرج من الأرض قلت معناه ومن طيبات ما اخرجنا لكم الا انه حذف لذكر الطيبات

) ولا تيمموا الخبيث (

ولا تقصدوا المال الرديء

---

(١) تفسير الكشاف . ٢٧٦/١

) منه تنفقون (

تخصونه بالانفاق وهو في محل الحال

وقرأ عبد الله (ولا تامموا) وقرأ ابن عباس (ولا تيمموا) بضم التاء

ويممه وتيممه وتاممه سواء في معنى قصده

) ولستم بآخذيه (

وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم

) إلا أن تغمضوا فيه (

الا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه من قولك أغمض فلان عن بعض حقه اذا غض بصره ويقال للبائع أغمض أي لا تستقص كانك لا تبصر وقال الطرماح

(لم يفتنا بالوتر قوم وللضيم رجال يرضون بالاغماض)

وقرا الزهري (تغمضوا) وأغمض وغمض بمعنى وعنه (تغمضوا) بضم الميم وكسرها من غمض يغمض ويغمض وقرأ قتادة (تغمضوا) على البناء للمفعول بمعنى الا ان تدخلوا فيه وتجذبوا اليه وقيل الا ان توجدوا مغمضين وعن الحسن رضي الله عنه لو وجدتموه في السوق يباع ما اخذتموه حتى يهضم لكم من ثمنه وعن ابن عباس رضي الله عنهما كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه." [١]

"" صفحة رقم ٤٣٦ "

الحسنة الرخاء والخصب والنصرة والغنيمة ونحوها من المنافع

والسيئة ما كان ضد ذلك وهذا بيان لفرط معاداتهم حيث يحسدونهم على ما نالهم من الخير ويشمتون بهم فيما اصابهم من الشدة

فإن قلت كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة قلت المس مستعار لمعنى الإصابة فكان المعنى واحدا الا ترى إلى قوله

) إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة (التوبة ٥٠

) ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك (

) إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا (المعارج ٢٠ - ٢١

) وإن تصبروا (

---

(١) تفسير الكشاف . ١/٣٤٢

على عداوتهم

) وتتقوا (

ما نهيتم عنه من موالاتهم

أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا الله في اجتنابكم محارمه كنتم في كنف الله فلا يضركم كيدهم

وقرىء (لا يضركم) من ضاره يضيره

ويضركم على ان ضمة الراء لاتباع ضمة الضاد كقولك مد يا هذا وروى المفضل عن عاصم (لا يضركم) بفتح الراء وهذا تعليم من الله وارشاد إلى ان يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى وقد قال الحكماء اذا اردت ان تكبت من يحسدك فازدد فضلا في نفسك

) إن الله بما تعملون (

من الصبر والتقوى وغيرهما

) محيط (

ففاعل بكم ما أنتم أهله وقرىء بالياء بمعنى انه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه

آل عمران ١٢١ - ١٢٢

آل عمران : (١٢١ - ١٢٢) وإذ غدوت من . . . . .

" و " اذكر

) إذ غدوت من أهلك (

بالمدينة وهو غدوه إلى أحد من حجرة عائشة رضي الله عنها روي

٢٠٣ ان المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه ودعا." [١]

"" صفحة رقم ٤٥٠ "

وإلى دينكم فقال أنس بن النضر عم انس بن مالك يا قوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه ثم قال اللهم اني أعتذر اليك مما يقول هؤلاء وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل

---

(١) تفسير الكشاف. ٤٣٦/١

وعن بعض المهاجرين أنه مر بانصاري يتشحط في دمه فقال يا فلان أشعرت ان محمدا قد قتل فقال ان كان قتل فقد بلغ قاتلوا على دينكم والمعنى

) وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل (

فسيخلو كما خلوا وكما ان اتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه لأن الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة والزام الحجة لا وجوده بين أظهر قومه

" أفإين مات "

الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب والهمزة لإنكار ان يجعلوا ان خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سببا للتمسك بدين محمد (صلى الله عليه وسلم) لا للإنقلاب عنه

فإن قلت لم ذكر القتل وقد علم انه لا يقتل قلت لكونه مجوزا عند المخاطبين

فإن قلت اما علموه من ناحية قوله

) والله يعصمك من الناس (المائدة ٦٧ قلت هذا مما يختص بالعلماء منهم وذوي البصيرة ألا ترى أنهم سمعوا بخبر قتله فهربوا على أنه يحتمل العصمة من فتنة الناس وإذلالهم والانقلاب على الأعقاب الإدبار عما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقوم به من امر الجهاد وغيره وقيل الارتداد وما ارتد أحد من المسلمين ذلك اليوم الا ما كان من قول المنافقين ويجوز ان يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإسلامه

) فلن يضر الله شيئا (

فما ضر الا نفسه لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضار والمنافع

) وسيجزي الله الشاكرين (

الذي لم ينقلبوا كأنس بن النضر وأضرابه

وسماهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الاسلام فيما فعلوا المعنى ان موت الأنفس محال أن يكون الا بمشيئة الله فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد ان يقدم عليه الا أن يأذن الله له فيه تمثيلا ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك فليس له ان يقبض نفسا الا بإذن من الله وهو على معنيين أحدهما تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم ان الحذر لا ينفع وأن أحدا." (١)

(١) تفسير الكشاف . ١/٤٥٠

"" صفحة رقم ٤٥٤ "

انهزم المشركون فما موقفنا ههنا وقال بعضهم لا نخالف أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فممن ثبت مكانه عبد الله بن جبير أمير الرماة في نفر دون العشرة وهم المعنيون بقوله

) ومنكم من يريد الآخرة (ونفر اعقابهم ينهبون وهم الذين ارادوا الدنيا فكر المشركون على الرماة وقتلوا عبد الله بن جبير رضي الله عنه وأقبلوا على المسلمين وحالت الريح دبورا وكانت صبا حتى هزموهم وقتلوا من قتلوا وهو قوله

) ثم صرفكم عنهم ليبتليكم (

ليمتحن صبركم على المصائب وثباتكم على الإيمان عندها

) ولقد عفا عنكم (

لما علم من ندمكم على فرط منكم من عصيان امر رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

) والله ذو فضل على المؤمنين (

يتفضل عليهم بالعفو أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال سواء أديل لهم أو أديل عليهم لأن الابتلاء رحمة كما ان النصرة رحمة

فإن قلت أين متعلق

) حتى إذا (

قلت محذوف تقديره حتى اذا فشلتم منعكم نصره ويجوز ان يكون المعنى صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم

) إذ تصعدون (

نصب بصرفكم أو بقوله

" " ليبتليكم "

أو باضمار (اذكر) والاصعاد الذهاب في الأرض والإبعاد فيه

يقال صعد في الجبل وأصعد في الأرض يقال أصعدنا من مكة إلى المدينة وقرأ الحسن رضي الله عنه (تصعدون) يعني في الجبل

وتعضد الأولى قراءة أبي (إذ تصعدون في الوادي) وقرا أبو حيوة (تصعدون) بفتح التاء وتشديد العين من تصعد فى السلم وقرا الحسن رضي الله عنه (تلون) بواو واحدة وقد ذكرنا وجهها

وقرىء (يصعدون) (ويلوون) بالياء

" والرسول يدعوكم "

كان يقول (الي عباد الله) الي عباد الله انا رسول الله من يكر فله الجنة)

" في أخراكم "

في ساقتكم وجماعتكم الأخرى وهي المتأخرة يقال جئت في آخر الناس واخراهم كما تقول في أولهم واولاهم بتاويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى

" فأثابكم "

عطف على صرفكم أي فجازاكم الله

" غما "

حين صرفكم عنهم وابتلاكم

" ب) سبب (غم " أذقتموه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعصيانكم له أو غما مضاعفا غما بعد غم وغما متصلا بغم من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر

" لكيلا تحزنوا "

لتتمرنوا على تجرع الغموم وتضروا باحتمال الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من **المنافع** ولا على مصيب من المضار ويجوز أن يكون الضمير في

" فأثابكم "

للرسول أي فآساكم في الاغتمام وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما غمه ما نزل بكم فأثابكم غما اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتممتموه لأجله ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره وانما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم." (١)

"" صفحة رقم ٤٨٤ "

) قد أخزيته (

فقد ابلغت في اخزائه

وهو نظير قوله (فقد فاز) ونحوه في كلامهم من ادرك مرعى الصمان فقد أدرك ومن سبق فلانا فقد سبق

---

(١) تفسير الكشاف. ١/٤٥٤

) وما للظالمين (

اللام اشارة إلى من يدخل النار وإعلام بان من يدخل النار فلا ناصر له بشفاعة ولا غيرها

تقول سمعت رجلا يقول كذا وسمعت زيدا يتكلم فتوقع الفعل على الرجل وتحذف المسموع لأنك وصفته بما يسمع أو جعلته حالا عنه فأغناك عن ذكره ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد وان يقال سمعت كلام فلان أو قوله فإن قلت فأي فائدة في الجمع بين المنادى وينادي قلت ذكر النداء مطلقا ثم مقيدا بالايمان تفخيما لشأن المنادي لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان

ونحوه قولك مررت بهاد يهدي للاسلام وذلك ان المنادي اذا اطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب أو لإطفاء النائرة أو لإغاثة المكروب أو لكفاية بعض النوازل أو لبعض **المنافع** وكذلك الهادي قد يطلق على من يهدي للطريق ويهدي لسداد الرأي وغير ذلك فإذا قلت ينادي للايمان ويهدي للإسلام فقد رفعت من شأن المنادي والهادي وفخمته

ويقال دعاه لكذا والى كذا وندبه له واليه وناداه له واليه ونحوه هداه للطريق وإليه وذلك أن معنى انتهاء الغاية ومعنى الاختصاص واقعان جميعا والمنادي هو الرسول

" أدعوا إلى الله " يوسف ١٠٨ و

) ادع إلى سبيل ربك (النحل ١٢٥ وعن محمد بن كعب القرآن

) إن آمنوا (أي آمنوا أو بأن آمنوا

) ذنوبنا (

كبائرنا

) سيئاتنا (

صغائرنا

) مع الأبرار (

مخصوصين بصحبتهم معدودين في جملتهم

والأبرار جمع بر أو بار كرب وأرباب وصاحب وأصحاب

) على رسلك (

على هذه صلة للوعد كما في قولك وعد الله الجنة على الطاعة

والمعنى ما وعدتنا على تصديق رسلك ألا تراه كيف اتبع ذكر المنادي للإيمان وهو الرسول وقوله آمنا وهو

التصديق ويجوزأن يكون متعلقا بمحذوف أي ما وعدتنا منزلا على رسلك أو محمولا على رسلك لأن الرسل محملون ذلك

) فإنما عليه ما حمل (النور ٥٤ وقيل على ألسنة رسلك

والموعود هو الثواب وقيل النصرة على الأعداء

فإن قلت كيف دعوا الله بانجاز ما وعد الله لا يخلف الميعاد قلت معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب انجاز الميعاد أو هو باب من اللجأ إلى الله والخضوع له كما كان الأنبياء عليهم." (١)

"" صفحة رقم ٦٩٨ "

يصرفون عن استماع الحق وتأمله

فإن قلت ما معنى التراخي في قوله ثم انظر قلت معناه ما بين العجبين يعني انه بين لهم الآيات بيانا عجيبا وان أعراضهم عنها أعجب منه

المائدة ٧٦

المائدة : (٧٦) قل أتعبدون من . . . . .

) ما لا يملك (

هو عيسى أي شيئا لا يستطيع ان يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب ولأن كل ما يستطيعه البشر من المضار **والمنافع** فبإقدار الله وتمكينه فكانه لا يملك منه شيئا

وهذا دليل قاطع على ان أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضرا ولا نفعا

وصفة الرب ان يكون قادرا على كل شيء لا يخرج مقدور على قدرته

) والله هو السميع العليم (

متعلق ب (أتعبدون) أي أتشركون بالله ولا تخشونه وهو الذي يسمع ما تقولون ويعلم ما تعتقدون أو اتعبدون العاجز والله هو السميع العليم الذي يصح منه أن يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم ولن يكون كذلك الا وهو حي قادر

المائدة ٧

المائدة : (٧٧) قل يا أهل . . . . .

---

(١) تفسير الكشاف. ٤٨٤/١

) غير الحق (

صفة للمصدر أي لا تغلوا في دينكم غلوا غير الحق أي غلوا." [١]

"" صفحة رقم ١٠ "

بملك ، فإن قال لهم : الدليل أني ملك أني جئت بالقرآن المعجز ، وهو ناطق بأني ملك لا بشر كذبوه كما كذبوا محمدا (صلى الله عليه وسلم) ، فإذا فعلوا ذلك خذلوا كما هم مخذولون الآن ، فهو لبس الله عليهم . ويجوز أن يراد :) وللبسنا عليهم (حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة : وقرأ ابن محيصن : (ولبسنا عليهم) ، بلام واحدة . وقرأ الزهري : (وللبسنا عليهم ما يلبسون) ، بالتشديد .

الأنعام : (١٠) ولقد استهزئ برسل . . . . .

) ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون (

) ولقد استهزىء (تسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عما كان يلقي من قومه) فحاق (بهم فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزؤن به وهو الحق ، حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به .

) قل سيروا فى الا رض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين (٧)

الأنعام : (١١) قل سيروا في . . . . .

فإن قلت : أي فرق بين قوله) فانظروا (وبين قوله :) ثم انظروا (؟ قلت : جعل النظر مسببا السير في قوله :) فانظروا (فكأنه قيل سيروا لأجل النظر ، ولا تسيروا سير الغافلين . وأما قوله :) سيروا فى الارض ثم انظروا (فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين . ونبه على ذلك بثم ، لتباعد ما بين الواجب والمباح .

) قل لمن ما فى السماوات والا رض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون (٧)

الأنعام : (١٢) قل لمن ما . . . . . .

) لمن ما فى السماوات والارض (سؤال تبكيت ، و) قل لله (تقرير لهم ، أي هو لله لا خلاف بيني وبينكم ، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئا منه إلى غيره) كتب على نفسه الرحمة (أي أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته ، ونصب الأدلة لكم على توحيده بما أنتم مقرون به من خلق السماوات الأرض ، ثم

---

(١) تفسير الكشاف . ١/٦٩٨

أوعدهم على إغفالهم النظر وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله) ليجمعنكم إلى يوم القيامة (فيجازيكم على إشراككم . وقوله :) الذين خسروا أنفسهم (نصب على الذم ، أو رفع : أي أريد الذين خسروا أنفسهم ، أو أنتم الذين خسروا أنفسهم . فإن قلت : كيف جعل عدم إيمانهم مسببا عن خسرانهم ، والأمر على العكس ؟ قلت : معناه : الذين خسروا أنفسهم في علم الله :." [1]

"" صفحة رقم ١١ "

لاختيارهم الكفر . فهم لا يؤمنون .

) وله ما سكن فى اليل والنهار وهو السميع العليم (

(

الأنعام : (١٣) وله ما سكن . . . . .

وله (عطف على الله) ما سكن فى اليل والنهار (من السكنى وتعديه بفي كما في قوله :) وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم (.) وهو السميع العليم (يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم ، فلا يخفي عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان .

) قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والا رض وهو يطعم ولا يطعم قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين (٧)

الأنعام : (١٤ - ١٦) قل أغير الله . . . . .

أولي) غير الله (؟ همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو) اتخذ (لأن الإنكار في اتخاذ غير الله وليا ، لا في اتخاذ الولي ، فكان أولى بالتقديم . ونحوه) أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ((الزمر : ٦٤)) الله أذن لكم ((يونس : ٥٩) . وقرىء) فاطر السماوات (بالجر صفة لله ، وبالرفع على المدح . وقرأ الزهري : (فطر) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ما عرفت ما فاطر السماوات والأرض ، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أي ابتدعتها) وهو يطعم ولا يطعم (وهو يرزق ولا يرزق ، كقوله :) ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ((الذاريات : ٥٩) والمعنى : أن **المنافع** كلها من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع . وقرىء : (ولا يطعم) ، بفتح الياء . وروى ابن المأمون عن يعقوب : (وهو يطعم ولا يطعم) ، على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل ، والضمير لغير الله ، وقرأ

---

(١) تفسير الكشاف . ١٠/٢

الأشهب : (وهو يطعم ولا يطعم) ، على بنائهما للفاعل . وفسر بأن معناه : وهو يطعم ، ولا يستطعم . وحكى الأزهري : أطعمت ، بمعنى استطعمت ، ونحوه أفدت . ويجوز أن يكون المعنى : وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح ، كقولك : وهو يعطي ويمنع ، ويبسط ، ويقدر ، ويغني ويفقر) أول من أسلم (لأن النبي سابق أمته في الإسلام ، كقوله) وبذالك أمرت وأنا أول المسلمين ((الأنعام : ١٦٣) وكقول موسى :) سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ((الأعراف : ١٤٣)) ولا تكونن (وقيل لي لا تكونن) من المشركين (ومعناه : أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك . و) من سنراود عنه (العذاب) يومئذ فقد رحمه (الله الرحمة العظمى وهي النجاة ،." [(١)]

"" صفحة رقم ١٨ "

ذكر لكونها معلومة ، أو للساعة على معنى : قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها ، كما تقول : فرطت في فلان . ومنه فرطت في جنب الله) يحملون أوزارهم على ظهورهم (كقوله :) فبما كسبت أيديكم ((الشورى : ٣٠) لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور ، كما ألف الكسب بالأيدي) ساء ما يزرون (بئس شيئا يزرون وزرهم ، كقوله) ساء مثلا القوم ((الأعراف : ١٧٧) .

) وما الحيواة الدنيآ إلا لعب ولهو وللدار الا خرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (

الأنعام : (٣٢) وما الحياة الدنيا . . . . .

جعل أعمال الدنيا لعبا ولهوا واشتغالا بما لا يعني ولا يعقب منفعة ، كما تعقب أعمال الآخرة **المنافع** العظيمة . وقوله :) للذين يتقون (دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو . وقرأ ابن عباس رضي الله عنه : (ولدار الآخرة وقرىء : (تعقلون) بالتاء والياء .

) قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولاكن الظالمين بأايات الله يجحدون (

(

الأنعام : (٣٣) قد نعلم إنه . . . . .

قد في) قد نعلم (بمعنى (ربما) الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته ، كقوله : أخو ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

والهاء في) إنه (ضمير الشأن) ليحزنك (قرىء بفتح الياء وضمها . و) الذى يقولون (هو قولهم : ساحر كذاب) لا يكذبونك (قرىء بالتشديد والتخفيف من كذبه إذا جعله كاذبا في زعمه وأكذبه إذا

---

(١) تفسير الكشاف . ١١/٢

وجده كاذبا . والمعنى أن تكذيبك أمر راجع إلى الله ، لأنك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك في الحقيقة وإنما يكذبون الله بجحود آياته ،." [١]

"" صفحة رقم ٤٣ "

الحبر السمين ، قد سمنت من مالك الذي يطعمك اليهود . فضحك القوم ، فغضب ، ثم التفت إلى عمر فقال : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال له قومه : ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك ؟ قال : إنه إغضبني ، فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف . وقيل : القائلون قريش وقد ألزموا إنزال التوراة لأنهم كانوا يسمعون من اليهود بالمدينة ذكر موسى والتوراة ، وكانوا يقولون لو أنا أنزل علينا الكتاب ، لكنا أهدى منهم) وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا ءاباؤكم (الخطاب لليهود ، أي علمتم على لسان محمد (صلى الله عليه وسلم) مما أوحى إليه ما لم تعلموا أنتم ، وأنتم حملة التوراة ، ولم تعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم) إن هاذا القرءان يقص على بنى إسراءيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ((النمل : ٧٦) وقيل الخطاب لمن آمن من قريش ، كقوله تعالى : لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم .) قل الله (أي أنزله الله ، فإنهم لا يقدرون أن يناكروك) ثم ذرهم فى خوضهم (في باطلهم الذي يخوضون فيه ، ولا عليك بعد إلزام الحجة . ويقال لمن كان في عمل لا يجدي عليه : إنما أنت لاعب . و) يلعبون (حال من ذرهم ، أو من خوضهم ، ويجوز أن يكون) فى خوضهم (حالا من يلعبون ، وأن يكون صلة لهم أو لذرهم .

) وهاذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالا خرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون (

)

الأنعام : (٩٢) وهذا كتاب أنزلناه . . . . .

مبارك (كثير المنافع والفوائد) ولتنذر (معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب ، كأنه قيل : أو أنزلناه للبركات ، وتصديق ما تقدمه من الكتب والإنذار . وقرىء : (ولينذر) بالياء والتاء . وسميت مكة) أم القرى (لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم . لأنها أعظم القرى شأنا لبعض المجاورين : فمن يلقى في القريات رحله

فأم القرى ملقى رحالي ومنتابي

) والذين يؤمنون بالاخرة (يصدقون بالعاقبة ويخافونها) يؤمنون (بهذا الكتاب . وذلك أن أصل الدين

---

(١) تفسير الكشاف . ٢/١٨

خوف العاقبة ، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن . وخص الصلاة لأنها عماد الدين . ومن حافظ عليها كانت لطفا في المحافظة على أخواتها .

) ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثل مآ أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن ءاياته تستكبرون (٧)

الأنعام : (٩٣) ومن أظلم ممن . . . ." [١]

"" صفحة رقم ١٧٥ "

) قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شآء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون (٧)

الأعراف : (١٨٨) قل لا أملك . . . . .

) قل لا أملك لنفسى (هو إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب : أي أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضركما المماليك والعبيد) إلا ما شاء (ربي ومالكي من النفع لي والدفع عني) ولو كنت أعلم الغيب (لكانت حالي على خلاف ما هي عليه ، من استكثار الخير ، واستغزار المنافع ، واجتناب السوء والمضار ، حتى لا يمسني شيء منها . ولم أكن غالبا مرة ومغلوبا أخرى في الحروب . ورابحا وخاسرا في التجارات ، ومصيبا مخطئا في التدابير) إن أنا إلا (عبد أرسلت نذيرا وبشيرا ، وما من شأني أني أعلم الغيب) لقوم يؤمنون (يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعا ، لأن ال نذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم . أو يتعلق بالتبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفا أي إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون .

) هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلمآ أثقلت دعوا الله ربهما لئن ءاتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلمآ ءاتاهما صالحا جعلا له شركآء فيمآ ءاتاهما فتعالى الله عما يشركون (٧)

الأعراف : (١٨٩ - ١٩٠) هو الذي خلقكم . . . . .

) من نفس واحدة (وهي نفس آدم عليه السلام) وجعل منها زوجها (وهي حواء ، خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه . أو من جنسها كقوله :) جعل لكم من أنفسكم أزواجا ((النمل : ٧٢)) ليسكن

---

(١) تفسير الكشاف . ٤٣/٢

إليها (ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر ؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس ، وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه . وقال :) ليسكن (فذكر بعد ما أنث في قوله : (واحدة) (منها زوجها) ، ذهابا إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم . ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها ، فكان التذكير أحسن طباقا للمعنى . والتغشي : كناية عن الجماع ، وكذلك الغشيان والإتيان) حملت حملا خفيفا (خف عليها ، ولم تلق منه ما يلقي بعض الحبالي من حملهن من الكرب والأذى ، ولم تستثقله كما يستثقلنه . وقد تسمع." [1]

"" صفحة رقم ٣٨٣ "

الحق والعدل في ملكه ، لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتصم به) فإن تولوا (فإن تتولوا . فإن قلت : الإبلاغ كان قبل التولي ، فكيف وقع جزاء للشرط قلت : معناه فإن تتولوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ ، وكنتم محجوجين بأن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول) ويستخلف (كلام مستأنف ، يريد : ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم) ولا تضرونه (بتوليكم) شيئا (من ضرر قط ، لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع ، وإنما تضرون أنفسكم . وفي قراءة عبد الله) ويستخلف (بالجزم وكذلك : ولا تضروه ، عطفا على محل) فقد أبلغتكم (والمعنى : إن تتولوا يعذرني ويستخلف قوما غيركم ولا تضروا إلا أنفسكم) على كل شيء حفيظ (أي رقيب عليه مهيمن ، فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم . أو من كان رقيبا على الأشياء كلها حافظا لها وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضار ، لم يضر مثله مثلكم .

) ولما جآء أمرنا نجينا هودا والذين ءامنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ (

هود : (٥٨) ولما جاء أمرنا . . . . .

) والذين ءامنوا معه (قيل : كانوا أربعة آلاف . فإن قلت : ما معنى تكرير التنجية ؟ قلت : ذكر أولا أنه حين أهلك عدوهم نجاهم ثم قال :) ونجيناهم من عذاب غليظ (على معنى : وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ ، وذلك أن الله عز وجل بعث عليهم السموم فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أدبارهم فتقطعهم عضوا عضوا . وقيل : أراد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ، ولا عذاب أغلظ منه وأشد . وقوله : برحمة منا ، يريد : بسبب الإيمان الذي أنعمنا عليهم بالتوفيق له .

) وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هاذه الدنيا لعنة ويوم

---

(١) تفسير الكشاف . ٢/١٧٥

القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود (

هود : (٥٩ - ٦٠) وتلك عاد جحدوا . . . . .

) وتلك عاد (إشارة إلى قبورهم وآثارهم ، كأنه قال : سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا ، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال :) جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله (لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله ،) لا نفرق بين أحد من رسله ((البقرة : ٢٨٥) قيل لم يرسل إليهم إلا هود وحده) كل جبار عنيد (يريد رؤساءهم وكبراءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل . ومعنى اتباع أمرهم : طاعتهم . ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبهم على وجوههم في عذاب الله . و) ألا (وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم ، تهويل لأمرهم وتفظيع له ، وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم . فإن قلت :) بعدا (دعاء بالهلاك ، فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم ؟ قلت : معناه الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له : ألا ترى إلى قوله :." [1]

"" صفحة رقم ٤٩٣ "

ابتغآء حلية أو متاع زبد مثله كذالك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفآء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الا رض كذالك يضرب الله الا مثال (

الرعد : (١٧) أنزل من السماء . . . . .

هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلا لهما ، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع ، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفي به ، وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهرا ، يثبت الماء في منافعه . وتبقى آثاره في العيون والبئار والجبوب ، والثمار التي تنبت به مما يدخر ويكنز ، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة . وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة ، بزبد السيل الذي يرمي به ، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب . فإن قلت : لم نكرت الأودية ؟ قلت : لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع ، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض . فإن قلت : فما معنى قوله :) بقدرها (؟ قلت : بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار . ألا ترى إلى قوله :) وأما ما ينفع الناس (لأنه ضرب المطر مثلا للحق ، فوجب أن يكون مطرا خالصا للنفع خاليا من المضرة

---

(١) تفسير الكشاف. ٣٨٣/٢

، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف . فإن قلت : فما فائدة قوله :) ابتغاء حلية أو متاع (؟ قلت : الفائدة فيه كالفائدة في قوله :) بقدرها (لأنه جمع الماء والفلز في النفع في قوله :) وأما ما ينفع الناس (لأن المعنى : وأما ما ينفعهم من الماء والفلز فذكر وجه الانتفاع بما يوقد عليه منه ويذاب ، وهو الحلية والمتاع . وقوله :) ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع (عبارة جامعة لأنواع الفلز ، مع إظهار الكبرياء في ذكره على وجه التهاون به كما هو هجيرى الملوك ، نحو ما جاء في ذكر الآجر) غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين ((القصص : ٣٨) و (من) لابتداء الغاية . أي : ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء . أو للتبعيض بمعنى وبعضه زبدا رابيا منتفخا مرتفعا على وجه السيل ، أي يرمي به . وجفأت القدر بزبدها ، وأجفأ السيل وأجفل . وفي قراءة رؤبة ابن العجاج : جفالا وعن أبي حاتم : لا يقرأ بقراءة رؤبة ، لأنه كان يأكل الفأر . وقرىء : (يوقدون) ، بالياء : أي يوقد الناس .

) للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الا رض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولائك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد (٧)

الرعد : (١٨) للذين استجابوا لربهم . . . . . ." [١]

"" صفحة رقم ٥٩ "

) وما تلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مأرب أخرى (

طه : (١٧ - ١٨) وما تلك بيمينك . . . . .

) وما تلك بيمينك ياموسى موسى (كقوله تعالى :) وهاذا بعلى شيخا ((هود : ٧٢) في انتصاب الحال بمعنى الإشارة : ويجوز أن تكون) تلك (اسما موصولا صلته) بيمينك (إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عز وعلا في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه ، وينبهه على قدرته الباهرة . ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد ويقول لك : ما هي ؟ فتقول : زبرة حديد ، ثم يريك بعد أيام لبوسا مسردا فيقول لك : هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة وأنيق السرد . قرأ ابن أبي إسحاق (عصي) على لغة هذيل . ومثله) الرياح بشرى ((يوسف : ١٩) أرادوا كسر ما قبل ياء المتكلم فلم يقدروا عليه ، فقبلوا الألف إلى أخت الكسرة وقرأ الحسن (عصاي) بكسر الياء لالتقاء الساكنين ، وهو مثل قراءة حمزة) بمصرخى ((إبراهيم : ٢٢) وعن ابن أبي إسحاق : سكون الياء) قال هى (أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة .

---

(١) تفسير الكشاف. ٤٩٣/٢

هش الورق : خبطه أي : أخبطه على رؤس غنمي تأكله . وعن لقمان ابن عاد : أكلت حقا وابن لبون وجذع ، وهشة نخب وسيلا دفع ، والحمد لله من غير شبع ، سمعته من غير واحد من العرب . ونخب : واد قريب من الطائف كثير السدر . وفي قراءة النخعي : أهش ، وكلاهما من هش الخبز يهش : إذا كان ينكسر لهشاشته . وعن عكرمة : أهس بالسين ، أي : أنحى عليها زاجرا لها . والهس : زجر الغنم . ذكر على التفصيل والإجمال **المنافع** المتعلقة بالعصا ، كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال : ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها وكما تنفع العيدان . ليكون جوابه مطابقا للغرض الذي فهمه من فحوى كلام ربه ، ويجوز أن يريد عز وجل أن يعدد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ، ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة ، كأنه يقول له : أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كنت تعتد بها وتحتفل بشأنها ؟ وقالوا : إنما سأله ليبسط منه ويقلل هيبته . وقالوا : إنما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه ، وقالوا : انقطع لسانه بالهيبة فأجمل ، وقالوا : اسم العصا نبعة . وقيل في المآرب : كانت ذات شعبتين." [1]

"" صفحة رقم ١٠٧ "

نوازل الخطوب ، ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم ، ويستضيئون بآرائكم أو يسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمطرون سحائب أكفكم ، ويمترون أخلاف معروفكم وأياديكم : إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء . أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم ، وتوبيخا إلى توبيخ) تلك (إشارة إلى يا ويلنا ، لأنها دعوى ، كأنه قيل : فما زالت تلك الدعوى) دعواهم (والدعوى بمعنى الدعوة . قال تعالى :) دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ((يونس : ١٠) . فإن قلت : لم سميت دعوى ؟ قلت : لأن المولول كأنه يدعو الويل ، فيقول تعالى : يا ويل فهذا وقتك . و) تلك (مرفوع أو منصوب اسما أو خبرا وكذلك دعواهم . الحصيد : الزرع المحصود . أي : جعلناهم مثل الحصيد ، شبههم به في استئصالهم واصطلامهم كما تقول : جعلناهم رمادا ، أي مثل الرماد . والضمير المنصوب هو الذي كان مبتدأ والمنصوبان بعده كانا خبرين له ، فلما دخل عليها جعل نصبها جميعا على المفعولية . فإن قلت كيف ينصب (جعل) ثلاثة مفاعيل ؟ قلت : حكم الاثنين الآخرين حكم الواحد ؛ لأن معنى قولك (جعلته حلوا حامضا) جعلته جامعا للطعمين . وكذلك معنى ذلك : جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود .

---

(١) تفسير الكشاف . ٥٩/٣

) وما خلقنا السمآء والا رض وما بينهما لاعبين لو أردنآ أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنآ إن كنا فاعلين (
الأنبياء : (١٦) وما خلقنا السماء . . . . .

أي : وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، كما تسوي الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم ، للهو واللعب ، وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعد والمرافق التي لا تحصى . ثم بين أن السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي : هو أن الحكمة صارفة عنه ، وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلا لأني على كل شيء قدير . وقوله :) لاتخذناه من لدنا (، كقوله :) رزقا من لدنا ((القصص : ٥٧) أي من جهة قدرتنا وقيل : اللهو الولد بلغة اليمن . وقيل المرأة . وقيل من لدنا ، أي من الملائكة لا من الإنس ، ردا لولادة المسيح وعزير .." [١]

"" صفحة رقم ١١٦ "

لعزة موحشا طلل قديم ؛

فإن قلت : ما الفرق بينهما من جهة المعنى ؟ قلت : أحدهما الإعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة . والثاني : بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة ، فهو بيان لما أبهم ثمة ، محفوظا حفظه بالإمساك بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل ، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة) عن ءاياتها (أي عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات ، ومسايرها وطلوعها وغروبها ؛ على الحساب القويم والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة ، وأي جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها ؛ والاعتبار بها ، والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ، ودبرها ونصبها هذه النصبة ، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرته ولطف علمه . وقرىء (عن آيتها) على التوحيد ، اكتفاء بالواحدة في الدلالة على الجنس أي : هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية ، كالاستضاءة بقمريها ، والاهتداء بكواكبها ، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها ، وهم عن كونها آية بينة على الخالق) معرضون (.

) وهو الذى خلق اليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون (
الأنبياء : (٣٣) وهو الذي خلق . . . . .

---

(١) تفسير الكشاف . ١٠٧/٣

) كل (التنوين فيه عوض من المضاف إليه ، أي : كلهم) فى فلك يسبحون (والضمير للشمس والقمر ، والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة ، جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها وهو السبب في جمعهما بالشموس والأقمار ، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد ، وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة . فإن قلت : الجملة ما محلها ؟ قلت : محلها النصب على الحال من الشمس والقمر . فإن قلت : كيف استبد بهما دون الليل والنهار بنصب الحال عنهما ؟ قلت : كما تقول : رأيت زيدا وهندا متبرجة ونحو ذلك ؛ إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل . ومنه قوله تعالى في هذه السورة) ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ((الأنبياء : ٧٢) أو لا محل لها." [١]

"" صفحة رقم ١٥٣ "

والعبادة . رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء ، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها يقال لها : الخجوج ، كنست ما حوله ، فبناه على أسه القديم . وأن هي المفسرة . فإن قلت : كيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة ؟ قلت : كانت التبوئة مقصودة من أجل العبادة ، فكأنه قيل : تعبدنا إبراهيم قلنا له :) لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى (من الأصنام والأوثان والأقذار أن تطرح حوله . وقرىء : (يشرك) بالياء على الغيبة .

) وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق (

الحج : (٢٧) وأذن في الناس . . . . .

) وأذن فى الناس (ناد فيهم . وقرأ ابن محيصن : (وأذن) والنداء بالحج : أن يقول : حجوا ، أو عليكم بالحج . وروي أنه صعد أبا قبيس فقال : يا أيها الناس حجوا بيت ربكم . وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع) رجالا (مشاة جمع راجل ، كقائم وقيام . وقرىء : (رجالا) بضم الراء مخفف الجيم ومثقلة ، ورجالي كعجالى عن ابن عباس) وعلى كل ضامر (حال معطوفة على حال ، كأنه قال : رجالا وركبانا) يأتين (صفة لكل ضامر ، لأنه في معنى الجمع . وقرىء : (يأتون) صفة للرجال والركبان . والعميق : البعيد ، وقرأ ابن مسعود : (معيق) . يقال : بئر بعيدة العمق والمعق .

) ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الا نعام فكلوا منها وأطعموا البآئس الفقير (

---

(١) تفسير الكشاف . ١١٦/٣

الحج : (٢٨) ليشهدوا منافع لهم . . . . . .

نكر **المنافع** لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات . وعن أبي حنيفة رحمه الله : أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج ، فلما حج فضل الحج على العبادات كلها ، لما شاهد من تلك الخصائص ، وكنى عن النحر والذبح بذكر اسم الله ، لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا .." (١)

"" صفحة رقم ١٥٨ "

ذهب . وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي فيتصدق بلحومها وبجلالها ، ويعتقد أن طاعة الله في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد أن يقام به ويسارع فيه) فإنها من تقوى القلوب (أي فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب ، فحدفت هذه المضافات ، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها ، لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى) من تقوى القلوب (ليرتبط به ، وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء .) إلى أجل مسمى (إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها . و) ثم محلهآ إلى البيت العتيق (للتراخي في الوقت . فاستعيرت للتراخي في الأحوال . والمعنى : أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم ، وإنما يعتد الله **بالمنافع** الدينية ، قال سبحانه :) تريدون عرض الدنيا والله يريد الاخرة ((الأنفال : ٦٧) وأعظم هذه **المنافع** وأبعدها شوطا في النفع : محلها إلى البيت (أي وجوب نحرها . أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت ، كقوله :) (أي وجوب نحرها . أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت ، كقوله :) هديا بالغ الكعبة (والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت ؛ لأن الحرم هو حريم البيت . ومثل هذا في الاتساع قولك : بلغنا البلد ، وإنما شارفتموه واتصل مسيركم بحدوده . وقيل : المراد بالشعائر : المناسك كلها ، و) محلها إلى البيت العتيق (يأباه .

) ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الا نعام فإلاهكم إلاه واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على مآ أصابهم والمقيمى الصلواة ومما رزقناهم ينفقون (

الحج : (٣٤) ولكل أمة جعلنا . . . . . .

شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له : أي يذبحوا لوجهه على وجه التقرب ، وجعل العلة في ذلك أن يذكر

---

(١) تفسير الكشاف . ١٥٣/٣

اسمه تقدست أسماؤه على النسائك : قرىء) منسكا (بفتح السين وكسرها ، وهو مصدر بمعنى النسك ، والمكسور يكون بمعنى الموضع) فله أسلموا (أي أخلصوا له الذكر خاصة ، واجعلوه لوجهه سالما ، أي : خالصا لا تشوبوه بإشراك .

المخبتون : المتواضعون الخاشعون ، من الخبث وهو المطمئن من الأرض . وقيل : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا . وقرأ الحسن :) الذين إذا (." [1]

"" صفحة رقم ١٩٤ "

وقته . ويجوز أن يراد في جزاء الخيرات كما يفعل بأهل الخير من المسلمين . و) بل لا يشعرون (استدراك لقوله :) أيحسبون (يعني : بل هم أشباه البهائم لا فطنة بهم ولا شعور ، حتى يتأملوا ويتفكروا في ذلك : أهو استدراج ، أم مسارعة في الخير ؟ فإن قلت : أين الراجع من خبر أن لها اسمها إذا لم يستكن فيه ضميره ؟ قلت : هو محذوف تقديره : نسارع به ، ويسارع به ، ويسارع الله به ، كقوله :) إن ذلك من عزم الامور ((الشورى : ٤٣) أي إن ذلك منه ، وذلك لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس .

) إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بأايات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون مآ ءاتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولائك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون (المؤمنون : (٥٧) إن الذين هم . . . . .

) يؤتون ما ءاتوا (يعطون ما أعطوا ، وفي قراءة رسول اللہ (صلى الله عليه وسلم) وعائشة :

(٧٢١) (يأتون ما أتوا) ، أي يفعلون ما فعلوا . وعنها أنها قالت :

(٧٢٢) قلت يا رسول الله ، هو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو على ذلك يخاف الله ؟ قال : (لا يا ابنة الصديق ، ولكن هو الذي يصلي ويصوم ويتصدق ، وهو على ذلك يخاف الله ؟ قال : لا يا ابنة الصديق ، ولكن هو الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله أن لا يقبل منه .) يسارعون فى الخيرات (يحتمل معنيين ، أحدهما : أن يراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها . والثاني : أنهم يتعجلون في الدنيا المنافع ووجوه الإكرام ، كما قال :) فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الاخرة ((آل عمران :." [2]

---

(١) تفسير الكشاف . ١٥٨/٣

(٢) تفسير الكشاف . ١٩٤/٣

"" صفحة رقم ٢٠١ "

كون إلى كون ، كما قيل : استحال ، إذا انتقل من حال إلى حال . ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه ، كما جاء : بمنتزاح . فإن قلت : هلا قيل : وما تضرعوا . أو : فما يستكينون ؟ قلت : لأن المعنى : محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة . وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد . وقرىء : (فتحنا) .

) وهو الذى أنشأ لكم السمع والا بصار والا فئدة قليلا ما تشكرون وهو الذى ذرأكم فى الا رض وإليه تحشرون وهو الذى يحاى ويميت وله اختلاف اليل والنهار أفلا تعقلون (

المؤمنون : (٧٨) وهو الذي أنشأ . . . . . .

إنما خص السمع والأبصار والأفئدة ، لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها . ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله ، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم . ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها ، كما قال الله تعالى :) فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ((الأحقاف : ٢٦) إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها ، وأن لا يجعل له ند ولا شريك ، أي : تشكرون شكرا قليلا ، و) ما تشكرون (مزيدة للتأكيد بمعنى حقا) ذرأكم (خلقكم وبثكم بالتناسل) وإليه (تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم) وله اختلاف اليل والنهار (أي هو مختص به وهو متوليه ، ولا يقدر على تصريفهما غيره . وقرىء : (يعقلون) بالياء عن أبي عمرو .

) بل قالوا مثل ما قال الا ولون قالوا أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمبعوثون." [١]

"" صفحة رقم ٢٤٦ "

ظهوره وبيانه ، كقوله تعالى :) الله ولي الذين ءامنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ((البقرة : ٢٥٧) : أي من الباطل إلى الحق . وأضاف النور إلى السماوات والأرض لأحد معنيين : إما للدلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى تضيء له السماوات والأرض . وإما أن يراد أهل السماوات والأرض وأنهم يستضيئون به) مثل نوره (أي صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة) كمشكاة (كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة) فيها مصباح (سراج ضخم ثاقب) فى زجاجة (أراد قنديلا من زجاج شامي أزهر . شبهه في زهرته بأحد الدراري من الكواكب وهي المشاهير ، كالمشتري والزهرة والمريخ وسهيل ونحوها

---

(١) تفسير الكشاف . ٢٠١/٣

) توقد (هذا المصباح) الارض من شجرة (أي ابتدأ ثقوبه من شجرة الزيتون ، يعني : زويت ذبالته بزيتها) مباركة (كثيرة المنافع . أو : لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين . وقيل : بارك فيها سبعون نبيا ، منهم إبراهيم عليه السلام . وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) :

(٧٦١) (عليكم بهذه الشجرة زيت الزيتون فتداووا به ، فإنه مصحة من الباسور)) لا شرقية ولا غربية (أي منبتها الشام . وأجود الزيتون : زيتون الشام . وقيل : لا غب مضحى ولا مقنأة . ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها . قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

(٧٦٢) (لا خير في شجرة في مقنأة ، ولا نبات في مقنأة ، ولا خير فيهما في مضحى) . وقيل : ليست مما تطلع عليه الشمس وفي وقت شروقها أو غروبها فقط ، بل تصيبها بالغداة والعشي جميعا ، فهي شرقية وغربية ، ثم وصف الزيت بالصفاء والوبيص." [١]

"" صفحة رقم ٢٨٧ "

للوعيد أن يلحقهم فلا يغرنهم التأخير . وقوله :) من أضل سبيلا (كالجواب عن قولهم) إن كاد ليضلنا (لأنه نسبة لرسول الله إلى الضلال من حيث لا يضل غيره إلا من هو ضال في نفسه . ويروي أنه من قول جهل لعنه الله .

) أرءيت من اتخذ إلاهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا (

الفرقان : (٤٣) أرأيت من اتخذ . . . . .

من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتي ويذر لا يتبصر دليلا ولا يصغي إلى برهان . فهو عابد هواه وجاعله آلهة ، فيقول لرسوله هذا الذي لا يرى معبودا إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفتتوكل عليه وتجبره على الإسلام وتقول لا بد أن تسلم شئت أو أبيت ولا إكراه في الدين ؟ وهذا كقوله :) وما أنت عليهم بجبار ((ق : ٤٥) ،) لست عليهم ((الغاشية : ٢٢) ويروى أن الرجل منهم كن يعبد الحجر ، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر . ومنهم الحرث بن قيس ا لسهمي .

) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالا نعام بل هم أضل سبيلا (

الفرقان : (٤٤) أم تحسب أن . . . . .

أم هذه منقطعة ، معناه : بل أتحسب كأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول ، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنا ولا إلى تدبره عقلا ،

---

(١) تفسير الكشاف . ٣/٢٤٦

ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال ، ثم أرجح ضلالة منها . فإن قلت : لم أخر هواه والأصل قولك : اتخذ الهوى إلاها ؟ قلت : ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية ، كما تقول : علمت منطلقا زيدا ؛ لفضل عنايتك بالمنطلق . فإن قلت : ما معنى ذكر الأكثر ؟ قلت : كان فيهم من لم يصده عن الإسلام إلا داء واحد : وهو حب الرياسة ، وكفى به داء عضالا . فإن قلت : كيف جعلوا أضل من الإنعام ؟ قلت : لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها (وتهتدي لمراعيها ومشاربها) . وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني." (١)

"" صفحة رقم ٢٨٨ "

والعذب الروي .

) ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شآء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا (

الفرقان : (٤٥) ألم تر إلى . . . . .

) سبيلا ألم تر إلى ربك (ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ، ومعنى مد الظل : أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس) ولو شاء لجعله ساكنا (أي لاصقا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة . غير منبسط فلم ينتفع به أحد : سمي انبساط الظل وامتداده تحركا منه وعدم ذلك سكونا ، ومعنى كون الشمس دليلا : أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل ، من كونه ثابتا في مكان زائلا ، ومتسعا ومتقلصا ، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك . وقبضه إليه : أنه ينسخه بضح الشمس) يسيرا (أي على مهل . وفي هذا القبض اليسير شيئا بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصر ، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا . فإن قلت : ثم في هذين الموضعين كيف موقعها ؟ قلت : موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة : كان الثاني أعظم من الأول ، والثالث أعظم منهما ، تشبيها لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت . ووجه آخر : وهو أنه مد الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ، ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض فينانا

---

(١) تفسير الكشاف. ٢٨٧/٣

ما في أديمه جوب لعدم النير ، ولو شاء لجعله ساكنا مستقرا على تلك الحالة ، ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل ، أي : سلطها عليه ونصبها دليلا متبوعا له كما يتبع الدليل في الطريق ، فهو يزيد بها وينقص ، ويمتد ويتقلص ، ثم نسخه بها فقبضه قبضا سهلا يسيرا غير عسير . ويحتمل أن يريد : قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تلقى الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه ، كما ذكر إنشاءه بإنشاء إسبابه ، وقوله : قبضناه إلينا : يدل عليه ، وكذلك قوله يسيرا ، كما قال :) ذلك حشر علينا يسير ((ق : ٤٤) .

) وهو الذى جعل لكم اليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا (

الفرقان : (٤٧) وهو الذي جعل . . . . .

شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر . والسبات : الموت . والمسبوت :." [1]

"" صفحة رقم ٣٠٧ "

أي : من كونه مرضيا في شجاعته وبأسه . والنبات الكريم : المرضي فيما يتعلق به من **المنافع**) إن فى (إنبات تلك الأصناف) لآية (على أن منبتها قادر على إحياء الموتى ، وقد علم الله أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم ، غير مرجو إيمانهم) وإن ربك لهو العزيز (في انتقامه من الكفرة) الرحيم (لمن تاب وآمن وعمل صالحا . فإن قلت : ما معنى الجمع بين كم وكل ، ولو قيل كم أنبتنا فيها من زوج كريم ؟ قلت : قد دل) كل (على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ، و) كم (على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة ، فهذا معنى الجمع بينهما ، وبه نبه على كمال قدرته . فإن قلت : فما معنى وصف الزوج بالكريم ؟ قلت : يحتمل معنيين ، أحدهما : أن النبات على نوعين : نافع وضار ، فذكر كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع ، وخلى ذكر الضار . والثاني : أن يعم جميع النبات نافعه وضاره . ويصفهما جميعا بالكرم وينبه على أنه ما أنبت شيئا إلا وفيه فائدة ، لأن الحكيم لا يفعل فعلا إلا لغرض صحيح ولحكمة بالغة ، وإن غفل عنها الغافلون ، ولم يتوصل إلى معرفتها العاقلون . فإن قلت : فحين ذكر الأزواج ودل عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة ، وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيب ، كيف قال :) إن فى ذلك لآية (وهلا قال : آيات ؟ قلت : فيه وجهان : أن يكون ذلك مشارا به إلى مصدر أنبتنا ، فكأنه قال : إن في الإنبات لآية أي آية . وأن يراد : أن في كل واحدة من تلك الأزواج لآية . وقد سبقت لهذا الوجه نظائر .

---

(١) تفسير الكشاف . ٢٨٨/٣

) وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون (

الشعراء : (١٠) وإذ نادى ربك . . . . .

سجل عليهم بالظلم بأن قدم الظالمين ، ثم عطفهم عليهم عطف البيان ، كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد : إن شاء ذاكرهم ع بر عنهم بالقوم الظالمين ، وإن شاء عبر بقوم فرعون . وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين : من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر وشرارتهم ، ومن جهة ظلمهم لبني إسرائيل." (١)

"" صفحة رقم ٣٦٣ "

أعجبته خضرتها ، فنزل ليتغدى ويصلي فلم يجدوا الماء ، وكان الهدهد قناقنه ، وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاجة فيجيء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الإهاب ويستخرجون الماء ، فتفقده لذلك ، وحين نزل سليمان حلق الهدهد فرأى هدهدا واقعا ، فانحط إليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء ، وذكر له صاحبه ملك بلقيس ، وأن تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر ، وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب : علي به ، فارتفعت فنظرت ، فإذا هو مقبل فقصدته . فناشدها الله وقال : بحق الله الذي قواك وأقدرك علي إلا رحمتيني ، فتركته وقالت : ثكلتك أمك ، إن نبي الله قد حلف ليعذبنك ؛ قال : وما ا ستثنى ؟ قالت : بلى قال : أوليأتيني بعذر مبين ، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعا له ، فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه ، فقال : يا نبي الله ؛ اذكر وقوفك بين يدي الله ؛ فارتعد سليمان وعفا عنه ؛ ثم سأله . تعذيبه : أن يؤدب بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه . وقيل : كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه . وقيل : أن يطلي بالقطران ويشمس . وقيل : أن يلقي للنمل تأكله . وقيل : إيداعه القفص . وقيل : التفريق بينه وبين إلفه . وقيل : لألزمنه صحبة الأضداد . وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد . وقيل : لألزمنه خدمة أقرانه . فإن قلت : من أين حل له تعذيب الهدهد ؟ قلت : يجوز أن يبيح له الله ذلك . لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة ؛ كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع ؛ وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة : جاز أن يباح له ما يستصلح به . وقرىء : (ليأتينني) و (ليأتينن) والسلطان :

---

(١) تفسير الكشاف . ٣/٣٠٧

الحجة والعذر . فإن قلت : قد حلف على أحد ثلاثة أشياء : فحلفه على فعليه لا مقال فيه ، ولكن كيف صح حلفه على فعل الهدهد ؟ ومن أين درى أنه يأتي بسلطان ، حتى يقول والله ليأتيني بسلطان ؟ قلت : لما نظم الثلاثة (بأو) في الحكم الذي هو الحلف : آل كلامه إلى قولك : ليكونن أحد الأمور ، يعني : إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح ، وإن لم يكن كان أحدهما ، وليس في هذا ادعاء دراية ، على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحي من الله بأنه سيأتيه بسلطان مبين ، فثلث بقوله :) أو." (١)

"" صفحة رقم ٣٨٠ "

عدد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله ، كما عددها في موضع آخر ثم قال : هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء . وقرىء : (يشركون) بالياء والتاء . وعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

(٧٩٩) أنه كان إذا قرأها يقول : (بل الله خير وأبقى وأجل أكرم) .

) أمن خلق السماوات والا رض وأنزل لكم من السمآء مآء فأنبتنا به حدآئق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإلاه مع الله بل هم قوم يعدلون (

النمل : (٦٠) أم من خلق . . . . . .

فإن قلت : ما الفرق بين أم وأم في) أم ما تشركون (و) أمن خلق (؟ قلت : تلك متصلة ؛ لأن المعنى : أيهما خير . وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة ، لما قال تعالى : آلله خير أم الآلهة ؟ قال : بل أمن خلق السموات والأرض خير ؟ تقريرا لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء . وقرأ الأعمش : أمن ، بالتخفيف . ووجهه أن يجعل بدلا من الله ، كأنه قال : أمن خلق السموات والأرض خير أم ما تشركون ؟ فإن قلت : أي نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله فأنبتنا ؟ قلت : تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته ، والإيذان بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد . لا يقدر عليه إلا هو وحده . ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله :) ما كان لكم أن تنبتوا شجرها (ومعنى الكينونة : الانبغاء . أراد أن تأتي ذلك محال من غيره ، وكذلك قوله :) بل هم (بعد الخطاب : أبلغ في تخطئة رأيهم . والحديقة : البستان عليه حائط : من الإحداق وهو الإحاطة . وقيل (ذات) ؛ لأن المعنى : جماعة حدائق ذات بهجة ، كما يقال :

---

(١) تفسير الكشاف . ٣/٣٦٣

النساء ذهبت . والبهجة : الحسن ، لأن الناظر يبتهج به) مع الله بل (أغيره يقرن به ويجعل شريكا له . وقرىء : (أإلها مع الله) ، بمعنى : أتدعون ، أو أتشركون . ولك أن تحقق الهمزتين وتوسط بينهما مدة ، وتخرج الثانية بين بين) يعدلون (به غيره أو يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد .." [1]

"" صفحة رقم ٤٣٣ "

) قل أرأيتم إن جعل الله عليكم اليل سرمدا إلى يوم القيامة من إلاه غير الله يأتيكم بضيآء أفلا تسمعون قل أرءيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إلاه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم اليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (

القصص : (٧١) قل أرأيتم إن . . . . . .

) أرءيتم (وقرىء : (أريتم) : بحذف الهمزة ، وليس بحذف قياسي . ومعناه : أخبروني من يقدر على هذا ؟ والسرمد : الدائم المتصل ، من السرد وهو المتابعة . ومنه قولهم في الأشهر الحرم : ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، والميم مزيدة . ووزنه فعمل . ونظيره . دلامص ، من الدلاص . فإن قلت : هلا قيل : بنهار تتصرفون فيه ، كما قيل :) بليل تسكنون فيه (؟ قلت ذكر الضياء وهو ضوء الشمس : لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ، ليس التصرف في المعاش وحده ، و الظلام ليس بتلك المنزلة ، ومن ثمة قرن بالضياء) أفلا تسمعون (لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل) أفلا تبصرون (لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره . وأنت من السكون ونحوه) ومن رحمته (زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة : لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم .

) ويوم يناديهم فيقول أين شركآئي الذين كنتم تزعمون (

القصص : (٧٤) ويوم يناديهم فيقول . . . . .

وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء : إيذان بأن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به ، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده . اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك ، فأدخلنا في الناجين من وعيدك .

) ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون (

القصص : (٧٥) ونزعنا من كل . . . . .

---

(١) تفسير الكشاف . ٣/٣٨٠

) ونزعنا (وأخرجنا) من كل أمة شهيدا (وهو نبيهم : لأن أنبياء الأمم شهداء عليهم ، يشهدون بما كانوا عليه) فقلنا (للأمة) هاتوا برهانكم (فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول) فعلموا (حينئذ) أن الحق لله (ولرسوله ، لا لهم ولشياطينهم) وضل." [1]

"" صفحة رقم ٤٨٨ "

هل من شركائكم ، وقوله :) من ذالكم (هو الذي ربط الجملة بالمبتدأ ، لأن معناه : من أفعاله ومن الأولى والثانية والثالثة : كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد ، لتعجيز شركائهم ، وتجهيل عبدتهم .

) ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون (

الروم : (٤١) ظهر الفساد في . . . . .

) الفساد فى البر والبحر (نحو : الجدب ، والقحط ، وقلة الريع في الزراعات والربح في التجارات ، ووقوع الموتان في الناس والدواب ، وكثر الحرق والغرق ، وإخفاق الصيادين والغاصة ، ومحق البركات من كل شيء ، وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار . وعن ابن عباس : أجدبت الأرض وانقطعت مادة البحر . وقالوا : إذا انقطع القطر عميت دواب البحر . وعن الحسن أن المراد بالبحر : مدن البحر وقراه التي على شاطئه . وعن عكرمة : العرب تسمي الأمصار البحار . وقرىء : (في البر والبحور)) بما كسبت أيدى الناس (بسبب معاصيهم وذنوبهم ، كقوله تعالى :) وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ((الشورى : ٣٠) وعن ابن عباس) ظهر الفساد فى البر (بقتل ابن آدم أخاه . وفي البحر بأن جلندي كان يأخذ كل سفينة غصبا ، وعن قتادة : كان ذلك قبل البعث ، فلما بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رجع راجعون عن الضلال والظلم . ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصي بكسب الناس ذلك . فإن قلت : ما معنى قوله :) ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون (؟ قلت أما على التفسير الأول فظاهر ، وهو أن الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها ، ليذيقهم وبال بعضهم أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة ، لعلهم يرجعون عما هم عليه ، وأما على الثاني فاللام مجاز ، على معنى أن ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع ، فكأنهم إنما أفسدو ا وتسببوا لفشو المعاصي في الأرض لأجل ذلك . وقرىء : (لنذيقهم) بالنون .

) قل سيروا فى الا رض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين (

الروم : (٤٢) قل سيروا في . . . . .

---

(١) تفسير الكشاف ـ ٣/٤٣٣

ثم أكد تسبب المعاصي لغضب الله ونكاله : حيث أمرهم بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء العاقبة لمعاصيهم ، ودل بقوله :) كان أكثرهم مشركين (على أن الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم ، وأن ما دونه من المعاصي يكون." [1]

"" صفحة رقم ٥٠٦ "

نفع ؛ لأنه غني غير محتاج إلى المنافع ، فلم يبق إلا أن يكون لغرض يرجع إلى الحيوان وهو نفعه . فإن قلت : فما معنى الظاهرة والباطنة ؟ قلت : الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة ، والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل ، أو لا يعلم أصلا ، فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدي إلى العلم بها ، وقد أكثروا في ذلك : فعن مجاهد : الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء ، والباطنة : الأمداد من الملائكة . وعن الحسن رضي الله عنه : الظاهرة : الإسلام . والباطنة الستر . وعن الضحاك : الظاهرة : حسن الصورة ، وامتداد القامة . وتسوية الأعضاء . والباطنة : المعرفة . وقيل : الظاهرة البصر ، والسمع ، واللسان ، وسائر الجوارح الظاهرة . والباطنة : القلب ، والعقل ، والفهم ، وما أشبه ذلك . ويروى في دعاء موسى عليه السلام : إلهي ، دلني على أخفى نعمتك على عبادك ؛ فقال : أخفى نعمتي عليهم النفس . ويروى : أن أيسر ما يعذب به أهل النار : الأخذ بالأنفاس .

) وإذا قيل لهم اتبعوا مآ أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه ءابآءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير (

لقمان : (٢١) وإذا قيل لهم . . . . .

معناه) أ (يتبعونهم) ولو كان الشيطان يدعوهم (أي في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب .

) ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الا مور (

لقمان : (٢٢) ومن يسلم وجهه . . . . .

قرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (ومن يسلم) بالتشديد ، يقال : أسلم أمرك وسلم أمرك إلى الله . فإن قلت : ماله عدي بإلى ، وقد عدي باللام في قوله :) بلى من أسلم وجهه لله ((البقرة : ١١٢) ؟ قلت : معناه مع اللام : أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما لله ، أي خالصا له . ومعناه مع إلى : أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه . والمراد : التوكل عليه والتفويض إليه) فقد استمسك بالعروة الوثقى (من باب التمثيل : مثلت حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق ،

---

(١) تفسير الكشاف . ٤٨٨/٣

فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه) وإلى الله عاقبة الامور (أي هي صائرة إليه .

) ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور." (١)

"" صفحة رقم ١٨٦ "

ولم يقل ، لتأكلوا منها ، ولتصلوا إلى منافع ؟ أو هلا قال : منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون عليها حاجة في صدوركم ؟ قلت : في الركوب : الركوب في الحج والغزو ، وفي بلوغ الحاجة : الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم ، وهذه أغراض دينية إما واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق به إرادة الحكيم . وأما الأكل وإصابة **المنافع** : فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به إرادته ، ومعنى قوله :) وعليها وعلى الفلك تحملون (وعلى الأنعام وحدها لا تحملون ، ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر . فإن قلت : هلا قيل : وفي الفلك ، كما قال :) قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين (؟ (هود : ٤٠) قلت : معنى الإيعاء ومعنى الاستعلاء : كلاهما مستقيم ؛ لأن الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة له يستعليها ، فلما صح المعنيان صحت العبارتان . وأيضا فليطابق قوله : (وعليها) ويزاوجه) ويريكم ءاياته فأى (جاءت على اللغة المستفيضة . وقولك : فأية آيات الله قليل ، لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب . وهي في (أي) أغرب لإبهامه .

) أفلم يسيروا فى الا رض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وءاثارا فى الا رض فمآ أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جآءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون (

غافر : (٨٢) أفلم يسيروا في . . . . .

) وءاثارا (قصورهم ومصانعهم . وقيل : مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم) فما أغنى عنهم (ما نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ، ومحلها النصب ، والثانية : موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع ، يعني أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم) فرحوا بما عندهم من العلم (فيه وجوه : منها أنه أراد العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى :) بل ادرك علمهم فى الاخرة ((النمل : ٦٦) : وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون : لا." (٢)

---

(١) تفسير الكشاف. ٣/٥٠٦

(٢) تفسير الكشاف. ٤/١٨٦

"" صفحة رقم ١٩٢ "

الحرب ، وجوهدوا . وفيه بعث المؤمنين على أداء الزكاة ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين ، وقرن بالكفر بالآخرة . وقيل : كانت قريش يطعمون الحاج ، ويحرمون من آمن منهم برسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وقيل : لا يفعلون ما يكونون به أزكياء ، وهو الإيمان .

) إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (

فصلت : (٨) إن الذين آمنوا . . . . .

الممنون : المقطوع . وقيل : لا يمن عليهم لأنه إنما يمن التفضل . فأما الأجر فحق أداؤه . وقيل : نزلت في المرضى والزمنى والهرمى : إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر ، كأصح ما كانوا يعملون .

) قل أءنكم لتكفرون بالذى خلق الا رض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيهآ أقواتها فى أربعة أيام سوآء للسآئلين ثم استوى إلى السمآء وهى دخان فقال له ا وللا رض ائتيا طوعا أو كرها قالتآ أتينا طآئعين فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سمآء أمرها وزينا السمآء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم (

فصلت : (٩) قل أئنكم لتكفرون . . . . .

) أئنكم (بهمزتين : الثانية بين بين . و (ءائنكم) بألف وبين همزتين) ذلك (الذي قدر على خلق الأرض في مدة يومين . وهو) رب العالمين (. . . (جبالا ثوابت . فإن قلت : ما معنى قوله :) (جبالا ثوابت . فإن قلت : ما معنى قوله :) من فوقها (وهل اختصر على قوله :) وجعل فيها رواسى (كقوله تعالى :) وجعلنا فيها رواسى شامخات ((المرسلات : ٢٧) ،) وجعلنا فى الارض رواسى ((الأنبياء : ٣١) ،) وجعل لها رواسى ((النمل : ٦١) ؟ قلت : لو كانت تحتها كالأساطين لها تستقر عليها ، أو مركوزة فيها كالمسامير : لمنعت من الميدان أيضا ، وإنما اختار إرساءها فوق الأرض ، لتكون **المنافع** في الجبال معرضة لطالبيها ، حاضرة لمحصليها ، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال ، كلها مفتقرة إلى ممسك لا بد لها منه ، وهو ممسكها عز وعلا بقدرته) وبارك فيها (وأكثر خيرها وأنماه) وقدر فيها." (١)

"" صفحة رقم ٢٥٢ "

المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي ، وكان الوليد يقول : لو كان حقا ما يقول محمد لنزل هذا القرآن علي أو

---

(١) تفسير الكشاف. ١٩٢/٤

على أبي مسعود الثقفي ، وأبو مسعود : كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث الله بشرا رسولا ، فلما علموا بتكرير الله الحجج أن الرسل لم يكونوا إلا رجالا من أهل القرى ، جاؤوا بالإنكار من وجه آخر ، وهو تحكمهم أن يكون أحد هذين ، وقولهم : هذا القرآن ذكر له على وجه الاستهانة به ، وأرادوا بعظم الرجل : رياسته وتقدمه في الدنيا ، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيما .

) أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحيواة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون (

الزخرف : (٣٢) أهم يقسمون رحمة . . . . .

) أهم يقسمون رحمة ربك (هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم وتحكمهم ، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها ، والمتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته ، ثم ضرب لهم مثلا فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في دنياهم ، وأن الله عز وعلا هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودبر أحوالهم تدبير العالم بها ، فلم يسق بينهم ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش ، وغاير بين منازلهم فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج وموالي وخدما ، ليصرف بعضهم بعضا في حوائجهم ويستخدمون في مهنهم ويتسخرون في أشغالهم ، حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم ؛ ولو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم ، لضاعوا وهلكوا . وإذا كانوا في تدبير المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة ، فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى ورأفته العظمى ؟ وهو الطريق إلى حيازة حظوظ الآخرة وبالسلم إلى حلول دار السلام ؟ ثم قال :) ورحمة ربك (يريد : وهذه الرحمة وهي دين الله وما يتبعه من الفوز في المآب : خير ما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا . فإن قلت : معيشتهم ما يعيشون به من المنافع ، ومنهم من يعيش بالحلال ، ومنهم من يعيش بالحرام ؛ فإذن قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال . قلت : الله تعالى قسم لكل عبد معيشته وهي مطاعمه ومشاربه وما يصلحه من المنافع وأذن له في تناولها ، ولكن شرط عليه وكلفه أن يسلك في تناولها الطريق التي." [1]

"" صفحة رقم ٢٥٣ "

شرعها ؛ فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالا ، وسماها رزق الله ؛ وإذا لم يسلكها تناولها حراما ، وليس له أن يسميها رزق الله ؛ فالله تعالى قاسم المعايش والمنافع ، ولكن العباد هم الذين

---

(١) تفسير الكشاف . ٢٥٢/٤

يكسبونها صفة الحرمة بسوء تناولهم ، وهو عدولهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعهم .
) ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحيواة الدنيا والا خرة عند ربك للمتقين (
الزخرف : (٣٣) ولولا أن يكون . . . . .
) لبيوتهم (بدل اشتمال من قوله :) لمن يكفر (ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك : وهبت له ثوبا لقميصه . وقرىء (سقفا) بفتح السين وسكون القاف . وبضمها وسكون القاف وبضمها : جمع سقف ، كرهن ورهن ورهن . وعن الفراء : جمع سقيفة وسقفا بفتحتين ، كأنه لغة في سقف وسقوفا ، ومعارج ومعاريج . والمعارج : جمع معرج ، أو اسم جمع لمعراج : وهي المصاعد إلى العلالي) عليها يظهرون (أي على المعارج ، يظهرون السطوح يعلونها ، فما استطاعوا أن يظهروه . وسررا ، بفتح الراء لاستثقال الضمتين مع حرفي التضعيف) لما متاع الحيواة (اللام هي الفارقة بين إن المحففة والنافية . وقرىء بكسر اللام ، أي : للذي هو متاع الحياة ، كقوله تعالى :) مثلا ما بعوضة ((البقرة : ٢٦) ولما بالتشديد بمعنى إلا ، وإن نافية . وقرىء (إلا) وقرىء : وما كل ذلك إلا . لما قال :) خير مما يجمعون ((الزخرف : ٣٢) فقلل أمر الدنيا وصغرها : أردفه ما يقرر قلة الدنيا عنده من قوله :) ولولا أن يكون الناس أمة واحدة (أي : ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه ، لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا عندنا للكفار سقوفا ومصاعد." (١)

"" صفحة رقم ٣٨٥ "

) والا رض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب (
ق : (٧ – ٨) والأرض مددناها وألقينا . . . . .
) مددناها (دحوناها) رواسى (جبالا ثوابت لولا هي لتكفأت) من كل زوج (من كل صنف) بهيج (يبتهج به لحسنه) تبصرة وذكرى (لتبصر به وتذكر كل) عبد منيب (راجع إلى ربه ، مفكر في بدائع خلقه . وقرىء : (تبصرة وذكرى) بالرفع ، أي : خلقها تبصرة .
) ونزلنا من السمآء مآء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذالك الخروج (

(١) تفسير الكشاف. ٤/٢٥٣

ق : (٩ – ١١) ونزلنا من السماء . . . . .

) ماء مباركا (كثير المنافع) وحب الحصيد (وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد ، وهو ما يقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرهما) باسقات (طوالا في السماء : وفي قراءة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : باصقات ، بإبدال السين صادا لأجل القاف) نضيد (منضود بعضه فوق بعض : إما أن يراد كثرة الطلع وتراكمه ؛ أو كثرة ما فيه من الثمر) رزقا (على أنبتناها رزقا ، لأن الإنبات في معنى الرزق . أو على أنه مفعول له ، أي : أنبتناها لنرزقهم) كذالك الخروج (كما حييت هذه البلدة الميتة ، كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم ، والكاف في محل الرفع على الابتداء .

) كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الا يكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد (

ق : (١٢) كذبت قبلهم قوم . . . . .

أراد بفرعون قومه كقوله تعالى :) من فرعون وملئهم ((يونس : ٨٣) لأن المعطوف عليه قوم نوح ، والمعطوفات جماعات) كل (يجوز أن يراد به كل واحد منهم ، وأن يراد جميعهم ، إلا أنه وحد الضمير الراجع إليه على اللفظ دون المعنى) فحق وعيد (فوجب وحل وعيدي ، وهو كلمة العذاب . وفيه تسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وتهديد لهم .

) أفعيينا بالخلق الا ول بل هم فى لبس من خلق جديد (

ق : (١٥) أفعيينا بالخلق الأول . . . . .

عيي بالأمر : إذا لم يهتد لوجه عمله ، والهمزة للإنكار . والمعنى : أنا لم نعجز كما علموا عن الخلق الأول ، حتى نعجز عن الثاني ، ثم قال : هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول ، واعترافهم بذلك في طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة) بل هم فى لبس (أي في خلط وشبهة . قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم . ومنه قول علي رضي الله عنه :." [1]

"" صفحة رقم ٤٦٧ "

للاستقبال ، وفعل القسم يجب أن يكون للحال) بمواقع النجوم (بمساقطها ومغاربها ، لعل لله تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالا مخصوصة عظيمة ، أو للملائكة عبادات موصوفة ، أو لأنه وقت قيام المتهجدين والمبتلهين إليه من عباده الصالحين ، ونزول الرحمة والرضوان عليهم ؛ فلذلك

---

(١) تفسير الكشاف . ٣٨٥/٤

أقسم بمواقعها ، واستعظم ذلك بقوله) وإنه لقسم لو تعلمون عظيم (أو أراد بمواقعها : منازلها ومسايرها ، وله تعالى في ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف . وقوله :) وإنه لقسم لو تعلمون عظيم (اعتراض في اعتراض ؛ لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم عليه ، وهو قوله :) إنه لقرءان كريم (واعترض ب) لو تعلمون (بين الموصوف وصفته . وقيل : مواقع النجوم : أوقات وقوع نجوم القرآن ، أي : أوقات نزولها كريم حسن مرضي في جنسه من الكتب . أو نفاع جم **المنافع** . أو كريم على الله) فى كتاب مكنون (مصون من غير المقربين من الملائكة ، لا يطلع عليه من سواهم ، وهم المطهرون من جميع الأدناس أدناس الذنوب وما سواها : إن جعلت الجملة صفة لكتاب مكنون وهو اللوح . وإن جعلتها صفة للقرآن ؛ فالمعنى لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس ، يعني مس المكتوب منه ، ومن الناس من حمله على القراءة أيضا ، وعن ابن عمر أحب إلي أن لا يقرأ إلا وهو طاهر ، وعن ابن عباس في رواية أنه كان يبيح القراءة للجنب ، ونحوه قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

(١١٢٨) (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) أي لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه . وقرىء : (المتطهرون) والمطهرون بالإدغام . والمطهرون ، من أطهره بمعنى طهره . والمطهرون بمعنى : يطهرون أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والوحي الذي ينزلونه) تنزيل (صفة رابعة للقرآن ، أي : منزل من رب العالمين . أو وصف بالمصدر ؛." [١]

"" صفحة رقم ٥٨٩ "

(سورة ن)

مكية ، وهي إثنان وخمسون آية (نزلت بعد العلق)

بسم الله الرحمن الرحيم

) ن والقلم وما يسطرون (

القلم : (١) ن والقلم وما . . . . .

قرىء : (ن والقلم) بالبيان والإدغام ، وبسكون النون وفتحها وكسرها ، كما في ص . والمراد هذا الحرف من حروف المعجم : وأما قولهم : هو الدواة فما أدري أهو وضع لغوي أم شرعي ؟ ولا يخلو إذا كان اسما للدواة من أن يكون جنسا أو علما ، فإن كان جنسا فأين الإعراب والتنوين ، وإن كان علما فأين الإعراب ، وأيهما كان فلا بد له من موقف في تأليف الكلام . فإن قلت : هو مقسم به وجب إن كان جنسا أن

---

(١) تفسير الكشاف. ٤/٤٦٧

تجره وتنونه ، ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة ، كأنه قيل : ودواة والقلم ، وإن كان علما أن تصرفه وتجره ، أو لا تصرفه وتفتحه للعلمية والتأنيث ، وكذلك التفسير بالحوت : إما أن يراد نون من النينان ، أو يجعل علما للبهموت الذي يزعمون ، والتفسير باللوح من نور أو ذهب ، والنهر في الجنة نحو ذلك ، وأقسم بالقلم : تعظيما له ، لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ، ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف) وما يسطرون (وما يكتب من كتب وقيل ما يستره الحفظة وما موصولة أو مصدرية ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه فيكون الضمير في) يسطرون (لهم كأنه قيل : وأصحاب القلم ومسطوراتهم . أو سطورهم ، ويراد بهم كل ما يسطر ، أو الحفظة .

) مآ أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لاجرا غير ممنون (

القلم : (٢) ما أنت بنعمة . . . . .

فإن قلت : بم يتعلق الباء في) بنعمة ربك (وما محله ؟ قلت : يتعلق بمجنون منفيا ، كما يتعلق بعاقل مثبتا في قولك : أنت بنعمة الله عاقل ، مستويا في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك : ضرب زيد عمرا ، وما ضرب زيد عمرا : تعمل الفعل مثبتا ومنفيا." (١)

"" صفحة رقم ٦١٩ "

) لتغفر لهم (ليتوبوا عن كفرهم فتغفر لهم ، فذكر المسبب الذي هو حظهم خالصا ليكون أقبح لإعراضهم عنه . سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة) واستغشوا ثيابهم (وتغطوا بها ، كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم ، أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله . وقيل لئلا يعرفهم ؛ ويعضده قوله تعالى :) ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم ((هود : ٥) ، الإصرار : من أصر الحمار على العانة إذا صر أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها : استعير للإقبال على المعاصي والإكباب عليها) واستكبروا (وأخذتهم العزة من اتباع نوح وطاعته ، وذكر المصدر تأكيد ودلالة على فرط استقبالهم وعتوهم . فإن قلت : ذكر أنه دعاهم ليلا ونهارا ، ثم دعاهم جهارا ، ثم دعاهم في السر والعلن ؛ فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف . قلت : قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر : في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد ، فافتتح بالمناصحة في السر ، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان . ومعنى) ثم (الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ؛ والجمع بين الأمرين ، أغلظ من إفراد أحدهما

---

(١) تفسير الكشاف . ٤/٥٨٩

. و) جهارا (منصوب بدعوتهم ، نصب المصدر لأن الدعاء أحد نوعيه الجهار ، فنصب به نصب القرفصاء بقعد ، لكونها أحد أنواع القعود . أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم . ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا ، بمعنى دعاء جهارا ، أي : مجاهرا به . أو مصدرا في موضع الحال ، أي : مجاهرا . أمرهم بالاستغفار الذي هو التوبة عن الكفر والمعاصي ، وقدم إليهم الموعد بما هو أوقع في نفوسهم وأحب إليهم من **المنافع** الحاضرة والفوائد العاجلة ، ترغيبا في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين ، كما قال :) وأخرى تحبونها نصر من الله ((الصف : ١٣) ،) ولو أن أهل القرىءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات ((الأعراف : ٩٦) ،) ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ((المائدة : ٦٦) ،) وإن لوطا استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ((الجن : ١٦) ، وقيل : لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة : حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة . وروى : سبعين فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله تعالى الخصب ودفع عنهم ما كانوا فيه . وعن عمر رضي الله عنه : أنه خرج يستسقي ، فما زاد على الاستغفار ، فقيل له : ما رأيناك." (١)

"" صفحة رقم ٧٨٢ "

علم الكتابة لما فيه من **المنافع** العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ؛ ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ؛ ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره ودليل إلا أمر القلم والخط ، لكفى به . ولبعضهم في صفة القلم : ورواقم رقش كمثل أراقم

قطف الخطا نيالة أقصى المدى

سود القوائم ما يجد مسيرها

إلا إذا لعبت بها بيض المدى

وقرأ ابن الزبير : (علم الخط بالقلم) .

)كلا إن الإنسان ليطغى أن رءاه استغنى إن إلى ربك الرجعى أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى أرءيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أرءيت إن كذب وتولى." (٢)

---

(١) تفسير الكشاف . ٦١٩/٤

(٢) تفسير الكشاف . ٧٨٢/٤

"إيجاز البيان عن معاني القرآن ، ج ٢ ، ص : ٤٨٧

٦٧ سكرا : شرابا مسكرا «١» ، ورزقا حسنا : فاكهة.

وقيل «٢» : السكر ما شربت ، والرزق الحسن ما أكلت.

٦٨ وأوحى ربك إلى النحل : ألهمها «٣» ، أي : جعله في طباعها حتى صارت سبله لها مذللة سهلة ، فتراها تبكر إلى الأعمال وتقسمها بينها كما يأمرها اليعسوب «٤» فبعض يعمل الشمع ، وبعض العسل ، وبعض يبني البيوت ، وبعض يستقي الماء ويصبه في الثقب.

يخرج من بطونها شراب : سماه شرابا إذ يجيء منه الشراب وإن كانت تجيء بالعسل بأفواهها فهو يخرج من جهة أجوافها وبطونها ويكون باطنا في فيها ولأن الاستحالة لا يكون إلا في البطن فالنحل تخرج العسل من البطن إلى الفم كالريق ، وخوطب بهذا الكلام أهل تهامة وضواحي كنانة

---

(١) فيكون هذا القول محمولا على قبل تحريم الخمر ، وقد ذكر هذا القول الفراء في معانيه : ٢/ ١٠٩ ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : ٢٤٥ ، وأخرجه الطبري في تفسيره : (١٤/ ١٣٤ - ١٣٦) عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومجاهد.

قال الفخر الرازي في تفسيره : ٢٠/ ٧٠ «فإن قيل : الخمر محرمة فكيف ذكرها في معرض الإنعام؟ أجابوا عنه من وجهين :

الأول : أن هذه السورة مكية ، وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة ، فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت فيه غير محرمة.

الثاني : أنه لا حاجة إلى التزام هذا النسخ ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من **المنافع** وخاطب المشركين بها ، والخمر من أشربتهم فهي منفعة في حقهم ، ثم إنه تعالى نبه في هذه الآية أيضا على تحريمها ، وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر ، فوجب أن يكون السكر رزقا حسنا ، ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة ، فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسنا بحسب الشريعة ، وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة» اه.

(٢) نقله المؤلف - رحمه الله - في كتابه وضح البرهان : ١/ ٥٠٨ عن الحسن رحمه الله تعالى ، ونقله البغوي في تفسيره : ٣/ ٧٥ عن الشعبي.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء : ٢/ ١٠٩ ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : ٢٤٥ ، وتفسير الطبري :

١٤/ ١٣٩ ، ومعاني الزجاج : ٣/ ٣١٠ ، والمحرر الوجيز : ٨/ ٤٦٠.

(٤) اليعسوب : فحل النحل.

النهاية : ٣/ ٢٣٤ ، واللسان : ١/ ٥٩٩ (عسب).." [1]

"إيجاز البيان عن معاني القرآن ، ج ٢ ، ص : ٥٠٩

و لا يزيد الظالمين إلا خسارا : لكفرهم به وحرمان أنفسهم المنافع التي فيه.

٨٣ ونأى بجانبه : بعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم ، كقوله «١» :

فتولى بركنه.

كان يؤسا : لا يثق بفضل الله «٢».

٨٤ شاكلته : عادته أو طريقته التي تشاكل أخلاقه «٣».

طريق ذو شواكل : متشعب منه الطرق «٤».

٨٥ قل الروح من أمر ربي : من خلق ربي ، لأنهم سألوه عنه :

أ قديم «٥»؟ ، وإن كان معناه : من علم ربي ، فإنما لم يجبهم عنه لأن طريق معرفته العقل لا السمع ، فلا يجري القول فيه على سمت النبوة كما هو في كتب الفلاسفة ، ولئلا يصير الجواب طريقا إلى سؤالهم عما لا يعنيهم ، وليراجعوا عقولهم في معرفة مثله لما فيه من الرياضة على استخراج الفائدة.

وقيل في حد الروح : إنه جسم رقيق هوائي على بنية حيوانية في كل

---

(١) سورة الذاريات : آية : ٣٩.

(٢) قال القرطبي في تفسيره : ١٠/ ٣٢١ : «أي إذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقنط ، لأنه لا يثق بفضل الله تعالى».

(٣) في «ج» أخلاطه.

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج : ٣/ ٢٥٧ ، والكشاف : ٢/ ٤٦٤ ، واللسان : ١١/ ٣٥٧ (شكل).

(٥) وفي سبب نزول هذه الآية أخرج الإمامان البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : بينا أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرث وهو متكئ على عسيب إذ مر عليه اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقال : ما رابكم إليه؟ وقال بعضهم : لا يستقبلكم بشيء تكرهونه ، فقالوا :

---

(١) إيجازالبيان عن معاني القرآن، ٢/٤٨٧

سلوه ، فسألوه عن الروح ، فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا. فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامي ، فلما نزل الوحي قال : ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.

راجع صحيح البخاري : ٥/ ٢٢٨ ، كتاب التفسير ، باب «و يسألونك عن الروح».

وصحيح مسلم : ٤/ ٢١٥٢ ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب «سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح» ، وأسباب النزول للواحدي : ٣٣٧.." [1]

"إيجاز البيان عن معاني القرآن ، ج ٢ ، ص : ٧٣٣

١١ ليس كمثله شيء : لا مثل له ولا ما يقاربه في المماثلة ، تقول : هو كزيد إذا أردت التشبيه المقارب «١» ، وإذا أردت أبعد منه قلت : هو كأنه زيد ، والكاف أبلغ في نفي التشبيه «٢» ، أي : لو قدر له مثل في الوهم لم يكن لذلك المثل شبيه فكيف يكون لمن لا مثل له شبيه وشريك «٣»؟.

يذرؤكم فيه : يخلقكم «٤» ، أو يكثركم «٥» ، أي : على هذا الخلق المشتمل عليكم وعلى أنعامكم.

١٢ له مقاليد السماوات : مفاتيحها بالمطر ، والأرض بالثمار والنبات «٦».

١٥ لا حجة بيننا وبينكم : لا حجاج بعد الذي أوضحناه من البينات ، وتصديتم لها بالعناد.

وأمرت لأعدل بينكم : أي : في التبليغ والإعلام «٧».

١٦ من بعد ما استجيب له : لظهور حجته بالمعجزات «٨».

١٩ لطيف بعباده : في إيصال **المنافع** وصرف الآفات من وجه يلطف إدراكه.

---

(١) في «ج» : المتقارب.

(٢) كذا في «ك» ووضح البرهان للمؤلف ، وعزا هذا القول هناك إلى القاضي كثير بن سهل ، ولعل العبارة نفي الشبيه ، وقد يكون المراد نفي التشبيه ، لأن نفيه أبلغ من نفي المشابهة.

(٣) راجع ما سبق في تفسير الفخر الرازي : (٢٧/ ١٥٢ ، ١٥٣).

(٤) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن : ٢/ ١٩٩ ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : ٣٩١ ، ومكي في تفسير المشكل : ٣٠٧. [.....]

(٥) اختاره الزجاج في معانيه : ٤/ ٣٩٥ ، والفخر الرازي في تفسيره : ٢٧/ ١٤٩ ، وعزاه ابن الجوزي في

---

(١) إيجازالبيان عن معاني القرآن، ٢/٥٠٩

زاد المسير : ٧/ ٢٧٦ إلى الفراء ، والزجاج.

(٦) نقل البغوي هذا القول في تفسيره : ٤/ ١٢٢ عن الكلبي.

وذكره الفخر الرازي في تفسيره : ٢٧/ ١٥٤ ، والقرطبي في تفسيره : ١٥/ ٢٧٤.

(٧) ينظر تفسير الماوردي : ٣/ ٥١٦ ، والمحرر الوجيز : ٤/ ٢١١ ، وتفسير القرطبي : ١٦/ ١٣.

(٨) ذكره الماوردي في تفسيره : ٣/ ٥١٧.." [١]

"إيجاز البيان عن معاني القرآن ، ج ٢ ، ص : ٨٩٢

الكثيرة «١».

[قالت] «٢» عائشة رضي الله عنها : رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان» «٣».

[سورة قريش]

١ لإيلاف قريش : ليؤلف قريشا وإنما أمكنتهم الرحلتان لعز البيت «٤».

[سورة الماعون]

١ يكذب بالدين : بالجزاء.

٢ يدع اليتيم : يدفعه عن حقه «٥».

٧ الماعون : الزكاة «٦». فاعول من «المعن» الشي ء

---

(١) ينظر تفسير القرطبي : ٢٠/ ١٩٨ ، واللسان : ١١/ ٤ (أبل).

(٢) ما بين معقوفين عن «ك» و«ج».

(٣) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة لابن هشام : ١/ ٥٧ ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد :

٣/ ٢٨٨ وقال : رواه البزار ورجاله ثقات ، وأورده - أيضا - السيوطي الدر المنثور :

٨/ ٦٣٣ ، وزاد نسبته إلى الواقدي ، وابن مردويه ، وأبي نعيم ، والبيهقي عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٤) ينظر هذا المعنى في تفسير الطبري : ٣٠/ ٣٠٦ ، وتفسير الماوردي : ٤/ ٥٢٣ ، وتفسير البغوي :

٤/ ٥٢٩ ، وتفسير القرطبي : ٢٠/ ٢٠١.

(٥) معاني القرآن للفراء : ٣/ ٢٩٤ ، وتفسير الطبري : ٣٠/ ٣١٠ ، ومعاني القرآن للزجاج :

٥/ ٣٦٧. [.....]

---

(١) إيجازالبيان عن معاني القرآن، ٢/٧٣٣

(٦) روى هذا القول عن جماعة من الصحابة والتابعين كما في تفسير القرطبي : (٣٠/ ٣١٤ – ٣١٦) ، وتفسير الماوردي : ٤/ ٥٣٠ ، وتفسير البغوي : ٤/ ٥٣٢ ، وتفسير ابن كثير :
٨/ ٥١٦ ، والدر المنثور : (٨/ ٦٤٤ ، ٦٤٥).

وقيل : المراد ب «الماعون» : الطاعة ، وقيل : المعروف ، وقيل : المال ... وغير ذلك وعقب الطبري – رحمه الله – على الأقوال التي وردت فيه بقوله : «و أولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب ... أن يقال : إن الله وصفهم بأنهم يمنعون ما يتعاورونه بينهم ، ويمنعون أهل الحاجة والمسكنة ما أوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق لأن كل ذلك من **المنافع** التي ينتفع بها الناس بعضهم من بعض».." [١]

"خلق لأجلنا إلا أن خلقه لأجلنا لا يستلزم إباحة استعماله في كل ما يقصد منه بل خلق لنا في الجملة، على أن الامتنان يصدق إذا كان لكل من الناس بعض مما في العالم بمعنى أن الآية ذكرت أن المجموع للمجموع لا كل واحد لكل واحد كما أشار إليه البيضاوي لا سيما وقد خاطب الله بها قوما كافرين منكرا عليهم كفرهم فكيف يعلمون إباحة أو منعا، وإنما محل الموعظة هو ما خلقه الله من الأشياء التي لم يزل الناس ينتفعون بها من وجوه متعددة.

وذهب جماعة إلى أن أصل الأشياء الحظر ونقل عن بعض أهل الحديث وبعض المعتزلة فللمعتزلة الأقوال الثلاثة كما قال القرطبي. قال الحموي في شرح كتاب الأشباه لابن نجيم نقلا عن الإمام الرازي وإنما تظهر ثمرة المسألة في حكم الأشياء أيام الفترة قبل النبوة أي فيما ارتكبه الناس من تناول الشهوات ونحوها ولذلك كان الأصح أن الأمر موقوف وأنه لا وصف للأشياء يترتب من أجله عليه ، الثواب والعقاب.

وعندي أن هذا لا يحتاج العلماء إلى فرضه لأن أهل الفترة لا شرع لهم وليس لأفعالهم أحكام إلا في وجوب التوحيد عند قوم. وأما بعد ورود الشرع فقد أغنى الشرع عن ذلك فإن وجد فعل لم يدل عليه دليل من نص أو قياس أو استدلال صحيح فالصحيح أن أصل المضار التحريم **والمنافع** الحل وهذا الذي اختاره الإمام في المحصول فتصير للمسألة ثمرة باعتبار هذا النوع من الحوادث في الإسلام.

﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾

انتقال من الاستدلال بخلق الأرض وما فيها وهو مما علمه ضروري للناس، إلى الاستدلال بخلق ما هو أعظم من خلق الأرض وهو أيضا قد يغفل عن النظر في الاستدلال به على وجود الله، وذلك خلق السماوات، ويشبه أن يكون هذا الانتقال استطرادا لإكمال تنبيه الناس إلى عظيم القدرة.

---

(١) إيجازالبيان عن معاني ا لقرآن، ٨٩٢/٢

وعطفت "ثم" جملة "استوى" على جملة ﴿خلق لكم﴾ . ولدلالة "ثم" على الترتيب والمهلة في عطف المفرد على المفرد كانت في عطف الجملة على الجملة للمهلة في الرتبة وهي مهلة تخييلية في الأصل تشير إلى أن المعطوف بثم أعرق في المعنى الذي تتضمنه الجملة المعطوف عليها حتى كأن العقل يتمهل في الوصول إليه بعد الكلام الأول فينتبه السامع لذلك كي لا يغفل عنه بما سمع من الكلام السابق، وشاع هذا الاستعمال حتى صار كالحقيقة، ويسمى ذلك بالترتيب الرتبي وبترتيب الإخبار بكسر الهمزة كقوله تعالى." (١)

"القرآن لقصص الأمم وأحوالهم فإن في ذلك مع العبرة تعليما اصطلاحيا. ولقد نعد هذا من معجزات القرآن وهو أنه شرح من أحوال بني إسرائيل ما لا يعلمه إلا أحبارهم وخاصتهم مع حرصهم على كتمانه والاستئثار به خشية المزاحمة في الجاه **والمنافع** فجاء القرآن على لسان أبعد الناس عنهم وعن علمهم صادعا بما لا يعلمه غير خاصتهم فكانت هذه المعجزة للكتابيين قائمة مقام المعجزة البلاغية للأميين. وقد تقدم الإلمام بهذا في المقدمة السابعة. وقد روعيت في هذا الانتقال مسايرة ترتيب كتب التوراة إذا عقبت كتاب التكوين بكتاب الخروج أي وصف أحوال بني إسرائيل في مدة فرعون ثم بعثة موسى وقد اقتصر مما في سفر التكوين على ذكر خلق آدم وإسكانه الأرض لأنه موضع العبرة وانتقل من ذلك إلى أحوال بني إسرائيل لأن فيها عبرا جمة لهم وللأمة.

فقوله: ﴿يا بني إسرائيل﴾ خطاب لذرية يعقوب وفي ذريته انحصر سائر الأمة اليهودية، وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول يا أيها اليهود لكونه هو اسم القبيلة أما اليهود فهو اسم النحلة والديانة ولأن من كان متبعا دين اليهودية من غير بني إسرائيل كحمير لم يعتد بهم لأنهم تبع لبني إسرائيل فلو آمن بنو إسرائيل بالنبي صلى الله عليه وسلم لآمن أتباعهم لأن المقلد تبع لمقلده. ولأن هذا الخطاب للتذكير بنعم أنعم الله بها على أسلافهم وكرامات أكرمهم بها فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب وأعقابه مزيد مناسبة لذلك ألا ترى أنه لما ذكروا بعنوان التدين بدين موسى ذكروا بوصف الذين هادوا في قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا﴾ [البقرة: ٦٢] الآية كما سيأتي قريبا.

وتوجيه الخطاب إلى جميع بني إسرائيل يشمل علماءهم وعامتهم لأن ما خوطبوا به هو من التذكير بنعمة الله على أسلافهم وبعهد الله لهم. وكذلك نجد خطابهم في الأغراض التي يراد منها التسجيل على جميعهم يكون بنحو: ﴿يا أهل الكتاب﴾ [آل عمران: ٦٤] أو بوصف اليهود الذين هادوا أو بوصف النصارى،

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٧٦/١

فأما إذا كان الغرض التسجيل على علمائهم نجد القرآن يعنونهم بوصف ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾ أو ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ [البقرة: ١٢١]. وقد يستغني عن ذلك بكون الخبر المسوق مما يناسب علماءهم خاصة مثل قوله تعالى: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ [البقرة: ٧٥] ونحو ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا﴾ [البقرة: ٤١] ونحو ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ [البقرة:٤٢]

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ [البقرة: ٧٩] الآية ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا." [(١)]

"والمقصود إبطال ما اختلقوه من منع أكل البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، وما حكى الله عنهم في سورة الأنعام من قوله: ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم﴾ [الأنعام:١٣٨] الآيات.

قيل نزلت في تثقيف وبنى عامر بن صعصعة وخزاعة وبنى مدلج حرموا على أنفسهم من الأنعام أي مما ذكر في سورة الأنعام.

ومن في قوله ﴿مما في الأرض﴾ للتبعيض، فالتبعيض راجع إلى كون المأكول بعضا من كل نوع وليس راجعا إلى كون المأكول أنواعا دون أنواع، لأنه يفوت غرض الآية، فما في الأرض عام خصصه الوصف بقوله: ﴿حلالا طيبا﴾ فخرجت المحرمات الثابت تحريمها بالكتاب أو السنة.

وقوله: ﴿حلالا طيبا﴾ حالان من "ما" الموصولة، أولهما لبيان الحكم الشرعي والثاني لبيان علته لأن الطيب من شأنه أن تقصده النفوس للانتفاع به فإذا ثبت الطيب ثبتت الحلية لأن الله رفيق بعباده لم يمنعهم مما فيه نفعهم الخالص أو الراجح.

والمراد بالطيب هنا ما تستطيعه النفوس بالإدراك المستقيم السليم من الشذوذ وهي النفوس التي تشتهي الملائم الكامل أو الراجح بحيث لا يعود تناوله بضر جثماني أو روحاني وسيأتي معنى الطيب لغة عند قوله تعالى: ﴿قل أحل لكم الطيبات﴾ [المائدة:٤] في سورة المائدة.

وفي هذا الوصف معنى عظيم من الإيماء إلى قاعدة الحلال والحرام فلذلك قال علماؤنا: إن حكم الأشياء التي لم ينص الشرع فيها بشيء أن أصل المضار منها التحريم وأصل المنافع الحل، وهذا بالنظر إلى ذات الشيء بقطع النظر عن عوارضه كتعلق حق الغير به الموجب تحريمه، إذ التحريم حينئذ حكم للعارض لا

---

(١) التحرير والتنوير، ٤٣٤/١

للمعروض.

وقد فسر الكيب هنا بما يبيحه الشرع وهو بعيد لأنه يفضي إلى التكرار، ولأنه يقتضي استعمال لفظ في معنى غير متعارف عندهم.

وقوله: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ الضمير للناس لا محالة وهم المشركون المتلبسون بالمنهي عنه دوما، وأما المؤمنون فحظهم منه التحذير والموعظة.

واتباع الخطوات تمثيلية، أصلها أن السائر إذا رأى آثار خطوات السائرين تبع ذلك المسلك علما منه بأنه ما سار فيه السائر قبله إلا لأنه موصل للمطلوب، فشبه المقتدى الذي لا دليل له سوى المقتدى به وهو يظن مسلكه موصلا، بالذي يتبع خطوات السائرين وشاعت هاته." (١)

"الصوم الصحيح من الجوع والعطش المعتادين، بحيث يسبب له أوجاعا أو ضعفا منهكا أو تعاوده به أمراض ساكنة أو يزيد في انحرافه إلى حد المرض أو يخاف تمادي المرض بسببه. وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي على تفاوت بينهم في التعبير، وأعدل العبارات ما نقل من مالك، لأن الله أطلق المرض ولم يقيده، وقد علمنا أنه ما أباح الفطر إلا لأن لذلك المرض تأثيرا في الصائم ويكشف ضابط ذلك قول القرافي في الفرق الرابع عشر، إذ قال: "إن المشاق قسمان: قسم ضعيف لا تنفك عنه تلك العبادة كالوضوء والغسل في زمن البرد وكالصوم، وكالمخاطرة بالنفس في الجهاد، وقسم هو ما تنفك عنه العبادة وهذا أنواع: نوع لا تأثير له في العبادة كوجع إصبع، فإن الصوم لا يزيد وجع الإصبع وهذا الالتفات إليه، ونوع له تأثير شديد مع العبادة كالخوف على النفس والأعضاء **والمنافع** وهذا يوجب سقوط تلك العبادة، ونوع يقرب من هذا فيوجب ما يوجبه١".

وذهب ابن سيرين وعطاء والبخاري إلى أن المرض وهو الوجع والاعتلال يسوغ الفطر ولو لم يكن الصوم مؤثرا فيه شدة أو زيادة، لأن الله تعالى جعل المرض سبب الفطر كما جعل السفر سبب الفطر من غير أن تدعوا إلى ضرورة كما في السفر، يريدون أن العلة هي مظنة المشقة الزائدة غالبا، قيل دخل بعضهم على ابن سيرين في نهار رمضان وهو يأكل فلما فرغ قال: إنه وجعتني إصبعي هذه فأفطرت، وعن البخاري قال: اعتللت بنيسابور علة خفيفة في رمضان فعادني إسحاق بن راهوية في نفر من أصحابه فقال لي: أفطرت يا أبا عبد الله قلت: نعم أخبرنا عبدان عن ابن المبارك عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: من أي المرض أفطر؟ قال: من أي مرض كان كما قال الله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضا﴾ وقيل: إذا لم يقدر المريض على

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/١٠١

الصلاة قائما أفطر، وإنما هذه حالة خاصة تصلح مثالا ولا تكون شرطا، وعزي إلى الحسن والنخمي ولا يخفي ضعفه؛ إذ أين الـقيام في الصلاة من الإفطار في الصيام، وفي هذا الخلاف مجال للنظر في تحديد مدى الانحراف والمرض المسوغين إفطار الصائم، فعلى الفقيه الإحاطة بكل ذلك ونقربه من المشقة الحاصلة للمسافر وللمرأة الحائض.

وقوله: ﴿أو على سفر﴾ أي أو كان بحالة السفر وأصل "على" الدلالة على الاستعلاء ثم استعملت مجازا في التمكن كما تقدم في قوله تعالى: ﴿على هدى من

_

١ الفروق" للقرافي "١١٨/١"، عالم الكتب.." (١)

"إذا سقط وانفصل، وعندي أن إهلاك الحرث والنسل كناية عن اختلال ما به قوام أحوال الناس، وكانوا أهل حرث وماشية فليس المراد خصوص هذين بل المراد ضياع ما به قوام الناس، وهذا جار مجرى المثل، وقيل الحرث والنسل هنا إشارة إلى ما صنع الأخنس بن شريق، وأيا ما كان فالآية دالة على أن من يتسبب في مثل ذلك صريحا و كناية مستحق للعقاب في الآخرة ولذلك عقب بجملة التذييل وهي ﴿والله لا يحب الفساد﴾ تحذيرا وتوبيخا.

ومعنى نفي المحبة نفي الرضا بالفساد، وإلا فالمحبة وهي انفعال النفس وتوجه طبيعي يحصل نحو استحسان ناشئ مستحيلة على الله تعالى فلا يصح نفيها فالمراد لازمها وهو الرضا عندنا وعند المعتزلة: الإرادة والمسألة مبنية على مسألة خلق الأفعال. ولا شك أن التقدير: إذا لم يرض بشيء يعاقب فاعله، إذ لا يعوقه عن ذلك عائق وقد سمى الله ذلك فسادا ون كان الزرع والحرث للمشركين؛ لأن إتلاف خيرات لأرض رزء على الناس كلهم وإنما يكون القتال بإتلاف الأشياء التي هي آلات الإتلاف وأسباب الاعتداء. والفساد ضد الصلاح، ومعنى الفساد: إتلاف ما هو نافع للناس نفعا محضا أو راجحا، فإتلاف الألبان مثلا إتلاف نفع محض، وإتلاف الحطب بعلة الخوف من الاحتراق إتلاف نفع راجح والمراد بالرجحان رجحان استعماله عند الناس لا رجحان كمية النفع على كمية الضر، فإتلاف الأدوية السامة فساد، وإن كان التداوي بها نادرا لكن الإهلاك بها كالمعدوم لما في عقول الناس من الوازع عن الإهلاك بها فيتفادى عن ضرها بالاحتياط في رواجها وبأمانة من تسلم إليه، وأما إتلاف **المنافع** المرجوحة فليس من الفساد كإتلاف الخمور بله إتلاف ما لا نفع فيه بالمرة كإتلاف الحيات والعقارب والفئران والكلاب الكلبة، وإنما كان

(١) التحرير والتنوير، ١٦١/٢

الفساد غير محبوب عند الله: لأن في الفساد بالتفسير الذي ذكرناه تعطيلا لما خلقه الله في هذا العالم لحكمة صلاح الناس فإن الحكيم لا يحب تعطيل ما تقتضيه الحكمة، فقتال العدو إتلاف للضر الراجح ولذلك يقتصر في القتال على ما يحصل به إتلاف الضر بدون زيادة، ومن أجل ذلك نهى عن إحراق الديار في الحرب وعن قطع الأشجار إلا إذا رجح في نظر أمير الجيش أن بقاء شيء مكن ذلك يزيد قوة العدو ويطيل مدة القتال ويخاف منه على جيش المسلمين أن ينقلب إلى هزيمة وذلك يرجع إلى قاعدة: الضرورة تقدر بقدرها.

وقوله: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالأثم﴾ إي وإذا وعظه واعظ بما يقتضي." (١)

"ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وذهب بعض المفسرين إلى أن آية البقرة هذه ثبت بها تحريم الخمر فتكون هذه الآية عندهم نازلة بعد آية سورة النساء ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾، وإذ كانت سورة البقرة قد نزلت قبل سورة النساء وسورة المائدة، فيجئ على قول هؤلاء أن هذه الآية نزلت بعد نزول سورة البقرة وأنها وضعت هنا إلحاقا بالقضايا التي حكى سؤالهم عنها.وأن معنى ﴿فيهما إثم كبير﴾ في تعاطيهما بشرب أحدهما واللعب بالآخر ذنب عظيم، وهذا هو الأظهر من الآية؛ إذ وصف الإثم فيها بوصف كبير فلا تكون آية سورة العقود إلا مؤكدة للتحريم ونصا عليه؛ لأن ما في آيتنا هذه من ذكر **المنافع** ما قد يتأوله المتأولون بالعذر من شربها، وقد روى في بعض الآثار أن ناسا شربوا الخمر بعد نزول هذه الآية فصلى رجلان فجعلا يهجران كلاما لا يدري ما هو، وشربها رجل من المسلمين فجعل ينوح على قتلى بدر من المشركين، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه فزعا ورفع شيئا كان بيده ليضربه فقال الرجل: أعوذ بالله من غضب الله ورسوله وآله: لا أطعمها أبدا، فأنزل الله تحريمها بآية سورة المائدة.

والخمر اسم مشتق من مصدر خمر الشيء خمره من باب نصر إذا ستره، سمي به عصير العنب إذا غلى واشتد وقذف بالزبد فصار مسكرا؛ لأنه يستر العقل عن تصرفه الخلفي تسمية مجازية وهي إما تسمية بالمصدر، أو هو اسم جاء على زنة المصدر: هو اسم لكل مشروب مسكر سواء كان عصير عنب أو عصير غيره أو ماء نبذ فيه زبيب أو تمر أو غيرهما من الأنبذة وترك حتى يختمر ويزيد، واستظهره صاحب "القاموس". والحق أن الخمر كل شراب مسكر، إلا أنه غلب على عصير العنب المسكر؛ لأنهم كانوا يتنافسون فيه، وأن غيره يطلق عليه خمر ونبيذ وفضيخ، وقد وردت أخبار صحيحة تدل على أن معظم شراب

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/٢٥٤

العرب يوم تحريم الخمر من فضيخ التمر، وأن أشربه أهل المدينة يومئذ خمسة غير عصير العنب، وهي من التمر والزبيب والعسل والذرة والشعير وبعضها يسمى الفضيخ، والنقيع، والسكركة، والبتع. وما ورد في بعض الآثار عن ابن عمر: نزل تحريم الخمر وبالمدينة خمسة أشربه ما فيها شراب العنب، معناه ليس معدودا في الخمسة شراب العنب لقلة وجوده وليس المراد أن شراب العنب لا يوجد بالمدينة.وقد كان شراب العنب يجلب إلى الحجاز ونجد من اليمن والطائف والشام قال عمرو ابن كلثوم:

ولا تبقي خمور الأندرين." [1]

"الشرع، فهو ضد القربة فيكون معنى ﴿فيهما إثم كبير﴾ أنهما يتشبب منهما ما هو إثم في حال العربدة وحل الربح والخسارة من التشاجر.

وإطلاق الكبير على الإثم مجاز، لأنه ليس من الأجسام، فالمراد من الكبير: الشديد في نوعه كما تقدم آنفا.

وجيء بفي الدالة على الظرفية لإفادة شدة تعلق الإثم والمنفعة بهما؛ لأن الظرفية أشد أنواع التعلق، وهي هنا ظرفية مجازية شائعة في كلام العرب، وجعلت الظرفية متعلقة بذات الخمر والميسر للمبالغة، والمراد في استعمالهما المعتاد.

واختير التعبير بالإثم للدلالة على أنه يعود على متعاطي شربها بالعقوبة في الدنيا والآخرة.

وقرأ الجمهور ﴿إثم كبير﴾ بموحدة بعد الكاف وقرأه حمزة والكسائي "كثير" بالثاء المثلثة، وهو مجاز استعير وصف الكثير للشديد تشبيها لقوة الكيفية بوفرة العدد.

والمنافع: جمع منفعة، وهي اسم على وزن مفعلة وأصله يحتمل أن يكون مصدرا ميميا قصد منه قوة النفع، لأن المصدر الميمي أبلغ من جهة زيادة المبني. ويحتمل أن يكون اسم مكان دالا على كثرة ما فيه كقولهم مسبعة ومقبرة أي يكثر فيهما النفع من قبيل قولهم مصلحة ومفسدة، فالمنفعة على كل حال أبلغ من النفع.

والإثم الذي في الخمر نشأ عما يترتب على شربها تارة من الإفراط فيه والعربدة من تشاجر يجر إلى البغضاء والصد عن سبيل الله وعن الصلاة، وفيها ذهاب العقل والتعرض للسخرية، وفيها ذهاب المال في شربها، وفي الإنفاق على الندامي حتى كانوا ربما رهنوا ثيابهم عند الخمارين قال عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي:

ولسنا بشرب أم عمرو إذا انتشوا ... ثياب الندامى عندهم كالمغانم

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٢٣/٢

ولكننا يا أم عمرو نديمنا ... بمنزلة الربان ليس بعائم

وقال عنترة:

وإذا سكرت فإنني مستهلك ... مالي، وعرضي وافر لم يكلم

وكانوا يشترون الخمر بأثمان غالية ويعدون المماكسة في ثمنها عيبا، قال لبيد:

أغلي السباء بكل أدكن عاتق ... أو جونة قدحت وفض ختامها." (١)

"ومن آثامها ما قرره الأطباء المتأخرون أنها تورث المدمنين عليها أضرارا في الكبد والرئتين والقلب وضعفا في النسل، وقد انفرد الإسلام عن جميع الشرائع بتحريمها، ولأجل ما فيها من المضار في المروءة حرمها بعض العرب على أنفسهم في الجاهلية، فممن حرمها على نفسه في الجاهلية قيس بن عاصم المنقري بسبب أنه شرب يوما حتى سكر فجذب ابنته وتناول ثوبها، ورأى القمر فتكلم كلاما، فلما أخبر بذلك حين صحا إلى لا يذوق خمرا ما عاش وقال:

رأيت الخمر صالحة وفيها ... خصال تفسد الرجل الحليما

فلا والله أشربها صحيحا ... ولا أشفي بها أبدا سقيما

ولا أعطي بها ثمنا حياتي ... ولا أدعو لها أبدا نديما

فإن الخمر تفضح شاربيها ... وتجنيهم بها الأمر العظيما

وفي "أمالي القالي" نسبة البيتين الأولين لصفوان بن أمية، ومنهم عامر بن الظرب العدواني، ومنهم عفيف بن معد يكرب الكندي عن الأشعث بن قيس، وصفوان بن أمية الكناني، وأسلوم البالي، وسويد بن عدي الطائي، "وأدرك الإسلام" وأسد بن كرز القسري البجلي الذي كان يلقب في الجاهلية برب بجيلة، وعثمان بن عفان، وأبو بكر الصديق، وعباس بن مرداس، وعثمان بن مظعون، وأمية بن أبي الصلت، وعبد الله بن جدعان.

وأما المنافع فمنها منافع بدنية وهي ما تكسبه من قوة بدن الضعيف في بعض الأحوال وما فيها من منافع التجارة فقد كانت تجارة الطائف واليمن من الخمر، وفيها منافع من اللذة والطرب، قال طرفة:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبقي العاذلات بشربة ... كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وذهب بعض علمائنا إلى أن المنافع مالية فقط فرارا من الاعتراف بمنافع بدنية للخمر وهو جحود للموجود

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/٣٢٦

ومن العجيب أن بعضهم زعم أن في الخمر منافع بدنية ولكنها بالتحريم زالت.

وذكر في هذه الآية الميسر عطفا على الخمر ومخبرا عنهما بأخبار متحدة فما قيل في نقتضي هذه الآية تحريم الخمر أو من التنزيه عن شربها يقال مثله في الميسر، وقد بان أن الميسر قرين الخمر في التمكن من نفوس العرب يومئذ وهو أكبر لهو يلهون به، وكثيرا." (١)

"يسر إذا كان الشتاء ومطعم ... للحم غير كبنة علفوف

الكبنة بضمتين المنقبض القليل المعروف والعلفوف كعصفور الجافي.

فالمنافع في الميسر خاصة وعامة وهي دنيوية كلها، والإثم الذي فيه هو ما يوقعه من العداوة والبغضاء ومن إضاعة الوقت والاعتياد بالكسل والبطالة واللهو والصد عن ذكر الله وعن الصلاة وعن التفقه في الدين وعن التجارة ونحوها مما به قوام المدنية وتلك آثام لها آثارها الضارة في الآخرة، ولهذه الاعتبارات ألحق الفقهاء بالميسر كل لعب فيه قمار كالنرد، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم وهاتين الكعبتين فإنهما من ميسر العجم" يريد النرد، وعن على النرد والشطرنج من الميسر، وعلى هذا جمهور الفقهاء ومالك وأبو حنيفة وقال الشافعي، إذا خلا الشطرنج من الرهان واللسان عن الطغيان والصلاة عن النسيان لم يكن حراما وهو خارج عن الميسر لأن الميسر ما يوجب دفع المال وأخذه وهذا ليس كذلك وهو وجيه والمسألة مبسوطة في الفقه.

والناس مراد به العموم لاختلاف المنافع، ولأنه لما وقع الإخبار بواسطة "في" المفيدة الظرفية لم يكن في الكلام ما يقتضي أن كل فرد من أفراد الناس ينتفع بالخمر والميسر، بل الكلام يقتضي أن هاته المنافع موجودة في الخمر والميسر لمن شاء أن ينتفع كقوله تعالى: ﴿فيه شفاء للناس﴾ [النحل:٦٩].وليس المراد بالناس طائفة لعدم صلوحية أل هنا للعهد ولو أريد طائفة لما صح إلا أن يقال ومنافع الشاربين والياسرين كما قال: ﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ [محمد:١٥]

فإن قلت: ما الوجه في ذكر منافع الخمر والميسر مع أن سياق التحريم والتمهيد إليه يقتضي تناسي المنافع، قلت إن كانت الآية نازلة لتحريم الخمر والميسر فالفائدة في ذكر المنافع هي بيان حكمة التشريع ليعتاد المسلمون مراعاة علل الأشياء، لأن الله جعل هذا الدين دينا دائما وأودعه أمة أراد أن يكون منها مشرعون لمختلف ومتجدد الحوادث، فلذلك أشار لعلل الأحكام في غير موضع كقوله تعالى: ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا﴾ [الحجرات:١٢] ونحو ذلك، وتخصيص التنصيص على العلل ببعض الأحكام في

(١) التحرير والتنوير، ٢/٣٢٧

بعض الآيات إنما هو في مواضع خفاء العلل، فإن الخمر قد اشتهر بينهم نفعها، والميسر قد اتخذوه ذريعة لنفع الفقراء فوجب بيان ما فيهما من المفاسد إنباء بحكمة التحريم، وفائدة أخرى وهي تأنيس المكلفين عند فطامهم عن أكبر لذائذهم تذكيرا لهم بأن ربهم لا يريد إلا صلاحهم دون نكايتهم كقوله: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ [البقرة:٢١٦] وقوله:." [(١)]

"وجوه هذه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة:١٤٣].

أو الإشارة راجعة إلى البيان الواقع في قوله تعالى: ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ [البقرة:٢١٩] إلى قوله: ﴿العفو﴾، وقرن اسم الإشارة بعلامة البعد تعظيما لشأن المشار إليه لكماله في البيان، إذ هو بيان للحكم مع بيان علته حتى تتلقاه الأمة بطيب نفس، وحتى يلحقوا به نظائره، وبيان لقاعدة الإنفاق بما لا يشذ عن أحد من المنفقين، ولكون الكاف لم يقصد بها الخطاب بل مجرد البعد الاعتباري للتعظيم لم يؤت بها على مقتضى الظاهر من خطاب الجماعة قلم يقل كذلكم على نحو قوله: ﴿يبين الله لكم﴾.

واللام في ﴿لكم﴾ للتعليل والأجل وهو امتنان وتشريف بهذه الفضيلة لإشعاره بأن البيان على هذا الأسلوب مما اختصت به هاته الأمة ليتلقوا التكاليف على بصيرة بمنزلة الموعظة التي تلقي إلى كامل العقل موضحة بالعواقب، لأن الله أراد لهاته الأمة أن يكون علماؤها مشرعين.وبين فائدة هذا البيان على هذا الأسلوب بقوله: ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ أي ليحصل للأمة تفكر وعلم في أمور الدنيا وأمور الآخرة، لأن التفكر مظروف في الدنيا ﴿والآخرة﴾، فتقدير المضاف لازم بقرينة قوله والآخرة إذ لا معنى لوقوع التفكر يوم القيامة فلو اقتصر على بيان الحظر والوجوب والثواب والعقاب لكان بيانا للتفكر في أمور الآخرة خاصة ولو اقتصر على بيان المنافع والمضار بأن قيل: قل فيهما نفع وضر لكان بيانا للتفكر في أمور الدنيا خاصة، ولكن ذكر المصالح والمفاسد والثواب والعقاب تذكير بمصلحتي الدارين، وفي هذا تنويه بشأن إصلاح أمور الأمة في الدنيا، ووقع في كلام لعلي بن أبي طالب وقد ذم رجل الدنيا عنده قال له الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها ومهبط وحي الله ومصلى ملائكته ومسجد أنبيائه فمن ذا الذي يذمها وقد آذنت بينها ،الخ. ولا يخفى أن الذي يصلح للتفكر هو الحكم المنوط بالعلة وهو حكم الخمر والميسر ثم ما نشأ عنه قوله: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾.

ويجوز أن يكون الإشارة بقوله: ﴿كذلك﴾ لكون الإنفاق من العفو وهو ضعيف، لأن ذلك البيان لا يظهر فيه كمال الامتنان حتى يجعل نموذجا لجليل البيانات الإلهية وحتى يكون محل كمال الامتنان وحتى تكون

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/٣٣٢

غايته التفكر في الدنيا والآخرة، ولا يعجبكم كونه أقرب لاسم الإشارة، لأن التعلق بمثل هاته الأمور اللفظية في نكت الإعجاز إضاعة للألباب وتعلق بالقشور.." [1]

"لجاز نكاحكما، ولكن أفرق بينكما صغرة وقماءة، قال ابن عطية وهذا لا يسند جيدا والأثر الآخر عن عمر أسند منه، وقال الطبري هو مخالف لما أجمعت عليه الأمة، وقد روى عن عمر بن الخطاب من القول بخلاف ذلك ما هو أصح منه وإنما كره عمر لهما تزوجهما حذرا من أن يقتدي بهما الناس فيزهدوا في المسلمات.

و ﴿حتى يؤمن﴾ غاية للنهي فإذا آمن زال النهي، ولذلك إذا أسلم المشرك ولم تسلم زوجته تبين منه إلا إذا أسلمت عقب إسلامه بدون تأخير.

وقوله: ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة﴾ تنبيه على دناءة المشركات وتحذير من تزوجهن ومن الاغترار بما يكون للمشركة من حسب أو جمال أو مال وهذه طرائق الإعجاب في المرأة المبالغ عليه بقوله: ﴿ولو أعجبكم﴾ وأن من لم يستطع تزوج حرة مؤمنة فليتزوج أمة مؤمنة خير له من أن يتزوج حرة مشركة، فالأمة هنا هي المملوكة، والمشركة الحرة بقرينة المقابلة بقوله: ﴿ولأمة مؤمنة﴾ فالكلام وارد مورد التناهي في تفضيل أقل أفراد هذا الصنف على أتم أفراد الصنف الآخر، فإذا كانت الأمة المؤمنة خيرا من كل مشركة فالحرة المؤمنة خير من المشركة بدلالة فحوى الخطاب التي يقتضيها السياق، ولظهور أنه لا معنى لتفضيل الأمة المؤمنة على الأمة المشركة فإنه حاصل بدلالة فحوى الخطاب لا يشك فيه المخاطبون المؤمنون ولقوله: ﴿ولو أعجبتكم﴾ فإن الإعجاب بالحرائر دون الإماء.

والمقصود من التفضيل في قوله "خير" التفضيل في المنافع الحاصلة من المرأتين؛ فإن في تزوج الأمة المؤمنة منافع دينية وفي الحرة المشركة منافع دنيوية ومعاني الدين خير من أعراض الدنيا المنافية للدين فالمقصود منه بيان حكمة التحريم استئناسا للمسلمين.

ووقع في "الكشاف" حمل الأمة على مطلق المرأة، لأن الناس كلهم إماء الله وعبيده وأصله منقول عن القاضي أبي الحسن الجرجاني كما في القرطبي وهذا باطل من جهة المعنى ومن جهة اللفظ، أما المعنى فلأنه يصير تكرارا مع قوله: ﴿ولا تنكحوا المشركات﴾ إذ قد علم الناس أن المشركة دون المؤمنة، وبقيت المقصود من التنبيه على شرف أقل أفراد أحد الصنفين على أشرف أفراد الصنف الآخر. وأما من جهة اللفظ

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/٣٣٥

فلأنه لم يرد في كلام العرب إطلاق الأمة على مطلق المرأة، ولا إطلاق العبد على الرجل إلا مقيدين بالإضافة إلى اسم الجلالة في قولهم: يا عبد الله ويا أمة الله، وكون الناس إماء الله." (١)

"أفلاطون، واشتهر أصحابه بالإشراقيين، ثم أخذ عنه أفضل تلامذته وهو أرسططاليس وهذب طريقته ووسع العلوم، وسميت أتباعه بالمشائين، ولم تزل الحكمة من وقت ظهوره معولة على أصوله إلى يومنا هذا ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾ وهو الذي شاء الله إيتاءه الحكمة والخير الكثير منجر إليه من سداد الرأي والهدي الإلهي، ومن تفاريع قواعد الحكمة التي تعصم من الوقوع في الغلط والضلال بمقدار التوغل في فهمها واستحضار مهمها، لأننا إذا تتبعنا ما يحل بالناس من المصائب نجد معظمها من جراء الجهالة والضلالة وأفن الرأي. وبعكس ذلك نجد ما يجتنيه الناس من **المنافع** والملائمات منجرا من المعارف والعلم بالحقائق، ولو أننا علمنا الحقائق كلها لاجتنبنا كل ما نراه موقعا في البؤس والشقاء.

وقرأ الجمهور ﴿ومن يؤت﴾ بفتح المثناة الفوقية بصيغة المبني للنائب، على أن ضمير يؤت نائب فاعل عائد على من الموصولة وهو رابط الصلة بالموصول. وقرأ يعقوب ومن يؤت الحكمة – بكسر المثناة الفوقية – بصيغة البناء للفاعل. فيكون الضمير الذي في فعل يؤت عائدا إلى الله تعالى، وحينئذ فالعائد ضمير نصب محذوف والتقدير: ومن يؤته الله.

وقوله: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ تذييل للتنبيه على أن من يشاء الله إيتاء الحكمة هو ذو اللب. وأن تذكر الحكمة واستصحاب إرشادها بمقدار استحضار اللب وقوته اللب في الأصل خلاصة الشيء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان لأنه أنفع شيء فيه.

[٢٧٠] ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار﴾

﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه﴾

تذييل للكلام السابق المسوق للأمر بالإنفاق وصفاته المقبولة والتحذير من المثبطات عنه ابتداء من قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ [البقرة:٢٦٧]

والمقصود من هذا التذييل التذكير بأن الله لا يخفى عليه شيء من النفقات وصفاتها، وأدمج النذر مع الإنفاق فكان الكلام جديرا بأن يكون تذييلا.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٤٣/٢

(٢) التحرير والتنوير، ٥٣٤/٢

"على المصيبة، وفي ضمن ذلك تنبيه إلى أن نصر الله قوما في بعض الأيام، وخذله إياهم في بعضها، لا يكون إلا لحكم وأسباب، فعليهم السعي في أسباب الرضا الموجب للنصر، وتجنب أسباب السخط الموجب للخذل كما أشار إليه قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم﴾ [محمد: ٧] وقوله: ﴿فأثابكم غما بغم﴾ [آل عمران: ١٥٣] وقوله الآتي ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها﴾ [آل عمران: ١٦٥] قلتم أنى هذا وعليهم التطلب للأسباب التي قدر لهم النصر لأجلها في مثل يوم بدر، وأضدادها التي كان بها الخذل في يوم أحد، وفي التفكير في ذلك مجال أوسع لمكاشفات الحقائق والعلل والأسباب والحكم **والمنافع** والمضار على قدر سعة التفكير الجائل في ذلك، ففي هذا الخير العظيم إطلاق للأفكار من عقالها، وزج بها في مسارح العبر، ومراكض العظات، والسابقون الجياد، فالخبر مستعمل في لازم معناه وهو الحض على تحصيل ذلك. وعلى هذا الوجه تظهر مناسبة موقع هذا الاستئناف عقب ما تقدمه: لأنه بعد أن خاطبهم بفنون الملام والمعذرة والتسلية من قوله: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ [آل عمران: ١٣٧] إلى هنا، جمع لهم كل ذلك في كلام جامع نافع في تلقي الماضي، وصالح للعمل به في المستقبل، أن يكون الإخبار مبنيا على تنزيل العالم منزلة الجاهل، حيث اظهروا من الحرص على الغنيمة ومن التأول في أمر الرسول لهم في الثبات، ومن التلهف على ما أصابهم من الهزيمة والقتل والجرح، ما جعل حالهم كحال من يجهل أن النصر والخذل بيد الله تعالى. فالخبر مستعمل في معناه على خلاف مقتضى الظاهر.

والنصر: الإعانة على الخلاص من غلب العدو ومريد الإضرار.

والخذلان ضده: وهو إمساك الإعانة مع القدرة، مأخوذة من خذلت الوحشية إذا تخلفت عن القطيع لأجل عجز ولدها عن المشي.

ومعنى ﴿إن ينصركم﴾ ﴿وإن يخذلكم﴾ إن يرد هذا لكم، وإلا لما استقام جواب الشرط الأول وهو ﴿فلا غالب لكم﴾ إذ لا فائدة في ترتيب عدم الغلب على حصول النصر بالفعل، ولا سيما مع نفي الجنس في قوله: ﴿فلا غالب لكم﴾ ، لأنه يصير من الإخبار لامعلوم، كما تقول: إن قمت فأنت لست بقاعد. وأما فعل الشرط الثاني وهو ﴿وإن يخذلكم﴾ فيقدر كذلك حم﴾لا على نظيره، وإن كان يستقيم المعنى بدون تأويل فيه. وهذا من استعمال الفعل في معنى إرادة الفعل كقوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ [المائدة: ٦] الآية.." [1]

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٧٢/٣

"وقد تقرر في عدة آيات كقوله ﴿فآتوهن أجورهن فريضة﴾ [النساء:٢٤] وغير ذلك.

والمهر علامة معروفة للتفرقة بين النكاح وبين المخادنة، لكنهم في الجاهلية كان الزوج يعطي مالا لولي المرأة ويسمونه حلوانا بضم الحاء ولا تأخذ المرأة شيئا، فأبطل الله ذلك في الإسلام بأن جعل المال للمرأة بقوله ﴿وآتوا النساء صدقاتهن﴾.

وقال جماعة: الخطاب للأولياء، ونقل ذلك عن أبي صالح قال: لأن عادة بعض العرب أن يأكل ولي المرأة مهرها فرفه الله ذلك بالإسلام. وعن الحضرمي: خاطبت الآية المتشاغرين الذين كانوا يتزوجون امرأة بأخرى، ولعل هذا أخذ بدلالة الإشارة وليس صريح اللفظ، وكل ذلك مما يحتمله عموم النساء وعموم الصدقات.

والصدقات جمع صدقة بضم الدال والصدقة: مهر المرأة، مشتقة من الصدق لأنها عطية يسبقها الوعد بها فيصدقه المعطي.

والنحلة بكسر النون العطية بلا قصد عوض، ويقال نحل بضم فسكون .

وانتصب نحلة على الحال من صدقاتهن، وإنما صح مجيء الحال مفردة وصاحبها جمع لأن المراد بهذا المفرد الجنس الصالح للأفراد كلها، ويجوز أن يكون نحلة منصوبا على المصدرية لآتوا لبيان النوع من الإيتاء أي إعطاء كرامة.

وسميت الصدقات نحلة إبعادا للصدقات عن أنواع الأعواض، وتقريبا بها إلى الهدية، إذ ليس الصداق عوضا عن منافع المرأة عند التحقيق، فإن النكاح عقد بين الرجل والمرأة قصد منه المعاشرة، وإيجاد آصرة عظيمة، وتبادل حقوق بين الزوجين، وتلك أغلى من أن يكون لها عوض مالي، ولو جعل لكان عوضها جزيلا ومتجددا بتجدد المنافع، وامتداد أزمانها، شأن الأعواض كلها، ولكن الله جعله هدية واجبة على الأزواج إكراما لزوجاتهم، وإنما أوجبه الله لأنه تقرر أنه الفارق بين النكاح وبين المخادنة والسفاح، إذ كان أصل النكاح في البشر اختصاص الرجل بامرأة تكون له دون غيره، فكان هذا الاختصاص ينال بالقوة، ثم اعتاض الناس عن القوة بذل الأثمان لأولياء النساء بيعهن بناتهن ومولياتهن، ثم ارتقى التشريع وكمل عقد النكاح، وصارت المرأة حليلة الرجل شريكته في شؤونه وبقيت الصدقات أمارات على ذلك الاختصاص القديم تميز عقد النكاح عن بقية أنواع المعاشرة المذمومة شرعا وعادة، وكانت المعاشرة على غير وجه النكاح خالية عن بذل المال للأولياء إذ كانت تنشأ عن الحب أو الشهوة من الرجل للمرأة على انفراد وخفية من أهلها، فمن ذلك الزنى الموقت، ومنه المخادنة، فهي زنا مستمر، وأشار." (١)

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/٤

"واعلم أن للحوادث كلها مؤثرا، وسببا مقارنا، وأدلة تنبئ عنها وعن عواقبها، فهذه ثلاثة أشياء لا تخلو عنها الحوادث كلها، سواء كانت غير اختيارية، أم اختيارية كأفعال العباد. فالله قدر **المنافع** والمضار بعلمه وقدره وخلق مؤثراتها وأسبابها، فهذا الجزء لله وحده لقوله ﴿قل كل من عند الله﴾ .

والله أقام بالألطاف الموجودات، فأوجدها ويسر لها أسباب البقاء والانتفاع بما أودع فيها من العقول والإلهامات، وحفها كلها في سائر أحوالها بألطاف كثيرة، لولاها لما بقيت الأنواع، وساق إليها أصول الملاءمة، ودفع عنها أسباب الآلام في الغالب، فالله لطيف بعباده. فهذا الجزء لله وحده لقوله ﴿قل كل من عند الله﴾ .

والله نصب الأدلة للناس على **المنافع** والمضار التي تكتسب بمختلف الأدلة الضرورية، والعقلية، والعادية، والشرعية، وعلم طرائق الوصول إليها، وطرائق الحيدة عنها، وأرشد إلى موانع التأثير لمن شاء أن يمانعها، وبعث الرسل وشرع الشرائع فعلمنا بذلك كله أحوال الأشياء ومنافعها ومضارها، وعواقب ذلك الظاهرة والخفية، في الدنيا والآخرة، فأكمل المنة، وأقام الحجة، وقطع المعذرة، فهدى بذلك وحذر إذ خلق العقول ووسائل المعارف، ونماها بالتفكيرات والإلهامات، وخلق البواعث على التعليم والتعلم، فهذا الجزء أيضا لله وحده. وأما الأسباب المقارنة للحوادث الحسنة والسيئة والجانية لجناها حين تصيب الإنسان من الاهتداء إلى وسائل مصادفة **المنافع**، والجهل بتلك الوسائل، والاغضاء عن موانع الوقوع فيها في الخير والشر، فذلك بمقدار ما يحصله الإنسان من وسائل الرشاد، وباختياره الصالح لاجتناء الخير، ومقدارا ضد ذلك: من غلبة الجهل، أو غلبة الهوى، ومن الارتماء في المهالك بدون تبصر، وذلك جزء صغير في جانب الأجزاء التي قدمناها، وهذا الجزء جعل الله للإنسان حظا فيه، ملكه إياه، فإذا جاءت الحسنة أحدا فإن مجيئها إياه بخلق الله تعالى لا محالة مما لا صنعة للعبد فيه، أو بما أرشد الله به العبد حتى علم طريق اجتناء الحسنة، أي الشيء الملائم وخلق له استعداده لاختيار الصالح فيما له فيه اختيار من الأفعال النافعة حسبما أرشده الله تعالى، فكانت المنة فيها لله وحده، إذ لولا لطفه وإرشاده وهديه، لكان الإنسان في حيرة، فصح أن الحسنة من الله، لأن أعظم الأسباب أو كلها منه.

أما السيئة فإنها وإن كانت تأتي بتأثير الله تعالى، ولكن إصابة معظمها الإنسان يأتي من جهله، أو تفريطه، أو سوء نظره في العواقب، أو تغليب هواه على رشده، وهنالك." (١)

---

(١) التحرير والتنوير، ٤/١٩٥

"الكثير، موصوفا بأن لا خير فيه وبذلك يتضح أن الاستثناء متصل، وأن لا داعي إلى جعله منقطعا.

والمقصد من ذلك كله الاهتمام والتنويه بشأن هذه الثلاثة، ولو تناجى فيها من غالب أمره قصد الشر.

وقوله ﴿ومن يفعل ذلك﴾ الخ وعد بالثواب على فعل المذكورات إذا كان لابتغاء مرضاة الله، فدل على أن كونها خيرا وصف ثابت لها لما فيها من **المنافع**، ولأنها مأمور بها في الشرع، إلا أن الثواب لا يحصل إلا عن فعلها ابتغاء مرضاة الله كما في حديث "إنما الأعمال بالنيات" .

وقرأ الجمهور: نؤتيه بنون العظمة على الالتفات من الغيبة في قوله ﴿مرضات الله﴾

﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ [١١٥].

عطف على ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله﴾ [النساء:١١٤] بمناسبة تضاد الحالين. والمشاقة: المخالفة المقصودة، مشتقة من الشق لأن المخالف كأنه يختار شقا يكون فيه غير شق الآخر.

فيحتمل قوله ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ أن يكون أراد به من بعد ما آمن بالرسول فتكون الآية وعيدا للمرتد. ومناسبتها هنا أن بشير بن أبيرق صاحب القصة المتقدمة، لما افتضح أمره ارتد ولحق بمكة، ويحتمل أن يكون مرادا به من بعد ما ظهر صدق الرسول بالمعجزات، ولكنه شاقه عنادا ونواء للإسلام.

وسبيل كل قوم طريقتهم التي يسلكونها في وصفهم الخاص، فالسبيل مستعار للاعتقادات والأفعال والعادات، التي يلازمها أحد ولا يبتغي التحول عنها، كما يلازم قاصد المكان طريقا يبلغه إلى قصده، قال تعالى ﴿قل هذه سبيلي﴾ [يوسف:١٠٨]. ومعنى هذه الآية نظير معنى قوله ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم﴾ [محمد:٣٢] ، فمن اتبع سبيل المؤمنين في الإيمان واتبع سبيل غيرهم في غير الكفر مثل اتباع سبيل يهود خيبر في غراسة النخيل، أو بناء الحصون، لا يحسن أن يقال فيه اتبع غير سبيل المؤمنين. وكأن فائدة عطف اتباع غير سبيل المؤمنين على مشاقة الرسول الحيطة لحفظ الجامعة الإسلامية بعد." (١)

"ذكرته السنة: مثل خالد بن سنان العبسي.

وإنما ذكر الله تعالى هنا الأنبياء الذين اشتهروا عند بني إسرائيل لأن المقصود محاجتهم. وإنما ترك الله أن يقص على النبي صلى الله عليه وسلم أسماء كثير من الرسل للاكتفاء بمن قصهم عليه، لأن المذكورين هم أعظم الرسل والأنبياء قصصا ذات عبر.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٥٤/٤

وقوله ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ غير الأسلوب فعدل عن العطف إلى ذكر فعل آخر، لأن لهذا النوع من الوحي مزيد أهمية، وهو مع تلك المزية ليس إنزال كتاب من السماء، فإذا لم تكن عبرة إلا بإنزال كتاب من السماء حسب اقتراحهم، فقد بطل أيضا ما عدا الكلمات العشر المنزلة في الألواح على موسى عليه السلام. وكلام الله تعالى صفة مستقلة عندنا. وهي المتعلقة بإبلاغ مراد الله إلى الملائكة والرسل، وقد تواتر ذلك في كلام الأنبياء والرسل تواترا ثبت عند جميع المليين، فكلام الله صفة له ثبتت بالشرع لا يدل عليها الدليل العقلي على التحقيق إذ لا تدل الأدلة العقلية على أن الله يجب له إبلاغ مراده الناس بل يجوز أن يوجد الموجودات ثم يتركها وشأنها، فلا يتعلق علمه بحملها على ارتكاب حسن الأفعال وتجنب قبائحها. ألا ترى أنه خلق العجماوات فما أمرها و لا نهى، فلو ترك الناس فوضى كالحيوان لما استحال ذلك. وأنه إذا أراد حمل المخلوقات على شيء يريده فطرها على ذلك فانساقت إليه بجبلاتها، كما فطر النحل على إنتاج العسل، والشجر على الإثمار،. ولو شاء لحمل الناس أيضا على جبلة لا يعدونها، غير أننا إذ قد علمنا أنه عالم، وأنه حكيم، والعلم يقتضي انكشاف حقائق الأشياء على ما هي عليه عنده، فهو إذ يعلم حسن الأفعال وقبحها، يريد حصول **المنافع** وانتفاء المضار، ويرضى بالأولى، ويكره الثانية، وإذ اقتضت حكمته وإرادته أن جعل البشر قابلا للتعلم والصلاح، وجعل عقول البشر صالحة لبلوغ غايات الخير، وغايات الشر، والتفنن فيهما، بخلاف الحيوان الذي يبلغ فيما جبل عليه من خير أو شر إلى غاية فطر عليها لا يعدوها، فكان من المتوقع طغيان الشر على الخير بعمل فريق الأشرار من البشر كان من مقتضى الحكمة أن يحمل الناس على فعل الخير الذي يرضاه، وترك الشر الذي يكرهه، وحملهم على هذا قد يحصل بخلق أفاضل الناس وجبلهم على الصلاح والخير، فيكونون دعاة للبشر، لكن حكمة الله وفضله اقتضى أن يخلق الصالحين القابلين للخير، وأن يعينهم على بلوغ ما جبلوا عليه بإرشاده وهديه، فخلق النفوس القابلة للنبوة والرسالة وأمدها بالإرشاد الدال على مراده المعبر عنه بالوحي، كما اقتضاه قوله." (١)

"شرعيا، فتمحض لأن يكون افتراء،مع أن ما فيه من توهم الناس إياه كاشفا عن مراد الله بهم،من الكذب على الله، لأن الله نصب لمعرفة المسببات أسبابا عقلية:هي العلوم والمعارف المنتزعة من العقل، أو من أدلته، كالتجربة، وجعل أسبابا لا تعرف سببيتها إلا بتوقيف منه على لسان الرسل:كجعل الزوال سببا للصلاة.وما عدا ذلك كذب وبهتان، فمن أجل ذلك كان فسقا،ولذلك قال فقهاؤنا بجرحة من ينتحل ادعاء معرفة الغيوب.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣١٨/٤

وليس من ذلك تعرف المسببات من أسبابها كتعرف نزول المطر من السحاب،وترقب خروج الفرخ من البيضة بانقضاء مدة الحضانة،وفي الحديث: "إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة أي من جهة بحرهم،ومعنى عين أنها كثيرة المطر.وأما أزلام الميسر،فهي فسق،لأنها من أكل المال بالباطل

﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون﴾

جملة وقعت معترضة بين آية المحرمات المتقدمة،وبين آية الرخصة الآتية:وهي قوله :﴿فمن اضطر في مخمصة﴾ لأن اقتران الآية بفاء الفريع يقضي باتصالها بما تقدمها.ولا يصلح للاتصال بها إلا قوله :﴿حرمت عليكم الميتة﴾ الآية.

والمناسبة في هذا الاعتراض:هي أن الله لما حرم أمورا كان فعلها من جملة دين الشرك،وهي ما أهل لغير الله به،وما ذبح على النصب،وتحريم الاستقسام بالأزلام،وكان في كثير منها تضييق عليهم بمفارقة معتادهم،والتقليل من أقواتهم،أعقب هذه الشدة بإيناسهم بتذكير أن هذا كله إكمال لدينهم،وإخراج لهم من أحوال ضلال الجاهلية،وأنهم كما أيدوا بدين عظيم سمح فيه صلاحهم، فعليهم أن يقبلوا ما فيه من الشدة الراجعة إلى إصلاحهم:فالبعض مصلحته راجعة إلى المنافع البدنية، والبعض مصلحته راجعة إلى الترفع عن حضيض الكفر:وهو ما أهل به لغير الله،وما ذبح على النصب.والاستقسام بالأزلام أذكرهم بفوزهم على من يناويهم،وبمحاسن دينهم وإكماله،فإن من إكمال الإصلاح إجراء الشدة عند الاقتضاء.وذكروا بالنعمة،على عادة القرآن في تعقيب الشدة باللين.وكان المشركون، زمانا،إذا سمعوا أحكام الإسلام رجوا أن تثقل على المسلمين فيرتدوا عن الدين،ويرجعوا إلى الشرك، كما قال المنافقون ﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ [المنافقون:٧].فلما نزلت هذه الأحكام أنزل الله هذه الآية:بشارة للمؤمنين، ونكاية بالمشركين.وقد روي:أنها نزلت يوم فتح مكة، كما رواه الطبري عن مجاهد،والقرطبي عن الضحاك.وقيل:نزلت يوم عرفة في حجة الوداع مع الآية التي." (١)

"ذلك للعبد، وكأنه جعل الخطاب هنا للأحرار بالقرينة وبقرينة آية النساء[٢٥] ﴿ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ وهو تفسير بين ملتئم.وأصل ذلك لعمر بن الخطاب ومجاهد.ومن العلماء من فسر المحصنات هنا بالعفائف، ونقل عن الشعبي وغيره، فمنعوا تزوج غير العفيفة من النساء لرقة دينها وسوء خلقها.

وكذلك القول في تفسير قوله :﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أي الحرائر عند مالك،

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٨/٥

ولذلك منع نكاح إمام أهل الكتاب مطلقا للحر والعبد.والذين فسروا المحصنات بالعفائف منعوا هنا ما منعوا هناك.

وشمل أهل الكتاب:الذميين، والمعاهدين، وأهل الحرب، وهو ظاهر، إلا أن مالكا كره نكاح النساء الحربيات.وعن ابن عباس:"تخصيص الآية بغير نساء أهل الحرب"، فمنع نكاح الحربيات.ولم يذكروا دليله.

والأجور:المهور، وسميت هنا "أجورا" مجازا في معنى الأعواض عن المنافع الحاصلة من آثار عقدة النكاح، على وجه الاستعارة أو المجاز المرسل.والمهر شعار متقادم في البشر للتفرقة بين النكاح وبين المخادنة.ولو كانت المهور أجورا حقيقة لوجب تحديد مدة الانتفاع ومقداره وذلك مما تنزه عنه عقدة النكاح.

والقول في قوله :﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾ كالقول في نظيره ﴿محصنات غير مسافحات﴾ [النساء:٢٥]تقدم في هذه السورة .

وجملة ﴿ومن يكفر بالأيمان فقد حبط عمله﴾ معترضة بين الجمل.والمقصود التنبيه على أن إباحة تزوج نساء أهل الكتاب لا يقتضي تزكية لحالهم، ولكن ذلك تيسير على المسلمين.وقد ذكر في سبب نزولها أن نساء أهل الكتاب قلن:"لولا أن الله رضي ديننا لم يبح لكم نكاحنا".والمراد بالإيمان الإيمان المعهود وهو إيمان المسلمين الذي بسببه لقبوا بالمؤمنين، فالكفر هنا الكفر بالرسل، أي:ينكر الإيمان، أي ينكر ما يقتضيه الإيمان من المعتقدات، إذ الإيمان صار لقبا لمجموع ما يجب التصديق به.

والحبط بسكون الموحدة والحبوط:فساد شيء كان صالحا، ومنه سمي الحبط بفتحتين مرض يصيب الإبل من جراء أكل الخضر في أول الربيع فتنتفخ أمعاؤها وربما ماتت.وفعل "حبط" يؤذن بأن الحابط كان صالحا فانقلب إلى فساد.والمراد من الفساد هنا الضياع والبطلان، وهو أشد الفساد، فدل فعل " حبط " على أن الأعمال صالحة." (١)

"لهم فيه الكعبة معلما لتوحيد الله تعالى، ووضع في نفوسهم ونفوس جيرتهم تعظيمه وحرمته.ودعا مجاوريهم إلى حجة ما استطاعوا، وسخر الناس لإجابة تلك الدعوة، فصار وجود الكعبة عائدا على سكان بلدها بفوائد التأنس بالوافدين، والانتفاع بما يجلبونه من الأرزاق، وبما يجلب التجار في أوقات وفود الناس إليه؛ فأصبح ساكنوه لا يلحقهم جوع ولا عراء.وجعل في نفوس أهله القناعة فكان رزقهم كفافا.وذلك ما دعا به إبراهيم في قوله: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ [ابراهيم:٣٧].فكانت الكعبة قياما

---

(١) التحرير والتنوير، ٤٧/٥

لهم يقوم به أود معاشهم.وهذا قيام خاص بأهله.

ثم انتشرت ذرية إسماعيل ولحقت بهم قبائل كثيرة من العرب القحطانيين وأهلت بلاد العرب.وكان جميع أهلها يدين بدين إبراهيم؛ فكان من انتشارهم ما شأنه أن يحدث بين الأمة الكثيرة من الاختلاف والتغالب والتقاتل الذي يفضي إلى التفاني، فإذا هم قد وجدوا حرمة أشهر الحج الثلاثة وحرمة شهر العمرة، وهو رجب الذي سنته مضر"وهم معظم ذرية إسماعيل"وتبعهم معظم العرب.وجدوا تلك الأشهر الأربعة ملجئة إياهم إلى المسالمة فيها فأصبح السلم سائدا بينهم مدة ثلث العام، يصلحون فيها شؤونهم، ويستبقون نفوسهم، وتسعى فيها سادتهم وكبراؤهم وذوو الرأي منهم بالصلح بينهم، فيما نجم من ترات وأحن.فهذا من قيام الكعبة لهم، لأن الأشهر الحرم من آثار الكعبة إذ هي زمن الحج والعمرة للكعبة.

وقد جعل إبراهيم للكعبة مكانا متسعا شاسعا يحيط بها من جوانبها أميالا كثيرة، وهو الحرم، فكان الداخل فيه آمنا.قال تعالى: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم﴾ [العنكبوت:٦٧].فكان ذلك امنا مستمرا لسكان مكة وحرمها، وأمنا يلوذ اليه من عراه خوف من غير سكانها بالدخول إليه عائذا، ولتحقيق أمنه أمن الله وحوشه ودوابه تقوية لحرمته في النفوس، فكانت الكعبة قياما لكل عربي إذا طرقه ضيم.

وكان أهل مكة وحرمها يسيرون في بلاد العرب آمنين لا يتعرض لهم أحد بسوء، فكانوا يتجرون ويدخلون بلاد قبائل العرب، فيأتونهم بما يحتاجونه ويأخذون منهم ما لا يحتاجونه ليبلغوه إلى من يحتاجونه، ولولاهم لما أمكن لتاجر من قبيلة أن يسير في البلاد، فتعطلت التجارة **والمنافع**.ولذلك كان قريش يوصفون بين العرب بالتجار، ولأجل ذلك جعلوا رحلتي الشتاء والصيف اللتين قال الله تعالى فيهما :﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة." (١)

"والبركات: جمع بركة، والمقصود من الجمع تعددها، باعتبار تعدد أصناف الأشياء المباركة. وتقدم تفسير البركة عند قوله تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ في سورة الأنعام [٩٢]. وتقدم أيضا في قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا﴾ [آل عمران: ٩٦] في سورة آل عمران. وتقدم أيضا في قوله تعالى: ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ في هذه السورة [٥٤]. وجماع معناها هو الخير الصالح الذي لا تبعة عليه في الآخرة. فهو أحسن أحوال النعمة. ولذلك عبر في جانب المغضوب عليهم المستدرجين بلفظ ﴿الحسنة﴾ بصيغة الإفراد في قوله: ﴿مكان السيئة الحسنة﴾ [الأعراف: ٩٥] وفي جانب المؤمنين

---

(١) التحرير والتنوير، ٥/٢٢٤

بالبركات مجموعة.

وقوله ﴿من السماء والأرض﴾ مراد به حقيقته. لأن ما يناله الناس من الخيرات الدنيوية لا يعدو أن يكون ناشئا من الأرض، وذلك معظم **المنافع**. أو من السماء، مثل ماء المطر وشعاع الشمس وضوء القمر والنجوم والهواء و الرياح الصالحة.

وقوله: ﴿ولكن كذبوا﴾ استثناء لنقيض شرط "لو" فإن التكذيب هو عدم الإيمان فهو قياس استثنائي.

وجملة ﴿فأخذناهم﴾ متسببة على جملة ﴿ولكن كذبوا﴾ وهو مثل نتيجة القياس. لأنه مساوي نقيض التالي، لأن أخذهم بما كسبوا فيه عدم فتح البركات عليهم.

وتقدم معنى الأخذ آنفا في قوله تعالى: ﴿فأخذناهم بغتة﴾ [الأعراف: ٩٥]. والمراد به أخذ الاستيئصال. والباء للسببية أي بسبب ما كسبوه من الكفر والعصيان.

"والفاء" في قوله: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ عاطفة أفادت الترتب الذكري. فاته لما ذكر من أحوال جميعهم ما هو مثار التعجيب من حالهم أعقبه بما يدل عليه معطوفا بفاء الترتب. ومحل التعجيب هو تواطؤهم على هذا الغرور، أي يترتب على حكاية تكذيبهم وأخذهم استفهام التعجيب من غرورهم وأمنهم غضب القادر العليم.

وقد تقدم الكلام على مثل هذا التركيب عند قوله تعالى: ﴿أفكلما جاءكم رسول﴾ في سورة البقرة [٨٧].

وجيء بقوله: ﴿يأتيهم﴾ بصيغة المضارع لأن المراد حكاية أمنهم الذي مضى من إتيان بأس الله في مستقبل ذلك الوقت.." (١)

"﴿وأضله الله على علم﴾ [الجاثية: ٢٣].

ومعنى الأخذ هنا الملابسة والاستعمال فهو مجاز أي: يلابسونه، ويجوز كونه حقيقة كما سيأتي.

والعرض بفتح العين وفتح الراء الأمر الذي يزول ولا يدوم، ويراد به المال، ويراد به أيضا ما يعرض للمرء من الشهوات **والمنافع**.

والأدنى الأقرب من المكان، والمراد به هنا الدنيا، وفي اسم الإشارة إيماء إلى تحقير هذا العرض الذي رغبوا فيه كالإشارة في قول قيس بن الخطيم:

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة ... لنفسي إلا قد قضيت قضاءها

وقد قيل: أخذ عرض الدنيا أريد به ملابسة الذنوب، وبذلك فسر سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والطبري،

---

(١) التحرير والتنوير، ٨/٢١٠

فيشمل كل ذنب، ويكون الأخذ مستعملا في المجاز وهو الملابسة، فيصدق بالتناول باليد وبغير ذلك، فهو من عموم المجاز، وقيل عرض الدنيا هو الرشا وبه فسر السدي، ومعظم المفسرين، فيكون الأخذ مستعملا في حقيقته وهو التناول، وقد يترجح هذا التفسير بقوله: ﴿وإن يأتهم عرض﴾ كما سيأتي.

والقول في ﴿ويقولون﴾ هو الكلام اللساني، يقولون لمن ينكر عليهم ملابسة الذنوب وتناول الشهوات، لأن ما بعد يقولون يناسبه الكلام اللفظي، ويجوز أن يكون الكلام النفساني، لأنه فرع عنه، أي قولهم في أنفسهم يعللونها به حين يجيش فيها وازع النهي، فهو بمنزلة قوله تعالى: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ [المجادلة: ٨] وذلك من غرورهم في الدين.

وبناء فعل ﴿يغفر﴾ على صيغة المجهول لأن الفاعل معروف، وهو الله، إذ لا يصدر هذا الفعل إلا عنه، وللدلالة على أنهم يقولون ذلك على وجه العموم لا في خصوص الذنب الذي أنكر عليهم، أو الذي تلبسوا به حين القول، ونائب الفاعل محذوف لعلمه من السياق، والتقدير: سيغفر لنا ذلك، أو ذنوبنا، لأنهم يحسبون أن ذنوبهم كلها مغفورة ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾ كما تقدم في سورة البقرة [٨٠]، أي يغفر لنا بدون سبب المغفرة وهو التوبة كما يعلم من السياق، وهو جزمهم بذلك عقب ذكر الذنب دون ذكر كفارة أو نحوها.

وقوله ﴿لنا﴾ لا يصلح للنيابة عن الفاعل لأنه ليس في معنى المفعول، إذ فعل." (١)

"وعقول، وعيون وآذان، ولم يعرف للجن مثل ذلك، وقد قدم الجن على الإنس في الذكر، ليتعين كون الصفات الواردة من بعد صفات للإنس وبقرينة قوله: ﴿بها أولئك كالأنعام﴾ .

و ﴿القلوب﴾ اسم لموقع العقول في اللغة العربية وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ في سورة البقرة [٧].

والفقه تقدم عند قوله: ﴿لعلهم يفقهون﴾ في سورة الأنعام [٦٥].

ومعنى نفي الفقه والإبصار والسمع عن آلاتها الكائنة فيهم أنهم عطلوا أعمالها بترك استعمالها في أهم ما تصلح له: وهو معرفة ما يحصل به الخير الأبدي، ويدفع به الضر الأبدي، لأن آلات الإدراك والعلم خلقها الله لتحصيل المنافع ودفع المضارع، فلما لم يستعملوها في جلب أفضل المنافع ودفع أكبر المضار، نفي عنهم عملها على وجه العموم للمبالغة، لأن الفعل في حيز النفي يعم، مثل النكرة، فهذا عام أريد به الخصوص للمبالغة لعدم الاعتداد بما يعلمون من غير هذا، فالنفي استعارة بتشبيه بعض الموجود بالمعدوم

---

(١) التحرير والتنوير، ٨/٣٤٠

كله.
وليس في تقديم الأعين على الآذان مخالفة لما جرى عليه اصطلاح القرآن من تقديم السمع على البصر لتشريف السمع يتلقى ما أمر الله به كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾ [البقرة: ٧] لأن الترتيب في آية سورة الأعراف هذه سلك طريق الترقي من القلوب التي هي مقر المدركات إلى آلات الإدراك الأعين ثم الآذان فللآذان المرتبة الأولى في الارتقاء.
وجملة ﴿أولئك كالأنعام﴾ مستأنفة لابتداء كلام بتفظيع حالهم فجعل ابتداء كلام ليكون أدعى للسامعين.وعرفوا بالإشارة لزيادة تمييزهم بتلك الصفات، وللتنبيه على أنهم بسببها أحرياء بما سيذكر من تسويتهم بالأنعام أو جعلهم أضل من الأنعام، وتشبيهم بالأنعام في عدم الانتفاع بما ينتفع به العقلاء فكأن قلوبهم وأعينهم وآذانهم، قلوب الأنعام وأعينها وآذانها، في أنها لا تقيس ال أشياء على أمثالها ولا تنتفع ببعض الدلائل العقلية فلا تعرف كثيرا مما يفضي بها إلى سوء العاقبة.
و"بل" في قوله: ﴿بل هم أضل﴾ للانتقال والترقي في التشبيه في الضلال وعدم الانتفاع بما يمكن الانتفاع به، ولما كان وجه الشبه المستفاد من قوله: ﴿كالأنعام﴾ يؤول إلى معنى الضلال، كان الارتقاء في التشبيه بطريقة اسم التفضيل في الضلال.." [١]

"وعطف الأولاد على الأموال لاستيفاء أقوى دواعي الخيانة فان غرض جمهور الناس في جمع الأموال أن يتركوها لأبنائهم من بعدهم، وقد كثر قرن الأموال والأولاد في التحذير، ونجده في القرآن، قيل إن هاته الآية من جملة ما نزل في أبي لبابة.
وجيء في الإخبار عن كون الأموال والأولاد فتنة بطريق القصر قصرا ادعائيا لقصد المبالغة في إثبات أنهم فتنة.
وجعل نفس "الأموال والأولاد" فتنة لكثرة حدوث فتنة المرء من جراء أحوالهما، مبالغة في التحذير من تلك الأحوال وما ينشأ عنها، فكأن وجود الأموال والأولاد نفس الفتنة.
وعطف قوله: ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ على قوله: ﴿أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ للإشارة إلى أن ما عند الله من الأجر على كف النفس عن المنهيات هو خير من **المنافع** الحاصلة عن اقتحام المناهي لأجل الأموال والأولاد.
[٢٩] ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل

---
(١) التحرير والتنوير، ٣٥٩/٨

العظيم﴾.

استئناف ابتدائي متصل بالآيات السابقة ابتداء من قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه﴾ [الأنفال: ٢٠] الآية وما بعده من الآيات إلى هنا.

وافتتح بالنداء للاهتمام، كما تقدم آنفا.

وخوطب المؤمنون بوصف الإيمان تذكيرا لهم بعهد الإيمان وما يقتضيه كما تقدم آنفا في نظائره، وعقب التحذير من العصيان والتنبيه على سوء عواقبه، بالترغيب في التقوى وبيان حسن عاقبتها وبالوعد بدوام النصر واستقامة الأحوال إن هم داموا على التقوى.

ففعل الشرط مراد به الدوام، فإنهم كانوا متقين، ولكنهم لما حذروا من المخالفة والخيانة ناسب أن تفرض لهم الطاعة في مقابل ذلك.

ولقد بدا حسن المناسبة إذ رتبت على المنهيات تحذيرات من شرور وأضرار من قوله: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم﴾ [الأنفال: ٢٢] – وقوله -: ﴿واتقوا فتنة﴾ [الأنفال: ٢٥] الآية، ورتب على التقوى: الوعد بالنصر ومغفرة الذنوب وسعة الفضل.

والفرقان أصله مصدر كالشكران والغفران والبهتان، وهو ما يفرق أي يميز بين شيئين." (١)

"اختيارهم إياه حين استشارهم الرسول عليه الصلاة والسلام إنما هو عتاب على نوايا في نفوس جمهور الجيش، حين تخيروا الفداء أي أنهم ما راعوا فيه إلا محبة المال لنفع أنفسهم فعاتبهم الله على ذلك لينبههم على أن حقيقا عليهم أن لا ينسوا في سائر أحوالهم وآرائهم، الالتفات إلى نفع الدين وما يعود عليه بالقوة، فإن أبا بكر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند الاستشارة "قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك" فنظر إلى مصلحة دينية من جهتين ولعل هذا الملحظ لم يكن عند جمهور أهل الجيش.

ويجوز عندي أن يكون قوله: ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ مستعملا في معنى الاستفهام الإنكاري، والمعنى: لعلكم تحبون عرض الدنيا فإن الله يحب لكم الثواب وقوة الدين، لأنه لو كان المنظور إليه هو النفع الدنيوي لكان حفظ أنفس الناس مقدما على إسعافهم بالمال، فلما وجب عليهم بذل نفوسهم في الجهاد. فالمعنى: يوشك أن تكون حالكم كحال من لا يحب إلا عرض الدنيا، تحذيرا لهم من التوغل في إيثار الحظوظ العاجلة.

---

(١) التحرير والتنوير، ٧٩/٩

وجملة: ﴿والله عزيز حكيم﴾ عطف على جملة: ﴿والله يريد الآخرة﴾ عطفا يؤذن بأن لهذين الوصفين أثرا في أنه يريد الآخرة، فيكون كالتعليل، وهو يفيد أن حظ الآخرة هو الحظ الحق، ولذلك يريده العزيز الحكيم.

فوصف ﴿العزيز﴾ يدل على الاستغناء عن الاحتياج، وعلى الرفعة والمقدرة، ولذلك لا يليق به إلا محبة الأمور النفيسة، وهذا يومئ إلى أن أولياءه ينبغي لهم أن يكونوا أعزاء كقوله في الآية الأخرى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [المنافقون: ٨] فلأجل ذلك كان اللائق بهم أن يربأوا بنفوسهم عن التعلق بسفاسف الأمور وأن يجنحوا إلى معاليها.

ووصف الحكيم يقتضي أنه العالم **بالمنافع** الحق على ما هي عليه، لأن الحكمة العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه.

وجملة: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ الخ مستأنفة استئنافا بيانيا لأن الكلام السابق يؤذن بأن مفاداة الأسرى أمر مرهوب تخشى عواقبه، فيستثير سؤالا في نفوسهم عما يترقب من ذلك فبينه قوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ الآية.

والمراد بالكتاب المكتوب، وهو من الكتابة التي هي التعيين والتقدير، وقد نكر." (١)

"فإن كان أعجبكم عامكم ... فعودوا إلى مصر في القابل

وصيغة الحصر في قوله: ﴿إنما المشركون نجس﴾ لإفادة نفي التردد في اعتبارهم نجسا، فهو للمبالغة في اتصافهم بالنجاسة حتى كأنهم لا وصف لهم إلا النجسية.

ووصف (العام) باسم الإشارة لزيادة تمييزه وبيانه.

وقوله: ﴿فلا يقربوا المسجد﴾ ظاهره نهي للمشركين عن القرب من المسجد الحرام.

ومواجهة المؤمنين بذلك تقتضي نهي المسلمين عن أن يقرب المشركون المسجد الحرام.

جعل النهي في صورة نهي المشركين عن ذلك مبالغة في نهي المؤمنين حين جعلوا مكلفين بانكفاف المشركين عن الاقتراب من المسجد الحرام من باب قول العرب: "لا أرينك ههنا" فليس النهي للمشركين على ظاهره.

والمقصود من النهي عن اقترابهم من المسجد الحرام النهي عن حضورهم الحج لأن مناسك الحج كلها تتقدمها زيارة المسجد الحرام وتعقبها كذلك، ولذلك لما نزلت "براءة" أرسل النبي صلى الله عليه وسلم بأن ينادي في الموسم أن لا يحج بعد العام مشرك وقرينة ذلك توقيت ابتداء النهي بما بعد عامهم الحاضر.

---

(١) التحرير والتنوير، ٩/١٦٣

فدل على أن النهي منظور فيه إلى عمل يكمل مع اقتراب اكتمال العام وذلك هو الحج. ولولا إرادة ذلك لما كان في توقيت النهي عن اقتراب المسجد بانتهاء العام حكمة ولكان النهي على الفور.

﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾ .

عطف على جملة النهي. والمقصود من هذه الجملة: وعد المؤمنين بأن يغنيهم الله عن **المنافع** التي تأتيهم من المشركين حين كانوا يفدون إلى الحج فينفقون ويهدون الهدايا فتعود منهم منافع على أهل مكة وما حولها، وقد أصبح أهلها مسلمين فلا جرم أن ما يرد إليها من رزق يعود على المؤمنين.

والعيلة: الاحتياج والفقر أي إن خطر في نفوسكم خوف الفقر من انقطاع الإمداد عنكم بمنع قبائل كثيرة من الحج فإن الله سيغنيكم عن ذلك. وقد أغناهم الله بأن هدى للإسلام أهل تبالة وجرش من بلاد اليمن، فأسلموا عقب ذلك، وكانت بلادهم بلاد خصب وزرع فحملوا إلى مكة الطعام والميرة، وأسلم أيضا أهل جدة وبلدهم مرفأ ترد إليه الأقوات من مصر وغيرها، فحملوا الطعام إلى مكة، وأسلم أهل صنعاء من اليمن، وبلدهم تأتيه السفن من أقاليم كثيرة من الهند وغيرها.." (١)

"وقوله: ﴿إن شاء﴾ يفتح لهم باب الرجاء مع التضرع إلى الله في تحقيق وعده لأنه يفعل ما يشاء.

وقوله: ﴿إن الله عليم حكيم﴾ . تعليل لقوله: ﴿وإن خفتم عيلة﴾ أي أن الله يغنيكم لأنه يعلم ما لكم من **المنافع** من وفادة القبائل، فلما منعكم من تمكينهم من الحج لم يكن تاركا منفعتكم فقدر غناكم عنهم بوسائل أخرى علمها وأحكم تدبيرها.

[٢٩] ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ .

الظاهر أن هذه الآية استئناف ابتدائي لا تتفرع على التي قبلها، فالكلام انتقال من غرض نبذ العهد مع المشركين وأحوال المعاملة بينهم وبين المسلمين إلى غرض المعاملة بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، إذ كان الفريقان مسالمين المسلمين في أول بدء الإسلام، وكانوا يحسبون أن في مدافعة المشركين للمسلمين ما يكفيهم أمر التصدي، للطعن في الإسلام وتلاشي أمره فلما أخذ الإسلام ينتشر في بلاد العرب يوما فيوما، واستقل أمره بالمدينة، ابتدأ بعض اليهود يظهر إحنه نحو المسلمين، فنشأ النفاق بالمدينة وظاهرت قريظة والنضير أهل الأحزاب لما غزوا المدينة فأذهبهم الله عنها.

ثم لما اكتمل نصر الإسلام بفتح مكة والطائف وعمومه بلاد العرب بمجيء وفودهم مسلمين، وامتد إلى

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٣/١٠

تخوم البلاد الشامية، أوجست نصارى العرب خيفة من تطرقه إليهم، ولم تغمض عين دولة الروم حامية نصارى العرب عن تداني بلاد الإسلام من بلادهم، فأخذوا يستعدون لحرب المسلمين بواسطة ملوك غسان سادة بلاد الشام في ملك الروم. ففي "صحيح البخاري" عن عمر بن الخطاب أنه قال: "كان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر ونحن نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا وأنهم ينعلون الخيل لغزونا فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب فقال: افتح افتح. فقلت: أجاء الغساني. قال: بل أشد من ذلك اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه إلى آخر الحديث.

فلا جرم لما أمن المسلمون بأس المشركين وأصبحوا في مأمن منهم، أن يأخذوا الأهبة ليأمنوا بأس أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فابتدأ ذلك بغزو خيبر وقريظة." [١]

"الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ [التوبة:٩٦].

فالقول هنا مراد به الكلام مع الاعتقاد، فهو كناية عن اللازم مع جواز إرادة الملزوم، فإذا أضمروا ذلك في أنفسهم فذلك من الحالة الممدوحة ولكن لما وقع هذا الكلام في مقابلة حكاية اللمز في الصدقات، واللمز يكون بالكلام دلالة على الكراهية، جعل ما يدل على الرضا من الكلام كناية عن الرضى.

وجملة ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾ بيان لجملة ﴿حسبنا الله﴾ لأن كفاية المهم تقتضي تعهد المكفي بالعوائد ودفع الحاجة، والإيتاء فيه بمعنى إعطاء الذوات.

والفضل زيادة الخير **والمنافع** ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ [غافر:٦١] والفضل هنا المعطى: من إطلاق المصدر وإرادة المفعول، بقرينة من التبعيضية، ولو جعلت ﴿من﴾ ابتدائية لصحت إرادة معنى المصدر.

وجملة ﴿إنا إلى الله راغبون﴾ تعليل، أي لأننا راغبون فضله.

وتقديم المجرور لإفادة القصر، أي إلى الله راغبون لا إلى غيره، والكلام على حذف مضاف، تقديره: إنا راغبون إلى ما عينه الله لنا لا نطلب إعطاء ما ليس من حقنا.

والرغبة الطلب بتأدب.

[٦٠] ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٤/١٠

هذه الآية اعتراض بين جملة ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ [التوبة:٥٨] وجملة ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي﴾ [التوبة:٦١] الآية. وهو استطراد نشأ عن ذكر اللمز في الصدقات أدمج فيه تبيين مصارف الصدقات. والمقصود من أداة الحصر: أن ليس شيء من الصدقات بمستحق للذين لمزوا في الصدقات، وحصر الصدقات في كونها مستحقة للأصناف المذكورة في هذه الآية، فهو قصر إضافي أي الصدقات لهؤلاء لا لكم.

وأما انحصارها في الأصناف الثمانية دون صنف آخر فيستفاد من الاقتصار عليها في مقام البيان إذ لا تكون صيغة القصر مستعملة للحقيقي والإضافي معا إلا على طريقة." [1]

"﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا﴾ في سورة العقود[٧٦].

وقدم الضر على النفع لأنه أنسب بالغرض لأنهم أظهروا استبطاء ما فيه مضرتهم وهو الوعيد ولأن استطاعة الضر أهون من استطاعة النفع فيكون ذكر النفع بعده ارتقاء.

والمقصود من جمع الأمرين الإحاطة بجنسي الأحوال. وتقدم في سورة الأعراف وجه تقديم النفع على الضر في نظير هذه الآية.

وقوله: ﴿إلا ما شاء الله﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن، أي لكن نفعي وضري هو ما يشاءه الله لي. وهذا الجواب يقتضي إبطال كلامهم بالأسلوب المصطلح على تلقيبه في فن البديع بالمذهب الكلامي، أي بطريق برهاني، لأنه إذا كان لا يستطيع لنفسه ضرا ولا نفعا فعدم استطاعته ما فيه ضر غيره بهذا الوعد أولى من حيث إن أقرب الأشياء إلى مقدرة المرء هو ما له اختصاص بذاته، لأن الله أودع في الإنسان قدرة استعمال قواه وأعضائه، فلو كان الله مقدرا إياه على إيجاد شيء من **المنافع** والمضار في أحوال الكون لكان أقرب الأشياء إلى إقداره ما له تعلق بأحوال ذاته، لأن بعض أسبابها في مقدرته، فلا جرم كان الإنسان مسيرا في شؤونه بقدرة الله لأن معظم أسباب **المنافع** والمضار من الحوادث منوط بعضه ببعض، فموافقاته ومخالفاته خارجة عن مقدور الإنسان، فلذلك قد يقع ما يضره وهو عاجز عن دفعه. فكان معنى الجواب: أن الوعد من الله لا مني وأنا لا أقدر على إنزاله بكم لأن له أجلا عند الله.

وجملة: ﴿لكل أمة أجل﴾ من المقول المأمور به، وموقعها من جملة: ﴿لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا﴾ موقع العلة لأن جملة: ﴿لا أملك لنفسي﴾ اقتضت انتفاء القدرة على حلول الوعد.

وجملة: ﴿لكل أمة أجل﴾ تتضمن أن سبب عدم المقدرة على ذلك هو أن الله قدر آجال أحوال الأمم.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢٧/١٠

ومن ذلك أجل حلول العقاب بهم بحكمة اقتضت تلك الآجال فلا يحل العقاب بهم إلا عند مجيء في ذلك الأجل، فلا يقدر أحد على تغيير ما حدده الله.

وصورة الاستدلال بالطريق البرهاني أن قضية ﴿لكل أمة أجل﴾ قضية كلية تشمل كل أمة. ولما كان المخاطبون من جملة الأمم كانوا مشمولين لحكم هذه القضية فكأنه قيل لهم: أنتم أمة من الأمم ولكل أمة أجل فأنتم لكم أجل فترقبوا حلوله.

وجملة: ﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ صفة ل "أجل"، أي." [1]

"الشركة كما علمت.

وأكد بحرف التوكيد بعد حرف التنبيه في الموضعين للاهتمام به، ولرد إنكار منكري بعضه والذين هم بمنزلة المنكرين بعضه الآخر.

واللام في ﴿الله﴾ للملك، و"ما" اسم موصول مفيد لعموم كل ما ثبتت له صلة الموصول من الموجودات الظاهرة والخفية.

ووعد الله: هو وعده بعذاب المشركين، وهو وعيد، ويجوز أن يكون وعده مرادا به البعث، قال تعالى: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ فسمى إعادة الخلق وعدا.

وأظهر اسم الجلالة في الجملة الثانية دون الإتيان بضميره لتكون الجملة مستقلة فتجري مجرى المثل والكلام الجامع.

ووقع الاستدراك بقوله: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ لأن الجملتين اللتين قبله أريد بهما الرد على معتقدي خلافهما فصارتا في قوة نفي الشك عن مضمونهما، فكأنه قيل: لا شك يحق في ذلك، ولكن أكثرهم لا يعلمون فلذلك يشكون.

وتقييد نفي العلم بالأكثر إشارة إلى أن منهم من يعلم ذلك ولكنه يجحده مكابرة، كما قال في الآية السابقة: ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به﴾ ، فضمير ﴿أكثرهم﴾ للمتحدث عنهم فيما تقدم.

[٥٧] ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾

استئناف أو اعتراض، يجوز أن يكون لابتداء غرض جديد وهو خطاب جميع الناس بالتعريف بشأن القرآن وهديه، بعد أن كان الكلام في جدال المشركين والاحتجاج عليهم بإعجاز القرآن على أنه من عند الله وأن الآتي به صادق فيما جاء به من تهديدهم وتخويفهم من عاقبة تكذيب الأمم رسلها، وما ذيل به ذلك من

---

(١) التحرير والتنوير، ١١/١٠٠

الوعيد وتحقيق ما توعدوا به، فالكلام الآن منعطف إلى الغرض المفتتح بقوله: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ إلى قوله: ﴿ولو كانوا لا يبصرون﴾ [يونس: ٣٧- ٤٣]. فعاد الكلام إلى خطاب جميع الناس لما في القرآن من **المنافع** الصالحة لهم، والإشارة إلى اختلافهم في مقدار الانتفاع به، ولذلك." (١)

"الدالة على الطريق الموصل إلى المقصود. ومجازه: بيان وسائل الحصول على **المنافع** الحقة. والرحمة تقدمت في تفسير البسملة.

وقد أومأ وصف القرآن بالشفاء إلى تمثيل حال النفوس بالنسبة إلى القرآن، وإلى ما جاء بحال المعتل السقيم الذي تغير نظام مزاجه عن حالة الاستقامة فأصبح مضطرب الأحوال خائر القوى فهو يترقب الطبيب الذي يدبر له بالشفاء، ولا بد للطبيب من موعظة للمريض يحذره بها مما هو سبب نشء علته ودوامها، ثم ينعت له الدواء الذي به شفاؤه من العلة، ثم يصف له النظام الذي ينبغي له سلوكه لتدوم له الصحة والسلامة ولا ينتكس له المرض، فإن هو انتصح بنصائح الطبيب أصبح معافى سليما وحيي حياة طيبة لا يعتوره ألم ولا يشتكي وصبا، وقد كان هذا التمثيل لكماله قابلا لتفريق تشبيه أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها، فزواجر القرآن ومواعظه يشبه بنصح الطبيب على وجه المكنية، وإبطاله العقائد الضالة يشبه بنعت الدواء للشفاء من المضار على وجه التصريحية، وتعاليمه الدينية وآدابه تشبه بقواعد حفظ الصحة على وجه المكنية،وعبر عنها بالهدى، ورحمته للعالمين تشبه بالعيش في سلامة على وجه المكنية.

ومعلوم أن ألفاظ المكنية يصح أن تكون مستعملة في حقائق معانيها كما هنا، ويصح أن تجعل تخييلا كأظفار المنية. ثم إن ذلك يتضمن تشبيه باعث القرآن بالطبيب العليم بالأدواء وأدويتها، ويقوم من ذلك تشبيه هيئة تلقي الناس للقرآن وانتفاعهم به ومعالجة الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم بتكرير النصح والإرشاد بهيئة المرضى بين يدي الطبيب وهو يصف لهم ما فيه برؤهم وصلاح أمزجتهم فمنهم القابل المنتفع ومنهم المتعاصي الممتنع.

فالأوصاف الثلاثة الأول؛ ثابتة للقرآن في ذاته سواء في ذلك من قبلها وعمل بها، ومن أعرض عنها ونبذها، إلا أن وصفه بكونه هدى لما كان وصفا بالمصدر المقتضي للمبالغة بحيث كأنه نفس الهدى كان الأنسب أن يراد به حصول الهدى به بالفعل فيكون في قران الوصف الرابع. والوصف الرابع وهو الرحمة خاص بمن عمل بمقتضى الأوصاف الثلاثة الأول فانتفع بها فكان القرآن رحمة له في الدنيا والآخرة. وهو ينظر إلى

---

(١) التحرير والتنوير، ١٠٨/١١

قوله تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾ [الإسراء: ٨٢]. فقيد ﴿للمؤمنين﴾ متعلق ب ﴿رحمة﴾ بلا شبهة وقد خصه به جمهور المفسرين. ومن." (١)

"للأمة وقيادة لها.

وهؤلاء لقصور عقولهم وضعف مداركهم لم يبلغوا إدراك أسباب الكمال الحق، فذهبوا يتطلبون الكمال من أعراض تعرض للناس بالصدفة من سعة مال، أو قوة أتباع، أو عزة قبيلة. وتلك أشياء لا يطرد أثرها في جلب النفع العام ولا إشعار لها بكمال صاحبها إذ يشاركه فيها أقل الناس عقولا، والحيوان الأعجم مثل البقرة بما في ضرعها من لبن، والشاة بما على ظهرها من صرف، بل غالب حالها أنها بضد ذلك.

وربما تطلبوا الكمال في أجناس غير مألوفة كالجن، أو زيادة خلقة لا أثر لها في عمل المتصف بها مثل جمال الصورة وكمال القامة، وتلك وإن كانت ملازمة لموصوفاتها لكنها لا تفيدهم أن يكونوا مصادر كمالات، فقد يشاركهم فيها كثير من العجماوات كالظباء والمها والطواويس، فإن ارتقوا على ذلك تطلبوا الكمال في أسباب القوة والعزة من بسطة الجسم وإجادة الرماية والمجالدة والشجاعة على لقاء العدو. وهذه أشبه بأن تعد في أسباب الكمال ولكنها مكملات للكمال الإنساني لأنها آلات لإنقاذ المقاصد السامية عند أهل العقول الراجحة والحكمة الإلهية كالأنبياء والملوك الصالحين وبدون ذلك تكون آلات لإنفاذ المقاصد السيئة مثل شجاعة أهل الحرابة وقطاع الطريق والشطار، ومثل القوة على خلع الأبواب لاقتحام منازل الآمنين.

وإنما الكمال الحق هو زكاء النفس واستقامة العقل، فهما السبب المطرد لإيصال **المنافع** العامة لما في هذا العالم، ولهما تكون القوى المنفذة خادمة كالشجاعة للمدافعين عن الحق والملجئين للطغاة على الخنوع إلى الدين، على أن ذلك معرض للخطأ وغيبة الصواب فلا يكون له العصمة من ذلك إلا إذا كان محفوفا بالإرشاد الإلهي المعصوم، وهو مقام النبوءة والرسالة.

فهؤلاء الكفرة من قوم نوح لما قصروا عن إدراك أسباب الكمال وتطلبوا الأسباب من غير مكانها نظروا نوحا عليه السلام وأتباعه فلم يروه من جنس غير البشر، وتأملوه وأتباعه فلم يروا في أجسامهم ما يميزهم عن الناس وربما كان في عموم الأمة من هم أجمل وجوها أو أطول أجساما.

من أجل ذلك أخطأوا الاستدلال فقالوا: ﴿ما نراك إلا بشرا مثلنا﴾ ، فأسندوا الاستدلال إلى الرؤية. والرؤية

---

(١) التحرير والتنوير، ١١/١١٠

هنا رؤية العين لأنهم جعلوا استدلالهم ضروريا من المحسوس من أحوال الأجسام، أي ما نراك غير إنسان، وهو مماثل للناس لا يزيد عليهم." (١)

"والطيبة: النافعة. استعير الطيب للنفع لحسن وقعه في النفوس كوقع الروائح الذكية. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ في سورة يونس [٢٢].

والفرع: ما امتد من الشيء وعلا، مشتق من الافتراع وهو الاعتلاء. وفرع الشجرة: غصنها، وأصل الشجرة: جذرها.

والسماء: مستعمل في الارتفاع، وذلك مما يزيد الشجرة بهجة وحسن منظر.

والأكل بضم الهمزة المأكول، وإضافة إلى ضمير الشجرة على معنى اللام. وتقدم عند قوله: ﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ في سورة الرعد [٤].

فالمشبه هو الهيئة الحاصلة من البهجة في الحس والفرح في النفس وازدياد أصول النفع باكتساب **المنافع** المتتالية بهيئة رسوخ الأصل، وجمال المنظر، ونماء أغصان الأشجار، ووفرة الثمار، ومتعة أكلها. وكل جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى، وذلك أكمل أحوال التمثيل أن يكون قابلا لجمع التشبيه وتفريعه.

وكذلك القول في تمثيل حال الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة على الضد بجميع الصفات الماضية من اضطراب الاعتقاد، وضيق الصدر، وكدر التفكير، والضر المتعاقب. وقد اختصر فيها التمثيل اختصارا اكتفاء بالمضاد، فانتفت عنها سائر **المنافع** للكلمة الطيبة.

وفي "جامع الترمذي" عن إنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ﴿مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾ قال: هي النخلة . ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ قال: هي الحنظل".

وجملة ﴿اجتثت من فوق الأرض﴾ صفة ل ﴿شجرة خبيثة﴾ لأن الناس لا يتركونها تلتفت على الأشجار فتقتلها. والاجتثاث: قطع الشيء كله، مشتق من الجثة وهي الذات. و ﴿من فوق الأرض﴾ تصوير ل ﴿اجتثت﴾. وهذا مقابل قوله في صفة الشجرة الطيبة ﴿أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾.

وجملة ﴿ما لها من قرار﴾ تأكيد لمعنى الاجتثاث لأن الاجتثاث من انعدام القرار.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ١١/٢٤٠

(٢) التحرير والتنوير، ١٢/٢٥٠

"وما في أطوار الإنسان وأحواله من العبر.

وخصت النحل وثمراتها بالذكر لوفرة منافعها والاعتبار بإلهامها إلى تدبير بيوتها وإفراز شهدها.

والتنويه بالقرآن وتنزيهه عن اقتراب الشيطان، وإبطال افترائهم على القرآن.

والاستدلال على إمكان البعث وأنه تكوين كتكوين الموجودات.

والتحذير مما حل بالأمم التي أشركت بالله وكذبت رسله عليهم السلام عذاب الدنيا وما ينتظرهم من عذاب الآخرة. وقابل ذلك بضده من نعيم المتقين المصدقين والصابرين على أذى المشركين والذين هاجروا في الله وظلموا.

والتحذير من الارتداد عن الإسلام، والترخيص لمن أكره على الكفر في التقية من المكرهين.

والأمر بأصول من الشريعة؛ من تأصيل العدل، والإحسان، والمواساة، والوفاء بالعهد، وإبطال الفحشاء والمنكر والبغي، ونقض العهود، وما على ذلك من جزاء بالخير في الدنيا والآخرة.

وأدمج في ذلك ما فيها من العبر والدلائل، والامتنان على الناس بما في ذلك من **المنافع** الطيبات المنتظمة، والمحاسن، وحسن المناظر، ومعرفة الأوقات، وعلامات السير في البر والبحر، ومن ضرب الأمثال.

ومقابلة الأعمال بأضدادها.

والتحذير من الوقوع في حبائل الشيطان.

والإنذار بعواقب كفران النعمة.

ثم عرض لهم بالدعوة إلى التوبة ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ [سورة النحل:١١٩] الخ....

وملاك طرائق دعوة الإسلام ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة﴾ [سورة النحل:١٢٥].

وتثبيت الرسول – عليه الصلاة والسلام – ووعده بتأييد الله إياه.

[١] ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.." (١)

"ويجوز أن يكون عطف الجملة على الجملة، فيكون نصب ﴿الأنعام﴾ بفعل ضمر يفسره المذكور بعده على طريقة الاستغلال. والتقدير: وخلق الأنعام خلقها. فيكون الكلام مفيدا للتأكيد لقصد تقوية الحكم اهتماما بما في الأنعام من الفوائد؛ فيكون امتنانا على المخاطبين، وتعريضا بهم، فإنهم كفروا نعمة الله بخلقها فجعلوا من نتاجها لشركائهم وجعلوا لله نصيبا. وأي كفران أعظم من أن يتقرب بالمخلوقات إلى غير من خلقها. وليس في الكلام حصر على كلا التقديرين.

---

(١) التحرير والتنوير، ٧٦/١٣

وجملة ﴿لكم فيها دفء﴾ في موضع الحال من الضمير المنصوب في ﴿خلقها﴾ على كلا التقديرين؛ إلا أن الوجه الأول تمام مقابلة لقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ [سورة النحل:٤] من حيث حصول الاعتبار ابتداء ثم التعريض بالكفران ثانيا، بخلاف الوجه الثاني فإن صريحه الامتنان ويحصل الاعتبار بطريق الكناية من الاهتمام.

والمقصود من الاستدلال هو قوله تعالى: ﴿والأنعام خلقها﴾ وما بعده إدماج للامتنان.

و ﴿الأنعام﴾: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز. وتقدم في سورة الأنعام. وأشهر الأنعام عند العرب الإبل، ولذلك يغلب أن يطلق لفظ الأنعام عندهم على الإبل.

والخطاب صالح لشمول المشركين، وهم المقصود ابتداء من الاستدلال، وأن يشمل جميع الناس ولا سيما فيما تضمنه الكلام من الامتنان.

وفيه التفات من طريق الغيبة الذي في قوله تعالى: ﴿عما يشركون﴾ [سورة النحل:٣] باعتبار بعض المخاطبين.

والدفء - بكسر الدال - اسم لما يتدفأ به كالملء والحمل. وهو الثياب المنسوجة من أوبار الأنعام وأصوافها وأشعارها تتخذ منها الخيام والملابس.

فلما كانت تلك مادة النسج جعل المنسوج كأنه مظروف في الأنعام.

وخص الدفء بالذكر من بين عموم **المنافع** للعناية به.

وعطف ﴿منافع﴾ على ﴿دفء﴾ من عطف العام على الخاص لأن أمر الدفء قلما تستحضره الخواطر.." (١)

"وقد أفاد ﴿وتحمل أثقالكم﴾ معنى تحملكم وتبلغكم، بطريقة الكناية القريبة من التصريح. ولذلك عقب بقوله تعالى: ﴿لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾.

وجملة ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ صفة لـ ﴿بلد﴾، وهي مفيدة معنى البعد، لأن بلوغ المسافر إلى بلد بمشقة هو من شان البلد البعيد، أي لا تبلغونه بدون الأنعام الحاملة أثقالكم.

والشق - بكسر الشين - في قراءة الجمهور: المشقة. والباء للملابسة. والمشقة: التعب الشديد.

وما بعد أداة الاستثناء مستثنى من أحوال لضمير المخاطبين.

وقرأ أبو جعفر ﴿إلا بشق الأنفس﴾ - بفتح الشين - وهو لغة في الشق المكسور الشين.

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٣/١٣

وقد نفت الجملة أن يكونوا بالغيه إلا بمشقة، فأفاد ظاهرها أنهم كانوا يبلغونه بدون الرواحل بمشقة وليس مقصودا، إذ كان الحمل على الأنعام مقارنا للأسفار بالانتقال إلى البلاد البعيدة، بل المراد: لم تكونوا بالغيه لولا الإبل أو بدون الإبل، فحذف لقرينة السيا ق.

وجملة ﴿إن ربكم لرؤوف رحيم﴾ تعليل لجملة ﴿والأنعام خلقها﴾ ، أي خلقها لهذه **المنافع** لأنه رؤوف رحيم بكم.

[٨] ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾

﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾

و ﴿الخيل﴾ معطوف على ﴿والأنعام خلقها﴾ [سورة النحل:٥] فالتقدير: وخلق الخيل.

والقول في مناط الاستدلال وما بعده من الامتنان والعبرة في كل كالقول فيما تقدم من قوله تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء﴾ الآية.

والفعل المحذوف يتعلق به ﴿لتركبوها وزينة﴾ ، أي خلقها الله لتكونوا مراكب للبشر، ولولا ذلك لم تكن في وجودها فائدة لعمران العالم.." [١]

"والتعهد به بالحق والواجب على المحقوق به.

والقصد: استقامة الطريق. وقع هنا وصفا للسبيل من قبيل الوصف بالمصدر، لأنه يقال: طريق قاصد، أي مستقيم، وذلك أقوى في الوصف بالاستقامة كشأن الوصف بالمصادر، وإضافة ﴿قصد﴾ إلى ﴿السبيل﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، وهي صفة مخصصة لأن التعريف في ﴿السبيل﴾ للجنس. ويتعين تقدير مضاف لأن الذي تعهد الله به هو بيان السبيل لا ذات السبيل.

وضمير ﴿ومنها﴾ عائد إلى ﴿السبيل﴾ على اعتبار جواز تأنيثه.

و ﴿جائر﴾ وصف لـ ﴿السبيل﴾ السبيل باعتبار استعماله مذكرا. أي من جنس السبيل الذي منه أيضا قصد سبيل جائر غير قصد.

والجائر: هو الحائد عن الاستقامة. وكنى به عن طريق غير موصل إلى المقصود، أي إلى الخير، وهو المفضي إلى ضر، فهو جائز بسالكه. ووصفه بالجائر على طريقة المجاز العقلي. ولم يضف السبيل الجائر إلى الله لأن سبيل الضلال اخترعها أهل الضلالة اختراعا لا يشهد له العقل الذي فطر الله الناس عليه، وقد نهى الله الناس عن سلوكها.

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٥/١٣

وجملة ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ تذييل.

[١٠] ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون﴾

استئناف لذكر دليل آخر من مظاهر بديع خلق الله تعالى أدمج فيه امتنان بما يأتي به ذلك الماء العجيب من **المنافع** للناس من نعمة الشراب ونعمة الطعام للحيوان الذي به قوام حياة الناس وللناس أنفسهم.

وصيغة تعريف المسند إليه والمسند أفادت الحصر، أي هو لا غيره. وهذا قصر على خلاف مقتضى الظاهر، لأن المخاطبين لا ينكرون ذلك ولا يدعون له شريكا في ذلك، ولكنهم لما عبدوا أصناما لم تنعم عليهم بذلك كان حالهم كحال من يدعي أن الأصنام أنعمت عليهم بهذه النعم، فنزلوا منزلة من يدعي الشركة لله في الخلق، فكان القصر قصر إفراد تخريجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

وأنزل الماء من السماء تقدم معناه عند قوله تعالى: ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرج." [١]

"ووجود ﴿من﴾ في صدر الكلام يدل على تقدير فعل يدل عليه الفعل الذي في الجملة قبلها وهو ﴿نسقيكم﴾ [سورة النحل:٦٦]. فالتقدير: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب. وليس متعلقا ب ﴿تتخذون﴾، كما دل على ذلك وجود "من" الثانية في قوله: ﴿تتخذون منه سكرا﴾ المانع من اعتبار تعلق ﴿من ثمرات النخيل﴾ بـ ﴿تتخذون﴾ ، فإن نظم الكلام يدل على قصد المتكلم ولا يصح جعله متعلقا بـ ﴿تتخذون﴾ مقدما عليه، لأنه يبعد المعنى عن الامتنان بلطف الله تعالى إذ جعل نفسه الساقي للناس.

وهذا عطف منه على منة، لآن ﴿نسقيكم﴾ وقع بيانا لجملة ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾

ومفاد فعل ﴿نسقيكم﴾ مفاد الامتنان لآن السقي مزية. وكلتا العبرتين في السقي. والمناسبة أن كلتيها ماء وأن كلتيها يضغط باليد، وقد أطلق العرب الحلب على عصير الخمر والنبيذ، قال حسان يذكر الخمر الممزوجة والخالصة:

كلتاهما حلب العصير فعاطني ... بزجاجة أرخاهما للمفصل

ويشير إلى كونهما عبرتين من نوع متقارب جعل التذييل بقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية﴾ عقب ذكر السقيين دون أن يذيل سقي الألبان بكونه آية، فالعبرة في خلق الثمار صالحة للعصر والاختمار، ومشتملة على منافع للناس ولذات. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾. فهذا مرتبط بما تقدم من العبرة بخلق النبات والثمرات من قوله تعالى: ﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل﴾ [النحل:١١] الآية.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣/٩٠

وجملة ﴿تتخذون منه سكرا﴾ الخ في موضع الحال.
و "من" في الموضعين ابتدائية، فالأولى متعلقة بفعل ﴿نسقيكم﴾ المقدر، والثانية متعلقة بفعل ﴿تتخذون﴾.
وليست الثانية تبعيضية، لأن السكر ليس بعض الثمرات، فمعنى الابتداء ينتظم كلا الحرفين.
والسكر - بفتحتين -: الشراب المسكر.
وهذا امتنان بما فيه لذتهم المرغوبة لديهم والمتفشية فيهم "وذلك قبل تحريم الخمر لأن هذه الآية مكية وتحريم الخمر نزل بالمدينة" فالامتنان حينئذ بمباح.
والرزق: الطعام، ووصف بـ ﴿حسنا﴾ لما فيه من **المنافع**، وذلك التمر والعنب." (١)

"ولما كانت بيوت النحل معروفة للمخاطبين اكتفى في الاعتبار بها بالتنبيه عليها والتذكير بها.
وأشير إلى أنها تتخذ في أحسن البقاع من الجبال أو الشجر أو العرش دون بيوت الحشرات الأخرى. وذلك لشرفها بما تحتويه من **المنافع**، وبما تشتمل عليه من دقائق الصنعة؛ ألا ترى إلى قوله تعالى في ضدها: ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾ [العنكبوت:٤١].
وتقدم الكلام على الجبال عند قوله تعالى: ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ في سورة البقرة [٢٦٠].
و ﴿من﴾ الداخلة على ﴿الجبال﴾ وما عطف عليها بمعنى "في"، وأصلها ﴿من﴾ الابتدائية، فالتعبير بها دون "في" الظرفية لأن النحل تبني لنفسها بيوتا ولا تجعل بيوتها جحور الجبال ولا أغصان الشجر ولا أعواد العريش وذلك كقوله تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ [البقرة:١٢٥]. وليست مثل "من" التي في قوله تعالى: ﴿وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾ [النحل:٨١].
و"ما يعرشون" أي ما يجعلونه عروشا، جمع عريش، وهو مجلس مرتفع على الأرض في الحائط أو الحقل يتخذ من أعواد ويسقف أعلاه بورق ونحوه ليكون له ظل فيجلس فيه صاحبه مشرفا على ما حوله.
يقال: عرش، إذا بنى ورفع، ومنه سمي السرير الذي يرتفع عن الأرض ليجلس عليه العظماء عرشا.
وتقدم عند قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾ في سورة الأنعام [١٤١]، وقوله تعالى: ﴿وما كانوا يعرشون﴾ في سورة الأعراف [١٣٧].
وقرأ جمهور القراء بكسر راء- ﴿يعرشون﴾. وقرأه ابن عامر بضمها.
و ﴿ثم﴾ للترتيب الرتبي، لأن إلهام النحل للأكل من الثمرات يترتب عليه تكون العسل في بطونها، وذلك أعلى رتبة من أتخاذها البيوت لاختصاصها بالعسل دون غيرها من الحشرات التي تبني البيوت، ولأنه أعظم

(١) التحرير والتنوير، ١٣/١٦٣

فائدة للإنسان، ولأن منه قوتها الذي به بقاؤها. وسمي امتصاصها أكلا لأنها تقتاته فليس هو بشرب.." (١)

"العجيب، فيكون مضمون جملة ﴿يخرج من بطونها شراب﴾ بيانا لما سأل عنه. وهو أيضا موضع المنة كما كان تمام العبرة.

وجيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدد الخروج وتكرره.

وعبر عن العسل باسم الشراب دون العسل لما يومئ إليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به وهو محل المنة، وليرتب عليه جملة ﴿فيه شفاء للناس﴾. وسمي شرابا لأنه مائع يشرب شربا ولا يمضغ. وقد تقدم ذكر الشراب في قوله تعالى: ﴿لكم منه شراب﴾ في أوائل هذه السورة [١٠].

ووصفه بـ ﴿مختلف ألوانه﴾ لأن له مدخلا في العبرة، كقوله تعالى: ﴿تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض﴾ [الرعد:٤]، فذلك من الآيات على عظيم القدرة ودقيق الحكمة.

وفي العسل خواص كثيرة **المنافع** مبينة في علم الطب.

وجعل الشفاء مظروفا في العسل على وجه الظرفية المجازية. وهي الملابسة للدلالة على تمكن ملابسة الشفاء إياه، وإيماء إلى أنه لا يقتضي أن يطرد الشفاء به في كل حالة من أحوال الأمزجة، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شرب العسل. فالظرفية تصلح للدلالة على تخلف المظروف عن بعض أجزاء الظرف، لأن الظرف يكون أوسع من المظروف غالبا. شبه تخلف المقارنة في بعض الأحوال بقلة كمية المظروف عن سعة الظرف في بعض أحوال الظروف ومظروفاتها، وبذلك يبقى تعريف"الناس"على عمومه، وإنما التخلف في بعض الأحوال العارضة، ولولا العارض لكانت الأمزجة كلها صالحة للاستشفاء بالعسل.

وتنكير ﴿شفاء﴾ في سياق الإثبات لا يقتضي العموم فلا يقتضي أنه شفاء من كل داء، كما أن مفاد "في" من الظرفية المجازية لا يقتضي عموم الأحوال.

وعموم التعريف في قوله تعالى: ﴿للناس﴾ لا يقتضي العموم الشمولي لكل فرد فرد بل لفظ "الناس" عمومه بدلي. والشفاء ثابت للعسل في أفراد الناس بحسب اختلاف حاجات الأمزجة إلى الاستشفاء. وعلى هذا الاعتبار محمل ما جاء في الحديث الذي في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري: أن رجلا جاء إلى رسول

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣/١٦٦

الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: "اسقه عسلا". فذهب فسقاه عسلا. ثم جاء، فقال: يا رسول الله." (١)

"البديهية إنما يحصل عند حدوث تصور موضوعاتها وتصور محمولاتها. وحدوث هذه التصورات إنما هو بسبب إعانة الحواس على جزئياتها، فكانت الحواس الخمس هي السبب الأصلي لحدوث هذه العلوم، وكان السمع والبصر أول الحواس تحصيلا للتصورات وأهمها.

وهذه العلوم نعمة من الله تعالى ولطف، لأن بها إدراك الإنسان لما ينفعه وعمل عقله فيما يدله على الحقائق، ليسلم من الخطأ المفضي إلى الهلاك والأرزاء العظيمة، فهي نعمة كبرى. ولذلك قال تعالى عقب ذكرها ﴿لعلكم تشكرون﴾، أي هي سبب لرجاء شكرهم واهبها سبحانه.

والكلام على معنى ﴿لعلكم تشكرون﴾ مضى غير مرة في نظيره ومماثله.

[٧٩] ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾

موقع هذه الجملة موقع التعليل والتدليل على عظيم قدرة الله وبديع صنعه وعلى لطفه بالمخلوقات، فإنه لما ذكر موهبة العقل والحواس التي بها تحصيل ارمنافع ودفع الأضرار نبه الناس إلى لطف يشاهدونه أجلى مشاهدة لأضعف الحيوان، بأن تسخير الجو للطير وخلقها صالحة لأن ترفرف فيه بدون تعليم هو لطف بها اقتضاه ضعف بنياتها، إذ كانت عادمة وسائل الدفاع عن حياتها، فجعل الله لها سرعة الانتقال مع الابتعاد عن تناول ما يعدو عليها من البشر والدواب.

فلأجل هذا الموقع لم تعطف الجملة على التي قبلها لأنها ليس في مضمونها نعمة على البشر، ولكنها آية على قدرة الله تعالى وعلمه، بخلاف نظيرتها في سورة الملك [١٩] ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات﴾ فإنها عطفت على آيات دالة على قدرة الله تعالى من قوله: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ [الملك:٥] ثم قال: ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾ [الملك:٦] ثم قال: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾ [الملك:١٦] ثم قال: ﴿أولم يروا إلى الطير﴾ الآية. ولذلك المعنى عقبت هذه وحدها بجملة ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

والتسخير: التذليل للعمل. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿والنجوم مسخرات بأمره﴾ في سورة الأعراف [٥٤].." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦٨/١٣

(٢) التحرير والتنوير، ١٨٨/١٣

"والإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى: ﴿من نشاء﴾ احتباك، والتقدير: فأنجيناهم ومن شئنا وننجي رسولنا ومن نشاء منكم، وهو تأميل لهم أن يؤمنوا لأن من المكذبين يوم نزول هذه الآية من آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مكة.

وهذا من لطف الله بعباده في ترغيبهم في الإيمان، ولذلك لم يقل: ونهلك المسرفين، بل عاد إلى صيغة المضي الذي هو حكاية لما حل بالأمم السالفة وبقي المقصود من ذكر الذين أهلكوا وهو التعريض بالتهديد والتحذير أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك مع عدم التصريح بالوعيد.

والمسرفون: المفرطون في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه حتى حل بهم العذاب.

[١٠] ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾

استئناف جواب عن قولهم: ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ بإيقاظهم إلى أن الآية التي جاءتهم هي أعظم من الآيات التي أرسل بها الأولون، وتجهيلا لألبابهم التي لم تدرك عظم الآية التي جاءتهم كما أنبأ بذلك موقع هذه الجملة في هذا المكان.

وفي ضمير ذلك تحقيق لكون القرآن حقا، وتذكير بما يشتمل عليه من **المنافع** التي عموا عنها فيما حكي عنهم أول السورة بقوله تعالى: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم﴾ كما أنبأ بذلك ظاهر معنى الآية.

ولقصد هذا الإيقاظ صدرت الجملة بما يفيد التحقيق من لام القسم وحرف التحقيق وجعل إنزال الكتاب إليهم كما اقتضته تعدية فعل ﴿أنزلنا﴾ بحرف "إلى" شأن تعدية فعل الإنزال أن يكون المجرور بـ"إلى" هو المنزل إليه فجعل الإنزال إليهم لكونهم بمنزلة من أنزل إليه نظرا إلى أن الإنزال كان لأجلهم ودعوتهم. وذلك أبلغ من أن يقال: لقد أنزلنا لكم.

وتنكير ﴿كتابا﴾ للتعظيم إيماء إلى أنه جمع خصلتين عظيمتين: كونه كتاب هدى، وكونه آية ومعجزة للرسول صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو مدانيه.

والذكر يطلق على التذكير بـما فيه الصلاح، ويطلق على السمعة والصيت كقوله: ﴿ذكر رحمت ربك عبده زكريا﴾ . وقد أوثر هذا المصدر هنا وجعل معرفا." (١)

"ونهارا، سفرا وحضرا، مكيا ومدنيا، سلميا وحربيا، ناسخا ومنسوخا، محكما ومتشابها.

وقد عدت السورة الخامسة والمائة في عداد نزول سورة القرآن في رواية جابر بن زيد، عن ابن عباس قال:

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧/١٧

نزلت بعد سورة النور وقبل سورة المنافقين. وهذا يقتضي أنها عنده مدنية كلها لأن سورة النور وسورة المنافقين مدنيتان فينبغي أن يتوقف في اعتماد هذا فيها.

وعدت آياتها عند أهل المدينة ومكة: سبعا وسبعين. وعدها أهل الشام: أربعا وسبعين. وعدها أهل البصرة: خمسا وسبعين: وعدها أهل الكوفة: ثمانا وسبعين.

ومن أغراض هذه السورة:

- خطاب الناس بأمرهم أن يتقوا الله ويخشوا يوم الجزاء وأهواله.

- والاستدلال على نفي الشرك وخطاب المشركين بأن يقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد الله تعالى بالإلهية وعن المجادلة في ذلك اتباعا لوساوس الشياطين، وأن الشياطين لا تغني عنهم شيئا ولا ينصرونهم في الدنيا وفي والآخرة.

- وتفظيع جدال المشركين في الوحدانية بأنهم لا يستندون إلى علم وأنهم يعرضون عن الحجة ليضلوا الناس.

- وأنهم يرتابون في البعث وهو ثابت لا ريبة فيه وكيف يرتابون فيه بعلة استحالة الإحياء بعد الإماتة ولا ينظرون أن الله أوجد الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم طوره أطورا.

وأن الله ينزل الماء على الأرض الهامدة فتحيا وتخرج من أصناف النبات، فالله هو القادر على كل ذلك. فهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

وأن مجادلتهم بإنكار البعث صادرة عن جهالة وتكبر عن الامتثال لقول الرسول صلى الله عليه وسلم.

- ووصف المشركين بأنهم في تردد من أمرهم في اتباع دين الإسلام.

- والتعريض بالمشركين بتكبرهم عن سنة إبراهيم عليه السلام الذي ينتمون إليه ويحسبون أنهم حماة دينه وأمناء بيته وهم يخالفونه في أصل الدين.

وتذكير لهم بما من الله عليهم في مشروعية الحج من المنافع فكفروا نعمته.." [1]

"التأذين بالحج فآل إلى كونه علة في التأذين بالحج.

ومعنى ﴿ليشهدوا﴾ ليحضروا منافع لهم، أي ليحضروا فيحصلوا منافع لهم إذ يحصل كل واحد ما فيه نفعه. وأهم المنافع ما وعدهم الله على لسان إبراهيم عليه السلام من الثواب. فكنى بشهود المنافع عن نيلها. ولا يعرف ما وعدهم الله على ذلك بالتعيين. وأعظم ذلك اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد ليتلقى

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣٤/١٧

بعضهم عن بعض ما به كمال إيمانه.

وتنكير ﴿منافع﴾ للتعظيم المراد منه الكثرة وهي المصالح الدينية والدنيوية لأن في مجمع الحج فوائد جمة للناس: لأفرادهم من الثواب والمغفرة لكل حاج. ولمجتمعهم لأن في الاجتماع صلاحا في الدنيا بالتعارف والتعامل.

وخص من المنافع أن يذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام. وذلك هو النحر والذبح للهدايا. وهو مجمل في الواجبة والمتطوع بها. وقد بينته شريعة إبراهيم من قبل بما لم يبلغ إلينا. وبينه ال إسلام بما فيه شفاء.

وحرف ﴿على﴾ متعلق بـ ﴿يذكروا﴾. وهو للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى الملابسة والمصاحبة، أي على الأنعام. وهو على تقدير مضاف، أي عند نحر بهيمة الأنعام أو ذبحها.

و"ما" موصولة، و ﴿من بهيمة الأنعام﴾ بيان لمدلول "ما". والمعنى: ليذكروا اسم الله على بهيمة الأنعام. وأدمج في هذا الحكم الامتنان بأن الله رزقهم تلك الأنعام. وهذا تعريض بطلب الشكر على هذا الرزق بالإخلاص لله في العبادة وإطعام المحاويج من عباد الله من لحومها. وفي ذلك سد لحاجة الفقراء بتزويدهم ما يكفيهم لعامهم. ولذلك فرع عليه ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ .

فالأمر بالأكل منها يحتمل أن يكون أمر وجوب في شريعة إبراهيم عليه السلام فيكون الخطاب في قوله: ﴿فكلوا﴾ لإبراهيم ومن معه.

وقد عدل عن الغيبة الواقعة في ضمائر ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ ، إلى الخطاب بذلك في قوله: ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس﴾ الخ. على طريقة الالتفات أو على تقدير قول محذوف مأمور به إبراهيم عليه السلام.." (١)

"جملة: ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾ الخ. وشعائر الله أخص من حرمات الله فعطف هذه الجملة للعناية بالشعائر.

وعلى التفسير الثاني للشعائر تكون جملة: ﴿ومن يعظم شعائر الله﴾ عطفا على جملة: ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ تخصيصا لها بالذكر بعد ذكر حرمات الله.

وضمير ﴿فإنها﴾ عائد إلى شعائر الله المعظمة فيكون المعنى: فإن تعظيمها من تقوى القلوب.

وقوله: ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾ جواب الشرط والرابط بين الشرط وجوابه هو العموم في قوله: ﴿القلوب﴾

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧/١٧٨

فإن من جملة القلوب قلوب الذين يعظمون شعائر الله. فالتقدير: فقد حلت التقوى قلبه بتعظيم الشعائر لأنها من تقوى القلوب. أي لأن تعظيمها من تقوى القلوب.

وإضافة ﴿تقوى﴾ إلى ﴿القلوب﴾ لأن تعظيم الشعائر اعتقاد قلبي ينشأ عنه العمل.

[٣٣] ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق﴾

جملة: ﴿لكم فيها منافع﴾ حال من ال‍أنعام في قوله: ﴿وأحلت لكم الأنعام﴾ وما بينهما اعتراضات أو حال من ﴿شعائر الله﴾ على التفسير الثاني للشعائر. والمقصود بالخبر هنا: هو صنف من الأنعام، وهو صنف الهدايا بقرينة قوله: ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾.

وضمير الخطاب موجه للمؤمنين.

والمنافع: جمع منفعة، وهي اسم النفع، وهو حصول ما يلائم ويحف. وجعل **المنافع** فيها يقتضي أنها انتفاع بخصائصها مما يراد من نوعها قبل أن تكون هديا.

وفي هذا تشريع لإباحة الانتفاع بالهدايا انتفاعا لا يتلفها، وهو رد على المشركين إذ قلدوا الهدي وأشعروه حظروا الانتفاع به: من ركوبه وحمل عليه وشرب لبنه. وغير ذلك.

وفي الموطأ عن أبي هريرة: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال: اركبها؟ فقال: إنها بدنة، فقال: اركبها، فقال: إنها بدنة، فقال: اركبها، ويلك في الثانية." (١)

"الأموال. وإطلاق الزكاة على الصدقة مشهور في القرآن. قال تعالى: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ [فصلت:٧,٦] وهي من سورة مكية بالاتفاق، وقال: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾ [مريم: ٥٥,٥٤] ولم تكن زكاة النصب مشروعة في زمن إسماعيل.

وهي السورة السادسة والسبعون في عداد نزول سور القرآن نزلت بعد سورة ﴿الطور﴾ وقبل سورة ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ .

وآياتها مائة وسبع عشرة في عد الجمهور. وعدها أهل الكوفة مائة وثمان عشرة، فالجمهور عدوا ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ آية، وأهل الكوفة عدوا ﴿أولئك هم الوارثون﴾ [المؤمنون: ١١,١٠] آية وما بعدها آية أخرى، كما يؤخذ من كلام أبي بكر ابن العربي في العارضة في الحديث الذي سنذكره عقب تفسير قوله تعالى: ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها

---

(١) التحرير والتنوير، ١٨٦/١٧

خ الدون﴾ .

أغراض السورة

هذه السورة تدور آيها حول محور تحقيق الوحدانية وإبطال الشرك ونقض قواعده، والتنويه بالإيمان وشرائعه.

فكان افتتاحها بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلوا به من أصول الفضائل الروحية والعملية التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك.

وأعقب ذلك بوصف خلق الإنسان أصله ونسله الدال على تفرد الله تعالى بالإلهية لتفرده بخلق الإنسان ونشأته ليبتدئ الناظر بالاعتبار في تكوين ذاته ثم بعدمه بعد الحياة. ودلالة ذلك الخلق على إثبات البعث بعد الممات وأن الله لم يخلق الخلق سدى ولعبا.

وانتقل إلى الاعتبار بخلق السماوات ودلالته على حكمة الله تعالى.

وإلى الاعتبار والامتنان بمصنوعات الله تعالى التي أصلها الماء الذي به حياة ما في هذا العالم من الحيوان والنبات وما في ذلك من دقائق الصنع، وما في الأنعام من **المنافع** ومنها الحمل.

ومن تسخير **المنافع** للناس وما أوتيه الإنسان من آلات الفكر والنظر. وورد ذكر الحمل على الفلك فكان منه تخلص إلى بعثه نوح وحدث الطوفان.." [1]

"دليلا على انفراد الله تعالى بالخلق وتمام القدرة وسعة العلم. والأنعام تقدم أنها الإبل في غالب عرف العرب.

وجملة ﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ بيان لجملة ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ فلذلك لم تعطف لأنها في موقع المعطوف عطف البيان.

والعبرة حاصلة من تكوين ما في بطونها من الألبان الدال عليه ﴿نسقيكم﴾ . وأما ﴿نسقيكم﴾ بمجرده فهو منة. وقد تقدم نظير هذه الآية مفصلا في سورة النحل.

وجملة ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ وما بعدها معطوفة على جملة ﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ فإن فيه بقية بيان العبرة وكذلك الجمل بعده. وهذه **المنافع** هي الأصواف والأوبار والأشعار والنتاج.

وأما الأكل منها فهو عبرة أيضا إذ أعدها الله صالحة لتغذية البشر بلحومها لذيذة الطعم، وألهم إلى طريقة شيها وصلقها وطبخها، وفي ذلك منة عظيمة ظاهرة.

وكذلك القول في معنى ﴿وعليها... تحملون﴾ فإن في ذلك عبرة بإعداد الله تعالى إياها لذلك وفي ذلك

---

(١) التحرير والتنوير، ١٨/٦

منة ظاهرة. والحمل صادق بالركوب وبحمل الأثقال.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بفتح النون، وقرأه الباقون عدا أبا جعفر بضم النون يقال: سقاه وأسقاه بمعنى، وقرأه أبو جعفر بتاء التأنيث مفتوحة على أن الضمير للأنعام.

وعطف ﴿وعلى الفلك﴾ إدماج وتهيئة للتخلص إلى قصة نوح.

[٢٥,٢٣] ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين﴾ .

لما كان الاستدلال والامتنان اللذان تقدما موجهين إلى المشركين الذين كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم واعتلوا لذلك بأنهم لا يؤمنون برسالة بشر مثلهم وسألوا إنزال ملائكة ووسموا الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنون، فلما شابهوا بذلك قوم نوح ومن جاء بعدهم ناسب." (١)

"قال أبو العالية: مكث رسول الله بمكة عشر سنين بعد ما أوحي إليه خائفا هو وأصحابه ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح فقال رجل: يا رسول الله أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال رسول الله: "لا تغبرون أي لا تمكثون إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم في الملإ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة" .ونزلت هذه الآية.

فكان اجتماع هذه المناسبات سببا لنزول هذه الآية في موقعها هذا بما اشتملت عليه من الموعود به الذي لم يكن مقتصرا على إبدال خوفهم أمنا كما اقتضاه أثر أبي العالية، ولكنه كان من جملة الموعود كما كان سببه من عداد الأسباب.

وقد كان المسلمون واثقين بالأمن ولكن الله قدم على وعدهم بالأمن أن وعدهم بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين والشريعة فيهم تنبيها لهم بأن سنة الله أنه لا تأمن أمة بأس غيرها حتى تكون قوية مكينة مهيمنة على أصقاعها. ففي الوعد بالاستخلاف والمكين وتبديل الخوف أمنا إيماء إلى التهيؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك، وأن ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ ، وإذا حل الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة، فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات.

والموصول عام لا يختص بمعين، وعمومه عرفي، أي غالب فلا يناكده ما يكون في الأمة من مقصرين في

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٣/١٨

عمل الصالحات فإن تلك **المنافع** عائدة على مجموع الأمة.

والخطاب في ﴿منكم﴾ لأمة الدعوة بمشركيها ومنافقيها بأن الفريق الذي يتحقق فيه الإيمان وعمل الصالحات هو الموعود بهذا الوعد.

والتعريف في ﴿الصالحات﴾ للاستغراق، أي عملوا جميع الصالحات، وهي الأعمال التي وصفها الشرع بأنها صلاح، وترك الأعمال التي وصفها الشرع بأنها فساد لأن إبطال الفساد صلاح.

فالصالحات جمع صالحة: وهي الخصلة والفعلة ذات الصلاح، أي التي شهد الشرع بأنها صالحة. وقد تقدم في أول البقرة.

واستغراق ﴿الصالحات﴾ استغراق عرفي، أي عمل معظم الصالحات ومهماتها ومراجعها مما يعود إلى تحقيق كليات الشريعة وجري حالة مجتمع الأمة على مسلك الاستقامة، وذلك يحصل بالاستقامة في الخويصة وبحسن التصرف في العلاقة المدنية بين." [1]

"تحريضا على النظر، ومن جاحد ينكر عليه إهماله النظر، ومن موفق يحث على زيادة النظر.

والرؤية بصرية، وقد ضمن الفعل معنى النظر فعدي إلى المرئي بحرف "إلى". والمد: بسط الشيء المنقبض المتداخل يقال: مد الحبل ومد يده، ويطلق المد على الزيادة في الشيء وهو استعارة شائعة، وهو هنا الزيادة في مقدار الظل.

ثم إذا كان المقصود بفعل الرؤية حالة من أحوال الذات تصح رؤيتها فلك تعدية الفعل إلى الحالة كقوله تعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ [الفيل: ١] ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا﴾ [نوح: ١٥]، وصح تعديته إلى اسم الذات مقيدة بالحالة المقصودة بحال أو ظرف صلة نحو ﴿أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت﴾ [الغاشية: ١٧] ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ [البقرة: ٢٥٨] ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

والفرق بين التعديتين أن الأولى يقصد منها العناية بالحالة لا بصاحبها؛ فالمقصود من آية سورة الفيل: الامتنان على أهل مكة بما حل بالذين انتهكوا حرمتها من الاستئصال، والمقصود من آية سورة الغاشية العبرة بكيفية خلقه الإبل لما تشتمل عليه من عجيب **المنافع**، وكذلك الآيتان الأخيرتان، وإذ قد كان المقام هنا مقام إثبات الوحدانية والإلهية الحق لله تعالى، أوثر تعلق الرؤية باسم الذات ابتداء ثم مجيء الحال بعد ذلك مجيئا كمجيء بدل الاشتمال بعد ذكر المبدل منه.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢٦/١٨

وأما قوله في سورة [نوح ١٥] ﴿ألم تروا كيف خلق الله﴾ دون أن يقال: ألم تروا ربكم كيف خلق، لأن قومه كانوا متصلبين في الكفر وكان قد جادلهم في الله غير مرة فعلم أنه إن ابتدأهم بالدعوة إلى النظر في الوحدانية جعلوا أصابعهم في آذانهم فلم يسمعوا إليه فبادأهم باستدعاء النظر إلى كيفية الخلق.

وعلى كل فإن ﴿كيف﴾ هنا مجردة عن الاستفهام وهي اسم دال على الكيفية فهي في محل بدل الاشتمال من ﴿ربك﴾ ، والتقدير: ألم تر إلى ربك إلى هيئة مده الظل. وقد تقدم ذكر خروج "كيف" عن الاستفهام عند قوله تعالى ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ في سورة آل عمران، فإنه لا يخلو النهار من وجود الظل.

وفي وجود الظل دقائق من أحوال النظام الشمسي فإن الظل مقدار محدد من الظلمة." (١)

"اسم الرحمن.

وقرأ الجمهور ﴿تأمرنا﴾ بتاء الخطاب. وقرأه حمزة والكسائي بياء الغيبة على أن قولهم ذلك يقولونه بينهم ولا يشافهون به النبي صلى الله عليه وسلم.

والضمير المستتر في ﴿زادهم﴾ عائد إلى القول المأخوذ من ﴿وإذا قيل لهم﴾ . والنفور: الفرار من الشيء. وأطلق هنا على لازمه وهو البعد. وإسناد زيادة النفور إلى القول لأنه سبب تلك الزيادة فهم كانوا أصحاب نفور من سجود لله فلما أمروا بالسجود للرحمان زادوا بعدا من الإيمان، وهذا كقوله في سورة نوح ﴿فلم يزدهم دعائي إلا فرارا﴾ .

وهذا موضع سجدة من سجود القرآن بالاتفاق. ووجه السجود هنا إظهار مخالفة المشركين إذ أبوا السجود للرحمن، فلما حكي إباؤهم من السجود للرحمان في معرض التعجيب من شأنهم عزز ذلك بالعمل بخلافهم فسجد النبي صلى الله عليه وسلم هنا مخالفا لهم مخالفة بالفعل مبالغة في مخالفته لهم بعد أن أبطل كفرهم بقوله ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ الآيات الثلاث. وسن الرسول عليه السلام السجود في هذا الموضع.

[٦١] ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا﴾ .

استئناف ابتدائي جعل تمهيدا لقوله ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا﴾ الآيات التي هي محصول الدعامة الثالثة من الدعائم الثلاث التي أقيم عليها بناء هذه السورة، وافتتحت كل دعامة منها بـ ﴿تبارك الذي...﴾ الخ كما تقدم في صدر السورة. وافتتح ذلك بإنشاء الثناء على الله بالبركة والخير لما

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/٦٣

جعله للخلق من **المنافع**. وتقدم ﴿تبارك﴾ أول السورة وفي قوله ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ في [الأعراف: ٥٤].

والبروج: منازل مرور الشمس فيما يرى الراصدون. وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا﴾ في أول [سورة الحجر: ١٦].

والامتنان بها لأن الناس يوقتون بها أزمانهم.

وقرأ الجمهور ﴿سراجا﴾ بصيغة المفرد. والسراج: الشمس كقوله ﴿وجعل الشمس سراجا﴾ في [سورة نوح: ١٦]. ومناسبة ذلك لما يرد بعده من قوله ﴿وهو الذي جعل." (١)

"ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلونذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾

﴿أم﴾ منقطعة بمعنى ﴿بل﴾ للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض مع مراعاة وجود معنى الاستفهام أو لفظه بعدها لأن ﴿أم﴾ لا تفارق معنى الاستفهام. انتقل بهذا الإضراب من الاستفهام الحقيقي التهكمي إلى الاستفهام التقريري، ومن المقدمة الإجمالية وهي قوله ﴿آلله خير أما يشركون﴾ ، إلى الغرض المقصود وهو الاستدلال. عدد الله الخيرات **والمنافع** من آثار رحمته ومن آثار قدرته. فهو استدلال مشوب بامتنان لأنه ذكرهم بخلق السماوات والأرض فشمل ذلك كل الخلائق التي تحتوي عليها الأرض من الناس والعجماوات، فهو امتنان بنعمة إيجادهم وإيجاد ما به قوام شؤونهم في الحياة، وبسابق رحمته، كما عددها في موضع آخر عليهم بقوله ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ .

و ﴿من﴾ للاستفهام. وهي مبتدأ والخبر جملة ﴿خلق السماوات..﴾ الخ وهو استفهام تقريري على أن الله إله واحد لا شريك له، ولا تقدير في الكلام. وذهب الزمخشري وجميع متابعيه إلى أن ﴿من﴾ موصولة وأن خبرها محذوف دل عليه قوله فيما تقدم ﴿آلله خير﴾ [النمل: ٥٩] وأن بعد "أم" همزة استفهام محذوفة، والتقدير: بل أمن خلق السماوات الخ خير أم ما تشركون. وهو تفسير لا داعي إليه ولا يناسب معنى الإضراب لأنه يكون في جملة الغرض الأول على ما فسر به في "الكشاف" فلا يجدر به إضراب الانتقال. فالاستفهام تقرير كما دل عليه قوله في نهايته في ﴿أإله مع الله﴾ فهو تقرير لإثبات أن الخالق والمنبت والرازق هو الله، وهو مشوب بتوبيخ، فلذلك ذيل بقوله ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ كما سيأتي، أي من غرض

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/٨٤

الدليل الإجمالي إلى التفصيل.

والخطاب بـ ﴿لكم﴾ موجه إلى المشركين لـلتعويض بأنهم ما شكروا نعمة الله.

وذكر إنزال الماء لأنه من جملة ما خلقه الله، ولقطع شبهة أن يقولوا: إن المنبت للشجر الذي فيه رزقنا هو الماء، اغترارا بالسبب فبودروا بالتذكير بأن الله خلق الأسباب وهو الأسباب وهو خالق المسببات بإزالة الموانع والعوارض العارضة لتأثير الأسباب وبتوفير القوى الحاصلة في الأسباب، وتقدير المقادير المناسبة للانتقاء بالأسباب، فقد ينزل الماء بإفراط فيجرف الزرع والشجر أو يقتلهما، ولذلك جمع بين قوله ﴿وأنزلنا﴾ وقوله ﴿فأنبتنا﴾ تنبيها." (١)

"و ﴿تأجرني﴾ مضارع آجره مثل نصره إذا كان أجيرا له. والحجج اسم جمع حجة بكسر الحاء وهي السنة، مشتقة من أسم الحج لأن الحج يقع كل سنة وموسم الحج يقع في آخر شهر من السنة العربية.

والتزام جعل تزويجه مشروطا بعقد الإجارة بينهما عرض منه على موسى وليس بعقد نكاح ولا إجارة حتى يرضى موسى. وفي هذا العرض دليل لمسألة جمع عقد النكاح مع عقد الإجارة. والمسألة أصلها من السنة حديث المرأة التي عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم فلم يتزوجها وزوجها من رجل كان حاضرا مجلسه ولم يكن عنده ما يصدقها فزوجه إياها بما معه من القرآن، أي على أن يعلمها إياه.

والمشهور من مذهب مالك أن الشرط المقارن لعقد النكاح إن كان مما ينافي عقد النكاح فهو باطل ويفسخ النكاح قبل البناء ويثبت بعده بصداق المثل. وأما غير المنافي لعقد النكاح فلا يفسخ النكاح لأجله ولكن يلغي الشرط. وعن مالك أيضا: تكره الشروط كله ا ابتداء فإن وقع مضى. وقال أشهب وأصبغ: الشرط جائز واختاره أبو بكر بن العربي وهو الحق للآية، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم "أحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم عليه الفروج" .

وظاهر الآية أيضا أن الإجارة المذكورة جعلت مهرا للبنت. ويحتمل أن المشروط التزام الإجارة لا غير، وأما المهر فتابع لما يعتبر في شرعهم ركنا في النكاح، والشرائع قد تختلف في معاني الماهيات الشرعية. وإذا أخذنا بظاهر الآية كانت دالة على أنهما جعلا المهر منافع إجارة الزوج لشعيب فيحتمل أن يكون ذلك برضاها لأنها سمعت وسكتت بناء على عوائد مرعية عندهم بأن ينتفع بتلك **المنافع** أبوها.

ويحتمل أن يكون لولي المرأة بالأصالة إن كان هو المستحق للمهر في تلك الشريعة، فإن عوائد الأمم مختلفة في تزويج ولاياهم. وإذ قد كان في الآية إجمال لم تكن كافية في الاحتجاج على جواز جعل مهر

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/٢٨٥

المرأة منافع من إجارة زوجها فيرجع النظر في صحة جعل المهر إجارة إلى التخريج على قواعد الشريعة والدخول تحت عموم معنى المهر، فإن منافع الإجارة ذات قيمة فلا مانع من أن تجعل مهرا.
والتحقيق من مذهب مالك أنه مكروه ويمضي. وأجاره الشافعي وعبد الملك بن حبيب من المالكية. وقال أبو حنيفة: لا يجوز جعل المهر منافع حر ويجوز كونه منافع عبد. ولم ير في الآية دليلا لأنها تحتمل عنده أن يكون النكاح مستوفيا شروطه فوقع الإجمال فيها. ووافقه أبن القاسم من أصحاب مالك.." [١]

"وإذ قد كان حكم شرع من قبلنا مختلفا في جعله شرعا لنا كان حجة مختلفا فيها بين علماء أصول الفقه فزادها ضعفا في هذه الآية الإجمال الذي تطرقها فوجب الرجوع إلى أدلة أخرى من شريعة الإسلام.
ودليل الجواز داخل تحت عموم معنى المهر. فإن كانت **المنافع** المجعولة مهرا حاصلة قبل البناء فالأمر ظاهر، وإن كان بعضها أو جميعها لا يتحقق إلا بعد البناء كما في هذه الآية رجعت المسألة إلى النكاح بمهر مؤجل وهو مكروه غير باطل. وإلى الإجارة بعوض غير قابل للتبعيض بتبعيض العمل فإذا لم يتم الأجير العمل في هذه رجعت إلى مسألة عجز العامل عن العمل بعد أن قبض الأجر.
وقد ورد في الصحيح وفي حديث المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فظهر عليه أنه لم يقبلها وأن رجلا من أصحابه قال له: إن لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها. قال: هل عندك ما تصدقها؟ إلى أن قال له صلى الله عليه وسلم "التمس ولو خاتما من حديد" قال: ما عندي ولا خاتم من حديد، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "ما معك من القرآن"؟ قال: معي سورة كذا وسورة كذا لسور سماها. قال له: "قد ملكتكها بما معك من القرآن" . وفي رواية أن النبي أمره أن يعلمها عشرين آية مما معه من القرآن وتكون امرأته. فإن صحت هذه الزيادة كان الحديث جاريا على وفق ما في هذه الآية وكان حجة الصحيح فالقصة خصوصية يقتصر على موردها.
ولم يقع التعرض في الآية للعمل المستأجر عليه. وورد في سفر الخروج أنه رعى غنم يثرون وهو شعيب، ولا غرض للقرآن في بيان ذلك. ولم يقع التعرض إلى الأجر وقد علمت أن الظاهر أنه إنكاحه البنت فإذا لم نأخذ بهذا الظاهر كانت الآية غير متعرضة للأجر إذ لا غرض فيه من سوق القصة فيكون جاريا على ما هو متعارف عندهم في أجور الأعمال وكانت للقبائل عوائد في ذلك.
وقد أدركت منذ أول هذا القرن الرابع عشر أن راعي الغنم له في كل عام قميص وحذاء يسمى بلغة ونحو ذلك لا أضبطه الآن.

---

(١) التحرير والتنوير، ٤٥/٢٠

وقوله ﴿ فإن أتممت عشرا فمن عندك﴾ جعل ذلك إلى موسى تفضلا منه أن اختاره ووكله إلى ما تكون عليه حاله في منتهى الحجج الثمان من رغبة في الزيادة.

و(من) ابتدائية. و(عند) مستعملة في الذات والنفس مجازا، والمجرور خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: فإتمام العشر من نفسك، أي لا مني، يعني: أن الإتمام ليس داخلا في العقيدة التي هي من الجانبين فكان مفهوم الظرف معتبرا هنا.." (١)

"و ﴿من شيء﴾ بيان لـ ﴿ما أوتيتم﴾ والمراد من أشياء **المنافع** كما دل عليه المقام لأن الإيتاء شائع في إعطاء ما ينفع.

وقد التفت الكلام من الغيبة من قوله ﴿أولم نمكن لهم حرما﴾ إلى الخطاب في قوله ﴿أوتيتم﴾ لأن ما تقدم من الكلام أوجب توجيه التوبيخ مواجهة إليهم.

والمتاع: ما ينتفع به زمنا ثم يزول.

والزينة: ما يحسن الأجسام.

والمراد بكون ما عند الله خيرا، أن أجناس الآخرة خير مما أوتوه في كمال أجناسها، وأما كونه أبقى فهو بمعنى الخلود.

وتفرع على هذا الخبر استفهام توبيخي وتقريري على عدم عقل المخاطبين لأنهم لما لم يستدلوا بعقولهم على طريق الخير نزلوا منزلة من أفسد عقله فسئلوا: أهم كذلك؟.

وقرأ الجمهور ﴿تعقلون﴾ بتاء الخطاب. وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿يعقلون﴾ بياء الغيبة على الالتفات عن خطابهم لتعجب المؤمنين من حالهم، وقيل: لأنهم لما كانوا لا يعقلون نزلوا منزلة الغائب لبعدهم عن مقام الخطاب.

[٦١] ﴿أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ أحسب أن موقع الفريع هنا أن مما أومأ إليه قوله ﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾ [القصص: ٦٠] ما كان المشركون يتبجحون به على المسلمين من وفرة الأموال ونعيم الترف حين كان معظم المسلمين فقراء ضعفاء قال تعالى ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾ [المطففين: ٣١] أي منعمين، وقال ﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا﴾ [المزمل: ١١] فيظهر من آيات القرآن أن المشركين كان من دأبهم التفاخر بما هم فيه من النعمة قال تعالى ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾ [هود:

---

(١) التحرير والتنوير، ٤٦/٢٠

١١٦] وقال ﴿وارجعوا إلى ما أترفتم فيه﴾ [الأنبياء: ١٣] فلما أنبأهم الله بأن ما هم فيه من الترف إن هو إلا متاع قليل، قابل ذلك بالنعيم الفائق الخالد الذي أعد للمؤمنين، وهي تفيد مع ذلك تحقيق معنى الجملة التي قبلها لأن الثانية زادت الأولى بيانا بأن ما أتوه زائل زوالا معوضا بضد المتاع والزينة وذلك قوله ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ .." (١)

"بكفر المشركين جلائل نعمه.

ومن أبدع الاستدلال أن اختير للاستدلال على وحدانية الله هذا الصنع العجيب المتكرر كل يوم مرتين، والذي يستوي في إدراكه كل مميز، والذي هو أجلى مظاهر التغير في هذا العالم فهو دليل الحدوث وهو مما يدخل في التكيف به جميع الموجودات في هذا العالم فهو دليل الحدوث وهو مما يدخل في التكيف به جميع الموجودات في هذا العلم حتى الأصنام فهي تظلم وتسود أجسامها بظلام الليل وتشرق وتضيء بضياء النهار، وكان الاستدلال بتعاقب الضياء والظلمة على الناس أقوى وأوضح من الاستدلال بتكوين أحدهما لو كان دائما، لأن قدرة خالق الضدين وجاعل أحدهما ينسخ الآخر كل يوم أظهر منها لو لم يخلق إلا أقواهما وأنفعهما، ولأن النعمة بتعاقبها دوما أشد من الإنعام بأفضلهما وأنفعهما لأنه لو كان دائما لكان مسؤوما ولحصلت منه طائفة من **المنافع**، وفقدت منافع ضده. فالتنقل في النعم مرغوب فيه ولو كان تنقلا إلى ما هو دون. وسيق إليهم هذا الاستدلال بأسلوب تلقين النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم اهتماما بهذا التذكير لهذا الاستدلال ولاشتمال على ضدين متعاقبين، حتى لو كانت عقولهم قاصرة عن إدراك دلالة أحد الضدين لكان في الضد الآخر تنبيه لهم، ولو قصروا عن حكمة كل واحد منهما كان في تعاقبهما ما يكفي للاستدلال.

وجئ في الشرطين بحرف ﴿إن﴾ لأن الشرط مفروض فرضا مخالفا للواقع. وعلم أنه قصد الاستدلال بعبرة خلق النور، فلذلك فرض استمرار الليل، والمقصود ما بعده وهو قوله ﴿من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾ .

والسرمد: الدائم الذي لا ينقطع. قال في (الكشاف): من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثة سرد وواحد فرد. والميم مزيدة ووزنه فعمل، ونظيره دلامص من الدلاص اهـ. دلامص (بضم الدال وكسر الميم) من صفات الدرع وأصلها دلاص (بدال مكسورة) أي براقة. ونسب إلى صاحب القاموس وبعض النحاة أن ميم سرمد أصلية وأن وزنه فعلل. والمراد بجعل الليل سرمدا أن لا يكون الله خلق الشمس ويكون خلق الأرض فكانت الأرض مظلمة.

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٦/٢٠

والرؤية قلبية. والاستفهام في ﴿أرأيتم﴾ تقريري، والاستفهام في ﴿من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾ إنكاري وهم معترفون بهذا الانتفاء وأن خالق الليل والنهار هو الله تعالى لا غيره.

والمراد بالغاية في قوله ﴿إلى يوم القيامة﴾ إحاطة أزمنة الدنيا وليس المراد انتهاء." (١)

"والسلطان: الحجة. ولما جعل السلطان مفعولا للإنزال من عند الله تعين أن المراد به كتاب كما قالوا ﴿حتى تنزل علينا كتابا نقرأه﴾ [الإسراء: ٩٣]. ويتعين أن المراد بالتكلم الدلالة بالكتابة كقوله تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ [الجاثية: ٢٩]، أي تدل كتابته، أي كتب فيه بالقلم القدرة أن الشرك حق كقوله تعالى: ﴿أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون﴾ [الزخرف: ٢١]. وقدم ﴿به﴾ على ﴿يشركون﴾ للاهتمام بالتنبيه على سبب إشراكهم الداخل في حيز الإنكار للرعاية على الفاصلة.

[٣٦، ٣٧] ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون [٣٦] أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون [٣٧]﴾ .

أعيد الكلام على أحوال المشركين زيادة في بسط الحالة التي يتلقون بها الرحمة وضدها تلقيا يستوون فيه بعد أن ميز فيما تقدم حال تلقي المشركين للرحمة بالكفران المقتضي أن المؤمنين لا يتلقونها بالكفران. فأريد تنبيههم هنا إلى حالة تلقيهم ضد الرحمة بالقنوط ليحذروا ذلك ويرتاضوا برجاء الفرج والابتهال إلى الله في ذلك والأخذ في أسباب انكشافها. والرحمة أطلقت على أثر الرحمة وهو المنافع والأحوال الحسنة الملائمة كما ينبغي عنه مقابلتها بالسيئة وهي ما يسوء صاحبه ويحزنه فالمقصد من هذه الآية تخلق المسلمين بالخلق الكامل، ف ﴿الناس﴾ مراد به خصوص المشركين بقرينة أن الآية ختمت بقوله: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ .

وقدمت في هذه الآية إصابة الرحمة على إصابة السيئة عكس التي قبلها للاهتمام بالحالة التي جعلت مبدأ العبرة وأصل الاستدلال، فقوله: ﴿فرحوا بها﴾ وصف لحال الناس عندما تصيبهم الرحمة ليبنى عليه ضده في قوله: ﴿إذا هم يقنطون﴾ لما يقتضيه القنوط من التذمر والغضب، فليس في الكلام تعريض بإنكار الفرح حتى نضطر إلى تفسير الفرح بالبطر ونحوه لأنه عدول عن الظاهر بلا داع. والمعنى: أنهم كما يفرحون عند الرحمة ولا يخطر ببالهم زوالها ولا يحزنون من خشيته، فكذلك ينبغي أن يصبروا عند ما يمسهم الضر ولا يقنطوا من زواله لأن قنوطهم من زواله غير جار على قياس حالهم عندما تصيبهم رحمة حين لا يتوقعون زوالها، فالقنوط هو محل الإنكار عليهم وهذا كقوله تعالى: ﴿لا يسأم الأنسان من دعاء الخير وإن مسه

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٩/٢٠

الشر فيؤوس قنوط﴾ [فصلت: ٤٩] في أن محل التعجيب هو اليأس والقنوط، وتقدم ذكر الإذاقة آنفا. والقنوط: اليأس، وتقدم في سورة الحجر [٥٥]." (١)

"[١٧].

فالمسبب على الكفر هو استئصالهم وهو مدلول قوله: ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ كما ستعرفه، والمسبب على كفران نعمة تقارب البلاد هو تمزيقهم كل ممزق ، أي تفريقهم، فنظم الكلام جاء على طريقة اللف والنشر المشوش.

ودرج المفسرون على أنهم دعوا الله بذلك، ويعكر عليه أنهم لم يكونوا مقرين بالله فيما يظهر فإن درجنا على أنهم عرفوا الله ودعوه بهذا الدعاء لأنهم لم يقدروا نعمته العظيمة قدرها فسألوا الله أن تزول تلك القرى العامرة ليسيروا في الفيافي ويحملوا الأزواد من الميرة والشراب.

ثم يحتمل أن يكون أصحاب هذه المقالة ممن كانوا أدركوا حالة تباعد الأسفار في بلادهم قبل أن تؤول إلى تلك الحضارة أو ممن كانوا يسمعون أحوال الأسفار الماضية في بلادهم أو أسفار الأمم البادية فتروق لهم تلك الأحوال، وهذا من كفر النعمة الناشئ عن فساد الذوق في إدراك **المنافع** وأضدادها.

والمباعدة بصيغة المفاعلة القائمة مقام همزة التعدية والتضعيف. فالمعنى: ربنا ابعد بين أسفارنا. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب".

وقرأه الجمهور: ﴿باعد﴾ . وقرأ ابن كثير وابن عمرو: ﴿بعد﴾ بفتح الباء وتشديد العين. وقرأه يعقوب وحده: ﴿ربنا﴾ بالرفع و ﴿باعد﴾ بفتح العين وفتح الدال بصيغة الماضي على إن الجملة خبر المبتدأ. والمعنى: أنهم تذمروا من ذلك العمران واستقلوه وطلبوا أن تزداد البلاد قربا وذلك من بطر النعمة بطلب ما يتعذر حينئذ.

والتركيب يعطي معنى "اجعل البعد بين أسفارنا". ولما كانت ﴿بين﴾ تقتضي أشياء تعين أن المعنى: باعد بين السفر والسفر من أسفارنا. ومعنى ذلك إبعاد المراحل لأن كل مرحلة تعتبر سفرا، أي باعد بين مراحل أسفارنا.

ومعنى: ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ جعلنا أولئك الذين كانوا في الجنات وفي بحبوحة العيش أحاديث،أي لم يبق منهم أحد فصار وجودهم في الأخبار والقصص وأبادهم الله حين تفرقوا بعد سيل العرم فكان ذلك

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٦/٢١

مسرعا فيهم بالفناء بالتغرب في الأرض والفاقة وتسلط العوادي عليهم في الطرقات كما ستعمله.وفعل الجعل يقتضي تغييرا ولما علق." (١)

"على انفراده وحده بالتصرف، وعلى أنه المنتقم وعل أنه واحد، فلذلك عاقبهم على الشرك،وفي انعكاس حالهم من الرفاهة إلى الشظف آية على تقلب الأحوال وتغير العالم وآية على صفات الأحوال لله تعالى من خلق ورزق وإحياء وإماتة، وفي ذلك آية من عدم الاطمئنان لدوام حال في الخير والشر. وفيما كان من عمران إقليمهم واتساع قراهم إلى بلاد الشام آية على مبلغ العمران وعظم السلطان من آيات التصرفات، وآية من الأمن أساس العمران. وفي تمنيهم زوال ذلك آية على ما قد تبلغه العقول من الانحطاط المفضي إلى اختلال أمور الأمة وذهاب عظمتها وفيما صاروا إليه من النزوح عن الأوطان والتشتت في الأرض آية على ما يلجئ الاضطرار إليه الناس من ارتكاب الأخطار والمكاره كما يقول المثل: الحمى أرضعتني إليك.

والجمع بين ﴿صبار﴾ و ﴿شكور﴾ في الوصف لإفادة أن واجب المؤمن التخلق بالخلقين وهما: الصب على المكاره، والشمر على النعم، وهؤلاء المتحدث عنهم لم يشكروا النعمة فيطروها، ولم يصبروا على ما أصابهم من زوالها فاضطربت نفوسهم وعمهم الجزع فخرجوا من ديارهم وتفرقوا في الأرض، ولا تسأل عما لا قوة في ذلك من المتآلف والمذلات.

فالصبار يعتبر من تلك الأحوال فيعلم أن الصبر علك المكاره خير من الجزع ويرتكب أخف الضرين، ولا يستخفه الجزع فيلقي بنفسه إلى الأخطار ولا ينظر في العواقب.

والشكور يعتبر بما أعطى من النعم فيزداد شكرا لله تعالى ولا يبطر النعمة ولا يطغى فيعاقب بسلبها كما سلبت عنهم، ومن وراء ذلك أن يحركهم الله التوفيق. وأن يقذف بهم الخذلان في بنيات الطريق.

وفي الآية دلالة واضحة على أن تأمين الطريق وتيسير المواصلات وتقريب البلدان لتيسير تبادل **المنافع** واجتلاب الأرزاق من هنا ومن هناك نعمة إلهية ومقصد شرعي يحبه الله لمن يحب أن يرحمه من عباده كما قال تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾ [البقرة: ١٢٥] وقال: ﴿وآمنهم من خوف﴾ [قريش: ٤]، فلذلك قال هنا: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين﴾ [سبأ: ١٨].." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ٤٤/٢٢

(٢) التحرير والتنوير، ٤٧/٢٢

"﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا﴾.

الأظهر أن هذا من خطاب الله تعالى المشركين والجن. والفاء فصيحة ناشئة عن المقاولة السابقة. وهي كلام موجه من جانب الله تعالى إلى الملائكة والمقصود به: التعريض بضلال الذين عبدوا الملائكة والجن لأن الملائكة يعلمون مضمون هذا الخبر فلا نقصد إفادتهم به. والمعنى: إذ علمتم أنكم عبتم الجن فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا.

ويجوز أن يكون من خطاب الملائكة للفريقين بعد أداء الشهادة عليهم توبيخا لهم وإظهارا للغضب عليهم تحقيقا للتبرؤ منهم، والفاء أيضا فصيحة وهي ظاهرة.

وقدم الظرف على عامله لأن النفع والضر يومئذ قد أختص صغيرهما وكبيرهما بالله تعالى خلاف ما كان في الدنيا من نفع الجن عبادتهم ببعض **المنافع** الدنيوية ونفع المشركين الجن بخدمة وساوسهم وتنفيذ أغراضهم من الفتنة والإضلال، وكذلك الضر في الدنيا أيضا.

والملك هنا بمعنى: القدرة، أي لا يقدر بعضكم على نصر أو نفع.بعض. وتقدم عند وقوله تعالى: ﴿قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم﴾ في سورة العقود [١٧].

وقدم النقع في حيز النفي تأييسا لهم لأنهم يرجون أن يشفعوا لهم يومئذ: ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ .

وعطف نفي الضر على نفع النفع للدلالة على سلب مقدرتهم على أي شيء فإن بعض الكائنات يستطيع أن يضر ولا يستطيع أن ينفع كالعقرب.

﴿ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

عطف على قوله: ﴿ثم نقول للذين أشركوا﴾ [سبأ: ٤٠]. وقد وقع الإخبار عن هذا القول بعد الإخبار عن الحوار الذي يجري بين الملائكة وبين المشركين يومئذ إظهار لاستحقاقهم هذا الحكم الشديد، ولكنه كالمعلول لقوله: ﴿لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا﴾.

والذوق: مجاز لمطلق الإحساس، واختياره دون الحقيقة لشهرة استعماله.

ووصف النار بالتي كانوا يكذبون بها في صلة الموصول من إيذان بغلطهم." (١)

"الناس في **المنافع** والمدارك والعقائد.وفي الحديث: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٦/٢٢

المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها".

وجرد ﴿مختلفا﴾ من علامة التأنيث مع أن فاعله جمع وشأن النعت السببي أن يوافق مرفوعه في التذكر وضده والإفراد وضده، ولا يوافق في ذلك منعوته، لأنه لما كان الفاعل جمعا لما لا يعقل وهو الألوان كان حذف التاء في مثله جائزا في الاستعمال، وآثره القرآن إيثارا للإيجاز.

والمراد بالثمرات: ثمرات النخيل والأعناب وغيرها، فثمرات النخيل أكثر الثمرات ألوانا، فإن ألوانها تختلف باختلاف أطوارها، فمنها الأخضر والأصفر والأحمر والأسود.

﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾.

عطف على جملة ﴿ألم تر أن الله﴾ فهي مثلها مستأنفة،وعطفها عليها للمناسبة الظاهرة.

و ﴿جدد﴾ مبتدأ ﴿ومن الجبال﴾ خبره. وتقديم الخبر للاهتمام وللتشويق لذكر المبتدأ حثا على التأمل والنظر.

و ﴿من﴾ تبعيضية على معنى: وبعض تراب الجبال جدد، ففي الجبل الواحد توجد جدد مختلفة، وقد يكون بعض الجدد بعضها في بعض الجبال وبعض آخر في بعض آخر.

و ﴿جدد﴾ : جمع جدة بضم الجيم، وهي الطريقة والخطة في الشيء تكون واضحة فيه. يقال للخطة السوداء التي على ظهر الحمار جدة، وللظبي جدتان مسكيتا اللون تفصلان بين لوني ظهره وبطنه، والجدد البيض التي في الجبال هي ما كانت صخورا بيضاء مثل المروة، أو كانت تقرب من البياض فإن من التراب ما يصبر في لون الأهصب فيقال: تراب أبيض، ولا يعنون أنه أبيض كالجير والجص بل يعنون أنه مخالف لغالب ألوان التراب، والجدد الحمر هي ذات الحجارة الحمراء في الجبال.

و ﴿غرابيب﴾ : جمع غربيب، والغربيب: اسم الشيء الأسود الحالك سواده، ولا تعرف له مادة مشتق هو منها، وأحسب أنه مأخوذ من الجامد، وهو الغراب لشهرة الغراب بالسواد.." (١)

"الإنسان،ولذلك أكتفي عن تعيين الممنون به لحمل الفعل على أكمل معناه.وجعلت منة من الله عليهما لأن موسى لم يسأل النبوة إذ ليست النبوة بمكتسبة وكانت منة على هارون أيضا لأنه إنما سأل له موسى ذلك ولم يسأله هارون،فهي منة عليه وإرضاء لموسى،والمنة عليهما من قبيل إيصال **المنافع** فإن الله أرسل موسى لإنقاذ بني إسرائيل من استعباد القبط لإبراهيم وإسرائيل.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/١٥٦

وفي اختلاف مبادئ القصص الثلاث إشارة إلى أن الله يغضب لأوليائه؛إما باستجابة دعوة،وإما لجزاء على سلامة طوية وقلب سليم،وإما لرحمة منه ومنة على عباده المستضعفين.وإنجاء موسى وهارون وقومهما كرامة أخرى لهما ولقومهما بسببهما، وهذه نعمة إزالة الضر،فحصل لموسى وهارون نوعا الإنعام وهما:إعطاء **المنافع**،ودفع المضار.

و ﴿الكرب العظيم﴾ :هو ما كانوا فيه من المذلة تحت سلطة الفراعنة ومن اتباع فرعون إياهم في خروجهم حين تراءى الجمعان فقال أصحاب موسى: ﴿إنا لمدركون﴾ [الشعراء:٦١]فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه البحر،فضربه فانفلق واجتاز منه بنو إسرائيل،ثم مد البحر أمواجه على فرعون وجنده،على أن الكرب العظيم أطلق على الغرق في قصة نوح السابقة وفي سورة الأنبياء على الأمم التي مروا ببلادها من العمالقة والأموريين فكان بنو إسرائيل منتصرين في كل موقعة قاتلوا فيها عن أمر موسى وما انهزموا إلا حين أقدموا على قتال العمالقة والكنعانيين في سهول وادي "شكول" لأن موسى نهاهم عن قتالهم هنالك كما هو مسطور في تاريخهم.

و ﴿هم﴾ من قوله: ﴿فكانوا هم الغالبين﴾ ضمير فصل وهو يفيد قصرا،أي هم الغالبين لغيرهم وغيرهم لم يغلبوهم،أي لم يغلبوا ولو مرة واحدة فإن المنتصر قد ينتصر بعد أن يغلب في مواقع.

[١١٧-١٢٢] ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين﴾

﴿الكتاب المستبين﴾ هو التوراة،والمستبين القوي الوضوح،فالسين والتاء للمبالغة يقال:استبان الشيء إذا ظهر ظهورا شديدا.." [(١)]

"انتقال إلى الاستدلال بخلق الناس وهو الخلق العجيب.وأدمج فيه الاستدلال بخلق أصلهم وهو نفس واحدة تشعب منها عدد عظيم وبخلق زوج آدم ليتقوم ناموس التناسل.والجملة يجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير الجلالة،ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا تكريرا للاستدلال.

والخطاب للمشركين بدليل قوله بعده: ﴿فأنى تصرفون﴾ ،وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب،ونكتته أنه لما أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم عنهم بطريق الغيبة أقبل على خطابهم ليجمع في توجيه الاستدلال إليهم بين طريقي التعريض والتصريح.وتقدم نظير هذه الجملة في سورة الأعراف،إلا أن في هذه الجملة عطف قوله: ﴿جعل منها زوجها﴾ بحرف ﴿ثم﴾ الدال على التراخي الرتبي لأن مساقها الاستدلال على

---

(١) التحرير والتنوير، ٧٥/٢٣

الوحدانية وإبطال الشريك بمراتبه،فكان خلق آدم دليلا على عظيم قدرته تعالى وخلق زوجه من نفسه دليلا أخر مستقل الدلالة على عظيم قدرته.فعطف بحرف ﴿ثم﴾ الدال على عطف الجمل على التراخي الرتبي إشارة إلى استقلال الجملة المعطوفة بها بالدلالة مثل الجملة المعطوفة هي عليها،فكان خلق زوج آدم منه أدل على عظيم القدرة من خلق الناس من تلك النفس الواحدة ومن زوجها لأنه خلق لم تجر به عادة فكان ذلك الخلق أجلب لعجب السامع من خلق الناس فجيء له بحرف التراخي المستعمل في تراخي المنزلة لا في تراخي الزمن لأن زمن خلق زوج آدم سابق على خلق الناس.فأما آية الأعراف فمساقها مساق الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد،فذكر الأصلان للناس معطوفا أحدهما على الآخر بحرف التشريك في الحكم الذي هو الكون أصلا لخلق الناس.

وقد تضمنت الآية ثلاث دلائل على عظم القدرة خلق الناس من ذكر وأنثى بالأصالة وخلق الذكر الأول بالإدماج وخلق الأنثى بالأصالة أيضا.

﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾

استدلال بما خلقه الله تعالى من الأنعام عطف على الاستدلال بخلق الإنسان لأن المخاطبين بالقرآن يومئذ قوام حياتهم بالأنعام ولا تخلو الأمم يومئذ من الحاجة إلى الأنعام ولم تزل الحاجة إلى الأنعام حافة بالبشر في قوام حياتهم.

وهذا اعتراض بين جملة ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ وبين ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم﴾ لمناسبة أزواج الأنعام لزوج النفس الواحدة.

وأدمج في هذا الاستدلال امتنان بما فيها من **المنافع** للناس لما دل عليه قوله:." (١)

"فالعالم بالشيء يهتدي إلى طرقه فيبلغ المقصود بيسر وفي قرب ويعلم ما هو من العمل أولى بالإقبال عنه،وغير العالم به يضل مسالكه ويضيع زمانه في طلبه،فإما أن يخيب في سعيه وإما أن يناله بعد أن تتقاذفه الأرزاء وتتنابه النوائب وتختلط عليه الحقائق فربما يتوهم أنه بلغ المقصود حتى إذا انتبه وجد نفسه في غير مراده،ومثله قوله تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا﴾ [النور:٣٩].ومن أجل هذا شاع تشبيه العلم بالنور والجهل بالظلمة.

والمقام الثاني :ناشئ عن الأول وهو مقام السلامة من نوائب الخطأ ومزلات المذلات،فالعالم يعصمه علمه من ذلك والجاهل يريد السلامة فيقع في الهلكة،فإن الخطأ قد يوقع في الهلاك من حيث طلب الفوز ومثله

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/٢٤

قوله تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ [البقرة:١٦]إذ مثلهم بالتاجر خرج يطلب فوائد الربح من تجارته فآب بالخسران ولذلك يشبه سعي الجاهل بخبط العشواء،ولذلك لم يزل أهل النصح يسهلون لطلبة العلم الوسائل التي تقيهم الوقوع فيما لا طائل تحته من أعمالهم.

المقام الثالث :مقام أنس الانكشاف فالعالم تتميز عنده **المنافع** والمضار وتنكشف له الحقائق فيكون مأنوسا بها واثقا بصحة إدراكه وكلما انكشفت له حقيقة كان كمن لقي أنيسا بخلاف غير العالم بالأشياء فإنه في حيرة من أمره حين تختلط عليه المتشابهات فلا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع،فإن اجتهد لنفسه خشي الزلل وإن قلد خشي زلل مقلده،وهذا المعنى يدخل تحت قوله تعالى: ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ [البقرة:٢٠].

المقام الرابع :مقام الغنى عن الناس بمقدار العلم والمعلومات فكلما ازداد علم العالم قوي غناه عن الناس في دينه ودنياه.

المقام الخامس: الالتذاذ بالمعرفة،وقد حصر فخر الدين الرازي اللذة في المعارف وهي لذة لا تقطعها الكثرة.وقد ضرب الله مثلا بالظل إذ قال: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور﴾ [فاطر:١٩.٢٠]فإن الجلوس في الظل يلتذ به أخل البلاد الحارة.

المقام السادس :صدور الآثار النافعة في مدى العمر مما يكسب ثناء الناس في العاجل وثواب الله في الآجل.فإن العالم مصدر الإرشاد والعلم دليل على الخير وقائد إليه قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر:٢٨].والعلم على مزاولته." [١]

"**والمنافع**: جمع منفعة، وهي مفعلة من النفع، وهي: الشيء الذي ينتفع به، أي يستصلح به.

فالمنافع في هذه الآية أريد بها ما قابل منافع أكل لحومها في قوله: ﴿ومنها تأكلون﴾ مثل الانتفاع بأوبارها وألبانها وأثمانها وأعواضها في الديات والمهور، وكذلك الانتفاع بجلودها باتخاذها وغيرها وبالجلوس عليها، وكذلك الانتفاع بجمال مرآها في العيون في المسرح والمراح، **والمنافع** شاملة للركوب الذي في قوله: ﴿لتركبوا منها﴾ ، فذكر **المنافع** بعد ﴿لتركبوا منها﴾ تعميم بعد تخصيص كقوله تعالى: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ [طه: ١٨]بعد قوله: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها﴾ [طه: ١٨]، فذكر هنا الشائع المطروق عندهم ثم ذكر مثيلة في الشيوع وهو الأكل منها، ثم عاد إلى عموم **المنافع**، ثم خص من **المنافع** الأسفار فإن اشتداد الحاجة إلى الأنعام فيها تجعل الانتفاع بركوبها للسفر في محل الاهتمام. ولما كانت **المنافع** ليست

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٨/٢٤

منحصرة في أجزاء الأنعام جيء في متعلقها بحرف "في" دون "من" لأن "في" للظرفية المجازية بقرينة السياق فتشمل كل ما يعد كالشيء المحوي في الأنعام، كقول سبرة بن عمرو الفقعسي من شعراء الحماسة يذكر ما أخذه من الإبل في دية قريب:

نحابي بها أكفاءنا ونهينها ... ونشرب في أثمانها ونقامر

وأنبأ فعل ﴿لتبلغوا﴾ أن الحاجة التي في الصدور حاجة في مكان بعيد يطلبها صاحبها. والحاجة: النية والعزيمة.

والصدور أطلق على العقول اتباعا للمتعارف الشائع كما يطلق القلوب على العقول.

وأعقب الامتنان بالأنعام بالامتنان بالفلك لمناسبة قوله: ﴿ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم﴾ فقال: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ ، وهو انتقال من الامتنان بجعل الأنعام، إلى الامتنان بنعمة الركوب في الفلك في البحار والأنهار فالمقصود هو قوله: ﴿وعلى الفلك تحملون﴾ . وأما قوله: ﴿وعليها﴾ فهو تمهيد له وهو اعتراض بالواو الاعتراضية تكريرا للمنة، على أنه قد يشمل حمل الأثقال على الإبل كقوله تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم﴾ [النحل: ٧]فيكون إسناد الحمل إلى ضمير الناس تغليبا.

ووجه الامتنان بالفلك أنه امتنان بما ركب الله في الإنسان من تدبير والذكاء الذي توصل به إلى المخترعات النافعة بحسب مختلف العصور والأجيال، كما تقدم في سورة البقرة[١٦٤]عند قوله تعالى: ﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ الآيات، وبينا هنالك أن العرب كانوا يركبون البحر الأحمر في التجارة ويركبون الأنهار أيضا قال." [١]

"عطف هذه الجملة له موقع عجيب، فإنه يجوز أن يكون عطفا على جملة ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله﴾ [فصلت:٣٣] الخ تكملة لها فإن المعطوف عليها تضمنت الثناء على المؤمنين إثر وعيد المشركين وذمهم، وهذه الجملة فيها بيان التفاوت بين مرتبة المؤمنين وحال المشركين، فإن الحسنة اسم منقول من الصفة فتلمح الصفة مقارن له، فالحسنة حالة المؤمنين والسيئة حالة المشركين، فيكون المعنى كمعنى آيات كثيرة من هذا القبيل مثل قوله تعالى ﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء﴾ [غافر:٥٨] فعطف هذه الجملة على التي قبلها على هذا الاعتبار يكون من عطف الجمل التي يجمعها غرض واحد وليس من عطف غرض على غرض. ويجوز أن تكون عطفا على جملة ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ [فصلت:٢٦]

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤/٢٥٥

الواقعة بعد جملة ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ [فصلت:٥] إلى قوله ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ [فصلت: من الآية٥] فإن ذلك مثير في نفس النبي صلى الله عليه وسلم الضجر من إصرار الكافرين على كفرهم وعدم التأثر بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحق فهو بحل من تضيق طاقة صبره على سفاهة أولئك الكافرين، فأردف الله ما تقدم بما يدفع هذا الضيق عن نفسه بقوله ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ الآية.

فالحسنة تعم جميع أفراد جنسها وأولاها تبادرا إلى الأذهان حسنة الدعوة إلى الإسلام لما فيها من جم **المنافع** في الآخرة والدنيا، وتشمل صفة الصفح عن الجفاء الذي يلقى به المشركون دعوة الإسلام لأن الصفح من الإحسان، وفيه ترك ما يثير حميتهم لدينهم ويقرب لين نفوس ذوي النفوس اللينة.

فالعطف على هذا من عطف غرض على غرض، وهو الذي عنه بعطف القصة على القصة، وهي تمهيد وتوطئة لقوله عقبها ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ الآية.

وقد علمت غير مرة أن نفي الاستواء ونحوه بين شيئين يراد به غالبا تفضيل أحدهما على مقابلة بحسب دلالة السياق كقوله تعالى ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون﴾ [السجدة:١٨]. وقول الأعشى:

ما يجعل الجد الضنون الذي ... جنب صوب اللجب الماطر

مثل الفراتي إذا ما طما ... يقذف بالبوصي والماهر

فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، دون إعادة ﴿لا﴾ النافية بعد الواو الثانية كما قال تعالى ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ [غافر:٥٨]، فإعادة." (١)

"وذكرت صلتان فيهما دلالة عل الانفراد بالقدرة العظيمة. وعلى النعمة عليهم، ولذلك أقحم لفظ ﴿لكم﴾ في الموضعين ولم يقل: الذي جعل الأرض مهادا وجعل فيها سبلا كما في قوله ﴿ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا﴾ [النبأ: ٦،٧] لأن ذلك مقام الاستدلال على منكري البعث، فسيق لهم الاستدلال بإنشاء المخلوقات العظيمة التي لا تعد إعادة خلق الإنسان بالنسبة إليها شيئا عجيبا.

ولم يكرر اسم الموصول في قوله ﴿وجعل لكم فيها سبلا﴾ لأن الصلتين تجتمعان في الجامع الخيالي إذ كلتاهما من أحوال الأرض فجعلهما كجعل واحد. وضمائر الخطاب الأحد عشر الواقعة في الآيات الأربع من قوله ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدا﴾ إلى قوله ﴿مقرنين﴾ ليست من قبيل الالتفات بل هي جارية على مقتضى الظاهر.

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٦/٢٥

والمهاد: اسم لشيء يمهد، أي يوطأ ويسهل لما يحل فيه، وتقدم في قوله ﴿هم من جهنم مهاد﴾ في سورة الأعراف.[٤١] ووجه الامتنان أنه جعل ظاهر الأرض منبسطا وذلك الانبساط لنفع البشر الساكنين عليها. وهذا لا ينافي أن جسم الأرض كروي كما هو ظاهر لأن كرويتها ليست منفعة للناس. وقرأ عاصم ﴿مهدا﴾ بدون ألف بعد الهاء وهو مراد به المهاد.

والسبل: جمع سبيل، وهو الطريق، ويطلق السبيل على وسيلة الشيء كقوله ﴿يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ [الشورى: من الآية٤٤]. ويصح إرادة المعنيين هنا لأن في الأرض طرقا يمكن سلوكها، وهي السهول وسفوح الجبال وشعابها، أي لم يجعل الأرض كلها جبالا فيعسر على الماشين سلوكها، بل جعل فيها سبلا سهلة وجعل جبالا لحكمة أخرى ولأن الأرض صالحة لاتخاذ طرق مطروقة سابلة.

ومعنى جعل الله تلك الطرق بهذا المعنى: أنه جعل للناس معرفة السير في الأرض واتباع بعضهم آثار بعض حتى تتعبد الطرق لهم وتتسهل ويعلم السائر، أي تلك السبل يوصله إلى مقصده.

وفي تيسير وسائل السير في الأرض لطف عظيم لأن به تيسير التجمع والتعارف واجتلاب **المنافع** والاستعانة على دفع الغوائل والأضرار والسير في الأرض قريبا أو بعيدا من أكبر مظاهر المدنية الإنسانية، ولأن الله جعل في الأرض معايش الناس من النبات والثمر وورق الشجر والكمأة والفقع وهي وسائل العيش فهي سبل مجازية. وتقدم نظير." (١)

"أفضل وأهدى مما أوتيه بنو إسرائيل من مثل ذلك.

و ﴿على﴾ للاستعلاء المجازي، أي التمكن والثبات على حد قوله تعالى ﴿ أولئك على هدى من ربهم﴾ [البقرة: ٥]

وتنوين ﴿شريعة﴾ للتعظيم بقرينة حرف التراخي الرتبي.

والشريعة: الدين والملة المتبعة، مشتقة من الشرع وهو: جعل طريق للسير، وسمي النهج شرعا تسمية بالمصدر. وسميت شريعة الماء الذي يرده الناس شريعة لذلك، قال الراغب: استعير اسم الشريعة للطريقة الإلهية تشبيها بشريعة الماء قلت: ووجه الشبه ما في الماء من **المنافع** وهي الري والتطهير.

و ﴿الأمر﴾ : الشأن، وهو شأن الدين وهو شأن من شؤون الله تعالى، قال تعالى ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾ [الشورى: ٥٢]، فتكون ﴿من﴾ تبعيضية وليست كالتي في قوله آنفا ﴿وآتيناهم بينات من الأمر﴾ [الجاثية: ١٧] لأن إضافة ﴿شريعة﴾ إلى ﴿الأمر﴾ تمنع من ذلك.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١٩/٢٥

وقد بلغت هذه الجملة من الإيجاز مبلغا عظيما إذ أفادت أن شريعة الإسلام أفضل من شريعة موسى، وأنها شريعة عظيمة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم متمكن منها لا يزعزعه شيء عن الدأب في بيانها والدعوة إليها. ولذلك فرع عليه أمره باتباعها بقوله ﴿فاتبعها﴾ أي دم على اتباعها، فالأمر لطلب الدوام مثل ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾ [النساء: ١٣٦].

وبين قوله ﴿فاتبعها﴾ وقوله ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ محسن المطابقة بين الأمر بالاتباع والنهي عن اتباع آخر.

و ﴿الذين لا يعلمون﴾ هم المشركون وأهواؤهم دين الشرك قال تعالى ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ [الجاثية: ٢٣]

والأهواء: جمع هوى، وهو المحبة والميل. والمعنى: أن دينهم أعمال أحبوها لم يأمر الله بها ولا اقتضتها البراهين.

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. والمقصود منه: إسماع المشركين لئلا يطمعوا بصانعة الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم حين يرون منه الإغضاء عن هفواتهم وأذاهم وحين يسمعون في القرآن بالصفح عنهم كما في الآية السالفة ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾ [الجاثية: ١٤] وفيه أيضا تعريض للمسلمين بأن يحذروا من أهواء الذين لا يعلمون. وعن ابن عباس أنها نزلت لما دعته قريش إلى دين آبائه قال البغوي: كانوا يقولون له: ارجع." (١)

"وسياق الكلام يدل على ذم هذا السؤال لقوله عقبه ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ فهو سؤال ينبئ عن مذمة سائليه، فإن كان سؤالهم حقيقة أنبأ عن قلة وعيهم لما يسمعونه من النبي صلى الله عليه وسلم فهم يستعيدونه من الذين علموه فلعل استعادتهم إياه لقصد أن يتدارسوه إذا خلوا مع إخوانهم ليختلقوا مغامر يهيئونها بينهم، أو أن يجيبوا من يسألهم من إخوانهم عما سمعوه في المجلس الذي كانوا فيه. ويجوز أن يكون السؤال على غير حقيقته ناوين به الاستهزاء يظهرون للمؤمنين اهتمامهم باستعادة ما سمعوه ويقولون لإخوانهم: إنما نحن مستهزؤون، أو أن يكون سؤالهم تعريضا بأنهم سمعوا كلاما لا يستبين المراد منه لإدخال الشك في نفوس من يحسون منهم الرغبة في حضور مجالس النبي صلى الله عليه وسلم تعريضا لقلة جدوى حضورها. ويجوز أن تكون الآية أشارت إلى حادثة خاصة ذكر فيها النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين وأحوالهم وعلم الذين كانوا حاضرين منهم أنهم المعنيون بذلك، فأرادوا أن يسألوا سؤال استطلاع

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٦٦/٢٥

هل شعر أهل العلم بأن أولئك هم المعنيون، فيكون مفعول ﴿يستمعون﴾ محذوفا للعلم به عند النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾

استئناف بياني لأن قولهم ﴿ماذا قال آنفا﴾ سؤال غريب من شأنه إثارة سؤال من يسأل عن سبب حصوله على جميع التقادير السابقة في مرادهم منه.

وجيء باسم الإشارة بعد ذكر صفاتهم تشهيرا بهم، وجيء بالموصول وصلته خبرا عن اسم الإشارة لإفادة أن هؤلاء المتميزين بهذه الصفات هم أشخاص الفريق المتقرر بين الناس أنهم فريق مطبوع على قلوبهم لأنه قد تقرر عند المسلمين أن الذين صمموا على الكفر هم قد طبع الله على قلوبهم وأنهم متبعون لأهوائهم، فأفادت أن هؤلاء المستمعين زمرة من ذلك الفريق، فهذا التركيب على أسلوب قوله تعالى ﴿أولئك هم المفلحون﴾ في سورة البقرة. [٥]

والطبع على القلب: تمثيل لعدم مخالطة الهدى والرشد لعقولهم بحال الكتاب المطبوع عليه، أو الإناء المختوم بحيث لا يصل إليه من يحاول الوصول إلى داخله، فمعناه أن الله خلق قلوبهم، أي عقولهم غير مدركة ومصدقة للحقائق والهدى. وهذا الطبع متفاوت يزول بعضه عن بعض أهله في مدد متفاوتة ويدوم مع بعض إلى الموت كما وقع، وزواله بانتهاء ما في العقل من غشاوة الضلالة وبتوجه لطف الله بمن شاء بحكمته اللطف به المسمى بالتوفيق الذي فسره الأشعرية بخلق القدرة والداعية إلى الطاعة، وبأنه ما يقع عنده صلاح العبد آخرة. وفسر المعتزلة اللطف بإيصال **المنافع** إلى العبد من وجه يدق." (١)

"أي يؤاخذه به. والمعنى: أنه مستوجب العقاب كما قال ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ [ابراهيم: ٢٢].

والمعنى أن قصة موسى وفرعون آية للذين يخافون العذاب الأليم فيجتنبون مثل أسباب ما حل بفرعون وقومه من العذاب وهي الأسباب التي ظهرت في مكابرة فرعون عن تصديق الرسول الذي أرسل إليه، وأن الذين لا يخافون العذاب لا يؤمنون بالبعث والجزاء لا يتعظون بذلك لأنهم لا يصدقون بالنواميس الإلهية ولا يتدبرون في دعوة أهل الحق فهم لا يزالون معرضين ساخرين عن دعوة رسولهم متكبرين عليه، مكابرين في دلائل صدقه، فيوشك أن يحل بهم من مثل ما حل بفرعون وقومه، لأن ما جاز على المثل يجوز على المماثل، وقد كان المسلمون يقولون: إن أب جهل فرعون هذه الأمة.

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٥/٢٦

[٤١] [٤٢] ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون [٤١]ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم [٤٢]﴾ .

نظم هذه الآية مثل نظم قوله ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون﴾ [الذاريات:٣٨] انتقل إلى العبرة بأمة من الأمم العربية وهم عاد وهم أشهر العرب البائدة.

و ﴿الريح العقيم﴾ هي: الخلية من **المنافع** التي ترجى لها الرياح من إثارة السحاب وسوقه، ومن إلقاح الأشجار بنقل غبرة الذكر من ثمار إلى الإناث من أشجارها، أي الريح التي لا نفع فيها، أي هي ضارة. وهذا الوصف لما كان مشتقا مما هو من خصائص الإناث كان مستغنيا عن لحاق هاء التأنيث لأنها يؤتى بها للفرق بين الصنفين والعرب يكرهون العقم في مواشيهم، أي ريح كالناقة العقيم لا تثمر نسلا ولا درا، فوصف الريح بالعقيم تشبيه بليغ في الشؤم، قال تعالى ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ [الحج: ٥٥].

وجملة ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾ صفة ثانية، أوحال، فهو ارتقاء في مضرة هذا الريح فإنه لا ينفع وأنه يضر أضرارا عظيمة.

وصيغ ﴿تذر﴾ بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة. و ﴿شيء﴾ البقرة: من ال في معنى المفعول ل ﴿تذر﴾ فإن "من" لتأكيد النفي والنكرة المجرورة ب"من" هذه نصف في نفي الجنس ولذلك كانت عامة، إلا أن هذا العموم مخصص بدليل العقل لأن الريح إنما تبلي الأشياء التي تمر عليها إذا كان شأنها أن يتطرق إليها البلى، فإن الريح لا تبلي الجبال ولا البحار ولا الأودية وهي تمر عليها وإنما تبلي الديار والأشجار والناس والبهائم، ومثله." (١)

"وداخله في النظام الشمسي. والقمر: كوكب أرضي لأنه دون الأرض وتابع لها كبقية أقمار الكواكب فذكر الشمس والقمر كذكر السماء والأرض، والمشرق، والمغرب، والبحرين.

[٦] ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ .

عطف على جملة ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ [الرحمن:٥] عطف الخبر على الخبر للوجه الذي تقدم لأن سجود الشمس والقمر لله تعالى وهو انتقال من الامتنان بما في السماء من **المنافع** إلى الامتنان بما في الأرض، وجعل لفظ ﴿النجم﴾ واسطة الانتقال لصلاحيته لأنه يراد منه نجوم السماء وما يسمى نجما من نبات الأرض كما يأتي.

وعطفت جملة ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ ولم تفصل فخرجت من أسلوب تعداد الأخبار إلى أسلوب

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٢/٢٧

عطف بعض الأخبار على بعض لأن الأخبار الواردة بعد حروف العطف لم يقصد بها التعداد إذ ليس فيها تعريض بتوبيخ المشركين، فالإخبار بسجود النجم والشجر أريد به الإيقاظ إلى ما في هذا من الدلالة على عظيم القدرة دلالة رمزية، ولأنه لما اقتضى المقام جمع النظائر من المزاوجات بعد ذكر الشمس والقمر كان ذلك مقتضيا سلوك طريقة لوصل بالعطف بجامع التضاد.

وجعلت الجملة مفتتحة بالمسند إليه لتكون على صورة فاتحة الجملة التي عطفت عليها. وأتي بالمسند فعلا مضارعا للدلالة على تجدد هذا السجود وتكرره على معنى قوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ [الرعد:١٥].

و﴿النجم﴾ يطلق: اسم جمع على نجوم السماء قال تعالى :﴿والنجم إذا هوى﴾ [النجم:١] ويطلق مفردا فيجمع على نجوم، قال تعالى: ﴿وإدبار النجوم﴾ [الطور: ٤٩]. وعن مجاهد تفسيره هنا بنجوم السماء. ويطلق النجم على النبات والحشيش الذي لا سوق له فهو متصل بالتراب. وعن ابن عباس تفسير النجم في هذه الآية بالنبات الذي لا ساق له. والشجر: النبات الذي له ساق وارتفاع عن وجه الأرض. وهذان ينتفع بهما الإنسان والحيوان.

فحصل من قوله: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ بعد قوله: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ [الرحمن:٥] قرينتان متوازيتان في الحركة والسكون وهذا من المحسنات البديعية الكاملة.." (١)

"فعل جمعا على أفعال، أي لا نظير له إذ لا يقال خضر وأخضار وحمر وأحمار. يريد أنه لا يخرج الكلام الفصيح على استعمال لم يثبت ورود نظيره في كلام العرب مع وجود تأويل له على وجه وارد.

فكان أظهر الوجوه أن ﴿ألفافا﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه.

وبهذا الاستدلال والامتنان ختمت الأدلة التي أقيمت لهم على انفراد الله تعالى بالإلهية وتضمنت الإيماء إلى إمكان البعث وما أدمج فيها من المنن عليهم عساهم أن يذكروا النعمة فيشعروا بواجب شكر المنعم ولا يستفظعوا إبطال الشركاء في الإلهية وينظروا فيما بلغهم عنه من الإخبار بالبعث والجزاء فيصرفوا عقولهم للنظر في دلائل تصديق ذلك.

وقد ابتدئت هذه الدلائل بدلائل خلق الأرض وحالتها وجالت بهم الذكرى على أهم ما على الأرض من الجماد والحيوان، ثم ما في الأفق من أعراض الليل والنهار. ثم تصاعد بهم التجوال بالنظر في خلق السماوات وبخاصة الشمس ثم نزل بهم إلى دلائل السحاب والمطر فنزلوا معه إلى ما يخرج من الأرض من بدائع

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢١/٢٧

الصنائع ومنتهى **المنافع** فإذا هم ينظرون من حيث صدروا وذلك من رد العجز على الصدر.

[١٧-١٨] ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتا، يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾ .

هذا بيان لما أجمله قوله: ﴿عن النبأ العظيم، الذي هم فيه مختلفون﴾ وهو المقصود من سياق الفاتحة التي افتتحت بها السورة وهيأت للانتقال مناسبة ذكر الإخراج من قوله: ﴿لنخرج به حبا ونباتا﴾ [النبأ: ١٥] الخ، لأن ذلك شبه بإخراج أجساد الناس للبعث كما قال تعالى: ﴿فأنبتنا به جنات وحب الحصيد﴾ إلى قوله: ﴿كذلك الخروج﴾ في سورة ق [٩-١١].

وهو استئناف بياني أعقب به قوله: ﴿لنخرج به حبا ونباتا﴾ [النبأ: ١٥] الآية فيما قصد به من الإيماء إلى دليل البعث.

وأكد الكلام بحرف التأكيد لأن فيه إبطالا لإنكار المشركين وتكذيبهم بيوم الفصل.

ويوم الفصل: يوم البعث للجزاء.

والفصل: التمييز بين الأشياء المختلطة، وشاع إطلاقه على التمييز بين المعاني." (١)

"وإسناد الصب والشق والإنبات إلى ضمير الجلالة لأن الله مقدر نظام الأسباب المؤثرة في ذلك، ومحكم نواميسها وملهم الناس استعمالها.

فالإسناد مجاز عقلي في الأفعال الثلاثة. وقد شاع في ﴿صببنا﴾ و ﴿أنبتنا﴾ حتى ساوى الحقيقة العقلية. وانتصب ﴿صبا﴾ و ﴿شقا﴾ على المفعول المطلق ل ﴿صببنا﴾ و ﴿شققنا﴾ مؤكدا لعامله ليتأتى تنوينه لما في التنكير من الدلالة على التعظيم وتعظيم كل شيء بما يناسبه وهو تعظيم تعجب.

والفاء في قوله: ﴿فأنبتنا﴾ للتفريع والتعقيب وهو في كل شيء بحسبه.

والحب أريد منه المقتات منه للإنسان، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ في سورة البقرة [٢٦١].

والعنب: ثمر الكرم، ويتخذ منه الخمر والخل، ويؤكل رطبا، ويتخذ منه الزبيب.

والقضب: الفصفصة الرطبة، سميت قضبا لأنها تعلف للدواب رطبة فتقضب، أي تقطع مرة بعد أخرى ولا تزال تخلف ما دام الماء ينزل عليها، وتسمى القت.

والزيتون: الثمر الذي يعصر منه الزيت المعروف.

والنخل: الشجر الذي ثمرته التمر وأطواره.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦/٣٠

والحدائق: جمع حديقة وهي الجنة من نخل وكرم وشجر وفواكه، وعطفها على النخل من عطف الأعم على الأخص، ولأن في ذكر الحدائق إدماجا للامتنان بها لأنها مواضع تنزههم واخترافهم.

وإنما ذكر النخل دون ثمرته، وهو التمر، خلافا لما قرن به من الثمار والفواكه والكلأ، لأن منافع شجر النخيل كثيرة لا تقتصر على ثمره، فهم يقتاتون ثمرته من تمر ورطب وبسر، ويأكلون جماره، ويشربون ماء عود النخلة إذا شق عنه، ويتخذون من نوى التمر علفا لإبلهم، وكل ذلك من الطعام، فضلا عن اتخاذهم البيوت والأواني من خشبه، والحصر من سعفه، والحبال من ليفه، فذكر اسم الشجرة الجامعة لهذه المنافع أجمع في الاستدلال بمختلف الأحوال وإدماج الامتنان بوفرة النعم، وقد تقدم قريبا في سورة النبأ.

والغلب: جمع غلباء، وهي مؤنث الأغلب، وهو غليظ الرقبة، يقال غلب كفرح،." (١)

"مقدرة السابرة.

والاقتحام: الدخول العسير في مكان أو جماعة كثيرين يقال: اقتحم الصف، وهو افتعال للدلالة على التكلف مثل اكتسب، فشبه تكلف الأعمال الصالحة باقتحام العقبة في شدته على النفس ومشقته قال تعالى: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا﴾ [فصلت:٣٥].

والاقتحام ترشيح لاستعارة العقبة لطريق الخير، وهو مع ذلك استعارة لأن تزاحم الناس إنما يكون في طلب المنافع كما قال:

والمورد العذب كثير الزحام

وأفاد نفي الاقتحام أنه عدل على الاهتداء إيثارا للعاجل على الآجل ولو عزم وصبر لاقتحم العقبة. وقد تتابعت الاستعارات الثلاث: النجدين، والعقبة، والاقتحام، وبني بعضها على بعض وذلك من احسن الاستعارة وهي مبنية على تشبيه المعقول بالمحسوس.

والكلام مسوق مساق التوبيخ على عدم اهتداء هؤلاء للأعمال الصالحة مع قيام أسباب الاهتداء من الإدراك والنطق.

وقوله: ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ حال من العقبة في قوله: ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ للتنويه بها وأنها لأهميتها يسأل عنها المخاطب هل اعلمه معلم ما هي، أي لم يقحم العقبة في حال جدارتها بأن تقتحم. وهذا التنويه يفيد التسويق إلى معرفة المراد من العقبة.

و ﴿ما﴾ الأولى استفهام. و ﴿ما﴾ الثانية مثلها. والتقدير: أي شيء أعلمك ما هي العقبة، أي أعلمك

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٠/١١٦

جواب هذا الاستفهام، كناية عن كونه أمرا عزيزا يحتاج إلى من يعلمك به.
والخطاب في ﴿ما أدراك﴾ لغير معين لأن هذا بمنزلة المثل.
وفعل ﴿أدراك﴾ معلق عن العمل في المفعولين لوقوع الاستفهام بعده وقد تقدم نظيره في سورة الحاقة.
وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وخلف، ﴿فك رقبة﴾ برفع ﴿فك﴾ وإضافته إلى ﴿رقبة﴾ ورفع ﴿إطعام﴾ عطفا على ﴿فك﴾ .
وجملة ﴿فك رقبة﴾ بيان للعقبة والتقدير: هي فك رقبة، فحذف المسند إليه حذفا لمتابعة الاستعمال. وتبيين العقبة بأنها: ﴿فك رقبة أو إطعام﴾ مبنى على استعارة العقبة." (١)

"وهو وعد واسع الشمول لما أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم من النصر والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجا وما فتح على الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من أقطار الأرض شرقا وغربا.
واعلم أن اللام في ﴿وللآخرة خير﴾ [الضحى:٤] وفي ﴿ولسوف يعطيك﴾ جزم صاحب الكشاف بأنه لام الابتداء وقدر مبتدأ محذوفا. والتقدير: ولأنت سوف يعطيك ربك. وقال: إن لام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد وحيث تعين أن اللام لام الابتداء ولام الابتداء لا تدخل إلا على جملة من مبتدأ وخبر تعين تقدير المبتدأ. واختار ابن الحاجب أن اللام في ﴿ولسوف يعطيك ربك﴾ لام التوكيد يعني لام وجوب القسم. ووافقه ابن هشام في "مغني اللبيب" وأشعر كلامه أن وجود حرف التنفيس مانع من لحاق نون التوكيد ولذلك تحجب اللام في الجملة. وأقول في كون وجود حرف التنفيس يوجب كون اللام لام جواب قسم محل نظر.
[٦-٨] ﴿ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى﴾ .
استئناف مسوق مساق الدليل على تحقق الوعد، إي هو وعد جار على سنن ما سبق من عناية الله بك من مبدإ نشأتك ولطفه في الشدائد باطراد بحيث لا يحتمل أن يكون ذلك من قبيل الصدف لأن شأن الصدف أن لا تتكرر فقد علم أن اطراد ذلك مراد لله تعالى.
والمقصود من هذا إيقاع اليقين في قلوب المشركين بأن ما وعده الله به محقق الوقوع قياسا على ما ذكره به من ملازمة لطفه به فيما مضى وهم لا يجهلون ذلك عسى أن يقلعوا عن العناد ويسرعوا إلى الإيمان وإلا فإن ذلك مساءة تبقى في نفوسهم وأشباح رعب تخالج خواطرهم. ويحصل مع ذلك المقصود امتنان على

---

(١) التحرير والتنوير، ٣١٥/٣٠

النبي صلى الله عليه وسلم وتقوية لاطمئنان نفسه بوعد الله تعالى إياه.
والاستفهام تقريري، وفعل ﴿يجدك﴾ مضارع وجد بمعنى ألفى وصادف، وهو الذي يتعدى إلى مفعول واحد ومفعوله ضمير المخاطب. و ﴿يتيما﴾ حال، وكذلك ﴿ضالا﴾ و ﴿عائلا﴾ . والكلام تمثيل لحالة تيسير المنافع للذي تعسرت عليه بحالة من وجد شخصا في شدة يتطلع إلى من يعينه أو يغيثه.
واليتيم: الصبي الذي مات أبوه وقد كان أبو النبي صلى الله عليه وسلم توفي وهو جنين أو أول." [١]

"والتنويه بحسن جزاء الذين اتبعوا الإسلام في أصوله وفروعه.
وشملت الامتنان على الإنسان بخلقه على أحسن نظام في جثمانه ونفسه.
[١-٥] ﴿والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الأنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾ .
ابتداء الكلام بالقسم المؤكد يؤذن بأهمية الغرض المسوق له الكلام، وإطالة القسم تشويق إلى المقسم عليه.
والتين ظاهرة: الثمرة المشهورة بهذا الاسم، وهي ثمرة يشبه شكلها شكل الكمثرى ذات قشر لونه أزرق إلى السواد، تتفاوت أصنافه في قتومة قشره، سهلة التقشير تحتوي على مثل وعاء أبيض في وسطه عسل طيب الرائحة مخلوط ببزور دقيقة مثل السمسم الصغير، وهي من أحسن الثمار صورة وطعما وسهولة مضغ فحالتها دالة على دقة صنع الله ومؤذنة بعلمه وقدرته، فالقسم بها لأجل دلالتها إلى صفات إلهية كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات، مع الإيذان بالمنة على الناس إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج.
والزيتون أيضا ظاهره: الثمرة المشهورة ذات الزيت الذي يعصر منها فيطعمه الناس ويستصبحون به. والقسم بها كالقسم بالتين من حيث إنها دالة على صفات الله، مع الإشارة إلى نعمة خلق هذه الثمرة النافعة الصالحة التي تكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم.
وعلى ظاهر الاسمين للتين والزيتون حملهما جمع من المفسرين الأولين ابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة والنخعي وعطاء وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي وذلك لما في هاتين الثمرتين من المنافع للناس المقتضية الامتنان عليهم بأن خلقها الله لهم، ولكن مناسبة ذكر هذين مع ﴿طور سينين﴾ ومع ﴿البلد الأمين﴾ تقتضي أن يكون لهما محمل أوفق بالمناسبة فروي عن ابن عباس أيضا تفسير التين بأنه مسجد نوح الذي بني على الجودي بعد الطوفان. ولعل تسمية هذا الجبل التين لكثرته فيه، إذ قد تسمى الأرض باسم ما

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٥٢/٣٠

يكثر فيها من الشجر كقول امرئ القيس:

امرخ ديارهم أم عشر." (١)

" ٧٩ من رجب وقد قيل إنه ظن أنه آخر يوم من جمادى والمسجد عطف على سبيل الله حتى يردوكم قال الزمخشري حتى هنا للتعليل فأولئك حبطت أعمالهم ذهب مالك على أن المرتد يحبط عمله بنفس الارتداد سواء رجع إلى الإسلام أو مات على الارتداد ومن ذلك انتقاض وضوئه وبطلان صومه وذهب الشافعي إلى أنه لا يحبط إلا إن مات كافرا لقوله فيمت وهو كافر وأجاب المالكية بقوله حبطت أعمالهم جزاء على الردة وقوله أصحاب النار هم فيها خالدون جزاء على الموت على الكفر وفي ذلك نظر إن الذين آمنوا الآية نزلت في عبد الله بن جحش وأصحابه الخمر كل مسكر من العنب وغيره والميسر القمار وكان ميسر العرب بالقداح في لحم الجزور ثم يدخل في ذلك النرد والشطرنج وغيرهما وروي أن السائل عنهما كان حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه إثم كبير نص في التحريم وأنهما من الكبائر لأن الإثم حرام لقوله قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم خلافا لمن قال إنما حرمتها آية المائدة لا هذه الآية ومنافع في الخمر التلذذ والطرب وفي القمار الاكتساب به ولا يدل ذكر المنافع على الإباحة قال ابن عباس المنافع قبل التحريم والإثم بعده وإثمهما أكبر تغليبا للإثم على المنفعة وذلك أيضا بيان للتحريم قل العفو أي السهل من غير مشقة وقراءة الجماعة بالنصب بإضمار فعل مشاكلة للسؤال على أن يكون ما مبتدأ وذا خبره تتفكرون في الدنيا والآخرة أي في أمرهما ويسألونك عن اليتامى كانوا قد تجنبوا اليتامى تورعا فنزلت إباحة مخالطتهم بالإصلاح لهم فإن قيل لم جاءو يسألونك بالواو ثلاث مرات وبغير واو ثلاث مرات قبلها فالجواب أن سؤالهم عن المسائل الثلاث الأول وقع في أوقات مفترقة فلم يأت بحرف عطف وجاءت الثلاثة الأخيرة بالواو لأنها كانت متناسقة والله يعلم تحذير من الفساد وهو أكل أموال اليتامى لأعنتكم لضيق عليكم بالمنع من مخالطتهم." (٢)

" ٩٤ وشهادة بفضلهم وقيل ما تنفقون نفقة تقبل منكم إلا ابتغاء وجه الله ففي ذلك حض على الإخلاص للفقراء متعلق بمحذوف تقديره الانفاق للفقراء وهم هنا المهاجرون أحصروا حبسوا بالعدو وبالمرض في سبيل الله يحتمل الجهاد والدخول في الإسلام ضربا في الأرض هو التصرف في التجارة وغيرها يحسبهم الجاهل أغنياء أي يظن الجاهل بحالهم أنهم أغنياء لقلة سؤالهم والتعفف هنا هو عن

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٧١/٣٠

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ١٤٧/١

الطلب ومن سببية وقال ابن عطية لبيان الجنس تعرفهم بسيماهم علامة وجوههم وهي ظهور الجهد والفاقة وقلة النعمة وقيل الخشوع وقيل السجود لا يسألون الناس إلحافا الإلحاف هو الإلحاح في السؤال والمعنى أنهم إذا سألوا يتلطفون ولا يلحون وقيل هو نفي السؤال والإلحاح معا وباقي الآية وعد بالليل والنهار سرا وعلانية تعميم لوجوه الإنفاق وأوقاته قال ابن عباس نزلت في علي فإنه تصدق بدرهم بالليل وبدرهم بالنهار وبدرهم سرا وبدرهم علانية وقال أبو هريرة نزلت في علف الخيل الذين يأكلون الربا أي ينتفعون به وعبر عن ذلك بالأكل لأنه أغلب المنافع وسواء من أعطاه أو من أخذه والربا في اللغة الزيادة ثم استعمل في الشريعة في بيوعات ممنوعة أكثرها راجع إلى الزيادة فإن غالب الربا في الجاهلية قولهم للغريم أتقضي أم تربي فكان الغريم يزيد في عدد المال ويصبر الطالب عليه ثم إن الربا على نوعين ربا النسيئة وربا التفاضل وكلاهما يكون في الذهب والفضة وفي الطعام فأما النسيئة فتحرم في بيع الذهب بالذهب وبيع الفضة بالفضة وفي بيع الذهب بالفضة وهو الصرف وفي الطعام بالطعام مطلقا وأما التفاضل فإنما يحرم في بيع الجنس الواحد بجنسه من النقدين ومن الطعام ومذهب مالك أنه يحرم التفاضل في المقتات المدخر من الطعام ومذهب الشافعي أنه يحرم في كل طعام ومذهب أبي حنيفة أنه يحرم في المكيل والموزون من الطعام وغيره لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ." (١)

" ١٢٢ قول من لا يؤمن بالقدر والأجل المحتوم ويقرب منه مذهب المعتزلة في القول بالأجلين ليجعل متعلق بقالوا أي قالوا ذلك فكان حسرة في قلوبهم فاللام لام الصيرورة لبيان العاقبة (ذلك) إشارة إلى قولهم واعتقادهم الفاسد الذي أوجب لهم الحسرة لأن الذي يتيقن بالقدر والأجل تذهب عنه الحسرة والله يحيي ويميت رد على قولهم واعتقادهم ولئن قتلتم الآية إخبار أن مغفرة الله ورحمته لهم إذا قتلوا وماتوا في سبيل الله خير لهم مما يجمعون من الدنيا ولئن متم أو قتلتم الآية إخبار أن من مات أو قتل فإنه يحشر إلى الله فبما رحمة ما زائدة للتأكيد لانفضوا أي تفرقوا فاعف عنهم فيما يختص بك واستغفر لهم فيما يختص بحق الله وشاورهم المشاورة مأمور بها شرعا وإنما يشاور النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الرأي في الحروب وغيرها لا في الأحكام الشرعية وقال ابن عباس وشاورهم في بعض الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله التوكل هو الاعتماد على الله في تحصيل المنافع أو حفظها بعد حصولها وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها وهو من أعلى المقامات لوجهين أحدهما قوله إن الله يحب المتوكلين والآخر الضمان الذي في قوله ومن يتوكل على الله فهو حسبه وقد يكون واجبا لقوله تعالى وعلى الله فتوكلوا

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ١/١٧٣

إن كنتم مؤمنين فجعله شرطا في الإيمان والظاهر قوله جل جلاله وعلى الله فليتوكل المؤمنون فإن الأمر محمول على الوجوب واعلم أن الناس في التوكل على ثلاثة مراتب الأولى أن يعتمد العبد على ربه كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده الذي لا يشك في نصيحته له وقيامه بمصالحه والثانية أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه فإنه لا يعرف سواها ولا يلجأ إلا إليها والثالثة أن يكون العبد مع ربه كالميت بين يدي الغاسل قد أسلم نفسه إليه بالكلية فصاحب الدرجة الأولى له حظ من النظر لنفسه بخلاف صاحب الثانية وصاحب الثانية له حظ من المراد والاختبار." (١)

"١٨٩ التكفير

عفا الله عما سلف أي عما فعلتم في الجاهلية من قتل الصيد في الحرم ومن عاد فينتقم الله منه أي من عاد إلى قتل الصيد وهو محرم بعد النهي عن ذلك فينتقم الله منه بوجوب الكفارة عليه أو بعذابه الآخرة أحل لكم صيد البحر أحل الله بهذه الآية صيد البحر للحلال والمحرم والصيد هنا المصيد والبحر هو الماء الكثير سواء كان ملحا أو عذبا كالبرك ونحوها وطعامه هو ما يطفو على الماء وما قذف به البحر لأن ذلك طعام وليس بصيد قاله أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وقال ابن عباس طعامه ما ملح منه وبقي متاعا لكم وللسيارة الخطاب بلكم للحاضرين في البحر والسيارة المسافرون أي هو متاع ما تدومون به وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما الصيد هنا يحتمل أن يراد به المصدر أو الشيء المصيد أو كلاهما فنشأ من هذا أن ما صاده المحرم فلا يحل له أكله بوجه ونشأ الخلاف فيما صاد غيره فإذا اصطاد حلال فقيل يجوز للمحرم أكله وقيل لا يجوز إن اصطاده لمحرم والأقوال الثلاثة مروية عن مالك وإن اصطاد حرام لمن يجز لغيره أكله عند مالك خلافا للشافعي جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس أي أمرا يقوم للناس بالأمن **والمنافع** وقيل موضع قيام بالمناسك ولفظ الناس هنا عام وقيل أراد العرب خاصة لأنهم الذين كانوا يعظمون الكعبة والشهر الحرام يريد جنس الأشهر الحرم الأربعة لأنهم كانوا يكفون فيها عن القتال والهدى يريد أنه أمان لمن يسوقه لأنه يعلم أنه في عبادة لم يأت لحرب والقلائد كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلد شيئا من السمر وإذا رجع تقلد شيئا من أشجار الحرم ليعلم أنه كان في عبادة فلا يتعرض له أحد بشيء فالقلائد هنا هو ما تقلده المحرم من الشجر وقيل أراد قلائد الهدى قال سعيد ابن جبير جعل الله هذه الأمور للناس

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ١/٢٢٠

في الجاهلية وشدد في الإسلام ذلك لتعلموا الإشارة إلى جعل هذه الأمور قياما للناس والمعنى جعل الله ذلك." (١)

" ٤ في الأرض ثم انظروا فمعناه إباحة السير للتجارة وغيرها من **المنافع** وإيجاب النظر في الهالكين رتبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح قل لمن ما في السموات والأرض قل لله القصد بالآية إقامة البرهان على صحة التوحيد وإبطال الشرك وجاء ذلك بصفة الاستفهام لإقامة الحجة على الكفار فسأل أولا لمن ما في السموات والأرض ثم أجاب عن السؤال بقوله قل لله لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة فيثبت بذلك أن الإله الحق هو الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وإنما يحسن أن يكون السائل مجيبا عن سؤاله إذا علم أن خصمه لا يخالفه في الجواب الذي به يقيم الحجة عليه كتب على نفسه الرحمة أي قضاها وتفسير ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض وفيه إن رحمتي سبقت غضبي وفي رواية تغلب غضبي ليجمعنكم مقطوع مما قبله وهو جواب لقسم محذوف وقيل هو تفسير الرحمة المذكورة تقديره أن يجمعكم وهذا ضعيف لدخول النون الثقيلة في غير موضعها فإنها لا تدخل إلا في القسم أو في غير الواجب إلى يوم القيامة قيل هنا إلى بمعنى في وهو ضعيف والصحيح أنها للغاية على بابها الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون الذين مبتدأ وخبره لا يؤمنون ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط قاله الزجاج وهو حسن وقال الزمخشري الذين نصب على الذم أو رفع بخبر ابتداء مضمر وقيل هو بدل من الضمير في ليجمعنكم وهو ضعيف وقيل منادى وهو باطل وله ما سكن في الليل والنهار عطف على قوله قل لله ومعنى سكن حل فهو من السكنى وقيل هو من السكون وهو ضعيف لأن الأشياء منها ساكنة ومتحركة فلا يعم والمقصود عموم ملكه تعالى لكل شيء قل أغير الله أتخذ وليا إقامة حجة على الكفار ورد عليهم بصفات الله الكريم التي لا يشاركه غيره فيها أول من أسلم أي من هذه الأمة لأن النبي صلى الله عليه وسلم سابق أمته إلى الإسلام ولا." (٢)

"موضع المستقبل لتحقق وقوع الأمر ولقربه وروي أنها لما نزلت وثب رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما فلما قال ... ٣٤٥

١٥٠ فلا تستعجلوه سكن ينزل الملائكة بالروح أي بالنبوة وقيل بالوحي خلق الإنسان من نطفة أي

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٣٣٢/١

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٣٤٩/١

من نطفة المني والمراد جنس الإنسان فإذا هو خصيم مبين فيه وجهان أحدهما أن معناه متكلم يخاصم عن نفسه والثاني يخاصم في ربه ودينه وهذا في الكفار والأول أعم لكم فيها دفء أي ما يتدفأ به يعني ما يتخذ من جلود الأنعام وأصوافها من الثياب ويحتمل أن يكون قوله لكم متعلقا بما قبله أو بما بعده ويختلف الوقوف باختلاف ذلك ومنافع يعني شرب ألبانها والحرث بها وغير ذلك ومنها تأكلون يحتمل أن يريد **بالمنافع** ما عدا الأكل فيكون الأكل أمرا زائدا عليها أو يريد **بالمنافع** الأكل وغيره ثم جرد ذكر الأكل لأنه أعظم **المنافع** ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون الجمال حسن المنظر وحين تريحون يعني حين تردونها بالعشي إلى المنازل وحين تسرحون حين تردونها بالغداة إلى الرعي وإنما قدم تريحون على تسرحون لأن جمال الأنعام بالعشي أكثر لأنها ترجع وبطونها ملأى وضروعها حافلة وتحمل أثقالكم يعني الأمتعة وغيرها وقيل أجساد بني آدم إلى بلد أي إلى أي بلد توجهتم وقيل يعني مكة بشق الأنفس أي بمشقة لتركبوها وزينة استدل بعض الناس به على تحريم أكل الخيل والبغال والحمير لكونه علل خلقتها بالركوب والزينة دون الأكل ونصب زينة على أنه مفعول من أجله وهو معطوف على موضع لتركبوها ويخلق ما لا تعلمون عبارة على العموم أي أن مخلوقات الله لا يحيط البشر بعلمها وكل ما ذكر في هذه الآية شيئا مخصوصا فهو على وجه المثال وعلى الله قصد السبيل أي على الله تقويم طريق الهدى بنصب الأدلة وبعث الرسل والمراد بالسبيل هنا الجنس ومعنى القصد القاصد الموصل وإضافته إلى السبيل من إضافة الصفة إلى الموصوف ومنها جائر ." (١)

" ٤١ في الحج وتعظيمها بأن تختار سمانا عظاما غالية الأثمان وقيل مواضع الحج كعرفات ومنى والمزدلفة وتعظيمها إجلالها وتوقيرها والقصد إليها وقيل الشعائر أمور الدين على الإطلاق وتعظيمها القيام بها وإجلالها فإنها من تقوى القلوب الضمير عائد على الفعلة التي يتضمنها الكلام وهي مصدر يعظم وقال الزمخشري التقدير فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات لكم فيها منافع من قال إن شعائر الله هي الهدايا **فالمنافع** بها شرب لبنها وركوبها لمن اضطر إليها والأجل المسمى نحرها ومن قال إن شعائر الله مواضع الحج **فالمنافع** التجارة فيها أو الأجر والأجل المسمى الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة ثم محلها إلى البيت العتيق من قال إن شعائر الله الهدايا فمحلها موضع نحرها وهي منى ومكة وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم وهو المقصود بالهدي وثم على هذا القول ليست للترتيب في الزمان لأن محلها قبل نحرها وإنما هي لترتيب الجمل ومن قال إن الشعائر موضع الحج فمحلها مأخوذ

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٦٦/٢

من إحلال المحرم أي أخر ذلك كله الطواف بالبيت يعني طواف الإفاضة إذ به يحل المحرم من إحرامه ومن قال إن الشعائر أمور الدين على الإطلاق فذلك لا يستقيم مع قوله محلها إلى البيت ولكل أمة جعلنا منسكا أي لكل أمة مؤمنة والمنسك اسم مكان أي موضعها لعبادتهم ويحتمل أن يكون اسم مصدر بمعنى عبادة والمراد بذلك الذبائح لقوله ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام بخلاف ما يفعله الكفار من الذبح تقربا إلى الأصنام فإلهكم إله واحد في وجه اتصاله بما قبله وجهان أحدهما أنه لما ذكر الأمم المتقدمة خاطبها بقوله فإلهكم إله واحد أي هو الذي شرع المناسك لكم ولمن تقدم قبلكم والثاني أنه إشارة إلى الذبائح أي إلهكم إله واحد فلا تذبحوا تقربا لغيره المخبتين الخاشعين وقيل المتواضعين وقيل نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وكذلك قوله بعد ذلك وبشر المحسنين." (١)

"واللفظ فيهما أعم من ذلك وجلت خافت والبدن جمع بدنة وهو ما أشعر من الإبل واختلف هل يقال للبقرة بدنة وانتصابه بفعل مضمر من شعائر الله واحدها شعيرة ومن للتبعيض واستدل بذلك من قال إن شعائر الله المذكورة أو على العموم في أمور الدين لكم فيها خير قيل الخير هنا **المنافع** المذكورة قبل وقيل الثواب والصواب العموم في خير الدنيا والآخرة صواف معناه قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وهي منصوبة على الحال من الضمير المجرور ووزنه فواعل وواحده صافة وجبت جنوبها أي سقطت إلى الأرض عند موتها يقال وجب ... ٤٣٥." (٢)

" ٥٠ ماء بقدر يعني المطر الذي ينزل من السماء فتكون منه العيون والأنهار في الأرض وقيل يعني أربعة أنهار وهي النيل والفرات ودجلة وسيحان ولا دليل على هذا التخصيص ومعنى بقدر بمقدار معلوم لا يزيد عليه ولا ينقص منه وشجرة تخرج من طور سيناء يعني الزيتون وإنما خص النخيل والأعناب والزيتون بالذكر لأنها أكرم الشجر وأكثرها منافع وطور سيناء جبل بالشام وهو الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وينسب الزيتون إليه لأنها فيه كثيرة وسيناء اسم جبل أضافه إليه كقوله جبل أحد وقرئ بفتح السين ولم ينصرف للتأنيث اللازم وقرئ بالكسر ولم ينصرف للعجمة أو للتأنيث مع التعريف لأن فعلاء بالكسر لا تكون ألفه للتأنيث وقيل معناه مبارك وقيل ذو شجرة ويلزم على ذلك صرفه تنبت بالدهن يعني الزيت وقرىء تنبت بفتح التاء فالمجرور على هذا في موضع الحال كقولك جاء زيد بسلاحه وقرئ بضم التاء وكسر الباء وفيه ثلاثة أوجه الأول أن أنبت بمعنى نبت والثاني حذف المفعول تقديره تنبت ثمرتها

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢/٢١٨

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢/٢١٩

بالدهن والثالث زيادة الباء وصبغ للآكلين الصبغ الغمس في الإدام في الأنعام هي الإبل والبقر والغنم والمقصود بالذكر الإبل لقوله وعليها وعلى الفلك تحملون وقد تقدم في النحل ذكر **المنافع** التي فيها وتذكيرها وتأنيثها ما هذا إلا بشر استبعدوا أن تكون النبوة لبشر فيا عجبا منهم إذ أثبتوا الربوبية لحجر يريد أن يتفضل أي يطلب الفضل والرياسة عليكم ما سمعنا بهذا أي بمثل ما دعاهم إليه من عبادة الله أو بمثل الكلام الذي قال لهم وهذا يدل على أنه كان قبل نوح فترة طويلة به جنة أي جنون فانظر اختلاف قولهم فيه فتارة نسبوه إلى طلب الرياسة وتارة إلى الجنون حتى حين أي إلى وقت لم يعينوه ولكن أرادوا وقت زوال جنونه على قولهم أو وقت موته انصرني بما كذبون تضمن هذا دعاء عليهم لأن نصرته إنما هي بإهلاكهم وقد تقدم في هود تفسير بأعيننا ووحينا وفار." (١)

" ٥٥ يائسون من الخير وإنما يقع لهم اليأس في الآخرة كقوله ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون فما استكانوا أي ما تذللوا لله عز وجل وقد تقدم الكلام على هذه الكلمة في آخر آل عمران وما يتضرعون إن قيل هلا قال فما استكانوا وما تضرعوا أو فما يستكينون وما يتضرعون باتفاق الفعلين في الماضي أو في الاستقبال فالجواب أن ما استكانوا عند العذاب الذي أصابهم وما يتضرعون حتى يفتح عليهم باب عذاب شديد فنفى الاستكانة فيما مضى ونفى التضرع في الحال والاستقبال قليلا ما تشكرون ما زائدة وقليلا صفة لمصدر محذوف تقديره شكرا قليلا تشكرون وذكر السمع والبصر والأفئدة وهي القلوب لعظم **المنافع** التي فيها فيجب شكر خالقها ومن شكره توحيده واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ففي ذكرها تعديد نعمة وإقامة حجة ذرأكم في الأرض أي نشركم فيها وله اختلاف الليل والنهار أي هو فاعله ومختص به فاللام على هذا للاختصاص وقد ذكر في البقرة معنى اختلاف الليل والنهار بل قالوا مثل ما قال الأولون أي قالت قريش مثل قول الأمم المتقدمة ثم فسر قولهم بإنكارهم البعث وإليه الإشارة بقولهم لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا وقد ذكر الاستفهامان في الرعد وأساطير الأولين في الأنعام قل لمن الأرض ومن فيها هذه الآيات توقيف لهم على أمور لا يمكنهم الإقرار بها وإذا أقروا بها لزمهم توحيد خالقها والإيمان بالدار الآخرة سيقولون لله قرئ في الأول لله باللام بإجماع جوابا لقوله لمن الأرض وكذلك قرأ الجمهور الثاني والثالث وذلك على المعنى لأن قوله من رب السموات في معنى لمن هي وقرأ أبو عمرو الثاني والثالث بالرفع على اللفظ ملكوت مصدر وفي بنائه مبالغة يجير ولا يجار عليه الإجارة المنع من الإهانة يقال أجرت فلانا

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢٣٣/٢

على فلان إذا منعته من مضرته وإهانته فالمعنى أن الله تعالى يغيث من شاء ممن شاء ولا يغيث أحد منه أحدا فأنى تسحرون أي تخدعون عن الحق." (١)

"٨٣ لجميع الناس من المؤمنين والكافرين لأن فيهم من يعبد الله ويدعوه أو خطابا للمؤمنين خاصة لأنهم هم الذين يدعون الله ويعبدونه ولكن يضعف هذا بقوله فقد كذبتم الثالث أنه خطاب للكفار خاصة والمعنى على هذا ما يعبأ بكم ربي لولا أن يدعوكم إلى دينه والدعاء على هذا بمعنى الأمر بالدخول في الدين وهو مصدر مضاف إلى المفعول وأما على القول الأول والثاني فهو مصدر مضاف إلى الفاعل فقد كذبتم هذا خطاب لقريش وغيرهم من الكفار دون المؤمنين فسوف يكون لزاما أي سوف يكون العذاب لزاما ثابتا وأضمر العذاب وهو اسم كان لأنه جزاء التكذيب المتقدم واختلف هل يراد بالعذاب هنا القتل يوم بدر أو عذاب الآخرة

سورة الشعراء

طسم تكلمنا على حروف الهجاء في أول سورة البقرة ويخص هذا أنه قيل الطاء من ذي الطول والسين من السميع أو السلام والميم من الرحيم أو المنعم باخع ذكر في الكهف فظلت أعناقهم لها خاضعين الأعناق جمع عنق وهي الجارحة المعروفة وإنما جمع خاضعين جمع العقلاء لأنه أضاف الأعناق إلى العقلاء ولأنه وصفها بفعل لا يكون إلا من العقلاء وقيل الأعناق الرؤساء من الناس شبهوا بالأعناق كما يقال لهم رؤس وصدور وقيل هم الجماعات من الناس فلا يحتاج جمع خاضعين إلى تأويل محدث يعني به محدث الإتيان فسيأتيهم الآية تهديد من كل زوج أي من كل صنف من النبات فيعم ذلك الأقوات والفواكه والأدوية والمرعى ووصفه بالكرم لما فيه من الحسن ومن المنافع إن في ذلك لآية الإشارة إلى ما تقدم من النبات وإنما ذكره بلفظ الإفراد لأنه أراد أن في كل واحد آية أو إشارة إلى مصدر قوله أنبتنا ويضيق صدري بالرفع عطف على أخاف أو استئناف وقرىء بالنصب عطفا على يكذبون فأرسل إلى هارون أي اجعله معي رسولا أستعين به ولهم على ذنب يعني قتله للقبطي قال كلا أي لا تخف أن يقتلوك إنا معكم خطاب لموسى ... ٤٧٧." (٢)

"جملة مستأنفة وهذا بعيد جدا

يعلم ما تكن صدورهم أي ما تخفيه قلوبهم وعبر عن القلب بالصدر لأنه يحتوي عليه له الحمد في الأولى

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢/٢٤١

(٢) التسهيل لعلوم ا لتنزيل لابن جزى، ٢/٢٩٠

والآخرة قيل إن الحمد في الآخرة قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده أو قولهم الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وفي ذكر الأولى مع الآخرة مطابقة سرمدا أي دائما والمراد بالآيات إثبات الوحدانية وإبطال الشرك فإن قيل كيف قال يأتيكم بضياء وهلا قال يأتيكم بنهار في مقابلة قوله يأتيكم بليل فالجواب أنه ذكر الضياء لجملة ما فيه من **المنافع** والعبر لتسكنوا فيه أي في الليل ولتبتغوا من فضله أي في النهار ففي الآية لف ونشر ونزعنا من كل أمة شهيدا أي أخرجنا من كل أمة شهيدا منهم يشهد عليهم بأعمالهم ... ٥٠٤." [١]

"١٩٧ يظنون لأنهم كانوا يظنون ظنونا كاذبة قال الزمخشري المراد بذلك تعظيم العذاب الذي يصيبهم أي ظهر لهم من عذاب الله ما لم يكن في حسابهم فهو كقوله في الوعد فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وقيل معناها عملوا أعمالا حسبوها حسنات فإذا هي سيئات وقال الحسن ويل لأهل الربا من هذه الآية وهذا على أنها في المسلمين والظاهر أنها في الكفار وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن معنى حاق حل ونزل وقال ابن عطية وغيره إن هذا على حذف مضاف تقديره حاق بهم جزاء ما كانوا به يستهزؤن ويحتمل أن يكون الكلام دون حذف وهو أحسن ومعناه حاق بهم العذاب الذي كانوا به يستهزؤن لأنهم كانوا في الدنيا يستهزؤن إذا خوفوا بعذاب الله ويقولون متى هذا الوعد قال إنما أوتيته على علم يحتمل وجهين أحدهما وهو الأظهر أن يريد على علم مني بالمكاسب **والمنافع** والآخر على علم الله باستحقاقي لذلك وإنما هنا تحتمل وجهين أحدهم، وهو الأظهر أن تكون ما كافة وعلى علم في موضع الحال والآخر أن تكون ما اسم إن وعلى علم خبرها وإنما قال أوتيته بالضمير المذكر وهو عائد على النعمة للحمل على المعنى بل هي فتنة رد على الذي قال إنما أوتيته على علم قد قالها الذين من قبلهم يعني قارون وغيره

قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله قال علي بن أبي طالب وابن مسعود هذه أرحى آية في القرآن وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية واختلف في سببها فقيل نزلت في وحشي قاتل حمزة لما أراد أن يسلم وخاف أن لا يغفر له ما وقع فيه من قتل حمزة وقيل نزلت في قوم آمنوا ولم يهاجروا ففتنوا فافتتنوا ثم ندموا وظنوا أنهم لا توبة لهم وهذا قول عمر بن الخطاب وقد كتب بها إلى هشام بن العاص لما جرى له ذلك وقيل نزلت في قوم من أهل الجاهلية قالوا ما ينفعنا الإسلام لأننا قد زنينا وقتلنا النفوس فنزلت الآية فيهم." [٢]

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٣٢٨/٢

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٤٧١/٢

"١٠ الله إرسال رسول قضي ذلك ويحتمل أن يريد بأمر الله اهلاك المكذبين للرسل لقوله وخسر هنالك المبطلون هنالك في الموضعين يراد به الوقت والزمان وأصله ظرف مكان ثم وضع موضع الزمان الأنعام هي الإبل والبقر والضأن والمعز فقوله لتركبوا منها يعني الإبل ومنها تأكلون يعني اللحوم **والمنافع** منها اللبن والصوف وغير ذلك ولتبلغوا عليها حاجة

يعني قطع المسافة البعيدة وحمل الأثقال على الإبل وتحملون يريد الركوب عليها وإنما كرره بعد قوله لتركبوا منها لأنه أراد الركوب الأول المتعارف في القرى والبلدان وبالحمل عليها الأسفار البعيدة قاله ابن عطية ويريكم آياته هذا عموم بعد ما قدم من الآيات المخصوصة ولذلك وبخهم بقوله فأى آيات الله تنكرون فرحوا بما عندهم من العلم الضمير يعود على الأمم المكذبين وفي تفسير علمهم وجوه أحدها أنه ما كانوا يعتدون من أنهم لا يبعثون ولا يحاسبون والثاني أنه علمهم بمنافع الدنيا ووجوه كسبها والثالث أنه علم الفلاسفة الذين يحتقرون علوم الشرائع وقيل الضمير يعود على الرسل أى فرحوا بما أعطاهم الله من العلم بالله وشرائعه أو بما عندهم من العلم بأن الله ينصرهم على من يكذبهم وأما الضمير في وحاق بهم فيعود على الكفار باتفاق ولذلك ترجح أن يكون الضمير في فرحوا يعود عليهم ليتسق الكلام سنة الله انتصب على المصدرية والله سبحانه أعلم .

سورة فصلت حم السجدة

أي بينت وقيل قطعت إلى سور وآيات قرآنا عربيا منصوب بفعل مضمر على التخصيص أو حال أو مصدر (لقوم يعلمون) معناه يعلمون الأشياء ويعقلون الدلائل إذا نظروا فيها وذلك هو العلم الذي يوجب التكليف وقيل معناه يعلمون الحق والإيمان فالأول عام وهذا خاص والأول أولى لقوله ... ٦٠٤." (١)

" ١٠٠ وليعلم الله من ينصره ورسله **والمنافع** للناس سكك الحرث والمسامير وغير ذلك فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون أي من ذرية نوح وإبراهيم مهتدون قليلون وأكثرهم فاسقون لأن منهم اليهود والنصارى وغيرهم وقفينا ذكر في البقرة وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة هذا ثناء عليهم بمحبة بعضهم في بعض كما وصف أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم رحماء بينهم ورهبانية ابتدعوها الرهبانية هي الانفراد في الجبال والانقطاع عن الناس في الصوامع ورفض النساء وترك الدنيا ومعنى ابتدعوها أي أحدثوها من غير أن يشرعها الله لهم وإعراب رهبانية معطوف على رأفة ورحمة أي جعل الله في قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية وابتدعوها صفة للرهبانية والجعل هنا بمعنى الخلق والمعتزلة يعربون رهبانية

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢/٤٨٨

مفعولا بفعل مضمر يفسره ابتدعوها لأن مذهبهم أن الإنسان يخلق أفعاله فأعربوها على مذهبهم وكذلك أعربها أبو علي الفارسي وذكر الزمخشري الوجهين ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله كتبنا هنا بمعنى فرضنا وشرعنا وفي هذا قولان أحدهما أن الاستثناء منقطع والمعنى ما كتبنا عليهم الرهبانية ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله والآخر أن الاستئناف متصل والمعنى كتبناها عليهم إبتغاء رضوان الله والأول أرجح لقوله ابتدعوها ولقراءة عبد الله بن مسعود ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها فما رعوها حق رعايتها أي لم يدوموا عليها ولم يحافظوا على الوفاء بها يعني أن جميعهم لم يرعوها وإن رعاها بعضهم والضمير في رعوها للذين ابتدعوا الرهبانية وكان يجب عليهم إتمامها وإن لم يكتبها الله سبحانه وتعالى عليهم لأن من دخل في شئ من النوافل يجب عليه إتمامه وقيل الضمير لمن جاء بعد الذين ابتدعوا الرهبانية من أتباعهم وآمنوا برسوله إن قيل كيف خاطب الذين آمنوا وأمرهم بالإيمان وتحصيل الحاصل لا ينبغي فالجواب من وجهين أحدهما أن معنى آمنوا." (١)

"أرأيتم إن أهلكني الله الآية سببها أن الكفار كانوا يتمنون هلاك النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين فأمره الله أن يقول لهم أن أهلكني الله وأهلك من معي أورحمنا فإنكم لا تنجون من العذاب الأليم على كل حال والهلاك هنا يحتمل أن يراد به الموت أو غيره ومعنى من يجير الكافرين من عذاب أليم من يمنعهم من العذاب قل أرأيتم إن أصبح ... ٧٣٠

١٣٧ ماؤكم غورا) الآية احتجاج على المشركين والغور مصدر وصف به فهو بمعنى غاير أي ذاهب في الأرض والمعين الكثير واختلف هل وزنه فعيل أو مفعول فالمعنى إن غار ماؤكم الذي تشربون هل يأتيكم غير الله بماء معين

سورة القلم

﴿ ن ﴾ حرف من حروف الهجاء وقد تقدم الكلام عليها في البقرة ويختص ن بأنه قيل إنه حرف من الرحمن فإن حروف الرحمن ألف ولام وراء وحاء وميم ون وقيل إن نون هنا يراد به الحوت وزعموا أنه الحوت الأعظم الذي عليه الأرضون السبعة وهذا لا يصح على أن نون بمعنى الحوت معروف في اللغة ومنه ذو النون وقيل إن نون هنا يراد به الدواة وهذا غير معروف في اللغة ويبطل قول من قال إنه الحوت أو الدواة بأنه لو كان كذلك لكان معربا بالرفع أو النصب أو الخفض ولكان في آخره تنوين فكونه موقوفا دليل على أنه حرف هجاء نحو ألم وغيره من حروف الهجاء الموقوفة والقلم وما يسطرون اختلف فيه على قولين

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ١٤١/٣

أحدهما أنه القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ فالضمير في يسطرون للملائكة والآخر أنه القلم المعروف عند الناس أقسم الله به لما فيه من **المنافع** والحكم والضمير في يسطرون على هذا لبني آدم ما أنت بنعمة ربك بمجنون هذا جواب القسم وهو خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم معناه نفي نسبة الكفار له من الجنون وبنعمة ربك اعتراض بين ما وخبرها كما تقول أنت بحول الله أفضل والمجرور في موضع الحال وقال الزمخشري إن العامل فيه بمجنون غير ممنون ذكر في فصلت وإنك لعلى خلق عظيم هذا ثناء على خلق رسول الله صلى." (١)

"١٩٦ موضوعة) قد ذكرنا أكواب ومعنى موضوعة حاضرة معدة بشرابها وفي قوله مرفوعة وموضوعة مطابقة ونمارق جمع نمرقة وهي الوسادة وزرابي هي بسط فاخرة وقيل هي الطنافس واحدها زربية مبثوثة أي متفرقة وذلك عبارة عن كثرتها وقيل مبسوطة أفلا ينظرون إلى الإبل حض على النظر في خلقتها لما فيها من العجائب في قوتها وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف وصبرها على العطش وكثرة **المنافع** التي فيها من الركوب والحمل عليها وأكل لحومها وشرب ألبانها وأبوالها وغير ذلك وقيل أراد بالإبل السحاب وهذا بعيد وإنما حمل قائلة عليه مناسبتها للسماء والأرض والجبال والصحيح أن المراد الحيوان المعروف وإنما ذكره لما فيه من العجائب ولاعتناء العرب به إذ كانت معايشهم في الغالب منه وهو أكثر المواشي في بلادهم لست عليهم بمصيطر أي قاهر متسلط وهذا من المنسوخ بالسيف إلا من تولى استثناء منقطع معناه لكن من تولى وكفر فيعذبه الله وقيل هو استثناء من مفعول فذكر والمعنى ذكر كل أحد إلا من تولى حتى يئست منه فهو على هذا متصل وقيل هو استثناء من قوله لست عليهم بمسيطر أي لا تسلط إلا على من تولى وكفر وهو على هذا متصل ولا نسخ فيه إذ لا موادعة فيه وهذا بعيد لأن السورة مكية والموادعة بمكة ثابتة إن إلينا إيابهم أي رجعوهم والآية تهديد

سورة الفجر

والفجر

أقسم الله تعالى بالفجر وهو الطالع كل يوم كما أقسم بالصبح وقيل أراد صلاة الفجر وقيل أراد النهار كله وقيل فجر يوم الجمعة وقيل فجر يوم النحر وقيل فجر ذي الحجة ولا دليل على هذه التخصيصات وقيل أراد انفجار العيون من الحجارة وهذا بعيد والأول أظهر وأشهر وليال عشر هي عشر ذي الحجة عند

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢٠٦/٣

الجمهور وقيل العشر الأول من المحرم وفيها عاشوراء وقيل العشر الأواخر من رمضان وقيل العشر الأول منه والشفع والوتر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة وروى عنه." [١]

"والله ـ تعالى ـ ذكر في سورة النحل إنعامه على عباده، فذكر في أول السورة أصول النعم التي لا يعيش بنو آدم إلا بها، وذكر في أثنائها تمام النعم التي لا يطيب عيشهم إلا بها، فذكر في أولها الرزق الذي لابد لهم منه، وذكر ما يدفع البرد من الكسوة بقوله : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴾ [النحل : ٥] ، ثم في أثناء السورة ذكر لهم المساكن **والمنافع** التي يسكنونها : مساكن الحاضرة والبادية، ومساكن المسافرين، فقال تعالى : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ﴾ الآية، ثم ذكر إنعامه بالظلال التي تقيهم الحر والبأس فقال : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا ﴾ إلى قوله : ﴿كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ [النحل : ٨١] .

". [٢]

"ونظير ذلك ذكر القصص، فإنها كلها أمثال هى أصول قياس واعتبار، ولا يمكن هناك تعديد ما يعتبر بها، لأن كل إنسان له فى حالة منها نصيب، فيقال فيها : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ [يوسف : ١١١] ، ويقال عقب حكايتها : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ [الحشر : ٢] ، ويقال : ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا ﴾ إلى قوله : ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ [آل عمران : ١٣] ، والاعتبار هو القياس بعينه، كما قال ابن عباس لما سئل عن دية الأصابع فقال : هى سواء، واعتبروا ذلك بالأسنان،أى : قيسوها بها، فإن الأسنان مستوية الدية مع اختلاف **المنافع**، فكذلك الأصابع، ويقال : اعتبرت الدراهم بالصنجة إذا قدرتها بها .

النوع الثانى : الأمثال الكلية، وهذه التى أشكل تسميتها أمثالا، كما أشكل تسميتها قياسا، حتى اعترض بعضهم قوله : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ﴾ [الحج : ٧٣] ، فقال : أين المثل المضروب ؟ وكذلك إذا سمعوا قوله : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ [الروم : ٥٨] ،يبقون

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٣١٧/٣

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٢١٤/١

حيارى لا يدرون ما هذه الأمثال، وقد رأوا عدد ما فيه من تلك الأمثال المعينة بضعا وأربعين مثلا .
". (١)

"ذكر الله أنه يرفع درجات من يشاء فى قصة مناظرة إبراهيم وفى قصة احتيال يوسف؛ ولهذا قال السلف : بالعلم؛ فإن سياق الآيات يدل عليه، فقصة إبراهيم فى العلم بالحجة، والمناظرة لدفع ضرر الخصم عن الدين، وقصة يوسف فى العلم بالسياسة والتدبير لتحصل منفعة المطلوب، فالأول علم بما يدفع المضار فى الدين، والثانى علم بما يجلب المنافع، أو يقال : الأول هو العلم الذى يدفع المضرة عن الدين ويجلب منفعته، والثانى علم بما يدفع المضرة عن الدنيا ويجلب منفعتها، أو يقال قصة إبراهيم فى علم الأقوال النافعة عند الحاجة إليها، وقصة يوسف فى علم الأفعال النافعة عند الحاجة إليها، فالحاجة جلب المنفعة ودفع المضرة قد تكون إلى القول، وقد تكون . . . [خرم بالأصل] .
ولهذا كان المقصرون عن علم الحجج والدلالات، وعلم السياسة والإمارات، مقهورين مع هذين الصنفين، تارة بالاحتياج إليهم إذا هجم عدو يفسد الدين بالجدل أو الدنيا بالظلم، وتارة بالاحتياج إليهم إذا هجم على أنفسهم من أنفسهم ذلك، وتارة بالاحتياج إليهم لتخليص بعضهم من شر بعض فى الدين والدنيا، وتارة يعيشون فى ظلهم فى مكان ليس فيه مبتدع يستطيل عليهم، ولا وال يظلمهم وما ذاك إلا لوجود علماء الحجج الدامغة لأهل البدع والسياسة الدافعة للظلم .
ولهذا قيل : صنفان إذا صلحوا صلح الناس : العلماء والأمراء، وكما أن المنفعة فيهما فالمضرة منهما؛ فإن البدع والظلم لا تكون إلا فيهما؛ أهل الرياسة العلمية، وأهل الرياسة القدرية؛ ولهذا قال طائفة من السلف ـ كالثورى وابن عيينة وغيرهما ـ ما معناه : أن من نجا من فتنة البدع وفتنة السلطان فقد نجا من الشر كله، وقد بسطت القول في هذا فى الصراط المستقيم عند قوله : ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا ﴾ [التوبة : ٦٩] .
". (٢)

"/ وأما الهماز المشاء بنميم : فالهمز أقوي من اللمز وأشد ـ سواء كان همز الصوت أو همز حركة ـ ومنه : [الهمزة] : وهي نبرة من الحلق مثل التهوع، ومنه الهمز بالعقب، كما في حديث زمزم : (أنه همز جبريل بعقبه) والفعال : مبالغة في الفاعل، فالهماز : المبالغ في العيب نوعا وقدرا . القدرة من صورة

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٢/٤٠٠

(٢) مجموع فتاوى ا بن تيمية (التفسير)، ٣/٢٢٠

اللفظ، وهو الفعال، والنوع من مادة اللفظ وهو الهمزة، والمشاء بنميم هو من العيب، ولكنه عيب في القفا، فهو عيب الضعيف العاجز، فذكر العياب بالقوة، والعياب بالضعف، والعياب في مشهد، والعياب في مغيب .

وأما ﴿ مناع للخير معتد أثيم ﴾ [القلم : ١٢] فإن الظلم نوعان : ترك الواجب وهو منع الخير، وتعد على الغير وهو المعتدي . وأما الأثيم مع المعتدي فكقوله : ﴿ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ [المائدة : ٢] .

وأما العتل الزنيم : فهو الجبار، الفظ الغليظ، الذي قد صار من شدة تجبره وغلظه معروفا بالشر، مشهورا به، له زنمة كزنمة الشاة .

ويشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون الحلاف المهين الهماز المشاء بنميم من جنس واحد، وهو في الأقوال وما يتبعها من الأفعال، والمناع المعتدي الأثيم العتل الزنيم من جنس، وهو في الأفعال وما يتبعها من الأقوال .
فالأول : الغالب على جانب الأعراض، والثاني : الغالب على / جانب الحقوق في الأحوال والمنافع ونحو ذلك . ووصفه بالظلم والبخل والكبر، كما في قوله : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا الذين يبخلون ﴾ الآية [النساء : ٣٦، ٣٧] .
". (١)

"وأما قوله تعالى : ﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ [غافر : ١٣] ، فهو حق كما قال . فإن المتذكر إما أن يتذكر ما يدعو إلى الرحمة والنعمة والثواب كما يتذكر الإنسان ما يدعوه إلى السؤال فينيب، وإما أن يتذكر ما يقتضى الخوف والخشية فلابد له من الإنابة حينئذ لينجو مما يخاف .
ولهذا قيل في فرعون : ﴿ لعله يتذكر ﴾ فينيب، ﴿ أو يخشى ﴾ . / وكذلك قال له موسى ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ [النازعات : ١٨، ١٩] ، فجمع موسى بين الأمرين لتلازمهما .
وقال في حق الأعمى : ﴿ وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ [عبس : ٣، ٤] . فذكر الانتفاع بالذكرى، كما قال : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ [الذاريات : ٥٥] .
والنفع نوعان : حصول النعمة، واندفاع النقمة . ونفس اندفاع النقمة نفع وإن لم يحصل معه نفع آخر، ونفس المنافع التي يخاف معها عذاب نفع، وكلاهما نفع . فالنفع يدخل فيه الثلاثة، والثلاثة تحصل

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٤/١٤٥

بالذكرى، كما قال تعالى ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ ، وقال : ﴿ وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ .

". (١)

"والسماء والأرض أعظم من الشمس والقمر والليل والنهار، والنفس أشرف الحيوان المخلوق، فكان القسم بصانع هذه الأمور العظيمة مناسبا، وكان إقسامه بصانعها تنبيها على أنه صانع ما فيها من الشمس والقمر والليل والنهار .

فتضمن الكلام الإقسام بصانع هذه المخلوقات، وبأعيانها، وما فيها من الآثار والمنافع لبنى آدم .

وختم القسم بالنفس، التي هى آخر المخلوقات، فإن الله خلق آدم يوم الجمعة آخر المخلوقات، وبين أنه خالق جميع أفعالها، ودل على أنه خالق جميع أفعال ما سواها .

وهو ـ سبحانه ـ مع ما ذكر من عموم خلقه لجميع الموجودات على مراتبها حتى أفعال العبد المنقسمة إلى التقوى والفجور وبين انقسام الأفعال إلى الخير والشر، وانقسام الفاعلين إلى مفلح وخائب، سعيد وشقى .

وهذا يتضمن الأمر والنهي، والوعد والوعيد . فكان في ذلك رد على القدرية المجوسية الذين يخرجون أفعال العباد عن خلقه وإلهامه، وعلى القدرية المشركية، الذين يبطلون أمره ونهيه، ووعده ووعيده احتجاجا بقضائه وقدره .

/ وقد قيل في قوله : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس : ٩، ١٠] : إن الضمير عائد إلى [الله] ، أي : (قد أفلح من زكاها الله، وقد خاب من دساها الله، وهذا مخالف للظاهر، بعيد عن نهج البيان الذي ألف عليه القرآن، إذ كان الأحسن : [قد أفلحت من زكاها الله، وقد خابت من دساها] ، وهذا ضعيف .

وأيضا، فقوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ، بيان للقدر، فلا حاجة إلى ذكره مرة ثانية عقب ذلك في مثل هذه السورة القصيرة .

". (٢)

"والثواب أجناس مختلفة، كما أن الأموال أجناس مختلفة من مطعوم ومشروب وملبوس ومسكون ونقد وغير ذلك . وإذا ملك الرجل من أحد أجناس المال مايعدل ألف دينار ـ مثلا ـ لميلزم من ذلك أن

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٤/٢٢٧

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٤/٢٦٠

يستغني عن سائر أجناس المال، بل إذا كان عنده مال وهو طعام، فهو محتاج إلى لباس ومسكن وغير ذلك . وكذلك إن كان من جنس غير النقد، فهو محتاج إلى غيره، وإن لم يكن معه إلا النقد، فهو محتاج إلى جميع الأنواع التي يحتاج إلى أنواعها ومنافعها . والفاتحة فيها من **المنافع** ثناء ودعاء ممايحتاج الناس إليه ما لا تقوم ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مقامه في ذلك، وإن كان أجرها عظيما، فذلك الأجر العظيم إنماينتفع به صاحبه مع أجر فاتحة الكتاب؛ ولهذا لو صلى بها وحدها بدون الفاتحة، لم تصح صلاته، ولو قدر أنه قرأ القرآن كله إلا الفاتحة لم تصح صلاته؛ لأن معاني الفاتحة فيها الحوائج الأصلية التي لابد للعباد منها . وقد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع، وبين أن ما في الفاتحة من الثناء/والدعاء وهو قول : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ [الفاتحة : ٦ : ٧] ، هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه، وهو أوجب دعاء دعا به العبد ربه، وأنفع دعاء دعا به العبد ربه، فإنه يجمع مصالح الدين والدنيا والآخرة، والعبد دائما محتاج إليه لايقوم غيره مقامه، فلو حصل له أجر تسعة أعشار القرآن ـ دع ثلثه ـ ولم يحصل له مقصود هذا الدعاء، لم يقم مقامه ولم يسد مسده .

". (١)

"فإن عمرو بن لحي هو أول من غير دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكان قد أتي الشام ورآهم بالبلقاء لهم أصنام يستجلبون بها **المنافع**، ويدفعون بها المضار، فصنع مثل ذلك في مكة لما كانت خزاعة ولاة البيت قبل قريش، وكان هو سيد خزاعة . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار – أي أمعاءه ـ وهو أول من غير دين إبراهيم، وسيب السوائب، وبحر البحيرة) . وكذلك – والله أعلم ـ شرك قوم نوح وإن كان مبدؤه من عبادة الصالحين، فالشيطان يجر الناس من هذا إلى غيره، لكن هذا أقرب إلى الناس؛ لأنهم يعرفون الرجل الصالح وبركته ودعاءه، فيعكفون على قبره، ويقصدون ذلك منه، فتارة يسألونه، وتارة يسألون الله به، وتارة يصلون ويدعون عند قبره ظانين أن الصلاة والدعاء عند قبره أفضل منه في المساجد والبيوت .

". (٢)

"وأعجب من ذلك أن طائفة من هؤلاء قالوا : مكة إنما كره بيع رباعها لكونها فتحت عنوة، ولم تقسم ـ أيضا ـ وهم قد قالوا مع جميع الناس : إن الأرض العنوة التي جعلت أرضها فيء ا يجوز بيع مساكنها،

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٥/١٤٩

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٥/٤٤٨

والخراج إنما جعل على المزارع لا على المساكن، فلو كانت /مكة قد جعلت أرضها للمسلمين، وجعل عليها خراج لم يمتنع بيع مساكنها لذلك، فكيف ومكة أقرها النبي صلى الله عليه وسلم بيد أهلها على ما كانت عليه مساكنها ومزارعها ولم يقسمها ولم يضرب عليها خراجا؛ولهذا قال من قال : إنها فتحت صلحا، ولا ريب أنها فتحت عنوة كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة المتواترة، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أطلق أهلها جميعهم فلم يقتل إلا من قاتله، ولم يسب لهم ذرية، ولا غنم لهم مالا؛ ولهذا سموا الطلقاء .
وأحمد وغيره من السلف إنما عللوا ذلك بكونها فتحت عنوة مع كونها مشتركة بين المسلمين، كما قال تعالى : ﴿ والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ﴾ [الحج : ٢٥] ، وهذه هي العلة التي اختصت بها مكة دون سائر الأمصار، فإن الله أوجب حجها على جميع الناس، وشرع اعتمارها دائما فجعلها مشتركة بين جميع عباده، كما قال : ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ . ولهذا كانت منى وغيرها من المشاعر من سبق إلى مكان فهو أحق به حتى ينتقل عنه كالمساجد، ومكة نفسها من سبق إلى مكان فهو أحق به، والإنسان أحق بمسكنه ما دام محتاجا إليه وما استغنى عنه من **المنافع** فعليه بذله بلا عوض لغيره من الحجيج، وغيرهم؛ ولهذا كانت الأقوال في إجارة دورها وبيع رباعها ثلاثة .
". (١)

"قيل : لا يجوز لا هذا ولا هذا، وقيل : يجوز الأمران، /والصحيح أنه يجوز بيع رباعها، ولا يجوز إجارتها، وعلى هذا تدل الآثار المنقولة في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فإن الصحابة كانوا يتبايعون دورها، والدور تورث وتوهب، وإذا كانت تورث وتوهب جاز أن تباع بخلاف الوقف، فإنه لا يباع ولا يورث ولا يوهب .
وكذلك أم الولد من لم يجوز بيعها لم يجوز هبتها ولا أن تورث، وأما إجارتها فقد كانت تدعى السوائب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن؛ لأن المسلمين كلهم محتاجون إلى **المنافع**، فصارت كمنافع الأسواق والمساجد والطرقات التي يحتاج إليها المسلمون، فمن سبق إلى شيء منها فهو أحق به، وما استغنى عنه أخذه غيره بلا عوض، وكذلك المباحات التي يشترك فيها الناس، ويكون المشترى لها استفاد بذلك أنه أحق من غيره ما دام محتاجا، وإذا باعها الإنسان قطع اختصاصه بها وتوريثه إياها، وغير ذلك من تصرفاته؛ ولهذا له أن ألا يبذله إلا بعوض، والنبي صلى الله عليه وسلم من على أهل مكة، فإن الأسير يجوز المن عليه للمصلحة، وأعطاهم

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٥/٤٧٥

مع ذلك ذراريهم وأموالهم، كما من على هوازن لما جاؤوا مسلمين بإحدى الطائفتين : السبي أو المال، فاختاروا السبي فأعطاهم السبي وكان ذلك بعد القسمة، /فعوض عن نصيبه من لم يرض بأخذه منهم، وكان قد قسم المال فلم يرده عليهم، وقريش لم تحاربه كما حاربته هوازن، وهو إنما من على من لم يقاتله منهم كما قال : (من أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن) .
". (١)

"٢١٠٢- حدثنا أبو زرعة، ثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير،"قال الله: " فيهما إثم كبير " ، لأن في شرب الخمر والقمار، ترك الصلاة، وترك ذكر الله".

قوله: " ومنافع للناس "

٢١٠٣- حدثنا أبي، ثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: " " ومنافع " ، يقول: فيما يصيبون من لذتها وفرحها إذا شربوا"الوجه الثاني:

٢١٠٤- حدثنا حجاج بن حمزة، ثنا شبابة، ثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد،"قوله: " ومنافع للناس " **المنافع**: ثمنها وما يصيبون من الجزور".

٢١٠٥- قال أبو محمد: خالفه ابن أبي زائدة، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، فقال"ثمنها قبل أن تحرم". حدثني بذلك أبي، ثنا سهل بن عثمان، ثنا يحيى بن أبي زائدة، وتابع شبل، شبابة ، فقال: "من الجزور". وكذلك قاله ابن جريج، عن مجاهد والوجه الثالث:

2١٠٦- حدثنا أبو زرعة، ثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، في قول الله: " " ومنافع للناس " يعني " أكبر من نفعهما " ، يعني: قبل التحريم، فذمها ولم يحرمها، وكان المسلمون يشربونها على **المنافع** وهي يومئذ لهم حلال".." (٢)

"- ١٤٧٥٤ عن ابن عباس، في قوله:" " ذلك ومن يعظم شعائر الله﴾، قال الاستسمان والاستحسان والاستعظام، وفي قوله: " لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾، قال: ظهورها وأوبارها وأشعارها وأصوافها، إلى إن تسمى هديا، فإذا سميت هديا ذهبت **المنافع** " ثم محلها﴾، يقول: حين يسمى إلي البيت العتيق".

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٤٧٦/٥

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ١٠١/٢

– ١٤٧٥٥ عن الضحاك، وعطاء في هذه الآية، قال:"**المنافع** فيها، الركوب عليها إذا احتاج، وفي أوبارها وألبانها، والأجل المسمى: إلى إن تقلد فتصير بدنا " ثم محلها إلى البيت العتيق﴾، قالا: إلى يوم النحر تنحر بمنى".

– ١٤٧٥٦ عن محمد بن موسى في قوله:" " ذلك ومن يعظم شعائر الله﴾، قال: الوقوف بعرفة من شعائر الله، والجمع من شعائر الله والبدن من شعائر الله ورمي الجمار من شعائر الله، والحلق من شعائر الله فمن يعظمها " فإنها من تقوى القلوب لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾، قال: لكم في كل مشعر منها منافع اري إن تخرجوا منه إلى غيره " ثم محلها إلى البيت العتيق﴾، قال: محل هذه الشعئر كلها الطواف بالبيت العتيق".

قال تعالى:." [1]

"واستسمانها واستحسانها ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ قال : ظهورها وأوبارها واشعارها وأصوافها إلى أن تسمى هديا ، فإذا سميت هديا ذهبت **المنافع** ﴿ثم محلها﴾ يقول : حين يسمى إلى البيت العتيق.

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الضحاك وعطاء في الأية قال : **المنافع** فيها الركوب عليها إذا احتاج وفي أوبارها

وألبانها ، والأجل المسمى : إلى أن تقلد فتصير بدنا ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ قالا : إلى يوم النحر تنحر بمنى.

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن عكرمة في قوله ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ قال : إذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها.

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن محمد بن موسى في قوله ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله﴾ قال : الوقوف بعرفة من شعائر الله وبجمع من شعائر الله والبدن من شعائر الله ورمي الجمار من شعائر الله والحلق من شعائر الله ، فمن يعظمها ﴿فإنها." [2]

" صفحة رقم ٨٢

المقصود مما قبله على عادة القرآن في الترقي من العالي إلى الأعلى فساق سبحانه ابتداء الخلق الذي هو

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ٣٧٩/٩

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٤٧٦/١٠

من أعظم الأدلة على وحدانيته مساق الإنعام على عباده بما فيه من منافعهم ليكون داعيا إلى توحيده من وجهين : كونه دالا على عظمة مؤثرة وكمال قدرته ، وكونه إحسانا إلى عباده ولطفا بهم ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها فقال : (هو (، قال الحرالي : وهي كلمة مدلولها العلي غيب الإلهية القائم بكل شيء الذي لا يظهر لشيء ، فذاته أبدا غيب ، وظاهره الأسماء المظهرة من علو إحاطة اسم الله إلى تنزل اسم الملك ، فما بينهما من الأسماء المظهرة ، ثم قال : لما انتهى الخطاب بذكر إرجاعهم إلى الله وكان هذا خطابا خاصا مع المتمادي على كفره اتبع عند إعراضه وإدباره بهذا الحتم تهديدا رمى به بين أكتافهم وتسبيبا نيط بهم ومد لهم كالمرخى له في السبب الذي يراد أن يجذب به ، إما بأن يتداركه لطف فيرجع عليه طوعا ، أو يراد به قسرا عند انتهاء مدى إدباره ، وانتظم به ختم آية الدعوة بنحو من ابتدائها ، إلا أن هذه على نهاية الاقتطاع بين طرفيها وتلك على أظهر الاتساق ؛ فابعدوا في هذه كل البعد بإسناد الأمر إلى اسم هو الذي هو غيب اسم الله وأسند إليه خلق ما خلق لهم في الأرض الذي هو أظهر شيء للحس – انتهى .

) الذي خلق لكم (دينا ودنيا لطفا بكم) ما في الأرض) أي بعد أن سواهن سبعا ، قال الحرالي : وقوله : (جميعا (إعلان بأن حاجة الإنسان لا تقوم بشيء دون شيء وإنما تقوم بكلية ما في الأرض حتى لو بطل منها شيء تداعى سائرها – انتهى .

والآية دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة ، فلا يمنع شيء إلا بدليل .

ولما كانت السماء أشرف من جهة العلو الذي لا يرام ، والجوهر البالغ في الأحكام ، والزينة البديعة النظام ، المبنية على المصالح الجسام ، وكثرة المنافع والأعلام ، عبر في أمرها بثم فقال : (ثم استوى إلى السماء) أي وشرف على ذلك جهة العلو بنفس الجهة والحسن والطهارة وكثرة المنافع ، ثم علق إرادته ومشيئته بتسويتها من غير أدنى عدول ونظر إلى غيرها ، وفخم أمرها بالإبهام ثم التفسير ، والإفراد الصالح لجهة العلو تنبيها على الشرف ، وللجنس الصالح للكثرة ، ولذلك أعاد الضمير جمعا ، فكان." [1]

" صفحة رقم ١٧٣

لهم باعتقاد البعث أو اعتقاد كذب اليهود ، وعبر بالاسم العلم لأن الإحياء من أخص الآيات بصفة الإلهية كما أن الإرزاق أخص الآيات بالربوبية) ويريكم آياته (فيما يشهد بصحته) لعلكم تعقلون) أي لتكونوا برؤية تلك الآيات الشاهدة له على رجاء من أن يحصل لكم عقل فيرشدكم إلى اعتقاد البعث وغيره مما

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٨٢/١

تخبر به الرسل عن الله تعالى .

البقرة : (٧٤ – ٨٢) ثم قست قلوبكم. .. . .

) ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه المآء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحآجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ( )

ولما كان حصول المعصية منهم بعد رؤية هذه الخارقة مستبعد التصور فضلا عن الوقوع أشار إليه بقوله) ثم قست (من القسوة وهي اشتداد التصلب والتحجر) قلوبكم (ولما كانت لهم حالات يطيعون فيها أتى بالجار فقال) من بعد ذلك) أي من بعدما تقدم وصفه من الخوارق في المراجعات وغيرها تذكيرا لهم بطول إمهاله لهم سبحانه مع توالي كفرهم وعنادهم ، وتحذيرا من مثل ما أحل بأهل السبت) فهي) أي فتسبب عن قسوتها أن كانت) كالحجارة (التي هي أبعد الأشياء عن حالها ، فإن القلب أحيى حي والحجر أجمد جامد ، ولم يشبهها بالحديد لما فيه من **المنافع** ، ولأنه قد يلين .

ولما كانت القلوب بالنظر إلى حياتها ألين لين وبالنظر إلى ثباتها على حالة أصلب." (١)

" صفحة رقم ٢٠٩

ولما كان هذا الذي تقدم وإن كان للعامل به نفع على زعمه فضره أكبر من نفعه اتبعه قسما آخر ليس للعامل به شيء غير الضر ؛ فليس الحامل على تعلمه إلا إيثارا للحاق بإبليس وحزبه فقال : (ويتعلمون (، أي من السحر الذي ولده الشياطين لا من الملكين) ما يضرهم (لأن مجرد العمل به كفر أو معصية ثم حقق أنه ضرر كله لا شائبة للنفع فيه بقوله : (ولا ينفعهم (لأنه لا تأثير له أصلا ، والنفع وصول موافق

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١٧٣/١

الجسم الظاهر وما يتصل به في مقابلة الضر ، ولذلك يخاطب به الكفار كثيرا لوقوع معنيهما في الظاهر الذي هو مقصدهم من ظاهر الحياة الدنيا - قاله الحرالي .

ثم أتبعه ما يعرف أنهم ارتكبوه على علم فقال محققا مؤكدا : ولقد علموا (، بيانا لأنهم أسفه الناس) لمن اشتراه) أي آثره على ما يعلم نفعه من الإيمان) ما له في الآخرة (الباقية الباقي نفعها) من خلاق) أي نصيب موافق أصلا ، و الخلاق الحظ اللائق لمن يقسم له النصيب من الشيء كأنه موازن به خلق نفسه وخلق جسمه - قاله الحرالي .

ثم جمع لهم المذام على وجه التأكيد فقال : (ولبئس ما شروا (، أي باعوا على وجه اللجاجة) به أنفسهم (إشارة إلى أنه مما أحاط بهم فاجتثت نفوسهم من أصلها فأوجب لهم الخلود في النار ، ثم قال بعد إثبات العلم لهم : (لو كانوا يعلمون (، أي لو ك ان لهم قابلية لتلقي واردات الحق ، إشارة إلى أن هذا لا يقدم عليه من له أدنى علم ، فعلمهم الذي أوجب لهم الجرأة على هذا عدم بل العدم خير منه .

ولما بين ما عليهم فيما ارتكبوه من المضار اتبعه ما في الإعراض عنه من المنافع فقال : (ولو أنهم آمنوا) أي بما دعوا إليه من هذا القرآن ، ومن اعتقاد أن الفاعل في كل شيء إنما هو الله لا السحر) واتقوا (ما يقدح في الإيمان من الوقوف مع ما كان حقا فنسخ من التوراة فصار باطلا ، ومن الإقدام على ما لم يك ن حقا أصلا من السحر لأثيبوا خيرا مما تركوا ، لأن من ترك شيئا عوضه الله خيرا منه ؛ هكذا الجواب ولكنه عبر عنه بما يقتضي الثبوت والدوام والشرف إلى غير ذلك مما يقصر عنه الأذهان من بلاغات القرآن فقال : (لمثوبة (صيغة مفعلة من الثواب وهو الجزاء بالخير ، وفي الصيغة إشعار بعلو وثبات - قاله الحرالي ، وشرفها بقوله : (من عند الله (الذي له جميع صفات الكمال ، وزادها شرفا بقوله : (خير (، مع حذف المفضل عليه .

قاله الحرالي : وسوى بين هذه المثوبة ومضمون الرسالة في كونهما من عند الله تشريفا لهذه المثوبة وإلحاقا لها بالنمط العلي من علمه وحكمته ومضاء كلمته - انتهى .

وهذه المثوبة عامة لما يحصل في الدنيا والأخرى من الخيرات التي منها ما يعطيه الله لصالحي عباده من التصرف بأسماء الله الحسنى على حسب ما تعطيه مفهوماتها من المنافع ، ومن ذلك واردات الآثار ككون الفاتحة." (١)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ١/٢٠٩

" صفحة رقم ٢١٣

ولما حرم سبحانه قوله) راعنا (بعد حله وكان ذلك من باب النسخ وأنهى ما يتعلق به بالوصف بالفضل العظيم بعد التخصيص الذي من مقتضاه نقل ما يكون من **المنافع** من ملك أو دين أو قوة أو علم من ناس إلى ناس ، وكان اليهود يرون أن دينهم لا ينسخ ، فكان النسخ لذلك من مطاعنهم في هذا الدين وفي كون هذا الكتاب هدى للمتقين ، لأنه على زعمهم لا يجوز على الله ، قالوا : لأنه يلزم منه البدا – أي بفتح الموحدة مقصورا – وهو أن يبدو الشيء أي يظهر بعد أن لم يكن ، وذلك لا يجوز على الله تعالى ، هذا مع أن النسخ في كتابهم الذي بين أظهرهم ، فإن فيه أنه تعالى أمرهم بالدخول إلى بيت المقدس بعد مقاتلة الجبارين ، فلما أبوا حرم عليهم دخولها ومنعهم منه ومن القتال بالقدرة والأمر ، كما ستراه عن نص التوراة في سورة المائدة إن شاء الله تعالى ، وأمرهم بالجمعة فاختلفوا فيه ، كما قاله النبي (صلى الله عليه وسلم) ويأتي في قوله تعالى :

٧٧ ( ) إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ( ) ٧

[النحل : ١٢٤] واختاروا السبت ، ففرض عليهم وشدد عليهم فيه وأحل لهم جميع اللحوم والشحوم ، لما اتخذوا العجل حرم عليهم الشحوم ؛ وأعظم من ذلك تعاطيهم من النسخ ما لم يأذن به الله في تحريفهم الكلم عن مواضعه ، وتحريم الأحبار والرهبان وتحليلهم لهم ما شاؤوا من الأحكام التي تقدم عد جملة منها أصولا وفروعا ، كما قال تعالى :

٧٧ ( ) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ( ) ٧

[التوبة : ٣١] ، ولما قال عدي بن حاتم للنبي (صلى الله عليه وسلم) : (يا رسول الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، قال : أليسوا يحلون لهم ويحرمون ؟ قال : بلى ، قال : فتلك عبادتهم لهم) كما هو مبين في السيرة في وفادة عدي ؛ وكما فعلوا في إبدال الرجم." (١)

" صفحة رقم ٢٩٦

الاختلاف في الوجهين وصل بذلك إحاطة البحر بالأرض وتخلل البحار فيها لتوصل **المنافع** المحمولة في الفلك مما يوصل من منافع المشرق للمغرب ومنافع المغرب للمشرق ومنافع الشمال للجنوب وبالعكس ، فما حملت جارية شيئا ينتفع به إلا قد تضمن ذكره مبهم كلمة) ما (في قوله تعالى : (بما ينفع الناس (وذكرهم باسم الناس الذي هو أول من يقع فيه الاجتماع والتعاون والتبصر بوجه ما أدنى ذلك في منافع الدنيا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢١٣/١

الذي هو شاهد هذا القول – انتهى .
ولما ذكر نفع البحر بالسفن ذكر من نفعه ما هو أعم من ذلك فقال : (وما أنزل الله (الذي له العظمة التامة) من السماء) أي جهتها باجتذاب السحاب له .
ولما كان النازل منها على أنواع وكان السياق للاستعطاف إلى رفع الخلاف ذكر ما هو سبب الحياة فقال : (من ماء فأحيا به الأرض (بما ينبت منها ولما كان الإحياء يستغرق الزمن المتعقب للموت نفى الجار فقال : (بعد موتها (بعدمه .
ولما ذكر حياة الأرض بالماء أشار إلى أن حياة كل ذي روح به فقال) وبث (من البث وهو تفرقة أحاد مستكثرة في جهات مختلفة) فيها (بالخضب) من كل دابة (من الدبيب وهو الحركة بالنفس قال الحرالي : أبهم تعالى أمر الخلق والاختلاف والإجراء فلم يسنده إلى اسم من أسمائه يظهره ، وأسند إنزال الماء من السماء إلى اسمه العظيم الذي هو الله لموقع ظهور القهر على الخلق في استدرار أرزاق الماء واستجداده وقتا بعد وقت بخلاف مستمر ما أبهم من خلق السماوات والأرض الدائم على حالة واختلاف الليل والنهار المستمر على وجهه واحتيال إجراء الفلك الماضي على حكم عادته ، فأظهر اسمه فيما يشهد به عليهم ضرورتهم إليه في كل حول ليتوجهوا في العبادة إلى علو المحل الذي منه ينزل الماء فينقلهم بذلك من عبادة ما في الأرض إلى عبادة من في السماء
٧٧ ( ) ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ( ) ٧
[الملك : ١٦] وقال عليه الصلاة والسلام للأمة : (أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : أعتقها فإنها مؤمنة) فأذن أدنى الإيمان التوجه إلى عبادة من في السماء ترقيا إلى علو المستوى على العرش إلى غيب الموجود في أسرار القلوب ، فكان في هذه التوطئة توجيه الخلق إلى الإله الذي ينزل الماء من السماء وهو الله الذي لم يشرك به أحد سواه ليكون ذلك توطئة لتوحيد." (١)
" صفحة رقم ٣٠٥
شاكلها فقال) يا أيها الناس (وإن اختصرت فقل : لما أقام سبحانه وتعالى الدليل على الوحدانية بما خلق من **المنافع** وصنف الناس صنفين ضال معطوف دال بعطفه على غير مذكور على مهتد معطوف عليه وختم بتأبيد عذاب الضال أقبل على الصنفين إقبال متلطف مترفق مستعطف مناديا لهم إلى تابيد نفعهم قائلا : (يا أيها الناس) أي كافة .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١/٢٩٦

وقال الحرالي : لما استوفى سبحانه وتعالى ذكر أمر الدين إلى أنهاه من رتبة دين الإسلام الذي رضيه وكان الدين هو غذاء القلوب وزكاة الأنفس نظم به ذكر غذاء الأبدان من الأقوات ليتم بذكر النماءين نماء الذوات ظاهرها البدني وباطنها الديني ، لما بين تغذي الأبدان وقوام الأديان من التعاون على جمع أمري صلاح العمل ظاهرا وقبوله باطنا ، قال عليه الصلاة والسلام : (لا يقبل الله عملا إلا بالورع الشافي) ؛ وكما قيل : ملاك الدين الورع ، وهلاكه الترف ، ونقصه السرف ؛ فكما انتظم الكتاب قصر الخلق على أفضل متصرفاتهم في التدين اتصل به قصرهم على أفضل مأكلهم في التقوت ، ولما ذكر الدين في رتبتي صنفين من الناس والذين آمنوا انتظم به ذكر المأكل في صنفيهما فقال) يا أيها الناس (فانتظم بخطاب قوله تعالى) يا أيها الناس اعبدوا ربكم (لما بين العبادة والمأكل من الالتزام – انتهى .

ولما كانت رتبة الناس من أدنى المراتب في خطابهم أطلق لهم الإذن تلطفا بهم ولم يفجأهم بالتقييد فقال مبيحا لهم ما أنعم به عليهم) كلوا (ولما كان في الأرض ما لا يؤكل قال : (مما في الأرض) أي مما بينا لكم أنه من أدلة الوحدانية .

ولما كان في هذا الإذن تنبيه على أن الكل له والانتفاع به يتوقف على إذن منه دلهم على أن فيه ما أباحه وفيه ما حظره فقال : (حلالا (قال الحرالي : وهو ما انتفى عنه حكم التحريم فينتظم بذلك ما يكره وما لا يكره ، والتحريم المنع مما يلحق الآكل منه ضرر في جسمه كالميتة ، أو في نفسه كلحم الخنزير ، أو رين على قلبه كما أهل لغير الله به ؛ ثم أشار إلى أن ما حرم خبيث بقوله : (طيبا) أي غير خبيث مستقذر ، والأصل فيه ما يستلذ ؛ ويوصف به على جهة التشبيه الطاهر لأن النجس تكرهه النفس لقذره ، والحلال لأن الحرام يقذره العقل لزجر الشرع عنه .

وقال الحرالي : الحلال مطلوب ليكتسب لا ليؤكل حتى يطيب ، و الطيب ما لا منازع فيه – انتهى .." (١)

" صفحة رقم ٤٢٥

عنه ، ويجوز أن يكون الجملة حالا من واو) تجعلوا (فلا يكون هناك مقدر ويكون الإظهار موضع الإضمار لتعظيم المقام .

البقرة : (٢٢٥ – ٢٢٩) لا يؤاخذكم الله. .. . .

) لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم للذين يؤلون من

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٠٥/١

نسآئهم تربص أربعة أشهر فإن فآءوا فإن الله غفور رحيم وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا ممآ آتيتموهن شيئا إلا أن يخافآ ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون (( )

ولما تقدم إليهم سبحانه وتعالى في هذا وكانت ألسنتهم قد مرنت على الأيمان من غير قصد بحيث صاروا لا يقدرون على ترك ذلك غلا برياضة كبيرة ومعالجة طويلة وكان مما رحم الله به هذه الأمة العفو عما أخطأت به ولم تتعمده قال في جواب من كأنه سأل عن ذلك : (لا يؤاخذكم) أي لا يعاقبكم ، وحقيقته يعاملكم معاملة من يناظر شخصا في أن كلا منهما يريد أخذ الآخر بذنب أسلفه إليه) الله (فكرر في الإطلاق والعفو الاسم الأعظم الذي ذكره في التقييد والمنع إيذانا بأن عظمته لا تمنع من المغفرة) باللغو (وهو ما تسبق إليه الألسنة من القول على غير عزم قصد إليه - قاله الحرالي .

) في أيمانكم (فإن ذلك لا يدل على الامتهان بل ربما دل على المحبة والتعظيم .

ولما بين ما أطلقه بين ما منعه فقال : (ولكن يؤاخذكم (والعبارة صالحة للإثم والكفارة .

ولما كان الحامل على اليمين في الأغلب **المنافع** الدنيوية التي هي الرزق وكان الكسب يطلق على طلب الرزق وعلى القصد والإصابة عبر به فقال : (بما كسبت) أي تعمدت) قلوبكم (فاجتمع فيه مع اللفظ النية .

قال الحرالي : فيكون ذلك عزما باطنا وقولا ظاهرا فيؤاخذ باجتماعهما ، ففي جملته ترفيع لمن لا يحلف بالله في عزم ولا لغو ، وذلك هو الذي حفظ حرمة الحلف بالله ، وفي مقابلته من يحلف على الخير أن لا يفعله - انتهى .

ولم يبين هنا الكفارة صريحا إشارة إلى أنهم ينبغي أن يكونوا أتقى من أن يمنعوا من شيء فيقارفوه ، وأشار إليها في الإيلاء كما يأتي .

ولما كان ذكر المؤاخذة قطعا لقلوب الخائفين سكنها بقوله مظهرا موضع الإضمار إشارة إلى أن رحمته سبقت غضبه : (والله) أي مع ما له من العظمة) غفور) أي ستور." [١]

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ١/٤٢٥

" صفحة رقم ١٧٤

من المنافع في نفسها وفيما تثمره من التألف والتسنن وغير ذلك فقال سبحانه وتعالى : (فاعف عنهم) أي ما فرطوا في هذه الكره في حقك) واستغفر لهم) أي الله سبحانه وتعالى لما فرطوا في حقه) وشاورهم) أي استخرج آراءهم) في الأمر) أي الذي تريده من أمور الحرب تألفا لهم وتطبيقا لنفوسهم ليستن بك من بعدك) فإذا عزمت) أي بعد ذلك على أمر فمضيت فيه ، وقراءة من ضم التاء للمتكلم بمعناها ، أي فإذا فعلت أنت أمرا بعد المشاورة لأني فعلت فيه – بأن أردته – فعل العازم .

ولما أمر بالمشاورة التي هي النظر في الأسباب أمر بالاعتصام بمسببها من غير التفات إليها ليكمل جهاد الإنسان بالملابسة ثم التجرد فقال : (فتوكل) أي فيه) على الله) أي الذي له الأمر كله ، ولا يردك عنه خوف عاقبة – كما فعلت بتوفيق الله في هذه الغزوة ، ثم علل ذلك بقوله : (إن الله) أي الذي لا كفوء له) يحب المتوكلين) أي فلا يفعل بهم إلا ما فيه إكرامهم وإن رئي غير ذلك .

ولما كان التقدير ؛ فإذا فعلوا ما يحبه أعطاهم مناهم مما عزموا عليه لأجله ؛ استأنف الإخبار بما يقبل بقلوبهم إليه ويقصر هممهم عليه ، بأن من نصره هو المنصور ، ومن خذله هو المخذول ، فقال تعالى : (إن ينصركم الله) أي الذي له جميع العظمة) فلا غالب لكم) أي إن كان نبيكم (صلى الله عليه وسلم) بينكم أو لا ، فما بالكم وهنتم لما صاح إبليس أن محمدا قد قتل وهلا فعلتم كما فعل سعد بن الربيع رضي الله تعالى عنه وكما فعل أنس بن النضير رضي الله تعالى عنه حين قال : (موتوا على ما مات عليه نبيكم (صلى الله عليه وسلم) فهو أعذر لكم عند ربكم)) وإن يخذلكم) أي بإمكان العدو منكم) فمن ذا الذي ينصركم من بعده) أي من نبي أو غيره ، ولما كان التقدير : فعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، عطف عليه قوله : (وعلى الله) أي الملك الأعظم وحده ، لا على نبي ولا على قوة بعد ولا بمال من غنيمة ولا غيرها) فليتوكل المؤمنون) أي كلهم فيكون ذلك أمارة صحة إيمانهم .

ولما كان الغلول من أعظم موجبات الخذلان أو أعظمها .

والنزاهة عن من أعظم موجبات النصر ، كان أنسب الأشياء تعقيب هذه الآية بآية الغلول بيانا ، لأنه كان سبب هزيمتهم في هذه الغزوة ، فإنه لا يخذل إلأا بالذنوب ، ومن أعظم الذنوب الموجبة للخذلان الغلولن فيكون المراد بتنزيهه (صلى الله عليه وسلم) عنه – والله أعلم – أن إقبالهم عن نهب الغنائم قبل وقته إما أن يكون لقصد أن يغلو بإخفاء ما انتهبوه أو بعضه ، وإما أن يكون." (١)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/١٧٤

" صفحة رقم ١٩٦

آل عمران : (١٨٩ - ١٩٥) ولله ملك السماوات. .. . .

) ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنآ ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنآ إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ربنآ إننآ سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب (( )

ولما أخبر بهلاكهم دل عليه بحال من فاعل (يحسب) فقال تعالى : (والله) أي الذي له جميع صفات الكمال وحده) ملك السموات والأرض) أي لا يقع في فكرهم ذلك والحال أن ملكه محيط بهم ، وله جميع ما يمكنهم الانحياز إلأيه ، وله ما لا تبلغه قدرهم من ملك الخافقين فهو بكل شيء محيط) والله) أي الذي له جميع العظمة) على كل شيء قدير (وهو شامل القدرة ، فمن كان في ملكه كان في قبضته ، ومن كان في قبضته كان عاجزا عن التفصي عما يريد به ، لأنه الحي القيوم الذي لا إله إلا هو - كما افتتح به السورة .

ولما ذكر هذا الملك العظيم وختم بشمول القدرة دل على ذلك بالتنبيه على التفكر فيه الموجب للتوحيد الذي هو المقصد الأعظم من هذه السورة الداعي إلى الإيمان الموجب للمفازة من العذاب ، لأن المقصود الأعظم من إنزال القرآن تنوير القلوب بالمعرفة ، وذلك لا يكون إلا بغاية التسليم ، وذرك هو ابتاع الملة الحنيفية ، وهو متوقف على صدق النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فبدأ سبحانه وتعالى السورة بدلائل صدقه بإعجاز القرآن بكشفه .

مع أعجاز بنظمه على لسان النبي الأمي - للشبهات وبيانه للخفيات ، وأظهر مكابرة أهل الكتاب ، وفضحهم أتم فضيحة ، فلما تم ذلك على أحسن وجه منظما ببدائع الحكم من الترغيب والترهيب شرع في بث أنوا المعرفة بنصب دلائلها القريبة وكشف أستارها العجيبة فقال : (إن في خلق السموات والأرض) أي على كبرهما وما فيهما من المنافع ، ونبه على التغير الدال على المغير بقوله : (واختلاف الليل والنهار

) أي اختلافا هو –كما ترون – على غاية الإحكام على المغير بقوله : (واختلاف الليل والنهار) أي اختلافا هو –كما ترون – على غاية الإحكام بكونه على منهاج قويم وسير لا يكون إلا بتقدير العزيز العليم." (١)

" صفحة رقم ٢١٥

الله القزاز في ديوانه : وأصله – أي النحل : إعطاء الشيء لا يراد به عوض وكذا إن قلنا : معنى النحلة الديانة والملة الشرعة والمذهب ، أي آتوهن ذلك ديانة .

ولما وقع الأمر بذلك كان ربما أبى المتخلق بالإسلام قبول ما تسمح به المرأة منه بإبراء أو رد على سبيل الهبة – لظنه أن ذلك لا يجوز أن غير ذلك فقال : (فإن طبن لكم) أي متجاوزات) عن شيء (ووحد الضمير ليرجع إلى الصداق المفهوم من الصدقات ، ولم يقل : منها ، لئلا يظن أن الموهوب لا يجوز إلا إن كان صداقا كاملا فقال : (منه) أي الصداق) نفسا) أي عن شهوة صادقة من غير إكراه ولا خديعة) فكلوه) أي تصرفوا فيه بكل تصرف يخصكم) هنيئا) أي سائغا صالحا لذيذا في عافية بلا مشقة ولا مضرة) مرئيا) أي جيد المغبة بهجا سارا ، لا تنغيص فيه ، وربما كان ابتعيض ندبا إلى التعفف عن قبول الكل ، لأنه في الغالب لا يكون إلا عن خداع أو ضجر فربما أعقب الندم ، وهذا الكلام يدل أيضا على تخصيص الأحرار دون العبيد ، لأنهم لا يملكون ماجعلته النساء لهم ليأكلوه هنيئا .

قال الأصبهاني : فإن وهبت له ثم طلبت منه بعد الهبة علم أنها لم تطب نفسها ، وعن الشعبي ان رجلا أتى مع امرأته شريحا في عطية أعطتها إياه وهي تطلب أن ترجع ، فقال شريح : رد عليها ، فقال الرجل : أليس قد قال الله تعالى :

٧٧ ( ) فإن طبن لكم ( ) ٧

[النساء : ٤] قال : لو طابت نفسها لما رجعت فيه ؛ وعنه قال : أقيلها فيما وهبت ولا أقيله ، لأنهن يخدعن .

ولما أمر بدفع أموال اليتامى والنساء إليهم ، ونهى عن أكل شيء منها تزهيدا في المال واستهانة به ، وكان في النساء والمحاجير من الأيتام وغيرهم سفهاء ، وأمر بالاقتصاد في المعيشة حذرا من الظلم والحاجة نهى عن التبذير ، وقد حث سبحانه على حسن رعاية المال في غير آية من كتابه لأنه (نعم المال الصالح للرجل الصالح) رواه أحمد وابن منيع عن عمرو بن العاص رفعه ؛ لأن الإنسان ما لم يكن فارغ البال لا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١٩٦/٢

يمكنه القيام بتحصيل ما يهمه من الدنيا ، وما لم يتمكن من تحصيل ما يهمه من الدنيا لا يمكنه أمر الآخرة ، ولا يكون فارغ البال إلا بواسطة ما يكفيه من المال - لأنه لا يتمكن في هذه الدار التي مبناها على الأسباب من جلب **المنافع** ودفع المضار إلا به ، فمن أراده لهذا الغرض كان من أعظم الأسباب المعينة له على اكتساب سعادة الآخرين ، ومن أراد لنفسه كان من أعظم المعوقات عن سعادة الآخرة فقال تعالى : (ولا تؤتوا (أيها الأزواج والأولياء) السفهاء) أي من محاجيركم ونسائكم وغيرهم) أموالكم) أي الأموال التي خلقها الله لعباده سواء كانت مختصة بكم أو بهم ، ولكم بهم ، ولكم بها علقة بولاية أو غيرها ، فإنه." (١)

" صفحة رقم ٢٢١

فقال : (من بعد وصية يوصي بها) أي كما مندوب لكل ميت ، وقدمها في الوضع على ما هو مقدم عليها في الشرع بعثا على أدائها ، لأن أنفس الورثة تشح بها ، لكونها مثل مشاركتهم في الإرث لأنها بلا عوض) أو دين) أي إن كان عليه دين ولما كان الإنسان قد يرى أن بعض أقربائه من أصوله أو فصوله أو غيرهم أنفع له ، فأحب تفضيله فتعدى هذه الحدود لما رآه ، وكان ما رآه خلاف الحق في الحال أو في المآل ، وكان الله تعالى هو المستأثر بعلم ذلك ، ولهذا قال (صلى الله عليه وسلم) : (أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما) الحديث : لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبها كيف شاء ؛ قال تعالى حاثا على لزوم ما حده مؤكدا بالجملة الاعتراضية - كما هو الشأن في اعتراض - لأن هذه القسمة مخالفة لما كانت العرب تفعله ، وهي على وجوه لاتدرك عللها : (أبآؤكم وأبنآؤكم) أي الذين فضلنا لكم إرثهم على ما ذكرنا) لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) أي من غيره ، لأنه لا إحاطة لكم في علم ولا قدرة ، فلو وكل الأمر في القسمة إليكم لما وضعتم الأمور في أحكم مواضعها .

ولما بين أن الإرث على ما حده سبحانه وتعالى مؤكدا له بلفظ الوصية ، وزاده تأكيدا بما جعله اعتراضا بين الإيصاء وبين (فريضة) بين أنه على سبيل الحتم الذي من تركه عصى ، فقال ذاكرا مصدرا مأخوذا من معنى الكلام : (فريضة من الله) أي الذي له الأمر كله ، ثم زادهم حثا على ذلك ورغبة فيه بقوله تعليلا لفريضته عليهم مطلقا وعلى هذا الوجه : (إن الله) أي المحيط علما وقدرة) كان (ولم يزل ولا يزال لأن وجود لا يتفاوت في وقت من الأوقات ، لأنه لا يجري عليه زمان ، ولا يحويه مكان ، لأنه خالقهما) عليما) أي بالعواقب) حكيما) أي فوضع لكم هذه الأحكام على غاية الإحكام في جلب **المنافع** لكم

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/٢١٥

ودفع الضر عنكم ، ورتبها سبحانه وتعالى أحسن ترتيب ، فإن الوارث يتصل بالميت تارة بواسطة وهو الكلالة ، وأخرى بلا واسطة ، وهذا تارة يكون بنسب ، وتارة بصهر ونسب ، فقدم ما هو بلا واسطة لشدة قربه ، وبدأ منه بالنسب لقوته ، وبدأ منهم بالولد لمزيد الاعتناء به .." (١)

" صفحة رقم ٤٠٠

[البقرة : ٢٣٨] كما مضى بالمحل الذي هي به ، لما كان ذلك كذلك ختمت هذه الآية بقوله تعالى منفردا من نكاحهن بعد إحلاله ، إشارة إلى أن الورع ابتعد عنه ، امتثالا للآيات الناهية عن موادة المحاد لئلا يحصل ميل فيدعو إلى المتابعة ، أو يحصل ولد ، فتستميله لدينها : (ومن) أي أحل لكم ذلك والحال أنه من) يكفر) أي ويوجد ويجدد الكفر على وجه طمأنينة القلب به والاستمارا عليه إلى الموت) بالإيمان) أي بسبب التصديق القلبي بكل ما جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب ، الذي منه حل الكتابيات ، فيدعوه ذلك إلى نكاحهن ، فتحمله الخلطة على اتباع دينهن ، فيكفر بسبب ذلك التصديق فيكفر بالصلاة التي يلزم من الكفر بها الكفر به ، فإطلاقه عليها تعظيم لها

٧٧ ( ) وما كان الله ليضيع إيمانكم ( ) ٧

[البقرة : ١٤٣] أي صلاتكم) فقد حبط) أي فسد) عمله) أي إذا اتصل ذلك بالموت بدليل قوله : (وهو في الآخرة من الخاسرين (والآية من أدلة إمانا الشافعي على استعمال اللفظ الواحد في حقيقته ومجازه ، فحيث قصد التحذير من الكفر حقيقة فالإيمان حقيقة وحيث أريد الترهيب من إضاعة الصلاة فهو مجاز ، ومما يؤيد ذلك أن في السفر الثاني من التوراة : لا تعاهدن سكان الأرض لكيلا تضلوا بأوثانهم ، وتذبحوا لآلهتهم ، أو يدعوك فتأكل من ذبائحهم ، وتزوج بنيك من بناتهم وبناتك من بنيهم ، فتضل بناتك خلف آلهتهم ويضل بنوك بلهتهم ، وقال في الخامس منها : وإذا أدخلكم الله ربنا الأرض التي تدخلونها لترثوها ، وأهلك شعوبا كثيرة من بين أيديكم : حتانيين وجرجسانيين وأمورانيين وكنعانيين وفرزانيين وحاوانيين ويابسانيين .

سبعة شعوب أكثر وأقوى منكم ، ويدفعهم الله ربكم في أيديكم فاضربوهم واقتلوهم وانفوهم وحرموهم ولا تعاهدوا عهدا ولا ترحموهم ، وتحاشوهم ولا تزوجوا بناتكم من بنيهم ، ولا تزوجوا بنيكم من بناتهم لئلا يغوين بنيكم عن عبادتي ، ويخدعنهم فيعبدوا آلهة أخرى ، ويشتد غضب الرب عليكم ويهلككم سريعا ، ولكن اصنعوا بهم هذا الصنيع : استأصلوا مذابحهم ، وكسروا أنصابهم ، وحطموا أصنامهم المصبوغة ،

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٢١/٢

وأحرقوا أوثانهم المنحوتة ، لأنكم شعب طاهر لله ربكم – انتهى .
وإذا تأملت جميع ذلك ، وأمعنت فيه النظر لاح لك سر تعقيبها بقوله تعالى في سياق مشير إلى البشارة بأن هذه الأمة تطيع ولا تعصى فتؤمن ولا تكفر ، لما خص به كتابها من البيان الأتم في النظم المعجز مع شرف التذكير بما أفاضه من شرف جليل الأيادي ، فاتتح هذه السورة بالأمر باوفاء بحق الربوبية ، وأتبعه التذكير بما وفى به سبحانه من حق الربوبية من نوع **المنافع** في لذة المطعم وتوابعه ولذة المنكح وتوابعه ، وقدم المطعم لأن الحاجة إليه فوق الحاجة إلى المنكح ، فلما أتم ما ألزمه نفسه الأقدس من عهد الربوبية فضلا منه ، أتبعه الأمر بالوفاء بعهد العبودية ، وقدم." (١)
" صفحة رقم ٥٧٩
الزائغة ، وعليها مبنى أصول الدين لاشتمالها على التوحيد والعدل ولنبوة والمعاد وإبطال مذاهب الملحدين ، وإنزالها على الصورة المذكورة يدل على أن أصول الدين في غاية الجلالة ، وأن تعلمه واجب على الفور لنزولها جملة ، بخلاف الأحكام فإنها تفرق بحسب المصالح ، ولنزولها ليلا دليل على غاية البركة لأنه محل الأنس بنزوله تعالى إلى سماء الدنيا ، وعلى أن هذا العلم لا يقف على أسراره إلا البصراء الأيقاظ من سنة الغفلات ، أولو الألباب أهل الخلوات ، والأرواح الغالبة على الأبدان وهم قليل .
) بسم الله (الذي بين دلائل توحيده بأنه الجامع لصفات الكمال) الرحمن (الذي أفاض على سائر الموجودات من رحمته بالإيجاد والإعدام ما حير لعمومه الأفهام ، فضاقت به الأوهام) الرحيم (الذي حبا أهل الإيمان بنور البصائر حتى كان الوجود ناطقا لهم ، بالإعلام بأنه الحي القيوم السلام .
) الحمد) أي الإحاطة بأوصاف الكمال) لله (.
لما ختم سبحانه تلك بتحميد عيسى عليه السلام لجلاله في ذلك اليوم في ذلك الجمع ، ثم تحميد نفسه المقدسة بشمول الملك والقدرة ، إذ الحمد هو الوصف بالجميل ؛ افتتح سبحانه وتعالى هذه السورة بالإخبار بأن ذلك الحمد وغيره من المحامد مستحق له استحقاقا ثابتا دائما قبل إيجاد الخلق وبعد إيجاده سواء شكره العباد أو كفروه ، لما له سبحانه وتعالى من صفات الجلال والكمال – على ما تقدمت الإشارة إليه في الفاتحة – فأتى بهذه الجملة الاسمية المفتتحة باسم الحمد الكلي الجامع لجميع أنواعه الدالة على الاستغراق ، إما بأن اللام له عند الجمهور ، أو بأنها للجنس – كما هو مذهب الزمخشري ، ويؤول إلى مذهب الجمهور ، فإن الجنس إذا كان مختصا به لم يكن فرد منه لغيره ، إذ الجنس لا يوجد إلا ضمن

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/٤٠٠

أفراده ، فمتى وجد فرد منه لغيره كان الجنس موجودا فيه فلم يكن الجنس مختص ا به وقد قلنا : إنه مختص ، وهذا التحميد صار بوصفه فردا من أفراد تحميد الفاتحة تحقيقا لكونها أما ، وعقبها سبحانه بالدليل الشهودي على ما ختم به تلك من الوصف بشمول القدرة بوصفه بقوله : (الذي خلق (.

ولما كان تعدد السماوات ظاهرا بالكواكب في سيرها وحركاتها في السرعة والبطوء واستتار بعضها ببعض عند الخسوف وغيره وغير ذلك مما هو محرر عند أهله : جمعها فقال : (السماوات) أي على علوها وإحكامها ، قدمها لما تقدم قريبا) والأرض) أي على تحليها **بالمنافع** وانتظامها .

ولما كان في الجعل معنى التضمن فلا يقوم المجعول بنفسه قال : (وجعل) أي أحدث وأنشأ لمصالحكم) الظلمات) أي الأجرام المتكاثفة كما تقدم) والنور (وجمع الأول تنبيها على أن طرق الشر والهلاك كثيرة تدور على الهوى ، وقد تقرر بهذا." (١)

" صفحة رقم ٥٩٦

الأنعام : (١٤ - ١٧) قل أغير الله. .. . . .

) قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير (( )

ولما نهض من الحجج ما لم يبق معه لذي بصيرة شك ، كان لسان الحال مقتضيا لأن ينادي بالإنكار عليهم في الالتفات عن جنابه والإعراض عن بابه فأبرز تعالى ذلك في قالب الأمر له (صلى الله عليه وسلم) بالإنكار على نفسه ، ليكون أدعى لهم وأرفق بهم ، ولأن ما تقدم منبئ عن غاية المخالفة ، منذر بما أنذر من سوء عاقبة المشاققة ، فكأنهم قالوا : فهل من سبيل إلى المواقة ؟ فقيل : لا إلا باتخاذكم إلهي وليا ، وذلك لعمري سعادتكم في الدارين ، وبتطمعكم في اتخاذي أندادكم أولياء ، وهذا ما لا يكون أبدا ، وهو معنى قوله تعالى : (قل) أي مصرحا لهم بإنكار أن تميل إلى أندادهم بوجه .

ولما كان الإنكار منصبا إلى كون الغير متخذا ، لا إلى اتخاذ الولي ، أولى (غير) الهمزة فقال : (أغير الله) أي الذي لا شيء يدانيه في العظمة) أتخذ) أي أكلف نفسي إلى خلاف ما تدعو إليه الفطرة الأولى والعقل المجرد عن الهوى كما فعلتم أنتم وآخذ) وليا) أي أعبده لكونه يلي جميع أموري ، ثم وصفه

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٧٩/٢

بما يحقق ولايته ويصرف عن ولاية غيره فقال : (فاطر السماوات والأرض) أي خالقهما ابتداء على غير مثال سبق) وهو) أي والحال أن الله) يطعم) أي يرزق كل من سواه مما فيه روح .
ولما كان المنفي كونه سبحانه مفعولا من الطعم ، لا كون ذلك من مطعم معين ، بني للمفعول قوله : (ولا يطعم) أي ولا يبلغ أحد بوجه من الوجوه أن يطعمه ، والمعنى أن **المنافع** من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع ، فامتنع في العقل اتخاذ غيره وليا ، لأن غيره محتاج في ذاته وفي جميع صفاته إليه ، وهو سبحانه الغني على الإطلاق ، وهذا التفات إلى قوله تعالى : ( ) ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ( ) [المائدة : ٧٥] وتعريض بكل ما عبد من دون الله ولا سيما الأصنام ، فإنهم كانوا يهدون لها الأطعمة فتأكلها الدواب والطيور ، فمعلوم أنها لا تطعم ولا تطعم روى الدارمي في أول مسنده بسند حسن عن الأعمش عن مجاهد قال : (حدثني مولاي أن أهله بعثوا معه بقدح فيه زبد ولبن إلى آلهتهم ، قال : فمنعني أن آكل الزبد مخافتها ، فجاء كلب فأكل الزبد وشرب اللبن ثم بال على الصنم) ومولاه كان شريك النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل الإسلام ، واختلف فيه فقيل : هو قيس بن." [(١)]

" صفحة رقم ٦٢٨

ههنا حتى ألقى أبا الحكم ، فإن غلب محمد رجعتم سالمين ، وإن غلب محمد فإن قومكم لن يصنعوا بكم شيئا ، فيومئذ سمي (الأخنس) ، وكان اسمه (أبي) ، فالتقى الأخنس وأبو جهل ، فخلا الأخنس به فقال : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ، فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا ، فقال أبو جهل : ويحك والله إن محمدا لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة فماذا يكون لسائر قريش وعن ناجية قال قال أبو جهل للنبي (صلى الله عليه وسلم) : ما نتهمك ولكن نتهم الذي جئت به ، فأنزل الله الآية وعلى ذلك يدل قوله تعالى : (ولكن (، وقال : (الظالمين (في موضع الضمير تعميما وتعليقا للحكم بالوصف ، اي الذين كانوا في مثل الظلام) بآيات) أي بسبب آيات) الله) أي الملك الأكبر الذي له الكمال كله) يجحدون (قال أبو عليٍ الفارسي في أول كتاب الحجة : أي يجحدون ما عرفوه من صدقك وأمانتك ، وعلق باء الجر بالظالمين كما هي في قوله
٧٧ ( ) وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ( ) ٧

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٩٦/٢

[الإسراء : ٥٩] ونحوها ، وقال ابن القطاع في كتاب الأفعال : جحد الشيء جحدا وجحودا : أنكره وهو عالم به .

هذا قصدهم غير أنه لا طريق لهم إلا إنكار الآيات إلا بالتكذيب ، أو ما يؤول إليه ، وأنت تعلم أن الذي أرسلك على كل شيء قدير ، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ، فاقتضت قدرته وقهره وانتصاره لأهل ولايته وجبره أن يحل بأعدائهم سطوة تجل عن الوصف ، واقتضت حكمته عدم المعاجلة بها تشريفا لك وتكثيرا لأمتك .

ولما سلاه بوعده النصرة المسببة عن علم المرسل القادر ، وبأن تكذيبهم إنما هو له سبحانه ، وهو مع ذلك يصبر عليهم ويحلم عنهم ، بل ويحسن إليهم بالرزق **والمنافع** ، زاده أن ذلك سنة في إخوانه من الرسل فقال : (ولقد (ولما كان المنكي هو التكذي لا كونه من معين ، بني للمفعول قوله : (كذبت رسل (. ولما كان تكذيبهم لم يستغرق الزمان ، وكان الاشتراك في شيء يهونه ، وكلما قرب الزمان كان أجدر بذلك أدخل الجار فقال : (من قبلك (بأن جحد قومهم ما يعرفون من صدقهم وأمانتهم كما فعل بك) فصبروا) أي فتسبب عن تكذيب قومهم لهم أنهم صبروا) على ما كذبوا وأوذوا) أي فصبروا أيضا على ما أوذوا ، ثم أشار إلى." (١)

" صفحة رقم ٦٥٦

واللعب ، بل على وجه التقوى والمراقبة ليدل ما ظهر منها على ما بطن من الإسلام للمحسن .

ولما كان التقدير : فهو الذي ابتدأ خلقكم من طين فإذا أنتم بشر مصورون ، وجعلكم أحياء فبقدرته على مدى الأيام تنتشرون ، عطف عليه قوله : (وهو الذي إليه) أي لا إلى غيره بعد بعثكم من الموت) تحشرون (فأتى بالبعث الذي هم له منكرون لكثرة ما أقام من الأدلة على تمام القدرة في سياق دال على أنه مما لا مجال للخلاف فيه ، وأن النظر إنما هو فيما وراء ذلك ، وهو أن عملهم للباطل سوغ تنزيلهم منزلة من يعتقد أنه يحشر إلى غيره سبحانه ممن لا قدرة له على جزائهم ، فأخبرهم أن الحشر إليه لا إلى غيره ، لأنه لا كلام هناك لسواه ، فلا علق بين المحشورين ولا تناصر كما في الدنيا ، والجملة مع ذلك كالتعليل للأمر بالتقوى ، وقد بان أن الآية من الاحتباك ، فإنه حذف الصلاة أولا لدلالة ذكرها ثانيا ، والإسلام ثانيا لدلالة ذكره أولا .

الأنعام : (٧٣ - ٧٦) وهو الذي خلق. .. . .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٦٢٨/٢

) وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلمآ أفل قال لا أحب الآفلين (( )

ولما كانوا بعبادة غيره تعالى – مع إقرارهم بأنه هو خالق السماوات والأرض – في حال من يعتقد أن ذلك الذي يعبدونه من دونه هو الذي خلقهما ، أو شاركا فيهما .

فلا قدرة لغيره على حشر من في مملكته ، قال تعالى منبها لهم من غفلتهم وموقظا من رقدتهم معيدا الدليل الذي ذكره أول السورة على وجه آخر : (وهو) أي وحده) الذي خلق) أي أوجد واخترع وقدر) السماوات والأرض) أي على عظمهما وفوت ما فيهما من الحكم **والمنافع** الحصر) بالحق) أي بسبب إقامة الحق ، وأنتم ترون أنه غير قائم في هذه الدار ولا هو قريب من ا لقيام ، فوجب على كل من يعلم أن الله حكيم خبير أن يعتقد أنه لا بد من بعثة العباد بعد موتهم – كما وعد بذلك – ليظهر العدل بينهم ، فيبطل كل باطل ويحق كل حق ، ويظهر الحكم لجميع الخلق .

ولما قرر أن إقامة الحق هي المراد ، قرر قدرته عليها بقوله : (ويوم يقول) أي للخلق ولكل شيء يريده في هذه الدار وتلك الدار) كن فيكون) أي فهو يكون لا يتخلف أصلا .." (١)

" صفحة رقم ٧٠١

ولما كان المقام للعلم الكاشف للحقائق المبين لما يتبع وما يجتنب ، قال معللا لهذا الإخبار : (إن ربك) أي المحسن إليك بإنزال هذا الكتاب الكاشف للارتياب الهادي إلى الصواب) هو) أي وحده) أعلم (ولكون الحال شديد الاقتضاء للعلم ، قطعه عما بعده ليسبق إلى الفهم أنه أعلم من كل من يتوهم فيه العلم مطلقا ثم قال : (من) أي يعلم من) يضل) أي يقع منه ضلال يوما ما) عن سبيله) أي الذي بينه بعلمه) وهو) أي وحده) أعلم بالمهتدين (كما أنه أعلم بالضالين ، فمن أمركم باتباعه فاتبعوه ، ومن نهاكم عنه فاجتنبوه ، فمن ضل أرداه ، ومن اهتدى أنجاه ، فاستمسكوا بأسبابه حذرا من وبيل عقابه يوم حسابه .

ولما قدم سبحانه ما مضى من السوائب وما معها وفي المائدة مما يدين به أهل الجاهلية في أكل الحيوان الذي جر إليه الشرك ، وأتبعه بيان أنه لا ضرر على أهل الإيمان من دين أهل الضل ا ل إذا اهتدوا ، وأتبع

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦٥٦/٢

ذلك ما لاءمه ، وانتظم في سلكه ولاحمه ، حتى ظهر أي ظهور أن الكل ملكه وملكه ، وأنه لا شريك له ، فوجب شكره وحده ، وكانوا مع ذلك قد كفروا نعمه تتعالى فاتخذوا معه شركاء ولم يكفهم ذلك حتى جعلوا لها مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فكانوا بذلك المانعين الحق عن أهله ، ومانحين ما خولهم فيه من له الملك لما لا يملك ضرا ولا نفعا ، وتاركين بعض ما أنعم عليهم به صاحب الحق رعاية لمن لا حق له ولا حرمة ، وكانت سنة الله تعالى قد جرت بأنه يذكر نفسه الشريفة بالوحدانية .

ويستدل على ذلك بخلق السماوات والأرض وما أودع فيهما لنا من **المنافع** وما أبدع من المرافق والمصانع ، ثم يعجب ممن أشرك به ، ثم يأمر بالأكل مما خلق تذكيرا بالنعمة ، ليكون ذلك داعية لكل ذي لب إلى شكره ، كما قال تعالى في البقرة عقب) وإلهكم إله واحد (

٧٧ ( ) إن في خلق السماوات والأرض ( ) ٧

[البقرة : ١٦٤] ثم قال

٧٧ ( ) ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا ( ) ٧

[البقرة : ١٦٥] ثم قال

٧٧ ( ) يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ( ) ٧

[البقرة : ١٦٨] ؛ أجرى هذه السنة الجليلة في هذه السورة أيضا ، فقال :

٧٧ ( ) إن الله فالق الحب والنوى ( ) ٧

[الأنعام : ٩٥] بعد

٧٧ ( ) إني وجهت وجهي للذي فطر ( ) ٧

[الأنعام : ٧٩] ثم

٧٧ ( ) وجعلوا لله شركاء الجن ( ) ٧

[الأنعام : ١٠٠] ودل على أنه لا شريك له في ملكه ولا ملكه ، وختم بأنه لا حكم سواه ينازعه في حكمه أو يباريه في شيء من أمره ، وبين أن من آيها الهداية التي جعلها شرطا لعدم ضرر يلحق من دين أهل الشرك ؛ فسبب عن جميع ما ذكرت قوله : (فكلوا مما ذكر) أي وقت الذبح) اسم الله) أي الملك الذي له الإحاطة الكاملة فله كل شيء) عليه) أي كأن قائلا لذلك سواء ذكر بالفعل أولا ، وعدل عن التعبير بما جعلته المراد ليفهم أن الذكر بالفعل مندوب إليه ، ولا يكونوا ممن بنى دينه على اتباع الأهوية

والظنون الكاذبة ، فكأنه قيل : اتبعوا من يعرف الحق لأهله فإنه مهتد غير معرجين على غيره فإنه ضال ، ". (١)

" صفحة رقم ٤٤

الاحتباك آخرها يدل على حذف ضده من صدرها ، وصدرها يدل على أنه حذف قبل الآخر ولا تتركوا الإخلاص تكونوا معتدين ولما كان ذلك من الوفاء بحق الربوبية والقيام بحق العبودية مقتضيا للصلاح أمر بإدامته بالنهي عن ضده في قوله : (ولا تفسدوا) أي لا تدفعوا فسادا) في الأرض) أي باشرك والظلم ، فهو منع من إيقاع ماهية الإفساد في الوجود ، وذلك يقتضي المنع من جميع أنواعه فيتناول الكليات الخمس التي اتفقت عليها الملل ، وهي الديان والأبدان والعقول والأنساب والأموال) بعد إصلاحها (والظاهر أن افضافة بمعنى اللام وهي إضافة في المفعول ، أي لا تدنسوها بفساد بعد أن أصلحها لكم خلقا بما سوى فيها من المنافع المشار إليها بقوله

٧٧ ( ) يغشى الليل النهار ( ) ٧

[الأعراف : ٥٤] الدال على الوحدانية الداعي إلى الحق إقامة للأبدان ، وامر بما أنزل من كتبه على السنة رسله عليهم الصلاة والسلام إقامة للأديان فجمع إلى الإيجاد الأول الإبقاء الأول ولما كان ذلك اقتضى الاقتصار بكمال التذلل على مقام الخوف ، نفي ذلك بقوله) وادعوه خوفا) أي من عدله ؛ ولما كان لا سبب للعبادة من أنفسهم في الوصول إليه سبحانه ، عبر بالطمع فقال : (وطمعا) أي في فضله ، فإن من جمع بين الخوف والرجاء كان في مقام الإحسان وكأنه مشاهد للرحمن ، ما زجره زاجر الجلال بسياط سطوته إلا دعاه داعي الجمال إلى بساط رافته ، ومن حاز مقام الإحسان كان أهلا للرحمة) إن رحمت الله) أي إكرام ذي الجلال وافكرام لمن يدعوه على هذه الصفة ، وفخمها بالتذكير لإضافتها إلى غير مؤنث فيما قال سيبوية فقال : (قريب (وكان الأصل منكم ، ولكنه اظهر تعميما وتعليقا للحكم بالوصف فقال : (من المحسنين (ولما كان دوام الصلاح لا يكون إلا يكون بالغيث ، وهو من أجل أنواع الرحمة ، وهو لا يكون إلا بالسحاب ، وهو لا يكون إلا بالريح ، قال تعالى عاطفا على) إن ربكم الله (تنبيها بعد تحقيق المبدأ على تحقيق المعاد : (وهو) أي لا غيره) الذي يرسل) أي بالتحريك) الرياح (هذا في قراءة الجماعة ، وانواعها خمس : جنوب وشمال وصبا ودبور ونكباء ، وهي كل ريح انحرفت فوقعت بين ريحين ، ووحد ابن كثير وحمزة والكسائي على إرادة الجنس) بشرا (بتضمين في قراءة اهل الحجاز

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/ ٧٠١

والبصرة ، أي منتشرة جمع نشور من النشر ، وهو بسط ما كان مطويا وتفرقه في كل وجه لا لذات الريح وإلا الدام ذلك منها ولا بقوة فلك أو نجم لأن نسبتها إلى الهواء واحدة) بين يدي) أي قبل) رحمته) أي المطر ، ولعله عبر فيه باليدين : اليمنى واليسرى ، لدلالته -." [١]

" صفحة رقم ٦٣

منكرا موبخا عليها ؟ قال : (ما سبقكم بها (وأغرق في النفي بقوله : (من أحد (وعظم ذلك بتعميمه في قوله : (من العالمين (فقد اختراعهم شيئا لا يكون مثل فحشه لتذكروا أسوا ذكر ، كما أن ذوي الهمم العوال والفضل والكمال يستنبطون من المحاسن **والمنافع** ما يبقى لهم ذكره وينفعهم أجره ، وفي ذلك اعظم إشارة إلى تقبيح البدع والتشنيع على فاعليها ، لأن العقول بمعرفة المحاسن ، ولما ابهم الفاحشة ليحصل التشوف إلى معرفتها ، عينها في استفهام آخر كالأول في إنكاره وتوبيخه ليكون أدل على تناهي الزجر عنها فقال : (أئتكم لتأتون الرجال) أي تغشونهم غشاء النساء ؛ ولما أبقى للتشوق مجالا ، عين بقوله : (شهوة) أي مشتهين ، أو لأجل الشهوة ، لا حامل لكم على ذلك إلا الشهوة كالبهائم التي لا داعي لها من جهة العقل ، وصرح بقوله : (من دون النساء (فلما لم يدع لبسا ، وكان هذا ربما أوهم إقامة عذر لهم وجدان النساء أو عدم كفايتهم لهم ، أضرب عنه بقوله : (بل أنتم قوم (ولما كان المقصود هذه السورة الإنذار كان الأليق به افسراف الذي هو غاية الجهل المذكور في سورة النمل فقال) مسرفون) أي لم يحملكم على ذلك ضرورة لشهوة تدعونها ، بل اعتياد المجاوز للحدود ، ولم يسم قوم لوط في سورة من السور كما سميت عاد وثمود وغيرهم صونا للكلام عن تسميتهم ، واما قوم نوح فإنما لم يسموا لعدم تفرق القبائل إذ ذاك ، فكانوا لذلك جميع أهل الأرض ولذا عمهم الغرق - الله اعلم ولما كان كانه قيل : هذا التقريع يوجب غاية الاستحياء ، بل إنه يذهب كل من سمعه منهم إلى كمان لا يعرف فيه سترا لحاله ، فيما ليت شعري ما كان حالهم عنده فقيل : كان كانهم أجابوه بوقاحة عظيمه وفجور زائد على الحد ، فما كان جوابهم إلا أذى لوط عليه السلام وآله بما استحقوا منهم به الإنذار الذي هو مقصود السورة ، عطف عليه قوله : (وما كان جواب قومه) أي الذين هم أخل قوة شديدة وعزم عظيم وقدرة على القيام بما يحاولونه) إلا أن قالوا (ولما كان المقصود بيان أنهم اسرعوا إجابته بما ينكيه اضمر ما لا يشكل بالإضمار ، أو أنه لما كان السياق لبيان الخبيث بين أنه لا اخبيث من هؤلاء الذين بلغ من رذالتهم أنهم عدوا الطاهرين المتطهرين مما يصان اللسان عن ذكره فقال تعالى مشيرا ذلك في حكاية قولهم : (أخرجوهم

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣/٤٤

(اي المحدث عنهم ، وهم لوط ومن انضم إليه) من قريتكم (والمراد ببيان الإسراع في هذا تسلية النبي (صلى الله عليه وسلم) من رد قومه لكلامه لئلا." [1]

" صفحة رقم ١٦٦

ولما كانوا قد ألحفوا في سؤاله (صلى الله عليه وسلم) عنها ، وكانت صفة الربوبية المذكورة في الجملة الأولى ربما حملت على سؤاله طمعا في تعريفها من المحسن إليه ، قطع الأطماع بقوله مؤكدا للمعنى : (يسئلونك) أي عن الساعة مطلقا في وقت وقوعها وما يحصل من أمورها ويحدث من شدائدها ، أي ويلحفون في سؤالك كلما أخبرتهم أنه لا يعلمها إلا الله) كأنك حفي) أي عالم بأمرها مستقص مبالغ في السؤال) عنها قل) أي قطعا لسؤالهم) إنما علمها عند الله) أي الذي له جميع العزة والعظمة والكبرياء فلا يستطاع علم شيء مما عنده إلا بإذنه ، ولم يأذن في علمها لأحد من الخلق) ولكن أكثر الناس) أي الذين غلبت عليهمصفة الاضطراب) لايعلمون) أي ليسوا من أهل العلم فهم بالسؤال عنها يستهزئون ، ولو كانوا من أهله ما كذبوك ، فوقعوا ما لا يعنيهم من السؤال عنها وغيره من أنواع التعنت ، وتركوا ما ينجيهم ويغنيهم من المبادرة إلى الإيمان بهذا القرآن خوف انخرام الآجال وهم يهيمون في أدوية الضلال ولما كان علم الغيب ملزوما لجلب الخير ودفع الضير ، وكانت الساعة أدق علم الغيب ، أمره بنفي هذا اللازم فينتفي الأعم بانتفائه الأخص ، وقدم النفع لأنه أهم إلى النفس ، وليس في السياق ما يوجب تأخيره بخلاف ما في سورة يونس عليه السلام ، فقال آمرا بإظهار ذل العبودية : (قل لا أملك) أي في وقت من الأوقات أصلا) لنفسي نفعا (اي شيئا من جلب النفع قليلا ولا كثيرا) ولا ضرا (كذلك ، فإن قدرتي قاصرة وعلمي قليل ، وكل منة كان عبدا كان كذلك ولما كان من المعلوم بل المشاهدة أن كل حيوان يضر وينفع ، أعلم أن ذلك إنما هو بالله فقال : (إلا ما شاء الله) أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد سواه أن يقدرني عليه ولما بين لهم بهذا أن سؤالهم عن الساعة وغيرها من المغيبات جهل منهم ، لأن حالة واضح في أنه لا يعلم من ذلك إلا ما علمه الله الذي اختص بعلم الغيب ، دل عليه بقوله : (ولوكنت) أي من ذاتي) أعلم الغيب (اي جنسه) لا ستكثرت) أي أوجدت لنفسي كثيرا) من الخير (باستجلاب المنافع بنصب أسبابها ولما كان الضر لا يحتمل منه شيء قال : (وما مسني السوء) أي هذه الجنس بإقامة الموانع له عني لأن لازم إحاطة العلم شمول القدرة كما سيقرر إن شاء الله تعالى في سورة طه ، ولما

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦٣/٣

بين أن علم الغيب رتبة الإله ، ختم الآيه ببيان رتبته ، فقال قالبا ما أدعوه فيه من الجنون لما بان بقوله : (يا بني عبد مناف اتقوا الله ، يا بني فلان يا." [١]

" صفحة رقم ١٧١

ولما كان الإله الحق يجيب وليه عند التحدي من غير تخلف ، أشار إلى ذلك بالربط بالفاء فقال : (فليستجيبوا لكم) أي يوجدوا لكم إجابة بينة في الإتيان بسورة تماثل شيئا من القرآن وفي شيء من **المنافع** ولما كان المقام محتاجا إلة مزيد توبيخ وإلهاب ، قدم ما رأيت ، ثم زاد في الإلهاب فقال : (إن كنتم) أي جبلة وطبعا) صادقين) أي في دعوى أنهم آلهة ، فأن رتبة الإله تقتضي ذلك ، وقرأ سعيد بن جبير) إن (خفيفة و) عبادا أمثالكم بنصب الدال واللام ، واتفق المفسرون على تخرجهاغ على أن (إن) هي النافية أعملت عما (ما) الحجازية ، فرفعت الاسم ونصبت الخبر ، وإعمالها هذا العمل فيه خلاف ، أجازه الكسائي وأكثر الكوفيين ، ومن البصريين ابن السراج والفارسي وابن جني ، ومنع منه الفراء وأكثر البصريين ، واختلف النقل عن سيبوية والمبرد ، والصيحح أن إعمالها لغة ثبت ذلك في النظم وال نثر - ذكر ذلك كله أبو حيان وذكر أنه أشبع الكلام فيه في شرح التسهيل ، واعترض على هذا التخريج بأنه يلزم منه منافاتها للقراءة المشهورة ، وإنما يسلم له ذلك لو توارد النفي والإثبات على شيء واحد ، وليس الأمر هنا كذلك ، فالاثبات لمماثلتها لهم في مطلق العجز ، والنفي لمساواتها لهم فيه لزيادتهم عنها بالبطش ونحوه ، أو يكون الأمر - كما قال الزمخشري - أن الإثبات على سبيل التنزل والنفي على الحقيقة ولما أثبت عجزهم وأنهم أمثالهم ، دل عليه وعلى أنهم دونهم بأسلوب إنكار وتعجب مفصلا لبعض ما نفاه عنهم - فقال مقدما الأجل لأن أول ما يخشى من الشيء انتقاله : (ألهم أجل (ولما كانت لهم جوارح مصنوعة ، بين المراد بقوله : (يمشون بها (ولما كان المخشي بعد الانتقال مد اليد ، قال : (أم لهم أيد) أي موصوفة بأنهم) يبطشون بها) أي نوعا من البطش ؛ ولما كان المخوف بعد البطش باليد البصرخوفا م ن الدلالة قال : (أم لهم أعين) أي منعوته بأنهم) يبصرون بها) أي ضربا من الإبصار ؛ ولما كان الإنسان ربما خاف مما يقصد ضره فتغيب عنه فلا يصل إليه بعد من السمع ولما سواها بهم ونفى عنهم ما تقدم ، لزم نقصانها عنهم وأنه في الحقيقة مسلوب عنهم لأنهم ليس لهم من ذواتهم إلا العدم ، والقدرة فيما يقدرون

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ١٦٦/٣

عليه إنما هي بيد الصانع لهم أشركهم معها ، وقال دالا على ذلك مستأنفا : (قل) أي لهولاءالمشركين) ادعوا شركاءكم) أي هذه التي تقدمت ومها شئتم غيرها ، واستعينوا بها في عداوتي .." (١)

" صفحة رقم ٢٨٣

ولو أن فيه تلفه ، وحاصله أنه يقدم خشيته من الله على خشيته من غيره ، فهو يرجع إلى قوله) فالله أحق أن تخشوه (ولكن هذا أبلغ لكونه نفي نفس الخشية وإن كان المراد نفي لازمها عادة ، وفيه تعريض لهم بأنهم لا يصلحون لخدمته لأنهم يخافون الأصنام ويفعلون معها بعبادتها فعل من يخافها ، ولما سبب عما مضى نفيا وإثباتا أن المتصف بهذه الأوصاف يكون جديرا بالهداية وحقيقا بها ، قال تعالى : (فعسة أولئك) أي العالو الهمم) أن يكونوا) أي جبلة ورسوخا) من المهتدين (فأقامهم - مع ما قدم لهم من الكمال بالمعارف والأفعال - بين الرجاء والخوف مع الإشارة بإفراد الخشية إلى ترجيح الخوف على الرجاء إيذانا بعلو أمره وعظيم كبره إشارة إلى أنه لا حق لأحد عليه وأنه إن شاء أثاب ، وإن أراد حكم - وهو الحكم العدل - بالعقاب ، لا يسأل عما يفعل ، وكرر الاسم الأعظم لمزيد الترغيب لخطر المقام وعزة المرام ، ومادة عسى بجميع تصاريفها تدور على الحركة ، وهذه بخصوصها للأطماع ، والحاصل أن من اتصف بالأوصاف الأربعة كان صالحا وخليقا وجديرا وحقيقا بأن يتحرك طعمه ويمتد أمله إلى أن يكون من جملة أهل الهدى ، فكيف توجبون أنتم لمن لم يتصف بواحد منها ما يختص به المهتدون من الموالاة ، هكذا كان ظهر لي أولا في مدار المادة ، ثم ظهر لي أن ذلك في أكثر تقاليبها ، مع إمكان أن يكون غيره للإزالة ، وأن الشامل لها - يائية وواوية بتقاليبها العشر : عسى ، عيس ، سعى يسع ، عسو ، عوس ، سعو ، سوع ، وسع ، وعس - أنها لما يمكن أن يكون ، وهوجدير وخليق بأن يكون ، من قولهم : أعس به - أي أخلق. وبالعسى أن يفعل - أي بالحري ، وأنه لمعساة بكذا - أي مخلقة ، وبهذا فسرها سيبويه : قال ابن هشام الخضراوي في شرح الإيضاح لأبي علي : وقال سشيبويه : إن عسى بمنزلة اخلولق ، والمعساء كمكسال : الجارية المراهقة لأنها جديرة بقبول النكاح ، ومن ثم أتت للطمع والإشفاق ، وقد يزيد الرجاء فيطلق على القرب فيكون مثل كاد ، وقد يشتد فيصل إى اليقين فنستعمله حينئذ في معنى كان ، ومنه : عسى الغوير ابؤسا لكن قال الرضى : وأنا لا أعرف عسى في غير كلامه تعالى لليقين. وقد يضعف الرجاء فيصير شكا ، ومنه المعسية كمحسنتة للناقة ، قد شك أبها لبن أن لا ، وعسى النبات - كفرح ودعا : غلظ وييس ، أي صار خليقا لأن يرعى وأن يقطع ، واليد

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ١٧١/٣

من العمل مثله ، أي قصارت جديرة بالصبر على المشاق ، والعاسي ، النخل : لأنه جدير بكمال ما يطلب منه من **المنافع** ، وعسى السيخ كرضي عساء وعسا كدعا يعسو : كبر ، أي صار خليقا بالموت وبأن لا يتعلم ما لم يكن في غريزته ، وكذا عسى وعسا عن الأدب ، أي كبر عنه ، والعود يبس وصلب واشتد أي فصار خليقا لما يراد منه ، والليل : اشتدت ظلمته ، فصار." [1]

" صفحة رقم ٤١٥

والمربي والمحسن) الله) أي من ربى شيئا ينبغي أن يكون حكيما وقادرا على أسباب صلاحه ، فأيقظوا أنفسكم من سنة غفلتها تعلموا أن هذا الكتاب من عند لذي له العظمة كلها قطعا ، وأنه قادر على بعثكم لأنه ربكم) الذي (على اتساعها وكثرة ما فيها من **المنافع**) في ستة أيام (لحكمه أرادها على أن ذلك وقت يسير لا بفعل مثل ذلك في مثله إلا من لا يعجزه شيء .

ولما أوجد سبحانه هذا الخلق الكثير المتباعد الأقطار الواسع الانتشار المفتقر إلى عظيم التدبير ولطيف اتصريف والتقدير ، عبر سبحانه عن علمه فيه عمل الملوك في ممالكهم بقوله مشيرا إلى عظمته بأداة التراخي : (ثم استوى) أي عمل في تدبيره وإتقان ما فيه وإحكامه عمل المعتني بذلك) على العرش (المتقدم وصفه بالعظمة ، وليست (ثم) للترتيب بل كناية عن علو الرتبة وبعد منالها ؛ ثم بين ذلك الاستواء بقوله : (يدبر (لأن التدبير أعدل أحوال الملك فالاستواء كناية عنه) الأمر (كله فلا يخفي عليه عاقبة أمر من الأمور ، فحصل الأمن بهذا من أن يفعل شيء بغير علمه ، لأن التدبير تنزل الأمور في مراتبها على إحكام عواقبها ، وهو مع ذلك منزه عما تعرفونه من أحوال الملوك من أنه يكون في ممالكهم من يقضي بعض الأمور بغير إذن منهم وإن علموا به لعجزهم عن المجاهرة بإدامة دفعه ، بل هو متصف بأنه) ما من شفيع (اي وغن كان بليغ الاتصاف بذلك .

ولما كان تمام قهره وعظيم سلطانه لا يفيد احدا عند إنه له إذنا عاما لجميع الأزمان والأماكن ، أتى بالجار فقال : (إلا من بعد إذنه (فإذا لم يقدر شفيع على الكلام في الشفاعة إلا بإذنه فكيف يقدر أحد أن يأتي بشرء من الأشياء بغير إذنه فكيف ياتي بكتاب حكيم ليس من عنده يعجز الخلق عن معارضته ، فحصل الأمن ان يكون غيره قاله أو شفع فيمن ابلغه من غير إرادة منه سبحانه ، فتحرر أنه ليس إلا من عنده وأنه أمر بإبلاغه ، وقد عرف من هذا أن) ما من شفيع (في موضع الدلالة على أنه لا يخرج عن تدبيره أمر من الأمور ولا يغلبه شيء اصلا فبطل ما كانوا يقولون في الأصنام من الشفاعة وغيرها والشفيع : السائل في

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبد الرزاق غالب)، ٢٨٣/٣

غيره بتبليغ منزلة من عفو أو زيادة منزلة ، وقد وقع ذكر الكتاب والرسول والعرش مرتبا في أول هذه على ما رتب آخر تلك ؛ فلما تقرر ما وصف به من العظمة التي لا يشاركه فيها أحد ، وجب ان يعبد عبادة لا يشاركه فيها شيء ، فنبه على ذلك بقوله : (ذلكم) أي العظيم الشأن العالي المراتب) الله) أي الملك الأعلى) ربكم (الذي تقرر له من الغعظمة والإحسان بالإيجاد والتربية ما لا يبلغه." [١]

" صفحة رقم ٤٣١

الاية قبلها من نقله سبحانه لعباده من الضر إلى النعمة ومن سرعة تقلبهم فقال : (هو) أي لا غيره) الذي يسركم) أي في كل وقت تسيرون فيه سيرا عظيما لا تقدرون على الانفكاك عنه) في البر والبحر) أي بسبب لكم أسبابا توجب سيركم فيهما ويقدركم على ذلك ويهديكم من بين سائر الحيونات إلى ما فيه من أصصناف **المنافع** مع قدرته على إصابتكم في البر بالخسف وما بالخسف وما دونه وفي البحر بالغرق وما أشبهه .

ولما كان العطب بأحوال البحر اظهر مع ان السير فيه من اكبر الآيات وأوضح البينات ، بينه معرضا عن ذكر البر فقال : (حتى إذا كنتم) أي كونا لا براح لكم منه) في الفلك (اي السفن ، يكون واحدا وجمعا ؛ وأعرض عنهم بعد الإقبال لما سيأتي فقال : (وجرين) أي الفلك ؛) بهم (ولما ذكر جريها وهم فيها ، ذكر سببه فقال : (بريح طيبة (ثم أوضح لهم عدم علمهم بالعواقب بقوله : (وفرحوا بها) أي بتلك الريح وبالفلك الجارية بها) جاءتها ريح عاصف (فأزعجت سفنهم وساءتهم) وجاءهم الكوج) أي المعروف لكل أحد بالرؤية أو الوصف) من كل مكان (اي يعتاد الإتيان منه فأرجف قلوبهم) وظنوا انهم (ولما كان المخوف الهلاك ، لا كونه من معين ، بيني للمفعول ما هو كناية عنه لأن العدو إذا أحاط بعدوه أيقن بالهلاك فقال : (احيط بهم. (ولما كان ما تقدم من حالهم الغريبة التي تجب لها القلوب وتضعف عندها القوى – مقتضيا لأن يسأل عما يكون منهم عند ذلك ، أتى المقال على مقتضى هذا السؤال مخبرا عن تركهم العناد وإخلاصهم الدال على جزعهم عند سطواته وانحلال عزائمهم في مشاهدة ضرباته ، وعبارة لرماني : اتصال الأجوبة ، كأنه قيل : لما ظنوا انهم احيط بهم) دعواالله) أي الذي له صفات الكمال بالرغبة إليه في الخلاص والعبادة له بالإخلاص) مخلصين) أي عن كل شرك) له الدين) أي التوحيد والتصديق بالظاهر والباطن ، وقد تضمنت الآية البيان عما يوجبه بديهة العقل من الفزع عند الشدة إلى واهب السلامة ومسبغ النعمة في كشف تلك البلية ؛ ثم أتبع سبحانه ذلك حكاية حالهم في وعدهم الشكر

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣/٤١٥

على النجاة ثم كذبهم في ذلك مع إدعائهم أنهم أطهر الناس ذيولا عن الكذب وأشدهم استقباحا له وأبعد الناس من كفران الإحسان ، فقال تعالى حاكيا قولهم الذي دلوا بتأكيدهم له أنهم قالوه بغاية الرغبة نافين ما يظن بهم من الرجوع إلى ما كانوا فيه قبل تلك الحال من الكفر : (لئن أنجيتنا) أي أيها الملك الذي لا سلطان لغيره) من هذه (اي الفادحه) لنكونن) أي كونا لا ننفك عنه) من الشاكرين (اي المديمين لشكرك العريقين في الاتصاف به .

ولما أعلم سبحانه أنهم اكدوا هذا الوعد هذا التأكيد ، أتبعه بيان أنهم أسرعوا في." [1]

" صفحة رقم ٤٣٨

يونس : (٣٠ - ٣٣) هنالك تبلو كل. .. . .

) هنالك تبلوا كل نفس مآ أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون قل من يرزقكم من السمآء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون (( )

ولما أخبر عن حال المشركين ، تشوفت النفس إلى الاطلاع على حال غيرهم فقال مستأنفا مخبرا عن كلا الفريقين : (هنالك) أي في ذلك الموقف من المكان والزمان العظيم الأهوال المتوالي الزلزال) تبلوا (اي تخبر وتخالط مميلة محلية) كل نفس (طائعة وعاصية) مآاسلفت) أي قدمت من العمل فيعرف هل كان خيرا أو شرا وهل كان يؤدي إلى سعادة أو شقاوة .

ولما كان مطلق ارد - وهو صرف الشيء إلى الموضع الذي ابتدأ منه - كافيا في الرهبة لمن له اب ، بني للمفعول قوله : (وردوآ) أي بالبعث بالإحياء كما كانوا أولا) إلى الله) أي الملك الأعظم) مولهم الحق (فلم يكن لهم قدرة على قصد غيره ولا الالتفات إلى سواه من تلك الأباطيل ، بل انقطع رجاءهم من كل ما كانوا يدعونه في الدنيا ، وهو المراد بقوله : (وضل عنهم) أي بطل وذهب وضاع) ما كانوا (اي كونا هو جبلة لهم) يفترون) أي يتعمدون كذبه من أن معبوداتهم شركاء ، وتيقنوا في ذلك المقام ان توليهنم لغير الله كان باطلا غير حق ؛ والتنزيل : تفريق يزول به كل واحد عن مكانه ، وهو من تفريق الجثث ، وليس من الواوي ، بل من اليائي ، يقال : زلته عن الشيء أزيله - إذا فرقت بينه وبينه ؛ والكفاية : بلوغ مقدار الحاجة في دفع الأذية أو حصول المنفعة ؛ والإساف : تقدم أمر لما بعده ؛ والرد : الذهاب إلى

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٣١/٣

الشيء بعد الذهاب عنه كالرجع ؛ والمولى : من يملك تولى أمر مولاه .
ولما تقدم سبحانه ان شركاءهم مربوبون مقهورون ، لا قدرة لهم إلا على ما يقدرهم الله عليه ، وأنه وحده المولى الحق ، وبانت بذلك فضائحهم ، أتبعه ذكر الدلائل على فساد مذهبهم ، فوبخهم بأن وجه السؤال إليهم عما هم معترفون بأنه مختص به ويدل قطعا على تفرده بجميع الأمر الموجب من غير وقفة لاعتقاد تفرده بالإلهية فقال : (قل (اي يا أكرم خلقنا وأرفقهم بالعباد) من يرزقكم) أي يجلب لكم الخيرات ايها المنكرون للبعث المدعون للشركة) من السمآء) أي بالمطر وغيره من **المنافع**) والأرض (بالنبات وغيره لتعيشوا) أمن يملك السمع (اي الذي تسمعون به الآيات ، ." [1]

" صفحة رقم ٤٧١

لأنه لا ثبات له أصلا ، عدلوا عن جوابه إلى الإخبار بما يتضمن أنهم لا يقرون بحقيته لأنه يلزم عن ذلك ترك ما هم عليه من العلو وهم لا يتركونه ، وأوهموا الضعفاء أن مراده عليه السلام الاستكبار معللين لاستكبارهم عن اتباعه بما دل على أنهم لا مانع أنهم منه إلا الكبر ، فقال تعالى حكاية عنهم : (قالوا (اي منكرين عليه معللين بأمرين : التقليد ، والحرص على الرئاسة .
ولما كان هو الأصل في الرسالة .
وكان أخوه له تبعا ، وحدوا الضمير فقالوا : (أجئنا (اي أنت يا موسى) لتلفتنا) أي لتقتلنا وتصرفنا) عما وجدنا عليه (وقالوا مستندين إلى التقليد غير مستحيين من نترك الدليل) آباءنا (من عبادة الأصنام والقول بالطبيعة لنقل نحن بذلك) ويكون لكما (اي لك أنت ولأخيك دوننا) الكبرياء) أي بالملك) في الأرض) أي ارض مصر التي هي - لما فيها من **المنافع** - كأنها الأرض كلها) وما) أي وقالوا أيضا : ما) نحن لكما (وبالغوا في النفي وغلب عليهم الدهش فعبروا بما دل على أنهم غلبهم الأمر فعرفوا أنه صدق ولم يذعنوا فقالوا : (بمؤمنين (اي عريقين في الإيمان ، فهو عطف على) أجئتنا) أي قالوا ذاك وقالوا هذا ، أو يكون عطفا على نحو : فما نحن بموصليك إلى هذا الغرض ، افردوه أولا بالإنكار عليه في المجيء ليضعف ويكف أخوه عن مساعدته ، واشركوه معه ثانيا تأكيدا لذلك الغرض وقطعا لطمعه ؛ والبعث : الإطلاق في أمر يمضي فيه ، وهو خلاف الإطلاق من عقال ؛ والملأ : الجماعة الذين هم وجوه القبيلة ، لأن هيبتهم تملأ الصدور عند منظرهم ؛ والاستكبار : طلب الكب من غير استحقاق ؛ والمجرم من اكتسب سيئة كبيرة ، من جرم التمر - إذا قطعه ، فالجرم يوجب به البيان في خفاء السبب ؛ والحق : ما يجب

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٣٨/٣

الحمد عليه ويشتد دعاء الحكمة إليه ويعظم النفع به والضرر بتركه ؛ والكبياء : استحقاق صفة الكبر في أعلى المراتب ، وهي صفة مدح لله وذم للعباد لأنها منافية لصفة العبودية .

يونس : (٧٩ - ٨٣) وقال فرعون ائتوني. .. . .

) وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فلما جآء السحرة قال لهم موسى ألقوا مآ أنتم ملقون فلمآ ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون فمآ آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين (( )

ولما لبسوا بوصفه بما هم به متصفون ، أرادوا الزيادة في التلبيس بما يوهم أن ما." (١)

" صفحة رقم ٤٩٢

أي بأبصاركم وبصائركم لتخرجوا بالانتفاع بالعقل عن عداد البهائم ؛ قال الإمام : ولو أن الإنسان تفكر ي كيفية حكمه الله تعالى في خلق جناح بعوضة لانقطاع فكره قبل أن يصل إلى أول مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد ، فلذلك أبهم في قوله : (ماذا) أي الذي) في السماوات والأرض) أي من الآيات وواضح الدلالات التي أخرجتموها - فإلفكم لها - عن عداد الآيات ، وهي عند التأمل من أعظم خوارق العادات ، وقال الإمام : فكأنه سبحانه نبه على القاعدة الكليه حتى يتنبه لأقسامها ، وقال أبو حيان أخذا من الإمام : السبيل إلى معرفته تعالى هو بالتفكر في مصنوعاتهن ففي العالم العلوي في حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب وما يختص بذلك من المنافع والفوائد ، وفي العالم السفلي في أحوال العناصر والمعادن والنبات والحيوان وخصوصا حال الإنسان - انتهى .

ولما كان ما فيها من الآيات في غايه الدلالة ، نبه سبحانه على أن التوقف عن الإيمان بعد التنبيه على كيفية الاستدلال معاندة فقال : (وما (وهي نافية أو استفهامية) تغني الآيات (اي وإن كانت في غاية الوضوح) والنذر) أي الإنذارات أو الرسل المنذرون) عن قوم) أي وإن كانت فيهم قوة) لا يؤمنون) أي للحكم بشقائهم ، فكان ذل سببا لتهديدهم بقوله : (فهل ينتظرون) أي بجميع قواهم في تكذيبهم للرسول وتخلفهم عن الإيمان) إلا) أي أياما أي وقائع) مثل أيام (اي وقائع) الذين خلوا (ولما كان أهل الأيام الهائلة بعض من كان من قبل ، أتى بالجار فقال : (من قبلهم) أي من مكذي الأمم وهم القبط وقوم نوح ومن طوي بينهما من الأمم ، أي من حقوق الكلمة عليهم فنحل بهم باسنا ثم ننجيكم لإيمانكم كما كنا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٧١/٣

نحل بأولئك إذا كذبوا رسلنا ، ثم ننجي الرسل ومن آمن بهم حقا علينا ذلك للعدل بين العباد .
ولما تقدمت الإشارة إلى أن الكلمة حقت على الكافرين بعدم الإيمان والرجس الذي و العقاب ، زاد في تهديدهم بالاعتراض بما سببه عن فعلهم فعل من ينتظر العذاب بقوله : (قل فانتظروا (اي بجميع جهدكم ما ترونه واقعا بكم بسبب ما تقرر عندكم مما كا يقع بالماضين في أيام اللهن وزاد التحذير استءنافه قوله مؤكدا لما لهم من التكذيب : (إني (وأعملهم بالنصفة بقوله : (معكم من المنتظرين (.
ولما كان التقدير فإنا كنا في ايام الذين خلوا نوقع الرجس بالمكذبين ، عطف عليه بيانا لم كان يفعل بالرسل واتباعهم إذا أهلك الظالمين قوله : (ثم ننجي) أي تنجية عظيمة وننجيهم إنجاء عظيما وجاء به مضارعا خكايى للأحوال الماضية وتصويرا لها تحذيرا لهم من مثلها وإعلاما بأنه كذلك يفعل بهذا الرسول (صلى الله عليه وسلم) واتباعه رضي الله." (١)

" صفحة رقم ٥٣٣

أي الملك الأعظم المحيط أمره وقدرته وعلمه ، وهو حكمه بالغرق على كل ذي روح لا يعيش في الماء) إلا من رحم) أي إلا مكان من رحمة الله فإنه مانع من ذلك وهو السفينة ، أو لكن من رحمه الله فإن الله يعصمه .
ولما ركب نوح ومن أمره الله به وأراده .
ولم تبق حاجة في تدرج ارتفاع الماء ، فعلا وطما وغلب وعتا فهال الأمر وزاد على الحد والقدر ، قال تعالى عاطفا على ما تقديره : فلم يسمع ابنه ذلك منه بل عصى اباه كما عصى الله فأوى إلى الجبل الذي أراده فعلا الماء عليه ولم يمكنه بعد ذلك اللحاق بأبيه ولا الوصول إليه : (وحال بينهما) أي بين الابن والجبل أو بينه وبين أبيه) الموج (المذكور في قوله) في موج كالجبال ( ) فكان) أي الابن بأهون أمر) من المغرقين (وهم كل من لم يركب مع نوح عليه السلام من جميع أهل الأرض ؛ قال أبو حيان : قل كانا يتراجعان الكلام فما استتمت لمراجعة حتى جاءت موجة عظيمة وكان راكبا على فرس قد بطر وأعجب بنفسه فالتقمه وفرسه وحيل بينه وزبين نوح عليه السلام فغرق – انتهى .
والركوب : العلو على ظهر الشيء ، ركب الدابة والسفينة والبر والبحر ؛ والجري : مر سريع ؛ يقال : هذه العلة تجري في أحكامها ، أي تمر من غير مانع ، والموج جمع موجة – لقطعة عظيمة من الماء الكثير ترتفع عن حملته ، وأعظم ما يكون ذلك إذا اشتدت الريح ؛ والجبل : جسم عظيم الغلظ شاخص من

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٩٢/٣

الأرض هو لها كالوتد ؛ والعصمة : المنع من الأفة) وقيل) أي بأدنى إشارة بعد هلاك أهل الأرض وخلوها من الكافرين وتدمير من في السهول والجبال من الخاسرين ، وهو من إطلاق المسبب – وهو القول – على السبب – وهو لإرادة – لتصوير أمر ومأمور هو في غاية الطاعة فإنه أوقع في النفس .

ولما كان كل شيء دون مقام الجلال والكبرياء والعزة بأمر لا يعلمه إلا الله ، دل على ذلك بأداة البعد فقال) يا أرض ابلعي (اي اجذبي من غير مضغ إلى مكان خفي بالتدريج ، وعين المبلوع لئلا يعم فتبتلع كل شيء على ظهرها من جبل وغيره ، ولذلك أفرد ولم يجمع فقال : (ماءك) أي الذي تجدد على ظهرك للإغراق ليكون كالغذاء للآكل الذي يقوي بدنه فيقوي به على الإنبات وسائر المنافع وجعله ماءها لاتصاله بها اتصال الملك بالمالك) ويا سماء أقلعي (اي أمسكي عن الإمطار ، ففعلتا مبادرتين لأمر الملك الذي لا يخرج عن مراده شيء) وغيض الماء (اي المعهود ، حكم عليه بالدبوب في أعماق الأرض ، من المتعدي فإنه يقالك غاض الماء وغاضه الله ، كما يقال : نقض الشيء ونقضته أنا) وقضي الأمر) أي فرغ وانبت وانبرم في إهلاك نم هلك ونجاة من نجا كما أراد الجليل على ما تقدم به وعده نوحا عليه السلام ، لم يقدر." (١)

" صفحة رقم ١٢١

مستطيل يمنع المرتفع أن يميل ، وأصله منع الميل) ترونها) أي مريئة حاملة لهذه الأجرام العظام التي مثلها لا تحمل في مجاري عاداتكم إلا بعد تناسبها في العظم ، هذا على أن) ترونها (صفة ، ويجوز – ولعله أحسن – أن يكون على تقدير سؤال من كأنه قال : ما دليل أنها بغير عمد ؟ فقيل : المشاهدة التي لا أجلى منها .

ولما كان رفع السماوات بعد خلق الأرض وقبل تسويتها ، ذكر أنه شرع في تدبير ما للكونين من المنافع وما فيهما من الأعراض والجواهر ، وأشارإلى عظمة ذلك التدبير بأداة التراخي فقال : (ثم استوى على العرش (قال الرازي في لوامع البرهان : وخص العرش لأنه أعلى خلقه وصفوته ومنظره الأعلى وموضع تسبيحه ومظهر ملكه ومبدأ وحيه ومحل قربه ، ولم ينسب شيئا م خلقه كنسبته ، فقال تعالى : (ذو العرش (كما قال) ذو الجلال (و (ذو) كلمة لحق واتصال وظهور ومبدأ ، وقال الرماني : والاستواء : الاستيلاء بالاقتدار ونفوذ السلطانن وأصله : استوى التدبير ، كما أن أصل القيام الانتصاب ، ثم يقال : قائم بالتدبير – انتهى .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٣٣/٣

وعبر ب (ثم) لبعد هذه الرتبة عن الأطماع وعلوها عما يستطاع ، فليس هناك ترتيب ولا مهلة حتى يفهم أن ما قبل كان علىغير ذلك ، والمراد أنه أخذ في التدبير لما خلق كما هو شأن الملوك إذا استووا على عروشهم ، أي لم يكن لهم مدافع ، وإن لم يكن هناك جلوس أصلا ، وذلك لأن روح الملك التدبير وهوأعدل أحواله والله أعلم) وسخر) أي ذلل تذليلا عظيما) الشمس) أي التي هي آية النهار) والقمر) أي الذي هو آية الليل لما فيهما من الحكم والمنافع والمصالح التي بها صلاح البلاد والعباد ، ودخلت اللام فيهما وكل واحد منهما لا ثاني له لما في الاسم من معنى الصفة ، إذا لو وجد مثل لهما لم يتوقف في إطلاق الاسم عليه ، ولا كذلك زيد وعمرو .

والتسخير : التهيئة لذلك المعنى المسخر له ليكون بنفسه من غير معاناة صاحبه فيما يحتاج إليه كتسخير النار للإنضاج والماء للجريان) كل) أي من الكوكبين) يجري (.

ولما كان السياق للتدبير ، علم أن المراد بجريهما لذلك ، وهو تنقلهما في المنازل والدرجات التي يتحول بها الفصول ، ويتغير النبات وتضبط الأوقات ، وكلما كان التدبير أسرعن علم أم صاحبه أعلم ولا سيما إن كان أحكم ، فكان الموضع للام لا لإلى ، فعلل بقوله : (لأجل) أي لأجل اختصاصه بأجل) مسمى (هذي أجلها سنة ، وذاك أجله شهر ؛ والأجل : الوقت المضروب لحدوث أمر وانقطاعه .

ولما كان كل من ذلك مشتملا من الآيات على ما يجل عن الحصر مع كونه في غاية الإحكام ، استأنف خبرا هو كالتنبيه على ما فيما مضى من الحكمة ، فقال مبينا." (١)

" صفحة رقم ١٨٩

عددتموها بها كما كانت عادة العرب ، أو لاتجدوا من الحصى ما يوفي بعددها ، هذا في النعمة الواحدة فكيف بما زاد فهذا شرح قوله أول السورة) الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض (وقد ظهر به أنه لا يوجد شيء إلا هو ملك الله فضلا عن أن يوجد شيء يداينه فضلا عن شيء يماثله ، فثبت أنه لا بيع ولا خلال يوم دينونة العباد ، وتقريب العجز عن العد للإفهام أن السلامة من كل داء ذكره الأطباء في كتبهم – على كثرتها وطولها – نعمة على العبد ، وذلك متعسر الحصر ، وكل ما ذكروه صريحا في جنب إليه ، هذا في الجسم ، وأما في العقل فالسلامة من كل عقد زائغ ، ودين باطل وضلال مائل ، وذلك لا يحصيه إلا خالق الفكر وفاطر الفطر سبحانه ، ما أعزه وأعظم شأنه .

ولما كان أكثر هذه السورة في بيان الكفرة وما لهم ، وبيان أن أكثر الخلق هالك معرض عما يأتيه من نعمة

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤/١٢١

الهداية على أيدي الرسل الدعاة إلى من له جميع النعم للحياة الطيبة بسعادة الدارين ، ختم الآية ببيان ما اقتضى ذلك من صفات الإنسان فقال : (إن الإنسان) أي هذا النوع لما له من الأنس بنفسه ، والنسيان لما ينفعه ويضره ، والاضطراب بسبب ما يغمه ويسره) لظلوم كفار) أي بليغ الظلم والكفر حيث يهمل الشكر ، ويتعداه إلى الكفر ، وختم مثل ذلك في سورة النحل ب) غفور رحيم (لأن تلك سورة النعم ، بدئت بالنهي عن استعجال العذاب ، لأن الرحمة أسبق ، ومن الرحمة إمهال الناس وإمتاعهم **بالمنافع** ، فالتقدير إذن هناك : (وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار (ولكن ربه لا يعاجله بالعقوبة لأنه غفور رحيم ، وأما هذه السورة فبدئت بأن الناس في الظلمات .

إبراهيم : (٣٥ - ٣٧) وإذ قال إبراهيم. .. . .

) وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ربنآ إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (( )

ولما انقضى المأمور به من القول لكافر النعمة وشاكرها وسبب ذلك والدليل عليه ، وبان أنه خالق الموجودات كلها وربها ، فلا يصح أصلا أن يكون شيء منها شريكا .

أمره صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يذكروهم بأيام الله عند أبيهم إبراهيم عليه." (١)

" صفحة رقم ٢٣٤

ولما كان المتعنت ربما قال : ما له يخلقهم ثم يهلكهم وهو عالم حين خلقهم أنهم يكذبون ؟ وكانت هذه الآية ملتفتة - مع ما فيها من ذكر الأرض - إلى تلك التي أتبعها ذكر الخافقين ، استدلالا على الساعة ، قال على ذلك النمط : (وما خلقنا) أي على عظمتنا) السماوات) أي على ما لها من العلو والسعة) والأرض (على ما بها من **المنافع** والغرائب) وما بينهما (من هؤلاء المكذبين وعذابهم ، ومن المياه والرياح والسحاب المسبب عنه النبات وغير ذلك) إلا بالحق) أي خلقا ملتبسا بالحق ، فيتفكر فيه من وفقه الله فيعلم النشأة الأولى ، أوبسبب الحق من إثبات ثوابت الأمور ونفي مزلزلها ، لتظهر عظمتنا بإنصاف المظلوم من الظالم ، وإثابة الطائع وعقاب العاصي في يوم الفصل - إلى غير ذلك من الحكم كما قال تعالى

٧٧ ( ) ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ١٨٩/٤

٧ ( )

[النجم : ٣١] فمن أمهلناه في الدنيا أخذنا منه الحق بعد قيام الساعة ، فلا بد من فعل ذلك) وإن الساعة لآتية (لأجل إقامة الحق لا شك في إتيانها لحكم علمها سبحانه فيظهر فيها كل ذلك ، ويمكن أن يكون التقدير : فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، وما فعلنا ذلك إلا بالأمر من قولنا (كن) وهو الحق) وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أي بالأمر

٧٧ ( ) ألا له الخلق والأمر ( ) ٧

[الأعراف : ٥٤] يعني أنه لا مشقة علينا في شيء من ذلك ، وسنعدم ذلك بالحق إذا أردنا قيام الساعة ، وأن الساعة لآتيه ، لأنا قد وعدنا بذلك ، وليس بينكم وبين كونها إلا أن نريد فتكون كما كان غيرها مما أردناه) فاصفح) أي فأعرض – بسبب تحقق الأخذ بثارك – الإعراض) الجميل (بالحلم ولإغضاء وسعة الصدر ، في مثل قولهم) ياأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون (فإنه لا بد من الأخذ لك منهم بالحق ولو لم يكن لك نصرة إلا في ذلك اليوم لكانت كافية ؛ ثم علل هذا الأمر بقوله : (إن ربك) أي المحسن إليك الآمر لك بهذا) هو) أي وحده) الخلاق (المتكرر منه هذا الفعل في كل وقت بمجرد الأمر ، فلا عجب في إيجاد ما ينسب إليه من إبداع الساعة أو غيرها ، وهو لذلك عالم بأحوالكم أجمعين وما يكون منها صلاحا لك على غاية الحكمة ، لأن المصور أعلم بالصورة من ناظرها والمتبصر فيها ، وصانع الشيء أدرى به من مشتريه ، وباني البيت أخبر به من ساكنه ، وهو الذي خلق كل ما تراه منهم فهو فعله فسلم له .

ولما كان إحكام المصنوعات لا يتم إلا بالعلم ، قال تعالى : (العليم) أي البالغ العلم بكل المعلومات ، فلا ترى أفعالهم وأقوالهم إلا منه سبحانه لأنه خالقها ، وقد علمت أنه لا يضيع مثقال ذرة فاعتمد عليه في أخذ حقك ، فإنه نعم المولى ونعم." (١)

" صفحة رقم ٢٤٧

تكونوا (– أي كونا أنتم مجبولون عليه – قادرين على حملها إليه ، وتبلغكم – بحملها لكم – إلى بلد لم تكونوا) بالغيه (بغير الإبل) أي بشق) أي بجهد ومشقة وكلفة) الأنفس (ويجوز أن يكون المعنى : لم تبلغوه بها ، فكيف لو لم تكن موجودة ؛ والشق : أحد نصفي الشيء ، كأنه كناية عن ذهاب نصف القوة لما يلحق من الجهد ؛ والآية من الاحتباك : ذكر حمل الأثقال أولا دليلا على حمل الأنفس ثانيا ، وذكر

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٣٤/٤

مشقة البلوغ ثانيا دليلا على مشقة الحمل أولا .

ولما كان هذا كله من الإحسان في التربية ، ولا يسخره للضعيف إلا البليغ في الرحمة ، وكان من الناس من له من أعماله سبب لرضى ربه ، ومنهم من أعماله كلها فاسدة ، قال : (إن ربكم) أي الموجد لكم والمحسن إليكم) لرؤوف) أي بليغ الرحمة لمن يتوسل إليه بما يرضيه) رحيم) أي بليغ الرحمة بسبب وبغير سبب .

ولما كانت الأنعام أكثر أموالهم ، مع أن منافعها أكثر ، بدأ بها ثم ثنى بما هو دونها ، مرتبا له على الأشراف فالأشراف ، فقال تعالى : (والخيل) أي الصاهلة) والبغال) أي المتولدة بينها وبين الحمر) والحمير) أي الناهقة .

ولما كان الركوب فعل المخاطبين ، وهو المقصود بالنفعة ، ذكره باللام التي هي الأصل في التعليل فقال : (لتركبوها (ولما كانت الزينة تابعة لمنفعة ، وكانت فعلا لفاعل الفعل المعلل ، نصبت عطفا على محل ما قبلها فقال : (وزينة (.

ولما دل على قدرته بما ذكر في سياق الامتنان ، دل على أنها لا تتناهي في ذلك السياق ، فنبه على أنه خلق لهم أمورا لوعدها لهم لم يفهموا المراد على سبيل التجديد والاستمرار في الدنيا والآخرة) ما لا تعلمون (فلا تعلمون له موجدا غيره ولا مدبرا سواه .

النحل : (٩ - ١١) وعلى الله قصد. .. . .

) وعلى الله قصد السبيل ومنها جآئر ولو شآء لهداكم أجمعين هو الذي أنزل من السماء مآء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (( )

ولما كانوا في أسفارهم واضطرابهم في **المنافع** بهذه الحيوانات وغيرها يقصدون أسهل الطرق وأقومها وأوصلها إلى الغرض ، ومن عدل عن ذلك كان عندهم ضالا سخيف العقل غير مستحق للعد في عداد النبلاء ، نبههم على أن ما تقدم في هذه السورة قد بين الطريق الأقوم الموصل إليه سبحانه بتكليفه ببيان أنه واحد قادر عالم مختار ، وأنه." [1]

" صفحة رقم ٢٥٠

فقال بعد ما دل به من الإنسان وما يليه في الشرف من الحيوان مبتدئا بما يليهما في الشرف من النبات

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٤/٢٤٧

الذي هو قوام حياة الإنسان وما به قوام حياته من الحيوان : (هو (لا غيره مما تدعى فيه الإلهية) الذي أنزل) أي بقدرته الباهرة) من السماء (قيل : نفسها .

وقيل : جهتها ، وقيل : السحاب – كما هو مشاهد) ماء) أي واحدا تحسونه بالذوق والبصر) لكم منه) أي خاصة) شراب (ظاهر على وجه الأرض من العيون والأنهار والغدران وغيرها .

ولما كان أول ما يقيم الآدمي شراب اللبن الناشئ عن الماء فقدمه ، أتبعه ما ينشأ منه أشرف أغذيته وهو الحيواني ، فقال تعالى : (ومنه شجر (لسريانه في الأرض الواحدة واختلاطه بها ، فينعقد من ذلك نبات) فيه تسيمون) أي ترعون على سبيل الإطلاق ليلا ونهارا ما خلق لكم من البهائم ، والشجر هنا – بما أفهمته الإسامة – عام لما يبقى في الشتاء حقيقة ، ولغيره مجازا ؛ قال القزاز : الشجر ما بقي له ساق في الشتاء إلى الصيف ، ثم يورق ، والبقل ما لايبقى له ساق ، قال الخليل : جل الشجر عظامه وما يبقى منه في الشتاء حقيقة ، ودقه صنفان : أحدهما تبقى له أورمة في الأرض في الشتاء ، وينبت في الربيع ، ومنه ما ينبت من الأرض كما تنبت البقلة ، والفرق بينه وبين البقل أن الشجر يبقى له أورمة على الشتاء ولا يبقى للبقل ، وعن أبي حنيفة رضي الله عنه أن النبات ثلاثة أقسام : شجر وهو ما يبقى في الشتاء ، ولا يذهب فرعه ولا أصله ، وما نبت ف برز ولم ينبت في أورمة ثابتة فهو البقل ، وما نبت في أورمة – أي أصل – وكان مما يهلك فرعه وأصله في الشتاء فهو الجنبة ، لأنه فارق الشجر الذي يبقى فرعه ولا أصله ، والبقل الذي يبيد فرعه وأصله ، فكان جنبة بينهما .

ولما كان الشجر عاما ، شرع سبحانه يفصله تنويعا للنعم وتذكيرا بالتفاوت ، إشارة إلى أن الفعل بالاختيار ، فقال مبتدئا بالأنفع في القوتية والائتدام والتفكه : (ينبت) أي هو سبحانه) لكم) أي خاصة) به (مع كونه واحدا في أرض واحدة) الزرع (الذي تشاهدونه من أقل الشجر مكثا وأصغره قدرا ،) والزيتون (الذي ترونه من أطول الأشجار عمرا وأعظمها قدرا .

ولما كانت المنافع كثيرة في شجر التمر ، سماه باسمه فقال تعالى : (والنخيل (ولما كانت المنفعة في الكرم بغير ثمرته تافهة ، قال تعالى : (والأعناب (وهما من أوسط ذلك) ومن كل الثمرات (وأما كلها فلا يكون إلا في الجنة ، وهذا الذي في الأرض بعض من ذلك الكل مذكر به ومشوق إليه) إن في ذلك) أي الماء العظيم المحدث عنه وعن فروعه ، أو في إنزاله على الصفة المذكورة) لآية (بينه على أن فاعل." (١)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤/٢٥٠

" صفحة رقم ٢٥١

ذلك تام القدرة يقدر على الإعادة كما قدر على الابتداء ، وأنه مختار يفعل ذلك في الوقت الذي يريده . ولما كان ذلك ممن يحس ، وكان شغل الحواس بمنفعته – لقربه وسهولة ملابسته – ربما شغل عن الفكر في المراد به ، فكان التفطن لدلالته يحتاج إلى فضل تأمل ودقة نظر ، قال تعالى : (لقوم يتفكرون) أي في أن وحدته وكثرة ما يتفرع عنه دليل على وحدة صانعه وفعله بالاختيار ، وأفراد الآية لوحدة المحدث عنه ، وهو الماء – كما قال تعالى في آية)) تسقى بماء واحد ( ) [الرعد : ٤] وسيأتي في آية النحل كلام الإمام أبي الحسن الحرالي في هذا .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هذه السورة في التحامها بسورة الحجر مثل الحجر بسورة إبراهيم من غير فرق ، لما قال تعالى)) فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون ( ) [الحجر : ٩٢] وقال تعالى بعد ذلك في وعيد المستهزئين) فسوف يعلمون (أعقب هذا بيان تعجيل الأمر فقال تعالى)) أتى أمر الله فلا تستعجلوه ( ) [النحل : ١] وزاد هذا بيانا قوله) سبحانه وتعالى عما يشركون (فنزه سبحانه نفسه عما فاهوا به في استهزائهم وشركهم وعظيم بهتهم ، وأتبع ذلك تنزيها وتعظيما فقال تعالى) خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون (ثم أتبع ذلك بذكر ابتداء خلق الإنسان وضعف جبلته) خلق الإنسان من نطفة (ثم أبلغه تعالى حدا يكون فيه الخصام والمحاجة ، كل ذلك ابتلاء منه واختبار ليميز الخبيث من الطيب ، وأعقب هذا بذكر بعض ألطافه في خلق الأنعام وما جعل فيها من **المنافع** المختلفة ، وما هو سبحانه عليه من الرأفة والرحمة اللتين بهما أخر العقوبة عن مستوجبها ، وهدى من لم يستحق الهداية بذاته بل كل هداية فبرأفة الخالق ورحمته ، ثم أعقب ما ذكره بعد من خلق الخيل والبغال والحمير وما في ذلك كله بقوله) ولو شاء لهداكم أجمعين (فبين أن كل الواقع من هداية وضلال خلقه وفعله ، وأنه أوجد الكل من واحد ، وابتدأهم ابتداء واحدا) خلق الإنسان من نطفة (فلا بعد في اختلاف غاياتهم بعد ذلك ، فقد أرانا سبحانه مثال هذا الفعل ونظيره في قوله) وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومن شجر – إلى قوله : لآية لقوم يتفكرون (انتهى .

النحل : (١٢ – ١٣) وسخر لكم الليل. .. . .

) وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون (( ).[1] "

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤/٢٥١

" صفحة رقم ٢٥٢

ولما كان ربما قال بعض الضلال : إن هذه الأشياء مستندة إلى تأثير الأفلاك ، نبه على أنها لا تصلح لذلك بكونها متغيرة فلا بد لها من قاهر أثر فيها التغير ، ولا يزال الأمر كذلك إلى أن ينتهي إلى واحد قديم فاعل بالاختيار ، لما تقرر من بطلان التسلسل ، فقال تعالى : (وسخر لكم) أي أيها الناس لإصلاح أحوالكم) اليل (للكسنى) والنهار (للابتغاء ؛ ثم ذكر آية النهار فقال تعالى : (والشمس) أي لمنافع اختصها بها ، ثم ذكر آية الليل فقال : (والقمر (لأمور علقها به) النجوم) أي لآيات نصبها لها ، ثم نبه على تغيرها بقوله : (مسخرات) أي بأنواع التغير لما خلقها له على أوضاع دبرها) بأمره (سببا لصلاحكم وصلاح ما به قوامكم ، دلالة على وحدانيته وفعله بالاختيار ، ولو شاء لأقام أسبابا غيرها أو أغنى عن الأسباب .

ولما كان أمرها مع كونه محسوسا - ليس فيه من **المنافع** القريبة الأمر السهلة الملابسة ما يشغل عن الفمر فيه ، لم يحل أمره إلى غير مطلق العقل ، إشارة إلى وضوحه وإن كان لا بد فيه من استعمال القوة المفكرة ، ولأن الآثار العلوية أدل على القدرة الباهرة ، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة ، فقال : (إن في ذلك) أي التسخير العظيم) لآيات) أي كثيرة متعددة عظيمة) لقوم يعقلون (وجمع الآيات لظهور تعدادها بالتحديث عنها مفصلة .

ولما كان ما مضى موضعا للتفكر المنتج للعلم بوحدة الصانع واختياره ، وكان التفكر في ذلك مذكرا لما بعده من سر التفاوت في اللون الذي لا يمكن ضبط أصنافه على التحرير ، وكان في ذلك تمام إبطال القول بتأثير الأفلاك والطبائع ، لأن نسبتها إلى جميع أجزاء الورقة الواحدة والحبة الواحدة واحدة ، قال تعالى عطفا على الليل : (وما ذرأ) أي خلق وبث وفرق التراب والماء) لكم) أي خاصة ، فاشكروه واعلموا أنه ما خصكم بهذا التدبير العظيم إلا لحكم كبيرة أجلها إظهار جلاله يوم الفصل) في الأرض) أي مما ذكر ومن غيره حال كونه) مختلفا ألوانه (حتى في الورقة ، الواحدة ، فترى أحد وجهيها - بل بعضه - في غاية الحمرة ، والآخر في غاية السواد أو الصفرة ونحو ذلكن فلو كان المؤثر موجبا بالذات لامتنع حصول هذا التفاوت في الآثار ، فعلم قطعا أنه إنما هو قادر مختار ، ولم يذكر اختلاف الصور لأن دلالتها - لأجل اختلاف أشكال النجوم من السماء وصور الجبال والروابي والوهاد من الأرض - ليست على إبطال الطبيعة كدلالة اختلاف اللون .

ولما كان ذلك – وإن خارجا عن الحد في الانتشار – واحدا من جهة كونه لونا ، وحد الآية فقال : (إن في ذلك (الذي ذرأه في هذه الحال على هذا الوجه العظيم." [1]

" صفحة رقم ٢٥٣

) لآية (ولما نبه في التي قبلها على أن الأمر وصل في الوضوح إلى حد لا يحتاج معه إلى غير بديهة العقل ، نبه هنا على أن ذلك معلوم طرأ عليه النسيان والغفلة ، حثا على بذل الجهد في تأمل ذلك ، وإشارة إلى أن دلالته على المقصود في غاية الوضوح فقال : (لقوم يذكرون (ولو لم يمنعوا – بما أفاده الإدغام ؛ والتذكير : طلب المعنى بالتفكير في متعلقة ، فلا بد من حضور معنى يطلب به غيره ، وقد رتب سبحانه ذلك أبدع ترتيب ، فذكر الأجسام المركبة عموما ، ثم خص الحيوان ، ثم مطلق الجسم النامي وهو النبات ، ثم البسائط من الماء ونحوه ، ثم الأعراض من الألوان .

النحل : (١٤) وهو الذي سخر. .. . .

) وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (( )

ولما دل على قدرته واختياره سبحانه دلالة على القدرة علىكل ما أخبر به لاسيما الساعة ، بخلق السماوات والأرض الذي هو أكبر من خلق الناس ، ثم ذكر بعض ما في المكشوف من الأرض المحيط به الهواء من التفاوت الدال على تفرد الصانع واختياره ، وختمه باللون ، أتبع ذلك بالمغمور بالماء الذي لا لون له في الحقيقة ، إشارة إلى أنه ضمنه من **المنافع** والحيوانات التي لها من المقادير والكيفيات والأشكال والألوان البديعة التخطيط ، الغريبة الصباغ – ما هو أدل من ذلك فقال : (وهو) أي لا غيره) الذي سخر البحر) أي ذلله وهيأه لعيش ما فيه من الحيوان وتكون الجواهر ، وغير ذلك من **المنافع** ، والمراد به السبعة الأبحر الكائنة في الربع المرتفع عن الماء ، وهو المسكون من كرة الأرض المادة من البحر المحيط الغامر لثلاثة أرباع الأرض ، فجعله بالتسخير بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به بالركوب والغوص وغيرهما) لتأكلوا منه) أي بالاصطياد ةغيره من لحوم الأسماك) لحما طريا (لا تجد أنعم منه ولا ألين ، وهو أرطب اللحوم فيسرع إليه الفساد فيبادر إلى أكله عذبا لذيذا مع نشبه في ملح زعاق) وتستخرجوا منه) أي بجهدكم في الغوص وما يتبعه) حلية تلبسونها) أي نساؤكم ، وهن بعضكم لكم ، فكأن اللابس أنتم ، وهي من الحجارة التي لا ترى أصلب منها ولا أصفى من اللؤلؤ وكذا من المرجان وغيره ، مع نسبة هذا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٥٢/٤

الصلب وذاك الطري إلى الماء ، فلو أنه فاعل بطبعه لا ستويا .
ولما ذكر **المنافع** العامة مخاطبا لهم بها ، وكان المخر – وهو أن تجري السفينة مستقبلة الريح ، فتشق الماء ، فيسمع لجريها صوت معجب ، وذلك مع الحمل الثقيل – آية عظيمة لا يتأملها إلا أرباب القلوب خص بالخطاب أعلى أولي الألباب ، ومن قاربه." (١)

" صفحة رقم ٢٨٥

ولما كان لهم مدخل في اتخاذ ما ذكر منه بخلاف اللبن الذي لا صنع فيه أصلا ، أسند الأمر إليهم وليكون ذلك إشارة إلى كراهة السكر وتوطئة للنهي عنه في قوله مستأنفا : (تتخذون) أي باصطناع منكم وعلاج ، ولأجل استئناف هذه الجملة كان لا بد من قوله : (منه) أي من مائه ، وعبر عن السكر بالمصدر إبلاغا في تقبيحه ، وزاد في الإبلاغ بالتعبير بأثقل المصدرين وهو المحرك ، يقال : سكر سكرا وسكرا مثل رشد رشدا ورشدا ، ونحل نحلا نحلا ، فقال تعالى : (سكرا) أي ذا سكر منشيا مطربا سادا لمجاري العقل قبيحا غير مستحسن للرزق) ورزقا حسنا (لا ينشأ عنه ضرر في بدن ولا عقل من الخل والدبس وغيرهما ، ولايسد شيئا من المجاري ، بل ربما فتحها كالحلال الطيب ، فإنه ينير القلب ، ويوسع العقل ، والأدهان كلها تفتح سدد البدن ، وهذا كما منحكم سبحانه العقل الذي لا أحسن منه فاستعمله قوم على صوابه في الوحدانية ، وعكس آخرون فدنسوه بالإشراك ؛ قال الرماني : قيل : السكر ما حرم من الشراب ، والرزق الحسن : ما أحل منه – عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير و إبراهيم والشعبي وأبي رزين والحسن ومجاهد وقتادة رضي الله عنهم .
والسكر في اللغة على أربعة أوجه : الأول ما أسكر .
الثاني ما أطعم من الطعام .
الثالث السكون .
الرابع المصدر من السكر ، وأصله انسداد المجاري مما يلقي فيها ، ومنه السكر – يعني بكسر ثم سكون ، ومن حمل السكر على السكر قال : إنها منسوخة بآية المائدة ، والتعبير عنه بما يفهم سد المجاري يفهم كراهته عندما كان حلالا ؛ والآية من الاحتباك : ذكر السكر أولا دال على الفتح ثانيا ، وذكر الحسن دال القبيح أولا ، فالآية أدل ما في القرآن على المعتزلة في أن الرزق يطلق على الحرام ، ولتقارب آيتي الأنعام والأشجار جمعهما سبحانه فقال تعالى : (إن في ذلك) أي الأمرالعظيم من هذه **المنافع**) لآية (

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٥٣/٤

ولوضوح أمرهما في كمال قدرة الخالق ووحدانيته قال تعالى : (لقوم يعقلون (.
النحل : (٦٨ - ٦٩) وأوحى ربك إلى. . . . .
) وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفآء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (( )

ولما كان أمر النحل في الدلالة على تمام القدرة وكمال الحكمة أعجب مما تقدم وأنفس ، ثلث به وأخره لأنه أقل الثلاثة عندهم ، وغير الأسلوب وجعله من وحيه إيماء إلى ما فيه من غريب الأمر وبديع الشأن فقال تعالى : (وأوحى ربك) أي المحسن إليك بجعل العسل في مفاوز البراري المقفرة المفرطة المرارة وغيرها من الأماكن وبغير ذلك من **المنافع** ، الدال على الفعل بالاختيار وتمام الاقتدار) إلى النحل) أي بالإلهام ؛ قال." [١]

" صفحة رقم ٢٩٨

والأبيات بالشعر أخص) تستخفونها) أي تطالبون بالاصطناع خفها فتجدونها كذلك) يوم ظعنكم) أي وقت ارتحالكم ، وعبر به لأنه في النهار أكثر) ويوم إقامتكم (ثم أتبعه ما به كمال السكن فقال تعالى : (ومن أصوافها) أي الضأن منها) وأوبارها (وهي للإبل كالصوف والمفارش والأخبية وغيرها) أثاثا) أي متاعا من متاع البيت كثيرا ، من قولهم : شهر أثيث أي كثير ، وأث البنت .

إذا كثر) ومتاعا (تتمتعون به) إلى حين) أي وقت غير معين بحسب كل إنسان في فقد ذلك ، وأعرض عن ذكر الحرير والكتان والقطن لأنها لم تكن من صناعتهم ، وإشارة إلى الاقتصاد وعدم الإسراف .

ولما ذكر ما يخصهم ، أتبعه ما يشاركون فيه سائر الحيوانات فقال : (والله) أي الذي له الجلال والإكرام) جعل لكم) أي من غير حاجة منه سبحانه) مما خلق ظلالا (من الأشجار والجبال وغيرها) وجعل لكم) أي مع غناه المطلق) من الجبال أكنانا (جمع كن وهو ما يستكن به - أي يستتر - من الكهوف ونحوها ، ولوكان الخالق غير مختار لكانت على سنن واحد لا ظلال ولا أكنانح ثم أبتع ذلك ما هداهم إليه عوضا مما جعله لسائر الحيوان فقال : (وجعل لكم) أي منا منه عليكم) سرابيل) أي ثيابا) تقيكم الحر (وهي كل مالبس من قميص وغيره - كما قال الزجاج .

ولما كانت السرابيل نوعا واحدا ، لم يكرر (جعل) فقال تعالى : (وسرابيل) أي دروعا ومغافر وغيرها)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت : عبدالرزاق غالب)، ٤/٢٨٥

تقيكم بأسكم (أضافه إليهم إفهاما لأنه الحرب ، وذلك كما جعل لبقية الحيوان - من الأصواف ونحوها والأنياب والأظافر ونحوها - ما هو نحو ذلك يمنع من الحر والبرد ، ومن سلاح العدو ، ولم يذكر سبحانه هنا وقاية البرد لتقدمها في قوله تعالى)) لكم فيها دفء ( ) [النحل : ٥] .

ولما تم ذلك كان كأنه قيل : نبهنا سبحانه بهذا الكلام على تمام نعمة الإيجاد ، فهل بعدها من نعمة ؟ فقال : نعم) كذلك) أي كما أتم انعمة الإيجاد عليكم هذا الإتمام العظيم بهذه الأمور ونبهكم عليها) يتم نعمته عليكم (في الدنيا والدين بالهداية والبيان لطريق النجاة والمنافع ، والتنبيه على دقائق ذلك بعد جلائله) لعلكم تسلمون) أي ليكون حالكم - بما ترون من كثرة إحسانه بما لا يقدر عليه غيره مع وضوح الأمر - حال من يرجى منه إسلام قياده لربه ، فلا يسكن ولا يتحرك إلا في طاعته .

النحل : (٨٢ - ٨٩) فإن تولوا فإنما. .. . . .

) فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين." (١)

" صفحة رقم ٣٢١

ولما دعاهم إلى مكارم الأخلاق ونهاهم عن مساوئها بقبوله لمن أقبل إليه وإن عظم جرمه ، إجابة لدعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام في قوله

٧٧ ( ) فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ( ) ٧

[إبراهيم : ٣٦] أتبع ذلك ذكره ترغيبا في اتباعه في التوحيد والميل مع الأمر والنهي إقداما وإحجاما إن كانوا ممن يتبع الحق أو يقلد الآباء ، فقال على سبيل التعليل لما قبله : (إن إبراهيم) أي أباكم الأعظم إمام الموحدين) كان أمة (فيه من المنافع الدنيوية والأخروية ما يوجب أن يؤمه ويقصده كل أحد يمكن انتفاعه به) قانتا) أي مخلصا) لله) أي الملك الذي له الأمر كله ليس فيه شيء من الهوى) حنيفا (ميالا مع الأمر والنهي بنسخ أو بغيره ، فكونوا حنفاء أتباعا للحق ، لما قام عليه من الأدلة ، واستنانا بأعظم آبائكم .

ولما كان السياق لإثبات الكمال لإبراهيم عليه السلام ، وكانت ا لأوصاف الثبوتية قريبة المأخذ سريعة الوصول إلى الفهم ، وأتى بعدها وصف سلبي بجملةن حذف نون) يكن (منها إيجازا وتقريبا للفهم تخفيفا عليه وحفظا له من أن يذهب قبل تمامها إلى غير المراد ، وإعلاما بأن الفعل منفي عنه عليه السلام على

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٩٨/٤

أبلغ وجوه النفي لا ينسب إليه شيء منه ولو قل ، فقيل : (ولم يك (ولما كانوا مشركين هم وكثير من أسلافهم ، قبح عليهم ذلك بأن أعظم من يعتقدون عظكته من آبائهم ليس من ذلك القبيل ، فقال تعالى : (من المشركين (الواقفين مع الهوى ، فلا تكونوا منهم ؛ ثم بين حاله فقال : (شاكرا (ولما كان لله على من جعله أمة من النعم ما لا يحصى ، بين أن ذلك كله قليل في جنب فضله ، فقال مشيرا إلى ذلك بجمع القلة وإلى أن الشاكر على القليل يشكر إذا أتاه الكثير من باب الأولى : (لأنعمه (فهو لا يزال يزيده من فضله ، فتقبل دعاءه لكم فاشكروا الله اقتداء به ليزيدكم ، فكأنه قيل : فما أثابه على ذلك ؟ أو علل ما قبل ، فقال تعالى : (اجتباه) أي اختاره اختيارا تاما) وهداه) أي بالبيان الأعظم والتوفيق الأكمل) إلى صراط مستقيم (وهو الحنيفية السمحة ، فكان ممن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، وكان مخالفا للأبكم الموصوف في المثل السابق ؛ ثم قال : (وءاتيناه) أي بما لنا من العظمة) في الدنيا (بلسان الصدق والثناء الجميل الذي ذللنا له ألسنة الخلق) حسنة (ونبه بالتعبير عن المعطي بنون القلوب على محبته ، وجعل له فيهم لسان صدق ، ورزقه في أولاده من النبوة والصلاح والملك والكثرة ما هو مشهور . ولما كانت عظمة الدنيا لا تعتبر إلا مقرونة بنعمة الآخرة ، قال تعالى : (وإنه في الآخرة (وقال تعالى - : (لمن الصالحين) أي له ما لهم من الثواب العظيم - معبرا ب (من) تعظيما لمقام الصلاح وترغيبا فيه .." (١)

" صفحة رقم ٣٦٧

كما أن القمر الذي هو أنقص من الشمس كذلك : ثم ذكر بعض المنافع المترتبة على ذلك ، فقال تعالى : (لتبتغوا) أي تطلبوا طلبا شديدا) فضلا من ربكم) أي المحسن إليكم فيهما بضياء هذا تارة وبرد هذا أخرى) ولتعلموا (بفصل هذا من هذا) عدد السنين) أي من غير حاجة إلى حساب ، لأن النيرين يدلان على تحول الحول بمجرد تنقلهما .

ولما كانا أيضا يدلان على حساب المطالع والمغارب ، والزيادة والنقصان ، وغير ذلك من الكوائن ، لمن أمعن النظر ، وبالغ في الفكر ، قال تعالى : (والحساب) أي جنسه ، فصلناهما لذلك على هذا الوجه المتقن بالزيادة والنقصان ، وتغير الأحوال في أوقات معلومة ، على نظام لا يختل على طول الزمان مقدار ذرة ، ولا ينحل قيس شعرة إلى أن يريد الله خراب العالم وفناء الخلق ، فيبيد ذلك كله في أسرع وقت وأقرب زمن ، ولولا اختلافهما لا ختلطت الأوقات وتعطلت الأمور) وكل شيء (غيرهما مما تحتاجون إليه في

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب ،) ٣٢١/٤

دينكم أو دنياكم) فصلناه) أي بعظمتنا ، وأزلنا ألباسه ، وأكد الأمر تنبيها عل تمام القدرة ، وأنه لا يعجرزه شيء يريده ، فقال تعالى : (تفصيلا (فانطروا بأبصاركم وبصائركم ، وتتبعوا في علانياتكم وسرائركم ، وتجدوا أمرا متقنا ونظاما محكما

٧٧ ( ) ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ( ) ٧
[الملك : ٤] .

ولما كان هذا أمر دقيقا جدا ، أتبعه ما هو أدق منه وأغرب في القدرة والعلم من تفاصيل أحوال الآدميين ، بل كل مكلف بعضها من بعض من قبل أن يخلقهم ، فقال تعالى : (وكل إنسان) أي من في طبعه التحرك والاضطراب) ألزمناه) أي بعظمتنا) طائره) أي عمله الذي قدرناه عليه من خير وشر ، ولعله عبر به لأنهم كانوا لا يقدمون ولا يحجمون في المهم من أعمالهم إلا بالطائر فيقولون : جرى لفلان الطائر بكذا .

) في عنقه) أي الذي محل الزين بالقِلادة ونحوها ، والشين بالغل ونحوه ، إلزاما لا يقدر أن ينفك عن شيء منه كما لا يقدر على الانفكاك عن العنق ، وذلك كما ألزمنا بني إسرائيل ما قضينا إليهم في الكتاب ، فكان كما قلنا ، وهم يعلمون نه من السوء بمكان ، فلم يقدروا على الاحتراز منه والانفصال عنه ، فلا يمكن أن يظهر في الأبد إلا ما قضى به في الأزل (جف القم بما هو كائن)) ونخرج) أي بما لنا من العظمة وشمول العلم وتمام القدرة) له يوم القيامة) أي الذي لا بد من إيجاده) كتابا (بجميع ما عمل) يلاقه (حال كونه) منشورا (تكتبه حفظتنا كل يوم ، ثم إذا صعدوا قابلوا ما فيه على ما سطرناه قديما في اللوح المحفوظ فيجدونه كما هو ، لا خلاف فيه أصلا ، فإذا لقي كتابه يوم العرض قيل له : (اقرأ كتابك (أنت بنفسك غير ملزم بما يقرأه غيرك) كفى (." [١]

" صفحة رقم ٣٨٠

الدنيا والآخرة وإن تراءى لكم أن غيره خير) وأحسن تأويلا) أي عاقبة في الدارين ، وهو تفعيل من الأول وهو الرجوع ، وأفعل التفضيل هنا لاستعمال النصفة لإرخاء العنان ، أي على تقدير أن يكون في كل منهما خير ، فهذا الذي أزيد خيرا والعاقل لا ينبغي أن يرضى لنفسه بالدون .

ولما كان ذلك مما تشهد القلوب بحسنه ، وأضداده مما تتحقق النفوس قبحه ، لأن الله تعالى جبل الإنسان على ذلك كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (البر ما سكن إليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك المفتون وأفتوك) وقال : (إن مما أدرك

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٦٧/٤

الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستحي فاصنع ما شئت) وكان قد جمع الضمائر سبحانه ، تلاه سبحانه بما يعمه وغيره فقال تعالى مفردا الضمير ليصوب النهي إلى كل من الجمع والإفراد في حالتي الاجتماع والانفراد على حد سواء : (ولا) أي افعلوا ما أمرتم به من ذلك ، وانتهوا عما نهيتم عنه منه ، لما تقرر في الجبلات من العلم الضروري بخيريته وحسنه ، ولا) تقف) أي تتبع أيها الإنسان مجتهدا بتتبع الآثار) ما ليس لك به علم (من ذلك وغيره ، كل شيء بحسبه ، لا سيما البهت والقذفن فما كان المطلوب فيه القطع لم يقنع فيه بدونه ، وما اكتفى فيه بالظن وقف عنده ؛ ثم علل ذلك مخوفا بقوله : (إن السمع والبصر (وهما طريقا الإدراك) والفؤاد (الذي هو آلة الإدراك ؛ ثم هول الأمر بقوله تعالى : (كل أولئك) أي هذه الأشياء العظيمة ، العالية **المنافع** ، البديعة التكوين ، وأولاء وجميع أسماء الإشارة يشار بها للعاقل وغيره كقوله :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

)كان) أي بوعد لا خلف فيه) عنه) أي وحده) مسؤولا (بسؤال يخصه ، هل استعمله صاحبه في طلب العلم مجتهدا في ذلك ، لعمل عند الوقوف على الحقائق بما يرضي الله ، ويجتنب ما يسخطه أو لا ؟ وأول حديث النفس السابح ثم الخاطر ثم الإرادة والعزيمة ، فيؤاخذ بالإرادة والعزيمة لدخولهما تحت الاختيار فيتعلق بهما التكليف ، ولعدم دخول الأولين خفف عنا بعدم المؤاخذة بهما ، كما قال صلى الله عليه." (١)

" صفحة رقم ٤٠٦

للتوكل علي فكفيتهم أمرك) وكفى بربك) أي الموجد لك المدبر لأمرك) وكيلا (يحفظ ما هو وكيل فيه من كل ما يمكن أن يفسده .

الإسراء : (٦٦ - ٦٩) ربكم الذي يزجي. .. . .

) ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا (( )

ولما ذكر أنه الوكيل الذي لا كافي غيره في حفظه ، لاختصاصه بشمول علمه وتمام قدرته ، أتبعه بعض

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٨٠/٤

أفعاله الدالة على ذلك فقال تعالى ، عودا إلى دلائل التوحيد الذي هو المقصود الأعظم بأحوال البحر الذي يخلصون فيه ، في أسلوب الخطاب استعطافا لهم إلى المتاب : (ربكم) أي المحسن إليكم ، هو) الذي يزجي) أي يسوق ويدفع وينفذ) لكم) أي لمنفعتكم) الفلك (التي حملكم فيها مع أبيكم نوح عليه السلام) في البحر لتبتغوا) أي تطلبوا طلبا عظيما بذلك أنواع **المنافع** التي يتعذر أو يتعسر الوصول إليها في البر) من فضله (ثم علل فعله ذلك بقوله تعالى : (إنه) أي فعل ذلك لكم لأنه)كان) أي أزلا وأبدا) بكم) أي أيها المؤمنون خاصة) رحيما) أي مكرما يالتوفيق إلى فعل ما يرضيه في المتجر وغيره ، لا لشيء غير ذلك ، أو يكون ذلك خطابا لجميع النوع فيكون المعنى : خصكم به من بين الحيوانات .

ولما كان المراد المؤمنين خاصة وإن كان خطابا للمجموع ، خص المشركين كذلك فقال : (وإذا) أي فإذا نعمكم بأنواع الخير كنتم على إشراككم به سبحانه ، وإذا) مسكم (ولم يقل : أمسكم - بالإسناد إلى نفسه ، تأديبا لنا في مخاطبته بنسبة الخير دون الشر إليه ، مع اعتقاده أن الكل فعله ، وتنبيها على أن الشر مما ينبغي التبرؤ منه والبعد عنه) الضر في البحر (من هيج الماء واغتلامه لعصوف الريح وطمو الأمواج) ضل) أي ذهب وبطل عن ذكركم وخواطركم) من تدعون (من الموجودات كلها) إلا إياه (وحده ، فأخلصتم له الدعاء علما منكم أنه لا ينجيكم سواه) فلما نجاكم (من الغرق وأوصلكم بالتدريج) إلى البر أعرضتم (عن الإخلاص له ورجعتم إلى الإشراك) وكان الإنسان) أي هذا النوع)كفورا) أي بليغ التغطية لما حقه أن يشهر ، فأظهر في موضع الإضمار تنبيها على أن هذا الوصف لا يخصهم ، بل يعم هذا النوع لطبعه على النقائص إلا من أخلصه الله له .." [١]

" صفحة رقم ٥٢٩

لها ، لأنها لا تحمل إلا بإلقاح من ذكور النخل ، فحملها بمجرد هزها أنسب شيء لإتيانها بولد من غير والدن فكيف إذا كان ذلك في غير وقته فكيف إذا كانت يابسة مع ما لها فيها من **المنافع** بالاستناد إليها والاعتماد عليها ، وكون رطبها خرسة للنفساء وغاية في نفعها وغير ذلك .

ولما كان ذلك أمرا صعبا عليها جدا ، كان كأنه قيل : يا ليت شعري ما كان حالها ؟ فقيل : (قالت (لما حصل عندها من خوف العار : (ياليتني مت (ولما كانت كذلك أشارت إلى استغراق الزمان بالموت بمعنى عدم الوجود فقالت من غير جار : (قبل هذا) أي الأمر العظيم) وكنت نسيا) أي شيئا من شأنه أن ينسى) منسيا) أي متروكا بالفعل لا يخطر على بال ، فولدته) فناداها من تحتها (وهو عيسى عليه

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤/٤٠٦

السلام) ألا تحزني (قال الرازي في اللوامع : والأصح أن مدة حملها له وولادته ساعة لأنه كان مبدعا ، ولم يكن من نطفة تدور في أدوار الخلقة – انتهى .

ونقله ابن كثير وقال : (صلى الله عليه وسلم) أنهم أنكروا عليها زمن الحمل ، ولو علموا به لأنكروه ولو أنكروه لنقل كما نقل إنكار الولادة .

ولما أنكروا الولادة فكأنها قالت : لم لا أحزن ؟ وتوقعت ما يعلل به ؟ قال : (قد جعل ربك) أي المحسن إليك) تحتك (في هذه الأرض التي لا ماء جاريا بها) سريا (جدولا من الماء جليلا آية لك تطيب نفسك) وهزي إليك) أي أوقعي الهز وهو جذب بتحريك .

ولما كان المقصود التهويل لصرف فكرها عما دهمها من الهم جعله قاصرا فكأنها قالت : ما أهز ؟ إذ لم يكن في الجذع ما يتوقع نفعه بهزه ، فقال مصرحا بالمهموز : (بجدع النخلة (التي أنت تحتها مع يبسها وكون الوقت ليس وقت حملها فكأنها قالت : ولم ذاك ؛ فقال : (تساقط عليك (من أعلاها) رطبا جنيا (طريا آية أخرى عظيمة تطيب النفس وتذهب بالحزن ، وتدل على البراءة ، والتعبير بصيغة الـتفاعل في قراءة لاجماعة وحمزة للدلالة علىأن التمر يسقط منها ، ومن حقه أن يكون منتفيا لأنها غير متأهلة لذلك ، فهو ظاهر في أنه على وجه خارق للعادة ، وقراءة الجماعة بالإدغام تشير مع ذلك إلى أنه مع شدته يكاد أن يخفي كونه منها ليبسها وعدم إقنائها ، وقراءة حمزة بالفتح والتخفيف تشير إلى سهولة تساقطه وكثرته ، وقراءة حفص عن عاصم بالضم وكسر القاف من فاعل ، تدل على الكثرة وأنه ظاهر في كونهه من فعلها .." (١)

" صفحة رقم ٢٢

يثبتها ، فقال مفتتحا بالحرف التوقع لأن حال السامع لادعاء الرسالة أن يتوقع دلالة على الإرسال : (قد حئناك بآية) أي علامة عظيمة وحجة وبرهان) من ربك (الذي لا إحسان عليك إلا منه ، موجبة لقبول ما ادعيناه من العصا واليد وغيرهما ، فأسلم تسلم ، وفي تكرير مخاطبته بذلك تأكيد لتبكيته في ادعاء الربوبية ، ونسبته إلى كفرا الإحسان ، فسلام عليك خاصة إن قبلت هدى الله) والسلام) أي جنسه) على (جنيع) من اتبع (بغاية جهده) الهدى (عامة ، وإذا كان هذا الجنس عليهم كان من المعلوم أن العطب على غيرهم ، فالمعنى : وإن أبيت عذبت) إنا) أي لأنا) قد أوحي إلينا (من ربنا) أن العذاب) أي كله ، لأن اللام للاستغراق أو الماهية ، وعلى التقديرين يقتضي قدر ثبوت هذا الجنس ودوامه لما

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤/٥٢٩

تفهمه الاسمية) على (كل) من كذب وتولى) أي أوقع التكذيب والإعراض ، وذلك يقتضي أنه إن كان منه شيئ على مصدق منقضيا ، وإذا انقضى كان كأن لم يوجد ، وفي صرف الكلام عنه تنبيه على أنه ضال مكذب وتعليم للأدب .

ولما كان التقدير : فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك – غلى آخر ما أمر به ، وتضمن قولهما أن لمرسلمها القدرة التامة والعلم الشامل ، فتسبب عنه سؤاله عن تعينه / أستأنف الإخبار عن جوابه بقوله : (قال) أي فرعون مدافعا لهما بالمناظرة لا بالبطش ، لئلا ينسب إلى السفه والجهل : (فمن) أي تسبب عن كلامكما هذا الذي لا يجترىء على مواجهتي به أحد من أهل الأرض أن أسألكما : من) ربكما (الذي أرسلكما ، ولم يقل : ربي ، حيدة عن سواء النظر وصرفا للكالم على الوجه الموضح لخزيه .

ولما كان موسى عليه السلام هو الأصل في ذلك ، وكان طمع فرعون بمكره وسوء طريقه في حبسه تحصل في لسانه ، أفرده بقوله : (يا موسى قال (له موسى على الفور : (ربنا) أي موجدنا ومربينا ومولانا) الذي أعطى كل شيء (مما تراه في الوجود) خلقه) أي ما هو عليه مما هو به أليق في المنافع المنوطة به ، والآثار التي تتأثر عنه من الصورة و الشكل والمقدار واللون والطبع وغير ذلك مما يفوت الحصر ، ويجل عن الوصف .

ولما كان في إفاضة الروح من الجلالة والعظم ما يضمحل عنده غيره من المفاوتة ، أشار إلى ذلك بحرف التراخي فقال : (ثم هدى) أي كل حيوان منه مع أن فيها العاقل وغيه إلى جميع منافعه فيسعى لها ، ومضاره فيحذرها ، فثبت بهذه المفاوتة والمفاضلة مع اتحاد نسبة الكل إلى الفاعل أنه واحد مختار ، وأن ذلك لو كان بالطبيعة المستندة إلى إلى النجوم أو غيرها كما كان يعتقده فرعون وغيره لم يكن هذا التفاوت .." (١)

" صفحة رقم ٢٣

ولما لم يكن لأحد بالطعن في هذا الجواب قبل لأنه لا زلل فيه ولا خلل مع رشاقته واختصاره وسبقه بالجمع مضماره – صرف الكلام بسرعة خوف من الاتضاح ، بزيادة موسى عليه السلام في الإيضاح ، فيظهر الفساد من الصلاح ، إلى شيء يتسع فيه المجال ، ولا يقوم عليه دليل ، فيمكن فيه الرد ، فأخبر عنه سبحانه على طريق الاستئناف بقوله : (قال فما) أي تسبب عما تضمن هذا من نسبة ربك غلى العلم بكل موجود أني أقول لك : فما) بال) أي خبر) القرون الأولى (الذي هو في العظمة بحيث إنه ما

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٢/٥

خالط أحدا إلى أحاله وأماله ، وهو وأن كان حيدة ، هو من أمارات الانقطاع ، غير أنه فعل راسخ القدم في المكر والخداع .

ولما فهم عنه موسى عليه السلام ما أراد أن ترتب على الخوض في ذلك مما لا طائل تحته من الرد والمطاولة ، ولم تكن التوراة نزلت عليه إذ ذاك ، وإنما نزلت بعد هلاك فرعون لم يمش معه في ذلك) قال (قاطعا له عنه : (علمها عمد ربي) أي المحسن إلي بإرسالي وتلقيني الحجاج .

ولما كانت عادة المخلوقين إثبات الأخبار في الكتب ، وكان تعالى قد وكل بعباده من ملائكته من يضبط ذلك ، قال مخاطبا له بما يعرفون من أحوالهم : (في كتاب) أي اللوح المحفوظ .

ولما كان ربما وقع في وهم واهم أن الكتاب لا يكون إلاخوفا من نسيان الشيء أو الجهل بالتوصل إليه مع ذكر عينه ، نفى ذلك بقوله : (لا يضل ربي) أي الذي رباني كما علمت ونجاتي من جميع ما قصدتموه لي من الهلاك ولم يضل عن وجه من وجوهه ، ولا نسي وجها يدخل منه شيء من خلل) ولا ينسى) أي لا يقع منه نسيان لشيء أصلا من أخباره ولا لغيرهم ، وفي ذلك إشارة إلى تبكيت اليهود بأن ثبوت النبوة إن كان يتوقف على أن يخبر النبي عن كل ما يسال عنه لزم أن يتوقفوا في نبوة نبيهم عليه السلام لأنه لم يخبر فرعون عما سأله عنه من أمر القرون ؛ ثم وصل بذلك ما كان فيه قبل من الدليل العقلي على وحدة الصانع واختياره فقال : (الذي جعل لكم (أيها الخلائق) الأرض) أي أكثرها) مهدا (تفترشونها ، وجعل بعضها جبالا لا يمكن القرار عليها ، وبعضها رخوا تسرح فيه الأقدام وبعضها جلدا – إلى غير ذلك مما تشاهدون فيها من الاختلاف) وسلك لكم فيها سبلا) أي سهل طرقا تسلكونها في أراضي سهلة وحزنة وسطها بين الجبال والأودية والرمال ، وهيأ لكم فيها من **المنافع** من المياه والمراعي ما يسهل ذلك ، وجعل فيها ما لا يمكن استطراقه أصلا ، من أن نسبة الكل إلى الطبيعة واحدة ، فلولا أن الفاعل واحد مختار لم يكن هذا التفاوت وعلى هذا النظام البديع) وأنزل من السماء ماء (تشاهدونه في اللون والطعم .." (١)

" صفحة رقم ٢٤

ولما كان ما ينشأ عنه أدل على العظمة وأجلى للناظر وأظهر للعقول .

استغرق (صلى الله عليه وسلم) في بحار الجلال ، فاستحضر أن الآمر له بهذا الكالم هم المتكلم به في الحقيقة فانيا عن نفسه وعن جميع الأكوان ، فعبر عن ذلك ، عادلا عن الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٢٣

بما له من العظمة بقوله : (فأخرجنا) أي بما لنا من العظمة التي تنقاد لها الأشياء المختلفة) به أزواجا) أي أصنافا متشاكلة ليس فيها شيء يكون واحدا لا شبيه له) من نبات شتى) أي مختلفة جدا في الألوان والمقادير **والمنافع** والطبائع والطعوم ؛ ثم أشار إلى تفصيل ما فيها من الحكمة بقوله حالا من فاعل) أخرجنا (: (كلوا) أي ما دبره لكم بحكته منها) وارعوا) أي سرحوا في المراعي) أنعامكم (ما أحكمه لها ولا يصلح لكم ، فكان من متقن تدبيره أن جعل أرزاق العباد بعملها تنعيما لهم ، وجعل علفها مما يفضل عن حاجتهم ، ولا يقدرون على أكله ، وقد دلت هذه الأوصاف على تحققه سبحانه قطعا بأنه لا يضل ولا ينسى من حيث إنه تعالى أبدع هذا العالم شاملا لكل ما يحتاجه من فيه لما خلقهم له من السفر إليه والعرض عليه في جميع تقلباتهم على اختلافها ، وتباين أصنافها ، وتباعد أوصافها ، وعلى كثرتهم ، وتنائي أمزجتهم ، ولم يدعه ناقصا من شيء من ذلك بخلاف غيره ، فإنه لو عمل شيئا واجتهد كل الاجتهاد في تكميله فلا لد أن يظهر له فيه نقث ويصير يسعى في إزالته وقتا بعد وقت .

ولما كمل هذا البرهان القويم ، دالا على العليم الحكيم ، قال منبها على انتشار أنواره ، وجلالة مقداره ، مؤكدا لأجل إنكار المنكرين : (أن في ذلك) أي الإنشاء هذه الوجوه المختلفة) لآيات (على منشئه) لأولي النهى (العقول التي من شأنها أن تنهى صاحبها عن الغي ، ومن عمي عن ذلك فلا عقل له أصلا لأن عقله لم ينفعه ، وما لا ينفع في حكم العدم ، وذكر ابن كثير هنا ما عزاه ابن اسحاق في السيرة لزيد بن عمرو بن نفيل ، وابن هشام لأمية بن أبي الصلت :

وأنت الذي من فضل من ورحمة بعثت إلى موسى رسولا مناديا فقلت الا يا اذهب وهارون فادعوا ألى الله فرعون الذي كان باغيا فقولا له آأنت سويت هذه بلا وتد حتى استقلت كما هيا وقولا له آأنت رفعت هذه بلا عمد أرفق إذن بك بانيا وقولا له آأنت سويت وسطها منيرا إذا ما حنه الليل هاديا وقولاله من يخرج الشمس بكرة فيصبح ما مست من الزرع ضاحيا وقولا له من ينبت الحب في الثرى فيخرج منه البقل يهتز رابيا ويخرج منه حبه في رؤوسه وفي ذاك بيات لمن كان واعيا." (١)

" صفحة رقم ٢٥

طه : (٥٥ - ٦٠) منها خلقناكم وفيها. .. . .

) منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يموسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٢٤

مكانا سوى قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى (( )
ولما أخبر سبحاه وتعالى عما خلق في الأرض من **المنافع** الدالة على تمام علمه وباهر قدرته ، على وجه دال على خصوص القدرة على البعث ، وكان من الفلاسفة تناسخيتهم وغيرهم من يقر الله بالوحدانية ولا يقر بقول أهل الإسالام : إن الروح جسم لطيف سار في الجسم سريان النار في الفحم ، بل يقول : إنها ليست بجسم ولا قوة في جسم ولا صورة لجسم وليست متصلة به اتصال انطباع ولا حلول فيه ، بل اتصال تدبير وتصرف ، وأنها إذا فارقت البدن اتصلت بالوحانيين من العالم العقلي الذي هو عالم المجردات وانخرطت في سلك الملائكة المقربين ، أو اتصلت ببعض الأجرام السماوية من كوكب أو غيره كاتصلها بالبدن الأول وانقطع تعلقها به فلم تعد إليه حتى ولا يوم البعث عند من يقول منهم بالحشر ، وصل بذلك قوله تعالى ، يرد عليهم ، معبرا بالضمير الذي يعبر به الهيكل المجتمع من البدن والنفس : (منها) أي الأرض لا من غيرها) خلقناكم (إذ أخراجناكم منها بالعظمة الباهرة في النشأة الأولى بخلق أبيكم آدم عليه السلام) وفيها (لا في غيرها منا أنت كذلك تشاهدون) نعيدكم (بالموت كذلك أجساما وأرواحا ، فتصيرون ترابا كما كنتم ، وللروح مع ذلك وأن كانت في عليين تعلق ببدنها بوجه ما ، يدرك البدن به اللذة بالتذاذها والألم بتألهما ، وقد صح أن الميت يقعد في قبره ويجيب سؤال الملكين عليهما السلام ، لا يقدر أحد منكم أن يخلص من تلك العظمة المحيطة بجليل عظمته ولا بدقيق حكمته) ومنها (لا من غيرها) نخرجكم (يوم البعث بتلك العظمة بعينها) تارة أخرى (كما بدأناكم أول مرة مثل ما فعنا في النبات سواء ، فقد علم أن هذا فعل الواحد المختار ، لا فعل الطبائع ، فمرة جعلكم أحياء من شيء ليس له أصل في الحيوانية أصلا ، وكرة ردكم إلى ما كنتم عليه قبل الحياة ترابا لا روح فيه ولا ما يشبهها ، فلا ريب أن فاعل ذلك قادر على أن يخرجكم منها أحياء كما ابتدأ ذلك ، بل الإعادة أهون في مجاري العادة .
ولما كان ما ذكر مما علق بالأرض من المرافق وغيره على غاية من الوضوح ، ليس وراءها مطمح ، فكان المعنى : أرينا فرعون هذا الذي ذكرنا لكم من آياتنا وغيره ، وكان المقام لتعظيم القدرة ، عطف عليه قوله : (ولقد أريناه) أي بالعصا واليد وغيرهما مما تقدم من مقتضى عظمتنا) ءاياتنا) أي التي عظمتها من عظمتنا) كلها (بالعين." (١)

" صفحة رقم ٣٤

ولما كان ضرب البحر بالعصا سببا لوجود الطريق الموصوفة ، أوقع الفعل عليها فقال : (طريقا في البحر (

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٥/٥

ووصفها بالمصدر مبالغة فقال : (يبسا (حال كونها أو كونك) لا تخف (والمراد بها الجنس ، فإنه كان لكل سبط طريقا) دركا) أي أن يدركك شيء من طغيان البحر أو بأس العدو أو غير ذلك .

ولما كان الدرك مشتركا بين اللحاق والتبعة ، أتبعه بقوله : (ولا تخشى) أي شيئا غير ذلك أصلا إنفاذا لأمري وإنقاذا لمن أرسلتك لاستنقادهم ، وسوقه على هذا الوجه من إظهار القدرة والاستهانة بالمعاند مع كبريائه ومكنته استلالا شهوديا على ما قرر أول السورة من شمول القدرة وإحاطة العلم للبشارة بإظهار هذا الدين بكثرة الأتباع وإبارة الخصوم والإسعاد برد الأضداد وجعل بغضهم ودان وإن كانوا قوما لدا ؛ ثم أتبع ذلك قوله عطفا على ما تقديره : فبادر امتثال الأمر في الإسراء وغيره : (فأتبعهم) أي أوجد التبع والمسير وراء بني إسرائيل على ذلهم وضعفهم) فرعون بجنوده (على كثرتهم وقوتهم وعلوهم وعوتهم ، فكانوا كالتابع الذي لا معنى له بدون متبوعه) فغشيهم) أي فرعون وقومه) من اليم) أي البحر الذي من شأنه أن يؤم ؛ وأوجز فهول فقال : (ما غشيهم (اب أمر لا تحتمل العقول وصفه حق وصفه ، فأهلك أولهم وآخرهم ؛ وقطع دابرهمن لم يبق منهم أحدا ، وما شاكت أحدا من عبادنا المستضعفين شوكة) وأضل فرعون (على تحذلقه) قومه (مع ما لهم من قوة الأجساد معانيها .

ولما كان إثبات الفعل لا يفيد العموم ، نفى ضده ليفيده مع كونه أوكد وأوقع في النفس وأروع لها فقال : (وما هدى) أي ما وقع منه شيء من الهداية ، لا لنفسه ولا لأحد من قومه ، فتم الدليل الشهودي على تمام القدرة على إنجاء الطائع وإهلاك العاصي .

ولما كان هذا موجبا للتشوف إلى ما وقعع لبني إسرائيل بعده ، قال تعالى شافيا لهذا الغليل ، أقبلنا على بني إسرائيل ممتنين بما مضى وما يأتي قائلين : (يابني إسرائيل (معترفين لهم أنا نظرنا إلى السوابق فأكرمناهم لأجل أبيهم .

ولما كان درء المفاسد وإزالة الموانع قبل جلب المصالح واستدرار **المنافع** قال : (قد أنجيناكم (بقدرتنا الباهرة) من عدوكم (الذي كنتم أحقر شيء عنده .

ولما تفرغوا لإنفاذ ما يراد منهم من الطاعة قال : (وواعدناكم) أي كلكم – كما مضى في البقرة عن نص التوراة – للمثول بحضرتنا والاعتزاز بمواطن رحمتنا) جانب الطور الأيمن) أي الذي على أيمانكم في توجهكم هذا الذي وجوهكم فيه إلى بيت ابيكم إبراهيم عليه السلام ، وهو جانبه الذي يلي البحر وناحية مكة واليمن .." (١)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٤/٥

" صفحة رقم ٧٢
ولما كان كأنه قيل : بما أجابوا هذا المقال ؟ قيل) قالوا (حين لا نفع لقولهم عند نزول البأس : (ياويلنا (إشارة إلى أنه حل بهم لأنه لا ينادي إلا القريب ، وترفقا له كما يقول الشخص لمن يضربه : يا سيدي - كأنه يستغيث به ليكف عنه ، وذلك غباوة منهم ، وعمى عن الذي أحلهه بهم ، لأنهم كالبهئم لا ينظرون إلا السبب الأقرب ؛ ثم عللو حلوله بهم تأكيدا لترفقهم بقولهم : (إنا كنا) أي جبلة لنا وطبعا) ظالمين (حيث كذبنا الرسل ، وعصينا أر ربنا ، فاعترفوا حيث لم ينفعهم الاعتراف لفوات محله) فما) أي فتسبب عن إحلالنا ذلك البأس بهم أنه ما) زالت تلك) أي الدعوة البعيدة عن الخير والسلامة ، وهي فولهم : ياويلنا) دعواهم (يرددونها لا يكون دعوى لهم غيرها ، لأن الويل ملازم لهم غير منفك عنهم ، وترفقهم له غير نافعهم) حتى جعلناهم (بما لنا من العظمة) حصيدا (كالزرع المحصىود .
ولما كان هذا وما بعده مثل حلو حامض في الزمان ، جعلا خبرا واحدا ليكون (جعل) مقتصرا على مفعولين فقال : (خادمين) أي جامعين للانقطاع والخفوت ، لا حركة لهم ولا صوت ، كالنار المضطرمة إذا بطل لهيبها ثم جمرها وصارت رمادا ، ولم يك ينفعهم إيمانهم واعترافهم بالظلم وخضوعهم لما رأوا بأسنا .
الأنبياء : (١٦ - ٢٠) وما خلقنا السماء. .. . .
) وما خلقنا السمآء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنآ أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنآ إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون (( )
ولما ذمهم باللعب وبين أنه يفعل في إهلاك الظلم وإنجاء العدل فعل الجاد بإحقاق الحق بالانتقام لأهله ، وإزهاق الباطل باجتثاثه من أصله ، فكان التقدير : وما ينبغي لنا أن نفعل غير ذلك من أفعال الحكمة العرية عن اللعب ، فلم نخلق الناس عبثا يعصوننا ولا يؤاخذون ، عطف عليه قوله : (وما خلقنا) أي بعظمتنا التي تقتضي الجد ولا بد .
ولما كان خلق السماء واحدة يكفي في الدلالة على الحكمة فكيف بأكثر منها وحد فقال : (السماء (اي على علوها وإحكامها) وارض (على عظمها واتساعها) وما بينهما (مما دبرناه لتمام المنافع من أصناف الدائع وغرائب الصنائع) لاعبين (غير مريدين بذلك تحقيق الحقائق وإبطال الأباطيل ، بل خلقنا

لكم ذلك آية عظيمة كافية في الوصول إلينا ليظهر العدل في جزاء كل بما يستحق ، مشحونة بما يقوت الأجسام ، ." (١)

" صفحة رقم ٨١

الأنبياء : (٣٢ - ٣٥) وجعلنا السماء سقفا. . . .

) وجعلنا السمآء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون كل نفس ذآئقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون (( )

ولما دلهم بالسموات والأرض على عظمته ، ثم فصل بعض ما في الأرض لملابستهم له ، وخص الجبال لكثرتها في بلادهم ، أتبعه السماء فقال : (وجعلنا) أي بعظمتنا) السماء (وأفرادها بإرادة الجنس لأن أكثر الناس لا يشاهدون منها إلا الدنيا ولأن الحفظ للشيء الواحد أقن) سقفا) أي للأرض لا فرق بينها وبين ما يعهد من السقوف إلا أن ما يعهد لا يسقط منه إلا ما يضر ، وهذه مشحونة بالمنافع فأكثر ما ينزل منها ما لا غنى للناس عنه من الآت الضياء وعلامات لاهتداء والزينة التي لا يقدر قدرها .

ولما كان ما يعرفون من السقوف على صغرها لا تثبت إلا بالعمد ، ويتمكن منه المفسدون ، وتحتاج كل قليل إلى إصلاح وتعهد ، بين أن هذا السقف عاة سعته وعلوه على غير ذلك فقال : (محفوظا) أي عن السقوط بالقدرة وعن الشياطين بالشهب ، فذكر باعتبار السقف ، وأشار إلى كثرة ما حوى من الآيات مؤنثا باعتبار السماء أو العدد الدال عليه الجنس ، لأن العدد أولى بالدلالة على كثرة الآيات والنجوم مفرقة في الكل فقال : (وهم) أي أكثر الناس) عن ءاياتها) أي من الكواكب الكبار والصغار ، والرياح والأمطار ، وغير ذلك من الدلائل التي تفوت الانحصار ، أي الدالة على قدرتنا على كل ما نريد من البعث وغيره وعلى عظمتنا بالتفرد بالإلهية وغير ذلك من أوصاف الكمال ، من الجلال والجمال) معرضون (لا يتفكرون فيما فيها من التسيير والتدبير بالمطالع والمغارب والترتيب القويم الدال على الحساب الدائر عليه سائر المنافع .

ولما ذكر السماء ، ذكر ما ينشاء عنها فقال : (وهو) أي لا غيره) الذي خلق اليل والنهار (ثم أتبعهما آيتيهما فقال : (والشمس (التي هي آية النهار وبها وجوده) والقمر (الذي هو آية الليل .

ولما ذكر أعظم آياتها فأفهم بقية الكواكب ، استأنف لمن كأنه قال : هل هي كلها في سماء واحدة ؟ :

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٧٢/٥

(كل) أي من ذلك) في فلك (فكأنه قيل : ماذا تصنع ؟ فقيل تغليبا لضمير العقلاء. . .
ونقلهم إليها : (يسبحون) أي كل واحد يسبح في الفلك الذي جعل به .
ولما ذكر الصارم البتار ، للأعمار الطوال والقصار ، من الليل والنهار ، كان كأنه." (١)
" صفحة رقم ١٠٣
جعل سبحانه من الفيض على العالم السفلي بالاختراق لطباقة بالإسراء تارة ، وبإمساك المطر لما دعا بسبع كسبع يوسف ، وبإرساله اخرى كما في أحاديث كثيرة ، وأتي مع ذلك بمفاتيح خزائن الأرض كلها فردها (صلى الله عليه وسلم) .
ولما ذكر تسخير اليح له ، ذكر أنه سخر له مأغلبعناصره النار والريح للعمل في الماء ، مقابلة لارتفاع الحمل في الهواء باستفال الغوص في الماء فقال : (ومن) أي وسخرنا له من) الشياطين (الذين هم أكثر شيء تمردا وعتوا ، وألطف شيء أجساما) من (وعبر بالجمع لأنه أدل على عظم التصرف فقال : (يغوصون له (في المياه لما يأمرهم به من استخراج الجواهر وغيرها من المنافع ، وذلك بأن أكثفنا أجسامهم مع لطافتها لتقبل الغوص في الماء معجزة في معجزة ، وقد خنق نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) العفريت الذي جاء بشهاب من نار وأسر جماعة من أصحابه رضي الله عنهم عفاريت أتوا إلى ثمر الصدقة وأمكنهم الله منهم) ويعملون عملا) أي عظيما جدا .
ولما كان إقدارهم على الغوص اعلى ما يمون في أمرهم ، وكان المراد استغراق إقدارهم على ما هو أدنى من ذلك مما يريده منهم ، نزع الجار فقال : (دون ذلك) أي تحت هذا الأمر العظيم أو غيره من بناء ما يريد ، واصطناع ما يشاء ، من الصنائع العجيبة ، والآثار الغريبة ، وفي ذلك تسخير الماء والتراب بواسطة الشاطين ، فقد ختم عند انتهاء الإشارة إلى تسخير العناصر - بمن سخر له العناصر الربعة كما ابتدأ بذلك) وكنا (اي بعظمتنا التي تغلب كل سيء) لهم حافظين (من أن يفعلوا غير ما يريد ، ولمن يذكر هودا عليه السلام هنا ، إن كان قد سخر له الريح ، لن عملها له كان على مقتضى العادة في التدمير والأذى عند عصوفها وإن كان خارقا بقوته ، والتي لسليمان عليه السلام للنجاة والمنافع ، هذا مع تكرارها فأمرها أظهر ، وفعلها أزكى وأطهر .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٨١

ولما أتم سبحانه ذكر من سخر لهم العناصر التي منها الحيوان المحتوم ببعثته تحقيقا لذلك ، ذكر بعدهم من وقع له أمر من الخوارق يدل على ذلك ، إما بإعادة." (١)

" صفحة رقم ١٤٨

ولما كان افنسان ميالا إلى الفوائد ، مستشرقا غلى جميل العوائد ، علل الإتيان بما يرغبه مبيحا من فضله ما يقصده من أمر المعاش فقال : (ليشهدوا (اي يحضروا حضورا تاما) منافع لهم) أي لا للمعبود ، دينية ودنيوية ، فإنه كما جعل سبحانه تلك المواطن ماحية للذنوب ، جالبة للقلوب ، جعلها جالبة للفوائد ، جارية على أحسن العوائد ، سالمة للفقر ججابرة للكسر ، ولما كانت **المنافع** لا تطيب وتمثر إلا بالتقوى كان الحامل على التقوى لذكر قال : (ويذكروا اسم الله) أي الجامع لجميع الكمالات بالكبير وغيره عند الذبح وغيره ، إعلاما بأنه المقصود الذي يتبعه جميع المقاصد لأنه ما جمعهم على ما فيه من تلك الأرض الغراء والأماكن الغبراء إلا هو بقدرته الكاملة ، وقوته الشاملة ، لا اسم شيء من الصنام كما كانت الجاهلية تفعل) في أيام معلومات (اي علم أنها أول عشر في ذي الحجة الذي يوافق اسمه مسماه ، لا ما سموه به ومسماه غيره على ما حكم به النسيء ، وفي هذا إشارة إلى أن المراد به الإكثار إذ مطلق الذكر مندوب إليه في كل وقت ، وفي التعبير بالعلم إشارة إلى وجوب استفراغ الجهد بعد القطع بأن الشهر ذو الحجة اسما ومسمى في تحرير أوله ، أما أيام التشويق فإنها لما كانت مبنية عل العلم بأمر الشهر الذي أمر به هنا ، فأنتج العلم بيوم العيد ، لم يحتج في أمرها إلى غير العد فلذا عبر عنها به دون العلم .

ولما كانت النعم أجل أموالهم ، قال تعالى مرغبا لهم ومرهبا : (على) أي مبركين بذكره وحامدين على) ما رزقهم (ولو شاء محقه) من بهيمة (ولما كانت البهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر ، بينها بقوله : (الأنعام (من الإبل والبقر والغنم بالتكبير عند رؤيته ، ثم عند ذبحه ، وفيه حث على التقرب بالضحايا ، والهدايا ، ولذلك التفت إلى الإقبال عليهم ، وتركيب (لهم) يدور على الاستعجام والخفاء والانغلاق وعدم التمييز ، وتركيب (نعم) على الرفاهية والخفض والدعة .

ولما ذكر سبحانه العبادة فخاطب بها إبراهيم عليه الصلاو والسلام ، تنبيها على أنها لعظم المعبود لا يقوم بها على وجهها إلا الخلص ، أقبل على العابدين كلهم بالإذن في ما يسرهم من منحة التمتيع ، تنبيها على النعمة ، حثا على الشكر ، فقال مبينا عما اندرج في ذلك من الذبح : (فكلوا منها) أي إن شئتم إذا تطوعتم بها ولا تمتنعوا كأهل الجاهلية ، فالأكل من المتطوع به لا يخرجه عن كونه قربانا في هذه الحنيفية

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/١٠٣

السمحة منة على أهلها ، تشريفا انبيها (صلى الله عليه وسلم) ، والأكل من الواجب لا يجوز امن وجب عليه ، لأنه إذا أكل منه ولم يكن مخرجا لما وجب عليه بكماله) وأطعموا البائس) أي الذي اشتدت حاجتهن من بئس كسمع إذا سات حاله وافتقر ، وبين أنه من ذلك ، لا من بؤس – ككرم." (١)

" صفحة رقم ١٤٩

الذي معناه : اشتد في الخرب ، بقوله) الفقير (وأكد هذا الحث ونفى عنه الريب بعوده إلى الأسلوب الأول في قوله : (ثم ليقضوا) أي يقطعوا وينهوا يوم النحر بعد طول الإحرام) تفثهم) أي شعثهم بالغسل وقص الأظفار والشارب وحلق العنة ونحو ذلك) وليوفوا نذورهم (أخذا من الفراغ من الأمر والخروج من كل واجب) وليطوفوا (فيكون ذلك آخر أعمالهم ، وحث على الإكثار منه والاجتهاد فيه بصيغة التفعل ، وعلى الإخلاص بالإخفاء بحسب الطاقة بالإدغام ، واللام إن كسرت – كما هي قراءة أبي عمرو وانب عامر وورش عن نافع وقنبل غن ابن كثير ورويس عن يعقوب في) ليقضوا (وقراءة ابن ذكوان عن ابن عامر وحده في) ليوفوا وليطوفوا (يصح أن تكون للعلة عطفا على) ليشهدوا (ويمون عطفها بأداة التراخي لطول المدة على ما هو مفهومها مع الإشارة إلى التعظيم في الرتبة ، ويصح أن تكون للأمر كقراؤة الباقي ن بالإسكان ، وقوله : (بالبيت) أي من ورائه ، لعلم الحجر ، ومتى نقص عن إكمال الدوران حوله أدنى جزء لم يصح أنه لم يوقع مسمى الطواف ، فلا تعلق بالباء في التبعيض ووصفه بقوله : (العتيق (إشارة إلى استحقاقه للتعظيم بالقدم والعتق من كل سوء ، ثم أشار غلى تعظيم الحج وأفعاله هذه بقوله : (ذلك) أي المر الجليل العظيم الكبير **المنافع** دنيا وأخرى ذلك .

ولما كان التقدير : فمن فعله سعد ، ومن انتهك شيئا منه شقي ، عطف عليه قوله : (ومن يعظم (اي بغية جهده) حرمات الله (اي ذي الجلال والإكرام كلها من هذا ومن غيره ، وهي الأمور التي جعلها له فحث على فعلها أو تركها) فهو) أي التعظيم الحامل له على امتثال الأمر فيها على وجهه واجتناب المنهي عنه كالطواف عريانا والذبح بذكر اسم غير الله) خير (كائن) له عند ربه (الذي أسدى إليه كل ما هو فيه من النعم فوجب عليه شكره فإن ذلك يدل على تقوى قلبه ، لأن تعظيمها من تقوى القلوب ، وتعظيمها لجلال الله ، وانتهاكها شر عليه عند ربه .

ولما كان التقدير : فقد حرمت عليكم أشياء أن تفعلوها ، وأشياء أن تترموها ، عطف عليه قوله بيانا أن الإحرام لم يؤثر فيها كما أثر في الصيد : (وأحلت لكم الأنعام (وهي الإبل والبقر والغنم كلها) إلا ما يتلى

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١٤٨/٥

) أي على سبيل التجديد مستمرا) عليكم (تحريمه من الميتة والدم وما أهل لغير الله به ، خلافا للكفار في افترائهم على الله بالتعبد بتحريم الوصيلة والبحيرة والسائبة والحامي وأحلال الميتة والدم .
ولما أفهم ذلك حل السوائب وما معها وتحريم المذبوح للأنصاب ، وكان سبب ذلك كله الأوثان ، سبب عنه قوله : (فاجتنبوا) أي بغاية الجهد اقتداء بالأب الأعظم إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي تقدم الإيصاء له بمثل ذلك عند جعل البيت له مباءة." (١)

" صفحة رقم ١٥١

ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على مآ أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) ٧٣
٧١ ( )
) ذلك) أي الأمر العظيم الكبير ذلك ، فمن راعاه فاز ، ومن حاد عنه خاب ؛ ثم عطف عليه ما هو أعم من هذا المقدر فقال : (ومن (ويجوز أن يكون حالا ، أي أشير إلى الأمر العظيم والحال أنه من) يعظم شعائر الله) أي معالم دين الملك الأعظم التي ندب إليها وأمر بالقيام بها في الحج ، جمع سعيرة وهي المنسك والعلامة في الحج ، والشعيرة أيضا : البدنة المهداة إلى البيت الحرام ، قال البغوي : وأصلها من الإشعار وهو إعلامها ليعرف أنها هدي – انتهى .
ولعله مأخوذ من الشعر لأنها إذا جرحت قطع شيء من شعرها أو ازيل عن محل الجرح ، فيكون من الإزالة ، وتعظيمها استحسانها ، فتعظيمها خير له لدلالته على تقوى قلبه) فإنها) أي تعظيمها) من) أي مبتدىء من) تقوى القلوب (التي من شأنها الشعور بما هو أهل لأن يعظم ، فمعظمها متق ، وقد علم بما ذكرته أنه حذف من هذه جملة الخير ومن قوله) ومن يعظم حرمات الله (سبب كونه خيرا له ، وهو التقوى ، ودل على إرادته هناك بذكره هنا ، وحذف هنا كون التعظيم خيرا ، ودل عليه بذكره هناك ، فقد ذكر في كل جملة ما دل على ما حذف من الأخرى كما تقدم في
٧٧ ( ) قد كان لكم آية فئتين ( ) ٧
[آل عمران : ٣] في آل عمران ، وأنه يسمى الاحتباك ، وتفسيري للشعائر بما بما ذكرته من الأمر العام جائزا الإرادة ، ويكون إعادة الضمير على نوع منه نوعا من الاستخدام ، فقوله : (لكم فيها (مهناه : البدن أو النعم المهداة أو مطلقا) منافع (بالدر والنسل والظهر ونحوه فكلما كانت سمينة حسنة كانت منافعها

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١٤٩/٥

أكثر دينا ودنيا) إلى أجل مسمى (وهو الموت الذي قدرناه على كل نفس ، أو النحر إن كانت مهداة ، أو غير ذلك ، وهذا تعليل للجملة التي قبله ، فإن **المنافع** حاملة لذوي البصائر على التفكر فيها لا سيمت مع تفاوتها ، والتفكر فيها موصل إلى التقوى بمعرفة أنها من الله ، وأنه قادر على ما يريد .

وأنه لا شريك له .

ولما كانت هذه **المنافع** دنيوية ، وكانت منفعة نحرها إذا أهديت دينية ، أشار إلى تعظيم الثاني بأداة التراخي فقال : (ثم محلها) أي وقت حلول نحرها بانتهائكم بها) إلى البيت العتيق) أي إلى فنائه وهو الحرم كما قال تعالى

٧٧ ( ) هديا بالغ الكعبة ( ) ٧

[المائدة : ٩٥] .

ولما كان التقدير : جعل لكم سبحانه هذه الأشياء مناسك ، عطف عليه قوله : (ولكل أمة (اي من الأمم السالفة وغيرها) جعلنا (بعظمتنا الت يلا يصح أن تخالف." [١]

" صفحة رقم ١٥٢

) منسكا) أي عبادة أو موضع عبادة أو قربانا ، فإنه يكون مصدر نسك - كنصر و كرم - نسكا ومنسكا ، ويكون بمعنى الموضع الذي يعبد فيه ، والذي يذبح فيه النسك وهو الهدي ، وقال ابن كثير : ولم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعا في جميع الملل .

ثم أتبع هذا الجعل عتله بيانا لأنه ليس مقصودا في نفسه فقال : (ليذكروا (ولما كان الدين سهلا سمحا ذا يسر ، رضي بالدخول فيه بالظاهر فقال : (اسم الله) أي الملك الأعلى وحده ، على ذبائحهم وقرابينهم وعبادتهم كلها ، لأنه الرزاق لهم وحده ؛ ثم علل الذكر بالنعمة تنبيها على التفكر فيها فقال : (على ما رزقهم (فوجب شكره به عليهم) من بهيمة الأنعام (.

ولما علم أن الشارع لجميع الشرائع الحقة واحد ، وأن علة نصبه لها ذكره وحده ، تسبب عنه قوله : (فإلهكم) أي الذي شرع هذه المناسك كلها .

ولما كان الإله ما يحق له ال إلهية بما تقرر من أوصافه ، لا ما سمي إلها ، قال : (إله (ووصفه بقوله : (واحد) أي وإن اختلفت فروع شرائعه ونسخ بعضها بعضا ، ولو اقتصر على (واحد) لربما قال متعنتهم : إن ا لمراد اقتصارنا على واحد مما نعبده .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/١٥١

والتفت إلى الخطاب لأنه أصرح وأجدر بالقبول .
ولما ثبت كونه واحدا ، وجب اختصاصه بالعبادة ، فلذا قال : (فله) أي وحده) أسلموا) أي انقادوا بجميع ظواهركم وبواطنكم في كل ما أمر به أو نهى عنه ناسخا وأجدر بالقبول .
كان أو لا وإن لم تفهموا معناه كغالب مناسك الحج .
ولما أمر بالإسلام من يحتاج إلى ذلك إيجادا أو تكميلا أو إدامة ، وكان الإسلام هو سهولة الانقياد من غير كبر ولا شماخة ، وكان منشأ الطمأنينة والتواضع اللذين هما أنسب شيء لحال الحجاج المتجرد من المخيط المكشوف الراس الطالب لوضع أوزاره ، وتخفيف آصاره لستر عوراه ، أقبل سبحانه وتعالى على الرأس من المأمورين ، الحائز لما يمكن المخلوقين أن يصلوا إليه من رتب الكمال ، وخلال الجمال والجلال ، إشارة إلى أنه لا يلحقه أحد في ذلك فقال : (وبشر المخبتين) أي المتواضعين ، المنكسرين ، من الخبت - للأرض المنخفضة الصالحة للاستطراق وغيره من المنافع ؛ ثم بين علاماتهم فقال : (الذين إذا ذكر الله) أي الذي له الجلال والجمال) وجلت) أي خافت خوفا مزعجا) قلوبهم (.
ولما كان في ذكر الحج ، وكان ذلك مظنة لكثرة الخلطة الموجبة لكثرة الأنكاد ولا سيما وقد كان أكثر المخالطين مشركين ، لأن السورة مكية ، قال عاطفا غير متبع ، إيذانا بالرسوخ في الأوصاف : (والصابرين (الذين صار الصبر عادتهم) على ما أصابهم (كائنا ما كان .." (١)
" صفحة رقم ١٧٢
بمسراها في سره ظهور ما يستدعي العفو ، وتارة يكن هذا الحفظ بالقوة بنصب الأدلة ، وتارة يضم إلى ذلك الفعل بخلق الهداية في القلب ، وهذا خاص بمن له بالمنعم نوع وصلة .
) رحيم (بما يثبت لهم عموما من الدرجات على ما منحهم به من ثمرات ذلك الحفظ من الأعمال المرضية لما تقدم في الفاتحة من أن الرحيم خاص الرحمة بما ترضاه الإلهية ، وتقدم في البقرة تحقيق هذا الموضع
ولما بين سبحانه جملا من أمهات الدين ، وأتبعها لأهله على المعتدين ، وختم بما بعد الموت للمهاجرين ، ترغيبا في منابذة الكافرين ، وعرف بما له من تمام العلم وشمول القدرة ، ومثل ذلك بأنواع من التصرف في خلق السموات والأرضين ، وأنهاه بالدلالة على أنه كله لنفع الآدميين نعمة منه ، تلا ذلك بما هو أكبر منه نعمة عليهم فقال : (وهو) أي وحده) الذي أحياكم) أي عن الجمادية بعد أن أوجدكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئا ، منة منه عليكم مستقلة ، لزم منها المنة بما تقدم ذكره من المنافع الدنيوية لتستمر

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/١٥٢

حياتكم أولا ، الدينية لتنتفعوا بالبقاء ثانيا) ثم يميتكم (ليكون الموت واعظا لأولي الصائر منكم ، وزاجرا لهم عما طبعوا عليه من الأخلاق المذمومة) ثم يحييكم (للتحلي بفصل القضاء وإظهار العدل في الجزاء .

ولما علم أن كل م في الوجود من جوهر وعرض نعمة على الإنسان حتى الحياة والموت ، وكان من أجلي الأشياء ، وكانت أفعاله معرضة عن الرب هذه النعم بالعبادة لغيره ، أو التقصير في حقه على عمم فضله وخيره ، ختم الآية سبحانه بقوله : (إن الإنسان لكفور (اي بليغ الكفر حيث لم يشكر على هذه النعم المحيطة به .

ولما تقدم ذكر المناسك ، ولكثرة الكفار قد يقع في النفس أن إقانتها معجوز عنها ، وكشف سبحانه غمة هذا السؤال بآية) إن الله يدافع عن الذي آمنوا (وما بعدها ، فأنتج ذلك علمنا بتصرفه التام بقدرته الباهرة ، وعلمه الشامل المقتضي لإقبال العباد إليه ، واجتماعهم كلهم عليه ، فمن شك في قدرته على إظهار دينه بمدافعته عن أهله ، أو نازع فيه فهو كفور ، ذكر بإظهار أول هذا ا لخطاب بآخر ذلك الخطاب مؤكدا لما أجاب به عن ذلك السؤال من تمام القدرة وشمول العلم أنه هو الذي مكنن لكل قوم ما هم فيه من المناسك التي بها انتظام الحياة ، فإن نوافقت الأمر الإلهي كانت سببا للحياة الأبدية ، وإلا كانت سببا للهلاك الدائم ، وهو سبحانه الذي نصب من الشرائع لكل قوم ما يلائمهم ، لأنه بتغيير الزمان بإيلاج الليل في النهار على مر الأيام وتوالي الشهور والأعوام ، بسبب من الأسباب – لأجل امتحان العباد ، وإظهار ما خبأ في جبلة كل منهم من طاعة وعصيان ، وشكر وكفران – ما يصير الفعل مصلحة بما يقتضيه من الأسباب بعد أن كان." (١)

" صفحة رقم ١٨٦

أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير ( ) ٧

[الحج : ٧٧] وأعلم بما ينبغي للراكع والساجد التزامه من الخشوع ، ولالتحام الكلامين ما ورد الأول أمرا والثاني مدحه وتعريفا بما به كمال الحال ، وكأنه لما أمر المؤمنين ، وأطمع بالفلاح جزاء لامتثاله ، كان مظنة لسؤاله عن تفصيل ما أمر به من العباد وفعل الخير الذي به يكمل فلاحه فقيل له : المفلح من التزم كذا وكذا ، وذكر سبعة أضرب من العبادة هي أصول لما وراءها زمستتبعة سائر التكاليف ، وقد بسط حكم كل عبادة منها وما يتعلق بها في الكتاب والسنة ؛ ولما كانت المحافظة على الصلاة منافرة إتيان المأثم

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١٧٢/٥

جملة

٧٧ ( ) إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ( ) ٧

[العنكبوت : ٤٥] لذلك ما ختمت بها هذه العبادات بعد التنبيه على محل الصلاة من هذه العبادة بذكر الخشوع فيها أولا ، واتبعت هذه الضروب السبعة بذكر أطوار سبعة يتقلب فيها الإنسان قبل خروجه إلى الدنيا فقال تعالى) ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (- إلى قوله : (ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (وكأن قد قيل له : إنما كمل خلقك وخروجك إلى الدنيا بعد عقب هذه الايات قوله تعالى) ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق (ولعل ذلك مما يقرر هذا الاعتبار ووارد لمناسبته - والله أعلم ، وكما أن صدر هذه السورة مفسر لما أجمل في الآيات قبلها فكذا الآيات بعد مفصلة لمجمل ما تقدم في قوله تعالى

٧٧ ( ) يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ( ) ٧

[الحج : ٥] وهذا كاف في التحام السورتين والله سبحانه المستعان - انتهى .

ولما ذكر سبحانه الجنة المتضمن ذكرها لبعث ، استدل على القدرة عليه بابتداء الخلق للإنسان ، ثم لما هو أكبر منه من الأكوان ، وما فيهما من **المنافع** ، فلما ثبت ذلك شرع يهدد من استكبر عنه بإهلاك الماضين ، وابتدأ بقصة نوح عليه الصلاة والسلام لأنه أول ، ولأن نجاته كانت في الفلك المختوم به الآية التي قبله ، وفي ذلك تذكير بنعمة النجاة فيه لأن الكل من نسله ، فلما ثبت بالتهديد بإهلاك الماضين القدرة التامة بالاختيار ، خوف العرب مثل العذاب ، فلما تم زاجر الإنذار بالنقم شرع في الاستعطاف إلى الشكر بالنعم ، بتمييز الإنسان على سائر الحيوان ونحو ذلك ، ثم عاد إلى دلائل القدرة على البعث بالوحدانية والتنزه عن الشريك والولد - إلى آخرهان ثم ذكر في أول التي بعدها على ما ذكر هنا من صون الفروج ، فذكر حكم من لم يصن فرجه أتبعه ما يناسبه من توابعه .

ولما كان التقدير : فلقد حكمنا ببعث جميع العباد بعد الممات ، فريقا منهم إلى." [١]

" صفحة رقم ١٨٩

إلى أن الموت أمر ثابت للإنسان حي في حال حياته لازم له ، بل ليس لممكن من ذاته إلا العدم .

ولما تقرر بذلك القدرة على البعث تقررا لا يشك فيه عاقل ، قال نافيا ما يوهمه إعراء الظرف من الجار : (ثم إنكم (وعين البعث الأكبر التام ، الذي هو محط الثواب والعقاب ، لأن من أقر به أقر بما هو دونه

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/١٨٦

من الحياة في القبر وغيرها ، فقال : (يوم القيامة) أي الذي يجمع فيه جميع الخلائق) تبعثون (فنقصه عن تأكيد الموت تنبيها على ظهوره ، ولم يخله عن التأكيد لكنه على خلاف العادة ، وليس في ذكر هذا نفي للحياة في القبر عند السؤال .

المؤمنون : (١٧ – ١٩) ولقد خلقنا فوقكم. .. . . .

) ولقد خلقنا فوقكم سبع طرآئق وما كنا عن الخلق غافلين وأنزلنا من السمآء مآء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ( )

ولما بين لهم أن فكرهم فيهم يكفيهم ، ولا عتقاد البعث يعنيهم ، أتبعه دليلا آخر بالتذكير بخلق ما هو أكبر منهم ، وبتدبيرهم بخلقه وخلق ما فيه من **المنافع** لاستبقائهم ، فقال : (ولقد خلقنا فوقكم (في جميع جهة الفوق في ارتفاع لا تدركونه حق الإدراك) سبع (ولإرادة التعظيم أضاف إلى جمع كثرة فقال : (طرائق) أي سماوات لا تتغير عن حالتها التي دبرناها عليها إلى أن نريد ، وبعضها فوق بعض متابقة ، وكل واحدة منها على طريقة تخصها ، وفيها طرق لكواكبها ؛ قال الإمام عبد الحق الإشبيلي في كتابه الواعي : سميت طرائق لأنها مطارقة بعضها في أثر بعض – انتهى .

وهذا من قولهم : فلان على طريقه – أي حاله – واحدة ، وهذا مطراق هذا ، أي تلوه ونظيره ، وريش طراق – إذا كان بعضه فوق بعض .

وقال ابن القطاع : وأطرق جناح الطائر – أي مبنيا للمجهول : ألبس الريش الأعلى السفل .

وقال أبو عبيد الهروي : وأطرق جناح الطير – إذا وقعت ريشة على التي تحتها فألبستها ، وفي ريشه طرق – إذا ركب بعضه بعضا .

وقال الصغاني في مجمع البحرين : والطرق أيضا بالتحريك في الريش أن يكون بعضها فوق بعض ، وقال ابن الأثير في النهاية : طارق النعل – إذا صيرها طاقا فوق طاق وركب بعضها على بعض ، وفي القاموس : والطراق – ككتاب : كل خصفة يخصف بها النعل وتكون حذوها سواء وأن يقور جلد على مقدار الترس فيلزق بالترس ، وقال القزاز : يقال : ترس مطرق – إذا جعل له ذلك ، وقال الصغاني في المجمع : والمجان المطرقة التي يطرق بعضها على بعض كالنعل المطرقة – أي المخصوفة بعضها على بعض ، ويقال : أطرقت بالجلد والعصب ، أي ألبست ، وقال أبو عبيد : طارق النعل – إذا صير خصفا فوق خصف ، ." [1]

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١٨٩/٥

" صفحة رقم ١٩٠

وقال في الخصف : هو إطباق طاق على طاق ، وأصل الخصف : الضم والجمع ، وقال القزاز : وطارقت بين النعلين والثوبين : جعلت أحدهما فوق الآخر – انتهى .

وأصل الطرق الضرب ، ومع كون السماوات مطارقة بعضها فوق بعض فهي طرق للملائكة يتنزلون فيها بأوامره سبحانه وتعالى .

ولما كان إهمال الشيء بعد إيجاده غفلة عنه ، وكان البعث إحداث تدبير لم يكن كما أن الموت كذلك ، بين أن مثل تلك الأفعال الشريفة عادته سبحانه إظهارا للقدرة وتنزها عن العجز والغفلة فقال : (وما كنا) أي على ما لنا من العظمة) عن الخلق) أي الذي خلقناه وفرغنا من إيجاده وعن إحداث مل لم يكن ، بقدرتنا التامة وعلمنا الشامل) غافلين (بل دبرناه تدبيرا محكما ربطناه بأسباب تنشأ عنها مسببات يكون بها صلاحه ، وجعلنا في كل سماء ما ينبغي أن يكون فيها من **المنافع** ، وفي كل أرض كذلك ، وحفظناه من الفساد إلى الوقت الذي نريد فيه طي هذا العالم وإبراز غيره ، ونحن مع ذلك كل يوم في شأن ، وإظهار برهان ، نعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، إذا شئنا أنقذنا السبب فنشأ عنه المسبب ، وإذا شئنا منعناه مما هيىء له ، فلا يكون شيء من ذلك إلا بخلق جديد ، فكيف يظن بنا أنا نترك الخلق بعد موتهم سدى ، مع أن فيهم المطيع الذي لم نوفه ثوابه ، والعاصي الذي لم ننزل به عقابه ، أم كيف لا نقدر على إعادتهم إلى ما كانوا عليه بعد ما قدرنا على إبداعهم ولم يكونوا شيئا .

ولما ساق سبحانه هذين الدليلين على القدرة على البعث ، أتبعهما بما هو من جنسهما ومشاكل للأول منهما ، وهو مع ذلك دليل على ختام الثاني من أنه من أجل النعم التي يجب شكرها ، فقال : (وأنزلنا (اي بعظمتنا) من السماء) أي من جهتها) ماء بقدر (لعله – والله أعلم – بقدر ما يسقي الزروع والشجار ، ويحيي البراري والقفار ، وما تحتاج إليه البحار ، مما تصب فيه الأنهار ، إذ لو كان فوق ذلك لأغرقت البحار الأقطار ، ولو كان دون ذلك لأدى إلى جفاف النبات والأشجار) فأسكناه (بعظمتنا) في الرض (بعضه على ظهرها وبعضه في بطنها ، ولم نعمها بالذي على ظهرها ولم نغور ما في بطنها ليعم نفعه وليسهل الوصول إليه) وإنا (على ما لنا من العظمة) على ذهاب به) أي على إذهابه بأنواع الإذهاب بكل طريق بالإفساد والرفع والتغوير وغير ذلك ، مع إذهاب البركة التي تكون لمن كنا نمعه) لقادرون (

قدرة هي في نهاية العظمة ، فإياكم والتعرض لما يسخطنا .

ولما ذكر إنزاله ، سبب عنه الدليل القرب على البعث فقال : (فأنشأنا (أي." [1]

" صفحة رقم ١٩١

فأخرجنا وأحيينا) لكم (خاصة ، لا لنا) به) أي بذلك الماء الذي جعلنا منه كل شيء حي) جنات) أي بساتين تجن - أي تستر - داخلها بما فيها) من نخيل وأعناب (صرح بهذين الصنفين لشرفهما ، ولأنهما أكثر ما عن عند العرب من الثمار ، سمي الأول باسم شجرته لكثرة ما فيهما من **المنافع** المقصودة بخلاف الثاني فإنه المقصود من شجرته ؛ وأشار إلى غيرهما بقوله : (لكم) أي خاصة) فيها (اي الجنات) فواكة كثيرة (ولكم فيها غير ذلك .

ولما كان التقدير : منها - وهي طرية - تتفكهون ، عطف عليه قوله : (ومنها) أي بعد اليبس والعصر) تأكلون) أي يتجدد لكم الكل بالادخار ، ولعله قدم الظرف تعظيما للامتنان بها .

المؤمنون : (٢٠ - ٢٤) وشجرة تخرج من. .. . . .

) وشجرة تخرج من طور سيناآء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شآء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبآئنا الأولين (( )

ولما ذكر سبحانه ما إذا عصر كان ماء لا ينفع للاصطباح ، أتبعه ما إذا عصر كان دهنا يعم الصطباح و الاصطباغ ، وفصله عنه لأنه أدل على القدرة فقال : (وشجرة) أي وأنشأنا به شجرة ، أي زيتونة) تخرج من طور (.

ولما كان السياق للإمداد بالنعم ، ناسبه المد فقال : (سيناء (قال الحافظ عماد الدين ابن كثير : وهو طور سينين ، وهو ا لجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون .

وقال صاحب القاموس : والطور : الجبل ، وجبل قرب أيلة يضاف إلى سيناء وسينين ، وجبل بالشام ، وقيل : هو المضاف إلى سيناء ، وجبل بالقدس عن يمين المسجد ، وآخر عن قبليه ، به قبر هارون عليه السلام ، مجبل برأس العين ، - وآخر مطل على طبرية - انتهى .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/١٩٠

وهو اسم مركب من الاسمين ، وقيل : بل مضاف إلى سيناء ، ومعنى سيناء الحسن ، وقيل : المبارك ، وقيل : هو حجارة معروفة ، وقيل شجر ، ولعله خصه من بين الأطوار لقربه من المخاطبين أولا بهذا القرآن ، وهم العرب ، ولغرابة نبت الزيتون به لأنه في بلاد الحر والزيتون من نبات الأرض الباردة ، ولتمحضه لن يكون نبته مما أنزل من السماء من الماء لعلوه جدا ، وبعد من أن يدعى أن ما فيه من النداوة من الماء من البحر لأن الإمام." (١)

" صفحة رقم ١٩٤

المراد ما يكون منه اللبن خاصة وهو الإناث ، فهو استخدام لأنه لو أريد جميع ما يقع عليه الاسم لذكر الضمير ، فلذلك قالك) مما في بطونها) أي نجعله لكم شرابا نافعا للبدن موافقا للشهوة تلتذون به خروجه من بين الفرث والدم كما مضى في النحل) ولكم فيها (باستسلامها لما يراد منها مما لا يتيسر من أصغر منها ، وبأولادها وأصوفها وأوبارها ، وغير ذلك من آثارها .

ولما كان التقدير : تصرفونها في تلك المنافع ، عطف عليه مقدما للجار تعظيما لمأكولها فقال : (ومنها تأكلون (بسهولة من غير امتناع ما عن شيء من ذلك ، ولو شاء لمنعها من ذلك وسلطها عليكم ، ولو شاء لجعل لحمها لا ينضج ، أو جعله قذرا لا يؤكل ، ولكنه بقدرته وعلمه هيأها لما ذكر وذللها له .

ولما كانت المافوتة بين الحيوانات في القوى وسهولة الانقياد دالة على كمال القدرة ، وكان الحمل للنفس والمتاع عليها وعلى غيرها مِن الحيوان من أجل المنافع بحيث لولا هو تعطلت أكثر المصالح ، ذكره فيها مذكرا بغيرها في البر تلويحا ، وذاكرا لمحامل البحر تصريحا ، فقال مقدما للجار عدا لحمل غيرها بالنسبة غلى حملها لعظيم وقعه عدما : (وعليها) أي الأنعام الصالحة للحمل من الإبل والبقر في البر) وعلى الفلك (في البحر .

ولما كان من المعلوم من تذليلها على كبرها وقوتها وامتناع غيرها على صغره وضعفه أنه لا فاعل لذلك إلا الله مع أن الممتن به نفس الحمل لا بالنظر إلى شيء آخر ، بني للمفعول قوله : (تحملون (بإنعامه عليكم بذلك ، ولو شاء لمنعه ، فتذكروا عظيم قدرته وكمال صنعته ، وعظموه حق تعظيمه ، واشكروه على ما أولاكم من تلك النعمن وأخلصوا له الدين ، لتفلحوا فتكونوا من الوارثين .

ولما كان التقدير : فلقد حملنا نوحا ومن أردنا ممن آمن به من أولاده وأهله وغيرهم على الفلك ، وأغرقنا من عانده من أهل الأرض قاطبة بقدرتنا ، نصرناه عليهم بعد ضعفه عنهم بأيدينا وقوتنا ، وجعلناه وذريته

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١٩١/٥

هم الوارثين ، وكنتم ذرية في أصلابهم ، وكثرناهم حتى ملأنا منهم الأرض ، دلالة على ما قدمناه من تفردنا كما أجرينا عادة هذا الكتاب الكريم بذكر عظيم البطش بعد أدلة التوحيد ، واتبعناه بعده الرسل الذين سمعتم بهم ، وعرفتم بعض أخبارهم ، يا من أنكر الآن رسالة البشر لإنكار رسالة هذا النبي الكريم عطف عليه يهدد بإهلاك الماضين ، للرجوع عن الكفر ، ويذكر بنعمة النجاة للإقبال على الشكر ، ويسلي هذا النبي الكريم ومن معه م نالمؤمنين لمن كذب قبله من النبيين وأوذي من أتباعهم ، ويدل على أنه يفضل من عباده من يشاء بالرسالة ، كما فضل." (١)

" صفحة رقم ٢٣٧

أن لا يعودوا كما بين في البقرة في قوله تعالى

٧٧ ( ) إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ( ) ٧

[البقرة : ١٦٠] وأشار إلى أن الجلد لا يسقط بالتوبة بقوله مشيرا بإدخال الجار إلى أن قبولها لا يتوقف على استغراقها الزمان الآتي : (من بعد ذلك (اي المر الذي أوجب رد الشهادة وما تسببت عنه وهو الفسق ، وأشار إلى شروط التوبة بقوله : (وأصلحوا (اي بعد التوبة بمضي مدة يظن بها حسن الحال ، وهي سنة يعتبر بها حال التائب بالفصول الأربعة التي تكشف الطباع .

ولما كان استثناؤهم من رد الشهادة والفسق ، فكان التقدير : فاقبلوا شهادتهم ولا تصفوهم بالفسق ، علله بقوله : (فإن الله) أي الذي له صفات الكمال) غفور) أي ستور لهم ما أقدموا عليه لرجوعهم عنه) رحيم) أي يفعل بهم من الإكرام فعل الراحم بالمرحوم في قبول الشهادة .

ولما كان لفظ المحصنات عاما للزوجات ، وكان لهن حكم غير ما تقدم ، أخرجهن بقوله : (والذين يرمون) أي بالزنى) أزواجهم) أي المؤمنات الأحرار والإماء والكافرات) ولم يكن لهم (بذلك) شهداء إلا أنفسهم (وهذا يفهم أن الزوج إذا كان أحد الأربعة كفى ، لكن يرد هذا المفهوم كونه حكاية واقعة لا شهود فيها ، وقوله في الآية قبلها : (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء (فإنه يقتضي كون الشهداء غير الرامي ، ولعله استثناه من الشهداء لأن لعانه يكون بلفظ الشهادة ، ومذهب الشافعي رضي الله عنه أنه لا يقبل في ذلك على زوجته – قال ابن الرفعة في الكفاية : لأمرين : أحدهما أن ا لزنى تعرض لمحل حق الزوج ، فإن الزاني مستمتع **بالمنافع** المستحقة له ، فشهادته في صفتها تتضمن إثبات جناية الغير على ما هو مستحق له فلم تسمع ، كما إذا شهد أنه جنى على عبده ، والثاني أن نم شهد بزنى زوجته فنفس شهادته تدل على إظهار

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١٩٤/٥

العداوة ، لأن زناها يوغر صدرهبتلطيخ فراشه وإدخال العار عليه ةعلى ولده ، وهو أبلغ في العداوة من مؤلم الضرب وفاخش السب ، قال القاضي الحسين : وإلى هذه العلة أشار الشافعي رحمه الله وهي التي حكاها القاضي أبو الطيب في باب حد قاطع الطريق عن الشيخ أبي حامد .

) فشهادة أحدهم) أي على من رماها) أربع شهادات (من خمس في مقابلة أربعة شهداء) بالله) أي مقرونة بهذا الاسم الكريم الأعظم الموجب لاستحضار جميع صفات الجلال والجمال) إنه لمن الصادقين) أي فيما قذفها به) والخامسة أن لعنة الله) أي ا لملك الأعظم) عليه (اي هذا القاذف نفسه) إن كان من الكاذبين (فيما رماها به ، ولأجل قطعة بهذه الأيمان الغليظة بصدقه وحكم الله بخالصه انتفى عنه الولد ، فلزم من نفيه الفرقة المؤبدة من غير لفظ لعدم صلاحيتهها أن تكون فراشا له ، لأن." [(١)]

" صفحة رقم ٣٢٤

ولما كانت إزالته شيئا فشيئا بعد مدة كذلك من العظمة بمكان .

قال منبها على فضل مدخول (ثم) وترتبه متصاعدا في درج الفضل ، فما هنا أفضل مما قبله ، وما قبله أجل مما تقدمه ، تشبيها لتباعد ما بين المراتب الثلاث في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت : (ثم قبضناه) أي الظل ، والقبض : جمع المنبسط) إلينا (اي إلى الجهة التي نريدها ، لا يقدر أحد غيرنا أن يحوله إلى جهة غيرها ؛ قال الرازي رحمه الله في اللوامع : وهذه الإضافة لأن غاية قصر الظل عند غاية تعالى الشمس ، والعلو موضع الملائكة وجهة السماء التي فيها أرزاق العباد ، ومنها نزول الغيث والغياث ، وإليها ترتفع أيدي الراغبين ، وتشخص أبصار الخائفين - انتهى .

) قبضا يسيرا) أي هو - مع كونه في القلة بحيث يعسر إدراكه حق تلإدراك - سهل علينا ، ولم نزل ننقصه شيئا فشيئا حتى اضمحل كله ، أو إلا يسيرا ، ثم مددناه أيضا بسير الشمس وحجبها ببساط الأرض قليلا قليلا ، أولا فأولا بالجبال والأبينة والأشجار ، ثم بالروابي والآكان والظراب وما دون ذلك ، حتى تكامل كما كان ، وفي تقديره هكذا من **المنافع** ما لا يحصى ، ولو قبض لتعطلت أكثر منافع الناس بالظل والشمس جميعا ، فالحاصل أنه يجعل بواطنهم مظلمة بحجبها عن أنوار المعارف فيصيرون كالماشي في الظلام ، ويكون نفوذهم في الأمور الدنيوية كالماشي بالليل في طرق قد عرفها ودربها بالتكرار ، وحديث علي رضي الله عنه في الروح الذي مضى عند (والطبيات للطيبين) في النور شاهد حسي لهذا المر المعنوي - والله الموفق .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٢٣٧

الفرقان : (٤٧ - ٥٠) وهو الذي جعل. .. . .

) وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا وهو الذي أرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته وأنزلنا من السمآء مآء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنآ أنعاما وأناسي كثيرا ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا (( )

ولما تضمنت هذه الآية الليل النهار ، قال مصرحا بهما دليلا على الحق ، وإظهارا للنعمة على الخلق : (وهو) أي ربك وحده) الذي جعل (ولما كان ما نضى في الظل أمرا دقيقا فحص به أهله ، وكان أمر الليل والنهار ظاهرا لكل أحد ، عم فقال : (لكم الليل) أي الذي تكامل به مد الظل) لباسا (اي ساترا للأشياء عن الأبصار كما يستر اللباس) والنوم سباتا) أي نوما وسكونا وراحة ، عبارة عن كونه موتا أصغر طاويا لما كان من الإحساس ، قطعا عما كان منالشعور والتقلب ، دليلا لأهل البصائر على الموت ؛ قال البغوي وغيره : وأصل السبت القطع .

وفي جعله سبحانه كذلك من الفوائد الدينية والدتيوية ما لا يعد ، وكذا قوله : (وجعل النهار نشورا) أي حياة وحركة." [1]

" صفحة رقم ٣٤٨

الشعراء : (٦ - ١٠) فقد كذبوا فسيأتيهم. .. . .

) فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين (( )

ولما كان حال المعرض عن الشيء حال المكذب به قال : (فقد) أي فتسبب عن هذا الفعل منهم أنهم قد) كذبوا (اي حققوا التكذيب وقربوه كما تقدم آخر تلك ، واستهزؤوا مع التكذيب بآياتنا .

ولما كان التكذيب بالوعيد سببا في إيقاعه ، وكان حالهم في تكذيبهم له (صلى الله عليه وسلم) حال المستهزىء لأن من كذب بشيء خف عنده قدره ، فصار عرضة للهزء ، قال مهددا : (فسيأتيهم (سببه بالفاء وحققه بالسين ، وقلل التنفيس عما في آخر الفرقان ليعلموا أن ما كذبوا به واقع .

وأنه ليس موضعا للتكذيب بوجه) أنباء) أي عظيم أخبار وءواقب) ما) أي العذاب الذي) كانوا) أي كونا كأنهم جبلوا عليه) به) أي خاصة لشدة إمعانهم في حقه وحده) يستهزؤون) أي يهزؤون ، ولكنه

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٢٤/٥

عبر بالسين غشارة إلى أن حالهم في شدة الرغبة في ذلك الهزء حال الطالب له ، وقد ضموا إليه التكذيب ، فالآية من الاحتباك : ذكر التكذيب أولا دليلا على حذفه ثانيا ، والاستهزاء ثانيا دليلا على حذف مثله أولا .

ولما كانت رؤيتهم للآيات السماوية والأرضية الموجبة للانقياد والخضوع موجبة لإنكار تخلفهم عما تدعو إليه فضلا عن الاستهزاء ، وكان قد تقدم آخر تلك الحث على تدبر بروج السماء وما يتبعها من الدلالات فكان التقدير : الم يروا غلى السماء كم أودعنا في بروجها وغيرها من آيات نافعة وضارة كالأمطار والصواعق ، عطف عليه ما ينشأ عن ذلك في الأرض في قوله معجبا منهم : (أو لم يروا (.

ولما كانوا في عمى عن تدبر ذلك ، عبر للدلالة عليه بحرف الغاية فقال : (إلى الأرض) أي على سعتها واختالف نواحيها وتربها ؛ ونبه على كثرة ما صنع من جميع الأصناف فقال : (كم أنبتنا (اي بما لنا من العظمة) فيها (بعد أن كانت يابسة ميتة لا نبات بها) من كل زوج) أي صنف مشاكل بعضه لبعض ، فلم يبق صنف يليق بهم في العاجلة إلا أكثرنا من الإنبات منه) كريم) أي جم **المنافع** ، محمود العواقب ، لا خباثة فيه ، من الأشجار والزروع وسائر النباتات على اختلاف ألوانها في زهورها وأنوارها ، وطعومها وأقدراها ، ومنافعها وأرواحها - إلى غير ذلك من أمور لا يحيط بها حدا ولا يحصيها عدا ، إلا الذي خلقها ، مع كونها تسقى بماء واحد ؛ والكريم وصف لكل ما يرضى في بابه ويحمد ، وهو ضد اللئيم .." (١)

" صفحة رقم ٣٦٨

من شم رائحة الرجولية : (أفرأيتم (اي فتسبب عن قولكم هذا أني أقول لكم : أرأيتم ، اي إن لم تكنوا رأيتموهم رؤية موجبة لتحقق أمرهم فانظروهم نظرا شافيا) ما كنتم) أي كونا هو كالجبلة لكم) تعبدون (مواظبين على عبادتهم) أنتم (.

ولما أجابوه بالتقليد ، قال لهم ما معناه ، رقوا تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته ، فإن التقدم والأولوية لا تكون برهانا على الصحة ، والباطل لا ينقلب حقا بالقدمن وذلك مراده من قوله : (وآباؤكم الأقدمون) أي الذين هم اقدم ما يكنون : هل لهم وصف غير ما أقررتم به من عدم السماع والنفع والضر ؟) فإنهم) أي فتسبب عن رؤيتكم ووصفكم لهم بما ذكرتم أني أخبركم إخبارا مؤكدا أنهم .

ولما كانت صيغة فعول للمبالغة ، أغنت في العدو والصديق عن صيغة الجمع ولا سيما وهي شبيهة بالمصادر

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٣٤٨

كالقبول الصهيل ، فقال مخبرا عن ضمير الجمع : (عدو لي) أي أناصفهم بالسوء وأعاملهم في إبطالهم ومحقهم معاملة الأعداء وكل من عبدهم كما قال في الآية الخرى)) لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين (( )) أف لكم ولما تعبدون من دون الله (( )) تالله لأكيدن أصنامكم ( ) [الأنبياء : ٥٤ : ٥٧ : ٦٧] .

ولما كانوا هم مشركين ، وكان في آبائهم الأثدمين من عبد الله وحده .

قال : (إلا رب العالمين) أي مدبر هذه الأكوان كلها - كما قال موسى عليه السلام - لأن ذلك أشهر الأوصاف وأظهرها ، فإنه ليس بعدوي ، بل هو وليي ومعبودي ؛ ثم شرع يصفه بما هم به عالمون من أنه على الضد الأقصى من كل ما عليه أصنامهم فقال : (الذي (ولما لم يكن أحد يدعي الخلق لم يحتج إلى ما يدل على الاختصاص فقالك) خلقتني) أي أوجدني على هيئة التقدير والتصوير) فهو) أي فتسبب عن تفرده بخلقي أنه هو لا غيره) يهدين) أي إلى الرشاد ، ولأنه لا يعلم باطن المخلوق ويقدر على كمال التصرف فيه غير خالقه ، ولا يكن خالقه إلا سمعيا بصيرا ضارا نافعا ، له الكمال كله ، ولا شك أن الخلق للجسد ، والهداية للروح ، وبالخلق والهداية يحصل جميع **المنافع** ، والإنسان له قالب من عالم الخلق ، وقالب من عالم الأمر ، وتركيب القالب مقدم كما ظهر بهذه الآية ، ولقوله)) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ( ) [الحجر : ٢٩] وأمثال ذلك ، وذكر الخلق بالماضي لأنه لا يتجدد في الدنيا ، والهداية بالمضارع لتجددها وتكررها دينا ودنيا) والذي هو) أي لا غيره) يطعمني ويسقين (ولو أراد لأعدم ما آكل وما أشرب أو أصابني بآفة لا أستطيع معها أكلا ولا شربا .

الشعراء : (٨٠ - ٨٧) وإذا مرضت فهو. .. . .

) وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين واجعل." (١)

" صفحة رقم ٣٨٠

إلى زيادة التسلية بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تأمل ولا توقف بقوله : (إذ) أي حين) قال لهم أخوهم) أي الذي يعرفون صدقه وأمانته ، وشفقته وصيانته) صالح (وأشار إلى تلطفه بهم بقوله على سبيل العرض) ألا تتقون (ثم علل ذلك بقوله : (إني لكم رسول) أي من الله ، فلذلك عرضت عليكم هذا لأني مأمور بذلك ، وإلا لم أعرضه عليكم) أمين (لا شيء من الخيانة عندي ، بل أنصح لكم في إبلاغ جميع ما

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٦٨/٥

أرسلت به إليكم من خالقكمن الذي لا أحد أرحم بكم منه .

الشعراء : (١٤٤ - ١٥٤) فاتقوا الله وأطيعون

) فاتقوا الله وأطيعون ومآ أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتتركون في ما هاهنآ آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا إنمآ أنت من المسحرين مآ أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين (( )

ولما قدم ذكر الرسالة فصار له عذر في المواجهة بالأمر ، سبب عنه قوله) فاتقوا الله) أي الملك الأعلى الذي هـ الغنى المطلق .

ولما ذكر الأمانة قال : (وأطيعون (.

ولما أثبت ما يوجب الإقبال عليه ، نفى ما يستلزم عادة الإدبار عنه فقال : (وما) أي إني لكم كذا والحال أني ما) أسئلكم عليه (وأعرق في النفي بقوله : (من أجر (ثم زاد في تأكيد هذا النفي بقوله : (إن) أي ما) أجري (على أحد) إلا رب العالمين (اي المحسن إليهم أجمعين ، منه أطلب أن يعطيني كما أعطاهم .

ولما ثبتت الأمانة ، وانتفى موجب الخيانة ، شرع ينكر عليهم أكل خيره وعبادة غيره ، فقال مخوفا لهم من سطواته ، ومرغبا في المزيد من خيراته .

منكرا عليهم إخلادهم إلى شهوة البطن ، واستنادهم إلى الرفاهية والرضى بالفاني : (أتتركون) أي من ايدي النوائب التي لا يقدر عليها إلا الله) في ما هاهنا) أي في بلادكم هذه من النعم حال كونكم) آمنين) أي أنتم تبارزون الملك القهار بالعظائم .

ولما كان للتفسير بعد الإجمال شأن .

بين ما أجمل بقوله مذكرا لهم بنعمة الله ليشكروها : (في جنات (اي بساتين تستر الداخل فيها وتخفيه لكثرة أشجارها) وعيون (تسقيها مع ما لها من البهجة وغير ذلك من **المنافع**) وزروع (وأشار إلى عظم النخيل ولا سيما ما كان عندهم بتخصيصها بالذكر بعد دخولها في الجنات بقوله : (ونخل طلعها) أي ما يطلع منها من الثمر ؛ قال الزمخشري : كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو ، والقنو اسم للخارج من

الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه .

) هضيم (." [1]

" صفحة رقم ٤٣٩

نبات ، أو أن تخرق ذلك الحابس بما لها من قوة الجري وشدة النفوذ بلطافة السريان ، لأن من عادة المياه التخلل بين أطباق التراب والتغلغل بما لها من اللطافة والرقة ، والثقل في الأعماق ولو قليلا قليلا ، وكان سبحانه قد سد ما بين البحرين : الرومي والفارسي ، وكان ما بينهما من الأرض إنما هو يسير جدا في بعض المواضع ، وكان بعض مياه الأرض عذبا ، وبعضه ملحا ، معالقرب جدا من ذلك العذب ، سالهم – تنبيها لهم على عظيم القدرة – عن الممسك لعدوان أحدهما على آخر ، ولعدوان كل من خليجي الملح على ما بينهما لئلا يخرقاه فيتصلا فقال : (وجعل بين البحرين حاجزا (اي يمنع أحدهما أن يصل إلى الآخر . ةولماكان من المعلوم أنه الله وحده .

ليس عند عاقل شك في ذلك ، كرر الإنكار في قوله : (إله مع الله) أي المحيط علما وقدرة .

ولما كان الجواب الحق قطعا : لا ، وكان قد أثبت لهم في الإضر ا ب الأول علما من حيث الحكم على المجموع ، وكان كل منهم يدعي رجحان العقل ، وصفاء الفكر ، ورسوخ اقدم في العلم بما يدعيه العرب ، قال : (بل أكثرهم (اي الخلق الذين ينتفعون بهذه المنافع) لا يعلمون) أي ليس لهم نوع من العلم ، بل هم كالبهائم لإعراضهم عن هذا الدليل الواضح .

ولما دلهم بآيات الآفاق ، وكانت كلها من أحوال السراء ، وكانت بمعرض الغفلة عن الإله ، ذكرهم بما في أنفسهم مما يوجبه تغير الأحوال الدالة بمجردها على الإله ، ويقتضي لكل عاقل صدق التوجه إليه ، وإخلاص النية لديه ، والإقبال عليه ، على ذلك ركزت الطباع ، وانعقد الإجماع ، فلم يقع فيه نزاع ، فقال : (أمن يجيب المضطر) أي جنس الملجأ إلى ما لا قبل له به ، الصادق على القليل والكثير إذا أراد إجابته كما تشاهدون ، وعبر فيه وفيما بعده بالمضارع لأنه مما يتجدد ، بخلاف ما مضى من خلق السماوات وما بعده) إذا دعاه) أي حين ينسيكم الضر شركاءكم ، ويلجئكم غلمن خلقكم ويذهل المعطل عن مذهبه ويغفله عن سوء أدبه عظيم إقباله على قضاء أربه .

ولما كانت الإجابة ذات شقين ، جلب السرور ، ودفع الشرور ، وكان النظر إلى الثاني أشد ، خصه بادئا به فقال : (ويكشف السوء (ثم أتبعه الأول على وجه أعم ، فقال مشيرا إلى عظيم المنة عليهم بدعلهم

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٣٨٠

مسلطين علين على جميع من في الأرض وما في الأرض مشرفين بخلافته سبحانه ، وذلك أقبل عليهم ،) ويجعلكم خلفاء الأرض (اي فيما يخلف بعضكم بعضا ، لا يزلا يجدد ذلك بإهلاك قرن وإنشاء آخر إلقيلم الساعة .

ولما كان هذا أبين ، كرر الإنكار فيه مبكتا لهم بالنسيان فقال : (أإله) أي كائن أو موجود) مع الله) أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له .

ثم استأنف التبكيت تفظيعا له." (١)

" صفحة رقم ٤٥٤

الموتة الصغرى ، وكم من شخص منهم بات سويا لا قبلة به فمات ، ولو شئنا لجعلنا الكل كذلك لم يقم منهم أحد ، وعدل عن) ليبصروا فيه (تنبيها على كمال كونه سببا للإبصار ، وعلى أنه ليس المقصود كالسكون ، بل وسيلة المقصود الذي هو جلب **المنافع** ، فالآية من الاحتباك : ذكر السكون أولا دليل على الانتشار ثانيا ، وذكر الإبصار ثانيا دليل على الإظام أولا ، ثم عظم هذه الآية حثا على تأمل ما فيها من القدرة الهادية إلى سواء السبيل فقال : (إن في ذلك) أي الحشر والنشر الأصغرين مع آيتي الليل والنهار) لآيات (اي متعددة ، بينة على التوحيد والبعث الآخرة والنبوة ، لأن من قلب الملوين لمنافع الناس الدنيوية ، أرسل الرسل لمنافعهم في الدراين .

ولما كان من مباني السورة تخصيص الهداية بالمؤمنين ، خصهم بالآيات لاختصاصهم بالانتفاع بها وأن إيمانهم لا يزال يتجدد ، فهم كل يوم في علو وارتفاع .

النمل : (٨٧ - ٩١) ويوم ينفخ في. .. . .

) ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شآء الله وكل أتوه داخرين وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون من جآء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جآء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون إنمآ أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ( )

ولما ذكر هذا الحشر الخاص ، والديل على مطلق الحشر والنشر ، ذكر الحشر العام ، لئلا يظن أنه إنما يحشر الكافر ، فقال مشيرا إلى عمومهم بالموت كما عمهم بالنوم ، وعمومهم بالإحياء كما عمهم بالإيقاظ

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٣٩/٥

: (ويوم ينفخ) أي بأيسر أمر) في الصور) أي القرن الذي جعل صوته لإماتة الكل .
ولما كان ما ينشأ عنه من فزعهم مع كونه محققا مقطوعا به كأنه وجد ومضى ، يكون في آم واحد ، أشار إلى ذلك وسرعة كونه بالتعبير بالماضي فقال : (ففزع) أي صعق بسسب هذا النفخ) من في السموات (.
ولما كان الأمر مهولا ، كان الإطناب أولى ، فقال : (ومن في الأرض (اي كلهم) إلا من شاء الله (اي المحيط علما وقدرة وعزة وعظمة ، أن لا يفزع ؛ ثم أشار إلى النفخ لإحياء الكل بقوله : (وكل) أي من فزع ومن لم يفزع) أتوه) أي بعد ذلك للحساب بنفخة أخرى يقيمهم بها ، دليلا على تمام القدرة في كونه أقامهم بما به أنامهم." (١)

" صفحة رقم ٤٦٥

نوقع التمكين) لهم في الأرض) أي كلها لا سيما أرض مصر والشام ، بإهلاك أعدائهم وتأييدهم بكليم الله ، ثم بالأنبياء من بعده عليهم الصلاة والسلام بحيث نسلطهم بسببهم على من سواهم بما نؤيدهم به من الملائكة ونظهر لهم من الخوارق .
ولما ذكر التمكين ، ذكر أنه مع مغالبة الجبابرة إعلاما بأنه أضخم تمكين فقال عاطفا على نحو : ونريد أن نأخذ الذين علوا في الأرض وهم فرعون وهامان وجنودهما : (ونري) أي بما لنا من العظمة) فرعون) أي الذي كان هذا الاستضعاف منه) وهامان (وزيره) وجنودهما (الذين كانا يتوصلان بهم إلى ما يريدانه من الفساد) منهم) أي المستضعفين) ما كانوا) أي بجد عظيم نمهم كأنه غريزة) يحذرون) أي يجددون حذره في كل حين على الاستمرار بغاية الجد والنشاط من ذهاب ملكهم بمولود منهم وما يتبع ذلك ، قال البغوي : والحذر : التوقي من الضرر .
والآية من الاحتباك : ذكر الاستضعاف أولا دليلا على القوة ثانيا ، وإراءة المحذور ثانيا دليلا على إرادة المحبوب أولا ، وسر ذلك أنه ذكر المسلي والمرجي ترغيبا في الصبر وانتظام الفرج .
ولما كان التقدير : فكان ما أردناه ، وطاح ما أراد غيرنا ، فأولدنا من بني إسرائيل الولد الذي كان يحذره فرعون على ملكه ، وكان يذبح أبناء بني إسرائيل لأجله ، وقضينا بأن يسمى موسى ، بسبب أنه يوجد بين ماء وشجر ، زنربيه في بيت الذي يحذره ويحتاط لأجله ، عطف على هذا المعلوم التقدير أول نعمة من بها على الذين استضعفوا فقال : (وأوجينا) أي أوصلنا بعظمتنا بطريق خفي ، الله أعلم له هل هو ملك

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٤٥٤

أو غيره ، إذ لا بدع في تكليم الملائكة الولي من غير نبوة) إلى أم موسى) أي الذي أمضينا في قضائنا أنه يسمى بهذا الاسم ، وأ ، يكون هلاك فرعون وزوال ملكه على يده ، بعد أن ولدته وخافت أن يذبحه الذباحون) أن أرضعيه (ما كنت آمنة عليه ، وحقق لها طلبهم لذبحه بقوله : (فإذا خفت عليه) أي منهم أن يصيح فيسمع فيذبح) فألقيه (اي بعد أن تضعيه في شيء يحفظه من الماء) في اليم) أي النيل ، واتركي رضاعه ، وعرفه وسماه يما - واليم : البحر - لعظمته على غيره من الأنهار بكبره وكونه من الجنة ، وما يحصل به من المنافع ، وعدل عن لفظ البحر إلى اليم لأن القصد فيه أظهر من السعة ؛ قال الرازي في اللوامع : وهذا إشارة إلى الثقة بالله ، والثقة سواد عين التوكل ، ونقطة دائرة التفويض ، وسويداء قلب التسليم ، ولها درجات : الأولى درجة الأياس ، وهو أياس العبد من مقواة الأحكام ، ليقعد عن منازعة الإقسام ، فيتخلص من صحة الإقدام ؛ والثانية درجة الأمن ، وهو أمن العبد من فوت المقدور ، وانتقاص المسطور ، فيظفر بروح الرضى وإلا فبعين." (١)

" صفحة رقم ٥٦٣

عظمة ولا جلال ، ولا جمال ولا كمال) السماوات والأرض بالحق) أي الأمر الذي يطابقه الواقع ، أو بسبب إظهار أن الواقع يطابق إخباره ، أو بسبب إثبات الحق وإبطال الباطل ، فلا تجد أحدا يفهم عنه حق الفهم مع تساويهم في الإنسانية إلا وهو من أهل السكينة ، والإخبات والطمأنينة ، ولا يعجزه أحد عصى أنبياءه ، فبانتعزته ، وظهرت حكمته ، فطابق الواقع ما أخبر به ، وأيضا فالأمثال إنما تكون بالمحسوسات ، وهي إما سماوية أو أرضية ، فإيجاد هذه الموجودات إنما هو لأجل العلم بالله تعالى .

ولما كان المراد بالعالم قد يخفي ، بينه بقوله مشيرا بالتأكيد إلى أن حالهم في عدم الانتفاع بالنظر فيها حال من ينكر أن يكون فيها دلالة : (إن في ذلك) أي الأمر العظيم من تأملهم لمطابقة الواقع لإخباره سبحانه ، فلا يخبر بشيء إلا كان الواقع منهما أو مما فيهما يطابقه سواء بسواء) لآية) أي دلالة مسعدة) للمؤمنين) أي الذين هم العالمون في الحقيقة ، حداهم علمهم بما في الكونين من المنافع المترتبة على النظام المعروف مع ما في خلقهما أنفسهما مع كبر الأجرام وبديع الإحكام ، على الإيمان بجميع ما أخبر به حتى لم يكن عندهم نوع شك ، وصار لهم صفة لا تنفك .

ولما افاد هذا الخبر كله القرآن الذي لا حق أحق منه ، ودل على أن فهم أمثاله يحتاج إلى مزيد علم ، وأ ، مفتاح العلم به سبحانه رسوخ الإيمان ، خاطب رأس أهل الإيمان لأنه أعظم الفاهمين له ليقتدي به الأتباع

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٦٥/٥

فقال : (اتل ما) أي تابع قراءته ؛ ودل على شرفه لا ختصاصه به بقوله : (أوحي إليك (إذ الوحي الإلقاء سرا) من الكتاب) أي الجامع لكل خير ، فإنه المفيد للإيمان ، مع أنه الحق الذي خلقت السماوات والأرض لأجله ، والإكثار في تلاوته يزيد بصيرة في أمرهن ويفتح كنوز الدقائق من علمه ، وهو أكرم من أن ينيل قارئه فائده وأجل من أن يعطي قياد فوائده ويرفع الحجاب عن جواهره وفرائده في أول مرة ، بل كلما ردده القارىء بالتدبر حباه بكنز من أسراره ، ومهما زاد زاده من لوامع أنواره ، إلى أن يقطع بأن عجائبه لا تعد ، وغرائبه لا تحد .

ولما أرشد إلى مفتاح العلم ، دل قانون العمل الذي لايصح إلا بالقرآن ، وهو ما يجمع الهم ، فيحضر القلب ، فينشرح الصدر ، فينبعث الفكر في رياض علومه ، فقال : (وأقم الصلاة) أي التي هي أحق العبادات ، ثم علل ذلك بقوله دالا بالتأكيد على فخامة أمرها ، وأنه مما يخفى على غالب الناس : (إن الصلاة تنهى) أي توجد النهي وتجدده للمواظب على إقامتها بجميع حدودها) عن الفحشاء) أي الخصال ألتي بلغ قبحها) والمنكر) أي الذي فيه نوع قبح وإن دق ، وأقل ما فيها من النهي النهي عن." (١)

" صفحة رقم ٥٧٤

سواه فليبادر من أنقذه من الكفر وهداه إلى الهجرة طالبا لرضاه : (وكأين من دابة) أي كثير من الدواب العاقلة وغيرها) لا تحمل) أي لا تطيق أن تحمل) رزقها (ولا تدخر شيئا لساعة أخرى ، لأنها قد لا تدرك نفع ذلك ، وقد تدركه وتتوكل ، أو لا تجد .

ولما كان موضع أن يقال : فمن يرزقها ؟ قال جوابا له : (الله (اي المحيط علما وقدرة ، المتصف بكل كمال) يرزقها (وهي لا تدخر) وإياكم (وأنتم تدخرون ، لا فرق بين ترزيقه لها على ضعفها وترزيقه لكم على قوتكم وادخاركم ، فإن الفريقين تارة يجدون وتارة لا يجدونن فصار الادخار وعدمه غير معتد به ولا منظور إليه .

ولما كان أهم ما للحيوان الرزق ، فهو لا يزال في تدبيره بما يهجس في ضميره وينطق به إن كان ناطقا ويهمهم به إن كان صامتا ، أما العاقل فبأمور كلية ، وأما غيره فبأشياء جزئية وحدانية ، وكان العاقل ربما قالك إني لا أقدر على قطع العلائق من ذلك ، قال تعالى : (وهو السميع) أي لما يمكن أن يسمع في أمره وغير أمره) العليم) أي بما يعلم من ذلك ، وبما يصير إليه أمركم وأمر عدوكم ، فهو لم يأمركم بما

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٦٣/٥

أمركم به إلا وقد أعد له أسبابه ، وهو قادر على أن يسبب للمتوكل القاطع للعلائق ما يغنيهن ومن طالع كتب التصوف وتراجم القوم وسير السلف – نفعنا الله بهم – وجد كثيرا من ذلك بما يبصره ويسليه سبحانه ويصبره .

ولما هون سبحانه بخطابه مع امؤمنين بعد أن كان قد ابلغ في تنبيه الطكافرين بإيضاح المقال ، وضرب الأمثال ، ولين المحاورة في الجدال ، ولما كان الملك لا يتمكن غاية التمكن من ترزيق من في غير مملكته ، قال عاطفا على نحو : فلئن سألتهم عن ذلك ليصدقنك عائدا إلى استعطاف المعرضين ، واللطف بالفافلين ، ناهجا في تفنين الوعظ أعني طرق الحكمة ، فإن السيد إذا كان له عبدان : مصلح ومفسد ، ينصح المفسد ، فإن لم يسمع التفت إلى المصلح ، إعراضا عنه قائلا : هذا لا يستحق الخطاب ، فاسمع أنت ولا تكن مثله ، فكان قوله متضمنا نصح المصلح وزجر المفسد ، ثم إذا سمع وعظ أخيه كان ذلك محركا منه بعد التحريك بالإعراض والذم بسوء النظر لنفسه وقلة الفطنة ، فإذا خاطبه بعد هذا وجده متهيئا للقبول ، نازعا إلى الوفاق ، مستهجنا للخلاف : (ولئن سالتهم) أي المؤمون وغيره ، وأغلب القصد له : (من خلق السماوات والأرض (وسواهما على هذا النظام العظيم) وسخر الشمس والقمر (لإصلاح القواتن ومعرفة الأوقات ، وغير ذلك من المنافع .

ولما كان حالهم في إنكار العبث حال من ينكر أن يكون سبحانه خلق هذا الوجود ، أكد تنبيها على أن الاعتراف بذلك يلزم منه الاعتارف بالبعث فقال :." (١)

" صفحة رقم ٦٠٤

ولما كانوا ينكرون أنهم على كفر ، أكد قوله : (وإن كثيرا من الناس (مع ذلك على وضوحه) بلقاىء ربهم (الذي ملأهم إحسانا برجوعهم في الآخرة غلى العرض عليه للثواب والعقاب) لكافرون) أي لساترون ما في عقولهم من دلائل وحدانيته وحجج قدرته وحكمته سترا عظيما ، كأنه غريزة لهم ، فهم لذلك يكذبون بما وعدكم سبحانه من إدالة الروم على الفرس ، فلا يهولنكم ذلك لأنهم قد كذبوا بما هو أكبر منه ، وهو الآخرة على ما لها من الدلائل التي تفوت الحصر ، وإذا راجعت ما تقدم في آية الأنعام)) وهو الذي خلقكم من طين ( ) [آية : ٢] ازددت في هذا بصيرة .

الروم : (٩) أو لم يسيروا. .. . .

) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٥٧٤

أكثر مما عمروها وجآءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (( )
ولما أقام عليهم الدليلن أتبعه التهديد والتهويل ، فقال عاطفا على (أولم يتفكروا)) أو لم يسيروا (ولما أحاطت آثار المكذبين بمكة المشرفة شرقا وغربا ، وجنوبا وشمالا ، بديار ثمود وقوم فرعون وعاد وسبأ وقوم ولوط ، عرف وأطلق فقال : (في الأرض) أي سير اعتبار وتأمل وادكار من أي جهة أرادوا ، وفيه إشارة غلى أنهم واقفون عند النظر في ظاهر الملك بأبصارهم ، قاصرون عن الاعتبار في باطن الملكوت بأفكارهم ، وفيه هز لهم إلى امتطاء هذه الدرجة العلية ، بهذه العبارة الجلية) فينظروا (.
ولما كان ما حل بالماضيين أمرا عظيما ، نبه على عظمة بأنه أهل لأن يسأل عنه فقال : (كيف كان) أي كونا لا قدرة على الانفكاك عنه ، وتذكير العمل يشير غلى عظم الأمر) عاقبة) أي آخر أمر) الذين (ولا كان حال من قرب من زمان الإنسان أوعظ له ، اثت الجار فقال : (من قبلهم (في إهلاك العاصي وإنجاء الطائعن ولما كان علم العقبة مشروطا بمعرفة البادئة قال مستأنفا : (كانوا) أي كونا هو في غاية المكنة .
ولما كان السياق للظهور والغلبة التي إنما مدارها على الشدة المقتضية للثبات ، لا الكثرة العارية عنها ، أعرض عنها وقال مسقطا ضمير الفصل لأن هذا السياق لا يظهر فيه ادعاء العرب لعلوهم على فارس ولا الروم : (أشد منهم) أي من العرب) قوة) أي في أبدانهم وعقولهم ، ولما كان التقدير : فنقبوا الجبال ، وعلوا من متقن الصنائع التي ترونها من الأعمال ما لم يداينه أحد من الأجيال ، عطف عليه قوله : (وأثاروا (بالحرث وغيره) الأرض (فأخرجوا ما فيها من **المنافع** من المياه والمعادن والزروع وغير ذلك من المعادن) وعمروها) أي أؤلئك السالفون) أكثر مما عمروها (اي هؤلاء الذين." (١)
" صفحة رقم ٦٠٩
لم يدع لبسا في بيانه) فأولئك) أي البعداء البغضاء) في العذاب (اي الكامل لا غيره) محضرون (من أي محضر كان ، بالسوق الحثيث ، والزجر العنيف ، فإذا وصلوا غلى مقره وكل بهم منيديم كونهم كذلك – لإفادة الجملة الاسمية الدوام ، فلا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم .
ولما بين سبحانه المبدأ بخلق السماوات والأرض ، والمعاد بالجنة والنار ، وأنهم كذبوا به ، وكان تكذيبهم به مستلزما لاعتقاد نقائص كثيرة منها العجز وإخلاف الوعد وترك الحكمة ، كان ذلك سببا لأن ينزه سبحانه نفسه المقدسة ويأمر بتنزيهها ، لأن ذلك يدفع عن المنزه مضار الوعيد ، ويرفعه إلىمسار الوعد ، فقال ذاكرا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٦٠٤

من أفعاله العالية التي لا مطمع لغيره في القدرة على شيء منها ما يدل على خلاف ذلك الذي يلزم اعتقادهم ، لافتا الكلام عن صيغة العظمة إلى أعظم منها بذكر الاسم الأعظم .

) فيبحان الله) أي سبحوا الذي له جميء العظمة بمجامع التسبيح بأن تقولوا هذا القول الذي هو علمه ، فهو منزه عن كل نقص ؛ ثم ذكر أوقات التسبيح إشارة إلى ما فيها من التغير الذي هو منزه عنه وإلى ما يتجدد فيها من النعم ووجود الأحوال الدالة على القدرة على الإبداع الدال على البعث ، فقال دالا على الاستغراق بنزع الخافض مقدما المحو لأنه أدل على البعث الذي النزاع فيه وهو الأصل ، لافتا الكلام إلى الخطاب لأنه أشد تنبيها : (حين تمسون) أي أول دخول الليل بإذهاب النهار وتفريق النور ، فيعتريكم الملل ، ويداخلكم الفتور والكسل ، على سبيل التجدد والاستمرار ، وأكد الندب إلى التسبيح بإعادة المضاف فقال : (وحين تصبحون (بتحويل الأمر فتقومون أحياء بعد ان كنتم أمواتا فتجدون نهارا قد أضاء بعد ليل كان دحى ، فتفعلون ما هو سبحانه منزه عنه من الحركة والسعي في جلب النفع ودفع الضرر ، وأرشد السياق غلى أن التقدير : وله الحمد في هذين الجنسين .

ولما ذكر ما يدل على خصوص التنزيه ، اتبعه ما يعرف بعموم الكمال ، فقال ذاكرا لوقت كمال النهار وكمال الظلام ، وتذكيرا بما يحدث عندهما للآدمي من النقص بالفتور والنوم اعتراضا بين الأوقات للاهتمام بضم التحميد غلى التسبيح : (وله) أي وحده مع النزاهة عن الشوائب النقص) الحمد) أي الإحاطة بأوصاف الكمال .

ولما قدم سبحانه أن تنزهه ملأ الأزمان ، وكان ذلك مستلزما لملء الأكوان ، وكان إثبات الكمال أبين شرفا من التنزيه عن النقص ، صرح فيه بالقبيلين فقال : (في السماوات) أي الأجرام العالية كلها التي تحريكها – مع أنها من الكبر في حد لا يحيط به غلا هو سبحانه – سبب للإمساء والإصباح وغيرهما من المنافع) والأرض (التي فيها من." [1]

" صفحة رقم ٦١٠

المنافع ما يجل عن إحاطتكم به مع أنها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة في فلاة ، ولولا ذلك لظهر لكم ذلك برؤية ما وراءها هو شأن كل مظل مع كل مقل كما تشاهدون السحاب ونحوه .

ولما خص الإمساء والإصباح ، عم فقال معبرا بما يدل على الدوام ، لأن وقت النوم الدال على النقص أولى بإثبات الكمال فيه : (وعشيا (اي من الزوال إلى الصباح) وحين تظهرون) أي تدخلون في شدة الحر ،

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦٠٩/٥

وسبحانه الله في ذلك كله ، فالآية من الاحتباك : ذكر التسبيح أولا دليلا على إرادته ثانيا ، والحمد ثانيا دليلا على إرادته أولا ، ولعل المراد بالإظهار هنا ما هو أعم من وقت الظهر ليكون المراد به من حين يزول ااسم الصباح من وقت ارتفاع الشمس غلى أن يحدث اسم المساء ، وهو من الظهر إلى الغروب – قاله ابن طريف في كتابه الأفعال ونقله عن الإمام عبد الحق في كتابه الواعي ، وذلك حين استبداد النهار فيكون كمارهـ فيما دون ذلك من باب الأولى ، وهذا مع هذه الدقائق إشارة إلى الصلوات الخمس ، أي سبحوه بالخضوع له بالصلاة في وقت المساء بصلاة العصر والمغرب ، وفي وقت الصباح بالصبح ، وفي العشى بالعشاء ، وفي الإظهار بالظهر ، وفي هذا التخريج من الحسن بيان الاهتمام بالصلاة الوسطى ، فابتدأ سبحانه بالعصر التي قولها أصح الأقوال ، ودخول المغرب في حيزها بطريق التبعية والقصد الثاني ، وثنى بالصبح وهي تلبها في الأصحية وهما القريبتان ، لقوله (صلى الله عليه وسلم) : (من صلى البردين دخل الجنة) – رواه الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه ، (من صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وجبت له الجنة) – أسنده صاحب الفردوس عن عمارة بن روبية رضي الله عنه ورواه مسلم وغيره عنه بلفظ : (لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) – يعني الفجر والعصر (كنا عند النبي (صلى الله عليه وسلم) فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا لا تفوتنكم (، ثم قرأ) فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (رواه البخاري عن جرير بن." (١)

" صفحة رقم ٦١٣

تقديم الجار دلالة على حرمة التزوج من غير النوع ، والتعبير بالنفس اظهر في كونها من بدن الرجل في قوله : (من أنفسكم (اي جنسكم بعد إيجادها من ذات ابيكم آدم عليه السلام) أزواجا (إناثا هن شفع لكم) لتسكنوا (مائلين) إليها (بالشهوة والألفة ، من قولهم : سكن إليه – إذا مال وانقطع واطمأن إليه ، ولم يجعلهما من غير جنسكم لئلا تنتفروا منها .

ولما كان المقصود بالسكن لا ينتظم إلا بدوام الألفة قال : (وجعل (اي صير بسبب الخلق على هذه الصفة) بينكم مودة (اي معنى من المعاني يوجب أن لا يحب واحد من الزوجين أن يصل إلى صاحبه شيء يكرهه مع ما طبع عليه الإنسان من محبة الأذى ، وإنما كان هذا معناه لأن مادة (ودد) مستويا ومقلوبا تدور على الاتساع والخلو من الدو والدوية بتشديد الواو وهي الفلاة ، والود والوداد قال ي القاموس

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٦١٠

: الحب ، وقال أبو عبد الله القزاز ونقله عنه الإمام عبد الحق في واعيه : الأمنيةن تقول وددت أن ذاك كان ، وذاك لاتساع مذاهب الأماني ، وتشعب اودية الحب ، وفي القاموس : ودان : قرية قرب الأبواء وجبل طويل قرب فيد ، والمودة : الكتاب - لاتساع الكلام فيه .

وقال الإمام أبو الحسن الحرالي في شرح الأسماء الحسنى : الود خلو عن إرادة المكروه ، فإذا حصل إرادة الخير وإيثاره كان حيا ، من لم يرد سواه فقد ود ومن أراد خيرا فقد أحب ، والود أول التخلص من داء أثر الدنيا بما يتولد لطلابها من الازدحام عليها من الغل والشحناء ، وذلك ظهور لما يتهيا له من طيب الحب ، فمن ود لا يقاطع ، ومن أحب واصل وآثر ، والودود هو المبرأ من جميع جهات مداخل السور ظاهره وباطنه .

ولما كان المعنى الحسن لا يتم إلا بإرادة الخير قال : (ورحمة) أي معنى يحمل كلا على أن يجتهد للآخر في جلب الخير ، ودفع الضير ، لكن لما كانت إرادة الخير قد تكون بالمن ببعض ما يكره جمع بين الوصفين ، وهما من الله ، والفرك - وهو البغض - من الشيطان .

ولما كان ذلك من العظمة بمكان يجل عن الوصف ، اشار إليه بقوله مؤكدا لمعاملتهم له بالإعراض عما يهدي إليه معاملة من يدعي أنه جعل سدى من غير حكمة ، مقدما الجار إشارة إلى أن دلالته في العظم بحيث تتلاشى عندها كل آية ، وكذا غيره مما ان هكذا علىنحو

٧٧ ( ) وما نريهم من آية إلا وهي أكبر من أختها ( ) ٧

[الزخرف : ٤٨] : (إن في ذلك (اي الذي تقدم من خلق الأزواج على الحال المذكور وما يتبعه من المنافع) لآيات (واضحات على قدرة فاعلة وحكمته .

ولما كان هذا المعنى مع كونه دقيقا يدرك بالتأمل قال : (لقوم) أي رجال أو في." (١)

" صفحة رقم ٦١٤

حكمهم لهم قوة وجد ونشاط في القيام بما يجعل إليهم) يتفكرون) أي يستعملون افكارهم على القوانين المحررة ويجتهدون في ذلك .

ولما ذكر سبحانه الذكر والأنثى ، المخلوقين من الأرض ، وكانت السماء كالذكر للأرض التي خلق منها الإنسان ، وكان خلقهما مع كونهما مخلوقين من غير شيء أعجب من خلقه فهو أدل على القدرة ، وكان خلق الأرض التي هي كالأنثى متدما على عكس ما كان في الإنسان ، أتبعه ذكرهما بادئا بما هو كالذكر

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٦١٣/٥

فقال مشيرا – بعد ما ذكر من آيات الأنفس – إلى آيات الآفاق : (من آياته) أي الدالة على ذلك ، ولما كان من العجب إيجاد الخافقين من العدم إيجادا مستمرا غلى حالة واحدة ، عبر بالمصدر فقال : (خلق السماوات (على علوها وإحكامها) والأرض (على اتساعها وإتقانها .

ولما كان من الناس من ينسب الخلق إلى الطبيعة ، قال تعالى ذاكرا من صفات الأنفس ما يبطل تأثير الآفاق بأنفسها من غير خلقه وتقديره ، وتكوينه وتدبيره : (واختلاف ألسنتكم) أي لغاتكم ونغماتكم وهيئاتها ، فلا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس ولا جهارة ، لا حد ولا رخاوة ، ولا لكنة ولا فصاحة ، ولا إسهاب ولا وجازة ، وغير ذلك من صفات النمطق وأحواله ، ونعوته وأشكاله ، وأنتم مننفس واحدة ، فلو كان الحكم للطبيعة لم يختلف لأنه لا اختيار لها مع أن نسبة الكل إليها واحدة .

ولما كان لون السماء واحدا ، وألوان الأراضي يمكن حصرها ، قال : (وألوانكم (اي اختلافا مع تفاوته وتقاربه لا ضبط له مع وحدة النسبة ، ولولا هذا الاختلاف ما وقع التعارف ، ولضاعت المصالح ، وفاتت المنافع ، وطوي سبحانه ذكر الصور لاختلاف صور النجوم باختلاف أشكالها ، والأراضي بمقادير الجبال والروابي وأحوالها ، فلو كان الاختلاف لأجل الطبيعة فإما أن يكون بالنظر إلى السماء أو إلى الأرض ، فإن كان للسماء فلونها واحد ، وإن كان للأرض فلون اهل كل قطر غير مناسب للون أرضهم .

وأما الألسنة فأمرها أظهر .

ولما كان هذا مع كونه في غاية الوضوح لا يختص بجنس من الخلق دون غيره قال : (إن في ذلك (اي الأمر العظيم العالي الرتبة في بيانه وظهور برهانه) لآيات) أي دلالات عدة واضحة جدا على وحدانيته تعالى وفعله بالاختيار وبطلان ما يقوله أصحاب الطابئع من تلك الاحتمالات التي هي مع خفائها واهية ، ومع بعدها مضمحلة متلاشية) للعالمين (كلهم لا يختص به صنف منهم دون آخر من جن ولا إنس ولا غيرهم ، وفي رواية حفص عن عاصم بكسر اللام حث للمخاطبين على النظر ليكونوا من أهل العلم ، وفي قراءة الباقين بالفتح إيماء إلى أن ذلك من الوضوح بحيث لو نطق الجماد لأخبر بمعرفته ، ففيه إشارة إلى ، هم عدم ، فلا تبكيت أوجع منه .." (١)

" صفحة رقم ٢٢

ذكر قال : (من صوتك (بإثبات (من) أي لئلا يكون صوتك منكرا ، وتكون برفع الصوت فوق الحاجة حمارا ، وأما مع الحاجة كالأذان فهو مأمور به .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٦١٤

ولما كان رفع الصوت فوق العادة منكرا كما كان خفضه دونها تماوتا أو دلالا وتكبرا ، وكان قد أشار إلى النهي عن هذا ب (من) فأفهم أن الطرفين مذمومان ، علل النهي عن الأول دالا بصيغة (أفعل) على اشتراك الرفع كله في النكارة ذاكرا أعلاها تصويرا له بأقبح صورة تنفيرا عنه فقال : (إن أنكر) أي أفظع وأبشع وأوحش) الأصوات) أي كلها المشتركة في النكارة برفعها فوق الحاجة ، وأخلى الكلام عن لفظ التشبيه فأخرجه مخرج الاستعارة تصويرا لصوت الرافع صوته فوق الحاجة بصورة النهاق وجعل المصوت كذلك حمارا ، مبالغة في التهجين ، وتنبيها على أنه من كراهة الله له بمكان فقال : (لصوت الحمير) أي هذا الجنس ، لما له من الغلو المفرط من غير حاجة . وأوله زفير وآخره شهيق ، وهما فعل أهل النار ، وأفرده ليكون نصا على إدارة الجنس لئلا يظن أن الاجتماع يستهجن التصريح باسمه ، وهذا يفهم أن الرفع مع الحاجة غير مذموم فإنه ليس بمستنكر ولا مستشبع ، ولقد دعت هذه الآيات إلى معالي الأخلاق ، وهي أمهات الفضائل الثلاث : الحكمة والعفة والشجاعة ، وأمرت بالعدل فيها ، وهي وظيفة التقسيط الذي هو الوسط الذي هو مجمع الفضائل ، ونهت عن مساؤى الأخلاق ، وهي الأطراف التي هي مبدأ الرذائل الحاصل بالإفراط والتفريط ، فإقامة الصلاة التي هي روح العبادة المبنية على العلم هي سر الحكمة والنهي ، أمر الشجاعة ونهى عن الجبن ، وفي النهي عن التصعير وما معه نهي عن التهور ، والقصد في المشي والغض في الصوت أمر بالعفة ونهي عن الاستماتة والجمود والخلاعة والفجور ، وفي النهي عن الاستماتة نهي عما قد يلزمها من الجزيرة ، وهي الفكر بالمكر المؤدي إلى اللعنة ، وعن الانحطاط إلى البله والغفلة ، والكافل بشرح هذا ما قاله الشيخ سعد الدين التفتازاني في الكلام على الإجماع ومن تلويحه ، قال : إن الخالق تعالى وتقدس قد ركب في الإنسان ثلاث قوى : إحداهما مبدأ إدراك الحقائق ، والشوق إلى النظر في العواقب ، والتمييز بين المصالح والمفاسد ، ويعبر عنها بالقوة النطقية والعقلية والنفس المطمئنة الملكية ، والثانية مبدأ جذب **المنافع** وطلب الملاذ من المآكل والمشارب وغير ذلك ، وتسمى القوة الشهوية والبهيمية والنفس الامارة ، والثالثة مبدأ الإقدام على الأهوال والشوق إلى التسلط والترفع ، وهي القوة الغضبية والسبعية والنفس اللوامة ، ويحدث من اعتدال الحركة الأولى الحكمة ، والثانية." (١)

" صفحة رقم ٤٦

يندرج فيه إنزاله معبرا بالاسم الأعظم لاقتضاء الإيجاد والتدبير على وجه الانفراد له : (الله) أي الحاوي لجميع صفات الكمال وحده : (الذي خلق السماوات (كلها) والأرض (بأسرها) وما بينهما (من

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٢/٦

المنافع العينية والمعنوية .

ولما كانت هذه الدار مبنية على حكمة الأسباب كما أشير إليه في لقمان ، وكان الشيء إذا عمل بالتدرج كان أتقن ، قال : (في ستة أيام (كما يأتي تفصيله في فصلت ، وقد كان قادرا على فعل ذلك في أقل من لمح البصر ، ويأتي في فصلت سر كون المدة ستة .

ولما كان تدبير هذه وحفظه وتعهد مصالحه والقيام بأمره أمرا – بعد أمر إيجاده – باهرا ، أشار إلى عظمته بأداة التراخي والتعبير بالافتعال فقال : (ثم استوى على العرش) أي استواء لم يعهدوا مثله وهو أنه أخذ في تدبيره وتدبير ما حواه بنفسه ، لا شريك له ولا نائب عنه ولا وزير ، كما تعهدون من ملوك الدنيا إذا اتسعت ممالكهم ، وتباعدت أطرافها ، وتناءت أقطارها ، وهو معنى قوله تعالى استئنافا جوابا لمن كأنه قال : العرش بعيد عنا جدا فمن استنابه في أمرنا ، ولذلك لفت الكلام إلى الخطاب لأنه اقعد في التنبيه : (مالكم من دونه (لأنه كل ما سواء من دونه وتحت قهره ، ودل على عموم النفي بقوله : (من ولي) أي يلي أموركم ويقوم بمصالحكم وينصركم إذا حل بكم شيء مما تنذرون به) ولا شفيع (يشفع عنده في تدبيركم أو في أحد منكم بغير إذنه ، وهو كناية عن قربه من كل شيء وإحاطته به ، وأن إحاطته بجميع خلقه على حد سواء لا مسافة بينه وبين شسء أصلا .

ولما كانوا مقرين بأن الخلق خلقه والأمر أمره ، عارفين بأنه لا يلي وال من قبل ملك من الملوك إلا بحجة منه يقيمها على أهل البلدة التي أرسل إليها أو ناب فيها ، ولا يشفع شفيع فيهم إلا وله إليه وسيلة ، تسبب عن ذلك الإنكار عليهم في قوله : (أفلا تتذكرون) أي تذكرا عظيما بما أشار إليه الإظهار ما تعلمونه من أنه الخالق وحده ، ومن أنه لا حجة لشيء مما أشركتموه بشيء مما أهلتموه له ولا وسيلة لشيء منهم إليه يؤهل بها في الشفاعة فيكم ولا أخبركم أحد منهم بشيء من ذلك ، فكيف تخالفون في هذه الأمور التي هي أهم المهم ، لأن عاقبتها خسارة الإنسان نفسه ، فضلا عما دونها عقولكم وما جرت به عوائدكم ، وتتعللون فيها المحال ، وتقنعون بقيل وقال ، وتخاطرون فيه بالأنفس والأولاد والأموال .

ولما نفى أن يكون له شريك أو وزير في الخلق ، ذكر كيف يفعل في هذا الملك العظيم الذي أبدعه في ستة أيام من عالم الأرواح والأمر ، فقال مستأنفا مفسرا للمراد." (١)

" صفحة رقم ٧٦

في عموم العبارة في تلك الآية ، أعادها منا تأكيدا وتنصيصا على هذا الفرد للاهتمام به مع ما فيها من

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٦/٦

تفصيل وزيادة فقال : (وأولوا الأرحام) أي القرابات بأنواع النسب من النبوة وغيرها) بعضهم أولى (بحق القرابة) ببعض (في جميع المنافع العامة للدعوة والإرث والنصرة والصلة) في كتاب الله) أي قضاء الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه ، وحكمه كما تقدم في كتابكم هذا ، وكما أشار إليه الحديث الماضي آنفا .

ولما بين أنهم أولى بسبب القرابة ، بين المفصل عليه فقال : (من) أي هم أولى بسبب القرابة من) المؤمنين (الأنصار من غير قرابة مرجحة) والمهاجرين (المؤمنين من غير قرابة كذلك ، ولما كان المعنى : أولى في كل نفع ، استثنى منه على القاعدة الاستثناء من أعم العام قوله ، لافتا النظم إلى أسلوب الخطاب ليأخذ المخاطبون منه أنهم متصفون بالرسوخ في الإيمان الذي مضى ما دل عليه في آية الأولوية من التعبير بالوصف ، فيحثهم ذلك على فعل المعروف : (إلا أن تفعلوا) أي حال كونكم موصلين ومسندين) إلى أوليائكم (بالرق أو التبني أو الحلف في الصحة مطلقا وفي المرض من الثلث تنجيرا أو وصية) معروفا (تنفعونهم به ، فيكون حينئذ ذلك الولي مستحقا لذلك ، ولا يكون ذو الرحم أولى منه ، بل لا وصية لوارث .

ولما أخبر أن هذا الحكم في كتاب الله ، أعاد التنبيه على ذلك تأكيدا قلعا لهذا الحكم الذي تقرر في الأذهان بتقريره سبحانه فيما مضى فقال مستأنفا : (كان ذلك) أي الحكم العظيم) في الكتاب) أي القرآن في آخر سورة الأنفال) مسطروا (بعبارة تعمه ، قال الأصبهاني : وقيل : في التوارة ، لأن في التوراة : إذا نزل رجل بقوم من أهل دينه فعليهم أن يكرموه ويواسوه ، وميراثه لذوي قرابته ، فالآية من الاحتباك : أثبت وصف الإيمان أولا دليلا على حذفه ثانيا ووصف الهجرة ثابنا دليلا على حذف النصرة أولا .

ولما كان نقض العوائد وتغيير المألوفات مما يشق كثيرا على النفوس ، ويفرق المجتمعين ، ويقطع بين المتواصلين ، ويباعد بين المتقاربين ، قال مذكرا له (صلى الله عليه وسلم) بما أخذ على من قبله من نسخ أديانهم بدينه ، وتغيير مألوفاتهم بإلفه ، ومن نصيحة قومهم بإبلاغهم كل ما أرسلوا به ، صارفا القول إلى مظهر العظمة لأنه أدعى إلى قبول الأوامر : (وإذا (فعلم أن التقدير : اذكر ذلك – أي ما سطرناه لك قبل هذا في كتابك ، واذكر إذ) أخذنا (بعظمتنا) من النبيين ميثاقهم (في تبيلغ الرسالة في المنشط والمكره ، وفي تصديق بعضهم لبعض ، وفي اتباعك فيما أخبرناك به في قولنا

٧٧ ( ) لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ( ) ٧
[آل عمران : ٨١] وقولهم : أقررنا .." [(١)]

" صفحة رقم ١٤١

الأحزاب : (٧٢ - ٧٣) إنا عرضنا الأمانة. .. . . .

) إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما (( )

ولما كان التقدير : ومن لم يطع فقد خسر خسرانا مبينا ، وكان كل شيء عرض على شيء فالمعروض عليه متمكن من المعروض قادر عليه ، وكان كل شيء أودعه الله شيئا فحفظه ورعاه وبذله لأهله وآتاه باذلا للأمانة غير حامل لها .

وكل من أودعه شيئا فضيعه وضمن به عن أهله ومنعه عن مستحقه خائن فيه حامل له ، وكان الله تعالى قد أودع الناس من العقول ما يميزون به بين الصحيح والفاسد ، ومن القوى الظاهرة ما يصرفونه فيما أرادوا من المعصية والطاعة ، فمنهم من استدل بعقله على كل من المحق والمبطل فبذل له من قواه ما يستحقه ، فكان باذلا للأمانة غير حامل لها ، ومنهم من عكس ذلك وهم الأكثر فكان حاملا لها خائنا فيها أمر به من بذلها ، وأودع سبحانه الأكوان ما فيها من **المنافع** من المياه والمعادن والنباتات فبذلته ولم تمنعه من أحد طلبه مع أن منعها له في حيز الإمكان ، قال تعالى معلى للأمر بالتقوى ، أو مستأنفا مؤكدا تنبيها على أن هذا الأمر مما يحق أن يؤكد تنبيها على دقته ، وأنه مما لا يكاد أن يفطن له كثير من الناس فضلا على أن يصدقوه لافتا القول إلى مظهر العظمة دلالة على عظيم جرأة الإنسان : (إنا عرضنا الأمانة) أي أداءها أو حملها أو منعها أهلها ، وهي طاعته سبحانه فيما أمر به العاقل ، وفيما أراده من غيره ، ولم يذكر المياه والرياح لأنهما من جملة ما في الكونين من الأمانات اللاتي يؤديانها على حسب الأمر) على السموات (بما فيها من **المنافع**) والأرض (بما فيها من المرافق والمعادن .

ولما أريد التصريح بالتعميم قال : (والجبال (ولأن أكثر **المنافع** فيها) فأبين (على عظم أجرامها وقوة أركانها وسعة أرجائها) أي يحملنها (فيمنعها ويحبسنها عن أهلها ، قال الزمخشري : من قولك : فلان حامل للأمانة ومحتمل لها ، أي لا يؤيها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج عن عهدتها ، لأن الأمانة

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٧٦/٦

كأنها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها ، ألا تراهم يقولون : ركبته الديون ولي عليه حق ، فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملا لها) وأشفقن منها (فبدل كل منهن ما أودعه الله فيه في وقته كما أراده الله ، وهو معنى : أتينا طائعين ، والحاصل أنه جعلت الإرادة وهي الأمر التكويني في حق الأكوان لكونها لا تعقل كالأمر التكليفي التكويني في حقنا لأنا نعقل تمييزا بين من يعقل ومن لا يعقل في الحكم ، كما ميز بينهما في الفهم إعطاء لكل منهما ما يستحقه رتبته – وهذا هو معنى." (١)

"صفحة رقم ١٤٤

سورة سبإ

سبأ : (١ – ٢) الحمد لله الذي. .. . .

) الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السمآء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور (( )

مقصودها أن الدار الآخرة – التي أشار إليها آخر تلك بالعذاب والمغفرة بعد أن أعلم أن الناس يسألون عنها – كائنة لا ريب فيها ، لما في ذلك من الحكمة ، وله عليه من القدرة ، وفي تركها من عدم الحكمة والتصوير بصورة الظلم ، ولقصة سبأ التي سميت بها السورة مناسبة كبيرة لهذا المقصد كما ياتي بيانه لذلك سميت بها) بسم الله (الذي من شمول قدرته إقامة الحساب) الرحمن (الذي من عموم رحمته ترتيب الثواب والعقاب) الرحيم (الذي يمن على أهل كرامته بطاعته حتى لا عقاب يلحقهم ولا عتاب .

لما ختمت سورة الأحزاب بأنه سبحانه عرض أداء الأمانة وحملها – و ه ي جميع ما في الوجود من المنافع – على السماوات والأرض والجبال ، فأشفقن منها وحملها الإنسان الذي هو الإنس والجان ، وأن نتجية العرض والأداء والحمل العذاب والثواب ، فعلم أن الكل ملكه وفي ملكه ، خائفون من عظمته مشفقون من قهر سطوته وقاهر جبروته ، وأنه المالك التام الملك والملك المطاع المتصرف في كل شيء من غير دفاع ، وختم ذلك بصفتي المغفرة والرحمة ، دل على ذلك كله بأن ابتدأ هذه قوله : (الحمد) أي الإحاطة بأوصاف الكمال من الخلق والأمر كله مطلقا في الأولى الأخرى وغيرهما مما يمكن أن يكون ويحيط به عمله سبحانه) لله (ذي الجلال والجمال .

---

(١) نظم الدرر . (موافق ل لمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/١٤١

ولما كان هذا هو المراد ، وصفه بما يفيد ذلك ، فقال منبها على نعمة الإبداء والإبقاء أولا : (الذي له) أي وحده ملكا وملكا وإن نسبتم إلى غيره ملكا وملكا ظاهريا." [١]

" صفحة رقم ١٦٧

غيرها في أودية مدلهمة ، أتبعه دليلا آخر شهوديا على آية) إن نشأ نخسف بهم الأرض (في قوم كان تمام صلاحهم بسليمان عليه الصلاة والسلام ، فاختل بعده أمرهم ، وصار من عجائب الكون ذكرهم ، حين ضاع شكرهم ، فكان من ترجمة اتباع قصتهم لما قبلها أن آل داود عليه السلام شكروا ، فسخر لهم من الجبال والطير والمعادن وغيرها ما لم يكن غيرهم يطمع فيه ، وهو أضاعوا الشكر فأعصى عليهم وأضاع منهم ما لم يكونوا يخافون فواته من مياهمم وأشجارهم وغيرها ، فقال تعالى مشيرا بتأكيده إلى تعظيم ما كانوا فيه ، وأنه في غاية الدلالة على القدرة ، وسائر صفات الكمال ، وأن عمل قريش عمل من ينكر ما تدل عليه قصتهم من ذلك : (لقد كان لسبأ) أي القيلة المشهورة التي كانت تسجد للشمس ، فهداهم الله تعالى على يد سليمان عليه السلام ، وحكمة تسكين قنيل همزتها الإشارة إلى ما كانوا فيه من الخفض والدعة ورفاهة العيش المثمرة للراحة والطمأنينة والهدوء والسكينة ، ولعل قراءة الجمهور لها بالصرف تشير إلى مثل ذلك ، وقراءة أبي عمرو والبزي عن ابن كثير بالمنع تشير إلى رجوعهم بما صاروا إليه من سوء الحال إلى غالب أحوال تلك البلاد في الإقفار وقلة النبت والعطش) في مسكنهم) أي التي هي في غاية الكثرة ، ووحد حمزة والكسائي وحفص عن عاصم إشارة إلى أنها لشدة اتصال **المنافع** والمرافق كالمسكن الواحد ، وكسر الكسائي الكاف إشارة إلى أنها في غاية الملاءمة لهم واللين ، وفتحه الآخران إشارة إلى ما فيها من الروح والراحة ، وكانت بأرض مأرب من بلاد اليمن ، قال حمزة الكرماني : قال ابن عباس رضي الله عنهما : على ثلاث فراسخ من صنعاء ، وكانت أخصب البلاد وأطيبها وأكثرها ثمارا حتى كانت المرأة تضع على رأسها المكتل وتطوف في ما بين الأشجار فيمتلئ المكتل من غير أن تمس شيئا بيدها ، وكانت مياههم تخرج من جبل فبنوا فيه سدا وجعلوا له ثلاثة أبواب فكانوا يسرحون الماء إلى كرومهم من الباب الأعلى والأوسط والأسفل ، قال الرازي : كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها وعلى رأسها مكتلها فتمتهن مغزلتها ، فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ مكتلها من الثمار ، وقال أبو حيان في النهر : ولما ملكت بلقيس اقتتل قومها على ماء واديهم فتركت ملكها ، وسكنت قصرها وراودها على أن ترجع فأبت فقالوا : لترجعن أو لنقتلنك ، فقالت لهم : لا عقول لكم ، ولا تطيعوني ، فقالوا نطيعك ، فرجعت إلى واديهم ، وكانوا إذا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/١٤٤

مطروا أتاهم السيل من مسيرة ثلاثة أيام ، فأمرت به فسد ما بين الجبلين بمسناة بالصخر والقار ، وحبست الماء من وراء السد ، وجعلت له أبوابا بعضها فوق بعض ، وبنت من دونه بركة فيها اثنا عشر مخرجا على عدة أنهارهم ، وكان الماء يخرج لهم بالسوية ، وقال المسعودي في مقدمات مروج الذهب." (١)

" صفحة رقم ٢١١

تطلبون أن تخرجوا من الملح دون العذب وتوجدون ذلك للإخراج ، قال البغوي : وقيل : نسب اللؤلؤ إليهما لأنه قد يكون في البحر الملح هيون عذبة تمتزج به فيكون اللؤلؤ من ذلك .

) حلية تلبسونها) أي نساؤكم من الجواهر : الدر والمرجان وغيرهما ، فما قضى برخاوة ذلك وصلابة هذا مع تولدهما منه إلا الفاعل المختار .

ولما كان الأكل والاستخراج من **المنافع** العامة عم بالخطاب ، ولما كان استقرار شيء في البحر دون غرق أمرا غريبا ، لكنه صار لشدة إلفه لا يقوم بإدراك أنه من أكبر الايات دلالة على القادر المختار إلا أهل البصائر ، خص بالخطاب فقال : (وترى الفلك) أي السفن تسمى فلكا لدورانه وسفينة لقشرة الماء ، وقدم الظرف لأنه أشد دلالة على ذلك فقال : (فيه) أي كل منهما غاطسة إلا قليلا منها .

ولما تم الكلام ، ذكر حالها المعلل بالابتغاء فقال : (مواخر) أي جواري مستدبرة الريح شاقة للماء خارقة للهواء بصدرها هذه مقبلة وهذه مدبرة وجهها إلى ظهر هذه بريح واحدة ؛ قال البخاري في باب التجارة في البحر : وقال مجاهد : تخمر السفن الريح ، ولا تخمر الريح من السفن إلا الفلك العظام ؛ وقال صاحب القاموس : مخرت السفينة كمنع مخورا ومخورا : جرت أو استقبلت الريح في جريتها ، والفلك المواخر التي يسمع صوت جريها أو تشق الماء بجآجئها أو المقبلة والمدبرة بريح واحدة ، وفي الحديث : إذ أراد أحدكم البول فليتخمر الريح ، وفي لفظ : استمخروا الريح ، أي اجعلو ظهوركم إلى الريح فإنه إذا ولاها شقها بظره فأخذت عن يمينه ويساره ، وقد يكون استقبالها تمخرا غير أنه في الحديث استدبار – انتهى كلام القاموس .

ثم علق بالمخر معللا قوله : (لتبتغوا) أي تطلبوا طلبا شديدا .

ولما تقدم الاسم الأعظم في الآية قبلها ، أعاد الضمير عليه ليعلم شدة ارتباط هذه الآية بالتي قبلها فقال : (من فضله) أي الله بالتوصل بذلك إلى البلاد الشاسعة للمتاجر وغيرها ولو جعلها ساكنة لم يترتب عليها ذلك ، وفي سورة الجاثية ما ينفع هنا) ولعلكم تشكرون) أي ولتكون حالهم بهذه النعم الدالة على عظيم

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/١٦٧

قدرة الله ولطفه حال من يرجى شكره .

فاطر : (١٣ - ١٧) يولج الليل في. ... .

) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما." (١)

" صفحة رقم ٢٦٤

دام هذا الكون موجودا على هذا الترتيب) أن تدرك) أي لأن حركتها بطيئة) القمر) أي فتطسمه بالكلية ، فما النهار سابق الليل) ولا اليل سابق النهار) أي حتى ينبغي للقمر مع سرعة سيره أن يدرك الشمس ويغلبها فلا يوجد نهار أصلا ، ولو قيل : يستبق لاختل المعنى على ما حذف من الثانية من نفي إدراك القمر للشمس ، وذكر ثانيا سبق الليل النهار لما له من القوة بما يعرض من النهار فيغشيه دليلا على حذف سبق النهار الليل أولا) وكل) أي من المذكورات حقيقة ومجازا) في فلك (محيط به ، ولما ذكر لها فعل العقلاء ، وكان على نظام محرر لا يختل ، وسير مقدر لا يعوج ولا ينحل ، فكان منزها عن آفة تلحقه ، أو ملل يطرقه ، عبر بما تدور مادته على القدرة والشدة والاتساع فقال : آتيا بضمير العقلاء جامعا لأنه أدل على تسخيرهم دائما : (يسبحون (حثا على تدبر ما فيها من الآيات التي غفل عنها - لشدة الإلف لها - الجاهلون .

ولما ذكر ما حد له حدودا في السباحة في وجه الفلك لو تعداها لاختل النظام ، ذكر ما هيأه من الفلك والسباحة على وجه الماء الذي طبق الأرض في زمن نوح عليه السلام حتى كانت السماء ، ولو تعدت السفينة ما حد لها سبحانه من المنازل فنفذت إلى بحر الظلمات لفسد الشأن ، وكانوا فيها كأنهم في الأرض ، وبسيرها كأنهم يخترقون الجبال والفيافي والقفاز - كل ذلك تذكير بأيام الله ، وتنبيها على استدرار نعمه ، وتحذيرا من سطواته ونقمه ، ومنا عليهم بما يسر لهم من سلوك البحر والتوصل به إلى جليل **المنافع** فقال : (وآية لهم) أي على قدرتنا التامة الشامل) أنا) أي على ما لنا من العظمة) حملنا (.

ولما كان من قبل نوح عليه السلام من أصول البشر لم يحملوا في الفلك ، عدل عن التعبير بالضمير والآباء إلى قوله : (ذريتهم) أي ذرية البشر التي ذرأناها وذروناها وذررناها حتى ملأنا بها الأرض من ذلك الوقت إلى آخر الدهر ، ولهذا التكثير المفهوم من هذا الاشتقاق البليغ اغتنى ابن كثير وأبو عمرو والكوفيون فقرؤوا بالإفراد ، وزادت في الإيضاح قراءة الباقين بالجمع ، بعضهم ظاهرا وبعضهم في ظهر أبيه) في الفلك (

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٢١١

عرفه لشهرته بين جميع الناس) المشحون) أي الموقر المملوء حيوانا وزادا ، وهو يتقلب في تلك المياه التي لم ير قط مثلها ولا يرى أبدا ، ومن ذلك فسلمه الله .

ولما كانت هذه الآية لم تنقطع بل عم سبحانه بنفعها : (وخلقنا) أي بعظمتنا الباهرة) لهم من مثله) أي من مثل ذلك الفلك من الإبل والفلك) ما يركبون) أي مستمرين على ذلك على سبيل التجدد ليقصدوا منافعهم ، ولو شئنا لمنعنا ذلك .." [١]

" صفحة رقم ٢٨٣

الأشياء الصعبة جدا لغيره فهو قادر على تطويع الأشياء لنفسه ، ثم سبب عن ذلك قوله : (فمنها ركوبهم) أي ما يركبون ، وهي الإبل لأنها أعظم مركوباتهم لعموم منافعها في ذلك وكثرتها ، ولمثل ذلك في التذكير بعظيم النعمة والنفع واستقلال كل من النعمتين بنفسه أعاد الجار ، وعبر بالمضارع للتجدد بتجدد الذبح بخلاف المركوب فإن صلاحه لذلك ثابت دائم فقال : (ومنا يأكلون (.

ولما أشار إلى عظمة نفع الكركوب والأكل بتقديم الجار ، وكانت منافعها من غير ذلك كثيرة ، قال : (ولهم فيها منافع) أي بالأصواف والأوبار والأشعار والجلود والبيع وغير ذلك ، وخص المشرب من عموم المنافع لعموم نفعه ، فقال جامعا له لاختلاف طعوم ألبان الأنواع الثلاثة ، وكأنه عبر بمنتهى الجموع لاختلاف طعوم أفراد النوع الواحد لمن تأمل) ومشارب) أي من الألبان ، أخرجماها مميزة عن الفرث والدم خالصة لذيذة ، وكل ذلك لا سبب له إلا أن كلمتنا حقت به ، فلم يكن بد من كونه على وفق ما أردنا ، فليحذر من هو أضعف حالا منها من حقوق أمرنا ومضي حكمنا بما يسوءه .

ولما كانت هذه الأشياء من العظمة بمكان ، لو فقده الإنسان لتكدرت معيشته ، سبب عن ذلك استئناف الإنكار عليهم في تخلفهم عن طاعته بقوله : (أفلا يشكرون) أي يوقعون الشكر ، وهو تعظيم المنعم لما أنعم وهو استفهام بمعنى الأمر .

يس : (٧٤ - ٧٦) واتخذوا من دون. .. . .

) واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون (( )

ولما ذكرهم نعمه ، وحذرهم نقمه ، عجب منهم في سفول نظهم وقبح أثرهم ، فقال موبخا ومقرعا ومبكتا ومعجبا من زيادة ضلالهم عادلا عن مظهر العظمة إلى أعظم منه : (واتخذوا) أي فعلنا لهم ذلك والحال

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٢٦٤

أنهم كلفوا أنفسهم على غير ما تهدي إليه الفطرة الأولى أن أخذوا ، أو يكون معطوفا على (كانوا) من قوله : (إلا كانوا به يستهزءون (فيكون التقدير : إلا كانوا يجددون الاستهزاء ، واتخذوا قبل إرساله إليهم مع ما رأوا من قدرتنا وتقبلوا فيه من نعمتنا : (من دون الله) أي والذي له جميع العظمة ، فكل شيء دونه ، وما كان دونه كان مقهورا مربوبا) آلهة) أي لا شيء لها من القدرة ولا من صلاحية الإلهية .

ولما تقرر أنها غير صالحة لها أهلوها له ، تشوف السامع إلى السؤال عن سبب ذلك ، فقال جوابا له تعجيبا من حالهم : (لعلهم) أي العابدين .

ولما كان مقصودهم حصول النصر من أي ناصر كان ، بني للمفعول قوله : (ينصرون) أي ليكون حالهم بزعمهم في اجتماعهم عليها والتئامهم بها حال من ينصر على من يعاديه ويعانده ويناويه .." [١]

" صفحة رقم ٢٨٧

ليس شجر إلا وفيه نار إلا العناب – انتهى .

ولذلك قالوا في المثل المشهور : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار) فإذا أنتم) أي فيتسبب عن ذلك مفاجأتكم لأنكم) منه) أي الشجر الموصوف بالخضرة بعينه) توقدون) أي توجدون الإيقاد ويتجدد لكم ذلك مرة بعد أخرى ، ما هو بخيال ولا سحر بل حقيقة ثابتة بينة ، وكأنه قدم الجار لكثرة إيقادهم منه ، إيقادهم من غيره لذلك ولعظمته عدما .

ولما كان ذلك من غير كافة عليهم ، قدم الجار تخصيصا له وعدا لغيره كالمعدوم ، فالذي قدر على تمييز النار من الماء والخشب وخبء النار فيهما لا النار تعدو على الخشب فتحرقه ولا الماء يعدو على النار فيطفئها قادر على تمييز تراب العظام من تراب غيرها ، ونفخ الروح كما نفخ روح النار في الحطب المضاد له بالمائية .

ولما كان التقدير : أليس الذي قدر على ذلك بقادر على ما يريد من إحياء العظام وغيرها ، عطف عليه ما هو أعظم شأنا منه تقديرا على الأدنى بالأعلى فقال : (أوليس الذي خلق) أي أوجد من العدم وقدر) السموات والأرض) أي على كبرهما وعظمتهما وعظيم ما فيهما من المنافع والمصانع والعجائب والبدائع ، وأثبت الجار تحقيقا للأمر وتأكيدا للتقرير فقال : (بقادر) أي بثابت له قدرة لا يساويها قدرة ، ومعمى قراءة رويس عن يعقوب بتحتانية مفتوحة وإسكان القاف من غير ألف ورفع الراء أنه يجدد تعليق القدرة على سبيل الاستمرار) على أن يخلق (ولفت الكلام إلى الغيبة إيذانا بأنهم صاروا بهذا الجدل أهلا لغاية

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٢٨٣

الغضب فقال : (مثلهم) أي مثل هؤلاء الأناسي أي يعيدهم بأعيانهم كما تقول : مثلك كذا أي أنت ، وعبر به إفهاما لتحقيرهم وأن إحياء العظام الميتة أكثر ما يكون خلقا جديدا ، بل ينقص عن الاختراع بأن له مادة موجودة ، وعبر بضمير الجمع لأنه أدل على القدرة ، قال الرازي : والقدرة عبارة عن المعنى الذي به يوجد الشيء مقدرا بتقدير الإرادة والعلم واقعا على وفقهما وإن كانت صفات الله تعالى أعلى من أن يطمحها نظر عقل ، وتلحقها العبارات اللغوية ، ولكن غاية القدرة البشرية واللغة العربية هذا .

ولما كان الجواب بعد ما مضى من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة الاعتراف ، قال سبحانه مقررا لما بعد النفي إشارة إلى أنه تجب المبادرة إليه ، ولا يجوز التوقف فيه ومن توقف فهو معاند : (بلى) أي هو قادر على ذلك) وهو (مع ذلك أي كونه عالما بالخلق) الخالق (البالغ في هذه الصفة مطلقا في تكثير الخلق وتكريره بالنسبة إلى كل شيء ما لا تحيط به الأوهام ، ولا تدركه العقول والإفهام ، ولم ينازع أحد في العلم بالجزئيات بعد كونها ، كما نازعوا في القدرة على إيجاد بعض الجزئيات ، فاكتفى فيه." (١)

" صفحة رقم ٤٠٠

مضمونة وافق الواقع منه هذا الإخبار عنه ، ولما كان أشق ما فيه وأنكأ تخاصمهم جعله هو المخبر به وحده ، فقال مبينا له مخبرا عن مبتدإ استنافا تقديره : هو) تخاصم أهل النار (لأنه ما أناره لهم إلا الشر والنكد فسمي تخاصما .

ص : (٦٥ - ٧٠) قل إنما أنا. .. . .

) قل إنمآ أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ما كان لي من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلي إلا أنمآ أنا نذير مبين (( )

ولما كانت قد جرت عادتهم عند التخويف أن يقولوا : عجل لنا هذا إن كنت صادقا فينا ادعيت ، ومن المقطوع به أنه لا يقدر على ذلك إلا الإله فصاروا كأنهم نسبوه إلى أنه ادعى الإلهية ، قال تعالى منبها على ذلك آمرا له بالجواب : (قل) أي لمن يقول لك ذلك : (إنما أنا منذر) أي مخوف لمن عصى ، ولم أدع أني إله ، ليطلب مني ذلك فإنه لا يقدر على مثله إلا الإله ، فهو قصر قلب الموصوف على الصفة ، وأفرد قاصرا للصفة في قوله : (وما (وأعرق في النفي بقوله : (من إله (اي معبود بحق لكونه محيطا بصفات الكمال .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٨٧/٦

ولما كان السياق للتوحيد الذي هو أصل الدين ، لفت القول عن مظهر العظمة إلى أعظم منه وأبين فقال : (إلا الله (وللإحاطة عبر بالاسم العلم الجامع لجميع الأسماء الحسنى ولو شاركه شيء لم يكن محيطا وللتفرد قال مبرهنا على ذلك : (الواحد) أي بكل اعتبار فلا يمكن أن يكون له جزء أو يكون له شبيه محتاجا مكافئا) القهار) أي الذي يقهر غيره على ما يريد ، وهذا برهان على أنه الإله وحده وأن آلهتهم بعيدة عن استحقاق الإلهية لتعددها وتكافئها بالمشابهة واحتياجها .

ولما وصف نفسه سبحانه بذلك ، دل عليه بقوله : (رب السماوات) أي مبدعها وحافظها على علوها وسعتها وإحكامها بما لها من الزينة **و المنافع** ، وجمع لأن المقام للقدرة ، وإقامة الدليل على تعددها سهل) والأرض (على سعتها وضخامتها وكثافتها وما فيها من العجائب .

ولما كان القائل مخيرا كما قال ابن مالك في الكافية الشافية عند اختلاط العقلاء بغيرهم في إطلاق ما شاء من (من) التي أغلب إطلاقها على العقلاء و (ما) التي هي بعكس ذلك ، وكان ربما وقع في وهم أن تمكنه تعالى من العقلاء دون تمكنه من غيرهم لما لهم من الحيل التي يختزون بها عن المحذور ، وينظرون بها في عواقب الأمور ، أشار إلى أن حكمه فيهم كحكمه في غيرهم من غير فرق بالتعبير عنهم ب (ما) التي أصلها وأغلب استعمالها لمن لا يعقل ، وسياق العظمة بالوحدانية وآثارها دال على دخولها في." [(١)]

" صفحة رقم ٥٠٩

ولما خيلهم بهذا الكلام الذي يمكنه توجيهه ، شرع في وعظهم إظهارا للنصيحة لهم والتحسر عليهم فقال مذكرا لهم بنعمة الله عليهم محذرا لهم من سلبها مستعطفا بذكر أنه مهم : (يا قوم (وعبر بأسلوب الخطاب دون التكلم تصريحا بالمقصود فقال : (لكم الملك (ونبه على ما يعرفونه من تقلبات الدهر بقوله : (اليوم (وأشار إلى ما عهدوه من الخذلان في بعض الأزمان بقوله : (ظاهرين) أي غالبين على بني إسرائيل وغيرهم ، وما زال أهل البلاء يتوقعون الرخاء ، وأهل الرخاء يتوقعون البلاء ، ونبه على الإله الواحد القهار الذي له ملك السماوات فملك الأرض من باب الأولى ، بقوله معبرا بأداة الظرف الدالة على الاحتياج ترهيبا لهم : (في الأرض) أي أرض مصر التي هي لحسنها وجمعها **المنافع** كالأرض كلها ، قد غلبتم الناس عليها .

ولما علم من هذا أنهم لا يملكون جميع الكون ، تسبب عنه أن المالك للكل هو الإله الحق والملك المطلق الذي لا مانع لما يريد ، فلا ينبغي لأحد من عبيده أن يتعرض إلى ما لا قبل له به من سخطه ،

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٤٠٠

فلذلك قال : (فمن نصرنا) أي أنا وأنتم ، أدرج نفسه فيهم عن ذكر الشر بعد إفراده لهم بالملك إبعادا للتهمة وحثا على قبول النصيحة : (من بأس الله) أي الذي له الملك كله ، ونبه بأداة الشك على أن عذابه لهم أمر ممكن ، والعاقل من يجوز الجائز ويسعى في التدرع منه فقال : (إن جاءنا) أي غضبا لهذا الذي يدعي أنه أرسله ، ويجوز أن يكون صادقا ، بل يجب اعتقاد ذلك لما أظهره من الدلائل ، وفي قوله هذا تسجيل عليهم بأنهم يعرفون أن الله ملك الملوك ورب الأرباب ، وكذا قول موسى عليه السلام

٧٧ ( ) لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض ( ) ٧

[الاسراء : ١٠٢] وإن ادعاء فرعون الإلهية إنما هو محض عناد .

ولما سمع فرعون ما لا طعن له فيه ، فكان بحيث يخاف من بقية قومه إن أفحش في أمر هذا المؤمن ، فتشوف السامع لجوابه ، أخبر تعالى أنه رد ردا جون رد بقوله : (قال فرعون) أي لقومه جوابا لما قاله هذا المؤمن دالا بالحيدة عن حاق جوابه على الانقطاع بالعجز عن نقض شيء من كلامه : (ما أريكم) أي من الآراء) ألا ما أرى) أي إنه الصواب على قدر مبلغ علمي ، أي إنه الصواب على قدر مبلغ علمي ، أي أن ما ما أظهرته لكم هو الذي أبطنه .

ولما كان في كلام المؤمن تعريض في أمر الهداية ، وكان الإنسان ربما يتوافق قلبه ولسانه ، ويكون تطابقهما على ضلال ، قال : (وما أهديكم) أي بما أشرت به من قتل موسى عليه السلام وغيره) إلا سبيل الرشاد) أي الذي أرى أنه صواب ، لا أبطن شيئا وأظهر غيره ، وربما يكون في هذا تنبيه لهم على ما يلوح من كلام المؤمن لأنه ارتاب في أمره ، وفي هذا أنه في غاية الرعب من أمر موسى عليه السلام لاستشارته لقومه في أمره واحتمال هذه المراجعات التي يلوح منها أنه يكاد ينفطر غيظا منه ولكنه يتجلد .." [١]

" صفحة رقم ٥٣٠

يوجدون الكبر ، ودل على أن المراد بالدعاء العبادة بقوله : (عن عبادتي) أي عن الاستجابة لي فيما دعوت من العبادة بالمجادلة في آياتي والإعراض عن دعائي في جميع ما ينوبهم في الشدة والرخاء) سيدخلون (بوعد لا خلف فيه) جهنم (فتلقاهم جزاء على كبرهم بالتهجم والعبوسة والكراهة) داخرين) أي صاغرين حقيرين ذليلين ، فالآية من الاحتباك : ذكر الدعاء أولا دليلا على حذفه ثانيا ، والعبادة ثانيا دليلا على حذفها أولا .

ولما ختم ذلك أيضا بأمر الساعة ، زاد في الدلالة عليه وعلى الفعل بالاختيار والحكمة التي لا يسوغ معها

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٠٩/٦

إهمال الخلق من غير حساب ، في دار ثواب وعقاب ، بعد الإتقان لدار العمل بالخطإ والصواب ، فقال معللا مفتتحا بالاسم الأعظم الذي لا يتخيل أن المسمى به يهمل المتكبرين عليه مع الإبلاغ في الإحسان إليهم) الله) أي المحيط بصفات الكمال) الذي جعل لكم (لا غيره) اليل) أي مظلما) لتسكنوا فيه (راحة ظاهرية بالنوم الذي هو الموت الأصغر ، وراحة حقيقية بالعبادة التي هي الحياة الدائمة) والنهار مبصرا (لتنتشروا فيه باليقظة التي هي إحياء في المعنى ، فالآية من الاحتباك : حذف الظلام أولا لكونه ليس من النعم المقصودة في أنفسها لما دل عليه من الإبصار الذي هو المقصود من نعمة الضياء المقصود في نفسه ، وحذف الانتشار لأنه بعض ما ينشأ عن نعمة الإبصار لما دل عليه من السكون الذي هو المقصود الأعظم من الليل : للراحة لما أرادها ، لما اعتمدها واستزادها .

ولما كان بعض الكفرة ينسب الأفعال كما مضى للطبائع ويجعلها بغير اختيار ، قال مستأنفا أو معللا مؤكدا : (إن الله) أي ذا الجلال والإكرام) لذو الفضل) أي عظيم جدا ياختياره) على الناس) أي كافة باختلاف الليل والنهار وما يحتويان عليه من **المنافع** .

ولما بلغت هذه الآيات من الدلالة على الوحدانية والبعث ونفى أمر الطبائع حدا قل أن يوجد في غيرها ، فكان المخالف مذموما لذلك غاية الذم ، فكان التعميم بالذم للمخالفين واقعا في أوفق محاله ، وكان الاسم قد يراد بعض مدلومه ، وكان المراد هنا التعميم ، أظهر للإفهام إرادة ذلك ، ولم يضمر ليتعلق الحكم بالوصف المفهم للنوس المشير إلى أن صاحبه قاصر عن درجة أول أسنان المؤمنين فيعلم أن هذا النوع مطبوع على ذلك فقال : (ولكن أكثر الناس) أي بما لهم من الاضطراب وعدم الثبات في لزوم الصواب) لا يشكرون (فينسبون أفعاله سبحانه إلى غيره جهلا ، أي يعلمون بما يسلب عنهم اسم الشكر من الشرك وغيره ، ويجوز أن يكون المراد بالناس أولا كل من يتأتى منه النوس ، وهو كل من برز الوجود ، وبهم ثانيا الجن والإنس – والله أعلم .." (١)

" صفحة رقم ٥٤١

الأمر عظما لمزيد الخوف والرجاء بالإظهار دون الإضمار فقال : (أمر الله) أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما ، وأمره ما توعد به من العذاب عند العناد بعد الإجابة إلى المقترح ، ومن القيامة وما فيها ، وتكرير الاسم الأعظم لتعظيم المقام باستحضار ما له من صفات الجلال والإكرام ، ولثبات ما أراد ولزومه عبر عنه بالقضاء ، فقال مشعرا بصيغة المفعول بغاية السهولة : (قضي) أي بأمره على أيسر وجه وأسلهه) بالحق

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٥٣٠

) أي الأمر الثابت الذي تقدم الوعد به وحكم بثبوته من إهلاك ناس وإنجاء آخرين أو إيمان قوم وكفر آخرين – وهذا كله هو الذي أجرى سبحانه سنته القديمة بثبوته ، واما الفضل من الإمهال والتطول بالنعم فإنما هو قبل الإجابة إلى المقترحات ، والدليل على أن هذا من مراد الآية ما يأتي من قوله : (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا (وما أشبهه) وخسر) أي هلك أو تحقق وتبين بالمشاهدة أنه خسر) هنالك) أي في ذلك الوقت العظيم بعظمة ما أنزلنا فيه ، ظرف مكان استعير للزمان إيذانا بغاية الثبات والتمكن في الخسارة تمكن الجالس) المبطلون) أي المنسوبون إلى إيثار الباطل على الحق ، إما باقتراح الآيات مع إيتانهم بما يغنيهم عنها وتسميتهم له سحرا أو بغير ذلك ، إما بتيسرهم على الرجوع عما هم فيه من العناد من غير إذعان وإما الهلاك ، وإما بإدحاض الحجج والحكم عليهم بالغلب ثم النار ولو بعد حين ، ومن هذه الآية أخذ سبحانه في رد مقطع السورة على مطلعها ، فهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى) وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ( ) وما كان لرسول أن يأتي بآية (إلى) وجادلوا بالباطل (و) أفلم يسيروا في الأرض (إلى) فأخذتهم فكيف كان عقاب (وهذا وما بعده مما اشتمل عليه من الحكمة والقدرة إلى الثلاث الآيات الأول .

ولما كان المبطلون ليسوا أشد ولا أقوى من بعض الحيوانات العجم ، دل على ما أخبر به من نافذ نصرته فيهم بقوله مذكرا لهم نعمته مستعطفا إلى طاعته دالا على التوحيد بعد تليينهم بالوعيد مظهرا الاسم الجامع إشارة إلى أن هذه الآية من الدلالات لا يحصى : (الله) أي الملك الأعظم) الذي جعل لكم (لا غيره) الأنعام) أي الأزواج الثمانية بالتذليل والتسخير) لتركبوا منها (وهي الإبل مع قوتها ونفرتها ، والتعبير باللام في الركوب مطلقا ثم فيه مقيدا ببلوغ الأماكن الشاسعة إشارة إلى أن ذلك هو المقصود منها بالذات ، وهو الذي اقتضى تركيبها على ما هي عليه ، فنشأ منه بقية **المنافع** فكانت تابعة .

ولما كان الاقتيات منها – في عظيم نفعه وكثرته وشهوته – بحيث لا يناسبه غيره ، عد الغير عدما فقال تعالى : (منها) أي من الأنعام كلها) تأكلون (بتقديم الجار .." [1]

" صفحة رقم ٥٤٢

ولما كان التصرف فيها غير منضبط ، أجمله بقوله : (ولكم فيها) أي كلها) منافع) أي كثيرة بغير ذلك في الدر والوبر والصوف وغيرها .

ولما كان سوقها وبلوغ الأماكن الشاسعة عليها في أقرب مدة لنيل الأمور الهائلة عظيم الجدوى جدا ، نبه

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٤١/٦

على عظمته بقطعه عما قبله بإجمال المنافع ثم تفصيله منه فقال : (ولتبلغوا) أي مستعلين) عليها (وهي في غاية الذل والطواعية ، ونبههم على نقصهم وعظيم نعمته عليهم بقوله : (حاجة) أي جنس الحاجة .

ولما كان في مقام التعظيم لنعمه لأن من سياق الامتنان وإظهار القدرة وحدها وجمع ما تضمر فيه فقال : (في صدوركم (إشارة إلى أن حاجة واحدة ضاقت عنها قلوب الجميع حتى فاضت منها فملأت مساكنها .

ولما كان الحمل يكون مع مطلق الاستعلاء سواء كان على أعلى الشيء أولا بخلاف الركوب ، قال معبرا بأداة الاستعلاء فيها وفي الفلك غير سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ، فإنهاكانت مغطاة كما حكي فكانوا في بطنها لا على ظهرها : (وعيلها) أي في البر) وعلى الفلك) أي في البحر) تحملون) أي تحمل لكم أمتعتكم فإن حمل الإنسان نفسه تقدم بالركوب .

وأشار بالنباء للمفعول أنه سخر ذلك تسخيرا عظيما لا يحتاج معه إلى علاج في نفس الحمل .

غافر : (٨١ - ٨٥) ويريكم آياته فأي. .. . .

) ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فمآ أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جآءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (( )

ولما كانت هذه آية عظيمة جعلها سبحانه مشتملة على آيات كثيرة ، عبر فيها بالماضي وعطف بالمضارع تنبيها على ما تقديره : فأراكم هذه الآيات البينات منها ، قوله : (ويريكم) أي في لحظة) آياته) أي الكثيرة الكبيرة فيها وفي غيرها من أنفكسم ومن الآفاق ، ودل على كثرة الآيات وعظمتها بإسقاط تاء التأنيث كما هو المستفيض في غير النداء بإظهار الاسم الأعظم في قوله : (فأي آيات الله) أي المحيط بصفات الكمال) تنكرون (حتى تتوجه لكم المجادلة في آياته التي من أوضحها البعث .

ولما وصل الأمر إلى حد من الوضوح لا يخفى على أحد ، تسبب عنه لفت الخطاب عنهم دلالة على الغضب الموجب للعقاب المقتضي للرهيب فقال : (أفلم." (١)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٥٤٢

" صفحة رقم ٥٥٦

الأقوات والمنافع لأحاطة العلم بأنه يخص كل أمر من الأمرين يومان ، ونص على الأولين ليكون ذلك أدل على القدرة فيحسن موقع النعي عليهم بما فصل به الآيتين من اتخاذ الأنداد ، وإنما كان أدل على القدرة ، لأنه إيجاد ذوات محسوسة من العدم قائمة بأنفسها بخلاف البركة ، وتقدير الأقوات فإنه أملا لا يقوم بنفسه ، فلم يفرد يوميه بالذكر ، بل جعلهما تابعين كما أن ما قدر فيهما تابع ، ولم يفعل ذلك في أقل من لمح البصر مع تمام القدرة عليه ، لأن هذا أدل على الاختيار وأدخل في الابتلاء والاختيار ، ليضل به كثيرا ويهدي به كثيرا ، فيكون أعظم لأجورهم لأنه أدل على تسليمهم ، وجعل مدة خلقها ضعف مدة السماء مع كونها أصغر من السماء دلالة على أنها هي المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين ، فزادت بما فيها من كثرة المنافع وتباين أصناف الأعراض والجواهر لأن ذلك أدخل في المنة على سكانها . والاعتناء بشأنهم وشأنها ، وزادت أيضا بما فيها من الابتلاء بالتهيئة للمعاصي والمجاهدات والمعالجات التي يتنافس فيها الملأ الأعلى ويتخاصم - كل ذلك دلالة على أن المدة ما هي لأجل القدرة بل لأجل التنبيه على ما في المقدر من المقدور وعجائب الأمور ، وليعلم أيضا بخلق السماء التي هي أكبر جرما وأتقن جسما وأعظم زينة وأكثر منافع بما لا يقايس في أقل من مدة خلق الأرض أن خلقها في تلك المدة ليس للعجز عن إيجادها في أقل من اللمح ، بل لحكم تعجز عن حملها العقول ، ولعل تخصيص السماء بقصر المدة دون العكس لإجراء أمرها على ما نتعارفه من أن بناء السقف أخف من بناء البيت تنبيها على أنه بنى أمر دارنا هذه على الأسباب تعليما للتأني وتدريبا على السكينة والبعد من العجلة .

ولما كان لفظ) سواء (الذي هو بمعنى العدل الذي لا يزيد عن النصف ولا ينقص يطلب اثنين ، تقول : سواء زيد وعمرو) إلى كلمة س٫اء بيننا وبينكم (قال تعالى مزيلا لما أوهمه قوله : (أربعة أيام (من أنها للأقوات والبركة ليكون مع يومين من الأرض ستة ، ناصبا على المصدر : (سواء) أي التوزيع إلى يومين ويومين على السواء) للسائلين) أي لمن سأل أو كان بحيث يسأل ويشتد بحثه بسؤال أو نظر عن التوفيق بين ظاهر هذه الآية وبين غيرها ، لا بد في كل يوم منها من زيادة عن الذي قبله أو نقص ، ومجموع الأربعة كأربعة من أيام الدنيا لا تزيد عليها ولا تنقص ، وقراءة يعقوب بجر (سواء) معينة لأن تكون نعتا ل (أربعة) وقراءة أبي جعفر بالرفع خبر لمبتدأ محذوف ، وعن خلقها وتتميمها في أربعة أيام كانت فصولها أربعة ، قال ابن برجان : ألا." (١)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٥٦/٦

" صفحة رقم ٥٥٧

ترى الأمر إلى السماء أولا في إنزال الماء فيخلقه فيما هنالك ثم ينزله إلى الأرض والنبات والحيوان عن الماء الذي ينزل من السماء إلى الأرض بمنزلة النسل بين الذكر والأنثى وبمنزلة تسخير السماء والأرض وما بينهما لما وجدنا له فافهم – أمر قويم وحكمة شائعة آية قضاؤه بركات الأرض في أربعة أيام بواسطة ما قدر في السماء من أمر وهي الأربعة الفصول من السنة .

الشتاء الربيع الصيف والخريف ، فهذه الأيام معلومة بالمشاهدة ، فيهن يتم زرع الأرض وبركات الدنيا وجميع ما يخرجه منها من فؤائد وعجائب ، قال : وقوله (السائلين) تعجيب وإغراب وتعظيم للمراد المعنى بالخطاب ، وقد يكون معنى السواء زائدا إلى ما تقدم أن بهذه الأربعة الأيام استوت السنة مطالعها ومغاربها وقربها وبعدها وارتفاعها ونزولها في شمالي بروجها وجنوبيها باحكام ذلك كله وتوابعه – انتهى .

ولما كانت السماوات أعظم من الأرض في ذاتها بنور أبنيتها واتساعها وزينتها ودوران أفلاكها وارتفاعها ، نبه على ذلك بالتعبير بأداة التراخي ، ولفظ الاستواء وحب الغاية الدال على عظيم العناية فقال : (ثم استوى) أي قصد قصدا هو القصد منتهيا قصده) إلى السماء وهي) أي والحال أنها) دخان (بعد ما فتقها من الأرض ، قالوا : كان ذلك الدخان بخار الماء فهو مستعار من المرتفع من النار ، وهو تشبيه صوري ، فالسماء متقدمة في الدخانية على الأرض ، تقدم الذكر على الأنثى ثم خلقت ذات الرض وبعد تصوير السماء أولا إيجادا وتتميما لتسوية السماء بعد أن كانت دخانا ، ويومان لتتميم **المنافع** فتداخلت الأعداد لتداخل الأفعال ،) فقال لها) أي عقب مقارنتين لما قدرته فيكما وأردته منكما من إخراج **المنافع** من المياه والنبات والمعادن وغيرها ، ووضع المصدر موضع الحال مبالغة فقال : (طوعا أو كرها) أي طائعين أو كارهتين في إخراج ما أودءتكما من الأمانة في أوقاتها وعلى ما ينبغي من مقاديرها وهيآتها طوع تسخير لا تكليف) قالتا أتينا) أي نحن وما فينا ما بيننا .

ولما جعلهما موضع المخاطبة للتي هي للعقلاء والتكلم ، قال جامعا لهما باعتبار أفرادهما وما فيهما جمع من يعقل : (طائعين) أي في كل ما رسمته فينا لا نحمل من ذلك شيئا بل نبذله على ما أمرت به لا نغير ولا نبدل ، وذلك هو بذلهما للأمانة ، وعدم حملها ، وجمع الأمر لهما في الإخبار لا يدل على جمعه في الزمان ، بل قد يكون القول لهما متعاقبا) فقضاهن) أي خلقهن وصنعهن حال كونهن معدودات) سبع سماوات (." [١]

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٥٥٧

" صفحة رقم ٥٥٨

صنعا نافذا هو كالقضاء لا تخلف فيه) في يومين) أي الخميس والجمعة إذا حسب مقدار ما يخصهن من التكوين في الستة الأيام التي كان فيها جحميع الخافقين ، وما بينهما كان بمقدار ما خص واحدا من الأرض ومن أقواتها لا يزيد على مدة منهما ولا ينقص ، فيكون الذي خصهما ثلث المجموع ، قال ابن جرير : وإنما سمي يوم الجمعة لأن الله تعالى جمع فيه خلق السماوات والأرض .

يعني فرغ من ذلك وأتمه) وأوحى) أي ألقى بطريق خفي وحكم مبتوت قوي) في كل سماء أمرها) أي الأمر الذي دبرها ودبر منافعها به على نظام محكم لا يختل ، وزمام مبرم لا ينحل .

ولما عم ، خص ما للتي تلينا إشارة إلى تشريفنا ، فقال صارفا القول إلى مظهر العظمة تنبيها على ما في هذه الآية من العظم : (وزينا) أي بما لنا من العظمة) السماء الدنيا) أي القربى إليكم لأجلكم) بمصابيح (من زواهر النجوم ، وشفوفها عنها لا ين ا في أن تكون في غيرها مما هو أعلى منها ، ودل السياق على أن المراد : زينة) و (حفظناها بها) حفظا (من الشياطين ، فالآية من الاحتباك : حذف فعل الحفظ بدلالة المصدر ، ومصدر الزينة بما دل عليه من فعلها .

ولما كان هذا أمرا باهرا ، نبه على عظمته بقوله صارفا الخطاب إلى صفتي العز والعلم إعلاما بأنهما أساس العظمة ومدارها : (ذلك) أي الأمر الرفيع والشأن البديع) تقدير العزيز (الذي لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء) العليم (المحيط علما بكل شيء وكما قدر سبحانه ذلك بعزته وعلمه قضى أنه لا يفيد العز الدائم إلا ما شرعه من العلم ، وفي ختمه بالوصفين بشارة للأمة التي خوطبت بهما أنه يوتيها من عزه وعلمه لا سيما بالهبة وما شاكلها من الطبائع وغيرها ما لم يؤت أمه من الأمم قبلها ، وسر خلقه سبحانه العالم في مدة ولم يكن قي لمحة وجعلها ستة لا أقل ولا أكثر أنه لو خلقه في لمحة لكان ذلك شب ه ة لمن يقول : إنه فاعل بالذات لا بالاختيار ، فاقتضى الحال عددا ، ثم اقتضى الحال أن يكون ستة لأنها أول عدد يدل على الكمال لأنها عدد تام كسورها لا تزيد عنها ولا تنقص ، فآذن ذلك بأن للفاعل نعوت الكمال وأوصاف التمام والتعال ، ولم يخلقه فيما دون ذلك من العدد لأنه ناقص ، وخلق الأرض في يومين مكررين باعتبار الذات **والمنافع** إيذانا بما يقع فيها من المعصية بالشرك الذي هو تثنية وإفك ، ولم يكرر في السماء لأن آياتها أدل على التوحيد ولم يحصل من أهلها ما يدل على الوعيد ، وليكون إيجادها في

أقل من مدة الأرض – مع أنها أكبر جرما وأعجب صنعا وأتقن جسما – أدل على الفعل بالاختيار بعجائب الحكم وغرائب الأسرار الكبار .." (١)

" صفحة رقم ٥٧٥

عبارة عن تنوير الدلائل الدالة على الذات والصفات ، وذلك ببيان الأفعال وآثارها وهو العالم بجميع ما فيه من الأجزاء والأبعاض جوهرا وعرضا ، وبدأ بذكر الفلكيات لأنها ادل ، فقال عاطفا على ما تقديره : فمن آياته الناشئة عن شمول علمه المستلزم لشمول قدرته المنتجة لإعادته لمن يريد ونفوذ تصرفه في كل ما يشاء المستلزم لتفرده بالإلهية أنه خلق الخافقين كما مضى في ستة أيام : (ومن آياته (الدالة على وحدانيته :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولما كانت الظلمة عدما والنور وجودا والعدم مقدم قال : (الليل والنهار) أي الدالان باختلافهما وهيئتهما على قدرته على البعث وعلى كل مقدور) والشمس والقمر (اللذان هما الليل والنهار كالروح لذوي الأجساد ، وهذه الموجوات – مع ما مضى من خلق الخافقين – كتاب الملك الديان ، إلى الإنس والجان ، المشهود لهم بالعيان كما قيل يا إنس ان :

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل وقد خط غيها لو تأملت خطة إلا كل شيء ما خلا الله باطل

ولما ثبت له سبحانه التفرد بالخلق والأمر ، وكان باطنا إلا عند من نور الله أو كانت الشمس والقمر من آياته المعرفة المشيرة في وجود الدنيا والآخرة إليه ، وكانا مشاهدين ، وكان الإنسان قاصر العقل مقيد الوهم بالمشاهدات لما عنده من الشواغل إلا من عصم الله ، أنتج قوله محذرا من عبادتهما لما يرة لهما من البهاء وفيهما من **المنافع** : (لا تسجدوا للشمس (التي هي أعظم أوثانكم فإنها من جملة مبدعاته ، وأعاد النافي تأكيدا للنفي لأن النهي عن كل منهما على حدته ولذلك أظهر موضع الإضمار فقال : (ولا للقمر (كذلك .

ولما نهى عن السجود لهما ، أمر بالسجود بما يبين استحقاقه لذلك وعدم استحقاقهما أو استحقاق شيء غيرهما له فقال : (واسجدوا (ونبه على مزيد عظمته بالإظهار موضع الإضمار فقال : (لله) أي الذي له كل كمال من غير شائبة نقص من أقول أو تجدد حلول) الذي خلقهن) أي الأربعة لأجلكم فهو الذي

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٥٨/٦

يستحق الإلهية ، وأنث لأن ما لا يعقل حكمه حكم المؤنث في الضمير وهي أيضا آيات ، وفيه إشارة إلى تناهي سفولها عما أهلوها له وذم عابديها بالإفراط في الغباوة ، ويمكن أن يكون عد القمر أقمارا لأنه يكون تارة هلالا وأخرى بدرا وأخرى محوا ، فلذلك جمع إشارة إلى قهرهما بالتغيير له في الجرم ولمهما بالتسيير ، ولذلك عبر بضمير المؤنث الذي يكون لجمع الكثرة مما لا يعقل .." [1]

" صفحة رقم ٦٠٦

ولما ذكر سبحانه ما شق العدم بإيجاده من غير سبب أصلا ، أتبعه ما سببه عن ذلك فأنشأه من العناصر التي أبدعتها يد القدرة في الخافقين ، فقال معبرا بالفعلية تذكيرا بما يوجب لهم الاعتراف بما اعترف به نبيه (صلى الله عليه وسلم) من أنه وحده ربه لا شريك له في ذلك ، فيوجب التوكل عليه وحده : (جعل لكم) أي بعد أن خلقكم من الأرض) من أنفسكم أزواجا (يكون بالسكون إليها بقاء نوعكم ، ولما كانت الأنعام ومنافعها لأجلنا قال : (ومن) أي وجعل لكم من) الأنعام (الي هي أموالكم وجمالكم وبها أعظم قوامكم) أزواجا) أي من انفسها ، يكون بها أيضا بقاء نوعها ، وكذا جميع الحيوانات ، ومعنى قوله مغلبا العقلاء : (يذرؤكم) أي يخلقكم ويكثركم ولما كان الأزواج في غاية المحبة للزواج بحيث إنه مستول على القلوب ، كان كأنه محيط بهم فقال : (فيه) أي في ذلك التزاوج بحيث يجعلكم مولعين به ، من قوله ذراه : خلقه وكثره وأولعه بالشيء ، فيكون لكم في الأزواج من البشر نطفا وجمالا وولادة ، وفي الأنعام غذاء وشرابا واكلا ، وغير ذلك مما لكم فيه من المنافع ، ولا تزالون في هذا الوجه والتزاوج نسلا بعد نسل وجيلا بعد جيل .

ولما تقرر في الأوهام وثبت في كثير من الأذهان أنه لا يكون شيء إلا بسبب التزواج ، كان ربما سرى شيء من هذا الوهم في حق الخالق سبحانه فنفاه على أبلغ وجه بقوله : استئنافا في جواب من يسأل عنه : (ليس (وقدم الخبر لأن المراد نفيه فأولاه النافي دلالة على شدة العناية بنفسه فقال : (كمثله) أي مثل نفسه في ذاته ولا في شيء من صفاته : (شيء (يزاوجه أو يناسبه ، وكل ما اتخذتموه وليا من دونه ، فله ما يزاوجه ويماثله ، فالمراد بالمثل هنا النفس وهو أصله وحقيقته في اللغة من قولهم : مثل الرجل يمثل - إذا قام وانتصب ، قال الإمام عبد الحق الإشبيلي في كتابه الواعي : و المثل يكون هو الحديث نفسه ٧٧ ( ) مثل الجنة التي وعد المتقون ( ) ٧

[الرعد : ٣٥] فمثلها هو الخبر عنها ، وقيل : المثل ههنا الصفة

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٧٥/٦

٧٧ ( ) ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ( ) ٧
[البقرة : ٢١٤] أي صفتهم ، نقل ذلك الهروي ونقل عن أبي عبد الله القزاز قوله :
٧٧ ( ) ضرب مثل فاستمعوا له ( ) ٧
[الحج : ٧٣] كذلك ، لأنه قال : (إن الذي تدعون (الآية فصار الخبر عن ذلك هو المثل ، قال : وهو على أصل ما ذكرنا أن مثل الشيء صفته وصورته ، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ) مثال (وقرأ) أمثال الجنة التي وعد المتقون (ثم قال : وهذا كله يدل على أن معنى) مثل (صفة صورة ، قال أبو عبد الله : مثلت له الشيء تمثيلا : صورته له حتى كأنه ينظر إليه ، وفي الحديث : (مثلت." (١)

" صفحة رقم ٦١٨

أنها الحق (إعلاما بأنهم على بصيرة من أمرها ، فهم لا يستعجلون بها ، فالآية من الاحتباك : ذكر الاستعجال أولا دليلا على حذف ضده ثانيا ، والإشفاق ثانيا دليلا عل حذف ضده اولا .

قال ابن كثير : وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسان والسنن والمسانيد أن رجلا سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بصوت جهوري وهو في بعض أسفاره فناداه : يا محمد ، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) بنحو من صوته (هاؤم) فقال : متى الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه : (ويحك أنها كائنة فما أعددت لها ؟) فقال : حب الله ورسوله ، فقال : (أنت مع من أحببت) .

قال ابن كثير : فقوله في الحديث (المرء مع من أحب) متواتر لا محالة ، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة ، بل أمره بالاستعداد لها - انتهى ، وهو مشروط بالبراءة من أعداء الله بدليل قصة أبي طالب فإنه لم ينفعه حب الولي نفعا تاما بدون البراءة من العدو .

ولما أعلم بتعريف الحق أنها ثابتة كاملا لا انقضاء له أصلا ولا زوال لآثارها ، أنتج قوله مؤكدا معظما في مقابلة إنكارهم : (ألا إن الذين يمارون) أي يظهرون شكهم في معرض اللجاجة لتسخرج ما عساه يكون فيها من اللبن) في الساعة) أي القيامة وما تحتوي عليه) لفي ظلال) أي ذهاب جائر عن الحق) بعيد (جدا عن الصواب ، فإن لها من الأدلة الظاهرة في العقل المؤيد بجازم النقل ما ألحقها حال غيابها بالمحسوسات لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا .

ولما كان حاصل أمر الفريقين أنه أظهر خوف الكافرين في غاية الأمن وأبطن أمن المؤمنين في أزعج خوف

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٦٠٦/٦

، وكان هذا عين اللطف ، فأنه الوصول إلى الشيء بضده ، ويطلق على إيصال البر إلى الخلق على وجه يدق إدراكه ، وكان أكثر ما يطيئ بالإنسان في أمر الدين اهتمامه بالرزق ، أنتج ذلك قوله : (الله) أي الذي له الأمر كله ف ہو يفعل ما يريد) لطيف) أي بالغ في العالم وإيقاع الإحسان بإيصال **المنافع** ، وصرف المضار على وجه يلطف إدراكه ، قال القشيري : اللطيف العالم بدقائق الأمور وغوامضها وهو الملطف المحسن وكلاهما في صفته سبحانه صحيح ، وأكثر ما يستعمل اللطف في وصفه بالإحسان في الأمور الدينية ، وقال الرازي في اللوامع : هو اسم مركب من علم." (١)

" صفحة رقم ٦٣٠

عليه الخلائق ما اطاقوا حمله ، فتصبح الأرض ما بين غدران وأنهار ، ونبات ونجم وأشجار ، وحب وثمار ، وغير ذلك من **المنافع** الصغار والكبار ، فلله ما أعلى هذه القدرة الباهرة والآية الظاهرة ، فيخرج من الأرض التي هي من صلابتها تعجز عنها المعاول نجما هو في لينه ألين من الحرير ، وفي لطافته ألطف من النسيم ، ومن سوق الأشجار التي تثني فيها المناقير أغصانا ألطف من ألسنة العصافير ، فما أجلف من ينكر إخراجه الموتى من القبور ، أو يحيد من ذلك بنوع من الغرور .

ولما أنكر عليهم فيما مضى اتخاذ ولي من دونه بقوله تعالى) أم اتخذوا من دونه أولياء (وأثبت أنه هو الولي ، وتعرف إليهم بآثاره التي حوت أفانين أنواره ، وكانت كلها في غاية الكمال موجبة للحمد المتواتر المنوال ، قال : (وهو) أي وحده لا غيره) الولي) أي الذي لا أحد أقرب منه إلى عباده في شيء من الأشياء) الحميد) أي الذي استحق مجامع الحمد مع أنه يحمد من يطيعه فيزيده من فضله ويصل حبله دائما بحبله .

ولما كان ما مضى من بسط الرزق وقبضة ، وإنزال الغيث وحبسه .

من الآيات العظمية ، عمم بذكر ما ذلك بعض منه ، وهو دال على جميع ما ختم به الآية السالفة من الحمد الذي هو الاتصاف بجميع صفات الكمال فقال عاطفا على ما تقديره : فذلك من آيات الله الدالة على قدرته واختياره وإنه هو الذي يحيي هذا الوجود بالمعاني من روح الوحي وغيره تارة والأعيان من الماء وغيره أخرى : (ومن آياته (العظيمة على ذلك وعلى استحقاقه لجميع صفات الكمال) خلق السماوات (التي تعملون أنها متعددة بما ترون من أمور الكواكب) والأرض) أي جنسها على ما هما عليه من الهيئات وما اشتملا عليه من **المنافع** والخيرات) وما بث) أي فرق بالأبدان والقلوب على هذا المنوال

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٦١٨

الغريب من الحس والحركة بالاختيار مع التفاوت في الأشكال ، والقدور واله يئات والأخلاق وغير ذلك من النقص والكمال .

ولما كانت الأرض بناء والسماء سقفه ، فمن كان في أحدهما صح نسبته إلى أنه في كل منهما : الأسفل بالإقلال والأعلى بالإظلال قال تعالى : (فيهما) أي السماوات والأرض ولا سيما وقد جعل لكل منها تسببا في ذلك بما أوعهما من الجواهر وأنشأ عنهما من العناصر .

ولما كانت الحياة التي هي سبب الانتشار والدب ربنا أورثت صاحبها كبرا وغلظا في نفسه نظن أنه تام القدرة ، أنث تحقيرا لقدرته وتوهية لشأنه ورتبته فقلل) من دابة) أي شيء فيه أهلية الدبيب بالحياة من الإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أصنافهم وألوانهم وأشكالهم ولغاتهم وطباعهم وأنواعهم اقطارهم." (١)

" صفحة رقم ٦٥٠

كان ولا راد له وما لم يشأ لم يكن ، ولا مكون له ولا مانع أعطى ولا معطي لما منع .

ولما دل هذا الدليل الشهودي على ما بينت الآية عليه من إثبات الملك له وحده مع ما زادت به من جنس السياق وعذوبة الألفاظ وإحكام الشك وإعجاز الترتيب والنظم ، كانت النتيجة قطعا لتضمن إشراكهم به الطعن في توحده بالملك مقدما فيها الوصف الذي هو أعظم شروط الملك : (إنه عليم) أي بالغ العلم بمصالح العباد وغيرها) قدير (شامل القدرة على تكوين ما يشاء .

ولما تم القسم الأول مما بنى على العلم والقدرة ، والقدرة فيه أظهر وفاقا لما ختمت به الآية ، وكان قد يكون خلقه إياه إبداعا من غير توسط سبب ، وقد يكون بتوسيط سبب ، أتبعه القسم الآخر الأعلى الذي العلم فيه أظهر وهو الوحي الذي ختمت آيته أول السورة بالحكمة التي هي سر التقدير في القسم الأول الكلام في قلبه قال : (وما) أي وهو سبحانه تام العلم شامل القدرة غرز في البشر غريزة العلم وأقدره على النطق به بقدرته وحيا منه إليه كما أوحى إلى النحل ونحوها والحال أنه ما) كان لبشر (من الأقسام المذكورة ، وحل المصدر الذي هو اسم (كان) ليقع التصريح بالفاعل والمفعول على أتم وجوهه فقال : (أن يكلمه (وأظهر موضع الإضمار إعظاما للوحي وتشريفا لمقداره بجلالة إيثاره فقال : (الله) أي يوجد الملك الأعظم الجامع لصفات الكمال في قلبه كلاما) إلا وحيا) أي كلاما خفيا يوجده فيه بغير واسطة بوجه خفي لا يطلع عليه أحد إلا بخارق العادة إما بإلبهام أو برؤيا منام أو بغير ذلك سواء كان ذلك مع

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٦٣٠

الرؤية ليكون قسما لما بعده أولا أو يخلق فيه ذلك ومن هذا القسم الأخير

٧٧ ( ) وأوحينا إلى أم موسى ( ) ٧

[القصص : ٧]

٧٧ ( ) وأوحى ربك إلى النحل ( ) ٧

[النحل : ٦٨]

٧٧ ( ) وأوحى في كل سماء أمرها ( ) ٧

[فصلت : ١٢] فإن إيداعها القوى التي يحصل بها **المنافع** مثل إيداع الإنسان قوة الكلام ثم قوة التعبير عنه – والله أعلم .

وهذا معنى قول القاضي عياض في الشفاء في آخر الفصل الثاني من الباب الرابع في الإعجاز : وقد قيل في قوله تعالى) وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا (الآية أي ما يليقه في قلب دون واسطة ، ومعنى قول الإمام شهاب الدين السهروردي في الباب السادس والعشرين من عوارفه : والعلوم اللدنية في قلوب المنقطعين إلى الله ضرب من المكالمة .." [(١)]

" صفحة رقم ٧٩

ولما كان الدليل على تطابق الأرضي دقيقا وحدها فقال : (والأرض) أي على ما فيها من **المنافع**) وما بينهما) أي النوعين وبين كل واحدة منها وما يليها) لاعبين) أي على ما لنا من العظمة التي يدرك من له أدنى عقل تعليها عن اللعب لأنه لا يفعله إلا ناقص ، ولو تركنا الناس يبغي بعضهم على بعض كما تشاهدون ثم لا نأخذ لضعيفهم بحقه من قويهم لكان خلقنا لهم لعبا ، بل اللعب أخف منه ، ولم نكن على ذلك التقدير مستحقين لصفة القدوسية ، فإنه (لا قدست أمة لا يؤخذ لضعيفها بالحق من قويها غير متعتع) – رواه ابن ماجة عن أبي سعيد وابن جميع في معجمه عن جابر ، وصاحب الفردوس عن أبي موسى رضي الله عنهم رفعوه ، وهو شيء لا يرضى به لنفسه أقل حكم الدنيا ، فكان هذا برهانا قاطعا على صحة الحشر ليظهر هناك الفصل بالعدل والفضل .

ولما كان أكثر الخلق لا يعلم ذلك لعظمته عن النظر في دليله وإن كان قطعيا بديهيا .

) ولكن أكثرهم) أي أكثر هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم وهم يقولون : (إن هي إلا موتتنا الأولى (وكذا من نحا نحوهم) لا يعلمون) أي أنا خلقنا الخلق بسبب إقامة الحق فهم لأجل ذلك يجترئون على

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٦٥٠

المعاصي ويفسدون في الأرض لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا ، ولو تذكروا ما ركزناه في جبلاتهن لعلموا علما ظاهرا أنه الحق الذي لا معدل عنه كما يتولى حكمها المناصب لأجل إظهار الحكم بين رعاياهم ، ويشرطون الحكم بالحق ، ويؤكدون على أنفسهم أنهم لا يتجاوزونه .

ولما كان كأنه قيل : إنا نرى أكثر المظلومين يموتون بمرير غصصهم مقهورين ، وأكثر الظالمين يذهبون ظافرين بمطالبهم مسرورين ، فمتى يكون هذا الحق ؟ قال جوابا لذلك مؤكدا لأجل." (١)

" صفحة رقم ٨٩

الكتاب ثم مرتبا لما أنزل منه ترتيبا يفهم علوما ويوضح أسرارا غامضة مهمة فقال : (تنزيل الكتاب) أي إنزال الجامع لكل خير مفرقا لزيادة التسهيل في التفهيم والإبلاغ في اليسر في التعليم وغير ذلك من الفضل العميم وزاده عظما بقوله : (من الله) أي كائن من المحيط بصفات الكمال .

ولما كان - كما مضى - للعزة والحكمة أعظم بركة هنا قال : (العزيز الحكيم (فكان كتابه عزيزا حكيما لا كما تقول الكفرة من أنه شعر أو كذب أو كهانة لأنه لا حكمة لذلك ولا عزة بحيث لتبس أمره بأمره هذا الكتاب المحيط بدائرة الحكمة والصواب ، ودل بشواهد القدرة وآثار الصنعة من نسخة هذا الكتاب على الصفتين وعلى وحدانيته فيهما اللازم منه تفرده المطلق فقال مؤكدا لأجل من ينكر ذلك ولو بالعمل ، وترغيبا في تدقيق النظر بتأمل آيات الوجود التي هذا الكتاب شرح لمغلقها وتفصيل لمجملها .

وإيماء إلى أنها أهل لصرف الأفكار إلى تأملها) إن في (ولما كانت الحواميم - كما روى أبو عبيدة في كتاب الفضائل عن ابن عباس رضي الله عنهما - لباب القرآن ، حذف ما ذكر في البقرة من قوله (خلق) ليكون ما هنا أشمل فقال : (السماوات) أي ذواتها بما لها من الدلالة على صانعها وخلقها على ما فيها من العبر بما فيها من **المنافع** وعظيم الصنعة ما لها من الشفوف الدال على تعددها بما فيها من الكواكب) والأرض (كذلك وبما حوت من المعادن والمعايش والمنابع والمعاون) لآيات) أي دلائل على وحدنيته وجميع كماله ، فإن من المعلوم أنه لا بد لكل من ذلك من صانع متصف بذلك) للمؤمنين) أي لأنهم برسوخهم في هذا الوصف الشريف أهل للنظر لأن ربهم يهديهم بإيمانهم فشواهد الربوبية لهم منهما لائحة ، وأدلة الإلهية فيهما واضحة ، ولعله أشار بالتعبير بالوصف إلى أنه لا بد في رد شبه أهل الطبائع من تقدم الإيمان ، وأن من لم يكن ر ا سخ الإيمان لم يخلص من شكوكهم .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تضمنت السورة المتقدمة إيضاح أمر الكتاب وعظيم بيانه وأنه شاف

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٧٩/٧

كاف وهدى ونور ، كان أمر من كفر من العرب أعظم شيء لانقطاعهم عجزهم وقيام الحجة به عليهم حتى رضوا بالقتل والخزي العاجل وما قاموا بادعاء معارضته ولا شتوفوا إلى الإسناد إلى عظيم تلك المعارضة ، أتبع ذلك تعالى تنبيها لنبيه والمؤمنين إلى ما قد نصبه من الدلائل سواه مما صد المعرض عن الاعتبار بها أو ببعضها مجرد هواه ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، فقال تعالى بعد القسم بالكتاب المبين) إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين) أي لو لم تجئهم يا محمد بعظيم آية الكتاب فقد كان لهم فيما نصبنا من الأدلة أعظم برهان وأعظم تبيان

٧٧ ( ) أو لم." (١)

" صفحة رقم ٩٠

يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بنيهما إلا بالحق وأجل مسمى ( ) ٧

) الروم : ٨] فملا نبه بخلق السماوات والأرض ، أتبع بذكر ما بث في الأرض فقال) وفي خلقكم وما بث فيهما من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف اليل والنهار) أي في دخول أحدهما على الآخر بألطف اتصال وأربط انفصال) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار (ثم نبه على الاعتبار بإنزال الماء من السماء وسماه رزقا بحط القياس فقال) وما أنزل الله من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها (ثم قال) وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون (الاستدلال بهذه الآي يستدعي بسطا يطول ، ثم قال) تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) أي علاماته ودلائله) وإن من شيء إلا يسبح بحمده (ثم قال) فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون (أبعد ما شاهدوه من شاهد الكتاب وما تضمنه خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهن من عجائب الدلائل الواضحة لأولي الألباب ، فإذا لم يعتبروا بشيء من ذلك فبماذا يعتبر ، ثم أردف تعالى بقريعهم وتوبيخهم في تصميمهم مع وضوح الأمر فقال) ويل لكل أفاك أثيم (الآيات الثلاث ، ثم قال) هذا هدى (وأشار إلى الكتاب وجعله نفس الهدى لتحمله كل أسباب الهدى وجميع جهاته ، ثم توعد من كفر به ثم أردف ذلك بذكر نعمه وآلائه ليكون ذلك زائدا في توبيخهم ، والتحمت الآي عاضدة هذا الغرض تقريعا وتوبيخا ووعيدا وتهديدا إلى آخر السورة – انتهى .

ولما ذكر سبحانه بالنظر في آيات الآفاق ، أتبعها آيات الأنفس فقال : (وفي خلقكم) أي المخالف لخلق الأرض التي أنتم منها بالاختيار والعقل والانتشار والقدرة على السار والضار) وما يبث) أي ينشر ويفرق بالحركة الاختيارية بثا على سبيل التجد والاستمرار) من دآبة (مما تعلمون ومما لا تعلمون بما في

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٨٩/٧

ذلك من مشاركتكم في الحركة بالاختيار والهداية للمنافع بإدراك الجزئيات ومخالفتكم في الصورة والعقل وإدراك الكليات وغير ذلك من مخالفة الأشكال **والمنافع** والطبائع ونحوها) آيات) أي على صفات الكمال ولا سيمنا العزة والحكمة ، وهي على قراءة حمزة والكسائي ويعقوب بالنصب هنا ، وفي الذي بعده عطف الآيتين على حيز إن في الآية الأولى من الاسم والخبر ، فلهذه الآية نظر إلى التأكيد ، وهو على قراءة الجماعة مبتدأ بالعطف على (إن) وما في حيزها ، وهي أبلغ لأنها تشير إلى أن ما في تصوير الحيوان وجميع شأنه من عجيب الصنع ظاهر الدلالة على الله فهو بحيث لا ينكره أحد ، فهو غني عن التأكيد ، ويجوز أن تكون الآية على قراءة النصب من الاحتباك : حذف أولا الخلق بما دل عليه ثانيا ، وثانيا ذوات الأنفس بما دل عليه من ذوات السماوات أولا .." [(١)]

" صفحة رقم ١١٥

واعتبارات لأنه أثبت أنه كله حق ، ونفى عنه كل باطلب ، فقال خطابا لأهل الأوثان من سائر الأديان الصابية والمجوس وغيرهم الذين افتتحت السورة بهم وختمت بالفسق الجامع لهم الموجب لكفرهم : (تنزيل الكتاب) أي الجامع لجميع الخيرات بالتدريج على حسب المصالح) من الله) أي الجبار المتكبر المختص بصفات الكمال الذي هو الحمد بما دلت عليه ربوبيته ، وختم بقوله : (العزيز الحكيم (تقريرا لأنه لم يضع شيئا إلا في أوفق محاله ، وأنه الخالق للشر كما أنه الخالق للخير ولجميع الافعال وأنه يعز أولياءه ويذل أعداءه ويحكم أمر دينه فيظهره على الدين كله من غير أن يقدر أحد على معارضته في شيء منه فصارت آية الجاثية مقدمة لهذه وهذه نتيجة .

ولما ثبت في الجاثية مضمون قوله تعالى في الدخان) وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين (بما ذكر فيهما من الآيات **والمنافع** والحكم ، أثبت هنا مضمون ما بعد ذلك بزيادة الأجل فقال دالا على عزته وحكمته : (وما خلقنا) أي على ما لنا من العظمة الموجبة للتفرد بالكبرياء) السموات والأرض (على ما فيهما من الآيات التي فصل بعثها في الجاثية .

ولما كان من المقاصد هنا الرد على المجوس وغيرهم ممن ثبت خلقا لغير الله قال : (وما بينهما) أي من الهواء المشحون **بالمنافع** وكل خير وكل شر من أفعال العباد وغيرهم ، وقال ابن برجان في تفسيره : جميع الوجوه .

أوله وآخره نسخة لأم الكتاب والسماوات والأرض إشارة إلى بعض الوجود ، وبعضه يعطي من الدلالة على

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٩٠

المطلوب ما يعطيه الكل بوجه ما ، غير أن علا أصح دلالة وأقرب شهادة وأبين إشارة ، وما صغر من الموجودات دلالته مجملة يحتاج المستعرض فيه إلى التثبت وتدقيق النظر والبحث – انتهى .

) إلا بالحق) أي الأمر الثابت من القدرة التامة والتصرف المطلق ، فخلق الباطل بالحق لأنه تصرف في ملكه الذي لا شائبة لغيره فيه للابتلاء والاختبار للمجازاة بالعدل والمن بالفضل إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها سواه ، وفي خلق ذلك على هذا الوجه أعظم دلالة على وجود الحق سبحانه ، وأنه واحد لا شريك له ، ودل على قهره بقوله : (وأجل مسمى) أي لبعث الناس إلى دار القرار لفصل أهل الجنة من أهل النار ، وفناء الخافقين وما نشأ عنهما من الليل والنهار .

ولما كان التقدير : وأمرنا الناس بالعمل في ذلك الأجل بطاعتنا ووعدناهم عليها جنان النعيم ، فالذين آمنوا على ما أنذروا مقبلون ، ومن غوائله مشفقون ، فهم بطاعتنا عاملون ، عطف عليه من السياق له من قوله : (والذين كفروا) أي ستروا من أعلام الدلائل ما لو خلوا أنفسهم وما فطرناها عليه لعلموه فهم لذلك) عما أنذروا (ممن هم." (١)

" صفحة رقم ١٩٢

ولما كان ما ذكر من عذاب الأعداء وثواب الأولياء متوقفا على تمام العلم ونهاية القدرة التي يكون بها الانتقام والسطوة قال تعالى : (وكان الله (الملك الذي لا أمرلأحد مع أزلا وأبدا) عزيزا (يغلب ولا يغلب) حكيما (يضع الشيء في أحكم مواضعه ، فلا يستطاع نقض شيء مما ينسب إليه سبحانه وتعالى .

ولما تبين أنه ليس لغيره مدخل في إيجاد النصر ، وكانت السورة من أولها حضرة مخاطبة وإقبال فلم يدع أمر إلى نداء بياء ولا غيرها .

وكان كأنه قيل : فما فائدة الرسالة إلى الناس ؟ أجيب بقوله تقريرا لما ختم به من صفتي العزة والحكمة .

) إنا (بما لنا من العزة والحكمة) أرسلناك) أي بما لنا من العظمة التي هي معنى العزة والحكمة إلى الخلق كافة) شاهدا (على أفعالهم من كفر وإيمان وطاعة وعصيان ، من كان بحضرتك فبنفسك ومن كان بعد موتك أو غائبا عنك فبكتابك ، مع ما أيدناك به من الحفظة من الملائكة .

ولما كانت البشارة محبوبة إلى النفوس رغبهم فيما عنده من الخيرات وحببهم فيه بصوغ اسم الفاعل منها مبالغة فيه فقال تعالى : (ومبشرا) أي لمن أطاع بأنواع البشائر .

ولما كانت لنذارة كريهة جدا ، لا يقدم على إبلاغها إلا من كمل عرفانه بما فيها من **المنافع** الموجبة لتجشم

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١١٥/٧

مرارة الإقدام على الصدع بها ، أتى بصيغة المبالغة فقال تعالى : (ونذيرا (.
الفتح : (٩ - ١٠) لتؤمنوا بالله ورسوله. . . . .
) لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما (( )
ولما ذكر حال الرسالة ، ذكر علتها فقال : (لتؤمنوا) أي الذين حكمنا بإيمانهم ممن أرسلناك إليهم - هذاعلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالغيب ، وعلى قراءة الباقين بالخطاب المعنى .
أيها الرسول ومن قضينا بهداه من أمته ، مجددين لذلك في كل لحظة مستمرين عليه ، وكذا الأفعال بعده ، وذلك أعظم لطفا لما في الأنس بالخطاب من رجاء الاقتراب) بالله) أي الذي لا يسوغ لأحد من خلقه - والكل خلقه - التوجه إلى غيره لاستجماعه لصفات الجلال والإكرام) ورسوله (الذي أرسله من له كل شيء ملكا وملكا إلى جميع خلقه .
ولما كان الإيمان أمرا باطنا ، فلا يقبل عند الله إلا بدليل ، وكان الإيمان بالرسول إيمانا بمن أرسله ، والإيمان بالمرسل إيمانا بالرسول ، وحد الضمير فقال : (ويعزروه (." [1]
" صفحة رقم ٢٣٢
وقرأ يعقوب) إخوتكم (بالجمع ، وقراءة الجماعة أبلغ لدلالتها على الاثنين فما فوقهما بالمطابقة) واتقوا الله) أي الملك الأعظم الذين هم عباده في الإصلاح بينهما بالقتال وغيره ، لا تفعلوا ما صورته إصلاح وباطنه إفساد ، وأشار إلى سهولة الأمور عنده ونفوذ أمره وأن النفوس إنما تشوفها إلى الإكرام لا إلى كونه منمعين ، فبنى للمفعول قوله تعالى : (لعلكم ترحمون) أي لتكونوا إذا فعلتم ذلك على رجاء عند أنفسكم ومن ينظركم من أن يكرمكم الذي لا قادر في الحقيقة على الإكرام غيره بأنواع الكرامات كما رحمتم إخوتكم بإكرامهم عن إفساد ذات البين التي هي الحالقة ، وقد دلت الآية أن الفسق بغير الكفر لا يخرج عن الإيمان ، وعلى أن الإصلاح من أعظم الطاعات ، وعلى وجوب نصر المظلوم لأن القتال لا يباح بدون الوجوب ، قال القشيري : وذلك يدل على عظم وزر الواشي والنمام والمضرب في إفساد ذات البين ، وقال : من شرط الأخوة أن لا تحوج أخاك إلى الاستعانة بك والتماس النصرة منك ، ولا تقصر في تفقد أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مسألتك .
ولما نهى عن الإسراع بالإيقاع بمجرد سماع ما يوجب النزاع ، وختم بما ترجى به الرحمة ، وكان ربما كان

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ١٩٢/٧

الخبر الذي أمر سبحانه بتبينه صريحا ، نهى عن موجبات الشر التي يخبر بها فتكون سببا للضغائن التي يتسبب عنها الشر الذي هو سبب للنقمة رحمة لعباد الله وتوقعا للرحمة منه ، فقال على سبيل النتيجة من ذلك ذاكرا ما في القسم الرابع من الآداب **والمنافع** من وجوب ترك أذى المؤمنين في حضورهم والإزراء بحالهم المذهب لسرورهم الجالب لشرورهم : (يا أيها الذين آمنوا) أي أوقعوا الإقرار بالتصديق) لا يسخر) أي يهزأ ويستذل .

ولما كانت السخرية تكون بحضرة ناس ، قال معبرا بما يفهم أن من شارك أو رضي أو سكت وهو قادر فهو ساخر مشارك للقائل :) قوم) أي ناس فيهم قوة المحاولة ، وفي التعبير بذلك هز إلى قيام الإنسان على نفسه وكفها عما تريده من النقائص شكرا لما أعطاه الله من القوة : (من قوم (فإن ذلك يوجب الشر لأن أضعف الناس إذا حرك للانتقاص قوي بما يثور عنده من حظ النفس .

ولما كان الذي يقتضيه الرأي الأصيل أنه لا يستذل الإنسان إلا من أمن أن يصير في وقت من الأوقات أقوى منه في الدنيا وفي الآخرة ، علل بقوله : (عسى) أي لأنه جدير وخليق لهم) أن يكونوا) أي المستهزأ بهم) خيرا منهم (فينقلب الأمر عليهم ويكون لهم سوء العاقبة ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : البلاء موكل بالقول ولو سخرت من كلب خشيت أن أحول كلبا ؛ وقال القشيري : ما استضعف أحدا أحدا إلا." (١)

" صفحة رقم ٢٤٤

لما انفردت به عما شاركها من النبلات بالإحاطة بالطول وكثرة **المنافع** ، فإنها جامعة للفكه بالقلب ثم الطلع ثم البسر ثم الرطب وبالاقتيات بالتمر وبالخشب والحطب والقطا والخوض النافع للافتراش والليف النافع للحبال ، ودون ذلك وأعلاه من الخلال ، هذا مع كثرة ملابسة العرب الذين هم أول مدعو بهذا الكتاب الذكر لها ومعرفتهم بخواصها ، وأدل ما فيها الطول مع أنه ليس لعروقها من الامتداد في الأرض والتمكن ما لغيرها ، ومثل ذلك غير كاف في العادة في الإمساك عن السقوط وكثرة الحمل وعظم الإفناء وتناضد الثمر ، ولذلك سميت سورة الباسقات لا النخل) بسم الله (الذي من إحاطة حمده بيانه ما لنبيه (صلى الله عليه وسلم) من إحاطة الحمد ، ولقدرته سبحانه من الإحاطة التي ليس لها حد) الرحمن (الذي عم خلقه برحمته حين أرسل إليهم محمدا (صلى الله عليه وسلم) بشرائعه ، فهو أصدق العباد ، وأظهر بعظيم معجزاته أن قدرته ما لها من نفاذ) الرحين (الذي خص بالفوز في دار القرار أهل الرغاد .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٣٢/٧

ق : (١ – ٦) ق والقرآن المجيد

) ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جآءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ بل كذبوا بالحق لما جآءهم فهم في أمر مريج أفلم ينظروا إلى السمآء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج (( )

لما ختم سبحانه الحجرات بإحاطة العلم قال أول هذه : (ق (إشارة إلى أنه هو سبحانه وحده المحيط علما وقدرة بما له من العلو والشدة والقوة القيومية والقهر ونافذ القضاء والفتح لما أراد من المغلقات ، بما أشارت إليه القاف بصفاتها وأظهرته بمخرجها المحيط بما جمعه مسماها من المخارج الثلاث : الحلق واللسان والشفاه .

وقد قال الأستاذ أبو الحسن الحرالي في سر افتتاح المفصل بهذا الحرف فقال في آخر كتابه في هذا الحرف : اعلم أن القرآن منزل مثاني ، ضمن ما عدا المفصل منه الذي هو من قاف إلى آخر الكتاب العزيز وفاتحة ما يختص بأولي العلم والفقه من مبسوطات الحكم ومحكمات الأحكام ومطولات الأقاصيص ، ومتشابه الآيات ، والسورة المفتتحة بالحروف الكلية للإحاطة لغيبية المتهجى المسندة إلى آحاد الأعداد ، فلعلو رتبة إيراده وطوله ثنى الحق سبحانه الخطاب وانتظمه في سور كثيرة العدد يسير عدد الآي قصيرة مقدارها ، ذكر فيها من أطراف القصص والمواعظ والأحكام والثناء وأمر الجزاء ما يليق بسماع العامة ليسهل عليهم سماعه وليأخذوا بحظ مما أخذه الخاصة وليكرر على أسماعهم في قراءة الأئمة له في الصلوات المفروضة التي لا مندوحة لهم عنها ما يكون .." (١)

" صفحة رقم ٢٤٩

السفساف) في أمر مريج) أي مضطرب جدا مختلط ، من المرج وهو اختلاط النبت بالأنواع المختلفة ، فهم تارة يقولون : سحر ، وتارة كهانة ، وتارة شعر ، وتارة كذب ، وتارة غير ذلك ، والاضطراب موجب للاختلاف ، وذلك أدل دليل على الإبطال كما أن الثبات والخلوص موجب للاتفاق ، وذلك أدل دليل على الحقية ، قال الحسن : ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم – وكذا قال قتادة ، وزاد : والتبس عليهم دينهم .

ولما أخبرهم أنهم قالا عن غير تأمل أنكر عليهم ذلك موبخا لهم دالا على صحة ما أنكروه وفساد إنكارهم بقوله ، مسببا عن عجلتهم إلى الباطل ،) أفلم ينظروا) أي بعين البصر والبصيرة) إلى السماء) أي المحيط

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٤٤/٧

بهم وبالأرض التي هم عليها .

ولما كان هذا اللفظ يطلق على كل ما علا من سقف وسحاب وغيره وإن كان ظاهرا في السقف المكوكب حققه بقوله : (فوقهم (فإن غيرهم إنما هو فوق ناس منهم لا فوق الكل .

ولما كان أمرها عجبا ، فهو أهل لأن يسأل عن كيفيته دل عليه بأداة الاستفهام فقال : (كيف بنيناها) أي أوجدناها على ما لنا من المجد والعزة مبنية كالخيمة إلا أنها من غير عمد) وزيناها) أي بما فيها من الكواكب الصغار والكبار السيارة والثابتة) وما) أي الحال أنه ما) لها (وأكد النفي بقوله : (من فروج) أي فتوق وطاقات وشقوق ، بل هي ملساء متلاصقة الأجزاء ، فإن كانت هذه الزينة من تحتها فالذي أوقع ذلك على هذا الإحكام الذي يشاهدونه بما فيه من **المنافع** والستر الذي لا يختل على مر الجديدين ، فهو من القدرة بحيث لا يعجزه شيء ، وإن كانت الزينة من فوقها فكذلك ، وإن كان بعضها من فوق وبعضها من تحت فالأمر عظيم ، وهذا يدل على أن المساء كرة مجوفة الوسط مقببة كالبيضة ، فإن نفي الفورج فيها على هذا الوجه المؤكد يدل على ذلك دلالة ظاهرة ، وأفرد السماء ولم يجمع لأن بناءها على ما ذكر وإن كانت واحدة يدل على كمال القدرة ، فإن البناء المجوف لا يمكن بانيه إكمال بنائه من غير أن يكون له فروج ، وإن اختل ذلك كان موضع الوصل ظاهرا للرائين ما فيه من فتور وشقوق وقصور وما يشبه ذاك ، ولم يمكنه مع ذلك الخروج منه ، إن كان داخله فلم يقدر على حفظ خارجه ، وإن كان خارجه لم يتمكن من حفظ داخله ، وهذا الكون محفوظ من ظاهره وباطنه ، فعلم أن صانعه منزه عن الاتصاف بما تحيط به العقول بكونه داخل العلم أو ظهير أو معين ، وجمع الفرج للدلالة على إرادة الجنس بالسماء بعد ما أفاده إفراد لفظها ، فيدل الجمع مع إرادة الجنس على التوزيع ، مع الإفهام إل أن الباني لو احتاج في هذا الخلق الواسع الأطراف المتباعد الأكناف إلى فرج واحد لاحتاج إلى فروج كثيرة .

فإن." (١)

" صفحة رقم ٢٥٠

هذا الجرم الكبير لا يكفي فيه فرج واحد لمن يحتاج إلى الحركة ، فنزل كلام العليم الخبير على مثل هذه المعاني ، ولا يظن أنه غيرت فيه صنعة من الصنع لأجل الفاصلة فقط ، فإن ذلك لا يكونه إلا من محتاج ، والله متعال عن ذلك ، ويجوز – وهو أحسن – أن يراد بالفروج قابلية الإنبات لتكون – مثل الأرض – يتخللها المياه فيمتد فيها عروق الأشجار والنبات وتظهر منها ، وأن يراد بها الخلل كقوله تعالى)) ما ترى

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٢٤٩

في خلق الرحمن من تفاوت فراجع البصر هل ترى من فطور ( ) [الملك : ٣] أ خلل واختلاف وفساد ، وهو لا ينفي الأبواب والمصاعد – والله أعلم .

ق : (٧ – ١١) والأرض مددناها وألقينا. .. . .

) والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السمآء مآء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (( )

سبحانه على تمام قدرته وكما ل علمه وغير ذلك من صفات الكمال بآية السماء ، أتبع ذلك الدلالة على أنه لا يقال فيه داخل العالم ولا خارجه لأنه متصل به ولا منفصل عنه ، نبه على ذلك بالدلالة على آية الأرض ، وأخرها لأن السماء أدل على المجد الذي هذا سياقه ، لأنها أعجب صنعة وأعلى علوا وأجل مقدارا وأعظم أثرا ، وأن الأرض لكثرة الملابسة لها والاجتناء من ثمارها يغفل الإنسان عن دلالتها ، بما له في ذلك من الصنائع **والمنافع** ، فقال : (والأرض) أي المحيط بهم) مددناها) أي جعلناها لما لنا من العظمة مبسوطة لا مسنمة .

ولما كان الممدود يتكفأ ، قال : (وألقينا (بعظمتنا) فيها رواسي) أي جبالا ثوابت كان سببا لثباتها ، وخالفت عادة المراسي في أنها من فوق ، والمراسي تعالجونها أنتم من تحت .

ولما كان سكانها لا غنى لهم عن الرزق ، قال ممتنا عليهم : (وأنبتنا (بما لنا من العظمة) فيها (وعظم قدرتها بالتبعيض فقال : (من كل زوج) أي صنف من النبات تزاوجه أشكاله بأرزاقكم كلها) بهيج) أي هو في غاية الرونق والإعجاب ، فكان – مع كونه رزقا – متنزها .

ولما ذكر هذه الصنائع الباهرة ، عللها بقوله : (تبصرة) أي جعلنا هذه الأشياء كلها ، أي لأجل أن تنظروها بأبصاركم ، ثم تتفكروا ببصائركم ، فتعبروا منها إلى صانعها ، فتعلموا ما له من العظمة) وذكرى) أي ولتتذكروا بها تذكرا عظيما ، بما لكم من القوى والقدر فتعلموا بعجزكم عن كل شيء من ذلك أن صانعها لا يعجزه شيء ، وأنه محيط بجمي عصفات الكمال ، ولو ألم بجنابه شائبة من شوائب النقص لما فاض عنه هذا الصنع الغريب البديع .." (١)

" صفحة رقم ٢٥١

ولما كان من لا ينتفع بالشيء كأنه عادم لذلك الشيء ، قصر الأمر على المنتفع فقال : (لكل عبد (

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٢٥٠

يتذكر بما له من النقص وبما دل عليه هذا الصنع من الكمال أنه عبد مربوب لصانعه .

ولما كان الإنسان لما له من النقصان لا يزال كلما أعلاه عقله أسفله طبعه ، فكان ربما ظن أنه لا يقبل إذا رجع ، رغبة في الرجوع بقوله : (منيب) أي رجاع عما حطه عنه طبعه إلى ما يعليه إليه عقله ، فيرجع من شهود هذه الأفعال إلى شهود هذه الصفات إلى علم الذات .

ولما كان إنزال الماء أبهر الآيات وأدلها على أنه أجل من أن يقال : إنه داخل العالم أو خارجه ، أو متصل به أو منفصل عنه ، مع أن به تكون النبات وحصول الأقوات وبه حياة كل شيء ، أفرده تنبيها على ذلك فقال : (ونزلنا) أي شيئا فشيئا في أوقات على سبيل التقاطر وبما يناسب عظمتنا التي لا تضاهى بغيب ، بما له من النقل والنبوع والنفوذ فنزل دفعة واحدة فأهلك ما نزل عليه فزالت المفقرة وعادت المنفعة مضرة) من السماء) أي المحل العالي الذي لا يمسك فيه الماء عن دوام التقاطر إلا بقاهر) ماء مباركا) أي نافعا جدا ثابتا لا خيالا محيطا بجميع منافعكم .

ولما كان الماء سببا في تكون الأشياءن وكان ذلك سببا في انعقاده حتى يصير خشبا وحبا وعنبا ، وغير ذلك عجبا ، قال : (فأنبتنا (معبرا بنون العظمة) به جنات (من الثمر والشجر والزرع وغيره مما تجمعه البساتين فتجن - أي تستر - الداخل فيها .

ولما كان القصب الذي يحصد فيكون حبه قوتا للحيوان وساقه للبهائم ، خصه بقوله : (وحب الحصيد) أي النجم الذي من شأنه أن يحصد من البر والشعير ونحوهما ، وأومأ بالتقييد إلى أن هذه الحبوب أشرف من حب اللآلىء الذي ينبته الله نم المطر لأنها لقيام النبتة ؟ وتلك للزينة ، ولما كان النخل من أعجبه ما يتكون منه مع ما له من المنافع التي لا يساويه فيه، شجر ، والطباق للرزع بالطول والقصر والاتساق بالاقتيات للآدميين والبهائم ، قال : (والنخل باسقات) أي عاليات طويلا على جميع الأشجار المثمرة ذوات أثمار طيبة) لها (مع يبس ساقها) طلع نضيد) أي مصفوف متراكم بعضه فوق بعض ، وهو حشو طلعه ، والطلع ذلك الخارج من أعلى النخلة كأنه فعلان مطبقان ، والحمل النضيد بينهما ، والطرف محدد ، أو الطلع ما يبدو من ثمر النخل أول ظهورها ، وذلك القشر يسمى الكفرى لتعطيته إياه على أحكم مما يكون وأوثق ، والطلع يشبه ما للناقة المبسق من اللبا المتكون في ضرعها قبل النتاج ، ثم يصير بعد اتحاده في البياض وهو كلع إلى الافتراق حال الينوع إلى أحمر وأصفر وأخضر وغير ذلك من الألوان الغريبة ،

والأوصاف العجيبة ، وهي محيطة المنافع بالتفكه على عدة أنواع والاقتيات وغير ذلك ، وطلعها مخالف لعادة أكثر الأشجار فإن ثمارها مفردة ، كل حبة منفردة عن أختها .." [١]

" صفحة رقم ٢٦٥

فلذلك حسن جدا موقع (أو) المقسمة وعلم منه عظيم شرف القرآن في أنه مبشر للكامل والناقص ، ليس منه مانع غير الإعراض .

ق : (٣٨ – ٤٣) ولقد خلقنا السماوات. .. . .

) ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير (( )

ولما دل على تمام علمه وشمول قدرته بخلق الإنسان إثره ما ذكره من جميع الأكوان ، ثم بإعدامه لأصناف الإنسان في كل زمان ، ذكر بخلق ما أكبر منه في المقدار والإنسان بعضه على وجه آخر ، فقال عاطفا على) ولقد خلقنا الانسان (وأكد تنبيها لمنكري البعث وتبكيتا ، وافتتحه بحرف التوقع لأن من ذكر بخلق شيء توقع الإخبار عما هو أكبر منه : (ولقد خلقنا) أي بما لنا من العظمة التي لا يقدر قدرتها ولا يطاق حصرها) السموات والأرض (على ما هما عليه من الكب روكثرة المنافع) وما بينهما (من الأمور التي لا ينتظم الأمر على قاعدة الأسباب والمسببات بدونها) في ستة أيام (الأرض في يومين ، منافعها في يومين ، والسماوات في يومين ، ولو شاء لكان ذلك في أقل من لمح البصر ، ولكمنه سن لنا التأني بذلك) وما مسنا (لأجل ما لنا من العظمة) من لغوب) أي إيعاء فإنه لو كان لاقتضى ضعفا فاقتضى فسادا ، فكان من ذلك شيء على غير ما أردناه ، فكان تصرفنا فيه غير تصرفنا ي الباقي ، وأنتم تشاهدون الأمر في الكل على حد سواء من نفوذ الأمر وتمام التصرف ، من اللغب وهو الإعياء ، والريش اللغاب وهو الفاسد .

ولما دل سبحانه على شمول العلم وإحاطة القدرة ، وكشف فيهما الأمر أتم كشف ، كان علم الحبيب القادر بما يفعل العدو أعظم نذارة للعدو وبش١رة للولي ، سبب عن ذلك قوله : (فاصبر على ما) أي جميع الذي) يقولون) أي الكفرة وغيرهم .

ولما كانت أقوالهم لا تليق بالجناب الأقدس ، أمر سبحانه بما يفيد أن ذلك بإرادته وأنه موجب لتنزيهه ،

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٥١/٧

وكماله ، لأنه قهر قائله على قوله ، ولو كان الأمر بإرادة ذلك القائل استقلالا لكان ذلك في غاية البعد عنه ، لأنه موجب للهلاك ، فقال : (وسبح) أي أوقع التنزيه عن كل شائبة نقص متلبسا) بحمد ربك) أي بإثبات الإحاطة بجميع صفات الكمال للسيد المدبر المحسن إليك بجميع هذه البراهين التي خصك بها تفضيلا لك على جميع الخلق في جميع ما) قبل طلوع الشمس (بصلاة الصبح ، وما يليق به من." (١)

" صفحة رقم ٣٧٤

الحاضر تارة بالتوسم وأخرى بالحساب ومرة بالعيافة والزجر وطورا بالنظر في الآفاق وغير ذلك من الأمور مع التمييز بين الحسن والقبيح وغير ذلك ما أدعه سبحانه وتعالله مع تعبيره عما أدركه بما هو غائب في ضميره وإفهامه للغير تارة بالقول وتارة بالفعل نطقا وكتابة وإشارة وغيرها ، فصار بذلك ذا قدرة على الكمال في نفسه والتكميل لغيره ، فهذا تعليم البيان الذي مكن من تعليم القرآن ، وهذا وإن كان سبحانه جبلنا عليه وخلقناه به قد صار عندنا مألوفا ومشهورا معروفا ، فهو عند غيرنا على غير ذلك مما أوضحه لنا سبحانه نعمة علينا بمحاجته لملائكته الكرام عن نبينا آدم عليه الصلاة والسلام وما أبدى لهم من علمه وبهرهم من رسم كل شيء بمعناه واسمه .

ولما بين سبحانه النعمة في تعليم القرآن الذي هو حياة الأرواح ، وبين الطريق فيها ، دل على البيان بذكر البينات التي يجمعها أمر ويفرقهام آخر ، ولها مدخل في حياة الأشباح ، وعددها على سبيل الامتنان بيانا لأنها من أكبر النعم فقال في جواب من قال : ما بيانه ؟ بادئا بالكوكب الأعظم الذي هو أعظم نورا وأكبر جرما وأعم نفعا لليكون خضوعه لقبول الآثار أدل على خضوع غيره بيانا لحكمته في تدبيره وقوته في تقديره : (الشمس (وهي آية النهار) والقمر (وهو آية الليل اللذان كان بهما البيان الإبراهيمي ، ولعله بدأ لهذه الأمة بغاية بيانه عليه الصلاة والسلام تشريفا لها بالإشارة غلى علو أفهامها) بحسبان) أي جريهما ، يجري كل منهما – مع اشتراكهما في أنهما كوكبان سماويان – بحساب عظيم جدا لا تكاد توصف جلالته في دقته وكثرة سعته وعظم ما يتفعر عليه من المنافع الدينية ولدنيوية ، ومن عظم هذا الحساب الذي أفادته صيغة الفعلان أنه على نهج واحد لا يتعداه ، تعلم به الأعوام والشهور والأيام والساعات والدقائق والفصول في منازل معلومة ، ويعرف موضع كل منهما في الآفاق العلوية وما يحدث له وما يتأثر عنه في الكوائن السفلية بحيث أن به انتظام غالب الأمور السفلية إلى غير ذلك من الأمور التي خلقهما الله عليها ولها ، وبين الإنسان وبين كل منهما من المسافات ما لا يعلمه على التحرير إلا العليم الخبير ، وهذا على تطاول

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٢٦٥

الأويام والدهور لا يختل ذرة دلالة على أن صانعه قيوم لا يغفل ، ثم بعد هذا الحساب المستجد والحساب الأعظم الذي قدر لتكوير الشمس وانكدار القمر دلالة على أنه فاعل بالاختيار مع ما أفاد ذلك من تعاقب الملوين تارة بالاعتدال وتارة بالزيادة وأخرى بالنقص ، وغير ذلك من الأمور في لطائف المقدور .

ولما كان سيرهما على هذا المنهاج مع ما لهما فيه من الدؤب فيه بالتغير والتنقل طاعة منهما لمدبرهما ومبدعهما ومسيرهما ، وكان خضوعهما – وهما النيران الأعظمان –." (١)

" صفحة رقم ٣٧٥

دالا على خضوع ما دونهما من الكواكب بطريق الأولى ، كان ذكرهما مغنيا عن ذكر ما عداهما بخصوصه ، فأتبعهما حضور ما هو للأرض كالكواكب للسماء في الزينة والنفع بأن من أكثر الأقوات لجميع الحيوان والملابس من القطن والكتان وغير ذلك من عجيب الشأن ، معبرا بما يصلح لبقية الكواكب فقال : (والنجم) أي وجميع الكواكب السماوية وكل نبت ارتفع من الأرض ولا ساق له من النبات الأرضية التي هي أصل قوام الإنسان وسائر الحيوان) والشجر (وكل ما له ساق ويتفكه به أو يقتات) يسجدان) أي يخضعان وينقادان لما يراد منهما ويذلان للانتفاع بهما انقياد الساجد من العقلاء لما أمر به بجريهما لما سخرا له وطاعتهما لما قدرا فيه غير إباء على تجدد الأوقات من نمو في النبات ووقوف واخضرار ويبس وإثمار وعطل ، لا يقدر النجم أن يعلو إلى رتبة الشجرة ولا الشجرة أن يسفل إلى وهدة النجم إلغير ذلك مما صرفنا فيه من سجود الظلال ودوران الجبال والمثال مما يدل على وحدانية الصانع وفعله بالاختيار ، ونفي الطبائع ، ومن تسيير في الكواكب وتدبير في المنافع في الحر والبرد اللذين جعل سبحانه بهما الاعتدال في النبات من الفواكهة والأقوات ، وغير ذلك من وجود الانتفاعات .

ولما كان تغير ما تقدم من الشمس والقمر والنجم والشجر يدل دلالة واضحة على أنه سبحانه هو المؤثر فيه ، وكانت السماء والأرض ثابتتين على حالة واحدة ، فكان ربما أشكل أمرهما كما ضل فيهما خلق من أهل الوحدة أهل الجمود والاغترار والوقوف مع الشاهد وغيرهم ، وكان إذا ثبت أنه تعالى المؤثر فيهما ، فلذلك قال مسندا التأثير فيهما إليه بعد أن أعرى ما قبلهما من مثله لما إغنى عنه من الدلالة بالتغير والسير والتنقل عطفا بالأرض ففتقها منها وأعلاها عنها بما يشهد لذلك من العقل عند كل من له تأمل في أن كل جسم ثقيل ما رفعه عما تحته إلا رافع ، ولا رافع لهذه إلا الله فإنه لا يقدر على التأثير غيره ، ولعظمها قدمها على الفعل تنبيها على التفكر فيما فيها من جلالة الصنائع وأنواع البدائع ، ومعنى بأنه جعلها منشأ

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٧٤/٧

أحكامه ومصدر قضاياه ومتنزل أوامره ونواهيه ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه .
ولما كانت السماء مع علوها الدال على عزة موجدها ومدبرها دالة على عدله باعتدال جميع أحوالها من الحر والبرد والمطر والثلج والندى والطل وغير ذلك في أن كل فصل منها معادل لضده وأنها لا ينزلها سبحانه إلا بقدر معلوم ، وإلا لفسدت الأرض كلها ، ودلنا على أنه شرع لنا مثل ذلك العدل لتقوم أحوالنا وتصلح أقوالنا وأفعالنا بما." (١)

" صفحة رقم ٣٧٧

وكثافتها ، فكان كونها فيها عجبا دالا على عظيم قدرته ، وكان ذكرها يدل على ما تقدمها من النعم من جميع الأقوات ، بدأ بها ليصير ما يتقدمها كالمذكور مرتين ، فقال مستأنفا وصفها بما هو أعم : (فيها فاكهة) أي ضروب منها عظيمة جدا يدرك الإنسان بما له من البيان تباينها في الصور والألوان ، والطعوم **والمنافع** - وغير ذلك من بديع الشأن .
ولما كان المراد بتنكيرها تعظيمها ، نبه عليه بترعيف بنوع منها ، ونوه به لأن فيه مع التفكه التقوت ، وهو أكثر ثمار العرب المقصودين بهذا الذكر بالقصد الأول فقال : (والنخل (ودل على تمام القدرة بقوله : (ذات) أي صاحبة) الأكمام) أي أوعية ثمرها ، وهو الطلع قبل أن ينفتق بالثمر ، وكل نبت يخرج ما هو مكمم فهو ذو كمام ، ولكنه مشهور في النخل لشرفه وشهرته عندهم ، قال البغوي : وكل ماستر شيئا فهو كم وكمة ، ومنه كم القميص ، وفيه تذكير بـثمر الجنة الذي ينفتق عن نباهم ، وذكر أصل النخل دون ثمره للتنبيه عن كثرة منافعه من الليف والسعف والجريد والجذوع وغيرها من **المنافع** التي الثمر منها .
ولما ذكر ما يتقات من الفواكه وهو في غاية الطول ، أتبعه الأصل في الاقتيات للناس والبهائم وهو بمكان من القصر ، فقال ذاكرا ثمرته لأنها المقصودة بالذات : (والحب) أي من الحنطة وغيرها ، ونبه على تمام القدرة بعد تنبيه بتمايز هذه المذكورات مع أن أصل الكل الماء بقوله : (ذو العصف) أي الورق والبقل الذي إذا زال عنه ثقل الحب كان ما تعصفه الرياح التي تطيره ، وهو التبن الذي هو من قوت البهائم .
ولما كان الريحان يطلق على كل نبت طيب الرائحة خصوصا ، وعلى كل نبت عموما ، أتبعه به ليعم ويخص جميع ما ذكر من سائر النبات وغيره على وجه مذكر بنعمه بغذاء الأرواح بعد ما ذكر غذاء الأشباح فقال : (والريحان (ولما كان من كفر به سبحانه بإنكاره أو غنكار شيء من صفاته ، أو كذب بأحد من رسله قد أنكر نعمه أو نعمة منها فلزمه بانكاره لتلك النعمة إنكار جميع النعم ، لأن الرسل داعية إلى الله بالتذكير

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٧٥/٧

بنعمه ، وكان ما مضى من هذه السورة إلى هنا اثنتي عشرة آية على عدد الكوفي والشامي ، عدد فيها أصول نعمه سبحانه على وجه دل بغاية البيان على أن له كل كمال ، وكان هذا العدد أول عدد زائد إشارة إلى تزايد النعم لأن كسوره النصف والثلث الربع والسدس تزيد على أصله ، وكان قد مضى ذكر الثقلين الجن والإنس في قوله) الأنام (قال تعالى إشارة إلى أنهم المقصودون بالوعظ ، منكرا موبخا مبكتا لمن أنكر شيئا من نعمه أو قال قولا أو فعل فعلا يلزم منه إنكار شيء منها مسببا عما مضى من تعداد هذه." (١)

" صفحة رقم ٣٨٠

غاية البعد عن قابلية البيان فقال : (من صلصال) أي يابس له صوت إذا نقر عليه)كالفخار) أي كالخزف المصنوع المشوي بالنار لانه أخذه من التراب ثم خلطه بالماء حتى صار طينا ثم تركه حتى صار حماء مسنونا مبينا ، ثم صوره كما يصور الإبريق وغيره من الأواني ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة فصار كالخزف الذي إذا نقر عليه صوت صوتا يعلم منه هل فيه عيب أم لا ، كما أن الآدمي بكلامه يعرف حاله وغاية أمره ومآله ، فالمذكور هنا غاية تخليقه وهو أنسب بالرحمانية ، وفي غيرها تارة مبدؤه وتارة إنشاؤه ، فالأرض أمه والماء أبوه ممزوجين بالهواء الحامل للجزء الذي هو من فيح جهنم ، فمن التراب جسده ونفسه ، ومن الماء روحه وعقله ، ومن النار غوايته وحدته ، ومن الهواء حركته وتقلبه في محامده ومذامه .

ولما كان الجان الذي شمله أيضا اسم الأنام مخلوقا من العناصر الأربعة ، وأغلبها في جبلته النار ، قال تعالى : (وخلق الجان) أي هذا النوع المستتر عن العيون بخلق أبيهم ، وهو اسم جمع للجن .

ولما كان الجن يطلق على الملائكة لاستتارهم ، بين أنهم لم يرادوا به هنا فقال : (من مارج) أي شيء صاف خالص مضطرب شديد الاضطراب جدا والاختلاط ، قال البغوي : وهو الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه ، وقال القشيري ، هو اللهب المختلف بسواد النار – انتهى .

ومرجت نارهم – أي اختلطت – ببرد الزمهرير .

ولما كان المارج عاما في النار وغيرها ، بينه بقوله : (من نار (هي أغلب من عناصر ، فتعين المراد بذكر النار لأن الملائكة عليهم السلام من نور لا من نار ، وليس عندهم مروج ولا اضطراب ، بل هم في غاية الثبات على الطاعة فيما أمروا به ، وقد عرف بهذا كل مضطرب قدره لئلا يتعدى طوره .

ولما كان خلق هذين القبيلين على هذين الوجهين اللذين هما في غاية التنافي مستورا أحدهما عن الآخر

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٧٧/٧

مع منع كل من التسلط على الآخر إلا نادرا ، إظهارا لعظيم قدرته وباهر حكمته من أعظم النعم ، قال مسببا عنه : (فبأي آلاء ربكما) أي النعم الملوكية الناشئة عن مبدعكما ومربيكما وسيدكما) تكذبان) أي بنعمة البصر من جهة الوراء وغيرها من خلقكم على هذا النمط الغريب ، وإيداعكم ما أودعكم من القوى ، وجعلكم خلاصة مخلوقاته ، ومن منع أحد قبيليكم عن الآخر ، وتيسيره لكم الأرزاق **والمنافع** ، وحملكم على الحنيفية السمحة ، وقدرته على إعادتكم كما قدر على ابتدائكم .

ولما ذكر سبحانه هذين الجنسين اللذين أحدهما ظاهر والآخر مستتر ، إرشادا إلى التأمل فيما فيهما من الدلالة على كمال قدرته ، فكانا محتاجين إلى ما هما فيه من." (١)

" صفحة رقم ٣٨٣

ولما كان هذا أمرا باهرا دالا دلالة ظاهرة على تمام قدرته لا سيما على الآخرة ، قال مسببا عنه : (فبأي آلاء ربكما) أي الموجد لكما والمربي) تكذبان) أي بنعمة الإبصار من جهة اليسار أيو غيره ، فهلا اعتبرتم بهذه الأصول من أنواع الموجودات فصدقتم بالآخرة لعلمكم بهذه البرازخ أن موتتكم هذه برزخ وفصل بين الدنيا والآخرة كالعشاء بين الليل والنهار ، ولو استقر أتم ذلك في آيات السماوات والأرض وجدتموه شائعا في جميع الأكوان .

ولما ذكر المنة بالبحر ذكر النعمة بما ينبت فيه كما فعل بالبر ، فقال معبرا بالمبني للمفعول لأن كلا من وجوده فيه والتسليط على إخراجه منه خارق من غير نظر إلى مخرج معين ، والنعمة نفس الخروج ، ولذلك قرأ غير نافع والبصريين بالبناء للفاعل من الخروج : (يخرج منهما) أي بمخالطة العذب الملح من غير واسطة أو بواسطة السحاب ، فصار ذلك كالذكر والأنثى ، قال الرازي : فيكون العذب كاللقح للملح ، وقال أبو حيان : قال الجمهور : إنما يخرج من الإجاج في المواضع التي يقع فيها الأنهار والمياه العذبة فناسب إسناد ذلك إليهما ، وهذا مشهور عند الغواصين ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة مولاه رضي الله عنه : تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر لأن الصدف وغيرها تفتح أفواهها للمطر - انتهى .

فتكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر البحر كالجسد الغاذي ، والدليل على أنه من ماء المطر كما قال الأستاذ حمزة الكرماني : إن من المشهور أن السنة إذا أجدبت هزلت الحيتان ، وقلت الأصداف والجواهر - انتهى .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٨٠/٧

ثم لا شك في أنهما وإن كانا بحرين فقد جمعها وصف واحد بكونهما ماء ، فيسوغ إسناد الخروج إليهما كما يسند خروج الإنسان إلى جميع البلد ، وإنما خرج من دار منها كما نسب الرسل إلى الجن والإنس بجمعهما في خطاب واحد فقال :

٧٧ ( ) رسل منكم (﴾ ٧

[الأنعام : ١٣٠] وكذا

٧٧ ( ) وجعل القمر فيهن نورا ( ) ٧

[نوح : ١٦] ومثله كثير) اللؤلؤ (وهو الدر الذي هو في غاية البياض والإشراق والصفاء) والمرجان) أي القضبان الحمر التي هي في غاية الحمرةن فسبحان من غاير بينهما في اللون والمنافع والكون - نقل هذا القول ابن عطية عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال : وهذا هو المشهور الاستعمال - انتهى ، وقال جمع كثير : إن اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره .

ولما كان ذلك من جليل النعم ، سبب عنه قوله : (فبأي آلاء ربكما) أي المالك لكما الذي هو الملك الأعظم) تكذبان (مع هذه الصنائع العظمى ، أبنعمة البصر من جهة الفوق أو غير ذلك من خلق المنافع في البحار وتسليطكم عليها وإخراج الحلي الغريبة وغيرها .." (١)

" صفحة رقم ٣٨٤

ولما كان قد ذكر الخارج منه بماء السماء ، ذكر السائر عليه بالهواء ، وأشار بتقديم الجار إلى أن السائر في الفلك لا تصريف له ، وإن ظهر له تصريف فهو لضعفه كلا تصريف ، فقال : (وله) أي لا لغيره ، فلا تغتروا بالأسباب الظاهرة فتقوا معها فتسندوا شيئا من ذلك إليها كما وقف أهل الاغترار بالشاهد ، الذين أجمد أهل الأرض أذهانا وأحقرهم شأنا فقالوا بالاتحاد والوحدة) الجوار) أي السفن الكبار والصغار الفارغة والمشحونة .

ولما كانت حياة كل شيء كونه على صفة كماله ، وكانت السفن تبنى من خشب مجمع وتوصل حتى تصير على هيئة تقبل المنافع الجمة ، وكانت تربى بذلك الجمع كما تربى النبات والحيوان ، وكانت ترتفع على البحر ويرفع شراعها وتحدث في البحر بعد أن كانت مستترة بجبال الأمواج قال تعالى : (المنشآت (من نشأ - إذا وربا ، والسحابة : ارتفعت ، وأصل الناشئ كل ما حدث بالليل وبدأ ، ومعنى قراءة حمزة وأبي بكر بكسر الشين أنها رافعة شراعها بسبب استمساكها عن الرسوب ومنشئة للسير ، ومعنى قراءة

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٣٨٣

الباقين أنه أنشأها الصانع وأرسلها ورفع شراعها .
ولما كانت مع كونها عالية على الماء منغمسة فيه مع أنه ليس لها من نفسها إلا الرسوب والغوص قال : (كالأعلام) أي كالجبال الطوال .
ولما كان ما فيها من **المنافع** بالتكسب من البحر بالصيد وغيره والتوصل إلى البلاد الشاسعة للفوائد الهائلة ، وكانت أعمالهم في البحر الإخلاص الذي يلزم منها الإخلاص في البر ، لأنهما بالنسبة إلى إبداعه لهما وقدرته على التصرف فيهما بكل ما يريده على حد سواء ، سبب عن ذلك قوله : (فبأي آلاء ربكما) أي النعمة العظمى) تكذبان (أبنعمة البصر من تحتكم أو غيرها من الأسفار ، في محل الأخطار ، والإنجاء عند الاضطراب والريح في محل الخسار ، والإرشاد إلى ذلك بعد خلق مواد السفن وتعليم صنعتها وتسخيها وارفلك لعدصي لوهما (؟) بمثابة جميع الكون ، فخدامها كالملائكة في إقامة الملكوت وتحسين تماسكه بإذن ربهم ، والمسافرون بها الذين أنشئت لأجلهم وزان المأمورين المكلفين المتهيئين الذين من أجلهم خلقت السماوات والأرض وما بينهما فعبر بهم من غربتهم إلى قرارهم ، ومن غيبتهم إلى حضورهم ومشاهدهم ، ومدبرها أمرها في أعلاها يأمرهم بأمره فيعدونه ويسمعون له ، ثم قد يصرف الاعتبار إلى أن تكون آية على قطع المؤمن أيام الدنيا فالدنيا هي البحر ، والسفينة جسمه ، وباطن العبد هو المحمول فيها ، العقل صاحب سياستها ، والقوى خدمتها ، وأمر الله وتدبيره محيط بها ، والإيمان أمنتها ، والتوفيق ريحها ، والذكر شراعها ، والرسول سائقها بما جاء به من عند ربه ، والعمل الطيب يصلح شأنها – ذكر ذلك ابن برجان." (١)

" صفحة رقم ٣٨٥

ولما أخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من **المنافع** من الأعيان والمعاني ، واستوفى الأرض بقسميها برا وبحرا ، مضمنا ذلك العناصر الأربعة التي أسس عليها المركبات ، وكان أعجب ما للمخلوق من الصنائع ما في البحر ، وكان راكبه في حكم العدم ، دل على أنه المتفرد بجميع ذلك بهلاك الخلق ، فقال مستأنفا معبرا بالاسمية الدالة على الثبات وب) من (للدلالة على التصريح تهويلا بفناء العاقل على فناء غير العاقل بطريق الأولى : (كل من عليها) أي الأرض بقسميها والسماء أيضا) فان (أي هالك ومعدوم بالفعل بعد أن كان هو وغيره من سائر ما سوى إليه ، وليس لذل ككله من ذاته إلا العدم ، فهو فان بهذا الاعتبار ، وإن كان موجودا فوجوده بين عدمين أولهما أنه لم يكن ، وثانيهما أنه يزول ثم

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٨٤/٧

هو فيما بين ذلك يتعاوره الإيجاد والإفناء في حين من أحواله وأعراضه وقواه ، وأسباب الهلاك محيطة به حسا ومعنى وهو لا يراها كما أنها محيطة بمن هو في السفينة من فوقه ومن تحته ومن جميع جهاته .
الرحمن : (٢٧ - ٣٤) ويبقى وجه ربك. .. . .
) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فبأي آلاء ربكما تكذبان يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن فبأي آلاء ربكما تكذبان سنفرغ لكم أيها الثقلان فبأي آلاء ربكما تكذبان يمعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان فبأي آلاء ربكما تكذبان (( )
ولما كان الوجه أشرف ما في الوجود ، وكان بعر به عما أريد به صاحب الوجه مع أنه لا يتصور بقاء الوجه صاحبه ، فكان التعبير به عن حقيقة ذلك الشيء أعظم وأدل على الكمال ، وكان من المقرر عند أهل الشرع أنه سبحانه ليس كمثله شيء فلا يتوهم أحد منهم من التعبير به نقصا قال : (ويبقى) أي بعد فناء الكل ، بقاء مستمرا إلى ما لا نهاية له) وجه ربك) أي المربي لك بالرسالة والترقية بهذا الوحي إلى ما لا يحد من المعارف ، وكل عمل أريد به وجهه سبحانه وتعالى خالصا .
ولما ذكر مباينته للمخلوقات ، وصفه بالإحاطة الكاملة بالنزاهة والحمد ، وقال واصفا الوجه لأن المراد به الذات الذي هو أشرفها معبرا به ولأنها أبلغ من (صاحب) وبما ينبه على التنزيه عما ربما توهمه من ذكر الوجه بليد جامد مع المحسوسات يقيس الغائب - الي لا يتعريه حاجة ولا يلم بجنابه الأقدس نقص - بالشاهد الذي كله نقص وحاجة) ذو الجلال) أي العظمة التي لا ترام وهو صفة ذاته التي تقتضي إجلاله عن كل ما لا يليق به) والإكرام) أي الإحسان العام وهو صفة فعله .
ولما كان الموت نفسه فيه نعم لا تنكر ، وكان موت ناس نعمة على ناس ، مع ما." (١)
" صفحة رقم ٣٨٩
) تكذبان (أبنعمة السمع من جهة اليسار أو غيرها من جعلكم سواء في أنكم لا تقدرون على مخالفة مراده سواء ابتدأ بخلقكم أو اليوم المشهود وقد أشهدكم قبل على أنفسكم وعهد إليكم أو بتكشيط السماوات وقد شاهدتم تكشيط السحاب بعد بسطه أو بالجزاء وقد رأيتم الجزاء العاجل وشاهدتم ما أصاب الأمم الماضية .
الرحمن : (٣٥ - ٤٥) يرسل عليكما شواظ. .. . .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٨٥/٧

) يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأي آلاء ربكما تكذبان فإذا انشقت السمآء فكانت وردة كالدهان فبأي آلاء ربكما تكذبان فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جآن فبأي آلاء ربكما تكذبان يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام فبأي آلاء ربكما تكذبان هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن فبأي آلاء ربكما تكذبان ( )

ولما سلب عنهم القدرة على النفوذ المذكور تنبيها على سلب جميع القدرة عنهم وعلى أن ما يقدرون عليه إنما هو بتقديره لهم نعمة منه عليهم ، ولما كان منهم من بلغ الغاية في قسوة القلب وجمود الفكر فهو يحيل العجز عن بعض الأمور إلى أنه لم يجر بذلك عادة ، لا إلى أنه سبحانه المانع من ذلك ، فعمهم شيء من ذلك سطوته فقال) يرسل عليكما) أي أيها المعاندون ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : حين تخرجون من القبور بسوقكم إلى المحشر) شواظ) أي لهب عظيم منتشر مع التضايق محيط بكم من كل جانب له صوت شديد كهيئته ذي الخلق الضيق الشديد النفس .

ولما كان الشواظ يطلق على اللهب الذي لا دخان فيه وعلى دخان النار وحرها وعلى غير ذلك ، بينه بقوله : (من نار ونحاس) أي دخان هو في غاية الفظاعة فيه شرر متطاير وقطر مذاب ، قال ابن جرير : والعرب تسمي الدخان نحاسا بضم النون وكسرها ، وأجمع القراء على ضمها - انتهى .

وجرها أبو عمرو وابن كثير عطفا على) نار (ورفعه الباقون عطفا على) شو ا ظ (.

ولما كان ذلك ممكنا عقلا وعادة ، وكانوا عارفين بأنهم لو وقعوا في مثل ذلك لم يتخلصوا منه بوجه ، سبب عنه قوله : (فلا تنتصران (قال ابن برجان : هذا مصداق قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (يخرج عنق من نار فيقول بكل جبار عنيد فيلتقطهم من بين الجمع لقط الحمام حب السمسم ، ويغشي المجرمين دخان جهنم من بين المؤمنين ولا يضرهم ، وآية الشواظ وعنق النار هنالك صواعق ما هنا وبروقه والنار المعهودة) .

ولما كان التهديد بهذا لطفا بهم فهو نعمة عليهم والعفو عن المعالجة بإرسالة لذلك ، سبب عنه قوله : (فبأي آلاء ربكما) أي المربي لكما بدفع البلايا وجلب **المنافع**." (١)

" صفحة رقم ٤٣٧

والمنافع التي يوجدها سبحانه من مقادير أعمار بني آدم وأرزاقهم وغيرها من جميع شؤونهم) وما يعرج) أي يصعد ويرتقي ويغيب) فيها (كالأبخرة والأنوار والكواكب والأعمال وغيرها .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٨٩/٧

ولما كان من يتسع ملكه يغيب عنه علم بعضه لبعده عنه ، عرف أنه لا مسافة أصلا بينه وبين شيء من الأشياء فقال : (وهو معكم) أي أيها لاثقلان المحتاجان إلى التهذيب بالعلم والقدرة المسببين عن القرب) أين ما كنتم (فهو عالم بجميع أموركم وقادر عليكم تعاليا عن اتصال بالعلم ومماسة ، أو انفصال عنه بغيبة أو مسافة ، قال أبو العباس ابن تيمية في كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : لفظ (مع) لا يقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطا بالآخر لقوله

٧٧ ( ) اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ( ) ٧

[التوبة : ١١٩] وقوله : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار (ولفظ (مع) جاءت في القرآن عامة وخاصة ، فالعامة

٧٧ ( ) ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ( ) ٧

[المجادلة : ٧] فافتتح الكلام بالعلم واختتمه بالعلم ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل : هو معهم بعلمه ، وأما المعية الخاصة فقوله تعالى :

٧٧ ( ) إن الله مع الذين اتقوا والذين هزم محسنون ( ) ٧

[النحل : ١٢٨] وقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام :

٧٧ ( ) إنني معكما أسمع وأرى ( ) ٧

[طه : ٤٦] وقال :

٧٧ ( ) إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ( ) ٧

[التوبة : ٤٠] يعني النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فهو دون أبي جهل وغيره من أعدائه ، ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين ، فلو كان معنى المعية أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص وا‌ل‌خبر العام ، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك ، وقوله تعالى :

٧٧ ( ) وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ( ) ٧

[الزخرف : ٨٤] أي هو إله في الماء وإله في الأرض كما قال تعالى :

٧٧ ( ) وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ( ) ٧

[الروم : ٢٧] وكذلك في قوله تعالى : (وهو الله في السماوات وفي الأرض (كما فسره أئمة العلم

كأحمد وغيره أنه المعبود في السماوات والأرض .
ولما كانت الأعمال منها ظاهر وباطن ، عبر في أمرها باسم الذات دلالة على شمولها بالعلم والقدر وتنبيها على عظمة الإحاطة بها وبكل صفة من صفاته فقال : (والله) أي المحيط بجميع صفات الكمال ، وقدم الجار لمزيد الاهتمام والتنبيه على تحقق الإخاطة كما مضى التنبيه عليه غير مرة وتمثيله بنحو : أعرف فلانا ولا أعرف." (١)

" صفحة رقم ١٣

الرجال ، بل تهد شم الجبال : (يوم) أي تبعثون في يوم) يجمعكم) أي أيها الثقلان .
ولما كان الوقت المؤرخ به فعل من الأفعال إنما يذكر لأجل ما وقع فيه ، صار كأنه علة لذلك الفعل فقال تعالى : (ليوم الجمع (لأجل ما يقع في ذلك اليوم الذي يجمع فيه أهل السماوات وأهل الأرض من الحساب والجزاء الذي يكون فوزا لناس فيكونون غابنين ، ويكون خيبة لناس فيكونون مغبونين ، وكل منهم يطلب أن يكون غابنا .
ولما كان هذا المقصد أمرا عظيما مقطعا ذكره الأكباد ، قال مشيرا إلى هوله بأداة البعد مستأنفا : (ذلك) أي اليوم العظيم المكانة الجليل الأوصاف) يوم التغابن (الذي لا تغابن في الحقيقة غيره لعظمه ودوامه ، والغبن : ظهور النقصان للحظ الناشيء عن خفاء لأنه يجمع فيه الأولون والأخرون وسائر الخلق أجمعون ، ويكون فيه السمع والإبصار على غاية لا توصف بحث إن جميع ما يقع فيه يمكن أن يطلع عليه كل أحد من أهل ذلك الجمع ، فذا فضح أحد افتضح عند الكل ، وما عبد يدخل الجنة إلى أري مقعده نم النار لو أساء ليزداد شكرا ، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة فيغبن كل كافر بتركه الإيمان وكل مؤمن بتقصيره في الإحسان ، ومادة (غبن) تدور على الخفاء من مغابن الجسد وهي ما يخفى عن العين ، وسمي الغبن في البيع – لخفائه عن صاحبه ، فالكافر والظالم يظن أنه غبن المؤمن بنعيم الدنيا الذي استأثر به الكافر ، وبالنقص الذي أدخله الظالم على المظلوم ، وقد غبنهما يشبه غبن ، فقد بعث ذكر هذا اليوم على هذا الوجه على التقوى اتم بعث ، وهي الحاملة على اتباع الأوامر واجتناب النواهي لئلا يحصل الغبن بفوات النعيم أو نقصانه ، ويحصل بعده للكافر العذاب الأليم .
ولما كان كل أحد يحسب أن يكون في النور ، ويكره أن يكون في الظلام ، ويحب أن يكون غابنا ، ويكره أن يكون مغبونا ، أرشدت سوابق الكلام ولواحقه إلى أن التقدير ، فمن آمن كان في النور ، وكان في ذلك

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٦٣٤

اليوم برجحان ميزانه من الغابنين ، ومن كفر كان في الظلام ، وكان في ذلك اليوم بنقصان ميزانه من المغبونين ، فعطف عليه قوله بيانا لآثار ذلك الغبن ، وتفضيلا له بإصلاح الحامل على التقوى وهو أمور منها القوة العلمية : (ومن يؤمن) أي يوقع الإيمان ويجدده على سبيل الاستمرار) بالله) أي الملك الأعظم الذي لا كفؤ له .

ولما ذكر الرأس وهو إصلاح القوة العلمية ، أبته البدن وهو إصلاح بقولة العملية فقال : (ويعمل (تصديقا لإيمانه) صالحا) أي عملا هو مما ينبغي الاهتمام بتحصيله لأنه لا مثل له في جلب المنافع ودفع المضار .." (١)

" صفحة رقم ٤٢

وأعظمهم صوابا ، مع المنافع التي تفضل عن سكانها ، والمرافق التي تنزه الخالق بآثارها وأعيانها ، وتوقظ الغافل وتنبه الجاهل وتدمغ المعاند ببرهانها ، فإنه لا يسع أحدا المنازعة في خلقه لها ، ومن خلقها قدر على تدبيرهاعلى الوجه المذكور ، ومن كان كذلك كان منزها عن الشريك قطعا ، ومن كان كذلك قدر على كل شيء فلذا قال : (أن الله) أي الملك الأعلى الذي له الإحاطة كلها) على كل شيء) أي من غير هذا العالم ممكن أن يدخل تحت المشيئة فإنه بمعنى مفعول من عالم آخر مثل هذا العالم ، وأبدع منه وأبدع من ذلك الإبداع إلى ما لا نهاية له بالاستدلال بهذا العالم ، فإن من قدر على إيجاد ذرة من العدم قدر على إيجاد ما هو دونها ومثلها وفوقها إلى ما لا نهاية له لأنه لا فرق في ذلك بين قليل ولا كثير جليل أو حقير

٧٧ ( ) ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ( ) ٧

[الملك : ٣] وإياك ان تلتفت إلى من قال : إنه ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم ، فإنه مذهب فلسفي خبيث ، والآية نص على إبطاله وإن نسبه بعض الملحدين إلى الغزالي فإني لا أشك أنه مدسوس عليه فإنه مذهب فلسفي خبيث بشهادة الغزالي كما بينت ذلك في كتابي (تهديم الأركان على من قال ليس في الإمكان أبدع مما كان) وكتابي (دلالة البرهان على أن في الإمكان أبدع مما كان) وكتابي (إطباق الأغلال في أعناق الضلال) ومع كونه مذهب الفلاسفة أخذه أكفر المارقين ابن عربي وأودعه فصوصه وغير ذلك من كتبه واستند فيه في بعضها إلى الغزالي إتقانا لمكره - أعاذنا الله من شره ، والغزالي بريء منه بشهادة ما وجد من عقائده في الإحياء وغيره) قدير) أي بالغ القدرة .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ١٣/٨

ولما كانت إحاطة العلم دالة على تمام القدرة وإليهما يرجع جميع الأسماء والصفات قال : (قد أحاط (لتمام قدرته) بكل شيء (مطلقا ، ولما أسند الإحاطة إليه سبحانه تعظيما لها ، بين جهتها بتمييز محول عن الفاعل فقال : (علما (فله الخبرة التامة بما يأمر به نم الأحكام في العلم بمصالحه ومفاسده فعاملوه معاملة من يعلم إحاطة علمه فيعلم أنه رقيب عليه فإذا طلقتم فافعلوا ما أمركم به لتسلموا في الدين وتسعدوا في الآخرة والأولى ، ودبروا في جميع أموركم مثل ما دبر به أمركم في تربيتكم ومسكنكم أرضه وسقفه فإنه جعل فيه جميع ما تحتاجونه وبسطه نواله على من يرضيه ومن يسخطه ونشر حلمه وفضله وأخر بأسه وعدله فقد عائق أخرها أولها وبين مجملها ومفصلها والله يعلم بذات الصدور .

.. . . ." (١)

" صفحة رقم ٦٦

ولما أثبت له سبحانه صفتي العز والغفر على أبلغ ما يكون ، دل على ذلك بقوله دالا على كمال تفرده بعد آيات الأنفس بآيات الآفاق إرشادا إلى معالي الأخلاق : (الذي خلق) أي أبدع على هذا التقدير من غير مثال سبق) سبع سماوات (حال كونها يكون كل جزء منها مطابقا كل واحدة منها كأنها لشدة مطابقتها للأخرى طالبة مطابقتها بحيث يكون كل جزء منها مطابقا لجزء من الأخرى ، ولا يكون جزء منها خارجا عن ذلك وهي لا تكرون كذلك إلا بأن تكون الأرض كرة والسماء الدنيا محيطة بها إحاطة قشر البيضة بالبيضة من جميع الجوانب والثانية محيطة بالدنيا وهكذا إلى أن يكون العرش محيطا بالكل ، والكرسي الذي هو أقربها إليه بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة ، فما ظنك بما تحته ، وكل سماه في التي فوقها بهذه النسبة ، وقد قرر أهل الهيئة أنها كذلك ، وليس في الشرع ما يخالفه بل ظواهره توافقه ولا سيما التشبيه بالحلقة الملقاة في فلاة كما مضى بسط ذلك في ذلك سورة السجدة ، وأحاط سبحانه بالأرض منافعها من جميع الجوانب ، وجعل المركز أن تكون رجلاه إلى الأرض ورأسه إلى السماء لتكون السماء في رأيه دائما أعلى ، والأرض أسفل في أي جانب كان هو عليها ، فسبحان اللطيف الخبير ، ولا شك أن مت تفكر في هذه العظمة مع ما لطف بنا فيما هيأه فيها لنا من **المنافع** ، آثره سبحانه بالحب وأفرده عن كل ضد ، فانقطع باللجاء إليه ولم يعول إلا عليه في كل دفع ونفع ، وسارع في مراضيه ومحابه في كل خفض ورفع .

ولما كان ذلك في حد ذاته خارجا عن طوق المخلوق ، وكان سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام ،

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٢/٨

ولما بين كل سماءين كذلك مع عدم الفروج ولاعمد والأطناب ، فكان ذلك النهاية في الخروج عن العادة في حد ذاته ولأنه قيل : إن القبة إذا بنيت بلا فروج ولا شيء يدخل الهواء منه تفسد وتسقط ، دل على عزته بعظيم صنعه في ذلك بقوله واصفا لها : (ما ترى في (وكان الأصل : خلقها ، ولكنه دل على عزته وعموم عظمته بقوله : (خلق الرحمن) أي لها ولغيرها ولولا رحمته وعموم عظمته التي اقتضت إكرامه لخلقه بعد غفرانه لما لهم من النقائص ما أحسن إليهم بها في اتساعها وزينتها وما فيها من **المنافع** ، وأعرق في النفي بقوله : (من تفاوت (بين صغير ذلك الخلق وكبيره بالنسبة إلى الخالق في إيجاده له على حد سواء ، إنما قوله إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فلا فرق في ذلك بين الذرة مثلا والغرس ولا بالنسبة إلا الخالق من عجز صغيرهم وكبيرهم عن إيجاد شيء من العدم صغيرا كان أو كبيرا جليلا كان أو حقيرا ، ولا ترى تفاوتا في الخلق بأن يكون شيء منه فائتا للآخر بالمخالفة والأضطراب والتناقض في الخلقة غير مناسب له بأن يكون خارجا عنه أو منافرا له في مقتضى." [(١)]

" صفحة رقم ٦٨

الكلام : (فارجع البصر) أي بعد ترديدك له قبل ذلك ، ودل بتوجيه الخطاب نحو أكمل الخلق (صلى الله عليه وسلم) في السمع والبصر والبصيره وكل معنى إلى أن ذلك لا شبهة فيه .

ولما كان السؤال عن الشيء يدل على شدة الاهتمام بالبحث عنه ، نبه على أن هذا مما اشتدت عناية الأولين به فقال : (هل ترى) أي في شيء منها .

ولما كان هذا الاستفهام مفيدا للنفي ، أعرق في النفي بقوله : (كم فطور) أي خلل بشقوق وصدوع أو غيرها لتغاير ما هي عليه لتغاير ما هي عليه وأخبرت به من تناسبها واستجماعها واستقامتها ما يحق لها مما يدل على عزة ما فيها وبليغ غفرانه ، وهذا أيضا يدل على إحاطة كل منها بما دونه فإنه لو كان لها فروج لفاتت **المنافع** التي رتبت لها النجوم المفرقة في طبقاتها أو بعضها أو كمالها ، فالهواء وجميع **المنافع** منحبسة فيها محوطة بها مضطربة متصرفة فيها على حسب التدبير والحيوان في الهواء كالسمك في الماء ، أو انحبس الهواء عنه لمات كما أنه لو انكشف الماء عن السمك لمات .

الملك : (٤ - ٧) ثم ارجع البصر. .. . . .

) ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ولقد زينا السمآء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير إذآ ألقوا فيها

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٦٦/٨

سمعوا لها شهيقا وهي تفور (( )

ولما كان في سياق المجازاة بالأعمال الصالحة والطالحة التي دل عدم الانتصاف من الظالمين في هذه الدار على أنها تكون بعد البعث وكانت العزة مقتضية لذلك ، وكان خلقه سبحانه وتعالى هذا الوجود على هذا النظام مثبتا لها ، واكنت أعمالهم أعمال المنكر لها ، ولا سيما تصريحهم بأنه لا بعث ، دل على عظمة عزته بما أبدعه من هذا السقف الرفيه البديع ، ثم بجعله محفوظا هذا الحفظ المنيع ، على تعاقب الأحقاب وتكرر السنين ، فقال معبرا بأداة التراخي دالا على جلاله بإدامة التكرير طول الزمان : (ثم ارجع البصر (وأكد ماأفهمته الآية من طلب التكرير بقوله تعالى : (كرتين) أي مرتين أخريين – هذا مدلولها لغة ، وبالنظر إلى السياق علم أن المرد مرة بعد مرة لا تزال تكرر ذلك لارتياد الخلل لا إلى نهاية ،كما أن (لبيك) مراد به به إجابة إلى غير غاية ، وعلى ذلك دل قوله سبحانه وتعالى : (ينقلب إليك) أي من غير اختيار بل غلبة وإعياء وانكسار) البصر خاسئا) أي صاغرا مطرودا ذليلا بعيدا عن إصابة المطلوب) وهو) أي والحال أنه) حسير) أي كليل تعب معيى من طول المعاود وتدقيق النظر وبعد المسرح ، وإذ كان هذا الحال في بعض المصنوع فكيف يطلب العلم بالصانع في كماله من جلاله وجماله ، فكيف بمن يتفوه بالحلول أو الاتحاد حسبه جهنم وبئس المهاد .." (١)

" صفحة رقم ١٧٤

نوح : (٢٢ – ٢٤) ومكروا مكرا كبارا

) ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا (( )

ولما كانت كثرة الرؤساء قوة أخرى إلى قوتهم بمتاع الدنيا ، وكان التقدير : فأمرتهم بالإيمان فأبوا وأمروهم بالكفر فانقادوا لهم ، عطف عليه مبينا لكثرتهم بضمير الجمع العائد على (من) عاطفا على (لم يزده) المفردة الضمير للفظ جامعا له للمعنى لتجمع العبارة الحكم على المفرد والجمع ، فيكون أدل شيء على المراد منها فقال : (ومكروا) أي هؤلاء الرؤساء في تنفير الناس عني – وأكد الفعل بالمصدر دلالة على قوته فقال : (مكرا (وزاده تأكيدا بصيغة هي النهاية في المبالغة فقال : (كبارا (فإنه أبلغ من كبار المخفف الأبلغ من كبير ، فلم يدعوا أحد منهم بذلك المكر يتبعني) وقالوا) أي لهم في أداني المكر الذي حصل منهم .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦٨/٨

ولما كان دعاء الرسل عليهم الصلاة والسلام جديرا بالقبول لما لهم من الجلالة والحلاوة والبيان والرونق والظهور في الفلاح ، أكدوا قولهم : (لا تذرن آلهتكم) أي لا تتركنها على حالة من الحالات لا قبيحة ولا حسنة ، وأضافوها إليهم تحسبا فيها ، ثم خصوا بالتسمية زيادة في الحث وتصريحا بالمقصود فقالوا مكررين النهي والعامل تأكيدا : (ولا تذرن (ولعلهم كانوا يوافقون العرب في أن الود هو الحب الكثير ، فناسب التأكيد وأبلغوا فيه فقالوا : (ولا يغوث (ولما بلغ التأكيد نهاية وعلم أن المقصود النهي عن التأكيد للعلم بإرادته ، وكان هؤلاء ناسا صالحين ، فلما ماتوا حزن عليهم الناس ثم زين لهم إبليس تصويرهم تشويقا إلى العمل بطرائقهم الحسنة فصوروهم ، فلما تمادى الزمان زين لهم عبادتهم لتحصيل **المنافع** الدنيوية ببركاتهم ثم نسي القوم الصالحون ، وجعلوا أصناما آلهة من دون الله . وكانت عابدة هؤلاء أول عبادة الأوثان فأرسل الله سبحانه وتعالى نوحا عليه الصلاة والسلام للنهي عن ذلك إلى أن كان من أمره وأمر قومه ما هو معلوم ، ثم أخرج إبليس هذه الأصنام بعد الطوفان فوصل شرها إلى العرب ، فكان ود لكلب بدومة الجندل وسواع لهذيل ويغوث لمذحج ويعوق لمراد ونسر لحمير لآل ذي الكلاع ، وقيل غير ذلك – والله أعلم قال البغوي : سواع لهذيل ويغوث لمراد ، ثم لبني غطيف بالجرف عن سبأ ويعوق لهمذان .
قال أبو حيان : قال أبو عثمان النهدي : رأيت يغوث وكان من رصاص يحمل على جمل أجرد ، يسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك ، فإذا برك نزلوا وقالوا : قد رضي لكم المنزل ، ." [١]

" صفحة رقم ٢٤٤

بقوله

٧٧ ( ) ما سلككم في سقر ( ) ٧

[المدثر : ٤٢] فبسط القول في هذه السورة في بيان ذكر ذلك اليوم وأهواله ، وأشير إلى حال من كذب به في قوله تعالى) يسأل أيان يوم القيامة) [القيامة : ٦] وفي قوله تعالى : (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) [القيامة : ٣] ثم أتبع ذلك بذكر أحوال الخلائق في ذلك اليوم

٧٧ ( ) ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ( ) ٧

[القيامة : ١٣] انتهى .

ولما أسند الحسبان إلى النوع لأن منهم من يقول : لا نبعث لأننا نتفتت ونتمحق ، قال مجيبا له : (بلى) أي لنجمعن عظامه وجمع أجزائه لأنا قدرنا على تفصيل عظامه وتفتيتها من بعد ارتتاقها حال كونها نطفة

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١٧٤/٨

واحدة لأن كل من قدر على التفصيل قدر على الجمع والتوصيل حال كوننا) قادرين) أي لما لنا من العظمة) على أن (.

ولما كانت تسوية الصغير أصعب ، قال : (نسوي بنانه) أي أصابعه أو سلامياته وهي عظامه الصغار التي في يديه ورجليه كل منها طول إصبع أو أقل ، خصها لأن أطرافه وآخر ما يتم به خلقه بأن نجمع بعضها إلى بعض على ما كانت عليه قبل الموت سواء ، فالكبار بطريق الأولى لأنها أبين ، ولا فرق بيبن تسويتنا ذلك من النطفة وتسويتنا له من التراب ، وهي لا تكون مسواة وهي قالب البدن إلا بتسوية ما عليه من لباس اللحم والعصب والجلد كما يعهدها العاهد ، فتسوية البنان كناية عن تسوية جميع البنيان كما لو قيل لك : هل تقدر على تأليف هذا الحنظل ، فقلت : نعم ، وعلى تأليف الخردل ، مع ما يفهم من تخصيصها من التنبيه على ما فيها من بديع الصنع المتأثر عنه ما لها من لطائف **المنافع** ، أو أن نسويها الآن فنجمعها على ما كانت عليه حال كونها نطفة من الاجتماع قبل فتقها وتفريقها حتى تكون كخف البعير ، فإن القادر على تفصيل الأنامل حتى تتهيأ للأعمال اللطيفة قادر على جمعها ، فتزول عنها تلك المنفعة .

ومن قدر على تفصيل الماء بعد اختلاطه وجمعه بعد انفصاله قادر على جمع التراب بعد افتراقه ، وكيفما كان فهو تنبيه على التأمل في لطف تفصيل الأنامل وبديع صنعها الموجب للقطع بأن صانعها قادر على كل ما يريد ، قال في القاموس : البنان : الأصابع أو أطرافها .

والسلامى – وزن حبارى : عظام صغار طول إصبع أو أقل في اليد أو الرجل .

ولما تقدم ما أشار إلى أن القيامة في غاية الظهور ، أضرب عن هذا الإنكار فقال بانيا على ما تقديره : إنه لا يحسب عدم ذلك لأنه من الظهور في حد لا يحتاج إلى كبير تأمل فلو مشى مع عقله عرف الحق : (بل يريد) أي يوقع الإرادة) الإنسان (أظهر في موضع الإضمار للتصريح بالتعميم لمقتضى الطبع الموجب له عدم الفكر في الآخر مع شدة ظهورها لأنه معني بشهواته فلا نجاة إلا بعصمة الله تعالى ، وحذف مفعول (يريد)." (١)

" صفحة رقم ٢٨٧

والأنهار ، بل أكثر ما يخرج من المياه هو منها ، وكذا غالب **المنافع** من المعادن وغيرها قال : (وجعلنا) أي بما لنا من العظمة) فيها) أي الأرض) رواسي (لولاها لمادت بأهلها ، ومن العجائب أن مراسيها من فوقها خلافا لمراسي السفن) شامخات) أي هي مع كونها ثوابت في أنفسها مثبتة لغيرها طوال جدا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٤٤/٨

عظيمة الارتفاع كأنها قد تكبرت على بقية الأرض وعلى من يريد صعودها ، وتنكيره للتعظيم .

ولما كان من العجائب الخارقة للعوائد فوران الماء الذي من طبعه أن يغور لا أن يفور لما له من الثقل واللطافة التي أفادته قوة السريان في الأعماق وفي كون ذلك منه من موضع من الأرض دون آخر ، وكونه من الجبال التي هي أصل الأرض ومن صخورها غالبا دلالة ظاهرة على أن الفعل للواحد المختار الجبال القهار لا للطبائع قال : (وأسقيناكم) أي جعلنا لكم بما لنا من العظمة شرابا لسقيكم وسقي ما تريدون سقيه من الأنعام والحرث وغير ذلك) ماء (من لأنهار والغدران والعيون والآبار وغيرها) فراتا) أي عظيما عذابا سائغا وقد كان حقيقا بأن يكون ملحا أجاجا لما للأراضي الممسكة له من ذلك .

ولما كان في هذا دلالة على ظاهرة على قدرته على البعث وغيره قال : (ويل يومئذ) أي يوم إذ تقوم الساعة ليكون الفصل بين العباد فساقها مساق ما هو ثابت لا نزاع فيه إشارة إلى أننه لا يكذب بها بعد ظهور الأدلة إلا من لا مسكة له) للمكذبين) أي الذين هم في غاية الرسوخ في التكذيب حتى كذبوا بما لنا في هذا من الفرق الذي فرقنا به بين أرض وأخرى حتى جعلنا بعضها صالحا لانفراق أرضه عن الماء ، وبعضها غير صالح وجعلنا بعضها قابلا للجبال وبعضها غير قابل إلى غير ذلك من الفروق البديعة .

ولما وصلت أدلة الساعة في الظهور إلى حد لا مزيد عليه ، وحكم على المكذبين بالويل مرة ، وأكد بثلاث ، فكان من حق المخاطب أن يؤمن فلم يؤمن ، أمر بما يدل على الغضب فقال تعالى معلما لهم بما يقال يوم القيامة إذا يحل بهم الويل : (انطلقوا) أي أيها المكذبون) إلى ما كنتم) أي بما هو لكم كالجبلة) به تكذبون (عدما ، وتجددون ذلك التكذيب مستمرين عليه .

ولما كان المراد زيادة تبكيتهم وتقريعهم والتهويل عليهم ، كرر الأمر واصفا ما أمروا بالانطلاق إليه فقال : (انطلقوا (هذا على قراءة الجماعة ، وقراءة رويس عن يعقوب بصيغة الماضي للدلالة على تمام انقيادهم هناك ، وأنه لا شيء من منعه عندهم." (١)

" صفحة رقم ٢٩٨

سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات مآء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا) ٧٣

٧١ ( )

ولما ذكر النوم ، اتبعه وقته الأليق به مذكرا بنعمة الظرف الزماني بعد التذكير بالظرف المكاني ، فقال دالا بمظهر العظمة على عظمه : (وجعلنا اليل) أي بعد ذهاب الضياء حتى كأنه لم يكن) لباسا) أي غطاء

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٨٧/٨

وغشاء ساترا بظلمته ما أتى عليه عن العيون كما يستره اللباس لتسكنوا فيه عن المعاش) وجعلنا النهار) أي الذي آيته الشمس) معاشا) أي وقتا للتقلب الذي هو من أسباب التحصيل الذي هو من أسباب المعاش ، وهو العيش ووقته وموضعه ، مظهرا لما ستره الليل ، فالآية من الاحتباك : ذكر اللباس أولا دليلا على حذف ضده ثانيا والمعاش ثانيا دليلا على حذف ضده أولا .

ولما ذكر المهاد وما فيه ، أتبعه السقف الذي بدورانه يكون الوقت الزمان وما يحويه من القناديل الزاهرة والمنافع الظاهرة لإحياء المهاد ومن فيه من العباد فقال : (وبنينا) أي بناء عظيما) فوقكم) أي عاما لجميع جهة الفوق ، وهي عبارة تدل على الإحاطة) سبعا) أي من السماوات) شدادا) أي هي في غاية القوة والإحكام ، لا صدع فيها ولا فتق ، لا يؤثر فيها كر العصور ولا مر الدهور ، حتى يأتي أمر الله بإظهار عظائم المقدور .

ولما ذكر السقف : ذكر بعض ما فيه من أمهات المنافع فقال دالا بمظهر العظمة على عظمها : (وجعلنا) أي مما لا يقدر عليه غيرنا) سراجا) أي نجما منيرا جدا) وهاجا) أي هو مع تلألئه وشدة ضيائه حار مضطرم الاتقاد وهو الشمس ، من قولهم : وهج الجوهر : تلألأ ، والجمر : اتقد .

ولما ذكر ما يمحق الرطوبة بحرارته ، أتبعه ما يطفئ الحرارة برطوبته وبرودته فينشأ عنه المأكل والمشرب ، التي بها تمام الحياة ويكون تولدها من الظرف بالمهاد والسقف ، وجعل ذلك أشبه شيء بما يتولد بين الزوجين من الأولاد ، فالسماء كالزوج والأرض كالمرأة ، والماء كالمني ، والنبات من النجم والشجر كالأولاد فقال : (وأنزلنا) أي مما يعجز غيرنا) من المعصرات) أي السحائب التي أثقلت بالماء فشارفت أن يعرصها الرياح فتمطر كما حصد الزرع إذا حان له أن يحصد ، قال الفراء : المعصر ، السحابة التي تتحلى بالمطر ولا تمطر كالمرأة المعصرة وهي التي دنا حيضها ولم تحض ، وقال الرازي : السحائب التي دنت أن تمطر كالمعصرة التي دنت من الحيض) ماء ثجاجا) أي منصبا بكثرة يتبع بعضه بعضا ، يقال : ثجه وثج بنفسه .." (١)

" صفحة رقم ٣١٠

الساعة ؟ أو أنكم لمبعوثون بعد الموت وانتهاء هذه الدار ؟ ثم لمجازون بما عملتم بأسباب موجودة مهيأة بين أظهركم دبرناهم وأوجدناهم حين أوجبنا هذه الحياة الدنيا وإن كنتم لا ترونها كما أن هذه الأمور التي أخبرناكم بها في نزع الأرواح والنبات والمنافع موجودة بين أظهركم والميت أقرب ما يكون منكم وهو تعمل

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٩٨/٨

أعمالها .
والمحتضر أشد ما يكون صوتا وأعظمه حركة إذا هو قد خفت وهمد بعد ذلك الأمر وسكت وامتدت أعضاؤه ومات ، وذهب عنكم قهرا وفات الذي فات كأنه قط ما كان ، ولا تغلب في زمن من الأزمان ، بتلك الأسباب التي تعمل أعمالها وتمد حبالها وترسي أثقالها ، وتلقي أهوالها وأوجالها ، وأنتم لا ترونها ، فيالله العجب أن لا يردكم ذلك على كثرته عن أن تستبعدوا على قدرته تمييز تراب جسد من تراب جسد آخر .
وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما أوضحت سورة النبأ حال الكافر في قوله
٧٧) يا ليتني كنت ترابا ( ) ٧
[النبأ : ٤٠] عند نظره ما قدمت يداه ، ومعانيته من العذاب عظيم ما يراه ، وبعد ذكر تفصيل أحوال وأهوال ، أتبع ذلك ما قد كان حاله عليه في دنياه من استبعاد عودته في أخراه ، وذكر قرب ذلك عليه سبحانه كما قال في الموضع الآخرة
٧٧ ( ) وهو أهون عليه ( ) ٧
[الروم : ٢٧] وذلك بالنظر إلينا ولما عهدناه ، وإلا فليس عنده سبحانه شيء أهون من شيء
٧٧ ( ) إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ( ) ٧
[يس : ٨٢] فقال تعالى : (والنازعات غرقا) [النازعات : ١ (إلى قوله : يقولون أئنا لمردودون في الحافرة أئذا كنا عظاما نخرة) [النازعات : ١٠ ١١] إذ يستبعدون ذلك ويستدفعونه
٧٧ ( ) فإنما هي زجرة واحدة ( ) ٧
[النازعات : ١٣] أي صحية
٧٧ ( ) فإذا هم بالساهرة ( ) ٧
[النازعات : ١٤] أي الأرض قياما ينظرون ما قدمت أيديهم ويتمنون أن لو كانوا ترابا ولا ينفعهم ذلك ، ثم ذكر تعالى من قصة فرعون وطغيانه ما يناسب الحال في قصد الاتعاظ والاعتبار ، ولهذا أتبع القصة بقوله سبحانه
٧٧ ( ) إن في ذلك لعبرة لمن يخشي ( ) ٧
[النازعات : ٢٦] انتهى .
ولما أقسم على القيام بتلك الأفعال العظام التي ما أقدر أهلها عليها إلا الملك العلام .

ذكر ما يكون فيه من الأعلام تهويلا لأمر الساعة لأن النفوس المحسوسات نزاعة ، فالغائبات عندهامنسية مضاعة فقال ناصبا الظرف بذلك المحذوف لأنه لشدة وضوحه كالملفوظ به : (يوم ترجف) أي تضطرب اضطرابا كبيرا مزعجا) الراجفة (اي الصيحة ، وهي النفخة الأولى التي هي بحيث يبلغ من شدة إرجافها للقلوب وجميع الأشياء الساكنة من الأرض والجبال إلى نزع النفوس من جميع أهل الأرض مبلغا تستحق به أن توصف بالعراقة في الرجف ، قال البغوي : وأصل الرجفة الصوت والحركة .." [1]

" صفحة رقم ٣١٧

الله من أن يدعيه أحد قبل إرسال النبي (صلى الله عليه وسلم) فادعوا أنه يطلق عليهم وعلى كل أحد بل كل شيء ، وأمارة هذه الطائفة الخبيثة التي لا تتخلف أن تقول لأحدهم : العن فرعون الذي أجمع على لعنه جميع الطوائف. وهو مثل عندهم في الشرارة والخبث فلا يلعنه ، وإن لعنه فبعد توقف .

ولما لخص سبحانه وتعالى ما مضى من قصصه في هذه الكلمات اليسير أحسن تلخيص وأقربه مع عدم المخالفة لشيء مما مضى لأن المفصل موضع الاختصار أما باعتبار النزول فإنه نزل أولا فكان تقريب القصص للناس بالاقتصار على ما لا بد منه أولى ليستأنسوا به ، وأما من جهة الترتيب فلتذكيرهم بما مضى ليجتمع في المخيلة في أقرب وقت ويتذكر به ذلك المبسوط ، وختمه بأخذه هذها الأخذ الغريب أرشد إلى ما في القصة من العبرة ، مشيرا إلى استحضار ما مضى كله ، فقال مؤكدا مقررا للمكذب ومنهبا للمصدق : (إن في ذلك) أي ا الأمر العظيم الذي فعله والذي فعل به) لعبرة) أي أمرا عظيما يتعمد الاعتبار به من معنى إلى معنى حتى يقع به الوصول إلى كثير من المعارف عظيما يتعمد الاعتبار به من معنى إلى معنى حتى يقع به الوصول إلى كثير من المعارف) لمن يخشى) أي من شأنه الخوف العظيم من الله لأن الخشية كما تقدم هي أساس الخير ، فأول العبور أن ينقل السامع حال غيره إليه فيتذكر بإنجاء بني إسرائيل على ضعفهم منهم على قوتهم ثم بقوة ما حصل لهم من القهر من ذلك حتى أوجب اتباعهم بالجنود ثم بفرق البحر ثم بإيرادهم إياه ثم بإغراقهم فيه كلمح البصر لم يخرج منهم مخبر قدرة الله تعالى على إيراد الكفار النار وقهر كل جبار وبجعل العصا حية وإخراج القمل والضفادع من الأرض وتحويل الماء دما قدرته سبحانه وتعالى على ذلك السامع بالعذاب وغيره وعلى خصوص البعث إلى غير ذلك من العبر وواضح الأثر .

ولما ختم قصة فرعون لعنه الله بالعبرة ، وكان أعظم عبرتها القدرة التامة لا سيما على البعث كما هي مشيرة

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣١٠/٨

إليه بأولها وآخرها ، والعقوبة على التكذيب به لأن التكذيب به يجمع مجامع الشر والتصديق به يجمع مجامع الخير ، وكانوا يستبعدونه لاستبعاد القدرة عليه ، وصل به ما هو كالنتيجة منه ، فقال مقررا مخاطبا لأصحاب الشبهة الشاكين موقفا لهم على القدرة منكرا عليهم استبعادهم وذلك ملتفتا بعد تخصيص الخطاب به (صلى الله عليه وسلم) لما تقدم من دقة فهمه وجلالة علمه (صلى الله عليه وسلم) إلى عموم الخطاب لوضوح هذا البرهان لكل إنسان استعطافا بهم في توبيخ : (أأنتم) أي أيها الأحياء مع كونكم خلقا ضعيفا) أشد خلقا) أي أصعب وأثقل من جهة التقدير والإيجاد) أم السماء (على ما فيها من السعة والكبر ولعلو **والمنافع** .

ولما كان الجواب قطعا : السماء لما يرى من أعظمها لأن العالم الإنساني." (١)

" صفحة رقم ٣١٨

مختصر العالم الآفاقي ، ويزيد الآفاقي طول البقاء مع عدم التأثر ، وصل به قوله دليلا على قدرته على البعث لقدرته على ما هو أشد منه لأن الذي قدر على ابتداء الأكبر هو على إعادة الأصغر أقدر ، مبينا لكيفية خلقه لها : (بناها) أي جعلها سقفا للأرض على ما لها من العظمة ، ثم بين البناء بقوله : (رفع سمكها) أي جعل مقدار ارتفاها من الأرض أو سمنها الذاهب في العلو رفيعا ، قال في القاموس : السمك السقف ، أو من أعلى البيت إلى أسفله ، أو القامة من كل شيء ، وقال أبو حيان : السمك الارتفاع الذي بين سطح السماء الذي يلينا وسطحها الذي يلي ما فوقها : (فسواها) أي عدلها عقب ذلك بأن جعلها مستوية لا شيء فيها أعلى من شيء ولا أخفض ولا فطور فيها ، وأصلحها بما تم به كمالها من الكواكب وغيرها ، وجعل مقدار تخن كل سماء وما بين كل سماءين وتخن كل أرض وما بين كل أرضين على السواء لا يزيد شيء من ذلك على الآخر أصلا .

النازعات : (٢٩ - ٣٧) وأغطش ليلها وأخرج. .. . .

) وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها مآءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم فإذا جآءت الطآمة الكبرى يوم يتذكر الإنسان ما سعى وبرزت الجحيم لمن يرى فأما من طغى (( )

ولما كان كل من ذلك يدل على القدرة على البعث لأنه إيجاد ما هو أشد من خلق الآدمي من عدم ، أتبعه ما يتصور به البعث في كل يوم وليلة مرتين فقال : (وأغطش) أي أظلم إظلاما لا يهتدي معه إلى ما كان

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبد الرزاق غالب)، ٣١٧/٨

في حال الضياء) ليلها) أي بغياب شمسها فأخفى ضياءها بامتداد ظل الأرض على كل ما كانت الشمس ظهرت عليه .

وأضافه إليها لأنه يحدث بحركتها ، وبدأ به لأنه كان أولا ، والعدم قبل الوجود) وأخرج ضحاها (بطلوع شمسها فأضاء نهارها ، فالآية من الاحتباك : دل ب (أغطش) على (أضاء) وبإخراج الضحى على إخفاء الضياء ، ولعله عبر بالضحى عن النهار لأنه أزهر ما فيه وأقوى نورا .

ولما بدأ بدلالة العالم العلوي لأنه أدل لما فيه من العجائب **والمنافع** مع كونه أشرف ، فذكر أنه أتقن السماء التي هي كالذكر ، ثنى بأنه سوى ما هي لها كالأنثى فقال : (والأرض (ولما كان المراد استغراق الزمان باستمرار الدحو ، حذف الخافض فقال : (بعد ذلك) أي المذكور كله) دحاها) أي بسطها ومدها للسكنى وبقية **المنافع** بعد أن كان خلقها وأوجدها قبل إيجاد السماء غير مسواة بالفعل ولا مدحوة .

ولما ذكر الدحو ، أتبعه ما استلزمه من المناف لتوقف السكنى المقصود بالدحو." [1]

" صفحة رقم ٣١٩

عليه فقال كالمبين له من غير عاطف : (أخرج منها) أي الأرض) ماءها (بتفجير العيون ، وإضافته إليها دليل على أنه فيها) ومرعاها (الذي يخرج بالماء ، والمراد ما يرعى منها ومكانه وزمانه .

ولما ذكر الأرض ومنافعها ، ذكر المراسي التي تم بها نفعها فقال : (والجبال) أي خاصة) أرساها) أي أثبتها وأقرها ومع كونها ثابتة لا تتحول فإنه سبحانه جعلها مراسي للأرض تكون سببا لثباتها كما أن المراسي سبب لثبات السفينة .

ولما كانت الإعادة واضحة من تناول الحيوان المأكل والمشرب وغيرهما من المتاع فإنه كلما نقص منه شيء تناول ما قدر له ليعود ذلك أوبعضه ، قال منبها على أنه كل يوم في إعادة بانيا حالا مما تقدم تقديره : حال كونها) متاعا (مقدرا) لكم (تتمتعون بما فيها من **المنافع**) ولأنعامكم) أي مواشكيم بالرعي وغيره .

ولما ذكر ما دل على البعث ، أتبعه ما يكون عن البعث مسببا عنه دلالة على أن الوجود ما خلق إلا لأجل البعث لأنه محط الحكمة : (فإذا جاءت) أي بعد الموت) الطامة الكبرى) أي الداهية الدهياء التي تطم أي تعلو كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، والعامل في (إذا) محذوف تقديره : فصل الناس إلى

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣١٨/٨

شقي وسعيد .
ولما كان الشيء لا يعرف قدره إذا كان غائبا إلا بما يكون فيه ، قال مبدلا منه : (يوم يتذكر) أي تذكرا عظيما ظاهرا بما أشار إليه الإظهار) الإنسان) أي الخلق الآنس بنفسه الغافل عما خلق له) ما سعى) أي عمل كله من خير وشر لأنه يراه في صحيفة أعماله ، والإخبار عن تذكره منبها على ما في ذلك اليوم من الخطر لأن أحدا لا يعمل جهده في تذكره إلا لمحوج إلى ذلك وهو الحساب وتدوينه في صحيفة أعماله .
ولما أشار إلى الحساب ذكر ما بعده فقال : (وبرزت) أي أظهرت إظهارا عظيما ، وبناه للمفعول لأن الهائل مطلق تبريزها لا كونه من معين ، مع الدلالة على الخفة والسهولة لكونه على طريقة كلام القادرين) الجحيم) أي النار التي اشتد وقدها وحرها) لمن يرى) أي كائنا من كان لأنه لا حائل بين أحد وبين رؤيتها ، لكن الناجل لا يصرف بصره إليها فلا يراها كما قال تعالى :
٧٧ ( ) ا يسمعون حسيسها ( ) ٧
[الأنبياء : ١٠٢] .
ولما كان جواب (إذا) كما مضى محذوفا ، وكان تقديره أن قسم الناس قسمين : قسم للجحيم وقسم للنعيم ، قال تعالى مسببا عنه مفصلا : (فأما من طغى) أي تجاوز الحد في العدوان فلم يخش مقام ربه ، قال في القاموس : طغى : جاوز القدر." [1]
" صفحة رقم ٣٣٢
يمكن .
ولما ذكر فاكهة الناس ، ذكر فاكهة بقية الحيوان فقال : (وأبا) أي ومرعى ونباتا وعشبا وكلأ ما دام رطبا يقصد ، من أب الشيء إذا أمه .
لما جمع ما يقتات وما يتفكه ، فدل دلالة واضحة على تمام القدرة ، ذكر بالنعمة فيه قارعا بأسلوب الخطاب لتعميم الأفراد بعد سياق العتاب للتصريح بأن الكل عاجزون عن الوفاء بالشكر فكيف إذا انضم إليه الكفر فقال : (متاعا (وهو منصوب على الحال .
ولما ذكر ما يأكله الناس وما يعلف للدواب ، وكان السياق هنا لطعام الإنسان ، قال مقدما ضميرهم : (لكم ولأنعامكم (بخلاف ما في السجدة وقد مضى ، والأنعام بها يكون تمام الصلاح للإنسان بما له فيها

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣١٩/٨

من النعم بالركوب والأكل والشرب والكسوة والجمال وسائر **المنافع** ، وذكر هذا ذكرا ظاهرا مشيرا إلى المعادن لأن منها ما لا يتم ما مضى إلا به وهي آلات الزرع والحصد والطبخ والعجن وغير ذلك ، والملائكة المدبرة لما صرفها الله فيه من ذلك ، فدل ذلك على أن الوجود كله خلق لأجل منافع الإنسان ليشكر لا ليكفر ، ودلت القدرة على ذلك قطعا على القدرة على البعث .

عبس : (٣٣ - ٤٢) فإذا جاءت الصاخة

) فإذا جآءت الصآخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة (( )

ولما ذكر عجائب الصنع في الطعام ، وكان ذلك يقطع فيعود لا سيما المرعى فإنه يأتي عليه الخريف فينشف ثم يتحطم من الرياح ويتفرق في الأرض ثم يصير ترابا ثم يبعث الله المطر فيجمعه من الأرض بعد أن صار ترابا ثم ينبته كما كان ، وكان ذلك مثل إحياء الموتى سواء ، فتحقق لذلك ما تقدم من أمر الإنشار بعد الإقبار ، وكان ذلك أيضا مذكرا بأمر أبينا آدم عليه الصلاة والسلام لما أمره الله بالأكل من الجنة إلا من الشجرة التي نهاه عنها ، فلما أكل منها أخرجه من الجنة فسبجنه في دار ليست بجنة ولا نار ولا غيرهما بل هي ممن ممتزج الدارين وكالبرزخ بينهما ، فيها ما يذكر بهذه وما يذكر بتلك وفيها أمثلة الموجدات كلها ، قال مسببا عما ثبت به الإحياء للبعث إلى المحشر معبرا بأداة التحقق لأن الساعة ممن لا بد منه ولا محيد عنه لأنها سر الكون فإن فيها حساب الذين استخلفوا في هذا الوجود وأفيضت عليهم النعم التي أودعها فيه ، وأشار إلى أنهم عاجزون عن القيام بشكرها ، وكثير منهم بل أكثرهم زاد على ذلك بكفرها ، فأوجب ذلك ولا بد حسابهم على ما فعلوا فيما استخلفوا فيه واسترعوه كما هي عادة كل مسترع ومستخلف : (فإذا جاءت) أي كانت ووجدت لأن كل ما هو كائن كأنه لاقبك وجاء إليك) الصآخة) أي الصرخة العظيمة التي يبالغ في إسماع الأسماع بها حتى." (١)

" صفحة رقم ٣٤٩

ولما كان ذلك خالعا للقلوب ، وكان الإنسان إذا اعتقد البعث قد يقول تهاونا ببعض المعاصي : المرجع إلى كريم ولا يفعل بن إلا خيرا ، أنتج قوله مناديا بأداة البعد لأن أكثر الخلق مع ذلك معرض ، منكرا سبحانه وتعالى على من يقول هذا اغترارا بخدع الشيطان إنكارا يهد الأركان : (يا أيها الإنسان) أي البشر الآنس بنفسه الناسي لما يعنيه) ما غرك) أي أدخلك في الغرة ، وهي أن ترى فعلك القبيح حسنا أو ترى

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٣٢/٨

أنه يعفى عنك لا محالة ، وذلك بمعنى قراءة سعيد بن جبير والأعمش : أغرك بهمزة الإنكار ، وتزيد المشهورة معنى التعجب) بربك) أي المحسن إليك الذي أنساك إحسانه ما خلقت له من خلاص نفسك بعمل ما شرعه لك .

ولما كان التعبير بالرب مع دلالته على الإحسان يدل على الانتقام عند الإمعان في الإجرام لأن ذلك شأن المربي ، فكان ذلك مانعا من الاغترار لمن تامل ، أتبعه ما هو كذلك أيضا ظاه‌ره لطف وباطنه جبروت وقهر ، فقال للمبالغة في المنع عن الاغترار ،) الكريم) أي الذي له الكمال كله المقتضي لئلا يهمل الظالم بل يمهله ، ولا يسوي بين المحسن والمسيء والموالي والمعادي والمطيع والعاصي ، المقتضي لأن يبالغفي التقرب إليه بالطاعة شكرا له ، وأن لا يعرض أحد عنه لأن بيده كل شيء ولا شيء بيد غيره ، فجب أن يخشى شدة بطشه لأنه كذلك يكون المتصف بالكرم لا يكون إلا عزيزا ، فإنه يكون شديد الحلم عظيم السطوة عند انتهاك حرمته بعد ذلك الحلم فإنه يجد أعوانا كثيرة على مراده ، ولا يجد المعاقب عذرا في تقصيره بخلاف اللئيم فإنه لا يجد أعوانا فلا يشتد أخذه ، فصار الإنكار بواسطة هذين الوصفين أشد وأغلظ من هذه الجهة ، ومن جهة أنه كان ينبغي أن يستحيي من المحسن الذي لا تكدير في إحسانه بوجه ، قال أبو بكر الوراق : لو سألني لقلبت : غرني كرم الكريم وحلمه ، وقال علي رضي الله عنه : من كرم الرجل سوء أدب غلمانه ، وقال الإمام الغزالي في شرحه للأسماء : هو الذي إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجال ، ولا يبالي لمن أعطى ولا كم أعطى ، وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى ، وإذا جفى عاتب وما استقصى ، ولا يضيع من لاذ به وإليه التجأ ، ويغنيه عن الوسائل وشفعاء .

ولما ذكر هذين الوصفين الدالين على الكمالين ، بالجلال ، دل عليهما تقريرا لهما بإفاضة الجود في التربية بوصف الجمال بالإكرام لئلا يعتقد الإنسان بما له من الطغيان أنه حر مالك لنفسه يفعل ما يشاء فقال : (الذي خلقك) أي أوجدك من العدم مهيئا لتقدير الأعضاء) فسواك (عقب تلك الأطوار بتصوير الأعضاء والمنافع بالفعل." (١)

" صفحة رقم ٣٥٠

) فعدلك) أي جعل كل شيء من ذلك سلما مودعا فيه قوة المنافع التي خلقه الله لها ، وعدل المزاج حتى قبل الصورة ، والتعديل جعل البنية متناسبة الخلقة ، وكذا العدل في قراءة الكوفيين بالتخفيف أي

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٤٩/٨

فأمالك عن تشويه الخلقة وتقبيح الصورة ، وجعلك معتدلا في صورتك ، وكل هذا يقتضي غاية الشكر والخوف منه إن عصى ، لأنه كما قدر على التسوية يقدر على التشويه وغيره من العذاب .

الإنفطار : (٨ - ١٦) في أي صورة. ... .

) في أى صورة ما شآء ركبك كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغآئبين (( )

ولما أضاء بهذا إضاءة الشمس أنه عظيم القدرة على كل ما يريد ، أنتج قوله معلقا ب (ركب) : (في أي صورة (من الصور التي تعرفها والتي لا تعرفها من الدواب والطيور وغير ذلك من الحيوان . ولما كان المراد تقرير المعنى غاية التقرير ، أثبت النافي في سياق الإثبات لينتفي ضد ما ثبات المعنى على غاية من القوة التي لا مزيد عليها ، فقال : (ما شاء ركبك) أي ألف تركيب أعضائك وجمع الروح إلى البدن ، روى الطبراني في معاجمه الثلاثة برجال ثقات عن مالك بن الحيرث رضي الله عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إذا أراد الله جل اسمه أن يخلق النسمة فجامع الرجل المرأة طار ماؤه في كل عرق وعصب منها ، فلما كان اليوم السابع أحضر الله له كل عرق بينه وبين آدم ، ثم قرأ) في أي صورة ما شاء ركبك) [الانفطار : ٨]) فتحرر بهذا الإنسان رقيق رقا لازما ، ومن خلع ربقة ذلك الرق اللازم وكل إلى نفسه فهلك .

ولما أوضح سبحانه غاية الإيضاح الدليل على قدرته على الإعادة بالابتداء ، وبين تعالى أنه ما أوجب للإنسان ، الخسار بنسيان هذا الدليل الدال على تلك الدار إلا الاغترار ، وكان الاغترار يطلق على أدنى المعنى ، بين أنه ارتقى به الذروة فقال : (كلا) أي ما أوقعكم أيها الناس في الإعراض عمن يجب الإقبال عليه ويقبح غاية القباحة الإعراض بوجه عنه مطلق الغرور) بل (أعظمه وهو أنكم) تكذبون) أي على سبيل التجديد بتحدد إقامة الأدلة القاطعة وقيام البراهين الساطعة) بالدين) أي الجزاء الذي وظفه الله في يوم البعث ، فارجعوا عن الغرور مطلقا خاصا وعاما ، وارتدعوا غاية الارتداع) وإن) أي والحال أن) عليكم) أي ممن أقمناهم من جندنا من الملائكة." (١)

" صفحة رقم ٣٧٣

أظهرها وغير ذلك من الغرائب التي تدل على أن موجده بعد أن لم يكن ومذهب ما كان به قادر على الإبداء والإعادة وكل ما يريد) والقمر) أي الذي هو آيته) إذا اتسق) أي انتظم واستوى واجتمع كماله

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/٣٥٠

وتم أمره ليلة إبداره بعد أن كان قد غاب أصلا ثم بدأ هلالا خفيا ضئيلا دقيقا ولم يزل يزداد حتى يتم ثم ينقص إلى أن يخفى ثم يعود إلى حاله دليلا أظهر من الشمس على قدرة موجده كذلك على كل أمر من الإبداء والإعادة .

ولما كانت هذه الأمور عظيمة جدا لا يقدر عليها إلا الله تعالى ولها من **المنافع** ما لا يعلمه حق علمه إلا هو سبحانه وتعالى ، وكل منها مع ذلك دال على تمام قدرته تعالى على الذي يراد تقريره في العقول وإيضاحه من القدرة التامة على إعادة الشيء كما كان سواء ، ونفي الإقسام بها دليلا على أن ذلك في غاية الظهور ، فالأمر فيه غني عن الإقسام ، قال في موضع جواب القسم مقرونا باللام الدالة على القسم ذاكرا ما هو في الظهور والبداهة بحيث لا يحتاج إلى تنبيه عليه بغيره ذكره : (لتركبن) أي أيها المكلفون – هذا على قراءة الجماعة بضم الباء دلالة على حذف واو الجمع ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بفتحها على أن الخطاب للانسان باعتبار اللفظ) طبقا (مجاوزا) عن طبق) أي حالا بعد حال من أطوار الحياة وأدوار العيش وغمرات الموت ثم من أمور البرزخ وشؤون البعث ودواهي الحشر بدليل ما كان لكم قبل ذلك سواء بتلك القدرة التي كونت تلك الكزائن وأوجدت تلك العجائب سواء ، فتكونون في تمكن الوجود في كل طبق بحال التمكن على الشيء بالركوب ، وكل حال منها مطابق للآخر في ذلك فإن الطبق ما يطابق غيره ، ومنه قيل للغطاء : طبق – لمطابقته المغطى ، والطبق كل ما ساوى شيئا ووجه الأرض والقرن من الزمان أو عشرون سنة ، وكلها واضح الإرادة هنا وهو بديهي الكون ، فأول أطباق الإنسان جنين ، ثم وليد ، ثم رضيع ثم فطيم ، ثم يافع ، ثم رجل ، ثم شاب ، ثم كهل ، ثم شيخ ، ثم ميت ، وبعده نشر ثم حشر ثم حساب ثم وزن ثم صراط ثم مقر ، ومثل هذه الأطباق المحسوسة أطباق معنوية من الفضائل والرذائل .

الإنشقاق : (٢٠ – ٢٥) فما لهم لا. .. . . .

) فما لهم لا يؤمنون وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون بل الذين كفروا يكذبون والله أعلم بما يوعون فبشرهم بعذاب أليم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (( )

ولما ظهر المراد ولم يبق إلا العناد ، سبب عن ذلك الإنكار عليهم والتوبيخ والتقريع والتهديد ، فقال معرضا عن خطابهم إلى الغيبة إيذانا باستحقاقهم للأخذ إن لم يرجعوا : (فما لهم) أي وأي شيء لهؤلاء الذين أنزلنا عليهم هذا الكتاب المعجز في أنهم) لا يؤمنون) أي وأي شيء لهؤلاء الذين أنزلنا عليهم هذا الكتاب المعجز في أنهم) لا يؤمنون) أي يوقعون الإيمان ويجددونه كل وقت على الاستمرار بكل ما." [1]

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٧٣/٨

" صفحة رقم ٤٠٨

نفس تلغو أو كلمة ذات لغو على الإسناد المجازي ، بل المسموع فيها الذكر من التحميد والتمجيد والتنزيه لحمل ما يرى فيها من البدائع على ذلك مع نزع الحظوظ الحاملة على غيره من القلوب بما كانوا يكرهون من لغو أهل الدنيا المنافي للحكمة .

ولما وصف الجنة بأول ما يعتبر فيها وهو عدم المنغص ، أتبعه ما يطلب بعده وهو تناول الملتذات ، وكان الأكل قد فهم من ذكر لفظ الجنة ، ذكر المشروب لذلك ولدلالته إذا كان جاريا على زيادة حسن الجنة وكثر ما فيها من النباتات المقيتة والمفكهة من النجم والأشجار والري الأطيار ، فقال لأنه ليس كل جنة مما نعرفه فيه ماء جار بنفسه : (فيها) أي الجنة .

ولما كان الماء الجاري صالحا لأن يقسم إلى أماكن كثيرة ، وحد قوله المراد به الجنس الشامل للكثير مقابلة لعين أهل النار في دار البوار : (عين جارية) أي عظيمة الجري جدا ، فهي بحيث لا تنقطع أصلا لما لأرضها من الزكاء والكرم وما لمائها من الغزارة وطيب العنصر ، فهو صالح لأن يعم جميع نواحيها أقاصيها وأدانيها وإن عظم اتساعها وتناءت أقطارها وبقاعها ، كما نراه يجري من ساق الشجرة الكبيرة جدا فيسقي جميع أغصانها وأوراقها وثمارها ، ويزيد على ذلك بأن جريه من أسفل إلى فوق ، يجدبه جاذب الشوق ويسوقه أي سوق يقدره الخلاق العليم ، والذي قدر على هذا كما هو مشاهد لنا لا نشك فيه قادر على أن يجعل هذه العين - الصالحة للجنس ولو كانت واحدة بالشخص - عامة لجميع مرافق الجنة تجري إلى خيامها ورياضها وبساتينها ومصانعها ومجالسها ويصعدها إلى أعالي غرفها وإن علت ، مقسمة بحسب المصالح ، موزعة على قدر **المنافع** ، بغاية الإحكام بما كان لداخلها من الخضوع الذي يجري منهم الدموع ويقل الهجوع ويكثير الظمأ والجوع .

ولما لم يبق بعد الأكل والشرب إلا الاتكاء ، قال مفهما أنهم ملوك : (فيها (معيدا الخبر قطعا للكلام عن الأول تنبيها على شرف العين لأن الماء مما لا حياة بدونه) سرر) أي زائدة الحد في العكثرة ، جمع سرير وهو مقعد عال يجلس عليه الملك ينقل إلى الموضع الذي يشتهيه ، سمي بذلك لأنه يسر النفس ، والمادة كلها للسرور والطيب والكرم ، ولذلك يطلق على الملك والنعمة وخفض العيش) مرفوعة) أي رفعها رافع عظيم في السمك وهو جهة العلو ليرى الجالس عليها جميع ملكه وما نعم به وما شاء الله من غيره وفي القدر ، لا كما تعهدونه في الدنيا ، بل ارتفاعها نمط جليل من مقدار عظمة رافعها الذي رفع السماء ، فالتنكير للتعظيم ، وبنى الاسم للمفعول للدلالة على أنه ليس له من ذاتها إلا الانخفاض ، وأما ارتفاعها

فبقسر القادر على كل شيء ، وهذا يدل على أنها كسماء لا عمد لها ، قال البغوي : قال ابن عباس رضي الله عنهما :." (١)

" صفحة رقم ٤١٠

المخلوقات لا شبيه لها مع ما لها من كثرة **المنافع** كما قال الحسن رحمه الله تعالى - مع أكلها لكل مرعى واجتزائها بأيسر شيء لا سيما في الماء وطول صبرها عنه مع عظم خلقها وكبر جرمها وشدة قوتها ، فكانت أدل على تمام القدرة والفعل بالاختيار ، قال منبها بذكرها على التدبر في الآيات المنبثة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنعا بعد ما أشار إلى دلالتها على البعث في البروج بذكر ثمود بعد أن صرح به في سورة سبحانه كما مضى بيانه في الموضعين ويأتي إن شاء الله تعالى في الفجر والشمس ، وأوضح التعبير عنها هنا بما يدل على الخطة المميلة المحيلة المناسبة لمعنى الغاشية بخلاف التعبير في سورة النحل بالأنعام لأنها سورة النعم) إلى الإبل (ونبه على أن عجيب خلقها مما ينبغي أن تتوفر الدواعي على الاستفهام والسؤال عنه بأداة الاستفهام ، فقال بانيا للمفعول إشارة إلى أن الدال هو التأمل في مجرد خلقها الدال على إحاطة علم الله وعظيم إحسانه وقدرته تعالى وفعله بالاختيار وحسن تدبيره حيث خلقها لجر الأثقال إلى البلاد النائية فجعلها عظيمة باركة للحمل ناهضة به من غير معين ، منقادة لمن اقتادها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار الثقال ترعى كل نبات وتحمتمل العطش إلى عشر فصاعدا ليتأتى بها قطع المفاوز ، فهي سفن البر مع ما لها من منافع أخر ، قال البيضاوي : ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المنبثة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنعا ولأنها أعجب ما عند العرب - انتهى ، وتنفعل للبسط وتجد في سيرها فتتأثر بالصوت الحسن جدا ، ومن عجائبها أنها لا تكذب أصلا فإنها لا تبرك عجزا عن الحمل - إلا وليس فيها من القوى شيء ، وليس فيها ما تعم كراهته إلا كثرة رغائها فلعله سبحانه نفى عن الجنة اللغو لذلك ، ولعله مثل العين الجارية وقربها بدرها ، والسرر المرفوعة التي حكى أنها تنخفض حتى يتمكن المنتفع بها من ظهورها ثم ترتفع به بالسماء في علوها مع ما يعهدون من بروك الإبل للحمل والركوب ثم ارتفاعها لتمام الانتفاع ، وقرب نصب الاكواب بسنامها والنمارق ببقيتها حال بروكها ، ثم فصل ما دلت عليه الإبل من الاكواب بالجبال التي لا ترتقى مثل جبل السد ، والنمارق بالتي ترتقى ، وبسط الزرابي بمهد الأرض ، قال أبو حيان رحمه الله تعالى : و) كيف (سؤال عن حال والعامل فيه) خلقت (وإذا علق الفعل عما فيه الاستفهام لم يبق الاستفهام على حقيقته .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٠٨/8

ولما ذكر سبحانه وتعالى هذا المخلوق المفرد الذي هو أدل ما يكون على هذا القول بالطبيعة ، أتبعه ذكر السماء ليتذكر السامع ذلك فيباعد من يقول به فقال : (وإلا السماء) أي التي هي من جملة مخلوقاتنا) كيف رفعت) أي حصل بأيسر أمر رفعها." [1]

" صفحة رقم ٤١١

من الذي خلقها بلا عمد على ما لها من السعة والكبر والثقل والإحكام وما فيها من جبال الكواكب والغرائب والعجائب ، فذلك دال على القدرة التامة التي لا يشارك تعالى فيها أحد قل ولا جل على إيجاد الجنة العالية وعلى رفع السرر فيها لأنه دل على الفعل بالاختيار ونفي حكم الطبيعة حكما وحتما ، وذلك دال على كمال قدرته تعالى على كل شيء .

ولما ذكر العالي من الحيوان الملابس للانسان والعالي من الأكوان ، أتبعه أعلى الأعرض فقال تعالى : (وإلى الجبال) أي الشامخة وهي أشد الأرض) كيف نصبت) أي كان نصبها من ناصبها عالية جدا على بقية الأرض بلا موجب فيها لذلك من طبيعة ولا غيرها بل بفعل الفاعل المختار فهي راسخة لا تميل ، فوضعها كذلك على ما فيها من **المنافع** من المياه الجارية والأشجار المختلفة أعجب من وضع الأكواب والنمارق المزينة ، وبها مع ذلك ثبتت الأرض وحفظت من الميد ، واءتدل أمر الكواكب في تقدير الليل والنهار باعتدال البلاد بالطلق بإعلاء بعضها قبل بعض حتى كانت المطالع والمغارب على ترتيب مطرد ونظام محكم غير منخرم تقدر به الأزمان والفصول والسنون والأيام والشهور - إلى غير ذلك من الأمور ، ولا يكون ذلك لها إلا بقاهر قادر مختار لا شريك له .

ولما كان الخفض لا يكون إلا بخافض قاهر كما أن الرفع كذلك قال تعالى : (وإلا الأرض) أي مع سعتها) كيف سطحت) أي اتفق بسطها من باسطها حتى صارت مهادا موضوعا يمشي عليه بغاية السهولة ، والقدرة على جعلها كذلك على ما هي فيه من الزينة بناصر النبات وغير ذلك من الاختلافات دالة على الفعل بالاختيار ، وليست بدون القدرة على بث الزرابي في الجنة على اختلاف أشكالها وصورها وألوانها .

ولما دل ما ذكر من عجائب صنعه في أنواع المخلوقات من البسائط والمركبات العلويات ولاسفليات على كمال قدرته على كل شيء ، فدل على كمال ةدرته - على البعث وعلى كل ما ذكر أنه يفعله في الجنة والنار ، وكان الحث على النظر في هذه الأشياء باستفهام إنكاري ، وكان ذلك مفيدا لانتفاء النظر ، قال

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/٤١٠

سبحانه مسببا عنه : (فذكر (كل من يرجى تذكره وانتفاعه بالتذكير يا أشرف خخلقنا بما في غرائزهم وفطرهم من العلم الأولى بما في هذه الأشياء وأمثالها مما يدل على صحة ما نزلنا عليك ليدلهم على كمال قدرة الذي بعثك فينقادوا لك أتم انقياد لا سيما في اعتقاد حقية البعث ، ولا يهمنك كونهم لا ينظرون ولا يتطرفون ، ولعل التذكير يوصل المتذكر إذا أقبل عليه بحسن رغبة إلى أن يعرف أن الإبل تشبه الأنفس المطمئنة الذلولة المطيعة المناقدة ، ." (١)

" صفحة رقم ٤٤٢

جاء من عنده ، وإعراضها عن الانقياد لقبول ما جاء من النبوة أو الولاية ، والعلماء العاملون هم أولياء الله ، قال الإمامان أبو حنيفة والشافعي رضي الله عنهما : إن لم تكن العلماء أولياء الله فليس الله ولي – رواه عنهما الحافظ أبو بكر الخطيب ، وهو مذكور في التبيان وغيره من مصنفات النووي ، ونظير السماء العزة والترفع عن الشهوات وعن خطوات الشياطين من الإنس والجن ، والأرض نظيرها التواضع لحق الله ولرسوله خطوات الشياطين من الإنس والجن ، والأرض نظيرها التواضع لحق الله ولرسوله وللمؤمنين فيكون بإخراجه **المنافع** لهم كالأرض المخرجة لنباتها ، والتدسية خلاف ذلك ، من عمل بالسوء من عمل بالسوء فقد هضم نفسه وحقرها فأخفاها كما ان اللئام ينزلون بطون الأودية ومقاطعها بحيث تخفى أماكنهم على الطارقين ، والأجواد ينزلون الرابي ، ويوقدون النيران للطارقين ، ويشهرون أماكنهم للمضيفين منازل الأشراف في الأطراف كما قيل :

قوم على المحتاج سهل وصلهم ومقامهم وعر على الفرسان

ولما كان السياق للترهيب بما دلت عليه سورة البلد وتقديم الفجور هنا ، وكان الترهيب أحث على الزكان ، قال دالا على خيبه المدسي ليعتبر به من سمع خبره لا سيما إن كان يعرف أثره : (كذبت ثمود (أنث فعلهم لضعف أثر تكذيبهم لأن كل سامع له يعرف ظلمهم فيه لوضوح آيتهم وقبيح غايتهم ، ومالهم بسفول الهمم وقباحة الشيم ، وخصهم لأن آياتهم مع أنها كانت أوضح الآيات في نفسها هي أدلها على الساعة ، وقريش وسائر العرب عارفون بهم لما يرون من آثارهم ويتناقلون من أخبارهم) بطغواها) أي أوقعت التكذيب لرسولها بكل ما أتى به عن الله تعالى بسبب ما كان لنفوسهم نم وصف الطغيان ، وهو مجاوزة القدر وارتفاعه والغلو في الكفر والإسراف في المعاصي والظلم ، أو بما توعدوا به من العذاب العاجل وهي الطاغية التي أهلكوا ب٥١ ، وطغى – واوي يائي يقال : طغى كدعا يطغو طغوى وطغوانا – بضمها كطغى

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤١١/٨

يطغى ، وطغي كرضي طغيانا – بالكسر والضم ، فالطغوى – بالفتح اسم ، وبالضم مصدر ، فقلبت الياء – على تقدير كونه يائيا – واوا للتفرقة بين الاسم والصفة ، واختير التعبير به دون اليائي لقوة الواو ، فأفهم أنهم بلغوا النهاية في تكذيبهم ، فكانوا على الغاية من سوء تعذبهم .

ولام ذكر تكذيبهم ، دل عليه بقوله : (إذ) أي تحقق تكذيبهم أو طغيانهم بالفعل حين) انبعث أشقاها) أي أشد ثمود شقاء وهو عاقر الناقة للمشاركة في الكفر والزيادة بمباشرة العقر ، وهو قدار بن سالف ، أو هو ومن مالاه على عقرها ، فإن أفعل التفضيل إذا أضيف صلح للواحد والجمع) فقال لهم) أي بسبب الانبعاث أو التكذيب الذي دل." [١]

" صفحة رقم ٤٧٠

التين : (١ – ٨) والتين والزيتون

) والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين ( ))

ولماكان التين أحسن الفواكه تقويما فما فيما ذكروا من فضيلته ، وهو مع كونه فاكهة شهية حلوة جدا – غذاء يقيم الصلب وقوت كالبر وسريع الهضم ، ودواء كثير النفع يولد دما صالحا وينفع الرئة والكلى ويلين الطبع ويحلل البلغم ويزل رمل المثانة ويفتح سدد الكبد والطحال ، فكان جامعا لجميع منافع المتناولات من الغذاء والتفكه والتحلي والتداوي ، فهو كامل في مجموع ما هو فيه من لذة طعمه وكثرة نفعه ، وكونه كفاكهة الجنة بلا شائبة تعوق عن أكله من صنوان يتعب أو نوى يرمى ، مع أنه ينتفع به رطبا ويابسا ، وهو مع ذلك في سرعة فساده وسوء تغيره أسفلها رتبة وأردؤها مغبة ، فهو كالفطرة الأولى في مبدئه سهولة وحسنا وقبولا لكل من الإصلاح والتغير ، كآخر الهرم عند نهايته في عظيم تغيره بحيث إنه لا ينتفع بشيء منه إذا تغير ، وغيره من الفواكه إذا فسد جانب منه بقي آخر فكان في هذا كالقسم للسافل من الإنسان أقسم الله تعالى به فقال : (والتين (بادئا به لأن القسم المشار به إليه أكثر ، فالأهتمام به أكبر .

ولما كان الزيتون في عدم فساد يطرقه أو تغير يلحقه ، وفيه الدسومة والحرافة والمرارة ، وهو إدام ودواء مع تهيئه للنفع بكل حال في أكله بعد تزييته والتنوير بدهنه والادهان به لإزالة الشعث وتنعيم البشرة وتقوية العظم وشد العصب وغير ذلك من **المنافع** مع لدنه وما يتبع ذلك من فضائله الجمة كالمؤمن تلاه به فقال

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٤٢/٨

: (والزيتون (ولما كان مع ذلك مشارا بهما إلى مواضع نباتها وهي الأرض المقدسة من جميع بلاد الشام إيماء إلى من كان بها من ،لأنبياء والتابعين لهم بإحسان لا سيما إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كانت مهاجره فأحياها الله تعالى بعباده وتردد الملائكة إليه بالوحي ومن بعده أولاده الذين طهرها الله بهم من الشرك وأنارها بهم بالتوحيد ، وختمهم بعيسى عليه الصلاة والسلام أحد أولي العزم المشرف بكونه من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وكانت الكناية بالشجرتين عن البلد المراد به سكانه أبلغ من التصريح أشرافهم إلا موسى وهارون وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، فأشار إلى الأولين بقوله معبرا بما يدل على أحسن التقويم لأن الطور الجبل ذو النبت من النجم والشجر المثمر وغيره : (وطور) أي جبل المكان المسمى بهذا الاسم .

ولما كان الكلام في التقويم ، كان المناسب له صورة جمع السلامة فقال تعالى :." (١)

" صفحة رقم ٤٧١

) سينين) أي وما كان بالجبل ذي النبت الحسن الذي كلم الله فيه موسى عليه الصلاة والسلام من لذيذ المناجاة وعجائب المواعدة وحكم الكلام مع أنه فيه من الأشجار والأماكن ما يكن من الحر والبرد ، وفيه لخلوه وحسنه وعلوه جمع الخاطر للمتفرد وطمأنينة النفس للتخلي للعبادة والتحصن مما يخشى لعلوه وصعوبته ، وفيه ما يصلح للزرع من غير كلفة ، وفيه ما يأكله الناس والدواب مع الماء العذب والفناء الرحب والمنظر الأنيق ، وسنين وسيناء – اسم للموضع الذي هذا الجبل به ، وأشار سبحانه وتعالى إلى الأخيرين من أولاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ختاما للقسم بأكمل المقسم به كما جعل المنزل عليه ذلك الذي هو ختام الرسل أكمل النوع المقسم لأجله ليكون في البدء بكا يرد بعد حسن التقويم إلى الفساد والختم بما هو أشرف المذكورين بكل اعتبار طباق حاز أعلى الأسرار : (وهذا البلد) أي مكة ، صرح هنا بهذين المكانين ترشيحا لأن المراد بالأولين مواضع نبتهما مع تلك الإشارة اللطيفة بذكر اسميهما إلى مناسبتهما للمقسم من أجله) الأمين) أي الذي يأتمنه آخر على نفسه وما يعز عليه فيؤديه إليه ويوقره عليه ، وأمانته شاملة لكل ما يخشى حتى الفقر والعيلة والجوع وتغير الدين بعد تقرره مع أنه به البيت الذي جعله الله هدى للعالمين وقياما للناس فهو مدار الدين والدنيا ، وكان به من الأسرار بالوحي وآثاره ما لم يكن في بلد من البلاد ، وذلك إشارة إلى أنه تعالى كما جعل النبي المبعوث منه في آخر الزمان في أحسن تقويم جعله في أحسن تقويم البلدان إذ كان آمنا من غير ملك مرهوب – والناس يتخطفون من حوله ، وهو محل الأنس

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/٤٧٠

بالناس كما أن الذي قبله محل الأنس بالانفراد ، وهو مجمع المرافق ومعدن **المنافع** ومحل ذوي الوجاهة دينا ودنيا ، ومحل الرفعة والمناصب مع ما حازه المكانان من تنزل الكتب السماوية وإشراق الأنوار الإلهية الدينية فيهما ، وفي ذلك تخويف لهم بأنهم إن لم يرجعوا عن غيهم أخافه إخافة لم يخفها بلدا من بلاد العرب فيكونون بذلك قد ردوا أسفل سافلين في البلد ، كما ردوا في الأخلاق بالشقاق واللداد .
ولما كان هذا القسم مع كونه جامعا لبدائع المصنوعات التي هي لما ذكر من حكمها دالة على كمال علم خالقها وتمام قدرته جامعا لأكثر الذين آمنوا ، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام لكونه أباهم مذكرا مرتين بالأرض المقدسة من القدس ومكة ، فتوقع أكل الخلق وأفطنهم المخاطب بهذا الذكر المقسم عليه علما منه ببلوغ القسم إلى غايته واستوائه على نهايته ، أجيب بقوله تعالى محققا : (لقد خلقنا) أي قدرنا وأوجدنا بما لنا من العظمة الباهرة والعزة الغالبة القاهرة) الإنسان) أي هذا النوع الذي جمع فيه." (١)

" صفحة رقم ٤٨٢
تربيتك وأدبك فأحسن تأديبك أمرك بالقراءة وهو قادر على جعلك قارئا ، عطف عليه قوله : (وربك) أي يكون التقدير : والحال أن الذي خصك بالإحسان الجم) الأكرم) أي الذي له الكمال الأعظم مطلقا من جهة الذات ومن جهة الصفات ومن جهة الأفعال ، فلا يلحقه نقص في شيء من الأشياء أصلا لأن حقيقته البعيد عن اللوم الجامع لمساوئ الأخلاق ، فهو الجامع لمعالي الأخلاق ، وليس غيره يتصف بذلك ، فهو يعطيك ما لا يدخل تحت الحصر ، وأشارإلى أن من ذلك أنه يفيض على أمته الأمية من العلم والحظ ما لم يفضه على أمة قبلها على قصر أعمارهم ، فقال مشيرا إلى العلم التعليم ، مشرعا بوصفه سبحانه بالمنح بالعلم إلى ترتيب الحكم بالأكرمية على هذا الوصف الناقل للإنسان من الحال العقلي السافل إلى هذا الحال العالي الكامل) الذي علم) أي بعد الحلم عن معاجلتهم بالعذاب والعقاب جودا منه من غير مانع من خوف عاقبة ولا رجاء منفعة) بالقلم) أي الكتابة به .
ولما نبه بذلك على ما في الكتابة من **المنافع** التي لا يحيط بها غيره سبحانه وتعالى ، لأنها انبنت عليها استقامة أمور الدنيا والدين في الدنيا والآخرة ، وهي كافية في الدلالة على دقيق حكمته تعالى ولطيف تدبيره ، زاد ذلك عظيمة على وجه يعم غيره فقال : (علم) أي العلم الضرور والنظري) الإنسان) أي الذي من شأنه الأنس بما هو فيه لا ينتقل إلى غيره بل ينساه إن لم يلهمه ربه إياه) ما لم يعلم) أي بلطفه وحكمته لينتظم به حاله في دينه من الكتاب والسنة ودنياه من المعاملات والصنائع ، فيفيض عليه من علمه اللدني

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٧١/٨

الذي لا سبب له ظاهر ما يعرف به ترتيب المقدمات بالحدود والوسطى ، فيعلم النتائج ، وما يعرف به الحدسيات ، وذلك بعد خلق القوى ونصب الدلائل وإنزال الآيات ، ولو كان ذلك بالأسباب فقط لتساوى الناس في مدة التعليم وفي أصل المعلوم كما تساووا في مدة الحمل وأصل الإنسانية ، وقد ذكر سبحانه مبدأ الإنسان ومنتهاه بنقله من أخس الحالات إلى أعلاها تقريرا لربوبيته وتحقيقا لأكرميته ، قال الملوي : ولو كان شيء من العطاء والنعم أشرف من العلم لذكره عقب صفة الأكرمية – انتهى ، وفي ذلك إشارة إلى مزيد كرم العلماء بالتعليم ، وفي الآية الإشارة إلى مطالعة عالمي الخلق والأمر ، قال الرازي ، وفي كل من العالمين خصوص وعموم – انتهى ، فالمعنى أنه يعلمك أيها النبي الكريم وإن كنت أميا لا تعلم الآن شيئا كما علم بالقلم من لم يكن يعلم ، فتكون أنت – بما أشارت إليه صفة الأكرمية على ما أنت فيه من الأمية – أعلم من أهل الأقلام – وأعلى من كل مقام سام .

ولما كان الدم أكثر الأخلاط وأشدها هيجانا ، فإن مرضه لا يشبهه شيء من أمراض بقية الأخلاط ، وكان مع ذلك سريع البرء إن أصيب علاجه وعولج بأمر قاهر أقوى منه ، وكان العلم قرين الغنى في الأغلب ، وكان زلة العالم تفوق زلة غيره ، قال." (١)

" صفحة رقم ٥٤٥

تعريفا بأنهم بلغوا من الرذالة دركة ليس وراءها للحسد موضع) الماعون) أي حقوق الأموال والشيء اليسير من المنافع مثل إعارة التافه من متاع البيت التي جرت عادة الناس أن يتعاوروه بينهم ، ويمنعون أهل الحاجة ما أوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق ، والحاصل أنه ينبغي حمل ذلك على منع ما يجب بذله مثل فضل الكلأ والماء والزكاة ونحوه ليكون موجبا للويل ، وعلى الزكاة حمله علي وابن عمر رضي الله عنهما والحسن وقتادة ، قال العلماء : هو مأخوذ من المعن ، وهو في اللغة الشيء اليسير ، ولذلك فسره بعضهم بالماء وبعضهم بما يعار على وجه الزكاة إلا شيء يسير جدا بالنسبة إليه ، وقيل : هو كل عطية أو منفعة ، وقال قطرب : هو فاعول من المعن ، والمعن : المعروف ، وقال أبو عبيدة : الماعون في الجاهلية العطاء والمنفعة وفي الإسلام الزكاة ، وقال الهروي : قال ابن عباس رضي الله عنما : هو العارية – ذكر هذا الأستاذ عبد الحق الإشبيلي في كتابه الواعي ، وقال ابن جرير : وأصل الماعون من كل شيء منفعته .

فدل ذلك على أنهم بلغوا نهاية التكذيب باستهانتهم بأعظم دعائم الدين واستعظامهم لأدنى أمور الدنيا ، وهذا الآخر كما ترى هو الأول لأن الذي جر إليه هو التكذيب ، ومن منع هذه الأشياء التافهه كان جديرا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٨٢/٨

بأن يمنع ورود الكوثر في يوم المحشر ، وكما التقى آخرها بأولها التقت السورة كلها مع مناظرتها في العدد من أول القرآن ، وذلك أنه قد علم أن حاصل هذه السورة الإبعاد عن سفساف الأخلاق ورديها ودنيها من التكذيب بالجزاء الذي هو حكمة الوجود المثمر للإعراض عن الوفاء بحق الخلائق وطاعة الخالق ، والانجذاب مع النقائص إلى الاستهانة بالضعيف الذي لا يستهين به إلا أنذل الناس وأرذلهم ، والرياء الذي لا يلم به إلا من كان في غاية الدناءة ، فكان ذلك موجبا للميل إلى أعظم الويل ، وفي ذلك أعظم مرغب في معالي الأخلاق التي هي أضداد ما ذكر في السورة وكلا الأمرين موجود في الأنفال المناظرة لها في رد المقطع على المطلع على أتم وجه ، ليكون ذلك إشارة إلى أنها شارحة لهذا ففيه الإيماء إلى ملاحظتها عند قراءتها ، انظر إلى قوله تعالى :

٧٧ ( ) الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا ( ) ٧

[الأنفال : ٤] الآية

٧٧ ( ) وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ( ) ٧

[الأنفال : ٣٥]

٧٧ ( ) والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ( ) ٧

[الأنفال : ٣٦] الآية

٧٧ ( ) فإن الله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ( ) ٧

[الأنفال : ٤١] الآية ولقد انطبقت السورة بمعانيها وتراكيبها العظيمة ونظومها ومبانيها على الأراذل الأدنياء الأسافل ، وأحاطت برؤوسهم." (١)

"يعود بأرزاق العفاة منيحها) " الطويل "

والمنيح في هذا البيت المستمنح لأنهم كانوا يستعيرون السهم الذي قد أملس وكثر فوزه فذلك

٢٩٤

المنيح الممدوح وأما المنيح الذي هو أحد الثلاثة الأغفال فذلك إنما يوصف بالكر وإياه أراد جرير بقوله

(ولقد عطفن على فزارة عطفة

كر المنيح وجلن ثم مجالا) " الكامل "

ومن الميسر قول لبيد

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٤٥/٨

(إذا يسروا لم يورث اليسر بينهم

فواحش ينعى ذكرها بالمصايف) " الطويل "

فهذا كله هو نفع الميسر إلا أنه أكل المال بالباطل ففيه إثم كبير وقال محمد بن سيرين والحسن وابن عباس وابن المسيب وغيرهم كل قمار ميسر من نرد وشطرنج ونحوه حتى لعب الصبيان بالجوز

وقوله تعالى " قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس " الآية قال ابن عباس والربيع الإثم فيهما بعد التحريم والمنفعة فيهما قبله وقالت طائفة الإثم في الخمر ذهاب العقل والسباب والافتراء والإذاية والتعدي الذي يكون من شاربها والمنفعة اللذة بها كما قال حسان بن ثابت

(ونشربها فتتركنا ملوكا

وأسدا ما ينهنها اللقاء)

إلى غير ذلك من أفراحها وقال مجاهد المنفعة بها كسب أثمانها ثم أعلم الله عز وجل أن الإثم أكبر من النفع وأعود بالضرر في الآخرة فهذا هو التقدمة للتحريم وقرأ حمزة والكسائي كثير بالثاء المثلثة وحجتها أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الخمر ولعن معها عشرة بائعها ومتباعها والمشتراة له وعاصرها والمعصورة له وساقيها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها فهذه آثام كثيرة وأيضا فجمع **المنافع** يحسن معه جمع الآثام وكثير بالثاء المثلثة يعطي ذلك وقرأ باقي القراء وجمهور الناس كبير بالباء بواحدة وحجتها أن الذنب في القمار وشرب الخمر من الكبائر فوصفه بالكبير أليق وأيضا فاتفاقهم على " أكبر " حجة لكبير بالباء بواحدة وأجمعوا على رفض أكثر بالثاء مثلثة إلا ما في مصحف ابن مسعود فإن فيه قل فيهما إثم كثير وإثمهما أكثر بالثاء مثلثة في الحرفين وقوله تعالى فيهما إثم يحتمل مقصدين أحدهما أن يراد في استعمالهما بعد النهي والآخر أن يراد خلال السوء التي فيهما وقال سعيد

بن جبير لما نزلت " قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس "كرهها قوم للإثم وشربها قوم للمنافع فلما نزلت " لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى " النساء ٤٣ تجنبوها عند أوقات الصلوات الخمس فلما نزلت " إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون " المائدة ٩٠ قال عمر بن الخطاب ضيعة لك اليوم قرنت بالميسر والأنصاب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت الخمر ". (١)

---

(١) المحرر الوجيز ـ ١/٢٨٠

"(أهل الخورنق والسدير وبارق

والبيت ذي الكعبات من سنداد)

قالوا كانت فيه بيوت مربعة وفي كتاب سير ابن إسحاق أنه كان في خثعم بيت يسمونه كعبة اليمانية وقال قوم سميت كعبة لنتوئها ونشوزها على الأرض ومنه كعب ثدي الجارية ومنه كعب القدم ومنه كعوب القناة

و " قياما " معناه أمر يقوم للناس بالأمنة

والمنافع كما الملك قوام الرعية وقيامهم يقال ذلك بالياء كالصيام ونحوه وذلك لخفة الياء فتستعمل أشياء من ذوات الواو بها وقد يستعمل القوام على الأصل قال الزاجز

(قوام دنيا وقوام دين

)

وذهب بعض المتأولين إلى أن معنى قوله تعالى " قياما للناس " أي موضع وجوب قيام بالمناسك والتعبدات وضبط النفوس في الشهر الحرام ومع الهدي والقلائد وقرأ ابن عامر وحده قيما دون ألف وهذا إما على أنه مصدر كالشبع ونحوه وأعل فلم يجر مجرى عوض وحول من حيث أعل فعله وقد تعل الجموع لاعتلال الآحاد فأحرى أن تعل المصادر لاعتلال أفعالها ويحتمل قيما أن تحذف الألف وهي مرادة وحكم هذا أن يجيء في شعر وغير سعة وقرأ الحجدري قيما بفتح القاف وشد الياء المكسورة " والشهر " هنا اسم جنس والمراد الأشهر الثلاثة بإجماع من العرب وشهر مضر وهو رجب الأصم سمي بذلك لأنه كان لا يسمع فيه صوت الحديد وسموه منصل الأسنة لأنهم كانوا ينزعون فيه أسنة الرماح وهو شهر قريش وله يقول عوف بن الأحوص

٢٤٤

(وشهر بني أمية والهدايا

إذا سيقت مدرجها الدماء)

وسماه النبي صلى الله عليه وسلم شهر الله أي شهر آل الله وكان يقال لأهل الحرم آل الله ويحتمل أن يسمى شهر الله لأن الله سنه وشدده إذ كان كثير من العرب لا يراه وأما " الهدي " فكان أمانا لمن يسوقه لأنه يعلم أنه في عبادة لم يأت لحرب وأما " القلائد " فكذلك كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلد من لحاء السمر أو غيره شيئا فكان ذلك أمانا له وكان الأمر في نفوسهم عظيما مكنه الله حتى كانوا لا يقدم من ليس بمحرم أن يتقلد شيئا خوفا من الله وكذلك إذا انصرفوا تقلدوا من شجر الحرم وقوله تعالى " للناس

" لفظ عام وقال بعض المفسرين أراد العرب

". (١)

"بالمنافع والمضار في الدين

قوله عز وجل

سورة الأنعام ١٥٢

هذا نهي عن القرب الذي يعم وجوه التصرف وفيه سد الذريعة ثم استثنى ما يحسن وهو التثمير والسعي في نمائه قال مجاهد " التي هي أحسن " التجارة فيه ممن كان من الناظرين له مال يعيش به فالأحسن إذا ثمر مال يتيم أن لا يأخذ منه نفقة ولا أجرة ولا غيرها من كان من الناظرين لا مال له ولا يتفق له

٣٦٣

نظر إلا بأن ينفق على نفسه من ربح نظره وإلا دعته الضرورة إلى ترك مال اليتيم دون نظر فالأحسن أن ينظر ويأكل بالمعروف قاله ابن زيد والأشد جمع شد وجمع شدة وهو هنا الحزم والنظر في الأمور وحسن التصرف فيها

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه وليس هذا بالأشد المقرون ببلوغ الأربعين بل هذا يكون مع صغر السن في ناس كثير وتلك الأشد هي التجارب والعقل المحنك ولكن قد خلطهما المفسرون وقال ربيعة والشعبي ومالك فيما روي عنه وأبو حنيفة بلوغ الأشد البلوغ مع أن لا يثبت سفه وقال السدي الأشد ثلاثون سنة وقالت فرقة ثلاثة وثلاثون سنة وحكى الزجاج عن فرقة ثمانية عشرة سنة وضعفه ورجح البلوغ مع الرشد وحكى النقاش أن الأشد هنا من خمسة عشر إلى ثلاثين والفقه ما رجح الزجاج وهو قول مالك رحمه الله الرشد وزوال السفه مع البلوغ

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه وهذا أصح الأقوال وأليقها بهذا الموضع وقوله تعالى " وأوفوا الكيل والميزان " الآية أمر بالاعتدال في الأخذ والإعطاء والقسط العدل وقوله " لا نكلف نفسا إلا وسعها " يقتضي أن هذه الأوامر إنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز لا أنه مطالب بغاية العدل في نفس الشيء المتصرف فيه قال الطبري لما كان الذي يعطي ناقصا يتكلف في ذلك مشقة والذي يعطي زائدا يتكلف أيضا مثل ذلك رفع الله عز وجل الأمر بالمعادلة حتى يتكلف واحد منهما مشقة وقوله " وإذا قلتم فاعدلوا " يتضمن الشهادات والأحكام والتوسط بين الناس وغير ذلك أي ولو كان ميل الحق على

---

(١) المحرر الوجيز . ٢٨٦/٢

قراباتكم وقوله " وبعهد الله " يحتمل أن يراد جميع ما عهده الله إلى عباده ويحتمل أن يراد به جميع ذلك مع جميع ما انعقد بين إنسانين وأضاف ذلك العهد إلى الله من حيث قد أمر بحفظه والوفاء به وقوله " لعلكم " ترج بحسبنا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو تذكرون بتشديد الذال والكاف جميعا وكذلك يذكرون ويذكر الإنسان وما جرى من ذلك مشددا كله وقرأ نافع

وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر كل ذلك بالتشديد إلا قوله " أو لا يذكر الإنسان " فإنهم خففوها وروى أبان وحفص عن عاصم تذكرون خفيفة الذال في كل القرآن

." (١)

"وقيل إن المقول هو الآية التي بعد أعني قوله " الله الذي خلق السماوات " .

والسر صدقة التنفل والعلانية المفروضة وهذا هو مقتضى الأحاديث وفسر ابن عباس هذه الآية بزكاة الأموال مجملا وكذلك فسر الصلاة بأنها الخمس وهذا منه عندي تقريب للمخاطب .

و " خلال " مصدر من خالل إذا واد وصافى ومنه الخلة والخليل وقال امرؤ القيس

(صرفت الهوى عنهن من خشية الردى

ولست بمقلي الخلال ولا قال) " الطويل "

وقال الأخفش الخلال جمع خلة .

وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وابن عامر لا بيع ولا خلال بالرفع على إلغاء لا وقرأ أبو عمرو والحسن وابن كثير لا بيع ولا خلال بالنصب على التبرية وقد تقدم هذا .

والمراد بهذا اليوم يوم القيامة .

وقوله تعالى " الله الذي خلق السماوات " الآية تذكير بآلاء الله وتنبيه على قدرته التي فيها إحسان إلى البشر لتقوم الحجة من جهتين .

و " الله " مبتدأ و " الذي " خبره .

ومن أخبر بهذه الجملة وتقررت في نفسه آمن وصلى وأنفق .

و " السماوات " هي الأرقعة السبعة والسماء في قوله " وأنزل من السماء " السحاب .

وقوله " من الثمرات " يجوز أن تكون " من " للتبعيض فيكون المراد بعض جني الأشجار ويسقط ما كان منها سما أو مجردا للمضرات ويجوز أن تكون " من " لبيان الجنس كأنه قال فأخرج به رزقا لكم من

---

(١) المحرر الوجيز . ٤٢٦/٢

الثمرات وقال بعض الناس " من " زائدة وهذا لا يجوز عند سيبويه لكونها في الواجب ويجوز عند الأخفش
.
و " الفلك " جمع فلك وقد تقدم القول فيه مرارا وقوله " بأمره " مصدر من أمر يأمر وهذا راجع إلى الكلام القائم بالذات كقول الله تعالى للبحار والأرض وسائر الأشياء كن عند الإيجاد إنما معناه كن بحال كذا وعلى وتيرة كذا وفي هذا يندرج جريان الفلك وغيره .
وفي تسخير الفلك ينطوي تسخير البحر وتسخير الرياح وأما تسخير الأنهار فتفجرها في كل بلد وانقيادها للسقي وسائر **المنافع** .
و " دائبين " معناه متماديين ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش عليه إن هذا الجمل شكى إلي أنك تجيعه وتديبه أي تديمه في الخدمة والعمل وظاهر الآية أن معناه دائبين في الطلوع والغروب وما بينهما من **المنافع** للناس التي لا تحصى كثرة .
وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان يرفع إلى ابن عباس أنه قال معناه دائبين في طاعة الله وهذا قول إن كان يراد به أن الطاعة انقياد منهما في التسخير فذلك موجود في قوله " سخر " وإن كان يراد أنها طاعة مقصودة كطاعة العبادة من البشر فهذا جيد والله أعلم .
٣٤٠
". (١)

"الآخرة فكيف تطيب حياة بين هذين الوعيدين
ومعنى قوله " ويلههم " أي يشغلهم أملهم في الدنيا والتزيد منها عن النظر والإيمان بالله ورسوله .
ومعنى قوله " وما أهلكنا من قرية " الآية أي لا تستبطئن هلاكهم فليس قرية مهلكة إلا بأجل وكتاب معلوم محدود .
والواو في قوله " ولها " هي واو الحال .
وقرأ ابن أبي عبلة إلا لها بغير واو .
وقال منذر بن سعيد هذه الواو هي التي تعطي أن الحالة التي بعدها في اللفظ هي في الزمن قبل الحالة التي قبل الواو منه قوله " حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها " وباقي الآية بين .
٣٥١

---

(١) المحرر الوجيز . ٣/٣٣٩

قوله عز وجل

سورة الحجر ٦ - ١١

الضمير في " قالوا " يراد به كفار قريش .

ويروى أن القائلين كانوا عبد الله بن أبي أمية والنضر بن الحارث وأشباههما .

وقرأ الأعمش يا أيها الذي ألقى إليه الذكر .

وقولهم " يا أيها الذي نزل عليه الذكر " كلام على جهة الاستخفاف أي بزعمك ودعواك وهذه المخاطبة كما تقول لرجل جاهل أراد أن يتكلم فيما لا يحسن يا أيها العالم لا تحسن تتوضأ .

و " لو ما " بمعنى لولا فتكون تحضيضا كما في هذه الآية وقد تكون دالة على امتناع الشيء لوجود غيره كما قال ابن مقبل

(لو ما الحياء ولو ما الدين عبتكما

ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري) " البسيط "

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ما تنزل الملائكة بفتح التاء والرفع وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ما تنزل بضم التاء والرفع وهي قراءة يحيى بن وثاب وقرأ حمزة والكسائي وحفص ما ننزل بنون العظمة الملائكة بالنصب وهي قراءة طلحة بن مصرف .

وقوله " إلا بالحق " قال مجاهد المعنى بالرسالة والعذاب .

قال القاضي أبو محمد والظاهر أن معناه كما يجب ويحق من الوحي **والمنافع** التي رآها الله لعباده لا على اقتراح كافر ولا باختيار معترض .

ثم ذكر عادة الله في الأمم من أنه لم يأتهم بآية اقتراح إلا ومعها العذاب في إثرها إن لم يؤمنوا .

فكأن الكلام ما تنزل الملائكة إلا بحق وواجب لا باقتراحكم وأيضا فلو نزلت لم تنظروا بعد ذلك بالعذاب أي تؤخروا والنظرة التأخير المعنى فهذا لا يكون إذ كان في علم الله أن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن .

وقوله تعالى " إنا نحن نزلنا الذكر " رد على المستخفين في قولهم " يا أيها الذي نزل عليه الذكر " .

وهذا كما يقول لك رجل على جهة الاستخفاف يا عظيم القدر فتقول له على جهة الرد والنجه نعم أنا عظيم القدر .

ثم تأخذ في قولك فتأمله .

وقوله " وإنا له لحافظون " قالت فرقة الضمير في " له " عائد على محمد صلى الله

عليه وسلم

٣٥٢

". (١)

"حيث كان المنذرون كافرين بالألوهية ففي ضمن أمرهم مكان خوف وفي ضمن الإخبار بالوحدانية نهي عما كانوا عليه ووعيد ثم ذكر تعالى ما يقال للأنبياء بالوحي على المعنى ولم يذكره على لفظه لأنه لو ذكره على اللفظ لقال أن أنذروا أنه لا إله إلا الله ولكنه إنما ذكر ذلك على معناه وهذا سائغ في الأقوال إذا حكيت أن تحكى على لفظها أو تحكى بالمعنى فقط وقوله تعالى " خلق السماوات والأرض " الآية آية تنبيه على قدرة الله تعالى بالحق أي بالواجب اللائق وذلك أنها تدل على صفات يحق لمن كانت له أن يخلق ويخترع ويعيد وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة النافذة بخلاف شركائهم الذين لا يحق لهم شيء من صفات الربوبية وقرأ الأعمش بزيادة فاء فتعالى .

وقوله " خلق الإنسان من نطفة " يريد ب " الإنسان " الجنس وأخذ له الغايتين ليظهر له البعد بينهما بقدرة الله ويروى أن الآية نزلت لقول أبي بن خلف من يحيي العظام وهي رميم وقوله " خصيم " يحتمل أن يريد به الكفرة الذين يختصمون في الله ويجادلون في توحيده وشرعه ذكره ابن سلام عن الحسن البصري ويحتمل ان يريد أعم من هذا على أن الآية تعديد نعمة الذهن والبيان على البشر ويظهر أنها إذا تقدر في خصام الكافرين ينضاف إلى العبرة وعيد ما .

قوله عز وجل

سورة النحل ٥ - ٩

" الأنعام " الإبل والبقر والغنم وأكثر ما يقال نعم وأنعام للإبل ويقال للمجموع ولا يقال للغنم مفرده ونصبها إما عطف على " الإنسان " وإما بفعل مقدر وهو أوجه والدفء السخانة وذهاب البرد بالأكسية ونحوها وذكر النحاس عن الأموي أنه قال الدفء في لغة بعضهم تناسل الإبل .

قال القاضي أبو محمد وقد قال ابن عباس نسل كل شيء وقد قال ابن سيده الدفء نتاج الإبل وأوبارها والانتفاع بها والمعنى الأول هو الصحيح وقرأ الزهري وأبو جعفر دفء بضم الفاء وشدها وتنوينها **والمنافع** ألبانها وما تصرف منها ودهونها وحرثها والنضح عليها وغيره ذلك ثم ذكر

الأكل الذي هو من جميعها وقوله " جمال " أي في المنظر .

---

(١) المحرر الوجيز . ٣/٣٤٩

و " تريحون " معناه حين تردونها وقت الرواح إلى المنازل فتأتي بطانا ممتلئة الضروع و " تسرحون " معناه تخرجونها غدوة إلى السرح تقول سرحت السائمة إذا أرسلتها تسرح فسرحت هي كرجع رجعته وهذا الجمال هو لمالكها ولمحبيه وعلى حسدته وهذا المعنى كقوله تعالى " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " وقرأ عكرمة والضحاك حينما تريحون حينا تسرحون وقرأت فرقة وحينا ترتحون .

٣٨٠

قال القاضي أبو محمد وأظنها تصحيفا .

والأثقال الأمتعة وقيل المراد هنا الأجسام كقوله " وأخرجت الأرض أثقالها " أي أجسام بني آدم .

". (١)

"قال القاضي أبو محمد والقطع على هذا التأويل ليس بالاختناق بل هو جزم السبب وفي مصحف ابن مسعود ثم ليقطعه بهاء والجمهور على أن القطع هنا هو الاختناق وقال الخليل وقطع الرجل إذا اختنق بحبل أو نحوه ثم ذكر الآية وتحتمل الآية معنى آخر وهو أن يراد به الكفار وكل من يغتاظ بأن ينصره الله ويطمع أن لا ينصر قيل له من ظن أن هذا لا ينصر فليمت كمدا هو منصور لا محالة فليختنق هذا الظان غيظا وكمدا ويؤيد هذا أن الطبري

والنقاش قالا ويقال نزلت في نفر من بني أسد وغطفان قالوا نخاف أن ينصر محمد فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من يهود من المنافع والمعنى الأول الذي قيل فيه للعابدين " على حرف " ليس بهذا ولكنه بمعنى من قلق واستبطأ النصر وظن أن محمدا لا ينصر فليختنق سفاهة إذ تعدى الأمر الذي حد له في الصبر وانتظار صنع الله وقال مجاهد الضمير في

١١٢

". (٢)

"الجمع ورويت عن مجاهد وقرأ مجاهد رجالي على وزن فعالى فهو كمثل كسالى والضامر قالت فرقة أراد بها الناقة ع وذلك أنه يقال ناقة ضامر .

ومنه قول الأعشى

(عهدي بها في الحي قد ذرعت

---

(١) المحرر الوجيز . ٣٧٧/٣

(٢) المحرر الوجيز . ١٣٥/٤

هيفاء مثل المهرة الضامر)

فيجيء قوله " يأتين " مستقيما على هذا التأويل وقالت فرقة الضامر هو كل ما اتصف بذلك من جمل أو ناقة وغير ذلك ع وهذا هو الأظهر لكنه يتضمن معنى الجماعات أو الرفاق فيحسن لذلك قوله " يأتين " وقرأ أصحاب ابن مسعود يأتون وهي قراءة ابن أبي عبلة والضحاك وفي تقديم " رجالا " تفضيل للمشاة في الحج قال ابن عباس ما آسى على شيء فاتني إلا أن أكون حججت ماشيا فإني سمعت الله تعالى يقول " يأتونك رجالا " وقال ابن أبي نجيح حج إبراهيم وإسماعيل ماشيين واستدل بعض العلماء بسقوط ذكر البحر من هذه الآية على أن فرض الحج بالبحر ساقط ع قال مالك في الموازية لا أسمع للبحر ذكرا ع وهذا تأسيس لا أنه يلزم من سقوط ذكره سقوط الفرض فيه وذلك أن مكة ليست في صفة بحر فيأتيها الناس بالسفن ولا بد لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة إما راجلا وإما على " ضامر " فإنما ذكرت حالتا الوصول وإسقاط فرض الحج بمجرد البحر ليس بالكثير ولا القوي فأما إذا اقترن به عدو أو خوف أو هول شديد أو مرض يلحق شخصا ما فمالك والشافعي وجمهور الناس على سقوط الوجوب بهذه الأعذار وأنه ليس بسبيل يستطاع وذكر صاحب الاستظهار في هذا المعنى كلاما ظاهره أن الوجوب لا يسقطه شيء من هذه الأعذار ع وهذا ضعيف والفج الطريق الواسعة والعميق معناه البعيد وقال الشاعر : " الطويل "

(إذا الخيل جاءت من فجاج عميقة

يمد بها في السير أشعث شاحب)

والمنافع في هذه الآية التجارة في قول أكثر المتأولين ابن عباس وغيره وقال أبو جعفر محمد بن علي أراد الأجر و " منافع " الآخرة وقال مجاهد بعموم الوجهين وقوله تعالى " اسم الله " يصح أن يريد بالأسم ها هنا المسمى بمعنى ويذكروا الله

".(١)

"التقدير في هذا الموضع الأمر ذلك والشعائر جمع شعيرة وهي كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم قالت فرقة قصد ب الشعائر في هذه الآية الهدي والأنعام المشعرة ومعنى تعظيمها تسميتها والاهتبال بأمرها والمغالات بها قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة وعود الضمير في " إنها " على التعظمة والفعلة التي يتضمنها الكلام وقرأ القلوب بالرفع على أنها فاعلة بالمصدر الذي هو " تقوى " ثم اختلف المتألون في قوله " لكم فيها منافع " الآية فقال مجاهد وقتادة أراد أن للناس في أنعامهم منافع من الصوف واللبن وغير

---

(١) المحرر الوجيز . ٤/١٤٤

ذلك ما لم يبعثها ربها هديا فإذا بعثها فهو الأجل المسمى وقال عطاء بن أبي رباح أراد في الهدي المبعوث منافع من الركوب والاحتلاب لمن اضطر والأجل نحرها وتكون " ثم " لترتيب الجمل لأن المحل قبل الأجل ومعنى الكلام عند هاتين الفرقتين " ثم محلها " إلى موضع النحر فذكر " البيت " لأنه أشرف الحرم وهو المقصود بالهدي وغيره وقال ابن زيد وابن عمر والحسن ومالك الشعائر في هذه الآية مواضع الحج كلها ومعالمه بمنى وعرفة والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغير ذلك وفي الآية التي تأتي أن البدن من الشعائر **والمنافع** التجارة وطلب الرزق ويحتمل أن يريد كسب الآجر والمغفرة وبكل احتمال قالت فرقة والأجل الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة وقوله " محلها " مأخوذ من إحلال المحرم ومعناه ثم أخر هذا كله إلى طواف الإفاضة ب " البيت العتيق " ف " البيت " على هذا التأويل مراد بنفسه قاله مالك في الموطأ ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل أمة من الأمم المؤمنة " منسكا " أي موضع نسك وعبادة وهذا على أن المنسك ظرف كالمذبح ونحوه ويحتمل أن يريد به المصدر كأنه قال عبادة ونحو هذا والناسك العابد وقال مجاهد سنة في هراقة دماء الذبائح وقرأ معظم القراء منسكا بفتح السين وهو من نسك ينسك بضم السين في المستقبل وقرأ حمزة والكسائي منسكا بكسر

السين قال أبو علي الفتح أولى لأنه إما المصدر وإما المكان وكلاهما مفتوح والكسر في هذا من الشاذ في اسم المكان أن يكون مفعل من فعل يفعل مثل مسجد من سجد يسجد ولا يسوغ فيه القياس ويشبه أن الكسائي سمعه من العرب وقوله " ليذكروا اسم الله " معناه أمرناهم عند ذبائحم بذكر الله وأن يكون الذبح له لأنه رازق ذلك ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه فالإله واحد لجميعكم بالأمر كذلك في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له و " أسلموا " معناه لحقه ولوجهه ولإنعامه آمنوا وأسلموا ويحتمل أن يريد الاستسلام ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبشر بشارة على الإطلاق وهي أبلغ من المفسرة لأنها مرسلة مع نهاية التخيل

١٢٢

". (١)

"و " المخبتين " المتواضعين الخاشعين من المؤمنين والخبت ما انخفض من الأرض والمخبت المتواضع الذي مشيه متطامن كأنه في حدود من الأرض وقال عمرو بن أوس المخبتون الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا .

---

(١) المحرر الوجيز . ٤/١٤٩

قال القاضي أبو محمد : وهذا مثال شريف من خلق المؤمن الهين اللين وقال مجاهد هم المطمئنون بأمر الله ووصفهم تعالى بالخوف والوجل عند ذكر الله وذلك لقوة يقينهم ومراعاتهم لربهم وكأنهم بين يديه ووصفهم بالصبر وبإقامة الصلاة وإدامتها وقرأ الجمهور الصلاة بالخفض وقرأ ابن أبي إسحاق الصلاة بالنصب على توهم النون وأن حذفها للتخفيف ورويت عن أبي عمرو وقرأ الأعمش والمقيمين الصلاة بالنون والنصب في الصلاة وقرأ الضحاك والمقيم الصلاة وروي أن هذه الآية قوله " وبشر المخبتين " نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم .

قوله عز وجل

سورة الحج الآية ٣٦٣٧

البدن جمع بدنة وهي ما أشعر من ناقة أو بقرة قاله عطاء وغيره وسميت بذلك لأنها تبدن أي تسمن وقيل بل هذا الاسم خاص بالإبل وقالت فرقة " البدن " جمع بدن بفتح الدال والباء ثم اختلفت فقال بعضها " البدن " مفرد اسم جنس يراد به العظيم السمين من الإبل والبقر ويقال للسمين من الرجال بدن وقال بعضها " البدن " جمع بدنة كثمرة وثمر وقرأ الجمهور والبدن ساكنة الدال وقرأ أبو جعفر وشيبة والحسن وابن أبي إسحاق البدن بضم الدال فيحتمل أن يكون جمع بدنة كثمر وعدد الله تعالى في هذه الآية نعمته على الناس في هذه " البدن " وقد تقدم القول في الشعائر والخير قيل فيه ما قيل في **المنافع** التي تقدم ذكرها والصواب عمومه في خير الدنيا والآخرة وقوله " عليها " يريد عند نحرها وقرأ جمهور الناس صواف بفتح الفاء وشدها جمع صافة أي مصطفة في قيامها وقرأ الحسن ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعري وشقيق وسليمان التيمي والأعرج صوافي جمع صافية أي خالصة لوجه الله تعالى لا شركة فيها لشيء كما كانت الجاهلية تشرك وقرأ الحسن أيضا صواف بكسر الفاء وتنوينها مخففة وهي بمعنى التي قبلها لكن حذفت الياء تخفيفا على غير قياس وفي هذا نظر وقرأ ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأبو جعفر محمد بن علي صوافن بالنون جمع صافنة وهي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب والصافن من الخيل الرافع لفراهيته إحدى يديه وقيل إحدى رجليه ومنه قوله تعالى " الصافنات الجياد "

وقال عمرو بن كلثوم

(تركنا الخيل عاكفة عليه

مقلدة أعنتها صفونا)

١٢٣
." (١)

"الجمهور هو اسم الجبل كما تقول جبل أحد و " سيناء " اسم مضاف إليه الجبل وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير سيناء بكسر السين وقرأ الباقون وعمر بن الخطاب سيناء بفتح السين وكلهم بالمد فعلى فتح السين لا ينصرف الاسم بوجه وعلى كسر السين فالهمزة كهمزة حرباء ولم يصرف في هذه الآية لأنه جعل اسم بقعة أو ارض وقرأ الجمهور تنبت بفتح التاء وضم الباء فالتقدير تنبت ومعها الدهن كما تقول خرج زيد بسلاحه وقرأ ابن كثير وأبو عمرو تنبت بضم التاء واختلف في التقدير على هذه القراءة فقالت فرقة الباء زائدة وهذا كقوله " ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " وهذا المثال عندي معترض وإن كان أبو علي ذكره وكقول الشاعر " الرجز "

(نحن بني جعدة أرباب الفلج

نضرب بالبيض ونرجو بالفرج)

ونحو هذا وقالت فرقة التقدير تنبت جناها ومعه الدهن فالمفعول محذوف قاله أبو علي الفارسي أيضا وقد قيل نبت وأنبت بمعنى فيكون الفعل كما مضى في قراءة الجمهور والأصمعي ينكر البيت ويتهم قصيدة زهير التي فيها أنبت البقل وقرأ الزهري والحسن والأعرج تنبت برفع التاء ونصب الباء قال أبو الفتح هي باء الحال أي تنبت ومعها دهنها وفي قراءة ابن مسعود تخرج بالدهن وهي ايضا باء الحال وقرأ زر بن حبيش تنبت بضم التاء وكسر الباء الدهن بحذف الباء ونصبه وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب بالدهان بالألف والمراد في هذه الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان وهي من أركان النعم التي لا غنى بالصحة عنها ويدخل في معنى الزيتونة شجر الزيت كله على اختلافه بحسب الأقطار وقرأت فرقة وصبغ وقرأت فرقة وأصباغ بالجمع وقرأ عامر بن عبد قيس ومتاعا للآكلين .

قوله عز وجل

سورة المؤمنون الآية ٢١٢٢٤

" الأنعام " هي الإبل والبقر والضأن والمعز والعبرة في خلقتها وسائر أخبارها وقرأ الجمهور نسقيكم بضم النون من أسقى ورويت عن عاصم وقرأ نافع وعاصم وابن عامر نسقيكم بفتح النون من سقى فمن الناس من قال هما لغتان بمعنى ومنهم من قال سقيته إذا اعطيته للشفة وأسقيته إذا جعلت له سقيا لأرض أو ثمرة

(١) المحرر الوجيز . ٤/١٥٠

ونحوه فكأن الله تعالى جعل الأنعام لعبيده سقيا يشربون وينتجعون وقرأ أبو جعفر تسقيكم بالتاء من فوق أي تسقيكم الأنعام والمنافع الحمل عليها وجلودها وأصوافها وأوبارها وغير ذلك مما يطول عده و " الفلك " السفن واحدها فلك الحركات في الواحد كحركات قفل والحركات في الجمع كحركات أسد وكتب .

قوله عز وجل

سورة المؤمنون الآية ٢٣٢٦

١٤١

". (١)

"قال ابن عباس وابن جريج والجماعة الإشارة إلى مدينة قوم لوط وهي سدوم بالشام و " مطر السوء " حجارة السجيل وقرأ أبو السمال السوء بضم السين المشددة ثم وقفهم على إعراضهم وتعرضهم لسخط الله بعد رؤيتهم العبرة من تلك القرية ثم حكم عليهم أنهم إذا رأوا محمدا صلى الله عليه وسلم استهزؤوا به واستحقروه وأبعدوا أن يبعثه الله رسولا فقالوا على جهة الاستهزاء " أهذا الذي بعث الله رسولا " وفي " بعث " ضمير يعود على الذي حذف اختصارا وحسن ذلك في الصلة ثم أنس النبي صلى الله عليه وسلم عن كفرهم بقوله " أرأيت من اتخذ إلهه هواه " الآية والمعنى لا تتأسف عليهم ودعهم لرأيهم ولا تحسب أنهم على ما يجب من التحصيل والعقل بل هم كالأنعام في الجهل بالمنافع وقلة التحسس للعواقب ثم حكم بأنهم " أضل سبيلا " من حيث لهم الفهم وتركوه و " الأنعام " لا سبيل لهم

٢١٢

إلى فهم المصالح ومن حيث جهالة هؤلاء وضلالتهم في أمر أخطر من الأمر الذي فيه جهالة الأنعام وقوله " اتخذ إلهه هواه " معناه جعل هواه مطاعا فصار كالإله والهوى قائد إلى كل فساد لأن النفس أمارة بالسوء وإنما الصلاح إذا ائتمرت للعقل وقال ابن عباس الهوى الإله يعبد من دون الله ذكره الثعلبي وقيل الإشارة بقوله " إلهه هواه " إلى ما كانوا عليه من أنهم كانوا يعبدون حجرا فإذا وجدوا أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الثاني الذي وقع هواهم عليه قال أبو حاتم وروي عن رجل من أهل المدينة قال ابن جني هو الأعرج " إلهه هواه " والمعنى اتخذ شمسا يستضيء بها هواه إذ الشمس يقال لها إلهة وتصرف ولا تصرف والوكيل القائم على الأمر الناهض به .

قوله عز وجل

---

(١) المحرر الوجيز . ٤/١٧١

" ألم تر " معناه انتبه والرؤية ها هنا رؤية القلب وأدغم عيسى بن عمر " ربك كيف " قال أبو حاتم والبيان أحسن و " مد الظل " بإطلاق هو بين أول الإسفار إلى بزوغ الشمس ومن بعد مغيبها مدة يسيرة فإن في هذين الوقتين على الأرض كلها ظل ممدود على أنها نهار وفي سائر أوقات النهار ظلال متقطعة والمد والقبض مطرد فيها وهو عندي المراد في الآية والله أعلم وفي الظل الممدود ما ذكر الله في هواء الجنة لأنها لما كانت لا شمس فيها كان ظلها ممدودا أبدا .
". (١)

"ومنه اللغطة و " آل فرعون " أهله وجملته وروي أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في اليم فأمرت بسوقه وفتحته فرأت فيه صبيا صغيرا فرحمته وأحبته وقال السدي إن جواريها كان لهن في القصر على النيل فرضه يدخل الماء فيها إلى القصر حتى ينلنه في المرافق **والمنافع** فبينا هن يغسلن في تلك الفرضة إذ جاء التابوت فحملنه إلى مولاتهن وقال ابن إسحاق رآه فرعون يعوم فأمر بسوقه وآسية جالسة معه فكان ما تقدم وقوله تعالى " ليكون لهم عدوا وحزنا " هي لام العاقبة لا أن المقصد بالالتقاط كان لأن يكون عدوا وقرأ الجمهور وحزنا بفتح الحاء
والزاي .
وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب وطلحة والأعمش وحزنا بضم الحاء وسكون الزاي والخاطىء متعمد الخطأ والمخطىء الذي لا يتعمده واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه أمرأة فرعون " قرة
٢٧٨
عين لي ولك) فقالت فرقة كان ذلك عند التقاط التابوت لما أشعرت فرعون به سبق إلى وهمه أنه من بني إسرائيل وأن ذلك قصد به ليخلص من الذبح فقال علي بالذباحين فقالت امرأته ما ذكر فقال فرعون أما لي فلا قال النبي صلى الله عليه وسلم لو قال فرعون نعم لآمن بموسى ولكان قرة عين له وقال السدي بل ربته حتى درج فرأى فرعون فيه شهامة وظنه من بني إسرائيل وآخذه في يده فمد موسى يده ونتف لحية فرعون فهم حينئذ بذبحه وحينئذ خاطبته بهذا وجربته له في الجمرة والياقوتة فاحترق لسانه وعلق العقدة وقوله " لا يشعرون " أي بأنه الذي يفسد الملك على يديه قال قتادة وغيره وقرأ ابن مسعود لا تقتلوه قرة عين لي ولك قدم وآخر وقوله " وأصبح " عبارة عن دوام الحال واستقرارها وهي كظل ومنه قول أبي سفيان

---

(١) المحرر الوجيز ـ ٤/٢٥٧

للعباس يوم الفتح لقد اصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما يريد استقرت حالة عظيما وقرأ جمهور الناس فارغا من الفراغ واختلف في معنى ذلك فقال ابن عباس فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى وقال مالك هو ذهاب العقل .

قال الفقيه الإمام القاضي نحو قوله " وأفئدتهم هواء " وقالت فرقة فارغا من الصبر وقال ابن زيد فارغا من وعد الله تعالى ووحيه إليها أي تناسته بالهم وفتر أثره في نفسها وقال لها إبليس فررت به من قتل لك فيه أجر وقتلته بيدك وقال أبو عبيدة فارغا من الحزن إذ لم يغرق وقرأ فضالة بن عبد الله ويقال ابن عبيد والحسن فزعا من الفزع بالفاء والزاي وقرأ ابن عباس قرعا بالقاف والراء من القارعة وهي الهم العظيم وقرأ بعض الصحابة رضي الله عنهم فرغا بالفاء المكسورة والراء الساكنة والغين المنقوطة ومعناها ذاهبا هدرا تالفا من الهم والحزن ومنه قول طليحة الأسدي في حبال أخيه " الطويل "

(فإن تك قتلى قد أصيبت نفوسهم

فلن يذهبوا فرغا بقتل حبال)

". (١)

"نبه في ذكر خلق " السماوات والأرض " على أمر يوقع الذهن على صغر قدر الأوثان وكل معبود من دون الله وقوله تعالى " بالحق " أي بالواجب النير لا للعبث واللعب بل ليدل على سلطانه ويثبت شرائعه ويضع الدلالات لأهلها ويعم **بالمنافع** إلى غير ذلك مما لا يحصى عدا ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام بالنفوذ لأمره وتلاوة القرآن الذي أوحي إليه وإقامة الصلاة أي إدامتها والقيام بحدودها ثم أخبر حكما منه " إن الصلاة تنهى " صاحبها وممتثلها " عن الفحشاء والمنكر "

قال الفقيه الإمام القاضي وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وتذكر الله تعالى وتوهم الوقوف بين يدي العظمة وأن قلبه وإخلاصه مطلع عليه مرقوب صلحت لذلك نفسه وتذللت وخامرها ارتقاب الله تعالى فاطرد ذلك في أقواله وأعماله وانتهى عن الفحشاء والمنكر ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حاله فهذا معنى هذا الإخبار لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون وقد روي عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفر لونه فكلم في ذلك فقال إني أقف بين يدي الله تعالى وحق لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك

قال الفقيه الإمام القاضي فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر ومن كانت صلاته دائرة حول

---

(١) المحرر الوجيز . ٤/٣٢٨

الإجزاء لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تركته الصلاة يتمادى على بعده وعلى هذا يخرج الحديث المروي عن
ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدا وقد روي أن الحسن أرسله عن النبي صلى الله عليه وسلم وذلك غير صحيح السند سمعت أبي رضي الله عنه يقوله فإذا قررناه ونظرنا معناه فغير جائز أن نقول إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله حتى كأنها معصية وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله تعالى بل تتركه في حاله ومعاصيه من الفحشاء والمنكر تبعده فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذي كان بسببيله فكأنها بعدته حين لم تكف بعده عن الله تعالى وقيل لابن مسعود إن فلانا كثير الصلاة فقال إنها لا تنفع إلا من أطاعها وقرأ الربيع بن أنس إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر وقال ابن عمر " الصلاة " ها هنا
٣٢٠
القرآن وقال حماد بن أبي سليمان وابن جريج والكلبي إن الصلاة تنهى ما دمت فيها .
". (١)

"الفكرة والنظر إذ لم يكن على سداد وقوله تعالى " في أنفسهم " يحتمل معنيين أحدهما أن تكون الفكرة في ذواتهم وحواسهم وخلقتهم ليستدلوا بذلك على الخالق المخترع ثم أخبر عقب هذا المعنى بأن الحق هو السبب في خلق السماوات والأرض فيفهم على طريقة الإيجاز والاختصار أن من فكر في نفسه علم حقيقة هذا الخبر ووقف عليه ببصيرة نفسه والمعنى الثاني أن تكون النفس ظرفا للفكرة في خلق السماوات والأرض فيكون قوله " في أنفسهم " تأكيدا لقوله " يتفكروا " كما تقول انظر بعينك واسمع بأذنك فقولك بأذنك تأكيد وقوله " إلا بالحق " أي بسبب **المنافع** التي هي حق واجب يريد من
٣٣٠
الدلالة عليه والعبادة له دون فتور والانتصاب للعبرة ومنافع الأرزاق وغير ذلك و " أجل " عطف على الحق أي وبأجل مسمى وهو يوم القيامة ففي الآية إشارة إلى البعث والنشور وفساد بنية من في هذا العالم ثم أخبر عن كثير من الناس أنهم كفرة بذلك المعنى فعبر عنه " بلقاء " الله لأن لقاء الله هو عظم الأمر وفيه النجاة أو الهلكة
قوله عز وجل في سورة الروم آية ٩

(١) المحرر الوجيز . ٣٧٢/٤

هذا أيضا توقيف وتوبيخ على أنهم ساروا ونظروا أي إن ذلك لم ينفعهم حين لم يعملوا بحسب العبرة وخوف العاقبة

قال القاضي أبو محمد ولا يتوجه للكفرة أن يعارض منهم من لم يسر فيقول لم أسر لأن كافة من سار من الناس قد نقلت إلى من لم يسر فاستوت المعرفة وحصل اليقين للكل وقامت الحجة وهذا بين وقوله تعالى " وأثاروا الأرض " يريد بالمباني والحرث والحروب وسائر الحوادث التي أحدثوها هي كلها إثارة للأرض بعضها حقيقة وبعضها تجوز لأن إثارة أهل الأرض والحيوان والمتاع إثارة للأرض وقرأ أبو جعفر وآثاروا بمد الهمزة قال ابن مجاهد ليس هذا بشيء قال أبو الفتح وجهها أنه أشبع فتحة الهمزة فنشأت ألف ونحوه قول ابن هرمة

(فأنت من الغوائل حين ترمى

ومن ذم الرجال بمنتزاح) " الوافر "

قال وهذا من ضرورة الشعر لا يجيء في القرآن وقرأ أبو حيوة وآثروا الأرض بالمد بغير ألف بعد الثاء من الأثرة والضمير في " عمروها " الأول للماضين والثاني للحاضرين والمعاصرين وباقي الآية بين يتضمن الوعد والتخويف من عدل الله تعالى

قوله عز وجل من سورة الروم آية ١٠ – ١٣

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو عاقبة بالرفع على أنها اسم "كان " والخبر يجوز أن يكون " السوأى " ويجوز أن يكون " أن كذبوا " وتكون " السوأى " على هذا مفعولا ب " أساءوا " وإذا كان " السوأى " خبرا

٣٣١

." (١)

"هذا تنبيه لقريش وأمر لهم بالاعتبار فيمن سلف من الأمم وفي سوء عواقبهم بكفرهم وإشراكهم ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام بإقامة وجهه والمعنى اجعل قصدك ومسعاك للدين أي لطريقه ولأعماله واعتقاداته و " القيم " أصله قيوم اجتمعت الواو والياء وسبقت الياء وهي ساكنة فأبدلت الواو ياء وأدغمت

٣٤١

الأولى في الثانية ثم حذره تعالى من يوم القيامة تحذيرا يعم العالم وإياهم القصد و " لا مرد له " معناه ليس فيه رجوع لعمل ولا لرغبة ولا عنه مدخل ويحتمل أن يريد لا يرده راد حتى لا يقع وهذا ظاهر بحسب اللفظ

---

(١) المحرر الوجيز. ٣٨٣/٤

و " يصدعون " معناه يتفرقون بعد جمعهم وهذا هو التصدع والمعنى يتفرقون إلى الجنة وإلى النار ثم قسم الفريقين بأحكام تلحقهم من أعمال في الدنيا ثم عبر عن الكفر ب عليه وهي تعطي الثقل والمشقة وعن العمل الصالح باللام التي هي كلام الملك و " يمهدون " معناه يوطئون ويهيئون وهي استعارة منقولة من الفرش ونحوها إلى الأحوال والمراتب وقال مجاهد هذا التمهيد هو للقبر

قوله عز وجل من سورة الروم آية ٤٥ – ٤٧

اللام في قوله " ليجزي " متعلقة ب " يصدعون " الروم : ٤٣ ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف تقديره ذلك أو فعل ذلك " ليجزي " وتكون الإشارة إلى ما تقرر من قوله تعالى " من كفر " الروم : ٤٣ و " عمل صالحا " الروم : ٤٣ وقوله تعالى " لا يحب الكافرين " ليس الحب بمعنى الإرادة ولكنه بمعنى لا يظهر عليهم أمارات رحمته ولا يرضاه لهم دينا ونحو هذا ثم ذكر تعالى من آياته أشياء يقضي كل عقل بأنها لا مشاركة الأوثان فيها وهو ما في الريح من **المنافع** وذلك أنها بشرى بالمطر ويذيق الله بها المطر ويلقح بها الشجر وغير ذلك ويجري بها السفن في البحر ويبتغي الناس بها فضل الله في التجارات في البحر وفي ذرو الأطعمة وغير ذلك ثم أنس محمدا بأن ضرب له مثل من أرسل من الأنبياء وتوعد قريشا بأن ضرب لهم مثل من هلك من الأمم الذين أجرموا وكذبوا الأنبياء ثم وعد محمدا وأمته النصر إذ أخبر أنه جعله " حقا " عليه تبارك وتعالى و " حقا " خبر "كان " قدمه اهتماما لأنه موضع فائدة الجملة وبعض القراء في هذه الآية وقف على قوله " حقا " وجعله من الكلام المتقدم ثم استأنف جملة من قوله " علينا نصر المؤمنين " وهذا قول ضعيف لأنه لم يدر قدما عرضه في نظم الآية

قوله عز وجل من سورة الروم آية ٤٨ – ٥٠

الإثارة تحريكها من سكونها وتسييرها وبسطه " في السماء " هو نشره في الآفاق والكسف

٣٤٢

". (١)

"هذه مخاطبة في أمر قريش وإعراضهم عن الشرع وعبادتهم الأصنام فنبههم تعالى على الألوهية بما لا يحصى من الأدلة كثرة وبيانا فنبه بهذه الآية على إنعامه عليهم ببهيمة الأنعام وقوله تعالى " أيدينا " عبارة عن القدرة عبر عنها بيد وبيدين وبأيد وذلك من حيث كان البشر إنما يقيمون القدرة والبطش باليد فعبر لهم عن القدرة بالجهة التي قربت في أفهامهم والله تعالى منزه عن الجارحة والتشبيه كله وقوله " فهم لها

---

(١) المحرر الوجيز . ٣٩٥/٤

مالكون " تنبيه على أن النعمة في أن هذه الأنعام ليست بعاتية ولا متبورة بل تقتنى وتقرب منافعها " وذللناها " معناه سخرناها ذليلة والركوب المركوب وهذا فعول بمعنى مفعول وليس إلا في ألفاظ محصورة كالركوب والحلوب والقروع وقرا الجمهور ركوبهم بفتح الراء وقرا الحسن والأعمش ركوبهم بضم الراء وقرأ أبي بن كعب وعائشة ركوبتهم **والمنافع** إشارة إلى الأصواف والأوبار وغير ذلك والمشارب الألباب ثم عنفهم في اتخاذ آلهة طلب الاستنصار بها والتعاضد ثم اخبر أنهم " لا يستطيعون " نصرا ويحتمل أن يكون الضمير في " يستطيعون " للكفار في نصرهم الأصنام ويحتمل الأمر عكس ذلك لأن الوجهين صحيحان في المعنى كذلك قوله " وهم لهم جند محضرون " يحتمل أن يكون الضمير الأول للكفار والثاني للأصنام على معنى وهؤلاء الكفار متجندون متحزبون لهذه الأصنام في الدنيا لكنهم لا يستطيعون التناصر مع ذلك ويحتمل أن يكون الضمير الأول للأصنام والثاني للكفار أي يحضرون لهم في الآخرة عند الحساب على معنى التوبيخ والنقمة وسماهم جندا في هذا التأويل إذ هم عدة للنقمة منهم وتوبيخهم وجرت ضمائر الأصنام في هذه الآية مجرى من يعقل إذ نزلت في عبادتهم منزل ذي عقل فعملت في العبارة بذلك ثم أنس تعالى نبيه بقوله " فلا يحزنك قولهم " وتوعد الكفار بقوله " إنا نعلم ما يسرون ما يعلنون "

قوله عز وجل في سورة يس من ٧٧ - ٨٠

هذه الآية قال فيها ابن جبير إنها نزلت بسبب أن

المعاصي بن وائل السهمي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم ففته وقال يا محمد من يحيي هذا وقال مجاهد وقتادة إن الذي جاء بالعظم النخر أمية بن خلف وقاله الحسن ذكره الرماني وقال ابن عباس الجائي بالعظم هو عبد الله بن أبي ابن سلول

٤٦٤

". (١)

"قال القاضي أبو محمد وهذا إنما ساقه على أن هذا الحبشي مثال لمن لم يقص لا أنه هو المقصود وحده فإن هذا بعيد

وقوله تعالى " وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله " رد على قريش في إنكارهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم وقولهم إنه كاذب على الله تعالى والإذن يتضمن علما وتمكينا فإذا اقترن به أمر قوي كما هو في إرسال النبي ثم قال تعالى " فإذا جاء أمر الله " أي إذا أراد الله إرسال رسول وبعثة نبي قضى ذلك وأنفذه

---

(١) المحرر الوجيز . ٥٣٢/٤

بالحق وخسر كل مبطل وحصل على فساد آخرته وتحتمل الآية معنى

آخر وهو أن يريد ب " أمر الله " القيامة فتكون الآية توعدا لهم بالآخرة

قوله عز وجل في سورة غافر من ٧٩ - ٨٢

٥٧١

هذه آيات عبر وتعديد نعم و " الأنعام " الأزواج الثمانية ع و " منها " الأولى للتبعيض لأن المركوب ليس كل الأنعام بل الإبل خاصة " ومنها " الثانية لبيان الجنس لأن الجميع منها يؤكل وقال الطبري في هذه الآية إن " الأنعام " تعم الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير وغير ذلك مما ينتفع به في البهائم ف " منها " في الموضعين للتبعيض على هذا لكنه قول ضعيف وإنما الأنعام الأزواج الثمانية التي ذكر الله فقط ثم ذكر تعالى المنافع ذكرا مجملا لأنها أكثر من أن تحصى

وقوله تعالى " ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم " يريد قطع المهامه الطويلة والمشاق البعيدة و " الفلك " السفن وهو هنا جمع و " تحملون " يريد برا وبحرا وكرر الحمل عليها وقد تقدم ذكر ركوبها لأن المعنى مختلف وفي الأمرين تغاير وذلك أن الركوب هو المتعارف فيما قرب واستعمل في القرى والمواطن نظير الأكل منها وسائر المنافع بها ثم خصص بعد ذلك السفر الأطول وحوائج الصدور مع البعد والنوى وهذا هو الحمل الذي قرنه بشبيهه من أمر السفن ثم ذكر تعالى آياته عامة جامعة لكل عبرة وموضع نظر وهذا غير منحصر لاتساعه ولأن في كل شيء له آية تدل على وحدانيته ثم قررهم على جهة التوبيخ بقوله " فأي آيات الله تنكرون " ثم احتج تعالى على قريش بما يظهر في الأمم السالفة من نقمات الله في الكفرة الذين " كانوا أكثر " عددا " وأشد قوة " أبدان وممالك وأعظم آثارا في المباني والأفعال من قريش والعرب فلم يغن عنهم كسبهم ولا حالهم شيئا حين جاءهم عذاب الله وأخذه و " ما " في قوله " فما أغنى عنهم " نافية قال الطبري وقيل هي تقرير وتوقيف

قوله عز وجل في سورة غافر من ٨٣ - ٨٥

الضمير في " جاءتهم " عائد على الأمم المذكورين الذين جعلوا مثلا وعبرة واختلف المفسرون في الضمير في " فرحوا " على من يعود فقال مجاهد وغيره هو عائد على الأمم المذكورين أي بما عندهم من العلم في ظنهم ومعتقدهم من

أنهم لا يبعثون ولا يحاسبون قال ابن زيد واغتروا بعلمهم في الدنيا والمعايش وظنوا أنه لا آخرة ففرحوا وهذا كقوله تعالى " يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا " [الروم : ٧] وقالت فرقة الضمير في " فرحوا " عائد

على الرسل وفي هذا الرسل حذف وتقديره " فلما جاءتهم رسلهم بالبينات "كذبوهم ففرح الرسل بما عندهم من العلم بالله والثقة به وبأنه
٥٧٢
سينصرهم " وحاق " معناه نزل وثبت وهي مستعملة في الشر و " ما " في قوله " ما كانوا " هو العذاب الذي كانوا يكذبون به ويستهزئون بأمره والضمير في " بهم " عائد على الكفار بلا خلاف ثم حكى حالة بعضهم ممن آمن بعد تلبس العذاب بهم فلم ينفعهم ذلك وفي ذكر هذا حض للعرب على المبادرة وتخويف من التأني لئلا يدركهم عذاب لا تنفعهم توبة بعد تلبسه بهم وأما قصة قوم يونس فرأوا العذاب ولم يكن تلبس بهم وقد مر تفسيرها مستقصى في سورة يونس عليه السلام و " سنة الله " نصب على المصدر و " خلت " معناه مضت واستمرت وصارت عادة
وقوله " هنالك " إشارة إلى أوقات العذاب أي ظهر خسرانهم وحضر جزاء كفرهم." (١)

"تعالى لم يرد ان تقع العبادة من الجميع لأنه لو أراد ذلك لم يصح وقوع الأمر بخلاف إرادته فقال ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما المعنى ما خلقت الجن والإنس الا لآمرهم بعبادتي وليقروا لي بالعبودية فعبر عن ذلك بقوله " ليعبدون " إذ العبادة هي مضمن الأمر وقال زيد بن
١٨٣
أسلم وسفيان المعنى خاص والمراد " وما خلقت " الطائعين من " الجن والإنس " الا لعبادتي ويؤيد هذا التأويل ان ابن عباس روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ (وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين الا ليعبدوني) وقال ابن عباس أيضا معنى " ليعبدون " أي ليتذللوا لي ولقدرتي وإن لم يكن ذلك على قوانين الشرع
قال القاضي أبو محمد وعلى هذا التأويل فجميع الجن والإنس عابد متذلل والكفار كذلك ألا تراهم عند القحط والأمراض وغير ذلك
وتحتمل الآية ان يكون المعنى ماخلقت الجن والإنس الا معدين ليعبدون وكان الآية تعديد نعمة أي خلقت لهم حواس وعقولا وأجساما منقادة نحو العبادة وهذا كما تقول البقر مخلوقة للحرث والخيل للحرب وقد يكون منها ما لا يحارب به أصلا فالمعنى ان الإعداد في خلق هؤلاء إنما هو للعبادة لكن بعضهم تكسب صرف نفسه عن ذلك ويؤيد هذا المنزع قول النبي صلى الله عليه وسلم (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)

---
(١) المحرر الوجيز . ٦٣٦/٤

وقوله (كل مولود يولد على الفطرة) والحديث وقوله " من رزق " أي أن يرزقوا انفسهم ولا غيرهم
وقوله " أن يطعمون " إما ان يكون المعنى ان يطعموا خلقي فأضيف ذلك الى الضمير على جهة التجوز
وهذا قول ابن عباد
وإما أن يكون الاطعام هنا بمعنى النفع على العموم كما تقول اعطيت فلانا كذا وكذا طعمة وأنت قد أعطيته عرضا او بلدا يحييه ونحو هذا فكانه قال ولا أريد ان ينفعوني فذكر جزءا من **المنافع** وجعله دالا على الجميع
وقرا الجميع (إن الله هو الرزاق) وروى أبو إسحاق السبيعي عن عبد الله بن يزيد قال أبو عمرو الداني عن ابن مسعود قال أقراني رسول الله صلى الله عليه وسلم (إني انا الرزاق) وقرأ الجمهور (إن الله هو الرزاق) وقرأ ابن محيصن (هو الرازق)
وقرأ جمهور القراء (المتين) بالرفع إما على انه خبر بعد خبر او صفة ل " الرزاق "
وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش (المتين) بالخفض على النعت ل " القوة " وجاز ذلك من حيث تأنيث " القوة " غير حقيقي
فكأنه قال ذو الأيد او ذو الحبل ونحوه " فمن جاءه موعظة " البقرة ٢٧٥ وجوز أبو الفتح ان يكون خفض (المتين) على الجوار و " المتين " الشديد
". (١)

"ومن قرا الثانية جعل " الأولين " قوم نوح وابراهيم ومن كان معهم و " الآخرين " قوم فرعون وكل من تاخر وقرب من مدة محمد صلى الله عليه وسلم
وفي حرف عبد الله (وسنتبعهم) ثم قال "كذلك نفعل بالمجرمين " اي في المستقبل
فندخل هنا قريش وغيرها من الكفار واما تكرار " ويل يومئذ للمكذبين " في هذه السورة فقيل إن ذلك لمعنى التأكيد فقط وقيل بل في كل آية منها ما يقتضي التصديق فجاء الوعد على التكذيب بذلك الذي في الآية
ثم وقف تعالى على أصل الخلقة الذي يقتضي النظر فيها تجويز البعث
و (الماء المهين) معناه الضعيف وهو المني من الرجل والمراة
و (القرار المكين) الرحم او بطن المراة و (القدر المعلوم) وقت الولادة ومعلوم عند الله في شخص فأما

---

(١) المحرر الوجيز ـ ١٦٥/٥

عند الآدميين فيختلف فليس بمعلوم قدر شخص بعينه

وقرا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ونافع والكسائي (فقدرنا) بشد الدال وقرا الباقون (فقدرنا) بتخفيف الدال وهما بمعنى من القدرة والقدر من التقدير والتوقيف

وقوله " القادرون " يرجح قراءة الجماعة

اما ان ابن

٤١٩

مسعود روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسر القادرين بالمقدرين

وقدر ابن أبي عبلة (فقدرنا) بشد الدال (فنعم المقتدرون) و (الكفات) الستر والوعاء الجامع للشيء بإجماع تقول كفت الرجل شعره إذا جمعه بخرقة فالأرض تكفت الأحياء على ظهرها وتكفت الأموات في بطنها و " احياء " على هذا التأويل معمول لقوله "كفاتا " لأنه مصدر

وقال بعض المتاولين " أحياء وأمواتا " إنما هو بمعنى ان الأرض فيها أقطار أحياء وأقطار اموات يراد ما ينبت ومالا ينبت فنصب " احياء " على هذا إنما هو على الحال من " الأرض " والتأويل الأول أقوى

وقال بنان خرجنا مع الشعبي إلى جنازة فنظر الى الجبانة فقال هذه كفات الموتى ثم نظر الى البيوت فقال هذه كفات الأحياء وكانت العرب تسمي بقيع الغرقد كفتة لأن٥١ مقبرة تضم الموتى وفي الحديث (خمروا آنيتكم وأوكئوا اسقيتكم واكفتوا صبيانكم وأجيفوا أبوابكم واطفئوا مصابيحكم)

ودفن ابن مسعود قملة في المسجد ثم قرا " ألم نجعل الأرض كفاتا "

قال القاضي أبو محمد ولما كان القبر "كفاتا "كالبيت قطع من سرق منه

و (الرواسي) الجبال لأنها رست اي ثبتت و (الشامخ) المرتفع ومنه شمخ بانفه أي ارتفع واستعلى شبه المعنى بالشخص و (أسقى) معناه جعله سقيا للغلات **والمنافع** وسقى معناه للشفة خاصة هذا قول جماعة من اهل اللغة

وقال آخرون هما بمعنى واحد

و (الفرات) الصافي العذب ولا يقال للملح فرات وهي لفظة تجمع ماء المطر ومياه الأنهار وخص النهر المشهور بهذا تشريفا له وهو نهر الكوفة وسيحان هو نهر بلخ وجيحان هو دجلة والنيل نهر مصر

". (١)

---

(١) المحرر الوجيز . ٣٩١/٥

" صفحة رقم ١٠٨

والمؤنث ، والعداوة مأخوذة من المجاوزة من قولك : لا يعدونك هذا الأمر ، أي لا يجاوزنك ، وعداه كذا ، أي جازوه ، فسمي عدوا لمجاوزة الحد في مكروه صاحبه ، ومنه العدو بالقدم لمجاوزة المشي ، وهذا إخبار لهم بالعداوة وتحذير لهم ، وليس بأمر ، لأن الله تعالى لا يأمر بالعداوة .

واختلف في الذين قيل لهم :) بعضكم لبعض عدو (، على قولين :

أحدهما : أنهم الذين قيل هلم اهبطوا ، على ما ذكرنا من اختلاف المفسرين فيه .

والثاني : أنهم بنو آدم ، وبنو إبليس ، وهذا قول الحسن البصري . قوله عز وجل :) ولكم في الأرض مستقر (فيه تأويلان :

أحدهما : أن المستقر من الأرض موضع مقامهم عليها ، لقوله تعالى :) جعل لكم الأرض قرارا (" [غافر : ٦٤] ، وهذا قول أبي العالية .

والثاني : أنه موضع قبورهم منها ، وهذا قول السدي .

قوله عز وجل :) ومتاع إلى حين (:

والمتاع كل ما استمتع به من المنافع ، ومنه سميت متعة النكاح ، ومنه قوله تعالى :) فمتعوهن (" [الأحزاب : ٤٩] ، أي ادفعوا إليهن ما ينتفعن به ، قال الشاعر :

وكل غضارة لك من حبيب

لها بك ، أو لهوت به ، متاع

والحين : الوقت البعيد ، ف (حينئذ) تبعيد قولك : (الآن) ، وفي المراد بالحين في هذا الموضع ثلاثة أقاويل :

أحدها : إلى الموت ، وهو قول ابن عباس والسدي .

والثاني : إلى قيام الساعة ، وهو قول مجاهد .

والثالث : إلى أجل ، وهو قول الربيع .

(البقرة : (٣٧ - ٣٩) فتلقى آدم من . . . . .

" فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم." [١]

---

(١) النكت والعيون . ١٠٨/١

" صفحة رقم ٢٤

ويحتمل وجها آخر أيضا : أنه ما أرضى الله تعالى :

قوله عز وجل :) لكم فيها منافع إلى أجل مسمى (فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن **المنافع** التجارة ، وهذا قول من تأول الشعائر بأنها مناسك الحج ، والأجل المسمى العود .

والثاني : أن **المنافع** الأجر ، والأجل المسمى القيامة ، وهذا تأويل من تأولها بأنها الدين .

والثالث : أن **المنافع** الركوب والدر والنسل ، وهذا قول من تأولها بأنها الهدى فعلى هذا في الأجل المسمى وجهان :

أحدهما : أن **المنافع** قبل الإيجاب وبعده ، والأجل المسمى هو النحر ، وهذا قول عطاء .

) ثم محلهآ إلى البيت العتيق (إن قيل إن الشعائر هي مناسك الحج ففي تأويل قوله :) ثم محلهآ إلى البيت العتيق (وجهان :

أحدهما : مكة ، وهو قول عطاء .

والثاني : الحرم كله محل لها ، وهو قول الشافعي .

وإن قيل إن الشعائر هي الدين كله فيحتمل تأويل قوله :) ثم محلها إلى البيت العتيق (أن محل ما اختص منها بالأجر له ، هو البيت العتيق .

(الحج : (٣٤ - ٣٥) ولكل أمة جعلنا . . . . .

" ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون " (قوله عز وجل :) ولكل أمة جعلنا منسكا (فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني حجا ، وهو قول قتادة .." [١]

" صفحة رقم ٨٨

.) فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم (ولا يجوز التطلع إلى المنزل ليرى من فيه فيستأذنه إذا كان الباب مغلقا لقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (إنما جعل الاستئذان لأجل البصر ، إلا أن يكون مفتوحا فيجوز إذا كان خارجا أن ينظر لأن صاحبه بالفتح قد أباح النظر)) وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم (وهنا ينظر فإن كان بعد الدخول عن إذن لزم الانصراف وحرم اللبث ، وإن كان قبل الدخول فهو رد الإذن

---

(١) النكت والعيون ـ ٤/٢٤

ومنع من الدخول . ولا يلزمه الانصراف عن موقفه من الطريق إلا أن يكون فناء الباب المانع فيكفي عنه ، قال قتادة : لا تقعد على باب قوم ردوك فإن للناس حاجات .

قوله تعالى :) ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة (فيها خمسة أقاويل :

أحدها : أنها الخانات المشتركة ذوات البيوت المسكونة ، قاله محمد بن الحنفية رضي الله عنه .

الثاني : أنها حوانيت التجار ، قاله الشعبي .

الثالث : أنها منازل الأسفار ومناخات الرجال التي يرتفق بها مارة الطريق في أسفارهم ، قاله مجاهد .

الرابع : أنها الخرابات العاطلات ، قاله قتادة .

الخامس : أنها بيوت مكة ، ويشبه أن يكون قول مالك .

) فيها متاع لكم (فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها عروض الأموال التي هي متاع التجار ، قاله مجاهد .

الثاني : أنها الخلاء والبول سمي متاعا لأنه إمتاع لهم ، قاله عطاء .

الثالث : أنه **المنافع** كلها ، قاله قتادة ، فلا يلزم الاستئذان في هذه المنازل." [١]

" صفحة رقم ٣٦٢

والواو التي فيها واو القسم ، أقسم الله بها لما فيها من الآيات **والمنافع** .

) إنما توعدون لصادق (فيه وجهان

: أحدهما : إن يوم القيامة لكائن ، قاله مجاهد .

الثاني : ما توعدون من الجزاء بالثواب والعقاب حق ، وهذا جواب القسم .) وإن الدين لواقع (فيه وجهان : أحدهما : إن الحساب لواجب ، قاله مجاهد . الثاني : [أن] الدين الجزاء ومعناه أن جزاء أعمالكم بالثواب والعقاب لكائن ، وهو معنى قول قتادة ، ومنه قول لبيد . قوم يدينون بالنوعين مثلهما

بالسوء سوء وبالإحسان إحسانا

) والسمآء ذات الحبك (في السماء ها هنا وجهان :

أحدهما : أنها السحاب الذي يظل الأرض .

الثاني : وهو المشهور أنها السماء المرفوعة ، قال عبد الله بن عمر : هي السماء السابعة .

وفي) الحبك (سبعة أقاويل :

---

(١) النكت والعيون ـ ٤/٨٨

أحدها : أن الحبك الاستواء ، وهو مروي عن ابن عباس على اختلاف .

الثاني : أنها الشدة ، وهو قول أبي صالح .

الثالث : الصفاقة ، قاله خصيف . الرابع : أنها الطرق ، مأخوذ من حبك الحمام طرائق على جناحه ، قاله الأخفش ، وأبو عبيدة .

الخامس : أنه الحسن والزينة ، قاله علي وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير ومنه قول الراجز :

كأنما جللها الحواك

كنقشة في وشيها حباك." (١)

" صفحة رقم ٢٦٢

الثالث : الكثيرة ، قاله الفراء .

الرابع : المتفرقة ، قاله ابن قتيبة .

(الغاشية : (١٧ - ٢٦) أفلا ينظرون إلى . . . . .

" أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم " ( ) أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (الآيات ، وفي ذكره لهذه ثلاثة أوجه :

أحدها : ليستدلوا بما فيها من العبر على قدره الله تعالى ووحدانيته .

الثاني : ليعلموا بقدرته على هذه الأمور أنه قادر على بعثهم يوم القيامة ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : أن الله تعالى لما نعت لهم ما في الجنة عجب منه أهل الضلالة ، فذكر لهم ذلك مع ما فيه من العجاب ليزول تعجبهم ، قاله قتادة .

وفي (الإبل) ها هنا وجهان :

أحدهما : وهو أظهرهما وأشهرهما : أنها الإبل من النعم .

الثاني : أنها السحاب ، فإن كان المراد بها السحاب فلما فيها من الآيات الدالة على قدرة الله **والمنافع** العامة لجميع خلقه .

وإن كان المراد بها من النعم فإن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوانات ، لأن ضروبه أربعة :

---

(١) النكت والعيون ـ ٣٦٢/٥

حلوبة ، وركوبة ، وأكولة ، وحمولة والإبل تجمع هذه الخلال الأربع ، فكانت النعمة بها أعم ، وظهور القدرة فيها أتم .

ثم قال تعالى بعد ذلك ( ) فذكر إنما أنت مذكر (فيه وجهان :

أحدهما : إنما أنت واعظ .

الثاني : ذكرهم النعم ليخافوا النقم .." (١)

"إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سببا لخيبة فاعله عاجلا أو آجلا أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه "لا ينبغي هذا" أو "لا يصلح" أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه "ليس من الله في شيء" أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنهما (١) بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سببا للفلاح، أو جعل سببا لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله "هل أنت منته" أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد، أو طرد، أو لفظة "قتل من فعله"، أو "قاتل الله من فعله"، أو أخبر أن فاعله "لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزكيه"، أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفا ولا عدلا أو أخبر أن من فعله قيض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سببا لإزاغة الله قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل "لم فعل" نحو: ﴿ لم تصدون عن سبيل الله من آمن ﴾ ﴿ لم تلبسون الحق بالباطل ﴾ ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ ما لم يقترن به جواب من المسئول (٢) فإذا قرن به جواب، كان بحسب جوابه.

فهذا ونحوه، يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرد من دلالته على مجرد الكراهة. وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروه، فأكثر ما يستعمل في المحرم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه.

وأما لفظة "وأما أنا فلا أفعل" فالمتحقق (٣) منه الكراهة كقوله: "أما أنا فلا آكل متكئا".

وأما لفظة "ما يكون لك" و "ما يكون لنا" فاطرد استعمالها في المحرم، نحو ﴿ فما يكون لك أن تتكبر

---

(١) النكت والعيون . ٦/٢٦٢

فيها ﴾ ﴿ ما يكون لنا أن نعود فيها ﴾ ﴿ ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾. فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، و "إن شئت فافعل" و "إن شئت فلا تفعل"، ومن الامتنان بما في الأعيان من **المنافع**، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ﴾ ونحو ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾.

ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي. فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو "عجب ربك من شاب ليست له صبوة" ونحوه، قد يدل على بغض الفعل كقوله: ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ وقوله: ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾.

وقوله: ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾.

وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه، كقوله: ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله ﴾.

ويدل على حسن المنع منه قدرا، وأنه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: ﴿كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم ﴾.

---

(١) في ب: عنه.

(٢) في ب: من السؤال.

(٣) في ب: فالمحقق.." (١)

"﴿ ١ - ٧ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

﴿ بسم الله ﴾ أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ ﴿ اسم ﴾ مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء [الحسنى]. ﴿ الله ﴾ هو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية وهي صفات الكمال. ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله. فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم (١) نصيب منها.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣٣

فيؤمنون مثلا بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم. فالنعم كلها، أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء. يقال في العليم: إنه عليم ذو علم، يعلم [به] كل شيء، قدير، ذو قدرة يقدر على كل شيء.

﴿ الحمد لله ﴾ [هو] الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل، بجميع الوجوه. ﴿ رب العالمين ﴾ الرب، هو المربي جميع العالمين -وهم من سوى الله- بخلقه إياهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها، لم يمكن لهم البقاء. فما بهم من نعمة، فمنه تعالى.

وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر. ولعل هذا [المعنى] هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب. فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

فدل قوله ﴿ رب العالمين ﴾ على انفراده بالخلق والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار.

﴿ مالك يوم الدين ﴾ المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، وأضاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم، خيرها وشرها، لأن في ذلك اليوم، يظهر للخلق تمام الظهور، كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق. حتى [إنه] يستوي في ذلك اليوم، الملوك والرعايا والعبيد والأحرار.

كلهم مذعنون لعظمته، خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام.

وقوله ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ أي: نخصك وحدك بالعبادة

والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه. فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وقدم (٢) العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتماما بتقديم حقه تعالى على حق عبده.

و ﴿ العبادة ﴾ اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة. و ﴿ الاستعانة ﴾ هي الاعتماد على الله تعالى في جلب **المنافع**، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما. وإنما تكون العبادة عبادة، إذا كانت مأخوذة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصودا بها وجه الله. فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر ﴿ الاستعانة ﴾ بعد ﴿ العبادة ﴾ مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى. فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي.

ثم قال تعالى: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط. فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا. فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك.

وهذا الصراط المستقيم هو: ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ﴿ غير ﴾ صراط ﴿ المغضوب عليهم ﴾ الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم. وغير صراط ﴿ الضالين ﴾ الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها، قد [ص ٤٠] احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿ رب العالمين ﴾ .

وتوحيد الإلهية وهو إفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: ﴿ الله ﴾ ومن قوله: ﴿ إياك نعبد ﴾ وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ ﴿ الحمد ﴾ كما تقدم. وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وأن الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافا للقدرية والجبرية. بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع [والضلال] في قوله: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ لأنه معرفة الحق والعمل به. وكل مبتدع [وضال]

فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى، عبادة واستعانة في قوله: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فالحمد لله رب العالمين.

---

(١) في ب: فله.

(٢) في ب: وتقديم.." (١)

"وفي هذه الآية وما أشبهها، رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالى، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

[ص ٤٥]

﴿ ٢١ - ٢٢ ﴾ ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ .

هذا أمر عام لكل (١) الناس، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة، لامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

ثم استدل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشا تستقرون عليها، وتنتفعون بالأبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع (٢) الانتفاع بها، وجعل السماء بناء لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم، كالشمس، والقمر، والنجوم.

﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ والسماء: [هو] كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء هاهنا: السحاب، فأنزل منه تعالى ماء، ﴿ فأخرج به من الثمرات ﴾ كالحبوب، والثمار، من نخيل، وفواكه، [وزروع] وغيرها ﴿ رزقا لكم ﴾ به ترتزقون، وتقوتون وتعيشون وتفكهون.

﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ أي: نظراء وأشباها من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم، مخلوقون، مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون، ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق، والرزق،

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣٩

والتدبير، ولا في العبادة (٣) فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو [ذكر] توحيد الربوبية، المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقرا بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن [الله] لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك.

وقوله تعالى: ﴿ لعلكم تتقون ﴾ يحتمل أن المعنى: أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة، كان من المتقين، ومن كان من المتقين، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه. ثم قال تعالى:

---

(١) في ب: لجميع.

(٢) في ب: وجوه.

(٣) في ب: ولا في الألوهية والكمال.." [١]

"﴿ ٤٥ - ٤٨ ﴾ ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون * يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ .

أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور ﴿ وإنها ﴾ أي: الصلاة ﴿ لكبيرة ﴾ أي: شاقة ﴿ إلا على الخاشعين ﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع، وخشية الله، ورجاء ما عنده يوجب له فعلها، منشرحا صدره لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن

---

(١) تفسير السعدي، ص/٤٤

كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.
والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته، وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه، ذلا وافتقارا، وإيمانا به وبلقائه.
[ص ٥٢]
ولهذا قال: ﴿ الذين يظنون ﴾ أي: يستيقنون ﴿ أنهم ملاقو ربهم ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿ وأنهم إليه راجعون ﴾ فهذا الذي خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونفس عنهم الكربات، وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات، وأما من لم يؤمن بلقاء ربه، كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه.
ثم كرر على بني إسرائيل التذكير بنعمته، وعظا لهم، وتحذيرا وحثا.
وخوفهم بيوم القيامة الذي ﴿ لا تجزي ﴾ فيه، أي: لا تغني ﴿ نفس ﴾ ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين ﴿ عن نفس ﴾ ولو كانت من العشيرة الأقربين ﴿ شيئا ﴾ لا كبيرا ولا صغيرا وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه.
﴿ ولا يقبل منها ﴾ أي: النفس، شفاعة لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له، ولا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه، وكان على السبيل والسنة، ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ أي: فداء ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب ﴾ ولا يقبل منهم ذلك ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي: يدفع عنهم المكروه، فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه، فقوله: ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئا ﴾ هذا في تحصيل المنافع، ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقل (١) به النافع.
﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ﴾ هذا نفي للنفع الذي يطلب ممن يملكه بعوض، كالعدل، أو بغيره، كالشفاعة، فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين، لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع، وأن يعلقه بالله الذي يجلب المنافع، ويدفع المضار، فيعبده وحده لا شريك له ويستعينه على عبادته.

(١) في ب: المستقبل.." [1]

(١) تفسير السعدي، ص/٥١

"﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ .

وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق في قيله: ﴿ وما كفر سليمان ﴾ أي: بتعلم السحر، فلم يتعلمه، ﴿ ولكن الشياطين كفروا ﴾ بذلك.

﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحانا وابتلاء من الله لعباده فيعلمانهم السحر.

﴿ وما يعلمان من أحد حتى ﴾ ينصحاه، و ﴿ يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ أي: لا تتعلم السحر فإنه كفر، فينهيانه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام، وتعليم الملكين امتحانا مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة.

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه.

ثم ذكر مفاسد السحر فقال: ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن الله قال في حقهما: ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين.

ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية كما يوجد بعض **المنافع** الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر

من نفعهما ﴾ فهذا السحر مضرة محضة، فليس له داع أصلا فالمنهيات كلها إما مضرة محضة، أو شرها أكبر من خيرها.

كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها.

﴿ ولقد علموا ﴾ أي: اليهود ﴿ لمن اشتراه ﴾ أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة.

﴿ ما له في الآخرة من خلاق ﴾ أي: نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلا ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.

﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ علما يثمر العمل ما فعلوه.." [(١)]

"﴿ ١٨ - ٢٠ ﴾ ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾.

هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد، وكذلك إنعامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، والخلق كلهم عاجزون عن **المنافع** والمضار لأنفسهم ولغيرهم، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيدها بإخبار الله لنا بذلك وإخبار رسله، وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم [ص ١٢٥] المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصا في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها:

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦١

أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلا ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهاده تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه، ولما قرر توحيده قرر عدله، فقال: ﴿ قائما بالقسط ﴾ أي: لم يزل متصفا بالقسط في أفعاله وتدبيره بين عباده، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه، وفيما خلقه وقدره، ثم أعاد تقرير توحيده فقال ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبودية قد دلت عليه الأدلة النقلية والأدلة العقلية، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس، فأما الأدلة النقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقريره، ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، وذم الشرك وأهله، فهو من الأدلة النقلية على ذلك، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصوره للأمور فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه. ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره انفراده بالنعم ودفع النقم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نقمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها وإن أحدا من الخلق لا يملك لنفسه – فضلا عن غيره– جلب نعمة ولا دفع نقمة، تيقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار، فلهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جدا، ومن الأدلة العقلية أيضا على ذلك: ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئا، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بالمخلوقات المدبرات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون، ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان

وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلا إلى كل خير دافعا لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سببا للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي: لعبرة يعتبر بها المعتبرون فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقلية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة فله الحمد والشكر والثناء.

ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بين العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام لله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحثت عليها كتبه، وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه، وهو متضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء ومتابعة رسوله في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو على طريقهم، وإنما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءتهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغيا بينهم، وظلما وعدوانا من أنفسهم، وإلا فقد جاءهم السبب الأكبر الموجب أن يتبعوا [ص ١٢٦] الحق ويتركوا الاختلاف، وهذا من كفرهم، فلهذا قال تعالى ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصا من ترك الحق بعد معرفته، فهذا مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم، ثم أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عند محاجة النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام

عليه أن يقول لهم: قد ﴿ أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ﴾ أي: أنا ومن اتبعني قد أقررنا وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لربنا، وتركنا ما سوى دين الإسلام، وجزمنا ببطلانه، ففي هذا تأييس لمن طمع فيكم، وتجديد لدينكم عند ورود الشبهات، وحجة على من اشتبه عليه الأمر، لأنه قد تقدم أن الله استشهد على توحيده بأهل العلم من عباده ليكونوا حجة على غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم، فإذا ثبت وتقرر توحيد الله ودينه بأدلته الظاهرة، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم، حصل بذلك اليقين وانتفى كل شك وريب وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطلة، فلهذا قال ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب ﴾ من النصارى واليهود ﴿ والأميين ﴾ مشركي العرب

وغيرهم ﴿ أأسلمتم فإن أسلموا ﴾ أي: بمثل ما أمنتم به ﴿ فقد اهتدوا ﴾ كما اهتديتم وصاروا إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿ وإن تولوا ﴾ عن الإسلام ورضوا بالأديان التي تخالفه ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ فقد وجب أجرك على ربك، وقامت عليهم الحجة، ولم يبق بعد هذا إلا مجازاتهم بالعقاب على جرمهم، فلهذا قال ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ .." (١)

"﴿ ٩٦ - ٩٧ ﴾ ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ .

يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت وضعه الله للناس، يتعبدون فيه لربهم فتغفر أوزارهم، وتقال عثارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقربات ما ينالون به رضى ربهم والفوز بثوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال: ﴿ مباركا ﴾ أي: فيه البركة الكثيرة في **المنافع** الدينية والدنيوية كما قال تعالى ﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ ﴿ وهدى للعالمين ﴾ والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به، وأما هدى العلم فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البينات التي ذكر الله تعالى في قوله ﴿ فيه آيات بينات ﴾ أي: أدلة واضحات، وبراهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة على توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما من به على أوليائه وأنبيائه، فمن الآيات [ص ١٣٩] ﴿ مقام إبراهيم ﴾ يحتمل أن المراد به المقام المعروف وهو الحجر الذي كان يقوم عليه الخليل لبنيان الكعبة لما ارتفع البنيان، وكان ملصقا في جدار الكعبة، فلما كان عمر رضي الله عنه وضعه في مكانه الموجود فيه الآن، والآية فيه قيل أثر قدمي إبراهيم، قد أثرت في الصخرة وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات، وقيل إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه، ويحتمل أن المراد بمقام إبراهيم أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات، كالطواف والسعي ومواضعها، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر، والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها، وما في ضمنها من الأسرار البديعة والمعاني الرفيعة، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء

---

(١) تفسير السعدي، ص/١٢٤

بعضها، ومن الآيات البينات فيها أن من دخله كان آمنا شرعا وقدرا، فالشرع قد أمر الله رسوله إبراهيم ثم رسوله محمد باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج، حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وأما تأمينها قدرا فلأن الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس حتى نفوس المشركين به الكافرين بربهم احترامه، حتى إن الواحد منهم مع شدة حميتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه، ومن جعله حرما أن كل من أراده بسوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم، وقد رأيت لابن القيم هاهنا كلاما حسنا أحببت إيراده لشدة الحاجة إليه قال فائدة: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ "حج البيت"مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله، والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله:"على الناس"لأنه وجوب، والوجوب يقتضي"على"ويجوز أن يكون في قوله:"ولله"لأنه متضمن الوجوب والاستحقاق، ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير، فكان الأحسن أن يكون"ولله على الناس" .ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله:"حج البيت على الناس"أكثر استعمالا في باب الوجوب من أن يقال:"حج البيت لله"أي: حق واجب لله، فتأمله. وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان: إحداهما: أنه اسم للموجب للحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب، فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها: الموجب لهذا الفرض فبدأ بذكره، والثاني: مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس، والثالث: النسبة، والحق المتعلق به إيجابا وبهم وجوبا وأداء، وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان اسما لله سبحانه، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيما لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفا من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما يوجبه غيره.

وأما قوله:"من"فهي بدل، وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل بالمصدر، كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلا وهذا القول يضعف من وجوه، منها: أن الحج فرض عين، ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية، لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم، لأن المعنى يؤل إلى: ولله على الناس حج البيت مستطيعهم، فإذا أدى المستطيعون الواجب لم يبق واجبا على غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك، بل الحج فرض عين على كل أحد، حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب، فلا يؤاخذه به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه، وليس حج المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين، وإذا أردت زيادة إيضاح، فإذا قلت: واجب على أهل هذه

الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعون للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب في غيرهم، وإذا قلت واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع، كان الوجوب متعلقا بالجميع وعذر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال: ولله حج البيت على المستطيعين، هذه النكتة البديعة فتأملها.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول، فلو كان من هو الفاعل لأضيف المصدر إليه فكان يقال:"ولله على الناس حج من استطاع"وحمله على [ص ١٤٠] باب"يعجبني ضرب زيد عمرا"وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكتوب المرجوح، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم)، فلا يصار إليه.وإذا ثبت أن"من"بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى"الناس"كأنه قيل: من استطاع منهم، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن، وحسنه هاهنا أمور منها: أن"من"واقعة على من لا يعقل، كالاسم المبدل منه فارتبطت به، ومنها: أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول، ولو كانت الصلة أعم لقبح حذف الضمير العائد، ومثال ذلك إذا قلت: رأيت إخوتك من ذهب إلى السوق منهم، كان قبيحا، لأن الذاهب إلى السوق أعم من الإخوة، وكذلك لو قلت: البس الثياب ما حسن وجمل، يريد منها، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب.

وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه، فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو قيدته بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص، ومما حسن حذف المضاف في هذه أيضا مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول.

وأما المجرور من قوله"لله"فيحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون في موضع من سبيل، كأنه نعت نكرة قدم عليها، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل، والثاني: أن يكون متعلقا بسبيل، فإن قلت: كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل؟ قيل: السبيل لما كان عبارة هاهنا عن الموصل إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما، كان فيه رائحة الفعل، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق، فصلح تعلق المجرور به، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير، لأنه ضمير يعود على البيت، والبيت هو المقصود به الاعتناء، وهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وببيانه أعني هذا تقرير السهيلي، وهذا بعيد جدا بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين، ولا يليق بالآية سواه، وهو الوجوب المفهوم

من قوله"على الناس"أي: يجب لله على الناس الحج، فهو حق واجب لله، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالا منها، ففي غاية البعد فتأمله، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية، وهذا كما تقول: لله عليك الصلاة والزكاة والصيام.

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي، وهو الأكثر، وبلفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو ﴿كتب عليكم الصيام﴾ ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه، أحدها أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على أبدل منه أهل الاستطاعة، ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذانا بأنه يجب الحج على أي: سبيل تيسرت، من قوت أو مال، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلا ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال ﴿ ومن كفر ﴾ أي: لعدم التزامه هذا الواجب وتركه ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه، ثم أكد ذلك بذكر اسم"العالمين"عموما، ولم يقل: فإن الله غني عنه، لأنه إذا كان غنيا عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه، ثم أكد هذا المعنى بأداة"إن"الدالة على التأكيد، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد هذا الفرض العظيم.

وتأمل سر البدل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين، مرة بإسناده إلى عموم الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين، وهذا من فوائد البدل تقوية المعنى وتأكيده بتكرر الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته.

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلتين، اعتناء به وتأكيد لشأنه، ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعوا النفوس إلى قصده وحجه وان لم يطلب ذلك منها، فقال: ﴿ إن أول بيت ﴾ إلخ، فوصفه بخمس صفات: أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض، الثاني: أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيرا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق، الثالث: أنه هدى، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتى كأنه نفس الهدى، الرابع ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية، الخامس: الأمن الحاصل لداخله، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على

حجه وإن شطت بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدل على الاعتناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله ﴿ وطهر بيتي ﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلا وشرفا، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حباله وشوقا إلى رؤيته، فهذه المثابة للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرا أبدا، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبا وإليه اشتياقا، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم، كما قيل:

[ص ١٤١] أطوف به والنفس بعد مشوقة ... إليه وهل بعد الطواف تداني

وألثم منه الركن أطلب برد ما ... بقلبي من شوق ومن هيمان

فوالله ما ازداد إلا صبابة ... ولا القلب إلا كثرة الخفقان

فيا جنة المأوى ويا غاية المنى ... ويا منيتي من دون كل أمان

أبت غلبات الشوق إلا تقربا ... إليك فما لي بالبعاد يدان

وما كان صدى عنك صد ملالة ... ولي شاهد من مقلتي ولسان

دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا ... فلبى البكا والصبر عنك عصاني

وقد زعموا أن المحب إذا نأى ... سيبلى هواه بعد طول زمان

ولو كان هذا الزعم حقا لكان ذا ... دواء الهوى في الناس كل زمان

بلى إنه يبلى والهوى على ... حاله لم يبله الملوان

وهذا محب قاده الشوق والهوى ... بغير زمام قائد وعنان

أتاك على بعد المزار ولو ونت ... مطيته جاءت به القدمان

انتهى كلامه رحمه الله تعالى.." (١)

"﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

ومن لطفه بهم وإحسانه إليهم أنه، لما ﴿ همت طائفتان ﴾ من المؤمنين بالفشل وهم بنو سلمة وبنو حارثة كما تقدم ثبتهما الله تعالى نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين، فلهذا قال [ص ١٤٦] ﴿ والله وليهما ﴾ أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما لما هما بهذه المعصية العظيمة وهي الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما، لما معهما

---

(١) تفسير السعدي، ص/١٣٨

من الإيمان كما قال تعالى: ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ ثم قال ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ففيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب **المنافع** ودفع المضار، مع الثقة بالله، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وأن المؤمنين أولى بالتوكل على الله من غيرهم، وخصوصا في مواطن الشدة والقتال، فإنهم مضطرون إلى التوكل والاستعانة بربهم والاستنصار له، والتبري من حولهم وقوتهم، والاعتماد على حول الله وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلايا والمحن، ثم قال تعالى:." (١)

"﴿ ١٩٠ - ١٩٤ ﴾ ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار * ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار * ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ .

يخبر تعالى: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكر فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها، وأبهم قوله: ﴿ آيات ﴾ ولم يقل: "على المطلب الفلاني" إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته. وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، يدل على حكمة الله ووضعه الأشياء مواضعها، وسعة علمه. وما فيها من **المنافع** للخلق، يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره.

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه، ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وخص الله بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

ثم وصف أولي الألباب بأنهم ﴿ يذكرون الله ﴾ في جميع أحوالهم: ﴿ قياما وقعودا وعلى جنوبهم ﴾ وهذا

---

(١) تفسير السعدي، ص/١٤٥

يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائما، فإن لم يستطع فقاعدا، فإن لم يستطع فعلى جنب، وأنهم ﴿ يتفكرون في خلق السماوات والأرض ﴾ أي: ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثا، فيقولون: ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق.

﴿ فقنا عذاب النار ﴾ بأن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار. ويتضمن ذلك سؤال الجنة، لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم، ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ أي: لحصوله على السخط من الله، ومن ملائكته، وأوليائه، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها، ولا منقذ منها، ولهذا قال: ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم، أي: يدعو الناس إليه، ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه.

﴿ فآمنا ﴾ أي: أجبناه مبادرة، وسارعنا إليه، وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم، وتبجح بنعمته، وتوسل إليه بذلك، أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي من عليهم بالإيمان، سيمن عليهم بالأمان التام.

﴿ وتوفنا مع الأبرار ﴾ يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه، والثبات إلى الممات.

ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سألوه الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على ألسنة رسله من النصر، والظهور في الدنيا، ومن الفوز [ص ١٦٢] برضوان الله وجنته في الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعاءهم، وقبل تضرعهم، فلهذا قال:." (١)

"﴿ ٩٥ - ٩٨ ﴾ ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى [ص ٢٦٦] تؤفكون * فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم * وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون * وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ .

---

(١) تفسير السعدي، ص/١٦١

يخبر تعالى عن كماله، وعظمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿ إن الله فالق الحب ﴾ شامل لسائر الحبوب، التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها، كالحبوب التي يبثها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت، على اختلاف أنواعها، وأشكالها، ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار، من النخيل والفواكه، وغير ذلك. فينتفع الخلق، من الآدميين والأنعام، والدواب. ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوى، ويقتاتون، وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذلك. ويريهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول، ويذهل الفحول، ويريهم من بدائع صنعته، وكمال حكمته، ما به يعرفونه ويوحدونه، ويعلمون أنه هو الحق، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿ يخرج الحي من الميت ﴾ كما يخرج من المني حيوانا، ومن البيضة فرخا، ومن الحب والنوى زرعا وشجرا.

﴿ ومخرج الميت ﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح ﴿ من الحي ﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضا ونحو ذلك.

﴿ ذلكم ﴾ الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿ الله ﴾ ربكم أي: الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربى جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه. ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي: فأنى تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا؟"

ولما ذكر تعالى مادة خلق الأقوات، ذكر منته بتهيئة المساكن، وخلقه كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال: ﴿ فالق الإصباح ﴾ أي: كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئا فشيئا، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام،الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم، ومعايشهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم بوجود النهار والنور ﴿ جعل ﴾ الله ﴿ الليل سكنا ﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك بالضياء، وهكذا أبدا إلى يوم القيامة ﴿ و ﴾ جعل تعالى ﴿ الشمس والقمر حسبانا ﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتنضبط بذلك أوقات العبادات، وآجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر، وتناوبهما واختلافهما – لما عرف ذلك عامة

الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس، بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

﴿ ذلك ﴾ التقدير المذكور ﴿ تقدير العزيز العليم ﴾ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مذللة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿ العليم ﴾ الذي أحاط علمه، بالظواهر والبواطن،والأوائل والأواخر.

ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه، تسخير هذه المخلوقات العظيمة، على تقدير، ونظام بديع، تحير العقول في حسنه وكماله، وموافقته للمصالح والحكم.

﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ حين تشتبه عليكم المسالك، ويتحير في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم.

منها: نجوم لا تزال ترى، ولا تسير عن محلها، ومنها: ما هو مستمر السير،يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

ودلت هذه الآية ونحوها، على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ أي بيناها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي: لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب، بخلاف أهل الجهل والجفاء، المعرضين عن آيات الله، وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئا، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبسا، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلا.

﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة ﴾ وهو آدم عليه السلام. أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد ملأ الأرض ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوت في أخلاقه وخلقه، وأوصافه تفاوتا لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه، وجعل الله لهم مستقرا، أي منتهى ينتهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار، التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار، هي التي خلق الخلق لسكناها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمر بها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك، على وجه الوديعة، التي لا تستقر [ص ٢٦٧] ولا تثبت، بل ينتقل منها حتى

يوصل إلى الدار التي هي المستقر، وأما هذه الدار، فإنها مستودع وممر ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه، وبيناته.." (١)

"﴿ ١٢١ ﴾ ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ .

ويدخل تحت هذا المنهي عنه، ما ذكر عليه اسم غير الله كالذي يذبح للأصنام،وآلهتهم، فإن هذا مما أهل لغير الله به، المحرم بالنص عليه خصوصا.

ويدخل في ذلك، متروك التسمية، مما ذبح لله، كالضحايا، والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمدا ترك التسمية، عند كثير من العلماء.

ويخرج من هذا العموم، الناسي بالنصوص الأخر، الدالة على رفع الحرج عنه، ويدخل في هذه الآية، ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه.

ونص الله عليها بخصوصها، في قوله: ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ ولعلها سبب نزول الآية، لقوله ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ بغير علم.

فإن المشركين -حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة،وكانوا يستحلون أكل الميتة- قالوا -معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة ولا برهان- أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة.

وهذا رأي فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعا لها لفسدت السماوات والأرض، ومن فيهن.

فتبا لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة **والمنافع** الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهها، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم،ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿ وإن أطعتموهم ﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿ إنكم لمشركون ﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم، طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف،التي يكثر وقوعها عند

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٦٥

الصوفية ونحوهم، لا تدل -بمجردها على أنها حق،ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.." (١)

"﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ .

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عموما، وجعلها رزقا ورحمة، يتمتعون بها وينتفعون، قد اخترعوا فيها بدعا وأقوالا من تلقاء أنفسهم، فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام [والحرث] أنهم يقولون فيها: ﴿ هذه أنعام وحرث حجر ﴾ أي: محرم ﴿ لا يطعمها إلا من نشاء ﴾ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف -من عندهم-.

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة إلا أهويتهم، وآراؤهم الفاسدة.

وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها، أي: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها، ويسمونها الحام، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فجار في ذلك.

﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ على الله، من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل، **والمنافع**. [ص ٢٧٦]

ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام، ويعينونها -محرما ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿ ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ﴾ أي: حلال لهم، لا يشاركهم فيها النساء، ﴿ ومحرم على أزواجنا ﴾ أي: نسائنا، هذا إذا ولد حيا، وإن يكن ما [في] بطنها يولد ميتا، فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

﴿ سيجزيهم ﴾ الله ﴿ وصفهم ﴾ حين وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله. ﴿ إنه حكيم ﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال. ﴿ عليم ﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يعافيهم ويرزقهم جل جلاله.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٧١

ثم بين خسرانهم وسفاهة عقولهم فقال: ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ﴾ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم -بعد العقول الرزينة- السفه المردي، والضلال.

﴿ وحرموا ما رزقهم الله ﴾ أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقا لهم. فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أحل الحلال.

وكل هذا ﴿ افتراء على الله ﴾ أي: كذبا يكذب به كل معاند كفار. ﴿ قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ أي: قد ضلوا ضلالا بعيدا، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.." (١)

"﴿ ٥٤ ﴾ ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

يقول تعالى مبينا أنه الرب المعبود وحده لا شريك له: ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ وما فيهما على عظمهما وسعتهما، وإحكامهما، وإتقانهما، وبديع خلقهما.

﴿ في ستة أيام ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، فلما قضاهما وأودع فيهما من أمره ما أودع ﴿ استوى ﴾ تبارك وتعالى ﴿ على العرش ﴾ العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية، وأحكامه الدينية، ولهذا قال: ﴿ يغشي الليل ﴾ المظلم ﴿ النهار ﴾ المضيء، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن الآدميون، وتأوى المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب، والذهاب والإياب الذي حصل لهم في النهار.

﴿ يطلبه حثيثا ﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب الليل، وهكذا أبدا على الدوام، حتى يطوي الله هذا العالم، وينتقل العباد إلى دار غير هذه الدار.

﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ أي: بتسخيره وتدبيره، الدال على ما له من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دال على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٧٥

وأوصافها وأفعالها والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء، ﴿ تبارك الله ﴾ أي: عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، فكل بركة في الكون، فمن آثار رحمته، ولهذا قال: ف ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ .

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدل ذوي الألباب على أنه وحده، المعبود المقصود في الحوائج كلها أمر بما يترتب على ذلك، فقال: ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾.." (١)

"﴿ ١٦٨ - ١٧٠ ﴾ ﴿ وقطعناهم في الأرض أمما ﴾ أي: فرقناهم ومزقناهم في الأرض بعد ما كانوا مجتمعين، ﴿ منهم الصالحون ﴾ القائمون بحقوق الله، وحقوق عباده، ﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ أي: دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما ظالمون لأنفسهم، ﴿ وبلوناهم ﴾ على عادتنا وسنتنا، ﴿ بالحسنات والسيئات ﴾ أي: بالعسر واليسر.

﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى، يراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد، حتى خلف من بعدهم خلف. زاد شرهم ﴿ ورثوا ﴾ بعدهم ﴿ الكتاب ﴾ وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبذل لهم الأموال، ليفتوا ويحكموا، بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة.

﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون ﴾ مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿ سيغفر لنا ﴾ وهذا قول خال من الحقيقة، فإنه ليس استغفارا وطلبا للمغفرة على الحقيقة.

فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا، وعزموا على أن لا يعودوا، ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى - يأخذوه.

فاشتروا بآيات الله ثمنا قليلا واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، قال الله [تعالى] في الإنكار عليهم، وبيان جراءتهم: ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتباعا لأهوائهم، وميلا مع مطامعهم.

﴿ و ﴾ الحال أنهم قد ﴿ درسوا ما فيه ﴾ فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهذا أعظم للذنب، وأشد للوم، وأشنع للعقوبة، وهذا من نقص عقولهم، وسفاهة رأيهم،

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٩١

بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون ﴾ ما حرم الله عليهم، من المآكل التي تصاب، وتؤكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من أنواع المحرمات.

﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره. فخاصية العقل النظر للعواقب.

وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيما عظيما باقيا فأنى له العقل والرأي؟

وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله ﴿ والذين يمسكون بالكتاب ﴾ [ص ٣٠٨] أي: يتمسكون به علما وعملا فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار، التي علمها أشرف العلوم.

ويعلمون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات، إقامة الصلاة، ظاهرا وباطنا، ولهذا خصها الله بالذكر لفضلها، وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحا، قال تعالى: ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

وهذه الآية وما أشبهها دلت على أن الله بعث رسله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، **وبالمنافع** لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين، فكل من كان أصلح، كان أقرب إلى اتباعهم.." [١]

"﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ﴾ فإني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى.

﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح **والمنافع**، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تفضي إليه.

ولكني – لعدم علمي – قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أني لا علم لي بالغيب.

﴿ إن أنا إلا نذير ﴾ أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك، وأحذر

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣٠٧

منها.

﴿ وبشير ﴾ بالثواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما ينتفع بذلك ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريمات، مبينة جهل من يقصد النبي صلى الله عليه وسلم ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضر عمن لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة، وعمل بذلك، فهذا نفعه صلى الله عليه وسلم، الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان بما حث العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.." (١)

"﴿ إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ .

﴿ إن وليي الله ﴾ الذي يتولاني فيجلب لي **المنافع** ويدفع عني المضار.

﴿ الذي نزل الكتاب ﴾ الذي فيه الهدى والشفاء والنور، وهو من توليته وتربيته لعباده الخاصة الدينية.." (٢)

"﴿ ١١٥ - ١١٦ ﴾ ﴿ وما كان الله [ص ٣٥٤] ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم * إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ .

يعني أن الله تعالى إذا من على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد، في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى.

﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون.

﴿ إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت ﴾ أي: هو المالك لذلك، المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته،

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣١١

(٢) تفسير السعدي، ص/٣١٢

ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده؟".

فلهذا قال: ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو ﴿ نصير ﴾ يدفع عنكم المضار.." (١)

"﴿ ٥ - ٦ ﴾ ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون * إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ .

لما قرر ربوبيته وإلهيته، ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته، من الشمس والقمر، والسماوات والأرض وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿ لقوم يعلمون ﴾ و ﴿ لقوم يتقون ﴾.

فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها، وكيفية استنباط الدليل (١) على أقرب وجه، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين، وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة، دال على كمال قدرة الله تعالى، وعلمه، وحياته، وقيوميته، وما فيها من الأحكام والإتقان والإبداع والحسن، دال على كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه. وما فيها من أنواع المنافع والمصالح -كجعل الشمس ضياء، والقمر نورا، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل- يدل ذلك على رحمة الله تعالى واعتنائه بعباده وسعة بره وإحسانه، وما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله وإرادته النافذة.

وذلك دال على أنه وحده المعبود والمحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلا إليه، ولا يصرف خالص الدعاء إلا له، لا لغيره من المخلوقات المربوبات، المفتقرات إلى الله في جميع شئونها.

وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكر في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣٥٣

(١) في ب: الدلائل.." (١)

"أما رحمة الله به فلما خصه الله بوحيه ومن عليه بما من به على أولي العزم وأما رحمته بوالدته فلما حصل لها من الفخر والثناء الحسن **والمنافع** العظيمة وأما رحمته بالناس فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فيؤمنون به ويطيعونه وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة ﴿ وكان ﴾ أي وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿ أمرا مقضيا ﴾ قضاء سابقا فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء فنفخ جبريل عليه السلام في جيبها

[ص ٤٩٢]

﴿ ٢٢ - ٢٦ ﴾ ﴿ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا * فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا * وهزي إليك بجذع النخلة◌ تساقط عليك رطبا جنيا ﴾ .

أي: لما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس ﴿ مكانا قصيا ﴾ فلما قرب ولادها، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسيا منسيا فلا تذكر. وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل.

فحينئذ سكن الملك روعها وثبت جأشها وناداها من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تجزعي ولا تهتمي، فـ ﴿ قد جعل ربك تحتك سريا ﴾ أي: نهرا تشربين منه.

﴿ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ﴾ أي: طريا لذيذا نافعا." (٢)

"﴿ إنا قد أوحي إلينا ﴾ أي خبر من عند الله لا من عند أنفسنا ﴿ أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ أي كذب بأخبار الله وأخبار رسله وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما والترهيب من ضد ذلك ولكن لم يفد فيه هذا الوعظ والتذكير فأنكر ربه وكفر وجادل في ذلك ظلما وعنادا

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣٥٨

(٢) تفسير السعدي، ص/٤٩١

[ص ٥٠٧]

﴿ ٤٩ – ٥٥ ﴾ ﴿ قال فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * قال فما بال القرون الأولى ﴾ .

أي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾ فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح، فقال: ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ ثم هدى ﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة (١) المشاهدة في جميع المخلوقات فكل مخلوق، تجده يسعى لما خلق له من **المنافع**، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل، ما يتمكن (٢) به على ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ فالذي خلق المخلوقات، وأعطاها خلقها الحسن، الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودا، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان، أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك، ولهذا لما لم يمكن فرعون، أن يعاند هذا الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة، وحاد عن المقصود فقال لموسى: ﴿ فما بال القرون الأولى ﴾ أي: ما شأنهم، وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم أسوة؟ فقال موسى:

---

(١) في ب: الكاملة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ما تتمكن.." [١]

"﴿ ٣٠ ﴾ ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ .

أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، على أنه الرب المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض فيجدونهما رتقا، هذه ليس فيها سحاب ولا مطر، وهذه هامدة ميتة، لا نبات فيها، ففتقناهما: السماء بالمطر، والأرض بالنبات، أليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافيا لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت؛ قد

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٠٦

اغبرت أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت، وتحركت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، مختلف الأنواع، متعدد **المنافع**، [أليس ذلك] (١) دليلا على أنه الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ أي: إيمانا صحيحا، ما فيه شك ولا شرك. ثم عدد تعالى الأدلة الأفقية فقال:

---

(١) زيادة من هامش ب.." (١)

"﴿ ٣١ - ٣٣ ﴾ ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون * وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون * وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ .

x أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها، لئلا تميد بالعباد، أي: لئلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك، من المصالح **والمنافع**، ما حصل، ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تتصل اتصالا كثيرا جدا، فلو بقيت بحالها، جبالا شامخات، وقللا باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.

فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاجا سبلا أي: طرقا سهلة لا حزنة، لعلهم يهتدون إلى الوصول، إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان.

﴿ وجعلنا السماء سقفا ﴾ للأرض التي أنتم عليها ﴿ محفوظا ﴾ من السقوط ﴿ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ محفوظا أيضا من استراق الشياطين للسمع.

﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ أي: غافلون لاهون، وهذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها، [ص ٥٢٣] وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثوابت والسيارات، وشمسها، وقمرها النيرات، المتولد عنهما، الليل والنهار، وكونهما دائما في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم، ويهدأون ويسكنون وينتشرون في نهارهم، ويسعون في معايشهم، كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم جزما لا شك فيه، أن الله جعلها مؤقتة في وقت

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٢٢

معلوم، إلى أجل محتوم، يقضي العباد منها مآربهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هذا، ستزول وتضمحل، ويفنيها الذي أوجدها، ويسكنها الذي حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملا موفرا ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.." (١)

"وفي هذه الآية الكريمة، وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها. [ص ٥٣٧]

﴿ ٢٦ - ٢٩ ﴾ ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود * وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ .

يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ أي: هيأناه له، وأنزلناه إياه، وجعل قسما من ذريته من سكانه، وأمره الله ببنيانه، فبناه على تقوى الله، وأسسه على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره أن لا يشرك به شيئا، بأن يخلص لله أعماله، ويبنيه على اسم الله.

﴿ وطهر بيتي ﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس وأضافه الرحمن إلى نفسه، لشرفه، وفضله، ولتعظم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر، وقراءة، وتعلم علم وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب، ﴿ والركع السجود ﴾ أي: المصلين، أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته، والتقرب إليه عند بيته، فهؤلاء لهم الحق، ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم، ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش المتعبدين، بالصلاة والطواف، وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة، لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجنس المساجد.

﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ أي: أعلمهم به، وادعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم، فرضه وفضيلته، فإنك إذا دعوتهم، أتوك حجاجا وعمارا، رجالا أي: مشاة على أرجلهم من الشوق، ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ أي: ناقة

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٢٢

ضامر، تقطع المهامه والمفاوز، وتواصل السير، حتى تأتي إلى أشرف الأماكن، ﴿ من كل فج عميق ﴾ أي: من كل بلد بعيد، وقد فعل الخليل عليه السلام، ثم من بعده ابنه محمد صلى الله عليه وسلم، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبديا في ذلك وأعادا، وقد حصل ما وعد الله به، أتاه الناس رجالا وركبانا من مشارق الأرض ومغاربها، ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام، مرغبا فيه فقال: ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ أي: لينالوا ببيت الله منافع دينية، من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية، من التكسب، وحصول الأرباح الدنيوية، وكل هذا أمر مشاهد كل يعرفه، ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ وهذا من **المنافع** الدينية والدنيوية، أي: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا، شكرا لله على ما رزقهم منها، ويسرها لهم، فإذا ذبحتموها ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ أي: شديد الفقر ، ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ أي: يقضوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى، الذي لحقهم في حال الإحرام، ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ التي أوجبوها على أنفسهم، من الحج، والعمرة والهدايا، ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، المعتق: من تسلط الجبابرة عليه. وهذا أمر بالطواف، خصوصا بعد الأمر بالمناسك عموما، لفضله، وشرفه، ولكونه المقصود، وما قبله وسائل إليه.

ولعله -والله أعلم أيضا- لفائدة أخرى، وهو: أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعا لنسك، أم مستقلا بنفسه.." (١)

"﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون * وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾ .

﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ يكون رزقا لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم، فلا ينقصه، بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود، ولا يزيده زيادة لا تحتمل، بحيث يتلف المساكن، ولا تعيش معه النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله ثم صرفه عند التضرر من دوامه، ﴿ فأسكناه في الأرض ﴾ أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقدرة منزله، جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضا معدا في خزائن الأرض، بحيث لم يذهب نازلا حتى لا يوصل إليه، ولا يبلغ قعره، ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ إما بأن لا ننزله، أو ننزله، فيذهب نازلا لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته، ويقدروا عدمها، ماذا يحصل به من الضرر، كقوله تعالى: ﴿ قل أرأيتم إن أصبح

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٣٦

ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾
﴿ فأنشأنا لكم به ﴾ أي: بذلك الماء ﴿ جنات ﴾ أي: بساتين ﴿ من نخيل وأعناب ﴾ خص تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشئ منه غيرهما من الأشجار، لفضلهما ومنافعهما، التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله: ﴿ لكم فيها ﴾ أي: في تلك الجنات ﴿ فواكه كثيرة ومنها تأكلون ﴾ من تين، وأترج، ورمان، وتفاح وغيرها ، ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء ﴾ وهي شجرة الزيتون، أي: جنسها، خصت بالذكر، لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها، التي ذكر بعضها في قوله: ﴿ تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾ أي: فيها الزيت، الذي هو دهن، يستعمل (١) استعماله من الاستصباح به، واصطباغ الآكلين، أي: يجعل إداما للآكلين، وغير ذلك من المنافع.

(١) كذا في النسختين، وقد شطبت كلمة يستعمل في ب، وكتب فوقها بخط مغاير: يكثر. وهي كذلك في الطبعات المختلفة للتفسير.." (١)

"﴿ ٦١ - ٦٢ ﴾ ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا * وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ .
كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿ تبارك ﴾ ثلاث مرات لأن معناها كما تقدم أنها تدل على عظمة الباري وكثرة أوصافه، وكثرة خيراته وإحسانه. وهذه السورة فيها من الاستدلال على عظمته وسعة سلطانه ونفوذ مشيئته وعموم علمه وقدرته وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته. وفيها ما يدل على سعة رحمته وواسع جوده وكثرة خيراته الدينية والدنيوية ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن فقال: ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجا ﴾ وهي النجوم عمومها أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة فإنها رجوم للشياطين.
﴿ وجعل فيها سراجا ﴾ فيه النور والحرارة وهو الشمس. ﴿ وقمرا منيرا ﴾ فيه النور لا الحرارة وهذا من أدلة عظمته، وكثرة إحسانه، فإن ما فيها من الخلق الباهر والتدبير المنتظم والجمال العظيم دال على عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع دليل على كثرة خيراته.
﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾ أي: يذهب أحدهما فيخلفه الآخر، هكذا أبدا لا يجتمعان ولا

(١) تفسير السعدي، ص/٥٤٩

يرتفعان، ﴿ لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ أي: لمن أراد أن يتذكر بهما ويعتبر ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره وله ورد من الليل أو النهار، فمن فاته ورده من أحدهما أدركه في الآخر، وأيضا فإن القلوب تتقلب وتنتقل في ساعات الليل والنهار فيحدث لها النشاط والكسل والذكر والغفلة والقبض والبسط والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار يتوالى على العباد ويتكرران ليحدث لهم الذكر والنشاط والشكر لله في وقت آخر، ولأن أوراد العبادات تتكرر بتكرر الليل والنهار، فكما تكررت الأوقات أحدث للعبد همة غير همته التي كسلت في الوقت المتقدم فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمده فلولا ذلك لذوى غرس الإيمان ويبس. فلله أتم حمد وأكمله على ذلك.

ثم ذكر من جملة كثرة خيره منته على عباده الصالحين وتوفيقهم للأعمال الصالحات التي أكسبتهم المنازل العاليات في غرف الجنات فقال:." (١)

"﴿ ٢١٧ - ٢٢٠ ﴾ ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم * الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إنه هو السميع العليم ﴾ .

أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه فقال: ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى، في جلب **المنافع**، ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير، ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به، يفعل ذلك.

ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان فقال: ﴿ الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين ﴾ أي: يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة، وقت قيامك، وتقلبك راكعا وساجدا خصها بالذكر، لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه، خشع وذل، وأكملها، وبتكميلها، يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره.

﴿ إنه هو السميع ﴾ لسائر الأصوات على اختلافها وتشتتها وتنوعها، ﴿ العليم ﴾ الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة. فاستحضار العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه، من الهم، والعزم، والنيات، مما يعينه على منزلة الإحسان.." (٢)

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٨٦

(٢) تفسير السعدي، ص/٥٩٩

"﴿ ٢٢ ﴾ ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ .

والعالمون هم أهل العلم الذين يفهمون العبر ويتدبرون الآيات. والآيات في ذلك كثيرة: فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيهما، أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وكمال حكمته لما فيها من الإتقان وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ وعموم رحمته وفضله لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد الذي يختار ما يشاء لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده الذي يستحق أن يعبد ويوحد لأنه المنفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة، فكل هذه أدلة عقلية نبه الله العقول إليها وأمرها بالتفكر واستخراج العبرة منها.

﴿ و ﴾ كذلك في ﴿ اختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾ على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه ولا لونين متشابهين من كل وجه إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز. وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته.

و [من] (١) عنايته بعباده ورحمته بهم أن قدر ذلك الاختلاف لئلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.." (١)

"﴿ ٢٠ - ٢١ ﴾ ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ .

يمتن تعالى على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها؛ وعدم الغفلة عنها فقال: ﴿ ألم تروا ﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿ أن الله سخر لكم ما في السماوات ﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع العباد.

﴿ وما في الأرض ﴾ من الحيوانات والأشجار والزروع، والأنهار والمعادن ونحوها كما قال تعالى: ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ﴾

﴿ وأسبغ عليكم ﴾ أي: عمكم وغمركم نعمه الظاهرة والباطنة التي نعلم بها؛ والتي تخفى علينا، نعم الدنيا،

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦٣٩

ونعم الدين، حصول **المنافع**، ودفع المضار، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم؛ بمحبة المنعم والخضوع له؛ وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿ و ﴾ لكن مع توالي هذه النعم؛ ﴿ من الناس من ﴾ لم يشكرها؛ بل كفرها؛ وكفر بمن أنعم بها؛ وجحد الحق الذي أنزل به كتبه؛ وأرسل به رسله، فجعل ﴿ يجادل في الله ﴾ أي: يجادل عن الباطل؛ ليدحض به الحق؛ ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة، فليس جداله عن علم، فيترك وشأنه، ويسمح له في الكلام ﴿ ولا هدى ﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿ ولا كتاب منير ﴾ [غير مبين للحق فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين] (١) وإنما جداله في الله مبني [ص ٦٥٠] على تقليد آباء غير مهتدين، بل ضالين مضلين.

ولهذا قال: ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ﴾ على أيدي رسله، فإنه الحق، وبينت لهم أدلته الظاهرة ﴿ قالوا ﴾ معارضين ذلك: ﴿ بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد كائنا من كان.

قال تعالى في الرد عليهم وعلى آبائهم: ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ فاستجاب له آباؤهم، ومشوا خلفه، وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحيرة.

فهل هذا موجب لاتباعهم لهم ومشيهم على طريقتهم، أم ذلك يرهبهم من سلوك سبيلهم، وينادي على ضلالهم، وضلال من اتبعهم.

وليس دعوة الشيطان لآبائهم ولهم، محبة لهم ومودة، وإنما ذلك عداوة لهم ومكر بهم، وبالحقيقة أتباعه من أعدائه، الذين تمكن منهم وظفر بهم، وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير، بقبول دعوته.

---

(١) زيادة من ب.." (١)

"﴿ ٤ - ٩ ﴾ ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون * يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون * ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم * الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ .

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦٤٩

يخبر تعالى عن كمال قدرته بخلق ﴿ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ أولها، يوم الأحد، وآخرها الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة، ولكنه تعالى رفيق حكيم.

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، استواء يليق بجلاله.

﴿ ما لكم من دونه من ولي ﴾ يتولاكم، في أموركم، فينفعكم ﴿ ولا شفيع ﴾ يشفع لكم، إن توجه عليكم العقاب. [ص ٦٥٤]

﴿ أفلا تتذكرون ﴾ فتعلمون أن خالق الأرض والسماوات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم، وتوليكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة.

﴿ يدبر الأمر ﴾ القدري والأمر الشرعي، الجميع هو المتفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند المليك القدير ﴿ من السماء إلى الأرض ﴾ فيسعد بها ويشقي، ويغني ويفقر، ويعز، ويذل، ويكرم، ويهين، ويرفع أقواما، ويضع آخرين، وينزل الأرزاق.

﴿ ثم يعرج إليه ﴾ أي: الأمر ينزل من عنده. ويعرج إليه ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ وهو يعرج إليه، ويصله في لحظة.

﴿ ذلك ﴾ الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدابير في المملكة، ﴿ عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ فبسعة علمه، وكمال عزته، وعموم رحمته، أوجدها، وأودع فيها، من **المنافع** ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها.

﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ أي: كل مخلوق خلقه الله، فإن الله أحسن خلقه، وخلقه خلقا يليق به، ويوافقه، فهذا عام.

ثم خص الآدمي لشرفه وفضله فقال: ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ وذلك بخلق آدم عليه السلام، أبي البشر.

﴿ ثم جعل نسله ﴾ أي: ذرية آدم ناشئة ﴿ من ماء مهين ﴾ وهو النطفة المستقذرة الضعيفة.

﴿ ثم سواه ﴾ بلحمه، وأعضائه، وأعصابه، وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه، بالمحل الذي لا يليق به غيره، ﴿ ونفخ فيه من روحه ﴾ بأن أرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، فيعود بإذن الله، حيوانا، بعد أن كان جمادا.

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار ﴾ أي: ما زال يعطيكم من المنافع شيئا فشيئا، حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿ والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ الذي خلقكم وصوركم.." (١)

"﴿ ١٦ ﴾ ﴿ قل ﴾ .

﴿ قل ﴾ لهم، لائما على فرارهم، ومخبرا أنهم لا يفيدهم ذلك شيئا ﴿ لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ﴾ فلو كنتم في بيوتكم، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعكم.

والأسباب تنفع، إذا لم يعارضها القضاء والقدر، فإذا جاء القضاء والقدر، تلاشى كل سبب، وبطلت (١) كل وسيلة، ظنها الإنسان تنجيه.

﴿ وإذا ﴾ حين فررتم لتسلموا من الموت والقتل، ولتنعموا في الدنيا فإنكم ﴿ لا تمتعون إلا قليلا ﴾ متاعا، لا يسوى فراركم، وترككم أمر الله، وتفويتكم على أنفسكم، التمتع الأبدي، في النعيم السرمدي.

ثم بين أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئا إذا أراده الله بسوء، فقال: ﴿ قل من ذا الذي يعصمكم ﴾ أي: يمنعكم ﴿ من الله إن أراد بكم سوءا ﴾ أي: شرا، ﴿ أو أراد بكم رحمة ﴾ فإنه هو ال‍معطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو.

﴿ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ﴾ يتولاهم، فيجلب لهم النفع (٢) ﴿ ولا نصيرا ﴾ أي ينصرهم، فيدفع عنهم المضار.

فليمتثلوا طاعة المنفرد بالأمور كلها، الذي نفذت مشيئته، ومضى قدره، ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته، ولي ولا ناصر.

ثم توعد تعالى المخذلين المعوقين، وتهددهم فقال: ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ عن الخروج، لمن [لم] (٣) يخرجوا ﴿ والقائلين لإخوانهم ﴾ الذين خرجوا: [ص ٦٦١] ﴿ هلم إلينا ﴾ أي: ارجعوا، كما تقدم من قولهم: ﴿ يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ﴾

وهم مع تعويقهم وتخذيلهم ﴿ ولا يأتون البأس ﴾ أي: القتال والجهاد بأنفسهم ﴿ إلا قليلا ﴾ فهم أشد الناس حرصا على التخلف، لعدم الداعي ل‍ذلك، من الإيمان والصبر، ووجود المقتضى للجبن، من النفاق، وعدم الإيمان.

﴿ أشحة عليكم ﴾ بأبدانهم عند القتال، وبأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم. ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك ﴾ نظر المغشى عليه ﴿ من الموت ﴾ من شدة الجبن، الذي خلع

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦٥٣

قلوبهم، والقلق الذي أذهلهم، وخوفا من إجبارهم على ما يكرهون، من القتال.

﴿ فإذا ذهب الخوف ﴾ وصاروا في حال الأمن والطمأنينة، ﴿ سلقوكم بألسنة ﴾ أي: خاطبوكم، وتكلموا معكم، بكلام حديد، ودعاوى غير صحيحة.

وحين تسمعهم، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام، ﴿ أشحة على الخير ﴾ الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحا بما أمر به، شحيحا بماله أن ينفقه في وجهه، شحيحا في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحا بجاهه، شحيحا بعلمه، ونصيحته ورأيه.

﴿ أولئك ﴾ الذين بتلك الحالة ﴿ لم يؤمنوا ﴾ بسبب عدم إيمانهم، أحبط الله أعمالهم، ﴿ وكان ذلك على الله يسيرا ﴾

وأما المؤمنون، فقد وقاهم الله، شح أنفسهم، ووفقهم لبذل ما أمروا به، من بذل لأبدانهم في القتال في سبيله، وإعلاء كلمته، وأموالهم، للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ أي: يظنون أن هؤلاء الأحزاب، الذين تحزبوا على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسبانهم.

﴿ وإن يأت الأحزاب ﴾ مرة أخرى ﴿ يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ﴾ أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة، ود هؤلاء المنافقون، أنهم ليسوا في المدينة، ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنبائكم، ماذا حصل عليكم؟

فتبا لهم، وبعدا، فليسوا ممن يبالى (٤) بحضورهم ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب، وهو الشريف الكامل، والبطل الباسل، فكيف تشحون بأنفسكم، عن أمر جاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بنفسه فيه؟"

فتأسوا به في هذا الأمر وغيره.

واستدل الأصوليون في هذه الآية، على الاحتجاج بأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الأصل، أن أمته أسوته في الأحكام، إلا ما دل الدليل الشرعي على الاختصاص به.

فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة، في الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن المتأسي به، سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله،

وهو الصراط المستقيم.

وأما الأسوة بغيره، إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة، كقول الكفار (٥) حين دعتهم الرسل للتأسي]بهم[(٦) ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾

وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها، من كان يرجو الله، واليوم الآخر، فإن ما معه (٧) من الإيمان، وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم.

لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف، ذكر حال المؤمنين فقال: ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب ﴾ الذين تحزبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهى الخوف، ﴿ قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ﴾ في قوله: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾

﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ فإنا رأينا، ما أخبرنا به ﴿ وما زادهم ﴾ ذلك الأمر ﴿ إلا إيمانا ﴾ في قلوبهم ﴿ وتسليما ﴾ في جوارحهم، وانقيادا لأمر الله.

ولما ذكر أن المنافقين، عاهدوا الله، لا يولون الأدبار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله ﴾ أي: وفوا به، وأتموه، وأكملوه، فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبلوا أنفسهم في طاعته.

﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ أي: إرادته ومطلوبه، وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله، أو مات مؤديا لحقه، لم ينقصه شيئا.

﴿ ومنهم من ينتظر ﴾ تكميل ما عليه، فهو شارع في قضاء ما عليه، ووفاء نحبه ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله، ساع في ذلك، مجد.

﴿ وما بدلوا تبديلا ﴾ كما بدل غيرهم، بل لم يزالوا على العهد، لا يلوون، ولا يتغيرون، فهؤلاء، الرجال على الحقيقة، ومن (٨) عداهم، فصورهم صور رجال، وأما الصفات، فقد قصرت عن صفات الرجال.

﴿ ليجزي الله الصادقين بصدقهم ﴾ أي: بسبب صدقهم، في أقوالهم، وأحوالهم، ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالى: ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين [ص ٦٦٢] صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ﴾ الآية.

أي: قدرنا ما قدرنا، من هذه الفتن والمحن، والزلازل، ليتبين الصادق من الكاذب، فيجزي الصادقين بصدقهم ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم، عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه.

﴿ إن شاء ﴾ تعذيبهم، بأن لم يشأ هدايتهم، بل علم أنهم لا خير فيهم، فلم يوفقهم.
﴿ أو يتوب عليهم ﴾ بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب، على كرم الكريم، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة، والفضل، والإحسان فقال: ﴿ إن الله كان غفورا رحيما ﴾ غفورا لذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان، إذا أتوا بالمتاب. ﴿ رحيما ﴾ بهم، حيث وفقهم للتوبة، ثم قبلها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه.
﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ﴾ أي: ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حنقين عليه، مغتاظين قادرين]عليه[(٩) جازمين، بأن لهم الدائرة، قد غرتهم جموعهم، وأعجبوا بتحزبهم، وفرحوا بعددهم وعددهم.
فأرسل الله عليهم، ريحا عظيمة، وهي (١٠) ريح الصبا، فزعزعت مراكزهم، وقوضت خيامهم، وكفأت قدورهم وأزعجتهم، وضربهم الله بالرعب، فانصرفوا بغيظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين.
﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية، ﴿ وكان الله قويا عزيزا ﴾ لا يغالبه أحد إلا غلب، ولا يستنصره أحد إلا غلب، ولا يعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة، قوتهم وعزتهم، إن لم يعنهم بقوته وعزته.
﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ أي عاونوهم ﴿ من أهل الكتاب ﴾ أي: اليهود ﴿ من صياصيهم ﴾ أي: أنزلهم من حصونهم، نزولا مظفورا بهم، مجعولين تحت حكم الإسلام.
﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا. ﴿ فريقا تقتلون ﴾ وهم الرجال المقاتلون ﴿ وتأسرون فريقا ﴾ من عداهم من النساء والصبيان.
﴿ وأورثكم ﴾ أي: غنمكم ﴿ أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ﴾ أي: أرضا كانت من قبل، من شرفها وعزتها عند أهلها، لا تتمكنون من وطئها، فمكنكم الله وخذلهم، وغنمتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسرتموهم.
﴿ وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ لا يعجزه شيء، ومن قدرته، قدر لكم ما قدر.
وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب، هم بنو قريظة من اليهود، في قرية خارج المدينة، غير بعيدة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم، [حين] (١١) هاجر إلى المدينة، وادعهم، وهادنهم، فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه، وهم باقون على دينهم، لم يغير عليهم شيئا.
فلما رأوا يوم الخندق، الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكثرتهم، وقلة المسلمين، وظنوا أنهم

سيستأصلون الرسول والمؤمنين، وساعد على ذلك، [تدجيل] (١٢) بعض رؤسائهم عليهم، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومالؤوا المشركين على قتاله.

فلما خذل الله المشركين، تفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقتالهم، فحاصرهم في حصنهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم، أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتغنم أموالهم.

فأتم الله لرسوله والمؤمنين، المنة، وأسبغ عليهم النعمة، وأقر أعينهم، بخذلان من انخذل من أعدائهم، وقتل من قتلوا، وأسر من أسروا، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمرا.

---

(١) كذا في ب، وفي أ: بطل.

(٢) في ب: **المنافع**.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: يغالى.

(٥) في ب: المشركين.

(٦) زيادة من: ب.

(٧) في ب: فإن ذلك ما معه.

(٨) في أ: وما وعداهم، ولعل الصواب ما أثبته.

(٩) زيادة من: ب.

(١٠) زيادة من: ب. في أ : وهو ولعل الصواب ما أثبته

(١١) زيادة من: ب.

(١٢) زيادة من: ب.." (١)

"﴿ ١٢ - ١٤ ﴾ ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦٦٠

هذا إخبار عن قدرته وحكمته ورحمته، أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسو بينهما، لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتا، سائغا شرابها، لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحا أجاجا، لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ، ولهذا قال: ﴿ ومن كل ﴾ من البحر الملح والعذب ﴿ تأكلون لحما طريا ﴾ وهو السمك المتيسر صيده في البحر، ﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ من لؤلؤ ومرجان وغيرهما، مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد.

ومن المصالح أيضا والمنافع في البحر، أن سخره الله تعالى يحمل الفلك من السفن والمراكب، فتراها تمخر البحر وتشقه، فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم، فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه شيء كثير، ولهذا قال: ﴿ ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾

ومن ذلك أيضا، إيلاجه تعالى الليل بالنهار والنهار بالليل، يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، كلما أتى أحدهما ذهب الآخر، ويزيد أحدهما وينقص الآخر، ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد في أبدانهم وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم.

وكذلك ما جعل الله في تسخير الشمس والقمر، الضياء والنور، والحركة والسكون، وانتشار العباد في طلب فضله، وما فيهما من تنضيج الثمار وتجفيف ما يجفف (١) وغير ذلك مما هو من الضروريات، التي لو فقدت للحق الناس الضرر.

وقوله: ﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ أي: كل من الشمس والقمر، يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا، فإذا جاء الأجل، وقرب انقضاء الدنيا، انقطع سيرهما، وتعطل سلطانهما، وخسف القمر، وكورت الشمس، وانتثرت النجوم.

فلما بين تعالى ما بين من هذه المخلوقات العظيمة، وما فيها من العبر الدالة على كماله وإحسانه، قال: ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ﴾ أي: الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها، هو الرب المألوه المعبود، الذي له الملك كله.

﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ من الأوثان والأصنام ﴿ ما يملكون من قطمير ﴾ أي: لا يملكون شيئا، لا قليلا ولا كثيرا، حتى ولا القطمير الذي هو أحقر الأشياء، وهذا من تنصيص النفي وعمومه، فكيف يدعون، وهم غير مالكين لشيء من ملك السماوات والأرض؟

[ص ٦٨٧]
ومع هذا ﴿ إن تدعوهم ﴾ لا يسمعوكم لأنهم ما بين جماد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم. ﴿ ولو سمعوا ﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿ ما استجابوا لكم ﴾ لأنهم لا يملكون شيئا، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ أي: يتبرأون منكم، ويقولون: ﴿ سبحانك أنت و◌لينا من دونهم ﴾
﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ أي: لا أحد ينبئك، أصدق من الله العليم الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر، الذي نبأ به كأنه رأي عين، فلا تشك فيه ولا تمتر. فتضمنت هذه الآيات، الأدلة والبراهين الساطعة، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود، الذي لا يستحق شيئا من العبادة سواه، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل، لا تفيد عابده شيئا.

---

(١) كذا في: ب، وفي أ: وتخفيف ما يخفف.." [١]
"﴿ ٢٧ - ٢٨ ﴾ ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ .
يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد، ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف، ليدل العباد على كمال قدرته وبديع حكمته.
فمن ذلك: أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفات، والنباتات المتنوعات، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد، والأرض واحدة.
ومن ذلك: الجبال التي جعلها الله أوتادا للأرض، تجدها جبالا مشتبكة، بل جبلا واحدا، وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض، أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحمر، وفيها غرابيب سود، أي: شديدة السواد جدا.
ومن ذلك: الناس والدواب، والأنعام، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالأبصار، مشهود للنظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة.
فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى، التي خصصت ما خصصت منها، بلونه، ووصفه، وقدرة الله

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦٨٦

تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته، حيث كان ذلك الاختلاف، وذلك التفاوت، فيه من المصالح **والمنافع**، ومعرفة الطرق، ومعرفة الناس بعضهم بعضا، ما هو معلوم.

وذلك أيضا، دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه يبعث من في القبور، ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة لا تحدث له [ص ٦٨٩] التذكر، وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها.

ولهذا قال: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ فكل من كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾

﴿ إن الله عزيز ﴾ كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات.

﴿ غفور ﴾ لذنوب التائبين.." (١)

"﴿ ٧١ - ٧٣ ﴾ ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ .

يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذللها، وجعلهم مالكين لها، مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أثقالهم ومحاملهم وأمتعتهم من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفء، ومن أوبارها وأشعارها وأصوافها أثاثا ومتاعا إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من **المنافع** المشاهدة منها، ﴿ أفلا يشكرون ﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة ولا يتمتعون بها تمتعا خاليا من العبرة والفكرة.." (٢)

"﴿ ٧٩ - ٨١ ﴾ ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون * ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون ﴾ .

يمتن تعالى على عباده، بما جعل لهم من الأنعام، التي بها، جملة من الإنعام:

منها: منافع الركوب عليها، والحمل.

ومنها: منافع الأكل من لحومها، والشرب من ألبانها.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦٨٨

(٢) تفسير السعدي، ص/٦٩٩

ومنها: منافع الدفء، واتخاذ الآلات والأمتعة، من أصوافها، وأوبارها وأشعارها، إلى غير ذلك من **المنافع**.
﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة، وحصول السرور بها، والفرح عند أهلها. ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ أي: على الرواحل البرية، والفلك البحرية، يحملكم الله الذي سخرها، وهيأ لها ما هيأ، من الأسباب، التي لا تتم إلا بها.

﴿ ويريكم آياته ﴾ الدالة على وحدانيته، وأسمائه، وصفاته، وهذا من أكبر نعمه، حيث أشهد عباده، آياته النفسية، وآياته الأفقية، ونعمه الباهرة، وعددها عليهم، ليعرفوه، ويشكروه، ويذكروه.." (١)

"﴿ تنزيل من حكيم ﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزله منزله. ﴿ حميد ﴾ على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال، فلهذا كان كتابه، مشتملا على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح **والمنافع**، ودفع المفاسد والمضار، التي يحمد عليها.

[ص ٧٥١]

﴿ ٤٣ ﴾ ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ .

أي: ﴿ ما يقال لك ﴾ أيها الرسول من الأقوال الصادرة، ممن كذبك وعاندك ﴿ إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ أي: من جنسها، بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد، كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسل، من دعوتهم إلى الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، وردهم هذا بكل طريق يقدرون عليه، وقولهم: ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾

واقتراحهم على رسلهم الآيات، التي لا يلزمهم الإتيان بها، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب، لما تشابهت قلوبهم في الكفر، تشابهت أقوالهم، وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر من قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار على الغي فقال: ﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ أي: عظيمة، يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب ﴿ وذو عقاب أليم ﴾ لمن: أصر واستكبر.." (٢)

"﴿ ١٠-١٢ ﴾ ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ * .

يقول تعالى: ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء ﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه ﴿ فحكمه إلى

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧٤٣

(٢) تفسير السعدي، ص/٧٥٠

الله ﴾ يرد إلى كتابه، وإلى سنة رسوله، فما حكما به فهو الحق، وما خالف ذلك فباطل. ﴿ ذلكم الله ربي ﴾ أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم. ومفهوم الآية الكريمة، أن اتفاق الأمة حجة قاطعة، لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه، فما اتفقنا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه، لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقها موافقا لما في كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: ﴿ عليه توكلت ﴾ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب **المنافع** ودفع المضار، واثقا به تعالى في الإسعاف بذلك. ﴿ وإليه أنيب ﴾ أي: أتوجه بقلبي وبدني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان، كثيرا ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته [ص ٧٥٤] الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما، كقوله تعالى: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وقوله: ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ .." (١)

"﴿ ٢٩ ﴾ ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ .

أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم، ﴿ خلق ﴾ هذه ﴿ السماوات والأرض ﴾ على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتقان والإحكام دال على حكمته وما فيهما من **المنافع** والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة.

﴿ وما بث فيهما ﴾ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده. ﴿ وهو على جمعهم ﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿ إذا يشاء قدير ﴾ فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.." (٢)

"﴿ ٣٠-٣١ ﴾ ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير * وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ .

يخبر تعالى، أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون عزيزا عليهم،

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧٥٣

(٢) تفسير السعدي، ص/٧٥٩

إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ وليس إهمالا منه تعالى تأخير العقوبات ولا عجزا.

﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم. ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ﴾ يتولاكم، فيحصل لكم **المنافع** ﴿ ولا نصير ﴾ يدفع عنكم المضار.." (١)

"﴿ ١-١١ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون * ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم * هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ .

يخبر تعالى خبرا يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به وأنه ﴿ تنزيل ﴾ ﴿ من الله ﴾ المألوه المعبود لما اتصف به من صفات الكمال وانفرد به من النعم الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة.

ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية من خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من الدواب وما أودع فيهما من **المنافع** وما أنزل الله من الماء الذي يحيي به الله البلاد والعباد.

فهذه كلها آيات بينات وأدلة واضحات على صدق هذا القرآن العظيم وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضا على ما لله تعالى من الكمال وعلى البعث والنشور.

ثم قسم تعالى الناس بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه إلى قسمين:

قسم يستدلون بها ويتفكرون بها وينتفعون فيرتفعون وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانا تاما وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم.

وقسم يسمع آيات الله سماعا تقوم به الحجة عليه ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها لأنها لم تزك قلبه ولا طهرته بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧٥٩

وأنه إذا علم من آيات الله شيئا اتخذها هزوا فتوعده الله تعالى بالويل فقال:
﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ أي: كذاب في مقاله أثيم في فعاله.
وأخبر أن له عذابا أليما وأن ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ تكفي في عقوبتهم البليغة.
وأنه ﴿ لا يغني عنهم ما كسبوا ﴾ من الأموال ﴿ ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ يستنصرون بهم فخذلوهم أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا.
فلما بين آياته القرآنية والعيانية وأن الناس فيها على قسمين أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية أنه هدى فقال: ﴿ هذا هدى ﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى بصفاته المقدسة وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله وأوليائه وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالمهتدون اهتدوا به فأفلحوا وسعدوا، [ص ٧٧٦] ﴿ والذين كفروا بآيات ربهم ﴾ الواضحة القاطعة التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه وتضاعف طغيانه، ﴿ لهم عذاب من رجز أليم ﴾." (١)

"﴿ ١٢-١٣ ﴾ ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .
يخبر تعالى بفضله على عباده وإحسانه إليهم بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره، ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ بأنواع التجارات والمكاسب، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ الله تعالى فإنكم إذا شكرتموه زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجرا جزيلا.
﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه ﴾ أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب والثوابت والسيارات وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمرات وأجناس المعادن وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه ولهذا قال: ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها دال على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة دال على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دال على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧٧٥

التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من **المنافع** والمصالح الدينية والدنيوية دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبا ولا شكا.." (١)

"﴿ ٢٧-٢٨ ﴾ ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى، ورجعوا من غير دخول لمكة، كثر في ذلك الكلام منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال: " أخبرتكم أنه العام؟" قالوا: لا قال: "فإنكم ستأتونه وتطوفون به" قال الله هنا: ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها، ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين ﴾ أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدائكم للنسك، وتكميله بالحلق والتقصير، وعدم الخوف، ﴿ فعلم ﴾ من المصلحة **والمنافع** ﴿ ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك ﴾ الدخول بتلك الصفة ﴿ فتحا قريبا ﴾

ولما كانت هذه الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمتها، فبين تعالى حكمتها ومنفعتها، وهكذا سائر أحكامه الشرعية، فإنها كلها، هدى ورحمة.

أخبر بحكم عام، فقال: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ﴾ الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر.

﴿ ودين الحق ﴾ أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة.

وهو كل عمل صالح مزك للقلوب، مطهر للنفوس، مرب للأخلاق، معل للأقدار.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧٧٦

﴿ ليظهره ﴾ بما بعثه الله به ﴿ على الدين كله ﴾ بالحجة والبرهان، ويكون داعيا لإخضاعهم بالسيف والسنان.." (١)

"﴿ ٦-١١ ﴾ ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ .

لما ذكر تعالى حالة المكذبين، وما ذمهم به، دعاهم إلى النظر في آياته (١) الأفقية، كي يعتبروا، ويستدلوا بها، على ما جعلت أدلة عليه فقال: ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ﴾ أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشد رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿كيف بنيناها ﴾ قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيبا، ولا فروجا، ولا خلالا ولا إخلالا.

قد جعلها الله سقفا لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

﴿ و ﴾ إلى ﴿ الأرض ﴾ كيف ﴿ مددناها ﴾ ووسعناها، حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار (٢) والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال، لتستقر من التزلزل، والتموج، ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ أي: من كل صنف من أصناف النبات، التي تسر ناظرها، وتعجب مبصرها، وتقر عين رامقها، لأكل بني آدم، وأكل بهائمهم ومنافعهم، وخص من تلك **المنافع** بالذكر، الجنات المشتملة على الفواكه اللذيذة، من العنب والرمان والأترج والتفاح، وغير ذلك، من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات، أي: الطوال، التي يطول (٣) نفعها، وترتفع إلى السماء، حتى تبلغ مبلغا، لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد، في قنوانها، ما هو رزق للعباد، قوتا وأدما وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواشيهم وكذلك ما يخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار، التي على وجه الأرض، والتي تحتها من حب الحصيد، أي: من الزرع المحصود، من بر وشعير، وذرة، وأرز، ودخن وغيره.

فإن في النظر في هذه الأشياء ﴿ تبصرة ﴾ يتبصر بها، من عمى الجهل، ﴿ وذكرى ﴾ يتذكر بها، ما ينفع في الدين والدنيا، ويتذكر بها ما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد، بل ﴿ لكل عبد منيب ﴾ إلى الله أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء، وإجابة داعيه، وأما المكذب والمعرض، فما

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧٩٥

تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا، أن ما فيها من الخلق الباهر، والشدة والقوة، دليل على كمال قدرة الله تعالى، وما فيها من الحسن والإتقان، وبديع الصنعة، وبديع الخلقة (٤) دليل على أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، دليل على رحمة الله، التي وسعت كل شيء، وجوده، الذي عم كل حي، وما فيها من عظم الخلقة، وبديع النظام، دليل على أن الله تعالى، هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له كفوا أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة، والذل [والحب] إلا له تعالى.

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الله الموتى، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿ وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾

ولما ذكرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية، خوفهم أخذات الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب، فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين، فقال:

---

(١) كذا في ب: وفي أ: آيات الله.

(٢) كذا في ب، وفي أ: القرار.

(٣) كذا في ب، وفي أ: التي يستمر نفعها، ويطول حتى تبلغ مبلغا لا يبلغ إليه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وعجيب الخلقة.." [١]

"﴿ ١-٦ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا * فالمقسمات أمرا * إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع ﴾ .

هذا قسم من الله الصادق في قيله، بهذه المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع، ما جعل على أن وعده صدق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال، لواقع لا محالة، ما له من دافع، فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلم يكذب به المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون.

والمراد بالذاريات: هي الرياح التي تذروا، في هبوبها ﴿ ذروا ﴾ بلينها، ولطفها، وقوتها، وإزعاجها. ﴿ فالحاملات وقرا ﴾ السحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به البلاد والعباد.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٠٤

﴿ فالجاريات يسرا ﴾ النجوم، التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتتزين بها السماوات، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وينتفع بالاعتبار بها.

﴿ فالمقسمات أمرا ﴾ الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله، فكل منهم، قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدى ما قدر له وما حد ورسم، ولا ينقص منه.." (١)

"﴿ ٤٧-٥١ ﴾ ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون * ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون * ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين ﴾ .

يقول تعالى مبينا لقدرته العظيمة: ﴿ والسماء بنيناها ﴾ أي: خلقناها وأتقناها، وجعلناها سقفا للأرض وما عليها.

﴿ بأيد ﴾ أي: بقوة وقدرة عظيمة [ص ٨١٢] ﴿ وإنا لموسعون ﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون [أيضا] على عبادنا، بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق، ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها.

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات.

﴿ والأرض فرشناها ﴾ أي: جعلناها فراشا للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن، وغراس، وزرع، وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم، ولما كان الفراش، قد يكون صالحا للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد، على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك فقال: ﴿ فنعم الماهدون ﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته [حكمته] ورحمته وإحسانه.

﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ [أي: صنفين]، ذكر وأنثى، من كل نوع من أنواع الحيوانات، ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ [لنعم الله التي أنعم بها عليكم] (١) في تقدير ذلك، وحكمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من **المنافع**.

فلما دعا العباد النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهرا وباطنا، إلى ما يحبه، ظاهرا وباطنا، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، و من الغفلة إلى ذكر الله فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٠٨

الدين كله وقد زال عنه المرهوب، وحصل له، نهاية المراد (٢) والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه، فرارا، لأن في الرجوع لغيره، أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه، أنواع المحاب والأمن، [والسرور] والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره، إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلى الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه، يكون الفرار إليه، ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ أي: منذر لكم من عذاب الله، ومخوف بين النذارة.

﴿ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ﴾ هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله، من الأوثان، والأنداد والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف، والرجاء والدعاء، والإنابة.

---

(١) كذا في ب، وفي أ: نعمة الله عليكم.

(٢) في ب: غاية المراد.." [١]

"﴿ ٣١-٣٢ ﴾ ﴿ ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم [عنه]، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ليجزي الذين أساؤوا العمل السيئات من الكفر فما دونه بما عملوا من أعمال الشر بالعقوبة البليغة (١) .

﴿ ويجزي الذين أحسنوا ﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله، بأنواع **المنافع** ﴿ بالحسنى ﴾ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم، والفوز بنعيم الجنة (٢) .

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ﴾ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، ﴿ إلا اللمم ﴾ وهي الذنوب الصغار، التي لا يصر صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد، المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجا للعبد من

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨١١

أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ فلولا مغفرته لهلكت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر" [وقوله:] ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض (٣) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف موجود مشاهد منكم حين أنشاكم (٤) الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجودا فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه، ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني، أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصا إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآنات، وفراره من الذنوب التي يتمقت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين (٥) أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريبا وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيبا، ولهذا قال تعالى: ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ أي: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح (٦) .

---

(١) في ب: الفظيعة.

(٢) في ب: والفوز بالجنة وما فيها من النعيم.

(٣) في ب: إلى فعل.

(٤) في ب: حين أخرجكم.

(٥) في ب: وأجود الأجودين.

(٦) كذا في ب، وفي أ: تطهرونها، وتخبرون الناس بذلك على وجه التمدح.." [١]

"﴿ ١٤-١٦ ﴾ ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجان من مارج من نار * فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٢١

وهذا من نعمه تعالى على عباده، حيث أراهم [من] آثار قدرته وبديع صنعته، أن ﴿ خلق ﴾ أبا الإنس وهو آدم عليه السلام ﴿ من صلصال كالفخار ﴾ أي: من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن، حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ على النار (١) .

﴿ وخلق الجان ﴾ أي: أبا الجن، وهو إبليس اللعين (٢) ﴿ من مارج من نار ﴾ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان، وهذا يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزانة والثقل **والمنافع**، بخلاف عنصر الجان وهو النار، التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد.

ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك (٣) وكان ذلك منة منه [تعالى] [ص ٨٣٠] عىى عباده (٤) قال: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾

---

(١) في ب: وهو الطين المشوي.

(٢) في ب: لعنه الله.

(٣) كذا في ب، وفي أ: مادة الثقلين.

(٤) في ب: عليهم.." [1]

"﴿ ٦٦ ﴾ ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ . أي: فوارتان.

﴿ فيهما فاكهة ﴾ من جميع أصناف الفواكه، وأخصها النخل والرمان، اللذان فيهما من **المنافع** ما فيهما.

﴿ فيهن ﴾ أي: في الجنات كلها ﴿ خيرات حسان ﴾ أي: خيرات [ص ٨٣٢] الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن، وحسن الخلق والخلق.

﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبنات الملوك ونحوهن [المخدرات] الخفرات.

﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان متكئين على رفرف خضر ﴾ أي: أصحاب هاتين الجنتين، متكأهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي فوق (١) المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم، لزيادة البهاء وحسن المنظر، ﴿ وعبقري حسان ﴾

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٢٩

العبقري: نسبة لكل منسوج نسجا حسنا فاخرا، ولهذا وصفها بالحسن الشامل، لحسن الصنعة وحسن المنظر، ونعومة الملمس، وهاتان الجنتان دون الجنتين الأوليين، كما نص الله على ذلك بقوله: ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف بها الأخريين، فقال في الأوليين: ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ وفي الأخريين: ﴿ عينان نضاختان ﴾ ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاخة.

وقال في الأوليين: ﴿ ذواتا أفنان ﴾ ولم يقل ذلك في الأخريين. وقال في الأوليين: ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ وفي الأخريين ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت.

وقال في الأوليين: ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان ﴾ ولم يقل ذلك في الأخيرتين، بل قال: ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾

وقال في الأوليين، في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ وقال في الأخريين: ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ وقد علم التفاوت بين ذلك.

وقال في الأوليين (٢) ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخريين.

ومجرد تقديم الأوليين على الأخريين، يدل على فضلهما.

فبهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين على الأخريين، وأنهما معدتان للمقربين من الأنبياء، والصديقين، وخواص عباد الله الصالحين، وأن الأخريين معدتان لعموم المؤمنين، وفي كل من الجنات [المذكورات] ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إن كلا (٣) منهم لا يرى أحدا أحسن حالا منه، ولا أعلى من نعيمه [الذي هو فيه].

ولما ذكر سعة فضله وإحسانه، قال: ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ أي: تعاظم وكثر خيره، الذي له الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمن، ولله الحمد والشكر والثناء الحسن.

---

(١) في ب: تحت.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الأخيرتين ويبدو أنه سبق قلم.

(٣) في ب: كل واحد منهم.." [١]

"ورغبهم أيضا، بخير الدنيا العاجل، فقال: ﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ أي: مطرا متتابعا، يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد.

﴿ ويمددكم بأموال وبنين ﴾ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم، ﴿ ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها.

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا ﴾ أي: لا تخافون لله عظمة، وليس لله عندكم قدر.

﴿ وقد خلقكم أطوارا ﴾ أي: خلقا [من] بعد خلق، في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التمييز، ثم الشباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق (١) ، فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم.

واستدل أيضا عليهم بخلق السماوات التي هي أكبر من خلق الناس، فقال: ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ﴾ أي: كل سماء فوق الأخرى.

﴿ وجعل القمر فيهن نورا ﴾ لأهل الأرض ﴿ وجعل الشمس سراجا ﴾ .

ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر الدالة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم، يستحق أن يعظم ويحب ويعبد ويخاف ويرجى.

﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ﴾ حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه.

﴿ ثم يعيدكم فيها ﴾ عند الموت ﴿ ويخرجكم إخراجا ﴾ للبعث والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور.

﴿ والله جعل لكم الأرض بساطا ﴾ أي: مبسوطة مهيأة للانتفاع بها.

﴿ لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ فلولا أنه بسطها، لما أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها، والبناء، والسكون على ظهرها.

﴿ قال نوح ﴾ شاكيا لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيهم ولا أفاد.

﴿ إنهم عصوني ﴾ فيما أمرتهم به ﴿ واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ﴾ أي: عصوا الرسول الناصح

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٣١

الدال على الخير، واتبعوا الملأ والأشراف الذين لم تزدهم أموالهم ولا أولادهم إلا خسارا أي: هلاكا وتفويتا للأرباح فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم؟!

﴿ ومكروا مكرا كبارا ﴾ أي: مكرا كبيرا بليغا في معاندة الحق.

﴿ وقالوا ﴾ لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿ لا تذرن آلهتكم ﴾ فدعوهم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ثم عينوا آلهتهم فقالوا: ﴿ ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ وهذه أسماء رجال صالحين لما ماتوا زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم لينشطوا -بزعمهم- على الطاعة إذا رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، ولهذا أوصى رؤساؤهم للتابعين لهم أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة (٢) .

﴿ وقد أضلوا كثيرا ﴾ أي: وقد أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيرا من الخلق، ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم بحق، لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالا أي: فلم يبق محل لنجاحهم ولا لصلاحهم، ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا ﴾ في اليم الذي أحاط بهم ﴿ فأدخلوا نارا ﴾ فذهبت أجسادهم في الغرق وأرواحهم للنار والحرق، وهذا كله بسبب خطيئاتهم، التي أتاهم نبيهم نوح ينذرهم عنها، ويخبرهم بشؤمها ومغبتها، فرفضوا ما قال، حتى حل بهم النكال، ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾ ينصرونهم حين نزل بهم الأمر الأمر، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر.

﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ يدور على وجه الأرض، وذكر السبب في ذلك فقال: ﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ أي: بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم، وإنما قال نوح -عليه السلام- ذلك، لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، علم بذلك نتيجة أعمالهم، لا جرم أن الله استجاب دعوته (٣) ، فأغرقهم أجمعين ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين.

[ص ٨٩٠]

﴿ رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا ﴾ خص المذكورين لتأكد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء، فقال: ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾ أي: خسارا ودمارا وهلاكا.

تم تفسير سورة نوح عليه السلام [والحمد لله]

---

(١) في ب: ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق.

(٢) في ب: هذه الأصنام.

(٣) في ب: فلهذا استجاب الله له دعوته.." [1]

"﴿ ٦ - ١٦ ﴾ ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا * وخلقناكم أزواجا * وجعلنا نومكم سباتا * وجعلنا الليل لباسا * وجعلنا النهار معاشا * وبنينا فوقكم سبعا شدادا * وجعلنا سراجا وهاجا * وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا * لنخرج به حبا ونباتا * وجنات ألفافا ﴾

أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جليلة، فجعلنا لكم ﴿ الأرض مهادا ﴾ أي: ممهدة مهيأة (١) لكم ولمصالحكم، من الحروث والمساكن والسبل.

﴿ والجبال أوتادا ﴾ تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد.

﴿ وخلقناكم أزواجا ﴾ أي: ذكورا وإناثا من جنس واحد، ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون (٢) المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية، وفي ضمن هذا الامتنان، بلذة المنكح.

﴿ وجعلنا نومكم سباتا ﴾ أي: راحة لكم، وقطعا لأشغالكم، التي متى تمادت بكم أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس لتنقطع (٣) حركاتهم الضارة، وتحصل راحتهم النافعة.

﴿ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ﴾ أي: سبع سموات، في غاية القوة، والصلابة والشدة، وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفا للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس فقال: ﴿ وجعلنا سراجا وهاجا ﴾ نبه بالسراج على النعمة بنورها، الذي صار كالضرورة للخلق، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على حرارتها وما فيها من المصالح (٤) .

﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ أي: السحاب ﴿ ماء ثجاجا ﴾ أي: كثيرا جدا.

﴿ لنخرج به حبا ﴾ من بر وشعير وذرة وأرز، وغير ذلك مما يأكله الآدميون.

﴿ ونباتا ﴾ يشمل سائر النبات، الذي جعله الله قوتا لمواشيهم.

﴿ وجنات ألفافا ﴾ أي: بساتين ملتفة، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة.

---

(١) في ب: مذللة.

(٢) في ب: فتتكون.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٨٩

(٣) في ب: لتسكن.

(٤) في ب: الذي صار ضرورة للخلق، وبالوهاج وهي: حرارتها على ما فيها من الإنضاج **والمنافع**." [١]

"﴿ ١٧ - ٢٦ ﴾ ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت * فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر * إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم ﴾ .

يقول تعالى حثا للذين لا يصدقون الرسول صلى الله عليه وسلم، ولغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيده: ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ أي: [ألا] ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد، وذللها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ بهيئة باهرة، حصل بها استقرار الأرض (١) وثباتها عن الاضطراب، وأودع فيها من **المنافع** [الجليلة] ما أودع.

﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ أي: مدت مدا واسعا، وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلائق (٢) على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والبنيان فيها، وسلوك الطرق الموصلة (٣) إلى أنواع المقاصد فيها.

واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك [ص ٩٢٣] النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر (٤) الناس، خصوصا في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد، فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدا، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر.

وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة (٥) ، فيكون كرويا مسطحا، ولا يتنافى الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾ أي: ذكر الناس وعظهم، وأنذرهم وبشرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطرا عليهم، مسلطا موكلا بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى: ﴿ وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ .

وقوله: ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ أي: الشديد الدائم، ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ أي: رجوع الخليقة (٦) وجمعهم في يوم القيامة.

﴿ ثم إن علينا حسابهم ﴾ فنحاسبهم على ما عملوا من خير وشر.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩٠٦

آخر تفسير سورة الغاشية، والحمد لله رب العالمين

---

(١) في ب: الاستقرار للأرض.

(٢) في ب: العباد.

(٣) في ب: طرقها.

(٤) في ب: كثير.

(٥) في ب: الذي هو كبير جدا واسع.

(٦) في ب: الخلائق.." [١]

"﴿ ١ - ٢٠ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد * ووالد وما ولد * لقد خلقنا الإنسان في كبد * أيحسب أن لن يقدر عليه أحد * يقول أهلكت مالا لبدا * أيحسب أن لم يره أحد * ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين * وهديناه النجدين * فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيما ذا مقربة * أو مسكينا ذا متربة * ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة * أولئك أصحاب الميمنة * والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نار مؤصدة ﴾ .

يقسم تعالى ﴿ بهذا البلد ﴾ [ص ٩٢٥] الأمين، الذي هو مكة المكرمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصا وقت حلول الرسول صلى الله عليه وسلم فيها، ﴿ ووالد وما ولد ﴾ أي: آدم وذريته.

والمقسم عليه قوله: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم.

وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد.

ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، وأقوم خلقة، مقدر (١) على التصرف والأعمال الشديدة، ومع ذلك، [فإنه] لم يشكر الله على هذه النعمة [العظيمة]، بل بطر بالعافية وتجبر على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينعزل، ولهذا قال تعالى: ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه. ف ﴿ يقول أهلكت مالا

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٩٢

لبدا ﴾ أي: كثيرا، بعضه فوق بعض.

وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكا، لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله، وربح أضعاف أضعاف ما أنفق.

قال الله متوعدا هذا الذي يفتخر بما أنفق في الشهوات: ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ أي: أيحسب (٢) في فعله هذا، أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟

بل قد رآه الله، وحفظ عليه أعماله، ووكل به الكرام الكاتبين، لكل ما عمله من خير وشر.

ثم قرره بنعمه، فقال: ﴿ ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين ﴾ للجمال والبصر والنطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا، ثم قال في نعم الدين: ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أي: طريقي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي.

فهذه المنن الجزيلة، تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكر الله على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصيه (٣) ، ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك.

﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ أي: لم يقتحمها ويعبر عليها، لأنه متبع لشهواته (٤) .

وهذه العقبة شديدة عليه، ثم فسر [هذه] العقبة ﴿ فك رقبة ﴾ أي: فكها من الرق، بعتقها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار.

﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴾ أي: مجاعة شديدة، بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة.

﴿ يتيما ذا مقربة ﴾ أي: جامعا بين كونه يتيما، فقيرا ذا قرابة.

﴿ أو مسكينا ذا متربة ﴾ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة.

﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ (٥) أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم. من كل قول (٦) وفعل واجب أو مستحب. ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقدار الله المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضا على الانقياد لذلك، والإتيان به كاملا منشرحا به الصدر، مطمئنة به النفس.

﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾ للخلق، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة ﴿ أولئك أصحاب الميمنة

﴾ لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها. ﴿ والذين كفروا بآياتنا ﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، [ولا آمنوا به]، ولا عملوا صالحا، ولا رحموا عباد الله، ﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة عليهم نار مؤصدة ﴾ أي: مغلقة، في عمد ممددة، [ص ٩٢٦] قد مدت من ورائها، لئلا تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة [والحمد لله].

---

(١) في ب: يقدر.

(٢) في ب: أيظن.

(٣) في ب: على معاصي الله.

(٤) في ب: لهواه.

(٥) سبق قلم الشيخ فزاد في الآية "وعملوا الصالحات" فحذفت الزيادة في الآية وأبقيت التفسير.

(٦) في ب: فدخل في هذا كل قول.." [1]

"الحكمة والقوام فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

والإسراف والتبذير، مجاوزة الحد في الإنفاق. والتقتير والبخل عكسه: التقصير في النفقات الواجبة.

المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعا وعقلا والمنكر عكسه.

الاستقامة: لزوم طاعة الله، وطاعة رسوله على الدوام.

مرض القلب هو: اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأمور المحرمة.

النفاق: إظهار الخير، وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادي والنفاق العملي.

القرآن، كله محكم، وأحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق، وأحكامه في غاية الحسن. وكله متشابه، من جهة اتفاقه في البلاغة والحسن، وتصديق بعضه لبعض وكمال اتفاقه. ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابهه ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني. ومحكمه، واضح مبين صريح في معناه، إذا رد إليه المتشابه، اتفق الجميع، واستقامت معانيه.

معية الله التي ذكرها في كتابه، نوعان:

معية العلم والإحاطة، وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩٢٤

ومعية خاصة، وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة، واللطف، والتأييد.
الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله.
ودعاء المسألة، وهو: سؤال الله جلب **المنافع**، ودفع المضار.
الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والمآكل، والمشارب والمكاسب. والخبيث ضد ذلك.
وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار كقوله تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ (١)
النفقة، تشمل النفقة الواجبة: كالزكاة، والكفارة، ونفقة النفس، والعائلة، والمماليك، والنفقة المستحبة: كالنفقة في جميع طرق الخير.
التوكل على الله والاستعانة به، قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة.
وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع الثقة به في حصول ذلك.
العقل الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المنتفعون بالآيات. هو: الذي يفهم، ويعقل الحقائق النافعة، ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: حجر، ولب، ونهى، لأنه يحجر صاحبه وينهاه عما يضره.
العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي تهدي إليها.
والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل.
لفظ "الأمة" في القرآن على أربعة أوجه: يراد به "الطائفة من الناس" وهو الغالب. ويراد به "المدة"،

---

(١) لم يتم الشيخ – رحمه الله – الآية، وبتمامها يتضح مراده، وتمامها قوله تعالى: (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد).." [1]

"والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين، على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.
"الحكم، العدل" الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه. فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمل

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩٤٤

أحدا وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾

"جامع الناس" ليوم لا ريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم، فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين، بكمال قدرته، وسعة علمه.

"الحي القيوم" كامل الحياة والقائم بنفسه. القيوم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم، وجميع أحوالهم، فـ "الحي": الجامع لصفات الذات، و"القيوم" الجامع لصفات الأفعال.

"النور" نور السموات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونور أفئدتهم بهدايته، وهو الذي أنار السموات والأرض بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

"بديع السموات والأرض" أي: خالقهما ومبدعهما، في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

"القابض الباسط" يقبض الأرزاق والأرواح، ويبسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

"المعطي، المانع"، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فجميع المصالح والمنافع منه تطلب، وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء بحكمته ورحمته.

"الشهيد" أي: المطلع على جميع الأشياء. سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه.

"المبدئ، المعيد" قال تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ ابتدأ خلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملا ثم يعيدهم ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي المسيئين بإساءتهم. وكذلك هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئا فشيئا، ثم يعيدها كل وقت.

"الفعال لما يريد" وهذا من كمال قوته ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريده يفعله بلا ممانع ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين، على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئا قال له "كن فيكون". ومع أنه الفعال لما يريد، فإرادته تابعة لحكمته وحمده، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة، لكل ما فعله ويفعله.

"الغني، المغني" فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيا، لأن غناه من لوازم ذاته، كما

لا يكون إلا خالقا، قادرا، رازقا، محسنا، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني، الذي بيده خزائن السموات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة. المغني جميع خلقه غنى عاما، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

"الحليم" الذي يدر على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعتبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

"الشاكر، الشكور" الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة،." [١]

"تقرب الله منه أكثر.

"القريب، المجيب" أي: هو تعالى القريب من كل أحد، وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد، بعلمه، وخبرته، ومراقبته، ومشاهدته، وإحاطته. وقرب خاص، من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو قرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره، من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسديده. ومن آثاره الإجابة للداعين، والإنابة (١) للعابدين، فهو المجيب إجابة عامة للداعين مهما كانوا، وأين كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشرعه، وهو المجيب أيضا للمضطرين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين وقوي تعلقهم به طمعا ورجاء وخوفا.

"الكافي" عباده جميع ما يحتاجون ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

"الأول، والآخر، والظاهر، والباطن".

قد فسرها النبي صلى الله عليه وسلم تفسيرا جامعا واضحا، فقال: "أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء".

"الواسع" الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه. واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم.

"الهادي، الرشيد" أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع **المنافع**، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منيبة إليه منقادة لأمره.

وللرشيد معنى بمعنى الحكيم، فهو الرشيد في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير ورشد وحكمة، ومخلوقاته

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩٤٨

مشتملة على الرشد.

"الحق" في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به. فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفا، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفا.

فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق. ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى ربه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه، ومشايخه، وأحبابه، وجميع المسلمين آمين.

---

(١) كذا في الأصل ولعلها: (الإثابة) والله أعلم.'." (١)

"فتعين عند ذلك على الناس كلهم اتباع ملة إبراهيم، من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة.

فإن إبراهيم كان معرضا عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئا من الشرك وأهله.

﴿٩٦-٩٧﴾ ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات، وأنواع الهدايات، وتنوع المصالح والمنافع للعالمين شيء كثير، وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات، تذكر بمقامات إبراهيم الخليل، وتنقلاته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم. وفيه الأمن (١) الذي من دخله كان آمنا قدرا، مؤمنا شرعا ودينا.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩٤٩

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها، وتكثر تفصيلاتها أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلا، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه، وزاد يتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة، والتي ستحدث.

وهذا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها، فمن أذعن لذلك وقام به فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر فلم يلتزم حج بيته، فهو خارج عن الدين، ومن كفر، فإن الله غني عن العالمين.

﴿٩٨-٩٩﴾ ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون * قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴾ لما أقام فيما تقدم الحجج على أهل الكتاب- مع أنهم قبل ذلك يعرفون النبي -صلى الله عليه وسلم- كما يعرفون أبناءهم- وبخ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله، وصدهم الخلق عن سبيل الله، لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿١٠٠-١٠١﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ لما أقام الحجج على أهل الكتاب، ووبخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم، حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان.

ولكن- ولله الحمد- أنتم- يا معشر المؤمنين- بعدما من الله عليكم بالدين، ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله الذي هو دينه، يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس المشرقة الأنوار، تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية، وأفضل مطلوب.

﴿ ومن يعتصم بالله ﴾ أي: يتوكل عليه، ويحتمي بحماه، ﴿ فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

﴿١٠٢-١٠٥﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون * ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا

واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة، بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته، وترك معصيته، مخلصين له بذلك، وأن يقيموا دينهم، ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه، وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة، وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين، فجمعهم بهذا الدين، وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخوانا، وكانوا على شفا حفرة من النار، فأنقذهم من الشقاء، ونهج بهم طريق السعادة.

﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ إلى شكر الله والتمسك بحبله، وأمرهم بتتميم هذه الحالة، والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم، بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية.

﴿ يدعون إلى الخير ﴾ وهو الدين، أصوله، وفروعه وشرائعه.

﴿ ويأمرون بالمعروف ﴾ وهو ما عرف حسنه شرعا وعقلا.

﴿ وينهون عن المنكر ﴾ وهو ما عرف قبحه شرعا وعقلا.

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ المدركون لكل مطلوب، الناجون من كل مرهوب.

ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس، عموما وخصوصا، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة، فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين، الذين جاءهم الدين والبينات، الموجب لقيامهم به، واجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعا، ولم يصدر ذلك عن جهل

---

(١) مراد المؤلف– رحمه الله– في أي من الحرم: الأمن وقد غيرت الكلمة في المطبوع إلى: وفيه الحرم الذي من دخله .." (١)

"﴿مما عملت أيدينآ أنعاما فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشاربا أفلا يشكرون * واتخذوا من دون الله ءالهة لعلهم ينصرون * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩٧١

جند محضرون * فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون * أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقها قال من يحى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأهآ أول مرةا وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فإذآ أنتم منه توقدون * أوليس الذى خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهما بلى وهو الخلاق العليم﴾ .

الإخبار وتنبيه الاستفهام لقريش ، وإعراضها عن عبادة الله ، وعكوفها على عبادة الأصنام. ولما كانت الأشياء المصنوعة لا يباشرها البشر إلا باليد ، عبر لهم بما يقرب من أفهامهم بقوله : ﴿مما عملت أيدينآ﴾ : أي مما تولينا ع؛له ، ولا يمكن لغيرنا أن يعمله. فبقدرتنا وإرداتنا برزت هذه الأشياء ، لم يشركنا فيها أحد ، والباري تعالى منزه عن اليد التى هي الجارحة ، وعن كل ما اقتضى التشبيه بالمحدثات. وذكر الأنعام لها لأنها كانت جل أموالهم ، ونبه على ما يجعل لهم من منافعها. ﴿لها مالكون﴾ : أي ملكناها إياهم ، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك ، مختصون بالانتفاع بها ، أو ﴿مآ﴾ : ضابطون لها قاهرونها ، من قوله :

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢١

أصبحت لا أحمل السلاح ولاأملك رأس البعير إن نفرا

أي : لا أضبطه ، وهو من جملة النعم الظاهرة. فلو لا تذليله تعالى إياها وتسخيره ، لم يقدر عليها. ألا ترى إلى ما ندمنها لا يكاد يقدر على ردة ؟ لذلك أمر بتسبيح الله راكبها ، وشكره على هذه النعمة بقوله بقوله : ﴿سبحان الذى سخر لنا هذا وما﴾ . وقرأ الجمهور : ﴿لهم فمنها ركوبهم﴾ ، وهو فعول بمعنى مفعول ، كالحضور والحلوب والقذوع . وهو مما لا ينقاس. وقرأ أبي ، وعائشة : ركوبتهم بالتاء ، وهي فعولة بمعنى مفعولة. وقال الزمخشري : وقيل الركوبة جمع. انتهى ، ويعني اسم جمع ، لأن فعولة بفتح الفاء ليس بجمع تكسير. وقد عد بعض أصحابنا أبنية أسماء الجموع ، فلم يذكر فيها فعولة ، فينبغي أن يعتقد فيها أنها اسم مفرد لاجمع تكسير ولا اسم جمع ، أي مركوبتهم كالحلوبة بمعنى المحلوبة. وقرأ الحسن ، وأبو البرهسم ، والأعمش : ركوبهم ، بضم الراء وبغير تاء ، وهو مصدر حذف مضافة ، أي ذو ركوبهم ، أو فحسن منافعها ركوبهم ، فيحذف ذو ، أو يحذف منافع. قال ابن خالويه : العرب تقول : ناقة ركوب حلوب ، وركوبة حلوبة ، وركباة حلباة ، وركبوب حلبوب ، وركبي حلبي ، وركبوتا حلبوتا ، كل ذلك محكي ، وأنشد :

ركبانة حلبانة زفوفتخلط بين وبر وصوف

وأجمل المنافع هنا ، وفضلها في قوله : ﴿وجعل لكم من جلود﴾ الآية. والمشارب : جمع مشرب ، وهو إما مصدر ، أي شرب ، أو موضع الشرب. ثم عنفهم واستجهلهم في اتخاذهم آلهة لطلب الاستنصار.

﴿والولدان لا يستطيعون﴾ : أي الآلهة ، نصر متخذيهم ، وهذا هو الظاهر. لما اتخذوهم آلهة للاستنصار بهم ، رد تعالى عليهم بأنهم ليس لهم قدرة على نصرهم. وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿يستطيعون﴾ عائد للكفار ، وفي ﴿نصرهم﴾ للأصنام. انتهى. والظاهر أن الضمير في وهم عائد على ما هو الظاهر في ﴿لا يستطيعون﴾ ، أي والآلهة للكفار جند محضرون في الآخرة عند الحساب على جهة التوبيخ والنقمة. وسماهم جندا ، إذ هم معدون للنقمة من عابديهم وللتوبيخ ، أو محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقودا للنار. قيل : ويجوز أن يكون الضمير في وهم عائدا على الكفار ، وفي لهم عائدا على الأصنام ، أي وهم الأصنام جند محضرون متعصبون لهم متحيرون ، يذبون عنهم ، يعني في الدنيا ، ومع ذلك لا يستطيعون ، أي الكفار التناصر. وهذا القول مركب على أن الضمير في لا يستطيعون للكفار. ثم آنس تعالى نبيه بقوله : ﴿فلا يحزنك قولهم﴾ : أي لا يهمك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم ، وتوعد الكفار بقوله : ﴿إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ ، فنجازيهم على ذلك.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢١

﴿أولم ير الانسان﴾ : قبح تعالى إنكار الكفرة البعث ، حيث قرر أن عنصره الذي خلق منه هو نطفة ماء مهين خارج من مخرج النجاسة. أفضى به مهانة أصلة إلى أن يخاصم الباري تعالى ويقول : من يحيى الميت بعدما رم ؟ مع علمه أنه منشأ من موات. وقائل ذلك

٣٤٧

." (١)

"أمر تعالى نبيه بالصبر تأنيسا له ، وإلافهو ، عليه السلام ، في غاية الصبر ، وأخبر بأن ما وعده من النصر والظفر وإعلاء كلمته وإظهار دينه حق. قيل : وجواب ﴿فإما نرينك﴾ محذوف لدلالة المعنى عليه ، أي فيقر عينك ، ولا يصح أن يكون ﴿فإلينا يرجعون﴾ جوابا للمعطوف عليه والمعطوف ، لأن تركيب ﴿فإما نرينك﴾ بعض الموعود في حياتك ، ﴿فإلينا يرجعون﴾ ليس بظاهر ، وهو يصح أن يكون جواب ، ﴿أو نتوفينك﴾ : أي ﴿فإلينا يرجعون﴾ ، فننتقم منهم ونعذبهم لكونهم لم يتبعوك. ونظير هذه الآية قوله : ﴿فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون * أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾ ،

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٤٤٤

إلا أنه هنا صرح بجواب الشرطين. وقال الزمخشري : ﴿فإلينا يرجعون﴾ متعلق بقوله : ﴿نتوفينك﴾ ، وجزاء

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، /

﴿نرينك﴾ محذوف تقديره : فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب ، وهو القتل يوم بدر فذاك ، أو أن نتوفينك قبل يوم بدر ، فإلينا يرجعون يوم القيامة ، فننتقم منهم أشد الانتقام. وقد تقدم للزمخشري نحو هذا البحث في سورة يونس في قوله : ﴿وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم﴾ ، ورددنا عليه ، فيطالع هناك. وقال الزمخشري أيضا : ﴿فإما نرينك﴾ أصله فإن نرك ، وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، ولذلك ألحقت النون بالفعل. ألا تراك لا تقول : إن تكرمني أكرمك ، ولكن أما تكرمني أكرمك ؟ انتهى. وما ذهب إليه من تلازم ما لمزيده ، ونون التوكيد بعد أن الشرطية هو مذهب المبرد والزجاج. وذهب سيبويه إلى أنك إن شئت أتيت بما دون النون ، وإن شئت أتيت بالنون دون ما. قال سيبويه في هذه المسألة : وإن شئت لم تقحم النون ؛ كما أنك إذا جئت لم تجىء بما ، يعني لم تقحم النون مع مجيئك بما ، ولم تجىء بما مع مجيئك بالنون. وقرأ الجمهور : يرجعون بياء الغيبة مبنيا للمفعول ؛ وأبو عبد الرحمن ، ويعقوب : بفتح الياء ؛ وطلحة بن مطرف ، ويعقوب في رواية الوليد بن حسان : بفتح تاء الخطاب.

ثم رد تعالى على العرب في إنكارهم بعثة الرسل ، وفي عدد الرسل اختلاف. روي أنه ثمانية آلاف من بني إسرائيل ، وأربعة آلاف من غيرهم. وروي : بعث الله أربعة آلاف نبي ، ﴿منهم من قصصنا عليك﴾ : أي من أخبرناك به ، أما في القرآن فثمانية عشر. ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ ،

٤٧٧

وعن علي ، وابن عباس : أن الله بعث نبيا أسود في الحبش ، فهو ممن لم يقصص عليه. ﴿وما كان لرسول أن يأتى بـاية إلا بإذن الله﴾ : أي ليس ذلك راجعا إليهم ، لما اقترحوا على الرسل قال : ليس ذلك إلى لا تأتي آية إلا إن شاء الله ، ﴿فإذا جآء أمر الله﴾ : رد ووعيد بإثر اقتراحهم الآيات ، وأمر الله : لقيامة. والمبطلون : المعاندون مقترحون الآيات ، وقد أتتهم الآيات ، فأنكروها وسموها سحرا ، أو ﴿فإذا جآء أمر الله﴾ : أي أراد إرسال رسول وبعثة نبي ، قضي ذلك و أنفذه ﴿بالحق﴾ ، وخسر كل مبطل ، وحصل على فساد آخرته ، أو ﴿فإذا جآء أمر الله﴾ : وهو القتل ببدر.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٤٤٤

ثم ذكر تعالى آيات اعتبار وتعداد نعم فقال : ﴿الله الذى جعل لكم الانعام﴾ ، وهي ثمانية الأزواج ، ويضعف قول من أدرج فيها الخيل والبغال والحمير وغير ذلك مما ينتفع به من البهائم ، وقول من خصها بالإبل وهو الزجاج. ﴿لتركبوا منها﴾ : وهي الإبل ، إذ لم يعهد ركوب غيرها. ﴿ومنها تأكلون﴾ : عام في ثمانية الأزواج ، ومن الأولى للتبعيض. وقال ابن عطية : ومن الثانية لبيان الجنس ، لأن الجمل منها يؤكل.

انتهى ، ولا يظهر كونها لبيان الجنس ، ويجوز أن تكون فيه للتبعيض ولابتداء الغاية. ولما كان الركوب منها هو أعظم منفعة ، إذ فيه منفعة الأكل والركوب. وذكر إيضا أن في الجميع منافع من شرب لبن واتخاذ دثار وغير ذلك ، أكد منفعة الركوب بقوله : ﴿ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم﴾ من بلوغ الأسفار الطويلة ، وحمل الأثقال إلى البلاد الشاسعة ، وقضاء فريضة الحج ، والغزو ، وما أشبه ذلك من **المنافع** الدينية والدنيوية. ولما كان الركوب وبلوغ الحاجة المترتبة عليه قد يتوصل به إلى الانتقال لأمر واجب ، أو مندوب كالحج وطلب العلم ، دخل حرف التعليل على الركوب وعلى المترتب عليه من بلوغ الحاجات ، فجعل ذلك علة لجعل الأنعام لنا. ولما كان الأكل وإصابة **المنافع** من جنس المباحات ، لم يجعل ذلك علة في الجعل ، بل ذكر أن منها نأكل ، ولنا فيها منافع من شرب لبن واتخاذ دثار وغير ذلك ، كما أدخل لام التعليل في لتركبوها ، ولم يدخلها على الزينة في قوله : ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ . ". (١)

"أي : لم يجبه. وروي هذا المعنى عن معاذ ابن جبل وابن عباس. ﴿ويزيدهم من فضلها﴾ : أي على الثواب تفضلا. وفي الحديث : "قبول الشفاعات في المؤمنين والرضوان". وقال خباب بن الارت : نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها ، فنزلت : ﴿ولو بسط الله الرزق لعبادها لبغوا فى الارض﴾ . وقال عمرو بن حريث : طلب قوم من أهل الصفة من الرسول عليه السلام أن يغنيهم الله ويبسط لهم الأموال والأرزاق ، فنزلت. أعلم أن الرزق لو جاء على اقتراح البشر ، لكان سبب بغيهم وإفسادهم ، ولكنه تعالى أعلم بالمصلحة. فرب إنسان لا يصلح ولا يكتفي شره إلا بالفقر ، وآخر بالغنى. وفي هذا المعنى والتقسيم حديث رواه أنس وقال : "اللهم إني من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى ، فلا تفقرني". ولبغوا ، إما من البذخ والكبر ، أي لتكبروا في الأرض ، ففعلوا ما يتبع الكبر مع الغنى. ألا ترى إلى حال قارون ؟ وفي الحديث : "أخوف ما يخاف على أمتي زهرة الدنيا" ، وقال الشاعر :

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٥٠٦

وقد جعلوا الوسمي ينبت بيناوبين بني رومان نبعا وشوحطا

يعني : أنهم أحبوا ، فجذبوا أنفسهم بالبغي والفتن. ﴿ولـاكن ينزل بقدر ما يشآء﴾ ، يقال : قدر بالسكون وبالفتح ، أي : يقدر لهم ما هو أصلح لهم. وقرأ الجمهور : ﴿قنطوا ﴾ ، بفتح النون ؛ والأعمش ، وابن وثاب : بكسرها ، ﴿وينشر رحمتها﴾ : يظهرها من آثار الغيث من **المنافع** والخصب ، والظاهر أن رحمته

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، /

نشرها أعم مما في الغيث. وقال السدي : رحمته : الغيث ، وعدد النعمة بعينها بلفظين. وقيل : الرحمة هنا ظهور الشمس ، لأن إذا دام المطر سئم ، فتجيء الشمس بعده عظمية الموقع ، ذكره المهدوي. ﴿وهو الولى﴾ : الذي يتولى عباده ، ﴿الحميد﴾ : المحمود على ما أسدى من نعمائه وما بث. الظاهر أنه مجرور عطفا على السموات والأرض. ويجوز أن يكون مرفوعا ، عطفا على خلق ، على حذف مضاف ، أي وخلق ما بث. وفيهما يجوز أن يكون مما نسب فيه دابة إلى المجموع المذكور ، وإن كان ملتبسا ببعضه. كما يقال : بنو فلان صنعوا كذا ، وإنما صنعه واحد منهم ، ومنه يخرج منهما ، وإنما يخرج من الملح ، أو يكون من الملائكة. بعض يشمي مع الطيران ، فيوصف بالدبيب كما يوصف به الأناسي ، أو يكون قد خلق السموات حيوانا يمشي مع مشي الإناس على الأرض ، أو يريد الحيوان الذي يكون في السحاب. وقد يقع أحيانا ، كالضفادع والسحاب داخل في اسم السماء.

وقال مجاهد : ﴿وما بث فيهما من دآبة﴾ : هم الناس والملائكة. وقال أبو علي : هو على حذف مضاف ، أي وما بث في أحدهما. وقرأ الجمهور : فيهما بالفاء ، وكذا هي في معظم المصاحف. واحتمل ما أن تكون شرطية ، وهو الأظهر ، وأن تكون موصولة ، والفاء تدخل في خبر الموصول إذا أجري مجرى الشرط بشرائط ذكرت في النحو ، وهي موجودة. وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر في رواية ، وشيبة : بما بغير فاء ، فما موصولة ، ولا يجوز أن تكون شرطية ؛ وحذفت الفاء لأن ذلك مما يخصه سيبويه بالشعر ، وأجازت ذلك الأخفش وبعض نحاة بغداد وذلك على إرادة الفاء. وترتب ما أصاب من المصائب على كسب الأيدي موجود مع الفاء ودونها هنا ، والمصيبة : الرزايا والمصائب في الدنيا ، وهي مجازاة على ذنوب المرء وتمحيص لخطاياه ، وأنه تعالى يعفو عن كثير ، ولا يجازي عليه بمصيبة. وفي الحديث : "لا يصيب ابن آدم خدش عود أو عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو عنه أكثر". وسئل عمران بن حصين عن مرضه فقال ؛ إن أحبه إلي أحبه إلى الله ، وهذا مما كسبت يداي. ورؤي على كف شريح قرحة ، فقيل : بم هذا ؟ فقال : بما كسبت يداي.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٥٠٦

وقال الزمخشري : الآية مخصوصة بالمجرمين ، ولا يمتنع أن يستوفي الله عقاب المجرم ويعفو عن بعض. فأما

٥١٨

من لا جرم له ، كالأنبياء والأطفال والمجانين ، فهو كما إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره ، فللعوض الموفي

والمصلحة وعن علي : هذه أرجى آية للمؤمنين. وقال الحسن : ﴿من مصيبة﴾ : أي حد من حدود الله ، وتلك مصائب تنزل بشخص الإنسان ونفسه ، فإنما هي بكسب أيدكم. الله ﴿ويعفوا عن كثير﴾ ، فيستره على العباد حتى لا يحد عليه. ﴿ومآ أنتم بمعجزين﴾ : أنتم في قبضة القدرة. وقيل : ليست المصائب من الأسقام والقحط والغرق وغير ذلك بعقوبات على الذنوب لقوله : ﴿اليوم تجزى كل نفسا بما كسبت﴾ ، ولاشتراك الصالح والطالح فيهما ، بل أكثر ما يبتلي به الصالحون المتقون. وفي الحديث : "خص بالبلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل". ولأن الدنيا دار التكليف ، فلو حصل الجزاء فيها لكانت دار الجزاء ، وليس الأمر كذلك. وهذا القول يؤخره نصوص القرآن ، كقوله تعالى : ﴿فكلا أخذنا بذنابها فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا﴾ الآية.

." (١)

"وقال ابن عباس : يوم بدر كانت هزيمة عبدة الأوثان وعبدة النيران ، وقال معناه أبو سعيد الخدري ، وقيل : ورد الخبر يوم الحديبية بوفاة كسرى ، فسر المسلمون بحرب المشركين ، ولموت عدو لهم في الأرض متمكن. وهو ﴿العزيز﴾ بانتقامه من أعدائه ، ﴿الرحيم﴾ لأوليائه. وانتصب ﴿وعد الله﴾ على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة التي تقدمت ، وهو قوله : ﴿سيغلبون﴾ ، وقوله : ﴿يفرح المؤمنون﴾ . ﴿ولاكن أكثر الناس﴾ الكفار من قريش وغيرهم ، ﴿لا يعلمون﴾ : نفي عنهم العلم النافع للآخرة ، وقد أثبت لهم العلم بأحوال الدنيا. قيل : والمعنى لا يعلمون أن الأمور من عند الله ، وأن وعده لا يخلفه ، وأن ما يورده بعينه/ صلى الله عليه وسلم ، حق. ﴿يعلمون ظاهرا﴾ : أي بينا ، أي ما أدته إليهم حواسهم ، فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم.

١٦٢

وقال ابن عباس ، والحسن ، والجمهور : معناه ما فيه الظهور والعلو في الدنيا من اتقان الصناعات والمباني ومظان كسب المال والفلاحات ، ونحو هذا. وقالت فرقة : معناه ذاهبا زائلا ، أي يعلمون أمور الدنيا التي لا بقاء لها ولا عاقبة. وقال الهذلي :

وعيرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

أي : زائل. وقال ابن جبير : ﴿ظاهرا﴾ ، أي يعلمون من قبل الكهنة مما يسترقه الشياطين. وقال الرماني : كل ما يعلم بأوائل الرؤية فهو الظاهر ، وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن. وقال الزمخشري : ﴿يعلمون﴾

---

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، /

بدل من قول : ﴿لا يعلمون﴾ ، وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه ، وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ، لنعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل ، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا. وقوله : ﴿ظاهرا من الحيواة الدنيا﴾ : يفيد أن للدنيا ظاهراا وباطنا ، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها ، وباطنها وحقيقتها أنها مجاز للآخرة ، يتزود إليها منها بالطاعة والأعمال الصالحة ؛ وهم الثانية توكيد لهم الأولى ، أو مبتدأ. وفي إظهارهم على أي الوجهين ، كانت تنبيه على غفلتهم التي صاروا ملتبسين بها ، لا ينفكون عنها. و﴿فى أنفسهم﴾ : معمول ليتفكروا ، إما على تقدير مضاف ، أي في خلق أنفسهم ليخرجوا من الغفلة ، فيعلموا أنهم يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا فقط ، ويستدلوا بذلك على الخالق المخترع.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٦٠

ثم أخبر عقب هذا بأن الحق هو السبب في خلق السموات والأرض ؛ وأما على أن يكون ﴿فى أنفسهم﴾ ظرفا للفكرة في خلق السموات والأرض ، فيكون ﴿فى أنفسهم﴾ توكيدا لقوله : ﴿يتفكرون﴾ ، كما تقول : أبصر بعينك واسمع بأدنك. وقال الزمخشري : في هذا الوجه كأنه قال : أو لم يحدثوا التفكر في أنفسهم ؟ أي في قلوبهم الفارغة من الفكر. والفكر لا يكون إلا في القلوب ، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين ، كقولك : اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك. وقال أيضا : يكون صلة المتفكر ، كقولك : تفكر في الإمر وأجال فكره. و﴿ما خلق الله﴾ متعلق بالقول المحذوف ، معناه : أو لم يتفكروا ، فيقولوا هذا القول ؟ وقيل معناه : فيعلموا ، لأن في الكلام دليلا عليه. انتهى. والدليل هو قوله : ﴿أولم يتفكروا ﴾ . وقيل : ﴿أولم يتفكروا ﴾ متصل بما بعده ، ومثله : ثم ﴿يتفكروا ا ما بصاحبهم من جنة﴾ ، ومثله : ﴿وظنوا ما لهم من محيص﴾ ، فيكون في بمعنى الباء ، ثم ﴿يتفكروا ا ما بصاحبهم من﴾ ، كأنه قال : أو لم يتفكروا بقلوبهم فيعلموا. انتهى. ويجوز أن يكون تفكروا هنا معلقة ، ومتعلقها الجملة من قوله : ﴿ما خلق﴾ إلى آخرها. و﴿فى أنفسهم﴾ : ظرف على سبيل التأكيد ، لأن الفكر لا يكون إلا في النفس ، كما أن الكتابة لا تكون إلا باليد. و﴿بالحق﴾ : في موضع الحال ، أي وهي ملتبسة بالحق مقترنة به ، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها أن تنتهي إليه وهو : قيام الساعة ، ووقت الحساب والثواب والعقاب. ألا ترى إلى قوله : ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ . كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثا ؟ والمراد بلقاء ربهم : الأجل المسمى.

وقال ابن عطية : ﴿إلا بالحق﴾ ، أي بسبب **المنافع** التي هي حق واجب ، يريد من الدلالة عليه والعبادة

له دون فتور ، والانتصار للعبرة ومنافع الإرفاق وغير ذلك. ﴿وأجل﴾ عطف على الحق ، أي وبأجل مسمى ، وهو يوم القيامة. ففي الآية إشارة إلى البعث والنشور وفساد بنية هذا العالم. ثم أخبر عن كثير من الناس أنهم كفروا بذلك المعنى ، فعبر عنها بلقاء الله ، لأن لقاء الله هو عظيم الأمر ، فيه النجاة والهلكة. انتهى.
جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٦٠
." (١)

"وقد تقدمت المذاهب في ذلك عند الكلام على قوله تعالى : ﴿سوا ء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ والمفعول الذي لم يسم فاعله في ذلك حكمه حكم الفاعل ، وتخريجه على مذهب جمهور البصريين أن المفعول الذي لم يسم فاعله هو مضمر تقديره هو ، يفسره سياق الكلام كما فسر المضمر في قوله تعالى : ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ سياق الكلام والمعنى ، وإذا قيل لهم قول شديد فأضمر هذا القول الموصوف وجاءت الجملة بعده مفسرة ، فلا موضع لها من الإعراب لأنها مفسرة لذلك المضمر الذي هو القول الشديد ، ولا جائز أن يكون لهم في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله لأنه لا ينتظم منه مع ما قبله كلام ، لأنه يبقي لا تفسدوا لا ارتباط له ، إذ لا يكون معمولا للقول مفسرا له.
وزعم الزمخشري أن المفعول الذي لم يسم فاعله هو الجملة التي هي : لا تفسدوا ، وجعل ذلك من باب الإسناد اللفظي ونظره بقولك ألف حرف من ثلاثة أحرف ، ومنه زعموا مطية الكذب ، قال : كأنه قيل ، وإذا قيل لهم هذا القول وهذا الكلام ، انتهى. فلم يجعله من باب الإسناد إلى معنى الجملة لأن ذلك لا يجوز على مذهب جمهور البصريين ، فعدل إلى الإسناد اللفظي ، وهو الذي لا يختص به الاسم بل يوجد في الإسم والفعل والحرف والجملة ، وإذا أمكن الإسناد المعنوي لم يعدل إلى الإسناد اللفظي ، وقد أمكن ذلك بالتخريج الذي ذكرناه. واللام في قوله : لهم ، للتبليغ ، وهو أحد المعاني السبعة عشر التي ذكرناها للام عند كلامنا على قوله تعالى : ﴿الحمد لله﴾ . وإفسادهم في الأرض بالكفر ، قاله ابن عباس ، أو المعاصي ، قاله أبو العالية ومقاتل ، أو بهما ، قاله السدي عن أشياخه ؛ أو بترك امتثال الأمر واجتناب النهي ، قاله مجاهد ؛ أو بالنفاق الذي ضافوا به الكفار وأطلعوهم على أسرار المؤمنين ، ذكره علي بن عبيد الله ، أو بإعراضهم عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم و القرآن ؛
٦٤
أو بقصدهم تغيير الملة ، قاله الضحاك ، أو باتباعهم هواهم وتركهم الحق مع وضوحه ، قاله بعضهم.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، /

وقال الزمخشري : الإفساد في الأرض تهييج الحروب والفتن ، قال : لأن في ذلك فساد ما في الأرض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع **والمنافع** الدينية والدنيوية ، قال تعالى : ﴿ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾ ، ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمآء﴾ ، ومنه قيل لحرب كانت بين طيء : حرب الفساد ، انتهى كلامه. ووجه الفساد بهذه الأقوال التي قيلت أنها كلها كبائر عظيمة ومعاص جسيمة ، وزادها تغليظا إصرارهم عليها ، والأرض متى كثرت معاصي أهلها وتواترت ، قلت خيراتها ونزعت بركاتها ومنع عنها الغيث الذي هو سبب الحياة ، فكان فعلهم الموصوف أقوى الأسباب لفساد الأرض وخرابها. كما أن الطاعة والاستغفار سبب لكثرة الخيرات ونزول البركات ونزول الغيث ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿فقلت استغفروا ربكم﴾ ، ﴿وإن لوطا﴾ ﴿استقاموا على الطريقة﴾ ﴿ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا ﴾ ، ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل﴾ ، الآيات.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٦٠

وقد قيل في تفسيره ما روي في الحديث من أن الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب ، إن معاصيه يمنع الله بها الغيث ، فيهلك البلاد والعباد لعدم النبات وانقطاع الأقوات. والنهي عن الإفساد في الأرض من باب النهي عن المسبب ، والمراد النهي عن السبب. فمتعلق النهي حقيقة هو مصافاة الكفار وممالأتهم على المؤمنين بإفشاء السر إليهم وتسليطهم عليهم ، لإفضاء ذلك إلى هيج الفتن المؤدي إلى الإفساد في الأرض ، فجعل ما رتب على المنهي عنه حقيقة منهيا عنه لفظا. والنهي عن الإفساد في الأرض هنا كالنهي في قوله تعالى : ﴿ولا تعثوا فى الارض مفسدين﴾ . وليس ذكر الأرض لمجرد التوكيد بل في ذلك تنبيه على أن هذا المحل الذي فيه نشأتكم وتصرفكم ، ومنه مادة حياتكم ، وهو سترة أمواتكم ، جدير أن لا يفسد فيه ، إذ محل الإصلاح لا ينبغي أن يجعل محل الإفساد. ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ولا تفسدوا فى الارض بعد إصلاحها﴾ وقال تعالى : ﴿هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقها وإليه النشور﴾ ، الآية. إلى غير ذلك من الآيات المنبهة على الامتنان علينا بالأرض ، وما أودع الله فيها من **المنافع** التي لا تكاد تحصى.

(١) ".

"الإحاطة هنا : كناية عن كونه تعالى لا يفوتونه ، كما لا يفوت المحاط المحيط به ، فقيل : العلم وقيل : بالقدرة ، وقيل : بالإهلاك. وهذه الجملة اعتراضية لأنها دخلت بين هاتين الجملتين اللتين هما :

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤٦/١

يجعلون أصابعهم ، ﴿يريكم البرق﴾ ، وهما من قصة واحدة. وقد تقدم لنا أن هذا التمثيل من التمثيلات المركبة ، وهو الذي تشبه فيه إحدى الجملتين بالأخرى في أمر من الأمور ، وإن لم يكن آحاد إحدى الجملتين شبيهة بآحاد الجملة الأخرى ، فيكون المقصود تشبيه حيرة المنافقين في الدين والدنيا بحيرة من انطفأت نارة بعد إيقادها ، وبحيرة من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق. وهذا الذي سبق أنه المختار. وقالوا : أيضا : يكون من التشبيه المفرق ، وهو أن يكون المثل مركبا من أمور ، والممثل يكون مركبا أيضا ، وكل واحد من المثل مشبه لكل واحد من الممثل.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٨٣

وقد تقدم قولان من جعل هذا المثل من التمثيل المفرق. والثالث : أن الصيب مثل للإسلام والظلمات ، مثل لما في قلوبهم من النفاق والرعد والبرق ، مثلان لما يخوفون به. والرابع : البرق مثل للإسلام والظلمات ، مثل للفتنة والبلاء. والخامس : الصيب : الغيث الذي فيه الحياة مثل للإسلام والظلمات ، مثل لإسلام المنافقين وما فيه من إبطان الكفر ، والرعد مثل لما في الإسلام من حقن الدماء والاختلاط بالمسلمين في المناكحة والموازنة ، والبرق وما فيه من الصواعق مثل لما في الإسلام من الزجر بالعقاب في العاجل والآجل ، ويروى معنى هذا عن الحسن. والسادس : أن الصيب والظلمات والرعد والبرق والصواعق كانت حقيقة أصابت بعض اليهود ، فضرب الله مثلا بقصتهم لبقيتهم ، وروي في ذلك حديث عن ابن مسعود ، وابن عباس. السابع : أنه مثل ضربه الله للخير والشر الذي أصاب المنافقين ، فكأنهم كانوا إذا كثرت أموالهم وولدهم الغلمان ، أو أصابوا غنيمة أو فتحا قالوا : دين محمد صدق ، فاستقاموا عليه ، وإذا هلكت أموالهم وأولادهم وأصابهم البلاء قالوا : هذا من أجل دين محمد ، فارتدوا كفارا. الثامن : أنه مثل الدنيا وما فيها من الشدة والرخاء والنعمة والبلاء بالصيب الذي يجمع نفعا بإحيائه الأرض وإنباته النبات وإحياء كل دابة والانتفاع به للتطهير وغيره من **المنافع** ، وضرا بما يحصل به من الإغراق والإشراق ، وما تقدمه من الظلمات والصواعق بالإرعاد والإبراق ، وأن المنافق يدفع آجلا بطلب عاجل النفع ، فيبيع آخرته وما أعد الله له فيها من النعيم بالدنيا التي صفوها كدر ومآله بعد إلى سفر. التاسع : أنه مثل للقيامة لما يخافونه من وعيد الآخرة لشكهم في دينهم وما فيه من البرق ، بما في إظهار الإسلام من حقن دمائهم ، ومثل ما فيه من الصواعق بما في الإسلام من الزواجر بالعقاب في العاجل والآجل. العاشر : ضرب الصيب مثل لما أظهر المنافقون مِن الإيمان والظلمات بضلالهم وكفرهم الذي أبطنوه ، وما فيه من البرق بما علاهم من خير الإسلام وعلتهم من بركته ، واهتدائهم به إلى منافعهم الدنيوية ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وما فيه من

الصواعق ، بما اقتضاه نفاقهم وما هم صائرون إليه من الهلاك الدنيوي والأخروي.
وقد ذكروا أيضا أقوالا كلها ترجع إلى

٨٧

التمثيل التركيبي : الأول : شبه حال المنافقين بالذين اجتمعت لهم ظلمة السحاب مع هذه الأمور ، فكان ذلك أشد لحيرتهم ، إذ لا يرون طريقا ، ولا من أضاء له البرق ثم ذهب كانت الظلمة عنده أشد منها لو لم يكن فيها برق. الثاني : أن المطر ، وإن كان نافعا إلا أنه لما ظهر في هذه الصورة صار النفع به زائلا ، كذلك إظهار الإيمان نافع للمنافق لو وافقه الباطن ، وأما مع عدم الموافق فهو ضرر. الثالث : أنه مثل حال المنافقين في ظنهم أن ما أظهروه نافعهم وليس بنافعهم بمن نزلت به هذه الأمور مع الصواعق ، فإنه يظن أن المخلص له منها جعل أصابعه في أذانه وهو لا ينجيه ذلك مما يريد الله به من موت أو غيره. الرابع : أنه مثل لتأخر المنافق عن الجهاد فرارا من الموت بمن أراد دفع هذه الأمور بجعل أصابعهم في آذانهم. الخامس : أنه مثل لعدم خلاص المنافق من عذاب الله بالجاعلين أصابعهم في آذانهم ، فإنهم وإن تخلصوا من الموت في تلك الساعة ، فإن الموت من ورائهم.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٨٣

﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم كلمآ أضآء لهم مشوا فيه وإذآ أظلم عليهم قاموا ا ولو شآء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ .

يكاد : مضارع كاد التي هي من أفعال المقاربة ، ووزنها فعل يفعل ، نحو خاف يخاف ، منقلبة عن واو ، وفيها لغتان : فعل كما ذكرناه ، وفعل ، ولذلك إذا اتصل بها ضمير الرفع لمتكلم أو مخاطب أو نون إناث ضموا الكاف فقالوا : كدت ، وكدت ، وكدن ، وسمع نقل كسر الواو إلى الكاف ، مع ما إسناده لغير ما ذكر قول الشاعر :

وكيدت ضباع القف يأكلن جثتيوكيد خراش عند ذلك ييتم." (١)

"﴿وأنتم تعلمون﴾ : جملة حالية ، وفيها من التحريك إلى ترك الأنداد وإفراد الله بالوحدانية ما لا يخفى ، أي أنتم من ذوي العلم والتمييز بين الحقائق والإدراك للطائف الأشياء والاستخراج لغوامض الدلائل ، في الرتبة التي لا تليق لمن تحلى بها أن يجعل لله ندا وهو خلقه. إذ ذاك فعل من كان أجهل العالم وأبعدهم عن الفطنة وأكثرهم تجويزا للمستحيلات. ومفعول تعلمون متروك لأن المقصود إثبات أنهم من

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦٨/١

أهل العلم والمعرفة. والتمييز تخصيص العلم بشيء ، قال معناه ابن قتيبة ، لأنه فسر تعلمون بمعنى تعقلون ، وقيل : هو محذوف اختصارا تقديره : وأنتم تعلمون أنه خلق السموات وأنزل الماء ، وفعل ما شرحه في هذه الآيات. ومعنى هذا مروي عن ابن عباس وقتادة ومقاتل ، أو أنتم تعلمون أنه ليس ذلك في كتابيكم التوراة والإنجيل. وروي ذلك أيضا عن ابن عباس ، أو أنه لا ند له ، قاله مجاهد ، أو أنتم تعلمون أنه لا يقدر على فعل ما ذكره أحد سواه ، ذكره علي بن عبيد الله ، أو وأنتم تعلمون أنها حجارة ، قاله أبو محمد بن الخشاب ، أو وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت ، أو وأنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله كقوله : ﴿هل من شركآكم من يفعل من ذالكم من شيء ﴾ ؟ قالهما الزمخشري والمخاطب بقوله : فلا تجعلوا ظاهره أنه للناس المأمورين باعبدوا ربكم ، وقد تقدمت أقاويل السلف في ذلك.

قال ابن فورك : ويحتمل أن يكون الخطاب للمؤمنين ، المعنى : فلا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادا بعد علمكم أن العلم هو نفي الجهل بأن الله واحد. قال أبو محمد بن عطية ، هذه الآية تعطي أن الله تعالى أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق ، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا ، فقد أخذ بطرف من جعل ندا ، انتهى. وقول أبي محمد يعطي أن الله أغنى الإنسان ، خطأ في التركيب ، لأن أعطى لا تنوب أن ومعمولاها مناب مفعوليها ، بخلاف ظن ، فإنها تنوب مناب مفعوليها ، ولذلك ذكر في علم العربية.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٩٢

قال بعض المفسرين : اختص تعالى بهذه المخلوقات وهي : الخلقة البشرية ، والبنيتان الأرضية والسماوية ، لأنها محل الاعتبار ومسرح الإبصار ومواطن المنافع الدنيوية والأخروية ، وبها يقوم الدليل على وجود الصانع وقدرته وحكمته وحياته وإرادته ، وغير ذلك من صفاته الذاتية والفعلية ، وانفراده بخلقها وأحكامها ، وقدم الخلقة البشرية ، وإن كانت للعالم الأصغر ، لما فيها من بدائع الصنعة ما لا يعبر عنه وصف لسان ولا يحيط بكنهه فكرجنان ، وظهور حسن الصنعة في الأشياء اللطيفة الجرم أعظم منه في الأجرام العظام ، ولأن اعتبار الإنسان بنفسه في تقلب أحواله أقرب إلى ذهنه. قال تعالى : ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾ ، أو لأن العرب عادتها تقديم الأهم عندها والمعتنى به ، قال : وهو تعالى بإصلاح حال البنية البشرية أكثر اهتماما من غيرها من المخلوقات ، لأنها أشرف مخلوقاته وأكرمها عليه. قال تعالى : ﴿ولقد كرمنا بنى ءادم﴾ الآية ، ولأنه تعالى خلق هذه الأشياء منافع لبني آدم وأعدها نعما يمتن بها عليهم ، وذكر المنعم عليه يتقدم على ذكر النعمة. ثم إنه تعالى لما عرفهم أنه خالقهم أخبرهم أنه جعل لهم مكانا يستقرون عليه

، إذ كانت حكمته اقتضت ذلك ، فيستقرون فيه جلوسا ونوما وتصرفا في معايشهم ، وجعل منه سهلا للقرار والزرع ، ووعرا للاعتصام ، وجبالا لسكون الأرض من الاضطراب. ثم لما من عليهم بالمستقر أخبرهم بجعل ما يقيهم ويظلهم ، وجعله كالخيمة المضروبة عليهم ، وأشهدهم فيها من غرائب الحكمة بأن أمسكها فوقهم بلا عمد ولا طنب لتهتدي عقولهم ، أنها ليست مما يدخل تحت مقدور البشر ، ثم نبههم على النعمة العظمى ، وهي إنزال المطر الذي هو

١٠٠

مادة الحياة وسبب اهتزاز الأرض بالنبات ، وأجناس الثمرات. وقدم ذكر الأرض على السماء ، وإن كانت أعظم في القدرة وأمكن في الحكمة ، وأتم في النعمة وأكبر في المقدار ، لأن السقف والبنيان ، فيما يعهد ، لا بد له من أساس وعمد مستقر على الأرض ، فبدأ بذكرها ، إذ على متنها يوضع الأساس وتستقر القواعد ، إذ لا ينبغي ذكر السقف أولا قبل ذكر الأرض التي تستقر عليها قواعده ، أو لأن الأرض خلقها متقدم على خلق السماء ، فإنه تعالى خلق الأرض ومهد رواسيها قبل خلق السماء. قال تعالى : ﴿أأنكم لتكفرون﴾ إلى آخر الآيات ، أو لأن ذلك من باب الترقي بذكر الأدنى إلى ذكر الأعلى.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٩٢." (١)

"وقد تضمنت هاتان الآيتان من بدائع الصنعة ، ودقائق الحكمة ، وظهور البراهين ، ما اقتضى تعالى أنه المنفرد بالإيجاد ، المتكفل للعباد ، دون غيره من الأنداد ، التي لا تخلق ولا ترزق ولا لها نفع ولا ضر ، ألا لله الخلق والأمر. قال بعض أصحاب الإشارات : لما امتن تعالى عليهم بأنه خلقهم والذين من قبلهم ، ضرب لهم مثلا يرشدهم إلى معرفة كيفية خلقهم ، وأنهم وإن كانوا متوالدين بين ذكر وأنثى ، مخلوقين ﴿من نطفة إذا تمنى﴾ ، هو تعالى خالقهم على الحقيقة ، ومصورهم في الأرحام كيف يشاء ، ومخرجهم طفلا ، ومربيهم بما يصلحهم من غذاء وشراب ولباس ، إلى غير ذلك من **المنافع** التي تدعو حاجتهم إليها فجعل الأرض التي هي فراش مثل الأم التي يفترشها الزوج ، وهي أيضا تسمى فراشا ، وشبه السماء التي علت على الأرض بالأب الذي يعلو على الأم ويغشاها ، وضرب الماء النازل من السماء مثلا للنطفة التي تنزل من صلب الأب ، وضرب ما يخرج من الأرض من الثمرات بالولد الذي يخرج من بطن الأم ، يؤنس تعالى بذلك عقولهم ويرشدها إلى معرفة كيفية التخليق ، ويعرفها أنه الخالق لهذا الولد والمخرج له من بطن أمه ، كما أنه الخالق للثمرات ومخرجها من بطون أشجارها ، ومخرج أشجارها من بطن الأرض ، فإذا

---

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١/ ٨٠

أوضح ذلك لهم أفردوه بالإلهية ، وخصوه بالعبادة ، وحصلت لهم الهداية.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٩٢

قوله تعالى : ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثلها وادعوا شهدآءكم من دون الله إن كنتم﴾ إن : حرف ثنائي الوضع يكون شرطا ، وهو أصل أدواته ، وحرف نفي ، وفي إعماله إعمال ما الحجازية خلاف ، وزائدا مطردا بعد ما النافية ، وقبل مدة الإنكار ، ولا تكون بمعنى إذ خلافا لزاعمه ، ولا يعد من مواضعه المخففة من الثقيلة لأنها ثلاثية الوضع ، ولذلك اختلف حكمها في التصغير. العبد : لغة المملوك الذكر من جنس الإن‌سان ، وهو راجع لمعنى العبادة ، وتقدم شرحها. الإتيان : المجيء ، والأمر منه : ائت ، كما جاء في لفظ القرآن ، وشذ حذف فائه في الأمر قياسا واستعمالا ، قال الشاعر :

ت لي آل عوف فاندهم لي جماعةوسل آل عوف أي شيء يضيرها

وقال آخر :

فإن نحن لم ننهض لكم فنبركمفتونا قفوا دونا إذن بالجرائم

السورة : الدرجة الرفيعة. ألم تر أن الله أعطاك سورة ؟ وسميت سورة القرآن بها لأن قارئها يشرف بقراءتها على من لم تكن عنده ، كسور البناء. وقيل : لتمامها وكمالها ، ومنه قيل للناقة التامة : سورة ، أو لأنها قطعة من القرآن ، من أسأرت ، والسؤر فاصلها الهمز وخففت ، قاله أبو عبيدة ، والهمز فيها لغة. من مثله : المماثلة تقع بأدنى مشابهة ، وقد ذكر سيبويه ، رحمه الله ، أن : مررت برجل مثلك ، يحتمل وجوها ثلاثة ، ولفظه مثل لازمة الإضافة لفظا ، ولذلك لحن بعض المولدين في قوله :

ومثلك من يملك الناس طراعلى أنه ليس في الناس مثل

ولا يكون محلا خلافا للكوفيين. وله في باب الصفة ، إذا جرى على مفرد ومثنى ومجموع ، حكم ذكر في

١٠١

النحو. الدعاء : الهتف باسم المدعو. الشهداء : جمع شهيد ، للمبالغة ، كعليم وعلماء ، ولا يبعد أن يكون جمع شاهد ، كشاعر وشعراء ، وليس فعلاء باب فاعل ، دون : ظرف مكان ملازم للظرفية الحقيقية أو المجازية ، ولا يتصرف فيه بغير من. قال سيبويه : وأما دونك فلا يرفع أبدا. قال الفراء : وقد ذكر دونك وظروفا نحوها لا تستعمل أسماء مرفوعة على اختيار ، وربما رفعوا. وظاهر قول الأخفش : جواز تصرفه ، خرج قوله تعالى ، ومنادون ذلك على أنه مبتدأ وبني لإضافته إلى المبنى ، وقد جاء مرفوعا في الشعر أيضا

، قال الشاعر :

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٠١

ألم ترني أني حميت حقيبتيوباشرت حد الموت والموت دونها

وتجيء دون صفة بمعنى رديء ، يقال : ثوب دون ، أي رديء ، حكاه سيبويه في أحد قوليه ، فعلى هذا يعرب بوجوه الإعراب ويكون دون مشتركا. الصدق : يقابله الكذب ، وهو مطابقة الخبر للمخبر عنه. لن : حرف نفي ثنائي الوضع بسيط ، لا مركب من لا إن خلافا للخليل في أحد قوليه ، ولا نونها بدل من ألف ، فيكون أصلها لا خلافا للفراء ، ولا يقتضي النفي على التأييد خلافا للزمخشري في أحد قوليه ، ولن هي أقصر نفيا من لا إذ لن تنفي ما قرب ، ولا يمتد معنى النفي فيها كما يمتد في لا خلافا لزاعمه ، ولا يكون دعاء خلافا لزاعمه ، وعملها النصب ، وذكروا أن الجزم بها لغة ، وأنشد ابن الطراوة :

لن يخب الآن من رجائك منحرك دون بابك الحلقة

ولها أحكام كثيرة ذكرت في النحو. الوقود : اسم لما يوقد به ، وقد سمع مصدرا ، وهو أحد المصادر التي جاءت على فعول ، وهي قليلة ، لم يحفظ منها ، فيما ذكر ، الأستاذ أبو الحسن بن عصفور سوى هذا ، والوضوء والطهور والولوع والقبول ، الحجارة : جمع الحجر ، والتاء فيها التأكيد تأنيث الجمع كالفحولة. أعدت : هيئت.." (١)

"البغي والمعصية ، قاله ابن عباس ومجاهد والسدي عن أشياخه أو علمه بأنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء وصالحون ، قاله قتادة ، أو علمه بمن يملأ جهنم من الجنة والناس ، قاله ابن زيد ؛ أو علمه بعواقب الأمور فيبتلي من تظنون أنه مطيع فيؤديه الابتلاء إلى المعصية ، ومن تظنون أنه عاص فيؤديه الابتلاء إلى الطاعة فيطيع ، قاله الزجاج ، أو علمه بظواهر الأمور وباطنها ، جليها ودقيقها ، عاجلها وآجلها ، صالحها وفاسدها ، على اختلاف الأحوال والأزمان علما حقيقيا ، وأنتم لا تعلمون ذلك ، أو علمه بغير اكتساب ولا نظر ولا تدبر ولا فكر ، وأنتم لا تعلمون المعلومات على هذا النسق. أو علمه بأن معهم إبليس ، أو علمه باستعاظمكم أنفكم بالتسبيح والتقديس. والذي يدل عليه ظاهر اللفظ أنه أخبرهم إذا تكلموا بالجملة السابقة التي هي أتجعل فيها بأنه يعلم ما لا تعلمونه. وأبهم في إخباره الأشياء التي يعلمها دونهم ، فإذا كان كذلك ، فإخباره بأنه يجعل في الأرض خليفة يقتضي التسليم له والرجوع إليه فيما أراد أن يفعله والرضا بذلك ، لأن علمه محيط بما لا يحيط به علم عالم ، جل الله وعز. والأحسن أن يفسر هذا المبهم

---

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٨١/١

بما أخبر به تعالى عنه من قوله ، قال :

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٣٧

﴿ألم أقل لكم إنيا أعلم غيب السماوات والارض﴾ الآية.

﴿وعلم ءادم الاسمآء كلها﴾ : لما أخبر تعالى الملائكة عن وجه الحكمة في خلق آدم وذريته على سبيل الإجمال ، أراد أن يفصل ، فبين لهم من فضل آدم ما لم يكن معلوما لهم ، وذلك بأن علمه الأسماء ليظهر فضله وقصورهم عنه في العلم ، فتأكد الجواب الإجمالي بالتفضيل. ولا بد من تقدير جملة محذوفة قبل هذا ، لأنه بها يتم المعنى ويصح هذا العطف ، وهي : فجعل في الأرض خليفة. ولما كان لفظ الخليفة محذوفا مع الجملة المقدرة ، أبرزه في قوله : ﴿وعلم ءادم﴾ ، ناصا عليه ومنوها بذكره باسمه. وأبعد من زعم أن : ﴿وعلم ءادم﴾ معطوف على قوله ، قال من قوله تعالى : ﴿وإذ قال ربك للملئاكة إني جاعل﴾ . وهل التعليم بتكليم الله تعالى له في السماء ، كما كلم موسى في الأرض ، أو بوساطة ملك أو بالإلهام ؟ أقوال أظهرها أن الباري تعالى هو المعلم ، لا بواسطة ولا إلهام. وقرأ اليماني ويزيد اليزيدي : وعلم آدم مبنيا للمفعول ، وحذف الفاعل للعلم به والتضعيف في علم للتعدية ، إذ كان قبل التضعيف يتعدى لواحد ، فعدى به إلى اثنين. وليست التعدية بالتضعيف مقيسة ، إنما يقتصر فيه على مورد السماع ، سواء كان الفعل قبل التضعيف لازما أم كان متعديا ، نحو : علم المتعدية إلى واحد. وأما إن كان متعديا إلى اثنين ، فلا يحفظ في شيء منه التعدية بالتضعيف إلى ثلاث. وقد وهم القاسم بن علي الحريري في زعمه في شرح الملحة له أن علم تكون منقولة من علم التي تتعدى إلى اثنين فتصير بالتضعيف متعدية إلى ثلاثة ، ولا يحفظ ذلك من كلامهم.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٣٧

وقد ذهب بعض النحويين إلى اقتباس التعدية بالتضعيف. قال الإمام أبو الحسين بن أبي الربيع في (كتاب التلخيص) من تأليفه : الظاهر من مذهب سيبويه أن النقل بالتضعيف سماع في المتعدي واللازم ، وفيما علمه أقوال : أسماء جميع المخلوقات ، قاله ابن نعباس وابن جبير ومجاهد وقتادة ، أو اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، وعزى إلى ابن عباس ، وهو قريب من الأول ، أو جميع اللغات ، ثم كلم كل واحد من بنيه بلغة فتفرقوا في البلاد ، واختص كل فرقة بلغة أو كلمة واحدة تفرع منها جميع اللغات ، أو أسماء النجوم فقط ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، أو أسماء الملائكة فقط ، قاله الربيع بن خيثم ، أو أسماء ذريته ، قاله الربيع بن زيد ، أو أسماء ذريته والملائكة ، قاله الطبري واختاره ؛ أو أسماء الأجناس التي خلقها

، علما أن هذا اسمه فرس ، وهذا اسمه بعير ، وهذا اسمه كذا ، وهذا اسمه كذا ، وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من **المنافع** الدينية والدنيوية ، واختاره الزمخشري ، أو أسماء ما خلق في الأرض ، قاله ابن قتيبة ، أو الأسماء بلغة ثم وقع الاصطلاح من ذريته في سواها ، أو علمه كل شيء حتى نحو سيبويه ، قاله أبو علي الفارسي ، أو أسماء

١٤٥

". (١)

"وقال الزجاج : إبليس عدو للمؤمنين وهم أعداؤه. وقيل معناه : عداوة نفس الإنسان له وجوارحه ، وهذا فيه بعد ، وهذه الجملة في موضع الحال ، أي اهبطوا متعادين ، والعامل فيها اهبطوا. فصاحب الحال الضمير في اهبطوا ، ولم يحتج إلى الواو لإغناء الرابط عنها ، واجتماع الواو والضمير في الجملة الإسمية الواقعة حالا أكثر من انفراد الضمير. وفي كتاب الله تعالى : ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾ ، وليس مجيئها بالضمير دون الواو شاذا ، خلافا للفراء ومن واقفه كالزمخشري. وقد روى سيبويه عن العرب كلمته فوه إلى في ، ورجع عوده على بدئه ، وخرجه على وجهين : أحدهما : أن عوده مبتدأ وعلى بدئه خبر ، والجملة حال ، وهو كثير في لسان العرب ، نظمها ونثرها ، فلا يكون ذلك شاذا. وأجاز مكي بن أبي طالب أن تكون الجملة مستأنفة إخبارا من الله تعالى بأن بعضهم لبعض عدو ، فلا يكون في موضع الحال ، وكأنه فر من الحال ، لأنه تخيل أنه يلزم من القيد في الأمر أن يكون مأمورا به ، أو كالمأمور. ألا ترى أنك إذا قلت قم ضاحكا كان المعنى الأمر بإيقاع القيام مصحوبا بالحال فيكون مأمورا بها أو كالمأمور ، لأنك لم تسوغ له القيام إلا في حال الضحك وما يتوصل إلى فعل المأمور إلا به مأمور ؟ والله تعالى لا يأمر بالعداوة ولا يلزم ما يتخيل من ذلك ، لأن الفعل إذا كان مأمورا به من يسند إليه في حال من أحواله ، لم تكن تلك الحال مأمورا بها ، لأن النسبة الحالية هي لنسبة تقييدية لا نسبة إسنادية. فلو كانت مأمورا بها إذا كان العامل فيها امرا ، فلا يسوغ ذلك هنا ، لأن الفعل المأمور به إذا كان لا يقع في الوجود إلا بذلك القيد ، ولا يمكن خلافه ، لم يكن ذلك القيد مأمورا به ، لأنه ليس داخلا في حيز التكليف ، وهذه الحال من هذا النوع ، قل يلزم أن يكون الله

١٦٣

أمر بها ، وهذه الحال من ال أحوال اللازمة. وقوله : لبعض متعلق بقوله عدو ، واللام مقوية لوصول عدو

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١/١٢٠

إليه ، وأفرد عدو على لفظ بعض أو لأنه يصلح للجمع ، كما سبق ذكر ذلك عند الكلام على بعض وعلى عدو حالة الإفراد.

﴿ولكم فى الارض مستقر﴾ : مبتدأ وخبر. لكم هو الخبر ، وفي الأرض متعلق بالخبر ، وحقيقته أنه معمول للعامل في الخبر ، والخبر هنا مصحح لجواز الابتداء بالنكرة ، ولا يجوز ﴿فى الارض﴾ أن يتعلق بمستقر ، سواء كان يراد به مكان استقرار كما قاله أبو العالية وابن زيد ، أو المصدر ، أي استقرار ، كما قاله السدي ، لأن اسم المكان لا يعمل ، ولأن المصدر الموصول لا يجوز بعضهم تقديم معموله عليه ، ولا يجوز في الأرض أن يكون خبرا ، ولكم متعلق بمستقر لما ذكرناه ، أو في موضع الحال من مستقر ، لأن العامل إذ ذاك فيها يكون الخبر ، وهو عامل معنوي ، والحال متقدمة على جزأي الإسناد ، فلا يجوز ذلك ، وصار نظير : قائما زيد في الدار ، أو قائما في الدار زيد ، وهو لا يجوز بإجماع. مستقر : أي مكان استقراركم حالتي الحياة والموت ، وقيل : هو القبر ، أو استقرار ، كما تقدم شرحه.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٥٩

﴿ومتاع﴾ : المتاع ما استمتع به من **المنافع** ، أو الزاد ، أو الزمان الطويل ، أو التعمير. ﴿إلى حين﴾ : إلى الموت ، أو إلى قيام الساعة ، أو إلى أجل قد علمه الله ، قاله ابن عباس. ويتعلق إلى بمحذوف ، أي ومتاع كائن إلى حين ، أو بمتاع ، أي واستمتاع إلى حين ، وهو من باب الأعمال ، أعمل فيه الثاني ولم يحتج إلى إضمار في الأول ، لأن متعلقه فضلة ، فالأولى حذفه ، ولا جائز أن يكون من إعمال الأول ، لأن الأولى أن لا يحذف من الثاني والأحسن حمل القرآن على الأولى. والأفصح لا يقال إنه لا يجوز أن يكون من باب الإعمال ، وإن كان كل من مستقر ومتاع

١٦٤

(١) ".

"﴿نفس عن نفس شيئا﴾ كلاهما نكرة في سياق النفي فتعم. ومعنى التنكير : أن نفسا من الأنفس لا تجزي عن نفس من الأنفس شيئا من الأشياء ، قال الزمخشري : وفيه إقناط كلي قاطع من المطامع ، وهذا على مذهبه في أن لا شفاعة. وقال بعضهم : التقدير عن نفس كافرة ، فقيدها بالكفر ، وفيه دلالة على أن النفس تجزي عن نفس مؤمنة ، وذلك بمفهوم الصفة. ويأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى عند الكلام على قوله : ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ . وقرأ أبو السرار الغنوي : لا تجزي نسمة عن نسمة ،

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١/١٣٧

وانتصاب شيئا على أنه مفعول به ، أي لا يقضي شيئا ، أي حقا من الحقوق ، ويجوز أن يكون انتصابه على المصدر ، أي : ولا تجزي شيئا من الجزاء ، قاله الأخفش ، وفيه إشارة إلى القلة ، كقولك : ضربت شيئا من الضرب..

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٨٧

﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ : قرأ ابن كثير وأبو عمرو : ولا تقبل بالتاء ، وهو القياس والأكثر ، ومن قرأ بالياء فهو أيضا جاز فصيح لمجاز التأنيث ، وحسنة أيضا الفصل بين الفعل ومرفوعه. وقرأ سفيان : ولا يقبل بفتح الياء ونصب شفاعة على البناء للفاعل ، وفي ذلك التفات وخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب ، لأن قبله : ﴿اذكروا نعمتي﴾ و﴿وأنى فضلتكم﴾ ، وبناؤه للمفعول أبلغ لأنه في اللفظ أعم ، وإن كان يعلم أن الذي لا يقبل هو الله تعالى. والضمير في منها عائد على نفس المتأخرة لأنها أقرب مذكور ، أي لا يقبل من النفس المستشفعة شفاعة شافع ، ويجوز أن يعود الضمير على نفس الأولى ، أي ولا يقبل من النفس التي لا تجزي عن نفس شيئا شفاعة ،

١٩٠

هي بصدد أن لو شفعت لم يقبل منها ، وقد يظهر ترجيح عودها إلى النفس الأولى ، لأنها هي المحدث عنها في قوله : ﴿لا تجزى نفس عن نفس﴾ ، والنفس الثانية هي مذكورة على سبيل الفضلة لا العمدة. وظاهر قوله : ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ نفي القبول ووجود الشفاعة ، ويجوز أن يكون من باب :

على رحب لا يهتدى بمناره

نفي القبول ، والمقصود نفي الشفاعة ، كأنه قيل : لا شفاعة ، فتقبل. وقد اختلف المفسرون في فهم هذا على ستة أقوال : الأول : أنه لفظ عام لمعنى خاص ، والمراد : الذين قالوا من بني إسرائيل نحن أبناء الله ، وأبناء أنبيائه ، وأنهم يشفعون لنا عند الله ، فرد عليهم ذلك ، وأويسوا منه لكفرهم ، وعلى هذا تكون النفس الأولى مؤمنة ، والثانية كافرة ، والكافر لا تنفعه شفاعة لقوله تعالى : ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ . الثاني : معناه لا يجدون شفيعا تقبل شفاعته ، لعجز المشفوع فيه عنه ، وهو قول الحسن. الثالث : معناه لا يجيب الشافع المشفوع فيه إلى الشفاعة ، وإن كان لو شفع لشفع. الرابع : معناه حيث لم يأذن الله في الشفاعة للكفار ، ولا بد من إذن من الله بتقدم الشافع بالشفاعة لقوله : ﴿ولا تنفع الشفاعة عندها إلا لمن أذن لها﴾ ، ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ . الخامس : معناه ليس لها شفاعة ، فيكون لها قبول ، وقد تقدم هذا القول. السادس : أنه نفي عام ، أي لا يقبل في غيرها ، لا مؤمنة ولا كافرة ، في

مؤمنة ولا كافرة ، قاله الزمخشري.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٨٧

وأجمع أهل السنة أن شفاعة الأنبياء والصالحين تقبل في العصاة من المؤمنين ، خلافا للمعتزلة ، قالوا : الكبيرة تخلد صاحبها في النار ، وأنكروا الشفاعة ، وهم على ضربين : طائفة أنكرت الشفاعة إنكارا كليا وقالوا : لا تقبل شفاعة أحد في أحد ، واستدلوا بظواهر آيات ، وخص تلك الظواهر أصحابنا بالكفار لثبوت الأحاديث الصحيحة في الشفاعة. وطائفة أنكرت الشفاعة في أهل الكبائر ، قالوا : وإنما تقبل في الصغائر. وقال في المنتخب : أجمعت الأمة على أن لمحمد صلى الله عليه وسلم شفاعة في الآخرة ، واختلفوا لمن تكون. فذهبت المعتزلة إلى أنها للمستحقين الثواب ، وتأثيرها في أن تحصل زيادة من **المنافع** على قدر ما استحقوه. وقال أصحابنا : تأثيرها في إسقاط العذاب عن المستحقين ، إما بأن لا يدخلوا النار ، وإما في أن يخرجوا منها بعد دخولها ويدخلون الجنة ، واتفقوا على أنها ليست للكفار ، ثم ذكر نحوا من ست أوراق في الاستدلال للطائفتين ، ورد بعضهم على بعض ، يوقف عليها في ذلك الكتاب.
". (١)

"رزق الذي هو فعل مضارع مسند إلى الله تعالى ، وهو يناقص ما قدم أولا من أن من كفر معطوف على من آمن. وفي قوله خص إبراهيم المؤمنين حتى رد عليه سوء أدب على الأنبياء ، لأنه لم يرد عليه ، لأنه لا يدعي ، ويرغب في أن يرزق الكافر ، بل قوله تعالى : ﴿قال ومن كفر﴾ ، إخبار من الله تعالى بما يكون مآل الكافر إليه من التمتيع القليل والصيرورة إلى النار ، وليس هنا قياس الرزق على الإمامة ، ولا تعريف الفرق بينهما ، كما زعم.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٣٧٢

وقد تقدم تفسير المتاع ، وأنه كل ما انتفع به ، وفسر هنا التمتيع والإمتاع بالإبقاء ، أو بتيسير **المنافع** ، ومنه متاع الحياة الدنيا ، أي منفعتها التي لا تدوم ، أو بالتزويد ، ومنه : فمتعوهن ؛ أي زودوهن نفقة. والمتعة : ما يتبلغ به من الزاد ، والجمع متع ، ومنه : متاعا لكم. وللسيارة والهمزة في أمتع يجعل الشيء صاحب ما صيغ منه : أمتعت زيدا ، جعلته صاحب متاع ، كقولهم : أقبرته وأنعلته ، وكذلك التضعيف في متع هو : يجعل الشيء بمعنى ما صيغ منه نحو قولهم : عدلته. وليس التضعيف في متع يقتضي التكثير ، فينافي ظاهر ذلك القلة ، فيحتاج إلى تأويل ، كما ظنه بعضهم وتأوله على أن الكثرة بإضافة بعضها إلى

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١/١٦٠

بعض ، والقلة بالإضافة إلى نعيم الآخرة. فقد اختلفت جهتا الكثرة والقلة فلم يتنافينا. وانتصاب قليلا على أنه صفة لظرف محذوف ، أي زمانا قليلا ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف ، أي تمتيعا قليلا ، على تقدير الجمهور ، أو على الحال من ضمير المصدر المحذوف ، الدال عليه الفعل ، وذلك على مذهب سيبويه. والوصف بالقلة لسرعة انقضائه ، إما لحلول الأجل ، وإما بظهور محمد
٣٨٥
صلى الله عليه وسلم فيقتله ، أو يخرجه عن هذا البلد ، إن أقام على الكفر والإمتاع بالنعيم والزينة ، أو بالإمهال عن تعجيل الانتقام فيها ، أو بالرزق ، أو بالبقاء في الدنيا ، أقوال للمفسرين. وقراءة يحيى بن وثاب : ثم إضطره بكسر الهمزة. قال ابن عطية ، على لغة قريش ، في قولهم : لا إخال ، يعني بكسر الهمزة. وظاهر هذا النقل في أن ذلك ، أعني كسر الهمزة التي للمتكلم في نحو اضطر ، وهو ما أوله همزة وصل. وفي نحو إخال ، وهو افعل المفتوح العين من فعل المكسور العين مخالف لما نقله النحويون. فإنهم نقلوا عن الحجازيين فتح حرف المضارعة مما أوله همزة وصل ، ومما كان على وزن فعل بكسر العين يفعل بفتحها ، أو ذا ياء مزيدة في أوله ، وذلك نحو علم يعلم ، وانطلق ينطلق ، وتعلم يتعلم ، إلا إن كان حرف المضارعة ياء ، فجمهور العرب من غير الحجازيين لا يكسر الياء ، بل يفتحها. وفي مثل يوجل بالياء مضارع وجل ، مذاهب تذكر في علم النحو ، وإنما المقصود هنا : أن كلام ابن عطية مخالف لما حكاه النحاة ، إلا إن كان نقل أن إخال بخصوصيته في لغة قريش مكسور الهمزة دون نظائره ، فيكونون قد تبعوا في ذلك لغة غيرهم من العرب ، فيمكن أن يكون قول ابن عطية صحيحا.
جزء : ١ رقم الصفحة : ٣٧٢
وقد تقدم لنا في سورة الحمد في قوله : ﴿نستعين﴾ أن الكسرة لغة قيس وتميم وأسد وربيعة. وقد أمعنا الكلام على ذلك في (كتاب التكميل لشرح كتاب التسهيل) من تأليفنا. وقراءة ابن محيصن : ثم اطره ، بإدغام الضاد في الطاء. قال الزمخشري : هي لغة مرذولة ، لأن الضاد من الحروف الخمسة التي يدغم فيها ما يجاورها ، ولا تدغم هي فيما يجاورها ، وهي حروف ضم شفر. انتهى كلامه. إذا لقيت الضاد الطاء في كلمة نحو مضطرب ، فالأوجه البيان ، وإن أدغم قلب الثاني للأول فقيل : مضرب ، كما قيل : مصبر في مصطبر. قال سيبويه : وقد قال بعضهم : مطجع ، في مضطجع ومضجع أكثر ، وجاز مطجع ، وإن لم يجز في مصطبر مطبر ، لأن الضاد ليست في السمع كالصاد ، يعني أن الصفير الذي في الصاد أكثر في السمع من استطالة الضاد. فظاهر كلام سيبويه أنها ليست لغة مرذولة ، ألا ترى إلى نقله عن بعض العرب

مطجع ، وإلى قوله : ومضجع أكثر ، فيدل على أن مطجعا كثير ؟ وألا ترى إلى تعليله ، وكون الضاد قلبت إلى الطاء وأدغمت ، ولم يفعل ذلك بالصاد ، وإبداء الفرق بينهما ؟ وهذا كله من كلام سيبويه ، يدل على الجوار. وقد

٣٨٦

." (١)

"﴿يتلوا عليهم ءاياتنا ﴾ ، أي يفصح لهم عن ألفاظه ويوقفهم بقراءته على كيفية تلاوته ، كما قال صلى الله عليه وسلم لأبي : "إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن" ، وذلك لأن يتعلم أبي منه صلى الله عليه وسلم كيفية أداء القرآن ومقاطعه ومواصلة. وفي قوله : ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ ، أي يبين لهم وجوه أحكامه : حلاله وحرامه ، ومفروضه ، ومسنونه ، ومواعظه ، وأمثاله ، وترغيبه ، وترهيبه ، والحشر ، والنشر ، والعقاب ، والثواب ، والجنة والنار. وفي قوله : والحكمة ، أي السنة تبين ما في الكتاب من المجمل ، وتوضح ما أنبهم من المشكل ، وتفصح عن مقادير ، وعن إعداد مما لم يتعرض الكتاب إليه ، ويثبت أحكاما لم يتضمنها الكتاب. ﴿ويزكيهم﴾ باطنا من أرجاس الشرك وأنجاس الشك ، وظاهرا بالتكاليف التي تمحص الآثام وتوصل الأنعام. قال ابن عباس : التزكية : الطاعة والإخلاص. وقال ابن جريج : يطهرهم من الشرك. وقيل : يأخذ منهم الزكاة التي تكون سببا لطهارتهم. وقيل : يدعوا إلى ما يصيرون به أزكياء. وقيل : يشهد لهم بالتزكية من تزكية العدول ، ومعنى الزكاة لا تخرج عن التطهير أو التنمية.

﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ ، العزيز : الغالب ، أو المنيع الذي لا يرام ، قاله المفضل بن سلمة ، أو الذي لا يعجزه شيء ، قاله ابن كيسان ، أو الذي لا مثل له ، قاله ابن عباس ، أو المنتقم ، قاله الكلبي ، أو القوي ، ومنه فعززنا بثالث ، أو المعز ومنه : ﴿وتعز من تشآء﴾ . الحكيم : قد تقدم تفسير الحكيم في قصة الملائكة وآدم في قوله : ﴿إلا ما علمتنآا إنك أنت العليم الحكيم﴾ . وأنت : يجوز فيها ما جاز في ﴿أنت السميع العليم﴾ قبل من الأعاريب. وهاتان الصفتان متناسبتان لما قبلهما ، لأن إرسال رسول متصف بالأوصاف التي سألها إبراهيم لا تصدر إلا عمن اتصف بالعزة ، وهي الغلبة أو القوة ، أو عدم النظير ، وبالحكمة التي هي إصابة مواقع الفعل ، فيضع الرسالة في أشرف خلقه وأكرمهم عليه ، الله أعلم حيث يجعل رسالاته. وتقدمت صفة العزيز على الحكيم لأنها من صفات الذات ، والحكيم من صفات الأفعال ، ولكون الحكيم فاصلة كالفواصل قبلها. وفي المنتخب : يتلو عليهم آياتك : هي القرآن. وقيل : الأعلام

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١/٣٣٤

الدالة على وجود الصانع وصفاته. ومعنى التلاوة : تذكيرهم بها ودعاؤهم إليها وحملهم على الإيمان بها ، وحكمة التلاوة : بقاء لفظها على الألسنة ، فيبقى مصونا عن التحريف والتصحيف ، وكون نظمها ولفظها معجزا ، وكون تلاوتها في الصلوات وسائر العبادات نوع عبادة إلا أن الحكمة العظمى تعليم ما فيه من الدلائل والأحكام. وقال القفال ، عبر بعض الفلاسفة عن الحكمة ، بأنها التشبه بالإله بقدر الطاقة البشرية ، وقيل الحكمة المتشابهات. وقيل : الكتاب أحكام الشرائع ، والحكمة وجوه المصالح **والمنافع** فيها ، وقيل : كلها صفات للقرآن ، هو

٣٩٣

آيات ، وهو كتاب وهو حكمة. انتهى ما لخص من المنتخب.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٣٧٢

". (١)

"﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ : من ذهب إلى أن معناها معنى إذ ، فقوله ضعيف ، وهو قول كوفي ، ولا يراد بالشرط هنا إلا التثبت والهز للنفوس ، وكأن المعنى : العبادة له واجبة ، فالشكر له واجب ، وذلك كما تقول لمن هو متحقق العبودية إن كنت عبدي فأطعني ، لا تريد بذلك التعليق المحض ، بل تبرزه في صورة التعليق ، ليكون أدعى للطاعة وأهزلها. وقيل : عبر بالعبادة عن العرفان ، كما قال : ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾ . قيل : معناه ليعرفون ، فيكون المعنى : أشكروا الله إن كنتم عارفين به وبنعمه ، وذلك من إطلاق الأثر على المؤثر. وقيل : عبر بالعبادة عن إرادة العبادة ، أي اشكروا الله إن كنتم تريدون عبادته ، لأن الشكر رأس العبادات. وقال الزمخشري : إن صح أنكم تختصونه بالعبادة وتقرون أنه مولى النعم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : إني والجن والإنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري. انتهى كلامه. وإيا هنا مفعول مقدم ، وقدم لكون العامل فيه وقع رأس آية ، وللاهتمام به والتعظيم لشأنه ، لأنه عائد على الله تعالى ، كما في قولك : ﴿وإياك نستعين﴾ ، وهذا من الموضع التي يجب فيها انفصال الضمير ، وهو إذا تقدم على العامل أو تأخر ، لم

٤٨٥

ينفصل إلا في ضرورة ، قال :

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٧٧

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣٤١/١

إليك حتى بلغت إياكا

﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ومآ أهل بها لغير الله﴾ : تقدم الكلام على إنما في قوله : ﴿إنما نحن مصلحون﴾ . وقرأ الجمهور : حرم مسندا إلى ضمير اسم الله ، وما بعده نصب ، فتكون ما مهيئة في إنما هيأت إن لولايتها الجملة الفعلية. وقرأ ابن أبي عبلة : برفع الميتة وما بعدها ، فتكون ما موصولة اسم إن ، والعائد عليها محذوف ، أي إن الذي حرمه الله الميتة ، وما بعدها خبران. وقرأ أبو جعفر : حرم ، مشددا مبنيا للمفعول ، فاحتملت ما وجهين : أحدهما : أن تكون موصولة اسم إن ، والعائد الضمير المستكن في حرم والميتة خبران. والوجه الثاني : أن تكون ما مهيئة والميتة مرفوع بحرم. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : إنما حرم ، بفتح الحاء وضم الراء مخففة جعله لازما ، والميتة وما بعدها مرفوع. ويحتمل ما الوجهين من التهيئة والوصل ، والميتة فاعل يحرم ، إن كانت ما مهيئة ، وخبر إن ، إن كانت ما موصولة. وقرأ أبو جعفر : الميتة ، بتشديد الياء في جميع القرآن ، وهو أصل للتخفيف. وقد تقدم الكلام على هذا التخفيف في قوله : ﴿أو كصيب﴾ ، وهما لغتان جيدتان ، وقد جمع بينهما الشاعر في قوله :

ليس من مات فاستراح بميتإنما الميت ميت الأحياء

قيل : وحكى أبو معاذ عن النحويين الأولين ، أن الميت بالتخفيف : الذي فارقته الروح ، والميت بالتشديد : الذي لم يمت ، بل عاين أسباب الموت. وقد تقدم الكلام في الموت. ولما أمر تعالى : بأكل الحلال في الآية السابقة ، فصل هنا أنواع الحرام ، وأسند التحريم إلى الميتة. والظاهر أن المحذوف هو الأكل ، لأن التحريم لا يتعلق بالعين ، ولأن السابق المباح هو الأكل في قوله : ﴿كلوا مما فى الارض حلالا طيبا﴾ . فالممنوع هنا هو الأكل ، وهكذا حذف المضاف يقدر بما يناسب. فقوله : ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ ، المحذوف : وطء ، كأنه قيل : وطء أمهاتكم ، ﴿وأحل لكم ما ورآء ذالكم﴾ ، أي وطء ما وراء ذلكم. فسائر وجوه الانتفاعات محرم من هذه الأعيان المذكورة ، إما بالقياس على الأكل عند منيقول بالقياس ، وإما بدليل سمعني عند من لا يقول به.

وقال بعض الناس ما معناه : أنه تعالى لما أسند التحريم إلى الميتة ، وما نسق عليها وعلقه بعينها ، كان ذلك دليلا على تأكيد حكم التحريم وتناول سائر وجوه المنافع ، فلا يخص شيء منها إلا بدليل يقتضي جواز الانتفاع به ، فاستنبط هذا القول تحريم سائر الانتفاعات من اللفظ. والأظهر ما ذكرناه من تخصص المضاف المحذوف بأنه الأكل. وظاهر لفظ الميتة يتناول العموم ، ولا يخص شيء منها إلا بدليل. قال قوم : خص هذا العموم بقوله تعالى : ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة﴾ ، وبما روي

من قوله صلى الله عليه وسلم : "أحلت لنا ميتتان". وقال ابن عطية : الحوت والجراد لم يدخل قط في هذا العموم. انتهى. فإن عنى لم يدخل في دلالة اللفظ ، فلا نسلم له ذلك. وإن عنى لم يدخل ففي الإرادة ، فهو كما قال ، لأن المخصص يدل على أنه لم يرد به الدخول في اللفظ العام الذي خصص به.
جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٧٧
." (١)

"ومن قال : لا تدل على التحريم ، استدل بقوله : ومنافع للناس ، والمحرم لا يكون فيه منفعة ، ولأنها لو دلت على التحريم لقن الصحابة بها ، وهم لم يقنعوا حتى نزلت آية المائدة ، وآية التحريم في الصلاة ، وأجيب بأن المحرم قد يكون فيه منفعة عاجلة في الدنيا ، وبأن بعض الحصابة سأل أن ينزل التحريم بالأمر الواضح الذي لا يلتبس على أحد ، فيكون آكد في التحريم.
وظاهر الآية الإخبار بأن فيهما إثما كبيرا. ومنافع حالة الجواب وزمانه ، وقال ابن عباس ، والربيع : الإثم فيهما بعد التحريم ، والمنفعة فيهما قبل التحريم ، فعلى هذا يكون الإثم في وقت ، والمنفعة في وقت ، والظاهر أنه إخبار عن الحال ، والإثم الذي فيهما هو الذنب الذي يترتب عليه العقاب ، وقالت طائفة : الإثم الذي في الخمر : ذهاب العقل ، والسباب ، والافتراء ، والتعدي الذي يكون من شاربها ، والمنفعة التي في الخمر ، قال الأكثرون : ما يحصل منها من الأرباح والأكساب ، وهو معنى قول مجاهد : وقيل ما ذكر الأطباء في منافعها من ذهاب الهم ، وحصول الفرح ، وهضم الطعام ، وتقوية الضعيف ، والإعانة على الباءة ، وتسخية البخيل ، وتصفية اللون ، وتشجيع الجبان ، وغير ذلك من منافعها. وقد صنفوا في ذلك مقالات وكتبا ، ويسمونها : الشراب الريحاني ، وقد ذكروا أيضا لها مضار كثيرة من جهة الطب.
والمنفعة التي في الميسر إيسار القامر بغير كد ولا تعب ، وقيل : التوسعة على المحاويج ، فإن من قمر منهم كان لا يأكل من الجزور ، ويفرقه على الفقراء. وذكر المفسرون هنا حكم ما أسكر كثيره من غير الخمر العنبية ، وحد الشارب ، وكيفية الضرب ، وما يتوقى من المضروب فلا يضرب عليه ، ولم تتعرض الآية لشيء من ذلك ، وهو مذكور في علم الفقه.
وقرأ حمزة ، والكسائي : إثم كثير ، بالثاء ، ووصف الإثم بالكثرة إما باعتبار الآثمين ، فكأنه قيل : فيه للناس آثام ، أي
١٥٧

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١/٤٢٤

لكل واحد من متعاطيها إثم ، أو باعتبار ما يترتب على شربها من توالي العقاب وتضعيفه ، فناسب أن ينعت بالكثرة ، أو باعتبار ما يترتب على شربها مما يصدر من شاربها من الأفعال والأقوال المحرمة ، أو باعتبار من زوالها من لدن كانت إلى أن بيعت وشربت ، فقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الخمر ، ولعن معها عشرة : بائعها ، ومبتاعها ، والمشتراة له ، وعاصرها ، ومعتصرها ، والمعصورة له وساقيها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة له ، وآكل ثمنها. فناسب وصف الإثم بالكثرة بهذا الاعتبار.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ١٥٤

وقرأ الباقون : كبير ، بالباء ، وذلك ظاهر ، لأن شرب الخمر والقمار ذنبهما من الكبائر ، وقد ذكر بعض الناس ترجيحا لكل قراءة من هاتين القراءتين على الأخرى ، وهذا خطأ ، لأن كلا من القراءتين كلام الله تعالى ، فلا يجوز تفضيل شيء منه على شيء من قبل أنفسنا ، إذ كله كلام اللہ تعالى.

﴿وإثمهمآ أكبر من نفعهما ﴾ في مصحف عبد الله وقراءته : أكثر ، بالثاء كما في مصحفه : كثير ، بالثاء المثلثة فيهما.

قال الزمخشري : وعقاب الإثم في تعاطيهما أكبر من نفعهما ، وهو الالتذاذ بشرب الخمر ، والقمار ، والطرب فيهما ، والتوصل بهما إلى مصادقات الفتيان ومعاشراتهم ، والنيل من مطاعمهم ومشاربهم وأعطياتهم ، وسلب الأموال بالقمار ، والافتخار على الأبرام ؛ وفي قراءة أبي : وإثمهما أقرب ، ومعنى الكثرة أن : أصحاب الشرب والقمار يقترفون فيهما الآثام من وجوه كثيرة. انتهى كلام الزمخشري.

وقال ابن عباس ، وسعد بن جبير ، والضحاك ، ومقاتل : إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم ، وقيل : أكبر ، لأن عقابه باق مستمر والمنافع زائلة ، والباقي أكبر من الفاني.

﴿يسالونك عن الخمر والميسرا قل﴾ تقدم هذا السؤال وأجيبوا هنا بذكر الكمية والمقدار ، والسائل في هذه الآية ، قيل : هو عمرو بن الجموح ، وقيل : المؤمنون وهو الظاهر من واو الجمع.

والنفقة هنا قيل : في الجهاد ، وقيل : في الصدقات ، والقائلون في الصدقات ، قيل : في التطوع وهو قول الجمهور ، وقيل : في الواجب ، والقائلون في الواجب ، قيل : هي الزكاة المفروضة ، وجاء ذكرها هنا مجملا ، وفصلتها السنة. وقيل كان واجبا عليهم قبل فرض الزكاة أن ينفقوا ما فضل من مكاسبهم عن ما يكفيهم في عامهم ، ثم نسخ ذلك بآية الزكاة.

والعفو : ما فضل الذي لا سرف فيه ولا تقصير ، قاله الحسن ، أو : الطيب الأفضل ، قاله الربيع ، أو : الكثير ، من قوله ﴿حتى عفوا ﴾ أي : كثروا ، قال الشاعر :

ولكنا يعض السيف منهابأسوق عافيات اللحم كوم

أو : الصفو ، يقال ؛ أتاك عفوا ، أي : صفوا بلا كدر ، قال الشاعر :

خذي العفو مني تستديمي مودتيولا تنطقي في سورتي حين أغضب

". (١)

"بدل من الناس ، وهو بدل بعض من كل ، والباء في : ببعض ، متعلق بالمصدر والباء فيه للتعدية فهو مفعول ثان للمصدر ، لأن دفع يتعدى إلى واحد ثم عدى إلى ثان بالباء ، وأصل التعدية بالباء ، أن يكون ذلك في الفعل اللازم : نحو : ﴿لذهب بسمعهم﴾ فإذا كان متعديا فقياسه أن يعدى بالهمزة ، تقول : طعم زيد اللحم ، ثم تقول أطعمت زيدا اللحم ، ولا يجوز أن تقول : طعمت زيدا باللحم ، وإنما جاء ذلك قليلا بحيث لا ينقاس ، من ذلك : دفع ، وصك ، تقول : صك الحجر الحجر ، وتقول : صككت الحجر بالحجر ، أي جعلته يصكه. وكذلك قالوا : صككت الحجرين أحدهما بالآخر نظير : ﴿دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ فالباء للتعدية كالهمزة.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٢٦٠

قال سيبوية ، وقد ذكر التعدية بالهمزة والتضعيف مانصه : وعلى ذلك دفعت الناس بعضهم ببعض ، على حد قولك : ألزمت ، كأنك قلت في التمثيل : أدفعت ، كما أنك تقول : أذهبت به ، وأذهبته من عندنا ، وأخرجته ، وخرجت به معك ، ثم قال سيبوية : صككت الحجرين أحدهما بالآخر على أنه مفعول من قولك : اصطك الحجران أحدهما بالأخر ، ومثل ذلك : ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض. إنتهى كلام سيبوية.

ولا يبعد في قولك : دفعت بعض الناس ببعض ، أن تكون الباء للآلة ، فلا يكون المجرور بها مفعولا به في المعنى ، بل الذي يكون مفعولا به هو المنصوب ، وعلى قول سيبويه يكون المنصوب مفعولا به في اللفظ فاعلا من جهة المعنى وعلىأن تكون الباء للآلة يصح نسبة الفعل إليها على سبيل المجاز ، كما أنك تقول في : كتبت بالقلم ، كتبت القلم.

وأسند الفساد إلى الارض حقيقة : بالخراب ، وتعطيل المنافع ، أو مجازا : والمراد أهلها.

﴿أم كنت من العالين﴾ وجه الاستدراك هنا هو أنه لما قسم الناس إلى مدفوع ، وانه بدفعه بعضهم ببعض امتنع فساد ارض ، فيهجس في نفس من غلب وقهر عن ما يريد من الفساد في الأرض أن الله تعالى ،

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢/١٠٩

غير متفضل عليه ، إذ لم يبلغه مقاصده ومآربه ، فاستدرك أنه ، وإن لم يبلغ مقاصده هذا الطالب للفساد أن الله لدو فضل عليه ، ويحسن إليه. واندرج في عموم العالمين ، وقال تعالى : ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ وما من أحد إلا ولله عليه فضل ، ولو لم يكن إلا فضل الإختراع.

وهذا الذي أبديناه من فائدة الاستدراك هو على ما قرره أهل العلم باللسان من أن : لكن ، تكون بين متنافيين بوجه ما ويتعلق على العالمين بفضل ، لأن فعله يتعدى : بعلى ، فكذلك المصدر ، وربما حذفت : على ، مع الفعل ، تقول : فضلت فلانا أي على فلان ، وجمع بين الحذف والإثبات في قول الشاعر :

وجدنا نهشلا فضلت فقيماكفضل ابن المخاض على الفصيل

واذا عدى إلى مفعول به بالتضعيف لزمت عليه ، كقوله : ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين﴾ .

﴿تلك ءايات الله نتلوها عليك بالحقا وإنك لمن المرسليـن﴾ تلك إشارة للبعيد ، وآيات الله قيل : هي القرآن ، والأظهر أنها الآيات التي تقدمت في القصص السابق من خروج أولئك الفارين من الموت ، وإمامة الله لهم دفعة واحدة ، ثم أحياهم إحياءة واحدة ، وتمليك طالوت على بني إسرائيل وليس من أولاد ملوكهم ، والإتيان بالتابوت بعد فقده مشتملا على بقايا من إرث آل موسى وآل هارون ، وكونه تحمله الملائكة معاينة على ما نقل عن ترجمان القرآن ابن عباس ، وذلك الابتلاء العظيم بالنهر في فصل القيظ والسفر ، وإجابة من توكل على الله في النصرة ، وقتل داود جالوت ، وإيتاء الله إياه الملك والحكمة ، فهذه كلها آيات عظيمة خوارق ، تلاها الله على نبيه بالحق أي مصحوبة ، بالحق لا كذب فيها ولا انتحال ، ولا بقول كهنة ، بل مطابقا لما في كتب بني إسرائيل. ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم من هذا القصص الحظ الأوفر في الاستنصار بالله والإعداد للكفار ، وأن كثرة العدد قـد يغلبها المقل ، وأن الوثوق

٢٧٠

بالله والرجوع إليه هو الذي يعول عليه في الملمات ، ولما ذكر تعالى أنه تلا الآيات على نبيه ، أعلم أنه من المرسلين ، وأكد ذلك بأن واللام حيث أخبر بهذه الآية ، من غير قراءة كتاب ، ولا مدارسة أحبار ، ولا سماع أخبار.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٢٦٠

." (١)

---

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢/٢٠٠

"﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾ لما تقدم النهي عن إبطال الصدقة بالمن والأذى ، وشبه فاعل ذلك بالمنفق رئاء ، ومثل حاله بالصفوان المذكور ، ثم مثل حال من أنفق ابتغاء وجه الله ، أعقب ذلك كله بهذه الآية ، فقال السدي : هذا مثل آخر للمرائي وقال ابن زيد : هو مثل للمان في الصدقة ، وقال مجاهد ، وقتادة ، والربيع ، وغيرهم : للمفرط في الطاعة. وقال ابن جريج : لمن أعطي الشباب والمال ، فلم يعمل حتى سلبا وقال ابن عباس : لمن عمل أنواع الطاعات كجنة فيها من كل الثمرات ، فختمها بإساءة كإعصار ، فشبه تحسره حين لا عود ، بتحسر كبير هلكت جنته أحوج ما كان إليها ، وأعجز عن عمارتها ، وروي نحو من هذا عن عمر وقال الحسن : هذا مثل قل والله من يعقله : شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه ، أفقر ما كان إلى جنته ، وأن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا.

والهمزة للاستفهام ، والمعنى على التبعيد والنفي ، أي : ما يود أحد ذلك ؟ و: أحد ، هنا ليس المختص بالنفي وشهبه ، وإنما المعنى : أيود

٣١٣

واحد منكم ؟ على طريق البدلية.

وقرأ الحسن : جنات ، بالجمع.

﴿من نخيل وأعناب﴾ لما كان النخيل والأعناب أكرم الشجر وأكثرها منافع ، خصا بالذكر ، وجعلت الجنة منهما ، وإن كان في الجنة غيرهما ، وحيث جاء في القرآن ذكر هذا ، نص على النخيل دون الثمرة. وعلى ثمرة الكرم دون الكرم ، وذلك لأن أعظم منافع الكرم هو ثمرته دون أصله ، والنخيل كله منافعه عظيمة ، توازي منفعة ثمرته من خشبه وجريده وليفه وخوصه ، وسائر ما يشتمل عليه ، فلذلك ، والله أعلم ، اقتصر على ذكر النخيل وثمرة الكرم.

﴿تجرى من تحتها الانهار﴾ تقدم شرح هذا في أول هذه السورة.

﴿له فيها من كل الثمرات﴾ هذا يدل على أنه فيه أشجار غير النخيل والكرم ، كما ذكرنا قبل هذا الظاهر ، وأجاز الزمخشري أن يريد بالثمرات **المنافع** التي كانت تحصل له فيها.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣٠١

وهذه الجملة مركبة من مبتدأ وخبر ، فعلى مذهب الأخفش : من ، زائدة التقدير : له فيها كل الثمرات ، على إرادة التكثير. بلفظ العموم ، لا أن العموم مراد ، ولا يجوز أن تكون زائدة على مذهب الكوفيين ،

لأنهم شرطوا في زيادتها أن يكون بعدها نكرة ، نحو : قد كان من مطر ، وأما على مذهب جمهور البصريين ، فلا يجوز زيادتها ، لأنهم شرطوا أن يكون قبلها غير موجب ، وبعدها نكرة ، ويحتاج هذا إلى تقييد ، قد ذكرناه في كتاب (منهج السالك) من تأليفنا. ويتخرج مذهب جمهور البصريين على حذف المبتدأ المحذوف تقديره ، له فيها رزق ، أو : ثمرات من كل الثمرات. ونظيره في الحذف قول الشاعر :

كأنك من جمال بني أقيشتقعقع خلف رجليه بشن

التقدير : كأنك جمل من جمال بني أقيش ، حذف : جمل ، لدلالة : من جمال ، عليه ، كما حذف ثمرات لدلالة : من كل الثمرات ، عليه وكذلك ق،له تعالى ﴿وما منآ إلا له مقام معلوم﴾ أي : وما أحد منا ، فأحد مبتدأ محذوف ، و: منا ، صفة ، وما بعد إلا جملة خبر عن المبتدأ.

﴿وأصابه الكبر﴾ الظاهر أن الواو للحال ، وقد مقدرة أي وقد أصابه الكبر ، كقوله : ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم﴾ ﴿وقعدوا لو أطاعونا﴾ أي : وقد كنتم ، و: قد قعدوا ، وقيل : معناه. ويصيبه ، فعطف الماضي على المضارع لوضعه موضعه وقال الفراء : يجوز ذلك في : يود ، لأنه يتلقى مرة بأن ، ومرة بأو ، فجاز أن يقدر أحدهما مكان الآخر قال الزمخشري : وقيل ، يقال : وددت لو كان كذا ، فحمل العطف على المعنى ، كأنه قيل : أيود أحدكم لو كانت له جنة ، وأصابه الكبر ؟ انتهى.

وظاهر كلامه أن يكون : وأصابه ، معطوفا على متعلق : أيود ، وهو : أن تكون ، لأنه في معنى : لو كانت ، إذ يقال : أيود أحدكم لو كانت ؟ وهذا ليس بشيء ، لأنه ممتنع من حيث : أن يكون ، معطوفا على : كانت ، التي قبله، لو ، لأنه متعلق الود ، وأما : وأصابه الكبر ، فلا يمكن أن يكون متعلق الود ، لأن إصابة الكبر لا يوده أحد ، ولا يتمناه ، لكن يحمل قول الزمخشري على أنه : لما كان : أيود ، استفهاما ، معناه الإنكار ، جعل متعلق الودادة الجمع بين الشيئين ، وهما كون جنة له ، وأصابة الكبر إياه ، لا أن كل واحد منهما يكون مودودا على انفراده ، وإنما أنكر وداده الجمع بينهما ، وفي لفظ الإصابة معنى التأثير ، وهو أبلغ من : وكبر ، وكذلك بربوة أصابها وابل ، وعليه تراب فأصابه وابل ، ولم يأت : وبلت ، ولا توبل.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣٠١

والكبر الشيخوخة ، وعلو السن.

﴿وله ذرية ضعفآء﴾ وقرىء : ضعاف ، وكلاهما جمع : ضعيف ، كظريف وظرفاء. وظراف ، والمعنى

٣١٤

ذرية صبية صغار ، ويحتمل أن يراد بضعفاء : محاويج.
." (١)

"ومجاز التشبيه في مواضع منها ﴿نزل عليك الكتاب﴾ وحقيقة النزول طرح جرم من علو إلى أسفل ، والقرآن مثمبت في اللوح الحفوظ ، فلما أثبت في القلب صار بمنزلة جرم ألقي من علو إلى أسفل فشبه به ، وأطلق عليه لفظ الإنزال وفي قوله : ﴿لما بين يديه﴾ القرآن مصدق لما تقدمه من الكتب ، شبه بالإنسان الذي بين يديه شيء يناله شيئا فشيئا وفي قوله : ﴿من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾ أقام المصدر فيه مقام اسم الفاعل ، فجعل التوراة كالرجل الذي يوري عنك أمرا ، أي : يستره لما فيها من المعاني الغامضة ، والإنجيل شبه لما فيه من اتساع الترغيب والترهيب والمواعظ والخضوع بالعين النجلاء ، وجعل ذلك هدى لما فيه من الإرشاد ، كالطريق الذي يهديك إلى المكان الذي ترومه ، وشبه الفرقان بالجرم الفارق بين جرمين ، وفي قوله : ﴿عذاب شديد﴾ شبه ما يحصل للنفس من ضيق العذاب وألمه بالمشدود الموثق المضيق عليه ، وفي ةوله : ﴿يصوركم﴾ شبه أمره بقوله : كن أو تعلق إرادته بكونه جاء على غاية من الإحكام والصنع بمصور يمثل شيئا ، فيضم جرما إلى جرم ، ويصور منه صورة وفي قوله : ﴿منه ءايات محكمات﴾ جعل ما اتضح من معاني كتابه ، وظهرت آثار الحكمة عليه محكما ، وشبه المحكم لما فيه من أصول المعاني التي تتفرع منها فروع متعددة ترجع إليها بالأم التي ترجع إليها ما تفرع من نسلها ويؤمونها ، وشبه ما خفيت معانيه لاختلاف أنحائه كالفواتح ، والألفاظ المحتملة معاني شتى ، والأيات الدالة على أمر المعاد والحساب بالشيء المشتبه الملبس أمره الذي وجم العقل عن تكييفه ؛ وفي قوله : ﴿فى قلوبهم زيغ﴾ شبه القلب المائل عن القصد بالشيء الزائغ عن مكانه ، وفي قوله : ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ شبه المعقول من الرحمة عن إرادة الخير ، بالمحسوس من الإجرام من العوض والمعوض في الهبة وفي قوله : ﴿وقود النار﴾ شبههم بالحطب الذي لا ينتفع به إلا في الوقود. وقال تعالى : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ والحصب الحطب بلغة الحبشة ، وفي قوله : ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ شبه إحاطة عذابه بهم بالمأخوذ باليد المتصرف فيه بحكم إرادة الأخذ.
جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣٧٠
وقيل : هذه كلها استعارات ، ولا تشبيه فيها إلا ﴿كدأب ءال فرعون﴾ فإنه صرح فيه بذكر أداة التشبيه.
والاختصاص في مواضع ، منها في قوله : ﴿نزل عليك الكتاب﴾ إلى ﴿وأنزل الفرقان﴾ على من فسره

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢٣٧/٢

بالزبور ، واختص الأربعة دون بقية ما أنزل ، لأن أصحاب الكتب إذ ذاك : المؤمنون ، واليهود ، والنصارى ، وفي قوله : ﴿لا يخفى عليه شيء في الارض ولا فى السمآء﴾ خصمهما لأنهما أكبر مخلوقاته الظاهرة لنا ، ولأنهما محلان للعقلاء ، ولأن منهما أكثر **المنافع** المختصة بعباده. وفي قوله : ﴿والراسخون﴾ اختصهم بخصوصية الرسوخ في العلم بهم ؛ وفي قوله : ﴿أولوا الالباب﴾ لأن العقلاء لهم خصوصية التمييز ، والنظر ، والاعتيار. وفي قوله : ﴿لا تزغ قلوبنا﴾ اختص القلوب لأن بها صلاح الجسد وفساده ، وليس كذلك بقية الأعضاء ، ولأنها محل الإيمان ومحل العقل على قول من يقول ذلك ، وفي قوله : ﴿إنك جامع الناس ليوم﴾ وهو جامعهم في الدنيا على وجه الأرض أحياء وفي بطنها أمواتا ، لأن في ذلك اليوم الجمع الأكبر ، وهو الحشر ، ولا يكون إلا في ذلك اليوم ، ولا جامع إلا هو تعالى. وفي قوله : ﴿إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم﴾ اختص الكفار لأن المؤمنين تغني عنهم أموالهم التي ينفقونها في وجوه البر ، فهم يجنون ثمرتها في الآخرة ، وتنفعهم

٣٩٠

أولادهم في الآخرة ، يسقونهم ويكونون لهم حجابا من النار ، ويشفعون فيهم إذا ماتوا صغارا ، وينفعونهم بالدعاء الصالح كبارا. وكل هذا ورد به الحديث الصحيح.

وفي قوله : ﴿كدأب ءال فرعون﴾ خصهم بالذكر ، وقدمهم لأنهم أكثر الأمم طغيانا ، وأعظمهم تعنتا على أنبيائهم ، فكانوا أشد الناس عذابا.

". (١)

"رأس آية ، ولأنه بإزاء من للمؤمنين من الشفعاء الذين هم الملائكة والأنبياء وصالحو المؤمنين ، أي : ليس لهم كأمثال هؤلاء ، والمعنى : بانتفاء الناصرين انتفاء ما يترتب على النصر من **المنافع** والفوائد ، وإذا انتفت من جمع فانتفاؤها من واحد أولى ، وإذا كان جمع لا ينصر فأحرى أن لا ينصر واحد ، ولما تقدم ذكر معصيتهم بثلاثة أوصاف ناسب أن يكون جزاؤهم بثلاثة ، ليقابل كل وصف بمناسبة ، ولما كان الكفر بآيات الله أعظم ، كان التبشير بالعذاب الأليم أعظم ، وقابل قتل الأنبياء بحبوط العمل في الدنيا والأخرة ، ففي الدنيا بالقتل والسبي وأخذ المال والاسترقاق ، وفي الآخرة بالعقاب الدائم ، وقابل قتل الآمرين بالقسط ، بانتفاء الناصرين عنهم إذا حل بهم العذاب ، كما لم يكن للآمرين بالقسط من ينصرهم حين حل بهم قتل المعتدين ، كذلك المعتدون لا ناصر لهم إذا حل بهم العذاب.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢٩٧/٢

وفي قوله : أولئك ، إشارة إلى من تقدم موصوفا بتلك الأوصاف الذميمة ، وأخبر عنه : بالذين ، إذ هو أبلغ من الخبر بالفعل ، ولأن فيه نوع انحصار ، ولأن جعل الفعل صلة يدل على كونها معلومة للسامع ، معهودة عنده ، فإذا أخبرت بالموصول عن اسم استفاد المخاطب أن ذلك الفعل المعهود المعلوم عنده المعهود هو منسوب للمخبر عنه بالموصول ، بخلاف الإخبار بالفعل ، فإنك تخبر المخاطب بصدوده عن من أخبرت به عنه ، ولا يكون ذلك الفعل معلوما عنده ، فإن كان معلوما عنده جعلته صلة ، وأخبرت بالموصول عن الأسم.

قيل وجمعت هذه الآيات ضروبا من الفصاحة والبلاغة. أحدهما : التقديم والتأخير في : ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾ قال ابن عباس التقدير : شهد الله أن الدين عند الله الاسلام ، أنه لا إله إلا هو ، ولذلك قرأ إنه ، بالكسر : وأن الدين ، بالفتح.

وأطلق اسم السبب على المسبب في قوله ﴿بعد ما جآءهم العلم﴾ عبر بالعلم عن التوراة والإنجيل أو النبي صلى الله عليه وسلم ، على الخلاف الذي سبق.

وإسناد الفعل إلى غير فاعله في : ﴿حبطت أعمالهم﴾ وأصحاب النار.

والإيماء في قوله : ﴿بغيا بينهم﴾ فيه إيماء إلى أن النفي دائر شائع فيهم ، وكل فرقة منهم تجاذب طرفا منه.

والتعبير ببعض عن كل في : ﴿أسلمت وجهى﴾ .

والاستفهام الذي يراد به التقرير أو التوبيخ والتقريع في قوله ﴿ءأسلمتم﴾ .

والطباق المقدر في قوله : ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا ا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ ووجهه : أن الإسلام الانقياد إلى الإسلام ، والإقبال عليه ، والتولي ضد الإقبال. والتقدير : وإن تولوا فقد ضلوا ، والضلالة ضد الهداية.

والحشو الحسن في قوله ﴿بغير حق﴾ فإنه لم يقتل قط نبي بحق ، وإنما أتى بهذه الحشوة ليتأكد قبح قتل الأنبياء ، ويعظم أمره في قلب العازم عليه.

والتكرار في ﴿ويقتلون الذين﴾ تأكيدا لقبح ذلك الفعل.

والزيادة في ﴿فبشرهم﴾ زاد الفاء إيذانا بأن الموصول ضمن معنى الشرط.

والحذف في مواضع قد تكلمنا عليها فيما سبق.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤٠٧

غر ، يغر ، غرورا : خدع والغر : الصغير ، والغريرة : الصغيرة ، سميا بذلك لأنهما ينخدعان بالعجلة ، والغرة منه يقال : أخذه على غرة ، أي : تغفل وخداع ، والغرة : بياض في الوجه ، يقال منه : وجه أغر ، ورجل أغر ، وامرأة غراء. والجمع على القياس فيهما غر. قالوا : وليس بقياس وغران. قال الشاعر :
ثياب بني عوف طهارى نقيةوأوجههم عند المشاهد غران
جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤١٥
نزع ينزع : جذب ، وتنازعنا الحديث تجاذبناه ، ومنه : نزاع الميت ، ونزع إلى كذا : مال إليه وانجذب ، ثم يعبر به عن الزوال ، يقال : نزع الله عنه الشر : أزاله.
ولج يلج ولوجا ولجة وولجا ، وولج تولجا وأتلج إتلاجا قال الشاعر :
فإن القوافي يتلجن موالجاتضايق عنها أن تولجها الإبر
الامد : غاية الشيء ، ومنتهاه ، وجمعه آماد.
اللهم : هو الله إلا أنه مختص بالنداء فلا يستعمل في غيره ، وهذه الميم التي لحقته عند البصريين هي عوض من حرف النداء ، ولذلك لا تدخل عليه إلا في الضرورة. وعند الفراء : هي من قوله : يا الله أمنا بخير ، وقد أبطلوا هذا النصب في علم النحو ، وكبرت هذه اللفظة حتى حذفوا منها : أل ، فقالوا : لا هم ، بمعنى : اللهم. قال الزاجر :
لا هم إني عامر بن جهمأحرم حجا في ثياب دسم
وخففت ميمها في بعض اللغات قال :
كحلقه من أبي رياحيسمعها اللهم الكبار
الصدر : معروف ، وجمعه : صدور.
﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ قال السدي : دعا النبي صلى الله عليه وسلم اليهود إلى الإسلام ، فقال له النعمان بن أبي أوفى : هلم نخاصمك إلى الأحبار. فقال : "بل إلى كتاب الله". فقال : بل إلى الأحبار. فنزلت.
." (١)

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢/٣١٥

"﴿قل موتوا بغيظكم﴾ ظاهره : أنه صلى الله عليه وسلم أمر بأن يقول لهم ذلك. وهي صيغة أمر ، ومعناها الدعاء أن : أذن الله لنبيه أن يدعو عليهم لما يئس من إيمانهم ، هذا قول الطبري. وكثير من المفسرين قالوا : فله أن يدعو مواجهة. وقيل : أمر هو وأمته أن يواجهوهم بهذا. فعلى هذا زال معنى الدعاء ، وبقي معنى التقريع ، قاله : ابن عطية. وقيل : صورته أمر ، ومعناه الخبر ، والباء للحال أي تموتون ومعكم الغيظ وهو على جهة الذم على قبيح ما عملوه. وقال الزمخشري : دعا عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به. والمراد بزيادة الغيظ ما يغيظهم من قوة الإسلام وعزة أهله ، وما لهم في ذلك من الذل والخزي والتبار انتهى كلامه. وليس ما فسر به ظاهر قوله : قل موتوا بغيظكم ، ويكون ما قاله الزمخشري يشبه قولهم : مت بدائك ، أي أبقى الله داءك حتى تموت به. لكن في لفظ الزمخشري زيادة الغيظ ، ولا يدل عليه لفظ القرآن. قال بعض شيوخنا : هذا ليس بأمر جازم ، لأنه لو كان أمرا لماتوا من فورهم كما جاء فقال لهم الله : موتوا. وليس بدعاء ، لأنه لو أمره بالدعاء لماتوا جميعهم على هذه الصفة ، فإن دعوته لا ترد. وقد آمن منهم بعد هذه الآية كثير ، وليس بخبر لأنه لو كان خبر الوقع على حكم ما أخبر به يعني ولم يؤمن أحد بعد ، وإنما هو أمر معناه التوبيخ والتقريع كقوله : اعملوا ما شئتم ، إذا لم تستحي فاصنع ما شئت. قيل : ويجوز أن لا يكون ثم قول ، وإن يكون أمرا بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله أن يهلكوا غيظا بإعزاز الإسلام وإذلالهم به ، كأنه قيل : حدث نفسك بذلك.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٢

﴿إن الله عليما بذات الصدور﴾ قيل : يجوز أن يكون من جملة المقول ، والمعنى : أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظا إذا خلوا وقل لهم : إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم وهو مضمرات الصدور ، فلا تظنوا أن شيئا من أسراركم يخفى عليه. ويجوز أن لا تدخل تحت القول ، ومعناه : قل لهم ذلك ، ولا تتعجب من اطلاعي إياك على ما يسرون ، فإني أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو مضمرات صدورهم لم يظهروه بألسنتهم. والظاهر الأول أورد ذلك على أنه وعيد مواجهون به.

والذات لفظ مشترك ومعناه هنا أنه تأنيث ذي بمعنى صاحب. فاصله هنا عليم بالمضمرات ذوات الصدور ، ثم حذف الموصوف ، وغلبت إقامة الصفة مقامه. ومعنى صاحبة الصدور : الملازمة له التي لا تنفك عنه كما تقول : فلان صاحب فلان ، ومنه أصحاب الجنة أصحاب النار. واختلفوا في الوقف على ذات. فقال الأخفش والفراء وابن كيسان : بالتاء مراعاة لرسم المصحف. وقال الكسائي والجرمي : بالهاء لأنها تاء تأنيث.

﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ الحسنة هنا ما يسر من رخاء وخصب ونصرة وغنيمة ، ونحو ذلك من **المنافع**. والسيئة ضد ذلك. بين تعالى بذلك فرط عداوتهم حيث يسوءهم ما نال المؤمنين من الخير ، ويفرحون بما يصيبهم من الشدة. قال الزمخشري : المس مستعار لمعنى الإصابة ، فكان المعنى واحدا. ألا ترى إلى قوله : ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة﴾ الآية ﴿مآ أصابك من حسنة فمن الله ومآ أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ ﴿إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا﴾ وقال ابن عطية : ذكر الله تعالى المس في الحسنة ليبين أن بادني طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين ، ثم عادل ذلك في السيئة بلفظ الإصابة ، وهي عبارة عن التمكن. لأن الشيء المصيب لشيء هو متمكن منه ، أو فيه. فدل هذا النوع البليغ على شدة العداوة ، إذ هو حقد لا يذهب عند نزول الشدائد ، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين انتهى كلامه. والنكرة هنا في سياق الشرط بأن تعم عموم البدل ، ولم يأت معرفا لإيهام التعيين بالعهد ، ولإيهام العموم الشمولي. وقابل الحسنة بالسيئة ، والمساءة بالفرح
٤٢
وهي مقابلة بديعة.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٢
قال قتادة والربيع وابن جريج : الحسنة بظهوركم على العدو ، والغنيمة منهم ، والتتابع بالدخول في دينكم ، وخصب معاشكم. والسيئة بإخفاق سرية منكم ، أو إصابة عدو منكم ، أو اختلاف بينكم. وقال الحسن : الحسنة الألفة ، واجتماع الكلمة. والسيئة إصابة العدو ، واختلاف الكلمة. وقال ابن قتيبة : الحسنة النعمة. والسيئة المصيبة. وهذه الأقوال هي على سبيل التمثيل ، وليست على سبيل التعيين.
" (١).

"﴿ولقد صدقكم الله وعدها﴾ وقوله : ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ ﴿ولقد عفا عنكم﴾ والله فيكون
قوله : ﴿ولقد صدقكم الله وعدها﴾ وقوله : ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ ﴿ولقد عفا عنكم﴾ والله فيكون
قوله : فأثابكم مسندا إلى الله تعالى. وذكر الرسول إنما جاء في جملة حالية نعى عليهم فرارهم مع كون من اهتدوا على يده يدعوهم ، فلم يجيء مقصودا لأن يحدث عنه ، إنما الجملة التي ذكر فيها في تقدير المفرد إذ هي حال. وقال الزمخشري : فأثابكم عطف على صرفكم انتهى. وفيه بعد لطول الفصل بين المتعاطفين. والذي يظهر أنه معطوف على تصعدون ولا تلوون ، لأنه مضارع في معنى الماضي ، لأن إذ تصرف المضارع

---
(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣٣/٣

إلى الماضي ، إذ هي ظرف لما مضى. والمعنى : إذ صعدتم وما لويتم على أحد فأثابكم.
﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا مآ أصابكم﴾ اللام لام كي ، وتتعلق بقوله : فأثابكم. فقيل : لا زائدة لأنه لا يترتب على الاغتمام انتفاء الحزن. فالمعنى : على أنه غمهم ليحزنهم عقوبة لهم على تركهم موافقتهم قاله :

٨٤

أبو البقاء وغيره. وتكون كهي في قوله : ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ إذ تقديره : لأن يعلم. ويكون أعلمهم بذلك تبكيتا لهم ، وزجرا أن يعودوا لمثله. والجمهور على أن لا ثابتة على معناها من النفي. واختلفوا في تعليل الإثابة بانتفاء الحزن على ما ذكر.
فقال الزمخشري : لكيلا تحزنوا لتتمرنوا على تجرع الغموم ، وتضروا باحتمال الشدائد ، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من **المنافع** ، ولا على مصيب من المضار انتهى. فجعل العلة في الحقيقة ثبوتية ، وهي التمرن على تجرع الغموم والاعتياد لاحتمال الشدائد ، ورتب على ذلك انتفاء الحزن ، وجعل ظرف الحزن هو مستقبل لا تعلق به بقصة أحد ، بل لينتفي الحزن عنكم بعد هذه القصة. وقال ابن عطية : المعنى لتعلموا أن ما وقع بكم إنما هو بجنايتكم ، فأنتم أذيتم أنفسكم. وعادة البشر أن جاني الذنب يصبر للعقوبة ، وأكثر قلق المعاقب وحزنه إنما وقع هو مع ظنه البراءة بنفسه انتهى. وهذا تفسير مخالف لتفسير الزمخشري.
ومن المفسرين من ذهب إلى أن قوله : لكيلا تحزنوا متعلق بقوله : ولقد عفا عنكم ، ويكون الله أعلمهم بذلك تسلية لمصابهم وعوضا لهم عن ما أصابهم من الغم ، لأن عفوه يذهب كل غم. وفيه بعد لطول الفصل ، ولأن ظاهره تعلقه بمجاورة وهو فأثابكم.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٨٠
قال ابن عباس : والذي فاتهم من الغنيمة ، والذي أصابهم من الفشل والهزيمة ، ومما تحتمله الآية : أنه لما ذكر اصعادهم وفرارهم مجدين في الهرب في حال ادعاء الرسول صلى الله عليه وسلم إليه بالرجوع عن الهرب والانحياز إلى فئته ، كان الجد في الهرب سببا لاتصال الغموم بهم ، وشغلهم بأنفسهم طلبا للنجاة من الموت ، فصار ذلك أي : شغلهم بأنفسهم واغتمامهم المتصل بهم من جهة خوف القتل سببا لانتفاء الحزن على فائت من الغنيمة ، ومصاب من الجراح والقتل لإخوانهم ، كأنه قيل : صاروا في حالة من اغتمامهم واهتمامهم بنجاة أنفسهم بحيث لا يخطر لهم ببال حزن على شيء فايت ولا مصاب وإن جل ، فقد شغلهم بأنفسهم لينتفي الحزن منهم. ﴿والله خبيرا بما تعملون﴾ هذه الجملة تقتضي تهديدا ، وخص

العمل هنا وإن كان تعالى خبيرا بجميع الأحوال من الأعمال والأقوال والنيات ، تنبيها على أعمالهم من تولية الأدبار والمبالغة في الفرار ، وهي أعمال تخشى عاقبتها وعقابها. ﴿ثم أنزل عليكم منا بعد الغم أمنة نعاسا﴾ الأمنة : الأمن ، قاله : ابن قتيبة وغيره. وفرق آخرون فقالوا : الأمنة تكون مع بقاء أسباب الخوف ، والأمن يكون مع زوال أسبابه. وقرأ الجمهور : أمنة بفتح الميم ، على أنه بمعنى الأمن. أو جمع آمن كبار وبرره ، ويأتي إعرابه. وقرأ النخعي وابن محيصن : أمنة بسكون الميم ، بمعنى الأمن. ومعنى الآية : امتنان الله عليهم بأمنهم بعد الخوف والغم ، بحيث صاروا من الأمن ينامون. وذلك أن الشديد الخوف والغم لا يكاد ينام. ونقل المفسرون ما أخبرت به الصحابة من غلبة النوم الذي غشيهم كأبي طلحة : والزبير ، وابن مسعود. واختلفوا في الوقت الذي غشيهم فيه النعاس.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٨٠
." (١)

"﴿وما للظالمين من أنصار﴾ هو من قول الداعين. وقال ابن عباس : الظالمون هنا هم الكافرون ، وهو قول جمهور المفسرين. وقد صرح به في قوله : ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ وقوله : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ ويناسب هذا التفسير أن يكون ما قبله فيمن يخلد في النار ، لأن نفي الناصر إما بمنع أو شفاعة مختص بالكفار ، وأما المؤمن فالله ناصره والرسول صلى الله عليه وسلم شافعه ، وبعض المؤمنين يشفع لبعض كما ورد في الحديث. وقال الزمخشري : وما للظالمين اللام إشارة إلى من يدخل النار ، وإعلام بأن من يدخل النار ، فلا ناصر له بشفاعة ولا غيرها انتهى. وهو على طريقة الاعتزال أن من يدخل النار لا يخرج منها أبدا ، سواء كان
١٤٠
كافرا أم فاسقا ، ومن مفعوله لفعل الشرط. وحكى بعض المعربين ما نصه ، وأجاز قوم أن يكون من منصوبا بفعل دل عليه جواب الشرط وهو : فقد أخزيته. وأجاز آخرون أن يكون من مبتدأ ، والشرط وجوابه الخير انتهى. أما القول الأول فصادر عن جاهل بعلم النحو ، وأما الثاني فإعراب من مبتدأ في غاية الضعف. وأما إدخاله جواب الشرط في الخبر مع فعل الشرط فجهالة. ومن أعظم وزرا ممن تكلم في كتاب الله بغير علم.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ١٣٥
﴿ربنآ إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن ءامنوا بربكم فاامنا ﴾ سمع إن دخل على مسموع تعدي لواحد

---

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦٧/٣

نحو : سمعت كلام زيد ، كغيره من أفعال الحواس. وإن دخل على ذات وجاء بعده فعل أو اسم في معناه نحو : سمعت زيدا يتكلم ، وسمعت زيدا يقول كذا ، ففي هذه المسألة خلاف. منهم من ذهب إلى أن ذلك الفعل أو الاسم إن كان قبله نكرة كان صفة لها ، أو معرفة كان حالا منها. ومنهم من ذهب إلى أن ذلك الفعل أو الاسم هو في موضع المفعول الثاني لسمع ، وجعل سمع مما يعدي إلى واحد إن دخل على مسموع ، وإلى اثنين إن دخل على ذات ، وهذا مذهب أبي علي الفارسي. والصحيح القول الأول ، وهذا مقرر في علم النحو. فعلى هذا يكون ينادي في موضع الصفة لأن قبله نكره ، وعلى مذهب أبي علي يكون في موضع المفعول الثاني. وذهب الزمخشري إلى القول الأول قال : تقول : سمعت رجلا يقول كذا ، وسمعت زيدا يتكلم ، لتوقع الفعل على الرجل ، وتحذف المسموع لأنك وصفته بما يسمع ، أو جعلته حالا عنه ، فأغناك عن ذكره. ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد. وإن يقال : سمعت كلام فلان ، أو قوله انتهى كلامه. وقوله : ولولا الوصف أو الحال إلى آخره ليس كذلك ، بل لا يكون وصف ولا حال ، ويدخل سمع على ذات ، لا على مسموع. وذلك إذا كان في الكلام ما يشعر بالمسموع وإن لم يكن وصفا ولا حالا ، ومنه قوله تعالى : ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون﴾ أغني ذكر ظرف الدعاء عن ذكر المسموع.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ١٣٥

والمنادى هنا هو الرسول صلى الله عليه وسلم. قال تعالى : ﴿وداعيا إلى الله بإذنه﴾ ﴿ادع إلى سبيل ربك﴾ قاله ابن جريج وابن زيد وغيرهما : أو القرآن ، قاله : محمد بن كعب القرظي ، قال : لأن كل المؤمنين لم يلقوا الرسول ، فعلى الأول يكون وصفه بالنداء حقيقة ، وعلى الثاني مجازا ، وجمع بين قوله : مناديا ينادي ، لأنه ذكر الأول مطلقا وقيد الثاني تفخيما لشأن المنادى ، لأنه لا منادى أعظم من مناد ينادي للإيمان. وذلك أن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب ، أو لإطفاء الثائرة ، أو لإغاثة المكروب ، أو لكفاية بعض النوازل ، أو لبعض المنافع. فإذا قلت : ينادي للإيمان فقد رفعت من شأن المنادي وفخمته. واللام متعلقة بينادي ، ويعدي نادي ، ودعا ، وندب باللام وبالي ، كما يعدي بهما هدي لوقوع معنى الاختصاص ، وانتهاء الغاية جميعا. ولهذا قال بعضهم : إن اللام بمعنى إلى. لما كان ينادي في معنى يدعو ، حسن وصولها باللام بمعنى : إلى. وقيل : اللام لام العلة ، أي لأجل الإيمان. وقيل : اللام بمعنى الباء ، أي بالإيمان. والسماع محمول على حقيقته ، أي سمعنا صوت مناد. قيل : ومن جعل المنادي هو القرآن ، فالسماع عنده مجاز عن القبول ، وأن مفسرة التقدير : أن آمنوا. وجوز أن تكون مصدرية وصلت بفعل الأمر ، أي : بأن آمنوا. فعلى الأول لا موضع لها من الإعراب ، وعلى الثاني

لها موضع وهو الجر ، أو النصب على الخلاف. وعطف فآمنا بالفاء مؤذن بتعجيل القبول ، وتسبيب الإيمان عن السماع من غير تراخ ، والمعنى : فآمنا بك أو بربنا.
١٤١
." (١)

"وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة أنواعا من الفصاحة والبيان والبديع. الاستفهام الذي يراد به التعجب في : ألم تر في الموضعين. والخطاب العام ويراد به الخاص في : يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا وهو دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ابن صوريا وكعبا وغيرهما من الأحبار إلى الإيمان حسب ما في سبب النزول. والاستعارة في قوله : من قبل أن نطمس وجوها ، في قول من قال : هو الصرف عن الحق ، وفي : ليذوقوا العذاب ، أطلق اسم الذوق الذي هو مختص بحاسة اللسان وسقف الحلق على وصول الألم للقلب. والطباق في : فتردها على أدبارها ، والوجه ضد القفا ، وفي للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا ، وفي : إن الذين كفروا والذين آمنوا ، وفي : من آمن ومن صد ، وهذا طباق معنوي. والاستطراد في : أو نلعنهم كما لعن أصحاب السبت. والتكرار في : يغفر ، وفي : لفظ الجلالة ، وفي : لفظ الناس ، وفي : آتينا وآتيناهم ، وفي : فمنهم ومنهم ، وفي : جلودهم وجلودا ، وفي : سندخلهم وندخلهم. والتجنيس المماثل في : نلعنهم كما لعنا وفي : لا يغفر ويغفر ، وفي : لعنهم الله ومن يلعن الله ، وفي : لا يؤتون ما آتاهم آتينا وآتيناهم وفي : يؤمنون بالجبت وآمنوا أهدى. والتعجب : بلفظ الأمر في قوله : انظر كيف يفترون. وتلوين الخطاب في : يفترون أقام المضارع مقام الماضي إعلاما أنهم مستمرون على ذلك. والاستفهام الذي معناه التوبيخ والتقريع في : أم لهم نصيب وفي : أم يحسدون. والإشارة في : أولئك الذين. والتقسيم في : فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه. والتعريض في : فإذن لا يؤتون الناس نقيرا عرض بشدة بخلهم.
٢٧٥
وإطلاق الجمع على الواحد في : أم يحسدون الناس إذا فسر بالرسول ، وإقامة المنكر مقام المعرف لملاحظة الشيوع. والكثرة في : سوف نصليهم نارا. والاختصاص في : عزيزا حكيما. والحذف في : مواضع.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٢٧٥

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١١٣/٣

الزعم : قول يقترن به الاعتقاد الظني. وهو بضم الزاي وفتحها وكسرها. قال الشاعر وهو أبو ذؤيب الهذلي :

فإن تزعميني كنت أجهل فيكمفإني شريت الحلم بعدك بالجهل

وقال ابن دريد : أكثر ما يقع على الباطل. وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "مطية الرجل زعموا". وقال الأعشى :

ونبئت قيسا ولم أبلهكما زعموا خير أهل اليمن

فقال الممدوح وما هو إلا الزعم وحرمه. وإذا قال سيبويه : زعم الخليل ، فإنما يستعملها فيما انفرد الخليل به ، وكان أقوى. وذكر صاحب العين : أن الأحسن في زعم أن توقع على أن قال ، قال. وقد توقع في الشعر على الاسم. وأنشد بيت أبي ذؤيب هذا وقول الآخر :

زعمتني شيخا ولست بشيخإنما الشيخ من يدب دبيبا

ويقال : زعم بمعنى كفل ، وبمعنى رأس ، فيتعدى إلى مفعول واحد مرة ، وبحرف جر أخرى. ويقال : زعمت الشاة أي سمنت ، وبمعنى هزلت ، ولا يتعدى. التوفيق : مصدر وفق ، والوفاق والوفق ضد المخالفة.

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ سبب نزولها فيما رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وقاله : مجاهد والزهري وابن جريج ومقاتل ما ذكروا في قصة مطولة مضمونها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ مفتاح الكعبة من سادنيها عثمان بن طلحة ، وابن عمه شيبة بن عثمان بعد تأب منن عثمان ولم يكن أسلم ، فسأل العباس الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجمع له بين السقاية والسدانة ، فنزلت. فرد المفتاح إليهما وأسلم عثمان. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

٢٧٦

"خذوها ابني طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم". وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وقاله : زيد بن أسلم ، ومكحول ، واختاره أبو سليمان الدمشقي : نزلت في الأمراء أن يؤدوا الأمانة فيما ائتمنهم الله من أمر رعيته. وقيل : نزلت عامة ، وهو مروي عن : أبي ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادة.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٢٧٦

ومناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه تعالى لما ذكر وعد المؤمنين ، وذكر عمل الصالحات ، نبه على هذين العملين الشريفين اللذين من اتصف بهما كان أحرى أن يتصف بغيرهما من الأعمال الصالحة ، فأحدهما

ما يختص به الإنسان فيما بينه وبين غيره وهو أذاء الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، والثاني ما يكون بين اثنين من الفصل بينهما بالحكم العدل الخالي عن الهوى ، وهو من الأعمال العظيمة التي أمر الله بها رسله وأنبياءه والمؤمنين. ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب **المنافع** ودفع المضار ، ثم يشتغل بحال غيره ، أمر بأداء الأمانة أولا ثم بعده بالأمر بالحكم بالحق. والظاهر في : يأمركم أن الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة.
." (١)

"مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة وذلك أنه تعالى ذكر تعظيم الإحرام بالنهي عن قتل الوحش فيه بحيث شرع بقتله ما شرع وذكر تعظيم الكعبة بقوله هديا بالغ الكعبة ، فذكر تعالى في هذه الآية أنه جعل الكعبة قياما للناس أي ركز في قلوبهم تعظيمها بحيث لا يقع فيها أذى أحد ، وصارت وازعة لهم من الأذى وهم في الجاهلية الجهلاء لا يرجون جنة ولا يخافون نارا إذ لم يكن لهم ملك يمنعهم من أذى بعضهم فقامت لهم حرمة الكعبة مقام حرمة الملك هذا مع تنافسهم وتحاسدهم ومعاداتهم وأخذهم بالثأر ، ولذلك جعل الثلاثة المذكورة بعد الكعبة قياما للناس فكانوا لا يهيجون أحدا في الشهر الحرام ولا من ساق الهدي لأنه لا يعلم أنه لم يجيء لحرب ولا من خرج يريد البيت بحج أو عمرة فتقلد من لحي الشجر ولا من قضى نسكه فتقلد من شجر الحرم ، ولما بعثت قريش زمن الحديبية إلى المؤمنين الحلس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذا رجل يعظم الحرمة فألقوه بالبدن مشعرة" فلما رآها الحلس عظم عليه ذلك وقال ما ينبغي أن يصد هؤلاء ورجع عن رسالة قريش ، وجعل هنا بمعنى صير. وقيل جعل بمعنى بين وينبغي أن يحمل هذا على تفسير المعنى إذ لم ينقل جعل مرادفة لهذا المعنى لكنه من حيث التصيير يلزم منه التبيين والحكم ، ولما كان لفظ الكعبة قد أطلقه بعض العرب على غير البيت الحرام كالبيت الذي كان في خثعم يسمى كعبة اليمانية ، بين تعالى أن المراد هنا بالكعبة البيت الحرام ، وهو بدل من الكعبة أو عطف بيان ، وقال الزمخشري : البيت الحرام عطف بيان على جهة المدح لا على جهة التوضيح كما تجيء الصفة كذلك انتهى. وليس كما ذكر لأنهم ذكروا في شرط عطف البيان الجمود فإذا كان شرطه أن يكون جامدا. لم يكن فيه إشعار بمدح إذ ليس مشتقا وإنما يشعر بالمدح المشتق إلا أن يقال أنه لما وصف عطف البيان بقوله الحرام اقتضى المجموع المدح فيم كن ذلك والقيام مصدر كالصيام ويقال هذا قيام له وقوام له وكأنهم ذهبوا في قيام إلى أنه ليس مصدرا بل هو اسم كالسواك فلذلك صحت الواو قال : قوام دنيا وقيام دين. إذا

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣/٢٢٥

لحقت تاء التأنيث لزمت التاء قالوا القيامة واختلفوا في تفسير قوله

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٥

﴿قياما للناس﴾ فقيل باتساع الرزق عليهم إذ جعلها تعالى مقصودة من جميع الآفاق وكانت مكة لا زرع ولا ضرع ، وقيل بامتناع الإغارة في الحرم ، وقيل بسبب صيرورتهم أهل الله فكل أحد يتقرب إليهم ، وقيل بما يقام فيها من المناسك وفعل العبادات ، وروي عن ابن عباس ، وقيل : يأمن من توجه إليها وروي عنه ، وقيل بعدم أذى من أخرجوه من جر جريرة ولجأ إليها ، وقيل ببقاء الدين ما حجت واستقبلت ، وقال عطاء لو تركوه عاما واحدا لم ينظروا

٢٥

ولم يؤخروا. وقال أبو عبد الله الرازي لا يبعد حمله على جميع الوجوه ، لأن قوام المعيشة بكثرة **المنافع** وبدفع المضار وبحصول الجاه والرئاسة وبحصول الدين والكعبة سبب لحصول هذه الأقسام انتهى.

وقرأ ابن عامر قيما بغير ألف فإن كان أصله قياما بالألف وحذفت فقيل حكم هذا أن يجيء في الشعر وإن كان مصدرا على فعل فكان قياسه أن تصح فيه الواو كعوض ، وقرأ الجحدري قيما بفتح القاف وتشديد الياء المكسورة وهو كسيد اسم يدل على ثبوت الوصف من غير تقييد بزمان ولفظ الناس عام ، فقيل المراد العموم ، وقيل المراد العرب ، قال أبو عبد الله بن أبي الفضل وحس هذا المجاز أن أهل كل بلدة إذا قالوا الناس فعلوا كذا لا يريدون بذلك إلا أهل بلدتهم فلذلك خوطبوا على وفق عادتهم انتهى. والشهر الحرام ظاهره الإفراد ، فقيل هو ذو الحجة وحده وبه بدأ الزمخشري قال لأن لاختصاصه من بين الأشهر المحرمة يرسم الحج شأنا قد عرفه الله انتهى ، وقيل المراد الجنس فيشمل الأشهر الحرم الأربعة الثلاثة بإجماع من العرب وشهر مضر وهو رجب كان كثير من العرب لا يراه ولذلك يسمى شهر الله إذ كان تعالى قد ألحقه في الحرمة بالثلاثة فنسبه وسدده ، والمعنى شهر آل الله وهو شهر قريش وله يقول عوف بن الأحوص :

وشهر بني أمية والهداياإذا سيقت مصرحها الدماء

ولما كانت الكعبة موضعا مخصوصا لا يصل إليه كل خائف جعل الله الأشهر الحرم والهدي والقلائد قياما للناس كالكعبة.

". (١)

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢٠/٤

"ولما كان الكفار لا ينفعهم الاشتراك في العذاب ولا يتسلون بذلك ، نفى ذلك تعالى عنهم فقال : ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون﴾ قيل : كان قوم يقولون : يجب أن يكون ملكا من الملائكة على سبيل الاستهزاء ، فيضيق قلب الرسول عند سماع ذلك فسلاه الله تعالى بإخباره أنه قد سبق للرسل قبلك استهزاء قومهم بهم ليكون سببا للتخفيف عن القلب ، وفي قوله تعالى : ﴿فحاق﴾ إلى آخره ، إخبار بما جرى للمستهزئين بالرسل قبلك ووعيد متيقن لمن استهزأ بالرسول عليه السلام وتثبيت للرسول على عدم اكتراثه بهم ، لأن مآلهم إلى التلف والعقاب الشديد المرتب على الاستهزاء ، وأنه تعالى يكفيه شرهم وإذايتهم كما قال تعالى : ﴿إنا كفيناك المستهزءين﴾ ومعنى ﴿سخروا ﴾ استهزؤوا إلا أن استهزأ تعدى بالباء وسخر بمن كما قال : ﴿إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾ وبالباء تقول : سخرت به وتكرر الفعل هنا لخفة الثلاثي ولم يتكرر في ﴿ولقد استهزى ﴾ فكان يكون التركيب ، ﴿فحاق بالذين﴾ استهزؤوا بهم لثقل استفعل ، والظاهر في ﴿مآ﴾ أن تكون بمعنى الذي وجوزوا أن تكون ﴿مآ﴾ مصدرية ، والظاهر أن الضمير في ﴿منهم﴾ عائد على الرسل ، أي ﴿فحاق بالذين سخروا ﴾ من الرسل وجوز الحوفي وأبو البقاء أن يكون عائدا على غير الرسل. قال الحوفي : في أمم الرسل. وقال أبو البقاء : على المستهزئين ، ويكون ﴿منهم﴾ حالا من ضمير الفاعل في ﴿سخروا ﴾ وما قالاه وجوزاه ليس بجيد ، أما قول الحوفي فإن الضمير يعود على غير مذكور وهو خلاف الأصل ، وأما قول أبي البقاء فهو أبعد لأنه يصير المعنى : ﴿فحاق بالذين سخروا ﴾ كائنين من المستهزئين فلا حاجة لهذه الحال لأنها مفهومة من قوله ﴿سخروا ﴾ وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة بكسر دال ﴿ولقد استهزى ﴾ على أصل التقاء الساكنين. وقرأ باقي السبعة بالضم اتباعا ومراعاة لضم التاء إذ الحاجز بينهما ساكن ، وهو حاجز غير حصين.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٦٥

﴿قل سيروا فى الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ لما ذكر تعالى ما حل بالمكذبين المستهزئين وكان المخاطبون بذلك أمة أمية ، لم تدرس الكتب ولم تجالس العلماء فلها أن تظافر في الإخبار بهلاك من أهلك بذنوبهم أمروا بالسير في الأرض ، والنظر فيما حل بالمكذبين ليعتبروا بذلك وتتظافر مع الإخبار الصادق الحس فللرؤية من مزيد الاعتبار ما لا يكون كما قال بعض العصريين :

لطائف معنى في العيان ولم تكنلتدرك إلا بالتزاور واللقا

والظاهر أن السير المأمور به ، هو الانتقال من مكان إلى مكان وإن النظر المأمور به ، هو نظر العين وإن الأرض هي ما قرب من بلادهم من ديار الهالكين بذنوبهم كأرض عاد ومدين ومدائن قوم لوط وثمود. وقال

قوم : السير والنظر هنا ليسا حسيين بل هما جولان الفكر والعقل في أحوال من مضى من الأمم التي كذبت رسلها ، ولذلك قال الحسن : سيروا في الأرض لقراءة القرآن أي : اقرؤوا القرآن وانظروا ما آل إليه أمر المكذبين ، واستعارة السير ﴿فى الارض﴾ لقراءة القرآن فيه بعد ، وقال قوم : ﴿الارض﴾ هنا عام ، لأن في كل قطر منها آثارا لهالكين وعبرا للناظرين وجاء هنا خاصة ﴿ثم انظروا ﴾ بحرف المهلة وفيما سوى ذلك بالفاء التي هي للتعقيب. وقال الزمخشري : في الفرق جعل

٨٠

النظر متسببا عن السير فكان السير سببا للنظر ، ثم قال : فكأنه قيل : ﴿سيروا ﴾ لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين ، وهنا معناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع ، وإيجاب النظر في آثار الهالكين ونبه على ذلك بـ﴿ثم﴾ لتباعد ما بين الواجب والمباح ، انتهى.

وما ذكره أولا متناقض لأنه جعل النظر متسببا عن السير ، فكان السير سببا للنظر ثم قال : فكأنما قيل : ﴿سيروا ﴾ لأجل النظر فجعل السير معلولا بالنظر فالنظر سبب له فتناقضا ، ودعوى أن الفاء تكون سببية لا دليل عليها وإنما معناها التعقيب فقط وأما مثل ضربت زيدا فبكى وزنى ماعز فرجم ، فالتسبيب فهم من مضمون الجملة لأن الفاء موضوعة له وإنما يفيد تعقيب الضرب بالبكاء وتعقيب الزنا بالرجم فقط ، وعلى تسليم أن الفاء تفيد التسبيب فلم كان السير هنا سير إباحة وفي غيره سير واجب ؟ فيحتاج ذلك إلى فرق بين هذا الموضع وبين تلك المواضع.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٦٥

". (١)

"فطر خلق وابتدأ من غير مثال ، وعن ابن عباس ما كنت أعرف معنى فطر حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أي اخترعتها وأنشأتها ، وفطر أيضا شق يقال فطر ناب البعير ومنه هل ترى من فطور ؟ وقوله : ينفطرن منه. كشف الضر : أزاله وكشفت عن ساقيها أزالت ما يسترهما. القهر : الغلبة والحمل على الشيء من غير اختيار. الوقر : الثقل في السمع يقال وقرت أذنه بفتح القاف وكسرها ، وسمع أذن موقورة فالفعل على هذا وقرت والوقر بفتح الواو وكسرها. أساطير : جمع أسطارة وهي الترهات قاله أبو عبيدة. وقيل : أسطورة كأضحوكة. وقيل : واحد أسطور. وقيل : إسطير وإسطيرة. وقيل : جمع لا واحد له مثل عباديد. وقيل : جمع الجمع يقال سطر وسطر ، فمن قال : سطر جمعه في القليل

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦٤/٤

على أسطر وفي الكثير على سطور ومن قال : سطر جمعه على أسطار ثم جمع أسطارا على أساطير قاله يعقوب. وقيل : هو جمع جمع الجمع ، يقال : سطر وأسطر ثم أسطار ثم أساطير ذكر ذلك عن الزجاج ، وليس أسطار جمع أسطر بل هما جمعا قلة لسطر. قال ابن عطية : وقيل هو اسم جمع لا واحد له من لفظه

٨٤

كعباد يد وشماطيط ؛ انتهى. وهذا لا تسميه النحاة اسم جمع لأنه على وزن الجموع بل يسمونه جمعا وإن لم يلفظ له بواحد. نأى نأيا بعد وتعديته لمفعول منصوب بالهمزة لا بالتضعيف ، وكذا ما كان مثله مما عينه همزة. وقف على كذا : حبس ومصدر المتعدي وقف ومصدر اللازم وقوف فرق بينهما بالمصدر. البغت والبغته : الفجأة يقال بغتة يبغته أي فجأه يفجأه وهي مجيء الشيء سرعة من غير جعل بالك إليه وغير عامك بوقت مجيئه. فرط قصر مع القدرة على ترك التقصير. وقال أبو عبيد : فرط ضبع. وقال ابن بحر : فرط سبق والفارط السابق ، وفرط حلى السبق لغيره. الأوزار : الآثام والخطايا وأصله الثقل من الحمل ، وزرته جملته وأوزار الحرب أثقالها من السلاح ، ومنه الوزي,ر لأنه يحمل عن السلطان أثقال ما يسند إليه من تدبير ملكه. اللهو : صرف النفس عن الجد إلى الهزل يقال منه لها يلهو ولهي عن كذا صرف نفسه عنه ، والمادة واحدة انقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها نحو شقي ورضي. قال المهدوي : الذي معناه الصرف لامه ياء بدليل قولهم لهيان ولام الأول واو ، انتهى. وهذا ليس بشيء لأن الواو في التثنية انقلبت ياء وليس أصلها الياء ، ألا ترى إلى تثنية شج شجيان وهو من ذوات الواو من الشجو.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٨٤

﴿قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والارض﴾ لما تقدم أنه تعالى اخترع السموات والأرض ، وأنه مالك لما تضمنه المكان والزمان أمر تعالى نبيه أن يقول لهم ذلك على سبيل التوبيخ لهم أي من هذه صفاته هو الذي يتخذ وليا وناصرا ومعينا لا الآلهة التي لكم ، إذ هي لا تنفع ولا تضر لأنها بين جماد أو حيوان مقهور ، ودخلت همزة الاستفهام على الاسم دون الفعل لأن ال,إنكار في اتخاذ غير الله وليا لا في اتخاذ الولي كقولك لمن ضرب زيدا وهو ممن لا يستحق الضرب بل يستحق الإكرام أزيدا ضربت ، تنكر عليه أن كون مثل هذا يضرب ونحو ، ﴿أفغير الله تأمروانى أعبد أيها الجاهلون﴾ ﴿أن ءاذن لكم﴾ وقال الطبري : وغيره أمر أن يقول هذه المقالة للكفرة الذين دعوه إلى عبادة أوثانهم ، فتجيء الآية على هذا جوابا لكلامهم ، انتهى. وهذا يحتاج إلى سند في أن سبب نزول هذه الآية هو ما ذكره وانتصاب غير على

أنها مفعول أول لاتخذ. وقرأ الجمهور ﴿فاطر﴾ فوجهه ابن عطية والزمخشري ونقلها الحوفي على أنه نعت لله ، وخرجه أبو البقاء على أنه بدل وكأنه رأى أن الفضل بين المبدل منه والبدل أسهل من الفصل بين المنعوت والنعت ، إذ البدل على المشهور هو على تكرار العامل وقرأ ابن أبي عبلة برفع الراء على إضمار هو. قال ابن عطية : أو على الابتداء ؛ انتهى. ويحتاج إلى إضمار خبر ولا دليل عءى حذفه وقرىء شاذا بنصب الراء وخرجه أبو البقاء على أنه صفة لولي على إرادة التنوين أو بدل منه أو حال ، والمعنى على هذا أأجعل ﴿فاطر السماوات والارض﴾ غير الله ، انتهى. والأحسن نصبه على المدح. وقرأ الزهري فطر جعله فعلا ماضيا.

﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ أي يرزق ولا يرزق كقوله : ﴿مآ أريد منهم من رزق ومآ أريد أن يطعمون﴾ والمعنى أن المنافع كلها من عند الله ، وخص الإطعام من بين أنواع الانتفاعات لمس الحاجة إليه كما خص الربا بالأكل وإن كان المقصود الانتفاع بالربا. وقرأ مجاهد وابن جبير والأعمش وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وأبو عمرو وفي رواية عنه

٨٥

". (١)

"﴿وما الحيواة الدنيآ إلا لعب ولهوا وللدار الاخرة خير للذين يتقونا أفلا تعقلون﴾ لما ذكر قولهم وقالوا : ﴿إن هى إلا حياتنا الدنيا﴾ ذكر مصيرها وإن منتهى أمرها أنها فانية منقضية عن قريب ، فصارت شبيهة باللهو واللعب إذ هما لا يدومان ولا طائل لهما كما أنها لا طائل لها ، فاللهو واللعب اشتغال بما لا غنى به ولا منفعة كذلك هي الدنيا بخلاف الاشتغال بأعمال الآخرة فإنها التي تعقب المنافع والخيرات. وقال الحسن : في الكلام حذف التقدير وما أهل الحياة إلا أهل لعب ولهو. وقيل : التقدير وما أعمال الحياة. وقال ابن عباس : هذه حياة الكافر لأنه يزجيها في غرور وباطل ، وأما حياة المؤمن فتطوى على أعمال صالحة فلا تكون لعبا ولهوا وفي الحديث : "ما أنا من الدد ولا الدد مني" ، والدد اللعب واللعب واللهو قيل : هما بمعنى واحد وكرر تأكيدا لذم الدنيا. وقال الرماني : اللعب عمل يشغل عما ينتفع به إلءى ما لا ينتفع به ، واللهو صرف النفس عن الجد إلى الهزل يقال : لهيت عنه أي صرفت نفسي عنه ورد عليه المهدوي ، فقال هذا : فيه ضعف وبعد لأن الذي معناه الصرف لامه ياء بدليل قولهم : لهيان ولام الأول واو ؛ انتهى. وهذا التضعيف ليس بشيء لأن فعل من ذوات الواو تنقلب فيه الواو ياء كما تقول : شقي

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤/٦٧

فلان وهو من الشقوة فكذلك لهي ، أصله لهو من ذوات الواو فانقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها فقالوا : لهي كما قالوا : خلى بعيني وهو من الحلو وأما استدلاله بقولهم في التثنية لهيان ففاسد لأن التثنية هي كالفعل تنقلب فيه الواو ياء لأن مبناها على المفرد وهي تنقلب في المفرد في قولهم : له اسم فاعل من لهي كما قالوا : شج وهو من
١٠٨
الشجو ، وقالوا في تثنيته : شجيان بالياء وقد تقدم ذكر شيء من هذا في المفردات. وقرأ ابن عامر وحده ولدار الآخرة على الإضافة ، وقالوا : هو كقولهم : مسجد الجامع فقيل هو من إضافة الموصوف إلى صفته. وقال الفراء : هي إضافة الشيء إلى نفسه كقولك : بارحة الأولى ويوم الخميس وحق اليقين ، وإنما يجوز عند اختلاف اللفظين ؛ انتهى. وقيل : من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه أي ولدار الحياة الآخرة ، ويدل عليه وما الحياة الدنيا وهذا قول البصريين ، وحسن ذلك أن هذه الصفة قد استعملت استعمال الأسماء فوليت العوامل كقوله
جزء : ٤ رقم الصفحة : ٨٤
﴿وإن لنا للاخرة والاولى ﴾ وقوله ﴿وللاخرة خير لك من الاولى ﴾ . وقرأ باقي السبعة ﴿وللدار الاخرة﴾ بتعريف الدار بأل ورفع ﴿الاخرة﴾ نعتا لها و﴿خير﴾ هنا أفعل التفضيل وحسن حذف المفضل عليه لوقوعه خبرا والتقدير من الحياة الدنيا ، وقيل : ﴿خير﴾ هنا ليست للتفضيل وإنما هي كقوله : ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا﴾ إذ لا اشتراك بين المؤمن والكافر في أصل الخير ، فيزيد المؤمن عليه بل هذا مختص بالمؤمن. والدار الآخرة قال ابن عباس : هي الجنة. وقيل ذلك مجاز عبر به عن الإقامة في النعيم كما قال الشاعر :
لله أيام نجد والنعيم بهاقد كان دارا لنا أكرم به دارا
." (١)

"﴿والنخل﴾ وما بعده في قوله : ﴿جنات معروشات وغير معروشات﴾ فاندرج في ﴿جنات﴾ وخص بالذكر وجرد تعظيما لمنفعته والامتنان به ، ومن خص الجنات بقسمها بالكرم قال : ذكر النخل وما بعده ذكر أنواع أخبر تعالى بأنه أنشأها واختلاف أكله وهو المأكول ، هو بأن كل نوع من أنواع النخل والزرع طعما ولونا وحجما ورائحة يخالف به النوع الآخر والمعنى مختلفا أكل ثمره وانتصب مختلفا على أنه حال

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤/٨٨

مقدرة ، لأنه لم يكن وقت الإنشاء مختلفا. وقيل : هي حال مقارنة وذلك بتقدير حذف مضاف قبله تقديره وثمر النخل وحب الزرع والضمير في ﴿أكله﴾ عائد على ﴿ينابت لكم به الزرع والزيتون والنخيل﴾ وأفرد لدخوله في حكمه بالعطفية قال معناه الزمخشري : وليس بجيد لأن العطف بالواو لا يجوز إفراد ضمير المتعاطفين. وقال الحوفي : والهاء في ﴿أكله﴾ عائدة على ما تقدم من ذكر هذه الأشياء المنشآت ؛ انتهى. وعلى هذا لا يكون ذو الحال ﴿ينابت لكم به الزرع والزيتون والنخيل﴾ فقط بل جميع ما أنشأ لاشتراكها كلها في اختلاف المأكول ، ولو كان كما زعم لكان التركيب مختلفا أكلها إلا إن أخذ ذلك على حذف مضاف أي ثمر جنات وروعي هذا المحذوف فقيل : ﴿أكله﴾ بالإفراد على مراعاته فيكون ذلك نحو قوله : ﴿أو كظلمات فى بحر لجى﴾ يغشاه موج أو كذي ظلمات ، ولذلك أعاد الضمير في ﴿يغشاه﴾ عليه ، والظاهر عوده على أقرب مذكور وهو ﴿الزرع﴾ ويكون قد حذفت حال ﴿النخل﴾ لدلالة هذه الحال عليها ، التقدير ﴿والزرع مختلفا أكله﴾ والزرع مختلفا أكله كما تأول بعضهم في قولهم : زيد وعمرو قائم أي زيد قائم وعمرو قائم ، ويحتمل أن يكون الحال مختصة بالزرع لأن أنواعه مختلفة الشكل جدا كالقمح والشعير والذرة والقطينة والسلت والعدس والجلبان والأرز وغير ذلك ، بخلاف النخل فإن الثمر لا يختلف شكله إلا بالصغر والكبر ، وتقدم الكلام على قوله : ﴿والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه﴾ فأغني عن إعادته.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٣٤

﴿كلوا من ثمرها إذآ أثمر﴾ لما كان مجيء تلك الآية في معرض الاستدلال بها على الصانع وقدرته والشحر وإعادة الأرواح إلى الأجساد بعد العدم

٢٣٦

وإبراز الجسد وتكوينه من العظم الرميم وهو عجب الذنب ، قال : انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إشارة إلى الإيجاد أولا وإلى غايته وهنا لما كان معرض الغاية الامتنان وإظهار الإحسان بما خلق لنا قال : ﴿كلوا من ثمره﴾ فحصل بمجموعهما الحياة الأبدية السرمدية والحياة الدنيوية السريعة الانقضاء ، وتقدم النظر وهو الفكر على الأكل لهذا السبب وهذا أمر بإباحة الأكل ويستدل به على أن الأصل في **المنافع** الإباحة والإطلاق وقيده بقوله : ﴿إذآ أثمر﴾ وإن كان من المعلوم إنه إذا لم يثمر فلا أكل تنبيها على أنه لا ينتظر

به محل إدراكه واستوائه ، بل متى أمكن الأكل منه فعل.
". (١)

"﴿ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيها معايشا قليلا ما تشكرون﴾ تقدم معنى ﴿مكناكم﴾ في قوله في أول الأنعام ﴿مكناهم فى الارض﴾ والخطاب راجع للذين خوطبوا بقوله تعالى ﴿اتبعوا مآ أنزل إليكم من ربكم﴾ وما بينهما أورد مورد الاعتبار والإيقاظ بذكر ما آل إليه أمرهم في الدنيا وما يؤول إليه في الآخرة والمعائش جمع معيشة ويحتمل أن يكون وزنها مفعلة ومفعلة بكسر العين وضمها قالهما سيبويه. وقال الفراء : معيشة بفتح عين الكلمة والمعيشة ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرهما مما يتوصل به إلى ذلك وهي في الأصل مصدر تنزل منزلة الآلات. وقيل على حذف مضاف التقدير أسباب معايش كالزرع والحصد والتجارة وما يجري مجرى ذلك وسماها معايش لأنها وصلة إلى ما يعاش به ، وقيل المعائش وجوه **المنافع** وهي إما يحدثه الله ابتداء كالثمار أو ما يحدثه بطريق اكتساب من العدو وكلاهما يوجب الشكر ، وقرأ الجمهور : ﴿معايش﴾ وهو القياس لأن الياء في المفرد هي أصل لا زائدة فتهمز وإنما تهمز الزائدة نحو : صحائف في صحيفة ، وقرأ الأعرج وزيد بن علي والأعمش وخارجة عن نافع وابن عامر في رواية : معائش بالهمزة وليس بالقياس لكنهم رووه وهم ثقات فوجب قبوله وشذ هذا الهمز ، كما شذ في منابر جمع منارة وأصلها منورة وفي مصائب جمع مصيبة وأصلها مصوبة وكان القياس مناور ومصاوب. وقد قالوا مصاوب على الأصل كما قالوا في جمع مقامة مقاوم ومعونة معاون ، وقال الزجاج : جميع نحاة البصرة تزعم أن همزها خطأ ولا أعلم لها وجها إلا التشبيه بصحيفة وصحائف ولا ينبغي التعويل على هذه القراءة. وقال المازني : أصل أخذ هذه القراءة عن نافع ولم يكن يدري ما العربية وكلام العرب التصحيح في نحو هذا انتهى. ولسنا متعبدين بأقوال نحاة البصرة. وقال الفراء : ربما همزت العرب هذا وشبهه يتوهمون أنها فعلية فيشبهون مفعلة بفعيلة انتهى. فهذا نقل من الفراء عن العرب أنهم ربما يهمزون هذا وشبهه وجاء به نقل القراءة الثقات ابن عامر وهو عربي صراح وقد أخذ القرآن عن عثمان قبل ظهور اللحن والأعرج وهو من كبار قراء التابعين وزيد بن علي وهو من الفصاحة والعلم بالمكان الذي قل أن يدانيه في ذلك أحد ، والأعمش وهو من الضبط والإتقان والحفظ والثقة بمكان ، ونافع وهو قد قرأ على سبعين من التابعين وهم من الفصاحة والضبط والثقة بالمحل الذي لا يجهل ، فوجب قبول ما نقلوه إلينا ولا مبالاة بمخالفة نحاة البصرة في مثل هذا ، وأما قول المازني أصل أخذ هذه القراءة عن نافع فليس بصحيح لأنها نقلت عن ابن

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤/١٩١

عامر وعن الأعرج وزيد بن علي والأعمش وأما قوله إن نافعا لم يكن يدري ما العربية فشهادة على النفي ولو فرضنا أنه لا يدري ما العربية وهي هذه الصناعة التي يتوصل بها إلى التكلم بلسان العرب فهو لا يلزمه ذلك إذ هو فصيح متكلم بالعربية ناقل للقراءة عن العرب الفصحاء وكثير من هؤلاء النحاة يسيئون الظن

٢٧١

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٦٤

(١) ".

"قال أبو منصور الجواليقي : إذا أرادوا أن يذكروا ما يهددوا به مع أوعدت جاؤوا بالباء فقالوا : أوعدته بالضرب ولا يقولون أعدته الضرب والصد يمكن أن يكون حقيقة في عدم التمكين من الذهاب إلى الرسول ليسمع كلامه ويمكن أن يكون مجازا عن الإيعاد من الصاد بوجه ما أوعن وعد المصدود **بالمنافع** على تركه و﴿من ءامن﴾ مفعول بتصدون على إعمال الثاني ومفعول ﴿توعدون﴾ ضمير محذوف والضمير في ﴿به﴾ الظاهر أنه على ﴿سبيل الله﴾ وذكره لأن السبيل تذكر وتؤنث ، وقيل عائد على الله ، وقال الزمخشري : فإن قلت : إلام يرجع الضمير في آمن به ، قلت : إلى كل صراط تقديره توعدون من آمن به وتصدون عنه فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير زيادة في تقبيح أمرهم دلالة على عظم ما يصدون عنه انتهى وهذا تعسف في الإعراب لا يليق بأن يحمل القرآن عليه لما فيه من التقديم والتأخير ووضع الظاهر موضع المضمر من غير حاجة إلى ذلك وعود الضمير على أبعد مذكور مع إمكان عوده على أقرب مذكور الإمكان السائغ الحسن الراجح وجعل ﴿من ءامن﴾ منصوبا بتوعدون فيصير من إعمال الأول وهو قليل.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٣٣٧

وقد قال النحاة أنه لم يرد في القرآن لقلته ولو كان من إعمال الأول للزم ذكر الضمير في الفعل الثاني وكان يكون التركيب أو وتصدونهم إذ هذا الضمير لا يجوز حذفه على قول الأكثرين إلا ضرورة على قول بعض النحاة يحذف في قليل من الكلام ويدل على ﴿والصابئين من ءامن﴾ منصوب بتصدون الآية الأخرى وهي قوله : ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من ءامن﴾ ولا يحذف مثل هذا الضمير إلا في شعر وأجاز بعضهم حذفه على قلة مع هذه التكليفات المضافة إلى ذلك فكان جديرا بالمنع لما في ذلك من التعقيد البعيد عن الفصاحة وأجاز ابن عطية أن يعود على شعيب في قول من رأى القعود على الطريق للرد عن شعيب وهذا بعيد لأن القائل ﴿ولا تقعدوا ﴾ وهو شعيب فكان يكون التركيب من آمن بي ولا يسوغ

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤/٢٢٠

هنا أن يكون التفافا لو قلت : يا هند أنا أقول لك لا تهيني من أكرمه تريد من أكرمني لم يصح وتقدم تفسير مثل قوله ﴿وتبغونها عوجا ﴾ في آل عمران.

٣٣٩

﴿إذ كنتم قليلا فكثركم﴾ قال الزمخشري ﴿إذ﴾ مفعول به غير ظرف أي ﴿واذكروا ﴾ على جهة الشكر وقت كونكم ﴿قليلا﴾ عددكم ﴿فكثركم﴾ الله ووفر عددكم انتهى ؛ وذكر غيره أنه منصوب على الظرف فلا يمكن أن يعمل فيه ﴿واذكروا ﴾ لاستقبال اذكروا وكون ﴿إذ﴾ ظرفا لما مضى والقلة والتكثير هنا بالنسبة إلى الأشخاص أو إلى الفقر والغنى أو إلى قصر الأعمار وطولها أقوال ثلاثة أظهرها الأول. قيل : إن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا وفشوا ، وقال الزمخشري : إذ كنتم أقلة أذلة فأعزكم بكثرة العدد والعدد انتهى ولا ضرورة تدعو إلى حذف صفة وهي أذلة ولا إلى تحميل قوله ﴿فكثركم﴾ معنى بالعدد ألا ترى أن القلة لا تستلزم الذلة ولا الكثرة تستلزم العز ، وقال الشاعر :

تعيرنا أنا قليل عديدنافقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارناعزيز وجار الأكثرين ذليل

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٣٣٧

وقيل : المراد مجموع الأقوال الأربعة فإنه تعالى كثر عددهم وأرزاقهم وطول أعمارهم وأعزهم بعد أن كانوا على مقابلاتها. ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ هذا تهديد لهم وتذكير بعاقبة من أفسد قبلهم وتمثيل لهم بمن جل به العذاب من قوم نوح وهود وصالح ولوط وكانوا قريبي عهد بما أجاب المؤتفكة.

﴿وإن كان طائفة منكم ءامنوا بالذى أرسلت بها وطآافة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ هذا الكلام من أحسن ما تلطف به في المحاورة إذ برز المتحقق في صورة المشكوك فيه وذلك أنه قد آمن به طائفة بدليل قول المستكبرين عن الإيمان لنخرجنك

٣٤٠

" (١).

"التعزير قال يونس بن حبيب التعزير هو الثناء والمدح. الانبجاس العرق. قال أبو عمرو بن العلاء : انبجست عرقت وانفجرت سالت ، وقال الواحدي الانبجاس الانفجار يقال : نجس وانبجس ، الحوت معروف يجمع في القلة على أخوات وفي الكثرة على حيتان وهو قياس مطرد في فعل واوي العين نحو عود

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢٧٦/٤

وأعواد وعيدان.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٤٠٣

﴿الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ . هذا من بقية خطابه تعالى لموسى عليه السلام وفيه تبشير له ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وذكر لصفاته وإعلام له أيضا أنه ينزل كتابا يسمى الإنجيل ومعنى الاتباع الاقتداء فيما جاء به اعتقادا وقولا وفعلا وجمع هنا بين الرسالة والنبوة لأن الرسالة في بني آدم أعظم شرفا من النبوة أو لأنها بالنسبة إلى الآدمي والملك أعم فبدىء به والأمي الذي هو على صفة أمة ، العرب إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب فأكثر العرب لا يكتب ولا يقرأ قاله الزجاج ، وكونه أميا من جملة المعجز ، وقيل : نسبة إلى أم القرى وهي مكة ، وروي عن يعقوب وغيره أنه قرأ الأمي بفتح الهمزة وخرج على أنه من تغيير النسب والأصل الضم كما قيل في النسب إلى أمية أموي بالفتح أو على أنه نسب إلى المصدر من أم ومعناه المقصود أي لأن هذا النبي مقصد للناس وموضع أم ، وقال أبو الفضل الرازي : وذلك مكة فهو منسوب إليه لكنها ذكرت إرادة للحرم أو الموضع ومعنى يجدونه أي يجدون وصفه ونعته ، قال التبريزي : في التوراة أي سأقيم له نبيا من إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فيه ويقول لهم كلما أوصيته وفيها وأما النبي فقد باركت عليه جدا جدا وسأدخره لأمة عظيمة وفي الإنجيل يعطيكم الفارقليط آخر يعطيكم معلم الدهر كله ، وقال المسيح : أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه ويمدحني ويشهد لي ويحتمل أن يكون بأمرهم بالمعروف إلى آخره متعلقا بيجدونه فيكون في موضع الحال على سبيل التجوز فيكون حالا مقدرة ويحتمل أن يكون من وصف النبي كأنه قيل : الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وكذا وكذا ، وقال أبو علي يأمرهم : تفسير لما كتب من ذكره كقوله : خلقه من تراب ولا يجوز أن يكون حالا من الضمير في يجدونه لأن الضمير للذكر والاسم والاسم والذكر لا يأمران ، قال ابن عباس وعطاء : يأمرهم بالمعروف أي بخلع الأنداد ومكارم الأخلاق وصلة الأرحام ، وقال مقاتل : الإيمان ، وقيل : الحق ، وقال الزجاج : كل ما عرف بالشرع والمنكر ، قال ابن عباس : عبادة الأوثان وقطع الأرحام ، وقال مقاتل : الشرك ، وقيل : الباطل ، وقيل : الفساد ومبادىء الأخلاق ، وقيل : القول في صفات الله بغير علم والكفر بما أنزل وقطع الرحم والعقوق.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٤٠٣

﴿ويحل لهم الطيبات﴾ تقدم ذكر الخلاف في الطيبات

في قوله كلوا من طيبات أهي الحلال أو المستلذ وكلاهما قيل هنا ، وقال الزمخشري : ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها أو ما طاب في الشريعة واللحم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح وما خلا كسبه من السحت انتهى ، وقيل : ما كانت العرب تحرمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام واستبعد أبو عبد الله الرازي قول من قال : إنها المحللات لتقديره ويحل لهم المحللات قال وهذا محض التكذيب ، ولخروج الكلام عن الفائدة لأنا لا ندري ما أحل لنا وكم هو قال : بل الواجب أن يراد المستطابة بحسب الطبع لأن تناولها يفيد اللذة والأصل في **المنافع** الحل فدلت الآية على أن كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع حلال إلا ما خرج بدليل منفصل.

﴿ويحرم عليهم الخبا ئث﴾ قيل : المحرمات ، وقيل : ما تستخبثه العرب كالعقرب والحية والحشرات ، وقيل : الدم والميتة والحم الخنزير ، وعن ابن عباس ما في سورة المائدة إلى قوله ذلكم فسق.

". (١)

"﴿قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شآء الله﴾ . قال ابن عباس : قال أهل مكة ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري وتربح وبالأرض التي تجدب فترحل عنها إلى ما أخصب فنزلت ، وقيل لما رجع من غزوة المصطلق جاءت ريح في الطريق فأخبرت بموت رفاعة وكان فيه غيظ المنافقين ، ثم قال انظروا أين ناقتي ، فقال عبد الله بن أبي : ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت رجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقته ، فقال عليه السلام إن ناسا من المنافقين قالوا كيت وكيت وناقتي في الشعب وقد تعلق زمامها بشجرة فردوها على فنزلت ، ووجه مناسبتها لما قبلها ظاهر جدا وهذا منه عليه السلام إظهار للعبودية وانتفاء عن ما يختص بالربوبية من القدرة وعلم الغيب ومبالغة في الاستسلام فلا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضر فكيف أملك علم الغيب كما قال في سورة يونس ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شآء الله لكل أمة أجل﴾ وقدم هنا النفع على الضر لأنه تقدم من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فقدم الهداية على الضلال وبعده لاستكثرت من الخير وما مسني السوء فناسب تقديم النفع وقدم الضر في يونس على الأصل لأن العبادة لله تكون خوفا من عقابه أولا ثم طمعا في ثوابه ولذلك قال ﴿يدعون ربهم خوفا وطمعا﴾ فإذا تقدم النفع فلسابقة لفظ تضمنه وأيضا ففي يونس موافقة ما قبلها ففيها ما لا يضرهم ولا ينفعهم ما لا ينفعنا ولا يضرنا لأنه موصول بقوله ليس لها من دون

---

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤/٣٢٧

الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منهاوفي يونس ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ وتقدمه ﴿ثم ننجى رسلنا والذين ءامنوا ﴾ ﴿كذلك حقا علينا ننج المؤمنين﴾ وفي الأنبياء قال﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيأا ولا يضركم﴾ وتقدمه قول الكفار لإبراهيم في المحاجة ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ وفي الفرقان ﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم﴾ وتقدمه ألم ﴿تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شآء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ وهذا النوع من لطائف القرآن العظيم وساطع براهينه والاستثناء متصل أي إلا ما شاء الله من تمكيني منه فإني أملكه وذلك بمشيئة الله ، وقال ابن عطية : وهذا الاستثناء منقطع انتهى ، ولا حاجة لدعوى الانقطاع مع إمكان الاتصال.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٤٣٥

﴿ولو كنت أعلم الغيب استكثرت من الخير وما مسنى السواء﴾ أي لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واستغزار **المنافع** واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسني شيء منها وظاهر قوله ولو كنت أعلم الغيب انتفاء العلم عن الغيب على جهة عموم الغيب كما روي عنه لا أعلم ما وراء هذا الجدار إلا أن يعلمنيه ربي بخلاف ما يذهب إليه هؤلاء الذين يدعون الكشف وأنهم بتصفية نفوسهم يحصل لها اطلاع على المغيبات وإخبار بالكوائن التي تحدث ، وما أكثر ادعاء الناس لهذا الأمر وخصوصا في ديار مصر حتى أنهم لينسبون ذلك إلى رجل متضمخ بالنجاسة يظل دهره لا يصلي ولا يستنجي من نجاسته ويكشف عورته للناس حين يبول وهو عار من العلم والعمل الصالح وقد خصص قوم هذا العموم فحكى مكي عن ابن عباس : لو كنت أعلم السنة المجدبة لأعددت لها من المخصبة ، وقال قوم : أوقات النصر لتوخيتها ، وقال مجاهد وابن جريج : لو كنت أعلم أجلي لاستكثرت من العمل الصالح ، وقيل : ولو كنت أعلم وقت الساعة لأخبرتكم حتى توقنوا ، وقيل : ولو كنت أعلم الكتب المنزلة لاستكثرت من الوحي ، وقيل : ولو كنت أعلم ما يريده الله مني قبل أن يعرفنيه لفعلته ، وينبغي أن تجعل هذه الأقوال وما أشبهها مثلا لا تخصيصات لعموم الغيب والظاهر أن قوله وما مسني السوء معطوف على قوله لاستكثرت من الخير فهو من جواب لو ويوضح ذلك أنه تقدم قوله قل لا أملك لنفسي نفءا ولا ضرا فقابل النفع بقوله لاستكثرت من الخير وقابل الضر بقوله وما مسني السوء ولأن المترتب على

٤٣٦

". (١)

---

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤/٣٥٥

"توافقتا على معنى واحد وهو الإخبار أنهم عباد ، ولا يكون تفاوت بينهما وتخالف لا يجوز في حق الله تعالى وقرىء أيضا إن مخففة ونصب عبادا على أنه حال من الضمير المحذوف العائد من الصلة على الذين وأمثالكم بالرفع على الخبر أي أن الذين تدعونهم من دون الله في حال كونهم عبادا أمثالكم في الخلق أو في الملك فلا يمكن أن يكونوا آلهة فادعوهم أي فاختبروهم بدعائكم هل يقع منهم إجابة أو لا يقع والأمر بالاستجابة هو على سبيل التعجيز أي لا يمكن أن يجيبوا كما قال : ولو سمعوا ما استجابوا لكم ومعنى إن كنتم صادقين في دعوى إلهيتهم واستحقاق عبادتهم كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيا﴾ .

﴿لهم أيد يبطشون بهآا أم لهم أعين يبصرون بهآا أم لهم ءاذان يسمعون بها قل ادعوا شركآءكم ثم كيدون﴾ . هذا استفهام إنكار وتعجيب وتبيين أنهم جماد لا حراك لهم وأنهم فاقدون لهذه الأعضاء ومنافعها التي خلقت لأجلها فأنتم أفضل من هذه الأصنام أذلكم هذا التصرف وهذا الاستفهام الذي معناه الإنكار قد يتوجه الإنكار فيه إلى انتفاء هذه الأعضاء وانتفاء منافعها فيتسلط النفي على المجموع كما فسرناه لأن تصويرهم هذه الأعضاء للأصنام ليست أعضاء حقيقة وقد يتوجه النفي إلى الوصف أي وإن كانت لهم هذه الأعضاء مصورة فقد انتفت هذه المنافع التي للأعضاء والمعنى أنكم أفضل من الأصنام بهذه الأعضاء النافعة وأم هنا منقطعة فتقدر ببل والهمزة وهو إضراب على معنى الانتقال لا على معنى الأبطال وإنما هو تقدير على نفي كل واحدة من هذه الجمل وكان ترتيب هذه الجمل هكذا لأنه بدىء بالأهم ثم اتبع بما هو دونه إلى آخرها ، وقرأ الحسن والأعرج ونافع بكسر الطاء ، وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بضمها وقال أبو عبد الله الرازي : تعلق بعض الأغمار بهذه الآية في إثبات هذه الأعضاء لله تعالى فقالوا : جعل عدمها للأصنام دليلا على عدم إلهيتها فلو لم تكن موجودة له تعالى لكان عدمها دليلا على عدم الإلهية وذلك باطل فوجب القول بإثباتها له تعالى والجواب من وجهين ، أحدهما : أن المقصود من الآية أن الإنسان أفضل وأكمل حالا من الصم لأنه له رجل ماشية ويد باطشة وعين باصرة وأذن سامعة والصنم وإن صورت له هذه الأعضاء بخلاف الإنسان فالإنسان أكمل وأفضل فلا يشتغل بعبادة الأخس الأدون والثاني أن المقصود تقرير الحجة التي ذكرها قبل وهي لا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون يعني كيف يحسن عبادة من لا يقدر على النفع والضر ثم قرر أن هذه الأصنام انتفت عنها هذه الأعضاء ومنافعها فليست قادرة على نفع ولا ضر فامتنع كونها آلهة أما الله تعالى فهو وإن كان متعاليا عن هذه الأعضاء فهو موصوف بكمال القدرة على النفع والضر وبكمال السمع والبصر انتهى ، وفيه بعض تلخيص.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٤٣٧

}قل ادعوا شركآءكم ثم كيدون فلا تنظرون﴾ لما أنكر تعالى عليهم عبادة الأصنام وحقر شأنها وأظهر كونها جمادا عارية عن شيء من القدرة أمر تعالى نبيه أن يقول لهم ذلك أي لا مبالاة بكم ولا بشركائكم فاصنعوا ما تشاؤون وهو أمر تعجيز أي لا يمكن أن يقع منكم دعاء لأصنامكم ولا كيد لي وكانوا قد خوفوه آلهتهم ، ومعنى ادعوا شركاءكم استعينوا بهم على إيصال الضر إلى ثم كيدون أي امكروا بي ولا تؤخرون عما تريدون بي من الضر وهذا كما قال قوم هود أن نقول : إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء

٤٤٥

مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون وسمي الأصنام شركاءهم من حيث أن لهم نسبة إليهم بتسميتهم إياهم آلهة وشركاء الله تعالى ، وقرأ أبو عمرو وهشام بخلاف عنه كيدوني بإثبات الياء وصلا ووقفا وقرأ باقي السبعة بحذف الياء اجتزاء بالكسرة عنها.

." (١)

"﴿ويستنابئونك أحق هوا قل إى وربى إنه لحقا ومآ أنتم بمعجزين﴾ : أي يستخبرونك. وأحق هو الضمير عائد على العذاب. وقيل : على الشرع والقرآن. وقيل : على الوعيد ، وقيل : على أمر الساعة ، والجملة في موضع نصب فقال الزمخشري : بيقولون أحق هو فجعل يستنبئونك تتعدى إلى واحد. وقال ابن عطية : معناه يستخبرونك ، وهي على هذا تتعدى إلى مفعولين : أحدهما الكاف ، والآخر في الابتداء ، والخبر فعلى ما قال : يكون يستنبئونك معلقة. وأصل استنبأ أن يتعدى إلى مفعولين : أحدهما بعن ، تقول : استنبأت زيدا عن عمرو أي طلبت منه أن ينبئني عن عمرو ، والظاهر أنها معلقة عن المفعول الثاني. قال ابن عطية : وقيل هي بمعنى يستعلمونك. قال : فهي على هذا تحتاج إلى مفاعيل ثلاثة : أحدها : الكاف ، والابتداء ، والخبر سد مسد المفعولين انتهى. وليس كما ذكر ، لأن استعلم لا يحفظ كونها متعدية إلى مفاعيل ثلاثة ، لا يحفظ ،استعلمت زيدا عمرا قائما فتكون جملة الاستفهام سدت مسد المفعولين ، ولا يلزم من كونها بمعنى يستعلمونك أن تتعدى إلى ثلاثة ، لأن استعلم لا يتعدى إلى ثلاثة كما ذكرنا. وارتفع هو على أنه مبتدأ ، وحق خبره. وأجاز الحوفي وأبو البقاء أن يكون حق مبتدأ وهو فاعلى به سد مسد الخبر ، وحق ليس اسم فاعلى ولا مفعول ، وإنما هو مصدر في الأصل ، ولا يبعد أن يرفع

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣٦٢/٤

لأنه بمعنى ثابت. وهذا الاستفهام منهم على جهة الاستهزاء والإنكار. وقرأ الأعمش : الحق. قال الزمخشري : وهو أدخل في الاستهزاء لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل ، وذلك أن اللام للجنس ، فكأنه قيل : أهو الحق لا الباطل ، أو أهو الذي سميتموه الحق ؟ انتهى. وأمر تعالى نبيه أن يقول مجيبا لهم : قل إي وربي ، أي نعم وربي. وإي تستعمل في القسم خاصة ، كما تستعمل هل بمعنى قد فيه خاصة. قال معناه الزمخشري قال : وسمعتهم يقولون في التصديق أي ، وفيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده انتهى. ولا حجة فيما سمعه الزمخشري من ذلك لعدم الحجية في كلامه لفساد كلام

١٦٨

العرب إذ ذاك وقبله بأزمان كثيرة. وقال ابن عطية : هي لفظة تتقدم القسم ، وهي بمعنى نعم ، ويجيء بعدها حرف القسم وقد لا يجيء ، تقول : أي ربي أي وربي انتهى. وقد كان يكتفي في الجواب بقوله : أي وربي ، إلا أنه أوكد بإظهار الجملة التي كانت تضمر بعد قوله : ﴿إى﴾ ، مسوقة مؤكدة بأن. واللام مبايعة في التوكيد في الجواب ، ولما تضمن قولهم أحق هو السؤال عن العذاب ، وكان سؤالا عن العذاب اللاحق بهم لا عن مطلق عذاب يقع بمن يقع. قيل : وما أنتم بمعجزين أي فائتين العذاب المسؤول عنه ، بل هو لاحق بكم. واحتملت هذه الجملة أن تكون داخلة في جواب القسم ، فتكون معطوفة على الجواب قبلها. واحتمل أن تكون إخبارا ، معطوفا على الجملة المقولة لا على جواب القسم. وأعجز الهمزة فيه للتعدية كما ق ا ل : ولن نعجزه هربا ، لكنه كثر فيه حذف المفعول حتى قالت العرب : أعجز فلان إذا ذهب في الأرض فلم يقدر عليه ، وقال الزجاج : أي ما أنتم ممن يعجز من يعذبكم.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ١٤٥

﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الارض افتدت بها وأسروا الندامة لما رأوا العذابا وقضى بينهم بالقسطا وهم لا يظلمون﴾ : ﴿ولما ذكر العذاب وأقسم على حقيقته ، وأنهم لا يفلتون منه ، ذكر بعض أحوال الظالمين في الآخرة. وظلمت صفة لنفس. والظلم الشرك والكفر ، وافتدى يأتي مطاوعا لفدى ، فلا يتعدى تقول : فديته فافتدى ، وبمعنى فدى فيتعدى ، وهنا يحتمل الوجهين. وما في الأرض أي : ما كان لها في الدنيا من الخزائن والأموال **والمنافع** ، وأسروا من الأضداد تأتي بمعنى أظهر. قال الفرزدق :

ولما رأى الحجاج جرد سيفهأسر الحروري الذي كان أطهرا

وقال آخر :

فأسررت الندامة يوم نادبرد جمال غاضرة المنادي

وتأتي بمعنى أخفى وهو المشهور فيها كقوله : ولما ذكر العذاب وأقسم على حقيقته ، وأنهم لا يفلتون منه ، ذكر بعض أحوال الظالمين في الآخرة. وظلمت صفة لنفس. والظلم الشرك والكفر ، وافتدى يأتي مطاوعا لفدى ، فلا يتعدى تقول : فديته فافتدى ، وبمعنى فدى فيتعدى ، وهنا يحتمل الوجهين. وما في الأرض أي : ما كان لها في الدنيا من الخزائن والأموال **والمنافع** ، وأسروا من الأضداد تأتي بمعنى أظهر. قال الفرزدق :

ولما رأى الحجاج جرد سيفهأسر الحروري الذي كان أطهرا

وقال آخر :

فأسررت الندامة يوم نادبرد جمال غاضرة المنادي

". (١)

"وقال الزمخشري : ولو شاء ربك مشيئة القسر وإلا لجاء لآمن من في الأرض كلهم على وجه الإحاطة والشمول جميعا ، مجتمعين على الإيمان ، مطبقين عليه ، لا يختلفون فيه. ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿أفأنت تكره الناس﴾ يعني إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم على الإيمان هؤلاء أنت. وإتلاء الاسم حرف الاستفهام للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه ، وإنما الشان في المكره من هو ، وما هو إلا هو وحده ولا يشارك فيه ، لأنه تعالى هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان ، وذلك غير مستطاع للبشير انتهى. وقوله : مشيئة القسر والإلجاء هو مذهب المعتزلة. وقال ابن عطية : المعنى أن هذا الذي تقدم ذكره إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته فيهم ، ولو شاء الله لكان الجميع مؤمنا ، فلا تتأسف أنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك ، وادع ولا عليك ، فالأمر محتوم. أتريد أنت أن تكره الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم ، وتضطرهم إلى ذلك والله عز وجل قد شاء غيره ؟ فهذا التأويل الآية عليه محكمة أي : ادع وقاتل من خالفك ، وإيمان من آمن مصروف إلى المشيئة. وقالت فرقة : المعنى أفأنت تكره الناس بالقتال حتى يدخلوا في الإيمان ؟ وزعمت أن هذه الآية في صدر الإسلام ، وأنها منسوخة بآية السيف ، والآية على كلا التأويلين رادة على المعتزلة انتهى. ولذلك ذهب الزمخشري إلى تفسير المشيئة بمشيئة القسر والإلجاء ، وهو تفسير الجبائي والقاضي. ومعنى إلا بإذن الله. أي بإرادته وتقديره لذلك والتمكن منه. وقال الزمخشري : بتسهيله وهو منح الإلطاف. ويجعل الرجس : وهو الخذلان على الذين لا يعقلون ، وهم المصرون على الكفر. وسمى الخذلان رجسا وهو العذاب ، لأنه سببه انتهى.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٥/١٣٥

وهو على طريق الاعتزال. وقال ابن عباس : الرجس السحط ، وعنه الإثم والعذوان. وقال مجاهد : ما لا خير فيه. وقال الحسن ، وأبو عبيدة ، والزجاج : العذاب. وقال الفراء : العذاب والغضب. وقال الحسن أيضا : الكفر. وقال قتادة : الشيطان ، وقد تقدم تفسيره ، ولكن نقلنا ما قاله العلماء هنا. وقرأ أبو بكر ، وزيد بن علي : ونجعل

بالنون ، وقرأ الأعمش : ويجعل الله الرجز بالزاي.

﴿قل انظروا ماذا فى السماوات والارضا وما تغنى الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون * فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين﴾ : أمر تعالى بالفكر فيما أودعه تعالى في السموات والأرض ، إذ السبيل إلى معرفته تعالى هو بالتفكر في مصنوعاته ، ففي العالم العلوي في حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب ، وما يختص بذلك من **المنافع** والفوائد ، وفي العالم السفلي في أحوال العناصر والمعادن والنبات والحيوان ، وخصوصا حال الإنسان. وكثيرا ما ذكر الله تعالى في كتابه الحض على الفكر في مخلوقاته تعالى وقال : ماذا في السموات والأرض تنبيها على القاعدة الكلية ، والعاقل يتنبه لتفاصيلها وأقسامها. ثم لما أمر بالنظر أخبر أنه من لا يؤمن لا تغنيه الآيات.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ١٨٦

". [(١)]

"وقرأ الجمهور : فإن تولوا أي تتولوا مضارع تولى. وقرأ الأعرج وعيسى الثقفي : تولوا بضم التاء ، واللام مضارع ولي ، وقيل : تولوا ماض ويحتاج في الجواب إلى إضمار قول ، أي : فقل لهم فقد أبلغتكم ، ولا حاجة تدعو إلى جعله ماضيا وإضمار القول. وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون تولوا فعلا ماضيا ، ويكون في الكلام رجوع من غيبة إلى خطاب أي : فقد أبلغتكم انتهى. فلا يحتاج إلى إضمار ، والظاهر أن الضمير في تولوا عائد على قوم هود ، وخطاب لهم من تمام الجمل المقولة قبل. وقال التبريزي : هو عائد على كفار قريش ، وهو من تلوين الخطاب ، انتقل من خطاب قوم هود إلى الإخبار عمن بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكأنه قيل : أخبرهم عن قصة قوم هود ، وادعهم إلى الإيمان بالله لئلا يصيبهم كما أصاب قوم هود ، فإن تولوا فقل لهم : قد أبلغتكم. وجواب الشرط هو قوله : فق أبلغتكم ، وصح أن يكون جوابا ، لأن في إبلاغه إليهم رسالته تضمن ما يحل بهم من العذاب المستأصل ، فكأنه قيل : فإن تتولوا استؤصلتم بالعذاب. ويدل على ذلك الجملة الخبرية وهي قوله : ويستخلف ربي قوما غيركم.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٥/١٥٨

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : الإبلاغ كان قبل التولي ، فكيف وقع جزاء للشرط ؟ (قلت) : معناه فإن تولوا لم أعاقب على تفريط في الإبلاغ ، فإن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول. وقال ابن عطية : المعنى أنه ما علي كبيرهم منكم إن توليتم فقد برئت ساحتي بالتبليغ ، وأنتم أصحاب الذنب في الإعراض عن الإيمان. وقرأ الجمهور : ويستخلف بضم الفاء على معنى الخبر المستأنف أي : يهلككم ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم. وقرأ حفص في رواية هبيرة : بجزمها عطفا على موضع الجزاء ، وقرأ عبد الله كذلك ، وبجزم ولا تضروه ، وقرأ الجمهور : ولا تضرونه أي شيئا من الضرر بتوليتكم ، لأنه تعالى لا تجوز عليه المضار **والمنافع**. قال ابن عطية : يحتمل من المعنى وجهين : أحدهما : ولا تضرونه بذهابكم وهلاككم شيئا أي : لا ينقص ملكه ، ولا يختل أمره ، وعلى هذا
٢٣٤
المعنى قرأ عبد الله بن مسعود ولا تنقصونه شيئا. والمعنى الآخر : ولا تضرونه أي : ولا تقدرون إذا أهلككم على إضراره بشيء ، ولا على انتصار منه ، ولا تقابلون فعله بشيء يضره انتهى. وهذا فعل منفي ومدلوله نكرة ، فينتفي جميع وجوه الضرر ، ولا يتعين واحد منها. ومعنى حفيظ رقيب محيط بالأشياء علما لا يخفى عليه أعمالكم ، ولا يغفل عن مؤاخذتكم ، وهو يحفظني مما تكيدونني به.
﴿ولما جآء أمرنا نجينا هودا والذين ءامنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ * وتلك عادا جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا فى هـاذه الدنيا لعنة ويوم القيامةا ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود﴾ : الأمر واحد الأمور ، فيكون كناية عن العذاب ، أو عن القضاء بهلاكهم. أو مصدر أمر أي أمرنا للريح أو لخزنتها. والذين آمنوا معه قيل : كانوا أربعة آلاف ، قيل : ثلاثة آلاف. والظاهر تعلق برحمة منا بقوله : نجينا أي ، نجيناهم بمجرد رحمة من الله لحقتهم ، لا بأعمالهم الصالحة. أو كنى بالرحمة عن أعمالهم الصالحة ، إذ توفيقهم لها إنما هو بسبب رحمته تعالى إياهم. ويحتمل أن يكون متعلقا بآمنوا أي : أن إيمانهم بالله وبتصديق رسوله إنما هو برحمة الله تعالى إياهم ، إذ وفقهم لذلك. وتكررت التنجية على سبيل التوكيد ، ولفلق من لو لاصقت منا فأعيدت التنجية وهي الأولى ، أو تكون هذه النتيجة هي من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه ، فأعيدت لأجل اختلاف متعلقيها.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢٢٣
." (١)

"والمتجاورات المدن وما كان عامرا ، وغير المتجاورات الصحاري وما كان غير عامر. قال ابن عطية : والذي يظهر من وصفه لها بالتجاور إنما هو من تربة واحدة ، ونوع واحد. وموضع العبرة في هذا أبين ، لأنها مع اتفاقها في الترب والماء تفضل القدرة والإرادة بعض أكلها على بعض ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم حين سئل عن هذه الآية فقال : "الدقل ، والقارس ، والحلو ، والحامض" وقال ابن عطية : وقيد منها في هذه المثال ما جاور وقرب بعضه من بعض ، لأن اختلاف ذلك في الأكل أغرب. وفي بعض المصاحف : قطعا متجاورات بالنصب على جعل. وقرأ الجمهور : وجنات بالرفع ، وقرأ الحسن : بالنصب ، بإضمار فعل. وقيل : عطفا على رواسي. وقال الزمخشري : بالعطف على زوجين اثنين ، أو بالجر على كل الثمرات انتهى. والأولى إضمار فعل لبعد ما بين المتعاطفين في هذه التخاريج ، والفصل بينهما بجمل كثيرة. وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص : وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان بالرفع في الجميع على مراعاة قطع. وقال ابن عطية : عطفا على أعناب ، وليست عبارة محررة أيضا ، لأن فيها ما ليس بعطف وهو قوله : صنوان. وقرأ باقي السباعة : بخفض الأربعة على مراعاة من أعناب قال : وجعل الجنة من الأعناب من رفع الزرع ، والجنة حقيقة إنما هي الأرض التي فيها الأعناب ، وفي ذلك تجوز ومنه قول الشاعر :
كأن عيني في غربي مقبلةمن النواضح تسقي جنة سحقا
جزء : ٥ رقم الصفحة : ٣٥٦
أي نخيل جنة إذ لا يوصف بالسحق إلا النخل. ومن خفض الزرع فالجنات من مجموع ذلك لا من الزرع وحده ، لأنه لا يقال للمزرعة جنة إلا إذا خالطها ثمرات. وقرأ الجمهور : صنوان بكسر الصاد فيهما ، وابن مصرف والسلمي وزيد بن علي : بضمها ، والحسن وقتادة بفتحها ، وبالفتح هو اسم للجمع ، كالسعدان. وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وزيد بن علي : يسقى بالياء ، أي : يسقى ما ذكر. وباقي السبعة بالتاء ، وهي قراءة الحسن وأبي جعفر وأهل مكة. أنثوا لعود الضمير على لفظ ما تقدم ، ولقوله : ونفضل بالنون. وحمزة والكسائي بالياء ، وابن محيصن بالياء في تسقي ، وفي نفضل. وقرأ يحيى بن يعمر ، وأبو حيوة ، والحلبي عن عبد الوارث : ويفضل بالياء ، وفتح الضاد بعضها بالرفع. قال أبو حاتم : وجدته كذلك في مصحف يحيى بن يعمر ، وهو أول من نقط المصاحف. وتقدم في البقرة خلاف القراء في ضم الكاف من الأكل

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١٩٤/٥

وسكونها. والأكل بضم الهمزة المأكول كالنقض بمعنى المنقوض ، وبفتحها المصدر. والظاهر من تفسير أكثر المفسرين للصنوان أن يكون قوله : صنوان ، صفة لقوله : ونخيل. ومن فسره منهم بالمثل جعله وصفا لجميع ما تقدم أي : أشكال ، وغيره إشكال. قيل : ونظير هذه الكلمة قنو وقنوان ، ولا يوجد لهما ثالث ونص على العنوان لأنها بمثال التجاور في القطع ، فظهر فيها عرابة اختلاف الأكل. ومعنى بماء واحد : ماء مطر ، أو ماء بحر ، أو ماء نهر ، أو ماء عين ، أو ماء نبع لا يسيل على وجه الأرض. وخص التفضيل في الأكل وإن كانت متفاضلة في غيره ، لأنه غالب وجوه الانتفاع من الثمرات. ألا ترى إلى تقاربها في الأشكال ، والألوان ، والروائح ، والمنافع ، وما يجري مرجى ذلك ؟ قيل : نبه الله تعالى في هذه الآية على قدرته وحكمته ، وأنه المدبر للأشياء كلها ، وذلك أن الشجرة تخرج أغصانها وثمراتها في وقت معلوم لا تتأخر عنه ولا تتقدم ، ثم يتصعد الماء في ذلك الوقت علوا علوا وليس من طبعه إلا التسفل ، يتفرق ذلك الماء في الورق والأغصان والثمر كل بقسطه وبقدر ما فيه صلاحه ، ثم تختلف طعوم الثمار والماء واحد ، والشجر جنس واحد. وكل ذلك دليل على مدبر دبره وأحكمه ، لا يشبه المخلوقات. قال الراجز :

والأرض فيها عبرة للمعتبرتخبر عن صنع مليك مقتدر

٣٦٣

تسقى بماء واحد أشجارهاوبقعة واحدة قرارها

والشمس والهواء ليس يختلفوأكلها مختلف لا يأتلف

لو أن ذا من عمل الطبائعأو أنه صنعة غير صانع

لم يختلف وكان شيئا واحداهل يشبه الأولاد إلا الوالدا

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٣٥٦

الشمس والهواء يا معاندوالماء والتراب شيء واحد

فما الذي أوجب ذا التفاضلاإلا حكيم لم يرده باطلا

(١) ".

"وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية للناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع ، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلى منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٥/٢٩٥

البأس الشديد لكفى فيه ، وإن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهرا يثبت الماء في منافعه ، وتبقى آثاره في العيون والبئار والجبوب والثمار التي تنبت به مما يدخر ويكثر ، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي يرمي به ، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب. وقال ابن عطية : صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالى ، وإقامة الحجة على الكفرة به ، فلما فرغ ذكر ذلك جعله مثالا للحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والشك في الشرع واليقين به انتهى. وقيل : هذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن ، والقلوب ، والحق ، والباطل. فالماء مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب ، وبقاء الشرع والدين والأودية مثل للقلوب ، ومعنى بقدرها على سعة القلوب وضيقها ، فمنها ما انتقع به فحفظه ووعاه وتدبر فيه ، فظهرت ثمرته وأدرك تأويله ومعناه ، ومنها دون ذلك بطبقة ، ومنها دونه بطبقات. والزبد مثل الشكوك والشبه وإنكار الكافرين إنه كلام الله ، ودفعهم إياه بالباطل. والماء الصافي المنتفع به مثل الحق انتهى. وفي الحديث الصحيح ما يؤيد هذا التأويل وهو قوله صلى الله عليه وسلم : "مثل ما بعثت به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا وكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها طائفة أجادب فأمسكت الماء فانتفع الناس به وسقوا ورعوا وكانت منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثلما جئت به من العلم والهدى ومثل من لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به" وقال ابن عطية : وروي عن ابن عباس أنه قال : قوله تعالى أنزل من السماء ماء ، يريد به الشرع والدين ، فسالت أودية يريد القلوب ، أي : أخذ النبيل بحظه ، والبليد بحظه ، وهذا قول لا يصح والله أعلم عن ابن عباس ، لأنه ينحو إلى أقوال أصحاب الرموز ، وقد تمسك به الغزالي وأهل تلك الطريق ، ولا توجيه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير علة تدعو إلى ذلك ، والله الموفق للصواب. وإن صح هذا القول عن ابن عباس ، فإنما قصد أن قوله تعالى : ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ ، معناه : الحق الذي يتقرر في القلوب ، والباطل الذي يعتريها أيضا انتهى. والماء المطر. ونكر أودية لأن المطر إنما يدل على طريق المناوبة ، فتسيل بعض الأودية دون بعض. ومعنى بقدرها أي : على قدر صغرها وكبرها ، أو بما قدر لها من الماء بسبب نفع الممطور عليهم لا ضررهم. ألا ترى إلى قوله : وأما ما ينفع الناس ، فالمطر مثل للحق ، فهو نافع خال من الضرر.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٣٥٦

وقرأ الجمهور : بقدرها بفتح الدال. وقرأ الأشهب العقيلي ، وزيد بن علي ، وأبو عمرو في رواية : بسكونها. وقال الحوفي : بقدرها متعلق بسالت. وقال أبو البقاء : بقدرها صلة لا ودية ، وعرف السيل لأنه عنى به

ما فهم من الفعل ، والذي يتضمنه الفعل من المصدر هو نكرة ، فإذا عاد عليه الظاهر كان معرفة ، كما كان لو صرح به نكرة ، ولذلك تضمن إذا عاد ما دل عليه الفعل من المصدر نحو : من كذب كان شرا له أي : كان الكذب شرا له ، ولو جاء هنا مضمرا لكان جائزا عائدا على المصدر المفهوم من فسالت. واحتمل بمعنى حمل ، جاء فيه افتعل بمعنى المجرد كاقتدر وقدر. ورابيا منتفخا عاليا على وجه السبيل ، ومنه الربوة. ومما توقدون عليه أي : ومن الأشياء الت توقدون عليها وهي الذهب ، والفضة ، والحديد ، والنحاس ، والرصاص ، والقصدير ، ونحوها مما يوقد عليه وله زبد. وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص ، وابن محيصن ، ومجاهد ، وطلحة ، ويحيى ، وأهل الكوفة : يوقدون بالياء على الغيبة ، أي يوقد الناس. وقرأ باقي السبعة والحسن ، وأبو جعفر ، والأعرج ، وشيبة : بالتاء على الخطاب

٣٨١

." (١)

"﴿وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملئاكة إن كنت من الصادقين * ما ننزل الملئاكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين * إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ : قال مقاتل : نزلت في عبد الله بن أمية ، والنضر بن الحرث ، ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة. وقرأ زيد بن علي : نزل عليه الذكر ماضينا مخففا مبنيا للفاعل. وقرأ : يا أيها الذي ألقي إليه الذكر ، وينبغي أن تجعل هذه القراءة تفسيرا ، لأنها مخالفة لسواد المصحف. وهذا الوصف بأنه الذي نزل عليه الذكر قالوه على جهة الاستهزاء والاستخفاف ، لأنهم لا يقرون بتنزيل الذكر عليه ، وينسبونه إلى الجنون ، إذ لو كان مؤمنا برسالة موسى وما أخبر عنه بالجنون. ثم اقترحوا عليه أن يأتيهم بالملائكة شاهدين لصدقك وبصحة دعواك وإنذارك كما قال : ﴿لولا أنزل إليه ملك﴾ فيكون معه نذيرا أو معاقبين على تكذيبك ، كما كانت تأتي الأمم المكذبة. وقرأ الحرميان والعربيان : ما تنزل مضارع تنزل أي : ما تتنزل الملائكة بالرفع. وقرأ أبو بكر ، ويحيى بن وثاب : ما تنزل بضم التاء وفتح النون والزاي الملائكة بالرفع. وقرأ الأخوان ، وحفص ، وابن مصرف : ما ننزل بضم النون الأولى ، وفتح الثانية ، وكسر الزاي الملائكة بالنصب. وقرأ زيد بن علي : ما نزل ماضيا مخففا مبنيا للفاعل الملائكة بالرفع. والحق هنا العذاب قاله الحسن ، أو الرسالة قاله مجاهد ، أو قبض الأرواح عند الموت قاله ابن السائب ، أو القرآن ذكره الماوردي. وقال الزمخشري : ألا تنزلا ملتبسا بالحكمة والمصلحة ، ولا حكمة في أن تأتيكم عيانا تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي صلى الله

---

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣١٠/٥

عليه وسلم ، لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار. وقال ابن عطية : والظاهر أن معناها : كما يجب ويحق من الوحي والمنافع التي أرادها الله تعالى لعباده ، لا على اقتراح كافر ، ولا باختيار معترض. ثم ذكر عادة الله في الأمم من أنه لم يأتهم بآية اقتراح إلا ومعها العذاب في أثرها إن لم يؤمنوا ، فكان الكلام ما تنزل الملائكة إلا بحق واجب لا باقتراحكم. وأيضا فلو نزلت لم تنظروا بعد ذلك بالعذاب أي : تؤخروا والمعنى ، وهذا لا يكون إذ كان في علم الله أن منهم من يؤمن ، أو يلد من يؤمن.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤٤١

وقال الزمخشري : وادن جواب وجزاء ، لأنه جواب لهم ، وجزاء بالشرط مقدر تقديره : ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذبهم. ولما قالوا على سبيل الاستهزاء : يا أيها الذي نزل عليه الذكر ، رد عليهم بأنه هو المنزل عليه ، فليس من قبله ولا قبل أحد ، بل هو الله تعالى الذي بعث به جبريل عليه السلام إلى رسوله ، وأكد ذلك بقوله : إنا نحن ، بدخول إن وبلفظ نحن. ونحن مبتدأ ، أو تأكيد لاسم إن ثم قال : وإنا له لحافظون أي : حافظون له من الشياطين. وفي كل وقت تكفل تعالى بحفظه ، فلا يعتريه زيادة ولا نقصان ، ولا تحريف ولا تبديل ، بخلاف غيره من الكتب المتقدمة ، فإنه تعالى لم يتكفل حفظها بل قال تعالى : ﴿ءان﴾ ولذلك وقع فيها الاختلاف. وحفظه إياه دليل على أنه من عنده تعالى ، إذ لو كان من قول البشر لتطرق

٤٤٦

إليه ما تطرق لكلام البشر. وقال الحسن : حفظه بإبقاء شريعته إلى يوم القيامة. وقيل : يحفظه في قلوب من أراد بهم خيرا حتى لو غير أحد نقطة لقال له الصبيان : كذبت ، وصوابه كذا ، ولم يتفق هذا لشيء من الكتب سواه. وعلى هذا فالظاهر أن الضمير في له عائد على الذكر ، لأنه المصرح به في الآية ، وهو قول الأكثر : مجاهد ، وقتادة ، وغيرهما. وقالت فرقة : الضمير في له عائد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أي : يحفظه من أذاكم ، ويحوطه من مكركم كما قال تعالى : ﴿فما بلغت رسالتها والله يعصمك من الناس﴾ وفي ضمن هذه الآية التبشير بحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظهر الله به الدين. (١) ".

"وقيل : المراد بالإنسان هنا أبي بن خلف الجمحي. وقال قوم : سياق الوصفين سياق المدح ، لأنه تعالى قواه على منازعة الخصوم ، وجعله مبين الحق من الباطل ، ونقله من تلك الحالة الجمادية وهو كونه

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٥/٣٦٣

نطفة إلى الحالة العالية الشريفة وهي : حالة النطق والإبانة. وإذ هنا للمفاجأة ، وبعد خلقه من النطفة لم تقع المفاجأة بالمخاطبة إلا بعد أحوال تطور فيها ، فتلك الأحوال محذوفة ، وتقع المفاجأة بعدها. وقال أبو عبد الله الرازي : إعلم أن أشرف الأجسام بعد الأفلاك والكواكب هو الإنسان ، ثم ذكر الإنسان وأنه مركب من بدن ونفس في كلام كثير يوقف عليه في تفسيره ، ولا نسلم ما ذكره من أن الأفلاك والكواكب أشرف من الإنسان. ولما ذكر خلق الإنسان ذكر ما امتن به عليه في قوام معيشته ، فذكر أولا أكثرها منافع ، وألزم لمن أنزل القرآن بلغتهم وذلك الأنعام ، وتقدم شرح الأنعام في الأنعام. والأظهر أن يكون لكم فيها دفء استئناف لذكر ما ينتفع بها من جهتها ، ودفء مبتدأ وخبره لكم ، ويتعلق فيها بما في لكم من معنى الاستقرار. وجوز أبو البقاء أن يكون فيها حالا من دفء ، إذ لو تأخر لكان صفة. وجوز أيضا أن يكون لكم حالا من دفء وفيها الخبر ، وهذا لا يجوز لأن الحال إذا كان العامل فيها معنى فلا يجوز تقديمها على الجملة بأسرها ، لا يجوز : قائما في الدار زيد ، فإن تأخرت الحال عن الجملة جازت بلا خلاف ، أو توسطت فأجاز ذلك الأخفش ، ومنعه الجمهور. وأجاز أيضا أن يرتفع دفء بلكم أو نعتها بال ، والجملة كلها حال من الضمير المنصوب انتهى. ولا تسمى جملة ، لأن التقدير : خلقها لكم فيها دفء ، أو خلقها لكم كائنا فيها دفء ، وهذا من قبيل المفرد ، لا من قبيل الجملة. وجوزوا أن يكون لكم متعلقا بخلقها ، وفيها دفء استئناف لذكر منافع الأنعام. ويؤيد كون لكم فيها دفء يظهر فيه الاستئناف مقابلته بقوله : ولكم فيها جمال ، فقابل المنفعة الضرورية بالمنفعة غير الضرورية.

٤٧٤

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤٧١

وقال ابن عباس : الدفء نسل كل شيء ، وذكره الأموي عن لغة بعض العرب. والظاهر أن نصب والأنعام على الاشتغال ، وحسن النصب كون جملة فعلية تقدمت ، ويؤيد ذلك قراءته في الشاذ برفع الأنعام. وقال الزمخشري ، وابن عطية : يجوز أن يكون قد عطف على البيان ، وعلى هذا كون لكم استئناف ، أو متعلق بخلقها. وقرأ الزهري وأبو جعفر : دفء بضم الفاء وشدها وتنوينها ، ووجهه أنه نقل الحركة من الهمزة إلى الفاء بعد حذفها ، ثم شدد الفاء إجراء للوصل مجرى الوقف ، إذ يجوز تشديدها في الوف. وقرأ زيد بن علي : دف بنقل الحركة ، وحذف الهمزة دون تشديد الفاء. وقال صاحب اللوامح : الزهري دف بضم الفاء من غير همز ، والفاء محركة بحركة الهمزة المحذوفة. ومنهم من يعوض من هذه الهمزة فيشدد الفاء ، وهو أحد وجهي حمزة بن حبيب وقفا. وقال مجاهد : ومنافع الركوب ، والحمل ، والألبان ، والسمن ، والنضج

عليها ، وغير ذلك. وأفرد منفعة الأكل بالذكر ، كما أفرد منفعة الدفء ، لأنهما من أعظم **المنافع**.
وقال الزمخشري : (فإن قلت) : تقدم الظرف في قوله : ومنها تأكلون مؤذن ، بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها (قلت) : الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معائشهم ، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به ، وكالجاري مجرى التفكه. وما قاله منه على أن تقديم الظرف أو المفعول دال على الاختصاص. وقد رددنا عليه ذلك في قوله : ﴿إياك نعبد﴾ والظاهر أن من للتبعيض كقولك : إذا أكلت من الرغيف. وقال الزمخشري : ويحتمل أن طعمتكم منها لأنكم تحرثون بالبقر ، والحب والثمار التي تأكلونها منها ، وتكتسبون بإكراء الإبل ، وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها انتهى. فعلى هذا يكون التبعيض مجازا ، أو تكون من للسبب. الجمال مصدر جمل بضم الميم ، والرجل جميل ، والمرأة جميلة وجملاء عن الكسائي وأنشد :
فهي جملاء كبدر طالعبزت الخلق جميعا بالجمال
ويطلق الجمال ويراد به التجمل ، كأنه مصدر على إسقاط الزوائد. والجمال يكون في الصورة بحسن التركيب يدركه البصر ، ويلقيه في ألقاب ، فتتعلق به النفس من غير معرفة. وفي الأخلاق باشتمالها على الصفات المحمودة : كالعلم ، والعفة ، والحلم ، وفي الأفعال : بوجودها ملائمة لمصالح الخلق ، وجلب المنفعة إليهم ، وصرف الشر عنهم. والجمال الذي لنا في الأنعام هو خارج عن هذه الأنواع الثلاثة ، والمعنى : أنه لنا فيها جمال وعظمة عند الناس باقتنائها ودلالتها على سعادة الإنسان في الدنيا ، وكونه فيها من أهل السعة ، فمن الله تعال بالتجمل بها ، كما من بالانتفاع الضروري ، لأن التجمل بها من أغراض أصحاب المواشي ومفاخر أهلها ، والعرب تفتخر بذلك. ألا ترى إلى قول الشاعر :
جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤٧١
لعمري لقوم قد نرى أمس فيهم
". (١)

"والظاهر أن لكم ، في موضع الصفة لماء ، فيتعلق بمحذوف ، ويرتفع شراب به أي : ماء كائنا لكم منه شراب. ويجوز أن يتعلق بانزل ، ويجوز أن يكون استئنافا ، وشراب مبتدأ. لما ذكر إنزال الماء أخذ في تقسيمه. والشراب هو المشروب ، والتبعيض في منه ظاهر ، وأما في منه شجر فمجاز ، لما كان الشجر إنباته على سقيه بالماء جعل الشجر من الماء كما قال : أسنمة الآبال في ربابه ، أي في سحاب المطر.

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٥/٣٨٦

وقال ابن الأنباري : هو على حذف المضاف ، إما قبل الضمير أي : ومن جهته ، أو سقيه شجر ، وإما قبل شجر أي : شرب شجر كقوله ﴿وأشربوا فى قلوبهم العجل﴾ أي حبه. والشجر هنا كل ما تنبته الأرض قاله الزجاج. وقال : نطعمها اللحم إذا عز الشجر ، فسمى الكلأ شجرا. وقال ابن قتيبة : الشجر هنا الكلأ ، وفي حديث عكرمة : "لا تأكلوا الشجر فإنه سحت" يعني الكلأ.

ويقال : أسام الماشية وسومها جعلها ترعى ، وسامت بنفسها فهي سائمة وسوام رعت حيث شاءت ، قال الزجاج : من السومة ، وهي العلامة ، لأنها تؤثر في الأرض علامات. وقرأ زيد بن علي : تسيمون بفتح التاء ، فإن سمع متعديا كان هو وأسام بمعنى واحد ، وإن كان لازما فتأويله على حذف مضاف تسيمون أي : تسيم مواشيكم لما ذكر ، ومنه شجر. أخذ في ذكر غالب ما ينتفع به من الشجر إن كان المراد من قوله : ومنه شجر العموم ، وإن كان المراد الكلأ فهو استئناف إخبار منافع الماء. ويقال : نبت الشيء وأنبته الله فهو منبوت ، وهذا قياسه منبت. وقيل : يقال أنبت الشجر لازما. وأنشد الفراء :

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤٧١

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهمقطينا بهم حتى إذا أنبت البقل أي نبت. وكان الأصمعي يأبى أنبت بمعنى نبت. وقرأ أبو بكر : ننبت بنون العظمة. وقرأ الزهري : ننبت بالتشديد قيل : للتكثير والتكرير ، والذي يظهر أنه تضعيف التعدية. وقرأ أبي : ينبت من نبت ورفع الزرع وما عطف عليه. وخص الأربعة بالذكر لأنها أشرف ما ينبت ، وأجمعه للمنافع. وبدأ بالزرع لأنه قوت أكثر العالم ، ثم بالزيتون لما فيه من فائدة الاستصباح بدهنه ، وهي ضرورية مع منفعة أكله والائتدام به وبدهنه ، والاطلاء بدهنه ، ثم بالنخل لأن ثمرته من أطيب الفواكه وقوت في بعض البلاد ، ثم بالأعناب لأنها فاكهة محضة ثم قال : ومن كل الثمرات ، أتى بلفظ من التي للتبعيض ، لأن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة ، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكرة. ولما ذكر الحيوانات المنتفع بها على التفصيل أعقبه بقوله : ويخلق ما لا تعلمون ، كذلك هنا ذكر الأنواع المنتفع بها من

٤٧٨

النبات ، ثم قال : ومن كل الثمرات ، تنبيها على أن تفصيل القول في أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها مما لا يكاد يحصر ، كما أن تفصيل ما خلق من باقي الحيوان لا يكاد يحصر. وختم ذلك تعالى بقوله : لآية لقوم يتفكرون ، لأن النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل واستعمال فكر. ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها مقدار من الزمان معين لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به ، فينشق

أعلاها فيصعد منه شجرة إلى الهواء ، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى وهي العروق ، ثم ينمو الأعلى ويقوى ، وتخرج الأوراق والأزهار والأكمام ، والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والطعوم والألوان والروائح والأشكال والمنافع ، وذلك بتقدير قادر مختار وهو الله تعالى.
(١) ".

"و ﴿أسفا﴾ قال مجاهد : جزعا. وقال قتادة : غضبا وعنه أيضا حزنا. وقال السدي : ندما وتحسرا. وقال الزجاج : الأسف المبالغة في الحزن والغضب. وقال منذر بن سعيد : الأسف هنا الحزن لأنه على من لا يملك ولا هو تحت يد الآسف ، ولو كان الأسف من مقتدر على من هو في قبضته وملكه كان غضبا كقوله تعالى ﴿فلمآ ءاسفونا انتقمنا منهم﴾ أي أغضبونا. قال ابن عطية : وإذا تأملت هذا في كلام العرب اطرد انتهى. وانتصاب ﴿أسفا﴾ على أنه مفعول من أجله أو على أنه مصدر في موضع الحال ، وارتباط قوله ﴿إنا جعلنا﴾ الآية بما قبلها هو على سبيل التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم لأنه تعالى أخبر أنه خلق ما على الأرض من الزينة للإبتلاء والاختبار أي الناس ﴿أحسن عملا﴾ فليسوا على نمط واحد في الاستقامة واتباع الرسل ، بل لا بد أن يكون فيهم من هو أحسن عملا ومن هو أسوأ عملا ، فلا تغتم وتحزن على من فضلت عليه بأنه يكون أسوأ عملا ومع كونهم يكفرون بي لا أقطع عنهم مواد هذه النعم التي خلقتها.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٩١

و ﴿جعلنا﴾ هنا بمعنى خلقنا ، والظاهر أن ما يراد بها غير العامل وأنه يراد به العموم فيما لا يعقل. و﴿زينة﴾ كل شيء بحسبه. وقيل : لا يدخل في ذلك ما كان فيه إيذاء من حيوان وحجر ونبات لأنه لا زينة فيه ، ومن قال بالعموم قال فيه ﴿زينة﴾ من جهة خلقه وصنعته وإحكامه. وقيل : المراد بما هنا خصوص ما لا يعقل. فقيل : الأشجار والأنهار. وقيل : النبات لما فيه من الاختلاف والأزهار. وقيل : الحيوان المختلف الأشكال والمنافع والأفعال. وقيل : الذهب والفضة والنحاس والرصاص والياقوت والزبرجد والجوهر والمرجان وما يجري مجرى ذلك من نقائس الأحجار.

وقال الزمخشري : ﴿ما على الارض﴾ يعني ما يصلح أن يكون ﴿زينة لها﴾ ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها. وقالت : فرقة أراد النعيم والملابس والثمار والخضرة والمياه. وقيل : ﴿مآ﴾ هنا لمن يعقل ، فعن مجاهد هو الرجال وقاله ابن جبير عن ابن عباس وروى عكرمة أن الزينة الخلفاء والعلماء والأمراء.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣٨٩/٥

وانتصب ﴿زينة﴾ على الحال أو على المفعول من أجله إن كان ﴿جعلنا﴾ بمعنى خلقنا ، وأوجدنا ، وإن كانت بمعنى صيرنا فانتصب على أنه مفعول ثان.

واللام من ﴿لنبلوهم﴾ تتعلق بجعلنا ، والابتلاء الاختبار وهو متأول بالنسبة إلى الله تعالى. والضمير في ﴿لنبلوهم﴾ إن كانت ما لمن يعقل فهو عائد عليها على المعنى ، وأن لا يعود على ما يفهم من سياق الكلام وهو سكان الأرض المكلفون يحتمل أن يكون الضمير فيها إعرابا فيكون ﴿لنبلوهم أيهم﴾ مبتدأ و﴿أحسن﴾ خبره. والجملة في موضع المفعول ﴿لنبلوهم﴾ ويكون قد علق ﴿لنبلوهم﴾ إجراء لها مجرى العلم لأن الابتلاء والاختبار سبب للعلم ، كما علقوا سل وانظر البصرية لأنهما سببان للعلم وإلى أن الجملة استفهامية مبتدأ وخبر ذهب الحوفي ، ويحتمل أن تكون الضمة فيها بناء على مذهب سيبويه لوجود شرط جواز البناء في أي. وهو كونها مضافة قد حذف صدر صلتها ، فأحسن خبر مبتدأ محذوف فتقديره هو ﴿أحسن﴾ ويكون ﴿أيهم﴾ في موضع نصب بدلا من الضمير في ﴿لنبلوهم﴾ ، والمفضل عليه محذوف تقديره ممن ليس ﴿أحسن عملا﴾ . وقال الثوري أحسنهم عملا أزهدهم فيها. وقال إبو عاصم العسقلاني : أترك لها. وقال الزمخشري : حسن العمل الزهد فيها وترك الاغترار بها. وقال أبو بكر غالب بن عطية : أحسن العمل

٩٨

أخذ بحق مع الإيمان وأداء الفرائض واجتناب المحارم والإكثار من المندوب إليه. وقال الكلبي : أحسن طاعة. وقال القاسم بن محمد ما عليها من الأنبياء والعلماء ليبلو المرسل إليم والمقلدين للعلماء أيهم أحسن قبولا وإجابة. وقال سهل : أحسن توكلا علينا فيها. وقيل : أصفى قلبا وأحسن سمتا. وقال ابن إسحاق : أيهم أتبع لأمري وأعمل بطاعتي.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٩١

و ﴿وإنا لجاعلون﴾ أي مصيرون ﴿ما عليها﴾ مما كان زينة لها أو ﴿ما عليها﴾ مما هو أعم من الزينة وغيره ﴿صعيدا﴾ ترابا ﴿جرزا﴾ الأنبات فيه ، وهذا إشارة إلى التزهيد في الدنيا والرغبة عنها وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عن ما تضمنته أيدي المترفين من زينتها ، إذ مآل ذلك كزله إلى الفناء والحاق. وقال الزمخشري : ﴿ما عليها﴾ من هذه الزينة ﴿صعيدا جرزا﴾ يعني مثل أرض بيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة في إزالة بهجته وإماطة حسنة وإبطال ما به كان زينة من إماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار ونحو ذلك انتهى. قيل : والصعيد ما تصاعد على وجه الأرض. وقال مجاهد : الأرض التي لا

نبات بها. وقال السدي الأملس المستوي. وقيل : الطريق. وفي الحديث : "إياكم والقعود على الصعدات". " (١).

"والحسبان ، قال ابن عباس وقتادة : العذاب. وقال الضحاك : البرد. وقال الكلبي : النار. وقال ابن زيد : القضاء. وقال الأخفش : سهام ترمي في مجرى فقلما تخطىء. وقيل : النبل. وقيل : الصواعق. وقيل : آفة مجتاحة. وقال الزجاج : عذاب حسبان وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك ، وهذا الترجي إن كان ذلك أن يؤتيه في الدنيا فهي أنكى للكافر وآلم إذ يرى حاله من الغنى قد انتقلت إلى صاحبه ، وإن كان ذلك أن يؤتيه في الآخرة فهو أشرف وأذهب مع الخير والصلاح ﴿فتصبح صعيدا﴾ أي أرضا بيضاء لا نبات فيها لا من كرم ولا نخل ولا زرع ، قد اصطلم جميع ذلك فبقيت يبابا قفرا يزلق عليها لإملاسها ، والزلق الذي لا تثبت فيه قدم ذهب غراسة وبناؤه وسلب **المنافع** حتى منفعة المشي فيه فهو وحل لا ينبت ولا يثبت فيه قدم. وقال الحسن : الزلق الطريق الذي لا نبات فيه. وقيل : الخراب. وقال مجاهد : رملا هائلا. وقيل : الزلق الأرض السبخة وترجي المؤمن لجنة هذا الكافر آفة علوية من السماء أو آفة سفلية من الأرض ، وهو غور مائها فيتلف كل ما فيها من الشجر والزرع ، وغور مصدر خبر عن اسم أصبح على سبيل المبالغة و﴿أو يصبح﴾ معطوف على قوله ﴿يرسل﴾ لأن غؤور الماء لا يتسبب على الآفة السماوية إلا إن عنى بالحسبان القضاء الإلهي ، فحينئذ يتسبب عنه إصباح الجنة ﴿صعيدا زلقا﴾ أو إصباح مائها ﴿غورا﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿غورا﴾ بفتح الغين. وقرأ البرجمي : ﴿غورا﴾ بضم الغين. وقرأت فرقة بضم الغين وهمز الواو يعنون وبواو بعد الهمزة فيكون غؤورا كما جاء في مصدر غارت عينه غؤورا ، والضمير في ﴿له﴾ عائد على الماء أي لن يقدر على طلبه لكونه ليس مقدورا على رد ماغوره الله تعالى. وحكى الماوردي أن معناه : لن تستطيع طلب غيره بدلا منه ، وبلغ الله المؤمن ما ترجاه من هلاك ما بيد صاحبه الكافر وإبادته على خلاف ما ظن في قوله ما أظن أن تبيد ه ذه أبدا فأخبر تعالى أنه ﴿أحيط بهم﴾ وهو عبارة

١٢٩

عن الإهلاك وأصله من أحاط به العدو وهو استدارته به من جوانبه ، ومتى أحاط به ملكه واستولى عليه ثم استعملت في كل إهلاك ومنه ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ . وقال ابن عطية : الإحاطة كناية عن عموم العذاب والفساد انتهى.

---

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦/٧٢

والظاهر أن الإحاطة كانت ليلا لقوله ﴿فأصبح﴾ على أن أنه يحتمل أن يكون معنى ﴿فأصبح﴾ فصار فلا يدل على تقييد الخبر بالصباح ، وتقليب كفية ظاهره أنه ﴿يقلب كفيه﴾ ظهرا لبطن وهو أنه يبدي باطن كفه ثم يعوج كفه حتى يبدو ظهرها ، وهي فعلة النادم المتحسر على شيء قد فاته ، المتأسف على فقدانه ، كما يكنى بقبض الكف والسقوط في اليد. وقيل : يصفق بيده على الأخرى و﴿يقلب كفيه﴾ ظهر البطن. وقيل : يضع باطن إحداهما على ظهر الأخرى ، ولما كان هذا الفعل كناية عن الندم عداه تعدية فعل الندم فقال ﴿وفرضناها وأنزلنا فيهآ﴾ كأنه قال : فأصبح نادما على ذهاب ما أنفق في عمارة تلك الجنة ﴿وهى خاوية على عروشها﴾ تقدم الكلام على هذه الجملة في أواخر البقرة. وتمنيه انتفاء الشرك الظاهر أنه صدر منه ذلك في حالة الدنيا على جهة التوبة بعد حلول المصيبة ، وفي ذلك زجر للكفرة من قريش وغيرهم لئلا يجيء لهم حال يؤمنون فيها بعد نقم تحل بهم ، قيل : أرسل الله عليها نارا فأكلتها فتذكر موعظة أخيه ، وعلم أنه أتى من جهة شركة وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركا. وقال بعض المفسرين : هي حكاية عن قول الكافر هذه القالة في الآخرة ، ولما افتخر بكثرة ماله وعزة نفره أخبر تعالى أنه لم تكن ﴿له فئة﴾ أي جماعة تنصره ولا كان هو منتصرا بنفسه ، وجمع الضمير في ﴿ينصرونه﴾ على المعنى كما أفرده على اللفظ في قوله ﴿فئة تقاتل فى سبيل الله﴾ واحتمل النفي أن يكون منسحبا على القيد فقط ، أي له فئة لكنه لا يقدر على نصره. وأن يكون منسحبا على القيد ، والمراد انتفاؤه لانتفاء ما هو وصف له أي لا فئة فلا نصر وما كان منتصرا بقوة عن انتقام الله.
." (١)

"والثاني : أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته ، فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم لا أرينك هاهنا. المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته وذلك سبب رؤيته إياه ، فكان ذكر المسبب دليلا على السبب كأنه قيل : فكن شديد الشكيمة صلب المعجم حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه ﴿هوا هـ فتردى ﴾ يجوز أن يكون منصوبا على جواز النهي وأن يكون مرفوعا أي فأنت تردى. وقرأ يحيى فتردى بكسر التاء.
﴿وما تلك بيمينك ياموسى ﴾ هو تقرير مضمنه التنبيه ، وجمع النفس لما يورد عليها وقد علم تعالى في الأزل ما هي وإنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عز وجل في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة ، ويتقرر

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٩٦/٦

في
٢٣٣
نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه ، وينبهه على قدرته الباهرة و﴿ما﴾ استفهام مبتدأ و﴿تلك﴾ خبره و﴿يمينك﴾ في موضع الحال كقوله ﴿وهاذا بعلى شيخا ﴾ والعامل اسم الإشارة. قال الزمخشري : ويجوز أن يكون ﴿تلك﴾ أسما موصولا صلته بيمينك ، ولم يذكر ابن عطية غيره وليس ذلك مذهبا للبصريين وإنما ذهب إليه الكوفيون ، قالوا : يجوز أن يكون اسم الإشارة موصولا حيث يتقدر بالموصول كأنه قيل : وما التي بيمينك ؟ وعلى هذا فيكون العامل في المجرور محذوفا كأنه قيل : وما التي استقرت بيمينك ؟ وفي هذا السؤال وما قبله من خطابه تعالى لموسى عليه السلام استئناس عظيم وتشريف كريم.
﴿قال هى عصاى﴾ . وقرأ ابن أبي إسحاق والجحدري عصي بقلب الألف ياء وإدغامها في ياء المتكلم. وقرأ الحسن عصاي بكسر الياء وهي مروية عن ابن أبي إسحاق أيضا وأبي عمرو معا ، وهذه الكسرة لالتقاء الساكنين. وعن أبي إسحاق والجحدري عصاي بسكون الياء. ﴿قال هى﴾ أي أتحامل عليها في المشي والوقوف ، وهذا زيادة في الجواب كما جاء "هو الطهور ماؤه الحل ميتته". في جواب من سأل أيتوضأ بماء البحر ؟ وكما جاء في جواب ألهذا حج ؟ قال : "نعم ولك أجر". وحكمة زيادة موسى عليه السلام رغبته في مطاولة مناجاته لربه تعالى ، وازدياد لذاذته بذلك كما قال الشاعر :
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٢١
وأملي عتابا يستطاب فليتنيأطلت ذنوبا كي يطول عتابه
وتعداده نعمه تعالى عليه بما جعل له فيها من **المنافع** ، وتضمنت هذه الزيادة تفصيلا في قوله ﴿قال هى عصاى أتوكؤا عليها وأهش﴾ وإجمالا في قوله ﴿ولى فيها ماارب أخرى ﴾ . وقيل : ﴿قال هى﴾ جواب لسؤال آخر وهو أنه لما قال ﴿هى عصاى﴾ قال له تعالى فما تصنع بها ؟ قال : ﴿قال هى﴾ الآية. وقيل : سأله تعالى عن شيئين عن العصا بقوله ﴿وما تلك﴾ وبقوله ﴿بيمينك﴾ عما يملكه ، فأجابه عن ﴿وما تلك﴾ ؟ بقوله ﴿هى عصاى﴾ وعن قوله ﴿بيمينك﴾ بقوله ﴿قال هى عصاى﴾ إلى آخره انتهى. وفي التحقيق ليس قوله ﴿بيمينك﴾ بسؤال وقدم في الجواب مصلحة نفسه في قوله ﴿قال هى﴾ ثم ثنى بمصلحة رعيته في قوله ﴿وأهش﴾ .
وقرأ الجمهور بضم الهاء والشين المعجمة ، والنخعي بكسرها كذا ذكر أبو الفضل الرازي وابن عطية وهي

بمعنى المضمومة الهاء والمفعول محذوف وهو الورق. قال أبو الفضل : ويحتمل ذلك أن يكون من هش يهش هشاشة إذا مال ، أي أميل بها على غنمي بما أصلحها من السوق وتكسير العلف ونحوهما ، يقال منه : هش الورق والكلأ والنبات إذا جف ولأن انتهى. وقرأ الحسن وعكرمة : وأهس بضم الهاء والسين غير معجمة ، والهس السوق ومن ذلك الهس والهساس غير معجمة في الصفات. ونقل ابن خالويه عن النخعي أنه قرأ وأهس بضم الهمزة من أهس رباعيا وذكر صاحب اللوامح عن عكرمة ومجاهد وأهه بضم الهاء وتخفيف الشين قال : ولا أعرف وجهه إلا أن يكون بمعنى العامة لكن فر من قراءته من التضعيف لأن الشين فيه تفش فاستثقل الجمع بين التضعيف والتفشي. فيكون كتخفيف ظلت ونحوه. وذكر الزمخشري عن النخعي أنه قرأ ﴿عليها وأهش﴾ بضم الهمزة والشين المعجمة من أهش رباعيا قال : وكلاهما من هش الخبز يهش إذا كان يتكسر لهشاشته. ذكر على التفصيل والإجمال **المنافع** المتعلقة بالعصا كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها كما ينفع العيدان ليكون جوابه مطابقا للغرض الذي فهمه من فحوى كلام ربه ، ويجوز أن يريد عز وجل أن يعدد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة

٢٣٤

كأنه يقول أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة. كنت تعتد بها وتحتفل بشأنها وقالوا اسم العصا نبعة انتهى.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٢١

".(١)

"وقال قتادة : أي خلقنا كل نام من الماء فيدخل فيه النبات والمعدن ، وتكون الحياة فيهما مجازا أو عبر بالحياة عن القدر المشترك بينهما وبين الحيوان وهو النمو ويكون أيضا على هذا عاما مخصوصا ، وإن تعدت ﴿جعلنا﴾ لاثنين فالمعنى صيرنا ﴿كل شيء حي﴾ بسبب من الماء لا بد له منه. وقرأ الجمهور ﴿حي﴾ بالخفض صفة لشيء. وقرأ حميد حيا بالنصب مفعولا ثانيا لجعلنا ، والجار والمجرور لغو أي ليس مفعولا ثانيا ﴿لجعلنا﴾ ﴿أفلا يؤمنون﴾ استفهام إنكار وفيه معنى التعجب من ضعف عقولهم ، والمعنى أفلا يتدبرون هذه الأدلة ويعملوا بمقتضاها ويتركوا طريقة الشرك ، وأطلق الإيمان على سببه وقد انتظمت هذه الآية دليلين من دلائل التوحيد وهي من الأدلة السماوية والأرضية.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١٧١/٦

ثم ذكر دليلا آخر من الدلائل الأرضية فقال : ﴿وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم﴾ وتقدم شرح نظير هذه الجملة في سورة النحل ﴿وجعلنا فيها فجاجا سبلا﴾ وهذا دليل رابع من الدلائل الأرضية ، والظاهر أن الضمير في ﴿فيها﴾ عائد على الأرض. وقيل يعود على الرواسي ، وجاء هنا تقديم ﴿فجاجا﴾ على قوله ﴿سبلا﴾ وفي سورة نوح ﴿لتسلكوا منها سبلا فجاجا﴾ . فقال الزمخشري : وهي يعني ﴿فجاجا﴾ صفة ولكن جعلت حالا كقوله :
لمية موحشا ظلل
يعني أنها حال من سبل وهي نكرة ، فلو تأخر ﴿فجاجا﴾ لكان صفة كما في تلك الآية ولكن تقدم فانتصب على الحمال قال : فإن قلت : ما الفرق بينهما من جهة المعنى ؟ قلت : وجهان أحدهما إعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة ، والثاني بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة فهو بيان لما أبهم ثمة انتهى. يعني بالإبهام أن الوصف لا يلزم أن يكون الموصوف متصفا به حالة الإخبار عنه ، وإن كان الأكثر قيامه به حالة الإخبار عنه ، ألا ترى أنه يقال : مررت بوحشي القاتل حمزة ، فحالة المرور لم يكن قائما به قتل حمزة ، وأما ال حال فهي هيئة ما تخبر عنه حالة لإخبار ﴿لعلهم يهتدون﴾ في مسالكهم وتصكرفهم. وما رفع وسمك على شيء فهو سقف. قال قتادة : حفظ من البلي والتغير على طول الدهر. وقيل : حفظ من السقوط لإمساكه من غير علاقة ولا عماد. وقيل : حفظ من الشرك والمعاصي. وقال الفراء : حفظ من الشياطين بالرجوم. وعن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى السماء فقال : "إن السماء سقف مرفوع وموح مكفوف يجري كما يجري السهم محفوظا من الشياطين" وإذا صح هذا الحديث كان نصا في معنى الآية.
٣٠٩
﴿وهم عن ءاياتها﴾ أي عن ما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات ومسايرها وطلوعها وغروبها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة. وقرأ الجمهور ﴿عن ءاياتها﴾ بالجمع. وقرأ مجاهد وحميد عن آيتها بالإفراد ، فيجوز أنه جعل الجعل أو السقف أو الخلق أي خلق السم ء آية واحدة تحوي الآيات كلها ، ويجوز أنه أراد بها الجمع فجعلها اسم الجنس ، ودل على ذلك كثرة ما في السماء من الآيات. والمعنى ﴿وهم عن﴾ الاعتبار بآياتها ﴿معرضون﴾ وقال الزمخشري : هم يتفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنياوية كالاستضاءة بقمريها والاهتداء

بكواكبها وحياة الأرض والحيوان بأمطارها ﴿وهم عن﴾ كونها آية بينة على الخالق ﴿معرضون﴾ .
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٩٣
والتنوين في ﴿كل﴾ عوض من المضاف إليه ، والفلك الجسم الدائر دورة اليوم والليلة. وعن ابن عباس والسدي : الفلك السماء. وقال أكثر المفسرين : الفلك موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر. وقال قتادة : الفلك استدارة بين السماء والأرض يدور بالنجوم مع ثبوت السماء. وقيل : الفلك القطب الذي تدور عليه النجوم وهو قطب الشمال. وقيل : لكل واحد من السيارات فلك ، وفلك الأفلاك يحركها حركة واحدة من المشرق إلى المغرب. وقال الضحاك : الفلك ليس بجسم وإنما هو مدار هذه النجوم ، والظاهر أنه جسم وفيه الاختلاف المذكور والظاهر أن كلا يسبح في فلك واحد. قيل : ولكل واحد فلك يخصه فهو كقولهم : كساهم الأمير حلة أي كسى كل واحد ، وجاء ﴿يسبحون﴾ بواو الجمع العاقل ، فأما الجمع فقيل ثم معطوف محذوف وهو والنجوم ، ولذلك عاد الضمير مجموعا ولو لم يكن ثم معطوف محذوف لكان يسبحان مثنى.." (١)

"وقرأ عكرمة وأبو نهيك : أن لايشرك بالياء على معنى أن يقول معنى القول الذي قيل له. قال أبو حاتم : ولا بد من نصب الكاف على هذه القراءة بمعنى أن ﴿لا تشرك﴾ . والقائمون هم المصلون ذكر من أركانها أعظمها وهو القيام والركوع والسجود.
وقرأ الجمهور ﴿وأذن﴾ بالتشديد أي ناد. روي أنه صعد أبا قبيس فقال : يا أيها الناس حجوا بيت ربكم وتقدم قول من قال إنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقاله الحسن قال : أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع. وقرأ الحسن وابن محيصن وآذن بمدة وتخفيف الذال. قال ابن عطية : وتصحف هذا على ابن جني فإنه حكى عهما ﴿وأذن﴾ على فعل ماض ، وأعرب على ذلك بأن جعله عطفا على ﴿بوأنا﴾ انتهى. وليس بتصحيف بل قد حكى أبو عبد الله الحسين بن خالويه في شواذ القراءات من جمعه. وصاحب اللوامح أبو الفضل الرازي ذلك عن الحسن وأبن محيصن. قال صاحب اللوامح : وهو عطف على ﴿وإذ بوأنا﴾ فيصير في الكلام تقديم وتأخير ، ويصير ﴿يأتوك﴾ جزما على جواب الأمر الذي هو ﴿وطهر﴾ انتهى. وقرأ ابن أبي إسحاق ﴿بالحج﴾ بكسر الحاء حيث وقع الجمهور بفتحها. وقرأ الجمهور ﴿رجالا﴾ وابن أبي إسحاق بضم الراء والتخفيف ، وروي كذلك عن عكرمة والحسن وأبي مجلز ، وهو اسم جمع كظؤار وروي عنهم وعن ابن عباس ومجاهد وجعفر بن محمد بضم الراء وتشديد الجيم. وعن عكرمة أيضا

---

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦/٢٢٦

رجالى على وزن النعامى بألف التأنيث المقصورة ، وكذلك مع تشديد الجيم عن ابن عباس وعطاء وابن حدير ، ورجال جمع راجل كتاجر وتجار.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٤٥

وقرأ الجمهور ﴿يأتين﴾ فالظاهر عود الضمير ﴿وعلى كل ضامر﴾ لأن الغالب أن البلاد الشاسعة لا يتوصل منها إلى مكة بالركوب ، وقد يجوز أن يكون الضمير يشمل ﴿رجالا﴾ و﴿كل ضامر﴾ على معنى الجماعات والرفاق. وقرأ عبد الله وأصحابه والضحاك وابن أبي عبلة يأتون غلب العقلاء الذكور في البداءة برجال تـفضيلا للمشاة إلى الحج. وعن ابن عباس : ما آسى على شيء فاتني أن لا أكون حججت ماشيا ، والاستدلال بقوله ﴿يأتوك رجالا وعلى كل ضامر﴾ على سقوط فرض الحج على من يركب البحر ولا طريق له سواه ، لكونه لم يذكر في هذه الآية ضعيف لأن مكة ليست على بخر ، وإنما يتوصل إليها على إحدى هاتين الحالتين مشي أو ركوب ، فذكر تعالى ما يتوصل به إليها. وقرأ ابن مسعود فج معيق. قال ابن عباس وغيره من **المنافع** التجارة. وقال الباقر : الأجر. وقال مجاهد وعطاء كلاهما ، واختاره ابن العربي.

قال الزمخشري : ونكر **المنافع** لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنياوية لا توجد في غيرها من العبادات. وعن أبي حنيفة أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج ، فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص ، وكنى عن النحر والذبح بذكر اسم الله لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا ، وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله أن يذكر اسمه وقد حسن الكلام تحسينا بينا أن جمع بين قوله ليذكروا اسم الله عليه. وقوله ﴿على ما رزقهم﴾ ولو قيل لينحروا ﴿فى أيام معلومات﴾ ﴿بهيمة الانعام﴾ لم تر شيئا من ذلك الحسن والروعة انتهى.

واستدل من قال أن المقصود بذكر اسم الله هو على الذبح والنحر على أن الذبح لا يكون بالليل ولا يجوز فيه لقوله ﴿فى أيام﴾

٣٦٤

وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي. وقيل : الذكر هنا حمده وتقديسه شكرا على نعمته في الرزق ويؤيده قوله عليه السلام : "أنها أيام أكل وشرب" وذكر اسم الله والأيام المعلومات أيام العشر قاله ابن عباس والحسن وإبراهيم وقتادة وأبو حنيفة ، والمعدودات أيام التشريق الثلاثة. وقالت فرقة منهم مالك وأصحابه : المعلومات يوم النحر ويومان بعده ، والمعدودات أيام التشريق الثلاثة ، فيوم النحر معلوم لا معدود واليومان بعده معلومان معدودان ، والرابع معدود لا معلوم ويوم النحر ويومان بعده هي أيام النحر عند علي وابن

عباس وابن عمر وأنس وأبي هريرة وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وأبي حنيفة والثوري ، وعند الحسن وعطاء والشافعي ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، وعند النخعي النحر يومان ، وعند ابن سيرين النحر يوم واحد ، وعن أبي سلمة وسليمان بن يسار الأضحى إلى هلال المحرم. وقال ابن عطية : ويظهر أن تكون المعلومات والمعدودات بمعنى أن تلك الأيام الفاضلة كلها ، ويبقى أمر الذبح وأمر الاستعجال لا يتعلق بمعدود ولا معلوم ، ويكون فائدة قوله ﴿معلومات﴾ ومعدودات التحريض على هذه الأيام وعلى اغتنام فضلها أي ليست كغيرها فكأنه قال هي مخصوصات فلتغتنم انتهى.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٤٥

." (١)

"قال ابن عطية : ومن قال أن ﴿من﴾ للتبعيض قلب معنى الآية فأفسده انتهى. وقد يمكن التبعيض فيها بأن يعني بالرجس عبادة الأوثان ، وقد روي ذلك عن ابن عباس وابن جريج ، فكأنه قال : فاجتنبوا من الأوثان الرجس وهو العبادة لأن المحرم من الأوثان إنما هو العبادة ، ألا ترى أنه قد يتصور استعمال الوثن في بناء وغير ذلك مما لم يحرمه الشرع ؟ فكأن للوثن جهات منها عبادتها ، وهو المأمور باجتنابه وعبادتها بعض جهاتها ، ولما كان قول الزور معادلا للكفر لم يعطف على الرجس بل أفرد بأن كرر له العامل اعتناء باجتنابه. وفي الحديث : "عدلت شهادة الزور بالشرك".

ولما أمر باجتناب عبادة الأوثان وقول الزور ضرب مثلا للمشرك فقال ﴿ومن يشرك بالله﴾ الآية. قال الزمخشري : يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده بأن صور حاله بصورة حال من ﴿خر من السمآء﴾ فاختطفته ﴿الطير﴾ فتفرق مرعا في حواصلها ، وعصفت به ﴿الريح﴾ حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة ، وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والإهواء التي تنازع أوكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي ﴿تهوى﴾ مما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة انتهى. وقرأ نافع ﴿فتخطفه﴾ بفتح الخاء والطاء مشددة وباقي السبعة بسكون الخاء وتخفيف الطاء. وقرأ الحسن وأبو رجاء والأعمش بكسر التاء والخاء والطاء مشددة ، وعن الحسن كذلك إلا أنه فتح الطاء مشددة. وقرأ الأعمش أيضا تخطه بغير فاء وإسكان الخا وفتح الطاء مخففة. وقرأ أبو جعفر والحسن وأبو رجاء : الرياح.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦/٢٦٥

﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب * لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلهآ إلى البيت العتيق * ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم منا بهيمة الانعاما فإلاهكم إلاه واحد فلها أسلموا ا وبشر﴾ .

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٤٥

إعراب ﴿ذالك﴾ كإعراب ﴿ذالك﴾ المتقدم ، وتقدم تفسير ﴿شعائر الله﴾ في أول المائدة ، وأما هنا فقال ابن عباس ومجاهد وجماعة : هي البدن الهدايا ، وتعظيمها تسمينها والاهتبال بها والمغالاة فيها. وقال زيد بن أسلم : الشعائر ست : الصفا ، والمروة ، والبدن ، والجمار ، والمشعر الحرام ، وعرفة ، والركن. وتعظيمها إتمام ما يفعل فيها. وقال ابن عمر والحسن ومالك وابن زيد : مواضع الحج كلها ومعالمه بمنى وعرفة والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغير ذلك ، وهذا نحو من قول زيد بن أسلم.

وقيل : شرائع دينه وتعظيمها التزامها **والمنافع** الأجر ، ويكون والضمير في ﴿فيها﴾ من قوله ﴿لكم فيها منافع﴾ عائدا على الشعائر التي هي الشرائع أي ﴿لكم فى﴾ التمسك بها ﴿منافع إلى أجل﴾ منقطع التكليف ﴿ثم محلهآ﴾ بشكل على هذا التأويل. فقيل : فقيل : الإيمان والتوجه إليه بالصلاة ، وكذلك القصد في الحج والعمرة ، أي محل ما يختص منها بالإحرام ﴿البيت العتيق﴾ وقيل : معنى ذلك ثم أجرها على رب ﴿البيت العتيق﴾ قيل : ولو قيل على هذا التأويل أن ﴿البيت العتيق﴾ الجنة لم يبعدوا الضمير في إنها عائد على الشعائر على حذف مضاف أي فإن تعظيمها أو على التعظمة ، وأضاف التقوى إلى القلوب كما قال عليه الصلاة والسلام : "التقوى ههنا". وأشار إلى صدره. وعن عمر أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال : "بل اهدها" وأهدى هو عليه السلام مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب ، وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي فيتصدق

٣٦٧

بلحومها وبجلالها ، ويعتقد أن طاعة الله في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد أن يقام به ويسارع فيه ، وذكر ﴿القلوب﴾ لأن المنافق يظهر التقوى وقلبه خال عنها ، فلا يكون مجدا في أداء الطاعات ، والمخلص التقوى بالله في قلبه فيبالغ في أدائها على سبيل الإخلاص.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٤٥

وقال الزمخشري : فإن تعظيمها ﴿من﴾ أفعال ذوي ﴿تقوى القلوب﴾ فحذفت هذه المضافات ، ولا

يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى ﴿من﴾ ليترتبط به ، وإنما ذكرت ﴿القلوب﴾ لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء انتهى.
". (١)

"وما قدره عار من راجع إلى الجزاء إلى ﴿من﴾ ألا ترى أن قوله فإن تعظيمها من أفعال القلوب ليس في شيء منه ضمير يعود إلى ﴿من﴾ يربط جملة الجزاء بجملة الشرط الذي أداته ﴿من﴾ وإصلاح ما قاله أن يكون التقدير فأي تعظيمها منه ، فيكون الضمير في منه عائدا على من فيرتبط الجزاء بالشرط.
وقرىء ﴿القلوب﴾ بالرفع على الفاعلية بالمصدر الذي هو ﴿تقوى﴾ والضمير في ﴿فيها﴾ عائد على البدن على قول الجمهور ، **والمنافع** درها ونسلها وصوفها وركوب ظهرها ﴿إلى أجل مسمى ﴾ وهو أن يسميها ويوجبها هديا فليس له شيء من منافعها. قاله ابن عباس في رواية مقسم ، ومجاهد وقتادة والضحاك. وقال عطاء : منافع الهدايا بعد إيجابها وتسميتها هديا بأن تركب ويشرب لبنها عند الحاجة ﴿إلى أجل مسمى ﴾ أي إلى أن تنحر. وقيل : إلى أن تشعر فلا تركب إلا عند الضرورة. وروى أبو رزين عن ابن عباس : الأجل المسمى الخروج من مكة. وعن ابن عباس ﴿إلى أجل مسمى ﴾ أي إلى الخروج والانتقال من هذه الشعائر إلى غيرها. وقيل : الأجل يوم القيامة. وقال الزمخشري : إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها.
و﴿ثم﴾ للتراخي في الوقت فاستعيرت للتراخي في الأفعال ، والمعنى أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم وإنما يعبد الله **بالمنافع** الدينية قال تعالى : ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الاخرة﴾ وأعظم هذه **المنافع** وأبعدها شوطا في النفع محلها إلى البيت أي وجوب نحرها ، أو وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت كقوله ﴿هديا بالغ الكعبة﴾ والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت لأن الحرم هو حريم البيت ، ومثل هذا في الاتساع قولك : بلغنا البلد وإنما شارفتموه واتصل مسيركم بحدوده. وقيل : المراد بالشعائر المناسك كلها و﴿محلهآ إلى البيت العتيق﴾ يأباه انتهى.
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٤٥
وقال القفال : الهدي المتطوع به إذا عطب قبل بلوغ مكة فإن محله موضعه ، فإذا بلغ منى فهي محله وكل فجاج مكة. وقال ابن عطية : وتكرر ﴿ثم﴾ لترتيب الجمل لأن المحل قبل الأجل ، ومعنى الكلام عند هاتين الفريقين يعني من قال مجاهد ومن وافقه ، ومن قال بقول عطاء ﴿ثم محلهآ﴾ إلى موضع النحر

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦/٢٦٧

فذكر البيت لأنه أشرف الحرم وهو المقصود بالهدي وغيره ، والأجل الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة وقوله ﴿ثم محلهآ﴾ مأخوذ من إحلال المحرم معناه ، ثم أخر هذا كله إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق ، فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه قاله مالك في الموطأ انتهى.
والمنسك مفعل من نسك واحتمل أن يكون موضعا للنسك ، أي مكان نسك ، واحتمل أن يكون مصدرا واحتمل أن يراد به مكان العبادة مطلقا أو العبادة ، واحتمل أن يراد نسك خاص أو نسكا خاصا وهو موضع ذبح أو ذبح ، وحمله الزمخشري على الذبح ، يقال : شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له أي يذبحوا لوجهه على وجه التقرب ، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على المناسك انتهى. وقياس بناء مفعل مما مضارعه يفعل يضم العين مفعل بفتحها في المصدر والزمان والمكان ، وبالفتح قرأ الجمهور. وقرأ بكسرها الأخوان وابن سعدان وأبو حاتم عن أبي عمرو ويونس ومحبوب وعبد الوارث إلا القصبي عنه. قال ابن عطية : والكسر في هذا من الشاذ ولا يسوغ فيه القياس ، ويشبه أن يكون الكسائي
٣٦٨
سمعه من العرب. وقال الأزهري : مينسك ومنسك لغتان. وقال مجاهد : المنسك الذبح ، وإراقة الدماء يقال : نسك إذا ذبح ، والذبيحة نسيكة وجمعها نسك. وقال الفراء : المنسك في كلام العرب المعتاد في خير وبر. وقال ابن عرفة ﴿منسكا﴾ أي مذهبا من طاعة الله ، يقال : نسك نسك قومه إذا سلك مذهبهم. وقال الفراء ﴿منسكا﴾ عيدا وقال قتادة : حجا.
." (١)

"لبني كنانة. وقرأ عمر بن الخطاب وباقي السبعة بالفتح وهي لغة سائر العرب. وقرأ سيني مقصورا وبفتح السين والأصح أن ﴿سينآء﴾ اسم بقعة وأنه لس مشتقا من السناء لاختلاف المادتين على تقدير أن يكون سيناء عربي الوضع لأن نون السناء عين الكلمة وعين سيناء ياء.
وقرأ الجمهور ﴿تانبت﴾ بفتح التاء وضم الباء والباء في ﴿بالدهن﴾ على هذا باء الحال أي ﴿تانبت﴾ مصحوبة ﴿بالدهن﴾ أي ومعها الدهن. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسلام وسهل ورويس والجحدري بضم التاء وكسر الباء ، فقيل ﴿بالدهن﴾ مفعول والباء زائدة التقدير تنبت الدهن. وقيل : المفعول محذوف أي ﴿تانبت﴾ جناها و﴿بالدهن﴾ في موضع الحال من المفعول المحذوف أي تنبت جناها ومعه الدهن. وقيل : أنبت لازم كنبت فتكون الباء للحال ، وكان الأصمعي ينكر ذلك ويتهم من روى في بيت زهير :

---

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦/٢٦٨

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٩٢

قطينا بها حتى إذا أنبت البقل

بلفظ أنبت. وقرأ الحسن والزهري وابن هرمز بضم التاء وفتح الباء مبنيا للمفعول و﴿بالدهن﴾ حال. وقرأ زر بن حبيش بضم التاء وكسر الباء الدهن بالنصب. وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب بالدهان بالألف ، وما رووا من قراءة عبد الله يخرج الدهن وقراءة أبي تثمر بالدهن محمول على التفسير لمخالفته سواد المصحف المجمع عليه ، ولأن الرواية الثابتة عنهما كقراءة الجمهور والصبغ الغمس والائتدام.

وقال مقاتل : الصبغ الزيتون والدهن الزيت جعل تعالى في هذه الشجرة تأدما ودهنا. وقال الكرماني : القياس أن يكون الصبغ غير الدهن لأن المعطوف غير المعطوف عليه. وقرأ الأعمش وصبغا بالنصب. وقرأ عامر بن عبد الله وصباغ بالألف ، فالنصب عطف على موضع ﴿بالدهن﴾ كان في موضع الحال أو في موضع المفعول ، والصباغ كالدبغ والدباغ وفي كتاب ابن عطية. وقرأ عامر بن عبد قيس ومتاعا ﴿للآكلين﴾ كأنه يريد تفسير الصبغ.

ذكر تعالى شرف مقر هذه الشجرة وهو الجبل الذي كلم الله فيه نجيه موسى عليه السلام ، ثم ذكر ما فيها من الدهن والصبغ ووصفها بالبركة في قوله ﴿من شجرة مباركة زيتونة﴾ قيل : وهي أول شجرة يثبت بعد الطوفان ﴿وإن لكم فى الانعام لعبرةا نسقيكم مما فى بطونها﴾ تقدم تفسير نظير هذه الجملة في النحل ﴿ولكم فيها منافع﴾ من الحمل والركوب والحرث والانتفاع بجلودها وأوبارها ، ونبه على غزارة فوائدها وألزامها وهو الشرب والأكل ، وأدرج باقي **المنافع** في قوله ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ ثم ذكر ما تكاد تختص به بعض الأنعام وهو الحمل عليها وقرنها بالفلك لأنها سفائن البر كما أن ﴿الفلك﴾ سفائن البحر.

قال ذو الرمة :

سفينة بر تحت خدي زمامها

يريد صيدح ناقته.

﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومها فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرها أفلا تتقون * فقال الملؤا الذين كفروا من قومها ما هاذآ إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شآء الله لانزل﴾ .

٤٠١

لما ذكر أولا بدء الإنسان وتطوره في تلك الأطوار ، وما امتن به عليه مما جعله تعالى سببا لحياتهم ، وإدراك مقاصدهم ، ذكر أمثالا لكفار قريش من الأمم السابقة المنكرة لإرسال الله رسلا المكذبة بما جاءتهم

به الأنبياء عن الله ، فابتدأ قصة نوح لأنه أبو البشر الثاني كما ذكر أولا آدم في قوله ﴿من سلالة من طين﴾ ولقصته أيضا مناسبة بما قبلها إذ قبلها ﴿وعلى الفلك تحملون﴾ فذكر قصة من صنع الفلك أولا وأنه كان سبب نجاة من آمن وهلك من لم يكن فيه الفلك من نعمة الله ، كل هذه القصص يحذر بها قريشا نقم الله ويذكرهم نعمه.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٩٢

﴿ما لكم من إلاه غيرها ﴾ جملة مستأنفة منبهة على أن يفرد بالعبادة من كان منفردا بالإلهية فكأنها تعليل لقوله ﴿اعبدوا الله﴾ ﴿أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون عقوبته إذا عبدتم غيره ﴿فقال الملا﴾ أي كبراء الناس وعظماؤهم ، وهم الذين هم أعصى الناس وأبعدهم لقبول الخير. ﴿ما هاذآ إلا بشر مثلكم﴾ أي مساويكم في البشرية. فأنى تؤفكون له اختصاص بالرسالة.

." (١)

"يخاف الله قال : "لا يا ابنة الصديق ولكنه هو الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله أن لا يقبل". قيل : وجل العارف من طاعته أكثر من مخالفته لأن المخالفة تمحوها التوبة والطاعة تطلب التصحيح. وقال الحسن : المؤمن يجمع إحسانا وشفقة ، والمنافق يجمع إساءة وأمنا. وقرأ الأعمش ﴿أنهم﴾ بالكسر. وقال أبو عبد الله الرازي ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن لأن الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز ، والثانية على تحصيل الإيمان بالله ، والثالثة على ترك الرياء في الطاعة ، والرابعة على أن المستجمع لهذه الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع خوف من التقصير وهو نهاية مقامات الصديقين انتهى.

﴿أوالئاك يسارعون﴾ جملة في موضع خبر أن. قال ابن زيد ﴿الخيرات﴾ المخافتة والإيمان والكف عن الشرك. قال الزمخشري : ﴿يسارعون فى الخيرات﴾ يحتمل معنيين أحدهما أن يراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها ، والثاني أنهم يتعجلون في الدنيا **المنافع** ، ووجوه الإكرام كما قال ﴿فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الاخرة﴾ ﴿و وهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب﴾ لأنهم إذا سورع بها لهم فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها ، وهذا الوجه أحسن طباقا للآية المتقدمة لأن فيه إثبات ما نفي عن الكفار للمؤمنين انتهى. وقرأ الحر النحوي : يسرعون مضارع أسرع ، يقال أسرعت إلى الشيء وسرعت إليه بمعنى واحد ، وأما المسارعة فالمسابقة أي يسارعون غيرهم. قال الزجاج ﴿يسارعون﴾ أبلغ

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦/٢٩١

من يسرعون انتهى. وجهة المبالغة أن المفاعلة تكون من اثنين فتقتضي حث النفس على السبق لأن من عارضك في شيء تشتهي أن تغلبه فيه.
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٩٢
﴿وهم لها سابقون﴾ الظاهر أن الضمير في ﴿لها﴾ عائد على ﴿الخيرات﴾ أي سابقون إليها تقول : سبقت لكذا وسبقت إلى كذا ، ومفعول ﴿سابقون﴾ محذوف أي سابقون الناس ، وتكون الجملة تأكيدا للتي قبلها مفيدة تجدد الفعل بقوله ﴿يسارعون﴾ وثبوته بقوله ﴿سابقون﴾ وقيل اللام للتعليل أي لأجلها سابقون الناس إلى رضا الله. وقال الزمخشري ﴿لها سابقون﴾ أي فاعلون السبق لأجلها ، أو سابقون الناس لأجلها انتهى. وهذان القولان عندي واحد. قال أيضا أو إياها سابقون أي ينالوها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا انتهى. ولا يدل لفظ ﴿لها سابقون﴾ على هذا التفسير لأن سبق الشيء الشيء يدل على تقدم السابق على المسبوق ، فكيف يقال لهم وهم يسبقون الخيرات هذا لا يصح. وقال أيضا : ويجوز أن كون ﴿لها سابقون﴾ خبرا بعد خبر ومعنى وهم لها كمعنى قوله أنت لها انتهى. وهذا مروي عن ابن عباس. قال : المعنى سبقت لهم السعادة في الأزل فهم لها ، ورجحه الطبري بأن اللام متمكنة في المعنى انتهى. والظاهر القول الأول وباقيها متعسف وتحميل للفظ غير ظاهره. وقيل : الضمير في ﴿لها﴾ عائد على لجنة. وقيل : على الأمم.
﴿ولا نكلف نفسا إلا وسعها ﴾ تقدم الكلام على نظير هذه الجملة في آخر البقرة ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ أي كتاب فيه إحصاء أعمال الخلق يشير إلى الصحف الت يقرؤون فيها ما ثبت لهم في اللوح المحفوظ. وقيل : القرآن.
﴿بل قلوبهم﴾ أي قلوب الكفار في ضلال قد غمرها كما يغمر الماء ﴿من هاذا﴾ أي من هذا العمل الذي وصف به المؤمنون أو من الكتاب الذي لدينا أو من القرآن ، والمعنى من اطراح هذا وتركه أو يشير إلى الذين بجملته أو إلى محمد صلى الله عليه وسلم أقوال خمسة ﴿ولهم أعمال﴾ من دون ذلك"
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٩٢
أي من دون الغمرة والضلال المحيط بهم ، فالمعنى أنهم ضالون معرضون عن الحق ، وهم مع ذلك لهم سعايات فساد وصفهم تعالى بحالتي شر قال هذا المعنى قتادة وأبو العالية ، وعلى هذا التأويل الإخبار عما سلف من أعمالهم وعماهم فيه. وقيل : الإشارة بذلك إلى قوله ﴿من هاذا﴾ وكأنه قال لهم أعمال من دون الحق ، أو

٤١١
." (١)

"﴿كوكب درى﴾ قال الضحاك : هو الزهرة شبه الزجاجة في زهرتها بأحد الدراري من الكواكب المشاهير ، وهي المشتري ، والزهرة ، والمريخ ، وسهيل ونحو ذلك. وقرأ الجمهور من السبعة نافع وابن عامر وحفص وابن كثير ﴿درى﴾ بضم الدال وتشديد الراء والياء ، والظاهر نسبة الكوكب إلى الدر لبياضه وصفائه ، ويحتمل أن يكون أصله الهمز فأبدل وأدغم. وقرأ قتادة وزيد بن علي والضحاك كذلك إلا أنهما فتحا الدال. وروى ذلك عن نصر بن عاصم وأبي رجاء وابن المسيب. وقرأ الزهري كذلك إلا أنه كسر الدال. وقرأ حمزة كذلك إلا أنه همز من الدرء بمعنى الدفع ، أي يدفع بعضها بعضا ، أو يدفع ضوؤها خفاءها ووزنها فعيل. قيل : ولا يوجد فعيل إلا قولهم مريق للعصفر ودريء في هذه القراءة. قيل : وسرية إذا قيل إنها مشتقة من السرور ، وأبدل من أحد المضعفات الياء فأدغمت فيها ياء فعيل ، وسمع أيضا مريخ للذي في داخل القرن اليابس بضم المميم وكسرها. وقيل : منه عليه. وقيل : ﴿درى﴾ ووزنه في الأصل فعول كسبوح فاستثقل الضم فرد إلى الكسر ، وكذا قيل في سرته ودرته. وقرأ أبو عمرو والكسائي كذلك إلا أنه كسر الدال وهو بناء كثير في الأسماء نحو سكين وفي الأوصاف سكير. وقرأ قتادة أيضا وأبان بن عثمان وابن المسيب وأبو رجاء وعمرو بن فائد والأعمش ونصر بن عاصم كذلك إلا أنه بفتح الدال. قال ابن جني : وهذا عزيز لم يحفظ منه إلا السكينة بفتح السين وشد الكاف انتهى. وفي الأبنية حكى الأخفش كوكب دريء من درأته ودرية وعليك بالسكينة والوقار عن أبي زيد. وحكى الفراء بكسر السين.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٥٣

وقرأ الأخوان وأبو بكر والحسن وزيد بن علي وقتادة وابن وثاب وطلحة وعيسى والأعمش بضم التاء أي ﴿زجاجةا الزجاجة﴾ مضارع أوقدت مبينا للمفعول ، ونافع وابن عامر وحفص كذلك إلا أنه بالياء أي ﴿المصباح﴾ وابن كثير وأبو عمرو بفتح الأربعة فعلا ماضيا أي ﴿مصباحا المصباح﴾ . والحسن والسلمي وقتادة وابن محيصن وسلام ومجاهد وابن أبي إسحاق والمفضل عن عاصم كذلك إلا أنه بضم الدال مضارع وأصله تتوقد أي ﴿زجاجةا الزجاجة﴾ . وقرأ عبد الله وقد بغير تاء وشدد القاف جعله فعلا ماضيا أي وقد المصباح. وقرأ السلمي وقتادة وسلام أيضا كذلك إلا أنه بالياء من تحت. وجاء كذلك عن الحسن وابن محيصن ، وأصله يتوقد أي ﴿المصباح﴾ إلا أن حذف الياء في يتوقد مقيس لدلالة ما أبقى على ما حذف.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢٩٩/٦

وفي ﴿يوقد﴾ شاذ جدا لأن الياء الباقية لا تدل على التاء المحذوفة ، وله وجه من القياس وهو حمله على يعد إذ حمل يعد وتعد وأعد في حذف الواو كذلك هذ لما حذفوا من تتوقد بالتاءين حذفوا التاء مع الياء وإن لم يكن اجتماع التاء والياء مستثقلا.

﴿من شجرة﴾ أي من زيت شجرة ، وهي شجرة الزيتون. ﴿مباركة﴾ كثيرة **المنافع** أو لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين. وقيل : ب ا رك فيها

٤٥٦

للعالمين. وقيل : بارك فيها سبعون نبيا منهم إبراهيم عليه السلام ، والزيتون من أعظم الشجر ثمرا ونماء واطراد أفنان ونضارة أفنان. وقال أبو طالب :

بورك الميت الغريب كمابورك نضر الرمان والزيتون

﴿لا شرقية ولا غربية﴾ . قال ابن زيد : هي من شجر الشام فهي ليست من شرق الأرض ولا من غربها ، لأن شجر الشام أفضل الشجر. وقال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم : هي في منكشف من الأرض تصيبها الشمس طول النهار تستدير عليها ، فليست خالصة للشرق فتسمى ﴿شرقية﴾ ، ولا للغرب فتسمى ﴿غربية﴾ وقال الحسن : هذا مثل وليست من شجر الدنيا إذ لو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية. وعن ابن عباس : أنها في درجة أحاطت بها فليست منكشفة لا من جهة الشرق ولا من جهة الغرب ، وهذا لا يصح عن ابن عباس لأنها إذا كانت بهذه الصفة فسد جناها. وقال ابن عطية : إنها في وسط الشجر لا تصيبها الشمس طالعة ولا غاربة ، بل تصيبها بالغداة والعشي. وقال عكرمة : هي من شجر الجنة. وقال ابن عمر : الشجرة مثل أي إنها ملة إبراهيم ليست بيهودية ولا نصرانية. وقيل : ملة الإسلام ليست بشديدة ولا لينة. وقيل : لا مضحى ولا مفيأة ، ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها ، وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٥٣

و ﴿زيتونة﴾ بدل من ﴿شجرة﴾ وجوز بعضهم فيه أن يكون عطف بيان ، ولا يجوز على مذهب البصريين لأن عطف البيان عندهم لا يكون إلا في المعارف ، وأجاز الكوفيون وتبعهم الفارسي أنه يكون في النكرات. و﴿لا شرقية﴾ ﴿ولا﴾ على ﴿غربية﴾ على قراءة الجمهور بالخفض صفة لزيتونة. وقرأ الضحاك بالرفع أي

لا هي شرقية ولا غربية ، والجملة في موضع الصفة.
". (١)

"وقولهم ﴿إن كاد ليضلنا﴾ دليل على فرط مجاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوتهم ، وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم مع عرض الآيات والمعجزات حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام لولا فرط لاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم. و﴿لولا﴾ في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى لا من حيث اللفظ مجرى التقييد للحكم المطلق قاله الزمخشري. وقال أبو عبد الله الرازي : الاستهزاء إما بالصورة فكان أحسن منهم خلقة أو بالصفة فلا يمكن لأن الصفة التي تميز بها عنهم ظهور المعجز عليه دونهم ، وما قدروا على القدح في حجته ففي الحقيقة هم الذين يستحقون أن يهزأ بهم ثم لوقاحتهم قلبوا القصة والستهزؤوا بالرسول عليه الصلاة والسلام انتهى. قيل : وتدل الآية على أنهم صاروا في ظهور حجته عليه الصلاة والسلام عليهم كالمجانين استهزؤوا به أولا ثم إنهم وصفوه بأنه ﴿كاد ليضلنا﴾ عن مذهبنا ﴿لولا﴾ أنا قابلناه بالجمود والإصرار فهذا يدل على أنهم سلموا له قوة الحجة وكمال العقل ، فكونهم جمعوا بين الاستهزاء وبين هذه الكيدودة دل على أنهم كانوا كالمتحيرين في أمره تارة يستهزئون منه وتارة يصفونه بما لا يليق إلا بالعالم الكامل.
﴿وسوف يعلمون﴾ وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدة الإمهال فلا بد للوعيد أن يلحقهم فلا يغرنهم التأخير ، ولما قالوا ﴿إن كاد ليضلنا﴾ جاء قوله ﴿من أضل سبيلا﴾ أي سيظهر لهم من المضل ومن الضال بمشاهدة العذاب الذي لا مخلص لهم منه. والظاهر أن من استفهامية وأضل خبره والجملة في موضع مفعول
٥٠٠
﴿يعلمون﴾ إن كانت متعدية إلى واحد أو في موضع مفعولين إن كانت تعدت إلى اثنين ، ويجوز أن تكون ﴿من﴾ موصولة مفعولة بيعلمون و﴿أضل﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو أضل ، وصار حذف هذا المضمر للاستطالة التي حصلت في قول العرب ما أنا بالذي قائل لك سواء.
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٩٧
﴿أرءيت من اتخذ إلاهه هواه﴾ هذا يأس عن إيمانهم وإشارة إليه عليه السلام أن لا يتأسف عليهم ، وإعلام أنهم في الجهل **بالمنافع** وقلة النظر في العواقب مثل البهائم ثم ذكر أنهم ﴿أضل سبيلا﴾ من الأنعام من

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦/٣٣٢

حيث لهم فهم وتركوا استعماله فيما يخلصهم من عذاب الله. والأنعام لا سبيل لها إلى فهم المصالح. و﴿أرءيت﴾ استفهام تعجب من جهل من هذه الحالة و﴿إلاهه﴾ المفعول الأول لاتخذ ، و﴿هواه﴾ الثاني أي أقام مقام الأله الذي يعبده هواه فهو حار على ما يكون في ﴿هواه﴾ والمعنى أنه لم يتخذ إلها إلا هواه وادعاء القلب ليس بجيد إذ يقدره من اتخذ هواه إلهه والبيت من ضرائر الشعر ونادر الكلام فينزه كلام الله عنه كان الرجل يعبد الصنم فإذا رأى أحسن منه رماه وأخذ الأحسن.

قيل : نزلت في الحارث بن قيس السهمي ، كان إذا هوى شيئا عبده ، والهوى ميل القلب إلى الشيء أفأنت تجبره على ترك هواه ، أو أفأنت تحفظه من عظيم جهله. وقرأ بعض أهل المدينة من اتخذ آلهة منونة على الجمع ، وفيه تقديم جعل هواه أنواعا أسماء لأجناس مختلفة فجعل كل جنس من هواه إلها آخر. وقرأ ابن هرمز : إلاهة على وزن فعالة وفيه أيضا تقديم أي هواه إلاهة بمعنى معبود لأنها بمعنى المألوهة. فالهاء فيها للمبالغة فلذلك صرفت. وقيل : بل الإلاهة الشمس ويقال لها ألاهة بضم الهمزة وهي غير مصروفة للعلمية والتأنيث لكنها لما كانت مما يدخلها لام المعرفة في بعض اللغات صارت بمنزلة ما كان فيه اللام ثم نزعت فلذلك صرفت وصارت بمنزلة النعوت فتنكرت قاله صاحب اللوامح. ومفعول ﴿أرءيت﴾ الأول هو ﴿من﴾ والجملة الاستفهامية في موضع المفعول الثاني. وتقدم الكلام في ﴿أرءيت﴾ في أوائل الأنعام ومعنى ﴿وكيلا﴾ أي هل تستطيع أن تدعو إلى الهدى فتتوكل عليه وتجبره على الإسلام. و﴿أم﴾ منقطعة تتقدر ببل والهمزة على المذهب الصحيح كأنه قال : بل أتحسب كان هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حفت بالإضراب عنها إليها وهو كونها مسلوبي الأسماع والعقول لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنا إلى تدبره عقلا ، ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلالة ، ونفى ذلك عن أكثرهم لأن فيهم من سبقت له السعادة فأسلم ، وجعلوا أضل من الأنعام لأنها تنقاد لأربابها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب منفعتها وتتجنب مضرتها وتهتدي إلى مراعيها ومشاربها ، وهم لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم ولا يرغبون في الثواب الذي هو أعظم **المنافع** ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار ولا يهتدون للحق.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٩٧

٥٠١

". (١)

---

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦/٣٦٥

"وقال الزمخشري : ومعنى ﴿مد الظل﴾ أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس. ﴿ولو شآء لجعله ساكنا﴾ أي لاصقا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجر وغير منبسط فلم ينتفع به أحد ، سمي انبساط الظل وامتداده تحركا منه وعدم ذلك سكونا ومعنى كون الشمس دليلا أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتا في مكان وزائلا ومتسعا ومتقلصا فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك. وقبضه إله أن ينسخه بظل الشمس ﴿يسيرا﴾ أي على مهل وفي هذا القبض اليسير شيئا بعد شيء من **المنافع** ما لا يعد ولا يحصى ، ولو قبض دفعة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا فإن قلت : ثم في هذين الموضعين كيف موقعها ؟ قلت : موقعها البيان تفاضل الأمور الثلاثة كأن الثاني أعظم من الأول ، والثالث أعظم من الثاني تشبيها لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت. ووجه آخر وهو أنه بنى الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض لعدم النير.

﴿ولو شآء لجعله ساكنا﴾ مستقرا على تلك الحالة ثم خلق الشمس وجعله على ذلك الظل سلطها عليه وجعلها دليلا متبوعا لهم كما يتبع الدليل في الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويقلص ، ثم نسخه بها قبضه قبضا سهلا يسيرا غير عسير ، ويحتمل أن يريد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تلقي الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه ، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله ﴿قبضناه إلينا﴾ يدل عليه وكذلك قوله ﴿يسيرا﴾ كما قال ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ انتهى وقوله : سمى انبساط الظل وامتداده تحركا منه لم يسم الله ذلك إنما قال كيف مد الظل وقوله : ويحتمل أن يريد قبضه عند قيامه الساعة فهذا يبعد احتماله لأنه إنما ذكر آثار صنعته وقدرته لتشاهد ثم قال ﴿مد الظل﴾ وعطف عليه ماضيا مثله فيبعد أن يكون التقدير ثم قبضه عند قيام الساعة مع ظهور كونه ماضيا مستداما أمثاله.

وقال ابن عطية : ﴿ولو شآء لجعله ساكنا﴾ أي ثابتا غير متحرك ولا منسوخ ، لكنه جعل الشمس ونسخها إياه

٥٠٣

بطردها له من موضع إلى موضع دليلا عليه مبينا لوجوده ولوجه العبرة فيه. وحكى الطبري : أنه لولا الشمس لم يعلم أن الظل شيء إذ الأشياء إنما تعرف بأضدادها. وقال ابن عباس : ﴿يسيرا﴾ معجلا. وقال مجاهد لطيفا أي شيئا بعد شيء ، ويحتمل أن يريد سهلا قريب التناول. وقال أبو عبد الله الرازي : أكثر الناس في تأويل هذه الآية ويرفع الكلام فيها إلى وجهين.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٥٠١

الأول : أن الظل لا ضوء خالص ولا ظلمة خالصة ، وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وكذلك الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأبنية الجدارات ، وهي أطيب الأحوال لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس والضوء الخالص يحير الحس البصري ويحدث السخونة القوية وهي مؤذية ، ولهذا قيل في الجنة ﴿وظل ممدود﴾ والناظر إلى الجسم الملون كأنه يشاهد بالظل شيئا سوى الجسم وسوى اللون والظل ليس أمرا ثالثا ولا معرفة به إلا إذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم ثم مال عرف للظل وجود وماهية ، ولولاها ما عرف لأن الأشياء تدرك بأضدادها ، فظهر للعقل أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون ولذلك قال ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ أي جعلنا الظل أولا بما فيه من المنافع واللذات ، ثم هدينا العقول إلى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس فكانت دليلا على وجود الظل. ﴿ثم قبضناه﴾ أي أزلناه لا دفعة بل ﴿يسيرا﴾ يسيرا كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل من جانب المغرب ، ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا كان زوال الأظلال كذلك.

والثاني : أنه لما خلق السماء والأرض وقع السماء على الأرض فجعل الشمس دليلا لأنه بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال فهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما ، فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر ، فكما أن المهتدي يقتدي بالهادي والدليل ويلازمه فكذلك الأظلال ملازمة للأضواء ، ولذلك جعل الشمس دليلا عليه انتهى. ملخصا وهو مأخوذ من كلام الزمخشري ، ومحسن بعض تحسين. والآية في غاية الظهور ولا تحتاج إلى هذا التكثير.

". (١)

"أي فليت لي بدلهم قوما ولم يذكر متعلق الصبر مخصصا ليعم جميع متعلقاته. وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر والحرميان وأبو عمرو وأبو بكر ﴿ويلقون﴾ بضم الياء وفتح اللام والقاف مشددة. وقرأ طلحة ومحمد اليماني وباقي السبعة بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف. والتحية دعاء بالتعمير والسلام دعاء بالسلامة ، أي تحييهم الملائكة أو يحيي بعضهم بعضا. وقيل : يحيون بالتحف جمع لهم بينهم المنافع والتعظيم. ﴿حسنت مستقرا ومقاما﴾ معادل لقوله في جهنم ﴿سآءت مستقرا ومقاما﴾ .

ولما وصف عباده العباد وعدد ما لهم من صالح الأعمال أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصرح للناس بأن لا اكتراث لهم عند ربهم إنما هو العبادة والدعاء في قوله ﴿لولا دعآؤكم﴾ هو العبادة والظاهر أن ﴿مآ﴾

---

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦/٣٦٧

نفي أي ليس ﴿يعبؤا بكم ربى لولا دعآؤكم﴾ ويجوز أن تكون استفهامية فيها معنى النفي أي ، أي عبء يعبأ بكم ، و﴿دعآؤكم﴾ مصدر أضيف إلى الفاعل أي لولا عبادتكم إياه أي لولا دعاؤكم وتضرعكم إليه أو ما يعبأ بتعذيبكم لولا دعاؤكم الأصنام آلهة. وقيل : أضيف إلى المفعول أي لولا دعاؤه إياكم إلى طاعته. والذي يظهر أن قوله ﴿قل ما يعبؤا بكم﴾ خطاب لكفار قريش القائلين

٥١٧

نسجد لما تأمرنا أي لا يحفل بكم ربي لولا تضرعكم إليه واستغاثتكم إياه في الشدائد.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٥٠٩

﴿فقد كذبتم﴾ بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتستحقون العقاب ﴿فسوف يكون﴾ العقاب وهو ما أنتجه تكذيبكم ونفس لهم في حلوله بلفظة ﴿فسوف يكون لزاما ﴾ أي لازما لهم لا ينفكون منه. وقرأ عبد الله وابن عباس وابن الزبير : فقد كذب الكافرون وهو محمول على أنه تفسير لا قرآن ، والأكثرون على أن اللزام هنا هو يوم بدر وهو قول ابن مسعود وأبي. وقيل : عذاب الآخرة. وقيل : الموت ولا يحمل على الموت المعتاد بل القتل ببدر. وقيل : التقدير ﴿فسوف يكون﴾ هو أي العذاب وقد صرح به من قرأ ﴿فسوف يكون﴾ العذاب ﴿لزاما ﴾ والوجه أن يترك اسم كان غير منطوق به بعدما علم أنه مما توعد به لأجل الإبهام وتناول ما لا يكتنهه الوصف. وعن ابن عباس ﴿فسوف يكون﴾ هو أي التكذيب ﴿لزاما ﴾ أي لازما لكم لا تعطون توبة ذكره الزهراوي. قال الزمخشري : والخطاب إلى الناس على الإطلاق ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون ، فخوطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب ﴿فقد كذبتم﴾ يقول إذا أعلمتكم أن حكمي أنى لا أعتد إلا بعبادتهم ، فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار. ونظيره في الكلام أن يقول الملك لمن عصى عليه : إن من عادتي أن أحسن إلى من يطيعني ويتبع أمري ، فقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك. وقرأ ابن جريج : فسوف تكون بتاء التأنيث أي فسوف تكون العاقبة ، وقرأ الجمهور ﴿لزاما ﴾ بكسر اللام. وقرأ المنهال وأبان بن ثعلب وأبو السمال بفتحها مصدر يقول لزم لزوما ولزاما ، مثل ثبت ثبوتا وثباتا. وأنشد أبو عبيدة علي كسر اللام لصخر الغي :

فإما ينج من حتف أرضفقد لقيا حتوفهما لزاما

ونقل ابن خالويه عن أبي السمال أنه قرأ لزام على وزن حذام جعله مصدرا معدولا عن اللزمة كفجار معدول عن الفجرة.

٥١٨
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٥٠٩." [١]

"﴿ولوطا﴾ : عطف على ﴿صالحا﴾ ، أي وأرسلنا لوطا ، أو على ﴿الذين كفروا ﴾ ، أي وأنجينا لوطا ، أو باذكر مضمرة ، وإذ بدل منه ، أقوال. و﴿أتأتون﴾ : استفهام إنكار وتوبيخ ، وأبهم أولا في قوله : ﴿الفاحشة﴾ ، ثم عينها في قوله : ﴿أأنكم لتأتون الرجال﴾ ، وقوله : ﴿وأنتم تبصرون﴾ : أي تعلمون قبح هذا الفعل المنكر الذي أحدثتموه ، وأنه من أعظم الخطايا ، والعلم بقبح الشيء مع إتيانه أعظم في الذنب ، أو آثار العصاة قبلكم ، أو ينظر بعضكم إلى بعض لا يستتر ولا يتحاشى من إظهار ذلك مجانة وعدم اكتراث بالمعصية الشنعاء ، أقوال ثلاثة. وانتصب ﴿شهوة﴾ على أنه مفعول من أجله ، و﴿تجهلون﴾ غلب فيه الخطاب ، كما غلب في ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ . ومعنى : ﴿تجهلون﴾ ، أي عاقبة ما أنتم عليه ، أو تفعلون فعل السفهاء المجان ، أو فعل من جهل أنها معصية عظيمة مع العلم أقوال. ولما أنكر عليهم ونسب إلى الجهل ، ولم تكن لهم حجة فيما يأتونه من الفاحشة ، عدلوا إلى المغالبة والإيذاء ، وتقدم معنى يتطهرون في الأعراف. وقرأ الجمهور : ﴿جواب﴾ بالنصب ؛ والحسن ، وابن أبي إسحاق : بالرفع ، والجمهور : ﴿قدرناها﴾ ، بتشديد الدال ؛ وأبو بكر بتخفيفها ،
٨٦
وباقي الآية تقدم تفسير نظيره في الأعراف. وساء : بمعنى بئس ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي مطرهم.

﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ا ءآلله خير أما يشركون * أمن خلق السماوات والارض وأنزل لكم من السمآء مآء فأنابتنا بها حدآاق ذات بهجة ما كان لكم أن تنابتوا ﴾ .
٨٧
لما فرغ من قصص هذه السورة ، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بحمده تعالى والسلام على المصطفين ، وأخذ في مباينة واجب الوجود ، الله تعالى ، ومباينة الأصنام والأديان التي أشركوها مع الله وعبدوها. وابتدأ في هذا التقرير لقريش وغيرهم بالحمدلة ، وكأنها صدر خطبة لما يلقى من البراهين الدالة على الوحدانية والعلم والقدرة. وقد اقتدى بذلك المسلمون في تصانيف كتبهم وخطبهم ووعظهم ، فافتتحوا بتحميد الله ، والصلاة على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبعهم المترسلون في أوائل كتب الفتوح والتهاني

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣٧٩/٦

والحوادث التي لها شأن. وقيل : هو متصل بما قبله ، وأمر الرسول عليه السلام بتحميد الله على هلاك الهالكين من كفار الأمم ، والسلام على الأنبياء وأتباعهم الناجين.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٨٠

وقيل : ﴿قل﴾ ، خطاب للوط عليه السلام أن يحمد الله على هلاك كفار قومه ، ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى ا﴾ . وعزا هذا القول ابن عطية للفراء ، وقال : هذه عجمة من الفراء. وقرأ أبو السمال : ﴿قل الحمد لله﴾ ، وكذا : قل الحمد لله سيريكم ، بفتح اللام ، وعباده المصطفون ، يعم الأنبياء وأتباعهم. وقال ابن عباس : العباد المسلم عليهم هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اصطفاهم لنبيه ، وفي اختصاصهم بذلك توبيخ للمعاصرين من الكفار. وقال أبو عبد الله الرازي : لما ذكر تعالى أحوال الأنبياء ، وأن من كذبهم استؤصل بالعذاب ، وأن ذلك مرتفع عن أمة الرسول ، أمره تعالى بحمده على ما خصه من هذه النعمة ، وتسليمه على الأنبياء الذين صبروا على مشاق الرسالة. انتهى ، وفيه تلخيص.

وقوله : ﴿الله خير﴾ : استفهام فيه تبكيت وتوبيخ وتهكم بحالهم ، وتنبيه على موضع التباين بين الله تعالى وبين الأوثان ، إذ معلوم عند من له عقل أنه لا شركة في الخيرية بين الله تعالى وبينهم ، وكثيرا ما يجيء هذا النوع من أفعل التفضيل حيث يعلم ويتحقق أنه لا شركه فيها وإنما يذكر على سبيل إلزام الخصم وتنبيهه على خطا مرتكبه. والظاهر أن هذا الاستفهام هو عن خبرية الذوات ، فقيل : جاء على اعتقاد المشركين حيث اعتقدوا في آلهتهم خيرا بوجه ما ، وقيل : في الكلام حذف في موضعين ، التقدير : أتوحيد الله خير أم عبادة ما يشركون ؟ فيما في أم ما بمعنى الذي. وقيل : ما مصدرية ، والحذف من الأول ، أي أتوحيد الله خير أم شرككم ؟ وقيل : خير ليست للتفضيل ، فهي كما تقول : الصلاة خير ، يعني خيرا من الخيور. وقيل : التقدير ذو خير. والظاهر أن خيرا أفعل التفضيل ، وأن الاستفهام في نحو هذا يجيء لبيان فساد ما عليه الخصم ، وتنبيهه على خطئه ، وإلزامه الإقرار بحصر التفضيل في جانب واحد ، وانتفائه عن الآخر ، وقرأ الجمهور : تشركون ، بتاء الخطاب ؛ والحسن ،

٨٨

وقتادة ، وعاصم ، وأبو عمرو : بياء الغيبة. وأم في أم ما متصلة ، لأن المعنى : أيهما خير ؟ وفي ﴿أم من خلقنآ﴾ وما بعده منفصلة. ولما ذكر الله خيرا ، عدد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله ، كما عددها في غير موضع من كتابه ، توقيفا لهم على ما أبدع من المخلوقات ، وأنهم لا يجدون بدا من

الإقرار بذلك لله تعالى.

." (١)

"فلم يجيبوا. ﴿فمآ أنت بملوم﴾ : إذ قد بلغت ونصحت. ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ : تؤثر فيهم وفيمن قدر الله أن يؤمن ، وما دل عليه الظاهر من الموادعة منسوخ بآية السيف. وعن علي ، كرم الله وجهه : لما نزل ﴿فتول عنهم﴾ ، حزن المسلمون وظنوا أنه أمر بالتولي عن الجميع ، وأن الوحي قد انقطع ، نزلت ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ ، فسروا بذلك. ﴿إلا ليعبدون﴾ : أي ﴿وما خلقت الجن والانس﴾ الطائعين ، قاله زيد بن أسلم وسفيان ، ويؤيده رواية ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين". وقال علي وابن عباس : ﴿إلا ليعبدون﴾ : إلا لآمرهم بعبادتي ، وليقروا لي بالعبادة. فعبر بقوله : ﴿ليعبدون﴾ ، إذ العبادة هي مضمن الأمر ، فعلى هذا الجن والإنس عام. وقيل : يحتمل أن يكون المعنى : إلا معدين ليعبدون ، وكأن الآية تعديد نعمه ، أي خلقت لهم حواس وعقولا وأجساما منقادة ، نحو : العبادة ، كما تقول : هذا مخلوق لكذا ، وإن لم يصدر منه الذي خلق له ، كما تقول : القلم مبري لأن يكتب به ، وهو قد يكتب به وقد لا يكتب به ، وقال الزمخشري : إلا لأجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها. فإن قلت : لو كان مريدا للعبادة منهم ، لكانوا كلهم عبادا. قلت : إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها ، لأنه خلقهم ممكنين ، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها ، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم. انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال. وقال مجاهد : ﴿إلا ليعبدون﴾ : ليعرفون. وقال ابن زيد : لأحملهم في العبادة على الشقاوة والسعادة. وقال الربيع بن أنس : إلا للعبادة ، قال : وهو ظاهر اللفظ. وقيل : إلا ليذلوا لقضائي. وقال الكلبي : إلا ليوحدون ، فالمؤمن يوحده في الشدة والرخاء ، والكافر في الشدة. وقال عكرمة : ليطيعون ، فأثيب العابد ، وأعاقب الجاحد. وقال مجاهد أيضا : إلا للأمر والنهي.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٣١

﴿مآ أريد منهم من رزق﴾ : أي أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم. ﴿ومآ أريد أن يطعمون﴾ : أي أن يطعموا خلقي ، فهو على حذف مضاف ، فالإضافة إلى الضمير تجوز ، قاله ابن عباس. وقيل : ﴿أن يطعمون﴾ : أن ينفعون ، فذكر جزأ من المنافع وجعله دالا على الجميع. وقال الزمخشري : يريد إن شأني مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، لأن ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا في تحصيل معايشهم وأرزاقهم

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ م وافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦٤/٧

بهم ؛ فإما مجهز في تجارة يبغي ربحا ، أو مرتب في فلاحة ليقتل أرضا ، أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته ، أو محتطب ، أو محتش ، أو مستق ، أو طابخ ، أو خابز ، أو ما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق. فأما مالك ملاك العبيد فقال لهم : اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم ، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ولا رزقكم ، وأنا غني عنكم وعن مرافقكم ، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي ، فما هو إلا أن انا وحدي. انتهى ، وهو تكثير وخطابة. وقرأ ابن محيصن : ﴿الرزاق﴾ ، كما قرأ : ﴿وفى السمآء﴾ : اسم فاعل ، وهي قراءة حميد. وقرأ الأعمش ، وابن وثاب : ﴿القوة المتين﴾ بالجر ، صفة للقوة على معنى الاقتدار ، قاله الزمخشري ، أو كأنه قال : ذو الأيد ، وأجاز أبو الفتح أن تكون صفة لذو وخفض على الجوار ، كقولهم : هذا جحر ضب خرب. ﴿فإن للذين ظلموا ﴾ : هم أهل مكة وغيرهم من الكفار الذين كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذنوبا : أي حظا ونصيبا ، ﴿مثل ذنوب أصحابهم﴾ : من الأمم السابقة التي كذبت الرسل في الإهلاك والعذاب. وعن قتادة : سجلا من عذاب الله مثل سجل أصحابهم. وقال الجوهري : الذنوب : الدلو الملأى ماء ، ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة وجمعها العدد ، وفي الكثير ذنائب. والذنوب : الفرس الطويل الذنب ، والذنوب : النصيب ، والذنوب : لحم أسفل المتن. وقال ابن الأعرابي : يقال يوم ذنوب : أي طويل الشر لا ينقضي. ﴿فويل للذين كفروا من يومهم﴾ ، قيل : يوم بدر. وقيل :

١٤٣

يوم القيامة ﴿الذى يوعدون﴾ : أي به ، أو يوعدونه.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٣١." (١)

"ولما ذكر تعالى ما أنعم به على الإنسان من تعليمه البيان ، ذكر ما امتن به من وجود الشمس والقمر ، وما فيهما من المنافع العظيمة للإنسان ، إذ هما يجريان على حساب معلوم وتقدير سوي في بروجهما ومنازلهما. والحسبان مصدر كالغفران ، وهو بمعنى الحساب ، قاله قتادة. وقال الضحاك وأبو عبيدة : جمع حساب ، كشهاب وشهبان. قال ابن عباس وأبو مالك وقتادة : لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج ، وغير ذلك حسبانات شتى. وقال ابن زيد : لولا الليل والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئا يريد من مقادير الزمان. وقال مجاهد : الحسبان : الفلك المستدير ، شبهه بحسبان الرحى ، وهو العود المستدير الذي باستدارته تستدير المطحنة. وارتفع الشمس على الابتداء وخبره بحسبان ، فأما على حذف ، أي

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١٠٩/٨

جري الشمس والقمر كائن بحسبان. وقيل : الخبر محذوف ، أي يجريان بحسبان ، وبحسبان متعلق بيجريان ، وعلى قول مجاهد :

١٨٨

تـ‍ك‍ون الباء في بحسبان ظرفية ، لأن الحسبان عنده الفلك.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٨٤

ولما ذكر تعالى ما أنعم به من منفعة الشمس والقمر ، وكان ذلك من الآيات العلوية ، ذكر في مقابلتهما من الآثار السفلية النجم والشجر ، إذ كانا رزقا للإنسان ، وأخبر أنهما جاريان على ما أراد الله بهما ، من تسخيرهما وكينونتهما على ما اقتضته حكمته تعالى. ولما ذكر ما به حياة الأرواح من تعليم القرآن ، ذكر ما به حياة الأشباح من النبات الذي له ساق ، وكان تقديم النجم ، وهو مالا ساق له ، لأنه أصل القوت ، والذي له ساق ثمره يتفكه به غالبا. والظاهر أن النجم هو الذي شرحناه ، ويدل عليه اقترانه بالشجر. وقال مجاهد وقتادة والحسن : النجم : اسم الجنس من نجوم السماء. وسجودهما ، قال مجاهد والحسن : ذلك في النجم بالغروب ونحوه ، وفي الشجر بالظل واستدارته. وقال مجاهد أيضا : والسجود تجوز ، وهو عبارة عن الخضوع والـتـذ‍ل‍ل. والجمل الأول فيها ضمير يربطها بالمبتدأ ، وأما في هاتين الجملتين فاكتفى بالوصل المعنوي عن الوصل اللفظي ، إذ معلوم أن الحسبان هو حسبانه ، وأن السجود له لا لغيره ، فكأنه قيل : بحسبانه ويسجدان له. ولما أوردت هذه الجمل مورد تعديد النعم ، رد الكلام إلى العطف في وصل ما يناسب وصله ، والتناسب الذي بين هاتين الجملتين ظاهر ، لأن الشمس والقمر علويان ، والنجم والشجر سفليان.

﴿والسمآء رفعها﴾ : أي خلقها مرفوعة ، حيث جعلها مصدر قضاياه ومسكن ملائكته الذين ينزلون بالوحي على أنبيائه ، ونبه بذلك على عظم شأنه وملكه. وقرأ الجمهور : ﴿والسمآء﴾ ، بالنصب على الاشتغال ، روعي مشاكلة الجملة التي تليه وهي ﴿يسجدان﴾ . وقرأ أبو السمال : والسماء بالرفع ، راعى مشاكلة الجملة الابتدائية. وقرأ الجمهور : ﴿ووضع الميزان﴾ ، فعلا ماضيا ناصبا الميزان ، أي أقره وأثبته. وقرأ إبراهيم : ووضع الميزان ، بـ‍الخفض وإسكان الضاد. والظاهر أنه كل ما يوزن به الأشياء وتعرف مقاديرها ، وإن اختلفت الآلات ، قال معناه ابن عباس والحسن وقتادة ، جعله تعالى حاكما بالسوية في الأخذ والإعطاء. وقال مجاهد والطبري والأكثرون : الميزان : العدل ، وتكون الآلات من بعض ما يندرج في العدل. بدأ أولا بالعلم ، فذكر ما فيه أشرف أنواع العلوم وهو القرآن ؛ ثم ذكر ما به التعديل في الأمور ،

وهو الميزان ، كقوله : ﴿وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾ ، ليعلموا الكتاب ويفعلوا ما يأمرهم به الكتاب. ﴿ألا تطغوا فى الميزان﴾ : أي لأن لا تطغوا ، فتطغوا منصوب بأن. وقال الزمخشري : أو هي أن المفسرة. وقال ابن عطية : ويحتمل أن تكون أن مفسرة ، فيكون تطغوا جزما بالنهي. انتهى ، ولا يجوز ما قالاه من أن أن مفسرة ، لأنه فات أحد شرطيها ، وهو أن يكون ما قبلها جملة فيها معنى القول. ﴿ووضع الميزان﴾ جملة ليس فيها معنى القول. والطغيان في الميزان هو أن يكون بالتعمد ، وأما مالا يقدر عليه من التحرير بالميزان فمعفو عنه.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٨٤

ولما كانت التسوية مطلوبة جدا ، أمر الله تعالى فقال : ﴿وأقيموا الوزن﴾ . وقرأ الجمهور : ﴿ولا تخسروا ﴾ ، من أخسر : أي أفسد ونقص ، كقوله : ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ ؛ أي ينقصون. وبلال بن أبي بردة وزيد بن علي : تخسر بفتح التاء ، يقال : خسر يخسر ، وأخسر يخسر بمعنى واحد ، كجبر وأجبر. وحكى ابن جني وصاحب اللوامح ، عن بلال : فتح التاء والسين مضارع خسر بكسر السين ، وخرجها الزمخشري على أن يكون التقدير : في الميزان ، فحذف الجار ونصب ، ولا يحتاج إلى هذا التخريج. ألا ترى أن خسر جاء متعديا كقوله تعالى : ﴿خسروا أنفسهم﴾ ، و﴿خسر الدنيا والاخرة﴾ ؟ وقرىء أيضا : تخسروا ، بفتح التاء وضم السين. لما منع من الزيادة ، وهي الطغيان ، نهى عن الخسران الذي هو نقصان ، وكرر لفظ الميزان ، تشديدا للتوصية به وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه.
." (١)

"وقال الزمخشري : في قراءة الحسن ، ولا يصح أن تكون اللام لام قسم لأمرين ، أحدهما : أن حقها أن تقرن بها النون المؤكدة ، والإخلال بها ضعيف قبيح ؛ والثاني : أن لأفعلن في جواب القسم للاستقبال ، وفعل القسم يجب أن يكون للحال. انتهى. أما الأمر الأول ففيه خلاف ، فالذي قاله قول البصريين ، وأما الكوفيون فيختارون ذلك ، ولكن يجيزون تعاقبهما ، فيجيزون لأضربن زيدا ، واضربن عمرا. وأما الثاني فصحيح ، لكنه هو الذي رجح عندنا أن تكون اللام في لا أقسم لام القسم ، وأقسم فعل حال ، والقسم قد يكون جوابا للقسم ؛ كما قال تعالى : ﴿وليحلفن إن أردنآ إلا الحسنى ﴾ . فاللام في ﴿وليحلفن﴾ جواب قسم ، وهو قسم ، لكنه لما لم يكن حلفهم حالا ، بل مستقبلا ، لزمت النون ، وهي مخلصة المضارع للاستقبال. وقرأ الجمهور : ﴿بمواقع﴾ جمعا ؛ وعمر وعبد الله وابن عباس وأهل المدينة

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١٤٢/٨

وحمزة والكسائي :
٢١٣
بموقع مفردا ، مرادا به الجمع. قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم : هي نجوم القرآن التي أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد هذا القول قوله : ﴿إنه لقرءان﴾ ، فعاد الضمير على ما يفهم من قوله : ﴿بمواقع النجوم﴾ ، أي نجوم القرآن. وقيل : النجوم : الكواكب ومواقعها. قال مجاهد وأبو عبيدة : عند طلوعها وغروبها. وقال قتادة : مواقعها : مواضعها من السماء. وقال الحسن : مواقعها عند الانكدار يوم القيامة. وقيل : عند الانفضاض أثر العفاري ، ومن تأول النجوم على أنها الكواكب ، جعل الضمير في إنه يفسره سياق الكلام ، كقوله : ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ .
جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٧
وفي إقسامه تعالى بمواقع النجوم سر في تعظيم ذلك لا نعلمه نحن ، وقد أعظم ذلك تعالى فقال : ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ . والجملة المقسم عليها قوله : ﴿إنه لقرءان كريم﴾ ، وفصل بين القسم وجوابه ؛ فالظاهر أنه اعتراض بينهما ، وفيه اعتراض بين الصفة والموصوف بقوله : ﴿لو تعلمون﴾ . وقال ابن عطية : ﴿وإنه لقسم﴾ تأكيد للأمر وتنبيه من المقسم به ، وليس هذا باعتراض بين الكلامين ، بل هذا معنى قصد التهمم به ، وإنما الاعتراض قوله : ﴿لو تعلمون﴾ . انتهى. وكريم : وصف مدح ينفي عنه مالا يليق به. وقال الزمخشري : ﴿كريم﴾ : حسن مرضي في جنسه من الكتب ، أو نفاع جم **المنافع** ، أو كريم على الله تعالى. ﴿فى كتاب مكنون﴾ : أي مصون. قال ابن عباس ومجاهد : الكتاب الذي في السماء. وقال عكرمة : التوراة والإنجيل ، كأنه قال : ذكر في كتاب مكنون كرمه وشرفه ، فالمعنى على هذا الاستشهاد بالكتب المنزلة. وقيل : ﴿فى كتاب مكنون﴾ : أي في مصاحف للمسلمين مصونة من التبديل والتغيير ، ولم تكن إذ ذاك مصاحف ، فهو إخبار بغيب.
والظاهر أن قوله : ﴿لا يمسها إلا المطهرون﴾ وصف لقرآن كريم ، فالمطهرون هم الملائكة. وقيل : ﴿لا يمسها﴾ صفة لكتاب مكنون ، فإن كان الكتاب هو الذي في السماء ، فالمطهرون هم الملائكة أيضا : أي لا يطلع عليه من سواهم ، وكذا على قول عكرمة : هم الملائكة ، وإن أريد بكتاب مكنون الصحف ، فالمعنى : أنه لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على طهارة من الناس. وإذا كان ﴿المطهرون﴾ هم الملائكة ، ﴿لا يمسها﴾ نفي ، ويؤيد المنفي ما يمسه على قراءة عبد الله. وإذا عنى بهم المطهرون من الكفر والجنابة ، فاحتمل أن يكون نفيا محضا ، ويكون حكمه أنه لا يمسه إلا المطهرون ، وإن كان يمسه غير المطهر

، كما جاء : ﴿أن تنابتوا شجرهآ﴾ ، أي الحكم هذا ، وإن كان قد يقع العضد. واحتمل أن يكون نفيا أريد به النهي ، فالضمة في السين إعراب. واحتمل أن يكون نهيا فلو فك ظهر الجزم ، ولكنه لما أدغم كان مجزوما في التقدير ، والضمة فيه لأجل ضمة الهاء ، كما جاء في الحديث : "إنا لم نرده عليك" ، إلا إنا جزم ، وهو مجزوم ، ولم يحفظ سيبويه في نحو هذا من المجزوم المدغم المتصل بالهاء ضمير المذكر إلا الضم. قال ابن عطية : والقول بأن لا يمسه نهي ، قول فيه ضعف ، وذلك أنه إذا كان خبرا ، فهو في موضع الصفة وقوله بعد ذلك ﴿تنزيل﴾ صفة ، فإذا جعلناه نهيا ، جاء معناه أجنبيا معترضا بين الصفات ، وذلك لا يحسن في وصف الكلام فتدبره. وفي حرف ابن مسعود ما يمسه ، وهذا يقوي ما رجحته من الخبر الذي معناه حقه وقدره أن لا يمسه إلا طاهر. انتهى.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٧

". (١)

"ولما ذكر تعالى أمر القيامة وانقسام أهلها إلى أشقياء وسعداء ، وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة الصانع الحكيم ، أتبع ذلك بذكره هذه الدلائل ، وذكر ما العرب مشاهدوه وملابسوه دائما فقال : ﴿مبثوثة * أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت﴾ ، وهي الجمال ، فإنه اجتمع فيها ما تفرق من **المنافع** في غيرها ، من أكل لحمها ، وشرب لبنها ، والحمل عليها ، والتنقل عليها إلى البلاد الشاسعة ، وعيشها بأي نبات أكلته ، وصبرها على العطش حتى أن فيها ما يرد الماء لعشر ، وطواعيتها لمن يقودها ، ونهضتها وهي باركة بالأحمال الثقال ، وكثرة جنينها ، وتأثرها بالصوت الحسن على غلظ أكبادها ، وهي لا شيء من الحيوان جميع هذه الخصال غيرها. وقد أبان تعالى امتنانه

٤٦٣

عليهم بقوله : ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينآ أنعاما﴾ ، الآيات. ولكونها أفضل ما عند الغرب ، جعلوها دية القتل ، ووهبوا المائة منها من يقصدهم ومن أرادوا إكرامه ، وذكرها الشعراء في مدح من وهبها ، كما قال :

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٦٠

أعطوا هنيدة تحدوها ثمانية

وقال آخر :

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٨/١٦١

الواهب المائة الهجان برمتها

وناسب التنبيه بالنظر إليها وإلى ما حوت من عجائب الصفات ، ما ذكر معها من السماء والجبال والأرض لانتظام هذه الأشياء في نظر العرب في أوديتهم وبواديهم ، وليدل على الاستدلال على إثبات الصانع ، وأنه ليس مختصا بنوع دون نوع ، بل هو عام في كل موجوداته ، كما قيل :

وفي كل شيء له آيةتدل على أنه واحد

وقال أبو العباس : المبرد : الإبل هنا السحاب ، لأن العرب قد تسميها بذلك ، إذ تأتي إرسالا كالإبل ، وتزجى كما تزجى الإبل ، وهي في هيئتها أحيانا تشبه الإبل والنعام ، ومنه قوله :

كأن السحاب ذوين السماء نعام تعلق بالأجل

وقال الزمخشري : ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله إلا طلب المناسبة ، ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب ، كالغمام والمزن والرباب والغيم وغير ذلك ، وإنما رأى السحاب مشبها بالإبل كثيرا في أشعارهم ، فجوز أن يراد بها السحاب على طريقة التشبيه والمجاز ، انتهى. وقرأ الجمهور : ﴿الابل﴾ بكسر الباء وتخفيف اللام ؛ والأصمعي عن أبي عمرو : بإسكان الباء ؛ وعلي وابن عباس : بشد اللام. ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي وقالوا : إنها السحاب ، عن قوم من أهل اللغة. وقال الحسن : خص الإبل بالذكر لأنها تأكل النوى والقت وتخرج اللبن ، فقيل له : الفيل أعظم في الأعجوبة ، وقال العرب : بعيدة العهد بالفيل ، ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ولا يركب ظهره ولا يحلب دره. والإبل لا واحد له من لفظه وهو مؤنث ، ولذلك إذا صغر دخلته التاء فقالوا : أبيلة ، وقالوا في الجمع : آبال. وقد اشتقوا من لفظه فقالوا : تأبل الرجل ، وتعجبوا من هذا الفعل على غير قياس فقالوا : ما آبل زيدا. وإبل اسم جاء على فعل ، ولم يحفظ سيبويه مما جاء على هذا الوزن غيره. وكيف خلقت : جملة استفهامية في موضع البدل من الإبل ، وينظرون : تعدى إلى الإبل بواسطة إلى ، وإلى كيف خلقت على سبيل التعليق ، وقد تبدل الجملة وفيها الاستفهام من الاسم الذي قبلها كقولهم : عرفت زيدا أبو من هو على أصح الأقوال ، على أن العرب قد أدخلت إلى على كيف ، فحكى أنهم قالوا : انظر إلى كيف يصنع. وكيف سؤال عن حال والعامل فيها خلقت ، وإذا علق الفعل عن ما فيه الاستفهام ، لم يبق الاستفهام على حقيقته ، وقد بينا ذلك في كتابنا المسمى بالتذكرة وفي غيره.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٦٠

وقرأ الجمهور : ﴿خلقت﴾ : رفعت ، ﴿نصبت﴾ سطحت بتاء التأنيث مبنيا للمفعول ؛ وعلي وأبو حيوة

وابن أبي عبلة : بتاء المتكلم مبنيا للفاعل ، والمفعول محذوف ، أي خلقتها ، رفعتها ، نصبتها ؛ رفعت رفعا بعيد المدى بلا عمد ، نصبت نصبا ثابتا لا تميل ولا تزول ؛ سطحت سطحا حتى صارت كالمهاد للمتقلب عليها. وقرأ الجمهور : ﴿سطحت﴾ خفيفة الطاء ؛ والحسن وهارون : بشدها. ولما حضهم على النظر ، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بتذكيرهم فقال : ﴿فذكر﴾ ولا يهمنك كونهم لا ينظرون. ﴿إنمآ أنت مذكر﴾ ، كقوله تعالى : ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ . ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ : أي بمسلط ، كقوله : ﴿ومآ أنت عليهم بجبار﴾ . وقرأ الجمهور : بالصاد وكسر الطاء ، وابن عامر في رواية ، ونطبق عن قنبل ، وزرعان عن حفص : بالسين ؛ وحمزة في رواية : بإشمام الزاي ؛ وهارون : بفتح الطاء ، وهي لغة تميم. وسيطر متعد عندهم ويدل عليه فعل المطاوعة وهو تسطر ، وليس في الكلام على هذا

٤٦٤

الوزن إلا مسيطر ومهيمن ومبيطر ومبيقر ، وهي أسماء فاعلين من سيطر وهيمن وبيطر. وجاء مجيمر اسم واد ومديير ، ويمكن أن يكون أصلهما مدبر ومجمر فصغرا. وقرأ الجمهور : إلا حرف استثناء فقيل متصل ، أي فأنت مسيطر عليه. وقيل : متصل من فذكر ، أي فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر ، وما بينهما اعتراض. وقيل : منقطع ، وهي آية موادعة نسخت بآية السيف. وقرأ ابن عباس وزيد بن علي وقتادة وزيد بن أسلم : ألا حرف تنبيه واستفتاح ، والعذاب الأكبر هو عذاب جهنم. وقرأ الجمهور : ﴿إيابهم﴾ بتخفيف الياء مصدر آب ؛ وأبو جعفر وشيبة : بشدها مصدرا لفعيل من آب على وزن فيعال ، أو مصدرا كفوعل كحوقل على وزن فيعال أيضا كحيقال ، أو مصدر الفعول كجهور على وزن فعوال كجهوار فأصله أوواب فقلبت الواو الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ؛ واجتمع في هذا البناء والبناءين قبله واو وياء ، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء ، وأدغم ولم يمنع الإدغام من القلب لأن الواو والياء ليستا عينين من الفعل ، بل الياء في فيعل والواو في فعول زائدتان. وقال صاحب اللوامح ، وتبعه الزمخشري : يكون أصله إوابا مصدر أوب ، نحو كذب كذابا ، ثم قيل إوابا فقلبت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها. قال الزمخشري : كديوان في دوان ، ثم فعل به ما فعل بسيد ، يعني أنه اجتمع ياء وواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الواو ، فأما كونه مصدر أوب فإنه لا يجوز ، لأنهم نصوا على أن الواو الأولى إذا كانت موضوعة على الإدغام وجاء ما قبلها مكسورا فلا تقلب الواو الأولى ياء لأجل الكسرة ، ومثلوا بأخرواط مصدر أخروط ، ومثلوا أيضا بمصدر أوب نحو أوب إوابا ، فهذه وضعت على الإدغام ، فحصنها من الإبدال ولم تتأثر للكسر.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٦٠

وأما تشبيه الزمخشري بديوان فليس بجيد لأنهم لم ينطقوا بها في الوضع مدغمة ، فلم يقولوا دوان ، ولولا الجمع على دواوين لم يعلم أن أصل هذه الياء واو ، وأيضا فنصوا على شذوذ ديوان فلا يقاس عليه غيره. وقال ابن عطية : ويصح أن يكون من أأوب ، فيجيء إيوابا ، سهلت الهمزة ، وكان اللازم في الإدغام يردها إوابا ، لكن استحسنت فيه الياء على غير قياس ، انتهى. فقوله : وكان اللازم في الإدغام بردها إوابا ليس بصحيح ، بل اللازم إذا اعتبر الإدغام أن يكون إيابا ، لأنه قد اجتمعت ياء وهي المبدلة من الهمزة بالتسهيل. وواو وهي عين الكلمة وإحداهما ساكنة ، فتقلب الواو ياء وتدغم فيها الياء فيصير إيابا.

ولما كان من مذهب الزمخشري أن تقديم المعمول يفيد الحصر ، قال معناه : أن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه تعالى ، وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير ، ومعنى الوجوب : الوجوب في الحكمة ، والله أعلم.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٦٠." (١)

"ثم جاء الأمر ثانيا تأنيسا له ، كأنه قيل : امض لما أمرت به ، وربك ليس مثل هذه الأرباب ، بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص. والأكرم صفة تدل على المبالغة في الكرم ، إذ كرمه يزيد على كل كرم ينعم بالنعم التي لا تحصى ، ويحلم على الجاني ، ويقبل التوبة ، ويتجاوز عن السيئة. وليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال : ﴿اقرأ وربك الاكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم﴾ ، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على أفضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو. وما دونت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ولا مقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره دليل إلا أمر الخط والقلم لكفى به. ولبعضهم في الأقلام :

٤٩٢

ورواقم رقش كمثل أراقمقطف الخطانيا له أقصى المدى

سود القوائم ما يجد مسيرهاإلا إذا لعبت بها بيض المدى

انتهى. من كلام الزمخشري. ومن غريب ما رأينا تسمية النصارى بهذه الصفة التي هي صفة لله تعالى :

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٨/٣٤٨

الأكرم ، والرشيد ، وفخر السعداء ، وسعيد السعداء ، والشيخ الرشيد ، فيا لها مخزية على من يدعوهم بها. يجدون عقباها يوم عرض الأقوال والأفعال ، ومفعولا علم محذوفان ، إذ المقصود إسناد التعليم إلى الله تعالى. وقدر بعضهم ﴿الذى علمكم﴾ الخط ، ﴿بالقلم﴾ : وهي قراءة تعزى لابن الزبير ، وهي عندي على سبيل التفسير ، لا على أنها قرآن لمخالفتها سواد المصحف. والظاهر أن المعلم كل من كتب بالقلم. وقال الضحاك : إدريس ، وقيل : آدم لأنه أول من كتب. والإنسان في قوله : ﴿علم الانسان﴾ ، الظاهر أنه اسم الجنس ، عدد عليه اكتساب العلوم بعد الجهل بها. وقيل : الرسول ءليه الصلاة والسلام.

﴿كلا إن الانسان ليطغى ﴾ : نزلت بعد مدة في أبي جهل ، ناصب رسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة ، ونهاه عن الصلاة في المسجد ؛ فروي أنه قال : لئن رأيت محمدا يسجد عند الكعبة لأطأن على عنقه. فيروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد عليه وانتهره وتوعده ، فقال أبو جهل : أيتوعدني محمد والله ما بالوادي أعظم ناديا مني. ويروى أنه هم أن يمنعه من الصلاة ، فكف عنه. ﴿كلا﴾ : ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه ، وإن لم يتقدم ذكره لدلالة الكلام عليه ، ﴿إن الانسان ليطغى ﴾ : أي يجاوز الحد ، ﴿أن رءاه استغنى ﴾ : الفاعل ضمير الإنسان ، وضمير المفعول عائد عليه أيضا ، ورأى هنا من رؤية القلب ، يجوز أن يتحد فيها الضميران متصلين فتقول : رأيتني صديقك ، وفقد وعدم بخلاف غيرها ، فلا يجوز : زيد ضربه ، وهما ضميرا زيد. وقرأ الجمهور : ﴿أن رءاه﴾ بألف بعد الهمزة ، وهي لام ا الفعل ؛ وقيل : بخلاف عنه بحذف الألف ، وهي رواية ابن مجاهد عنه ، قال : وهو غلط لا يجوز ، وينبغي أن لا يغلطه ، بل يتطلب له وجها ، وقد حذفت الألف في نحو من هذا ، قال :

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٩٢

وصاني العجاج فيما وصني

يريد : وصاني ، فحذف الألف ، وهي لام الفعل ، وقد حذفت في مضارع رأى في قولهم : أصاب الناس جهد ولو تر أهل مكة ، وهو حذف لا ينقاس ؛ لكن إذا صحت الرواية به وجب قبوله ، والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها. ﴿إن إلى ربك الرجعى ﴾ : أي الرجوع ، مصدر على وزن فعلى ، الألف فيه للتأنيث ، وفيه وعيد للطاغي المستغني ، وتحقير لما هو فيه من حيث ما آله إلى البعث والحساب والجزاء على طغيانه. ﴿أرءيت الذى ينهى * عبدا إذا صلى ﴾ : تقدم أنه أبو جهل. قال ابن عطية : ولم يختلف أحد من المفسرين أن الناهي أبو جهل ، وأن العبد المصلي وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهى. وفي الكشاف ، وقال الحسن : هو أمية بن خلف ، كان ينهى سلمان عن الصلاة. وقال

التبريزي : المراد بالصلاة هنا صلاة الظهر. قيل : هي أول جماعة أقيمت في الإسلام ، كان معه أبو بكر وعلي وجماعة من السابقين ، فمر به أبو طالب ومعه ابنه جعفر ، فقال له : صل جناح ابن عمك وانصرف مسرورا ، وأنشأ أبو طالب يقول :

إن عليا وجعفرا ثقتيعند ملم الزمان والكرب

والله لا أخذل النبي ولايخذله من يكون من حسبي

لا تخذلا وانصرا ابن عمكماأخي لأمي من بينهم وأبي

ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك. والخطاب في ﴿أرءيت﴾ الظاهر أنه للرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذا ﴿أرءيت﴾ الثاني ، والتناسق في الضمائر هو الذي يقتضيه النظم. وقيل : ﴿أرءيت﴾ خطاب للكافر التفت إلى الكافر فقال : أرأيت يا كافر ، إن كانت صلاته هدى ودعاء إلى الله وأمرا

٤٩٣

." (١)

"١١٨

يختبران بالنار والمؤمن يختبر بالبلايا " فأتمهن " يعني عمل بهن ويقال " فأتمهن " فوفى بهن فلما وفى الأمر جعله الله تعالى إماما للناس ليقتدى به وفي هذا دليل أن الإنسان لا يبلغ درجة الأخيار إلا بالتعب وجهد النفس فلما جعله الله تعالى إماما " قال " له " إني جاعلك للناس إماما " و الإمام الذي يؤتم به فأعجبه ذلك وتمنى أن يكون ذلك لذريته مثل ذلك " قال ومن ذريتي " يعني اجعلهم أئمة يقتدى بهم

قال الله تعالى " لا ينال عهدي الظالمين " يعني الكافرين يعني لا يصلح أن يكون الكافر إماما للناس ويقال لا تصيب رحمتي الكافرين فالله تعالى أخبره أنه يكون في ذريته كفار وأخبره أنه لا ينال مثل ما عهده إليه من كان كافرا

قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص " لا ينال عهدي الظالمين " بسكون الياء والباقون بنصب الياء " عهدي الظالمين " وهما لغتان ومعناهما واحد

سورة البقرة آية ١٢٥

قوله تعالى عز وجل " وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا " يقول وضعنا البيت يعني الكعبة معادا لهم يعودون إليه مرة بعد مرة وقال قتادة مجمعا للناس يثوبون إليه من كل جهة وفي كل سنة فلا يقضون منها وطرا "

---

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣٦٩/٨

وأمنا " يعني جعلناه أمنا لمن التجأ إليه يعني من وجب عليه القصاص ولهذا قالوا لو أن رجلا وجب عليه القصاص فدخل الحرم لا يقتص منه في الحرم وهكذا روي عن ابن عمر أنه قال لو وجدت قاتل عمر في الحرم ما هيجته يعني ما أزعجته ولكن يمنع منه **المنافع** حتى يضجر فيخرج فيقتص منه ويقال " آمنا " لغير الممتحنين وهي الصيود إذا دخلت الحرم صارت أمنة ويقال آمنا من الجذام

ثم قال تعالى " واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى " قرأ نافع وابن عامر " واتخذوا " بنصب الخاء على وجه الخبر معناه جعلناه مثابة فاتخذوه مصلى وقرأ الباقون بكسر الخاء على معنى الأمر

حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا الدبيلي قال حدثنا أبو عبد الله قال ےدثنا سفيان عن زكريا بن أبي زائدة عمن حدثه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت يوم الفتح فلما فرغ من طوافه أتى المقام فقال هذا مقام أبينا إبراهيم الخليل فقال عمر أفلا تتخذه مصلى يا رسول الله فأنزل الله تعالى " واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى " ويقال المسجد الحرام كله مقام إبراهيم هكذا روي عن مجاهد وعطاء

قوله تعالى " وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل " أي أمرنا إبراهيم وإسماعيل " أن طهرا بيتي " يعني مسجدي من الأوثان ويقال من جميع النجاسات ثم قال " للطائفين " أي." [(١)]

٢٦٦"

أي يختار للنبوة والرسالة وقال قتادة ينزل الملائكة بالرحمة والوحي " على من يشاء من عباده " من كان أهلا لذلك قرأ إبن كثير وأبو عمرو " ينزل " بجزم النون من قولك أنزل ينزل وقرأ عاصم في رواية أبي بكر " تنزل " بالتاء ونصب النون والزاي مع التشديد على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون " ينزل " بالياء وكسر الزاي مع التشديد من قولك ننزل

ثم قال تعالى " أن أنذروا أنه " أي خوفوا بالقرآن الكفار وأعلموهم أنه " لا إله إلا أنا فاتقون " يعني إن الله واحد لا شريك له فوحدوه وأطيعوه " خلق السموات والأرض بالحق " أي للحق ويقال للزوال والفناء " تعالى " أي تبرأ " عما يشركون " به من الأوثان

سورة النحل ٤ - ٩

قوله عز وجل " خلق الإنسان من نطفة " يقول من ماء الرجل " فإذا هو خصيم مبين " يقول جدل باطل ظاهر الخصومة وهو أبي بن خلف حيث أخذ عظما باليا ففته بيده وقال عجبا لمحمد يزعم أنه يعيدنا

---

(١) بحر العلوم. ١١٨/١

بعد ما كنا عظاما ورفاتا وإنا نعاد خلقا جديدا فنزل " أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة " [يس : ٧٧] الآية

ثم بين النعمة فقال تعالى " والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع " أي ما يستدفأ به من الأكسية وغيرها والذي يتخذ منه البيوت من الشعر والوبر والصوف وأما **المنافع** فظهورها التي تحمل عليها وألبانها ويقال الدفء الصغار من الإبل وروى عكرمة عن إبن عباس أنه قال " لكم فيها دفء " أي في نسل كل دابة " ومنها تأكلون " أي من لحمها

قوله " ولكم فيها جمال " أي ولكم يا بني آدم في الأنعام " جمال " حسن المنظر " حين تريحون " أي حتى تروح الإبل راجعة إلى أهلها " وحين تسرحون " أي تسرح إلى الرعي أول النهار " وتحمل أثقالكم " أي أمتعتكم وزادكم " إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس " قال هي مكة ويقال هذا الخطاب لأهل مكة كانوا يخرجون إلى الشام وإلى اليمن ويحملون أثقالهم على ا لإبل " إن ربكم لرؤوف رحيم " إذ لم يعجلكم بالعقوبة

ثم قال " والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة " أي خلقها لكم لتركبوها " وزينة " أي جمالا ومنظرا حسنا وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه سئل عن لحوم الخيل فكرهها وتلا هذه الآية " والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة " يعني إنما خلق هذه." (١)

٣٥٩"

أنزل العدل في الأرض " ألا تطغوا في الميزان " يعني لكي لا تميلوا عن العدل " وأقيموا الوزن بالقسط " يعني اعدلوا في الوزن " ولا تخسروا الميزان " يعني لا تنقصوا حقوق الناس في الوزن

ويقال " وأقيموا الوزن " يعني أقيموا اللسان بالقول " ولا تخسروا الميزان " يعني لا تقولوا بغير حق

ثم قال " والأرض وضعها للأنام " يعني بسط الأرض للخلق " فيها فاكهة " يعني وخلق من الأرض من ألوان الفاكهة " والنخل ذات الأكمام " يعني ذات النخيل الطويل الموقرة بالطلع ذات الغلف وإنما العجائب في خلقه وما يتولد منه لأنه يتولد من النخيل من **المنافع** ما لا يحصى

وقال القتبي " ذات الأكمام " يعني ذات الكفرى قبل أن تتفتق وغلاف كل شيء كمه " ذات الأكمام " يعني ذات الغلف

سورة الرحمن ١٢ - ١٨

---

(١) بحر العلوم . ٢/٢٦٦

ثم قال " والحب ذو العصف " يعني ذو الورق " والريحان " يعني ثمره

وقال مجاهد " العصف " يعني ورق الحنطة " والريحان " الرزق

وقال الضحاك " الحب " الحنطة والشعير " والعصف " التبن وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال " العصف " الزرع " والريحان " الورق وقال القتبي " الريحان " الرزق يقال خرجت أطلب ريحان الله أي رزقه

وقال مقاتل " الريحان " الرزق بلسان حمير

ويقال " العصف " السنبل " والريحان " ثمرته وما ينتفع به

ويقال " الريحان " يعني الرياحين قرأ ابن عامر " والحب ذا العصف والريحان " بنصب النون والباء وإنما نصبه لأنه عطف على قوله " والأرض وضعها للأنام " " والحب " يعني وخلق الحب ذا العصف " والريحان "

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم " والحب ذو العصف والريحان " بضم النون والباء لأنه عطف على قوله " فيها فاكهة " وقرأ حمزة والكسائي هكذا إلا أنهما كسرا النون في قوله " والريحان " عطفا على " العصف " على وجه المجاورة

وقد ذكر الله تعالى من أول السورة نعماءه إلى هنا ثم خاطب الإنس والجن فقال " فبأي آلاء ربكما تكذبان " وإن لم يسبق ذكرهما لأن في الكلام دليلا وقد ذكرهما من بعده وهو قوله " يا معشر الجن والإنس " وقال " فبأي آلاء ربكما تكذبان " يعني فبأي نعمة من نعماء ربكما أيها الجن والإنس " تكذبان " يعني تتجاحدان بأنها ليست من الله تعالى

قال بعضهم." (١)

"٤٥٤

بما في القلوب من الخير والشر ويقال " لطيف " يرى أثر النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء " خبير " يعني عالم بأفعال العباد وأقوالهم

ثم ذكر نعمه على خلقه ليعرفوا نعمته فيشكروه ويوحدوه فقال تعالى " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا " يعني خلق لكم الأرض ومدها وذللها وجعلها لينة لكي تزرعوا فيها وتنتفعوا منها بألوان المنافع " فامشوا في مناكبها " يعني لكي تمشوا في أطرافها ونواحيها وأكامها وجبالها

وهذا خبر بلفظ الأمر

---

(١) بحر العلوم. ٣٥٩/٣

وقال القتبي " فامشوا في مناكبها " يعني جوانبها ومنكبا الرجل جانباه

وقال قتادة " مناكبها " جبالها

قال وكان لبشر بن كعب سرية فقال لها إن أخبرتيني ما مناكب الأرض فأنت حرة لوجه الله فقالت مناكبها جبالها فصارت حرة

فأراد أن يتزوجها فسأل أبو الدرداء فقال له دع ما يريبك إلى ما لا يريبك

ويقال " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا " أي سهل لكم السلوك فيها " فامشوا في مناكبها " أي امشوا فيها

" وكلوا من رزقه " يعني تأكلون من رزق الله تعالى وتشكرونه

" وإليه النشور " يعني إلى الله تبعثون من قبوركم

ويقال معناه هو الذي ذلل لكم الأرض قادر على أن يبعثكم لأنه ذكر أولا خلق السماء ثم ذكر خلق الأرض ثم ذكر النشور

سورة الملك ١٦ - ٢٠

ثم خوفهم فقال عز وجل " ءأمنتم من في السماء " قال الكلبي ومقاتل يعني أمنتم عقوبة من في السماء يعني الرب تعالى إن عصيتموه

ويقال هذا على الاختصار ويقال أمنتم عقوبة من هو جار حكمه في السماء

قرأ أبو عمرو ونافع " آمنتم " بالمد والباقون بغير مد بهمزتين ومعناهما واحد وهو الاستفهام والمراد به التوبيخ

وقرأ ابن كثير بهمزة واحدة بغير مد على لفظ الخبر

" أن يخسف بكم الأرض " يعني تغور بكم الأرض كما فعل بقارون

" فإذا هي تمور " يعني تدور بكم إلى الأرض السفلى

" أم أمنتم من في السماء " يعني عذاب من في السماء

" أن يرسل عليكم حاصبا " يعني حجارة كما أرسلنا إلى قوم لوط

وقال القتبي " أم " على وجهين مرة يراد بها الاستفهام كقوله " أم يحسدون الناس " ومرة يراد بها أو كقوله

" أم أمنتم " ويعني أو أمنتم

وهذا كقوله " أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا " [الإسراء ٦٨]." [١]

"ص : ٩١

كان خاليا فهو هواء حتى يشغله الشيء.

ومثله قوله عز وجل : وكذلك أعثرنا عليهم [الكهف : ٢١] يريد أطلعنا عليهم.

وأصل هذا أن من عثر بشيء وهو غافل نظر إليه حتى يعرفه. فاستعير العثار مكان التبين والظهور. ومنه يقول الناس : ما عثرت على فلان بسوء قط. أي ما ظهرت على ذلك منه.

ومنه قوله عز وجل : إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب [ص : ٣٢] أراد الخيل ، فسماها الخير لما فيها من المنافع.

قال الراجز بعد أن عدد فضائلها وأسباب الانتفاع بها - «١» :

فالخيل والخيرات في قرنين وقال طفيل «٢» :

وللخيل أيام فمن يصطبر لها ويعرف لها أيامها الخير تعقب

ومنه قوله عز وجل أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس [الانعام : ١٢٢]. اى كان كافرا فهديناه وجعلنا له ايمانا يهتدى به سبل الخير والنجاة كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها [الأنعام : ١٢٢] أي في الكفر. فاستعار الموت مكان الكفر ، والحياة مكان الهداية ، والنور مكان الإيمان.

ومنه قوله عز وجل : ووضعنا عنك وزرك (٢) [الشرح : ٢] أي إثمك. وأصل الوزر : ما حمله الإنسان على ظهره. قال الله عز وجل : ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم [طه : ٨٧] أي أحمالا من حليهم. فشبه الإثم بالحمل ، فجعل مكانه ، وقال في موضع آخر : وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم [العنكبوت : ١٣] يريد آثامهم.

ومن ذلك قوله : ولكن لا تواعدوهن سرا [البقرة : ٢٣٥] أي نكاحا ، لأن النكاح يكون سرا ولا يظهر ، فاستعير له السر.

قال رؤبة «٣» :

فعف عن أسرارها بعد العسق

---

(١) بحر العلوم. ٣/٤٥٤

(١) الرجز بلا نسبة في كتاب المعاني ١/ ٨٥ ، ١٧٦ ، وفي المعاني : «في قرينين» بدل : «في قرنين» ، وفي الخزانة ٣/ ٦٤٣ : «كالقرينين» بدل : «في قرنين».
(٢) البيت من الطويل ، وهو في ديوان طفيل الغنوي ص ٣٥ ، والإنصاف ص ٦٢١ ، وخزانة الأدب ٩/ ٤٤ ، وكتاب الصناعتين ص ٢٧٧ ، والمعاني الكبير ١/ ٨٥.
(٣) الرجز في ديوان رؤبة ص ٢٠٤ ، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٤ ، ولسان العرب (فرك) وفيه : «الغسق»."
(١)

"تشتد حيرته ، وتعظم الظلمة في عينيه أكثر من الذي لم يزل في الظلمة ، فشبه المنافقين في حيرتهم وجهلهم بالدين بهؤلاء الذين وصفهم ، إذا كانوا لا يرون طريقا ، ولا يهتدون.

وثانيها : أن المطر وإن كان نافعا إلا أنه لما وجد في هذه الصورة مع هذه الأحوال الضارة صار النفع به زائلا ، فكذا إظهار الإيمان نافع للمنافقين لو وافقه الباطن ، فإذا فقد منه الاخلاص ، وحصل أنواع المخافة ، فحصلت في المنافقين نهاية الحيرة في الدين ، ونهاية الخوف في الدنيا ؛ لأن المنافق يتصور في كل وقت أنه لو حصل الوقوف على باطنه لقتل ، فلا يزال الخوف في قلبه مع النفاق.

ورابعها : المراد من الصيب هو الإيمان والقرآن ، والظلمات والرعد والبرق هي الأشياء الشاقة على المنافقين من التكاليف كالصلاة والصوم وترك الرياسات ، والجهاد مع الآباء والأمهات ، وترك الأديان القديمة ، والانقياد لمحمد - عليه الصلاة والسلام - مع شدة استنكافهم عن الانقياد ، فكأن الإنسان يبالغ في الاحتراز عن المطر الصيب الذي [هو] أشد الأشياء نفعا بسبب هذه الأمور المقارنة ، كذلك هؤلاء.

والمراد من قوله : ﴿كلما أضآء لهم مشوا فيه﴾ أنه متى حصل لهم شيء من **المنافع** ، وهي عصمة أموالهم ودمائهم ، وحصول الغنائم ، فإنهم يرغبون في الدين.

قوله : ﴿وإذآ أظلم عليهم قاموا﴾ أي متى لم يجدوا شيئا من تلك **المنافع** ، فحينئذ يكرهون الإيمان ، ولا يرغبون فيه.

فصل في " أو " في " او " خمسة أقوال : أظهرها : أنها للتفصيل بمعنى : أن الناظرين في حال منهم من يشبههم بحال المستوقد ، ومنهم من يشبههم بأصحاب صيب هذه صفته.

قال ابن الخطيب : " والثاني أبلغ ؛ لأنه أدل على فرط الحيرة ".

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ص/٩١

والثاني : أنها للإبهام ، أي : أن الله أبهم على عباده تشبيههم بهؤلاء أو بهؤلاء.

والثالث : أنها للشك ، بمعنى : أن الناظر يشك في تشبيههم.

الرابع : أنها للإباحة.

الخامس : أنها للتخيير ، قالوا : لأن أصلها تساوي شيئين فصاعدا في الشك ، ثم اتسع فيها ، فاستعيرت للتساوي في غير الشك كقولك : " جالس الحسن أو ابن سيرين "

٣٨٥

يريد أنهما سيان ، وأن يجالس أيهما شاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ولا تطع منهم آثما أو كفورا﴾ [الإنسان : ٢٤] ، أي : الإثم والكفر متساويان في وجوب عصيانهما ، وزاد الكوفيون فيها معنيين آخرين : أحدهما : كونها بمعنى " الواو " ؛ وأنشدوا : [البسط] ٢٣٩ - نضال الخلافة أو كانت له قدرا

كما أتى ربه موسى على قدر

جزء : ١ رقم الصفحة : ٣٨٤

وقال تعالى : ﴿تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبآئكم أو بيوت أمهاتكم﴾ [النور : ٦١] وقال : [الطويل]

٢٤٠ - وقد زعمت ليلى بأني فاجر

لنفسي تقاها أو عليها فجورها

قال ابن الخطيب : وهذه الوجوه مطردة في قوله : ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذالك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ [البقرة : ٧٤].

المعنى الثاني : كونها بمعنى : " بل " ؛ قال تعالى : ﴿وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون﴾ [الصافات : ١٤٧] وأنشدوا : [الطويل] ٢٤١ - بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى

وصورتها أو أنت في العين أملح

أي : بل أنت.

و "كصيب " معطوف على "كمثل " ، فهو في محل رفع ، ولا بد من حذف مضافين ؛ ليصح المعنى ، التقدير يراد : " أو كمثل ذوي صيب " ولذلك رجع عليه ضمير الجمع في قوله : ﴿يجعلون أصابعهم فى آذانهم﴾ ، لأن المعنى على تشبيههم بأصحاب الصيب لا بالصيب نفسه.

٣٨٧

و " الصيب " المطر سمي بذلك لنزوله ، يقال : صاب يصوب إذا نزل ؛ ومنه : صوب رأسه : إذا خفضه

؛ قال [الطويل] ٢٤٢ - فلست لإنسي ولكن لملأك

تنزل من جو السماء يصوب

وقال آخر : [الطويل] ٢٤٣ - فلا تعدلي بيني وبين مغمر

سقتك روايا المزن حيث تصوب

وقيل : إنه من صاب يصوب : إذا قصد ، ولا يقال : صيب إلا للمطر الجواد ، كان - عليه الصلاة والسلام - يقول : " اللهم اجعله صيبا هنيئا " أي : مطرا جوادا ، ويقال أيضا للسحاب : صيب ؛ قال الشماخ : [الطويل] ٢٤٤ - ....

وأسحم دان صادق الرعد صيب

". (١)

"والموصول بعده خبر عنه.

و " لكم " متعلق بـ " خلق " ، ومعناها السببية ، أي : لأجلكم ، وقيل : للملك والإباحة ، فيكون تميكا خاصا بما ينتفع به.

وقيل : للاختصاص ، و " ما " موصولة ، و " في الأرض " صلتها ، وهي في محل نصب مفعول به ، و " جميعا " حال من المفعول بمعنى "كل " ، ولا دلالة لها على الاجتماع في الزمان ، وهذا هو الفارق بين قولك : جاءوا جميعا و " جاءوا معا " فإن " مع " تقتضى المصاحبة في الزمان ، بخلاف " جميع " قيل : وهي - هنا - حال مؤكدة ، لأن قوله : " ما في الأرض " عام.

فصل في بيان أن الأصل في المنافع الإباحة استدل الفقهاء بهذه الآية على أن الأصل في المنافع الإباحة.

وقيل : إنها تدل على حرمة أكل الطين ، لنه خلق لنا ما في الأرض دون نفس الأرض ، وفيه نظر ؛ لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما عداه ، وأيضا فالمعادن داخلة في ذلك ، وكذلك عروق الأرض ، وما يجري مجرى البعض لها.

وقد تقدم تفسير الخلق ، وتقديره الآية كأنه - سبحانه وتعالى - قال : كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتا فأحياكم ؟ وكيف تكفرون بالله ، وقد خلق لكم ما في الأرض جميعا ؟ أو يقال : كيف تكفرون بقدرة الله على الإعادة ، وقد أحياكم بعج موتكم ، وقد خلق لكم كل ما في الأرض ، فكيف يعجز عن إعادتكم ؟

.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٧٣

قوله : " ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ".

أصل " ثم " أن تقتضي تراخيا زمانيا ، ولا زمان هنا ، فقيل : إشارة إلى التراخي بين رتبتي خلق الأرض والسماء.

وقيل : لما كان بين خلق الأرض والسماء أعمال أخر من جعل الجبال والبركة ، وتقدير الأقوات ، كما أشار إليه في الآية الأخرى عطف بـ " ثم " ؛ إذ بين خلق الأرض والاستواء إلى السماء تراخ.

و " استوى " : معناه لغة : استقام واعتدل ، من استوى العود.

وقيل : علا وارتفع ؛ قال الشاعر : [الطويل] ٣٤٥ - فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة

وقد حلق النجم اليماني فاستوى

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٦٣

وقال تعالى : ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك﴾ [المؤمنون : ٢٨].

ومعناه هنا : قصد وعمل.

وفاعل " استوى " ضمير يعود على الله.

وقيل : يعود على الدخان نقله ابن عطية.

وهو غلط لوجهين : أحدهما : عدم ما يدل عليه.

والثاني : أنه يرده قوله تعالى : ﴿ثم استوى إلى السمآء وهي دخان﴾ [فصلت : ١١].

و " إلى " حرف انتهاء على بابها.

وقيل : هي بمعنى " على " ؛ فتكون في المعنى كقول الشاعر : [الرجز] ٣٤٦ - قد استوى بشر على العراق

من غير سيف ودم مهراق

ومثله قوله الآخر : [الطويل] ٣٤٧ - فلما علونا و ا ستوينا عليهم

تركناهم صرعى لنسر وكاسر

." (١)

"وقال أبو عمرو : " إنما يقرأ بها برابر مكة وسودانها ، وجمعت " الشجرة " على " شجراء " ، ولم يأت جمع على هذه الزنة إلا قصبة وقصباء ، وطرفة وطرفاء ، وحلفة وحلفاء.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/١١٦

وكان الأصمعي يقول : " حلفة – بكسر اللام " وعند سيبويه أن هذه الألفاظ واحدة وجمع.

و " المشجرة " : موضع الأشجار ، وأرض مشجرة ، وهذه الأرض أشجر من هذه أي أكثر شجرا ، قاله الجوهري.

فصل في جنس الشجرة المذكورة اختلف العلماء في هذه الشجرة المنهي عنها ، فروي عن بعض العلماء أنه نهى عن جنس من الشجر.

وقال آخرون : إنما نهى عن شجر بعينه ، واختلفوا في تلك الشجرة.

روى السدى عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وجعدة بن هبيرة هي الكرم ، ولذلك حرمت علينا الخمر.

وقال ابن عباس أيضا : وأبو مالك وقتادة ، ورواه أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم هي السنبلة ، والحبة منها كشكل البقر ، أحلى من العسل ، وألين من الزبد ، قاله وهب بن منبه.

ونقل ابن جريج عن بعض الصحابة أنها التين ، وهو مروي أيضا عن مجاهد وقتادة ، ولذلك تعتبر في الرؤيا بالندامة لآكلها ، ذكره السهيلي.

وروي عن قتادة أيضا هي شجرة العلم ، وفيها من كل شيء.

وقال علي : شجرة الكافور.

فصل في الإشعار بأن سكنى آدم لا تدوم.

قال بعض أرباب المعاني في قوله : " ولا تقربا " إشعار بالوقوع في الخطيئة ، والخروج من الجنة ، وان سكناه فيها لا يدوم ، لأن المخلد لا يخطر عليه شيء ، والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة : ٣٠] فدل على خروجه منها.

فصل في المراد بالنهي عن الكل من الشجرة هذا النهي نهي تحريم ، أو تنزيه ؟ فيه خلاف.

قال قوم : هذا نهي تنزيه ؛ لأن هذه الصيغة وردت في التنزيه والتحريم ، والأصل عدم الاشتراك فلا بد من جعل اللفظ حقيقة في القدر المشترك بين القسمين ، وما ذلك إلا أن يجعل حقيقة في ترجيح جانب الترك على جانب الفعل ، من غير أن يكون فيه دلالة على المنع من الفعل ، أو الإطلاق فيه كان ثابتا بحكم الأصل ، عدم الاشتراك فلا بد من جعل اللفظ حقيقة في القدر المشترك بين القسمين ، وما ذلك إلا أن يجعل حقيقة في ترجيح جانب الترك على جانب الفعل ، من غير أن يكون فيه دلالة على المنع من الفعل

، أو الإطلاق فيه كان ثابتا بحكم الأصل ، فإن الأصل في المنافع الإباحة ، فإذا ضممنا مدلول اللفظ إلى هذا الأصل صار المجموع دليلا على التنزيه ، قالوا : وهذا هو الأولى بهذا المقام ؛ لأن على هذا التقدير يرجع حاصل معصية آدم - عليه الصلاة والسلام - إلى ترك الأولى ، ومعلوم أن كل مذهب أفضى إلى عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كان أولى.

وقال آخرون : بل هذا نهي تحريم ، واحتجوا عليه بأمور : أحدها : أن قوله : ﴿ولا تقربا هاذه الشجرة﴾ كقوله : ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ [البقرة : ٢٢٢] وقوله : ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ [الإسراء : ٣٤] فكما أن هذا للتحريم فكذا الأول.

وثانيهما : قوله : ﴿فتكونا من الظالمين﴾ أي : إن أكلتما منهما ظلمتما أنفسكما ألا ترى لما أكلا ﴿قالا ربنا ظلمنآ أنفسنا﴾ [الأعراف : ٢٣].

وثالثهما : لو كان للتنزيه لما استحق آدم بفعله الإخراج من الجنة ، ولما وجبت التوبة عليه.

قال ابن الخطيب : الجواب عن الأول : أن النهي وإن كان في الأصل للتنزيه ، لكنه قد يحمل على التحريم بدليل منفصل.

وعن الثاني : أن قوله تعالى : ﴿فتكونا من الظالمين﴾ أي : فتظلما أنفسكما بفعل ما الأولى بكما تركه ؛ لأنكما إذا فعلتما ذلك أخرجتما من الجنة التي لا تظمآن فيها ، ولا تضحيان ولا تجوعان ولا تقربان إلى موضع ليس فيه شيء من هذا.

وعن الثالث : أنا لا نسلم أن الإخراج من الجنة كان لهذا السبب.

فصل في فحوى الآية قال قوم قوله تعالى : ﴿ولا تقربا هاذه الشجرة﴾ يفيد بفحواه النهي عن الأكل ؛ وفيه نظر لأن النهي عن القربان لا يستلزم النهي عن الأكل ؛ إذ ربما كان الصلاح في ترك قربها مع انه لو حمل إليه لجاز له أكله ، بل الظاهر [إنما] يتناول النهي عن القرب.

وأما النهي عن الكل ، فإنما عرف بدلائل أخرى وهي قوله تعالى : ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما﴾ [الأعراف : ٢٢] ولأنه حدث الكلام بالأكل فقال : ﴿وكلا منها رغدا حيث شئتما﴾ فصار ذلك كالدلالة على أنه تعالى نهاهما عن أكل ثمرة الشجرة ، لكن النهي بهذا القول يعم الكل ، وسائر الانتفاعات ، ولو كان نص على الأكل ما كان يعم ذلك ، ففيه مزيد فائدة.

قوله : ﴿فتكونا من الظالمين﴾ فتكونا : فيه وجهان : أحدهما : أن يكون مجزوما عطفا على " تقربا " ؛

كقوله : [الطويل] ٤٠٠ – فقلت له : صوب ولا تجهدنه
". (١)

"خارجا عن النهي لا محالة ، وإذا ثبت هذا فالمجتهد مكلف يحمل اللفظ على حقيقته ، فأدم – عليه الصلاة والسلام – لما حمل لفظ " هذه " على المعين كان قد فعل الواجب ، ولا يجوز له حمله على النوع ، وهذا متأيد بأمرين : أحدهما : أن قوله : ﴿وكلا منها رغدا حيث شئتما﴾ [البقرة : ٣٥] أفاد الإذن في تناول كل ما في الجنة إلا ما خصه الدليل.

والثاني : أن العقل يقتضي حل الانتفاع بجميع **المنافع** إلا ما خصه الدليل ، والدليل المخصص لم يدل على ذلك المعين ، وإذا ثبت هذا امتنع أن يستحق بسبب تناول غيره وغن كان من ذلك النوع المنهي عنه عتابا ، فوجب على هذا أن يكون مصيبا لا مخطئا.

الاعتراض الثاني : هب أن لفظة " هذه " مترددة بين الشخص والنوع ، ولكن هل قرن الله بهذا اللفظ ما يدل على أن المراد منه النوع دون الشخص أو لا ؟ فإن قرن به ، فإما أن يقال : إن آدم – عليه الصلاة والسلام – قصر في معرفة ذلك البيان ، فحينئذ يكون قد أتى بالذنب وإن لم يقصر بل عرفه ، فحينئذ يكون إقدامه على التناول من شجرة من ذلك النوع إقداما على الذنب قصدا.

الاعتراض الثالث : أن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لا يجوز لهم الاجتهاد ؛ لأن الاجتهاد إقدام على العمل بالظن وذلك إنما يجوز في حق من لا يتمكن من تحصيل العلم ، أما الأنبياء فإنهم قادرون على تحصيل اليقين ، فوجب ألا يجوز لهم الاجتهاد ؛ لأن الاكتفاء بالظن مع القدرة على تحصيل اليقين غير جائز عقلا وشرعا ، وذا ثبت ذلك ثبت أن افقدام على الاجتهاد معصية.

الاعتراض الرابع : هذه المسألة إما أن تكون من المسائل القطعية او الظنية ، فإن كانت من القطعيات كان الخطأ فيها كبيرا ، وحينئذ يعود الإشكال ، وإن كانت من الظنيات فإن قلنا : إن كل مجتهد مصيب فلا يتحقق الخطأ فيها أصلا.

وإن قلنا : المصيب فيها واحد ، والمخطيء فيها معذور بالاتفاق ، فكيف صار هذا القدر من الخطأ سببا لإخراج آدم – عليه الصلاة والسلام – من الجنة ؟ والجواب عن الأول : أن لفظة " هذا " وإن كان في الأصل إشارة إلى الشخص ، لكنه قد يستعمل في الإشارة إلى النوع كما تقدم بيانه.

والجواب عن الثاني : أن الله – سبحانه وتعالى – كان قد قرن به ما دل على أن المراد هو النوع ، لكن

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٤٩

لعل آدم - عليه الصلاة والسلام - قصر في معرفة ذلك الدليل ؛ لأنه ظن أنه لا يلزمه ذلك في الحال.

أو يقال : إنه عرف ذلك الدليل في وقت ما نهاه الله - تعالى - عن عين الشجرة ، فلما طالت المدة غفل عنه ، لأن في الخبر أن آدم - عليه الصلاة والسلام - بقي في الجنة الدهر الطويل ، ثم اخرج.

والجواب عن الثالث : أنه لا حاجة ها هنا إلى إثبات أن الأنبياء تمسكوا بالاجتهاد ، فإنا بينا أن آدم - عليه الصلاة والسلام - قصر في معرفة تلك الدلالة ، وإن كان قد عرفها ، لكنه قد نسيها ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿فنسي ولم نجد له عزما﴾ [طه : ١١٥].

والجواب عن الرابع : يمكن أن يقال [كانت] الدلالة قطيعة [إلا أنه] - عليه الصلاة والسلام - لما نسيها صار النسيان عذرا في ألا يصير الذنب كبيرا ، أو يقال : كانت ظنية إلا أنه ترتب عليه من التشديدات ما لم يترتب على خطأ سائر المجتهدين ؛ لأن ذلك يجوز أن يختلف باختلاف الأشخاص ، وكما أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - مخصوص بأمور كثيرة في باب التشديدات بما لا يثبت في حق المة فكذا ها هنا.

واعلم أنه يمكن أن يقال في المسألة وجه آخر ، وهو أنه - تعالى - لما قال : ﴿ولا تقربا هاذه الشجرة﴾ [الأعراف : ١٩] فهم آدم - عليه الصلاة والسلام - من هذا النهي أنهما إنما نهيا حال اجتماعهما ؛ لأن قوله : " ولا تقربا " نهي لهما عن الجمع ، ولا يلزم من حصول النهي حال الاجتماع حصوله حال الاجتماع حال الانفراد ، فلعل الخطأ في الاجتهاد إنما وقع من هذا الوجه.

قوله : ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ " الفاء " - هنا - فاء السببية.

وقال المهدوي : إذا جعل " فأزلهما " بمعنى زل عن المضكان كان قوله : ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ توكيدا ، إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر ، وزهذا الذي قال المهدوي أشبه شيء بالتأسيس لا التأكيد ، لإفادته معنى جديدا.

قال " ابن عطية " : وهنا محذوف يدل عليه الظاهر تقديره : فأكلا من الشجرة ، يعني بذلك أن المحذوف [يقدر] قبل قوله : " فأزلهما ".

و " مما كانا " متعلق بـ " اخرج " ، و " ما " يجوز أن تكون موصولة اسمية ، وأن تكون نكرة موصوفة ، أي : من المكان أو النعيم الذي كانا فيه ، أو من مكان ، أو نعيم كانا فيه ، فالجملة من "كان " واسمها وخبرها لا مضحل لها على الأول ومحلها الجر على الثاني ، و " من " لابتداء الغابة.

فصل في قصة الإغواء روي عن ابن عباس ، وقتادة قال الله تعالى لآدم : ألم يك فيما أبحتك الجنة مندوحة عن." (١)

"الأرض﴾ إلى قوله : ﴿وأرسلنا السمآء عليهم مدرارا﴾ [الأنعام : ٦].

وخامسها : قوله تعالى : ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ [الأنعام : ٦٣] إلى قوله : ﴿ثم أنتم تشركون﴾ [الأنعام : ٦٤].

وسادسها : قوله تعالى ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون﴾ [الأعراف : ١٠] وقال في قصة " إبليس " : ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ [الأعراف : ١٧].

وسابعها : قوله : ﴿واذكروا اا إذ جعلكم خلفآء من بعد عاد وبوأكم في الأرض﴾ [الأعراف : ٧٤] وقال : ﴿قال أغير الله أبغيكم إلاها وهو فضلكم على العالمين﴾ [الأعراف : ١٤٠].

وثامنها : قوله : ﴿ذالك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها ع‌ِلى قوم﴾ [الأنفال : ٥٣].

وتاسعها : قوله : ﴿هو الذي جعل الشمس ضيآء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذالك إلا بالحق﴾ [يونس : ٥].

وعاشرها : قوله : ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك﴾ [يونس : ٢٢] إلى قوله : ﴿يبغون في الأرض﴾ [يونس : ٢٣].

واعلم أن الخلاف في هذه المسألة لفظي ؛ لأنه لا نزاع في أن الحياة والعقل والسمع والبصر ، وأنواع الرزق ، والمنافع من الله ـ تعالى ـ إنما الخلاف في أن أمثال هذه المنافع إذا حصل عقيبها تلك المضار الأبدية ، هل يطلق عليها في العرف اسم النعمة أم لا ؟ ومعلوم أن ذلك نزاع في مجرد عبارة.

فصل في النعم المخصوصة ببني إسرائي وهي كثيرة منها : استنقذهم من فرعون وقومه ، وخل‌ِصهم من العبودية وأولادهم من القتل ونساءهم من الاستحياء ، وخلصهم من البلاء ، ومكنهم في الأرض ، وجعلهم ملوكا ، وجعلهم الوارثين بعد أن كانوا عبيدا للقبط ، وأهلك أعداءهم وأورثهم أرضهم وديارهم ، وأموالهم ، وأنزل عليهم [الكتب العظيمة ، وجعل فيهم أنبياء ، وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين ، وظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم] المن والسلوى ، وأعطاهم الحجر ليسقيهم ما شاءوا من الماء متى أرادوا ، فإذا استغنوا عن الماء رفعوها فاحتبس الماء عنهم ، وأعطاهم عمودا من النور يضيء لهم بالليل ، وكانت رؤوسهم لا تتشعث وثيابهم لا تبلى.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ص/١٥٣

رواه " ابن عباس ".

فصل في سبب تذكيرهم بهذه النعم قال ابن الخطيب : إنما ذكرهم بهذه النعم لوجوه : أحدها : أن جملة النعم ما يشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وهي التوراة ، والإنجيل ، والزبور.

وثانيها : أن كثرة النعم توجب عظم المعصية ، فذكرهم تلك النعم لكي يحذروا مخالفة ما دعوا إليها من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن.

وثالثها : أن تذكر النعم الكثيرة يفيد الحياء عن إظهار المخالفة.

ورابعها : أن تذكر النعم الكثيرة يفيد أن المنعم خصهم من بين سائر الناس بها ، ومن خص أحدا بنعم كثيرة ، فالظاهر أن تذكر تلك النعم يطمع في النعم الآيتة ، وذلك الطمع مانع من إظهار المخالفة والمخاصمة.

فإن قيل : إن هذه النعم إنما كانت على المخاطبين وأسلافهم ، فكيف تكون نعمة عليهم ؟ فالجواب : لولا هذه النعم على آبائهم لما بقوا ، فصارت النعم على الآباء نعمة على الأبناء ، وأيضا فالانتساب إلى الآباء المخصوصين بنعم الدين والدنيا نعمة عظيمة في حق الأولاد ، وأيضا فإن الأولاد متى سمعوا أن الله . تعالى . خص آباءهم بهذه النعم لطاعتهم وإعراضهم عن الكفر رغب الولد في هذه الطريقة ؛ لأن الولد مجبول على الاقتداء بالأب في أفعال الخير ، فيصير هذا التذكر داعيا إلى الاشتغال بالخيرات.

قوله : ﴿التي أنعمت﴾.

" التي " صفة " النعمة " والعائد محذوف.

فإن قيل : من شرط [حذف] عائد الموصول إذا كان مجرورا أن يجر الموصول بمثل ذلك الحرف ، وأن يتحد متعلقهما ، وهنا قد فقد الشرطان ، فإن الأصل : التي أنعمت بها.

فالجواب : إنما حذف بعد أن صار منصوبا بحذف حرف الجر اتساعا فبقي " أنعمتها " وهو نظير : ﴿كالذي خاضوا اا﴾ [التوبة : ٦٩] في أحد الأوجه ، وسيأتي إن شاء الله تعالى.

و " عليكم " متعلق به ، وأتى بـ " على " دلالة على شمول النعمة لهم.

قوله : ﴿وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم﴾.

هذه جملة أمرية عطف على الأمكرية قبلها.

ويقال : " أوفى " ، و " وفى " . مشددا ومخففا . ثلاث لغات بمعنى ؛ قال الشاعر : [البسط] ٤٢٩. أما ابن [طوق] فقد أوفى بذمته

كما وفى بقلاص النجم حاديها

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٦٣." (١)

"ولكن النحاة نصوا على أنه ضرورة ، فالأولى أن يعود على الكفار الذين اختصتهم الآية ؛ كما قال " ابن عطية ".

و " النصر " : العون : ، والأنصار : الأعوان ، ومنه ﴿من أنصارى إلى الله﴾ [آل عمران : ٥٢] والنصر ـ أيضا ـ الانتقام ، انتصر زيد : انتقم ، والنصر : الإتيان ـ نصرت أرض بني فلان : أتيتها ؛ قال الشاعر : [الطويل] ٤٦٩. إذا دخل الشهر الحرام فودعي

بلاد تميم وانصري أرض عامر

والنصر : المطر ، يقال : نصرت الأرض : مطرت.

قال " القفال " : تقول العرب : أرض منصورة أي ممطورة ، والغيث ينصر البلاد : إذا أنبتها ، ف : انه أغاث أهلها.

وقيل في قوله : ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله﴾ [الحج : ١٥] أي : لن يرزقه الله ، كما يرزق الغيث البلاد.

والنصر : العطاء ؛ قال : [الرجز [٤٧٠. إني وأسطار سطرن سطرا

لقائل : يا نصر نصر نصرا

ويتعدى بـ " على " قال تعالى : ﴿فانصرنا على القوم الكافرين﴾ [البقرة : ٢٨٦] وأما قوله : ﴿ونصرناه من القوم﴾ [الأنبياء : ٧٧] فيحتمل التعدي بـ " من " ويحتمل أن يكون من التضمين.

أي : نصرناه بالانتقام له منهم.

فإن قيل : قوله : ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئا﴾ تفيد ما أفاده ﴿ولا هم ينصرون﴾ فما المقصود من هذا التكرار ؟ فالجواب : أن قوله : ﴿لا تجزي نفس عن نفس﴾ أي : لا تتحمل عنه غيره ما يلزمه من الجزاء.

وأما النصرة فهو أن يحاول تخليصه من حكم المعاقب ، فإن قيل : قدم في هذه الآية قبول الشفاعة على أخذ الفدية ، وفي الآية التي قيل قوله ﴿وإذ ابتلى إبراهيم﴾ [البقرة : ١٢٤] قدم قبول الفدية على ذكر الشفاعة فما [الحكم ؟ قال ابن الخطيب :] فالجواب : أن من كان ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٦٥

علو النفس فإنه يقدم [التمسك] بالشافعين على إعطاء الفدية ، ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة ، ففائدة تغيير الترتيب الإشارة إلى هذين الصنفين.

فصلل في سبب نزول الآية ذكروا أن سبب هذه الآية أن بني إسرائيل قالوا : ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة : ١٨] وأبناء أنبيائه ، وسيشفع لنا آباؤنا ، فأعلمهم الله ـ تعالى ـ عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعات ، ولا يؤخذ فيه فدية.

وإنما خص الشفاعة والفدية والنصر بالذكر ، لأنها هي المعاني التي اعتادها بنو آدم ف يالدنيا ، فإن الواقع في الشدة لا يتخلص إلا بأن يشفع له ، أو يفتدى ، أو ينصر.

فصل في الشفاعة أجمعت الأمة على أن الشفاعة في الآخرة لمحمد صلى الله عليه وسلم ثم [اختلفوا في] أن شفاعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ [لمن] تكون أي للمؤمنين المستحقين للثواب أم لأهل الكبائر المستحقين للعقاب ؟ فذهب المعتزلة إلى أنها للمستحقين للثواب ، وتأثير الشفاعة زيادة **المنافع** على ما استحقوه.

وقال أصحابنا : تأثيرها في إسقاط العقاب عن المستحقين العقاب بأن يشفع لهم في عرصة القيامة حتى لا يدخلوا النار ، فإن دخلوا النار ، فشفع لهم حتى يخرجوا منها ويدخلوا الجنة.

واتفقوا على أنها ليست للكفار.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٦٣

". (١)

"وخامسها : أنه على حد قولك : " ما أكل إلا حلوا أو حامضا " أي : طعامه لا يخرج عن هذين ، وليس الغرض إيقاع التردد بل نفي غيرهما.

وسادسها : أن " أو " حرف إباحة ، أي : بأي هذين شبهت قلوبهم كان صدقا كقولهم : " جالس الحسن أو ابن سيرين " أي أيهما جالست كنت مصيبا أيضا.

و " أشد " مرفوع لعطفه على محل "كالحجارة " أي : فهي مثل الحجارة أو أشد.

والكاف يجوز أن تكون حرفا فتتعلق بمحذوف ، وأن كون اسما فلا تتعلق بشيء ، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ محذوفا أي : أو هي أشد.

و " قسوة " منصوب على التمييز ؛ لأن الإبهام حصل في نسبة التفضيل إليهما ، والمفضل عليه محذوف

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٨٣

للدلالة عليه ، أي : أشد قسوة من الحجارة.

وقرىء : " أشد " بالفتح ووجهها : أنه عطفها على " الحجارة " أي : فهي كالحجارة أو [كأشد] منها.

قال الزمخشري موجها للرفع : و " أشد " معطوف على الكاف ، إما على معنى : أو مثل أشد ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، وتعضده قراءة الأعمش بنصب الدال عطفا على " الحجارة " ويجوز على ما قاله أن يكون مجرورا بالمضاف المحذوف ترك على حاله ، كقراءة : ﴿والله يريد الآخرة﴾ [الأنفال : ٦٧] بجر " الآخرة " أي : ثواب الآخرة ، فيحصل من هذا أن فتحه الدال يحتمل أن تكون للنصب ، وأن تكون للجر.

وقال الزمخشري أيضا : فإن قلت : لم قيل : أشد قسوة مما يخرج منه " أفعل " التفضيل وفعل التعجب ؟ يعني : أنه [مستكمل] للشروط من كونه ثلاثيا تاما غير لون ولا عاهة متصرفا غير ملازم للنفي.

ثم قال : قلت : لكونه أبين وأدل على فرط القسوة ، ووجه آخر وهو الا يقصد معنى الأقسى ، ولكنه [قصد] وصف القسوة بالشدة ، كأنه " اشتدت قسوة الحجارة ، وقلوبهم أشد قسوة ".

وهذا الكلام حسن ، إلا أن كون " القسوة " جوز بناء التعجب منها فيه نظر من حيث إنها من الأمور الخلقية أو من العيوب ، وكلاهما ممنوع منه بناء البابين.

وقرىء : " قاسوة ".

فصل في أوجه شدة القسوة من الحجارة إنما وصفها بأنها أشد قسوة من الحجارة لوجوه : أحدها : أن الحجارة لو كانت عاقلة ، ورأت هذه الآية لقبلتها كما قال : ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾ [الحشر : ٢١].

وثانيها : أن الحجارة ليس فيها امتناع لما يحدث فيها من أمر الله فقال : وإن كانت قاسية ، بل منصرفة على مراد الله ـ تعالى ـ غير ممتنعة ، وهؤلاء مع ما وصفنا في اتصال الآيات عندهم ، وتتابع نعم الله عليهم يمتنعون من الطاعة ، ولا تلين قلوبهم بمعرفة حق الله.

وثالثها : أن الأحجار ينتفع بها من بعض الوجوه ، أما قلوب هؤلاء فلا نفع منها ألبتة.

فصل في الرد على المعتزلة قال القاضي : إن كان الدوام على الكفر مخلوف فيهم ، فكيف يحسن ذمهم ؟ فلو قال : إن الذي خلق الصلابة في الحجارة هو الذي خلق في قلوبنا القسوة ، والخالق في الأحجار الأنهار هو القادر على أن ينقلنا عما نحن عليه من الكفر بخلق الإيمان فينا ، فإذا لم يفعل فعذرنا ظاهر لكانت حجتهم على موسى أوكد من حجته عليهم ، وهذا النمط قد تكرر مرارا.

قوله : ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار﴾.

واعلم أنه ـ سبحانه وتعالى ـ فضل الحجارة على قلوبهم بأنه قد يحصل في الحجارة أنواع من **المنافع** ، ولا يوجد في قلوب هؤلاء شيء من **المنافع**.

فأولها : قوله : " وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار " واللام في " لما " لام الابتداء دخلت على اسم " إن " لتقدم الخبر ، وهو " من الحجارة " ، وهي " ما " التي بمعنى " الذي " في محل النصب ، ولو لم يتقدم الخبر لم يجز دخول اللام على الاسم ؛ لئلا يتوالى حرفا تأكيد ، وإن كان الأصل يقتضي ذلك ، والضمير في " منه " يعود على " ما " حملا على اللفظ.

قال أبو البقاء : ولو كان في غير القرآن لجاز " منها " على المعنى.

وهذا الذي قاله قد قرأ به أبي بن كعب والضحاك.

وقرأ مالك بن دينار " ينفجر " من الانفجار.

وقرأ قتادة : " وإن من الحجارة " بتخفيف " إن " من الثقيلة ، وأتى باللام فارقة بينها وبين " إن " النافية ، وكذلك : " وإن منها لما يشقق " و " إن منها لما يهبط " ، وهذه القرءاة تحتمل أن تكون " ما " فيها في محل رفع وهو المشهور ، وأن تكون في محل نصب ؛ لأن " إن " المخففة سمع فيها الإعمال والإهمال ، قال تعالى : ﴿وإن كلا لما ليوفينهم﴾ [هود : ١١١] في قراءة من قرأه.

وقال في موضع آخر : ﴿وإن كل لما جميع لدينا﴾ [يس : ٣٢] إلا أن المشهور الإهمال.

والتفجير : الفتح بالسعة والكثرة ؛ يقال : انفجرت قرحة فلان أي : انشقت بالمدة ، ومنه : الفجر والفجور.

فصل في تولد الأنهار قالت الحكماء : الأنهار إنما تتولد عن أبخرة تجتمع في باطن الأرض ، فإن كان ظاهر الأرض رخوا انشقت تلك الأبخرة وانفصلت ، وإن." (١)

"إسرائيل إلا عشرة : هود ونوح وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قوله : ﴿يتلوا عليهم آياتك﴾ فيه وجهان : الأول : أنها الفرقان الذي أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الذي كان يتلوه عليهم ليس إلا ذلك ، فوجب حمله عليه.

الثاني : يجوز أن تكون الآيات هي الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته سبحانه وتعالى ، ومعنى

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ص/٢٤٦

تلاوته إياها عليهمك أنه كان يذكرهم بها ، ويدعوهم إليها ، ويحملهم على الإيمان بها.

قوله : " ويعلمهم الكتاب " أي : القرآن يعلمهم مافيه من الدلائل والأحكام.

وأما الحكمة فهي : الإصابة في القول والعمل.

وقيلك أصلها من أحكمت الشيء أي رددته ، فكأن الحكمة هي التي ترد عن الجهل والخطأ ، وهو راجع إلى ما ذكرنا من الإصابة في القول والعمل.

اختلف المفسرون [في المراد بالحكمة] هاهنا.

قال ابن وهب قلت لمالك : ما الحكمة ؟ قال : معرفة الدين ، والفقه فيه ، والاتباع له.

وقال الشافعي رضي الله عنه : الحكمة سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو قول قتادة.

وقال أصحاب الشافعي رضي الله عنه : والدليل عليه أنه - تعالى - ذكر تلاوة الكتاب أولا ، وتعلميه ثانيا ، ثم عطف عليه الحكمة ، فوجب أن يكون المراد من الحكمة شيئا خارجا عن الكتاب ، وليس ذلك إلا سنة الرسول عليه اسلام.

فإن قيل : لم لا يجوز حمله على تعليم الدلائل العقلية على التوحيد والعدل والنبوة ؟ فالجواب : لأن العقول مستقبلة كذلك فحمل هذا اللفظ على ما لا يستفاد من الشرع أولى.

وقيل : الحكمة هي الفصل بين الحق والباطل.

وقال مقاتل : هي مواعظ القرآن الكريم ، وما فيه منا لأحكام.

وقال ابن قتيبة : هي العلم والعمل به.

وقيل : حكمة تلك الشرائع ، وما فيها من وجوه المصالح والمنافع.

وقيل : أراد بالكتاب الآيات المحكمة ، واراد بالحكمة المتشابهات.

[وقال بان دريد : كل كلمة وعظتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة].

٤٩٣

وأما قوله : " ويزكيهم ".

قال الحسن : يطهرهم من شركهم.

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : التزكية هي الطاعة والإخلاص.

وقال بان كيسان : يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة إذا شهدوا هم للأنبياء بالبلاغ لتزكية المزكي للشهود.

وقيل : يأخذ زكاة أموالهم.

ولما ذكر هذه الدعوات ، فتممها بالثناء على الله تعالى فقال : ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾.
و " العزيز " : هو القادر الذي لا يغلب ، و " الحكيم " : هو العليم الذي لا يجهل شيئا.
[واعلم أن " العزيز " و " الحكيم " بهذين التفسيرين صفة للذات ، وإذا أريد بالعزيز أفعال العزة وهو الامتناع من استيلاء الغير عليه ، وأراد بالحكمة : أفعال الحكمة ، لم يكن " العزيز " و " الحككيم " من صفات الذات أزلية ، وصفات الفعل ليست كذلك ، وصفات الفعل أمور سببية يعتبر في تحققها صدور الآثار عن الفعل ، وصفات الذات ليست كذلك.
فصل] [و] قال الكلبي : العزيز المتقدم لقوله تعالى : ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ [آل عمران : ٤].
وقال ابن عباس رضي الله عنهما : العزيز الذي لا يوجد مثله.
وقيل : المنيع الذي لا تناله الأيدي ، ولا يصل إليه شيء.
وقيل : القوي.
والعزة القوة ، لقوله تعالى : ﴿فعززنا بثالث﴾ [يس : ١٤] أي قوينا.
وقيل : الغالب ، لقوله : ﴿وعزني في الخطاب﴾ [ص : ٢٣] أي غلبنين ويقال : من عزيز أي من غلب.
والعم أن مناسبة قوله : ﴿أنت العزيز الحكيم﴾ لهذا الدعاء هو أن العزيز هو القادر ، والحكيم هو العالم بوضع الأشياء في مواضعها ، ومن كان عالما قادرا فهو قادر على أن يبعث فيهم رسولا يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.
٤٩٤
جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤٩١
." (١)

"وكذلك العدوان بالسفر فرد آخر من أفرادها فإذن نفي العدوان يقتضي نفي العدوان من جميع هذه الجهات ، فتخصيصه بالأكل غير جائز.
وثالثها : قوله تبارك وتعالى : ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾ [المائدة : ٣] فبين في هذه أن المضطر إنما يترخص ، إذا لم يكن متجانفا لإثم ، وهذا يؤيد ما قلناه من أن الآية الكريمة تقتضي ألا يكون موصوفا بالبغي والعدوان في أمر من الأمور.
احتج أبو حنيفة – رضي الله عنه – ، بوجوه : أحدها : قوله تعالى : ﴿وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٣٩٦

ما اضطررتم إليه﴾ [الأنعام : ١١٩].
وهذا مضطر ؛ فوجب أن يترخص.
وثانيها : قوله تبارك وتعالى : ﴿ولا تقتلوا اا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾ [النساء : ٢٩] ﴿ولا تلقوا بأيدي كم إلى التهلكة﴾ [البقرة : ١٩٥] ، والامتناع من الأكل سبب في قتل النفس ، وإلقاء بها إلى التهلكة ؛ فوجب أن يحرم.
وثالثها : أنه – عليه الصلاة والسلام – رخص للمقيم يوما وليلة ، وللمسافر ثلاثة أيام ولياليهن ، ولم يفرق بين العاصي وغيره.
رابعها : أن العاصي بسفره ، إذا كان نائما ، فأشرف على غرق ، أو حرق ، يجب على الحاضر الذي يكون في الصلاة أن يقطع صلاته لإنجائه ، فلأن يجب عليه في هذه الصورة : أن يسعى في إنقاذ مهجته أولى.
وخامسها : أن العاصي بسفره له أن يدفع عن نفسه أسباب الهلاك ؛ من الحيوانات الصائلة عليه ، والحية ، والعقرب ، بل يجب عليه ، فكذا ههنا.
سادسها : أن العاصي بسفره ، إذا اضطر ، فلو أباح له رجل شيئا من ماله ، فله أخذه ، بل يجب دفع الضرر عن النفس.
[سابعها : أن التوبة أعظم في الوجوب وما ذاك إلا لدفع ضرر النار عن النفس] ، وهي أعظم من كل ما يدفع المؤمن من المضار عن نفسه ؛ فلذلك دفع ضرر الهلاك عن نفسه لهذا الأكل ، وإن كان عاصيا.
وثامنها : أن الضرورة تبيح تناول طعام الغير من دون رضاه ، بل على سبيل القهر ، وهذا التناول يحرم لولا الاضطرار ، فكذا ههنا.
وأجيب عن التمسك بالعمومات ؛ بأن دليلنا النافي للترخص أخص دلائلهم
١٨٢
المرخصة والخاص متقدم على العام ، وعن الوجوه القياسية بأنه يمكنه الوصول إلى استباحة هذه الرخص بالتوبة ، فإذا لم يتب ، فهو الجاني على نفسه ، ثم تعارض هذه الوجوه : بأن الرخصة إعانة على السفر ، فإذا كان السفر معصية ، كانت الرخصة إعانة على المعصية ، والمعصية ممنوع منها ، والإعانة سعي في تحصيلها ؛ فالجمع بينهما متناقض.
فصل في اختلافهم في اختيار المضطرين المحرمات اختلفوا في المضطر ، إذا وجد كل ما يضطر من

المحرمات.

فالأكثرون على أنه مخير بين الكل ، ومنهم من قال : يتناول الميتة ، دون لحم الخنزير ويعد لحم الخنزير أعظم في التحريم.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ١٧٠

قال ابن عباس : نزلت في رؤوس اليهود : كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ، ومالك بن الصيف ، وحيي بن أخطب ، وأبي ياسر بن أخطب ؛ كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا ، وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم ، فلما بعث محمد عليه الصلاة والسلام من غيرهم خافوا انقطاع تلك **المنافع** ؛ فكتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم بأن غيروا صفته ، ثم أخرجوها إليهم ، فإذا ظهرت السفلة على النعت المغير ، وجدوه مخالفا لصفته صلى الله عليه وسلم ، لا يتبعونه ، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية.

قال القرطبي : ومعنى " أنزل " : أظهر ؛ كما قال تعالى : ﴿ومن قال سأنزل مثل مآ أنزل الله﴾ [الأنعام : ٩٣] أي : سأظهر وقيل : هو على بابه من النزول ، أي : ما أنزل به ملائكته على رسله.

قوله : " من الكتاب " : في محل نصب ، على الحال ، وفي صاحبها وجهان : أحدهما : أنه العائد على الموصول ، تقديره : " أنزله الله " حال كونه " من الكتاب " فالعامل فيه " أنزل ".

والثاني : أنه الموصول نفسه ، فالعامل في الحال " يكتمون ".

قوله : " ويشترون به " : الضمير في " به " يحتمل أن يعود على " ما " الموصولة ، وأن يعود على الكتم المفهوم من قوله : " يكتمون " ، وأن يعود على الكتاب ، والأول أظهر ،

١٨٣

". (١)

"نصب ؛ لمصدر محذوف ، تقديره : " وما تفعلوا فعلا من خير " والهاء في " يعلمه " تعود إلى خير.

قال شهاب الدين : وهذا غلط فاحش ؛ لأنه من حيث علقه بالفعل قبله كيف يجعله نعت مصدر محذوف ؟ ولأن جعله الهاء تعود إلى " خير " يلزم منه خلو جملة الجواب من ضمير يعود اسم الشرط ، وذلك لا يجوز ، أما لو كانت أداة الشرط حرفا ، فلا يشترط فيه ذلك ، فالصواب ما تقدم.

وإنما ذكرت لك هذا لئلا تراه فتتوهم صحته.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٥٠٨

والهاء عائدة على " ما " التي هي اسم الشرط.

فصل اعلم أن الله تعالى يعلم كل شيء وإذا خص هنا الخير بأنه يعلمه لفوائد.

أحدها : إذا علمت منك الخير ، ذكرته وشهرته ، وإذا علمت منك الشر ، سترته وأخفيته ؛ لتعلم أنه إذا كانت رح◌متي بك في الدنيا هكذا فكيف في العقبى ؟ وثانيها : قال بعض المفسرين في قوله : ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ [طه : ١٥] معناه : لو أمكنني أن أخفيها عن نفسي ، لفعلت ، فكذا – هاهنا – كأنه قيل للعبد : ما تفعله من الشر ، فلو أمكنني أن أخفيه عن نفسي لفعلت ذلك.

وثالثها : أن السلطان العظيم إذا قال لعبده المطيع : كل ما تتحمله من المشقة والخدمة في حقي ، فأنا عالم به ، ومطلع عليه ، كان هذا وعدا له بالثواب العظيم ، ولو قال ذلك لعبده المذنب ، كان توعدا له بالعقاب الشديد ، ولما كان سبحانه أكرم الأكرمين ؛ لا جرم ذكر ما يدل على الثواب ، ولم يذكر ما يدل على العقاب.

ورابعها : أن جبريل – عليه السلام – لما قال : " ما الإحسان " ؟ فقال : " الإحسان : أن◌ تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك " ، فهاهنا بين للعبد أنه يراه ، ويعلم ما يفعله من الخيرات لتكون طاعة العبد للرب من الإحسان ، الذي هو أعلى درجات العبادة ، فإن الخادم متى علم أن مخدومه مطلع عليه ، ليس بغافل عن أحواله – كان أحرص على العمل.

فصل قال القرطبي : هذا شرط وجوابه ، والمعنى أن الله يجازيكم على أعمالكم ؛ لأن المجازاة إنما تقع من العالم بالشيء.

وقيل : هو تحريض وحث على حسن الكلام مكان الفحش ، وعلى البر والتقوى في الأخلاق مكان الفسوق والجدال.

٤٠٦

وقيل : جعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم ؛ حتى لا يوجد ما نهوا عنه.

قوله : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ فيه قولان : أحدهما : أن المراد ت◌زودوا من التقوى ؛ لقوله ﴿فإن خير الزاد التقوى ﴾ فتحقيق [الكلام فيه : أن] الإنسان له سفران ، سفر فى الدنيا ، وسفر من الدنيا.

فالسفر في الدنيا ، لا بد له من زاد ، وهو الطعام ، والشراب ، والمركب ، والمال والإعراض عما سواه ، وهذا الزاد خير من الزاد الأول لوجوه : أحدها : أن زاد الدنيا [يخلصك من عذاب منقطع ، وزاد الآخرة يخلصك من عذاب دائم ، وزاد الدنيا] يوصلك إلى لذة ممزوجة بالآلام ، والبلايا ، وزاد الآخرة يوصلك

إلى لذات باقية خالصة عن شوائب المضرة ، وزاد الدنيا يوصلك إلى دنيا منقضية ، وزاد الآخرة يوصلك إلى الآخرة ، وهي كل ساعة من الإقبال ، والقرب ، والوصول غير منقضية وزاد الدنيا يوصلك إلى منصة الشهوة والنفس وزاد الآخرة يوصلك إلى حضرة الجلال والقدس ؛ فلهذا قال : ﴿خير الزاد التقوى﴾ فاشتغلوا بتقواي يا أولي الألباب ، يعني : إن كنتم من أولي الألباب الذين يعلمون حقائق الأمور فاشتغلوا بتحصيل هذا الزاد ؛ لما فيه من كثرة **المنافع** ؛ وفي هذا المعنى قال الأعشى : [الطويل] ٩٩٥ – إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى

ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٩٠

ندمت على ألا تكون كمثله

وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

والقول الثاني : أن هذه الآية الكريمة نزلت في أناس من أهل اليمن ، كانوا يحجون بغير زاد ، ويقولون إنا متوكلون وكانوا يسألون وربما ظلموا الناس وغصبوهم ، فأمرهم الله تعالى أن يتزودوا ما يبلغون به ، فإن خير الزاد ما تكفون به وجوهكم عن السؤال ، وأنفسكم عن الظلم.

وعن ابن زيد ، أن بعض قبائل العرب كانوا يحرمون الزاد على الحج ، والعمرة ؛ فنزلت الآية.

٤٠٧

." (١)

"وهذه الحال – كما رأيت – غير منفية ، فالمنع من الزيادة فيها أولى.

وأما وجه عدم الزيادة ، فهو أن تجعل الباء للحال والمصاحبة ، وصلاحية وصف الأشياء الثلاثة – إني الفعل ، والفاعل ، والمفعول – بقوله : " بغير حساب " باقية أيضا ، كما تقدم في القول بزيادتها.

والمراد بالمصدر المحاسبة ، أو العد والإحصاء ، أي : يرزق من يشاء ، ولا حساب على لارزق ، أو ولا حساب للرازق ، أو ولا حساب على المرزوق ، وهذا أولى ؛ لما فيه من عدم الزيادة ، التي الأصل عدمها ، ولما فيه من تبعية المصدر على حاله ، غير واقع موقع اسم فاعل ، أو اسم مفعول ، ولما فيه من عدم تقدير مضاف بعد " غير " أي : غير ذي حساب.

فإذا هذا الجار ، والمجرور متعلق بمحذوف ؛ لوقوعه حالا من أي الثلاثة المتقدمة شئت ؛ كما تقدم

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٦٢١

تقريره ، أي : ملتبسا بغير حساب.

٤٩٨

فصل يحتمل أن يكون المراد منه : ما يعطي في الدنيا لعبيده المؤمنين والكافرين ، ويحتمل أن يكون المراد منه : رزق الآخرة ، فإن حملناه على رزق الآخرة ، كان مختصا بالمؤمنين ، وهو من وجوه : أحدها : أن الله يرزقهم بغير حساب ، أي : رزقا واسعا رغدا لا فناء له ؛ لأن كل ما دخل تحت الحساب ، فهو متناه.

وثانيها : أن **المنافع** الواصلة إليهم في الجنة بعضها ثواب ، وبعضها تفضل ؛ كام قال : ﴿فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ [النساء : ١٧٣] فالفضل منه بلا حساب.

وثالثها : أنه لا يخاف نفادها عنده ؛ فيحتاج إلى حساب ما يخرج منه ؛ لأن المعطي إنما يحاسب ، ليعلم مقدار ما يعطى وما يبقى كي لا يتجاوز في عطاياه إلى ما لا يجحف به ، والله عالم غني ، لا نهاية لمقدوراته.

ورابعها : " بغير حساب " ، أي : بغير استحقاق ؛ يقال : لفلان على فلان حساب ؛ إذا كان له عليه حق ، وهذا يدل على أن◌ه لا يستحق أحد عليه شيئا ، وليس لأحد معه حساب ، بل كل ما أعطاه ، فهو مجرد فضل وإحسان ، لا بسبب استحقاق.

وخامسها : " بغير حساب " ، أي : يعطي زائدا على الكفاية ؛ يقال : فلان ينفق بغير حساب ، أي : يعطي كثيرا ؛ لأن ما دخله الحساب فهو قليل.

وهذه الوجوه كلها محتملة ، وعطايها الله بها منتظمة ، فيجوز أن يكون الكل مرادا والله أعلم.

فإن قيل : قد قال الله - تعالى - في صفة المتقين ، وما يصل إليهم : ﴿عطآء حسابا﴾ [النبأ : ٣٦] على المستحق بحسب الوعد ؛ كما هو قولنا ، وبحسب الاستحقاق ، كما هو قول المعتزلة ، فالسؤال : وهذا كالمناقض لهذه الآية.

فالجواب : من حمل قوله : " بغير حساب " على التفضل ، وحمل قوله : " عطاء حسابا " على المستحق بحسب الوعد ، كماهو قولنا ، وبحسب الاستحقاق ، كما هو قول المعتمزلة ، فالسؤال زائل ، ومن حمل ق◌وله : " بغير حساب " على سائر الوجوه ، فله أن يقول : إن ذلك العطاء إذا كان يتشابه في الأوقات ، فصح من هذا الوجه أن يوصف بكونه : " عطاء حسابا " فلا تناقض ، وإن حملناه على أرزاق الدنيا ، ففيه وجوه : أحدها ، وهو أليق بنظم الآية ، أن الكفار كان يسخرون من فقراء المسلمين ؛ لأنهم كانوا يستدلون بحصول السعادات الدنيوية ، على أنهم على الحق ، وبحرمان فقراء المسلمين على أنهم على الباطل ؛

فأبطل تعالى استدلالهم بقوله : ﴿والله يرزق من يشآء بغير حساب﴾ يعني : يعطي في الدنيا من يشاء من غير أن يكون ذلك منبئا عن كون
٤٩٩
المعطى محقا أو مبطلا ، بل بمحض المشيئة ؛ كما وسع على قارون وضيق على أيوب – عليه السلام – فقد يوسع على الكافر ، ويضيق على لامؤمن ؛ ابتلاء وامتحانا ؛ كما ق ال ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة﴾ [الزخرف : ٣٣].
وثانيها : أن الله يرزق من يشاء في الدنيا : من كافر ، ومؤمن بغير حساب يكون لأحد عليه ولا مطالبة ، ولا تبعة ، ولا سؤال سائل.
والمقصود منه : ألا يقول الكافر : إن المؤمن على الحق فلم لم يوسع عليه في الدنيا ؟ وألا يقول المؤمن : لو كان الكافر مبطلا ، فلم يوسع عليه في الدنيا ؟ بل الاعتراض ساقط ؛ و ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ [الأنبياء : ٢٣].
وثالثها : بغير حساب أي : من حيث لا يحتسب ؛ كما يقول من جاءه ما لم يكن في قلبه : لم يكن هذا حسابي.
قال القفال – رحمه الله – : وقد فعل ذلك بهم ، فأغناهم بما أفاء عليهم من أموال صناديد قريش ورؤساء اليهود ، وبما فتح على رسوله ، بعد وفاته على أيدي أصحابه ، حتى ملكوا كنوز كسرى ، وقيصر.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٩٣
." (١)

"قوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا﴾.
إن واسمها و " أولئك " مبتدأ ، و " يرجون " خبره ، والجملة خبر " إن " ، وهو أحسن من كون " أولئشك " بدلا من " الذين " ، و " يرجون " خبر " إن ".
وجيء بهذ الأوصاف الثلاثة مترتبة على حسب الواقع ، إذ الإيمان أول ، ثم المهاجرة ، ثم الجهاد.
وأفرد الإيمان بموصول وحده ؛ لأنه أصل الهجرة والجهاد ، وجمع الهجرة ، والجهاد في موصول واحد ، لأنهما فرعان عنه ، وأتى بخر " إن " اسم إشارة ؛ لأنه متضمن للأوصاف السابقة.
وتكرير الموصول بالنسبة إلى الصفات ، لا الذوات ، فإن الذوات متحدة موصوفة بالأوصاف الثلاثة ، فهو

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٦٧٢

من باب عطف بعض الصفات على بعض ، والموصوف واحد.
ولا نقول : إن تكرير الموصوف يدل على تغير الذوات الموصوفة ؛ لأن الواقع كان كذلك.
وأتى بـ " يرءجون " ؛ لـيـد على التجدد وأنهم في كل وقت يحدثون رجاء.
والمهاجرة : مفاعلة من الهجر ، وهي الانتقال من أرض إلى أرض ، وأصل الهجر الترك.
والمجاهدة مفاعلة من الجهد ، وهو استخراج الوسع وبذل المجهود ، والإجهاد : بذل المجهود في طلب المقصود ، والرجاء : الطمع.
وقال الراغب : هو ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة ، وقد يطلق على الخوف ؛ وأنشد : [الطويل] :
١٠٦٤ - إذا لسعته النحل لم يرج لسعها
وخالفها في بيت نوب عواسل
أي : لم يخف ، وقال تعالى : ﴿لا يرجون لقآءنا﴾ [يونس : ٧] أي : لا يخافون ، وهل إطلاقه عليه بطريق الحقيقة ، أو المجاز ؟ فزعم قوم أنه حقيقة ، ويكون من الاشتراك اللفظي ، وزعم قوم أنه من الأضداد ، فهو اشتراك لفظي أيضا.
قال ابن عطية : " وليس هذا بجيد " ، يعني : أن الرجاء والخوف ليسا بضدين إذ يـمكن اجتماعهما ، ولذلك قال الراغب . بعد إنشاده البيت المتقدم . " ووجه [ذلك] : أن الرجاء والخوف يتلازمان " ، وقال ابن عطية : " والرجاء أبدا معه خوف ، كما أن الخوف معه رجاء ".
وزعم قوم أنه مجاز للتلازم الذي ذكرناه عن الراغب وابن عطية.
وأجاب الجاحظ عن البيت بأن معناه لم يرج برء لسعها وزواله فالرجاء على بابه.
٢٥
وأما قوله : ﴿لا يرجون لقآءنا﴾ [يونس : ٧] أي لا يرجون ثواب لقائنا ، فالرجاء أيضا على بابه ، قاله ابن عطية.
وقال الأصمعي : " إذا اقترن الرجاء بحرف النفي ، كان بمعنى الخوف "كهذا البيت والآية.
وفيه نظر إذ النفي لا يغير مدلولات الألفاظ.
والرجاء مقصود ناحية البئر ، وحافاته من كل ناحية ، وجاؤوا بقوام من الناس يخطون في قولهم بأعظم الرجاء ، فيقصرون ، ولا يمدون ، وكتبت " رحمة " هنا بالتاء : إما جريا على لغة من يقف على تاء التأنيث بالتاء ، وإما اعتبارا بحالها في الوصل ، وهي في القرآن في سبعة مواضع ، كتبت في الجميع تاء ، هنا وفي

الأعراف : ﴿إن رحمة الله﴾ [آية : ٥٦] ، وفي هود : ﴿رحمة الله وبركاته﴾ [آية : ٧٣] ، وفي مريم : ﴿ذكر رحمة ربك﴾ [آية : ٢] ، وفي الروم : ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾ [آية : ٥٠] ، وفي الزخرف : ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير﴾ [آية : ٣٢].

فصل في تعلق هذه الآية بما قبلها ، وجهان : الأول : أن عبد الله بن جحش قال : يا رسول الله ، هب أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا ، فهل نطمع منه أجرا ، وثوابا ، فنطمع أن يكون سفرنا هذا غزوا ؛ فأنزل الله هذه الآية ؛ لأن عبد الله كان مؤمنا ، ومهاجرا ، وسبب هذه المقاتلة ، كان مجاهدا.

الثاني : أنه تعالى أوجب الجهاد من قبل بقوله : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ [البقرة : ٢١٦] وبين أن تركه سبب الوعيد أتبع ذلك بذكر من يقوم به فقال : ﴿إن الذين آمنوا﴾ ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد.

فصل في المراد بالرجاء وفي هذا الرجاء قولان : الأول : عبارة عن ظن **المنافع** التي يتوقعها وأراد تعالى هنا : أنهم يظنون في ثواب الله ؛ لأن عبد الله بن جحش ما كان قاطعا بالفوز والثواب في عمله ، بل كان يتوقعه ، ويرجوه.

فإن قيل : لم جعل الوعد مطلقا بالرجاء ، ولم يقطع به ، كما في سائر الآيات ؟ فالجواب من وجوه : ٢٦

". (١)

"فإن قيل هذه الآية لا تدل على حرمة الخمر لوجوه : أحدها : أنه تعالى أثبت فيها منافع للناس والمحرم لا يكون فيه منفعة.

الثاني : لو دلت الآية على حرمتها ، فلم لم يقنعوا بها حتى نزلت آية المائدة وآية تحريم الصلاة ؟ الثالث : أنه أخبر أن فيها إثم كبير ، فمقتضاه أن ذلك الكبير ملازما لها ما دامت موجودة ، ولو كان ذلك سببا لحرمتها ؛ لوجب القول بثبوت حرمتها في سائر الشرائع.

فالجواب عن الأول : أن حصول النفع فيها ليس مانعا من حرمتها ؛ لأن صدق الخاص يوجب صدق العام.

وعلى الثاني : أنا روينا عن ابن عباس أنها نزلت في تحريم الخمر والتوقف الذي ذكروه ، غير مروي عنهم

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٦٩٨

، وقد يجوز بطلب الكبار من الصحابة نزول ما هو أكبر من هذه الآية في التحريم كما التمس إبراهيم – صلوات الله عليه – مشاهدة إحياء الموتى ، ليزداد سكونا ، وطمأنينة.

وعن الثالث : أن قوله ﴿فيهمآ إثم كبير﴾ إخبار عن الحال لا عن الماضي فعلم تعالى أن شرب الخمر مفسدة لهم ، وليس مفسدة للذين من قبلهم.

فصل في بيان الإثم الكبير في الآية الإثم الكبير في الخمر أمور : أحدها : أنه مزيل للعقل الذي هو أشرف صفات الإنسان ، وإذا كان الخمر عدوا ، لا شرفا ؛ فيلزم أن يكون أخس الأمور ؛ وذلك لأن العقل إنما سمي عقلا أخذا من عقال الناقة ، فإن الإنسان إذا دعاه طبعه إلى فعل قبيح ، كان عقله مانعا من الإقدام عليه ، فإذا شرب الخمر بقي طبعه الداعي إلى فعل القبائح خاليا عن العقل له عن فعل القبيح.

ذكر ابن أبي الدنيا : أنه مر على سكران ، وهو يبول في يده ، ويمسح به وجهه كهيئة المتوضئ ، ويقول : الحمد لله ، الذي جعل الإسلام نورا ، والماء طهورا.

وعن العباس بن مرداس أنه قيل له في الجاهلية : لم لا تشرب الخمر ؛ فإنها تزيد في جراءتك ؟ فقال : ما أنا بآخذ جهلي بيدي ، فأدخله في جوفي ، ولا أرضى أن أصبح سيد قوم ، وأمسي سفيههم.

وثانيها : ما ذكره الله – تعالى – من إيقاع العداوة ، والبغضاء ، والصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة.

٣٨

وثالثها : أن هذه المعصية من خواصها أن الإنسان إذا اشتغل بها وواظب عليها ، كان ميله ونفسه عليها أقوى ، بخلاف سائر المعاصي ، فإن الزاني مثلا إذ فعل مرة واحدة فترت رغبته ، وكلما زاد فعله ؛ كان فتوره أكثر ؛ بخلاف الشرب فإنه كلما كان إقدامه عليه أكثر كان نشاطه إليها ورغبته فيه أكثر ، فإذا واظب عليه ؛ صار غارقا في اللذات البدنية معرضا عن تذكر الآخرة ، حتى يدخل في الذشين نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم.

وبالجملة إذا زال العقل ؛ حصلت القبائح بأسرها ، وكذلك قال عليه الصلاة والسلام : " اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث ".

ويصدر عن الشارب المخاصمة ، والمشاتمة وقول الفحش والزور.

وأما الإثم الكبير في الميسر ، فإنه يفضي إلى العداوة أيضا لما يجري بينهم من الشتم ، والمنازعة ؛ لأنه أكل مال بالباطل ، وذلك يورث العداوة ؛ لأن صاحبه إذا أخذ ماله مجانا ؛ أبغضه جدا ، وهو يشغل عن ذكر الله ، وعن الصلاة أيضا.

وأما **المنافع** المذكورة فيهما ، فمنافع الخمر أنهم كانوا يتغالون بها إذا جلبوها من النواحي ، وكان المشتري ، إذا ترك المماكسة في الثمن ؛ كانوا يعدون ذلك فضيلة ، ومكرمة ، وكانت تكثر أرباحهم بذلك السبب ، ومنها أنها تقوي الضعيف ، وتهضم الطعام ، وتعين على الباءة وتسلي المحزون ، وتشجع الجبان ، وتسخي البخيل ، وتصفي اللون وتنعش الحرارة الغريزية ، وتزيد من الهمة ، والاستعلاء.

ومن منافع الميسر : التوسعة على ذوي الحاجات ؛ لأن من قمر لم يأكل من الجزور شيئا وإنما يفرقه في المحتاجين ؛ وذكر الواقدي أن الواحد كان ربما يحصل له في المجلس الواحد مائة بعير ، فيحصل له مال من غير كد ، ولا تعب ، ثم يصرفه إلى المحتاجين ، فيكتسب فيه الثناء ، والمدح ، وكانوا يشترون الجزور ، ويضربون سهامهم ، فمن خرج سهمه ؛ أخذ نصيبه من اللحم ، ولا يكون عليه شيء من الثمن ، ومن بقي سهمه آخرا ، كان عليه ثمن الجزور كله ، ولا يكون له من اللحم شيء.

٣٩

". (١)

"الخطاب إلى الغيبة ؛ كقوله تعالى : ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ [يونس : ٢٢] ، قال شهاب الدين : ولا ضرورة تدعو إلى ذلك.

فإن قيل : لما قال ﴿توفى كل نفس ما كسبت﴾ فهم منه عدم الظلم ، فيكون قوله : ﴿وهم لا يظلمون﴾ من باب التكرير.

فالجواب : أنه تعالى لما قال ﴿توفى كل نفس ما كسبت﴾ دل على إيصال العذاب إلى الكفار والفساق ، فكان لقائل أن يقول : كيف يليق بأكرم الأكرمين تعذيب عبيده ؟ فأجاب بقوله : ﴿وهم لا يظلمون﴾ والمعنى : أن العبد هو الذي ورط نفسه ؛ لأن الله تعالى مكنه ، وأزاح عذره ، فهو الذي أساء إلى نفسه.

وهذا الجواب إنما يستقيم على أصول المعتزلة ، وأما على أصولنا ، فالله سبحانه مالك الخلق ، يتصرف في ملكه كيف شاء ، وأراد ؛ فلا يكون ظلما.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٤٧٢

في كيفية النظم وجهان : الأول : أن تعالى لما ذكر الإنفاق في سبيل الله ، وهو يوجب تنقيص المال ، وذكر الربا ، وهو - أيضا - سبب تنقيص المال ، وختم هذين الحكمين بالتهديد بقوله ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله﴾ [البقرة : ٢٨١] والتقوى تسد على الإنسان أكثر أبواب المكاسب ، **والمنافع** -

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٧٠٤

أتبع ذلك بأن ندبه إلى كيفية حفظ المال الحلال ، وصونه عن الفساد ، فإن القدرة على الإنفاق في سبيل الله ، وعلى ترك الربا ، وعلى ملازمة التقوى ، لا يتم إلا عند حصول المال ؛ فلأجل هذا بالغ في الوصية بحفظ المال ، ونظيره ﴿ولا تؤتوا السفهآء أموالكم التي جعل الله لكم قياما﴾ [النساء : ٥] فحث على الاحتياط في أمر الأموال ؛ لكونها سببا لمصالح المعاش والمعاد.

٤٧٥

قال القفال - رحمه الله تعالى - ويدل على ذلك : أن ألفاظ القرآن جارية في الأكثر على الاختصار ، وفي هذه الآية بسط شديد ؛ ألا ترى أنه قال تعالى ﴿إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ ، ثم قال ثانيا : ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ ، ثم قال ثالثا : ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾ ، فكان هذا كالتكرار لقوله : ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ ؛ لأن العدل هو ما علمه الله ، ثم قال رابعا : ﴿فليكتب﴾ وهذا إعادة للأمر الأول ؛ ثم قال خامسا : ﴿وليملل الذي عليه الحق﴾ وفي قوله : ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ كفاية عن قوله : ﴿وليملل الذي عليه الحق﴾ ؛ لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يمل عليه ، ثم قال سادسا : ﴿وليتق الله ربه﴾ ، وهذا تأكيد ، ثم قال سابعا : ﴿ولا يبخس منه شيئا﴾ ، وهذا كالمستفاد من قوله : ﴿وليتق الله ربه﴾ ، ثم قال ثامنا : ﴿ولا تسأموا اا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله﴾ ، وهو أيضا تأكيد لما مضى ، ثم قال تاسعا : ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا اا﴾ ، فذكر هذه الفوائد الثلاثة لتلك التأكيدات السالفة ، وكل ذلك يدل على المبالغة في التوصية بحفظ المال الحلال ، وصونه عن الهلاك ؛ ليتمكن الإنسان بواسطته من الإنفاق في سبيل الله ، والإعراض عن مساخط الله : من الربا ، وغيره ، والمواظبة على تقوى الله.

الوجه الثاني : قال بعض المفسرين : إن المراد بهذه المداينة " السلم " فإن الله تبارك وتعالى لما منع من الربا في الآية المتقدمة ؛ أذن في السلم في هذه الآية ، مع أن جميع **المنافع** المطلوبة من الربا حاصلة في السلم ، وبهذا قال بعض العلماء : لا لذة ، ولا منفعة يوصل إيها بالطريق الحرام ، إلا والله - صلى الله عليه وسلم - سبحانه وتعالى - وضع لتحصيل تلك اللذة طريقا حلالا ، وسبيلا مشروعا.

فصل قال سعيد بن المسيب : بلغني أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين.

التداين تفاعل من الدين كتبايع من البيع ، ومعناه : داين بعضكم بعضا ، وتداينتم : تبايعتم بدين.

يقال : داينت الرجل أي : عاملته بدين ، وسواء كنت معطيا ، أم آخذا ؛ قال رؤبة : [الرجز]

٤٧٦

١٢٧٧ - داينت أروى والديون تقضى

فمطلت بعضا وأدت بعضا

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٤٧٥

". (١)

"والزكاة ، والصوم ، والحج ، والقصاص ، والجهاد ، والحيض ، والطلاق ، والعدة ، والصداق ، والخلع ، والإيلاء ، والرضاعة ، والبيع ، والربا ، وكيفية المداينة - ختم هذه السورة بهذه الآية على سبيل التهديد.

قال ابن الخطيب : لما كان أكمل الصفات هو العلم والقدرة عبر عن كمال قدرته بقول ﴿لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ ملكا وملكا ، وعبر عن كمال علمه ، وإحاطته بالكليات ، والجزئيات بقوله : ﴿وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ ، وإذا اختص بكمال العلم ، والقدرة ، فكل من في السموات والأرض عبيد مربوبون له ، وجدوا بتخليقه ، وتكوينه ، وهذا غاية الوعد للمطيعين ، ونهاية الوعيد للمذنبين ، ولهذا ختم السورة بهذه.

الثاني : قال أبو مسلم : إنه تعالى لم○○ا نزل في آخر الآية المتقدمة : " إنه بما تعملون عليم " ، ذكر عقيبه ما يجري مجرى الدليل العقلي فقال : ﴿لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ ومعنى هذا الملك أن هذه الأشياء لما كانت محدثة ، فقد وجدت بتكوينه ؛ وإبداعه ، ومن أتقن هذه الأفعال العجيبة الغريبة المشتملة على الحكم المتكاثرة ؛ **والمنافع** العظيمة ، فلا شك أن ذلك من أعظم الأدلة على كونه عالما محيطا بأجزائها.

الثالث : قال القاضي : إنه تعالى لما أمر بهذه الوثائق - أعني الكتابة ، والإشهاد ، والرهن ، وكان المقصود من الأمر بها صيانة الأموال ، والاحتياط في حفظها - بين تعالى أن المقصود من ذلك إنما يرجع لمنفعة الخلق ، لا لمنفعة تعود إليه سبحانه ، فإن له ملك السموات ، والأرض.

الرابع : قال الشعبي ، وعكرمة ، ومجاهد : إنه تعالى لما نهى عن كتمان الشهادة ، وأوعد عليه ، بين أن له ملك السموات ، والأرض ؛ فيجازي على الكتمان والإظهار.

فصل في بيان سبب النزول قال مقاتل : نزلت فيمن يتولى الكافرين من المؤمنين ، يعني : وإن تعلنوا ما في أنفسكم من ولاية الكفار ، أو تسروه ، يحاسبكم به الله ، كما ذكر في سورة آل عمران

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٩٢٧

٥١٥
﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أوليآء﴾ [آل عمران : ٢٨] ، إلى أن قال : ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾ [آل عمران : ٢٩].

وذهب الأكثرون إلى أنها عامة.

فصل روي عن ابن عباس ؛ أنه قال : لما نزلت هذه الآية ، " جاء أبو بكر وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاذ ، وناس إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم بركوا على الركب ، فقالوا : يا رسول الله ، كلفنا من الأعمال ما نطيق ؛ الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه وإن له الدنيا ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : " أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : " سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير " فلما قرأها القوم ، ذلت بهم أنفسهم ، فأنزل الله في إثرها ﴿آمن الرسول بمآ أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملا ائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ [البقرة : ٢٨٥] فمكثوا في ذلك حولا ، واشتد ذلك عليهم ، فأنزل الله - تعالى - ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ [البقرة : ٢٨٦] فنسخت هذه الآية ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم : " إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا به ".

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر : هذه الآية منسوخة ، وإليه ذهب محمد بن كعب القرظي ؛ ويدل عليه ما روى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال : " إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به ".
٥١٦
". (١)

"وثانيها : أن الانتفاع بهذه الشهوات وسائل إلى منافع الآخرة ، والله تعالى ندب إليها ، فكان تزيينا لها ، أما كونها وسائل إلى ثواب الآخرة أنه يتصدق بها ، ويتقوى بها على الطاعة وأيضا إذا علم أن تلك **المنافع** إنما تيسرت بتخليق الله حمله ذلك على الاشتغال بالشكر.

قال صاحب بن عباد : " شرب الماء البارد في الصيف يستخرج الحمد من أقصى القلب " وأيضا فإن القادر على التمتع باللذات إذا تركها واشتغل بالعبادة ، وتحمل ما في ذلك من المشقة ك ان أكثر ثوابا.

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٩٤٨

وثالثها : قوله تعالى : ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ [البقرة : ٢٩] ، وقوله : ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ [الأعراف : ٣٢] ، وقوله : ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ [الكهف : ٧] وقال : ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ [الأعراف : ٣١] ، وقال : ﴿وأنزل من السمآء مآء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾ [البقرة : ٢٢] ، وقال : ﴿كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ [البقرة : ١٦٨] ، وكل ذلك يدل على أن التزيين من الله تعالى.

القول الثالث - وهو اختيار الجبائي والقاضي - : وهو التفصيل ، فإن كان حراما فالتزيين فيه من الشيطان ، وإن كان واجبا ، أو مندوبا ، فالتزيين فيه من الله تعالى ذكره القاضي في تفسيره وبقي قسم ثالث ، وهو المباح الذي ليس في فعله ثواب ، ولا في تركه عقاب ، وكان من حق القاضي أن يذكره فلم يذكره.

ويبين التزيين فيه ، هل هو من الله تعالى أو من الشيطان ؟ وقرأ مجاهد : " زين " مبنيا للفاعل ، و " حب " مفعول به نصا ، والفاعل إما ضمير الله تعالى ؛ المتقدم ذكره في قوله : ﴿والله يؤيد بنصره من يشآء﴾ [آل عمران : ١٣] ، وإما ضمير الشيطان ، أضمر - وإن لم يجر له ذكر - لأنه أصل ذلك ، فذكر هذه الأشياء مؤذن بذكره ، وأضاف المصدر لمفعوله في ﴿حب الشهوات﴾.

والشهوات جمع شهوة - بسكون العين - فحركت في الجمع ، ولا يجوز التسكين إلا في ضرورة ، كقوله : [الطويل] ١٣٥٨ - وحملت زفرات الضحى فأطقتها

وما لي بوفرات العشي يدان

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٧٠

بتسكين الفاء.

والشهوة مصدر يراد به اسم المفعول ، أي : المشتهيات ، فهو من

٧١

باب : رجل عدل حيث جعلت نفس المصدر مبالغة.

والشهوة : ميل النفس ، وتجمع على شهوات - كالآية الكريمة - وعلى شهى - كغرف - .

قالت امرأة من بني نصر بن معاوية : [الطويل] ١٣٥٩ - فلولا الشهى - والله - كنت جديرة

بأن أترك اللذات في كل مشهد

قال النحويون : لا تجمع فعلة - المعتلة اللام يعنون بفتح الفاء وسكون العين على فعل إلا ثلاثة ألفاظ : قرية وقرى ، ونزوة ونزى ، وكوة - عند من فتح الكاف - وكوى.

واستدرك أبو حيان : " واستدركت – أنا – شهى ، وأنشد البيت ".
وقال الراغب : " ززززز وقد يسمى المشتهى ، شهوة ، وقد يقال للقوة التي بها يشتهى الشيء : شهوة ، وقوله تعالى : ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ يحتمل الشهوتين ".
قال الزمخشري : وفي تسميتها بهذا الاسم فائدتان : إحداهما : أنه جعل الأعيان التي ذكرها شهوات ؛ مبالغة في كونها مشتهاة ، محروصا على الاستمتاع بها.
الثانية : أن الشهوة صفة مسترذلة عند الحكماء ، مذموم من اتبعها ، شاهد على نفسه بالبهيمية ، فكأن المقصود من ذكر هذا اللفظ التنفير منها.
فصل وجه النظم : أنا روينا أن أبا حارثة بن علقمة النصراني قال لأخيه : إنه يعرف صدق محمد فيما جاء به ، إلا أنه لا يقر بذلك ؛ خوفا من أن يأخذ ملك الروم منه المال والجاه ، وأيضا روينا أن النبي – عليه السلام – لما دعا اليهود إلى الإسلام – بعد غزوة بدر – أظهروا من أنفسهم القوة والشدة ، والاستظهار والسلاح ، فبين – تعالى – في هذه الآية أن هذه الأشياء وغيرها – من متاع الدنيا – زائلة ، باطلة ، وأن الآخرة خير وأبقى.
فصل قال المتكلمون : دلت هذه الآية على أن الحب غير الشهوة ؛ لأنه أضافه إليها ، والمضاف غير المضاف إليه ، والشهوة فعل الله تعالى ، والمحبة فعل العبد.
قالت الحكماء : الإنسان قد يحب شيئا ، ولكنه يحب ألا يحبه ، كالمسلم قد يميل طبعه إلى بعض المحرمات ، لكنه يحب ألا يحبه ، وأما من أحب شيئا ، وأحب أن يحبه ،
٧٢
." (١)

"فذلك هو كمال المحبة ، فإن كان ذلك في جانب الخير ، فهو كمال السعادة ، كقول سليمان : ﴿إنى أحببت حب الخير﴾ [ص : ٣٢] ، ومعناه : أحب الخير ، وأحب أن أكون محبا للخير ، وإن كان ذلك في جانب الشر فهو كما قال في هذه الآية ؛ فإن قوله : ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ يدل على ثلاثة أمور مترتبة : أولها : أنه يشتهي أنواع المشتهيات.
ثانيها : أنه يحب شهوته لها.
ثالثها : أنه يعتقد أن تلك المحبة حسنة.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٩٩٤

ولما اجتمعت هذه الدرجات الثلاث في هذه القضية بلغت الغاية القصوى في الشدة ، فلا تنحل إلا بتوفيق عظيم من الله تعالى ، ثم إنه أضاف ذلك إلى الناس ، ولفظ " الناس " عام ، دخله حرف التعريف فيفيد الاستغراق ، فظاهر اللفظ يقتضي أن هذا المعنى حاصل لجميع الناس ، والعقل – أيضا – يدل عليه ؛ لأن كل ما كان لذيذا ونافعا فهو محبوب ، ومطلوب لذاته ، **والمنافع** قسمان : جسماني ، وروحاني ، فالجسماني حاصل لكل أحد في أول الأمر ، والروحاني لا يحصل إلا في الإنسان الواحد على سبيل الندرة ، ثم إن انجذاب نفسه إلى اللذات الجسمانية كالملكة المستقرة وانجذابها إلى اللذات الروحانية كالحالة الطارئة التي تزول بأدنى سبب ، فلا جرم كان الغالب على الخلق هو الميل الشديد إلى اللذات الجسمانية ، فلهذا السبب عم الله هذا الحكم في الكل.

قوله تعالى : ﴿من النساء﴾ في محل نصب على الحال من الشهوات ، والتقدير : حال كون الشهوات من كذا وكذا ، فهي مفسرة لها في المعنى.

ويجوز أن تكون " من " لبيان الجنس ، لقول الزمخشري : " ثم يفسره بهذه الأجناس ".

كقوله : ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ [الحج : ٣٠] ، والمعنى : فاجتنبوا الأوثان التي هي رجس.

وقدم النساء على الكل ، قال القرطبي : لكثرة تشوق النفوس إليهن ؛ لأنهن حبائل الشيطان ، وفتنة الرجال ، قال صلى الله عليه وسلم : " ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء " أخرجه البخاري ومسلم لأن الالتذاذ منهن أكثر ، والاستئناس بهن أتم ، ولذلك قال

٧٣

تعالى : ﴿خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ [الروم : ٢١] ، ثم ثنى بالولد الذكر ؛ لأن حب الولد الذكر أكثر من حب الولد الأنثى ، واعلم أن الله تعالى – في إيجاد حب الزوجة والولد في قلب الإنسان – حكمة بالغة ؛ إذ لولا هذا الحب لما حصل التوالد والتناسل ، وهذه المحبة غريزة في جميع الحيوان ، والبنين : جمع ابن ، قال نوح : ﴿رب إن ابني من أهلي﴾ [هود : ٤٥] ويصغر " ابن " على بني ، قال لقمان : ﴿يا بني لا تشرك بالله﴾ [لقمان : ١٣] ، وقال نوح : ﴿يا بني اركب معنا﴾ [هود : ٤٢].

قوله تعالى : ﴿والقناطير﴾ هي جمع قنطار ، وفي نونه قولان : أحدهما : أنها أصلية ، وأن وزنه فعلال ، كحملاق ، وقرطاس.

والثاني : أنها زائدة ، وأن وزنه فنعال كفنعاس ، وهو الجمل الشديد ، واشتقاقه من قطر يقطر – إذا سال

؛ لأن الذهب والفضة يشبهان بالماء في سرعة الانقلاب ، وكثرة التقلب.
وقال الزجاج : هو مأخوذ من قنطرت الشيء - إذا عقدته وأحكمته - ومنه القنطرة ؛ لإحكام عقدها.
حكى أبو عبيدة عن العرب أنهم يقولون : القنطار وزن لا يحد.
قال ابن الخطيب : " وهذا هو الصحيح ".
وقال الربيع بن أنس : القنطار : المال الكثير بعضه على بعض.
وقال القرطبي : " والعرب تقول قنطر الرجل إذا بلغ ماله أن يوزن بالقنطار ".
وقال معاذ بن جبل - ورواه أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم - قال : " القنطار ألف ومئتا أوقية ".
وقال ابن عباس والضحاك : ألف ومائتا مثقال ، وعنهما - في رواية أخرى - اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار دية أحدكم ، وبه قال الحسن.
وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " القنطار اثنا عشر ألف أوقية ".
٧٤
." (١)

"فإن قيل : الأمر بالمعروف ، و النهي عن المنكر ، والإيمان بالله ، هذه الصفات الثلاث كانت حاصلة في سائر الأمم ، فمن أي وجه كانت هذه الأمة خير الأمم ؟ والجواب : قال القفال : إن تفضيلهم على سائر الأمم الذين كانوا قبلهم إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر بآكد الوجوه - وهو القتال - : لأن الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب وباللسان ، واليد ، وأقواها القتال ؛ لأنه إلقاء للنفس في خطر القتل ، وأعرف المعروفات الدين الحق ، والإيمان بالتوحيد والنبوة ، وأنكر المنكرات الكفر بالله ، فلما كان الجهاد في الدين تحملا لأعظم المضار ؛ لغرض إيصال الغير إلى أعظم **المنافع** ، وتخليصه من أعظم المضار ، وجب أن يكون الجهاد أعظم العبادات ، وهو في شرعنا أقوى منه في سائر الشرائع - فلا جرم - صار ذلك موجبا لفضل العبادات ، وهو في شرعنا أقوى منه في سائر الشرائع - فلا جرم - ص١ر ذلك موجبا لفضل هذه الأمة على سائر الأمم.
وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويقروا بما أنزل الله ، وتقاتلونهم عليه ، و " لا إله إلا الله " أعظم المعروف

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٩٩٥

، والتكذيب هو أنكر المنكر.
ثم قال القفال : فائدة : القتال على الدين لا ينكره منصف ، لأن أكثر الناس يحبون أديانهم بسبب الإلف والعادة ، ولا يتأملون في الدلائل الواردة عليهم ، فإذا أكره – بالتخويف بالقتل – على الدخول في الدين ، دخل فيه ، ثم لا يزال يضعف في قلبه ما كان من حب الباطل ، ويقوى حب الدين الحق في قلبه إلى أن ينتقل من الباطل إلى الحق ، ومن استحقاق العذاب الأليم إلى استحقاق الثواب الدائم ، والنعيم المقيم.
فإن قيل : لم قدم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر على الإيمان بالله ، في الذكر – مع أن الإيمان بالله – لا بد وأن يكون مقدما على كل الطاعات.
فالجواب : أن الإيمان بالله مشترك فيه بين جميع الأمم المحقة ، ثم إنه – تعالى – ذكر أن فضل هذه الأمة أقوى حالا – في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر – من سائر الأمم ، فالمؤثر – إذن – في هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف ، و النهي عن المنكر ، وأما الإيمان بالله فهو شرط لتأثير هذا المؤثر في هذا الحكم ؛ لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يصر شيء من الطاعات وصفا من صفات الخيرية.
فإن قيل : لم اكتفى بذكر الإيمان بالله ، ولم يذكر الإيمان بالنبوة ، مع أنه لا بد منه ؟ فالجواب : أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالنبوة ، لأن الإيمان بالله لا يحصل إلا إذا حصل الإيمان بكونه صادقا ، والإيمان بكونه صادقا لا يحصل إلا إذا كان الذي أظهر
٤٦٨
المعجزة ، على وفق دعواه صادقا ؛ لأن المعجز قائم مقام التصديق بالقول ، فلما شاهد ظهور المعجز على وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم كان من ضرورة الإيمان بالله الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فكان الاقتصار على ذكر الإيمان بالله تنبيها على هذه الدقيقة.
قوله : ﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم﴾ فيه وجهان : أحدهما : لو آمن أهل الكتاب بهذا الذي حصلت به صفة الخيرية لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، لحصلت هذه الخيرية – أيضا – لهم.
الثاني : أن أه لالكتاب إنما آثروا دينهم ، حبا للرياسة ، واستتباع العوام ، ولو آمنوا لحصلت لهم الرياسة في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة ، فكان ذلك خيرا مما قنعوا به.
قوله : ﴿لكان خيرا﴾ اسم "كان " ضمير يعود على المصدر المدلول عليه بفعله ، والتقدير لكان الإيمان خيرا لهم كقولهم : " من كذب كان شرا له " أي : كان الكذب شرا له ، كقوله تعالى : ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : ٨].

وقول الشاعر : [الوافر] ١٥٧٣ - إذا نهي السفية جرى إليه

وخالف ، والسفية إلى خلاف

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤٦٢

أي : جرى إليه السفه.

والمفضل عليه محذوف ، أي : خيرا لهم من كفرهم ، وبقائهم على جهلهم.

وقال ابن عطية : ولفظة " خير " صيغة تفضيل ، ولا مشاركة بين كفرهم وإيمانهم في الخير ، وإنما جاز ذلك لما في لفظه " خير " من الشياع وتشعب الوجوه ، وكذلك هي لفظة " أفضل " ، و " أحب " وما جرى مجراها.

قال أبو حيان : " وإبقاؤها على موضوعها الأصلي أولى - إذا أمكن ذلك - وقد أمكن ذلك ؛ إذ الخيرية مطلقة ، فتحصل بأدنى مشاركة ".

قوله : ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ جملة مستأنفة ، سيقت للإخبار بذلك.

قال الزمخشري : " هما كلامان واردان على طريق الاستطراد ، عند إجراء ذكر أهل الكتاب ، كما يقول القائل - إذا ذكر فلانا - من شأنه كيت وكيت - ولذلك جاء من غير عاطف ".

٤٦٩

." (١)

"بقوا محرومين من الغنيمة - وقتل أقاربهم ، اغتم لأجلهم.

الثاني : أن تكون الباء للمصاحبة ، أي : غما مصاحبا لغم ، ويكون الغمان للصحابة ، بمعنى غما مع غم أو غما على غم ، فالغم الأول : الهزيمة والقتل ، والثاني إشراف خالد بخيل الكفار ، أو بإرجافهم : قتل الرسول صلى الله عليه وسلم فعلى الأول تتعلق الباء بـ ﴿فأثابكم﴾.

قال أبو البقاء وقيل : المعنى بسبب غم ، فيكون مفعولا به.

وعلى الثاني يتعلق بمحذوف ؛ لأنه صفة لـ " غم " أي : غما مصاحبا لغم ، أو ملتبسا بغم ، وأجاز أبو البقاء أن تكون الباء بمعنى " بعد " أو بمعنى " بدل " وجعلها - في هذين الوجهين - صفة لـ " غما ".

وكونها بمعنى " بعد " و " بدل " بعيد ، وكأنه يريد تفسير المعنى ، وكذا قال الزمخشري غما بعد غم.

واعلم أن الغموم هناك كانت كثيرة : أولا : غمهم بما نالهم من العدو في الأنفس والأموال.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/١٢٠٥

ثانيا : غمهم بما لحق المسلمين من ذلك.
ثالثا : غمهم بما وصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.
رابعا : غمهم بما وقع منهم من المعصية وخوف عقابها.
خامسا : غمهم بسبب التوبة التي صارت واجبة عليهم ؛ لأنهم إذا تابوا عن تلك المعصية لم تتم توبتهم إلا بترك الهزيمة والعود إلى المحاربة بعد الانهزام ، وذلك من أشق الأشياء ؛ لأن الإنسان بعد انهزامه – يضعف قلبه ويجبن ، فإذا أمر بالمعاودة ، فإن فعل خاف القتل ، وإن لم يفعل خاف الكفر وعقاب الآخرة – وهذا الغم أعظمها.
سادسها : غمهم حين سمعوا أن محمدا قتل.
سابعها : غمهم حين أشرف خالد بن الوليد عليهم بخيل المشركين.
ثامنها : غمهم حين أشرف أبو سفيان ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق يومئذ
٦٠٧
يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة ، فلما رأوه وضع رجل سهما في قوسه ، وأراد أن يرميه ، فقال : أنا رسول الله ، ففرحوا حين وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى من يمتنع به ، فأقبلوا على المشركين ، يذكرون الفتح وما فاتهم منه ، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا ، فأقبل أبو سفيان وأصحابه ، حتى وقفوا بباب الشعب ، فلما نظر المسلمون إليهم همهم ذلك ، وظنوا أنهم يميلون عليهم ، فيقتلونهم ، فأنساهم هذا ما نالهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لهم أن يعلونا ، اللهم إن تقتل هذه العصابة لا تعبد في الأرض ، ثم بدأ أصحابه ، فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم.
وإذا عرفت هذا فكل واحد من المفسرين فسر هذين الغمين بغمين من هذه الغموم وقال القفال : وعندنا أن الله – تعالى – ما أراد بقوله : ﴿غما بغم﴾ اثنين ، وإنما أراد مواصلة الغموم وطولها ، أي : أن الله عاقبكم بغموم كثيرة ، مثل قتل إخوانكم وأقاربكم ، ونزول المشركين من فوق الجبل عليكم ، بحيث لم تأمنوا أن يهلك أكثركم ، ومثل إقدامكم على المعصية ، فكأنه – تعالى – قال : أثابكم هذه الغموم المتعاقبة ؛ ليصير ذلك زاجرا لكم عن الإقدام على المعصية ، والاشتغال بما يخالف أمر الله تعالى.
والغم : التغطية ، يقال : يوم غم ، وليلة غمة – إذا كانا مظلمين – ومنه : غم الهلال – إذا لم ير ، وغم الأمر ، يغمى – إذا لم يتبين.

قوله : ﴿لكيلا تحزنوا﴾ هذه لام " كي " وهي لام جر ، والنصب – هنا – بـ " كي " لئلا يلزم دخول حرف جر على مثله ، وفي متعلق هذه اللام قولان : أحدهما : أنه ﴿فأثابكم﴾ وفي " لا " على هذا وجهان : الأول : أنها زائدة ؛ لأنه لا يترتب على الاغتمام انتفاء الحزن ، والمعنى : أنه غمهم ليحزنهم ؛ عقوبة لهم على تركهم مواقفهم ، قاله أبو البقاء.

الثاني : أنها ليست زائدة ، فقال الزمخشري : معنى ﴿لكيلا تحزنوا﴾ لتتمرنوا على تجرع الغموم ، وتتضرروا باحتمال الشدائد ، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من **المنافع** ، ولا على مصيب من المضار.

وقال ابن عطية : " المعنى : لتعلموا أن ما وقع بكم إنما هو بجنايتكم ، فأنتم ورطتم أنفسكم ، وعادة البشر أن جاني الذنب يصبر للعقوبة ، وأكثر قلق المعاقب وحزنه إذا ظن البراءة من نفسه ".

ثانيهما : أن اللام تتعلق بـ " عفا " لأن عفوه يذهب كل حزن ، وفيه بعد ؛ لطول الفصل.

ثم قال : ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أي : عالم بجميع أعمالكم وقصودكم ودواعيكم ، قادر على مجازاتها ، وهذا زجر للبعد عن الإقدام على المعصية.

٦٠٨

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٦٠٣

". (١)

"قوله : ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ أي : ونكتب قتلهم ، أي : رضاهم بالقتل ، والمراد قتل أسلافهم الأنبياء ، ولكن لما رضوا بذلك صحت الإضافة إليهم ، حسن رجل عند الشعبي قتل عثمان ، فقال الشعبي : قد شركت في دمه ، فجعل الرضا بالقتل قتلا ، قال القرطبي : وهذه مسألة عظمى ، حيث يكون الرضا بالمعصية معصية ، وقد روى أبو داود عن العرس بن عميرة الكندي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها – أو فأنكرها – كمن غاب عنها ، ومن غاب فرضيها كان كمن شهدها " وتقدم الكلام على إضافة قتل الأنبياء إلى هؤلاء الحاضرين.

والفائدة في ضم أنهم قتلوا الأنبياء إلى وصفهم الله تعالى بالفقر بيان أن جهلهم ليس مخصوصا بهذا الوقت ، بل هم – منذ كانوا – مصرون على الجهالات والحماقات.

ثم قال : ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي : النار ، وهو بمعنى المحرق – كالأليم بمعنى المؤلم – وهذا القول يحتمل أن يقال لهم عند الموت ، أو عند الحشر ، إن لم يكن هناك قول.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٢٧٦

فإن قيل : إنهم أوردوا سؤالا ، وهو أن من طلب المال من غيره كان فقيرا ، فلو طلب الله المال من عبيده لكان فقيرا ، وذلك محال ، فوجب أن يقال : إنه لم يطلب المال من وعبيده ، وذلك قادح في كونه صلى الله عليه وسلم صادقا في ادعاء النبوة ، فهذا هو شبهتهم ، فأين الجواب ؟ وكيف يحسن ذكر الوعيد قبل ذلك الجواب عنها ؟ .

فالجواب : إن فرعنا على قول أهل السنة والجماعة قلنا : يفعل الله ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فلا يبعد أن يأمر الله عبيده ببذل الأموال ، مع كونه تعالى أغنى الأغنياء.

وأما على قول المعتزلة – فإنه تعالى يراعي المصالح – فلا يبعد أن يكون في هذا التكليف أنواع من المصالح العائدة إلى العباد ؛ فإن إنفاق المال يوجب زوال حب المال عن القلب ، وذلك من أعظم المنافع ، وتتفرع عليه مصالح كثيرة : منها : أن إنفاقه سبب للبقاء المخلد في دار الثواب.

ومنها : أن يصير القلب – بذلك الإنفاق – فارغا من حب ما سوى الله تعالى.

ومنها : أنه لو ترك الإنفاق لبقي حب المال في قلبه ، فتتألم روحه لمفارقته.

قوله : ﴿ذالك بما قدمت﴾ مبتدأ وخبر ، تقديره : ذلك مستحق بما قدمت ، كذا قدره أبو البقاء ، وفيه نظر.

و " ما " يجوز أن تكون موصولة ، وموصوفة ، و " ذلك " إشارة إلى ما قدم من عقابهم ، وهذه الجملة تحتمل وجهين :

٩٠

أحدهما : أن تكون في محل نصب بالقول ؛ عطفا على " ذوقوا " كأنه قيل : ونقول لهم – أيضا – ذلك بما قدمت أيديكم ، وبخوا بذلك ، وذكر لهم السبب الذي أوجب العقاب.

الثاني : أن لا تكون داخلة في حكاية القول ، بل تكون خطابا لمعاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم نزول الآية.

وذكرت الأيدي ؛ لأن أكثر الأعمال تزاول بها ، قال القرطبي : " وخص الأيدي بالذكر ؛ ليدل على تولي الفعل ومباشرته ؛ إذ قد يضاف الفعل إلى الإنسان بمعنى أنه أمر به ، كقوله : ﴿يذبح أبنآءهم﴾ [القصص : ٤] وأصل " أيديكم " أيديكم ، فحذفت الضمة ؛ لثقلها.

قوله : ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ عطف على " ما " المجرورة بالباء ، أي : ذلك العقاب حاصل بسبب كسبكم ، وعدم ظلمه لكم.

فإن قيل : إن " ظلاما " صيغة مبالغة ، تقتضي التكثير ، فهي أخص من " ظالم " ، ولا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم ، فإذا قلت : زيد ليس بظلام ، أي : ليس كثير الظلم - مع جواز أن يكون ظالما وإذا قلت : ليس بظالم ، انتفى الظلم من أصله فكيف قال تعالى : ﴿ليس بظلام للعبيد﴾ ؟ فالجواب من وجوه : الأول : أن " فعالا " قد لا يراد به [التكثير] ، كقول طرفة : [الطويل] ١٧٠٢ - ولست بحلال التلاع مخافة

ولكن متى يسترفد القوم أرفد

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٨٧

." (١)

"عموم هذه الآية مخصوص في مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ [مريم : ٧١] ثم قال : ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ [مريم : ٧٢] وأهل الثواب مصونون عن الحزي.

ومنها : أن الملائكة - الذين هم خزنة جهنم يكونون في النار ، وهم - أيضا - مصونون عن الخزي ، قال تعالى : ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله مآ أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [التحريم : ٦].

قوله : ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ " من " زائدة ، لوجود الشرطين ، وفي مجرورها وجهان : أحدهما : أنه مبتدأ ، وخبره في الجار قبله ، وتقديمه - هنا - جائز لا واجب ؛ لأن النفي مسوغ وحسن تقديمه كون مبتدئه فاصلة.

الثاني : أنه فاعل بالجار قبله ، لاعتماده على النفي ، وهذا جائز عند الجميع.

فصل تمسك المعتزلة بهذه الآية في نفي الشفاعة للفساق ؛ وذلك لأن الشفاعة ، نوع نصرة ، ونفي الجنس يقتضي نفي النوع ، والجواب من وجوه : أحدها : أن القرآن دل على أن الظالمين - بالإطلاق - هم الكفار ، قال تعالى : ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ [البقرة : ٢٥٤] ويؤكده ما حكى عن الكفار من نفيهم الشفعاء والأنصار في قولهم : ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ [الشعراء : ١٠٠ - ١٠١].

ثانيها : أن الشفيع لا يمكنه أن يشفع إلا بإذن الله تعالى ، قال تعالى : ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة : ٢٥٥] وإذا كان كذلك لم يكن الشفيع قادرا على النصرة إلا بعد الإذن ، وإذا حصل الإذن ففي الحقيقة إنما ظهر العفو من الله تعالى ، فقوله : ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ يفيد أنه لا حكم إلا لله ، كما قال : ﴿ألا له الحكم﴾ [الأنعام : ٦٢] وقال : ﴿والأمر يومئذ لله﴾ [الانفطار : ١٩].

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٣٢٩

فإن قيل : فعلى هذا التقدير لا يبقى لتخصيص الظالمين - بهذا الحكم - فائدة.
فالجواب : بل فيه فائدة ، لأنه وعد المؤمنين المتقين في الدنيا بالفوز بالثواب ، والنجاة من العقاب ، فلهم يوم القيامة هذه المنزلة ، وأما الفساق فليس لهم ذلك ، فصح تخصيصهم بنفي الأنصار على الإطلاق.
ثالثها : أن هذه الآية عامة ، والأحاديث الواردة بثبوت الشفاعة خاصة ، والخاص مقدم على العام.
١١٨
جزء : ٦ رقم الصفحة : ١١٠
" سمع " إن دخلت على ما يصح أن يسمع - نحو : سمعت كلامك وقراءتك - تعدت لواحد ، فإن دخلت على ما يصح سماعه - بأن كان ذاتا - فلا يصح الاقتصار عليه وحده ، بل لا بد من الدلالة على شيء يسمع ، نحو سمعت رجلا يقول كذا ، وسمعت زيدا يتكلم ، وللنحويين - في هذه المسألة - قولان : أحدهما : أنها تتعدى فيه - أيضا - إلى مفعول واحد ، والجملة الواقعة بعد المنصوب صفة إن كان قبلها نكرة ، أو حالا ، إن كان معرفة.
والثاني : - قول الفارسي وجماعة - : أنها تتعدى لاثنين ، والجملة في محل الثاني منهما ، فعلى قول الجمهور يكون " ينادي " في محل نصب ، لأنه صفة لمنصوب قبله ، وعلى قول الفارسي يكون في محل نصب على أنه مفعول ثان.
وقال الزمخشري : " تقول : سمعت رجلا يقول كذا ، وسمعت زيدا يتكلم ، فتوقع الفعل على الرجل ، وتحذف المسموع ؛ لأنك وصفته بما يسمع ، أو جعلته حالا منه ، فأغناك عن ذكره ، ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد ، وأن تقول : سمعت كلام فلان أو قوله ".
وهذا قول الجمهور المتقدم ذكره.
إلا أن أبا حيان اعترض عليه ، فقال " وقوله : ولولا الوصف أو الحال...
إلى آخره ، ليس كذلك ، بل لا يكون وصف ولا حال ، ويدخل " سمع " على ذات على مسموع ، وذلك إذا كان في الكلام ما يشعر بالمسموع - وإن لم يكن وصفا ولا حالا - ومنه قوله تعالى : ﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون﴾ [الشعراء : ٧٢] فأغنى ذكر طرف الدعاء عن ذكر المسموع ".
وأجاز أبو البقاء في " ينادي " أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير المستكن في " مناديا ".
فإن قيل : ما الفائدة في الجمع بين " مناديا " و " ينادي " ؟ فأجاب الزمخشري بأنه ذكر النداء مطلقا ،

ثم مقيدا بالإيمان ، تفخيما لشأن المنادي ؛ لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان ، ونحوه قولك : مررت بهاد يهدي للإسلام ، وذلك أن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب ، أو لإطفاء الثائرة ، أو لإغاثة المكروب ، أو لكفاية بعض النوازل ، أو لبعض **المنافع** وكذلك الهادي يطلق على من يهدي للطريق ، ويهدي لسداد الرأي ، وغير ذلك فإذا قلت : ينادي للإيمان ، ويهدي للإسلام فقد رفعت من شأن المنادي والهادي وفخمته.

١١٩

". (١)

"ثانيهما : أن المراد منه كونهم في جملة أتباع الأبرار ، كقوله : ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين﴾ [النساء : ٦٩].

فصل احتجوا بهذه الآية على حصول العفو بدون التوبة من وجهين : الأول : أنهم طلبوا المغفرة مطلقا ، ثم أجابهم الله تعالى بقوله : ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ [آل عمران : ١٩٥] وهذا صريح في أنه - تعالى - قد يغفر الذنب وإن لم توجد التوبة.

الثاني : أنه - تعالى - حكى عنهم إخبارهم بإيمانهم ، ثم قالوا : ﴿فاغفر لنا ذنوبنا﴾ فأتى بفاء الجزاء وهذا يدل على أن مجرد الإيمان سبب لحسن طلب المغفرة من الله تعالى ، ثم إن الله تعالى أجابهم بقوله : ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ [آل عمران : ١٩٥] فدلت هذه الآية على أن مجرد الإيمان سبب لحصول الغفران ، إما ابتداء - بأن يعفو عنه ، ولا يدخلهم النار - بأن يعذبهم مدة ، ثم يعفو عنهم ، ويخرجهم من النار.

قوله تعالى : ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ في هذا الجار ثلاثة أوجه : أحدها : أنه متعلق بـ " وعدتنا ".

قال الزمخشري : " على - هذه - صلة للوعد ، كما في قولك : وعد الله الجنة على الطاعة ، والمعنى : ما وعدتنا منزلا على رسلك ، أو محمولا على رسلك ؛ لأن الرسل محملون ذلك قال تعالى : ﴿فإنما عليه ما حمل﴾ [النور : ٥٤].

ورد عليه أبو حيان : بأن الذي قدره محذوفا كون مقيد ، وقد علم من القواعد أن الظرف والجار إذا وقعا حالين ، أو وصفين ، أو خبرين ، أو صلتين تعلقا بكون مطلق ، والجار - هنا - وقع حالا ، فكيف يقدر

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٣٤٥

متعلقه كونا مقيدا ، وهو منزل ، أو محمول ؟ ثالثها : - ذكره أبو البقاء - أن يتعلق " على " بـ " آتنا " وقدر مضافا ، فقال : على ألسنة رسلك وهو حسن.
وقرأ الأعمش : على رسلك - بسكون السين.
فإن قيل : إن الخلف في وعد الله - تعالى - محال ، فكيف طلبوا ما علموا أنه واقع لا محالة ؟ فالجواب من وجوه : الأول : أنه ليس المقصود من الدعاء طلب الفعل ، بل المقصود منه إظهار الخضوع والذلة والعبودية ، وقد أمرنا بالدعاء بأشياء نقطع بوجودها لا محالة ، كقوله : ﴿قال رب
١٢٢
احكم بالحق﴾ [الأنبياء : ١١١] وقوله : ﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾ [غافر : ٧].
الثاني : أن وعد الله لا يتناول آحاد الأمة بأعيانهم ، بل بحسب أوصافهم ، فإنه - تعالى - وعد المتقين بالثواب ، ووعد الفساق بالعقاب ، فقوله : ﴿وآتنا ما وعدتنا﴾ معناه : وفقنا للأعمال التي نصير بها أهلا لوعدك , واعصمنا من الأعمال التي نصير بها أهلا للعقاب والخزي.
الثالث : أن الله - تعالى - وعد المؤمنين بأن ينصرهم في الدنيا على أعدائهم ، فهم طلبوا تعجيل ذلك.
فصل دلت الآية على أنهم إنما طلبوا منافع الآخرة بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق ؛ لقولهم : ﴿وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ ثم قالوا : ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ وهذا يدل على أن المقتضي لحصول منافع الآخرة هو الوعد لا الاستحقاق.
فإن قيل : متى حصل الثواب لزم اندفاع العقاب لا محالة ، فلما طلبوا الثواب بقولهم : ﴿وآتنا ما وعدتنا﴾ كيف طلبوا ترك العقاب بقولهم : ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ بل لو طلب ترك العقاب - أولا - ثم طلب الثواب بعده لاستقام الكلام ؟ فالجواب من وجهين : الأول : أن الثواب شرطه أن يكون منفعة مرونة بالتءظيم والسرور ، فقوله : ﴿وآتنا ما وعدتنا﴾ المراد منه **المنافع** وقوله : ﴿ولا تخزنا﴾ المراد منه التعظيم.
الثاني : ما تقدم من أن المقصود طلب التوفيق إلى الطاعة ، والعصمة عن المعصية ، كأنه قيل : وفقنا للطاعات ، وإذا وفقتنا فاعصمنا عما يبطلها ، ويوقعنا في الخزي.
وعلى هذا يحسن النظم.
و " الميعاد " مصدر بمعنى الوعد.
قوله : ﴿يوم القيامة﴾ فيه وجهان : الأول : أنه منصوب بـ ﴿ولا تخزن﴾.
والثاني : أنه أجاز أبو حيان أن يكون من باب الإعمال ؛ إذ يصلح أن يكون منصوبا بـ ﴿ولا تخزن﴾ وبـ

﴿وآتنا ما وعدتنا﴾ إذاكان الموعود به الجنة.
جزء : ٦ رقم الصفحة : ١١٩
." (١)

"نظر لا يخفى ، وأما الجر فعلى ما قاله أبو البقاء ، وقد تقدم ما فيه.
و ﴿محصنين﴾ حال من فاعل تبتغوا ، و ﴿غير مسافحين﴾ حال ثانية ، ويجوز أن يكون حال من الضمير في ﴿محصنين﴾ ، ومفعول محصنين ومسافحين محذوف ، أي : محصنين فروجكم غير مسافحين الزواني ، وكأنها في الحقيقة حال مؤكدة ؛ لأن المحصن غير مسافح ، ولم يقرأ أحد بفتح الصاد من محصنين فيما نعلم.
والسفاح الزنا.
قال الليث : السفاح والمسافحة : الفجور ، وأصله الصب ، يقال : دموع سوافح ومسفوحة.
قال تعالى : ﴿أو دما مسفوحا﴾ [الأنعام : ١٤٥] وفلان سفاح للدماء ، وسمي الزنا سفاحا ؛ لأنه لا غرض للزاني إلا صب منيه ، وكانوا يقولون صافحني وما ذمني والمسافح من يظاهر بالزنا ، ومتخذ الأخدان من تستر فاتخذ واحدة خفية.
فصل [الخلاف في قدر المهر] قال أبو حنيفة : لا مهر أقل من عشرة دراهم ، وقال غيره : يجوز بالقليل والكثير ، واحتج أبو حنيفة بهذه الآية ؛ لأنه تعالى قيد التحليل بالابتغاء بالأموال و [الدرهم] والدرهمان لا يسمى أموالا ، فلا يصح جعلها مهرا.
فإن قيل : ومن عنده عشرة دراهم ، لا يقال عنده أموال ع أنكم تجوزونها مهرا قلنا : ظاهر الآية يقتضي ألا يكون العشرة كافية ، إلا أنا أنزلنا العمل بظاهر هذه الآية للإجماع على جوازه ، ويتمسك في الأقل من العشرة بظاهر الآية وهذا استدلال على أن الابتغاء بغير الأموال غير جائز ، إلا على سبيل المفهوم وأنتم لا تقولون به ، واستدل المخالف بوجوه : أحدها : قوله ﴿أن تبتغوا بأموالكم﴾ فقابل الجمع بالجمع فيقتضي توزع الفرد على الفرد ، وهذا يقتضي أن يتمكن كل واحد من ابتغاء النكاح بما يسمى مالا ، والقليل والكثير في هذه الحقيقة ، وفي هذا الاسم سواء.
وثانيها : قوله تعالى ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ [البقرة : ٢٣٧] فدلت الآية على سقوط النصف من المذكور ، وهذا يقتضي أنه لو وقع العقد في أول الأمر

---
(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٣٤٧

بدرهم : لم يجب إلا نصف درهم ، وأنتم لا تقولون به.

وثالثها : ما روي أن امرأة جيء إلى النبي صلى الله عليه وسلم و تزوج بها رجل على نعلين

٣٠٦

فقال عليه السلام " رضيت من نفسك بنعلين " ، فقالت : نعم ؛ فأجازه النبي صلى الله عليه وسلم " والظاهر أن قيمة النعلين أقل من عشرة دراهم ، فإن مثل هذا الرجل والمرأة اللذين تزوجا على نعلين يكونان في غاية الفقر فنعلهما تكون قليلة القيمة جدا.

وروى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أعطى امرأة من نكاح كف دقيق ، أو سويق ، أو طعاما فقد استحل " ، وحديث الواهبة نفسها أنه – عليه السلام – " قال للذي أراد أن يتزوجها التمس ولو خاتما من حديد " وذلك لا يساوي عشرة دراهم.

فصل [في الخلاف في المهر **بالمنافع**] قال أبو حنيفة : لو تزوجها على تعليم سورة من القرآن لم يكن ذلك مهرا ، ولها مهر مثلها ولو تزوجها على خدمة سنة ، فإن كان حرا فلها مهر مثلها ، وإن كان عبدا فلها خدمة سنة وقال غيره : يجوز جعل ذلك مهرا ، واحتج أبو حنيفة بهذه الآية.

قال : لأنه تعالى شرط في حصول الحل ذلك الابتغاء بالمال ، والمال اسم للأعيان لا للمنافع وأيضا قال : ﴿فآتوهن أجورهن﴾ وذلك صفة للأعيان لا للمنافع ، وأيضا قال ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا﴾ [النساء : ٤].

وأجيب عن الأول بأن الآية دلت على أن الابتغاء بالمال جائز ، وليس فيه بيان أن الابتغاء بغير المال جائز أم لا.

وعن الثاني : بأن لفظ الايتاء كما يتناول الأعيان **المنافع** الملتزمة.

وعن الثالث : أنه خرج الخطاب على الأعم الأغلب.

واستدل المخالف بوجهين : أحدهما : قصة شعيب في قوله لموسى ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج﴾ [القصص : ٢٧] وشرعهم شرع لنا ما لم يرد ناسخ.

٣٠٧

". (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٤٣٥

"وثانيهما : قوله عليه السلام " زوجتك بما معك من القرآن ".
فصل [في تفسير قوله ﴿محصنين﴾] في قوله محصنين وجهان : أحدهما : - أن المراد أن يصيروا محصنين بسبب عقد النكاح.
الثاني : - أن يكون الاحصان شرطا في الإحلال المذكور في قوله ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ والأول أولى ؛ لأن الآية تبقى عامة معلومة المعنى.
وعلى الثاني : تكون الآية مجملة ؛ لأن الإحصان المذكور فيها غير مبين ، والمعلق على المجمل يكون مجملا ، وحمل الآية على وجه معلوم أولى من حملها على وجه مجمل.
قوله : ﴿فما استمتعتم به﴾ يجوز في " ما " وجهان أحدهما : أن تكون شرطية.
والثاني : أن تكون موصولة ، وعلى كلا التقديرين فيجوز أن يكون المراد بها النساء المستمتع بهن ، أي النوع المستمتع به , وأن يراد بها الاستمتاع الذي هو الحدث ، وعلى جميع الأوجه المتقدمة ، فهي في محل رفع بالابتداء ، فإن كانت شرطية ففي خبرها الخلاف المشهور هل هو فعل الشرط وجوابه ، أو كلاهما وقد تقدم تحقيقه في البقرة ، وإن كانت موصولة ؛ فالخبر قوله " فآتوهن " ودخلت الفاء لشبه الموصول باسم الشرط كما تقدم ، ثم إن أريد بها النوع المستمتع به فالعائد على المبتد سواء كانت ما شرطية أو موصولة الضمير [المنصوب] في " فآتوهن " ويكون قد راعى لفظ " ما " تارة فأفرد في قوله " به " ، ومعناها أخرى ، فجمع في قوله " منهن " " فآتوهن " فيصير المعنى : أي أريد بها الاستمتاع ، فالعائد حينئذ محذوف ، تقديره : فأي نوع من الاستمتاع استمتعتم به من النساء فآتوهن أجورهن لأجله.
و " من " في " منهن " تحتمل وجهين : أحدهما : أن تكون للبيان.
والثاني : أن تكون للتبعِيض ، ومحلها النص على الحال ، من الهاء في " به " ، ولا يجوز في " ما " أن تكون مصدرية لفساد المعنى ولعود الضمير في " به " عليها.
فصل [في تفسير الاستمتاع] الاستمتاع في اللغة : الانتفاع ، وكل ما انتفع به فهو متاع ، يقال : استمتع الرجل
٣٠٨
بولده ، ويقال فيمن مات شابا : لم يتمتع بشبابه ، قال تعالى ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ [الأنعام : ١٢٨] وقال ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾ [التوبة : ٦٩] يعني : بحظكم عليهن ؛ فآتوهن أجورهن عليه ، أو مهورهن عليه ، وإنما سمي المهر أجرا ؛ لأنه بدل **المنافع** كما سمي بدل منافع الدار والدابة أجرا.

فصل [في الخلاف في تقرير لمهر بالخلوة] قال الشافعي : الخلوة الصحيحة لا تقرر المهر.
وقال أبو حنيفة وأحمد : تقرره ، واحتج ال شافعي بقوله تعالى ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن﴾ فجعل وجوب إتيانهن لأجل الاستمتاع بهن ، فلو تقرر بالخلوة قبل الاستمتاع لمنع من تعلق النقود بالاستمتاع وهو خلاف الآية.
فصل قال الحسن ومجاهد وأكثر العلماء : والمراد بهذه الآية ابتغاء بالأموال على طريق النكاح الصحيح.
وقوله ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن﴾ فجعل وجوب إتيانهن بالدخول أي ﴿فآتوهن أجورهن﴾ أي مهورهن بالتمام.
قال القرطبي : اختلف الناس في المعقود عليه في النكاح هل هو بدن المرأة ، أو منفعة البضع ، أو الحل على ثلاثة أقوال ، قال : والظاهر المجموع ؛ لأن العقد يقتضي كل ذلك فإن عقد النكاح آتاها نصف المهر ، وقال آخرون : هو نكاح المتعة ، وهو أن يستأجر امرأة بمال معلوم إلى أجل معين ، فإذا انقضت تلك المدة باتت منه بلا طلاق وتستبرئ رحمها ، وليس بينهما ميراث ، وكان ذلك مباحا في ابتداء الإسلام ثم نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى الربيع بن سبرة الجهني أن أباه حدثه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء فإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا " وروى علي بن أبي طالب " أن رسول الله عليه الصلاة والسلام نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية " وعامة أهل العلم على أن نكاح المتعة حرام منسوخ
٣٠٩
." (١)

"فإن قيل : إنما لم يجعله أبو علي من ذلك ؛ لأنه يؤدي إلى تخصيص الظرف الثاني بما وقع في الأول ، وهو أنه تراها كشبه أردية العصب في اليوم الأول والثاني ؛ لأن حكم [المعطوف حكم] المعطوف عليه ، فهو نظير قولك : ضربت زيدا يوم الجمعة ، ويوم السبت ، ف " يوم " السبت مقيد بضرب [زيد كما يقيد به يوم الجمعة ، لكن الغرض أن اليوم الثاني في البيت مقيد بقيد آخر] وهو رؤية أديمها نغلا.
فالجواب : أنه لو تركنا [و] الظاهر من غير تقييد الظرف الثاني بمعنى آخر كان الحكم كما ذكرت [لأن الظاهر كما ذكرت] في مثالك : ضربت زيدا يوم الجمعة [وعمرا] يوم السبت [أما إذا قيدته بشيء آخر ،

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٤٣٦

فقد تركت ذلك الظاهر لهذا النص ، ألا ترضاك تقول : ضربت زيدا يوم الجمعة ، وعمر ا يوم السبت] ، فكذلك هذا ، وهو موضع يحتاج لتأمل.
وأما " فبشرناها بإسحاق " ، فيعقوب ليس مجرورا عطفا على إسحاق ، بل منصوبا بإضمار فعل أي : ووهبنا لها يعقوب ، ويدل عليه قراءة الرفع ، فإنها مؤذنة بانقطاعه من البشارة [به] ، كيف وقد تقدم أن هذا القائل يقول : إنه متى كان المعطوف عليه مجرورا ، أعيد مع المعطوف الجار.
[و] أما " أن يؤدوا الأمانات " ، فلا دلالة فيها أيضا ؛ لأن " إذا " ظرف لا بد من عامل ، وعامله إما ﴿أن تحكموا﴾ وهو الظاهر من حيث المعنى ، وإما ﴿يأمركم﴾ فالأول ممتنع ، وإن كان المعنى عليه ؛ لأن ما في حيز الموصول لا يتقدم عليه عند البصريين ، وأما الكوفيون فيجوزون ذلك ، ومنه الآية عندهم ، واستدلوا بقوله : [الرجز] ١٨١١ - ....

كان جزائي بالعصا أن أجلدا

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٣٣

وقد جاء ذلك في المفعول الصريح في قوله : [الكامل] ١٨١٢ - ....

وشفاء غيك خابرا أن تسألي

٤٣٨

فكيف بالظرف وشبهه.
والثاني ممتنع أيضا ؛ لأن الأمر ليس واقعا وقت الحكم ، كذا قاله أبو حيان وفيه نظر وإذا بطل هذا فالعامل فيه مقدر يفسره ما بعده تقديره : " وأن تحكموا إذا حكمتم " ، و " أن تحكموا " الأخيرة دالة على الأولى.
قوله " بالعدل " يجوز فيه وجهان : أحدهما : أن يتعلق بـ " تحكموا " ، فتكون الباء للتعدية ، والثانية : أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من فاعل تحكموا ، فتكون الباء للمصاحبة ، أي : ملتبسين بالعدل مصاحبين له.
والمعنيان متقاربان.
فصل اعلم أن الأمانة عبارة عن أداء ما وجب عليك لغيرك ,والحكم بالحق عما إذا وجب لإنسان على غيره حق ، فأمر من وجب عليه ذلك الحق بأن يدفعه إلى من له ذلك الحق.
ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ، ودفع المضار ، ثم يشتغل بغيره ،

لا جرم أمر تعالى بأداء الأمانة أولا ، ثم ذكر بعد الأمر الحكم بالحق ، وهذا من اللطائف المودعة في ترتيب القرآن.

فصل في وجوب حكم الإمام بالعدل أجمعوا على أنه يجب على الحكم أن يحكم بالعدل ، لهذه الآية ، ولقوله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ [النحل : ٩٠] وقوله ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾ [الأنعام : ١٥٢] وقوله ﴿يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾ [ص : ٢٦] ، وقال – عليه الصلاة والسلام : " لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت ، وإذا حكمت عدلت وإذا استرحمت رحمت " وقال عليه الصلاة والسلام " المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ؛ هم الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم ما ولوا " وقال عليه الصلاة والسلام " إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة ، وأقربهم منه مجلسا إمام عادل وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا إمام جائر " وقال عليه الصلاة والسلام " ينادي مناد يوم القيامة أين الظلمة ، فيجمعون عليه في النار ".

يحقق ذلك قوله تعالى ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ [الصافات : ٢٢] وقوله ﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون﴾ [إبراهيم : ٤٢].

943." (١)

"ومنها : أن العامي يجب عليه تقليد العلماء في أحكام الحوادث.

ومنها : أن النبي – عليه الصلاة والسلام – كان مكلفا باستنباط الأحكام ؛ لأن الله – تعالى – أمر بالرد إلى أولي الأمر ، ثم قال : ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ ولم يخصص أولي الأمر دون الرسول ، وذلك يوجب الرسول وأولي الأمر كلهم مكلفون بالاستنباط.

فإن قيل : لا نسلم أن المراد بـ ﴿الذين يستنبطونه منهم﴾ أولي الأمر ، لكن هذه الآية إنما نزلت في بيان الوقائع المتعلقة بالحروب والجهاد ، فهب أن الرجوع إلى الاستنباط جائز فيها ، فلم قلتم بجوازه في الوقائع الشرعية ؛ فإن قيس أحد البابين على الآخر ، كان ذلك إثباتا للقياس الشرعي بالقياس ، وأنه لا يجوز أن الاستنباط في الأحكام الشرعية داخل تحت الآية فلما قلتم يلزم أن يكون القياس حجة ، فإنه يمكن أن يكون المراد بالاستنباط : استخراج الأحكام من النصوص الخفية ، أو من تركيبات النصوص ، أو المراد منه استخراج الأحكام من البراءة ، الأصلية ، أو مما ثبت بحكم العقل ، كما يقول الأكثرون إن الأصل

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٤٩٩

في المنافع الإباحة ، وفي المضار الحرمة.

سلمنا أن القياس الشرعي داخل في الآية ، لكن بشرط أن يكون القياس مفيدا للعلم ؛ لقوله – تعالى – : ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾.

فاعتبر حصول العلم من هذا الاستنباط ، ونزاع في مثل هذا القياس ، إنما النزاع في القياس الذي يفيد الظن : هل هو حجة في الشرع ، أم لا.

والجواب : أما الأول فلا يصح ؛ لأنه يصير التقدير : أو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلموه ، وعطف المظهر على المضمر ، وهو قوله : " ولو ردوه " قبيح مستكره.

وأما الثاني فمدفوع من وجهين : أحدهما : أن قوله : ﴿وإذا جآءهم أمر من الأمن أو الخوف﴾ حاصل في كل ما يتعلق بباب التكليف ، فليس في الآية ما يوجب تخصيصها بأمر الحروب.

وثانيها : هب أن الأمر كما ذكرتم ، لكن لما ثبت تعرف أحكام الحروب بالقياس الشرعي ، وجب أن يتمسك بالقياس الشرعي في سائر لوقائع ، لأنه لا قائل بالفرق.

وأما الثالث : وهو حمل الاستنباط على استخراج النصوص الخفية أو على تركيبات النصوص الخفية أو على تركيبات النصوص ، فكل ذلك لا يخرجه عن كونه منصوصا ، والتمسك بالنص لا يسمى استنباطا.

وأما قوله : لا يجوز حمله على التمسك بالبراءة الأصلية.

٥٢٧

قلنا : ليس هذا استنباطا ، بل هذا إبقاء لما كان على ما كان ، ومثل هذا لا يسمى استنباطا.

وأما الرابع : وهو أن هذا الاستنباط إنما يجوز عند حصول العلم ، والقياس الشرعي لا يفيد العلم.

فنقول : جوابه من وجهين : أحدهما : أنه عندنا يفيد العلم ؛ أن ثبوت إن القياس حجة يقطع بأنه مهما غلب على الظن أن حكم الله في الأصل معلل بكذا ، ثم غلب على الظن أن ذلك المعنى قائم في الفرع ، فهنا يحصل ظن أن حكم الله في الفرع مساو لحكمه في الأصل ، وعند هذا الظن يقطع بأنه مكلف بأن يعمل على وفق هذا الظن ؛ فالحاصل : أن الظن واقع في طريق الحكم ، وأما الحكم فمقطوع به ، وهو يجري مجرى ما إذا قال الله – تعالى – : مهما غلب على ظنك كذا ، فاعلم أن حكمي في الواقعة كذا ، فإذا غلب الظن قطعنا بثبوت ذلك الحكم.

وثانيهما : أن العلم قد يطلق ويراد به الظن ؛ وقال – عليه الصلاة والسلام – : " إذا علمت مثل الشمس فاشهد " شرط العلم في جواز الشهادة ، وأجمعنا على أن عند الظن تجوز الشهادة ؛ فثبت أن الظن قد

يسمى بالعلم.

فصل في رد شبهة للمعتزلة دلت [هذه] الآية على أن الذين اتبعوا الشيطان ، قد منعهم الله فضله ورحمته وإلا ما كان يتبع ، وهذا يدل على فساد قول المعتزلة : في أنه يجب على الله رعاية الصلح في الدين.

أجابوا : بأن فضل الله ورحمته [عامات في حق الكل ، لكن المؤمنين انتفعوا به ، والكافرين لم ينتفعوا به فصح على سبيل المجاز أنه لم يحصل للكافرين فضل الله ورحمته] في الدين.

والجواب : أن حمل الفظ على المجاز خلاف الأصل.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٥٢١

." (١)

"الوجه ؛ لأن النبي – عليه الصلاة والسلام – " نهى عن الضرب في الوجه وعن الوشم في الوجه " ، وروي عن أنس ، وشهر بن حوشب ، وعكرمة ، وأبي صالح : التغيير ههنا هو الإخصاء ، وقطع الآذان ، وفقأ العيون ؛ لأن فيه تعذيب للحيوان ، وتحريم وتحليل بغير دليل ، والآذان في الأنعام جمال ومنفعة ، وكذلك غيرها من الأعضاء ، فحرم عليهم الشيطان ما أحله الله لهم ، وأمرهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، ولما كان هذا من فعل الشيطان ، أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستشرف العين والأذن ، ولا نضحي بعوراء ، ولا مقابلة ، ولا مدابرة ؛ ولهذا كان أنس يكره إخصاء الغنم ، وحرمه بعضهم.

قال القرطبي : فأما خصاء الآدمي ، فمصيبة ، فإنه إذا خصي ، بطل قلبه وقوته ، عكس الحيوان ، وانقطع نسله المأمور به في قوله – عليه الصلاة والسلام – : " تناكحوا تناسلوا " ثم إن فيه ألما عظيما ، ربما يفضي بصاحبه إلى الهلاك ، فيكون [فيه] تضييع مال ، وإذهاب تفس ، وكل ذلك منهي عنه ، ثم هذه مثلة ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن المثلة ، وجوز بعضهم

٢٦

في البهائم ؛ لأن فيه غرضا ، وكانت العرب إذا بلغت إبل أحدهم ألفا عوروا عين فحلها.

وحكى الزجاج عن بعضهم : التغيير هو أن الله – تعالى – خلق الأنعام للركوب والأكل ، فحربوها ، وخلق الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والأحجار لمنفعة العباد ، فعبدوها من دون الله.

وقيل : التغيير هو التخنث ؛ وهو عبارة عن الذكر يشبه الأنثى والسحق ؛ عبارة عن تشبه الأنثى بالذكر.

ثم قال : ﴿ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله﴾ أي : ربا يطيعه ، ﴿فقد خسر خسرانا مبينا﴾ لأن

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٥٤٨

طاعة الله تعالى تفيد **المنافع** العظيمة ، الدائمة ، الخالصة عن شوائب الضرر ، وطاعة الشيطان تفيد **المنافع** القليلة ، المنقطعة ، المشوبة بالغموم والأحزان ، ويعمها العذاب الدائم ، وهذا هو الخسار المطلق.

قال أبو العباس المقري : ورد لفظ الخسران [قي القرآن] على أربعة أوجه : الأول : بمعنى الضلالة ؛ كهذه الآية.

الثاني : بمعنى العجز ؛ قال – تعالى – : ﴿لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنآ إذا لخاسرون﴾ [يوسف : ١٤] أي : عاجزون ومثله : ﴿لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون﴾ [الأعراف : ٩٠].

الثالث : بمعنى الغبن ؛ قال – تعارى – : ﴿الذين خسروا اا أنفسهم﴾ [المؤمنون : ١٠٣] أي : غبنوا أنفسهم.

الرابع : بمعنى : المخسرون ؛ قال – تعالى – : ﴿خسر الدنيا والآخرة ذالك هو الخسران [المبين]﴾ [الحج : ١١].

قوله : " يعدهم ويمنيهم " ، قرئ : " يعدهم " بسكون الدال تخفيفا ؛ لتوالي الحركات ، ومفعول الوعد محذوف ، أي : يعدهم الباطل أو السلامة والعافية ووعده وتمنيته : ما يوقعه في قلب الإنسان من طول العمر ، ونيل الدنيا ، وقد يكون بالتخويف بالفقر ، فيمنعه من الإنفاق ، وصلة الرحم ؛ كما قال – تعالى – : ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ [البقرة : ٢٦٨] و " يمنيهم " بأن لا بعث ، ولا جنة ، ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾ أي :

٢٧

". (١)

"جزء : ٧ رقم الصفحة : ٤٦٢

وهذا دليل أيضا على فساد قول النصارى وذلك من وجوه : الأول : أن اليهود كانوا يعادون عيسى – عليه الصلاة والسلام – ، ويقصدونه بالسوء ، فما قدر على إضرارهم ، وكان له أيضا أنصار وصحابة يحبونه ، فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم ، والعاجز عن الإضرار والنفع كيف يعقل أن يكون إلها ؟ ! الثاني : أن مذهب النصارى – لعنهم الله – : أن اليهود صلبوه ومزقوا أضلاعه ، ولما عطش وطلب الماء منهم صبوا الخل في منخريه ، ومن كان في الضعف هكذا ، كيف يعقل أن يكون إلها ؟ ! الثالث : أن إله العالم يجب أن يكون غنيا عن كل ما سواه محتاجا إليه ، فلو كان عيسى كذلك لامتنع كونه مشغولا بعبادة

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٦٠٩

الله تعالى ؛ لأن الإله لا يعبد شيئا ، إنما العبد هو الذي يعبد الإله ، فلما عرف بالتواتر أنه كان مواظبا على الطاعات والعبادات ، علمنا أنه كان يفعلها لكونه محتاجا في تحصيل **المنافع** ، ودفع المضار إلى غيره ، ومن كان كذلك كيف يقدر على إيصال **المنافع** إلى العباد ، ودفع المضار عنهم ؟ ! وإذا كان كذلك كان عبدا كسائر العبيد ، وهذا هو عين الدليل الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم - عليه السلام

٤٦٤

- حيث قال : ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾ [مريم : ٤٢].

قوله تعالى : ﴿ما لا يملك﴾ : يجوز أن تكون " ما " بمعنى " الذي " ، وأن تكون نكرة موصوفة ، والجملة بعدها صلة ، فلا محل لها ، أو صفة ، فمحلها النصب ، وفي وقوع " ما " على العاقل هنا ؛ لأنه أريد به عيسى وأمه وجوه : أحدها : أنه أتي بـ " ما " مرادا بها العاقل ؛ لأنها مبهمة تقع على كل شيء ، كذا قاله سيبويه ، أو أريد به النوع ؛ كقوله : ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النسآء﴾ [النساء : ٣] ، أي : النوع الطيب ، أو أريد به العاقل مع غيره ؛ لأن أكثر ما عبد من دون الله غير عاقل ؛ كالأصنام والأوثان والكواكب والشجر ، أو شبهه على أول أحواله ؛ لأنه في أول حاله لا يوصف بعقل ، فكيف يتخذ إلها معبودا ؟ قوله تعالى : ﴿والله هو السميع العليم﴾ " هو " : يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا ، و " السميع " خبره ، و " العليم " خبر ثان أو صفة ، والجملة خبر الأول ، ويجوز أن يكون فصلا ، وقد عرف ما فيه ، ويجوز أن يكون بدلا ، وهذه الجملة الظاهر فيها : أنها لا محل لها من الإعراب ، ويحتمل أن يكون في محل نصب على الحال من فاعل " تعبدون " ، أي : أتعبدون غير الله ، والحال أن الله هو المستحق للعبادة ؛ لأنه يسمع كل شيء ويعلمه ، وإليه ينحو كلام الزمخشري ؛ فإنه قال : ﴿والله هو السميع العليم﴾ متعلق بـ " أتعبدون " ، أي : أتشركون بالله ولا تخشونه ، وهو الذي يسمع ما تقولون ويعلم ما تعتقدون ؟ أتعبدون العاجز ، والله هو السميع العليم ؟ .

انتهى ، والرابط بين الحال وصاحبها الواو ، ومجيء هاتين الصفتين بعد هذا الكلام في غاية المناسبة ؛ فإن السميع يسمع ما يشكى إليه من الضر وطلب النفع ، ويعلم مواقعهما كيف يكونان ؟

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٤٦٤

لما تكلم أولا على أباطيل اليهود ، ثم تكلم ثانيا على أباطيل النصارى ، وأقام الدلائل على بطلانها وفسادها ، فعند هذا خاطب مجموع الفريقين ، فقال تعالى : ﴿ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ ، أي : لا تتجاوزوا الحد ، والغلو نقيض التقصير ، ومعناه : الخروج عن الحد.

قوله تعالى : " غير الحق " : فيه خمسة أوجه :

٤٦٥

." (١)

"سورة الأنعام

وهي مائة وستون وخمس آيات ، وكلماتها ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة ، وحروفها االثنا عشر ألفا وأربعمائة واثنان وعشرون حرفا.

نزلت ب "مكة" [المشرفة] جملة ليلا ، معها سبعون ألف ملك ، قد سدوا الخافقين لهم ، وهل بالتسبيح ، والتحميد والتمجيد ، فقال التبي صلى الله عليه وسلم : سبحان ربي العظيم سبحان ربي العظيم [وبحمده الكريم] وخر ساجدا.

وروي عنه مرفوعا "من قرأ سورة الأنعام يصلي عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره".

وقال الكلبي ــ رحمه الله تعالى ــ : عن أبي صالح ابن عباس نزلت سورة الأنعام بـ "مكة" إلا قوله : ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ [الأنعام : ٩١] إلى آخر ثلاث آيات ، وقوله تعالى : ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ [الأنعام : ١٥١] إلى قوله تعالى : "تتقون" فهذه الست آيات مدنيات.

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما نزلت علي سورة من القرآن جملة واحدة

٤

غير سورة الأنعام" [وما جمعت الشياطين لسورة من القرآن جمعها لها ، ولقد بعث بها إلي مع جبريل ــ عليه السلام ــ ومعه خمسون ملكا أو خمسون ألف ملك ترفعها أو تحفها حتى أقروهافي صدوري كما أقر ماء في الحوض ، ولقد أعزني الله بها وإياكم بها عزا لا يدلنا بعده أبدا وبها دحض حجج المشركين وعد من الله لا يخلفه.

وعن المنكدر لما نزلت سورة "الأنعام" سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : "لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق".

قال الأصوليون : وسبب هذه الفضيلة أنها اشتملت على دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، وإبطال مذهب المبطلين والملحدين ، وذلك يدل على أن علم الأصول في غاية الرفعة].

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٨٥٤

قال كعب الأحبار – رضي الله عنه – : هذه الآية [الكريمة] أول آية في التوراة ، وآخر آية في التوراة قوله تعالى : ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك﴾ [الإسراء : ١١١] الآية الكريمة.

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : فتح الله بالحمد ، فقال : " الحمد الله الذي خلق السموات والأرض " ، وختمهم بالحمد ، فقال : " وقضى بينم بالحق " ، وقيل : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الرمز : ٧٥].

فقوله : " الحمد لله " فحمد الله نفسه تعليما لعباده ، أي : احمدوا الله الذي خلق السموات والأرض خصمها بالذكر ؛ لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد ، وفيهما العبرة **والمنافع** للعباد.

وأعلم أن المدح أعم من الحمد ، والحمد أعم من الشكر ؛ لأن المدح يحصل للعاقل وغي العاقل ، فكما يمدح الرجل العاقل بفضله ، كذلك يمدح اللؤلؤ لحسن

٤

شكله ، ولطافة خلقته ، ويمدح الياقوت لصفائه وضقالته.

وأما الحمد فلا يحصل إلا للفعال المختار على ما يصدر عنه من الإنعام ، وإنما كون الحمد أعم من الشكر ؛ فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام ، سواء كان ذلك الإنعام واصلا إليك أو إلى غيرك.

وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك ، وإذا عرف ذلك ، فإنما لم يقل : المدح لله تبارك وتعالى لأنا بينا أن المدح كما يحصل للفاعل المختار ، فقد يحصل لغيره.

وأما الحمد فلا يحصل إلا للفاعل المختار ، وإنما لم يقل : " الشكر لله " لما بينا أن الشكر عبارة عن تعظيم تسبب إنعام صدر منه ، فيكون المطلوب الأصلي ، وقبول النعمة إليه ، وهذه درجة حقيرة.

وقوله : " الحمد لله " يدل على أن العبد حمده لأجل كونه مستحقا للحمد ، لا لخصوص كونه – تعالى – أوصل النعمة إليه فيكون الإخلاص.

فصل في بيان لفظ الحمد قوله : " الحمد " لفظ محلى بالألف واللام ، فيفيد أن هذه الماهية لله ، وذلك يمنع من ثبوت الحمد لغير الله ، وهذا يقتضي أن جميع أقسام الحمد والثناء والتعظيم ليس إلا لله تبارك

وتعالى ، فإن قيل : إن شكر المنعم واحب مثل شكر الأستاذ على
ه." (١)

"وقال الربيع بن أنس : نزل.

وقال عطاء : حل ، والمعنى يدور على الإحاطة والشمول ، ولا تستعمل إلا في الشر.

قال الشاعر : [الطويل] ٢١١٥

- فأوطأ جرد الخيل عقر ديارهم

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٠

وحاق بهم من بأس ضبة حائق

وقال الراغب : " قيل : وأصله : حق ، فقلب نحو " زل وزال " وقد قرئ " فأزلهما وأزلهما " وعلى هذا ذمه وذامه ".

وقال الأزهري : " جعل أبو إسحاق " حاق " بمعنى " أحاط " ، كأن مأخذه من " الحوق " وهو ما استدار بالكمرة ".

قال : " وجائز أن يكون الحوق فعلا من " حاق يحيق " ، كأنه في الأصل : حيق ، فقلبت الياء واوا لانضمام ما قبلها ".

وهل يحتاج إلى تقدير مضاف قبل " ما كانوا " ؟ نقل الواحدي عن أكثر المفسرين ذلك ، أي : عقوبة ما كانوا ، أو جزاء ما كانوا ، ثم قال : " وهذا إذا جعلت " ما " عبارة عن القرآن والشريعة وما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن جعلت " ما " عبارة عن العذاب الذي كان صلى الله عليه وسلم يوعدهم به إن لم يؤمنوا استغنيت عن تقدير المضاف ، والمعنى : فحاق بهم العذاب الذي يستهزئون به ، وينكرونه ".

والسخرية : الاستهزاء والتهكم ؛ يقال : سخر منه وبه ، ولا يقال إلا استهزاء به فلا يتعدى بـ " من ".

وقال الراغب : " سخرته إذا سخرته للهزء منه ، يقال : رجل سخرة بفتح الخاء إذا كان يسخر من غيره ، وسخرة بسكونها إذا كان يسخر منه ومثله : " ضحكة وضحكة " ، ولا ينقاس ".

وقوله : ﴿فاتخذتموهم سخريا﴾ [المؤمنون : ١١٠] يحتمل أن يكون من التسخير ، وأن يكون من السخرية.

وقد قرئ سخريا وسخريا بضم السين وكسرها.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٩٧٨

وسيأتي له مزيد بيان في موضعه إن شاء الله تعالى.

٤٢

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٠

قوله تعالى : ﴿قل سيروا في الأرض﴾ كما صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآية الأولى ، حذر القوم في الآية ، وقال لرسوله : قل لهم : لا تغتروا بما وصلتم إليه من الدنيا ولذاتها ، بل سيروا في الأرض لتعرفوا صحة ما أخبركم الرسول عنه من نزول العذاب بمن كذب الرسل من الأمم السالفة قبلكم.

يحذر كفار " مكة " ، ويحتمل هذا السير أن يكون بالعقول والفكر ، ويحتمل السير في الأرض.

قوله : " ثم " انظروا " : عطف على " سيروا " ولم يجئ في القرآن العطف في مثل هذا الموضوع إلا بالفاء ، وهنا جاء بـ " ثم " فيحتاج إلى فرق.

فذكر الزمخشري الفرق وهو : أن جعل النظر مسببا عن السير في قوله : " فانظروا " كأنه قيل : سيروا لأجل النظر ، ولا تسيروا سير الغافلين.

وهنا معناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع ، وإيجاب النظر في آثار الهالكين ، ونبه عل ذلك بـ " ثم " لتبعد ما بين الواجب والمباح.

قال أبو حيان - رضي الله عنه - : وما ذكر أولا متناقض ؛ لأنه جعل النظر متسببا عن السير ، فكان السير سببا للنظر ، ثم قال : فكأنه قيل : سيروا لأجل النظر ، فجعل السير معلولا بالنظر ، والنظر ، سبب له فتناقضا ، ودعوى أن " الفاء " سببية دعوى لا دليل عليها وإنما معناها التعقب فقط ، وأما " زنى ماعز فرجم " ففهم السببية من قرينة غيرها.

قال : " وعلى تقدير [تسليم] إفادتها السببن فلم كان السير هنا سير إباحة ، وفي غيره سير إيجاب ؟ ".

وهذا اعترض صحيح إلا قوله : " إن " الفاء " لا تفيد السببية " فإنه غير مرض ،

٤٣

". (١)

"واختراها بضعهم لموافقتها لما أجمع عليه في " يوسف " ﴿ولدار الآخرة خير﴾ [يوسف : ١٠٩] ، وفي مصاحف غيرهم بلامين.

و " خير " يجوز أن يكون للتفضيل ، وحذف المفضل عليه للعلم به ، أي : خير من الحياة الدنيا ،

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٩٩٦

ويجوز أن يكون لمجرد الوصف بالخيرية كقوله تعالى : ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا﴾ [الفرقان : ٢٤] و " للذين يتقون " متعلق بمحذوف ؛ لأنه صفة لـ " خير " والذي ينبغي - [أو يتعين] - أن تكون " اللام " للبيان ، أي : أعني للذين ، وكذا كل ما جاء من نحوه ، نحو : ﴿خير لك من الأولى ﴾ [الضحى : ٤].

فصل في معنى الخيرية ذكروا في وجه هذه الخيرية وجوها : أحدهما : أن خيرات الدينا [خسيسة وخيرات الآخرة شريفة وبيان ذلك في وجوه : الأول : أن خيرات الدنيا] ليس إلا قضاء الشه ◌وتين ، وهي في نهاية الخساسة ؛ لأن الحيانات الخسيسة تشارك الإنسان فيها ، بل ربما [كان] أمر تلك الحيوانات فيها أكمل من أمر الإنسان ، فالجمل أكثر أكلا ، والديك والعصفور أكثر وقاعا ، والذئب أقوى على الفساد ة والتمزيق ، والعقرب أقوى لعى الإيذاء ، ومما يدل على خساستها أنها لو كانت شريفة لكان الإكثار منها يوجب زيادة الشرف فكان يجب أن يكون الإنسان الذي أذهب عمره في الوقاع والأكل أشرف الناس وأعلاهم درجة ، ومعلوم بالبديهة أنه ليس الأمر كذلك ، بل مثل هذا الإنسان يكون [ممقوتا] مستحقرا ، يوصف بأنه بهيمة أو كلب ، أو أخس ، وذلك لأن الناس لا يفتخرون بهذه الأحوال ، بل يخفونها ، ولذلك عادة العقلاء عند الاشتغل بالوقاع يختفون عن الناس ، وأيضا فإن الناس إذا شتم بعضم بعض ا◌ لا يذكرون فيه إلا الألقاظ الدالة على الوقاع ، وأيضا فإن هذه [اللذات] سريعة الانقضاء والاستحالة ، فثبت بهذه الوجود خساسة هذه الملذات.

وأما السعادات الروحانية ، فإنها سعادات عالية شريفة ، باقية مقدسة ، ولذلك فإن جميع الخلق إذا تخيلوا في إنسان كثرة العلم والدين وشدة الانقباض عن اللذات الجسمانية ، فإنهم بالطبع يجيبونه ويخدمومنه ، ويعدونه [أنفسهم] عبيدا لذلك الإنسان ، وأشقياء بالنسبة إليه ، وذلك يدل عليه خساسة اللذات الجسمانية ، وكمال مرتبة اللذات الروحانية.

الأمر الثاني : في [بيان] أن خيرات الآخرة أفضل من خيرات الدنيا ، وهو أن يقال :

١٠٨

هب أن هذين النوعين تشاركا في الفضل إلا أن الوصول إلى الخيرات الموعودة في [غد القيامة معلوم قطعا ، وأما الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد] الدنيا فغير معلوم ، بل ولا مظنون ، فكم من سلطان قاهر في بكرة اليوم صار تحت التراب في آخر ذلك [اليوم].

الأمر الثالث : هب أنه وجد الإنسان بعد هذا اليوم يوما آخر في الدنيا إلا أنه لا يدري هل يمكنه الانتفاع

بما جمعه من الأموال والطيبات واللذات أم لا ؟ .

أما كل ما جمعه من السعادات ، فإنه قطعا أنه ينتفع به في الآخرة.

الأمر الرابع : هب أنه ينتفع بتلك بها إلا أن انتفاعه بخيرات الدنيا لا يخلو عن شوائب المكروهات [والانتفاع بخيرات] الآخرة خال [عن] شوائب المكروهات.

الأمر الخامس : هب أنه ينتفع بتلك الأموال والطيبات من غير شائبه إلا أن ذلك الانتفاع [منقرض] ذاهب والمنافع المنقرصة تحزن الإنسان لمفارقتها ، وكلما كانت تلك المنافع أكمل وألذ ، كانت [تلك] الأحزان الحاصلة عن انقراضها وانقطعها أقوى وأكمل.

فصل في المراد بقوله : " وللآخرة خير " قال ابن عباس : المراد بالآخرة الجنة ، وأنها خير لمن اتقى الكفر والمعاصي.

وقال الحسن : المراد نفس دار الآخرة خير.

وقال الأصم : التمسك بعمل الآخرة خير.

وقال آخرون : نعيم الآخرة خير من نعيم الدنيا للذين يتقون المعاصي والكبائر ، فأما الكافر والفاسق فلا [؛ لأن الدنيا] بالنسبة إليه خير من الآخرة لقوله عليه السلام : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ".

قوله : ﴿أفلا تعقلون﴾ قد تقدم الكلام في مثل هذه الهمزة الداخلة على " الفاء " وأختها " الواو " و " ثم ".

وقرأ ابن عامر - رضي الله عنه - ونافع وحفص عن عاصم : " تعقلون " خطابا لمن كان بحضرته - عليه السلام - وفي زمانه.

١٠٩

والباقون بياء الغيبة ردا على ما تقدم من ال أسماء الغائبة ، وحذف مفعول " تعقلون " للعلم به ، أي : فلا تعقلون أن الأمر كما ذكر فتزهدوا في الدنيا ، أو أنها خير من الدنيا.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠٥

". (١)

"هذا بقية الكلام على قوله : " لولا أنزل عليه آية من ربه " فقال الله تعالى : قل لهؤلاء الأقوام : إني بعثت مبشرا ومنذرا وليس لي أن أتحكم على الله.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢٠٣٠

واعلم أن القوم كانوا يقولون : إن كنت رسولا من عند الله فاطلب من الله حتى يوسع علينا منافه الدنيا وخيراتها ، فقال الله تعالى : قل لهم " إني لا أقول لكم عندي خزائن الله " ، فهو - تعالى - يؤتي الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، لا بيدي.

الخزائن : جمع " خزانة " ، وهو اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء ، وخزن الشيء إحرازه بحيث لا تناله الأيدي.

قوله : ﴿ولا اا أعلم الغيب﴾ في محل هذه الجملة وجهان : أحدهما : النصب عطفا على قوله : عندي خزائن الله " لأنه من جملة المقول ، كأنه قال : " لا أقول لكم هذا القول ، ولا هذا القول ".

١٥٦

قال الزمخشري.

وفيه نظر من حيث إنه يؤدي إلى أنه يصير التقدير : ولا أقول لكم : لا أعلم الغيب وليس بصحيح.

والثاني : أنه معطوف على " لا أقول " لامعمول ، فهو أمر أن يخبر عن نفسه بهذه الجمل الثلاث فهي معمولة للأمر الذي هو " قل " ، وهذا تخريج أبي حيان قال بعد أن حكى قول الزمخشري : " ولا يتعين ما قاله ، بل الظاهر أنه معطوف على لا أقول " إلى آخرة.

فصل في معنى الآية والمعنى : أن القوم يقولون : إن كنت رسولا من عند الله ، فلا بد وأن تخبرنا عما سيقع في المستقبل من المصالح المضار حتى نستعد لتحصيل تكل **المنافع** ، ولدفع تلك المضار ، فقال تعالى : " قل إني لا أعلم الغيب ولا أقول : إني ملك " ومعناه : أنهم كانوا يقولون : ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ [الفرقان : ٧] ويتزوج ويخالط الناس ، فقال تعالى : قل بهم : إني لست من الملائكة.

فصل في بيان فائدة هذه الأحوال اختلفوا في الفائدة من ذكر هذه الأحوال الثلاثة ، فقيل : المراد منه أ ، يظهر الرسول من نفسه التواضع لله ، والاعتراف بعبوديته حتى لا يعتقد فيه مثل اعقاد النصارى في المسيح عليه الصلاة والسلام.

وقيل : إن القوم كاوا يقترحون عليه إظهار المعجزات القاهرة ، كقولهم : ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ [الإسراء : ٩٠] فقال تعالى في آخر الآية : ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ [الإسراء : ٩٣] يعني : أنا لا أدعي إلا الرسالة والنبوة ، وهذه الأمور التي طلبتموها ، فلا يمكن تحصيلها إلا بقدرة الله.

وقيل : المراد من قوله : ﴿لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ ، أي : لا أدعي كوني موصوفا بالقدرة ، ولا أعلم الغيب ، أي : ولا أدعي كوني موصوفا بعلم الله تعالى ، وبمجموع هذين الكلامين حصل أنه لا يدعي الإلهية.

ثم قال : " ولا أقول لكم : إني ملك " وذلك ؛ لأنه ليس بعد الإلهية درجة أعلى حالا من الملائكة فصار حاصل الكلام كأنه يقول : لا أدعي الإلهية ، ولا أدعي الملكية ، ولكن أدعي الرسالة ، وهذا منصب لا يمتنع حصوله [للبشر] فكيف أطبقتم على استنكار قولي.

١٥٧

فصل في رد شبه الجبائي في تفضيل الملائكة قال الجبائي : دلت الآية على أن الملك أفضل من الأنبياء ؛ لأن [معنى الكلام] لا أدعي منزلة أقوى من منزلتي ، ولولا أن الملك أفضل ، وإلا لم يصح.

قال القاضي : إن كان الغرض بها نفي طريقة التواضع ، فالأقرب يدل على أن الملك أفضل ، وإن كان المراد نفي قدرته عن أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة لم يدل على كونه أفضل.

قوله : ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾.

يدل على أنه لا يعمل إلا بالوحي ، وأنه لم يكن يحكم من تلقاء نفسه في شيء من الأحكام ، وأنه ما كان يجتهد ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [النجم : ٣ ، ٤].

واستدل نفاة القياس بهذا النص ، قالوا : لأنه عليه الصلاة والسلام ما كان يعمل إلا بالوحي النازل ، فوجب ألا يجوز لأحد من أمته أن يعمل إلا بالوحي النازل ، ولقوله تعالى : ﴿واتبعوه﴾ [الأعراف : ١٥٨] وذلك ينفي جواز العمل بالقياس.

ثم أكد ذلك بقوله : ﴿هل يستوي الأعمى والبصير﴾ ، وذلك لأن العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى ، والعمل بمقتضى نزول الوحي يجري مجرى عمل البصير ، ثم قال تعالى : ﴿أفلا تتفكرون﴾.

والمراج منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذينش البابين ، وألا يكون غافلا عن معرفة الله.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥٦

". (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢٠٥٦

"و " الذي " في موضع نصب وإن لم يقدر حذف التنوين كان " مصدق " خبرا و " الذي في موضع خفض ، وهذا الذي قاله غلط فاحش ؛ لأن حذف التنوين إنما هو الإضافة اللفظية ، وإن كان اسم الفاعل في نية الانفصال ، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين إنما كان في يضرورة أو ندور ؛ كقوله : [المتقارب]

٢٢٣٣ - ....

ولا ذاكر الله إلا قليلا

والنحوين كلهم يقولون في " هذا ضارب الرجل " : إن حذف التنوين للإضفاة تخفيفا ؛ ولا يقول أحد منهم في مثل هذا : إنه حذف التنوين لالتقاء الساكنين.

فصل في معنى التصديق في الآية معنى كونه " مصدقا لما قبله " من الكتب المنزلة قبله أنها [توافقنا في نفي الشرك وإثبات التوحيد].

قوله : " ولتنذر " قرأ الجنهور بتاء الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام ، وأبو بكر عن عصام بياء الغيبة ، والضمير للقرآن الكريم ، وهو ظاهر أي : ينذر بمواعظه وزواجره ويجوز أن يعود على الرسول - عليه الصلاة والسلام - للعلم به.

وهذه " اللام " فيها وجهان : أحدهما : هي متعلقة بـ " أنزلنا " عطف على مقدر قدره أبو البقاء : " ليؤمنوا ولتنذر " ، وقدرها الزمخشري ، فقال : " ولتنذر معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب ، كمنا قيل : أنزلناه للبركات وليصدق ما تقدمه من الكتب والإنذار.

والثاني : أنها متعلقة بمحذوف متأخر ، أي ولتنذر أنزلناه.

قوله : " أم القرى " يجوز أن يكون من باب الحذف ، أي : أهل أم القرى ، وأن يكون من باب المجاز أطلق للحمل إلى المحل على الحال ، وإنهما أولى أعني المجاز والضمير في المسألة ثلاثة أقوال ، تقدم بيانها ، وهذا كقوله تعالى : ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف : ٨٢] وهناك وجه لا يمكن هنا ، وهو أنه يمكن أن يكون السؤال للقرية حقيقة ، ويكون ذلك معجزة للنبي ، وهنا لا يأتي ذلك وإن كانت القرية أيضا نفسها هنا تتكلم إلا أن الإنذار لا يقع لعدم فائدته.

٢٨٤

وقوله : " ومن حولها " عطف على " أهل " المحذوف ، أي : ولتنذر من حول أم القرى ، ولا يجوز أن يعطف على " أم القرى " ، إذ يلزم أن يكون معنى " ولتنذر " أهل من حولها ولا حاجة تدعو إلى ذلك ؛ لأن " من حولها " يقبلون الإنذار.

قال أبو حيان : ولم يحذف " من " ، فيعطف حول على " أم القرى " ، وإنه لا يصح من حيث المعنى ؛ لأن " حول " ظرف لا ينصرف ، فلو عطف على " أم القرى " لصار مفعولا به لعطفه على المعفول به ، وذلك لا يجوز ؛ لأن العرب لا تستعمله إلا ظرفا.

فصل في تسمية " مكة " اتفقوا على أن أم القرى " مكة " سميت بذلك ؛ قال ابن عباس : لأن الأرضين دحيت من تحتها ، فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل [النسل.

قال الأصم : سميت بذلك ؛ لأنها قبلة أهل الدنيا ، فصارت هي كالأصل] وسائر البلاد والقرى تابعة.

وأيضا من أصول عبادات أهل الدنيا الحج وهو إنما يكون في هذه البلدة ، فلهذا السبب يجتمع الخلق إليها ، كما يجتمع الأولاد إلى الأم.

وأيضا فلما كان أهل الدنيا يجتمعون هناك بسبب الحج لا جرم يحصل هناك أنواع من التجارات **والمنافع** ما لا يحصل في سائر البلاد ، ولا شك أن الكسب والتجارة من أصول **المنافع** ، فلهذا السبب سميت " مكة " بأم القرى.

وقيل : " مكة " المشرفة أول بلدة سكنت في الأرض.

قوله : " من حولها " يدخل في سائر البلدان والقرى.

قال المفسرون : المراد أهل الأرض شرقا وغربا.

قوله : " والذين يؤمنون بالآخرة " يجوز فيه وجهان : أحدهما : أنه مرفوع بالابتداء ، وخبره " يؤمنون " ولم يتحد المبتدأ ولاخبر لتغاير متعلقيهما ، فلذلك جاز أن يقع الخبر بلفظ المبتدأ ، وإلا فيمتنع أن تقول : " الذي يقوم يقوم " ، و " الذين يؤمنون يؤمنون " ، وعلى هذا فذكر الفضلة هنا واجب ، ولم يتعرض النحويون لذلك ، ولكن تعرضوا لنظائره.

والثاني : أنه منصوب عطفا على " أم القرى " أي : لينذر الذين أمنوا ، فيكون

٢٨٥

". (١)

"لما بين البينات الباهرة ، والدلائل القاهرة المطالب الإلهية عاد إلى تقرير الدعوة والتبليغ والرسالة ، وإنما ذكر الفعل لشيئين :

٣٥٢

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢١٢٤

أحدهما : الفصل بالمفعول.

والثاني : كون التأنيث مجازيا.

والبصائر : جمع " بصيرة " وهي الدلالة التي توجب إبصار النفوس للشيء ومنه قيل للدم الدال على القتيل " مبصرة " والبصيرة مختصة بالقلب [كالبصر للعين ، هذا قول بعضهم.

وقال الراغب : " ويقال لقوة القلب المدركة : " بصيرة وبصر "] قال تبارك وتعالى : ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ [القيامة : ١٤] وقال تعالى : ﴿ما زاغ البصر وما طغى ﴾ [النجم : ١٧] وتقدم تحقيق هذا في أوائل سوة " البقرة ".

وأراد بالبصائر الآيات المتقدمة ، وهي في نفسها ليست بصائر إلا أنها لقوتها وجلائها توجب البصائر لمن عرفها ، ووقف على حقائقها ، فلما كانت سببا لحصول البصائر سميت بالبصائر.

قوله : " من ربكم " يجوز أن يتعلق بالفعل قبله ، وأن يتعق بمحذوف على أنه صفة لما قبله ، أي : بصائر كائنة من ربكم و " من " في الوجهين لابتداء الغاية مجازا.

قوله : " فمن أبصر " يجوز أن تكون شرطية ، وأن تكون موصولة فالفاء جواب الشرط على الأول ، ومزيدة في الخبر لشبه المصول باسم الشرط على الثاني ، ولا بد قبل لام الجر من محذوف يصح به الكلام ، والتقدير : فالإبصار لنفسه ، ومن عمي فالعمى عليها ، فالإبصار والعمى مبتدآن ، والجار بعدهما هو الخبر بعدهما هو الخبر ، والفاء داخلة على هذه الجملة الواقعة جوابا أو خبرا ، وإنما حذف مبتدؤها للعلم به ، وقدر الزجاج قريبا من هذا فقال : " فلنفسه نفع ذلك ومن عمي فعليها ضرر ذلك ".

وقال الزمخشري : " فمن أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر وإياها نفع ، ومن عمي فعليها ، أي : فعلى نفسه عمي ، وإياها ضر ".

قال أبو حيان : وما قدرناه من المصدر أولى ، وهو فالإبصار والعمى لوجهين : أحدهما : أن المحذوف يكون مفردا لا جملة ، والجار يكون عمدة لا فضلة ، وفي تقديره هو المحذوف جملة ، والجار والمرجور فضلة.

والثاني : وهو أقوى ، وذلك أنه لو كان التقدير فعلا لم تدخل الفاء سواء كانت شرطية أم موصولة مشبهة بالشرط ؛ لأن الفعل الماضي إذا لم يكن دعاء ولا جامدا ، ووقع جواب الشرط أو خبر مبتدأ مشبه بالشرط لم تدخل الفاء في جواب الشرط ، ولا في خبر

٣٥٣

المبتدأ لو قلت : " من جاءني فأكرمته " لم يجز بخلاف تقديرنا ، فإنه لا بد فيه من الفاء ، ولا يجوز حذفها إلا في الشعر.

قال شهاب الدين : وهذا التقدير الذي قدره الزمخشري سبقه إليه الكلبين فإنه قال : فمن أبصر صدق وآمن بمحمد عليه الصلاة والسلام فنلفسه عمل ومن عمي فلم يصدق فعلى نفسه جنى العذاب " وقوله : إن الفاء لا تدخل فيما ذكر قد ينازع فيه ، وإذا كانوا فيما يصلح أن يكون جوابا صريحا ، ويظهر فيه أثر الجازم كالمضارع يجوز فيه دخول الفاء نحو : ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ [المائدة : ٩٥] فالماضي بدخولها أولى وأحرى.

فصل في بيان عود المنافع للبشر قال القاضي : إنه – تعالى – بين لنا أن المنافع تعودإليها لا لمنافع تعود إلى الله تبارك وتعالى – وأيضا إن المرء بعدوله عن النظر يضر بنفسه ، ولم يؤت إلا من قبله لا من قبل ربه ، وأيضا إنه متمكن من الأمرين ، فلذلك قال : " فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها " قال : وهذا يبطل قول المجبرة [في أنه – تعالى – يكلف بلا قدرة] وجوابه المعارضة بسؤال الداعي.

قوله : ﴿ومآ أنا عليكم بحفيظ﴾ أي : برقيب أحي عليكم أعمالكم ، إنما أنا رسوله أبلغكم رسالات ربي ، وهو الحفيظ عليكم الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

فصل في معنى الآية قال المفسرون : هذا كان قبل الأمر بالقتال ، فلما أمر بالقتال صار حفيظا عليهم ، ومنهم من يقول : آية القتال ناسخة لهذه الآية الكريمة ، وهو بعيد ؛ لأن الأصل عدم النسخ.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥٢

لما شرع في إثبات النبوات بدأ بحكاية شبهات المنكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

الشبهة الأولى : قولهم : يا محمد إن هذا القرآن الذي جئتنا به كلام تستفيده من مدارسة العلماء ، وتنظمه من عند نفسك ، ثمر تقرؤه علينا ، وتزعم أنه وحي نزل عليك من عند الله تعالى.

و " الكاف " في محل نصب نعت لمصدر محذوف ، فقدره الزجاج : ونصرف الآيات مثل ما صرفناها فيما تلي عليكم ، وقدره غيره : نصرف الآيات في غير هذه السورة

٣٥٤

". (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢١٦٣

"مرعاته ، فيكون ذلك كقوله : ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج﴾ [النور : ٤٠] أي : أو كذا ظلمات ، ولذلك أعاد الضمير في يغشاه عليه ".

قال شهاب الدين : فيبقى التقدير : مختلفا أكل ثمر الجنات وما بعدها ، [وهذا] يلزم منه إضافة الشيء إلى نفسه ؛ لأن الأكل كما تقدم غير مرة أنه الثمر المأكول.

قال الزمخشري في الأكل : " وهو ثمره الذي يؤكل ".

وقال ابن الأنباري : إن " مختلفا " نصب على القطع ، فكأنه قال : " والنخل والزرع المختلف أكلها " وهذا راي الكوفيين ، وقد تقدم إيضاحه غير مرة.

وقوله : ﴿والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا اا إلى ثمره إذآ أثمر وينعه إن في ذالكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ وقد تقد○○م إيضاحه [الأنعام : ٩٩].

قال القرطبي : " والزيتون والرمان " عطف عليه ، " متشابها وغير متشابه " نصب على الحال ، وفي هذه أدلة ثلاثة : أحدهما : ما تقدم من إقامة الدليل على أن المتغيرات لا بد لها من مغير.

الثاني : أن الدلالة على المنة منه - سبحانه وتعالى - علينا ، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء ، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم ، وإذا خلقه كذلك ألا يكون سهل الجني ، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء ؛ لأنه لا يجب عليه شيء.

الثالث : الدلالة على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرسوب ، يصعد بقدرة علام الغيوب من اسافل الشجرة إلى أعاليها ، حتى إذا انتهى إلى آخرها ، نشأ فيها أوراق ليست من جنسها ، وثمر خارج من الجرم ال○افر ، واللون الزاهر ، والجنى الجديد ، والطعم اللذيذ ؛ فأين الطباع وأجناسها ؟ وأين الفلاسفة أنسها ؟ هل في قدرة الطبيعة أن تنقن هذالا الإتقان ، أو ترتيب هذا الترتيب العجيب ؟ كلا لم يتم ذلك في العقول إلا بتدبير عالم قدير مريد ، فسبحان من له في كل شيء آية ونهاية!.

فصل في المقصود من خلق **المنافع** لما ذكر كيفية خلقه لهذه الأشياء ، ذكرما هو المقصود الأصلي من خلقها ، وهو انتفاع المكلفين ؛ فقال : "كلوا من ثمره○ إذا أثم " واختلفوا ما الفائدة منه ؟ قال بعضهم : فائدته الإباحة.

وقال آخرون : المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق ؛ لأ ، ه تعالى - لما أوجب الحق فيه ، كان يجوز أن يحرم على المالك تناوله لمشاركة المساكين ، بل هذا هو

٤٦٩

الظاهر ، ف أباح هذا الأكل وأخرج وجوب الحق فيه من أن يكون مانعا من هذا التصرف.

وقال بعضهم : بل أباح – تعالى – ذلك ليبين أن المقصد بخلق هذه النعم الأكل ، وأما تقديم ذكر الأكل على التصدق ؛ لأن رعاية النفس متقدمة على الغير ؛ قال : ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ [القصص : ٧٧].

فصل في بيان الأصل في المنافع تمسك بعضهم بقوله : "كلوا من ثمره إذا أثمر " بأن الأصل في المنافع : الإباحة ؛ لأن قوله – تعالى – : "كلوا " خطاب عام يتناول الكل ، فصار كقوله : ﴿خلق لكم ما في الأرض﴾ [البقرة : ٢٩] ويكن التمسك به على أن الأصل : عدم وجوب الصدقة ؛ لأن من ادعى إيجابه ،كان هو المحتاج إلى الدليل ، فيتمسك به في أن المجنون إذا أفاق في أثناء الشهر ، لا يلزمه قضاء ما قضى ، وفي أن الشارع في صوم النفل يجب عليه الإتمام.

فصل قال القرطبي : قوله – تعالى – ﴿كلوا من ثمره إذآ أثمر﴾ هذان بناءان جاءا بصيغة أفعل.

أحدهما : للإباحة ؛ كقوله : ﴿فانتشروا في الأرض﴾ [الجمعة١٠] والثاني : لوجوب ، ولي يمتنع في الشريعة اقتران الإباحة والواجب وبدأ بذكر نعمة الأكل قبل الأمر بإيتاء الحق ؛ ليبين أن الابتداء بالنعمة كان من فضله قبل التكليف.

وقال ابن الخطيب : وعلى أن صيغة الأمر ترد لغير الوجوب والندب ، وعند هذا ، قال بعضهم : الأصل في الاستعمال : الحقيقة ؛ فوجب جعل هذه الصيغة مفيدة لرفع الحرج ؛ فلهذا قالوا : الأمر يقتضي الإباحة إلا أن نقول : يعلم بالضرورة من لغة العرب ، أن هذه الصيغة تفيد ترجيح جانب الفعل ، فحملها على الإباحة لا يصار إليه إلا بدليل بفتح الحاء : " حصاده " والباقون بكسرها ، وهما لغتان في المصدر ؛ كقولهم ؛ جداد وجداد ، وقطاف وقطاف ، وحران وحران والصرام والصرام.

قال سيبويه : جاءوا بالمصدر حين أرادوا انتهاء الزمان على مثال : " فعال " وربما

٤٧٠

". (١)

"المعطوف عليه وأيضا دلالة الاقتران ضعيفة ، وأيضا الأكل والشرب قد يكونان واجبين أيضا في الجملة.

فإن قيل هذه الآية وردت في المنع من الطواف حال العري.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢٢٣٥

فالجواب : أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

إذا ثبت ذلك فقوله ﴿يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ يقتضي وجوب اللبس التام عند كل صلاة ؛ لأن اللبس التام هو الزينة.

ترك العمل به في القدر الذي لا يجب ستره من الأعضاء إجماعا ، فبقي الباقي داخلا تحت اللفظ.

فصل في الأصل في الأكل الحل قوله : ﴿وكلوا واشربوا﴾ مطلق ، يتناول جميع المطعومات والمشروبات ، فوجب أن يكون الأصل فيها الحل في كل الأوقات إلا ما خصه الدليل المنفصل ، والعقل يؤكده ؛ لأن الأصل في **المنافع** الحل والإباحة.

فصل في وجوب ستر العورة قال القرطبي : دلت هذه الآية على وجوب ستر العورة ، وعلى إباحة الأكل والشرب ما لم يكن سرفا ، أما ما تدعو الحاجة إليه وهو ما يسد الجوعة ويسكن الظمأ مندوب إليه عقلا وشرعا ؛ لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس ، ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال ؛ لأنه يضعف الجسد ، ويضعف عن العبادة.

قوله : " ولا تسرفوا ".

٨٩

قيل : المراد أن يأكل ويشرب بحيث لا يتعدى إلى الحرام ، ولا يكثر الإنفاق المستقبح ، ولا يتناول مقدارا كثيرا يضر به.

وقال أبو بكر الأصم : المراد بالإسراف قولهم : تحريم البحيرة والسائبة ، فإنهم أخرجوها عن ملكهم ، وتركوا الانتفاع بها ، وحرموا على أنفسهم في الحج أشياء أحلها الله لهم ، وذلك إسراف.

واعلم أن حمل لفظ الإسراف على الاستكثار [و] مما لا ينبغي أولى من حمله على المنءع مما يجوز وينبغي.

وقوله : ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ نهاية في التهديد ؛ لأن كل من لا يحبه الله يبقى محروما عن الثواب ؛ لأن محبة الله للعبد إيصال الثواب إيله ، فعدم هذه المحبة عبارة عن عدم حصول الثواب ، ومتى لم يحصل الثواب فقد حصل العقاب لانعقاد الإجماع على أنه ليس في الوجود مكللإ لا يثاب ولا يعاقب.

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٨٧

قال القرطبي : لما بين أنهم حرموا من تلقاء أنفسهم ما لم يحرمه الله عليهم ، بين هنا إباحة الزنة ، والمراد بها الملبس الحسن ذا قدر عليه صاحبه وقيل : جميع الثياب.

وهذا استفهام معناه التوبيخ والإنكار ، وإذا كان للأإنكار فلا جواب له ؛ إذ لا يراد به استعلام ، ولذلك نسب مكي إلى الوهم في زعمه أن قوله : " قل هي للذين آمنوا..

إلى آخره " جوابه.

قوله : " زينة الله " قال ابن عباس وأكثر المفسرين : المراد به اللباس الذي يستر العورة.

وقيل : جميع أنواع الزينة ، فيدخل فيه جميع أنواع الملبوس ، ويدخل تحته تنظيف البدن من جميع الوجوه ، ويدخل تحته الركوب وأنواع الحلي ؛ لأن كل ذلك زينة ، ولولا النص الوارد في تحريم الذهب والإبريسم على الرجال لكان داخلا تحت هذا العموم.

ويدخل تحت الطيبات من الرزق كل ما يستلذ ويشتهى من أنواع المأكولات والمشروبات ، ويدخل تحته التمتع بالنساء والطيب.

روي عن عثمان بن مظعون أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : " غلبني حديث النفس عزمت أن أختصي ، فقال : مهلا يا عثمان ، إن خصاء أمتى الصيام ، قال : إن نفسي تحدثنى

٩٠

." (١)

"بالترهب ، فقال : إن ترهب أمتي القعود في المساجد لانتظار الصلاة فقال : تحدثني نفسي بالسياحة ، فقال : سياحة أمتي الغزو والحج والعمرة ، فقال إن نفسي تحدثني أن أخرج مما أملك ، فقال : الأولى أن تكفي نفسك وعيالك ، وأن ترحم اليتيم ، والمساكين ، فتعطيه أفضل من ذلك ، فقال : إن نفسي تحدثني أن أطلق خولة ، فقال : إن الهجرة في أمتي هجرة ما حرم الله ، فقال : إن نفسي تحدثني ألا أغشاها ، فقال : المسلم إذا غشي أهله أو ما ملكت يمينه ، فإن لمء يصب من وقعته تلك ولدا كان له وصيف في الجنة ، وإن كان له ولد مات قبله أو بعده كان له قرة عين وفرحا يوم القيامة ، وإن مات قبل أن يبلغ الحنث كان له شفيعا ورحمة يوم القيامة ، قال : فإن نفسي تحدثني إلا آكل اللحم قال مهلا إني آكل اللحم إذا وجدتته ولو سألت الله أن يطعمنيه فعل.

قال : فإن نفسي تحدثني ألا أمس الطيب ، قال : مهلا فإن جبريل أمرني بالطيب غبا وقال : لا تتركه يوم الجمعة ، ثم قال : يا عثمان : لا ترغب عن سنتي فإن من رغب عن سنتي فمات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي " وهذا الحديث يدل على أن هذه الشريعة هي الكاملة ، وتدل على أن جميع

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢٣٢١

الزينة مباح مأذون إلا ما خصه الدليل.

فصل في إباحة **المنافع** لأبن آدم هذه الية تقتضي حل كل **المنافع** ، وهو أصل معتبر في جميع الشريعة ؛ لأن كل واقعة إما يكون النفع فيها خالصا أو راجحا ، أو يتساوى فيها الضرر والنفع ، أو يرتفعان.

أما القسمان الأخيران وهما : أن يتعادل الضرر والنفع ، أو لم يوجدا قط ، ففي هاتين الصورتين يجب الحكم ببقاء ما كان على ما كان ، وإن كان النفع خالصا ؛ وجب الإطلاق بمقتضى هذه الآية ، وإن كان النفع راجحا والضرر مرجوحا يقابل المثل بالمثل ، ويبقى القدر الزائد نفعا خالصا فيلتحق بالقسم الأول ، وهو الذي يكون النفع فيه خالصا وإن كان الضرر خالصا كان تركه نفا خالصا ، فبهذا الطريق صارت هذه الآية دالة على الأحكام التي لا نهاية لها في الحل والتحريم ، ثم إن وجدنا نصا خالصا في الواقعة قضينا في النفع بالحل ، وفي التضرر بالحرمة ، وبهذا الطريق صار جميع الأحكام التي لا نهاية لها داخل تحت هذا النص.

فصل في دحض شبهة لنفاة القياس قال نفاة القياس : لو تعبدنا الله بالقياس لكان حكم ذلك القياس إما أن يكون موافقا لحكم هذا النص العام وحينئذ يكون ضائعا ؛ لأن هذا النص مستقل به ، وإن كان مخالفا

٩٠

(١) ".

"وأصل البركة المواظبة على الشيء ، أي تابعنا عليهم المطر والمراد بـ " بركات السماء " المطر ، وبـ " بركات الأرض " النبات والثمار وكثرة المواشي والأمن والسلامة ، وذلك لأن السماء تجري مجرى الأب ، والأرض تجري مجرى الأم ، ومنهما يحصل **المنافع** ، والخيرات بخلق الله تعالى تدبيره.

ثم قال : ﴿ولـاكن كذبوا فأخذناهم﴾ بالجدب والقحط ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والمعصية ، ثم إنه تعالى أعاد التهديد بعذاب الاستئصال فقال : ﴿أفأمن أهل القرى ﴾ يعني " مكة " وما حولها ﴿أن يأتيهم بأسنا﴾ أي : العذاب ، وهذا استفهام بمعنى الإنكار ، خوفهم الله - تعالى - بنزول العذاب عليهم في وقت غفلتهم ، وهو حال النوم بالليل ، وحال الضحى بالنهار ؛ لأنه وقت اشتغال المرء باللذات.

وقوله : " وهم يلعبون " يحتمل التشاغل بأمور الدنيا فهي لعب ولهو ، ويحتمل في كفرهم ؛ لأنه كاللعب في أنه يضر ولا ينفع.

قوله : " أفأمن ".

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢٣٢٢

قال الزمخشري : " فإن قلت : ما المعطوف عليه ، ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو ؟ .
قلت : المعطوف عليه قوله : " فأخذناهم بغتة " ، [وقوله : ﴿ولو أن أهل القرى ﴾ إلى : " يكسبون " وقع اعتراضا بين المعطوف والمعطوف عليه وإنما عطفت بالفاء ؛ لأن المعنى : " فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة ، أبعد ذلك] أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى ".
قال أبو حيان : وهذا الذي ذكره رجوع عن مذهبه في مثل ذلك إلى مذهب الجماعة ، وذلك أن مذهبه في الهمزة المصدرة على حرف العطف تقدير معطوف عليه بين الهمزة وحرف العطف ، ومذهب الجماعة أن حرف العطف في نية التقدم ، وإنما تأخر وتقدمت عليه همزة الاستفهام لقوة تصدرها في أول الكلام ".

وقد تقدم تحقيقه ، والزمخشري هنا لم يقدر بينهما معطوفا عليه ، بل جعل ما بعد الفاء معطوفا على ما قبلها من الجمل ، وهو قوله : " فأخذناهم بغتة ".
قوله : " بياتا " تقدم أول السورة أنه يجوز أن يكون حالا ، وأن يكون ظرفا.
وقوله : " وهم نائمون " جدملة حالية ، والظاهر أنها حال من الضمير المستتر في " بيتا " ؛ لأنه يتحملأ ضميرا لوقوعه حالا ، فيكون الحالان متداخلين.
قوله : " ضحى " منصوب على الظرف الزماني ، ويكون متصرفا وغير متصرف ،
٢٣٥
." (١)

"وقيل : المنكر عبادة الأوثان ، وقطع الأرحام.
السابعة : قوله : ﴿ويحل لهم الطيبات﴾.
قيل : ما كانوا يحرمونه في الجاهلية : من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.
قال ابن الخطيب : وهذا بعيد لوجهين : الأول : أنه على هذا التقدير تصير الآية ويحل لهم المحللات وهذا محض التكرير.
والثاني : أن على هذا التقدير تخرج الآية عن الفائدة ، لأن لا ندري الأشياء التي أحلها الله ما هي وكم هي ؟ .
بل الواجب أن يكون المراد بالطيبات الأشياء المستطابة بحسب الطبع ؛ لأن تناولها يفسد اللذة والأصل

---
(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٢٣٩5

في المنافع الحل فدلت هذه الآية على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل إلا بدليل منفصل.

الصفة الثامنة – قوله ﴿ويحرم عليهم الخبآئث﴾.

قال عطاء عن ابن عباس : يريد الميتة والدم وما ذكر في سورة المائدة إلى قوله : ﴿ذالكم فسق﴾ [المائدة : ٣].

قال ابن الخطيب : وأقول ههنا : كل ما يستخبثه الطبع [وتستقذره النفس كان تناوله سببا للألم ، والأصل في المضار الحرمة ، فكان مقتضاه أن كل ما يستخبثه الطبع] فالأصل فيه الحرمة إلا بدليل منفصل ، وعلى هذا يحرم بيع الكلب ، قوله عليه الصلاة والسلام : " الكلب خبيث ، وخبيث ثمنه " ، فدخل في قوله تعالى : ﴿ويحرم عليهم الخبآئث﴾.

الصفة التاسعة : قوله ﴿ويضع عنهم إصرهم﴾.

قرأ ابن عامر آصارهم بالجمع ، على صفة " أفعال " فانقلبت الهمزة التي هي فاء الكلمة ألفا لسبقها بمثلها ، والباقون بالإفراد.

فمن جمع فباعتبار متعلقاته وأنواعه ، وهي كثيرة ، ومن أفرد ؛ فلأنه اسم جنس.

وقرأ بعضهم أصرهم بفتح الهمزة ، وبعضهم أصرهم بضمها.

والإصر : الثقل الذي يأصر صاحبه ، أي يحبسه من الحراك لثقله ، أي : إن شريعة موسى كانت شديدة ، وقد تقدم تفسير هذه المادة في قوله تعالى : ﴿ولا تحمل علينآ إصرا﴾ [البقرة : ٢٨٦] والأغلال جمع غل ، وهو هنا مثل لما كلفوه كقطع أثر البول ، وقتل النفس في التوبة ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وتتبع العروق من اللحم وجعلها الله

٣٤٣

إغلالا ؛ لأن التحريم يمنع من الفعل كما أن الغل يمنع من الفعل.

فصل وقيل : كانوا إذا قاموا إلى الصلاة لبسوا المسوح ، وغلوا أيديهم إلى أعناقهم.

وقد تقدم تفسير مادة " الغل " في آل عمران عند قوله : ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ [١٦١] وهذه الآية تدل على أن الأصل في المضار ألا تكون مشروعة ؛ لأن كل ما كان ضررا كان إصرا وغلا ، وهذا النص يقتضي عدم المشروعية ، كقوله : " لا ضرر ولا ضرار في الإسلام " وقول " بعثت بالحنفية السمحة السهله " فإن قيل : كيف عطف الأغلال وهو جمع على الإصر وهو مفرد ؟ .

فالجواب : أن الأصل مصدر يقع على الكثير والقليل.
قوله : ﴿فالذين آمنوا به﴾.
قال ابن عباس : يعني من اليهود وعزروه يعني وقره.
قال الزمخشري : أصل العزر المنع ، ومنه التعزير ؛ لأنه يمنع من معاودة القبيح وتقدم تفسير التعزير في المائدة ، والعامة على التشديد وعزروه.
وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر ، وسليمان التيمي : بتخفيفها ، وجعفر بن محمد وعزروه بزايين معجمتين.
ونصروه أي على عدوه.
﴿واتبعوا النور الذى أنزل معه﴾ وهو القرآن.
وقيل : الهدى والبينات والرسالة.
فصل قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى أنزل معه وإنما أنزل مع جبريل ؟ .
قلت : معناه أنزل مع نبوته ؛ لأن استنباءه كان مصحوبا بالقرن مشفوعا به ، ويجوز أن يتعلق بـ " اتبعوا " أي واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته ، وبما أمر به ونهى عنه أو اتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه ، يعني بهذا الوجه الأخير أنه حال من فاعل اتبعوا.
وقيل : " مع " بمعنى " على " أي : أنزل عليه.
وجوز أبو حيان أن يكون معه ظرفا في موضع الحال.
قال : العامل فيها محذوف تقديره : أنزل كائنا معه ، وهي حال مقدرة كقولهم :
٣٤٤
مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ، فحالة الإنزال لم يكن معه ، لكنه صار معه بعد ، كما أن الصيد لم يكن وقت المرور.
ثم لما ذكر تعالى هذه الصفات ، قال : ﴿أولئك هم المفلحون﴾ أي : الفائزون في الدنيا والآخرة.
جزء : ٩ رقم الصفحة : ٣٣٩
." (١)

"" كثيرا " وإن كان نكرة لتخصصه بالوصف ، أو من الضمير المستكن في من الجن ؛ لأنه تحمل ضميرا ، لوقوعه صفة ، ويجوز أن يكون لهم على حدته هو الوصف ، أو الحال ، وقلوب فاعل به فيكون

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٢٤٥٤

من باب الوصف بالمفرد ، وهو أولى.

وقوله : " لا يفقهون بها " وكذلك الجملة المنفية في محل النعت لما قبلهان وهذا الوصف يكاد يكون لازما ، لوروده في غير القرآن ؛ لأنه لا فائدة بدونه ؛ لو قلت : لزيد قلب وله عين ، وسكت لم يظهر لذلك كبير فائدة.

فصل المعنى : لهم قلوب لا يعلمون بها الخير والهدى ، ولهم أعين لا يبصرون بها طريق الحق ، ولهم آذان لا يسمعون بها مواعظ القرآن فيتفكرون فيها ويعتبرون.

ثم ضرب لهم مثلا في الجهل والاقتصار على الأكل والشرب ، فقال : ﴿أولائك كالأنعام بل هم أضل﴾ أي : أن همتهم الأكل واشرب والتمتع بالشهوات ﴿بل هم أضل﴾ ؛ لأن الأنعام تميز بين المضار **والمنافع** فلا تقدم على المضار ، وهؤلاء يقدمون بالشهوات على النار معاندة مع العلم بالهلاك.

وقيل : لأن الأنعام مطيعة لله تعالى والكافر غير مطيع.

وقال مقاتل : هم أخطأ طريقا من الأنعام ؛ لأن الأنعام تعرف ربها ، وهم لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه.

وقيل : لأنها تفر إلى أربابها ومن يقوم بمصالحها ، والكافر يهرب عن ربه الذي أنعم عليه.

وقيل : لأنها تضل إذا لم يكن معها مرشد ، فإن كان معها مرشد فقلما تضل ، وهؤلاء الكفار قد جاءهم الأنبياء وهم يزدادون في الضلال : ﴿أولائك هم الغافلون﴾.

فصل دلت الية على أنه تعالى كلفهم مع أن قلوبهم ، وأبصارهم ، وأسماعهم ما كانت صالحة لذلك ، وهو يجري مجرى المنع عن الشيء والصد عنه مع الأمر به.

قالت المعتزلة : لو كانوا كذلك لقبح من الله تكليفهم ؛ لأن تكليف من لا قدرة له على الفعل قبيح لا يليق بالحكيم ؛ فوجب حمل الآية على أن المراد منه كثرة الإعراض عن الدلائل وعدم الالتفات إليها ، فأشبهوا من لا قلب له فاهم ولا عين باصرة ولا أذن سامعة.

وأجيبوا بأن الإنسان إذا تأكدت نفرته عن شيء صارت تلك النفرة المتأكدة الراسخة

٣٩٩

مانعة له عن فهم الكلام الدال على صحة الشيء ، ومانعة عن إبصار محاسنه وفضائله وهذه حالة وجدانية ضرورة يجدها كل أحد من نفسه.

ولهذا قالوا في المثل : حبك للشيء يعمي ويصم.

وإذا ثبت هذا فنقول : إن أقواما من الكفار بلغوا في عداوة الرسول – عليه الصلاة والسلام – وفي بغضه

وشدة النفرة عن قبول دينه والاعتراف برسالته هذا المبلغ وأوقى منه والعلم الضروري حاصل بأن حصول الحب والبغض في القلب ليس باخ‍تيار أحد.

وإذا ثبت أنه متى حصلت هذه النفرة والعداوة في القلب ، فإن الإنسان لا يمكنه مع تلك النفرة الراسخة والعداوة الشديدة تحصيل الفهم والعلم ، فإذا كان كذلك كان القول بالجبر لا محيص عنه.

فصل وقد أورد الغزالي في الإحياء سؤالا ، فقال : فإن قيل : إني أجد من نفسي أني إن شئت الفعل فعلت ، وإن شئت الترك تركت ، فيكون فعلي حاصلا بي لا بغيري.

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٣٩٦

قوله : ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾.

يجوز في " ما " أوجه : أحدها : أن تكون استفهامية في محل رفع بالابتداء ، والخبر " بصاحبهم " أي : أي شيء استقر بصاحبهم من الجنون ؟ ف : الجنة : مصدر يراد بها الهيئة ، ك : الركبة ، والجلسة.

٤٠٤

". (١)

"فاهمة ، فلهذا وردت هذه الألفاظ وفق اعتقادهم ؛ ولهذا قال : ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ [الأعراف : ١٩٤].

وقال : " إن الذين " ولم يقل : " إن التي ".

وثانيها : أن هذا اللفظ ورد في معرض الاستهزاء بهم أي : أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم ، ولا فضل لهم عليكم ، فلم جعلتم أنفسكم عبيدا وجعلتموها آلهة وأربابا ؟ ثم أبطل أن يكونوا عبادا فقال : ﴿ألهم أرجل يمشون بهآ﴾ ثم أكد البيان بقوله ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾.

ومعنى هذا الدعاء طلب **المنافع** وكشف المضار من جهتهم واللام ي قوله : ﴿فليستجيبوا لكم﴾ لام الأمر على معنى التعجيز ، ثم لما ظهر لكل عاقل أنها لا تقدر على الإجابة ظهر أنها لا تصلح للعبادة ، ونظيره قول إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾ [مريم : ٤٢] وقوله : ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أنها آلهة ومستحقة للعبادة.

وثالثها : قال مقاتل : الخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة.

قوله : ﴿ألهم أرجل يمشون بهآ أم لهم أيد يبطشون بهآ أم لهم أعين يبصرون بهآ أم لهم آذان يسمعون

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢٤٨٣

بها﴾ قرأ العامة بكسر الطاء ، من بطش يبطش ، وقرأ أبو جعفر وشيبة ، ونافع في رواية عنه : يبطشون بضمها ، وهما لغتان ، وهما لغتان ، والبطش ، الأخذ بقوة.

واعلم أنه تعالى ذكر هذا الدليل لبيان أنه يقبح من الإنسان العاقل أن يعبد هذه الأصنام ؛ لأن هذه الأعضاء الأربعة إذا كان فيها القوى المحركة والمدركة كانت أفضل منها إذا كانت خالية عن هذه القوى ، فالرجل القادرة على المشي ، واليد القادرة على البطش أفضل من اليد والرجل الخاليتين عن قوة الحركة والحياة ، والعين الباصرة والأذن السامعة أفضل من العين والأذن الخاليتين عن القوة السامعة ، والباصرة ، وعن قوة الحياة.

وإذا ثبت ذلك ظهر أن الإنسان أفضل بكثير من الأصنام بل لا نسبة لفضيلة الإنسانه إلى فضيلة الأصنام ألبتة.

وإذا كان كذلك فكيف يليق بالأفضل والأكل الأشرف أن يعبد الأخس الأدون الذي لا يحصل منه فائدة ألبتة ، لا في جلب منفعة ولا في دفع مضرة.

قوله : ﴿قل ادعوا شركآءكم ثم كيدون﴾ قرأ أبو عمرو كيدوني بإثبات الياء وصلا ، وحذفها وقفا وهشام بإثباتها في الحالين ، والباقون بحذفها في الحالين ، وعن هشام.

٤٢٧

خلاف مشهور قال أبو حيان : وقرأ أبو عمرو وهشام بخلاف عنه فكيدوني بإثبات الياء وصلا ووقفا.

قال شهاب الدين : أبو عمرو لا يثبتها وقفا ألبتة ، فإن قاعدته في الياءات الزائدة ما ذكرته ، وفي قراءة فكيدثوني ثلاثة ألفاظ ، هذه وقد عرف حكمها ، وفي هود : " فكيدوني جميعا " أثبتها القراء كلهم في الحالين.

وفي المرسلات : ﴿فإن كان لكم كيد فكيدون﴾ [الآية : ٣٩] حذفها الجميع في الحالين وهذا نظير ما تقدم في قوله ﴿واخشوني﴾ [البقرة : ١٥٠] فإنها في البقرة ثابتة للكل وصلا ووقفا ، ومحذوفة في أول المائدة ، ومختلف في ثانيتها.

فصل والمعنى : ادعوا شركاءكم يا معشر المشركين ثم كيدوني أنتم وهم فلا تنظرون أي لا تمهلون واعجلوا في كيدي ليظهر لكم أن لا قدرة لها على إيصار المضار بوجه من الوجوه.

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٤٢٥

قوله : ﴿إن وليي الله﴾ العامة على تشديد وليي مضافا لياء المتكلم المفتوحة ، وهي قراءة واضحة أضاف

الولي إلى نفسه.

وقرأ أبو عمرو في بعض طرقه " إن ولي " بياء واحدة مشددة مفتوحة ، وفيها تخريجان : أحدهما : قال أبو علي : إن ياء " فعيل " مدغمة في ياء المتكلم ، وإن الياء التي هي لام الكلمة محذوفة ، ومنع من العكس.

والثاني : أن يكون ولي اسمها ، وهو اسم نكرة غير مضاف لياء المتكلم ، والأصل : إن وليا الله فـ " وليا " اسمها والله خبرها ، ثم حذف التنوين ؛ لالتقاء الساكنين ؛ كقوله : [المتقارب] ٢٦٥٢ - فألفيته غير مستعتب

ولا ذاكر الله إلا قليلا

وكقراءة من قرأ ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾ [الإخلاص : ١ - ٢] ولم يبق إلا الإخبار عن نكرة بمرعفة ، وهو وارد.

٤٢٨

قال الشاعر : [الطويل] ٢٦٥٣ - وإن حراما أن أسب مجاشعا

بآبائي الشم الكرام الخضارم

." (١)

"فإن قيل : أليس قد قال تعالى : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال : ٣٣] فكيف قال ههنا : ﴿يعذبهم الله بأيديكم﴾ ؟ .

فالجواب : المراد من قوله ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال : ٣٣] عذاب الاستئصال والمراد من قوله : ﴿يعذبهم الله بأيديكم﴾ عذاب القتل والحرب ، والفرق بين البابين : أن عذاب الاستئصال قد يتعدى إلى غير المذنب ، وإن كان في حقه سببا لمزيد الثواب ، أما عذاب القتل ، فالظاهر أنه مقصور على المذنب.

فصل احتج أهل السنة على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى بقوله : ﴿يعذبهم الله بأيديكم﴾ فإن المراد من هذا العذاب ، القتل والأسر ، وظاهر هذا النص يدل على أن ذلك القتل والأسر فعل الله تعالى ، يدخله في الوجود على أيدي العباد.

وأجاب الجبائي عنه فقال : لو جاز أن يقال إنه يعذب الكفار بأيدي المؤمنين لجاز أن يقال : إنه يعذب

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٢٤٩٦

المؤمنين بأيدي الكفار ، ولجاز أن يقال : إنه يكذب الأنبياء على ألسنة الكفار ، ويلعن المؤمنين على ألسنتهم ، لأنه تعالى خالق لذلك ، فلما لم يجز ذلك عند المجبرة ، علم أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد ، وإنما نسب ما ذكر إلى نفسه على سبيل التوسع من حيث إنه حصل بأمره وألطافه ، كما يضيف جميع الطاعات إليه بهذا التفسير.

وأجيب : بأن الذي ألزمتموه علينا فالأمر كذلك ، إلا أنا لا نقوله باللسان ، كما نعلم أنه تعالى هو الخالق لجميع الأجسام ، ثم إنا لا نقول : يا خالق الأبوال والعذرات ، ويا مكون الخنافس ، والديدان ، فكذا ههنا ، وأيضا : أنا توافقنا على أن الزنا واللواط وسائر القبائح ، إنما حصلت بتقدير الله وتيسيره ، ثم لا يجوز أن يقال : يا مسهل الزنا واللواط ، ويا دافع الموانع عنها.

وأما قوله : المراد إذن الإقدار ، فهذا صرف للكلام عن ظاهره ، وذلك لا يجوز إلا لدليل قاهر ، والدليل القاهر من جانبنا ، فإن الفعل لا يصدر إلا عند الداعية الحاصلة ، وحصول تلك الداعية ليس إلا من الله تعالى.

وثانيها : قوله : " ويخزهم " أي : يذلهم بالأسر والقهر ، قال الواحدي " إنهم بعد قتلكم إياهم " وهذا يدل على أن الإخزاء وقع بهم في الآخرة ، هذا ضعيف لما تقدم من أن الإخزاء حاصل في الدنيا.

وثالثها : قوله : " وينصركم عليهم " أي : لما حصل لهم الخزي ، بسبب كونهم مقهورين فقد حصل النصر للمسلمين [بسبب] كونهم قاهرين.

فإن قيل : لما كان حصول الخزي مستلزما لحصول النصر ، كان إفراده بالذكر عبثا.

فالجواب : ليس الأمر كذلك ؛ لأنه يحتمل أن يحصل الخزي لهم من جهة

٣٨

المؤمنين ، إلا أن المؤمنين يحصل لهم آفة بسبب آخر ، فلما قال : " وينصركم عليهم " دل على أنهم ينتفعون بهذا النصر والفتح والظفر.

ورابعها : قوله ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾.

قرأ الجمهور بياء الغيبة ، ردا على اسم الله تعالى ، وقرأ زيد بن علي " نشف " بالنون ، وهو التفات حسن ، وقال : " قوم مؤمنين " شهادة للمخاطبين بالإيمان ، فهو من باب الالتفات ، وإقامة الظاهر مقام المضمر ، حيث لم يقل " صدوركم ".

والمعنى : ويبرىء داء قلوب قوم مؤمنين مما كانوا ينالونه من الأذى منهم.

ومعلوم أن من طال تأذيه من خصمه ، ثم مكنه الله منه على أحسن الوجوه ، فإنه يعظم سروره به ، ويصير ذلك سببا لقوة النفس ، وثبات العزيمة.

وقال مجاهد والسدي " أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله ، حيث أعانت قريش بني بكر عليهم حتى نكلوا بهم ، فشفى الله صدورهم من بني بكر بالنبي صلى اللہ عليه وسلم ".

وخامسها : قوله : ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ كربها ووجدها بمعونة قريش بني بكر عليهم.

فإن قيل : قوله ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ وبين قوله : ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ فهذه **المنافع** الخمسة ترجع إلى تسكين الدواعي الناشئة من القوة الغضبية ، وهي التبشفي ، ودرك الثأر وإزالة الغيظ ، ولم يذكر فيها وجدان المال ، والفوز بالمطاعم والمشارب ؛ لأن العرب جبلوا على الحمية والأنفة ، فرغبهم في هذه المعاني لكونها لائقة بطباعهم.

وقرأ الجمهور : " ويذهب " بضم الياء وكسر الهاء من : " أذهب " ، و " غيظ " مفعول به وقرىء " ويذهب " بفتح الياء والهاء ، جعله مضارعا لـ " ذهب " ، و " غيظ " فاعل به

٣٩

". [١]

"ولو قلت : " وأنا قائم " حالا من ضمير " ليفعلن " لم يجز ، وكذا عكسه ، نحو : حلف زيد لأفعلن يقوم ، تريد : قائما ، لم يجز.

وأما قوله : " وجاء به على لفظ الغائب ؛ لأنه مخبر عنهم " فمغالطة ، ليس مخبرا عنهم بقوله : " لو استطعنا لخرجنا " ، بل هو حاك لفظ قولهم.

ثم قال : ألا ترى لو قيل : لو استطاعوا لخرجوا ، لكان سديدا...

إلى آخره.

كلام صحيح ، لكنه – تعالى – لم يقل ذلك إخبارا عنهم ، بل حكاية ، والحال من جملة كلامهم المحكي ، فلا يجوز أن يخالف بين ذي الحال وحاله ، لاشتراكهما في العامل ، لو قلت : قال زيد : خرجت يضرب خالدا ، تريد : اضرب خالدا ، لم يجز .

ولو قلت : قالت هند : خرج زيد أضرب خالدا ، تريد : خرج زيد ضارب خالدا ، لم يجز ، انتهى.

الرابع : أنها جملة استئنافية ، أخبر الله عنهم بذلك.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢٥٩٠

فصل معنى الآية : أنه لو كانت **المنافع** قريبة ، والسفر قريبا لاتبعوك طمعا منهم في الفوز بتلك **المنافع** ، ولكن طال السفر ، وكانوا كالآيسين من الفوز بالغنيمة ، بسبب استعظامهم غزو الروم ، فلهذا تخلفوا ، ثم أخبر تعالى أنه إذا رجع من الجهاد يجدهم : ﴿سيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ إما عند ما يعاتبهم بسبب التخلف ، وإما ابتداء على طريقة إقامة العذر في التخلف ، ثم بين أنهم يهلكون أنفسهم بسبب الكذب والنفاق ، وهذا يدل على أن الأيمان الكاذبة توجب الهلاك ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " اليمين الغموس تدع الديار بلاقع " ثم قال : ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ في قولهم ما كنا نستطيع الخروج فإنهم كانوا مستطيعين الخروج ، فكانوا كاذبين في أيمانهم.

فصل قالوا : الرسول – عليه الصلاة والسلام – أخبر عنهم أنهم سيحلفون ، وهذا إخبار عن غيب يقع في المستقبل ، والأمر لما وقع كما أخبر كان إخبارا عن الغيب ، فكان معجزا.

قوله تعالى : ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ الآية.

لما بين تعالى بقوله : ﴿لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك﴾ أنه تخلف قوم عن ذلك الغزو ، وليس فيه بيان أن ذلك التخلف كان بإذن الرسول أم لا ؟ فلما قال بعده : ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ دل هذا ، على أن فيهم من تخلف بإذنه.

قوله : ﴿لم أذنت لهم﴾ " لم " ، و " لهم "كلاهما متعلق بـ " أذنت " ، وجاز ذلك ؛ لأن معنى اللامين مختلف ؛ فالأولى للتعليل ، والثانية للتبليغ.

وحذفت ألف " ما " الاستفهامية

١٠١

". (١)

"والضمير في " قدره " يعود على القمر وحده ، لأنه هو عمدة العرب في تواريخهم.

وقال ابن عطية : " ويحتمل أن يريدهما معا بحسب أنهم يتصرفان في معرفة عدد السنين والحساب لكنه اجتزىء بذكر أحدهما ، كقوله تعالى ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة : ٦٢] ؛ وكما قال الشاعر : [الطويل] ٢٨٧٧ – رماني بأمر كنت منهث ووالدي

بريئا ومن أجل الطوي رماني

جزء : ١٠ رقم الصفحة : ٢٦٥

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٢٦٢٤

قوله : " لتعلموا " : متعلق بـ " قدره " ، وسئل أبو عمرو عن الحساب : أتنصبه أم تجره ؟ فقال : ومن يدري ما عدد الحساب ؟ يعني أنه سئل : هل تعطفه على " عدد " فتنصبه أم على " السنين " فتجره ؟ فكأنه قال : لا يمكن جره ، إذ يقتضي ذلك أن يعلم عدد الحساب ولا يقدر أحد أن يعلم عدده.

فصل معنى الآية : ﴿هو الذي جعل الشمس ضيآء﴾ بالنهار ، ﴿والقمر نورا﴾ بالليل.

وقيل : جعل الشمس ذات ضياء ، والقمر ذا نور ، ﴿وقدره منازل﴾ أي : قدر له ، يعنى : هيأ له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها ، ولم يقل قدرهما.

قيل تقدير المنازل منصرف اليهما ، واكتفى بذكر أحدهما لما قدمنا.

وقيل : ينصرف إلى القمر خاصة ، لأن بالقمر خاصة يعرف انقضاء الشهور والسنين ، لا بالشمس.

ومنازل القمر هي : المنازل المشهورة ، وهي الثمانية والعشرون منزلا ، وهذه المنازل مقسومة على البروج الاثني عشر ، لكل برج منزلتان واحدة إن كان الشهر تسعا وعشرين ، فيكون انقضاء الشهر مع نزوله تلك المنازل ، ويكون مقام الشهر في كل منزلة ثلاثة عشر يوما ، فيكون انقضاء السنة مع انقضائها.

واعلم : أن الشمس سلطان النهار وأن القمر سلطان الليل ، وبحركة الشمس تنفصل السنة إلى الفصول الأربعة ، وبالفصول الأربعة تنتظم مصالح هذا العالم ، وبحركة القمر تحصل الشهور ، وباختلاف حاله في زيادة ضوئه ونقصانه تختلف أحوال رطوبات هذا العالم ، وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل ، فالنهار زمان التكسب والطلب ، والليل زمان للراحة ، وهذا يدل على كثرة رحمة الله - تعالى - للخلق وعظم عنايته لهم.

قال حكماء الإسلام : هذا يدل على أنه - تعالى - أودع في أجرام الأفلاك والكواكب خواص معينة ، وقوى مخصوصة باعتبارها تنتظم مصالح هذا العالم السفلي ، إذ لو لم يكن لها آثار وفوائد في هذا العالم ، لكان خلقها عبثا وباطلا بغير فائدة ، وهذه النصوص تنافي ذلك.

قوله : ﴿ما خلق الله ذالك إلا بالحق﴾ " ذلك " إشارة إلى الخلق ، والتقدير : ما خلق الله ذلك المذكور إلا ملتبسا بالحق ، فيكون حالا : إما من الفاعل وإما من المفعول.

وقيل :

٢٦٧

الباء بمعنى اللام أي : للحق ، ولا حاجة إليه ، والمعنى : لم يخلقه باطلا ، بل إظهارا لصنعته ، ودلالة على قدرته.

قوله : " يفصل " قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، ويعقوب " يفصل " بياء الغيبة جريا على اسم الله – تعالى – ، والباقون : بنون العظمة ، التفاتا من الغيبة إلى التكلم للتعظيم.

ومعنى التفصيل : هو ذكر هذه الدلائل الباهرة ، واحدة عقب الأخرى مع الشرح والبيان ، ثم قال " لقوم يعلمون " قيل : المراد منه : العقل الذي يعم الكل.

وقيل : المراد منه تفكر وعلم فوائد مخلوقاته ، وآثار إحسانه ، لأن العلماء هم المنتفعون بهذه الدلائل ، كقوله ﴿إنمآ أنت منذر من يخشاها﴾ [النازعات : ٤٥] مع أنه – عليه الصلاة والسلام – كان منذرا للكل.

قوله تعالى : ﴿ن في اختلاف الليل والنهار﴾ الآية.

اعلم أنه تعالى استدل على التوحيد والإلهية.

أولا : بتخليق السموات والأرض.

وثانيا : بأحوال الشمس والقمر.

وثالثا : في هذه الآية **بالمنافع** الحاصلة من اختلاف الليل والنهار ، وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة عند قوله : ﴿إن في خلق السماوات والأرض﴾ [البقرة : ١٦٤].

واعلم أن الحوادث الحادثة في هذا العالم أربعة أقسام : أحدها : الأحوال الحادثة في العناصر الأربعة ، ويدخل فيها أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار والثلوج ، ويدخل فيها أحوال البحار ، وأحوال المد والجزر ، وأحوال الصواعق والزلازل والخسف.

وثانيها : أحوال المعادن وهي عجيبة كثيرة.

وثالثها : اختلاف أحوال النبات.

ورابعها : اختلاف أحوال الحيوانات ، وكلها داخلة في قوله : ﴿وما خلق الله في السماوات والأرض﴾.

ثم قال : ﴿لآيات لقوم يتقون﴾ خصها بالمتقين ؛ لأنهم يحذرون العاقبة.

جزء : ١٠ رقم الصفحة : ٢٦٥

قوله تعالى : ﴿إن الذين لا يرجون لقآءنا﴾ الآية.

لما ذكر الدلائل القاهرة على إثبات الإلهية ، وعلى صحة القول بالمعاد ، والحشر ،

٢٦٨

". (١)

"قوله : " ويقولون " أي : كفار مكة ، " لولا أنزل عليه " أي : على محمد " آية من ربه " على ما نقترحه ، وذلك أنهم قالوا : القرآن الذي جئنا به كتاب مشتمل على أنواع من الكلمات ، والكتاب لا يكون معجزا ، كما أن كتاب موسى ، وعيسى ما كان معجزا لهما ، بل كان لهما أنواع من المعجزات ، دلت على نبوتهما سوى الكتاب ، وكان في أهل مكة من يدعي إمكان المعارضة ، كما أخبر الله – تعالى – عنهم في قوله : ﴿لو نشآء لقلنا مثل هذا إن هذآ﴾ [الأنفال : ٣١].

فلذلك طلبوا منه شيئا آخر سوى القرآن ؛ ليكون معجزا ، فأمر الله – تبارك وتعالى رسوله – صلوات الله وسلامه عليه – بأن يجيبهم بقوله : ﴿إنما الغيب لله فانتظروا اا إني معكم من المنتظرين﴾ [يونس : ٢٠].

وتقرير هذا الجواب : أنه أقام الدلالة القاهرة على أن القرآن معجزة قاهرة ؛ لأنه – صلوات الله وسلامه عليه – نشأ بينهم ، وعلموا أنه لم يطالع كتابا ، ولا تتلمذ لأستاذ ، مدة أربعين سنة مخالطا لهم ، ولم يشتغل بالفكر والتعلم قط ، ثم إنه أظهر هذا القرآن العظيم ، وظهور مثل هذا الكتاب على مثل ذلك الإنسان ، لا يكون إلا بالوحي ، وإذا كان كذلك ، فطلب آية أخرى سوى القرآن يكون اقتراحا لا حاجة إليه وعنادا ، ومثل هذا يكون مفوضا إلى مشيئة الله – تعالى – ، فإن شاء أظهر ، وإن شاء لم يظهر ، فيكون من باب الغيب ، فيجب على كل أحد أن ينتظر ، هل يفعله الله أم لا ؟ ولكن سواء فعل أم لم يفعل فقد ثبت نبوته ، وظهر صدقه ، وهذا المقصود لا يختلف بحصول تلك الزيادة وعدمها.

قوله تعالى : ﴿وإذآ أذقنا الناس رحمة﴾ الآية.

وهذا جواب آخر لسؤالهم ، وطلبهم المعجزة ، وذلك من وجهين : الأول : أن عادتهم العناد ، والمكر ، وعدم الإنصاف ، فبتقدير أن يعطوا ما سألوه ، فإنهم لا يؤمنون ، بل يبقون على كفرهم ، وعنادهم ؛ وبيانه أن الله – تعالى – سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ، ثم رحمهم ، وأنزل المطر على أراضيهم ، ثم إنهم أضافوا **المنافع** إلى الأنواء والكواكب.

الوجه الثاني : أنه لو أنزل عليهم المعجز لم يقبلوه ؛ لأنه ليس غرضهم من هذه الاقتراحات التشدد في الدين ، وإنما غرضهم الدفع ، والمبالغة في صون مناصبهم الدنيوية ؛ لأنه – تعالى – لما سلط البلاء عليهم ، ثم أزاله عنهم ، فهم مع ذلك استمروا على الكفر.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢٧٢٠

٢٨٨
قوله : " وإذآ أذقنا " شرطية ؛ جوابها " إذا " الفجائية في قوله : " إذا لهم مكر " ، والعامل في " إذا " الفجائية ؛ الاستقرار الذي في " لهم " ، وقد تقدم الخلاف في " إذا " هذه ، هل هي حرف أو ظرف زمان على بابها ، أو ظرف مكان ؟ قال أبو البقاء : " وقيل : " إذا " الثانية زمانية أيضا ، والثانية وما بعدها جواب الأولى " ، وهذا الذي حكاه قول ساقط لا يفهم معناه.

فصل معنى الآية : ﴿وإذآ أذقنا الناس﴾ يعني : الكفار ﴿رحمة من بعد ضرآء مستهم﴾ أي : راحة ورخاء من بعد شدة وبلاء.

وقيل : القطر بعد القحط ، " مستهم " أي : أصابتهم.

واعلم : أن رحمة الله لا تذاق بالفم ، وإنما تذاق بالعقل.

وقوله ﴿إذا لهم مكر فى آياتنا﴾ قال مجاهد : تكذيب واستهزاء ، وسمي التكذيب مكرا ؛ لأن المكر عبارة عن صرف الشيء عن ظاهره بطريق الحيلة ، وهؤلاء يحتالون لدفع آيات الله - سبحانه وتعالى - بكل ما يقدرون عليه من إلقاء الشبهة ، أو التخليط في المناظرة ، أو غير ذلك من الأمور الفاسدة.

وقال مقاتل : لا يقولون هذا من رزق الله ، إنما يقولون سقينا بنوء كذا ، وهو كقوله : ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ [الواقعة : ٨٢].

وقوله : " فى آياتنا " متعلق بـ " مكر " ، جعل الآيات محلا للمكر مبالغة ، ويضعف أن يكون الجار صفة لـ " مكر ".

قوله : ﴿قل الله أسرع مكرا﴾ " أسرع " مأخوذ من " سرع " ثلاثيا ؛ حكاه الفارسي.

وقيل : بل من " أسرع " وفي بناء أفعل وفعلى التعجب من " أفعل " ثلاثة مذاهب : الجواز مطلقا. المنع مطلقا.

التفصيل : بين أن تكون الهمزة للتعدية فيمتنع ، أو لا فيجوز.

وقال بعضهم : " أسرع " هنا ليست للتفضيل.

وهذا ليس بشيء ، إذ السياق يرده ، وجعله ابن عطية - أعني كون أسرع للتفضيل - نظير قوله : " لهي أسود من " قال أبو حيان : " وأما تنظيره " " أسود من القار " بـ " أسرع " ففاسد ؛ لأن " أسود " ليس ٢٨٩." [1]

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢٧٣٤

"أو بقطع **المنافع** ، فبين فيما تقدم أنه لا يخاف شرهم ، وبين في هذه الآية أنه لا يخاف منهم بسبب أن يقطعوا عنه خيرا ؛ لأنه ما أخذ منهم شيئا ، فكان يخاف أن يقطعوا منه خيرا ، ثم قال : ﴿إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ وفيه قولان : الأول : أنكم سواء قبلتم دين الإسلام ، أو لم تقبلوا ، فأنا مأمور بأن أكون على دين الإسلام.

الثاني : أني مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إلي لأجل هذه الدعوة ، وهذا الوجه أليق بهذا الموضع ؛ لأنه لما قال اقضوا إلي بين أنه مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إليه.

قوله : ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك﴾.

لما حكى كلام نوح مع الكفار ، ذكر – تعالى – ما آل أمرهم إليه : أما في حق نوح وأصحابه ، فنجاهم وجعلهم خلائف ، أي : يخلفون من هلك بالغرق ، وأما في حق الكفار فإنه – تعالى – أهلكهم وأغرقهم ، وهذه القصة إذا سمعها من صدق الرسول ومن كذب به ، كانت زجرا للمكذبين فإنهم يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح ، وتكون داعية للمؤمنين إلى الثبات على الإيمان ؛ ليصلوا إلى مثل ما وصل إليه قوم نوح.

قوله ﴿في الفلك﴾ يجوز فيه وجهان : أحدهما : أن يتعلق بـ " نجيناه " ، أي : وقع الإنجاء في هذا المكان.

والثاني : أن يتعلق بالاستقرار الذي تعلق به الظرف ، وهو " معه " لوقوعه صلة ، أي : والذين استقروا معه في الفلك ، وقوله : " وجعلناهم " أي : صيرناهم ، وجمع الضمير في " جعلناهم " حملا على معنى " من " ، و " خلائف " جمع خليفة ، أي : يخلفون الغارقين.

قوله : ﴿ثم بعثنا من بعده﴾ أي : من بعد نوح ، ﴿رسلا إلى قومهم﴾ ولم يسم الرسل ، وقد كان منهم هود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، ﴿فجآءوهم بالبينات﴾ ، وهي المعجزات الباهرة ، و " بالبينات " متعلق بـ " فجاءوهم " أو بمحذوف على أنه حال أي : ملتبسين بالبينات ، ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ أي : أن حالهم بعد بعثة الرسل ، كحالهم قبلها في كونهم أهل جاهلية.

قال القرطبي : التقدير : بما كذب به قوم نوح من قبل ، وقيل " بما كذبوا به " أي : من قبل يوم الذر فإنه كان فيهم من كذب بقلبه ، وإن قال الجميع : بلى.

وقال النحاس : أحسن ما قيل في هذا : أنه لقوم بأعيانهم ، مثل : ﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة : ٦].

و " بالبينات " متعلق بـ " جاءوهم " ، أو بمحذوف على أنه حال ، أي : ملتبسين بالبينات.
وقوله : ﴿ليؤمنوا﴾ أتى بلام الجحود توكيدا ، والضمير في ﴿كذبوا﴾ عائد على من عاد عليه الضمير في كانوا ، وهم قوم الرسل.
٣٨١
." (١)

"فصل إن قلنا هذا خطاب للمؤمنين ، فالمعنى : ابقوا على العلم الذي أنتم عليه ؛ لتزدادوا يقينا وثبات قدم ، على أنه منزل من عند الله.
وقوله : ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي : مخلصون ، وقيل : فيه إضمار ، أي : فقولوا أيها المسلمون للكفار : اعلموا أنما أنزل بعلم الله ، يعني القرآن.
وقيل : أنزله ، وفيه علمه ، وإن قيل : إن هذا الخطاب مع الكفار ، فالمعنى : إن الذين تدعونهم من دون الله ، إذا لم يستجيبوا لكم في الإعانة على المعارضة ، فاعلموا أيها الكفار ؛ أن هذا القرآن ، إنما أنزل بعلمه ، فهل أنتم مسلمون ، فقد وقعت الحجة عليكم ، وأن لا إله إلا هو ، فاعلموا أنه لا إله إلا هو.
﴿فهل أنتم مسلمون﴾ لفظه استفهام ، ومعناه أمر ، أي : أسلموا.
قال بعض المفسرين : وهذا القول أولى ؛ لأن القول الأول يحتاج فيه إلى إضمار القول ، وهذا لا يحتاج إلى إضمار ، وأيضا : فعود الضمير إلى أقرب مذكور أولى ، وأيضا : فالخطاب الأول كان مع الكفار بقوله : ﴿من استطعتم من دون الله﴾ ، وأيضا فالأول أمر بالثبات.
فإن قيل : أين يعلق الشرط المذكور في هذه الآية ، وأين ما فيها من الجزاء ؟ فالجواب : أن القوم ادعوا كون القرآن مفترى على الله تعالى ، فقال : لو كان متفرى على الله تعالى ، لوجب أن يقدر الخلق على مثله ، ولما لم يقدروا عليه ، ثبت أنه من الله ، فقوله (إنا أنزل بعلم الله) : كناية عن كون من عند الله ، ومن قبله ؛ كما يقول الحاكم : هذا الحكم جدير بعلمي.
فإن قيل : أي تعلق لقوله : ﴿وأن لا إلاه إلا هو﴾ بعجزهم عن المعارضة ؟ .
فالجواب من وجهين : أحدهما : أنه تعالى لما أمر محمدا – صلوات الله البر الرحيم وسلامه عليه – بأن يطلب من الكفار ان يستعينوا بالأصنام في تحقيق المعارضة ثم ظهر عجزهم عنها فحينئذ ظهر أنها لا تنفع ولا تضر في شيء من المطالب ألبتة ، ومن كان كذلك ، فقد بطلت إلهيته ، فصار عجز القوم عن المعارضة

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢٧٩٢

بعد الاستعانة بالأصنام مبطلا لإلهية الأصنام ، ودليلا على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وبجل وعظم ، فكان قوله : ﴿وأن لا إلاه إلا هو﴾ إشارة إلى ظهور فساد إلاهية الأصنام.

وثانيها : أنه ثبت في علم الأصول أن القول بنفي الشريك عن الله من المسائل التي يمكن إثباها بقول الرسول – صلوات الله وسلام عليه – فكأنه قيل : لما ثبت عجز الخصوم عن المعارضة ثبت كون القرآن حقا ، وثبت كون قول محمد صدقا في دعوى الرسالة.

٤٥٠

وإذا ثبت ذلك فأعلمهم يا محمد أن لا إله إلا هو ، واتركوا الإصرار على الكفر ، واقبلوا الإسلام.

ونظيره قوله تعالى – في سورة البقرة عند ذكر آية التحدي – ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ [البقرة : ٢٤].

جزء : ١٠ رقم الصفحة : ٤٤٤

قوله تعالى : ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ الآية.

قيل : إنها مختصة بالكفار لقوله : ﴿أولائك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ [هود : ١٦] وهذا ليس إلا للكفار ، فيكون التقدير : من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط ، أي : تكون إرادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها ، ومن طلب السعادات الأخروية كان حكمه كذا وكذا.

واختلف القائلون بهذا القول فقال الأصم : المراد منكرو البعث فإنهم ينكرون الغنائم من غير أن يؤمنوا بالآخرة.

وقال أنس – رضي الله عنه – : المراد اليهود والنصارى.

وقال القاضي : المراد من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها.

وعمل الخير قسمان : العبادات وإيصال المنفعة إلى الحيوان كالبر ، وصلة الرحم ، والصدقة ، وبناء القناطر ، وتسوية الطرق ، ودفع الشر ، وإجراء الأنهار ، فهذه الأشياء إذا أتى بها الكافر لأجل الثناء في الدنيا ، فإن بسببها تصل الخيرات والمنافع إلى المحتاجين ، وهي من أعمال الخير ، فقد تصدر من المسلم والكافر.

وأما العبادات فإما أن تكون طاعات بنيات مخصوصة ، فإذا لم يؤت بتلك النية ، وإنما أتى فاعلها بها طلبا لزينة الدنيا ، وتحصيل الرياء والسمعة ؛ فلا تكون طاعة ووجودها كعدمها بل هو شر منها.

وعلى هذا فالمراد منه الطاعات التي يصح صدورها من الكفار.

وقيل : الآية على ظاهرها في العموم ؛ فيندرج فيه المؤمن الذي يأتي بالطاعات رياء وسمعة ويندرج فيه الكافر الذي هذا صفته.

٤٥١

." (١)

"ل " تزيدونني " ، أي : فما تزيدونني إلا تخسيرا.

ويجوز أن تكون " غير " صفة لمفعول محذوف ، أي شيئا غير تخسير ، وهو جيد في المعنى.

ومعنى التفعيل هنا النسبة ، والمعنى : غير أن أخسركم ، أي : أنسبكم إلى التخسير ، قال الزمخشري.

قال الحسن بن الفضل : لم يكن صالح في خسارة حتى قال : ﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾ وإنما المعنى : فما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي إياكم إلى الخسارة.

والتفسيق والتفجير في اللغة : النسبة إلى الفسق والفجور ، فكذلك التخسير هو النسبة إلى الخسران.

وقيل : هو على حذف مضاف ، أي : غير بضاره تخسيركم ، قاله ابن عباس.

قوله تعالى : ﴿ ويا قوم هاذه ناقة الله لكم آية﴾ الآية.

" لكم " في محل نصب على الحال من " آية " ؛ لأنه لو تأخر لكان نعتا لها ، فلما قدم انتصب حالا.

قال الزمخشري : فإن قلت : بم تتعلق " لكم " ؟ قلت : بـ " آية " حالا منها متقدمة ، لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها ، فلما تقدمت انتصبت على الحال.

قال أبو حيان : وهذا متناقض لأنه من حيث تعلق " لكم " بـ " آية "كان معمولا لـ " آية " وإذا كان معمولا لها امتنع أن يكون حالا منها ، لأن الحال تتعلق بمحذوف.

قال شهاب الدين - رحمه الله - : ومثل هذا كيف يعترض به على مثل الزمخشري بعد إيضاحه المعنى المقصود بأنه التعلق المعنوي ؟ .

و " آية " نصب على الحال بمعنى علامة ، والناصب لها : إما " ها " التنبيه ، او اسم الإشارة ، لما تضمناه من معنى الفعل ، أو فعل محذوف.

فصل اعلم أن العادة فيمن يدعي النبوة عند قوم يعبدون الأصنام لا بد وأن يطلبوا منه معجزة ، فطلبوا منه أن يخرج ناقة عشراء من صخرة معينة ، فدعا صالح ؛ فخرجت ناقة عشراء ، وولدت في الحال ولدا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢٨٣٣

مثلها.

وهذه معجزة عظيمة من وجوه : الأول : خلقها من الصخرة.

وثانيها : خلقها في جوف الجبل ثم شق عنها الجبل.

٥١٤

وثالثها : خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة.

ورابعها : أنه كان لها شرب يوم.

وخامسها : أنه كان يحصل منها لبن كثير يكفي الخلق العظيم.

ثم قال : ﴿فذروها تأكل فى أرض الله﴾ من العشب ، والنبات ، فليس عليكم مؤنتها.

وقرىء " تأكل " بالرفع : إما على الاستئناف ، وإما على الحال.

﴿ولا تمسوها بسواء﴾ ، ولا تصيبوها بعقر " فيأخذكم " إن قتلتموها " عذاب قريب " يريد اليوم الثالث.

﴿فعقروها فقال﴾ لهم صالح : ﴿تمتعوا في داركم﴾ أي : في دياركم ، فالمراد بالدار : البلد ، وتسمى البلاد بالديار ، لأنه يدار فيها ، أي : يتصرف ، يقال : ديار بكر أي : بلادهم.

وقيل : المراد بالديار : دار الدنيا ، وقيل : هو جمع " دارة "كساحة وساح وسوح ، وأنشد ابن أبي الصلت : [الوافر] ٢٩٨٠ - له داع بمكة مشمعل

وآخر فوق دارته ينادي

جزء : ١٠ رقم الصفحة : ٥١١

فصل قال القرطبي : " استدل العلماء بتأخير الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يجمع على إقامة أربع ليال قصر ؛ لأن الثلاثة أيام خارجة عن حكم الإقامة ".

والتمتع : التلذذ بالمنافع والملاذ.

﴿ذالك وعد غير مكذوب﴾ ، [أي : غير كذب].

قوله : " مكذوب " يجوز أن يكون مصدراص على زنة مفعول ، وقد جاء منه أليفاظ نحو : المجلود والمعقول والميسور والمفتون ، ويجوز أن يكون اسم مفعول على بابه ، وفيه حينئذ تأويلان : أحدهما : غير مكذوب فيه ، ثم حذف حرف الجر فاتصل الضمير مرفوعا مستترا في الصفة ومثله " يوم مشهود " وقول الشاعر : [الطويل] ٢٩٨١ - ويوم شهدناه سليما وعامرا

قليل سوى الطعن النهال نوافله

والثاني : أنه جعل هو نفسه غير مكذوب ؛ لأنه قد وفي به ، فقد صدق.
٥١٥
." (١)

"و " أحب " : خير المبتدأ ، وإنما لم يطابق ؛ لما عرفت من حكم أفعل التفضيل.
وقيل : اللام في : " ليوسف " : جواب القسم ، تقديره : والله ليوسف وأخوه ، والواو في : " ونحن عصبة " : للحال ، فالجملة بعدها في محل نصب على الحال ، والعامة على رفع " عصبة " خبرا لـ " نحن ".
وقرأ أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ بنصبها على أن الخبر محذوف ، والتقدير : ونحن نرى أو نجتمع ، فتكون " عصبة " حالا ، إلا أنه قليل جدا ؛ وذلك لأن الحال لا يسد مسد الخبر إلا بشروط ذكرها النحاة ، نحو : ضربي زيدا قائما ، وأكثر شربي السويق ملتوتا.
قال ابن الأنباري : " هذا كما تقول العرب : إنما العامري عمته ، أي : يتعمم عمته ".
قال أبو حيان : " وليس مثله ؛ لأن " عصبة " ليس بمصدر ولا هيئة ، فالأجود أن يكون من باب : حكمك مسمطا ".
قال شهاب الدين : " ليس مراد ابن الأنباري إلا التشبيه ؛ من حيث إنه حذف الخبر ، وسد شيء آخر مسده في غير المواضع المنقاس فيها ذلكن ولا نظر لكون المنصوب مصدرا أو غيره ".
وقال المبرد : هو من باب : " حكمك مسمطا " أي : لك حكمك مسمطا ، قال الفرزدق :
٣٠٥١. يا لهذم حكمك مسمطا
أراد لك حكمك مسمطا.
قال : واستعمل هذا فكثر حتى حذف استخفافا ؛ لعلم ما يريد القائل ؛ كقولك : الهلال والله ، أي : هذا الهلال ، والمسمط : المرسل غير المردود وقدره غير المبرد : حكمك ثبت مسمطا ، وفي هذا المثال نظر ؛ لأن النحويين يجعلون من شرط سد الحال مسد الخير : أن لا يصلح جعل الحال خبرا لذلك المبتدأ ، نحو : ضربي زيدا قائما ، بخلاف : " ضربي زيدا شديد " فإنها ترفع على الخبرية ، وتخرج المسألة من ذلك ، وهذه الحال ، أعني : " مسمطا " يصلح جعلها خبرا للمبتدأ ، إذ التقدير : حكم مرسل لا مردود ، فيكون هذا المثل على ما تقرر من كلامهم شاذا.
٢٢

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢٨٧١

والعصبة : ما زاد على العشرة ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ؛ وعنه : مابين العشرة إلى الأربعين.

وقيل : الثلاثة نفر ، فإذا زادت على ذلك إلى تسعة ؛ فهو رهط ، فإذا بلغوا العشرة فصاعدا ، فعصبة.

وقيل : مابين الواحد إلى العشرة.

وقيل : من عشرة إلى خمسة عشر.

وقيل : ستة.

وقيل : سبعة.

والمادة تدل على الإحاطة من العصابة ؛ لإحاطتها بالرأس.

فصل بينوا السبب الذي لأجله قصدوا إيذاء يوسف : وهو أن يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يفضل يوسف وأخاه على سائر أولاده في الحب ، فتأذوا منه لوجوه : أحدها : كانوا أكبر منه سنا.

وثانيها : أنهم كانوا أكثر قوة ، وأكثر قياما بمصالح الأب منهما.

وثالثها : أنهم القائمون بدفع المضار والآفات ، والمشتغلون بتحصيل **المنافع** والخيرات ، وإذا كانوا كذلك لا جرم قالوا : ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾.

قال ابن الخطيب : " وها هنا سؤالات : السؤال الأول : أن من المعلوم أن تفضيل بعض الأولاد على بعض ، يورث الحقد والحسد ، وهما يورثان الآفات ، فملا كان يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ عالما بذلك ، فلم أقدم على التفضيل ؟ وأيضا : فالأسن ، والأعلم ، والأنفع مقدم ، فلم قلب هذه القضية ؟ .

فالجوابك أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما فضلهما على سائر أولاده إلا في المحبة ، والمحبة ليست في وسع البشر ، فكان معذورا فيه ، ولا يلحقه بسبب ذلك لوم ، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : " اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما لا أملك " حين كان يحب عائشة ـ رضي الله عنها ..

السؤال الثاني : أن أولاد يعقوب كانوا قد آمنوا بكونه رسولا حقا من عند الله ،

٢٣

". (١)

"وقيل : ينفى.

والذي ورد في الحديث أنه لم ينف العائن ، ولا أمره بلزوم بيته ولا حبسه ، بل قالوا : يكون الرجل الصالح عائنا ، وأنه لا يقدح فيه ، ولا يفسق به ومن قال : يحبس ، ويؤمر بلزوم بيته ؛ فذلك للاحتياط ، ودفع

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٢٩٣٢

ضرره.

قال الجبائي : إن أبناء يعقوب اشتهروا ، وتحدث الناس بهم ، وبحسنهم ، وكمالهم فقال : " لا تدخلوا " تلك المدينة " من باب واحد " على ما أنتم عليه من العدد ، والهيئة ، ولم يأمن عليهم حسد الناس ، أو قالك لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك على ملكه ، فحيبسهم.

وهذا وجه محتمل لا إنكار فيه إلا أن القول الأول أولى ؛ لأنه لا امتناع فيه بحسب العقل ، والعرف كما بينا ، والمتقدمون من المفسرين أطبقوا عليه ، فوجب المصير إليه.

ونقل عن الحسن أنه قال : خاف عليهم العين ، فقال : ﴿لا تدخلوا من باب واحِدٍ﴾ ثم رجع إلى علمه ، فقال : ﴿ومآ أغني عنكم من الله من شيء﴾ ، وعرف أن العين ليست بشيء.

وكان قتادة يفسر الآية بإصابة العين ، ويقول : ليس في قوله : ﴿ومآ أغني عنكم من الله من شيء﴾ إبطال له ؛ لأن العين ، وإن صح فالله قادر على دفع أثره.

وقال النخعي : كان عالما بأن مالك مصر هو ولده يوسف إلا أن الله ـ تبارك وتعالى ـ ما أذن له في إظهار ذلك ، فلما بعث أولاده إليه ، وقال : ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ ، وكان غرضه أن يصل بنيامني إلى يوسف في وقت الخلوة ، وقوله : ﴿ومآ أغني عنكم من الله من شيء﴾ فالإنسان مأمور بأن يراعي الأسباب المعتبرة في هذا العالم ، ومأمور بأن يجزم بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله ـ تعالى ـ وأن الحذر لا ينجي من القَدر ، فإن الإنسان مأور بالحذر عن الأشياء المهلكة ، والأغذية الضارة ، وبالسعي في تحصيل **المنافع** ، ودفع المضار بقدر الإمكان ، ثم مع ذلك ينبغي أن يكن جازما بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله ولا يحصل في الوجود إلا ما أراد الله ، فقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة في هذا العالم ، وقوله ﴿ومآ أغني عنكم من الله من شيء﴾ إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب وإلى الالتفات إلى التوحيد المحض ، والبراءة عن كل شيء سوى الله ـ تعالى.

فإن قيل : كيف السبيل إلى الجمع بين هذين القولين ؟ .

١٥٤

فالجواب : أن هذا السؤال غير مختص به ، فإنه لا نزاع في أنه لا بد من إقامة الطاعات والاحتراز من السيئات ، مع أنا نعتقد أن السعيد من سعد في بطن أمه ، والشقي من شقي في بطن أمه ، فكذ هاهنا.

وأيضا : نأكل ، ونشرب ، ونحترز عن السموم ، وعن الدخول في النار ، مع أن الموت والحياة لا يحصلان

إلا بتقدير الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، فكذا ههنا ، فظهر أن السؤال ليس مختصا بهذا المقام ، بل هو بحث عن سر مسألة الخير ، والشر.

والحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد ، والقدرة ، وبعد السعي البليغ ، يعلم أن كل ما يدخل في الوجود لا بد وأن يكن بمشيئة الله ـ عز وجل ـ وسابق حكمه ، وحكمته.

ثم إنه ـ تعالى ـ أكد هذا المعنى ، فقال : ﴿إن الحكم إلا لله﴾ ، وهذا من أدل الدلائل على صحة القول بالقضاء ، والقدر ؛ لأن الحكم عبارة عن الإلزام والمنع ومنه سميت حكمة الدابة بهذا الاسم ؛ لأنها تمنع الدابة من الحركات الفاسدة والحكم إنما يمسى حكما ؛ لأنه يرجح أحد طرفي الممكن على الآخر ، بحيث يصير الطرف " الآخر " ممتنع الحصول ، فبين ـ تعالى ـ أن الحكم ليس إلا لله ، وذلك يدل على أن جميع الممكنات ترجع إلى قضائه ، وقدرته ، ومشيئته ، وحكمه إما بواسطة ، أو بغير واسطة ، ولذلك فوض يعقوب أمره إلى الله ـ تعالى ـ.

ثم قال : ﴿عليه توكلت﴾ اعتمدت : ﴿وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ ، والمعنى : أنه لما ثبت أن الكل من الله ـ تعالى ـ ثبت أنه لا يتوكل إلا على الله سبحانه وتعالى.

جزء : ١١ رقم الصفحة : ١٤٧

." (١)

"قوله تعالى : ﴿ذلك من أنبآء الغيب﴾ الآية " ذلك " : مبتدأ و ﴿من أنبآء الغيب﴾ : خبره ، و " نوحيه " : حال ، ويجوز أن يكون خبرا ثانيا ، أو حالا من الضمير في الخبر ، وجوز الزمخشري : أن يكون موصولا بمعنى : الذي ، وتقدم نظيهر ، والمعنى : ذلك الذي ذكرت من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب ، ﴿إذ أجمعوا اا أمرهم﴾ أي عزموا على إلقاء يوسف في الجب ، وما كنت هناك ، ذكره على وجه التهكم ، وتقدم الكلام على هذا اللفظ عند قوله : ﴿فأجمعوا اا أمركم﴾ [يونس : ٧١] وقوله : ﴿وهم يمكرون﴾ أي : بيوسف والمقصود من هذا إخبار عن الغيبن فكيون معجزا ؛ لأن محمدا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يطالع الكتب ، ولم يتلمذ لأحد ، ما كانت بلدته بلدة العلماء ؛ فإتيانه بهذه القصة الطويلة ، على وجه لم يقع فيها تحريف ، ولا غلط من غير مطالعة ، و لاتعلم ، كيف لا يكون معجزا ؟ .

روي أن اليهود وقريشا سألوا رسو الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف ؛ فلما أخبرهم على موافقة

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ص/٣٠٠٠

التوراة لم يسلموا ، فحزن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقيل : إنهم لا يؤمنون ، ولو حرصت على إيمانهم.
قوله ﴿وهم يمكرون﴾ : حال ، ﴿ولو حرصت﴾ معترض بين " م‍ا " وخبرها ، وجواب مقدما عليها ، فلا يجوز أن يقال : " قمت لو قمت ".
وقال الفراء في " المصادر " : حرص يحرص حرصا ، وفي لغة أخرى : حرص يحرص حرصا ، ومعنى الحرص : طلب الشيء بأقصى ما يكون من الاجتهاد ، ﴿إلا وهم مشركون﴾ : حال.
قوله ﴿وما تسألهم﴾ على تبليغ الرسالة ، والدعاء إلى الله - عز وجل - " من أجر " جعلوا خبر " إن " هو " ما " أي : القرآن ، " إلا ذكر " : عظة وتذكير " للعالمين ".
ثم قال : " وكأين " : وكم ، " من آية " : عبرة ودلالة ، ﴿في السماوات والأرض يمرون عليها﴾ : لا يتفكرون فيها ولا يتعبرون.
واعلم : أن دلائل التوحيد ، والعلم ، والقدرة ، والحكمة والرحمة لا بد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهي : إما الأجرام الفلكية ، وإما الأجرام العنصرية.
أما الأجرام الفلكية فهي قسمان : إما الأفلاك ، وإما الكواكب.
٢٢١
فأما الأفلاك فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع ، وقد يستدل بكون بعضها فوق بعضه أو تحته ، وقد يستدل بحركتها ، إما بسرعة حركتها ، وإما باختلاف جهة تلك الحركات.
وأما الأجرام الكوكبية ، فتارة تدل على وجود الصانع بمقاديرها ، وأجرامها ، وحركاتها في سرعتها وبطئها ، وتارة بألوانها وأضوائها ، وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والظلال.
وأما دلائل الأجرام العن‍صرية : فإما أن تكون مأخوذة من بسائطها ، وهو البر والبحر ، وإما مأخوذ من [المواليد] ، وهي أقسام : أحدها : العلوية كالرعد ، والبرق ، والسحاب ، والمطر ، والثلج ، والهواء ، وقوس قزح.
وثانيها : المعادن على اختلاف طابعئها وصفاتها ، وكيفياتها.
وثالثها : النبات وخاصية الخشب والورق بخصوصه.
ورابعها : اختلاف حال الحيوانت في أشكالها ، وطبائعها ، وأصواتها ، وخلقها.
وخامسها : تشريح أبدان الناس ، وتشريح القوى الإنسانية ، وبيان المنافع الحاصلة منها ، ومن هذا الباب أيضا قصص الأولين والملوك الذين استولوا على الأرض ، وقهروا العباد ، وخربوا البلاد.

ماتوا ولم يبق لهم في الدنيا خبر ، ثم بقي الوزر والعقاب عليهم ، قال ابن الخطيب : فلهذا ضبط أنواع هذه الدلائل.

فصل الجمهور على جر الأرض عطفا على السموات ، والضمير في " عليها " للآية ، فيكون " يمرون " صفة للآية ، وحالا لتخصصها بالوصف بالجر.

وقيل : يعود الضمير في " عليها " للأرض فيكون " يمرون عليها " حالا منها.

وقال أبو البقاء : وقيل : منها ومن السموات ، أي : يكون الحال من الشيئين جميعا ، وهذا لا يجوز ؛ إذا كان يجب أن يقال : عليهما ، وأيضا : فإنهم لا يمرون في السماوات إلا أن يراد : يمرون على آياتها ، فيعود المعنى على عود الضمير للآية ، وقد يجاب عن الأول بأنه من باب الحذف ؛ كقوله ـ تعالى ـ : ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة : ٦٢].

وقرأ السدي : " والأرض " بالنصب ، ووجهه أنه من باب الاشتغال ، ويفسر الفعل بما يوافقه معنى ، أي : يطوفون الأرض ، أو يسلكون الأرض.

٢٢٢

." (١)

"ثم قال تعالى : ﴿وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره﴾ [إبراهيم : ٣٢] نظره ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ [الشورى : ٣٢].

واعلم أن الانتفاع بما ينبت من الأرض إنما يكمل بوجود الفلك ؛ لأن الله ـ تعالى ـ خص كل طرف من أطراف الأرض بنوع آخر من النعم حتى إن نعمة هذا الطرف إذا نقلت إلى الطرف الآخر من الأرض ، وبالعكس ، كثرت الأرباح في التجارات وهذا الفعل لا يمكن إلا بسفن البر ، وهي الجمال ، أو بسفن البحر ، وهي الفلك.

فإن قيل : ما معنى : ﴿وسخر لكم الفلك﴾ منع أن تركيب السفينة من أعمال العباد ؟ .

فالجواب : أن فعل العبد خلق الله ـ تعالى ـ عند أهنل السنة ، فلا سؤال.

وأما عند المعتزلة : فأنه ـ تعالى ـ خلق الأشجار التي تركب منها السفن وخلق الحديد ، وسائر الآلات ، وعرف العباد صنعه التركيب ، وخلق الرياح ، وخلق الحركات القوية فيها ، ووسع الأنهار وعمقها تعميقا لجري السفن فيها ، ولولا ذلك لما حصل الانتفاع بالسفن.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٠٣٥

وأضاف التسخير إلى أمره ؛ لأن الملك العظيم لا يوصف بأنه فعل ، وإنما يقال : أمر ، قال تعالى : ﴿إنما قولنا لشيء إذآ أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل : ٤٠] وسخر الفلك مجازا ؛ لأنها جمادات ، ولما كانت تجري على وجه الماء ، وعلى وفق إرادة الملاح صارت كأنها حيوان مسخر.

ثم قال تعالى : ﴿وسخر لكم الأنهار﴾ ، لأن ماء البحر لا ينتفع به في الزراعات ، فأنعم الله ـ تعالى ـ على الخلق بتفجير الأنهار ، والعيون حتى انبعث الماء منها إلى موضع الزرع والنبات ، وأيضا : فماء البحر لا يصلح للشرب ، وإنما يصلح له مياه الأنهار.

ثم قال ـ عز وجل ـ ﴿وسخر لكم الشمس والقمر﴾ والانتفاع بهما ءظيم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا﴾ [نوح : ١٦] ﴿وقمرا منيرا﴾ [الفرقان : ٦١] ﴿هو الذي جعل الشمس ضيآء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ [يونس : ٥] ، وتأثيرهما في إزالة الظلمة ، وإصلاح النبات والحيوان ، فالشمس سلطان النهار ، والقمر سلطان الليل ، فلولا الشمس لما حصلت الفصول الأربعة ، ولولاها لاختلت مصالح العالم بالكلية.

ثم قال : ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ ومنافعهما مذكورة في القرآن ، كقوله ﴿وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا﴾ [النبأ : ١٠ ، ١١] ، وقوله تعالى : ﴿جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ [القصص : ٧٣].

قال المتكلمون : تسخير الليل ، والنهار مجاز ؛ لأنهما عرض ، والأعراض لا تسخر.

٣٩١

ثم قال ـ عز وجل ـ : ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ أي : أنه لم يقتصر على هذه النعم بل أعطى عباده من المنافع مالا يأتي على بعضها التعداد.

ثم قال ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ قال الواحدي : " النعة ههنا أسم أقسم مقام المصدر ، يقال : أنعم الله عليه ينعم إنعاما ، ونعمة ، أقيم الاسم مقام الإنعام ، كقوله : أنفقت عليك إنفاقا ونفقة شيئا واحدا ، ولذلك يجمع لأنه في معنى المصدر ".

وقال غيره : " النعمة هنا بمعنى المنعم به ".

وختمت هذه الآية بـ ﴿إن الإنسان لظلوم﴾ ونظيرها في النحل بـ ﴿إن الله لغفور رحيم﴾ [النحل : ١٨] لأن في هذه تقدم قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة اللهِ كفرا﴾ [إبراهيم : ٢٨] وبعده ﴿وجعلوا لله أندادا﴾ [أبراهيم : ٣٠] فجاء قوله ﴿إن الإنسان﴾ شاهدا بقبح من فعل ذلك فناسب ختمها

بذلك.

والتي في النحل ذكر فيها عدة تفضيلات ، وبالغ فيها ، وذكر قوله ـ جل ذكره ـ ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ [النحل : ١٧] أي : من أوجد هذه النعم السابق ذكرها كمن لم يقدر منها على شيء ، فذكر أيضا أن من جملة تفضلاته اتصافه بهاتين الصفتين.

وقال ابن الخطيب : "كأنه يقول : إذا حصلت النعم الكثيرة ؛ فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها ؛ فحصل لك عند أخذها وصفان : وهما : كونك ظلوما كفارا ، ولي وصفان عند أعطائها وهما : كوني غفورا رحيما ، فكأنه ـ تعالى ـ يقول : إن كنت ظلوما فأنا غفور ، وإنت كنت كفارا فأنا رحيم ، أعلم عجزك ، وقصورك ، فلا أقابل جفاك إلا بالوفاء ".

جزء : ١١ رقم الصفحة : ٣٨٥

قوله تعالى : ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا﴾ الآية لما استدل على أنه لا معبود إلا الله ـ تعالى ـ وأنه لا يجوز عبادة غير الله ـ تعالى ـ ألبتة ، وحكة عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه طلب من الله ـ تعالى ـ أشياء :

٣٩٢

." (١)

"والثاني : فإذا هو خصيم لربه ، منكر على خالقه ، قائل : ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ [يس : ٧٨] والغرض وصف الإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل والتمادي في كفران النعمة.

كما نقل أنها نزلت في أبي بن خلف الجمحي ؛ وكان ينكر البعث جاء بعظم رميم ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : أتقول إن الله – تعالى – يحيي هذه بعدما قد رم ؟ .

والصحيح أن الآية عامة ؛ لأن هذه الآيات ذكرت لتقرير الاستدلال على وجود الصانع الحكيم لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم في الكفر والكفران.

قوله تعالى : ﴿والأنعام خلقها لكم﴾ الآية هذه الدلالة الثالثة ؛ لأن أشرف الأجساد الموجودة في العالم السفلي بعد الإنسان سائر الحيوانات لاختصاصها بالقوى الشريفة ، وهي الحواس الظاهرة والباطنة والشهوة والغضب.

قوله : ﴿والأنعام خلقها﴾ العامة على النصب ، وفيه وجهان : أحدهما : أنه نصب على الاشتغال وهو

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ص/٣١٢١

أرجح من الرفع لتقدم جملة فعلية.

والثاني : أنه نصب على عطفه على " الإنسان " ، قاله الزمخشري ، وابن عطية فيكن " خلقها " على هذا مؤكدا ، وعلى الأول مفسرا.

وقرئ شاذا " والأنعام " رفعا وهي مرجوحة.

قوله : ﴿لكم فيها دفء﴾ يجوز أن يتعلق " لكم " بـ " خلقها " ، أي : لأجلكم ولمنافعكم ، ويكون " فيها " خبرا مقدما ، و " دفء " مبتدأ مؤخر ، ويجوز أن يكون " لكم " هو الخبر ، أو يكون حالا من " دفء " قاله أبو البقاء.

ورده أبو حيان : بأنه إذا كان العامل في الحال معنويا ، فلا يتقدم على الجملة بأسرها ، ولا يجوز " قائما في الدار زيد " فإن تأخرت نحو " زيد في الدار قائما " جاز بلا خلاف ، أو توسطت بخلاف أجازه الأخفش ومنعه غيره.

ولقائل أن يقول : لما تقدم العامل فيها ، وهي معه جاز تقديمها عليه بحالها إلا أن نقول : لا يلزم من تقديمها وهو متأخر تقديمها عليه وهو متقدم لزيادة الفتح.

وقال أبو البقاء أيضا : " ويجوز أن يرتفع " دفء " بـ " لكم " أو بـ " فيها " والجملة كلها حال من الضمير المنصوب ".

قال أبو حيان " ولا يسمى جملة ، لأن التقدير : خلقها كائن لكم فيها دفء ، أو خلقها لكم كائنا فيها دفء ".

١١

قال شهاب الدين : " قد تقدم الخلاف في تقدير متعلق الجار إذا وقع حالا أو صفة أو خبراص ، هل يقدر فعلا أو اسما ، ولعل أبا البقاء نحا إلى الأول فتسميته له جملة صحيح على هذا ".

والدفء : اسم لما يدفأ به ، أي : يسخن.

قال الأصمعي : ويكون الدفء السخونة ، يقال : اقعد في دفء هذا الائط ، أي : في كنفه ، وجمعه أدفاء ، ودفئ يومنا فهو دفيء ، ودفئ الرجل يدفأ فهو دفآن ، وهي دفأى ، كسكران ، وس◌كرى.

والمدفئة بالتخفيف والتشديد ، الإبل الكثيرة الوبر الكثيرة الوبر والشحم ، وقيل : الدفء : نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها.

وقرأ زيد بن علي : " دف " بنقل حركة الهمزة إلى الفاء ، والزهري : كذلك إلا أنه شدد الفاء ، كأنه أجرى

الوصل مجرى الوقف ، نحو قولهم : هذا فرخ بالتشديد وقفا.

وقال صاحب اللوامح : " ومنهم من يعوض من الهمزة فيشدد الفاء وهو أحد وجهي حمزة بن حبيب وقفا ".

قال شهاب الدين : والتشديد وقفا : لغة مستقلة وإن لم يكن ثم حذف من الكلمة الموقوف عليها.

قوله " ومنافع " أراد النسل ، والدر ، والركوب ، والحمل ، وغيرها ، فعبر عن هذا الوصف بالمنفعة ؛ لأنه الأعم ، والدر والنسل قد ينتفع به بالبيع بالنقود ، وقد ينتفع به بأن تبدل بالثياب ، وسائر الضروريات ، فعبر عن جملة الأقسام بلفظ المنافع ليعم الكل.

فصل الحيوانات قسمان : منها ما ينتفع به الإنسان ، ومنها ما لا يكون كذلك ، والقسم المنتفع به [أفضل] من الثاني ، والمنتفع به إما أن ينتفع به الإنسان في ضروراته ، مثل الأكل واللبس أو في غير ضروراته ، والأول أشرف وهو الأنعام ، فلهذا بدأ بذكره فقال : ﴿والأنعام خلقها لكم﴾ وهي عبارة عن الأزواج الثمانية ، وهي الضأن والمعز والبقر والإبل.

قال الواحدي : تم الكلام عند قوله : ﴿والأنعام خلقها﴾ ثم ابتدأ وقال : ﴿لكم فيها دفء﴾.

قال صاحب النظم : أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله : " خلقها " ؛ لأنه عطف عليه ﴿ولكم فيها جمال﴾ والتقدير : لكم فيها دفء ولكم فيها جمال.

١٢

". (١)

"ولما ذكر الأنعام ، أتبعه بذكر المنافع المقصودة منها ، وهي إما ضرورية ، أو غير ضرورية ، فبدأ بذكر المنافع الضرورية ؛ فقال : ﴿لكم فيها دفء﴾ وقد ذكر هذا المعنى في آية أخرى ، فقال سبحانه : ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين﴾ [النحل : ٨٠].

والمعنى : ملابس ولحفاء يستدفئون بها ، ثم قال : " ومنافع " والمراد ما تقدم من نسلها ودرها.

ثم قال : ﴿ومنها تكلون﴾ ، " من " ها هنا لابتداء الغاية ، والتبعيض هنا ضعيف.

قال الزمخشري : " فإن قلت : تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص ، وقد يؤكل من غيرها ، قلت : الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس ، وأما غيرها من البط والدجاج ونحوها من الصيد ، فكغير المعتد به ؛ بل جار مجرى التفكه ".

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣١٧٧

قال ابن الخطيب : " ويحتمل أن غالب أطعمتكم منها ؛ لأنكم تحرثون بالبقر ، والحب والثمار التي تأكلونها ، وتكتسبون بها ، وأيضا بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها ، وألبانها ، وجلودها ، وتشترون بها جميع أطعمتكم ".

فإن قيل : منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللبس ، فلم أخر منفعة الأكل في الذكر ؟ .

فالجواب : أن الملبوس أكثر من المطعوم ؛ فلهذا قدم عليه في الذكر فهذه **المنافع** الضرورية الحاصلة من الأنعام ، وأما **المنافع** غير الضرورية الحاصلة من الأنعام فأمور : الأول : قوله ﴿ولكم فيها جمال﴾ كقوله ﴿لكم فيها دفء﴾.

و " حين " منصوب بنفس " جمال " أو بمحذوف ، على أنه صفة له ، أو معمول لما عمل في " فيها " أو في " لكم ".

وقرأ عكرمة ، والضحاك ، والجحدري - رحمهم الله - : " حينا " بالتنوين ؛ على أن الجملة بعده صفة له ، والعائد محذوف ، أي : حينا تريحون فيه وحينا تسرحون فيه ، كقوله : ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه﴾ [البقرة : ٢٨١] وقدمت الإراحة على [السرح] ؛ لأن الأنعام فيها أجمل لملء بطونها وتحفل ضروعها ، بخلاف التسريح ؛ فإنها عند خروجها إلى المرعى تخرج جائعة عادمة اللبن ثم تتفرق وتنتشر.

فصل قد ورد الحين على أربعة أوجه : الأول : بمعنى الوقت كهذه الآية.

١٣

الثاني : نتهى الأجل ، قال : ﴿ومتعناهم إلى حين﴾ [يونس : ٩٨] ، أي : إلى منتهى آجالهم.

الثالث : إلى ستة اشهر ، قال تعالى : ﴿تؤتى أكلها كل حين﴾ [إبراهيم : ٢٥].

الرابع : أربعون سنة ، قال تعالى : ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ [الإنسان : ١].

أي : أربعون سنة ، يعني آدم - صلوات الله وسلامه عليه - حين خلقه من طين قبل أن ينفخ فيه الروح.

والجمال : مصدر جمل بضم الميم يجمل فهو جميل وهي جميلة ، وحكى الكسائي : جملاء كحمراء ؛

وأنشد : [الرمل] ٣٢٧٩ - فهي جملاء كبذر طالع

بذت الخلق جميعا بالجمال

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٧

ويقال أراح الماشية وهراحها بالهاء بدلا من الهمزة ، وسرح الإبل يسرحها سرحا ، أي : أرسلها ، وأصله أن يرسلها لترعى ، والسرح : شجر له ثمر ، الواحدة سرحة ، قال أبي : [الطويل] ٣٢٩٨ - أبى الله إلا أن

سرحة مالك

علي كل أفنان العضاه تروق

وقال : [الكامل] ٣٢٩٩أ - بطل كأن ثيابه في سرحة

يحذى نعال السبت ليس بتوءم

ثم أطلق على كل إرسال ، واستعير أيضا للطلاق ، يقال : سرح فلان امرأته كما استعير الطلاق أيضا من إطلاق الإبل من عقلها ، واعتبر من السرح المضي فقيل : ناقة [سرح] ، أي : سريعة ، وقيل : [الكامل] ٣٢٩٩ب - سرح اليدين كانها...

....

وحذف مفعولي " تريحون وتسرحون " مراعاة للفواصل مع العلم بها.

فصل الإراحة : رد الإبل بالعشي إلى مراحها حيث تأوي إليه ليلا ، وسرح القوم إبلهم سرحا ، إذا أخرجوها بالغداة إلى المرعى.

قال أهل اللغة : هذه الإراحة أكثر ما تكون أيام الربيع إذا سقط الغيث ، وكثر الكلأ ، وخرجت العرب للنجعة ، وأحسن ما يكون النعم في ذلك الوقت.

١٤

." (١)

"ووجه التجمل بها أن الراعي إذا روحها بالعشي وسرحها بالغداة تزينت عند تلك الإراحة والتسريح الأفنية ، وكثر فيها النفاء والرغاء ، وعظم وقعهم عند الناس لكونهم مالكين لها.

والمنفعة الثانية قوله : ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه﴾.

الأثقال : جمع ثقل ، وهو متاع السفر إلى بلد.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : " يريد من مكة إلى [المدينة] والشام ومصر ".

وقال الواحدي - رحمه الله - : " والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير إبل لشق عليكم ".

وخص ابن عباس - رضي الله عنهما - هذه البلاد لأنها متاجر أهل مكة.

قوله ﴿لم تكونوا﴾ صفة لـ " بلد " ، و " إلا بشق " حال من الضمير المرفوع في " بالغيه " ، أي : لم تبلغوه إلا ملتبسين بالمشقة.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٣١٧٨

والعامة على كسر الشين.

وقرأ أبو جعفر ورويت عن نافع ، وأبي عمرو بفتحها ؛ فقيل : هما مصدران بمعنى واحد ، أي : المشقة

فمن الكسر قول الشاعر : [الطويل] ٣٣٠٠ – رأى إبلا تسعى ويحسبها له

أخي نصب من شقها ودءوب

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٧

أي : من مشقتها.

وقيل : المفتوح المصدر ، والمكسور الاسم.

وقيل : بالكسر نصف الشيء.

وفي التفسير : إلا بنصف أنفسكم ، كما تقول : لم تنله إلا بقطعه من كيدك على المجاز.

فصل أذا حملنا الشق على المشقة كان المعنى : لم تكونوا بالغيه إلا بالمشقة ، وإن حملناها على نصف الشيء كان المعنى : لم تكونوا بالغيه إلا عند ذهاب نصف قوتكم ونقصانها.

قال بعضهم : المراد من قوله تعالى ﴿والأنعام خلقها لكم﴾ الإبل فقط ، لأنه

١٥

وصفها في آخر الآية بقوله – عز وجل – ﴿وتحمل أثقالكم﴾ وهذا لا يليق إلا بالإبل فقط.

والجواب : أن هذه الآيات وردت لتعديد منافع الأنعام ، فبعض تلك **المنافع** حاصل في الكل ، وبعضها يختص بالبعض ، لأن قوله تعالى : ﴿ولكم فيها جمال﴾ حاصل في البقر والغنم أيضا.

﴿إن ربكم لرؤوف رحيم﴾ بخلقه حيث جعل لهم هذه **المنافع**.

فصل احتج منكرو كرامات الأولياء بهذه الآية ، لأن هذه الآية دلت على أن الإنسان لا يمكنه الانتقال من بلد إلى بلد إلا بشق الأنفس ، وحمل الأثقال على [الجمال] ، فيكون الانتقال من بلد إلى بلد بعيد في ليلة واحدة من غير تعب ، وتحمل مشقة خلاف هذه الآية ، فيكون باطلا.

ولما بطل القول بالكرامات في هذه الصورة ، بطل القول بها في سائر الصور ؛ لأنه لا قائل بالفرق.

والجواب : أنا نخص هذه الآية بالأدلة الدالة على وقوع الكرامات.

قوله : ﴿والخيل والبغال والحمير﴾ العامة على نصبها ؛ نسقا على الأنعام ، وقرأ ابن أبي عبلة برفعها على الابتداء ، والخبر محذوف ، أي : مخلوقة ومعدة لتركبوها ، وليس هذا مما ناب فيه الجار مناب الخبر لكونه كونا خاصا.

قال القرطبي : " وسميت الخيل خيلا لاختيالها في مشيها ، وواحد الخيل خائل ، كضائن واحد ضأن.

وقيل : لا واحد له ، ولما أفرد - سبحانه وتعالى - الخيل ، والبغال ، والحمير ، بالذكر ؛ دل على أنها لم تدخل في لفظ الأنعام.

وقيل : دخلت ؛ ولكن أفردها بالذكر لما يتعلق بها من الركوب ، فإنه يكثر في الخيل والبغال والحمير ".

قوله : " وزينة " في نصبها أوجه : أحدها : أنه مفعول من أجله وإنما وصل الفعل إلى الأول باللام في قوله تعالى : ﴿لتركبوها﴾ وإلى هذا بنفسه لاختلاف الشرط في الأول ، وعدم اتحاد الفاعل ، وأن الخالق الله والراكب المخاطبون.

الثاني : أنها منصوبة على الحال ، وصاحب الحال إما مفعول " خلقها " وإما مفعول " لتركبوها " فهو مصدر ، وأقيم مقام الحال.

١٦

". (١)

"الثالث : أن ينتصب بإضمار فعل ، فقدره الزمخشري - رحمه الله - وخلقها زينة.

وقدره ابن عطية وغيره : وجعلها زينة.

الرابع : أنه مصدر لفعل محذوف أي : " ولتتزينوا بها زينة ".

وقرأ قتادة عن ابن أبي عامر : " لتركبوها زينة " بغير واو ، وفيها الأوجه المتقدمة ؛ ويريد أن يكون حالا من فاعل " لتركبوها " متزينين.

فصل لما ذكر منافع الحيوان التي ينتفع بها من **المنافع** الضرورية ، ذكر بعده منافع الحيوانات التي ليست بضرورية فقال : ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ ، والخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل.

واحتج القائلون بتحريم لحوم الخيل ؛ وهو قول ابن عباس ، والحكم ، ومالك ، وأبي حنيفة - رضي الله عنهم - بهذه الآية ، قالوا : منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب ، فلو كان أكل لحوم الخيل جائزا ؛ لكان هذا المعنى أولى بالذكر ، وحيث لم يذكره الله - تعالى - علمنا تحريم أكله.

ويقوي هذا الاستدلال : أنه قال - تعالى - في صفة الأنعام ﴿ومنها تأكلون﴾ وهذه الكلمة تفيد الحصر ، فيقتضي أن لا يجوز الأكل من غير الأنعام فوجب أن يحرم أكل لحوم الخيل بمقتضى هذا الحصر.

ثم إنه - تعالى - ذكر بعد هذا الكلام الخيل والبغال والحمير ، وذكر سبحانه أنها مخلوقة للركوب ، وهذا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣١٧٩

يقتضي أن منفعة الأكل مخصوصة بالأنعام.
وأيضا قوله تعالى : ﴿لتركبوها﴾ يقتضي أن تمام المقصود من خلق هذه الأشياء الثلاثة ، هو الركوب والزينة ، ولو حل أكلها لما كان تمام المقصود من خلقها هو الركوب ، بل كان حل أكلها أيضا مقصودا ؛ وحينئذ يخرج جواز ركوبها عن أن يكون تمام المقصود ؛ بل يصير بعض المقصود.
وأجاب الواحدي - رحمه الله - : بأنه لو دلت هذه الآية على تحريم أكل الخيل ؛ لكان تحريم أكلها معلوما في مكة ؛ لأن هذه السورة مكية.
ولو كان الأمر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين إن تحريم لحوم الحمر الأهلية كان عام خيبر باطلا ؛ لأن التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم ، لم يبق لتخصيص هذا التحريم بهذه [السنة] فائدة.
وأجاب غيره : بأنه ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم ؛ بل المراد منه أن
١٧
يعرف الله - تعالى - عباده نعمه ، وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته.
واحتجوا بقول جابر - رضي الله عنه - : " نهى النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر ورخص في لحوم الخيل ".
ولما ذكر - تعالى - أصناف الحيوانات المنتفع بها ، ذكر بعده الأشياء التي لا ينتفع غالبا بها فذكرها على سبيل الإجمال.
فقال سبحانه وتعالى : ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ وذلك لأن أنواعها وأصنافها خارجة عن الإحصاء ؛ فذكر ذلك على سبيل الإجمال.
وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : " إن عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والبحار السبعة والأرضين السبع يدخل فيه جبريل - عليه الصلاة والسلام - كل سحر فيزداد نورا إلى نوره وجمالا إلى جماله ، ثم ينتفض فيخلق الله - سبحانه وتعالى - من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك ، يدخل منهم كل يوم سبعون ألفا البيت المعمور ، وفي الكعبة أيضا سبعون ألفا لا يعودون إلى يوم القيامة ".
قوله : ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ الآية والمعنى : إنما ذكرت هذه الدلائل وشرحتها ؛ إزاحة للعذر ؛ وإزالة للعلة ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ [الأنفال : ٤٢].
قوله : ﴿ومنها جآئر﴾ الضمير يعود على السبيل ؛ لأنها تؤنث ﴿قل هذه سبيلي﴾ [يوسف : ١٠٨] أو

لأنها في معنى سبل ، فأنث على معنى الجمع ، والقصد مصدر يوصف به فهو بمعنى قاصد ، يقال : سبيل قصد وقاصد ، أي : مستقيم ، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه.

وقيل : الضمير يعود على الخلائق ؛ ويؤيده قراءة عيسى ، وما في مصحف عبد الله : " ومنكم جائر " ، وقراءة علي : " فمنكِ جائر " بالفاء.

وقيل : " أل " في " السبيل " للعهد ؛ وعلى هذا يعود الضمير على السبيل التي تتضمنها معنى الآية ؛ لأنه قيل : ومن السبيل فأعاد عليها ، وإن لم يجر له ذكر ؛ لأن مقابلها يدل عليها ، وأما إذا كانت " أل " للجنس فيعود على لفظها.

١٨

والجور : العدول عن الاستقامة ؛ قال النابغة : [الطويل] ٣٣٠١ - ....

يجور بها الملاح طَوراً ويهتدي

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٧

وقال آخر : [الكامل] ٣٠٢ - ومن الطريقة جائر وهدى

قصد السبيل ومنه ذو دخل

." (١)

"قال الواحدي : " و " الأعناب " عطف على الثمرات لا على " النخيل " ؛ لنه يصير التقدير : ومن ثمرات الأعناب ، والعنب نفسه ثمرة وليس له ثمرة أخرى ".

والسكر : بفتحتين فيه أقوال : أحدها : أنه من أسماء الخمر ؛ كقول الشاعر : [البسيط] ٣٣٤٠ - بئس الصحاة وبئس الشرب شربهم

إذا جرى فيهم المزاء والسكر

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٩٨

الثاني : أنه في الأصل مصدر ، ثم سمي به الخمر ، يقال : سكر يسكر سكرا وسكرا ؛ نحو : رشد يرشد رشدا ورشدا ؛ قال الشاعر : [الوافر] ٣٣٤١ - وجاءونا بهم سكر علينا

فأجلى اليوم والسكران صاحي

قاله الزمخشري.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣١٨٠

الثالث : أنه اسم للخل بلغة الحبشة ؛ قاله ابن عباس.

الرابع : أنه اسم للعصير ما دام حلوا ؛ كأنه سمي بذلك لمله لذلك لو ترك.

الخامس : أنه اسم للطعم ، قاله ابو عبيدة ح وأنشد : [الرجز﴾

٣٣٤٢ - جعلت أعراض الكرام سكرا

أي : تنقلت بأعراضهم.

وقيل في البيت بأنه من الخمر ، وأنه إذا انتهك أعراض الناس كان يخمر بها.

وقال الضحاك والنخعي ومن يبيح شرب النبيذ : السكر هو النبيذ ؛ وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد ، والمطبوخ من العصير.

ومن حرمه يقول : المراد من الآية : الإخبار لا الإحلال.

قوله : ﴿ورزقا حسنا﴾ يجوز أن يكون من عطف المتغايرات ، وهو الظاهر ؛ كما قال المفسرون : إنه كالزبيب والخل والدبس ونحو ذلك وأن يكون من عطف الصفات بعضها على بعض ، أي : تتخذون منه ما يجمع بين السكر والرزق الحسن ؛ كقوله : [المتقارب]

١٠٨

٣٣٤٣

- إلى الملك القرم وابن الهمام

....

فصل ذهب ابن مسعود ، وابن عمر ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومجاهد إلى أن السكر الخمر ، والرزق الحسن الخل والرب والتمر والزبيب.

قالوا : وهذا قبل تحريم الخمر ؛ لأن هذه السورة مكية ، وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة.

قال بعضهم : ولا حاجة إلى التزام النسخ ؛ لأنه - تعالى - ذكر ما في هذه الأشياء من **المنافع** ، وخاطب المشركين بها ؛ لأنها من أشربتهم ، فهي منفعة في حقهم.

ثم إنه - تعالى - نبه في هذه الآية أيضا على تحريمها ؛ لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر ، فوجب أن السكر لا يكون رزقا حسنا ؛ وهو حسن بحسب الشهوة ، فوجب أن يقال : بأن الرجوع عن كونه حسنا بحسب الشريعة ، وإنما يكون كذلك إذا كانت محرمة.

ثم إنه - تعالى - لما ذكر هذه الوجوه التي هي دلائل على التوحيد من وجه ، وتعديد للنعم العظيمة من

وجه آخر – قال – جل ذكره – : ﴿إن في ذالك لآية لقوم يعقلون﴾ أي : من كان عاقلا ، علم بالضرورة أن هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله تعالى – ، فيحتج بأصولها على وجود الإله القادر الحكيم.
جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٩٨
قوله تعالى ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ الآية لما بين أن إخراج الألبان من النعم ، وإخراج السكر من ثمرات النخيل والأعناب دلائل قاهرة على أن لهذا العالم إلها قادرا
١٠٩
." (١)

"الثاني : أنه من عطف الصفات لشيء واحد ، أي : جعل لكم بنين خدما ، والحفدة : الخدم.
الثالث : أنه منصوب بـ " جعل " مقدرة ، وهذا عند من يفسر الحفدة بالأعوان والأصهار ، وإنما احتيج إلى تقدير " جعل " ؛ لأن " جعل " الأولى مقيدة بالأزوا ، والأعوان والأصهار ليسوا من الأزواج ، والحفدة : جمع حافد ؛ كخادم وخدم.
قال الواحدي – رحمه الله – : " ويقال في جمعه : الحفد بغير هاء ؛ كما يقال : الرصد ، ومعنى الحفدة في اللغة : الأعوان والخدم ".
وفيهم للمفسرين أقوال كثيرة ، واشتقاقهم من قولهم : حفد يحفد حفدا وحفودا وحفدانا ، أي : أسرع في الطاعة ، وفي الحديث : " وإليك نسعى ونحفد " ، أي : نسرع في طاعتك ؛ وقال الآخر : [الكامل] ٣٣٤٤ – حفد الولائد حولهن وأسلمت
بأكفهن أزمة الأجمال
جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٩٥١
ويستعمل " حفد " أيضا متعديا ؛ يقال : حفدني فهو حافد ؛ وأنشد أيضا : [الرمل] ٣٣٤٥ – يحفدون الضيف في أبياتهم
كرما ذلك منهم غير ذل
وحكى أبو عبيدة أنه يقال : أحفد رباعيا ، وقال بعضهم : الحفدة الأصهار ؛ وأنشد : [الطويل] ٣٣٤٦ – فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحت
لها حفد مما يعد كثير

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٣٢٢٩

ولكنها نفس علي أبية

عيوف لإصهار اللئام قذور

ويقال : سيف محتفد ، أي : سريع القطع ؛ وقال الأصمعي : أصل الحفد مقاربة الخطى.

قوله : ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ ولما ذكر إنعامه على عبيده بالمنكوح وما فيه من **المنافع** والمصالح ، ذكر إنعامه عليهم بالمطعومات الطيبة ، و " من " في " من الطيبات " للتبعيض.

ثم قال ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنه - يعني : بالأصنام وقال

١١٩

مقاتل : يعني : بالشيطان ، وقال عطاء : يصدقون أن لي شريكا وصاحبة وولدا.

﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾ أي : بأن يضيفوها إلى غير الله ولا يضيفونها إلى الله ، وقيل : يكفرون بالتوحيد والإسلام.

وقيل : يحرمون على أنفسهم طيبات أحلها الله لهم ؛ مثل : البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، ويبيحون لأنفسهم محرمات حرمها الله عليهم ، وهي الميتة ولحم الخنزير ﴿وما ذبح على النصب﴾ [المائدة : ٣] ، أي : يجحدون ويكفرون إنعام الله في تحليل الطيبات وتحريم الخبائث ، ويحكمون بتلك الأحكام الباطلة.

قوله - تعالى - : ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا﴾ الآية لما شرح الدلائل الدالة على صحة التوحيد ، وأتبعها بذكر أقسام النعم العظيمة ، أتبعها بالرد على عبدة الأصنام ؛ قال ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات﴾ يعني : المطر والأرض ، ويعني النبات والثمار.

قوله تعالى : ﴿من السماوات﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه متعلق بـ " يملك " ، وذلك على الإعرابين الأولين في نصب " شيئا ".

الثاني : أنه متعلق بمحذوف على أنه صفة لـ " رزقا ".

الثالث : أن يتعلق بنفس " رزقا " إن جعلناه مصدرا.

وقال ابن عطية - بعد أن ذكر إعمال المصدر منونا - : والمصدر يعمل مضافا باتفاق ؛ لأنه في تقدير الانفصال ، ولا يعمل إذا دخله الألف واللام ؛ لأنه قد توغل في حال الأسماء وبعد عن الفعلية ، وتقدير الانفصال في الإضافة حسن عمله ؛ وقد جاء عاملا مع الألف واللام في قول الشاعر : [المتقارب] ٣٣٤٧

- ضعيف النكاية أعداءه

....

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ١٠٩

وقوله : [الطويل] ٣٣٤٨ - ....

....

فلم أنكل عن الضرب مسمعا

١٢٠

". (١)

"عليهم أحد ، ولولا أنه موجب للذل ، وإلا لما كان الأمر كذلك ، فلما كان الوطء ذلا ، كان السعي في تقليله موافقا للعقول ، فاقتصار المرأة الواحدة على الرجل الواحد سعي في تقليل ذلك العمل ، وما فيه ن الذل يجبر **بالمنافع** الحاصلة.

وأما الزنا ، فإنه فتح لباب العمل القبيح ، ولا يجبر بشيء من **المنافع** ، فيبقى على أصل المنع.

وإذا ثبت ذلك ، فنقول : إنه تعالى وصف الزنا بصفات ثلاثة : كونه ﴿فاحشة ومقتا﴾ [النساء : ٢٢] في آية أخرى ﴿وسآء سبيلا﴾ أما كونه فاحشة ؛ فلاشتماله على الأمور المذكورة ، وأما المقت فلأن الزانية تصير ممقوتة مكروهة ؛ لما ذكرنا.

وأما كونه ساء سبيلا : فهو ما ذكرنا من أنه لا يبقى فرق بين الإنسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكران بالإناث ، وبقاء الذل والعيب والعار على المرأة من غير أن يجبر بشيء من **المنافع**.

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٢٦٩

فقوله جل ذكره : ﴿إلا بالحق﴾ أي : إلا بسبب الحق ، فيتعلق بـ " لا تقتلوا " ويجوز أن يكون حالا من فاعل " لا تقتلوا " أو من مفعوله ، أي : لا تقتلوا إلا ملتبسين بالحق أو إلا ملتبسة بالحق ، ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف ، أي : إلا قتلا ملتبسا بالحق.

فصل والحق المبيح للقتل هو قوله - صلوات الله وسلامه عليه - : " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل كفر بالله بعد إيمانه ، أو زنى بعد أحصانه ، أو قتل نفسا بغير نفس ".

فإن قيل : إن أكبر الكبائر بعد الكفر بالله سبحانه وتعالى هو القتل ، فما السبب في أنه تعالى بدأ بالنهي عن الزنا ، ثم نهى بعده عن القتل.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٢٣٥

فالجواب : أنا بينا أن فتح باب الزنا يمنع دخول الإنسان في الوجود ، والقتل يدل على إعدامه ، ودخوله ف يالوجود مقدم على إعدامه بعد وجوده ؛ فلهذا ذكر الزنا أولا ، ثم ذكر بعده القتل.

٢٧١

واعلم أن الأصل في القتل هو التحريم ، والحل إنما ثبت بسبب عارض ؛ فذلك نهى عن القتل بناء على حكم الأصل ، ثم استثنى منه الحالة التي يباح فيها القتل ، وهو عند حصول الأسباب العرضية ، فقال : ﴿إلا بالحق﴾ ويدل على أن الأصل في القتل التحريم وجوه : أحدها : أن القتل ضرر ، والأصل في المضار الحرمة ، قال - صلوات الله وسلم عليه - : " لا ضرر ، ولا ضرار ".

وثانيها : قوله صلى الله عليه وسلم : " الآدمي بنيان الرب ، ملعون من هدم بنيان الرب ".

وثالثها : أن الآدمي خلق للعبادة ، لقوله تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات : ٥٦] والعبادة لا تتم إلا بعدم القتل.

ورابعها : أن القتل إفساد ، فحرم ؛ لقوله تعالى : ﴿ولا تفسدوا﴾ [الأعراف : ٥٦].

وخامسها : إذا تعارض دليل تحريم القتل ، ودليل إباحته ، فالإجماع على أن جانب الحرمة راجح ، ولولا أن مقتضى الأصل هو التحريم ، وإلا لكان ذلك ترجيحا لا لمرجح ، وهو محال.

وإذا علم أن الأصل في القتل هو التحريم ، فقوله : " ولا تقتلوا " نهي وتحريم.

وقوله : " حرم الله " إعادة لذكر التحريم على سبيل التاكيد ، ثم استثنى عنه الأسباب العرضية ، فقال : إلا بالحق ، وها هنا طريقان : الطريق الأول : أن قوله " إلا بالحق " مجمل ليس فيه بيان أن ذلك الحق ما هو ، ثم قال تعالى : ﴿ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا﴾ أي : في حق استيفاء القصاص ؛ فوجب أن يكون المراد من الحق هذه الصورة فقط ، فتكون الآية نصا صريحا في تحريم القتل ، إلا بهذا السبب الواحد.

الطريق الثاني : أن نقول : دلت السنة على أن ذلك الحق هو أحد الأمور الثلاثة المتقدمة في الخبر.

واعلم أن الخبر من باب الآحاد ، فإن قلنا : إن قوله تعالى : ﴿ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا﴾ بيان لذلك الحق ، كانت الآية صريحة في أنه لا يحل القتل إلا بهذا السبب الواحد ، وحينئذ : يصير الخبر مخصصا للآية ، ويصير فرعا لقولنا بصحة تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد ، وإن قلنا بأن قوله تعالى : ﴿ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا﴾ ليس بيانا لذلك الحق ، فحينئذ يصير الخبر مفسرا للحق المذكور في الآية ، وعلى هذا لا يصير فرعا على جواز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد ، وهو تنبيه

حسن.

٢٧٢

." (١)

"زعمتموهم بلهة ، وحذفهما اختصارا جائزا ، واقتصارا فيه خلاف.

فصل في سبب نزول الآية قال المفسرون : إن المشركين أصابهم قحط شديد ؛ حتى أكلوا الكلاب والجيف واستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم ، قال الله تعالى ﴿قل﴾ للمشركين ﴿ادعوا الذين زعمتم﴾ أنها آلهة من دونه.

واعلم أنه ليس المراد الأصنام ؛ لأنه تعالى قال في صفتهم : ﴿أولائك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾ [الإسراء : ٥٧] وابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى لا يليق بالأصنام البتة ، وإذا ثبت هذا ، فنقول : إن قوما عبدوا الملائكة ، فنزلت هذه الآية فيهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد : إنها نزلت في الذين عبدوا المسيح ، وعزيرا ، والملائكة ، و الشمس ، والقمر ، والنجوم.

وقيل : إن قوما عبدوا نفرا من الجن ، فأسلم النفر ، وبقي أولئك الناس متمسكين بعبادتهم ، فنزلت فيهم الآية.

قال ابن عباس : كل موضع في كتاب الله ورد فيه لفظ الزعم ، فهو كذب.

ثم إنه تعالى احتج على فساد مذهب هؤلاء بأن الإله المعبود هو القادر على إزالة الضرر ، وإيصال النفع وهذه الأشياء التي يعبدونها ، وهي الملائكة ، والجن ، والمسيح ، وعزير لا يقدرون على كشف الضر ، ولا على تحصيل النفع ، فما الدليل على أن الأمر كذلك ؟ فإن قلتم : لأنا نرى أولئك الكفار يتضرعون إليها ، ولا تحصل الإجابة.

قلنا : ونرى أيضا المسلمين يتضرعون إلى الله تعالى ، ولا تحصل الإجابة والمسلمون يقولون بأجمعهم : إن القدرة على كشف الضر ، وتحصيل النفع ليست إلا لله تعالى ، وعلى هذا التقدير ، فالدليل غير تام.

فالجواب : أن الدليل تام كامل ؛ لأن الكفار كانوا مقرين بأن الملائكة عباد الله تعالى ، وخالق الملائكة ، وخالق العالم لا بد وأن يكون أقدر من الملائكة ، وأقوى منهم ، وأكمل حالا منهم.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٣١٦

وإذا ثبت هذا ، فنقول : كمال قدرة الله معلوم متفق عليه ، وكمال قدرة غير الله غير معلوم ، ولا متفق عليه ، بل المتفق عليه أن قدرتهم بالنسبة إلى قدرة الله تعالى قليلة حقيرة ، وإذا كان كذلك ، وجب أن يكون الاشتغال بعبادة الله أولى من الاشتغال بعبادة

٣١٣

الملائكة ؛ لأن استحقاق الله العبادة معلوم ، وكون الملك كذلك مجهول ؛ والأخذ بالمعلوم أولى ، وسلك المتكلمون من أهل السنة طريقة أخرى ، وهو أنهم أقاموا الحجة العقلية على أنه لا موجد إلا الله تعالى ، ولا يخرج الشيء من العدم إلى الوجود إلا الله ، وإذا ثبت ذلك ثبت أنه لا ضار ولا نافع إلا الله تعالى ، فوجب القطع بأنه لا معبود إلا الله تعالى ، وهذه الطريقة لا تتم للمعتزلة ، لأنهم لما جوزوا كون العبد موجدا لأفعاله امتنع عليهم الاستدلال على أن الملائكة – عليهم السلام – لا قدرة لها على الإحياء والإماتة ، وخلق الجسم ، وإذا عجزوا عن ذلك ، لا يتم لهم هذا الدليل ، فهذا هو الدليل القاطع على صحة قوله : ﴿فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا﴾ ، والتحويل عبارة عن النقل من حال إلى حال ، ومن مكان إلى مكان ، يقال : حوله ، فتحول.

قوله تعالى : ﴿أولائك الذين يدعون﴾ : " أولئك " مبتدأ ، وفي خبره وجهان : أظهرهما : أنه الجملة من " يبتغون " ويكون الموصول نعتا ، أو بيانا أو بدلا ، والمراد باسم الإشارة الأنبياء أو الملائكة الذين عبدوا من دون الله ، والمراد بالواو العباد لهم ، ويكون العائد على " الذين " محذوفا ، والمعنى : أولئك الأنبياء الذين يدعونهم المشركون ، لكشف ضرهم – أو يدعونهم آلهة ، فمفعولها أو مفعولاها محذوفان – يبتغون.

ويجوز أن يكون المراد بالواو ما أريد بأولئك ، أي : أولئك الأنبياء الذين يدعون ربهم أو الناس إلى الهدى يبتغون ، فمفعول " يدعون " محذوف.

والثاني : أن الخبر نفس الموصول ، و " يبتغون " على هذا حال من فاعل " يدعون " أو بدل منه.

وقرأ العامة " يدعون " بالغيب ، وقد تقدم الخلاف في الواو ؛ هل تعود على الأنبياء أو على عابديهم ، وزيد بن علي بالغيبة أيضا ، إلا أنه بناه للمفعول ، وقتادة ، وابن مسعود بتاء الخطاب ، وهاتان القراءتان تقويان أن الواو للمشركين ، لا للأنبياء في قراءة العامة.

فسل إذا أعدنا " يدعون " للعابدين ، و " يبتغون " للمعبودين ، فالمعنى : أولئك المعبودون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ؛ لأن الملائكة يرجعون غلى الله في طلب **المنافع** ، ودفع المضار ، يرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، وإذا كانوا كذلك ، كانوا عاجزين محتاجين ، والله – تعالى أغنى الأغنياء ، فكان الاشتغال [بعبادته]

أولى.

فإن قيل : لا نسلم أن الملائكة محتاجون إلى رحمة الله تعالى ، وخائفون من عذابه.

٣١٤

." (١)

"وأما على الوجه الرابع : فيجوز أن تكون التامة والناقصة بالتقديم والتأخير ؛ لعدم المحذور ؛ لأن " مقاما " معمول لغير الصلة.

وقوله : " محمودا " في انتصابه وجهان : أحدهما : أنه منصوب على الحال من قوله : يبعثك ، أي : يبعثك محمودا.

والثاني : أن يكون نعتا للمقام.

فصل في معنى " عسى " من الله اتفق المفسرون على أن كلمة " عسى " من الله واجب.

قال أهل المعاني : لأنه لفظ يفيد الإطماع ، ومن أطمع إنسانا في شيء ، ثم حرمه ، كان عارا ، والله تعالى أكرم من أن يطمع واحدا في شيء ، ثم لا يعطيه.

وفي تفسير المقام المحمود أربعة أقوال : الأول : أنه الشفاعة.

قال الواحدي : أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية : " هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه ".

قال ابن الخطيب : واللفظ مشعر به ؛ لأن الإنسان إنما يصير محمودا إذا حمده حامد ، والحمد ، إنما يكون على الإنعام ، فهذا المقام المحموج يجب أن يكون مقاما أنعم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم ، فحمدوه على ذلك الإنعام ، وذلك الإنعام لا يجوز أن يكون تبليغ الدين ، وتعليم الشرائع ؛ لأن ذلك كان حاصلا في الحال ، وقوله : ﴿عسى أن يبعثك ربك﴾ تطميع ، وتطميع الإنسان في الشيء الذي حصل له وعده محال ؛ فوجب أن يكون ذلك الإنعام الذي لأجله يصير محمودا إنعاما يصل منه بعد ذلك إلى الناس ، وما ذاك إلا شفاعته عند الله تعالى.

وأيضا : التنكير في قوله : ﴿مقاما محمودا﴾ يدل على أنه يحصل للنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل ، ومن المعلوم أن حمد الإنسان على سعيه في التخليص من العذاب أعظم من حمده في السعي في زيادة الثواب ؛ لأنه لا حاجة به إليها ؛ لأن حاجة الإنسان في رفع الآلام العظيمة

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٣٣٨

عن النفس فوق احتياجه إلى تحصيل **المنافع** الزائدة التي لا حاجة به إلى تحصيلها ، وإذا
٣٦٣
ثبت هذا ، وجب أن يكون المراد من قوله تعالى : ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ هو الشفاعة في إسقاط العقاب ؛ على ما هو مذهب أهل السنة.

ولما ثبت أن لفظ الآية مشعر بهذا المعنى إشعارا قويا ، ثم وردت الأخبار الصحيحة في تقرير هذا المعنى ، وجب حمل اللفظ عليه ، ومما يؤكد ذلك الدعاء المشهور عنه في إجابة المؤذن : " وابعثه المقام المحمود الذي وعدته ".

واتفق الناس على أن المراد منه الشفاعة.

والقول الثاني : قال حذيفة : يجمع الناس في صعيد ، فلا تتكلم نفس ، فأول من يتكلم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فيقول : لبيك ، وسعديك ، والشر ليس إليك ، والمهدي من هديت ، والعبد بين يديك ، وبك وإليك ، لا م نجى ولا ملجأ منك إلا إليك ، تباركت ، وتعاليت ، سبحانك رب البيت ".

قال : فهذا هو المراد من قوله عز وجل : ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾.

والقول الأول أولى ؛ لأن سعيه في الشفاعة يفيد إقدام الناس على حمده ، فيصير محمودا ، وأما ذكر هذا الدعاء ، فلا يفيد إلا الثواب ، أما الحمد ، فلا.

فإن قالوا : لم لا يجوز أن يقال : إنه تعالى يحمده على هذا القول ؟ .

فالجواب : أن الحمد في اللغة : مختص بالثناء المذكور ف يمقابلة الإنعام بلفظ ، فإن ورد لفظ " الحمد " في غير هذا المعنى ، فعلى سبيل المجاز.

القول الثالث : المراد مقام تحمد عاقبته ، وهذا ضعيف ؛ لما ذكرنا.

القول الرابع : قال الواحدي - رحمه الله - : روي عن ابن عباس - رضي الله
٣٦٤
عنه - أنه قال : يقعد الله محمدا على العرش ، وعن مجاهد أنه قال : يجلسه معه على العرش.

قال الواحدي : وهذا قول رذل موحش فظيع ، ونص الكتاب يفسد هذا التفسير من وجوه : الأول : أن البعث ضد الإجلاس ، يقال : بعثت الناقة ، وبعث الله الميت ، أي : أقامه من قبله ، فتفسير البعث بالإجلاس تفسير الضد بالضد ؛ وهو فاسد.

والثاني : أنه تعالى ، لو كان جالسا على العرش ، بحيث يجلس عنده محمد - صلوات الله وسلامه عليه

- لكان محدودا متناهيا ، ومن كان كذلك ، فهو محدث.
الثالث : أنه تعالى قال : ﴿مقاما محمودا﴾ ولم يقل : مقعدا ، والمقام : موضع القيام ، لا موضع القعود.
الرابع : أن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزاز ؛ لأن هؤلاء الحمقاء يقولون : إن أهل الجنة كلهم يجلسون معه ويرونه ، وإنه تعالى يسألهم عن أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا ، وإذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين ، لم يكن في تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بذلك مزيد شرف ومرتبة.
الخامس : أنه إذا قيل : السلطان بعث فلانا ، فهم منه أنه أرسله لإصلاح مهماتهم ، ولا يفهم أنه أجلسه مع نفسه ؛ فثبت أن هذا القول كلام رذل ، لا يميل إليه إلا قليل العقل ، عديم الدين.
جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٣٥٤
." (١)

"يريد : نحته بالتشديد ، فخفف ، قال الأصمعي : كان ينشده : " الوجد " بالنصب على المفعول له ، وأبو عبيدة رواه بالرفع على الفاعلية بـ " الباخع ".
وقيل : البخع : أن تضعف الأرض بالزراعة ، قاله الكسائي ، وقيل : هو جهد الأرض وعلى هذا معنى " باخع نفسك " أي ناهكها وجاهدها ؛ حتى تهلكها ، وقيل : هو جهد الأرض في حديث عائشة - رضي اله عنها - عن عمر : " بخع الأرض " تعني جهدها ؛ حتى أخذ ما فيها من أموال ملوكها ، وهذا استعارة ، ولم يفسره الزمخشري هنا بغير القتل والإهلاك ، وقال في سورة الشعراء : " البخع " : أن يبلغ بالذبح البخاع بالباء وهو عرق مستبطن الفقار ، وذلك أقصى حد الذابح.
قال شهاب الدين : وسمعت شيخنا علاء الدين القوني يقول : " تتبعت كتب الطب والتشريح ، فلم أجد لهذا اصلا ".
فصل يحتمل أنه لما ذكروه ، سموه باسم آخر ؛ لكونه أشهر فميا بينهم.
وقال الراغب : " البخع : قتل النفس غما " ثم قال : " وبخع فلان بالطاعة ، وبما عليه من الحق : إذا أقر به ، وأذعن مع كراهة شديدة ، تجري مجرى بخع نفسه في شدته ".
قوله : " على آثارهم " متعلق بـ " باخع " أي : من بعد هلاكهم.
يقال : مات فلان على أثر فلان ، أي بعده ، وأصل هذا أن الإنسان ، إذا مات ، بقيت علاماته ، وآثاره

---
(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٣٦٤

بعد موته مدة ، ثم إنها تنمحي وتبطل بالكلية ، فإذا كان موته قريبا من [موت] الأول ، كان موته حاصلا حال بقاء آثار الأول ، فصح أن يقال : مات فلان على أثر فلان.

قوله : ﴿إن لم يؤمنوا بهاذا الحديث﴾ يعني القرآن.

قال القاضي : وهذا يقتضي وصف القرآن بأنه حديث ، وذلك يدل على فساد قول من يقول : إنه قديم.

وأجيب بأنه محمول على الألفاظ ، وهي حادثة.

قوله : ﴿إن لم يؤمنوا﴾ : قرأ العامة بكسر " إن " على أنها شرطية ، والجواب محذوف

٤٢٥

عند الجمهور ؛ لدلالة قوله : " فلعلك " ، وعند غيرهم هو جواب متقدم ، وقرئ : " أن لم " بالفتح ؛ على حذف الجار ، أي : لأن لم يؤمنوا.

وقرئ " باخع نفسك " بالإضافة ، والأصل النصب ، وقال الزمخشري " وقرئ طباخع نفسك " على الأصل ، وعلى الإضافة.

أي : قاتلها ومهلكها ، وهو للاستقبال فيمن قرأ " إن لم يؤمنوا " ، وللمضي فيمن قرأ " إن لم تؤمنوا " بمعنى : لأن لم تؤمنوا " يعني أن باخعا للاستقبال في قراءة كسر " إن " فإنها شرطية ، وللمضي في قراءة فتحها ، وذلك لا يأتي إلا في قراءة الإضافة ؛ إذ لا يتصور المضي مع النصب عند البصريين ، وعلى هذا يلزم ألا يقرأ بالفتح ، إلا من قرأ بإضافة " باخع " ، ويحتاج في ذلك إلى نقل وتوقيف.

قوله : " أسفا " يجوز أن يكون مفعولا من أجله ، والعامل فيه " باخع " وأن يكون مصدرا في موضع الحال من الضمير في " باخع ".

والأسف : الحزن ، وقيل : الغضب ، وقد تقدم في الأعراف عند قوله : ﴿غضبان أسفا﴾ [الأعراف : ١٥٠] وفي يوسف عند قوله : ﴿ياأسفى على يوسف وابيضت﴾ [يوسف : ٨٤].

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٤٢٤

قوله : ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ الآية.

قال القاضي : وجه النظم كأنه يقول : يا محمد ، إني خلقت الأرض ، وزينتها ، وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح ، وأيضا ، فالمقصود من خلقها بما فيها من المصالح ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ، ثم إنهم يكفرون ويتمردون ، ومع ذلك ، فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم ، فأنت أيضا يا محمد لا يهمك الحزن ؛ بسبب كفرهم إلى أن تترك الاشتغال بدعوتهم إلى الدين.

قوله : ﴿زينة﴾ : يجوز أن ينتصب على المفعول له ، وأن ينتصب على الحال ، إن جعلت " جعلنا " بمعنى " خلقنا " ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا ، إن ك انت " جعل " تصييرية ، و " لها " متعلق بـ " زينة " على العلة ، ويجوز أن تكون اللام زائدة في المفعول ، ويجوز أن تتعلق بمحذوف صفة لـ " زينة ".
وقوله : " لنبلوهم " متعلق بـ " جعلنا " بمعنييه.
٤٢٦
قوله : " أيهم أحسن " يجوز في " أيهم " وجهان : أحدهما : أن تكون استفهامية مرفوعة بالابتداء ، و " أحسن " خبرها ، والجملة في محل نصب متعلقة بـ " نبلوهم " لأنه سبب العلم ، والسؤال ، والنظر.
والثاني : أنها موصولة بمعنى الذي و " أحسن " خبر مبتدأ مضمر ، والجملة صلة لـ " أيهم " ويكون هذا الموصول في محل نصب بدلا من مفعول " لنبلوهم " تقديره لنبلو الذي هو أحسن ؛ وحينئذ تحتمل الضمة في " ايهم " أن تكون للبناء ، كهي في قوله تعالى : ﴿لننزعن من كل شيعة أيهم أشد﴾ [مريم : ٦٩] على أحد الأقوال ، وفي قوله : [المتقارب] ٣٤٨٤ - إذا ما أتيت بني مالك
فسلم على أيهم أفضل
." (١)

"وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس " مدادا " كالأول ، ونصبه على التمييز ايضا عند أبي البقاء ، وقال غيره - كأبي الفضل الرازي - : إنه منصوب على المصدر ، بمعنى الإمداد ؛ نحو : ﴿أنبتكم من الأرض نباتا﴾ [نوح : ١٧] قال : والمعنى : ولو أمددناه بمثله إمدادا.
فصل في معنى الآية المعنى : ولو كان الخلائق يكتبون ، والبحر يمدهم ، لنفد ما في البحر ، ولم تنفد كلمات ربي ﴿ولو جئنا بمثله﴾ أي بمثل ماء البحر في كثرته.
قوله : ﴿مددا﴾ نظيره قوله تعالى : ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ [لقمان : ٢٧].
واستدلوا بهذه الآية على أنها صريحة في إثبات كلمات كثيرة لله تعالى.
قال ابن الخطيب : وأصحابنا حملوا الكلمات على متعلقات علم الله تعالى.
قال الجبائي : وأيضا قوله : ﴿قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ يدل على أن كلمات الله تعالى ، قد تنفد في الجملة ، وما ثبت عدمه ، امتنع قدمه.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٣٩٦

وأيضا قال : ﴿ولو جئنا بمثله مددا﴾.

وهذا يدل على أنه تعالى قادر على أن يجيء بمثل كلامه ، والذي يجيء به يكون محدثا ، والذي يكون المحدث كلامه فهو أيضا محدث.

فالجواب : بأن المراد به الألفاظ الدالة على تعلقات تلك الصفات الأزلية.

ولما بين تعالى تمام كلامه أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يسلك طريقة التواضع ، فقال : ﴿قل إنمآ أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾.

٥٧٨

أي : لا امتياز بيني وبينكم في شيء من الصفات إلا في أن الله تعالى ، أوحى إلي أنه لا إله غلا هو الواحد الأحد.

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : علم الله – عز وجل – رسوله صلى الله عليه وسلم التواضع ، فأمره أن يقر ، فيقول : أنا آدمي مثلكم إلا أني خصصت بالوحي.

قوله : ﴿أنمآ إلـهكم إله واحد﴾ وهو يدل على مطلوبين : أحدهما : أن كلمة " أنما " تفيد الحصر.

والثاني : كون الإله واحدا.

قوله : ﴿أنمآ إلاهكم﴾ : " أن " هذه مصدرية ، وإن كانت مكفوفة بـ " ما " وهذا المصدر فائم مقام الفاعل ؛ كأنه قيل : إنما يوحى إلي التوحيد.

قوله : ﴿فمن كان يرجوا لقآء ربه﴾.

الرجاء : هو ظن المنافع الواصلة ، والخوف : ظن المضار الواصلة إليه ، فالرجاء هو الأمل.

وقيل : معنى " يرجو لقاء ربه " أي : يخاف المصير إليه ، فالرجاء يكون بمعنى الخوف ، والمل جميعا ؛ قال الشاعر : [الطويل] ٣٥٧٦ – فلا كل ما ترجو من الخير كائن

ولا كل ما ترجو من الشر واقع

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٥٧٥

فجمع بين المعنيين ، وأهل السنة حملوا لقاء الرب على رؤيته.

والمعتزلة حملوه على لقاء ثواب الله.

قوله تعالى : ﴿فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾.

قرأ العامة : " ولا يشرك " بالياء من تحت ، عطف نهي على أمر ، وروي عن أبي عمرو " ولا تشرك "

بالتاء من فوق ؛ خطابا على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، ثم التفت في قوله " بعبادة ربه " إلى الأول ، ولو جيء على الالتفات الثاني ، لقيل : " ربك " والباء سببية ، أي : بسبب.

وقيل : بمعنى " في ".

فصل في ورود لفظ الشرك في " القرآن الكريم " قال أبو العباس المقري : ورد لفظ الشرك " في القرآن بإزاء معنيين : الأول : بمعنى الشرك في العمل ؛ كهذه الآية.

الثاني : بمعنى العدل ؛ قال تعالى : ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ [النساء : ٣٦].

أي : ولا تعدلوا به شيئا.

٥٧٩

." (١)

"محبة في الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله – تعالى – ينزلها على أهل السماء ، ثم على أهل الأرض.

وتصديق ذلك في القرآن قوله : ﴿سيجعل لهم الرحمان ودا﴾.

وقال أبو مسلم : معناه يهب لهم ما يحبون.

والود والمحبة سواء ، يقال : آتيت فلانا محبته ، وجعلت له وده ، ومن كلامهم : يود لو كان كذا ، " وودت أن لو كان كذا أي أحببت " ، فالمعنى : سيعطيهم الرحمن ودهم ، أي : محبوبهم في الجنة.

والقول الأول أولى ، لتفسير الرسول – عليه السلام – ، ولأن حمل المحبة على المحبوب مجاز ، " ولأن رسول الله قرأ هذه الآية وفسرها بذلك فكانت أولى ".

قال أبو مسلم : القول الثاني أولى لوجوه : أحدها : كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم التقي يبغضه الكفار ، وقد يبغضه كثير من المسلمين.

وثانيها : أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر ، فكيف يمكن جعله إنعاما في حق المؤمنين ؟ وثالثها : أن محبتهم في قلوبهم من فعلهم لا أن الله – تعالى – فعله ، فكان حمل الآية على إعطاء المنافع الأخروية أولى.

وأجيب عن الأول : بأن المراد يجعل له محبة عند الملائكة والأنبياء.

وعن الثاني : ما روي عنه – عليه السلام – : أنه حكى عن ربه – سبحانه وتعالى – أنه قال : " وإذا ذكرني

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٤٧٠

عبدي في نفسه ذكرته " في نفسي ، وإن ذكرني) في ملأ ذكرته في ملأ أطيب منهم وأفضل " والكافر والفاسق ليسا كذلك.

وعن الثالث : أنه محمول على فعل الألطاف ، وخلق داعية إكرامه في قلوبهم.

١٦٠

قوله : " بلسانك " يجوز أن يكون متعلقا بمحذوف على أنه حال ، واللسان هنا اللغة ، أي : أنزلناه كائنا بلسانك.

وقيل : هي بمعنى " على " ، وهذا لا حاجة إليه ، بل لا يظهر له معنى ، " و لدا " جمع " ألد " ، وهو الشديد الخصومة كالحمر جمع أحمر.

قال أهل اللغة : اللد جمع الألد ، وهو المعوج في المناظرة الرواغ من الحق الميال عنه ، وفي الحديث " إن أبغض الرجال إلى الله الخصم الألد " أي المعوج " قوله : " يسرناه " سهلناه يعني القرآن " بلسانك " يا محمد " لنبشر به المتقين " يعني المؤمنين ، وهذا كلام مستأنف " بين به عظيم " موقع هذه السورة لما فيها من ذكر التوحيد والنبوة والحشر ، والرد على فرق المبطلين ، فبين - تعالى - أنه يسر ذلك بلسانه ، ليبشر وينذر ، ولولا أنه - تعالى - نقل قصصهم إلى اللغة العربية لما تيسر لك على الرسول.

وكما ذكر أنه يبشر به المتقين ذكر في مقابلته من هو في مخالفة التقوى أبلغ ، وهو الألد الذي يتمسك بالباطل ويجادل فيه فقال : " وينذر به قوما لدا " ، وهو جمع الألد ، " وهو الشديد الخصومة.

وقال مجاهد : هو الظالم الذي لا يستقيم.

وقال أبو عبيدة الألد " الذي لا يقبل الحق ويدعي الباطل.

وقا الحسن : الألد الأصم عن الحق.

١٦١

ثم ختم السورة بموعظة بليغة فقال : " وكم أهلكنا قبلهم من قرن " لأنهم إذا تأملوا وعلموا أنه لا بد من زوال الدنيا ، وأنه لا بد فيها من الموت خافوا سوء العاقبة في الآخرة فكانوا إلى الحذر من المعاصي أقرب ، ثم أكد تعالى ذلك فقال : ﴿هل تحس منهم من أحد﴾.

قرأ الناس بضم التاء وكسر الحاء من أحس.

وقرأ أبو حيوة ، وأبو جعفر ، وابن أبي عبلة " نحس " " بفتح التاء وضم الحاء " وقرأ بعضهم : " تحس " بالفتح والكسر ، من حسه : أي شعر به ، ومنه الحواس الخمس.

و " منهم " حال من " أحد " ، إذ هو في الأصل صفة له.

و " من أحد " مفعول زيدت فيه " من.

وقرأ حنظلة " تسمع " بضم التاء وفتح الميم مبنيا للمفعول.

و " ركزا " مفعول على كلتا القارءتين ، إلا أنه مفعول ثان في القراءة " الشاذة ".

والر○○كز : الصوت الخفي دون نطق بحروف ولا فم ، " ومنه ركز الرمح أي غيب طرفه في الأرض وأخفاه ، ومنه الركاز ، وهو المال المدفون لخفائه واستتاره ، وأنشدوا : ٣٦٣٦ - فتوجست ركز الأنيس فراعها عن ظهر غيب ، والأنيس سقامها

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ١٤١

١٦٢

فصل قال المفسرون : " هل تحس " ، وقيل : هل تجد.

" منهم من أحد " ، لأن الرسول - عليه السلام - إذا لم يحس منهم أحدا برؤية وإدراك ووجدان ، ولا يسمع لهم ركزا ، أي : صوتا خفيا دل ذلك على انقراضهم وفنائهم بالكلية.

قال الحسن : بادوا جميعا ، يبق عين ولا أثر.

روى الثعلبي عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة مريم أعطي من الأجر بعدد من صدق بزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وموسى ، وهارون ، وإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وإسماعيل عشر حسنات ، وبعدد من دعا لله ولدا ، وبعدد من لم يدع له ولدا ".

١٦٣

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ١٤١." (١)

"يقال : شت الأمر يشت شتا وشتاتا فهو شت أي تفرق ، وشتان اسم فعل ماض بمعنى : افترق ، ولذلك لا يكتفي بواحد.

وفي " شتى " أوجه : أحدها : أنها منصوبة نعتا لأزواج ، أي أزواجا متفرقة ، بمعنى مختلفة الألوان (والطعوم).

والثاني : أنها منصوبة على الحال من أزواج ، وجاز مجيء الحال من النكرة لتخصصها بالصفة ، وهي " من نبات ".

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٥٣٨

الثالث : أن تنتصب على الحال أيضا من فاعل الجار ، لأنه لما وقع وصفا وقع ضميرا فاعلا.

الرابع : أنه في محل جر نعتا لنبات ، قال الزمخشري : يجوز أن يكون صفة لنبات ، ونبات مصدر سمي به النبات كما سمي بالنبت ، واستوى فيه الواحد والجمع ، يعني : أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل ، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم ، ووافقه أبو البقاء أيضا ، والظاهر الأول.

قوله : "كلوا " منصوب بقول محذوف ، وذلك القول منصوب على الحال من فاعل " أخرجنا " تقديره : فأخرجنا كذا قائلين كلوا.

وترك مفعول الأكل على حد تركه في قوله تعالى : " وكلوا واشربوا " " وارعوا "

٢٧٧

(رعى) يكون لازما ومتعديا ، يقال : رعى دابته رعيا فهو راع ، ورعى الدابة ترعى رعيا فهي راعية ، وجاء في الآية متعديا ، و " النهى " فيه قولان : أحدهما أنه جمع نهية كغرف جمع غرفة.

والثاني : أنها اسم مفرد ، وهو مصدر كالهدى والسرى ، قاله أبو علي وقد تقدم أول الكتاب أنهم قالوا لم يأت مصدر على " فعل " من المعتل اللام إلا سرى وهدى وبكى ، وأن بعضهم زاد لقى ، وأنشد عليه بيتا. وهذا لفظ فيكون خامسا.

والنهى : العقل سمي لعقل به ، لأنه صاحبه عن ارتكاب القبائح.

فصل لما ذكر موسى - عليه السلام - الدلالة الأولى ، وهي (دلالة عامة " تتناول جميع المخلوقات من الحيوان والنبات والجماد ذكر بعده دلائل خاصة فقال : " الذي جعل لكم الأرض مهادا " أي جعلها بحيث يتصرف العباد ، وغيرهم عليها من النوم ، والقعود ، والقيام ، والزراعة ، وجميع المنافع المذكورة في تفسير قوله تعالى : ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا﴾ [البقرة : ٢٢].

﴿وسلك لكم فيها سبلا﴾ السلك : إدخال الشيء في الشيء ، أي : أدخل في الأرض لأجلكم طرقا تسلكونها.

قال ابن عباس : سهل لكم فيها طرقا.

﴿وأنزل من السمآء مآء﴾ تقدم الكلام فيه في البقرة " فأخرجنا به أزواجا " تقدم أن هذا من كلام موسى تقديره : يقول ربي الذي

٢٧٨

جعل كذا وكذا " فأخرجنا " نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراسة " أزواجا من نبات ".

وتقدم أن الصحيح أنه من كلام الله تعالى ، لأن ما بعده لا يليق بموسى - عليه السلام - ، ولأن أكثر ما في قدرته صرف المياه إلا سقي الأراضي والحراسة ، فأما إخراج لنبات على أصناف طبائعه وألوانه وأشكاله فليس من موسى عليه السلام ، فثبت أنه كلام الله تعالى.

وقوله : " أزواجا " أي أصنافا سميت بذلك ، لأنها مزدوجة مقترنة بعضها ببعض.

" شتى " مختلفة الألوان والطعوم **والمنافع** بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم.

" كلوا " أمر إباحة.

" وارعوا أنعامكم " تقول العرب : رعيت الغنم فرعت أي أسيموا أنعامكم ترعى.

" إن في ذلك " أي فيما أنزلت لكم من هذه النعم " لآيات " لعبرة ودلالات.

" لأولي النهى " لذوي العقول.

(قال الضحاك) " لأولي النهى " الذي ينتهون عما حرم الله عليهم.

وقال قتادة : لذوي الورع.

قوله تعالى : " منها خلقناكم " الآية ، لما ذكر منافع الأرض السماء بين أنها غير مخلوقة لذواتها ، بل بكونها وسائل إلى منافع الآخرة ، فقال : " منها خلقناكم " أي من الأرض.

فإن قيل : إنما خلقنا من النطفة على ما بين في سائر الآيات.

فالجواب من وجوه : الأول : أنه لما خلق أصلنا وهو آدم - عليه السلام - من تراب كما قال تعالى : ﴿كمثل آدم خلقه من تراب﴾ [آل عمران : ٥٩] حسن إطلاق ذلك علينا.

الثاني : أن تولد الإنسان إنما هو من النطفة ودم الطمث ، وهما يتولدان من

٢٧٩

الأغذية ، والغذاء إما حيواني أو نباتي ، والحيواني ينتهي إلى النباتي ، والنبات إنما يحدث من المتزاج الماء والتراب ، فصح أنه سبحانه خلقنا منها ، وذلك لا ينافي كوننا مخلوقين من النطفة.

الثالث : روى ابن مسعود أن ملك الأرحام يأتي إلى الرحيم حين يكتب أجل المولود ورزقه ، والأرض التي يدفن فيها ، وأنه يأخذ من تراب تلك البقعة وينثره على النطفة ، ثم يدخلها في الرحم.

ثم قال : ﴿وفيها نعيدكم﴾ أي عند الموت ، ﴿ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ عند البعث.

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٢٦٩
." (١)

"وعن عروة بن الزبير كان إذا رأى ما عند السلطان يتلو هذه الآية ، وقال : الصلاة يرحمكم الله قوله : " أزواجا " في نصبه وجهان : أحدهما : أنه منصوب على المفعول به.
والثاني : أنه منصوب على الحال من الهاء في " به ".
راعى لفظ " ما " مرده فأفرد ، ومعناها أخرى فلذلك جمع.
قال الزمخشري : ويكون الفعل واقعا على " منهم "كأنه قال : إلى الذين متعنا به وهو أصناف منهم.
قال ابن عباس : أناسا منهم.
قال الكلبي والزجاج : رجالا منهم.
قوله : " زهرة " في نصبه تسعة أوجه : أحدها : أنه مفعول ثان ، لأنه ضمن " متعنا " معنى أعطينا ، ف " أزواجا " مفعول أول ، و " زهرة " هو الثاني.
الثاني : أن يكون بدلا من " أزواجا " ، وذلك إما على حذف مضاف أي ذوي زهرة ، وإما على المبالغة جعلوا نفس الزهرة.
الثالث : أن يكون منصوبا بفعل مضمر دل عليه " متعنا " تقديره : جعلنا لهم زهرة الرابع : نصبه على الذم ، قال الزمخشري : وهو النصب على الاختصاص.
الخامس : أن يكون بدلا من موضع الموصول ، قال أبو البقاء : واختاره
٤٢٧
بعضهم ، وقال آخرون : لا يجوز ، لأن قوله : لنفتنهم " من صلة " متعنا " فيلزم الفصل بين الصلة والموصول بالأجنبي.
وهو اعتراض حسن.
السادس : أن ينتصب على البدل من محل " به ".
السابع : أن ينتصب على الحال من " ما " الموصولة.
الثامن : أنه حال من الهاء في " به " ، وهو ضمير الموصول ، فهو كالذي قبله في المعنى.
فإن قيل : كيف يقع الحال معرفة ؟ فالجواب : أن تجعل " زهرة " منونة نكرة ، وإنما حذف التنوين للالتقاء

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٣٥٧٢

الساكنين نحو :

٣٧٠٢ - ولا ذاكر الله إلا قليلا

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٤٢٥

وعلى هذا : فبم (جرت " الحياة " ؟ فقيل : على البدل من " ما " الموصولة).

التاسع : أنه تمييز لـ " ما " أو الهاء في " به " وقد ردوه عليه بأنه

٤٢٨

معرفة والمميز لا يكون معرفة ، وهذا غير لازم ، لأنه يجوز تعريف التمييز على أصول الكوفيين.

والعاشر : أنه صفة لـ " أزواجا " بالتأويلين المذكورين في نصبه حالا وقد منعه أبو البقاء يكون الموصوف نكرة والوصف معرفة ، وهذا يجاب عنه بما أجيب في تسويغ نصبه حالا أعني حذف التنوين للالتقاء الساكنين.

والعامة على تسكين الهاء ، وقرأ الحسن وأبو البرهسم وأبو حيوة بفتحها ، فقيل : بمعنى كجهرة وجهرة. وأجاز الزمخشري أن يكون جمع زاهر كفاجر وفجرة وبار وبررة وروى الأصمعي عن نافع " لنفتنهم " بضم النون من أفتنه إذا اوقعه في الفتنة والزهرة بفتح الحاء وسكونها كنهر ونهر ما يروق من النور وسراج زاهر لبريقه ورجل أزهر وامرأة زهراء من ذلك والأنجم الزهر هي المضيئة.

فصل معنى " متعنا " ألذذ‌نا به ، و ا لإمتاع : الإلذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من

٤٢٩

الأصوات المطربة ، ويشم من الروائح الطيبة ، وغير ذلك من الملابس والمناكح ، يقال : أمتعه ومتعه تمتيعا ، والتفعيل يقتضي التكثير.

ومعنى الزهرة فيمن حرك الزينة والبهجة ، كما جاء في الجهرة قرئ " أرنا الله جهرة﴾.

وقيل : جمع زاهر وصفا لهم بأنهم زهرة هذه الحياة الدنيا لصفاء ألوانهم وتهلل وجوههم بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الألوان والتقشف في الثياب.

ومعنى " نفتنهم " نعذبهم كقوله : ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ [التوبة : ٥٥].

وقال ابن عباس : لنجعل ذلك فتنة لهم بأن أزيد لهم في النعمة فيزيدوا كفرا وطغيانا.

ثم قال : " ورزق ربك " في المعاد يعني في الجنة " خير وأبقى " أي : خير من مطلوبهم وأبقى ،

لأنه يدوم ولا ينقطع ، وليس كذلك حال ما أتوه في الدنيا.
ويحتمل أن ما أوتيته من يسير الدنيا إذا قرنته بالطاعة ، ورضيت به ، وصبرت عليه كانت عاقبته خيرا لك.
ويحتمل أن يكون المراد ما أعطي من النبوة والدرجات الرفيعة.
قوله : ﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ أي : قومك.
وقيل : من كان على دينك كقوله تعالى : ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة﴾ [مريم : ٥٥] وحمله بعضهم على أقاربه.
" واصطبر عليها " أي : اصبر على الصلاة وحافظ عليها فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.
وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد نزول هذه الآية يذهب إلى فاطمة وعلي - عليهما السلام - في كل صباح ويقول : " الصلاة ".
ثم بين تعالى أنما أمرهم بذلك لنفعهم وأنه متعال عن **المنافع** ، فقال : ﴿لا نسألك رزقا﴾ أي : لا نكلفك أن ترزق أحدا من خلقنا ، ولا أن ترزق نفسك ، وإنما نكلفك عملا ففرغ بالك لأمر الآخرة ،
٤٣٠

كما قال بعضهم : من كان في عمل الله كان الله في عمله.
وقال أبو مسلم : معناه إنما يريد منه أن يرزقه كما يريد السادة من العبيد الخراج ، ونظيره ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون مآ أريد منهم من رزق ومآ أريد أن يطعمون﴾ [الذاريات : ٥٦ ، ٥٧].
وقيل : المعنى إنما أمرناك بالصلاة لا لأنا ننتفع بصلاتك.
" نحن نرزقكم " في الدنيا بوجود النعم ، وفي الآخرة بالثواب قال عبد الله بن سلام : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا نزل بأهله ضيق أو شدة أمرهم بالصلاة ، وتلا هذه الآية.
" والعاقبة " الجميلة المحموجة " للتقوى " أي : لأهل التقوى.
قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : (الذين صدقوك واتبعوك واتقون) ، ويؤيده قوله في موضع آخر ، ﴿والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف : ١٢٨ ، القصص : ٨٣].
وقرأ ابن وثاب : " نرزقك " بإدغام القاف في الكاف ، والمشهور عنه أنه لا يدغم إلا إذا كانت الكاف متصلة بميم جمع نحو : خلقكم ، كما تقدم.

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٤٢٥

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٤٣٠." (١)

"الزمخشري : " تلك " إشارة إلى " يا ويلنا " لإنها دعوى ، كأنه قيل : فما زالت تلك الدعوى دعواهم ، والدعوى بمعنى الدعوة ، قال تعالى : ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ [يونس : ١٠].

وسميت دعوى ، لأنهم كانوا دعوا بالويل فقالوا : " يا ويلنا ".

قال المفسرون : لم يزالون يكررون هذه الكلمة فلم ينفعهم ذلك كقوله : ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ [غافر : ٨٥].

" حتى جعلناهم حصيدا " الحصيد : الزرع المحصود ، أي جعلناهم مثل الحصيد ، شبههم في استئصالهم به ، كما تقول : جعلناهم رمادا أي : مثل الرماد قوله : " حصيدا " مفعول ثان ، لأن الجعل هنا تصيير.

فإن قيل : كيف ينصب " جعل " ثلاثة مفاعيل ؟ فالجواب أن " حصيدا " و " خامدين " يجوز أن يكون من باب حلو حامض ، كأنه قيل : جعلناهم جامعين بين الوصفين جميعا.

ويجوز أن يكون " خامدين " حالا من الضمير في " جعلناهم " ، أو من الضمير المستكن في " حصيدا " فإنه في معنى محصود.

ويجوز أن يكون في باب ما تعدد فيه الخبر نحو : " زيد كاتب شاعر ".

وجوز أبو البقاء فيه أيضا أن يكون صفة لـ " حصيدا " ، وحصيد بمعنى محصود كما تقدم فلذلك لم يجمع.

وقال أبو البقاء : والتقدير : مثل حصيد فلذلك لم يجمع كما لم يجمع " مثل " المقدر انتهى.

وإذا كان بمعنى محصودين فلا حاجة ، والمعنى : أنهم هلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق حس ولا حركة ، وجفوا كما يجف الحصيد وخمدوا كما تخمد النار.

٤٥٩

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٤٥٥

قوله تعالى : ﴿وما خلقنا السمآء والأرض﴾ الآية.

اعلم أنه لما بين إهلاك القرية لأجل تكذيبهم أتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلا منه ، ومجازاة على

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٣٦١٩

ما فعلوا فقال : ﴿وما خلقنا السمآء والأرض وما بينهما لاعبين﴾ أي : وما سوينا هذا السقف المرفوع ، وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب كما سوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم للعب واللهو ، وإنما سويناهم لفوائد دينية ودنيوية.

أما الدينية فليتفكر المكلفون فيها على ما قال : ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾ [آل عمران : ١٩١].

وأما الدنيوية فلما يتعلق بها من المنافع التي لا تعد ولا تحصى ، وهو كقوله : ﴿وما خلقنا السمآء والأرض وما بينهما باطلا﴾ [ص : ٢٧] وقوله : ﴿ما خلقناهمآ إلا بالحق﴾ [الدخان : ٣٩].

وقيل : وجه النظم أن الغر منه تقرير نبوة محمد - عليه السلام - والرد على منكريه ، لأنه أظهر المعجز عليه ، فإن كان محمد كاذبا كان إظهار المعجز عليه من باب اللعب ، وذلك منفي عنه ، وإن كان صادقا فهو المطلوب وحينئذ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن و " لاعبين " حال من فاعل " خلقنا ".

فصل قال القاضي عبد الجبار : دلت هذه الآية على أن اللعب ليس من قبله تعالى ، إذ لو كان كذلك لكان لاعبا ، فإن اللاعب في اللغة اسم لفاعل اللعب ، فنفي الاسم الموضوع لفعل يقتضي نفي الفعل.

والجواب يبطل ذلك بمسألة الداعي ، وقد تقدم.

قوله : ﴿لو أردنآ أن نتخذ لهوا﴾.

قال ابن عباس : في رواية عطاء : اللهو : المرأة ، وهو قول الحسن وقتادة وقال في رواية الكلبي : اللهو : الولد بلغة اليمن ، وهو قول السدي.

وهو في المرأة أظهر ، لأن الوطأ يسمى لهوا في اللغة ، والمرأة محل الوطأ.

٤٦٠

" لاتخذناه من لدنآ " أي : من عندنا من الحور العين لا من عندكم من أهل الأرض.

وقيل : معناه لو كان ذلك جائزا في صفته لم يتخذه بحدث يظهر لهم ويستر ذلك حتى لا يطلع عليه.

وتأويل الآية : أن النصارى لما قالوا في المسيح وأمه ما قالوا رد الله عليهم بهذا ، وقال : " لاتخذناه من لدنآ " ، لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره.

قوله : ﴿إن كنا فاعلين﴾ في " إن " هذه وجهان : أحدهما : أنها نافية ، أي : ما كنا فاعلين ، قاله قتادة ومقاتل وابن جريج.

والثاني : أنها شرطية ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب " لو " عليه والتقدير : إن كنا فاعلين اتخذناه

ولكنا لم نفعله ، لأنه لا يليق بالربوبية.

قوله : ﴿بل نقذف بالحق على الباطل﴾.

" بل " حرف إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه لذاته كأنه قال : سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب بل من موجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق.

والمعنى دع الذي قالوا فإنه كذب وباطل.

و " نقذف " نرمي ونسلط قال تعالى : ﴿ويقذفون من كل جانب دحورا﴾ [الصافات : ٨ ، ٩] أي يرمون بالشهب.

" بالحق " بالإيمان ، " على الباطل " على الكفر وقيل : الحق قول الله : إنه لا ولد له ، والبطل قولهم : اتخذ الله ولدا.

قوله : " فيدمغه " العامة على رفع الغين نسقا على ما قبله.

وقرأ عيسى بن عمر بنصبها قال الزمخشري : وهو في ضعف قوله : ٣٧٠٥ - سأترك منزلي لبني تميم ". (١)

"قوله تعالى : ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا﴾ الآية.

لما بين في الآية السالفة حال عباده المنافقين وحال معبودهم ، وأن معبودهم لا ينفع ولا يضر بين هاهنا صفة عباده المؤمنين وصفة معبودهم ، وأن عبادتهم حقيقة ، ومعبودهم يعطهم أعظم المنافع وهو الجنة ، التي من كمالها جمعها بين الزرع والشجر وأن تجري من تحتها الأنهار ، وبين أنه يفعل ما يريد بهم من أنواع الفضل والإحسان زيادة على أجورهم كما قال تعالى ﴿فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ [النساء : ١٧٣].

واحتج أهل السنة في خلق الأفعال بقوله : ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾ قالوا : أجمعنا على أنه تعالى يريد الإيمان ، ولفظة " ما " للعموم فوجب أن يكون فاعلا للإيمان لقوله : ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾.

وأجاب عنه الكعبي بأن الله تعالى يفعل ما يريد أن يفعله (لا ما يريد أن يفعله) غيره.

وأجيب : بأن هذا تقييد للعموم وهو خلاف النص.

قوله : ﴿من كان يظن﴾.

" من " يجوز أن تكون شرطية وهو الظاهر ، وأن تكون موصولة ، والضمير في " ينصره " الظاهر عوده

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٦٢٧

على " من " ، وفسر النصر بالرزق ، وقيل يعود على الدين والإسلام فالنصر على بابه.

قال ابن عباس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدي واختيار الفراء والزجاج : أن الضمير في " ينصره " يرجع إلى محمد – عليه السلام – يريد أن من ظن أن لن ينصر الله محمدا في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه ، وفي الآخرة بإعلاء درجته ، والانتقام ممن كذبه ، والرسول – عليه السلام – وإن لم يجر له ذكر في هذه

٣٧

الآية ففيها ما يدل عليه وهو ذكر الإيمان في قوله : ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ، والإيمان لا يتم إلا بالله ورسوله.

قوله : " فليمدد " إما جزاء للشرط ، أو خبر للموصول ، والفاء للتشبيه بالشرط.

والجمهور على كسر اللام من " ليقطع " ، وسكنها بعضهم كما يسكنها بعد الفاء والواو لكونهن عواطف ، ولذلك أجروا " ثم " مجراهما في تسكين هاء (هو) و(هي) بعدها ، وهي قراءة الكسائي ونفاع في رواية قالون عنه.

قوله : ﴿هل يذهبن﴾ الجملة الاستفهامية في محل نصب على إسقاط الخافض ، لأن النظر تعلق بالاستفهام ، وإذا كان بمعنى الفكر تعدى بـ " في ".

وقوله : ﴿ما يغيظ﴾ " ما " موصولة بمعنى الذي ، والعائد هو الضمير المستتر ، و " ما " وصلتها مفعول بقوله : " يذهبن " أي : هل يذهبن كيده الشيء الذي يغيظه ، فالمرفوع في " يغيظه " عائد على الذي والمنصوب على ﴿من كان يظن﴾.

وقال أبو حيان : و " ما " في " ما يغيظ " بمعنى الذي والعائد محذوف أو مصدرية.

قال شهاب الدين : كلا هذين القولين لا يصح ، أما قوله : العائد محذوف فليس كذلك بل هو مضمر مستتر في حكم الموجود كما تقدم تقريره قبل ذلك ، وإنما يقال : محذوف فيما كان منصوب المحل أو مجروره ، وأما قوله : أو مصدرية فليس كذلك أيضا ، إذ لو كانت مصدرية لكانت حرفا على الصحيح ، وإذا كانت حرفا لم يعد عليها ضمير وإذا لم يعد عليها ضمير بقي الفعل بلا فاعل ، فإن قلت : أضمر في " يغيظ " ضميرا فاعلا يعود على ﴿من كان يظن﴾.

٣٩

". (١)

"الأعماق هنا بفتح الهمزة جمع عمق وعلى هذا فلا قلب في معيق ، لأنها لغة مستقلة ، وهو ظاهر قول الليث أيضا ، ويؤيده قراءة ابن مسعود بتقديم الميم ، ويقال : غميق بالغين المعجمة أيضا.

فصل بدأ الله بذكر المشاة تشريفا لهم ، وروى سعيد بن جبير بإسناده عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " إن الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشي سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل : يا رسول الله وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنة بمائة ألف حسنة ".

وإنما قال تعالى : " يأتوك رجالا " ؛ لأنه هو المنادي فمن أتى مكة حاجا فكأنه أتى إبراهيم – عليه السلام – ، لأنه يجيب نداءه.

قوله : " ليشهدوا " يجوز في هذه اللام وجهان : أحدهما : أن تتعلق بـ " أذن " ، أي : أذن ليشهدوا.

والثاني : أنها متعلقة بـ " يأتوك ".

وهو الأظهر.

قال الزمخشري : ونكر " منافع " لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات.

قل سعيد بن المسيب ومحمد بن علي الباقر :

٧٤

المنافع : هي العفو والمغفرة وقال سعيد بن جبير : التجارة ، وهي رواية ابن زيد.

وعن ابن عباس قال : الأسواق.

وقال مجاهد : التجارة وما يرضى الله به من أمر الدنيا والآخرة.

﴿ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات﴾ قال الأكثرون : هي عشر ذي الحجة قيل لها " معلومات " للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها.

والمعدودات : أيام التشريق.

وروي عن علي : أنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده ، وهو اختيار الزجاج.

لأن الذكر على " بهيمة الأنعام " يدل على التسمية على نحرها.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٧٠١

والنحر للهدايا إنما يكون في هذه الأيام.
وروى عطاء عن ابن عباس : أنها يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق.
وقيل : عبر عن الذبح والنحر بذكر اسم الله ؛ لأن المسلمين لا ينفكون عن ذكر اسم الله إذا نحروا.
ثم قال : ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ يعني الهدايا والضحايا تكون من النعم ، وهي الإبل والبقرة والغنم.
قال الزمخشري : البهيمة المبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر ، فبينت بالأنعام وهي : الإبل والبقر والغنم.
قوله : " فكلوا منها ".
قيل : هذا أمر وجوب ، لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئا ترفقا على الفقراء.
وقيل : هذا أمر إباحة.
واتفق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعا كان للمهدي أن يأكل منه ، وكذلك أضحية التطوع ؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – أمر أن يؤخذ من كل جزور بضعه ، فطبخت ، وأكل لحمها ، وحسي من مرقها ، وكان هذا تطوعا.
واختلفوا في الهدي الواجب في النذور والكفارات والجبرانات للنقصان مثل دم القران ودم التمتع ودم الإساءة ودم التقليم والحلق ، والواجب بإفساد الحج وفواته وجزاء الصيد.
فقال الشافعي وأحمد : لا يأكل منه.
وقال ابن عمر : لا
٧٥
يأكل من جزاء الصيد والنذور ، ويأكل مما سواهما.
وقال مالك : يأكل من هدي التمتع ، ومن كل هدي وجب عليه إلا من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور.
وعند أصحاب الرأي : يأكل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما.
قوله : ﴿وأطعموا البآئس الفقير﴾.
يعني الزمن الفقير الذي لا شيء له.
قال ابن عباس : البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه ، والفقير الذي لا يكون كذلك فتكون ثيابه نقية ووجهه وجه غني.

والبؤس شدة الفقر.

قوله : ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾.

العامة على كسر اللام ، وهي لام الأمر.

وقرأ نافع والكوفيون والبزي بسكونها ، إجراء للمنفصل مجرى المتصل نحو كتف ، وهو نظير تسكين هاء (هو) بعد (ثم) في قراءة الكسائي وقالون حيث أجريت (ثم) مجرى الواو والفاء والتفث : قيل أصله من التف.

وهو وسخ الأظفار قلبت الفاء ثاء كمعثور في معفور.

وقيل : هو الوسخ والقذر يقال : ما تفثك.

وحكى قطرب : تفث الرجل ، أي : كثر وسخه في سفره.

قال الزجاج : إن أهل اللغة لا يعرفون التفث إلا من التفسير.

وقال المبرد : أصل التفث في كلام العرب كل قاذورة تلحق الإنسان فيجب عليه نقضها.

وقال القفال : قال نفطويه : سألت أعرابيا فصيحا ما

٧٦

." (١)

"بها.

وقيل : في بهيمة الأنعام ، وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك.

ورواه مقسم عن ابن عباس.

وعلى هذا **فالمنافع** درها ونسلها وأصوافها وأوبارها وركوب ظهرها إلى أجل مسمى ، وهو أن يسميها ويوجبها هديا ؛ فإذا فعل ذلك لم يكن له شيء من منافعها.

وروي عن ابن عباس أن في البدن منافع مع تسميتها هديا بأن تركبوها إن احتجتم إليها ، وتشربوا لبنها إن احتجتم إليه ، إلى أجل مسمى إلى أن تنحروها.

وهذا اختيار الشافعي ومالك وأحمد وإسحاق ، وهو أولى ؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – " مر برجل يسوق بدنة وهو في جهد ، فقال عليه السلام : " اركبها ".

فقال يا رسول الله إنها هدي.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٧١٤

فقال : " اركبها ويلك " قال عليه السلام : " اركبوا الهدي بالمعروف حتى تجدوا ظهرا " واحتج أبو حنيفة على أنه لا يملك من منافعها بأنه لا يجوز له أن يؤجرها للركوب فلو كان مالكا لمنافعها لملك عقد الإجارة عليها كمنافع سائر المملوكات.

وأجيب بأن هذا قياس في معارضة النص فلا عبرة به ، وأيضا فإن أم الولد لا يملك بيعها ويمكنه الانتفاع بها فكذا ههنا.

ومن حمل **المنافع** على سائر الواجبات يقول : " لكم فيها " أي : في التمسك بها منافع إلى أجل ينقطع التكليف عنده.

والأول قول جمهور المفسرين لقوله : ﴿ثم محلهآ إلى البيت العتيق﴾ أي : لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم وأعظم هذه **المنافع** محلها إلى البيت العتيق ، أي : وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت كقوله ﴿هديا بالغ الكعبة﴾ [المائدة : ٩٥].

وقوله : " محلها " يعني حيث يحل نحرها ، وأما " البيت العتيق " فالمراد به الحرم كله لقوله : ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هاذا﴾ [التوبة : ٢٨] أي : الحرم كله ، فالمنحر على هذا القول مكة ، ولكنها نزهت عن الدماء إلى منى ، ومنى من مكة قال عليه السلام :

٨٦

"كل فجاج مكة منحر ، (وكل فجاج منى منحر) " قال القفال : هذا إنما يختص بالهدايا التي تبلغ منى ، فأما الهدي المتطوع به إذا عطب قبل بلوغ مكة فإن محلها موضعه.

ومن قال : الشعائر المناسك فإن معنى قوله : ﴿ثم محلهآ إلى البيت العتيق﴾ أي : محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق أن يطوفوا به طواف الزيارة (يوم النحر).

قوله تعالى : ﴿ولكل أمة جعلنا منسكا﴾ الآية.

قرأ الأخوان هذا وما بعده " منسكا " بالكسر.

والباقون بالفتح.

فقيل : هما بمعنى واحد ، والمراد بالمنسك مكان النسك أو المصدر.

وقيل : المكسور مكان ، والمفتوح مصدر.

قال ابن عطية : والكسر في هذا من الشاذ ولا يسوغ فيه القياس ، ويشبه أن يكون الكسائي سمعه من العرب.

قال شهاب الدين : وهذا الكلام منه غير مرضي ، كيف يقول : ويشبه أن يكون الكسائي سمعه.
والكسائي يقول : قرأت به.
فكيف يحتاج إلى سماع مع تمسكه بأقوى السماعات ، وهو روايته لذلك قرآنا متواترا.
وقوله : من الشاذ : يعني قياسا لا استعمالا فإنه فصيح في الاستعمال ، وذلك أن فعل يفعل بضم العين في المضارع قياس الفعل منه أن يفتح عينه مطلقا ، أي : سواء أريد به الزمان أم المكان أم
٨٧
المصدر ، وقد شذت ألفاظ ضبطها النحاة في كتبهم مذكورة في هذا الكتاب.
فصل " ولكل أمة " (أي : جماعة مؤمنة سلفت قبلكم من عهد إبراهيم عليه السلام " جعلنا منسكا ") أي ضربا من القربان ، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه عند ذبحها ونحرها فقال : ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ أي : عند الذبح والنحر لأنها لا تتكلم.
وقال : " بهيمة الأنعام " قيد بالنعم ، لأن من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبغال والحمير لا يجوز ذبحها في القرابين ، وكانت العرب تسمي ما تذبحه للصنم العتر والعتيرة كالذبح والذبيحة.
قوله : ﴿فإلاهكم إله واحد﴾ في كيفية النظم وجهان : الأول : أن الإله واحد ، وإنما اختلفت التكاليف باختلاف الأزمنة والأشخاص لاختلاف المصالح.
والثاني : ﴿فإلاهكم إله واحد﴾ لا تذكروا على ذبائحكم غير اسمه.
" فله أسلموا " انقادوا وأطيعوا ، فمن انقاد لله كان مخبتا فلذلك قال بعده " وبشر المخبتين ".
قال ابن عباس وقتادة : المخبت المتواضع الخاشع وقال مجاهد : المطمئن إلى الله.
والخبت المكان المطمئن من الأرض.
قال أبو مسلم : حقيقة المخبت من صار في خبت من الأرض تقول : أخبت الرجل إذا صار في الخبت كما يقال : أنجد وأتهم وأشأم.
٨٨
." (١)

"كانت من أسباب السعادة لعمر ، وسبب الشقاوة لعبد الله ، كما قال تعالى : ﴿يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا﴾ [البقرة : ٢٦].

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٧١٨

فإن قيل : فعلى كل الروايات فقد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن ، وذلك يقدح في كونه معجزا كما ظنه عبد الله.

فالجواب : هذا غير مستبعد إذا كان قدره القدر الذي لا يظهر فيه الإعجاز ، فسقطت شبهة عبد الله.

قوله : ﴿ثم إنكم بعد ذالك لميتون﴾ أي : بعدما ذكر ، ولذلك أفرد اسم الإشارة ، وقرأ العامة " لميتون " ، وزيد بن علي وابن أبي عبلة وابن محيصن " لمائتون " والفرق بينهما : أن الميت يدل على الثبوت والاستقرار ، والمائت على الحدوث كضيق وضائق وفرح وفارح ، فيقال لمن سيموت : ميت ومائت ، ولمن مات : ميت فقط دون مائت ، لاستقرار الصفة وثبوتها ، وسيأتي مثله في الزمر إن شاء الله تعالى.

فإن قيل : الموت لم يختلف فيه اثنان وكم من مخالف في البعث ، فلم أكد المجمع عليه أبلغ تأكيد وترك المختلف فيه من تلك المبالغة في التأكيد ؟ فالجواب : أن البعث لما تظاهرت أدلته وتظافرت ، أبرز في صورة المجمع عليه المستغني عن ذلك ، وأنهم لما لم يعملوا للموت ، ولم يهتموا بأموره ، نزلوا منزلة من ينكره ، فأبرز لهم في صورة المنكر الذي استبعدوه كل استبعاد.

وكان أبو حيان سئل عن ذلك ، فأجاب أن اللام غالبا تخلص المضارع للحال ، ولا يمكن دخولها في " تبعثون " ، لأنه مخلص للاستقبال لعمله في الظرف المستقبل ، واعترض على نفسه بقوله : ﴿وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة﴾ [النحل : ١٢٤] فإن اللام دخلت على المضارع العامل في ظرف مستقبل وهو " يوم القيامة " فأجاب بأنه خرج هذا بقوله : غالبا ، وبأن العامل في " يوم القيامة " مقدر ، وفيه نظر إذ فيه تهيئة العامل للعمل وقطعه عنه.

و " بعد ذلك " متعلق بـ " ميتون " ، ولا تمنع لام الابتداء من ذلك.

١٨٤

قوله : ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع.

فإن قيل : ما الحكمة في الموت ، وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم الدنيا فيكون ذلك في الإنعام أبلغ ؟ فالجواب هذا كالمفسدة في حق المكلفين لأنه متى عجل للمرء الثواب فيما يتحمله من المشقة في الطاعات صار إتيانه بالطاعات لأجل تلك المنافع لا لأجل طاعة الله بدليل أنه لو قيل لمن يصوم : إذا فعلت ذلك أدخلناك الجنة في الحال فإنه لا يأتي بذلك الفعل إلا لطلب الجنة ، فلا جرم أخره وبعده بالإماتة ، وهو الإعادة ، ليكون العبد عابدا لطاعته لا لطلب الانتفاع.

فإن قيل : هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر ، لأنه قال : ﴿ثم إنكم بعد ذالك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ ولم يذكر بين الأمرين الإحياء في القبر والإماتة.

فالجواب من وجهين : الأول : أنه ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة.

والثاني : أن الغرض من ذكر هذه الأجناس الثلاثة الإحياء والإماتة والإعادة والذي ترك ذكره فهو من جنس الإعادة.

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ١٧٥

قوله تعالى : ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرآئق﴾ الآية ، أي : سبع سموات سميت طرائق لتطارقها ، وهو أن بعضها فوق بعض ، يقال : طارقت النعل : إذا أطبق نعلا على نعل ، وطارق بين الثوبين : إذا لبس ثوبا على ثوب قاله الخليل والزجاج والفراء قال الزجاج : هو كقوله : ﴿سبع سماوات طباقا﴾ [الملك : ٣] وقال علي بن عيسى : سميت بذلك ، لأنها طرائق الملائكة في العروج والهبوط ، وقيل : لأنها طرائق الكواكب في مسيرها.

١٨٥

." (١)

"سورة الفرقان

مكية ، وهي سبع وسبعون آية ، وثمانمائة واثنتان وسبعون كلمة ، وعدد حروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانون حرفا.

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٤٧١

قوله تعالى : ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾ الآية.

اعلم أنه تعالى تكلم في هذه السورة في التوحيد والنبوة وأحوال القيامة ثم ختمها بذكر العباد المخلصين المؤمنين.

قال الزجاج : " تبارك " تفاعل من البركة.

والبركة كثرة الخيرة وزيادته ، وفيه معنيان : أحدهما : تزايد خيره وتكاثره.

قال ابن عباس : معناه : جاء بكل بركة ، قال تعالى : ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم : ٣٤].

والثاني : قال الضحاك : تعظم الذي نزل الفرقان ، أي : القرآن على عبده.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٣٧٥٧

وقيل : الكلمة تدل على البقاء ، وهو مأخوذ من بروك البعير ، ومن بروك الطير على الماء.
وسميت البركة بركة ، لثبوت الماء فيها ، والمعنى : أنه سبحانه باق في ذاته أزلا وأبدا ممتنع التغير ، وباق في صفاته ممتنع التبدل.
فإن قيل : كلمة " الذي " موضوعة في اللغة للإشارة إلى الشيء عند محاولة تعريفه
٤٧٢
بقضية معلومة ، وإذا كان كذلك فالقوم ما كانوا عالمين بأنه - سبحانه - الذي نزل الفرقان.
فالجواب : أنه لما ظهر الدليل على كونه من عند الله ، فلقوة الدليل وظهوره أجراه مجرى المعلوم.
فصل وصف القرآن بالفرقان ، لأنه فرق بين الحق والباطل في نبوة محمد - عليه السلام - وبين الحلال والحرام ، أو لأنه فرق في النزول كقوله : ﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث﴾ [الإسراء : ١٠٦] ، وهذا أقرب ، لأنه قال : ﴿نزل الفرقان على عبده﴾ ولفظة " نزل " تدل على التفريق ، ولفظة " أنزل " تدل على الجمع ، ولهذا قال في سورة آل عمران : ﴿نزل عليك الكتاب بالحق (مصدقا لما بين يديه)﴾ [آل عمران : ٣] ﴿وأنزل التوراة والإنجيل﴾ [آل عمران : ٣].
والمراد بالعبد ههنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .
قوله : " ليكون ".
اللام متعلقة بـ " نزل " ، وفي اسم " يكون " ثلاثة أوجه : أحدها : أنه ضمير يعود على " الذي نزل " ، أي : ليكون الذي نزل الفرقان نذيرا.
الثاني : أنه يعود على " الفرقان " وهو القرآن ، أي : ليكون الفرقان نذيرا (أضاف الإنذار إليه كما أضاف الهداية إليه في قوله : ﴿إن هذا القرآن يهدي﴾ [الإسراء : ٩] وهذا بعيد ؛ لأن المنذر والنذير من صفات الفاعل للتخويف ، ووصف القرآن به مجاز ، وحمل الكلام على الحقيقة أولى).
الثالث : أنه يعود على " عبده " ، أي : ليكون عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - نذيرا.
وهذا أحسن الوجوه معنى وصناعة لقربه مما يعود عليه الضمير على أقرب مذكور.
و " للعالمين " متعلق بـ " نذيرا " ، وإنما قدم لأجل الفواصل ، ودعوى إفادة الاختصاص بعيدة ، لعدم تأتيها هنا ، ورجح أبو حيان عوده على " الذي " ، قال : لأنه العمدة المسند إليه الفعل ، وهو من وصفه تعالى كقوله : ﴿إنا كنا منذرين﴾ [الدخان : ٣] ، و " نذيرا " الظاهر فيه أنه بمعنى منذر ، وجوزوا أن يكون مصدرا بمعنى الإنذار كالنكير بمعنى الإنكار ، ومنه ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ [القمر : ١٦] فإن

قوله : " تبارك " يدل على كثرة

٤٧٣

الخير والبركة ، فالمذكور عقيبه لا بد وأن يكون سببا لكثرة الخير **والمنافع** ، والإنذار يوجب الغم والخوف ، فكيف يليق ذكره بهذا الموضع ؟ فالجواب : أن الإنذار يجري مجرى تأديب الولد ، كما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر (كان الإحسان إليه أكثر ، لما أن ذلك يؤدي في المستقبل إلى **المنافع** العظيمة ، فكذا ههنا كلما كان الإنذار كثيرا) كان رجوع الخلق إلى الله أكثر ، وكانت السعادة الأخروية أتم وكثر ، وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات إلى **المنافع** العاجلة ؛ لأنه تعالى لما وصف نفسه بأنه معطي الخيرات الكثيرة لم يذكر إلا منافع الدين ، ولم يذكر منافع الدنيا البتة.

قوله : ﴿الذي له ملك﴾ يجوز في " الذي " الرفع نعتا للذي الأول ، أو بيانا ، أو بدلا ، أو خبرا لمبتدأ محذوف ، أو النصب على المدح.

وما بعد بدل من تمام الصلة فليس أجنبيا ، فلا يضر الفصل به بين الموصول الأول والثاني إذا جعلنا الثاني تابعا له.

فصل ﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه حال حدوثها ، وأنه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء.

﴿ولم يتخذ ولدا﴾ أي : هو الفرد أبدا ، ولا يصح أن يكون غيره معبودا ووارثا للملك عنه ، وهذا رد على النصارى.

﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ أي : هو المنفرد بالإلهية ، و إذا عرف العبد ذلك انقطع رجاؤه عن كل ما سواه ، ولم يشتغل قلبه إلا برحمته وإحسانه ، وفيه رد على الثنوية ، والقائلين بعبادة النجوم والأوثان.

قوله : ﴿وخلق كل شيء﴾ الخلق هنا عبارة عن الإحداث والتهيئة لما يصلح له ، لا

٤٧٤." (١)

"قوله : " من الماء " يجوز أن يكون متعلقا بـ " خلق " وأن يتعلق بمحذوف حالا من ماء ، و " من " لابتداء الغاية ، أو للتبعيض.

قوله : ﴿فجعله نسبا وصهرا﴾ أي : جعله ذا نسب وصهر قال الخليل : لا يقال لأهل بيت المرأة إلا الأصهار ، ولا لأهل بيت الرجل إلا أختان.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٨٦٧

قال : ومن العرب من يطلق الأصهار على الجميع.
وهذا هو الغالب.
وقيل : النسب ما لا يحل نكاحه ، والصهر ما يحل نكاحه ، والنسب ما يوجب الحرمة ، والصهر ما لا يوجبها.
والصحيح أن النسب من القرابة والصهر الخلطة التي تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح ، وقد تقدم أن الله تعالى حرم بالنسب سبعا وبالسبب سبعا في قوله عز وجل : ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ [النساء : ٢٣] ﴿وكان ربك قديرا﴾ حيث خلق من النطفة نوعين من البشر الذكر والأنثى.
جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٥٥١
قوله تعالى : ﴿ويعبدون من دون الله﴾ الآية.
لما ذكر دلائل التوحيد عاد إلى تهجين سيرتهم فقال " ويعبدون " أي : هؤلاء المشركون ﴿ما لا ينفعهم﴾ إن عبدوه " ولا يضرهم " إن تركوه ، ﴿وكان الكافر على ربه ظهيرا﴾ أي : معينا للشيطان على ربه بالمعاصي.
قال الزجاج : يعاون الشيطان على معصية الله ، لأن عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان.
فإن قيل كيف يصح في الكافر أن يكون معاونا للشيطان على ربه بالعداوة.
فالجواب أنه تعالى ذكر نفسه وأراد رسوله فقال : ﴿إن الذين يؤذون الله﴾ [الأحزاب : ٥٧].
وقيل : معناه : وكان الكافر على ربه هينا ذليلا ، كما يقول الرجل لمن يستهين به : جعلني بظهر ، أي : جعلني هينا ، ويقال : ظهرت به : إذا جعلته خلف ظهرك ، كقوله : ﴿واتخذتموه ورآءكم ظهريا﴾ [هود : ٩٢].
٥٥٢
قال أبو مسلم : وقياس العربية أن يقال : مظهورا ، أي : مستخف به متروك وراء الظهر ، فقيل فيه : ظهير بمعنى مظهور ، ومعناه : هين على الله أن يكفر الكافر ، وهو تعالى مستهين بكفره.
والمراد بالكافر قيل : أبو جهل ، لأن الآية نزلت فيه.
والأولى حمله على العموم لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ.
قيل : ويجوز أن يريد بالظهير الجماعة كقوله : ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ [التحريم : ٤] كالصديق والخليط ، فعلى هذا يكون المراد بالكافر الجنس ، وأن بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور الله قال تعالى : ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي﴾ [الأعراف : ٢٠٢].

قوله : " على ربه " يجوز أن يتعلق بـ " ظهيرا " ، وهو الظاهر ، وأن يتعلق بمحذوف على أنه خبر "كان " و " ظهيرا " حال ، والظهير المعاون.

قوله : ﴿ومآ أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا﴾ أي : منذرا ، ووجه تعلقه بما تقدم أن الكفار يطلبون العون على الله ورسوله والله تعالى بعث رسوله لنفعهم ، لأنه بعثه ليبشرهم على الطاعة وينذرهم على المعصية ، فيستحقوا الثواب ، ويحترزوا عن العقاب فلا جهل أعظم من جهل من استفرغ جهده في إيذاء شخص استفرغ جهده في إصلاح مهماته دينا ودنيا ، ولا يسألهم على ذلك ألبتة أجرا.

قوله : ﴿إلا من شآء﴾ فيه وجهان : أحدهما : وهو منقطع ، أي : لكن من يشاء ﴿أن يتخذ إلى ربه سبيلا﴾ فليفعل.

والثاني : أنه متصل على حذف مضاف ، يعني : إلا أجر من ، أي : الأجر الحاصل على دعائه إلى الإيمان وقبوله ، لأنه تعالى يأجرني على ذلك.

حكاه أبو حيان وفيه نظر ، لأنه لم يسند السؤال المنفي في الظاهر إلى الله تعالى إنما أسنده إلى المخاطبين فكيف يصح هذا التقدير.

فصل المعنى : ما أسألكم على تبليغ الوحي من أجر ، فتقولوا إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا إليه فلا نتبعه.

٥٥٣

وقوله : ﴿إلا من شآء أن يتخذ إلى ربه سبيلا﴾ استثناء منقطع معناه : لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بإنفاق ماله في سبيله فعل ذلك.

والمعنى : لا أسألكم لنفسي أجرا ، ولكن لا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل إلى جنته.

قوله : ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ الآية.

لما تبين أن الكفار يتظاهرون على إيذائه ، وأمره أن لا يطلب منهم أجرا ، أمره بأن يتوكل عليه في دفع جميع المضار ، وفي جلب جميع **المنافع** ، وإنما قال : ﴿على الحي الذي لا يموت﴾ ، لأن من توكل على الحي الذي يموت فإذا مات المتوكل عليه صار المتوكل ضائعا ، وأما الله تعالى فهو حي لا يموت فلا يضيع المتوكل عليه.

" وسبح بحمده " قيل : المراد بالتسبيح الصلاة.

وقيل : قل سبحان الله والحمد لله.

﴿وكفى به بذنوب عباده خبيرا﴾ عالما ، وهذه كلها يراد بها المبالغة ، يقال كفى بالعلم جمالا ، وكفى بالأدب مالا وهو بمعنى حسبك ، أي لا يحتاج معه إلى غيره ، لأنه خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وهذا وعيد شديد.

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٥٥٢

". (١)

"قوله تعالى : ﴿الذي خلق السماوات والأرض﴾ الآية.

لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بأمور منها : أنه حي لا يموت ، وأنه عالم بجميع المعلومات بقوله ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيرا﴾ [الفرقان : ٥٨] ومنها أنه قادر على كل الممكنات ، وهو قوله : ﴿الذي خلق السماوات والأرض﴾ وهذا متصل بقوله : ﴿الحي الذي لا يموت﴾ [الفرقان : ٥٨] لأنه سبحانه لما كان خالقا للسموات والأرض ولكل ما بينهما ثبت أنه القادر على جميع **المنافع** ودفع المضار ، وأن النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل إلا عليه.

و " الذي خلق " يجوز أن يكون مبتدأ ، و " الرحمن " خبره ، وأن يكون خبر مبتدأ مقدر ، أي : هو الذي

٥٥٤

خلق ، وأن يكون منصوبا بفعل مضمر ، وأن يكون صفة للحي الذي لا يموت ، أو بدلا ، أو بيانا هذا على قراءة " الرحمن " بالرفع ومن قرأه بالجر فيتعين أن يكون " الذي خلق " صفة للحي فقط.

قوله : ﴿في ستة أيام﴾ فيه سؤال ، وهو أن الأيام عبارة عن حركة الشمس في السموات فقيل السموات لا أيام ، فكيف قال : خلقها في ستة أيام ؟ والجواب : في مدة مقدارها (هذه المدة) ، لا يقال : الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدما محضا بل لا بد وأن يكون موجودا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان ، لأنا نقول : هذا معارض بنفس الزمان ، لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل بخمسة أيام والمدة المتوهمة المحتملة لخمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى ، فلما لم يلزم من هذا قدم الزمان لم يلزم ما قلتموه ، وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولا ثم خلق السموات والأرض فيها بمقدار ستة

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٨٩٩

أيام.
وقيل : في ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم مقداره ألف سنة.
وهو بعيد ، لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول.
فإن قيل : لم قدر الخلق والإيجاد بهذا المقدار ؟ فالجواب على قول أهل السنة المشيئة والقدرة كافية للتخصيص ، وقالت المعتزلة : لا بد وأن يكون من حكمة وهو أن التخصيص بهذا المقدار أصلح ، وهذا بعيد لوجهين : الأول : أن حصول تلك الحكمة إما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا ، فإن كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا في كل الأزمنة فلا يصلح أن يكون سببا لزمان معين ، وإن كان جائزا افتقر حصول تلك الحكمة في ذلك الوقت إلى مخصص آخر ، ولزم التسلسل.
والثاني : أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح في حصول المصالح.
٥٥٥
واعلم أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الأسئلة ، فإنه بحر لا ساحل له ، كتقدير ملائكة النار بتسعة عشر ، وحملة العرش بثمانية ، والسموات بالسبع ، وعدد الصلوات ، ومقادير النصب في الزكوات ، وكذا في الحدود ، والكفارات ، فالإقرار بكل ما قال الله حق هو الدين ، والواجب ترك البحث عن هذه الأشياء ، وقد نص الله على ذلك في قوله تعالى : ﴿وما جعلنآ أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا اا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذآ أراد الله بهاذا مثلا﴾ [المدثر : ٣١] ثم قال : ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ [المدثر : ٣١] ، وهو الجواب أيضا في أنه لم لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك.
وعن سعيد بن جبير : إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر أن يخلقها في لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت.
وقيل : ثم خلقها في يوم الجمعة فجعله الله عيدا للمسلمين.
قوله : ﴿ثم استوى على العرش﴾ لا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة ؛ لأن أوصاف الله لم تزل ، فلا يصح دخول " ثم " فيه.
ولا على الاستقرار ، لأنه يقتضي التغيير الذي هو دليل الحدوث ، ويقتضي التركيب ، وكل ذلك على الله محال ، بل المراد أنه خلق العرش ورفعه.

فإن قيل : يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى : ﴿وكان عرشه على المآء﴾ [هود : ٧].
فالجواب : كلمة " ثم " ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات.
قوله : " الرحمن " قرأ العامة بالرفع ، وفيه أوجه : أحدها : أنه خبر " الذي " ، أو خبر مبتدأ مضمر ، أي : الرحمن ، ولهذا أجاز الزجاج وغيره الوقف على العرش ثم يبدأ الرحمن ، أي : هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم إلا له ، أو يكون بدلا من الضمير في " استوى " أو يكون مبتدأ وخبره
٥٥٦
الجملة من قوله " فاسأل " على رأي الأخفش كقوله :
." (١)

"[المنافقون : ٤] وإنما فعل به ذلك تشبيها بالمصادر نحو : " الولوع ، والقبول " وقد يقال : أعداء ، وعدوة ، وقوله : " عدو لي " على أصله من غير تقدير مضاف ولا قلب ، لأن العدو والصديق يجيئان في معنى الواحدة والكثرة ، قال الشاعر : ٣٩١٠ - وقوم على ذوي مئرة
أراهم عدوا وكانوا صديقا
جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٨
وتقدم الكلام في نظيره عند قوله : " إنا رسول ".
وقيل : المعنى : ﴿فإنهم عدو لى ﴾ لو عبدتهم يوم القيامة ، كقوله : ﴿سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾ [مريم : ٨٢].
(وقيل : الأصنام لا تعادى لأنها جماد ، والتقدير : فإن عبادهم عدو لي).
وقيل : بل في الكلام قلب تقديره : فإنهم عدو لهم وهذان مرجوحان لاستقامة الكلام بدونهما ، فإن قيل : لم قال : ﴿فإنهم عدو لى ﴾ ولم يقل فإنها عدو لكم ؟ فالجواب : أنه - عليه السلام - صور المسألة في نفسه ، بمعنى أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها ، وأراهم أنها نصيحة نصح بها نفسه ، فإذا تفكروا وقالوا : ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه فيكون أدعى إلى القبول.
قوله : ﴿إلا رب العالمين﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنه منقطع ، أي : لكن رب العالمين ليس بعدو لي.
وقال الجرجاني : فيه تقديم وتأخير ، أي : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٩٠٠

٤١

العالمين فإنهم عدو لي ، و " إلا " بمعنى " دون ، وسوى ".

والثاني : أنه متصل ، وهو قول الزجاج ، لأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام ، فقال إبراهيم : كل من تبعدون أعداء لي إلا رب العالمين.

وقال الحسن بن الفضل : معناه : إلا من عبد رب العالمين.

وقيل : معناه : فإنهم غير معبود لي إلا رب العالمين.

ثم وصف معبوده ، وهو ق ِوله : " الذي خلقني " يجوز فيه أوجه : النصب على النعت لـ " رب العالمين " ، أو البدل ، أو عطف البيان ، أو على إضمار " أعني ".

والرفع على خبر مبتدأ مضمر ، أي : هو الذي خلقني ، أو على الابتداء.

و " فهو يهدين " جملة اسمية في محل رفع خبرا له.

قال الحوفي : ودخلت الفاء لما تضمنه المبتدأ من معنى الشرط.

وهذا مردود.

لأن الموصول معين ليس عاما ، وأن الصلة لا يمكن فيها التجدد ، فلم يشبه الشرط وتابع أبو البقاء الحوفي ، ولكنه لم يتعرض للفاء ، فإن عنى ما عناه الحوفي فقد تقدم ما فيه ، وإن لم يفعله فيكون تابعا للأخفش في تجويزه زياة الفاء في الخبر مطلقا نحو : " زيد فاضربه " وقد تقدم تجويزه.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٨

واعلم أن إبراهيم – عليه السلام – لما استثنى رب العالمين وصفه بما يستحق العبادة لأله بأوصاف : أحدهما : قوله ﴿الذي خلقني فهو ي ِهدين﴾ ، وذلك لأن الله تعالى أثنى عليه

٤٢

نفسه بهذين الأمرين في قوله : ﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى ﴾ [الأعلى : ٢ – ٣].

وقال : " خلقني " بلفظ الماضي ، لأن خلق الذات لا يتجدد في الدنيا ، بل لما وقع بقي إلى الأمد المعلوم.

وقال : " فهو يهدين " بلفظ المستقبل ، لأن الهداية مما تتكرر كل حين وأوان ، سواء كانت تلك الهداية من المنافع الدنياوية بتمييز الناف عن الضار ، أو من المنافق الدينية بتمييز الحق عن الباطل والخير عن الشر.

قوله : ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾.
يجوز أن يكون مبتدأ وخبره محذوف وكذلك ما بعده ، ويجوز أن تكون أوصافا لـ " الذي خلقني " ودخول الواو جائز ، وقد تقدم تحقيقه في أول البقرة كقوله : ٣٩١١ - إلى الملك القرم وابن الهمام
وليث الكتيبة في المزدحم
وأثبت ابن إسحاق - وتروى عن عاصم أيضا - ياء المتكلم في : " يسقين ، ويشفين ، ويحيين ".
فصل المعنى : يرزقني ويغدوني بالطعام والشراب ، ونبه بذكر الطعام والشراب على ما عداهما.
قوله : ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ أضاف المرض إلى نفسه ، وإن كان المرض والشفاء كله من الله استعمالا لحسن الأدب كما قال الخضر : ﴿فأردت أن أعيبها﴾
٤٣
." (١)

"قوله : ﴿أما ذا كنتم تعملون﴾ حين لم يتفكروا فيها ، كأنه قال : ما لم تشتغلوا بذلك العمل المهم فأي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك ثم قال : ﴿ووقع القول عليهم﴾ ، أي : وجب العذاب الموعود عليهم " بما ظلموا " ، أي بسبب ظلمهم وتكذيبهم بآيات الله ، ويضعف جعل " ما " بمعنى الذي ﴿فهم لا ينطقون﴾ ، قال قتادة ، كيف ينطقون ولا حجة لهم ، نظيره قوله تعالى : ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات : ٣٥ - ٣٦] ، وقيل : " لا ينطقون " لأن أفواههم مختومة.
ثم إنه تعالى لما خوفهم بأحوال القيامة ذكر كلاما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة ، مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان والمنع من الكفر ، فقال : ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ مضيئا يبصر فيه.
قوله : " ليسكنوا فيه " قيل : فقيه حذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول ، إذا التقدير : جعلنا الليل و " لتتصرفوا " لدلالة " ليسكنوا ".
وقوله : " مبصرا " كقوله : ﴿آية النهار مبصرة﴾ [الإسراء : ١٢] ، وتقدم تحقيقه في الإسراء ، قال الزمخشري : فإن قلت : ما للتقاليل لم يراع في قوله : " ليسكنوا " و " مبصرة " حيث كان أحدهما علة ، والآخر حالا ؟ قلت : هو مراعى من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف يريد لم لا قال : والنهار لتتصرفوا فيها ، وأجاب غيره بأن السكون في الليل هو المقصود (من الليل وأما الإبصار في النهار

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٩٢٤

فليس هو المقصود) لأنه وسيلة إلى جلب **المنافع** الدينية والدنيوية.

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ يصدقون فيعتبرون ، وخص المؤمنين بالذكر – وإن كانت الأدلة للكل – لأن المؤمنين هم المنتفعون ، كقوله : ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة : ٢].

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٢٠١

قوله : ﴿ويوم ينفخ في الصور﴾ هذه العلامة الثانية لقيام القيامة ، والصور : قرن ينفخ

٢٠٥

فيه إسرافيل ، فإذا سمع الناس ذلك الصوت يصيحون ثم يموتون ، وهذا قول الأكثرين.

وقال الحسن : الصور هو الصور ، وأول بعضهم كلامه أن الأرواح تجتمع في القرن ثم ينفخ فيه فتذهب الأرواح إلى الأجساد ، فتحيا الأجساد.

قوله : ﴿ففزع من في السماوات ومن في الأرض﴾ قال : " ففزع " بلفظ الماضي ولم يقل فيفزع لتحققه وثبوته وأنه كائن لا محالة ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل ، كقوله : ﴿أتى أمر الله﴾ [النحل : ١].

والمعنى : يلقى عليهم الفزع إلى أن يموتوا ، قيل : ينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة القيام لرب العالمين.

قوله : ﴿إلا من شآء الله﴾ فالمراد إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة ، قالوا : وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، وجاء في الحديث : أنهم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش ، قال سعيد بن جبير وعطاء عن ابن عباس هم الشهداء ، لأنهم أحياء عند ربهم.

وعن الضحاك : هم رضوان والحور وخزنة النار وحملة العرش.

و "كل أتوه " أي الذين أحيوا بعد الموت.

قوله : " أتوه " قرأ حمزة وحفص : " أتوه " فعلا ماضيا ومفعوله الهاء ، والباقون : " آتوه " : اسم فاعل مضافا للهاء ، وهذا حمل على معنى "كل " وهي مضافة تقديرا ، أي : وكلهم.

وقرأ قتادة : " أتاه " ماضيا مسندا لضمير "كل " على اللفظ ، ثم حمل على معناها ، فقرأ " داخرين " ، والحسن والأعرج " دخرين " بغير ألف أي : صاغرين :

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٢٠٥

قوله : ﴿وترى الجبال تحسبها﴾ هذه العلامة الثالثة لقيام القيامة ، وهي

قوله تعالى : ﴿ويوم نسير الجبال﴾ [الكهف : ٤٧] " جامدة " قائمة واقعة ، و " تحسبها جامدة " هذه الجملة حالية من فاعل " ترى " أو من مفعوله ، لأن الرؤية بصرية.
قوله : " وهي تمر " الجملة حالية أيضا ، وهكذا الأجرام العظيمة تراها واقفة وهي مارة قال النابغة الجعدي يصف جيشا كثيفا : ٣٩٧٣ - بأرعن مثل الطود تحسب أنهم
وقوف لحاج والركاب تهملج
." (١)

"قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب ، (وصاحب يوسف) ، وأبو بكر في عمر.
فقال لها أبوها : وما علمك بقوته وأمانته ؟ قالت : أما قوته ، فإنه رفع حجرا من رأس البئر لا يرفعه إلا عشرة ، وقيل : إلا أربعون ، وأما أمانته ، فإنه قال لي : امشي خلفي حتى لا تصف الريح بدنك.
قال شعيب عند ذلك : ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾.
قال أكثر المفسرين : إنه زوجه الصغير منهما ، وهي التي ذهبت لطلب موسى واسمها صفورة.
قوله : ﴿أن أنكحك إحدى﴾ روي عن أبي عمرو " أنكحك حدى " بحذف همزة " إحدى " ، وهذه تشبه قراءة ابن محيصن " فجاءته حداهما " ، وتقدم التشديد في نون " هاتين " في سورة النساء.
قوله ﴿على أن تأجرني﴾ في محل نصب على الحال ، إما من الفاعل أو من المفعول ، أي : مشروطا على أو عليك ذلك.
و " تأجرني " مضارع أجرته ، كنت له أجيرا ، ومفعوله الثاني محذوف ، أي : وتأجرني نفسك ، و " ثماني حجج " ظرف له.
ونقل أبو حيان عن الزمخشري أنها هي المفعول الثاني.
قال شهاب الدين الزمخشري لم يجعلها مفعولا ثانيا على هذا الوجه ، وإنضام جعلها مفعولا ثانيا على وجه آخر ، وأما على هذا الوجه فلم يجعلها غير ظرف ، وهذا نصه ليتبين لك ، قال : " تأجرني " ، من أجرته إذا كنت له أجيرا ، كقولك : أبوته إذا كنت له أبا ، و " ثماني حجج " ظفر ، أو من أجرته إذا أثبته ، ومنه تعزية رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آجركم الله ورحمكم " و ثماني حجج " مفعول به ، ومعناه رعية ثماني حجج.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٣٩٨٩

فنقل الشيخ عنه الوجه الأول من المعنيين المذكورين في " تأجرني " فقط ، وحكى عنه أنه أعرب " ثماني حجج " مفعولا به ، وكيف يستقيم ذلك أو يتجه ؟ وانظر إلى الزمخشري
٢٤٢
كيف قدر مضافا ليصح المعنى به ، أي : رعي ثماني حجج ، لأن العمل هو الذي تقع به الإثابة لا نفس الزمان ، فكيف يوجه الإجارة على الزمان ؟ (قوله) " فمن عندك " يجوز أن يكون في محل رفع خبرا لمبتدأ محذوف تقديره : فهي من عندك ، أو نصب أي : فقد زدتها أو تفضلت بها من عندك.
فصل معنى الآية : أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تكون أجيرا لي ثمان سنين قال الفراء : أي تجعل ثوابي من تزويجها أن ترعى غنمي ثماني حجج ، تقول العرب : أجرك الله بأجرك ، أي : أثابك والحجج : السنون ، واحدها حجة.
﴿فإن أتممت عشرا﴾ أي : عشر سنين " فمن عندك " أي : ذلك تفضل منك وتبرع ليس بواجب عليك.
واعلم أن هذا اللفظ – وإن كان على الترديد – فلا شبهة أنه عند التزيوج عين ، ولا شبهة في أن العقد وقع على أقل الأجلين ، والزيادة كالتبرع.
ودلت الآيية على أن العمل قد يكون مهرا كالمال ، وعلى أن إلحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز ، ولكنه شرع من قبلنا ، ودلت أيضا على أنه يجوز أن يشرط الولي ، وعلى أن عقد النكاح لا تفسده الشروط التي لا يوجبها العقد.
(واستدل بعض الحنفية بهذه الآية على صحة بيع أحد هذين العبدين ، أو الثوبين ، وفيه نظر ، لأأنها مراضاة لا معاقدة.
ودلت الآية أيضا على صحة الإجارة بالطعمة والكسوة ، كما جرت به العادة ، ويؤيده قوله عليه السلام : " إن موسى أجر نفسه ثماني سين أو عشرة على عفة فرجه وطعام بطنه " وهو مذهب الحنابلة قاله ابن كثير.
فصل قال النووي : الإجارة بكسر الهمزة هو المشهور ، وحكى الرافعي أن الجياني حكى في الشامل أيضا ضم الهمزة ، قال أهل اللغة : وأصل الأجر الثواب ،
٢٤٣
يقال : أجرت فلانا عن عمله كذا أي : أثبته ، والله يأجر العبد أي ؛ يثيبه ، والمستأجر يثيب المأجور عوضا عن بذل المنافع.

قال الواحدي : قال المبرد : يقال أجرت داري ومملوكي غير ممدود ، وآجرت ممدود قال المبرد : والأول أكثر).

قوله : ﴿ومآ أريد أن أشق عليك﴾ أي ؛ ألزمك تمام العشر.

وأن أشق ، مفعول " أريد " وحقيقة قولهم : شق عليه أي : شق ظنه نصفين فتارة يقول أطيق ، وتارة لا أطيق ، وهو من أحسن مجاز.

قوله ﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ قال عمر : أي في حسن الصحبة والوفاء ولين الجانب.

وقيل : أراد الصلاح على العموم ، وإنما قال ﴿إن شاء الله﴾ للاتكال على توفيقه ومعونته ، فإن قيل : كيف ينعقد العقد بهذا الشرط ، ولو قلت أنت طالق إن شاء الله لا تطلق ؟ فالجواب : هذا ما يختلف بالشرائع.

قوله : " ذلك " مبتدأ ، والإشارة به إلى ما تعاقد عليه ، والظرف خبره ، وأضيفت " بين " لمفرد لتكررها عطفا بالواو ، فإن قلت : المال بين زيد فعمرو لم يجز ، وأما قوله :

٣٩٨٩ - بين الدخول فحومل

." (١)

"" ثمرات " ومعنى " يجبى " ، أي يجلب ويجمع ، يقال : جبيت الماء في الحوض أي : جمعته قال مقاتل : يحمل إلى الحرم ﴿ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولـاكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن ما نقوله حق.

قوله : ﴿وكم أهلكنا من قرية﴾ أي : من أهل قرية " بطرت معيشتها " ، قال الزمخشري : البطر سوء احتمال الغنى ، وهو أن لا يحفظ حق الله تعالى ، وانتصب " معيشتها " إما بحذف الجار واتصال الفعل كقوله : ﴿واختار موسى قومه﴾ [الأعراف : ١٥٥] ، أو بتقدير حذف ظرف الزمان ، أصله : بطرت أيام معيشتها ، وإما بتضمين " بطرت " معنى كفرت أو خسرت أو على التمييز أو على التشبيه بالمفعول به ، وهو قريب من " سفه نفسه ".

قال عطاء : عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله ، وعبدوا غيره.

قوله : ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا﴾ قال ابن عباس لم يسكنها إلا المسافرون ، ومار الطريق يوما أو ساعة.

معناه : لم تسكن من بعدهم إلا سكونا يسيرا قليلا ، وقيل : لم يعمر منها إلا أقلها وأكثرها خراب ، فقوله

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٠٠٢

: " لم تسكن " جملة حالية ، والعامل فيها معنى تلك ، يجوز أن يكون خبرا ثانيا ، و " إلا قليلا " أي : إلا سكنى قليلا ، أو إلا زمانا قليلا ، أو إلا مكانا قليلا.

﴿وكنا نحن الوارثين﴾.

كقوله : ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها﴾ [مريم : ٤٠].

قوله : ﴿وما كان ربك مهلك القرى بظلم﴾ يعني القرى الكافرة أهلها حتى نبعث في أمها رسولا ، أي في أكثرها وأعظمها رسولا ينذرهم وخص الأعظم ببعثة الرسول فيها لأن الرسول يبعث إلى الأشراف ، والأشراف يسكنون المدائن والمواضع التي هي أم ما

٢٧٦

حولها ، وهذا بيان لقطع عذرهم ، لأن عدم البعثة يجري مجرى العذر للقوم ، فوجب ألا يجوز إهلاكهم إلا بعد البعثة.

وقوله : ﴿يتلو عليهم آياتنا﴾ أي : يؤدي ويبلغ ، قال مقاتل : يخبرهم الرسول أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا ، ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ : مشركون أي : أهلكهم بظلمهم ، وأهل مكة ليسوا كذلك ، فإن بعضهم قد آمن وبعضهم قد علم الله منهم أنهم وإن لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يؤمن.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٢٧٣

قوله : ﴿ومآ أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾ ، أي فهو متاع ، وقرىء فمتاعا الحياة بنصب " متاعا " على المصدر ، أي : يتمتعون متاعا ، " والحياة " نصب على الظرف ، والمعنى : يتمتعون بها أيام حياتهم ثم هي إلى فناء وانقضاء ﴿وما عند الله خير وأبقى ﴾ ، هذا جواب عن شبهتهم فإنهم إن قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا ، فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم ، لأن ما عند الله خير وأبقى (أما أنه خير) فلوجهين : الأول : أن المنافع هناك أعظم ، والثاني : أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار ، بل المضار فيها أكثر ، وأما أنها أبقى ، فلأنها دائمة غير منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدما فظهر بذلك أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة ، فلا جرم نبه على ذلك فقال : " أفلا تعقلون " أن الباقي خير من

٢٧٧

". (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٠١٥

"جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٢٨٤

والظاهر أن ميمه أصلية ، ووزنه فعلل كجعفر ، وقيل : هي زائدة واشتقاقه من السرد ، وهو تتابع الشيء على الشيء ، إلا أن زيادة الميم وسطا وآخرا لا تنقاس نحو : دلام ، وزرقم ، من الدلا والزرقة.

قوله : " إلى يوم " متعلق بـ " يجعل " أو بـ " سرمدا " أو بمحذوف على أنه صفة لـ " سرمدا " وإنما قال : " أفلا تسمعون " ، " أفلا تبصرون " ، لأن الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر ، فلما لم ينتفعوا أنزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر ، قال المفسرون : " أفلا تسمعون " سماع فهم " أفلا تبصرون " ما أنتم عليه من الخطأ والضلال.

وقال الزمخشري : فإن قيل هلا قيل بنهار يتصرإلون فيه كما قيل بليل تسكنون فيه ، قلنا : ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن **المنافع** التي تتعلق بها متكاثرة ليس الـتصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ، وإنما قرن بالضياء " أفلا تسمعون " لن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل " أفلا تبصرون " لن غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه.

٢٨٥

قوله : " لتسكنوا فيه " أي في الليل ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي : في النهار وهذا من باب اللف والنشر ومنه : ٤٠١٦ - كأن قلوب الطير رطبا ويابسا

لدى وكرها العناب والحشف البالي

قوله : " لعلكم تشكرون " أي : نعم الله ، وقيل : أراد الشكر على المنفعتين معا ، وعالم أنه وإن كان السكون في النهار ممكنا (وابتغاء فضل الله بالليل ممكنا) إلا أن الأليق بكل واحد منهما ما ذكره الله تعالى ، فلهذا خصه به ، وقوله : " ويوم يناديهم "كرر ذلك النداء للمشركين لزيادة التقريع والتوبيخ.

قوله : " ونزعنا " أخرجنا ﴿من كل أمة شهيدا﴾ يعني رسولهم الذي أرسل إليهم ، كما قال : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ [النساء : ٤١] أي : يشهد عليهم بأنهم بلغوا القوم الدلائل ، وأوضحوها لهم ليعلم أن التقصير منهم ، فيزيد ذلك في غمهم ، وقيل المراد الشهداء الذي يشهدون على الناس ، ويدخل في جملتهم الأنبياء ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ حجتكم بأن معي شريكا " فعلموا " حينئذ " أن الحق " التوحيد " لله " ، " وضل عنهم " غاب عنهم ﴿ما كانوا يفترون﴾ من الباطل والكذب.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٢٨٤

قوله تعالى : ﴿إن قارون كان من قوم موسى ﴾ الآية ، قال المفسرون كان ابن عمه ،

٢٨٦
لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ، وموسى ابن عمران بن قاهث وقال ابن إسحاق : كان قارون عم موسى ك١ن أخا عمران وهما ابنا يصهر ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة من قارون ، ولكنه نافق كما نافق السامري وكان يسمى المنور لحسن صورته.

وقال ابن عباس : إنه كان ابن خالته ، فبغى عليهم ، وقيل : كان عاملا لفرعون على بني إسرائيل ، وكان يبغي عليهم ويظلمهم ، وقال قتادة : " بغى عليهم " بكثرة المال (ولم يرع لهم حق الإيمان بل استخف بالفقراء).

وقال الضحاك : بغى عليهم بالشرك ، وقال القفال : طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده ، وقال ابن عباس : تكبر عليهم وتجبر ، وقال الكلبي : حسد هارون على الحبورة ، وروي أن موسى عليه السلام لما قطع الله له البحر ، وأغرق فرعون جعل الحبورة لهارون فحصلت له النبوة والحبورة وكان له القربان والمذبح وكان لموسى الرسالة ، فوجد قارون لذلك في نفسه ، وقال يا موسى لك الرسالة لهارون الحبورة ، ولست في شيء ، لا أصبر أنا على هذا ، فقال موسى : والله ما صنعت ذلك لهارون بل جعله الله فقال قارون له : فوالله لا أصدقك أبدا حتى تأتيني بآية يعرف بها أن جعل ذلك لهارون ، قال : فأمر موسى رؤساء بني إسرائيل ان يجيء كل رجل منهم بعصاه فجاءوا بها ، فألقاها موسى عليه السلام في قبة له وكان ذلك بأمر الله ودعا موسى ربه أن يريهم بيان ذلك ، فباتوا يحرسون عصيهم ، فأصحبت عصا هارون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز ، فقال موسى لقارون : ألا ترى ما صنع الله لهارون ، فقال : والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر ، فاعتزل قارون ومعه ناس كثيرة وولي هارون الحبوة والمذبح والقربان ، وكانت بنو إسرائيل يأتون بهداياهم إلى هارون فيضعها في المذبح وتنزل نار من السماء فتأكلها ، واعتزل قارون بأتباعه وكان كثير المال والتبع من بني إسرائيل ، فما كان يأتي موسى ولا يجالسه.

٢٨٧
". (١)

"خير﴾ إلا الصابرون) على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات ، وعلى الرضا بضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار.

قوله : ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ المشهور كسر هاء الكناية في به وبداره لأجل كسر ما قبلها.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٠١٩

وقرىء بضمها وقد تقدم أنها الأصل ، وهي لغة الحجاز.

فصل قيل : لما أشر وبطر وعتا خصف الله به وبداره الأرض جزاء على عتوه وبطره ، والفاء تدل على ذلك ، لأن الفاء تشعر بالعلية.

وقيل : إن قارون كان يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما ، حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم ، وعن كل ألف شاة على شاة ، فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه ، فجمع بني إسرائيل وقال إن موسى يريد أن يأخذ أخوالكم ، فقالوا : أنت كبيرنا فمرنا بما شئت فقال : ائتوا بفلانة البغي فنجعل لها جعلا حتى تقذف موسى بنفسها ، فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه فدعوها فجعل لها قارون شطتا من ذهب مملوءا ذهبا ، وقال لها : إن أمولك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غدا إذا حضر بنو إسرائيل ، فلما كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل ، ثم أتى موسى فقال إن بني إسرائيل ينتظرون خروجك فتأمرهم وتنهاهم ، فخرج إليهم موسى وهم في براح من الأرض ، فقام فيهم فقال : يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة ، ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة ، (ومن زنى وله) امرأة رجمناه حتى يموت ، فقال له قارون : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ، قال : فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة ، قال : ادعوها فإن قالت فهو كما قالت : فلما جاءت قال لها موسى : يا فلانة أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء ؟ وناشهدها بالذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصطق فتداركها الله فقالت في نفسها : أحدث اليوم توبة أفضل من أن أؤذي رسول الله ، فقالت : لا ، كذبوا بل جعل لي قارون جعلا على أن أقذفك بنفسي ، فخر موسى ساجدا يبكي ، وقال : يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي ، فأوحى الله إليه ان مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك ، قال : يا بني

٢٩٥

إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون.

فمن كان معه فليلزم مكانه ، ومن كان معي فلعتزل ، فاعتزلوا جميعا ولم يبق مع قارون إلا رجلان ، ثم قال : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى ويناشدونه بالله والرحم وهو لا يلتفت إليهم لشدة غضبه ، ثم قال خذيهم فانطبقت عليهم فأوحى الله إلى موسى : ما أفظك استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم ، أما وعزتي لو دعوني مرة واحدة لوجودني قريبا مجيبا ، فأصحبت بنو إسرائيل يتناجون بينهم : إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله

حتى خسف الله بداره وأمواله الأرض ، ثم إن قارون يخسف به كل يوم قامة.
قال القاضي : إذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الأرض إلى الأرض السابعة أو دون ذلك ، وإن كان لا يمتنع على وجه المبالغة في الزجر ، وأما قولهم : إنه – تعالى – قال : لو استغاثوا بي لأغثتهم ، فإن صح حمل على استغاثة مقرونة بالتوبة ، فأما وهو ثابت على ما هو عليه مع أنه تعالى هو الذي حكم بذلك الخسف ، لأن موسى ما فعله إلا عن إذن فبعيد ، وقولهم إنهم يتجلجلون في الأرض فبعيد ، لأنه لا بد له من نهاية ، وكذا القول فيما ذكر من عدو القامات والذي عنده في أمثال هذه الحكايات أنها قليلة الفائدة لأنها من باب أخبار الآحاد فلا تفيد اليقين وليست المسألة عملية حتى يكفي فيها الظن ثم إنها في أكثر الأمر متعارضة مضطربة فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب.
قوله : " من فئة " يجوز أن يكون اسم كان إن كانت ناقصة ، و " له " الخبر أو " ينصرونه " وأن تكون فاعلة إن كان تامة و " ينصرونه " صفة لـ " فئة " فيحكم على موضعها بالجر لفظا وبالرفع معنى ، لأن " من " مزيدة فيها ، ثم قال : ﴿وما كان من المنتصرين﴾ أي الممتنعين مما نزل من الخسف ، يقالك نصره من عدوه فانتصر أي : منعه فامتنع.
جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٢٩٤
." (١)

"إذا تقاتل قوم ومات الكل في القتال يقال : هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم.
" فهم " في الموضعين يكون عائدا إلى القوم ولا يكون المراد أشخاصا معينين بل المراد أن بعضهم قتل بعضهم فكذلك قوله تعالى : " آية لهم " أي آية لكل بعض منهم أ ، ا حلمنا ذرية كل (بعض) منهم ، أو ذرية بعض منهم.
وإن قلنا : المراد جنس الفلك فآية ظاهرة لكل أحد وقوله تعالى في سفينة نوح : ﴿وجعلناهآ آية للعالمين﴾ [العنكبوت : ١٥] أي بوجود جنسها ومثلها.
ويؤيده قوله تعالى : ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ [لقمان : ٣١] وإن قيل : المراد سفينة نوح فوجه المناسبة أنه ذكرهم بحال نوح وأن المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم إن آمنوا يفوزوا وإن كذبوا يهلكوا.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٠٢٣

والأول أظهر وهو أن المراد بالفلك الموجودة في زمانهم ويؤيده قوله تعالى : ﴿وإن نشأ نغرقهم﴾.
فإن قيل : لم قال ﴿حملنا ذرييتهم﴾ ولم يقل : " حملناهم " ليكون أعم كما قال : ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون﴾ [يس : ٣٣] ولم يقل : تأكل ذريتهم ؟ .
فالجواب : قوله تعالى : " حملنا ذريتهم " أي ذريات العباد ولم يقل حملناهم لأن سكون الأرض عام (ل)كل أحد يسكنها فقال : ﴿وآية لهم الأرض الميتة﴾ إلى أن قال : ﴿فمنه يأكلون﴾ لأن الأكل عام وأما الحمل في السفنية فمن الناس من لا يركبها في عمره ولا يحمل فيها ولكن ذرية العباد لا بد لهم من ذلك فإن فيهم من يحتاج إليها فيحمل فيها.
فإن قيل : ما الحكمة في كونه جمع الفلك في قوله : ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ [فاطر : ١٢] وأفرده في قوله : ﴿في الفلك المشحون﴾.
فالجواب : أن فيه تدقيقا مليحا في علم اللغة وهو أن الفلك تكون حركتها مثل حركة تلك الكلمة في الصورة ، والحركتان مختلفنان في المعنى مثاله قولك : سجد يسجد سجودا للمصدر وهم قوم سجود في جمع " ساجد " يظن أنها كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك بل السجود عند كونه مصدرا حركته أصلية إذا قلنا : إن الفعل مشتق من المصدر
٢٢٧
وحركة السجود عند كونه للجمع حركة معتبرة من حيث إن الجمع مشتق من الواحد وينبغي أن يلحق الشمتق تغيير في حرف أو حركة أو في مجموعهما ، فساجد لما أردنا أن يشتق منه لفظ جمع غيرناه وجئنا بلفظ السجود فإذن السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الألفاظ المشتركة التي وضعت بحركة واحدة لمعنيين.
وإذا عرف هذا فنقول " الفلك " عند كونه واحدا مثل : " قفل وبرد " وعند كونها جمعا مثل خشب أو برد أو غيرهما.
فإن قيل : فإذا جعلته جمعا ما يكون واحدها ؟ .
فالجواب : نقول جاز أن يكون واحدها فلكة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء لم يستعمل وكذا القول في : " إمام مبين " إمام كزمام وكتاب عند قوله تعالى : ﴿كل أناس بإمامهم﴾ [الإسراء : ٧١] أي بأئمتهم إمام كسهام وحفان ، وهذا من دقيق التصريف.
وأما من جهة المعنى ففيه سؤالات : السؤال الأول : قال ههنا : " حملنا ذريتهم " من عليهم بحمل ذرياتهم وقال تعالى : ﴿إنا لما طغا المآء حملناكم في الجارية﴾ [الحاقة : ١١] من عليهم هناك بحمل

أنفسهم.

فالجواب : أن من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ومن يدفع الضر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضر عن ذلك الغير بل يكون قد نفعه كمن أحسن إلى ولد إنسان وفرحة فرح بفرحه أبوه وإذا دفع الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباه ولا يكون في الحقيقة أزال الألم عن أبيه فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال : دفعت وههنا عنكم الضرر ولو قلا : دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بين دفع الضرر عنهم وههنا أراد بيان المنافع فقال : " حملنا ذرياتهم " لأن النفع حاصل بنفع الذرية ، ويدل على هذا قوله : " في الفلك المشحون " فإن امتلأ الفلك من الأموال يحصل (بذكره)

٢٢٨

". (١)

"وفيه بعد ، ولم يقع في القرىن نداء بغير يا حتى يحمل هذا عليه.

وضعف أبو حيان هذا الوجه بأنه أجنبي مما قبله ومما بعده ، قال شهاب الدين : وقد تقدم أنه ليس أجنبيا مما بعده إذ المنادى هو المأمور بالقول.

وضعفه الفارسي ايضا بقريب من هذا وتجرأ على قارئ هذه القراءة أبو حاتم والأخفش ، وأما القراءة الثانية فهي " أم " داخلة على من الموصولة أيضا فأدغمت الميم في الميم.

وفي " أم " حينئذ قولان : أحدهما : أنها متصلة ومعادلها محذوف تقديره : الكافر خير أم الذي هو قانت ، وهذا معنى قول الأخفش.

قال أبو حيان : ويحتاج حذف المعادل إذا كان أول إلى سماع وقيل : تقديره أمن يعصي أمن هو مطيع يستويان وحذف الخبر لدلالة قوله ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾.

والثاني : أنها منقطعة فتتقدر ببل والهمزة أي بل أمن هو قانت كغيره أو كان كافر المقول له تمتع بكفرك.

وقال أبو جعفر : هي بمعنى " بل " و " من " بمعنى الذي تقديره بل لاذي هو قانت أفضل مما ذكر قبله.

وانتقد عليه هذا التقدير من حيث إن من تقدم ليس له فضيلة البتة حتى يكون هذا أفضل منه والذي ينبغي أن يقدر : بل الذي هو قانت من أصحاب الجنة لدلالة ما لقسيمه عليه من قوله : ﴿إنك من أصحاب النار﴾ وقال البغوي من شدد فله وجهان :

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٢٤٣

٤٨٣

أحدهما : أن تكون الميم في " أم " صلة ويكون معنى الكلام استفهاما وجوابه محذوف مجازه : أمن هو قانت كمن هو غير قانت كقوله : ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ [الزمر : ٢٢] يعني كمن لم يشرح صدره.

والثاني : أنه عطف على الاستفهام مجازه : الذي جعل لله أندادا.

فصل القانت : هو القائم بما يجب عليه من الطاعة ، ومنه قوله عليه (الصلاة و) السلام : " أفضل الصلاة صلاة القنوت " وهو القائم فيها ومنه القنوت لأنه يدعوا قائما ، وعن ابن عمر أنه قال : لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام وتلا : " أمن هو قانت " وعن ابن عباس : القنوت الطاعة كقوله : ﴿كل له قانتون﴾ [البقرة : ١١٦] أي مطيعون.

قوله : ﴿آنآء الليل﴾ آناء منصوب على الظرف وتقدم اشتقاقه ، والكلام في مفرده ، والمعنى ساعات الليل.

وفي هذه الآية دلالة على أن قيام الليل أفضل من قيام النهار ، قال ابن عابس - في رواية عطاء - : نزلت في (أبي بكر الصديق ، وقال الضحاك : نزلت في أبي بكر وعمر ، وعن ابن عمر : أنها نزلت في عثمان وعن الكلبي : أنها نزلت في) ابن مسعود ، وعمار وسلمان.

قوله : ﴿ساجدا﴾ حال و " قائما " حال أيضا وفي صاحبها وجهان : أظهرهما : أن الضمير المستتر (في) " وقانت ".

والثاني : أنه الضمير المرفوع بيحذر " قدما على عاملهما ، والعامة على نصبهما.

٤٨٤

وقرأ الضحاك برفعهما على أحد وجهين ، إما النعت " لقانت " وإما أنها خبر عبد خبر.

قوله : ﴿يحذر الآخرة﴾ يجوز أن يكون حالا من الضمير في " قانت " وأن يكون حالا من الضمير في " ساجدا " و " قائما " وأن يكون مستأنفا جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل : ما شأنه يقنت آناء الليل ويتعب نفسه ويكدها ؟ فقيل : يحذر الآخرة ويرجو رحمه ربهن أي عذاب الآخرة.

وفي الكلام حذف ، والتقدير كمن لا يفعل شيئا من ذلك ، وإنما حسن هذا الحذف دلالة ذكر الكافر قبل هذه الآية وذكر بعدها ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ والتقدير : هل يستوي الذين يعملون وهم الذين صفتهم أنهم يقنتون آناء الليل ساجدا وقائما والذين لا يعملون وهم الذين صفتهم عند

البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغ يشركون ، وإنما وصف الله الكفار بأنهم لا يعلمون لأنه تعالى وإن آتاهم آلة العلم إلا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم فلذها جعلهم الله كأنهم ليسوا أولي الألباب من حيث إنهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم.

قوله : ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ قيل : الذين يعلمون " عمار " والذين لا يعملون أبو حذيفة المخزومي ، وهذا الكلام تنبيه على فضيلة العلم قيل لبعض العلماء : إنكم تقولون العلم أفضل من المال (ثم نرى العلماء عند أبواب الملوك) ولا نرى الملكوك عند أبواب العلماء فأجاب بأن هذا أيضا يدل على فضيلة العلم لأن العلماء علموا ما في المال من المنفعة فطلبوه ، والجهال لم يعرفوا ما للعلم من **المنافع** فلا جرم تركوه.

(قوله) : ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ قرئ : إنما يذكر بإدغام التاء في الذال.

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ٤٧٢

قوله : ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾ أي بطاعته ، واجتناب معاصيه.

قال

٤٨٥

". (١)

"الثاني : أنه تعالى جمعهما جمع العقلاء فقال : ﴿قالتآ أتينا طآئعين﴾.

الثالث : قوله : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ [الأحزاب : ٧٢] وهذا يدل على كونها عارفة بالله ، عالمة بتوجه تكليف الله تعالى.

وأجاب ابن الخطيب عن هذا القول : بأن المراد من قوله ﴿١٦٤٩؛ئتيا طوعا أو كرها﴾ الإثبات الى الوجود والحدوث والحصول ، فعلى هذا التقدير فحال توجه هذا الأمر كانت السموات والأرض معدومة ، إذ لو كانت موجودة فذلك لا يجوز ، فثبت أن حال توجه هذا الأمر عليها كانت معدومة ، وإذا كانت معدومة لم تكن فاهمة ، ولا عارفة للخطاب ، فلم يجز توجه الأمر عليها.

فصل روى مجاهد وطاوس عن ابن عباس أنه قال : قال الله للسموات والأرض أخرجا ما فيكما من **المنافع** ومصالح العباد ، أما أنت يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك ، وأنت يا أرض فشققي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتك ، وقال لهما : افعلا ما آمركما طوعا ، وإلا ألجأتكما إلى ذلك (حتى) تفعلا فنقول

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٣٤٧

: فعلى هذا التقدير لا يكون المراد من قوله : أتينا طائعين حدوثهما في ذاتهما ، بل يصير المراد من هذا الأمر أن يظهرا ما كان مودعا فيهما ، وهذا باطل ؛ لأنه تعالى قال : ﴿فقضاهن سبع سماوات في يومين﴾ وذلك يدعل على حدوث السماء إنما حصل بعد قوله : ﴿١٦٤٩؛ئتيا طوعا أو كرها﴾.

فصل اعلم أن المقصود من هذا الكلام إظهار كمال القدرة ، والتقدير ائتيا ذلك أو أبيتما كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو أبيت ، ولتفعلنه طوعا أو كرها.

وقيل : إنه تعالى ذكر السماء والأرض ، ثم ذكر الطوع والكره فوجب أن ينصرف الطوع إلى السماء والكره إلى الأرض ، وتخصص السماء بالطوع لوجوه : أحدهما : أن السماء في دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف تشبه حيوانا مطعيا لله عز وجل بخلاف الأرض فإنها مختلفة الأحوال ، تارة تكون ساكنة ، وتارة تضطرب.

وثانيها : أن الموجود في السماء ليس إلا الطاعة ، قال تعالى : ﴿يخافون ربهم من فوقهم

١١٢

ويفعلون ما يؤمرون﴾ [النحل : ٥٠] وأما أهل الأرض فليس كذلك.

وثالثها : أن السماء موصوفة بكمال الحال ، وقيل : إنها أفضل الألوان وشكلها أفضل الأشكال وهو المستدير ومكانها أفضل الأمكنة ، وهو العلو ، وسكانها أفضل الأجرام ، وهي الكواكب المنيرة بخلاف الأرض فإنها مكان الظلمة والكثافة ، واختلاف الأحوال وتغيير الذات والصفات فلا جرم عبر عن تكوين السماء بالطوع وعن تكوين الأرض وبالكره.

قوله تعالى : ﴿فقضاهن سبع سماوات﴾ ف ينصب " سبع " أربعة أوجه : أحدها : أنه مفعول ثان " لقضاهن " ؛ لأنه ضمن معنى صيرهن بقضائه سبع سموات.

الثاني : أنه منصوب على الحال من مفعول " فقضاهن " أي قضاهن معدودة ، وقضى بمعنى " صنع " كقول أبي ذؤيب : ٤٣٥٥. وعليهما مسرودتان قضاهما

داود أو صنع السوابغ تبع

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ١٠٢

أي صنعها.

الثالث : أنه تمييز ؛ قال الزمخشري : ويجوز أن يكون ضميرا مبهما مفسرا بسبع سموات على التمييز يعني بقوله " مبهما " ، أنه لا يعود على السماء ، لامن حيث اللفظ ، ولا من حيث المعنى بخلاف كونه

حالا أو مفعولا ثانيا.

الرابع : أنه بدل من " هن " في " فق◌اهن " قاله مكي ، وقال أيضا : السماء ، تذكر وتؤنث ، وعلى التأنيث جاء القرآن ، ولو جاء على التذكير لقيل : سبعة سموات.

وقد تقدم تحقيق تذكيره وتأنيثه في أوائل البقرة.

١١٣

". (١)

"تكون في ثلاثة مواطن ، عند الموت وفي القبر وعند البعث.

قوله : ﴿ألا تخافوا﴾ يجوز في " أن " أن تكون المخففة ، أو الفسرة ، أو الناصبة و " لا " ناهية على الوجهين الأولين ، ونافية على الثالث.

وقد تقدم ما في ذلك من الإشكال.

فالتقدير بأن لا تخافوا أي بانتفاء الخوف.

وقال أبو البقاء : التقدير : بأن لا تخافوا ، أو قائلين أن لا تخافوا فعلى الأول : هو حال ، أي نزلوا بقولهم : لا تخافوا.

وعلى الثاني : الحال محذوفة.

قال شهاب الدين : يعني الباء المقدرة حالية ، فالحال غير محذوفة وعلى الثاني الحال هو القول المقدر وفيه تسامح ، وإلا فالحال محذوفة في الموضعين ، وكما قام المقول مقام الحال كذلك قام الجار مقامها.

وقرأ عبد الله " لا تخافوا " بإسقاط " أن " وذلك على إضمار القول ، أي : يقولون لا تخافوا.

فصل ﴿أن لا تخافوا﴾ من الموت.

قال مجاهد : لا تخافون على ما تقدم◌ون عليه من أمر الآخرة ولا تحزنوا على ما خلفتم من أهل وولد ، فإنا نخلفكم في ذلك كله.

وقال عطاء ابن أبي رباح : لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم.

قوله : ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾.

فإن قيل : البشارة عبارة عن الخبر الأول بحصول **المنافع** ، فأما إذا أخبر الرجل بحصول المنفعة ثم أخبر ثانيا بحصولها كان الإخبار الثاني إخبارا ولا يكون بشارة ، والمؤمن قد يسمع بشارات الخير ، فإذا سمع

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٤٣٠

المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخبارا ولا يكون بشارة ، فما السبب في تسمية هذا الخبر بشارة ؟ فالجواب : أن المؤمن قد يسمع بشارات الخير ، (فإذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخبارا ولا يكون بشارة! قلنا : المؤمن يسمع أن من كان مؤمنا تقيا) كان له الجنة أما إذا لم (يسمع) ألبتة أنه من أهل الجنة فإذا سمع ه ذا

١٣٧

الكلام من الملائكة كان أخبارا بنفع عظيم مع أنه هو الخبر الاول فكان ذلك بشارة.

واعلم أن هذا الكلام يدل على أن المؤمن عند الموت وفي القبر وعند البعث (لا) يكون فازعا من الأهوال ومن الفزع الشديد (بل يكون آمن الصدر لأن قوله : ﴿ألا تخافوا ولا تحزنوا﴾ يفيد نفي الخوف ، والحزن على الإطلاق).

قوله تعالى : ﴿نحن أوليآؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ وهذا في مقابلة ما ذكره في وعيد الكفار حيث قال : ﴿وقيضنا لهم قرنآء فزينوا﴾ [فصلت : ٢٥].

قال السدي : تقول الملائكة نحن الحفظة الذين كنا معكم في الدنيا (ونحن أولياؤكم من الدينا) ونحن أولياؤكم في الآخرة أي لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة.

﴿ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم﴾ من الكرامات واللذات ﴿ولكم فيها ما تدعون﴾ أي تتمنون.

فإن قيل : هلى هذا ،لتفسير لا فرق بين قوله : ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم﴾ و ﴿ولكم فيها ما تدعون﴾ قال ابن الخطيب : والأقرب عندي أن قوله : ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم﴾ إشار إلى الجنة الرحانية المذكورة في قوله ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ [يونس : ١٠] الآية.

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ١٣٤

قوله : " نزلا " فيه أوجه : أحدها : أنه منصوب على الحال من الموصول ، أو من عائده ، والمراد بالنزل الرزق المعد للنازل كأنه قيل ولكم فيهنا الذي تدعونه حال كونه معدا.

الثاني : أنه حال من فاعل " تدعون " أو من الضمير في " لكم " على أن يكون نزلا جمع نازل كصابر وصبر وشارف وشرف.

١٣٨

." (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٤٤٤٠

"ومعنى الآية أنه تعالى أنزل الكتاب المشتمل على الدلائل والبيناتم وأنزل الميزان وهو الفصل الذي هو القسطاس المستقيم وأنهم لا يعلمون أن القيامة حق يفاجئهم ، ومتى كان الأمر كذلك وجب على العاقل أن يجتهد في النظر والاستدلال ، ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد.

ولما كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يهددهم يوم القيامة ولم يروا لذلك أثرا قالوا على سبيل السخرية متى تقوم الساعة ؟ وليتها قامت حتى يظهر لنا الحق أهو الذي نحن عليه أم الذي عليه محمد وأصحابه ؟ !.

قوله : ﴿لعل الساعة قريب﴾ إنما ذكر " قريب " وإن كان صفة لمؤنث لأن الساعة في معنى الوقت أو البعث أو على معنى النسب أي ذات قرب ، أوعلى حذفق مضاف ، أي مجيء الساعة.

وقيل للفرق بينها وبين قاربة النسب.

وقيل : لأن تأنيثها مجازي نقله مكي.

وليس بشيء ، إذ لا يجوز : الشمس طالع ، ولا القدر فائر◦ ، وجملة الترجي أو الإشفاق معلقة للدراية.

وتقدم مثله آخر الأنبياء.

فصل قال مقاتل : ذكر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الساعة وعنده قوم من المشركين فقالوا مستهزءين : متى تكون الساعة ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ ظنا منهم أنهم غير آتية ﴿والذين آمنوا مشفقون﴾ خائفون ﴿منها ويعلمون أنها الحق﴾ أي أنها آتية لا ريب فيها ، ثم قال : ﴿ألا إن الذين يمارون﴾ يخاصمون.

وقيل : يدخلهم المرية والشك في " وقوع الساعة " لفي ضلال بعيد ؛ لأن استيفاء حق المظلوم من الظالم واجب في العدل فلو لم تحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله عز وجل ، وهذا من أمحل المحالات ، فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالا بعيدا.

قوله تعالى : ﴿الله لطيف بعباده﴾ قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ : حفي

١٨٢

بهم.

وقال عكرمة : بار بهم.

وقال السدي : رفيق بهم.

وقال مقاتل : لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعا بمعاصيهم بدليل قوله : ﴿بعباده يرزق من

يشآء﴾ وكل من رزقه الله من مؤمن وكافر وذي روح فهو ممن يشاء الله أن يرزقه.

قال جعفر الصادق : اللطيف في الرزق من وجهين : أحدهما : أنه جعل رزقك من الطيبات.

الثاني : أنه لم يدفعه إليك مرة واحدة.

و " هو القوي " القادر على ما يشاء " العزيز " الذي لا يغالب.

فصل إنما حسن ذكر هذا الكلام هاهنا ؛ لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة ، فكان ذلك من لطف الله (تعالى) بعباده ، وأيضا فالمتفرقون استوجبوا العذاب الشديد.

ثم إنه تعالى آخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضا من لطف الله تعالى ، فلما سبق ذكر إيصال أعظم المنافع إليهم (و) دفع أعظم المضار عنهم لا جرم حسن ذكره هاهنا.

قوله : ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه...

﴾ الآية الحرث في اللغة الكسب ، أي من كان يريد بعمله الآخرة نزد له في حرثه بالتضعييف بالواحد عشرة إلى ما شاء الله من الزيادة.

قال مقاتل.

وقيل : معناه إنا نزيد في توفيقه وإعانته وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات عليه.

وقال الزمخشري : إنه تعالى سمى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة حرثا على سبيل المجاز.

واعلم أنه قد تقدم أن كون الشرط ماضيا والجزاء مضارعا مجزوما لا يختص مجيئه بكان خلافا لأبي الحكم مصنف كتاب الإعراب فإنه قال : لا يجوز ذلك إلا مع "كان " إلا في ضرورة شعر.

وأطلق النحويون جواز ذلك وأنشدوا بيت الفرزدق :

١٨٣

٤٣٧٨. دست رسولا بأن القوم إن قدروا

عليك يشفوا صدورا ذات توغير

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ١٨١

وقوله أيضا : ٤٣٧٩. تعش فإن عاهدتني لا تخونني

نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

". (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٤٥٩

"روي : أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ استنشد (ب) قصيدتها هذه ، فلما وصل (الراوي) (إلى) هذا البيت قال : قاتلها الله ما رضيت تشبيهه بالجبل حتى جعلت في رأسه نارا.

وقال مجاهد : الأعلام القصور ، واحدها علم.

وقال الخليل بن أحمد : كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم وسمع : هذه الجوار ، وركبت الجوار ، وفي الجوار ، بالإعراب على الراء تناسيا للمحذوف ، وتقدم هذا في قوله تعالى : ﴿ومن فوقهم غواش﴾ [الأعراف : ٤١].

فصل اعلم أن المقصود من ذكر هذه الآية أمران : أحدهما : أن يستدل به على وجود الإله القادر الحكيم.

الثاني : أن يعرف ما فيه من النعم العظيمة لله تعالى على العباد ، وأما وجه الأول فإن هذه السفن العظيمة التي كالجبال تجري على وجه البحر عد هبوب الريح على أسرع الوجوه وعنند سكون الرياح (تقف) وقد تقدم في سورة النحل أن محرك الرياح و مسكنها هو الله (سبحانه و) تعالى ؛ إذ لا يقدر أحد من البشر على تحريكها ولا على تسكينها ، وذلك يدل وجود الإله القادر مع أن تلك السفينة في غاية الثقل ومع ثقلها بقيت على وجه الماء أيضا.

وأما دلالتها على النعم العظيمة ، وهو مافيها من المنافع فإنه تعالى خص كل جانب من الأرض بنوع من الأمتعة ، فإذا نقل متاع هذا الجانب إلى الجانب الآخر في السفن وبالعكس حصلت المنافع العظيمة بالتجارة ، فلهذه الأسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفن.

قوله : ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ التي تجري بها ﴿فيظللن رواكد﴾ قرأ أبو عمرو والجمهور بهمزة : " إن يشأ " لأن السكون علامة الجزم ، وورش عن نافع بلا همز وقرأ ناقع " يسكن الرياح " على الجمع والباقون " الريح " على التوحيد.

وقوله : " فيظللن " العامة على فتح اللام التي هي عين الكملة وهو القياس ؛ لأن

3٢٠

الماضي بكسرها ، تقول ظللت قائما.

وقرأ قتادة بكسرها وهو شاذ ، نحو : حسب يحسب وأخواته وقد تقدمت آخر البقرة.

وقال الزمخشري : قرىء بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل ، نحو : ظل يضل ويضل.

قال أبو حيان : وليس كما ذكر ؛ لأن يضل بفتح العين من ظللت بكسرها في الماضي ويضل بالكسر من ضللت بالفتح وكلاهما مقيس يعني أن كلا منهما له أصل يرجع إليه بخلاف " ظل " فإن ماضيه مكسور

العين فقط.

والنون أسمها ، و " روالكد " خبرها ويجوز : أن يكون " ظل " هنا بمعنى صار ؛ لأن المعنى ليس على وقت الظلول ، وهو النهار فقط وهو نظير : أين باتت يده ، من هذه الحيثية.

والركود والثبوت الاستقرار قال : ٤٣٨٤. وقد ركدت وسط السماء نجومها

ركودا بوادي الربرب المتفرق

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٠٢

والمعنى فيظللن رواكد أي ثوابت ءلى ظهر البحر ، لا تجري ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار﴾ على بلا الله " شكور " على نعمائه.

قوله : أو يوبقهن " عطف على " يسكن " قال الزمخشري : لأن المعنى : إن يشأ يسكن فيركدن ، أو يعصفها فيغرقن بعصفها ، قال أبو حيان : ولا يتعين أن يكون التقدير : أو يعصفها فيغرقن لأن إهلاك السفن لا يتعين أن يكون بعصف الريح ، بل قد يهلكها بقلع لوح أو خسف.

قال شهاب الدين : والزمخشري لم يذكر أن ذلك متعين ، وإنما ذكر شيئا مناسبا ؛ لأن قوله : يسكن الرياح يقابله " يعصفها " فهو في غاية الحسن والطباق.

٢٠٤

فصل معنى " يقهن " يهلكهن ويغرقهن " بما كسبوا " أي بما كسبت ركابها من الذنوب ﴿ويعف عن كثير﴾ من ذنوبهم فلا يعاقب عليها.

يقال : أوبقه أي أهلكه ، كما يقال للمجرم : أوبقته ذنوبه أي أهلكته.

فإن قيل : ما معنى إدخال العفو في حكم الإيياق حيث جعل مجزوما مثله ؟ فالجواب : معناه إن يشأ يهلك ناسا ينج ناسا على طريق العفو عنهم ، وأما من قرأ " ويعفو " فقد استأنف الكلام ؟ والعامة على الجزم عطفا على جواب الشرط.

واستشكله القشيري ، وقال : لأن المعنى إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكدا ويهلكها بذنوب أهلها ، فلا يحسن عطف : " ويعف " على هذا لأن المعنى يصير : إن يشأ يعف ، وليس المعنى على ذلك ، بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة فهو عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى.

قال أبو حيان : وما قاله ليس يجيد ، إذ لم يفهم مدلول التركيب والمعنى إلا أنه تعالى إن يشأ أهلك ناسا

وأنجى ناسا على طريق العفو عنهم.

وقرأ الأعمش : ويعفو بالواو.

وهي تحتمل أن تكومن كالمجزوم ، وثبتت الواو في الجزم كثبوت الياء في " من يتقي ويصبر ".

ويحتمل أن يكون الفعل مرفوعا ، أخبر الله تعالى أنه يعفو عن كثير من السيئات.

وقرأ بعض أهل المدينة بالنصب بإضمار " أن " بعد الواو كنصبه في قول النابغة : شعرا : ٤٣٨٥. فإن يهلك أبو قابوس يهلك

." (١)

"سورة الزخرف

مكية وهي تسع وتسعون آية ، وثانمائة وثلاث وثلاثون كلمة ، وثلاثة آلاف وأربعمائة حرف.

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٢٥

قوله تعالى : ﴿حما والكتاب المبين﴾ إن جعلت " حم " قسما كانت الواو عاطفة ، وإن لم تكن الواو للقسم.

وقوله : ﴿إنا جعلناه﴾ جواب القسم.

وهذا عندهم من البلاغة ، وهو كون القسم والمقسم عليه من واد واحد ، كقول أبي تمام : ٤٣٨٨.....................

وثناياك إنها إغريض

إن أريد بالكتاب القرآن ، وإن أريد به جنس الكتب المنزلة غير القرآن لم يكن من ذلك.

والضمير في " جعلناه " على الأول يعود على الكتاب وعلى الثاني للقرآن وإن لم

٢٢٦

يصرح بذكره.

والجعل في هذا تصيير ، ولا يلتفت لخطأ الزمخشري في تجويزه أن يكون بمعنى خلقانه.

فصل ذكر المفسرون في هذه الآية وجهين : الأول : أن يكون التقدير هذه حم والكتاب المبين فيكون المقسم واقعا على أن هذه السورة هي سورة حم.

الثاني : أن يكون القسم واقعا على قوله : ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٤٤٦٩

وفي المراد بالكتاب قولان : أحدهما : أنه القرآن فيكون قد أقسم بالقرآن أنه جعله عربيا.

والثاني : المراد بالكتاب الكتابة والخط ، أقسم بالكتاب لكثرة ما فيه من **المنافع** ، ووصف الكتاب بأنه مبين أي أبان طريق الهدى من طريق الضلال ، وأبان ما يحتاج إليه الأمة من الشريعة وتسميته مبينا مجاز ؛ لأن المبين هو الله تعالى وإنما سمي القرآن بذلك توسعا من حيث إنه حصل البيان عنده.

وقوله : " جعلناه " أي صيرنا قراءة هذا الكتاب عربيا.

بيناه.

وقيل سميناه وقيل وضعناه.

يقال : جعل فلان زيدا عالما ، أي وصفه بهذا ، كقوله : ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا﴾ [الزخرف : ١٩] و ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ [الحجر : ٩١] ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ [التوبة : ١٩] كلها مدفوع من وجهين : الأول : أنه لو كان المراد من الجعل التسمية لزم أن سماه عجميا أنه يصير عجميا ، وإن كان بلغة العرب ، وهذا باطل.

٢٢٧

الثاني : (أنه) لو صرف الجعل إلى التسمية لزم كون التسمية مجعولة ، والتسمية أيضا كلام الله وذكل أنه جعل بعض كلامه ، وإذا صح ذلك في البعض صح في الكل.

الثاني : أنه وصفه بكونه قرآنا ، وهو إنما سمي قرآنا ، لأنه جعل بعضه مقرونا بالبعض ، وما كان ذلك مصنوعا.

الثالث : وصفه بكونه عربيا ، وإنما يكون عربيا ، لأن العرب اختصت بضوع ألفاضه واصطلاحهم ، وذلك يدل على أنه مجعول.

والتقدير : حم ورب الكتاب المبين.

ويؤكد هذا بقولهن ـ عليه الصلاة والسلام ـ " يا رب طه ويس ، ويا رب القرآن العظيم ".

وأجاب ابن الخطيب : بأن هذا الذي ذكرتموه حق ؛ لأنكم استدللتم بهذه الوجوه على كون الحروف المتواليات والكلمات المتعاقبة محدثة ، وذلك معلوم بالضرورة ومن الذي ينازعكم فيه.

قله : ﴿لعلكم تعقلون﴾ كلمة " لعل " للتمني والترجي ، وهي لا تليق بمن كان عالما بعواقب الأمور ، وكان المراد ههنا : إنا أنزلناه قرآنا عربي○○ا لأجل أن تحطوا بمعناه.

قوله تعالى : ﴿وإنه فى أم الكتاب﴾ متعلقان بما بعدهما ، ولا تمنع اللام من ذلك.

ويجوز أن يكونا حالين مما بعدهما ؛ لأنهما كمانا وصفين له في الأصل فيتعلقان بمحذوف ، ويجوز أن يكون " لدينا " متعلقا بما تعلق به الجار قبله ، إذا جعلناه حالا من لعلي ، وأن يكون حالا من الضمير المستتر فيه.

وكذا يجوز في الجار أن يتعلق بما تعلق به الظرف وأن يكون حالا من ضميره عند من يجوز (تقديمها) على العامل المعنوي ، ويجوز أن يكون الظرف بدلا من الجار قبله ، و أن يكونا حالين من " الكتاب " أو من " أم ".

ذكر هذه الأوجه الثلاثة أبو البقاء ، وقال : " ولا يجوز أن يكون واحد من الظرفين خبرا ؛ لان الخبر لزم أن يكون " عليا " من أجل اللام ".

قال شهاب الدين : وهذا يمنع

٢٢٨." (١)

"مدورات كاللآلئ الكبار ثم في النزول إذا اتفق أن تضربه النيران التي في الجو جعلته حجارة كالآجر المطبوخ فينزل فيصيب من قدر الله هلاكه وقد ينزل كثيرا في المواضع التي لا عمارة بها ، فلا يرى ولا يدرى به فلهذا قال : " من طين " لأ(ن) ما لا يكون من طين كالحجر الذي في الصواعق لا يكون كثيرا بحيث يمطر ، وهذا تعسف ، لأن ذلك الإعصار لما وقع فإن وقع بحادث آخر لزم التسلسل ، ولا بد من الانتهاء إلى محدث ليس بحادث فذلك المحدث لا بد وأن يكون فاعلا مختارا ، والمختار له أن يفعل وله أن يخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار ، لكن العقل لا طريق له إلى الجزم بطريق إحداثه وما لا يصل العقل إليه فلا يؤخذ إلا بالنقل والنص ومن المعلوم أن نزول حجارة من الطين من السماء أغرب وأعجب من غيرها.

قوله : " مسومة " فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه منصوب على النعت لحجارة.

الثاني : أنه حال من الضمير المستكن في الجار قبله.

الثالث : أنه حال من " حجارة " ، وحسن ذلك كون النكرة وصفت بالجار بعدها.

ومعنى مسومة قيل : على كل حجر منها اسم صاحبه.

وقيل : خلقت وأعدت لتعذيبهم.

وقيل : مرسلة للمجرمين ؛ لأن الإرسال يقال في التسويم ، يقال أرسلها لترعى ، كما قيل في الخيل

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٤٧٩

المسومة أي مستغنى عنها.

قوله : " عند ربك " ظرف " لمسومة " أي معلمة عنده " والمسرف " المتمادي ولو في الصغائر فهم مجرمون مسرفون.

وهنا لطيفة وهي أن الحجارة سومت للمسرف المصر الذي لا يترك الذنب في المستقبل وذلك إنما يعلمه الله تعالى ، فلذلك قال : ﴿عند ربك للمسرفين﴾ ولما كان الإجرام ظاهرا قالوا : ﴿إنآ أرسلنآ إلى قوم مجرمين﴾ واللام في " المسرفين " لتعريف العهد ، أي لهؤلاء المسرفين ؛ إذ ليس لكل مسرف حجارة مسومة.

وإسرافهم بأنهم أتوا بما لم يسبقهم به أحد من العالمين.

قوله : ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ هذه الآية تدل على بيان القدرة

٨٩

والاختيار ، لأنه تعالى لما ميز المجرم عن المحسن يدل على الاختيار وأيضا فيها بيان أن ببركة المحسن ينجو المسيء ، فإن القرية ما دام فيها المؤمنون لم تهلك.

والضمير في " فيها " عائد على القرية وهي معلومة وإن لم تكن مذكورة.

والمعنى : فأخرجنا من كان في قرى قوم لوط من المؤمنين ، وذلك قوله : ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾ [الحجر : ٦٥].

وقوله : ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ يعني لوطا وابنتيه وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعا ، لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم ، وفيه إشارة إلى أن الكفر إذا غلب ، والفسق إذا فشا لا ينفع معه عبادة المؤمنين ، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة ، وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون ، ومثاله أن العالم كالبدن ، ووجود الصالحين كالأغذية الباردة والحارة والسموم الواردة عليه الضارة ثم إن البدن إن خلا عن المنافع وفيه الضار هلك وإن خلا عن الضار وفيه النافع طاب ونما ، وإن وجدا فيه فالحكم للغالب.

وإذا علم أن إطلاق العام على الخاص لا مانع منه ، لأن المسلم أعم من المؤمن فإذا سمي المؤمن مسلما ، لا يدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال : أخرجنا المؤمنين ، فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتا من المسلمين ، ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين.

قوله : ﴿وتركنا فيهآ آية﴾ يجوز أن يعود الضمير على القرية ، أي تركنا في القرية علامة أي عبرة كالحجارة

أو الماء المنتن ويجوز أن يعود على الإهلاكة المفهومة من السياق.
وقوله : " للذين يخافون " أي ما ينتفع بها إلا الخائف ، كقوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿لقوم يعقلون﴾ [العنكبوت : ٣٥] ومعنى الآية : أن " الآية " تدلهم على أن الله تعالى أهلكهم فيخافون مثل عذابهم.
٩٠
جزء : ١٨ رقم الصفحة : ٨٠
." (١)

"سورة الرحمن
مكية كلها في قول الحسن ، وعروة بن الزبير ، وعكرم ، وعطاء ، وجابر.
وقال ابن عباس : إلا آية منها ، وهي قوله تعالى : ﴿يسئله من في السموات والارض﴾ [الحمن : ٢٩] الآية.
وقال ابن مسعود ومقاتل : هي مدنية كلها.
والأول لأصح ، لما روى عروة بن الزبير ، قال : أول من جهر بالقرآن ب"مكة" بعد النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ، وذلك أن الصحابة - رضي الله عنهم - قالت : ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط ، فمن رجل يسمعموه ، فقال ابن مسعود : أنا ، فقالوا : نخشى عليك ، وإنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه ، فأبى ثم قام عند المقام ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم.
"الرحمن ، علم القرآن" ثم تمادى بها رافعا صوته ، وقريش في أنديتها ، فتأملوا ، وقالوا : ما يقول ابن أم عبد ؟ قالوا : هو قول : الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه ، ثم ضربوه حتى أثروا في وجهه.
وصح أن النبيث صلى الله عليه ةسلم قام يصلي الصبح ب "نخلة" ، فقرأ سورة "الرحمن" ، ومر النفير من الجن فآمنوا به.
٢٩٠
وهي ثمان وسبعون آية ، وثلاثمائة وإحدى وخمسون كلمة ، وألف وستمائة وستة وثلاثون حرفا.
جزء : ١٨ رقم الصفحة : ٢٩٠
قال تعالى : " الرحمن " فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه خبر مبتدأ مضمر ، أي : " الله الرحمن ".

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٦٦٣

الثاني : أنه مبتدأ وخبره مضمر ، أي : " الرحمن ربنا " وهذان الوجهان عند من يرى أن " الرحمن " آية مع هذا المضمر معه ، فإنهم عدوا الرحمن " آية ".

ولا يتصور ذلك إلا بانضمام خبر أو مخبر عنه إليه ؛ إذ الآية لا بد أن تكون مفيدة ، وسيأتي ذلك في قوله : ﴿مدهآمتان﴾ [الآية : ٦٤].

الثالث : أنه ليس بآية ، وأنه مع ما بعده كلام واحد ، وهو مبتدأ ، خبره " علم القرآن ".

فصل في بيان مناسبة السورة افتتح السورة التي قبلها بذكر معجزة تدل على القهر [والغلبة] والجبروت ، وهو انشقاق القمر ، فمن قدر عليه قدر على قطع الجبال وإهلاك الأمم ، وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة ، وهي القرآن ، وأيضا فأولها مناسب لآخر ما قبلها ؛ لأن آخر تلك أنه ﴿مليك مقتدر﴾ [القمر : ٥٥] وأول هذه أنه رحمن.

قال بعضهم : إن " الرحمن " اسم علم ، واحتج بقوله تعالى : ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان أيا ما تدعوا فله الأسمآء الحسنى ﴾ [الإسراء : ١١٠].

وأجاز أن يقال : " يالرحمن " باللام ، كما يقال : " يا الله " وهذا ضعيف ، وهو مختص بالله تعالى ، فلا يقال لغيره.

٢٩١

قال سعيد بن جبير ، وعامر الشعبي : " الرحمن " فاتحة ثلاثة سور إذا جمعن كن اسما من أسماء الله تعالى : " الر " و " حم " و " نون " فيكون مجموع هذه " الرحمن ".

ولله - تعالى - رحمتان : رحمة سابقة بها خلق الخلق ، ورحمة لاحقة بها أعطاهم الرزق **والمنافع** ، فهو رحمن باعتبار السابقة ، رحيم باعتبار اللاحقة ، ولما اختص بالإيجاد لم يقل لغيره : رحمن ، ولما تخلق بعض خلقه الصالحين ببعض أخلاقه بحسب الطاقة البشرية ، فأطعم ونفع ، جاز أن يقال له : رحيم.

قوله : " علم القرآن " فيه وجهان : أظهرهما : أنه " علم " المتعدية إلى اثنين أي عرف من التعليم ، فعلى هذا المفعول الأول محذوف.

قيل : تقديره : علم جبريل القرآن.

وقيل : علم محمدا.

وقيل : علم الانسان ، وهذا أولى لعمومه ، ولأن قوله : " خلق الإنسان " دال عليه.

والثاني : أنها من العلامة ، والمعنى : جعله علامة ، وآية يعتبر بها ، أي : هو

علامة النبوة ومعجزة ، وهذا مناسب لقوله تعالى : ﴿وانشق القمر﴾ [القمر : ١].
على ما تقدم أنه ذكر في أول تلك السورة معجزة من باب الهيبة ، وذكر في هذه السورة معجزة من باب الرحمة ، وهو أنه يسر من العلوم ما لا يسره غيره ، وهو ما في القرآن , أو يكون بمعنى أنه جعله بحيث يعلم كقوله تعالى : ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ [القمر : ١٧] ، فالتعليم على هذا الوجه مجاز كما يقال لمن أنفق على متعلم وأعطى أجرة معلمه : علمته.
فإن قيل : لم ترك المفعول الثاني ؟ .
فالجواب : أن ذلك إشارة إلى أن النعمة في التعليم لا تعليم شخص دون شخص ؛ فإن قيل : كيف يجمع بين هذه الآية ، وبين قوله : ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ [آل عمران : ٧] ؟ فالجواب : إن قلنا بعطف الراسخين على " الله " فظاهر.
وإن قلنا بالوقف على الجلالة ، ويبتدأ بقوله : " والراسخون " فلأن من علم كتابا عظيما فيه مواضع مشكلة قليلة ، وتأملها بقدر الإمكان ، فإنه يقال : فلان يعلم الكتاب الفلاني ، وإن كان لم يعلم مراد صاحب الكتاب بيقين في تلك المواضع القليلة ، وكذا القول في تعليم القرآن ، أو يقال : المراد لا يعلمه من تلقاء نفسه ، بخلاف الكتب التي تستخرج بقوة الذكاء.
فصل في نزول هذه الآية قال المفسرون : نزلت هذه الآية حين قالوا : وما الرحمن ؟ .
وقيل : نزلت جوابا لأهل " مكة " حين قالوا : ﴿إنما يعلمه بشر﴾ [النحل : ١٠٣] ، وهو رحمن " اليمامة " ، يعنون : مسيلمة الكتاب فأنزل الله - تعالى - ﴿الرحمن ، علم القرآن﴾ أي : سهله لأن يذكر ويقرأ. كما قال : ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ [القمر : ٢٢].
قوله تعالى : " خلق الإنسان ".
قال ابن عباس وقتادة ، والحسن : يعني آدم - عليه الصلاة والسلام - .
قوله : " علمه البيان " علمه أسماء كل شيء.
وقيل : علمه اللغات كلها ، وكان آدم يتكلم بسبعمائة ألف لغة أفضلها العربية.
وعن ابن عباس أيضا ، وابن كيسان : المراد بالإنسان هنا محمد - عليه الصلاة والسلام - والمراد من

البيان بيان الحلال من الحرام ، والهدى من الضلالة.

٢٩٣." (١)

"وقيل : ما كان وما يكون ؛ لأنه ينبئ عن الأولين ، والآخرين ، ويوم الدين.

وقال الضحاك : " البيان " : الخير والشر وقال الربيع بن أنس : هو ما ينفعه مما يضره.

وقيل : المراد بـ " الإنسان " جميع الناس ، فهو اسم للجنس ، والبيان على هذا الكلام : الفهم وهو مما فضل به الإنسان على سائر الحيوان.

قال السدي : علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به.

وقال يمان : الكتابة والخط بالقلم نظيره ﴿علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [العلق : ٤ ، ٥].

فصل في كيفية النظم إنه علم الملائكة أولا ، ثم خلق الإنسان ، وعلمه البيان ، فيكون ابتدأ بالعلوي ، وقابله بالسفلي ، وقدم العلويات على السفليات ، فقال : " علم القرآن " إشارة إلى تعليم العلويين.

ثم قال : ﴿خلق الإنسان ، علمه البيان﴾ إشارة إلى تعليم السفليين ، وقال : ﴿والشمس والقمر بحسبان﴾ [في العلويات] ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ [في السفليات].

ثم قال : ﴿والسمآء رفعها﴾ [الرحمن : ٧] ، وفي مقابلتها ﴿والأرض وضعها﴾ [الرحمن : ١٠].

فصل في وصل هذه الجمل من قوله : ﴿علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان﴾ جيء بها من غير عاطف ؛ لأنها سيقت لتعديد نعمه ، كقولك : " فلان أحسن إلى فلان ، أشاد بذكره ، رفع من قدره " فلشدة الوصل ترك العاطف ، والظاهر أنها أخبار.

وقال أبو البقاء : و " خلق الإنسان " مستأنف ، وكذلك " علمه " ، ويجوز أن يكون حالا من الإنسان مقدرة ، وقدر معها مرادة انتهى.

وهذا ليس بظاهر ، بل الظاهر ما تقدم ، ولم يذكر الزمخشري غيره.

فإن قيل : لم قدم تعليم القرآن للإنسان على خلقه ، وهو متأخر عنه في الوجود ؟ .

٢٩٤

فالجواب : لأن التعليم هو السبب في إيجاده وخلقه.

فإن قيل : كيف صرح بذكر المفعولين في " علمه البيان " ، ولم يصرح بهما في " علم القرآن " ؟ .

فالجواب : أن المراد من قوله " علمه البيان " تعديد النعم على الإنسان ، واستدعاء للشكر منه ، ولم يذكر

---

(١) تفسير ا اللباب لابن عادل . ص/٤٧٥١

الملائكة ؛ لأن المقصود ذكر ما يرجع إلى الإنسان.

فإن قيل : بأنه علم الإنسان القرآن.

فيقال : بأن ذكر نعمة التعليم وعظمها على سبيل الإجمال ، ثم بين كيفية تعليمه القرآن ، فقال : ﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾.

واستدل بعضهم بهذه الآية على أن الألفاظ توقيفية.

قوله : ﴿والشمس والقمر بحسبان﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أن الشمس مبتدأ ، و " بحسبان " خبره على حذف مضاف ، تقديره : جري الشمس والقمر بحسبان ، أي كائن ، أو مستقر ، أو استقر بحسبان.

الثاني : أن الخبر محذوف يتعلق به هذا الجار ، تقديره : يجريان بحسبان.

وعلى هذين القولين ، فيجوز في الحسبان وجهان : أحدهما : أنه مصدر مفرد بمعنى " الحسبان " ، فيكون كـ " الشكران " و " الكفران ".

والثاني : أنه جمع حساب ، كـ " شهاب " و " شهبان ".

والثالث : أن " بحسبان " خبره ، و " الباء " ظرفية بمعنى " في " أي : كائنان في حسبان.

وحسبان على هذا اسم مفرد ، اسم للفلك المستدير ، مشبهة بحسبان الرحى الذي باستدارته تدور الرحى.

٢٩٥

فصل لما ذكر خلق الإنسان وإنعامه عليه لتعليمه البيان ، ذكر نعمتين عظيمتين ، وهما : الشمس والقمر ، وأنهما على قانون واحد وحساب لا يتغيران ، وبذلك تتم منفعتهما للزراعات وغيرها ، ولولا الشمس لما زالت الظلمة ، ولولا القمر لفات كثير من **المنافع** الظاهرة ، بخلاف غيرهما من الكواكب ، فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ظهور نعمتهما ، وأنهما بحساب لا يتغير أبدا ، ولو كان مسيرهما غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها ، ومعرفة فصول السنة.

ثم لما ذكر النعم السماوية وذكر في مقابلتها أيضا نعمتين ظاهرتين من الأرض ، وهما : النبات الذي لا ساق له ، وما له ساق ؛ لأن النبات أصل الرزق من الحبوب والثمار ، والحشيش للحيوان.

وقيل : إنما ذكر هاتين النعمتين بعد تعليم القرآن إشارة إلى أن من الناس من لا تكون نفسه زكية ، فيكتفي بأدلة القرآن ، فذكر له آيات الآفاق ، وخص الشمس والقمر ؛ لأن حركتهما بحسبان تدل على الفاعل المختار.

ولو اجتمع العالم ليبينوا سبب حركتهما على هذا التقدير المعين لعجزوا ، وقالوا : إن الله حركهما بالإرادة

كما أراد.

وقيل : لما ذكر معجزة القرآن بإنزاله أنكروا نزول الجرم من السماء وصعوده إليها ، فأشار تعالى بحركتهما إلى أنها ليست بالطبيعة.

وهم يقولون بأن الحركة الدورية من أنواع الحركات لا يكون إلا اختياريا ، فقال تعالى : من حركهما على الاستدارة أنزل الملائكة على الاستقامة ، والثقيل على مذهبكم لا يصعد ، وصعود النجم والشجر إنما هو بقدرة الله تعالى ، فحركة الملك كحركة الفلك جائزة.

فصل في جريان الشمس والقمر قال المفسرون : [المعنى] يجريان بحسبان معلوم فأضمر الخبر.

قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك : يجريان بحساب في منازل لا تعدوها ولا يحيدان عنها.

٢٩٦

." (١)

"قال مكي : "كما قال : ﴿على رجل من القريتين﴾ [الزخرف : ٣١] ، أي : من إحدى القريتين ، فحذف المضاف كثير شائع ".

وقيل : هو كقوله : ﴿نسيا حوتهما﴾ [الكهف : ٦١] وإنما الناسي فتاه ، ويعزى هذا لأبي عبيدة.

قال البغوي : وهذا جائز في كلام العرب أن يذكر شيئين ، ثم يخص أحدهما بفعل ، كقوله : ﴿يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ [الأنعام : ١٣٠] ، ثم كانت الرسل من الإنس.

وقيل : يخرج من أحدهما اللؤلؤ ، ومن الآخر المرجان.

وقيل : بل يخرجان منهما جميعا.

ثم ذكروا أقاويل.

٣١٨

منها : أنهما يخرجان من الملح في المواضع الذي يقع فيه العذب ، وهذا مشاهد عند الغواصين ، وهو قول الجمهور ، فناسب ذلك إسناده إليهما.

ومنها : قول ابن عباس رضي الله عنهما : تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر ، والصدف تفتح أفواهها للمطر ، وقد شاهده الناس ، فيكون تولده من بحر السماء ، وبحر الأرض.

وهذا قول الطبري.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٧٥٢

ومنها : أن العذب في الملح كاللقاح ، كما يقال : الولد يخرج من الذكر والأنثى.
ومنها : أنه قيل : منهما من حيث هما نوع واحد ، فخروج هذه الأشياء إنما هي منهما ، كما قال تعالى : ﴿وجعل القمر فيهن نورا﴾ [نوح : ١٦] وإنما هو في واحدة منهن.
وقال الزمخشري : " فإن قلت : لم قال : " منهما " ، وإنما يخرجان من الملح ؟ قلت : لما التقيا ، وصارا كالشيء الواحد ، جاز أن يقال : يخرجان منهما كما يقال : يخرجان من البحر ، ولا يخرجان من جميع البحر ، وإنما يخرجان من بعضه ، وتقول : خرجت من البلد ، وإنما خرجت من محلة واحدة من محاله ، بل من دار واحدة من دوره ، وقيل : لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب ".
انتهى.
وقال بعضهم : كلام الله أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس ، فمن الجائز أن يسوقها من البحر العذب إلى الملح ، واتفقوا أنهم لم يخرجوها إلا من الملح ، وإذا كان في البر أشياء تخفى على التجار المترددين القاطعين المفاوز ، فكيف بما هو في قعر البحر ؟ .
فالجواب عن هذا : أن الله لا يخاطب الناس ، ولا يمنن عليهم إلا بما يألفون ، ويشاهدون.
و " اللؤلؤ " : قيل : كبار الجوهر ، والمرجان : صغاره.
قاله علي ، وابن عباس ، والضحاك رضي الله عنهم.
وقيل بالعكس ، وأنشدوا قول الأعشى رحمه الله : [البسيط]
٣١٩
٤٦٣٥ - من كل مرجانة في البحر أحرزها
تيارها ووقاها طينها الصدف
جزء : ١٨ رقم الصفحة : ٣١٣
أراد اللؤلؤة الكبيرة.
قاله علي ، وابن عباس أيضا.
وقيل : " المرجان " : حجر أحمر.
وقيل : حجر شديد البياض ، والمرجان أعجمي.
قال ابن دريد : لم أسمع فيه كلاما منصرفا.
و " اللؤلؤ " ، بناء غريب لم يرد على هذه الصيغة إلا خمسة ألفاظ : اللؤلؤ ، و " الجؤجؤ " وهو الصدر

، و " الدردؤ " ، و " اليؤيؤ " – لطائر – و " البؤبؤ " – بالموحدتين – وهو الأصل ، و " اللؤلؤ " – بضمتين – والهمز هو المشهور.

وإبدال الهمزة واوا شائع فصيح وقد تقدم ذلك.

وقرأ طلحة : " اللؤلئ " – بكسر اللام الثالثة – وهي لغة محفوظة ، ونقل عنه أبو الفضل : " اللولي " بقلب الهمزة الأخيرة ياء ساكنة ، كأنه لما كسر ما قبل الهمزة قلبها ياء استثقالا.

وقرأ أبو عمرو في رواية : " يخرج " أي : الله تعالى ، وروي عنه ، وعن ابن مقسم : " نخرج " بنون العظمة.

و " اللؤلؤ والمرجان " على هاتين القراءتين منصوبان.

فصل في مناسبة نعمة اللؤلؤ والمرجان للنعم السابقة قال ابن الخطيب : فإن قيل : أي نعمة عظيمة في " اللولؤ والمرجان " حتى ذكرهما مع نعمة تعليم القرآن وخلق الإنسان ؟ .

وأجاب بأن النعم منها خلق الضروريات كالأرض التي له مكانا ، وكذا الرزق الذي به بقاؤه.

ومنها ما يحتاج إليه ، وإن لم يكن ضروريا كالحيوان ، وإجراء الشمس والقمر.

ومنها **المنافع** وإن لم يكن محتاجا إليها كالفاكهة ، وخلق البحار ، كقوله تعالى : ﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ [البقرة : ١٦٤].

٣٢٠

". (١)

"وخامسها : أن الشياطين مخلوقون من النار ، والنار لا تحرق النار ، بل تقويها.

وسادسها : أن كان هذا القذف لأجل النبة فلم بقي بعدها ؟ .

وسابعها : أن هذ الرجوم إنما تحدث بالقرب من الأرض ، لأنا نشاهدها بالعين ، ومع البعد لا نشاهدها كما لا نشاهد حركات الكواكب.

وثامنها : إن كانت الشياطين ينقلون أخبار الملائكة عن المغيبات إلى الكهنة ، فلم لا ينقلون أسرار المؤمنين إلى الكفار ، حتى يتوصل الكفار بذلك إلى إلحاق الضرر بالمؤمنين ؟ وتاسعها : لم لم يمنعهم الله ابتداء من الصعود إلى السماء ؟ .

والجواب عن الأول : أنا لا ننكر أن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٧٦١

وعن الثاني : أنه إذا جاء القدر عمي البصر ، فإذا قضى الله على طائفة منها بالحرق لطغيانها قيض الله لها من الدواعي ما يقدمها على العمل المفضي إلى هلاكها.

وعن الثالث : ان نمنع كون ثخن الفلك ما ذكروه ، بأن البعد بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام.

وعن الرابع : ما روى الزهري عن علي بن الحسين ، عن علي بن أبي طالب قال : " بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالسا في نفر من أصحابه ، إذ رمي بنجم فاستنار ، فقال : ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا حدث ؟ قال : كنا نقول : يولد عظيم أو يموت عظيم فقال النبي صلى الله عليه وسلم " فإنها لا ترمى لموت أحد ، ولا لحياته ، ولكن الله – تعالى – إذا قضى الأمر في السماء سبحت حملة العرش ، ويستخبر أهل السماء حملة العرش ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ولا يزال ينتهي ذلك الخبر من سماء إلى سماء إلى أن ينتهي الخبر إلى هذه السماء فتخطفه الجن فيرمون ، فما جاءوا به فهو حق ، ولكنهم يزيدون فيه "

وعن الخامس : أن نار النجوم قد تكون أقوى من نار الجن.

وعن السادس : أنه – عليه الصلاة والسلام – أخبر ببطلان الكهانة ، فلولم ينقطعوا لعادة الكهانة ، وذلك يقدح في خبر الرسول عليه الصلاة والسلام.

وعن السابع : أن البعد غير مانع من السماء عندنا.

وعن الثامن : لعله تعالى أقدرهم على استماع الغيوب عن الملائكة ، وأعجزهم عن أيصال أسرار المؤمنين إلى الكافرين.

٢٣٦

وعن التاسع : أن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد.

قوله : ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾.

لما ذكر منافع الكواكب ، وذكر من جملة تلك المنافع أنها رجوم للشياطين قال بعد ذلك : ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ ، أي : وأعتدنا للشياطين بعد الإحراق بالشهب في الدنيا عذاب السعير في الآخرة ، وهو أشد الحريق.

قال المبرد : سعرت النار فهي مسعورة وسعير ، مثل قوله : مقتولة وقتيل.

وهذه الآية تدل على أن النار مخلوقة ؛ لأن قوله : ﴿وأعتدنا لهم﴾ خبر عن الماضي.

قوله : ﴿وللذين كفروا﴾ خبر مقدم في قراءة العامة ، و " عذابث جهنم " مبتدؤه.

وفي قراءة الحسن والأعرج والضحاك : بنصب " عذاب " فيتعلق بـ " أعتدنا " عطفا على " لهم " و "

عذب جهنم " عطف على " عذاب السعير " ، فعطف منصوبا على منصوب ، ومجرورا على مجرور ، وأعاد الخافض ، لأن المعطوف عليه ضمير.

والمخصوص بالذم محذوف ، أي : وبئس المصير مصيرهم ، أو عذاب جهنم ، أو عذاب السعير.

فصل في معنى الآية والمعنى لكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم عذاب جهنم ؛ ليبين أن الشياطين المرجومين مخصوصون بذلك ، ثم إنه - تعالى - وصف ذلك العذاب بصفات ، أولها قوله تعالى : ﴿إذآ ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور﴾ يعني الكفار ﴿إذآ ألقوا﴾ طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ﴿سمعوا لها شهيقا﴾ أي : صوتا.

قال ابن عباس : الشهيق لجنهم عند إلقاء الكفار فيها كشهيق البغلة للشعير.

وقال عطاء : الشهيق من الكفار عند إلقائهم في النار.

وقال مقاتل : سمعوا لجهنم شهيقا.

قال ابن الخطيب : ولعل المراد تشبيه صوت لهب النار بالشهيق ، وهو كصوت الحمار.

وقال المبرد : هو - والله أعلم - تنفس كتنفس التغيظ.

قال الزجاج : سمع الكفار للنار شهيقا ، وهو أقبح الأصوات.

٢٣٧

وقيل : سمعوا من أنفسهم شهيقا كقوله تعالى : ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ [هود : ١٠٦].

قوله : " لها " متعلق بمحذوف على أنه حال من " شهيقا " لأنه في الأصل صفته ، ويجوز أن يكون على حذف مضاف ، أي : سمعوا لأهلها ، وهي تفور : جملة حالية.

فصل في معنى الشهيق والزفير قال القرطبي : " والشهيق في الصدر ، والزفير في الحلق ، وقد مضى في سورة " هود ".

وقوله : ﴿وهي تفور﴾.

أي : تغلي ؛ ومنه قول حسان : [الوافر] تركتم قدركم لا شيء فيها

ودر القوم حامية تفور

جزء : ١٩ رقم الصفحة : ٢٣٣

." (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٩٨٥

"والضمير في قوله ﴿وألو استقاموا﴾ ، قيل : يرجع إلى الجن الذين تقدم ذكرهم ووصفهم أي : هؤلاء القاسطون لو أسلموا لفعلنا بهم كذا وكذا.

وقيل : بل المراد الإنس لأن الترغيب في الانتفاع بالماء الغدق ، إنما يليق بالإنس ، لا بالجن وأيضا أن هذه الآية إنما نزلت بعد ما حبس الله المطر عن أهل مكة سنين ، أقصى ما في الباب أنه لم يتقدم ذكر الإنس ، ولكنه لما كان ذلك معلوما جرى مجرى قوله : ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر : ١].

وقال القاضي : الأقرب أن الكل يدخلون فيه.

قال ابن الخطيب : " ويدل على صحة قول القاضي ، أنه تعالى أثبت حكما معللا بعلة ، وهي الاستقامة فوجب أن يعم الحكم لعموم العلة ".

والغدق – بفتح الدال وكسرها – : لغتان في الماء الغزير ، ومنه الغداق : للماء الكثير وللرجل الكثير الغدق ، والكثير النطق.

ويقال : غدقت عينه تغدق أي : هكل دمعها غدقا.

وقرأ العامة : " غدقا " بفتحتين.

وعاصم فيما يروي عنه الأعشى ، بفتح الغين وكسر الدال ، وقد تقدم أنهما لغتان.

قوله : ﴿وألو استقاموا﴾.

قال ابن الخطيب : إن قلنا : إن الضمير راجع إلى الجن ففيه قولان : أحدهما : أن المعنى لو ثبت أبوهم على بعادته وسجد لآدم ، ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم كقوله تعالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السمآء والأرض﴾ [الأعراف : ٩٦] الآية ، ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ومآ أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم﴾ [المائدة : ٦٦] الآية ، وقوله : ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ [الطلاق : ٢].

وقوله : ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السمآء عليكم مدرارا﴾ [نوح : ١٠ – ١١] ، إلى قوله : ﴿ويمددكم بأموال وبنين﴾ [نوح : ١٢] الآية.

وإنما ذكر الماء كناية عن طيب العيش وكثرة **المنافع** وهذا هو اللائق بالجن لا الماء المشروب.

الثاني : أن المعنى لو استقام الجن أي الذين سمعوا القرآن على طريقتهم التي كانوا عليها ، ولم ينتقلوا عن الإسلام لوسعنا عليهم الدنيا كقوله : ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة﴾ [الزخرف : ٣٣] الآية.

٤٢٨

والقول الأول : اختيار الزجاج ، قال : لأنه تعالى ذكر الطريقة معرفة بالألف واللام فيرجع إلى الطريقة المعروفة ، وهي طريقة الهدى.

ومعنى : ﴿لنفتنهم فيه﴾ أي : لنختبرهم هل يقومون بشكرها أم لا ، وإن قلنا : إن الضمير يعود على الإنس فال ا حتمالان كما هما.

قوله : ﴿لنفتنهم فيه﴾ ، دليل على أنه تبارك وتعالى يضل عباده.

وأجاب المعتزلة ، بأن الفتنة هي الاختبار ، كما يقال : فتنت الذهب بالنار لا خلق الضلالة.

واستدلت المعتزلة بقوله تعالى ﴿لنفتنهم فيه﴾ على أنه تعالى إنما يفعل لغرض.

وأجيبوا : بأن الفتنة بالاتفاق ليست مقصودة فدلت هذه الآية على أن اللام ليست للغرض في حق الله تبارك وتعالى.

فصل في التحذير من الدنيا روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أخوف ما أخاف عيكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا " قالوا : وما زهر الدنيا ؟ .

قال : " بركات الأرض ".

وذكر الحديث " وقال - عليه الصلاة والسلام - : " فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى عليكم أن يبسط الله عليكم الدنيا فتنافسوا فيها كما تنافس فيها من كان قبلكم ، فيهلككم كما أهلكهم " قوله : ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه﴾ ، أي : عن عبادته ، أو عن مواعظته ، أو عن وحيه.

وقال ابن زيد : يعني القرآن ، وفي إعراضه وجهان : الأول : عن القبول إن قيل إنها في الكفار والثاني عن العمل ، إن قيل إنها في أهل الإيمان.

وقيل : ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه﴾ ، أي : لم يشكره.

قوله : ﴿يسلكه عذابا صعدا﴾.

قرأ الكوفيون : " يسلكه " - بياء الغيبة - لإعادة الضمير على الله تعالى ، وباقي السبعة : بنون العظمة على الالتفات.

وهذا كما تقدم في قوله تعالى : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا﴾ [الإسراء : ١] ، ثم قال : ﴿الذي باركنا حوله لنريه من آياتنآ﴾ [الإسراء : ١].

٤٢٩

وقرأ مسلم بن جندب : " نسلكه " بنون العظمة مضمومة من " أسلكه ".

وبعضهم : بالياء من تحت مضمومة ، وهما لغتان ، يقال : سلكه وأسلكه.

وأنشد : [البسيط]

٤٩١١ – حتى إذا أسلكوهم في قتائدة

". (١)

"وثالثها : قال القاضي هذا من التشبيه العجيب لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقا يكون أحسن في المنظر لوقوع شعاع بعضه على البعض فيكون مخالفا للمجتمع منه.

واعلم أنه تعالى لما ذكر تفصيل أحوال أهل الجنة ، أتبعه بما يدل على أن هناك أمورا أعلى وأعظم من هذا القدر المذكور فقال ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا﴾.

فصل اعلم أن اللذات الدنيوية محصورة في أمور ثلاثة : قضاء الشهوة ، وإمضاء الغضب ، واللذة الخيالية التي يعبر عنها بحب المال والجاه ، وكل ذلك مستحقر فإن الحيوانات الخسيسة قد تشارك الإنسان في واحد منها ، فالملك الكبير الذي ذكره الله ههنا لا بد وأن يكون مغايرا لتلك اللذات الحقيرة ، وما هو إلا أن تصير نفسه منتشقة بقدس الملكوت متحلية بجلال حضرة اللاهوت ، وأما ما هو على أصول المتكلمين ، فالوجه فيه أيضا أنه الثواب والمنفعة المقرونة بالتعظيم فبين الله تعالى في الآيات المتقدمة تفصيل تلك **المنافع** وبين في هذه الآية حصول التعظيم وهو أن كل واحد منهم يكون كالملك العظيم ، وأما المفسرون فمنهم من حمل هذا الملك الكبير على أن هناك منافع أزيد مما تقدم ذكره ، قال ابن عباس لا يقدر واصف يصف حسنه ولا طيبه.

ويقال إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه ؟ وقيل لا زوال له وقيل إذ أرادوا شيئا حصل ، ومنهم من حمله على التعظيم ، فقال الكلبي هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله وهو في منزله فيستأذن عليه ، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين إلا بعد الاستئذان.

فصل قال بعضهم قوله ﴿وإذا رأيت﴾ خطاب لمحمد خاصة ، والدليل عليه أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن دخلت الجنة أترى عيناي ما ترى عيناك ؟ فقال نعم ، فبكى حتى مات ، وقال آخرون بل هو خطاب لكل أحد.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٥٠٦٨

قوله : ﴿عاليهم﴾.
قرأ نافع وحمزة : بسكون الياء وكسر الهاء ، والباقون : بفتح الياء وضم الهاء ، لما سكنت الياء كسر الهاء ، ولما تحركت ضمت على ما تقدم في أول الكتاب.
فأما قراءة نافع وحمزة ، ففيها أوجه :
٤١
أظهرها : أن يكون خبرا مقدما ، و " ثياب " مبتدأ مؤخر.
والثاني : أن " عاليهم " مبتدأ ، و " ثياب " مرفوع على جهة الفاعلية ، وإن لم يعتمد الوصف ، وهذا قول الأخفش.
والثالث : أن " عاليهم " منصوب ، وإنما سكن تخفيفا.
قاله أبو البقاء.
وإذا كان منصوبا فسيأتي فيه أوجه ، وهي واردة هنا ، إلا أن تقدير الفتحة من المنقوص لا يجوز إلا في ضرورة أو شذوذ ، وهذه القراءة متواترة ، فلا ينبغي أن يقال به فيها ، وأما قراءة من نصب ، ففيه أوجه :
أحدها : أنه ظرف خبر مقدم ، و " ثياب " مبتدأ مؤخر ، كأنه قيل : فوقهم ثياب.
قال أبو البقاء : لأن عاليهم بمعنى فوقهم.
قال ابن عطية : يجوز في النصب أن يكون على الظرف ؛ لأنه بمعنى فوقهم.
قال أبو حيان : وعال وعالية اسم فاعل فيحتاج في إثبات كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولا من كلام العرب : " عاليك أو عاليتك ثوب ".
قال شهاب الدين : قد وردت ألفاظه من صيغة أسماء الفاعلين ظروفا ، نحو خارج الدار ، وداخلها وظاهرها ، وباطنها ، تقول : جلست خارج الدار ، وكذلك البواقي ، فكذلك هنا.
الثاني : أنه حال من الضمير في " عليهم ".
الثالث : أنه حال من مفعول " حسبتهم ".
الرابع : أنه حال من مضاف مقدر ، أي : رأيت أهل نعيم وملك كبير عاليهم ، ف " عاليهم " حال من " أهل " المقدر ، ذكر هذه الأوجه الثلاثة : الزمخشري ، فإنه قال : " وعاليهم " بالنصب على أنه حال من الضمير في " يطوف عليهم " أو في " حسبتهم " أي : يطوف عليهم ولدان عاليا للمطوف علي٥م ثياب ، أو حسبتهم لؤلؤا عاليا لهم ثياب ، ويجوز أن يراد : رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب.

قال أبو حيان : أما أم يكون حالا من الضمير في " حسبتهم " ، فإنه لا يعني إلا ضمير المفعول ، وهو لا يعود إلا على " ولدان " ، وهذا لا يصح ؛ لأن الضمائر الآتية بعد ذلك تدل على أنها للمعطوف عليهم من قوله تعالى ﴿وحلوا اا﴾ ، ﴿وسقاهم﴾ و ﴿إن هذا كان لكم جزآء﴾ وفلك الضمائر يجعل كذا وذلك كذا مع عدم الاحتياج إلى ذلك ، والاضطرار إلى ذلك لا يجوز ، وأما جعله حالا من محذوف ، وتقديره : أهل نعيم ، فلا

٤٢

." (١)

"وعن بعض الحكماء : أنه حدث عن البعير ، وبديع خلقه ، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها ، ففكر ، ثم قال : يوشك أن تكون طوال الأعناق.

قال ابن الخطيب : الإبل لها خواص ، منها انه - تعالى - جعل الحيوان الذي يقتني أنواعا ، فتارة يقتنى ليؤكل لحمه ، وتارة ليشرب لبنه ، وتارة ليحمل الناس في الأسفار ، وتارة لنقل المتاع من بلد إلى بلد ، وتارة للزينة والجمال ، وهذه **المنافع** بأسرها حاصلة في الإبل ، ثم إنها فاقت في كل خصلة من هذه الخصال غيرها من الحيوان المختص ببعضها ، مع صبرها على العطش ، وقطع المفاوز بالأحمال الثقيلة ، وقناعتها في العلف بنبات البر ، ولقد ضللنا الطريق في مفازة ، فقدموا جملا واتبعوه ، فهداهم للطريق بعد زمان طويل ، مع كثرة المعاطف التلول ، فانظر كيف ثبت واهتدى على ما عجزت عنه ذوو العقول.

ومنها : أنه في غاية القوة والصبر على العمل.

ومنها : أنها مع كونها كذلك منقادة للصب الصغير.

ومنها : أنها تحمل وهي باركة ، ثم تقوم بحملها ، وهذه الصفات توجب على العاقل أن ينظر في خلقها وتركيبها ، ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم جلت قدرته.

فصل قال قتادة ومقاتل وغيرهما : لما ذكر الله - تعالى - السرر المرفوعة ، قالوا : كيف نصعدها ؟ فأنزل الله هذه الآية ، وبين أن الإبل " تبرك " حتى يحمل عليها ، ثم تقوم ، فكذلك تلك السرر تتطامن ، ثم يرتفع.

وقال المبرد : الإبل هنا : القطع العظيمة من السحاب.

وقال الثعلبي : ولم أجد لذلك أصلا في كتب الأئمة.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٥١٥٣

قال القرطبي : قد ذكره الأصمعي أبو سعيد بن عبد الملك بن قريب ، قال أبو عمرو : من قرأها : ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ بالتخفيف ، عنى بها : البعير ؛ لأنها من ذوات الأربع ، يبرك ، فتحمل عليه الحمولة ، وغيره من ذوات الأربع ، لا يحمل عليه إلا وهو قائم ، ومن قرأه‌ا بالتثقيل فقال : " الإبل " عنى بها السحاب التي تحمل الماء والمطر.

وقال الماوردي : وفي الإبل وجهان : أظهرهما : أنها " الإبل ".

٣٠٠

والثاني : أنها " السحاب " فإن كان المراد بها السحاب ، فلما فيها من الآيات الدالة على قدرته ، **والمنافع** العامة لجميع خلقه.

وإن كان المراد بها الإبل من النعم ؛ فلأن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوان ؛ لأن ضروبه أربعة : حلوبة ، وركوبة ، وأكولة ، وحمولة ، والإبل تجمع هذه الخلال الأربع ، فكانت النعمة بها أعم ، ولا يركب ظهره ، ولا يحلب دره.

فصل في الكلام على الإبل الإبل : اسم جمع ، واحده : بعير ، وناقة ، وجمل ، ولا واحد لها من لفظها ، وهو مؤنث ، ولذلك تدخل عليه تاء التأنيث تصغيره ، فيقال : أبيلة.

قال القرطبي : لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الادميين ، فالتأنيث لها لازم ، وربما قالوا للإبل : إبل – بسكون الباء – للتخفيف ، والجمع : آبال واشتقوا من لفظه ، فقالوا : تأبل زيد ، أي كثرت إبله.

وتعجبوا من هذا ، فقالوا : ما آبله! أي : ما أكثر إبله! وتقدم في سورة " الأنعام ".

قوله : "كيف " : منصوب بـ " خلقت " على حد نصبها في قوله تعالى : ﴿كيف تكفرون﴾ ، والجملة بدل من " الإبل " بدل اشتمال ، فتكون في محل جر ، وهي في الحقيقة معلقة بالنظر ، وقد دخلت " إلى " على "كيف " في قولهم : " انظر إلى كيف تصنع " ، وقد تبدل الجملة المشتملة على استفهام من اسم ليس فيه استفهام ، كقولهم : " عرفت زيدا أبو من هو " على خلاف بين النحويين.

وقرأ العامة : " خلقت ، ورفعت ، ونصبت ، وسطحت " مبنيا للمفعول ، والتاء ساكنة للتأنيث.

وقرأ أمير المؤمنين ، وابن أبي عبلة ، وأبو حيوة ، قال القرطبي : وابن السميفع وأبو العالية : " خلقت " وما بعده بتاء المتكلم ، مبنيا للفاعل.

والعامة على : " سطحت " مخففا.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو رجاء : " سطحت " بتشديد الطاء وإسكان التاء.

٣٠١
". (١)

"وقال الكلبي : يعني الحليم عن جهل العباد ، فلم يعجل بعقوبتهم ، [وقيل : اقرأ لنفسك ، والثاني للتبليغ ، والأول للتعميم من جبريل عليه السلام ، والثاني للتعليم واقرأ في صلاتك.

وقيل : اقرأ وربك ، أي : اقرأ يا محمد وربك يغنيك ويفهمك ، وإن كنت غير قارئ].

[والأول أشبه بالمعنى ، لأنه لما ذكر تقدم من نعمة ، دل على كرمه].

قوله : ﴿الذى علم بالقلم﴾ ، يعني : الخط والكتابة ، أي : علم الإنسان الخط بالقلم.

قال قتادة : العلم نعمة من الله عظيمة ، ولولا ذلك لم يقم دين ، ولم يصلح عيش ، فدل على كمال كرمه تعالى ، بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على فضل الكتابة لما فيه من **المنافع** العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة.

وسمي القلم ، لأنه يقلم ومنه تقليم الظفر ، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا.

" وروى عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال : يا رسول الله أكتب ما أسمع منك من الحديث ؟ قال : نعم ، فاكتب ، فإن الله علم بالقلم ".

ويروى مجاهد عن ابن عمر – رضي الله عنه – قال : خلق الله تعالى أربعة أشياء بيده ، ثم قال تعالى لسائر الحيوان : كن فكان : القلم ، والعرش ، وجنة عدن ، وآدم عليه الصلاة والسلام.

من علمه بالقلم ؟ ثلاثة أقوال : أحدها : قال كعب الأحبار : أول من كتب بالقلم آدم عليه السلام.

وثانيهما : قول الضحاك : أول ما كتب إدريس عليه الصلاة والسلام.

والثالث : أنه جميع من كتب بالقلم ، لأنه ما علم إلا بتعليم الله تعالى.

٤١٥

قال القرطبي : الأقلام ثلاثة في الأصل.

الأول : الذي خلقه الله تعالى بيده ، وأمره أن يكتب.

والقلم الثاني : قلم الملائكة الذي يكتبون به المقاديـر ، والكوائن والأعمال.

والقلم الثالث : أقلام الناس ، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها كلامهم ، ويصلون بها مآربهم.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٥٢٦٤

وروى عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تسكنوا نساءكم الغرف ولا تعلموهن الكتابة ".

قال بعض العلماء : وإنما حذرهم النبي صلى الله عليه وسلم لأن في إسكانهم الغرف تطلعا على الرجال ، وليس في ذلك تحصن لهن ولا تستر ، وذلك لأنهن لا يملكن أنفسهن ، حتى يشرفن على الرجال ، فتحدث الفتنة والبلاء ، فحذرهم ان يجعلوا لهن غرفا ذريعة إلى الفتنة.

وهو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس للنساء خير لهن من ألا يراهن الرجال ، ولا يرون الرجال ".

وذلك أنها خلقت من الرجل فنهمتها في الرجل ، والرجل خلقت فيه الشهوة ، وجعلت سكنا له ، فكل واحد منهما غير مأمون على صاحبه ، وكذلك تعليم الكتابة ، ربما كانت سببا في الفتنة ، لأنها إذا علمت الكتابة كتب إلى من تهوى ؛ فالكتابة عين من العيون بهما يبصر الشاهد الغائب ، والخط آثار يده ، وفيه تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان ، فهي أبلغ من اللسان ، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع عنهن أسباب الفتنة تحصينا لهن ، وطهارة لقلوبهن.

قوله تعالى : ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

قيل : الإنسان هنا آدم – عليه الصلاة والسلام – علمه أسماء كل شيء ، وقال تعالى : ﴿وعلم آدم الأسمآء كلها﴾ [البقرة : ٣١].

وقيل : الإنسان – هنا – محمد صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ [النساء : ١١٣].

وقيل : عام ، لقوله تعالى : ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا﴾

٤١٦

[النحل : ٧٨] ، لأنه تعالى بين أنه خلقه من نطفة ، وأنعم عليه بالنعم المذكورة ، ثم ذكر أنه إذا زاد عليه في النعمة فإنه يطغى ، ويتجاوز الحد في المعاصي ، واتباع هوى النفس ، وذلك وعيد وزجر عن هذه الطريقة.

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٤١٢

." (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٥٣١١

"الثالث من أوجه النصب : أن يكون منصوبا بفعل مقدر ، أي : يضبح ضبحا ، وهذا الفعل حال من " العاديات ".

الرابع : أنه منصوب بـ " العاديات " ، وإن كان المراد به الصوت.

قال الزمخشري : "كأنه قيل : والضابحات ، لأن الضبح يكون مع العدو ".

قال أبو حيان : " وإذا كان الضبح مع العدو ، فلا يكون معنى والعاديات معنى الضابحات فلا ينبغي أن يفسر به " انتهى.

قال شهاب الدين : لم يقل الزمخشري إنه بمعناه ، إنما جعله منصوبا ، لأنه لازم لا يفارقه ، فكأنه لفوظ به.

وقوله : كأنه قيل ؛ تفسير التلازم لا أنه هو هو.

فصل في هذا القسم قال ابن العربي : أقسم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿يسا والقرآن الحكيم﴾ [يس : ١ ، ٢] ، وأفسم بحياته فقال : ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر : ٧٢] ، وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها ، وقدح حوافرها النار من الحجر ، فقال : ﴿والعاديات ضبحا﴾.

وقال الشعبي : تمارى علي وابن عباس في " العاديات " فقال علي : هي الإبل تعدو في الحج.

وقال ابن عباس : هي الخيل ، ألا تراه يقول : " فأثرن به نقعا " فهل تثير إلا للمقداد ، وفرس لمرثد بن أبي مرثد.

وعلى هذا فالقول : ﴿فالموريات قدحا﴾ أي : الحافر يرمي بالحجر من شدة العدو ، فيضرب به حجارة أخرى فتوري النار ، أو يكون المعنى : الذين يركبون الإبل ، وهم الحجيج إذا أوقدوا نيرانهم بـ " المزدلفة " ، وقوله تعالى : ﴿فالمغيرات صبحا﴾ ، والإغارة : سرعة السير ، وهم يدفعون صبيحة يوم النحر مسرعين إلى " منى ".

﴿فوسطن به جمعا﴾ يعني " مزدلفة " ، لأنها تسمى بجمع ، لاجتماع الحاج بها ، وعلى هذا التقدير ، فوجه القسم بها ما تقدم ذكره من **المنافع** الكثيرة في قوله تعالى : ﴿أفلا ينظرون إلى ال إ ِبل كيف خلقت﴾ [الغاشية : ١٧].

٤٥٦

وأيضا : الغرض بذكر إبل الحج : الترغيب في الحج ، فإن الكنود : هو الكفور ، والذي لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك ، كما في قوله تعالى : ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن

كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ [آل عمران : ٩٧].

ومن قال : هي الخيل ، وهو قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك وعطاء وأكثر المحققين ، قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى أناس من بني كنانة ، فأبطأ عليه خبرها ، وكان استعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصاري ، وكان أحد النقباء ، فقال المنافقون : إنهم قتلوا فنزلت هذه السورة إخبارا للنبي صلى الله عليه وسلم بسلامتها ، وبشارة له بإغارتها على القوم ، فالمراد : الخيل التي يغزو عليها المؤمنون.

وفي الخبر : " من لم يعرف حرمة فرس ا لغازي ، ففيه شعبة من " النفاق " ، وعلى هذا القول ، فالسورة مدنية ، لأن الإذن في القتال إنما كان بـ " المدينة ".

قوله : ﴿فالموريات قدحا﴾ ، قال عكرمة وعطاء والضحاك : هي الخيل حين توري النار بحوافرها وهي سنابكها.

و " قدحا " يجوز أن يكون مصدرا مؤكدا ؛ لأن الإيراء من القدح ، يقال : قدح فأورى ، وقدح فأصلد.

ويجوز أن يكون حالا ، فالمعنى : " قادحات " ، أي : ضابحات بحوافرها ما توري النار ، ويقال : قدحت الحجر بالحجر ، أي : صككته به.

وقال الزمخشري : انتصب " قدحا " بما انتصب به " ضبحا " وكأنه جوز في نصبه ثلاثة أوجه : النصب بإضمار فعله ، والنصب باسم الفاعل قبله لأنه ملازمة ، والنصب على الحال ، وتسمى تلك النار التي تخرج من الحوافر : نار الحباحب.

قال : [الطويل] ٥٢٧١ - تقد السوقي المضاعف نسجه

وتوقد بالصفاح نار الحب ا حب

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٤٥٤

فصل في معنى الموريات روي عن ابن عباس : - رضي الله عنه - أورت بحوافرها غبارا ، وهذا يخالف سائر

٤٥٧

." (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٥٣٢٩

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ [البقرة: ١٣] قال أبو جعفر: والسفهاء جمع سفيه، كالعلماء جمع عليم، والحكماء جمع حكيم والسفيه: الجاهل الضعيف الرأي، القليل المعرفة بمواضع **المنافع** والمضار ولذلك سمى الله عز وجل النساء والصبيان سفهاء، فقال تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما﴾ [النساء: ٥] فقال عامة أهل التأويل: هم النساء والصبيان لضعف آرائهم، وقلة معرفتهم بمواضع المصالح والمضار التي." (١)

"ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: «ﷺ**المنافع** هاهنا ما يصيبون من الجزور»." (٢)

"حدثت عن عمار، قال: ثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع: " ﴿ﷺومنافع -[٦٨٠]- للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ [البقرة: ٢١٩] ينزل **المنافع** قبل التحريم، والإثم بعدما حرم "." (٣)

"ولكم في حوائجكم ويتصرفون بها في منافعكم. ﴿أم لهم أيد يبطشون بها﴾ [الأعراف: ١٩٥] فيدفعون عنكم وينصرونكم بها عند قصد من يقصدكم بشر ومكروه. ﴿أم لهم أعين يبصرون بها﴾ [الأعراف: ١٩٥] فيعرفوكم ما عاينوا وأبصروا مما تغيبون عنه فلا ترونه. ﴿أم لهم آذان يسمعون بها﴾ [الأعراف: ١٩٥] فيخبروكم بما سمعوا دونكم مما لم تسمعوه؟ يقول جل ثناؤه: فإن كانت آلهتكم التي تعبدونها ليس فيها شيء من هذه الآلات التي ذكرتها، والمعظم من الأشياء إنما يعظم لما يرجى منه من **المنافع** التي توصل إليه بعض هذه المعاني عندكم، فما وجه عبادتكم أصنامكم التي تعبدونها، وهي خالية من كل هذه الأشياء التي بها يوصل إلى اجتلاب النفع ودفع الضر؟ وقوله: ﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون﴾ [الأعراف: ١٩٥] أنتم وهن. ﴿فلا تنظرون﴾ [الأعراف: ١٩٥] يقول: فلا تؤخرون بالكيد والمكر، ولكن عجلوا بذلك. يعلمه جل ثناؤه بذلك أنهم لم يضروه، وأنه قد عصمه منهم، ويعرف الكفرة به عجز أوثانهم عن نصرة من بغى أولياءهم بسوء." (٤)

"ﷺوقوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ [يوسف: ٢٠] يقول تعالى ذكره: وكان إخوة -[٦٠]- يوسف في يوسف من الزاهدين، لا يعلمون كرامته عند الله، ولا يعرفون منزلته عنده، فهم مع ذلك يحبون

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٠٢/١

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦٧٧/٣

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦٧٩/٣

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦٣٦/١٠

أن يحولوا بينه وبين والده ليخلو لهم وجهه منه، ويقطعوه عن القرب منه لتكون **المنافع** التي كانت مصروفة إلى يوسف دونهم مصروفة إليهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك:." (١)

"حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله: " ﴿ﷺوالأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون﴾ [النحل: ٥] يعني بالدفء: الثياب، **والمنافع**: ما ينتفعون به من الأطعمة والأشربة "." (٢)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون﴾ [النحل: ٨] يقول تعالى ذكره: وخلق الخيل والبغال والحمير لكم أيضا ﴿لتركبوها وزينة﴾ [النحل: ٨] يقول: وجعلها لكم زينة تتزينون بها مع **المنافع** التي فيها لكم، للركوب وغير ذلك، ونصب الخيل والبغال عطفا على الهاء والألف في قوله: ﴿خلقها﴾ [النحل: ٥] ونصب الزينة بفعل مضمر على ما بينت، ولو لم يكن معها واو وكان الكلام: «لتركبوها زينة» كانت منصوبة بالفعل الذي قبلها الذي هي به متصلة، ولكن دخول الواو آذنت بأن معها ضمير فعل وبانقطاعها عن الفعل الذي قبلها. -[١٧٣]- وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل." (٣)

"ﷺوقوله: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ [الحج: ٢٨] اختلف أهل التأويل في معنى **المنافع** التي ذكرها الله في هذا الموضع ، فقال بعضهم: هي التجارة ومنافع الدنيا." (٤)

"حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني أبو تميلة، عن أبي حمزة، عن جابر، قال: قال محمد بن علي: «ﷺمغفرة» وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: عنى بذلك: ليشهدوا منافع لهم من العمل الذي يرضي الله والتجارة؛ وذلك أن الله عم لهم منافع جميع ما يشهد له الموسم ، ويأتي له مكة أيام الموسم من منافع الدنيا والآخرة، ولم يخصص من ذلك شيئا من منافعهم بخبر ولا عقل، فذلك على العموم في **المنافع** التي وصفت." (٥)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ [الحج: ٣٣] اختلف أهل التأويل في معنى **المنافع** التي ذكر الله في هذه الآية ، وأخبر عباده أنها إلى

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٣/٥٩

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٤/١٦٦

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٤/١٧٢

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٦/٥١٩

(٥) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٦/٥٢٢

أجل مسمى، على نحو اختلافهم في معنى الشعائر التي ذكرها جل ثناؤه في قوله: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ [الحج: ٣٢] فقال الذين قالوا عنى بالشعائر البدن: معنى ذلك: لكم أيها الناس في البدن منافع. ثم اختلف أيضا الذين قالوا هذه المقالة في الحال التي لهم فيها منافع، وفي الأجل الذي قال عز ذكره: ﴿إلى أجل مسمى﴾ [البقرة: ٢٨٢] فقال بعضهم: الحال التي أخبر الله جل ثناؤه أن لهم فيها منافع، هي الحال التي لم يوجبها صاحبها ، ولم يسمها بدنة ، ولم يقلدها. قالوا: ومنافعها في هذه الحال: شرب ألبانها، وركوب ظهورها، وما يرزقهم الله من نتاجها وأولادها. قالوا: والأجل المسمى الذي أخبر جل ثناؤه أن ذلك لعباده المؤمنين منها إليها، هو إلى إيجابهم إياها، فإذا أوجبوها بطل ذلك ، ولم يكن لهم من ذلك شيء." (١)

"حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، قال: قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ [الحج: ٣٣] قال: " ﷺإلى أن تنحر ، قال: له أن يحمل عليها المعيي ، والمنقطع به من الضرورة، كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بالبدنة إذا احتاج إليها سيدها أن يحمل عليها ، ويركب عند منهوكه " قلت لعطاء: ما؟ قال: «الرجل الراجل، والمنقطع به، والمتبع وإن نتجت، أن يحمل عليها ولدها، ولا يشرب من لبنها إلا فضلا عن ولدها، فإن كان في لبنها فضل فليشرب من أهداها ومن لم يهدها» وأما الذين قالوا: معنى الشعائر في قوله: ﴿ومن يعظم شعائر الله﴾ [الحج: ٣٢] . شعائر الحج، وهي الأماكن التي ينسك عندها لله، فإنهم اختلفوا أيضا في معنى **المنافع** التي قال الله: ﴿لكم فيها منافع﴾ [الحج: ٣٣] فقال بعضهم: معنى ذلك: لكم في هذه الشعائر التي تعظمونها منافع بتجارتكم عندها ، وبيوعكم ، وشرائكم بحضرتها ، -[٥٤٦]- وتسوقكم. والأجل المسمى: الخروج من الشعائر إلى غيرها ، ومن المواضع التي ينسك عندها إلى ما سواها في قول بعضهم." (٢)

"حدثني محمد بن المثنى، قال: ثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا داود بن أبي هند، عن محمد بن أبي موسى، قوله: ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ [الحج: ٣٣] قال: " ﷺوالأجل المسمى: الخروج منه إلى غيره " وقال آخرون منهم: **المنافع** التي ذكرها الله في هذا الموضع: العمل لله بما أمر من مناسك الحج. قالوا: والأجل المسمى: هو انقضاء أيام الحج التي ينسك لله فيهن." (٣)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٤٢/١٦

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٤٥/١٦

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٤٦/١٦

"ذكر من قال ذلك: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، " ﷺفي قوله: ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ [الحج: ٣٣] فقرأ قول الله: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ [الحج: ٣٢] لكم في تلك الشعائر منافع إلى أجل مسمى، إذا ذهبت تلك الأيام لم تر أحدا يأتي عرفة يقف فيها يبتغي الأجر، ولا المزدلفة، ولا رمي الجمار، وقد ضربوا من البلدان لهذه الأيام التي فيها **المنافع**، وإنما منافعها إلى تلك الأيام، وهي الأجل المسمى، ثم محلها حين تنقضي تلك الأيام إلى البيت العتيق " -[٥٤٧]- قال أبو جعفر: وقد دللنا قبل على أن قول الله تعالى ذكره: ﴿ومن يعظم شعائر الله﴾ [الحج: ٣٢] معني به: كل ما كان من عمل أو مكان جعله الله علما لمناسك حج خلقه، إذ لم يخصص من ذلك جل ثناؤه شيئا في خبر ولا عقل وإذ كان ذلك كذلك ، فمعلوم أن معنى قوله: ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ [الحج: ٣٣] : في هذه الشعائر منافع إلى أجل مسمى، فما كان من هذه الشعائر بدنا وهديا، فمنافعها لكم من حين تملكون ، إلى أن أوجبتموها هدايا وبدنا، وما كان منها أماكن ينسك لله عندها، فمنافعها التجارة لله عندها ، والعمل بما أمر به إلى الشخوص عنها، وما كان منها أوقاتا بأن يطاع الله فيها بعمل أعمال الحج ، وبطلب المعاش فيها بالتجارة، إلى أن يطاف بالبيت في بعض، أو يوافى الحرم في بعض ، ويخرج عن الحرم في بعض. وقد اختلف الذين ذكرنا اختلافهم في تأويل قوله: ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ [الحج: ٣٣] في تأويل قوله: ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ [الحج: ٣٣] فقال الذين قالوا: عني بالشعائر في هذا الموضع البدن: معنى ذلك: ثم محل البدن إلى أن تبلغ مكة، وهي التي بها البيت العتيق." (١)

"يقول تعالى ذكره: ﴿ألم تروا﴾ [لقمان: ٢٠] أيها الناس ﴿أن الله سخر لكم ما في السموات﴾ من شمس وقمر ونجم وسحاب ﴿وما في الأرض﴾ [البقرة: ٢٥٥] من دابة، وشجر، وماء، وبحر، وفلك، وغير ذلك من **المنافع**، يجري ذلك كله لمنافعكم، ومصالحكم، لغذائكم، وأقواتكم، وأرزاقكم، وملاذكم، تتمتعون ببعض ذلك كله، وتنتفعون بجميعه، ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ [لقمان: ٢٠] واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأه بعض المكيين وعامة الكوفيين: (وأسبغ عليكم نعمة) على الواحدة، ووجهوا معناها إلى أنه الإسلام، أو إلى أنها شهادة أن لا إله إلا الله. وقرأته عامة قراء المدينة والبصرة: ﴿نعمه﴾ [لقمان: ٢٠] ، على الجماع، ووجهوا معنى ذلك، إلى أنها النعم التي سخرها الله للعباد مما في السماوات والأرض، واستشهدوا لصحة قراءتهم ذلك كذلك بقوله: ﴿شاكرا لأنعمه﴾ [النحل: ١٢١] قالوا: فهذا جمع

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٤٦/١٦

النعم. والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان مشهورتان في قراء الأمصار متقاربتا المعنى، وذلك أن النعمة قد تكون بمعنى الواحدة، ومعنى الجماع، وقد يدخل في الجماع الواحدة. وقد قال جل ثناؤه ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [النحل: ١٨] فمعلوم أنه لم يعن بذلك نعمة واحدة. وقال في موضع آخر: ﴿ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه﴾ [النحل: ١٢١] ، فجمعها، فبأي القراءتين قرأ القارئ ذلك فمصيب.." (١)

"حدثنا أبو كريب، قال: ثنا وكيع، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، قال: " ﷺالماعون: بلسان قريش: المال " وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، إذ كان الماعون هو ما وصفنا قبل، وكان الله قد أخبر عن هؤلاء القوم، وأنهم يمنعونه الناس، خبرا عاما، من غير أن يخص من ذلك شيئا، أن يقال: إن الله وصفهم بأنهم يمنعون الناس ما يتعاورونه بينهم، ويمنعون أهل الحاجة والمسكنة ما أوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق، لأن كل ذلك من **المنافع** التي ينتفع بها الناس بعضهم من بعض." (٢)

"ولهت نفسي الطروب إليهم ... ولها حال دون طعم الطعام «١»

فكأنه سمي بذلك لأن القلوب توله لمحبته وتضطرب وتشتاق عند ذكره.

وقيل: معناه: محتجب لأن العرب إذا عرفت شيئا، ثم حجب عن أبصارها سمته إلها، قال: لاهت العروس تلوه لوها، إذ حجبت.

قال الشاعر:

لاهت فما عرفت يوما بخارجة ... يا ليتها خرجت حتى رأيناها «٢»

والله تعالى هو الظاهر بالربوبية [بالدلائل والأعلام] وهو المحتجب من جهة الكيفية عن الأوهام.

وقيل: معناه المتعالي، يقال: (لاه) أي ارتفع.

وقد قيل: من [إلا هتك] ، فهو كما قال الشاعر:

تروحنا من اللعباء قصرا «٣» ... وأعجلنا الألاهة أن تؤوبا «٤»

وقيل: هو مأخوذ من قول العرب: ألهت بالمكان، إذا أقمت فيه، قال الشاعر:

ألهنا بدار ما تبين رسومها ... كأن بقاياها وشام على اليد «٥»

فكأن معناه: الدائم الثابت الباقي.

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٦٦/١٨

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦٧٨/٢٤

وقال قوم: [ان يقال] «٦» ذاته وهي قدرته على الإخضاع.
وقال الحارث بن أسد المجلسي، أبو عبد الله البغدادي: الله من (ألههم) أي أحوجهم، فالعباد مولوهون إلى بارئهم أي محتاجون إليه في **المنافع** والمضار، كالواله المضطر المغلوب.
وقال شهر بن حوشب: الله خالق كل شيء، وقال أبو بكر الوراق: هو.
وغلظ بعض بقراءة اللام من قوله: (الله) حتى طبقوا اللسان به الحنك لفخامة ذكره، وليصرف عند الابتداء بذكره وهو الرب.
الرحمن الرحيم، قال قوم: هما بمعنى واحد مثل (ندمان، ونديم) و (سلمان،

---

(١) لسان العرب: ١٣/ ٥٦١.
(٢) تفسير القرطبي: ١٧/ ١٠١.
(٣) في اللسان: عصرا.
(٤) تفسير الطبري: ٩/ ٣٥، ولسان العرب: ١/ ٢١٩.
(٥) تاج العروس: ٩/ ٣٧٥.
(٦) كذا في المخطوط.." [١]

"أودعها من العلوم مجموع في هذه السورة فهي أصل لها كالأم للطفل، وقيل: سميت بذلك لأنها أفضل سور القرآن كما أن مكة سميت أم القرى لأنها أشرف البلدان. وقيل: سميت بذلك لأنها مقدمة على سور القرآن، فهي أصل وإمام لما يتلوها من السور، كما أن أم القرى أصل جميع البلدان دحيت الأرض من تحتها. وقيل: سميت بذلك لأنها مجمع العلوم والخيرات، كما أن الدماغ يسمى أم الرأس لأنها مجمع الحواس **والمنافع**.
وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمد المفسر يقول: سمعت أبا بكر القفال يقول: سمعت أبا بكر البريدي يقول: الأم في كلام العرب: الراية ينصبها العسكر.
قال قيس بن الخطيم:
نصبنا أمنا حتى ابذعروا ... وصاروا بعد إلفتهم شلالا
فسميت أم القرآن لأن مفزع أهل الإيمان إليها كمفزع العسكر إلى الراية. والعرب تسمي الأرض أما لأن

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٩٨/١

معاد الخلق إليها في حياتهم وبعد مماتهم، قال أمية بن أبي الصلت:
والأرض معقلنا وكانت أم۪ا ... فيها مقابرنا وفيها نولد «١»
وأنشدني أبو القاسم قال: أنشدنا أبو الحسين المظفر محمد بن غالب الهمداني قال:
أنشدنا أبو بكر بن الأنباري قال: أنشدنا أبي قال: أنشدني أحمد بن عبيدة:
نأوي إلى أم لنا تعتصب ... كما ولها أنف عزيز وذنب
وحاجب ما إن نواريها الغصب ... من السحاب ترتدي وتنتقب «٢»
يعني: نصبه كما وصف لها. وسميت الفاتحة أما لهذه المعاني. وقال الحسين بن الفضل:
سميت بذلك لأنها إمام لجميع القرآن تقرأ في كل [صلاة و] «٣» تقدم على كل سورة، كما أن أم القرى إمام لأهل الإسلام. وقال ابن كيسان: سميت بذلك لأنها تامة في الفضل.
والرابع: السبع المثاني، وسيأتي تفسيره في موضعه إن شاء الله.
والخامس: الوافية،
حدثنا أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري، حدثنا أبي عن أمه عن محمد بن نافع السنجري، حدثنا أبو يزيد محبوب الشامي، حدثنا عبد الجبار بن العلاء قال:
كان يسمي سفيان بن عيي۪ة فاتحة الكتاب: الوافية، وتفسيرها لأنها لا تنصف ولا تحتمل الاجتزاء إلا أن كل سورة من سور القرآن لو قرئ نصفها في ركعة والنصف الآخر في ركعة كان جائزا، ولو نصفت الفاتحة وقرئت في ركعتين كان غير جائز.

---

(١) تفسير القرطبي: ١/ ١١٢.
(٢) لسان العرب: ١٥/ ١٦٨ باختصار.
(٣) بياض في مصورة المخطوط، والأقرب ما أثبتناه.." (١)

"وقال عقبة بن عامر: لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجعلوها في ركوعكم» [١٣٢] «١» فلما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال صلى الله عليه وسلم: «اجعلوها في سجودكم» [١٣٣] «٢» .
بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١٢٧/١

[سورة الأعلى (٨٧) : الآيات ١ الى ١٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح اسم ربك الأعلى (١) الذي خلق فسوى (٢) والذي قدر فهدى (٣) والذي أخرج المرعى (٤) فجعله غثاء أحوى (٥) سنقرئك فلا تنسى (٦) إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى (٧) ونيسرك لليسرى (٨) فذكر إن نفعت الذكرى (٩)

سيذكر من يخشى (١٠) ويتجنبها الأشقى (١١) الذي يصلى النار الكبرى (١٢) ثم لا يموت فيها ولا يحيى (١٣)

سبح اسم ربك الأعلى يعني قل: سبحان ربي الأعلى، وإلى هذا التأويل ذهب جماعة من الصحابة والتابعين، وقال قوم معناه: نزه ربك الأعلى عما يقول فيه الملحدون ويصفه به المبطلون، وجعلوا الاسم صلة، ويجوز أن يكون معناه، نزه ذات ربك عما لا يليق به، لأن الاسم والذات والنفس عبارة عن الوجود والإثبات.

وقال آخرون: نزه تسمية ربك وذكرك إياه إن تذكره إلا وأنت خاشع معظم ولذكره محترم، وجعلوا الاسم بمعنى التسمية، وقال الفراء: سواء قلت سبح اسم ربك أو سبح باسم ربك إذا أردت ذكره وتسبيحه، وقال ابن عباس: صل بأمر ربك الأعلى.

الذي خلق فسوى فعدل الخلق والذي قدر

خفف علي والسلمي والكسائي داله

، وشددها الآخرون.

فهدى: قال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة وهدى الأنعام لمراتعها، وقال مقاتل والكلبي: عرف خلقه كيف يأتي الذكر الأنثى، وعن عطاء قال:

جعل لكل دابة ما يصلحها وهذا حاله، وقيل: هدى لاكتساب الأرزاق والمعاش، وقيل: خلق **المنافع** في الأشياء وهدى الإنسان لوجه استخراجها منه، وقيل: هدى لدينه من يشاء من خلقه.

قال السدي: قدر الولد في الرحم تسعة أشهر، أقل، أو أكثر، وهدى للخروج من الرحم.

وقال الواسطي: قدر السعادة والشقاوة عليهم ثم يسر لكل واحد من الطالعين سلوك ما قدر عليه، وقيل: قدر الأرزاق فهداهم لطلبها، وقيل: قدر الذنوب على عباده ثم هداهم الى التوبة.

والذي أخرج المرعى النبات من بين أخضر وأصفر وأحمر وأبيض.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٣٢٦.

(٢) تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٣٢٦.." [١]

"وإثمهما أكبر من نفعهما قال المفسرون: إثم الخمر هو أن الرجل يشرب فيسكر فيؤذي الناس، وإثم الميسر أن يقامر الرجل فيمنع الحق ويظلم.

وقال الضحاك والربيع: المنافع قبل التحريم، والإثم بعد التحريم.

ويسئلونك ماذا ينفقون وذلك

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حثهم على الصدقة ورغبهم فيها من غير عزم قالوا: يا رسول الله ماذا ننفق؟ وعلى من نتصدق؟ فأنزل الله تعالى يسئلونك ماذا ينفقون أي شيء ينفقون وللاستفهام قل العفو قرأ الحسن وقتادة وابن أبي إسحاق وأبو عمرو قل العفو بالرفع، واختاره محمد بن السدي على معنى: الذي ينفقون هو العفو، دليله قوله: وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين «١» وقرأ الآخرون بالنصب واختاره أبو عبيد وأبو حاتم: قل ينفقون العفو «٢» .

واختلفوا في معنى العفو، فقال عبد الله بن عمرو ومحمد بن كعب وقتادة وعطاء والسدي وابن أبي ليلى: هو ما فضل من المال عن العيال، وهي رواية مقسم عن ابن عباس.

الحسن: هو أن لا تجهد مالك في النفقة ثم تقعد تسأل الناس.

الوالبي عن ابن عباس: ما لا يتبين في أموالكم.

مجاهد: صدقة عن تطهير غني.

عمرو بن دينار وعطاء: الوسط من النفقة ما لم يكن إسرافا ولا إقتارا. الضحاك: الطاقة.

العوفي عن ابن عباس: ما أتوك به من شيء قليل أو كثير فاقبله منهم.

طاوس وعطاء الخراساني: سمعنا [بشرا] قال: العفو اليسر من كل شيء.

الربيع: العفو الطيب، يقول: أفضل مالك هو النفقة.

وكلها متقاربة في المعنى، ومعنى العفو في اللغة الزيادة والكثرة قال الله: حتى عفوا أي كثروا، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أعفوا اللحى»

[١٣٠] . قال الشاعر:

ولكنا يعض السيف منا ... بأسوق عافيات الشحم كوم «٣»

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١٠/١٨٣

أي كثيرات الشحوم، والعفو ما يغمض الإنسان فيه فيأخذه أو يعطيه سهلا بلا كلف من قول العرب: عفا أي نال سهلا من غير إكراه، ونظير هذه الآية من الأخبار ما
روى أبو هريرة أن رجلا قال: يا رسول الله عندي خير، قال: «أنفقه على نفسك» قال: عندي آخر، قال: «أنفقه على أهلك» قال: عندي آخر، قال: «أنفقه على ولدك.» قال: عندي آخر، قال: «أنفقه على

---

(١) سورة الأنعام: ٢٥.

(٢) راجع تفسير القرطبي: ٣/ ٦١.

(٣) تفسير الطبري: ٢/ ٤٩٨.." [1]

"والجواب: لا أقدر على المجيء معك لما أنا فيه من الشغل، وقد قال الله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع «١» يعني القبول لاستثقالهم إياه، ومن المشتبه من [قال:] وهل يقدر الكافر على الإيمان؟ يقول: إن اراده كان قادرا عليه، فإذا قال له: فيقدر أن يريده؟ قال: إن كره الكفر، وإذا قيل له: هل يقدر على الكفر؟ قال: يقدر على ذلك إن أراد الإيمان، فكلما كرر عليه السؤال كرر هذا الجواب.
ولله ما في السماوات وما في الأرض لها مالكا.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣١ الى ١٣٥]

ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا (١٣١) ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا (١٣٢) إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا (١٣٣) من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا (١٣٤) يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا (١٣٥)
ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم يعني أهل التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة على الإسلام وإياكم يا أهل القرآن في كتابكم أن اتقوا الله أي وحدوا الله وأطيعوه ولا تشركوا به شيئا وإن تكفروا بما أوصاكم الله به فإن لله ما في السماوات وما في الأرض يعنى فإن لله ملائكة هم أطوع له منكم وكان الله

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١٥٢/٢

غنيا عن جميع خلقه غير محتاج إلى شيء مما في أيديهم.
وحقيقية الغني عند أصحاب الصفات من له غنى.
والغنى هو القدرة على ما يريد، والغني القادر على ما يريد، ثم ينظر فإن كان قادرا على [وصف] الحاجة عليه وسمناه بذلك، وإن كان الوصف بالحاجة عليه لم يصفه به، والفقر العجز عن ذلك وعدمه. وإلى هذا ذهب [المعتزلة] .
وقال الجبائي: إن معنى الوصف لله بأنه غني هو أنه لا تصل إليه **المنافع** والمضار، ولا يجوز عليه اللذات والسرور والآلام، والأول أصوب بذلك في الشاهد والغائب، وإطلاق المسلمين بعضهم لبعض إنه غني وفقير، والله اعلم.
ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا.

---

(١) سورة هود: ٢٠.." [١]

"إن ربكم لرؤف رحيم بخلقه حيث خلق لهم هذه الأشياء وهيأ لهم هذه **المنافع** والمرافق.
والخيل يعني وخلق الخيل وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والنساء والبغال والحمير لتركبوها وزينة يعني وجعلها زينة مع **المنافع** التي فيها.
واستدل بعض الفقهاء بهذه الآية على تحريم لحوم الخيل، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه سئل عن أكل لحوم الخيل فكرهها وتلا هذه الآية: والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة.
قال: هو المركوب، وقرأ التي قبلها: والأنعام خلقها الآية، وقال: هذه للأكل.
وقال: الحكم بلحوم الخيل حرام في كتاب الله، ثم قرأ هذه الآيات، وقال: جعل هذه للأكل وهذا للركوب.
وإلى هذا ذهب أبو حنيفة ومالك وغيرهما من العلماء، واحتجوا أيضا في ذلك بما
روى صالح بن يحيى بن المقدام بن معدي كرب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير» [٣] «١» .
وقال الآخرون: لا بأس بأكل لحوم الخيل، وليس في هذه الآية دليل على تحريم شيء، وإنما عرف الله عباده بهذه الآية نعمه عليهم ونبههم على حجج وحدانيته وربوبيته وكمال قدرته، وإليه ذهب الشافعي واحتج بما

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٣٩٨/٣

روى محمد بن علي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن لحوم الحمير الأهلية وأذن في لحوم الخيل.

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن جابر قال: أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني يوم خيبر- لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمر.

وروى سفيان عن عبد الكريم عن عطاء عن جابر قال: كنا نأكل لحوم الخيل، قلت:

والبغال؟ قال: لا.

هشام عن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنه) قالت: أكلنا لحم فرس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سفيان عن منصور عن إبراهيم قال: نحر أصحابنا فرسا في النخع فأكلوا منه ولم يروا به ب أسا.

ويخلق ما لا تعلمون.

---

(١) سنن النسائي: ٧/ ٢٠٢.." [١]

"وقال مجاهد: لم يجعل الإنسان في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شي فقدره تقديرا.

وقال عطية: أعطى كل شيء خلقه يعني صورته.

وقال الضحاك: أعطى كل شيء خلقه، يعني اليد للبطش والرجل للمشي واللسان للنطق والعين للبصر والأذن للسمع.

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا عبد الرحمن بن محمد الزهري قال: حدثنا أحمد ابن سعيد قال: حدثنا سعيد بن سليمان عن إسماعيل بن زكريا عن إسماعيل بن أبي صالح، أعطى كل شيء خلقه ثم هدى قال: هداه لمعيشته.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: أعطى كل شيء خلقه يعني شكله، للإنسان الزوجة وللبعير الناقة وللفرس الرمكة وللحمار الأتان ثم هدى أي عرف وعلم وألهم كيف يأتي الذكر الأنثى في النكاح «١» . وقرأ نصير خلقه بفتح اللام على الفعل.

قال فرعون فما بال القرون الأولى وإنما قال هذا فرعون لموسى حين قال موسى:

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٦/٨

إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب م ثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، فقال فرعون حينئذ له: فما بال القرون الأولى التي ذكرت؟ ف قال موسى علمها عند ربي في كتاب يعني اللوح المحفوظ، وإنما رد موسى علم ذلك إلى الله سبحانه لأنه لم يعلم ذلك، وإنما نزلت التوراة عليه بعد هلاك فرعون وقومه لا يضل ربي أي لا يخطئ ولا ينسى فيتذكر، وقال مجاهد: هما شيء واحد.

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٥٣ الى ٥٤]

الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى (٥٣) كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى (٥٤)

الذي جعل لكم الأرض مهدا قرأه أهل الكوفة بغير ألف أي فرشا، وقرأ الباقون مهادا أي فراشا واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ألم نجعل الأرض مهادا ولم يختلفوا فيه أنه بالألف.

وسلك لكم فيها سبلا أي أدخل وبين وطرق لكم فيها طرقا. وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا أصنافا من نبات شتى مختلف الألوان والطعوم **والمنافع** من بين أبيض وأحمر وأخضر وأصفر، ووهب كل صنف زوجا، ومنها للدواب ومنها للناس ثم قال كلوا وارعوا أي ارتعوا أنعامكم يقول العرب: رعيت الغنم فرعت لازم ومتعد.

إن في ذلك الذي ذكرت لآيات لأولي النهى أي لذوي العقول، واحدها نهية، سميت بذلك لأنها تنهى صاحبها عن القبائح والفضائح وارتكاب المحظورات والمحرمات.

---

(١) في نسخة أصفهان: قوله: أي عرف.... النكاح تأتي بعد قوله: على الفعل.." [١]

"أخبرني الحسين قال: حدثنا أحمد بن محمد بن إسحاق المسيبي قال: حدثنا حامد بن شعيب قال: حدثنا شريح بن يونس قال: حدثنا أبو سفيان عن معمر عن قتادة: وما علمناه الشعر قال: بلغني أن عائشة سئلت هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت:

كان الشعر أبغض الحديث إليه، قالت: ولم يتمثل بشيء من الشعر إلا ببيت أخي بني قيس طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود «١»

فجعل يقول: «من لم تزود بالأخبار» ، فقال أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله. فقال (صلى الله عليه وآله

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢٤٧/٦

وسلم) : «إني لست بشاعر، وما ينبغي لي» [٨٣] «٢» .

إن هو يعني القرآن إلا ذكر وقرآن مبين. لتنذر بالتاء [وهي قراءة] «٣» أهل المدينة والشام والبصرة إلا أبا عمرو، والباقون بالياء قال: التاء للنبي صلى الله عليه وسلم والياء للقرآن. من كان حيا أي عاقلا مؤمنا في علم الله لأن الكافر والجاهل ميت الفؤاد، ويحق القول على الكافرين. أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا يعني عملناه من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة، أنعاما فهم لها مالكون: ضابطون وقاهرون.

وذللناها لهم: سخرناها فمنها ركوبهم قرأ العامة بفتح الراء أي مركوبهم، كما يقال: ناقة حلوب، أي محلوب، وقرأ الأعمش والحسن: بضم الراء على المصدر.

أخبرني ابن فنجويه قال: حدثنا ابن حمدان قال: حدثنا ابن هامان قال: حدثنا موسى بن إسماعيل قال: حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن عروة قال: في مصحف عائشة:

(ركوبتهم) ، والركوب والركوبة واحد مثل: الحمول والحمولة. ومنها يأكلون لحمانها.

ولهم فيها منافع من أصوافها ولحومها وغير ذلك من **المنافع**. ومشارب يعني ألبانها أفلا يشكرون. واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون أي لتمنعهم من عذاب الله، ولا يكون ذلك قط.

لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون في النار لأنهم مع أوثانهم في النار فلا يدفع بعضهم عن بعض النار.

فلا يحزنك قولهم يعني تكذيبهم وأذاهم وجفاهم. تم الكلام هاهنا ثم استأنف فقال

---

(١) لسان العرب: ١٣/ ٢٥٩.

(٢) كشف الخفاء: ١/ ٤٤٨.

(٣) في المخطوط: وفي الأحقاف، والظاهر ما أثبتناه.." [١]

"بشيرا ونذيرا نعتان للقرآن فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون أي لا يسمعونه ولا يصغون إليه وقالوا يعني مشركي مكة قلوبنا في أكنة أغطية مما تدعونا إليه فلا نفقه ما يقول، قال مجاهد: كالجعبة للنبل وفي آذاننا وقر فلا نسمع ما يقول، وإنما قالوا ذلك ليؤيسوه من قبولهم لدينه وهو على التمثيل. ومن بيننا وبينك حجاب خلاف في الدين، فجعل خلافهم ذلك ساترا وحاجزا لا يجتمعون ولا يوافقون من أجله ولا يرى بعضهم بعضا. فاعمل بما يقتضيه دينك. إننا عاملون بما يقتضيه ديننا. قال مقاتل: فأعبد أنت إلهك، وإنا عابدون

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١٣٦/٨

آلهتنا.

قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد قال الحسن: علمه الله التواضع فاستقيموا إليه وجهوا وجوهكم إليه بالطاعة والإخلاص واستغفروه من ذنوبكم التي سلفت. وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة قال ابن عباس: لا يشهدون لا إله إلا الله وهي زكاة الأنفس، وقال الحسن وقتادة: لا يقرون بالزكاة ولا يؤمنون بها، ولا يرون إيتاءها واجبا، وقال الضحاك ومقاتل: لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة.

وكان يقال: الزكاة قنطرة الإسلام، فمن قطعها نجا ومن تخلف عنها هلك، وقد كان أهل الردة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا: أما الصلاة فنصلي، وأما الزكاة فو الله لا تغصب أموالنا.

وقال أبو بكر «رضي الله عنه» : والله لا أفرق بين شيء جمع الله تعالى بينه والله لو منعوني عقالا مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه.

وقال مجاهد والربيع: يعني لا يزكون أعمالهم، وقال الفراء: هو أن قريشا كانت تطعم الحاج، فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم. وهم بالآخرة هم كافرون إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون قال ابن عباس: غير مقطوع. مقاتل: غير منقوص، ومنه المنون لأنه ينقص منه الإنسان أي قوته. مجاهد: غير محسوب، وقيل: غير ممنون به. قال السدي: نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة يكتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعلمون فيه «١» .

قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين الأحد والإثنين. وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها أي في الأرض بما خلق فيها من **المنافع**، قال السدي: أنبت شجرها. وقدر فيها أقواتها قال الحسن والسدي: يعني أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم، وقال مجاهد وقتادة: وخلق فيها بحارها، وأنهارها، وأشجارها، ودوابها في يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، روى ابن نجيح عن مجاهد، قال: هو المطر.

---

(١) فتح القدير: ٤/ ٥٠٦.." (١)

"قال عكرمة والضحاك: يعنيو قدر في كل بلدة منها، ما لم يجعله في الأخرى، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد، فالسابري من سابور، والطيالسة من الري، والحبر واليمانية من اليمن، وهي رواية حصين، عن مجاهد.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢٨٦/٨

وروى حيان، عن الكلبي، قال: الخبز لأهل قطر، والتمر لأهل قطر، والذرة لأهل قطر، والسمك لأهل قطر، وكذلك أخواتها.

في أربعة أيام يعني إن هذا مع الأول أربعة أيام، كما يقول: تزوجت أمس امرأة واليوم اثنتين وأحدهما التي تزوجتها أمس، ويقال: أتيت واسط في خمسة والبصرة في عشرة، فالخمسة من جملة العشرة. فرد الله سبحانه الآخر على الأول، وأجمله في الذكر.

سواء رفعه أبو جعفر على الابتداء، أي هي سواء، وخفضه الحسن ويعقوب على نعت قوله: في أربعة أيام، ونصبه الباقون على المصدر، أي استوت استواء، وقيل: على الحال والقطع، ومعنى الآية: سواء للسائلين عن ذلك، قال قتادة والسدي: من سأله عنه. فهكذا الأمر، وقيل: للسائلين الله حوائجهم.

قال ابن زيد: قدر ذلك على قدر مسائلهم، لأنه لا يكون من مسائلهم شيء إلا قد علمه قبل أن يكون.

قال أهل المعاني: معناه سواء للسائلين وغير السائلين، يعني إنه بين أمر خلق الأرض وما فيها لمن سأل ومن لم يسأل، ويعطي من سأل ومن لم يسأل.

ثم استوى إلى السماء أي عمد إلى خلق السماء وقصد، تسويتها، والإستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال، يدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ثم استوى إلى السماء وهي دخان بخار الماء. فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها أي جيئا بما خلقت فيكما من **المنافع**، وأخرجاها، وأظهراها بمصالح خلقي. قال ابن عباس: قال الله تعالى للسماوات:

اطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وقال للأرض: شقي أنهارك واخرجي ثمارك.

قالتا أتينا طائعين ولم يقل طائعتين، لأنه ذهب به إلى السماوات والأرض ومن فيهن، مجازه: أتينا بمن فينا طائعين، فلما وصفهما بالقول أخرجهما في الجمع مجرى ما يعقل، وبلغنا أن بعض الأنبياء، قال: يا رب لو إن السماوات والأرض حين قلت لهما ائتيا طوعا أو كرها عصيناك، ما كنت صانعا بهما؟ قال: كنت آمر دابة من دوابي فتبتلعهما. قال: وأين تلك الدابة؟. قال: في مرج من مروجي. قال: وأين ذلك المرج؟ قال: في علم من علمي.

وقرأ ابن عباس: آتيا وآتينا بالمد، أي أعطينا الطاعة من أنفسكما. قالتا: أعطينا.." (١)

"كل يوم هو في شأن قال مقاتل: أنزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت شيئا، فأنزل الله سبحانه: كل يوم هو في شأن.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢٨٧/٨

أخبرني أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد إبراهيم الحوضي قال: أخبرنا أبو أحمد عبد الله ابن عدي الحافظ قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن طويط أبو القاسم البزاز قال: حدثنا إبراهيم ابن محمد بن يوسف الفريابي قال: حدثنا عمر بن بكر قال: حدثنا حارث بن عبيدة بن رياح الغساني عن أبيه عن عبدة بن أبي رياح عن مثبت بن عبد الله الأزدي عن أبيه عن عبد الله بن منيب قال: تلا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية كل يوم هو في شأن فقلنا: يا رسول الله وما ذاك الشأن؟ قال: «يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين» [١٦٨] «١» .

وحدثنا أبو بكر محمد بن احمد بن عبدوس إملاء قال: أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد ابن يحيى البزاز، قال: حدثنا يحيى بن الربيع المكي قال: حدثنا سفيان بن عيينة قال: حدثنا أبو حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إن مما خلق الله سبحانه وتعالى لوحا من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء، قلمه نور وكتابه نور، ينظر الله سبحانه فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء، فذلك قوله سبحانه كل يوم هو في شأن.

وقال مجاهد وعبيدة بن عمير: من شأنه أن يجيب داعيا ويعطي سائلا ويفك غائبا ويشفي سقيما ويغفر ذنبا ويتوب على قوم، وقال سفيان بن عيينة: الدهر كله عند الله سبحانه يومان:

أحدهما مدة أيام الدنيا والآخر يوم القيامة، والشأن الذي هو فيه اليوم الذي هو مدة الدنيا، الاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع، وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب والثواب والعقاب، وقال الحسين بن الفضل هو سوق المقادير إلى المواقيت.

ويقال: شأنه سبحانه أنه يخرج في كل يوم وليلة ثلاثة عساكر: عسكرا من أصلاب الآباء إلى الأرحام، وعسكرا من الأرحام إلى الدنيا، وعسكرا من الدنيا إلى القبور، ثم يرحلون جميعا إلى الله سبحانه، وقال الربيع بن أنس: يخلق خلقا ويميت آخرين ويرزقهم ويكلؤهم. سويد بن جبلة الفراري: يعتق رقابا ويقحم عقابا ويعطي رغابا، وقال بعضهم: هو الجمع والتفريق. أبو سليمان الداراني: هو إيصاله **المنافع** إليك، ودفعه المضار عنك. فلم نغفل عن طاعة من لا يغفل عنا؟ وقال أيضا: في هذه الآية كل يوم له إلى العبيد بر جديد.

ويحكى أن بعض الأمراء سأل وزيره عن معنى هذه الآية فلم يعرفه واستمهله إلى الغد، فرجع الوزير إلى داره كئيبا، فقال له غلام أسود من غلمانه: يا مولاي ما أصابك؟ فزجره.

(١) مجمع الزوائد: ٧/ ١١٧.." [1]

"باقية، ولو ذهبت نفس الحياة لم يبق (تمييز ولا نفس) ولا حركة. فالجملة نفس واحدة إلا أنها تنقسم في المنافع.

فصاحب هذا القول ينحو إلى أن النفس التي هي التمييز هي العقل، كأن التمييز هو العقل الذي تميز به الأشياء فهو مرتبط بالحياة، فسمي نفسا لارتباطه بالنفس والحياة.

وقيل: إن المعنى على هذا التأويل: الله يتوفى الأنفس حين موتها بإزاله أرواحها وتمييزها ويتوفى التي لم تمت في منامها بإزالة تمييزها دون حياتها، وهذا هو القول الذي قبله مختصرا.

ثم قال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾، أي: في قبض الله D نفس النائم وردها عليه، وقبضه نفس الميت ومنعها من الرد عليه، لعبرا وعظات لمن تفكر وتدبر، وبيانا أن من فعل هذا يقدر على أن يحيى الموت إذا شاء.

ثم قال تعالى ذكره وجل ثناءه: ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعآء﴾، أي اتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهتهم التي يعبدون (شفعاء) تشفع لهم عند الله.." [2]

"من الله D لخلقه على نعمه أنه جعل لهم الليل لتسكن فيه جوارحهم وتهدأ حركاتهم، وجعل النهار مبصرا ليتصرفوا في معايشهم ومنافعهم.

ولم يجعل الليل دائما فيمتنعوا من التصرف (في منافعهم) فيضيعوا، ولا جعل النهار دائما فيمتنعوا من السكون والراحة، بل دبر أحسن تدبير وأتقن أحسن غتقان.

فلا تصلح الألوهية والعبادة (إلا له) لا إله إلا هو.

ثم قال تعالى: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾، أي: لذو تفضل عليهم وإحسان بما أمتعهم به من المنافع وحسن التدبير.

﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾، أي لا يشكرونه بالطاعة وإخلاص العبادة والشكر على نعمه.

ثم قال تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾، (أي: الذي) فعل هذه النصالح لكم

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١٨٤/٩

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٦٣٤٨/١٠

وأحسن إليكم هو الله ربكم خالقكم وخالق كل شيء.

﴿لا إله إلا هو﴾، أي: لا معبود غيره تصلح له العبادة.." (١)

"وعبد الله بن سلام أنهما قالا: ابتدأ الله جل ذكره خلق الأرض يوم الأحد، فخلق سبع أرضين في يوم الأحد ويوم الإثنين، ثم جعل في الأرض رواسي، وشق الأنهار، وخلق الشجار، وجعل **المنافع** في يومين: يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، ثم استوى إلى السماء فجعلها سبع سماوات في يوم الخميس ويوم الجمعة . قال ابن عباس: ولذلك سميت يوم الجمعة لأنها اجتمع فيها الخلق.

قال ابن سلام: فقضاهن سبع سماوات وفي آخر ساعة من يوم الجمعة، ثم خلق آدم فيها على عجل وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة.

قال مجاهد: كل يوم كألف سنة مما تعدون.

قال بعض العلماء: لو أراد الله تعالى ذكره لخلقها كلها في وقت واحد، ولكنه أراد ما فيه الصلاح، وذلك لتتبين ملائكته أثر الصنعة شيئا بعد شيء فتزداد في." (٢)

"كقولك: بنيت الدار في يومين وأتمتها وفرغت من جميع إصلاحها في ثمانية أيام، فاليومان داخلان في الثمانية وبهما تمت الثمانية (لأنها) (كلها كشيء) واحد كما كانت الأرض وما فيها من مصالحا شيئا واحدا. فدخلت العدة الأولى في الثمانية.

ولو قلت: اشتريت الدار في يومين، والعبيد والثياب في أربعة أيام، لم تدخل اليومان في الأربعة لاختلاف أنواع المشترى، ولا يكون ذلك إلا ستة أيام. فاعرف الفرق.

وقوله: ﴿سوآء للسآئلين﴾ "، أي: سواء لمن سأل عن مبلغ الأجل الذي خلق الله فيه الأرض والجبال والشجر والأنهار والبحار وقدر الأقوات وغير ذلك من **المنافع**، قاله قتادة والسدي، وهو معنى قول ابن عباس.

وقيل: معناه: سواه لمن سأل ربه شيئا مما به الحاجة إليه من الأرزاق، فإن الله." (٣)

"قوله: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ إلى قوله: (والله غفور رحيم) الآيات [٢٤ - ٢٧].

أي لقد أرسلنا إلى أمم بالآيات المفصلات وأنزلنا معهم الكتاب بالأحكام والشرائع، والميزان بالعدل.

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٦٤٥٣/١٠

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٦٤٨٧/١٠

(٣) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٦٤٩٠/١٠

قال ابن زيدا (الميزان) ما يعمل به، ويتعاطون عليه في الدنيا من معائشهم في أخذهم وإعطائهم، فالكتاب فيه شرائع دينهم وأمر أخراهم، والميزان فيه تناصفهم في دنياهم.

﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ أي: ليعمل الناس بينهم بالعدل.

ثم قال: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ أي: قوة شديدة.

﴿ومنافع للناس﴾ أي: وفيه منافع للناس، وذلك ما ينتفعون به عند لقائهم العدو وغير ذلك من **المنافع** مثل السكين والقدوم.

قال ابن زيد البأس الشديد: السيوف والسلاح التي يقاتل بها الناس **والمنافع**." [١]

"﴿بل هم أضل﴾.

يعني أن البهائم لا تمييز لها، يلزمها نقص في جهل. وهؤلاء لهم تمييز، فالنقص له لازم في جهلهم. فهم أشد نقصا في الجهل من البهائم. والبهائم مع عدم تمييزها تطلب لأنفسها **المنافع**، وتفر من المضار، وهؤلاء لا يعقلون ذلك، يتركون ما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، ويلزمون ما فيه مضرتهم، فه أضل من البهائم.

﴿أولئك هم الغافلون﴾.

أي: الذين غفلوا عن مصالحهم ومنافعهم، وغفلوا عن آيات الله، (سبحانه)، وحججه وأعلامه الدالة على توحيده (سبحانه)، وصدق رسله.

قوله: ﴿ولله الأسمآء الحسنى فادعوه﴾، الآية.

" الإلحاد " في اللغة: الجور والميل عن القصد.

قال الكسائي: يقال: " ألحد ": عدل عن القصد. و " لحد ": ركن إلى الشيء. وعلى ذلك قرأ ﴿يلحدون﴾ في " النحل "، [يعني]: يركنون.." [٢]

"لهم أيد يبطشون بهآ﴾، فيدفعون عنكم الضر وتنتصرون بها عند قصد من يقصدكم بسوء، ﴿أم لهم أعين يبصرون بهآ﴾، فيعرفونكم ما عاينوا مما تغيبون عنه، ﴿أم لهم آذان يسمعون بها﴾، فيخبرونكم بما سمعوا دونكم مما لم تسمعوه. فإن كانت هذه آلهتكم المعظمة عندكم، فما وجه عبادتكم لها، وهي خالية من هذه **المنافع** كلها؟.

ثم قال الله تعالى، لنبيه عليه السلام: ﴿قل﴾ لهم: ﴿ادعوا شركآءكم ثم كيدون فلا تنظرون﴾، أي: ادعوهم

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٧٣٣٢/١١

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٢٦٤٩/٤

لمعونتكم علي، ﴿ثم كيدون﴾ أنتم وهم، " فلا تنظرون "، أي: لا تؤخرون بالكيد، ولكن عجلوا كل هذا. ينبئهم أن آلهتهم لا تضر ولا تنفع.

قوله: ﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب﴾، إلى قوله: ﴿عن الجاهلين﴾.

قرأ الجحدري: " إن ولي الله "، بياء مفتوحة شديدة، وخفض الاسم. يعني." (١)

"ثم قال تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السمآء والأرض﴾: أي: من ينزل من السماء الغيث، ومن خلق المصالح التي بها تم معاشكم: من شمس وريح، وحر وبرد. ومن الأرض والنبات، والعيون **والمنافع**.

﴿أمن يملك السمع والأبصار﴾: أي: يملكها، ويزيد في قواها، أو يسلبكموها ومن يملك الأبصار أن تضيء لكم، أو يذهب بنورها. ومن يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي. قد تقدم ذكرها في آل عمران.

قوله: ﴿ومن يدبر الأمر﴾: أي: " أمر السماء والأرض ومن فيهن " ﴿فسيقولون الله﴾: أي: الذي فعل ذلك الله D فقل له يا محمد: ﴿أفلا تتقون﴾: أي: " أفلا تخافون عقاب الله سبحانه على شرككم ".

﴿فسيقولون الله﴾: وقف.

ثم قال تعالى: ﴿فذلكم الله ربكم﴾: أي: ذلكم الله الذي فعل هذه." (٢)

"عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده، إنه يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا، أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون عحية لكل حية سبعة رؤوس ينفخن في جسمه ويلسعنه ويخدشنه إلى يوم القيامة ".

وروى أبو هريرة Bه أن النبي A قال: " إن المؤمن إذا ألحد في قبره أتاه ملكان أرزقان أسودان، فيأتيانه من قبل رأسه، فتقول صلاته لا يؤتى من قبلي، فرب ليلة قد بات فيها ساهرا حذاراص لهذا المضجع فيوتى من قبل رجليه، فتقول رجلاه لا يؤتي من قبلنا، فقد كان ينصب ويمشي علينا في طاعة الله حذارا لهذا المضجع فيؤتى من قبل يمينه فتقول صدقته لا يؤتى من قبلي، فقد كان يتصدق حذارا لهذا المضجع، فيؤتى من قبل شماله، فيقول صومه لا يؤتى من قبلي، فقد كان يجوع ويظمأ حذارا لهذا المضجع، فيوقظ كما يوقظ النائم، ثم يسأل ".

قوله تعالى: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ إلى قوله: ﴿لأولي النهى﴾.

قال مجاهد: أعملى عن حجة، لا حجة له يهتدي بها، وقاله أبو صالح.

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٢٦٨٤/٤

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٣٢٦٢/٥

وقيل: معنى ذلك، أنه لا يهتدي إلى وجه ينال منه نفعا ولا خيرا، كما لا يهتدي الأعمى إلى الجهات المنافع في الدنيا.

وقيل: " أعمى " من عمى البصر، كما قال: ونحشر المجرمين يومئذ زرقا.." [1]

"﴿ثم استوى﴾ قصد وعمد ﴿إلى﴾ خلق ﴿السماء وهي دخان﴾ بخار مرتفع عن الماء ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها﴾ بما خلقت فيكما من المنافع وأخرجاها لمنافع خلقي قال للسماوات: أطلعي شمسك وقمرك ونجومك وقال للأرض: أخرجي ماءك وثمارك طائعة أو كارهة ففعلتا ما أمرهما طوعا وهو قوله: ﴿قالتا أتينا طائعين﴾." [2]

"﴿وبارك فيها﴾ بما خلق فيها من المنافع ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ أرزاق أهلها وما يصلح لمعاشهم في البحار والأنهار والأشجار والدواب ﴿في أربعة أيام﴾ في تتمة أربعة أيام وهو يوم الثلاثاء والأربعاء فصارت الجملة أربعة أيام خلق الله الأرض وما فيها من سبب الأقوات والمنافع والتجارات فتم أمرها في أربعة أيام ﴿سواء﴾ أي: استوت استواء وسواء ﴿للسائلين﴾ عن ذلك أي: لمن سأل في كم خلقت السماوات والأرض؟ فيقال: في أربعة أيام." [3]

"أحسن هذه الأقاويل؛ لأن قوله (ومن تطوع خيرا) صيغته تدل على العموم.

وقوله تعالى: ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ أي: مجاز بعمله، ﴿عليم﴾ بنيته. قال أهل المعاني: وحقيقة الشاكر في اللغة: هو المظهر للإنعام عليه، والله تعالى لا تلحقه المنافع والمضار، فالشاكر في وصفه مجاز، ومعناه: المجازي على الطاعة بالثواب، إلى أن اللفظ خرج مخرج التلطف للعباد، مظاهرة في الإحسان إليهم، كما قال: ﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ [البقرة: ٢٤٥] وهو تعالى لا يستقرض من عوز؛ ولكنه تلطف في الاستدعاء. كأنه قيل: من الذي يعمل عمل المقرض، بأن يقدم فيأخذ أضعاف ما قدم في وقت فقره وحاجته.

وقال في "تفسير الوسيط":

قوله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾: هما جبلان معروفان بمكة. و ﴿شعائر الله﴾: متعبداته، التي

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٤٧١٣/٧

(٢) الوجيز للواحدي الواحدي ص/٩٥٢

(٣) الوجيز للواحدي الواحدي ص/٩٥٢

أشعرها الله، أي جعلها أعلاما لنا، وهي كل ما كان من موقف أو مسعى أو منحر.

﴿فمن حج البيت﴾ أصل الحج في اللغة: زيارة شيء تعظمه. قال الزجاج: أهل الحج: القصد، وكل من قصد شيئا فقد حجه.

وقوله: ﴿أو اعتمر﴾ قال الزجاج: أي: قصد، وقال غيره: زاره.

﴿فلا جناح عليه﴾ أي: لا إثم عليه ولا حرج ولا ذنب ﴿أن يطوف بهما﴾.

أخبرنا منصور بن عبد الوهاب البزار، أخبرنا محمد بن أحمد بن سنان، أخبرنا حامد بن محمد بن شعيب، حدثنا محمد بن بكار، حدثنا إسماعيل بن زكريا، عن عاصم عن أنس بن مالك. قال: كانوا يمسكون عن الطواف بين الصفا والمروة، وكانا من شعائر الجاهلية، وكنا نتقي الطواف." [1]

"من إن جاد عليك فلك جاد، وإن (١) نفعك فنفعك أراد، من غير أن يرجع إليه من جوده بشيء (٢) من **المنافع** على جهة من الجهات، وهو الله (٣) وحده لا شريك له. ألا (٤) ترى أن عطية الرجل لصاحبه لا تخلو من أن تكون لله أو لغيره فإن كانت (٥) لله فثوابها على الله، فلا (٦) معنى للشكر، وإن كانت (٧) لغير الله فلا تخلو من أن تكون لطلب المجازاة، أو حب المكافأة، وهذه تجارة معروفة، والتاجر لا يشكر على تجارته، وجر المنفعة إلى نفسه، وإما أن تكون لخوف يده أو لسانه، أو رجاء نصرته أو (٨) معونته، ولا معنى لشكر من هذه إحدى أحواله، وإما أن تكون (٩) للرقة والرحمة، ولما يجد في قلبه من الألم، ومن جاد على هذا (١٠) السبيل، فإنما داوى نفسه من دائها، وخفف عنها ثقل برحائها (١١).

فأما من مدحه بشار (١٢) بن برد بقوله:

---

(١) (إن نفعك) ليس في "عيون الأخبار" ٣/ ١٩١.

(٢) في (ب): (شيء) بسقوط الباء وما في (أ)، (ج) موافق لما في "عيون الأخبار".

(٣) في (ب): (اله).

(٤) بعد قوله: (وحده لا شريك له) كلام لابن التوءم تركه هنا، انظر: "عيون الأخبار" ٣/ ١٩١.

(٥) في (ب): (كان).

(٦) في (ب): (ولا معنى).

(٧) في (ب): (كان).

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣٣٦/١

(٨) في (ب): (ومعونته).

(٩) في (ب): (يكون).

(١٠) في (ب): (ومن حاد عن هذا).

(١١) إلى هنا ما ذكره ابن قتيبة عن ابن التوءم مع اختلاف في بعض العبارات، انظر: "عيون الأخبار" ٣/ ١٩١.

(١٢) هو بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي بالولاء، وأصله من (طخارستان)، أشعر الشعراء المولدين، نشأ بالبصرة، ومات سنة سبع أو ثمان وستين ومائة. انظر ترجمته في: =." [1]

"عذاب قريب﴾، قال ابن عباس (١): يريد: اليوم الثالث، وهو قوله: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾.

٦٥ - قوله تعالى ﴿فعقروها﴾، ذكرنا معنى العقر في سورة الأعراف (٢).

وقوله تعالى: ﴿تمتعوا﴾، قال المفسرون (٣): عيشوا، ومعنى التمتع التلذذ **بالمنافع** والملاذ التي تدرك بالحواس، ولما كان التمتع للحي عبر به عن الحياة؛ لأن الميت لا يتمتع.

وقوله تعالى: ﴿في داركم﴾ أي في بلدكم، وسمي دارا لأنه يجمعهم كما تجمع الدار أهلها، وقيل: يعني في دنياكم يريد دار الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿ثلاثة أيام﴾، قال المفسرون: لما عقرت الناقة صعد فصيلها الجبل وبكى حتى سألت دموعه، ثم رغا رغوة (٤) ثلاثا، فقال صالح: لكل رغوة أجل يوم، فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام (٥)، ﴿ذلك وعد﴾ أي للعذاب ﴿غير مكذوب﴾ أي: غير كذب، والمصدر قد يرد بلفظ المفعول كالمجلود والمعقول و ﴿بأيكم المفتون﴾ [القلم: ٦] وقيل: غير

---

(١) "تنوير المقباس" ١٤٢.

(٢) آية: ٧٧. ونقل عن الأزهري قوله: "العقر عند العرب: كشف عرقوب البعير، ثم يجعل النحر عقرا؛ لأن العقر سبب النحر، وناحر البعير يعقره ثم ينحره، هذا هو الأصل، ثم جعل النحر عقرا وإن لم يكن هناك قطع للعرقوب". وانظر: "تهذيب اللغة" ٣/ ٢٥١٣ مادة: (عقر).

(٣) الثعلبي ٧/ ٤٨ أ، الطبري ١٢/ ٦٤، البغوي ٤/ ١٨٦، "زاد المسير" ٤/ ١٢٥، القرطبي ٩/ ٦٠.

---

[1] التفسير البسيط الواحدي ١/٤٦٥

(٤) الرغاء صوت ذوات الخف، رغا البعير والناقة ترغو رغاء، انظر: "تهذيب اللغة" (رغا) ٢/ ١٤٣١، اللسان (رغا) ٣/ ١٦٨٤.

(٥) "زاد المسير" ٤/ ١٢٥، "القرطبي" ٩/ ٦٠، "الطبري" ١٢/ ٦٤.." [1]

"ابن عباس بهما، ومعني قوله: ﴿لأزيدنكم﴾ أي مما يجب الشكرعليه؛ وهو النعمة.

وقوله تعالى: ﴿ولئن كفرتم﴾ أي جحدتم حقي وحق نعمتي، ﴿إن عذابي لشديد﴾ تهديد بالعذاب على كفران النعمة.

٨ - قوله تعالى: ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني﴾: عن خلقه وعن شكر العباد، و (حميد): مستحق للحمد في أفعاله لأنه متفضل بفعله أو عادل فيه.

قال ابن عباس: يريد لا ينقص كفركم ملكوت الله شيئا (١) ولا تزيد طاعتكم لله ملكا (٢).

وقال أهل المعاني: هذا بيان أن (٣) الله تعالى يجل (٤) عن لحاق **المنافع** والمضار.

٩ - قوله تعالى: ﴿ألم يأتكم﴾ إلى قوله: ﴿والذين من بعدهم﴾ يعني: من بعد هؤلاء الذين ذكرهم من أهلكهم الله بتكذيبهم رسلهم،

---

(١) التصويب من: (ع)، وفي باقي النسخ: (شيء) وهو خطأ ظاهر.

(٢) لم أقف عليه، وقد ورد بهذا المعنى حديث قدسي: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ..) أخرجه مسلم: البر والصلة/ تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٤.

(٣) ساقطة من (ع).

(٤) في جميع النسخ: (يحل) بالحاء، والأظهر أنها بالجيم، ومعنى (يجل عن كذا: يعظم، ومنه: أي عظم

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٤٥٩/١١

قدره). انظر (جل) في "تهذيب اللغة" ١/ ٦٤٠، و"مجمل اللغة" ١/ ١٧٣، و"الصحاح" (جلل) ٤/ ١٦٥٨." [1]

"عباس من طريق عكرمة، ﴿لكم فيها دفء ومنافع﴾ قال: النسل (١)، وروى الأزهري عن ابن هاجك (٢) بإسناده عن ابن عباس، ﴿لكم فيها دفء﴾ قال: نسل كل دابة (٣).

قال (٤) الأزهري: وهذا يوافق قول الأموي (٥)، روى أبوعبيد عنه: الدفء (٦) عند العرب: نتاج الإبل وألبانها والانتفاع بها (٧)، قال الفراء:

---

(١) ورد في "معاني القرآن" للنحاس ٤/ ٥٤، و"تفسير الماوردي" ٣/ ١٧٩، وقد روي عن ابن عباس تفسيرها بتفسير العامة، أخرجه الطبري ١٤/ ٧٩ بعدة روايات، وانظر: "تنوير المقباس" ص ٢٨٢، وأورده السيوطي في "الدر المنثور" ٤/ ٢٠٦، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم، ولذلك حمل النحاس تفسير ابن عباس: بالنسل، على **المنافع** لا الدفء، مع أن قوله التالي الذي رواه عنه ابن هاجك يؤكد تفسيره لـ ﴿دفء﴾ بالنسل.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه في التهذيب، وأخرجه عبد الرزاق في "مصنفه" (٢/ ٣٥٣) بنصه، والطبري ١٤/ ٧٩، بنصه من طريق عكرمة جيدة، وورد في "تفسير السمرقندي" ٢/ ٢٢٨، و"تفسير القرطبي" ١٠/ ٧٠، وانظر: "اللسان" (دفأ) ٣/ ١٣٩٣، و"عمدة الحفاظ" ٢/ ١٣، وأورده السيوطي في "الدر المنثور" ٤/ ٢٠٦، وزاد نسبته إلى الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) (قال) ساقط من (ش)، (ع).

(٥) أبو محمد، عبد الله بن سعيد الأموي اللغوي، لقي العلماء، ودخل البادية، وأخذ عن فصحاء الأعراب، وأخذ عنه العلماء كأبي عبيد، وأكثروا في كتبهم، كان حافظا للأخبار والشعر وأيام العرب، وكان ثقة في نقله، من كتبه: (النوادر)، (رحل البيت). انظر: "طبقات النحويين والبلاغيين" ص ١٩٣، و"إنباه الرواة" ٢/ ١٢٠، و"البلغة" ص ٣٠٩، و"البغية" ٢/ ٤٣.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٢/٤٠٨

(٦) في جميع النسخ: (الدفؤ)، والمثبت موافق لجميع المصادر.

(٧) لم أجده في غريبه، وورد في "تهذيب اللغة" (فاد) ٢/ ١٢٠٣، بنصه، وانظر:=." [(١)]

"ومطاوع (١)، والشق: الاسم منه، وشق الشيء شقا، وشق بنفسه شقوقا.

وقوله تعالى: ﴿إن ربكم لرءوف رحيم﴾ يريد أنه من عليكم وتفضل بإنعامه بالنعم التي لكم فيها هذه **المنافع** والمرافق (٢).

٨ - قوله تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ قال الفراء: نصبت ﴿وزينة﴾ على: وجعلها زينة، مثل قوله: ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا﴾ (٣) [فصلت: ١٢] المعنى: وحفظناها حفظا، ولو لم يكن في (الزينة) ولا في ﴿وحفظا﴾ واو لنصبتها بالفعل الذي قبلها لا بالإضمار، ومثله: أعطيتك درهما ورغبة في الأجر، المعنى أعطيتكه (٤) رغبة، فلو ألقيت الواو لم يحتج إلى ضمير؛ لأنه متصل بالفعل الذي قبله (٥)، وقال أبو إسحاق: نصبت ﴿وزينة﴾ على أنها مفعول لها، المعنى: وخلقها للزينة (٦).

قال أصحابنا: والآية لا تدل على تحريم لحوم الخيل، وإن ذكرت

= وأبو داود (٤٦): كتاب: الطهارة، باب: السواك ١/ ١١، والترمذي (٢٢) كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في السواك (١/ ٩)، والنسائي: الطهارة/ الرخصة في السواك بالعشي للصائم ١/ ٤، و"معجم الطبراني الكبير" ٥/ ٢٤٣، ٢٤٤، وأورده الهيثمي في "المجمع" ١/ ٢٢١، وورد في تهذيب اللغة (شق) ٢/ ١٩٠٦.

(١) الوقوع في اصطلاح النحويين: التعدي، والمطاوعة: هو الفعل المتعدي الذي يصير لازما إذا تحول إلى صيغة "انفعل" مثل: كسر الولد الزجاج، تقول: انكسر الزجاج انظر: "المعجم المفصل في النحو العربي" ٢/ ١٠١٢، ١١٨٩.

(٢) انظر: "تفسير ابن الجوزي" ٤/ ٤٣١.

(٣) الآية التي أورد الفراء غير هذه، وهي: ﴿وحفظا من كل شيطان﴾ [الصافات: ٧].

(٤) في جميع النسخ: (أعطيتكه هو) بزيادة ضمير الفصل، وأدى إلى اضطراب المعنى، والتصويب من المصدر.

---

(١) التفسير البسيط للواحدي ١٥/١٣

(٥) "معاني القرآن" للفراء ٢/ ٩٧، بتصرف يسير.

(٦) "معاني القرآن وإعرابه" ٣/ ١٩٢، بنحوه.." [١]

"وقوله تعالى: ﴿أأسجد لمن خلقت طينا﴾ قال المفسرون وأهل المعنى: امتنع إبليس من السجود لآدم وأنكر أن يسجد له وقال: أنا ناري، وهذا طيني (١)، (وذلك أن الفروع ترجع إلى الأصول؛ فتكون على قدرها في التكبير أو التصغير، فلما اعتقد إبليس لعنه الله أن النار أكرم أصلا من الطين خامنه أنه أكرم ممن خلق من طين، وذهب عليه بجهله أن الجواهر كلها من جنس واحد، وأن الله يعرفها بالأعراض كيف شاء، مع كرم جوهر الطين بكثرة ما فيه من **المنافع** التي تقاوم منافع النار أو توفي عليها) (٢)، وقال أبو إسحاق: المعنى: لمن خلقته طينا، وطينا منصوب على الحال، المعنى: أنك أنشأته في حال كونه من طين (٣).

٦٢ - قوله تعالى: ﴿قال﴾ يعني إبليس، ﴿أرأيتك﴾ قال الزجاج: هو في معنى أخبرني، والكاف لا موضح لها؛ لأنها ذكرت في المخاطبة توكيدا (٤)، وذكرنا الكلام في هذا الحرف مستقصى في سورة الأنعام (٥)، ﴿هذا الذي كرمت علي﴾: لم كرمته علي؟! قال: موضح هذا نصب بأرأيت، والجواب محذوف، والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرمت علي لم كرمته علي، وقد خلقتني من نار وخلقته من طين؟! فحذف هذا؛ لأن في الكلام دليلا عليه (٦)، ومعنى ﴿كرمت علي﴾: أي فضلت، قال

---

(١) ورد بنحوه في "تفسير مقاتل" ١/ ٢١٦ ب، و"الطوسي" ٦/ ٤٩٦، انظر: "تفسير السمعاني" ٣/ ٢٥٦، و"ابن الجوزي" ٥/ ٥٧، و"الفخر الرازي" ٢١/ ٣.

(٢) ما بين القوسين ورد بنصه تقريبا في "تفسير الطوسي" ٦/ ٤٩٦.

(٣) "معاني القرآن وإعرابه" ٣/ ٢٤٩، بتصرف.

(٤) "معاني القرآن وإعرابه" ٣/ ٢٤٩، بنصه.

(٥) آية [٤٠].

(٦) "معاني القرآن وإعرابه" ٣/ ٢٤٩، بنصه.." [٢]

---

[١] التفسير البسيط الواحدي ١٣/١٩

[٢] التفسير البسيط الواحدي ١٣/٣٨٤

"وقاتم الأعماق خاوي المخترق

٢٨ - قوله: ﴿ليشهدوا﴾ أي: ليحضروا مشاهد مكة ومشاعرها. يعني: الناس الذين ذكروا في قوله ﴿يأتوك﴾.

قولي: ﴿منافع لهم﴾ قال ابن عباس في رواية أبي رزين: هي الأسواق (١).

وهو قول سعيد بن جبير والسدي: يعني التجارة (٢). واختيار ابن قتيبة (٣).

وعلى هذا **المنافع** تختص بمنافع الدنيا.

وقال في رواية عطاء: منافع لهم في الدنيا والآخرة (٤).

وهو قول مجاهد: يعني التجارة، وما يرضي الله سبحانه من عمل الدنيا والآخرة (٥).

والمنافع على هذا القول شائعة في الأجر والتجارة (٦).

---

(١) ذكره الثعلبي ٣/ ٥١ أعنه من رواية أبي رزين. ورواه الطبري ١٧/ ١٤٦ عنه من رواية أبي رزين. وذكره السيوطي في "الدر المنثور" ٦/ ٣٧ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس.

(٢) ذكره عن سعيد الثعلبي في "الكشف والبيان" ٣/ ٥١ ب، ورواه عنه الطبري ١٧/ ١٤٦.

وذكره عن السدي ابن الجوزي في "زاد المسير" ٥/ ٤٢٤.

(٣) انظر: "غريب القرآن" لابن قتيبة ص ٢٩٢.

(٤) رواه ابن أبي حاتم كما في "الدر المنثور" ٦/ ٣٧ عنه، وذكره ابن كثير ٣/ ٢١٦ عنه رضي الله عنه ولم يبين من رواه عنه.

(٥) رواه عبد الرزاق في "تفسيره" ٢/ ٣٦، والطبري ١٧/ ١٤٧.

(٦) قال ابن الجوزي ٥/ ٤٢٥: وهو أصح.." [1]

"وقال العوفي، وسعيد بن المسيب، والباقر (١): هي العفو والمغفرة (٢). فخصوا **المنافع** بمنافع الآخرة.

وهذا القول اختيار أبي إسحاق، قال: ليشهدوا ما ندبهم الله إليه مما فيه النفع لهم في آخرتهم (٣).

قوله: ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء: يريد أيام الحج، وهي يوم عرفة

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣٦١/١٥

والنحر وأيام التشريق (٤).

---

(١) في (أ): (النامر).

(٢) ذكره عنهم جميعا الثعلبي في "الكشف والبيان" ٣/ ٥١ ب. وعن الباقر رواه الطبري ١٧/ ١٤٧.

(٣) "معاني القرآن" للزجاج ٣/ ٤٢٣ قال الطبري -رحمه الله- في "تفسيره" ١٧/ ١٤٧: وأولى الأقوال بالصواب: قول من قال: عني بذلك ليشهدوا منافع لهم من العمل الذي يرضي الله والتجارة، وذلك أن الله عم لهم منافع جميع ما يشهد له الموسم ويأتي له مكة أيام الموسم من منافع الدنيا والآخرة ولم يخصص من ذلك شيئا من منافعهم بخبر ولا عقل، فذلك على العموم في المنافع التي وصفت.

(٤) ذكره عن ابن عباس من رواية عطاء البغوي في "تفسيره" ٥/ ٣٧٨. وذكره الرازي ٢٣/ ٢٩ عنه من رواية عطاء لكن ليس فيها ذكر يوم عرفة.

وهذه الرواية التي ذكرها الواحدي هنا عن ابن عباس ضعيفة.

وقد جاء عن ابن عباس روايات في المراد بالأيام المعلومات أصحها أن الأيام المعلومات هي أيام العشر.

رواه البخاري عنه تعليقا بصيغة الجزم كتاب: العيدين، باب: فضل العمل في أيام التشريق ٢/ ٤٥٧، ووصله ابن حجر في "الفتح" ٢/ ٤٥٨، و"تغليق التعليق" ٢/ ٣٧٧ من رواية عبد بن حميد في "تفسيره" من طريق عمرو بن دينار: سمعت ابن عباس -وفيه: والأيام المعلومات أيام العشر.

ورواه البيهقي في "السنن الكبرى" ٥/ ٢٢٨ من طريق هشيم، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: المعلومات: العشر. وإسناده صحيح.

وذكره ابن كثير في "تفسيره" ٣/ ٢١٦ من رواية شعبة وهشيم، عن أبي بشر، عن=." [1]

"وليس بقوي ولا ظاهر هاهنا، والصحيح أن المعنى: فإن تعظيمها، فحذف المضاف لدلالة ﴿يعظم﴾ على التعظيم كما قال ﴿ومن يعظم حرمات الله فهو خير له﴾ [الحج: ٣٠] فكنى عن التعظيم لما دل يعظم عليه، كذلك هاهنا حذف التعظيم لما كان يعظم يدل عليه، والمعنى: فإن (١) اتخاذ البدن من أعظمها وأسمنها من تقوى القلوب.

قال ابن عباس: يريد من التقوى الذي اتقاه المتقون.

وأضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى تقوى القلوب (٢)، كما روي في الحديث أن النبي -صلى

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣٦٢/١٥

الله عليه وسلم- وقال: "التقوى هاهنا" وأشار إلى صدره (٣).

٣٣ - قوله تعالى: ﴿لكم فيها﴾ أي: في الشعائر ﴿منافع﴾ أكثر أهل التفسير على أن المراد بهذا: أن (٤) في الهدايا منافع لصاحبها إلى أن يسميها هديا ويشعرها، فله منافع رسلها (٥) ونسلها وأصوافها وأوبارها وركوب ظهورها (٦) ﴿إلى أجل مسمى﴾ وهو أن يسميها هديا فتنقطع **المنافع** بعد ذلك.

---

(١) (فإن): ساقطة من (ظ).

(٢) انظر: القرطبي ١٢/ ٥٦.

(٣) هذا قطعة من حديث رواه الإمام أحمد في "مسنده" ٢/ ٢٧٧، ومسلم في "صحيحه" كتاب: البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم ٤/ ١٩٨٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أن: ساقطة من (أ).

(٥) رسلها: أي لبنها. "لسان العرب" ١١/ ٢٨٢ (رسل).

(٦) في (أ): (ظهرها).." [1]

"وقوله: ﴿لكم فيها خير﴾ قال ابن عباس: يريد في الدنيا والآخرة (١).

قال المفسرون: يعني النفع في الدنيا والأجر في العقبى (٢).

وذكرنا هذا (٣) المعنى (٤) مستقصى عند قوله ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ إلا أن المراد بتلك **المنافع** الدنيا لقوله ﴿إلى أجل مسمى﴾ والمراد بالخير هاهنا خير الدنيا والآخرة، كما ذكر ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾ أي: على نحرها، لأن السنة أن يذكر الله عند نحرها.

قال ابن عباس: هو أن يقول: بسم الله، والله أكبر لا إله إلا الله، اللهم منك ولك (٥).

وقوله ﴿صواف﴾ جمع صافة، وهي فاعلة من الصف، وهو جعل الأجسام يلي أحدها الآخر على منهاج واحد (٦).

قال ابن عباس في رواية ابن أبي مليكة: قياما (٧).

وقال ابن عمر: قياما مقيدة، سنة محمد -صلى الله عليه وسلم- (٨).

---

[1] التفسير البسيط الواحدي ٣٩٢/١٥

(١) ذكره عنه الزمخشري في "الكشاف" ٣/ ١٤، وأبو حيان في "البحر" ٦/ ٣٦٩. وذكره القرطبي ١٢/ ٦١ من غير نسبة، وصوبه.
(٢) "الكشف والبيان" للثعلبي ٣/ ٥٢ ب، ٥٣ أ.
(٣) (هذا): ساقطة من (أ).
(٤) في (ع): (الكلام).
(٥) هذا مجموع روايات رواها الطبري ١٧/ ١٦٤ من طريق أبي ظبيان، عن ابن عباس.
(٦) انظر: "لسان العرب" ٩/ ١٩٤ (صفف)، "القاموس المحيط" ٣/ ١٦٢ - ١٦٣.
(٧) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٤/ ٨٣ عنه من رواية ابن أبي مليكة.
(٨) رواه البخاري في صحيحه كتاب الحج -باب نحر الإبل مقيدة ٣/ ٥٥٣، ومسلم في "صحيحه" (كتاب الحج- باب نحر البدن قياما، مقيدة ٢/ ٩٥٦).." [1]

"ومن البركة في الزيت والزيتون (١) ما ذكره عطاء، عن ابن عباس قال: فيها أنواع من **المنافع**، فالزيت يسرج به، وهو إدام، وهو دهان، وهو دباغ، وهو وقيد (٢) يوقد بحطبه وثفله (٣)، وليس منه شيء إلا وفيه (٤) منافع حتى الرماد يغسل به الإبريسم (٥).

ومن بركتها أنها أول شجرة نبتت بعد الطوفان، وهي تنبت في منازل الأنبياء والمرسلين والأرض المقدسة، ودعا لها سبعون نبيا بالبركة منهم إبراهيم الخليل (٦) - عليه السلام - (٧) ونبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- كما ذكرنا.

وذكر الزجاج من بركتها أن أغصانها تكون مورقة من أسفلها إلى أعلاها، وليس في الشجر شيء يورق غصنه من أوله إلى آخره مثل الزيتون والرمان (٨).

= ليس بشيء، ضعيف في الحديث. وقال أبو زرعة: هو عندي لا يصدق، ليس بشيء. انظر: "التاريخ الصغير" للبخاري ٢/ ١٦٥، "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٣، "المغني في الضعفاء" للذهبي ٢/ ٧٦٠، "لسان الميزان" لابن حجر ٦/ ٣١٢.
(١) في (ع): (الزيتونة).
(٢) في (ع): (وقود)، وهما لغتان. انظر: "القاموس المحيط" ١/ ٣٤٦ (الوقد).

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٥/٤٠٩

(٣) في (أ): وتفله. ومهملة في (ظ).
والثفل: ما سفل من كل شيء. "لسان العرب" ١١/ ٨٤ (ثفل).
(٤) في (ظ)، (ع): (وفيها).
(٥) ذكره عن ابن عباس: القرطبي ١٢/ ٢٥٨، وذكره ابن الجوزي ٦/ ٤٣ من غير نسبة.
(٦) (الخليل): زيادة من (ع).
(٧) من قوله: ومن بركتها. إلى هنا، ذكره الثعلبي ٣/ ٨٤ أوصدره بقوله: قيل. وما ذكر يحتاج إلى دليل. والله أعلم.
(٨) "معاني القرآن" للزجاج ٤/ ٤٥.." [١]

"لابد (١) لهم من النار يوقدونها ليلا لتهرب منهم السباع، وفي كثير من حوائجهم.

وقال أبو عبيدة: المقوي الذي لا زاد معه ولا مال، وهذا من قولهم أقوت الدار، أي: خلت (٢)، فالمقوي الخالي من الزاد. وهذا قول الربيع، والسدي. قالا: يعني المرملين المقترين الذين لا زاد معهم فهؤلاء يوقدون النار ويشتون بها لحوم الصيد ولابد لهم منها، وهذه رواية العوفي عن ابن عباس (٣).

وفي المقوين قول ثالث، وهو قول عكرمة، ومجاهد، قالا: للمقوين أي للمستمتعين بها من الناس أجمعين (٤) المسافرين والحاضرين يستضيئون بها في الظلمة ويصطلون من البرد وينتفعون بها في الطبخ والخبز (٥).

وعلى هذا المقوي من الأضداد. ويقال للفقير: مقو لخلوه من المال، وللغني: مقو لقوته على ما يريد، يقال أقوى الرجل إذا صار إلى حالة القوة، ذكر ذلك قطرب وغيره (٦). والمعنى ومتاعا للأغنياء والفقراء وذلك

---

(١) في (ك): (بدل).
(٢) انظر: "مجاز القرآن" ٢/ ٢٥٢.
(٣) انظر: "الجامع لأحكام القرآن" ١٧/ ٢٢٢.
(٤) انظر: "تفسير مجاهد" ٢/ ٦٥١، و"جامع البيان" ٢٧/ ١١٦.
(٥) انظر: "الجامع لأحكام القرآن" ١٧/ ٢٢٢.
قال ابن كثير في "تفسيره" ٤/ ٢٩٧: وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير،

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٧٥/١٦

الجميع محتاجون إليها للطبخ، والاصطلاء، والإضاءة، وغير ذلك من **المنافع**.

(٦) انظر: "الأضداد" لقطرب ص ٩٢، و"الأضداد" للأصمعي والسجستاني ٤، ١٢٤، ٢٧٩، ٦٣٨، و"معالم التنزيل" ٤/ ٢٨٨، و"الجامع لأحكام القرآن" ١٧/ ٢٢٢، ورواه ثعلب عن ابن الأعرابي. انظر: "تهذيب اللغة" ٦/ ٣٦٩ (قوى).." [١]

"قال (١): ومثله: المهارة والبكارة، لجمع: المهر والبكر (٢).

وأقرأني العروضي عن الأزهري، قال: أخبرني المنذري عن أبي الهيثم قال: العرب تدخل الهاء في كل جمع على فعال أو فعول، فتقول: عظام وعظامة وفحالة وجمالة (٣) وذكارة وذكورة وفحولة وعمومة وحمولة، قال: وإنما زادوا هذه الهاء لأنه إذا سكت عليه اجتمع فيه عند السكت ساكنان (٤). قال الأزهري: وهذه العلة (٥) أحسن من علة الاستحسان الذي شبهه بالاستحسان في الفقه (٦).

قال المفسرون: إنما شبه قلوبهم بالحجارة في الغلظة والشدة، ولم يقل (٧): (كالحديد)، وإن كان الحديد أصلب من الحجارة، لأن الحديد يلين بالنار، وقد لان لداود بإذن الله حتى صار كالعجين، ولا تلين الحجارة بمعالجة أبدا، ولأن في الحديد منافع، تلك **المنافع** لا توجد في الحجارة، فشبه الله قلوبهم بالحجارة لقسوتها ولعدم المنفعة منها (٨).

---

(١) (قال): ساقط من) ج).

(٢) "تهذيب اللغة" (حجر) ١/ ٧٤٦، وانظر: "اللسان" (حجر) ٢/ ٧٨١.

(٣) في "تهذيب اللغة": (حبالة)، وفي الحاشية (د): (جمالة).

(٤) في "تهذيب اللغة": أخبرني المنذري عن أبي الهيثم. ثم ذكره مع بعض الاختلاف في العبارة (حجر) ١/ ٧٤٧، وانظر: "اللسان" (حجر) ٢/ ٧٨١.

(٥) في (ب): (اللغة).

(٦) "تهذيب اللغة" (حجر) ١/ ٧٤٦، وفيه: (قلت: وهذا هو العلة التي عللها النحويون فأما الاستحسان الذي شبهه بالاستحسان في الفقه فإنه باطل، ومثله في "اللسان" (حجر) ٢/ ٧٨.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٥٥/٢١

(٧) (يقل): ساقط من (ج).

(٨) انظر: "تفسير البغوي" ١/ ٨٥، "تفسير ابن كثير" ١/ ١٢١.." [1]

"وهذا أحسن هذه الأقاويل؛ لأن قوله ﴿ومن تطوع خيرا﴾ صيغته تدل على العموم (١).

وقوله تعالى ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ أي: مجاز بعمله ﴿عليم﴾ بنيته (٢).

قال أهل المعاني: وحقيقة الشاكر في اللغة: هو المظهر للإنعام عليه، والله تعالى لا تلحقه **المنافع** والمضار، فالشاكر في وصفه مجاز، ومعناه: المجازي على الطاعة بالثواب، إلا أن اللفظ خرج مخرج التلطف للعباد، مظاهرة في الإحسان إليهم، كما قال: ﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وهو تعالى لا يستقرض من عوزة ولكنه تلطف (٣) في الاستدعاء. كأنه قيل: من الذي يعمل عمل المقرض، بأن يقدم، فيأخذ أضعاف ما قدم في وقت فقره وحاجته (٤)!؟

---

(١) رجح الطبري في "تفسيره" ٢/ ٥١ - ٥٢ أن معنى ذلك: ومن تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته الواجبة عليه.

(٢) "تفسير الثعلبي" ١/ ١٣٠١.

(٣) في (م): (اللطف).

(٤) وقال الزجاجي في "اشتقاق أسماء الله" ص ٨٧: فلما كان الله عز وجل يجازي عباده على أفعالهم ويثيبهم على أقل القليل منها، ولا يضيع لديه تبارك وتعالى لهم عمل عامل، كان شاكرا لذلك لهم، أي: مقابلا له بالجزاء والثواب. وقال الشيخ السعدي في "تفسيره" ص ٧٧: الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى: الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره وامتثل طاعته أعانه عليه وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نورا وإيمانا وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطا، وفي جميع أحواله قلادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق، ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملا موفرا، لم تنقصه هذه الأمور، ومن شكره لعبده أن من ترك شيئا لله أعاضه الله خيرا منه، ومن تقرب منه شبرا تقرب منه ذراعا.." [2]

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣/٦٩

(٢) التفسير البسيط الواحدي ٣/٤٤٤

"وقال الربيع (١) والضحاك (٢): إثم كبير بعد التحريم، ومنافع للناس قبل التحريم. والأول الوجه، وعنى بالمنافع ما كانوا يصيبونه من المال في بيع الخمر، والتجارة فيها، واللذة عند شربها، والتقوي بها (٣)، كقول الشاعر (٤) الأعشى:

لنا من ضحاها خبث نفس وكأبة ... وذكرى هموم ما تغب أذاتها

وعند العشاء طيب نفس ولذة ... ومال كثير عدة نشواتها (٥)

ومنفعة الميسر: ما يصاب من القمار، ويرتفق به الفقراء (٦).

وقال قتادة: في هذه الآية ذمها ولم (٧) يحرمها، وهي يومئذ حلال (٨).

وذهب قوم من أهل النظر: إلى أن الخمر حرمت بهذه الآية؛ لأن الكتاب قد دل في موضع آخر على تحريم الإثم في قوله: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم﴾ [الأعراف: ٣٣] وقد حرم الإثم، وقال: ﴿فيهما إثم كبير﴾، فوجب أن يكون محرما (٩).

---

(١) رواه عنه الطبري في "تفسيره" ٢/ ٣٦١، وذكره الثعلبي في "تفسيره" ٢/ ٨٩١.

(٢) رواه عنه الطبري في "تفسيره" ٢/ ٣٦١، وذكره النحاس في "معاني القرآن" ١/ ١٧٤، والثعلبي في "تفسيره" ٢/ ٨٩١.

(٣) "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٢٩٢، "تفسير الثعلبي" ٢/ ٨٩٠

(٤) ليست في (أ) ولا (م) ولا (ي).

(٥) البيتان للأعشى بن قيس في قصيدة فخر له، ينظر: "ديوانه" ص ٣١ وفي الأشربة لابن قتيبة ص ١٩٨، "تفسير الطبري" ٢/ ٣٥٩ "تفسير الثعلبي" ٢/ ٨٩٠.

(٦) "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٢٩٣، "تفسير الثعلبي" ٢/ ٨٩٠.

(٧) في (ي): (فلم).

(٨) رواه الطبري في "تفسيره" ٢/ ٣٦٣، وذكره في "زاد المسير" ١/ ٢٤١٤، وفي "الحجة" ٢/ ٣٠٧.

(٩) من "الحجة" ٢/ ٣٠٨.." [١]

"فدل على كثرة الإثم فيها، ولأن الإثم في هذه الآية عودل به المنافع فحسن أن يوصف بالكثرة (١)؛ لأنه كأنه قال: فيه مضار كثيرة ومنافع (٢).

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٤/١٥٣

وقوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾ نزل في سؤال عمرو بن الجموح، لما نزل قوله: ﴿فللوالدين والأقربين﴾ [البقرة: ٢١٥] في سؤاله أعاد السؤال وسأل عن مقدار ما ينفق، فنزل قوله: ﴿قل العفو﴾ (٣). قال ابن عباس في رواية مقسم: العفو: ما فضل من المال عن العيال (٤)، وهو قول السدي (٥) وقتادة (٦) وعطاء (٧).

---

(١) في (ش): (بالكثير) وفي (بالكبيرة).

(٢) من "الحجة" ١/ ٣١٢ - ٣١٤ بتصرف.

(٣) ذكر السيوطي في "لباب النقول" ١/ ٤١ أن ابن المنذر أخرج عن أبي حيان أن عمرو ابن الجموح سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - ماذا ننفق من أموالنا، وأين نضعها؟ فنزلت. وذكره مقاتل بنحوه ١/ ١٨٨ وذكر الثعلبي في "تفسيره" ٢/ ٨٩١ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حثهم على الصدقة، ورغبهم فيها من غير عزم، فقالوا: يا رسول الله، ماذا ننفق وعلى من نتصدق؟ فنزلت، وعنه نقله ابن حجر في "العجاب" ١/ ٥٤٦، والسيوطي في "لباب النقول" ص ٤٢، وعزاه لابن جرير، وبنحوه عند ابن أبي حاتم في "تفسيره" ٢/ ٣٨١.

(٤) رواه سعيد بن منصور في "سننه" ٣/ ٨٣٨، والطبري في "تفسيره" ٢/ ٣٦٤، وابن أبي حاتم في "تفسيره" ٢/ ٣٩٣، والنحاس في "الناسخ والمنسوخ" ١/ ١٣٣، والثعلبي في "تفسيره" ٢/ ٨٩٤.

(٥) رواه عنه الطبري ٢/ ٣٦٤، والثعلبي ٢/ ٨٩٣، البغوي في "تفسيره" ١/ ٢٥٣.

(٦) رواه عبد الرزاق في "تفسيره" ١/ ٨٩، والطبري ٢/ ٣٦٤، وذكره ابن أبي حاتم في "تفسيره" ٢/ ٣٩٣، والثعلبي في "تفسيره" ٢/ ٨٩٣

(٧) رواه سعيد بن منصور ٣/ ٣٣٩، والطبري في "تفسيره" ٢/ ٣٦٤، وذكره ابن أبي حاتم في "تفسيره" ٢/ ٣٩٣، والثعلبي في "تفسيره" ٢/ ٨٩٣.." [1]

"قال أهل المعاني: إنما لم تجمع للإشعار بعظمها من غير جهة تضاعفها (١). ولأن جملة النعم نعمة على طريقة الجنس، كما أن جملة الماء ماء، وجملة المنافع منفعة.

وقال مقاتل: يعني: بالإسلام (٢).

وقوله تعالى: ﴿وميثاقه الذي واثقكم به﴾.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٤/١٥٥

معنى المواثقة: المعاهدة التي قد أحكمت بالعقد على ثقة (٣).

واختلفوا في هذا الميثاق، فقال ابن عباس: هو الميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل حين قالوا: آمنا بالنبي، وأقررنا بما في التوراة، فذكرهم الله ميثاقه الذي أقروا به على أنفسهم، وأمرهم بالوفاء (٤).

فعنده الآية خطاب لليهود.

وقال مجاهد والكلبي ومقاتل: هو ما أخذ عليهم حين أخرجهم من ظهر آدم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى (٥).

فإن قيل على هذا: إن بني آدم لا يذكرون ذلك الميثاق، فكيف (أمروا (٦)) بحفظه؟

قيل: إن الله تعالى إذ (٧) أخبر أنه أخذ ذلك الميثاق علينا لم يبق لنا شك في أنه كان كذلك، وليس التذكر شرطا في خبر الصادق، فجاز أن

---

(١) انظر: "زاد المسير" ٢/ ٣٠٦.

(٢) "تفسيره" ١/ ٤٥٦.

(٣) انظر: "اللسان" ٨/ ٤٧٦٤ (وثق).

(٤) "تفسير ابن عباس" ص ١٧٣، وأخرجه الطبري في "تفسيره" ٦/ ١٤٠.

(٥) "تفسير مجاهد" ١/ ١٨٧، وانظر: "تفسير مقاتل" ١/ ٤٥٦، والبغوي في "تفسيره" ٣/ ٢٦، و"زاد المسير" ٢/ ٣٠٦.

(٦) ساقط من (ش).

(٧) في (ش): (إذا) بالمد.." [1]

"بأنه وكيل فيما هو مالك، لأنه لما كانت منافع مملوكاته لغيره وجل عن أن تلحقه **المنافع** والمضار صحت هذه الصفة في هذه الجهة من حيث إن له أن يصرف ما هو مالك له، ثم التصريف فيما يدبره بمنزلة ما يدبره الوكيل فيما تعود منافعه على غيره، فهو على كل شيء وكيل بالحفظ له والتدبير) (١).

١٠٣ - قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ الآية. احتج نفاة الرؤية (٢) بهذه الآية على أهل السنة (٣) فقالوا: أخبر الله تعالى أن الأبصار لا تدركه، وإنما قال هذا على سبيل التمدح، وما نفى عن نفسه على

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٧/٢٨٨

سبيل التمدح به وجب أن يكون ذلك على التأييد كقوله: ﴿لا شريك له﴾ [الأنعام: ١٦٣]، و ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ [البقرة: ٢٥٥] (٤).

والجواب [عن] (٥) هذا من وجوه:

أحدها: أن الإدراك غير الرؤية لأنه يصح أن يقال: رآه وما أدركه،

---

(١) لم أقف عليه بعد طول بحث في كتب المعاني والتفسير. وانظر: "المقصد الأسنى" للغزالي ص ١١٤، و"شرح أسماء الله الحسنى" للرازي ص ٢٩٣، و"اللسان" ٨/ ٤٩٠٩ مادة (وكل).

(٢) نفاة الرؤية: هم الجهمية والمعتزلة والخوارج، وبعض المرجئة، قالوا: (لا يرى الله تعالى في الدنيا ولا في الآخرة). انظر: "الفتاوى" لابن تيمية ٢/ ٣٣٦ - ٣٣٧، و"تفسير الخازن" ٢/ ١٦٦.

(٣) أهل السنة والجماعة على أن الله تعالى يرى في الآخرة بالأبصار عيانا وأن أحدا لا يراه في الدنيا بعينه، كما تواترت به الأخبار عن النبي - صلى الله عليه وسلم -. انظر: "كتاب التوحيد" لابن خزيمة ١/ ٤٣٧، و"الشريعة" للآجري ص ٢٣١، و"الفتاوى" لابن تيمية ٢/ ٣٣٦، و"تفسير ابن كثير" ٢/ ١٨٠، و"شرح العقيدة الطحاوية" لابن أبي العز ١/ ٢٠٧.

(٤) انظر: "تفسير الرازي" ١٣/ ١٠٤.

(٥) في (ش): (على).." [1]

"وقوله تعالى: ﴿وهو وليهم﴾ أي: يتولى إيصال **المنافع** إليهم ودفع المضار عنهم، وهذا يوجب إخبارا عن كونه وليهم في الآخرة، لأنه قال: ﴿بما كانوا يعملون﴾ أي: في الدنيا، وإن كان هو اليوم أيضا ولي المؤمنين، وعلى هذا دل كلام ابن عباس؛ لأنه قال في قوله: ﴿وهو وليهم﴾: (أنزل بهم المحبة والكرامة والرضوان وما (١) لا يوصف من النعيم) (٢)، وكل هذا يكون في الآخرة (٣).

١٢٨ - قوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعا﴾ الآية. قال المفسرون (٤): (يعني: الجن والإنس يجمعون في موقف [يوم] (٥) القيامة).

قال عطاء عن ابن عباس: (يريد: هم وقرناؤهم من الشياطين) (٦).

﴿يا معشر الجن﴾. قال الزجاج: (المعنى: فيقال لهم: ﴿يا معشر الجن﴾ (٧)، ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٨/٣٣٠

أي: من إغواء الإنس وإضلالهم، عن ابن عباس (٨)، والحسن (٩)، وقتادة (١٠).

---

(١) في (أ): (ومما لا يوصف).
(٢) في "تنوير المقباس" ٢/ ٩٥ نحوه
(٣) انظر: "تفسير الطبري" ٢/ ١٦٧، والسمرقندي ١/ ٥١٣، والماوردي ٢/ ١٦٧.
(٤) انظر: "تفسير الطبري" ٨/ ٣٣، والسمرقندي ١/ ٥١٣، والماوردي ٢/ ١٦٨.
(٥) لفظ: (يوم) ساقط من (ش).
(٦) في "تنوير المقباس" ٢/ ٥٩ نحوه.
(٧) "معاني الزجاج" ٢/ ٢٩١، ومثله قال النحاس في "معانيه" ٢/ ٤٨٩.
(٨) ذكره الماوردي في "تفسيره" ٢/ ١٦٨، وابن عطية ٥/ ٣٥٢، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.
(٩) أخرج الطبري في "تفسيره" ٨/ ٣٣، عن الحسن نحوه، وذكره هود الهواري في "تفسيره" ١/ ٥٥٩، والماوردي ٢/ ١٦٨، والسيوطي في "الدر" ٣/ ٨٥.
(١٠) أخرج عبد الرزاق في "تفسيره" ١/ ٢/ ٢١٨، والطبري ٨/ ٣٣، وابن أبي حاتم ٤/ ١٣٨٧ بسند جيد عن قتادة نحوه.." [(١)]

"للقدرية (١) حيث جوزوا أن يستبد الإنسان بقدرة يجتلب بها **المنافع** ويدفع بها المضار.

١٨٩ - و (٢) قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾، قال ابن عباس (٣) والمفسرون (٤): (يعني: آدم). ﴿وجعل منها زوجها﴾ كما قال في سورة النساء: ﴿خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾ [النساء: ١].
وقوله تعالى: ﴿ليسكن إليها﴾. قال ابن عباس: (يريد: ليأنس بها ويأوي إليها) (٥).
قال أهل المعاني: (والحكمة في أن الله تعالى خلق حواء من ضلع آدم هو أن يكون آدم إليها أميل، ولها آلف وأحب؛ إذ الشكل إلى شكله أحب (٦)، ولذلك كانت الأشياء تحن إلى أشكالها، وتهرب من

---

(١) انظر: "تفسير الرازي" ١٥/ ٨٣ - ٨٤

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٨/٤٣٤

(٢) لفظ: (الواو) ساقط من (ب).

(٣) "تنوير المقباس" ٢/ ١٤٦، وذكره الرازي ١٥/ ٨٥، والسيوطي في "الدر" ٣/ ٢٧٨.

(٤) انظر: "تفسير الطبري" ٩/ ١٤٣، وأخرجه بسند جيد عن قتادة والسدي، وبسند ضعيف عن مجاهد، وأخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٣٠ بسند ضعيف عن الضحاك، وقال ابن أبي حاتم: (وروي عن مجاهد وأبي مالك وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان نحو ذلك) اهـ.

وانظر: "معاني الزجاج" ٢/ ٣٩٤، و"النحاس" ٣/ ١١٣، و"تفسير السمرقندي" ١/ ٥٨٨، والثعلبي ٦/ ٢٨ ب، والماوردي ٢/ ٧٥، وقال القرطبي ٧/ ٣٣٧: (قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم) اهـ.

(٥) ذكره الثعلبي ٦/ ٢٨ ب، والواحدي في "الوسيط" ٢/ ٢٨٢، والبغوي ٣/ ٣١١، والقرطبي ٧/ ٣٣٧، الخازن ٢/ ٣٢٤ بلا نسبة، ونحوه قال الطبرى ٩/ ١٤٣، وانظر: السمرقندي ١/ ٥٨٨، والماوردي ٢/ ٧٥.

(٦) لفظ: (أحب) غير واضح في (أ)، وكأنه: (أجذب)." [1]

"فاعبدوهم هل يثيبونكم (١) أو يجازونكم (٢).

وقال أهل المعاني: (معنى هذا الدعاء: طلب **المنافع** وكشف المضار من جهتهم، وذلك ما يئس منه من قبلهم، وعبادة من هذه صفته جهل وسخف، واللام في: ﴿فليستجيبوا﴾ لام الأمر على معنى التعجيز، وهو طلب الفعل إن أمكن) (٣).

وقوله تعالى: ﴿إن كنتم صادقين﴾. أي: إن صدقتم أن لكم عند الأصنام منفعة أو ثوابا أو شفاعة أو نصرة، قاله ابن عباس (٤)، وسلك صاحب النظم في قوله: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ طريقة أخرى؛ فقال: (تأويل قوله: ﴿إن الذين﴾ ﴿إن﴾ على استفهام، وفي الاستفهام طرف من الإنكار كقوله: ﴿أبشر يهدوننا﴾ [التغابن: ٦] إلا أنه استثقل همزتان فاقتصر على إحداهما، وقد تستفهم العرب بغير الألف، قال الله تعالى: ﴿وتلك نعمة تمنها علي﴾ [الشعراء: ٢٢] بمعنى: أو تلك على الإنكار، ولا يجوز أن يكون هذا خبرا؛ لأن تعبيده بني إسرائيل لم يكن منة عليه، ومثله قول الشاعر (٥):

أفرح أن أرزأ الكرام وأن ... أورث ذودا شصائصا نبلا

أراد: أأفرح لأنه ينتفي من ذلك، ولا يرضى أن يقال له ذلك، وإنما

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٩/ ٥٠٩

(١) في (ب): "يثبتونكم".

(٢) "تنوير المقباس" ٢/ ١٤٨، وذكره الواحدي في "الوسيط" ٢/ ٢٨٥، والبغوي ٣/ ٣١٥، والقرطبي ٧/ ٣٤٢.

(٣) انظر: "تفسير الرازي" ١٥/ ٩٢.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٥١٥ بلفظ: (﴿إن كنتم صادقين﴾ إن لكم عندها منفعة). وذكره الواحدي في "الوسيط" ٢/ ٢٨٥ بلا نسبة.

(٥) الشاهد لحضرمي بن عامر الأسدي، وقد سبق.." [١]

"إشكال في أنه علامة لهم، وآية للوقت الذي يحيا فيه عندما يكون منهم، فبان أنه من فعل الله عز وجل.

قوله تعالى: ويريكم آياته أي: علامات قدرته في خلق الحياة في الأموات، لعلكم تعقلون: لكي تعرفوا قدرة الله عز وجل على إحياء الميت.

قال أبو إسحاق الزجاج: وهذه القصة في القرآن من أدل الدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث خبرهم بما صدقه في ذلك أهل الكتاب، وهو رجل عربي أمي، لم يقرأ كتابا، ولم يتعلم من أحد، ولم يكن هذا من علم العرب.

قوله تعالى: ثم قست قلوبكم يقال: قسا قلبه يقسو قسوة وقساوة وقسوا.

وهي الشدة والصلابة واليبس، يقال: حجر قاس.

أي: صلب، وأرض قاسية: لا تنبت شيئا.

قال الزجاج: تأويل القسوة: ذهاب اللين والرحمة والخشوع.

قوله تعالى: من بعد ذلك أي: من بعد إحياء الميت لكم بعضو من أعضاء البقرة، وهذه آية عظيمة كان يجب على من شاهدها أن يلين قلبه ويخضع، فهي كالحجارة قال المفسرون: إنما شبه قلوبهم بالحجارة في الغلظة والشدة، ولم يقل: كالحديد.

وإن كان الحديد أصلب من الحجارة، لأن الحديد يلين بالنار، وقد لان لداود عليه السلام بإذن الله حتى صار كالعجين، ولا تلين الحجارة بمعالجة أبدا، ولأن في الحديد منافع، تلك **المنافع** لا توجد في الحجارة،

(١) التفسير البسيط الواحدي ٩/٥٣٠

فشبه الله قلوبهم بالحجارة لقسوتها، ولعدم المنفعة فيها.

قوله تعالى: أو أشد قسوة معناه: بل أشد قسوة، وارتفع أشد بإضمار هي، كأنه قال: أو هي أشد.

٣٦ - أخبرنا أبو إبراهيم بن أبي القاسم الواعظ، أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن حمشاذ، أخبرني أبو عبد." (١)

"﴿وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴿١٢٦﴾ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٦-١٢٧] قوله: ﴿وهذا صراط ربك مستقيما﴾ [الأنعام: ١٢٦] قال ابن عباس: يعني التوحيد.

وقال ابن مسعود: يعني القرآن.

وقال عطاء: يريد: هذا الذي أنت عليه يا محمد دين ربك مستقيما.

ومعنى استقامة صراط الله: أنه يؤدي سالكه إلى دار الخلود في النعيم.

وقوله: ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾ [الأنعام: ١٢٦] قال عطاء: يريد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قبلوا مواعظ الله تعالى وانتهوا عما نهاهم الله عنه.

قوله: ﴿لهم دار السلام﴾ [الأنعام: ١٢٧] قال الحسن، والسدي: السلام: هو الله عز وجل، وداره: الجنة.

ومعنى السلام في اسم الله تعالى: ذو السلام أي: السلامة من الآفات والنقائص.

قال الزجاج: يجوز أن تكون الجنة سميت دار السلام لأنها دار السلامة الدائمة التي لا تنقطع.

وقوله: عند ربهم أي: مضمونة لهم عند ربهم حتى يدخلوها.

وقوله: وهو وليهم أي: يتولى إيصال المنافع ودفع المضار عنهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ [الأنعام: ١٢٧] في الدنيا من الطاعات.

﴿ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم ﴿١٢٨﴾ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ﴿١٢٩﴾ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴿١٣٠﴾ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴿١٣١﴾ ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٣٢]

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ١٥٨/١

قوله: ﴿ويوم يحشرهم جميعا﴾ [الأنعام: ١٢٨] يعني: الإنس والجن يجمعون في موقف القيامة فيقال لهم: ﴿يا معشر." (١)

"ملعون.

يدل على هذا ما روى عكرمة، عن ابن عباس، قال: الشجرة المذمومة.

ومعنى في القرآن أي التي ذكرت في القرآن.

٥٤٦ - أخبرنا إسماعيل بن الحسن بن محمد بن الحسين الطبري، أنا جدي محمد بن الحسين، أنا محمد بن حمدويه المروزي، نا محمود بن آدم، نا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليلة أسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم.

رواه البخاري، عن ابن المديني، عن سفيان، ورواه الحاكم، عن محمد بن علي الصنعاني، عن الدبري، عن عبد الرزاق، عن سفيان

وقوله: ونخوفهم أي بالآيات والدلالات، فما يزيدهم التخويف، ﴿إلا طغيانا كبيرا﴾ [الإسراء: ٦٠] لأنهم لا يرجعون عن غيهم.

قوله: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ﴿٦١﴾ قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا ﴿٦٢﴾ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ﴿٦٣﴾ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴿٦٤﴾ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥] ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ [الإسراء: ٦١] الآية مفسرة فيما تقدم إلى قوله: ﴿أأسجد لمن خلقت طينا﴾ [الإسراء: ٦١] قال الزجاج: المعنى لمن خلقته طينا، وهو منصوب على الحال.

والمعنى أنك أنشأته في حال كونه من طين، واعتقد إبليس، لعنه الله، أن النار أكرم أصلا من الطين، وأنه أكرم ممن خلق من الطين، وذهب عليه بجهله أن الجواهر كلها من جنس واحد، وأن الله عز وجل يصرفها بالإعراض كيف شاء، مع كرم جوهر الطين بكثرة ما فيه من **المنافع**.

قال إبليس، ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي﴾ [الإسراء: ٦٢] أي: أرأيت هذا الذي فضلته علي، يعني

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٣٢٢/٢

آدم، والكاف في أرأيتك لا موضع لها، لأنها ذكرت في الخاطبة توكيدا، ﴿لئن أخرتن إلى يوم القيامة﴾ [الإسراء: ٦٢] أي: أخرت أجل موتي، ﴿لأحتنكن ذريته﴾ [الإسراء: ٦٢] لأستأصلنهم، ولأستولين عليهم بالإغواء والإضلال، وأصله من احتناك الجراد الزرع، وهو أن تأكله وتستأصله بأحناكها وتفسده، وهذا هو الأصل، ثم يسمى الاستيلاء على الشيء وأخذكله احتناكا، وقوله: إلا قليلا يعني المعصومين، قال ابن عباس: هم أولياء الله الذين عصمهم، وهم الذين استثنى الله في قوله: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الإسراء: ٦٥] .

قال الله تعالى لإبليس: ﴿اذهب﴾ [الإسراء: ٦٣] وهذا اللفظ يتضمن معنى إنظاره وتأخير أجله، فمن تبعك أي: أطاعك واتبع أمرك، منهم من ذرية آدم، ﴿." [1]

"والأعظم، ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾ [الحج: ٣٢] أي: فبان تعظيمها، ثم حذف المضاف لدلالة يعظم على التعظيم، وأضاف التقوى إلى القلوب، لأن حقيقة التقوى تقوى القلوب.

قوله: لكم فيها في الشعائر، منافع بركوبها وشرب لبنها إن احتاج إليه، ﴿إلى أجل مسمى﴾ [الحج: ٣٣] إلى أن ينحر، فهذا قول عطاء بن أبي رباح، ومذهب الشافعي، وعنده أن المهدي لو ركب هدية ركوبا غير فادح فلا بأس، والأكثرون من المفسرين يذهبون إلى أن المنافع من رسلها ونسلها وركوب ظهرها وأصوافها وأدبارها، إنما يكون قبل أن يسميها هديا، فإذا سماها هديا انقطعت المنافع بعد ذلك.

وهو قوله: ﴿إلى أجل مسمى﴾ [الحج: ٣٣] وبعد أن سميت هديا لا ينتفع بها غير أهل الله، والقول هو الأول لقوله تعالى: ﴿لكم فيها منافع﴾ [الحج: ٣٣] أي: في الشعائر، وقبل إيجابها لا تسمى شعائر، ولما روى أبو هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة، فقال: «اركبها» .

فقال: إنها بدنة.

فقال: «اركبها ويحك» ، أو «ويلك» .

وقوله: ثم محلها أي: حيث يحل نحرها، ﴿إلى البيت العتيق﴾ [الحج: ٣٣] يعني: عند البيت، وهو الحرم كله.

﴿ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين ﴿٣٤﴾ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴿٣٥﴾ ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥] قوله: ولكل أمة أي: جماعة مؤمنة، يعني: من الذين سلفوا،

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ١١٥/٣

جعلنا منسكا المنسك ههنا مصدر من نسك ينسك إذا ذبح القربان، قال مجاهد: يريد إراقة الدماء.
وقال عكرمة، ومقاتل: يعني ذبح.
وقرأ حمزة بكسر السين، والفتح أولى، لأن المصدر من هذا الباب بفتح العين، والمعنى: جعلنا لكل أمة أن يتقرب إلى الله بأن تذبح الذبائح، ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم﴾ [الحج: ٣٤] أي: على نحر ما رزقهم، ﴿من بهيمة الأنعام﴾ [الحج: ٣٤] وبهيمة غير الأنعام لا يحل ذبحها، ولا التقرب بها، والآية دالة على أن الذبائح ليست من خصائص هذه الأمة، وأن التسمية على الذبائح كانت مشروعة قبلنا، وقوله: ﴿فإلهكم إله واحد﴾ [الحج: ٣٤] أي: لا ينبغي أن تذكروا على ذبائحكم إلا الله وحده، فله أسلموا انقادوا وأطيعوا، وبشر المخبتين المتواضعين المطمئنين إلى الله.
﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ [الحج: ٣٥] إذا خوفوا بالله خافوا، ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ [الحج: ٣٥] من البلاء والمصائب في طاعة الله، والمقيمين الصلاة في أوقاتها، يؤدونها كما استحفظهم الله، ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ [الحج: ٣٥] قال ابن عباس: يتصدقون من الواجب وغيره.
قوله: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾ [الحج: ٣٦]." (١)

"دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ [النور: ٣٥] قوله: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ [النور: ٣٥] معنى النور في اللغة الضياء، وهو الذي يبين الأشياء ويري الأبصار حقيقة ما تراه، وورد النور في صفة الله تعالى لأنه هو الذي يهدي المؤمنين ويبين لهم ما يهتدون به من الضلالة، قال ابن قتيبة: أي بنوره يهتدي من في السموات والأرض.
وهذا معنى قول ابن عباس، والمفسرين: هادي أهل السموات والأرض.
وقوله: ﴿مثل نوره﴾ [النور: ٣٥] قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: مثل نوره الذي أعطى المؤمن.
وقال السدي: مثل نوره في قلب المؤمن.
وكذا هو في قراءة ابن مسعود، وكان أبي يقرأ مثل نور المؤمن قال: وهو عبد قد جعل الإيمان والقرآن في صدره.
﴿كمشكاة﴾ [النور: ٣٥] وهي كوة غير نافذة في قول الجميع، ﴿فيها مصباح﴾ [النور: ٣٥] يعني

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٣/٢٧١

السراج، ﴿المصباح في زجاجة﴾ [النور: ٣٥] يعني القنديل، قال الزجاج: النور في الزجاج وضوء النار أبين منه في كل شيء يزيد في الزجاج.

ثم وصف الزجاجة، فقال: ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ [النور: ٣٥] منسوب إلى أنه كالدر في صفائه وحسنه، وقرأ أبو عمرو ملك ﴿ [الدال مهموزة، وهو فعيل من الدرء بمعنى الدفع، والكوكب إذا دفع ورمي من السماء لرجم الشيطان يضاعف ضوءه، قال أبو عمرو لم أسمع أعرابيا يقول إلا: كأنه كوكب دريء بكسر الدال، أخذوه من درأت النجوم تدرأ إذا اندفعت.

وقرأ حمزة بضم الدال مهموزا، وأنكره الفراء والزجاج وأبو العباس، قالوا: هو غلط لأنه ليس في الكلام فعيل. قال الزجاج، والنحويون أجمعون: لا يعرفون الوجه في هذا لأنه ليس في كلام العرب شيء على هذا الوزن. قوله: توقد مفتوحة التاء والدال قراءة أبي عمرو وهي البينة، لأن المصباح هو الذي تـوقد، وقرئ] يوقد﴾ [سورة النور: ٣٥] بضم الياء والدال أي المصباح، وقرئ توقد أي الزجاج، والمعنى: على مصباح الزجاجة، ثم حذف المضاف.

وقوله: ﴿من شجرة مباركة﴾ [النور: ٣٥] أي: من زيت شجرة مباركة بحذف المضاف، يدلك على ذلك قوله: ﴿يكاد زيتها يضيء﴾ [النور: ٣٥] وأراد بالشجرة المباركة شجرة الزيتون، وهي كثيرة البركة، وفيها أنواع المنافع لأن الزيت يسرج به، وهو إدام ودهان ودباغ، ويوقد بحطب الزيتون، وتفله ورماده يغسل به الإبريسم، ولا يحتاج في استخراج دهنه إلى عصار.

٦٦٣ - أخبرنا محمد بن عبد الله بن محمد بن زكريا الشيباني، أنا بشر بن أحمد بن محمود، أنا أبو جعفر محمد بن موسى الحلواني، نا زهير بن محمد، أنا عبد." (١)

"﴿ولا يضار:﴾ إن كانت الراء المدغمة مفتوحة فمعناه: أن لا يشغل (١) الكاتب والشهيد عن شغلهما (٢)، وإن كانت الراء المدغمة (٣) مضمومة فمعناه: أن لا يميلا فيضرا بأحد المتعاقدين (٤).

٢٨٣ - ﴿فرهان:﴾ ارتفع لتقدير [خبر محذوف] (٥). وهو بدل عن الكتاب (٦).

وأجمعوا أن الرهن ما يأخذه الدائن من ملك المديون بحق العقد، لا يجوز أن يكون الحر والمكاتب وأم الولد مرهونا، وكذلك قولنا في المدبر.

واتفقوا أن القبض شرط في الرهن، ولذلك لم يجز (٧) رهن المشاع؛ لأنه يؤدي إلى زوال القبض بالمهايأة

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٣/٣٢٠

.(٨)

٢٨٤ - ﴿لله ما في السماوات وما في الأرض:﴾ الآية منسوخة، عن ابن عباس وابن مسعود (٦٠ ظ) وأبي هريرة وعطاء وسعيد بن جبير والحسن (٩). وهذا يدل على جواز نسخ الوعيد على ما سبق من وجوه النسخ.

فإن قيل: هل كان يجوز قبل النسخ تكليف ما لا يطاق؟ قلنا: هو على وجهين: تكليف ما لا يتوصل (١٠) إليه إلا بطلب النفس، وهو جائز عقلا وشرعا لجواز طلب الحق إذا كان وجوده مرجوا من غير إلهام (١١) النفس كقوله: ﴿ولو أنا (١٢)﴾ كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم، الآية [النساء:٦٦]، والآخر تكليف ما لا يتوصل إليه بوجه ما، وهو جائز على وجه العقاب والعدوان دون التعبد (١٣)، قال الله تعالى: ﴿سأرهقه صعودا﴾ [المدثر:١٧]، وقال صلى الله عليه وسلم: (من

---

(١) في ك: يشتغل.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ١٨٧، وتفسير غريب القرآن ١٠٠، ومعاني القرآن وإعرابه ١/ ٣٦٦.

(٣) (مفتوحة. . . المدغمة) ساقطة من ع. وقرأ بضم الراء ابن محيصن، ينظر: البحر المحيط ٢/ ٣٧٠، وإتحاف فضلاء البشر ٢١٣ - ٢١٤.

(٤) ينظر: تفسير الطبري ٣/ ١٨٢ - ١٨٣، والوجيز ١/ ١٩٥، والبحر المحيط ٢/ ٣٧٠.

(٥) يقتضيها السياق. وينظر: مشكل إعراب القرآن ١/ ١٤٦، وتفسير القرطبي ٣/ ٤٠٨.

(٦) يريد أنه يصار إليه إن لم تكن كتابة الدين ممكنة. وينظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٤٥.

(٧) في الأصل وع: يجوز، وفي ك: لا يجوز. وينظر: تفسير البغوي ١/ ٢٧٠، والقرطبي ٣/ ٤١٠ - ٤١١.

(٨) المهايأة: أمر يتهايأ القوم فيتراضون به"، العباب الزاخر ٢٠٥ (هيأ)، أو هي: "قسمة المنافع على التعاقب والتناوب"، التعريفات ٣٠٣.

(٩) ينظر: تفسير مجاهد ١/ ١١٨، والطبري ٣/ ١٩٣ - ١٩٩، والنكت والعيون ١/ ٢٩٨ - ٢٩٩.

(١٠) في ك: يتصل.

(١١) في ع: إلمام.

(١٢) ليس في ك.

(١٣) ينظر: تفسير القرطبي ٣/ ٤٣٠، والجواهر الحسان ١/ ٥٥٨.." [(١)]

"﴿أوزارهم:﴾ جمع وزر، وهو الثقل المثقل للظهر، وقد وزر إذا أكمل الثقل فهو وازر (١).

و ﴿ما:﴾ صلة (٢)، وقيل (٣): تقدير اسم نكرة.

٣٢ - ﴿وما الحياة الدنيا:﴾ أي: الحياة المقصورة على الاشتغال **بالمنافع** العاجلة لا حياة من يكسب الآخرة بإذن الله (٤).

و (اللهو): أشد من اللعب، وهو ما يلهيك عما يعنيك، تقول: لهوت إذا (٥) لعبت، ولهيت إذا غفلت (٦).

وإنما خص بأن الآخرة للمتقين خير من الدنيا؛ لأن الأطفال والمجانين تبع للمتقين غير منفردين بالحكم.

٣٤ - ﴿حتى أتاهم نصرنا:﴾ غاية الصبر (٧).

و (الإيذاء) (٨): الإصابة بالمكروه من قول أو فعل (٩).

ومما لا يبدل قوله: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين (١٧١) إنهم لهم المنصورون﴾ (١٧٢) [الصافات:١٧١ - ١٧٢]، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم (١٠).

٣٥ - ﴿كبر عليك:﴾ "عظم عليك" (١١).

﴿إعراضهم:﴾ أي: شأن كفرهم (١٢).

وهذا شرط، وجوابه: ﴿فإن استطعت﴾ مع جزاء مضمر، أي: فافعل (١٣).

﴿نفقا:﴾ "سربا" (١٤).

---

(١) ينظر: معاني القرآن الكريم ٢/ ٤١٦، وتفسير القرطبي ٦/ ٤١٣.

(٢) على أن ساء بمعنى بئس، ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٥٧، والمجيد ٣٢٥ (تحقيق: د. عبد الرزاق الأحبابي).

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٣٧٢/١

(٣) ينظر: الكشاف ٢/ ١٧، والبيان في غريب إعراب القرآن ١/ ٣١٩، والتبيان في إعراب القرآن ١/ ٤٩٠.

(٤) ينظر: مجمع البيان ٤/ ٤٠ - ٤١، وتفسير القرطبي ٦/ ٤١٤ - ٤١٥.

(٥) (لهوت إذا) ساقطة من ب.

(٦) ينظر: تفسير القرطبي ٦/ ٤١٤، والبحر المحيط ٤/ ١١٣.

(٧) ينظر: البحر المحيط ٤/ ١١٧.

(٨) في ع وب: والأيد. والمراد قوله في الآية نفسها: وأوذوا.

(٩) ينظر: لسان العرب ١٤/ ٢٧ (أذي).

(١٠) ينظر: الكشاف ٢/ ١٩، والتفسير الكبير ١٢/ ٢٠٦، والبحر المحيط ٤/ ١١٧.

(١١) (عظم عليك) ساقطة من ك. وينظر: تفسير الطبري ٧/ ٢٤٢، ومعاني القرآن وإعرابه 2/ ٢٤٣، وتفسير القرآن الكريم ٣/ ٢٢٣.

(١٢) ينظر: تفسير القرآن الكريم ٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤، والتبيان في تفسير القرآن ٤/ ١٢٣، وزاد المسير ٣/ ٢٤.

(١٣) ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٣٣١ - ٣٣٢، وللأخفش ٢/ ٤٨٨، والمجيد ٥٠ (تحقيق: د. إبراهيم الدليمي).

(١٤) تفسير الطبري ٧/ ٢٤٢، وتفسير القرآن الكريم ٣/ ٢٢٤، والوجيز ١/ ٣٥١.." [١]

"[١]

١٦ - فائدة قوله: ﴿قل من رب السماوات والأرض:﴾ الإفحام. وفائدة الإتيان بالجواب هو الإثبات بعد الزوال، أو بمعنى الاستفهام، وهو متصل بما مضى.

﴿شركاء خلقوا كخلقه:﴾ أي: خالقين مثله.

﴿فتشابه الخلق عليهم:﴾ أي: التبس عليهم أقسام المخلوقات، فأوجب ذلك الالتباس عبادتهم، وإشراكهم بالله.

﴿قل الله خالق كل شيء:﴾ أخبرنا من طريق الوحي: أنه خالق الظلمات والنور، **والمنافع** والمضار، والخير والشر، والحسن والقبيح، والصامت والناطق، وهو خالق أفعال العباد من الطاعة (٢) والمعصية، (١٧٣ و)

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٦٠٥/١

والمباح والمضطر إليه، وما يخطر ببالهم، لا خالق على سبيل الابتداء والإيجاد إلا هو الله (٣) الواحد القهار.

١٧ - ﴿أودية:﴾ جمع واد، كناد وأندية.
﴿بقدرها﴾ (٤): بمقدارها الذي يسعه، ويحتمله.
﴿السيل:﴾ ما يسيل من الماء فوق عادته.
﴿زبدا رابيا:﴾ فالزبد: ما يجتمع على وجه الماء (٥) من الوسخ والدرن. والربو: النمو، ونما الزبد بانتفاخه وطفوه.
﴿ومما يوقدون (٦)﴾ عليه في النار: واو الاستئناف، أي: ومن الأشياء التي يذيبونها بالنار؛ ليتخذوا منها حليا وأمتعة زبدا مثل: زبد الهليل.
﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل:﴾ أي: المثل الحق، والمثل الباطل.
﴿فأما الزبد فيذهب جفاء:﴾ أي: كل واحد من الزبدين يزول على وجه ما تريد عليه متلاشيا، فيصفوا ما تحته، كما تصحو السماء إذا انقشع عنها الغيم.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣٠٦١) و (٤٨٤٧)، والإمام أحمد في المسند، والدارمي (١٤٦١)، والبزار في مسنده (٣٩٠٣).
(٢) ع: الطاغية.
(٣) لفظ الجلالة في ك غير موجود.
(٤) ك: مقدارها.
(٥) (فوق عادته. . . وجه الماء)، ساقطة من أ.
(٦) ع وك: (توقدون) على قراءة ابن عامر ونافع وعاصم من رواية أبي بكر، ينظر: السبعة ٣٥٨، والتذكرة في القراءات ٣١٨، والرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة ٤٦٩.." [1]
"٣٧ - ﴿يصطرخون﴾ (١): يستغيثون، افتعال من الصراخ. (٢)
والقول مضمر عند قوله: ﴿أولم نعمركم.﴾ (٣)

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ١٥٢/٢

٣٧ - عن مجاهد (٢٧٤ و) قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ [الأحقاف:١٥]؟ قال: ما بين الثلاث والثلاثين إلى الأربعين (٤)، وسأله (٥) عن العمر الذي عبر به: ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر؟﴾ قال: ستون سنة، (٦) وسألته عن قوله:
﴿وجاءكم النذير؟﴾ قال: الشيب. (٧) عن أبي هريرة، عنه عليه السلام: «من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله إليه» (٨).

٤٢ - ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم:﴾ قال الكلبي: المراد بـ ﴿إحدى الأمم﴾ هاهنا:
اليهود والنصارى، لما سمع مشركو قريش بقتل أنبيائهم، وباختلاف النصارى في المسيح، فقالوا:
لعن الله اليهود والنصارى، والله لئن أتانا رسول لكنا أهدى منهم. (٩) وإنما كانت اليهود والنصارى إحدى الأمم؛ لأنهم جميعا أولاد إسحاق عليه السلام، أو خصت قريش إحدى القبيلتين: إما اليهود، وإما النصارى.

٤٣ - ﴿ومكر السيئ:﴾ إضافته كإضافة الحق إلى اليقين. (١٠)

٤٥ - ﴿ولو يؤاخذ الله الناس:﴾ المراد بالمؤاخذة المعالجة بالعقوبة، والوجه في إهلاك كل دابة على ظهر الأرض عند مؤاخذة الناس. (١١)
﴿بما كسبوا:﴾ إنما هو كون دواب الأرض كلها لمنافع (١٢) بني آدم واعتبارهم بها لا

---

(١) ع: يسطرخون.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٢٧١، وتأويلات أهل السنة ٤/ ١٨٤، والكشاف ٣/ ٦٢٤، والمحرر الوجيز ١٢/ ٢٥٥.
(٣) الكشاف ٣/ ٦٢٥، والمحرر الوجيز ١٢/ ٢٥٥.
(٤) ع: الآن يعني. وينظر: معاني القرآن ٦/ ٤٤٨.
(٥) أ: وساده.
(٦) ينظر: تفسير الصنعاني ٣/ ١٣٨، وتفسير السمرقندي ٣/ ١٠٥.
(٧) ينظر: تفسير مجاهد ٥٣٢.

(٨) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٧٠، والبخاري في الصحيح (٦٤١٩)، والبيهقي في السنن ٣/ ٣٧٠.

(٩) ينظر: الكشاف ٣/ ٦٢٥ من غير نسبة.

(١٠) ينظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧١ عند تفسير قوله تعالى: إن هذا لهو حق اليقين (٩٥) [الواقعة:٩٥].

(١١) ينظر: تأويلات أهل السنة ٤/ ١٨٩.

(١٢) أ: **المنافع**.." [1]

"محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب. (١)

٩ - وعن عكرمة، عن (٢) ابن عباس في قوله: ﴿أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ قال: خلق الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين، وجعل فيها رواسي، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، قال: شق الأنهار، وغرس الأشجار، ووضع الجبال، وجعل فيها **المنافع** يوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء قدر الأقوات ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات في يومين﴾ [فصلت:١٢ - ١٣]:

يوم الخميس ويوم الجمعة، فمن شاء سألك في كم خلقت السماوات والأرض؟ فقل: في ستة أيام.

٨ - ﴿غير ممنون:﴾ مقطوع، (٣) من قولهم: حبل متين، أو منقوص (٤) من قوله: ﴿ريب المنون﴾ [الطور:٣٠]، أو منغص (٥) بتذكره وبعده (٦) من قوله: ﴿وتلك نعمة تمنها علي﴾ [الشعراء:٢٢].

١٦ - ﴿نحسات:﴾ ضد سعود. (٧)

١٧ - ﴿فهديناهم:﴾ أراد هداية الدلالة والتمكين، دون الإرشاد، وخلق الاهتداء (٨) كقوله: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد:١٠]. (٩)

٢٢ - وعن ابن مسعود وقال: اختصم عند البيت ثلاث: قريشيان وثقفي، أو ثقفيان وقريشي قليل فقه قلوبهم، وكثير شحم بطونهم، وقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال آخر: يسمع إن جهرنا، ولا

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٢/٤٩٣

يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا، فهو يسمع إن أخفينا (١٠)، فأنزل الله: ﴿وما كنتم تستترون﴾ الآية. (١١)

---

(١) أخرجه ابن معين في التاريخ ٣/ ٥٤، والبيهقي في الدلائل ١/ ٢٠٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٨/ ٢٤٢.

(٢) ع: في، وفي أ: بن، وهو خطأ.

(٣) ياقوتة الصراط ٤٥٣، والتبيان في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٠، والقاموس المحيط ١/ ١٥٩٤.

(٤) غريب الحديث للهروي ١/ ٩٢، وإيجاز البيان عن معاني القرآن ٢/ ٧٢٧، ووضح البرهان في مشكلات القرآن ٢/ ٢٦٥.

(٥) (منقوص. . . أو منغص)، ساقط من ع.

(٦) ينظر: التبيان في أقسام القرآن ٣١.

(٧) ينظر: الكشاف ٤/ ١٩٩، والتفسير الكبير ٩/ ٥٥٣، والبحر المحيط ٩/ ٢٩٧ عن ابن عباس وغيره.

(٨) ع: الهدا.

(٩) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥، وتفسير غريب القرآن ٣٨٨، والتفسير الكبير ٩/ ٥٥٤.

(١٠) (وقال الآخر: إن. . . يسمع إن أخفينا)، ساقط من ع.

(١١) أخرجه البخاري في الصحيح (٤٨١٦)، ومسلم في الصحيح (٢٧٧٥)، والترمذي في السنن (٣٢٤٨).." [١]

"قوله: "الحمد لله" حمد الله نفسه تعليما لعباده، أي: احمدوا الله الذي خلق السموات والأرض، خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، وفيهما العبر **والمنافع** للعباد، ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ والجعل بمعنى الخلق، قال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان، إلا في هذه الآية فإنه يريد بهما الليل والنهار.

وقال الحسن: وجعل الظلمات والنور يعني الكفر والإيمان، وقيل: أراد بالظلمات الجهل وبالنور العلم.

وقال قتادة: يعني الجنة والنار.

وقيل: معناه خلق الله السموات والأرض، وقد جعل الظلمات والنور، لأنه خلق الظلمة والنور قبل السموات

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٥٤٥/٢

والأرض.
قال قتادة: خلق الله السموات قبل الأرض، والظلمة قبل النور، والجنة قبل النار، وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل" (١) .
﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ أي: ثم الذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يعدلون، أي: يشركون، وأصله من مساواة الشيء بالشيء، ومنه العدل، أي: يعدلون بالله غير الله تعالى، يقال: عدلت هذا بهذا إذا ساويته، وبه قال النضر بن شميل، الباء بمعنى عن، أي: عن ربهم يعدلون، أي يميلون وينحرفون من العدول، قال الله تعالى (عينا يشرب بها عباد الله) أي: منها.
وقيل: تحت قوله "ثم الذين كفروا بربهم يعدلون" معنى لطيف، وهو مثل قول القائل: أنعمت عليكم بكذا وتفضلت عليكم بكذا، ثم تكفرون بنعمتي.
﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون (٢) وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون (٣) ﴾
قوله عز وجل: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ يعني آدم عليه السلام، خاطبهم به إذ كانوا من

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب افتراق هذه الأمة: ٧ / ٤٠١، وقال: هذا حديث حسن. وصححه ابن حبان ص (٤٤٩) والحاكم: ١ / ٣٠،٣١. وأخرجه الإمام أحمد: ٢ / ١٧٦، ١٩٧. قال الهيثمي: رواه أحمد بإسنادين، والبزار والطبراني، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات. مجمع الزوائد: ٧ / ١٩٤. وذكره الخطيب في مشكاة المصابيح: ١ / ٣٧ وصححه الألباني.." [1]
"﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون (١٧٩) ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون (١٨٠) ﴾
﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾ أخبر الله تعالى أنه خلق كثيرا من الجن والإنس للنار، وهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة، ومن خلقه الله لجهنم فلا حيلة له في الخلاص منها.
أخبرنا أبو بكر يعقوب بن أحمد بن محمد بن علي الصيرفي، أنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي،

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ١٢٦/٣

أنا أحمد بن محمد بن أبي حمزة البلخي، حدثنا موسى بن محمد بن الحكم الشطوي، حدثنا حفص بن غياث، عن طلحة بن يحيى، عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت: أدرك النبي صلى الله عليه وسلم جنازة صبي من صبيان الأنصار، فقالت عائشة: طوبى له عصفور من ءاصفير الجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما يدريك؟ إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم" (١) . وقيل: اللام في قوله "لجهنم" لام العاقبة، أي: ذرأناهم، وعاقبة أمرهم جهنم، كقوله تعالى: "فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا" (القصص ٨) ، ثم وصفهم فقال: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أي لا يعلمون بها الخير والهدى. ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ طريق الحق وسبيل الرشاد، ﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ مواعظ القرآن فيتفكرون فيها ويعتبرون بها، ثم ضرب لهم مثلا في الجهل والاقتصار على الأكل والشرب، فقال: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ أي: كالأنعام في أن همتهم في الأكل والشرب والتمتع بالشهوات، بل هم أضل لأن الأنعام تميز بين المضار **والمنافع**، فلا تقدم على المضار، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة، مع العلم بالهلاك، ﴿أولئك هم الءافلون﴾

قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ قال مقاتل: وذلك أن رجلا دعا الله في صلاته ودعا الرحمن، فقال بعض مشركي مكة: إن محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه يدعون (٢) أنهم يعبدون ربا

---

(١) أخرجه مسلم في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ... برقم (٢٦٦٢) : ٤ / ٢٠٥٠، والمصنف في شرح السنة: ١ / ١٤١.

(٢) في "ب": (يزعمون) .." [1]

"﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم (٧) ﴾

﴿خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون﴾ أي: ارتفع عما يشركون. ﴿خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم﴾ جدل بالباطل، ﴿مبين﴾

نزلت في أبي بن خلف الجمحي، وكان ينكر البعث جاء بعظم رميم فقال: أتقول إن الله تعالى يحيي هذا بعدما قد رم؟ كما قال جل ذكره "وضرب لنا مثلا ونسي خلقه" (يس-٧٧) ، نزلت فيه أيضا (١) .

والصحيح أن الآية عامة، وفيها بيان القدرة وكشف قبيح ما فعلوه، من جحد نعم الله مع ظهورها عليهم (٢) . قوله تعالى ﴿والأنعام خلقها﴾ يعني الإبل والبقر والغنم، ﴿لكم فيها دفء﴾ يعني: من أوبارها وأشعارها

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٣/٣٠٦

وأصوافها ملابس ولحفا تستدفئون بها، ﴿ومنافع﴾ بالنسل والدر والركوب والحمل وغيرها، ﴿ومنها تأكلون﴾ يعني لحومها. ﴿ولكم فيها جمال﴾ زينة، ﴿حين تريحون﴾ أي: حين تردونها بالعشي من مراعيها إلى مباركها التي تأوي إليها، ﴿وحين تسرحون﴾ أي: تخرجونها بالغداة من مراحها إلى مسارحها، وقدم الرواح لأن **المنافع** تؤخذ منها بعد الرواح، ومالكها يكون أعجب بها إذا راحت. ﴿وتحمل أثقالكم﴾ أحمالكم، ﴿إلى بلد﴾ آخر غير بلدكم. قال عكرمة: البلد مكة، ﴿لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ أي: بالمشقة والجهد. والشق: النصف أيضا أي: لم تكونوا بالغيه

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص (٣٢٢) ، القرطبي: ١٠ / ٦٧، زاد المسير: ٤ / ٤٢٨.

(٢) وهذا ما رجحه الطبري حيث قال: " عنى بالإنسان: جميع الناس، أخرج بلفظ الواحد، وهو في معنى الجميع"، وإليه مال ابن عطية في تفسيره. ويدخل سبب النزول المذكور في معنى الآية وتبقى هي أعم. انظر: الطبري: ١٤ / ٧٨، المحرر الوجيز: ٨ / ٣٧٠.." [١]

"إلا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها.

وقرأ أبو جعفر ﴿بشق﴾ بفتح الشين، وهما لغتان، مثل: رطل ورطل.

﴿إن ربكم لرءوف رحيم﴾ بخلقه حيث جعل لهم هذه **المنافع**.

﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٨) ﴾

﴿والخيل﴾ يعني: وخلق الخيل، وهي اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والنساء، ﴿والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ يعني وجعلها زينة لكم مع **المنافع** التي فيها.

واحتج بهذه الآية من حرم لحوم الخيل، وهو قول ابن عباس، وتلا هذه الآية، فقال: هذه للركوب [وإليه ذهب] (١) الحكم، ومالك، وأبو حنيفة.

وذهب جماعة إلى إباحة لحوم الخيل، وهو قول الحسن، وشريح، وعطاء، وسعيد بن جبير، وبه قال الشافعي، وأحمد، وإسحاق (٢) .

ومن أباحها قال: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم بل المراد منه تعريف الله عباده نعمه وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته، واحتجوا بما:

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن

---

(١) تفسير البغوي – طيبة البغوي ، أبو محمد ٩/٥

إسماعيل، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد عن عمرو -هو ابن دينار-عن محمد بن علي، عن جابر رضي الله عنه قال: "نهى النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر ورخص في لحوم الخيل". (٣) .

أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، أخبرنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي، أخبرنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ، حدثنا الحسن بن الفرج، حدثنا عمرو بن خالد، حدثنا عبد الله بن عبد الكريم، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر: أنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) .

---

(١) في "ب": وهو قول.

(٢) انظر بالتفصيل: أحكام القرآن للجصاص: ٥ / ٢-٤، أحكام القرآن لابن العربي: ٣ / ١١٤٤-١١٤٧، أحكام القرآن للهراس الطبري: ٤/١٧٠، تفسير القرطبي: ١٠ / ٧٦-٧٩.

(٣) أخرجه البخاري في الصيد والذبائح، باب لحوم الخيل: ٩ / ٦٤٨، ومسلم في الصيد والذبائح، باب في أكل لحوم الخيل، برقم (١٩٤١) : ٣ / ١٥٤١. وأخرجه المصنف في شرح السنة: ١١ / ٢٥٤.

(٤) أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب في أكل لحوم الخيل: ٥ / ٣٠٨، والترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في لحوم الخيل: ٥ / ٥٠٥، والنسائي في الصيد والذبائح، باب الإذن في أكل لحوم الخيل: ٧ / ٢٠٢، وابن ماجه في الذبائح، باب لحوم البغال، برقم (٣١٩١) : ٢ / ١٠٦٤، والطحاوي في شرح معاني الآثار: ٢ / ٣٢٢، والحاكم في المستدرك: ٤ / ٢٣٥، والإمام أحمد في المسند: ٣ / ٣٥٦، والمصنف في شرح السنة: ١١ / ٢٥٦. وأصل الحديث في الصحيحين، وانظر: نصب الراية: ٤ / ١٩٧، تلخيص الحبير: ٤ / ١٥٠.." (١)

"﴿وسلك لكم فيها سبلا﴾ [السلك: إدخال الشيء في الشيء، والمعنى: أدخل في الأرض لأجلكم طرقا تسلكونها] (١) قال ابن عباس: سهل لكم فيها طرقا تسلكونها.

﴿وأنزل من السماء ماء﴾ يعني: المطر.

تم الإخبار عن موسى، ثم أخبر الله عن نفسه بقوله: ﴿فأخرجنا به﴾ بذلك الماء ﴿أزواجا﴾ أصنافا، ﴿من نبات شتى﴾ مختلف الألوان والطعوم **والمنافع** من بين أبيض وأحمر وأخضر وأصفر، فكل صنف منها

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٥/١٠

زوج، فمنها للناس ومنها للدواب.

﴿كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى (٥٤) منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (٥٥) ﴾

﴿كلوا وارعوا﴾ [أي وارتعوا] (٢) ﴿أنعامكم﴾ تقول العرب: رعيت الغنم فرعت، أي: أسيموا أنعامكم ترعى. ﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكرت، ﴿لآيات لأولي النهى﴾ لذوي العقول، واحدتها: "نهية سميت نهية لأنها تنهى صاحبها عن القبائح والمعاصي.

قال الضحاك: ﴿لأولي النهى﴾ الذين ينتهون عما حرم عليهم.

ق ا ل قتادة: لذوي الورع. ﴿منها﴾ أي من الأرض، ﴿خلقناكم﴾ يعني أباكم آدم.

وقال ١٢/ب عطاء الخراساني (٣) إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق الله من التراب ومن النطفة (٤) فذلك قوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ أي:

---

(١) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(٢) ساقط من "أ".

(٣) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر. انظر: الدر المنثور: ٥ / ٥٨٤. قال الشيخ الشنقيطي في "أضواء البيان": (٥ / ٥٢٤) وهذا القول خلاف التحقيق، لأن القرآن يدل على أن مرحلة النطفة بعد مرحلة التراب بمهلة؛ فهي غير مقارنة لها، بدليل الترتيب بينهما بـ "ثم" في قوله تعالى: "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة".

(٤) قال الطبري: (١٦ / ١٧٥) : من الأرض خلقناكم أيها الناس، فأنشأناكم أجساما ناطقة، وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم فنصيركم ترابا، كما كنتم قبل إنشائنا لكم، بشرا سويا.." (١)

"الأمهات: لبيك اللهم لبيك (١) قال ابن عباس: فأول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجا. وروي أن إبراهيم صعد أبا قبيس ونادى (٢) . وقال ابن عباس عني بالناس في هذه الآية أهل القبلة، وزعم الحسن أن قوله: "وأذن في الناس بالحج" كلام مستأنف وأن المأمور بهذا التأذين محمد صلى الله عليه وسلم أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع.

وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا" (٣)

---

(١) تفسير البغوي – طيبة البغوي ، أبو محمد ٢٧٨/٥

.

قوله تعالى: ﴿يأتوك رجالا﴾ مشاة على أرجلهم جمع راجل، مثل قائم وقيام وصائم وصيام، ﴿وعلى كل ضامر﴾ أي: ركبانا على كل ضامر، والضامر: البعير المهزول. ﴿يأتين من كل فج عميق﴾ أي: من كل طريق بعيد، وإنما جمع "يأتين" لمكان كل وإرادة النوق.

﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير (٢٨) ﴾

﴿ليشهدوا﴾ ليحضروا، ﴿منافع لهم﴾ قال سعيد بن المسيب، ومحمد بن علي الباقر: العفو والمغفرة. وقال سعيد بن جبير: التجارة، وهي رواية ابن زيد عن ابن عباس، قال: الأسواق. وقال مجاهد: التجارة وما يرضى الله به من أمر الدنيا والآخرة (٤) . ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾ يعني عشر ذي الحجة في قول أكثر المفسرين. قيل لها "معلومات" للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها. ويروى عن علي ٢٦/أرضي الله عنه: أنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده، وفي رواية عطاء عن ابن عباس أنها يوم عرفة والنحر وأيام التشريق. وقال مقاتل: المعلومات أيام التشريق (٥) . ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ يعني: الهدايا، والضحايا، تكون من النعم،

---

(١) انظر الطبري: ١٧ / ١٤٤.

(٢) عزاه السيوطي: ٦ / ٣٥ لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) اخرجه مسلم في الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر برقم: (١٣٣٧) ٢ / ٩٧٥ والمصنف في شرح السنة: ٧ / ٣.

(٤) ذكر هذه الأقوال الطبري: ١٧ / ١٤٦ - ١٤٧ ثم قال مرجحا: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: عني بذلك: ليشهدوا منافع لهم من العمل الذي يرضي الله والتجارة، وذلك أن الله عم لهم منافع جميع ما يشهد له الموسم، ويأتي له مكة أيام الموسم من منافع الدنيا والآخرة، ولم يخصص من ذلك شيء من منافعهم بخبر ولا عقل، فذلك على العموم في **المنافع** التي وصفت.

(٥) سبق تخريج هذه الأقوال في المجلد الأول صفحة (٢٣٤) هامش (١) .." [1]

---

(١) تفسير البغوي – طيبة البغوي ، أبو محمد ٣٧٩/٥

"﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين (٩) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين (١٠) ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (١١) ﴾

قوله عز وجل: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ يوم الأحد والاثنين، ﴿وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين﴾ .

﴿وجعل فيها﴾ أي في الأرض، ﴿رواسي﴾ جبالا ثوابت، ﴿من فوقها﴾ من فوق الأرض، ﴿وبارك فيها﴾ أي: في الأرض، بما خلق فيها من البحار والأنهار والأشجار والثمار، ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ قال الحسن ومقاتل: قسم في الأرض أرزاق العباد والبهائم. وقال عكرمة والضحاك: قدر في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد (١) . قال الكلبي: قدر الخبز لأهل قطر، والتمر لأهل قطر، والذرة لأهل قطر، والسمك لأهل قطر، وكذلك أقواتها. ﴿في أربعة أيام﴾ يريد خلق ما في الأرض، وقدر الأقوات في يومين يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع الأحد والاثنين أربعة أيام، رد الآخر على الأول في الذكر، كما تقول: تزوجت أمس امرأة واليوم ثنتين، وإحداهما هي التي تزوجتها بالأمس، ﴿سواء للسائلين﴾ قرأ أبو جعفر "سواء" رفع على الابتداء، أي: هي سواء [وقرأ يعقوب بالجر على نعت قوله: "في أربعة أيام"، وقرأ الآخرون "سواء"] (٢) نصب على المصدر، أي: استوت سواء أي: استواء، ومعناه: سواء للسائلين عن ذلك. قال قتادة والسدي: من سأل عنه فهكذا الأمر سواء لا زيادة ولا نقصان جوابا لمن سأل: في كم خلقت الأرض والأقوات؟

﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي: عمد إلى خلق السماء، ﴿وهي دخان﴾ وكان ذلك الدخان بخار الماء، ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها﴾ أي: ائتيا ما آمركما أي: افعلاه، كما يقال: ائت ما هو الأحسن، أي: افعله.

وقال طاووس عن ابن عباس: ائتيا: أعطيا (٣) ، يعني أخرجا ما خلقت فيكما من **المنافع** لمصالح العباد.

---

(١) انظر: القرطبي: ١٥ / ٣٤٢-٣٤٣.

(٢) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(٣) أخرجه الطبري: ٢٤ / ٩٨-٩٩.." [١]

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٧/١٦٥

"بها أهل البوادي والأسفار، فإن منفعتهم بها أكثر من منفعة المقيم وذلك أنهم يوقدونها ليلا لتهرب منهم السباع ويهتدي بها الضلال وغير ذلك من **المنافع**، هذا قول أكثر المفسرين.

وقال مجاهد وعكرمة: "للمقوين" يعني للمستمتعين بها من الناس أجمعين، المسافرين والحاضرين، يستضيئون بها في الظلمة ويصطلون من البرد، وينتفعون بها في الطبخ والخبز.

قال الحسن: بلغة للمسافرين، يتبلغون بها إلى أسفارهم، يحملونها في الخرق والجواليق.

وقال ابن زيد: للجائعين تقول العرب: أقويت منذ كذا وكذا أي: ما أكلت شيئا.

قال قطرب: "المقوي" من الأضداد، يقال للفقير: مقو لخلوه من المال، ويقال للغني: مقو، لقوته على ما يريد، يقال: أقوى الرجل إذا قويت دوابه وكثر ماله، وصار إلى حالة القوة. والمعنى أن فيها متاعا للأغنياء والفقراء جميعا لا غنى لأحد عنها.

﴿فسبح باسم ربك العظيم (٧٤) فلا أقسم بمواقع النجوم (٧٥) وإنه لقسم لو تعلمون عظيم (٧٦) ﴾." (١)

"وقال آخرون: نزه تسمية ربك، بأن تذكره وأنت له معظم، ولذكره محترم [ولأوامره مطاوع] (١) وجعلوا الاسم بمعنى التسمية.

وقال ابن عباس: سبح [اسم ربك الأعلى] (٢) أي: صل بأمر ربك الأعلى.

﴿الذي خلق فسوى (٢) والذي قدر فهدى (٣) والذي أخرج المرعى (٤) فجعله غثاء أحوى (٥) ﴾

﴿الذي خلق فسوى﴾ قال الكلبي: خلق كل ذي روح، فسوى اليدين والرجلين والعينين. وقال الزجاج: خلق الإنسان مستويا، ومعنى "سوى" عدل قامته.

﴿والذي قدر فهدى﴾ قرأ الكسائي: "قدر" بتخفيف الدال، وشددها الآخرون، وهما بمعنى واحد.

وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراتعها.

وقال مقاتل والكلبي: قدر لكل شيء مسلكه، "فهدى" عرفها كيف يأتي الذكر الأنثى.

وقيل: قدر الأرزاق وهدى لاكتساب الأرزاق والمعاش.

وقيل: خلق **المنافع** في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها.

وقال السدي: قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج من الرحم.

قال الواسطي: قدر السعادة والشقاوة عليهم، ثم يسر لكل واحد من الطائفتين سلوك [سبيل] (٣) ما قدر

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٢٢/٨

عليه.

﴿والذي أخرج المرعى﴾ أنبت العشب وما ترعاه [النعم] (٤) من بين أخضر وأصفر وأحمر وأبيض.

﴿فجعله﴾ بعد الخضرة ﴿غثاء﴾ هشيما باليا، كالغثاء الذي تراه فوق السيل. ﴿أحوى﴾ أسود بعد الخضرة، وذلك أن الكلأ إذا جف ويبس اسود.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(٢) ما بين القوسين ساقط من "ب".

(٣) ساقط من "أ".

(٤) في "أ" الغنم.." [1]

"وإذا قيل لهم معطوف على يكذبون. ويجوز أن يعطف على: (يقول آمنا) لأنك لو قلت: ومن الناس من إذا قيل لهم لا تفسدوا، كان صحيحا، والأول أوجه.

والفساد: خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعا به، ونقيضه الصلاح، وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة. والفساد في الأرض: هيج الحروب والفتن، لأن في ذلك فساد ما في الأرض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع **والمنافع** الدينية والدنيوية.

قال الله تعالى: (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) ، (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) . ومنه قيل لحرب كانت بين طيء: حرب الفساد. وكان فساد المنافقين في الأرض. أنهم كانوا يمايلون الكفار ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم علتهم، وذلك مما يؤدى إلى هيج الفتن بينهم، فلما كان ذلك من صنيعهم مؤديا إلى الفساد قيل لهم: لا تفسدوا، كما تقول للرجل: لا تقتل نفسك بيدك، ولا تلق نفسك في النار، إذا أقدم على ما هذه عاقبته. و «إنما» لقصر الحكم على شيء، كقولك: إنما ينطق زيد، أو لقصر الشيء على حكم كقولك: إنما زيد كاتب. ومعنى إنما نحن مصلحون أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد. وألا مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي، لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقا كقوله: (أليس ذلك بقادر) ؟ ولكونها في هذا المنصب من التحقيق، لا تكاد تقع

---

(١) تفسير البغوي – طيبة البغوي ، أبو محمد ٨/٤٠٠

الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم. وأختها التي هي «أما» من مقدمات اليمين وطلائعها:." (١)

"أحسن وأنبل وأفخم «١» من أن يكون بيانا واحدا. ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو بابا من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأهز لعطفه، وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله. ومثله المسافر، إذا علم أنه قطع ميلا، أو طوى فرسخا، أو انتهى إلى رأس بريد: نفس ذلك منه ونشطه للسير. ومن ثم جزأ القراء القرآن أسباعا وأجزاء وعشورا وأخماسا. ومنها أن الحافظ إذا حذق السورة «٢» ، اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة، فيعظم عنده ما حفظه، ويجل في نفسه ويغتبط به.

ومنه حديث أنس رضى الله عنه: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران، جد فينا «٣» » ومن ثمة كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل. ومنها أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض. وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم، إلى غير ذلك من الفوائد **والمنافع** من مثله متعلق بسورة صفة لها أى بسورة كائنة من مثله. والضمير لما نزلنا «٤» ، أو لعبدنا. ويجوز أن يتعلق بقوله: (فأتوا) والضمير للعبد. فإن قلت: وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل؟ قلت: معناه فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة في حسن النظم. أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشرا عربيا أو أميا لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء، ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك. ولكنه نحو قول القبعثرى للحجاج- وقد قال له: لأحملنك على الأدهم-: مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب. أراد

---

(١) . قوله «وأنبل وأفخم» أى أفضل وأعظم. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) . قوله «إذا حذق السورة» حذق الشيء، أى مهر فيه. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) . هذا طرف من حديث أخرجه أحمد وابن أبى شيبة قال: حدثنا يزيد بن هارون عن حميد عن أنس رضى الله عنه «أن رجلا كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم وقد قرأ البقرة وآل عمران، وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا- أى عظم: الحديث» . وأخرجه ابن حبان من هذا الوجه بلفظ «عد فينا ذو شأن» وقد ذكره الجوهري في الصحاح من حديث أنس رضى الله عنه بلفظ المصنف. وأصله عند البخاري من رواية عبد العزيز ابن صهيب. وعند مسلم في رواية ثابت، كلاهما عن أنس دون القدر الذي اقتصر عليه

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦٢/١

المصنف. ولم يصب الطيبي في عزوه له إلى الصحيحين. وعزاه الزمخشري في تفسير الجن إلى رواية عمر رضى الله عنه أيضا كما سيأتى.

(٤) . قال محمود رحمه الله: «الضمير يحتمل عوده لما نزلناه ... الخ» . قال أحمد رحمه الله: ومعنى هذا الترجيح أن المتحدى عليهم في التفسير الأوجه جملة المخاطبين، أى أنهم باجتماعهم ومظاهرة بعضهم بعضا، عجزة عن الإتيان بطائفة منه. وأما على التفسير المرجوح، فهم مخاطبون بأن يعينوا واحدا منهم يكون معارضا للمتحدى بأنه يأتى بمثل ما أوتى به أو ببعضه. ولا شك أن عجز الخلائق أجمعين أبهى من عجز واحد منهم. ويشهد لرجحان الأول قوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)." [١]

"من فنون المطاعم والمشارب والفواكه والمناكح والمراكب والمناظر الحسنة البهية، وعلى أسباب الوحشة والمشقة من أنواع المكاره كالنيران والصواعق والسباع والأحناش والسموم والغموم والمخاوف. وقد استدل بقوله: (خلق لكم) على أن الأشياء التي يصح أن ينتفع بها «١» ولم تجر مجرى المحظورات في العقل خلقت في الأصل مباحة مطلقا لكل أحد أن يتناولها ويستنفع بها. فإن قلت: هل لقول من زعم أن المعنى خلق لكم الأرض وما فيها وجه صحة؟

قلت: إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء وتراد الجهات العلوية:

جاز ذلك، فإن الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السفلية. وجميعا نصب على الحال من الموصول الثاني. والاستواء: الاعتدال والاستقامة. يقال: استوى العود وغيره، إذا قام واعتدل، ثم قيل: استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصده قصدا مستويا، من غير أن يلوى على شيء. ومنه استعير قوله: (ثم استوى إلى السماء) ، أى قصد إليها بإرادته ومشيئته بعد خلق ما في الأرض، من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر. والمراد بالسماء: جهات العلو، كأنه قيل: ثم استوى إلى فوق. والضمير في فسواهن ضمير مبهم. وسبع سماوات تفسيره، كقولهم: ربه رجلا. وقيل الضمير راجع إلى السماء. والسماء في معنى الجنس. وقيل جمع سماءة، والوجه العربي هو الأول. ومعنى تسويتهن: تعديل خلقهن، وتقديمه، وإخلاؤه من العوج والفطور، أو إتمام خلقهن وهو بكل شيء عليم فمن ثم خلقهن خلقا مستويا محكما من غير تفاوت، مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم.

فإن قلت: ما فسرت به معنى الاستواء إلى السماء يناقضه «ثم» لإعطائه معنى التراخي والمهلة قلت: «ثم»

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٩٨/١

هاهنا لما بين الخلقين من التفاوت وفضل خلق السماوات على خلق الأرض، لا للتراخي في الوقت كقوله: (ثم كان من الذين آمنوا) . على أنه لو كان لمعنى التراخي في الوقت لم يلزم ما اعترضت به، لأن المعنى أنه حين قصد إلى السماء لم يحدث فيما بين ذلك- أى في تضاعيف القصد إليها-

---

(١) . قال محمود رحمه الله تعالى: «وقد استدل بقوله: (خلق لكم) على أن الأشياء التي يصح أن ينتفع بها ...

الخ» . قال أحمد رحمه الله: هذا استدلال فرقة من القدرية ذهبت إلى أن حكم الله تعالى الاباحة في ذوات المنافع التي لا يدل العقل على تحريمها قبل ورود الرسل تلقيها من العقل وزعموا أنها اشتملت على منافع وحاجة الخلق داعية اليها، فخلقها مع خطرها على العباد خلاف مقتضى الحكمة فوجب عندهم بمقتضى العقل أن يعتقدوا إباحتها في حكم الله عز وجل، وهذا زلل ناشئ عن قاعدة التحسين والتقبيح الباطلة. وأما استدلال الزمخشري لهذه الفرقة بالآية فغير مستقيم، فان دعواهم أن العقل كاف في إباحة هذه الأشياء. فان دلت الآية على الاباحة فنحن نقول بموجبها ويكون إذا إباحة شرعية سمعية. وإن لم تدل على الاباحة لم يبق في الاستدلال بها مطمع.." [١]

"فحذف المضاف اليه لكونه معلوما مدلولا عليه بذكر الأسماء، لأن الاسم لا بدله من مسمى، وعوض منه اللام كقوله: (واشتعل الرأس) . فان قلت: هلا زعمت أنه حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه، وأن الأصل: وعلم آدم مسميات الأسماء؟ قلت: لأن التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات لقوله: (أنبئوني بأسماء هؤلاء) ، (أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم) فكما علق الإنباء بالأسماء لا بالمسميات ولم يقل: أنبؤني بهؤلاء، وأنبئهم بهم، وجب تعليق التعليم بها. فان قلت: فما معنى تعليمه أسماء المسميات؟ قلت: أراه الأجناس التي خلقها، وعلمه أن هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ثم عرضهم أى عرض المسميات. وإنما ذكر لأن في المسميات العقلاء فغلبهم. وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت إن كنتم صادقين يعنى في زعمكم أنى أستخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء إرادة للرد عليهم، وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها، ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا. فأراهم بذلك وبين لهم بعض ما أجمل من ذكر المصالح في استخلافهم في قوله (إني أعلم ما

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١/١٢٣

لا تعلمون) . وقوله: (ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض) استحضار لقوله لهم (إني أعلم ما لا تعلمون) ، إلا أنه جاء به على وجه أبسط من ذلك وأشرح. وقرئ:
وعلم آدم، على البناء للمفعول. وقرأ عبد الله: عرضهن. وقرأ أبى: عرضها. والمعنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها: لأن العرض لا يصح في الأسماء. وقرئ: أنبيهم، بقلب الهمزة ياء.
وأنبهم، بحذفها والهاء مكسورة فيهما.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٣٤ الى ٣٦]
وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين (٣٤) وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (٣٥) فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين (٣٦)
السجود لله تعالى على سبيل العبادة، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة." (١)

"تقول كذكر قريش آباءهم أو قوم أشد منهم ذكرا. أو في موضع نصب عطف على آباءكم، بمعنى أو أشد ذكرا من آبائكم، على أن ذكرا من فعل المذكور فمن الناس من يقول معناه أكثروا ذكر الله ودعاءه فإن الناس من بين مقل لا يطلب بذكر الله إلا أعراض الدنيا، ومكثر يطلب خير الدارين، فكونوا من المكثرين آتنا في الدنيا اجعل إيتاءنا أى إعطاءنا في الدنيا خاصة وما له في الآخرة من خلاق أى من طلب خلاقى وهو النصيب. أو ما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب، لأن همه مقصور على الدنيا.
والحسنتان ما هو طلبة الصالحين في الدنيا من الصحة والكفاف والتوفيق في الخير، وطلبتهم في الآخرة من الثواب. وعن على رضى الله عنه: الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء. وعذاب النار: امرأة السوء: أولئك الداعون بالحسنتين لهم نصيب مما كسبوا أى نصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهو الثواب الذي هو **المنافع** الحسنة. أو من أجل ما كسبوا، كقوله: (مما خطيئاتهم أغرقوا) . أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيهم ما يستوجبونه بحسب مصالحهم في الدنيا واستحقاقهم في الآخرة. وسمى الدعاء كسبا لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسب: بما كسبت أيديكم. ويجوز أن يكون (أولئك) للفريقين جميعا، وأن لكل فريق نصيبا من جنس ما كسبوا والله سريع الحساب يوشك أن يقيم القيامة

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٢٦/١

ويحاسب العباد. فبادروا إكثار الذكر وطلب الآخرة، أو وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدل على كمال قدرته ووجوب الحذر منه.." (١)

"بالصاعقة. وعن عمر رضى الله عنه أنه سأل عنها الصحابة فقالوا: الله أعلم، فغضب وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضى الله عنه: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين «١» . قال: قل يا ابن أخى ولا تحقر نفسك. قال: ضربت مثلا لعمل. قال: لأى عمل؟ قال: لرجل غنى يعمل الحسنات، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها «٢» . وعن الحسن رضى الله عنه: هذا مثل قل والله من يعقله من الناس: شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا. فإن قلت: كيف قال (جنة من نخيل وأعناب) ثم قال: (له فيها من كل الثمرات) «٣» قلت: النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع، خصهما بالذكر، وجعل الجنة منهما- وإن كانت محتوية على سائر الأشجار- تغليبا لهما على غيرهما، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات. ويجوز أن يريد بالثمرات المنافع التي كانت تحصل له فيها كقوله: (وكان له ثمر) بعد قوله: (جنتين من أعناب وحففناهما بنخل) . فإن قلت: علام عطف قوله وأصابه الكبر؟ قلت: الواو للحال لا للعطف. ومعناه أن تكون له جنة وقد أصابه الكبر. وقيل يقال: وددت أن يكون كذا ووددت لو كان كذا، فحمل العطف على المعنى، كأنه قيل: أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٧]

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد (٢٦٧)

من طيبات ما كسبتم من جياد مكسوباتكم ومما أخرجنا لكم من الحب والثمر والمعادن وغيرها. فإن قلت: فهلا قيل: وما أخرجنا لكم، عطفا على: (ما كسبتم) حتى يشتمل الطيب على المكسوب والمخرج من الأرض؟ قلت: معناه: ومن طيبات ما أخرجنا لكم إلا أنه حذف لذكر الطيبات ولا تيمموا الخبيث ولا تقصدوا المال الرديء منه تنفقون تخصونه بالإنفاق، وهو في محل الحال. وقرأ عبد الله: ولا تأمموا. وقرأ ابن عباس: ولا تيمموا، بضم التاء. ويممه

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢٤٨/١

(١) . أخرجه البخاري من حديث عبيد بن عمير: أن عمر سأل ... فذكره.

(٢) . قوله «أغرق أعماله كلها» في بعض نسخ الجلال: أحرق، بالحاء، وكذلك عبارة النسفي. (ع)

(٣) . قال محمود رحمه الله: «إن قلت: لم ذكر النخيل والأعناب أولا ... الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله: وهذا من باب تثنية ذكر ما يقع الاهتمام به مرتين عموما وخصوصا ومثله (فيهما فاكهة ونخل ورمان) إلا أنه في تلك الآية بدأ بالتعميم وفي هذه الآية بدأ بالتخصيص والمقصود هو ما نبهنا عليه، والله أعلم.." [١]

"أى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم مع ذلك يبغضونكم. فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم. وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم. ونحوه (فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) ويوصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل والبنان والإبهام. قال الحرث بن ظالم المري:

فأقتل أقواما لئاما أذلة ... يعضون من غيظ رؤس الأباهم «١»

قل موتوا بغيظكم دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي والتبار إن الله عليم بذات الصدور فهو يعلم ما في صدور المنافقين من الحنق والبغضاء، وما يكون منهم في حال خلو بعضهم ببعض، وهو كلام داخل في جملة المقول أو خارج منها. فإن قلت: فكيف معناه على الوجهين؟ قلت: إذا كان داخلا في جملة المقول فمعناه: أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظا إذا خلوا، وقل لهم إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أن شيئا من أسراركم يخفى عليه. وإذا كان خارجا فمعناه: قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من اطلاعى إياك على ما يسرون فإنى أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمروه في صدورهم ولم يظهروه بألسنتهم. ويجوز أن لا يكون ثم قول، وأن يكون قوله: (قل موتوا بغيظكم) أمرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله أن يهلكوا غيظا بإعزاز الإسلام وإذلالهم به، كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٢٠]

إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط (١٢٠)

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣١٤/١

الحسنة: الرخاء والخصب والنصرة والغنيمة ونحوها من **المنافع**. والسيئة: ما كان ضد ذلك.
وهذا بيان لفرط معاداتهم حيث يحسدونهم على ما نالهم من الخير ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدة.
فإن قلت: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة؟ «٢» قلت: المس

(١) . للحرث بن ظالم المري. وعض الأنامل من الغيظ: كناية عن شدته، وأطلق الأباهم وأراد مطلق الأصابع مجازا مرسلا لأنه لا داعى للتخصيص المخالف للواقع عادة. ويحتمل أنها حقيقة.
(٢) . قال محمود: «إن قلت: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالاصابة ... الخ» قال أحمد: يمكن أن يقال: المس أقل تمكنا من الاصابة، وكأنه أقل درجاتها، فكأن الكلام والله أعلم: إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسؤهم ويحسدوكم عليها، وإن تمكنت الاصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذي يرثى الشامت عنده منها فهم لا يرثون لكم ولا ينفكون عن حسدهم ولا في هذه الحال، بل يفرحون ويسرون، والله أعلم.." [١]

"ليت عبد الله بن أبى يأخذ لنا أمانا من أبى سفيان. وقال ناس من المنافقين: لو كان نبيا لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر- عم أنس بن مالك-: يا قوم، إن كان قتل محمد فإن رب محمد حى لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل. وعن بعض المهاجرين:
أنه مر بأنصارى يتشحط في دمه، فقال يا فلان، أشعرت أن محمدا قد قتل، فقال: إن كان قتل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم. والمعنى وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم، فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه، لأن الغرض من بعثة الرسل «١» تبليغ الرسالة وإلزام الحجة، لا وجوده بين أظهر قومه أفإن مات الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل، مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سببا للتمسك بدين محمد صلى الله عليه وسلم، لا للانقلاب عنه. فإن قلت: لم ذكر القتل وقد علم أنه لا يقتل؟ قلت: لكونه مجوزا عند المخاطبين. فإن قلت: أما علموه من ناحية قوله: (والله يعصمك من الناس) ؟ قلت: هذا

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤٠٧/١

مما يختص بالعلماء منهم وذوى البصيرة. ألا ترى أنهم سمعوا بخبر قتله فهربوا، على أنه يحتمل العصمة من فتنة الناس وإذ لا لهم. والانقلاب على الأعقاب: الإدبار عما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم به من أمر الجهاد وغيره. وقيل: الارتداد. وما ارتد أحد من المسلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين. ويجوز أن يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإسلامه «٢» فلن يضر الله شيئا فما ضر إلا نفسه، لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضار **والمنافع** وسيجزي الله الشاكرين الذي لم ينقلبوا كأنس بن النضر وأضرابه. وسماهم شاكرين، لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا. المعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأذن الله له فيه تمثيلا، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك، فليس له أن يقبض نفسا إلا بإذن من الله. وهو على معنيين: أحدهما تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم أن الحذر لا ينفع، وأن أحدا لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خوض المهالك واقتحم المعارك.

---

(١) . قوله «من بعثة الرسل» لعله الرسول. (ع)

(٢) . قوله «وإسلامه» أى: تركه للعدو. (ع)." [1]

"المؤمنين من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فنزلت. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أحدا خلف ظهره، واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل، وأمرهم أن يثبتوا في مكانهم ولا يبرحوا- كانت الدولة للمسلمين أو عليهم- فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم، والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم. يحسونهم أى يقتلونهم قتلا ذريعا.

حتى إذا فشلوا. والفشل: الجبن وضعف الرأى. وتنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا هاهنا وقال بعضهم: لا نخالف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فممن ثبت مكانه عبد الله بن جبير أمير الرماة في نفر دون العشرة وهم المعنيون بقوله: (ومنكم من يريد الآخرة) ونفر أعقابهم ينهبون، وهم الذين أرادوا الدنيا، فكر المشركون على الرماة، وقتلوا عبد الله بن جبير رضى الله عنه، وأقبلوا على المسلمين، وحالت الريح دبورا وكانت صبا، حتى هزموهم وقتلوا من قتلوا، وهو قوله ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ليمتحن صبركم على المصائب وثباتكم على الإيمان عندها ولقد عفا عنكم لما علم من ندمكم على ما فرط منكم

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١/٤٢٣

من عصيان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ذو فضل على المؤمنين يتفضل عليهم بالعفو، أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال سواء أديل لهم أو أديل عليهم لأن الابتلاء رحمة كما أن النصرة رحمة. فإن قلت: أين متعلق (حتى إذا) ؟ قلت: محذوف تقديره: حتى إذا فشلتم منعكم نصره. ويجوز أن يكون المعنى: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم إذ تصعدون

نصب بصرفكم، أو بقوله: (ليبتليكم) أو بإضمار «اذكر» والإصعاد. الذهاب في الأرض والإبعاد فيه. يقال: صعد في الجبل وأصعد في الأرض. يقال: أصعدنا من مكة إلى المدينة: وقرأ الحسن رضى الله عنه: تصعدون، يعنى في الجبل. وتعضد الأولى قراءة أبى: إذ تصعدون في الوادي. وقرأ أبو حيوة: تصعدون، بفتح التاء وتشديد العين، من تصعد في السلم وقرأ الحسن رضى الله عنه: تلون، بواو واحدة وقد ذكرنا وجهها. وقرئ: يصعدون. ويلوون بالياء والرسول يدعوكم كان يقول «إلى عباد الله، إلى عباد الله، أنا رسول الله، من يكر فله الجنة» في أخراكم في ساقتكم وجماعتكم الأخرى وهي المتأخرة. يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول: في أولهم وأولاهم، بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى فأثابكم عطف على صرفكم، أى فجازاكم الله غما حين صرفكم عنهم وابتلاكم (ب) سبب (غم) أذقتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعصيانكم له، أو غما مضاعفا، غما بعد غم، وغما متصلا بغم، من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر لكيلا تحزنوا لتتمرنوا على تجرع الغموم، وتضروا باحتمال الشدائد، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار. ويجوز أن يكون الضمير في: (فأثابكم) للرسول، أى فآساكم في الاغتمام «١» ، وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما

---

(١) . قوله «فآساكم في الاغتمام» لعله: فآساكم، أى فصار أسوتكم «أفاده الصحاح» . (ع)." [(١)]

"فقد أخزيته فقد أبلغت في إخزائه. وهو نظير قوله فقد فاز. ونحوه في كلامهم: من أدرك مرعى الصمان «١» فقد أدرك، ومن سبق فلانا فقد سبق وما للظالمين اللام إشارة إلى من يدخل النار وإعلام بأن من يدخل النار فلا ناصر له بشفاعة ولا غيرها «٢» ، تقول:

سمعت رجلا يقول كذا، وسمعت زيدا يتكلم. فتوقع الفعل على الرجل وتحذف المسموع، لأنك وصفته بما يسمع، أو جعلته حالا عنه فأغناك عن ذكره، ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد، وأن يقال سمعت

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤٢٧/١

كلام فلان أو قوله. فإن قلت: فأى فائدة في الجمع بين المنادى وينادى؟ قلت: ذكر النداء مطلقا ثم مقيدا بالإيمان تفخيما لشأن المنادى لأنه لا منادى أعظم من مناد ينادى للإيمان. ونحوه قولك: مررت بهاد يهدى للإسلام. وذلك أن المنادى إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أو لإطفاء النائرة، أو لإغاثة المكروب، أو لكفاية بعض النوازل، أو لبعض **المنافع**، وكذلك الهادي قد يطلق على من يهدى للطريق ويهدى لسداد الرأى وغير ذلك فإذا قلت: ينادى للإيمان، ويهدى للإسلام، فقد رفعت من شأن المنادى والهادي وفخمته. ويقال: دعاه لكذا وإلى كذا، وندبه له وإليه، وناداه له وإليه. ونحوه: هداه للطريق وإليه، وذلك أن معنى انتهاء الغاية ومعنى الاختصاص واقعان جميعا، والمنادى هو الرسول (أدعوا إلى الله) ، (ادع إلى سبيل ربك) . وعن محمد بن كعب: القرآن. أن آمنوا أى آمنوا، أو بأن آمنوا ذنوبنا كبائرنا سيئاتنا صغائرنا مع الأبرار مخصوصين بصحبتهم، معدودين في جملتهم. والأبرار: جمع بر أو بار، كرب وأرباب، وصاحب وأصحاب على رسلك على هذه صلة للوعد، كما في قولك: وعد الله الجنة على الطاعة. والمعنى: ما وعدتنا على تصديق رسلك. ألا تراه كيف أتبع ذكر المنادى للإيمان وهو الرسول وقوله آمنا وهو التصديق ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف، أى ما وعدتنا منزلا على رسلك، أو محمولا على رسلك، لأن الرسل محملون ذلك (فإنما عليه ما حمل) وقيل: على ألسنة رسلك. والموعود هو الثواب. وقيل:
النصرة على الأعداء. فإن قلت: كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد والله لا يخلف الميعاد؟ قلت: معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد أو هو باب من اللجأ إلى الله والخضوع له، كما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستغفرون مع علمهم أنهم مغفور لهم، يقصدون بذلك

---

(١) . قوله «من أدرك مرعي الصمان» في الصحاح: موضع إلى جنب رمل عالج. وعالج: موضع بالبادية به رمل. (ع)

(٢) . قوله «فلا ناصر له بشفاعة ولا غيرها» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة، فمن يدخل النار من المؤمنين يخرج بالشفاعة أو بالعفو، كما حقق في محله. (ع)." [١]

"وأمه صديقة أى وما أمه أيضا إلا كصديقة كبعض النساء المصدقات للأنبياء المؤمنات بهم، فما منزلتهما إلا منزلة بشرين: أحدهما نبى، والآخر صحابى. فمن أين اشتبه عليكم أمرهما حتى وصفتموهما بما لم يوصف به سائر الأنبياء وصحابتهم؟ مع أنه لا تميز ولا تفاوت بينهما وبينهم بوجه من الوجوه. ثم

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١/٤٥٥

صرح ببعدهما عما نسب إليهما في قوله كانا يأكلان الطعام لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقرم «١» وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الأجسام كيف نبين لهم الآيات أى الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم أنى يؤفكون كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله. فإن قلت: ما معنى التراخي في قوله ثم انظر؟ «٢» قلت: معناه ما بين العجبين، يعنى أنه بين لهم الآيات بيانا عجيبا، وأن إعراضهم عنها أعجب منه.

[سورة المائدة (٥) : آية ٧٦]

قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم (٧٦)

ما لا يملك هو عيسى، أى شيئا لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب، ولأن كل ما يستطيعه البشر من المضار **والمنافع** فبإقدار الله وتمكينه، فكأنه لا يملك منه شيئا. وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية، حيث جعله لا يستطيع ضرا ولا نفعا.

وصفة الرب أن يكون قادرا على كل شيء لا يخرج مقدور على قدرته والله هو السميع العليم متعلق ب أتعبدون، أى أتشركون بالله ولا تخشونه، وهو الذي يسمع ما تقولون ويعلم ما تعتقدون أو أتعبدون العاجز والله هو السميع العليم الذي يصح منه أن يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم، ولن يكون كذلك إلا وهو حى قادر.

[سورة المائدة (٥) : آية ٧٧]

قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل (٧٧)

---

(١) . قوله «وقرم» في الصحاح «القرم» بالتحريك: شدة شهوة اللحم. (ع)

(٢) . قال محمود: «فان قلت ما معنى التراخي في قوله ثم انظر ... الخ» قال أحمد: ومنه (ثم أنتم هؤلاء

تقتلون أنفسكم) وقوله: (فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر) وهي في سائر هذه المواضع منقولة من التراخي الزمانى إلى التراخي المعنوي في المراتب.." [1]

"جعلهما رجسا، كما قال تعالى: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتى منه إلا الشر البحت، ومنها أنه أمر بالاجتناب. ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحا، كان الارتكاب خيبة ومحقة. ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال، وهو وقوع التعادي والتباغض من أصحاب «١» الخمر والقمر، وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة. وقوله فهل أنتم منتهون من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون. أم أنتم على ما كنتم عليه، كأن لم توعظوا ولم تزجروا؟ فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: (فاجتنبوه) ؟ قلت: إلى المضاف المحذوف، كأنه قيل: إنما شأن الخمر والميسر أو تعاطيهما أو ما أشبه ذلك. ولذلك قال: (رجس من عمل الشيطان) فإن قلت لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولا ثم أفردهما آخرا «٢» ؟ قلت: لأن الخطاب مع المؤمنين. وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر، وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر، وإظهار أن ذلك جميعا من أعمال الجاهلية وأهل الشرك، فوجب اجتنابه بأسره، وكأنه لا مباينة بين من عبد صنما وأشرك بالله في علم الغيب، وبين من شرب خمرا أو قامر، ثم أفردهما بالذكر ليرى أن المقصود بالذكر الخمر والميسر. وقوله وعن الصلاة اختصاص للصلاة من بين الذكر كأنه قيل: وعن الصلاة خصوصا.

[سورة المائدة (٥) : آية ٩٢]

وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين (٩٢)

---

(١) . قوله «من أصحاب» لعله بين أصحاب. (ع)

(٢) . عاد كلامه. قال: «فان قلت لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب ... الخ» قال أحمد: ويرشد إلى أن المقصود الخمر والميسر خاصة، لأنهم إنما كانوا يتعاطونهما خاصة الآية الأخرى وهي قوله: (يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) فخصهما بالذكر ولم يثبت

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦٦٥/١

النهى عنهما، فلذلك ورد أن قوما تركوها لما فيها من الإثم، وقوما بقوا على تعاطيها لما فيها من المنافع، ثم نزلت هذه الآية جازمة بالنهى، والله أعلم. [.....]." [1]

"ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ، فإنهم يقولون. إذا رأوا الملك في صورة إنسان: هذا إنسان وليس بملك، فإن قال لهم: الدليل على أنى ملك أنى جئت بالقرآن المعجز، وهو ناطق بأنى ملك لا بشر- كذبوه كما كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم، فإذا فعلوا ذلك خذلوا كما هم مخذولون الآن، فهو ليس الله عليهم. ويجوز أن يراد: وللبسنا عليهم حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة: وقرأ ابن محيصن: ولبسنا عليهم، بلام واحدة. وقرأ الزهري: وللبسنا عليهم ما يلبسون، بالتشديد.

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠]

ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن (١٠)

ولقد استهزئ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يلقى من قومه فحاق بهم فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزؤن به وهو الحق، حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به

[سورة الأنعام (٦) : آية ١١]

قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١١)

فإن قلت: أى فرق بين قوله فانظروا وبين قوله ثم انظروا «١» قلت: جعل النظر «٢» مسببا عن السير في قوله فانظروا فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين. وأما قوله سيروا في الأرض ثم انظروا فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبه على ذلك بثم، لتباعد ما بين الواجب والمباح.

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٢]

قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون (١٢)

لمن ما في السماوات والأرض سؤال تبكيت، وقل لله تقرير لهم، أى هو- الله- لا خلاف بيني وبينكم،

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦٧٥/١

ولا تقدرون أن تضيفوا شيئا منه إلى غيره كتب على نفسه الرحمة أى أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته، ونصب الأدلة لكم على توحيده بما أنتم مقرون

---

(١) . قال محمود: «إن قلت أى فرق بين قوله فانظروا وبين قوله ثم انظروا ... الخ» قال أحمد: وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير في المكانين واحدا، ليكون ذلك سببا في النظر، فحيث دخلت الفاء فلإظهار السببية، وحيث دخلت «ثم» فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير، وأن السير وسيلة إليه لا غير. وشتان بين المقصود والوسيلة والله أعلم.

(٢) . قوله «النظر» لعله «بالنظر» . (ع)." [1]

"به من خلق السموات والأرض، ثم أوعدهم على إغفالهم النظر وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله ليجمعنكم إلى يوم القيامة فيجازيكم على إشراككم. وقوله الذين خسروا أنفسهم نصب على الذم، أو رفع: أى أريد الذين خسروا أنفسهم، أو أنتم الذين خسروا أنفسهم. فإن قلت: كيف جعل عدم إيمانهم مسببا عن خسرانهم، والأمر على العكس؟ قلت:

معناه: الذين خسروا أنفسهم في علم الله: لاختيارهم الكفر. فهم لا يؤمنون.

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣]

وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم (١٣)

وله عطف على الله ما سكن في الليل والنهار من السكنى وتعديه بفي كما في قوله وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم. وهو السميع العليم يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان.

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤ الى ١٦]

قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين (١٤) قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٥) من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين (١٦)

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٨/٢

أولى غير الله همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو أتخذ لأن الإنكار في اتخاذ غير الله وليا، لا في اتخاذ الولي، فكان أولى بالتقديم. ونحوه أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون آلله أذن لكم. وقرئ فاطر السماوات بالجر صفة لله، وبالرفع على المدح. وقرأ الزهري: فطر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: ما عرفت ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها «١» أى ابتدعتها وهو يطعم ولا يطعم وهو يرزق ولا يرزق، كقوله ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون والمعنى: أن **المنافع** كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع. وقرئ: ولا يطعم، بفتح الياء. وروى ابن المأمون عن يعقوب: وهو يطعم ولا يطعم، على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل، والضمير لغير الله.

وقرأ الأشهب. وهو يطعم ولا يطعم، على بنائهما للفاعل. وفسر بأن معناه: وهو يطعم، ولا يستطعم. وحكى الأزهرى: أطعمت، بمعنى استطعمت. ونحوه: أفدت. ويجوز أن يكون

---

(١) . أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث، وفي فضائل القرآن بإسناد حسن، ليس فيه إلا إبراهيم بن مهاجر وسيأتى في تفسير فاطر.." [1]

"كأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة فرطنا فيها الضمير للحياة الدنيا، جيء بضميرها وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة، أو للساعة على معنى: قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها، كما تقول: فرطت في فلان. ومنه فرطت في جنب الله يحملون أوزارهم على ظهورهم كقوله فبما كسبت أيديكم لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور، كما ألف الكسب بالأيدى ساء ما يزرون بئس شيئا يزرون وزرهم، كقوله ساء مثلا القوم.

[سورة الأنعام (٦) : آية ٣٢]

وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (٣٢)

جعل أعمال الدنيا لعبا ولهوا واشتغالا بما لا يعنى ولا يعقب منفعة، كما تعقب أعمال الآخرة **المنافع** العظيمة. وقوله للذين يتقون دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو. وقرأ ابن عباس رضى الله عنه: ولدار الآخرة. وقرئ: تعقلون بالتاء والياء.

[سورة الأنعام (٦) : آية ٣٣]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٩/٢

قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون (٣٣)
قد في قد نعلم بمعنى «ربما» الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته «١» ، كقوله:
أخو ثقة لا تهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله «٢»

---

(١) . قال محمود: «قد في قد نعلم بمعنى ربما الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته كقوله: ولكنه قد يهلك المال نائله» قال أحمد: ومثلها في قوله وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فانه يكثر علمهم برسالته ويؤكده بظهور آياته، حتى يقيم عليهم الحجة في جمعهم بين متناقضين: أذيته، ورسوخ علمهم برسالته، والله أعلم. ومنه أيضا قوله:
قد أترك القرن مصفرا أنامله
والغرض التعبير عن المعنى بما يشعر بعكسه، تنبيها على أنه بلغ الآية التي ما بعدها إلا الرجوع إلى الضد. وذلك من لطائف لغة العرب وغرائبها.
(٢) .
أخو ثقة لا يهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله
تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله
فمن مثل حصن في الحروب ومثله ... لانكار ضيم أو لخصم يحاوله
لزهير بن أبى سلمي يمدح حصن بن أبى حذيفة. والثقة من وثق، كالعدة من وعد. وإن كان الفعل الأول مكسورا والثاني مفتوحا، فأصلها «وثق» حذفت الواو وخلفتا التاء، والمراد بها ما يتوثق به، أو المصدر هو التوثق، أى هو ملازم لما يتوثق به من مكارم الأخلاف، لا ينفك عنه كأنه أخوه أو ملازم للتوثق به. وإسناد الإهلاك إلى الخمر مجاز عقلى، لأنه سببه، وكذلك إسناده إلى النائل، أى العطاء. و «قد» هنا للتكثير، وإلا لم يكن مدحا، (٢- كشاف- ٢) تراه متهللا مستبشر الوجه إذا جئته سائلا، فكأنك تعطيه المال الذي أنت طالبه منه. وبالغ في وصفه بالكرم حتى أنه يجود بروحه إن لم يملك غيرها، وبنى على ذلك أمر سائله بالتقوى من الله، لئلا يأخذ روحه فيميته.
فسائله الأول مضاف لمفعوله الثاني. والثاني مضاف للأول. وقوله «فمن» استفهام إنكارى، أى ما مثله أحد في الحروب، وما مثله أحد معد لانكار الظلم وإبائه والمحاولة والمعالجة والطلب. وضمير يحاوله

للضيم، أو لحصن، أو لمن. ويروى الشعر برواية أخرى، على أنه وصف لمعن بن زائدة وهي:

يقولون معن لا زكاة لماله ... وكيف يزكى المال من هو باذله

إذا حال حول لم تجد في دياره ... من المال إلا ذكره وجمائله

تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذي أنت نائله

تعود بسط الكف حتى لو انه ... أراد انقباضا لم تطعه أنامله

فلو لم يكن.......... ... . البيت

ورفع جمائله، ذهابا إلى المعنى، لأن المعنى لم يبق إلا جمائله ونائله: آخذه منه. وبسط الكف: كناية عن كثرة الكرم. وأنامله: أجزاء أصابعه.." (١)

"[سورة الأنعام (٦) : آية ٩٢]

وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون (٩٢)

مبارك كثير **المنافع** والفوائد والتنذير معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب، كأنه قيل: أو أنزلناه للبركات، وتصديق ما تقدمه من الكتب والإنذار. وقرئ ولينذر بالياء والتاء. وسميت مكة أم القرى لأنها مكان أول بيت وضع للناس، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم، ولأنها أعظم القرى شأنا لبعض المجاورين:

فمن يلق في بعض القريات رحله ... فأم القرى ملقى رحالي ومنتابى «١»

والذين يؤمنون بالآخرة يصدقون بالعاقبة ويخافونها يؤمنون بهذا الكتاب. وذلك أن أصل الدين خوف العاقبة، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن. وخص الصلاة لأنها عماد الدين. ومن حافظ عليها كانت لطفا في المحافظة على أخواتها.

[سورة الأنعام (٦) : آية ٩٣]

ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون (٩٣)

افترى على الله كذبا فزعم أن الله بعثه نبيا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء وهو مسيلمة الحنفي الكذاب.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٧/٢

أو كذاب صنعاء الأسود العنسي. وعن النبى صلى الله عليه وسلم:

رأيت فيما يرى النائم كأن في يدى سوارين من ذهب فكبرا على وأهمانى فأوحى الله إلى أن انفخهما، فنفختهما فطارا عنى، فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما: كذاب اليمامة مسيلمة، وكذاب صنعاء الأسود العنسي «٢» ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح القرشي، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إذا أملى عليه سميعا عليما، كتب

---

(١) . للزمخشري يفتخر بمكة وسكانها. والقريات- بالتشديد-: للتصغير. ورحل الشخص مسكنه ولو من شعر، أى: فمن يلق رحله في بعض القرى الصغيرة. فلا فخر له على، فان مكة محط رحالي ومنتابى، أى محل انتيابى أى دخولى فيها توبة بعد أخرى، وإلقاء الرحل: كناية عن الاقامة، لأنها تلزمه عرفا. وملقى على زنة اسم المفعول اسم لمكان الإلقاء، كمتاب لمكان الانتياب.

(٢) . متفق عليه من حديث ابن عباس.." [1]

"[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٣١ الى ١٣٢]

ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون (١٣١) ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون (١٣٢)

ذلك إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة، وهو خبر مبتدإ محذوف: أى الأمر ذلك. وأن لم يكن ربك مهلك القرى تعليل، أى الأمر ما قصصناه عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم، على أن «أن» هي التي تنصب الأفعال. ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة، على معنى: لأن الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم. ولك أن تجعله بدلا من ذلك، كقوله وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع، بظلم بسبب ظلم قدموا عليه. أو ظالما، على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب، لكان ظلماء وهو متعال عن الظلم وعن كل قبيح ولكل من المكلفين درجات منازل مما عملوا من جزاء أعمالهم وما ربك بغافل عما يعملون بساه عنه يخفى عليه مقاديره وأحواله وما يستحق عليه من الأجر.

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٣٣ الى ١٣٤]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٤٥

وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين (١٣٣) إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين (١٣٤)

وربك الغني عن عباده وعن عبادتهم ذو الرحمة يترحم عليهم بالتكليف ليعرضهم **المنافع** الدائمة إن يشأ يذهبكم أيها العصاة ويستخلف من بعدكم ما يشاء من الخلق المطيع كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم، وهم أهل سفينة نوح عليه السلام.

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٥]

قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون (١٣٥)

«المكانة» تكون مصدرا يقال: مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن. وبمعنى المكان، يقال:

مكان ومكانة، ومقام ومقامة. وقوله اعملوا على مكانتكم يحتمل: اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم. أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها. يقال للرجل إذا." [١]

"السؤال حتى علمت. وقرأ ابن مسعود: كأنك حفى بها، أى عالم بها بليغ في العلم بها. وقيل عنها متعلق بيسئلونك: أى يسئلونك عنها كأنك حفى أى عالم بها. وقيل: إن قريشا قالوا له إن بيننا وبينك قرابة، فقل لنا متى الساعة؟ فقيل: يسئلونك عنها كأنك حفى تتحفى بهم فتختصهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوى علمها عن غيرهم، ولو أحبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله في إخبارك به، لكنت مبلغه القريب والبعيد من غير تخصيص، كسائر ما أوحى إليك.

وقيل: كأنك حفى بالسؤال عنها تحبه وتؤثره، يعنى أنك تكره السؤال عنها لأنها من علم الغيب الذي استأثر الله به ولم يؤته أحدا من خلقه. فإن قلت: لم كرر يسئلونك وإنما علمها عند الله؟

قلت: للتأكيد، ولما جاء به من زيادة قوله كأنك حفي عنها وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة، منهم محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة رحمهما الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه العالم بها، وأنه المختص بالعلم بها.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٨٨]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٦٧

قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون (١٨٨)

قل لا أملك لنفسي هو إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب:

أى أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كالمماليك والعبيد إلا ما شاء ربى ومالكى من النفع لي والدفع عنى ولو كنت أعلم الغيب لكانت حالى على خلاف ما هي عليه، ومن استكثار الخير، واستغزار **المنافع**، واجتناب السوء والمضار، حتى لا يمسني شيء منها. ولم أكن غالبا مرة ومغلوبا أخرى في الحروب، ورابحا وخاسرا في التجارات، ومصيبا مخطئا في التدابير إن أنا إلا عبد أرسالات نذيرا وبشيرا، وما من شأنى أنى أعلم الغيب لقوم يؤمنون يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعا، لأن النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم.

أو يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفا أى إلا نذير للكافرين، وبشير لقوم يؤمنون.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٨٩ الى ١٩٠]

هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين (١٨٩) فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون (١٩٠)." [١]

"صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه. اشهد على أنى لا أحبك، تهكما به واستهانة بحاله مما تشركون من دونه من إشراككم آلهة من دونه، أو مما تشركونه من آلهة من دونه، أى أنتم تجعلونها شركاء له، ولم يجعلها هو شركاء. ولم ينزل بذلك سلطانا فكيدوني جميعا أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون، من غير إنظار، فإني لا أبالى بكم وبكيدكم، ولا أخاف معرتكم وإن تعاونتم على وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضرني آلهتكم، وما هي إلا جماد لا تضر ولا تنفع، وكيف تنتقم منى إذا نلت منها وصددت عن عبادتها، بأن تخبلنى وتذهب بعقلي.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٨٥/٢

[سورة هود (١١) : الآيات ٥٦ الى ٥٧]

إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم (٥٦) فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل شيء حفيظ (٥٧)

ولما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم، من كون كل دابة في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بنواصيها، تمثيل لذلك إن ربي على صراط مستقيم يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به فإن تولوا فإن تتولوا. فإن قلت:

الإبلاغ كان قبل التولي، فكيف وقع جزاء للشرط؟ قلت: معناه فإن تتولوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ، وكنتم محجوجين بأن ما أرسالات به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول ويستخلف كلام مستأنف، يريد: ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم ولا تضرونه بتوليكم شيئا من ضرر قط، لأنه لا يجوز عليه المضار **والمنافع**، وإنما تضرون أنفسكم. وفي قراءة عبد الله: ويستخلف، بالجزم.

وكذلك: ولا تضروه، عطفا على محل فقد أبلغتكم والمعنى: إن يتولوا يعذرني ويستخلف قوما غيركم ولا تضروا إلا أنفسكم على كل شيء حفيظ أى رقيب عليه مهيمن، فما تخفى." (١)

"هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلا لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم أنواع **المنافع**، وبالفلز الذي ينتفعون به «١» في صوغ الحلى منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفى به، وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهرا، يثبت الماء في منافعه. وتبقى آثاره في العيون والبئار والجبوب، والثمار التي تنبت به مما يدخر ويكنز، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة، بزبد السيل الذي يرمى به، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب. فإن قلت: لم نكرت الأودية؟ قلت: لأن المطر لا يأتى إلا على طريق المناوبة بين البقاع، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض. فإن قلت: فما معنى قوله بقدرها؟ قلت: بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار. ألا ترى إلى قوله وأما ما ينفع الناس

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٤٠٤

لأنه ضرب المطر مثلا للحق، فوجب أن يكون مطرا خالصا للنفع خاليا من المضرة، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف «٢» . فإن قلت: فما فائدة قوله ابتغاء حلية أو متاع؟ قلت: الفائدة فيه كالفائدة في قوله بقدرها لأنه جمع الماء والفلز في النفع في قوله وأما ما ينفع الناس لأن المعنى: وأما ما ينفعهم من الماء والفلز فذكر وجه الانتفاع مما يوقد عليه منه ويذاب، وهو الحلية والمتاع. وقوله ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع عبارة جامعة لأنواع الفلز، مع إظهار الكبرياء في ذكره على وجه التهاون به كما هو هجيرى الملوك، نحو ما جاء في ذكر الآجر فأوقد لي يا هامان على الطين و «من» لابتداء الغاية. أى: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء. أو للتبعيض بمعنى وبعضه زبدا رابيا منفخا مرتفعا على وجه السيل، أى يرمى به. وجفأت القدر بزبدها، وأجفأ السيل وأجفل. وفي قراءة رؤبة ابن العجاج: جفالا. وعن أبى حاتم: لا يقرأ بقراءة رؤبة، لأنه كان يأكل الفأر. وقرئ:
يوقدون، بالياء: أى يوقد الناس.

---

(١) . قوله «وبالفلز الذي ينتفعون به» في الصحاح «الفلز» بالكسر وتشديد الزاى: ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض اه فليحرر، ولعله ما يبقيه الكير ... الخ. (ع)
(٢) . قوله «السيول الجواحف» في الصحاح «سيل جحاف» بالضم: إذا جرف كل شيء وذهب به. (ع)." [1]

"إذ لا شيء أطم على الكفرة ولا هم أشد له نكيرا من البعث، فلا يهولنك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم، ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك، واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه، لا البرهان وتدبره. وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله.

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١٧ الى ١٨]
وما تلك بيمينك يا موسى (١٧) قال هي عصاي أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى (١٨)
وما تلك بيمينك يا موسى كقوله تعالى وهذا بعلي شيخا في انتصاب الحال بمعنى الإشارة: ويجوز أن

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٥٢٣/٢

تكون تلك اسما موصولا صلته بيمينك إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عز وعلا في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة «١» وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة. ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد ويقول لك: ما هي؟ فتقول: زبرة حديد، ثم يريك بعد أيام لبوسا مسردا فيقول لك: هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة وأنيق السرد. قرأ ابن أبى إسحاق: عصى، على لغة هذيل.

ومثله يا بشرى أرادوا كسر ما قبل ياء المتكلم فلم يقدروا عليه، فقلبوا الألف إلى أخت الكسرة وقرأ الحسن عصاي بكسر الياء لالتقاء الساكنين، وهو مثل قراءة حمزة بمصرخي وعن ابن أبى إسحاق: سكون الياء أتوكؤا عليها أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة «٢» . هش الورق: خبطه، أى: أخبطه على رؤس غنمي تأكله. وعن لقمان ابن عاد: أكلت حقا وابن لبون وجذع. وهشة نخب وسيلا دفع، والحمد لله من غير شبع، سمعته من غير واحد من العرب. ونخب: واد قريب من الطائف كثير السدر. وفي قراءة النخعي: أهش، وكلاهما من هش الخبز يهش: إذا كان ينكسر لهشاشته. وعن عكرمة: أهس بالسين، أى: أنحى عليها زاجرا لها. والهس: زجر الغنم. ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا، كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال: ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها وكما تنفع العيدان، ليكون جوابه مطابقا للغرض الذي فهمه من فحوى كلام ربه. ويجوز أن يريد عز وجل أن يعدد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها، ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة، كأنه يقول له: أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كنت تعتد بها وتحتفل

---

(١) . قوله «حية نضناضة» أى تحرك لسانها في فمها. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) . قوله «الطفرة» أى الوثبة. (ع)." [١]

"للهو واللعب، وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعد والمرافق التي لا تحصى. ثم بين أن السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي: هو أن الحكمة صارفة عنه، وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلا لأنى على كل شيء قدير. وقوله لاتخذناه من لدنا كقوله رزقا من لدنا أى من جهة قدرتنا. وقيل:

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٥٧

اللهو الولد بلغة اليمن. وقيل المرأة. وقيل من لدنا، أى من الملائكة لا من الإنس، ردا لولادة المسيح وعزير.

[سورة الأنبياء (٢١) : آية ١٨]

بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون (١٨)

بل إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب، وتنزيه منه لذاته، كأنه قال: سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب «١» ، بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد، وندحض الباطل بالحق. واستعار لذلك القذف «٢» والدمغ، تصويرا لإبطاله وإهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا، قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه «٣» ، ثم قال ولكم الويل مما تصفون به مما لا يجوز عليه وعلى حكمته. وقرئ: فيدمغه بالنصب، وهو في ضعف قوله:

---

(١) . قال محمود: «معناه سبحاننا أن نتخذ لهوا ولعبا ... الخ» قال أحمد: وله تحت قوله واستغنائنا عن القبيح دفين من البدعة والضلالة، ولكنه من الكنوز التي يحمى عليها في نار جهنم، وذلك أن القدرية يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح وفعل ما يتوهمونه حسنا بعقولهم، ويظنون أن الحكمة تقتضي ذلك، فلا يستغنى الحكيم على زعمهم عن خلق الحسن على وفق الحكمة بخلاف القبيح، فان الحكمة تقتضي الاستغناء عنه، فالى ذلك يلوح الزمخشري وما هي إلا نزعة سبق إليها ضلال الفلاسفة. ومن ثم يقولون: ليس في الإمكان أكمل من هذا العالم، لأنه لو كان في القدرة أكمل منه وأحسن، ثم لم يخلقه الله تعالى: لكان بخلا ينافي الجود، أو عجزا ينافي القدرة، حتى انبعهم في ذلك من لا نسميه من أهل الملة- عفا الله عنه- إن كان هذا مما يدخل تحت ذيل العفو. فالحق أن الله تعالى مستغن عن جميع الأفعال حسنة كانت أو غيرها، مصلحة كانت أو مفسدة. وأن له أن لا يخلق ما يتوهمه القدرية حسنا، وله أن يفعل ما يتوهمونه في الشاهد قبيحا، وأن كل موجود من فاعل وفعل على الإطلاق فبقدرته وجد، فليس في الوجود إلا الله وصفاته وأفعاله، وهو مستغن عن العالم بأسره، وحسنه وقبحه، فلو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم على أتقى قلب رجل منكم لم يزد ذلك في ملكه شيئا، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم على أفجر قلب رجل منكم لم ينقص ذلك من ملكه شيئا. اللهم ألهمنا الحق واستعملنا به.

(٢) . عاد كلامه. قال: «وفي قوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل استعارة حسنة: استعار القذف ... الخ» قال أحمد: ومثل هذا التنبيه من حسناته، ولولا أن السيئة التي قبلها تتعلق بالعقيدة لتلوت: إن

الحسنات يذهبن السيئات، والله أعلم. [.....]

(٣) . قوله «فدمغه» في الصحاح: أى شجه حتى بلغت الشجة الدماغ. (ع)." [١]

"بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل «١» ، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة عن آياتها أى عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس «٢» والقمر وسائر النيرات، ومسايرها وطلوعها وغروبها، على الحساب القويم والترتيب العجيب، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة، وأى جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها، والاعتبار بها، والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم، ودبرها ونصبها هذه النصبة، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرته ولطف علمه. وقرئ عن آيتها، على التوحيد، اكتفاء بالواحدة في الدلالة على الجنس أى: هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من **المنافع** الدنيوية، كالاستضاءة بقمريها، والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها، وهم عن كونها آية بينة على الخالق معرضون.

[سورة الأنبياء (٢١) : آية ٣٣]

وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون (٣٣)

كل التنوين فيه عوض من المضاف إليه، أى: كلهم في فلك يسبحون والضمير للشمس والقمر، والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة، جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها وهو السبب في جمعهما بالشموس والأقمار، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد، وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة. فإن قلت: الجملة ما محلها؟ قلت: محلها النصب على الحال من الشمس والقمر. فإن قلت: كيف استبد بهما دون الليل والنهار بنصب الحال عنهما؟ قلت: كما تقول: رأيت زيدا وهندا متبرجة ونحو ذلك، إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل. ومنه قوله تعالى في هذه السورة ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة أو لا محل لها لاستئنافها. فإن قلت: لكل واحد من القمرين فلك على حدة، فكيف قيل:

جميعهم يسبحون في فلك؟ قلت: هذا كقولهم «كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفا» أى كل واحد منهم، أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين، فاكتفى بما يدل على الجنس اختصارا، ولأن الغرض الدلالة على الجنس.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٠٧/٣

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٣٤ الى ٣٥]
وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون (٣٤) كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون (٣٥)
كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته، فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا، أى: قضى الله

---

(١) . قوله «ويتزلزل» لعله: أو يتزلزل. (ع)
(٢) . قوله «والعبر بالشمس» لعله «كالشمس ... الخ» كعبارة النسفي. (ع)." [1]
"[سورة الحج (٢٢) : آية ٢٦]
وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود (٢٦)
واذكر حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة، أى: مرجعا يرجع إليه للعمارة والعبادة.
رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها يقال لها الخجوج: كنست ما حوله، فبناه على أسه القديم. وأن هي المفسرة. فإن قلت: كيف يكون النهى عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة؟ قلت: كانت التبوئة مقصودة من أجل العبادة، فكأنه قيل: تعبدنا إبراهيم قلنا له: لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي من الأصنام والأوثان «١» والأقذار أن تطرح حوله. وقرئ: يشرك، بالياء على الغيبة.

[سورة الحج (٢٢) : آية ٢٧]
وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق (٢٧)
وأذن في الناس ناد فيهم. وقرأ ابن محيصن: وآذن. والنداء بالحج: أن يقول: حجوا، أو عليكم بالحج. وروى أنه صعد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حجوا بيت «٢» ربكم. وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع «٣» رجالا مشاة جمع راجل، كقائم وقيام. وقرئ: رجالا، بضم الراء مخفف الجيم ومثقله، ورجالي كعجالى عن ابن عباس وعلى كل ضامر حال معطوفة على حال، كأنه قال: رجالا وركبانا يأتين صفة لكل ضامر، لأنه في معنى الجمع. وقرئ: يأتون، صفة للرجال والركبان.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١١٥/٣

والعميق: البعيد، وقرأ ابن مسعود: معيق. يقال: بئر بعيدة العمق والمعق «٤» .

[سورة الحج (٢٢) : آية ٢٨]

ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير (٢٨)

نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات. وعن أبى حنيفة رحمه الله: أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج، فلما حج فضل

---

(١) . قوله «والأوثان» في الصحاح «الوثن» : الصنم. (ع)

(٢) . أخرجه الثعلبي عن الحسن فذكره. وسنده إليه في أول الكتاب.

(٣) . أخرجه الطبري عن ابن عباس، بلفظ «قام عند الحجر» وفي رواية «عند مقامه. وقال: يا أيها الناس حجوا بيت ربكم فأجابوه لبيك اللهم لبيك»

(٤) . قوله «بعيدة العمق والمعق» في الصحاح «المعق» : قلب العمق، والامعاق: مثل الاعماق، وهو ما بعد من أطراف المفاوز. (ع)." [١]

"إلى من ليرتبط به، وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت، ظهر أثرها في سائر الأعضاء. إلى أجل مسمى إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها.

وثم للتراخي في الوقت، فاستعيرت للتراخي في الأحوال. والمعنى: أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم، وإنما يعتد الله بالمنافع الدينية، قال سبحانه تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطا في النفع: محلها إلى البيت أى وجوب نحرها. أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت، كقوله هديا بالغ الكعبة والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت، لأن الحرم هو حريم البيت. ومثل هذا في الاتساع قولك: بلغنا البلد، وإنما شارفتموه واتصل مسيركم بحدوده. وقيل: المراد بالشعائر: المناسك كلها، ومحلها إلى البيت العتيق يأباه.

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣٤ الى ٣٥]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٥٢/٣

ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين (٣٤) الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣٥)

شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له: أى يذبحوا لوجهه على وجه التقرب، وجعل العلة في ذلك أيذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك: وقرئ منسكا بفتح السين وكسرها، وهو مصدر بمعنى النسك، والمكسور يكون بمعنى الموضع فله أسلموا أى أخلصوا له الذكر خاصة، واجعلوه لوجهه سالما، أى: خالصا لا تشوبوه بإشراك.

المخبتون: المتواضعون الخاشعون، من الخبت وهو المطمئن من الأرض. وقيل: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقرأ الحسن والمقيمي الصلاة بالنصب على تقدير النون. وقرأ ابن مسعود: والمقيمين الصلاة، على الأصل.

[سورة الحج (٢٢) : آية ٣٦]

والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون (٣٦)

البدن جمع بدنة، سميت لعظم بدنها وهي الإبل خاصة، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم." (١)

"[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٥٧ الى ٦١]

إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون (٥٧) والذين هم بآيات ربهم يؤمنون (٥٨) والذين هم بربهم لا يشركون (٥٩) والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون (٦٠) أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون (٦١)

يؤتون ما آتوا يعطون ما أعطوا، وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة:

يأتون ما أتوا، أى يفعلون ما فعلوا. وعنها أنها قالت: قلت يا رسول الله، هو الذي يزنى ويسرق ويشرب الخمر وهو على ذلك يخاف الله؟ قال: لا يا ابنة الصديق، ولكن هو الذي يصلى ويصوم ويتصدق، وهو على ذلك يخاف الله أن لا يقبل منه «١» يسارعون في الخيرات يحتمل معنيين، أحدهما: أن يراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها. والثاني: أنهم يتعجلون في الدنيا **المنافع** ووجوه الإكرام، كما قال فآتاهم

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/١٥٧

الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين لأنهم إذا سورع بها لهم، فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها، وهذا الوجه أحسن طباقا للآية المتقدمة، لأن فيه إثبات ما نفى عن الكفار للمؤمنين. وقرئ: يسرعون في الخيرات لها سابقون أى فاعلون السبق لأجلها أو سابقون الناس لأجلها. أو إياها سابقون، أى: ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا. ويجوز أن يكون لها سابقون خبرا بعد خبر. ومعنى وهم لها كمعنى قوله:

أنت لها أحمد من بين البشر «٢»

---

(١) . أخرجه الترمذي، وابن ماجة، وأحمد، وإسحاق، وابن أبى شيبة والحاكم والبيهقي في الشعب. من رواية عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمذاني عن عائشة قالت: سألت فذكره. قال الترمذي وقد روى عن عبد الرحمن ابن سعيد عن أبى حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه. اه وهذه الطريق أخرجها الطبري بهذا الاسناد. أن عائشة قالت: فذكره وله عنده طريق أخرى. عن عائشة فيها ليث بن أبى سليم. وهو ضعيف. وقوله وهو في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة يؤتون ما آتوا: كأنه يشير إلى هذا الحديث. وأخرج منه ما أخرجه الحاكم.

من طريق عبد الله بن عمير عن أبيه أنه سأل عائشة عن قوله تعالى الذين يؤتون ما آتوا كيف كان صلى الله عليه وسلم يقرؤها يؤتون: يأتون أو يؤتون؟ قالت أيهما أحب إليك؟ قال: الذين يأتون ما أتوا. قالت. أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها. وكذلك أنزلت» وفي إسناده يحيى بن راشد وهو ضعيف. وله طريق أخرى، عند أحمد من طريق أبى خلف الجمحي: أن عبيد بن عمير سأل عائشة نحوه وفيه إسماعيل بن مسلم المكي.

وهو ضعيف.

(٢) .

قصيدة رائقة صوغتها ... أنت لها أحمد من بين البشر

رائقة: محالية من الحشو والتعقيد. وصوغتها- بالتشديد- للمبالغة. وأنت لها: أى أهل وكفؤ لها. وأحمد: منادى.

ومن بين البشر: متعلق بمحذوف حال، أى: منتخبا من بينهم. ويجوز أن أحمد أفعل تفضيل، كذا قيل. ويروى:

أنت لها منذر من بين البشر ... داهية الدهر وصماء الغير

للأعشى الحرمازي، وضمير لها مبهم يفسره قوله «داهية الدهر» أى الشديدة المهمة من شدائده. والصماء الصلبة، والغير- كسبب- بمعنى البقية، من غبر إذا بقي، أو من الغبار، أو من الظلمة. وأصل «صماء الغبر» : الحية تسكن في منقع قرب مويهة فلا تقرب. ويضرب بها المثل. والمعنى: أنها تغشى فلا يهتدى إلى التخلص منها. ومنذر:

منادى. وروى بدله: أحمد. وقيل: ضمير لها للنبوة.." (١)

"إلى كون، كما قيل: استحال، إذا انتقل من حال إلى حال. ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه، كما جاء: بمنتزاح «١» . فإن قلت: هلا قيل: وما تضرعوا. أو: فما يستكينون؟ قلت: لأن المعنى: محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة. وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد. وقرئ: فتحنا.

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٧٨ الى ٨٠]

وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون (٧٨) وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون (٧٩) وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون (٨٠)

إنما خص السمع والأبصار والأفئدة، لأنه يتعلق بها من **المنافع** الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها. ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا

---

(١) . قوله «كما جاء بمنتزاح» أى في قوله:

وأنت من الغوائل حين ترمى ... وعن ذم الرجال بمنتزاح

اه عليان قلت: وقد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ٤٦٤ فراجعه إن شئت اه مصححه. [.....]." (٢)

"وأضاف النور إلى السماوات والأرض لأحد معنيين: إما للدلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى تضيء له السماوات والأرض. وإما أن يراد أهل السماوات والأرض وأنهم يستضيئون به مثل نوره أى صفة

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٩٢/٣

(٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٩٨/٣

نوره العجيبة الشأن في الإضاءة كمشكاة كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة فيها مصباح سراج ضخم ثاقب في زجاجة أراد قنديلا من زجاج شامي «١» أزهر. شبهه في زهرته بأحد الدراري من الكواكب وهي المشاهير، كالمشترى والزهرة والمريخ وسهيل ونحوها يوقد هذا المصباح من شجرة أى ابتدأ ثقوبه من شجرة الزيتون، يعنى: زويت ذبالته «٢» بزيتها مباركة كثيرة **المنافع**. أو: لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين. وقيل: بارك فيها سبعون نبيا، منهم إبراهيم عليه السلام. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «عليكم بهذه الشجرة زيت الزيتون فتداووا به، فإنه مصحة من الباسور «٣» » لا شرقية ولا غربية أى منبتها الشام. وأجود الزيتون: زيتون الشام. وقيل: لا في مضحى ولا مقنأة، «٤» ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها، وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا خير في شجرة في مقنأة، ولا نبات في مقنأة، ولا خير فيهما في مضحى» «٥» وقيل: ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط، بل تصيبها بالغداة والعشى جميعا، فهي شرقية وغربية، ثم وصف الزيت بالصفاء والوبيص، «٦» وأنه لتلألئه يكاد يضيء من غير نار نور على نور

أى هذا الذي شبهت به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت، حتى لم تبق مما يقوى النور ويزيده إشراقا ويمده بإضاءة: بقية، وذلك أن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره، بخلاف المكان الواسع فإن الضوء ينبث فيه وينتشر، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاؤه يهدي الله لهذا النور الثاقب من يشاء من عباده، أى: يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله

---

(١) . قوله «شامي» نعت لزجاج، ويوضحه قوله «أزهر» وعبارة النسفي: شامي بكسر الزاى، أى قرأ الشامي:

زجاجة، بكسر الزاى. (ع) [.....]

(٢) . قوله «يعنى زويت ذبالته بزيتها» في الصحاح: زويت الشيء: جمعته وقبضته. وانزوت الجلدة في النار، أى: اجتمعت وتقبضت. وفيه «الذبالة» الفتيلة، ولعله «رويت» بالراء» كما في عبارة النسفي.

(٣) . أخرجه الطبراني وابن أبى حاتم في العلل وأبو نعيم في الطب والثعلبي كلهم من طريق عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب عن أبى الخير عن عتبة بن عامر بهذا

(٤) . قوله «ولا مقنأة» في الصحاح «المقأة» المكان الذي لا تطلع عليه الشمس.

(٥) . لم أجده

(٦) . قوله «والوبيص» البريق واللمعان، أفاده الصحاح. (ع)." [١]

"عن قولهم إن كاد ليضلنا لأنه نسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الضلال من حيث لا يضل غيره إلا من هو ضال في نفسه. ويروى أنه من قول أبى جهل لعنه الله.

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٤٣]

أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا (٤٣)

من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتي ويذر لا يتبصر دليلا ولا يصغى إلى برهان. فهو عابد هواه وجاعله إلهه، فيقول لرسوله هذا الذي لا يرى معبودا إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفتتوكل عليه وتجبره على الإسلام وتقول لا بد أن تسلم شئت أو أبيت- ولا إكراه في الدين؟ وهذا كقوله وما أنت عليهم بجبار، لست عليهم بمصيطر ويروى أن الرجل منهم كان يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر. ومنهم الحرث بن قيس السهمي.

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٤٤]

أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا (٤٤)

أم هذه منقطعة، معناه، بل أتحسب كأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنا ولا إلى تدبره عقلا، ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال، ثم أرجح ضلالة منها. فإن قلت لم أخر هواه والأصل قولك: اتخذ الهوى إلها؟ قلت: ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية، كما تقول: علمت منطلقا زيدا: لفضل عنايتك بالمنطلق «١» . فإن قلت: ما معنى ذكر الأكثر؟ قلت: كان فيهم من لم يصده عن الإسلام إلا داء واحد: وهو حب الرياسة، وكفى به داء عضالا. فإن قلت: كيف جعلوا أضل من الإنعام؟ قلت: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها «وتهتدى لمراعيها ومشاربها. وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم **المنافع**، ولا يتقون العقاب

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٢٤١

الذي هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهنى والعذب الروى.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤٥ الى ٤٦]

ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا (٤٥) ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا (٤٦)

---

(١) . قال محمود: «إن قلت لم قدم إلهه وهو المفعول الثاني، وأجاب بأنه قدم عناية به كقولك ظننت منطلقا زيدا إذا كانت عنايتك بالمنطلق» قال أحمد: وفيه نكتة حسنة وهي إفادة الحصر، فان الكلام قبل دخول أرأيت مبتدأ وخبر: المبتدأ هواه، والخبر إلهه. وتقديم الخبز كما علمت يفيد الحصر، فكأنه قال: أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه، فهو أبلغ في ذمه وتوبيخه، والله أعلم.." (١)

"ألم تر إلى ربك ألم ننظر إلى صنع ربك وقدرته، ومعنى مد الظل: أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس ولو شاء لجعله ساكنا أى لاصقا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة، غير منبسط فلم ينتفع به أحد: سمى انبساط الظل وامتداده تحركا منه وعدم ذلك سكونا. ومعنى كون الشمس دليلا: أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل، من كونه ثابتا في مكان زائلا «١» ومتسعا ومتقلصا، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك. وقبضه إليه: أنه ينسخه بضح الشمس «٢» يسيرا أى على مهل. وفي هذا القبض اليسير شيئا بعد شيء من **المنافع** ما لا يعد ولا يحصر، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا. فإن قلت: ثم في هذين الموضعين كيف موقعها؟ قلت: موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة: كان الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم منهما، تشبيها لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت. ووجه آخر: وهو أنه مد الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة، ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض فينانا ما في أديمه جوب «٣» لعدم النير، ولو شاء لجعله ساكنا مستقرا على تلك الحالة، ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل، أى: سلطها عليه ونصبها دليلا متبوعا له كما يتبع الدليل في الطريق، فهو يزيد بها وينقص، ويمتد ويتقلص، ثم نسخه بها فقبضه قبضا سهلا يسيرا غير عسير. ويحتمل أن يريد: قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تبقى الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه، وقوله:

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٢٨٢

قبضناه إلينا: يدل عليه، وكذلك قوله يسيرا، كما قال ذلك حشر علينا يسير

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٤٧]

وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا (٤٧)

شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر. والسبات: الموت. والمسبوت: الميت، لأنه مقطوع الحياة، وهذا كقوله وهو الذي يتوفاكم بالليل. فإن قلت: هلا فسرته بالراحة؟

قلت: النشور في مقابلته يأباه إباء العيوف الورد وهو مرنق «٤» . وهذه الاية مع دلالتها على

---

(١) . قوله «زائلا» لعله زائلا عن آخر. (ع)

(٢) . قوله «أنه ينسخه بضح الشمس» في الصحاح: ضحضح السراب وتضحضح، إذا ترقرق. والضح: الشمس. وفي الحديث «لا يقعدن أحدكم بين الضح والظل» فانه مقعد الشيطان. (ع)

(٣) . قوله «ظلها على الأرض فينانا ما في أديمه جوب» في الصحاح «الفينان» الطويل، وفيه «الأدم» جمع الأديم، مثل: أفيق وأفق، وربما سمى وجه الأرض أديما. وفيه: جاب يجوب جوبا، إذا خرق وقطع، فتدبر. (ع) [.....]

(٤) . قوله «يأباه إباء العيوف الورد وهو مرنق» في الصحاح «العيوف» من الإبل: الذي يشم الماء فيدعه وهو عطشان. وفيه: رنقته ترنيقا: كدرته. (ع)." [1]

"بابه، يقال: وجه كريم، إذا رضى في حسنه وجماله، وكتاب كريم: مرضى في معانيه وفوائده، وقال:

حتي يشق الصفوف من كرمه «١»

أى: من كونه مرضيا في شجاعته وبأسه، والنبات الكريم: المرضى فيما يتعلق به من **المنافع** إن في إنبات تلك الأصناف لآية على أن منبتها قادر على إحياء الموتى، وقد علم الله أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم، غير مرجو إيمانهم وإن ربك لهو العزيز في انتقامه من الكفرة الرحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحا. فإن قلت: ما معنى الجمع بين كم وكل، ولو قيل كم أنبتنا فيها من زوج كريم «٢» ؟ قلت: قد دل كل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل، وكم على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة «٣» ، فهذا معنى الجمع بينهما، وبه نبه على كمال قدرته. فإن قلت: فما معنى وصف الزوج بالكريم؟ قلت: يحتمل

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢٨٣/٣

معنيين، أحدهما:

---

(١) .

من رأى يومنا ويوم بنى التيم ... إذا التف صيقه بدمه

لما رأوا أن يومهم أشب ... شدوا حيازيمهم على ألمه

كأنما الأسد في عرينهم ... ونحن كالليل جاش في قتمه

لا يسلمون الغداة جارهم ... حتى يزل الشراك عن قدمه

ولا يخيم اللقاء فارسهم ... حتى يشق الصفوف من كرمه

لرجل من حمير. ومن: استفهامية. والصيق والصيقة- بالكسر-: الغبار والتراب. والأشب- كحذر-: كثير الجلبة والاختلاط، ويطلق على المكان الذي التف شجره، والحيزوم: الصدر. والعرين: أجمة الأسد يسكن فيها.

وجاش: ارتفع وأقبل. والقتم: الغبار والسواد والظلمة. وروى في غشمه: بالغين. والمعنى واحد، لا يسلمون لا يخذلون ولا يتركون. والشراك: سير النعل، ولا يخيم: أى لا يجبن عن اللقاء، واليوم: الزمن أو الواقعة، وإضافة الصيق والدم إليه لأنه فيه. ووصف اليوم بأنه كثير الصياح والاختلاط، لأن ذلك واقع فيه، وشد الحيازيم على الألم: كناية عن التجلد والصبر. وشبههم بالأسود في شجاعتهم، وشبه قومه بالليل في الاحاطة والقهر للغير، ثم قال: لا يتركون حليفهم غداة الروع حتى يرتبك وحده في الحرب، فزلل الشراك: كناية عن ذلك ولا يجبن الفارس منهم عن اللقاء، فهو نصب على نزع الخافض، وقيل: مفعول معه، حتى يشق صفوف الحرب ويدخلها من كرمه، أى شجاعته وجراءته، لأن الكرم في كل باب بحسبه، وحتى الأولى غاية للمنفي، والثانية غاية للنفي. ويجوز أن الثانية ابتدائية، والفعل بعدها مرفوع على الاستئناف، وهذا أبلغ في المدح، ثم إن مدح عدوهم مدح لهم.

(٢) . قوله «كم أنبتنا فيها من زوج كريم» لعل بعده سقطا تقديره «كان مستقيما» . (ع)

(٣) . قال محمود: «إن قلت: ما فائدة الجمع بين كل وكم؟ وأجاب بأن كلا دخلت للاحاطة بأزواج النبات وكم دلت على أن هذا المحاط به متكاثر مفرط الكثرة» قال أحمد: فعلى مقتضى ذلك يكون المقصود بالتكثير: الأنواع والظاهر أن المقصود آحاد الأزواج والأنعام، ويدل عليه أنك لو أسقطت كل

فقلت: انظروا إلى الأرض كم أنبت الله فيها من الصنف الفلاني، لكنت مكنيا عن آحاد ذلك الصنف المشار إليه، فإذا أدخلت كل فقد أديت بتكريره آحاد كل صنف لا آحاد صنف معين، والله أعلم.." [1]

"بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه. وقيل: كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه.

وقيل: أن يطلى بالقطران ويشمس. وقيل: أن يلقى للنمل تأكله. وقيل: إيداعه القفص.

وقيل: التفريق بينه وبين إلفه. وقيل: لألزمنه صحبة الأضداد. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد.

وقيل: لألزمنه خدمة أقرانه. فإن قلت: من أين حل له تعذيب الهدهد؟

قلت: يجوز أن يبيح له الله ذلك. لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة، كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع: وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة:

جاز أن يباح له ما يستصلح به. وقرئ: ليأتينى. وليأتينن. والسلطان: الحجة والعذر. فإن قلت:

قد حلف على أحد ثلاثة أشياء: فحلفه على فعليه لا مقال فيه، ولكن كيف صح حلفه على فعل الهدهد؟ ومن أين درى أنه يأتى بسلطان، حتى يقول والله ليأتينى بسلطان؟ قلت: لما نظم الثلاثة «بأو» في الحكم الذي هو الحلف: آل كلامه إلى قولك: ليكونن أحد الأمور، يعنى: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح، وإن لم يكن كان أحدهما، وليس في هذا ادعاء دراية، على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحى من الله بأنه سيأتيه بسلطان مبين، فثلث بقوله أو ليأتيني بسلطان مبين عن دراية وإيقان.

[سورة النمل (٢٧) : آية ٢٢]

فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين (٢٢)

فمكث قرئ بفتح الكاف وضمها غير بعيد غير زمان بعيد، كقوله: عن قريب.

ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفا من سليمان، وليعلم كيف كان الطير مسخرا له، ولبيان ما أعطى من المعجزة الدالة على نبوته وعلى قدرة الله تعالى أحطت بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق: ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة، ابتلاء له في علمه، وتنبيها على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يحط به، لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه، ويكون لطفا له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة، والإحاطة بالشيء علما: أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم. قالوا: وفيه

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٣٠٠

دليل على بطلان قول الرافضة إن الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه. سبأ: قرئ بالصرف ومنعه. وقد روى بسكون الباء. وعن ابن كثير في رواية: سبا، بالألف كقولهم: ذهبوا أيدى سبا. وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فمن جعله اسما للقبيلة لم يصرف، ومن جعله اسما للحى أو الأب الأكبر صرف. قال:." (١)

"[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٥٩ الى ٦٠]

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون (٥٩) أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون (٦٠)

أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع. ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله عز وجل وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد وقبل كل عظة وتذكرة، وفي مفتتح كل خطبة، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن. وقيل: هو متصل بما قبله، وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين. وقيل: هو خطاب للوط عليه السلام، وأن يحمد الله على هلاك كفار قومه، ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم. معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت «١» وتهكم بحالهم، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله، ولا يؤثر عاقل شيئا على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة، فقيل لهم، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى وعبثا، لينبهوا على الخطإ المفرط والجهل المورط وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد. ونحوه ما حكاه عن فرعون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجرى تحته. ثم عدد سبحانه الخيرات **والمنافع** التي هي آثار رحمته وفضله، كما عددها في موضع آخر ثم قال: هل من شركائكم من يفعل من

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٣٥٩

ذلكم من شيء. وقرئ: يشركون بالياء والتاء. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه كان إذا قرأها يقول «بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم «٢» » .

---

(١) . قال محمود: «معلوم أن لا خير فيما أشركوه حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت» قال أحمد: كلام مرضى بعد أن تضع خالق كل شيء مكان قوله «خالق كل خير» فانه تخصيص قدرى: أو إشراك خفى. والتوحيد الأبلج: ما قلناه، والله سبحانه وتعالى أعلم.
(٢) . كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد. وأخرجه البيهقي في الشعب في الباب التاسع من رواية جابر الجعفي عن أبى جعفر قال «كان على بن الحسين يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا ختم القرآن- فذكر حديثا طويلا- وفيه والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أم ما يشركون؟ بل الله خير وأجل وأبقى وأكرم وأعظم مما يشركون» .." (١)

"في أن العناية هي سبب التقديم، وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خبرا اسما، وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف. ومنه قولهم: أهون ما أعملت لسان ممخ «١» . وعن ابن مسعود رضى الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف، في قوله عسى أن ينفعنا وأبو بكر في عمر. روى أنه أنكحه صفراء. وقوله هاتين فيه دليل على أنه كانت له غيرهما تأجرني من أجرته إذا كنت له أجيرا، كقولك: أبوته إذا كنت له أبا، وثماني حجج ظرفه. أو من أجرته كذا، إذا أثبته إياه. ومنه: تعزية رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجركم الله ورحمكم «٢» . وثماني حجج: مفعول به، ومعناه:
رعية ثماني حجج فإن قلت: كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز؟ قلت: لم يكن ذلك عقدا للنكاح، ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم «٣» عليه، ولو كان عقدا لقال: قد أنكحتك ولم يقل: إنى أريد أن أنكحك. فإن قلت: فكيف صح أن يمهرها إجارة نفسه في رعية الغنم، ولا بد من تسليم ما هو مال؟ ألا ترى إلى أبى حنيفة كيف منع أن يتزوج امرأة بأن يخدمها سنة «٤» وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة، أو يسكنها داره سنة، لأنه في الأول:
مسلم نفسه وليس بمال، وفي الثاني: هو مسلم مالا وهو العبد أو الدار، قلت: الأمر على مذهب أبى حنيفة على ما ذكرت. وأما الشافعي: فقد جوز التزوج على الإجارة لبعض الأعمال والخدمة،

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٣٧٥

(١) . قوله «أهون ما أعملت لسان ممخ» في الصحاح: تمخيت من الشيء وأمخيت منه: إذا تبرأت منه اه، فلعل ممخ: اسم فاعل من أمخيت. (ع) [.....]

(٢) . أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان من طريق أحمد بن الحسن بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ابن الحسن بن على عن آبائه إبراهيم بن الحسن عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها. قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عزى قال: «آجركم الله ورحمكم» وإذا هنأ قال: «بارك الله لكم وبارك عليكم» وله شاهد مرسل أخرجه ابن أبى شيبة من رواية ابن خالد الوالبي: أن النبي صلى الله عليه وسلم عزى رجلا فقال له: «يرحمه الله ويأجركم» وفي الضعفاء لابن حبان عن ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم عزى مسلما بذمي مات له، فقال: «آجرك الله وأعظم أجرك» وفي إسناده إسماعيل بن يحيى التيمي. وهو ساقط

(٣) . قوله «ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه» لعله: ومواضعة (ع)

(٤) . قال محمود: «نقل من مذهب أبى حنيفة منع النكاح على مثل خدمته بعينه، وجوازه على مثل خدمة عبده سنة، وفرق بأنه في الأولى سلم نفسه وليس بمال، وفي الثانية سلم عبده وهو مال. ونقل عن الشافعي جواز النكاح على **المنافع** المعلومة مطلقا» قال أحمد: ومذهب ملك على ثلاثة أقوال: المنع، والكراهة، والجواز.

والعجب من إجازة أبى حنيفة النكاح على منافع العبد، بخلاف منافع الزوج، مع أن الآية أجازت النكاح على منافع الزوج ولم تتعرض لغيره، وما ذاك إلا لترجيح المعنى الذي أشار إليه الزمخشري. أو تفريعا على أن لا دليل في شرع من قبلنا، أو غير ذلك، والله أعلم.." [١]

"الشمس: لأن **المنافع** التي تتعلق به متكاثرة، ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة، ومن ثمة قرن بالضياء أفلا تسمعون لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل أفلا تبصرون لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره. وأنت من السكون ونحوه ومن رحمته زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة:

لتسكنوا في أحدهما وهو الليل، ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٤٠٤

[سورة القصص (٢٨) : آية ٧٤]
ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون (٧٤)
وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء: إيذان بأن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده. اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك، فأدخلنا في الناجين من وعيدك.

[سورة القصص (٢٨) : آية ٧٥]
ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون (٧٥)
ونزعنا وأخرجنا من كل أمة شهيدا وهو نبيهم: لأن أنبياء الأمم شهداء عليهم، يشهدون بما كانوا عليه فقلنا للأمة هاتوا برهانكم فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول فعلموا حينئذ أن الحق لله ولرسوله، لا لهم ولشياطينهم وضل عنهم وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانوا يفترون من الكذب والباطل.

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧٦ الى ٧٧]
إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين (٧٦) وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين (٧٧)
قارون اسم أعجمى مثل هرون، ولم ينصرف للعجمة والتعريف، ولو كان فاعولا من قرن لانصرف. وقيل: معنى كونه من قومه أنه آمن به. وقيل، كان إسرائيليا ابن عم موسى:
هو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب. وموسى بن عمران بن قاهث. وقيل: كان موسى ابن أخيه، وكان يسمى المنور لحسن صورته، وكان أقرأ بنى إسرائيل للتوراة، ولكنه." (١)

"الله مبتدأ وخبره الذي خلقكم أى الله هو فاعل هذه الأفعال الخاصة التي لا يقدر على شيء منها أحد غيره، ثم قال هل من شركائكم الذين اتخذتموهم أندادا له من الأصنام وغيرها من يفعل شيئا قط من تلك الأفعال، حتى يصح ما ذهبتم إليه، ثم استبعد حاله من حال شركائهم. ويجوز أن يكون الذي خلقكم صفة للمبتدإ، والخبر: هل من شركائكم، وقوله من ذلكم هو الذي ربط الجملة بالمبتدإ، لأن معناه: من

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٤٢٩

أفعاله. ومن الأولى والثانية والثالثة: كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد، لتعجيز شركائهم، وتجهيل عبدتهم.

[سورة الروم (٣٠) : آية ٤١]

ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (٤١)

الفساد في البر والبحر نحو: الجدب، والقحط، وقلة الريع في الزراعات والربح في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدواب، وكثرة الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين «١» والغاصة، ومحق البركات من كل شيء، وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار. وعن ابن عباس:

أجدبت الأرض وانقطعت مادة البحر. وقالوا: إذا انقطع القطر عميت دواب البحر. وعن الحسن أن المراد بالبحر: مدن البحر وقراه التي على شاطئه. وعن عكرمة: العرب تسمى الأمصار البحار. وقرئ في البر والبحور بما كسبت أيدي الناس بسبب معاصيهم وذنوبهم، كقوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم وعن ابن عباس ظهر الفساد في البر بقتل ابن آدم أخاه. وفي البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصبا: وعن قتادة: كان ذلك قبل البعث، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع راجعون عن الضلال والظلم. ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصي بكسب الناس ذلك. فإن قلت: ما معنى قوله ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون؟ قلت أما على التفسير الأول فظاهر، وهو أن الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة، لعلهم يرجعون عما هم عليه. وأما على الثاني فاللام مجاز، على معنى أن ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع، فكأنهم إنما أفسدوا وتسببوا لفشو المعاصي في الأرض لأجل ذلك. وقرئ: لنذيقهم، بالنون.

---

(١) . قوله «وإخفاق الصيادين» في الصحاح: أخفق الصائد، إذا رجع ولم يصطد. (ع)." [١]

"وقرئ: نعمه، ونعمة، ونعمته. فإن قلت: ما النعمة؟ قلت: كل نفع قصد به الإحسان، والله تعالى خلق العالم كله نعمة، لأنه إما حيوان، وإما غير حيوان. فما ليس بحيوان نعمة على الحيوان، والحيوان نعمة من حيث أن إيجاده حيا نعمة عليه. لأنه لولا إيجاده حيا لما صح منه الانتفاع، وكل ما أدى إلى الانتفاع وصححه فهو نعمة. فإن قلت: لم كان خلق العالم مقصودا به الإحسان؟ قلت: لأنه لا يخلقه إلا لغرض،

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤٨٢/٣

وإلا كان عبثا، والعبث لا يجوز عليه ولا يجوز أن يكون لغرض راجع إليه من نفع، لأنه غنى غير محتاج إلى المنافع، فلم يبق إلا أن يكون لغرض يرجع إلى الحيوان وهو نفعه. فإن قلت: فما معنى الظاهرة والباطنة؟ قلت: الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة، والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل، أو لا يعلم أصلا، فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدى إلى العلم بها، وقد أكثروا في ذلك: فعن مجاهد: الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء، والباطنة: الأمداد من الملائكة. وعن الحسن رضى الله عنه: الظاهرة: الإسلام. والباطنة الستر. وعن الضحاك: الظاهرة: حسن الصورة، وامتداد القامة. وتسوية الأعضاء. والباطنة: المعرفة. وقيل: الظاهرة البصر، والسمع، واللسان، وسائر الجوارح الظاهرة. والباطنة: القلب، والعقل، والفهم، وما أشبه ذلك. ويروى في دعاء موسى عليه السلام: إلهى، دلني على أخفى نعمتك على عبادك، فقال: أخفى نعمتي عليهم النفس. ويروى: أن أيسر ما يعذب به أهل النار: الأخذ بالأنفاس «١» .

[سورة لقمان (٣١) : آية ٢١]

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير (٢١)

معناه أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم أى في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب.

[سورة لقمان (٣١) : آية ٢٢]

ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى و إلى الله عاقبة الأمور (٢٢)

قرأ على بن أبى طالب رضى الله عنه: ومن يسلم بالتشديد، يقال: أسلم أمرك وسلم أمرك إلى الله. فإن قلت: ماله عدى بإلى، وقد عدى باللام في قوله بلى من أسلم وجهه لله؟ قلت: معناه مع اللام: أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما لله. أى خالصا له. ومعناه- مع إلى-:

---

(١) . لم أجده.." [1]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٤٩٩

"الأنعام: الإبل خاصة. فإن قلت: لم قال لتركبوا منها ولتبلغوا عليها، ولم يقل، لتأكلوا منها ولتصلوا إلى منافع؟ أو هلا قال: منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون «١» عليها حاجة في صدوركم؟ قلت: في الركوب: الركوب في الحج والغزو، وفي بلوغ الحاجة: الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم، وهذه أغراض دينية إما واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق به إرادة الحكيم. وأما الأكل وإصابة المنافع: فمن جنس المباح الذي لا يتعلق «٢» به إرادته: ومعنى قوله وعليها وعلى الفلك تحملون وعلى الأنعام وحدها لا تحملون، ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر. فإن قلت: هلا قيل: وفي الفلك، كما قال قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين؟

قلت: معنى الإيعاء «٣» ومعنى الاستعلاء: كلاهما مستقيم، لأن الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة له يستعليها، فلما صح المعنيان صحت العبارتان. وأيضا فليطابق قوله وعليها ويزاوجه أي آيات الله

جاءت على اللغة المستفيضة. وقولك: فأية آيات الله قليل، لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب، وهي في أى أغرب لإبهامه.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٨٢ الى ٨٣]

أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن (٨٣)

---

(١) . قال محمود: «فان قلت: هلا قيل لتركبوا منها ولتأكلوا منها ولتبلغوا، ومنها تركبون ومنها تأكلون، وعليها تبلغون؟ وأجاب بأن في الركوب الركوب في الغزو والحج، وفي بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى بلد لاقامة دين أو علم، وهذه أغراض دينية: إما واجبة أو مندوبة مما يتعلق به إرادة الحكيم. وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به الارادة» قال أحمد: جواب متداع للسقوط مؤسس على قاعدة واهية، وهي أن الأمر راجع إلى الارادة، فالواجب والمندوب مرادان، لأنهما مندرجان في الأمر، والمباح غير مراد، لأنه غير مأمور به، وهذا من هنيات المعتزلة في إنكار كلام النفس، فلا نطيل فيه النفس. وقاعدة أهل الحق أنه لا ربط بين الأمر والارادة، فقد يأمر بخلاف ما يريد، ويريد خلاف ما يأمر به، فالجواب الصحيح إذا أن المقصود المهم من الأنعام والمنفعة المشهورة فيها إنما هي الركوب وبلوغ الحوائج عليها بواسطة

الأسفار والانتقال في ابتغاء الأوطار، فلذلك ذكرهما هنا مقرونين باللام الدالة على التعليل والغرض. وأما الأكل وبقية **المنافع** كالأصواف والأوبار والألبان وما يجرى مجراها فهي وإن كانت حاصلة منها فغير خاصة بها خصوص الركوب والحمل وتوابع ذلك، بل الأكل بالغنم خصوصا الضأن أشهر، فلذلك اختيرت الضحايا منها على الغنم، فلذلك جردت هذه **المنافع** بالأخبار عن وجودها فيها غير مقرونة بما يدل على أنها المقصود.

(٢) . قوله «المباح الذي لا يتعلق به» مبنى على مذهب المعتزلة: أن الارادة بمعنى الأمر فلا تتعلق إلا بالمطلوب.

وعند أهل السنة: هي صفة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، فتتعلق بجميع الممكنات، كما تقرر في علم التوحيد. (ع)

(٣) . قوله «معنى الايعاء» في الصحاح: أوعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته في الوعاء. (ع)." [(١)]

"لتكون **المنافع** في الجبال معرضة لطالبيها، حاضرة محصليها، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، كلها مفتقرة إلى ممسك لا بد لها منه، وهو ممسكها عز وعلا بقدرته وبارك فيها وأكثر خيرها وأنماه وقدر فيها أقواتها أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم. وفي قراءة ابن مسعود: وقسم فيها أقواتها في أربعة أيام سواء فذلكة لمدة خلق الله الأرض وما فيها، كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان. قيل: خلق الله الأرض في يوم الأحد ويوم الاثنين، وما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء. وقال الزجاج. في أربعة أيام في تتمة أربعة أيام، يريد بالتتمة اليومين. وقرئ: سواء، بالحركات الثلاث: الجر على الوصف والنصب على: استوت سواء، أى: استواء: والرفع على: هي سواء. فإن قلت: بم تعلق قوله للسائلين؟ قلت: بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر: أى: قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين.

وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج «١» . فإن قلت: هلا قيل في يومين؟ وأى فائدة في هذه الفذلكة؟ قلت: إذا قال في أربعة أيام وقد ذكر أن الأرض خلقت في يومين، علم أن ما فيها خلق في يومين، فبقيت المخايرة بين أن تقول في يومين وأن تقول في أربعة أيام سواء، فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين، وهي الدلالة على أنها كانت أياما كاملة بغير زيادة ولا نقصان. ولو قال: في يومين- وقد يطلق اليومان على أكثرهما- لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما ثم استوى إلى

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/١٨١

السماء من قولك:

---

(١) . قال محمود: «إن قوله في أربعة أيام فذلكة بمدة خلق الله الأرض وما فيها، كأنه قال: وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين، فذلك أربعة أيام سواء. وقال: ومعنى سواء: كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان. ونقل عن الزجاج أن معنى الآية في تتمة أربعة أيام، يريد بالتتمة: اليومين، ثم قال: فان قلت بم تعلق قوله للسائلين؟ وأجاب بأنه متعلق بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر، أى: قدر فيها الأقوات لأجل السائلين المحتاجين إليها من المقتاتين، ثم قال: وهذا الوجه الأخير. لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج» قال أحمد: لم يبين استناعه على التفسير الأول ونحن نبينه فنقول: مقتضى التفسير الأول أن قوله في أربعة أيام فذلكة، ومن شأنها الوقوع في طرف الكلام بعد تمامه، فلو جعل قوله للسائلين متعلقا بمقدر: لزم وقوع الفذلكة في حشو الكلام، ولا كذلك على تفسير الزجاج، فان الأربعة على قوله من تتمة الأول، وهي متعلقة بمقدر على تأويل حذف التتمة تعلق الظرف بالمظروف، ليلائم ذلك إتمام الكلام ببيان المقصود من خلق الأقوات بعد بيان من خلقها. وتفسير الزجاج- والله أعلم- أرجح، فإنه يشتمل على ذكر مدة خلق الأقوات بالتأويل القريب الذي قدره، ومتضمن لما يقوم مقام الفذلكة، إذ ذكر جملة العدد الذي هو ظرف لخلقها وخلق أقواتها، وعلى تفسير الزمخشري تكون الفذلكة مذكورة من غير تقدم تصريح بجملة تفاصيلها، فانه لم يذكر منها سوى يومين خاصة، ومن شأن الفذلكة أن يتقدم النص على جميع أعدادها مفصلة، ثم تأتى هي على الجملة كقوله فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة.." (١)

"الثقفي، وكان الوليد يقول: لو كان حقا ما يقول محمد لنزل هذا القرآن على أو على أبى مسعود الثقفي، وأبو مسعود: كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث الله بشرا رسولا، فلما علموا بتكرير الله الحجج أن الرسل لم يكونوا إلا رجالا من أهل القرى، جاءوا بالإنكار من وجه آخر، وهو تحكمهم أن يكون أحد هذين، وقولهم: هذا القرآن ذكر له على وجه الاستهانة به، وأرادوا بعظم الرجل: رياسته وتقدمه في الدنيا، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيما.

[سورة الزخرف (٤٣) : آية ٣٢]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٨٨/٤

أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون (٣٢)

أهم يقسمون رحمت ربك هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم وتحكمهم، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها، والمتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته، ثم ضرب لهم مثلا فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في دنياهم، وأن الله عز وعلا هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودبر أحوالهم تدبير العالم بها، فلم يسو بينهم ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش، وغاير بين منازلهم فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج وموالي وخدما، ليصرف بعضهم بعضا في حوائجهم ويستخدموهم في مهنهم ويتسخروهم في أشغالهم، حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم، ولو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم، لضاعوا وهلكوا. وإذا كانوا في تدبير المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة، فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى ورأفته العظمى؟ وهو الطريق إلى حيازة حظوظ الآخرة والسلم إلى حلول دار السلام؟ ثم قال ورحمت ربك يريد: وهذه الرحمة وهي دين الله وما يتبعه من الفوز في المآب: خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا. فان قلت: معيشتهم ما يعيشون به من المنافع «١» ، ومنهم من يعيش بالحلال، ومنهم من يعيش بالحرام، فإذن قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال. قلت: الله تعالى قسم لكل عبد معيشته وهي مطاعمه ومشاربه وما يصلحه من المنافع وأذن له في تناولها، ولكن شرط عليه

---

(١) . قال محمود: «فان قلت: معيشتهم ما يعيشون به من المنافع ... الخ» قال أحمد: قد تقدم أن الرزق عند أهل السنة يطلق على ما يقوم الله به حال العبد حلالا كان أو حراما، وهذه الآية معضدة، والزمخشري بنى على أصله وقد تقدم.." [١]

"وكلفه أن يسلك في تناولها الطريق التي شرعها، فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالا، وسماها رزق الله، وإذا لم يسلكها تناولها حراما، وليس له أن يسميها رزق الله «١» ، فالله تعالى قاسم المعايش والمنافع، ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة الحرمة بسوء تناولهم، وهو عدولهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعه.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/٢٤٨

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٣٣ الى ٣٥]

ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون (٣٣) ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكؤن (٣٤) وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين (٣٥)

لبيوتهم بدل اشتمال من قوله لمن يكفر ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك:

وهبت له ثوبا لقميصه. وقرئ: سقفا، بفتح السين وسكون القاف. وبضمها وسكون القاف وبضمها: جمع سقف، كرهن ورهن ورهن. وعن الفراء: جمع سقيفة وسقفا بفتحتين، كأنه لغة في سقف وسقوفا، ومعارج ومعاريج. والمعارج: جمع معرج، أو اسم جمع لمعراج: وهي المصاعد إلى العلالي عليها يظهرون أى على المعارج، يظهرون السطوح يعلونها، فما اسطاعوا أن يظهروه. وسررا، بفتح الراء لاستثقال الضمتين مع حرفى التضعيف لما متاع الحياة اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية. وقرئ بكسر اللام، أى: الذي هو متاع الحياة، كقوله تعالى مثلا ما بعوضة ولما بالتشديد بمعنى إلا، وإن نافية. وقرئ: إلا. وقرئ: وما كل ذلك إلا. لما قال خير مما يجمعون فقلل أمر الدنيا وصغرها: أردفه ما يقرر قلة الدنيا عنده من قوله ولولا أن يكون الناس أمة واحدة أى: ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه، لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا «٢» عندنا للكفار سقوفا ومصاعد وأبوابا وسررا كلها

---

(١) . قوله «وليس له أن يسميها رزق الله» هذا على مذهب المعتزلة. وأما عند أهل السنة فالرزق ما ينتفع به ولو حراما. والمصنف يريد أن الله لا ييسر الحرام، لأنه لا يفعل القبيح عند المعتزلة. ومذهب أهل السنة أن فاعل الكائنات كلها هو الله تعالى. (ع)

(٢) . قال محمود: «معناه لولا كراهية أن يجتمعوا على الكفر لجعلنا للكفرة سقوفا من فضة أى لوسعنا عليهم الدنيا لحقارتها عندنا» قال أحمد: «لولا» هنا أخت «لولا» في قوله ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ... الآية تلك أن تصحح الكلام بتقدير كراهة ذلك بأن لا تقدر محذوفا كما قدمته، فيكون وجه الكلام هاهنا أن إجماعهم على الكفر مانع من بسط الدنيا. وهذا هو معنى لولا المطرد أن ما بعدها أبدا مانع من جوابها، ولكن قد يكون المانع موجودا تحقيقا فيمتنع الجواب بلا إشكال، كقوله تعالى فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين وهو الأكثر. وقد يكون وجوده تقديرا معه وعلى ذلك الآية،

أى: لو وجد بسط الدنيا للكافر مقدرا، لوجد مانعه عندنا وهو الاجتماع على الكفر مقدرا معه، وكل ما أدى وجوده إلى وجود مانعه لا يوجد.." [1]

"[سورة ق (٥٠) : آية ٦]

أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج (٦)

أفلم ينظروا حين كفروا بالبعث إلى آثار قدرة الله في خلق العالم بنيناها رفعناها بغير عمد من فروج من فتوق: يعنى أنها ملساء سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل، كقوله تعالى: هل ترى من فطور.

[سورة ق (٥٠) : الآيات ٧ الى ٨]

والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج (٧) تبصرة وذكرى لكل عبد منيب (٨)

مددناها دحوناها رواسي جبالا ثوابت لولا هي لتكفأت من كل زوج من كل صنف بهيج يبتهج به لحسنه تبصرة وذكرى لتبصر به ونذكر كل عبد منيب راجع إلى ربه، مفكر في بدائع خلقه. وقرئ: تبصرة وذكرى بالرفع، أى: خلقها تبصرة.

[سورة ق (٥٠) : الآيات ٩ الى ١١]

ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد (٩) والنخل باسقات لها طلع نضيد (١٠) رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١١)

ماء مباركا كثير المنافع وحب الحصيد وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد، وهو ما يقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرهما باسقات طوالا في السماء: وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم: باصقات، بإبدال السين صادا لأجل القاف نضيد منضود بعضه فوق بعض: إما أن يراد كثرة الطلع وتراكمه، أو كثرة ما فيه من الثمر رزقا على أنبتناها رزقا، لأن الإنبات في معنى الرزق. أو على أنه مفعول له، أى: أنبتناها لنرزقهم كذلك الخروج كما حييت هذه البلدة الميتة، كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم، والكاف في محل الرفع على الابتداء:

[سورة ق (٥٠) : الآيات ١٢ الى ١٤]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/٢٤٩

كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود (١٢) وعاد وفرعون وإخوان لوط (١٣) وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد (١٤)

أراد بفرعون قومه كقوله تعالى من فرعون وملائهم لأن المعطوف عليه قوم نوح، والمعطوفات جماعات كل يجوز أن يراد به كل واحد منهم، وأن يراد جميعهم، إلا أنه وحد." (١)

"وقيل: مواقع النجوم: أوقات وقوع نجوم القرآن، أى: أوقات نزولها كريم حسن مرضى في جنسه من الكتب. أو نفاع جم **المنافع**. أو كريم على الله في كتاب مكنون مصون من غير المقربين من الملائكة، لا يطلع عليه من سواهم، وهم المطهرون من جميع الأدناس أدناس الذنوب وما سواها: إن جعلت الجملة صفه لكتاب مكنون وهو اللوح. وإن جعلتها صفة للقرآن، فالمعنى لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس، يعنى مس المكتوب منه. ومن الناس من حمله على القراءة أيضا، وعن ابن عمر أحب إلى أن لا يقرأ إلا وهو طاهر، وعن ابن عباس في رواية أنه كان يبيح القراءة للجنب، ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» «١» أى لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه.

وقرئ: المتطهرون، والمطهرون بالإدغام. والمطهرون، من اطهره بمعنى طهره. والمطهرون بمعنى: يطهرون أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار ل ہم والوحى الذي ينزلونه تنزيل صفة رابعة للقرآن، اى: منزل من رب العالمين. أو وصف بالمصدر، لأنه نزل نجوما من بين سائر كتب الله تعالى، فكأنه في نفسه تنزيل، ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه، فقيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل. أو هو تنزيل على حذف المبتدإ. وقرئ: تنزيلا، على: نزل تنزيلا،

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٨١ الى ٨٢]

أفبهذا الحديث أنتم مدهنون (٨١) وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون (٨٢)

أفبهذا الحديث يعنى القرآن أنتم مدهنون اى: متهاونون به، كمن يدهن في الأمر، أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون على حذف المضاف، يعنى: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب، أى: وضعتم التكذيب موضع الشكر.

وقرأ على رضى الله عنه: وتجعلون شكركم أنكم تكذبون. وقيل: هي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣٨١/٤

والمعنى وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به. وقيل: نزلت في الأنواء ونسبتهم السقيا إليها. والرزق: المطر، يعنى: وتجعلون شكر ما يرزقكم الله من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله، حيث تنسبونه إلى النجوم. وقرئ: تكذبون وهو قولهم في القرآن: شعر وسحر وافتراء. وفي المطر: وهو من الأنواء، ولأن كل مكذب بالحق كاذب.

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٨٣ الى ٩٦]

فلولا إذا بلغت الحلقوم (٨٣) وأنتم حينئذ تنظرون (٨٤) ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون (٨٥)
فلولا إن كنتم غير مدينين (٨٦) ترجعونها إن كنتم صادقين (٨٧)
فأما إن كان من المقربين (٨٨) فروح وريحان وجنة نعيم (٨٩) وأما إن كان من أصحاب اليمين (٩٠)
فسلام لك من أصحاب اليمين (٩١) وأما إن كان من المكذبين الضالين (٩٢)
فنزل من حميم (٩٣) وتصلية جحيم (٩٤) إن هذا لهو حق اليقين (٩٥) فسبح باسم ربك العظيم (٩٦)

---

(١) . متفق عليه من حديث ابن عمر. ولمسلم من طريق أبى هريرة بعضه.." [١]

"سورة ن

مكية، وهي اثنان وخمسون آية [نزلت بعد العلق] بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة القلم (٦٨) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

ن والقلم وما يسطرون (١)

قرئ: ن والقلم بالبيان والإدغام، وبسكون النون وفتحها وكسرها، كما في ص. والمراد هذا الحرف من حروف المعجم: وأما قولهم: هو الدواة فما أدرى أهو وضع لغوى أم شرعي؟
ولا يخلو إذا كان اسما للدواة من أن يكون جنسا أو علما، فإن كان جنسا فأين الإعراب والتنوين، وإن كان علما فأين الإعراب، وأيهما كان فلا بد له من موقع في تأليف الكلام. فإن قلت:
هو مقسم به وجب إن كان جنسا أن تجره وتنونه، ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة، كأنه قيل: ودواة

---

(١) تفسير الزمخشري = الكش ا ف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/٤٦٩

والقلم، وإن كان علما أن تصرفه وتجره، أو لا تصرفه وتفتحه للعلمية والتأنيث، وكذلك التفسير بالحوت: إما أن يراد نون من النينان. أو يجعل علما لليهموت «١» الذي يزعمون، والتفسير باللوح من نور أو ذهب، والنهر في الجنة نحو ذلك. وأقسم بالقلم: تعظيما له، لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة، ولما فيه من **المنافع** والفوائد التي لا يحيط بها الوصف وما يسطرون وما يكتب من كتب. وقيل: ما يستره الحفظة، وما موصولة أو مصدرية. ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه، فيكون الضمير في يسطرون لهم كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم. أو وسطرهم، ويراد بهم كل ما يسطر، أو الحفظة.

[سورة القلم (٦٨) : الآيات ٢ الى ٣]

ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢) وإن لك لأجرا غير ممنون (٣)

فإن قلت: بم يتعلق الباء في بنعمة ربك وما محله؟ قلت: يتعلق بمجنون منفيا «٢» ، كما يتعلق بعاقل مثبتا في قولك: أنت بنعمة الله عاقل، مستويا في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمرا، وما ضرب زيد عمرا: تعمل الفعل مثبتا ومنفيا إعمالا واحدا،

---

(١) . قوله «أو يجعل علما اليهموت» لعله باليهموت بالموحدة كعبارة غيره، فليحرر. (ع)

(٢) . قوله «يتعلق بمجنون منفيا» في النسفي تتعلق بمحذوف، ومحله النصب على الحال. والعامل فيهما بمجنون. (ع)." [1]

"منصوب بدعوتهم، نصب المصدر لأن الدعاء أحد نوعيه الجهار، فنصب به نصب القرفصاء بقعد، لكونها أحد أنواع القعود. أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم. ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا، بمعنى دعاء جهارا، أي: مجاهرا به. أو مصدرا في موضع الحال، أي: مجاهرا.

أمرهم بالاستغفار الذي هو التوبة عن الكفر والمعاصي، وقدم إليهم الموعد بما هو أوقع في نفوسهم وأحب إليهم من **المنافع** الحاضرة والفوائد العاجلة، ترغيبا في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين، كما قال وأخرى تحبونها نصر من الله، ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم، وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم وقيل: لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة: حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة. وروى: سبعين.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/٥٨٤

فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله تعالى الخصب ودفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر رضى الله عنه: أنه خرج يستسقى، فما زاد على الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استسقيت! فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر «١» . شبه الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطئ.

وعن الحسن: أن رجلا شكا إليه الجدب فقال. استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أبوابا ويسألون أنواعا، فأمرتهم كلهم بالاستغفار! فتلا له هذه الآية. والسماء:

المظلة لأن المطر منها ينزل إلى السحاب، ويجوز أن يراد السحاب أو المطر، من قوله.

إذا نزل السماء بأرض قوم «٢»

والمدرار: الكثير الدرور، ومفعال مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، كقولهم: رجل أو امرأة معطار ومتفال جنات بساتين لا ترجون لله وقارا لا تأملون له توقيرا أى تعظيما.

والمعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب «٣» ، لله بيان للموقر،

---

(١) . أخرجه عبد الرزاق وابن أبى شيبة والطبراني في الدعاء والطبري وغيرهم من رواية الشعبي: أن عمر ...

بهذا وزاد: ثم قرأ استغفروا ربكم إنه كان غفارا ورجاله ثقات، إلا أنه منقطع.

(٢) .

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

تطلق السماء على المظلة، وعلى السحاب، وعلى المطر كما هنا، لما فيه من السمو والارتفاع، وتطلق على النبات مجازا، لأن المطر سببه، فلذلك قال: رعيناه، ففي الكلام استخدام، حيث أطلق السماء بمعنى، وأعاد عليها الضمير بمعنى آخر، والغضاب: جمع غضبان والمعنى: أننا شجعان دون غيرنا.

(٣) . قال محمود: «ما لكم لا تكونون على حال يكون فيها تعظيم الله تعالى ... الخ» قال أحمد: وهذا التفسير يبقى الرجاء على بابه الخ.." [١]

"الإنسان في معنى الجمع، كقوله إن الإنسان لفي خسر. الأكرم الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم، ينعم على عباده النعم التي لا تحصى، ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦١٧/٤

لنعمه وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم، فما لكرمه غاية ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم، حيث قال: الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره ودليل إلا أمر القلم والخط. لكفى به.

ولبعضهم في صفة القلم:

ورواقم رقش كمثل أراقم ... قطف الخطا نيالة أقصى المدى

سود القوائم ما يجد مسيرها ... إلا إذا لعبت بها بيض المدى «١»

---

(١) . للزمخشري رحمه الله تعالى في صفة الأقلام، وكان حقه أن يذكر في حرف الدال، لأن حروف الإطلاق وهي الألف والواو والياء الساكنات غير معتبرة في هذه الأبواب، وإنما أخرناه ليكون جزاء للأقلام على عملها كما أن الأجير يوفى أجره بعد تمام عمله. والرواقم: جمع راقمة صفة للأقلام، وهو مجرور برب المقدرة. وخبره قوله: كمثل أراقم. أو قطف الخطى، والأظهر أن الخبر قوله: ما يجد مسيرها. وإسناد الرقم إليها مجاز عقلي، لأنها آلته. والرقش: جمع أرقش. أو رقشاء: الحية المنقوشة الظهر. والأراقم- جمع أرقم الشعبان الذي فيه سواد وبياض. والقطف: جمع أقطف: وهو الذي يقارب بين خطاه. والخطى: جمع خطوة بالضم. والمدى، بالفتح: يطلق على المسافة وعلى غايتها. والسود: جمع أسود أو سوداء. والقوائم: الأرجل. والجد بمعنى الاجتهاد أو ضد الهزل. والبيض: جمع بيضاء. والمدى، بالضم: جمع مدية، وهي الشفرة، ثم إنه شبه انتقاش الأقلام بانتقاش الحيات، فاستعار له الرقش على سبيل الاستعارة التصريحية، وشبهها بالأراقم بجامع التلون والامتداد يمينا وشمالا وانشقاق لسان كل شعبتين وإلقائه اللعاب، فالجامع مركب حسي. وقيل: إنه من قبيل تشبيه المركب المحسوس بالمركب المحسوس بجامع الهيئات التي تقع عليها الحركة. وكرر أداة التشبيه التوكيد، ثم شبهها بالدواب السائرة على طريق المكنية، بجامع التلون والتردد، والذهاب والإياب، والتوصل بكل إلى المراد، وإثبات القطف والخطو والقوائم: تخييل. وقيل: يجوز أن هذا من قبيل تشبيه المركب بالمركب أيضا، وهي وإن كان سيرها قليلا: تبلغ صاحبها مراده، وإن كان بعيدا فنسبة النيل إليها مجاز عقلي، لأنها آلته. وشبه المراد المعقول بالمقصد المحسوس، وهو آخر المسافة بجامع

الاحتياج في إدراك كل إلى أسباب، فأقصى المدى: استعارة تصريحية: وهي ترشيح لتلك المكفية، وقوائم الأقلام: ما دق وطال من أطرافها، وهي سود دائما، وإثبات الجد للمسير مبالغة كجد جده. وشبه المدى بما يصح منه اللعب على سبيل المكنية، وإثبات اللعب تخييل هذا بيانه. وفيه من البديع بين الرواقم والأراقم شبه الاشتقاق، وبين «قطف الخطى» «ونيالة أقصى المدى» شبه التضاد، وبين السود والبيض، وبين الجد واللعب: طباق التضاد، وبين المسير ولعب المدى: شبه التضاد بحسب الظاهر، لأن المدى تبطل سير الحيوان إذا لعبت بقوائمه، لكنه مناسب للأقلام. وبين المدى والمدى: الجناس المحرق، وهذا مما يدل على أن المصنف رحمه الله وعمه برضاه: كان من مفلقى سحرة البيان، الحائزين قصيات السبقى في هذا الميدان.." (١)

"المنيح الممدوح، وأما المنيح الذي هو أحد الثلاثة الأغفال، فذلك إنما يوصف بالكر، وإياه أراد جرير بقوله: [الكامل]

ولقد عطفن على فزارة عطفة ... كر المنيح وجلن ثم مجالا

ومن الميسر قول لبيد:

[الطويل]

إذا يسروا لم يورث اليسر بينهم ... فواحش ينعى ذكرها بالمصائف

فهذا كله هو نفع الميسر، إلا أنه أكل المال بالباطل، ففيه إثم كبير، وقال محمد بن سيرين والحسن وابن عباس وابن المسيب وغيرهم: كل قمار ميسر من نرد وشطرنج ونحوه حتى لعب الصبيان بالجوز.

وقوله تعالى: قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس الآية، قال ابن عباس والربيع: الإثم فيهما بعد التحريم، والمنفعة فيهما قبله، وقالت طائفة: الإثم في الخمر ذهاب العقل والسباب والافتراء والإذاية والتعدي الذي يكون من شاربها، والمنفعة اللذة بها كما قال حسان بن ثابت:

ونشربها فتتركنا ملوكا ... وأسدا ما ينهنهنا اللقاء

إلى غير ذلك من أفراحها، وقال مجاهد: «المنفعة بها كسب أثمانها» ، ثم أعلم الله عز وجل أن الإثم أكبر من النفع وأعود بالضرر في الآخرة، فهذا هو التقدمة للتحريم، وقرأ حمزة والكسائي «كثير» بالثاء المثلثة، وحجتها أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الخمر ولعن معها عشرة: بائعها، ومبتاعها، والمشتراة له، وعاصرها، والمعصورة له، وساقيها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها، فهذه آثام كثيرة،

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٧٧٦/٤

وأيضا فجمع المنافع يحسن معه جمع الآثام، و «كثير» بالثاء المثلثة يعطي ذلك، وقرأ باقي القراء وجمهور الناس «كبير» بالباء بواحدة، وحجتها أن الذنب في القمار وشرب الخمر من الكبائر فوصفه بالكبير أليق، وأيضا فاتفاقهم على أكبر حجة لكبير بالباء بواحدة، وأجمعوا على رفض أكثر بالثاء مثلثة، إلا ما في مصحف ابن مسعود فإن فيه «قل فيهما إثم كثير وإثمهما أكثر» بالثاء مثلثة في الحرفين، وقوله تعالى: فيهما إثم يحتمل مقصدين، أحدهما أن يراد في استعمالهما بعد النهي، والآخر أن يراد خلال السوء التي فيهما، وقال سعيد بن جبير: لما نزلت قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس كرهها قوم للإثم وشربها قوم للمنافع، فلما نزلت لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى [النساء: ٤٣] تجنبوها عند أوقات الصلوات الخمس، فلما نزلت إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون [المائدة: ٩٠] قال عمر بن الخطاب: ضيعة لك اليوم قرنت بالميسر والأنصاب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حرمت الخمر.

ولما سمع عمر بن الخطاب قوله تعالى: فهل أنتم منتهون [المائدة: ٩١] قال: «انتهينا، انتهينا» ، قال الفارسي: وقال بعض أهل النظر: حرمت الخمر بهذه الآية لأن الله تعالى قال: قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم [الأعراف: ٣٣] ، وأخبر في هذه الآية أن فيها إثما، فهي حرام.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ليس هذا النظر بجيد لأن الإثم الذي فيها هو." (١)

"قال القاضي أبو محمد: ومن هذه أنواع لا زوال لها من الماء فهي لا محالة من صيد البحر، وعلى هذا خرج جواب مالك في الضفادع في المدونة، فإنه قال الضفادع من صيد البحر، وروي عن عطاء بن أبي رباح خلاف ما ذكرناه، وهو أنه راعى أكثر عيش الحيوان، سئل عن ابن الماء أصيد بر أم صيد بحر؟ فقال: حيث يكون أكثر فهو منه، وحيث يفرخ فهو منه.

قال القاضي أبو محمد: والصواب في ابن ماء أنه صيد بر طائر يرعى ويأكل الحب، وقوله تعالى: واتقوا الله تشديد وتنبيه عقب هذا التحليل والتحريم.

ثم ذكر تعالى بأمر الحشر والقيامة مبالغة في التحذير، ولما بان في هذه الآيات تعظيم الحرم والحرمة بالإحرام من أجل الكعبة وأنها بيت الله وعنصر هذه الفضائل، ذكر تعالى في قوله تعالى: جعل الله الآية ما سنه في الناس وهداهم إليه وحمل عليه الجاهلية الجهلاء من التزامهم أن الكعبة قوام و «الهدي» قوام و «القلائد» قوام أي أمر يقوم للناس بالتأمين وحل الحرب كما يفعل الملوك الذين هم قوام العالم، فلما كانت

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١/٢٩٤

تلك الأمة لا ملك لها جعل الله هذه الأشياء كالملك لها، وأعلم تعالى أن التزام الناس لذلك هو مما شرعه وارتضاه، ويدل على مقدار هذه الأمور في نفوسهم أن النبي عليه السلام لما بعثت إليه قريش زمن الحديبية الحليس، فرآه النبي، قال: هذا رجل يعظم الحرمة فالقوه بالبدن مشعرة، فلما رآها الحليس عظم ذلك عليه، وقال: ما ينبغي أن يصد هؤلاء ورجع عن رسالتهم، وجعل في هذه الآية بمعنى صير، والكعبة بيت مكة، وسمي كعبة لتربيعه، قال أهل اللغة كل بيت مربع فهو مكعب وكعبة، ومنه قول الأسود بن يعفر:

أهل الخورنق والسدير وبارق ... والبيت ذي الكعبات من سنداد

قالوا كانت فيه بيوت مربعة وفي كتاب سير ابن إسحاق أنه كان في خثعم بيت يسمونه كعبة اليمانية، وقال قوم: سميت كعبة لنتوئها ونشوزها على الأرض، ومنه كعب ثدي الجارية، وم نه كعب القدم ومنه كعوب القناة، وقياما معناه أمر يقوم للناس بالأمنة والمنافع كما الملك قوام الرعية وقيامهم، يقال ذلك بالياء كالصيام ونحوه وذلك لخفة الياء فتستعمل أشياء من ذوات الواو بها، وقد يستعمل القوام على الأصل، قال الراجز:

قوام دنيا وقوام دين

وذهب بعض المتأولين إلى أن معنى قوله تعالى قياما للناس أي موضع وجوب قيام بالمناسك والتعبدات وضبط النفوس في الشهر الحرام، ومع الهدي والقلائد، وقرأ ابن عامر وحده «قيما» دون ألف، وهذا إما على أنه مصدر كالشبع ونحوه، وأعل فلم يجر مجرى عوض وحول من حيث أعل فعله، وقد تعل الجموع لاعتلال الآحاد، فأحرى أن تعل المصادر لاعتلال أفعالها، ويحتمل «قيما» أن تحذف الألف وهي مرادة، وحكم هذا أن يجيء في شعر وغير سعة، وقرأ الجحدري «قيما» بفتح القاف وشد الياء المكسورة والشهر هنا اسم جنس والمراد الأشهر الثلاثة بإجماع من العرب، وشهر مضر وهو رجب الأصم، سمي بذلك لأنه كان لا يسمع فيه صوت الحديد، وسموه منصل الأسنة لأنهم كانوا ينزعون فيه أسنة الرماح، وهو شهر قريش، وله يقول عوف بن الأحوص:." (١)

"حج وأوصى بسليمى الأعبدا ... أن لا ترى ولا تكلم أحدا

ولا يزل شرابها مبردا وقوله تعالى: ولا تقتلوا أولادكم الآية نهي عن عادة العرب في وأد البنات، والولد يعم الذكر والأنثى من البنين، و «الإملاق» الفقر وعدم المال، قاله ابن عباس وغيره، يقال أملق الرجل إذا افتقر. قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه: ويشبه أن يكون معناه أملق أي لم يبق له إلا الملق كما قالوا أترب إذا لم يبق له إلا التراب وأرمل إذا لم يبق له إلا الرمل، والملق الحجارة السود واحدته ملقة، وذكر منذر بن

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٢/٢٤٣

سعيد أن الإملاق الإنفاق، ويقال أملق ماله بمعنى أنفقه، وذكر أن عليا قال لامرأة أملقي من مالك ما شئت وذكر النقاش عن محمد بن نعيم الترمذي أنه السرف في الإنفاق، وحكى أيضا النقاش عن مؤرج أنه قال: الإملاق الجوع بلغة لخم.

وقوله تعالى: ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن نهي عام عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي، و «ظهر وبطن» حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء، وذهب بعض المفسرين إلى أن القصد بهذه الآية أشياء مخصصات، فقال السدي وابن عباس: ما ظهر هو زنا الحوانيت الشهير، وما بطن هو متخذات الأخدان، وكانوا يستقبحون الشهير وحده فحرم الله الجميع، وقال مجاهد ما ظهر هو نكاح حلائل الآباء ونحو ذلك، وما بطن هو الزنا إلى غير هذا من تخصيص لا تقوم عليه حجة، بل هو دعوى مجردة، وقوله تعالى: ولا تقتلوا الآية متضمنة تحريم قتل النفس المسلمة والمعاهدة، ومعنى الآية إلا بالحق الذي يوجب قتلها وقد بينته الشريعة وهو الكفر بالله وقتل النفس والزنا بعد الإحصان والحرابة وما تشعب من هذه، وذلكم إشارة إلى هذه المحرمات، و «الوصية» الأمر المؤكد المقرر ومنه قول الشاعر: [الطويل]

أجدك لم تسمع وصاة محمد ... نبي الإله حين أوصى وأشهدا

وقوله لعلكم ترج بالإضافة إلينا أي من سمع هذه الوصية ترجى وقوع أثر العقل بعدها والميز **بالمنافع** والمضار في الدين.

قوله عز وجل:

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٥٢]

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون (١٥٢)

هذا نهي عن القرب الذي يعم وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة، ثم استثنى ما يحسن وهو التثمير والسعي في نمائه، قال مجاهد: بالتي هي أحسن

التجارة فيه ممن كان من الناظرين له مال يعيش به، فالأحسن إذا ثمر مال يتيم أن لا يأخذ منه نفقة ولا أجرة ولا غيرها من كان من الناظرين لا مال له ولا يتفق له." (١)

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٦٢/٢

"قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن يكون جواب الأمر الذي يعطينا معناه قوله: قل، وذلك أن يجعل قل في هذه الآية بمعنى: بلغ وأد الشريعة يقيموا الصلاة، وهذا كله على أن المقول هو: الأمر بالإقامة والإنفاق. وقيل إن المقول هو: الآية التي بعد، أعني قوله: الله الذي خلق السماوات.

و «السر» : صدقة التنفل، و «العلانية» المفروضة- وهذا هو مقتضى الأحاديث- وفسر ابن عباس هذه الآية بزكاة الأموال مجملا، وكذلك فسر الصلاة بأنها الخمس- وهذا منه- عندي- تقريب للمخاطب.

وخلال مصدر من خالل: إذا واد وصافى، ومنه الخلة والخليل وقال امرؤ القيس: [الطويل]

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ... ولست بمقلي الخلال ولا قال

وقال الأخفش: «الخلال» جمع خلة.

وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وابن عامر: «لا بيع ولا خلال» بالرفع على إلغاء «لا» وقرأ أبو عمرو والحسن وابن كثير: «لا بيع ولا خلال» بالنصب على التبرية، وقد تقدم هذا. والمراد بهذا اليوم يوم القيامة.

وقوله تعالى: الله الذي خلق السماوات الآية، تذكير بآلاء الله، وتنبيه على قدرته التي فيها إحسان إلى البشر لتقوم الحجة من جهتين.

والله مبتدأ، والذي خبره. ومن أخبر بهذه الجملة وتقررت في نفسه آمن وصلى وأنفق.

والسماوات هي الأرقعة السبعة والسماء في قوله، وأنزل من السماء [البقرة: ٢٢] السحاب.

وقوله: من الثمرات يجوز أن تكون من للتبعيض، فيكون المراد بعض جني الأشجار، ويسقط ما كان منها سما أو مجردا للمضرات، ويجوز أن تكون من لبيان الجنس، كأنه قال: فأخرج به رزقا لكم من الثمرات، وقال بعض الناس: من زائدة- وهذا لا يجوز عند سيبويه لكونها في الواجب ويجوز عند الأخفش.

والفلك جمع فلك- وقد تقدم القول فيه مرارا- وقوله: بأمره مصدر من أمر يأمر، وهذا راجع إلى الكلام القائم بالذات، كقول الله تعالى للبحار والأرض وسائر الأشياء، كن- عند الإيجاد- إنما معناه: كن بحال كذا وعلى وتيرة كذا، وفي هذا يندرج جريان الفلك وغيره. وفي «تسخير الفلك» ينطوي تسخير البحر وتسخير الرياح، وأما «تسخير الأنهار» فتفجرها في كل بلد، وانقيادها للسقي وسائر المنافع.

ودائبين معناه: متماديين ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش عليه: «إن هذا الجمل شكى إلي أنك تجيعه وتدئبه» ، أي تديمه في الخدمة والعمل- وظاهر الآية أن معناه: دائبين في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس التي لا تحصى كثرة. وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان يرفع إلى ابن عباس أنه قال: معناه: دائبين في طاعة الله- وهذا قول إن كان يراد به- أن الطاعة انقياد

منهما في التسخير، فذلك موجود في قوله: سخر وإن كان يراد أنها طاعة مقصودة كطاعة العبادة من البشر، فهذا جيد، والله أعلم.." (١)

"قوله عز وجل:

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٦ الى ١١]

وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون (٦) لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين (٧) ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين (٨) إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (٩) ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين (١٠)

وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن (١١)

الضمير في قالوا يراد به كفار قريش. ويروى أن القائلين كانوا: عبد الله بن أبي أمية، والنضر بن الحارث، وأشباههما.

وقرأ الأعمش: «يا أيها الذي ألقي إليه الذكر» .

وقولهم: يا أيها الذي نزل عليه الذكر كلام على جهة الاستخفاف، أي بزعمك ودعواك، وهذه المخاطبة كما تقول لرجل جاهل أراد أن يتكلم فيما لا يحسن: يا أيها العالم لا تحسن تتوضأ.

ولو ما بمعنى لولا، فتكون تحضيضا- كما في هذه الآية- وقد تكون دالة على امتناع الشيء لوجود غيره، كما قال ابن مقبل: [البسيط]

لو ما الحياء ولو ما الدين عبتكما ... ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: «ما تنزل الملائكة» بفتح التاء والرفع وقرأ عاصم- في رواية أبي بكر- «ما تنزل» بضم التاء والرفع، وهي قراءة يحيى بن وثاب، وقرأ حمزة والكسائي وحفص «ما ننزل» بنون العظمة- «الملائكة» بالنصب، وهي قراءة طلحة بن مصرف.

وقوله: إلا بالحق قال مجاهد: المعنى: بالرسالة والعذاب.

قال القاضي أبو محمد: والظاهر أن معناه: كما يجب ويحق من الوحي **والمنافع** التي رآها الله لعباده، لا على اقتراح كافر، ولا باختيار معترض.

ثم ذكر عادة الله في الأمم من أنه لم يأتهم بآية اقتراح إلا ومعها العذاب في إثرها إن لم يؤمنوا. فكأن

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣/٣٣٩

الكلام: ما تنزل الملائكة إلا بحق وواجب، لا باقتراحكم وأيضا فلو نزلت لم تنظروا بعد ذلك بالعذاب، أي تؤخروا، و «النظرة» : التأخير، المعنى: فهذا لا يكون، إذ كان في علم الله أن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن.

وقوله تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر رد على المستخفين في قولهم: يا أيها الذي نزل عليه الذكر. وهذا كما يقول لك رجل على جهة الاستخفاف: يا عظيم القدر، فتقول له- على جهة الرد والنجه: نعم أنا عظيم القدر. ثم تأخذ في قولك- فتأمله.

وقوله: إنا له لحافظون قالت فرقة: الضمير في له عائد على محمد صلى الله عليه وسلم،." (١)

"حيث كان المنذرون كافرين بالألوهية، ففي ضمن أمرهم مكان خوف، وفي ضمن الإخبار بالوحدانية نهي عما كانوا عليه ووعيد، ثم ذكر تعالى ما يقال للأنبياء بالوحي على المعنى، ولم يذكره على لفظه لأنه لو ذكره على اللفظ لقال «أن أنذروا أنه لا إله إلا الله» ، ولكنه إنما ذكر ذلك على معناه، وهذا سائغ في الأقوال إذا حكيت أن تحكى على لفظها، أو تحكى بالمعنى فقط، وقوله تعالى: خلق السماوات والأرض الآية، آية تنبيه على قدرة الله تعالى بالحق أي بالواجب اللائق، وذلك أنها تدل على صفات يحق لمن كانت له أن يخلق ويخترع ويعيد، وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة النافذة بخلاف شركائهم الذين لا يحق لهم شيء من صفات الربوبية، وقرأ الأعمش بزيادة فاء «فتعالى» . وقوله خلق الإنسان من نطفة يريد ب الإنسان الجنس، وأخذ له الغايتين ليظهر له البعد بينهما بقدرة الله، ويروى أن الآية نزلت لقول أبي بن خلف من يحيي العظام وهي رميم؟ وقوله خصيم يحتمل أن يريد به الكفرة الذين يختصمون في الله ويجادلون في توحيده وشرعه، ذكره ابن سلام عن الحسن البصري، ويحتمل أن يريد أعم من هذا على أن الآية تعديد نعمة الذهن والبيان على البشر، ويظهر أنها إذا تقدر في خصام الكافرين ينضاف إلى العبرة وعيد ما.

قوله عز وجل:

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٥ الى ٩]

والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٥) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم (٧) والخيل والبغال

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٥١/٣

والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٨) وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين (٩)

الأنعام الإبل والبقر والغنم وأكثر ما يقال نعم وأنعام للإبل، ويقال للمجموع، ولا يقال للغنم مفردة، ونصبها إما عطف على الإنسان [النحل: ٤] وإما بفعل مقدر وهو أوجه، و «الدفء» السخانة وذهاب البرد بالأكسية ونحوها، وذكر النحاس عن الأموي أنه قال: الدفء في لغة بعضهم تناسل الإبل.

قال القاضي أبو محمد: وقد قال ابن عباس: نسل كل شيء، وقد قال ابن سيده: «الدفء» نتاج الإبل وأوبارها والانتفاع بها، والمعنى الأول هو الصحيح، وقرأ الزهري وأبو جعفر «دفء» بضم الفاء وشدها وتنوينها، و **«المنافع»** ألبانها وما تصرف منها ودهونها وحرثها والنضح عليها وغير ذلك، ثم ذكر «الأكل» الذي هو من جميعها، وقوله جمال أي في المنظر. وتريحون معناه حين تردونها وقت الرواح إلى المنازل فتأتي بطانا ممتلئة الضروع، وتسرحون معناه تخرجونها غدوة إلى السرح، تقول سرحت السائمة إذا أرسلتها تسرح فسرحت هي، كرجع رجعته، وهذا «الجمال» هو لمالكها ولمحبيه وعلى حسدته وهذا المعنى كقوله تعالى المال والبنون زينة الحياة الدنيا [الكهف: ٤٦] وقرأ عكرمة والضحاك «حينما تريحون حينا تسرحون» ، وقرأت فرقة «وحينا ترتحون» .." (١)

"قوله عز وجل:

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ١٤ الى ١٧]

إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد (١٤) من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ (١٥) وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد (١٦) إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد (١٧)

لما ذكر تبارك وتعالى حالة من يعبده على حرف [الحج: ١١] وسفه رأيهم وتوعدهم بخسارة الآخرة عقب ذلك بذكر مخالفيهم من أهل الإيمان وذكر ما وعدهم به من إدخاله إياهم الجنة، ثم أخذت الآية في توبيخ أولئك الأولين وإسلامهم إلى رأيهم وإحالتهم على ما فيه عنتهم وليس فيه راحتهم كأنه يقول هؤلاء العابدون

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٧٩/٣

على حرف صحبهم القلق وظنوا أن الله تبارك وتعالى لن ينصر محمدا وأتباعه ونحن إنما أمرناهم بالصبر وانتظار وعدنا فمن ظن غير ذلك، فليمدد بسبب وليختنق ولينظر هل يذهب بذلك غيظه، قال هذا المعنى قتادة وهذا على جهة المثل السائر قولهم دونك الحبل فاختنق، يقال ذلك للذي يريد من الأمر ما لا يمكنه، و «السبب» الحبل، و «النصر» معروف، إلا أن أبا عبيدة ذهب به إلى معنى الرزق كما قالوا أرض منصورة أي ممطورة وكما قال الشاعر: [الطويل]

وإنك لا تعطي امرأ فوق حقه ... ولا تملك الشق الذي الغيث ناصره

وقال: وقف بنا سائل من بني أبي بكر فقال من ينصرني ينصره الله، والسماء على هذه الأقوال الهواء علوا فكأنه أراد سقفا أو شجرة أو نحوه وقال ابن زيد السماء هي المعروفة، وذهب إلى معنى آخر كأنه قيل لمن يظن أن الله تعالى لا ينصر محمدا إن كانت تظن ذلك فامدد بسبب إلى السماء واقطعه إن كنت تقدر على ذلك فإن عجزت فكذلك لا تقدر على قطع سبب محمد صلى الله عليه وسلم إذ نصرته من هنالك والوحي الذي يأتيه.

قال القاضي أبو محمد: و «القطع» على هذا التأويل ليس بالاختناق بل هو جزم السبب، وفي مصحف ابن مسعود «ثم ليقطعه» بهاء، والجمهور على أن القطع هنا هو الاختناق، وقال الخليل: وقطع الرجل إذا اختنق بحبل أو نحوه ثم ذكر الآية، وتحتمل الآية معنى آخر وهو أن يراد به الكفار وكل من يغتاظ بأن ينصره الله ويطمع أن لا ينصر قيل له من ظن أن هذا لا ينصر فليمت كمدا هو منصور لا محالة فليختنق هذا الظان غيظا وكمدا ويؤيد هذا أن الطبري والنقاش قالا: ويقال نزلت في نفر من بني أسد وغطفان قالوا نخاف أن ينصر محمد فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من يهود من **المنافع**، والمعنى الأول الذي قيل فيه للعابدين على حرف [الحج: ١١] ليس بهذا ولكنه بمعنى من قلق واستبطأ النصر وظن أن محمدا لا ينصر فليختنق سفاهة إذ تعدى الأمر الذي حد له في الصبر وانتظار صنع الله، وقال مجاهد: الضمير في." (١)

"الجمع ورويت عن مجاهد، وقرأ مجاهد «رجالى» على وزن فعالى فهو كمثل كسالى، و «الضامر» ، قالت فرقة أراد بها الناقة ع وذلك أنه يقال ناقة ضامر.

ومنه قول الأعشى:

عهدي بها في الحي قد ذرعت ... هيفاء مثل المهرة الضامر

فيجيء قوله يأتين مستقيما على هذا التأويل، وقالت فرقة «الضامر» هو كل ما اتصف بذلك من جمل أو

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١١١/٤

ناقة وغير ذلك ع وهذا هو الأظهر لكنه يتضمن معنى الجماعات أو الرفاق فيحسن لذلك قوله يأتين وقرأ أصحاب ابن مسعود «يأتون» وهي قراءة ابن أبي عبلة والضحاك، وفي تقديم رجالا تفضيل للمشاة في الحج، قال ابن عباس: ما آسى على شيء فاتني إلا أن أكون حججت ما شيا فإني سمعت الله تعالى يقول: «يأتونك رجالا» وقال ابن أبي نجيح: حج إبراهيم وإسماعيل ماشيين، واستدل بعض العلماء بسقوط ذكر البحر من هذه الآية على أن فرض الحج بالبحر ساقط ع قال مالك في الموازية: لا أسمع للبحر ذكرا ع وهذا تأسيس ل ا أنه يلزم من سقوط ذكره سقوط الفرض فيه، وذلك أن مكة ليست في ضفة بحر فيأتيها الناس بالسفن ولا بد لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة إما راجلا وإما على ضامر فإنما ذكرت حالتا الوصول، وإسقاط فرض الحج بمجرد البحر ليس بالكثير ولا القوي، فأما إذا اقترن به عدو أو خوف أو هول شديد أو مرض يلحق شخصا ما، فمالك والشافعي وجمهور الناس على سقوط الوجوب بهذه الأعذار، وأنه ليس بسبيل يستطاع، وذكر صاحب الاستظهار في هذا المعنى كلاما ظاهره أن الوجوب لا يسقطه شيء من هذه الأعذار ع وهذا ضعيف و «الفج» الطريق الواسعة، و «العميق» معناه البعيد. وقال الشاعر: [الطويل]

إذا الخيل جاءت من فجاج عميقة ... يمد بها في السير أشعث شاحب

و **«المنافع»** في هذه الآية التجارة في قول أكثر المتأولين ابن عباس وغيره، وقال أبو جعفر محمد بن علي: أراد الأجر ومنافع الآخرة، وقال مجاهد بعموم الوجهين وقوله تعالى: اسم ا الله، يصح أن يريد بالاسم هاهنا المسمى بمعنى ويذكروا الله على تجوز في هذه العبارة إلا أن يقصد ذكر القلوب، ويحتمل أن يريد بالاسم التسميات وذكر الله تعالى إنما هو بذكر أسمائه ثم بذكر القلب السلطان والصفات، وهذا كله على أن يكون الذكر بمعنى حمده وتقديسه شكرا على نعمته في الرزق ويؤيده قوله عليه السلام «إنها أيام أكل وشرب وذكر الله تعالى» ، وذهب قوم إلى أن المراد ذكر اسم الله تعالى على النحر والذبح، وقالوا إن في ذكر «الأيام» دليلا على أن الذبح في الليل لا يجوز، وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي، وقال ابن عباس «الأيام المعلومات» هي أيام العشر ويوم النحر وأيام التشريق، وقال ابن سيرين: بل أيام العشر فقط، وقالت فرقة: أيام التشريق، ذكره القتبي، وقالت فرقة فيها مالك وأصحابه: بل المعلومات يوم النحر ويومان بعده وأيام التشريق الثلاثة هي معدودات فيكون يوم النحر معلوما لا معدودا واليومان بعده معلومان معدودان

والرابع معدود لا معلوم ع وحمل هؤلاء على هذا التفصيل أنهم أخذوا ذكر اسم الله هنا على الذبح للأضاحي والهدي وغيره، فاليوم الرابع لا يضحى فيه عند مالك وجماعة وأخذوا التعجل والتأخر بالنفر في." (١)

"قوله عز وجل:

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣٢ الى ٣٥]

ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب (٣٢) لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق (٣٣) ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين (٣٤) الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣٥)

التقدير في هذا الموضع الأمر ذلك، و «الشعائر» جمع شعيرة وهي كل شيء لله تعالى، فيه أمر أشعر به وأعلم، قالت فرقة: قصد ب «الشعائر» في هذه الآية الهدي والأنعام المشعرة، ومعنى تعظيمها تسميتها والاهتبال بأمرها والمغالاة بها قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة، وعود الضمير في «إنها» على التعظمة والفعلة التي يتضمنها الكلام، وقرأ «القلوب» بالرفع على أنها فاعلة بالمصدر الذي هو تقوى، ثم اختلف المتأولون في قوله لكم فيها منافع الآية، فقال مجاهد وقتادة: أراد أن للناس في أنعامهم منافع من الصوف واللبن وغير ذلك ما لم يبعثها ربها هديا فإذا بعثها فهو «الأجل المسمى» ، وقال عطاء بن أبي رباح: أراد في الهدي المبعوث منافع من الركوب والاحتلاب لمن اضطر، و «الأجل» نحرها وتكون ثم لترتيب الجمل، لأن المحل قبل الأجل ومعنى الكلام عند هاتين الفرقتين ثم محلها إلى موضع النحر فذكر البيت لأنه أشرف الحرم وهو المقصود بالهدي وغيره، وقال ابن زيد وابن عمر والحسن ومالك:

«الشعائر» في هذه الآية مواضع الحج كلها ومعالمه بمنى وعرفة والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغير ذلك، وفي الآية التي تأتي أن البدن من الشعائر، و **«المنافع»** التجارة وطلب الرزق، ويحتمل أن يريد كسب الأجر والمغفرة، وبكل احتمال قالت فرقة و «الأجل» الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة وقوله، محلها مأخوذ من إحلال المحرم ومعناه ثم أخر هذا كله إلى طواف الإفاضة ب البيت العتيق، ف البيت على هذا التأويل مراد بنفسه، قاله مالك في الموطأ، ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل أمة من الأمم المؤمنة منسكا أي موضع نسك وعبادة وهذا على أن المنسك ظرف كالمذبح ونحوه، ويحتمل أن يريد به المصدر،

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤/١١٨

كأنه قال عبادة ونحو هذا، والناسك العابد، وقال مجاهد: سنة في هراقة دماء الذبائح، وقرأ معظم القراء «منسكا» بفتح السين وهو من نسك ينسك بضم السين في المستقبل، وقرأ حمزة والكسائي «منسكا» بكسر السين قال أبو علي: الفتح أولى لأنه إما المصدر وإما المكان وكلاهما مفتوح والكسر في هذا من الشاذ في اسم المكان أن يكون مفعل من فعل يفعل مثل مسجد من سجد يسجد، ولا يسوغ فيه القياس، ويشبه أن الكسائي سمعه من العرب. وقوله ليذكروا اسم الله معناه أمرناهم عند ذبائحهم بذكر الله وأن يكون الذبح له لأنه رازق ذلك، ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه فال إله واحد لجميعكم بالأمر كذلك في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له، وأسلموا معناه لحقه ولوجهه ولإنعامه آمنوا وأسلموا، ويحتمل أن يريد الاستسلام ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبشر بشارة على الإطلاق وهي أبلغ من المفسرة لأنها مرسلة مع نهاية التخيل." [١]

"والمخبتين المتواضعين الخاشعين من المؤمنين، والخبت ما انخفض من الأرض والمخبت المتواضع الذي مشيه متطامن كأنه في حدود من الأرض وقال عمرو بن أوس المخبتون الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

قال القاضي أبو محمد: وهذا مثال شريف من خلق المؤمن الهين اللين، وقال مجاهد: هم المطمئنون بأمر الله، ووصفهم تعالى بالخوف والوجل عند ذكر الله، وذلك لقوة يقينهم ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه، ووصفهم بالصبر وبإقامة الصلاة وإدامتها، وقرأ الجمهور «الصلاة» بالخفض، وقرأ ابن أبي إسحاق «الصلاة» بالنصب على توهم النون وأن حذفها للتخفيف، ورويت عن أبي عمرو، وقرأ الأعمش «والمقيمين الصلاة» بالنون والنصب في «الصلاة» ، وقرأ الضحاك «والمقيم الصلاة» ، وروي أن هذه الآية، قوله وبشر المخبتين نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

قوله عز وجل:

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون (٣٦) لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين (٣٧)

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٢١/٤

البدن جمع بدنة وهي ما أشعر من ناقة أو بقرة، قاله عطاء وغيره وسميت بذلك لأنها تبدن أي تسمن، وقيل بل هذا الاسم خاص بالإبل، وقالت فرقة البدن جمع بدن بفتح الدال والباء ثم اختلفت، فقال بعضها البدن مفرد اسم جنس يراد به العظيم السمين من الإبل والبقر، ويقال للمسلمين من الرجال بدن، وقال بعضها البدن جمع بدنة كثمرة وثمر، وقرأ الجمهور «والبدن» ساكنة الدال، وقرأ أبو جعفر وشيبة والحسن وابن أبي إسحاق «البدن» بضم الدال، فيحتمل أن يكون جمع بدنة كثمر، وعدد الله تعالى في هذه الآية نعمته على الناس في هذه البدن، وقد تقدم القول في «الشعائر» ، و «الخير» قيل فيه ما قيل في **المنافع** التي تقدم ذكرها والصواب عمومه في خير الدنيا والآخرة، وقوله، عليها يريد عند نحرها، وقرأ جمهور الناس «صواف» بفتح الفاء وشدها جمع صافة أي مصطفة في قيامها، وقرأ الحسن ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعري وشقيق وسليمان التيمي والأعرج «صوافي» جمع صافية أي خالصة لوجه الله تعالى لا شركة فيها لشيء كما كانت الجاهلية تشرك، وقرأ الحسن أيضا «صواف» بكسر الفاء وتنوينها مخففة وهي بمعنى التي قبلها لكن حذفت الياء تخفيفا على غير قياس وفي هذا نظر، وقرأ ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأبو جعفر محمد بن علي «صوافن» بالنون جمع صافنة وهي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب، والصافن من الخيل الرافع لفراهيته إحدى يديه وقيل إحدى رجنيه ومنه قوله تعالى: الصافنات الجياد [ص: ٣١] .

وقال عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه ... مقلدة أعنتها صفونا." (١)

"الجمهور هو اسم الجبل كما تقول جبل أحد، وسيناء، اسم مضاف إليه الجبل، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير «سيناء» بكسر السين، وقرأ الباقون وعمر بن الخطاب «سيناء» بفتح السين، وكلهم بالمد، فعلى فتح السين لا ينصرف الاسم بوجه، وعلى كسر السين فالهمزة كهمزة حرباء ولم يصرف في هذه الآية لأنه جعل اسم بقعة أو أرض، وقرأ الجمهور، «تنبت» بفتح التاء وضم الباء فالتقدير تنبت ومعها الدهن كما تقول خرج زيد بسلاحه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «تنبت» بضم التاء واختلف في التقدير على هذه القراءة، فقالت فرقة الباء زائدة وهذا كقوله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة [البقرة: ١٩٥] وهذا المثال عندي معترض وإن كان أبو علي ذكره وكقول الشاعر: [الرجز]

نحن بني جعدة أرباب الفلج ... نضرب بالبيض ونرجو بالفرج

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤/ ١٢٢

ونحو هذا. وقالت فرقة: التقدير «تنبت» جناها ومعه الدهن فالمفعول محذوف قاله أبو علي الفارسي أيضا وقد قيل نبت وأنبت بمعنى فيكون الفعل كما مضى في قراءة الجمهور والأصمعي ينكر البيت ويتهم قصيدة زهير التي فيها أنبت البقل، وقرأ الزهري والحسن والأعرج «تنبت» برفع التاء ونصب الباء قال أبو الفتح هي باء الحال أي تنبت ومعها دهنها وفي قراءة ابن مسعود تخرج بالدهن وهي أيضا باء الحال وقرأ زر بن حبيش «تنبت» بضم التاء وكسر الباء «الدهن» بحذف الباء ونصبه وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب «بالدهان» بالألف والمراد في هذه الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان وهي من أركان النعم التي لا غنى بالصحة عنها ويدخل في معنى الزيتونة شجر الزيت كله على اختلافه بحسب الأقطار وقرأت فرقة، «وصبغ» ، وقرأت فرقة «وأصباغ» بالجمع، وقرأ عامر بن عبد قيس، «ومتاعا للآكلين» ، قوله عز وجل:

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون (١٢) وعليها وعلى الفلك تحملون (٢٢)

الأنعام هي الإبل والبقر والضأن والمعز و «العبرة» في خلقتها وسائر اخبارها، وقرأ الجمهور «نسقيكم» بضم النون من أسقى، ورويت عن عاصم، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر «نسقيكم» بفتح النون من سقى، فمن الناس من قال هما لغتان بمعنى، ومنهم من قال سقيته إذا أعطيته للشفة وأسقيته إذا جعلت له سقيا لأرض أو ثمرة ونحوه، فكأن الله تعالى جعل الأنعام لعبيده سقيا يشربون وينتجعون، وقرأ أبو جعفر «تسقيكم» بالتاء من فوق أي تسقيكم الأنعام، و **«المنافع»** الحمل عليها وجلودها وأصوافها وأوبارها وغير ذلك مما يطول عده، وفلك

، السفن واحدها فلك الحركات في الواحد كحركات قفل والحركات في الجمع كحركات أسد وكتب.

قوله عز وجل:

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٢٣ الى ٢٦]

ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون (٢٣) فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في

آبائنا الأولين (٢٤) إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين (٢٥) قال رب انصرني بما كذبون (٢٦)." (١)

"شعيب عليه السلام، وقاله وهب بن منبه وقال علي رضي الله عنه في كتاب الثعلبي أصحاب الرس قوم عبدوا شجرة صنوبر يقال لها شاه درخت، رسوا نبيهم في بير حفروه له في حديث طويل، والرس في اللغة كل محفور من بير أو قبر أو معدن ومنه قول الشاعر [النابغة الجعدي] : [المتقارب]

سبقت إلى فرط بأهل ... تنابلة يحفرون الرساسا

وروى عكرمة ومحمد بن كعب القرظي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل الرس المشار إليهم في هذه الآية قوم أخذوا نبيهم فرسوه في بير وأطبقوا عليه صخرة، قال فكان عبد أسود قد آمن به يجيء بطعام إلى تلك البير فيعينه الله على تلك الصخرة إلى أن ضرب الله يوما على أذن ذلك الأسود بالنوم أربع عشرة سنة وأخرج أهل القرية نبيهم فآمنوا به في حديث طويل، قال الطبري فيمكن أنهم كفروا به بعد ذلك فذكرهم الله في هذه الآية، وقوله وقرونا بين ذلك كثيرا إبهام لا يعلم حقيقته إلا الله عز وجل وقد تقدم شرح القرن وكم هو، ومن هذا اللفظ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى، ويروى أن ابن عباس قاله، «كذب النسابون من فوق عدنان لأن الله تعالى أخبر عن كثير من الخلق والأمم ولم يحد» ، ثم قال تعالى إن كل هؤلاء «ضرب له الأمثال» ، ليهتدي فلم يهتد، «فتبره» الله أي أهلكه، والتبار الهلاك ومنه تبر الذهب أي المكسر المفتت، وكذلك يقال لفتات الرخام والزجاج تبر، وقال ابن جبير إن أصل الكلمة نبطي ولكن العرب قد استعملته.

قوله عز وجل:

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤٠ الى ٤٤]

ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا (٤٠) وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا (٤١) إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا (٤٢) أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا (٤٣) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا (٤٤)

قال ابن عباس وابن جريج والجماعة الإشارة إلى مدينة قوم لوط وهي سدوم بالشام، ومطر السوء حجارة

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٤٠/٤

السجيل، وقرأ أبو السمال «السوء» بضم السين المشددة، ثم وقفهم على إعراضهم وتعرضهم لسخط الله بعد رؤيتهم العبرة من تلك القرية، ثم حكم عليهم أنهم إذا رأوا محمدا صلى الله عليه وسلم استهزؤوا به واستحقروه وأبعدوا أن يبعثه الله رسولا، فقالوا على جهة الاستهزاء أهذا الذي بعث الله رسولا وفي بعث ضمير يعود على الذي حذف اختصارا وحسن ذلك في الصلة، ثم أنس النبي صلى الله عليه وسلم عن كفرهم بقوله أرأيت من اتخذ إلهه هواه الآية، والمعنى لا تتأسف عليهم ودعهم لرأيهم ولا تحسب أنهم على ما يجب من التحصيل والعقل بل هم كالأنعام في الجهل **بالمنافع** وقلة التحسس للعواقب، ثم حكم بأنهم أضل سبيلا من حيث لهم الفهم وتركوه، و «الأنعام» لا سبيل لهم." (١)

"الخوف كان عقب كل ولادة، وقال ابن جريج: أمرت برضاعه أربعة أشهر في بستان فإذا خافت أن يصيح لأن لبنها لا يكفيه، صنعت به هذا.

قال القاضي أبو محمد: والأول أظهر إلا أن الآخر يعضده أمران: أحدهما قوله فإذا خفت عليه و «إذا» ظرف لما يستقبل من الزمان، والآخر أنه لم يقبل المراضع والطفل إثر ولادته لا يعقل ذلك، اللهم إلا أن يكون هذا منه بأن الله تعالى حرمها عليه وجعله يأباها بخلاف سائر الأطفال، وقرأ عمرو بن عبد الواحد «أن أرضعيه» بكسر النون وذلك على حذف الهمزة عبطا لا تخفيفا، والتخفيف القياسي فتح النون قاله ابن جني، ونسب المهدوي هذه القراءة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه واليم جمهور الماء ومعظمه، والمراد نيل مصر، وروي في قصص هذه الآية أن أم موسى واسمها يوحانه أخذته ولفته في ثيابه وجعلت له تابوتا صغيرا وسدته عليه بقفل وعلقت مفتاحه عليه وأسلمته ثقة بالله وانتظارا لوعده فلما غاب عنها عاودها بثها وأسفت عليه وأقنطها الشيطان فاهتمت به وكادت تفتضح وجعلت الأخت تقصه أي تطلب أثره.

قوله عز وجل:

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٨ الى ١١]

فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين (٨) وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون (٩) وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين (١٠) وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون (١١)

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤/ ٢١١

«الالتقاط» اللقاء على غير قصد وروية، ومنه قول الشاعر [نقادة الأسدي] : [الرجز]

ومنهل وردته التقاطا ... لم ألق إذ وردته فراطا

إلا الحمام القمر والغطاطا ... فهن يلغطن به إلغاطا

ومنه اللغطة وآل فرعون أهله وجملته، وروي أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في اليم فأمرت بسوقه وفتحته فرأت فيه صبيا صغيرا فرحمته وأحبته، وقال السدي: إن جواريها كان لهن في القصر على النيل فرضة يدخل الماء فيها إلى القصر حتى ينلنه في المرافق **والمنافع** فبينا هن يغسلن في تلك الفرضة إذ جاء التابوت فحملنه إلى مولاتهن، وقال ابن إسحاق: رآه فرعون يعوم فأمر بسوقه وآسية جالسة معه فكان ما تقدم، وقوله تعالى: ليكون لهم عدوا وحزنا هي لام العاقبة لا أن المقصد بالالتقاط كان لأن يكون عدوا، وقرأ الجمهور «وحزنا» بفتح الحاء والزاي.

وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب وطلحة والأعمش «وحزنا» بضم الحاء وسكون الزاي، و «الخاطئ» متعمد الخطأ، والمخطئ الذي لا يتعمده، واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون قرت." (١)

"أي النوع كما تقول هذان من ضرب واحد وهذا ضريب هذا أي قرينه وشبهه، فكأن ضرب المثل هو أن يجعل للأمر الممثل ضريب، وباقي الآية بين. وقرأت فرقة «يدعون» بالياء من تحت، وقرأت فرقة «تدعون» بالتاء على المخاطبة، وقال جابر: قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله إلا العالمون: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته وانتهى عن معصيته» .

قوله عز وجل:

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٤٤ الى ٤٥]

خلق الله السماوات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين (٤٤) اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون (٤٥)

نبه في ذكر خلق السماوات والأرض على أمر يوقع الذهن على صغر قدر الأوثان وكل معبود من دون الله، وقوله تعالى: بالحق أي بالواجب النير لا للعبث واللعب، بل ليدل على سلطانه ويثبت شرائعه ويضع الدلالات لأهلها ويعم **بالمنافع** إلى غير ذلك مما لا يحصى عدا، ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام بالنفوذ لأمره وتلاوة القرآن الذي أوحي إليه، وإقامة الصلاة أي إدامتها والقيام بحدودها ثم أخبر حكما منه إن

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤/٢٧٧

الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر.
قال الفقيه الإمام القاضي: وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وتذكر الله تعالى وتوهم الوقوف بين يدي العظمة، وأن قلبه وإخلاصه مطلع عليه مرقوب صلحت لذلك نفسه وتذللت وخامرها ارتقاب الله تعالى فاطرد ذلك في أقواله وأعماله وانتهى عن الفحشاء والمنكر، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حاله، فهذا معنى هذا الإخبار لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون، وقد روي عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفر لونه فكلم في ذلك فقال: إني أقف بين يدي الله تعالى وحق لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك.
قال الفقيه الإمام القاضي: فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تركته الصلاة يتمادى على بعده وعلى هذا يخرج الحديث المروي عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدا» . وقد روي أن الحسن أرسله عن النبي صلى الله عليه وسلم وذلك غير صحيح السند، سمعت أبي رضي الله عنه يقوله فإذا قررناه ونظرنا معناه فغير جائز أن نقول إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله حتى كأنها معصية، وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله تعالى بل تتركه في حاله ومعاصيه من الفحشاء والمنكر تبعده، فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذي كان بسبيله، فكأنها بعدته حين لم تكف بعده عن الله تعالى، وقيل لابن مسعود إن فلانا كثير الصلاة، فقال: إنها لا تنفع إلا من أطاعها، وقرأ الربيع بن أنس «إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر» ، وقال ابن عمر الصلاة هاهنا." (١)

"أن يشار به إلى فرح المسلمين بنصر الله إياهم في أن صدق ما قال نبيهم من أن الروم ستغلب فارس فإن هذا ضرب من النصر عظيم، وقوله تعالى: وعد الله نصب على المصدر المؤكد، وقوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون يريد الكفار من قريش والعرب، أي لا يعلمون أن الأمور من عند الله وأن وعده لا يخلف وأن ما يورده نبيه حق.
قال القاضي أبو محمد: هذا الذي ذكرناه هو عمدة ما قيل، وقد حكى الطبري وغيره روايات يردها النظر أو قول الجمهور، من ذلك أن بعضهم قال إنما نزلت وعد الله لا يخلف الله وعده بعد غلبة الروم لفارس ووصول الخبر بذلك، وهذا يقتضي أن الآية مدنية والسورة مكية بإجماع ونحو هذا من الأقوال.

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣١٩/٤

قوله عز وجل:

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٧ الى ٨]

يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (٧) أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون (٨)

وصف تعالى الكفرة الذين لا يعلمون أمر الله وصدق وعده بأنهم إنما يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا، واختلف الناس في معنى ظاهرا فقالت فرقة معناه بينا أي ما أدته إليهم حواسهم فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم، وقال ابن عباس والحسن والجمهور: معناه ما فيه الظهور والعلو في الدنيا من إتقان الصناعات والمباني ومظان كسب الأموال والفلاحات ونحو هذا، وقالت فرقة: معناه ذاهبا زائلا أي يعلمون أمور الدنيا التي لا بقاء لها ولا عاقبة ومثل هذه اللفظة قول الهذلي:

وعيرها الواشون أني أحبها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وقال سعيد بن جبير: إن قوله ظاهرا من الحياة الدنيا إشارة إلى ما يعلم من قبل الكهنة مما يسترقه الشياطين، وقال الروماني: كل ما يعلم بأوائل العقول فهو الظاهر وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن.

قال القاضي أبو محمد: وفيه تقع الغفلة وتقصير الجهال، ثم وصفهم ب «الغفلة» والإعراض عن أمر الآخرة وكرر الضمير تأكيدا، وغفلة الكافر هي على الكمال والمؤمن المنهمك في أمور الدنيا التي هي أكبر همه يأخذ من هذه الآية بحظ، نور الله قلوبنا بهداه، ثم وقفهم على جهة التوبيخ على أنهم قد فكروا فلم تنفعهم الفكرة والنظر إذ لم يكن على سداد، وقوله تعالى: في أنفسهم يحتمل معنيين: أحدهما أن تكون الفكرة في ذواتهم وحواسهم وخلقتهم ليستدلوا بذلك على الخالق المخترع، ثم أخبر عقب هذا المعنى بأن الحق هو السبب في خلق السماوات والأرض، فيفهم على طريقة الإيجاز والاختصار أن من فكر في نفسه علم حقيقة هذا الخبر ووقف عليه ببصيرة نفسه، والمعنى الثاني أن تكون النفس ظرفا للفكرة في خلق السماوات والأرض فيكون قوله في أنفسهم تأكيدا لقوله يتفكروا كما تقول انظر بعينك واسمع بأذنك، فقولك بأذنك تأكيد، وقوله إلا بالحق أي بسبب المنافع التي هي حق واجب يريد من." [١]

"الأولى في الثانية، ثم حذره تعالى من يوم القيامة تحذيرا يعم العالم وإياهم القصد، ولا مرد له معناه ليس فيه رجوع لعمل ولا لرغبة ولا عنه مدخل، ويحتمل أن يريد لا يرده راد حتى لا يقع وهذا ظاهر بحسب

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤/٣٢٩

اللفظ، ويصدعون معناه يتفرقون بعد جمعهم، وهذا هو التصدع والمعنى يتفرقون إلى الجنة وإلى النار، ثم قسم الفريقين بأحكام تلحقهم من أعمال في الدنيا ثم عبر عن «الكفر» ب «عليه» وهي تعطي الثقل والمشقة وعن العمل الصالح باللام التي هي كلام الملك، ويمهدون معناه يوطئون ويهيئون وهي استعارة منقولة من الفرش ونحوها إلى الأحوال والمراتب، وقال مجاهد: هذا التمهيد هو للقبر.

قوله عز وجل:

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين (٤٥) ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (٤٦) ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين (٤٧)

اللام في قوله ليجزي متعلقة ب يصدعون [الروم: ٤٣] ، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف تقديره ذلك أو فعل ذلك ليجزي وتكون الإشارة إلى ما تقرر من قوله تعالى من كفر [الروم: ٤٤] وعمل صالحا [الروم: ٤٤] ، وقوله تعالى: لا يحب الكافرين ليس الحب بمعنى الإرادة ولكنه بمعنى لا يظهر عليهم أمارات رحمته ولا يرضاه لهم دينا ونحو هذا، ثم ذكر تعالى من آياته أشياء يقضي كل عقل بأنها لا مشاركة للأوثان فيها وهو ما في الريح من **المنافع** وذلك أنها بشرى بالمطر، ويذيق الله بها المطر ويلقح بها الشجر وغير ذلك ويجري بها السفن في البحر ويبتغي الناس بها فضل الله في التجارات في البحر وفي ذرو الأطعمة وغير ذلك، ثم أنس محمدا بأن ضرب له مثل من أرسل من الأنبياء، وتوعد قريشا بأن ضرب لهم مثل من هلك من الأمم الذين أجرموا وكذبوا الأنبياء، ثم وعد محمدا وأمته النصر إذ أخبر أنه جعله قا

عليه تبارك وتعالى، وقا

خبران

قدمه اهتماما لأنه موضع فائدة الجملة، وبعض القراء في هذه الآية وقف على قوله قا

وجعله من الكلام المتقدم ثم استأنف جملة من قوله لينا نصر المؤمنين

، وهذا قول ضعيف لأنه لم يدر قدما عرضه في نظم الآية.

قوله عز وجل:

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٤٨ الى ٥٠]

الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون (٤٨) وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين (٤٩) فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير (٥٠)

«الإثارة» تحريكها من سكونها وتسييرها، وبسطه في السماء هو نشره في الآفاق، و «الكسف»." [1]

"هذه مخاطبة في أمر قريش وإعراضهم عن الشرع وعبادتهم الأصنام فنبههم تعالى على الألوهية، بما لا يحصى من الأدلة كثرة وبيانا، فنبه بهذه الآية على إنعامه عليهم ببهيمة الأنعام، وقوله تعالى أيدينا عبارة عن القدرة عبر عنها بيد وبيدين وبأيد، وذلك من حيث كان البشر إنما يقيمون القدرة والبطش باليد، فعبر لهم عن القدرة بالجهة التي قربت في أفهامهم، والله تعالى منزه عن الجارحة والتشبيه كله، وقوله فهم لها مالكون تنبيه على أن النعمة في أن هذه الأنعام ليست بعاتية ولا متبورة، بل تقتنى وتقرب منافعها، وذللناها معناه سخرناها ذليلة، والركوب المركوب، وهذا فعول بمعنى مفعول وليس إلا في ألفاظ محصورة كالركوب والحلوب والقروع، وقرأ الجمهور «ركوبهم» بفتح الراء، وقرأ الحسن والأعمش «ركوبهم» بضم الراء، وقرأ أبي بن كعب وعائشة «ركوبتهم» ، و **«المنافع»** إشارة إلى الأصواف والأوبار وغير ذلك، و «المشارب» الألبان، ثم عنفهم في اتخاذ آلهة طلب الاستنصار بها والتعاضد، ثم أخبر أنهم لا يستطيعون نصرا ويحتمل أن يكون الضمير في يستطيعون للكفار في نصرهم الأصنام، ويحتمل الأمر عكس ذلك لأن الوجهين صحيحان في المعنى، كذلك قوله وهم لهم جند محضرون يحتمل أن يكون الضمير الأول للكفار والثاني للأصنام على معنى وهؤلاء الكفار، متجندون متحزبون لهذه الأصنام في الدنيا لكنهم لا يستطيعون التناصر مع ذلك، ويحتمل أن يكون الضمير الأول للأصنام والثاني للكفار أي يحضرون لهم في الآخرة عند الحساب على معنى التوبيخ والنقمة، وسماهم جندا في هذا التأويل إذ هم عدة للنقمة منهم وتوبيخهم، وجرت ضمائر الأصنام في هذه الآية مجرى من يعقل إذ نزلت في عبادتها منزل ذي عقل فعملت في العبارة بذلك، ثم أنس تعالى نبيه، بقوله فلا يحزنك قولهم وتوعد الكفار بقوله إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون.

قوله عز وجل:

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧٧ الى ٨٠]

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤/٣٤١

أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين (٧٧) وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم (٧٨) قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (٧٩) الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون (٨٠)

هذه الآية قال فيها ابن جبير: إنها نزلت بسبب أن المعاصي بن وائل السهمي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم ففته وقال: يا محمد من يحيي هذا؟ وقال مجاهد وقتادة: إن الذي جاء بالعظم النخر أمية بن خلف، وقاله الحسن ذكره الرماني، وقال ابن عباس: الجائي بالعظم هو عبد الله بن أبي ابن سلول.." (١)

"هذه آيات عبر وتعديد نعم. و: الأنعام الأزواج الثمانية. ع و: منها الأولى للتبعيض، لأن المركوب ليس كل الأنعام، بل الإبل خاصة. ومنها الثانية لبيان الجنس، لأن الجميع منها يؤكل. وقال الطبري في هذه الآية: إن الأنعام تعم الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير وغير ذلك مما ينتفع به في البهائم، ف منها في الموضعين للتبعيض على هذا، لكنه قول ضعيف، وإنما الأنعام: الأزواج الثمانية التي ذكر الله فقط. ثم ذكر تعالى **المنافع** ذكرا مجملا، لأنها أكثر من أن تحصى.

وقوله تعالى: ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم يريد قطع المهامة الطويلة والمشاق البعيدة.

و: الفلك السفن، وهو هنا جمع. و: تحملون يريد: برا وبحرا. وكرر الحمل عليها، وقد تقدم ذكر ركوبها لأن المعنى مختلف وفي الأمرين تغاير، وذلك أن الركوب هو المتعارف فيما قرب واستعمل في القرى والمواطن نظير الأكل منها وسائر **المنافع** بها، ثم خصص بعد ذلك السفر الأطول وحوائج الصدور مع البعد والنوى، وهذا هو الحمل الذي قرنه بشبيهه من أمر السفن. ثم ذكر تعالى آياته عامة جامعة لكل عبرة وموضع نظر، وهذا غير منحصر لاتساعه، ولأن في كل شيء له آية تدل على وحدانيته، ثم قررهم على جهة التوبيخ بقوله: أي آيات الله تنكرون

. ثم احتج تعالى على قريش بما يظهر في الأمم السالفة من نقمات الله في الكفرة الذين كانوا أكثر عددا وأشد قوة أبدان وممالك، وأعظم آثارا في المباني والأفعال من قريش والعرب، فلم يغن عنهم كسبهم ولا حالهم شيئا حين جاءهم عذاب الله وأخذه.

و «ما» في قوله: فما أغنى عنهم نافية. قال الطبري: وقيل هي تقرير وتوقيف.

قوله عز وجل:

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤/٤٦٣

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٨٣ الى ٨٥]

فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥)

الضمير في: جاءتهم عائد على الأمم المذكورين الذين جعلوا مثلا وعبرة. واختلف المفسرون في الضمير في: فرحوا على من يعود، فقال مجاهد وغيره: هو عائد على الأمم المذكورين، أي بما عندهم من العلم في ظنهم ومعتقدهم من أنهم لا يبعثون ولا يحاسبون. قال ابن زيد: واغتروا بعلمهم في الدنيا والمعايش، وظنوا أنه لا آخرة ففرحوا، وهذا كقوله تعالى: يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا [الروم: ٧] وقالت فرقة: الضمير في فرحوا عائد على الرسل، وفي هذا الرسل حذف، وتقديره:

فلما جاءتهم رسلهم بالبينات كذبوهم، ففرح الرسل بما عندهم من العلم بالله والثقة به، وبأنه." [١]

"أسلم وسفيان: المعنى خاص، والمراد: وما خلقت الطائعين من الجن والإنس إلا لعبادتي، ويؤيد هذا التأويل أن ابن عباس روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ: «وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدوني» ، وقال ابن عباس أيضا معنى: ليعبدون أي ليتذللوا لي ولقدرتي، وإن لم يكن ذلك على قوانين الشرع.

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا التأويل فجميع الجن والإنس عابد متذلل والكفار كذلك، ألا تراهم عند القحط والأمراض وغير ذلك. وتحتمل الآية، أن يكون المعنى: ما خلقت الجن والإنس إلا معدين ليعبدون، وكأن الآية تعديد نعمة، أي خلقت لهم حواس وعقولا وأجساما منقادة نحو العبادة، وهذا كما تقول: البقر مخلوقة للحرث، والخيل للحرب، وقد يكون منها ما لا يحارب به أصلا، فالمعنى أن الإعداد في خلق هؤلاء إنما هو للعبادة، لكن بعضهم تكسب صرف نفسه عن ذلك، ويؤيد هذا المنزع قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» . وقوله: «كل مولود يولد على الفطرة» والحديث، وقوله: من رزق أي أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم.

وقوله: أن يطعمون إما أن يكون المعنى أن يطعموا خلقي فأضيف ذلك إلى الضمير على جهة التجوز، وهذا قول ابن عباد. وإما أن يكون الإطعام هنا بمعنى النفع على العموم، كما تقول: أعطيت فلانا كذا وكذا

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥٧١/٤

طعمة، وأنت قد أعطيته عرضا أو بلدا يحييه، ونحو هذا فكأنه قال: ولا أريد أن ينفعوني، فذكر جزءا من **المنافع** وجعله دالا على الجميع.

وقرأ الجميع: «إن الله هو الرزاق» . وروى أبو إسحاق السبيعي عن عبد الله بن يزيد، قال أبو عمرو الداني عن ابن مسعود قال: أقراني رسول الله صلى الله عليه وسلم «إني أنا الرزاق» وقرأ الجمهور: «إن الله هو الرزاق» وقرأ ابن محيصن «هو الرزاق» وقرأ جمهور القراء: «المتين» بالرفع إما على أنه خبر بعد خبر، أو صفة ل الرزاق. وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش »المتين» بالخفض على النعت ل القوة، وجاز ذلك من حيث تأنيث القوة غير حقيقي. فكأنه قال: ذو الأيد، أو ذو الحبل ونحوه فمن جاءه موعظة [البقرة: ٢٧٥] وجوز أبو الفتح أن يكون خفض «المتين» على الجواز و: المتين: الشديد.

وقوله تعالى: فإن للذين ظلموا يريد أهل مكة، وهذه آية وعيد صراح، وقرأ الأعمش «فإن للذين كفروا» . والذنوب: الحظ والنصيب، وأصله من الدلو، وذلك أن الذنوب هو ملء الدلو من الماء، وقيل الذنوب: الدلو العظيمة، ومنه قول الشاعر: [الرجز]

إنا إذا نازلنا غريب ... له ذنوب ولنا ذنوب

فإن أبيتم فلنا القليب وهو السجل، ومنه قول علقمة بن عبدة: [الطويل]

وفي كل حي قد خبطت بنعمة ... فحق لشأس من نداك ذنوب

فيروى أن الملك لما سمع هذا البيت قال نعم وأذنبة، ومنه قول حسان: [الطويل]." (١)

"مسعود روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسر القادرين بالمقدرين. وقدر ابن أبي عبلة «فقدرنا» بشد الدال «فنعم المقتدرون» ، و «الكفات» : الستر والوعاء الجامع للشيء بإجماع، تقول كفت الرجل شعره إذا جمعه بخرقة، فالأرض تكفت الأحياء على ظهرها، وتكفت الأموات في بطنها وأحياء على هذا التأويل معمول لقوله كفاتا لأنه مصدر. وقال بعض المتأولين أحياء وأمواتا، إنما هو بمعنى أن الأرض فيها أقطار أحياء وأقطار أموات يراد ما ينبت وما لا ينبت، فنصب أحياء على هذا إنما هو على الحال من الأرض، والتأويل الأول أقوى.

وقال بنان خرجنا مع الشعبي إلى جنازة فنظر إلى الجبانة فقال: هذه كفات الموتى، ثم نظر إلى البيوت فقال: هذه كفات الأحياء، وكانت العرب تسمي بقيع الغرقد كفتة لأنها مقبرة تضم الموتى، وفي الحديث «خمروا آنيتكم وأوكئوا أسقيتكم واكفتوا صبيانكم وأجيفوا أبوابكم وأطفئوا مصابيحكم» . ودفن ابن مسعود

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٨٣/٥

قملة في المسجد ثم قرأ ألم نجعل الأرض كفاتا.

قال القاضي أبو محمد: ولما كان القبر كفاتا كالبيت قطع من سرق منه. و «الرواسي» : الجبال، لأنها رست أي ثبتت، و «الشامخ» : المرتفع، ومنه شمخ بأنفه أي ارتفع واستعلى شبه المعنى بالشخص، و «أسقى» معناه: جعله سقيا للغلات والمنافع، وسقى معناه للشفة خاصة، هذا قول جماعة من أهل اللغة. وقال آخرون هما بمعنى واحد. و «الفرات» : الصافي العذب، ولا يقال للملح فرات وهي لفظة تجمع ماء المطر ومياه الأنهار وخص النهر المشهور بهذا تشريفا له وهو نهر الكوفة، وسيحان هو نهر بلخ، وجيحان هو دجلة، والنيل نهر مصر. وحكي عن عكرمة أن كل ماء في الأرض فهو من هذه، وفي هذا بعد والله أعلم.

قوله عز وجل:

[سورة المرسلات (٧٧) : الآيات ٢٩ الى ٤٠]

انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون (٢٩) انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب (٣٠) لا ظليل ولا يغني من اللهب (٣١) إنها ترمي بشرر كالقصر (٣٢) كأنه جمالت صفر (٣٣)

ويل يومئذ للمكذبين (٣٤) هذا يوم لا ينطقون (٣٥) ولا يؤذن لهم فيعتذرون (٣٦) ويل يومئذ للمكذبين (٣٧) هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين (٣٨)

فإن كان لكم كيد فكيدون (٣٩) ويل يومئذ للمكذبين (٤٠)

الضمير في قوله انطلقوا، هو للمكذبين [الإنسان: ١٩- ٢٤] الذين لهم الويل يقال لهم انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الآخرة، ولا خلاف في كسر اللام من قوله انطلقوا في هذا الأمر الأول، وقرأ يعقوب في رواية رويس «انطلقوا إلى ظل» بفتح اللام على معنى الخبر، وقرأ جمهور الناس «انطلقوا» بكسر اللام على معنى تكرار، الأمر الأول وبيان المنطلق إليه، وقال عطاء الظل الذي له ثلاث شعب هو دخان جهنم، وروي أنه يعلو من ثلاثة مواضع يراه الكفار فيظنون أنه مغن فيهرعون إليه فيجدونه على أسوأ وصف. وقال ابن عباس: المخاطبة إنما تقال يومئذ لعبدة الصليب إذا اتبع كل واحد ما كان يعبد فيكون المؤمنون في ظل الله ولا ظل إلا ظله، ويقال لعبدة الصليب انطلقوا إلى ظل معبودكم." (١)

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤١٩/٥

"هو الله، وهي داره، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة والسدي. والثاني: أنها دار السلامة التي لا تنقطع، قاله الزجاج. والثالث: أن تحية أهلها فيها السلام، ذكره أبو سليمان الدمشقي. والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، ففي ابتداء دخولهم: ادخلوها بسلام «١» ، وبعد استقرارهم: والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (٢٣) سلام عليكم
«٢» . وقوله تعالى: إلا قيلا سلاما سلاما «٣» وعند لقاء الله سلام قولا من رب رحيم «٤» ، وقوله تعالى: تحيتهم يوم يلقونه سلام «٥» . ومعنى: عند ربهم أي:
مضمونة لهم عنده، وهو وليهم أي: متولي إيصال المنافع إليهم، ودفع المضار عنهم بما كانوا يعملون من الطاعات.

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٢٨]

ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم (١٢٨)

قوله تعالى: «ويوم نحشرهم جميعا» يعني الجن والإنس. وقرأ حفص عن عاصم: «يحشرهم» بالياء. قال أبو سليمان: يعني: المشركين وشياطينهم الذين كانوا يوحون إليهم بالمجادلة لكم فيما حرمه الله من الميتة. قوله تعالى: يا معشر الجن فيه إضمار، فيقال لهم: يا معشر والمعشر: الجماعة أمرهم واحد، والجمع: المعاشر. وقوله: قد استكثرتم من الإنس أي: من إغوائهم وإضلالهم.

وقال أولياؤهم من الإنس يعني الذين أضلهم الجن: ربنا استمتع بعضنا ببعض فيه ثلاثة أقوال:

(٥٦٠) أحدها: أن استمتاع الإنس بالجن: أنهم كانوا إذا سافروا، فنزلوا واديا، وأرادوا مبيتا، قال أحدهم: أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر أهله واستمتاع الجن بالإنس: أنهم كانوا يفخرون على قومهم، ويقولون: قد سدنا الإنس حتى صاروا يعوذون بنا، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مقاتل، والفراء.

والثاني: أن استمتاع الجن بالإنس: طاعتهم لهم فيما يغرونهم به من الضلالة والكفر والمعاصي.

واستمتاع الإنس بالجن: أن الجن زينت لهم الأمور التي يهوونها، وشهوها إليهم حتى سهل عليهم فعلها، روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس، وبه قال محمد بن كعب، والزجاج.

والثالث: أن استمتاع الجن بالإنس: إغواؤهم إياهم. واستمتاع الإنس بالجن: ما يتلقون منهم من السحر والكهانة ونحو ذلك. والمراد بالجن في هذه الآية: الشياطين.

قوله تعالى: وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا فيه قولان: أحدهما: الموت، قاله الحسن، والسدي.

عزاه المصنف لابن عباس من رواية الكلبي، وهي رواية ساقطة. وكذا عزاه لمقاتل، وهو متهم. وأخرجه الطبري ١٣٨٩٣ عن ابن جريج قوله. ويأتي شيء من هذا في سورة الجن.

---

(١) سورة الحجر: ٤٦.

(٢) سورة الرعد، ٢٣- ٢٤.

(٣) سورة الواقعة: ٢٦.

(٤) سورة يس: ٥٨.

(٥) سورة الأحزاب: ٤٤.." [١]

"مجاهد، والزجاج. والثالث: أنه ورد في التزين بأجمل الثياب في الجمع والأعياد، ذكره الماوردي.

والثاني: أن المراد بالزينة: المشط، قاله أبو رزين.

قوله تعالى: وكلوا واشربوا قال ابن السائب: كان أهل الجاهلية لا يأكلون في أيام حجهم دسما، ولا ينالون من الطعام إلا قوتا، تعظيما لحجتهم، فنزل قوله: وكلوا واشربوا. وفي قوله:

ولا تسرفوا أربعة اقوال «١» : أحدها: لا تسرفوا بتحريم ما أحل لكم، قاله ابن عباس. والثاني: لا تأكلوا حراما، فذلك الإسراف، قاله ابن زيد. والثالث: لا تشركوا، فمعنى الإسراف ها هنا: الإشراك، قاله مقاتل. والرابع: لا تأكلوا من الحلال فوق الحاجة، قاله الزجاج.

(٥٧٧) ونقل أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، فقال علي: قد جمع الله تعالى الطب في نصف آية من كتابنا. قال: ما هي؟ قال: قوله تعالى: وكلوا واشربوا ولا تسرفوا. قال النصراني: ولا يؤثر عن نبيكم شيء من الطب، فقال: قد جمع رسولنا علم الطب في ألفاظ يسيرة. قال: وما هي؟ قال: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وعودوا كل بدن ما اعتاد» . فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا.

قال المصنف: هكذا نقلت هذه الحكاية، إلا أن هذا الحديث المذكور فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يثبت. وقد جاءت عنه في الطب أحاديث قد ذكرتها في كتاب: «لقط **المنافع** في الطب» .

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢/٧٧

[سورة الأعراف (٧) : آية ٣٢]

قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون (٣٢)

قوله تعالى: قل من حرم زينة الله في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المشركين عيروا المسلمين، إذ لبسوا الثياب في الطواف، وأكلوا الطيبات، فنزلت، رواه أبو صالح عن ابن عباس «٢» .

والثاني: أنهم كانوا يحرمون أشياء أحلها الله من الزروع وغيرها، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة

لا أصل له. قال الحافظ في «تخريج الكشاف» ٢/ ١٠٠: لم أجد لها- أي حكاية الرشيد- إسنادا والمرفوع منه، قال عنه الحافظ ٢/ ١٠٠ لم أجده. قلت: أخرجه أبو محمد الخلال كما في «الدر» ٣/ ١٥٠ عن عائشة:

أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وهي تشتكي فقال لها: الأزم دواء والمعدة بيت الأدواء وعودوا بدنا ما اعتاده» . ولا يصح إسناده فقد نقل السخاوي في «المقاصد» ١٠٣٥ عن الدارقطني قوله: رواه أبو قرة الرهاوي عن الزهري عن عائشة، ولا يصح، ولا يعرف هذا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، إنما هو من كلام عبد الملك بن سعيد بن أنجر.

وقال العراقي في «تخريج الإحياء» ٣/ ٨٧: لم أجد له أصلا. وقال السخاوي ١٠٣٥: لا يصح رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، أو غيره.

---

(١) قال الطبري رحمه الله في «تفسيره» ٥/ ٤٧٢ الآية لا تسرفوا. وقوله إنه لا يحب المسرفين يقول: إن الله لا يحب المتعدي حده في حلال أو حرام: الغالين فيما أحل الله أو حرم، بإحلال الحرام وبتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل الله ويحرم ما حرم الله. وذلك العدل الذي أمر به. ا. هـ.

(٢) عزاه المصنف لأبي صالح عن ابن عباس وهي رواية ساقطة.." [١]

"جعفر «يبطشون» بضم الطاء ها هنا وفي (القصص) «١» و (الدخان) »

. أم لهم أعين يبصرون بها **المنافع** من المضار أم لهم آذان يسمعون بها تضرعكم ودعاءكم؟ وفي هذا تنبيه

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ١١٤/٢

على تفضيل العابدين على المعبودين، وتوبيخ لهم حيث عبدوا من هم أفضل منه. قل ادعوا شركاءكم قال الحسن: كانوا يخوفونه بآلهتهم، فقال الله تعالى: قل ادعوا شركاءكم، ثم كيدون أنتم وهم فلا تنظرون أي: لا تؤخروا ذلك. وكان ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي يقرءون «ثم كيدون» بغير ياء في الوصل والوقف. وقرأ أبو عمرو، ونافع في رواية ابن حماد بالياء في الوصل. وروى ورش، وقالون، والمسيبي بغير ياء في الوصل، ولا وقف. فأما «تنظرون» فأثبت فيها الياء يعقوب في الوصل والوقف. إن وليي الله أي: ناصري الذي نزل الكتاب وهو القرآن، أي: كما أيدني بإنزال الكتاب ينصرني.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٩٧]

والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون (١٩٧)

قوله تعالى: والذين تدعون من دونه يعني الأصنام لا يستطيعون نصركم أي: لا يقدرون على منعكم ممن أرادكم بسوء، ولا يمنعون أنفسهم من سوء أريد بهم.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٩٨]

وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون (١٩٨)

قوله تعالى: وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا في المراد بهؤلاء قولان: أحدهما: أنهم الأصنام.

ثم في قوله تعالى: وتراهم ينظرون إليك قولان: أحدهما: يواجهونك، تقول العرب: داري تنظر إلى دارك، وهم لا يبصرون لأنه ليس فيهم أرواح. والثاني: وتراهم كأنهم ينظرون إليك، لأن لهم أعينا مصنوعة، فأسقط كاف التشبيه، كقوله تعالى: وترى الناس سكارى

«٣» أي: كأنهم سكارى، وهم لا يبصرون في الحقيقة. وإنما أخبر عنهم بالهاء والميم، لأنهم على هيئة بني آدم. والقول الثاني: أنهم المشركون، فالمعنى: وتراهم ينظرون إليك بأعينهم ولا يبصرون بقلوبهم.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٩٩]

خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (١٩٩)

قوله تعالى: خذ العفو العفو: الميسور، وقد سبق شرحه في سورة البقرة «٤» . وفي الذي أمر بأخذ العفو منه ثلاثة أقوال: أحدها: أخلاق الناس، قاله ابن الزبير، والحسن، ومجاهد فيكون المعنى:

إقبل الميسور من أخلاق الناس، ولا تستقص عليهم فتظهر منهم البغضاء. والثاني: أنه المال، وفيه قولان:

أحدهما: أن المراد بعفو المال: الزكاة، قاله مجاهد في رواية، والضحاك. والثاني: أنها صدقة كانت تؤخذ قبل فرض الزكاة، ثم نسخت بالزكاة، روي عن ابن عباس. والثالث: أن المراد به: مساهلة المشركين والعفو عنهم، ثم نسخ بآية السيف، قاله ابن زيد.

---

(١) سورة القصص: ١٩ قوله تعالى: فلما أن أراد أن يبطش.

(٢) سورة الدخان: ١٦ قوله تعالى: يوم نبطش.

(٣) سورة الحج: ٢.

(٤) سورة البقرة: ٢١٩.." [١]

"سورة الفاتحة

تفسير البسملة

: وأما قوله جل جلاله: بسم الله الرحمن الرحيم ففيه نوعان من البحث: النوع الأول: قد اشتهر عند العلماء أن لله تعالى ألفا وواحدا من الأسماء المقدسة المطهرة، وهي موجودة في الكتاب والسنة ولا شك أن البحث عن كل واحد من تلك الأسماء مسألة شريفة عالية، وأيضا فالعلم بالاسم لا يحصل إلا إذا كان مسبوقا بالعلم بالمسمى، وفي البحث عن ثبوت تلك المسميات، وعن الدلائل الدالة على ثبوتها، وعن أجوبة الشبهات التي تذكر في نفيها مسائل كثيرة، ومجموعها يزيد على الألوف، النوع الثاني: من مباحث هذه الآية: أن الباء في قوله بسم الله باء الإلصاق، وهي متعلقة بفعل، والتقدير: باسم الله أشرع في أداء الطاعات، وهذا المعنى لا يصير ملخصا معلوما إلا بعد الوقوف على أقسام الطاعات، وهي العقائد الحقة والأعمال الصافية مع الدلائل والبينات، ومع الأجوبة عن الشبهات، وهذا المجموع ربما زاد على عشرة آلاف مسألة.

ومن اللطائف أن قوله (أعوذ بالله) إشارة إلى نفي ما لا ينبغي من العقائد والأعمال، وقوله بسم الله إشارة إلى ما ينبغي من الاعتقادات والعمليات، فقوله بسم الله لا يصير/ معلوما إلا بعد الوقوف على جميع العقائد الحقة، والأعمال الصافية، وهذا هو الترتيب الذي يشهد بصحته العقل الصحيح، والحق الصريح.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ١٨٠/٢

نعم الله تعالى التي لا تحصى

: أما قوله جل جلاله الحمد لله فاعلم أن الحمد إنما يكون حمدا على النعمة، والحمد على النعمة لا يمكن إلا بعد معرفة تلك النعمة، لكن أقسام نعم الله خارجة عن التحديد والإحصاء، كما قال تعالى: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها [إبراهيم: ٣٤] ولنتكلم في مثال واحد، وهو أن العاقل يجب أن يعتبر ذاته، وذلك لأنه مؤلف من نفس وبدن، ولا شك أن أدون الجزءين وأقلهما فضيلة ومنفعة هو البدن، ثم إن أصحاب التشريح وجدوا قريبا من خمسة آلاف نوع من **المناف**ع والمصالح التي دبرها الله عز وجل بحكمته في تخليق بدن الإنسان، ثم إن من وقف على هذه الأصناف المذكورة في «كتب التشريح» عرف أن نسبة هذا القدر المعلوم المذكور إلى ما لم يعلم وما لم يذكر كالقطرة في البحر المحيط، وعند هذا يظهر أن معرفة أقسام حكمة الرحمن في خلق الإنسان تشتمل على عشرة آلاف مسألة أو أكثر، ثم إذا ضمت إلى هذه الجملة آثار حكم الله تعالى في تخليق العرش والكرسي وأطباق السموات، وأجرام النيرات من الثوابت والسيارات، وتخصيص كل واحد منها بقدر مخصوص ولون مخصوص وغير مخصوص، ثم يضم إليها آثار حكم الله تعالى في تخليق الأمهات." (١)

"وأما الرجيم فمعناه المرجوم، فهو فعيل بمعنى مفعول. كقولهم: كف خضيب أي مخضوب ورجل لعين، أي ملعون، ثم في كونه مرجوما وجهان: الأول: أن كونه مرجوما كونه ملعونا من قبل الله تعالى، قال الله تعالى: فاخرج منها فإنك رجيم [الحجر: ٣٤] واللعن يسمى رجما، وحكى الله تعالى عن والد إبراهيم عليه السلام أنه قال له: لئن لم تنته لأرجمنك [مريم: ٤٦] قيل عنى به الرجم بالقول، وحكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا: لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين [الشعراء: ١١٦] وفي سورة يس لئن لم تنتهوا لنرجمنكم [يس: ١٨] والوجه الثاني: أن الشيطان إنما وصف بكونه مرجوما لأنه تعالى أمر الملائكة برمي الشياطين بالشهب والثواقب طردا لهم من السموات، ثم وصف بذلك كل شرير متمرد.

وأما قوله: «إن الله هو السميع العليم» ففيه وجهان: الأول: أن الغرض من الاستعاذة الاحتراز من شر الوسوسة ومعلوم أن الوسوسة كأنها ءروف خفية في قلب الإنسان، ولا يطلع عليها أحد، فكأن العبد يقول: يا من هو على هذه الصفة التي يسمع بها كل مسموع، ويعلم كل سر خفي أنت تسمع وسوسة الشيطان وتعلم غرضه فيها، وأنت القادر على دفعها عني، فادفعها عني بفضلك، فلهذا السبب كان ذكر السميع العليم أولى بهذا الموضع من سائر الأذكار،: الثاني: أنه إنما تعين هذا الذكر بهذا الموضع اقتداء بلفظ

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣/١

القرآن، وهو قوله تعالى:

وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم [الأعراف: ٢٠٠] وقال في حم السجدة: إنه هو السميع العليم [فصلت: ٣٦] .

المسألة الثانية: في البحث العقلي عن ماهية الاستعاذة: اعلم أن الاستعاذة لا تتم إلا بعلم وحال وعمل، أما العلم فهو كون العبد عالما بكونه عاجزا عن جلب المنافع الدينية والدنيوية وعن دفع جميع المضار الدينية والدنيوية، وأن الله تعالى قادر على إيجاد جميع المنافع الدينية والدنيوية وعلى دفع جميع المضار الدينية والدنيوية قدرة لا يقدر أحد سواه على دفعها عنه. فإذا حصل هذا العلم في القلب تولد عن هذا العلم حصول حالة في القلب، وهي انكسار وتواضع ويعبر عن تلك الحالة بالتضرع إلى الله تعالى والخضوع له، ثم إن حصول تلك الحالة في القلب يوجب حصول صفة أخرى في القلب وصفة في اللسان، أما الصفة الحاصلة في القلب فهي أن يصير العبد مريدا لأن يصونه الله تعالى عن الآفات ويخصه بإفاضة الخيرات والحسنات وأما الصفة التي في اللسان فهي أن يصير العبد طالبا لهذا المعنى بلسانه من الله تعالى، وذلك الطلب هو الاستعاذة، وهو قوله: «أعوذ بالله» إذا عرفت ما ذكرنا يظهر لك أن الركن الأعظم في الاستعاذة هو علمه بالله، وعلمه بنفسه، أما علمه بالله فهو أن يعلم كونه سبحانه وتعالى عالما بجميع المعلومات، فإنه لو لم يكن الأمر كذلك لجاز أن لا يكون الله عالما به ولا بأحواله، فعلى هذا التقدير تكون الاستعاذة به عبثا، ولا بد وأن يعلم كونه قادرا على جميع الممكنات وإلا فربما كان عاجزا عن تحصيل مراد البعد، ولا بد أن يعلم أيضا كونه جوادا مطلقا، إذ لو كان البخل عليه جائزا لما كان في الاستعاذة فائدة، ولا بد أيضا وأن يعلم أنه لا يقدر أحد سوى الله تعالى على أن يعينه على مقاصده، إذ لو جاز أن يكون غير الله يعينه على مقاصده لم تكن الرغبة قوية في الاستعاذة بالله، وذلك لا يتم إلا بالتوحيد المطلق وأعني بالتوحيد المطلق أن يعلم أن مدبر العالم واحد، وأن يعلم أيضا أن العبد غير مستقل بأفعال نفسه، إذ لو كان مستقلا بأفعال نفسه لم يكن في الاستعاذة بالغير فائدة، فثبت بما ذكرنا أن العبد ما لم يعرف عزة الربوبية وذلة العبودية لا يصح منه أن يقول: / (أعوذ بالله من الشيطان." (١)

"المتعلقة بتدبير الأجسام، وأشرفها حملة العرش، كما قال تعالى: ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية [الحاقة: ١٧] والمرتبة الثانية: الحافون حول العرش، كما قال تعالى: وترى الملائكة حافين من حول العرش [الزمر: ٧٥] والمرتبة الثالثة: ملائكة الكرسي، والمرتبة الرابعة: ملائكة السموات طبقة طبقة، والمرتبة

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧١/١

الخامسة: ملائكة كرة الأثير، والمرتبة السادسة: ملائكة كرة الهواء الذي هو في طبع النسيم، والمرتبة السابعة: ملائكة كرة الزمهرير، والمرتبة الثامنة: مرتبة الأرواح المتعلقة بالبحار، والمرتبة التاسعة: مرتبة الأرواح المتعلقة بالجبال، والمرتبة العاشرة: مرتبة الأرواح السفلية المتصرفة في هذه الأجسام النباتية والحيوانية الموجودة في هذا العالم.

واعلم أنه على كلا القولين فهذه الأرواح قد تكون مشرقة إلهية خيرة سعيدة، وهي المسماة بالصالحين من الجن، وقد تكون كدرة سفلية شريرة شقية، وهي المسماة بالشياطين.

واحتج المنكرون لوجود الجن والشياطين بوجوه: الحجة الأولى: أن الشيطان لو كان موجودا لكان إما أن يكون جسما كثيفا أو لطيفا، والقسمان بطلان فيبطل القول بوجوده وإنما قلنا أنه يمتنع أن يكون جسما كثيفا لأنه لو كان كذلك لوجب أن يراه كل من كان سليم الحس، إذ لو جاز أن يكون بحضرتنا أجسام كثيفة ونحن لا نراها لجاز أن يكون بحضرتنا جبال عالية وشموس مضيئة ورعود وبروق مع أنا لا نشاهد شيئا منها، ومن جوز ذلك كان خارجا عن العقل، وإنما قلنا إنه لا يجوز كونها أجساما لطيفة وذلك لأنه لو كان كذلك لوجب أن تتمزق أو تتفرق عند هبوب الرياح العاصفة القوية، وأيضا يلزم أن لا يكون لها/ قوة وقدرة على الأعمال الشاقة، ومثبتو الجن ينسبون إليها الأعمال الشاقة، ولما بطل القسمان ثبت فساد القول بالجن.

الحجة الثانية: أن هذه الأشخاص المسماة بالجن إذا كانوا حاضرين في هذا العالم مخالطين للبشر فالظاهر الغالب أن يحصل لهم بسبب طول المخالطة والمصاحبة إما صداقة وإما عداوة، فإن حصلت الصداقة وجب ظهور المنافع بسبب تلك الصداقة، وإن حصلت العداوة وجب ظهور المضار بسبب تلك العداوة، إلا أنا لا نرى أثرا لا من تلك الصداقة ولا من تلك العداوة وهؤلاء الذين يمارسون صنعة التعزيم إذا تابوا من الأكاذيب يعترفون بأنهم قط ما شاهدوا أثرا من هذا الجن، وذلك مما يغلب على الظن عدم هذه الأشياء وسمعت واحدا ممن تاب عن تلك الصنعة قال إني واظبت على العزيمة الفلانية كذا من الأيام وما تركت دقيقة من الدقائق إلا أتيت بها ثم إني ما شاهدت من تلك الأحوال المذكورة أثرا ولا خبرا.

الحجة الثالثة: أن الطريق إلى معرفة الأشياء إما الحس، وإما الخبر، وإما الدليل: أما الحس فلم يدل على وجود هذه الأشياء، لأن وجودها إما بالصورة أو الصوت فإذا كنا لا نرى صورة ولا سمعنا صوتا فكيف يمكننا أن ندعي الإحساس بها، والذين يقولون إنا أبصرناها أو سمعنا أصواتها فهم طائفتان: المجانين الذين يتخيلون أشياء بسبب خلل أمزجتهم فيظنون أنهم رأوها، والكذابون المخرفون، وأما إثبات هذه الأشياء

بواسطة إخبار الأنبياء والرسل فباطل لأن هذه الأشياء لو ثبتت لبطلت نبوة الأنبياء فإن على تقدير ثبوتها يجوز أن يقال إن كل ما تأتي به الأنبياء من المعجزات إنما حصل بإعانة الجن والشياطين، وكل فرع أدى إلى إبطال الأصل كان باطلا، مثاله إذا جوزنا نفوذ الجن في بواطن الإنسان فلم لا يجوز أن يقال: إن حنين الجذع إنما كان لأجل أن الشيطان نفذ في ذلك الجذع ثم أظهر الحنين ولم لا يجوز أن يقال إن الناقة إنما تكلمت مع الرسول عليه السلام." (١)

"الغيوب

، [المائدة: ١١٦] الخامس: الأعلم، قال تعالى: الله أعلم حيث يجعل رسالته [الأنعام: ١٢٤] السادس: صيغة الماضي، قال تعالى: علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم [البقرة: ١٨٧] السابع: صيغة المستقبل، قال تعالى: وما تفعلوا من خير يعلمه الله [البقرة: ١٩٧] وقال: والله يعلم ما تسرون وما تعلنون [النحل: ١٩] الثامن: لفظ علم من باب التفعيل، قال تعالى: وعلم آدم الأسماء كلها [البقرة: ٣١] وقال في حق الملائكة سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا [البقرة: ٣٢] وقال: وعلمك ما لم تكن تعلم

[النساء: ١١٣] وقال: الرحمن علم القرآن [الرحمن: ١، ٢] .

واعلم أنه لا يجوز أن يقال إن الله معلم مع كثرة هذه الألفاظ لأن لفظ المعلم مشعر بنوع نقيصة، التاسع: لا يجوز إطلاق لفظ العلامة على الله تعالى، لأنها وإن أفادت المبالغة لكنها تفيد أن هذه المبالغة إنما حصلت بالكد والعناء، وذلك في حق الله تعالى محال.

اللفظ الثاني: من ألفاظ هذا الباب لفظ الخبر والخبرة، وهو كالمرادف للعلم، حتى قال بعضهم في حد العلم: إنه الخبر، إذا عرفت هذا فنقول: ورد لفظ «الخبير» في حق الله تعالى في حد العلم: إنه الخبر، إذا عرفت هذا فنقول: ورد لفظ «الخبير» في حق الله تعالى كثيرا في القرآن، وذلك أيضا يدل، على العلم.

النوع الثالث: من الألفاظ: الشهود والمشاهدة، ومنه «الشهيد» في حق الله تعالى، إذا فسرناه بكونه مشاهدا لها عالما بها، أما إذا فسرناه بالشهادة كان من صفة الكلام.

النوع الرابع: الحكمة، وهذه اللفظة قد يراد بها العلم، وقد يراد بها أيضا ترك ما لا ينبغي وفعل ما ينبغي.

النوع الخامس: اللطيف، وقد يراد به العلم بالدقائق، وقد يراد به إيصال **المنافع** إلى العباد بطريق خفية عجيبة.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١/٨٠

الفصل الثالث: الأسماء الحاصلة بصفة الكلام:
في الأسماء الحاصلة بسبب صفة الكلام، وما يجري مجراه: - اللفظ الأول: الكلام، وفيه وجوه: الأول: لفظ الكلام، قال تعالى: وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله [التوبة: ٦] الثاني: صيغة الماضي من هذا اللفظ، قال تعالى: وكلم الله موسى تكليما [النساء: ١٦٤] وقال: ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه [الأعراف: ١٤٣] الثالث: صيغة المستقبل، قال تعالى: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا [الشورى: ٥١] .
اللفظ الثاني: القول، وفيه وجوه: الأول: صيغة الماضي، قال تعالى: وإذ قال ربك للملائكة [البقرة: ٣٠] ونظائره كثيرة في القرآن، الثاني: صيغة المستقبل، قال تعالى: إنه يقول إنها بقرة [البقرة: ٦٨] الثالث: القيل والقول، قال تعالى: ومن أصدق من الله قيلا [النساء: ١٢٢] وقال تعالى: ما يبدل القول لدي [ق: ٢٩] .." (١)

"فإنها إن زالت عن القلب لحظة واحدة مات القلب، واستوجب عذاب الأبد.
وأما القسم الثاني: - وهو الذي يكون نافعا ولا يكون ضروريا- فهو كالمال في الدنيا وكسائر العلوم والمعارف في الآخرة.
وأما القسم الثالث- وهو الذي يكون ضروريا ولا يكون نافعا- فكالمضار التي لا بد منها في الدنيا: كالأمراض، والموت، والفقر، والهرم، ولا نظير لهذا القسم في الآخرة، فإن منافع الآخرة لا يلزمها شيء من المضار.
وأما القسم الرابع- وهو الذي لا يكون نافعا ولا ضروريا- فهو كالفقر في الدنيا والعذاب في الآخرة.
إذا عرفت هذا فنقول: قد ذكرنا أن النفس في الدنيا نافع وضروري فلو انقطع عن الإنسان لحظة لمات في الحال، وكذلك معرفة الله تعالى أمر لا بد منه في الآخرة فلو زالت عن القلب لحظة لمات القلب لا محالة، لكن الموت الأول أسهل من الثاني، لأنه لا يتألم في الموت الأول إلا ساعة واحدة، وأما الموت الثاني فإنه يبقى ألمه أبد الآباد، وكما أن التنفس له أثران: أحدهما: إدخال النسيم الطيب على القلب وإبقاء اعتداله وسلامته، والثاني: إخراج الهواء الفاسد الحار المحترق عن القلب، كذلك الفكر له أثران: أحدهما: إيصال نسيم الحجة والبرهان إلى القلب وإبقاء اعتدال الإيمان والمعرفة عليه، والثاني: إخراج الهواء الفاسد المتولد من الشبهات عن القلب، وما ذاك إلا بأن يعرف أن هذه المحسوسات متناهية في مقاديرها منتهية بالآخرة

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣١/١

إلى الفناء بعد وجودها، فمن وقف على هذه الأحوال بقي آمنا من الآفات واصلا إلى الخيرات والمسرات، وكمال هذين الأمرين ينكشف لعقلك بأن تعرف أن كل ما وجدته ووصلت إليه فهو قطرة من بحار رحمة الله، وذرة من أنوار إحسانه، فعند هذا ينفتح على قلبك معرفة كون الله تعالى رحمانا رحيما.

فإذا أردت أن تعرف هذا المعنى على التفصيل فاعلم أنك جوهر مركب من نفس، وبدن وروح، وجسد.

(أما نفسك) فلا شك أنها كانت جاهلة في مبدأ الفطرة كما قال تعالى: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون [النمل: ٧٨] ثم تأمل في مراتب القوى الحساسة والمحركة والمدركة والعاقلة، وتأمل في مراتب المعقولات وفي جهاتها، واعلم أنه لا نهاية لها البتة، ولو أن العاقل أخذ في اكتساب العلم بالمعقولات وسرى فيها سريان البرق الخاطف والريح العاصف وبقي في ذلك السير أبد الآبدين ودهر الداهرين لكان الحاصل له من المعارف والعلوم قدرا متناهيا، ولكانت المعلومات التي ما عرفها ولم يصل إليها أيضا غير متناهية، والمتناهي في جنب غير المتناهي قليل في كثير، فعند هذا يظهر له أن الذي قاله الله تعالى في قوله: وما أوتيتم من العلم إلا قليلا [الإسراء: ٨٥] حق وصدق.

(وأما بدنك) فاعلم أنه جوهر مركب من الأخلاط الأربعة، فتأمل كيفية تركيبها وتشريحها، وتعرف ما في كل واحد من الأعضاء والأجزاء من المنافع العالية والآثار الشريفة/ وحينئذ يظهر لك صدق قوله تعالى: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها [إبراهيم: ٣٤] وحينئذ ينجلي لك أثر من آثار كمال رحمته في خلقك وهدايتك، فتفهم شيئا قليلا من معنى قوله الرحمن الرحيم.." (١)

"السبب الثاني: لهذا الاسم: أن حاصل جميع الكتب الإلهية يرجع إلى أمور ثلاثة: إما الثناء على الله باللسان، وإما الاشتغال بالخدمة والطاعة، وإما طلب المكاشفات والمشاهدات، فقوله: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين كله ثناء على الله، وقوله: إياك نعبد وإياك نستعين اشتغال بالخدمة والعبودية، إلا أن الابتداء وقع بقوله: إياك نعبد وهو إشارة إلى الجد والاجتهاد في العبودية، ثم قال: وإياك نستعين وهو إشارة إلى اعتراف العبد بالعجز والذلة والمسكنة والرجوع إلى الله، وأما قوله:

اهدنا الصراط المستقيم فهو طلب للمكاشفات والمشاهدات وأنواع الهدايات.

السبب الثالث: لتسمية هذه السورة بأم الكتاب: أن المقصود من جميع العلوم: إما معرفة عزة الربوبية، أو معرفة ذلة العبودية فقوله: الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين يدل على أنه هو الإله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١/١٥٠

المستولي على كل أحوال الدنيا والآخرة، ثم من قوله: إياك نعبد وإياك نستعين إلى آخر السورة يدل على ذل العبودية، فإنه يدل على أن العبد لا يتم له شيء من الأعمال الظاهرة ولا من المكاشفات الباطنة إلا بإعانة الله تعالى وهدايته.

السبب الرابع: أن العلوم البشرية إما علم ذات الله وصفاته وأفعاله، وهو علم الأصول وإما علم أحكام الله تعالى وتكاليفه، وهو علم الفروع، وإما علم تصفية الباطن وظهور الأنوار الروحانية والمكاشفات الإلهية.

والمقصود من القرآن بيان هذه الأنواع الثلاثة، وهذه السورة الكريمة مشتملة على تقرير هذه المطالب الثلاثة على أكمل الوجوه: فقوله: الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إشارة إلى علم الأصول: لأن الدال على وجوده وجود مخلوقاته، فقوله: رب العالمين يجري مجرى الإشارة إلى أنه لا سبيل إلى معرفة وجوده إلا بكونه ربا للعالمين، وقوله: الحمد لله إشارة إلى كونه مستحقا للحمد، ولا يكون مستحقا للحمد إلا إذا كان قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات، ثم وصفه بنهاية الرحمة- وهو كونه رحمانا رحيما- ثم وصفه بكمال القدرة- وهو قوله مالك يوم الدين- حيث لا يهمل أمر المظلومين، بل يستوفي حقوقهم من الظالمين، وعند هذا تم الكلام في معرفة الذات والصفات وهو علم الأصول، ثم شرع بعده في تقرير علم الفروع، وهو الاشتغال بالخدمة والعبودية، وهو قول: إياك نعبد ثم مزجه أيضا بعلم الأصول مرة أخرى، وهو أن أداء وظائف العبودية لا يكمل إلا بإعانة الربوبية، ثم شرع بعده في بيان درجات المكاشفات وهي على كثرتها محصورة في أمور ثلاثة: أولها: حصول هداية النور في القلب، وهو المراد من قوله تعالى: اهدنا الصراط المستقيم، وثانيها: أن يتجلى له درجات الأبرار المطهرين من الذين أنعم الله عليهم بالجلايا القدسية والجواذب الإلهية، حتى تصير تلك الأرواح القدسية كالمرايا المجلوة فيعكس الشعاع من كل واحدة منها إلى الأخرى، وهو قوله: صراط الذين/ أنعمت عليهم، وثالثها: أن تبقى مصونة معصومة عن أوضار الشهوات، وهو قوله: غير المغضوب عليهم وعن أوزار الشبهات، وهو قوله:

ولا الضالين فثبت أن هذه السورة مشتملة على هذه الأسرار العالية التي هي أشرف المطالب، فلهذا السبب سميت بأم الكتاب كما أن الدماغ يسمى أم الرأس لاشتماله على جميع الحواس **والمنافع**.

السبب الخامس: قال الثعلبي: سمعت أبا القاسم بن حبيب، قال: سمعت أبا بكر القفال قال: سمعت أبا بكر بن دريد يقول: الأم في كلام العرب الراية التي ينصبها العسكر، قال قيس بن الحطيم: -." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١/١٥٧

"يصل إليه من عالم الغيب، وهو قوله: وإياك نستعين وثالثها: أنه يشاهد عالم الشهادة معزولا بالكلية، ويكون الأمر كله لله، وحينئذ يقول: اهدنا الصراط المستقيم.

ثم إن هاهنا دقيقة، وهي أن الروح الواحد يكون أضعف قوة من الأرواح الكثيرة المجتمعة على تحصيل مطلوب واحد، فحينئذ علم العبد أن روحه وحده لا يكفي في طلب هذا المقصود، فعند هذا أدخل روحه في زمرة الأرواح المقدسة المطهرة المتوجهة إلى طلب المكاشفات الروحانية والأنوار الربانية، حتى إذا اتصل بها وانخرط في سلكها صار الطلب أقوى والاستعداد أتم، فحينئذ يفوز في تلك الجمعية بما لا يقدر على الفوز به حال الوحدة، فلهذا قال: صراط الذين أنعمت عليهم.

ثم لما بين أن الاتصال بالأرواح المطهرة يوجب مزيد القوة والاستعداد، بين أيضا أن/ الاتصال بالأرواح الخبيثة يوجب الخيبة والخسران والخذلان والحرمان، فلهذا قال: غير المغضوب عليهم وهم الفساق ولا الضالين وهم الكفار.

ولما تمت هذه الدرجات الثلاث وكملت هذه المقامات الثلاثة- أعني الشريعة المدلول عليها بقوله: إياك نعبد، والطريقة المدلول عليها بقوله: وإياك نستعين، والحقيقة المدلول عليها بقوله: اهدنا الصراط المستقيم- ثم لما حصل الاستعداد بالاتصال بأرباب الصفاء والاستكمال بسبب المباعدة عن أرباب الجفاء والشقاء، فعند هذا كملت المعارج البشرية والكمالات الإنسانية.

المسألة الثالثة: في تقرير مشرع آخر من لطائف هذه السورة، اعلم أن الإنسان خلق محتاجا إلى جر الخيرات واللذات، ودفع المكروهات والمخافات، ثم إن هذا العالم عالم الأسباب فلا يمكنه تحصيل الخيرات واللذات إلا بواسطة أسباب معينة، ولا يمكنه دفع الآفات والمخافات إلا بواسطة أسباب معينة، ولما كان جلب النفع ودفع الضرر محبوبا بالذات، وكان استقراء أحوال هذا العالم يدل على أنه لا يمكن تحصيل الخير ولا دفع الشر إلا بتلك الأسباب المعينة، ثم تقرر في العقول أن ما لا يمكن الوصول إلى المحبوب إلا بواسطته فهو محبوب- صار هذا المعنى سببا لوقوع الحب الشديد لهذه الأسباب الظاهرة، وإذا علم أنه لا يمكنه الوصول إلى الخيرات واللذات إلا بواسطة خدمة الأمير والوزير والأعوان والأنصار بقي الإنسان متعلق القلب بهذه الأشياء، شديد الحب لها، عظيم الميل والرغبة إليها، ثم قد ثبت في العلوم الحكمية أن كثرة الأفعال سبب لحدوث الملكات الراسخة وثبت أيضا أن حب التشبه غالب على طباع الخلق. أما الأول فكل من واظب على صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف مدة مديدة صارت تلك الحرفة والصناعة ملكة راسخة قوية وكلما كانت المواظبة عليها أكثر كانت الملكة أقوى وأرسخ. وأما الثاني فهو

أن الإنسان إذا جالس الفساق مال طبعه إلى الفسق، وما ذاك إلا لأن الأرواح جبلت على حب المحاكاة وإذا عرفت هذا فنقول: إنا بينا أن استقراء حال الدني ا يوجب تعلق القلب بهذه الأسباب الظاهرة التي بها يمكن التوسل إلى جر **المنافع** ودفع المضار، وبينا أنه كلما كانت مواظبة الإنسان عليها أكثر كان استحكام هذا الميل والطلب في قلبه أقوى وأثبت، وأيضا فأكثر أهل الدنيا موصوفون بهذه الصفة مواظبون على هذه الحالة. وبينا أن النفوس مجبولة على حب المحاكاة وذلك أيضا يوجب استحكام هذه الحالة. فقد ظهر بالبينات التي ذكرناها أن الأسباب/ الموجبة لحب الدنيا والمرغبة في التعلق بأسبابها كثيرة قوية شديدة جدا ثم نقول: إنه إذا اتفق للإنسان هداية إلهية تهديه إلى سواء السبيل وقع في." (١)

"[النحل: ٥٣] والحمد لا معنى له إلا الثناء على الإنعام فلما كان لا إنعام إلا من الله تعالى، وجب القطع بأن أحدا لا يستحق الحمد إلا الله تعالى ورابعها: النعمة لا تكون كاملة إلا عند اجتماع أمور ثلاثة: أحدها: أن تكون منفعة، والانتفاع بالشيء مشروط بكونه حيا مدركا، وكونه حيا مدركا لا يحصل إلا بإيجاد الله تعالى وثانيها: أن المنفعة لا تكون نعمة كاملة إلا إذا كانت خالية عن شوائب الضرر والغم، وإخلاء **المنافع** عن شوائب الضرر لا يحصل إلا من الله تعالى. وثالثها: أن المنفعة لا تكون نعمة كاملة إلا إذا كانت آمنة من خوف الانقطاع، وهذا الأمر لا يحصل إلا من الله تعالى، إذا ثبت هذا فالنعمة الكاملة لا تحصل إلا من الله تعالى، فوجب أن لا يستحق الحمد الكامل إلا الله تعالى، فثبت بهذه البراهين صحة قوله تعالى الحمد لله.

الفائدة السابعة: قد عرفت أن الحمد عبارة عن مدح الغير بسبب كونه منعم ا متفضلا، وما لم يحصل شعور الإنسان بوصول النعمة إليه امتنع تكليفه بالحمد والشكر، إذا عرفت هذا فنقول: وجب كون الإنسان عاجزا عن حمد الله وشكره ويدل عليه وجوه: - الأول: أن نعم الله على الإنسان كثيرة لا يقوى عقل الإنسان على الوقوف عليها، كما قال تعالى: إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها [إبراهيم: ٣٤ النحل: ١٨] إذا امتنع وقوف الإنسان عليها امتنع اقتداره على الحمد والشكر والثناء اللائق بها.

الثاني: أن الإنسان إنما يمكنه القيام بحمد الله وشكره إذا أقدره الله تعالى على ذلك الحمد والشكر وإذا خلق في قلبه داعية إلى فعل ذلك الحمد، والشكر، وإذا زال عنه العوائق والحوائل، فكل ذلك إنعام من الله تعالى، فعلى هذا لا يمكنه القيام بشكر الله تعالى إلا بواسطة نعم عظيمة من الله تعالى عليه، وتلك النعم أيضا توجب الشكر، وعلى هذا التقدير: فالعبد لا يمكنه الإتيان بالشكر والحمد إلا عند الإتيان به مرارا لا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦٦/١

نهاية لها، وذلك محال، والموقوف على المحال محال، فكان الإنسان يمتنع منه الإتيان بحمد الله وبشكره على ما يليق به، الثالث: أن الحمد والشكر ليس معناه مجرد قول القائل بلسانه الحمد لله، بل معناه علم المنعم عليه بكون المنعم موصوفا بصفات الكمال والجلال وكل ما خطر ببال الإنسان من صفات الكمال والجلال فكمال الله وجلاله أعلى وأعظم من ذلك المتخيل والمتصور، وإذا كان كذلك امتنع كون الإنسان آتيا بحمد الله وشكره وبالثناء عليه. الرابع: أن الاشتغال بالحمد والشكر معناه أن المنعم عليه يقابل الإنعام الصادر من المنعم بشكر نفسه وبحمد نفسه وذلك بعيد لوجوه: أحدها: أن نعم الله كثيرة لا حد لها فمقابلتها بهذا الاعتقاد الواحد وبهذه اللفظة الواحدة في غاية البعد، وثانيها: أن من اعتقد أن حمده وشكره يساوي نعم الله تعالى فقد أشرك، وهذا معنى قول الواسطي الشكر شرك، وثالثها: أن الإنسان محتاج إلى إنعام الله في ذاته وفي صفاته وفي أحواله، والله تعالى غني عن شكر الشاكرين وحمد الحامدين، فكيف يمكن مقابلة نعم الله بهذا الشكر وبهذا الحمد، فثبت بهذه الوجوه أن العبد عاجز عن الإتيان بحمد الله وبشكره فلهذه الدقيقة لم يقل احمدوا الله، بل قال الحمد لله لأنه لو قال احمدوا الله فقد كلفهم ما لا طاقة لهم به، أما لما قال الحمد لله كان المعنى أن كمال الحمد حقه وملكه، سواء قدر الخلق على الإتيان به أو لم يقدروا عليه،

ونقل أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك لا يتم إلا بإنعامك علي وهو أن توفقني لذلك الشكر؟ فقال: يا داود لما علمت عجزك عن شكري/ فقد شكرتني بحسب قدرتك وطاقتك.." (١)

"أبي حنيفة، ألا ترى أن الجمع بين الطلقات حرام على قوله، ثم إنه يقع، وكذا النهي عن بيع الدرهم بالدرهمين لم يمنع من انعقاد هذا العقد، وكذا القول في جميع المبايعات الفاسدة، فثبت أن الاستدلال بالنهي على الفساد لا يستقيم على قوله.

فإن قالوا: وهذا يلزمكم أيضا لأن الطلاق في زمان الحيض وفي طهر جامعها فيه منهي عنه، ثم إنه يقع.

قلنا: بين الصورتين فرق دقيق لطيف ذكرناه في الخلافيات، فمن أراده فليطلب ذلك الكتاب فثبت أن الجمع باطل. وأما أن التعيين أيضا باطل، فلأن الترجيح من غير مرجح باطل، وأما أن التخيير أيضا باطل، فلأن القول بالتخيير يقتضي حصول العقد وبقاءه إلى أوان التعيين. وقد بينا بطلانه، فلم يبق إلا القول بفساد العقدين جميعا.

الصورة الثانية: من صور الجمع: وهي أن يتزوج إحداهما، ثم يتزوج الأخرى بعدها، فههنا يحكم ببطلان

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١/١٩٣

نكاح الثانية، لأن الدفع أسهل من الرفع، وأما الجمع بين الأختين بملك اليمين، أو بأن ينكح إحداهما ويشتري الأخرى، فقد اختلفت الصحابة فيه،

فقال علي وعمرو وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عمر: لا يجوز الجمع بينهما:

والباقون جوزوا ذلك. أما الأولون فقد احتجوا على قولهم بأن ظاهر الآية يقتضي تحريم الجمع بين الأختين مطلقا، فوجب أن يحرم الجمع بينهما على جميع الوجوه وعن عثمان أنه قال: أحلتهما آية وحرمتهما آية، والتحليل أولى، فالآية الموجبة للتحليل هي قوله: والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم [النساء: ٢٤] وقوله: إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم [المؤمنون: ٦] .

والجواب عنه من وجهين: الأول: أن هذه الآيات دالة على تحريم الجمع أيضا، لأن المسلمين أجمعوا على أنه لا يجوز الجمع بين الأختين في حل الوطء، فنقول: لو جاز الجمع بينهما في الملك لجاز الجمع بينهما في الوطء لقوله تعالى: والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم [المعارج: ٢٩، ٣٠] ، لكنه لا يجوز الجمع بينهما في الملك، فثبت أن هذه الآية بأن تكون دالة على تحريم الجمع بينهما في الملك، أولى من أن تكون دالة على الجواز.

الوجه الثاني: إن سلمنا دلالتها على جواز الجمع، لكن نقول: الترجيح لجانب الحرمة، ويدل عليه وجوه: الأول:

قوله عليه الصلاة والسلام: «ما اجتمع الحرام والحلال إلا وغلب الحرام الحلال»

الثاني: أنه لا شك أن الاحتياط في جانب الترك فيجب، لقوله عليه الصلاة والسلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» الثالث:

أن مبنى الأبضاع في الأصل على الحرمة، بدليل أنه إذا استوت الأمارات في حصول العقد مع شرائطه وفي عدمه وجب القول بالحرمة، ولأن النكاح مشتمل على/ **المنافع** العظيمة، فلو كان خاليا عن جهة الإذلال والضرر، لوجب أن يكون مشروعا في حق الأمهات لأن إيصال النفع إليهن مندوب لقوله تعالى: وبالوالدين إحسانا [البقرة: ٨٣] ولما كان ذلك محرما علمنا اشتماله على وجه الإذلال والمضارة، وإذا كان كذلك كان الأصل فيه هو الحرمة، والحل إنما ثبت بالعارض، وإذا ثبت هذا ظهر أن الرجحان لجانب الحرمة، فهذا هو تقرير مذهب علي رضي الله عنه في هذا الباب. أما إذا أخذنا بالمذهب المشهور بين الفقهاء،

وهو أنه يجوز الجمع بين أمتين أختين في ملك اليمين، فإذا وطئ إحداهما حرمت الثانية، ولا تزول هذه الحرمة ما لم يزل ملكه عن الأولى ببيع أو هبة أو عتق أو كتابة أو تزويج.." (١)

"قلنا: التقدير: وأحل لكم ما وراء ذلكم لا رادة أن تبتغوهن، أي تبتغوا ما وراء ذلكم، فحذف ذكره لدلالة ما قبله عليه والله أعلم.

المسألة الثانية: قال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا مهر أقل من عشرة دراهم، وقال الشافعي رضي الله عنه: يجوز بالقليل والكثير ولا تقدير فيه. احتج أبو حنيفة بهذه الآية، وذلك لأنه تعالى قيد التحليل بقيد، وهو الابتغاء بأموالهم، والدرهم والدرهمان لا يسمى أموالا، فوجب أن لا يصح جعلها مهرا.

فإن قيل: ومن عنده عشرة دراهم لا يقال عنده أموال، مع أنكم تجوزون كونها مهرا.

قلنا: ظاهر هذه الآية يقتضي أن لا تكون العشرة كافية، إلا أنا تركنا العمل بظاهر الآية في هذه الصورة لدلالة الإجماع على جوازه، فتمسك في الأقل من العشرة بظاهر الآية.

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف، لأن الآية دالة على أن الابتغاء بالأموال جائز، وليس فيها دلالة على أن الابتغاء بغير الأموال لا يجوز، إلا على سبيل المفهوم، وأنتم لا تقولون به. ثم نقول: الذي يدل على أنه لا تقدير في المهر وجوه:

الحجة الأولى: التمسك بهذه الآية، وذلك لأن قوله: بأموالكم مقابلة الجمع بالجمع، فيقتضي توزع الفرد على الفرد، فهذا يقتضي أن يتمكن كل واحد من ابتغاء النكاح بما يسمى مالا، والقليل والكثير في هذه الحقيقة وفي هذا الاسم سواء، فيلزم من هذه الآية جواز ابتغاء النكاح بأي شيء يسمى مالا من غير تقدير.

الحجة الثانية: التمسك بقوله تعالى: وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم [البقرة: ٢٣٧] دلت الآية على سقوط النصف عن المذكور، وهذا يقتضي أنه لو وقع العقد في أول الأمر بدرهم أن لا يجب عليه إلا نصف درهم، وأنتم لا تقولون به.

الحجة الثالثة: الأحاديث: منها ما

روي أن امرأة جيء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد تزوج بها رجل على نعلين، فقال عليه الصلاة والسلام: «رضيت من نفسك بنعلين» فقالت: نعم فأجازه النبي صلى الله عليه وسلم،

والظاهر أن قيمة النعلين تكون أقل من عشرة دراهم، فإن مثل هذا الرجل والمرأة اللذين لا يكون تزوجهما إلا على النعلين يكونان في غاية الفقر، ونعل هذا الإنسان يكون قليل القيمة جدا. ومنها ما

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١/١٠

روي عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من أعطى امرأة في نكاح كف دقيق أو سويق أو طعام فقد استحل»

ومنها ما

روي في قصة الواهبة أنه عليه الصلاة والسلام قال لمن أراد التزوج بها: «التمس ولو خاتما من حديد»

وذلك لا يساوي عشرة دراهم.

المسألة الثالثة: قال أبو حنيفة رضي الله عنه: لو تزوج بها على تعليم سورة من القرآن لم يكن ذلك مهرا ولها مهر مثلها، ثم قال: إذا تزوج امرأة على خدمته سنة، فإن كان حرا لها مهر مثلها، وإن كان عبدا فلها خدمة سنة. وقال الشافعي رحمة الله عليه: يجوز جعل ذلك مهرا، احتج أبو حنيفة على قوله بوجوه: الأول: هذه الآية وذلك أنه تعالى شرط في حصول الحل أن يكون الابتغاء بالمال، والمال اسم للأعيان لا للمنافع، الثاني: قال تعالى: فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا [النساء: ٤] وذلك صفة الأعيان.

أجاب الشافعي عن الأول بأن الآية تدل على أن الابتغاء بالمال جائز، وليس فيه بيان أن الابتغاء بغير المال جائز أم لا، وعن الثاني: أن لفظ الإيتاء كما يتناول الأعيان يتناول **المنافع** الملتزمة، وعن الثالث: أنه خرج." (١)

"الخطاب على الأعم الأغلب، ثم احتج الشافعي رضي الله عنه على جواز جعل المنفعة صداقا لوجوه:

الحجة الأولى: قوله تعالى في قصة شعيب: إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج [القصص: ٢٧] جعل الصداق تلك **المنافع** والأصل في شرع من تقدمنا البقاء إلى أن يطرأ الناسخ.

الحجة الثانية: أن التي وهبت نفسها،

لما لم يجد الرجل الذي أراد أن يتزوج بها شيئا، قال عليه الصلاة والسلام: «هل معك شيء من القرآن قال نعم سورة كذا، قال زوجتكها بما معك من/ القرآن»

والله أعلم.

المسألة الرابعة: قال أبو بكر الرازي: دلت الآية على أن عتق الأمة لا يكون صداقا لها، لأن الآية تقتضي كون البضع مالا، وما

روي أنه عليه السلام أعتق صفية وجعل عتقها صداقها،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٠/٣٩

فذاك من خواص الرسول عليه السلام.

المسألة الخامسة: قوله: محصنين فيه وجهان: أحدهما: أن يكون المراد أنهم يصيرون محصنين بسبب عقد النكاح، والثاني: أن يكون الإحصان شرطا في الإحلال المذكور في قوله: وأحل لكم ما وراء ذلكم والأول أولى، لأن على هذا التقدير تبقى الآية عامة معلومة المعنى، وعلى هذا التقدير الثاني تكون الآية مجملة، لأن الإحصان المذكور فيه غير مبين، والمعلق على المجمل يكون مجملا، وحمل الآية على وجه يكون معلوما أولى من حملها على وجه يكون مجملا.

قوله تعالى: فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة.

فيه مسائل:

المسألة الأولى: الاستمتاع في اللغة الانتفاع، وكل ما انتفع به فهو متاع، يقال: استمتع الرجل بولده، ويقال فيمن مات في زمان شبابه: لم يتمتع بشبابه. قال تعالى: ربنا استمتع بعضنا ببعض [الأنعام: ١٢٨] وقال: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها [الأحقاف: ٢٠] يعني تعجلتم الانتفاع بها، وقال: فاستمتعتم بخلاقكم [التوبة: ٦٩] يعني بحظكم ونصيبكم من الدنيا. وفي قوله: فما استمتعتم به منهن وجهان: الأول: فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع أو عقد عليهن، فآتوهن أجورهن عليه، ثم أسقط الراجع إلى «ما» لعدم الالتباس كقوله: إن ذلك لمن عزم الأمور [الشورى: ٤٣] فأسقط منه. والثاني: أن يكون «ما» في قوله: ما وراء ذلكم بمعنى النساء و «من» في قوله: منهن للتبعيض، والضمير في قوله: به راجع إلى لفظ ما لأنه واحد في اللفظ، وفي قوله: فآتوهن أجورهن إلى معنى «ما» لأنه جمع في المعنى، وقوله: أجورهن أي مهورهن، قال تعالى: ومن لم يستطع منكم طولا إلى قوله: فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن [النساء: ٢٥] وهي المهور، وكذا قوله: فآتوهن أجورهن هاهنا، وقال تعالى في آية أخرى: لا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن [الممتحنة: ١٠] وإنما سمي المهر أجرا لأنه بدل **المنافع**، وليس ببدل من الأعيان، كما سمي بدل منافع الدار والدابة أجرا والله أعلم.

المسألة الثانية: قال الشافعي: الخلوة الصحيحة لا تقرر المهر. وقال أبو حنيفة تقرره. واحتج الشافعي على قوله بهذه الآية لأن قوله: فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن مشعر بأن وجوب إيتائهن مهورهن." (١)

"ثم قال تعالى: وآتوهن أجورهن بالمعروف وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في تفسير الآية قولان: الأول: أن المراد من الأجور: المهور، وعلى هذا التقدير فالآية تدل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٠/٤٠

على وجوب مهرها إذا نكحها، سمى لها المهر أو لم يسم، لأنه تعالى لم يفرق بين من سمى، وبين من لم يسم في إيجاب المهر، ويدل على أنه قد أراد مهر المثل قوله تعالى: بالمعروف وهذا إنما يطلق فيما كان مبنيا على الاجتهاد وغالب الظن في المعتاد والمتعارف كقوله تعالى: وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف [البقرة: ٣٣] الثاني: قال القاضي: إن المراد من أجورهن النفقة عليهن، قال هذا القائل: وهذا أولى من الأول، لأن المهر مقدر، ولا معنى لاشتراط المعروف فيه، فكأنه تعالى بين أن كونها أمة لا يقدح في وجوب نفقتها وكفايتها كما في حق الحرة إذا حصلت التخلية من المولى بينه وبينها على العادة، ثم قال القاضي: اللفظ وإن كان يحتمل ما ذكرناه فأكثر المفسرين يحملونه على المهر، وحملوا قوله: بالمعروف على إيصال المهر إليها على العادة الجميلة عند المطالبة من غير مطل وتأخير.

المسألة الثانية: نقل أبو بكر الرازي في أحكام القرآن عن بعض أصحاب مالك أن الأمة هي المستحقة لقبض مهرها، وأن المولى إذا آجرها للخدمة كان المولى هو المستحق للأجر دونها وهؤلاء احتجوا في المهر بهذه الآية، وهو قوله: وآتوهن أجورهن وأما الجمهور فإنهم احتجوا على أن مهرها لمولاها بالنص والقياس، أما النص فقوله تعالى: ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء [النحل: ٧٥] وهذا ينفي كون المملوك مالكا لشيء أصلا، وأما القياس فهو أن المهر وجب عوضا عن منافع البضع، وتلك **المنافع** مملوكة للسيد، وهو الذي أباحها للزوج بقيد النكاح، فوجب أن/ يكون هو المستحق لبدلها.

والجواب عن تمسكهم بالآية من وجوه: الأول: أنا إذا حملنا لفظ الأجور في الآية على النفقة زال السؤال بالكلية. الثاني: أنه تعالى إنما أضاف إيتاء المهور إليهن لأنه ثمن بضعهن وليس في قوله: وآتوهن ما يوجب كون المهر ملكا لهن،

ولكنه عليه الصلاة والسلام قال: «العبد وما في يده لمولاه»

فيصير ذلك المهر ملكا للمولى بهذه الطريق والله أعلم.

ثم قال تعالى: محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: محصنات أي عفائف، وهو حال من قوله: فانكحوهن بإذن أهلهن، فظاهر هذا يوجب حرمة نكاح الزواني من الإماء، واختلف الناس في أن نكاح الزواني هل يجوز أم لا؟ وسنذكره في قوله: الزاني لا ينكح إلا زانية [النور: ٣] والأكثرون على أنه يجوز فتكون هذه الآية محمولة على الندب والاستحباب وقوله: غير مسافحات أي غير زوان ولا متخذات أخدان جمع خدن، كالأتراب جمع ترب، والخدن الذي يخادنك وهو الذي يكون معك في كل أمر ظاهر وباطن. قال أكثر المفسرين: المسافحة

هي التي تؤاجر نفسها مع أي رجل أرادها، والتي تتخذ الخدن فهي التي تتخذ خدنا معينا، وكان أهل الجاهلية يفصلون بين القسمين، وما كانوا يحكمون على ذات الخدن بكونها زانية، فلما كان هذا الفرق معتبرا عندهم لا جرم أن الله سبحانه أفرد كل واحد من هذين القسمين بالذكر، ونص على حرمتها معا، ونظيره أيضا قوله تعالى: قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن [الأعراف: ٣٣] .." (١)

"غير مضمونة. وعن بعض السلف أنها مضمونة، روى الشعبي عن أنس قال: استحملني رجل بضاعة فضاعت من بين ثيابي، فضمنني عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وعن أنس قال: كان لإنسان عندي وديعة ستة آلاف درهم فذهبت، فقال عمر: ذهب لك معها شيء؟ قلت لا، فألزمني الضمان، وحجة القول المشهور ما

روى عمرو بن شعيب عن أبيه قال: قال رسول/ الله صلى الله عليه وسلم: «لا ضمان على راع ولا على مؤتمن»

وأما فعل عمر فهو محمول على أن المودع اعترف بفعل يوجب الضمان.

المسألة الخامسة: قال الشافعي رضي الله تعالى عنه: العارية مضمونة بعد الهلاك، وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: غير مضمونة. حجة الشافعي قوله تعالى: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وظاهر الأمر للوجوب، وبعد هلاكها تعذر ردها بصورتها، ورد ضمانها ردها بمعناها، فكانت الآية دالة على وجوب التضمين. ونظير هذه الآية

قوله عليه الصلاة والسلام: »على اليد ما أخذت حتى تؤديه»

أقصى ما في الباب أن الآية مخصوصة في الوديعة، لكن العام بعد التخصيص حجة، وأيضا فلأنا أجمعنا على أن المستام مضمون، وأن المودع غير مضمون، والعارية وقعت في البين، فنقول: المشابهة بين العارية وبين المستام أكثر، لأن كل واحد منهما أخذه الأجنبي لغرض نفسه، بخلاف المودع، فإنه أخذ الوديعة لغرض المالك، فكانت المشابهة بين المستعار وبين المستام أتم، فظهر الفرق بين المستعار وبين المودع. حجة أبي حنيفة

قوله عليه الصلاة والسلام: «لا ضمان على مؤتمن» .

قلنا: إنه مخصوص في المستام، فكذا في العارية، ولأن دليلنا ظاهر القرآن وهو أقوى.

قوله تعالى: وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥١/١٠

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الأمانة عبارة عما إذا وجب لغيرك عليك حق فأديت ذلك الحق إليه فهذا هو الأمانة، والحكم بالحق عبارة عما إذا وجب لإنسان على غيره حق فأمرت من وجب عليه ذلك الحق بأن يدفعه إلى من له ذلك الحق، ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب **المنافع** ودفع المضار ثم يشتغل بغيره، لا جرم أنه تعالى ذكر الأمر بالأمانة أولا، ثم بعده ذكر الأمر بالحكم بالحق، فما أحسن هذا الترتيب، لأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.

المسألة الثانية: أجمعوا على أن من كان حاكما وجب عليه أن يحكم بالعدل قال تعالى: وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل والتقدير: إن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. وقال: إن الله يأمر بالعدل والإحسان [النحل: ٩٠] وقال: وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى

[الأنعام: ١٥٢] وقال:

يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق [ص: ٢٦]

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت وإذا حكمت عدلت وإذا استرحمت رحمت»

وعن الحسن قال: إن الله أخذ على الحكام ثلاثا: أن لا يتبعوا الهوى، وأن يخشوه ولا يخشوا الناس، ولا يشتروا بآياته ثمنا قليلا. ثم قرأ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض إلى قوله: ولا تتبع الهوى [ص: ٢٦] وقرأ إنا أنزلنا التوراة فيها." (١)

"ذلك فإنه تعالى كلفهم، فكل ما تجعله جوابا عن هذا فهو جوابنا عما ذكرت.

ثم قال تعالى: ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما.

اعلم أن المراد من قوله: ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به أنهم لو فعلوا ما كلفوا به وأمروا به، وإنما سمي هذا التكليف والأمر وعظا، لأن تكاليف الله تعالى مقرونة بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والثواب والعقاب، وما كان كذلك فإنه يسمى وعظا، ثم إنه تعالى بين أنهم لو التزموا هذه التكاليف لحصلت لهم أنواع من **المنافع**.

فالنوع الأول: قوله: لكان خيرا لهم فيحتمل أن يكون المعنى أنه يحصل لهم خير الدنيا والآخرة، ويحتمل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١١٠/١٠

أن يكون المعنى المبالغة والترجيح، وهو أن ذلك أنفع لهم وأفضل من غيره، لأن قولنا: «خير» يستعمل على الوجهين جميعا.

النوع الثاني: قوله: وأشد تثبيتا وفيه وجوه: الأول: أن المراد أن هذا أقرب إلى ثباتهم عليه واستمرارهم، لأن الطاعة تدعو إلى أمثالها، والواقع منها في وقت يدعو إلى المواظبة عليه. الثاني: أن يكون أثبت وأبقى لأنه حق والحق ثابت باق، والباطل زائل. الثالث: أن الإنسان يطلب أولا تحصيل الخير، فإذا حصله فإنه يطلب أن يصير ذلك الحاصل باقيا ثابتا، فقوله: لكان خيرا لهم إشارة إلى الحالة الأولى، وقوله: وأشد تثبيتا إشارة إلى الحالة الثانية.

النوع الثالث: قوله تعالى: وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما.

واعلم أنه تعالى لما بين أن هذا الإخلاص في الإيمان خير مما يريدونه من النفاق وأكثر ثباتا وبقاء، بين أنه كما أنه في نفسه خير فهو أيضا مستعقب الخيرات العظيمة وهو الأجر العظيم والثواب العظيم. قال صاحب «الكشاف» : و «إذا» جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا يكون من هذا الخير والتثبيت. فقيل: هو أن نؤتيهم من لدنا أجرا عظيما، كقوله: ويؤت من لدنه أجرا عظيما [النساء: ٤٠] .

وأقول: إنه تعالى جمع في هذه الآية قرائن كثيرة، كل واحدة منها تدل على عظم هذا الأجر. أحدها: أنه ذكر نفسه بصيغة العظمة وهي قوله: لآتيناهم وقوله: من لدنا والمعطي الحكيم إذا ذكر نفسه باللفظ الدال على عظمة عند الوعد بالعطية دل ذلك على عظمة تلك العطية، وثانيها: قوله: من لدنا وهذا التخصيص يدل على المبالغة، كما في قوله: وعلمناه من لدنا علما [الكهف: ٦٥] وثالثها: أن الله تعالى وصف هذا الأجر بالعظيم، والشيء الذي وصفه أعظم العظماء بالعظمة لا بد وأن يكون في نهاية الجلالة، وكيف لا يكون عظيما،

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» .

النوع الرابع: قوله: ولهديناهم صراطا مستقيما وفيه قولان: أحدهما: أن الصراط المستقيم هو الدين الحق، ونظيره قوله تعالى: وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله [الشورى: ٥٢، ٥٣] والثاني: أنه الصراط الذي هو الطريق من عرصة القيامة، وذلك لأنه تعالى ذكره بعد ذكر الثواب والأجر، والدين الحق مقدم." (١)

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣١/١٠

"الأكثرون: إن الأصل في المنافع الإباحة، وفي المضار الحرمة، سلمنا أن القياس من الشرعي داخل في الآية، لكن بشرط أن يكون ذلك القياس مفيدا للعلم بدليل قوله تعالى: لعلمه الذين يستنبطونه منهم فأخبر تعالى في هذه الآية أنه يحصل العلم/ من هذا الاستنباط، ولا نزاع في مثل هذا القياس، إنما النزاع في أن القياس الذي يفيد الظن هل هو حجة في الشرع أم لا؟ والجواب:

أما في السؤال الأول: فمدفوع لأنه لو كان المراد بالذين يستنبطونه المنافقين لكان الأولى أن يقال: ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلموه، لأن عطف المظهر على المضمر، وهو قوله: ولو ردوه قبيح مستكره.

وأما السؤال الثاني: فمدفوع لوجهين: الأول: أن قوله: وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف عام في كل ما يتعلق بالحروب وفيما يتعلق بسائر الوقائع الشرعية، لأن الأمن والخوف حاصل في كل ما يتعلق بباب التكليف، فثبت أنه ليس في الآيۃ ما يوجب تخصيصها بأمر الحروب. الثاني: هب أن الأمر كما ذكرتم لكن تعرف أحكام الحروب بالقياس الشرعي، ولما ثبت جوازه وجب أن يجوز التمسك بالقياس الشرعي في سائر الوقائع لأنه لا قائل بالفرق، ألا ترى أن من قال: القياس حجة في باب البيع لا في باب النكاح لم يلتفت اليه، فكذا هاهنا.

وأما السؤال الثالث: وهو حمل الاستنباط: على النصوص الخفية أو على تركيبات النصوص فجوابه: أن كل ذلك لا يخرج عن كونه منصوصا، والتمسك بالنص لا يسمى استنباطا. قوله: لم لا يجوز حمله على التمسك بالبراءة الأصلية؟ قلنا ليس هذا استنباطا بل هو إبقاء لما كان على ما كان، ومثل هذا لا يسمى استنباطا البتة.

وأما السؤال الرابع: وهو قوله إن هذا الاستنباط إنما يجوز عند حصول العلم، والقياس الشرعي لا يفيد العلم. قلنا: الجواب عنه من وجهين: الأول: أن القياس الشرعي عندنا يفيد العلم، وذلك لا ن بعد ثبوت أن القياس حجة نقطع بأنه مهما غلب على الظن أن حكم الله في الأصل معلل بكذا، ثم غلب على الظن أن ذلك المعنى قائم في الفرع، فههنا يحصل ظن أن حكم الله في الفرع مساو لحكمه في الأصل، وعند هذا الظن نقطع بأنه مكلف بأن يعمل على وفق هذا الظن، فالحاصل أن الظن واقع في طريق الحكم، وأما الحكم فمقطوع به، وهو يجري مجرى ما إذا قال الله: مهما غلب على ظنك كذا فاعلم أن في الواقعة الفلانية حكمي كذا فإذا حصل الظن قطعنا بثبوت ذلك الحكم. والثاني: وهو أن العلم قد يطلق ويراد به الظن، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا علمت مثل الشمس فاشهد»

شرط العلم في جواز الشهادة، وأجمعنا على أن عند الظن تجوز الشهادة، فثبت أن الظن قد يسمى بالعلم والله أعلم.

ثم قال تعالى: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن ظاهر هذا الاستثناء يوهم أن ذلك القليل وقع لا بفضل الله ولا برحمته ومعلوم أن ذلك محال. فعند هذا اختلف المفسرون وذكروا وجوها، قال بعضهم: هذا الاستثناء راجع إلى قوله: أذاعوا." (١)

"فالإشارة إليه بقوله ولآمرنهم فليغيرن خلق الله وذلك لأن التغيير يوجب بطلان الصفة الحاصلة في المدة الأولى، ومن المعلوم أن من بقي مواظبا على طلب اللذات العاجلة معرضا عن السعادات الروحانية فلا يزال يزيد في قلبه الرغبة في الدنيا والنفرة عن الآخرة، ولا تزال تتزايد هذه الأحوال إلى أن يتغير القلب بالكلية فلا يخطر بباله ذكر الآخرة البتة، ولا يزول عن خاطره حب الدنيا البتة، فتكون حركته وسكونه وقوله وفعله لأجل الدنيا، وذلك يوجب تغيير الخلقة لأن الأرواح البشرية إنما دخلت في هذا العالم الجسماني على سبيل السفر، وهي متوجهة إلى عالم القيامة، فإذا نسيت معادها وألفت هذه المحسوسات/ التي لا بد من انقضائها وفنائها كان هذا بالحقيقة تغييرا للخلقة، وهو كما قال تعالى: ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم [الحشر: ١٩] وقال فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور [الحج: ٤٦].

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الشيطان دعاويه في الإغواء والضلال حذر الناس عن متابعته فقال: ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا واعلم أن أحدا لا يختار أن يتخذ الشيطان وليا من دون الله، ولكن المعنى أنه إذا فعل ما أمره الشيطان به وترك ما أمره الرحمن به صار كأنه اتخذ الشيطان وليا لنفسه وترك ولاية الله تعالى، وإنما قال خسر خسرانا مبينا لأن طاعة الله تفيد **المنافع** العظيمة الدائمة الخالصة عن شوائب الضرر، وطاعة الشيطان تفيد **المنافع** الثلاثة المنقطعة المشوبة بالغموم والأحزان والآلام الغالبة، والجمع بينهما محال عقلا، فمن رغب في ولايته فقد فاته أشرف المطالب وأجلها بسبب أخس المطالب وأدونها، ولا شك أن هذا هو الخسار المطلق.

ثم قال تعالى: يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا واعلم أنا بينا في الآية المتقدمة أن عمدة أمر الشيطان إنما هو بإلقاء الأماني في القلب، وأما تبتيك الآذان وتغيير الخلقة فذاك من نتائج إلقاء الأماني في القلب ومن آثاره، فلا جرم نبه الله تعالى على ما هو العمدة في دفع تلك الأماني وهو أن تلك الأماني

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٠/١٥٥

لا تفيد إلا الغرور، والغرور هو أن يظن الإنسان بالشيء أنه نافع ولذيذ، ثم يتبين اشتماله على أعظم الآلام والمضار، وجميع أحوال الدنيا كذلك، والعاقل يجب عليه أن لا يلتفت إلى شيء منها، ومثال هذا أن الشيطان يلقي في قلب الإنسان أنه سيطول عمره وينال من الدنيا أمله ومقصوده، ويستولي على أعدائه، ويقع في قلبه أن الدنيا دول فربما تيسرت له كما تيسرت لغيره، إلا أن كل ذلك غرور فإنه لا بد وأن يكون عند الموت في أعظم أنواع الغم والحسرة فإن المطلوب كلما كان ألذ وأشهى وكان الإلف معه أدوم وأبقى كانت مفارقته أشد إيلاما وأعظم تأثيرا في حصول الغم والحسرة، فظهر أن هذه الآية منبهة على ما هو العمدة والقاعدة في هذا الباب.

وفي الآية وجه آخر: وهو أن الشيطان يعدهم بأنه لا قيامة ولا جزاء فاجتهدوا في استيفاء اللذات الدنيوية.

ثم قال تعالى: أولئك مأواهم جهنم واعلم أنا ذكرنا أن الغرور عبارة عن الحالة التي تحصل للإنسان عند وجدان ما يستحسن ظاهره إلا أنه يعظم تأذيه عند انكشاف الحال فيه، والاستغراق/ في طيبات الدنيا والانهماك في معاصي الله سبحانه وإن كان في الحال لذيذا إلا أن عاقبته عذاب جهنم وسخط الله والبعد عن رحمته، فكان هذا المعنى مما يقوي ما تقدم ذكره من أنه ليس إلا الغرور.

ثم قال تعالى: ولا يجدون عنها محيصا المحيص المعدل والمفر. قال الواحدي رحمه الله: هذه الآية." (١)

"فإن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن شرع محمد عليه الصلاة والسلام نفس شرع إبراهيم، وعلى هذا التقدير لم يكن محمد عليه الصلاة والسلام صاحب شريعة مستقلة، وأنتم لا تقولون بذلك.

قلنا: يجوز أن تكون ملة إبراهيم داخلة في ملة محمد عليه الصلاة والسلام مع اشتمال هذه الملة على زوائد حسنة وفوائد جليلة.

ثم قال تعالى: واتخذ الله إبراهيم خليلا وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تعلق هذه الآية بما قبلها، وفيه وجهان: الأول: أن إبراهيم عليه السلام/ لما بلغ في علو الدرجة في الدين أن اتخذه الله خليلا كان جديرا بأن يتبع خلقه وطريقته. والثاني: أنه لما ذكر ملة إبراهيم ووصفه بكونه حنيفا ثم قال عقيبه واتخذ الله إبراهيم خليلا أشعر هذا بأنه سبحانه إنما اتخذه خليلا لأنه كان عالما بذلك الشرع آتيا بتلك التكاليف، ومما يؤكد هذا قوله وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما [البقرة: ١٢٤] وهذا يدل على أنه سبحانه إنما جعله إماما للخلق لأنه أتم تلك الكلمات.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢٤/١١

وإذا ثبت هذا فنقول: لما دلت الآية على أن إبراهيم عليه السلام إنما كان بهذا المنصب العالي وهو كونه خليلا لله تعالى بسبب أنه كان عاملا بتلك الشريعة كان هذا تنبيها على أن من عمل بهذا الشرع لا بد وأن يفوز بأعظم المناصب في الدين، وذلك يفيد الترغيب العظيم في هذا الدين.

فإن قيل: ما موقع قوله واتخذ الله إبراهيم خليلا.

قلنا: هذه الجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب، ونظيره ما جاء في الشعر من قوله:

والحوادث جمة والجملة الاعتراضية من شأنها تأكيد ذلك الكلام، والأمر هاهنا كذلك على ما بيناه.

المسألة الثانية: ذكروا في اشتقاق الخليل وجوها: الأول: أن خليل الإنسان هو الذي يدخل في خلال أموره وأسراره، والذي دخل حبه في خلال أجزاء قلبه، ولا شك أن ذلك هو الغاية في المحبة.

قيل: لما أطلع الله إبراهيم عليه السلام على الملكوت الأعلى والأسفل ودعا القوم مرة بعد أخرى إلى توحيد الله، ومنعهم عن عبادة النجم والقمر والشمس، ومنعهم عن عبادة الأوثان ثم سلم نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان جعله الله إماما للخلق ورسولا إليهم، وبشره بأن الملك والنبوة في ذريته، فلهذه الاختصاصات سماه خليلا، لأن محبة الله لعبده عبارة عن إرادته لإيصال الخيرات **والمنافع** إليه.

الوجه الثاني في اشتقاق اسم الخليل: أنه الذي يوافقك في خلالك. أقول:

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تخلقوا بأخلاق الله»

فيشبه أن إبراهيم عليه السلام لما بلغ في هذا الباب مبلغا لم يبلغه أحد ممن تقدم لا جرم خصه الله بهذا التشريف.

الوجه الثالث: قال صاحب «الكشاف» : إن الخليل هو الذي يسايرك في طريقك، من الخل وهو الطريق في الرمل، وهذا الوجه قريب من الوجه الثاني، أو يحمل ذلك على شدة طاعته لله وعدم تمرده في ظاهره وباطنه عن حكم الله، كما أخبر الله عنه بقوله إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت/ لرب العالمين [البقرة: ١٣١] .." (١)

"[سورة النساء (٤) : آية ١٤٦]

إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما (١٤٦)

واعلم أن هذه الآية فيها تغليظات عظيمة على المنافقين، وذلك لأنه تعالى شرط في إزالة العقاب عنهم أمورا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣٠/١١

أربعة: أولها: التوبة، وثانيها: إصلاح العمل، فالتوبة عن القبيح، وإصلاح العمل عبارة عن الإقدام على الحسن، وثالثها: الاعتصام بالله، وهو أن يكون غرضه من التوبة وإصلاح العمل طلب مرضاة الله تعالى لا طلب مصلحة الوقت، لأنه لو كان مطلوبه جلب المنافع ودفع المضار لتغير عن التوبة وإصلاح العمل سريعا، أما إذا كان مطلوبه مرضاة الله تعالى وسعادة الآخرة والاعتصام بدين الله بقي على هذه الطريقة ولم يتغير عنها. ورابعها: الإخلاص، والسبب فيه أنه تعالى أمرهم الأول: بترك القبيح، وثانيا: بفعل الحسن، وثالثا: أن يكون غرضهم في ذلك الترك والفعل طلب مرضاة الله تعالى، ورابعا: أن يكون ذلك الغرض وهو طلب مرضاة الله تعالى خالصا وأن لا يمتزج به غرض آخر، فإذا حصلت هذه الشرائط الأربعة فعند ذلك قال: فأولئك مع المؤمنين ولم يقل فأولئك مؤمنون، ثم أوقع أجر المؤمنين في التشريف لانضمام المنافقين إليهم، فقال:

وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما وهذه القرائن دالة على أن حال المنافق شديد عند الله تعالى.

[سورة النساء (٤) : آية ١٤٧]

ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما (١٤٧)

فيه مسائل:

المسألة الأولى: أيعذبكم لأجل التشفي، أم لطلب النفع، أم لدفع الضرر، كل ذلك محال في حقه لأنه تعالى غني لذاته عن الحاجات، منزه عن جلب المنافع ودفع المضار، وإنما المقصود منه حمل المكلفين على فعل الحسن والاحتراز عن القبيح، فإذا أتيتم بالحسن وتركتم القبيح فكيف يليق بكرمه أن يعذبكم.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: دلت هذه الآية على قولنا، وذلك لأنها دالة على أنه سبحانه/ ما خلق خلقا لأجل التعذيب والعقاب، فإن قوله ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم صريح في أنه لم يخلق أحدا لغرض التعذيب، وأيضا الآية تدل على أن فاعل الشكر والإيمان هو العبد وليس ذلك فعلا لله تعالى، وإلا لصار التقدير: ما يفعل الله بعذابكم إذا خلق الشكر والإيمان فيكم ومعلوم أن هذا غير منتظم، وقد سبق الجواب عن هذه الكلمات.

المسألة الثالثة: قال أصحابنا: دلت هذه الآية على أنه لا يعذب صاحب الكبيرة لأنا نفرض الكلام فيمن شكر وآمن ثم أقدم على الشرب أو الزنا، فهذا وجب أن لا يعاقب بدليل قوله تعالى: ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم فإن قالوا لا نسلم أن صاحب الكبيرة مؤمن، قلنا: ذكرنا الوجوه الكثيرة في هذا الكتاب

على أنه مؤمن.
المسألة الرابعة: في تقدم الشكر على الإيمان وجهان: الأول: أنه على التقديم والتأخير، أي إن آمنتم وشكرتم، لأن الإيمان مقدم على سائر الطاعات. الثاني: إذا قلنا: الواو لا توجب الترتيب فالسؤال زائل. الثالث: أن الإنسان إذا نظر في نفسه رأى النعمة العظيمة حاصلة في تخليقها وترتيبها فيشكر شكرا مجملا، ثم." (١)

"إلا الله، فجعل كلمة التوحيد إيمانا، فإن الإيمان بها لما كان واجبا كان الإيمان من لوازمها بحسب أمر الشرع، وإطلاق اسم الشيء على لا زمه مجاز مشهور، والثالث: قال قتادة: إن ناسا من المسلمين قالوا: كيف نتزوج نساءهم مع كونهم على غير ديننا! فأنزل الله تعالى هذه الآية أي، ومن يكفر بما نزل في القرآن فهو كذا وكذا، فسمى القرآن إيمانا لأنه هو المشتمل على بيان كل ما لا بد منه في الإيمان.
المسألة الثالثة: القائلون بالإحباط قالوا: المراد بقوله ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله أي عقاب كفره يزيل ما كان حاصلا له من ثواب إيمانه، والذين ينكرون القول بالإحباط قالوا: معناه أن عمله الذي أتى به بعد ذلك الإيمان فقد هلك وضاع، فإنه إنما يأتي بتلك الأعمال بعد الإيمان لاعتقاده أنها خير من الإيمان، فإذا لم يكن الأمر كذلك بل كان ضائعا باطلا كانت تلك الأعمال باطلة في أنفسها، فهذا هو المراد من قوله فقد حبط عمله.
المسألة الرابعة: قوله تعالى: وهو في الآخرة من الخاسرين مشروط بشرط غير مذكور في الآية، وهو أن يموت على ذلك الكفر، إذ لو تاب عن الكفر لم يكن في الآخرة من الخاسرين، والدليل على أنه لا بد من هذا الشرط قوله تعالى: ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر [البقرة: ٢١٧] الآية.

[سورة المائدة (٥) : آية ٦]
يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون (٦)
ثم قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥٢/١١

برؤسكم و أرجلكم إلى الكعبين.

اعلم أنه تعالى افتتح السورة بقوله يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود [المائدة: ١] وذلك لأنه حصل بين/ الرب وبين العبد عهد الربوبية وعهد العبودية، فقوله أوفوا بالعقود طلب تعالى من عباده أن يفوا بعهد العبودية، فكأنه قيل: إلهنا العهد نوعان: عهد الربوبية منك، وعهد العبودية منا، فأنت أولى بأن تقدم الوفاء بعهد الربوبية والإحسان. فقال تعالى: نعم أنا أوفي أولا بعهد الربوبية والكرم، ومعلوم أن منافع الدنيا محصورة في نوعين: لذات المطعم، ولذات المنكح، فاستقصى سبحانه في بيان ما يحل ويحرم من المطاعم والمناكح، ولما كانت الحاجة إلى المطعوم فوق الحاجة إلى المنكوح، لا جرم قدم بيان المطعوم على المنكوح، وعند تمام هذا البيان كأنه يقول: قد وفيت بعهد الربوبية فيما يطلب في الدنيا من **المنافع** واللذات، فاشتغل أنت في الدنيا بالوفاء بعهد العبودية ولما كان أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة، وكانت الصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة، لا جرم بدأ تعالى بذكر شرائط الوضوء فقال يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وفي الآية مسائل:." (١)

"كونه مريدا، فقال الحسن النجار: أنه مريد بمعنى أنه غير مغلوب ولا مكره، وعلى هذا التقدير فكونه تعالى مريدا صفة سلبية، ومنهم من قال: إنه صفة ثبوتية، ثم اختلفوا فقال بعضهم: معنى كونه مريدا لأفعال نفسه أنه دعاه الداعي إلى إيجادها، ومعنى كونه مريدا لأفعال غيره أنه دعاه الداعي إلى الأمر بها، وهو قول الجاحظ وأبي قاسم الكعبي وأبي الحسين البصري من المعتزلة. وقال الباقون: كونه مريدا صفة زائدة على العلم، وهو الذي سميناه بالداعي، ثم منهم من قال: إنه مريد لذاته، وهذه هي الرواية الثانية عن الحسن النجار. وقال آخرون: إنه مريد بإرادة، ثم قال أصحابنا: مريد بإرادة قديمة. قالت المعتزلة البصرية: مريد بإرادة محدثة لا في محله وقالت الكرامية: مريد بإرادة محدثة قائمة بذاته والله أعلم.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: دلت الآية على أن تكليف ما لا يطاق لا يوجد لأنه تعالى أخبر أنه ما جعل عليكم في الدين من حرج، ومعلوم أن تكليف ما لا يطاق أشد أنواع الحرج. قال أصحابنا: لما كان خلاف المعلوم محال الوقوع فقد لزمكم ما ألزمتموه علينا.

المسألة الثالثة: اعلم أن هذه الآية أصل كبير معتبر في الشرع، وهو أن الأصل في المضار أن لا تكون مشروعة، ويدل عليه هذه الآية فإنه تعالى قال: ما جعل عليكم في الدين من حرج [الحج: ٧٨] ويدل عليه أيضا قوله تعالى: يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر [البقرة: ١٨٥] ويدل عليه من الأحاديث

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩٦/١١

قوله عليه السلام: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام»
ويدل عليه أيضا أن دفع الضرر مستحسن في العقول فوجب أن يكون الأمر كذلك في الشرع
لقوله عليه السلام: «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن»
وأما بيان أن الأصل في **المنافع** الإباحة فوجوه: أحدها: قوله تعالى: خلق لكم ما في الأرض جميعا [البقرة: ٢٩] وثانيها: قوله أحل لكم الطيبات [المائدة: ٤] وقد بينا أن المراد من الطيبات المستلذات والأشياء التي ينتفع بها، وإذا ثبت هذان الأصلان فعند هذا قال نفاة القياس: لا حاجة البتة أصلا إلى القياس في الشرع لأن كل حادثة تقع فحكمها المفصل إن كان مذكورا في الكتاب والسنة فذاك هو المراد وإن لم يكن كذلك، فإن كان من باب المضار حرمناه بالدلائل الدالة على أن الأصل في المضار الحرمة، وإن كان من باب **المنافع** أبحناه بالدلائل الدالة على إباحة **المنافع**، وليس لأحد أن يقدح في هذين الأصلين بشيء من الأقيسة لأن القياس المعارض لهذين الأصلين يكون قياسا واقعا في مقابلة النص، وأنه مردود، فكان باطلا.
المسألة الرابعة: قوله ولكن يريد ليطهركم اختلفوا في تفسير هذا التطهير، فقال جمهور/ أهل النظر من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله: إن عند خروج الحدث تنجس الأعضاء نجاسة حكمية، فالمقصود من هذا التطهير إزالة تلك النجاسة الحكمية، وهذا الكلام عندنا بعيد جدا، ويدل عليه وجوه: الأول: قوله تعالى: إنما المشركون نجس [التوبة: ٢٨] وكلمة إنما للحصر، وهذا يدل على أن المؤمن لا تنجس أعضاؤه البتة. الثاني:
قوله عليه السلام: «المؤمن لا ينجس حيا ولا ميتا»
فهذا الحديث مع تلك الآية كالنص الدال على بطلان ما قالوه. الثالث: أجمعت الأمة على أن بدن المحدث لو كان رطبا فأصابه ثوب لم يتنجس، ولو حمله إنسان وصلى لم تفسد صلاته، وذلك يدل على أنه لا نجاسة في أعضاء المحدث. الرابع: أن الحدث لو كان يوجب نجاسة الأعضاء الأربعة ثم كان تطهير الأعضاء الأربعة يوجب طهارة كل الأعضاء لوجب أن لا يختلف ذلك باختلاف الشرائع، ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك. الخامس: أن خروج النجاسة من موضع كيف يوجب." (١)
"وأن يحدث، وهذا عندي ضعيف من وجوه: الأول: أنه ليس كل من أكل أحدث، فإن أهل الجنة يأكلون ولا يحدثون. الثاني: أن الأكل عبارة عن الحاجة إلى الطعام، وهذه الحاجة من أقوى الدلائل على

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٧/١١

أنه ليس بإله، فأي حاجة بنا إلى جعله كناية عن شيء آخر. الثالث: أن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد، فلو كان إلها لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب، فلما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه كيف يعقل أن يكون إلها للعالمين، وبالجملة ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل.

ثم قال تعالى: انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون يقال: أفكه يأفكه إفكا إذا صرفه، والإفك الكذب لأنه صرف عن الحق، وكل مصروف عن الشيء مأفوك عنه، وقد/ أفكت الأرض إذا صرف عنها المطر، ومعنى قوله أنى يؤفكون أنى يصرفون عن الحق، قال أصحابنا: الآية دلت على أنهم مصروفون عن تأمل الحق، والإنسان يمتنع أن يصرف نفسه عن الحق والصدق إلى الباطل والجهل والكذب، لأن العاقل لا يختار لنفسه ذلك، فعلمنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي صرفهم عن ذلك. ثم قال تعالى:

[سورة المائدة (٥) : آية ٧٦]

قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم (٧٦)

وهذا دليل آخر على فساد قول النصارى، وهو يحتمل أنواعا من الحجة: الأول: أن اليهود كانوا يعادونه ويقصدونه بالسوء، فما قدر على الإضرار بهم، وكان أنصاره وصحابته يحبونه فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الإضرار والنفع كيف يعقل أن يكون إلها. الثاني: أن مذهب النصارى أن اليهود صلبوه ومزقوا أضلاعه، ولما عطش وطلب الماء منهم صبوا الخل في منخريه، ومن كان في الضعف هكذا كيف يعقل أن يكون إلها. الثالث: أن إله العالم يجب أن يكون غنيا عن كل ما سواه، ويكون كل ما سواه محتاجا إليه، فلو كان عيسى كذلك لامتنع كونه مشغولا بعبادة الله تعالى، لأن الإله لا يعبد شيئا، إنما العبد هو الذي يعبد الإله، ولما عرف بالتواتر كونه كان مواظبا على الطاعات والعبادات علمنا أنه إنما كان يفعلها لكونه محتاجا في تحصيل المنافع ودفع المضار إلى غيره، ومن كان كذلك كيف يقدر على إيصال المنافع إلى العباد ودفع المضار عنهم، وإذا كان كذلك كان عبدا كسائر العبيد، وهذا هو عين الدليل الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام حيث قال لأبيه لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا

[مريم: ٤٢] .

ثم قال تعالى: والله هو السميع العليم والمراد منه التهديد يعني سميع بكفرهم عليم بضمائرهم.

[سورة المائدة (٥) : آية ٧٧]
قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل (٧٧)
قوله تعالى: قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق.
اعلم أنه تعالى لما تكلم أولا: على أباطيل اليهود، ثم تكلم ثانيا: على أباطيل النصارى وأقام الدليل القاهر على بطلانها وفسادها، فعند ذلك خاطب مجموع الفريقين بهذا الخطاب فقال يا أهل الكتاب لا تغلوا في." (١)

"يوجد فيها ما يحتاجون إليه، فالله تعالى جعل الكعبة معظمة في القلوب حتى صار أهل الدنيا راغبين في زيارتها، فيسافرون إليها من كل فج عميق لأجل التجارة ويأتون بجميع المطالب والمشتهيات، فصار ذلك سببا لا سباغ النعم على أهل مكة. الثاني: أن العرب كانوا يتقاتلون ويغيرون إلا في الحرم، فكان أهل الحرم آمنين على أنفسهم وعلى أموالهم حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم لم يتعرض له، ولو جنى الرجل أعظم الجنايات ثم التجأ إلى الحرم لم يتعرض له ولهذا قال تعالى: أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم [العنكبوت: ٦٧] الثالث: أن أهل مكة صاروا بسبب الكعبة أهل الله وخاصته وسادة الخلق إلى يوم القيامة وكل أحد يتقرب إليهم ويعظمهم. الرابع: أنه تعالى جعل الكعبة قواما للناس في دينهم بسبب ما جعل فيها من المناسك العظيمة والطاعات الشريفة، وجعل تلك المناسك سببا لحط الخطيآت، ورفع الدرجات وكثرة الكرامات.
واعلم أنه لا يبعد حمل الآية على جميع هذه الوجوه، وذلك لأن قوام المعيشة إما بكثرة **المنافع** وهو الوجه الأول الذي ذكرناه، وإما بدفع المضار وهو الوجه الثاني، وإما بحصول الجاه والرياسة وهو الوجه الثالث، وإما بحصول الدين وهو الوجه الرابع، فلما كانت الكعبة سببا لحصول هذه الأقسام الأربعة، وثبت أن قوام المعيشة ليس إلا بهذه الأربعة ثبت أن الكعبة سبب لقوام الناس.
المسألة الخامسة: المراد بقوله قياما للناس أي لبعض الناس وهم العرب، وإنما حسن هذا المجاز لأن أهل كل بلد إذا قالوا الناس فعلوا كذا وصنعوا كذا فإنهم لا يريدون إلا أهل بلدتهم فلهذا السبب خوطبوا بهذا الخطاب على وفق عادتهم.
المسألة السادسة: اعلم أن الآية دالة على أنه تعالى جعل أربعة أشياء سببا لقيام الناس وقوامهم. الأول:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤١٠/١٢

الكعبة وقد بينا معنى كونها سببا لقيام الناس، وأما الثاني: فهو الشهر الحرام/ ومعنى كونه سببا لقيام الناس هو أن العرب كان يقتل بعضهم بعضا في سائر الأشهر، ويغير بعضهم على بعض، فإذا دخل الشهر الحرام زال الخوف وقدروا على الأسفار والتجارات وصاروا آمنين على أنفسهم وأموالهم وكانوا يحصلون في الشهر الحرام من الأقوات ما كان يكفيهم طول السنة، فلولا حرمة الشهر الحرام لهلكوا وتفانوا من الجوع والشدة فكان الشهر الحرام سببا لقوام معيشتهم في الدنيا أيضا. فهو سبب لا لاكتساب الثواب العظيم بسبب إقامة مناسك الحج.

واعلم أنه تعالى أراد بالشهر الحرام الأشهر الحرم الأربعة إلا أنه عبر عنها بلفظ الواحد لأنه ذهب به مذهب الجنس. وأما الثالث: فهو الهدي وهو إنما كان سببا لقيام الناس، لأن الهدي ما يهدى إلى البيت ويذبح هناك ويفرق لحمه على الفقراء فيكون ذلك نسكا للمهدي وقواما لمعيشة الفقراء. وأما الرابع: فهو القلائد، والوجه في كونها قياما للناس أن من قصد البيت في الشهر الحرام لم يتعرض له أحد، ومن قصده من غير الشهر الحرام ومعه هدي، وقد قلده وقلد نفسه من لحاء شجرة الحرم لم يتعرض له أحد، حتى إن الواحد من العرب يلقى الهدي مقلدا، ويموت من الجوع فلا يتعرض له البتة، ولم يتعرض لها صاحبها أيضا، وكل ذلك إنما كان لأن الله تعالى أوقع في قلوبهم تعظيم البيت الحرام، فكل من قصده أو تقرب إليه صار آمنا من جميع الآفات والمخافات، فلما ذكر الله تعالى أنه جعل الكعبة البيت الحرام قياما للناس ذكر بعده هذه الثلاثة، وهي الشهر الحرام والهدي والقلائد، لأن هذه الثلاثة إنما صارت سببا لقوام المعيشة لانتسابها إلى البيت الحرام، فكان." (١)

"مشاهدة وقوع ذلك الحيوان في تلك المضرة فإذا حاول إنقاذ ذلك الحيوان من تلك المضرة زالت تلك الرقة عن القلب وصار فارغ القلب طيب الوقت، فذلك الإحسان كأنه سبب أفاد تخليص القلب عن ألم الرقة الحسية، فثبت أن كل ما سوى الحق فإنه يستفيد بفعل الإحسان إما جلب منفعة أو دفع مضرة، أما الحق سبحانه وتعالى، فإنه يحسن ولا يستفيد منه جلب منفعة ولا دفع مضرة، وكان المحسن الحقيقي ليس إلا الله تعالى، فبهذا السبب كان المستحق لكل أقسام الحمد هو الله، فقال: الحمد لله وثالثها: أن كل إحسان يقدم عليه أحد من الخلق فالانتفاع به لا يكمل إلا بواسطة إحسان الله، ألا ترى أنه لولا أن الله تعالى خلق أنواع النعمة وإلا لم يقدر الإنسان على إيصال تلك الحنطة والفواكه إلى الغير، وأيضا فلولا أنه سبحانه أعطاه المزاج الصحيح والبنية السليمة وإلا لما أمكنه الانتفاع بها، فثبت أن كل إحسان يصدر

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢/٤٤٠

عن محسن سوى الله تعالى، فإن الانتفاع به لا يكمل إلا بواسطة إحسان الله تعالى. وعند هذا يظهر أنه لا محسن في الحقيقة إلا الله، ولا مستحق للحمد إلا الله. فلهذا قال: الحمد لله ورابعها: أن الانتفاع بجميع النعم لا يمكن إلا بعد وجود المنتفع بعد كونه حيا قادرا عالما، ونعمة الوجود والحياة والقدرة والعلم ليست إلا من الله سبحانه والتربية الأصلية والأرزاق المختلفة لا تحصل إلا من الله سبحانه من أول الطفولية إلى آخر العمر. ثم إذا تأمل الإنسان في آثار حكمة الرحمن في خلق الإنسان ووصل إلى ما أودع الله تعالى في أعضائه من أنواع **المنافع** والمصالح علم أنها بحر لا ساحل له، كما قال تعالى: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها [إبراهيم: ٣٤] فبتقدير: أن نسلم أن العبد يمكنه أن ينعم على الغير إلا أن نعم العبد كالقطرة، ونعم الله لا نهاية لها أولا وآخرا وظاهرا وباطنا فلهذا السبب كان المستحق للحمد المطلق والثناء المطلق ليس إلا الله سبحانه فلهذا قال: الحمد لله.

المسألة الثالثة: إنما قال: الحمد لله ولم يقل: أحمد الله، لوجوه: أحدها: أن الحمد صفة القلب وربما احتاج الإنسان إلى أن يذكر هذه اللفظة حال كونه غافلا يقلبه عن استحضار معنى الحمد والثناء، فلو قال في ذلك الوقت أحمد الله، كان كاذبا واستحق عليه الذم والعقاب، حيث أخبر عن دعوى شيء مع أنه ما كان موجودا. أما إذا قال: الحمد لله، فمعناه: أن ماهية الحمد وحقيقته مسلمة لله تعالى. وهذا الكلام حق وصدق سواء كان معنى الحمد والثناء حاضرا في قلبه أو لم يكن، وكان تكلمه بهذا الكلام عبادة شريفة وطاعة رفيعة فظهر الفرق بين هذين اللفظين. وثانيها:

روي أنه تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يأمره بالشكر، فقال داود:

يا رب وكيف أشكرك؟ وشكري لك لا يحصل إلا أن توفقني لشكرك وذلك التوفيق نعمة زائدة وإنها توجب الشكر لي أيضا وذلك يجر إلى ما لا نهاية له ولا طاقة لي بفعل ما لا نهاية له. فأوحى الله تعالى إلى داود: لما عرفت عجزك عن شكري فقد شكرتني.

إذا عرفت هذا فنقول: لو قال العبد أحمد الله كان دعوى أنه أتى بالحمد والشكر فيتوجه عليه ذلك السؤال. أما لو قال، الحمد لله فليس فيه ادعاء أن العبد أتى بالحمد والثناء، بل ليس فيه إلا أنه سبحانه مستحق للحمد والثناء سواء قدر على الإتيان بذلك الحمد أو لم يقدر عليه فظهر التفاوت بين هذين اللفظين من هذا الوجه، وثالثها: أنه لو قال أحمد الله كان ذلك مشعرا بأنه ذكر حمد نفسه ولم يذكر حمد غيره. أما إذا قال:

الحمد لله، فقد دخل فيه حمده وحمد غيره من أول خلق العالم إلى آخر استقرار المكلفين في درجات الجنان." (١)

"المسألة الخامسة: في قوله الحمد لله قولان: الأول: المراد منه احمدوا الله تعالى، وإنما جاء على صيغة الخبر لفوائد: إحداها: أن قوله الحمد لله يفيد تعليم اللفظ والمعنى، ولو قال: احمدوا لم يحصل مجموع هاتين الفائدتين. وثانيها: أنه يفيد أنه تعالى مستحق الحمد سواء حمده حامد أو لم يحمده. وثالثها: أن المقصود منه ذكر الحجة فذكره بصيغة الخبر أولى.

والقول الثاني: وهو قول أكثر المفسرين معناه قولوا الحمد لله. قالوا: والدليل على أن المراد منه تعليم العباد أنه تعالى قال في أثناء السورة إياك نعبد وإياك نستعين وهذا الكلام لا يليق ذكره إلا بالعباد. والمقصود أنه سبحانه لما أمر بالحمد وقد تقرر في العقول أن الحمد لا يحسن إلا على الإنعام، فحينئذ يصير هذا الأمر حاملا للمكلف على أن يتفكر في أقسام نعم الله تعالى عليه. ثم إن تلك النعم يستدل بذكرها على مقصودين شريفين: أحدهما: أن هذه النعم قد حدثت بعد أن كانت معدومة فلا بد لها من محدث ومحصل وليس ذلك هو العبد لأن كل أحد يريد تحصيل جميع أنواع النعم لنفسه، فلو كان حصول النعم للعبد بواسطة قدرة العبد واختياره، لوجب أن يكون كل واحد واصلا إلى جميع أقسام النعم إذ لا أحد إلا وهو يريد تحصيل كل النعم لنفسه، ولما ثبت أنه لا بد لحدوث هذه النعم من محدث وثبت أن ذلك المحدث ليس هو العبد، فوجب الإقرار بمحدث قاهر قادر، وهو الله سبحانه وتعالى.

والنوع الثاني: من مقاصد هذه الكلمة أن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها فإذا أمر الله تعالى العبد بالتحميد، وكان الأمر بالتحميد مما يحمله على تذكر أنواع نعم الله تعالى، صار ذلك التكليف حاملا للعبد على تذكر أنواع نعم الله عليه، ولما كانت تلك النعم كثيرة خارجة عن الحد والإحصاء، صار تذكر تلك النعم موجبة رسوخ حب الله تعالى في قلب العبد. فثبت أن تذكير النعم يفيد هاتين الفائدتين الشريفتين. إحداهما: الاستدلال بحدوثها عن الإقرار بوجود الله تعالى. وثانيهما: أن الشعور بكونها نعما يوجب ظهور حب الله في القلب، ولا مقصود من جميع العبادات إلا هذان الأمران. فلهذا السبب وقع الابتداء في هذا الكتاب الكريم بهذه الكلمة، فقال: الحمد لله رب العالمين.

واعلم أن هذه الكلمة بحر لا ساحل له، لأن العالم اسم لكل ما سوى الله تعالى، وما سوى الله إما جسم أو حال فيه أو لا جسم ولا حال فيه، وهو الأرواح. ثم الأجسام إما فلكية، وإما عنصرية. أما الفلكيات

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٧٣/١٢

فأولها العرش المجيد، ثم الكرسي الرفيع. ويجب على العاقل أن يعرف أن العرش ما هو، وأن الكرسي ما هو، وأن يعرف صفاتهما وأحوالهما، ثم يتأمل أن اللوح المحفوظ، والقلم والرفرف، والبيت المعمور، وسدرة المنتهى ما هي، وأن يعرف حقائقها، ثم يتفكر في طبقات السموات وكيفية اتساعها وأجرامها وأبعادها، ثم يتأمل في الكواكب الثابتة والسيارة، ثم يتأمل في عالم العناصر الأربعة والمواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات والحيوان، ثم يتأمل في كيفية حكمة الله تعالى في خلقه الأشياء الحقيرة والضعيفة كالبق والبعوض، ثم ينتقل منها إلى معرفة أجناس الأعراض وأنواعها القريبة والبعيدة، وكيفية **المنافع** الحاصلة من كل نوع من أنواعها، ثم ينتقل منها إلى تعرف مراتب الأرواح السفلية والعلوية والعرشية والفلكية، ومراتب الأرواح المقدسة عن علائق الأجسام المشار إليها بقوله ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته [الأنبياء: ١٩] فإذا استحضر مجموع هذه الأشياء بقدر القدرة والطاقة، فقد حضر في عقله ذرة من معرفة العالم، وهو كل ما سوى الله تعالى. ثم عند هذا يعرف أن كل ما." (١)

"من دوام تلك، دوام كل واحد من الأجزاء المتقومة في هذه الحركة. ولما كان ذلك محالا ثبت أن المؤثر فيها ليس علة موجبة بالذات، بل/ فاعلا مختارا. وإذا كان كذلك، وجب كون ذلك الفاعل متقدما على هذه الحركات، وذلك يوجب أن يكون لها بداية. العاشر: أنه ثبت بالدليل أنه حصل خارج العالم خلاء لا نهاية له بدليل أنا نعلم بالضرورة أنا لو فرضنا أنفسنا واقفين على طرف الفلك الأعلى فإنا نميز بين الجهة التي تلي قدامنا وبين الجهة التي تلي خلفنا، وثبوت هذا الامتياز معلوم بالضرورة. وإذا كان كذلك ثبت أنه حصل خارج العالم خلاء لا نهاية له، وإذا كان كذلك فحصول هذا العالم في هذا الحيز الذي حصل فيه دون سائر الأحياز أمر ممكن، فثبت بهذه الوجوه العشرة: أن أجرام السموات والأرضين مختلفة بصفات وأحوال، فكان يجوز في العقل حصول أضدادها ومقابلاتها، فوجب أن لا يحصل هذا الاختصاص الخاص إلا لمرجح ومقدر وإلا فقد ترجح أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه لا معنى للخلق إلا التقدير. فلما دل العقل على حصول التقدير من هذه الوجوه العشرة، وجب حصول الخلق من هذه الوجوه العشرة. فلهذا المعنى. قال: الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض والله أعلم، ومن الناس من قال المقصود من ذكر السموات والأرض والظلمات والنور التنبيه على ما فيها من **المنافع**.

واعلم أن منافع السموات أكثر من أن تحيط بجزء من أجزائها المجلدات، وذلك لأن السموات بالنسبة إلى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٧٥/١٢

مواليد هذا العالم جارية مجرى الأب والأرض بالنسبة إليها جارية مجرى الأم فالعلل الفاعلة سماوية والعلل القابلة أرضية وبها يتم أمر المواليد الثلاثة. والاستقصاء في شرح ذلك لا سبيل له.
أما قوله وجعل الظلمات والنور ففيه مسائل:
المسألة الأولى: لفظ (جعل) يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ كقوله تعالى:
وجعل الظلمات والنور وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صير كقوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا [الزخرف: ١٩] والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير، وفي الجعل معنى التضمين والتصيير كإنشاء شيء من شيء، وتصيير شيء شيئا، ومنه: قوله تعالى: وجعل منها زوجها [الأعراف: ١٨٩] وقوله وجعلنا لهم أزواجا
[الرعد: ٣٨] وقوله أجعل الآلهة إلها واحدا [ص: ٥] وإنما حسن لفظ الجعل هاهنا لأن النور والظلمة لما تعاقبا صار كأن كل واحد منهما إنما تولد من الآخر.
المسألة الثانية: في لفظ الظلمات والنور قولان: الأول: أن المراد منهما الأمران المحسوسان بحس البصر والذي يقوي ذلك أن اللفظ حقيقة فيهما. وأيضا هذان الأمران إذا جعلا مقرونين/ بذكر السموات والأرض، فإنه لا يفهم منهما إلا هاتان الكيفيتان المحسوستان والثاني: نقل الواحدي عن ابن عباس أنه قال وجعل الظلمات والنور أي ظلمة الشرك والنفاق والكفر والنور يريد نور الإسلام والإيمان والنبوة واليقين.
ونقل عن الحسن أنه قال: يعني الكفر والإيمان، ولا تفاوت بين هذين القولين، فكان قول الحسن كالتلخيص لقول ابن عباس. ولقائل أن يقول حمل اللفظ على الوجه الأول أولى، لما ذكرنا أن الأصل حمل اللفظ على حقيقته، ولأن الظلمات والنور إذا كان ذكرهما مقرونا بالسموات والأرض لم يفهم منه إلا ما ذكرناه. قال الواحدي: والأولى حمل اللفظ عليهما معا. وأقول هذا مشكل لأنه حمل اللفظ على مجازه، واللفظ الواحد." (١)

"والقول الثاني: أن المراد به أنهم كانوا يستهزؤن بالعذاب الذي كان يخوفهم الرسول بنزوله وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى هذا الإضمار.

[سورة الأنعام (٦) : آية ١١]
قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١١)

---
(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٧٨/١٢

اعلم أنه تعالى كما صبر رسوله بالآية الأولى، فكذلك حذر القوم بهذه الآية، وقال لرسوله قل لهم لا تغتروا بما وجدتم من الدنيا وطيباتها ووصلتم إليه من لذاتها وشهواتها، بل سيروا في الأرض لتعرفوا صحة ما أخبركم الرسول عنه من نزول العذاب على الذين كذبوا الرسل في الأزمنة السالفة، فإنكم عند السير في الأرض والسفر في البلاد لا بد وأن تشاهدوا تلك الآثار، فيكمل الاعتبار، ويقوى الاستبصار.

فإن قيل: ما الفرق بين قوله فانظروا [آل عمران: ١٣٧] وبين قوله ثم انظروا.

قلنا: قوله فانظروا يدل على أنه تعالى جعل النظر سببا عن السير، فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين.

وأما قوله سيروا في الأرض ثم انظروا فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من **المنافع**، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ثم نبه الله تعالى على هذا الفرق بكلمة (ثم) لتباعد ما بين الواجب والمباح. والله أعلم.

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٢]

قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون (١٢)

[في قوله تعالى قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة] في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المقصود من تقرير هذه الآية تقرير إثبات الصانع، وتقرير المعاد وتقرير النبوة.

وبيانه أن أحوال العالم العلوي والسفلي يدل على أن جميع هذه الأجسام موصوفة بصفات كان يجوز عليها اتصافها بأضدادها ومقابلاتها، ومتى كان كذلك، فاختصاص كل جزء من الأجزاء الجسمانية بصفته المعينة لا بد وأن يكون لأجل أن الصانع الحكيم القادر المختار خصه بتلك الصفة المعينة، فهذا يدل على أن العالم مع كل ما فيه مملوك لله تعالى.

وإذا ثبت هذا، ثبت كونه قادرا على الإعادة والحشر والنشر، لأن التركيب الأول إنما حصل لكونه تعالى قادرا على كل الممكنات، عالما بكل المعلومات، وهذه القدرة والعلم يمتنع زوالهما، فوجب صحة الإعادة ثانيا. وأيضا ثبت أنه تعالى ملك مطاع، والملك المطاع من له الأمر والنهي على عبيده، ولا بد من مبلغ، وذلك يدل على أن بعثة الأنبياء والرسل من الله تعالى إلى الخلق غير ممتنع. فثبت أن هذه الآية وافية بإثبات هذه المطالب الثلاثة. ولما سبق ذكر هذه المسائل الثلاثة، ذكر الله بعدها هذه الآية لتكون مقررة لمجموع تلك المطالب من الوجه الذي شرحناه والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله تعالى: قل لمن ما في السماوات والأرض سؤال. وقوله قل لله جواب فقد أمره الله تعالى بالسؤال أولا ثم بالجواب ثانيا. وهذا، إنما يحسن في الموضع الذي يكون الجواب قد بلغ في." (١)

"والتأليف عند ضم الأشياء إلى بعض، فلما كان الأصل الشق جاز أن يكون في حال شق إصلاح وفي حال أخرى شق إفساد. ففاطر السموات/ من الإصلاح لا غير. وقوله هل ترى من فطور [الملك: ٣] وإذا السماء انفطرت [الانفطار: ١] من الإفساد، وأصلهما واحد.

ثم قال تعالى: وهو يطعم ولا يطعم أي وهو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد.

فإن قيل: كيف فسرت الإطعام بالرزق؟ وقد قال تعالى: ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون [الذاريات: ٥٧] والعطف يوجب المغايرة.

قلنا: لا شك في حصول المغايرة بينهما، إلا أنه قد يحسن جعل أحدهما كناية عن الآخر لشدة ما بينهما من المقاربة والمقصود من الآية: أن المنافع كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع. وقرئ ولا يطعم بفتح الياء، وروى ابن المأمون عن يعقوب وهو يطعم ولا يطعم على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل، وعلى هذا التقدير: فالضمير عائد إلى المذكور في قوله أغير الله وقرأ الأشهب وهو يطعم ولا يطعم على بنائهما للفاعل. وفسر بأن معناه: وهو يطعم ولا يستطعم. وحكى الأزهري: أطعمت بمعنى استطعمت. ويجوز أن يكون المعنى: وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح كقوله: وهو يعطي ويمنع، ويبسط ويقدر، ويغني ويفقر.

واعلم أن المذكور في صدر الآية هو المنع من اتخاذ غير الله تعالى وليا. واحتج عليه بأنه فاطر السموات والأرض وبأنه يطعم ولا يطعم. ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتخاذ غيره وليا. أما بيان أنه فاطر السموات والأرض، فلأنا بينا أن ما سوى الواحد ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يقع موجودا إلا بإيجاد غيره، فنتج أن ما سوى الله فهو حاصل بإيجاده وتكوينه. فثبت أنه سبحانه هو الفاطر لكل ما سواه من الموجودات. وأما بيان أنه يطعم ولا يطعم فظاهرة لأن الإطعام عبارة عن إيصال المنافع، وعدم الاستطعام عبارة عن عدم الانتفاع. ولما كان هو المبديء تعالى وتقدس لكل ما سواه، كان لا محالة هو المبديء لحصول جميع المنافع. ولما كان واجبا لذاته كان لا محالة غنيا ومتعاليا عن الانتفاع بشيء آخر فثبت بالبرهان صحة أنه تعالى فاطر السموات والأرض، وصحة أنه يطعم ولا يطعم، وإذا ثبت هذا امتنع في العقل اتخاذ غيره وليا لأن ما سواه محتاج في ذاته وفي جميع صفاته وفي جميع ما تحت يده. والحق سبحانه هو الغني لذاته

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٨٨/١٢

الجواد لذاته، وترك الغني الجواد، والذهاب إلى الفقير المحتاج ممنوع عنه في صريح العقل.
وإذا عرفت هذا فنقول: قد سبق في هذا الكتاب بيان أن الولي معناه الأصلي في اللغة: هو القريب. وقد ذكرنا وجوه الاشتقاقات فيه. فقوله قل أغير الله أتخذ وليا يمنع من القرب من غير الله تعالى. فهذا يقتضي تنزيه القلب عن الالتفات إلى غير الله تعالى، وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى.
ثم قال تعالى: قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم والسبب أن النبي صلى الله عليه وسلم سابق أمته في الإسلام لقوله وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين [الأنعام: ١٦٣] ولقول موسى سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين [الأعراف: ١٤٣] .
ثم قال: ولا تكونن من المشركين ومعناه أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك. ثم إنه تعالى لما بين كون." [(١)]

"فإن قيل: أليس من لم يعاقبه الله تعالى ويتفضل عليه فقد حصل له الفوز المبين وذلك يبطل دلالة الآية على قولكم؟
قلنا: هذا الذي ذكرتموه مدفوع من وجوه: الأول: أن التفضل يكون كالابتداء من قبل الله تعالى، وليس يكون ذلك مطلوبا من الفعل والفوز هو الظفر بالمطلوب، فلا بد وأن يفيد أمرا مطلوبا. والثاني: أن الفوز المبين لا يجوز حمله على التفضل بل يجب حمله على ما يقتضي مبالغة في عظم النعمة، وذلك لا يكون إلا ثوابا. والثالث: أن الآية معطوفة على قوله إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم [الأنعام: ١٥] والمقابل للعذاب هو الثواب، فيجب حمل هذه الرحمة على الثواب.
واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف جدا وضعفه ظاهر فلا حاجة فيه إلى الاستقصاء والله أعلم.

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٧]
وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير (١٧)
في الآية مسائل:
المسألة الأولى: اعلم أن هذا دليل آخر في بيان أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ غير الله وليا، وتقريره أن الضر اسم للألم والحزن والخوف وما يفضي إليها أو إلى أحدها. والنفع اسم للذة والسرور وما يفضي إليهما أو إلى أحدهما. والخير اسم للقدر المشترك بين دفع الضر وبين حصول النفع. فإذا كان الأمر كذلك فقد ثبت الحصر في أن الإنسان إما أن يكون في الضر أو في الخير لأن زوال الضر خير سواء حصل فيه اللذة أو لم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٩٢/١٢

تحصل. وإذا ثبت هذا الحصر فقد بين الله تعالى أن المضار قليلها وكثيرها لا يندفع إلا بالله، والخيرات لا يحصل قليلها وكثيرها إلا بالله. والدليل على أن الأمر كذلك، أن الموجود إما واجب لذاته وإما ممكن لذاته أما الواجب لذاته فواحد فيكون كل ما سواه ممكنا لذاته والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، وكل ما سوى الحق فهو إنما حصل بإيجاد الحق وتكوينه فثبت أن اندفاع جميع المضار لا يحصل إلا به، وحصول جميع الخيرات **والمنافع** لا يكون إلا به، فثبت بهذا البرهان العقلي البين صحة ما دلت الآية عليه.

فإن قيل: قد نرى أن الإنسان يدفع المضار عن نفسه بماله وبأعوانه وأنصاره، وقد يحصل الخير له بكسب نفسه وبإعانة غيره، وذلك يقدح في عموم الآية. وأيضا فرأس المضار هو الكفر فوجب أن يقال إنه لم يندفع إلا بإعانة الله تعالى. ورأس الخيرات هو الإيمان، فوجب أن يقال إنه لم يحصل إلا بإيجاد الله تعالى، ولو كان الأمر كذلك لوجب أن لا يستحق الإنسان بفعل الكفر عقابا ولا بفعل الإيمان ثوابا. وأيضا فإنا نرى أن الإنسان ينتفع بأكل الدواء ويتضرر بتناول السموم، وكل ذلك يقدح في ظاهر الآية.

والجواب عن الأول: أن كل فعل يصدر عن الإنسان فإنما يصدر عنه إذا دعاه الداعي إليه لأن الفعل بدون الداعي محال، وحصول تلك الداعية ليس إلا من الله تعالى. وعلى هذا التقدير فيكون الكل من الله تعالى وهكذا القول في كل م١ ذكرتموه من السؤالات.

المسألة الثانية: أنه تعالى ذكر إمساس الضر وإمساس الخير، إلا أنه ميز الأول عن الثاني بوجهين: الأول: أنه تعالى قدم ذكر إمساس الضر على ذكر إمساس الخير، وذلك تنبيه على أن جميع المضار لا بد وأن يحصل." (١)

"يخفونها، ولذلك كان العقلاء عند الاشتغال بالوقاع يختفون ولا يقدمون على هذه الأفعال بمحضر من الناس.

وذلك يدل على أن هذه الأفعال لا توجب الشرف بل النقص، ومما يدل على ذلك أيضا أن الناس إذا شتم بعضهم بعضا لا يذكرون فيه إلا الألفاظ الدالة على الوقاع، ولولا أن تلك اللذة من جنس النقصانات، وإلا لما كان الأمر كذلك، ومما يدل عليه أن هذه اللذات ترجع حقيقتها إلى دفع الآلام، ولذلك فإن كل من كان أشد جوعا وأقوى حاجة كان التذاذه بهذه الأشياء أكمل له وأقوى، وإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه لا حقيقة لهذه اللذات في نفس الأمر. ومما يدل عليه أيضا أن هذه اللذات سريعة الاستحالة سريعة الزوال

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢/٤٩٤

سريعة الانقضاء.

فثبت بهذه الوجوه الكثيرة خساسة هذه اللذات. وأما السعادات الروحانية فإنها سعادات شريفة عالية باقية مقدسة، ولذلك فإن جميع الخلق إذا تخيلوا في الإنسان كثرة العلم وشدة الانقباض عن اللذات الجسمانية، فإنهم بالطبع يعظمونه ويخدمونه ويعدون أنفسهم عبيدا لذلك الإنسان وأشقياء بالنسبة إليه، وذلك يدل على شهادة الفطرة الأصلية بخساسة اللذات الجسمانية، وكمال مرتبة اللذات الروحانية.

الوجه الثاني: في بيان أن خيرات الآخرة أفضل من خيرات الدنيا، هو أن نقول: هب أن هذين النوعين تشاركا في الفضل والمنقبة، إلا أن الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد القيامة معلوم قطعا. وأما الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد الدنيا فغير معلوم بل ولا مظنون، فكم من سلطان قاهر في بكرة اليوم صار تحت التراب في آخر ذلك اليوم، وكم من أمير كبير أصبح في/ الملك والإمارة، ثم أمسى أسيرا حقيرا، وهذا التفاوت أيضا يوجب المباينة بين النوعين.

الوجه الثالث: هب أنه وجد الإنسان بعد هذا اليوم يوما آخر في الدنيا، إلا أنه لا يدري هل يمكنه الانتفاع بما جمعه من الأموال والطيبات واللذات أم لا؟ أما كل ما جمعه من موجبات السعادات، فإنه يعلم قطعا أنه ينتفع به في الدار الآخرة.

الوجه الرابع: هب أنه ينتفع بها إلا أن انتفاعه بخيرات الدنيا لا يكون خاليا عن شوائب المكروهات، وممازجة المحرمات المخوفات. ولذلك

قيل: من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق. فقيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «سرور يوم بتمامه» .

الوجه الخامس: هب أنه ينتفع بتلك الأموال والطيبات في الغد، إلا أن تلك **المنافع** منقرضة ذاهبة باطلة، وكلما كانت تلك **المنافع** أقوى وألذ وأكمل وأفضل كانت الأحزان الحاصلة عند انقراضها وانقضائها أقوى وأكمل كما قال الشاعر المتنبي:

أشد الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

فثبت بما ذكرنا أن سعادات الدنيا وخيراتها موصوفة بهذه العيوب العظيمة، والنقصانات الكاملة، وسعادات الآخرة مبرأة عنها، فوجب القطع بأن الآخرة أكمل وأفضل وأبقى وأتقى وأحرى وأولى.

المسألة الثانية: قرأ ابن عامر ولدار ا لآخرة بإضافة الدار إلى الآخرة، والباقون وللدار الآخرة على جعل الآخرة

نعتا للدار. أما وجه قراءة ابن عامر فهو أن الصفة في الحقيقة مغايرة للموصوف فصحت الإضافة من هذا الوجه، ونظيره قولهم بارحة الأولى، ويوم الخميس وحق اليقين، وعند البصريين لا تجوز هذه." (١)

"كنت رسولا من عند الله، فاطلب من الله حتى يوسع علينا منافع الدنيا وخيراتها، ويفتح علينا أبواب سعادتها.

فقال تعالى قل لهم إني لا أقول لكم عندي خزائن الله، فهو تعالى يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير لا بيدي والخزائن جمع خزانة، وهو اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء إحرازه، بحيث لا تناله الأيدي. وثانيها: قوله ولا أعلم الغيب ومعناه أن القوم كانوا يقولون له إن كنت رسولا من عند الله فلا بد وأن تخبرنا عما يقع في المستقبل من المصالح والمضار، حتى نستعد لتحصيل تلك المصالح، ولدفع تلك المضار. فقال تعالى: قل إني لا أعلم الغيب فكيف تطلبون مني هذه المطالب؟ والحاصل أنهم كانوا في المقام الأول يطلبون منه الأموال الكثيرة والخيرات الواسعة، وفي المقام الثاني كانوا يطلبون منه الإخبار عن الغيوب، ليتوسلوا بمعرفة تلك الغيوب إلى الفوز **بالمنافع** والاجتناب عن المضار والمفاسد. وثالثها: قوله ولا أقول لكم إني ملك ومعناه أن القوم كانوا يقولون مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق [الفرقان: ٧] ويتزوج ويخالط الناس. فقال تعالى: قل لهم إني لست من الملائكة.

واعلم أن الناس اختلفوا في أنه ما الفائدة في ذكر نفي هذه الأحوال الثلاثة؟

فالقول الأول: أن المراد منه أن يظهر الرسول من نفسه التواضع لله والخضوع له والاعتراف بعبوديته، حتى لا يعتقد فيه مثل اعتقاد النصارى في المسيح عليه السلام.

والقول الثاني: أن القوم كانوا يقترحون منه إظهار المعجزات القاهرة القوية، كقولهم وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا [الإسراء: ٩٠] إلى آخر الآية فقال تعالى في آخر الآية قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا [الإسراء: ٩٣] يعني لا أدعي إلا الرسالة والنبوة، وأما هذه الأمور التي طلبتموها، فلا يمكن تحصيلها إلا بقدرة الله، فكان المقصود من هذا الكلام إظهار العجز والضعف وأنه لا يستقل بتحصيل هذه المعجزات التي طلبوها منه.

والقول الثالث: أن المراد من قوله لا أقول لكم عندي خزائن الله معناه أني لا أدعي كوني موصوفا بالقدرة اللائقة بالإله تعالى. وقوله ولا أعلم الغيب أي ولا أدعي كوني موصوفا بعلم الله تعالى. وبمجموع هذين الكلامين حصل أنه لا يدعي الإلهية.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥١٦/١٢

ثم قال: ولا أقول لكم إني ملك وذلك لأنه ليس بعد الإلهية درجة أعلى حالا من الملائكة، فصار حاصل الكلام كأنه يقول لا أدعي الإلهية ولا أدعي الملكية ولكني أدعي الرسالة، وهذا منصب لا يمتنع حصوله للبشر، فكيف أطبقتم على استنكار قولي ودفع دعواي؟

المسألة الثانية: قال الجبائي: الآية دالة على أن الملك أفضل من الأنبياء، لأن معنى الكلام لا أدعي منزلة فوق منزلتي ولولا أن الملك أفضل وإلا لم يصح ذلك. قال القاضي: إن كان الغرض بما نفى طريقة التواضع فالأقرب أن يدل ذلك على أن الملك أفضل، وإن كان المراد نفي قدرته عن أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة، لم يدل على كونهم أفضل.

المسألة الثالثة: قوله إن أتبع إلا ما يوحى إلي ظاهره يدل على أنه لا يعمل إلا بالوحي وهو يدل على حكمين.." (١)

"يقول مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي: وأنا قد نقلت أنواعا من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم.

الصفة الثالثة: قوله: مصدق الذي بين يديه فالمراد كونه مصدقا لما قبله من الكتب والأمر في الحقيقة كذلك، لأن الموجود في سائر الكتب الإلهية إما علم الأصول، وإما علم الفروع.

أما علوم الأصول: فيمتنع وقوع التفاوت فيه بسبب اختلاف الأزمنة والأمكنة، فوجب القطع بأن المذكور في القرآن موافق ومطابق لما في التوراة والزبورة والإنجيل وسائر الكتب الإلهية.

وأما علم الفروع: فقد كانت الكتب الإلهية المتقدمة على القرآن مشتملة على البشارة بمقدم محمد عليه الصلاة والسلام وإذا كان الأمر كذلك فقد حصل في تلك الكتب أن التكاليف الموجودة فيها، إنما تبقى إلى وقت ظهور محمد عليه الصلاة والسلام وأما بعد ظهور شرعه فإنها تصير منسوخة، فثبت أن تلك الكتب دلت على ثبوت تلك الأحكام على هذا الوجه، والقرآن مطابق لهذا المعنى وموافق، فثبت كون القرآن مصدقا لكل الكتب الإلهية في جملة علم الأصول والفروع.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ولتنذر أم القرى ومن حولها وهاهنا أبحاث:

البحث الأول: اتفقوا على أن هاهنا محذوفا، والتقدير: ولتنذر أهل أم القرى. واتفقوا على أن أم القرى هي مكة، واختلفوا في السبب الذي لأجله سميت مكة بهذا الاسم. فقال ابن عباس: سميت بذلك، لأن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٣٨/١٢

الأرضين دحيت من تحتها ومن حولها، وقال أبو بكر الأصم: سميت بذلك لأنها قبل أهل الدنيا، فصارت هي كالأصل وسائر البلاد والقرى تابعة لها، وأيضا من أصول عبادات أهل الدنيا الحج، وهو إنما يحصل في تلك البلدة، فلهذا السبب يجتمع الخلق إليها كما يجتمع الأولاد إلى الأم، وأيضا فلما كان أهل الدنيا يجتمعون هناك بسبب الحج، لا جرم يحصل هناك أنواع من التجارات **والمنافع** ما لا يحصل في سائر البلاد، ولا شك أن الكسب والتجارة من أصول المعيشة، فلهذا السبب سميت مكة أم القرى. وقيل: إنما سميت مكة أم القرى لأن الكعبة أول بيت وضع للناس، وقيل أيضا: إن مكة أول بلدة سكنت في الأرض.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ومن حولها دخل فيه سائر البلدان والقرى.

والبحث الثاني: زعمت طائفة من اليهود أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان رسولا إلى العرب فقط.

واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية وقالوا إنه تعالى بين أنه إنما أنزل عليه هذا القرآن ليبلغه إلى أهل مكة وإلى القرى المحيطة بها، والمراد منها جزيرة العرب، ولو كان مبعوثا إلى كل العالمين لكان التقييد بقوله: لتنذر أم القرى ومن حولها باطلا.

والجواب: أن تخصيص هذه المواضع بالذكر لا يدل على انتفاء الحكم فيما سواها إلا بدلالة/ المفهوم وهي ضعيفة، لا سيما وقد ثبت بالتواتر الظاهر، المقطوع به من دين محمد عليه الصلاة والسلام أنه كان يدعي كونه رسولا إلى كل العالمين، وأيضا قوله: ومن حولها يتناول جميع البلاد والقرى المحيطة بها، وبهذا التقدير: فيدخل فيه جمع بلاد العالم، والله أعلم.." (١)

"سميت هذه الآيات أنفسها بالبصائر، والمقصود من هذه الآية بيان ما يتعلق بالرسول وما لا يتعلق به.

أما القسم الأول: وهو الذي يتعلق بالرسول، فهو الدعوة إلى الدين الحق، وتبليغ الدلالة والبينات فيها، وهو أنه عليه السلام ما قصر في تبليغها وإيضاحها وإزالة الشبهات عنها، وهو المراد من قوله: قد جاءكم بصائر من ربكم.

وأما القسم الثاني: وهو الذي لا يتعلق بالرسول، فإقدامهم على الإيمان وترك الكفر، فإن هذا لا يتعلق بالرسول، بل يتعلق باختيارهم، ونفعه وضره عائد إليهم، والمعنى من أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر، وإياها نفع، ومن عمي عنه فعلى نفسه عمي وإياها ضر بالعمى وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها. إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٥/١٣

المسألة الثانية: في أحكام هذه الآية، وهي أربعة ذكرها القاضي: فالأول: الغرض بهذه البصائر أن ينتفع بها اختيارا استحق بها الثواب لا أن يحمل عليها أو يلجأ إليها، لأن ذلك يبطل هذا الغرض. والثاني: أنه تعالى إنما دلنا وبين لنا منافع، وأغراض **المنافع** تعود إلينا لا لمنافع تعود إلى الله تعالى. والثالث: أن المرء بعدوله عن النظر والتدبر يضر بنفسه، ولم يؤت إلا من قبله لا من قبل ربه. والرابع: أنه متمكن من الأمرين، فلذلك قال: فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها قال: وفيه إبطال قول المجبرة في المخلوق، وفي أنه تعالى يكلف بلا قدرة.

واعلم أنه متى شرعت المعتزلة في الحكمة والفلسفة والأمر والنهي، فلا طريق فيه إلا معارضته بسؤال الداعي فإنه يهدم كل ما يذكرونه.

المسألة الثالثة: المراد من الإبصار هاهنا العلم، ومن العمى الجهل، ونظيره قوله تعالى: فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور [الحج: ٤٦] .

المسألة الرابعة: قال المفسرون قوله: فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها معناه لا آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ عليكم والوكيل. قالوا: وهذا إنما كان قبل الأمر بالقتال، فلما أمر بالقتال صار حفيظا عليهم، ومنهم من يقول آية القتال ناسخة لهذه الآية، وهو بعيد فكأن هؤلاء المفسرين مشغوفون بتكثير النسخ من غير حاجة إليه، والحق ما تقرره أصحاب أصول الفقه أن الأصل عدم النسخ، فوجب السعي في تقليله بقدر الإمكان.

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠٥]

وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون (١٠٥)

[في قوله تعالى وكذلك نصرف الآيات] اعلم أنه تعالى لما تمم الكلام في الإلهيات إلى هذا الموضع شرع من هذا الموضع في إثبات/ النبوات فبدأ تعالى بحكاية شبهات المنكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فالشبهة الأولى: قولهم يا محمد إن هذا القرآن الذي جئتنا به كلام تستفيده من مدارسة العلماء ومباحثة الفضلاء، وتنظمه من عند نفسك، ثم تقرأه علينا، وتزعم أنه وحي نزل عليك من الله تعالى، ثم إنه تعالى أجاب عنه بالوجوه الكثيرة، فهذا تقرير النظم، وفي الآية مسائل:." [1]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٠٥/١٣

"وذكر لأن الميتة في معنى الميت. قال أبو علي: لم يلحق الفعل علامة التأنيث لما كان الفاعل المسند إليه تأنيثه غير حقيقي ولا يحتاج الكون الى خبره لأنه بمعنى حدث ووقع. وأما قراءة عاصم: تكن بالتاء: ميتة بالنصب فالتقدير وإن تكن المذكور ميته فأنث/ الفعل لهذا السبب وأما قراءة الباقين وإن يكن بالياء ميتة بالنصب. فتأويلها: وإن يكن المذكور ميتة ذكروا الفعل لأنه مسند إلى ضمير ما تقدم في قوله: ما في بطون هذه الأنعام وهو مذكر وانتصب قوله: ميتة لما كان الفعل مسندا الى الضمير.

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٤٠]

قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين (١٤٠)

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى ذكر فيما تقدم قتلهم أولادهم وتحريمهم ما رزقهم الله. ثم إنه تعالى جمع هذين الأمرين في هذه الآية وبين ما لزمهم على هذا الحكم وهو الخسران والسفاهة وعدم العلم وتحريم ما رزقهم الله والافتراء على الله والضلال وعدم الاهتداء فهذه أمور سبعة وكل واحد منها سبب تام في حصول الذم.

أما الأول: وهو الخسران وذلك لأن الولد نعمة عظيمة من الله على العبد فإذا سعى في إبطاله فقد خسر خسرانا عظيما لا سيما ويستحق على ذلك الإبطال الذم العظيم في الدنيا والعقاب العظيم في الآخرة. أما الذم في الدنيا فلأن الناس يقولون قتل ولده خوفا من أن يأكل طعامه وليس في الدنيا ذم أشد منه. وأما العقاب في الآخرة فلأن قرابة الولادة أعظم موجبات المحبة فمع حصولها إذا أقدم على إلحاق أعظم المضار به كان ذلك أعظم أنواع الذنوب فكان موجبا لأعظم أنواع العقاب.

والنوع الثاني: السفاهة وهي عبارة عن الخفة المذمومة وذلك لأن قتل الولد إنما يكون للخوف من الفقر والفقر وإن كان ضررا إلا أن القتل أعظم منه ضررا وأيضا فهذا القتل ناجز وذلك الفقر وموهوم فالتزام أعظم المضار على سبيل القطع حذرا من ضرر قليل موهوم لا شك أنه سفاهة.

والنوع الثالث: قوله: بغير علم فالمقصود أن هذه السفاهة إنما تولدت من عدم العلم ولا شك أن الجهل أعظم المنكرات والقبائح.

والنوع الرابع: تحريم ما أحل الله لهم وهو أيضا من أعظم أنواع الحماقة لأنه يمنع نفسه تلك **المنافع** والطيبات ويستوجب بسبب ذلك المنع أعظم أنواع العذاب والعقاب.

والنوع الخامس: الافتراء على الله ومعلوم أن الجراءة على الله والافتراء عليه أعظم الذنوب وأكبر الكبائر.

والنوع السادس: الضلال عن الرشد في مصالح الدين ومنافع الدنيا.

والنوع السابع: أنهم ما كانوا مهتدين والفائدة فيه أنه قد يضل الإنسان عن الحق إلا أن يعود إلى الاهتداء فبين تعالى أنهم قد ضلوا ولم يحصل لهم الاهتداء قط فثبت أنه تعالى ذم الموصوفين بقتل الأولاد وتحريم ما أحله الله تعالى لهم بهذه الصفات السبعة الموجبة لأعظم أنواع الذم وذلك نهاية المبالغة.." (١)

"مثل القرع والبطيخ. والثالث: المعروشات ما يحتاج إلى أن يتخذ له عريش يحمل عليه فيمسكه وهو الكرم وما يجري مجراه وغير المعروش هو القائم من الشجر المستغني باستوائه وذهابه علوا لقوة ساقه عن التعريش.

والرابع: المعروشات ما يحصل في البساتين/ والعمرانات مما يغرسه الناس واهتموا به فعرشوه: وغير معروشات مما أنبته الله تعالى وحشيا في البراري والجبال فهو غير معروش وقوله: والنخل والزرع فسر ابن عباس الزرع هاهنا بجميع الحبوب التي يقتات بها مختلفا أكله أي لكل شيء منها طعم غير طعم الآخر: والأكل كل ما أكل وهاهنا المراد ثمر النخل والزرع ومضى القول في: الأكل عند قوله: فآتت أكلها ضعفين [البقرة: ٢٦٥] وقوله: مختلفا نصب على الحال أي أنشأه في حال اختلاف أكله وهو قد أنشأه من قبل ظهور أكله وأكل ثمره.

الجواب: أنه تعالى أنشأها حال اختلاف ثمرها وصدق هذا لا ينافي صدق أنه تعالى أنشأها قبل ذلك أيضا وأيضا نصب على الحال مع أنه يؤكل بعد ذلك بزمان لأن اختلاف أكله مقدر كما تقول: مررت برجل معه صقر صائدا به غدا أي مقدرا للصيد به غدا. وقرأ ابن كثير ونافع: أكله بتخفيف الكاف والباقون: أكله في كل القرآن وأما توحيد الضمير في قوله: مختلفا أكله فالسبب فيه: أنه اكتفى بإعادة الذكر على أحدهما من إعادته عليهما جميعا كقوله تعالى: وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها [الجمعة: ١١] والمعنى: إليهما وقوله: والله ورسوله أحق أن يرضوه [التوبة: ٦٢] .

وأما قوله: متشابها وغير متشابه فقد سبق تفسيره في الآية المتقدمة.

ثم قال تعالى: كلوا من ثمره إذا أثمر وفيه مباحث.

البحث الأول: أنه تعالى لما ذكر كيفية خلقه لهذه الأشياء ذكر ما هو المقصود الأصلي من خلقها وهو انتفاع المكلفين بها فقال: كلوا من ثمره واختلفوا ما الفائدة منه؟ فقال بعضهم: الإباحة. وقال آخرون: بل المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق لأنه تعالى لما أوجب الحق فيه كان يجوز أن يحرم على المالك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦١/١٣

تناوله لمكان شركة المساكين فيه بل هذا هو الظاهر فأباح تعالى هذا الأكل وأخرج وجوب الحق فيه من أن يكون مانعا من هذا التصرف. وقال بعضهم: بل أباح تعالى ذلك ليبين أن المقصد بخلق هذه النعم إما الأكل وإما التصدق وإنما قدم ذكر الأكل على التصدق لأن رعاية النفس مقدمة على رعاية الغير قال تعالى: ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك [القصص: ٧٧] .

البحث الثاني: تمسك بعضهم بقوله: كلوا من ثمره إذا أثمر بأن الأصل في **المنافع** الإباحة والإطلاق لأن قوله: كلوا خطاب عام يتناول الكل فصار هذا جاريا مجرى قوله تعالى: خلق لكم ما في الأرض جميعا [البقرة: ٢٩] وأيضا يمكن التمسك به على أن الأصل عدم وجوب الصدقة وأن من ادعى إيجابه كان هو المحتاج إلى الدليل فيتمسك به في أن المجنون إذا أفاق في أثناء الشهر لا يلزمه قضاء ما مضى وفي أن الشارع في صوم النفل لا يجب عليه الإتمام.

البحث الثالث: قوله: كلوا من ثمره يدل على أن صيغة الأمر قد ترد في غير موضع الوجوب وفي غير موضع الندب وعند هذا قال بعضهم: الأصل في الاستعمال الحقيقة فوجب جعل هذه الصيغة مفيدة لرفع الحجر فلهذا قالوا: الأمر مقتضاه الإباحة إلا أنا نقول: نعلم بالضرورة من لغة العرب أن هذه الصيغة تفيد." (١)

"أما قوله تعالى: ولا تسرفوا فاعلم أن لأهل اللغة في تفسير الإسراف قولين: الأول: قال ابن الأعرابي: السرف تجاوز ما حد لك. الثاني: قال شمر: سرف المال ما ذهب منه من غير منفعة.

إذا عرفت هذا فنقول: للمفسرين فيه أقوال: الأول: أن الإنسان إذا أعطى كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئا فقد أسرف لأنه

جاء في الخبر، «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» .

وروي أن ثابت بن قيس بن شماس عمد إلى خمسمائة نخلة فجذها ثم قسمها في يوم واحد ولم يدخل منها إلى منزله شيئا فأنزل الله تعالى قوله: وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا أي ولا تعطوا كله. والثاني: قال سعيد بن المسيب: لا تسرفوا أي لا تمنعوا الصدقة وهذان القولان يشتركان في أن المراد من الإسراف مجاوزة الحد إلا أن الأول مجاوزة في الإعطاء والثاني: مجاوزة في المنع. الثالث: قال مقاتل: معناه: لا تشركوا الأصنام في الحرث والأنعام وهذا أيضا من باب المجاوزة لأن من أشرك الأصنام في الحرث والأنعام فقد جاوز ما حد له. الرابع: قال الزهري معناه: لا تنفقوا في معصية الله تعالى. قال مجاهد: لو كان أبو قبيس ذهبا فأنفقه رجل في طاعة الله تعالى لم يكن مسرفا ولو أنفق درهما في معصية الله كان مسرفا. وهذا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦٣/١٣

المعنى أراده حاتم الطائي حين قيل: له: لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير وهذا على القول الثاني في معنى السرف فإن من أنفق/ في معصية الله فقد أنفق فيما لا نفع فيه.

ثم قال تعالى: إنه لا يحب المسرفين والمقصود منه الزجر لأن كل مكلف لا يحبه الله تعالى فهو من أهل النار والدليل عليه قوله تعالى: وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم [المائدة: ١٨] فدل هذا على أن كل من أحبه الله فليس هو من أهل النار وذلك يفيد من بعض الوجوه أن من لم يحبه الله فهو من اهل النار.

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤٢ الى ١٤٤]

ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين (١٤٢) ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صادقين (١٤٣) ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين (١٤٤)

اعلم أنه تعالى لما ذكر كيفية إنعامه على عباده بالمنافع النباتية أتبعها بذكر إنعامه عليهم بالمنافع الحيوانية. فقال: ومن الأنعام حمولة وفرشا وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: «الواو» في قوله: ومن الأنعام حمولة وفرشا توجب العطف على ما تقدم/ من قوله: وهو الذي أنشأ جنات معروشات [الانعام: ١٤١] والتقدير: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشا وكثر أقوالهم في تفسير الحمولة والفرش وأقربها إلى التحصيل وجهان: الأول: أن الحمولة ما تحمل الأثقال والفرش ما يفرش للذبح أو ينسج من وبره وصوفه وشعره." [١]

"لكون الإنسان ظالما بآيات الله إلا كونه كافرا بها منكرا لها فدل هذا على أن المراد من هذه الآية أهل الكفر وأما الخبر فما

روي أنه إذا خفت حسنات المؤمن أخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حجرته بطاقة كالأنملة فيلقيها في كفة الميزان اليمنى التي فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأبي أنت وأمي ما أحسن وجهك وأحسن خلقك فمن أنت؟ فيقول: «أنا نبيك محمد

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦٥/١٣

وهذه صلاتك التي كنت تصلي علي قد وفيتك أحوج ما تكون إليها» وهذا الخبر رواه الواحدي في «البسيط»

وأما

جمهور العلماء فرووا هاهنا الخبر الذي ذكرناه من أنه تعالى يلقي في كفة الحسنات الكتاب المشتمل على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

قال القاضي: يجب أن يحمل هذا على أنه أتى بالشهادتين بحقهما من العبادات لأنه لو لم يعتبر ذلك لكان من أتى بالشهادتين يعلم أن المعاصي لا تضره وذلك إغراء بمعصية الله تعالى.

ولقائل أن يقول: العقل يدل على صحة ما دل عليه هذا الخبر وذلك أن العمل كلما كان. أشرف وأعلى درجة وجب أن يكون أكثر ثوابا ومعلوم أن معرفة الله تعالى ومحبته أعلى شأنا وأعظم درجة من سائر الأعمال فوجب أن يكون أوفى ثوابا وأعلى درجة من سائر الأعمال. وأما الأثر فلأن ابن عباس وأكثر المفسرين حملوا هذه الآية على أهل الكفر.

وإذا ثبت هذا الأصل فنقول: إن المرجئة الذين يقولون المعصية لا تضر مع الإيمان تمسكوا بهذه الآية وقالوا إنه تعالى حصر أهل موقف القيامة في قسمين: أحدهما: الذين رجحت كفة حسناتهم وحكم عليهم بالفلاح. والثاني: الذين رجحت كفة سيئاتهم وحكم عليهم بأنهم أهل الكفر الذين كانوا يظلمون بآيات الله وذلك يدل على أن المؤمن لا يعاقب ألبتة. ونحن نقول في الجواب: أقصى ما في الباب أنه تعالى لم يذكر هذا القسم الثالث في هذه الآية إلا أنه تعالى ذكره في سائر الآيات فقال: ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء [النساء:

١١٦] والمنطوق راجح على المفهوم فوجب المصير إلى إثباته وأيضا فقال تعالى في هذا القسم: فأولئك الذين خسروا أنفسهم ونحن نسلم أن هذا لا يليق إلا بالكافر وأما العاصي المؤمن فإنه يعذب أياما ثم يعفى عنه ويتخلص إلى رحمة الله تعالى فهو في الحقيقة ما خسر نفسه بل فاز برحمة الله أبد الآباد من غير زوال وانقطاع. والله اعلم.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٠]

ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون (١٠)

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما أمر الخلق بمتابعة الأنبياء عليهم السلام وبقبول دعوتهم ثم خوفهم

بعذاب الدنيا وهو قوله: وكم من قرية أهلكناها [الأعراف: ٤] ثم خوفهم بعذاب الآخرة من وجهين: أحدهما: السؤال وهو قوله: فلنسئلن الذين أرسل إليهم [الأعراف: ٦] والثاني: بوزن الأعمال وهو قوله: والوزن يومئذ الحق [الأعراف: ٨] رغبهم في قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام في هذه الآية بطريق آخر وهو أنه كثرت نعم الله عليهم وكثرة النعم توجب الطاعة فقال: ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش فقوله: مكناكم في الأرض أي جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا ومكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها وجعلنا لكم فيها معايش والمراد من المعايش: وجوه **المنافع** وهي على قسمين منها ما يحصل بخلق الله تعالى ابتداء مثل خلق السماء وغيرها ومنها ما يحصل بالاكتساب وكلاهما في الحقيقة إنما حصل." (١)

"والسائبة فأنزل الله تعالى هذه الآية بيانا لفساد قولهم في هذا الباب.

واعلم أن قوله: وكلوا واشربوا مطلق يتناول الأوقات والأحوال ويتناول جميع المطعومات والمشروبات فوجب أن يكون الأصل فيها هو الحل في كل الأوقات وفي كل المطعومات والمشروبات إلا ما خصه الدليل المنفصل والعقل أيضا مؤكد له لأن الأصل في **المنافع** الحل والإباحة.

وأما قوله تعالى: ولا تسرفوا ففيه قولان:

القول الأول: أن يأكل ويشرب بحيث لا يتعدى إلى الحرم ولا يكثر الإنفاق المستقبح ولا يتناول مقدارا كثيرا يضره ولا يحتاج إليه:

والقول الثاني: وهو قول أبي بكر الأصم: إن المراد من الإسراف قولهم بتحريم البحيرة والسائبة فإنهم أخرجوها عن ملكهم وتركوا الانتفاع بها وأيضا إنهم حرموا على أنفسهم في وقت الحج أيضا أشياء أحلها الله تعالى لهم وذلك إسراف.

واعلم أن حمل لفظ الإسراف على الاستكثار مما لا ينبغي أولى من حمله على المنع من لا يجوز وينبغي.

ثم قال تعالى: إنه لا يحب المسرفين وهذا نهاية التهديد لأن كل ما لا يحبه الله تعالى بقي محروما عن الثواب لأن معنى محبة الله تعالى العبد إيصاله الثواب إليه فعدم هذه المحبة عبارة عن عدم حصول الثواب ومتى لم يحصل الثواب فقد حصل العقاب لانعقاد الإجماع على أنه ليس في الوجود مكلف لا يثاب ولا يعاقب.

ثم قال تعالى: قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق وفيه مسائل:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤/٢٠٤

المسألة الأولى: إن هذه الآية ظاهرها استفهام إلا أن المراد منه تقرير الإنكار والمبالغة في تقرير ذلك الإنكار وفي الآية قولان:

القول الأول: إن المراد من الزينة في هذه الآية اللباس الذي تستر به العورة وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وكثير من المفسرين.

والقول الثاني: إنه يتناول جميع أنواع الزينة فيدخل تحت الزينة جميع أنواع التزيين ويدخل تحتها تنظيف البدن من جميع الوجوه ويدخل تحتها المركوب ويدخل تحتها أيضا أنواع الحلي لأن كل ذلك زينة ولولا النص الوارد في تحريم الذهب والفضة والإبريسم على الرجال لكان ذلك داخلا تحت هذا العموم ويدخل تحت الطيبات من الرزق كل ما يستلذ ويشتهى من أنواع المأكولات والمشروبات ويدخل أيضا تحته التمتع بالنساء وبالطيب.

وروي عن عثمان بن مظعون: أنه أتى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقال: غلبني حديث النفس عزمت على أن أختصي فقال: «مهلا يا عثمان إن خصاء أمتي الصيام» قال: فإن نفسي تحدثني بالترهب. قال: «إن ترهب أمتي القعود في المساجد لانتظار الصلاة فقال: تحدثني نفسي بالسياحة» . فقال: «سياحة أمتي الغزو والحج والعمرة» فقال: إن نفسي تحدثني أن أخرج مما أملك فقال: «الأولى أن تكفي نفسك وعيالك وأن ترحم اليتيم والمسكين فتعطيه أفضل من ذلك» فقال: إن نفسي تحدثني أن أطلق خولة فقال: «إن الهجرة في." (١)

"أمتي هجرة ما حرم الله» قال: فإن نفسي تحدثني أن لا أغشاها. قال: «إن المسلم إذا غشي أهله أو ما ملكت يمينه فإن لم يصب من وقعته تلك ولدا كان له وصيف في الجنة وإذا كان له ولد مات قبله أو بعده كان له قرة عين وفرح يوم القيامة وإن مات قبل أن يبلغ الحنث كان له شفيعا ورحمة يوم القيامة» قال: فإن نفسي تحدثني أن لا آكل اللحم قال: «مهلا إني آكل اللحم إذا وجدته ولو سألت الله أن يطعمنيه كل يوم فعله» قال: فإن نفسي تحدثني أن لا أمس الطيب. قال: «مهلا فإن جبريل أمرني بالطيب غبا وقال لا تتركه يوم الجمعة» ثم قال: «يا عثمان لا ترغب عن سنتي فإن من رغب عن سنتي ومات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي» .

واعلم أن هذا الحديث يدل على أن هذه الشريعة الكاملة تدل على أن جميع أنواع الزينة مباح مأذون فيه إلا ما خصه الدليل فلهذا السبب أدخلنا الكل تحت قوله: قل من حرم زينة الله.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣٠/١٤

المسألة الثانية: مقتضى هذه الآية أن كل ما تزين الإنسان به وجب أن يكون حلالا وكذلك كل ما يستطاب وجب أن يكون حلالا فهذه الآية تقتضي حل كل **المنافع** وهذا أصل معتبر في كل الشريعة لأن كل واقعة تقع فإما أن يكون النفع فيها خالصا أو راجحا أو الضرر يكون/ خالصا أو راجحا أو يتساوى الضرر والنفع أو يرتفعا. أما القسمان الأخيران وهو أن يتعادل الضرر والنفع أو لم يوجدا قط ففي هاتين الصورتين وجب الحكم ببقاء ما كان على ما كان وإن كان النفع خالصا وجب الإطلاق بمقتضى هذه الآية وإن كان النفع راجحا والضرر مرجوحا يقابل المثل بالمثل ويبقى القدر الزائد نفعا خالصا فيلتحق بالقسم الذي يكون النفع فيه خالصا وإن كان الضرر خالصا كان تركه خالص النفع، فيلتحق بالقسم المتقدم وإن كان الضرر راجحا بقي القدر الزائد ضررا خالصا فكان تركه نفعا خالصا، فبهذا الطريق صارت هذه الآية دالة على الأحكام التي لا نهاية لها في الحل والحرمة ثم إن وجدنا نصا خالصا في الواقعة قضينا في النفع بالحل وفي الضرر بالحرمة وبهذا الطريق صار جميع الأحكام التي لا نهاية لها داخلا تحت النص ثم قال نفاة القياس فلو تعبدنا الله تعالى بالقياس لكان حكم ذلك القياس إما أن يكون موافقا لحكم هذا النص العام وحينئذ يكون ضائعا لأن هذا النص مستقل به وإن كان مخالفا كان ذلك القياس مخصصا لعموم هذا النص فيكون مردودا لأن العمل بالنص أولى من العمل بالقياس. قالوا: وبهذا الطريق يكون القرآن وحده وافيا ببيان كل أحكام الشريعة ولا حاجة معه إلى طريق آخر فهذا تقرير قول من يقول: القرآن واف ببيان جميع الوقائع والله أعلم.

وأما قوله تعالى: قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: تفسير الآية هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا غير خالصة لهم لأن المشركين شركاؤهم فيها خالصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد.

فإن قيل: هلا قيل للذين آمنوا ولغيرهم؟

قلنا: فهم منه التنبيه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة وأن الكفرة تبع لهم كقوله تعالى: ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار [البقرة: ١٢٦] والحاصل: إن ذلك تنبيه على أن هذه النعم إنما تصفوا عن شوائب الرحمة يوم القيامة أما في الدنيا فإنها تكون مكدرة مشوبة.." (١)

"هؤلاء الكفار بأنهم اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وفيه وجهان:

الوجه الأول: أن الذي اعتقدوا فيه أنه دينهم تلاعبوا به وما كانوا فيه مجدين.

والوجه الثاني: أنهم اتخذوا اللهو واللعب دينا لأنفسهم قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد المستهزئين

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣١/١٤

المقتسمين. ثم قال: وغرتهم الحياة الدنيا وهو مجاز لأن الحياة الدنيا لا تغر في الحقيقة بل المراد أنه حصل الغرور عند هذه الحياة الدنيا لأن الإنسان يطمع في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال وقوة الجاه فلشدة رغبته في هذه الأشياء يصير محجوبا عن طلب الدين غرقا في طلب الدنيا ثم لما وصف الله تعالى أولئك الكفار بهذه الصفات قال: فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وفي تفسير هذا النسيان قولان: القول الأول: أن النسيان هو الترك. والمعنى: نتركهم في عذابهم كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا وهذا قول الحسن ومجاهد والسدي والأكثرين.

والقول الثاني: أن معنى ننساهم كما نسوا أي نعاملهم معاملة من نسي نتركهم في النار كما فعلوا هم في الإعراض بآياتنا وبالجملة فسمى الله جزاء نسيانهم بالنسيان كما في قوله: وجزاء سيئة سيئة مثلها [الشورى: ٤٠] والمراد من هذا النسيان أنه لا يجيب دعاءهم ولا يرحمهم ثم بين تعالى أن كل هذه التشديدات إنما كان لأنهم كانوا بآياتنا يجحدون وهذه الآية لطيفة عجيبة وذلك لأنه تعالى وصفهم بكونهم كانوا كافرين ثم بين من حالهم أنهم اتخذوا دينهم لهوا أولا ثم لعبا ثانيا ثم غرتهم الحياة الدنيا ثالثا ثم صار عاقبة هذه الأحوال والدرجات أنهم جحدوا بآيات الله وذلك يدل على أن حب الدنيا مبدأ كل آفة كما

قال عليه الصلاة والسلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»

وقد يؤدي حب الدنيا إلى الكفر والضلال.

[سورة الأعراف (٧) : آية ٥٢]

ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون (٥٢)

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف ثم شرح الكلمات الدائرة بين هؤلاء الفرق الثلاث على وجه يصير سماع تلك المناظرات حاملا للمكلف على الحذر والاحتراز وداعيا له إلى النظر والاستدلال بين شرف هذا الكتاب الكريم ونهاية منفعته فقال: ولقد جئناهم بكتاب وهو القرآن فصلناه أي ميزنا بعضه عن بعض تمييزا يهدي إلى الرشد ويؤمن عن الغلط والخبط فأما قوله: على علم فالمراد أن ذلك التفصيل والتمييز إنما حصل مع العلم التام بما في كل فصل من تلك الفصول من الفوائد المتكاثرة والمنافع المتزايدة وقوله: هدى ورحمة قال الزجاج: هدى في موضع نصب أي فصلناه هاديا وذا رحمة وقوله: لقوم يؤمنون يدل على أن القرآن جعل هدى لقوم مخصوصين والمراد أنهم هم الذين اهتدوا به دون غيرهم فهو كقوله تعالى في أول سورة البقرة: هدى للمتقين [البقرة: ٢] واحتج أصحابنا بقوله: فصلناه على علم على أنه تعالى عالم بالعلم خلافا لما يقوله المعتزلة من انه ليس الله علم. والله اعلم.

[سورة الأعراف (٧) : آية ٥٣]

هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٥٣)."

(١)

"لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما [الفرقان:

٥٨ ٥٩] وقال: ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام [ق: ٣٨] .

وأما السؤال الخامس: فجوابه أن المراد أنه تعالى خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام وهو كقوله: لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا [مريم: ٦٢] والمراد على مقدار البكرة والعشي في الدنيا لأنه لا ليل ثم ولا نهار.

وأما السؤال السادس: فجوابه أن قوله: وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر [القمر: ٥٠] محمول على إيجاد كل واحد من الذوات وعلى إعدام كل واحد منها لأن إيجاد الذات الواحدة وإعدام الموجود الواحد لا يقبل التفاوت فلا يمكن تحصيله إلا دفعة واحدة وأما الإمهال والمدة فذاك لا يحصل إلا في المدة.

وأما السؤال السابع: وهو تقدير هذه المدة بستة أيام فهو غير وارد لأنه تعالى لو أحدثه في مقدار آخر من الزمان لعاد ذلك السؤال وأيضا قال بعضهم لعدد السبعة شرف عظيم وهو مذكور في تقرير أن ليلة القدر هي ليلة السابع والعشرين وإذا ثبت هذا قالوا: فالأيام الستة في تخليق العالم واليوم السابع في حصول كمال الملك والملكوت وبهذا الطريق حصل الكمال في الأيام السبعة انتهى.

المسألة الرابعة: في هذه الآية بشارة عظيمة للعقلاء لأنه قال: إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض والمعنى أن الذي يربيكم ويصلح شأنكم ويوصل إليكم الخيرات ويدفع عنكم المكروهات/ هو الذي بلغ كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته إلى حيث خلق هذه الأشياء العظيمة وأودع فيها أصناف المنافع وأنواع الخيرات ومن كان له مرب موصوف بهذه الحكمة والقدرة والرحمة فكيف يليق أن يرجع إلى غيره في طلب الخيرات أو يعول على غيره في تحصيل السعادات؟ ثم في الآية دقيقة أخرى فإنه لم يقل أنتم عبيده بل قال هو ربكم ودقيقة أخرى وهي أنه تعالى لما نسب نفسه إلينا سمى نفسه في هذه الحالة بالرب وهو مشعر

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥٣/١٤

بالتربية وكثرة الفضل والإحسان فكأنه يقول من كان له مرب مع كثرة هذه الرحمة والفضل فكيف يليق به أن يشتغل بعبادة غيره؟

أما قوله تعالى: ثم استوى على العرش فاعلم أنه لا يمكن أن يكون المراد منه كونه مستقرا على العرش ويدل على فساده وجوه عقلية ووجوه نقلية. أما العقلية فأمور: أولها: أنه لو كان مستقرا على العرش لكان من الجانب الذي يلي العرش متناهيا وإلا لزم كون العرش داخلا في ذاته وهو محال وكل ما كان متناهيا فإن العقل يقضي بأنه لا يمنع أن يصير أزيد منه أو أنقص منه بذرة والعلم بهذا الجواز ضروري فلو كان الباري تعالى متناهيا من بعض الجوانب لكانت ذاته قابلة للزيادة والنقصان وكل ما كان كذلك كان اختصاصه بذلك المقدار المعين لتخصيص مخصص وتقدير مقدر وكل ما كان كذلك فهو محدث فثبت أنه تعالى لو كان على العرش لكان من الجانب الذي يلي العرش متناهيا ولو كان كذلك لكان محدثا وهذا محال فكونه على العرش يجب أن يكون محالا. وثانيها: لو كان في مكان وجهة لكان إما أن يكون غير متناه من كل الجهات وإما أن يكون متناهيا في كل الجهات. وإما أن يكون متناهيا من بعض الجهات دون البعض والكل باطل فالقول بكونه في المكان والحيز باطل قطعا.

بيان فساد القسم الأول: أنه يلزم أن تكون ذاته مخالطة لجميع الأجسام السفلية والعلوية وأن تكون." (١)

"أنه تعالى استعلى على الملك بمعنى أن قدرته نفذت في ترتيب الملك والملكوت واعلم أنه تعالى ذكر قوله:

استوى على العرش في سور سبع. احداها: هاهنا. وثانيها: في يونس. وثالثها: في الرعد. ورابعها: في طه. وخامسها: في الفرقان. وسادسها: في السجدة. وسابعها: في الحديد وقد ذكرنا في كل موضع فوائد كثيرة فمن ضم تلك الفوائد بعضها إلى بعض كثرت وبلغت مبلغا كثيرا وافيا بإزالة شبه التشبيه عن القلب والخاطر.

أما قوله: يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص يغشي بتخفيف الغين وفي الرعد هكذا، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم برواية أبي بكر بالتشديد، وفي الرعد هكذا. قال الواحدي رحمه الله: الإغشاء والتغشية إلباس الشيء بالشيء، وقد جاء التنزيل بالتشديد والتخفيف فمن التشديد قوله تعالى: فغشاها ما غشى [النجم: ٥٤] ومن اللغة الثانية قوله: فأغشيناهم فهم لا يبصرون [يس: ٩] والمفعول الثاني محذوف على معنى فأغشيناهم العمى وفقد الرؤية.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥٨/١٤

المسألة الثانية: قوله: يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا يحتمل أن يكون المراد يلحق الليل بالنهار وأن يكون المراد النهار بالليل واللفظ يحتملهما معا وليس فيه تغيير، والدليل على الثاني قراءة حميد بن قيس يغشى الليل النهار بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار أي يدرك النهار الليل ويطلبه قال القفال رحمه الله:

إنه سبحانه لما أخبر عباده باستوائه على العرش عن استمرار أصعب المخلوقات على وفق مشيئته أراهم ذلك عيانا فيما يشاهدونه منها ليضم العيان إلى الخبر وتزول الشبه عن كل الجهات فقال: يغشي الليل النهار لأنه تعالى أخبر في هذا الكتاب الكريم بما في تعاقب الليل والنهار من **المنافع** العظيمة والفوائد الجليلة، فإن بتعاقبهما يتم أمر الحياة، وتكمل المنفعة المصلحة.

المسألة الثالثة: قوله: يطلبه حثيثا قال الليث: الحث: الإعجال، يقال: حثثت فلانا فاحتث، فهو حثيث ومحثوث، أي مجد سريع.

واعلم أنه سبحانه وصف هذه الحركة بالسرعة والشدة، وذلك هو الحق، لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم وتلك الحركة أشد الحركات سرعة، وأكملها شدة، حتى إن الباحثين عن أحوال الموجودات. قالوا: الإنسان إذا كان في العدو الشديد الكامل، فإلى أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل، وإذا كان الأمر كذلك كانت تلك الحركة في غاية الشدة والسرعة، فلهذا السبب قال تعالى: يطلبه حثيثا ونظير هذه الآية قوله سبحانه: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون [يس: ٤٠] فشبه ذلك السير وتلك الحركة بالسباحة في الماء والمقصود: التنبيه على سرعتها وسهولتها وكمال إيصالها.

ثم قال تعالى: والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر والشمس والقمر والنجوم مسخرات بالرفع على معنى الابتداء والباقون بالنصب على معنى وجعل الشمس والقمر، قال الواحدي والنصب هو الوجه لقوله تعالى: واسجدوا لله الذي خلقهن [فصلت: ٣٧] فكما صرح في هذه الآية أنه سخر الشمس والقمر كذلك يجب أن يحمل على أنه خلقها." (١)

"ونهيه، فإن يكون معاقبا، والمعتزلة تمسكوا بهذه الآية على القطع بوعيد/ الفساق، وقالوا لا يجوز أن يقال المراد منه الاعتداء في رفع الصوت بالدعاء وبيانه من وجهين: الأول: أن لفظ المعتدين لفظ عام دخله الألف واللام، فيفيد الاستغراق غايته أنه إنما ورد في هذه الصورة لكنه ثبت أن العبرة بعموم اللفظ لا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤/٢٧١

بخصوص السبب. الثاني: أن رفع الصوت بالدعاء ليس من المحرمات بل غايته أن يقال الأولى تركه، وإذا لم يكن من المحرمات لم يدخل تحت هذا الوعيد.

والجواب المستقصى ما ذكرناه في سورة البقرة أن التمسك بهذه العمومات لا يفيد القطع بالوعيد.

ثم قال تعالى: ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها معناه ولا تفسدوا شيئا في الأرض، فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس بالقتل وبقطع الأعضاء، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ووجوه الحيل، وإفساد الأديان بالكفر والبدعة، وإفساد الأنساب بسبب الإقدام على الزنا واللواطة وسبب القذف، وإفساد العقول بسبب شرب المكسرات، وذلك لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة: النفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول. فقوله: ولا تفسدوا منع عن إدخال ماهية الإفساد في الوجود، والمنع من إدخال الماهية في الوجود يقتضي المنع من جميع أنواعه وأصنافه، فيتناول المنع من الإفساد في هذه الأقسام الخمسة، وأما قوله: بعد إصلاحها فيحتمل أن يكون المراد بعد أن أصلح خلقتها على الوجه المطابق لمنافع الخلق والموافق لمصالح المكلفين، ويحتمل أن يكون المراد بعد إصلاح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب كأنه تعالى قال: لما أصلحت مصالح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب وتفصيل الشرائع فكونوا منقادين لها، ولا تقدموا على تكذيب الرسل وإنكار الكتب والتمرد عن قبول الشرائع، فإن ذلك يقتضي وقوع الهرج والمرج في الأرض، فيحصل الإفساد بعد الإصلاح، وذلك مستكره في بداهة العقول.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن الأصل في المضار الحرمة والمنع على الإطلاق.

إذا ثبت هذا فنقول: إن وجدنا نصا خاصا دل على جواز الإقدام على بعض المضار قضينا به تقديما للخاص على العام وإلا بقي على التحريم الذي دل عليه هذا النص.

واعلم أنا كنا قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق [الأعراف: ٣٢] أن هذه الآية تدل على أن الأصل في المنافع واللذات الإباحة والحل، ثم بينا أنه لما كان الأمر كذلك دخل تحت تلك الآية جميع أحكام الله تعالى، فكذلك في هذه الآية أنها تدل/ على أن الأصل في المضار والآلام، الحرمة.

وإذا ثبت هذا كان جميع أحكام الله تعالى داخلا تحت عموم هذه الآية، وجميع ما ذكرناه من المباحث واللطائف في تلك الآية فهي موجودة في هذه الآية، فتلك الآية دالة على أن الأصل في المنافع الحل،

وهذه الآية دالة على أن الأصل في جميع المضار الحرمة، وكل واحدة من هاتين الآيتين مطابقة للأخرى مؤكدة لمدلولها مقررة لمعناها، وتدل على أن أحكام جميع الوقائع داخلة تحت هذه العمومات، وأيضا هذه الآية دالة على أن كل عقد وقع التراضي عليه بين الخصمين، فإنه انعقد وصح وثبت، لأن رفعه بعد ثبوته يكون إفسادا بعد الإصلاح، والنص دل على أنه لا يجوز.." (١)

"أمينا. فالفرق أن نوحا عليه السلام كان أعلى شأنا وأعظم منصبا في النبوة من هود فلم يبعد أن يقال: إن نوحا كان يعلم من أسرار حكم الله وحكمته ما لم يصل إليه هود فلهذا السبب أمسك هود لسانه عن ذكر تلك الكلمة واقتصر على أن وصف نفسه بكونه أمينا: ومقصود منه أمور: أحدها: الرد عليهم في قولهم: وإنا لنظنك من الكاذبين وثانيها: أن مدار أمر الرسالة والتبليغ عن الله على الأمانة فوصف نفسه بكونه أمينا تقريرا للرسالة والنبوة. وثالثها: كأنه قال لهم: كنت قبل هذه الدعوى أمينا فيكم ما وجدتم مني غدرا ولا مكرا ولا كذبا واعترفتم لي بكوني أمينا فكيف نسبتموني الآن إلى الكذب؟

/ واعلم أن الأمين هو الثقة وهو فعيل من أمن يأمن أمنا فهو آمن وأمين بمعنى واحد.

واعلم أن القوم لما قالوا له: إنا لنراك في سفاهة فهو لم يقابل سفاهتهم بالسفاهة بل قابلها بالحلم والإغضاء ولم يزد على قوله: ليس بي سفاهة وذلك يدل على أن ترك الانتقام أولى كما قال: وإذا مروا باللغو مروا كراما [الفرقان: ٧٢] .

أما قوله: ولكني رسول من رب العالمين فهو مدح للنفس بأعظم صفات المدح. وإنما فعل ذلك لأنه كان يجب عليه إعلام القوم بذلك وذلك يدل على أن مدح الإنسان نفسه إذا كان في موضع الضرورة جائز.

والفرق السادس: بين القصتين أن نوحا عليه السلام قال: أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون [الأعراف: ٦٣] وفي قصة هود أعاد هذا الكلام بعينه إلا أنه حذف منه قوله: ولتتقوا ولعلكم ترحمون والسبب فيه أنه لما ظهر في القصة الأولى أن فائدة الإنذار هي حصول التقوى الموجبة للرحمة لم يكن إلى إعادته في هذه القصة حاجة وأما بعد هذه الكلمة فكله من خواص قصة هود عليه السلام وهو قوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام: واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح [الأعراف: ٦٩] .

[في قوله تعالى أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم إلى آخر الآية] واعلم أن الكلام في الخلفاء والخلائف والخليفة قد مضى في مواضع والمقصود منه أن تذكر النعم العظيمة يوجب الرغبة والمحبة وزوال النفرة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨٣/١٤

والعداوة وقد ذكر هود عليه السلام هاهنا نوعين من الإنعام:
الأول: أنه تعالى جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وذلك بأن أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وما يتصل بها من **المنافع** والمصالح. والثاني: قوله: وزادكم في الخلق بصطة وفيه مباحث:
البحث الأول: الخلق في اللغة عبارة عن التقدير فهذا اللفظ إنما ينطلق على الشيء الذي له مقدار وجثة وحجمية فكان المراد حصول الزيادة في أجسامهم ومنهم من حمل هذا اللفظ على الزيادة في القوة وذلك لأن القوى والقدر متفاوتة فبعضها أعظم وبعضها أضعف.
إذا عرفت هذا فنقول: لفظ الآية يدل على حصول الزيادة واعتداد تلك الزيادة فليس في اللفظ البتة ما يدل عليه إلا أن العقل يدل على أن تلك الزيادة يجب أن تكون زيادة عظيمة واقعة على خلاف المعتاد وإلا لم يكن لتخصيصها بالذكر في معرض الأنعام فائدة. قال الكلبي: كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعا وقال آخرون: تلك الزيادة هي مقدار ما تبلغه يدا إنسان إذا رفعهما ففضلوا على أهل زمانهم بهذا القدر وقال قوم يحتمل أن يكون المراد من قوله: وزادكم في الخلق بصطة كونهم من قبيلة واحدة متشاركين في القوة." (١)

"حصول هذا العمل بين الرجل والمرأة فإنه يوجب استحكام الألفة والمودة وحصول المصالح الكبيرة كما قال تعالى: خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة [الروم: ٢١] .
والوجه السادس: أنه تعالى أودع في الرحم قوة شديدة الجذب للمني فإذا واقع الرجل المرأة قوي الجذب فلم يبق شيء من المني في المجاري إلا وينفصل. أما إذا واقع الرجل فلم يحصل في ذلك العضو المعين من المفعول قوة جاذبة للمني وحينئذ لا يكمل الجذب فيبقى شيء من أجزاء المني في تلك المجاري ولا ينفصل ويعفن ويفسد ويتولد منه الأورام الشديدة والأسقام العظيمة وهذه فائدة لا يمكن معرفتها إلا بالقوانين الطبية فهذه هي الوجوه الموجبة لقبح هذا العمل ورأيت بعض من كان ضعيفا في الدين يقول: إنه تعالى قال: والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم [المؤمنون: ٥ المعارج: ٢٩] وذلك يقتضي حل وطء المملوك مطلقا سواء كان ذكرا أو أنثى قال: ولا يمكن أن يقال إنا نخصص هذا العموم بقوله تعالى: أتأتون الذكران من العالمين [الشعراء: ١٦٥] وقوله: أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين [الأعراف: ٨٠] قال لأن هاتين الآيتين كل واحد منهما أعم من الأخرى من وجه وأخص من وجه وذلك لأن المملوك قد يكون ذكرا وقد يكون أنثى وأيضا الذكر قد يكون مملوكا وقد لا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٠١/١٤

يكون مملوكا وإذا كان الأمر كذلك لم يكن تخصيص إحداهما بالأخرى أولى من العكس والترجيح من هذا الجانب لأن قوله: إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم شرع محمد وقصة لوط شرع سائر الأنبياء وشرع محمد عليه الصلاة والسلام أولى من شرع من تقدمه من الأنبياء وأيضا الأصل في **المنافع** والملاذ الحل وأيضا الملك مطلق للتصرف. فقل له الاستدلال إنما يقبل في موضع الاحتمال وقد ثبت بالتواتر الظاهر من دين محمد حرمة هذا العمل والمبالغة في المنع منه والاستدلال إذا وقع في مقابلة النقل المتواتر كان باطلا.

ثم قال تعالى حكاية عن لوط أنه قال لهم: بل أنتم قوم مسرفون والمعنى كأنه قال لهم: أنتم مسرفون في كل الأعمال فلا يبعد منكم أيضا اقدامكم على هذا الإسراف.

[سورة الأعراف (٧) : آية ٨٢]

وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (٨٢)

والمراد منه أخرجوا لوطا وأتباعه لأنه تعالى في غير هذه السورة قال: أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون [النمل: ٥٦] ولأن الظاهر أنهم إنما سعوا في إخراج من نهاهم عن العمل الذي يشتهونه ويريدونه وذلك الناهي ليس إلا لوطا وقومه وفي قوله: يتطهرون وجوه: الأول: / أن ذلك العمل تصرف في موضع النجاسة فمن تركه فقد تطهر. والثاني: أن البعد عن الإثم يسمى طهارة فقوله: يتطهرون أي يتباعدون عن المعاصي والآثام. الثالث: أنهم إنما قالوا: أناس يتطهرون على سبيل السخرية بهم وتطهرهم من الفواحش كما يقول الشيطان من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨٣ الى ٨٤]

فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين (٨٣) وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين (٨٤)." (١)

"وأما قوله: توعدون فمحله ومحل ما عطف عليه النصب على الحال والتقدير: ولا تقعدوا موعدين ولا صادين عن سبيل الله ولا أن تبغوا عوجا في سبيل الله والحاصل: أنه نهاهم عن القعود على صراط الله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١١/١٤

حال الاشتغال بأحد هذه الأمور الثلاثة. واعلم أنه تعالى لما عطف بعض هذه الثلاثة على البعض وجب حصول المغايرة بينها فقوله: توعدون يحصل بذلك إنزال المضار بهم وأما الصد فقد يكون بالإيعاد بالمضار وقد يكون بالوعد **بالمنافع** بما لو تركه وقد يكون بأن لا يمكنه من الذهاب إلى الرسول ليسمع كلامه.

أما قوله: وتبغونها عوجا فالمراد إلقاء الشكوك والشبهات والمراد من الآية أن شعيبا منع القوم من أن يمنعوا الناس من قبول الدين الحق بأحد هذه الطرق الثلاثة وإذا تأملت علمت أن أحدا لا يمكنه منع غيره من قبول مذهب أو مقالة إلا بأحد هذه الطرق الثلاثة.

ثم قال: واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم والمقصود منه أنهم إذا تذكروا كثرة إنعام الله عليهم فالظاهر أن ذلك يحملهم على الطاعة والبعد عن المعصية قال الزجاج: وهذا الكلام يحتمل ثلاثة أوجه كثر عددكم بعد القلة وكثركم بالغنى بعد الفقر وكثركم بالقدرة بعد الضعف ووجه/ ذلك أنهم إذا كانوا فقراء أو ضعفاء فهم بمنزلة القليل في أنه لا يحصل من وجودهم قوة وشوكة. فأما تكثير عددهم بعد القلة فهو أن مدين بن ابراهيم تزوج رئيا بنت لوط فولدت حتى كثر عددهم.

ثم قال بعده: وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين والمعنى تذكروا عاقبة المفسدين وما لحقهم من الخزي والنكال ليصير ذلك زاجرا لكم عن العصيان والفساد فقوله: واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم المقصود منه أنهم إذا تذكروا نعم الله عليهم انقادوا وأطاعوا وقوله: وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين المقصود منه أنهم إذا عرفوا أن عاقبة المفسدين المتمردين ليست إلا الخزي والنكال احترزوا عن الفساد والعصيان وأطاعوا فكان المقصود من هذين الكلامين حملهم على الطاعة بطريق الترغيب أولا والترهيب ثانيا.

ثم قال: وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا والمقصود منه تسلية قلوب المؤمنين وزجر من لم يؤمن لأن قوله: فاصبروا تهديد وكذلك قوله: حتى يحكم الله بيننا والمراد إعلاء درجات المؤمنين وإظهار هوان الكافرين وهذه الحالة قد تظهر في الدنيا فإن لم تظهر في الدنيا فلا بد من ظهورها في الآخرة.

ثم قال: وهو خير الحاكمين يعني أنه حاكم منزه عن الجور والميل والحيف فلا بد وأن يخص المؤمن التقي بالدرجات العالية والكافر الشقي بأنواع العقوبات ونظيره قوله: أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض [ص: ٢٨] .

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨٨ الى ٨٩]

قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال

أولو كنا كارهين (٨٨) قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين (٨٩)." [١]

"أطاعوا لفتح الله عليهم أبواب الخيرات فقال: ولو أن أهل القرى آمنوا أي آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر واتقوا ما نهى الله عنه وحرمه لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض بركات السماء بالمطر، وبركات الأرض بالنبات والثمار، وكثرة المواشي والأنعام، وحصول الأمن والسلامة، وذلك لأن السماء تجري مجرى الأب، والأرض تجري مجرى الام، ومنها يحصل جميع **المنافع** والخيرات بخلق الله تعالى وتدبيره. وقوله: ولكن كذبوا يعني الرسل فأخذناهم بالجدوبة والقحط بما كانوا يكسبون من الكفر والمعصية.

ثم إنه تعالى أعاد التهديد بعذاب الاستئصال فقال: أفأمن أهل القرى وهو استفهام بمعنى الإنكار عليهم، والمقصود أنه تعالى خوفهم بنزول ذلك العذاب عليهم في الوقت الذي يكونون فيه في غاية الغفلة، وهو حال النوم بالليل، وحال الضحى بالنهار لأنه الوقت الذي يغلب على المرء التشاغل باللذات فيه. وقوله: وهم يلعبون يحتمل التشاغل بأمور الدنيا، فهي لعب ولهو، ويحتمل خوضهم في كفرهم، لأن ذلك كاللعب في أنه لا يضر ولا ينفع. قرأ أكثر القراء أوأمن بفتح الواو، وهو حرف العطف دخلت عليه همزة الاستفهام، كما دخل في قوله: أثم إذا ما وقع [يونس: ٥١] وقوله: أوكلما عاهدوا [البقرة: ١٠٠] وهذه القراءة أشبه بما قبله وبعده، لأن قبله أفأمن أهل القرى وما بعده أفأمنوا مكر الله [الأعراف: ٩٩] أولم يهد للذين يرثون الأرض [الأعراف: ١٠٠] وقرأ ابن عامر أو أمن ساكنة الواو، واستعمل على ضربين: أحدهما: أن تكون بمعنى أحد الشيئين، كقوله: زيد أو عمرو جاء، والمعنى أحدهما جاء.

والضرب الثاني: أن تكون للإضراب عما قبلها، كقولك: أنا أخرج أو أقيم، أضربت عن الخروج، وأثبت الإقامة، كأنك قلت: لا بل أقيم فوجه هذه القراءة أنه جعل «أو» للإضراب لا على أنه أبطل الأول، وهو الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون [السجدة: ١، ٢] فكان/ المعنى من هذه الآية استواء هذه الضروب من العذاب، وإن شئت جعلت «او» هاهنا التي لأحد الشيئين، ويكون المعنى: أفأمنوا إحدى هذه العقوبات، وقوله: ضحى الضحى صدر النهار، وأصله الظهور من قولهم: ضحا للشمس إذا ظهر لها.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤/٣١٥

ثم قال تعالى: أفأمنوا مكر الله وقد سبق تفسير المكر في اللغة، ومعنى المكر في حق الله تعالى في سورة آل عمران عند قوله: ومكروا ومكر الله [آل عمران: ٥٤] ويدل قوله: أفأمنوا مكر الله أن المراد أن يأتيهم عذابه من حيث لا يشعرون. قاله على وجه التحذير، وسمى هذا العذاب مكرا توسعا، لأن الواحد منا إذا أراد المكر بصاحبه، فإنه يوقعه في البلاء من حيث لا يشعر به، فسمى العذاب مكرا لنزوله بهم من حيث لا يشعرون، وبين انه لا يامن من نزول عذاب الله على هذا الوجه إلا القوم الخاسرون وهم الذين لغفلتهم وجهلهم لا يعرفون ربهم، فلا يخافونه، ومن هذه سبيله، فهو أخسر الخاسرين في الدنيا والآخرة، لأنه أوقع نفسه في الدنيا في الضرر، وفي الآخرة في أشد العذاب.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٠٠ الى ١٠١]

أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون (١٠٠) تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين (١٠١)." [١]

"الدنيا والآخرة كسؤال المؤمنين من هذه الأمة حيث أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة [البقرة: ٢٠١] .

واعلم أن كونه تعالى وليا للعبد يناسب أن يطلب العبد منه دفع المضار وتحصيل **المنافع** ليظهر آثار كرمه وفضله وإلهيته، وأيضا اشتغال العبد بالتوبة والخضوع والخشوع يناسب طلب هذه الأشياء، فذكر السبب الأول أولا، وهو كونه تعالى وليا له وفرع عليه طلب هذه الأشياء، ثم ذكر بعده السبب الثاني، وهو اشتغال العبد بالتوبة والخضوع فقال: إنا هدنا إليك قال المفسرون: هدنا أي تبنا ورجعنا إليك، قال الليث:

«الهود» التوبة، وإنما ذكر هذا السبب أيضا لأن السبب الذي يقتضي حسن طلب هذه الأشياء ليس إلا مجموع هذين الأمرين كونه إلها وربا ووليا، وكوننا عبيدا له تائبين خاضعين خاشعين، فالأول: عهد عزة الربوبية.

والثاني: عهد ذلة العبودية، فإذا حصلا واجتمعا فلا سبب أقوى منهما. ولما حكى الله تعالى دعاء موسى عليه السلام ذكر بعده ما كان جوابا لموسى عليه السلام، فقال تعالى قال: عذابي أصيب به من أشاء معناه أني أعذب من أشاء وليس لأحد علي اعتراض لأن الكل ملكي، ومن تصرف في خالص ملكه فليس لأحد

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤/٣٢٢

أن يعترض عليه، وقرأ الحسن من أساء من الإساءة، واختار الشافعي هذه القراءة وقوله: ورحمتي وسعت كل شيء فيه أقوال كثيرة. قيل المراد من قوله: ورحمتي وسعت كل شيء هو أن رحمته في الدنيا عمت الكل، وأما في الآخرة فهي مختصة بالمؤمنين وإليه الإشارة بقوله: فسأكتبها للذين يتقون وقيل: الوجود خير من العدم، وعلى هذا التقدير فلا موجود إلا وقد وصل إليه. رحمته وأقل المراتب وجوده،. قيل الخير مطلوب بالذات، والشر مطلوب بالعرض وما بالذات راجح غالب، وما بالعرض مرجوح مغلوب، وقالت المعتزلة: الرحمة عبارة عن إرادة الخير، ولا حي إلا وقد خلقه الله تعالى للرحمة واللذة والخير لأنه إن كان منتفعا أو متمكنا من الانتفاع فهو برحمة الله من جهات كثيرة وإن حصل هناك ألم فله الأعواض الكثيرة، وهي من نعمة الله تعالى ورحمته فلهذا السبب قال: ورحمتي وسعت كل شيء وقال أصحابنا قوله: ورحمتي وسعت كل شيء من العام الذي أريد به الخاص، كقوله: وأوتيت من كل شيء [النمل: ٢٣] .

أما قوله: فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون فاعلم أن جميع تكاليف الله محصورة في نوعين: الأول: التروك، وهي الأشياء التي يجب على الإنسان تركها، والاحتراز عنها والاتقاء منها، وهذا النوع إليه الإشارة بقوله: للذين يتقون والثاني: الأفعال وتلك التكاليف إما أن تكون متوجهة على مال الإنسان أو على نفسه.

أما القسم الأول: فهو الزكاة وإليه الإشارة بقوله: ويؤتون الزكاة.

وأما القسم الثاني: فيدخل فيه ما يجب على الإنسان علما وعملا أما العلم فالمعرفة، وأما العمل فالإقرار باللسان والعمل بالأركان ويدخل فيها الصلاة وإلى هذا المجموع الإشارة بقوله: والذين هم بآياتنا يؤمنون ونظيره قوله تعالى في أول سورة البقرة: هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون [البقرة: ٢، ٣] .

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٥٧]

الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون (١٥٧)." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٧٩/١٥

"المتضادتين جاريا مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الأمور الخارقة للعادة وجار مجرى المعجزات.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل، لأن ذلك لو لم يكن مكتوبا لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود النصارى عن قبول قوله، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم النفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول قوله: فلما قال ذلك دل هذا على أن ذلك النعت كان مذكورا في التوراة والإنجيل وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته.

الصفة الخامسة: قوله: يأمرهم بالمعروف استئنافا، ويجوز أن يكون المعنى يجدونه مكتوبا عندهم أنه يأمرهم بالمعروف وأقول مجامع الأمر بالمعروف محصورة في

قوله عليه الصلاة والسلام: «التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله»

وذلك لأن الموجود إما واجب الوجود لذاته وإما ممكن الوجود لذاته. أما الواجب لذاته فهو الله جل جلاله، ولا معروف أشرف من تعظيمه وإظهار عبوديته وإظهار الخضوع والخشوع على باب عزته والاعتراف بكونه موصوفا بصفات الكمال مبرأ عن النقائص والآفات منزها عن الأضداد والأنداد، وأما الممكن لذاته فإن لم يكن حيوانا، فلا سبيل إلى إيصال الخير إليه لأن الانتفاع مشروط بالحياة، ومع هذا فإن يجب النظر إلى كلها بعين التعظيم من حيث إنها مخلوقة لله تعالى، ومن حيث إن كل ذرة من ذرات المخلوقات لما كانت دليلا قاهرا وبرهانا باهرا على توحيده وتنزيهه فإنه يجب النظر إليه بعين الاحترام. ومن حيث أن الله تعالى في كل ذرة من ذرات المخلوقات أسرارا عجيبة وحكما خفية فيحب النظر إليها بعين الاحترام، وأما إن كان ذلك المخلوق من جنس الحيوان فإنه يجب إظهار الشفقة عليه بأقصى ما يقدر الإنسان عليه، ويدخل فيه بر الوالدين وصلة الأرحام وبث المعروف فثبت أن

قوله عليه الصلاة والسلام: «التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله»

كلمة جامعة لجميع جهات الأمر بالمعروف.

الصفة السادسة: قوله: وينهاهم عن المنكر والمراد منه أضداد الأمور المذكورة وهي عبادة الأوثان، والقول في صفات الله بغير علم، والكفر بما أنزل الله على النبيين، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين.

الصفة السابعة: قوله تعالى: ويحل لهم الطيبات من الناس من قال: المراد بالطيبات الأشياء التي حكم الله بحلها وهذا بعيد لوجهين: الأول: أن على هذا التقدير تصير الآية ويحل لهم المحللات وهذ محض التكرير.

الثاني: أن على هذا التقدير تخرج الآية عن الفائدة، لأنا لا ندري أن الأشياء التي أحلها الله ما هي وكم هي؟ بل الواجب أن يكون المراد من الطيبات الأشياء المستطابة بحسب الطبع وذلك لأن تناولها يفيد اللذة، والأصل في المنافع الحل فكانت هذه الآية دالة على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل إلا لدليل منفصل.

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ويحرم عليهم الخبائث قال عطاء عن ابن عباس، يريد الميتة والدم وما ذكر في سورة المائدة إلى قوله: ذلكم فسق وأقول: كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس كان تناوله سببا للألم، والأصل في المضار الحرمة، فكان مقتضاه أن كل ما يستخبثه الطبع فالأصل فيه/ الحرمة إلا لدليل منفصل.

وعلى هذا الأصل: فرع الشافعي رحمه الله تحريم بيع الكلب، لأنه

روى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه سلم." (١)

"والجواب الثاني: أن هذا اللغو أورد في معرض الاستهزاء بهم أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء، فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم ولا فضل لهم عليكم، فلم جعلتم أنفسكم عبيدا وجعلتموها آلهة وأربابا؟ ثم أبطل أن يكونوا عبادا أمثالكم. فقال: ألهم أرجل يمشون بها [الأعراف: ١٩٥] ثم أكد هذا البيان بقوله:

فادعوهم فليستجيبوا لكم ومعنى هذا الدعاء طلب المنافع وكشف المضار من جهتهم واللام في قوله: فليستجيبوا لام الأمر على معنى التعجيز والمعنى أنه لما ظهر لكل عاقل أنها لا تقدر على الإجابة ظهر أنها لا تصلح للمعبودية، ونظيره قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا

[مريم: ٤٢] وقوله: إن كنتم صادقين أي في ادعاء أنها آلهة ومستحقة للعبادة، ولما ثبت بهذه الدلائل الثلاثة اليقينة أنها لا تصلح للمعبودية، وجب على العاقل أن لا يلتفت إليها، وأن لا يشتغل إلا بعبادة الإله القادر العالم الحي الحكيم الضار النافع.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٩٥]

ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون (١٩٥)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥/٣٨١

اعلم أن هذا نوع آخر من الدليل في بيان أنه يقبح من الإنسان العاقل أن يشتغل بعبادة هذه الأصنام.
وتقريره أنه تعالى ذكر في هذه الآية أعضاء أربعة، وهي الأرجل والأيدي والأعين والآذان، ولا شك أن هذه الأعضاء إذا حصل في كل واحدة منها ما يليق بها من القوى المحركة والمدركة تكون أفضل منها إذا كانت خالية عن هذه القوى، فالرجل القادرة على المشي واليد القادرة على البطش أفضل من اليد والرجل الخاليتين عن قوة الحركة والحياة، والعين الباصرة والأذن السامعة أفضل من العين والأذن الخاليتين عن القوة الباصرة والسامعة، وعن قوة الحياة، وإذا ثبت هذا ظهر أن الإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام، بل لا نسبة لفضيلة الإنسان إلى/ فضل هذه الأصنام البتة، وإذا كان كذلك فكيف يليق بالأفضل الأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون الذي لا يحس منه فائدة البتة، لا في جلب المنفعة ولا في دفع المضرة. هذا هو الوجه في تقرير هذا الدليل الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية، وقد تعلق بعض أغمار المشبهة وجها لهم بهذه الآية في إثبات هذه الأعضاء لله تعالى. فقالوا: إنه تعالى جعل عدم هذه الأعضاء لهذه الأصنام دليلا على عدم إلهيتها، فلو لم تكن هذه الأعضاء موجودة لله تعالى لكان عدمها دليلا على عدم الإلهية وذلك باطل، فوجب القول بإثبات هذه الأعضاء لله تعالى. والجواب عنه من وجهين:
الوجه الأول: أن المقصود من هذه الآية: بيان أن الإنسان أفضل وأكمل حالا من الصنم، لأن الإنسان له رجل ماشية، ويد باطشة، وعين باصرة، وأذن سامعة، والصنم رجله غير ماشية، ويده غير باطشة، وعينه غير مبصرة، وأذنه غير سامعة، وإذا كان كذلك كان الإنسان أفضل وأكمل حالا من الصنم، واشتغال الأفضل الأكمل بعبادة الأخس الأدون جهل، فهذا هو المقصود من ذكر هذا الكلام، لا ما ذهب إليه وهم هؤلاء الجهال.
الوجه الثاني: في الجواب أن المقصود من ذكر هذا الكلام: تقرير الحجة التي ذكرها قبل هذه الآية وهي قوله: ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون [الأعراف: ١٩٢] يعني كيف تحسن عبادة من لا يقدر على النفع والضرر، ثم قرر تعالى ذلك بأن هذه الأصنام لم يحصل لها أرجل ماشية، وأيد باطشة، وأعين." (١)

"الحكم الثاني من الأحكام التي أثبتها الله تعالى للموصوفين بالصفات الخمسة قوله تعالى: لهم درجات عند ربهم والمعنى: لهم مراتب بعضها أعلى من بعض.
واعلم أن الصفات المذكورة قسمان: الثلاثة الأول: هي الصفات القلبية والأحوال الروحانية، وهي الخوف

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٣٢/١٥

والإخلاص والتوكل. والاثنتان الأخيرتان هما الأعمال الظاهرة والأخلاق. ولا شك أن لهذه الأعمال والأخلاق تأثيرات في تصفية القلب، وفي تنويره بالمعارف الإلهية. ولا شك أن المؤثر كلما كان أقوى كانت الآثار أقوى وبالضد، فلما كانت هذه الأخلاق والأعمال لها درجات ومراتب. كانت المعارف أيضا لها درجات ومراتب، وذلك هو المراد من قوله: لهم درجات عند ربهم والثواب الحاصل في الجنة أيضا مقدر بمقدار هذه الأحوال. فثبت أن مراتب السعادات/ الروحانية قبل الموت وبعد الموت، ومراتب السعادات الحاصلة في الجنة كثيرة ومختلفة، فلهذا المعنى قال: لهم درجات عند ربهم.

فإن قيل: أليس أن المفضول إذا علم حصول الدرجات العالية للفاضل وحرمانه عنها، فإنه يتألم قلبه، ويتنغض عيشه. وذلك مخل بكون الثواب رزقا كريما؟

والجواب: أن استغراق كل واحد في سعادته الخاصة به تمنعه من حصول الحقد والحسد، وبالجملة فأحوال الآخرة لا تناسب أحوال الدنيا إلا بالاسم.

الحكم الثالث والرابع أن قوله: ومغفرة ورزق كريم المراد من المغفرة أن يتجاوز الله عن سيئاتهم ومن الرزق الكريم نعيم الجنة. قال المتكلمون: أما كونه رزقا كريما فهو إشارة إلى كون تلك **المنافع** خالصة دائمة مقرونة بالإكرام والتعظيم، ومجموع ذلك هو حد الثواب. وقال العارفون: المراد من المغفرة إزالة الظلمات الحاصلة بسبب الاشتغال بغير الله، ومن الرزق الكريم الأنوار الحاصلة بسبب الاستغراق في معرفة الله ومحبته. قال الواحدي:

قال أهل اللغة: الكريم اسم جامع لكل ما يحمد ويستحسن، والكريم المحمود فيما يحتاج إليه. والله تعالى موصوف بأنه كريم والقرآن موصوف بأنه كريم. قال تعالى: إني ألقي إلي كتاب كريم [النمل: ٢٩] وقال: من كل زوج كريم [الشعراء: ٧ لقمان: ١٠] وقال: وندخلكم مدخلا كريما [النساء: ٣١] وقال: وقل لهما قولا كريما [الإسراء: ٢٣] فالرزق الكريم هو الشريف الفاضل الحسن. وقال هشام بن عروة: يعني ما أعد الله لهم في الجنة من لذيذ المآكل والمشارب وهناء العيش، وأقول يجب هاهنا أن نبين أن اللذات الروحانية أكمل من اللذات الجسمانية، وقد ذكرنا هذا المعنى في هذا الكتاب في مواضع كثيرة وعند هذا يظهر أن الرزق الكريم هو اللذات الروحانية وهي معرفة الله ومحبته والاستغراق في عبوديته.

فإن قال قائل: ظاهر الآية يدل على أن الموصوف بالأمور الخمسة محكوم عليه بالنجاة من العقاب وبالفوز

بالثواب، وذلك يقتضي أن لا تكليف على العبد فيما سوى هذه الخمسة وذلك باطل بإجماع المسلمين، لأنه لا بد من الصوم والحج وأداء سائر الواجبات.." (١)

"ثم قال: وأن الله عنده أجر عظيم

تنبيها على أن سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا لأنها أعظم في الشرف، وأعظم في الفوز، وأعظم في المدة، لأنها تبقى بقاء لا نهاية له، فهذا هو المراد من وصف الله الأجر الذي عنده بالعظم. ويمكن أن يتمسك بهذه الآية في بيان أن الاشتغال بالنوافل أفضل من الاشتغال بالنكاح لأن الاشتغال بالنوافل يفيد الأجر العظيم عند الله، والاشتغال بالنكاح يفيد الولد ويوجب الحاجة إلى المال، وذلك فتنة، ومعلوم أن ما أفضى إلى الأجر العظيم عند الله، فالاشتغال به خير مما أفضى إلى الفتنة.

[سورة الأنفال (٨) : آية ٢٩]

يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم (٢٩)

واعلم أنه تعالى لما حذر عن الفتنة بالأموال والأولاد، رغب في التقوى التي توجب ترك الميل والهوى في محبة الأموال والأولاد. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: إدخال الشرط في الحكم إنما يحسن في حق من كان جاهلا بعواقب الأمور، وذلك لا يليق بالله تعالى.

والجواب: أن قولنا إن كان كذا كان كذا، لا يفيد إلا كون الشرط مستلزما للجزاء، فأما أن وقوع الشرط مشكوك فيه أو معلوم فذلك غير مستفاد من هذا اللفظ، سلمنا أنه يفيد هذا الشك إلا أنه تعالى يعامل العباد في الجزاء معاملة الشاك، وعليه يخرج قوله تعالى: ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين [محمد: ٣١] .

المسألة الثانية: هذه القضية الشرطية شرطها شيء واحد وهو تقوى الله تعالى، وذلك يتناول اتقاء الله في جميع الكبائر. وإنما خصصنا هذا بالكبائر لأنه تعالى ذكر في الجزاء تكفير السيئات، والجزاء يجب أن يكون مغايرا للشرط، فحملنا التقوى على تقوى الكبائر وحملنا السيئات على الصغائر ليظهر الفرق بين الشرط والجزاء، وأما الجزاء المرتب على هذا الشرط فأمور ثلاثة: الأول: قوله: يجعل لكم فرقانا والمعنى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٥٥/١٥

أنه تعالى يفرق بينكم وبين الكفار. ولما كان اللفظ مطلقا وجب حمله على جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين وبين الكفار فنقول: هذا الفرقان إما أن يعتبر في أحوال الدنيا أو في أحوال الآخرة. أما في أحوال الدنيا فإما أن يعتبر في أحوال القلوب وهي الأحوال الباطنة أو في الأحوال الظاهرة، أما في أحوال القلوب فأمور: أحدها:

أنه تعالى يخص المؤمنين بالهداية والمعرفة. وثانيها: أنه يخص قلوبهم وصدورهم بالانشراح كما قال: أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه [الزمر: ٢٢] وثالثها: أنه يزيل الغل والحقد والحسد عن قلوبهم ويزيل المكر والخداع عن صدورهم، مع أن المنافق والكافر يكون قلبه مملوءا من هذه الأحوال الخسيسة والأخلاق الذميمة، والسبب في حصول هذه الأمور أن القلب إذا صار مشرقا بطاعة/ الله تعالى زالت عنه كل هذه الظلمات لأن معرفة الله نور، وهذه الأخلاق ظلمات، وإذا ظهر النور فلا بد من زوال الظلمة. وأما في الأحوال الظاهرة، فإن الله تعالى يخص المسلمين بالعلو والفتح والنصر والظفر، كما قال: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين [المنافقين: ٨] وكما قال: ليظهره على الدين كله [التوبة: ٣٣] وأمر الفاسق والكافر بالعكس من ذلك. وأما في أحوال الآخرة، فالثواب **والمنافع** الدائمة والتعظيم من الله والملائكة وكل هذه الأحوال داخلة في الفرقان.." (١)

"واللواط وسائر القبائح إنما حصلت بأقدار الله تعالى وتيسيره، ثم لا يجوز أن يقال: يا مسهل الزنا واللواط، ويا دافع الموانع عنها، فكذا هنا، أما قوله إن المراد إذن الأقدار فنقول هذا صرف للكلام عن ظاهره، وذلك لا يجوز إلا لدليل قاهر، والدليل القاهر من جانبنا هاهنا، فإن الفعل لا يصدر إلا عند الداعية الحاصلة، وحصول تلك الداعية ليس إلا من الله تعالى. وثانيها: قوله تعالى: ويخزهم معناه: ما ينزل بهم من الذل والهوان حيث شاهدوا أنفسهم مقهورين في أيدي المؤمنين ذليلين مهينين. قال الواحدي: قوله: ويخزهم أي بعد قتلكم إياهم، وهذا يدل على أن هذا الإخزاء إنما وقع بهم في الآخرة، وهذا ضعيف لما بينا أن الإخزاء واقع في الدنيا. وثالثها: قوله تعالى: وينصركم عليهم والمعنى أنه لما حصل الخزي لهم بسبب كونهم مقهورين فقد حصل النصر للمسلمين بسبب كونهم قاهرين.

فإن قالوا: لما كان حصول ذلك الخزي مستلزما لحصول هذا النصر، كان إفراده بالذكر عبثا فنقول: ليس الأمل كذلك، لأنه من المحتمل أن يحصل الخزي لهم من جهة المؤمنين، إلا أن المؤمنين يحصل لهم آفة بسبب آخر فلما قال: وينصركم عليهم دل على أنهم ينتفعون بهذا النصر والفتح والظفر. ورابعها:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٧٦/١٥

قوله:
ويشف صدور قوم مؤمنين وقد ذكرنا أن خزاعة أسلموا، فأعانت قريش بني بكر عليهم حتى نكلوا بهم، فشفى الله صدورهم من بني بكر، ومن المعلوم أن من طال تأذيه من خصمه، ثم مكنه الله منه على أحسن الوجوه فإنه يعظم سروره به، ويصير ذلك سببا لقوة النفس، وثبات العزيمة. وخامسها: قوله: ويذهب غيظ قلوبهم.
ولقائل أن يقول: قوله: ويشف صدور قوم مؤمنين معناه أنه يشفي من ألم الغيظ وهذا هو عين إذهاب الغيظ، فكان قوله: ويذهب غيظ قلوبهم تكرار.
والجواب: أنه تعالى وعدهم بحصول هذا الفتح فكانوا في زحمة الانتظار، كما قيل الانتظار الموت الأحمر، فشفى صدورهم من زحمة الانتظار، وعلى هذا الوجه يظهر الفرق بين قوله: ويشف/ صدور قوم مؤمنين وبين قوله: ويذهب غيظ قلوبهم فهذه هي **المنافع** الخمسة التي ذكرها الله تعالى في هذا القتال، وكلها ترجع إلى تسكين الدواعي الناشئة من القوة الغضبية، وهي التشفي ودرك الثأر وإزالة الغيظ، ولم يذكر تعالى فيها وجدان الأموال والفوز بالمطاعم والمشارب وذلك لأن العرب قوم جبلوا على الحمية والأنفة، فرغبهم في هذه المعاني لكونها لائقة بطباعهم، بقي هاهنا مباحث:
البحث الأول: أن هذه الأوصاف مناسبة لفتح مكة، لأن ذلك جرى في تلك الواقعة مشاكل لهذه الأحوال، ولهذا المعنى جاز أن يقال: الآية واردة فيه.
البحث الثاني: الآية دالة على المعجزة لأنه تعالى أخبر عن حصول هذه الأحوال، وقد وقعت موافقة لهذه الأخبار فيكون ذلك إخبارا عن الغيب، والأخبار عن الغيب معجز.
البحث الثالث: هذه الآية تدل على كون الصحابة مؤمنين في علم الله تعالى إيمانا حقيقيا لأنها تدل على أن قلوبهم كانت مملوءة من الغضب، ومن الحمية لأجل الدين، ومن الرغبة الشديدة في علو دين الإسلام، وهذه الأحوال لا تحصل إلا في قلوب المؤمنين.." (١)

"واعلم أن وصف الله لهم بذلك لا ينفي كونهم موصوفين بالرحمة والرأفة، فإنه تعالى قال في صفتهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين [المائدة: ٥٤] وقال أيضا: أشداء على الكفار رحماء بينهم [الفتح: ٢٩].
ثم قال: ويتوب الله على من يشاء قال الفراء والزجاج: هذا مذكور على سبيل الاستئناف ولا يمكن أن يكون

---
(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦/٦

جوابا لقوله: قاتلوهم لأن قوله: ويتوب الله على من يشاء لا يمكن جعله جزاء لمقاتلتهم مع الكفار. قالوا ونظيره: فإن يشإ الله يختم على قلبك [الشورى: ٢٤] وتم الكلام هاهنا، ثم استأنف فقال:
ويمح الله الباطل [الشورى: ٢٤] ومن الناس من قال يمكن جعل هذه التوبة جزاء لتلك المقاتلة، وبيانه من وجوه: الأول: أنه تعالى لما أمرهم بالمقاتلة، فربما شق ذلك على بعضهم على ما ذهب إليه الأصم، فإذا أقدموا على المقاتلة صار ذلك العمل جاريا مجرى التوبة عن تلك الكراهية. الثاني: أن حصول النصرة والظفر إنعام عظيم، والعبد إذا شاهد توالي نعم الله لم يبعد أن يصير ذلك داعيا له إلى التوبة من جميع الذنوب، الثالث: أنه إذا حصل النصر والظفر والفتح وكثرت الأموال والنعم وكانت لذاته تطلب بالطريق الحرام، فإن عند حصول المال والجاه يمكن تحصيلها بطريق حلال، فيصير كثرة المال والجاه داعيا إلى التوبة من هذه الوجوه. الرابع:
قال بعضهم إن النفس شديدة الميل إلى الدنيا ولذاتها، فإذا انفتحت أبواب الدنيا على الإنسان وأراد الله به خيرا عرف أن لذاتها حقيرة يسيرة، فحينئذ تصير الدنيا حقيرة في عينه، فيصير ذلك سببا لانقباض النفس عن الدنيا، وهذا هو أحد الوجوه المذكورة في تفسير قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي [ص: ٣٥] يعني أن بعد حصول هذا الملك لا يبقى للنفس اشتغال بطلب الدنيا، ثم يعرف أن عند حصول هذا الملك الذي هو أعظم الممالك لا حاصل للدنيا ولا فائدة في لذاتها وشهواتها، فحينئذ يعرض القلب عن الدنيا ولا يقيم لها وزنا، فثبت أن حصول المقاتلة يفضي إلى المنافع الخمسة المذكورة وتلك المنافع حصولها يوجب التوبة، فكانت التوبة متعلقة بتلك المقاتلة، وإنما قال: على من يشاء لأن وجدان الدنيا وانفتاح أبوابها على الإنسان قد يصير سببا لانقباض القلب عن الدنيا وذلك في حق من أراد به الخير، وقد يصير سببا لاستغراق الإنسان فيها وتهالكه عليها وانقطاعه بسببها عن سبيل الله، فلما اختلف الأمر على الوجه الذي ذكرناه قال: ويتوب الله على من يشاء.
ثم قال: والله عليم أي بكل ما يعمل ويفعل في ملكه وملكوته حكيم مصيب في أحكامه وأفعاله.

[سورة التوبة (٩) : آية ١٦]
أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون (١٦)
اعلم أن الآيات المتقدمة كانت مرغبة في الجهاد، والمقصود من هذه الآية مزيد بيان في الترغيب، وفيه

مسائل:

المسألة الأولى: قال الفراء: قوله: أم من الاستفهام الذي يتوسط الكلام، ولو أريد به الابتداء لكان بالألف أو بها.

المسألة الثانية: قال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة وأصله من الولوج فالداخل." (١)

"واعلم أن هذه الإشارة اشتملت على أنواع من الدرجات العالية وأنه تعالى ابتدأ فيها بالأشرف فالأشرف، نازلا إلى الأدون فالأدون، ونحن نفسرها تارة على طريق المتكلمين وأخرى على طريقة العارفين. أما الأول فنقول: فالمرتبة الأولى منها وهي أعلاها وأشرفها كون تلك البشارة حاصلة من ربهم بالرحمة والرضوان، وهذا هو التعظيم والإجلال من قبل الله. وقوله: وجنات لهم إشارة إلى حصول **المنافع** العظيمة وقوله: فيها نعيم إشارة إلى كون **المنافع** خالصة عن المكدرات لأن النعيم مبالغة في النعمة، ولا معنى للمبالغة في النعمة إلا خلوها عن ممازجة الكدورات وقوله: مقيم عبارة عن كونها دائمة غير منقطعة. ثم إنه تعالى عبر عن دوامها بثلاث عبارات: أولها: مقيم وثانيها: قوله: خالدين فيها وثالثها: قوله: أبدا فحصل من مجموع ما ذكرنا أنه تعالى يبشر هؤلاء المؤمنين المهاجرين المجاهدين بمنفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم، وذلك هو حد الثواب. وفائدة تخصيص هؤلاء المؤمنين بكون هذا الثواب كامل الدرجة عالي الرتبة بحسب كل واحد من هذه القيود الأربعة. ومن المتكلمين من قال قوله: يبشرهم ربهم برحمة منه المراد منه خيرات الدنيا وقوله: ورضوان لهم المراد منه كونه تعالى راضيا عنهم حال كونهم في الحياة الدنيا وقوله:

وجنات المراد منه **المنافع** وقوله: لهم فيها نعيم المراد منه كون تلك النعم خالصة عن المكدرات، لأن النعيم مبالغة في النعمة/ وقوله: مقيم خالدين فيها أبدا المراد منه الإجلال والتعظيم الذي يجب حصوله في الثواب.

وأما تفسير هذه الآية على طريقة العارفين المحبين المشتاقين فنقول: المرتبة الأولى من الأمور المذكورة في هذه الآية قوله: يبشرهم ربهم.

واعلم أن الفرح بالنعمة يقع على قسمين: أحدهما: أن يفرح بالنعمة لأنها نعمة. والثاني: أن يفرح بها لا من حيث هي بل من حيث إن المنعم خصه بها وشرفه وإن عجز ذهنك عن الوصول إلى الفرق بين القسمين فتأمل فيما إذا كان العبد واقفا في حضرة السلطان الأعظم وسائر العبيد كانوا واقفين في خدمته، فإذا رمى

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦/٧

ذلك السلطان تفاحة إلى أحد أولئك العبيد عظم فرحه بها فذلك الفرح العظيم ما حصل بسبب حصول تلك التفاحة، بل بسبب أن ذلك السلطان خصه بذلك الإكرام، فكذلك هاهنا. قوله: يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان منهم من كان فرحهم بسبب الفوز بتلك الرحمة، ومنهم من لم يفرح بالفوز بتلك الرحمة، وإنما فرح لأن مولاه خصه بتلك الرحمة وحينئذ يكون فرحه لا بالرحمة بل بمن أعطى الرحمة، ثم إن هذا المقام يحصل فيه أيضا درجات فمنهم من يكون فرحه بالراحم لأنه رحم، ومنهم من يتوغل في الخلوص فينسى الرحمة ولا يكون فرحه إلا بالمولى لأنه هو المقصد، وذلك لأن العبد ما دام مشغولا بالحق من حيث إنه راحم فهو غير مستغرق في الحق، بل تارة مع الحق وتارة مع الخلق، وفإذا تم الأمر انقطع عن الخلق وغرق في بحر نور الحق وغفل عن المحبة والمحنة، والنقمة والنعمة، والبلاء والآلاء، والمحققون وقفوا عند قوله: يبشرهم ربهم فكان ابتهاجهم بهذا وسرورهم به وتعويلهم عليه ورجوعهم إليه ومنهم من لم يصل إلى تلك الدرجة العالية فلا تقنع نفسه إلا بمجموع قوله: يبشرهم ربهم برحمة منه فلا يعرف أن الاستبشار بسماع قول ربهم، بل إنما يستبشر بمجموع كونه مبشرا بالرحمة، والمرتبة الثانية هي أن يكون استبشاره بالرحمة وهذه المرتبة هي النازلة عند المحققين. واللطيفة الثانية من لطائف هذه الآية هي أنه تعالى قال: يبشرهم ربهم وهي مشتملة على أنواع." (١)

"في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما شرح معايب هؤلاء الكفاء وفضائحهم، عاد إلى الترغيب في مقاتلتهم وقال: يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض وتقرير الكلام أنه تعالى ذكر في الآيات السابقة أسبابا كثيرة موجبة لقتالهم، وذكر منافع كثيرة تحصل من مقاتلتهم كقوله: يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم [التوبة: ١٤] وذكر أقو الهم المنكرة وأعمالهم القبيحة في الدين والدنيا، وعند هذا لا يبقى للإنسان مانع من قتالهم إلا مجرد أن يخاف القتل ويحب الحياة فبين تعالى أن هذا المانع خسيس لأن سعادة الدنيا بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة في البحر، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل جهل وسفه.

المسألة الثانية:

المروي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في غزوة تبوك، وذلك لأنه عليه السلام لما رجع من الطائف أقام بالمدينة وأمر بجهاد الروم، وكان ذلك الوقت زمان شدة الحر وطابت ثمار المدينة وأينعت، واستعظموا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥/١٦

غزو الروم وهابوه، فنزلت هذه الآية.

قال المحققون: وإنما استثقل الناس ذلك لوجوه:

أحدها: شدة الزمان في الصيف والقحط. وثانيها: بعد المسافة والحاجة إلى الاستعداد الكثير الزائد على ما جرت به العادة في سائر الغزوات. وثالثها: إدراك الثمار بالمدينة في ذلك الوقت. ورابعها: شدة الحر في ذلك الوقت. وخامسها: مهابة عسكر الروم فهذه الجهات الكثيرة اجتمعت فاقتضت تثاقل الناس عن ذلك الغزو.

والله أعلم.

المسألة الثالثة: يقال: استنفر الإمام الناس لجهاد العدو فنفروا ينفرون نفرا ونفورا، إذا حثهم ودعاهم إليه، ومنه

قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا استنفرتم فانفروا»

وأصل النفر الخروج إلى مكان لأمر واجب، واسم ذلك القوم الذين يخرجون النفير، ومنه قولهم: فلان لا في العير ولا في النفير. وقوله: اثاقلتم إلى الأرض أصله تثاقلتم، وبه قرأ الأعمش ومعناه: تباطأتم ونظيره قوله: فادارأتم [البقرة: ٧٢] وقوله: اطيرنا بك [النمل: ٤٧] قال صاحب «الكشاف» : وضمن معنى الميل والإخلاد فعدي بإلى، والمعنى ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه، ونظيره أخلد إلى الأرض واتبع هواه [الأعراف: ١٧٦] وقيل معناه ملتم إلى الإقامة بأرضكم والبقاء فيها، وقوله: ما لكم إذا قيل لكم وإن كان في الظاهر استفهاما إلا أن المراد منه المبالغة في الإنكار.

ثم قال تعالى: أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل والمعنى كأنه قيل قد ذكرنا الموجبات الكثيرة الداعية إلى القتال، وقد شرحنا **المنافع** العظيمة التي/ تحصل عند القتال، وبينا أنواع فضائحهم وقبائحهم التي تحمل العاقل على مقاتلتهم، فتركتم جميع هذه الأمور، أليس أن معبودكم يأمركم بمقاتلتهم وتعلمون أن طاعة المعبود توجب الثواب العظيم في الآخرة؟ فهل يليق بالعاقل ترك الثواب العظيم في الآخرة، لأجل المنفعة اليسيرة الحاصلة في الدنيا؟ والدليل على أن متاع الدنيا في الآخرة قليل، أن لذات الدنيا خسيسة في أنفسها ومشوبة بالآفات والبليات ومنقطعة عن قريب لا محالة، ومنافع الآخرة شريفة عالية خالصة عن كل الآفات، ودائمة أبدية سرمدية وذلك يوجب القطع بأن متاع الدنيا قليل حقير خسيس.

المسألة الرابعة: اعلم أن هذه الآية تدل على وجوب الجهاد في كل حال لأنه تعالى نص على أن تثاقلهم." (١)

"المسألة الثانية: هذه الآية نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، ومعنى الكلام أنه لو كانت **المنافع** قريبة والسفر قريبا لاتبعوك طمعا منهم في الفوز بتلك **المنافع**، ولكن طال السفر فكانوا كالآيسين من الفوز بالغنيمة، بسبب أنهم كانوا يستعظمون غزو الروم، فلهذا السبب تخلفوا. ثم أخبر الله تعالى أنه إذا رجع من الجهاد يجدهم يحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم إما عند ما يعاتبهم بسبب التخلف، وإما ابتداء على طريقة إقامة العذر في التخلف، ثم بين تعالى أنهم يهلكون أنفسهم بسبب ذلك الكذب والنفاق وهذا يدل على أن الأيمان الكاذبة توجب الهلاك، ولهذا

قال عليه الصلاة والسلام: «اليمين الغموس تدع الديار بلاقع» .

ثم قال: والله يعلم إنهم لكاذبون في قولهم ما كنا نستطيع الخروج، فإنهم كانوا مستطيعين الخروج.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن قوله: انفروا خفافا وثقالا إنما يتناول من كان قادرا متمكنا، إذ عدم الاستطاعة عذر في التخلف.

المسألة الرابعة: استدل أبو علي الجبائي بهذه الآية على بطلان أن الاستطاعة مع الفعل، فقال: لو كانت الاستطاعة مع الفعل لكان من يخرج إلى القتال لم يكن مستطيعا إلى القتال، ولو كان الأمر كذلك لكانوا صادقين في قولهم: ما كنا نستطيع ذلك، ولما كذبهم الله تعالى في هذا القول، علمنا أن الاستطاعة قبل الفعل.

واستدل الكعبي بهذا الوجه أيضا له، وسأل نفسه لا يجوز أن يكون المراد به: ما كان لهم زاد ولا راحلة، وما أرادوا به نفس القدرة.

وأجاب: إن كان من لا راحلة له يعذر في ترك الخروج، فمن لا استطاعة له أولى بالعذر. وأيضا الظاهر من الاستطاعة قوة البدن دون وجود المال، وإذا أريد به المال، فإنما يراد لأنه يعين على ما يفعله الإنسان بقوة البدن، فلا معنى لترك الحقيقة من غير ضرورة.

وأجاب أصحابنا: بأن المعتزلة سلموا أن القدرة على الفعل لا تتقدم على الفعل، إلا بوقت/ واحد، فأما أن تتقدم عليه بأوقات كثيرة فذلك ممتنع، فإن الإنسان الجالس في المكان لا يكون قادرا في هذا الزمان أن يفعل فعلا في مكان بعيد عنه، بل إنما يقدر على أن يفعل فعلا في المكان الملاصق لمكانه فإذا ثبت أن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٧/١٦

القدرة عند القوم لا تتقدم الفعل إلا بزمان واحد، فالقوم الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانوا قادرين على أصول المعتزلة، فيلزمهم من هذه الآية ما ألزموه علينا، وعند هذا يجب علينا وعليهم، أن نحمل الاستطاعة على الزاد والراحلة وحينئذ يسقط الاستدلال.

المسألة الخامسة: قالوا الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر عنهم أنهم سيحلفون، وهذا إخبار عن غيب يقع في المستقبل، والأمر لما وقع كما أخبر، كان هذا إخبارا عن الغيب، فكان معجزا. والله أعلم.

[سورة التوبة (٩) : آية ٤٣]

عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٤٣)

اعلم أنه تعالى بين بقوله: لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك [التوبة: ٤٢] أنه تخلف قوم من ذلك الغزو، وليس فيه بيان أن ذلك التخلف، كان بإذن الرسول أم لا؟ فلما قال بعده: عفا الله عنك لم أذنت لهم دل هذا، على أن فيهم من تخلف بإذنه وفيه مسائل:." [١]

"والتوحيد. وقرأ السلمي أن يقبل منهم نفقاتهم على إسناد الفعل إلى الله عز وجل.

[سورة التوبة (٩) : آية ٥٥]

فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون (٥٥)

[في قوله تعالى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم] اعلم أنه تعالى لما قطع في الآية الأولى رجاء المنافقين عن جميع منافع الآخرة، بين أن الأشياء التي يظنونها من باب **المنافع** في الدنيا، فإنه تعالى جعلها أسباب تعظيمهم في الدنيا، وأسباب اجتماع المحن والآفات عليهم، ومن تأمل في هذه الآيات عرف أنها مرتبة على أحسن الوجوه، فإنه تعالى لما بين قبائح أفعالهم وفضائح أعمالهم، بين مالهم في الآخرة من العذاب الشديد ومالهم في الدنيا من وجوه المحنة والبلية، ثم بين بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال البر لا ينتفعون به يوم القيامة البتة. ثم بين في هذه الآية أن ما يظنون أنه من منافع الدنيا فهو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم وتشديد المحنة عليهم، وعند هذا يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات في الدين والدنيا، ومبطل لجميع الخيرات في الدين والدنيا، وإذا وقف الإنسان على هذا الترتيب عرف أنه لا يمكن ترتيب الكلام على وجه أحسن من هذا. ومن الله التوفيق. وفيه مسائل:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٧/١٦

المسألة الأولى: هذا الخطاب، وإن كان في الظاهر مختصا بالرسول عليه السلام، إلا أن المراد منه كل المؤمنين، أي لا ينبغي أن تعجبوا بأموال هؤلاء المنافقين والكافرين، ولا بأولادهم ولا بسائر نعم الله عليهم، ونظيره قوله تعالى: ولا تمدن عينيك [طه: ١٣١] الآية.

المسألة الثانية: الإعجاب: السرور بالشيء كه مع نوع الافتخار به، ومع اعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه، وهذه الحالة تدل على استغراق النفس في ذلك الشيء وانقطاعها عن الله، فإنه لا يبعد في حكم الله أن يزيل ذلك الشيء عن ذلك الإنسان ويجعله لغيره، والإنسان متى كان متذكرا لهذا المعنى زال إعجابه بالشيء، ولذلك

قال عليه السلام: «ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه»

وكان عليه السلام يقول: «هلك المكثرون»

وقال عليه السلام: «ما لك من مالك/ إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت»

وذكر عبيد بن عمير، ورفعه إلى الرسول عليه السلام: «من كثر ماله اشتد حسابه، ومن كثر بيعه كثرت شياطينه، ومن ازداد من السلطان قربا، ازداد من الله بعدا»

والأخبار المناسبة لهذا الباب كثيرة، والمقصود منها الزجر عن الارتكان إلى الدنيا، والمنع من التهالك في حبها والافتخار بها. قال بعض المحققين: الموجودات بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام: الأول: الذي يكون أزليا أبديا، وهو الله جل جلاله والثاني: الذي لا يكون أزليا ولا أبديا وهو الدنيا. والثالث: الذي يكون أزليا ولا يكون أبديا وهذا محال الوجود، لأنه ثبت بالدليل أن ما ثبت قدمه امتنع عدمه. والرابع: الذي يكون أبديا ولا يكون أزليا وهو الآخرة وجميع المكلفين، فإن الآخرة لها أول، لكن لا آخر لها، وكذلك المكلف سواء كان مطيعا أو كان عاصيا فلحياته أول، ولا آخر لها.

وإذا ثبت هذا ثبت أن المناسبة الحاصلة بين الإنسان المكلف وبين الآخرة أشد من المناسبة بينه وبين الدنيا، ويظهر من هذا أنه خلق للآخرة لا للدنيا، فينبغي أن لا يشتد عجبه بالدنيا، وأن لا يميل قلبه إليها فإن المسكن الأصلي له هو الآخرة لا الدنيا.

أما قوله: إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ففيه مسائل:." (١)

"واحدا يقول: الإنسان لا يقدر أن يذهب بذهبه إلى القبر، فقلت بل يمكنه ذلك فإنه إذا أنفقه في طلب الرضوان الأكبر فقد ذهب به إلى القبر وإلى القيامة.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧١/١٦

والوجه الثامن: وهو أن بذل المال تشبه بالملائكة والأنبياء، وإمساكه تشبه بالبخلاء المذمومين، فكان البذل أولى.

والوجه التاسع: أن إفاضة الخير والرحمة من صفات الحق سبحانه وتعالى، والسعي في تحصيل هذه الصفة بقدر القدرة تخلق بأخلاق الله، وذلك منتهى كمالات الإنسانية.

والوجه العاشر: أن الإنسان ليس له إلا ثلاثة أشياء: الروح والبدن والمال. فإذا أمر بالإيمان فقد صار جوهر الروح مستغرقا في هذا التكليف. ولما أمر بالصلاة فقد صار اللسان مستغرقا بالذكر والقراءة، والبدن مستغرقا في تلك الأعمال، بقي المال، فلو لم يصر المال مصروفا إلى أوجه البر والخير لزم أن يكون شح الإنسان بماله فوق شحه بروحه وبدنه، وذلك جهل، لأن مراتب السعادات ثلاثة: أولها: السعادات الروحانية. وثانيها: السعادات البدنية وهي المرتبة الوسطى. وثالثها: السعادات الخارجية وهي المال والجاه. فهذه المراتب تجري مجرى خادم السعادات النفسانية، فإذا صار الروح مبذولا في مقام العبودية، ثم حصل الشح ببذل المال لزم جعل الخادم في مرتبة أعلى من المخدوم الأصلي، وذلك جهل. فثبت أنه يجب على العاقل أيضا بذل المال في طلب مرضاة الله تعالى.

والوجه الحادي عشر: أن العلماء قالوا: شكر النعمة عبارة عن صرفها إلى طلب مرضاة المنعم، والزكاة شكر النعمة، فوجب القول بوجوبها لما ثبت أن شكر المنعم واجب.

والوجه الثاني عشر: أن إيجاب الزكاة يوجب حصول الألف بالمودة بين المسلمين، وزوال الحقد والحسد عنهم، وكل ذلك من المهمات، فهذه وجوه معتبرة في بيان الحكمة الناشئة من إيجاب الزكاة العائدة إلى معطي الزكاة، [القسم الثاني] فأما المصالح العائدة من إيجاب الزكاة إلى من يأخذ الزكاة فهي كثيرة، الأول: أن الله تعالى خلق الأموال، وليس المطلوب منها أعيانها وذواتها. فإن الذهب والفضة لا يمكن الانتفاع بهما في أعيانهما إلا في الأمر القليل، بل المقصود من خلقهما أن يتوسل بهما إلى تحصيل **المنافع** ودفع المفاسد، فالإنسان إذا حصل له من المال بقدر حاجته كان هو أولى بإمساكه لأنه يشاركه سائر المحتاجين في صفة الحاجة، وهو ممتاز عنهم بكونه ساعيا في تحصيل ذلك المال، فكان اختصاصه بذلك المال أولى من اختصاص غيره، وأما إذا فضل المال على قدر الحاجة، وحضر إنسان آخر محتاج، فههنا حصل سببان كل واحد منهما يوجب تملك ذلك المال. أما في حق المالك، فهو أنه سعى في اكتسابه وتحصيله، وأيضا شدة تعلق قلبه به، فإن ذلك التعلق أيضا نوع من أنواع الحاجة. وأما في حق الفقير، فاحتياجه إلى ذلك المال يوجب تعلقه به، فلما وجد هذان السببان المتدافعان اقتضت الحكمة الإلهية رعاية كل واحد

من هذين السببين بقدر الإمكان. فيقال حصل للمالك حق الاكتساب وحق تعلق قلبه به، وحصل للفقير حق الاحتياج، فرجحنا جانب المالك، وأبقينا عليه الكثير وصرفنا إلى الفقير يسيرا منه توفيقا بين الدلائل بقدر الإمكان. الثاني: أن المال الفاضل عن الحاجات الأصلية إذا أمسكه الإنسان في بيته بقي معطلا عن المقصود الذي لأجله خلق المال، وذلك سعي في المنع من ظهور حكمة الله تعالى، وهو غير جائز، فأمر الله بصرف طائفة منه إلى الفقير حتى لا تصير تلك الحكمة معطلة بالكلية. الثالث:." (١)

"المنظور إليهم، وفي تخصيص أولوا الطول بالذكر قولان: الأول: أن الذم لهم ألزم لأجل كونهم قادرين على السفر والجهاد، والثاني: أنه تعالى ذكر أولوا الطول لأن من لا مال له ولا قدرة على السفر لا يحتاج إلى الاستئذان.

ثم قال تعالى: رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وذكرنا الكلام المستقصى في الخالف في قوله:

فاقعدوا مع الخالفين وهاهنا فيه وجهان: الأول: قال الفراء: الخوالف عبارة عن النساء اللاتي تخلفن في البيت فلا يبرحن، والمعنى: رضوا بأن يكونوا في تخلفهم عن الجهاد كالنساء. الثاني: يجوز أيضا أن يكون الخوالف جمع خالفة في حال. والخالفة الذي هو غير نجيب. قال الفراء: ولم يأت فاعل صيغة جمعه فواعل، إلا حرفان: فارس وفوارس، وهالك وهوالك، والقول الأول أولى، لأن أدل على القلة والذلة. قال المفسرون: وكان يصعب على المنافقين تشبيههم بالخوالف.

ثم قال: وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون وقد عرفت أن الطبع والختم عبارة عندنا عن حصول الداعية القوية للكفر المانعة من حصول الإيمان، وذلك لأن الفعل بدون الداعي لما كان محالا، فعند حصول الداعية الراسخة القوية للكفر، صار القلب كالمطبوع على الكفر، ثم حصول تلك الداعية إن كان من العبد لزم التسلسل، وإن كان من الله فالمقصود حاصل. وقال الحسن: الطبع عبارة عن بلوغ القلب في الميل في الكفر إلى الحد الذي كأنه مات عن الإيمان، وعند المعتزلة عبارة عن علامة تحصل في القلب، والاستقصاء فيه مذكور في سورة البقرة في قوله: ختم الله على قلوبهم وقوله: فهم لا يفقهون أي لا يفهمون أسرار حكمة الله في الأمر بالجهاد.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٨٨ الى ٨٩]

لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون (٨٨)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧٩/١٦

أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم (٨٩)
واعلم أنه تعالى لما شرح حال المنافقين في الفرار عن الجهاد بين أن حال الرسول والذين آمنوا معه بالضد منه، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه. وقوله: لكن فيه فائدة، وهي:
أن التقدير أنه إن تخلف هؤلاء المنافقون عن الغزو، فقد توجه إليه من هو خير منهم، وأخلص نية واعتقادا، كقوله: فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما [الأنعام: ٨٩] وقوله: فإن استكبروا فالذين عند ربك [فصلت: ٣٨] ولما وصفهم بالمسارعة إلى الجهاد ذكر ما حصل لهم من الفوائد **والمنافع**. وهو أنواع:
أولها: قوله: وأولئك لهم الخيرات واعلم أن لفظ الخيرات، يتناول منافع الدارين، لأجل/ أن اللفظ مطلق. وقيل: الخيرات الحور، لقوله تعالى: فيهن خيرات حسان [الرحمن: ٧٠] وثانيها: قوله:
وأولئك هم المفلحون فقوله: لهم الخيرات المراد منه الثواب. وقوله: هم المفلحون المراد منه التخلص من العقاب والعذاب. وثالثها: قوله: أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها يحتمل أن تكون هذه الجنات كالتفسير للخيرات وللفلاح، ويحتمل أن تحمل تلك الخيرات والفلاح على منافع الدنيا، مثل الغزو، والكرامة، والثروة، والقدرة، والغلبة، وتحمل الجنات على ثواب الآخرة والفوز." [1]
"الوجه الأول: أن التسوية قد تجيء بالواو تارة وبغير الواو أخرى. قال تعالى: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول [غافر: ٣] فجاء بعض بالواو، وبعض بغير الواو.
الوجه الثاني: أن المقصود من هذه الآيات الترغيب في الجهاد فالله سبحانه ذكر الصفات الستة، ثم قال: الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والتقدير: أن الموصوفين الصفات الستة، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. وقد ذكرنا أن رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورئيسه، هو الجهاد، فالمقصود من إدخال الواو عليه التنبيه على ما ذكرنا.
الوجه الثالث: في إدخال الواو على هؤلاء، وذلك لأن كل ما سبق من الصفات عبادات يأتي بها الإنسان لنفسه، ولا تعلق لشيء منها بالغير. أما النهي عن المنكر فعبادة متعلقة بالغير، وهذا النهي يوجب ثوران الغضب وظهور الخصومة، وربما أقدم ذلك المنهي على ضرب الناهي وربما حاول قتله، فكان النهي عن المنكر أصعب أقسام العبادات والطاعات، فأدخل عليها الواو تنبيها على ما يحصل فيها من زيادة المشقة والمحنة.
الصفة التاسعة: قوله: والحافظون لحدود الله والمقصود أن تكاليف الله، كثيرة وهي محصورة في نوعين:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١١٩/١٦

أحدهما: ما يتعلق بالعبادات. والثاني: ما يتعلق بالمعاملات. أما العبادات فهي التي أمر الله بها لا لمصلحة مرعية في الدنيا، بل لمصالح مرعية في الدين، وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والإعتاق والنذور وسائر أعمال البر. وأما المعاملات فهي: إما لجلب **المنافع** وإما لدفع المضار.

والقسم الأول: وهو ما يتعلق بجلب **المنافع**: فتلك **المنافع** إما أن تكون مقصودة بالأصالة أو بالتبعية، أما **المنافع** المقصودة بالأصالة، فهي **المنافع** الحاصلة من طرف الحواس الخمسة: فأولها: المذوقات: ويدخل فيها كتاب الأطعمة والأشربة من الفقه. ولما كان الطعام قد يكون نباتا، وقد يكون حيوانا، والحيوان لا يمكن أكله إلا بعد الذبح، والله تعالى شرط في الذبح شرائط مخصوصة، فلأجل هذا دخل في الفقه كتاب الصيد والذبائح، وكتاب الضحايا. وثانيها: الملموسات: ويدخل فيها باب أحكام الوقاع من جملتها ما يفيد حله، وهو باب النكاح، ومنه أيضا باب الرضاع، ومنها ما هو بحث عن لوازم النكاح مثل المهر والنفقة والمسكن ويتصل به أحوال القسم والنشوز، ومنها ما هو بحث عن الأسباب المزيلة للنكاح، ويدخل فيه كتاب الطلاق والخلع والإيلاء والظهار/ واللعان. ومن الأحكام المتعلقة بالملموسات: البحث عما يحل لبسه وعما لا يحل، وعما يحل استعماله وعما لا يحل استعماله، وما لا يحل. كاستعماله الأواني الذهبية والفضية، وطال كلام الفقهاء في هذا الباب. وثالثها: المبصرات وهي باب ما يحل النظر إليه وما لا يحل. ورابعها: المسموعات: وهو باب هل يحل سماعه أم لا؟ وخامسها: المشمومات، وليس للفقهاء فيها مجال. وأما **المنافع** المقصودة بالتبع فهي الأموال، والبحث عنها من ثلاثة أوجه: الأول: الأسباب المفيدة للملك وهي إما البيع أو غيره. أما البيع فهو إما بيع الأعيان، أو بيع **المنافع** وبيع الأعيان. فإما أن يكون بيع العين بالعين، أو بيع الدين بالعين وهو السلم، أو بيع العين بالدين كما إذا اشترى شيئا في الذمة، أو بيع الدين بالدين. وقيل: إنه لا يجوز. لما

روي أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن بيع الكالئ بالكالئ،

ولكن حصل له مثال في الشرع وهو تقاضي الدينين. وأما بيع المنفعة فيدخل فيه كتاب الإجارة، وكتاب الجعالة، وكتاب عقد المضاربة. وأما سائر الأسباب الموجبة للملك." (١)

"فهي الإرث، والهبة، والوصية، وإحياء الموات، والالتقاط، وأخذ الفيء والغنائم، وأخذ الزكوات وغيرها. ولا طريق إلى ضبط أسباب الملك إلا بالاستقراء.

والنوع الثاني: من مباحث الفقهاء الأسباب التي توجب لغير المالك التصرف في الشيء، وهو باب الوكالة

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥٥/١٦

والوديعة وغيرهما.

والنوع الثالث: الأسباب التي تمنع المالك من التصرف في ملك نفسه، وهو الرهن والتفليس والإجارة وغيرها، فهذا ضبط أقسام تكاليف الله في باب جلب **المنافع**. وأما تكاليف الله تعالى في باب دفع المضار فنقول: أقسام المضار خمسة لأن المضرة إما أن تحصل في النفوس أو في الأموال أو في الأديان أو في الأنساب أو في العقول، أما المضار الحاصلة في النفوس فهي إما أن تحصل في كل النفس، والحكم فيه إما القصاص أو الدية أو الكفارة، وإما في بعض من أبعاض البدن كقطع اليد وغيرها، والواجب فيه إما القصاص أو الدية أو الأرش، وأما المضار الحاصلة في الأموال، فذلك الضرر إما أن يحصل على سبيل الإعلان والإظهار، وهو كتاب الغصب أو على سبيل الخفية وهو كتاب السرقة، وأما المضار الحاصلة في الأديان، فهي إما الكفر وإما البدعة، أما الكفر فيدخل فيه أحكام المرتدين، وليس للفقهاء كتاب مقرر في أحكام المبتدعين وأما المضار الحاصلة في الأنساب فيتصل به تحريم الزنا واللواط وبيان العقوبة المشروعة فيهما، ويدخل فيه أيضا باب حد القذف وباب اللعان، وهاهنا بحث آخر وهو أن كل أحد لا يمكنه استيفاء حقوقه من **المنافع** ودفع المضار بنفسه، لأنه ربما كان ضعيفا فلا يلتفت إليه خصمه، فلهذا السر/ نصب الله تعالى الإمام لتنفيذ الأحكام، ويجب أن يكون لذلك الإمام نواب وهم الأمراء والقضاة فلما لم يجز أن يكون قول الغير مقبولا على الغير إلا بالحجة، فالشرع أثبت لإظهار الحق حجة مخصوصة وهي الشهادة، ولا بد أن يكون للدعوى ولإقامة البينة شرائط مخصوصة فلا بد من باب مشتمل عليها، فهذا ضبط معاقد تكاليف الله تعالى وأحكامه وحدوده، ولما كانت كثيرة والله تعالى إنما بينها في كل القرآن تارة على وجه التفصيل، وتارة بأن أمر الرسول عليه السلام حتى يبينها للمكلفين، لا جرم أنه تعالى أجمل ذكرها في هذه الآية، فقال: والحافظون لحدود الله وهو يتناول جملة هذه التكاليف.

واعلم أن الفقهاء ظنوا أن الذي ذكروه في بيان التكاليف وليس الأمر كذلك، فإن أعمال المكلفين قسمان: أعمال الجوارح وأعمال القلوب، وكتب الفقه مشتملة على شرح أقسام التكاليف المتعلقة بأعمال الجوارح، فأما التكاليف المتعلقة بأعمال القلوب فلم يبحثوا عنها البتة ولم يصنفوا لها كتبا وأبوابا وفصولا.

ولم يبحثوا عن دقائقها، ولا شك أن البحث عنها أهم والمبالغة في الكشف عن حقائقها أولى. لأن أعمال الجوارح إنما تراد لأجل تحصيل أعمال القلوب والآيات الكثيرة في كتاب الله تعالى ناطقة بذلك إلا أن قوله سبحانه: والحافظون لحدود الله متناول لكل هذه الأقسام على سبيل الشمول والإحاطة.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الصفات التسعة قال: وبشر المؤمنين والمقصود منه أنه قال في الآية المتقدمة:

فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به فذكر هذه الصفات التسعة، ثم ذكر عقيبها قوله: وبشر المؤمنين تنبيها على أن البشارة المذكورة في قوله: فاستبشروا لم تتناول إلا المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات.." [١]

"وإذا عرفت هذا فنقول: النور اسم لأصل هذه الكيفية، وأما الضوء، فهو اسم لهذه الكيفية إذا كانت كاملة تامة قوية، والدليل عليه أنه تعالى سمى الكيفية القائمة بالشمس ضياء والكيفية القائمة بالقمر نورا ولا شك أن الكيفية القائمة بالشمس أقوى وأكمل من الكيفية القائمة بالقمر، وقال في موضع آخر: وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا [الفرقان: ٦١] وقال في آية أخرى: وجعل الشمس سراجا [نوح: ١٦] وفي آية أخرى وجعلنا سراجا وهاجا [النبأ: ١٣] .

المسألة السادسة: قوله: وقدره منازل نظيره قوله تعالى في سورة يس: والقمر قدرناه منازل [يس: ٣٩] وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى وقدر مسيره منازل. والثاني: أن يكون المعنى وقدره ذا منازل.

المسألة السابعة: الضمير في قوله: وقدره فيه وجهان: الأول: أنه لهما، وإنما وحد الضمير للإيجاز، وإلا فهو في معنى التثنية اكتفاء بالمعلوم، لأن عدد السنين والحساب إنما يعرف بسير الشمس والقمر، ونظيره قوله تعالى: والله ورسوله أحق أن يرضوه [التوبة: ٦٢] والثاني: أن يكون هذا الضمير راجعا إلى القمر وحده، لأن بسير القمر تعرف الشهور، وذلك لأن الشهور المعتبرة في/ الشريعة مبنية على رؤية الأهلة، والسنة المعتبرة في الشريعة هي السنة القمرية، كما قال تعالى: إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله [التوبة: ٣٦] .

المسألة الثامنة: اعلم أن انتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم، فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وبحركة الشمس تنفصل السنة إلى الفصول الأربعة، وبالفصول الأربعة تنتظم مصالح هذا العالم وبحركة القمر تحصل الشهور، وباختلاف حاله في زيادة الضوء ونقصانه تختلف أحوال رطوبات هذا العالم وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل، فالنهار يكون زمانا للتكسب والطلب، والليل يكون زمانا للراحة، وقد استقصينا في منافع الشمس والقمر في تفسير الآيات اللائقة بها فيما سلف، وكل ذلك يدل على كثرة رحمة الله على الخلق وعظم عنايته بهم، فإنا قد دللنا على أن الأجسام متساوية ومتى كان كذلك كان اختصاص كل جسم بشكله المعين ووضعه المعين، وحيزه المعين، وصفته المعينة، ليس إلا بتدبير مدبر حكيم رحيم قادر قاهر وذلك يدل على أن جميع **المنافع** الحاصلة في هذا العالم بسبب حركات الأفلاك ومسير الشمس والقمر والكواكب، ما حصل إلا بتدبير المدبر المقدر الرحيم الحكيم سبحانه وتعالى عما

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥٦/١٦

يقول الظالمون علوا كبيرا ثم إنه تعالى لما قرر هذه الدلائل ختمها بقوله: ما خلق الله ذلك إلا بالحق ومعناه أنه تعالى خلقه على وفق الحكمة ومطابقة المصلحة، ونظيره قوله تعالى في آل عمران: ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك [آل عمران: ١٩١] وقال في سورة أخرى: وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا [ص: ٢٧] وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال القاضي: هذه الآية تدل على بطلان الجبر، لأنه تعالى لو كان مريدا لكل ظلم، وخالقا لكل قبيح، ومريدا لإضلال من ضل، لما صح أن يصف نفسه بأنه ما خلق ذلك إلا بالحق.

المسألة الثانية: قال حكماء الإسلام: هذا يدل على أنه سبحانه أودع في أجرام الأفلاك والكواكب خواص معينة وقوى مخصوصة، باعتبارها تنتظم مصالح هذا العالم السفلي إذ لو لم يكن لها آثار وفوائد في هذا." (١)

"العالم، لكان خلقها عبثا وباطلا وغير مفيد، وهذه النصوص تنافي ذلك. والله أعلم.

ثم بين تعالى أنه يفصل الآيات، ومعنى التفصيل هو ذكر هذه الدلائل الباهرة، واحدا عقيب الآخر، فصلا فصلا مع الشرح والبيان. وفي قوله: نفصل قراءتان: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم يفصل بالياء، وقرأ الباقون بالنون.

ثم قال: لقوم يعلمون وفيه قولان: الأول: أن المراد منه العقل الذي يعم الكل. والثاني: أن المراد منه من تفكر وعلم فوائد مخلوقاته وآثار إحسانه، وحجة القول الأول: عموم اللفظ، وحجة القول الثاني: أنه لا يمتنع أن يخص الله سبحانه وتعالى العلماء بهذا الذكر، لأنهم هم الذين انتفعوا بهذه الدلائل، فجاء كما في قوله: إنما أنت منذر من يخشاها [النازعات: ٤٥] مع أنه عليه السلام كان منذرا للكل.

[سورة يونس (١٠) : آية ٦]

إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون (٦)

اعلم أنه تعالى استدل على التوحيد والإلهيات أولا: بتخليق السموات والأرض، وثانيا: بأحوال الشمس والقمر: وثالثا: في هذه الآية بالمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة في تفسير قوله: إن في خلق السماوات والأرض [البقرة: ١٦٤] ورابعا: بكل ما خلق الله في السموات والأرض، وهي أقسام الحوادث الحادثة في هذا العالم، وهي محصورة في أربعة أقسام: أحدها: الأحوال

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠٩/١٧

الحادثة في العناصر الأربعة، ويدخل فيها أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار والثلوج ويدخل فيها أيضا أحوال البحار، وأحوال المد والجزر، وأحوال الصواعق والزلازل والخسف. وثانيها: أحوال المعادن وهي عجيبة كثيرة. وثالثها: اختلاف أحوال النبات. ورابعها: اختلاف أحوال الحيوانات، وجملة هذه الأقسام الأربعة داخلة في قوله تعالى: وما خلق الله في السماوات والأرض والاستقصاء في شرح هذه الأحوال مما لا يمكن في ألف مجلد، بل كل ما ذكره العقلاء في أحوال أقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب.

ثم إنه تعالى بعد ذكر هذه الدلائل قال: لآيات لقوم يتقون فخصها بالمتقين، لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى التدبر والنظر. قال القفال: من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لشقاء الناس فيها، وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم، بل جعلها لهم دار عمل وإذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهي، ثم من ثواب وعقاب، ليتميز المحسن عن المسيء، فهذه الأحوال في الحقيقة دالة على صحة القول بإثبات المبدأ وإثبات المعاد.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٧ الى ٨]

إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون (٧) أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون (٨)

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلائل القاهرة على صحة القول بإثبات الإله الرحيم الحكيم، وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر، شرع بعده في شرح أحوال من يكفر بها، وفي شرح أحوال من يؤمن بها فأما شرح أحوال الكافرين فهو المذكور في هذه الآية. واعلم أنه تعالى وصفهم بصفات أربعة:

الصفة الأولى: قوله: إن الذين لا يرجون لقاءنا وفيه مسائل:." (١)

"والأسود بن عبد يغوث، والحرث بن حنظلة، فقتل الله كل رجل منهم بطريق آخر، كما قال: إنا كفيناك المستهزئين [الحجر: ٩٥] فذكر الله تعالى أنهم كلما تلي عليهم آيات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله وفيه بحثان:

البحث الأول: أن وصفهم بأنهم لا يرجون لقاء الله أريد به كونهم مكذبين بالحشر والنشر، منكرين للبعث والقيامة، ثم في تقرير حسن هذه الاستعارة وجوه: الأول: قال الأصم: لا يرجون لقاءنا أي لا يرجون في

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢١٠/١٧

لقائنا خيرا على طاعة، فهم من السيئات أبعد أن يخافوها. الثاني: قال القاضي: الرجاء لا يستعمل إلا في المنافع، لكنه قد يدل على المضار من بعض الوجوه، لأن من لا يرجو لقاء ما وعد ربه من الثواب، وهو القصد بالتكليف، لا يخاف أيضا ما يوعده به من العقاب، فصار ذلك كناية عن جحدهم للبعث والنشور. واعلم أن كلام القاضي قريب من كلام الأصم، إلا أن البيان التام أن يقال: كل من كان مؤمنا بالبعث والنشور فإنه لا بد وأن يكون راجيا ثواب الله وخائفا من عقابه، وعدم اللازم يدل على عدم الملزوم، فلزم من نفي الرجاء نفي الإيمان بالبعث فهذا هو الوجه في حسن هذه الاستعارة.

البحث الثاني: أنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أمرين على البدل: فالأول: أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن. والثاني: أن يبدل هذا القرآن وفيه إشكال، لأنه إذا بدل هذا القرآن بغيره، فقد أتى بقرآن غير هذا القرآن، وإذا كان كذلك كان كل واحد منهما شيئا واحدا. وأيضا مما يدل على أن كل واحد منهما هو عين الآخر أنه عليه الصلاة والسلام اقتصر في الجواب على نفي أحدهما، وهو قوله: ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي وإذا ثبت أن كل واحد من هذين الأمرين هو نفس الآخر، كان إلقاء اللفظ على الترديد والتخيير فيه باطلا.

والجواب: أن أحد الأمرين غير الآخر، فالإتيان بكتاب آخر، لا على ترتيب هذا القرآن ولا على نظمه، يكون إتيانا بقرآن آخر، وأما إذا أتى بهذا القرآن إلا أنه وضع مكان ذم بعض الأشياء مدحها، ومكان آية رحمة آية عذاب، كان هذا تبديلا، أو نقول: الإتيان بقرآن غير هذا هو أن/ يأتيهم بكتاب آخر سوى هذا الكتاب مع كون هذا الكتاب باقيا بحاله، والتبديل هو أن يغير هذا الكتاب. وأما قوله: إنه اكتفى في الجواب على نفي أحد القسمين.

قلنا: الجواب المذكور عن أحد القسمين هو عين الجواب عن القسم الثاني وإذا كان كذلك وقع الاكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الثاني. وإنما قلنا: الجواب عن أحد القسمين عين الجواب عن الثاني لوجهين: الأول:

أنه عليه الصلاة والسلام لما بين أنه لا يجوز أن يبدله من تلقاء نفسه، لأنه وارد من الله تعالى ولا يقدر على مثله، كما لا يقدر سائر العرب على مثله، فكان ذلك متقررا في نفوسهم بسبب ما تقدم من تحديد لهم بمثل هذا القرآن، فقد دلهم بذلك على أنه لا يتمكن من قرآن غير هذا. والثاني: أن التبديل أقرب إلى الإمكان من المجيء بقرآن غير هذا القرآن، فجوابه عن الأسهل يكون جوابا عن الأصعب، ومن الناس من

قال: لا فرق بين الإتيان بقرآن غير هذا القرآن وبين تبديل هذا القرآن، وجعل قوله: ما يكون لي أن أبدله جوابا عن الأمرين، إلا أنه ضعيف على ما بيناه.." [1]

"القرآن مشتمل على شتم الأصنام التي جعلوها آلهة لأنفسهم، فلهذا السبب ذكر الله تعالى في هذا الموضع ما يدل على قبح عبادة الأصنام، ليبين أن تحقيرها والاستخفاف بها أمر حق وطريق متيقن.

واعلم أنه تعالى حكى عنهم أمرين: أحدهما: أنهم كانوا يعبدون الأصنام. والثاني: أنهم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله أما الأول فقد نبه الله تعالى على فساده بقوله: ما لا يضرهم ولا ينفعهم وتقريره من وجوه: الأول: قال الزجاج: لا يضرهم إن لم يعبدوه ولا ينفعهم إن عبدوه. الثاني: أن المعبود لا بد وأن يكون أكمل قدرة من العابد، وهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر البتة، وأما هؤلاء الكفار فهم قادرون على التصرف في هذه الأصنام تارة بالإصلاح وأخرى بالإفساد، وإذا كان العابد أكمل حالا من المعبود كانت العبادة باطلة.

الثالث: أن العبادة أعظم أنواع التعظيم، فهي لا تليق إلا بمن صدر عنه أعظم أنواع الإنعام، وذلك ليس إلا الحياة والعقل والقدرة ومصالح المعاش والمعاد، فإذا كانت المنافع والمضار كلها من الله سبحانه وتعالى، وجب أن لا تليق العبادة إلا بالله سبحانه.

وأما النوع الثاني: ما حكاه الله تعالى عنهم في هذه الآية، وهو قولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله فاعلم أن من الناس من قال إن أولئك الكفار توهموا أن عبادة الأصنام أشد في تعظيم الله من عبادة الله سبحانه وتعالى فقالوا ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى بل نحن نشتغل/ بعبادة هذه الأصنام، وأنها تكون شفعاء لنا عند الله تعالى. ثم اختلفوا في أنهم كيف قالوا في الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله؟ وذكروا فيه أقوالا كثيرة: فأحدها: أنهم اعتقدوا أن المتولي لكل إقليم من أقاليم العالم، روح معين من أرواح عالم الأفلاك، فعينوا لذلك الروح صنما معينا واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم، ومقصودهم عبادة ذلك الروح، ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عبدا للإله الأعظم ومشتغلا بعبوديته. وثانيها: أنهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى، ثم لما رأوا أن الكواكب تطلع وتغرب وضعوا لها أصناما معينة واشتغلوا بعبادتها، ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب. وثالثها: أنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام والأوثان، ثم تقربوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات. ورابعها: أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل، فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧/٢٢٤

عند الله تعالى، ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله. وخامسها: أنهم اعتقدوا أن الإله نور عظيم، وأن الملائكة أنوار فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم الأكبر، وعلى صورة الملائكة صورا أخرى. وسادسها: لعل القوم حلولية، وجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة.

واعلم أن كل هذه الوجوه باطلة بالدليل الذي ذكره الله تعالى وهو قوله: ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وتقريره ما ذكرناه من الوجوه الثلاثة.

قوله تعالى: قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون.

اعلم أن المفسرين قرروا وجها واحدا، وهو أن المراد من نفي علم الله تعالى بذلك تقرير نفيه في نفسه، وبيان أنه لا وجود له البتة، وذلك لأنه لو كان موجودا لكان معلوما لله تعالى، وحيث لم يكن معلوما لله تعالى وجب أن لا يكون موجودا، ومثل هذا الكلام مشهور في العرف، فإن الإنسان إذا أراد نفي شيء عن نفسه يقول:." (١)

"الإنصاف، وإذا كانوا كذلك فبتقدير أن يعطوا ما سألوه من إنزال معجزات أخرى، فإنهم لا يؤمنون بل يبقون على كفرهم وجهلهم، فنفتقر هاهنا إلى بيان أمرين: إلى بيان أن عادة هؤلاء الأقوام المكر واللجاج والعناد، ثم إلى بيان أنه متى كان الأمر كذلك لم يكن في إظهار سائر المعجزات فائدة.

أما المقام الأول: فتقريره أنه روي أن الله تعالى سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ثم رحمهم، وأنزل الأمطار النافعة على أراضيهم، ثم إنهم أضافوا تلك **المنافع** الجليلة إلى الأصنام وإلى الأنواء، وعلى التقديرين فهو مقابلة للنعمة بالكفران. فقوله: وإذا أذقنا الناس رحمة المراد منه تلك الأمطار النافعة. وقوله: من بعد ضراء مستهم المراد منه ذلك القحط الشديد. وقوله: إذا لهم مكر في آياتنا المراد منه إضافتهم تلك **المنافع** الجليلة إلى الأنواء والكواكب أو إلى الأصنام.

واعلم أنه تعالى ذكر هذا المعنى بعينه فيما تقدم من هذه السورة، وهو قوله تعالى: وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه [يونس: ١٢] إلا أنه تعالى زاد في هذه الآية التي نحن في تفسيرها دقيقة أخرى ما ذكرها في تلك الآية، وتلك الدقيقة هي أنهم يمكرون عند وجدان الرحمة، ويطلبون الغوائل، وفي الآية المتقدمة ما كانت هذه الدقيقة مذكورة، فثبت بما ذكرنا أن عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر وطلب الغوائل.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢٧/١٧

وأما المقام الثاني: وهو بيان أنه متى كان الأمر كذلك فلا فائدة في إظهار سائر الآيات، لأنه تعالى لو أظهر لهم جميع ما طلبوه من المعجزات الظاهرة فإنهم لا يقبلونها، لأنه ليس غرضهم من هذه الاقتراحات التشدد في طلب الدين، وإنما غرضهم الدفع والمنع والمبالغة في صون مناصبهم الدنيوية، والامتناع من المتابعة للغير، والدليل عليه أنه تعالى لما شدد الأمر عليهم وسلط البلاء عليهم، ثم أزالها عنهم وأبدل تلك البليات بالخيرات، فهم مع ذلك استمروا على التكذيب والجحود، فدل ذلك على أنه تعالى لو أنزل عليهم الآيات التي طلبوها لم يلتفتوا إليها، فظهر بما ذكرنا أن هذا الكلام جواب قاطع عن السؤال المتقدم.

الوجه الثاني: في تقرير هذا الجواب: أن أهل مكة قد حصل لهم أسباب الرفاهية وطيب العيش، ومن كان كذلك تمرد وتكبر كما قال تعالى: إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى [العلق: ٦، ٧] وقرر تعالى هذا المعنى بالمثال المذكور، فإقدامهم على طلب الآيات الزائدة والاقتراحات الفاسدة، إنما كان لأجل ما هم فيه من النعم الكثيرة والخيرات المتوالية، وقوله: قل الله أسرع مكرا كالتنبيه على أنه تعالى يزيل عنهم تلك النعم، ويجعلهم منقادين للرسول مطيعين له، تاركين لهذه الاعتراضات الفاسدة، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله تعالى: وإذا أذقنا الناس رحمة كلام ورد على سبيل المبالغة، والمراد منه إيصال الرحمة إليهم.

واعلم أن رحمة الله تعالى لا تذاق بالفم، وإنما تذاق بالعقل، وذلك يدل على أن القول بوجود السعادات الروحانية حق.

المسألة الثالثة: قال الزجاج (إذا) في قوله: وإذا أذقنا الناس رحمة للشرط وإذا في قوله إذا لهم مكر جواب الشرط وهو كقوله: وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون [الروم: ٣٦]." (١)

"سلام عليكم بما صبرتم

[الرعد: ٢٣، ٢٤] وهم أيضا يحيي بعضهم بعضا بالسلام قال تعالى: تحيتهم فيها سلام [يونس: ١٠] وأيضا فسلامهم يصل إلى السعداء من أهل الدنيا، قال تعالى: وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين [الواقعة: ٩٠، ٩١] .

المسألة الثالثة: اعلم أن كمال جود الله تعالى وكمال قدرته وكمال رحمته بعباده معلوم، فدعوته عبيده إلى دار السلام، تدل على أن دار السلام قد حصل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لأن العظيم إذا استعظم شيئا ورغب فيه وبالغ في ذلك الترغيب، دل ذلك على كمال حال ذلك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣١/١٧

الشيء، لا سيما وقد ملأ الله هذا الكتاب المقدس من وصف الجنة مثل قوله: فروح وريحان وجنة نعيم [الواقعة: ٨٩] ونحن نذكر هاهنا كلاما كليا في تقرير هذا المطلوب، فنقول: الإنسان إنما يسعى/ في يومه لغده ولكل إنسان غدان، غد في الدنيا وغد في الآخرة فنقول: غد الآخرة خير من غد الدنيا من وجوه أربعة: أولها: أن الإنسان قد لا يدرك غد الدنيا وبالضرورة يدرك غد الآخرة. وثانيها: أن بتقدير أن يدرك غد الدنيا فلعله لا يمكنه أن ينتفع بما جمعه، إما لأنه يضيع منه ذلك المال أو لأنه يحصل في بدنه مرض يمنعه من الانتفاع به. أما غد الآخرة فكلما اكتسبه الإنسان لأجل هذا اليوم، فإنه لا بد وأن ينتفع به. وثالثها: أن بتقدير أن يجد غد الدنيا ويقدر على أن ينتفع بماله، إلا أن تلك **المنافع** مخلوطة بالمضار والمتاعب، لأن سعادات الدنيا غير خالصة عن الآفات، بل هي ممزوجة بالبليات، والاستقراء يدل عليه ولذلك

قال عليه السلام: «من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق» فقيل يا رسول الله وما هو؟ قال: «سرور يوم بتمامه»

وأما منافع عز الآخرة فهي خالصة عن الغموم والهموم والأحزان سالمة عن كل المنفرات. ورابعها: أن بتقدير أن يصل الإنسان إلى عز الدنيا وينتفع بسببه، وكان ذلك الانتفاع خاليا عن خلط الآفات، إلا أنه لا بد وأن يكون منقطعا ومنافع الآخرة دائمة مبرأة عن الانقطاع، فثبت أن سعادات الدنيا مشوبة بهذه العيوب الأربعة، وأن سعادات الآخرة سالمة عنها فلهذا السبب كانت الجنة دار السلام.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفر والإيمان بقضاء الله تعالى قالوا: أنه تعالى بين في هذه الآية أنه دعا جميع الخلق إلى دار السلام، ثم بين أنه ما هدى إلا بعضهم فهذه الهداية الخاصة يجب أن تكون مغايرة لتلك الدعوة العامة، ولا شك أيضا أن الإقدار والتمكين وإرسال الرسل وإنزال الكتب أمور عامة، فوجب أن تكون هذه الهداية الخاصة مغايرة لكل هذه الأشياء، وما ذاك إلا ما ذكرناه من أنه تعالى خصه بالعلم والمعرفة دون غيره. واعلم أن هذه الآية مشكلة على المعتزلة وما قدروا على إيراد الأسئلة الكثيرة، وحاصل ما ذكره القاضي في وجهين: الأول: أن يكون المراد ويهدي الله من يشاء إلى إجابة تلك الدعوة، بمعنى أن من أجاب الدعاء وأطاع واتقى فإن الله يهديه إليها. والثاني: أن المراد من هذه الآية الألطاف. وأجاب أصحابنا عن هذين الوجهين بحرف واحد، وهو أن عندهم أنه يجب على الله فعل هذه الهداية، وما كان واجبا لا يكون معلقا بالمشيئة، وهذا معلق بالمشيئة، فامتنع حمله على ما ذكروه.

[سورة يونس (١٠) : آية ٢٦]

للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون (٢٦)." (١)

"اعلم أنه تعالى لما دعا عباده إلى دار السلام، ذكر السعادات التي تحصل لهم فيها فقال: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فيحتاج إلى تفسير هذه الألفاظ الثلاثة.

أما اللفظ الأول: وهو قوله: للذين أحسنوا فقال ابن عباس: معناه: للذين ذكروا كلمة لا إله إلا الله.

وقال الأصم: معناه: للذين أحسنوا في كل ما تعبدوا به، ومعناه: أنهم أتوا بالمأمور به كما ينبغي، واجتنبوا المنهيات من الوجه الذي صارت منهيا عنها.

والقول الثاني: أقرب إلى الصواب لأن الدرجات العالية لا تحصل إلا لأهل الطاعات.

وأما اللفظ الثاني: وهو الحسنى فقال ابن الأنباري: الحسنى في اللغة تأنيث الأحسن، والعرب توقع هذه اللفظة على الحالة المحبوبة والخصلة المرغوب فيها، ولذلك لم تؤكد، ولم تنعت بشيء، وقال صاحب «الكشاف» : المراد: المثوبة الحسنى ونظير هذه الآية قوله: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان [الرحمن: ٦٠] .

وأما اللفظ الثالث: وهو الزيادة فنقول: هذه الكلمة مبهمة، ولأجل هذا اختلف الناس في تفسيرها، وحاصل كلامهم يرجع إلى قولين:

القول الأول: أن المراد من منها رؤية الله سبحانه وتعالى قالوا: والدليل عليه النقل والعقل.

أما النقل:

فالحديث الصحيح الوارد فيه، وهو أن الحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما العقل: فهو أن الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف، فانصرف إلى المعهود السابق، وهو دار السلام والمعروف من المسلمين والمتقرر بين أهل الإسلام من هذه اللفظة هو الجنة، وما فيها من **المنافع** والتعظيم. وإذا ثبت هذا، وجب أن يكون المراد من الزيادة أمرا مغايرا لكل ما في الجنة من **المنافع** والتعظيم، وإلا لزم التكرار وكل من قال بذلك قال: إنما هي رؤية الله تعالى فدل ذلك على أن المراد من هذه الزيادة:

الرؤية. ومما يؤكد هذا وجهان: الأول: أنه تعالى قال: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة [القيامة: ٢٢، ٢٣] فأثبت لأهل الجنة أمرين: أحدهما: نضرة الوجوه والثاني: النظر إلى الله تعالى، وآيات القرآن يفسر

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣٩/١٧

بعضها بعضا فوجب حمل الحسنى هاهنا على نضرة الوجوه، وحمل الزيادة على رؤية الله تعالى. الثاني: أنه تعالى قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا [الإنسان: ٢٠] أثبت له النعيم، ورأية الملك الكبير، فوجب هاهنا حمل الحسنى والزيادة على هذين الأمرين.

القول الثاني: أنه لا يجوز حمل هذه الزيادة على الرؤية. قالت المعتزلة ويدل على ذلك وجوه: الأول: أن الدلائل العقلية دلت على أن رؤية الله تعالى ممتنعة. والثاني: أن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه، ورؤية الله تعالى ليست من جنس نعيم الجنة. الثالث: أن الخبر الذي تمسكتم به في هذا الباب هو ما روي أن الزيادة، هي النظر إلى وجه الله تعالى، وهذا الخبر يوجب التشبيه، لأن النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جهة المرئي وذلك يقتضي كون المرئي في الجهة، لأن الوجه اسم للعضو المخصوص، وذلك أيضا يوجب التشبيه فثبت أن هذا اللفظ لا يمكن حمله على الرؤية، فوجب حمله على شيء آخر، وعند هذا قال الجبائي: الحسنى عبارة عن الثواب المستحق، والزيادة هي ما يزيده الله تعالى على هذا الثواب من التفضل." (١)

"وقال: حصلت الخصومة بين الحوادث العقلية الإلهية وبين النوازع النفسانية الجسدانية، والترجيح لجانب العقل لأنه يدعو إلى فضل الله ورحمته والنفس تدعو إلى جمع الدنيا وشهواتها وفضل الله ورحمته خير لكم مما تجمعون من الدنيا لأن الآخرة خير وأبقى، وما كان كذلك فهو أولى بالطلب والتحصيل.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٥٩ الى ٦٠]

قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون (٥٩) وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون (٦٠)

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الناس ذكروا في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها، ولا أستحسن واحدا منها.

والذي يخطر بالبال والعلم عند الله تعالى وجهان: الأول: أن المقصود من هذا الكلام ذكر طريق ثالث في إثبات النبوة. وتقريره

أنه عليه الصلاة والسلام قال للقوم: «إنكم تحكمون بحل بعض الأشياء وحرمة بعضها فهذا الحكم تقولونه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧/٢٤٠

على سبيل الافتراء على الله تعالى، أو تعلمون أنه حكم حكم الله به»
والأول طريق باطل بالاتفاق، فلم يبق إلا الثاني، ثم من المعلوم أنه تعالى ما خاطبكم به من غير واسطة، ولما بطل هذا، ثبت أن هذه الأحكام إنما وصلت إليكم بقول رسول أرسله الله إليكم ونبي بعثه الله إليكم، وحاصل الكلام أن حكمهم بحل بعض الأشياء وحرمة بعضها مع اشتراك الكل في الصفات المحسوسة والمنافع المحسوسة، يدل على اعترافكم بصحة النبوة والرسالة وإذا/ كان الأمر كذلك، فكيف يمكنكم أن تبالغوا هذه المبالغات العظيمة في إنكار النبوة والرسالة وحمل الآية على هذا الوجه الذي ذكرته طريق حسن معقول.
الطريق الثاني: في حسن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه عليه الصلاة والسلام، لما ذكر الدلائل الكثيرة على صحة نبوة نفسه وبين فساد سؤالاتهم وشبهاتهم في إنكاره، أتبع ذلك ببيان فساد طريقتهم في شرائعهم وأحكامهم وبين أن التمييز بين هذه الأشياء بالحل والحرمة، مع أنه لم يشهد بذلك لا عقل ولا نقل طريق باطل ومنهج فاسد، والمقصود إبطال مذاهب القوم في أديانهم وفي أحكامهم، وأنهم ليسوا على شيء في باب من الأبواب.
المسألة الثانية: المراد بالشيء الذي جعلوه حراما ما ذكروه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وأيضا قوله تعالى: وقالوا هذه أنعام وحرث حجر [الأنعام: ١٣٨] إلى قوله: وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا [الأنعام: ١٣٩] وأيضا قوله تعالى: ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين [الأنعام: ١٤٣] والدليل عليه أن قوله: فجعلتم منه حراما إشارة إلى أمر تقدم منهم، ولم يحك الله تعالى عنهم إلا هذا، فوجب توجه هذا الكلام إليه، ثم لما حكى تعالى عنهم ذلك قال لرسوله عليه الصلاة والسلام: قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وهذه القسمة صحيحة، لأن هذه الأحكام إما أن تكون من الله تعالى أو لم تكن من الله فإن كانت من الله تعالى، فهو المراد بقوله: آلله أذن لكم وإن كانت ليست من الله فهو المراد بقوله: أم على الله تفترون.." (١)

"لعمري ما أمري علي بغمة ... نهاري ولا ليلي علي بسرمد

وقال الليث: إنه لفي غمة من أمره إذا لم يهتد له. قال الزجاج: أي ليكن أمركم ظاهرا منكشفا.
القيد الرابع: قوله: ثم اقضوا إلي وفيه بحثان:
البحث الأول: قال ابن الأنباري معناه ثم امضوا إلي بمكروهكم وما توعدونني به، تقول العرب: قضى فلان،

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧١/١٧

يريدون مات ومضى، وقال بعضهم: قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه وبه يسمى القاضي، لأنه إذا حكم فقد فرغ فقوله: ثم اقضوا إلي أي افرغوا من أمركم وامضوا ما في أنفسكم واقطعوا ما بيني وبينكم، ومنه قوله تعالى: وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب [الإسراء: ٤] أي أعلمناهم إعلاما قاطعا، قال تعالى: وقضينا إليه ذلك الأمر [الحجر: ٦٦] قال القفال رحمه الله تعالى ومجاز دخول كلمة (إلى) في هذا الموضع من قولهم برئت إليك وخرجت إليك من العهد، وفيه معنى الإخبار فكأنه تعالى قال: ثم اقضوا ما يستقر رأيكم عليه محكما مفروغا منه.

البحث الثاني: قرئ (ثم اقضوا إلي) بالفاء بمعنى ثم انتهوا إلى بشركم، وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء، أي أصحروا به إلي وأبرزوه إلي.

القيد الخامس: قوله: ولا تنظرون معناه لا تمهلون بعد إعلامكم إياي ما اتفقتم عليه فهذا هو تفسير هذه الألفاظ، وقد نظم القاضي هذا الكلام على أحسن الوجوه

فقال إنه عليه السلام قال: «في أول الأمر فعلى الله توكلت فإني واثق بوعد الله جازم بأنه لا يخلف الميعاد ولا تظنوا أن تهديدكم إياي بالقتل والإيذاء يمنعني من الدعاء إلى الله تعالى» ثم إنه عليه السلام أورد ما يدل على صحة دعوته فقال: «فأجمعوا أمركم»

فكأنه يقول لهم أجمعوا كل ما تقدرون عليه من الأسباب التي توجب حصول مطلوبكم ثم لم يقتصر على ذلك بل أمرهم أن يضموا إلى أنفسهم شركائهم الذين كانوا يزعمون أن حالهم يقوى بمكانتهم وبالتقرب إليهم، ثم لم يقتصر على هذين بل ضم إليهما ثالثا وهو قوله: ثم لا يكن أمركم عليكم غمة وأراد أن يبلغوا فيه كل غاية في المكاشفة والمجاهرة، ثم لم يقتصر على ذلك حتى/ ضم إليها: رابعا فقال: ثم اقضوا إلي والمراد أن وجهوا كل تلك الشرور إلي، ثم ضم إلى ذلك خامسا وهو قوله: ولا تنظرون أي عجلوا ذلك بأشد ما تقدرون عليه من غير إنظار فهذا آخر هذا الكلام ومعلوم أن مثل هذا الكلام يدل على أنه عليه السلام كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله تعالى وأنه كان قاطعا بأن كيدهم لا يصل إليه ومكرهم لا ينفذ فيه.

وأما قوله تعالى: فإن توليتم فما سألتكم من أجر فقال المفسرون: هذا إشارة إلى أنه ما أخذ منهم مالا على دعوتهم إلى دين الله تعالى ومتى كان الإنسان فارغا من الطمع كان قوله أقوى تأثيرا في القلب. وعندي فيه وجه آخر وهو أن يقال: إنه عليه السلام بين أنه لا يخاف منهم بوجه من الوجوه وذلك لأن الخوف إنما يحصل بأحد شيئين إما بإيصال الشر أو بقطع **المنافع**، فبين فيما تقدم أنه لا يخاف شرهم وبين بهذه

الآية أنه لا يخاف منهم بسبب أن يقطعوا عنه خيرا، لأنه ما أخذ منهم شيئا فكان يخاف أن يقطعوا منه خيرا.

ثم قال: إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين وفيه قولان: الأول: أنكم سواء قبلتم دين الإسلام أو لم تقبلوا، فأنا مأمور بأن أكون على دين الإسلام. والثاني: أني مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إلي لأجل هذه الدعوة وهذا الوجه أليق بهذا الموضع، لأنه لما قال: ثم اقضوا إلي بين لهم أنه مأمور." (١)

"بها، فأخرجه الله من الماء مع ذلك الدرع ليعرف. أقول: إن صح هذا فقد كان ذلك معجزة لموسى عليه السلام.

وأما قوله: لتكون لمن خلفك آية ففيه وجوه: الأول: أن قوما ممن اعتقدوا فيه الإلهية لما لم يشاهدوا غرقه كذبوا بذلك وزعموا أن مثله لا يموت، فأظهر الله تعالى أمره بأن أخرجه من الماء بصورته حتى شاهدوه وزالت الشبهة عن قلوبهم. وقيل كان مطرحه على ممر بني إسرائيل. الثاني: لا يبعد أنه تعالى أراد أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله أنا ربكم الأعلى [النازعات: ٢٤] ليكون ذلك زجرا للخلق عن مثل طريقته، ويعرفوا أنه كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة ثم آل أمره إلى ما يرون. الثالث: قرأ بعضهم لمن خلقك بالقاف أي لتكون لخالقك آية كسائر آياته. الرابع: أنه تعالى لما أغرقه مع جميع قومه ثم إنه تعالى ما أخرج أحدا منهم من قعر البحر، بل خصه بالإخراج كان تخصيصه بهذه الحالة العجيبة دالا على كمال قدرة الله تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام في دعوى النبوة.

وأما قوله: وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون فالأظهر أنه تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون وذكر حال عاقبة فرعون وختم ذلك بهذا الكلام وخاطب به محمدا عليه الصلاة والسلام فيكون ذلك زاجرا لأمته عن الإعراض عن الدلائل، وباعثا لهم على التأمل فيها والاعتبار بها، فإن المقصود من ذكر هذه القصص حصول الاعتبار، كما قال تعالى: لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب [يوسف: ١١١] .

[سورة يونس (١٠) : آية ٩٣]

ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (٩٣)

[في قوله تعالى ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨٥/١٧

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما وقع عليه الختم في واقعة فرعون وجنوده، ذكر أيضا في هذه الآية ما وقع عليه الختم في أمر بني إسرائيل، وهاهنا بحثان:

البحث الأول: أن قوله: بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق أي أسكناهم مكان صدق أي مكانا محمودا، وقوله: مبوأ صدق فيه وجهان: الأول: يجوز أن يكون مبوأ صدق مصدرا، أي بوأناهم تبوأ صدق. الثاني: أن يكون المعنى منزلا صالحا مرضيا، وإنما وصف المبوأ بكونه صدقا، لأن عادة العرب أنها إذا مدحت شيئا أضافته إلى الصدق تقول: رجل صدق، وقدم صدق. قال تعالى: وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق [الإسراء: ٨٠] والسبب فيه أن ذلك الشيء إذا كان كاملا في وقت صالحا للغرض المطلوب منه، فكل ما يظن فيه من الخبر، فإنه لا بد وأن يصدق ذلك الظن.

البحث الثاني: اختلفوا في أن المراد ببني إسرائيل في هذه الآية أهم اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام أم الذين كانوا في زمن محمد عليه السلام.

أما القول الأول: فقد قال به قوم ودليلهم أنه تعالى لما ذكر هذه الآية عقيب قصة موسى عليه السلام كان حمل هذه الآية على أحوالهم أولى، وعلى هذا التقدير: كان المراد بقوله: ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق الشام ومصر، وتلك البلاد فإنها بلاد كثيرة الخصب. قال تعالى: سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله [الإسراء: ١] والمراد من قوله: ورزقناهم من الطيبات تلك **المنافع**، وأيضا المراد منها أنه تعالى أورث بني إسرائيل جميع ما كان تحت أيدي قوم فرعون من الناطق والصامت." (١)

"إلا بتخليقه وتكوينه والرجس الذي يقابل الإيمان ليس إلا الكفر، فثبت دلالة هذه الآية على أن الكفر والإيمان من الله تعالى.

أجاب أبو علي الفارسي النحوي عنه فقال: الرجس، يحتمل وجهين آخرين: أحدهما: أن يكون المراد منه العذاب، فقوله: ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون أي يلحق العذاب بهم كما قال: ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات [الفتح: ٦] والثاني: أنه تعالى يحكم عليهم بأنهم رجس كما قال: إنما المشركون نجس [التوبة: ٢٨] والمعنى أن الطهارة الثابتة للمسلمين لم تحصل لهم.

والجواب: أنا قد بينا بالدليل العقلي أن الجهل لا يمكن أن يكون فعلا للعبد لأنه لا يريده ولا يقصد إلى تكوينه، وإنما يريد ضده، وإنما قصد إلى تحصيل ضده، فلو كان به لما حصل إلا ما قصده وأوردنا السؤالات

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩٨/١٧

على هذه الحجة وأجبنا عنها فيما سلف من هذا الكتاب. وأما حمل الرجس على العذاب، فهو باطل، لأن الرجس عبارة عن الفاسد المستقذر المستكره، فحمل هذا اللفظ على جهلهم وكفرهم أولى من حمله على عذاب الله مع كونه حقا صدقا صوابا، وأما حمل لفظ الرجس على حكم الله برجاستهم، فهو في غاية البعد، لأن حكم الله تعالى بذلك صفته، فكيف يجوز أن يقال إن صفة الله رجس، فثبت أن الحجة التي ذكرناها ظاهرة.

[سورة يونس (١٠) : آية ١٠١]

قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون (١٠١)

[في قوله تعالى قل انظروا ماذا في السماوات والأرض] في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة قل انظروا بكسر اللام لالتقاء الساكنين والأصل فيه الكسر، والباقون بضمها نقلوا حركة الهمزة إلى اللام.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى لما بين في الآيات السالفة أن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته، أمر بالنظر والاستدلال في الدلائل حتى لا يتوهم أن الحق هو الجبر المحض فقال: قل انظروا ماذا في السماوات والأرض.

واعلم أن هذا يدل على مطلوبين: الأول: أنه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالتدبر في الدلائل كما قال عليه الصلاة والسلام: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخلق»

والثاني: وهو أن الدلائل إما أن تكون من عالم السموات أو من عالم الأرض، أما الدلائل السماوية، فهي حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب، وما يختص به كل واحد منها من **المنافع** والفوائد، وأما الدلائل الأرضية، فهي النظر في أحوال العناصر العلوية، وفي أحوال المعادن وأحوال النبات وأحوال الإنسان خاصة، ثم ينقسم كل واحد من هذه الأجناس إلى أنواع لا نهاية لها. ولو أن الإنسان أخذ يتفكر في كيفية حكمة الله سبحانه في تخليق جناح بعوضة لا نقطع عقله قبل أن يصل إلى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد. ولا شك أن الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدلائل في القرآن المجيد، فلهذا السبب ذكر قوله: قل انظروا ماذا في السماوات والأرض ولم يذكر التفصيل، فكأنه

تعالى نبه على القاعدة الكلية، حتى إن العاقل يتنبه لأقسامها وحينئذ يشرع في تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية والبشرية، ثم إنه تعالى لما أمر بهذا التفكر والتأمل بين." (١)

"البحث الأول: أن الضمير في قوله: منه عائد إلى الحكيم الخبير، والمعنى: إنني لكم نذير وبشير من جهته.

البحث الثاني: أن قوله: ألا تعبدوا إلا الله مشتمل على المنع عن عبادة غير الله، وعلى الترغيب في عبادة الله تعالى، فهو عليه الصلاة والسلام نذير على الأول بإلحاق العذاب الشديد لمن لم يأت بها وبشير على الثاني بإلحاق الثواب العظيم لمن أتى بها.

واعلم أنه صلى الله عليه وسلم ما بعث إلا لهذين الأمرين، وهو الإنذار على فعل ما لا ينبغي، والبشارة على فعل ما ينبغي.

[في قوله تعالى وأن استغفروا ربكم إلى قوله ويؤت كل ذي فضل فضله] المرتبة الثانية: من الأمور المذكورة في هذه الآية قوله: وأن استغفروا ربكم.

والمرتبة الثالثة: قوله: ثم توبوا إليه واختلفوا في بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه:

الوجه الأول: أن معنى قوله: وأن استغفروا اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم، ثم بين الشيء الذي يطلب به ذلك وهو التوبة، فقال: ثم توبوا إليه لأن الداعي إلى التوبة والمحرض عليها هو الاستغفار الذي هو عبارة عن طلب المغفرة وهذا يدل على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من عند الله إلا بإظهار التوبة، والأمر في الحقيقة كذلك، لأن المذنب معرض عن طريق الحق، والمعرض والمتمادي في التباعد ما لم يرجع عن ذلك الإعراض لا يمكنه التوجه إلى المقصود بالذات، فالمقصود بالذات هو التوجه إلى المطلوب إلا أن ذلك لا يمكن إلا بالإعراض عما يضاده، فثبت أن الاستغفار مطلوب بالذات، وأن التوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار، وما كان آخرا في الحصول كان أولا في الطلب، فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة.

الوجه الثاني: في فائدة هذا الترتيب أن المراد: استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا إليه في المستأنف.

الوجه الثالث: وأن استغفروا من الشرك والمعاصي، ثم توبوا من الأعمال الباطلة.

الوجه الرابع: الاستغفار طلب من الله لإزالة ما لا ينبغي والتوبة سعي من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه فإنه هو الذي/ يقدر على تحصيله، ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لأنها عمل يأتي به الإنسان ويتوسل به إلى دفع المكروه والاستعانة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٠٦/١٧

بفضل الله تعالى مقدمة على الاستعانة بسعي النفس.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار النافعة والنتائج المطلوبة، ومن المعلوم أن المطالب محصورة في نوعين، لأنه إما أن يكون حصولها في الدنيا أو في الآخرة، أما **المنافع** الدنيوية: فهي المراد من قوله: يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى وهذا يدل على أن المقبل على عبادة الله والمشتغل بها يبقى في الدنيا منتظم الحال مرفه البال، وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: أليس أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»

وقال أيضا: «خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل»

وقال تعالى: ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة [الزخرف: ٣٣] فهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات في الدنيا هو الشدة والبلية. ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا فكيف الجمع بينهما؟." (١)

"لأجل الثناء في الدنيا، فإن بسببها تصل الخيرات **والمنافع** إلى المحتاجين، فكلها تكون من أعمال الخير، فلا جرم هذه الأعمال تكون طاعات سواء صدرت من الكافر أو المسلم. وأما العبادات: فهي إنما تكون طاعات بنيات مخصوصة، فإذا لم يؤت بتلك النية، وإنما أتى فاعلها بها على طلب زينة الدنيا، وتحصيل الرياء والسمعة فيها صار وجودها كعدمها فلا تكون من باب الطاعات.

وإذا عرفت هذا فنقول قوله: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها المراد منه الطاعات التي يصح صدورها من الكافر.

القول الثاني: وهو أن تجري الآية على ظاهرها في العموم، ونقول: إنه يندرج فيه المؤمن الذي يأتي بالطاعات على سبيل الرياء والسمعة، ويندرج فيه الكافر الذي هذا صفته، وهذا القول مشكل، لأن قوله:

أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار لا يليق المؤمن إلا إذا قلنا المراد أولئك الذين ليس في الآخرة إلا النار بسبب هذه الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة المقرونة بالرياء، ثم القائلون بهذا القول ذكروا أخبارا كثيرة في هذا الباب.

روي أن الرسول عليه السلام قال: «تعوذوا بالله من جب الحزن قيل وما جب الحزن؟ قال عليه الصلاة والسلام: «واد في جهنم يلقى فيه القراء المراؤون»

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧/٣١٥

وقال عليه الصلاة والسلام: «أشد الناس عذابا يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيرا ولا خير فيه»

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا كان يوم القيامة يدعى برجل جمع القرآن، فيقال له ما عملت فيه؟ فيقول يا رب قمت به آناء الليل والنهار فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك، ويؤت بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك فماذا عملت فيما آتيتك فيقول: وصلت الرحم وتصدقت، فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد، وقد قيل ذلك ويؤتى بمن قتل في سبيل الله فيقول قاتلت في الجهاد حتى قتلت فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جريء وقد قيل ذلك» قال أبو هريرة رضي الله عنه ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتي وقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق تسعر بهم النار يوم القيامة

وروي أن أبا هريرة رضي الله عنه ذكر هذا الحديث عند معاوية قال الراوي فبكى حتى ظننا أنه هالك ثم أفاق وقال صدق الله ورسوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها.

المسألة الثانية: المراد من توفية أجور تلك الأعمال هو أن كل ما يستحقون بها من الثواب فإنه يصل إليهم حال كونهم في دار الدنيا، فإذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الأعمال أثر من آثار الخيرات، بل ليس لهم منها إلا النار.

واعلم أن العقل يدل عليه قطعا، وذلك لأن من أتى بالأعمال لأجل طلب الثناء في الدنيا ولأجل الرياء، فذلك لأجل أنه غلب على قلبه حب الدنيا، ولم يحصل في قلبه حب الآخرة، إذ لو عرف حقيقة الآخرة وما فيها من السعادات لامتنع أن يأتي بالخيرات لأجل الدنيا وينسى أمر الآخرة، فثبت أن الآتي بأعمال البر لأجل الدنيا لا بد وأن يكون عظيم الرغبة في الدنيا عديم الطلب للآخرة ومن كان كذلك فإذا مات فإنه يفوته جميع منافع الدنيا ويبقى عاجزا عن وجدانها غير قادر على تحصيلها، ومن أحب شيئا ثم حيل بينه وبين المطلوب فإنه لا بد وأن تشتعل في قلبه نيران الحسرات فثبت بهذا البرهان العقلي، أن كل من أتى بعمل من الأعمال لطلب الأحوال الدنيوية فإنه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل، ثم إذا مات فإنه لا يحصل له منه إلا النار ويصير." (١)

"على أنه أراد إن أتبعكم فيما أنتم عليه من الكفر الذي دعوتموني إليه لم أزدد إلا خسرانا في الدين فأصير من الهالكين الخاسرين.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢٨/١٧

[سورة هود (١١) : الآيات ٦٤ الى ٦٥]
ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب (٦٤) فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب (٦٥)
اعلم أن العادة فيمن يدعي النبوة عند قوم يعبدون الأصنام أن يبتدئ بالدعوة إلى عبادة الله ثم يتبعه بدعوى النبوة لا بد وأن يطلبوا منه المعجزة وأمر صالح عليه السلام هكذا كان
يروى أن قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة فدعا صالح ربه فخرجت الناقة كما سألوا.
واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه: الأول: أنه تعالى خلقها من الصخرة وثانيها: أنه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق عنها الجبل. وثالثها: أنه تعالى خلقها حاملا من غير ذكر. ورابعها: أنه خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة، وخامسها: ما
روي أنه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم آخر،
وسادسها: أنه كان يحصل منها لبن كثير يكفي الخلق العظيم، وكل من هذه الوجوه معجز قوي وليس في القرآن، إلا أن تلك الناقة كانت آية ومعجزة، فأما بيان أنها كانت معجزة من أي الوجوه فليس فيه بيانه.
ثم قال: فذروها تأكل في أرض الله والمراد أنه عليه السلام رفع عن القوم مؤنتها، فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم، لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها على ما
روي أنه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من إصرارهم على الكفر،
فإن الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه، بل يسعى في إخفاءها وإبطالها بأقصى الإمكان، فلهذا السبب كان يخاف من إقدامهم على قتلها، فلهذا احتاط وقال: ولا تمسوها بسوء وتوعدهم إن مسوها بسوء بعذاب قريب، وذلك تحذير شديد لهم من الإقدام على قتلها، ثم بين الله تعالى أنهم مع ذلك عقروها وذبحوها، ويحتمل أنهم عقروها لإبطال تلك الحجة، وأن يكون لأنها ضيقت الشرب على القوم، وأن يكون لأنهم رغبوا في شحمها ولحمها، وقوله: فيأخذكم عذاب قريب يريد اليوم الثالث، وهو قوله:
تمتعوا في داركم ثم بين تعالى أن/ القوم عقروها، فعند ذلك قال لهم صالح عليه السلام: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ومعنى التمتع: التلذذ بالمنافع والملاذ التي تدرك بالحواس، ولما كان التمتع لا يحصل إلا للحي عبر به عن الحياة، وقوله: في داركم فيه وجهان: الأول: أن المراد من الدار البلد، وتسمى البلاد بالديار، لأنه يدار فيها أي يتصرف يقال: ديار بكر أي بلادهم. الثاني: أن المراد بالديار الدنيا. وقوله: ذلك وعد

غير مكذوب أي غير مكذب والمصدر قد يرد بلفظ المفعول كالمجلود والمعقول وبأيكم المفتون، وقيل غير مكذوب فيه،

قال ابن عباس رضي الله عنهما أنه تعالى لما أمهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد رغبهم في الإيمان، وذلك لأنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب، فقالوا وما علامة ذلك؟ فقال: تصير وجوهكم في اليوم الأول مصفرة، وفي الثاني محمرة، وفي الثالث مسودة، ثم يأتيكم العذاب في اليوم الرابع." (١)

"منها يعود إلى القرى شبه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وما عفا منها وبطر بالحصيد، والمعنى أن تلك القرى بعضها بقي منه شيء وبعضها هلك وما بقي منه أثر ألبتة.

ثم قال تعالى: وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم وفيه وجوه: الأول: وما ظلمناهم بالعذاب والإهلاك، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية. الثاني: أن الذي نزل بالقوم ليس بظلم من الله بل هو عدل وحكمة، لأجل أن القوم أولا ظلموا أنفسهم بسبب إقدامهم على الكفر والمعاصي فاستوجبوا لأجل تلك الأعمال من الله ذلك العذاب. الثالث: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد وما نقصناهم من النعيم في الدنيا والرزق، ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى.

ثم قال: فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء أي ما نفعتهم تلك الآلهة في شيء ألبتة.

ثم قال: وما زادوهم غير تتبيب قال ابن عباس رضي الله عنهما: غير تخسير. يقال: تب إذا خسر وتببه غيره إذا أوقعه في الخسران، والمعنى أن الكفار كانوا يعتقدون في الأصنام أنها تعين على تحصيل **المنافع** ودفع المضار ثم إنه تعالى أخبر أنهم عند مساس الحاجة إلى المعين ما وجدوا منها شيئا لا جلب نفع ولا دفع ضر، ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده، وهو أن ذلك/ الاعتقاد زال عنهم به منافع الدنيا والآخرة وجلب إليهم مضار الدنيا والآخرة، فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران.

[سورة هود (١١) : الآيات ١٠٢ الى ١٠٤]

وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد (١٠٢) إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود (١٠٣) وما نؤخره إلا لأجل معدود (١٠٤)

[في قوله تعالى وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد] وفي الآية مسائل:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٦٩/١٨

المسألة الأولى: قرأ عاصم والجحدري: إذ أخذ القرى بألف واحدة، وقرأ الباقون بألفين.
المسألة الثانية: [في بيان أن عذابه ليس بمقتصر على من تقدم] اعلم أنه تعالى لما أخبر الرسول عليه السلام في كتابه بما فعل بأمم من تقدم من الأنبياء لما خالفوا الرسل وردوا عليهم من عذاب الاستئصال، وبين أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العذاب في الدنيا قال بعده: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة فبين أن عذابه ليس بمقتصر على من تقدم، بل الحال في أخذ كل الظالمين يكون كذلك وقوله: وهي ظالمة الضمير فيه عائد إلى القرى وهو في الحقيقة عائد إلى أهلها، ونظيره قوله: وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة [الأنبياء: ١١] وقوله: وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها [القصص: ٥٨] .
واعلم أنه تعالى لما بين كيفية أخذ الأمم المتقدمة ثم بين أنه إنما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه أتبعه بما يزيده تأكيدا وتقوية فقال: إن أخذه أليم شديد فوصف ذلك العذاب بالإيلام وبالشدة، ولا منغصة في الدنيا إلا الألم، ولا تشديد في الدنيا وفي الآخرة، وفي الوهم والعقل إلا تشديد الألم.
واعلم أن هذه الآية تدل على أن من أقدم على ظلم فإنه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة لئلا يقع في الأخذ الذي وصفه الله تعالى بأنه أليم شديد ولا ينبغي أن يظن أن هذه الأحكام/ مختصة بأولئك المتقدمين،." (١)

"للسائلين فاعلم أن هذه القصة فيها آيات كثيرة لمن سأل عنها، وهو كقوله تعالى: في أربعة أيام سواء للسائلين [فصلت: ١٠] .
ثم قال تعالى: إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة وفيه مسألتان:
المسألة الأولى: قوله: ليوسف اللام لام الابتداء، وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة. أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وأخوه هو بنيامين، وإنما قالوا أخوه، وهم جميعا إخوة لأن أمهما كانت واحدة والعصبة والعصابة العشرة فصاعدا، وقيل إلى الأربعين سموا بذلك/ لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور، ونقل عن علي عليه السلام أنه قرأ ونحن عصبة بالنصب
قيل: معناه ونحن نجتمع عصبة.
المسألة الثانية: المراد منه بيان السبب الذي لأجله قصدوا إيذاء يوسف، وذلك أن يعقوب كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الأولاد في الحب وأنهم تأذوا منه لوجوه: الأول: أنهم كانوا أكبر سنا منهما. وثانيها: أنهم كانوا أكثر قوة وأكثر قياما بمصالح الأب منهما. وثالثها: أنهم قالوا إنا نحن القائمون بدفع المفاسد

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٩٦/١٨

والآفات، والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات. إذا ثبت ما ذكرناه من كونهم متقدمين على يوسف وأخيه في هذه الفضائل، ثم إنه عليه السلام كان يفضل يوسف وأخاه عليهم لا جرم قالوا: إن أبانا لفي ضلال مبين يعني هذا حيف ظاهر وضلال بين. وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: إن من الأمور المعلومة أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد، ويورث الآفات، فلما كان يعقوب عليه السلام عالما بذلك فلم أقدم على هذا التفضيل وأيضا الأسن والأعلم والأنفع أفضل، فلم قلب هذه القضية؟

والجواب: أنه عليه السلام ما فضلهما على سائر الأولاد إلا في المحبة، والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذورا فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم.

السؤال الثاني: أن أولاد يعقوب عليه السلام إن كانوا قد آمنوا بكونه رسولا حقا من عند الله تعالى فكيف اعترضوا عليه، وكيف زيفوا طريقته وطعنوا في فعله، وإن كانوا مكذبين لنبوته فهذا يوجب كفرهم.

والجواب: أنهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم مقرين بكونه رسولا حقا من عند الله تعالى، إلا أنهم لعلهم جوزوا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يفعلوا أفعالا مخصوصة بمجرد الاجتهاد، ثم إن اجتهادهم أدى إلى تخطئة أبيهم في ذلك الاجتهاد، وذلك لأنهم كانوا يقولون هما صبيان ما بلغا العقل الكامل ونحن متقدمون عليهما في السن والعقل والكفاية والمنفعة وكثرة الخدمة والقيام بالمهمات وإصراره على تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل. وأما يعقوب عليه السلام فلعله كان يقول: زيادة المحبة ليست في الوسع والطاقة، فليس لله علي فيه تكليف. وأما تخصيصهما بمزيد البر فيحتمل أنه كان لوجوه: أحدها: أن أمهما ماتت وهما صغار.

وثانيها: لأنه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة ما لم يجد في سائر الأولاد، وثالثها: لعله عليه السلام وإن كان صغيرا إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدم أشرف وأعلى بما كان يصدر عن سائر الأولاد، والحاصل أن هذه المسألة كانت اجتهادية، وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة، فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين في دين الآخر أو في عرضه.." (١)

"على المشي عليه، وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة، وأيضا أن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذيا له حصل في قلبه غضب، ويسخن مزاجه جدا فمبدأ تلك السخونة ليس إلا ذلك التصور النفساني، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٢٣/١٨

النفسانية، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص لم يبعد أيضا أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان. فثبت أنه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثرة في سائر الأبدان وأيضا جواهر النفوس المختلفة بالماهية فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر في تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه ويتعجب منه، فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه والنفوس النبوية نطقت به فعنده لا يبقى في وقوعه شك.

وإذا ثبت هذا ثبت أن الذي أطبق عليه المتقدمون من المفسرين في تفسير هذه الآية بإصابة العين كلام حق لا يمكن رده.

القول الثاني: وهو قول أبي علي الجبائي: أن أبناء يعقوب اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسهم وكمالهم. فقال: لا تدخلوا تلك المدينة من باب واحد على ما أنتم عليه من العدد والهيئة فلم يأمن عليهم حسد الناس أو يقال: لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم، واعلم أن هذا الوجه محتمل لا إنكار فيه إلا أن القول الأول قد بينا أنه لا امتناع فيه بحسب العقل والمفسرون أطبقوا عليه فوجب المصير إليه، ونقل عن الحسن أنه قال: خاف عليهم العين، فقال: لا تدخلوا من باب واحد ثم رجع إلى علمه وقال: وما أغني عنكم من الله من شيء وعرف أن العين ليست بشيء وكان قتادة يفسر الآية بإصابة العين ويقول: ليس في قوله: وما أغني عنكم من الله من شيء إبطال له لأن العين وإن صح فالله قادر على دفع أثره.

القول الثالث: أنه عليه السلام كان عالما بأن ملك مصر هو ولده يوسف إلا أن الله تعالى ما أذن له في إظهار ذلك فلما بعث أبناءه إليه قال: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى يوسف في وقت الخلوة، وهذا قول إبراهيم النخعي، فأما/ قوله: وما أغني عنكم من الله من شيء فاعلم أن الإنسان مأمور بأن يراعي الأسباب المعتبرة في هذا العالم ومأمور أيضا بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى وأن الحذر لا ينجي من القدر، فإن الإنسان مأمور بأن يحذر عن الأشياء المهلكة، والأغذية الضارة، ويسعى في تحصيل **المنافع** ودفع المضار بقدر الإمكان ثم إنه مع ذلك ينبغي أن يكون جازما بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله ولا يحصل في الوجود إلا ما أراده الله فقوله عليه السلام: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة فهو إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة في هذا العالم، وقوله: وما أغني عنكم من الله من شيء إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب وإلى التوحيد المحض والبراءة عن كل شيء سوى الله تعالى وقول القائل: كيف السبيل إلى الجمع بين هذين القولين،

فهذا السؤال غير مختص به، وذلك لأنه لا نزاع في أنه لا بد من إقامة الطاعات، والاحتراز عن المعاصي والسيئات مع أنا نعتقد أن السعيد من سعد في بطن أمه، وأن الشقي من شقي في بطن أمه فكذا هاهنا نأكل ونشرب ونحترز عن السموم وعن الدخول في النار مع أن الموت والحياة لا يحصلان إلا بتقدير الله تعالى، فكذا هاهنا. فظهر أن هذا السؤال." (١)

"اعلم أن وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت، واعتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا ذكرها فربما آمنوا، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في قوله: إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء

[القصص: ٥٦] قال أبو بكر بن الأنباري: جواب (لو) محذوف، لأن جواب (لو) لا يكون مقدما عليها فلا يجوز أن يقال. وقال الفراء في «المصادر» يقال: حرص يحرص حرصا، ولغة أخرى شاذة: حرص يحرص حريصا. ومعنى الحرص: طلب الشيء بأقصى ما يمكن من الاجتهاد. وقوله: وما تسئلهم عليه من أجر معناه ظاهر وقوله: إن هو إلا ذكر للعالمين أي هو تذكرة لهم في دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات، ومعناه: أن هذا القرآن يشتمل على هذه **المنافع** العظيمة، ثم لا تطلب منهم مالا ولا جعلا، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا. وقوله تعالى: وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون يعني: أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون إليها.

واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لا بد وأن تكون من أمور محسوسة، وهي إما الأجرام الفلكية وإما الأجرام العنصرية، أما الأجرام الفلكية: فهي قسمان: إما الأفلاك وإما الكواكب. أما الأفلاك: فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته، وقد يستدل بأحوال حركاتها إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم فلا بد من محرك قادر، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات. وأما الأجرام الكوكبية فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها أحيازها وحركاتها، وتارة بألوانها وأضوائها، وتار بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال والظلمات والنور، وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية: فإما أن تكون مأخوذة من بسائط، وهي عجائب البر والبحر، وإما من المواليد وهي أقسام: أحدها: الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٨٣/١٨

والمطر والثلج والهواء وقوس قزح. وثانيها: المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها. وثالثها: النبات وخاصية الخشب والورق والثمر واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة.
ورابعها: اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها. وخامسها: تشريح أبدان الناس وتشريح القوى الإنسانية وبيان المنفعة/ الحاصلة فيها فهذه مجامع الدلائل. ومن هذا الباب أيضا قصص الأولين وحكايات الأقدمين وأن الملوك الذين استولوا على الأرض وخربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر، ثم بقي الوزر والعقاب عليهم هذا ضبط أنواع هذه الدلائل والكتاب المحتوي على شرح هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الأعلى والعالم الأسفل والعقل البشري لا يفي بالإحاطة به فلهذا السبب." (١)

"[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٣٢ الى ٣٤]

ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب (٣٢) أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد (٣٣) لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق (٣٤)

اعلم أن القوم لما طلبوا سائر المعجزات من الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يتأذى من تلك الكلمات فالله تعالى أنزل هذه الآية تسلية له وتصبيرا له على سفاهة قومه فقال له إن أقوام سائر الأنبياء استهزؤا بهم كما أن قومك يستهزئون بك: فأمليت للذين كفروا أي أطلت لهم المدة بتأخير العقوبة ثم أخذتهم فكيف كان عقابي لهم.

واعلم أني سأنتقم من هؤلاء الكفار كما انتقمت من أولئك المتقدمين والإملاء والإمهال وأن يتركوا مدة من الزمان في خفض وأمن كالبهيمة يملى لها في المرعى، وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء، ثم إنه تعالى أورد على المشركين ما يجري مجرى الحجاج وما يكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم فقال: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت والمعنى: أنه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات وإذا كان كذلك كان عالما بجميع أحوال النفوس، وقادرا على تحصيل مطالبها من تحصيل المنافع ودفع المضار ومن إيصال الثواب إليها على كل الطاعات، وإيصال العقاب إليها على كل المعاصي. وهذا هو المراد من قوله: قائم

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥١٩/١٨

على كل نفس بما كسبت وما ذاك إلا الحق سبحانه ونظيره قوله تعالى: قائما بالقسط [آل عمران: ١٨] .
واعلم أنه لا بد لهذا الكلام من جواب واختلفوا فيه على وجوه:
الوجه الأول: التقدير: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن ليس بهذه الصفة؟ / وهي الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، وهذا الجواب مضمر في قوله تعالى: وجعلوا لله شركاء والتقدير: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم التي لا تضر ولا تنفع، ونظيره قوله تعالى: أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه وما جاء جوابه لأنه مضمر في قوله: فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله [الزمر: ٢٢] فكذا هاهنا، قال صاحب «الكشاف» : يجوز أن يقدر ما يقع خبرا للمبتدأ، أو يعطف عليه قوله:
وجعلوا والتقدير: أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه ولم يمجدوه وجعلوا له شركاء.
الوجه الثاني: وهو الذي ذكره السيد صاحب «حل العقد» فقال: نجعل الواو في قوله: وجعلوا واو الحال ونضمر للمبتدأ خبرا يكون المبتدأ معه جملة مقررة لإمكان ما يقارنها من الحال، والتقدير: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت موجود. والحال أنهم جعلوا له شركاء، ثم أقيم الظاهر وهو قوله (لله) مقام المضمر تقريرا للإلهية وتصريحا بها، وهذا كما تقول: جواد يعطي الناس ويغنيهم موجود ويحرم مثلي.
واعلم أنه تعالى لما قرر هذه الحجة زاد في الحجاج فقال: قل سموهم وإنما يقال ذلك في الأمر المستحقر الذي بلغ في الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم، فعند ذلك يقال: سمه إن شئت. يعني أنه." (١)
"الكلام، ولا يبعد أيضا أن يكون ذلك من بقية كلام إبليس قطعا لأطماع أولئك الكفار عن الإعانة والإغاثة، والله أعلم.

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٢٣]
وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام (٢٣)
وفيه مسألتان:
المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح أحوال الأشقياء من الوجوه الكثيرة، شرح أحوال السعداء، وقد عرفت أن الثواب يجب أن يكون منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم، فالمنفعة الخالصة إليها الإشارة بقوله تعالى: وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار وكونها دائمة أشير إليه

---
(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٤/١٩

بقوله: خالدين فيها والتعظيم حصل من وجهين: أحدهما: أن تلك المنافع إنما حصلت بإذن الله تعالى وأمره. والثاني: قوله: تحيتهم فيها سلام لأن بعضهم يحيي بعضا بهذه الكلمة، والملائكة يحيونهم بها كما قال: والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام/ عليكم [الرعد: ٢٣، ٢٤] والرب الرحيم يحييهم أيضا بهذه الكلمة كما قال: سلام قولا من رب رحيم [يس: ٥٨] .

واعلم أن السلام مشتق من السلامة وإلا ظهر أن المراد أنهم سلموا من آفات الدنيا وحسراتها أو فنون آلامها وأسقامها، وأنواع غمومها وهمومها، وما أصدق ما قالوا، فإن السلامة من محن عالم الأجسام الكائنة الفاسدة من أعظم النعم، لا سيما إذا حصل بعد الخلاص منها الفوز بالبهجة الروحانية والسعادة الملكية.

المسألة الثانية: قرأ الحسن: وأدخل الذين آمنوا على معنى وأدخلهم أنا، وعلى هذه القراءة فقوله: بإذن ربهم متعلق بما بعده، أي تحيتهم فيها سلام بإذن ربهم. يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

[سورة إبراهيم (١٤) : الآيات ٢٤ الى ٢٦]

ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (٢٤) تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٥) ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (٢٦)

[في قوله تعالى ألم تر كيف ضرب الله مثلا إلى قوله وفرعها في السماء] اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال الأشقياء وأحوال السعداء، ذكر مثالا يبين الحال في حكم هذين القسمين، وهو هذا المثل. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر شجرة موصوفة بصفات أربعة ثم شبه الكلمة الطيبة بها.

فالصفة الأولى: لتلك الشجرة كونها طيبة، وذلك يحتمل أمورا. أحدها: كونها طيبة المنظر والصورة والشكل. وثانيها: كونها طيبة الرائحة. وثالثها: كونها طيبة الثمرة يعني أن الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة. ورابعها: كونها طيبة بحسب المنفعة يعني أنها كما يستلذ بأكلها فكذلك يعظم الانتفاع بها، ويجب حمل قوله: شجرة طيبة، على مجموع هذه الوجوه لأن اجتماعها يحصل كمال الطيب.

والصفة الثانية: قوله: أصلها ثابت أي راسخ باق آمن الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء وذلك لأن الشيء الطيب إذا كان في معرض الانقراض والانقضاء، فهو وإن كان يحصل الفرح بسبب وجدانه إلا أنه يعظم." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨٩/١٩

"وتذكير وتصوير للمعاني، وذلك لأن المعاني العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم، / فإذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم التام والوصول إلى المطلوب.

وأما قوله تعالى: ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

فاعلم أن الشجرة الخبيثة هي الجهل بالله، فإنه أول الآفات وعنوان المخافات ورأس الشقاوات ثم إنه تعالى شبهها بشجرة موصوفة بصفات ثلاثة:

الصفة الأولى: أنها تكون خبيثة فمنهم من قال إنها الثوم، لأنه صلى الله عليه وسلم وصف الثوم بأنها شجرة خبيثة، وقيل:

إنها الكراث. وقيل: إنها شجرة الحنظل لكثرة ما فيها من المضار وقيل: إنها شجرة الشوك.

واعلم أن هذا التفصيل لا حاجة إليه، فإن الشجرة قد تكون خبيثة بحسب الرائحة وقد تكون بحسب الطعم، وقد تكون بحسب الصورة والمنظر وقد تكون بحسب اشتمالها على المضار الكثيرة والشجرة الجامعة لكل هذه الصفات وإن لم تكن موجودة، إلا أنها لما كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعا في المطلوب.

والصفة الثانية: قوله: اجتثت من فوق الأرض وهذه الصفة في مقابلة قوله: أصلها ثابت ومعنى اجتثت استؤصلت وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها، وقوله: من فوق الأرض معناه: ليس لها أصل ولا عرق، فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة.

والصفة الثالثة: قوله ما لها من قرار، وهذه الصفة كالمتممة للصفة الثانية، والمعنى أنه ليس لها استقرار.

يقال: قر الشيء قرارا كقولك: ثبت ثباتا، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت.

واعلم أن هذا المثال في صفة الكلمة الخبيثة في غاية الكمال، وذلك لأنه تعالى بين كونها موصوفة بالمضار الكثيرة، وخالية عن كل **المنافع** أما كونها موصوفة بالمضار فإليه الإشارة بقوله: خبيثة وأما كونها خالية عن كل **المنافع** فإليه الإشارة بقوله: اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار والله أعلم.

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٢٧]

يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء (٢٧)

اعلم أنه تعالى لما بين أن صفة الكلمة الطيبة أن يكون أصلها ثابتا، وصفة الكلمة الخبيثة أن لا يكون لها أصل ثابت بل تكون منقطعة ولا يكون لها قرار ذكر أن ذلك القول الثابت الصادر عنهم في الحياة الدنيا يوجب ثبات كرامة الله لهم، وثبات ثوابه عليهم، والمقصود بيان أن الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الثواب والكرامة من الله تعالى فقوله: يثبت الله أي على الثواب والكرامة، وقوله: بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة أي بالقول الثابت الذي كان يصدر عنهم حال ما كانوا في الحياة الدنيا.

ثم قال: ويضل الله الظالمين يعني كما أن الكلمة الخبيثة ما كان لها أصل ثابت ولا فرع باسق فكذلك أصحاب الكلمة الخبيثة وهم الظالمون يضلهم الله عن كراماته ويمنعهم عن الفوز بثوابه وفي الآية قول آخر وهو." (١)

"السماء والأرض من كم وجه تدل على وجود الصانع الحكيم، وإنما بدأ بذكرهما هاهنا لأنهما هما الأصلان اللذان يتفرع عليهما سائر الأدلة المذكورة بعد ذلك فإنه قال بعده: [الحجة الثالثة] وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وفيه مباحث:

البحث الأول: لولا السماء لم يصح إنزال الماء منها ولولا الأرض لم يوجد ما يستقر الماء فيه، فظهر أنه لا بد من وجودهما حتى يحصل هذا المقصود وهذا المطلوب.

البحث الثاني: قوله: وأنزل من السماء ماء وفيه قولان: الأول: أن الماء نزل من السحاب وسمي السحاب سماء اشتقاقا من السمو، وهو الارتفاع. والثاني: أنه تعالى أنزله من نفس السماء وهذا بعيد، لأن الإنسان ربما كان واقفا على قلة جبل عال ويرى الغيم أسفل منه فإذا نزل من ذلك الجبل يرى ذلك الغيم ماطرا عليهم وإذا كان هذا أمرا مشاهدا بالبصر كان النزاع فيه باطلا.

البحث الثالث: قال قوم: إنه تعالى أخرج هذه الثمرات بواسطة هذا الماء المنزل من السماء على سبيل العادة، وذلك لأن في هذا المعنى مصلحة للمكلفين، لأنهم إذا علموا أن هذه **المنافع** القليلة يجب أن تتحمل في تحصيلها المشاق والمتاعب، **فالمنافع** العظيمة الدائمة في الدار الآخرة أولى أن تتحمل المشاق في طلبها، وإذا كان المرء يترك الراحة واللذات طلبا لهذه الخيرات الحقيرة، فبأن يترك اللذات الدنيوية ليفوز بثواب الله تعالى ويتخلص عن عقابه أولى. ولهذا السبب لما زال التكليف في الآخرة أنال الله تعالى كل نفس مشتهاها من غير تعب ولا نصب، هذا قول المتكلمين. وقال قوم آخرون: إنه تعالى يحدث الثمار والزروع بواسطة هذا الماء النازل من السماء، والمسألة كلامية محضة، وقد ذكرناه في سورة البقرة.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٩٣/١٩

البحث الرابع: قال أبو مسلم: لفظ الثمرات يقع في الأغلب على ما يحصل على الأشجار، ويقع أيضا على الزروع والنبات، كقوله تعالى: كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده [الأنعام: ١٤١] .

البحث الخامس: قال تعالى: فأخرج به من الثمرات رزقا لكم والمراد أنه تعالى إنما أخرج هذه الثمرات لأجل أن تكون رزقا لنا، والمقصود أنه تعالى قصد بتخليق هذه الثمرات إيصال الخير والمنفعة إلى المكلفين، لأن الإحسان لا يكون إحسانا إلا إذا قصد المحسن بفعله إيصال النفع إلى المحسن إليه.

البحث السادس: قال صاحب «الكشاف» : قوله: من الثمرات بيان للرزق، أي أخرج به رزقا هو ثمرات، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعول أخرج ورزقا حال من المفعول أو نصبا على المصدر من أخرج لأنه في معنى رزق، والتقدير: ورزق من الثمرات رزقا لكم.

فأما الحجة الرابعة: وهي قوله: وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ونظيره قوله تعالى: ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام [الشورى: ٣٢] ففيها مباحث:

البحث الأول: أن الانتفاع بما ينبت من الأرض إنما يكمل بوجود الفلك الجاري في البحر، وذلك لأنه تعالى خص كل طرف من أطراف الأرض بنوع آخر من أنعمه حتى إن نعمة هذا الطرف إذا نقلت إلى الجانب الآخر من الأرض وبالعكس كثر الربح في التجارات، ثم إن هذا النقل لا يمكن إلا بسفن البر وهي الجمال أو." (١)

"بعد ذلك أنه لم يقتصر عليها، بل أعطى عباده من **المنافع** والمرادات ما لا يأتي على بعضها التعديد والإحصاء فقال: وآتاكم من كل ما سألتموه والمفعول محذوف تقديره من كل مسؤول شيئا، وقرئ: من كل بالتنوين وما سألتموه نفي ومحله نصب على الحال أي آتاكم من جميع ذلك غير سائليه ويجوز أن تكون «ما» موصولة والتقدير: آتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه النعم ختم الكلام بقوله: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها قال الواحدي: النعمة هاهنا اسم أقيم مقام المصدر يقال: أنعم الله عليه، ينعم إنعاما ونعمة أقيم الاسم مقام الإنعام كقوله: أنفقت عليه إنفاقا ونفقة بمعنى واحد، ولذلك لم يجمع لأنه في معنى المصدر، ومعنى قوله: لا تحصوها أي لا تقدرون على تعديد جميعها لكثرتها.

واعلم أن الإنسان إذا أراد أن يعرف أن الوقوف على أقسام نعم الله ممتنع، فعليه أن يتأمل في شيء واحد ليعرف عجز نفسه عنه ونحن نذكر منه مثالين.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٩٧/١٩

المثال الأول: أن الأطباء ذكروا أن الأعصاب قسمان، منها دماغية ومنها نخاعية. أما الدماغية فإنها سبعة ثم أتعبوا أنفسهم في معرفة الحكم الناشئة من كل واحد من تلك الأرواح السبعة، ثم مما لا شك فيه أن كل واحد من الأرواح السبعة تنقسم إلى شعب كثيرة وكل واحد من تلك الشعب أيضا إلى شعب دقيقة أدق من الشعر ولكل واحد منها ممر إلى الأعضاء ولو أن شعبة واحدة اختلت إما بسبب الكمية أو بسبب الكيفية أو بسبب الوضع لاختلت مصالح البنية، ثم إن تلك الشعب الدقيقة تكون كثيرة العدد جدا، ولكل واحدة منها حكمة مخصوصة، فإذا نظر الإنسان في هذا المعنى عرف أن الله تعالى بحسب كل شظية من تلك الشظايا العصبية على العبد نعمة عظيمة لو فاتت لعظم الضرر عليه وعرف قطعا أنه لا سبيل له إلى الوقوف عليها والاطلاع على أحوالها وعند هذا يقطع بصحة قوله تعالى: وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها وكما اعتبرت هذا في الشظايا العصبية فاعتبر مثله في الشرايين والأوردة، وفي كل واحد من الأعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والكيفية والوضع والفعل والانفعال حتى ترى أقسام هذا الباب بحرا لا ساحل له، وإذا اعتبرت هذا في بدن الإنسان الواحد فاعرف أقسام نعم الله تعالى في نفسه وروحه، فإن عجائب عالم الأرواح أكثر من عجائب عالم الأجساد ثم لما اعتبرت حالة الحيوان الواحد فعند ذلك اعتبر أحوال عالم الأفلاك والكواكب وطبقات العناصر وعجائب البر والبحر والنبات والحيوان وعند هذا تعرف/ أن عقول جميع الخلائق لو ركبت وجعلت عقلا واحدا ثم بذلك العقل يتأمل الإنسان في عجائب حكمة الله تعالى في أقل الأشياء لما أدرك منها إلا القليل، فسبحانه تقدس عن أوهام المتوهمين.

المثال الثاني: أنك إذا أخذت اللقمة الواحدة لتضعها في الفم فانظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها أما الأمور التي قبلها: فاعرف أن تلك اللقمة من الخبز لا تتم ولا تكمل إلا إذا كان هذا العالم بكليته قائما على الوجه الأصوب، لأن الحنطة لا بد منها، وأنها لا تنبت إلا معونة الفصول الأربعة، وتركيب الطبائع وظهور الرياح والأمطار، ولا يحصل شيء منها إلا بعد دوران الأفلاك، واتصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة في الحركات، وفي كيفيتها في الجهة والسرعة والبطء ثم بعد أن تكون الحنطة لا بد من آلات الطحن والخبز، وهي لا تحصل إلا عند تولد الحديد في أرحام الجبال، ثم إن الآلات الحديدية لا يمكن إصلاحها إلا بآلات." (١)

"البحث الثاني: أن هذا الدعاء جامع للدين والدنيا. أما الدين فلأنه يدخل فيه ميل الناس إلى الذهاب إلى تلك البلدة بسبب النسك والطاعة لله تعالى. وأما الدنيا: فلأنه يدخل فيه ميل الناس إلى نقل المعاشات

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٩٩/١٩

إليهم بسبب التجارات، فلأجل هذا الميل يتسع عيشهم، ويكثر طعامهم ولباسهم.

البحث الثالث: كلمة (من) في قوله: فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم تفيد التبعيض، والمعنى: فاجعل أفئدة بعض الناس مائلة إليهم. قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند. وقال سعيد بن جبير: لو قال أفئدة الناس، لحجت اليهود والنصارى المجوس، ولكنه قال: أفئدة من الناس فهم المسلمون.

ثم قال: وارزقهم من الثمرات وفيه بحثان:

البحث الأول: أنه لم يقل: وارزقهم الثمرات، بل قال: وارزقهم من الثمرات وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء اتصال بعض الثمرات إليهم.

البحث الثاني: يحتمل أن يكون المراد بإيصال الثمرات إليهم إيصالها إليهم على سبيل التجارات وإنما يكون المراد: عمارة القرى بالقرب منها لتحصيل الثمار منها.

ثم قال: لعلهم يشكرون وذلك يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات، فإن إبراهيم عليه السلام بين أنه إنما طلب تيسير **المنافع** على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الصلوات وأداء الواجبات.

المطلوب الرابع: قوله: ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن.

واعلم أنه عليه السلام لما طلب من الله تيسير **المنافع** لأولاده وتسهيلها عليهم، ذكر أنه لا يعلم عواقب الأحوال ونهايات الأمور في المستقبل، وأنه تعالى هو العالم بها المحيط بأسرارها، فقال: ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا، قيل: ما نخفي من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين إسماعيل، وما نعلن من البكاء، وقيل: ما نخفي من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حيث قالت له عند الوداع إلى من تكلنا؟ / فقال إلى الله أكلكم، قالت آلله أمرك بهذا؟ قال نعم: قالت إذن لا نخشى.

ثم قال: وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء وفيه قولان: أحدهما: أنه كلام الله عز وجل تصديقا لإبراهيم عليه السلام كقوله: وكذلك يفعلون [النحل: ٣٤] والثاني: أنه من كلام إبراهيم عليه السلام يعني وما يخفى على الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان، ولفظ «من» يفيد الاستغراق كأنه قيل:

وما يخفى عليه شيء ما.

ثم قال: الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق وفيه مباحث:
البحث الأول: اعلم أن القرآن يدل على أنه تعالى إنما أعطى إبراهيم عليه السلام هذين الولدين أعني إسماعيل وإسحاق على الكبر والشيخوخة، فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن وإنما يرجع فيه إلى." (١)

"والجواب عنه من وجهين: الأول: لعل المراد به قيل لهم قبل دخولهم فيها: ادخلوها بسلام. الثاني: لعل المراد لما ملكوا جنات كثيرة فكلما أرادوا أن ينتقلوا من جنة إلى أخرى قيل لهم ادخلوها وقوله: ادخلوها بسلام آمنين المراد ادخلوا الجنة مع السلامة من كل الآفات في الحال ومع القطع ببقاء هذه السلامة، والأمن من زوالها.
ثم قال تعالى: ونزعنا ما في صدورهم من غل والغل الحقد الكامن في القلب وهو مأخوذ/ من قولهم: أغل في جوفه وتغلغل، أي إن كان لأحدهم في الدنيا غل على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم، وعن علي عليه السلام أنه قال: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم،
وحكي عن الحرث بن الأعور أنه كان جالسا عند علي عليه السلام إذ دخل زكريا بن طلحة فقال له علي: مرحبا بك يا ابن أخي، أما والله إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى في حقهم: ونزعنا ما في صدورهم من غل فقال الحرث: كلا بل الله أعدل من أن يجعلك وطلحة في مكان واحد. قال عليه السلام: فلمن هذه الآية؟ لا أم لك يا أعور،
وروي أن المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص لبعضهم من بعض، ثم يؤمر بهم إلى الجنة.
وقد نقى الله قلوبهم من الغل والغش، والحقد والحسد،
وقوله: إخوانا نصب على الحال وليس المراد الأخوة في النسب بل المراد الأخوة في المودة والمخالصة كما قال: الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين [الزخرف: ٦٧] وقوله: على سرر متقابلين السرير معروف والجمع أسرة وسرر قال أبو عبيدة يقال: سرر وسرر بفتح الراء وكذا كل فعيل من المضاعف فإن جمعه فعل وفعل نحو: سرر وسرر، وجدد وجدد قال المفضل: بعض تميم وكلب يفتحون، لأنهم يستثقلون ضمتين متواليتين في حرفين من جنس واحد، وقال بعض أهل المعاني: السرير مجلس رفيع مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لأنه مجلس سرور. قال الليث: وسرير العيش مستقره الذي اطمأن إليه في حال سروره وفرحه قال ابن عباس: يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت، والسرير مثل ما بين صنعاء

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٠٥/١٩

إلى الجابية، وقوله: متقابلين التقابل التواجه، وهو نقيض التدابر، ولا شك أن المواجهة أشرف الأحوال وقوله: لا يمسهم فيها نصب النصب الإعياء والتعب أي لا ينالهم فيها تعب: وما هم منها بمخرجين والمراد به كونه خلودا بلا زوال وبقاء بلا فناء، وكمالا بلا نقصان، وفوزا بلا حرمان.

واعلم أن للثواب أربع شرائط: وهي أن تكون منافع مقرونة بالتعظيم خالصة عن الشوائب دائمة.

أما القيد الأول: وهو كونها منفعة فإليه الإشارة بقوله: إن المتقين في جنات وعيون.

وأما القيد الثاني: وهو كونها مقرونة بالتعظيم فإليه الإشارة بقوله: ادخلوها بسلام آمنين لأن الله سبحانه إذا قال لعبيده هذا الكلام أشعر ذلك بنهاية التعظيم وغاية الإجلال.

وأما القيد الثالث: وهو كون تلك **المنافع** خالصة عن شوائب الضرر، فاعلم أن المضار إما أن تكون روحانية، وإما أن تكون جسمانية، أما المضار الروحانية فهي الحقد، والحسد، والغل، والغضب، وأما المضار الجسمانية فكالإعياء والتعب فقوله: ونزعنا ما في صدورهم من غل/ إخوانا على سرر متقابلين إشارة إلى نفي المضار الروحانية وقوله: لا يمسهم فيها نصب إشارة إلى نفي المضار الجسمانية.." (١)

"وأما القيد الرابع: وهو كون تلك **المنافع** دائمة آمنة من الزوال فإليه الإشارة بقوله: وما هم منها بمخرجين فهذا ترتيب حسن معقول بناء على القيود الأربعة المعتبرة في ماهية الثواب ولحكماء الإسلام في هذه الآية مقال، فإنهم قالوا: المراد من قوله: ونزعنا ما في صدورهم من غل إشارة إلى أن الأرواح القدسية النطقية نقية مطهرة عن علائق القوى الشهوانية والغضبية، مبرأة عن حوادث الوهم والخيال، وقوله: إخوانا على سرر متقابلين معناه أن تلك النفوس لما صارت صافية عن كدورات عالم الأجسام ونوازع الخيال والأوهام، ووقع عليها أنوار عالم الكبرياء والجلال فأشرقت بتلك الأنوار الإلهية، وتلألأت بتلك الأضواء الصمدية، فكل نور فاض على واحد منها انعكس منه على الآخر مثل المزايا المتقابلة المتحاذية، فلكونها بهذه الصفة وقع التعبير عنها بقوله: إخوانا على سرر متقابلين والله أعلم.

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]

نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم (٤٩) وأن عذابي هو العذاب الأليم (٥٠)

في الآية مسألتان:

المسألة الأولى: أثبتت الهمزة الساكنة في (نبيء) صورة، وما أثبتت في قوله: دفء. وجزء لأن ما قبلها

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤٨/١٩

ساكن فهي تحذف كثيرا وتلقى حركتها على الساكن قبلها، ف (نبىء) في الخط على تحقيق الهمزة، وليس قبل همزة (نبىء) ساكن فأجروها على قياس الأصل:
المسألة الثانية: اعلم أن عباد الله قسمان: منهم من يكون متقيا، ومنهم من لا يكون كذلك، فلما ذكر الله تعالى أحوال المتقين في الآية المتقدمة، ذكر أحوال غير المتقين في هذه الآية فقال: نبئ عبادي.
واعلم أنه ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم، فهها وصفهم بكونهم عبادا له، ثم أثبت عقيب ذكر هذا الوصف الحكم بكونه غفورا رحيما، فهذا يدل على أن كل من اعترف بالعبودية ظهر في حقه كون الله غفورا رحيما ومن أنكر ذلك كان مستوجبا للعقاب الأليم. وفي الآية لطائف: إحداها: أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله: عبادي وهذا تشريف عظيم. ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمدا/ صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله: سبحان الذي أسرى بعبده [الإسراء: ١] . وثانيها: أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة: أولها: قوله: أني.
وثانيها: قوله: أنا. وثالثها: إدخال حرف الألف واللام على قوله: الغفور الرحيم ولما ذكر العذاب لم يقل أني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال: وأن عذابي هو العذاب الأليم. وثالثها: أنه أمر رسوله أن يبلغ إليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة. ورابعها: أنه لما قال: نبئ عبادي كان معناه نبىء كل من كان معترفا بعبوديتي، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى.
وعن قتادة قال: بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله تعالى ما تورع من حرام، ولو علم قدر عقابه لبخع نفسه»
أي قتلها
وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر بنفر من أصحابه، وهم يضحكون فقال: «أتضحكون والنار بين أيديكم» فنزل قوله: نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم
والله أعلم.." (١)

"كذلك، وإنما ينتفع به في أمور غير ضرورية مثل الزينة وغيرها، والقسم الأول أشرف من الثاني، وهذا القسم هو الأنعام، فلهذا السبب بدأ الله بذكره في هذه الآية، فقال: والأنعام خلقها لكم.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤٩/١٩

واعلم أن الأنعام عبارة عن الأزواج الثمانية وهي: الضأن، والمعز. والإبل. والبقر، وقد يقال أيضا: الأنعام ثلاثة: الإبل. والبقر. والغنم. قال صاحب «الكشاف» : وأكثر ما يقع هذا اللفظ على الإبل. وقوله: والأنعام منصوبة وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله تعالى: والقمر قدرناه منازل [يس: ٣٩] ويجوز أن يعطف على الإنسان. أي خلق الإنسان والأنعام، قال الواحدي: تم الكلام عند قوله: والأنعام خلقها ثم ابتدأ وقال: لكم فيها دفء ويجوز أيضا أن يكون تمام الكلام عند قوله: لكم ثم ابتدأ وقال: فيها دفء قال صاحب «النظم» : أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله: خلقها والدليل عليه أنه عطف عليه قوله: ولكم فيها جمال وال‌تقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال.

المسألة الثانية: أنه تعالى لما ذكر أنه خلق الأنعام للمكلفين أتبعه بتعديد تلك **المنافع**، واعلم أن منافع النعم منها ضرورية، ومنها غير ضرورية، والله تعالى بدأ بذكر **المنافع** الضرورية.

فالمنفعة الأولى: قوله: لكم فيها دفء وقد ذكر هذه المعنى في آية أخرى فقال: ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها [النحل: ٨٠] والدفء عند أهل اللغة ما يستدفأ به من الأكسية، قال الأصمعي: ويكون الدفء السخونة. يقال: أقعد في دفء هذا الحائط، أي في كنه. وقرئ: دف بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الفاء.

والمنفعة الثانية: قوله: ومنافع قالوا: المراد نسلها ودرها، وإنما عبر الله تعالى عن نسلها ودرها بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الأعم، لأن النسل والدر قد ينتفع به في الأكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود، وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه ال أقسام بلفظ **المنافع** ليتناول الكل.

والمنفعة الثالثة: قوله: ومنها تأكلون.

فإن قيل: قوله: ومنها تأكلون يفيد الحصر وليس الأمر كذلك، فإنه قد يؤكل من غيرها، وأيضا منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللبس، فلم أخر منفعته في الذكر؟

قلنا: الجواب عن الأول: أن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم، وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر، فيشبه غير المعتاد. وكالجاري مجرى التفكه، ويحتمل أيضا أن غالب أطعمتكم منها لأنكم تحرثون بالبقر والحب والثمار التي تأكلونها منها، وأيضا تكتسبون بإكراء الإبل وتنتفعون بألبانها ونتاجها وجلودها، وتشترون بها جميع أطعمتكم.

والجواب عن السؤال الثاني: أن الملبوس أكثر بقاء من المطعوم، فلهذا قدمه عليه في الذكر.

واعلم أن هذه **المنافع** الثلاثة هي **المنافع** الضرورية الحاصلة من الأنعام. وأما **المنافع** الحاصلة من الأنعام

التي هي ليست بضرورية ف أمور:

المنفعة الأولى: قوله تعالى: ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون الإراحة رد الإبل بالعشي." (١)

"إلى مراحها حيث تأوي إليه ليلا، ويقال: سرح القوم إبلهم سرحا إذا أخرجوها بالغداة إلى المرعى.

قال أهل اللغة: هذه الإراحة أكثر ما تكون أيام الربيع إذا سقط الغيث وكثر الكلأ وخرجت العرب للنجعة، وأحسن ما يكون النعم في ذلك الوقت.

واعلم أن وجه التجمل بها أن الراعي إذا روحها بالعشي وسرحها بالغداة تزينت عند تلك الإراحة والتسريح الأفنية، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء، وفرحت أربابها وعظم وقعهم عند الناس بسبب كونهم مالكين لها.

فإن قيل: لم قدمت الإراحة على التسريح؟

قلنا: لأن الجمال في الإراحة أكثر. لأنها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع، ثم اجتمعت في الحظائر حاضرة لأهلها بخلاف التسريح، فإنها عند خروجها إلى المرعى تخرج جائعة عادمة اللبن ثم تأخذ في التفرق والانتشار، فظهر أن الجمال في الإراحة أكثر منه في التسريح.

والمنفعة الثانية: قوله: وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الأثقال جمع ثقل وهو متاع المسافر لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس. قال ابن عباس: يريد من مكة إلى المدينة. أو إلى اليمن. أو إلى الشام. أو إلى مصر. قال الواحدي: هذا قوله والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير إبل لشق عليكم وخص ابن عباس هذه البلاد، لأن/ متاجر أهل مكة كانت إلى هذه البلاد، وقرئ: بشق الأنفس بكسر الشين وفتحها، وأكثر القراء على كسر الشين. والشق المشقة والشق نصف الشيء، وحمل اللفظ هاهنا على كلا المعنيين جائز، فإن حملناه على المشقة كان المعنى: لم تكونوا بالغيه إلا بالمشقة، وإن حملناه على نصف الشيء كان المعنى: لم تكونوا بالغيه إلا عند ذهاب النصف من قوتكم أو من بدنكم ويرجع عند التحقيق إلى المشقة. ومن الناس من قال: المراد من قوله: والأنعام خلقها الإبل فقط بدليل أنه وصفها في آخر الآية بقوله: وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه وهذا الوصف لا يليق إلا بالإبل.

قلنا: المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الأنعام فبعض تلك **المنافع** حاصلة في الكل وبعضها مختص بالبعض، والدليل عليه: أن قوله: ولكم فيها جمال حاصل في البقر والغنم مثل حصوله في الإبل. والله أعلم.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧٥/١٩

المسألة الثانية: احتج منكرو كرامات الأولياء بهذه الآية فقالوا: هذه الآية تدل على أن الإنسان لا يمكنه الانتقال من بلد إلى بلد إلا بشق الأنفس، وحمل الأثقال على الجمال ومثبتو الكرامات يقولون: إن الأولياء قد ينتقلون من بلد إلى بلد آخر بعيد في ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة، فكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلا، ولما بطل القول بالكرامات في هذه الصورة بطل القول بها في سائر الصور، لأنه لا قائل بالفرق.

وجوابه: أنا نخصص عموم هذه الآية بالأدلة الدالة على وقوع الكرمات. والله أعلم.

[سورة النحل (١٦) : آية ٨]

والخيل و البغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٨)." (١)

"اعلم أنه تعالى لما ذكر منافع الحيوانات التي ينتفع الإنسان بها في **المنافع** الضرورية والحاجات الأصلية، ذكر بعده منافع الحيوانات التي ينتفع بها الإنسان في **المنافع** التي ليست بضرورية، فقال: والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: والخيل والبغال والحمير عطف على الأنعام، أي وخلق الأنعام لكذا وكذا، وخلق هذه الأشياء للركوب. وقوله: وزينة أي وخلقها زينة، ونظيره قوله تعالى: زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا [فصلت: ١٢] المعنى: وحفظناها حفظا. قال الزجاج: نصب قوله: وزينة على أنه مفعول له. والمعنى: وخالقها للزينة.

المسألة الثانية: احتج القائلون بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية. فقالوا منفعة الأكل أعظم/ من منفعة الركوب، فلو كان أكل لحم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر، وحيث لم يذكره الله تعالى علمنا أنه يحرم أكله، ويمكن أيضا أن يقوى هذا الاستدلال من وجه آخر. فيقال: إنه تعالى قال في صفة الأنعام: ومنها تأكلون [النحل: ٥] وهذه الكلمة تفيد الحصر، فيقتضي أن لا يجوز الأكل من غير الأنعام، فوجب أن يحرم مخلوقة للركوب، فهذا يقتضي أن منفعة الأكل مخصوصة بالأنعام وغير حاصلة في هذه الأشياء، ويمكن الاستدلال بهذه الآية من وجه ثالث وهو أن قوله: لتركبوها يقتضي أن تمام المقصود من خلق هذه الأشياء الثلاثة هو الركوب والزينة، ولو حل أكلها لما كان تمام المقصود من خلقها هو الركوب، بل كان حل أكلها أيضا مقصودا، وحينئذ يخرج جواز ركوبها عن أن يكون تمام المقصود، بل يصير بعض المقصود.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧٦/١٩

وأجاب الواحدي بجواب في غاية الحسن فقال: لو دلت هذه الآية على تحريم أكل هذه الحيوانات لكان تحريم أكلها معلوما في مكة لأجل أن هذه السورة مكية، ولو كان الأمر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين أن لحوم الحمر الأهلية حرمت عام خيبر باطلا، لأن التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم لم يبق لتخصيص هذا التحريم بهذه الشبهة فائدة، وهذا جواب حسن متين.

المسألة الثالثة: القائلون بأن أفعال الله تعالى معللة بالمصالح والحكم، احتجوا بظاهر هذه الآية فإنه يقتضي أن هذه الحيوانات مخلوقة لأجل المنفعة الفلانية، ونظيره قوله: كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور [إبراهيم: ١] وقوله: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [الذاريات: ٥٦] والكلام فيه معلوم.

المسألة الرابعة: لقائل أن يقول لما كان معنى الآية أنه تعالى خلق الخيل والبغال والحمير لتركبوها وليجعلها زينة لكم فلم ترك هذه العبارة؟

وجوابه أنه تعالى لو ذكر هذا الكلام بهذه العبارة لصار المعنى أن التزين بها أحد الأمور المعتبرة في المقصود، وذلك غير جائز، لأن التزين بالشيء يورث العجب والتيه والتكبر، وهذه أخلاق مذمومة والله تعالى نهى عنها وزجر عنها فكيف يقول إني خلقت هذه الحيوانات لتحصيل هذه المعاني بل قال: خلقها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة، وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر، ولكنه غير." (١)

"الثاني والثلاثون: المبارك: وهذا ذكر مبارك [الأنبياء: ٥٠] وسمى الله تعالى به أشياء، فسمى الموضع الذي كلم فيه موسى عليه السلام مباركا في البقعة المباركة من الشجرة [القصص: ٣٠] وسمى شجرة الزيتون مباركة يوقد من شجرة مباركة زيتونة [التوبة: ٣٥] لكثرة منافعها، وسمى عيسى مباركا وجعلني مباركا [مريم: ٣١] وسمى المطر مباركا ونزلنا من السماء ماء مباركا [ق: ٩] لما فيه من **المنافع**، وسمى ليلة القدر مباركة إنا أنزلناه في ليلة مباركة [الدخان: ٣] فالقرآن ذكر مبارك أنزله ملك مبارك في ليلة مباركة على نبي مبارك لأمة مباركة.

اتصال «ألم» بقوله «ذلك الكتاب» :

المسألة الرابعة: في بيان اتصال قوله: الم بقوله: ذلك الكتاب قال صاحب الكشاف: إن جعلت الم اسما للسورة ففي التأليف وجوه:

الأول: أن يكون الم مبتدأ وذلك مبتدأ ثانيا والكتاب خبره والجملة خبر المبتدأ الأول، ومعناه أن ذلك هو

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧٧/١٩

الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وإنه الذي يستأهل أن يكون كتابا كما تقول: هو الرجل، أي الكامل في الرجولية الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال، وأن يكون الكتاب صفة، ومعناه هو ذلك الكتاب الموعود، وأن يكون الم خبر مبتدأ محذوف أي هذه الم ويكون ذلك الكتاب خبرا ثانيا أو بدلا على أن الكتاب صفة، ومعناه هو ذلك، وأن تكون هذه الم جملة وذلك الكتاب جملة أخرى وإن جعلت الم بمنزلة الصوت كان ذلك مبتدأ وخبره الكتاب أي ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل، أو الكتاب صفة والخبر ما بعده أو قدر مبتدأ محذوف، أي هو يعني المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب وقرأ عبد الله الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه [السجدة: ٢] وتأليف هذا ظاهر.

تفسير قوله تعالى: لا ريب فيه:

قوله تعالى: لا ريب فيه فيه مسألتان:

المسألة الأولى: الريب قريب من الشك، وفيه زيادة، كأنه ظن سوء تقول رابني أمر فلان إذا ظننت به سوء، ومنها

قوله عليه السلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»

فإن قيل: قد يستعمل الريب في قولهم: «ريب الدهر» و «ريب الزمان» أي حوادثه قال الله تعالى: نتربص به ريب المنون [الطور: ٣٠] ويستعمل أيضا في معنى ما يختلج في القلب من أسباب الغيظ كقول الشاعر:

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجمعنا السيوفا

قلنا: هذان قد يرجعان إلى معنى الشك، لأن ما يخاف من ريب المنون محتمل، فهو كالمشكوك/ فيه، وكذلك ما اختلج بالقلب فهو غير متيقن، فقوله تعالى: لا ريب فيه المراد منه نفي كونه مظنة للريب بوجه من الوجوه، والمقصود أنه لا شبهة في صحته، ولا في كونه من عند الله، ولا في كونه معجزا. ولو قلت: المراد لا ريب في كونه معجزا على الخصوص كان أقرب لتأكيد هذا التأويل بقوله: وإن كنتم في ريب مما." (١)

"بما يؤاخذ به اللبيب الحازم، والعاقل العالم، البارد الرأس، المعتدل مزاج القلب، اللطيف الروح الذي رزقه مربيا شفيقا، ومعلما كاملا؟ ما هذا من العدل والرحمة والكرم والرأفة في شيء! فثبت بهذه الوجوه أن القول بالعقاب على خلاف قضايا العقول. وخامسها: أنه تعالى إنما كلفنا النفع لعوده إلينا، لأنه قال: إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها [الإسراء: ٧] فإذا عصينا فقد فوتنا على أنفسنا تلك **المنافع**،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٢٦٥

فهل يحسن في العقول أن يأخذ الحكيم إنسانا ويقول له إني أعذبك العذاب الشديد، لأنك فوت على نفسك بعض **المنافع**، فإنه يقال له إن تحصيل النفع مرجوح بالنسبة إلى دفع الضرر فهب أني فوت على نفسي أدون المطلوبين أفتفوت علي لأجل ذلك أعظمها وهل يحسن من السيد أن يأخذ عبده ويقول إنك قدرت على أن تكتسب دينارا لنفسك ولتنتفع به خاصة من غير أن يكون لي فيه غرض البتة، فلما لم تكتسب ذلك الدينار ولم تنتفع به آخذك وأقطع أعضاءك إربا إربا، لا شك أن هذا نهاية السفاهة، فكيف يليق بأحكم الحاكمين! ثم قالوا هب أن سلمنا هذا العقاب فمن أين القول بالدوام؟ وذلك لأن أقسى الناس قلبا وأشدهم غلظة وفظاظة وبعدا عن الخير إذا أخذ من بالغ في الإساءة إليه وعذبه يوما أو شهرا أو سنة فإنه يشبع منه ويمل، فلو بقي مواظبا عليه لامه كل أحد، ويقال هب أنه بالغ هذا في إضرارك، ولكن إلى متى هذا التعذيب، فإما أن تقتله وتريحه، وإما أن تخلصه، فإذا قبح هذا من الإنسان الذي يلتذ بالانتقام فالغني عن الكل كيف يليق به هذا الدوام الذي يقال! وسادسها: أنه سبحانه نهى عباده عن استيفاء الزيادة، فقال: فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا [الإسراء: ٣٣] وقال: وجزاء سيئة سيئة مثلها [الشورى: ٤٠] ثم إن العبد هب أنه عصى الله تعالى طول عمره فأين عمره من الأبد؟ فيكون العقاب المؤبد ظلما. وسابعها: أن العبد لو واظب على الكفر طول عمره، فإذا تاب ثم مات عفا الله عنه وأجاب دعاءه وقبل توبته، ألا ترى أن هذا الكريم العظيم ما بقي في الآخرة، أو عقول أولئك المعذبين ما بقيت فلم لا يتوبون عن معاصيهم؟ وإذا تابوا فلم لا يقبل الله تعالى منهم توبتهم، ولم لا يسمع نداءهم، / ولم يخيب رجاءهم؟ ولم كان في الدنيا في الرحمة والكرم إلى حيث قال: ادعوني أستجب لكم [غافر: ٦٠] أمن يجيب المضطر إذا دعاه [النمل: ٦٢] وفي الآخرة صار بحيث كلما كان تضرعهم إليه أشد فإنه لا يخاطبهم إلا بقوله: اخسؤا فيها ولا تكلمون [المؤمنون: ١٠٨] قالوا: فهذه الوجوه مما توجب القطع بعدم العقاب. ثم قال من آمن من هؤلاء بالقرآن:

العذر عما ورد في القرآن من أنواع العذاب من وجوه: أحدها: أن التمسك بالدلائل اللفظية لا يفيد اليقين، والدلائل العقلية تفيد اليقين، والمظنون لا يعارض المقطوع. وإنما قلنا: إن الدلائل اللفظية لا تفيد اليقين، لأن الدلائل اللفظية مبنية على أصول كلها ظنية والمبني على الظني ظني، وإنما قلنا إنها مبنية على أصول ظنية، لأنها مبنية على نقل اللغات ونقل النحو والتصريف، ورواة هذه الأشياء لا يعلم بلوغهم إلى حد التواتر، فكانت روايتهم مظنونة، وأيضا فهي مبنية على عدم الاشتراك وعدم المجاز وعدم التخصيص وعدم الإضمار بالزيادة والنقصان وعدم التقديم والتأخير، وكل ذلك أمور ظنية، وأيضا فهي مبنية على عدم المعارض العقلي،

فإنه بتقدير وجوده لا يمكن القول بصدقهما ولا بكذبهما معا، ولا يمكن ترجيح النقل على العقل لأن العقل أصل النقل، والطعن في العقل يوجب الطعن في العقل والنقل معا، لكن عدم المعارض العقلي مظنون، هذا إذا لم يوجد فكيف وقد وجدنا هاهنا دلائل عقلية على خلاف هذه الظواهر، فثبت أن دلالة هذه الدلائل النقلية ظنية، وأما أن الظني لا يعارض اليقيني فلا شك فيه. وثانيها: وهو أن." [1]

"والانقياد لمحمد صلى الله عليه وسلم مع شدة استنكافهم عن الانقياد له فكما أن الإنسان يبالغ في الاحتراز عن المطر الصيب الذي هو أشد الأشياء نفعا بسبب هذه الأمور المقارنة، فكذا المنافقون يحترزون عن الإيمان والقرآن بسبب هذه الأمور المقارنة، والمراد من قوله: كلما أضاء لهم مشوا فيه أنه متى حصل لهم شيء من **المنافع**، وهي عصمة أموالهم ودمائهم وحصول الغنائم لهم فإنهم يرغبون في الدين: وإذا أظلم عليهم قاموا أي متى لم يجدوا شيئا من تلك **المنافع** فحينئذ يكرهون الإيمان ولا يرغبون فيه، فهذه الوجوه ظاهرة في التشبيه. وبقي على الآية أسئلة وأجوبة. السؤال الأول: أي التمثيلين أبلغ؟ والجواب: التمثيل الثاني، لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأغاليظ، ولذلك تراهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ. السؤال الثاني: لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك؟ الجواب من وجوه: أحدها: لأن «أو» في أصلها تساوي شيئين فصاعدا في الشك، ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك. كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين تريد أنهما سيان في استصواب أن تجالس أيهما شئت، ومنه قوله تعالى: ولا تطع منهم آثما أو كفورا [الإنسان: ٢٤] أي أن الآثم والكفور متساويان في وجوب عصيانهما، فكذا قوله: أو كصيب معناه أن كيفية المنافقين شبيهة بكيفيتي هاتين القصتين، فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب، وإن مثلتها بهما جميعا فكذلك. وثانيها: إنما ذكر تعالى ذلك لأن المنافقين قسمان بعضهم يشبهون أصحاب النار، وبعضهم يشبهون أصحاب المطر، ونظيره قوله تعالى: وقالوا كونوا هودا أو نصارى [البقرة: ١٣٥] وقوله: وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون [الأعراف: ٤] وثالثها: أو بمعنى بل قال تعالى: وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون [الصافات: ١٤٧] ورابعها: أو بمعنى الواو كأنه قال وكصيب من السماء نظيره قوله تعالى: أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم [النور: ٦١] وقال الشاعر:

وقد زعمت ليلى بأني فاجر ... لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وهذه الوجوه مطردة في قوله: ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة [البقرة: ٧٤]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٢٩٨

السؤال الثالث: المشبه بالصيب والظلمات والرعد والبرق والصواعق ما هو؟ الجواب: لعلماء البيان هاهنا قولان: أحدهما: أن هذا تشبيه مفرق ومعناه أن يكون المثل مركبا من أمور والممثل يكون أيضا مركبا من أمور ويكون كل واحد من المثل شبيها بكل واحد من الممثل، فههنا شبه دين الإسلام بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من شبهات الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالبرق والرعد، وما يصيب الكفرة من الفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق، والمعنى أو كمثل ذوي صيب، والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة: والقول الثاني: أنه تشبيه مركب، وهو الذي يشبه فيه إحدى الجملتين بالأخرى في أمر/ من الأمور وإن لم تكن آحاد إحدى الجملتين شبيهة بآحاد الجملة الأخرى وهاهنا المقصود تشبيه حيرة المنافقين في الدنيا والدين بحيرة من انطفت ناره بعد إيقادها، وبحيرة من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق، فإن قيل الذي كنت تقدره في التشبيه المفرق من حذف المضاف وهو قولك: أو كمثل ذوي صيب هل يقدر مثله في المركب، قلنا لولا طلب الراجع في قوله: يجعلون أصابعهم في آذانهم ما يرجع إليه لما كان بنا حاجة إلى تقديره: السؤال الرابع: ما الصيب؟ الجواب: أنه المطر الذي يصوب، أي ينزل من صاب يصوب إذا نزل ومنه صوب رأسه إذا خفضه وقيل إنه من صاب يصوب إذا قصد، ولا يقال صيب." (١)

"العلم، فكل ما كان أظهر دلالة كان أقوى إفادة، وكان أولى بالذكر. فلهذا السبب قدم ذكر نفس الإنسان، ثم ثناه بآبائه وأمهاته ثم ثلث بالأرض، لأن الأرض أقرب إلى الإنسان من السماء والإنسان أعرف بحال الأرض منه بأحوال السماء، وإنما قدم ذكر السماء على نزول الماء من السماء وخروج الثمرات بسببه لأن ذلك كالأمر المتولد من السماء والأرض والأثر متأخر عن المؤثر، فلهذا السبب أخر الله ذكره عن ذكر الأرض والسماء.

الثاني: هو أن خلق المكلفين أحياء قادرين أصل لجميع النعم، وأما خلق الأرض والسماء والماء فذاك إنما ينتفع به بشرط حصول الخلق والحياة والقدرة والشهوة، فلا جرم قدم ذكر الأصول على الفروع. الثالث: أن كل ما في الأرض والسماء من دلائل الصانع فهو حاصل في الإنسان، وقد حصل في الإنسان من الدلائل ما لم يحصل فيهما؟ لأن الإنسان حصل فيه الحياة والقدرة والشهوة والعقل، وكل ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى. فلما كانت وجوه الدلائل له هاهنا أتم كان أولى بالتقديم، واعلم أنا كما ذكرنا السبب في الترتيب فلنذكر في كل واحد من هذه الثلاثة من **المنافع**.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٦/٢

المسألة الرابعة: اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر هاهنا أنه جعل الأرض فراشا، ونظيره قوله: أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا [النمل: ٦١] وقوله: الذي جعل لكم الأرض مهدا [الزخرف: ١٠] واعلم أن كون الأرض فراشا مشروط بأمور: الشرط الأول: كونها ساكنة، وذلك لأنها لو كانت متحركة لكانت حركتها إما بالاستقامة أو بالاستدارة، فإن كانت بالاستقامة لما كانت فراشا لنا على الإطلاق لأن من طفر من موضع عال كان يجب أن لا يصل إلى الأرض لأن الأرض هاوية، وذلك الإنسان هاو، والأرض أثقل من الإنسان، والثقيلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما والأبطأ لا يلحق الأسرع فكان يجب أن لا يصل الإنسان إلى الأرض فثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فر اشا، أما لو كانت حركتها بالاستدارة لم يكمل انتفاعنا بها، لأن حركة الأرض مثلا إذا كانت إلى المشرق والإنسان يريد أن يتحرك إلى جانب المغرب ولا شك أن حركة الأرض أسرع فكان يجب أن يبقى الإنسان على مكانه وأنه لا يمكنه الوصول إلى حيث يريد، فلما أمكنه ذلك علمنا أن الأرض غير متحركة لا بالاستدارة ولا بالاستقامة فهي ساكنة، ثم اختلفوا في سبب ذلك السكون على وجوه:

أحدها: أن الأرض لا نهاية لها من جانب السفل، وإذا كان كذلك لم يكن لها مهبط فلا تنزل وهذا فاسد لما ثبت بالدليل تناهي الأجسام. وثانيها: الذين سلموا تناهي الأجسام قالوا الأرض ليست بكرة بل هي كنصف كرة وحدبتها فوق وسطحها أسفل وذلك السطح موضوع على الماء والهواء، ومن شأن الثقيل إذا انبسط أن يندغم على الماء والهواء مثل/ الرصاصة فإنها إذا انبسطت طفت على الماء، وإن جمعت رسبت وهذا باطل الوجهين: الأول: أن البحث عن سبب وقوف الماء والهواء كالبحث عن سبب وقوف الأرض. والثاني: لم صار ذلك الجانب من الأرض منبسطا حتى وقف على الماء وصار هذا الجانب متحدبا؟. وثالثها: الذين قالوا سبب سكون الأرض جذب الفلك لها من كل الجوانب فلم يكن انجذابها إلى بعض الجوانب أولى من بعض فبقيت في الوسط وهذا باطل لوجهين: الأول: أن الأصغر أسرع انجذابا من الأكبر، فما بال الذرة لا تنجذب إلى الفلك.

الثاني: الأقرب أولى بالانجذاب فالذرة المقذوفة إلى فوق أولى بالانجذاب وكان يجب أن لا تعود. ورابعها: قول من جعل سبب سكونها دفع الفلك لها من كل الجوانب، كما إذا جعل شيء من التراب في قنينة ثم أديرت القنينة على قطبها إدارة سريعة، فإنه يقف التراب في وسط القنينة لتساوي الدفع من كل الجوانب. وهذا أيضا." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٣٦/٢

"الخامسة: انصداعها بالنبات، قال تعالى: والأرض ذات الصدع [الطارق: ١٢] . السادسة: كونها خازنة للماء المنزل من السماء وإليه الإشارة بقوله تعالى: وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون [المؤمنون: ١٨] وقوله: قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين [الملك: ٣٠] السابعة: العيون والأنهار العظام التي فيها وإليه الإشارة بقوله: وجعل فيها رواسي وأنهارا [الرعد: ٣] . الثامنة: ما فيها من المعادن والفلزات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون [الحجر: ١٩] ثم بين بعد ذلك تمام البيان، فقال: وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم [الحجر: ٢١] . التاسعة: الخبء الذي تخرجه الأرض من الحب والنوى قال تعالى: إن الله فالق الحب والنوى [الأنعام: ٩٥] وقال: يخرج الخبء في السماوات والأرض [النمل: ٢٥] ثم إن الأرض لها طبع الكرم لأنك تدفع إليها حبة واحدة، وهي تردها عليك سبعمائة كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة [البقرة: ٢٦١] . العاشرة: حياتها بعد موتها، قال تعالى: أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا [السجدة: ٢٧] وقال: وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون [يس: ٣٣] الحادية عشرة: ما عليها من الدواب المختلفة الألوان والصور والخلق، وإليه الإشارة بقوله: خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة [لقمان: ١٠] . والثانية عشر: ما فيها من النبات المختلف ألوانه وأنواعه ومنافعه، وإليه الإشارة بقوله: وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج [ق: ٧] فاختلاف ألوانها دلالة، واختلاف طعومها دلالة، واختلاف روائحها دلالة، فمنها قوت البشر، ومنها قوت البهائم، كما قال: كلوا وارعوا أنعامكم [طه: ٥٤] أما مطعوم البشر، فمنها الطعام، ومنها الإدام، ومنها الدواء، ومنها الفاكهة، ومنها الأنواع المختلفة في الحلاوة والحموضة. قال تعالى: وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين [فصلت: ١٠] وأيضا فمنها كسوة البشر، لأن الكسوة إما نباتية، وهي القطن والكتان، وإما حيوانية وهي الشعر والصوف والإبريسم والجلود، وهي من الحيوانات التي بثها الله تعالى في الأرض، فالمطعوم من الأرض، والملبوس من الأرض. ثم قال: ويخلق ما لا تعلمون وفيه إشارة إلى منافع كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى.

ثم إنه سبحانه وتعالى جعل الأرض ساترة لقبائحك بعد مماتك، فقال: ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا [المرسلات: ٢٥، ٢٦] . منها خلقناكم وفيها نعيدكم [طه: ٥٥] ثم إنه سبحانه وتعالى جمع هذه **المنافع** العظيمة للسماء والأرض فقال: وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض [الجاثية: ١٣] . الثالثة عشرة: ما فيها من الأحجار المختلفة، ففي صغارها ما يصلح للزينة فتجعل فصوصها للخواتم وفي كبارها ما يتخذ

للأبنية، فانظر إلى الحجر الذي تستخرج النار منه مع كثرته، وانظر إلى الياقوت الأحمر مع عزته. ثم انظر إلى كثرة النفع بذلك الحقير، وقلة النفع بهذا الشريف. الرابعة عشرة: ما أودع الله تعالى فيها من المعادن الشريفة، كالذهب والفضة، ثم تأمل فإن البشر استخرجوا الحرف الدقيقة والصنائع الجليلة واستخرجوا السمكة من قعر البحر، واستنزلوا الطير من أوج الهواء ثم عجزوا عن إيجاد الذهب والفضة، والسبب فيه أنه لا فائدة في وجودهما إلا الثمينة، وهذه الفائدة لا تحصل إلا عند العزة فالقادر على إيجادهما يبطل هذه الحكمة، فلذلك ضرب الله دونهما بابا مسدودا، إظهارا لهذه الحكمة وإبقاء لهذه النعمة، ولذلك فإن ما لا مضرة على الخلق فيه مكنهم منه فصاروا متمكنين من اتخاذ الشبه من النحاس، والزجاج من الرمل، وإذا تأمل العاقل في هذه اللطائف والعجائب." (١)

"الثمار، وتنحل فضول الأبدان، ويجف وجه الأرض، ويتهيأ للبناء والعمارات، وفي الخريف يظهر اليبس والبرد فتنتقل الأبدان قليلا قليلا إلى الشتاء، فإنه إن وقع الانتقال دفعة واحدة هلكت الأبدان وفسدت، وأما حركة الشمس فتأمل في منافعها، فإنها لو كانت واقفة في موضع/ واحد لاشتدت السخونة في ذلك الموضع واشتد البرد في سائر المواضع، لكنها تطلع في أول النهار من المشرق فتقع على ما يحاذيها من وجه المغرب، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى الغروب فتشرق على الجوانب الشرقية فلا يبقى موضع مكشوف إلا ويأخذ حظا من شعاع الشمس، وأيضا كأن الله تعالى يقول لو وقفت في جانب الشرق والغني قد رفع بناءه على كوة الفقير، فكان لا يصل النور إلى الفقير، لكنه تعالى يقول إن كان الغني منعه نور الشمس فأنا أدير الفلك وأديرها عليه حتى يأخذ الفقير نصيبه. وأما منافع ميلها في حركتها عن خط الاستواء. فنقول: لو لم يكن للكواكب حركة في الميل لكان التأثير مخصوصا ببقعة واحدة فكان سائر الجوانب يخلو عن **المنافع** الحاصلة منه وكان الذي يقرب منه متشابه الأحوال، وكانت القوة هناك لكيفية واحدة، فإن كانت حارة أفنت الرطوبات وأحالتها كلها إلى النارية ولم تتكون المتولدات فيكون الموضع المحاذي لممر الكواكب على كيفية، وخط ما لا يحاذيه على كيفية أخرى وخط متوسط بينهما على كيفية متوسطة فيكون في موضع شتاء دائم يكون فيه الهواء والعجاجة وفي موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق، وفي موضع آخر ربيع أو خريف لا يتم فيه النضج ولو لم يكن عودات متتالية، وكانت الكواكب تتحرك بطيئا لكان الميل قليل المنفعة وكان التأثير شديد الإفراط، وكان يعرض قريبا مما لم يكن ميل، ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت **المنافع** وما تمت، فأما إذا كان هناك ميل يحفظ

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٣٨/٢

الحركة في جهة مدة، ثم تنتقل إلى جهة أخرى بمقدار الحاجة وتبقى في كل جهة برهة من الدهر تم بذلك تأثيره وكثرت منفعته، فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية. هذا أما القمر، وهو المسمى بآية الليل: فاعلم أنه سبحانه وتعالى جعل طلوعه وغيبته مصلحة، وجعل طلوعه في وقت مصلحة، وغروبه في وقت آخر مصلحة، أما غروبه ففيه نفع لمن هرب من عدوه فيستره الليل يخفيه فلا يلحقه طالب فينجو، ولولا الظلام لأدركه العدو، وهو المراد من قول المتنبي:

وكم لظلام الليل عندي من يد ... تخبر أن المانوية تكذب

وأما طلوعه ففيه نفع لمن ضل عنه شيء أخفاه الظلام وأظهره القمر. ومن الحكايات: أن أعرابيا نام عن جمله ليلا ففقده، فلما طلع القمر وجده فنظر إلى القمر وقال: إن الله صورك ونورك، وعلى البروج دورك، فإذا شاء نورك، وإذا شاء كورك، فلا أعلم مزيدا أسأله لك، ولئن أهديت إلي سرورا لقد أهدى الله إليك نورا، ثم أنشأ يقول:

ماذا أقول وقولي فيك ذو قصر ... وقد كفيتني التفصيل والجملا

إن قلت لا زلت مرفوعا فأنت كذا ... أو قلت زانك ربي فهو قد فعلا

ولقد كان في العرب من يذم القمر ويقول: القمر يقرب الأجل، ويفضح السارق، / ويدرك الهارب. ويهتك العاشق، ويبلي الكتان، ويهرم الشبان، وينسي ذكر الأحباب، ويقرب الدين، ويدني الحين. وكان فيهم أيضا من يفضل القمر على الشمس من وجوه: أحدها: أن القمر مذكر. والشمس مؤنث لكن المتنبي طعن فيه بقوله:." (١)

"فما التأنيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخر للهلال

وثانيها: أنهم قالوا: القمران، فجعلوا الشمس تابعة للقمر، ومنهم من فضل الشمس على القمر بأن الله تعالى قدمها على القمر في قوله: الشمس والقمر بحسبان [الرحمن: ٥] ، والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها [الشمس: ١، ٢] إلا أن هذه الحجة منقوضة بقوله: فمنكم كافر ومنكم مؤمن [التغابن: ٢] وقال: لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة [الحشر: ٢٠] وقال: خلق الموت والحياة [الملك: ٢] وقال: فإن مع العسر يسرا [الشرح: ٦] وقال: فمنهم ظالم [فاطر: ٣٢] الآية. أما النجوم: ففيها منافع. المنفعة الأولى: كونها رجوما للشياطين، والثانية: معرفة القبلة بها، والثالثة: أن يهتدي بها المسافر في البر والبحر، قال تعالى: وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر [الأنعام: ٩٧] ثم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٤١/٢

النجوم على ثلاثة أقسام: غاربة لا تطلع كالكواكب الجنوبية، وطالعة لا تغرب كالشمالية، ومنها ما يغرب تارة ويطلع أخرى، وأيضا منها ثوابت، ومنها سيارات، ومنها شرقية، ومنها غربية والكلام فيها طويل. أما الذي تدعيه الفلاسفة من معرفة الأجرام والأبعاد.

فدع عنك بحرا ضل فيه السوابح قال تعالى: عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول [الجن: ٢٦، ٢٧] وقال:

وما أوتيتم من العلم إلا قليلا [الإسراء: ٨٥] وقال: ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب [هود: ٣١] وقال: ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم [الكهف: ٥١] فقد عجز الخلق عن معرفة ذواتهم وصفاتهم فكيف يقدرون على معرفة أبعد الأشياء عنهم، والعرب مع بعدهم عن معرفة الحقائق عرفوا ذلك، قال قائلهم:

وأعرف ما في اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عمي

وقال لبيد:

فو الله ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع

المسألة الرابعة: في شرح كون السماء بناء، قال الجاحظ: إذا تأملت في هذا العالم وجدته كالبيت المعد فيه كل ما يحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منورة كالمصابيح والإنسان كمالك البيت المتصرف فيه، وضروب النبات مهيأة لمنافعه وضروب الحيوانات مصرفة في مصالحه، فهذه جملة واضحة دالة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل وتقدير شامل وحكمة بالغة وقدرة غير متناهية والله أعلم.

أما قوله تعالى: وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فاعلم أن الله تعالى لما خلق الأرض وكانت كالصدف والدرة المودعة فيه آدم وأولاده، ثم علم الله أصناف حاجاتهم فكأنه قال يا آدم لا أحوجك إلى شيء غير هذه الأرض التي هي لك كالأم فقال: أنا صببنا الماء/ صبا ثم شققنا الأرض شقا [عبس: ٢٥، ٢٦] فانظر يا عبدي أن أعز الأشياء عندك الذهب والفضة، ولو أني خلقت الأرض من الذهب والفضة هل كان يحصل منها هذه **المنافع**، ثم إني جعلت هذه الأشياء في هذه الدنيا مع أنها سجن، فكيف." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٤٢/٢

"الحال في الجنة، فالحاصل أن الأرض أمك بل أشفق من الأم، لأن الأم تسقيك لونا واحدا من اللبن، والأرض تطعمك كذا وكذا لونا من الأطعمة، ثم قال: منها خلقناكم وفيها نعيدكم [طه: ٥٥] معناه نردكم إلى هذه الأم، وهذا ليس بوعيد، لأن المرء لا يوعد بأمه وذلك لأن مكانك من الأم التي ولدتك أضيق من مكانك من الأرض، ثم إنك كنت في بطن الأم تسعة أشهر فما مسك جوع ولا عطش، فكيف إذا دخلت بطن الأم الكبرى، ولكن الشرط أن تدخل بطن هذه الأم الكبرى، كما كنت في بطن الأم الصغرى، لأنك حين كنت في بطن الأم الصغرى ما كانت لك زلة، فضلا عن أن تكون لك كبيرة، بل كنت مطيعا لله بحيث دعاك مرة إلى الخروج إلى الدنيا فخرجت إليها بالرأس طاعة منك لربك، واليوم يدعوك سبعين مرة إلى الصلاة فلا تجيبه برجلك، واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الأرض والسماء بين ما بينهما من شبه عقد النكاح بإنزال الماء من السماء على الأرض والإخراج به من بطنها أشباه النسل الحاصل من الحيوان، ومن أنواع الثمار رزقا لبني آدم ليتفكروا في أنفسهم وفي أحوال ما فوقهم وما تحتهم، ويعرفوا أن شيئا من هذه الأشياء لا يقدر على تكوينها وتخليقها إلا من كان مخالفا لها في الذات والصفات، وذلك هو الصانع الحكيم سبحانه وتعالى. وهاهنا سؤالات: السؤال الأول: هل تقولون إن الله تعالى هو الخالق لهذه الثمرات عقيب وصول الماء إليها بمجرى العادة، أو تقولون إن الله تعالى خلق في الماء طبيعة مؤثرة، وفي الأرض طبيعة قابلة، فإذا اجتمعا حصل الأثر من تلك القوة التي خلقها الله تعالى؟ والجواب: لا شك أن على كلا القولين لا بد من الصانع الحكيم وأما التفصيل فنقول: لا شك أنه تعالى قادر على خلق هذه الثمار ابتداء من غير هذه الوسائط لأن الثمرة لا معنى لها إلا جسم قام به طعم ولون ورائحة ورطوبة، والجسم قابل لهذه الصفات، وهذه الصفات مقدورة لله تعالى ابتداء لأن المصحح للمقدورية إما الحدوث، أو الإمكان، وإما هما وعلى التقديرات فإنه يلزم أن يكون الله تعالى قادرا على خلق هذه الأعراض في الجسم ابتداء بدون هذه الوسائط، ومما يؤكد هذا الدليل العقلي من الدلائل النقلية ما ورد الخبر بأنه تعالى يخترع نعيم أهل الجنة للمثابين من غير هذه الوسائط، إلا أنا نقول قدرته على خلقها ابتداء لا تنافي قدرته عليها بواسطة خلق هذه القوى المؤثرة والقابلة في الأجسام، وظاهر قول المتأخرين من المتكلمين إنكار ذلك ولا بد فيه من دليل. السؤال الثاني: لما كان قادرا على خلق هذه الثمار بدون هذه الوسائط فما الحكمة في خلقها بهذه الوسائط في هذه المدة الطويلة؟ والجواب: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد. ثم ذكروا من الحكم المفصلة وجوها: أحدها: أنه تعالى إنما أجرى العادة بأن لا يفعل ذلك إلا على ترتيب وتدريج، لأن المكلفين إذا تحلوا المشقة في الحرث والغرس طلبا/ للثمرات وكدوا أنفسهم في ذلك حالا بعد

حال علموا أنهم لما احتاجوا إلى تحمل هذه المشاق لطلب هذه **المنافع** الدنيوية، فلأن يتحملوا مشاق أقل من المشاق الدنيوية لطلب **المنافع** الأخروية التي هي أعظم من **المنافع** الدنيوية كان أولى، وصار هذا كما قلنا أنه تعالى قادر على خلق الشفاء من غير تناول الدواء لكنه أجرى عادته بتوقيفه عليه لأنه إذا تحمل مرارة الأدوية دفعا لضرر المرض، فلأن يتحمل مشاق التكليف دفعا لضرر العقاب كان أولى وثانيها: أنه تعالى لو خلقها دفعة من غير هذه الوسائط لحصل العلم الضروري بإسنادها إلى القادر الحكيم، وذلك كالمنافي للتكليف والابتلاء أما لو خلقها بهذه الوسائط فحينئذ يفتقر المكلف في إسنادها إلى القادر إلى نظر دقيق، وفكر غامض فيستوجب الثواب، ولهذا قيل: لولا

الأسباب لما ارتاب مرتاب. وثالثها: أنه ربما كان للملائكة ولأهل الاستبصار عبر في ذلك وأفكار صائبة. السؤال الثالث: قوله: وأنزل من السماء ماء يقتضي نزول المطر من السماء وليس الأمر كذلك." (١)

"عليه السلام: وآتيناه أهله ومثلهم معهم [الأنبياء: ٨٤] فإن الله تعالى رد عليه أهله بعد ما أماتهم.

المسألة الخامسة: تمسك المجسمة بقوله تعالى: ثم إليه ترجعون على أنه تعالى في مكان وهذا ضعيف، والمراد أنهم إلى حكمه يرجعون لأنه تعالى يبعث من في القبور ويجمعهم في المحشر وذلك هو الرجوع إلى الله تعالى وإنما وصف بذلك لأنه رجوع إلى حيث لا يتولى الحكم غيره كقولهم رجع أمره إلى الأمير، أي إلى حيث لا يحكم غيره.

المسألة السادسة: هذه الآية دالة على أمور: الأول: أنها دالة على أنه لا يقدر على الإحياء والإماتة إلا الله تعالى فيبطل به قول أهل الطبائع من أن المؤثر في الحياة والموت كذا وكذا من الأفلاك والكواكب والأركان والمزاجات كما حكى عن قوم في قوله: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر [الجاثية: ٢٤] الثاني: أنها تدل على صحة الحشر والنشر مع التنبيه على الدليل العقلي الدال عليه، لأنه تعالى بين أنه أحيا هذه الأشياء بعد موتها في المرة الأولى فوجب أن يصح ذلك في المرة الثانية، الثالث: أنها تدل على التكليف والترغيب والترهيب. الرابع: أنها دالة على الجبر والقدر كما تقدم بيانه، الخامس: أنها دالة على وجوب الزهد في الدنيا لأنه قال: فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم فبين أنه لا بد من الموت ثم بين أنه لا يترك على هذا الموت. بل لا بد من الرجوع إليه أما أنه لا بد من الموت، فقد بين سبحانه وتعالى أنه بعد ما كان نطفة فإن الله أحياه وصوره أحسن صورة وجعله بشرا سويا وأكمل عقله وصيره بصيرا بأنواع **المنافع** والمضار وملكه الأموال والأولاد والدور والقصور، ثم إنه تعالى يزيل كل ذلك عنه بأن يميته ويصيره

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٤٣/٢

بحيث لا يملك شيئا ولا يبقى منه في الدنيا خبر ولا أثر ويبقى مدة طويلة في اللحود كما قال تعالى: ومن ورائهم برزخ [المؤمنون: ١٠٠] ينادى فلا يجيب ويستنطق فلا يتكلم ثم لا يزوره الأقربون، بل ينساه الأهل والبنون. كما قال يحيى بن معاذ الرازي:

يمر أقاربي بحذاء قبري ... كأن أقاربي لم يعرفوني

وقال أيضا: إلهي كأني بنفسي وقد أضجعوها في حفرتها، وانصرف المشيعون عن تشييعها، وبكى الغريب عليها لغربتها، وناداها من شفير القبر ذو مودتها، ورحمتها الأعادي عند جزعتها، / ولم يخف على الناظرين عجز حيلتها، فما رجائي إلا أن نقول: ما تقول ملائكتي انظروا إلى فريد قد نأى عنه الأقربون، ووحيد قد جفاه المحبون، أصبح مني قريبا وفي اللحد غريبا، وكان لي في الدنيا داعيا ومجيبا، ولإحساني إليه عند وصوله إلى هذا البيت راجيا، فأحسن إلي هناك يا قديم الإحسان، وحقق رجائي فيك يا واسع الغفران. وأما أنه لا بد من الرجوع إلى الله فلأن سبحانه يأمر بأن ينفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض ... ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون [الزمر: ٦٨] وقال: يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون [المعارج: ٤٣] ثم يعرضون على الله كما قال: عرضوا على ربك صفا

[الكهف: ٤٨] فيقومون خاشعين خاضعين كما قال: وخشعت الأصوات للرحمن [طه: ١٠٨] وقال بعضهم: إلهنا إذا قمنا من ثرى الأجداث مغبرة رؤوسنا. ومن شدة الخوف شاحبة وجوهنا، ومن هول القيامة مطرقة رؤوسنا. وجائعة لطول القيامة بطوننا، وبادية لأهل الموقف سوآتنا، وموقرة من ثقل الأوزار ظهورنا، وبقينا متحيرين في أمورنا نادمين على ذنوبنا، فلا تضعف المصائب بإعراضك عنا، ووسع رحمتك وغفرانك لنا، يا عظيم الرحمة يا واسع المغفرة.." (١)

"[سورة البقرة (٢) : آية ٢٩]

هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم (٢٩)

اعلم أن هذا هو النعمة الثانية التي عمت المكلفين بأسرهم وما أحسن ما رعى الله سبحانه وتعالى هذا الترتيب فإن الانتفاع بالأرض والسماء إنما يكون بعد حصول الحياة فلهذا ذكر الله أمر الحياة أولا ثم أتبعه بذكر السماء والأرض، أما قوله: خلق فقد مر تفسيره في قوله: اعبدوا ربكم الذي خلقكم [البقرة: ٢١] وأما قوله:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٧٨/٢

لكم فهو يدل على أن المذكور بعد قوله خلق لأجل انتفاعنا في الدين والدنيا، أما في الدنيا فليصلح أبداننا ولنتقوى به على الطاعات وأما في الدين فللاستدلال بهذه الأشياء والاعتبار بها وجمع بقوله: ما في الأرض جميعا جميع **المنافع**، فمنها ما يتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال ومنها ما يتصل بضروب الحرف والأمور التي استنبطها العقلاء وبين تعالى أن كل ذلك إنما خلقها كي ينتفع بها كما قال: وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض [الجاثية: ١٣] فكأنه سبحانه وتعالى قال كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم وكيف تكفرون بالله وقد خلق لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا أو يقال كيف تكفرون بقدرة الله على الإعادة وقد أحياكم بعد موتكم ولأنه خلق لكم ما في الأرض/ جميعا فكيف يعجز عن إعادتكم ثم إنه تعالى ذكر تفاصيل هذه **المنافع** في سور مختلفة كما قال: أنا صببنا الماء صبا [عبس: ٢٥] وقال في أول سورة أتى أمر الله والأنعام خلقها لكم [النحل: ٥] إلى آخره وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال أصحابنا: إنه سبحانه وتعالى لا يفعل فعلا لغرض لأنه لو كان كذلك كان مستكملا بذلك الغرض والمستكمل بغيره ناقص بذاته وذلك على الله تعالى محال فإن قيل: فعله تعالى معلل بغرض غير عائد إليه بل إلى غيره، قلنا: عود ذلك الغرض إلى ذلك الغير هل هو أولى لله تعالى من عود ذلك الغرض إليه أو ليس أولى؟ فإن كان أولى فهو تعالى قد انتفع بذلك الفعل فيعود المحذور المذكور وإن كان الثاني لم يكن تحصيل ذلك الغرض المذكور لذلك الغير غرضا لله تعالى فلا يكون مؤثرا فيه. وثانيها: أن من فعل فعلا لغرض كان عاجزا عن تحصيل ذلك الغرض إلا بواسطة ذلك الفعل والعجز على الله تعالى محال. وثالثها: أنه تعالى لو فعل فعلا لغرض لكان ذلك الغرض إن كان قديما لزم قدم الفعل وإن كان محدثا كان فعله لذلك الغرض لغرض آخر ويلزم التسلسل وهو محال. ورابعها: أنه تعالى لو كان يفعل لغرض لكان ذلك الغرض هو رعاية مصلحة المكلفين ولو توقفت فاعليته على ذلك لما فعل ما كان مفسدة في حقهم لكنه قد فعل ذلك حيث كلف من علم أنه لا يؤمن ثم إنهم تكلموا في اللام في قوله تعالى: خلق لكم ما في الأرض جميعا وفي قوله: إلا ليعبدون [الذاريات: ٥٦] فقالوا إنه تعالى لما فعل ما لو فعله غيره لكان فعله لذلك الشيء لأجل الغرض لا جرم أطلق الله عليه لفظ الغرض بسبب هذه المشابهة.

المسألة الثانية: احتج أهل الإباحة بقوله تعالى: خلق لكم ما في الأرض جميعا على أنه تعالى خلق الكل للكل فلا يكون لأحد اختصاص بشيء أصلا وهو ضعيف لأنه تعالى قابل الكل بالكل، فيقتضي مقابلة

الفرد بالفرد، والتعيين يستفاد من دليل منفصل والفقهاء رحمهم الله استدلوا به على أن الأصل في **المنافع** الإباحة وقد بيناه في أصول الفقه.." (١)

"السوء وإمكانه هو العدم ونفي الإمكان يستلزم نفي الكثرة، ونفيها يستلزم نفي الجسمية والعرضية ونفي الضد والند، وحصول الوحدة المطلقة والوجوب الذاتي وأما في الصفات فأن يكون منزها عن الجهل فيكون محيطا بكل المعلومات وقادرا على كل المقدورات وتكون صفاته منزهة عن التغييرات، وأما في الأفعال فأن لا تكون أفعاله لجلب **المنافع** ودفع المضار وأن لا يستكمل بشيء منها ولا ينتقص بعدم شيء منها فيكون مستغنيا عن كل الموجودات والمعدومات مستوليا بالإعدام والإيجاد على كل الموجودات والمعدومات، وقال أهل التذكير:

التسبيح جاء تارة في القرآن بمعنى/ التنزيه وأخرى بمعنى التعجب. أما الأول فجاء على وجوه: «أ» أنا المنزه عن النظير والشريك، هو الله الواحد القهار «ب» أنا المدبر للسموات والأرض سبحان رب السموات والأرض «ج» أنا المدبر لكل العالمين سبحان الله رب العالمين «د» أنا المنزه عن قول الظالمين سبحان ربك رب العزة عما يصفون (هـ) أنا المستغني عن الكل سبحانه هو الغني «و» أنا السلطان الذي كل شيء سوائي فهو تحت قهري وتسخيري فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء «ز» أنا العالم بكل شيء، سبحان الله عما يصفون عالم الغيب «ح» أنا المنزه عن الصاحبة والولد سبحانه أنى يكون له ولد «ط» أنا المنزه عن وصفهم وقولهم، سبحانه وتعالى عما يشركون، عما يقولون، عما يصفون، أما التعجب فكذلك «أ» أنا الذي سخرت البهائم القوية للبشر الضعيف، سبحان الذي سخر لنا هذا «ب» أنا الذي خلقت العالم وكنت منزها عن التعب والنصب، سبحانه إذا قضى أمرا «ج» أنا الذي أعلم لا بتعليم المعلمين ولا بإرشاد المرشدين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا «د» أنا الذي أزيل معصية سبعين سنة بتوبة ساعة فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس، ثم يقول إن أردت رضوان الله فسبح، وسبحوه بكرة وأصيلا. وإن أردت الفرج من البلاء فسبح لا إله أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وإن أردت رضا الحق فسبح، ومن الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى، وإن أردت الخلاص من النار فسبح، سبحانك فقنا عذاب النار، أيها العبد واظب على تسبيحي فسبحان الله فسبح وسبحوه فإن لم تفعل تسبيحي فالضرر عائد إليك، لأن لي من يسبحني، ومنهم حملة العرش فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون [فصلت: ٣٨] ومنهم المقربون قالوا سبحانك أنت ولينا [سبأ: ٤١] ومنهم سائر الملائكة قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا [الفرقان: ١٨]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٧٩/٢

ومنهم الأنبياء كما قال ذو النون لا إله إلا أنت سبحانك [الأنبياء: ٨٧] وقال موسى: سبحانك تبت إليك [الأعراف: ١٤٣] والصحابة يسبحون في قوله:

سبحانك فقنا عذاب النار [آل عمران: ١٩١] والكل يسبحون ومنهم الحشرات والدواب والذرات وإن من شيء إلا يسبح بحمده [الإسراء: ٤٤] وكذا الحجر والمدر والرمال والجبال والليل والنهار والظلمات والأنوار والجنة والنار والزمان والمكان والعناصر والأركان والأرواح والأجسام على ما قال: سبح لله ما في السماوات [الحديد: ١] ثم يقول أيها العبد: أنا الغني عن تسبيح هذه الأشياء، وهذه الأشياء ليست من الأحياء فلا حاجة بها إلى ثواب هذا التسبيح فقد صار ثواب هذه التسبيحات ضائعا وذلك لا يليق بي وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا [ص: ٢٧] لكني أوصل ثواب هذه الأشياء إليك ليعرف كل أحد أن من اجتهد في خدمتي أجعل كل العالم في خدمته. والنكتة الأخرى اذكرني بالعبودية لتنتفع به لا أنا سبحان ربك رب العزة [الصافات: ١٨٠] فإنك إذا ذكرتني بالتسبيح طهرتك عن المعاصي وسبحوه بكرة وأصيلا [الأحزاب: ٤٢] أقرضني وأقرضوا الله قرضا حسنا [الحديد: ١٨] وإن كنت أنا الغني حتى أرد الواحد عليك عشرة من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له [البقرة: ٢٤٥] كن معينا لي وإن كنت غنيا عن إعانتك/ ولله جنود السماوات." (١)

"أدركه أولا فهذا هو المعرفة فيقال: عرفت هذا الرجل وهو فلان الذي كنت رأيته وقت كذا. ثم في الناس من يقول بقدم الأرواح ومنهم من يقول بتقدمها على الأبدان ويقول إنها هي الذر المستخرج من صلب آدم عليه السلام وإنها أقرت بالإلهية واعترفت بالربوبية إلا أنها لظلمة العلاقة البدنية نسيت مولاها فإذا عادت إلى نفسها متخلصة من ظلمة البدن وهاوية الجسم عرفت ربها وعرفت أنها كانت عارفة به فلا جرم سمي هذا الإدراك عرفانا. وثامنها: الفهم وهو تصور الشيء من لفظ المخاطب والإفهام هو اتصال المعنى باللفظ إلى فهم السامع، وتاسعها: الفقه وهو العلم بغرض المخاطب من خطابه يقال فقهت كلامك أي وقفت على غرضك من هذا الخطاب ثم إن كفار قريش لما كانوا أرباب الشبهات والشهوات فما كانوا يقفون على ما في تكاليف الله تعالى من **المنافع** العظيمة لا جرم قال تعالى: لا يكادون يفقهون قولا [الكهف: ٩٣] أي لا يقفون على المقصود الأصلي والغرض الحقيقي. وعاشرها: العقل وهو العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها فإنك متى علمت ما فيها من المضار **والمنافع** صار علمك بما في/ الشيء من النفع داعيا لك إلى الفعل وعلمك بما فيه من الضرر داعيا لك إلى الترك فصار ذلك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٣٩٤

العلم مانعا من الفعل مرة ومن الترك أخرى فيجري ذلك العلم مجرى عقال الناقة. ولهذا لما سئل بعض الصالحين عن العقل، قال هو العلم بخير الخيرين وشر الشرين ولما سئل عن العاقل قال العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه، فهذا هو القدر اللائق بهذا المكان والاستقصاء فيه يجيء في موضع آخر إن شاء الله تعالى. الحادي عشر: الدراية وهي المعرفة الحاصلة بضرب من الحيل وهو تقديم المقدمات واستعمال الروابة وأصله من دريت الصيد والدرية لما يتعلم عليه الطعن والمدرى يقال لما يصلح به الشعر وهذا لا يصح إطلاقه على الله تعالى لامتناع الفكر والحيل عليه تعالى. الثاني عشر: الحكمة: وهي اسم لكل علم حسن، وعمل صالح وهو بالعلم العملي أخص منه بالعلم النظري وفي العمل أكثر استعمالا منه في العلم، ومنها يقال أحكم العمل إحكاما إذا أتقنه وحكم بكذا حكما والحكمة من الله تعالى خلق ما فيه منفعة العباد ومصلحتهم في الحال وفي المآل ومن العباد أيضا كذلك ثم قد حدت الحكمة بألفاظ مختلفة فقيل هي معرفة الأشياء بحقائقها، وهذا إشارة إلى أن إدراك الجزئيات لا كمال فيه لأنها إدراكات متغيرة. فأما إدراك الماهية، فإنه باق مصون عن التغير والتبدل وقيل هي الإتيان بالفعل الذي عاقبته محمودة وقيل هي الاقتداء بالخالق سبحانه وتعالى في السياسة بقدر الطاقة البشرية وذلك بأن يجتهد بأن ينزه علمه عن الجهل وفعله عن الجور وجوده عن البخل وحلمه عن السفه. الثالث عشر: علم

اليقين وعين اليقين وحق اليقين قالوا إن اليقين لا يحصل إلا إذا اعتقد أن الشيء كذا وأنه يمتنع كون الأمر بخلاف معتقده إذا كان لذلك الاعتقاد موجب هو إما بديهية الفطرة وإما نظر العقل، الرابع عشر: الذهن وهو قوة النفس على اكتساب العلوم التي هي غير حاصلة وتحقيق القول فيه أنه سبحانه وتعالى خلق الروح خاليا عن تحقيق الأشياء وعن العلم بها كما قال تعالى: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا [النحل: ٧٨] لكنه سبحانه وتعالى إنما خلقها للطاعة على ما قال تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [الذاريات: ٥٦] والطاعة مشروطة بالعلم وقال في موضع آخر وأقم الصلاة لذكري [طه: ١٤] فبين أنه أمر بالطاعة لغرض العلم والعلم لا بد منه على كل حال فلا بد وأن تكون النفس متمكنة من تحصيل هذه المعارف والعلوم فأعطاه الحق سبحانه من الحواس ما أعان على تحصيل هذا الغرض فقال في السمع: وهديناه النجدين [البلد: ١٠] وقال في البصر: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم [فصلت: ٥٣] وقال في الفكر: وفي أنفسكم أفلا تبصرون [الذاريات: ٢١] فإذا تطابقت هذه." (١)

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٢٢/٢

"النعمة الثانية: من النعم التي أظهرها الله تعالى على وجه الأرض هي أنه تعالى أجرى الأنهار على وجه الأرض واعلم أنه حصل هاهنا بحثان:

البحث الأول: أن قوله: وأنهارا معطوف على قوله: وألقى في الأرض رواسي والتقدير وألقى رواسي وأنهارا. وخلق الأنهار لا يبعد أن يسمى بالإلقاء فيقال: ألقى الله في الأرض أنهارا كما قال: وألقينا فيها رواسي [ق: ٧] والإلقاء معناه الجعل ألا تر أنه تعالى قال في آية أخرى: وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها [فصلت: ١٠] والإلقاء يقارب الإنزال، لأن الإلقاء يدل على طرح الشيء من الأعلى إلى الأسفل، إلا أن المراد من هذا الإلقاء الجعل والخلق قال تعالى: وألقيت عليك محبة مني [طه: ٣٩] .

البحث الثاني: أنه ثبت في العلوم العقلية أن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها في الجبال، فلهذا السبب لما ذكر الله تعالى الجبال أتبع ذكرها بتفجير العيون والأنهار.

النعمة الثالثة: قوله: وسبلا لعلكم تهتدون وهي أيضا معطوفة على قوله: وألقى في الأرض رواسي والتقدير: وألقى في الأرض سبلا ومعناه: أنه تعالى أظهرها وبينها لأجل أن تهتدوا بها في أسفاركم ونظيره قوله تعالى في آية أخرى: وسلك لكم فيها سبلا [طه: ٥٣] وقوله: لعلكم تهتدون أي لكي تهتدوا.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أظهر في الأرض سبلا معينة ذكر أنه أظهر فيها علامات مخصوصة حيت يتمكن المكلف من الاستدلال بها فيصل بواسطتها إلى مقصوده فقال: وعلامات وهي أيضا معطوفة على قوله:

في الأرض رواسي والتقدير: وألقى في الأرض رواسي وألقى فيها أنهارا وسبلا وألقى فيها علامات والمراد بالعلامات معالم الطرق وهي الأشياء التي بها يهتدى، وهذه العلامات هي الجبال والرياح ورأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطرق. قال الأخفش تم الكلام عند قوله: وعلامات وقوله: وبالنجم هم يهتدون كلام منفصل عن الأول، والمراد بالنجم الجنس كقولك: كثر الدرهم في أيدي الناس. وعن السدي هو الثريا، والفرقدان، وبنات نعش، والجدي، وقرأ الحسن: وبالنجم بضمتين وبضمة فسكون، وهو جمع نجم كرهن ورهن والسكون تخفيف. وقيل: حذف الواو من النجم تخفيفا.

فإن قيل: قوله: أن تميد بكم خطاب الحاضرين وقوله: وبالنجم هم يهتدون خطاب للغائبين فما السبب فيه؟

قلنا: إن قريشا كانت تكثر أسفارها لطلب المال، ومن كثرت أسفاره كان علمه **بالمنافع** الحاصلة من الاهتداء بالنجوم أكثر وأتم فقوله: وبالنجم هم يهتدون إشارة إلى قريش للسبب الذي ذكرناه. والله أعلم.

واختلف المفسرون فمنهم من قال قوله: وبالنجم هم يهتدون مختص بالبحر، لأنه تعالى لما/ ذكر صفة البحر وما فيه من **المنافع** بين أن من يسيرون فيه يهتدون بالنجم، ومنهم من قال: بل هو مطلق يدخل فيه السير في البر والبحر وهذا القول أولى، لأنه أعم في كونه نعمة ولأن الاهتداء بالنجم قد يحصل في الوقتين معا، ومن الفقهاء من يجعل ذلك دليلا على أن المسافر إذا عميت عليه القبلة فإنه يجب عليه أن يستدل بالنجوم وبالعلامات التي في الأرض، وهي الجبال والرياح، وذلك صحيح، لأنه كما يمكن الاهتداء بهذه العلامات في." (١)

"الوجه الأول: أن الكفار لما سموها آلهة وعبدوها، لا جرم أجريت مجرى أولي العلم ألا ترى إلى قوله على أثره: والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون.

والوجه الثاني: في الجواب أن السبب فيه المشاكلة بينه وبين من يخلق.

والوجه الثالث: أن يكون المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف من لا علم عنده كقوله: ألهم أرجل يمشون بها يعني أن الآلهة التي تدعونها حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب، لأن هؤلاء أحياء وهم أموات فكيف يصح منهم عبادتها، وليس المراد أنه لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا.

فإن قيل: قوله: أفمن يخلق كمن لا يخلق المقصود منه إلزام عبدة الأوثان، حيث جعلوا غير الخالق مثل الخالق في التسمية بالإله، وفي الاشتغال بعبادتها، فكان حق الإلزام أن يقال: أفمن لا يخلق كمن يخلق.

والجواب: المراد منه أن من يخلق هذه الأشياء العظيمة ويعطي هذه **المنافع** الجليلة كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة في التسمية باسم الإله، وفي الاشتغال بعبادتها والإقدام على غاية تعظيمها فوقع التعبير عن هذا المعنى بقوله: أفمن يخلق كمن لا يخلق.

المسألة الثالثة: احتج بعض أصحابنا بهذه الآية على أن العبد غير خالق لأفعال نفسه فقال: إنه تعالى ميز نفسه عن سائر الأشياء التي كانوا يعبدونها بصفة الخالقية لأن قوله: أفمن يخلق كمن لا يخلق الغرض منه بيان كونه ممتازا عن الأنداد بصفة الخالقية وأنه إنما استحق الإلهية والمعبودية بسبب كونه خالقا، فهذا يقتضي أن العبد لو كان خالقا لبعض الأشياء لوجب كونه إلها معبودا، ولما كان ذلك باطلا علمنا أن العبد لا يقدر على الخلق والإيجاد قالت المعتزلة الجواب: عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن المراد أفمن يخلق ما تقدم ذكره من السموات والأرض والإنسان والحيوان والنبات والبحار

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠/١٩١

والنجوم والجبال كمن لا يقدر على خلق شيء أصلا، فهذا يقتضي أن من كان خالقا لهذه الأشياء فإنه يكون إلها ولم يلزم منه أن من يقدر على أفعال نفسه أن يكون إلها.

والوجه الثاني: أن معنى الآية: أن من كان خالقا كان أفضل ممن لا يكون خالقا، فوجب امتناع التسوية بينهما في الإلهية والمعبودية، وهذا القدر لا يدل على أن كل من كان خالقا فإنه يجب أن يكون إلها. والدليل عليه قوله تعالى: ألهم أرجل يمشون بها [الأعراف: ١٩٥] ومعناه: أن الذي حصل له رجل يمشي بها يكون أفضل من الذي حصل له رجل لا يقدر أن يمشي بها، وهذا يوجب أن يكون الإنسان أفضل من الصنم، والأفضل لا يليق به عبادة الأخس، فهذا هو المقصود من هذه الآية، ثم إنها لا تدل على أن من حصل له رجل يمشي بها أن يكون إلها، فكذلك هاهنا المقصود من هذه الآية بيان أن الخالق أفضل من غير الخالق، فيمتنع التسوية بينهما في الإلهية والمعبودية، ولا يلزم منه أن بمجرد حصول صفة الخالقية يكون إلها.

والوجه الثالث في الجواب: أن كثيرا من المعتزلة لا يطلقون لفظ الخالق على العبد. قال الكعبي في «تفسيره» إنا لا نقول: إنا نخلق أفعالنا: قال ومن أطلق ذلك فقد أخطأ إلا في مواضع ذكرها الله تعالى كقوله: وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير [المائدة: ١١٠] وقوله: فتبارك الله أحسن الخالقين [المؤمنون: ١٤] .." (١)

"ثم قال تعالى: ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا اعلم أنه تعالى لما ذكر بعض منافع الحيوانات في الآية المتقدمة، ذكر في هذه الآية بعض منافع النبات، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فإن قيل: بم تعلق قوله: ومن ثمرات النخيل والأعناب.

قلنا: بمحذوف تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرها وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه. وقوله: تتخذون منه سكرا بيان وكشف عن كنه الإسقاء.

المسألة الثانية: قال الواحدي: الأعناب عطف على الثمرات لا على النخيل، لأنه يصير التقدير: ومن ثمرات الأعناب، والعنب نفسه ثمرة وليست له ثمرة أخرى.

المسألة الثالثة: في تفسير السكر وجوه: الأول: السكر الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو: رشد رشدا ورشدا، وأما الرزق الحسن فسائر ما يتخذ من النخيل والأعناب كالرب والخل والدبس والتمر والزبيب.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٩٣/٢٠

فإن قيل: الخمر محرمة فكيف ذكرها الله في معرض الإنعام؟

أجابوا عنه من وجهين: الأول: أن هذه السورة مكية، وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة، فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة. الثاني: أنه لا حاجة إلى التزام هذا النسخ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من **المنافع**، وخاطب المشركين بها، والخمر من أشربتهم فهي منفعة في حقهم، ثم إنه تعالى نبه في هذه الآية أيضا على تحريمها، وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر، فوجب أن لا يكون السكر رزقا حسنا، ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة، فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسنا بحسب الشريعة، وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة.

القول الثاني: أن السكر هو النبيذ، وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد، وهو حلال عند أبي حنيفة رحمه الله إلى حد السكر، ويحتج بأن هذه الآية تدل على أن السكر حلال لأنه تعالى ذكره في معرض الإنعام والمنة، ودل الحديث على أن الخمر حرام

قال عليه السلام: «الخمر حرام لعينها»

وهذا يقتضي أن يكون السكر شيئا غير الخمر، وكل من أثبت هذه المغايرة قال إنه النبيذ المطبوخ.

والقول الثالث: أن السكر هو الطعام قاله أبو عبيدة: واحتج عليه بقول الشاعر:

جعلت أعراض الكرام سكرا

أي جعلت ذمهم طعاما لك، قال الزجاج: هذا بالخمر أشبه منه بالطعام، والمعنى أنك جعلت تتخمر بأغراض الكرام، والمعنى: أنه جعل شغفه بغيبة الناس وتمزيق أعراضهم جاريا مجرى شرب الخمر.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الوجوه التي هي دلائل من وجه، وتعديد للنعم العظيمة من وجه آخر، قال: إن في ذلك لآية لقوم يعقلون والمعنى: أن من كان عاقلا، علم بالضرورة أن هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، فيحتج بحصولها على وجود الإله القادر الحكيم. والله أعلم.

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٦٨ الى ٦٩]

وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (٦٩)." [١]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣٥/٢٠

"واعلم أن حاصل هذا الكلام أن الذكورة علتها الحرارة واليبوسة، والأنوثة علتها البرودة والرطوبة، وهذه العلة في غاية الضعف، فقد رأينا في النساء من كان مزاجه في غاية السخونة وفي الرجال من كان مزاجه في غاية البرودة، ولو كان الموجب للذكورة والأنوثة ذلك لامتنع ذلك، فثبت أن خالق الذكر والأنثى هو الإله القديم الحكيم وظهر بالدليل الذي ذكرنا صحة قوله تعالى: والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا.

ثم قال تعالى: وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة قال الواحدي: أصل الحفدة من الحفد وهو الخفة في الخدمة والعمل. يقال: حفد يحفد حفدا وحفودا وحفدانا إذا أسرع، ومنه في دعاء القنوت وإليك نسعى ونحفد، والحفدة جمع الحافد، والحافد كل من يخف في خدمتك ويسرع في العمل بطاعتك، يقال في جمعه الحفد بغير هاء كما يقال الرصد، فمعنى الحفدة في اللغة الأعوان والخدام، ثم يجب أن يكون المراد من الحفدة في هذه الآية ا لأعوان الذين حصلوا للرجل من قبل المرأة، لأنه تعالى قال: وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة فالأعوان الذين لا يكونون من قبل المرأة لا يدخلون تحت هذه الآية.

إذا عرفت هذا فنقول: قيل هم الأختان، وقيل: هم الأصهار، وقيل: ولد الولد، والأولى دخول الكل فيه، لما بينا أن اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك الذي ذكرناه.

ثم قال تعالى: ورزقكم من الطيبات لما ذكر تعالى إنعامه على عبيده بالمنكوح وما فيه من **المنافع** والمصالح ذكر إنعامه عليهم بالمطعومات الطيبة، سواء كانت من النبات وهي الثمار والحبوب والأشربة أو كانت من الحيوان، ثم قال: أفبالباطل يؤمنون قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني بالأصنام، وقال مقاتل: يعني بالشيطان، وقال عطاء: يصدقون أن لي شريكا وصاحبة وولدا: وبنعمت الله هم يكفرون أي بأن يضيفوها إلى غير الله ويتركوا إضافتها إلى الله تعالى. وفي الآية قول آخر وهو أنه تعالى لم ا قال: ورزقكم من الطيبات قال بعده: أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون والمراد منه أنهم يحرمون على أنفسهم طيبات أحلها الله لهم مثل البحيرة والسائبة والوصيلة/ ويبيحون لأنفسهم محرمات حرمها الله عليهم وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النصب يعني لم يحكمون بتلك الأحكام الباطلة، وبإنعام الله في تحليل الطيبات، وتحريم الخبيثات يجحدون ويكفرون والله أعلم.

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٧٣ الى ٧٤]

ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون (٧٣) فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون (٧٤)

[في قوله تعالى ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون] اعلم

أنه تعالى لما شرح أنواعا كثيرة في دلائل التوحيد، وتلك الأنواع كما أنها دلائل على صحة التوحيد، فكذلك بدأ بذكر أقسام النعم الجليلة الشريفة، ثم أتبعها في هذه الآية بالرد على عبدة الأصنام فقال:
ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون أما الرزق الذي يأتي من جانب السماء فيعني به الغيث الذي يأتي من جهة السماء، وأما الذي يأتي من جانب الأرض فهو النبات والثمار التي تخرج منها وقوله: من السماوات والأرض من صفة النكرة التي هي قوله: رزقا كأنه قيل: لا يملك لهم رزقا من الغيث والنبات وقوله: شيئا قال الأخفش: جعل قوله: شيئا بدلا من قوله: رزقا والمعنى: لا يملكون رزقا لا قليلا ولا كثيرا، ثم قال: ولا يستطيعون والفائدة في هذه اللفظة أن من لا." (١)

"العدل وبين الجور. فثبت أن وصفه بأنه يأمر بالعدل يتضمن وصفه بكونه قادرا عالما، وكونه آمرا يناقض كون الأول أبكم، وكونه قادرا يناقض وصف الأول بأنه لا يقدر على شيء وبأنه كل على مولاه، وكونه عالما يناقض وصف الأول بأنه لا يأت بخير.
ثم قال تعالى: وهو على صراط مستقيم معناه كونه عادلا مبرأ عن الجور والعبث.
إذا ثبت هذا فنقول: ظاهر في بديهة العقل أن الأول والثاني لا يستويان، فكذا هاهنا والله أعلم.
المسألة الثانية: في المراد بهذا المثل أقوال كما في المثل المتقدم.
فالقول الأول: قال مجاهد: كل هذا مثل إله الخلق وما يدعى من دونه من الباطل. وأما الأبكم فمثل الصنم، لأنه لا ينطق البتة وكذلك لا يقدر على شيء، وأيضا كل على عابديه لأنه لا ينفق عليهم وهم ينفقون عليه، وأيضا إلى أي مهم توجه الصنم لم يأت بخير، وأما الذي يأمر بالعدل فهو الله سبحانه وتعالى.
والقول الثاني: أن المراد من هذا الأبكم: هو عبد لعثمان بن عفان كان ذلك العبد يكره الإسلام، وما كان فيه خير، ومولاه وهو عثمان بن عفان كان يأمر بالعدل، وكان على الدين القويم والصراط المستقيم.
والقول الثالث: أن المقصود منه: كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة وكل حر موصوف بتلك الصفات الحميدة، وهذا القول أولى من القول الأول، لأن وصفه تعالى إياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن، وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه في جهات المنافع وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى، وأيضا فالمقصود تشبيه صورة بصورة في أمر من الأمور، وذلك التشبيه لا يتم إلا عند كون إحدى الصورتين مغايرة للأخرى.
وأما القول الثاني: فضعيف أيضا، لأن المقصود إبانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة، وذلك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠/٢٤٥

غير مختص بشخص معين، بل أيما حصل التفاوت في الصفات المذكورة حصل المقصود. والله أعلم.

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٧٧ الى ٧٩]

ولله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير (٧٧) والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون (٧٨) ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (٧٩)

[في قوله تعالى ولله غيب السماوات والأرض إلى قوله على كل شيء قدير] اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية الأولى مثل الكفار بالأبكم العاجز، ومثل نفسه بالذي يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، ومعلوم أنه يمتنع أن يكون آمرا بالعدل، وأن يكون على صراط مستقيم إلا إذا كان كاملا في العلم والقدرة، وذكر في هذه الآية بيان كونه كاملا في العلم والقدرة، أما بيان كمال العلم فهو قوله:

ولله غيب السماوات والأرض والمعنى: علم الله غيب السموات والأرض وأيضا فقوله: ولله غيب السماوات والأرض يفيد الحصر معناه: أن العلم بهذه الغيوب ليس إلا لله وأما بيان كمال القدرة فقوله: وما أمر الساعة." (١)

"المؤلم مفسدة، وكونه كذلك أمر ثابت بالعقل لا بالشرع.

وإذا ثبت هذا فنقول: تكاليف الله تعالى واقعة على وفق مصالح العالم في المعاش والمعاد فهذا هو الكلام الظاهري، وفيه مشكلات هائلة ومباحث عميقة نسأل الله التوفيق لبلوغ الغاية فيها.

إذا عرفت هذا فنقول: الزنا اشتمل على أنواع من المفاسد: أولها: اختلاط الأنساب واشتباهها فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره، فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده، وذلك يوجب ضياع الأولاد، وذلك يوجب انقطاع النسل وخراب العالم. وثانيها: أنه إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التواثب والتقاتل، وذلك يفضي إلى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة، وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب إقدام المرأة الواحدة على الزنا.

وثالثها: أن المرأة إذا باشرت الزنا وتمرنت عليه يستقذرها كل طبع سليم، وكل خاطر مستقيم، وحينئذ لا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤٩/٢٠

تحصل الألفة والمحبة ولا يتم السكن والازدواج، ولذلك فإن المرأة إذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباع أكثر الخلق. ورابعها: أنه إذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة، وكل رجل يمكنه التواثب على كل امرأة شاءت وأرادت وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب.

وخامسها: أنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهماته من المطعوم والمشروب والملبوس، وأن تكون ربة البيت وحافظة للباب وأن تكون قائمة بأمور الأولاد والعبيد، وهذه المهمات لا تتم إلا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد منقطعة الطمع عن سائر الرجال، وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا وسد هذا الباب بالكلية. وسادسها: أن الوطء يوجب الذل الشديد، والدليل عليه أن أعظم أنواع الشتم عند الناس ذكر ألفاظ الوقاع، ولولا أن الوطء يوجب الذل، وإلا لما كان الأمر كذلك، وأيضا فإن جميع العقلاء لا يقدمون على الوطء إلا في المواضع المستورة، وفي الأوقات التي لا يطلع عليهم أحد، وأن جميع العقلاء يستنكفون عن ذكر أزواج بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم لما يقدمون على وطئهن، ولولا أن الوطء ذل، وإلا لما كان كذلك.

وإذا ثبت هذا فنقول: لما كان الوطء ذلا كان السعي في تقليله موافقا للعقول، فاقتصار المرأة الواحدة على الرجل الواحد سعي في تقليل ذلك العمل، وأيضا ما فيه من الذل يصير مجبورا **بالمنافع**/ الحاصلة في النكاح، أما الزنا فإنه فتح باب لذلك العمل القبيح ولم يصر مجبورا بشيء من **المنافع** فوجب بقاؤه على أصل المنع والحجر، فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تقضي على الزنا بالقبح.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى وصف الزنا بصفات ثلاثة كونه فاحشة، ومقتا في آية أخرى: وساء سبيلا أما كونه فاحشة فهو إشارة إلى اشتماله على فساد الأنساب الموجبة لخراب العالم وإلى اشتماله على التقاتل والتواثب على الفروج وهو أيضا يوجب خراب العالم. وأما المقت: فقد ذكرنا أن الزانية تصير ممقوتة مكروهة، وذلك يوجب عدم حصول السكن والازدواج وأن لا يعتمد الإنسان عليها في شيء من مهماته ومصالحه. وأما أنه ساء سبيلا، فهو ما ذكرنا أنه لا يبقى فرق بين الإنسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكران بالإناث، وأيضا يبقى ذل هذا العمل وعيبه وعاره على المرأة من غير أن يصير مجبورا بشيء من **المنافع**، فقد ذكرنا في قبح الزنا ستة أوجه، والله تعالى ذكر ألفاظا ثلاثة، فحملنا كل واحد من هذه الألفاظ." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٣٢/٢٠

"يدعون فعل الآدميين العابدين. وقوله: يبتغون فعل المعبودين ومعناه أولئك المعبودين يبتغون إلى ربهم الوسيلة، فإنه لا نزاع أن الملائكة يرجعون إلى الله في طلب **المنافع** ودفع المضار ويرجون رحمته ويخافون عذابه وإذا كان كذلك كانوا موصوفين بالعجز والحاجة، والله تعالى أغنى الأغنياء فكان الاشتغال بعبادته أولى.

فإن قالوا: لا نسلم أن الملائكة محتاجون إلى رحمة الله وخائفون من عذابه، فنقول: هؤلاء الملائكة إما أن يقال: إنها واجبة الوجود لذواتها، أو يقال: ممكنة الوجود لذواتها، والأول باطل لأن جميع الكفار كانوا معترفين بأن الملائكة عباد الله ومحتاجون إليه، وأما الثاني فهو يوجب القول بكون الملائكة محتاجين في ذواتها وفي كمالاتها إلى الله تعالى، فكان الاشتغال بعبادة الله أولى من الاشتغال بعبادة الملائكة.

والقول الثاني: أن قوله: أولئك الذين يدعون هم الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض [الإسراء: ٥٥] وتعلق هذا الكلام بما سبق هو أن الذين عظمت منزلتهم وهم الأنبياء لا يعبدون إلا الله تعالى ولا يبتغون الوسيلة إلا إليه، فأنتم بالاقتداء بهم حق فلا تعبدوا غير الله تعالى. / واحتج القائلون بهذا القول على صحته بأن قالوا: الملائكة لا يعصون الله فلا يخافون عذابه، فثبت أن هذا غير لائق بالملائكة وإنما هو لائق بالأنبياء.

قلنا: الملائكة يخافون عذاب الله لو أقدموا على الذنب والدليل عليه قوله تعالى: ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم [الأنبياء: ٢٩] .

أما قوله: إن عذاب ربك كان محذورا فالمراد أن من حقه أن يحذر، فإن لم يحذره بعض الناس لجهله فهو لا يخرج من كونه بحيث يجب الحذر عنه.

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٥٨]

وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا (٥٨)

اعلم أنه تعالى لما قال: إن عذاب ربك كان محذورا [الإسراء: ٥٧] بين أن كل قرية مع أهلها فلا بد وأن يرجع حالها إلى أحد أمرين: إما الإهلاك وإما التعذيب قال مقاتل: أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب، وقيل: المراد من قوله: وإن من قرية قرى الكفار، ولا بد أن تكون عاقبتها أحد أمرين: إما الاستئصال بالكلية وهو المراد من الإهلاك أو بعذاب شديد دون ذلك من قتل كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الأموال وأخذ الجزية، ثم بين تعالى أن هذا الحكم حكم مجزوم به واقع فقال: كان

ذلك في الكتاب مسطورا ومعناه ظاهر.

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٥٩ الى ٦٠]

وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا (٥٩) وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا (٦٠)." [١]

"والعمل الحق، ومعلوم أن الترغيب في الشيء لا يمكن إلا بأن يقرر عنده أنه لا ضرر البتة في فعله ومع ذلك فإنه يفيد **المنافع** العظيمة، والتنفير عن الشيء لا يمكن إلا بأن يقرر عنده أنه لا فائدة في فعله، ومع ذلك فيفيد المضار العظيمة، إذا ثبت هذا فنقول: إن الشيطان إذا دعا إلى المعصية فلا بد وأن يقرر أولا أنه لا مضرة في فعله البتة، وذلك إنما يمكن إذا قال لا معاد ولا جنة ولا نار، ولا حياة بعد هذه الحياة، فبهذا الطريق يقرر عنده أنه لا مضرة البتة في فعل هذه المعاصي، وإذا فرغ عن هذا المقام قرر عنده أن هذا الفعل يفيد أنواعا من اللذة والسرور ولا حياة للإنسان في هذه الدنيا إلا به، فتفويتها غبن وخسران كما قال الشاعر:

خذوا بنصيب من سرور ولذة ... فكل وإن طال المدى يتصرم

فهذا هو طريق الدعوة إلى المعصية، وأما طريق التنفير عن الطاعة فهو أن يقرر أولا عنده أنه لا فائدة فيه وتقريره من وجهين. الأول: أن يقول لا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عذاب. والثاني: أن هذه العبادات لا فائدة فيها للعابد والمعبود فكانت عبثا محضا فبهذين الطريقين يقرر الشيطان عند الإنسان أنه لا فائدة فيها، وإذا فرغ عن هذا المقام قال إنها توجب التعب والمحنة وذلك أعظم المضار، فهذه مجامع تلبيس الشيطان، فقوله:

وعدهم يتناول كل هذه الأقسام، قال المفسرون قوله: وعدهم أي بأنه لا جنة ولا نار، وقال آخرون: وعدهم بتسويف التوبة، وقال آخرون وعدهم بالأماني الباطلة مثل قوله لآدم: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين/ أو تكونا من الخالدين [الأعراف: ٢٠] وقال آخرون: وعدهم بشفاعة الأصنام عند الله تعالى وبالأنساب الشريفة وإيثار العاجل على الآجل، وبالجملة فهذه الأقسام كثيرة وكلها داخلة في الضبط الذي ذكرناه وإن أردت الاستقصاء في هذا الباب فطالع كتاب ذم الغرور من كتاب إحياء علوم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٥٨/٢٠

الدين للشيخ الغزالي حتى يحيط عقلك بمجامع تلبيس إبليس، واعلم أن الله تعالى لما قال: وعدهم أردفه بما يكون زاجرا عن قبول وعده فقال: وما يعدهم الشيطان إلا غرورا والسبب فيه أنه إنما يدعو إلى أحد أمور ثلاثة قضاء الشهوة وإمضاء الغضب وطلب الرياسة وعلو الدرجة، ولا يدعو البتة إلى معرفة الله تعالى ولا إلى خدمته، وتلك الأشياء الثلاثة معنوية من وجوه كثيرة. أحدها: أنها في الحقيقة ليست لذات بل هي خلاص عن الآلام. وثانيها: وإن كانت لذات لكنها لذات خسيسة مشترك فيها بين الكلاب والديدان والخنافس وغيرها.

وثالثها: أنها سريعة الذهاب والانقضاء والانقراض. ورابعها: أنها لا تحصل إلا بمتاعب كثيرة ومشاق عظيمة. وخامسها: أن لذات البطن والفرج لا تتم إلا بمزاولة رطوبات عفنة مستقذرة. وسادسها: أنها غير باقية بل يتبعها الموت والهرم والفقر والحسرة على الفوت والخوف من الموت فلما كانت هذه المطالب وإن كانت لذيذة بحسب الظاهر إلا أنها ممزوجة بهذه الآفات العظيمة والمخالفات الجسيمة، كان الترغيب فيها تغريرا، ولهذا المعنى قال تعالى: وما يعدهم الشيطان إلا غرورا.

واعلم أنه تعالى لما قال له افعل ما تقدر عليه فقال تعالى: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وفيه قولان: الأول: أن المراد كل عباد الله من المكلفين، وهذا قول أبي علي الجبائي، قال والدليل عليه أن الله تعالى استثنى منه في آيات كثيرة من يتبعه بقوله: إلا من اتبعك [الحجر: ٤٢] ثم استدل بهذا على أنه لا سبيل لإبليس وجنوده على تصريع الناس وتخبيط عقولهم وأنه لا قدرة له إلا على قدر الوسوسة وأكد ذلك بقوله." (١)

"إلى دفع الآلام العظيمة عن النفس فوق احتياجه إلى تحصيل **المنافع** الزائدة التي لا حاجة به إلى تحصيلها وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله: عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا هو الشفاعة في إسقاط العقاب على ما هو مذهب أهل السنة ولما ثبت أن لفظ الآية مشعر بهذا المعنى إشعارا قويا ثم وردت الأخبار الصحيحة في تقرير هذا المعنى وجب حمل اللفظ عليه ومما يؤكد هذا الوجه الدعاء المشهور وابعثه المقام المحمود الذي وعدته يغبطه به الأولون والآخرون/ واتفق الناس على أن المراد منه الشفاعة.
والقول الثاني:

قال حذيفة، يجمع الناس في صعيد فلا تتكلم نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول «لبيك وسعديك والشر ليس إليك والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٦٩/٢١

إليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت» .

فهذا هو المراد من قوله: عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا وأقول القول الأول أولى لأن سعيه في الشفاعة يفيده إقدام الناس على حمده فيصير محمودا وأما ذكر هذا الدعاء فلا يفيد إلا الثواب أما الحمد فلا فإن قالوا لم لا يجوز أن يقال إنه تعالى يحمده على هذا القول قلنا لأن الحمد في اللغة مختص بالثناء المذكور في مقابلة الإنعام فقط فإن ورد لفظ الحمد في غير هذا المعنى فعلى سبيل المجاز. القول الثالث: المراد مقام تحمد عاقبته وهذا أيضا ضعيف للوجه الذي ذكرناه في القول الثاني. القول الرابع: قال الواحدي روي عن ابن مسعود أنه قال: «يقعد الله محمدا على العرش» وعن مجاهد أنه قال يجلسه معه على العرش، ثم قال الواحدي وهذا قول رذل موحش فظيع ونص الكتاب ينادي بفساد هذا التفسير ويدل عليه وجوه. الأول: أن البعث ضد الإجلاس يقال بعثت النازل والقاعد فانبعث ويقال بعث الله الميت أي أقامه من قبره فتفسير البعث بالإجلاس تفسير للضد بالضد وهو فاسد. والثاني: أنه تعالى ق ال مقاما محمودا ولم يقل مقعدا والمقام موضع القيام لا موضع القعود.

والثالث: لو كان تعالى جالسا على العرش بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام لكان محدودا متناهيا ومن كان كذلك فهو محدث. والرابع: يقال إن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزاز لأن هؤلاء الجهال والحمقى يقولون في كل أهل الجنة إنهم يزورون الله تعالى وإنهم يجلسون معه وإنه تعالى يسألهم عن أحوالهم التي كانوا فيها في الدنيا وإذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين لم يكن لتخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بها مزيد شرف ورتبة. والخامس: أنه إذا قيل السلطان بعث فلانا فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه فثبت أن هذا القول كلام رذل ساقط لا يميل إليه إلا إنسان قليل العقل عديم الدين والله أعلم ثم قال تعالى: وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق وفيه مباحث:

البحث الأول: أنا ذكرنا في تفسير قوله: وإن كادوا ليستفزونك من الأرض [الإسراء: ٧٦] قولين:

أحدهما: المراد منه سعي كفار مكة في إخراجه منها. والثاني: المراد منه أن اليهود قالوا له الأولى لك أن تخرج من المدينة إلى الشام ثم إنه تعالى قال له: أقم الصلاة واشتغل بعبادة الله تعالى ولا تلتفت إلى هؤلاء الجهال فإنه تعالى ناصرك ومعينك ثم عاد بعد هذا الكلام إلى شرح تلك الواقعة فإن فسرنا تلك الآية أن المراد منها أن كفار مكة أرادوا إخراجه من مكة كان معنى هذه الآية أنه تعالى أمره بالهجرة إلى المدينة وقال له: وقل رب أدخلني مدخل صدق- وهو المدينة- وأخرجني مخرج صدق- وهو مكة. وهذا قول

الحسن وقتادة وإن فسرنا تلك الآية بأن المراد منها أن اليهود/ حملوه على الخروج من المدينة والذهاب إلى الشام فخرج رسول." [(١)]

"الباطلة والأخلاق المذمومة، أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة فيها، ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما في هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني. وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية، وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الأمراض. ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهورة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثارا عظيمة في تحصيل **المنافع** ودفع المفاسد، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر الله وكبريائه وتعظيم الملائكة المقربين وتحقير المردة والشياطين سببا لحصول النفع في الدين والدنيا كان أولى ويتأكد ما ذكرنا بما

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى»

وأما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم أنا بينا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة والقرآن قسمان بعضهما يفيد/ الخلاص عن شبهات الضالين وتمويهات المبطلين وهو الشفاء. وبعضهما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية، والأخلاق الفاضلة التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين وهو الرحمة، ولما كان إزالة المرض مقدمة على السعي في تكميل موجبات الصحة لا جرم بدأ الله تعالى في هذه الآية بذكر الشفاء ثم أتبعه بذكر الرحمة، واعلم أنه تعالى لما بين كون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بين كونه سببا للخسار والضلال في حق الظالمين والمراد به المشركون وإنما كان كذلك لأن سماع القرآن يزيدهم غيظا وغضبا وحقدا وحسدا وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم إلى الأعمال الباطلة وتزيد في تقوية تلك الأخلاق الفاسدة في جواهر نفوسهم ثم لا يزال الخلق الخبيث النفساني يحمل على الأعمال الفاسدة والإتيان بتلك الأعمال يقوي تلك الأخلاق فبهذا الطريق يصير القرآن سببا لتزايد هؤلاء المشركين الضالين في درجات الخزي والضلال والفساد والنكال ثم إنه تعالى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢١/٣٨٨

ذكر السبب الأصلي في وقوع هؤلاء الجاهلين الضالين في أودية الضلال ومقامات الخزي والنكال وهو حب الدنيا والرغبة في المال والجاه واعتقادهم أن ذلك إنما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال: وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وفيه مباحث:

الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الإنسان ها هنا هو الوليد بن المغيرة وهذا بعيد، بل المراد أن نوع الإنسان من شأنه أنه إذا فاز بمقصوده ووصل إلى مطلوبه اغتر وصار غافلا عن عبودية الله تعالى متمردا عن طاعة الله كما قال: إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى [العلق: ٦، ٧] .

البحث الثاني: قوله أعرض أي ولى ظهره أي عرضه إلى ناحية ونأى بجانبه أي تباعد، ومعنى النأي في اللغة البعد والإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه والنأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره وأراد الاستكبار لأن ذلك عادة المتكبرين وفي قوله نأى قراءات. إحداها: وهي قراءة العامة بفتح النون والهمزة وفي حم السجدة مثله وهي اللغة الغالبة والنأي البعد يقال نأى أي بعد. وثانيها: قراءة ابن عامر ناء وله وجهان تقديم اللام على العين كقولهم راء في رأى ويجوز أن يكون من نأى بمعنى نهض. وثالثها: قراءة حمزة والكسائي." (١)

"بكونه كذبا، مع أن الكثير منهم يقول ذلك، ولا يعلم كونه باطلا، فعلمنا أن كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب سواء علم القائل بكونه مطابقا أو لم يعلم، ثم قال تعالى: فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا وفيه مباحث:

البحث الأول: المقصود منه أن يقال للرسول: لا يعظم حزنك وأسفك بسبب كفرهم فإنا بعثناك منذرا ومبشرا فأما تحصيل الإيمان في قلوبهم فلا قدرة لك عليه. والغرض تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عنه.

البحث الثاني: قال الليث: بخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظا من شدة وجده بالشيء. وقال الأخفش والفراء أصل البخع الجهد يقال: بخعت لك نفسي أي جهدتها، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عمر فقالت: بخع الأرض أي جهدها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك. وقال الكسائي: بخعت الأرض بالزراعة إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة وبخع الرجل نفسه إذا نهكها وعلى هذا معنى: باخع نفسك أي ناهكها وجاهدها حتى تهلكها ولكن أهل التأويل كلهم قالوا: قاتل نفسك ومهلكها والأصل ما ذكرناه، هكذا قال الواحدي.

البحث الثالث: قوله: على آثارهم أي من بعدهم يقال مات فلان على أثر فلان أي بعده وأصل هذا أن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٩٠/٢١

الإنسان إذا مات بقيت علاماته وآثاره بعد موته مدة ثم إنها تنمحي وتبطله بالكلية، فإذا كان موته قريبا من موت الأول كان موته حاصلا حال بقاء آثار الأول فصح أن يقال مات فلان على أثر فلان.

البحث الرابع: قوله، إن لم يؤمنوا بهذا الحديث المراد بالحديث القرآن. قال القاضي: وهذا يقتضي وصف القرآن بأنه حديث وذلك يدل على فساد قول من يقول: إنه قديم وجوابه أنه محمول على الألفاظ وهي حادثة.

البحث الخامس: قوله: أسفا الأسف المبالغة في الحزن وذكرنا الكلام فيه عند قوله: غضبان أسفا في سورة الأعراف [١٥٠] وعند قوله: يا أسفى على يوسف [يوسف: ٨٤] وفي انتصابه وجوه. الأول: أنه نصب على المصدر ودل ما قبله من الكلام على أنه يأسف. الثاني: يجوز أن يكون مفعولا له أي للأسف كقولك جئتك ابتغاء الخير. والثالث: قال الزجاج: أسفا منصوب لأنه مصدر في موضع الحال.

البحث السادس: الفاء في قوله: فلعلك جواب الشرط وهو قوله: إن لم يؤمنوا قدم عليه ومعناه التأخير.

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٧ الى ٨]

إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا (٧) وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا (٨)

[في قوله تعالى إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها] في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال القاضي: وجه النظم كأنه تعالى يقول: يا محمد إني خلقت الأرض وزينتها وأخرجت منها أنواع **المنافع** والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من **المنافع** ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم إنهم يكفرون ويتمردون مع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم فأنت أيضا يا محمد ينبغي أن لا تنتهي في الحزن بسبب كفرهم إلى أن تترك الاشتغال بدعوتهم إلى الدين الحق.." (١)

"ربه

والرجاء هو ظن **المنافع** الواصلة إليه والخوف ظن المضار الواصلة إليه، وأصحابنا حملوا لقاء الرب على رؤيته والمعتزلة حملوه على لقاء ثواب الله وهذه المناظرة قد تقدمت والعجب أنه تعالى أورد في آخر هذه السورة ما يدل على حصول رؤية الله في ثلاث آيات: أولها: قوله: أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه [الكهف: ١٠٥] . وثانيها: قوله: كانت لهم جنات الفردوس نزلا [الكهف: ١٠٧] وثالثها: قوله: فمن كان يرجوا لقاء ربه ولا بيان أقوى من ذلك ثم قال: فليعمل عملا صالحا أي من حصل له رجاء لقاء الله فليشتغل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٢٦/٢١

بالعمل الصالح، ولما كان العمل الصالح قد يؤتى به لله وقد يؤتى به للرياء والسمعة لا جرم اعتبر فيه قيدان: أن يؤتى به لله، وأن يكون مبرأ عن جهات الشرك، فقال: ولا يشرك بعبادة ربه أحدا.

قيل: نزلت هذه الآية في جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني أعمل العمل لله تعالى فإذا اطلع عليه أحد سرني» فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا يقبل ما شورك فيه» وروي أيضا أنه قال له: «لك أجران أجر السر وأجر العلانية»

فالرواية الأولى محمولة على ما إذا قصد بعمله الرياء والسمعة، والرواية الثانية محمولة على ما إذا قصد أن يقتدى به، والمقام الأول مقام المبتدئين، والمقام الثاني مقام الكاملين والحمد صلى الله عليه وسلم رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

قال المصنف رضي الله عنه تم تفسير هذه السورة يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر صفر سنة اثنتين وستمائة في بلدة غزنين، ونسأل الله أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، أن يخصنا بالمغفرة والفضل في يوم الدين، إنه ذو الفضل العظيم.." (١)

"وإذا قلنا المراد بقوله: وإن الله ربي وربكم فاعبدوه أي قل يا محمد إن الله ربي وربكم، فهذا القول أظهر لأنه لا تخصيص فيه، وكذا قوله: فويل للذين كفروا مؤكد لهذا الاحتمال، وأما قوله: من مشهد يوم عظيم فالمشهد إما أن يكون هو الشهود وما يتعلق به أو الشهادة وما يتعلق بها. أما الأول: فيحتمل أن يكون المراد من المشهد نفس شهودهم هول الحساب، والجزاء في القيامة أو مكان الشهود فيه وهو الموقف، أو وقت الشهود، وأما الشهادة فيحتمل أن يكون المراد شهادة الملائكة والأنبياء وشهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال، وأن يكون مكان الشهادة أو وقتها، وقيل: هو ما قالوه وشهدوا به في عيسى وأمه، وإنما وصف ذلك المشهد بأنه عظيم لأنه لا شيء أعظم مما يشاهد في ذلك اليوم من محاسبة ومساءلة، ولا شيء من **المنافع** أعظم مما هنالك من الثواب ولا بد من المضار أعظم مما هنالك من العقاب، أما قوله تعالى: أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قالوا: التعجب هو استعظام الشيء مع الجهل بسبب عظمه، ثم يجوز استعمال لفظ التعجب عن مجرد الاستعظام من غير خفاء السبب أو من غير أن يكون للعظم سبب حصول، قال الفراء قال سفيان: قرأت عند شريح: بل عجبت ويسخرون [الصافات: ١٢] فقال: إن الله لا يعجب من شيء إنما يعجب من لا يعلم فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال: إن شريحا شاعر يعجبه علمه، وعبد الله أعلم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٠٤/٢١

بذلك منه قرأها: بل عجبت ويسخرون ومعناه أنه صدر من الله تعالى فعل لو صدر مثله عن الخلق لدل على حصول التعجب في قلوبهم، وبهذا التأويل يضاف المكر والاستهزاء إلى الله تعالى، وإذا عرفت هذا فنقول: للتعجب صفتان: إحداهما: ما أفعله. / والثانية: أفعل به كقوله تعالى: أسمع بهم وأبصر والنحويون ذكروا له تأويلات: الأول: قالوا: أكرم بزيد أصله أكرم زيد أي صار ذا كرم كأغد البعير أي صار ذا غدة إلا أنه خرج على لفظ الأمر ومعناه الخبر كما خرج على لفظ الخبر ما معناه الأمر كقوله تعالى: والمطلقات يتربصن بأنفسهن [البقرة: ٢٢٨] ، والوالدات يرضعن أولادهن [البقرة: ٢٣٣] ، قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا [مريم: ٧٥] أي يمد له الرحمن مدا، وكذا قولهم: رحمه الله خبر وإن كان معناه الدعاء والباء زائدة.

الثاني: أن يقال إنه أمر لكل أحد بأن يجعل زيدا كريما أي بأن يصفه بالكرم، والباء زائدة مثل قوله: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة [البقرة: ١٩٥] ولقد سمعت لبعض الأدباء فيه تأويلا. ثالثا: وهو أن قولك أكرم بزيد يفيد أن زيدا بلغ في الكرم إلى حيث كأنه في ذاته صار كرما حتى لو أردت جعل غيره كريما فهو الذي يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك، كما أن من قال: أكتب بالقلم فمعناه أن القلم هو الذي يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك.

المسألة الثانية: قوله أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا فيه ثلاثة أوجه. أحدها: وهو المشهور الأقوى أن معناه ما أسمعهم وما أبصرهم والتعجب على الله تعالى محال كما تقدم، وإنما المراد أن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صما وعميا في الدنيا، وقيل: معناه التهديد مما سيسمعون وسيبصرون مما يسوء بصرهم ويصدع قلوبهم. وثانيها: قال القاضي ويحتمل أن يكون المراد أسمع هؤلاء وأبصرهم أي عرفهم حال القوم الذين يأتوننا ليعتبروا وينزجروا. وثالثها: قال الجبائي: ويجوز أسمع الناس بهؤلاء وأبصرهم بهم ليعرفوا أمرهم وسوء عاقبتهم فينزجروا عن الإتيان بمثل فعلهم أما قوله: لكن الظالمون." (١)

"بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا جاء الإسلام، وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم،

عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية: «إذا أحب الله عبدا نادى جبريل قد أحببت فلانا فأحبوه فينادي جبريل عليه السلام بذلك في السماء والأرض وإذا أبغض عبدا فمثل ذلك» .

وعن كعب قال: مكتوب في التوراة والإنجيل لا محبة لأحد في الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله تعالى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٤٠/٢١

ينزلها على أهل السماء، ثم على أهل الأرض وتصديق ذلك في القرآن قوله: سيجعل لهم الرحمن ودا. القول الثاني: وهو اختيار أبي مسلم معنى: سيجعل لهم الرحمن ودا أي يهب لهم ما يحبون والود والمحبة سواء، يقال: آتيت فلانا محبته، وجعل لهم ما يحبون، وجعلت له وده، ومن كلامهم: يود لو كان كذا، ووددت أن/ لو كان كذا أي أحببت، ومعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أي محبوبهم في الجنة. والقول الأول: أولى لأن حمل المحبة على المحبوب مجاز، ولأنا ذكرنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وفسرها بذلك فكان ذلك أولى، وقال أبو مسلم: بل القول الثاني أولى لوجوه: أحدها: كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقي يبغضه الكفار وقد يبغضه كثير من المسلمين. وثانيها: أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر فكيف يمكن جعله إنعاما في حق المؤمنين. وثالثها: أن محبتهم في قلوبهم من فعلهم لا أن الله تعالى فعله فكان حمل الآية على إعطاء **المنافع** الأخروية أولى. والجواب عن الأول: أن المراد يجعل لهم الرحمن محبة عند الملائكة والأنبياء،

وروي عنه عليه السلام: أنه حكى عن ربه عز وجل أنه قال: «إذا ذكرني عبدي المؤمن في نفسه ذكرته في نفسي. وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ أطيب منهم وأفضل»

وهذا هو الجواب عن الكلام الثاني لأن الكافر والفاسق ليس كذلك. والجواب عن الثالث: أنه محمول على فعل الألطاف وخلق داعية إكرامه في قلوبهم، أما قوله تعالى: فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين فهو كلام مستأنف بين به عظيم موقع هذه السورة لما فيها من التوحيد والنبوة والحشر والنشر والرد على فرق المضلين المبطلين فبين تعالى أنه يسر ذلك بلسانه ليبشر به وينذر، ولولا أنه تعالى نقل قصصهم إلى اللغة العربية لما تيسر ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم فأما أن القرآن يتضمن تبشير المتقين وإنذار من خرج منهم فبين، لكنه تعالى لما ذكر أنه يبشر به المتقين ذكر في مقابلته من هو في مخالفة التقوى أبلغ وأبلغهم الألد الذي يتمسك بالباطل ويجادل فيه ويتشدد وهو معنى لدا، ثم إنه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال: وكم أهلكنا قبلهم من قرن لأنهم إذا تأملوا وعلموا أنه لا بد من زوال الدنيا والانتهاء إلى الموت خافوا ذلك وخافوا أيضا سوء العاقبة في الآخرة فكانوا فيها إلى الحذر من المعاصي أقرب، ثم أكد تعالى في ذلك فقال: هل تحس منهم من أحد لأن الرسول عليه السلام إذا لم يحس منهم أحدا برؤية أو إدراك أو وجدان: ولا يسمع لهم ركزا وهو الصوت الخفي، ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض والركاز المال المدفون دل ذلك على انقراضهم وفنائهم بالكلية، والأقرب في قوله: أهلكنا أن المراد به الانقراض بالموت وإن كان من المفسرين من حمله على العذاب المعجل في الدنيا، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع

والمآب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.
(راجع هذا الجزء على أصله في النسخة الأميرية وصححه وعلق عليه الأستاذ محمد إسماعيل الصاوي الشهير بعبد الله مدرس اللغة العربية بالمدارس المصرية تداركه الله بلطفه وعامله بجميل كرمه) .
(تم الجزء الحادي والعشرون ويليه الجزء الثاني والعشرون، وأوله سورة طه) .." (١)

"يكون في الكتاب؟ وتحقيقه هو أن علم الله تعالى صفته وصفة الشيء قائمة به، فأما أن تكون صفة الشيء حاصلة في كتاب فذاك غير معقول فذكروا فيه وجهين: الأول: معناه أنه سبحانه أثبت تلك الأحكام في كتاب عنده لكون ما كتبه فيه يظهر للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم في الاستدلال على أنه تعالى عالم بكل المعلومات منزه عن السهو والغفلة، ولقائل أن يقول قوله: في كتاب يوهم احتياجه سبحانه وتعالى في ذلك العلم إلى ذلك الكتاب وهذا وإن كان غير واجب لا محالة ولكنه لا أقل من أنه يوهمه في أول الأمر لا سيما للكافر فكيف يحسن ذكره مع معاند مثل فرعون في وقت الدعوة؟ الوجه الثاني: أن تفسير ذلك بأن بقاء تلك المعلومات في علمه سبحانه كبقاء المكتوب في الكتاب فيكون الغرض من هذا الكلام تأكيد القول بأن أسرارها معلومة لله تعالى بحيث لا يزول شيء منها عن علمه، وهذا التفسير مؤكد بقوله بعد ذلك: لا يضل ربي ولا ينسى.

المسألة الثانية: اختلفوا في قوله: لا يضل ربي ولا ينسى فقال بعضهم معنى اللفظين واحد أي لا يذهب عليه شيء ولا يخفى عليه وهذا قول مجاهد والأكثرون على الفرق بينهما، ثم ذكروا وجوها. أحدها:

وهو الأحسن ما قاله القفال لا يضل عن الأشياء ومعرفتها وما علم من ذلك لم ينسه فاللفظ الأول إشارة إلى كونه عالما بكل المعلومات واللفظ الثاني وهو قوله: ولا ينسى دليل على بقاء ذلك العلم أبد الآباد وهو إشارة إلى نفي التغير. وثانيها: قال مقاتل: لا يخطئ ذلك الكتاب ربي ولا ينسى ما فيه. وثالثها: قال الحسن لا يخطئ وقت البعث ولا ينساه. ورابعها: قال أبو عمرو أصل الضلال الغيبوبة والمعنى لا يغيب عن شيء ولا يغيب عنه شيء. وخامسها: قال ابن جرير لا يخطئ في التدبير فيعتقد في غير الصواب كونه صوابا وإذا عرفه لا ينساه وهذه الوجوه متقاربة والتحقيق هو الأول.

المسألة الثالثة: أنه لما سأله عن الإله وقال: فمن ربكما يا موسى وكان ذلك مما سبيله الاستدلال أجاب بما هو الصواب بأوجز عبارة وأحسن معنى، ولما سأله عن شأن القرون الأولى وكان ذلك مما سبيله الإخبار ولم يأته في ذلك خبر وكله إلى عالم الغيوب، واعلم أن موسى عليه السلام/ لما ذكر الدلالة الأولى وهي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٦٨/٢١

دلالة عامة تتناول جميع المخلوقات من الإنسان وسائر الحيوانات وأنواع النبات والجمادات ذكر بعد ذلك دلائل خاصة وهي ثلاثة. أولها: قوله تعالى: الذي جعل لكم الأرض مهدا وفيه أبحاث:

البحث الأول: قرأ أهل الكوفة هاهنا وفي الزخرف مهدا والباقون قرءوا مهادا فيهما قال أبو عبيدة: الذي أختاره مهادا وهو اسم والمهد اسم الفعل، وقال غيره: المهد الاسم والمهاد الجمع كالفرش والفراش أجاب أبو عبيدة بأن الفراش اسم والفرش فعل، وقال المفضل هما مصدران لمهد إذا وطأ له فراشا يقال مهد مهدا ومهادا وفرش فرشا وفراشا.

البحث الثاني: قال صاحب «الكشاف» : الذي جعل مرفوع لأنه خبر مبتدأ محذوف أو لأنه صفة لربي أو منصوب على المدح وهذا من مظانه ومجازه، واعلم أنه يجب الجزم بكونه خبرا لمبتدأ محذوف إذ لو حملناه على الوجهين الباقيين لزم كونه من كلام موسى عليه السلام ولو كان كذلك لفسد النظم بسبب قوله: فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

البحث الثالث: المراد من كون الأرض مهدا أنه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه **المنافع** وقد ذكرناه مستقصى في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: الذي." (١)

"جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء

[البقرة: ٢٢] . وثانيها: قوله تعالى: وسلك لكم فيها سبلا قال صاحب «الكشاف» سلك من قوله: ما سلككم في سقر [المدثر: ٤٢] كذلك سلكناه في قلوب المجرمين [الشعراء: ٢٠٠] أي جعل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والأودية والبراري. وثالثها: قوله: وأنزل من السماء ماء والكلام فيه قد مر في سورة البقرة أما قوله: فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: فأخرجنا فيه وجوه. أحدها: أن يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام كأنه يقول ربي الذي جعل لكم كذا وكذا فأخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة أزواجا من نبات شتى. وثانيها: أن عند قوله: وأنزل من السماء ماء تم كلام موسى عليه السلام ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه متصلا بالكلام الأول بقوله: فأخرجنا به ثم يدل على هذا الاحتمال قوله: كلوا وارعوا أنعامكم. وثالثها: قال صاحب «الكشاف» انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع للإيذان بأنه سبحانه وتعالى مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره ومثله قوله تعالى: وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٠/٢٢

نبات كل شيء [الأنعام: ٩٩] ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها [فاطر: ٢٧] أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة [النمل: ٦٠] واعلم أن قوله: فأخرجنا إما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو من كلام الله تعالى والأول باطل لأن قوله بعد ذلك: كلوا وارعوا أنعامكم إن في/ ذلك لآيات لأولي النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم لا يليق بموسى عليه السلام وأيضا فقوله: فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى لا يليق بموسى لأن أكثر ما في قدرة موسى عليه السلام صرف المياه إلى سقي الأراضي وأما إخراج النبات على اختلاف ألوانها وطبائعها فليس من موسى عليه السلام فثبت أن هذا كلام الله ولا يجوز أن يقال كلام الله ابتداؤه من قوله: فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى لأن الفاء يتعلق بما قبله فلا يجوز جعل هذا كلام الله تعالى وجعل ما قبله كلام موسى عليه السلام فلم يبق إلا أن يقال: إن كلام موسى عليه السلام تم عند قوله: لا يضل ربي ولا ينسى ثم ابتدئ كلام الله تعالى من قوله:

الذي جعل لكم الأرض مهدا ويكون التقدير هو الذي جعل لكم الأرض مهدا فيكون الذي خبر مبتدأ محذوف ويكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب التفاتا.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يدل على أنه سبحانه إنما يخرج النبات من الأرض بواسطة إنزال الماء فيكون للماء فيه أثر وهذا بتقدير ثبوته لا يقدح في شيء من أصول الإسلام لأنه سبحانه وتعالى هو الذي أعطاها هذه الخواص والطبائع لكن المتقدمين من المتكلمين ينكرونه ويقولون لا تأثير له فيه ألبتة.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: أزواجا أي أصنافا سميت بذلك لأنها مزدوجة مقرونة بعضها مع بعض شتى صفة للأزواج جمع شتيت كمريض ومرضى ويجوز أن يكون صفة للنبات والنبات مصدر سمي به النابت كما يسمى بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعني أنها شتى مختلفة النفع والطعم والطبع بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم أما قوله: كلوا وارعوا أنعامكم فهو حال من الضمير في أخرجنا والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها. وقد تضمن قوله كلوا سائر وجوه **المنافع** فهو كقوله: ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل [البقرة: ١٨٨] وقوله: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما [النساء: ١٠] وقوله: كلوا أمر إباحة إن في ذلك أي فيما ذكرت من هذه النعم لآيات." (١)

"معنى كلمة أو. الجواب: هذا كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين أي لا تكن خاليا منهما فكذا هاهنا. الوجه الثاني: أن يقال: إنا أنزلنا القرآن ليتقوا فإن لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث القرآن لهم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦١/٢٢

ذكرا وشرفا وصيتا حسنا، فعلى هذين التقديرين يكون إنزاله تقوى، ثم إنه تعالى لما عظم أمر القرآن ردفه بأن عظم نفسه فقال:

فتعالى الله الملك الحق تنبيها على ما يلزم خلقه من تعظيمه وإنما وصفه بالحق لأن ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به فلهذا وصف بذلك، وتعالى تفاعل من العلو وقد ثبت أن علوه وعظمته وربوبيته بمعنى واحد وهو اتصافه بنعوت الجلال وأنه لا تكيفه الأوهام ولا تقدره العقول وهو منزه عن **المنافع** والمضار فهو تعالى إنما أنزل القرآن ليحترزوا عما لا ينبغي وليقدموا على ما ينبغي، وأنه تعالى منزه عن التكمل بطاعاتهم والتضرر بمعاصيهم، فالطاعات إنما تقع بتوفيقه وتيسيره، والمعاصي إنما تقع عدلا منه وكل ميسر لما خلق له أما قوله: ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ففيه مسائل: المسألة الأولى: في تعلقه بما قبله وجهان. الوجه الأول: قال أبو مسلم: إن من قوله: ويسئلونك عن الجبال [طه: ١٠٥] إلى هاهنا يتم الكلام وينقطع ثم قوله: ولا تعجل بالقرآن خطاب/ مستأنف فكأنه قال: ويسألونك ولا تعجل بالقرآن. الوجه الثاني:

روي أنه عليه السلام كان يخاف من أن يفوته منه شيء فيقرأ مع الملك فأمره بأن يسكت حال قراءة الملك ثم يأخذ بعد فراغه في القراءة

فكأنه تعالى شرح كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين أنه سبحانه متعال عن كل ما لا ينبغي وأنه موصوف بالإحسان والرحمة ومن كان كذلك وجب أن يصون رسوله عن السهو والنسيان في أمر الوحي، وإذ حصل الأمان عن السهو والنسيان قال: ولا تعجل بالقرآن.

المسألة الثانية: قوله: ولا تعجل بالقرآن ويحتمل أن يكون المراد لا تعجل بقراءته في نفسك، ويحتمل أن لا تعجل في تأديته إلى غيرك، ويحتمل في اعتقاد ظاهره، ويحتمل في تعريف الغير ما يقتضيه ظاهره، وأما قوله: من قبل أن يقضى إليك وحيه فيحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى إليك تمامه، ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى إليك بيانه، لأن هذين الأمرين لا يمكن تحصيلهما إلا بالوحي، ومعلوم أنه عليه السلام لا ينهى عن قراءته لكي يحفظه ويؤديه فالمراد إذن أن لا يبعث نفسه ولا يبعث غيره عليه حتى يتبين بالوحي تمامه أو بيانه أو هما جميعا، لأنه يجب التوقف في معنى الكلام ما لم يأت عليه الفراغ لما يجوز أن يحصل عقيبه من استثناء أو شرط أو غيرهما من المخصصات فهذا هو التحقيق في تفسير الآية. ولنذكر أقوال المفسرين: أحدها: أن هذا كقوله تعالى: لا تحرك به لسانك لتعجل به

[القيامة: ١٦] وكان عليه السلام يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام فيعجل بقراءته قبل

استتمام جبريل مخافة النسيان فقيل له: لا تعجل إلى أن يستتم وحيه فيكون أخذك إياه عن تثبت وسكون والله تعالى يزيدك فهما وعلما، وهذا قول مقاتل والسدي ورواه عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما. وثانيها: لا تعجل بالقرآن فتقرأه على أصحابك قبل أن يوحى إليك بيان معانيه وهذا قول مجاهد وقتادة. وثالثها: قال الضحاك: إن أهل مكة وأسقف نجران قالوا:

يا محمد أخبرنا عن كذا وكذا وقد ضربنا لك أجلا ثلاثة أيام فأبطأ الوحي عليه وفشت المقالة بأن اليهود قد غلبوا محمدا فأنزل الله تعالى هذه الآية: ولا تعجل بالقرآن أي بنزوله من قبل أن يقضى إليك وحيه من اللوح المحفوظ إلى إسرافيل ومنه إلى جبريل ومنه إليك: وقل رب زدني علما. ورابعها:

روى الحسن أن امرأة." (١)

"الدرداء: الدنيا دار من لا دار له ومال/ من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له. وعن الحسن: لولا حمق الناس لخربت الدنيا. وعن عيسى ابن مريم عليه السلام قال: لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم لها عبيدا، وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين يتلو هذه الآية، وقال الصلاة يرحمكم الله، أما قوله عز وجل:

إلى ما متعنا به [أي] ألذذنا به، والإمتاع الإلذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الأصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح، يقال أمتعه إمتاعا ومتعه تمتيعا والتفعيل يقتضي التكثير، أما قوله: أزواجا منهم أي أشكالا وأشباها من الكفار وهي من المزاوجة بين الأشياء وهي المشاكلة، وذلك لأنهم أشكال في الذهاب عن الصواب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أصنافا منهم، وقال الكلبي والزجاج: رجالا منهم، أما قوله: زهرة الحياة الدنيا ففي انتصابه أربعة أوجه. أحدها: على الذم وهو النصب على الاختصاص أو على تضمين متعنا معنى أعطينا وكونه مفعولا ثانيا له أو على إبداله من محل الجار والمجرور أو على إبداله من أزواجا على تقدير ذوي، فإن قيل: ما معنى الزهرة فيمن حرك قلنا معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة كما جاء في الجهرة. قرئ: أرنا الله جهرة، وأن يكون جمع زاهر وصفا لهم بأنهم زهرة هذه الدنيا لصفاء ألوانهم وتهلل وجوههم بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الألوان والتقشف في الثياب، أما قوله: لنفتنهم فيه فذكروا فيه وجوها. أحدها: لنعذبهم به كقوله: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا [التوبة: ٥٥] . وثانيها: قال ابن عباس رضي الله عنهما:

إضلالا مني لهم. وثالثها: قال الكلبي ومقاتل تشديدا في التكليف عليهم لأن الإعراض عن الدنيا عند

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٠٤/٢٢

حضورها والإقبال إلى الله أشد من ذلك عند عدم حضورها ولذلك كان رجوع الفقراء إلى خدمة الله تعالى والتضرع إليه أكثر من تضرع الأغنياء، ولأن على من أوتي الدنيا ضروبا من التكاليف لولاها لما لزمتهم تلك التكاليف ولأن القادر على المعاصي يكون الاجتناب عن المعاصي أشق عليه من العاجز الفقير، فمن هذه الجهات تكون الزيادة في الدنيا تشديدا في التكليف ثم قال لرسوله: ورزق ربك خير وأبقى والأظهر أن المراد أن مطلوبك الذي تجده من الثواب خير من مطلوبهم وأبقى، لأنه يدوم ولا ينقطع وليس كذلك حال ما أوتوه من من الدنيا، ويحتمل أن يكون المراد ما أوتيته من يسير الدنيا إذا قرنته بالطاعة خير لك من حيث العاقبة وأبقى، فذكر الرزق في الدنيا ووصفه بحسن عاقبته إذا رضي به وصبر عليه، ويحتمل أن يكون المراد ما أعطي من النبوة والدرجات الرفيعة، وأما قوله: وأمر أهلك بالصلاة فمنهم من حمله على أقاربه ومنهم من حمله على كل أهل دينه، وهذا أقرب وهو كقوله: وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة [مريم: ٥٥] وإن احتمل أن يكون المراد من يضمه المسكن إذ التنبيه على الصلاة والأمر بها في أوقاتها ممكن فيهم دون سائر الأمة يعنى كما أمرناك بالصلاة فأمر أنت قومك بها، أما قوله: واصطبر عليها فالمراد كما تأمرهم فحافظ عليها فعلا، فإن الوعظ بلسان الفعل أتم منه بلسان القول،

وكان رسول الله/ صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب إلى فاطمة وعلي عليهما السلام كل صباح ويقول: «الصلاة» وكان يفعل ذلك أشهرا،

ثم بين تعالى أنه إنما يأمرهم بذلك لمنافعهم وأنه متعال عن **المنافع** بقوله: لا نسئلك رزقا نحن نرزقك وفيه وجوه. أحدها: قال أبو مسلم: المعنى أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج، وهو كقوله تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون [الذاريات: ٥٦، ٥٧] . وثانيها: لا نسئلك رزقا لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك ونرزق أهلك، ففرغ بالك لأمر الآخرة، وفي معناه قول." (١)

"تسوي الجبابرة سقوفهم وفرشهم للهو واللعب، وإنما سويناهم لفوائد دينية ودنيوية أما الدينية فليتفكر المتفكرون فيها على ما قال تعالى: ويتفكرون في خلق السماوات والأرض [آل عمران: ١٩١] وأما الدنيوية فلما يتعلق بها من **المنافع** التي لا تعد ولا تحصى وهذا كقوله: وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا [ص: ٢٧] وقوله: ما خلقناهما إلا بالحق [الدخان: ٣٩] . والثاني: أن الغرض منه تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على منكريه لأنه أظهر المعجزة عليه فإن كان محمد كاذبا كان إظهار المعجزة عليه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١١٥/٢٢

من باب اللعب وذلك منفي عنه وإن كان صادقا فهو المطلوب وحينئذ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن.
المسألة الثانية: قال القاضي عبد الجبار: دلت الآية على أن اللعب ليس من قبله تعالى إذ لو كان كذلك لكان لاعبا فإن اللاعب في اللغة اسم لفاعل اللعب فنفي الاسم الموضوع للفعل يقتضي نفي الفعل.
والجواب:
يبطل ذلك بمسألة الداعي عن ما مر غيره مرة أما قوله: لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين فاعلم أن قوله: لاتخذناه من لدنا معناه من جهة قدرتنا. وقيل: اللهو الولد بلغة اليمن وقيل المرأة وقيل من لدنا أي من الملائكة لا من الإنس ردا لمن قال بولادة المسيح وعزير فأما قوله تعالى: بل نقذف بالحق على الباطل فاعلم أن قوله: بل/ إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته كأنه قال سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا وموجب حكمتنا أن نغلب بالجد وندحض الباطل بالحق، واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرا لإبطاله فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه، فأما قوله تعالى: ولكم الويل مما تصفون يعني من تمسك بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ونسب القرآن إلى أنه سحر وأضغاث أحلام إلى غير ذلك من الأباطيل، وهو الذي عناه بقوله: مما تصفون.

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١٩ الى ٢٠]
وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون (١٩) يسبحون الليل والنهار لا يفترون (٢٠)
وفيه مسائل:
المسألة الأولى: في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان. الأول: أنه تعالى لما نفى اللعب عن نفسه ونفي اللعب لا يصح إلا بنفي الحاجة ونفي الحاجة لا يصح إلا بالقدرة التامة، لا جرم عقب تلك الآية بقوله: وله من في السماوات والأرض لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة. الثاني: وهو الأقرب أنه تعالى لما حكى كلام الطاعنين في النبوات وأجاب عنها وبين أن غرضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين في هذه الآية أنه تعالى منزه عن طاعتهم لأنه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات، ولأجل أن الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فالبشر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه.
المسألة الثانية: قوله: وله من في السماوات والأرض معناه أن كل المكلفين في السماء والأرض فهم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم، فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه.
المسألة الثالثة: دلالة قوله: ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته على أن الملك أفضل من البشر من ثلاثة

أوجه قد تقدم بيانها في سورة البقرة.

المسألة الرابعة: قوله: ومن عنده المراد بهم الملائكة بإجماع الأمة ولأنه تعالى وصفهم بأنهم:." [1]

"سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثاني لأنه لا يخاف على السماء من استراق سمع الجن.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: وهم عن آياتها معرضون معناه عما وضع الله تعالى فيها من الأدلة والعبر في حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة.

المسألة الرابعة: قرئ عن آيتها على التوحيد والمراد الجنس أي هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من **المنافع** الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته معرضون.

النوع السادس: قوله تعالى: وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون وفيه مسائل: المسألة الأولى: اعلم أنه سبحانه لما قال: وهم عن آياتها معرضون فصل تلك الآيات هاهنا لأنه تعالى لو خلق السماء والأرض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من **المنافع** بتعاقب الحر والبرد لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده بل إنما يكون/ ذلك بسبب حركاتها في أفلاكها، فلهذا قال: كل في فلك يسبحون وتقريره أن نقول قد ثبت بالأرصاد أن للكواكب حركات مختلفة فمنها حركة تشملها بأسرها آخذة من المشرق إلى المغرب وهي حركة الشمس اليومية، ثم قال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة، وهاهنا حركة أخرى من المغرب إلى المشرق قالوا وهي ظاهرة في السبعة السيارة خفية في الثابتة، واستدلوا عليها بأنا وجدنا الكواكب السيارة كلما كان منها أسرع حركة إذا قارن ما هو أبطأ حركة فإنه بعد ذلك يتقدمه نحو المشرق وهذا في القمر ظاهر جدا فإنه يظهر بعد الاجتماع بيوم أو يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعدا منها إلى أن يقابلها على قريب من نصف الشهر وكل كوكب كان شرقيا منه على طريقته في ممر البروج يزداد كل ليلة قربا منه ثم إذا أدركه ستره بطرفه الشرقي وتنكسف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربي فعرفنا أن لهذه الكواكب السيارة حركة من المغرب إلى المشرق، وكذلك وجدنا للكواكب الثابتة حركة بطيئة على توالي البروج فعرفنا أن لها حركة من المغرب إلى المشرق. هذا ما قالوه ونحن خالفناهم فيه، وقلنا: إن ذلك محال لأن الشمس مثلا لو كانت متحركة بذاتها من

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢/١٢٥

المغرب إلى المشرق حركة بطيئة ولا شك أنها متحركة بسبب الحركة اليومية من المغرب إلى المشرق لزم كون الجرم الواحد متحركا حركتين إلى جهتين مختلفتين دفعة واحدة وذلك محال لأن الحركة إلى الجهة تقتضي حصول المتحرك في الجهة المنتقل إليها فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة إلى جهتين لزم حصوله دفعة واحدة في مكانين وهو محال. فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: الشمس حال حركتها إلى الجانب الشرقي تنقطع حركتها إلى الجانب الغربي وبالعكس، وأيضا فما ذكرتموه ينتقض بحركة الرحى إلى جانب الشرقي تنقع حركتها إلى الجانب الغربي وبالعكس، وأيضا فما ذكرتموه ينتقض بحركة الرحى إلى جانب والنملة التي تكون عليها تتحرك إلى خلاف ذلك الجانب، قلنا: أما الأول فلا يستقيم عل أصولكم لأن حركات الأفلاك مصونة عن الانقطاع عندكم، وأما الثاني فهو مثال محتمل وما ذكرناه برهان قاطع فلا يتعارضان، أما الذي احتجوا به على أن للكواكب حركة من المغرب إلى المشرق فهو ضعيف، فإنه يقال لم لا يجوز أن يقال أن جميع الكواكب متحركة من المشرق إلى المغرب إلا أن بعضها أبطأ من البعض." (١)

"فيتخلف بعضها عن بعض بسبب ذلك التخلف فيظن أنها تتحرك إلى خلاف تلك الجهة مثلا الفلك الأعظم استدارته من أول اليوم الأول إلى أول اليوم الثاني دورة تامة وفلك الثوابت استدارته من أول اليوم الأولى إلى أول اليوم الثاني دورة تامة إلا مقدار ثانية فيظن أن فلك الثوابت تحرك من الجهة الأخرى مقدار ثانية ولا يكون كذلك بل ذلك لأنه تخلف بمقدار ثانية، وعلى هذا التقدير فجميع الجهات شرقية وأسرعها الحركة اليومية، ثم يليها في السرعة فلك الثوابت ثم يليها زحل وهكذا إلى أن ينتهي إلى فلك القمر فهو أبطأ الأفلاك حركة وهذا الذي قلناه مع ما يشهد له البرهان المذكور فهو أقرب إلى ترتيب الوجود، فإن على هذا التقدير تكون نهاية الحركة الفلك المحيط وهو الفلك الأعظم/ ونهاية السكون الجرم الذي هو في غاية البعد وهو الأرض، ثم إن كل ما كان أقرب إلى الفلك المحيط كان أسرع حركة وما كان منه أبعد كان أبطأ فهذا ما نقوله في حركات الأفلاك في أطوالها وأما حركاتها في عروضها فظاهرة وذلك بسبب اختلاف ميولها إلى الشمال والجنوب. إذا ثبت هذا فنقول لو لم يكن للكواكب حركة في الميل لكان التأثير مخصوصا ببقعة واحدة، فكان سائر الجوانب تخلو عن **المنافع** الحاصلة منه، وكان الذي يقرب منه متشابه الأحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة، فإن كانت حارة أفنت الرطوبات فأحالتها كلها إلى النارية، وبالجملة فيكون الموضع المحاذي لممر الكواكب على كيفية وخط ما لا يحاذيه على كيفية أخرى وخط المتوسط بينهما على كيفية أخرى فيكون في موضع شتاء دائم ويكون فيه الهواء والعجاجة وفي موضع آخر

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢/١٤٠

صيف دائم يوجب الاحتراق وفي موضع آخر ربيع

أو خريف لا يتم فيه النضج ولو لم تكن عودات متتالية، وكان الكواكب يتحرك بطيئا لكان الميل قليل المنفعة والتأثير شديد الإفراط، وكان يعرض قريبا مما لو لم يكن ميل ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت **المنافع** وما تمت، وأما إذا كان هناك ميل يحفظ الحركة في جهة مدة ثم ينتقل إلى جهة أخرى بمقدار الحاجة ويبقى في كل جهة برهة تم بذلك تأثيره بحيث يبقى مصونا عن طرفي الإفراط والتفريط. وبالجملة، فالعقول لا تقف إلا على القليل من أسرار المخلوقات فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية.

المسألة الثانية: أنه لا يجوز أن يقول: وكل في فلك يسبحون إلا ويدخل في الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل فصارت النجوم وإن لم تكن مذكورة أولا فإنها مذكورة لعود هذا الضمير إليها والله أعلم.

المسألة الثالثة: الفلك في كلام العرب كل شيء دائر وجمعه أفلاك، واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم: الفلك ليس بجسم وإنما هو مدار هذه النجوم وهو قول الضحاك، وقال الأكثرون: بل هي أجسام تدور النجوم عليها، وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن، ثم اختلفوا في كيفيته فقال بعضهم: الفلك موج مكفوف تجري الشمس والقمر والنجوم فيه، وقال الكلبي: ماء مجموع تجري فيه الكواكب واحتج بأن السباحة لا تكون إلا في الماء، قلنا: لا نسلم فإنه يقال في الفرس الذي يمد يديه في الجري سابح، وقال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة:

إنها أجرام صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول، فأما الكلام على الفلاسفة فهو مذكور في الكتب اللائقة به، والحق أنه لا سبيل إلى معرفة صفات السموات إلا بالخبر.

المسألة الرابعة: اختلف الناس في حركات الكواكب والوجوه الممكنة فيها ثلاثة فإنه إما أن يكون الفلك ساكنا والكواكب تتحرك فيه كحركة السمك في الماء الراكد، وإما أن يكون الفلك متحركا والكواكب تتحرك فيه." (١)

"والأجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة وهو آخر ستة أشهر، أو تسعة، أو أربع سنين أو كما شاء وقدر الله تعالى فإن كتب ذلك صار أجلا مسمى المرتبة الخامسة: قوله: ثم نخرجكم طفلا وإنما وحد الطفل لأن الغرض الدلالة على الجنس ويحتمل أن يخرج كل واحد منكم طفلا كقوله: والملائكة بعد ذلك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤١/٢٢

ظهير [التحريم: ٤] المرتبة السادسة: قوله: ثم لتبلغوا أشدكم والأشد كمال القوة والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد وكأنها شدة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع، والمراد والله أعلم ثم سهل في تربيتكم وأغذيتكم أمورا لتبلغوا أشدكم فنبه بذلك على الأحوال التي بين خروج الطفل من بطن أمه وبين بلوغ الأشد ويكون بين الحالتين وسائط، وذكر بعضهم أنه ليس بين حال الطفولية وبين ابتداء حال بلوغ الأشد واسطة حتى جوز أن يبلغ في السن ويكون طفلا كما يكون غلاما ثم يدخل في الأشد المرتبة السابعة: قوله: ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا والمعنى أن منكم من يتوفى على قوته وكماله، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر وهو الهرم والخرف، فيصير كما كان في أول طفوليته ضعيف البنية، سخيف العقل، قليل الفهم. فإن قيل كيف قال: لكيلا يعلم من بعد علم شيئا مع أنه يعلم بعض الأشياء كالطفل؟ قلنا المراد أنه يزول عقله فيصير كأنه لا يعلم شيئا لأن مثل ذلك قد يذكر في النفي لأجل المبالغة، ومن الناس من قال هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى: ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو ضعيف. لأن معنى قوله: ثم رددناه أسفل سافلين [التين: ٥] هو دلالة على الذم فالمراد به ما يجري مجرى العقوبة ولذلك قال: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون [التين: ٦] فهذا تمام الاستدلال بحال خلقة الحيوان على صحة البعث الوجه الثاني: الاستدلال بحال خلقة النبات على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى: وترى الأرض هامدة وهمودها يبسها وخلوها عن النبات والخضرة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت والاهتزاز الحركة على سرور فلا يكاد يقال اهتز فلان لكيت وكيت إلا إذا كان الأمر من المحاسن **والمنافع** فقوله: اهتزت وربت أي تحركت بالنبات وانتفخت.

أما قوله: وأنبتت من كل زوج بهيج فهو مجاز لأن الأرض ينبت منها والله تعالى هو المنبت لذلك، لكنه يضاف إليها توسعا، ومعنى من كل زوج بهيج من كل نوع من أنواع النبات من زرع وغرس، والبهجة حسن الشيء ونضارته، والبهيج بمعنى المبهج قال المبرد وهو الشيء المشرق الجميل، ثم إنه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر أمورا خمسة أحدها: قوله ذلك: بأن الله هو الحق والحق هو الموجود الثابت فكأنه سبحانه بين أن هذه الوجوه دالة على وجود الصانع وحاصلها راجع إلى أن/ حدوث هذه الأعراض المتنافية وتواردها على الأجسام يدل على وجود الصانع وثانيها: قوله تعالى: وأنه يحي الموتى فهذا تنبيه على أنه لما لم يستبعد من الإله إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات وثالثها: قوله: وأنه على كل شيء قدير يعني أن الذي يصح منه إيجاد هذه الأشياء لا بد وأن يكون

واجب الإنصاف لذاته بالقدرة ومن كان كذلك كان قادرا على جميع الممكنات ومن كان كذلك فإنه لا بد وأن يكون قادرا على الإعادة ورابعها: قوله: وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور والمعنى أنه لما أقام الدلائل على أن الإعادة في نفسها ممكنة وأنه سبحانه وتعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادرا على الإعادة في نفسها، وإذا ثبت الإمكان والصادق أخبر عن وقوعه فلا بد من القطع بوقوعه، واعلم أن." (١)

"[سورة الحج (٢٢) : الآيات ١٤ الى ١٦]

إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد (١٤) من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ (١٥) وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد (١٦)

اعلم أنه سبحانه لما بين في الآية السابقة حال عبادة المنافقين وحال معبودهم، بين في هذه الآية صفة عبادة المؤمنين وصفة معبودهم، أما عبادتهم فقد كانت على الطريق الذي لا يمكن صوابه، وأما معبودهم فلا يضر ولا ينفع. وأما المؤمنون فعبادتهم حقيقية ومعبودهم يعطيهم أعظم المنافع وهو الجنة، ثم بين كمال الجنة التي تجمع بين الزرع والشجر وأن تجري من تحتها الأنهار وبين تعالى أنه يفعل ما يريد بهم من أنواع الفضل والإحسان زيادة على أجورهم كما قال تعالى: فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله [النساء: ١٧٣] واحتج أصحابنا في خلق الأفعال بقوله سبحانه: إن الله يفعل ما يريد قالوا: أجمعنا على أنه سبحانه يريد الإيمان ولفظة (ما) للعموم فوجب أن يكون فاعلا للإيمان لقوله: إن الله يفعل ما يريد أجاب الكعبي عنه بأن الله تعالى يفعل ما يريد أن يفعله لا ما يريد أن يفعله غيره. والجواب: أن قوله ما يريد أعم من قولنا ما يريد أن يفعله ومن قولنا ما يريد أن يفعله غيره فالتقييد خلاف النص.

أما قوله: من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فالهاء إلى ماذا يرجع؟ فيه وجهان: الأول: وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدي، واختيار الفراء والزجاج أنه يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم يريد أن من ظن أن لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم في الدنيا بإعلاء كلمته/ وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممن كذبه والرسول صلى الله عليه وسلم وإن لم يجر ذكر في الآية ففيها ما يدل عليه وهو ذكر الإيمان في قوله: إن الله يدخل الذين آمنوا والإيمان لا يتم إلا بالله ورسوله فيجب البحث هاهنا عن أمرين: أحدهما: أنه من الذي كان يظن أن الله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠٥/٢٣

تعالى لا ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم؟ والثاني: أنه ما معنى قوله: فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع؟.

أما البحث الأول: فذكروا فيه وجوها: أحدها: كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر فنزلت هذه الآية. وثانيها: قال مقاتل: نزلت في نفر من أسد وغطفان قالوا نخاف أن الله لا ينصر محمدا فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا. وثالثها: أن حساده وأعداءه كانوا يتوقعون أن لا ينصره الله وأن لا يعليه على أعدائه، فمتى شاهدوا أن الله نصره غاظهم ذلك.

وأما البحث الثاني: فاعلم أن في لفظ السبب قولين: أحدهما: أنه الحبل وهؤلاء اختلفوا في السماء فمنهم من قال هو سماء البيت، ومنهم من قال هو السماء في الحقيقة، فقالوا المعنى: من كان يظن أن لن ينصره الله، ثم يغيظه أنه لا يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه في إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ." (١)

"وبعضهم حملها على منافع الآخرة،

وهي العفو والمغفرة عن محمد الباقر عليه السلام،

وبعضهم حملها على الأمرين جميعا، وهو الأولى.

المسألة الثانية: إنما نكر **المنافع** لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات.

المسألة الثالثة: كنى عن الذبح والنحر بذكر اسم الله تعالى لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا وذبحوا وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله تعالى أن يذكر اسم الله تعالى، وأن يخالف المشركين في ذلك فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان قال مقاتل إذا ذبحت فقل بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك وتستقبل القبلة، وزاد الكلبي فقال إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، قال القفال: وكان المتقرب بها وبإراقة دمائها متصور بصورة من يفدي نفسه بما يعادلها فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته طلبا لمرضاة الله تعالى، واعترافا بأن تقصيره كاد يستحق مهجته.

المسألة الرابعة: أكثر العلماء صاروا إلى أن الأيام المعلومات عشر ذي الحجة والمعدودات أيام التشريق، وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والحسن، ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس واختيار الشافعي وأبي حنيفة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣/٢١٠

رحمهم الله، واحتجوا بأنها معلومة عند الناس لحرصهم على علمها من أجل أن وقت الحج في آخرها. ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة، والمشعر الحرام وكذلك الذبائح لها وقت منها وهو يوم النحر، وقال ابن عباس في رواية عطاء إنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده وهو اختيار أبي مسلم قال لأنها كانت معروفة عند العرب بعدها وهي أيام النحر وهو قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله.

أما قوله: بهيمة الأنعام فقال صاحب «الكشاف» : البهمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر، فبينت بالأنعام وهي الإبل والبقر والضأن والمعز.

أما قوله تعالى: فكلوا منها فمن الناس من قال إنه أمر وجوب لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون منها ترفعا على الفقراء، فأمر المسلمين بذلك لما فيه من مخالفة الكفار ومساواة الفقراء واستعمال التواضع، وقال الأكثرون إنه ليس على الوجوب. ثم قال العلماء من أهدى أو ضحى فحسن أن يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى: فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير

ومنهم من قال يأكل الثلث ويدخر الثلث ويتصدق بالثلث، ومذهب الشافعي رحمه الله أن الأكل مستحب والإطعام واجب فإن أطعم جميعها أجزأه وإن أكل جميعها لم يجزه، هذا فيما كان تطوعا، فأما الواجبات كالنذور والكفارات والجبرانات لنقصان مثل دم القران ودم التمتع ودم الإساءة ودماء القلم والحلق فلا يؤكل منها.

أما قوله: وأطعموا البائس الفقير فلا شبهة في أنه أمر إيجاب، والبائس الذي أصابه بؤس أي شدة والفقير الذي أضعفه الإعسار وهو مأخوذ من فقار الظهر. قال ابن عباس البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه، والفقير الذي لا يكون كذلك فتكون ثيابه نقية ووجهه وجه غني.

أما قوله: ثم ليقضوا تفثهم قال الزجاج: إن أهل اللغة لا يعرفون التفث إلا من التفسير، وقال المبرد أصل التفث في كلام العرب كل قاذورة تلحق الإنسان فيجب عليه نقضها. والمراد هاهنا قص الشارب." (١)

"بدنة فيها جمل لأبي في أنفه برة من ذهب»

والوجه الثاني: في تعظيم شعائر الله تعالى أن يعتقد أن طاعة الله تعالى في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد وأن يحتفل به ويتسارع فيه فإنها من تقوى القلوب أي إن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى من ارتبط به وإنما ذكرت القلوب لأن المنافق قد يظهر التقوى من نفسه.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢١/٢٣

ولكن لما كان قلبه خاليا عنها لا جرم لا يكون مجدا في أداء الطاعات، أما المخلص الذي تكون التقوى متمكنة في قلبه/ فإنه يبالغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص، فإن قال قائل: ما الحكمة في أن الله تعالى بالغ في تعظيم ذبح الحيوانات هذه المبالغة؟ فالجواب قوله تعالى:

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣٣ الى ٣٥]
لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق (٣٣) ولكل أمة جعلنا م نسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين (٣٤) الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣٥)
اعلم أن قوله تعالى: لكم فيها منافع إلى أجل مسمى لا يليق إلا بأن تحمل الشعائر على الهدي الذي فيه منافع إلى وقت النحر، ومن يحمل ذلك على سائر الواجبات يقول لكم فيها أي في التمسك بها منافع إلى أجل ينقطع التكليف عنده، والأول هو قول جمهور المفسرين، ولا شك أنه أقرب. وعلى هذا القول **فالمنافع** مفسرة بالدر والنسل والأوبار وركوب ظهورها، فأما قوله إلى أجل مسمى ففيه قولان: أحدهما: أن لكم أن تنتفعوا بهذه البهائم إلى أن تسموها ضحية وهديا فإذا فعلتم ذلك فليس لكم أن تنتفعوا بها، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والضحاك وقال آخرون لكم فيها أي في البدن منافع مع تسميتها هديا بأن تركبوها إن احتجتم إليها وأن تشربوا ألبانها إذا اضطررتم إليها إلى أجل مسمى يعني إلى أن تنحروها هذه هي الرواية الثانية عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو اختيار الشافعي، وهذا القول أولى لأنه تعالى قال: لكم فيها منافع أي في الشعائر ولا تسمى شعائر قبل أن تسمى هديا
وروى أبو هريرة أنه عليه السلام «مر برجل يسوق بدنة وهو في جهد، فقال عليه السلام اركبها فقال يا رسول الله إنها هدي فقال اركبها ويلك»
وروى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اركبوا الهدي بالمعروف حتى تجدوا ظهرا»
واحتج أبو حنيفة رحمه الله على أنه لا يملك منافعها بأن لا يجوز له أن يؤجرها للركوب فلو كان مالكا لمنافعها لملك عقد الإجارة عليها كمنافع سائر المملوكات، وهذا ضعيف لأن أم الولد لا يمكنه بيعها، ويمكنه الانتفاع بها فكذا هاهنا.
أما قوله تعالى: ثم محلها إلى البيت العتيق فالمعنى أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم وأعظم هذه **المنافع** محلها إلى البيت العتيق أي وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت،

كقوله:

هديا بالغ الكعبة [المائدة: ٩٥] وبالجملة فقوله: محلها يعني حيث يحل نحرها، وأما البيت العتيق فالمراد به الحرم كله، ودليله قوله تعالى: فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا [التوبة: ٢٨] أي الحرم كله فالمنحر على هذا القول كل مكة، ولكنها تنزهت عن الدماء إلى منى ومنى من مكة،

قال عليه السلام: «كل." (١)

"الله كما قال تعالى: يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا [البقرة: ٢٦] فإن قيل فعلى كل الروايات قد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن، وذلك يقدح في كونه معجزا كما ظنه عبد الله والجواب: هذا غير مستبعد إذا كان قدره القدر الذي لا يظهر فيه الإعجاز فسقطت شبهة عبد الله.

المرتبة الثامنة: قوله: ثم إنكم بعد ذلك لميتون قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن لمائتون والفرق بين الميت والمائت، أن الميت كالحي صفة ثابتة، وأما المائت فيدل على الحدوث تقول زيد ميت الآن ومائت غدا، وكقولك يموت ونحوهما ضيق وضائق في قوله: وضائق به صدرك [هود: ١٢] .

المرتبة التاسعة: قوله: ثم إنكم يوم القيامة تبعثون فالله سبحانه جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين أيضا على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الحكمة في الموت، وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم الدنيا فيكون ذلك في الإنعام أبلغ؟ والجواب: هذا كالمفسدة في حق المكلفين لأنه متى عجل للمرء الثواب فيما يتحمله من المشقة في الطاعات صار إتيانه بالطاعات لأجل تلك **المنافع** لا لأجل طاعة الله، يبين ذلك أنه لو قيل لمن يصلي ويصوم إذا فعلت ذلك أدخلناك الجنة في الحال، فإنه لا يأتي بذلك الفعل/ إلا لطلب الجنة، فلا جرم أخره الله تعالى وبعده بالإماتة ثم الإعادة ليكون العبد عابدا لربه بطاعته لا لطلب الانتفاع.

السؤال الثاني: هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر لأنه قال: ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ولم يذكر بين الأمرين الإحياء في القبر والإماتة والجواب: من وجهين: الأول: أنه ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة والثاني: أن الغرض من ذكر هذه الأجناس الثلاثة الإنشاء والإماتة والإعادة، والذي ترك ذكره فهو من جنس الإعادة.

النوع الثاني: من الدلائل الاستدلال بخلقة السموات وهو قوله تعالى: ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين [المؤمنون: ١٧] .

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢٤/٢٣

فقوله: سبع طرائق [المؤمنون: ١٧] أي سبع سموات وإنما قيل لها طرائق لتطارقها بمعنى كون بعضها فوق بعض يقال طارق الرجل نعليه إذا أطبق نعلا على نعل وطارق بين ثوبين إذا لبس ثوبا فوق ثوب.

هذا قول الخليل والزجاج والفراء قال الزجاج هو كقوله: سبع سماوات طباقا [نوح: ١٥] وقال علي بن عيسى سميت بذلك لأنها طرائق للملائكة في العروج والهبوط والطيران، وقال آخرون لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها والوجه في إنعامه علينا بذلك أنه تعالى جعلها موضعا لأرزاقنا بإنزال الماء منها، وجعلها مقرا للملائكة، ولأنها موضع الثواب، ولأنها مكان إرسال الأنبياء ونزول الوحي.

أما قوله: وما كنا عن الخلق غافلين [المؤمنون: ١٧] ففيه وجوه: أحدها: ما كنا غافلين بل كنا للخلق حافظين من أن تسقط عليهم الطرائق السبع فتهلكهم وهذا قول سفيان بن عيينة، وهو كقوله تعالى: إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا [فاطر: ٤١] وثانيها: إنما خلقناها فوقهم لننزل عليهم الأرزاق والبركات منها عن الحسن وثالثها: أنا خلقنا هذه الأشياء فدل خلقنا لها على كمال قدرتنا ثم بين كمال العلم بقوله: وما كنا عن الخلق غافلين [المؤمنون: ١٧] يعني عن أعمالهم وأقوالهم وضمائرهم وذلك يفيد نهاية الزجر." (١)

"سورة الفرقان

سبع وسبعون آية مكية بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ١ الى ٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا (١) الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا (٢)

اعلم أن الله سبحانه وتعالى تكلم في هذه السورة في التوحيد والنبوة وأحوال القيامة، ثم ختمها بذكر صفات العباد المخلصين الموقنين، ولما كان إثبات الصانع وإثبات صفات جلاله يجب أن يكون مقدما على الكل لا جرم افتتح الله هذه السورة بذلك فقال: تبارك الذي نزل الفرقان على عبده وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الزجاج: تبارك: تفاعل من البركة، والبركة كثرة الخير وزيادته وفيه معنيان:

أحدهما: تزايد خيره وتكاثر، وهو المراد من قوله: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها [إبراهيم: ٣٤] والثاني:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦٧/٢٣

تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو المراد من قوله: ليس كمثله شيء [الشورى: ١١] وأما تعاليه عن كل شيء في ذاته، فيحتمل أن يكون المعنى جل بوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغير عليه، وأن يكون المعنى جل بفردانيته ووحدانيته عن مشابهة شيء من الممكنات، وأما تعاليه عن كل شيء في صفاته فيحتمل أن يكون المعنى جل أن يكون علمه ضروريا أو كسبيا أو تصورا أو تصديقا وفي قدرته أن يحتاج إلى مادة ومدة ومثال وجلب غرض ومنال، وأما في أفعاله فحل أن يكون الوجود والبقاء وصلاح حال الوجود إلا من قبله، وقال آخرون: أصل الكلمة تدل على البقاء، وهو مأخوذ من بروك البعير، ومن بروك الطير على الماء، وسميت البركة بركة لثبوت الماء فيها، والمعنى أنه سبحانه وتعالى باق في ذاته أزلا وأبدا ممتنع التغير وباق/ في صفاته ممتنع التبدل، ولما كان سبحانه وتعالى هو الخالق لوجوه **المنافع** والمصالح والمبقي لها وجب وصفه سبحانه بأنه تبارك وتعالى.

المسألة الثانية: قال أهل اللغة: كلمة (الذي) موضوعة للإشارة إلى الشيء عند محاولة تعريفه بقضية معلومة، وعند هذا يتوجه الإشكال، وهو أن القوم ما كانوا عالمين بأنه سبحانه هو الذي نزل الفرقان فكيف حسن هاهنا لفظ (الذي) ؟ وجوابه: أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزا ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله، فلقوة الدليل وظهوره أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم.." [1]

"المسألة الثالثة: لا نزاع أن الفرقان هو القرآن وصف بذلك من حيث إنه سبحانه فرق به بين الحق والباطل في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبين الحلال والحرام، أو لأنه فرق في النزول كما قال: وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث [الإسراء: ١٠٦] وهذا التأويل أقرب لأنه قال: نزل الفرقان ولفظة (نزل) تدل على التفريق، وأما لفظة (أنزل) فتدل على الجمع، ولذلك قال في سورة آل عمران: نزل عليك الكتاب بالحق ... وأنزل التوراة والإنجيل [آل عمران: ٣] واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال أولا تبارك ومعناه كثرة الخير والبركة، ثم ذكر عقبه أمر القرآن دل ذلك على أن القرآن منشأ الخيرات وأعم البركات، لكن القرآن ليس إلا منبعا للعلوم والمعارف والحكم، فدل هذا على أن العلم أشرف المخلوقات وأعظم الأشياء خيرا وبركة.

المسألة الرابعة: لا نزاع أن المراد من العبد هاهنا محمد صلى الله عليه وسلم وعن ابن الزبير على عباده وهم رسول الله وأمته كما قال: لقد أنزلنا إليكم [الأنبياء: ١٠] ، قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا [البقرة: ١٣٦] ، وقوله:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/٤٢٨

ليكون للعالمين نذيرا فالمراد ليكون هذا العبد نذيرا للعالمين، وقول من قال: إنه راجع إلى الفرقان فأضاف الإنذار إليه كما أضاف الهداية إليه في قوله: إن هذا القرآن يهدي [الإسراء: ٩] فبعيد وذلك لأن المنذر والنذير من صفات الفاعل للتخويف، وإذا وصف به القرآن فهو مجاز، وحمل الكلام على الحقيقة إذا أمكن هو الواجب، ثم قالوا هذه الآية تدل على أحكام: الأول: أن العالم كل ما سوى الله تعالى ويتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة، لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولا إلى الملائكة فوجب أن يكون رسولا إلى الجن والإنس جميعا، ويبطل بهذا قول من قال إنه كان رسولا إلى البعض دون البعض الثاني: أن لفظ للعالمين يتناول جميع المخلوقات فدلت الآية على أنه رسول للخلق إلى يوم القيامة، فوجب أن يكون خاتم الأنبياء والرسل الثالث: قالت المعتزلة دلت الآية على أنه سبحانه أراد الإيمان وفعل الطاعات من الكل، لأنه إنما بعثه إلى الكل ليكون نذيرا للكل، وأراد من الكل الاشتغال بالحسن والإعراض عن القبيح وعارضهم أصحابنا بقوله تعالى: ولقد ذرأنا لجهنم [الأعراف: ١٧٩] الآية، الرابع: لقائل أن يقول إن قوله تبارك كما دل على كثرة الخير والبركة لا بد وأن يكون المذكور عقيبه ما يكون سببا لكثرة الخير/ **والمنافع**، والإنذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق هذا لهذا الموضع؟ جوابه: أن هذا الإنذار يجري مجرى تأديب الولد، وكما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر كان الإحسان إليه أكثر، لما أن ذاك يؤدي في المستقبل إلى **المنافع** العظيمة، فكذا هاهنا كلما كان الإنذار كثيرا كان رجوع الخلق إلى الله أكثر، فكانت السعادة الأخروية أتم وأكثر، وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات إلى **المنافع** العاجلة، وذلك لأنه سبحانه لما وصف نفسه بأنه الذي يعطي الخيرات الكثيرة لم يذكر إلا منافع الدين، ولم يذكر البتة شيئا من منافع الدنيا.

ثم إنه سبحانه وصف ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء أولها: قوله: الذي له ملك السماوات والأرض وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه لأنه لا طريق إلى إثباته إلا بواسطة احتياج أفعاله إليه، فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالأمر الواجب وقوله: له ما في السماوات والأرض إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه بزمان حدوثها وزمان بقائها في ماهيتها وفي وجودها، وأنه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء وثانيها: قوله: ولم يتخذ ولدا فبين سبحانه أنه هو المعبود أبدا، ولا يصح أن يكون غيره معبودا ووارثا للملك عنه فتكون هذه الصفة كالمؤكدة لقوله: تبارك ولقوله: الذي له ملك." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٢٩/٢٤

"هواه إلهه وهذا ضعيف، لأن قوله: اتخذ إلهه هواه يفيد الحصر، أي لم يتخذ لنفسه إلها إلا هواه، وهذا المعنى لا يحصل عند القلب. قال ابن عباس: الهوى إله يعبد، وقال سعيد بن جبير: كان الرجل من المشركين يعبد الصنم فإذا رأى أحسن منه رماه واتخذ الآخر وعبده.

الثالث: قوله: أفأنت تكون عليه وكيلا أي حافظا تحفظه من اتباع هواه أي لست كذلك.

الرابع: نظير هذه الآية قوله تعالى: لست عليهم بمصيطر [الغاشية: ٢٢] وقوله: وما أنت عليهم بجبار [ق: ٤٥] وقوله: لا إكراه في الدين [البقرة: ٢٥٦] قال الكلبي: نسختها آية القتال وثالثها: قوله:

أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون أم هاهنا منقطعة، معناه بل تحسب، وذلك يدل على أن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها، وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول، لأنهم لشدة عنادهم لا يصغون إلى الكلام، وإذا سمعوه لا يتفكرون فيه، فكأنه ليس لهم عقل ولا سمع البتة، فعند ذلك شبههم بالأنعام في عدم انتفاعهم بالكلام وعدم إقدامهم على التدبر والتفكر وإقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية وإعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: لم قال: أم تحسب أن أكثرهم فحكم بذلك على الأكثر دون الكل؟ والجواب: لأنه كان فيهم من يعرف الله تعالى ويعقل الحق، إلا أنه ترك الإسلام لمجرد حب الرياسة لا للجهل.

السؤال الثاني: لم جعلوا أضل من الأنعام؟ الجواب: من وجوه: أحدها: أن الأنعام تنقاد لأربابها وللذي يعلفها ويتعهدها وتميز بين من يحسن إليها وبين من يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضره، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يميزون بين إحسانه إليهم وبين إساءة الشيطان إليهم الذي هو عدو لهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم **المنافع**، ولا يحترزون من العقاب الذي هو أعظم المضار وثانيها: أن قلوب الأنعام كما أنها تكون خالية عن العلم فهي/ خالية عن الجهل الذي هو اعتقاد المعتقد على خلاف ما هو عليه مع التصميم.

وأما هؤلاء فقلوبهم كما خلت عن العلم فقد اتصفت بالجهل فإنهم لا يعلمون ولا يعلمون أنهم لا يعلمون، بل هم مصرون على أنهم يعلمون وثالثها: أن عدم علم الأنعام لا يضر بأحد أما جهل هؤلاء فإنه منشأ للضرر العظيم، لأنهم يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجا ورابعها: أن الأنعام لا تعرف شيئا ولكنهم عاجزون عن الطلب وأما هؤلاء الجهال فإنهم ليسوا عاجزين عن الطلب، والمحروم عن طلب المراتب العالية إذا عجز عنه لا يكون في استحقاق الذم كالقادر عليه التارك له لسوء اختياره وخامسها: أن البهائم لا تستحق عقابا على عدم العلم، أما هؤلاء فإنهم يستحقون عليه أعظم العقاب وسادسها: أن البهائم تسبح

الله تعالى على مذهب بعض الناس على ما قال: وإن من شيء إلا يسبح بحمده [الإسراء: ٤٤] وقال: ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات إلى قوله: والدواب [الحج: ١٨] وقال: والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه [النور: ٤١] وإذا كان كذلك فضلال الكفار أشد وأعظم من ضلال هذه الأنعام.
السؤال الثالث: أنه سبحانه لما نفى عنهم السمع والعقل، فكيف ذمهم على الإعراض عن الدين وكيف بعث الرسول إليهم فإن من شرط التكليف العقل؟ الجواب: ليس المراد أنهم لا يعقلون بل إنهم لا ينتفعون بذلك العقل، فهو كقول الرجل لغيره إذا لم يفهم إنما أنت أعمى وأصم.." (١)

"[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤٥ الى ٤٩]

ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا (٤٥) ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا (٤٦) وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا (٤٧) وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا (٤٨) لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا (٤٩)
اعلم أنه تعالى لما بين جهل المعرضين عن دلائل الله تعالى وفساد طريقهم في ذلك ذكره بعده أنواعا من الدلائل الدالة على وجود الصانع.
النوع الأول: الاستدلال بحال الظل في زيادته ونقصانه وتغيره من حال إلى حال، وفيه مسائل:
المسألة الأولى: قوله: ألم تر فيه وجهان: أحدهما: أنه من رؤية العين والثاني: أنه من رؤية القلب يعني العلم، فإن حملناه على رؤية العين فالمعنى ألم تر إلى الظل كيف مده ربك وإن كان تخريج لفظه على عادة العرب أفصح وإن حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج، فالمعنى ألم تعلم وهذا أولى وذلك أن الظل إذا جعلناه من المبصرات فتأثير قدرة الله تعالى في تمديده غير مرئي بالاتفاق، ولكنه معلوم من حيث إن كل متغير جائز فله مؤثر فحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى من هذا الوجه.
المسألة الثانية: المخاطب بهذا الخطاب وإن كان هو الرسول عليه السلام بحسب ظاهر اللفظ ولكن الخطاب عام في المعنى، لأن المقصود من الآية بيان نعم الله تعالى بالظل، وجميع المكلفين مشتركون في أنه يجب تنبههم لهذه النعمة وتمكنهم من الاستدلال بها على وجود الصانع.
المسألة الثالثة: الناس أكثروا في تأويل هذه الآية والكلام الملخص يرجع إلى وجهين:
الأول: أن الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر إلى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٦٣/٢٤

طلوع الشمس، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران وهذه الحالة أطيب الأحوال لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس، وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوتها تبهر الحس البصري وتفيد السخونة القوية وهي مؤذية، فإذن أطيب الأحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال: وظل ممدود [الواقعة: ٣٠] وإذا ثبت هذا فنقول إنه سبحانه بين أنه من النعم العظيمة **والمنافع** الجليلة، ثم إن الناظر إلى الجسم الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيئا سوى الجسم وسوى اللون، ونقول الظل ليس أمرا ثالثا، ولا يعرف به إلا إذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم زال ذلك الظل فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجودا وماهية لأن الأشياء إنما تعرف بأضدادها، فلولا الشمس لما عرف الظل، ولولا الظلمة لما عرف النور، فكأنه سبحانه وتعالى لما طلع الشمس على الأرض وزال الظل، فحينئذ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون، فلهذا قال سبحانه ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أي خلقنا الظل أولا بما فيه من **المنافع** واللذات ثم إنا هدينا العقول إلى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلا على وجود هذه النعمة، ثم قبضناه أي أزلنا الظل لا دفعة بل يسيرا يسيرا فإن كلما ازداد." (١)

"ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب المغرب، ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا فكذا زوال الإظلال لا يكون/ دفعة بل يسيرا يسيرا، ولأن قبض الظل لو حصل دفعة لا ختلت المصالح، ولكن قبضها يسيرا يسيرا يفيد معه أنواع مصالح العالم، والمراد بالقبض الإزالة والإعدام هذا أحد التأويلين.

التأويل الثاني: وهو أنه سبحانه وتعالى لما خلق الأرض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الأرض، ثم إنه سبحانه خلق الشمس دليلا عليه وذلك لأن بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال فإنهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر، وكما أن المهتدي يهتدي بالهادي والدليل ويلازمه، فكذا الأظلال كأنها مهتدية وملازمة للأضواء فلهذا جعل الشمس دليلا عليها.

وأما قوله: ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا فإما أن يكون المراد منه انتهاء الأظلال يسيرا يسيرا إلى غاية نقصاناتها، فسمى إزالة الأظلال قبضا لها أو يكون المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة، وذلك بقبض أسبابها وهي الأجرام التي تلقي الأظلال وقوله: يسيرا هو كقوله: ذلك حشر علينا يسير [ق: ٤٤] فهذا هو التأويل الملخص.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/٤٦٤

المسألة الرابعة: وجه الاستدلال به على وجود الصانع المحسن أن حصول الظل أمر نافع للأحياء والعقلاء، وأما حصول الضوء الخالص، أو الظلمة الخالصة، فهو ليس من باب **المنافع**، فحصول ذلك الظل، إما أن يكون من الواجبات أو من الجائزات، والأول باطل وإلا لما تطرق التغير إليه، لأن الواجب لا يتغير فوجب أن يكون من الجائزات، فلا بد له في وجوده بعد العدم، وعدمه بعد الوجود، من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجه النافع، وما ذاك إلا من يقدر على تحريك الأجرام العلوية وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الأحسن والترتيب الأكمل، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى. فإن قيل: الظل عبارة عن عدم الضوء عما شأنه أن يضيء، فكيف استدل بالأمر العدمي على ذاته، وكيف عده من النعم؟ قلنا: الظل ليس عدما محضا، بل هو أضواء مخلوطة بظلم، والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثاني وهو أمر وجودي، وفي تحقيقه وبسطه كلام دقيق يرجع فيه إلى كتبنا العقلية.

النوع الثاني: قوله تعالى: وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا اعلم أنه تعالى شبه الليل من حيث إنه يستر الكل ويغطي باللباس الساتر للبدن، ونبه على ما لنا فيه من النفع بقوله:

والنوم سباتا والسبات هو الراحة وجعل النوم سباتا لأنه سبب للراحة قال أبو مسلم: السبات الراحة ومنه يوم السبت لما جرت به العادة من الاستراحة فيه، ويقال للعليل إذا استراح من تعب العلة مسبوت، وقال صاحب «الكشاف» السبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة قال: وهذا كقوله: وهو الذي يتوفاكم بالليل [الأنعام: ٦٠] وإنما قلنا إن تفسيره بالموت أولى من تفسيره بالراحة، لأن النشور في مقابلته يأباه، قال أبو مسلم: وجعل النهار نشورا هو بمعنى الانتشار والحركة كما سمى تعالى نوم الإنسان وفاة، فقال: الله يتوفى الأنفس/ حين موتها [الزمر: ٤٢] والتي لم تمت في منامها كذلك وفق بين القيام من النوم والقيام من الموت في التسمية بالنشور، وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمه على خلقه، لأن الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية، والنوم واليقظة شبههما بالموت والحياة، وعن لقمان أنه قال لابنه: كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشر.." (١)

"المسألة الأولى: قيل المراد بالكافر أبو جهل لأن الآية نزلت فيه، والأولى حمله على العموم، لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ، ولأنه أوفق بظاهر قوله: ويعبدون من دون الله.

المسألة الثانية: ذكروا في الظهير وجوها: أحدها: أن الظهير بمعنى المظاهر، كالعوين بمعنى المعاون، وفعيل بمعنى مفاعل غير (غريب) «١» ، والمعنى أن الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة. فإن قيل كيف

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٦٥/٢٤

يصح في الكافر أن يكون معاونا للشيطان على ربه بالعداوة؟ قلنا إنه تعالى ذكر نفسه وأراد رسوله كقوله: إن الذين يؤذون الله [الأحزاب: ٥٧] وثانيها: يجوز أن يريد بالظهير الجماعة، كقوله: والملائكة بعد ذلك ظهير [التحريم: ٤] كما جاء الصديق والخليط، وعلى هذا التفسير يكون المراد بالكافر الجنس، وأن بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور [دين] «٢» الله تعالى، قال تعالى: وإخوانهم يمدونهم في الغي [الأعراف: ٢٠٢] ، وثالثها: قال أبو مسلم الأصفهاني: الظهير من قولهم: ظهر فلان بحاجتي إذا نبذها وراء ظهره، وهو من قوله تعالى: واتخذتموه وراءكم ظهريا [هود: ٩٢] ويقال فيمن يستهين بالشيء: نبذه وراء وقياس العربية أن يقال مظهور، أي مستخف به متروك وراء الظهر، فقيل فيه ظهير في معنى مظهور، ومعناه هين على الله أن يكفر الكافر وهو تعالى مستهين بكفره.

أما قوله تعالى: وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا فتعلق ذلك بما تقدم، هو أن الكفار يطلبون العون على الله تعالى وعلى رسوله، والله تعالى بعث رسوله لنفعهم، لأنه بعثه ليبشرهم على الطاعة، وينذرهم على المعصية، فيستحقوا الثواب ويحترزوا عن العقاب، فلا جهل أعظم من جهل من استفرغ جهده في إيذاء شخص استفرغ جهده في إصلاح مهماته دينا ودنيا، ولا يسألهم على ذلك البتة أجرا.

أما قوله: إلا من شاء فذكروا فيه وجوها متقاربة أحدها: لا يسألهم على الأداء والدعاء أجرا إلا أن يشاءوا أن يتقربوا بالإنفاق في الجهاد وغيره، فيتخذوا به سبيلا إلى رحمة ربهم ونيل ثوابه وثانيها: قال القاضي: معناه لا أسألكم عليه أجرا لنفسي وأسألكم أن تطلبوا الأجر لأنفسكم باتخاذ السبيل إلى ربكم وثالثها: قال صاحب «الكشاف» : مثال قوله: إلا من شاء والمراد إلا فعل من شاء، واستثناؤه عن الأجر قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت، إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه، فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صوره هو بصورة الثواب وسماه باسمه فأفاد فائدتين إحداهما قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك إن كان حفظك لمالك ثوابا، فإني أطلب الثواب، والثانية إظهار الشفقة البالغة، وأن حفظك لمالك يجري مجرى الثواب العظيم الذي توصله إلي، ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلا، تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة، وقيل المراد التقرب بالصدقة والنفقة في سبيل الله.

أما قوله: وتوكل على الحي الذي لا يموت فالمعنى أنه سبحانه لما بين أن الكفار متظاهرون على إيذائه، فأمره بأن لا يطلب منهم أجرا البتة، أمره بأن يتوكل عليه في دفع جميع المضار، وفي جلب جميع المنافع، وإنما قال: على الحي الذي لا يموت لأن من توكل على الحي الذي يموت، فإذا مات المتوكل

(١) في الكشاف (عزيز) ٣/ ٩٧ ط. دار الفكر.

(٢) زيادة من الكشاف.." (١)

"عليه صار المتوكل ضائعا، أما هو سبحانه وتعالى فإنه حي لا يموت فلا يضيع المتوكل عليه البتة.

أما قوله: وسبح بحمده فمنهم من حمله على نفس التسبيح بالقول، ومنهم من حمله على الصلاة، ومنهم من حمله على التنزيه لله تعالى عما لا يليق به في توحيده وعدله وهذا هو الظاهر ثم قال: وكفى به بذنوب عباده خبيرا وهذه كلمة يراد بها المبالغة يقال: كفى بالعلم جمالا، وكفى بالأدب مالا وهو بمعنى حسبك، أي لا تحتاج معه إلى غيره لأنه خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وذلك وعيد شديد، كأنه قال إن أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٥٩ الى ٦٠]

الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فسئل به خبيرا (٥٩)

وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا (٦٠)

[في قوله تعالى الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فسئل به خبيرا] اعلم أنه سبحانه لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بأمور: أولها: بأنه حي لا يموت وهو قوله:

وتوكل على الحي الذي لا يموت [الفرقان: ٥٨] وثانيها: أنه عالم بجميع المعلومات وهو قوله: وكفى به بذنوب عباده خبيرا [الفرقان: ٥٨] وثالثها: أنه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله: الذي خلق السماوات والأرض فقوله: الذي خلق متصل بقوله: الحي الذي لا يموت لأنه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والأرضين ولكل ما بينهما ثبت أنه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضار، وأن النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل إلا عليه. وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: الأيام عبارة عن حركات الشمس في السموات فقبل السموات لا أيام، فكيف قال الله خلقها في ستة أيام؟ الجواب: يعني في مدة مقدارها هذه المدة لا يقال الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدما محضا، بل لا بد وأن يكون موجودا فيلزم من وجوده وجود مدة

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٧٦/٢٤

قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان، لأنا نقول هذا/ معارض بنفس الزمان، لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل خمسة أيام، والمدة المتوهمة التي تحتمل خمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام، فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى، فلما لم يلزم هذا لم يلزم ما قلتموه وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولا ثم السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام، ومن الناس من قال في ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة وهو بعيد لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول.

السؤال الثاني: لم قدر الخلق والإيجاد بهذا التقدير؟ الجواب: أما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية في التخصيص، قالت المعتزلة بل لا بد من داعي حكمة وهو أن تخصيص خلق العالم بهذا المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين: أحدهما: أن حصول تلك الحكمة، إما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا فإن كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا في كل الأزمنة، فلا يصلح أن يكون سببا لتخصيص زمان معين وإن كان جائزا افتقر حصول تلك الحكمة في ذلك الوقت إلى مخصص آخر ويلزم التسلسل والثاني: أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله، فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح في حصول المصالح.." (١)

"الآخرة عند حصول الثواب والثاني: أنهم سألوا أن يلحق الله أزواجهم وذريتهم بهم في الجنة ليتم سرورهم بهم.

المسألة الثالثة: فإن قيل: (من) في قوله: من أزواجنا ما هي؟ قلنا: يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل: هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله: من أزواجنا وهو من قولهم: / رأيت منك أسدا أي أنت أسد، وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح، فإن قيل لم قال قرة أعين فنكر وقلل؟ قلنا أما التنكير فلأجل تنكير القرة لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه كأنه قال: هب لنا منهم سرورا وفرحا وإنما قال (أعين) دون عيون لأنه أراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم، قال تعالى: وقليل من عبادي الشكور [سبأ: ١٣] .

المسألة الرابعة: قال الزجاج أقر الله عينك أي صادف فؤادك ما يحبه، وقال المفضل في قرة العين ثلاثة أقوال: أحدها: برد دمعتها وهي التي تكون مع الضحك والسرور ودمعة الحزن حارة والثاني: نومها لأنه يكون مع ذهاب الحزن والوجع والثالث: حضور الرضا.

المسألة الخامسة: قوله: واجعلنا للمتقين إماما الأقرب أنهم سألوا الله تعالى أن يبلغهم في الطاعة المبلغ

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٧٧/٢٤

الذي يشار إليهم ويقتدى بهم، قال بعضهم في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها قال الخليل عليه الصلاة والسلام: واجعل لي لسان صدق في الآخرين [الشعراء: ٨٤] وقيل نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة.

المسألة السادسة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى، قالوا لأن الإمامة في الدين لا تكون إلا بالعلم والعمل، فدل على أن العلم والعمل إنما يكون بجعل الله تعالى وخلقه، وقال القاضي المراد من السؤال الألطاف التي إذا كثرت صاروا مختارين لهذه الأشياء فيصيرون أئمة والجواب: أن تلك الألطاف مفعولة لا محالة فيكون سؤالها عبثا.

المسألة السابعة: قال الفراء: قال (إماما) ، ولم يقل أئمة كما قال للاثنين إني رسول رب العالمين [الزخرف: ٤٦] ويجوز أن يكون المعنى اجعل كل واحد منا إماما كما قال: يخرجكم طفلا [غافر: ٦٧] وقال الأخفش: الإمام جمع واحده آم كصائم وصيام. وقال القفال وعندي أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحد كأنه قيل اجعلنا حجة للمتقين، ومثله البينة يقال هؤلاء بينة فلان.

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٧٥]

أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما (٧٥)

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما عدد صفات المتقين المخلصين بين بعد ذلك أنواع إحسانه إليهم وهي مجموعة في أمرين **المنافع** والتعظيم.

أما **المنافع**: فهي قوله: أولئك يجزون الغرفة بما صبروا.

والمراد أولئك يجزون الغرفات والدليل عليه قوله: وهم في الغرفات آمنون [سبأ: ٣٧] وقال: لهم غرف من فوقها غرف [الزمر: ٢٠] والغرفة في اللغة العلية وكل بناء عال فهو غرفة والمراد به الدرجات العالية. وقال المفسرون الغرفة اسم الجنة، فالمعنى يجزون الجنة وهي جنات كثيرة، وقرأ بعضهم: (أولئك يجزون في الغرفة) وقوله: بما صبروا فيه بحثان:." (١)

"البحث الأول: احتج بالآية من ذهب إلى أن الجنة بالاستحقاق فقال الباء في قوله: بما/ صبروا تدل على ذلك ولو كان حصولها بالوعد لما صدق ذلك.

البحث الثاني: ذكر الصبر ولم يذكر المصبور عنه، ليعم كل نوع فيدخل فيه صبرهم على مشاق التفكر

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/٤٨٧

والاستدلال في معرفة الله تعالى، وعلى مشاق الطاعات، وعلى مشاق ترك الشهوات وعلى مشاق أذى المشركين وعلى مشاق الجهاد والفقر ورياضة النفس فلا وجه لقول من يقول المراد الصبر على الفقر خاصة، لأن هذه الصفات إذا حصلت مع الغنى استحق من يختص بها الجنة كما يستحقه بالفقر.

وثانيها التعظيم: وهو قوله تعالى:

ويلقون فيها تحية وسلاما:

قرئ يلقون كقوله: ولقاهم نضرة وسرورا [الإنسان: ١١] ويلقون كقوله: يلق أثاما [الفرقان: ٦٨] ، والتحية الدعاء بالتعمير والسلام الدعاء بالسلامة، فيرجع حاصل التحية إلى كون نعيم الجنة باقيا غير منقطع، ويرجع السلام إلى كون ذلك النعيم خالصا عن شوائب الضرر، ثم هذه التحية والسلام يمكن أن يكون من الله تعالى لقوله: سلام قولا من رب رحيم [يس: ٥٨] ويمكن أن يكون من الملائكة لقوله: والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم [الرعد: ٢٣، ٢٤] ويمكن أن يكون من بعضهم على بعض. أما قوله:

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٧٦]

خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما (٧٦)

فالمراد أنه سبحانه لما وعد **بالمنافع** أولا وبالتعظيم ثانيا، بين أن من صفتهما الدوام وهو المراد من قوله: خالدين فيها ومن صفتهما الخلوص أيضا وهو المراد من قوله: حسنت مستقرا ومقاما وهذا في مقابلة قوله: ساءت مستقرا ومقاما أي ما أسوأ ذلك وما أحسن هذا. أما قوله:

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٧٧]

قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما (٧٧)

فاعلم أنه سبحانه لما شرح صفات المتقين، وشرح حال ثوابهم أمر رسوله أن يقول: قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم فدل بذلك على أنه تعالى غني عن عبادتهم، وأنه تعالى إنما كلفهم لينتفعوا بطاعتهم وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الخليل ما أعبأ بفلان أي ما أصنع به كأنه (يستقله) «١» ويستحقره، وقال أبو عبيدة ما أعبأ به أي وجوده وعدمه عندي سواء، وقال الزجاج معناه أي لا وزن لكم عند ربكم، والعبء في اللغة الثقل، وقال أبو عمرو بن العلاء ما يبالي بكم ربي.

المسألة الثانية: في (ما) قولان أحدهما أنها متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر، كأنه قيل وأي عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم، والثاني أن تكون ما نافية.

---

(١) أحسبها: يستثقله لأن العبء الثقل كما سيذكر المصنف.." [(١)]

"أنه قادر على أن ينزل آية يذلون عندها ويخضعون، فإن قيل: كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الأعناق؟

قلنا أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين، فذكرت الأعناق لبيان موضع الخضوع، ثم ترك الكلام على أصله، ولما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء، قيل خاضعين كقوله: لي ساجدين [يوسف: ٤] ، وقيل أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما يقال هم الرؤوس والصدور، وقيل هم جماعات الناس، يقال جاءنا عنق من الناس لفوج منهم.

المسألة الرابعة: نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الكهف [٦] : فلعلك باخع نفسك وقوله: فلا تذهب نفسك عليهم حسرات [فاطر: ٨] .

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٥ الى ٩]

وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين (٥) فقد كذبوا فسيأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزؤن (٦) أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم (٧) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (٨) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (٩)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين من تمام قوله: إن نشأ ننزل عليهم [الشعراء: ٤] فنبه تعالى على أنه مع قدرته على أن يجعلهم مؤمنين بالإلجاء رحيم بهم من حيث يأتيهم حالا بعد حال بالقرآن، وهو الذكر ويكرره عليهم وهم مع ذلك على حد واحد في الإعراض والتكذيب والاستهزاء، ثم عند ذلك زجر وتوعد لأن المرء إذا استمر على كفره فليس ينفع فيه إلا الزجر الشديد فلذلك قال: فقد كذبوا أي بلغوا النهاية/ في رد آيات الله تعالى فسيأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزؤن وذلك إما عند نزول العذاب عليهم في الدنيا أو عند المعاينة أو في الآخرة، فهو كقوله تعالى: ولتعلمن نبأه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٨٨/٢٤

بعد حين [ص: ٨٨] وقد جرت العادة فيمن يسيء أن يقال له سترى حالك من بعد على وجه الوعيد، ثم إنه تعالى بين أنه مع إنزاله القرآن حالا بعد حال قد أظهر أدلة تحدث حالا بعد حال فقال: أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم والزوج هو الصنف [من النبات] «١» والكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد في بابه، يقال وجه كريم إذا كان مرضيا في حسنه وجماله. وكتاب كريم إذا كان مرضيا في فوائده ومعانيه، والنبات الكريم هو المرضي فيما يتعلق به من **المنافع**، وفي وصف الزوج بالكريم وجهان: أحدهما: أن النبات على نوعين نافع وضار، فذكر سبحانه كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع وترك ذكر الضار والثاني: أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعا بالكرم، ونبه على أنه ما أنبت شيئا إلا وفيه فائدة إن غفل عنها الغافلون.

أما قوله: إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين فهو كقوله: هدى للمتقين [البقرة: ٢] والمعنى أن في ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر وما كان أكثرهم مؤمنين أي مع كل ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم، فأما

---

(١) زيادة من الكشاف ٣/ ١٠٥ ط. دار الفكر.." [(١)]

"وكان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول لتاجر الرقيق ما مالك؟ وأنت تعلم أن ماله الرقيق، ثم تقول: الرقيق جمال وليس بمال. فأجابوا إبراهيم عليه السلام بقولهم: نعبد أصناما فنظل لها عاكفين والعكوف: الإقامة على الشيء، وإنما قالوا:

فنظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، واعلم أنه كان يكفيهم في الجواب أن يقولوا نعبد أصناما، ولكنهم ضموا إليه زيادة على الجواب وهي قولهم: فنظل لها عاكفين وإنما ذكروا هذه الزيادة إظهارا لما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار بعبادة الأصنام فقال إبراهيم عليه السلام منبها على فساد مذهبهم هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قال صاحب «الكشاف» : لا بد في يسمعونكم من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة هل يسمعونكم أي هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك وتقرير هذه الحجة التي ذكرها إبراهيم عليه السلام أن الغالب من حال من يعبد غيره أن يلتجئ إليه في المسألة ليعرف مراده إذا سمع دعاءه ثم يستجيب له في بذل منفعة أو دفع مضرة، فقال لهم فإذا كان من تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم، ولو عرف ذلك لما صح

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/٤٩١

أن يبذل النفع أو يدفع الضرر فكيف تستجيزون أن تعبدوا ما هذا وصفه؟ فعند هذه الحجة القاهرة لم يجد أبوه وقومه ما يدفعون به هذه الحجة فعدلوا إلى أن قالوا: وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال، إذ لو قلبنا الأمر فمدحنا التقليد وذممنا الاستدلال لكان ذلك مدحا لطريقة الكفار التي ذمها الله تعالى وذما لطريقة إبراهيم عليه السلام التي مدحها الله تعالى فأجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون أراد به أن الباطل لا يتغير بأن يكون قديما أو حديثا، ولا بأن يكون في فاعليه كثرة أو قلة.

أما قوله: فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ففيه أسئلة:

السؤال الأول: كيف يكون الصنم عدوا مع أنه جماد؟ جوابه من وجهين: «١» أحدهما: أنه تعالى قال في سورة مريم [٨٢] في صفة الأوثان كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا فقيل في تفسيره إن الله يحيي ما عبدوه من الأصنام حتى يقع منهم التوبيخ لهم والبراءة منهم، فعلى هذا الوجه أن الأوثان ستصير أعداء لهؤلاء الكفار في الآخرة فأطلق إبراهيم عليه السلام لفظ العداوة عليهم على هذا التأويل وثانيها: أن الكفار لما عبدوها وعظموها ورجوها في طلب/ **المنافع** ودفع المضار نزلت منزلة الأحياء العقلاء في اعتقاد الكفار، ثم إنها صارت أسبابا لانقطاع الإنسان عن السعادة ووصوله إلى الشقاوة، فلما نزلت هذه الأصنام منزلة الأحياء وجرت مجرى الدافع للمنفعة والجالب للمضرة لا جرم جرت مجرى الأعداء، فلا جرم أطلق إبراهيم عليه السلام عليها لفظ العدو وثالثها: المراد في قوله: فإنهم عدو لي عداوة من يعبدها، فإن قيل فلم لم يقل إن من يعبد الأصنام عدو لي ليكون الكلام حقيقة؟ جوابه: لأن الذي تقدم ذكره ما عبدوه دون العابدين.

السؤال الثاني: لم قال: فإنهم عدو لي ولم يقل فإنها عدو لكم؟ جوابه: أنه عليه السلام صور المسألة في نفسه على معنى إني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها، [وآثرت عبادة من الخير كله

---

(١) الصواب أن يقال: من وجوه لا من وجهين، لأن الوجوه التي ذكرها ثلاثة.." (١)

"منه] وأراهم [بذلك] «١» أنها نصيحة نصح بها نفسه، فإذا تفكروا قالوا ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، فيكون ذلك أدعى للقبول.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥١٠/٢٤

السؤال الثالث: لم لم يقل فإنهم أعدائي؟ جوابه العدو والصديق يجيئان في معنى الواحد والجماعة، قال:

وقوم علي ذوي (مرة) «٢» ... أراهم عدوا وكانوا صديقا

ومنه قوله تعالى: وهم لكم عدو [الكهف: ٥٠] وتحقيق القول فيه ما تقدم في قوله: نا رسول رب العالمين [الشعراء: ١٦] .

السؤال الرابع: ما هذا الاستثناء؟ جوابه أنه استثناء منقطع كأنه قال لكن رب العالمين.

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٧٨ الى ٨٢]

الذي خلقني فهو يهدين (٧٨) والذي هو يطعمني ويسقين (٧٩) وإذا مرضت فهو يشفين (٨٠) والذي يميتني ثم يحيين (٨١) والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (٨٢)

اعلم أنه تعالى لما حكى عنه أنه استثنى رب العالمين، حكى عنه أيضا ما وصفه به مما يستحق العبادة لأجله، ثم حكى عنه ما سأله عنه، أما الأوصاف فأربعة: أولها: قوله: الذي خلقني فهو يهدين.

واعلم أنه سبحانه أثنى على نفسه بهذين الأمرين في قوله: الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى [الأعلى: ٢، ٣] واعلم أن الخلق والهداية مهما يحصل جميع **المنافع** لكل من يصح الانتفاع عليه، فلنتكلم في الإنسان فنقول إنه مخلوق، فمنهم من قال «٣» هو من عالم الخلق والجسمانيات، ومن قال «٤» هو من عالم الأمر والروحانيات، وتركيب البدن الذي هو من عالم الخلق مقدم على إعطاء القلب الذي هو من عالم/ الأمر على ما أخبر عنه سبحانه في قوله: فإذا سويته ونفخت فيه من روحي [ص: ٧٢] فالتسوية إشارة إلى تعديل المزاج وتركيب الأمشاج، ونفخ الروح إشارة إلى اللطيفة الربانية النورانية التي هي من عالم الأمر، وأيضا قال: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين [المؤمنون: ١٢] ولما تمم مراتب تغيرات الأجسام قال: ثم أنشأناه خلقا آخر [المؤمنون: ١٤] وذلك إشارة إلى الروح الذي هو من عالم الملائكة، ولا شك أن الهداية إنما تحصل من الروح، فقد ظهر بهذه الآيات أن الخلق مقدم على الهداية.

أما تحقيقه بحسب المباحث الحقيقية، فهو أن بدن الإنسان إنما يتولد عند امتزاج المني بدم الطمث،

---

(١) زيادة من الكشاف ٣/ ١١٦ ط. دار الفكر.

(٢) في الكشاف (مئرة) .

(٣) في الأصل (فمنهم من قالب) .

(٤) في الأصل (من قلب) .." [١]

"وهما إنما يتولدان من الأغذية المتولدة من تركب العناصر الأربعة وتفاعلها، فإذا امتزج المني بالدم فلا يزال ما فيها من الحار والبارد والرطب واليابس متفاعلا، وما في كل واحد منها من القوى كاسرا سورة كيفية الآخر، فحينئذ يحصل من تفاعلهما كيفية متوسطة تستحر بالقياس إلى البارد وتستبرد بالقياس إلى الحار، وكذا القول في الرطب واليابس، وحينئذ يحصل الاستعداد لقبول قوى مدبرة لذلك المركب فبعضها قوى نباتية وهي التي تجذب الغذاء، ثم تمسكه ثم تهضمه ثم تدفع الفضلة المؤذية، ثم تقيم تلك الأجزاء بدل ما تحلل منها، ثم تزيد في جوهر الأعضاء طولا وعرضا، ثم يفضل عن تلك المواد فضلة يمكن أن يتولد عنها مثل ذلك، ومنها قوى حيوانية بعضها مدركة كالحواس الخمس والخيال والحفظ والذكر، وبعضها فاعلة: إما آمرة كالشهوة والغضب أو مأمورة كالقوى المركوزة في العضلات، ومنها قوى إنسانية وهي إما مدركة أو عامرة، والقوى المدركة هي القوى القوية على إدراك حقائق الأشياء الروحانية والجسمانية والعلوية والسفلية، ثم إنك إذا فتشت عن كل واحدة من مركبات هذا العالم الجسماني، ومفرداتها وجدت لها أشياء تلائمها وتكمل حالها وأشياء تنافرها وتفسد حالها، ووجدت فيها قوى جذابة للملائم دفاعة للمنافي، فقد ظهر أن صلاح الحال في هذه الأشياء لا يتم إلا بالخلق والهداية. أما الخلق فبتصييره موجودا بعد أن كان معدوما، وأما الهداية فبتلك القوى الجذابة للمنافع والدفاعة للمضار فثبت أن قوله: خلقني فهو يهدين كلمة جامعة حاوية لجميع المنافع في الدنيا والدين، ثم هاهنا دقيقة وهو أنه قال: خلقني فذكره بلفظ الماضي وقال: يهدين ذكره بلفظ المستقبل، والسبب في ذلك أن خلق الذات لا يتجدد في الدنيا، بل لما وقع بقي إلى الأمد المعلوم. أما هدايته تعالى فهي مما يتكرر كل حين وأوان سواء كان ذلك هداية في المنافع الدنيوية. وذلك بأن تحكم الحواس بتمييز المنافع عن المضار أو في المنافع الدينية وذلك بأن يحكم العقل بتمييز الحق عن الباطل والخير عن الشر، فبين بذلك أنه سبحانه هو الذي خلقه بسائر ما تكامل به خلقه في الماضي دفعة واحدة، وأنه يهديه إلى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولمحة وثانيها: قوله: والذي هو يطعمني ويسقين وقد دخل فيه كل ما يتصل بمنافع الرزق، وذلك لأنه سبحانه إذا خلق له الطعام وملكه، فلو لم يكن معه ما يتمكن به من أكله والاغتذاء به نحو الشهوة والقوة/ والتمييز لم تكمل هذه النعمة، وذكر الطعام والشراب ونبه بذكرهما على ما عداهما وثالثها: قوله: وإذا مرضت فهو

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥١١/٢٤

يشفين وفيه سؤال وهو أنه لم قال: مرضت دون أمرضني؟

وجوابه من وجوه: الأول: أن كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك، ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى ما سبب آجالكم؟ لقالوا التخم الثاني: أن المرض إنما يحدث باستيلاء بعض الأخلاط على بعض، وذلك الاستيلاء إنما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعي. أما الصحة فهي إنما تحصل عند بقاء الأخلاط على اعتدالها وبقاؤها على اعتدالها، إنما يكون بسبب قاهر يقهرها على الاجتماع، وعودها إلى الصحة إنما يكون أيضا بسبب قاهر يقهرها على العود إلى الاجتماع والاعتدال بعد أن كانت بطباعها مشتاقة إلى التفرق والنزاع، فلهذا السبب أضاف الشفاء إليه سبحانه وتعالى، وما أضاف المرض إليه وثالثها: وهو أن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم، والمرض مكروه وليس من النعم، وكان مقصود إبراهيم عليه السلام تعديد النعم، ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه إليه تعالى، فإن نقضته بالإماتة فجوابه: أن الموت ليس بضرر، لأن شرط كونه ضررا وقوع الإحساس به، وحال حصول الموت لا يقع الإحساس به، إنما الضرر في مقدماته وذلك هو عين المرض، وأيضا فلأنك قد عرفت أن الأرواح إذا كملت في." (١)

"للتصديقات النظرية لم تكن التصديقات النظرية كسبية، لأن لازم الضروري ضروري، وإن لم تكن مستلزمة لها لم تكن تلك الأشياء التي فرضناها علوما نظرية كذلك بل هي اعتقادات تقليدية، لأنه لا معنى لاعتقاد المقلد إلا اعتقاد تحسيني يفعله ابتداء من غير أن يكون له موجب فثبت هذا أن العلوم بأسرها ضرورية، وثبت أن مبادئ الأفعال هي العلوم فأفعال العباد بأسرها ضرورية، والإنسان مضطر في صورة مختار، فثبت أن الله تعالى هو الذي زين لكل عامل عمله. والمراد من التزيين هو أنه يخلق في قلبه العلم بما فيه من **المنافع** واللذات ولا يخلق في قلبه العلم بما فيه من المضار والآفات، فقد ثبت بهذه الدلائل القاطعة العقلية وجوب إجراء هذه الآية على ظاهرها، أما المعتزلة فإنهم ذكروا في تأويلها وجوها: أحدها: أن المراد بينا لهم أمر الدين وما يلزمهم أن يتمسكوا به وزيناه بأن بينا حسنه وما لهم فيه من الثواب، لأن التزيين من الله تعالى للعمل ليس إلا وصفه بأنه حسن وواجب وحميد العاقبة، وهو المراد من قوله: حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم [الحجرات: ٧] ومعنى فهم يعمهون يدل على ذلك لأن المراد فهم يعدلون وينحرفون عما زينا من أعمالهم وثانيها: أنه تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق جعلوا إنعام الله تعالى بذلك عليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وعدم الانقياد لما يلزمهم من التكاليف، فكأنه تعالى زين بذلك أعمالهم وإليه إشارة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/٥١٢

الملائكة عليهم السلام في قولهم:

ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر [الفرقان: ١٨] وثالثها: أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة/ للتزيين فأسند إليه والجواب: عن الأول أن قوله تعالى: أعمالهم صيغة حتى عموم توجب أن يكون الله تعالى قد زين لهم كل أعمالهم حسنا كان العمل أو قبيحا ومعنى التزيين قد قدمناه، وعن الثاني أن الله تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق فهل لهذه الأمور أثر في ترجيح فاعلية المعصية على تركها أو ليس لها فيه أثر، فإن كان الأول فقد دللنا على أن الترجيح متى حصل فلا بد وأن ينتهي إلى حد الاستلزام وحينئذ يحصل الغرض وإن لم يكن فيه أثر صارت هذه الأشياء بالنسبة إلى أعمالهم كصرير الباب ونعيق الغراب، وذلك يمنع من إسناد فعلهم إليها وهذا بعينه هو الجواب عن التأويل الثالث الذي ذكروه والله أعلم.

أما قوله تعالى: فهم يعمهون فالعمه التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق.

أما قوله: أولئك الذين لهم سوء العذاب ففيه وجهان: الأول: أنه القتل والأسر يوم بدر والثاني: مطلق العذاب سواء كان في الدنيا أو في الآخرة والمراد بالسوء شدته وعظمه.

وأما قوله: هم الأخسرون ففيه وجهان: الأول: أنه لا خسران أعظم من أن يخسر المرء نفسه بأن يسلب عنه الصحة والسلامة في الدنيا ويسلم في الآخرة إلى العذاب العظيم الثاني: المراد أنهم خسروا منازلهم في الجنة لو أطاعوا، فإنه لا مكلف إلا وعين له منزل في الجنة لو أطاع فإذا عصى عدل به إلى غيره فيكون قد خسر ذلك المنزل.

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٦ الى ٩]

وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم (٦) إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون (٧) فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين (٨) يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم (٩)." [١]

"إخراج الخبء عالمة بالخفيات، فإذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار، فرجع حاصل الدلالة إلى ما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله: لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا

[مريم: ٤٢] وفي قوله: لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض وجه آخر وهو أن هذا إشارة إلى ما

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٤٢/٢٤

استدل به إبراهيم عليه السلام في قوله: ربي الذي يحيي ويميت [البقرة: ٢٥٨] وفي قوله: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب [البقرة: ٢٥٨] وذلك لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الشمس من المشرق بعد أفولها في المغرب فهذا هو إخراج الخبء في السموات وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام: لا أحب الآفلين [الأنعام: ٧٦] ومن قوله: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ومن قوله موسى عليه السلام: رب المشرق والمغرب [الشعراء: ٢٨] وحاصله يرجع إلى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر فكانت العبادة لقاهرها والمتصرف فيها أولى، وأما إخراج الخبء من الأرض فهو يتناول إخراج النطفة من الصلب والترائب وتكوين الجنين منه، فإن قيل إن إبراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلالة الأنفس على دلالة الآفاق فإن إبراهيم قال: ربي الذي يحيي ويميت ثم قال: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق وموسى عليه السلام قال: ربكم ورب آبائكم/ الأولين [الشعراء: ٢٦] ثم قال: رب المشرق والمغرب فلم كان الأمر هاهنا بالعكس فقدم خبء السموات على خبء الأرض؟ جوابه: أن إبراهيم وموسى عليهما السلام ناظرا مع من ادعى إلهية البشر، فلا جرم ابتدأ بإبطال إلهية البشر ثم انتقلا إلى إبطال إلهية السموات، وهاهنا المناظرة مع من ادعى إلهية الشمس لقوله: وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فلا جرم ابتدأ بذكر السماويات ثم بالأرضيات.

أما قوله: الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم فالمراد منه أنه سبحانه لما بين افتقار السموات والأرض وما بينهما إلى المدبر ذكر بعد ذلك أن ما هو أعظم الأجسام فهي مخلوقة ومربوبة وذلك يدل على أنه سبحانه هو المنتهى في القدرة والربوبية إلى ما لا يزيد عليه والله أعلم.

المسألة الرابعة: قيل من أحطت إلى عظيم كلام الهدهد وقيل كلام رب العزة.

المسألة الخامسة: الحق أن سجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعا وهو قول الشافعي وأبي حنيفة رحمة الله عليهما لأنهم أجمعوا على أن سجدات القرآن أربع عشرة سجدة، وهذا واحد منها ولأن مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود والأخرى ذم للتارك فثبت أن الذي ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد غير ملتفت إليه.

المسألة السادسة: يقال هل يفرق الواقف بين القراءتين؟ جوابه: نعم إذا خفف وقف على فهم لا يهتدون [النمل: ٤٢] ثم ابتدأ بألا يسجدوا وإن شاء وقف على ألا يا ثم ابتدأ اسجدوا وإذا شدد لم يقف إلا على (العرش العظيم) .

أما قوله: سننظر فمن النظر الذي هو التأمل، وأراد صدقت أم كذبت إلا أن أم كنت من الكاذبين أبلغ، لأنه

إذا كان معروفا بالكذب كان متهما بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به، وإنما قال: فألقه إليهم على لفظ الجمع لأنه قال: وجدتها وقومها يسجدون للشمس [النمل: ٢٤] فقال: فألقه إليهم أي إلى الذين هذا دينهم.." (١)

"واعلم أنه تعالى ذكر من منافع الأرض أمورا أربعة:

المنفعة الأولى: كونها قرارا وذلك لوجوه: الأول: أنه دحاها وسواها للاستقرار الثاني: أنه تعالى جعلها متوسطة في الصلابة والرخاوة فليست في الصلابة كالحجر الذي يتألم الإنسان بالاضطجاع عليه وليست في الرخاوة كالماء الذي يغوص فيه الثالث: أنه تعالى جعلها كثيفة/ غبراء ليستقر عليها النور، ولو كانت لطيفة لما استقر النور عليها، ولو لم يستقر النور عليها لصارت من شدة بردها بحيث تموت الحيوانات الرابع: أنه سبحانه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكل بحيث تبعد تارة وتقرب أخرى من سمت الرأس، ولولا ذلك لما اختلفت الفصول، ولما حصلت المنافع الخامس: أنه سبحانه وتعالى جعلها ساكنة فإنها لو كانت متحركة لكانت إما متحركة على الاستقامة أو على الاستدارة، وعلى التقديرين لا يحصل الانتفاع بالسكنى على الأرض السادس: أنه سبحانه جعلها كفات، للأحياء والأموات وأنه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح.

المنفعة الثانية الأرض: قوله: وجعل خلالها أنهارا فاعلم أن أقسام المياه المنبعثة عن الأرض أربعة:

الأول: ماء العيون السيالة وهي تنبعث من أبخرة كثيرة المادة قوية الاندفاع تفجر الأرض بقوة، ثم لا يزال يستتبع جزء منها جزءا الثاني: ماء العيون الراكدة وهي تحدث من أبخرة بلغت من قوتها أن اندفعت إلى وجه الأرض ولم تبلغ من قوتها وكثرة مادتها أن يطرد تاليها سابقها الثالث: مياه القني والأنهار وهي متولدة من أبخرة ناقصة القوة عن أن تشق الأرض، فإذا أزيل عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الأبخرة منفذا تندفع إليه بأدنى حركة الرابع: مياه الآبار وهي نبعية كمياه الأنهار إلا أنه لم يجعل له سيل إلى موضع يسيل إليه ونسبة القنى إلى الآبار نسبة العيون السيالة إلى العيون الراكدة فقد ظهر أنه لولا صلابة الأرض لما اجتمعت تلك الأبخرة في باطنها إذ لولا اجتماعها في باطنها لما حدثت هذه العيون في ظاهرها.

المنفعة الثالثة للأرض: قوله: وجعل لها رواسي والمراد منها الجبال، فنقول أكثر العيون والسحب والمعدنيات إنما تكون في الجبال أو فيما يقرب منها، أما العيون فلأن الأرض إذا كانت رخوة نشفت الأبخرة عنها فلا يجتمع منها قدر يعتد به، فإذن هذه الأبخرة لا تجتمع إلا في الأرض الصلبة والجبال أصلب الأرض، فلا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٥٣/٢٤

جرم كانت أقواها على حبس هذا البخار حتى يجتمع ما يصلح أن يكون مادة للعيون ويشبه أن يكون مستقر الجبل مملوءا ماء، ويكون الجبل في حقنه الأبخرة مثل الأنبيق الصلب المعد للتقطير لا يدع شيئا من البخار يتحلل ونفس الأرض التي تحته كالقرعة والعيون كالأذناب والبخار كالقوابل، ولذلك فإن أكثر العيون إنما تنفجر من الجبال وأقلها في البراري، وذلك الأقل لا يكون إلا إذا كانت الأرض صلبة، وأما أن أكثر السحب تكون في الجبال فلوجوه ثلاثة: أحدها: أن في باطن الجبال من النداوات مالا يكون في باطن الأرضين الرخوة وثانيها: إن الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الأنداء ومن الثلوج ما لا يبقى على ظهر سائر الأرضين وثالثها: أن الأبخرة الصاعدة تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتحلل، وإذا ثبت ذلك ظهر أن أسباب كثرة السحب في الجبال أكثر لأن المادة فيها ظاهرا وباطنا أكثر، والاحتقان أشد والسبب المحلل وهو الحر أقل، فلذلك كانت السحب في الجبال أكثر. وأما المعدنيات المحتاجة إلى أبخرة يكون اختلاطها بالأرضية أكثر/ وإلى بقاء مدة طويلة يتم النضج فيها فلا شيء لها في هذا المعنى كالجبال.

المنفعة الرابعة للأرض: قوله: وجعل بين البحرين حاجزا فالمقصود منه أن لا يفسد العذب." (١)

"بالاختلاط، وأيضا فلينتفع بذلك الحاجز، وأيضا المؤمن في قلبه بحران بحر الإيمان والحكمة وبحر الطغيان والشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزا لكي لا يفسد أحدهما بالآخر، وقال بعض الحكماء في قوله: مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان [الرحمن: ١٩، ٢٠] قال عند عدم البغي يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان [الرحمن: ٢٢] فعند عدم البغي في القلب يخرج الدين والإيمان بالشكر، فإن قيل ولم جعل البحر ملحا؟ قلنا لولا ملوحته لأجن «١» وانتشر فساد أجونته في الأرض وأحدث الوباء العام، واعلم أن اختصاص البحر بجانب من الأرض دون جانب أمر غير واجب بل الحق أن البحر ينتقل في مدد لا تضبطها التواريخ المنقولة من قرن إلى قرن لأن استمداد البحر في الأكثر من الأنهار، والأنهار تستمد في الأكثر من العيون، وأما مياه السماء فإن حدوثها في فصل بعينه دون فصل، ثم لا العيون ولا مياه السماء يجب أن تتشابه أحواله، في بقاع واحدة بأعيانها تشابها مستمرا فإن كثيرا من العيون يغور، وكثيرا ما تقحط السماء فلا بد حينئذ من نضوب الأودية والأنهار فيعرض بسبب ذلك نضوب البحار، وإذا حدثت العيون من جانب آخر حدثت الأنهار هناك فحصلت البحار من ذلك الجانب، ثم إنه سبحانه لما بين أنه هو المختص بالقدرة على خلق الأرض التي فيها هذه **المنافع** الجليلة وجب أن يكون هو المختص بالإلهية،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/٥٦٤

ونبه بقوله تعالى: بل أكثرهم لا يعقلون على عظيم جهلهم بالذهاب عن هذا التفكر.

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦٢]

أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون (٦٢)

النوع الثالث- ما يتعلق باحتياج الخلق إليه سبحانه اعلم أنه سبحانه نبه في هذه الآية على أمرين: أحدهما: قوله: أمن يجيب المضطر إذا دعاه قال صاحب «الكشاف» : الضرورة الحالة المحوجة إلى الالتجاء والاضطرار افتعال منها: يقال اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول مضطر، واعلم أن المضطر هو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى التضرع إلى الله تعالى، وعن السدي: الذي لا حول له ولا قوة، وقيل المذنب إذا استغفر، فإن قيل قد عم المضطرين بقوله: أمن يجيب المضطر إذا دعاه وكم من مضطر يدعو فلا يجاب؟ جوابه: قد بينا في أصول الفقه أن المفرد المعرف لا يفيد/ العموم وإنما يفيد الماهية فقط، والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقه ثبوته في فرد واحد من أفراد الماهية، وأيضا فإنه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال وتمام القول في شرائط الدعاء والإجابة مذكور في قوله تعالى: وقال ربكم ادعوني أستجب لكم [غافر: ٦٠] فأما قوله تعالى: ويكشف السوء فهو كالتفسير للاستجابة، فإنه لا يقدر أحد على كشف ما دفع إليه من فقر إلى غنى ومرض إلى صحة وضيق إلى سعة إلا القادر الذي لا يعجز والقاهر الذي لا ينازع وثانيهما: قوله:

ويجعلكم خلفاء الأرض فالمراد توارثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن وأراد بالخلافة الملك والتسلط، وقرئ يذكرون بالياء مع الإدغام وبالتاء مع الإدغام وبالحذف وما مزيدة أي يذكرون تذكرا قليلا، والمعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي.

---

(١) أجن الماء: صار آجنا أي تغير لونه أو طعمه أو ريحه وفسد. [.....]." [(١)]

"فذلك الواضع هو الذي فعل تلك **المنافع**، فعلى جميع الأحوال لا بد من شهادة هذه الأمور على مدبر حكيم واجب لذاته، قطعا لسلسلة الحاجات.

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦٤]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٦٥/٢٤

أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (٦٤)

النوع الخامس- ما يتعلق بالحشر والنشر اعلم أنه تعالى لما عدد نعم الدنيا أتبع ذلك بنعم الآخرة بقوله: أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده لأن نعم الآخرة بالثواب لا تتم إلا بالإعادة بعد الابتداء والإبلاغ إلى حد التكليف فقد تضمن الكلام كل هذه النعم، ومعلوم أنها لا تتم إلا بالأرزاق فلذلك قال: ومن يرزقكم من السماء والأرض، ثم قال: أإله مع الله منكرا لما هم عليه، ثم بين بقوله: قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين أن لا برهان لكم فإذن هم مبطلون، وهذا يدل على أنه لا بد في الدعوى من/ وعلى فساد التقليد، فإن قيل كيف قيل لهم: أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده وهم منكرون للإعادة؟ جوابه: كانوا معترفين بالابتداء، ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة ظاهرة قوية، فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر في الإنكار، وهاهنا آخر الدلائل المذكورة على كمال قدرة الله تعالى.

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٦٥ الى ٦٦]

قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون (٦٥) بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون (٦٦)

اعلم أنه تعالى لما بين أنه المختص بالقدرة فكذلك بين أنه هو المختص بعلم الغيب، وإذا ثبت ذلك ثبت أنه هو الإله المعبود، لأن الإله هو الذي يصح منه مجازاة من يستحق الثواب على وجه لا يلتبس بأهل العقاب، فإن قيل الاستثناء حكمه إخراج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت المستثنى منه ودلت الآية هاهنا على استثناء الله سبحانه وتعالى عمن في السموات والأرض فوجب كونه ممن في السموات والأرض وذلك يوجب كونه تعالى في المكان والجواب: هذه الآية متروكة الظاهر لأن من قال إنه تعالى في المكان زعم أنه فوق السموات، ومن قال إنه ليس في مكان فقد نزهه عن كل الأمكنة، فثبت بالإجماع أنه تعالى ليس في السموات والأرض فإذن وجب تأويله فنقول إنه تعالى ممن في السموات والأرض كما يقول المتكلمون: الله تعالى في كل مكان على معنى أن علمه في الأماكن كلها، لا يقال إن كونه في السموات والأرض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وإرادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازا غير جائزة، لأنا نقول كونهم في السموات والأرض، كما أنه حاصل حقيقة وهو حصول ذواتهم في الأحياز فكذلك حاصل مجازا، وهو كونهم عالمين بتلك الأمكنة فإذا حملنا هذه الغيبة على المعنى المجازي وهو الكون فيها بمعنى العلم دخل الرب سبحانه وتعالى والعبيد فيه فصح الاستثناء.

أما قوله: وما يشعرون فهو صفة لأهل السموات والأرض نفى أن يكون لهم علم الغيب وذكر في جملة الغيب متى البعث بقوله: أيان يبعثون فأيان بمعنى متى وهي كلمة مركبة من أي والآن وهو الوقت وقرئ إيان بكسر الهمزة.." (١)

"وأما قوله: ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فاعلم أن هذا من الأمور الواقعة بعد قيام القيامة، فالفرق بين من الأولى والثانية، أن الأولى للتبعيض، والثانية للتبيين كقوله: من الأوثان [الحج: ٣٠].

أما قوله: فهم يوزعون معناه يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار، وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه، كما وصفت جنود سليمان بذلك وقوله: حتى إذا جاؤ قال أكذبتم بآياتي فهذا وإن احتمل معجزات الرسل كما قاله بعضهم، فالمراد كل الآيات فيدخل فيه سائر الكفار الذين كذبوا بآيات الله أجمع أو بشيء منها.

أما قوله: ولم تحيطوا بها علما فالواو للحال كأنه قال أكذبتم بها، بادي الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها.

أما قوله: أما ذا كنتم تعملون فالمراد لما لم تشتغلوا بذلك العمل المهم، فأي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك؟! كأنه قال كل عمل سواه فكأنه ليس بعمل، ثم قال: ووقع القول عليهم يريد أن/ العذاب الموعود يغشاهم بسبب تكذيبهم بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله: هذا يوم لا ينطقون [المرسلات: ٣٥] ثم إنه سبحانه بعد أن خوفهم بأحوال القيامة ذكر كلاما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان والمنع من الكفر فقال: ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا أما وجه دلالته على التوحيد فلما ظهر في العقول أن التقليب من النور إلى الظلمة، ومن الظلمة إلى النور، لا يحصل إلا بقدرة قاهرة عالية. وأما وجه دلالته على الحشر فلأنه لما ثبتت قدرته تعالى في هذه الصورة على القلب من النور إلى الظلمة وبالعكس، فأي امتناع في ثبوت قدرته على القلب من الحياة إلى الموت مرة، ومن الموت إلى الحياة أخرى. وأما وجه دلالته على النبوة فلأنه تعالى يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين، وفي بعثة الأنبياء والرسل إلى الخلق منافع عظيمة، فما المانع من بعثتهم إلى الخلق لأجل تحصيل تلك **المنافع**؟ فقد ثبت أن هذه الكلمة الواحدة كافية في إقامة الدلالة على تصحيح الأصول الثلاثة التي منها منشؤ كفرهم واستحقاقهم العذاب، ثم في الآية سؤالان:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/٥٦٧

السؤال الأول: ما السبب في أن جعل الإبصار للنهار وهو لأهله؟ جوابه: تنبيها على كمال هذه الصفة فيه.
السؤال الثاني: لما قال: جعل لكم الليل لتسكنوا فيه فلم لم يقل والنهار لتبصروا فيه؟ جوابه: لأن السكون في الليل هو المقصود من الليل، وأما الإبصار في النهار فليس هو المقصود بل هو وسيلة إلى جلب **المنافع** الدينية والدنيوية.

وأما قوله: إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون خص المؤمنين بالذكر، وإن كانت أدلة للكل من حيث اختصوا بالقبول والانتفاع على ما تقدم في نظائره.

[سورة النمل (٢٧) : آية ٨٧]

ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين (٨٧)
اعلم أن هذا هو العلامة الثانية لقيام القيامة.." (١)

"أما قوله: فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات فقد بينا في سورة طه أنه كيف أطلق لفظ الآيات وهو جمع على العصا واليد.

أما قوله: قالوا ما هذا إلا سحر مفترى فقد اختلفوا في مفترى، فقال بعضهم المراد أنه إذا كان سحرا وفاعله يوهم خلافه فهو المفترى، وقال الجبائي المراد أنه منسوب إلى الله تعالى وهو من قبله فكأنهم قالوا هو كذب من هذا الوجه ثم ضموا إليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم: وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين أي ما حدثنا بكونه فيهم، ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك وقد سمعوا مثله، أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته، أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى عليه السلام ومجيئه بما جاء به.

واعلم أن هذه الشبهة ساقطة لأن حاصلها يرجع إلى التقليد ولأن حال الأولين لا يخلو من وجهين، إما أن لا يورد عليهم بمثل هذه الحجة فحينئذ الفرق ظاهر أو أورد عليهم فدفعوه فحينئذ/ لا يجوز جعل جهلهم وخطئهم حجة، فعند ذلك قال موسى عليه السلام وقد عرف منهم العناد ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار فإن من أظهر الحجة ولم يجد من الخصم اعتراضا عليها وإنما لما وجد منه العناد صح أن يقول ربي أعلم بمن معه الهدى والحجة منا جميعا ومن هو على الباطل ويضم إليه طريق الوعيد والتخويف وهو قوله: ومن تكون له عاقبة الدار من ثواب على تمسكه بالحق أو من عقاب وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى: أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن [الرعد: ٢٢، ٢٣]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٧٣/٢٤

وقوله:

وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار [الرعد: ٤٢] والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها وعقباها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقي الملائكة بالبشرى عند الموت فإن قيل العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار، لأن الدنيا قد تكون خاتمتها بخير في حق البعض وبشر في حق البعض الآخر، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ قلنا إنه قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازا إلى الآخرة وأمر عباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير ليبلغوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق، فمن عمل فيها خلاف ما وضعها الله له فقد حرف، فإذن عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير، وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لأنها من نتائج تحريف الفجار، ثم إنه عليه السلام أكد ذلك بقوله: إنه لا يفلح الظالمون والمراد أنهم لا يظفرون بالفوز والنجاة **والمنافع** بل يحصلون على ضد ذلك وهذا نهاية في زجرهم عن العناد الذي ظهر منهم.

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٣٨ الى ٤٣]

وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين (٣٨) واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين (٤٠) وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون (٤١) وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين (٤٢)

ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون (٤٣)." [(١)]

"بقوله: وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فإن بعضهم قد آمن وبعضهم علم الله منهم أنهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله أنهم وإن لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يكون مؤمنا.

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٠ الى ٦١]

وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون (٦٠) أفمن وعدناه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٩٨/٢٤

وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين (٦١)

اعلم أن هذا هو الجواب الثالث عن تلك الشبهة لأن حاصل شبهتهم أن قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى، أما أنه خير فلوجهين أحدهما: أن **المنافع** هناك أعظم وثانيهما: أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر، وأما أنها أبقى فلأنها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدما فكيف ونصيب كل أحد بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر، فظهر من هذا أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة ألبتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال: أفلا تعقلون يعني أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجا عن حد العقل، ورحم الله الشافعي حيث قال: من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بالطاعة فكأنه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية، ثم إنه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهي إلى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضي ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف إذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأي عقل يرتاب في أن نعم الآخرة راجحة عليها، وهذا هو المراد بقوله: أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه [الصافات: ٥٧] فهو يكون كمن أعطاه الله قدرا قليلا من متاع الدنيا ثم يكون في الآخرة من المحضرين للعذاب، والمقصود أنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا فقال الله لهم لو لم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضي ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا، فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم، وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ في الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى: لكنت من المحضرين [الصافات: ٥٧] فإنهم لمحضرون [الصافات: ١٢٧] وفي لفظه إشعار به لأن الإحضار مشعر بالتكليف والإلزام، وذلك لا يليق بمجالس اللذة إنما يليق بمجالس الضرر والمكاره.

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٢ الى ٦٦]

ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون (٦٢) قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون (٦٣) وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا

لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون (٦٤) ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين (٦٥) فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون (٦٦)." [١]

"العلم بذلك والقدرة عليه يترك هذه التوبة؟ كلا، بل لا بد أن يتوبوا وأن يشتغلوا بالشكر، ومتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب.

أما قوله: وله الحكم فهو إما في الدنيا أو في الآخرة فأما في الدنيا فحكم كل أحد سواه إنما نفذ بحكمه، فلولا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده ولا على الزوجة حكم زوجها ولا على الابن حكم أبيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الأمة حكم الرسول، فهو الحاكم في الحقيقة، وأما في الآخرة فلا شك أنه هو الحاكم، لأنه الذي يتولى الحكم بين العباد في الآخرة، فينتصف للمظلومين من الظالمين.

أما قوله: وإليه ترجعون فالمعنى وإلى محل حكمه وقضائه ترجعون، فإن كلمة إلى لانتهاء الغاية وهو تعالى منزه من المكان والجهة.

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧١ الى ٧٣]

قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون (٧١) قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون (٧٢) ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (٧٣)

اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على وجه الإجمال بقوله: وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون [القصص: ٧٠] فصل عقيب ذلك ببعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه فقال لرسوله: قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة فنبه على أن الوجه في كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان، لأن المرء في الدنيا وفي حال التكليف مدفوع إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار، ولأجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لا يتم لولا الراحة والسكون بالليل فلا بد منهما والحالة هذه، فأما في الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات، فبين تعالى أنه لا قادر على ذلك إلا الله تعالى، وإنما قال: أفلا تسمعون/ أفلا تبصرون لأن الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر قال الكلبي قوله: أفلا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨/٢٥

تسمعون معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله: أفلا تبصرون معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال، قال صاحب «الكشاف» السرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة، ومنه قولهم في الأشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد، فإن قيل هلا قال: بنهار تتصرفون فيه، كما قيل: بليل تسكنون فيه؟ قلنا ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن **المنافع** التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة، وإنما قرن بالضياء أفلا تسمعون، لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل أفلا تبصرون لأن غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه، ومن رحمته زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة لتسكنوا في أحدهما وهو الليل، ولتبتغوا من فضله في الآخر وهو النهار ولأداء الشكر على المنفعتين معا.." (١)

"على الضد من هذه الصفات الثلاث، قال صاحب «الكشاف» : ويلك أصله الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى.

أما قوله: ولا يلقاها إلا الصابرون فقال المفسرون: لا يوفق لها والضمير في يلقاها إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان أحدهما: إلى ما دل عليه قوله: آمن وعمل صالحا يعني هذه الأعمال لا يؤتاها إلا الصابرون والثاني: قال الزجاج: يعني، ولا يلقى هذه الكلمة وهي قولهم ثواب الله خير إلا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات، وعلى الرضا بقضاء الله في كل ما قسم من **المنافع** والمضار.

وأما قوله: فخسفنا به وبداره الأرض ففيه وجهان أحدهما: أنه لما أشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الأرض جزاء على عتوه وبطره، والفاء تدل على ذلك، لأن الفاء تشعر بالعلية وثانيها: قيل إن قارون كان يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت نفسه فجمع بني إسرائيل، وقال:

إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا: أنت سيدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت، قال: نبرطل فلانة البغي حتى تنسبه إلى نفسها فيرفضه بنو إسرائيل فجعل لها طستا من ذهب مملوءا ذهبا فلما كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعناه، ومن زنى وهو [غير] محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه، فقال قارون وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، قال: فإن بني إسرائيل يقولون إنك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله تعالى، فقالت: كذبوا بل جعل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢/٢٥

لي قارون جعلا على أن أقذفك بنفسي، فخر موسى ساجدا يبكي، وقال: يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي، فأوحى الله عز وجل إليه أن مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك، فقال: يا بني إسرائيل، إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعا غير رجلين، ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم، وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه، ثم قال: خذيهم فانطبقت الأرض عليهم فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ما أفظك استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم، أما وعزتي لودعوني مرة واحدة لوجدوني قريبا مجيبا فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله، ثم إن قارون يخسف به كل يوم مائة قامة، قال القاضي: إذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الأرض إلى الأرض السابعة أو دون ذلك فإنه لا يمتنع ما روي على وجه المبالغة في الزجر، وأما قولهم إنه تعالى قال لو استغاث بي لأغثته، فإن صح حمل على استغاثة مقرونة بالتوبة فأما وهو ثابت على ما هو عليه مع أنه تعالى هو الذي حكم بذلك الخسف لأن موسى عليه السلام ما فعله إلا عن أمره فبعيد، وقولهم إنه يتجلجل في الأرض أبدا فبعيد لأنه لا بد له من نهاية وكذا القول فيما ذكر من عدد القامات، والذي عندي في أمثال هذه الحكايات أنها قليلة الفائدة لأنها من باب أخبار الآحاد فلا تفيد اليقين، وليست المسألة مسألة عملية حتى يكتفى فيها بالظن، ثم إنها في أكثر الأمر متعارضة مضطربة فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب.
أما قوله: وما كان من المنتصرين فالمراد من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب/ الله." (١)

"التراب، والعذاب بالإغراق وهو بالماء. فحصل العذاب بالعناصر الأربعة والإنسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه، فإذا أراد الله هلاك الإنسان جعل ما منه وجوده سببا لعدمه، وما به بقاؤه سببا لفنائه، ثم قال تعالى: وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعني لم يظلمهم بالهلاك، وإنما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ما كان يظلمهم أي ما كان يضعهم في غير موضعهم فإن موضعهم الكرامة كما قال تعالى: ولقد كرمنا بني آدم [الإسراء: ٧٠] لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم في عبادة الوثن مع خسته.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧/٢٥

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٤١]

مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون (٤١)

ثم قال تعالى: مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا.

لما بين الله تعالى أنه أهلك من أشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا، ولم ينفعه في الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده، مثل اتخاذه ذلك معبودا باتخاذ العنكبوت بيتا لا يجير آويا ولا يريح ثاويا، وفي الآية لطائف نذكرها في مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في اختيار هذا المثل من بين سائر الأمثال؟ فنقول فيه وجوه/ الأول: أن البيت ينبغي أن يكون له أمور: حائط، وسقف مظل، وباب يغلق، وأمور ينتفع بها ويرتفق، وإن لم يكن كذلك فلا بد من أحد أمرين. إما حائط حائل يمنع من البرد وإما سقف مظل يدفع عنه الحر، فإن لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لا يجنها ولا يكنها وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار، فإن لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع، فإن من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء، فإذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معاني الأولياء شيء الثاني: هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فإن البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضا الهواء والماء والنار والتراب، والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوي ولا الماء ولا النار، والخباء الذي هو بيت من الشعر أو الخيمة التي هي من ثوب إن كان لا يدفع شيئا يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لا يظل فإن الشمس بشعاعها تنفذ فيه، فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الأمر في الغير، فإن لم يكن كذلك فيكون نافذ الأمر في العابد، فإن لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم إن أرادوا أجلوه وإن أحبوا أذلوه الثالث: أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق، لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت، فإن العنكبوت لو دام في زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها، فإذا نسج على نفسه واتخذ بيتا يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت، فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب، فإن لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب، والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب.

المسألة الثانية: مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتا ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين أحدهما: أن نسجه فيه فائدة له، لولاه لما حصل وهو اصطيادها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم." (١)

"المسألة الثانية: إذا كان الإيمان بما سوى الله كفرا به، فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذي هو في قول القائل قم ولا تقعد واقرب مني ولا تبعد؟ نقول نعم فيه فائدة غيرها، وهو أنه ذكر الثاني لبيان قبح الأول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول باطل قبيح.

المسألة الثالثة: هل يتناول هذا أهل الكتاب أي هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله؟ نقول نعم، لأنهم لما صح عندهم أن معجزة النبي من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا إنها من عند غير الله، يكون كمن رأى شخصا يرمي حجارة، فقال إن رامي الحجارة زيد يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل يقول زيد، فكذلك هم لما قطعوا بأن مظهر المعجزة هو الله وقالوا بأن محمدا مظهر هذا يلزمهم أن يقولوا محمد هو الله تعالى فيكون إيمانا بالباطل، وإذا قالوا بأن من أظهر المعجزة ليس بإله مع أنهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة يكونون قائلين بأن ذلك المخصوص الذي هو الله ليس بإله فيكون كفرا به، وهذا لا يرد علينا فيمن يقول فلعل العبد مخلوق الله تعالى أو مخلوق العبد، فإنه أيضا ينسب فعل الله إلى الغير، كما أن المعجزة فعل الله وهم نسبوها إلى غيره لأن هذا القائل جهل النسبة، كمن يرى حجارة رميت ولم ير عين راميها، فيظن أن راميها زيد فيقول زيد هو رامي هذه الحجارة، ثم إذا رأى راميها بعينه ويكون غير زيد لا يقطع بأن يقول هو زيد، وأما إذا رأى عينه ورميه للحجارة وقال رامي الحجارة زيد، يقطع بأنه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من/ حيث إنهم كانوا معاندين عالمين بأن الله مظهر تلك المعجزة، ويقولون بأنها من عند غير الله.

ثم قوله: هم الخاسرون كذلك بأتم وجوه الخسران، وهذا لأن من يخسر رأس المال ولا تركبه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركبه تلك الديون، فهم لما عبدوا غير الله أفنوا العمر ولم يحصل لهم في مقابلته شيء ما أصلا من **المنافع**، واجتمع عليهم ديون ترك الواجبات يطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها. ثم قال تعالى:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٧/٢٥

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٥٣]

ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون (٥٣)

لما أنذرهم الله بالخسران وهو أتم وجوه الإنذار لأن من خسر لا يحصل له في مقابلة قدر الخسران شيء من **المنافع** وإلا لما كان الخسران ذلك القدر بل دونه، مثاله إذا خسر واحد من العشرة درهما لا ينبغي أن يكون حصل له في مقابلة الدرهم ما يساوي نصف درهم، وإلا لا يكون الخسران درهما بل نصف درهم، فإذن هم لما خسروا أعمارهم لا تحصل لهم منفعة تخفيف عذاب وإلا يكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب أليم، فقوله: وأولئك هم الخاسرون تهديد عظيم فقالوا إن كان علينا عذاب فأتنا به، إظهارا لقطعهم بعدم العذاب، ثم إنه أجاب بأن العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم، لأنه أجله الله لحكمة ورحمة فلكونه حكيما لا يكون متغيرا منقلبا، ولكونه رحيما لا يكون غضوبا منزعجا، ولولا ذلك الأجل المسمى الذي اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له رحمة وحكمة، فيكون غضوبا منقلبا فيتأثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه ولا يدفع عنكم بالعذاب حين تستعيذون به منه، كما قال تعالى: كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها [الحج: ٢٢].

ثم قال تعالى: وليأتينهم بغتة اختلف المفسرون فيه، فقال بعضهم ليأتينهم العذاب بغتة، لأن العذاب." (١)

"المسألة الخامسة: قدم الإمساء على الإصباح هاهنا وأخره في قوله: وسبحوه بكرة وأصيلا [الأحزاب: ٤٢] وذلك لأن هاهنا أول الكلام ذكر الحشر والإعادة من قوله: الله يبدؤا الخلق ثم يعيده إلى قوله: فأولئك في العذاب محضرون [الروم: ١١- ١٦] وآخر هذه الآية أيضا ذكر الحشر والإعادة بقوله: وكذلك تخرجون والإمساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة.

المسألة السادسة: في تعلق إخراج الحي من الميت والميت من الحي بما تقدم عليه هو أن عند الإصباح يخرج الإنسان من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة،. وعند العشاء يخرج الإنسان من اليقظة إلى النوم، واختلف المفسرون في قوله: يخرج الحي من الميت فقال أكثرهم: يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان، وقال بعضهم المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، ويمكن أن يقال المراد: يخرج الحي من الميت أي اليقظان من النائم والنائم من اليقظان، وهذا يكون قد ذكره للتمثيل أي إحياء الميت عنده وإماتة الحي كتنبيه النائم وتنويم المنتبه.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٧/٢٥

ثم قال تعالى: ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون وفي هذا معنى لطيف وهو أن الإنسان بالموت تبطل حيوانيته وأما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعده كما قال تعالى: ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا [آل عمران: ١٦٩] لكن الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لا يتحرك ولا يحس والأرض الميتة لا يكون فيها نماء، ثم إن النائم بالانتباه يتحرك ويحس والأرض الميتة بعد موتها تنمو بنباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وإنماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك إحياء الميت سهل عليه وإلى هذا أشار بقوله: وكذلك تخرجون. ثم قال تعالى:

[سورة الروم (٣٠) : آية ٢٠]

ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون (٢٠)

لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الأسواء وذكر أن الحمد له عل‍ى خلق جميع الأشياء وبين قدرته على الإماتة والإحياء بقوله: فسبحان الله إلى قوله: وكذلك تخرجون [الروم: ١٦- ٢٠] ذكر ما هو حجة ظاهرة وآية/ باهرة على ذلك ومن جملتها خلق الإنسان من تراب وتقريره هو أن التراب أبعد الأشياء عن درجة الأحياء، وذلك من حيث كيفيته فإنه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة، ومن حيث لونه فإنه كدر والروح نير، ومن حيث فعله فإنه ثقيل والأرواح التي بها الحياة خفيفة، ومن حيث السكون فإنه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة وإلى خلف وإلى قدام وإلى فوق وإلى أسفل، وفي الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الأجسام لأن العناصر أبعد من المركبات لأن المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب لأن الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الأرواح والنار أقرب لأنها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فإنه ممتزج، وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهي مرتبة النبات الذي ينبت في الأرض ولا يبرز ولا يرتفع، ثم النباتات وأعلى مراتبها وهي مرتبة الأشجار التي تقبل التعظيم، ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهي مرتبة الحشرات التي ليس لها دم سائل ولا هي إلى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات، ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الإنسان فإن الأنعام ولا سيما الفرس." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨٩/٢٥

"أمرا ذاتيا لهما بل بجعل جاعل فتارة جعل الأصل التراب وتارة الماء ليعلم أنه بإرادته واختياره، فإن شاء جعل هذا أصلا وإن شاء جعل ذلك أصلا، وإن شاء جعلهما أصلين.

المسألة الثالثة: قال الحكماء: إن الإنسان مركب من العناصر الأربعة وهي التراب والماء والهواء والنار، وقالوا التراب فيه لثباته، والماء لاستمساكه، فإن التراب يتفتت بسرعة، والهواء لاستقلاله كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب، والنار للنضج والالتئام بين هذه الأشياء، فهل هذا صحيح أم لا؟ فإن كان صحيحا فكيف اعتبر الأمرين فحسب ولم يقل في موضع آخر إنه خلقكم من نار ولا من ريح؟

فنقول أما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلا ننازعهم فيه إلا إذا قالوا بأنه بالطبيعة كذلك، وأما إن قالوا بأن الله بحكمته خلق الإنسان من هذه الأشياء فلا ننازعهم فيه، وأما الآيات فنقول ما ذكرتم لا يخالف هذا لأن الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بعد امتزاج الماء بالتراب، فالأصل الموجود أولاهما لا غير/ فلذلك خصهما ولأن المحسوس من العناصر في الغالب هو التراب والماء ولا سيما كونهما في الإنسان ظاهر لكل أحد فخص الظاهر المحسوس بالذكر. ثم قال تعالى:

[سورة الروم (٣٠) : آية ٢١]

ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٢١)

لما بين الله خلق الإنسان بين أنه لما خلق الإنسان ولم يكن من الأشياء التي تبقى وتدوم سنين متطاولة أبقى نوعه بالأشخاص وجعله بحيث يتوالد، فإذا مات الأب يقوم الابن مقامه لئلا يوجب فقد الواحد ثلمة في العمارة لا تنسد، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: خلق لكم دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من **المنافع**، كما قال تعالى: خلق لكم ما في الأرض [البقرة: ٢٩] وهذا يقتضي أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فنقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لإتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه إلينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى، أما النقل فهذا وغيره، وأما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها، وأما المعنى فلأن المرأة ضعيفة الخلق سخيفة فشابهت الصبي لكن الصبي، لم يكلف فكان يناسب أن لا تؤهل المرأة للتكليف، لكن النعمة علينا ما كانت تتم إلا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم، ولولا ذلك لظهر الفساد.

المسألة الثانية: قوله: من أنفسكم بعضهم قال: المراد منه أن حواء خلقت من جسم آدم والصحيح أن المراد منه من جنسكم كما قال تعالى: لقد جاءكم رسول من أنفسكم [التوبة: ١٢٨] ويدل عليه قوله: لتسكنوا إليها يعني أن الجنسين الحيين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أي لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه.

المسألة الثالثة: يقال سكن إليه للسكون القلبي ويقال سكن عنده للسكون الجسماني، لأن كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للأجسام وإلى للغاية وهي للقلوب.

المسألة الرابعة: قوله: وجعل بينكم مودة ورحمة فيه أقوال قال بعضهم: مودة بالمجامعة ورحمة." (١)

"لما ذكر أنهم يرجعون إلى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الإجمال بقوله: ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم يعني لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجبا، وقوله: ترى يحتمل أن يكون خطابا مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تشفيا لصدره فإنهم كانوا يؤذونه بالتكذيب، ويحتمل أن يكون عاما مع كل أحدكما يقول القائل إن فلانا كريم إن خدمته ولو لحظة يحسن إليك طول عمرك ولا يريد به خاصا، وقوله: عند ربهم لبيان شدة الخجالة لأن الرب إذا أساء إليه المربوب، ثم وقف بين يديه يكون في غاية الخجالة.

ثم قال تعالى: ربنا أبصرنا وسمعنا يعني يقولون أو قائلين ربنا أبصرنا وحذف يقولون إشارة إلى غاية خجالتهم لأن الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم، وقوله: ربنا أبصرنا وسمعنا أي أبصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحا، وقولهم: إنا موقنون معناه إنا في الحال آمنا ولكن النافع الإيمان والعمل الصالح، ولكن العمل الصالح لا يكون إلا عند التكليف به وهو في الدنيا فارجعنا للعمل، وهذا باطل منهم فإن الإيمان لا يقبل في الآخرة كالعمل الصالح أو نقول المراد منه أنهم ينكرون الشرك كما قالوا: ما كنا مشركين [الأنعام: ٢٣] فقالوا إن هذا الذي جرى علينا ما جرى إلا بسبب ترك العمل الصالح وأما الإيمان فإنا موقنون وما أشركنا.

ثم قال تعالى:

[سورة السجده (٣٢) : آية ١٣]

ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (١٣)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٩١/٢٥

جوابا عن قولهم: ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا [السجدة: ١٢] وبيانه هو أنه تعالى قال: إني لو أرجعتكم إلى الإيمان لهديتكم في الدنيا ولما لم أهدكم تبين أني ما أردت وما شئت إيمانكم فلا أردكم، وقوله: ولو شئنا لآتينا صريح في أن مذهبنا صحيح حيث نقول إن الله ما أراد الإيمان من الكافر وما شاء منه إلا الكفر، ثم قال تعالى: ولكن حق القول مني لأملأن جهنم أي وقع القول وهو قوله تعالى لإبليس: لأملأن جهنم منك وممن تبعك [ص: ٨٥] هذا من حيث النقل وله وجه في العقل وهو أن الله تعالى لم يفعل فعلا خاليا عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف في أنه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحكمة لا بحيث تحمله تلك الحكمة على الفعل؟ وإذا علم أن فعله لا يخلو عن الحكمة فقال الحكماء حكمة أفعاله بأمرها لا تدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الإجمال، فكل ضرب يكون في العالم وفساد فحكمته تخرج من تقسيم عقلي وهو أن الفعل إما أن يكون خيرا محضا أو شرا محضا أو خيرا مشوبا بشر وهذا القسم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره مثلان، إذا علم هذا فخلق الله عالما فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوي وخلق عالما فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلي ولم يخلق عالما فيه شر محض، ثم إن العالم السفلي الذي هو عالمنا، وإن كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الأول الذي خيره غالب، فإنك إذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالضار، تجد المنافع أكثر، وإذا قابلت الشرير بالخير تجد الخير أكثر، وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر، ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه شر أصلا من أول عمره إلى آخره كالأنبياء عليهم السلام والأولياء، والكافر لا يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه خير." (١)

"الصالح فاعملوا ذلك وأكثروا منه، والكسب قدروا فيه، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله: إني بما تعملون بصير وقد ذكرنا مرارا أن من يعمل لملك شغلا ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه، ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيبا آخر وهو سليمان، كما قال تعالى: وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب [ص: ٣٤] . وذكر ما استفاد هو بالإنابة فقال:

[سورة سبإ (٣٤) : آية ١٢]

ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير (١٢)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤٤/٢٥

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ ولسليمان الريح بالرفع وبالنصب وجه الرفع: ولسليمان الريح مسخرة أو سخرت لسليمان الريح ووجه النصب ولسليمان سخرنا الريح وللرفع وجه آخر/ وهو أن يقال معناه: ولسليمان الريح كما يقال لزيد الدار، وذلك لأن الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد.

المسألة الثانية: الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفا لجملة اسمية على جملة فعلية وهو لا يجوز أولا يحسن فكيف هذا فنقول لما بين حال داود كأنه تعالى قال ما ذكرنا لداود ولسليمان الريح، وأما على النصب فعلى قولنا: وألنا له الحديد كأنه قال: وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح.

المسألة الثالثة: المسخر لسليمان كانت ريحا مخصوصة لا هذه الرياح، فإنها **المنافع** عامة في أوقات الحاجات ويدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد فما قرأ أحد الرياح.

المسألة الرابعة: قال بعض الناس: المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شيء وإن من شيء إلا يسبح بحمده [الإسراء: ٤٤] ، وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح، ومن تسخير الريح أنه راض الخيل وهي كالريح وقوله: غدوها شهر ثلاثون فرسخا لأن من يخرج للتفرج في أكثر الأمر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك، وقوله في حق داود: وألنا له الحديد وقوله في حق سليمان:

وأسلنا له عين القطر أنهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين أي أناسا أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا ضعف اعتقاده [و] عدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة.

المسألة الخامسة: أقول قوله تعالى: وسخرنا مع داود الجبال [الأنبياء: ٧٩] وقوله: ولسليمان الريح عاصفة [الأنبياء: ٨١] لو قال قائل ما الحكمة في أن الله تعالى قال في الأنبياء: وسخرنا مع داود الجبال وفي هذه السورة قال: يا جبال أوبي معه [سبأ: ١٠] وقال في الريح هناك وهاهنا: ولسليمان تقول الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضفها إلى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب، والريح لم يذكر فيها أنها سبحت فجعلها كالمملوكة له وهذا حسن وفيه أمر آخر معقول يظهر لي وهو أن على قولنا: أوبي معه سيري فالجبل في السير ليس أصلا بل هو يتحرك معه تبعا، والريح لا تتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٩٧/٢٥

"للمصدر وهم قوم سجود في جمع ساجد، تظن أنهما كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك، بل السجود عند كونه مصدرا حركته أصلية إذا قلنا إن الفعل مشتق من المصدر/ وحركة السجود عند كونه للجمع حركة متغيرة من حيث إن الجمع يشتق من الواحد، وينبغي أن يلحق المشتق تغيير في حركة أو حرف أو في مجموعهما، فساجد لما أردنا أن يشتق منه لفظ جمع غيرناه، وجئنا بلفظ السجود، فإذا السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الألفاظ المشتركة التي وضعت بحركة واحدة لمعنيين، إذا عرفت هذا فنقول الفلك عند كونه واحدا مثل قفل وبرد، وعند كونها جمعا مثل خشب ومرد وغيرهما، فإن قلت فإذا جعلته جمعا ماذا يكون واحدا مثل قفل وبرد، وعند كونها جمعا مثل خشب ومرد وغيرهما، فإن قلت فإذا جعلته جمعا ماذا يكون واحدها؟ نقول جاز أن يكون واحدها فلكة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء حيث لم يستعمل، وكذا القول في: إمام مبين [يس: ١٢] وفي قوله: ندعوا كل أناس «١» بإمامهم [الإسراء: ٧١] أي بأئمتهم عند قوله تعالى: إمام مبين إمام كزمام وكتاب وعند قوله تعالى: كل أناس «٢» بإمامهم إمام كسهام وكرام وجعاب وهذا من دقيق التصريف وأما المعنوية: فنذكرها في مسائل:

المسألة الأولى: قال هاهنا: حملنا ذريتهم من عليهم بحمل ذريتهم، وقال تعالى: إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية [الحاقة: ١١] من هناك عليهم بحمل أنفسهم، نقول لأن من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير، ومن يدفع الضرر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير، بل يكون قد نفعه مثاله من أحسن إلى ولد إنسان وفرحه فرح بفرحه أبوه، وإذا دفع واحد الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباه ولا يكون في الحقيقة قد أزال الألم عن أبيه، فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال دفعت عنكم الضرر، ولو قال دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بيان دفع الضرر عنهم، وهاهنا أراد بيان المنافع فقال: حملنا ذريتهم لأن النفع حاصل بنفع الذرية ويدلك على هذا أن هاهنا قال: في الفلك المشحون فإن امتلاء الفلك من الأموال يحصل بذكره بيان المنفعة، وأما دفع المضرة فلا، لأن الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص به أبطأ وهنالك السلامة، فاختار هنالك ما يدل على الخلاص من الضرر وهو الجري، وهاهنا ما يدل على كمال المنفعة وهو الشحن، فإن قيل قال تعالى: وحملناهم في البر والبحر [الإسراء: ٧٠] ولم يقل: وحملنا ذريتهم مع أن المقصود في الموضعين بيان النعمة، لا دفع النقمة، نقول لما قال: في البر والبحر عم الخلق، لأن ما من أحد إلا وحمل في البر أو البحر، وأما الحمل في البحر فلم يعم، فقال إن كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الأولاد والأقارب والإخوان والأصدقاء.

المسألة الثانية: قوله: المشحون يفيد فائدة أخرى غير ما ذكرنا وهي أن الآدمي يرسب في الماء ويغرق،

فحمله في الفلك واقع بقدرته، لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب في الماء، لأن الخفيف يطلب جهة فوق فقال: الفلك المشحون أثقل من الثقال التي ترسب، ومع هذا حمل الله الإنسان فيه مع ثقله، فإن قالوا ذلك لامتناع الخلاء نقول قد ذكرنا الدلائل الدالة على جواز الخلاء في الكتب العقلية، فإذن ليس حفظ الثقيل فوق الماء إلا بإرادة الله.

المسألة الثالثة: قال تعالى: وآية لهم الأرض [يس: ٣٣] وقال: وآية لهم الليل [يس: ٣٧] ولم يقل

---

(١) من عجب أن نسخة المطبعة الأميرية رسم فيها «أناث» هكذا بالثاء في الموضعين وهو تحريف ظاهر وخطأ في القرآن.

(٢) نفس المصدر. [.....]." [١]

"اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة، واعلم أن وجوه الإنعام وإن كانت كثيرة إلا أنها محصورة في نوعين إيصال **المنافع** إليه ودفع المضار عنه والله تعالى ذكر القسمين هاهنا، فقوله: ولقد مننا على موسى وهارون إشارة إلى إيصال **المنافع** إليهما، وقوله: ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم إشارة إلى دفع المضار عنهما.

أما القسم الأول: وهو إيصال **المنافع**، فلا شك أن **المنافع** على قسمين: منافع الدنيا ومنافع الدين، أما منافع الدنيا فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منهما، وأما منافع الدين فالعلم والطاعة، وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة، ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل في سائر السور، لا جرم اكتفى هاهنا بهذا الرمز.

وأما القسم الثاني: وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله: ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم وفيه قولان: قيل إنه الغرق، أغرق الله فرعون وقومه، ونجى الله بني إسرائيل، وقيل المراد أنه تعالى نجاهم من إيذاء فرعون حيث كان يذبح أبنائهم ويستحيي نساءهم.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه من على موسى وهارون، فصل أقسام تلك المنة. والهاء في قوله: ونصرناهم أي نصرنا موسى وهارون وقومهما: فكانوا هم الغالبين في كل الأحوال بظهور الحجة وفي آخر الأمر بالدولة والرفعة وثانيهما: قوله تعالى: وآتيناهما الكتاب المستبين والمراد منه التوراة، وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التي يحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا، كما قال: إنا أنزلنا التوراة فيها هدى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦/٢٨٤

ونور [المائدة: ٤٤] ، وثالثها: قوله تعالى: وهديناهما الصراط المستقيم أي دللناهما على طريق الحق عقلا وسمعا، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة، وتشبيه الدلائل الحقة بالطريق المستقيم واضح ورابعها:
قوله تعالى: وتركنا عليهما في الآخرين وفيه قولان الأول: أن المراد وتركنا عليهما في الآخرين وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم قولهم: سلام على موسى وهارون والثاني: أن المراد وتركنا عليهما في الآخرين وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الثناء الحسن والذكر الجميل، وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك: سلام على موسى وهارون هو كلام الله تعالى، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام الأربعة من أبواب التعظيم والتفضيل قال: إنا كذلك نجزي المحسنين وقد سبق تفسيره، ثم قال تعالى: إنهما من عبادنا المؤمنين والمقصود التنبيه، على أن الفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل، ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهارون بكونهما من المؤمنين، والله أعلم.." (١)

"عبارة عن كون الرجل قائما بما يجب عليه من الطاعات، وذلك يدل على أن العمل إنما يفيد إذا واظب عليه الإنسان، وقوله: ساجدا وقائما إشارة إلى أصناف الأعمال وقوله: يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه إشارة إلى أن الإنسان عند المواظبة ينكشف له في الأول مقام القهر وهو قوله: يحذر الآخرة ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله: ويرجوا رحمة ربه ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.
الفائدة الثالثة: أنه قال في مقام الخوف يحذر الآخرة فما أضاف الحذر إلى نفسه، وفي مقام الرجاء أضافه إلى نفسه، وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأليق بحضرة الله تعالى.
المسألة الثالثة: قيل المراد من قوله: أمن هو قانت آناء الليل عثمان لأنه كان يحيي الليل في ركعة واحدة ويقرأ القرآن في ركعة واحدة، والصحيح أن المراد منه كل من كان موصوفا بهذه الصفة فيدخل فيه عثمان وغيره لأن الآية غير مقتصرة عليه.
المسألة الرابعة: لا شبهة في أن في الكلام حذفا، والتقدير أمن هو قانت كغيره، وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر وذكر بعدها: قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وتقدير الآية قل هل يستوي الذين يعلمون وهم الذين صفتهم أنهم يقنتون آناء الليل سجدا وقياما، والذين لا يعلمون وهم الذين وصفهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغة يشركون، فإذا قدرنا هذا التقدير ظهر المراد وإنما وصف الله الكفار بأنهم لا يعلمون، لأنهم وإن آتاهم الله آلة العلم إلا أنهم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٥٢/٢٦

أعرضوا عن تحصيل العلم، فلهذا السبب جعلهم كأنهم ليسوا أولي الألباب من حيث إنهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم.

وأما قوله تعالى: قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم، وقد بالغنا في تقرير هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: وعلم آدم الأسماء كلها [البقرة: ٣١] قال صاحب «الكشاف» أراد بالذين يعلمون الذين سبق ذكرهم وهم القانتون، وبالذين لا يعلمون الذين لا يأتون بهذا العمل كأنه جعل القانتين هم العلماء، وهو تنبيه على أن من يعمل فهو غير عالم، ثم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون، ويفتنون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة.

ثم قال تعالى: إنما يتذكر أولوا الألباب يعني هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال لا يعرفه أيضا إلا أولوا الألباب، قيل لبعض العلماء: إنكم تقولون العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك، ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء، فأجاب العالم بأن هذا أيضا يدل على فضيلة العلم لأن العلماء علموا ما في المال من **المنافع** فطلبوه، والجهال لم يعرفوا ما في العلم من **المنافع** فلا جرم تركوه.

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ١٠ الى ١٦]

قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (١٠) قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين (١١) وأمرت لأن أكون أول المسلمين (١٢) قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٣) قل الله أعبد مخلصا له ديني (١٤) فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين (١٥) لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون (١٦)". [١]

"ليزدادوا إحسانا إلى إحسانهم، وطاعة إلى طاعتهم، والمقصود منه الترغيب في الهجرة من مكة إلى المدينة والصبر على مفارقة الوطن، ونظيره قوله تعالى: قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها [النساء: ٩٧] والقول الثاني: قال أبو مسلم: لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة، وذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهي خشية الله، ثم بين أن من اتقى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٢٩/٢٦

فله في الآخرة الحسنة، وهي الخلود في الجنة، ثم بين أن أرض الله، أي جنته واسعة، لقوله تعالى: نتبوأ من الجنة حيث نشاء [الزمر: ٧٤] وقوله تعالى: وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين [آل عمران: ١٣٣] والقول الأول عندي أولى، لأن قوله: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب لا يليق إلا بالأول، وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: أما تحقيق الكلام في ماهية الصبر، فقد ذكرناه في سورة البقرة، والمراد هاهنا بالصابرين الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم، وعلى تجرع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله تعالى.

المسألة الثانية: تسمية **المنافع** التي وعد الله بها على الصبر بالأجر توهم أن العمل على الثواب، لأن الأجر هو المستحق، إلا أنه قامت الدلائل القاهرة على أن العمل ليس عليه الثواب، فوجب حمل لفظ الأجر على كونه أجرا بحسب الوعد، لا بحسب الاستحقاق.

المسألة الثالثة: أنه تعالى وصف ذلك الأجر بأنه بغير حساب، وفيه وجوه الأول: قال الجبائي: المعنى أنهم يعطون ما يستحقون ويزدادون تفضلا فهو بغير حساب، ولو لم يعطوا إلا المستحق لكان ذلك حسابا، قال القاضي هذا ليس بصحيح، لأن الله تعالى وصف الأجر/ بأنه بغير حساب، ولو لم يعطوا إلا الأجر المستحق، والأجر غير التفضل الثاني: أن الثواب له صفات ثلاثة أحدها: أنها تكون دائمة الأجر لهم، وقوله: بغير حساب معناه بغير نهاية، لأن كل شيء دخل تحت الحساب فهو متناه، فما لا نهاية له كان خارجا عن الحساب وثانيها: أنها تكون منافع كاملة في أنفسها، وعقل المطيع ما كان يصل إلى كنه ذلك الثواب،

قال صلى الله عليه وسلم: «إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»

وكل ما يشاهدونه من أنواع الثواب وجدوه أزيد مما تصوروه وتوقعوه، وما لا يتوقعه الإنسان، فقد يقال إنه ليس في حسابه، فقوله: بغير حساب محمول على هذا المعنى والوجه الثالث: في التأويل أن ثواب أهل البلاء لا يقدر بالميزان والمكيال،

روى صاحب «الكشاف» عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ينصب الله الموازين يوم القيامة، فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صبا»

قال الله تعالى: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض لما به أهل البلاء من الفضل.

النوع الثاني: من البيانات أمر الله رسوله أن يذكرها قوله تعالى: قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى! فأنزل الله، قل يا محمد إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين،

وأقول إن التكليف نوعان أحدهما: الأمر بالاحتراز عما لا ينبغي والثاني: الأمر بتحصيل ما ينبغي، والمرتبة الأولى مقدمة على المرتبة الثانية بحسب الرتبة الواجبة اللازمة، إذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى قدم الأمر." (١)

"الله، فهذا الإنسان ما دعا ربه في وقت، أما إذا دعا في وقت لا يبقى في القلب التفات إلى غير الله، فالظاهر أنه تحصل الاستجابة، إذا عرفت هذا ففيه بشارة كاملة، وهي أن انقطاع القلب بالكلية عما سوى الله لا يحصل إلا عند القرب من الموت، فإن الإنسان قاطع في ذلك الوقت بأنه لا ينفعه شيء سوى فضل الله تعالى، فعلى القانون الذي ذكرناه وجب أن يكون الدعاء في ذلك الوقت مقبولا عند الله، ونرجو من فضل الله وإحسانه أن يوفقنا للدعاء المقرون بالإخلاص والتضرع في ذلك الوقت، واعلم أن الكلام المستقصى في الدعاء قد سبق ذكره في سورة البقرة.

ثم قال تعالى: إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين أي صاغرين وهذا إحسان عظيم من الله تعالى حيث ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء، فإن قيل

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال حكاية عن رب العزة أنه قال: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»

فهذا الخبر يقتضي أن ترك الدعاء أفضل، وهذه الآية تدل على أن ترك الدعاء يوجب الوعيد الشديد، فكيف الجمع بينهما؟ قلنا لا شك أن العقل إذا كان مستغرقا في الثناء كان ذلك أفضل من الدعاء، لأن الدعاء طلب للحظ والاستغراق في معرفة جلال الله أفضل من طلب الحظ، أما إذا لم يحصل ذلك الاستغراق كان الاشتغال بالدعاء أولى، لأن الدعاء يشتمل على معرفة عزة الربوبية وذلة العبودية، ثم قال تعالى: الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه واعلم أن تعلقه بما قبله من وجهين الأول: كأنه تعالى قال: إني أنعمت عليك قبل طلبك لهذه النعم الجليلة العظيمة، ومن أنعم قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالأشياء القليلة بعد السؤال والثاني: أنه تعالى لما أمر بالدعاء، فكأنه قيل الاشتغال بالدعاء لا بد وأن يكون مسبوقا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٣١/٢٦

بحصول المعرفة، فما الدليل على وجود الإله القادر، وقد ذكر الله تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وقدرته وحكمته، واعلم أنا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته، إما فلكية، وإما عنصرية، أما الفلكيات فأقسام كثيرة أحدها: تعاقب الليل والنهار، و [لما] كان أكثر مصالح العالم مربوطا بهما فذكرهما الله/ تعالى في هذا المقام، وبين أن الحكمة في خلق الليل حصول الراحة بسبب النوم والسكون، والحكمة في خلق النهار، إبصار الأشياء ليحصل مكنة التصرف فيها على الوجه الأنفع، أما أن السكون في وقت النوم سبب للراحة فبيانه من وجهين: الأول: أن الحركات توجب الإعياء من حيث إن الحركة توجب السخونة والجفاف، وذلك يوجب التألم والثاني: أن الإحساس بالأشياء إنما يمكن بإيصال الأرواح الجسمانية إلى ظاهر الحس، ثم إن تلك الأرواح تتحلل بسبب كثرة الحركات فتضعف الحواس والإحساسات، وإذا نام الإنسان عادت الأرواح الحساسة في باطن البدن وركزت وقويت وتخلصت عن الإعياء، وأيضا الليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتداركان ما حصل في النهار من الحر والجفاف بسبب ما حدث من كثرة الحركات، فهذه هي **المنافع** المعلومة من قوله تعالى: الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه وأما قوله والنهار مبصرا فاعلم أن الإنسان مدني بالطبع، ومعناه أنه ما لم يحصل مدينة تامة لم تنتظم مهمات الإنسان في مأكوله ومشروبه وملبسه ومنكحه، وتلك المهمات لا تحصل إلا بأعمال كثيرة، وتلك الأعمال تصرفات في أمور، وهذه التصرفات لا تكمل إلا بالضوء والنور حتى يميز الإنسان بسبب ذلك النور بين ما يوافقه وبين ما لا يوافقه، فهذا هو الحكمة في قوله والنهار مبصرا فإن قيل كان الواجب بحسب رعاية النظم أن يقال هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه، أو فجعل لكم الليل ساكنا ولكنه لم يقل كذلك بل قال في الليل لتسكنوا." (١)

"اعلم أنه تعالى لما أطنب في تقرير الوعيد عاد إلى ذكر ما يدل على وجود الإله الحكيم الرحيم، وإلى ذكر ما يصلح أن يعد إنعاما على العباد، قال الزجاج الأنعام الإبل خاصة، وقال القاضي هي الأزواج الثمانية، وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: أنه لم أدخل لام الغرض على قوله لتركبوا وعلى قوله لتبلغوا ولم يدخل على البواقي فما السبب فيه؟ الجواب: قال صاحب «الكشاف» الركوب في الحج والغزو إما أن يكون واجبا أو مندوبا، فهذان القسمان أغراض دينية فلا جرم أدخل عليهما حرف التعليل، وأما الأكل وإصابة **المنافع** فمن جنس المباحات، فلا جرم ما أدخل عليها حرف التعليل، نظيره قوله تعالى: والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٢٨/٢٧

[النحل: ٨] فأدخل التعليل على الركوب ولم يدخله على الزينة.
السؤال الثاني: قوله تعالى: وعليها وعلى الفلك تحملون معناه تحملون في البر والبحر إذا عرفت هذا فنقول: لم لم يقل وفي الفلك كما قال قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين [هود: ٤٠] والجواب: أن كلمة على للاستعلاء فالشيء الذي يوضع في الفلك كما يصح أن يقال وضع فيه يصح أن يقال وضع عليه، ولما صح الوجهان كانت لفظه على أولى حتى يتم المراد في قوله وعليها وعلى الفلك تحملون ولما ذكر الله هذه الدلائل الكثيرة قال: يريكم آياته فأي آيات الله تنكرون
يعني أن هذه الآيات التي عددناها كلها ظاهرة باهرة، فقوله أي آيات الله تنكرون
تنبيه على أنه ليس في شيء من الدلائل التي تقدم ذكرها ما يمكن إنكاره، قال صاحب «الكشاف» قوله أي آيات الله
/ جاء على اللغة المستفيضة، وقولك: فأية آيات الله قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب، وهي في أي أغرب لإبهامه والله أعلم.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٨٢ الى ٨٥]
أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥)
اعلم أنه تعالى راعى ترتيبا لطيفا في آخر هذه السورة، وذلك أنه ذكر فصلا في دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة، ثم أردفه بفصل في التهديد والوعيد وهذا الفصل الذي وقع عليه ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد، والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكبر العظيم في صدورهم بهذا، والسبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه، فمن ترك الانقياد للحق." (١)

"صلبة ومنها رخوة، فيحصل من هذا التقسيم أقسام أربعة الصلبة المتقاربة، والرخوة المتقاربة، والصلبة المتباعدة، والرخوة المتباعدة، فإذا توالى في الكلمة حرفان صلبان متقاربان صعب اللفظ بها، لأن بسبب

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٣٤/٢٧

تقارب المخرج يصير التلفظ بها جاريا مجرى ما إذا كان الإنسان مقيدا ثم يمشي، وبسبب صلابة تلك الحروف تتوارد الأعمال الشاقة القوية على الموضع الواحد من المخرج، وتوالي الأعمال الشاقة يوجب الضعف والإعياء، ومثل هذا التركيب في اللغة العربية قليل وثانيها: أن جنس بعض الحروف ألذ وأطيب في السمع، وكل كلمة يحصل فيها حرف من هذا الجنس كان سماعها أطيب وثالثها: الوزن فنقول: الكلمة إما أن تكون ثنائية أو ثلاثية أو رباعية، وأعدلها هو الثلاثي لأن الصوت إنما يتولد بسبب الحركة، والحركة لا بد لها من مبدأ ووسط ومنتهى، فهذه ثلاث مراتب، فالكلمة لا بد وأن يحصل فيها هذه المراتب الثلاثة حتى تكون تامة. أما الثنائية فهي ناقصة وأما الرباعية فهي زائدة، والغائب في كلام العرب الثلاثيات، فثبت بما ذكرنا ضبط فضائل اللغات، والاستقراء يدل على أن لغة العرب موصوفة بها، وأما سائر اللغات فليست كذلك، والله أعلم.

المسألة السادسة: قوله لقوم يعلمون يعني إنما جعلناه عربيا لأجل أن يعلموا المراد منه، والقائلون بأن أفعال الله معللة بالمصالح والحكم، تمسكوا بهذه الآية وقالوا إنها تدل على أنه إنما جعله عربيا لهذه الحكمة، فهذا يدل على أن تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه جائز.

المسألة السابعة: قال قوم القرآن كله غير معلوم بل فيه ما يعلم، وفيه ما لا يعلم، وقال المتكلمون لا يجوز أن يحصل فيه شيء غير معلوم، والدليل عليه قوله تعالى: قرآنا عربيا لقوم يعلمون يعني إنما جعلناه عربيا ليصير معلوما، والقول بأنه غير معلوم يقدح فيه.

المسألة الثامنة: قوله تعالى: فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون يدل على أن الهادي من هداه الله وأن الضال من أضله الله وتقريره أن الصفات التسعة المذكورة للقرآن توجب قوة الاهتمام بمعرفته وبالوقوف على معانيه، لأنا بينا أن كونه نازلا من عند الإله الرحمن الرحيم يدل على اشتماله على أفضل **المنافع** وأجل المطالب، وكونه قرآنا عربيا مفصلا يدل على أنه في غاية الكشف والبيان، وكونه بشيرا ونذيرا يدل على أن الاحتياج إلى فهم ما فيه من أهم المهمات، لأن سعي الإنسان في معرفة ما يوصله إلى الثواب أو إلى العقاب من أهم المهمات، وقد حصلت هذه الموجبات الثلاثة في تأكيد الرغبة في فهم القرآن وفي شدة الميل إلى الإحاطة به، ثم مع ذلك فقد أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه ونبذوه وراء ظهورهم، وذلك يدل على أنه لا مهدي إلا من هداه الله، ولا ضال إلا من أضله الله.

واعلم أنه تعالى لما وصف القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولا يسمعونه، بين أنهم صرحوا بهذه النفرة والمباعدة وذكروا ثلاثة أشياء أحدها: أنهم قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وأكنة جمع كنان كأغطية جمع غطاء،

والكنان هو الذي يجعل فيه السهام وثانيها: قولهم وفي آذاننا وقر أي صمم وثقل يمنع من استماع قولك وثالثها: قولهم ومن بيننا وبينك حجاب والحجاب هو الذي يمنع من الرؤية والفائدة في كلمة (من) في قوله ومن بيننا أنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب، لكان المعنى أن حجابا حصل وسط الجهتين، وأما بزيادة لفظ (من) كأن المعنى أن الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك، فالمسافة الحاصلة بيننا وبينك مستوعبة." (١)

"اعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعيد أردفه بهذا الوعد الشريف، وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه، وقد ذكرنا مرارا أن الكمالات على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية وأشرف المراتب النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية، وذكرنا أن الكمالات النفسانية محصورة في نوعين العلم اليقيني والعمل الصالح، فإن أهل التحقيق قالوا كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله وإليه الإشارة بقوله إن الذين قالوا ربنا الله ورأس الأعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الإنسان مستقيما في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط، كما قال: وكذلك جعلناكم أمة وسطا [البقرة: ١٤٣] وقال أيضا: اهدنا الصراط المستقيم وإليه الإشارة في هذه الآية بقوله ثم استقاموا وسمعت أن القارئ قرأ في مجلس العبادي هذه الآية، فقال العبادي: والقيامة في القيامة، بقدر الاستقامة، إذا عرفت هذا فنقول: قوله تعالى: إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ليس المراد منه القول باللسان فقط لأن ذلك لا يفيد الاستقامة، فلما ذكر عقيب ذلك القول الاستقامة علمنا أن ذلك القول كان مقرونا باليقين التام والمعرفة الحقيقية، إذا عرفت هذا فنقول في الاستقامة قولان أحدهما: أن المراد منه الاستقامة في الدين والتوحيد والمعرفة الثاني: أن المراد منه الاستقامة في الأعمال الصالحة أما على القول الأول ففيه عبارات: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ثم استقاموا أي لم يلتفتوا إلى إله غيره، قال ابن عباس في بعض الروايات هذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أن أبا بكر رضي الله عنه وقع في أنواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير البتة عن دينه، فكان هو الذي قال: ربنا الله وبقي مستقيما عليه لم يتغير بسبب من الأسباب، وأقول يمكن فيه وجوه أخرى، وذلك أن من أقر بأن لهذا العالم إلها بقيت له مقامات أخرى فأولها:

/ أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل، ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه، بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل، وأيضا يجب أن يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين الجبر والقدر، وكذا في الرجاء والقنوط يجب أن يكون على الخط المستقيم،

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧/٥٤٠

فهذا هو المراد من قوله إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وأما على القول الثاني وهو أن نحمل الاستقامة على الإتيان بالأعمال الصالحة، فهذا قول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين، قالوا وهذا أولى حتى يكون قوله إن الذين قالوا ربنا الله متناولا للقول والاعتقاد ويكون قوله ثم استقاموا متناولا للأعمال الصالحة.

ثم قال: تتنزل عليهم الملائكة قيل عند الموت وقيل في مواقف ثلاثة عند الموت وفي القبر وعند البعث إلى القيامة ألا تخافوا أن بمعنى أي أو بـم خففة من الثقيلة وأصله بأنه لا تخافوا والهاء ضمير الشأن واعلم أن الغاية القصوى في رعاية المصالح دفع المضار وجلب **المنافع**، ومعلوم أن دفع المضرة أولى بالرعاية من جلب المصلحة، والمضرة إما أن تكون حاصلة في المستقبل أو في الحال أو في الماضي، وهاهنا دقيقة عقلية." (١)

"وهي أن المستقبل مقدم على الحاضر والحاضر مقدم على الماضي، فإن الشيء الذي لم يوجد ويتوقع حدوثه يكون مستقبلا، فإذا وجد يصير حاضرا، فإذا عدم وفني بعد ذلك يصير ماضيا، وأيضا المستقبل في كل ساعة يصير أقرب حصولا والماضي في كل حالة أبعد حصولا، ولهذا قال الشاعر:

فلا زال ما تهواه أقرب من غد ... ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

وإذا ثبت هذا فالمضار التي يتوقع حصولها في المستقبل أولى بالدفع من المضار الماضية، وأيضا الخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقع حصول مضرة في المستقبل، والغم عبارة عن تألم القلب بسبب قوة نفع كان موجودا في الماضي، وإذا كان كذلك فدفع الخوف أولى من دفع الحزن الحاصل بسبب الغم، إذا عرفت هذا، فنقول: إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم في أول الأمر يخبرون بأنه لا خوف عليكم بسبب ما تستقبلونه من أحوال القيامة، ثم يخبرون بأنه لا حزن عليكم بسبب ما فاتكم من أحوال الدنيا، وعند حصول هذين الأمرين فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية، ثم بعد الفراغ منه يبشرون بحصول **المنافع** وهو قوله تعالى: وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون فإن قيل البشارة عبارة عن الخبر الأول بحصول **المنافع**، فأما إذا أخبر الرجل بحصول منفعة ثم أخبر ثانيا بحصولها كان الإخبار الثاني إخبارا ولا يكون بشارة، والمؤمن قد يسمع بشارات الخير فإذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخبارا ولا يكون بشارة، فما السبب في تسمية هذا الخبر بالبشارة، قلنا المؤمن يسمع أن من كان مؤمنا تقيا كان له الجنة، أما من لم يسمع البتة أنه من أهل الجنة فإذا سمع هذا الكلام من الملائكة كان هذا إخبارا بنفع عظيم مع أنه هو الخبر الأول بذلك فكان ذلك بشارة.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٦٠/٢٧

واعلم أن هذا الكلام يدل على أن المؤمن عند الموت وفي القبر وعند البعث لا يكون فازعا من الأهوال ومن الفزع الشديد، بل يكون آمن القلب ساكن الصدر لأن قوله ألا تخافوا ولا تحزنوا يفيد نفي الخوف والحزن على الإطلاق.

ثم إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم قالوا للمؤمنين نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة

وهذا في مقابلة ما ذكره في وعيد الكفار حيث قال: وقيضنا لهم قرناء [فصلت: ٢٥] ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية، والمقامات الحقيقية، كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح بإلقاء الوساوس فيها وتخييل الأباطيل إليها. وبالجملة فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات، فهم يقولون: كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا فهي تكون باقية في الآخرة فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال، بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى، وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس، والقطرة بالنسبة إلى البحر، والتعلقات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة، كما

قال صلى الله عليه وسلم: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات» فإذا زالت العلائق الجسمانية والتدبيرات البدنية، فقد زال الغطاء والوطاء، فيتصل الأثر بالمؤثر، والقطرة بالبحر، والشعلة بالشمس، فهذا هو المراد من قوله نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة

ثم قال: ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون

قال ابن عباس: ولكم فيها ما تدعون

أي ما تتمنون، كقوله تعالى: لهم فيها فاكهة ولهم ما." (١)

"استجاب الناس لذلك الدين حجتهم داحضة أي باطلة وتلك المخاصمة هي أن اليهود قالوا ألستم تقولون إن الأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف؟ فنبوة موسى وحقية التوراة معلومة بالاتفاق، ونبوة محمد ليست متفقا عليها، فإذا بنيتم كلامكم في هذه الآية على أن الأخذ بالمتفق أولى، وجب أن يكون الأخذ باليهودية أولى، فبين تعالى أن هذه الحجة داحضة، أي باطلة فاسدة، وذلك لأن اليهود أطبقوا على أنه إنما وجب الإيمان بموسى عليه السلام لأجل ظهور المعجزات على وفق قوله، وهاهنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد عليه السلام، واليهود شاهدوا تلك المعجزات، فإن كان ظهور المعجزة يدل على

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٦١/٢٧

الصدق، فههنا يجب الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وإن كان لا يدل على الصدق وجب في حق موسى أن لا يقروا بنبوته. وأما الإقرار بنبوة موسى والإصرار على إنكار نبوة محمد مع استوائهما في ظهور المعجزة يكون متناقضا، ولم ا قرر الله هذه الدلائل خوف المنكرين بعذاب القيامة، فقال: الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب والمعنى أنه تعالى أنزل الكتاب المشتمل على أنواع الدلائل والبينات، وأنزل الميزان وهو الفصل الذي هو القسطاس المستقيم، وأنهم لا يعلمون أن القيامة متى تفاجئهم ومتى كان الأمر كذلك، وجب على العاقل أن يجد ويجتهد في النظر والاستدلال، ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد، ولما كان الرسول يهددهم بنزول القيامة وأكثر في ذلك، وأنهم ما رأوا منه أثرا قالوا على سبيل السخرية: فمتى تقوم القيامة، وليتها قامت حتى يظهر لنا أن الحق ما نحن عليه أو الذي عليه محمد وأصحابه، فلدفع هذه الشبهة قال تعالى: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها والمعنى ظهر، وإنما يشفقون ويخافون لعلمهم أن عندها تمتنع التوبة، وأما منكر البعث فلأن لا يحصل له هذا الخوف.

ثم قال: أل ا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد والممارة الملاجة، قال الزجاج: الذين/ تدخلهم المرية والشك في وقوع الساعة، فيمارون فيها ويجحدون لفي ضلال بعيد لأن استيفاء حق المظلوم من الظالم واجب في العدل، فلو لم تحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله تعالى، وهذا من أمحل المحالات، فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالا بعيدا.

ثم قال: الله لطيف بعباده أي كثير الإحسان بهم، وإنما حسن ذكر هذا الكلام هاهنا لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة، فكان ذلك من لطف الله بعباده، وأيضا المتفرقون استوجبوا العذاب الشديد، ثم إنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضا من لطف الله تعالى، فلما سبق ذكر إيصال أعظم المنافع إليهم ودفع أعظم المضار عنهم، لا جرم حسن ذكره هاهنا، ثم قال: يرزق من يشاء يعني أن أصل الإحسان والبر عام في حق كل العباد، وذلك هو الإحسان بالحياة والعقل والفهم، وإعطاء ما لا بد منه من الرزق، ودفع أكثر الآفات والبليات عنهم، فأما مراتب العطية والبهجة فمتفاوتة مختلفة.

ثم قال: وهو القوي أي القادر على كل ما يشاء العزيز الذي لا يغالب ولا يدافع.

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٢٠ الى ٢٦]

من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب

(٢٠) أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم (٢١) ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير (٢٢) ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور (٢٣) أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشإ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور (٢٤)

وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون (٢٥) ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد (٢٦)." [١]

"[في قوله تعالى ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام] في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وأبو عمرو الجواري بياء في الوصل والوقف، فإثبات الياء على الأصل وحذفها للتخفيف.

المسألة الثانية: الجواري، يعني السفن الجواري، فحذف الموصوف لعدم الالتباس.

المسألة الثالثة: اعلم أنه تعالى ذكر من آياته أيضا هذه السفن العظيمة التي تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح، واعلم أن المقصود من ذكره أمران أحدهما: أن يستدل به على وجود القادر الحكيم والثاني: أن يعرف ما فيه من النعم العظيمة لله تعالى على العباد أما الوجه الأول: فقد اتفقوا على أن المراد بالأعلام الجبال، قالت الخنساء في مرثية أخيها:

وإن صخرا لتأتم لهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

ونقل أن النبي صلى الله عليه وسلم استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوي إلى هذا البيت، قال: «قاتلها الله ما رضيت بتشبيهها له بالجبل حتى جعلت على رأسه نارا!»

إذا عرفت هذا فنقول: هذه السفن العظيمة التي تكون كالجبال تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح على أسرع الوجوه، وعند سكون هذه الرياح تقف، وقد بينا بالدليل في سورة النحل، أن محرك الرياح ومسكنها هو الله تعالى، إذ لا يقدر أحد على تحريكها من البشر ولا على تسكينها، وذلك يدل على وجود الإله القادر، وأيضا أن السفينة تكون في غاية الثقل، ثم إنها مع ثقلها بقيت على وجه الماء، وهو أيضا دلالة أخرى وأما الوجه الثاني: وهو معرفة ما فيها من **المنافع**، فهو أنه تعالى خص كل جانب من جوانب

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧/٥٩٠

الأرض بنوع آخر من الأمتعة، وإذا نقل متاع هذا الجانب إلى ذلك الجانب في السفن وبالعكس حصلت **المنافع** العظيمة في التجارة، فلهذه الأسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفينة.

ثم قال تعالى: إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره قرأ أبو عمرو والجمهور: بهمزة إن يشأ لأن سكون الهمزة علامة للجزم، وعن ورش عن نافع بلا همزة، وقرأ نافع وحده يسكن الرياح على الجمع، والباقون الريح على الواحد، قال صاحب «الكشاف» : قرئ فيظللن بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل، وقوله تعالى: رواكد أي رواتب، أي لا تجري على ظهره، أي على ظهر البحر إن في ذلك لآيات لكل صبار على بلاء الله شكور لنعمائه، والمقصود التنبيه، على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلا عن دلائل معرفة الله البتة، لأنه لا بد وأن يكون إما في البلاء، وإما في الآلاء، فإن كان في البلاء كان من الصابرين، وإن كان من النعماء كان من الشاكرين، وعلى هذا التقدير فإنه لا يكون البتة من الغافلين.

ثم قال تعالى: أو يوبقهن بما كسبوا يعني أو يهلكهن، يقال أوبقه، أي أهلكه، ويقال للمجرم أوبقته ذنوبه، أي أهلكته، والمعنى أنه تعالى إن شاء ابتلى المسافرين في البحر بإحدى بليتين: إما أن يسكن الريح فتركد الجواري على متن البحر وتقف، وإما أن يرسل الرياح ع١صفة فيها فيهلكن بسبب الإغراق، وعلى هذا التقدير فقوله أو يوبقهن معطوف على قوله يسكن لأن التقدير إن يشأ يسكن الريح فيركدن، أو يعصفها فيغرقن بعصفها، وقوله ويعفوا عن كثير معناه إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا عن طريق العفو عنهم، فإن قيل فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جعل مجزوما مثله، قلنا معناه إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على." (١)

"سورة الزخرف

وهي تسع وثمانون آية مكية بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ١ الى ٨]

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) والكتاب المبين (٢) إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون (٣) وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم (٤)

أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين (٥) وكم أرسلنا من نبي في الأولين (٦) وما يأتيهم من

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٠٢/٢٧

نبي إلا كانوا به يستهزؤن (٧) فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين (٨)
اعلم أن قوله حم، والكتاب المبين يحتمل وجهين الأول: أن يكون التقدير هذه حم والكتاب المبين فيكون القسم واقعا على أن هذه السورة هي سورة حم ويكون قوله إنا جعلناه قرآنا عربيا ابتداء لكلام آخر الثاني: أن يكون التقدير هذه حم.
ثم قال: والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا فيكون المقسم عليه هو قوله إنا جعلناه قرآنا عربيا وفي المراد بالكتاب قولان أحدهما: أن المراد به القرآن، وعلى هذا التقدير فقد أقسم بالقرآن أنه جعله عربيا الثاني: أن المراد بالكتاب الكتابة والخط أقسم بالكتابة لكثرة ما فيها من **المنافع**، فإن العلوم إنما تكاملت بسبب الخط فإن المتقدم إذا استنبط علما وأثبته في كتاب، وجاء المتأخر ووقف عليه أمكنه أن يزيد في استنباط الفوائد، فبهذا الطريق تكاثرت الفوائد وانتهت إلى الغايات العظيمة، وفي وصف الكتاب بكونه مبينا من وجوه الأول: أنه المبين/ للذين أنزل إليهم لأنه بلغتهم ولسانهم والثاني: المبين هو الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة وأبان كل باب عما سواه وجعلها مفصلة ملخصة.
واعلم أن وصفه بكونه مبينا مجاز لأن المبين هو الله تعالى وسمي القرآن بذلك توسعا من حيث إنه حصل البيان عنده.." [١]

"الجزء الثامن والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحقاف

وهي ثلاثون وخمس آيات مكية وقيل اربع وثلاثون آية

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ١ الى ٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢) ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون (٣) قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين (٤)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧/٦١٦

اعلم أن نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة الجاثية، وقد ذكرنا ما فيه.
وأما قوله ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق فهذا يدل على إثبات الإله بهذا العالم، ويدل على أن ذلك الإله يجب أن يكون عادلا رحيما بعباده، ناظرا لهم محسنا إليهم، ويدل على أن القيامة حق.
أما المطلوب الأول: وهو إثبات الإله بهذا العالم، وذلك لأن الخلق عبارة عن التقدير، وآثار التقدير ظاهرة في السموات والأرض من الوجوه العشرة المذكورة في سورة الأنعام، وقد بينا أن تلك الوجوه تدل على وجود الإله القادر المختار.
وأما المطلوب الثاني: وهو إثبات أن إله العالم عادل رحيم فيدل عليه قوله تعالى: إلا بالحق لأن قوله إلا بالحق معناه إلا لأجل الفضل والرحمة والإحسان، وأن الإله يجب أن يكون فضله زائدا وأن يكون إحسانه راجحا، وأن يكون وصول **المنافع** منه إلى المحتاجين أكثر من وصول المضار إليهم، قال الجبائي هذا يدل على أن كل ما بين السموات والأرض من القبائح فهو ليس من خلقه بل هو من أفعال عباده، وإلا لزم أن يكون خالقا لكل باطل، وذلك ينافي قوله ما خلقناهما إلا بالحق [الدخان: ٣٩] أجاب أصحابنا وقالوا: خلق الباطل غير، والخلق بالباطل غير، فنحن نقول إنه هو الذي خلق الباطل إلا أنه خلق ذلك الباطل بالحق." (١)

"هذه الآية إنسانا معينا قال هذا القول، وأما أبو بكر فقد قال هذا القول في قريب من هذا السن، لأنه كان أقل سنا من النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين وشيء، والنبي صلى الله عليه وسلم بعث عند الأربعين وكان أبو بكر قريبا من الأربعين وهو قد صدق النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به، فثبت بما ذكرناه أن هذه الآيات صالحة لأن يكون المراد منها أبو بكر، وإذا ثبت القول بهذه الصلاحية فنقول: ندعي أنه هو المراد من هذه الآية، ويدل عليه أنه تعالى قال في آخر هذه الآية أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وهذا يدل على أن المراد من هذه الآية أفضل الخلق لأن الذي يتقبل الله عنه أحسن أعماله ويتجاوز عن كل سيئاته يجب أن يكون من أفاضل الخلق وأكابرهم، وأجمعت الأمة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أبو بكر وإما علي، ولا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأن هذه الآية إنما تليق بمن أتى بهذه الكلمة عند بلوغ الأشد وعند القرب من الأربعين، وعلي بن أبي طالب ما كان كذلك لأنه إنما آمن في زمان الصبا أو عند القرب من الصبا، فثبت أن المراد من هذه الآية هو أبو بكر والله أعلم.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥/٢٨

المسألة الرابعة: قوله تعالى: أوزعني قال ابن عباس معناه ألهمني، قال صاحب «الصحاح» أوزعته بالشيء أغريته به فأوزع به فهو موزع به أي مغرى به، واستوزعت الله شكره، فأوزعني أي استلهمته فألهمني.
المسألة الخامسة: اعلم أنه تعالى حكى عن هذا الداعي أنه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء: أحدها: أن يوفقه الله للشكر على نعمه والثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله الثالث: أن يصلح له في ذريته، وفي ترتيب هذه الأشياء الثلاثة على الوجه المذكور وجهان: الأول: أنا بينا أن مراتب السعادات ثلاثة أكملها النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية والسعادات النفسانية هي اشتغال القلب بشكر آلاء الله ونعمائه، والسعادات البدنية هي اشتغال البدن بالطاعة والخدمة، والسعادات الخارجية هي سعادة الأهل والولد، فلما كانت المراتب محصورة في هذه الثلاثة لا جرم رتبها الله تعالى على هذا الوجه.
والسبب الثاني: لرعاية هذا الترتيب أنه تعالى قدم الشكر على العمل، لأن الشكر من أعمال القلوب، والعمل من أعمال الجوارح، وعمل القلب أشرف من عمل الجارحة، وأيضا المقصود من الأعمال الظاهرة أحوال القلب قال تعالى: وأقم الصلاة لذكري [طه: ١٤] بين أن الصلاة مطلوبة لأجل أنها تفيد الذكر، فثبت أن أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح، والأشرف يجب تقديمه في الذكر، وأيضا الاشتغال بالشكر اشتغال بقضاء حقوق النعم الماضية، والاشتغال بالطاعة الظاهرة اشتغال بطلب النعم المستقبلة، وقضاء الحقوق الماضية يجري مجرى قضاء الدين، وطلب المنافع المستقبلة طلب للزوائد. ومعلوم أن قضاء الدين مقدم على سائر المهمات، فلهذا السبب قدم الشكر على سائر الطاعات، وأيضا أنه قدم طلب التوفيق على الشكر، وطلب التوفيق على الطاعة على طلب أن يصلح له ذريته، وذلك لأن المطلوبين الأولين اشتغال بالتعظيم لأمر الله، والمطلوب الثالث اشتغال بالشفقة على خلق الله، ومعلوم أن التعظيم لأمر الله يجب تقديمه على الشفقة على خلق الله.
المسألة السادسة: قال أصحابنا إن العبد طلب من الله تعالى أن يلهمه الشكر على نعم الله، وهذا يدل على أنه لا يتم شيء من الطاعات والأعمال إلا بإعانة الله تعالى، ولو كان العبد مستقلا بأفعاله لكان هذا الطلب عبثا، وأيضا المفسرون قالوا المراد من قوله أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي هو الإيمان أو الإيمان." (١)

"عجيب، فإن الأشجار الطوال أثمارها بارزها متميز بعضها من بعض لكل واحد منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز وغيرهما والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على أصل واحد.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٩/٢٨

[سورة ق (٥٠) : آية ١١]

رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١١)

ثم قال تعالى: رزقا للعباد وفيه وجهان أحدهما نصب على المصدر لأن الإنبات رزق/ فكأنه تعالى قال: أنبتناها إنباتا للعباد، والثاني نصب على كونه مفعولا له كأنه قال: أنبتناها لرزق العباد، وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال في خلق السماء والأرض تبصرة وذكرى [ق: ٨] وفي الثمار قال: رزقا والثمار أيضا فيها تبصرة، وفي السماء والأرض أيضا منفعة غير التبصرة والتذكرة، فما الحكمة في اختيار الأمرين؟ نقول فيه وجوه أحدها: أن نقول الاستدلال وقع لوجود أمرين أحدهما الإعادة والثاني البقاء بعد الإعادة فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعد الثواب الدائم والعقاب الدائم، وأنكروا ذلك، فأما الأول فالله القادر على خلق السموات والأرض قادر على خلق الخلق بعد الفناء، وأما الثاني فلأن البقاء في الدنيا بالرزق والقادر على إخراج الأرزاق من النجم والشجر، قادر على أن يرزق العبد في الجنة ويبقى، فكأن الأول تبصرة وتذكرة بالخلق، والثاني تذكرة بالبقاء بالرزق، ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله تبصرة وذكرى حيث ذكر ذلك بعد الآيتين، ثم بدأ بذكر الماء وإنزاله وإنباته النبات ثانيها: أن منفعة الثمار الظاهرة هي الرزق فذكرها ومنفعة السماء الظاهرة ليست أمرا عائدا إلى انتفاع العباد لبعدها عن ذهنهم، حتى أنهم لو توهموا عدم الزرع والثمر لظنوا أن يهلكوا، ولو توهموا عدم السماء فوقهم لقالوا لا يضرنا ذلك مع أن الأمر بالعكس أولى، لأن السماء سبب الأرزاق بتقدير الله، وفيها غير ذلك من **المنافع**، والثمار وإن لم تكن [ما] كان العيش، كما أنزل الله على قوم المن والسلوى وعلى قوم المائدة من السماء فذكر الأظهر للناس في هذا الموضع ثالثها: قوله رزقا إشارة إلى كونه منعما لكون تكذيبهم في غاية القبح فإنه يكون إشارة [للتكذيب] بالمنعم وهو أقبح ما يكون.

المسألة الثانية: قال: تبصرة وذكرى لكل عبد منيب [ق: ٨] فقيد العبد بكونه منيبا وجعل خلقها تبصرة لعباده المخلصين وقال: رزقا للعباد مطلقا لأن الرزق حصل لكل أحد، غير أن المنيب يأكل ذاكرا شاكرا للإنعام، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام فلم يخصص الرزق بقيد.

المسألة الثالثة: ذكر في هذه الآية أمور ثلاثة أيضا وهي إنبات الجنات والحب والنخل كما ذكر في السماء والأرض في كل واحدة أمورا ثلاثة، وقد ثبت أن الأمور الثلاثة في الآيتين المتقدمين متناسبة، فهل هي كذلك في هذه الآية؟ نقول قد بينا أن الأمور الثلاثة إشارة إلى الأجناس الثلاثة، وهي التي يبقى أصلها سنين، ولا تحتاج إلى عمل عامل والتي لا يبقى أصلها وتحتاج كل سنة إلى عمل عامل، والتي يجتمع

فيها الأمران وليس شيء من الثمار والزروع خارجا عنه أصلا كما أن أمور الأرض منحصرة في ثلاثة: ابتداء وهو المد، ووسط وهو النبات بالجبال الراسية، وثالثها هو غاية الكمال وهو الإنبات والتزيين بالزخارف.

ثم قال تعالى: وأحيينا به بلدة ميتا عطفا على فأنبتنا به [ق: ٩] وفهي بحثان:." (١)

"إسرافهم؟ نقول ما دل عليه قوله تعالى: ما سبقكم بها من أحد من العالمين [العنكبوت: ٢٨] أي لم يبلغ مبلغكم أحد وقوله تعالى:

[سورة الذاريات (٥١) : آية ٣٥]

فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥)

فيه فائدتان:

إحداهما: بيان القدرة والاختيار فإن من يقول بالاتفاق يقول يصيب البر والفاجر فلما ميز الله المجرم عن المحسن دل على الاختيار.

ثانيها: بيان أنه ببركة المحسن ينجو المسيء فإن القرية ما دام فيها المؤمن لم تهلك، والضمير عائد إلى القرية معلومة وإن لم تكن مذكورة وقوله تعالى:

[سورة الذاريات (٥١) : آية ٣٦]

فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦)

فيه إشارة إلى أن الكفر إذا غلب والفسق إذا فشا لا تنفع معه عبادة المؤمنين، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون، وقيل في مثاله إن العالم كبدن ووجود الصالحين كالأغذية الباردة والحارة والكفار والفساق كالسموم الواردة عليه الضارة، ثم إن البدن إن خلا عن المنافع وفيه المضار هلك وإن خلا عن المضار وفيه المنافع طاب عيشه ونما، وإن وجد فيه كلاهما فالحكم للغالب فكذلك البلاد والعباد والدلالة على أن المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة، والحق أن المسلم أعم من المؤمن وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه، فإذا سمي المؤمن مسلما لا يدل على اتحاد مفهوميهما، فكأنه تعالى قال أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتا من المسلمين ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين، وهذا كما لو قال قائل لغيره: من في البيت من الناس؟ فيقول له ما في البيت من

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣٠/٢٨

الحيوانات أحد غير زيد، فيكون مخبرا له بخلو البيت عن كل إنسان غير زيد. ثم قال تعالى:

[سورة الذاريات (٥١) : آية ٣٧]
وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧)
وفي الآية خلاف، قيل هو ماء أسود منتن انشقت أرضهم وخرج منها ذلك، وقيل حجارة مرمية في ديارهم وهي بين الشام والحجاز، وقوله للذين يخافون العذاب الأليم أي المنتفع بها هو الخائف، كما قال تعالى: لقوم يعقلون [العنكبوت: ٣٥] في سورة العنكبوت، وبينهما في اللفظ فرق قال هاهنا آية وقال هناك آية بينة وقال هناك لقوم يعقلون وقال هاهنا للذين يخافون فهل في المعنى فرق؟ نقول هناك مذكور بأبلغ وجه يدل عليه قوله تعالى: آية بينة حيث وصفها بالظهور، وكذلك منها وفيها فإن من للتبعيض، فكأنه تعالى قال: من نفسها لكم آية باقية، وكذلك قال: لقوم يعقلون فإن العاقل أعم من الخائف، فكانت الآية هناك أظهر، وسببه ما ذكرنا أن القصد هناك تخويف القوم، وهاهنا تسلية القلب ألا ترى إلى قوله تعالى: فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين [الذاريات: ٣٥، ٣٦] وقال هناك إنا منجوك وأهلك [العنكبوت: ٣٣] من غير بيان واف بنجاة المسلمين والمؤمنين بأسرهم. / ثم قال تعالى:." (١)

"منكري ذلك، ونحن نقول فيه وجوه الأول: أن التعليل لفظي ومعنوي، واللفظي ما يطلق الناظر إليه اللفظ عليه وإن لم يكن له في الحقيقة، مثاله إذا خرج ملك من بلاده ودخل بلاد العدو وكان في قلبه أن يتعب عسكر نفسه لا غير، ففي المعنى المقصود ذلك، وفي اللفظ لا يصح ولو قال هو أنا ما سافرت إلا لابتغاء أجر أو لأستفيد حسنة يقال/ هذا ليس بشيء ولا يصح عليه، ولو قال قائل في مثل هذه الصورة خرج ليأخذ بلاد العدو وليرهبه لصدق، فالتعليل اللفظي هو جعل المنفعة المعتبرة علة للفعل الذي فيه المنفعة، يقال اتجر للربح، وإن لم يكن في الحقيقة له، إذا عرفت هذا، فنقول الحقائق غير معلومة عند الناس، والمفهوم من النصوص معانيها اللفظية لكن الشيء إذا كان فيه منفعة يصح التعليل بها لفظا والنزاع في الحقيقة في اللفظ الثاني: هو أن ذلك تقدير كالتمني والترجي في كلام الله تعالى وكأنه يقول العبادة عند الخلق شيء لو كان ذلك من أفعالكم لقلتم إنه لها، كما قلنا في قوله تعالى: لعله يتذكر [طه: ٤٤] أي بحيث يصير تذكرة عندكم مرجوا وقوله عسى ربكم أن يهلك عدوكم [الأعراف: ١٢٩] أي يصير إهلاكه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٨١/٢٨

عندكم مرجوا تقولون إنه قرب الثاني: هو أن اللام قد تثبت فيما لا يصح غرضا كما في الوقت قال تعالى: أقم الصلاة لدلوك الشمس [الإسراء: ٧٨] وقوله تعالى:

فطلقوهن لعدتهن [الطلاق: ١] والمراد المقارنة، وكذلك في جميع الصور، وحينئذ يكون معناه قرنت الخلق بالعبادة أي بفرض العبادة أي خلقتهم وفرضت عليهم العبادة، والذي يدل على عدم جواز التعليل الحقيقي هو أن الله تعالى مستغن عن **المنافع** فلا يكون فعله لمنفعة راجعة إليه ولا إلى غيره، لأن الله تعالى قادر على إيصال المنفعة إلى الغير من غير واسطة العمل فيكون توسط ذلك لا ليكون علة، وإذا لزم القول بأن الله تعالى يفعل فعلا هو لمتوسط لا لعلة لزمهم المسألة، وأما النصوص فأكثر من أن تعد وهي على أنواع، منها ما يدل على أن الإضلال بفعل الله كقوله تعالى: يضل من يشاء [الرعد: ٢٧] وأمثاله ومنها ما يدل على أن الأشياء كلها بخلق الله كقوله تعالى: خالق كل شيء

[الرعد: ١٦] ومنها الصرائح التي تدل على عدم ذلك، كقوله تعالى: لا يسئل عما يفعل [الأنبياء: ٢٣] وقوله تعالى: ويفعل الله ما يشاء [إبراهيم: ٢٧] يحكم ما يريد [المائدة: ١] والاستقصاء مفوض فيه إلى المتكلم الأصولي لا إلى المفسر.

المسألة الرابعة: قال تعالى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا [الحجرات: ١٣] وقال: ليعبدون فهل بينها اختلاف؟ نقول ليس كذلك فإن الله تعالى علل جعلهم شعوبا بالتعارف، وهاهنا علل خلقهم بالعبادة وقوله هناك أكرمكم عند الله أتقاكم [الحجرات: ١٣] دليل على ما ذكره هاهنا وموافق له، لأنه إذا كان أتقى كان أعبد وأخلص عملا، فيكون المطلوب منه أتم في الوجود فيكون أكرم وأعز، كالشيء الذي منفعته فائدة، وبعض أفراده يكون أنفع في تلك الفائدة، مثاله الماء إذا كان مخلوقا للتطهير والشرب فالصافي منه أكثر فائدة في تلك المنفعة فيكون أشرف من ماء آخر، فكذلك العبد الذي وجد فيه ما هو المطلوب منه على وجه أبلغ.

المسألة الخامسة: ما العبادة التي خلق الجن والإنس لها؟ قلنا: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، فإن هذين النوعين لم يخل شرع منهما، وأما خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرائط والأركان، ولما كان التعظيم اللائق بذي الجلال والإكرام لا يعلم عقلا لزم اتباع الشرائع فيها والأخذ بقول الرسل عليهم السلام فقد أنعم/ الله على عباده بإرسال الرسل وإيضاح السبل في." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٩٣/٢٨

"وحملت كما يقال: شقاني الحمل، وإن لم يكن عليه في الحال حمل، وإذا لم تزر تلك النفس التي يتوقع منها ذلك فكيف تتحمل وزر غيرها فتكون الفائدة كاملة.

وقوله تعالى: وأن ليس للإنسان إلا ما سعى تتمة بيان أحوال المكلف فإنه لما بين له/ أن سيئته لا يتحملها عنه أحد بين له أن حسنة الغير لا تجدي نفعا ومن لم يعمل صالحا لا ينال خيرا فيكمل بها ويظهر أن المسيء لا يجد بسبب حسنة الغير ثوابا ولا يتحمل عنه أحد عقابا، وفيه أيضا مسائل:

الأولى: ليس للإنسان فيه وجهان أحدهما: أنه عام وهو الحق وقيل عليه بأن في الأخبار أن ما يأتي به القريب من الصدقة والصوم يصل إلى الميت والدعاء أيضا نافع فللإنسان شيء لم يسمع فيه، وأيضا قال الله تعالى: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها [الأنعام: ١٦٠] وهي فوق ما سعى، الجواب عنه أن الإنسان إن لم يسع في أن يكون له صدقة القريب بالإيمان لا يكون له صدقته فليس له إلا ما سعى، وأما الزيادة فنقول: الله تعالى لما وعد المحسن بالأمثال والعشرة وبالأضعاف المضاعفة فإذا أتى بحسنة راجيا أن يؤتيه الله ما يتفضل به فقد سعى في الأمثال، فإن قيل: أنتم إذن حملتم السعي على المبادرة إلى الشيء، يقال: سعى في كذا إذا أسرع إليه، والسعي في قوله تعالى: إلا ما سعى معناه العمل يقال: سعى فلان أي عمل، ولو كان كما ذكرتم لقال: إلا ما سعى فيه نقول على الوجهين جميعا: لا بد من زيادة فإن قوله تعالى: ليس للإنسان إلا ما سعى ليس المراد منه أن له عين ما سعى، بل المراد على ما ذكرت ليس له إلا ثواب ما سعى، أو إلا أجر ما سعى، أو يقال: بأن المراد أن ما سعى محفوظ له مصون عن الإحباط فإذن له فعله يوم القيامة الوجه الثاني: أن المراد من الإنسان الكافر دون المؤمن وهو ضعيف، وقيل بأن قوله: ليس للإنسان إلا ما سعى كان في شرع من تقدم، ثم إن الله تعالى نسخه في شرع محمد صلى الله عليه وسلم وجعل للإنسان ما سعى وما لم يسع وهو باطل إذ لا حاجة إلى هذا التكلف بعد ما بان الحق، وعلى ما ذكر فقوله: ما سعى مبقى على حقيقته معناه له عين ما سعى محفوظ عند الله تعالى ولا نقصان يدخله ثم يجزى به كما قال تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره [الزلزلة: ٧] .

المسألة الثانية: أن (ما) خبرية أو مصدرية؟ نقول: كونها مصدرية أظهر بدليل قوله تعالى: وأن سعيه سوف يرى أي سوف يرى المسعي، والمصدر للمفعول يجيء كثيرا يقال: هذا خلق الله أي مخلوقه.

المسألة الثالثة: المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة أو بيان كل عمل، نقول: المشهور أنها لكل عمل فالخير مثاب عليه والشر معاقب به والظاهر أنه لبيان الخيرات يدل عليه اللام في قوله تعالى: للإنسان فإن اللام لعود المنافع وعلى لعود المضار تقول: هذا له، وهذا عليه، ويشهد له ويشهد عليه في المنافع

والمضار، وللقائل الأول أن يقول: بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل كجموع السلامة تذكر إذا اجتمعت الإناث مع الذكور، وأيضا يدل عليه قوله تعالى: ثم يجزاه الجزاء الأوفى [النجم: ٤١] والأوفى لا يكون إلا في مقابلة الحسنة، وأما في السيئة فالمثل أو دونه العفو بالكلية.

المسألة الرابعة: إلا ما سعى بصيغة الماضي دون المستقبل لزيادة الحث على السعي في العمل الصالح وتقريره هو أنه تعالى لو قال: ليس للإنسان إلا ما يسعى، تقول النفس إني أصلي غدا/ كذا ركعة وأتصدق بكذا درهما، ثم يجعل مثبتا في صحيفتي الآن لأنه أمر يسعى وله فيه ما يسعى فيه، فقال: ليس له إلا ما قد سعى وحصل وفرغ منه، وأما تسويلات الشيطان وعداته فلا اعتماد عليها ثم قال تعالى:." (١)

"الأول: ما الحكمة في تعريفه عما يرجع إلى الله تعالى حيث قال هما: بحسبان ولم يقل: حركهما الله بحسبان أو سخرهما أو أجراهما كما قال: خلق الإنسان وقال: علمه البيان؟ [الرحمن: ٣، ٤] نقول: فيه حكم منها أن يكون إشارة إلى أن خلق الإنسان وتعليمه البيان أتم وأعظم من خلق **المنافع** له من الرزق وغيره، حيث صرح هناك بأنه فاعله وصانعه ولم يصرح هنا، ومنها أن قوله: الشمس والقمر هاهنا بمثل هذا في العظم يقول القائل: إني أعطيتك الألوف والمئات مرارا وحصل لك الآحاد والعشرات كثيرا وما شكرت، ويكون معناه حصل لك مني ومن عطائي لكنه يخصص التصريح بالعطاء عند الكثير، ومنها أنه لما بينا أن قوله:

الشمس والقمر إشارة إلى دليل عقلي مؤكد السمعي ولم يقل: فعلت صريحا إشارة إلى أنه معقول إذا نظرت إليه عرفت أنه مني واعترفت به، وأما السمعي فصرح بما يرجع إليه من الفعل الثاني: على أي وجه تعلق الباء من بحسبان، نقول: هو بين من تفسيره والتفسير أيضا مر بيانه وخرج من وجه آخر، فنقول: في الحسبان وجهان الأول: المشهور أن المراد الحساب يقال: حسب حسابا وحسبانا، وعلى هذا فالباء للمصالحة تقول:

قدمت بخير أي مع خير ومقرونا بخير فكذلك الشمس والقمر يجريان ومعهما حسابهما ومثله: إنا كل شيء خلقناه بقدر [القمر: ٤٩] ، وكل شيء عنده بمقدار [الرعد: ٨] ويحتمل أن تكون للاستعانة كما في قولك:

بعون الله غلبت، وبتوفيق الله حجت، فكذلك يجريان بحسبان من الله والوجه الثاني: أن الحسبان هو الفلك تشبيها له بحسبان الرحا وهو ما يدور فيدير الحجر، وعلى هذا فهو للاستعانة كما يقال في الآلات

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩/٢٧٦

كتبت بالقلم فهما يدوران بالفلك وهو كقوله تعالى: وكل في فلك يسبحون [يس: ٤٠] ، الثالث: على الوجه المشهور هل كل واحد يجري بحسبان أو كلاهما بحسبان واحد ما المراد؟ نقول: كلاهما محتمل فإن نظرنا إليهما فلكل واحد منهما حس١ب على حدة فهو/ كقوله تعالى: كل في فلك [الأنبياء: ٣٣] لا بمعنى أن الكل مجموع في فلك واحد وكقوله: وكل شيء عنده بمقدار [الرعد: ٨] وإن نظرنا إلى الله تعالى فللكل حساب واحد قدر الكل بتقدير حسبانهما بحساب، مثاله من يقسم ميراث نفسه لكل واحد من الورثة نصيبا معلوما بحساب واحد، ثم يختلف الأمر عندهم فيأخذ البعض السدس والبعض كذا والبعض كذا، فكذلك الحساب الواحد. وأما قوله:

والنجم والشجر يسجدان ففيه أيضا مباحث:

الأول: ما الحكمة في ذكر الجمل السابقة من غير واو عاطفة، ومن هنا ذكرها بالواو العاطفة؟ نقول ليتنوع الكلام نوعين، وذلك لأن من بعد النعم على غيره تارة يذكر نسقا من غير حرف، فيقول: فلان أنعم عليك كثيرا، أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذلك، قواك بعد ضعف، وأخرى يذكرها بحرف عاطف وذلك العاطف قد يكون واوا وقد يكون فاء وقد يكون ثم، فيقول: فلان أكرمك وأنعم عليك وأحسن إليك، ويقول: رب١ك فعلمك فأغناك، ويقول: أعطاك ثم أغناك ثم أحوج الناس إليك، فكذلك هنا ذكر التعديد بالنوعين جميعا، فإن قيل:

زده بيانا وبين الفرق بين النوعين في المعنى، قلنا: الذي يقول بغير حرف كأنه يقصد به بيان النعم الكثيرة فيترك الحرف ليستوعب الكل من غير تطويل كلام، ولهذا يكون ذلك النوع في أغلب الأمر عند مجاوزة النعم ثلاثا أو عند ما تكون أكثر من نعمتين فإن ذكر ذلك عند نعمتين فيقول: فلان أعطاك المال وزوجك البنت، فيكون في كلامه إشارة إلى نعم كثيرة وإنما اقتصر على النعمتين للأنموذج، والذي يقول بحرف فكأنه يريد التنبيه على استقلال كل نعمة بنفسها، وإذهاب توهم البدل والتفسير، فإن قول القائل: أنعم عليك أعطاك المال هو تفسير." (١)

"وجدانه أعسر كانت الحاجة إليه أقل، والجواهر لما كانت الحاجة إليها قليلة جدا، لا جرم كانت عزيزة جدا، فعلمنا أن كل شيء كانت الحاجة إليه أكثر كان وجدانه أسهل، ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله تعالى أشد من الحاجة إلى كل شيء فنرجو من فضله أن يجعلها أسهل الأشياء وجدانا، قال الشاعر:

سبحان من خص العزيز بعزه ... والناس مستغنون عن أجناسه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٤٠/٢٩

وأذل أنفاس الهواء وكل ذي ... نفس فمحتاج إلى أنفاسه

ثم قال تعالى: وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المعنى وليعلم الله من ينصره، أي ينصر دينه، وينصر رسله باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين بالغيب أي غائبا عنهم. قال ابن عباس: ينصرونه ولا يبصرونه، ويقرب منه قوله تعالى: إن تنصروا الله ينصركم [محمد: ٧] .

المسألة الثانية: احتج من قال بحدوث علم الله بقوله: وليعلم الله والجواب عنه أنه تعالى أراد بالعلم المعلوم، فكأنه تعالى قال: ولتقع نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام ممن ينصره.

المسألة الثالثة: قال الجبائي: قوله تعالى: ليقوم الناس بالقسط فيه دلالة على أنه تعالى أنزل الميزان والحديد، ومراده من العباد أن يقوموا بالقسط وأن ينصروا الرسول، وإذا كان هذا مراده من الكل فقد بطل قول المجبرة أنه أراد من بعضهم خلاف ذلك جوابه: أنه كيف يمكن أن يريد من الكل ذلك مع علمه بأن ضده موجود، وأن الجمع بين الضدين محال، وأن المحال غير مراد.

المسألة الرابعة: لما كانت النصرة قد تكون ظاهرة، كما يقع من منافق أو ممن مراده **المنافع** في الدنيا، بين تعالى أن الذي أراده النصرة بالغيب، ومعناه أن تقع عن إخلاص بالقلب، ثم بين تعالى أنه قوي على الأمور عزيز لا يمانع.

[سورة الحديد (٥٧) : آية ٢٦]

ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون (٢٦)

قوله تعالى: ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات، وأنه أنزل الميزان والحديد، وأمر الخلق بأن/ يقوموا بنصرتهم أتبع ذلك ببيان سائر الأشياء التي أنعم بها عليهم، فبين أنه تعالى شرف نوحا وإبراهيم عليهما السلام بالرسالة، ثم جعل في ذريتهما النبوة والكتاب فما جاء بعدهما أحد بالنبوة إلا وكان من أولادهما، وإنما قدم النبوة على الكتاب، لأن كمال حال النبي أن يصير صاحب الكتاب والشرع.

ثم قال تعالى: فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فمنهم مهتد أي فمن الذرية أو من المرسل إليهم، وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين، والمعنى أن منهم مهتد ومنهم فاسق، والغلبة للفساق، وفي الفاسق هاهنا قولان: الأول: أنه الذي ارتكب

الكبيرة سواء كان كافرا أو لم يكن، لأن هذا الاسم يطلق على الكافر وعلى من لا يكون، كذلك إذا كان." (١)

"المسألة السادسة: لقائل أن يقول: إنه تعالى قال هاهنا: وكلا منها رغدا وقال في الأعراف: فكلا من حيث شئتما [الأعراف: ١٩] فعطف كلا على قوله: اسكن في سورة البقرة بالواو وفي سورة الأعراف بالفاء فما الحكمة؟ والجواب: كل فعل عطف عليه شيء وكان الفعل بمنزلة الشرط، وذلك الشيء بمنزلة الجزء عطف الثاني على الأول بالفاء دون الواو كقوله تعالى: وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا [البقرة: ٥٨] فعطف كلوا على ادخلوا بالفاء لما كان وجود الأكل منها متعلقا بدخولها فكأنه قال إن أدخلتموها أكلتم منها، فالدخول موصل إلى الأكل، والأكل متعلق وجوده بوجوده يبين ذلك قوله تعالى في مثل هذه الآية من سورة الأعراف: وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم [الأعراف: ١٦١] ، فعطف كلوا على قوله اسكنوا بالواو دون الفاء لأن اسكنوا من السكنى وهي المقام مع طول اللبث والأكل لا يختص وجوده بوجوده لأن من دخل بستانا قد يأكل منه وإن كان مجتازا فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجزاء بالشرط وجب العطف بالواو دون الفاء، إذا ثبت هذا فنقول: إن اسكن يقال لمن دخل مكانا فيراد منه الزم المكان الذي دخلته ولا تنتقل عنه، ويقال أيضا لمن لم يدخل اسكن هذا المكان يعني ادخله واسكن فيه، ففي سورة البقرة هذا الأمر إنما ورد بعد أن كان آدم في الجنة فكان المراد منه اللبث والاستقرار، وقد بينا أن الأكل لا يتعلق به فلا جرم ورد بلفظ الواو. وفي سورة الأعراف هذا الأمر إنما ورد قيل: أن دخل الجنة فكان المراد منه دخول الجنة وقد بينا أن الأكل يتعلق به فلا جرم ورد بلفظ الفاء والله أعلم.

المسألة السابعة: قوله: ولا تقربا هذه الشجرة لا شبهة في أنه نهي ولكن فيه بحثان. الأول: أن هذا نهي تحريم أو نهي تنزيه فيه خلاف، فقال قائلون: هذه الصيغة النهي/ التنزيه، وذلك لأن هذه الصيغة وردت تارة في التنزيه وأخرى في التحريم، والأصل عدم الاشتراك فلا بد من جعل اللفظ حقيقة في القدر المشترك بين القسمين، وما ذلك إلا أن يجعل حقيقة في ترجيح جانب الترك على جانب الفعل من غير أن يكون فيه دلالة على المنع من الفعل أو على الإطلاق فيه، لكن الإطلاق فيه كان ثابتا بحكم الأصل، فإن الأصل في **المنافع** الإباحة، فإذا ضممنا مدلول اللفظ إلى هذا الأصل صار المجموع دليلا على التنزيه، قالوا: وهذا هو الأولى بهذا المقام لأن على هذا التقدير يرجع حاصل معصية آدم عليه السلام إلى ترك الأولى ومعلوم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٧٢/٢٩

أن كل مذهب كان أفضى إلى عصمة الأنبياء عليهم السلام كان أولى بالقبول، وقال آخرون: بل هذا النهي نهي تحريم واحتجوا عليه بأمور. أحدها: أن قوله تعالى: ولا تقربا هذه الشجرة كقوله: ولا تقربوهن حتى يطهرن [البقرة: ٢٢٢] وقوله: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن
[الأنعام: ١٥٢] فكما أن هذا للتحريم فكذا الأول. وثانيها: أنه قال: فتكونا من الظالمين [البقرة: ٣٥] معناه إن أكلتما منها فقد ظلمتما أنفسكما ألا تراهما لما أكلا قالا ربنا ظلمنا أنفسنا [الأعراف: ٢٣] . وثالثها: أن هذا النهي لو كان نهي تنزيه لما استحق آدم بفعله الإخراج من الجنة ولما وجبت التوبة عليه، والجواب عن الأول نقول: إن النهي وإن كان في الأصل للتنزيه ولكنه قد يحمل على التحريم لدلالة منفصلة، وعن الثاني: أن قوله: فتكونا من الظالمين أي فتظلما أنفسكما بفعل ما الأولى بكما تركه لأنكما إذا فعلتما ذلك أخرجتما من الجنة التي لا تظمئان فيها ولا تجوعان ولا تضحيان ولا تعريان إلى موضع ليس لكما فيه شيء من هذا، وعن الثالث: أنا لا نسلم أن الإخراج من الجنة كان لهذا السبب وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.." (١)

"والسلام توضأ مرة مرة وقال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به»
وأراد نوعه، فلما سمع آدم عليه السلام قوله تعالى: ولا تقربا هذه الشجرة [البقرة: ٣٥] [الأعراف: ١٩] ظن أن النهي إنما يتناول تلك الشجرة المعينة، فتركها وتناول من شجرة أخرى من ذلك النوع، إلا أنه كان مخطئا في ذلك الاجتهاد لأن مراد الله تعالى من كلمة هذه كان النوع لا الشخص والاجتهاد في الفروع، إذا كان خطأ لا يوجب استحقاق العقاب واللعن لاحتمال كونه صغيرة مغفورة كما في شرعنا، فإن قيل: الكلام على هذا القول من وجوه: أحدها: أن كلمة هذا في أصل اللغة للإشارة إلى الشيء الحاضر. والشيء الحاضر لا يكون إلا شيئا معينا، فكلمة هذا في أصل اللغة للإشارة إلى الشيء/ المعين فأما أن يراد بها الإشارة إلى النوع، فذاك على خلاف الأصل، وأيضا فلأنه تعالى لا تجوز الإشارة عليه فوجب أن يكون أمر بعض الملائكة بالإشارة إلى ذلك الشخص، فكان ما عداه خارجا عن النهي لا محالة، إذا ثبت هذا فنقول: المجتهد مكلف بحمل اللفظ على حقيقته، فآدم عليه السلام لما حمل لفظ هذا على المعين كان قد فعل الواجب ولا يجوز له حمله على النوع، واعلم أن هذا الكلام متأيد بأمرين آخرين. أحدهما: أن قوله: وكلا منها رغدا حيث شئتما [البقرة: ٣٥] أفاد الإذن في تناول كل ما في الجنة إلا ما خصه الدليل. والثاني: أن العقل يقتضي حل الانتفاع بجميع **المنافع** إلا ما خصه الدليل، والدليل المخصص لم يدل إلا على ذلك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣/٤٥٣

المعين، فثبت أن آدم عليه السلام كان مأذونا له في الانتفاع بسائر الأشجار، وإذا ثبت هذا امتنع أن يستحق بسبب هذا عتابا وأن يحكم عليه بكونه مخطئا فثبت أن حمل القصة على هذا الوجه، يوجب أن يحكم عليه بأنه كان مصيبا لا مخطئا، وإذا كان كذلك ثبت فساد هذا التأويل. الوجه الثاني: في الاعتراض على هذا التأويل. هب أن لفظ هذا متردد بين الشخص والنوع، ولكن هل قرن الله تعالى بهذا اللفظ ما يدل على أن المراد منه النوع دون الشخص أو ما فعل ذلك؟ فإن كان الأول فإما أن يقال إن آدم عليه السلام قصر في معرفة ذلك البيان، فحينئذ يكون قد أتى بالذنب، وإن لم يقصر في معرفته بل عرفه فقد عرف حينئذ أن المراد هو النوع، فإقدامه على التناول من شجرة من ذلك النوع يكون إقداما على الذنب قصدا.

الوجه الثالث: أن الأنبياء عليهم السلام لا يجوز لهم الاجتهاد لأن الاجتهاد إقدام على العمل بالظن، وذلك إنما يجوز في حق من لا يتمكن من تحصيل العلم، أما الأنبياء فإنهم قادرون على تحصيل اليقين، فوجب أن لا يجوز لهم الاجتهاد لأن الاكتفاء بالظن مع القدرة على تحصيل اليقين غير جائز عقلا وشرعا، وإذا ثبت ذلك ثبت أن الإقدام على الاجتهاد معصية. الوجه الرابع: هذه المسألة إما أن تكون من المسائل القطعية أو الظنية، فإن كانت من القطعيات كان الخطأ فيها كبيرا وحينئذ يعود الإشكال، وإن كانت من الظنيات فإن قلنا إن كل مجتهد مصيب فلا يتحقق الخطأ فيها أصلا، وإن قلنا المصيب فيها واحد والمخطئ فيها معذور بالاتفاق فكيف صار هذا القدر من الخطأ سببا لأن نزع عن آدم عليه السلام لباسه وأخرج من الجنة وأهبط إلى الأرض؟

والجواب عن الأول: أن لفظ هذا وإن كان في الأصل للإشارة إلى الشخص لكنه قد يستعمل في الإشارة إلى النوع كما تقدم بيانه، وأنه سبحانه وتعالى كان قد قرن به ما دل على أن المراد هو النوع. والجواب عن الثاني:

هو أن آدم عليه السلام لعله قصر في معرفة ذلك الدليل لأنه ظن أنه لا يلزمه ذلك في الحال، أو يقال: إنه عرف ذلك لا دليل في وقت ما نهاه الله تعالى عن عين الشجرة، فلما طالت المدة غفل عنه لأن في الخبر أن آدم عليه السلام بقي في الجنة الدهر الطويل ثم أخرج.

والجواب عن الثالث: أنه لا حاجة هاهنا إلى إثبات أن الأنبياء عليهم السلام تمسكوا بالاجتهاد، فإنا بينا أنه عليه السلام قصر في معرفة تلك الدلالة أو أنه كان قد عرفها/ لكنه." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٦١/٣

"تجب التوبة عليهم من جهة السمع وهذا هو الأصح على قوله: لأن التوبة/ لا يجوز أن تجب لعود الثواب الذي هو **المنافع** فقط لأن الفعل لا يجوز أن يجب لأجل جلب **المنافع** كما لا تجب النوافل بل الأنبياء عليهم السلام لما عصمهم الله تعالى صار أحد أسباب عصمتهم التشديد عليهم في التوبة حالا بعد حال وإن كانت معاصيهم صغيرة.

المسألة السادسة: قال القفال: أصل التوبة الرجوع كالأبوة. يقال: توب كما يقال أوب. قال الله تعالى: قابل التوب [غافر: ٣] فقولهم تاب يتوب توبا وتوبة ومتابا فهو تائب وتواب كقولهم آب يؤوب أوبا وأوبة فهو آئب وأواب، والتوبة لفظة يشترك فيها الرب والعبد، فإذا وصف بها العبد فالمعنى رجع إلى ربه لأن كل عاص فهو في معنى الهارب من ربه فإذا تاب فقد رجع عن هربه إلى ربه فيقال: تاب إلى ربه والرب في هذه الحالة كالمعرض عن عبده وإذا وصف بها الرب تعالى فالمعنى أنه رجع على عبده برحمته وفضله ولهذا السبب وقع الاختلاف في الصلة، فقيل في العبد: تاب إلى ربه. وفي الرب على عبده وقد يفارق الرجل خدمة رئيس فيقطع الرئيس معروفه عنه، ثم يراجع خدمته، فيقال: فلان عاد إلى الأمير والأمير عاد عليه بإحسانه ومعروفه، إذا عرفت هذا فنقول: قبول التوبة يكون بوجهين، أحدهما: أن يثيب عليها الثواب العظيم كما أن قبول الطاعة يراد به ذلك، والثاني: أنه تعالى يغفر ذنوبه بسبب التوبة.

المسألة السابعة: المراد من وصف الله تعالى بالتواب المبالغة في قبول التوبة وذلك من وجهين، الأول: أن واحدا من ملوك الدنيا متى جنى عليه إنسان ثم اعتذر إليه فإنه يقبل الاعتذار، ثم إذا عاد إلى الجناية وإلى الاعتذار مرة أخرى فإنه لا يقبله لأن طبعه يمنعه من قبول العذر، أما الله سبحانه وتعالى فإنه بخلاف ذلك، فإنه إنما يقبل التوبة لا لأمر يرجع إلى رقة طبع أو جلب نفع أو دفع ضرر بل إنما يقبلها لمحض الإحسان والتفضل.

فلو عصى المكلف كل ساعة ثم تاب وبقي على هذه الحالة العمر الطويل لكان الله تعالى يغفر له ما قد سلف ويقبل توبته، فصار تعالى مستحقا للمبالغة في قبول التوبة فوصف بأنه تعالى تواب. الثاني: أن الذين يتوبون إلى الله تعالى فإنه يكثر عددهم فإذا قبل توبة الجميع استحق المبالغة في ذلك، ولما كان قبول التوبة مع إزالة العقاب يقتضي حصول الثواب وكان الثواب من جهته نعمة ورحمة وصف نفسه مع كونه توابا بأنه رحيم.

المسألة الثامنة: في هذه الآية فوائد: إحداها: أنه لا بد وأن يكون العبد مشتغلا بالتوبة في كل حين وأوان، لما ورد في ذلك من الأحاديث والآثار، أما الأحاديث (أ)

روي أن رجلا سأل أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه عن الرجل يذنب ثم يستغفر ثم يذنب ثم يستغفر ثم يذنب ثم يستغفر فقال أمير المؤمنين: يستغفر أبدا حتى يكون الشيطان هو الخاسر فيقول لا طاقة لي معه، وقال علي: كلما قدرت أن تطرحه في ورطة وتتخلص منها فافعل.

(ب)

وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يصر من استغفر/ وإن عاد في اليوم سبعين مرة.

(ج)

وعن ابن عمر قال عليه الصلاة والسلام: توبوا إلى ربكم فإني أتوب إليه في كل يوم مائة مرة.

(د)

وأبو هريرة قال: قال عليه الصلاة والسلام حين أنزل عليه: وأنذر عشيرتك الأقربين [الشعراء: ٢١٤] «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا» أخرجاه في الصحيح.

(هـ)

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مائة مرة» .." (١)

"[سورة البقرة (٢) : آية ٤٠]

يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون (٤٠)

اعلم أن فيه مسائل:

المسألة الأولى: اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ويقولون إن معنى إسرائيل عبد الله لأن «إسرا» في لغتهم هو العبد و «إيل» هو الله وكذلك جبريل وهو عبد الله وميكائيل عبد الله. قال القفال: قيل إن «إسرا» بالعبرانية في معنى إنسان فكأنه قيل رجل الله فقوله: يا بني إسرائيل خطاب مع جماعة اليهود الذين كانوا بالمدينة من ولد يعقوب عليه السلام في أيام محمد صلى الله عليه وسلم.

المسألة الثانية: حد النعمة أنها المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير ومنهم من يقول: المنفعة الحسنة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، قالوا: وإنما زدنا هذا لأن النعمة يستحق بها الشكر وإذا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٦٨/٣

كانت قبيحة لم يستحق بها الشكر والحق أن هذا القيد غير معتبر لأنه/ يجوز أن يستحق الشكر بالإحسان وإن كان فعله محظورا لأن جهة استحقاق الشكر غير جهة استحقاق الذم والعقاب، فأي امتناع في اجتماعهما؟ ألا ترى أن الفاسق يستحق الشكر بإنعامه والذم بمعصيته فلم لا يجوز هاهنا أن يكون الأمر كذلك؟ ولنرجع إلى تفسي الحد فنقول: أما قولنا: المنفعة فلأن المضرة المحضة لا يجوز أن تكون نعمة، وقولنا: المفعولة على جهة الإحسان فلأنه لو كان نفعا وقصد الفاعل نفع نفسه لا نفع المفعول به كمن أحسن إلى جاريته ليربح عليها أو أراد استدراجه إلى ضرر واختداعه كمن أطعم خبيصا مسموما ليهلكه لم يكن ذلك، نعمة فأما إذا كانت المنفعة مفعولة على قصد الإحسان إلى الغير كانت نعمة. إذا عرفت حد النعمة فلنفرع عليه فروعا: الفرع الأول: اعلم أن كل ما يصل إلينا آناء الليل والنهار في الدنيا والآخرة من النفع ودفع الضرر فهو من الله تعالى على ما قال تعالى: وما بكم من نعمة فمن الله [النحل: ٥٣] ، ثم إن النعمة على ثلاثة أوجه: أحدها: نعمة تفرد الله بها نحو أن خلق ورزق، وثانيها: نعمة وصلت إلينا من جهة غيره بأن خلقها وخلق المنعم ومكنه من الإنعام وخلق فيه قدرة الإنعام وداعيته ووفقه عليه وهداه إليه، فهذه النعمة في الحقيقة أيضا من الله تعالى، إلا أنه تعالى لما أجراها على يد عبده كان ذلك العبد مشكورا، ولكن المشكور في الحقيقة هو الله تعالى، ولهذا قال: أن اشكر لي ولوالديك [لقمان: ١٤] فبدأ بنفسه، وقال عليه السلام: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» .

وثالثها: نعمة وصلت إلينا من الله تعالى بواسطة طاعاتنا وهي أيضا من الله تعالى لأنه لولا أنه سبحانه وتعالى وفقنا على الطاعات وأعاننا عليها وهدانا إليها وأزاح الأعذار وإلا لما وصلنا إلى شيء منها، فظهر بهذا التقرير أن جميع النعم من الله تعالى على ما قال سبحانه وتعالى: وما بكم من نعمة فمن الله. الفرع الثاني: أن نعم الله تعالى على عبيده مما لا يمكن عدها وحصرها على ما قال: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها [النحل: ١٨] وإنما لا يمكن ذلك لأن كل ما أودع فينا من المنافع واللذات التي ننتفع بها والجوارح والأعضاء التي نستعملها في جلب المنافع ودفع المضار وما خلق الله تعالى في العالم مما يلتذ به ويستدل على وجود الصانع وما وجد في العالم مما يحصل الانزجار برؤيته عن المعاصي مما لا يحصى عدده وكل ذلك منافع لأن المنفعة هي اللذة أو ما يكون وسيلة إلى اللذة وجميع ما خلق الله تعالى كذلك لأن كل ما يلتذ به نعمة وكل ما يلتذ به وهو وسيلة إلى دفع الضرر فهو كذلك والذي لا يكون جالبا للنفع

الحاضر ولا دافعا للضرر الحاضر فهو صالح لأن يستدل به على الصانع الحكيم فيقع ذلك وسيلة إلى معرفته وطاعته وهما وسيلتان إلى اللذات الأبدية فثبت أن جميع مخلوقاته." (١)

"سبحانه نعم على العبيد، ولما كانت العقول قاصرة عن تعديد ما في أقل الأشياء من **المنافع** والحكم فكيف يمكن الإحاطة بكل ما في العالم من **المنافع** والحكم، فصح بهذا معنى قوله تعالى: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها فإن قيل: فإذا كانت النعم غير متناهية وما لا يتناهى لا يحصل العلم به في حق العبد فكيف أمر بتذكرها في قوله: اذكروا نعمتي التي أنعمت/ عليكم والجواب أنها غير متناهية بحسب الأنواع والأشخاص إلا أنها متناهية بحسب الأجناس، وذلك يكفي في التذكير الذي يفيد العلم بوجود الصانع الحكيم. واعلم أنه لما ثبت أن استحقاق الحمد والثناء والطاعة لا يتحقق إلا على إيصال النعمة ثبت أنه سبحانه وتعالى هو المستحق لحمد الحامدين. ولهذا قال في ذم الأصنام: هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون [الشعراء: ٧٢، ٧٣] وقال تعالى: ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم [الفرقان: ٥٥] وقال:

أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى [يونس: ٣٥] . الفرع الثالث: أن أول ما أنعم الله به على عبيده هو أن خلقهم أحياء والدليل عليه قوله تعالى: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا [البقرة: ٢٨، ٢٩] إلى آخر الآية، وهذا صريح في أن أصل النعم الحياة لأنه تعالى أول ما ذكر من النعم فإنما ذكر الحياة ثم إنه تعالى ذكر عقيبها سائر النعم وأنه تعالى إنما ذكر المؤمنين ليبين أن المقصود من حياة الدنيا حياة الآخرة والثواب. وبين أن جميع ما خلق قسمان منتفع ومنتفع به، هذا قول المعتزلة. وقال أهل السنة: إنه سبحانه كما خلق **المنافع** خلق المضار ولا اعتراض لأحد عليه، ولهذا سمى نفسه «النافع الضار» ولا يسأل عما يفعل. الفرع الرابع: قالت المعتزلة: إن الله تعالى قد أنعم على المكلفين بنعمة الدنيا ونعمة الدين، وسوى بين الجميع في النعم الدينية والدنيوية، أما في النعم الدينية فلأن كل ما كان في المقدور من الألطاف فقد فعل بهم والذي لم يفعله فغير داخل في القدرة إذ لو قدر على لطف لم يفعله بالمكلف لبقي عذر المكلف، وأما في الدنيا فعلى قول البغداديين خاصة لأن عندهم يجب رعاية الأصلح في الدنيا وعند البصريين لا يجب. وقال أهل السنة: إن الله تعالى خلق الكافر للنار والعذاب الآخرة ثم اختلفوا في أنه هل لله نعمة على الكافر في الدنيا؟ فمنهم من قال: هذه النعم القليلة في الدنيا لما كانت مؤدية إلى الضرر الدائم في الآخرة لم يكن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣/٤٧٤

ذلك نعمة على الكافر في الدنيا، فإن من جعل السم في الحلوى لم يعد النفع الحاصل من أكل الحلوى نعمة لما كان ذلك سبيلا إلى الضرر العظيم، ولهذا قال تعالى: ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما [آل عمران: ١٧٨] ومنهم من قال: إنه تعالى وإن لم ينعم على الكافر بنعمة الدين فلقد أنعم عليه بنعمة الدنيا وهو قول القاضي أبي بكر الباقلاني رحمه الله، وهذا القول أصوب ويدل عليه وجوه. أحدها: قوله تعالى: يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء [البقرة: ٢١، ٢٢] فنبه على أنه يجب على الكل طاعته لمكان هذه النعم وهي نعمة الخلق والرزق. ثانيها: قوله تعالى: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا [البقرة: ٢٨] إلى آخره وذكر ذلك في معرض الامتنان وشرح النعم ولو لم يصل إليهم من الله تعالى شيء من النعم لما صح ذلك. وثالثها: قوله: يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين [البقرة: ٤٧] وهذا نص صريح في أن الله تعالى أنعم على الكافر إذ المخاطب بذلك هم أهل الكتاب وكانوا من الكفار وكذا قوله: يا بني إسرائيل/ اذكروا نعمتي إلى قوله: وإذ نجيناكم وقوله: وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون [البقرة: ٥٣] . وكل ذلك." (١)

"عد للنعم على العبيد. ورابعها: قوله: ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا [الأنعام: ٦] . وخامسها: قوله: قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه [الأنعام: ٦٣] إلى قوله: ثم أنتم تشركون. وسادسها: قوله: ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون [الأعراف: ١٠] وقال في قصة إبليس: ولا تجد أكثرهم شاكرين [الأعراف: ١٧] ، ولو لم يكن عليهم من الله نعمة لما كان لهذا القول فائدة. وسابعها: قوله: واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض [الأعراف: ٧٤] الآية، وقال حاكيا عن شعيب: واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم [الأعراف: ٨٦] وقال حاكيا عن موسى: قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين [الأعراف: ١٤٠] . وثامنها: قوله: ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم [الأنفال: ٥٣] وهذا صريح. وتاسعها: قوله: هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق [يونس: ٥] . وعاشرها: قوله تعالى: وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم. الحادي عشر: قوله: (هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها إلى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٧٥/٣

قوله: فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق [يونس: ٢٢- ٢٣] . الثاني عشر: قوله: وهو الذي جعل لكم الليل لباسا [الفرقان: ٤٧] . وقوله: هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا [يونس: ٦٧] . الثالث عشر: ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار [إبراهيم: ٢٨- ٢٩] . الرابع عشر: الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره [إبراهيم: ٣٢] . الخامس عشر: قوله تعالى: وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار [إبراهيم: ٣٤] وهذا صريح في إثبات النعمة في حق الكفار.

واعلم أن الخلاف في هذه المسألة راجع إلى العبارة. وذلك لأنه لا نزاع في أن هذه الأشياء أعني الحياة والعقل والسمع والبصر وأنواع الرزق والمنافع من الله تعالى إنما الخلاف في أن أمثال هذه المنافع إذا حصل عقيبها تلك المضار الأبدية هل يطلق في العرف عليها اسم النعمة أم لا؟ ومعلوم أن ذلك نزاع في مجرد عبارة، وأما الذي يدل على أن ما لا يلتذ به المكلف فهو تعالى إنما خلقه لينتفع به في الاستدلال على الصانع وعلى لطفه وإحسانه فأمور. أحدها: قوله تعالى في سورة أتى أمر الله: ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده فيبين تعالى أنه إنما بعث الرسل مبشرين ومنذرين ولأجل الدعوة إلى وحدانيته والإيمان بتوحيده وعدله، ثم إنه تعالى قال: خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين [النحل: ٢- ٤] فبين أن حدوث العبد مع ما فيه من الكفر من أعظم الدلائل على وجود الصانع وهو انقلابه من حال إلى حال، من كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى أن ينتهي من أخس أحواله/ وهو كونه نطفة إلى أشرف أحواله وهو كونه خصيما مبينا، ثم ذكر بعد ذلك وجوه إنعامه فقال: والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون إلى قوله: هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون [النحل: ٥- ١٠] بين بذلك الرد على الدهرية وأصحاب الطبائع لأنه تعالى بين أن الماء واحد والتراب واحد ومع ذلك اختلفت الألوان والطعوم والروائح، ثم قال: وسخر لكم الليل والنهار [النحل: ١٢] بين به الرد على المنجمين وأصحاب الأفلاك حيث استدل بحركاتها وبكونها مسخرة على طريقة واحدة على حدوثها فأثبت." (١)

"سبحانه وتعالى بهذه الآيات أن كل ما في العالم مخلوق لأجل المكلفين لأن كل ما في العالم مما يغاير ذات المكلف ليس يخلو من أن يلتذ به المكلف ويستروح إليه فيحصل له به سرور أو يتحمل عنه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٧٦/٣

كلفة أو يحصل له به اعتبار نحو الأجسام المؤذية كالحيات والعقارب فيتذكر بالنظر إليها أنواع العقاب في الآخرة فيحترز منها ويستدل بها على المنعم الأعظم، فثبت أنه لا يخرج شيء من مخلوقاته عن هذه **المنافع**، ثم إنه سبحانه وتعالى نبه على عظم إنعامه بهذه الأشياء في آخر هذه الآيات فقال: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها [النحل: ١٨] . وثانيها: قوله تعالى: وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله [النحل: ١١٢] فنبه بذلك على أن كون النعمة واصلة إليهم يوجب أن يكون كفرانها سببا للتبديل، وثالثها: قوله في قصة قارون: وأحسن كما أحسن الله إليك [القصص: ٧٧] وقال: ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة [لقمان: ٢٠] وقال: أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون [الواقعة: ٥٨] وقال: فبأي آلاء ربكما تكذبان [يس: ١٤] [الرحمن: ١٦] على سبيل التكرير وكل ما في هذه السورة فهو من النعم، إما في الدين أو في الدنيا فهذا ما يتعلق بهذا الباب.

المسألة الثالثة: في النعم المخصوصة يبني إسرائيل قال بعض العارفين: عبيد النعم كثيرون وعبيد المنعم قليلون، فالله تعالى ذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم ولما آل الأمر إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ذكرهم بالمنعم فقال:

فاذكروني أذكركم [البقرة: ١٥٢] فدل ذلك على فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم.

واعلم أن نعم الله تعالى على بني إسرائيل كثيرة (أ) استنقذهم مما كانوا فيه من البلاء من فرعون وقومه وأبدلهم من ذلك بتمكينهم في الأرض وتخليصهم من العبودية كما قال: ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون [القصص: ٥، ٦] . (ب) جعلهم أنبياء وملوكا بعد أن كانوا عبيدا للقبط فأهلك أعداءهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم كما قال: كذلك وأورثناها بني إسرائيل [الشعراء: ٥٩] (ج) أنزل عليهم الكتب العظيمة التي ما أنزلها على أمة سواهم كما قال: وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمت الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين [المائدة: ٢٠] . (د) روى هشام عن ابن عباس أنه قال: من نعمة الله تعالى على بني إسرائيل أن نجاهم من آل فرعون وظلل عليهم في التيه الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى في التيه وأعطاهم الحجر الذي/ كان كرأس الرجل يسقيهم ما شاؤوا من الماء متى أرادوا فإذا استغنوا عن الماء رفعوه فاحتبس الماء عنهم وأعطاهم عمودا من النور ليضيء لهم بالليل وكانت رؤوسهم لا تتشعث وثيابهم لا تبلى. واعلم أنه سبحانه وتعالى إنما ذكرهم بهذه النعم

لوجوه: أحدها: أن في جملة النعم ما يشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وهو التوراة والإنجيل والزبور. وثانيها: أن كثرة النعم توجب عظم المعصية فذكرهم تلك النعم لكي يحذروا مخالفة ما دعوا إليه من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن. وثالثها: أن تذكير النعم الكثيرة يوجب الحياء عن إظهار المخالفة. ورابعها: أن تذكير النعم الكثيرة يفيد أن المنعم خصهم من بين سائر الناس بها ومن خص أحدا بنعم كثيرة فالظاهر أنه لا يزيلها عنهم لما قيل: إتمام المعروف خير من ابتدائه فكأن تذكير النعم السالفة يطمع في النعم الآتية، وذلك الطمع مانع من إظهار المخالفة والمخاصمة. فإن قيل: هذه النعم ما." (١)

"الكيفية، فإن صلاة اليهود واقعة على كيفية وصلاة المسلمين على كيفية أخرى. وإذا كان متعلق الأمر هو الماهية التي هي القدر المشترك زال الإشكال المذكور وعلى هذا نقول: إنه تعالى لما أمرهم بالإيمان وبترك الإضلال وبالتزام الشرائع وهي الصلاة والزكاة، وكان ذلك شاقا عليهم لما فيه من ترك الرياسات/ والإعراض عن المال والجاه لا جرم عالج الله تعالى هذا المرض فقال: واستعينوا بالصبر والصلاة.

المسألة الثانية: ذكروا في الصبر والصلاة وجوها، أحدها: كأنه قيل واستعينوا على ترك ما تحبون من الدنيا والدخول فيما تستثقله طباعكم من قبول دين محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر أي يحبس النفس عن اللذات، فإنكم إذا كلفتم أنفسكم ذلك مرنت عليه وخف عليها ثم إذا ضممتم الصلاة إلى ذلك تم الأمر، لأن المشتغل بالصلاة لا بد وأن يكون مشتغلا بذكر الله عز وجل وذكر جلاله وقهره وذكر رحمته وفضله، فإذا تذكر رحمته صار مائلا إلى طاعته وإذا تذكر عقابه ترك معصيته فيسهل عند ذلك اشتغاله بالطاعة وتركه للمعصية، وثانيها: المراد من الصبر هاهنا هو الصوم لأن الصائم صابر عن الطعام والشراب، ومن حبس نفسه عن قضاء شهوة البطن والفرج زالت عنه كدورات حب الدنيا، فإذا انضاف إليه الصلاة استنار القلب بأنوار معرفة الله تعالى وإنما قدم الصوم على الصلاة لأن تأثير الصوم في إزالة ما لا ينبغي وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي والنفي مقدم على الإثبات،

ولأنه عليه الصلاة والسلام قال: «الصوم جنة من النار» .

وقال الله تعالى: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر [العنكبوت: ٤٥] لأن الصلاة تمنع عن الاشتغال بالدنيا وتخشع القلب ويحصل بسببها تلاوة الكتاب والوقوف على ما فيه من الوعد والوعيد والمواعظ والآداب الجميلة، وذكر مصير الخلق إلى دار الثواب أو دار العقاب رغبة في الآخرة ونفرة عن الدنيا فيهون على الإنسان حينئذ ترك الرياسة، ومقطعة عن المخلوقين إلى قبلة خدمة الخالق ونظير هذه الآية قوله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣/٤٦٧

تعالى: يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين [البقرة: ١٥٣] . أما قوله تعالى: وإنها ففي هذا الضمير وجوه، أحدها: الضمير عائد إلى الصلاة أي صلاة ثقيلة إلا على الخاشعين. وثانيها: الضمير عائد إلى الاستعانة التي يدل عليها قوله: واستعينوا. وثالثها: أنه عائد إلى جميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها من قوله: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢] إلى قوله: واستعينوا والعرب قد تضمر الشيء اختصارا أو تقتصر فيه على الإيماء إذا وثقت بعلم المخاطب فيقول القائل: ما عليها أفضل من فلان يعني الأرض. ويقولون: ما بين لابتيها أكرم من فلان يعنون المدينة. وقال تعالى: ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة [النحل: ٦١] ، ولا ذكر للأرض، أما قوله: لكبيرة أي لشاقة ثقيلة على هؤلاء سهلة على الخاشعين فيجب أن يكون ثوابهم أكثر وثواب الخاشع أقل، وذلك منكر من القول، قلنا: ليس المراد أن الذي يلحقهم من التعب أكثر مما يلحق الخاشع وكيف يكون ذلك والخاشع يستعمل عند الصلاة جوارحه وقلبه وسمعه وبصره، ولا يغفل عن تدبر ما يأتي به من الذكر والتذلل والخشوع، وإذ تذكر الوعيد لم يخل من حسرة وغم، وإذا ذكر الوعد فكمثل ذلك، وإذا كان هذا فعل الخاشع فالثقل عليه بفعل الصلاة أعظم، وإنما المراد بقوله: وإنها ثقيلة على من لم يخشع أنه من حيث لا يعتقد في فعلها ثوابا ولا في تركها عقابا، فيصعب عليه فعلها. فالحاصل أن الملحد إذا لم يعتقد في فعلها منفعة ثقل عليه فعلها، لأن الاشتغال بما لا فائدة فيه يثقل/ على الطبع، أما الموحد فلما اعتقد في فعلها أعظم **المنافع** وفي تركها أعظم المضار لم يثقل ذلك عليه لما يعتقد في فعله من الثواب والفوز العظيم." (١)

"الإجزاء وهذه الجملة منصوبة المحل صفة ليوما. فإن قيل: فأين العائد منها إلى الموصوف؟ قلنا: هو محذوف تقديره لا تجزي فيه ومعنى التنكير أن نفسا من الأنفس لا تجزي عن نفس غيرها شيئا من الأشياء وهو الإقناط الكلي القطاع للمطامع. أما قوله تعالى: ولا يقبل منها شفاعة فالشفاعة/ أن يستوهب أحد لأحد شيئا ويطلب له حاجة وأصلها من الشفع الذي هو ضد الوتر، كأن صاحب الحاجة كان فردا فصار الشفيع له شفعا أي صارا زوجا. واعلم أن الضمير في قوله: ولا يقبل منها راجع إلى النفس الثانية العاصية وهي التي لا يؤخذ منها عدل، ومعنى لا يقبل منها شفاعة أنها إن جاءت بشفاعة شفيع لا يقبل منها، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى، على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها كما لا تجزي عنها شيئا. أما قوله تعالى: ولا يؤخذ منها عدل أي فدية، وأصل الكلمة من معادلة الشيء تقول: ما أعدل بفلان

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣/ ٤٩٠

أحدا، أي لا أرى له نظيرا. قال تعالى:
ثم الذين كفروا بربهم يعدلون [الأنعام: ١] ونظيره هذه الآية قوله تعالى: إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم [المائدة: ٣٦] وقال تعالى: إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به [آل عمران: ٩١] وقال: وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها [الأنعام: ٧٠] .
أما قوله تعالى: ولا هم ينصرون فاعلم أن التناصر إنما يكون في الدنيا بالمخالطة والقرابة وقد أخبر الله تعالى أنه ليس يومئذ خلة ولا شفاعة وأنه لا أنساب بينهم، وإنما المرء يفر من أخيه وأمه وأبيه وقرابته، قال القفال: والنصر يراد به المعونة
كقوله: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» ،
ومنه معنى الإغاثة: تقول العرب: أرض منصورة أي ممطورة، والغيث ينصر البلاد إذا أنبتها فكأنه أغاث أهلها وقيل في قوله تعالى: من كان يظن أن لن ينصره الله [الحج: ١٥] أي أن لن يرزقه كما يرزق الغيث البلاد، ويسمى الانتقام نصرة وانتصارا، قال تعالى: ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا [الأنبياء: ٧٧] قالوا معناه: فانتقمنا له، فقوله تعالى: ولا هم ينصرون يحتمل هذه الوجوه فإنهم يوم القيامة لا يغاثون، ويحتمل أنهم إذا عذبوا لم يجدوا من ينتقم لهم من الله، وفي الجملة كأن النصر هو دفع الشدائد، فأخبر الله تعالى أنه لا دافع هناك من عذابه، بقي في الآية مسألتان:
المسألة الأولى: أن في الآية أعظم تحذير عن المعاصي وأقوى ترغيب في تلافي الإنسان ما يكون منه من المعصية بالتوبة لأنه إذا تصور أنه ليس بعد الموت استدراك ولا شفاعة ولا نصرة ولا فدية علم أنه لا خلاص له إلا بالطاعة، فإذا كان لا يأمن كل ساعة من التقصير في العبادة، ومن فوت التوبة من حيث إنه لا يقين له في البقاء صار حذرا خائفا في كل حال، والآية وإن كانت في بني إسرائيل فهي في المعنى مخاطبة للكل لأن الوصف الذي ذكر فيها وصف لليوم وذلك يعم كل من يحضر في ذلك اليوم.
المسألة الثانية: أجمعت الأمة على أن لمحمد صلى الله عليه وسلم شفاعة في الآخرة وحمل على ذلك قوله تعالى: عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا [الإسراء: ٧٩] وقوله تعالى: ولسوف يعطيك ربك فترضى [الضحى: ٥] ثم اختلفوا بعد هذا في أن شفاعته عليه السلام لمن تكون أتكون للمؤمنين المستحقين/ للثواب، أم تكون لأهل الكبائر المستحقين للعقاب؟ فذهبت المعتزلة على أنها للمستحقين للثواب وتأثير

الشفاعة في أن تحصل زيادة من **المنافع** على قدر ما استحقوه، وقال أصحابنا: تأثيرها في إسقاط العذاب عن المستحقين للعقاب، إما بأن." [١]

"يشفع لهم في عرصة القيامة حتى لا يدخلوا النار وإن دخلوا النار فيشفع لهم حتى يخرجوا منها ويدخلوا الجنة واتفقوا على أنها ليست للكفار، واستدلت المعتزلة على إنكار الشفاعة لأهل الكبائر بوجوه.

أحدها: هذه الآية:

قالوا إنها تدل على نفي الشفاعة من ثلاثة أوجه.

الأول: قوله تعالى: لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولو أثرت الشفاعة في إسقاط العقاب لكان قد أجزت نفس عن نفس شيئا. الثاني: قوله تعالى: ولا يقبل منها شفاعة وهذه نكرة في سياق النفي فتعم جميع أنواع الشفاعة، والثالث: قوله تعالى: ولا هم ينصرون ولو كان محمد شفيعا لأحد من العصاة لكان ناصرا له وذلك على خلاف الآية. لا يقال الكلام على الآية من وجهين: الأول: أن اليهود كانوا يزعمون أن آباءهم يشفعون لهم فأيسوا من ذلك، فالآية نزلت فيهم. الثاني: أن ظاهر الآية يقتضي نفي الشفاعة مطلقا إلا أنا أجمعنا على تطرق التخصيص إليه في حق زيادة الثواب لأهل الطاعة، فنحن أيضا نخصه في حق المسلم صاحب الكبيرة بالدلائل التي نذكرها، لأنا نجيب عن الأول بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعن الثاني أنه لا يجوز أن يكون المراد من الآية نفي الشفاعة في زيادة **المنافع** لأنه تعالى حذر من ذلك اليوم بأنه لا تنفع فيه شفاعة، وليس يحصل التحذير إذا رجع نفي الشفاعة إلى تحصيل زيادة النفع لأن عدم حصول زيادة النفع ليس فيه خطر ولا ضرر يبين ذلك أنه تعالى لو قال: اتقوا يوما لا أزيد فيه منافع المستحق للثواب بشفاعة أحد لم يحصل بذلك زجر عن المعاصي، ولو قال: اتقوا يوما لا أسقط فيه عقاب المستحق للعقاب بشفاعة شفيع كان ذلك زجرا عن المعاصي، فثبت أن المقصود من الآية نفي تأثير الشفاعة في إسقاط العقاب لا نفي تأثيرها في زيادة **المنافع**. وثانيها: قوله تعالى: ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع [غافر: ١٨] والظالم هو الآتي بالظلم وذلك يتناول الكافر وغيره، لا يقال إنه تعالى نفى أن يكون للظالمين شفيع يطاع ولم ينف شفيعا يجاب ونحن نقول بموجبه فإنه لا يكون في الآخرة شفيع يطاع، لأن المطاع يكون فوق المطيع، وليس فوقه تعالى أحد يطيعه الله تعالى، لأنا نقول: لا يجوز حمل الآية على ما قلتم من وجهين، الأول: أن العلم بأنه ليس فوقه تعالى أحد يطيعه، متفق عليه بين العقلاء. أما من أثبته سبحانه فقد اعترف أنه لا يطيع أحدا، وأما من نفاه فمع القول بالنفي استحال أن يعتقد فيه كونه مطيعا لغيره، فإذا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٩٥/٣

ثبت هذا كان حمل الآية على ما ذكرتم حملا لها على معنى لا يفيد. الثاني: أنه تعالى نفى شفيعا يطاع، والشفيع لا يكون إلا دون المشفوع إليه لأن من فوقه يكون آمرا له وحاكما عليه ومثله لا يسمى شفيعا فأفاد قوله: «شفيع» كونه دون الله تعالى فلم يمكن حمل قوله:

يطاع على من فوقه فوجب حمله/ على أن المراد به أن لا يكون لهم شفيع يجاب. وثالثها: قوله تعالى: من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة [البقرة: ٢٥٤] ظاهر الآية يقتضي نفي الشفاعات بأسرها. ورابعها: قوله تعالى: وما للظالمين من أنصار [البقرة: ٢٧٠] ولو كان الرسول يشفع للفاسق من أمته لوصفوا بأنهم منصورون لأنه إذا تخلص بسبب شفاعة الرسول عن العذاب فقد بلغ الرسول النهاية في نصرته. وخامسها: قوله تعالى: ولا يشفعون إلا لمن ارتضى [الأنبياء: ٢٨] أخبر تعالى عن ملائكته أنهم لا يشفعون لأحد إلا أن يرتضيه الله عز وجل والفاسق ليس بمرتضى عند الله تعالى، وإذا لم تشفع الملائكة له فكذا الأنبياء عليهم السلام، لأنه لا قائل بالفرق.." (١)

"بعالم لا يتناقضان لاحتمال أن يكون المراد زيد عالم بالفقه، زيد ليس بعالم بالكلام، وإذا ثبت هذا فكذا قولنا صاحب الكبيرة مرتضى صاحب الكبيرة ليس بمرتضى، لا يتناقضان لاحتمال أن يقال: إنه مرتضى بحسب دينه، ليس بمرتضى بحسب فسقه، وأيضا فمتى ثبت أنه مرتضى بحسب إسلامه ثبت مسمى كونه مرتضى، وإذا كان المستثنى هو مجرد كونه مرتضى، ومجرد كونه/ مرتضى حاصل عند كونه مرتضى بحسب إيمانه وجب دخوله تحت الاستثناء وخروجه عن المستثنى منه، ومتى كان كذلك ثبت أنه من أهل الشفاعة. وأما السؤال الثاني:

فجوابه أن حمل الآية على أن يكون معناها ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله أولى من حملها على أن المراد ولا يشفعون إلا لمن ارتضى الله شفاعته، لأن على التقدير الأول تفيد الآية الترغيب والتحريض على طلب مرضاة الله عز وجل والاحتراز عن معاصيه، وعلى التقدير الثاني لا تفيد الآية ذلك، ولا شك أن تفسير كلام الله تعالى بما كان أكثر فائدة أولى. وخامسها: قوله تعالى في صفة الكفار: فما تنفعهم شفاعة الشافعين [المدثر: ٤٨] خصهم بذلك فوجب أن يكون حال المسلم بخلافه بناء على مسألة دليل الخطاب، وسادسها: قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: واستغفر لذنبك، وللمؤمنين والمؤمنات [محمد: ١٩] دلت الآية على أنه تعالى أمر محمدا بأن يستغفر لكل المؤمنين والمؤمنات وقد بينا في تفسير قوله تعالى: الذين يؤمنون بالغيب [البقرة: ٣] أن صاحب الكبيرة مؤمن، وإذا كان كذلك ثبت أن محمدا صلى الله عليه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٩٦/٣

وسلم استغفر لهم، وإذا كان كذلك ثبت أن الله تعالى قد غفر لهم. وإلا لكان الله تعالى قد أمره بالدعاء ليرد دعاءه فيصير ذلك محض التحقير والإيذاء وهو غير لائق بالله تعالى ولا بمحمد صلى الله عليه وسلم فدل على أن الله تعالى لما أمر محمدا بالاستغفار لكل العصاة فقد استجاب دعاءه، وذلك إنما يتم لو غفر لهم ولا معنى للشفاعة إلا هذا، وسابعها: قوله تعالى: وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها [النساء: ٨٦] فالله تعالى أمر الكل بأنهم إذا حياهم أحد بتحية أن يقابلوا تلك التحية بأحسن منها أو بأن يردوها، ثم أمرنا بتحية محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال: يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما [الأحزاب: ٥٦] الصلاة من الله رحمة ولا شك أن هذا تحية، فلما طلبنا من الله الرحمة لمحمد عليه الصلاة والسلام وجب بمقتضى قوله: فحيوا بأحسن منها أو ردوها، أن يفعل محمد مثله وهو أن يطلب لكل المسلمين الرحمة من الله تعالى، وهذا هو معنى الشفاعة، ثم توافقنا على أنه عليه الصلاة والسلام غير مردود الدعاء، فوجب أن يقبل الله شفاعته في الكل وهو المطلوب. وثامنها: قوله تعالى: ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما [النساء: ٦٤] وليس في الآية ذكر التوبة، والآية تدل على أن الرسول متى استغفر للعصاة والظالمين فإن الله يغفر لهم، وهذا يدل على أن شفاعة الرسول في حق أهل الكبائر مقبولة في الدنيا، فوجب أن تكون مقبولة في الآخرة، لأنه لا قائل بالفرق. وتاسعها: أجمعنا على وجوب الشفاعة لمحمد صلى الله عليه وسلم فتأثيرها إما أن يكون في زيادة المنافع أو في إسقاط المضار والأول باطل وإلا لكنا شافعين للرسول عليه الصلاة والسلام إذا طلبنا من الله تعالى أن يزيد في فضله عند ما نقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وإذا بطل هذا القسم تعين الثاني وهو المطلوب، فإن قيل: إنما لا يطلق علينا كوننا شافعين لمحمد صلى الله عليه وسلم لوجهين، الأول: أن/ الشفيع لا بد أن يكون أعلى رتبة من المشفوع له، ونحن وإن كنا نطلب الخير له عليه الصلاة والسلام ولكن لما كنا أدنى رتبة منه عليه الصلاة والسلام لم يصح أن نوصف بكوننا شافعين له. الثاني: قال أبو الحسين: سؤال المنافع للغير إنما يكون شفاعة إذا كان فعل تلك المنافع لأجل سؤاله ولولاه لم تفعل أو كان لسؤاله تأثير في فعلها، فأما إذا كانت تفعل سواء سألها أو لم يسألها، وكان غرض." [(١)]

"وأما الوجه السادس: وهو قوله: ولا يشفعون إلا لمن ارتضى [الأنبياء: ٢٨] فقد تقدم القول فيه.

وأما الوجه السابع: وهو قول المسلمين: اللهم اجعلنا من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم، فالجواب عنه أن عندنا تأثير الشفاعة في جلب أمر مطلوب وأعني به القدر المشترك بين جلب المنافع الزائدة على

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣/٥٠٠

قدر الاستحقاق ودفع المضار المستحقة على المعاصي، وذلك القدر المشترك لا يتوقف على كون العبد عاصيا فاندفع السؤال.

وأما الوجه الثامن: وهو التمسك بقوله: وإن الفجار لفي جحيم [الانفطار: ١٤] فالكلام عليه سيأتي إن شاء الله تعالى في مسألة الوعيد.

وأما الوجه التاسع: وهو قوله لم يوجد ما يدل على إذن الله عز وجل في الشفاعة لأصحاب الكبائر، فجوابه أن هذا ممنوع والدليل عليه ما أوردنا من الدلائل الدالة على حصول هذه الشفاعة.

وأما الوجه العاشر: وهو قوله في حق الملائكة: فاغفر للذين تابوا [غافر: ٧] فجوابه ما بينا أن خصوص آخر هذه الآية لا يقدح في عموم أولها.

وأما الأحاديث فهي دالة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يشفع لبعض الناس ولا يشفع في بعض مواطن القيامة، وذلك لا يدل على أنه لا يشفع لأحد ألبتة من أصحاب الكبائر، ولا أنه يمتنع من الشفاعة في جميع المواطن.

والذي نحققه أنه تعالى بين أن أحدا من الشافعين لا يشفع إلا بإذن الله، فلعل الرسول لم يكن مأذونا في بعض المواضع وبعض الأوقات، فلا يشفع في ذلك المكان ولا في ذلك الزمان، ثم يصير مأذونا في موضع آخر وفي وقت آخر في الشفاعة فيشفع هناك والله أعلم.

قالت الفلاسفة في تأويل الشفاعة: إن واجب الوجود عام الفيض تام الجود، فحيث لا يحصل فإنما لا يحصل لعدم كون القابل مستعدا، ومن الجائز أن لا يكون الشيء مستعدا لقبول الفيض عن واجب الوجود إلا أن يكون مستعدا لقبول ذلك الفيض من شيء قبله عن واجب الوجود، فيكون ذلك الشيء كالمتوسط بين واجب الوجود وبين ذلك الشيء الأول، ومثاله في المحسوس أن الشمس لا تضيء إلا للقابل المقابل، وسقف البيت لما لم يكن مقابلا لجرم الشمس لا جرم لم يكن فيه استعداد لقبول النور عن الشمس، إلا أنه إذا وضع طست مملوء من الماء الصافي ووقع عليه ضوء الشمس انعكس ذلك الضوء من ذلك الماء إلى السقف فيكون ذلك الماء الصافي متوسطا في وصول النور من قرص الشمس إلى السقف الذي هو غير مقابل للشمس، وأرواح الأنبياء كالوسائط بين واجب الوجود وبين أرواح عوام الخلق في وصول فيض واجب الوجود إلى أرواح العامة، فهذا ما قالوه في الشفاعة تفريعا على أصولهم.

[سورة البقرة (٢) : آية ٤٩]

وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من

ربكم عظيم (٤٩)

اعلم أنه تعالى لما قدم ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالا بين بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل ليكون أبلغ في التذكير وأعظم في الحجة، فكأنه قال: اذكروا نعمتي واذكروا إذ نجيناكم/ واذكروا إذ فرقنا بكم البحر وهي إنعامات، والمذكور في هذه الآية هو الإنعام الأول. أما قوله: وإذ نجيناكم فقرىء أيضا أنجيناكم ونجيتكم، قال القفال: أصل الإنجاء والتنجية التخليص، وأن بيان الشيء من الشيء حتى لا." (١)

"جائزة لكانوا قد التمسوا أمرا مجوزا فوجب أن لا تنزل بهم العقوبة كما لم تنزل بهم العقوبة لما التمسوا النقل من قوت إلى قوت وطعام إلى طعام في قوله تعالى: لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض [البقرة: ٦١] ، وقال أبو الحسين في كتاب التصفح: إن الله تعالى ما ذكر سؤال الرؤية إلا استعظمه، وذلك في آيات. أحدها: هذه الآية فإن الرؤية لو كانت جائزة لكان قولهم: (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) كقول الأمم لأنبيائهم: لن نؤمن إلا بإحياء ميت في أنه لا يستعظم ولا تأخذهم الصاعقة. وثانيها:

قوله تعالى: يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا: أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم [النساء: ١٥٣] ، فسمي ذلك ظلما وعاقبهم في الحال، فلو كانت الرؤية جائزة لجرى سؤالهم لها مجرى من يسأل معجزة زائدة. فإن قلت أليس إنه سبحانه وتعالى قد أجرى إنزال الكتاب من السماء مجرى الرؤية في كون كل واحد منهما عتوا، فكما أن إنزال الكتاب غير ممتنع في نفسه فكذا سؤال الرؤية. قلت: الظاهر يقتضي كون كل واحد منهما ممتنعا ترك العمل به في إنزال الكتاب فيبقى معمولا به في الرؤية. وثالثها: قوله تعالى: وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا [الفرقان: ٢١] فالرؤية لو كانت جائزة وهي عند مجزيها من أعظم المنافع لم يكن التماسها عتوا لأن من سأل الله تعالى نعمة في الدين أو الدنيا لم يكن عاتيا وجرى ذلك مجرى ما يقال: لن نؤمن لك حتى يحيي الله بدعائك هذا الميت.

واعلم أن هذه الوجوه مشتركة في حرف واحد وهو أن الرؤية لو كانت جائزة لما كان سؤالها عتوا ومنكرا، وذلك ممنوع. [و] قوله: إن طلب سائر المنافع من النقل من طعام إلى طعام لما كان ممكنا لم يكن طالبه عاتيا وكذا القول في طلب سائر المعجزات. قلنا: ولم قلت إنه لما كان طالب ذلك الممكن ليس بعات

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣/٥٠٤

وجب أن يكون طالب كل ممكن غير عات والاعتماد في مثل هذا الموضع على ضروب الأمثلة لا يليق بأهل العلم وكيف وأن الله تعالى ما ذكر الرؤية إلا وذكر معها شيئا ممكنا حكمنا بجوازه بالاتفاق وهو إما نزول الكتاب من السماء أو نزول الملائكة. وأثبت صفة العتو على مجموع الأمرين، وذلك كالدلالة القاطعة في أن صفة العتو ما حصلت لأجل كون المطلوب ممتنعا. أما قول أبي الحسين: الظاهر يقتضي كون الكل ممتنعا ترك العمل به في البعض فيبقى معمولا به في الباقي. قلنا: إنك ما أقمت دليلا على أن الاستعظام لا يتحقق إلا إذا كان المطلوب ممتنعا وإنما عولت فيه على ضروب الأمثلة، والمثال لا ينفع في هذا الباب، فبطل قولك: الظاهر يقتضي كون الكل ممتنعا. فظهر بما قلنا سقوط كلام المعتزلة. فإن قال قائل: فما السبب في استعظام سؤال الرؤية؟ الجواب في ذلك يحتمل وجوها. أحدها: أن رؤية الله تعالى لا تحصل إلا في الآخرة، فكان طلبها في الدنيا/ مستنكرا.

وثانيها: أن حكم الله تعالى أن يزيل التكليف عن العبد حال ما يرى الله فكان طلب الرؤية طلبا لإزالة التكليف وهذا على قول المعتزلة أولى، لأن الرؤية تتضمن العلم الضروري والعلم الضروري ينافي التكليف، وثالثها:

أنه لما تمت الدلائل على صدق المدعي كان طلب الدلائل الزائدة تعنتا والمتعنت يستوجب التعنيف، ورابعها:

لا يمتنع أن يعلم الله تعالى أن في منع الخلق عن رؤيته سبحانه في الدنيا ضربا من المصلحة المهمة، فلذلك استنكر طلب الرؤية في الدنيا كما علم أن في إنزال الكتاب من السماء وإنزال الملائكة من السماء مفسدة عظيمة فلذلك استنكر طلب ذلك والله أعلم.." (١)

"يقول المرء لغيره: أكلت خبزا أو تمرا وهو لا يشك أنه أكل أحدهما إذا أراد أن يبينه لصاحبه. وثالثها: أن يكون المراد فهي كالحجارة، ومنها ما هو أشد قسوة من الحجارة، ورابعها: أن الآدميين إذا/ اطلعوا على أحوال قلوبهم قالوا: إنها كالحجارة أو هي أشد قسوة من الحجارة وهو المراد في قوله: فكان قاب قوسين أو أدنى [النجم: ٩] أي في نظركم واعتقادكم. وخامسها: أن كلمة «أو» بمعنى بل وأنشدوا:

فو الله ما أدري أسلمى تغولت ... أم القوم أو كل إلي حبيب

قالوا: أراد بل كل. وسادسها: أنه على حد قولك ما آكل إلا حلوا أو حامضا أي طعامي لا يخرج عن هذين، بل يتردد عليهما، وبالجملة: فليس الغرض إيقاع التردد بينهما، بل نفي غيرهما. وسابعها: أن «أو»

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣/٥٢٠

حرف إباحة كأنه قيل بأي هذين شبهت قلوبهم كان صدقا كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين أي أيهما جالست كنت مصيبا ولو جالستهما معا كنت مصيبا أيضا.

المسألة الثانية: قال صاحب «الكشاف» : «أشد» معطوف على الكاف، إما على معنى أو مثل: «أشد قسوة» فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وإما على أو هي أنفسها أشد قسوة.

المسألة الثالثة: إنما وصفها بأنها أشد قسوة لوجوه. أحدها: أن الحجارة لو كانت عاقلة ولقيتها هذه الآية لقبلتها كما قال: لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله [الحشر: ٢١] . وثانيها:

أن الحجارة ليس فيها امتناع مما يحدث فيها بأمر الله تعالى وإن كانت قاسية بل هي منصرفة على مراد الله غير ممتنعة من تسخيره، وهؤلاء مع ما وصفنا من أحوالهم في اتصال الآيات عندهم وتتابع النعم من الله عليهم يمتنعون من طاعته ولا تلين قلوبهم لمعرفة حقه وهو كقوله تعالى: وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه [الأنعام: ٣٨] إلى قوله تعالى: والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات [الأنعام: ٣٩] كأن المعنى أن الحيوانات من غير بني آدم أمم سخر كل واحد منها لشيء وهو منقاد لما أريد منه وهؤلاء الكفار يمتنعون عما أراد الله منهم. وثالثها: أو أشد قسوة، لأن الأحجار ينتفع بها من بعض الوجوه، ويظهر منها الماء في بعض الأحوال، أما قلوب هؤلاء فلا نفع فيها البتة ولا تلين لطاعة الله بوجه من الوجوه.

المسألة الرابعة: قال القاضي: إن كان تعالى هو الخالق فيهم الدوام على ما هم عليه من الكفر، فكيف يحسن ذمهم بهذه الطريقة ولو أن موسى عليه السلام خاطبهم فقالوا له: إن الذي خلق الصلابة في الحجارة هو الذي خلق في قلوبنا القسوة والخالق في الحجارة انفجار الأنهار هو القادر على أن ينقلنا عما نحن عليه من الكفر بخلق الإيمان فينا، فإذا لم يفعل فعذرنا ظاهر لكانت حجتهم عليه أوكد من حجته عليهم، وهذا النمط من الكلام قد تقدم تقريرا وتفريعا مرارا وأطوارا.

المسألة الخامسة: إنما قال: أشد قسوة ولم يقل أقسى، لأن ذلك أدل على فرط القسوة ووجه آخر وهو أن لا يقصد معنى الأقسى، ولكن قصد وصف القسوة بالشدة كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة وقلوبهم أشد قسوة، وقرئ «قساوة» وترك ضمير المفضل عليه لعدم الإلباس/ كقولك: زيد كريم وعمرو أكرم. ثم إنه سبحانه وتعالى فضل الحجارة على قلوبهم بأن بين أن الحجارة قد يحصل منها ثلاثة أنواع من **المنافع**،

ولا يوجد في قلوب هؤلاء شيء من **المنافع**. فأولها: قوله تعالى: وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وفيه مسائل:." [(١)]

"[الإسراء: ٢٣، ٢٤] فصرح ببيان السبب في وجوب هذا التعظيم. وثالثها: أن الله تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه كيف تلطف في دعوة أبيه من الكفر إلى الإيمان في قوله: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا

[مريم: ٤٢] ثم إن أباه كان يؤذيه ويذكر الجواب الغليظ وهو عليه السلام كان يتحمل ذلك، وإذا ثبت ذلك في حق إبراهيم عليه السلام ثبت مثله في حق هذه الأمة لقوله تعالى: ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا [النحل: ١٢٣] .

المسألة الرابعة: اعلم أن الإحسان إليهما هو ألا يؤذيهما البتة ويوصل إليهما من **المنافع** قدر ما يحتاجان إليه، فيدخل فيه دعوتهما إلى الإيمان إن كانا كافرين وأمرهما بالمعروف على سبيل الرفق إن كانا فاسقين.

التكليف الثالث: قوله تعالى: وذي القربى وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الشافعي رضي الله عنه: لو أوصى لأقارب زيد دخل فيه الوارث المحرم وغير المحرم، ولا يدخل الأب والابن لأنهما لا يعرفان بالقريب، ويدخل الأحفاد والأجداد، وقيل: لا يدخل الأصول والفروع وقيل بدخول الكل. وهاهنا دقيقة، وهي أن العرب يحفظون الأجداد العالية فيتسع نسلهم وكلهم أقارب، فلو ترقينا إلى الجد العالي وحسبنا أولاده كثروا، فلهذا قال الشافعي رضي الله عنه: يرتقي إلى أقرب جد ينتسب هو إليه ويعرف به وإن كان كافرا، وذكر الأصحاب في مثاله: أنه لو أوصى لأقارب الشافعي رضي الله عنه فإنا نصرفه إلى بني شافع دون بني المطلب وبني عبد مناف وإن كانوا أقارب، لأن الشافعي ينتسب في المشهور إلى شافع دون عبد مناف. قال الشيخ الغزالي: وهذا في زمان الشافعي، أما في زماننا فلا ينصرف إلا إلى أولاد الشافعي رضي الله عنه ولا يرتقي إلى بني شافع لأنه أقرب من يعرف به أقاربه في زماننا، أما قرابة الأم فإنها تدخل في وصية العجم ولا تدخل في وصية العرب على الأظهر، لأنهم لا يعدون ذلك قرابة، أما لو قال لأرحام فلان دخل فيه قرابة الأب والأم.

المسألة الثانية: اعلم أن حق ذي القربى كالتابع لحق الوالدين لأن الإنسان إنما يتصل به أقرباؤه بواسطة اتصالهم بالوالدين والاتصال بالوالدين مقدم على الاتصال بذي القربى، فلهذا أخر الله ذكره عن الوالدين، وعن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن الرحم سجنة من الرحمن فإذا كان يوم القيامة يقول: أي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣/٥٥٦

رب إني ظلمت، إني أسيء إلي، إني قطعت. قال فيجيبها ربها: ألا ترضين أني أقطع من قطعك وأصل من وصلك، ثم قرأ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم،

والسبب العقلي في تأكيد رعاية هذا الحق أن القرابة مظنة الاتحاد والألفة والرعاية والنصرة، فلو لم يحصل شيء من ذلك لكان ذلك أشق على القلب وأبلغ في الإيمام والإيحاش والضرورة، وكلما كان أقوى كان دفعه أوجب، فلهذا وجبت رعاية حقوق الأقارب.

التكليف الرابع: قوله تعالى: واليتامى وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اليتيم الذي مات أبوه حتى يبلغ الحلم وجمعه أيتام ويتامى، كقولهم: نديم وندامى، ولا يقال لمن ماتت أمه إنه يتيم. قال الزجاج: هذا في الإنسان، أما في غير الإنسان فيتمه من قبل أمه.

المسألة الثانية: اليتيم كالتالي لرعاية حقوق الأقارب وذلك لأنه لصغره لا ينتفع به وليتمه وخلوه عمن." (١)

"والجواب عن السؤال التاسع: أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فهذا ما يتعلق بهذا الباب على سبيل الاختصار والله أعلم.

واعلم أنه تعالى ما ذكر منافع الكواكب وذكر أن من جملة **المنافع** أنها رجوم للشياطين، قال بعد ذلك: وأعتدنا لهم عذاب السعير أي أعتدنا للشياطين بعد الإحراق بالشهب في الدنيا عذاب السعير في الآخرة، قال المبرد: سعرت النار فهي مسعورة وسعير كقولك: مقبولة وقبيل، واحتج أصحابنا على أن النار مخلوقة الآن بهذه الآية، لأن قوله: وأعتدنا إخبار عن الماضي.

[سورة الملك (٦٧) : آية ٦]

وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير (٦)

اعلم أنه تعالى بين في أول السورة أنه قادر على جميع الممكنات، ثم ذكر بعده أنه وإن كان قادرا على الكل إلا أنه إنما خلق ما خلق لا للعبث والباطل بل لأجل الابتلاء والامتحان، وبين/ أن المقصود من ذلك الابتلاء أن يكون عزيزا في حق المصرين على الإساءة غفورا في حق التائبين ومن ذلك كان كونه عزيزا وغفورا لا يثبتان إلا إذا ثبت كونه تعالى كاملا في القدرة والعلم بين ذلك بالدلائل المذكورة، وحينئذ ثبت كونه قادرا على تعذيب العصاة فقال: وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم أي ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم عذاب جهنم، ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك، وقرئ: عذاب جهنم بالنصب عطف

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٨٧/٣

بيان على قوله: عذاب السعير [الحج: ٤] ثم إنه تعالى وصف ذلك العذاب بصفاته كثيرة. قوله تعالى:

[سورة الملك (٦٧) : آية ٧]

إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور (٧)

الصفة الأولى: قوله تعالى: إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا ألقوا طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويرمى به فيها، ومثله قوله: حصب جهنم [الأنبياء: ٩٨] وفي قوله: سمعوا لها شهيقا وجوه أحدها: قال مقاتل: سمعوا لجنهم شهيقا، ولعل المراد تشبيه صوت لهب النار بالشهيق، قال الزجاج: سمع الكفار للنار شهيقا، وهو أقبح الأصوات، وهو كصوت الحمار، وقال المبرد: هو والله أعلم تنفس كتنفس المتغيظ وثانيها: قال عطاء: سمعوا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها شهيقا وثالثها: سمعوا من أنفسهم شهيقا، كقوله تعالى: لهم فيها زفير وشهيق [هود: ١٠٦] والقول هو الأول.

الصفة الثانية: قوله: وهي تفور قال الليث: كل شيء جاش فقد فار، وهو فور القدر والدخان والغضب والماء من العين، قال ابن عباس: تغلي بهم كغلي المرجل، وقال مجاهد: تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل، ويجوز أن يكون هذا من فور الغضب، قال المبرد: يقال تركت فلانا يفور غضبا، ويتأكد هذا القول بالآية الآتية.

[سورة الملك (٦٧) : آية ٨]

تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير (٨)

الصفة الثالثة: قوله: تكاد تميز من الغيظ يقال: فلان يتميز غيظا." (١)

"الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى فلا يمكن إثباته بالسمع، أما لما قال: أنبتكم ... نباتا على معنى أنبتكم فنبتم نباتا عجيبا كاملا كان ذلك وصفا للنبات بكونه عجيبا كاملا، وكون النبات كذلك أمر مشاهد محسوس، فيمكن الاستدلال به على كمال قدرة الله تعالى، فكان هذا موافقا لهذا المقام فظهر أن العدول من تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف، أما قوله: ثم يعيدكم فيها فهو إشارة إلى الطريقة المعهودة في القرآن من أنه تعالى لما كان قادرا على الابتداء كان قادرا على الإعادة، وقوله: ويخرجكم إخراجا أكده بالمصدر كأنه قال: يخرجكم حقا لا محالة.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٨٦/٣٠

[سورة نوح (٧١) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

والله جعل لكم الأرض بساطا (١٩) لتسلكوا منها سبلا فجاجا (٢٠)

الدليل الرابع: قوله تعالى:

أي طرقا واسعة واحدها فج وهو مفسر فيما تقدم.

[سورة نوح (٧١) : آية ٢١]

قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا (٢١)

واعلم أن نوحا عليه السلام لما دعاهم إلى الله ونبههم على هذه الدلائل الظاهرة حكى عنهم أنواع قبائحهم وأقوالهم وأفعالهم فالأول قوله: قال نوح رب إنهم عصوني وذلك لأنه قال في أول السورة أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون [نوح: ٣] فكأنه قال: قلت لهم أطيعون فهم عصوني.

الثاني قوله: واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ذكر في الآية الأولى أنهم عصوه وفي هذه الآية أنهم ضموا إلى عصيانه معصية أخرى وهي طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم إلى الكفر، وقوله: من لم يزده ماله وولده إلا خسارا يعني هذان وإن كانا من جملة **المنافع** في الدنيا إلا أنهما لما صارا سببا للخسار في الآخرة فكأنهما صارا محض الخسار والأمر كذلك في الحقيقة لأن الدنيا في جنب الآخرة كالعدم فإذا صارت **المنافع** الدنيوية أسبابا للخسار في الآخرة صار ذلك جاريا مجرى اللقمة الواحدة من الحلو إذا كانت مسمومة سم الوقت، واستدل بهذه الآية من قال: إنه ليس لله على الكافر نعمة لأن هذه النعم استدراجات ووسائل إلى العذاب الأبدي فكانت كالعدم، ولهذا المعنى قال نوح عليه السلام في هذه الآية: لم يزده ماله وولده إلا خسارا.

المسألة الثانية: قرئ وولده بضم الواو واعلم أن الولد بالضم لغة في الولد، ويجوز أن يكون جمعا إما جمع ولد كالفلك، وهاهنا يجوز أن يكون واحدا وجمعا.

[سورة نوح (٧١) : الآيات ٢٢ الى ٢٤]

ومكروا مكرا كبارا (٢٢) وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا (٢٣) وقد

أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا (٢٤)

النوع الثالث: من قبائح أفعالهم قوله تعالى:." [1]

"هذا من جملة الموحى إليه والتقدير: قل أوحي إلي أنه استمع نفر وأن لو استقاموا فيكون هذا هو النوع الثاني مما أوحي إليه، وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: (أن) مخففة من الثقيلة والمعنى: وأوحي، إلي أن الشأن والحديث لو استقاموا لكان كذا وكذا. قال الواحدي: وفصل لو بينها وبين الفعل كفصل ولا السين في/ قوله: ألا يرجع إليهم قولا [طه: ٨٩] وعلم أن سيكون [المزمل: ٢٠] .

المسألة الثانية: الضمير في قوله: استقاموا إلى من يرجع؟ فيه قولان: قال بعضهم: إلى الجن الذين تقدم ذكرهم ووصفهم، أي هؤلاء القاسطون لو آمنا لفعلنا بهم كذا وكذا. وقال آخرون: بل المراد الإنس، واحتجوا عليه بوجهين الأول: أن الترغيب بالانتفاع بالماء الغدق إنما يليق بالإنس لا بالجن والثاني: أن هذه الآية إنما نزلت بعد ما حبس الله المطر عن أهل مكة سنين، أقصى ما في الباب أنه لم يتقدم ذكر الإنس، ولكنه لما كان ذلك معلوما جرى مجرى قوله: إنا أنزلناه في ليلة القدر [القدر: ١] وقال القاضي: الأقرب أن الكل يدخلون فيه. وأقول: يمكن أن يحتج لصحة قول القاضي بأنه تعالى لما أثبت حكما معللا بعلة وهو الاستقامة، وجب أن يعم الحكم بعموم العلة.

المسألة الثالثة: الغدق بفتح الدال وكسرها: الماء الكثير، وقرئ بهما يقال: غدقت العين بالكسر فهي غدقة، وروضة مغدقة أي كثيرة الماء، ومطر مغدوق وغيداق وغيدق إذا كان كثير الماء، وفي المراد بالماء الغدق في هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الغيث والمطر، والثاني: وهو قول أبي مسلم: أنه إشارة إلى الجنة كما قال: جنات تجري من تحتها الأنهار [البقرة: ٢٥] وثالثها: أنه **المنافع** والخيرات جعل الماء كناية عنها، لأن الماء أصل الخيرات كلها في الدنيا.

المسألة الرابعة: إن قلنا: الضمير في قوله: استقاموا راجع إلى الجن كان في الآية قولان: أحدهما: لو استقام الجن على الطريقة المثلى أي لو ثبت أبوهم الجان على ما كان عليه من عبادة الله ولم يستكبر عن السجود لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم، ونظيره قوله تعالى: ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا [المائدة: ٦٥] وقوله: ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا [المائدة: ٦٦] وقوله: ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه [الطلاق: ٢، ٣] وقوله: فقلت استغفروا ربكم إلى قوله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٥٥/٣٠

ويمددكم بأموال وبنين [نوح: ١٢] وإنما ذكر الماء كناية عن طيب العيش وكثرة **المنافع**، فإن اللائق بالجن هو هذا الماء المشروب والثاني: أن يكون المعنى وأن لو استقام الجن الذين سمعوا القرآن على طريقتهم التي كانوا عليها قبل الاستماع ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام لوسعنا عليهم الرزق، ونظيره قوله تعالى: ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة [الزخرف: ٣٣] واختار الزجاج الوجه الأول قال: لأنه تعالى ذكر الطريقة معرفة بالألف واللام فتكون راجعة إلى الطريقة المعروفة المشهورة وهي طريقة الهدى والذاهبون إلى التأويل الثاني استدلوا عليه بقوله بعد هذه الآية لنفتنهم فيه فهو كقوله: إنما نملي لهم ليزدادوا إثما [آل عمران: ١٧٨] ويمكن الجواب عنه أن من آمن فأنعم الله عليه كان ذلك الإنعام أيضا ابتلاء واختبارا حتى يظهر أنه هل يشتغل بالشكر أم لا، وهل ينفقه في طلب مراضي الله أو في مراضي الشهوة والشيطان، وأما الذين قالوا: الضمير عائد إلى الإنس، فالوجهان عائدان فيه بعينه/ وهاهنا يكون." (١)

"وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساءه ذلك، فنزل جبريل عليه السلام وقال: خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك فأقرأها السورة»

والأولون يقولون: إنه تعالى ذكر في أول السورة أنه إنما خلق الخلق للابتلاء والامتحان، ثم بين أنه هدى الكل وأزاح عللهم ثم بين أنهم انقسموا إلى شاكر وإلى كافر ثم ذكر وعيد الكافر ثم أتبعه بذكر وعد الشاكر فقال: إن الأبرار يشربون [الإنسان: ٥] وهذه صيغة جمع فتتناول جميع الشاكرين والأبرار، ومثل هذا لا يمكن تخصيصه بالشخص الواحد، لأن نظم السورة من أولها إلى هذا الموضع يقتضي أن يكون هذا بيانا لحال كل من كان من الأبرار والمطيعين، فلو جعلناه مختصا بشخص واحد لفسد نظم السورة والثاني: أن الموصوفين بهذه الصفات مذكورون بصيغة الجمع كقوله: إن الأبرار يشربون ... يوفون بالنذر ويخافون ... ويطعمون [الإنسان: ٥، ٧، ٨] وهكذا إلى آخر الآيات فتخصيصه بجمع معنيين خلاف الظاهر، ولا ينكر دخول علي بن أبي طالب عليه السلام فيه، ولكنه أيضا داخل في جميع الآيات الدالة على شرح أحوال المطيعين، فكما أنه داخل فيها فكذا غيره من أتقياء الصحابة والتابعين داخل فيها، فحينئذ لا يبقى للتخصيص معنى ألبتة، اللهم إلا أن يقال: السورة نزلت عند صدور طاعة مخصوصة عنه، ولكنه قد ثبت في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٧٢/٣٠

المسألة الثانية: الذين يقولون: هذه الآية مختصة بعلي بن أبي طالب عليه السلام، قالوا: المراد من قوله: ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا هو ما رويناه أنه عليه السلام أطعم المسكين واليتيم والأسير، وأما الذين يقولون الآية عامة في حق جميع الأبرار [فإنهم] قالوا: إطعام الطعام كناية عن الإحسان إلى المحتاجين والمواساة معهم بأي وجه كان، وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه، ووجه ذلك أن أشرف أنواع الإحسان هو الإحسان بالطعام وذلك لأن قوام الأبدان/ بالطعام ولا حياة إلا به، وقد يتوهم إمكان الحياة مع فقد ما سواه، فلما كان الإحسان لا جرم عبر به عن جميع وجوه **المنافع** والذي يقوي ذلك أنه يعبر بالأكل عن جميع وجوه **المنافع**، فيقال: أكل فلان ماله إذا أتلفه في سائر وجوه الإتلاف، وقال تعالى: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا [النساء: ١٠] وقال: ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل [البقرة: ١٨٨] إذا ثبت هذا فنقول: إن الله تعالى وصف هؤلاء الأبرار بأنهم يواسون بأموالهم أهل الضعف والحاجة، وأما قوله تعالى: على حبه ففيه وجهان أحدهما: أن يكون الضمير للطعام أي مع اشتهائه والحاجة إليه ونظيره وآتى المال على حبه [البقرة: ١٧٧] لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون [آل عمران: ٩٢] فقد وصفهم الله تعالى بأنهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم على ما قال: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة [الحشر: ٩] والثاني: قال الفضيل بن عياض على حب الله أي لحبهم لله: واللام قد تقام مقام على، وكذلك تقام على مقام اللام، ثم إنه تعالى ذكر أصناف من تجب مواساتهم، وهم ثلاثة أحدهم: المسكين وهو العاجز عن الاكتساب بنفسه والثاني: اليتيم وهو الذي مات كاسبه فيبقى عاجزا عن الكسب لصغره مع أنه مات كسبه والثالث: الأسير وهو المأخوذ من قومه المملوك [- ة] رقبته الذي لا يملك لنفسه نصرا ولا حيلة، وهؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى هاهنا هم الذين ذكرهم في قوله: فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فك رقبة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيما ذا مقربة، أو مسكينا ذا متربة [البلد: ١١- ١٦] وقد ذكرنا." (١)

"المراد به دوام كونهم على تلك الصورة التي لا يراد في الخدم أبلغ منها، وذلك يتضمن دوام حياتهم وحسنهم ومواظبتهم على الخدمة الحسنة الموافقة، قال الفراء: يقال مخلدون مسورون ويقال: مقرطون. وروى نفطويه عن ابن الأعرابي مخلدون محلون.

والصفة الثالثة: قوله تعالى: إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا وفي كيفية التشبيه وجوه أحدها: شبهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم في مجالسهم ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللؤلؤ المنثور، ولو كان صفا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧٤٧/٣٠

لشبهوا باللؤلؤ المنظوم، ألا ترى أنه تعالى قال: ويطوف عليهم فإذا كانوا يطوفون كانوا متناثرين وثانيها: أنهم شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا انتثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء وثالثها: قال القاضي: هذا من التشبيه العجيب لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقا يكون أحسن في المنظر لوقوع شعاع بعضه على البعض فيكون مخالفا للمجتمع منه.

واعلم أن تعالى لما ذكر تفصيل أحوال أهل الجنة، أتبعه بما يدل على أن هناك أمورا أعلى وأعظم من هذا القدر المذكور فقال:

[سورة الإنسان (٧٦) : آية ٢٠]

وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا (٢٠)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: رأيت هل له مفعول؟ فيه قولان: الأول: قال الفراء: المعنى وإذا رأيت ما ثم وصلح إضمار ما كما قال: لقد تقطع بينكم [الأنعام: ٩٤] يريد ما بينكم، قال الزجاج: لا يجوز إضمار ما لأن ثم صلة وما موصولها، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة الثاني: أنه ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر والغرض منه أن يشيع ويعم، كأنه قيل: وإذا وجدت الرؤية ثم، ومعناه أن بصر الرائي أينما وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثير وملك كثير، وثم في موضع النصب على الظرف يعني في الجنة.

المسألة الثانية: اعلم أن اللذات الدنيوية محصورة في أمور ثلاثة: قضاء الشهوة، وإمضاء/ الغضب، واللذة الخيالية التي يعبر عنها بحب المال والجاه، وكل ذلك مستحقر فإن الحيوانات الخسيسة قد تشارك الإنسان في واحد منها، فالملك الكبير الذي ذكره الله هاهنا لا بد وأن يكون مغايرا لتلك اللذات الحقيرة، وما هو إلا أن تصير نفسه منقشة بقدس الملكوت متحلية بجلال حضرة اللاهوت، وأما ما هو على أصول المتكلمين، فالوجه فيه أيضا أنه الثواب والمنفعة المقرونة بالتعظيم فبين تعالى في الآيات المتقدمة تفصيل تلك المنافع وبين في هذه الآية حصول التعظيم وهو أن كل واحد منهم يكون كالملك العظيم، وأما المفسرون فمنهم من حمل هذا الملك الكبير على أن هناك منافع أزيد مما تقدم ذكره، قال ابن عباس: لا يقدر واصف يصف حسنه ولا طيبه. ويقال: إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه، وقيل: لا زوال له وقيل: إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه، وقيل: لا زوال له وقيل: إذا أرادوا شيئا حصل، ومنهم من حمله على التعظيم. فقال الكلبي: هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله وهو

في منزله فيستأذن عليه، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين إلا بعد الاستئذان.
المسألة الثالثة: قال بعضهم قوله: وإذا رأيت خطاب لمحمد خاصة، والدليل عليه
أن رجلا قال." (١)

"لولا أن الأمر كذلك، وإلا لم يكن نظر الرجل في الثواب والعقاب على عمله بل على شيء آخر
والجواب عنه:
أن العمل يوجب الثواب والعقاب، لكن بحكم الوعد والجعل لا بحكم الذات.
أما قوله تعالى: يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا
ففيه وجوه: أحدها أن يوم القيامة ينظر المرء أي شيء قدمت يداه، أما المؤمن فإنه يجد الإيمان والعفو عن سائر المعاصي على ما قال: ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وأما الكافر فلا يتوقع العفو على ما قال: إن الله لا يغفر أن يشرك به [النساء: ٤٨] فعند ذلك يقول الكافر: اليتني كنت ترابا
أي لم يكن حيا مكلفا وثانيها: أنه كان قبل البعث ترابا، فالمعنى على هذا.
يا ليتني لم أبعث للحساب، وبقيت كما كنت ترابا، كقوله تعالى: يا ليتها كانت القاضية [الحاقة: ٢٧] وقوله: يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض [النساء: ٤٢] وثالثها: أن البهائم تحشر فيقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها بعد المحاسبة: كوني ترابا فيتمنى الكافر عند ذلك أن يكون هو مثل تلك البهائم في أن يصير ترابا، ويتخلص من عذاب الله وأنكر بعض المعتزلة ذلك. وقال: إنه تعالى إذا أعادها فهي بين معوض وبين متفضل عليه، وإذا كان كذلك لم يجز أن يقطعها عن **المنافع**، لأن ذلك كالإضرار بها، ولا يجوز ذلك في الآخرة، ثم إن هؤلاء قالوا: إن هذه الحيوانات إذا انتهت مدة أعواضها جعل الله كل ما كان منها حسن الصورة ثوابا لأهل الجنة، وما كان قبيح الصورة عقابا لأهل النار، قال القاضي: ولا يمتنع أيضا إذا وفر الله أعواضها وهي غير كاملة العقل أن يزيل الله حياتها على وجه لا يحصل لها شعور بالألم فلا يكون ذلك ضررا ورابعها: ما ذكره بعض الصوفية فقال قوله: اليتني كنت ترابا
معناه يا ليتني كنت متواضعا في طاعة الله ولم أكن متكبرا متمردا وخامسها: الكافر إبليس يرى آدم وولده وثوابهم، فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين [ص: ٧٦] والله أعلم بمراده وأسرار كتابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.." (٢)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧٥٣/٣٠
(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧/٣١

"أن للعالم صانعا قادرا عالما غنيا فوجب أن يكون في غاية الحكمة، ثم إنا نرى الناس بعضهم محتاجا إلى البعض، فإن الإنسان الواحد لا يمكنه القيام بمهمات نفسه، بل لا بد من بلدة يكون كل واحد من أهلها مشغولا بمهم آخر «١» حتى يتنظم من مجموعهم مصلحة كل واحد منهم، وذلك الانتظام لا يحسن إلا مع التكليف المشتمل على الوعد والوعيد، ذلك لا يحصل إلا بالبعث والقيامة وخلق الجنة والنار فثبت أن إقامة الدلالة على الصانع الحكيم توجب القول بصحة البعث والقيامة فلهذا السبب ذكر الله دلالة التوحيد في آخر هذه السورة، فإن قيل: فأي مجانسة بين الإبل والسماء والجبال والأرض، ثم لم بدأ بذكر الإبل؟ قلنا فيه وجهان: الأول: أن جميع المخلوقات متساوية في هذه الدلالة وذكر جميعها غير ممكن لكثرتها وأي واحد منها ذكر دون غيره كان هذا السؤال عائدا، فوجب الحكم بسقوط هذا السؤال على جميع التقادير، وأيضا فلعل الحكمة في ذكر هذه الأشياء التي هي غير متناسبة التنبيه على أن هذا الوجه من الاستدلال غير مختص بنوع دون نوع بل هو عام في الكل على ما قال: وإن من شيء إلا يسبح بحمده [الإسراء: ٤٤] ولو ذكر غيرها لم يكن الأمر كذلك لا جرم ذكر الله تعالى أمورا غير متناسبة بل متباعدة جدا، تنبيها على أن جميع الأجسام العلوية والسفلية صغيرها وكبيرها حسنها وقبيحها متساوية في الدلالة على الصانع الحكيم، فهذا وجه حسن معقول وعليه الاعتماد الوجه الثاني: وهو أن نبين ما في كل واحد من هذه الأشياء من **المنافع** والخواص الدالة على الحاجة إلى الصانع المدبر، ثم نبين أنه كيف يجانس بعضها بعضا.

أما المقام الأول: فنقول الإبل له خواص منها أنه تعالى جعل الحيوان الذي يقتنى أصنافا شتى فتارة يقتنى ليؤكل لحمه وتارة ليشرب لبنه وتارة ليحمل الإنسان في الأسفار وتارة/ لينقل أمتعة الإنسان من بلد إلى بلد وتارة ليكون له به زينة وجمال وهذه **المنافع** بأسرها حاصلة في الإبل، وقد أبان الله عز وجل عن ذلك بقوله:

أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون [يس: ٧١، ٧٢] ، قال: والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس [النحل: ٥- ٧] وإن شيئا من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال فكان اجتماع هذه الخصال فيه من العجائب وثانيها: أنه في كل واحد من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذي لا يوجد فيه إلا تلك الخصلة لأنها إن جعلت حلوبة سقت فأروت الكثير، وإن جعلت أكولة أطعمت وأشبعت الكثير، وإن جعلت ركوبة أمكن أن يقطع

بها من المسافات المديدة ما لا يمكن قطعه بحيوان آخر، وذلك لما ركب فيها من قوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش والاجتزاء من العلوفات بما لا يجتزئ حيوان آخر، وإن جعلت حملة استغلت بحمل الأحمال الثقيلة التي لا يستقل بها سواها، ومنها أن هذا الحيوان كان أعظم الحيوانات وقعا في قلب العرب ولذلك فإنهم جعلوا دية قتل الإنسان إبلا، وكان الواحد من ملوكهم إذا أراد المبالغة في إعطاء الشاعر الذي جاءه من المكان البعيد أعطاه مائة بعير، لأن امتلاء العين منه أشد من امتلاء العين من غيره، ولهذا قال تعالى: ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون
[النحل: ٦] ومنها أني كنت مع جماعة في مفازة فضللنا الطريق فقدموا جملا وتبعوه فكان

(١) هكذا في الأصل، ولعله سقط شيء وصوابه: بل لا بد في كل بلدة أن يكون كل واحد من أهلها مشغولا بمهم وغيره مشغولا بمهم آخر.." [١]

"كانت الآخرة شرا له، فلو أنه سبحانه عمم لكان كذبا، ولو خصص المطيعين بالذكر لافتضح المذنبون والمنافقون. ولهذا السبب قال موسى عليه السلام: كلا إن معي ربي سيهدين [الشعراء: ٦٢] وأما محمد صلى الله عليه وسلم فالذي كان معه لما كان من أهل السعادة قطعا، لا جرم قال: إن الله معنا [التوبة: ٤٠] إذ لم يكن ثم إلا نبي وصديق،
وروي أن موسى عليه السلام خرج للاستسقاء، ومعه الألوف ثلاثة أيام فلم يجدوا الإجابة، فسأل موسى عليه السلام عن السبب الموجب لعدم الإجابة فقال: لا أجيبكم ما دام معكم ساع بالنميمة، فسأل موسى من هو؟ فقال: [إني] أبغضه فكيف أعمل عمله، فما مضت مدة قليلة حتى نزل الوحي بأن ذلك النمام قد مات، وهذه جنازته في مصلى، كذا فذهب موسى عليه السلام إلى تلك المصلى، فإذا فيها سبعون من الجنائز،
فهذا ستره على أعدائه فكيف على أوليائه. ثم تأمل فإن فيه دقيقة لطيفة، وهي
أنه عليه السلام قال: «لولا شيوخ ركع»
وفيه إشارة إلى زيادة فضيلة هذه الأمة، فإنه تعالى كان يرد الألوف لمذنب واحد، وهاهنا يرحم المذنبين لمطيع واحد.

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤٤/٣١

[سورة الضحى (٩٣) : آية ٥]

ولسوف يعطيك ربك فترضى (٥)

واعلم اتصاله بما تقدم من وجهين الأول: هو أنه تعالى لما بين أن الآخرة: خير له من الأولى ولكنه لم يبين أن ذلك التفاوت إلى أي حد/ يكون فبين بهذه الآية مقدار ذلك التفاوت، وهو أنه ينتهي إلى غاية ما يتمناه الرسول ويرتضيه الوجه الثاني: كأنه تعالى لما قال: وللآخرة خير لك من الأولى [الضحى: ٤] فقيل ولم قلت إن الأمر كذلك، فقال: لأنه يعطيه كل ما يريده وذلك مما لا تتسع الدنيا له، فثبت أن الآخرة خير له من الأولى، واعلم أنه إن حملنا هذا الوعد على الآخرة فقد يمكن حمله على **المنافع**، وقد يمكن حمله على التعظيم، أما **المنافع**، فقال ابن عباس: ألف قصر في الجنة من لؤلؤ أبيض ترابه المسك وفيها ما يليق بها، وأما التعظيم

فالمروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام وابن عباس، أن هذا هو الشفاعة في الأمة،

يروى أنه عليه السلام لما نزلت هذه الآية قال: إذا لا أرضى وواحد من أمتي في النار،

واعلم أن الحمل على الشفاعة متعين، ويدل عليه وجوه أحدها: أنه تعالى أمره في الدنيا بالاستغفار فقال: استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات [محمد: ١٩] فأمره بالاستغفار والاستغفار عبارة عن طلب المغفرة، ومن طلب شيئا فلا شك أنه لا يريد الرد ولا يرضى به وإنما يرضى بالإجابة، وإذا ثبت أن الذي يرضاه الرسول صلى الله عليه وسلم هو الإجابة لا الرد، ودلت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه كل ما يرتضيه. علمنا أن هذه الآية دالة على الشفاعة في حق المذنبين والثاني: وهو أن مقدمة الآية مناسبة لذلك كأنه تعالى يقول لا أودعك ولا أبغضك بل لا أغضب على أحد من أصحابك وأتباعك وأشياعك طلبا لمرضاتك وتطييبا لقلبك، فهذا التفسير أوفق لمقدمة الآية والثالث: الأحاديث الكثيرة الواردة في الشفاعة دالة على أن رضا الرسول عليه الصلاة والسلام في العفو عن المذنبين، وهذه الآية دلت على أنه تعالى يفعل كل ما يرضاه الرسول فتحصل من مجموع الآية والخبر حصول الشفاعة،

وعن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: رضاء جدي أن لا يدخل النار موحد،

وعن الباقر، أهل القرآن يقولون: أرجى آية قوله: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم [الزمر: ٥٣] وإنا أهل البيت نقول: أرجى آية قوله: ولسوف يعطيك ربك فترضى والله إنها الشفاعة ليعطاها في أهل لا إله إلا الله حتى يقول رضيت،

هذا كله إذا حملنا الآية على أحوال الآخرة، أما لو حملنا هذا الوعد على أحوال الدنيا فهو إشارة إلى ما أعطاه الله تعالى من الظفر بأعدائه يوم بدر." (١)

"نفسه، بل من الذين أثنى الله عليهم في قوله ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة [الحشر: ٩] ، وثالثها:

أن من خواص هذه الشجرة أن سائر الأشجار إذا أسقطت الثمرة من موضعها لم تعد في تلك السنة، إلا التين فإنه يعيد البذر وربما سقط ثم يعود مرة أخرى ورابعها: أن التين في النوم رجل خير غني فمن نالها في المنام نال مالا وسعة، ومن أكلها رزقه الله أولادا وخامسها:

روي أن آدم عليه السلام لما عصى وفارقته ثيابه تستر بورق التين، وروي أنه لما نزل وكان متزرا بورق التين استوحش فطاف الظباء حوله فاستأنس بها فأطعمها بعض ورق التين، فرزقها الله الجمال صورة والملاحة معنى وغير دمها مسكا، فلما تفرقت الظباء إلى مساكنها رأى غيرها عليها من الجمال ما أعجبها، فلما كانت من الغد جاءت الظباء على أثر الأولى إلى آدم فأطعمها من الورق فغير الله حالها إلى الجمال دون المسك،

وذلك لأن الأولى جاءت لآدم ل ا لأجل الطمع والطائفة الأخرى جاءت للطمع سرا وإلى آدم ظاهرة، فلا جرم غير الظاهر دون الباطن، وأما الزيتون فشجرته هي الشجرة المباركة فاكهة من وجه وإدام من وجه ودواء من وجه، وهي في أغلب البلاد لا تحتاج إلى تربية الناس، ثم لا تقتصر منفعتها غذاء بدنك، بل هي غذاء السراج أيضا وتولدها في الجبال التي لا توجد فيها شيء من الدهنية البتة، وقيل: من أخذ ورق الزيتون في المنام استمسك بالعروة الوثقى، وقال مريض لابن سيرين: رأيت في المنام كأنه قيل لي:

كل اللامين تشف، فقال: كل الزيتون فإنه لا شرقية ولا غربية، ثم قال المفسرون: التين والزيتون اسم لهذين المأكولين وفيهما هذه المنافع الجليلة، فوجب إجراء اللفظ على الظاهر، والجزم بأن الله تعالى أقسم بهما لما فيهما هذه المصالح والمنافع.

القول الثاني: أنه ليس المراد هاتين الثمرتين، ثم ذكروا وجوها أحدها: قال ابن عباس: هما جبلان من الأرض الم قدسة، يقال لهما: بالسريانية طور تينا، وطور زيتا، لأنهما منبتا التين والزيتون، فكأنه تعالى أقسم بمنابت الأنبياء، فالجبل المختص بالتين لعيسى عليه السلام والزيتون الشأم مبعث أكثر أنبياء بني إسرائيل، والطور مبعث موسى عليه السلام، والبلد الأمين مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، فيكون المراد من القسم في

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٩٤/٣١

الحقيقة تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم وثانيها: أن المراد من التين والزيتون مسجدان، ثم قال ابن زيد: التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس، وقال آخرون: التين مسجد أصحاب أهل الكهف، والزيتون مسجد إيليا، وعن ابن عباس التين مسجد نوح المبني على الجودي، والزيتون مسجد بيت المقدس، والقائلون بهذا القول إنما ذهبوا إليه لأن القسم بالمسجد أحسن لأنه موضع العبادة والطاعة، فلما كانت هذه المساجد في هذه المواضع التي يكثر فيها التين والزيتون، لا جرم اكتفى بذكر التين والزيتون وثالثها: / المراد من التين والزيتون بلدان، فقال كعب: التين دمشق والزيتون بيت المقدس، وقال شهر بن حوشب: التين الكوفة، والزيتون الشام، وعن الربيع هما جبلان بين همدان وحلوان، والقائلون بهذا القول، إنما ذهبوا إليه لأن اليهود والنصارى والمسلمين ومشركي قريش كل واحد منهم يعظم بلدة من هذه البلاد، فالله تعالى أقسم بهذه البلاد بأسرها، أو يقال: إن دمشق وبيت المقدس فيهما نعم الدنيا، والطور ومكة فيهما نعم الدين.

أما قوله تعالى: وطور سينين فالمراد من الطور الجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه، واختلفوا في سينين والأولى عند النحويين أن يكون سينين وسينا اسمين للمكان الذي حصل فيه الجبل أضيفا إلى ذلك المكان، وأما المفسرون فقال ابن عباس في رواية عكرمة: الطور الجبل وسينين الحسن بلغة الحبشة،." (١)

"قال: إذا كانت تلك الليلة، فأعلمني فإذا هي السابعة والعشرون من رمضان. وأما من قال: إنها الليلة الأخيرة قال: لأنها هي الليلة التي تتم فيها طاعات هذا الشهر، بل أول رمضان كآدم وآخره كمحمد، ولذلك روي في الحديث «يعتق في آخر رمضان بعدد ما أعتق من أول الشهر» ،

بل الليلة الأولى كمن ولد له ذكر، فهي ليلة شكر، والأخيرة ليلة الفراق، كمن مات له ولد، فهي ليلة صبر، وقد علمت فرق ما بين الصبر والشكر. ثم قال تعالى:

[سورة القدر (٩٧) : آية ٢]

وما أدراك ما ليلة القدر (٢)

يعني ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها، ثم إنه تعالى بين فضيلتها من ثلاثة أوجه: الأول: قوله تعالى:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢١١/٣٢

[سورة القدر (٩٧) : آية ٣]

ليلة القدر خير من ألف شهر (٣)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير الآية وجوه أحدها: أن العبادة فيها خير من ألف شهر ليس فيها هذه الليلة، لأنه كالمستحيل أن يقال إنها: خير من ألف شهر فيها هذه الليلة، وإنما كان كذلك لما يزيد الله فيها من **المنافع** والأرزاق وأنواع الخير وثانيها: قال مجاهد: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد حتى يمسي فعل ذلك ألف شهر، فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من ذلك، فأنزل الله هذه الآية، أي ليلة القدر لأمتك خير من ألف شهر لذلك الإسرائيلي الذي حمل السلاح ألف شهر وثالثها:

قال مالك بن أنس: أري/ رسول الله صلى الله عليه وو سلم أعمار الناس، فاستقصر أعمار أمته، وخاف أن لا يبلغوا من الأعمال مثل ما بلغه سائر الأمم، فأعطاه الله ليلة القدر وهي خير من ألف شهر لسائر الأمم ورابعها:

روى القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن، قال: قلت للحسن بن علي عليه السلام يا مسود وجوه المؤمنين عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له يعني معاوية، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأى في منامه بني أمية يطؤن منبره واحدا بعد واحد. وفي رواية ينزون على منبره نزو القردة، فشق ذلك عليه فأنزل الله تعالى: إنا أنزلناه في ليلة القدر إلى قوله: خير من ألف شهر يعني ملك بني أمية قال القاسم فحسبنا ملك بني أمية، فإذا هو ألف شهر.

طعن القاضي في هذه الوجوه فقال: ما ذكر من ألف شهر في أيام بني أمية بعيد، لأنه تعالى لا يذكر فضلها بذكر ألف شهر مذمومة، وأيام بني أمية كانت مذمومة.

واعلم أن هذا الطعن ضعيف، وذلك لأن أيام بني أمية كانت أياما عظيمة بحسب السعادات الدنيوية، فلا يمتنع أن يقول الله تعالى إني: أعطيتك ليلة هي في السعادات الدينية أفضل من تلك السعادات الدنيوية.

المسألة الثانية: هذه الآية فيها بشارة عظيمة وفيها تهديد عظيم، أما البشارة فهي أنه تعالى ذكر أن هذه الليلة خير، ولم يبين قدر الخيرية، وهذا

كقوله عليه السلام لمبارزة علي عليه السلام مع عمرو بن عبد ود [العامري] «أفضل من عمل أمتي إلى يوم

القيامة» ،

فلم يقل مثل عمله بل قال: أفضل كأنه يقول: حسبك هذا من الوزن والباقي جزاف.." (١)

"المسألة الثانية: الجزاء اسم لما يقع به الكفاية، ومنه اجتزت الماشية بالحشيش الرطب عن الماء، فهذا يفيد معنيين أحدهما: أنه يعطيه الجزاء الوافر من غير نقص والثاني: أنه تعالى يعطيه ما يقع به الكفاية، فلا يبقى في نفسه شيء إلا والمطلوب يكون حاصلا على ما قال: ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم [فصلت: ٣١] .

المسألة الثالثة: قال: جزاؤهم فأضاف الجزاء إليهم، والإضافة المطلقة تدل على الملكية فكيف الجمع بينه وبين قوله: الذي أحلنا دار المقامة من فضله [فاطر: ٣٥] والجواب: أما أهل السنة فإنهم يقولون: إنه لو قال الملك الكريم: من حرك أصبعه أعطيته ألف دينار، فهذا شرط وجزاء بحسب اللغة وبحسب الوضع لا بحسب الاستحقاق الذاتي، فقوله: جزاؤهم يكفي في صدقه هذا المعنى وأما المعتزلة فإنهم قالوا: في قوله تعالى: الذي أحلنا دار المقامة من فضله إن كلمة من لابتداء الغاية، فالمعنى أن استحقاق هذه الجنان. إنما حصل بسبب فضلك السابق فإنك لولا أنك خلقتنا وأعطيتنا القدرة والعقل وأزلت الأعذار وأعطيت الألطاف وإلا لما وصلنا إلى هذه الدرجة. فإن قيل: فإذا كان لا حق لأحد عليه في مذهبكم، فما السبب في التزام مثل هذا الإنعام؟ قلنا: أتسأل عن إنعامه الأمسي حال عدمنا؟ أو عن إنعامه اليومي حال التكليف؟ أو عن إنعامه في غد القيامة؟ فإن سألت عن الأمسي فكأنه يقول: أنا منزه عن الانتفاع والمائدة مملوءة من المنافع فلو لم أخلق الخلق لضاعت هذه المنافع، فكما أن من له مال ولا عيال له فإنه يشتري العبيد والجواري لينتفعوا بماله، فهو سبحانه اشترى من دار العدم هذا الخلق لينتفعوا بملكه، كما

روي: «الخلق عيال الله»

وأما اليومي فالنعمان «١» يوجب الإتمام بعد الشروع فالرحمن أولى وأما الغد فأنا مديونهم بحكم الوعد والإخبار فكيف لا أفي بذلك.

المسألة الرابعة: في قوله: عند ربهم لطائف:

أحدها: قال بعض الفقهاء: لو قال: لا شيء لي على فلان، فهذا يختص بالديون وله أن يدعي الوديعة، ولو قال: لا شيء لي عند فلان انصرف إلى الوديعة دون الدين، ولو قال: لا شيء لي قبل فلان انصرف إلى الدين والوديعة معا، إذا عرفت هذا فقوله: عند ربهم يفيد أنه وديعة والوديعة عين، ولو قال: لفلان علي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢/٢٣١

فهو إقرار بالدين، والعين أشرف من الدين فقوله: عند ربهم يفيد أنه كالمال المعين الحاضر العتيد، فإن قيل: الوديعة أمانة وغير مضمونة والدين مضمون والمضمون خير مما كان غير مضمون، قلنا: المضمون خير إذا تصور الهلاك فيه وهذا في حق الله تعالى محال، فلا جرم قلنا: الوديعة هناك خير من المضمون.

وثانيها: إذا وقعت الفتنة في البلدة، فوضعت مالك عند إمام المحلة على سبيل الوديعة صرت فارغ القلب، فههنا ستقع الفتنة في بلدة بدنك، وحينئذ تخاف الشيطان من أن يغيروا عليها، فضع وديعة أمانتك عندي فإني أكتب لك به كتابا يتلى في المحاريب إلى يوم القيامة وهو قوله: جزاؤهم عند ربهم حتى أسلمه إليك أحوج ما تكون إليه وهو في عرصة القيامة.

وثالثها: أنه قال: عند ربهم وفيه بشارة عظيمة، كأنه تعالى يقول: أنا الذي ربيتك أولا حين كنت معدوما صفر اليد من الوجود والحياة والعقل والقدرة، فخلقتك وأعطيتك كل هذه الأشياء فحين كنت مطلقا

---

(١) يراد بالنعمان الوصفية من الإنعام، أو الاسمية والاسمية نص الأولى يقصد النعمان بن المنذر بن ماء السماء، وهو.." (١)

"بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العاديات

إحدى عشرة آية مكية

[سورة العاديات (١٠٠) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

والعاديات ضبحا (١)

اعلم أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدت، وهو صوت ليس بصهيل ولا حمحمة، ولكنه صوت نفس، ثم اختلفوا في المراد بالعاديات على قولين:

الأول: ما

روي عن علي عليه السلام وابن مسعود أنها الإبل،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥٠/٣٢

وهو قول إبراهيم والقرظي

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «بينا أنا جالس في الحجر إذ أتاني رجل فسألني عن العاديات ضبحا، ففسرتها بالخيل فذهب إلى علي عليه السلام وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت، فقال: ادعه لي فلما وقفت على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان، فرس للزبير وفرس للمقداد والعاديات ضبحا الإبل من عرفة إلى مزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى،

يعني إبل الحاج، قال ابن عباس: فرجعت عن قولي إلى قول علي عليه السلام» ويتأكد هذا القول بما روى أبي في فضل السورة مرفوعا: «من قرأها أعطي من الأجر بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعا»

وعلى هذا القول:

فالموريات قدحا أن الحوافر ترمي بالحجر من شدة العدو فتضرب به حجرا آخر فتوري النار أو يكون المعنى الذين يركبون الإبل وهم الحجيج إذا أوقدوا نيرانهم بالمزدلفة فالمغيرات الإغارة سرعة السير وهم يندفعون صبيحة يوم النحر مسرعين إلى منى فأثرن به نقعا يعني غبارا بالعدو وعن محمد بن كعب النقع ما بين المزدلفة إلى منى فوسطن به جمعا يعني مزدلفة لأنها تسمى الجمع لاجتماع الحاج بها، وعلى هذا التقدير، فوجه القسم به من وجوه أحدها: ما ذكرنا من المنافع الكثيرة فيه في قوله: أفلا ينظرون إلى الإبل [الغاشية: ١٧] وثانيها: كأنه تعريض بالآدمي الكنود فكأنه تعالى يقول: إني سخرت مثل هذا لك وأنت متمرد عن طاعتي وثالثها: الغرض بذكر إبل الحج الترغيب في الحج، كأنه تعالى يقول: جعلت ذلك الإبل مقسما به، فكيف أضيع/ عملك! وفيه تعريض لمن يرغب الحج، فإن الكنود هو الكفور، والذي لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك، كما في قوله تعالى: ولله على الناس حج البيت إلى قوله: ومن كفر آل عمران:." (١)

"سواء في المعنى، هذا قول الفراء، فهذه احتمالات ثلاثة توجهت على تقدير تعليق اللام بالسورة التي قبل هذه، وبقي من مباحث هذا القول أمران:

الأول: أن للناس في تعليق هذه اللام بالسورة المتقدمة قولين: أحدهما: أن جعلوا السورتين سورة واحدة واحتجوا عليه بوجوه: أحدها: أن السورتين لا بد وأن تكون كل واحدة منهما مستقلة بنفسها، ومطلع هذه السورة لما كان متعلقا بالسورة المتقدمة وجب أن لا تكون سورة مستقلة وثانيها: أن أبي بن كعب جعلهما

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥٨/٣٢

في مصحفه سورة واحدة وثالثها: ما روي أن عمر قرأ في صلاة المغرب في الركعة الأولى والتين وفي الثانية ألم تر ولإيلاف قريش معا، من غير فصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم القول الثاني: وهو المشهور المستفيض أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل، وأما تعلق أول هذه السورة بما قبلها فليس بحجة على ما قالوه، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضا ويبين بعضها معنى بعض، ألا ترى أن الآيات الدالة على الوعيد مطلقة، ثم إنها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو عنه من يقول به، وقوله: إنا أنزلناه [القدر: ١] متعلق بما قبله من ذكر القرآن، وأما قوله: إن أبيا لم يفصل بينهما فهو معارض بإطباق الكل على الفصل بينهما، وأما قراءة عمر فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الإمام قد يقرأ سورتين.

البحث الثاني: فيما يتعلق بهذا القول بيان أنه لم صار ما فعله الله بأصحاب الفيل سببا لإيلاف قريش؟ فنقول: لا شك أن مكة كانت خالية عن الزرع والضرع على ما قال تعالى: بواد غير ذي زرع إلى قوله: فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات [إبراهيم: ٣٧] فكان أشراف أهل مكة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين، ويأتون لأنفسهم ولأهل بلدهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب، وهم إنما كانوا يربحون في أسفارهم، ولأن ملوك النواحي كانوا يعظمون أهل مكة، ويقولون: هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة حتى إنهم كانوا يسمون أهل مكة أهل الله، فلو تم للحبشة ما عزموا عليه من هدم الكعبة، لزال عنهم هذا العز ولبطلت تلك المزايا في التعظيم والاحترام ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحي يتخطفون من كل جانب ويتعرض لهم في نفوسهم وأموالهم، فلما أهلك الله أصحاب الفيل ورد كيدهم في نحرهم ازداد وقع أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم ملوك الأطراف لهم فازدادت تلك **المنافع** والمتاجر، فلهذا قال الله تعالى: ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل لإيلاف قريش ... رحلة «١» الشتاء والصيف. والوجه الثاني:

فيما يدل على صحة هذا القول أن قوله تعالى في آخر هذه السورة: فليعبدوا رب/ هذا البيت الذي [قريش: ٣، ٤] إشارة إلى أول سورة الفيل، كأنه قال: فليعبدوا رب هذا البيت الذي قصده أصحاب الفيل، ثم إن رب البيت دفعهم عن مقصودهم لأجل إيلافكم ونفعكم لأن الأمر بالعبادة إنما يحسن مرتبا على إيصال المنفعة، فهذا يدل على تعلق أول هذه السورة بالسورة المتقدمة.

القول الثاني: وهو أن اللام في: لإيلاف متعلقة بقوله: ليعبدوا

وهو قول الخليل وسيبويه والتقدير: فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش أي: ليجعلوا عبادتهم شكرا لهذه

النعمة واعترافا بها، فإن قيل: فلم دخلت الفاء في قوله: ليعبدوا

؟ قلنا: لما في الكلام من معنى الشرط، وذلك لأن نعم الله عليهم

---

(١) في الأصل: (رحلتي الشتاء) ولعلها قراءة ولكن القراءة المشهورة رحلة بالإفراد لا بالتثنية، وهو مفرد مضاف فيعم الواحد والإثنين.." [١]

"يقول: جميع ما نلت مني عطية وإن كانت كوثرا إلا أن الأعظم من ذلك الكوثر أن تبقى مظفرا وخصمك أبتر، فإنا أعطيناك بالتقدمة هذا الكوثر، أما الذكر الباقي والظفر على العدو فلا يحسن إعطاؤه إلا بعد التقدمة بطاعة تحصل منك: فصل لربك وانحر أي فاعبد لي وسل الظفر بعد العبادة

فإني أوجبت على كرمي أن بعد كل فريضة دعوة مستجابة، كذا روي في الحديث المسند،

فحينئذ أستجيب فيصير/ خصمك أبتر وهو الإيتاء، فهذا ما يخطر بالبال في تفسير قوله تعالى: إنا أعطيناك

أما الكوثر فهو في اللغة فوعل من الكثرة وهو المفرط في الكثرة، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر، بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر، أي بالعدد الكثير، ويقال للرجل الكثير العطاء: كوثر، قال الكميت:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب ... وكان أبوك ابن الفضائل كوثرا

ويقال للغبار إذا سطع وكثر كوثر هذا معنى الكوثر في اللغة، واختلف المفسرون فيه على وجوه ال أول:

وهو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف أنه نهر في الجنة،

روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت نهرا في الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فضربت بيدي إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسك أذفر، فقلت: ما هذا؟ قيل:

الكوثر الذي أعطاك الله»

وفي رواية أنس: «أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل، فيه طيور خضر لها أعناق كأعناق البخت من أكل من ذلك الطير وشرب من ذلك الماء فاز بالرضوان»

ولعله إنما سمي ذلك النهر كوثرا إما لأنه أكثر أنهار الجنة ماء وخيرا أو لأنه انفجر منه أنهار الجنة، كما روي أنه ما في الجنة بستان إلا وفيه من الكوثر نهر جار،

أو لكثرة الذين يشربون منها، أو لكثرة ما فيها من **المنافع** على ما

قال عليه السلام: «إنه نهر وعدنيه ربي فيه خير كثير»

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢/٢٩٥

القول الثاني: أنه حوض والأخبار فيه مشهورة ووجه التوفيق بين هذا القول، والقول الأول أن يقال: لعل النهر ينصب في الحوض أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض فيكون ذلك الحوض كالمنبع والقول الثالث: الكوثر أولاده قالوا: لأن هذه السورة إنما نزلت ردا على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد، فالمعنى أنه يعطيه نسلا يبقون على مر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم القول الرابع: الكوثر علماء أمته وهو لعمري الخير الكثير لأنهم كأنبياء بني إسرائيل، وهم يحبون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشرون آثار دينه وأعلام شرعه، ووجه التشبيه أن الأنبياء كانوا متفقين على أصول معرفة الله مختلفين في الشريعة رحمة على الخلق ليصل كل أحد إلى ما هو صلاحه، كذا علماء أمته متفقون بأسرهم على أصول شرعه، لكنهم مختلفون في فروع الشريعة رحمة على الخلق، ثم الفضيلة من وجهين أحدهما: أنه

يروى أنه يجاء يوم القيامة بكل نبي ويتبعه أمته فربما يجيء الرسول ومعه الرجل والرجلان، ويجاء بكل عالم من علماء أمته ومعه الألوف الكثيرة فيجتمعون عند الرسول فربما يزيد عدد متبعي بعض العلماء على عدد متبعي ألف من الأنبياء

الوجه الثاني: أنهم كانوا مصيبين لاتباعهم النصوص المأخوذة من الوحي، وعلماء هذه الأمة يكونون مصيبين مع كد الاستنباط والاجتهاد، أو على قول البعض: إن كان بعضهم مخطئا لكن المخطئ يكون أيضا مأجورا القول الخامس: الكوثر هو النبوة، ولا شك أنها الخير الكثير لأنها المنزلة التي هي ثانية الربوبية/ ولهذا قال: من يطع الرسول فقد أطاع الله [النساء: ٨٠] وهو شطر الإيمان بل هي كالغصن في معرفة الله تعالى، لأن معرفة النبوة لا بد وأن يتقدمها معرفة ذات الله وعلمه." (١)

"الجزء الرابع

[تتمة سورة البقرة]

بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة البقرة (٢) : آية ١١٠]

وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير (١١٠)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٣/٣٢

اعلم أنه تعالى أمر بالعفو والصفح عن اليهود، ثم عقبه بقوله تعالى: وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة تنبيها على أنه كما ألزمهم لحظ الغير وصلاحه العفو والصفح، فكذلك ألزمهم لحظ أنفسهم وصلاحها القيام بالصلاة والزكاة الواجبتين، ونبه بهما على ما عداهما من الواجبات. ثم قال بعده: وما تقدموا لأنفسكم من خير والأظهر أن المراد به التطوعات من الصلوات والزكوات، وبين تعالى أنهم يجدونه وليس المراد أنهم يجدون عين تلك الأعمال لأنها لا تبقى ولأن وجدان عين تلك الأشياء لا يرغب فيه، فبقي أن المراد وجدان ثوابه وجزائه، ثم قال: إن الله بما تعملون بصير أي أنه لا يخفى عليه القليل ولا الكثير من الأعمال وهو ترغيب من حيث يدل على أنه تعالى يجازي على القليل كما يجازي على الكثير، وتحذير من خلافه الذي هو الشر، وأما الخير فهو النفع الحسن وما يؤدي إليه، فلما كان ما يأتيه المرء من الطاعة يؤدي به إلى **المنافع** العظيمة، وجب أن يوصف بذلك، وعلى هذا الوجه قال تعالى: وافعلوا الخير لعلكم تفلحون [الحج: ٧٧]
.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١١١ الى ١١٢]
وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (١١١)
بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١١٢)
اعلم أن هذا هو النوع الرابع من تخليط اليهود وإلقاء الشبه في قلوب المسلمين، واعلم أن اليهود/ لا تقول في النصارى: إنها تدخل الجنة، ولا النصارى في اليهود، فلا بد من تفصيل في الكلام فكأنه قال: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، ولا يصح في الكلام سواه، مع علمنا بأن كل واحد من الفريقين يكفر الآخر، ونظيره: قالوا كونوا هودا أو نصارى [البقرة: ١٣٥] والهود: جمع هائد، كعائذ وعوذ وبازل وبزل، فإن قيل: كيف قيل: كان هودا، على توحيد الاسم، وجمع الخبر؟ قلنا: حمل الاسم على لفظ (من) والخبر على معناه كقراءة الحسن: إلا من هو صال الجحيم [الصافات: ١٦٣] وقرأ أبي بن كعب: إلا من كان يهوديا أو نصرانيا أما قوله تعالى: تلك أمانيهم فالمراد أن ذلك متمنياتهم، ثم إنهم لشدة تمنيهم لذلك قدروه حقا في نفسه، فإن قيل: لم قال: تلك أمانيهم وقولهم: لن يدخل الجنة أمنية واحدة؟ قلنا: أشير بها إلى الأماني المذكورة، وهي أمنيتهم أن لا ينزل على

المؤمنين خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردوهم كفارا، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم، أي: تلك الأماني الباطلة أمانيهم، وقوله تعالى: قل هاتوا برهانكم متصل بقوله: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا." [١]

"فيه من **المنافع**، ثم هذا العلم لا يوجب هذا الميل إلا عند خلو القلب عن سائر الشواغل، فإذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد في الولد غرضا صحيحا لا عاجلا ولا آجلا، لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة فكيف ينوي الولد؟ فثبت أن النية ليست عبارة عن القول باللسان أو بالقلب بل هي عبارة عن حصول هذا الميل، وذلك أمر معلق بالغيب فقد يتيسر في بعض الأوقات، وقد يتعذر في بعضها.

المسألة السادسة: اعلم أن نيات الناس في الطاعات أقسام: فمنهم من يكون عملهم إجابة لباعث الخوف فإنه يتقي النار، ومنهم من يعمل لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة والعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه، كالأجير السوء ودرجته درجة البله، وأما عبادة ذوي الألباب فلا تجاوز ذكر الله والفكر فيه حبا لجلاله وسائر الأعمال مؤكدات له وهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم صار المقربون متنعمين بالنظر إلى وجهه الكريم ونسبة شرف الالتذاذ بنعيم الجنة إلى شرف الالتذاذ بهذا المقام كنسبة نعيم الجنة إلى وجهه الكريم.

[سورة البقرة (٢) : آية ١١٣]

وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (١١٣)

اعلم أنه تعالى لما جمعهم في الخبر الأول فصلهم في هذه الآية، وبين قول كل فريق منهم في الآخر، وكيف ينكر كل طائفة دين الأخرى، وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ليست النصارى على شيء أي على شيء يصح ويعتد به وهذه مبالغة عظيمة وهو كقولهم: أقل من لا شيء، ونظيره قوله تعالى: قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة [المائدة: ٦٨] ، فإن قيل: كيف قالوا ذلك مع أن الفريقين كانا يثبتان الصانع وصفاته سبحانه وتعالى، وذلك قول فيه فائدة؟ قلنا: الجواب من وجهين، الأول: أنهم لما ضموا إلى ذلك القول الحسن قولا باطلا يحبط ثواب الأول، فكأنهم ما أتوا بذلك الحق. الثاني: أن يخص هذا العام بالأمور التي اختلفوا فيه، وهي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤/٥

ما يتصل بباب النبوات.

المسألة الثانية:

روي أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل، وقالت النصارى لهم: نحوه وكفروا بموسى عليه السلام والتوراة.

المسألة الثالثة: اختلفوا فيمن هم الذين عناهم الله تعالى أهم الذين كانوا من بعثة عيسى عليه السلام أو في زمن محمد عليه السلام، والظاهر الحق أنه لا دليل في الظاهر عليه وإن كان الأولى أن يحمل على كل اليهود وكل النصارى بعد بعثة عيسى عليه السلام، ولا يجب لما نقل في سبب الآية/ أن يهوديا خاطب النصارى بذلك فأنزل الله هذه الآية أن لا يراد بالآية سواه، إذا أمكن حمله على ظاهره وقوله: وقالت اليهود ليست النصارى على شيء يفيد العموم فما الوجه في حمله على التخصيص ومعلوم من طريقة اليهود والنصارى أنهم منذ كانوا فهذا قول كل فريق منهما في الآخر.." (١)

"قوله: ويعلمهم الكتاب والمراد أنه يأمرهم بتلاوة الكتاب ويعلمهم معاني الكتاب وحقائقه، وذلك لأن التلاوة مطلوبة لوجوه: منها بقاء لفظها على ألسنة أهل التواتر فيبقى مصونا عن التحريف والتصحيف، ومنها أن يكون لفظه ونظمه معجزا لمحمد صلى الله عليه وسلم، ومنها أن يكون في تلاوته نوع عبادة وطاعة، ومنها أن تكون قراءته في الصلوات وسائر العبادات نوع عبادة، فهذا حكم التلاوة إلا أن الحكمة العظمى والمقصود الأشرف تعليم ما فيه من الدلائل والأحكام، فإن الله تعالى وصف القرآن بكونه هدى ونورا لما فيه من المعاني والحكم والأسرار، فلما ذكر الله تعالى أولا أمر التلاوة ذكر بعده تعليم حقائقه وأسراره فقال: ويعلمهم الكتاب. الصفة الثالثة:

من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: والحكمة أي ويعلمهم الحكمة. واعلم أن الحكمة هي: الإصابة في القول والعمل، ولا يسمى حكيما إلا من اجتمع له الأمران وقيل: أصلها من أحكمت الشيء أي رددته، فكأن الحكمة هي التي ترد عن الجهل والخطأ، وذلك إنما يكون بما ذكرنا من الإصابة في القول والفعل، ووضع كل شيء موضعه. قال القفال: وعبر بعض الفلاسفة عن الحكمة بأنها التشبه بالإله بقدر الطاقة البشرية. واختلف المفسرون في المراد بالحكمة هاهنا على وجوه. أحدها: قال ابن وهب قلت لمالك: ما الحكمة؟ قال: معرفة الدين، والفقه فيه، والاتباع له. وثانيها: قال الشافعي رضي الله عنه: الحكمة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٩/٤

سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو قول قتادة، قال أصحاب الشافعي رضي الله عنه: والدليل عليه أنه تعالى ذكر تلاوة الكتاب أولا وتعليمه ثانيا ثم عطف عليه الحكمة/ فوجب أن يكون المراد من الحكمة شيئا خارجا عن الكتاب، وليس ذلك إلا سنة الرسول عليه السلام. فإن قيل: لم لا يجوز حمله على تعليم الدلائل العقلية على التوحيد والعدل والنبوة؟ قلنا: لأن العقول مستقبلة بذلك فحمل هذا اللفظ على ما لا يستفاد من الشرع أولى. وثالثها: الحكمة هي الفصل بين الحق والباطل، وهو مصدر بمعنى الحكم، كالعقدة والجلسة. والمعنى: يعلمهم كتابك الذي تنزله عليهم، وفصل أقضيتك وأحكامك التي تعلمه إياها، ومثال هذا: الخبر والخبرة، والعذر والعذرة، والغل والغلة، والذل والذلة. ورابعها: ويعلمهم الكتاب أراد به الآيات المحكمة. والحكمة أراد بها الآيات المتشابهات.

وخامسها: يعلمهم الكتاب أي يعلمهم ما فيه من الأحكام. والحكمة أراد بها أنه يعلمهم حكمة تلك الشرائع وما فيها من وجوه المصالح **والمنافع**، ومن الناس من قال: الكل صفات الكتاب كأنه تعالى وصفه بأنه آيات، وبأنه كتاب، وبأنه حكمة. الصفة الرابعة: من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم: قوله: «ويزكيهم» واعلم أن كمال حال الإنسان في أمرين. أحدهما: أن يعرف الحق لذاته. والثاني: أن يعرف الخير لأجل العمل به، فإن أخل بشيء من هذين الأمرين لم يكن طاهرا عن الرذائل والنقائص، ولم يكن زكيا عنها، فلما ذكر صفات الفضل والكمال أردفها بذكر التزكية عن الرذائل والنقائص، فقال: ويزكيهم واعلم أن الرسول لا قدرة له على التصرف في بواطن المكلفين، وبتقدير أن تحصل له هذه القدرة لكنه لا يتصرف فيها وإلا لكان ذلك الزكاء حاصلا فيهم على سبيل الجبر لا على سبيل الاختيار، فإذن هذه التزكية لها تفسيران. الأول: ما يفعله سوى التلاوة وتعليم الكتاب والحكمة، حتى يكون ذلك كالسبب لطهارتهم، وتلك الأمور ما كان يفعله عليه السلام من الوعد والإيعاد، والوعظ والتذكير، وتكرير ذلك عليهم، ومن التشبث بأمور الدنيا إلى أن يؤمنوا ويصلحوا، فقد كان عليه السلام يفعل من هذا الجنس أشياء كثيرة ليقوي بها دواعيهم إلى الإيمان والعمل الصالح، ولذلك مدحه تعالى بأنه على خلق عظيم، وأنه أوتي مكارم الأخلاق. الثاني: يزكيهم، يشهد لهم بأنهم أزكياء يوم القيامة إذا شهد على كل نفس بما كسبت، كتزكية المزكي الشهود، والأول أجود لأنه أدخل في مشاكلة مراده." (١)

"الأدوية المركبة، فأباحه بعضهم للنص والمعنى، أما النص فهو أنه أباح للعرنيين شرب أبوال الإبل وألبانها للتداوي، وأما المعنى فمن وجوه الأول: أن الترياق الذي جعل فيه لحوم الأفاعي مستطاب فوجب

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤/٥٩

أن يحل لقوله تعالى: أحل لكم الطيبات [المائدة: ٤] غاية ما في الباب أن هذا العموم مخصوص ولكن لا يقدح في كونه حجة الثاني: أن أبا حنيفة لما عفا عن قدر الدرهم من النجاسة لأجل الحاجة، والشافعي عفا عن دم البراغيث للحاجة فلم لا يحكمان بالعفو في هذه الصورة للحاجة الثالث: أنه تعالى أباح أكل الميتة لمصلحة النفس فكذا هاهنا، ومن الناس من حرمه واحتج

بقوله عليه السلام: «إن الله تعالى لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليهم»

وأجاب الأولون بأن التمسك بهذا الخبر إنما يتم لو ثبت أنه يحرم عليه تناوله، والنزاع ليس إلا فيه.

المسألة السادسة: اختلفوا في التداوي بالخمر، واعلم أن الحاجة إلى ذلك التداوي إن انتهت إلى حد الضرورة فقد تقدم حكمه في المسألة الرابعة، فإن لم تنته إلى حد الضرورة فقد تقدم حكمه في المسألة الخامسة:

[سورة البقرة (٢) : آية ١٧٤]

إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (١٧٤)

الحكم الثاني

اعلم أن في قوله: إن الذين يكتمون مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، ومالك بن الصيف، وحيي بن أخطب، وأبي ياسر بن أخطب، كانوا يأخذون/ من أتباعهم الهدايا، فلما بعث محمد عليه السلام خافوا انقطاع تلك **المنافع**، فكتموا أمر محمد عليه السلام وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية.

المسألة الثانية: اختلفوا في أنهم أي شيء كانوا يكتمون؟ فقيل: كانوا يكتمون صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته والبشارة به، وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي والأصم وأبي مسلم، وقال الحسن: كتموا الأحكام وهو قوله تعالى: إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله [التوبة: ٣٤] .

المسألة الثالثة: اختلفوا في كيفية الكتمان، فالمروي عن ابن عباس: أنهم كانوا محرفين يحرفون التوراة والإنجيل، وعند المتكلمين هذا ممتنع، لأنهما كانا كتابين بلغا في الشهرة والتواتر إلى حيث يتعذر ذلك

فيهما، بل كانوا يكتمون التأويل، لأنه قد كان فيهم من يعرف الآيات الدالة على نبوة محمد عليه السلام، وكانوا يذكرون لها تأويلات باطلة، ويصرفونها عن محاملها الصحيحة الدالة على نبوة محمد عليه السلام، فهذا هو المراد من الكتمان، فيصير المعنى: إن الذين يكتمون معاني ما أنزل الله من الكتاب.
أما قوله تعالى: ويشترون به ثمنا قليلا ففيه مسائل:
المسألة الأولى: الكناية في: به، يجوز أن تعود إلى الكتمان والفعل يدل على المصدر، ويحتمل أن تكون عائدة إلى ما أنزل الله، ويحتمل أن تكون عائدة إلى المكتوم.." (١)
"أربعة أشهر وعشرا
[البقرة: ٢٣٤] ورابعها: النذور التي تتعلق بالأوقات، ولفضائل الصوم في أيام لا تعلم إلا بالأهلة.
وأما ما يتصل منها بالدنيا فهو كالمداينات والإجارات والمواعيد ولمدة الحمل والرضاع كما قال وحمله وفصاله ثلاثون شهرا [الأحقاف: ١٥] وغيرها فكل ذلك مما لا يسهل ضبط أوقاتها إلا عند وقوع الاختلاف في شكل القمر.
فإن قيل: لا نسلم أنا نحتاج في تقدير الأزمنة إلى حصول الشهر، وذلك لأنه يمكن تقديرها بالسنة التي هي عبارة عن دورة الشمس وبإجرائها مثل أن يقال: كلفتكم بالطاعة الفلانية في أول السنة، أو في سدسها، أو نصفها، وهكذا سائر الأجزاء، ويمكن تقديرها بالأيام مثل أن يقال: كلفتم بالطاعة الفلانية في اليوم الأول من السنة وبعد خمسين يوما من أول السنة، وأيضا بتقدير أن يساعد على أنه لا بد مع تقدير الزمان بالسنة وباليوم تقديره بالقمر لكن الشهر عبارة عن دورة من اجتماعه مع الشمس إلى أن يجتمع معها مرة أخرى هذا التقدير حاصل سواء حصل الاختلاف في أشكال نوره أو لم يحصل، ألا ترى أن تقدير السنة بحركة الشمس وإن لم يحصل في نور الشمس اختلافا، فكذا يمكن تقدير الشمس بحركة القمر، وإن لم يحصل في نور القمر اختلاف، وإذا لم يكن لنور القمر مخالفة بحال ولا أثر في هذا الباب لم يجز تقديره به.
والجواب عن السؤال الأول: إن ما ذكرتم وإن كان ممكنا إلا أن إحصاء الأهلة أيسر من إحصاء الأيام لأن الأهلة اثنا عشر شهرا، والأيام كثيرة، ومن المعلوم أن تقسيم جملة الزمان إلى السنين، ثم تقسيم كل سنة إلى الشهور، ثم تقسيم الشهور إلى الأيام، ثم تقسيم كل يوم إلى الساعات، ثم تقسيم كل ساعة إلى الأنفاس أقرب إلى الضبط وأبعد عن الخبط، ولهذا قال سبحانه: إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا [التوبة: ٣٦] وهذا كما أن المصنف الذي يراعي حسن الترتيب يقسم تصنيفه إلى الكتب، ثم كل كتاب إلى الأبواب،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠٤/٥

ثم كل باب إلى الفصول ثم كل فصل إلى المسائل فكذا هاهنا الجواب عنه.
وأما السؤال الثاني: فجوابه ما ذكرتم، إلا أنه متى كان القمر مختلف الشكل، كان معرفة أوائل الشهور وأنصافها وأواخرها أسهل مما إذا لم يكن كذلك، وأخبر جل جلاله أنه دبر الأهلة هذا التدبير العجيب لمنافع عباده في قوام دنياهم مع ما يستدلون بهذه الأحوال المختلفة على وحدانية الله سبحانه وتعالى وكمال قدرته، كما قال تعالى: إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب [آل عمران: ١٩٠] وقال تعالى: تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا [الفرقان: ٦١] وأيضا لو لم يقع في جرم القمر هذا الاختلاف لتأكدت شبه الفلاسفة في قولهم: إن الأجرام الفلكية لا يمكن تطرق التغيير إلى أحوالها، فهو سبحانه وتعالى بحكمته القاهرة أبقى الشمس على حالة واحدة، وأظهر الاختلاف في أحوال القمر ليظهر للعاقل أن بقاء الشمس على أحوالها ليس إلا بإبقاء الله وتغير القمر في أشكاله ليس إلا بتغيير الله فيصير الكل بهذا الطريق شاهدا على افتقارها إلى مدبر حكيم قادر قاهر، كما قال: وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم [الإسراء: ٤٤] . إذا عرفت هذه الجملة فنقول: إنه لما ظهر أن الاختلاف في أحوال القمر معونة عظيمة في تعيين الأوقات من الجهات التي ذكرناها نبه تعالى بقوله: قل هي مواقيت للناس والحج على جميع هذه **المنافع**، لأن تعديد جميع هذه الأمور يقضي إلى الإطناب والاقتصار على البعض دون البعض." (١)

"والدليل عليه قوله بعد ذلك: فإن خير الزاد التقوى وتحقيق الكلام فيه أن الإنسان له سفران: سفر في الدنيا وسفر من الدنيا، فالسفر في الدنيا لا بد له من زاد، وهو الطعام والشراب والمركب والمال، والسفر من الدنيا لا بد فيه أيضا من زاد، وهو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه، وهذا الزاد خير من زاد الأول لوجوه الأول: أن زاد الدنيا يخلصك من عذاب موهوم وزاد الآخرة يخلصك من عذاب متيقن وثانيها: أن زاد الدنيا يخلصك من عذاب منقطع، وزاد الآخرة يخلصك من عذاب دائم وثالثها: أن زاد الدنيا يوصلك إلى لذة ممزوجة بالآلام والأسقام والبليات، وزاد الآخرة يوصلك إلى لذات باقية خالصة عن شوائب المضرة، آمنة من الانقطاع والزوال ورابعها: أن زاد الدنيا وهي كل ساعة في الإدبار والانقضاء، وزاد الآخرة يوصلك إلى الآخرة، وهي كل ساعة في الإقبال والقرب والوصول وخامسها: أن زاد الدنيا يوصلك إلى/ منصة الشهوة والنفس، وزاد الآخرة يوصلك إلى عتبة الجلال والقدس، فثبت بمجموع ما ذكرنا أن خير الزاد التقوى.
إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير الآية، فكأنه تعالى قال: لما ثبت أن خير الزاد التقوى فاشتغلوا بتقواي يا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨٤/٥

أولي الألباب، يعني إن كنتم من أرباب الألباب الذين يعلمون حقائق الأمور وجب عليكم بحكم عقلكم ولبكم أن تشتغلوا بتحصيل هذا الزاد لما فيه كثرة **المنافع**، وقال الأعشى في تقرير هذا المعنى:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

والقول الثاني: أن هذه الآية نزلت في أناس من أهل اليمن كانوا يحجون بغير زاد ويقولون: إنا متوكلون، ثم كانوا يسألون الناس وربما ظلموا الناس وغصبوهم، فأمرهم الله تعالى أن يتزودوا فقال: وتزودوا ما تبلغون به فإن خير الزاد ما تكفون به وجوهكم عن السؤال وأنفسكم عن الظلم وعن ابن زيد: أن قبائل من العرب كانوا يحرمون الزاد في الحج والعمرة فنزلت. وروى محمد بن جرير الطبري عن ابن عمر قال: كانوا إذا أحرموا ومعهم أزودة رموا بها فنهوا عن ذلك بهذه الآية قال القاضي: وهذا بعيد لأن قوله: فإن خير الزاد التقوى راجع إلى قوله: وتزودوا فكان تقديره: وتزودوا من التقوى والتقوى في عرف الشرع والقرآن عبارة عن فعل الواجبات وترك المحظورات قال: فإن أردنا تصحيح هذا القول ففيه وجهان أحدهما: أن القادر على أن يستصحب الزاد في السفر إذا لم يستصحبه عصى الله في ذلك، فعلى هذا الطريق صح دخوله تحت الآية والثاني: أن يكون في الكلام حذف ويكون المراد: وتزودوا لعاجل سفركم وللآجل فإن خير الزاد التقوى.

أما قوله تعالى: واتقون ففيه مسائل:

المسألة الأولى: إن قوله: واتقون فيه تنبيه على كمال عظمة الله وجلاله وهو كقول الشاعر:

أنا أبو النجم وشعري شعري

المسألة الثانية: أثبت أبو عمرو الياء في قوله: واتقون على الأصل، وحذفها الآخرون للتخفيف ودلالة الكسر عليه.

أما قوله تعالى: يا أولي الألباب فاعلم أن لباب الشيء ولبه هو الخالص منه، ثم اختلفوا بعد ذلك، فقال بعضهم: إنه اسم للعقل لأنه أشرف ما في الإنسان، والذي تميز به الإنسان عن البهائم وقرب من درجة." (١)

"من السماء والكافرين يكونون في سجين من الأرض وثانيها: يحتمل أن يكون المراد بالفوقية الفوقية في الكرامة والدرجة.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢١/٥

فإن قيل: إنما يقال: فلان فوق فلان في الكرامة، إذا كان كل واحد منهما في الكرامة ثم يكون أحدهما أزيد حالا من الآخر في تلك الكرامة، والكافر ليس له شيء من الكرامة فكيف يقال: المؤمن فوقه في الكرامة.

قلنا: المراد أنهم كانوا فوقهم في سعادات الدنيا ثم في الآخرة ينقلب الأمر، فالله تعالى يعطي المؤمن من سعادات الآخرة ما يكون فوق السعادات الدنيوية التي كانت حاصلة للكافرين، وثالثها: أن يكون المراد: أنهم فوقهم في الحجة يوم القيامة، وذلك لأن شبهات الكفار ربما كانت تقع في قلوب المؤمنين، ثم إنهم كانوا يردونها عن قلوبهم بمدد توفيق الله تعالى، وأما يوم القيامة فلا يبقى شيء من ذلك، بل تزول الشبهات، ولا تؤثر وساوس الشيطان، كما قال تعالى: إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون إلى قوله- فاليوم الذين آمنوا [المطففين: ٢٩- ٣٤] الآية ورابعها: أن سخرية المؤمنين بالكفار يوم القيامة فوق سخرية الكافرين بالمؤمنين في الدنيا لأن سخرية الكافر بالمؤمن باطلة، وهي مع بطلانها منقضية، وسخرية المؤمن بالكافر في الآخرة حقة ومع حقيقتها هي دائمة باقية.

السؤال الثالث: هل تدل الآية على القطع بوعيد الفساد فإن لقائل أن يقول: إنه تعالى خص الذين اتقوا بهذه الفوقية فالذين لا يكونون موصوفين بالتقوى وجب أن لا تحصل لهم هذه الفوقية وإن لم تحصل هذه الفوقية كانوا من أهل النار.

الجواب: هذا تمسك بالمفهوم، فلا يكون أقوى في الدلالة من العمومات التي بينا أنها مخصوصة بدلائل العفو.

أما قوله تعالى: والله يرزق من يشاء بغير حساب فيحتمل أن يكون المراد منه ما يعطي الله المتقين في الآخرة من الثواب، ويحتمل أن يكون المراد ما يعطي في الدنيا أصناف عبيده من المؤمنين وال كافرين فإذا حملناه على رزق الآخرة احتمل وجوها أحدها: أنه يرزق من يشاء في/ الآخرة، وهم المؤمنون بغير حساب، أي رزقا واسعا رغدا لا فناء له، ولا انقطاع، وهو كقوله: فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب [غافر: ٤٠] فإن كل ما دخل تحت الحساب والحصر والتقدير فهو متناه، فما لا يكون متناهيا كان لا محالة خارجا عن الحساب وثانيها: أن المنافع الواصلة إليهم في الجنة بعضها ثواب وبعضها تفضل كما قال:

فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله [النساء: ١٧٣] فالفضل منه بلا حساب وثالثها: أنه لا يخاف نفادها عنده، فيحتاج إلى حساب ما يخرج منه، لأن المعطي إنما يحاسب ليعلم لمقدار ما يعطي وما يبقى، فلا

يتجاوز في عطاياه إلى ما يجحف به، والله لا يحتاج إلى الحساب، لأنه عالم غني لا نهاية لمقدوراته ورابعها: أنه أراد بهذا رزق أهل الجنة، وذلك لأن الحساب إنما يحتاج إليه إذا كان بحيث إذا أعطى شيئا انتقص قدر الواجب عما كان، والثواب ليس كذلك فإنه بعد انقضاء الأدوار والأعصار يكون الثواب المستحق بحكم الوعد والفضل باقيا، فعلى هذا لا يتطرق الحساب ألبتة إلى الثواب وخامسها: أراد أن الذي يعطى لا نسبة له إلى ما في الخزانة لأن الذي يعطى في كل وقت يكون متناهيا لا محالة، والذي في خزانة قدرة الله غير متناه والمتناهي لا نسبة له إلى غير المتناهي فهذا هو المراد من قوله: بغير حساب وهو إشارة إلى أنه لا نهاية لمقدورات الله تعالى." (١)

"ثم قال تعالى: أولئك يرجون رحمت الله وفيه قولان: الأول أن المراد منه الرجاء، وهو عبارة عن ظن **المنافع** التي يتوقعها، وأراد تعالى في هذا الموضع أنهم يطمعون في ثواب الله وذلك لأن عبد الله بن جحش ما كان قاطعا بالفوز والثواب في عمله، بل كان يتوقعه ويرجوه.

فإن قيل: لم جعل الوعد مطلقا بالرجاء، ولم يقع به كما في سائر الآيات؟.

قلنا: الجواب من وجوه أحدها: أن مذهبنا أن الثواب على الإيمان والعمل غير واجب عقلا، بل بحكم الوعد، فلذلك علقه بالرجاء وثانيها: هب أنه واجب عقلا بحكم الوعد، ولكنه تعلق بأن لا يكفر بعد ذلك وهذا الشرط مشكوك فيه لا متيقن، فلا جرم كان الحاصل هو الرجاء لا القطع وثالثها: أن المذكور هاهنا هو الإيمان، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، ولا بد للإنسان مع ذلك من سائر الأعمال، وهو أن يرجو أن يوفقه الله لها، كما وفقه لهذه الثلاثة، فلا جرم علقه على الرجاء ورابعها: ليس المراد من الآية أن الله شكك العبد في هذه المغفرة، بل المراد وصفهم بأنهم يفارقون الدنيا مع الهجرة والجهاد، مستقصرين أنفسهم في حق الله تعالى، يرون أنهم لم يعبدوه حق عبادته، ولم يقضوا ما يلزمهم في نصرة دينه، فيقدمون على الله مع الخوف والرجاء، كما قال: والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون [المؤمنون: ٦٠] .

القول الثاني: أن المراد من الرجاء: القطع واليقين في أصل الثواب، والظن إنما دخل في كميته وفي وقته، وفيه وجوه قررناها في تفسير قوله تعالى: الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم [البقرة: ٤٦] .

ثم قال تعالى: والله غفور رحيم أي إن الله تعالى يحقق لهم رجاءهم إذا ماتوا على الإيمان والعمل الصالح، وأنه غفور رحيم، غفر لعبد الله بن جحش وأصحابه ما لم يعلموا ورحمهم.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦/٣٧٠

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١٩]
يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢١٩)

الحكم الثالث في الخمر
اعلم أن قوله: يسئلونك عن الخمر والميسر ليس فيه بيان أنهم عن أي شيء سألوا، فإنه يحتمل أنهم سألوا عن حقيقته وماهيته، ويحتمل أنهم سألوا عن حل الانتفاع به، ويحتمل أنهم سألوا عن حل شربه وحرمته إلا أنه تعالى لما أجاب بذكر الحرمة دل تخصيص الجواب على أن ذلك السؤال كان وقعا عن الحل والحرمة.
وفي الآية مسائل:
المسألة الأولى: قالوا: نزلت في الخمر أربع آيات، نزل بمكة قوله تعالى: ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا [النحل: ٦٧] وكان المسلمون يشربونها وهي حلال لهم، ثم إن عمر." (١)

"عقلا لأنه يجري مجرى عقال الناقة، فإن الإنسان إذا دعاه طبعه إلى فعل قبيح، كان عقله مانعا له من الإقدام عليه، فإذا شرب الخمر بقي الطبع الداعي إلى فعل القبائح خاليا عن العقل المانع منها، والتقريب بعد ذلك معلوم، ذكر ابن أبي الدنيا أنه مر على سكران وهو يبول في يده ويمسح به وجهه كهيئة المتوضئ، ويقول:
الحمد لله الذي جعل الإسلام نورا والماء طهورا، وعن العباس بن مرداس أنه قيل له في الجاهلية: لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد في جراءتك؟ فقال ما أنا بآخذ جهلي بيدي فأدخله جوفي، ولا أرضى أن أصبح سيد قوم وأمسي سفيههم وثانيها: ما ذكره الله تعالى من إيقاع العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة وثالثها:
أن هذه المعصية من خواصها أن الإنسان كلما كان اشتغاله بها أكثر، ومواظبته عليها أتم كان الميل إليها أكثر وقوة النفس عليها أقوى بخلاف سائر المعاصي، مثل الزاني إذا فعل مرة واحدة فترت رغبته في ذلك العمل، وكلما كان فعله لذلك العمل أكثر كان فتوره أكثر ونفرته أتم، بخلاف الشرب، فإنه كلما كان إقدامه عليه أكثر، كان نشاطه أكثر، ورغبته فيه أتم. فإذا واظب الإنسان عليه صار الإنسان غرقا في اللذات البدنية،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦/٣٩٥

معرضا عن تذكر الآخرة والمعاد، حتى يصير من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وبالجملة فالخمر يزيل العقل، وإذا زال العقل/ حصلت القبائح بأسرها ولذلك

قال عليه الصلاة والسلام: «الخمر أم الخبائث»

وأما الميسر فالإثم فيه أنه يفضي إلى العداوة، وأيضا لما يجري بينهم من الشتم والمنازعة وأنه أكل مال بالباطل وذلك أيضا يورث العداوة، لأن صاحبه إذا أخذ ماله مجانا أبغضه جدا، وهو أيضا يشغل عن ذكر الله وعن الصلاة، وأما **المنافع** المذكورة في قوله تعالى: ومنافع للناس فمنافع الخمر أنهم كانوا يتغالون بها إذا جلبوها من النواحي، وكان المشتري إذا ترك المماكسة في الثمن كانوا يعدون ذلك فضيلة ومكرمة، فكان تكثر أرباحهم بذلك السبب، ومنها أنه يقوي الضعيف ويهضم الطعام ويعين على الباه، ويسلي المحزون، ويشجع الجبان، ويسخي البخيل ويصفي اللون، وينعش الحرارة الغريزية ويزيد في الهمة والاستعلاء «١» ومن منافع الميسر: التوسعة على ذوي الحاجة لأن من قمر لم يأكل من الجزور، وإنما كان يفرقه في المحتاجين وذكر الواقدي أن الواحد منهم كان ربما قمر في المجلس الواحد مائة بعير، فيحصل له مال من غير كد وتعب، ثم يصرفه إلى المحتاجين، فيكتسب منه المدح والثناء.

المسألة السادسة: قرأ حمزة والكسائي كثير بالثاء المنقوطة من فوق والباقون بالباء المنقوطة من تحت حجة حمزة والكسائي، أن الله وصف أنواعا كثيرة من الإثم في الخمر والميسر وهو قوله: إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر [المائدة: ٩١] فذكر أعدادا من الذنوب فيهما ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لعن عشرة بسبب الخمر، وذلك يدل على كثرة الإثم فيهما، ولأن الإثم في هذه الآية كالمضاد

---

(١) قول الفخر رحمه الله تعالى في شرب الخمر: أنه يقوي الضعيف، ويهضم الطعام، ويعين على الباه، ويسلي المحزون ويشجع الجبان، ويسخي البخيل، ويصفي اللون، وينعش الحرارة الغريزية، ويزيد في الهمة والاستعلاء، هو قول عجيب لا يصدر من لبيب ولو كان فيها من المزايا بعض ما ذكر: لما منعنا الله تعالى عنها، وأحرمنا منها، ولم ينهنا تعالى إلا عما فيه فساد الدين والبدن، فله الحمد على أمره ونهيه، وتحريمه وتحليله!.

والخمر: كما يشهد بذلك العقل والطب، تضعف القوى، وتعسر الهضم، وتتلف المعدة، وتضعف الباه، وإن دل ظاهرها على إذهاب الحزن، فهي جالبة للهم والغم والكدر، وتورث الشجاع الجبن والخور، وتحض

الكريم على البخل، وتفسد الدم وتكدر اللون وتظهر غضون الوجه، وهي في جملتها مبعث لسائر الشرور والفجور والخصال الذميمة.

أما تأويل قوله تعالى: ومنافع للناس فهو خاص **بالمنافع** الدنيوية الفانية والربح التجاري الزائل. انتهى مصححه.." (١)

"للمنافع لأنه قال: فيهما إثم ومنافع، وكما أن **المنافع** أعداد كثيرة فكذا الإثم فصار التقدير كأنه قال: فيهما مضار كثيرة ومنافع كثيرة حجة الباقين أن المبالغة في تعظيم الذنب إنما تكون بالكبر لا بكونه كثيرا يدل عليه قوله تعالى: كبائر الإثم [النجم: ٣٢] ، كبائر ما تنهون عنه [النساء: ٣١] ، إنه كان حوبا كبيرا [النساء:

٢] وأيضا القراء اتفقوا على قوله: وإثمهما أكبر بالباء المنقوطة من تحت، وذلك يرجح ما قلناه.

الحكم الرابع في الإنفاق

اعلم أن هذا السؤال قد تقدم ذكره فأجيب عنه بذكر المصرف وأعيد هاهنا فأجيب عنه بذكر الكمية، قال القفال: قد يقول الرجل لآخر يسأله عن مذهب رجل وخلقه ما فلان هذا؟ فيقول: هو رجل من مذهبه كذا، ومن خلقه كذا إذا عرفت هذا فنقول: كان الناس لما رأوا الله ورسوله يحضان على الإنفاق ويدلان على عظيم ثوابه، سألوا عن مقدار ما كلفوا به، هل هو كل المال أو بعضه، فأعلمهم الله أن العفو مقبول، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي رحمه الله: أصل العفو في اللغة الزيادة، قال تعالى: خذ العفو [الأعراف: ١٩٩] أي الزيادة، وقال أيضا: حتى عفوا [الأعراف: ٩٥] أي زادوا على ما كانوا عليه من العدد قال القفال: العفو ما سهل وتيسر مما يكون فاضلا عن الكفاية يقال: خذ ما عفا لك، أي ما تيسر ويشبه أن يكون العفو عن الذنب راجعا إلى التيسر والتسهيل،

قال عليه الصلاة والسلام: «عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق فهاتوا ربع عشر أموالكم»

معناه التخفيف بإسقاط زكاة الخيل والرقيق، ويقال: أعفى فلان فلانا بحقه إذا أوصله إليه من غير إلحاح في المطالبة، وهو راجع إلى التخفيف ويقال: أعطاه كذا عفوا صفوا، إذا لم يكدر عليه بالأذى، ويقال: خذ من الناس ما عفا لك أي ما تيسر، ومنه قوله تعالى: خذ العفو [الأعراف: ١٩٩] أي ما سهل لك من

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٠١/٦

الناس، ويقال للأرض السهلة: العفو وإذا كان العفو هو التيسير فالغالب أن ذلك إنما يكون فيما يفضل عن حاجة الإنسان في نفسه وعياله ومن تلزمه مؤنتهم فقول من قال: العفو هو الزيادة راجع إلى التفسير الذي ذكرناه وجملة التأويل أن الله تعالى أدب الناس في الإنفاق فقال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام:

وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين [الإسراء: ٢٦، ٢٧] وقال: ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط [الإسراء: ٢٩] وقال: والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا [الفرقان: ٦٧]

وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا كان عند أحدكم شيء فليبدأ بنفسه، ثم بمن يعول وهكذا وهكذا»

وقال/ عليه الصلاة والسلام: «خير الصدقة ما أبقت غنى ولا يلام على كفاف»

وعن جابر بن عبد الله قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ جاءه رجل بمثل البيضة من ذهب فقال: يا رسول الله خذه ا صدقة فو الله لا أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أتاه من بين يديه، فقال: هاتها مغضبا فأخذها منه، ثم حذفه بها حيث لو أصابته لأوجعته، ثم قال: يأتيني أحدكم بماله لا يملك غيره، ثم يجلس يتكفف الناس إنما الصدقة عن ظهر غنى خذها فلا حاجة لنا فيها،

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يحبس لأهله قوت." (١)

"أما قوله تعالى: وللرجال عليهن درجة ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: يقال: رجل بين الرجلة، أي القوة، وهو أرجل الرجلين أي أقواهما، وفرس رجيل قوي على المشي، والرجل معروف لقوته على المشي، وارتجل الكلام أي قوي عليه من غير حاجة فيه إلى فكرة وروية، وترجل النهار قوي ضياؤه، وأما الدرجة فهي المنزلة وأصلها/ من درجت الشيء أدرجه درجا، وأدرجته إدراجا إذا طويته، ودرج القوم قرنا بعد قرن أي فنوا ومعناه أنهم طووا عمرهم شيئا فشيئا، والمدرجة قارعة الطريق، لأنها تطوي منزلا بعد منزل، والدرجة المنزلة من منازل الطريق، ومنه الدرجة التي يرتقى فيها.

المسألة الثانية: اعلم أن فضل الرجل على المرأة أمر معلوم، إلا أن ذكره هاهنا يحتمل وجهين الأول: أن الرجل أزيد في الفضيلة من النساء في أمور أحدها: العقل والثاني: في الدية والثالث: في المواريث والرابع: في صلاحية الإمامة والقضاء والشهادة والخامس: له أن يتزوج عليها، وأن يتسرى عليها، وليس لها أن تفعل ذلك مع الزوج والسادس: أن نصيب الزوج في الميراث منها أكثر من نصيبها في الميراث منه والسابع: أن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٠٢/٦

الزوج قادر على تطليقها، وإذا طلقها فهو قادر على مراجعتها، شاءت المرأة أم أبت، أما المرأة فلا تقدر على تطليق الزوج، وبعد الطلاق لا تقدر على مراجعة الزوج ولا تقدر أيضا على أن تمنع الزوج من المراجعة

والثامن: أن نصيب الرجل في سهم الغنيمة أكثر من نصيب المرأة، وإذا ثبت فضل الرجل على المرأة في هذه الأمور، ظهر أن المرأة كالأسير العاجز في يد الرجل، ولهذا

قال صلى الله عليه وسلم: «استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان»

وفي خبر آخر: «اتقوا الله في الضعيفين: اليتيم والمرأة» ،

وكان معنى الآية أنه لأجل ما جعل الله للرجال من الدرجة عليهن في الاقتدار كانوا مندوبين إلى أن يوفوا من حقوقهن أكثر، فكان ذكر ذلك كالتهديد للرجال في الإقدام على مضارتهن وإيذائهن، وذلك لأن كل من كانت نعم الله عليه أكثر، كان صدور الذنب عنه أقبح، واستحقاقه للزجر أشد.

والوجه الثاني: أن يكون المراد حصول **المنافع** واللذة مشترك بين الجانبين، لأن المقصود من الزوجية السكن والألفة والمودة، واشتباك الأنساب واستكثار الأعوان والأحباب وحصول اللذة، وكل ذلك مشترك بين الجانبين بل يمكن أن يقال: إن نصيب المرأة فيها أوفر، ثم إن الزوج اختص بأنواع من حقوق الزوجة، وهي التزام المهر والنفقة، والذب عنها، والقيام بمصالحها، ومنعها عن مواقع الآفات، فكان قيام المرأة بخدمة الرجل آكد وجوبا، رعاية لهذه الحقوق الزائدة وهذا كما قال تعالى: الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم [النساء: ٣٤]

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «لو أمرت أحدا بالسجود لغير الله لأمرت المرأة بالسجود لزوجها»

ثم قال تعالى: والله عزيز حكيم أي غالب لا يمنع، مصيب أحكامه وأفعاله، لا يتطرق إليهما احتمال العبث والسفه والغلط والباطل.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢٩]

الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون (٢٢٩)

قوله تعالى: الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٤١/٦

"القطع بعدم الخلود، لأنه لما آمن فلا بد وأن يصل ثواب الإيمان إليه، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخرج من النار ويدخل الجنة.

ثم قال: وهم لا يظلمون وفيه سؤال وهو أن قوله توفى كل نفس ما كسبت لا معنى له إلا أنهم لا يظلمون، فكان ذلك تكريرا.

وجوابه: أنه تعالى لما قال: توفى كل نفس ما كسبت كان ذلك دليلا على إيصال العذاب إلى الفساق والكفار، فكان لقائل أن يقول: كيف يليق بكرم أكرم الأكرمين أن يعذب عبيده فأجاب عنه بقوله وهم لا يظلمون والمعنى أن العبد هو الذي أوقع نفسه في تلك الورطة لأن الله تعالى مكنه وأزاح عذره، وسهل عليه طريق الاستدلال، وأمهله فمن قصر فهو الذي أساء إلى نفسه، وهذا الجواب إنما يستقيم على أصول المعتزلة، وأما على أصول أصحابنا فهو أنه سبحانه مالك الخلق، والمالك إذا تصرف في ملكه كيف شاء وأراد لم يكن ظلما، فكان قوله وهم لا يظلمون بعد ذكر الوعيد إشارة إلى ما ذكرناه.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٨٢]

يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم (٢٨٢)

الحكم الثالث: من الأحكام الشرعية المذكورة في هذا الموضع من هذه السورة آية المداينة.

[في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين] اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن في كيفية النظم وجهين الأول: أن الله سبحانه لما ذكر قبل هذا الحكم نوعين من الحكم أحدهما: الإنفاق في سبيل الله وهو يوجب تنقيص المال والثاني: ترك الربا، وهو أيضا سبب لتنقيص المال، ثم إنه تعالى ختم ذينك الحكمين بالتهديد العظيم، فقال: واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله والتقوى

تسد على الإنسان أكثر أبواب المكاسب **والمنافع** أتبع ذلك بأن ندبه إلى كيفية حفظ المال الحلال وصونه عن الفساد والبوار فإن القدرة على الإنفاق في سبيل الله، وعلى ترك الربا، وعلى ملازمة التقوى لا يتم ولا يكمل إلا عند حصول المال، ثم إنه تعال لأجل هذه الدقيقة بالغ في الوصية بحفظ المال الحلال عن وجوه التوى والتلف، وقد ورد نظيره في سورة النساء ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما [النساء: ٥]." (١)

"فحث على الاحتياط في أمر الأموال لكونها سببا لمصالح المعاش والمعاد، قال القفال رحمه الله تعالى: والذي يدل على ذلك أن ألفاظ القرآن جارية في الأكثر على الاختصار، وفي هذه الآية بسط شديد، ألا ترى أنه قال:

إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ثم قال ثانيا: وليكتب بينكم كاتب بالعدل ثم قال ثالثا: ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فكان هذا كالتكرار لقوله وليكتب بينكم كاتب بالعدل لأن العدل هو ما علمه الله، ثم قال رابعا: فليكتب وهذا إعادة الأمر الأول، ثم قال خامسا: وليملل الذي عليه الحق وفي قوله وليكتب بينكم كاتب بالعدل كفاية عن قوله وليملل الذي عليه الحق لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يملى عليه، ثم قال سادسا: وليتق الله ربه وهذا تأكيد، ثم قال سابعا: ولا يبخس منه شيئا فهذا كالمستفاد من قوله وليتق الله ربه ثم قال ثامنا: ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله وهو أيضا تأكيد لما مضى، ثم قال تاسعا: ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا فذكر هذه الفوائد الثلاثة لتلك التأكيدات السالفة، وكل ذلك يدل على أنه لما حث على ما يجري مجرى سبب تنقيص المال في الحكمين الأولين بالغ في هذا الحكم في الوصية بحفظ المال الحلال، وصونه/ عن الهلاك والبوار ليتمكن الإنسان بواسطته من الإنفاق في سبيل الله، والإعراض عن مساخط الله من الربا وغيره، والمواظبة على تقوى الله فهذا هو الوجه الأول من وجوه النظم، وهو حسن لطيف.

والوجه الثاني: أن قوما من المفسرين قالوا: المراد بالمداينة السلم، فالله سبحانه وتعالى لما منع الربا في الآية المتقدمة أذن في السلم في جميع هذه الآية مع أن جميع **المنافع** المطلوبة من الربا حاصلة في السلم، ولهذا قال بعض العلماء: لا لذة ولا منفعة يوصل إليها بالطريق الحرام إلا وضعه الله سبحانه وتعالى لتحصيل مثل ذلك اللذة طريقا حلالا وسبيلا مشروعا فهذا ما يتعلق بوجه النظم.

المسألة الثانية: التداين تفاعل من الدين، ومعناه داين بعضكم بعضا، وتداينتم تبايعتم بدين، قال أهل اللغة:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨٩/٧

القرض غير الدين، لأن القرض أن يقرض الإنسان دراهم، أو دنانير، أو حبا، أو تمرا، أو ما أشبه ذلك، ولا يجوز فيه الأجل والدين يجوز فيه الأجل، ويقال من الدين ادان إذا باع سلعته بثمن إلى أجل، ودان يدين إذا أقرض، ودان إذا استقرض وأنشد الأحمر:

ندين ويقضي الله عنا وقد نرى ... مصارع قوم لا يدينون ضيقا

إذا عرفت هذا فنقول: في المراد بهذه المداينة أقوال:

قال ابن عباس: أنها نزلت في السلف لأن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهم يسلفون في التمر السنتين والثلاث، فقال صلى الله عليه وسلم: «من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم» ثم إن الله تعالى عرف المكلفين وجه الاحتياط في الكيل والوزن والأجل، فقال: إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه.

والقول الثاني: أنه القرض وهو ضعيف لما بينا أن القرض لا يمكن أن يشترط فيه الأجل والدين المذكور في الآية قد اشترط فيه الأجل.

والقول الثالث: وهو قول أكثر المفسرين: أن البياعات على أربعة أوجه أحدها: بيع العين بالعين، وذلك ليس بمداينة البتة والثاني: بيع الدين بالدين وهو باطل، فلا يكون داخلا تحت هذه الآية، بقي هنا قسمان: بيع." (١)

"القدرة بقوله لله ما في السماوات وما في الأرض ملكا وملكا، وعبر عن كمال العلم المحيط بالكليات والجزئيات بقوله وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله وإذا حصل كمال القدرة والعلم، فكان كل من في السموات والأرض عبيدا مربوبين وجدوا بتخليقه وتكوينه كان ذلك غاية الوعد للمطيعين، ونهاية الوعيد للمذنبين، فلهذا السبب ختم الله هذه السورة بهذه الآية.

والوجه الثاني: في كيفية النظم، قال أبو مسلم: إنه تعالى لما قال في آخر الآية المتقدمة والله بما تعملون عليم [البقرة: ٢٨٣] ذكر عقيبه ما يجري مجرى الدليل العقلي فقال: لله ما في السماوات وما في الأرض ومعنى هذا الملك أن هذه الأشياء لما كانت محدثة فقد وجدت بتخليقه وتكوينه وإبداعه ومن كان فاعلا لهذه الأفعال المحكمة المتقنة العجيبة الغريبة المشتملة على الحكم المتكاثرة **والمنافع** العظيمة لا بد وأن يكون عالما بها إذ من المحال صدور الفعل المحكم المتقن عن الجاهل به، فكأن الله تعالى احتج بخلقه السموات والأرض مع ما فيهما من وجوه الإحكام والإتقان على كونه تعالى عالما بها محيطا بأجزائها

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧/٩٠

وجزئياتها.
الوجه الثالث: في كيفية النظم، قال القاضي: إنه تعالى لما أمر بهذه الوثائق أعني الكتبة والإشهاد والرهن، فكان المقصود من الأمر بها صيانة الأموال، والاحتياط في حفظها بين الله تعالى أنه إنما المقصود لمنفعة ترجع إلى الخلق لا لمنفعة تعود إليه سبحانه منها فإنه له ملك السموات والأرض.
الوجه الرابع: قال الشعبي وعكرمة ومجاهد: إنه تعالى لما نهى عن كتمان الشهادة وأوعد عليه بين أنه له ملك السموات والأرض فيجازي على الكتمان والإظهار.
المسألة الثانية: احتج الأصحاب بقوله لله ما في السماوات وما في الأرض على أن فعل العبد خلق الله تعالى، لأنه من جملة ما في السموات والأرض بدليل صحة الاستثناء، واللام في قوله لله ليس لام الغرض، فإنه ليس غرض الفاسق من فسقه طاعة الله، فلا بد وأن يكون المراد منه لام الملك والتخليق.
المسألة الثالثة: احتج الأصحاب بهذه الآية على أن المعدوم ليس بشيء لأن من جملة ما في السموات والأرض حقائق الأشياء وماهياتها فهي لا بد وأن تكون تحت قدرة الله سبحانه وتعالى وإنما تكون الحقائق والماهيات تحت قدرته لو كان قادرا على تحقيق تلك الحقائق، وتكوين تلك الماهيات، فإذا كان كذلك كانت قدرة الله تعالى مكونة للذوات، ومحققة للحقائق، فكان القول بأن المعدوم شيئا باطلا.
ثم قال تعالى: وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله
يروى عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت هذه الآية جاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ وناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله كلفنا من العمل ما لا نطيق إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه، وإن له الدنيا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:
«فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل سمعنا وعصينا قولوا: سمعنا وأطعنا، فقالوا سمعنا وأطعنا، واشتد ذلك عليهم فمكثوا في ذلك حولا فأنزل الله تعالى: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها
[البقرة: ٢٨٦] فنسخت هذه الآية، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا به» .
واعلم أن محل البحث في هذه الآية أن قوله وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله يتناول." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٠٣/٧

"وأما الإيمان بأفعاله، فبأن تعلم أن كل ما سواه فهو ممكن محدث، وتعلم ببديهة عقلك أن الممكن المحدث لا يوجد بذاته، بل لا بد له من موجد يوجده وهو القديم، وهذا الدليل يحملك على أن تجزم بأن كل ما سواه فإنما حصل بتخليقه وإيجاده وتكوينه إلا أنه وقع في البين عقدة وهي الحوادث التي هي الأفعال الاختيارية للحيوانات، فالحكم الأول وهو أنها ممكنة محدثة فلا بد من إسنادها إلى واجب الوجود مطرد فيها.

فإن قلت: إني أجد من نفسي أني إن شئت أن أتحرك تحركت، وإن شئت أن لا أتحرك لم أتحرك فكانت حركاتي وسكناتي بي لا بغيري.

فنقول: قد علقت حركتك بمشيئتك لحركتك، وسكونك بمشيئتك لسكونك، فقبل حصول مشيئة الحركة لا تتحرك وقبل حصول مشيئة السكون لا تسكن، وعند حصول مشيئة الحركة لا بد وأن تتحرك.

إذا ثبت هذا فنقول: هذه المشيئة كيف حدثت فإن حدوثها إما أن يكون لا بمحدث أصلا أو يكون بمحدث، ثم ذلك المحدث إما أن يكون هو العبد أو الله تعالى، فإن حدثت لا بمحدث فقد لزم نفي الصانع، وإن كان محدثها هو العبد افتقر في إحداثها إلى مشيئة أخرى ولزم التسلسل، فثبت أن محدثها هو الله سبحانه وتعالى.

إذا ثبت هذا فنقول: لا اختيار للإنسان في حدوث تلك المشيئة، وبعد حدوثها فلا اختيار له في ترتب الفعل عليها إلا المشيئة به، ولا حصول الفعل بعد المشيئة، فالإنسان مضطر في صورة مختار، فهذا كلام قاهر قوي، وفي معارضته إشكالان أحدهما: كيف يليق بكمال حكمة الله تعالى إيجاد هذه القبائح والفواحش من الكفر والفسق والثاني: أنه لو كان الكل بتخليقه فكيف توجه الأمر والنهي، والمدح والذم، والثواب والعقاب على العبد، فهذا هو الحرف المعول عليه من/ جانب الخصم، إلا أنه وارد عليه أيضا في العلم على ما قررناه في مواضع عدة.

وأما المرتبة الرابعة في الإيمان بالله: فهي معرفة أحكامه، ويجب أن يعلم في أحكامه أمورا أربعة أحدها: أنها غير معللة بعلة أصلا، لأن كل ما كان معللا بعلة كان صاحبه ناقصا بذاته، كاملا بغيره، وذلك على الحق سبحانه محال وثانيها: أن يعلم أن المقصود من شرعها منفعة عائدة إلى العبد لا إلى الحق، فإنه منزه عن جلب **المنافع**، ودفع المضار وثالثها: أن يعلم أن له الإلزام والحكم في الدنيا كيف شاء وأراد ورابعها: أنه يعلم أنه لا يجب لأحد على الحق بسبب أعماله وأفعاله شيء، وأنه سبحانه في الآخرة يغفر لمن يشاء بفضله ويعذب من يشاء بعدله، وأنه لا يقبح منه شيء، ولا يجب عليه شيء، لأن الكل ملكه وملكه،

والمملوك المجازى لا حق له على المالك المجازي، فكيف المملوك الحقيقي مع المالك الحقيقي.
وأما المرتبة الخامسة في الإيمان بالله: فمعرفة أسمائه قال في الأعراف ولله الأسماء الحسنى [الأعراف: ١٨٠] وقال في بني إسرائيل أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى [الإسراء: ١١٠] وقال في طه الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى [طه: ٨] وقال في آخر الحشر له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض [الحشر: ٢٤] والأسماء الحسنى هي الأسماء الواردة في كتب الله المنزلة على ألسنة أنبيائه المعصومين، وهذه الإشارة إلى معاقد الإيمان بالله.." (١)

"المسألة الثانية: إن كلام المؤمنين تم عند قوله ليوم لا ريب فيه فأما قوله إن الله لا يخلف الميعاد فهو كلام الله عز وجل، كأن القوم لما قالوا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه صدقهم الله تعالى في ذلك وأيد كلامهم بقوله إن الله لا يخلف الميعاد كما قال حكاية عن المؤمنين في آخر هذه السورة ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك/ لا تخلف الميعاد [آل عمران: ١٩٤] ومن الناس من قال: لا يبعد ورود هذا على طريقة العدول في الكلام من الغيبة إلى الحضور، ومثله في كتاب الله تعالى كثير، قال تعالى: حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة [يونس: ٢٢] .
فإن قيل: فلم قالوا في هذه الآية إن الله لا يخلف الميعاد وقالوا في تلك الآية إنك لا تخلف الميعاد.
قلت: الفرق والله أعلم أن هذه الآية في مقام الهيبة، يعني أن الإلهية تقتضي الحشر والنشر لينتصف المظلومين من الظالمين، فكان ذكره باسمه الأعظم أولى في هذا المقام، أما قوله في آخر السورة إنك لا تخلف الميعاد [آل عمران: ١٩٤] فذاك المقام مقام طلب العبد من ربه أن ينعم عليه بفضله، وأن يتجاوز عن سيئاته فلم يكن المقام مقام الهيبة، فلا جرم قال: إنك لا تخلف الميعاد.
المسألة الثالثة: احتج الجبائي بهذه الآية على القطع بوعيد الفساق، قال: وذلك لأن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد، بدليل قوله تعالى: أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا [الأعراف: ٤٤] والوعد والموعد والميعاد واحد، وقد أخبر في هذه الآية أنه لا يخلف الميعاد فكان هذا دليلا على أنه لا يخلف في الوعيد.
والجواب: لا نسلم أنه تعالى يوعد الفساق مطلقا، بل ذلك الوعيد عندنا مشروط بشرط عدم العفو، كما أنه بالاتفاق مشروط بشرط عدم التوبة، فكما أنكم أثبتم ذلك الشرط بدليل منفصل، فكذا نحن أثبتنا شرط عدم العفو بدليل منفصل، سلمنا أنه يوعدهم، ولكن لا نسلم أن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد، أما قوله

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٠٩/٧

تعالى:

فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا.

قلنا: لم لا يجوز أن يكون ذلك كما في قوله فبشرهم بعذاب أليم [آل عمران: ٢١] وقوله ذق إنك أنت العزيز الكريم [الدخان: ٤٩] وأيضا لم لا يجوز أن يكون المراد منه أنهم كانوا يتوقعون من أوثانهم أنها تشفع لهم عند الله، فكان المراد من الوعد تلك **المنافع**، وتمام الكلام في مسألة الوعيد قد مر في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون [البقرة: ٨١] وذكر الواحدي في البسيط طريقة أخرى، فقال: لم لا يجوز أن يحمل هذا على ميعاد الأولياء، دون وعيد الأعداء، لأن خلف الوعيد كرم عند العرب، قال: والدليل عليه أنهم يمدحون بذلك، قال الشاعر:

إذا وعد السراء أنجز وعده ... وإن أوعد الضراء فالعفو مانعه

وروى المناظرة التي دارت بين أبي عمرو بن العلاء، وبين عمرو بن عبيد، قال أبو عمرو بن العلاء لعمرو بن عبيد: ما تقول في أصحاب الكبائر؟ قال: أقول إن الله وعد وعدا، وأوعد إيعادا، فهو منجز إيعاده، كما هو منجز وعده، فقال أبو عمرو بن العلاء: إنك رجل أعجم، لا أقول أعجم/ اللسان ولكن أعجم القلب،." (١)

"إنه تعالى حث على الرغبة في الآخرة بقوله قل أأنبئكم بخير من ذلكم [آل عمران: ١٥] ثم بين طيبات الآخرة معدة لمن واظب على العبودية من الصابرين والصادقين إلى آخر الآية.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن قوله زين للناس من الذي زين ذلك؟ أما أصحابنا فقولهم/ فيه ظاهر، وذلك لأن عندهم خالق جميع الأفعال هو الله تعالى وأيضا قالوا: لو كان المزين الشيطان فمن الذي زين الكفر والبدعة للشيطان، فإن كان ذلك شيطانا آخر لزم التسلسل، وإن وقع ذلك من نفس ذلك الشيطان في الإنسان فليكن كذلك الإنسان، وإن كان من الله تعالى، وهو الحق فليكن في حق الإنسان كذلك، وفي القرآن إشارة إلى هذه النكتة في سورة القصص في قوله ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا [القصص: ٦٣] يعني إن اعتقد أحد أنا أغويناهم فمن الذي أغوانا، وهذا الكلام ظاهر جدا.

أما المعتزلة فالقاضي نقل عنهم ثلاثة أقوال:

لقول الأول: حكي عن الحسن أنه قال: الشيطان زين لهم، وكان يحلف على ذلك بالله، واحتج القاضي لهم بوجوه أحدها: أنه تعالى أطلق حب الشهوات، فيدخل فيه الشهوات المحرمة ومزين الشهوات المحرمة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥١/٧

هو الشيطان وثانيها: أنه تعالى ذكر القناطير المقنطرة من الذهب والفضة وحب هذا المال الكثير إلى هذا الحد لا يليق إلا بمن جعل الدنيا قبلة طلبه، ومنتهى مقصوده، لأن أهل الآخرة يكتفون بالغلبة وثالثها: قوله تعالى:

ذلك متاع الحياة الدنيا ولا شك أن الله تعالى ذكر ذلك في معرض الذم للدنيا والذم للشيء يمتنع أن يكون مزينا له ورابعها: قوله بعد هذه الآية قل أأنبئكم بخير من ذلكم [آل عمران: ١٥] والمقصود من هذا الكلام صرف العبد عن الدنيا وتقبيحها في عينه، وذلك لا يليق بمن يزين الدنيا في عينه.

والقول الثاني: قول قوم آخرين من المعتزلة وهو أن المزين لهذه الأشياء هو الله واحتجوا عليه بوجوه أحدها: أنه تعالى كما رغب في منافع الآخر فقد خلق ملاذ الدنيا وأباحها لعبيده، وإباحتها للعبيد تزيين لها، فإنه تعالى إذا خلق الشهوة والمشتهى، وخلق للمشتهي علما بما في تناول المشتهى من اللذة، ثم أباح له ذلك التناول كان تعالى مزينا لها وثانيها: أن الانتفاع بهذه المشتهيات وسائل إلى منافع الآخرة، والله تعالى قد ندب إليها، فكان مزينا لها، وإنما قلنا: إن الانتفاع بها وسائل إلى ثواب الآخرة لوجوه الأول: أن يتصدق بها والثاني: أن يتقوى بها على طاعة الله تعالى والثالث: أنه إذا انتفع بها وعلم أن تلك **المنافع** إنما تيسرت بتخليق الله تعالى وإعانته صار ذلك سببا لاشتغال العبد بالشكر العظيم، ولذلك كان الصاحب ابن عباد يقول: شرب الماء البارد في الصيف يستخرج الحمد من أقصى القلب وذكر شعرا هذا معناه والرابع: أن القادر على التمتع بهذه اللذات والطيبات إذا تركها واشتغل بالعبودية وتحمل ما فيها من المشقة كان أكثر ثوابا، فثبت بهذه الوجوه أن الانتفاع بهذه الطيبات وسائل إلى ثواب الآخر والخامس: قوله تعالى: هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا [البقرة: ٢٩] وقال: قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق [الأعراف: ٣٢] وقال: إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها [الكهف: ٧] وقال: خذوا زينتكم عند كل مسجد [الأعراف:

٣١] وقال/ في سورة البقرة وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم [البقرة: ٢٢] وقال كلوا مما في الأرض حلالا طيبا [البقرة: ١٦٨] وكل ذلك يدل على أن التزيين من الله تعالى، ومما يؤكد ذلك قراءة مجاهد زين للناس على تسمية الفاعل.." (١)

"ثم قال: وأزواج مطهرة ورضوان من الله وقد ذكرنا لطائفها عند قوله تعالى في سورة البقرة: ولهم فيها أزواج مطهرة [البقرة: ٢٥] وتحقيق القول فيه أن النعمة وإن عظمت فلن تتكامل إلا بالأزواج اللواتي لا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦٠/٧

يحصل الأنس إلا بهن، ثم وصف الأزواج بصفة واحدة جامعة لكل مطلوب، فقال مطهرة ويدخل في ذلك: الطهارة من الحيض والنفاس وسائر الأحوال التي تظهر عن النساء في الدنيا مما ينفر عنه الطبع، ويدخل فيه كونهن مطهرات من الأخلاق الذميمة ومن القبح وتشويه الخلقة، ويدخل فيه كونهن مطهرات من سوء العشرة.

ثم قال تعالى: ورضوان من الله وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ عاصم ورضوان بضم الراء، والباقون بكسرها، أما الضم فهو لغة قيس وتميم، وقال الفراء: يقال رضيت رضا ورضوانا، ومثل الراضون بالكسر الحرمان والقربان وبالضم الطغيان والرجحان والكفران والشكران.

المسألة الثانية: قال المتكلمون: الثواب له ركنان أحدهما: المنفعة، وهي التي ذكرناها، والثاني: التعظيم، وهو المراد بالرضوان، وذلك لأن معرفة أهل الجنة مع هذا النعيم المقيم بأنه تعالى راض عنهم، حامد لهم، مثن عليهم، أزيد في إيجاب السرور من تلك **المنافع**، وأما الحكماء فإنهم قالوا: الجنات بما فيها إشارة إلى الجنة الجسمانية، والرضوان فهو إشارة إلى الجنة الروحانية وأعلى المقامات إنما هو الجنة الروحانية، وهو عبارة عن تجلي نور جلال الله تعالى في روح العبد واستغراق العبد في معرفته، ثم يصير في أول هذه المقامات راضيا عن الله تعالى، وفي آخرها مرضيا عند الله تعالى، والله الإشارة بقوله راضية مرضية [الفجر: ٢٨] ونظير هذه الآية قوله تعالى: وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم [التوبة: ٧٢] .

ثم قال: والله بصير بالعباد أي عالم بمصالحهم، فيجب أن يرضوا لأنفسهم ما اختاره لهم من نعيم الآخرة، وأن يزهدوا فيما زهدهم فيه من أمور الدنيا.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٦]

الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار (١٦)

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في إعراب موضع الذين يقولون وجوه الأول: أنه خفض صفة/ للذين اتقوا، وتقدير الآية: للذين اتقوا الذين يقولون، ويجوز أن يكون صفة للعباد، والتقدير: والله بصير بالعباد وأولئك هم المتقون الذين لهم عند ربهم جنات هم الذين يقولون كذا وكذاو الثاني: أن يكون نصبا على المدح والثالث: أن يكون رفعا على التخصيص، والتقدير: هم الذين يقول كذا وكذا.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا ربنا إننا آمنا ثم إنهم قالوا بعد ذلك فاغفر لنا ذنوبنا وذلك يدل على أنهم توسلوا بمجرد الإيمان إلى طلب المغفرة والله تعالى حكى ذلك عنهم في معرض المدح لهم، والثناء علي‌هم، فدل هذا على أن العبد بمجرد الإيمان يستوجب الرحمة والمغفرة من الله تعالى، فإن قالوا: الإيمان عبارة عن جميع الطاعات أبطلنا ذلك عليهم بالدلائل المذكورة في تفسير قوله الذين يؤمنون بالغيب وأيضا فمن أطاع الله تعالى في جميع الأمور، وتاب عن جميع الذنوب، كان إدخاله النار قبيحا من الله." (١)

"الرغبة في ذلك صح إطلاق هذا الاسم عليهم على سبيل المجاز، كما يقال: النار محرقة، والسم قاتل، أي ذلك من شأنهما إذا وجد القابل، فكذا هاهنا لا يصح أن يكون إلا كذلك.

السؤال الثاني: ما الفائدة في قوله ويقتلون النبيين بغير حق وقتل الأنبياء لا يكون إلا كذلك.

والجواب: ذكرنا وجوه ذلك في سورة البقرة، والمراد منه شرح عظم ذنبهم، وأيضا يجوز أن يكون المراد أنهم قصدوا بطريقة الظلم في قتلهم طريقة العدل.

السؤال الثالث: قوله ويقتلون النبيين ظاهره مشعر بأنهم قتلوا الكل، ومعلوم أنهم ما قتلوا الكل ولا الأكثر ولا النصف.

والجواب: الألف واللام محمولان على المعهود لا على الاستغراق.

الصفة الثالثة: قوله ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة وحده ويقاتلون بالألف والباقون ويقتلون وهما سواء، لأنهم قد يقاتلون فيقتلون بالقتال، وقد يقتلون ابتداء من غير قت‌ال وقرأ أبي ويقتلون النبيين والذين يأمرون.

المسألة الثانية: قال الحسن: هذه الآية تدل على أن القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الخوف، تلي منزلته في العظم منزلة الأنبياء،

وروي أن رجلا قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أي الجهاد أفضل؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» .

واعلم أنه تعالى كما وصفهم بهذه الصفات الثلاثة، فقد ذكر وعيدهم من ثلاثة أوجه الأول: قوله فبشرهم بعذاب أليم وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: إنما دخلت الفاء في قوله فبشرهم مع أنه خبران، لأنه في معنى الجزاء والتقدير: من يكفر

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦٥/٧

فبشرهم.
المسألة الثانية: هذا محمول على الاستعارة، وهو أن إنذار هؤلاء بالعذاب قائم مقام بشرى المحسنين بالنعيم، والكلام في حقيقة البشارة تقدم في قوله تعالى: وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات [البقرة: ٢٥] .
النوع الثاني من الوعيد: قوله أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة اعلم أنه تعالى بين بهذا أن محاسن أعمال الكفار محبطة في الدنيا والآخرة، أما الدنيا فإبدال المدح بالذم والثناء باللعن، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل والسبي، وأخذ الأموال منهم غنيمة والاسترقاق لهم إلى غير ذلك من الذل الظاهر فيهم، وأما حبوطها في الآخرة فبإزالة الثواب إلى العقاب.
النوع الثالث من وعيدهم: قوله تعالى: وما لهم من ناصرين اعلم أنه تعالى بين بالنوع الأول من الوعيد اجتماع أسباب الآلام والمكروهات في حقهم وبين بالنوع الثاني زوال أسباب **المنافع** عنهم بالكلية وبين بهذا الوجه الثالث لزوم ذلك في حقهم على وجه/ لا يكون لهم ناصر ولا دافع والله أعلم.." [1]
"رؤف بالعباد
وهو الموعد ليعلم العبد أن وعده ورحمته، غالب على وعيده وسخطه والرابع: وهو أن لفظ العباد في القرآن مختص، قال تعالى: وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى: عينا يشرب بها عباد الله [الإنسان: ٦] فكان المعنى أنه لما ذكر وعيد الكفار والفساق ذكر وعد أهل الطاعة فقال: والله رؤف بالعباد أي كما هو منتقم من الفساق، فهو رؤوف بالمطيعين والمحسنين.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٣١]
قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم (٣١)
اعلم أنه تعالى لما دعا القوم إلى الإيمان به، والإيمان برسله على سبيل التهديد والوعيد، دعاهم إلى ذلك من طريق آخر وهو أن اليهود كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه [المائدة: ١٨] فنزلت هذه الآية، ويروى أنه صلى الله عليه وسلم وقف على قريش وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام فقال: يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة إبراهيم، فقالت قريش: إنما نعبد هذه حبا لله تعالى ليقربونا إلى الله زلفى، فنزلت هذه الآية،

---
(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧٧/٧

ويروى أن النصارى قالوا: إنما نعظم المسيح حبا لله، فنزلت هذه الآية،

وبالجملة فكل واحد من فرق العقلاء يدعي أنه يحب الله، ويطلب رضاه وطاعته فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: قل إن كنتم صادقين في ادعاء محبة الله تعالى فكونوا منقادين لأوامره محترزين عن مخالفته، وتقدير الكلام: أن من كان محبا لله تعالى لا بد وأن يكون في غاية الحذر مما يوجب سخطه، وإذا قامت الدلالة القاطعة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وجبت متابعته، فإن لم تحصل هذه المتابعة دل ذلك على أن تلك المحبة ما حصلت.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أما الكلام المستقصى في المحبة، فقد تقدم في تفسير قوله تعالى: والذين/ آمنوا أشد حبا لله [البقرة: ١٦٥] والمتكلمون مصرون على أن محبة الله تعالى عبارة عن محبة إعظامه وإجلاله، أو محبة طاعته، أو محبة ثوابه، قالوا: لأن المحبة من جنس الإرادة، والإرادة لا تعلق لها إلا بالحوادث وإلا **بالمنافع**. واعلم أن هذا القول ضعيف، وذلك لأنه لا يمكن أن يقال في كل شيء إنه إنما كان محبوبا لأجل معنى آخر وإلا لزم التسلسل والدور، فلا بد من الانتهاء إلى شيء يكون محبوبا بالذات، كما أنا نعلم أن اللذة محبوبة لذاتها، فكذلك نعلم أن الكمال محبوب لذاته، وكذلك أنا إذا سمعنا أخبار رستم واسفنديار في شجاعتهما مال القلب إليهما مع أنا نقطع بأنه لا فائدة لنا في ذلك الميل، بل ربما نعتقد أن تلك المحبة معصية لا يجوز لنا أن نصر عليها، فعلمنا أن الكمال محبوب لذاته، كما أن اللذة محبوبة لذاتها، وكمال الكمال لله سبحانه وتعالى، فكان ذلك يقتضي كونه محبوبا لذاته من ذاته ومن المقربين عنده الذين تجلى لهم أثر من آثار كماله وجلاله قال المتكلمون: وأما محبة الله تعالى للعبد فهي عبارة عن إرادته تعالى إيصال الخيرات **والمنافع** في الدين والدنيا إليه.

المسألة الثانية: القوم كانوا يدعون أنهم كانوا محبين لله تعالى، وكانوا يظهرون الرغبة في أن يحبهم الله تعالى، والآية مشتملة على أن الإلزام من وجهين أحدهما: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني، لأن المعجزات دلت على أنه تعالى أوجب عليكم متابعتي الثاني: إن كنتم تحبون أن يحبكم الله فاتبعوني لأنكم إذا اتبعتموني فقد أطعتم الله، والله تعالى يحب كل من أطاعه، وأيضا فليس في متابعتي إلا أني دعوتكم إلى طاعة الله تعالى وتعظيمه وترك تعظيم غيره، ومن أحب الله كان راغبا فيه، لأن المحبة توجب الإقبال بالكلية على المحبوب، والإعراض بالكلية عن غير المحبوب.." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٩٧/٨

"تعالى حكم بأن الذين كفروا بعد إيمانهم يمنعهم الله تعالى من هدايته، ثم بين أن الأمر غير مقصور عليه، بل كما لا يهديهم في الدنيا يلعنهم اللعن العظيم ويعذبهم في الآخرة، على سبيل التأبيد والخلود.

واعلم أن لعنة الله، مخالفة للعنة الملائكة، لأن لعنته بالإبعاد من الجنة وإنزال العقوبة والعذاب واللعنة من الملائكة هي بالقول، وكذلك من الناس، وكل ذلك مستحق لهم بسبب ظلمهم وكفرهم/ فصح أن يكون جزاء لذلك وهاهنا سؤالان:

السؤال الأول: لم عم جميع الناس ومن يوافقه لا يلعنه؟.

قلنا: فيه وجوه الأول: قال أبو مسلم له أن يلعنه وإن كان لا يلعنه الثاني: أنه في الآخرة يلعن بعضهم بعضا قال تعالى: كلما دخلت أمة لعنت أختها [الأعراف: ٣٨] وقال: ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا [العنكبوت: ٢٥] وعلى هذا التقدير فقد حصل اللعن للكفار من الكفار والثالث: كأن الناس هم المؤمنون، والكفار ليسوا من الناس، ثم لما ذكر لعن الثلاث قال: أجمعين الرابع: وهو الأصح عندي أن جميع الخلق يلعنون المبطل والكافر، ولكنه يعتقد في نفسه أنه ليس بمبطل ولا بكافر، فإذا لعن الكافر وكان هو في علم الله كافرا، فقد لعن نفسه وإن كان لا يعلم ذلك.

السؤال الثاني: قوله خالدين فيها أي خالدين في اللعنة، فما خلود اللعنة؟.

قلنا: فيه وجهان الأول: أن التخليد في اللعنة على معنى أنهم يوم القيامة لا يزال يلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم في النار فلا يخلو شيء من أحوالهم، من أن يلعنهم لاعن من هؤلاء الثاني: أن المراد بخلود اللعن خلود أثر اللعن، لأن اللعن يوجب العقاب، فعبر عن خلود أثر اللعن بخلود اللعن، ونظيره قوله تعالى: من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه [طه: ١٠٠، ١٠١] الثالث: قال ابن عباس قوله خالدين فيها أي في جهنم فعلى هذا الكناية عن غير مذكور، واعلم أن قوله خالدين فيها نصب على الحال مما قبله، وهو قوله تعالى: عليهم لعنة الله.

ثم قال: لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون معنى الإنظار التأخير قال تعالى: فنظرة إلى ميسرة [البقرة: ٢٨٠] فالمعنى أنه لا يجعل عذابهم أخف ولا يؤخر العقاب من وقت إلى وقت وهذا تحقيق قول المتكلمين: إن العذاب الملحق بالكافر مضرة خالصة عن شوائب **المنافع** دائمة غير منقطعة، نعوذ منه بالله.

ثم قال: إلا الذين تابوا من بعد ذلك والمعنى إلا الذين تابوا منه، ثم بين أن التوبة وحدها لا تكفي حتى ينضاف إليها العمل الصالح فقال: وأصلحوا أي أصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات وظاهرهم مع الخلق بالعبادات، وذلك بأن يلعنوا بأنا كنا على الباطل حتى أنه لو اغتر بطريقتهم الفاسدة مغتر رجع عنها.

ثم قال: فإن الله غفور رحيم وفيه وجهان الأول: غفور لقبائحهم في الدنيا بالستر، رحيم في الآخرة بالعفو الثاني: غفور بإزالة العقاب، رحيم بإعطاء الثواب، ونظيره قوله تعالى: قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف [الأنفال: ٣٨] ودخلت الفاء في قوله فإن الله غفور رحيم لأنه الجزاء، وتقدير الكلام: إن تابوا فإن الله يغفر لهم.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٩٠]

إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون (٩٠)

وفي الآية مسألتان:." [1]

"المنافع فيه، أما الآتي بالنوع الثاني فإنه لا يأتي به إلا لمجرد الانقياد والطاعة والعبودية، فلأجل هذا المعنى اشتمل الأمر بالحج في هذه الآية على أنواع كثيرة من التوكيد أحدها: قوله ولله على الناس حج البيت والمعنى أنه سبحانه لكونه إلها ألزم عبيده هذه الطاعة فيجب الانقياد سواء عرفوا وجه الحكمة فيها أو لم يعرفوا وثانيها: أنه ذكر الناس ثم أبدل منه من استطاع إليه سبيلا وفيه ضربان من التأكيد، أما أولا فلأن الإبدال تثنية للمراد وتكرير، وذلك يدل على شدة العناية، وأما ثانيا فلأنه أجمل أولا وفصل ثانيا وذلك يدل على شدة الاهتمام وثالثها: أنه سبحانه عبر عن هذا الوجوب بعبارتين إحداهما: لام الملك في قوله ولله وثانيتهما:

كلمة (على) وهي للوجوب في قوله ولله على الناس ورابعها: أن ظاهر اللفظ يقتضي إيجابه على كل إنسان يستطيعه، وتعميم التكليف يدل على شدة الاهتمام وخامسها: أنه قال ومن كفر مكان، ومن لم يحج وهذا تغليظ شديد في حق تارك الحج وسادسها: ذكر الاستغناء وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان وسابعها: قوله عن العالمين ولم يقل عنه لأن المستغني عن كل العالمين أولى أن يكون مستغنيا عن ذلك الإنسان الواحد وعن طاعته، فكان ذلك أدل على السخط وثامنها: أن في أول الآية قال: ولله على الناس فبين أن هذا الإيجاب كان لمجرد عزة الإلهية وكبرياء الربوبية، لا لجر نفع ولا لدفع ضر، ثم أكد هذا في آخر الآية بقوله فإن الله غني عن العالمين ومما يدل من الأخبار على تأكيد الأمر بالحج،

قوله عليه الصلاة والسلام: «حجوا قبل أن لا تحجوا فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالث»

وروي «حجوا قبل أن لا تحجوا حجوا قبل أن يمنع البر جانبه»

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨/٢٨٥

قيل: معناه أنه يتعذر عليكم السفر في البر في مكة لعدم الأمن أو غيره، وعن ابن مسعود «حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا هلكت» .

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٩٨ الى ٩٩]

قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون (٩٨) قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون (٩٩)

[في قوله تعالى يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله] اعلم أن في كيفية النظم وجهين الأول: وهو الأوفق: أنه تعالى لما أورد الدلائل على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام مما ورد في التوراة والإنجيل من البشارة بمقدمه، ثم ذكر عقيب ذلك شبهات القوم.

فالشبهة الأولى: ما يتعلق بإنكار النسخ.

وأجاب عنها بقوله كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه [آل عمران: ٩٣] .

والشبهة الثانية: ما يتعلق بالكعبة ووجوب استقبالها في الصلاة ووجوب حجها.

وأجاب عنها بقوله إن أول بيت وضع للناس [آل عمران: ٩٦] إلى آخرها، فعند هذا تمت وظيفة الاستدلال وكمل الجواب عن شبهات أرباب الضلال، فعند ذلك خاطبهم بالكلام اللين وقال: لم تكفرون بآيات الله بعد ظهور البينات وزوال الشبهات، وهذا هو الغاية القصوى في ترتيب الكلام وحسن نظمه.

الوجه الثاني: وهو أنه تعالى لما بين فضائل الكعبة ووجوب الحج، والقوم كانوا عالمين بأن هذا هو الدين الحق والملة الصحيحة قال لهم: لم تكفرون بآيات الله بعد أن علمتم كونها حقة صحيحة.." (١)

"الوجه الثاني: وهو (أن الألف واللام) في لفظ بالمعروف ولفظ المنكر يفيدان الاستغراق، وهذا يقتضي كونهم آمرين بكل معروف، وناهين عن كل منكر ومتى كانوا كذلك كان إجماعهم حقا وصدقا لا محالة فكان حجة، والمباحث الكثيرة فيه ذكرناها في الأصول.

المسألة الثالثة: قال الزجاج: قوله كنتم خير أمة ظاهر الخطاب فيه مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه عام في كل الأمة، ونظيره قوله كتب عليكم الصيام [البقرة: ١٨٣] كتب عليكم القصاص [البقرة: ١٧٨] فإن كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ، ولكنه عام في حق الكل كذا هاهنا.

المسألة الرابعة: قال القفال رحمه الله: أصل الأمة الطائفة المجتمعة على الشيء الواحد فأمة نبينا صلى الله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٠٦/٨

عليه وسلم هم الجماعة الموصوفون بالإيمان به والإقرار بنبوته، وقد يقال لكل من جمعتهم دعوته أنهم أمته إلا أن لفظ الأمة إذا أطلقت وحدها وقع على الأول، ألا ترى أنه إذا قيل أجمعت الأمة على كذا فهم منه الأول

وقال عليه الصلاة والسلام: «أمتي لا تجتمع على ضلالة»

وروي أنه عليه الصلاة والسلام يقول يوم القيامة «أمتي أمتي»

فلفظ الأمة في هذه المواضع وأشباهها يفهم منه المقرون بنبوته، فأما أهل دعوته فإنه إنما يقال لهم: إنهم أمة الدعوة ولا يطلق عليهم إلا لفظ الأمة بهذا الشرط.

أما قوله أخرجت للناس ففيه قولان الأول: أن المعنى كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار، فقوله أخرجت للناس أي أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وفصل بينها وبين غيرها والثاني: أن قوله للناس من تمام قوله كنتم والتقدير: كنتم للناس خير أمة، ومنهم من قال: أخرجت صلة، والتقدير: كنتم خير أمة للناس.

ثم قال: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله.

واعلم أن هذا كلام مستأنف، والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم، وتحقيق الكلام أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقرونا بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف، فههنا حكم تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة، ثم ذكر عقيبه هذا الحكم وهذه الطاعات، أعني الأمر/ بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: من أي وجه يقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله كون هذه الأمة خير الأمم مع أن هذه الصفات الثلاثة كانت حاصلة في سائر الأمم؟.

والجواب: قال القفال: تفضيلهم على الأمم الذين كانوا قبلهم إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بآكد الوجوه وهو القتال لأن الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب وباللسان وباليد، وأقواها ما يكون بالقتال، لأنه إلقاء النفس في خطر القتل وأعرف المعروفات الدين الحق والإيمان بالتوحيد والنبوة، وأنكر المنكرات: الكفر بالله، فكان الجهاد في الدين محملا لأعظم المضار لغرض إيصال الغير إلى

أعظم المنافع، وتخليصه من أعظم المضار، فوجب أن يكون الجهاد أعظم العبادات، ولما كان أمر الجهاد في شرعنا أقوى منه في." [(١)]

"الفاسدة عن صدورهم، ثم سألوا بعد ذلك أن ينصرهم على القوم الكافرين، لأن هذه النصرة لا بد فيها من أمور زائدة على ثبات أقدامهم، وهو كالرعب الذي يلقيه في قلوبهم، وإحداث أحوال سماوية أو أرضية توجب انهزامهم، مثل هبوب رياح تثير الغبار في وجوههم، ومثل جريان سيل في موضع وقوفهم، ثم قال القاضي:

وهذا تأديب من الله تعالى في كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن سواء كان في الجهاد أو غيره.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٤٨]

فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين (١٤٨)

واعلم أنه تعالى لما شرح طريقة الربيين في الصبر، وطريقتهم في الدعاء ذكر أيضا ما ضمن لهم في مقابلة ذلك في الدنيا والآخرة فقال: فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: فآتاهم الله يقتضي أنه تعالى أعطاهم الأمرين، أما ثواب الدنيا فهو النصرة والغنيمة وقهر العدو والثناء الجميل، وانشراح الصدر بنور الإيمان وزوال ظلمات الشبهات وكفارة المعاصي والسيئات، وأما ثواب الآخرة فلا شك أنه هو الجنة وما فيها من المنافع واللذات وأنواع السرور والتعظيم، وذلك غير حاصل في الحال، فيكون المراد أنه تعالى حكم لهم بحصولها في الآخرة، فأقام حكم الله بذلك مقام نفس الحصول، كما أن الكذب في وعد الله والظلم في عدله محال، أو يحمل قوله: فآتاهم على أنه سيؤتيهم على قياس قوله: أتى أمر الله [النحل: ١] أي سيأتي أمر الله. قال/ القاضي: ولا يمتنع أن تكون هذه الآية مختصة بالشهداء، وقد أخبر الله تعالى عن بعضهم أنهم أحياء عند ربهم يرزقون، فيكون حال هؤلاء الربيين أيضا كذلك، فإنه تعالى في حال إنزال هذه الآية كان قد آتاهم حسن ثواب الآخرة في جنان السماء.

المسألة الثانية: خص تعالى ثواب الآخرة بالحسن تنبيها على جلالة ثوابهم، وذلك لأن ثواب الآخرة كله في غاية الحسن، فما خصه الله بأنه حسن من هذا الجنس فانظر كيف يكون حسنه، ولم يصف ثواب الدنيا بذلك لقلتها وامتزاجها بالمضار وكونها، منقطعة زائلة، قال القفال رحمه الله: يحتمل أن يكون الحسن هو الحسن كقوله: وقولوا للناس حسنا [البقرة: ٨٣] أي حسنا، والغرض منه المبالغة كأن تلك الأشياء

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢٥/٨

الحسنة لكونها عظيمة في الحسن صارت نفس الحسن، كما يقال: فلان جود وكرم، إذا كان في غاية الجود والكرم والله أعلم.
المسألة الثالثة: قال فيما تقدم: ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها [آل عمران: ١٤٥] فذكر لفظة (من) الدالة على التبعيض فقال في الآية: فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ولم يذكر كلمة (من) والفرق: أن الذين يريدون ثواب الآخرة إنما اشتغلوا بالعبودية لطلب الثواب، فكانت مرتبتهم في العبودية نازلة، وأما المذكورون في هذه الآية فإنهم لم يذكروا في أنفسهم إلا الذنب والقصور، وهو المراد من قوله: اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا [آل عمران: ١٤٧] ولم يروا التدبير والنصرة والإعانة إلا من ربهم، وهو المراد بقوله: وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين [آل عمران:
١٤٧] فكان مقام هؤلاء في العبودية في غاية الكمال، فلا جرم أولئك فازوا ببعض الثواب، وهؤلاء فازوا بالكل، وأيضا أولئك أرادوا الثواب، وهؤلاء ما أرادوا الثواب. وإنما أرادوا خدمة مولاهم فلا جرم أولئك حرموا وهؤلاء أعطوا، ليعلم أن كل من أقبل على خدمة الله أقبل على خدمته كل ما سوى الله.
ثم قال: والله يحب المحسنين وفيه دقيقة لطيفة وهي أن هؤلاء اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا:
ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا فلما اعترفوا بذلك سماهم الله محسنين، كأن الله تعالى يقول لهم:." (١)

"المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي يعملون كناية عن الغائبين، والتقدير ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير والباقون بالتاء على الخطاب ليكون وفقا لما قبله في قوله: لا تكونوا كالذين كفروا ولما بعده في قوله: ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم.
ثم قال تعالى: ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما تجمعون.
واعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن شبهة المنافقين، وتقريره أن هذا الموت لا بد واقع ولا محيص للإنسان من أن يقتل أو يموت، فإذا وقع هذا الموت أو القتل في سبيل الله وفي طلب رضوانه، فهو خير من أن يجعل ذلك في طلب الدنيا ولذاتها التي لا ينتفع الإنسان بها بعد الموت ألبتة، وهذا جواب في غاية الحسن والقوة، وذلك لأن الإنسان إذا توجه إلى الجهاد أعرض قلبه عن الدنيا وأقبل على الآخرة، فإذا مات فكأنه تخلص عن العدو ووصل إلى المحبوب، وإذا جلس في بيته خائفا من الموت حريصا على جمع الدنيا، فإذا مات فكأنه حجب عن المعشوق وألقي في دار الغربة، ولا شك في كمال سعادة الأول، وكمال شقاوة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٨٢/٩

الثاني.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وحمزة والكسائي (متم) بكسر الميم، والباقون بضم الميم، والأولون أخذوه من: مات يمات مت، مثل هاب يهاب هبت، وخاف يخاف خفت، وروى المبرد هذه اللغة فإن صح فقد صحت هذه القراءة، وأما قراءة الجمهور فهو مأخوذ من، مات يموت مت: مثل قال يقول قلت.

المسألة الثانية: قال الواحدي رحمه الله: اللام في قوله: ولئن قتلتم لام القسم، بتقدير الله لئن قتلتم في سبيل الله، واللام في قوله: لمغفرة من الله ورحمة جواب القسم، ودال على أن ما هو داخل عليه جزاء، والأصوب عندي أن يقال: هذه اللام للتأكيد، فيكون المعنى إن وجب أن تموتوا وتقتلوا في سفركم وغزوكم، فكذلك يجب أن تفوزوا بالمغفرة أيضا، فلماذا تحترزون عنه كأنه قيل: إن الموت والقتل غير لازم الحصول، ثم بتقدير أن يكون لازما فإنه يستعقب لزوم المغفرة، فكيف يليق بالعاقل أن يحترز عنه؟

المسألة الثالثة: قرأ حفص عن عاصم (يجمعون) بالياء على سبيل الغيبة، والباقون بالتاء على وجه الخطاب، أما وجه الغيبة فالمعنى أن مغفرة الله خير مما يجمعه هؤلاء المنافقون من الحطام الفاني، وأما وجه الخطاب فالمعنى أنه تعالى كأنه يخاطب المؤمنين فيقول لهم مغفرة الله خير لكم من الأموال التي تجمعونها في الدنيا.

المسألة الرابعة: إنما قلنا: إن رحمة الله ومغفرته خير من نعيم الدنيا لوجوه: أحدها: أن من يطلب المال فهو في تعب من ذلك الطلب في الحال، ولعله لا ينتفع به غدا لأنه يموت قبل الغد وأما طلب الرحمة والمغفرة فإنه لا بد وأن ينتفع به لأن الله لا يخلف وعده، وقد قال: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره [الزلزلة: ٧] وثانيها: هب أنه بقي إلى الغد لكن لعل ذلك المال لا يبقى إلى الغد، فكم من إنسان أصبح أميرا وأمسى أسيرا، وخيرات الآخرة لا تزول لقوله: والباقيات الصالحات خير عند ربك [الكهف: ٤٦] ولقوله: ما عندكم ينفد وما عند الله باق [النحل: ٩٦] وثالثها: بتقدير أن يبقى إلى الغد ويبقى المال إلى الغد، لكن لعله يحدث حادث يمنعك عن الانتفاع به مثل مرض وألم وغيرهما، ومنافع الآخرة ليست كذلك. ورابعها: بتقدير أنه في الغد يمكنك الانتفاع بذلك المال، ولكن لذات الدنيا مشوبة بالآلام ومنافعها مخلوطة بالمضار، وذلك مما لا يخفى، وأما منافع الآخرة فليست كذلك. وخامسها: هب أن تلك **المنافع** تحصل في الغد خالصة عن الشوائب." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٠٣/٩

"المسألة الأولى: قال الواحدي رحمه الله: للمن في كلام العرب معان: أحدها: الذي يسقط من السماء وهو قوله: وأنزلنا عليكم المن والسلوى [البقرة: ٥٧] وثانيها: أن تمن بما أعطيت وهو قوله: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى [البقرة: ٢٦٤] وثالثها: القطع وهو قوله: لهم أجر غير ممنون [فصلت: ٨] وإن لك لأجرا غير ممنون [القلم: ٣] ورابعها: الإنعام والإحسان إلى من لا تطلب الجزاء منه، ومنه قوله: هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك [ص: ٣٩] وقوله: ولا تمنن تستكثر والمنان في صفة الله تعالى: المعطي ابتداء من غير أن يطلب منه عوضا وقوله: لقد من الله على المؤمنين أي أنعم عليهم وأحسن إليهم ببعثه هذا الرسول.

المسألة الثانية: أن بعثة الرسول إحسان إلى كل العالمين، وذلك لأن وجه الإحسان في بعثته كونه داعيا لهم إلى ما يخلصهم من عقاب الله ويوصلهم إلى ثواب الله، وهذا عام في حق العالمين، لأنه مبعوث إلى كل العالمين، كما قال تعالى: وما أرسلناك إلا كافة للناس [سبأ: ٢٨] إلا أنه لما لم ينتفع بهذا الإنعام إلا أهل الإسلام، فلهذا التأويل خص تعالى هذه المنة بالمؤمنين، ونظيره قوله تعالى: هدى للمتقين [البقرة: ٢] مع أنه هدى للكل، كما قال: هدى للناس [البقرة: ١٨٥] وقوله: إنما أنت منذر من يخشاها [النازعات: ٤٥].

المسألة الثالثة: اعلم أن بعثة الرسول إحسان من الله إلى الخلق ثم إنه لما كان الانتفاع بالرسول أكثر كان وجه الإنعام في بعثة الرسل أكثر، وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم كانت مشتملة على الأمرين: أحدهما: المنافع الحاصلة من أصل البعثة، والثاني: المنافع الحاصلة بسبب ما فيه من الخصال التي ما كانت موجودة في غيره.

أما المنفعة بسبب أصل البعثة فهي التي ذكرها الله تعالى في قوله: رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل [النساء: ١٦٥] قال أبو عبد الله الحليمي: وجه الانتفاع ببعثة الرسل ليس إلا في طريق الدين وهو من وجوه: الأول: أن الخلق جبلوا على النقصان وقلة الفهم وعدم الدراية، فهو صلوات الله عليه أورد عليهم وجوه الدلائل ونقحها، وكلما خطر ببالهم شك أو شبهة أزالها وأجاب عنها. والثاني: أن الخلق وإن كانوا يعلمون أنه لا بد لهم من خدمة مولاهم، ولكنهم ما كانوا عارفين بكيفية تلك الخدمة، فهو شرح تلك الكيفية لهم حتى يقدموا على الخدمة آمنين من/ الغلط ومن الإقدام على ما لا ينبغي. والثالث: أن الخلق جبلوا على الكسل والغفلة والتواني والملالة فهو يورد عليهم أنواع الترغيبات والترهيبات حتى إنه كلما عرض لهم كسل أو فتور نشطهم للطاعة ورغبهم فيها. الرابع: أن أنوار عقول الخلق تجري

مجرى أنوار البصر، ومعلوم أن الانتفاع بنور البصر لا يكمل إلا عند سطوع نور الشمس، ونوره عقلي إلهي يجري مجرى طلوع الشمس، فيقوي العقول بنور عقله، ويظهر لهم من لوائح الغيب ما كان مستترا عنهم قبل ظهوره، فهذا إشارة حقيقية إلى فوائد أصل البعثة.

وأما **المنافع** الحاصلة بسبب ما كان في محمد صلى الله عليه وسلم من الصفات، فأمور ذكرها الله تعالى في هذه الآية أولها قوله: من أنفسهم.

واعلم أن وجه الانتفاع بهذا من وجوه: الأول: أنه عليه السلام ولد في بلدهم ونشأ فيما بينهم وهم كانوا عارفين بأحواله مطلعين على جميع أفعاله وأقواله، فما شاهدوا منه من أول عمره إلى آخره إلا الصدق والعفاف، وعدم الالتفات إلى الدنيا والبعد عن الكذب، والملازمة على الصدق، ومن عرف من أحواله من أول العمر إلى آخره ملازمته الصدق والأمانة، وبعده عن الخيانة والكذب، ثم ادعى النبوة والرسالة التي يكون." (١)

"بنفسه، والناظر إلى إيتاء الرزق مشغول بالرازق، ومن/ طلب الحق لغيره فهو محجوب.

ثم قال تعالى: ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

واعلم أن قوله: ألا خوف في محل الخفض بدل من (الذين) والتقدير: ويستبشرون بأن لا خوف ولا حزن بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الاستبشار السرور الحاصل بالبشارة، وأصل الاستفعال طلب الفعل، فالمستبشر بمنزلة من طلب السرور فوجده بالبشارة.

المسألة الثانية: اعلم أن الذين سلموا كون الشهداء أحياء قبل قيام القيامة ذكروا لهذه الآية تأويلات أخر.

أما الأول: فهو أن يقال: أن الشهداء يقول بعضهم لبعض: تركنا إخواننا فلانا وفلانا في صف المقاتلة مع الكفار فيقتلون إن شاء الله فيصيبون من الرزق والكرامة ما أصبنا، فهو قوله: ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم.

وأما الثاني: فهو أن يقال: إن الشهداء إذا دخلوا الجنة بعد قيام القيامة يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله، والمراد بقوله: لم يلحقوا بهم من خلفهم هم إخوانهم من المؤمنين الذين ليس لهم مثل درجة الشهداء، لأن الشهداء يدخلون الجنة قبلهم، دليله قوله تعالى: وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة [النساء: ٩٥، ٩٦] فيفرحون بما يرون من مأوى المؤمنين والنعيم المعد لهم،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤١٨/٩

وبما يرجونه من الاجتماع بهم وتقر بذلك أعينهم، هذا اختيار أبي مسلم الأصفهاني والزجاج.
واعلم أن التأويل الأول أقوى من الثاني، وذلك لأن حاصل الثاني يرجع إلى استبشار بعض المؤمنين ببعض بسبب اجتماعهم في الجنة، وهذا أمر عام في حق كل المؤمنين، فلا معنى لتخصيص الشهداء بذلك، وأيضا: فهم كما يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، فكذلك يستبشرون بمن تقدمهم في الدخول، لأن منازل الأنبياء والصديقين فوق منازل الشهداء، قال تعالى: فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين [النساء: ٦٩] وعلى هذا التقدير لا يبقى فائدة في التخصيص. أما إذا فسرنا الآية بالوجه الأول ففي تخصيص المجاهدين بهذه الخاصية أعظم الفوائد فكان ذلك أولى والله أعلم.
المسألة الثالثة: الخوف يكون بسبب توقع المكروه النازل في المستقبل، والحزن يكون بسبب فوات **المنافع** التي كانت موجودة في الماضي، فبين سبحانه أنه لا خوف عليهم فيما سيأتيهم/ من أحوال القيامة، ولا حزن لهم فيما فاتهم من نعيم الدنيا.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٧١]
يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين (١٧١)
[في قوله تعالى يستبشرون بنعمة من الله وفضل] وفيه مسائل:
المسألة الأولى: أنه تعالى بين أنهم كما يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم على ما ذكر فهم يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النعيم، وإنما أعاد لفظ يستبشرون لأن الاستبشار الأول كان بأحوال الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، والاستبشار الثاني كان بأحوال أنفسهم خاصة.
فإن قيل: أليس أنه ذكر فرحهم بأحوال أنفسهم والفرح عين الاستبشار؟." (١)
"المسألة الأولى: قرأ حمزة ولا تحسبن بالتاء والباقون بالياء، أما قراءة حمزة بالتاء المنقطة من فوق فقال الزجاج: معناه ولا تحسبن بخل الذين يبخلون خيرا لهم، فحذف المضاف لدلالة يبخلون عليه، وأما من قرأ بالياء المنقطة من تحت ففيه وجهان: الأول: أن يكون فاعل يحسبن ضمير رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو ضمير أحد، والتقدير: ولا يحسبن رسول الله أو لا يحسبن أحد بخل الذين يبخلون خيرا لهم. الثاني: أن يكون فاعل يحسبن هم الذين يبخلون، وعلى هذا التقدير يكون المفعول محذوفا، وتقديره: ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم هو خيرا لهم، وإنما جاز حذفه لدلالة يبخلون عليه، كقوله: من كذب

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٩/٤٣٠

كان شرا له، أي الكذب، ومثله:

إذا نهي السفيه جرى إليه

أي السفه وأنشد الفراء

هم الملوك وأبناء الملوك هم ... والآخذون به والسادة الأول

فقوله به: يريد بالملك ولكنه اكتفى عنه بذكر الملوك.

المسألة الثانية: هو في قوله: هو خيرا لهم تسميه البصريون فصلا، والكوفيون عمادا، وذلك لأنه لما ذكر «يبخلون» فهو بمنزلة ما إذا ذكر البخل، فكأنه قيل: ولا يحسبن الذين يبخلون البخل خيرا لهم، وتحقيق القول فيه أن للمبتدأ حقيقة، وللخبر حقيقة، وكون حقيقة المبتدأ موصوفا بحقيقة الخبر أمر زائد على حقيقة المبتدأ وحقيقة الخبر، فإذا كانت هذه الموصوفية أمرا زائدا على الذاتين فلا بد من صيغة ثالثة دالة على هذه الموصوفية وهي كلمة «هو» .

المسألة الثالثة: اعلم أن الآية دالة على ذم البخل بشيء من الخيرات **والمنافع**، وذلك الخير يحتمل أن يكون مالا، وأن يكون علما.

فالقول الأول: إن هذا الوعيد ورد على البخل بالمال، والمعنى: لا يتوهمن هؤلاء البخلاء أن بخلهم هو خير لهم، بل هو شر لهم، وذلك لأنه يبقى عقاب بخلهم عليهم، وهو المراد من قوله: سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة مع أنه لا تبقى تلك الأموال عليهم وهذا هو المراد بقوله: ولله ميراث السماوات والأرض.

والقول الثاني: أن المراد من هذا البخل: البخل بالعلم، وذلك لأن اليهود كانوا يكتمون نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته، فكان ذلك الكتمان بخلا، يقال فلان يبخل بعلمه، ولا شك أن العلم فضل من الله تعالى قال الله تعالى: وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما

[النساء: ١١٣] ثم إنه تعالى علم اليهود والنصارى ما في التوراة والإنجيل، فإذا كتموا ما في هذين الكتابين من البشارة بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم كان ذلك بخلا.

واعلم أن القول الأول أولى، ويدل عليه وجهان: الأول: أنه تعالى قال: سيطوقون ما بخلوا به ولو فسرنا الآية بالعلم احتجنا إلى تحمل المجاز في تفسير هذه الآية، ولو فسرناها بالمال لم نحتج إلى المجاز فكان هذا أولى. الثاني: أنا لو حملنا هذه الآية على المال كان ذلك ترغيبا في بذل المال في الجهاد فحينئذ يحصل

لهذه الآية مع ما قبله، نظم حسن، ولو حملناها على أن اليهود كتموا ما عرفوه من التوراة انقطع النظم، إلا على سبيل التكلف، فكان الأول أولى.." [1]

"المسألة الثالثة: يحتمل أن يقال له هذا القول عند الموت أو عند الحشر أو عند قراءة الكتاب ويحتمل أن يكون هذا كناية عن حصول الوعيد، وإن لم يكن هناك قول:

المسألة الرابعة: لقائل أن يقول: إنهم أوردوا سؤالا وهو أن من يطلب المال من غيره كان فقيرا محتاجا، فلو طلب الله المال من عبيده لكان فقيرا وذلك محال، فوجب أن يقال: إنه لم يطلب المال من عبيده، وذلك يقدح في كون محمد عليه الصلاة والسلام صادقا في ادعاء النبوة فهو هو شبهة القوم فأين الجواب عنها؟ وكيف يحسن ذكر الوعيد على ذكرها قبل ذكر الجواب عنها؟

فنقول: إذا فرعنا على قول أصحابنا من أهل السنة والجماعة قلنا: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، فلا يبعد أن يأمر الله تعالى عبيده ببذل الأموال مع كونه تعالى أغنى الأغنياء.

وإن فرعنا على قول المعتزلة في أنه تعالى يراعي المصالح لم يبعد أن يكون في هذا التكليف أنواع من المصالح العائدة إلى العباد: منها: أن إنفاق المال يوجب زوال حب المال عن القلب، وذلك من أعظم **المنافع**، فإنه إذا مات فلو بقي في قلبه حب المال مع أنه ترك المال لكان ذلك سببا لتألم روحه بتلك المفارقة، ومنها: أن يتوسل بذلك الإنفاق إلى الثواب المخلد المؤبد، ومنها: أن بسبب الإنفاق يصير القلب فارغا عن حب ما سوى الله، وبقدر ما يزول عن القلب حب غير الله فإنه يقوى في حب الله، وذلك رأس السعادات، وكل هذه الوجوه قد ذكرها الله في القرآن وبينها مرارا وأطوارا، كما قال: والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا [الكهف:

٤٦] وقال: والآخرة خير وأبقى [الأعلى: ١٧] وقال: ورضوان من الله أكبر [التوبة: ٧٢] وقال:

فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون [يونس: ٥٨] فلما تقدم ذكر هذه الوجوه على الاستقصاء كان إيراد هذه الشبهة بعد تقدم هذه البينات محض التعنت، فلهذا اقتصر الله تعالى عند ذكرها على مجرد الوعيد.

ثم قال تعالى: ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد ذكر سببه فقال: ذلك بما قدمت أيديكم أي هذا العذاب المحرق جزاء فعلكم حيث وصفتم الله وأقدمتم على قتل الأنبياء، فيكون هذا العقاب عدلا لا جورا.

المسألة الثانية: قال الجبائي: الآية تدل على أن فعل العقاب بهم كان يكون ظلما بتقدير أن لا يقع منهم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٩/٤٤٣

تلك الذنوب، وفيه بطلان قول المجبرة: إن الله يعذب الأطفال بغير جرم، ويجوز أن يعذب البالغين بغير ذنب، ويدل على كون العبد فاعلا، وإلا لكان الظلم حاصلا.
والجواب: أن ما ذكرتم معارض بمسألة الداعي ومسألة العلم على ما شرحناه مرارا وأطوارا.
المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: وما ربك بظلام للعبيد [فصلت: ٤٦] يفيد نفي كونه ظلاما، ونفي الصفة يوهم بقاء الأصل، فهذا يقتضي ثبوت أصل الظلم.
أجاب القاضي عنه بأن العذاب الذي توعد بأن يفعله بهم لو كان ظلما لكان عظيما، فنفاه على حد عظمه لو كان ثابتا، وهذا يؤكد ما ذكرنا أن إيصال العقاب إليهم يكون ظلما لو لم يكونوا مذنبين.
المسألة الرابعة: اعلم أن ذكر الأيدي على سبيل المجاز، لأن الفاعل هو الإنسان لا اليد، إلا أن اليد لما كانت آلة الفعل حسن إسناد الفعل إليها على سبيل المجاز، ثم في هذه الآية ذكر اليد بلفظ الجمع فقال: بما." (١)

"ويخرجهم من النار، فثبت دلالة هذه الآية من/ هذين الوجهين على حصول العفو.
المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم في حق أصحاب الكبائر مقبولة يوم القيامة، وذلك لأن هذه الآية دلت على أن هؤلاء المؤمنين طلبوا من الله غفران الذنوب مطلقا من غير أن قيدوا ذلك بالتوبة، فأجاب الله قولهم وأعطاهم مطلوبهم فإذا قبل شفاعة المؤمنين في العفو عن الذنب، فلأن يقبل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيه كان أولى.
النوع الرابع: من دعائهم:

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٩٤]
ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد (١٩٤)
وفيه مسائل:
المسألة الأولى: قوله: وآتنا ما وعدتنا على رسلك فيه حذف المضاف ثم فيه وجوه أحدها: وآتنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك. وثانيها: وآتنا ما وعدتنا على تصديق رسلك، والدليل عليه أن هذه الآية مذكورة عقيب ذكر المنادي للإيمان وهو، الرسول وعقيب قوله: فآمنا وهو التصديق.
المسألة الثانية: هاهنا سؤال: وهو أن الخلف في وعد الله محال، فكيف طلبوا بالدعاء ما علموا أنه لا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٤٨/٩

محالة واقع؟

والجواب عنه من وجوه: الأول: أنه ليس المقصود من الدعاء طلب الفعل، بل المقصود منه إظهار الخضوع والذلة والعبودية، وقد أمرنا بالدعاء في أشياء نعلم قطعا أنها توجد لا محالة، كقوله: قل رب احكم بالحق [الأنبياء: ١١٢] وقوله: فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك [غافر: ٧] .

والوجه الثاني في الجواب: أن وعد الله لا يتناول آحاد الأمة بأعيانهم، بل إنما يتناولهم بحسب أوصافهم، فإنه تعالى وعد المتقين بالثواب، ووعد الفساق بالعقاب، فقوله: وآتنا ما وعدتنا معناه: وفقنا للأعمال التي بها نصير أهلا لوعدك، واعصمنا من الأعمال التي نصير بها أهلا للعقاب/ والخزي، وعلى هذا التقدير يكون المقصود من هذه الآية طلب التوفيق للطاعة والعصمة عن المعصية.

الوجه الثالث: أن الله تعالى وعد المؤمنين بأن ينصرهم في الدنيا ويقهر عدوهم، فهم طلبوا تعجيل ذلك، وعلى هذا التقدير يزول الإشكال.

المسألة الثالثة: الآية دلت على أنهم إنما طلبوا منافع الآخرة بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق لأنهم قالوا: ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، وفي آخر الكلام قالوا: إنك لا تخلف الميعاد وهذا يدل على أن المقتضي لحصول منافع الآخرة هو الوعد لا الاستحقاق.

المسألة الرابعة: هاهنا سؤال آخر: وهو أنه متى حصل الثواب كان اندفاع العقاب لازما لا محالة، فقوله: آتنا ما وعدتنا على رسلك طلب للثواب، فبعد طلب الثواب كيف طلب ترك العقاب؟ وهو قوله: ولا تخزنا يوم القيامة بل لو طلب ترك العقاب أولا ثم طلب إيصال الثواب كان الكلام مستقيما.

والجواب من وجهين: الأول: أن الثواب شرطه أن يكون منفعة مقرونة بالتعظيم والسرور فقوله: آتنا ما وعدتنا على رسلك المراد منه **المنافع**، وقوله: ولا تخزنا المراد منه التعظيم، الثاني: أنا قد بينا أن." (١)

"سورة البقرة أن السفه خفة العقل، ولذلك سمي الفاسق سفيها لأنه لا وزن له عند أهل الدين والعلم، ويسمى الناقص العقل سفيها لخفة عقله.

المسألة الثالثة: أنه ليس السفه في هؤلاء صفة ذم، ولا يفيد معنى العصيان لله تعالى، وإنما سموا سفهاء لخفة عقولهم ونقصان تمييزهم عن القيام بحفظ الأموال.

المسألة الرابعة: اعلم أنه تعالى أمر المكلفين في مواضع من كتابه بحفظ الأموال، قال تعالى: ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين [الإسراء: ٢٦، ٢٧] وقال تعالى: ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٦٨/٩

تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا [الإسراء: ٢٩] وقال تعالى: والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا [الفرقان: ٦٧] وقد رغب الله في حفظ المال في آية المداينة حيث أمر بالكتابة والإشهاد والرهن، والعقل أيضا يؤيد ذلك، لأن الإنسان ما لم يكن فارغ البال لا يمكنه القيام بتحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ولا يكون فارغ البال إلا بواسطة المال لأن به يتمكن من جلب المنافع ودفع المضار، فمن أراد الدنيا بهذا الغرض كانت الدنيا في حقه من أعظم الأسباب المعينة له على اكتساب سعادة الآخرة، أما/ من أرادها لنفسها ولعينها كانت من أعظم المعوقات عن كسب سعادة الآخرة.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: التي جعل الله لكم قياما معناه أنه لا يحصل قيامكم ولا معاشكم إلا بهذا المال، فلما كان المال سببا للقيام والاستقلال سماه بالقيام إطلاقا لاسم المسبب على السبب على سبيل المبالغة، يعني كان هذا المال نفس قيامكم وابتغاء معاشكم، وقرأ نافع وابن عامر التي جعل الله لكم قيما وقد يقال: هذا قيم وقيم، كما قال: دينا قيما ملة إبراهيم [الأنعام: ١٦١] وقرأ عبد الله بن عمر (قواما) بالواو، وقوام الشيء ما يقام به كقولك: ملاك الأمر لما يملك به.

المسألة السادسة: قال الشافعي رحمه الله: البالغ إذا كان مبذرا للمال مفسدا له يحجر عليه وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا يحجر عليه. حجة الشافعي: أنه سفيه، فوجب أن يحجر عليه، إنما قلنا إنه سفيه، لأن السفيه في اللغة، هو من خف وزنه. ولا شك أن من كان مبذرا للمال مفسدا له من غير فائدة، فإنه لا يكون له في القلب وقع عند العقلاء، فكان خفيف الوزن عندهم، فوجب أن يسمى بالسفيه، وإذا ثبت هذا لزم اندراجه تحت قوله تعالى: ولا تؤتوا السفهاء أموالكم.

ثم قال تعالى: وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا.

واعلم أنه تعالى لما نهى عن إيتاء المال السفيه أمر بعد ذلك بثلاثة أشياء: أولها: قوله: وارزقوهم ومعناه: وأنفقوا عليهم ومعنى الرزق من العباد هو الإجراء الموظف لوقت معلوم يقال: فلان رزق عياله أي أجرى عليهم، وإنما قال: فيها ولم يقل: منها لئلا يكون ذلك أمرا بأن يجعلوا بعض أموالهم رزقا لهم، بل أمرهم أن يجعلوا أموالهم مكانا لرزقهم بأن يتجروا فيها ويثمروها فيجعلوا أرزاقهم من الأرباح لا من أصول الأموال، وثانيها: قوله: واكسوهم والمراد ظاهر، وثالثها: قوله: وقولوا لهم قولا معروفا.

واعلم أنه تعالى إنما أمر بذلك لأن القول الجميل يؤثر في القلب فيزيل السفه، أما خلاف القول المعروف فإنه يزيد السفيه سفها ونقصانا.

والمفسرون ذكروا في تفسير القول المعروف وجوها. أحدها: قال ابن جريج ومجاهد: إنه العدة الجميلة من

البر والصلة، وقال ابن عباس: هو مثل أن يقول: إذا ربحت في سفرتي هذه فعلت بك ما أنت أهله، وإن." (١)

"ستره، سمي بها عصير العنب والتمر إذا اشتد وغلا كأنه يخمر العقل، كما سمي سكرا لأنه يسكره أي يحجزه، وهي حرام مطلقا وكذا كل ما أسكر عند أكثر العلماء. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: نقيع الزبيب والتمر إذا طبخ حتى ذهب ثلثاه ثم اشتد حل شربه ما دون السكر. والميسر أيضا مصدر كالموعد، سمي به القمار لأنه أخذ مال الغير بيسر أو سلب يساره، والمعنى يسألونك عن تعاطيهما لقوله تعالى: قل فيهما أي في تعاطيهما. إثم كبير من حيث إنه يؤدي إلى الانتكاب عن المأمور، وارتكاب المحظور. وقرأ حمزة والكسائي «كثير» بالثاء. ومنافع للناس من كسب المال والطرب والالتذاذ ومصادقة الفتيان، وفي الخمر خصوصا تشجيع الجبان وتوفير المروءة وتقوية الطبيعة. وإثمهما أكبر من نفعهما أي المفاسد التي تنشأ منهما أعظم من **المنافع** المتوقعة منهما. ولهذا قيل إنها المحرمة للخمر لأن المفسدة إذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل، والأظهر أنه ليس كذلك لما مر من إبطال مذهب المعتزلة. ويسئلونك ماذا ينفقون قيل سائله أيضا عمرو بن الجموح سأل أولا عن المنفق والمصرف، ثم سأل عن كيفية الإنفاق. قل العفو العفو نقيض الجهد ومنه يقال للأرض السهلة، وهو أن ينفق ما تيسر له بذله ولا يبلغ منه الجهد. قال:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في سورتي حين اغضب

وروي أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغانم فقال: خذها مني صدقة، فأعرض عليه الصلاة والسلام عنه حتى كرر عليه مرارا فقال: هاتها مغضبا فأخذها فحذفها حذفا لو أصابه لشجه ثم قال: «يأتي أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى»

. وقرأ أبو عمرو برفع العفو. كذلك يبين الله لكم الآيات أي مثل ما بين أن العفو أصلح من الجهد، أو ما ذكر من الأحكام، والكاف في موضع النصب صفة لمصدر محذوف أي تبيينا مثل هذا التبيين، وإنما وحد العلامة والمخاطب به جمع على تأويل القبيل والجمع، لعلكم تتفكرون في الدلائل والأحكام.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢٠]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٩/٤٩٦

في الدنيا والآخرة ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم (٢٢٠)
في الدنيا والآخرة في أمور الدارين فتأخذوا بالأصلح والأنفع فيهما، وتجتنبون عما يضركم ولا ينفعكم، أو يضركم أكثر مما ينفعكم. ويسئلونك عن اليتامى لما نزلت إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما الآية اعتزلوا اليتامى ومخالطتهم والاهتمام بأمرهم فشق ذلك عليهم، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت قل إصلاح لهم خير أي مداخلتهم لإصلاحهم، أو إصلاح أموالهم خير من مجانبتهم. وإن تخالطوهم فإخوانكم حث على المخالطة، أي أنهم إخوانكم في الدين ومن حق الأخ أن يخالط الأخ. وقيل المراد بالمخالطة المصاهرة. والله يعلم المفسد من المصلح وعيد ووعد لمن خالطهم لإفساد وإصلاح، أي يعلم أمره فيجازيه عليه. ولو شاء الله لأعنتكم أي ولو شاء الله إعناتكم لأعنتكم، أي كلفكم ما يشق عليكم، من العنت وهي المشقة ولم يجوز لكم مداخلتكم. إن الله عزيز غالب يقدر على الاعنات. حكيم يحكم ما تقتضيه الحكمة وتتسع له الطاقة.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢١]
ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون (٢٢١)
.." (١)

"المال شقيق الروح، فمن بذل ماله لوجه الله ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه ثبتها كلها، أو تصديقا للإسلام وتحقيقا للجزاء مبتدأ من أصل أنفسهم، وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال. كمثل جنة بربوة أي ومثل نفقة هؤلاء في الزكاة، كمثل بستان بموضع مرتفع، فإن شجره يكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا. وقرأ ابن عامر وعاصم بربوة بالفتح وقرئ بالكسر وثلاثتها لغات فيها. أصابها وابل مطر عظيم القطر. فآتت أكلها ثمرتها. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بالسكون للتخفيف. ضعفين مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل. والمراد بالضعف المثل كما أريد بالزوج الواحد في قوله تعالى: من كل زوجين اثنين وقيل: أربعة أمثاله ونصبه على الحال أي مضاعفا. فإن لم يصبها وابل فطل أي فيصيبها،

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٣٨/١

أو فالذي يصيبها طل، أو فطل يكفيها لكرم منبتها وبرودة هوائها لارتفاع مكانها. وهو المطر الصغير القطر. والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وإن كانت تتفاوت باعتبار ما ينضم إليها من أحواله، ويجوز أن يكون التمثيل لحالهم عند الله تعالى بالجنة على الربوة ونفقاتهم الكثيرة والقليلة الزائدتين في زلفاهم بالوابل والطل. والله بما تعملون بصير تحذير عن الرئاء وترغيب في الإخلاص.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٦]

أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢٦٦)

أيود أحدكم الهمزة فيه للإنكار. أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات جعل الجنة منهما مع ما فيها من سائر الأشجار تغليبا لهما لشرفهما وكثرة منافعهما، ثم ذكر أن فيها من كل الثمرات ليدل على احتوائها على سائر أنواع الأشجار، ويجوز أن يكون المراد بالثمرات **المنافع**. وأصابه الكبر أي كبر السن، فإن الفاقة والعالة في الشيخوخة أصعب، والواو للحال أو للعطف حملا على المعنى، فكأنه قيل: أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر. وله ذرية ضعفاء صغار لا قدرة لهم على الكسب. فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت عطف على أصابه، أو تكون باعتبار المعنى.

والإعصار ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كعمود، والمعنى تمثيل حال من يفعل الأفعال الحسنة ويضم إليها ما يحبطها كرياء وإيذاء في الحسرة والأسف، فإذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة بحال من هذا شأنه، وأشبههم به من جال بسره في عالم الملكوت، وترقى بفكره إلى جناب الجبروت، ثم نكص على عقبيه إلى عالم الزور والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباء منثورا. كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون أي تتفكرون فيها فتعتبرون بها.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٧]

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد (٢٦٧)

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم من حلاله أو جياده. ومما أخرجنا لكم من الأرض أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمرات والمعادن، فحذف المضاف لتقدم ذكره. ولا تيمموا الخبيث منه أي ولا تقصدوا الرديء منه أي من المال، أو مما أخرجنا لكم. وتخصيصه بذلك لأن التفاوت فيه

أكثر، وقرئ «ولا تؤمموا» «ولا تيمموا» بضم التاء. تنفقون حال مقدرة من فاعل تيمموا، ويجوز أن يتعلق به منه ويكون الضمير للخبيث والجملة حالا منه. ولستم بآخذيه أي وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لرداءته. إلا أن تغمضوا فيه إلا أن تتسامحوا فيه، مجاز من أغمض بصره إذا غضه. وقرئ." (١)

"أي الذي قرب جواره. وقيل الذي له الجوار قرب واتصال بسبب أو دين. وقرئ بالنصب على الاختصاص تعظيما لحقه. والجار الجنب البعيد، أو الذي لا قرابة له.

وعنه عليه الصلاة والسلام: «الجيران ثلاثة.

فجار له ثلاث حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام. وجار له حقان: حق الجوار وحق الإسلام، وجار له حق واحد: حق الجوار وهو المشرك من أهل الكتاب» .

والصاحب بالجنب الرفيق في أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر، فإنه صحبك وحصل بجنبك. وقيل المرأة. وابن السبيل المسافر أو الضعيف. وما ملكت أيمانكم العبيد والإماء. إن الله لا يحب من كان مختالا متكبرا يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم. فخورا يتفاخر عليهم.

[سورة النساء (٤) : آية ٣٧]

الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا (٣٧)

الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل بدل من قوله من كان، أو نصب على الذم أو رفع عليه أي هم الذين، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون بما منحوا به ويأمرون الناس بالبخل به. وقرأ حمزة والكسائي هاهنا وفي «الحديد» بالبخل بفتح الحرفين وهي لغة. ويكتمون ما آتاهم الله من فضله الغنى والعلم فهم أحقاء بكل ملامة. وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا وضع الظاهر فيه موضع المضمر إشعارا بأن من هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله، ومن كان كافرا لنعمة الله فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء.

والآية نزلت في طائفة من اليهود كانوا يقولون للأنصار تنصيحا: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر. وقيل في الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم.

[سورة النساء (٤) : آية ٣٨]

والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٥٩/١

(٣٨)
والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس عطف على الذين يبخلون، أو الكافرين. وإنما شاركهم في الذم والوعيد لأن البخل والسرف الذي هو الإنفاق لا على من ينبغي من حيث إنهما طرفا إفراط وتفريط سواء في القبح واستجلاب الذم، أو مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله: ومن يكن الشيطان له قرينا. ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ليتحروا بالإنفاق مراضيه وثوابه وهم مشركو مكة. وقيل هم المنافقون. ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا تنبيه على أن الشيطان قرنهم فحملهم على ذلك وزينة لهم كقوله تعالى:
إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين. والمراد إبليس وأعوانه الداخلة والخارجة، ويجوز أن يكون وعيدا لهم بأن يقرن بهم الشيطان في النار.

[سورة النساء (٤) : آية ٣٩]
وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما (٣٩)
وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله أي وما الذي عليهم، أو أي تبعة تحيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق في سبيل الله، وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه، وتحريض على الفكر لطلب الجواب لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة، والعوائد الجميلة. وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطا، فكيف إذا تضمن **المنافع**. وإنما قدم الإيمان هاهنا وأخره في الآية الأخرى لأن القصد بذكره إلى التخصيص هاهنا والتعليل ثم وكان الله بهم عليما وعيد لهم.." (١)
"لما
روي (أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: السلام عليك. فقال: وعليك السلام ورحمة الله. وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته.
فقال: وعليك. فقال الرجل: نقصتني فأين ما قال الله تعالى وتلا الآية. فقال صلى الله عليه وسلم: إنك لم تترك لي فضلا فرددت عليك مثله.
وذلك لاستجماعه أقسام المطالب السلامة عن المضار وحصول **المنافع** وثباتها ومنه قيل، أو للترديد بين

---
(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢/٧٤

أن يحيي المسلم ببعض التحية وبين أن يحيي بتمامها، وهذا الوجوب على الكفاية وحيث السلام مشروع فلا يرد في الخطبة، وقراءة القرآن، وفي الحمام، وعند قضاء الحاجة ونحوها. والتحية في الأصل مصدر حياك الله على الإخبار من الحياة، ثم استعمل للحكم والدعاء بذلك، ثم قيل لكل دعاء فغلب في السلام. وقيل المراد بالتحية العطية وواجب الثواب أو الرد على المتهب، وهو قول قديم للشافعي رضي الله تعالى عنه. إن الله كان على كل شيء حسيبا يحاسبكم على التحية وغيرها.

[سورة النساء (٤) : آية ٨٧]

الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا (٨٧)

الله لا إله إلا هو مبتدأ وخبر، أو الله مبتدأ والخبر ليجمعنكم إلى يوم القيامة أي الله، والله ليحشرنكم من قبوركم إلى يوم القيامة، أو مفضين إليه أو في يوم القيامة، ولا إله إلا هو، اعتراض. والقيام والقيامة كالطلاب والطلابة وهي قيام الناس من القبور أو للحساب. لا ريب فيه في اليوم أو في الجمع فهو حال من اليوم، أو صفة للمصدر ومن أصدق من الله حديثا إنكار أن يكون أحد أكثر صدقا منه، فإنه لا يتطرق الكذب إلى خبره بوجه لأنه نقص وهو على الله محال.

[سورة النساء (٤) : آية ٨٨]

فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (٨٨)

فما لكم في المنافقين فما لكم تفرقتم في أمر المنافقين. فئتين أي فرقتين ولم تتفقوا على كفرهم، وذلك أن ناسا منهم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى البدو لاجتواء المدينة، فلما خرجوا لم يزالوا رحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون في إسلامهم. وقيل نزلت في المتخلفين يوم أحد، أو في قوم هاجروا ثم رجعوا معتلين باجتواء المدينة والاشتياق إلى الوطن، أو قوم أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة. وفئتين حال عاملها لكم كقولك: ما لك قائما. وفي المنافقين حال من فئتين أي متفرقتين فيهم، أو من الضمير أي فما لكم تفترقون فيهم، ومعنى الافتراق مستفاد من فئتين. والله أركسهم بما كسبوا ردهم إلى حكم الكفرة، أو نكسهم بأن صيرهم للنار. وأصل الركس رد الشيء مقلوبا. أتريدون أن تهدوا من أضل الله أن تجعلوه من المهتدين. ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا إلى الهدى.

[سورة النساء (٤) : آية ٨٩]

ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا (٨٩)

ودوا لو تكفرون كما كفروا تمنوا أن تكفروا ككفرهم. فتكونون سواء فتكونون معهم سواء في الضلال، وهو عطف على تكفرون ولو نصب على جواب التمني لجاز. فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فلا توالوهم حتى يؤمنوا وتتحققوا إيمانهم بهجرة هي لله ورسوله لا لأغراض الدنيا، وسبيل الله ما أمر بسلوكه. فإن تولوا عن الإيمان الظاهر بالهجرة أو عن إظهار الإيمان. فخذوهم واقتلوهم حيث." (١)

"والجمهور على حله

لقوله عليه الصلاة والسلام «لحم الصيد حلال لكم، ما لم تصطادوه أو يصد لكم»

ما دمتم حرما أي محرمين وقرئ بكسر الدال من دام يدام. واتقوا الله الذي إليه تحشرون.

[سورة المائدة (٥) : آية ٩٧]

جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم (٩٧)

جعل الله الكعبة صيرها، وإنما سمي البيت كعبة لتكعبه. البيت الحرام عطف بيان على جهة المدح، أو المفعول الثاني قياما للناس انتعاشا لهم أي سبب انتعاشهم في أمر معاشهم ومعادهم يلوذ به الخائف ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار ويتوجه إليه الحجاج والعمار، أو ما يقوم به أمر دينهم ودنياهم. وقرأ ابن عامر «قيما» على أنه مصدر على فعل كالشبع أعل عينه كما أعل في فعله ونصبه على المصدر أو الحال. والشهر الحرام والهدي والقلائد سبق تفسيرها والمراد بالشهر الشهر الذي يؤدي فيه الحج، وهو ذو الحجة لأنه المناسب لقرنائه وقيل الجنس. ذلك إشارة إلى الجعل، أو إلى ما ذكر من الأمر بحفظ حرمة الإحرام وغيره. لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض فإن شرع الأحكام لدفع المضار قبل وقوعها وجلب **المنافع** المترتبة عليها، دليل حكمة الشارع وكمال علمه. وأن الله بكل شيء عليم تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد إطلاق.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٨٨/٢

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٩٨ الى ٩٩]
اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم (٩٨) ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون (٩٩)
اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم وعيد ووعد لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها، أو لمن أصر عليه ولمن أقلع عنه.
ما على الرسول إلا البلاغ تشديد في إيجاب القيام بما أمر به أي الرسول أتى بما أمر به من التبليغ ولم يبق لكم عذر في التفريط. والله يعلم ما تبدون وما تكتمون من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة.

[سورة المائدة (٥) : آية ١٠٠]
قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون (١٠٠)
قل لا يستوي الخبيث والطيب حكم عام في نفي المساواة عند الله سبحانه وتعالى بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وجيدها، رغب به في مصالح العمل وحلال المال. ولو أعجبك كثرة الخبيث فإن العبرة بالجودة والرداءة دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير، والخطاب لكل معتبر ولذلك قال: فاتقوا الله يا أولي الألباب أي فاتقوه في تحري الخبيث وإن كثر، وآثروا الطيب وإن قل. لعلكم تفلحون راجين أن تبلغوا الفلاح.
روي: أنها نزلت في حجاج اليمامة لما هم المسلمون أن يوقعوا بهم فنهوا عنه وإن كانوا مشركين.

[سورة المائدة (٥) : الآيات ١٠١ الى ١٠٢]
يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسئلوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم (١٠١) قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين (١٠٢)
يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسئلوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم الشرطية وما عطف عليها صفتان لأشياء والمعنى: لا تسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء إن تظهر لكم تغمكم وإن." (١)

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٤٥/٢

"من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون تصريح بأن الهدى والضلال من الله، وأن هداية الله تختص ببعض دون بعض، وأنها مستلزمة للاهتداء والإفراد في الأول والجمع في الثاني باعتبار اللفظ، والمعنى تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم بخلاف الضالين، والاقتصار في الإخبار عمن هداه الله بالمهتدي تعظيم لشأن الاهتداء، وتنبيه على أنه في نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها.

ولقد ذرأنا خلقنا. لجهنم كثيرا من الجن والإنس يعني المصرين على الكفر في علمه تعالى.

لهم قلوب لا يفقهون بها إذ لا يلقونها إلى معرفة الحق والنظر في دلائله. ولهم أعين لا يبصرون بها أي لا ينظرون إلى ما خلق الله نظر اعتبار. ولهم آذان لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر.

أولئك كالأنعام في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر، أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها. بل هم أضل فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من **المنافع** والمضار، وتجتهد في جلبها ودفعها غاية جهدها، وهم ليسوا كذلك بل أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار. أولئك هم الغافلون الكاملون في الغفلة.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٨٠ الى ١٨١]

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون (١٨٠) وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (١٨١)

ولله الأسماء الحسنى لأنها دالة على معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الألفاظ وقيل الصفات.

فادعوه بها فسموه بتلك الأسماء. وذروا الذين يلحدون في أسمائه واتركوا تسمية الزائغين فيها الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنى فاسدا كقولهم يا أبا المكارم يا أبيض الوجه، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمى به نفسه كقولهم: ما نعرف إلا رحمان اليمامة، أو وذروهم وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام واشتقاق أسمائها منها كاللات من «الله» ، والعزى من «العزيز» ولا توافقوهم عليه أو أعرضوا عنهم فإن الله مجازيهم كما قال: سيجزون ما كانوا يعملون وقرأ حمزة هنا وفي «فصلت» يلحدون بالفتح يقال: لحد وألحد إذا مال عن القصد.

وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ذكر ذلك بعد ما بين أنه خلق للنار طائفة ضالين ملحدين عن الحق للدلالة على أنه خلق أيضا للجنة أمة هادين بالحق عادلين في الأمر، واستدل به على صحة الإجماع لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة

لقوله عليه الصلاة والسلام «لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله»
، إذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن فائدة فإنه معلوم.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٨٢ الى ١٨٤]

والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون (١٨٢) وأملي لهم إن كيدي متين (١٨٣) أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين (١٨٤)

والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم سنستدنيهم إلى الهلاك قليلا قليلا، وأصل الاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة. من حيث لا يعلمون ما نريد بهم وذلك أن تتواتر عليهم النعم فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم، فيزدادوا بطرا وانهماكا في الغي حتى يحق عليهم كلمة العذاب.

وأملي لهم وأمهلهم عطف على سنستدرجهم. إن كيدي متين إن أخذي شديد، وإنما سماه كيدا لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

أولم يتفكروا ما بصاحبهم يعني محمدا صلى الله عليه وسلم. من جنة من جنون.

روي: أنه صلى الله عليه وسلم صعد على." [1]

"[سورة الأعراف (٧) : آية ١٨٨]

قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون (١٨٨)

قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا جلب نفع ولا دفع ضر، وهو إظهار للعبودية والتبري من ادعاء العلم بالغيوب. إلا ما شاء الله من ذلك فيلهمني إياه ويوفقني له، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء

ولو كنت أعلمه لخالفت حالي ما هي عليه من استكثار **المنافع** واجتناب المضار حتى لا يمسني سوء. إن أنا إلا نذير وبشير ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة. لقوم يؤمنون فإنهم المنتفعون بهما، ويجوز أن يكون متعلقا بال بشير ومتعلق ال نذير محذوف.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٨٩]

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣/٤٣

هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين (١٨٩)

هو الذي خلقكم من نفس واحدة هو آدم. وجعل منها من جسدها من ضلع من أضلاعها، أو من جنسها كقوله: جعل لكم من أنفسكم أزواجا. زوجها حواء. ليسكن إليها ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه، وإنما ذكر الضمير ذهابا إلى المعنى ليناسب. فلما تغشاها أي جامعها.

حملت حملا خفيفا خف عليها ولم تلق منه ما تلقى منه الحوامل غالبا من الأذى، أو محمولا خفيفا وهو النطفة. فمرت به فاستمرت به أي قامت وقعدت، وقرئ «فمرت» بالتخفيف و «فاستمرت به» و «فمارت» من المور وهو المجيء والذهاب، أو من المرية أي فظنت الحمل وارتابت منه. فلما أثقلت صارت ذات ثقل بكبر الولد في بطنها. وقرئ على البناء للمفعول أي أثقلها حملها. دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا ولدا سويا قد صلح بدنه. لنكونن من الشاكرين لك على هذه النعمة المجددة.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٩٠ الى ١٩١]

فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون (١٩٠) أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون (١٩١)

فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما أي جعل أولادهما له شركاء فيما آتى أولادهما فسموه عبد العزى وعبد مناف على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، ويدل عليه قوله: فتعالى الله عما يشركون. أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون يعني الأصنام. وقيل: لما حملت حواء أتاها إبليس في صورة رجل فقال لها: ما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب وما يدريك من أين يخرج، فخافت من ذلك وذكرته لآدم فهما منه ثم عاد إليها وقال: إني من الله بمنزلة فإن دعوت الله أن يجعله خلقا مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحرث، وكان اسمه حارثا بين الملائكة فتقبلت، فلما ولدت سمياه عبد الحرث.

وأمثال ذلك لا تليق بالأنبياء ويحتمل أن يكون الخطاب في خلقكم لآل قصي من قريش، فإنهم خلقوا من نفس قصي وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله الولد فأعطاهما أربعة بنين فسمياهم: عبد مناف، وعبد شمس، وعبد قصي، وعبد الدار. ويكون الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما. وقرأ نافع وأبو بكر «شركا» أي شركة بأن أشركا فيه غيره أو ذوي شرك وهم الشركاء، وهم ضمير الأصنام جيء به على تسميتهم إياها آلهة.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٩٢ الى ١٩٣]
ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون (١٩٢) وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون (١٩٣)." [١]

"الجاهل بحقيقة العبادة والموجب لها والموحد العالم بذلك. وقيل المعبود الغافل عنكم والمعبود المطلع على أحوالكم. أم هل تستوي الظلمات والنور الشرك والتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالياء. أم جعلوا لله شركاء بل أجعلوا والهمزة للإنكار وقوله: خلقوا كخلقه صفة لشركاء داخلة في حكم الإنكار. فتشابه الخلق عليهم خلق الله وخلقهم، والمعنى أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلا عما يقدر عليه الخالق. قل الله خالق كل شيء أي لا خالق غيره فيشاركه في العبادة، جعل الخلق موجب العبادة ولازم استحقاقها ثم نفاه عمن سواه ليدل على قوله: وهو الواحد المتوحد بالألوهية. القهار الغالب على كل شيء.

[سورة الرعد (١٣) : آية ١٧]
أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال (١٧)
أنزل من السماء ماء من السحاب أو من جانب السماء أو من السماء نفسها فإن المبادئ منها.
فسالت أودية أنهار جمع واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه، واستعمل للماء الجاري فيه وتنكيرها لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع. بقدرها بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار أو بمقدارها في الصغر والكبر. فاحتمل السيل زبدا رفعه والزبد وضر الغليان. رابيا عاليا. ومما توقدون عليه فى النار يعم الفلزات كالذهب والفضة والحديد والنحاس على وجه التهاون بها إظهارا لكبريائه.
ابتغاء حلية أي طلب حلى. أو متاع كالأواني وآلات الحرب والحرث، والمقصود من ذلك بيان منافعها. زبد مثله أي ومما يوقدون عليه زبد مثل زبد الماء وهو خبثه، ومن للابتداء أو للتبعيض وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء على أن الضمير للناس وإضماره للعلم به. كذلك يضرب الله الحق والباطل مثل الحق والباطل

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٤٥/٣

فإنه مثل الحق في إفادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به أنواع **المنافع**، ويمكث في الأرض بأن يثبت بعضه في منافعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار، وبالفلز الذي ينتفع به في صوغ الحلى واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة، والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما وبين ذلك بقوله: فأما الزبد فيذهب جفاء يجفأ به أي يرمي به السبيل والفلز المذاب وانتصابه على الحال وقرئ جفالا والمعنى واحد. وأما ما ينفع الناس كالماء وخلاصة الفلز. فيمكث في الأرض ينتفع به أهلها. كذلك يضرب الله الأمثال لا لايضاح المشتبهات.

[سورة الرعد (١٣) : آية ١٨]

للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد (١٨)

للذين استجابوا للمؤمنين الذين استجابوا. لربهم الحسنى الإستجابة الحسنى. والذين لم يستجيبوا له وهم الكفرة واللام متعلقة بيضرب على أنه جعل ضرب المثل لشأن الفريقين ضرب المثل لهما.

وقيل للذين استجابوا خبر الحسنى وهي المثوبة أو الجنة والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره. لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به وهو على الأول كلام مبتدأ لبيان مآل غير المستجيبين. أولئك لهم سوء الحساب وهو المناقشة فيه بأن يحاسب الرجل بذنبه لا يغفر منه شيء. ومأواهم مرجعهم. جهنم وبئس." (١)

"النون والأصل نعم فسكن العين بنقل كسرتها إلى الفاء وبغيره.

[سورة الرعد (١٣) : آية ٢٥]

والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار (٢٥)

والذين ينقضون عهد الله يعني مقابلي الأولين. من بعد ميثاقه من بعد ما أوثقوه به من الإقرار والقبول. ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض بالظلم وتهييج الفتن. أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار عذاب جهنم أو سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عقبى الدار.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٨٥/٣

[سورة الرعد (١٣) : آية ٢٦]

الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع (٢٦)

الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر يوسعه ويضيقه. وفرحوا أي أهل مكة. بالحياة الدنيا بما بسط لهم في الدنيا. وما الحياة الدنيا في الآخرة أي في جنب الآخرة. إلا متاع إلا متعة لا تدوم كعجالة الراكب وزاد الراعي، والمعنى أنهم أشروا بما نالوا من الدنيا ولم يصرفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة واغتروا بما هو في جنبه نزر قليل النفع سريع الزوال.

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٢٧ الى ٢٩]

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب (٢٧) الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (٢٨) الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب (٢٩)

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات. ويهدي إليه من أناب أقبل إلى الحق ورجع عن العناد، وهو جواب يجري مجرى التعجب من قولهم كأنه قال قل لهم ما أعظم عنادكم إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية، ويهدي إليه من أناب بما جئت به بل بأدنى منه من الآيات.

الذين آمنوا بدل من من أو خبر مبتدأ محذوف. وتطمئن قلوبهم بذكر الله أنسا به واعتمادا عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أو بذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته أو بكلامه يعني القرآن الذي هو أقوى المعجزات. ألا بذكر الله تطمئن القلوب تسكن إليه.

الذين آمنوا وعملوا الصالحات مبتدأ خبره طوبى لهم وهو فعلى من الطيب قلبت ياؤه واوا لضمة ما قبلها مصدر لطاب كبشرى وزلفى، ويجوز فيه الرفع والنصب ولذلك قرئ وحسن مآب بالنصب.

[سورة الرعد (١٣) : آية ٣٠]

كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب (٣٠)

كذلك مثل ذلك يعني إرسال الرسل قبلك. أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها تقدمتها. أمم أرسلوا إليهم فليس ببدع إرسالك إليهم. لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك لتقرأ عليهم الكتاب الذي أوحيناه إليك. وهم

يكفرون بالرحمن وحالهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ووسعت كل شيء رحمته، فلم يشكروا نعمه وخصوصا ما أنعم عليهم بإرسالك إليهم، وإنزال القرآن الذي هو مناط **المنافع** الدينية والدنياوية عليهم. وقيل نزلت في مشركي أهل مكة حين قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن. قل هو ربي أي الرحمن خالقي ومتولي أمري. لا إله إلا هو لا مستحق للعبادة سواه.." (١)

"وخصصها بحكمته. تعالى عما يشركون منهما أو مما يفتقر في وجوده أو بقائه إليهما ومما لا يقدر على خلقهما. وفيه دليل على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام.

خلق الإنسان من نطفة جماد لا حس بها ولا حراك سيالة لا تحفظ الوضع والشكل. فإذا هو خصيم منطيق مجادل. مبين للحجة أو خصيم مكافح لخالقه قائل: من يحي العظام وهي رميم.

روي أن أبي بن خلف أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم وقال: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رم. فنزلت.

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٥ الى ٦]

والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٥) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦)

والأنعام الإبل والبقر والغنم وانتصابها بمضمر يفسره. خلقها لكم أو بالعطف على الإنسان، وخلقها لكم بيان ما خلقت لأجله وما بعده تفصيل له. فيها دفء ما يدفأ به فيقي البرد. ومنافع نسلها ودرها وظهورها، وإنما عبر عنها **بالمنافع** ليتناول عوضها. ومنها تأكلون أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان، وتقديم الظرف للمحافظة على رؤوس الآي، أو لأن الكل منها هو المعتاد المعتمد عليه في المعاش، وأما الأكل من سائر الحيوانات المأكولة فعلى سبيل التداوي أو التفكه.

ولكم فيها جمال زينة. حين تريحون تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي. وحين تسرحون تخرجونها بالغداة إلى المراعي فإن الأفنية تتزين بها في الوقتين ويجل أهلها في أعين الناظرين إليها، وتقديم الاراحة لأن الجمال فيها أظهر فإنها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع، ثم تأوي إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرئ «حينا» على أن تريحون وتسرحون وصفان له بمعنى تريحون فيه وتسرحون فيه.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٨٧/٣

[سورة النحل (١٦) : آية ٧]

وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم (٧)

وتحمل أثقالكم أحمالكم. إلى بلد لم تكونوا بالغيه أي إن لم تكن الأنعام ولم تخلق فضلا أن تحملوها على ظهوركم إليه. إلا بشق الأنفس إلا بكلفة ومشقة. وقرئ بالفتح وهو لغة فيه. وقيل المفتوح مصدر شق الأمر عليه وأصله الصدع والمكسور بمعنى النصف، كأنه ذهب نصف قوته بالتعب. إن ربكم لرؤف رحيم حيث رحمكم بخلقها لانتفاعكم وتيسير الأمر عليكم.

[سورة النحل (١٦) : آية ٨]

والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٨)

والخيل والبغال والحمير عطف على الأنعام. لتركبوها وزينة أي لتركبوها وتتزينوا بها زينة.

وقيل هي معطوفة على محل لتركبوها وتغيير النظم لأن الزينة بفعل الخالق والركوب ليس بفعله، ولأن المقصود من خلقها الركوب وأما التزين بها فحاصل بالعرض. وقرئ بغير واو وعلى هذا يحتمل أن يكون علة لتركبوها أو مصدرا في موضع الحال من أحد الضميرين أي: متزينين أو متزينا بها، واستدل به على حرمة لحومها ولا دليل فيه إذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه غ ا لبا أن لا يقصد منه غيره أصلا، ويدل عليه أن الآية مكية وعامة المفسرين والمحدثين على أن الحمر الأهلية حرمت عام خيبر. ويخلق ما لا تعلمون لما فصل الحيوانات التي يحتاج إليها غالبا احتياجا ضروريا أو غير ضروري أجمل غيرها، ويجوز أن يكون إخبارا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به، وأن يراد به ما خلق في الجنة والنار مما لم يخطر على قلب بشر.." [١]

"أم أمنتم أن يعيدكم فيه في البحر. تارة أخرى بخلق دواع تلجئكم إلى أن ترجعوا فتركبوه.

فيرسل عليكم قاصفا من الريح لا تمر بشيء إلا قصفته أي كسرته. فيغرقكم وعن يعقوب بالتاء على إسناده إلى ضمير الريح. بما كفرتم بسبب إشراككم أو كفرانكم نعمة الإنجاء. ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا مطالبا يتبعنا بانتصار أو صرف.

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٧٠]

ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣/٢٢٠

(٧٠)

ولقد كرمنا بني آدم بحسن الصورة والمزاج الأعدل واعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخط والتهدي، أو أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكن من الصناعات وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود عليهم **بالمنافع** إلى غير ذلك مما يقف الحصر دون إحصائه ومن ذلك ما ذكره ابن عباس وهو أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الإنسان فإنه يرفعه إليه بيده وحملناهم في البر والبحر على الدواب والسفن من حملته حملا إذا جعلت له ما يركبه أو حملناهم فيهما حتى لم تخسف بهم الأرض ولم يغرقهم الماء ورزقناهم من الطيبات المستلذات مما يحصل بفعلهم وبغير فعلهم. وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا بالغلبة والاستيلاء أو بالشرف والكرامة، والمستثنى جنس الملائكة عليهم الصلاة والسلام أو الخواص منهم، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس عدم تفضيل بعض أفراده والمسألة موضع نظر، وقد أول الكثير بالكل وفيه تعسف.

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٧١]

يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا (٧١)

يوم ندعوا نصب بإضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه ولا يظلمون، وقرئ «يدعو» و «يدعي» و «يدعو» على قلب الألف واوا في لغة من يقول أفعو في أفعى، أو على أن الواو علامة الجمع كما في قوله:

وأسروا النجوى الذين ظلموا أو ضميره وكل بدل منه والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فإنها ليست إلا علامة الرفع، وهو قد يقدر كما في «يدعي» . كل أناس بإمامهم بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين. وقيل بكتاب أعمالهم التي قدموها فيقال يا صاحب كتاب كذا، أي تنقطع علقة الأنساب وتبقى نسبة الأعمال. وقيل بالقوى الحاملة لهم على عقائدهم وأفعالهم. وقيل بأمهاتهم جمع أم كخف وخفاف، والحكمة في ذلك، إجلال عيسى عليه السلام وإظهار شرف الحسن والحسين رضي الله عنهما، وأن لا يفتضح أولاد الزنا. فمن أوتي من المدعوين. كتابه بيمينه أي كتاب عمله. فأولئك يقرؤن كتابهم ابتهاجا وتبجحا بما يرون فيه. ولا يظلمون فتيلا ولا ينقصون من أجورهم أدنى شيء، وجمع اسم الإشارة والضمير لأن من أوتي في معنى الجمع، وتعليق القراءة بإيتاء الكتاب باليمين يدل على أن من أوتى كتابه بشماله إذا اطلع على ما فيه غشيهم من الخجل والحيرة ما يحبس ألسنتهم عن القراءة، ولذلك لم يذكرهم مع أن قوله:

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٧٢]

ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا (٧٢)

ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى أيضا مشعر بذلك فإن الأعمى لا يقرأ الكتاب، والمعنى ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب لا يبصر رشده كان في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة. وأضل سبيلا منه في الدنيا لزوال الاستعداد وفقدان الآلة والمهلة. وقيل لأن الاهتداء بعد لا ينفعه والأعمى مستعار." [١]

"وبأجزائهم وأحوالهم فيكون معنى الجواب: أن علمه تعالى محيط بذلك كله وأنه مثبت عنده لا يضل ولا ينسى.

[سورة طه (٢٠) : آية ٥٣]

الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى (٥٣)

الذي جعل لكم الأرض مهدا مرفوع صفة ل ربي أو خبر لمحذوف أو منصوب على المدح. وقرأ الكوفيون هنا وفي «الزخرف» مهدا أي كالمهد تتمدونها، وهو مصدر سمي به، والباقون مهادا وهو اسم ما يمهد كالفراش أو جمع مهد ولم يختلفوا في الذي في «النبأ» . وسلك لكم فيها سبلا وجعل لكم فيها سبلا بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها. وأنزل من السماء ماء مطرا.

فأخرجنا به عدل به عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى، تنبيها على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيذانا بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته، وعلى هذا نظائره كقوله: ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق الآية. أزواجا أصنافا سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض. من نبات بيان أو صفة لأزواجا وكذلك: شتى ويحتمل أن يكون صفة ل نبات فإنه من حيث إنه مصدر في الأصل يستوي فيه الواحد والجمع، وهو جمع شتيت كمريض ومرضى أي متفرقات في الصور والأغراض **والمنافع** يصلح بعضها للناس وبعضها للبهائم فلذلك قال:

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٥٤ الى ٥٥]

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣/٢٦٢

كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى (٥٤) منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (٥٥)

كلوا وارعوا أنعامكم وهو حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول أي أخرجنا أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا، والمعنى معديها لانتفاعكم بالأكل والعلف آذنين فيه. إن في ذلك لآيات لأولي النهى لذوي العقول الناهية عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح جمع نهية.

منها خلقناكم فإن التراب أصل خلقة أول آبائكم وأول مواد أبدانكم. وفيها نعيدكم بالموت وتفكيك الأجزاء. ومنها نخرجكم تارة أخرى بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الصور السابقة ورد الأرواح إليها.

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٥٦ الى ٥٧]

ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى (٥٦) قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى (٥٧)

ولقد أريناه آياتنا بصرناه إياها أو عرفناه صحتها. كلها تأكيد لشمول الأنواع أو لشمول الأفراد، على أن المراد بآياتنا آيات معهودة وهي الآيات التسع المختصة بموسى، أو أنه عليه السلام أراه آياته وعدد عليه ما أوتي غيره من المعجزات فكذب موسى من فرط عناده. وأبى الإيمان والطاعة لعتوه..

قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا أرض مصر. بسحرك يا موسى هذا تعلل وتحير ودليل على أنه علم كونه محقا حتى خاف منه على ملكه، فإن الساحر لا يقدر أن يخرج ملكا مثله من أرضه.

[سورة طه (٢٠) : آية ٥٨]

فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى (٥٨)

فلنأتينك بسحر مثله مثل سحرك. فاجعل بيننا وبينك موعدا وعدا لقوله: لا نخلفه نحن ولا." [١]

"وأذن في الناس ناد فيهم وقرئ «وآذن» . بالحج بدعوة الحج والأمر به.

روي أنه عليه الصلاة والسلام صعد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حجوا بيت ربكم، فأسمعه الله من أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق في علمه أن يحج.

وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بذلك في حجة الوداع. يأتوك رجالا مشاة جمع راجل كقائم وقيام، وقرئ بضم الراء مخفف الجيم ومثقلة و «رجالي» كعجالى. وعلى كل ضامر أي وركبانا على

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٤/ ٣٠

كل بعير مهزول أتعبه بعد السفر فهزله. يأتين صفة ل ضامر محمولة على معناه، وقرئ «يأتون» صفة للرجال والركبان أو استئناف فيكون الضمير ل الناس.

من كل فج طريق. عميق بعيد، وقرئ «معيق» يقال بئر بعيدة العمق والمعق بمعنى.

ليشهدوا ليحضروا. منافع لهم دينية ودنيوية، وتنكيرها لأن المراد بها نوع من **المنافع** مخصوص بهذه العبادة. ويذكروا اسم الله عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها. وقيل كنى بالذكر عن النحر لأن ذبح المسلمين لا ينفك عنه تنبيها على أنه المقصود مما يتقرب به إلى الله تعالى. في أيام معلومات هي عشر ذي الحجة، وقيل أيام النحر. على ما رزقهم من بهيمة الأنعام علق الفعل بالمرزوق وبينه بالبهيمة تحريضا على التقرب وتنبيها على مقتضى الذكر. فكلوا منها من لحومها أمر بذلك إباحة وإزاحة لما عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه، أو ندبا إلى مواساة الفقراء ومساواتهم، وهذا في المتطوع به دون الواجب.

وأطعموا البائس الذي أصابه بؤس أي شدة. الفقير المحتاج، والأمر فيه للوجوب وقد قيل به في الأول.

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٢٩ الى ٣٠]

ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق (٢٩) ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور (٣٠)

ثم ليقضوا تفثهم ثم ليزيلوا وسخهم بقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال.

وليوفوا نذورهم ما ينذرون من البر في حجهم، وقيل مواجب الحج. وقرأ أبو بكر بفتح الواو وتشديد الفاء. وليطوفوا طواف الركن الذي به تمام التحلل فإنه قرينة قضاء التفث، وقيل طواف الوداع. وقرأ ابن عامر وحده بكسر اللام فيهما. بالبيت العتيق القديم لأنه أول بيت وضع للناس، أو المعتق من تسلط الجبابرة فكم من جبار رسا إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى، وأما الحجاج فإنما قصد إخراج ابن الزبير منه دون التسلط عليه.

ذلك خبر محذوف أي الأمر ذلك وهو وأمثاله تطلق للفصل بين كلامين. ومن يعظم حرمات الله أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه، أو الحرم وما يتعلق بالحج من التكاليف. وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم. فهو خير له فالتعظيم خير له. عند ربه ثوابا. وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم إلا المتلو عليكم تحريمه، وهو ما حرم منها لعارض: كالميتة وما أهل به لغير الله فلا تحرموا منها غير ما حرمه الله كالبحيرة والسائبة. فاجتنبوا الرجس من الأوثان فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس، وهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها.

واجتنبوا قول الزور تعميم بعد تخصيص فإن عبادة الأوثان رأس الزور، كأنه لما حث على تعظيم الحرمات

أتبعه ذلك ردا لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب وتعظيم الأوثان والإفتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك. وقيل شهادة الزور لما

روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله تعالى ثلاثا وتلا هذه الآية» .

والزور من الزور وهو الإنحراف كما أن الإفك من الإفك وهو الصرف، فإن." (١)

"ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض جعلها مذللة لكم معدة لمنافعكم. والفلك عطف على ما أو على اسم أن، وقرئ بالرفع على الابتداء. تجري في البحر بأمره حال منها أو خبر.

ويمسك السماء أن تقع على الأرض من أن تقع أو كراهة أن تقع بأن خلقها على صورة متداعية إلى الاستمساك. إلا بإذنه إلا بمشيئته وذلك يوم القيامة، وفيه رد لاستمساكها بذاتها فإنها مساوية لسائر الأجسام في الجسمية فتكون قابلة للميل الهابط قبول غيرها. إن الله بالناس لرؤف رحيم حيث هيأ لهم أسباب الاستدلال وفتح عليهم أبواب **المنافع** ودفع عنهم أنواع المضار.

وهو الذي أحياكم بعد أن كنتم جمادا عناصر ونطفا. ثم يميتكم إذا جاء أجلكم. ثم يحييكم في الآخرة. إن الإنسان لكفور لجحود لنعم الله مع ظهورها.

[سورة الحج (٢٢) : آية ٦٧]

لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم (٦٧)

لكل أمة أهل دين. جعلنا منسكا متعبدا أو شريعة تعبدوا بها، وقيل عيدا. هم ناسكوه ينسكونه. فلا ينازعنك سائر أرباب الملل. في الأمر في أمر الدين أو النسائك لأنهم بين جهال وأهل عناد، أو لأن أمر دينك أظهر من أن يقبل النزاع، وقيل المراد نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الالتفات إلى قولهم وتمكينهم من المناظرة المؤدية إلى نزاعهم، فإنها إنما تنفع طالب الحق وهؤلاء أهل مراء، أو عن منازعتهم كقولك: لا يضار بك زيد، وهذا إنما يجوز في أفعال المغالبة للتلازم، وقيل نزلت في كفار خزاعة قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله، وقرئ فلا ينزعنك على تهييج الرسول والمبالغة في تثبيته على دينه على أنه من نازعته فنزعته إذا غلبته. وادع إلى ربك إلى توحيده وعبادته.

إنك لعلى هدى مستقيم طريق إلى الحق سوي.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٧٠/٤

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٦٨ الى ٦٩]

وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون (٦٨ (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون (٦٩)

وإن جادلوك وقد ظهر الحق ولزمت الحجة. فقل الله أعلم بما تعملون من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليها، وهو وعيد فيه رفق.

الله يحكم بينكم يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين بالثواب والعقاب. يوم القيامة كما فصل في الدنيا بالحجج والآيات. فيما كنتم فيه تختلفون من أمر الدين.

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٧٠ الى ٧١]

ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير (٧٠) ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير (٧١)

ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض فلا يخفى عليه شيء. إن ذلك في كتاب هو اللوح كتبه فيه قبل حدوثه فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له. إن ذلك إن الإحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ، أو الحكم بينكم. على الله يسير لأن علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على سواء.." (١)

"واستكبارهم، واستكان استفعل من الكون لأن المفتقر انتقل من كون إلى كون أو افتعل من السكون أشبعت فتحته. وما يتضرعون وليس من عادتهم التضرع وهو استشهاد على ما قبله.

حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد يعني الجوع فإنه أشد من القتل والأسر. إذا هم فيه مبلسون متحيرون آيسون من كل خير حتى جاءك أعتاهم يستعطفك.

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٧٨ الى ٨٠]

وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون (٧٨) وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون (٧٩) وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون (٨٠)

وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار لتحسوا بها ما نصب من الآيات. والأفئدة لتتفكروا فيها وتستدلوا بها إلى غير ذلك من **المنافع** الدينية والدنيوية. قليلا ما تشكرون تشكرونها شكرا قليلا لأن العمدة في شكرها استعمالها فيما خلقت لأجله، والإذعان لمانحها من غير إشراك وما صلة للتأكيد.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٧٨/٤

وهو الذي ذرأكم في الأرض خلقكم وبثكم فيها بالتناسل. وإليه تحشرون تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.
وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار ويختص به تعاقبهما لا يقدر عليه غيره فيكون ردا لنسبته إلى الشمس حقيقة أو لأمره وقضائه تعاقبهما، أو انتقاص أحدهما وازدياد الآخر. أفلا تعقلون بالنظر والتأمل أن الكل منا وأن قدرتنا تعم الممكنات كلها وأن البعث من جملتها، وقرئ بالياء على أن الخطاب السابق لتغليب المؤمنين.

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٨١ الى ٨٣]

بل قالوا مثل ما قال الأولون (٨١) قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون (٨٢) لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين (٨٣)

بل قالوا أي كفار مكة. مثل ما قال الأولون آباؤهم ومن دان بدينهم.

قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون استبعادا ولم يتأملوا إنهم كانوا قبل ذلك أيضا ترابا فخلقوا.

لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين إلا أكاذيبهم التي كتبوها، جمع أسطورة لأنه يستعمل فيما يتلهى به كالأعاجيب والأضاحيك. وقيل جمع أسطار جمع سطر.

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٨٤ الى ٨٥]

قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون (٨٤) سيقولون لله قل أفلا تذكرون (٨٥)

قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون إن كنتم من أهل العلم أو من العالمين بذلك، فيكون استهانة بهم وتقريرا لفرط جهالتهم حتى جهلوا مثل هذا الجلي الواضح إلزاما بما لا يمكن لمن له مسكة من العلم إنكاره، ولذلك أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا فقال.

سيقولون لله لأن العقل الصريح قد اضطرهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقها. قل أي بعد ما قالوه. أفلا تذكرون فتعلمون أن من فطر الأرض ومن فيها ابتداء قادر على إيجادها ثانيا، فإن بدء الخلق ليس أهون من إعادته. وقرئ «تتذكرون» على الأصل.

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٨٦ الى ٨٩]

قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم (٨٦) سيقولون لله قل أفلا تتقون (٨٧) قل من بيده

ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون (٨٨) سيقولون لله قل فأنى تسحرون (٨٩)." (١)

"منهم من آمن ومنهم من عقل الحق وكابر استكبارا وخوفا على الرئاسة. إن هم إلا كالأنعام في عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات. بل هم أضل سبيلا من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار، ولأنها إن لم تعتقد حقا ولم تكتسب خيرا لم تعتقد باطلا ولم تكتسب شرا، بخلاف هؤلاء ولأن جهالتها لا تضر بأحد وجهالة هؤلاء تؤدي إلى هيج الفتن وصد الناس عن الحق، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذم وهؤلاء مقصرون ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤٥ الى ٤٦]

ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا (٤٥) ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا (٤٦)

ألم تر إلى ربك ألم تنظر إلى صنعه. كيف مد الظل كيف بسطه أو ألم تنظر إلى الظل كيف مده ربك، فغير النظم إشعارا بأنه المعقول من هذا الكلام لوضوح برهانه وهو دلالة حدوثه وتصرفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فعل الصانع الحكيم كالمشاهد المرئي فكيف بالمحسوس منه، أو ألم ينته علمك إلى أن ربك كيف مد الظل وهو فيما بين طلوع الفجر والشمس وهو أطيب الأحوال، فإن الظلمة الخالصة تنفر الطبع وتسد النظر وشعاع الشمس: يسخن الجو ويبهر البصر، ولذلك وصف به الجنة فقال وظل ممدود. ولو شاء لجعله ساكنا ثابتا من السكنى أو غير متقلص من السكون بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد. ثم جعلنا الشمس عليه دليلا فإنه لا يظهر للحس حتى تطلع فيقع ضوؤها على بعض الأجرام، أو لا يوجد ولا يتفاوت إلا بسبب حركتها.

ثم قبضناه إلينا أي أزلناه بإيقاع الشمس موقعه لما عبر عن أحداثه بالمد بمعنى التسيير عبر عن إزالته بالقبض إلى نفسه الذي هو في معنى الكف. قبضا يسيرا قليلا قليلا حسبما ترتفع الشمس لينتظم بذلك

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٤/ ٩٣

مصالح الكون ويتحصل به ما لا يحصى من منافع الخلق، وثم في الموضعين لتفاضل الأمور أو لتفاضل مبادئ أوقات ظهورها، وقيل مد الظل لما بنى السماء بلا نير، ودحا الأرض تحتها فألقت عليها ظلها ولو شاء لجعله ثابتا على تلك الحالة، ثم خلق الشمس عليه دليلا، أي مسلطا عليه مستتبعا إياه كما يستتبع الدليل المدلول، أو دليل الطريق من يهديه فإنه يتفاوت بحركتها ويتحول بتحولها، ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا شيئا فشيئا إلى أن تنتهي غاية نقصانه، أو قبضا سهلا عند قيام الساعة بقبض أسبابه من الأجرام المظلة والمظل عليها.

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٤٧]

وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا (٤٧)

وهو الذي جعل لكم الليل لباسا شبه ظلامه باللباس في ستره. والنوم سباتا راحة للأبدان بقطع المشاغل، وأصل السبت القطع أو موتا كقوله: وهو الذي يتوفاكم بالليل لأنه قطع الحياة ومنه المسبوت للميت. وجعل النهار نشورا ذا نشور أي انتشار ينتشر فيه الناس للمعاش، أو بعث من النوم بعث الأموات فيكون إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور. وعن لقمان عليه السلام يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]

وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا (٤٨) لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا (٤٩)." (١)

"وهو الذي أرسل الرياح وقرأ ابن كثير على التوحيد إرادة للجنس. نشرا ناشرات للحساب جمع نشور، وقرأ ابن عامر بالسكون على التخفيف وحمزة والكسائي به وبفتح النون على أنه مصدر وصف به وعاصم بشرا تخفيف بشر جمع بشور بمعنى مبشر بين يدي رحمته يعني قدام المطر. وأنزلنا من السماء ماء طهورا مطهرا لقوله ليطهركم به. وهو اسم لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به.

قال عليه الصلاة والسلام «التراب طهور المؤمن» ،

«طهور إناء أحدكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسل سبعا إحداهن بالتراب» .

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٢٦/٤

وقيل بليغا في الطهارة وفعول وإن غلب في المعنيين لكنه قد جاء للمفعول كالضبوث وللمصدر كالقبول وللاسم كالذنوب، وتوصيف الماء به إشعارا بالنعمة فيه وتتميم للمنة فيما بعده فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته، وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنهم بذلك أولى. لنحيِۦي به بلدة ميتا بالنبات وتذكير ميتا لأن البلدة في معنى البلد، ولأنه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجرى مجرى الجامد. ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا يعني أهل البوادي الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الأنعام والأناسي، وتخصيصهم لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار، والمنافع فيهم وبما حولهم من الأنعام غنية عن سقيا السماء وسائر الحيوانات تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالبا مع أن مساق هذه الآيات كما هو للدلالة على عظم القدرة، فهو لتعداد أنواع النعمة والأنعام قنية الإنسان وعامة منافعهم وعلية معايشهم منوطة بها، ولذلك قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها، وقرئ «نسفيه» بالفتح وسقى وأسقى لغتان، وقيل أسقاه جعل له سقيا «وأناسي» بحذف ياء وهو جمع إنسي أو إنسان كظرابي في ظربان على أن أصله أناسين فقلبت النون ياء.

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٥٠]

ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا (٥٠)

ولقد صرفناه بينهم صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب، أو المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل وغيرهما، وعن ابن عباس رضي الله عنه:

«ما عام أمطر من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء وتلا هذه الآية» أو في الأنهار والمنافع. ليذكروا ليتفكروا ويعرفوا كمال القدرة وحق النعمة في ذلك ويقوموا بشكره، أو ليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم. فأبى أكثر الناس إلا كفورا إلا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها، أو جحودها بأن يقولوا مطرنا بنوء كذا، ومن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء كان كافرا بخلاف من يرى أنها من خلق الله، والأنواء وسائط وأمارات بجعله تعالى.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٥١ الى ٥٢]

ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا (٥١) فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا (٥٢)

ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا نبيا ينذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة لكن قصرنا الأمر عليك إجلالا لك وتعظيما لشأنك وتفضيلا لك على سائر الرسل، فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار

الحق.

فلا تطع الكافرين فيما يريدونك عليه، وهو تهييج له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين. وجاهدهم به بالقرآن أو بترك طاعتهم الذي يدل عليه فلا تطع، والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال حقك فقابلهم." [١]

"وقرئ «يسمعونكم» أي يسمعونكم الجواب عن دعائكم ومجيئه مضارعا مع إذ على حكاية الحال الماضية استحضارا لها.

أو ينفعونكم على عبادتكم لها. أو يضرون من أعرض عنها.

قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون أضربوا عن أن يكون لهم سمع أو يتوقع منهم ضر أو نفع، والتجؤوا إلى التقليد.

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٧٥ الى ٧٧]

قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون (٧٥) أنتم وآباؤكم الأقدمون (٧٦) فإنهم عدو لي إلا رب العالمين (٧٧)

قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإن التقدم لا يدل على الصحة ولا ينقلب به الباطل حقا. فإنهم عدو لي يريد أنهم أعداء لعابديهم من حيث إنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه، أو إن المغري بعبادتهم أعدى أعدائهم وهو الشيطان، لكنه صور الأمر في نفسه تعريضا لهم فإنه أنفع في النصح من التصريح، وإشعارا بأنها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القبول، و إفراد العدو لأنه في الأصل مصدر أو بمعنى النسب. إلا رب العالمين استثناء منقطع أو متصل على أن الضمير لكل معبود عبدوه وكان من آبائهم من عبد الله.

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٧٨ الى ٧٩]

الذي خلقني فهو يهدين (٧٨) والذي هو يطعمني ويسقين (٧٩)

الذي خلقني فهو يهدين لأنه يهدي كل مخلوق لما خلق له من أمور المعاش والمعاد كما قال والذي قدر فهدى هداية مدرجة من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب **المنافع** ودفع المضار، مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين إلى امتصاص دم الطمث من الرحم، ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بلذائذها، والفاء للسببية إن جعل الموصول مبتدأ وللعطف إن جعل صفة رب العالمين فيكون

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٢٧/٤

اختلاف النظم لتقدم الخلق واستمرار الهداية وقوله:
والذي هو يطعمني ويسقين على الأول مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده، وتكرير الموصول على الوجهين للدلالة على أن كل واحدة من الصلات مستقلة باقتضاء الحكم.

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٨٠ الى ٨١]
وإذا مرضت فهو يشفين (٨٠) والذي يميتني ثم يحيين (٨١)
وإذا مرضت فهو يشفين عطف على يطعمني ويسقين لأنه من روادفهما من حيث إن الصحة والمرض في الأغلب يتبعان المأكول والمشروب، وإنما لم ينسب المرض إليه تعالى لأن المقصود تعديد النعم، ولا ينتقض بإسناد الإماتة إليه فإن الموت من حيث إنه لا يحس به لا ضرر فيه وإنما لضرر في مقدماته وهي المرض، ثم إنه لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب التي تستحقر دونها الحياة الدنيوية وخلاص من أنواع المحن والبليات، ولأن المرض في غالب الأمر إنما يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وبما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافر، والصحة إنما تحصل باستحفاظ اجتماعها والاعتدال المخصوص عليها قهرا وذلك بقدرة الله العزيز العليم.
والذي يميتني ثم يحيين في الآخرة.." (١)
"[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٥٦ الى ٥٨]
فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (٥٦) فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين (٥٧) وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين (٥٨)
فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون أي يتنزهون عن أفعالنا، أو عن الأقذار ويعدون فعلنا قذرا.
فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين قدرنا كونها من الباقين في العذاب.
وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين مر مثله.

[سورة النمل (٢٧) : آية ٥٩]
قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون (٥٩)

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٤١/٤

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم. بعد ما قص عليه القصص الدالة على كمال قدرته وعظم شأنه وما خص به رسله من الآيات الكبرى والانتصار من العدا- بتحميده والسلام على المصطفين من عباده شكرا على ما أنعم عليهم، أو علمه ما جهل من أحوالهم وعرفانا لفضلهم وحق تقدمهم واجتهادهم في الدين، أو لوطا بأن يحمده على هلاك كفرة قومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة من الفواحش والنجاة من الهلاك. آلله خير أما يشركون إلزام لهم وتهكم بهم وتسفيه لرأيهم، إذ من المعلوم أن لا خير فيما أشركوه رأسا حتى يوازن بينه وبين من هو مبدأ كل خير. وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء.

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦٠]

أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون (٦٠)

أمن بل أمن خلق السماوات والأرض التي هي أصول الكائنات ومبادئ **المنافع**. وقرأ «أمن» بالتخفيف على أنه بدل من الله. وأنزل لكم لأجلكم. من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة عدل به من الغيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفعل بذاته، والتنبيه على أن إنبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع من المواد المتشابهة لا يقدر عليه غيره كما أشار إليه بقوله: ما كان لكم أن تنبتوا شجرها شجر الحدائق وهي البساتين من الإحداق وهو الإحاطة. أإله مع الله أغيره يقرن به ويجعل له شريكا، وهو المنفرد بالخلق والتكوين. وقرئ «أإلها» بإضمار فعل مثل أتدعون أو أتشركون وبتوسيط مدة بين الهمزتين وإخراج الثانية بين بين. بل هم قوم يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد.

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦١]

أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون (٦١)

أمن جعل الأرض قرارا بدل من أمن خلق السماوات وجعلها قرارا بإبداء بعضها من الماء وتسويتها بحيث يتأتى استقرار الإنسان والدواب عليها. وجعل خلالها وسطها. أنهارا جارية. وجعل لها رواسي جبالا تتكون فيها المعادن وتنبع من حضيضها المنابع. وجعل بين البحرين العذب والمالح، أو خليجي فارس والروم. حاجزا برزخا وقد مر بيانه في سورة «الفرقان» . أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون الحق فيشركون به.

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٦٢ الى ٦٣]

أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون (٦٢) أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون (٦٣)." (١)

"ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله علة ل يمهدون أو ل يصدعون، والاقتصار على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات والاكتفاء على فحوى قوله: إنه لا يحب الكافرين فإن فيه إثبات البغض لهم والمحبة للمؤمنين، وتأكيد اختصاص الصلاح المفهوم من ترك ضميرهم إلى التصريح بهم تعليل له ومن فضله دال على أن الإثابة تفضل محض، وتأويله بالعطاء أو الزيادة على الثواب عدول عن الظاهر.

[سورة الروم (٣٠) : آية ٤٦]

ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (٤٦)

ومن آياته أن يرسل الرياح الشمال والصبا والجنوب فإنها رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا»

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح على إرادة الجنس. مبشرات بالمطر. وليذيقكم من رحمته يعني **المنافع** التابعة لها، وقيل الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذي هو مع هبوبها والعطف على علة محذوفة دل عليها مبشرات أو عليها باعتبار المعنى، أو على يرسل بإضمار فعل معلل دل عليه. ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله يعني تجارة البحر. ولعلكم تشكرون ولتشكروا نعمة الله تعالى فيها.

[سورة الروم (٣٠) : آية ٤٧]

ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين (٤٧)

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٦٤/٤

لقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا

بالتدمير. كان حقا علينا نصر المؤمنين

إشعار بأن الانتقام لهم وإظهار لكرامتهم حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم،

وعنه عليه الصلاة والسلام «ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم ثم تلا ذلك» .

وقد يوقف على قا

على أنه متعلق بالانتقام.

[سورة الروم (٠3) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]

الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون (٤٨) وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين (٤٩)

الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه متصلا تارة. في السماء في سمتها. كيف يشاء سائرا أو واقفا مطبقا وغير مطبق من جانب دون جانب إلى غير ذلك. ويجعله كسفا قطعا تارة أخرى، وقرأ ابن عامر بالسكون على أنه مخفف أو جمع كسفة أو مصدر وصف به. فترى الودق المطر. يخرج من خلاله في التارتين. فإذا أصاب به من يشاء من عباده يعني بلادهم وأراضيهم. إذا هم يستبشرون لمجيء الخصب. وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر. من قبله تكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم، وقيل الضمير للمطر أو السحاب أو الإرسال. لمبلسين لآيسين.

[سورة الروم (٣٠) : آية ٥٠]

فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير (٥٠)." [١]

"وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ضرب مثل للمؤمن والكافر، والفرات الذي يكسر العطش والسائغ الذي يسهل انحداره، والأجاج الذي يحرق بملوحته. وقرئ «سيغ» بالتشديد

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٠٩/٤

و «سيغ» بالتخفيف و «ملح» على فعل. ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم، أو تمام التمثيل والمعنى: كما أنهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث إنهما لا يتساويان فيما هو المقصود بالذات من الماء، فإنه خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته، لا يتساوى المؤمن والكافر وإن اتفق اشتراكهما في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة لاختلافهما فيما هو الخاصية العظمى وهي بقاء أحدهما على الفطرة الأصلية دون الآخر، أو تفضيل للأجاج على الكافر بما يشارك فيه العذب من **المنافع**. والمراد ب الحلية اللئالئ واليواقيت. وترى الفلك فيه في كل. مواخر تشق الماء بجريها. لتبتغوا من فضله من فضل الله بالنقلة فيها، واللام متعلقة ب مواخر، ويجوز أن تتعلق بما دل عليه الأفعال المذكورة. ولعلكم تشكرون على ذلك وحرف الترجي باعتبار ما يقتضيه ظاهر الحال.

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١٣ الى ١٤]

يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (١٣) إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير (١٤)

يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى هي مدة دوره أو منتهاه أو يوم القيامة. ذلكم الله ربكم له الملك الإشارة إلى الفاعل لهذه الأشياء. وفيها إشعار بأن فاعليته لها موجبة لثبوت الأخبار المترادفة، ويحتمل أن يكون له الملك كلاما مبتدأ في قرآن. والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير للدلالة على تفرده بالألوهية والربوبية، والقطمير لفافة النواة.

إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم لأنهم جماد ولو سمعوا على سبيل الفرض. ما استجابوا لكم لعدم قدرتهم على الإنفاع، أو لتبرئهم منكم مما تدعون لهم. ويوم القيامة يكفرون بشرككم بإشراككم لهم يقرون ببطلانه أو يقولون ما كنتم إيانا تعبدون. ولا ينبئك مثل خبير ولا يخبرك بالأمر مخبر مثل خبير به أخبرك وهو الله سبحانه وتعالى، فإنه الخبير به على الحقيقة دون سائر المخبرين. والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ونفي ما يدعون لهم.

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١٥ الى ١٧]

يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد (١٥) إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (١٦)

وما ذلك على الله بعزيز (١٧)

يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله في أنفسكم وما يعن لكم، وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء، وأن افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به ولذلك قال: وخلق الإنسان ضعيفا. والله هو الغني الحميد المستغني على الإطلاق المنعم على سائر الموجودات حتى استحق عليهم الحمد.

إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد بقوم آخرين أطوع منكم، أو بعالم آخر غير ما تعرفونه.

وما ذلك على الله بعزيز بمتعذر أو متعسر.." (١)

"وما علمناه الشعر رد لقولهم إن محمدا شاعر أي ما علمناه الشعر بتعليم القرآن، فإنه لا يماثله لفظا ولا معنى لأنه غير مقفى ولا موزون، وليس معناه ما يتوخاه الشعراء من التخيلات المرغبة والمنفرة ونحوها. وما ينبغي له وما يصح له الشعر ولا يتأتى له إن أراد قرضه على ما خبرتم طبعه نحوا من أربعين سنة، وقوله عليه الصلاة والسلام: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»

وقوله: هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

اتفاقي من غير تكلف وقصد منه إلى ذلك، وقد يقع مثله كثيرا في تضاعيف المنثورات على أن الخليل ما عد المشطور من الرجز شعرا، هذا وقد روي أنه حرك الباءين وكسر التاء الأولى بلا إشباع وسكن الثانية، وقيل الضمير لل قرآن أي وما يصح للقرآن أن يكون شعرا. إن هو إلا ذكر عظة وإرشاد من الله تعالى. وقرآن مبين وكتاب سماوي يتلى في المعابد، ظاهر أنه ليس من كلام البشر لما فيه من الإعجاز.

لينذر القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم، ويؤيده قراءة نافع وابن عامر ويعقوب بالتاء. من كان حيا عاقلا فهما فإن الغافل كالميت، أو مؤمنا في علم الله تعالى فإن الحياة الأبدية بالإيمان، وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع به. ويحق القول وتجب كلمة العذاب. على الكافرين المصرين على الكفر، وجعلهم في مقابلة من كان حيا إشعارا بأنهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم أموات في الحقيقة.

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧١ الى ٧٣]

أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون (٧١) وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون (٧٢) ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (٧٣)

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٤/٢٥٦

أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا مما تولينا إحداثه ولم يقدر على إحداثه غيرنا، وذكر الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص، والتفرد بالإحداث. أنعاما خصها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة **المنافع**. فهم لها مالكون متملكون لها بتمليكنا إياها، أو متمكنون من ضبطها والتصرف فيها بتسخيرنا إياها لهم قال:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا ... أملك رأس البعير إن نفرا

وذللناها لهم وصيرناها منقادة لهم. فمنها ركوبهم مركوبهم، وقرئ «ركوبتهم» ، وهي بمعناه كالحلوب والحلوبة، وقيل جمعه وركوبهم أي ذو ركوبهم أو فمن منافعها ركوبهم. ومنها يأكلون أي ما يأكلون لحمه. ولهم فيها منافع من الجلود والأصواف والأوبار. ومشارب من اللبن جمع مشرب بمعنى الموضع، أو المصدر وأمال الشين ابن عامر وحده برواية هشام. أفلا يشكرون نعم الله في ذلك إذ لولا خلقه لها وتذليله إياها كيف أمكن التوسل إلى تحصيل هذه **المنافع** المهمة.

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧٤ الى ٧٦]

واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون (٧٤) لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون (٧٥) فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون (٧٦)

واتخذوا من دون الله آلهة أشركوها به في العبادة بعد ما رأوا منه تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة، وعلموا أنه المتفرد بها. لعلهم ينصرون رجاء أن ينصروهم فيما حزبهم من الأمور والأمر بالعكس لأنهم.." (١)

"ولقد مننا على موسى وهارون أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من **المنافع** الدينية والدنيوية.

ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم من تغلب فرعون أو الغرق.

ونصرناهم ثم الضمير لهما مع القوم. فكانوا هم الغالبين على فرعون وقومه.

وآتيناهما الكتاب المستبين البليغ في بيانه وهو التوراة.

وهديناهما الصراط المستقيم الطريق الموصل إلى الحق والصواب.

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١١٩ الى ١٢٢]

وتركنا عليهما في الآخرين (١١٩) سلام على موسى وهارون (١٢٠) إنا كذلك نجزي المحسنين (١٢١)

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٧٣/٤

إنهما من عبادنا المؤمنين (١٢٢)
وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين.
إنهما من عبادنا المؤمنين سبق مثل ذلك.

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٢٣ الى ١٢٦]
وإن إلياس لمن المرسلين (١٢٣) إذ قال لقومه ألا تتقون (١٢٤) أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين (١٢٥) الله ربكم ورب آبائكم الأولين (١٢6)
وإن إلياس لمن المرسلين هو إلياس بن ياسين سبط هارون أخى موسى بعث بعده. وقيل إدريس لأنه قرئ إدريس وإدراس مكانه وفي حرف أبي رضي الله عنه. «وإن إبليس» وقرأ ابن ذكوان مع خلاف عنه بحذف همزة إلياس.
إذ قال لقومه ألا تتقون عذاب الله.
أتدعون بعلا أتعبدونه أو أتطلبون الخير منه، وهو اسم صنم كان لأهل بك من الشام وهو البلد الذي يقال له الآن بعلبك وقيل البعل الرب بلغة اليمن، والمعنى أتدعون بعض البعول. وتذرون أحسن الخالقين وتتركون عبادته، وقد أشار فيه إلى المقتضي للإنكار المعني بالهمزة ثم صرح به بقوله:
الله ربكم ورب آبائكم الأولين وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص بالنصب على البدل.

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٢٧ الى ١٢٨]
فكذبوه فإنهم لمحضرون (١٢٧) إلا عباد الله المخلصين (١٢٨)
فكذبوه فإنهم لمحضرون أي في العذاب، وإنما أطلقه اكتفاء منه بالقرينة، أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفا.
إلا عباد الله المخلصين مستثنى من الواو لا من المحضرين لفساد المعنى.

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٢٩ الى ١٣٢]
وتركنا عليه في الآخرين (١٢٩) سلام على إل ياسين (١٣٠) إنا كذلك نجزي المحسنين (١٣١) إنه من عبادنا المؤمنين (١٣٢)
وتركنا عليه في الآخرين.

سلام على إل ياسين لغة في إلياس كسيناء وسينين، وقيل جمع له مراد به هو وأتباعه كالمهلبين، لكن فيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه باللام أو للمنسوب إليه بحذف ياء النسب كالأعجمين وهو قليل ملبس، وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب على إضافة إل إلى ياسين لأنهما في المصحف مفصولان فيكون ياسين أبا إلياس، وقيل محمد عليه الصلاة والسلام أو القرآن أو غيره من كتب الله والكل لا يناسب." (١)

"متشابها

بدل من أحسن أو حال منه، وتشابهه تشابه أبعاضه في الإعجاز وتجاوب النظم وصحة المعنى والدلالة على المنافع العامة. مثاني جمع مثنى أو مثنى أو مثن على ما مر في «الحجر» ، وصف به كتابا باعتبار تفاصيله كقولك: القرآن سور وآيات، والإنسان: عظام وعروق وأعصاب، أو جعل تمييزا من متشابها كقولك: رأيت رجلا حسنا شمائله. تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم تشمئز خوفا مما فيه من الوعيد، وهو مثل في شدة الخوف واقشعرار الجلد تقبضه وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس بزيادة الراء ليصير رباعيا كتركيب أقمطر من القمط وهو الشد. ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله بالرحمة وعموم المغفرة، والإطلاق للإشعار بأن أصل أمره الرحمة وأن رحمته سبقت غضبه، والتعدية ب إلى لتضمين معنى السكون والاطمئنان، وذكر القلوب لتقدم الخشية التي هي من عوارضها. ذلك أي الكتاب أو الكائن من الخشية والرجاء. هدى الله يهدي به من يشاء هدايته. ومن يضلل الله ومن يخذله.

فما له من هاد يخرجهم من الضلال.

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٢٤ الى ٢٦]

أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون (٢٤) كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون (٢٥) فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٢٦)

أفمن يتقي بوجهه يجعله درقة يقي به نفسه لأنه يكون يداه مغلولة إلى عنقه فلا يقدر أن يتقي إلا بوجهه. سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن منه، فحذف الخبر كما حذف في نظائره.

وقيل للظالمين أي لهم فوضع الظاهر موضعه تسجيلا عليهم بالظلم وإشعارا بالموجب لما يقال لهم وهو: ذوقوا ما كنتم تكسبون أي وباله، والواو للحال وقد مقدرة.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٧/٥

كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون من الجهة التي لا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها.

فأذاقهم الله الخزي ،الذل. في الحياة الدنيا كالمسخ والخسف والقتل والسبي والإجلاء. ولعذاب الآخرة المعد لهم. أكبر لشدته ودوامه. لو كانوا يعلمون لو كانوا من أهل العلم والنظر لعلموا ذلك واعتبروا به.

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٢٧ الى ٢٨]

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون (٢٧) قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون (٢٨)

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل يحتاج إليه الناظر في أمر دينه. لعلهم يتذكرون يتعظون به.

قرآنا عربيا حال من هذا والاعتماد فيها على الصفة كقولك: جاءني زيد رجلا صالحا، أو مدح له.

غير ذي عوج لا اختلال فيه بوجه ما، وهو أبلغ من المستقيم وأخص بالمعاني. وقيل بالشك استشهادا بقوله:

وقد أتاك يقين غير ذي عوج ... من الإله وقول غير مكذوب

وهو تخصيص له ببعض مدلوله. لعلهم يتقون علة أخرى مرتبة على الأولى.

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٢٩]

ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (٢٩)." (١)

"أفلم ينظروا حين كفروا بالبعث. إلى السماء فوقهم إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم.

كيف بنيناها رفعناها بلا عمد. وزيناها بالكواكب. وما لها من فروج فتوق بأن خلقها ملساء متلاصقة الطباق.

والأرض مددناها بسطناها. وألقينا فيها رواسي جبالا ثوابت. وأنبتنا فيها من كل زوج أي من كل صنف. بهيج حسن.

تبصرة وذكرى لكل عبد منيب راجع إلى ربه متفكر في بدائع صنعه، وهما علتان للأفعال المذكورة معنى

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٤١/٥

وإن انتصبتا عن الفعل الأخير.

[سورة ق (٥٠) : الآيات ٩ الى ١١]

ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد (٩) والنخل باسقات لها طلع نضيد (١٠) رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١١)

ونزلنا من السماء ماء مباركا كثير **المنافع** فأنبتنا به جنات أشجارا وأثمارا. وحب الحصيد وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالبر والشعير.

والنخل باسقات طوالا أو حوامل من أبسقت الشاة إذا حملت فيكون من أفعل فهو فاعل، وإفرادها بالذكر لفرط ارتفاعها وكثرة منافعها. وقرئ «باصقات» لأجل القاف. لها طلع نضيد منضود بعضه فوق بعض، والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر.

رزقا للعباد علة ل أنبتنا أو مصدر، فإن الإنبات رزق. وأحيينا به بذلك الماء. بلدة ميتا أرضا جدبة لا نماء فيها. كذلك الخروج كما حييت هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم.

[سورة ق (٥٠) : الآيات ١٢ الى ١٤]

كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود (١٢) وعاد وفرعون وإخوان لوط (١٣) وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد (١٤)

كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون أراد بفرعون إياه وقومه ليلائم ما قبله وما بعده. وإخوان لوط أخدانه لأنهم كانوا أصهاره.

وأصحاب الأيكة وقوم تبع سبق في «الحجر» و «الدخان» . كل كذب الرسل أي كل واحد أو قوم منهم أو جميعهم، وإفراد الضمير لإفراد لفظه. فحق وعيد فوجب وحل عليه وعيدي، وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم.

[سورة ق (٥٠) : الآيات ١٥ الى ١٦]

أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد (١٥) ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦)

أفعيينا بالخلق الأول أي أفعجزنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة، من عيي بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله

والهمزة فيه للإنكار. بل هم في لبس من خلق جديد أي هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول بل هم في خلط، وشبهة في خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة، وتنكير الخلق الجديد لتعظيم شأنه والإشعار بأنه على وجه غير متعارف ولا معتاد.

ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ما تحدثه به نفسه وهو ما يخطر بالبال، والوسوسة الصوت الخفي ومنها وسواس الحلي، والضمير ل ما إن جعلت موصولة والباء مثلها في صوت بكذا، أو ل الإنسان إن جعلت مصدرية والباء للتعدية. ونحن أقرب إليه من حبل الوريد أي ونحن أعلم بحاله ممن." (١)

"منه فكأنه لا صرف بالنسبة إليه، أو يصرف من صرف في علم الله وقضائه ويجوز أن يكون الضمير لل قول على معنى يصدر أفك من أفك عن القول المختلف وبسببه كقوله: ينهون عن أكل وعن شرب. أي يصدر تناهيهم عنهما وبسببهما وقرئ «أفك» بالفتح أي من أفك الناس وهم قريش كانوا يصدون الناس عن الإيمان.

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ١٠ الى ١٤]

قتل الخراصون (١٠) الذين هم في غمرة ساهون (١١) يسئلون أيان يوم الدين (١٢) يوم هم على النار يفتنون (١٣) ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون (١٤)

قتل الخراصون الكذابون من أصحاب القول المختلف، وأصله الدعاء بالقتل أجري مجرى اللعن.

الذين هم في غمرة في جهل يغمرهم. ساهون غافلون عما أمروا به.

يسئلون أيان يوم الدين أي فيقولون متى يوم الجزاء أي وقوعه، وقرئ «إيان» بالكسر.

يوم هم على النار يفتنون يحرقون جواب للسؤال أي يقع يوم هم على النار يفتنون، أو هو يوم هم على النار يفتنون، وفتح يوم لإضافته إلى غير متمكن ويدل عليه أنه قرئ بالرفع.

ذوقوا فتنتكم أي مقولا لهم هذا القول. هذا الذي كنتم به تستعجلون هذا العذاب هو الذى كنتم به تستعجلون، ويجوز أن يكون هذا بدلا من فتنتكم والذي صفته.

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ١٥ الى ١٩]

إن المتقين في جنات وعيون (١٥) آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين (١٦) كانوا قليلا

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٥/١٤٠

من الليل ما يهجعون (١٧) وبالأسحار هم يستغفرون (١٨) وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (١٩)

إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم قابلين لما أعطاهم راضين به، ومعناه أن كل ما آتاهم حسن مرضي متلقى بالقبول. إنهم كانوا قبل ذلك محسنين قد أحسنوا أعمالهم وهو تعليل لاستحقاقهم ذلك.

كانوا قليلا من الليل ما يهجعون تفسير لإحسانهم وما مزيدة أي يهجعون في طائفة من الليل، أو يهجعون هجوعا قليلا أو مصدرية أو موصولة أي في قليل من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه ولا يجوز أن تكون نافية لأن ما بعدها لا يعمل فيما قبلها. وفيه مبالغات لتقليل نومهم واستراحتهم ذكر القليل والليل الذي هو وقت السبات، والهجوع الذي هو الفرار من النوم وزيادة ما.

وبالأسحار هم يستغفرون أي أنهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم، وفي بناء الفعل على الضمير إشعارا بأنهم أحقاء بذلك لوفور علمهم بالله وخشيتهم منه.

وفي أموالهم حق نصيب يستوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله وإشفاقا على الناس. للسائل والمحروم للمستجدي والمتعفف الذي يظن غنيا فيحرم الصدقة.

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٢٠ الى ٢١]

وفي الأرض آيات للموقنين (٢٠) وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٢١)

وفي الأرض آيات للموقنين أي فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوانات، أو وجوه دلالات من الدحو والسكون وارتفاع بعضها عن الماء واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص **والمنافع**، تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وفرط رحمته.

وفي أنفسكم أي وفي أنفسكم آيات إذ ما في العالم شيء إلا وفي الإنسان له نظير يدل دلالته مع ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة، والتمكن من الأفعال الغريبة واستنباط الصنائع." (١)

"[سورة التغابن (٦٤) : الآيات ٧ الى ٨]

زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير (٧) فآمنوا بالله

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٤٧/٥

ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير (٨)
زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا الزعم ادعاء العلم ولذلك يتعدى إلى مفعولين وقد قام مقامهما أن بما في حيزه. قل بلى أي بلى تبعثون. وربي لتبعثن قسم أكد به الجواب. ثم لتنبؤن بما عملتم بالمحاسبة والمجازاة. وذلك على الله يسير لقبول المادة وحصول القدرة التامة.
فآمنوا بالله ورسوله محمد عليه الصلاة والسلام. والنور الذي أنزلنا يعني القرآن فإنه بإعجازه ظاهر بنفسه مظهر لغيره مما فيه شرحه وبيانه. والله بما تعملون خبير فمجاز عليه.

[سورة التغابن (٦٤) : الآيات ٩ الى ١٠]
يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم (٩) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير (١٠)
يوم يجمعكم ظرف لتنبؤن أو مقدر باذكر، وقرأ يعقوب «نجمعكم» . ليوم الجمع لأجل ما فيه من الحساب والجزاء والجمع جمع الملائكة والثقلين. ذلك يوم التغابن يغبن فيه بعضهم بعضا لنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس، مستعار من تغابن التجار واللام فيه للدلالة على أن التغابن الحقيقي وهو التغابن في أمور الآخرة لعظمها ودوامها. ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا أي عملا صالحا.
يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وقرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما. ذلك الفوز العظيم الإشارة إلى مجموع الأمرين، ولذلك جعله الفوز العظيم لأنه جامع للمصالح من دفع المضار وجلب **المنافع**.
والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير كأن٥١ والآية المتقدمة بيان ل التغابن وتفصيل له.

[سورة التغابن (٦٤) : الآيات ١١ الى ١٣]
ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم (١١) وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين (١٢) الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٣)
ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله إلا بتقديره وإرادته. ومن يؤمن بالله يهد قلبه للثبات والاسترجاع عند حلولها، وقرئ «يهد قلبه» بالرفع على إقامته مقام الفاعل وبالنصب على طريقة سفه نفسه، و «يهدأ»

بالهمزة أي يسكن. والله بكل شيء عليم حتى القلوب وأحوالها.

وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين أي فإن توليتم فلا بأس عليه إذ وظيفته التبليغ وقد بلغ.

الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون لأن إيمانهم بأن الكل منه يقتضي ذلك.

[سورة التغابن (٦٤) : الآيات ١٤ الى ١٥]

يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم (١٤) إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم (١٥)

يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم يشغلكم عن طاعة الله أو يخاصمكم في أمر." [١]

"(٩٥) سورة والتين

مختلف فيها، وآيها ثمان آيات

[سورة التين (٩٥) : الآيات ١ الى ٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

والتين والزيتون (١) وطور سينين (٢) وهذا البلد الأمين (٣)

والتين والزيتون خصهما من الثمار بالقسم لأن التين فاكهة طيبة لا فضل له وغذاء لطيف سريع الهضم، ودواء كثير النفع فإنه يلين الطبع ويحلل البلغم ويطهر الكليتين، ويزيل رمل المثانة ويفتح سدد الكبد والطحال، ويسمن البدن

وفي الحديث أنه يقطع البواسير وينفع من النقرس.

والزيتون فاكهة وإدام ودواء وله دهن لطيف كثير **المنافع**، مع أنه قد ينبت حيث لا دهنية فيه كالجبال، وقيل المراد بهما جبلان من الأرض المقدسة أو مسجدا دمشق وبيت المقدس، أو البلدان.

وطور سينين يعني الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه الصلاة والسلام ربه وسينين وسيناء اسمان للموضع الذي هو فيه.

وهذا البلد الأمين أي الآمن من أمن الرجل أمانة فهو أمين، أو المأمون فيه يأمن فيه من دخله والمراد به

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢١٨/٥

مكة.

[سورة التين (٩٥) : الآيات ٤ الى ٦]

لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤) ثم رددناه أسفل سافلين (٥) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون (٦)

لقد خلقنا الإنسان يريد به الجنس. في أحسن تقويم تعديل بأن خص بانتصاب القامة وحسن الصورة واستجماع خواص الكائنات ونظائر سائر الممكنات.

ثم رددناه أسفل سافلين بأن جعلناه من أهل النار أو إلى أسفل سافلين وهو النار. وقيل هو أرذل العمر فيكون قوله:

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات استثناء منقطعا. فلهم أجر غير ممنون لا ينقطع أو لا يمن به عليهم، وهو على الأول حكم مرتب على الاستثناء مقرر له.

[سورة التين (٩٥) : الآيات ٧ الى ٨]

فما يكذبك بعد بالدين (٧) أليس الله بأحكم الحاكمين (٨)

فما يكذبك أي فأي شيء يكذبك يا محمد دلالة أو نطقا. بعد بالدين بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل وقيل «ما» بمعنى من، وقيل الخطاب للإنسان على الالتفات، والمعنى فما الذي يحملك على هذا الكذب.." [١]

"وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون (١١)

﴿وإذا قيل لهم﴾ معطوف على يكذبون ويجوز أن يعطف على يقول آمنا لأنك لو قلت ومن الناس من إذا قيل لهم ﴿لا تفسدوا في الأرض﴾ لكان صحيحا والفساد خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعا به وضده الصلاح وهو الحصول على الحال المستقيمة النافعة والفساد في الأرض هيج الحروب والفتن لأن في ذلك فساد ما في الأرض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع **والمنافع** الدينية والدنيوية وكان فساد المنافقين في الأرض أنهم كانوا يمايلون الكفار وممالئونهم على المسلمين بافشاء أسرارهم إليهم واغرائهم وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣٢٣/٥

البقرة (١١ _ ١٤)

﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾ بين المؤمنين والكافرين بالمدارة يعني أن صفة المصلحين خلصت لنا وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد لأن إنما لقصر الحكم على شيء أو لقصر الشئ على حكم كقولك إنما ينطلق زيد وإنما زيد كاتب وما كافة لأنها تكفها عن العمل." (١)

"أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب (٢٠٢)

﴿أولئك﴾ أى الداعون بالحسنتين

البقرة (٢٠١ _ ٢٠٥)

﴿لهم نصيب مما كسبوا﴾ من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة وهو الثواب الذي هو **المنافع** الحسنة أو من أجل ما كسبوا وسمى الدعاء كسبا لأنه من الأعمال والأعمال موصوفة بالكسب ويجوز أن يكون أولئك للفريقين أو أن لكل فريق نصيبا من جنس ما كسبوا ﴿والله سريع الحساب﴾ يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد فبادروا إكثار الذكر وطلب الآخرة أو وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدل على كمال قدرته ووجوب الحذر من نقمته وروي أنه يحاسب الخلق في قدر حلب شاة وروي في مقدار لمحة." (٢)

"أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢٦٦)

وإخلاص الهمزة في ﴿أيود أحدكم﴾ للإنكار أن تكون له ﴿جنة﴾ بستان ﴿من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له﴾ لصاحب البستان ﴿فيها﴾ في الجنة ﴿من كل الثمرات﴾ يريد بالثمرات **المنافع** التي كانت تحصل له فيها أو أن النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع خصهما بالذكر وجعل الجنة منها وإن كانت محتوية على سائر الأشجار تغليبا لهما على غيرهما ثم أردفهما ذكر كل الثمرات ﴿وأصابه الكبر﴾ الواو للحال ومعناه أن تكون له جنة وقدأصابه به الكبر والواو في ﴿وله ذرية ضعفاء﴾ أولاد صغار للحال أيضا والجملة في موضع الحال من الهاء في أصابه ﴿فأصابها إعصار﴾ ريح تستدير فى الأرض ثم تسطع نحوالسماء كالعمود ﴿فيه﴾ في الإعصار وارتفع ﴿نار﴾ بالظرف إذ جرى الظرف وصفا

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ١/ ٥٠

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ١/ ١٧٣

لإعصار ﴿فاحترقت﴾ الجنة وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة رياء فإذا كان يوم القيامة

البقرة (٢٦٦ ـ ٢٧٠)

وجدها محبطة فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة جامعة للثمار فبلغ الكبر وله أولاد ضعاف والجنة معاشهم فهلكت بالصاعقة ﴿كذلك﴾ كهذا البيان الذي بين فيما تقدم ﴿يبين الله لكم الآيات﴾ في التوحيد والدين ﴿لعلكم تتفكرون﴾ فتنتبهوا." (١)

"والجملة في موضع الحال ﴿فى أخراكم﴾ في ساقتكم وجماعتكم الأخرى وهي المتأخرة يقال جئت في آخر الناس وأخراهم كما تقول في أولهم وأولاهم بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى ﴿فأثابكم﴾ عطف على صرفكم أي فجازاكم الله ﴿غما﴾ حين صرفكم عنهم وابتلاكم ﴿بغم﴾ بسبب غم اذقتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعصيانكم أمره أو غما مضاعفا غما بعد غم وغما متصلا بغم من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله عليه السلام والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم﴾ لتتمرنوا على تجرع الغموم فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من **المنافع** ﴿ولا ما أصابكم﴾ ولا على مصيب من المضار ﴿والله خبير بما تعملون﴾ عالم بعلمكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وهذا ترغيب في الطاعة وترهيب عن المعصية." (٢)

"يدر فيه الترتيب بل يجوز تقديم المؤخر وتأخير المقدم كذا هنا وإنما قدمنا الدين على الوصية بقوله عليه السلام ألا إن الدين قبل الوصية ولأنها تشبه الميراث من حيث إنها صلة بلا عوض فكان إخراجها مما يشق على الورثة وكان أداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين فقدمت على الدين ليسارعوا إلى اخراجها مع الدين ﴿آباؤكم﴾ مبتدأ ﴿وأبناؤكم﴾ عطف عليه والخبر ﴿لا تدرون﴾ وقوله ﴿أيهم﴾ مبتدأ خبره ﴿أقرب لكم﴾ والجملة فى موضع نصب بتدرون ﴿نفعا﴾ تمييز والمعنى فرض الله الفرائض على ماهو على حكمة ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة والتفاوت في السهام بتفاوت **المنافع** وأنتم لا تدرون تفاوتها فتولى الله ذلك فضلا

منه ولم يكلها إلى اجتهادكم لعجزكم عن معرفة المقادير وهذه الجملة اعتراضية مؤكدة لا موضع لها من الاعراب ﴿فريضة﴾ نصيب نصب المصدر المؤكد أي فرض ذلك فرضا ﴿من الله إن الله كان عليما﴾

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢١٩/١

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣٠٢/١

النساء (١٢)

بالأشياء قبل خلقها ﴿حكيما﴾ فى كل مافرض وقسم من الموابيث وغيرها." [١]

"قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم (٧٦)

﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا﴾ هو عيسى عليه السلام أي شيئا لا يستطيع أن يضركم

المائدة (٧٦ _ ٨٠)

بمثل ما يضركم به الله من البلاء والمصائب في الأنفس والأموال ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب لأن كل ما يستطيعه البشر من المضار **والمنافع** فبتخليقه تعالى فكأنه لا يملك منه شيئا وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضرا ولا نفعا وصفة الرب أن يكون قادرا على كل شيء لا يخرج مقدور عن قدرته ﴿والله هو السميع العليم﴾ متعلق بأتعبدون أي أتشركون بالله ولا تخشونه وهو الذي يسمع ما تقولونه ويعلم ما تعتقدونه." [٢]

"قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين (١٤)

﴿قل أغير الله أتخذ وليا﴾ ناصرا ومعبودا وهو مفعول ثان لا تخذ والأول غير وإنما أدخل همزة الاستفهام على مفعول اتخذ لا عليه لأن الإنكار في اتخاذ غير الله وليا لا في اتخاذ الولي فكان أحق بالتقديم ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ بالجر صفة لله أي مخترعهما وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم إلي أعرابيان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ وهو يرزق ولا يرزق أي **المنافع** كلها من عنده ولا يجوز عليه الانتفاع ﴿قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ لأن النبي سابق أمته في الإسلام كقوله وبذلك امرت وانا أول المسلمين ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ وقيل لي لا تكونن من المشركين ولو عطف على ماقبله لفظا لقيل وأن لا أكون والمعنى أمرت أ بالإسلام ونهيت عن الشرك." [٣]

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣٣٧/١

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٤٦٦/١

(٣) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٤٩٤/١

"وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (٣٢)

﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ جواب لقولهم إن هى إلا حياتنا الدنيا واللعب ترك ما ينفع بما لا ينفع واللهو الميل عن الجد إلى الهزل قيل ما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو وقيل ما أعمال الحياة الدنيا إلا لعب ولهو لانها لا تعقب منفعة كما تعقب أعمال الآخرة **المنافع** العظيمة ﴿وللدار﴾ مبتدأ ﴿الآخرة﴾ صفتها ودار الآخرة بالإضافة شامي أي ولدار الساعة الآخرة لأن الشئ لا يضاف إلى صفته وخبر المبتدأ على القراءتين ﴿خير للذين يتقون﴾ وفيه دليل على أما سوى أعمال المتقين لعب ولهو ﴿أفلا يعقلون﴾ بالتاء مدنى وحفص." [١]

"وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون (٩٢)

﴿وهذا كتاب أنزلناه﴾ على نبينا عليه السلام ﴿مباركا﴾ كثير **المنافع** والفوائد ﴿مصدق الذى بين يديه﴾ من الكتب ﴿ولتنذر﴾ وبالياء أبو بكر أي الكتاب وهو معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب كأنه قيل أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدمه من الكتب ولا نذار ﴿أم القرى﴾ مكة وسميت أم القرى لأنها سرة الأرض وقبلة أهل القرى وأعظمها شأنا ولأن الناس يؤمونها ﴿ومن حولها﴾

أهل الشرق والغرب ﴿والذين يؤمنون بالآخرة﴾ يصدقون بالعاقبة ويخافونها ﴿يؤمنون به﴾ بهذا الكتاب فأصل الدين خوف العاقبة فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن ﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ حصت الصلاة بالذكر لأنها علم الإيمان وعماد الدين فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها ظاهرا." [٢]

"إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون (٣)

﴿إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾

أي استولى فقد يقدس الديان عن المكان والمعبود عن الحدود ﴿يدبر﴾ يقضي ويقدر على مقتضى الحكمة ﴿الأمر﴾ أي أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش ولما ذكر ما يدل على عظمته وملكه من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش أتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور عن قضائه وتقديره وكذلك قوله ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ دليل على عزته وكبريائه

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ١/٥٠٠

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ١/٥٢١

﴿ذلكم﴾ العظيم الموصوف بما وصف به ﴿الله ربكم﴾ وهو الذي يستحق العبادة ﴿فاعبدوه﴾ وجدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من إنسان أو ملك فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع ﴿أفلا تذكرون﴾ أفلا تتدبرون فتستدلون بوجود المصالح **والمنافع** على وجود المصلح النافع." (١)

"خبر له أي لهذه الفلزات إذا أغليت زبد مثل زبد الماء ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ أي مثل الحق والباطل ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء﴾ حال أي متلاشيا وهو ما تقذفه القدر عند الغليان والبحر عند الطغيان والجفء الرمي وجفوت الرجل صرعته ﴿وأما ما ينفع الناس﴾ من الماء والحلي والأواني ﴿فيمكث في الأرض﴾ فيثبت الماء في العيون والآبار والحبوب والثمار وكذلك الجواهر تبقى في الأرض مدة طويلة ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ ليظهر الحق من الباطل قيل هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع **المنافع** وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفات وذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهرا يثبت الماء في منافعه وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله بزبد السيل الذي يرمي به وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب قال الجمهور وهذا مثل قوله الله تعالى للقرآن والقلوب والحق والباطل فالماء القرآن نزل لحياة الجنان كالماء للابدان والأودية للقلوب ومعنى بقدرها بقدر سعة القلب وضيقه والزبد هو أجس النفس ووساوس الشيطان والماء الصافي المنتفع به مثل الحق فكما يذهب الزبد باطلا ويبقى صفو الماء كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس الشيطان ويبقى الحق كما هو وأما حلية الذهب والفضة فمثل للأحوال السنية والأخلاق الزكية وأما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للأعمال الممدة بالإخلاص المعدة للخلاص فإن الأعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب كما أن تلك الجواهر بعضها أداة النفع للكسب وبعضها آلة الدفع في الحرب وأما الزبد فالرياء والخلل والملل والكسل." (٢)

"وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون (٧٨)

﴿وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ خصها بالذكر لأنها تتعلق بها من **المنافع** الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها ﴿قليلا ما تشكرون﴾ أي تشكرون شكرا قليلا وما مزيدة للتأكيد بمعنى حقا والمعنى

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٦/٢

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ١٥٠/٢

إنكم لم تعرفوا عظيم هذه النعم ووضعتموها غير مواضعها فلم تعملوا أبصاركم وأسماعكم في آيات الله وأفعاله ولم تستدلوا بقلوبكم فتعرفوا المنعم ولم تشكروا له شيئا." (١)

"على سعة اشراقه وفشوا إضاءته حتى تصئ له السموات والأرض وجاز أن المراد أهل السموات والأرض وأنهم يستضيئون به ﴿مثل نوره﴾ أي صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة ﴿كمشكاة﴾ كصفة مشكاة وهى الكوفى في الجدار غير النافذة ﴿فيها مصباح﴾ أي سراج ضخم ثاقب ﴿المصباح فى زجاجة﴾ في قنديل من زجاج شامي بكسر الزاي ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ مضئ بضم الدال وتشديد الياء منسوب إلى الدرلفرط ضيائه وصفائه وبالكسر والهمزة عمرو وعلي كأنه يدرأ الظلام بضوئه وبالضم والهمزة أبو بكر وحمزة شبه فى زهرته بأحد الكواكب الدراري كالمشتري والزهرة ونحوهما ﴿يوقد﴾ بالتخفيف حمزة وعلى وابو بكر الزجاجة ويوقد بالتخفيف شامى ونافع وحفص ويوقد بالتشديد مكي وبصري أي هذا المصباح ﴿من شجرة﴾ أى ابتداء ثقوبه من زيت شجرة الزيتون يعني رويت زبالته بزيتها ﴿مباركة﴾ كثيرة المنافع أو لأنها نبتت في الأرض التي بورك فيها للعالمين وقيل بارك فيها سبعون نبيا منهم إبراهيم عليه السلام ﴿زيتونة﴾ بدل من شجرة نعتها ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ أي منبتها الشام يعني ليست من المشرق ولا من المغرب بل فى الوسط منهما وهو الشام

النور (٣٧ - ٣٥)

وأجود الزيتون زيتون الشام وقيل ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط بل تصيبها بالغداة والعشى جميعا فهي شرقية وغربية ﴿يكاد زيتها﴾ دهنها ﴿يضىء ولو لم تمسسه نار﴾ وصف الزيت بالصفاء." (٢)

"أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا (٤٤)

﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ أم منقطعة معناه بل أتحسب كأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالاضراب عنها اليها وهى كونهم مسلوبي الأسماع والعقول لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنا ولا إلى تدبره عقلا ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلالة فقد ركبهم الشيطان بالاستدلال لتركهم الاستدلال ثم هم أرجح ضلالة منها لأن الأنعام تسبح ربها وتسجد له وتطيع من يعلفها وتعرف من يحسن إليها ممن يسئ إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٤٧٧/٢

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٥٠٦/٢

ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم **المنافع** ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذي هو الم‍شرع الهني والعذب الروي وقالوا للملائكة روح وعقل والبهائم نفس وهوى والآدمي مجمع الكل ابتلاء فإن غلبته النفس والهوى فضلته الأنعام وإن غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام وإنما

الفرقان (٤٨ - ٤٥)

ذكر الأكثر لأن فيهم من لم يصده عن الإسلام إلا حب الرياسة وكفى به داء عضالا ولأن فيهم من آمن." (١)

"لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين (٢١)

﴿لأعذبنه عذابا شديدا﴾ بنتف ريشه وإلقائه في الشمس أو بالتفريق بينه وبين ألفه أو بإلزامه خدمة أقرآنه أو بالحبس مع أضداده وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الأضداد أو بإيداعه القفص أو بطرحه بين يدي النمل ليأكله وحل له تعذيب الهدهد لما رأى فيه من المصلحة كما حل ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من **المنافع** وإذا سخر له الطير لم يتم التسخير إلا بالتأديب والسياسة ﴿أو لأذبحنه أو ليأتيني﴾ بالنون الثقيلة ليشاكل قوله لأعذبنه وحذف

النمل (٢٤ - ٢١)

نون العماد للتخفيف ليأتيني بنونين مكي الأولى للتأكيد والثانية للعماد ﴿بسلطان مبين﴾ بحجة له فيها عذر ظاهر على غيبته والإشكال أنه حلف على أحد ثلاثة أشياء اثنان منها فعله ولا مقال فيه والثالث فعل الهدهد وهو مشكل لأنها من أين درى أنه يأتي بسلطان حتى قال والله ليأتيني بسلطان وجوابه أن معنى كلامه ليكونن أحد الأمور يعني إن كان الإتيان بسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح وإن لم يكن كان أحدهما وليس في هذا ادعاء دراية." (٢)

"قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون (٥٩)

﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ أمر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بتحميده ثم بالصلاة على المصطفين من عباده توطئه لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته وقدرته على كل شيء وهو

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٥٤٠/٢

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٥٩٩/٢

تعليم لكل متكلم في كل أمر ذي بال بأن يتبرك بهما ويستظهر بمكانهما أو هو خطاب للوط عليه السلام بأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم ﴿آلله خير أما يشركون﴾ بالياء بصري وعاصم ولا خير فيما أشركوه أصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل شيء وإنما هو إلزام لهم وتهكم بحالهم وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيئا على شيء إلا لداع يدعوه إلى ايثارة من زيادة خبر ومنفعة فقيل لهم مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخبر ولكن هوى وعبثا لينبهوا على الخطأ المفرط والجهل المورط وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد وكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأها قال بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم ثم عدد سبحانه الخيرات **والمنافع** التي هي آثار رحمته وفضله فقال." (١)

"قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون (٧٢)

﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ ولم يقل بنهار تتصرفون فيه كما قال بليل تسكنون فيه بل ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن **المنافع** التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثم قرن بالضياء أفلا تسمعون لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل أفلا تبصرون لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره من السكون ونحوه." (٢)

"الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز (١٩)

﴿الله لطيف بعباده﴾ في إيصال **المنافع** وصرف البلاء من وجه يلطف إدراكه وهو بر بليغ البر بهم قد توصل بره إلى جميعهم وقيل هو من لطف بالغوامض علمه وعظم عن الجرائم حلمه أو من ينشر المناقب ويستر المثالب أو يعفو عمن يهفو أو يعطي العبد فوق الكفاية ويكلفه الطاعة دون الطاعة وعن الجنيد لطف بأوليائه فعرفوه ولو لطف بأعدائه ما جحدوه ﴿يرزق من يشآء﴾ أي يوسع رزق من يشاء إذا علم مصلحته فيه في الحديث إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك وإن

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٦١٤

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٦٥٥

من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك ﴿وهو القوى﴾ الباهر القدرة الغالب على كل شيء ﴿العزيز﴾ المنيع الذي لا يغلب." (١)

"ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد (٩)

﴿ونزلنا من السمآء مآء مباركا﴾ كثير **المنافع** ﴿فأنبتنا به جنات وحب الحصيد﴾ أي وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالحنط والشعير وغيرهما." (٢)

"إنه لقرآن كريم (٧٧)

﴿إنه لقرآن كريم﴾ حسن مرضي أو نفاع جم **المنافع** أوكريم على الله واعترض بلو تعلمون بين الموصوف وصفته." (٣)

"ن والقلم وما يسطرون (١)

﴿ن﴾ الظاهر أن المراد به هذا الحرف من حروف المعجم وأما قول الحسن إنه الدواة وقول ابن عباس إنه الحوت الذي عليه الأرض واسمه تهموت فمشكل لأنه لا بد له من الإعراب سواء كان اسم جنس أو اسم علم فالسكون دليل على أنه من حروف المعجم ﴿والقلم﴾ أي ما كتب به اللوح أو قلم الملائكة أو الذي يكتب به الناس أقسم به لما فيه من **المنافع** والفوائد التي لا يحيط بها الوصف ﴿وما يسطرون﴾ أي ما يسطره الحفظة أو ما يكتب به من الخير من كتب وما موصولة أو مصدرية وجواب القسم." (٤)

"علم الإنسان ما لم يعلم (٥)

﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من **المنافع** العظيمة وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين

ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ولو لم يكن على دقيق حكمة الله دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به." (٥)

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢٥١/٣

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣٦٣/٣

(٣) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٤٢٩/٣

(٤) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٥١٨/٣

(٥) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٦٦٣/٣

"الآية: نزلت في عبد الله بن جحش وأصحابه

الخمر كل مسكر من العنب وغيره والميسر القمار، وكان ميسر العرب بالقداح في لحم الجزور، ثم يدخل في ذلك النرد والشطرنج وغيرهما، وروي أن السائل عنهما كان حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه إثم كبير نص في التحريم وأنهما من الكبائر «١» ، لأن الإثم حرام لقوله: قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم [الأعراف: ٣٣] خلافا لمن قال: إنما حرمتها آية المائدة لا هذه الآية ومنافع في الخمر التلذذ والطرب، وفي القمار: الاكتساب به. ولا يدل ذكر **المنافع** على الإباحة قال ابن عباس: **المنافع** قبل التحريم، والإثم بعده وإثمهما أكبر تغليبا للإثم على المنفعة، وذلك أيضا بيان للتحريم قل العفو أي السهل من غير مشقة، وقراءة الجماعة بالنصب بإضمار فعل مشاكلة للسؤال، على أن يكون ما مبتدأ، وذا خبره تتفكرون في الدنيا والآخرة أي في أمرهما ويسئلونك عن اليتامى كانوا قد تجنبوا اليتامى تورعا، فنزلت إباحة مخالطتهم بالإصلاح لهم، فإن قيل: لم جاء ويسألونك بالواو ثلاث مرات، وبغير واو ثلاث مرات قبلها؟ فالجواب: أن سؤالهم عن المسائل الثلاث الأولى وقع في أوقات مفترقة فلم يأت بحرف عطف وجاءت الثلاثة الأخيرة بالواو لأنها كانتا متناسقة والله يعلم تحذير من الفساد، وهو أكل أموال اليتامى لأعنتكم لضيق عليكم بالمنع من مخالطتهم، قال ابن عباس: لأهلككم بما سبق من أكلكم لأموال اليتامى ولا تنكحوا أي لا تتزوجوا، والنكاح مشترك بين الوطء والعقد المشركات عباد الأوثان من العرب، فلا تتناول اليهود ولا النصارى المباح نكاحهن في المائدة، فلا تعارض بين الموضعين، ولا نسخ، خلافا لمن قال: آية المائدة نسخت هذه، ولمن قال:

هذه نسخت آية المائدة فمنع نكاح الكتابيات، ونزول الآية بسبب مرثد الغنوي أراد أن يتزوج امرأة مشركة ولأمة مؤمنة أي أمة لله، حرة كانت أو مملوكة وقيل: أمة مملوكة خير من حرة مشركة ولو أعجبتكم في الجمال والمال وغير ذلك ولا تنكحوا المشركين أي لا تزوجوهم نساءكم. وانعقد الإجماع على أن الكافر لا يتزوج مسلمة، سواء كان كتابيا أو غيره، واستدل المالكية على وجوب الولاية في النكاح بقوله: ولا

---

(١) . هذه الآية تمهيد للتحريم بدليل استمرار بعض المسلمين على تناولها حتى نزلت آية المائدة: ٩٠ والله أعلم.." [١]

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١٢٠/١

"لوجوه الإنفاق وأوقاته، قال ابن عباس: نزلت في علي فإنه تصدق بدرهم بالليل وبدرهم بالنهار وبدرهم سرا وبدرهم علانية. وقال أبو هريرة: نزلت في علف الخيل الذين يأكلون الربا أي ينتفعون به، وعبر عن ذلك بالأكل لأنه أغلب **المنافع**. وسواء من أعطاه أو من أخذه، والربا في اللغة الزيادة، ثم استعمل في الشريعة في بيوعات ممنوعة أكثرها راجع إلى الزيادة، فإن غالب الربا في الجاهلية قولهم للغريم: أتقضي أم تربي، فكان الغريم يزيد في عدد المال، ويصبر الطالب عليه، ثم إن الربا على نوعين: ربا النسيئة، وربا التفاضل وكلاهما يكون في الذهب والفضة، وفي الطعام. فأما النسيئة فتحرم في بيع الذهب بالذهب وبيع الفضة بالفضة وفي بيع الذهب بالفضة، وهو الصرف، وفي الطعام «١» بالطعام مطلقا، وأما التفاضل: فإنما يحرم في بيع الجنس الواحد بجنسه من النقدين ومن الطعام، ومذهب مالك أنه يحرم التفاضل في المقتات المدخر من الطعام، ومذهب الشافعي أنه يحرم في كل طعام، ومذهب أبي حنيفة أنه يحرم في المكيل والموزون من الطعام وغيره لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس أجمع المفسرون أن المعنى لا يقومون من قبورهم في البعث إلا كالمجنون، ويتخبطه يتفعله من قولك: خبط يخبط، والمس الجنون، ومن تتعلق بيقوم ذلك بأنهم تعليل للعقاب الذي يصيبهم، وإنما هذا للكفار، لأن قولهم: إنما البيع مثل الربا: رد على الشريعة وتكذيب للإثم وقد يأخذ العصاة بحظ من هذا الوعيد، فإن قيل: هلا قيل إنما الربا مثل البيع، لأنهم قاسوا الربا على البيع في الجواز، فالجواب: أن هذا مبالغة، فإنهم جعلوا الربا أصلا حتى شبهوا به البيع وأحل الله البيع عموم يخرج منه البيوع الممنوعة شرعا، وقد عددناها في الفقه ثمانين نوعا وحرم الربا رد على الكفار وإنكار للتسوية بين البيع والربا، وفي ذلك دليل على أن القياس يهدمه النص، لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم تحليل الله وتحريمه فله ما سلف أي له ما أخذ من الربا، أي لا يؤاخذ بما فعل منه قبل نزول التحريم وأمره إلى الله الضمير عائد على صاحب الربا، والمعنى أن الله يحكم فيه يوم القيامة، فلا تؤاخذوه في الدنيا، وقيل: الضمير عائد على الربا، والمعنى أن أمر الربا إلى الله في تحريم أو غير ذلك ومن عاد الآية: يعني من عاد إلى فعل الربا وإلى القول: إنما البيع مثل الربا،

---

(١) . الطعام في اللغة هو الحبوب كالقمح والشعير.." (١)

"الحسرة والله يحيي ويميت رد على قولهم واعتقادهم

ولئن قتلتم الآية إخبار أن مغفرة الله ورحمته لهم إذا قتلوا وماتوا في سبيل الله خير لهم مما يجمعون من

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١٣٧/١

الدنيا ولئن متم أو قتلتم الآية إخبار أن من مات أو قتل فإنه يحشر إلى الله فبما رحمة ما زائدة للتأكيد لانفضوا أي تفرقوا فاعف عنهم فيما يختص بك واستغفر لهم فيما يختص بحق الله وشاورهم المشاورة مأمور بها شرعا، وإنما يشاور النبي صلى الله تعالى عليه واله وسلم الناس في الرأي في الحروب وغيرها، لا في الأحكام الشرعية، وقال ابن عباس: وشاورهم في بعض الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله التوكل هو الاعتماد على الله في تحصيل **المنافع** أو حفظها بعد حصولها، وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها، وهو من أعلى المقامات، لوجهين: أحدهما قوله إن الله يحب المتوكلين والآخر: الضمان الذي في قوله: ومن يتوكل على الله فهو حسبه [الطلاق/ ٣] وقد يكون واجبا ،لقوله تعالى: وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين [المائدة/ ٢٣] فجعله شرطا في الإيمان، والظاهر قوله جل جلاله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون [آل عمران/ ١٢٢] فإن الأمر محمول على الوجوب.

وأعلم أن الناس في التوكل على ثلاثة مراتب: الأولى: أن يعتمد العبد على ربه، كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده الذي لا يشك في نصيحته له، وقيامه بمصالحه، والثانية: أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه، فإنه لا يعرف سواها، ولا يلجأ إلا إليها، والثالثة: أن يكون العبد مع ربه: كالميت بين يدي الغاسل، قد أسلم نفسه إليه بالكلية، فصاحب الدرجة الأولى له حظ من النظر لنفسه، بخلاف صاحب الثانية، وصاحب الثانية له حظ من المراد والاختيار بخلاف صاحب الثالثة. وهذه الدرجات مبنية على التوحيد الخاص الذي تكلمنا عليه في قوله: وإلهكم إله واحد [البقرة/ ١٦٣] فهي تقوى بقوته، وتضعف بضعفه، فإن قيل: هل يشترط في التوكل ترك الأسباب أم لا؟ فالجواب: أن الأسباب على ثلاثة أقسام: أحدهما: سبب معلوم قطعا قد أجراه الله تعالى: فهذا لا يجوز تركه: كالأكل لدفع الجوع، واللباس لدفع البرد. والثاني: سبب مظنون: كالتجارة وطلب المعاش، وشبه ذلك، فهذا لا يقدم فعله في التوكل لأن التوكل من أعمال القلب، لا من أعمال البدن، ويجوز تركه لمن قوي عليه، «١» والثالث: سبب موهوم بعيد، فهذا يقدم فعله في التوكل،

---

(١) . رحم الله المصنف كيف غفل عن أن السعي مطلوب، وهو لا ينافي التوكل إلا لمن كان غافلا عن ربه الذي بيده نجاح الأسباب وفشلها.." [١]

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١٦٩/١

"أو عدل ذلك صياما تحتمل الإشارة بذلك أن تكون إلى الطعام وهو أحسن لأنه أقرب أو إلى الصيد، واختلف في تعديل الصيام بالطعام فقال مالك: يكون مكان كل مد يوما، وقال أبو حنيفة: مكان كل مدين يوم، وقيل: مكان كل صاع يوما، ولا يجب الجزاء ولا الإطعام ولا الصيام إلا بقتل الصيد، لا بأخذه دون قتل لقوله: من قتله، وفي كل وجه يشترط حكم الحكمين، وإنما لم يذكر الله في الصيام والطعام استغناء بذكره في الجزاء ليذوق وبال أمره الذوق هنا مستعار لأن حقيقته بحاسة اللسان، والوبال سوء العاقبة، وهو هنا ما لزمه من التكفير عفا الله عما سلف أي عما فعلتم في الجاهلية من قتل الصيد في الحرم ومن عاد فينتقم الله منه أي من عاد إلى قتل الصيد وهو محرم بعد النهي عن ذلك فينتقم الله منه بوجوب الكفارة عليه أو بعذابه في الآخرة.

أحل لكم صيد البحر أحل الله بهذه الآية صيد البحر للحلال والمحرم، والصيد هنا المصيد، والبحر هو الماء الكثير: سواء كان ملحا أو عذبا، كالبرك ونحوها، وطعامه هو ما يطفو على الماء وما قذف به البحر لأن ذلك طعام وليس بصيد، قاله أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وقال ابن عباس: طعامه ما ملح منه وبقي متاعا لكم وللسيارة الخطاب بلكم للحاضرين في البحر، والسيارة المسافرون أي هو متاع ما تدومون به وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما الصيد هنا يحتمل أن يراد به المصدر أو الشيء المصيد أو كلاهما، فنشأ من هذا أن ما صاده المحرم فلا يحل له أكله بوجه، ونشأ الخلاف فيما صاد غيره، فإذا اصطاد حلال، فقيل: يجوز للمحرم أكله، وقيل: لا يجوز إن اصطاده لمحرم، والأقوال الثلاثة مروية عن مالك، وإن اصطاد حرام [محرم] لم يجز لغيره أكله عند مالك خلافا للشافعي جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس أي أمرا يقوم للناس بالأمن **والمنافع**، وقيل: موضع قيام بالمناسك ولفظ الناس هنا عام، وقيل: أراد العرب خاصة، لأنهم الذين كانوا يعظمون الكعبة والشهر الحرام يريد جنس الأشهر الحرم الأربعة، لأنهم كانوا يكفون فيها عن القتال والهدي يريد أنه أمان لمن يسوقه لأنه يعلم أنه في عبادة لم يأت لحرب والقلائد كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلد شيئا من السمر، وإذا رجع تقلد شيئا من أشجار الحرم، ليعلم أنه كان في عبادة، فلا يتعرض له أحد بشيء، فالقلائد هنا هو ما تقلده المحرم من الشجر، وقيل: أراد قلائد الهدي، قال سعيد بن جبير: جعل الله هذه الأمور للناس في الجاهلية وشدد في الإسلام ذلك لتعلموا الإشارة إلى جعل هذه الأمور قياما للناس، والمعنى جعل الله ذلك لتعلموا أن الله يعلم تفاصيل الأمور." (١)

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢٤٥/١

"طاقة لهم على رؤية الملك في صورته وللبسنا عليهم ما يلبسون أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، فإنهم لو رأوا الملك في صورة إنسان قالوا: هذا إنسان وليس بملك

ولقد استهزئ برسل من قبلك الآية: إخبار قصد به تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما كان يلقى من قومه فحاق أي أحاط بهم، وفي هذا الإخبار تهديد للكفار قل سيروا في الأرض الآية: حض على الاعتبار بغيرهم إذا رأوا منازل الكفار الذين هلكوا قبلهم ثم انظروا قال الزمخشري: إن قلت أي فرق بين قوله: فانظروا وبين قوله: ثم انظروا؟ قلت: جعل النظر سببا عن السير في قوله: فانظروا. كأنه قال: سيروا لأجل النظر، وأما قوله: فسيروا في الأرض ثم انظروا: فمعناه إباحة السير للتجارة وغيرها من **المنافع**، وإيجاب النظر في الهالكين رتبه على ذلك بثم، لتباعد ما بين الواجب والمباح قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله القصد بالآية إقامة البرهان على صحة التوحيد وإبطال الشرك، وجاء ذلك بصفة الاستفهام لإقامة الحجة على الكفار فسأل أولا، لمن ما في السموات والأرض؟ ثم أجاب عن السؤال بقوله قل لله، لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة، فيثبت بذلك أن الإله الحق هو الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، وإنما يحسن أن يكون السائل مجيبا عن سؤاله، إذا علم أن خصمه لا يخالفه في الجواب الذي به يقيم الحجة عليه كتب على نفسه الرحمة أي قضاها، وتفسير ذلك بقول النبي صلى الله عليه واله وسلم: إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض، وفيه «إن رحمتي سبقت غضبي» «١» ، وفي رواية: تغلب غضبي ليجمعنكم مقطوع مما قبله، وهو جواب لقسم محذوف، وقيل: هو تفسير الرحمة المذكورة تقديره: أن يجمعكم، وهذا ضعيف لدخول النون الثقيلة في غير موضعها، فإنها لا تدخل إلا في القسم أو في غير الواجب إلى يوم القيامة قيل: هنا إلى بمعنى في وهو ضعيف، والصحيح أنها للغاية على بابها الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون الذين مبتدأ وخبره لا يؤمنون ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط قاله الزجاج وهو حسن، وقال الزمخشري الذين نصب على الذم أو رفع بخبر ابتداء مضمر، وقيل: هو بدل من الضمير في ليجمعنكم وهو ضعيف، وقيل: منادى وهو باطل وله ما سكن في الليل والنهار عطف على قوله قل:

---

(١) . الحديث متفق عليه من رواية أبي هريرة. وهو في كتاب التوحيد في البخاري ص ٢١٦/ ٨.." [١]

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١/٢٥٥

"سورة النحل

مكية إلا الآيات الثلاث الأخيرة فمدنية وآياتها ١٢٨ نزلت بعد الكهف بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة النحل) أتى أمر الله قيل: النصر على الكفار، وقيل: عذاب الكفار في الدنيا، ووضع الماضي موضع المستقبل لتحقق وقوع الأمر ولقربه، وروي أنها لما نزلت وثب رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما فلما قال: فلا تستعجلوه سكن ينزل الملائكة بالروح أي بالنبوة وقيل بالوحي خلق الإنسان من نطفة أي من نطفة المني، والمراد جنس الإنسان فإذا هو خصيم مبين فيه وجهان أحدهما: أن معناه متكلم يخاصم عن نفسه، والثاني: يخاصم في ربه ودينه، وهذا في الكفار، والأول أعم لكم فيها دفء أي ما يتدفأ به، يعني ما يتخذ من جلود الأنعام وأصوافها من الثياب، ويحتمل أن يكون قوله: لكم متعلقا بما قبله أو بما بعده ويختلف الوقوف باختلاف ذلك ومنافع يعني شرب ألبانها، والحرث بها وغير ذلك ومنها تأكلون يحتمل أن يريد **بالمنافع** ما عدا الأكل فيكون الأكل أمرا زائدا عليها، أو يريد **بالمنافع** الأكل وغيره، ثم جرد ذكر الأكل لأنه أعظم **المنافع** ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون الجمال حسن المنظر، وحين تريحون يعني حين تردونها بالعشي إلى المنازل، وحين تسرحون حين تردونها بالغداة إلى الرعي، وإنما قدم تريحون على تسرحون، لأن جمال الأنعام بالعشي أكثر لأنها ترجع وبطونها ملأى وضروعها حافلة وتحمل أثقالكم يعني الأمتعة وغيرها وقيل: أجساد بني آدم إلى بلد أي إلى أي بلد توجهتم، وقيل:

يعني مكة بشق الأنفس أي بمشقة لتركبوها وزينة استدل بعض الناس به على تحريم أكل الخيل والبغال والحمير، لكونه علل خلقتها بالركوب والزينة دون الأكل، ونصب زينة على أنه." (١)

"وليطوفوا المراد هنا طواف الإفاضة عند جميع المفسرين وهو الطواف الواجب بالبيت العتيق أي القديم، لأنه أول بيت وضع للناس وقيل: العتيق الكريم، كقولهم:

فرس عتيق، وقيل أعتق من الجبابرة أي منع منهم، وقيل: العتيق هو الذي لم يملكه أحد قط ذلك هنا وفي الموضع الثاني مرفوع على تقدير: الأمر ذلك كما يقدم الكاتب جملة من كتابه، ثم يقول هذا وقد كان كذا، وأجاز بعضهم الوقف على قوله: ذلك في ثلاثة مواضع من هذه السورة وهي هذا و «ذلك ومن يعظم شعائر الله» و «ذلك ومن يشرك بالله» لأنها جملة مستقلة أو هو خبر ابتداء مضمر، والأحسن وصلها بما بعدها عند شيخنا أبي جعفر بن الزبير، لأن ما بعدها ليس كلاما أجنبيا، ومثلها «ذلك ومن عاقب» و «ذلكم فذوقوه» في الأنفال، و «هذا وإن للطاغين» في ص: ٥٥ حرمات الله جمع حرمة، وهو ما لا يحل

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٤٢٢/١

هتكه من أحكام الشريعة، فيحتمل أن يكون هنا على العموم، أو يكون خاصا بما يتعلق بالحج لأن الآية فيه فهو خير له أي التعظيم للحرمات خير إلا ما يتلى عليكم يعني ما حرمه في غير هذا الموضع كالميتة الرجس من الأوثان من لبيان الجنس كأنه قال: الرجس الذي هو الأوثان، والمراد النهي عن عبادتها أو عن الذبح تقربا إليها، كما كانت العرب تفعل قول الزور أي الكذب، وقيل: شهادة الزور.

فكأنما خر من السماء الآية، تمثيل للمشرك بمن أهلك نفسه أشد الهلاك سحيق أي بعيد شعائر الله قيل: هي الهدايا في الحج وتعظيمها بأن تختار سمانا عظاما غالية الأثمان، وقيل: مواضع الحج، كعرفات ومنى والمزدلفة، وتعظيمها إجلالها وتوقيرها والقصد إليها، وقيل: الشعائر أمور الدين على الإطلاق، وتعظيمها القيام بها وإجلالها فإنها من تقوى القلوب الضمير عائد على الفعلة التي يتضمنها الكلام وهي مصدر يعظم، وقال الزمخشري: التقدير: فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات لكم فيها منافع من قال: إن شعائر الله هي الهدايا، **فالمنافع** بها شرب لبنها، وركوبها لمن اضطر إليها، والأجل المسمى نحرها. ومن قال إن شعائر الله مواضع الحج، **فالمنافع** التجارة فيها أو الأجر، والأجل المسمى: الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة ثم محلها إلى البيت العتيق من قال: إن شعائر الله الهدايا فمحلها موضع نحرها وهي منى ومكة، وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم وهو المقصود بالهدي، وثم على هذا القول ليست للترتيب في." [١]

"الزمان، لأن محلها قبل نحرها، وإنما هي لترتيب الجمل، ومن قال: إن الشعائر موضع الحج، فمحلها مأخوذ من إحلال المحرم: أي أخر ذلك كله الطواف بالبيت يعني طواف الإفاضة إذ به يحل المحرم من إحرامه ومن قال: إن الشعائر أمور الدين على الإطلاق فذلك لا يستقيم مع قوله: محلها إلى البيت.

ولكل أمة جعلنا منسكا أي لكل أمة مؤمنة، والمنسك اسم مكان أي موضعها لعبادتهم، ويحتمل أن يكون اسم مصدر بمعنى عبادة، والمراد بذلك الذبائح لقوله: «ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام» بخلاف ما يفعله الكفار من الذبح تقربا إلى الأصنام فإلهكم إله واحد في وجه اتصاله بما قبله وجهان: أحدهما أنه لما ذكر الأمم المتقدمة خاطبها بقوله: فإلهكم إله واحد، أي هو الذي شرع المناسك لكم ولمن تقدم قبلكم، والثاني:

أنه إشارة إلى الذبائح أي إلهكم إله واحد فلا تذبحوا تقربا لغيره المخبتين الخاشعين وقيل:

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٣٩

المتو اضعين، وقيل: نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكذلك قوله بعد ذلك: وبشر المحسنين واللفظ فيهما أعم من ذلك وجلت خافت والبدن جمع بدنة، وهو ما أشعر من الإبل، واختلف هل يقال للبقرة بدنة، وانتصابه بفعل مضمر من شعائر الله واحدها شعيرة، ومن للتبعيض، واستدل بذلك من قال: إن شعائر الله المذكورة أو على العموم في أمور الدين لكم فيها خير قيل: الخير هنا **المنافع** المذكورة قبل، وقيل: الثواب، والصواب العموم في خير الدنيا والآخرة صواف معناه: قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وهي منصوبة على الحال من الضمير المجرور، ووزنه فواعل، وواحده صافة وجبت جنوبها أي سقطت إلى الأرض عند موتها، يقال: وجب الحائط وغيره إذا سقط القانع معناه السائل، هو من قولك قنع الرجل بفتح النون: إذا سأل، وقيل: معناه المتعفف عن السؤال، فهو على هذا من قولك: قنع بالكسر إذا رضي بالقليل والمعتر المعترض بغير سؤال، ووزنه مفتعل، يقال: اعتررت بالقوم إذا تعرضت لهم، فالمعنى: أطعموا من سأل ومن لم يسأل ممن تعرض بلسان حاله، وأطعموا من تعفف عن السؤال بالكلية، ومن تعرض للعطاء كذلك سخرناها لكم أي كما أمرناكم بهذا كله سخرناها لكم، وقال الزمخشري: التقدير مثل التخيير الذي علمتم سخرناها لكم.

لن ينال الله لحومها ولا دماؤها المعنى لن تصلوا إلى رضا الله باللحوم ولا بالدماء، وإنما تصلون إليه بالتقوى أي بالإخلاص لله، وقصد وجه الله بما تذبحون وتنحرون." (١)

"طرق للكواكب وما كنا عن الخلق غافلين يحتمل أن يريد بالخلق المخلوقين، أو المصدر

ماء بقدر يعني المطر الذي ينزل من السماء، فتكون منه العيون والأنهار في الأرض، وقيل: يعني أربعة أنهار وهي النيل، والفرات، ودجلة، وسيحان، ولا دليل على هذا التخصيص، ومعنى بقدر: بمقدار معلوم لا يزيد عليه ولا ينقص منه وشجرة تخرج من طور سيناء «١» يعني الزيتون، وإنما خص النخيل والأعناب والزيتون بالذكر: لأنها أكرم الشجر وأكثرها منافع، وطور سيناء: جبل بالشام وهو الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وينسب الزيتون إليه لأنها فيه كثيرة وسيناء اسم جبل أضافه إليه كقوله: جبل أحد، وقرأ الباقون: بفتح السين ولم ينصرف للتأنيث اللازم، وقرئ بالكسر، ولم ينصرف للعجمة أو للتأنيث مع التعريف، لأن فعلاء بالكسر لا تكون ألفه للتأنيث، وقيل: معناه مبارك، وقيل ذو شجرة، ويلزم على ذلك صرفه تنبت بالدهن يعني الزيت، وقرئ تنبت بفتح التاء، فالمجرور على هذا في موضع الحال. كقولك جاء زيد بسلاحه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: تنبت بضم التاء وكسر الباء، وفيه ثلاثة أوجه: الأول أن أنبت بمعنى نبت، والثاني

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/ ٤٠

حذف المفعول تقديره تنبت ثمرتها بالدهن والثالث زيادة الباء وصبغ للآكلين الصبغ الغمس في الإدام في الأنعام هي الإبل والبقر والغنم والمقصود بالذكر الإبل، لقوله: وعليها وعلى الفلك تحملون وقد تقدم في [النحل: ٨٠] ذكر **المنافع** التي فيها وتذكيرها وتأنيثها.

ما هذا إلا بشر استبعدوا أن تكون النبوة لبشر فيا عجبا منهم إذ أثبتوا الربوبية لحجر! يريد أن يتفضل أي يطلب الفضل والرياسة عليكم ما سمعنا بهذا أي بمثل ما دعاهم إليه من عبادة الله، أو بمثل الكلام الذي قال لهم، وهذا يدل على أنه كان قبل نوح فترة طويلة به جنة أي جنون. فانظر اختلاف قولهم فيه: فتارة نسبوه إلى طلب الرياسة، وتارة إلى الجنون حتى حين أي إلى وقت لم يعينوه، ولكن أرادوا وقت زوال جنونه على قولهم، أو وقت موته انصرني بما كذبون تضمن هذا دعاء عليهم، لأن نصرته إنما هي

---

(١) . سيناء بكسر السين وهي قراءة نافع وابن كثير وأبو عمرو.." (١)

"أو بفخرهم وشرفهم وهذا أظهر أم تسألهم خرجا الخرج «١» هو الأجرة ويقال فيه: خراج والمعنى واحد، وقرئ بالوجهين في الموضعين فهو كقوله أم تسألهم أي لست تسألهم أجرا فيثقل عليهم اتباعك فخراج ربك خير أي رزق ربك خير من أموالهم فهو يرزقك ويغنيك عنهم عن الصراط لناكبون أي عادلون ومعرضون عن الصراط المستقيم.

ولو رحمناهم الآية: قال الأكثرون: نزلت هذه الآية حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش بالقحط فنالهم الجوع حتى أكلوا الجلود وغيرها، فالمعنى رحمناهم بالخصب وكشفنا ما بهم من ضر الجوع والقحط: لتمادوا على طغيانهم، وفي هذا عندي نظر، فإن الآية مكية باتفاق، وإنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم على قريش»

بعد الهجرة حسبما ورد في الحديث، وقيل: المعنى لو رحمناهم بالرد إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، وهذا القول لا يلزم عليه ما لزم على الآخر، ولكنه خرج عن معنى الآية ولقد أخذن اهم بالعذاب قيل: إن هذا العذاب هو الجوع بالقحط، وأن الباب ذا العذاب الشديد المتوعد به بعد هذا يوم بدر، وهذا مردود بأن العذاب الذي أصابهم إنما كان بعد بدر، وقيل إن العذاب الذي أخذهم هو يوم بدر، والباب المتوعد به هو القحط، وقيل: الباب ذو العذاب الشديد: عذاب الآخرة، وهذا أرجح، ولذلك وصفه بالشدة لأنه أشد من عذاب الدنيا، وقال: إذا هم فيه مبلسون:

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٥٠/٢

أي يائسون من الخير، وإنما يقع لهم اليأس في الآخرة كقوله ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون [الروم: ١٢].

فما استكانوا أي ما تذللوا لله عز وجل، وقد تقدم الكلام على هذه الكلمة في آخر [آل عمران: ١٤٦] وما يتضرعون إن قيل: هلا قال: فما استكانوا وما تضرعوا، أو فما يستكينون وما يتضرعون باتفاق الفعلين في الماضي أو في الاستقبال؟ فالجواب: أن ما استكانوا عند العذاب الذي أصابهم، وما يتضرعون حتى يفتح عليهم باب عذاب شديد فنفى الاستكانة فيما مضى، ونفى التضرع في الحال والاستقبال قليلا ما تشكرون ما زائدة، وقليلا صفة لمصدر محذوف تقديره: شكرا قليلا تشكرون، وذكر السمع، والبصر والأفئدة- وهي القلوب- لعظم **المنافع** التي فيها، فيجب شكر خالقها ومن شكره: توحيده واتباع رسوله عليه الصلاة والسلام، ففي ذكرها تعديد نعمة وإقامة حجة ذرأكم في الأرض أي نشركم فيها.

---

(١) . خراج قرأ حمزة والكسائي: خراج مرتين وقرأ ابن عامر: خرجا بدون ألف مرتين وقرأ الباقون خرجا ثم خراجا.

(٢) . انظر قوله صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم كتاب الجهاد ج ٢/ اللهم عليك بقريش ثلاث مرات.." (١)

"سورة الشعراء

مكية إلا آية ١٩٧ ومن آية ٢٢٤ إلى آخر السورة فمدنية وآياتها ٢٢٧ نزلت بعد الواقعة بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة الشعراء) طسم تكلمنا على حروف الهجاء في أول سورة البقرة، ويخص هذا أنه قيل الطاء من ذي الطول، والسين من السميع أو السلام، والميم من الرحيم أو المنعم باخع ذكر في الكهف فظلت أعناقهم لها خاضعين الأعناق جمع عنق وهي الجارحة المعروفة، وإنما جمع خاضعين جمع العقلاء لأنه أضاف الأعناق إلى العقلاء، ولأنه وصفها بفعل لا يكون إلا من العقلاء، وقيل: الأعناق الرؤساء من الناس شبهوا بالأعناق كما يقال لهم: رؤوس وصدور، وقيل: هم الجماعات من الناس، فلا يحتاج جمع خاضعين إلى تأويل محدث يعني به محدث الإتيان فسيأتيهم الآية: تهديد من كل زوج أي من كل صنف من النبات فيعم ذلك الأقوات والفواكه والأدوية والمرعى، ووصفه بالكرم لما فيه من الحسن ومن **المنافع** إن في ذلك

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٥٥

لآية الإشارة إلى ما تقدم من النبات، وإنما ذكره بلفظ الإفراد لأنه أراد أن في كل واحد آية أو إشارة إلى مصدر قوله: أنبتنا ويضيق صدري بالرفع عطف على أخاف، أو استئناف، وقرئ بالنصب عطفا على يكذبون فأرسل إلى هارون أي اجعله معي رسولا أستعين به ولهم علي ذنب يعني قتله للقبطي قال كلا أي لا تخف أن يقتلوك إنا معكم خطاب لموسى وأخيه ومن كان معهما. أو على جعل الاثنين جماعة مستمعون لفظه جمع، وورد." (١)

"في الحيرة والعجز عن الجواب

وربك يخلق ما يشاء ويختار قيل: سببها استغراب قريش لاختصاص سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة، فالمعنى أن الله يخلق ما يشاء، ويختار لرسالته من يشاء من عباده، ولفظها أعم من ذلك، والأحسن حمله على عمومه:

أي يختار ما يشاء من الأمور على الإطلاق، ويفعل ما يريد ما كان لهم الخيرة ما نافية، والمعنى ما كان للعباد اختيار إنما الاختيار، والإرادة لله وحده. فالوقف على قوله ويختار، وقيل: إن ما مفعولة بيختار، ومعنى الخيرة على هذا الخير والمصلحة، وهذا يجري على قول المعتزلة، وذلك ضعيف لرفع الخيرة على أنها اسم كان، ولو كانت ما مفعولة: لكان اسم كان مضمرا يعود على ما وكانت الخيرة منصوبة على أنها خبر كان، وقد اعتذر عن هذا من قال: إن ما مفعولة بأن يقال: تقدير الكلام: يختار ما كان لهم الخيرة فيه، ثم حذف الجار والمجرور وهذا ضعيف، وقال ابن عطية: يتجه أن تكون ما مفعولة إذا قدرنا كان تامة، ويوقف على قوله ما كان: أي يختار كل كائن، ويكون «لهم الخيرة» جملة مستأنفة، وهذا بعيد جدا يعلم ما تكن صدورهم أي ما تخفيه قلوبهم وعبر عن القلب بالصدر، لأنه يحتوي عليه.

له الحمد في الأولى والآخرة قيل إن الحمد في الآخرة قولهم: الحمد لله الذي صدقنا وعده [الزمر: ٧٤] أو قولهم: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن [فاطر: ٣٤] ، وفي ذكر الأولى مع الآخرة مطابقة سرمدا أي دائما، والمراد بالآيات إثبات الوحدانية وإبطال الشرك، فإن قيل: كيف قال يأتيكم بضياء، وهلا قال: يأتيكم بنهار في مقابلة قوله يأتيكم بليل؟ فالجواب أنه ذكر الضياء لجملة ما فيه من المنافع والعبر لتسكنوا فيه أي في الليل ولتبتغوا من فضله أي في النهار، ففي الآية لف ونشر ونزعنا من كل أمة شهيدا أي أخرجنا من

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٨٨

كل أمة شهيدا منهم يشهد عليهم بأعمالهم وهو نبيهم، لأن كل نبي يشهد على أمته هاتوا برهانكم أي هاتوا حجتكم على ما كنتم عليه من الكفر، وذلك إعذار لهم وتوبيخ وتعجيز.." [1]

"وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون أي ظهر لهم يوم القيامة خلاف ما كانوا يظنون لأنهم كانوا يظنون ظنونا كاذبة. قال الزمخشري: المراد بذلك تعظيم العذاب الذي يصيبهم، أي ظهر لهم من عذاب الله ما لم يكن في حسابهم فهو كقوله في الوعد فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين [السجدة: ١٧] وقيل: معناها عملوا أعمالا حسبوها حسنات، فإذا هي سيئات وقال الحسن: ويل لأهل الربا من هذه الآية وهذا على أنها في المسلمين والظاهر أنها في الكفار وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن معنى حاق حل ونزل وقال ابن عطية وغيره: إن هذا على حذف مضاف تقديره: حاق بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون، ويحتمل أن يكون الكلام دون حذف وهو أحسن، ومعناه حاق بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون لأنهم كانوا في الدنيا يستهزئون، إذا خوفوا بعذاب الله، ويقولون متى هذا الوعد قال إنما أوتيته على علم يحتمل وجهين أحدهما وهو الأظهر: أن يريد على علم مني بالمكاسب والمنافع، والآخر: على علم الله باستحقاقي لذلك، وإنما هنا تحتمل وجهين: أحدهما وهو الأظهر: أن تكون ما كافة وعلى علم في موضع الحال، والآخر أن تكون ما اسم إن وعلى علم خبرها وإنما قال: أوتيته بالضمير المذكر وهو عائد على النعمة للحمل على المعنى بل هي فتنة رد على الذي قال إنما أوتيته على علم قد قالها الذين من قبلهم يعني قارون وغيره.

قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله قال علي بن أبي طالب وابن مسعود: هذه أرجى آية في القرآن، وروي أن رسول الله صلى الله عليه آله وسلم قال: ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية، واختلف في سببها فقيل: في وحشي قاتل حمزة، لما أراد أن يسلم وخاف أن لا يغفر له ما وقع فيه من قتل حمزة، وقيل: نزلت في قوم آمنوا ولم يهاجروا، ففتنوا فافتتنوا ثم ندموا وظنوا أنهم لا توبة لهم، وهذا قول عمر بن الخطاب: وقد كتب بها إلى هشام بن العاصي، لما جرى له ذلك وقيل: نزلت في قوم من أهل الجاهلية، قالوا: ما ينفعنا الإسلام لأننا قد زنينا، وقتلنا النفوس فنزلت الآية فيهم، ومعناها مع ذلك على العموم في جميع الناس إلى يوم القيامة على تفصيل نذكره،." [2]

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/١١٨

(٢) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٢٢٣

"أمر الله: القيامة، وقال ابن عطية: المعنى إذا أراد الله إرسال رسول قضي ذلك، ويحتمل أن يريد بأمر الله إهلاك المكذبين للرسل لقوله وخسر هنالك المبطلون هنالك في الموضعين يراد به الوقت والزمان، وأصله ظرف مكان ثم وضع موضع ظرف الزمان (الأنعام) هي الإبل والبقر والضأن والمعز، فقوله

لتركبوا منها يعني الإبل، ومنها تأكلون يعني اللحوم **والمنافع** منها اللبن والصوف وغير ذلك ولتبلغوا عليها حاجة يعني قطع المسافة البعيدة، وحمل الأثقال على الإبل، وتحملون يريد الركوب عليها وإنما كرره بعد قوله: لتركبوا منها لأنه أراد الركوب الأول المتعارف في القرى والبلدان وبالحمل عليها، الأسفار البعيدة، قاله ابن عطية يريكم آياته

هذا عموم بعد ما قدم من الآيات المخصوصة ولذلك وبخهم بقوله: أي آيات الله تنكرون

فرحوا بما عندهم من العلم الضمير يعود على الأمم المكذبين وفي تفسير علمهم وجوه: أحدها أنه ما كانوا يعتقدون من أنهم لا يبعثون ولا يحاسبون، والثاني أنه علمهم بمنافع الدنيا ووجوه كسبها، والثالث أنه علم الفلاسفة الذين يحتقرون علوم الشرائع وقيل: الضمير يعود على الرسل، أي فرحوا بما أعطاهم الله من العلم بالله وشرائعه أو بما عندهم من العلم بأن الله ينصرهم على من يكذبهم، وأما الضمير في: وحاق بهم فيعود على الكفار باتفاق، ولذلك ترجح أن يكون الضمير في فرحوا يعود عليهم ليتسق الكلام (سنة الله) انتصب على المصدرية والله سبحانه أعلم.." (١)

"للقتال ولذلك قال: وليعلم الله من ينصره ورسله **والمنافع** للناس: سكك الحرث والمسامير وغير ذلك

فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون أي من ذرية نوح وإبراهيم مهتدون قليلون، وأكثرهم فاسقون لأن منهم اليهود والنصارى وغيرهم.

وقفينا ذكر في البقرة [٨٧] وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة هذا ثناء عليهم بمحبة بعضهم في بعض كما وصف أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، بأنهم رحماء بينهم ورهبانية ابتدعوها الرهبانية هي الانفراد في الجبال، والانقطاع عن الناس في الصوامع، ورفض النساء وترك الدنيا، ومعنى ابتدعوها أي أحدثوها من غير أن يشرعها الله لهم، وإعراب رهبانية معطوف على رأفة ورحمة أي جعل الله في قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية، وابتدعوها صفة للرهبانية، والجعل هنا بمعنى الخلق. والمعتزلة يعربون رهبانية مفعولا بفعل مضمر يفسره ابتدعوها لأن مذهبهم أن الإنسان يخلق أفعاله، فأعربوها على مذهبهم، وكذلك أعربها

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٢٣٦

أبو علي الفارسي وذكر الزمخشري الوجهين ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله كتبنا هنا بمعنى، فرضنا وشرعنا وفي هذا قولان: أحدهما أن الاستثناء منقطع، والمعنى ما كتبنا عليهم الرهبانية، ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم، ابتغاء رضوان الله، والآخر أن الاستئناف متصل والمعنى كتبناها عليهم ابتغاء رضوان الله والأول أرجح لقوله «ابتدعوها» ولقراءة عبد الله بن مسعود: ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها فما رعوها حق رعايتها أي لم يدوموا عليها، ولم يحافظوا على الوفاء بها، يعني أن جميعهم لم يرعوها وإن رعاها بعضهم. والضمير في رعوها للذين ابتدعوا الرهبانية وكان يجب عليهم إتمامها، وإن لم يكتبها الله سبحانه وتعالى عليهم، لأن من دخل في شيء من النوافل يجب عليه إتمامه وقيل: الضمير لمن جاء بعد الذين ابتدعوا الرهبانية من أتباعهم.

وآمنوا برسوله إن قيل: كيف خاطب الذين آمنوا وأمرهم بالإيمان وتحصيل الحاصل لا ينبغي؟ فالجواب من وجهين: أحدهما أن معنى آمنوا دوموا على الإيمان وأثبتوا عليه، والآخر أنه خطاب لأهل الكتاب فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويؤيد هذا قوله: يؤتكم كفلين من رحمته أي نصيبين، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي «١» الحديث ويجعل لكم نورا تمشون به يحتمل أن يريد النور

---

(١) . رواه أحمد عن أبي موسى الأشعري ج ٤ ص ٤٠٢، ٤٠٥. [.....]." [(١)]

"سورة القلم

مكية إلا آية ١٧ إلى غاية آية ٣٣ ومن آية ٤٨ إلى غاية آية ٥٠ فمدنية وآياتها ٥٢ نزلت بعد العلق بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة القلم) ن حرف من حروف الهجاء وقد تقدم الكلام عليها في البقرة، ويختص ن بأنه قيل: إنه حرف من الرحمن فإن حروف الرحمن ألف ولام وراء وحاء وميم ون وقيل: إن نون هنا يراد به الحوت، ومنه ذو النون يونس والقلم وما يسطرون اختلف فيه على قولين أحدهما: أنه القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ، فالضمير في يسطرون للملائكة والآخر: أنه القلم المعروف عند الناس، أقسم الله به لما فيه من **المنافع** والحكم، والضمير في يسطرون على هذا لبني آدم ما أنت بنعمة ربك بمجنون هذا جواب القسم وهو خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم معناه: نفي نسبة الكفار له من الجنون، وبنعمة ربك اعتراض بين ما

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٣٤٩

وخبرها كما تقول: أنت بحول الله أفضل والمجرور في موضع الحال، وقال الزمخشري: إن العامل فيه بمجنون غير ممنون ذكر في فصلت [٨] .

وإنك لعلى خلق عظيم هذا ثناء على خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القرآن «١» ، تعني التأدب بآدابه وامتثال أوامره، وعبر ابن عباس عن الخلق بالدين والشرع وذلك رأس الخلق، وتفصيل ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جمع كل فضيلة، وحاز كل خصلة جميلة، فمن ذلك شرف النسب ووفور العقل وصحة الفهم، وكثرة العلم، وشدة الحياء، وكثرة العبادة والسخاء والصدق والشجاعة والصبر والشكر والمروءة والتودد والاقتصاد والزهد والتواضع والشفقة والعدل والعفو وكظم الغيظ وصلة الرحم وحسن المعاشرة وحسن التدبير وفصاحة اللسان وقوة الحواس وحسن الصورة وغير ذلك، حسبما ورد في أخباره وسيره صلى الله عليه وآله وسلم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق «٢» ، وقال

(١). حديث عائشة أخرجه المنادى في التيسير وعزاه لأحمد ومسلم وأبي داود.

(٢) . الحديث قال العجلوني فيه: رواه مالك في الموطأ بلاغا وأوله: إنما بعثت وقال ابن عبد البر هو متصل بسند صحيح إلى أبي هريرة فانظره هناك.." [١]

"وقيل: هو بمعنى مضرع للبدن أي مضعف وقيل: إن العرب لا تعرف هذا اللفظ، فإن قيل: كيف قال هنا: ليس لهم طعام إلا من ضريع وقال في الحاقة: ولا طعام إلا من غسلين؟ فالجواب أن الضريع لقوم والغسلين لقوم، أو يكون أحدهما في حال والآخر في حال

لا يسمن ولا يغني من جوع هذه الجملة صفة لضريع، ولطعام نفي عنه منفعة الطعام وهي التسمين وإزالة الجوع.

وجوه يومئذ ناعمة أي متنعمة في الجنة أو يظهر عليها نضرة النعيم لسعيها راضية أي راضية في الآخرة لأجل سعيها وهو عملها في الدنيا في جنة عالية يحتمل أن يكون من علو المكان أو من علو المقدار أو الوجهين لا تسمع فيها لاغية «١» هو من لغو الكلام ومعناه الفحش وما يكره، فيحتمل أن يريد كلمة لاغية أو جماعة لاغية فيها عين جارية يحتمل أن يريد جنس العيون أو واحدة شرفها بالتعيين وأكواب موضوعة قد ذكرنا أكواب ومعنى موضوعة: حاضرة، معدة بشرابها وفي قوله: مرفوعة وموضوعة مطابقة ونمارق جمع

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٣٩٨/٢

نمرقة وهي الوسادة وزرابي هي بسط فاخرة [السجاد في اصطلاح اليوم] وقيل: هي الطنافس واحدها زربية مبثوثة أي متفرقة، وذلك عبارة عن كثرتها وقيل:

مبسوطة أفلا ينظرون إلى الإبل حض على النظر في خلقتها لما فيها من العجائب في قوتها، وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف، وصبرها على العطش، وكثرة **المنافع** التي فيها من الركوب والحمل عليها، وأكل لحومها وشرب ألبانها، وأبوالها وغير ذلك. وقيل: أراد بالإبل السحاب وهذا بعيد وإنما حمل قائله عليه مناسبتها للسماء والأرض والجبال. والصحيح أن المراد الحيوان المعروف، وإنما ذكره لما فيه من العجائب، ولاعتناء العرب به إذ كانت معايشهم في الغالب منه، وهو أكثر المواشي في بلادهم لست عليهم بمصيطر أي قاهر متسلط وهذا من المنسوخ بالسيف إلا من تولى استثناء منقطع معناه لكن من تولى وكفر فيعذبه الله وقيل هو استثناء من مفعول فذكر، والمعنى ذكر كل أحد إلا من تولى حتى يئست منه فهو على هذا متصل، وقيل: هو استثناء من قوله: لست عليهم بمصيطر أي لا تسلط إلا على من تولى وكفر، وهو على هذا متصل ولا نسخ فيه إذ لا موادعة فيه وهذا بعيد، لأن السورة مكية والموادعة بمكة ثابتة إن إلينا إيابهم أي رجوعهم والآية تهديد.

---

(١) . الآية قوله: لا تسمع فيها لاغية: قرأها أهل الشام والكوفة هكذا وقرأها نافع: لا تسمع بضم التاء وقرأها ابن كثير وأبو عمر: لا يسمع بالياء.." (١)

"واحتج أبو حنيفة ومن لا يرى وجوب السعي بقوله: «فلا جناح عليه أن يطوف بهما». وهذا لا يقال في الواجبات ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله: ومن تطوع خيرا فبين أنه تطوع وليس بواجب. وأجيب عن الأول بأن قوله تعالى: فلا جناح عليه ليس فيه إلا أنه لا إثم على فعله وهذا القدر مشترك بين الواجب، وغيره كما تقدم بيانه فلا يكون فيه دلالة على نفي الوجوب. وعن الثاني وهو التمسك بقوله تعالى: ومن تطوع خيرا فضعيف لأن هذا لا يقتضي أن يكون المراد من هذا التطوع هو الطواف المذكور، أولا بل يجوز أن يكون المقصود منه شيئا آخر يدل على ذلك قول الحسن: إن المراد من قوله: ومن تطوع خيرا جميع الطاعات في الدين يعني فعل فعلا زائدا على ما افترض عليه من صلاة وصدقة وصيام وحج وعمرة، وطواف، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

وقال مجاهد: ومن تطوع خيرا بالطواف بهما وهذا على قول من لا يرى الطواف بهما فرضا وقيل معناه

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٤٧٧

ومن تطوع خيرا فزاد في الطواف بعد الواجب والقول الأول أولى للعموم فإن الله شاكر أي مجاز على الطاعة عليم أي بنيته وحقيقة الشاكر في اللغة هو المظهر للأنعام عليه والشكر هو تصور النعمة، وإظهارها والله تعالى لا يوصف بذلك لأنه لا يلحقه المنافع والمضار، فالشاكر في صفة الله تعالى مجاز فإذا وصف به أريد به أنه المجازي على الطاعة بالثواب، إلا أن اللفظ خرج مخرج التلطف للعباد مظاهرة في الإحسان إليهم. قوله عز وجل:

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٥٩ الى ١٦٣]

إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون (١٥٩) إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم (١٦٠) إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين (١٦١) خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون (١٦٢) وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم (١٦٣)

إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى نزلت في علماء اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغيرها من الأحكام التي كانت في التوراة. وقيل: إن الآية على العموم فيمن كتم شيئا من أمر الدين لأن اللفظ عام والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبت، ومن قال بالقول الأول، وإنها في اليهود قال: إن الكتم لا يصح إلا منهم لأنهم كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ومعنى الكتمان ترك إظهار الشيء مع الحاجة إلى بيانه وإظهاره، فمن كتم شيئا من أمر الدين فقد عظمت مصيبته (ق) عن أبي هريرة قال: لولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ما حدثت شيئا أبدا: إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى وقوله: وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه إلى آخر الآيتين، وهل إظهار علوم الدين فرض كفاية أو فرض عين؟ فيه خلاف والأصح، أنه إذا ظهر للبعض بحيث يتمكن كل واحد من الوصول إليه لم يبق مكتوما، وقيل: متى سئل العالم عن شيء يعلمه من أمر الدين يجب عليه إظهاره وإلا فلا من بعد ما بيناه للناس في الكتاب يعني في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم فعلى هذا يكون المراد بالناس علماء بني إسرائيل، ومن قال: إن المراد بالكتاب جميع ما أنزل الله على أنبيائه من الأحكام قال المراد بالناس العلماء كافة أولئك يعني الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى يلعنهم الله أي يبعدهم من رحمته وأصل اللعن في اللغة الطرد والإبعاد ويلعنهم اللاعنون قال ابن عباس: جميع الخلائق إلا الجن والإنس وذلك أن البهائم تقول إنما منعنا القطر بمعاصي بني آدم. وقيل: اللاعنون هم الجن والإنس لأنه وصفهم بوصف من يعقل وقيل: ما تلا عن اثنان من المسلمين إلا رجعت إلى اليهود

والنصارى الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ثم استثنى فقال تعالى: إلا الذين تابوا أي ندموا على ما فعلوا فرجعوا عن الكفر إلى الإسلام وأصلحوا يعني الأعمال فيما بينهم وبين الله تعالى وبينوا يعني ما كتموا من العلم فأولئك." (١)

"قوله عز وجل: كتب عليكم القتال أي فرض عليكم الجهاد. واختلف العلماء في حكم الآية فقال عطاء الجهاد تطوع والمراد من الآية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيرهم وإليه ذهب الثوري وحكى عن الأوزاعي نحوه، وحجة هذا القول أن قوله كتب يقتضي الإيجاب ويكفي العمل به مرة واحدة وحجة من أوجبه على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قوله عليكم يقتضى تخصيص هذا الخطاب بالموجودين في ذلك الوقت، وقيل: بل الآية على ظاهرها والجهاد فرض على كل مسلم ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجهاد واجب عليكم مع كل أمير براكان أو فاجرا» أخرجه أبو داود بزيادة فيه (ق) عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» وقيل: إن الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقين وهذا القول: هو المختار الذي عليه جمهور العلماء. قال الزهري كتب الله القتال على الناس جاهدوا أو لم يجاهدوا فمن غزا فيها ونعمت ومن قعد عدة إن استعين به أعان وإن استنفر نفر وإن استغنى عنه قعد قال الله تعالى: فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى ولو كان القاعد تاركا فرضا لم يعده بالحسنى، واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها أنها محكمة ناسخة للعفو عن المشركين. القول الثاني: إنها منسوخة لأن فيها وجوب الجهاد على الكافة ثم نسخ بقوله تعالى: وما كان المؤمنون لينفروا كافة القول الثالث: إنها ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه فالناسخ منها إيجاب الجهاد مع المشركين بعد المنع منه، والمنسوخ إيجاب الجهاد على الكافة. وقوله تعالى: وهو كره لكم أي القتال شاق عليكم وهذا الكره إنما حصل من حيث نفور الطبع عن القتال، لما فيه من مؤنة المال ومشقة النفس وخطر الروح والخوف لا أنهم كرهوا أمر الله قيل: نسخ هذا الكره بقوله تعالى إخبارا عنهم: «وقالوا سمعنا وأطعنا» وقيل: إنما كان كراهتهم القتال قبل أن يفرض عليهم لما فيه من الخوف والشدة وكثرة الأعداء فبين الله تعالى أن الذين تكرهون من القتال هو خير لكم من تركه لئلا يكرهونه بعد أن فرض عليهم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم لفظة عسى توهم الشك مثل لعل، وهي من الله يقين.

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١/٩٧

وقيل: إنها كلمة مطمعة فهي لا تدل على حصول الشك للقائل وتدل على حصول الشك للمستمع، والمعنى أن الغزو فيه إحدى الحسنيين إما الظفر والغنيمة وإما الشهادة والجنة وقيل: ربما كان الشيء شاقا في الحال وهو سبب **المنافع** الجليلة في المستقبل، ومثله شرب الدواء المر فإنه ينفر عنه الطبع في الحال ويكرهه لكن يتحمل هذه الكراهة والمشقة لتوقع حصول الصحة في المستقبل وعسى أن تحبوا شيئا يعني القعود عن الغزو وهو شر لكم يعني لما فيه من فوت الغنيمة والأجر وطمع العدو فيكم، لأنه إذا علم ميلكم إلى الراحة والدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتالكم وإذا علم أن فيكم شهامة وجلادة على القتال كف عنكم والله يعلم يعني ما في الجهاد من الغنيمة والأجر والخير وأنتم لا تعلمون يعني ذلك والمعنى أن العبد إذا علم قصور علمه وكمال علم الله ثم إن الله تعالى أمره بأمر كان ذلك الأمر فيه مصلحة عظيمة فيجب على العبد امتثال أمر الله تعالى وإن كان يشق على النفس في الحال. قوله عز وجل:

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢١٧ الى ٢١٨]

يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢١٧) إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم (٢١٨)." (١)

"المصاهرة وهو قول أكثر أهل العلم والثاني لا تثبيت به كما لا تثبت بالنظرة بشهوة. قوله تعالى:

[سورة النساء (٤): آية ٢٤]

والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما (٢٤)

والمحصنات يعني حرمت المحصنات من النساء وأصل الإحصان في اللغة المنع والحصان بالفتح المرأة العفيفة ويطلق الإحصان على المرأة ذات الزوج والحرة والعفيفة والمرأة المسلمة والمراد من الإحصان في

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٤٥/١

قوله والمحصنات ذوات الأزواج من النساء فلا يحل لأحد نكاحهن قبل مفارقة أزواجهن وهذه هي السابعة من النساء التي حرمن بالسبب. قال أبو سعيد الخدري: نزلت هذه الآية في نساءكن هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهن أزواج فتزوجن ببعض المسلمين ثم قدم أزواجهن مهاجرين فنهي الله المسلمين عن نكاحهن ثم استثنى فقال تعالى: إلا ما ملكت أيمانكم يعني السبايا اللاتي سبين ولهن أزواج في دار الحرب، فيحل لمالكهن وطؤهن بعد الاستبراء لأن السبي يرتفع به النكاح بينها وبين زوجها قال أبو سعيد الخدري: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا إلى أوطاس فأصابوا سبايا لهن أزواج من المشركين فكرهوا غشيانهن فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن مسعود: أراد أنه إذا باع الجارية المزوجة فتقع الفرقة بينها وبين زوجها ويكون بيعها طلاقا فيحل للمشتري وطؤها. وقال عطاء: أراد بقوله إلا ما ملكت أيمانكم أن تكون أمته في نكاح عبده فيجوز له أن ينتزعها منه وقيل أراد بالمحصنات من النساء الحرائر ومعناه أن ما فوق الأربع منهن فإنه عليكم حرام إلا ما ملكت أيمانكم فإنه لا عدد عليكم في الجواري ولا حصر كتاب الله عليكم يعني حرمت عليكم أمهاتكم وكتب عليكم هذا كتابا وقيل معناه الزموا كتاب الله وقيل معناه كتابا من الله عليكم بمعنى كتب الله تحريم ما حرم عليكم من ذلك وتحليل ما حلل كتابا وأحل لكم ما وراء ذلكم يعني وأحل الله لكم ما سوى ذلكم الذي ذكر من المحرمات. وظاهر هذه الآية يقتضي حل ما سوى المذكورين من الأصناف المحرمات، لكن قد دل الدليل من السنة بتحريم أصناف أخر سوى ما ذكر فمن ذلك أنه يحرم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها ومن ذلك المطلقة ثلاثا لا تحل لزوجها الأول حتى تنكح زوجا غيره ومن ذلك نكاح المعتدة فلا تحل للأزواج حتى تنقضي عدتها ومن ذلك أن من كان في نكاحه حرة لم يجز له أن يتزوج بأمة والقادر على طول الحرة لم يجز له أن يتزوج بالأمة ومن ذلك أن من كان عنده أربع نسوة حرم عليه أن يتزوج بخامسة ومن ذلك الملاعنة فإنها محرمة على الملاعن بالتأبيد فهذه أصناف من المحرمات سوى ما ذكر في الآية فعلى هذا يكون قوله تعالى: وأحل لكم ما وراء ذلكم ورد بلفظ العموم لكن العموم دخله التخصيص فيكون عاما مخصوصا. وقوله تعالى: أن تبتغوا بأموالكم فيه إضمار تقديره وأحل لكم أن تبتغوا أي تطلبوا بأموالكم أن تنكحوا بصداق أو تشتروا بثمن. وفي الآية دليل على أن الصداق لا يتقدر بشيء فيجوز على القليل والكثير لإطلاق قوله تعالى: أن تبتغوا بأموالكم محصنين يعني متزوجين وقيل متعففين غير مسافحين يعني غير زانين والسفاح الفجور وأصله من السفح وهو الصب وإنما سمي الزنى سفاحا لأن الزاني لا غرض له إلا صب النطفة فقط. قوله تعالى: فما استمتعتم به منهن اختلفوا في معناه فقال الحسن ومجاهد: أراد ما انتفعتم وتلذذتم بالجماع

من النساء بنكاح صحيح لأن أصل الاستمتاع في اللغة الانتفاع وكل ما انتفع به فهو متاع فآتوهن أجورهن يعني مهورهن وإنما سمي المهر أجرا لأنه بدل **المنافع** ليس بدل الأعيان كما سمي بدل منافع الدار والدابة أجرا. وقال قوم المراد من حكم الآية هو نكاح المتعة وهو أن ينكح امرأة إلى مدة معلومة بشيء معلوم فإذا انقضت تلك المدة بانت منه بغير طلاق ويستبرئ رحمها وليس بينهما ميراث وكان هذا في ابتداء الإسلام ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المتعة فحرمها (م) عن سبرة بن معبد." [١]

"سورة الأنعام

(فصل في ذكر نزولها) روى مجاهد عن ابن عباس أن سورة الأنعام مما نزل بمكة وهذا قول الحسن وقتادة وجابر بن زيد. وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الأنعام جملة ليلا بمكة وحولها سبعون ألف ملك وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هي مكية نزلت جملة واحدة نزلت ليلا وكتبوها من ليلتهم غير ست آيات منها فإنها مدنيات وهي قوله تعالى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم إلى آخر الثلاث آيات وقوله تعالى: وما قدروا الله حق قدره الآية وقوله تعالى: ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء إلى آخر الآيتين وذكر مقاتل نحو هذا وزاد آيتين وهما قوله تعالى: والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق الآية وقوله تعالى: الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الآية وروي عن ابن عباس أيضا وقتادة أنهما قالا: هي مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة قوله وما قدروا الله حق قدره وقوله: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات الآية ولما نزلت سورة الأنعام ومعها سبعون ألف ملك قد سدوا ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتحميد قال النبي صلى الله عليه وسلم «سبحان ربي العظيم سبحان ربي العظيم وخر ساجدا» قال البغوي وروي عنه مرفوعا من قرأ سورة الأنعام صلى عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره وذكره بغير سند والله سبحانه وتعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة الأنعام (٦): آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (١)

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١/٣٦١

قوله عز وجل: الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض قال كعب الأحبار: هذه الآية أول آية في التوراة وآخر آية في التوراة قوله تعالى: وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا الآية وفي رواية عنه أن آخر آية في التوراة آخر سورة هود قال ابن عباس: افتتح الله الخلق بالحمد فقال الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وختمه بالحمد فقال تعالى: وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين وفي قوله: الحمد لله، تعليم لعباده كيف يحمدونه أي: قولوا الحمد لله. وقال أهل المعاني لفظه خبر ومعناه الأمر أي احمدوا الله وإنما جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الأمر لأنه أبلغ من البيان من حيث إنه جمع الأمرين ولو قيل احمدوا الله لم يجمع الأمرين فكان قوله الحمد لله أبلغ وقد تقدم معنى الحمد في تفسير سورة فاتحة الكتاب بما فيه مقنع الذي خلق السموات والأرض أي احمدوا الله خلق السموات والأرض وإنما خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد لأن السماء بغير عمد ترونها وفيها العبر **والمنافع** والأرض مسكن الخلق وفيها أيضا العبر **والمنافع** وجعل الظلمات والنور الجعل هنا بمعنى الخلق أي وخلق الظلمات والنور. قال السدي: يريد بالظلمات، ظلمات الليل والنهار، وبالنور، نور النهار. وقال الحسن: يعني بالظلمات الكفر وبالنور الإيمان. وقيل: يعني بالظلمات." (١)

"الأب والمستودع رحم الأم. ووجه هذا القول، أن النطفة حصلت في صلب الأب قبل رحم الأم فوجب حمل المستقر على الصلب والمستودع على الرحم. وقال ابن مسعود: المستقر في الرحم إلى أن يولد والمستودع في القبر إلى أن يبعث وقال مجاهد: المستقر على ظهر الأرض في الدنيا لقوله: ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين والمستودع عند الله في الآخرة. وقال الحسن: المستقر في القبر والمستودع في الدنيا وكان يقول يا ابن آدم أنت مستودع في أهلك إلى أن تلحق بصاحبك يعني القبر وقيل المستودع في القبر والمستقر إما في الجنة والنار، لأن المقام فيهما يقتضي الخلود والتأبيد قد فصلنا الآيات قد بينا الدلائل الدالة على التوحيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة لقوم يفقهون يعني لقوم يفهمون عن الله آياته ودلائله الدالة على توحيده لأن الفقه هو الفهم. قوله عز وجل:

[سورة الأنعام (٦): آية ٩٩]

وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٩٧

أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون (٩٩)

وهو الذي أنزل من السماء ماء يعني المطر وقيل إن الله ينزل المطر من السماء إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض فأخرجنا به يعني بالماء الذي أنزلنا من السماء نبات كل شيء يعني كل شيء ينبت وينمو من جميع أصناف النبات، وقيل معناه أخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء غذاء كل شيء من: الأنعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم مما يتغذون به فينبتون عليه وينمون فأخرجنا منه خضرا يريد أخضر مثل عور وأعور. والأخضر هو جميع الزروع والبقول الرطبة نخرج منه حبا متراكبا يعني: يخرج من ذلك الأخضر سنابل فيها الحب يركب بعضها فوق بعض مثل: سنبل القمح والشعير والأرز و ا لذرة وسائر الحبوب وفي تقديم الزرع على النخل دليل على الأفضلية ولأن حاجة الناس إليه أكثر لأنه القوت المألوف ومن النخل من طلعها قنوان دانية يعني من ثمرها. يقال: أطلعت النخلة إذا أخرجت طلعها وطلعها كفراها قبل أن ينشق عن الإغريض. والإغريض: يسمى طلعا أيضا وهو ما يكون في قلب الطلع والطلع أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان يكون فيه العذق فإذا شق عنه كيزانه سمي عذقا وهو القنو وجمعه قنوان مثل: صنو وصنون.

دانية أي قريبة التناول ينالها القائم والقاعد وقال مجاهد: متدلية. وقال الضحاك: قصار ملتصقة بالأرض وفيه اختصار وحذف تقديره ومن النخل ما قنوانها دانية قريبة ومنها ما هي بعيدة عالية فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولأنها أسهل تناولا من البعيدة لأن البعيدة تحتاج إلى كلفة وجنات من أعناب يعني وأخرجنا من ذلك بساتين من أعناب والزيتون والرمان يعني وأخرجن ا شجر الزيتون وشجر الرمان مشتبها قال قتادة مشتبها ورقها مختلفا ثمرها لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان وغير متشابه يعني ومنها غير متشابه في الورق والطعم. واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع وإنما قدم الزرع على سائر الأشجار لأن الزرع غذاء وثمار أشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه وإنما قدم النخلة على غيرها لأن ثمرتها تجري مجرى الغذاء، وفيها من **المنافع** والخواص ما ليس في غيرها من الأشجار وإنما ذكر العنب عقب النخلة لأنها من أشرف أنواع الفواكه ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة **والمنافع** الكثيرة في الأكل وسائر وجوه الاستعمال ثم ذكر عقيبه الرمان لما فيه من **المنافع** أيضا لأنه فاكهة ودواء ثم قال تعالى: انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه يعني ونضجه وإدراكه. والمعنى انظروا نظر استدلال

واعتبروا كيف أخرج الله تعالى هذه التمرة الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة وهو قوله: إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون يعني." (١)

"[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٢٦ الى ١٢٨]

وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون (١٢٦) لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون (١٢٧) ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم (١٢٨)

قوله عز وجل: وهذا صراط ربك مستقيما يعني وهذا الذي بينا لك يا محمد في هذه السورة وغيرها من سور القرآن هو صراط ربك يعني دينه الذي شرعه لعباده ورضيه لنفسه وجعله مستقيما لا اعوجاج فيه. قال ابن عباس: في قوله وهذا صراط ربك مستقيما يعني الإسلام، وقال ابن مسعود: يعني القرآن لأنه يؤدي من تبعه وعمل به إلى طريق الاستقامة والسداد قد فصلنا الآيات يعني قد فصلنا آيات القرآن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب والحلال والحرام والأمر والنهي وغير ذلك من أحكام القرآن لقوم يذكرون يعني لمن يتذكر بها ويتعظ بما فيها من المواعظ والعبر.

قال عطاء: يعني أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان لهم دار السلام عند ربهم يعني الجنة في قول جميع المفسرين. قال الحسن والسدي: السلام هو الله تعالى وداره الجنة. معنى السلام في أسماء الله تعالى ذو السلام وهو جمع سلامة لأنه تعالى ذو السلامة من جميع الآفات والنقائص فعلى هذا القول أضيفت الدار إلى السلام الذي هو اسم الله تعالى إضافة تشريف وتعظيم كما قيل للكعبة بيت الله وللنبي صلى الله عليه وسلم عبد الله في قوله «وأنه لما قام عبد الله يدعوه»، واحتج لصحة هذا بأن في إضافة الدار إلى الله تعالى نهاية تشريفها وتعظيمها فكان ذكر الإضافة مبالغة في تعظيم أمرها. وقيل إن السلام صفة للدار لأنها دار السلامة الدائمة التي لا تنقطع فعلى هذا يكون السلام بمعنى السلامة كأنه قال دار السلامة التي لا يلقون فيها شيئا يكرهونه. وقيل سميت بذلك لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلامة كما قال تعالى في وصفها ادخلوها بسلام آمنين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وقال تحيتهم فيها سلام وقال سلام قولا من رب رحيم لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما وقوله عند ربهم يعني أن الجنة معدة مهيأة لهم عند ربهم حتى يوصلهم إليها وهو وليهم بما كانوا يعملون يعني أنه تعالى يتولى أمرهم

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٤٠/٢

وإيصال المنافع إليهم ويدفع المضار عنهم. وقيل معناه أنه يتولاهم في الدنيا بالتوفيق والهداية وفي الآخرة بالجزاء والجنة. وقيل: الولي هو الناصر والقريب يعني أنه تعالى ينصرهم في الدنيا ويقربهم في الآخرة بسبب أعمالهم الصالحة التي كانوا يتقربون بها إليه في الدنيا قوله تعالى: ويوم يحشرهم جميعا أي اذكر يا محمد يوم نحشر المعادلين بالله الأصنام مع أوليائهم من الشياطين يعني نحشر المشركين والشياطين جميعا يوم القيامة يا معشر الجن فيه حذف تقديره يقول لهم يا معشر الجن والمعشر الجماعة والمراد من الجن الشياطين قد استكثرتم من الإنس يعني من إضلالهم وإغوائهم وقال ابن عباس: معناه أضللتم كثيرا من الإنس وهذا التفسير لا بد له من تأويل آخر لأن الجن لا يقدرون على إضلال الإنس وإغوائهم بأنفسهم لأنه لا يقدر على الإجبار أحد إلا الله لأنه هو المتصرف في خلقه بما شاء فوجب أن يكون المعنى: قد استكثرتم من الدعاء إلى الإضلال مع مصادفة القبول من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض يعني استمتع الجن بالإنس والإنس بالجن فأما استمتاع الإنس بالجن فقال الكلبي: كان الرجل في الجاهلية إذا سافر فنزل بأرض قفراء وخاف على نفسه من الجن قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في جوارهم.

وأما استمتاع الجن بالإنس فهم أنهم قالوا سدنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا فيزدادون بذلك شرفا في قومهم وعظما في أنفسهم. وقيل: استمتاع الإنس بالجن هو ما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم الأمور التي كانوا يهوونها وتسهيل سبلها عليهم واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس للجن، فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي، وقيل: استمتاع الإنس بالجن فيما كانوا يدلونهم على أنواع الشهوات وأصناف الطيبات ويسهلونها عليهم واستمتاع الجن بالإنس هي طاعة الإنس للجن، فيما يأمرونهم به وينقادون لحكمهم." (١)

"إن الأولى حمل لفظ الفواحش على العموم في جميع الفواحش المحرمات والمنهيات فيدخل فيه الزنا وغيره لأن المعنى الموجب لهذا النهي هو كونه فاحشة فحمل اللفظ على العموم أولى من تخصيصه بنوع من الفواحش، وأيضا فإن السبب إذا كان خاصا لا يمنع من حمل اللفظ على العموم وفي قوله ما ظهر منها وما بطن دقيقة وهي أن الإنسان إذا احترز عن المعاصي في الظاهر ولم يحترز منها في الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته فيما أمرها به أو نهى عنه ولكن لأجل الخوف من رؤية الناس ومذمتهم ومن كان كذلك استحق العقاب ومن ترك المعصية ظاهرا وباطنا لأجل خوف الله

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٥٦/٢

وتعظيما لأمره استوجب رضوان الله وثوابه ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق حرم الله تعالى قتل النفس إلا بالحق وقتها من جملة الفواحش المتقدم ذكرها في قوله تعالى: ولا تقربوا الفواحش وإنما أفرد قتل النفس بالذكر تعظيما ل أمر القتل وإنه من أعظم الفواحش والكبائر، وقيل: إنما أفرده بالذكر لأنه تعالى أراد أن يستثني منه ولا يمكن ذلك الاستثناء من جملة الفواحش إلا بالإفراد فلذلك فقال: لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق وهي التي أبيح قتلها من ردة أو قصاص أو زنا بعد إحصان وهو الذي يوجب الرجم.

(ق) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة».

وقوله تعالى: ذلكم يعني ما ذكر من الأوامر والنواهي المحرمات وصاكم به يعني أمركم به وأوجبه عليكم لعلكم تعقلون يعني لكي تفهموا ما في هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فتعملوا بها. قوله تعالى:

[سورة الأنعام (٦): آية ١٥٢]

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون (١٥٢)

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن

يعني ولا تقربوا مال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وتثميره وتحصيل الربح له. قال مجاهد: هو التجارة فيه وقال الضحاك: هو أن يسعى له فيه. ولا يأخذ من ربحه شيئا هذا إذا كان القيم بالمال غنيا غير محتاج فلو كان الوصي فقيرا فله أن يأكل بالمعروف حتى يبلغ أشده

يعني احفظوا مال اليتيم إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله.

فأما الأشد فهو استحكام قوة الشباب والسن حتى يتناهى في الشاب إلى حد الرجال. قال الشعبي ومالك: لأشد الحلم حين تكتب له الحسنات وتكتب عليه السيئات. وقال أبو العالية: حتى يعقل وتجتمع قوته. وقال الكلبي: الأشد هو ما بين ثمان عشرة سنة إلى ثلاثين سنة وقيل إلى أربعين وقيل إلى ستين سنة وقال الضحاك:

الأشد عشرون سنة، وقال السدي: الأشد ثلاثون سنة وقال مجاهد: الأشد ثلاث وثلاثون سنة وهذه الأقوال التي نقلت عن المفسرين في هذه الآية إنما هي نهاية الأشد لا ابتداؤه. والمراد بالأشد في هذه الآية، هو ابتداء بلوغ الحلم مع إيناس الرشد وهذا هو المختار في تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: وأوفوا الكيل والميزان بالقسط

يعني بالعدل من غير زيادة ولا نقصان لا نكلف نفسا إلا وسعها
يعني طاقتها وما يسعها في إيفاء الكيل والميزان وإتمامه. لم يكلف المعطي أن يعطي أكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عنه، بل أمر كل واحد بما يسعه مما لا حرج عليه فيه وإذا قلتم فاعدلوا
يعني في الحكم والشهادة ولو كان ذا قربى
يعني المحكوم عليه وكذا." (١)

"عليك اليوم فيخرج الله له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول أحضر وزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال فإنه لا ظلم عليك اليوم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء» أخرجه الترمذي وأحمد بن حنبل. وقال ابن عباس: يؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان فعلى قول ابن عباس: أن الأعمال تتصور صورا وتوضع تلك الصور في الميزان ويخلق الله في تلك الصور ثقلا وخفة.

ونقل البغوي عن بعضهم أنها توزن الأشخاص واستدل لذلك بما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة» أخرجاه في الصحيحين وهذا الحديث ليس فيه دليل على ما ذكر من وزن الأشخاص في الميزان لأن المراد بقوله لا يزن عند الله جناح بعوضة مقداره وحرمته لا وزن جسده ولحمه والصحيح قول من قال إن صحائف الأعمال توزن أو نفس الأعمال تتجسد وتوزن والله أعلم بحقيقة ذلك.

وقوله تعالى: فمن ثقلت موازينه جمع ميزان، وأورد على هذا أنه ميزان واحد فما وجه الجمع وأجيب عنه بأن العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد، وقيل: إنه ينصب لكل عبد ميزان، وقيل: إنما جمعه لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان ولا يتم الوزن إلا باجتماع ذلك كله وقيل هو جمع موزون يعني من رجحت أعماله بالحسنة الموزونة التي لها وزن وقدر فأولئك هم المفلحون يعني: هم الناجون غدا والفائزون بثواب الله وجزائه ومن خفت موازينه يعني موازين أعماله وهم الكفار بدليل قوله تعالى: فأولئك الذين خسروا أنفسهم يعني غبنوا أنفسهم حظوظها من جزيل ثواب الله وكرامته بما كانوا بآياتنا يظلمون يعني سبب ذلك الخسران أنهم كانوا بحجج الله وأدلة توحيده يجحدون ولا يقرون بها. روي عن أبي بكر

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٧٢/٢

الصديق رضي الله تعالى عنه أنه حين حضره الموت قال في وصيته لعمر بن الخطاب: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غدا أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدا أن يكون خفيفا. قوله عز وجل:

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠ الى ١٢]

ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون (١٠) ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (١١) قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (١٢)

ولقد مكناكم في الأرض يعني ولقد مكناكم أيها الناس في الأرض، والمراد من التمكين التمليك وقيل: معناه جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا أو قدرناكم على التصرف فيها وجعلنا لكم فيها معايش جمع معيشة يعني به جمع وجوه **المنافع** التي تحصل بها الأرزاق وتعيشون بها أيام حياتكم وهي على قسمين:

أحدهما: ما أنعم الله تعالى به على عباده من الزرع والثمار وأنواع المآكل والمشارب.

والثاني: ما يتحصل من المكاسب والأرباح في أنواع التجارات والصنائع وكلا مقسمين في الحقيقة إنما يحصل بفضل الله وإنعامه وإقداره وتمكينه لعباده من ذلك فثبت بذلك أن جميع معايش العالم إنعام من الله تعالى على عباده وكثرة الإنعام توجب الطاعة للمنعم بها والشكر له عليها ثم بين تعالى أنه مع هذا الإفضال على عباده وإنعامه عليهم لا يقومون بشكره كما ينبغي فقال تعالى: قليلا ما تشكرون يعني: على ما صنعت إليكم وأنعمت به عليكم، وفيه دليل على أنهم قد يشكرون لأن الإنسان قد يذكر نعم الله فيشكره عليها فلا يخلو في." (١)

"فإن قلت: فعلى هذا يلزم الجهاد لكل أحد حتى المريض والزمن والفقير وليس الأمر كذلك فما معنى هذا الأمر.

قلت: من العلماء من حمله على الوجوب ثم إنه نسخ.

قال ابن عباس: نسخت هذه الآية بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة الآية. وقال السدي: نسخت بقوله: ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية ومنهم من حمل هذا الأمر على الندب. قال مجاهد: إن أبا أيوب

---

(١) تفسير الخ ا زن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٨٣/٢

الأنصاري شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون بعده فقيل له في ذلك، فقال: سمعت الله عز وجل يقول انفروا خفافا وثقالا ولا أجدني إلا خفيفا أو ثقيلا وقال الزهري: خرج سعيد بن المسيب وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل صاحب ضر فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد أو حفظت المتاع. وقال صفوان بن عمرو: كنت واليا على حمص فلقيت شيخا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت يا عم أنت معذور عند الله، فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافا وثقالا إلا أنه من يحبه يبتليه والصحيح. هو القول الأول أنها منسوخة وأن الجهاد من فروض الكفايات ويدل عليه أن هذه الآيات نزلت في غزوة تبوك وأن النبي صلى الله عليه وسلم خلف في المدينة في تلك الغزوة النساء وبعض الرجال فدل ذلك على أن الجهاد من فروض الكفايات ليس على الأعيان والله أعلم.

وقوله سبحانه وتعالى: وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله فيه قولان الأول أن الجهاد إنما يجب على من له مال يتقوى به على تحصيل آلاف الجهاد ونفس سليمة قوية صالحة للجهاد فيجب عليه فرض الجهاد والقول الثاني أن من كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للحرب فعليه الجهاد بماله بأن يعطيه غيره ممن يصلح للجهاد فيغزو بماله فيكون مجاهدا بماله دون نفسه ذلكم يعني ذلكم الجهاد خير لكم يعني من القعود والتثاقل عنه. وقيل: معناه أن الجهاد خير حاصل لكم ثوابه إن كنتم تعلمون يعني أن ثواب الجهاد خير لكم من القعود عنه ثم نزل في المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قوله عز وجل:

[سورة التوبة (٩): الآيات ٤٢ الى ٤٥]

لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون (٤٢) عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٤٣) لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين (٤٤) إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون (٤٥)

لو كان عرضا قريبا فيه إضمار تقديره لو كان ما تدعوهم إليه عرضا يعني غنيمة سهلة قريبة التناول والعرض ما عرض لك من منافع الدنيا ومتاعها. يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر وسفرا قاصدا يعني سهلا قريبا لاتبعوك يعني لخرجوا معك ولكن بعدت عليهم الشقة أي المسافة والشقة السفر البعيد،

لأنه يشق على الإنسان سلوكها. ومعنى الآية: لو كان العرض قريبا والغنيمة سهلة والسفر قاصدا لاتبعوك طمعا في تلك **المنافع** التي تحصل لهم ولكن لما كان السفر بعيدا وكانوا يستعظمون غزو الروم لا جرم أنهم تخلفوا لهذا السبب ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم أنه إذا رجع النبي عليه السلام من هذا الجهاد يحلفون بالله وهو قوله تعالى: وسيحلفون بالله يعني المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة لو استطعنا." (١)

"الماء ميتا أبدا، ومعنى قوله ببدنك يعني نلقيك وأنت جسد لا روح فيه وقيل هذا الخطاب على سبيل التهكم والاستهزاء كأنه قيل له ننجيك ولكن هذه النجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك.

وقيل: أراد بالبدن الدرع وكان لفرعون درع من ذهب مرصع بالجواهر، يعرف به فلما رأوه في درعه ذلك عرفوه لتكون لمن خلفك آية يعني عبرة وموعظة، وذلك أنهم ادعوا أن مثل فرعون لا يموت أبدا فأظهره الله لهم حتى يشاهدوه وهو ميت لتزول الشبهة من قلوبهم ويعتبروا به لأنه كان في غاية العظمة فصار إلى نهاية الخسة والذلة ملقى على الأرض لا يهابه أحد وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون قوله عز وجل: ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق يعني أسكناهم مكان صدق وأنزلناهم منزل صدق بعد خروجهم من البحر وإغراق عدوهم فرعون.

والمعنى: أنزلناهم منزلا محمودا صالحا وإنما وصف المكان بالصدق لأن عادة العرب إذا مدحت شيئا أضافته إلى الصدق تقول العرب: هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه أن الشيء إذا كان كاملا صالحا، لا بد أن يصدق الظن فيه وفي المراد بالمكان الذي بوءوا قولان أحدهما أنه مصر فيكون المراد: إن الله أورث بني إسرائيل جميع ما كان تحت أيدي فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره.

والقول الثاني: إنه أرض الشام والقدس والأردن لأنها بلاد الخصب والخير والبركة ورزقناهم من الطيبات يعني تلك **المنافع** والخيرات التي رزقهم الله تعالى: فما اختلفوا حتى جاءهم العلم يعني فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم واختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا.

فعلى هذا المعنى يكون المراد من العلم المعلوم والمعنى فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذي كانوا يعلمونه

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٣٦٦

حقا فوضع العلم مكان العلوم وقيل المراد من العلم القرآن النازل على محمد صلى الله عليه وسلم وإنما سماه علما لأنه سبب العلم وتسمية السبب بالمسبب مجاز مشهور وفي كون القرآن سببا لحدوث الاختلاف وجهان:

الأول: أن اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين، فلما بعث كذبوه بغيا وحسدا وإيثارا لبقاء الرياسة لهم فآمن به طائفة قليلة وكفر به غالبهم.

والوجه الثاني: أن اليهود كانوا على دين واحد قبل نزول القرآن فلما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم آمن به طائفة وكفر به آخرون.

وقوله تعالى: إن ربك يعني يا محمد يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون يعني من أمرك وأمر نبوتك في الدنيا فيدخل من آمن بك الجنة ومن كفر بك وجحد نبوتك النار.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٩٤ الى ٩٨]

فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين (٩٤) ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين (٩٥) إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون (٩٦) ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم (٩٧) فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين (٩٨)." (١)

"سلطان

يعني من ولاية وقهر، وقيل: لم آتيكم بحجة فيما وعدتكم به إلا أن دعوتكم هذا استثناء منقطع معناه لكن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم يعني ما كان مني إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة، وقد سمعتم دلائل الله وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفوا إلي ولا تسمعوا قولي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى بإجابتي، ومتابعتي من غير حجة ولا دليل ما أنا بمصرخكم يعني بمغيثكم ولا منقذكم وما أنتم بمصرخي يعني بمغيثي ولا منقذي مما أنا فيه إني كفرت بما أشركتمون من قبل يعني كفرت بجعلكم إياي شريكا له في عبادته وتبرأت من ذلك والمعنى أن إبليس جحد ما يعتقده الكفار فيه، من كونه شريكا لله وتبرأ من ذلك إن الظالمين لهم عذاب أليم روى البغوي بسنده عن عقبة بن

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤٦٣/٢

عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة، وذكر الحديث إلى قوله «فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فيثور من مجلسي أطيب ريح شمها أحد حتى آتي ربي فيشفعني، ويجعل لي نورا من رأسي إلى ظهر قدمي. ثم يقول الكفار: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه، فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم تعظم جهنم، ويقول عند ذلك: إن الله وعدكم وعد الحق الآية. وقوله تعالى:

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٢٣ الى ٢٧]

وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام (٢٣) ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (٢٤) تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٥) ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (٢٦) يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء (٢٧)

وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار لما شرح الله عز وجل حال الكفار الأشقياء بما تقدم من الآيات الكثيرة، شرح أحوال المؤمنين السعداء، وما أعد لهم في الآخرة من الثواب العظيم الجزيل، وذلك أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم والمنفعة الخالصة إليها الإشارة دائمة بقوله:

وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، وكونها دائمة أشير إليه بقوله خالدين فيها والتعظيم حصل من وجهين أحدهما قوله: بإذن ربهم لأن تلك **المنافع** إنما كانت تفضلا من الله بإنعامه الثاني قوله تحيتهم فيها سلام فيحتمل أن بعضهم يحيي بعضا بهذا الكلمة أو الملائكة تحييهم بها أو الرب سبحانه وتعالى يحييهم، ويحتمل أن يكون المراد أنهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع الآفات لأن السلام مشتق من السلامة. قوله عز وجل: ألم تر كيف ضرب الله مثلا لما شرح الله عز وجل أحوال الأشقياء وأحوال السعداء، ضرب مثلا فيه حكم هذين القسمين فقال تعالى: ألم تر أي بعين قلبك فتعلم علم يقين بإعلامي إياك فعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره فيه ويحتمل أن يكون الخطاب فيه لكل فرد من الناس، فيكون المعنى ألم تر أيها الإنسان كيف ضرب الله مثلا يعني بين شبها، والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر، بينهما مشابهة ليتبين

أحدهما من الآخر ويتصور. وقيل: هو قول سائر لتشبيه شيء بشيء آخر كلمة طيبة هي قول لا إله إلا الله في قول ابن عباس وجمهور المفسرين: كشجرة طيبة يعني كشجرة طيبة الثمرة وقال ابن عباس: هي النخلة. وبه قال ابن مسعود وأنس ومجاهد وعكرمة والضحاك (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أخبروني عن شجرة شبه الرجل أو قال كالرجل المسلم لا يتحات ورقها تؤتي أكلها كل حين» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا." [1]

"المستمرة دائما على حالة واحدة ودأب في السير داوم عليه، والمعنى أن الله سخر الشمس والقمر، يجريان دائما فيما يعود إلى مصالح العباد لا يفتران إلى آخر الدهر، وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها. قال ابن عباس: دؤبها في طاعة الله عز وجل. وقال بعضهم: معناه يدأبان في طاعة الله أي في مسيرهما وتأثيرهما في إزالة الظلمة وإصلاح النبات والحيوان لأن الشمس سلطان النهار وبها تعرف فصول السنة والقمر سلطان الليل، وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله عز وجل، وإنعامه على عباده وتسخيره لهم وسخر لكم الليل والنهار يعني يتعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان، والزيادة وذلك من إنعام الله على عباده وتسخيره لهم وآتاكم من كل ما سألتموه لما ذكر الله سبحانه وتعالى النعم العظام التي أنعم الله بها على عباده وسخرها لهم بين بعد ذلك، أنه تعالى لم يقتصر على تلك النعم بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر.

والمعنى: وآتاكم من كل ما سألتموه شيئا فحذف شيئا اكتفاء بدلالة الكلام على التبعيض، وقيل: هو على التكثير يعني وآتاكم من كل شيء سألتموه، وما لم تسألوه لأن نعمه علينا أكثر من أن تحصى وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها يعني أن نعم الله كثيرة على عباده، فلا يقدر أحد على حصرها ولا عدها لكثرتها إن الإنسان قال ابن عباس: يريد أبا جهل، وقال الزجاج: هو اسم جنس ولكن يقصد به الكافر لظلوم كفار يعني ظلوم لنفسه كفار بنعمة ربه، وقيل: الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر في غير موضعه كفار جحود لنعم الله عليه.

وقيل: يظلم النعمة بإغفال شكرها كفار شديد الكفران لها، وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع بالنعمة يجمع ويمنع. قوله سبحانه وتعالى وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا يعني ذا آمن يؤمن فيه وأراد بالبلد مكة.

فإن قلت: أي فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا؟ قلت: الفرق بينهما أنه سأل

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/٣٤

في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فيها ولا يخافون وسأل في الثاني أن يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف فاجعله آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام يعني أبعدني وبني أن نعبد الأصنام. فإن قلت قد توجه على هذه الآية إشكالات وهي من وجوه: الأول أن إبراهيم دعا ربه أن يجعل مكة آمنة ثم إن جماعة من الجبابرة وغيرهم، قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها. الوجه الثاني: أن الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معصومون عن عبادة الأصنام، وإذا كان كذلك فما الفائدة في قوله اجنبني عن عبادتها. الوجه الثالث: أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه أيضا أن يجنب بنيه عن عبادة الأصنام، وقد وجد كثير من بنيه عبد الأصنام مثل كفار قريش، وغيرهم ممن ينسب إلى إبراهيم عليه السلام.

قلت: الجواب عن الوجوه المذكورة من وجوه: فالجواب على الوجه الأول: من وجهين أحدهما أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء، والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب، وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على خراب مكة، وأورد على هذا ما ورد في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة» أخرجاه في الصحيحين. وأجيب عنه بأن قوله: اجعل هذا البلد آمنا يعني إلى قرب القيامة وخراب الدنيا وقيل: هو عام مخصوص بقصة ذو السويقتين فلا تعارض بين النصين.

الوجه الثاني: أن يكون المراد اجعل أهل هذا البلد آمنين، وهذا الوجه عليه أكثر العلماء من المفسرين وغيرهم وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الأمن في بلدهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله: ويتخطف الناس من حولهم، وأهل مكة آمنون من ذلك حتى إن من التجأ إلى مكة أمن على نفسه وما له من ذلك، وحتى إن الوحوش إذا كانت خارجة من الحرم استوحشت فإذا دخلت الحرم أمنت واستأنست لعلمها أنها لا يهيجها أحد في الحرم وهذا القدر من الأمن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها وأما الجواب عن الوجه الثاني: فمن وجوه أيضا:

الوجه الأول: أن دعاء إبراهيم عليه السلام لنفسه لزيادة العصمة والتثبيت، فهو كقوله واجعلنا مسلمين لك.

الوجه الثاني: أن إبراهيم عليه السلام، وإن كان يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه دعا." (١)

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/٣٩

"بمعنى مع يعني ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل على من يشاء من عباده يعني على من يصطفيه من عباده للنبوة، والرسالة وتبليغ الوحي إلى الخلق أن أنذروا يعني بأن اعلموا أنه لا إله إلا أنا فاتقون أي فخافون.

وقيل: معناه مروا بقول لا إله إلا الله منذرين يعني مخوفين بالقرآن.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٣ الى ١٢]

خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون (٣) خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين (٤) والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٥) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم (٧)

والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٨) وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين (٩) هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون (١٠) ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (١١) وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (١٢)

خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون تقدم تفسيره خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين يعني أنه جدل بالباطل بين الخصومة نزلت في أبي بن خلف الجمحي، وكان ينكر البعث فجاء بعظم رميم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: تزعم أن الله يحيي هذا بعد ما رم فنزلت فيه هذه الآية، ونزل فيه أيضا قوله تعالى «قال من يحيي العظام وهي رميم» والصحيح أن الآية عامة في كل ما يقع من الخصومة في الدنيا ويوم القيامة، وحملها على العموم أولى، وفيها بيان القدرة وأن الله خلق الإنسان من نطفة قذرة فصار جبارا كثيرا لخصومة، وفيه كشف قبيح ما فعله الكفار من جحدهم نعم الله تعالى مع ظهورها عليهم. قوله عز وجل والأنعام خلقها لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والأرض، ثم أتبعه بذكر خلق الإنسان، ذكر بعده ما ينتفع به في سائر ضروراته. ولما كان أعظم ضرورات الإنسان إلى الأكل واللباس اللذين يقوم بهما بدن الإنسان بدأ بذكر الحيوان المنتفع به في ذلك، وهو الأنعام. فقال تعالى والأنعام خلقها وهي الإبل والبقر والغنم. قال الواحدي: تم الكلام عند قوله والأنعام خلقها. ثم ابتدأ فقال تعالى لكم فيها دفء قال: ويجوز أيضا أن يكون تمام الكلام عند قوله لكم ثم ابتدأ فقال تعالى: فيها دفء. قال صاحب النظم أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله خلقها ثم يبتدأ بقوله لكم فيها دفء، والدليل عليه أنه عطف عليه قوله، ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال. ولما كانت منافع هذه

الأنعام منها ضرورية، ومنها غير ضرورية، بدأ الله سبحانه وتعالى بذكر المنافع الضرورية، فقال تعالى: لكم فيها دفء وهو ما يستدفأ به من اللباس والأكسية ونحوها، المتخذة من الأصواف والأوبار والأشعار الحاصلة من النعم ومنافع يعني النسل والدر والركوب، والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الأنعام ومنها تأكلون يعني من لحومها. فإن قلت: قوله تعالى ومنها تأكلون يفيد الحصر لأن تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص، وقد يؤكل من غيرها. قلت: الأكل من هذه الأنعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط والإوز وصيد البر والبحر، فغير معتد به في الأغلب: وأكله يجري مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الأغلب في الأكل من هذه الأنعام. فإن قلت: منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللباس فلم أخر منفعة الأكل وقدم منفعة اللباس؟ قلت: منفعة اللباس أكثر وأعظم من منفعة." (١)

"الأكل فلهذا قدم على الأكل. وقوله سبحانه وتعالى ولكم فيها أي في الأنعام جمال أي زينة حين تريحون وحين تسرحون الإراحة رد الإبل بالعشي إلى مراحها حيث تأوي إليه بالليل. وقال: سرح القوم إبلهم تسريحا إذا أخرجوها بالغداة إلى المرعى. قال أهل اللغة: وأكثر ما تكون هذه الراحة أيام الربيع إذا سقط الغيث، ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة، وأحسن ما تكون النعم في ذلك الوقت فمن الله سبحانه وتعالى بالتجمل بها فيه كما من بالانتفاع بها لأنه من أغراض أصحاب المواشي بل هو من معظمها لأن الرعاة إذا سرحوا النعم بالغداة إلى المرعى، وروحوها بالعشي إلى الأفنية والبيوت يسمع للإبل رغاء وللشاء ثغاء يجاوب بعضها بعضا، فعند ذلك يفرح أربابها بها وتتجمل بها الأفنية والبيوت، ويعظم وقعها عند الناس. فإن قلت: لم قدمت الإراحة على التسريح؟ قلت: لأن الجمال في الإراحة وهو رجوعها إلى البيوت أكثر من٥١ وقت التسريح لأن النعم تقبل من المرعى ملأى البطون حافلة الضروع، فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها إلى المرعى فإنها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع من اللبن، ثم تأخذ في التفرق والانتشار للرعي في البرية فثبت بهذا البيان أن التجمل في الإراحة، أكثر منه في التسريح فوجب تقديمه. وقوله سبحانه وتعالى وتحمل أثقالكم الأثقال جمع ثقل وهو متاع السفر وما يحتاج إليه من آلات السفر إلى بلد يعني غير بلدكم قال ابن عباس: يريد من مكة إلى اليمن، وإلى الشام وإنما قال ابن عباس: هذا القول لأنه خطاب لأهل مكة وأكثر تجاراتهم وأسفارهم إلى الشام واليمن وحمله على العموم أولى لأنه خطاب عام فدخول الكافة فيه أولى من تخصيصه ببعض المخاطبين لم تكونوا بالغيه يعني

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٦٧/٣

بالغي ذلك البلد الذي تقصدونه إلا بشق الأنفس يعني بالمشقة والجهد والعناء والتعب والشق نصف الشيء، والمعنى على هذا لم تكونوا بالغيه إلا بنقصان قوة، النفس وذهاب نصفها إن ربكم لرؤف رحيم يعني بخلقه حيث خلق لهم هذه **المنافع**. قوله سبحانه وتعالى: والخيل والبغال والحمير لتركبوها هذه الآية عطف على ما قبلها، والمعنى وخلق هذه الحيوانات لأجل أن تركبوها، والخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والرهط والنساء وزينة يعني وجعلها زينة مع **المنافع** التي فيها.

فصل

احتج بهذه الآية من يرى تحريم لحوم الخيل، وهو قول ابن عباس وتلا هذه الآية وقال: هذه للركوب وإليه ذهب الحكم ومالك وأبو حنيفة رحمهم الله، واستدلوا أيضا بأن منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب فلما لم يذكره الله تعالى، علمنا تحريم أكله فلو كان أكل لحوم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر، لأن الله سبحانه وتعالى خص الأنعام بالأكل حيث قال ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب. فقال: لتركبوها فعلمنا أنها مخلوقة للركوب لا للأكل وذهب مجموعة من أهل العلم إلى إباحة لحوم الخيل، وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير: وإليه ذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه وأحمد وإسحاق واحتجوا على إباحة لحوم الخيل لما روي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنها قالت: «نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة فأكلناه» أخرجه البخاري ومسلم (ق). عن جابر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الخيل وحمر الوحش ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحمار الأهلي» هذه رواية البخاري ومسلم، وفي رواية أبي داود قال: «ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابتنا مخمصة فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل» وأجاب من أباح لحوم الخيل عن هذه الآية بأن ذكر الركوب والزينة، لا يدل على أن منفعتها مختصة بذلك، وإنما خص هاتان المنفعتان بالذكر لأنهما معظم المقصود، قالوا: ولهذا سكت عن حمل الأثقال على الخيل مع قوله في الأنعام وتحمل أثقالكم، ولم يلزم من هذا التحريم حمل الأثقال على الخيل، وقال البغوي: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم، بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه، وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته،." (١)

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٦٨/٣

"وكفى بربك وكيلا أي حافظا. والمعنى: أنه سبحانه وتعالى لما أمكن إبليس أن يأتي بما يقدر عليه من الوسوسة كان ذلك سببا لحصول الخوف في قلب الإنسان، قال تعالى وكفى بربك وكيلا أي فالله سبحانه وتعالى أقدر منه وأرحم بعباده فهو يدفع عنهم كيد الشيطان ووساوسه، ويعصمهم من إغوائه وإضلاله. وفي بعض الآثار أن إبليس لما خرج إلى الأرض قال: يا رب أخرجتني من الجنة لأجل آدم فسلطني عليه وعلى ذريته قال: أنت مسلط. قال: لا أستطيعه إلا بك فزدني. قال: استفزز من استطعت منهم الآية. فقال آدم: يا رب سلطت إبليس علي وعلى ذريتي وإني لا أستطيعه إلا بك قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه قال رب زدني قال الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها قال رب زدني قال: التوبة معروضة ما دام الروح في الجسد قال رب زدني فقال يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية. وفي الخبر قال إبليس: يا رب بعثت أنبياء وأنزلت كتبا فما قراءتي؟ قال: الشعر. قال: فما كتابتي؟ قال: الوشم، قال: ومن رسلي؟ قال الكهنة.

قال: أي شيء مطعمي؟ قال ما لم يذكر عليه اسمي قال فما شرابي قال كل مسكر قال: وأين مسكني؟ قال الحمامات- قال- وأين مجلسي؟ قال في الأسواق قال: وما حبائلي قال: النساء قال: وما أذاني؟ قال المزمار.

قوله ربكم الذي يزجي أي يسوق ويجري لكم الفلك أي السفن في البحر لتبتغوا من فضله أي لتطلبوا من رزقه بالأرباح في التجارة وغيرها إنه كان بكم رحيما أي حيث يسر لكم هذه **المنافع**، والمصالح وسهلها عليكم وإذا مسكم الضر في البحر أي الشدة وخوف الغرق في البحر ضل من تدعون أي ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعون في حوادثكم من الأصنام وغيرها إلا إياه أي إلا الله وحده فإنكم لا تذكرون سواه ولا يخطر ببالكم غيره لأنه القادر على إعانتكم ونجاتكم فلما نجاكم أي أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وشدته وأخرجكم إلى البر أعرضتم أي عن الإيمان والإخلاص والطاعة، وكفرتم النعمة وهو قوله تعالى وكان الإنسان كفورا أي جحودا أفأمنتم أي بعد إنجائكم أن يخسف بكم جانب البر أي تغوره. والمعنى: أن الجهات كلها له، وفي قدرته برا كان أو بحرا بل إن كان الغرق في البحر ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف لأنه يغيب تحت الثرى كما أن الغرق يغيب تحت الماء أو يرسل عليكم حاصبا أي نمطر عليكم حجارة من السماء، كما أمطرناها على قوم لوط ثم لا تجدوا لكم وكيلا أي مانعا وناصرا أم أمنتم أن يعيدكم فيه أي في البحر تارة أي مرة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح قال ابن عباس: أي عاصفا وهي الريح الشديدة. وقيل: الريح التي تقصف كل شيء من شجر وغيره فيغرقكم بما كفرتم أي بكفرانكم النعمة

وإعراضكم حين أنجيناكم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا التبيع المطالب.
والمعنى: أنا نفعل ما نفعل بكم ثم لا تجدون لكم أحدا يطالبنا بما فعلنا انتصارا لكم ودركا للثأر من جهتنا. وقيل: معناه من يتبعنا بالإنكار علينا. قوله تعالى:

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٧٠ الى ٧١]
ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (٧٠) يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا (٧١)
ولقد كرمنا بني آدم قال ابن عباس: هو أنهم يأكلون بالأيدي وغير الآدمي يأكل بفيه من الأرض وقال أيضا بالعقل وقيل بالنطق والتمييز والخط والفهم، وقيل باعتدال القامة وامتدادها وقيل بحسن الصورة وقيل: الرجال باللحى والنساء بالذوائب. وقيل: بتسليطهم على جميع ما في الأرض وتسخيره لهم وقيل: بحسن تدبيرهم أمر المعاش والمعاد. وقيل بأن منهم خير أمة أخرجت للناس وحملناهم في البر أي على الإبل." [١]

"بغافل عنكما فلا تهتما فأتياه فقولا إنا رسولا ربك أي أرسلنا إليك ربك فأرسل معنا بني إسرائيل أي خل عنهم وأطلقهم من أعمالك ولا تعذبهم أي لا تتعبهم في العمل، وكان فرعون يستعملهم في الأعمال الشاقة كالبناء وقطع الصخور مع قتل الولدان وغير ذلك قد جئناك بآية من ربك قال فرعون وما هي فأخرج موسى يده لها شعاع كشعاع الشمس، وقيل معناه قد جئناك بمعجزة وبرهان يدل على صدقنا على ما ادعيناه من الرسالة والسلام على من اتبع الهدى ليس المراد منه سلام التحية بل إنما معناه سلم من العذاب من أسلم إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى أي إنما يعذب الله من كذب بما جئنا به وأعرض عنه.

[سورة طه (٢٠): الآيات ٤٩ الى ٦١]
قال فمن ربكما يا موسى (٤٩) قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (٥٠) قال فما بال القرون الأولى (٥١) قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى (٥٢) الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى (٥٣)
كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى (٥٤) منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة

---
(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٣٧/٣

أخرى (٥٥) ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى (٥٦) قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى (٥٧) فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى (٥٨)
قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى (٥٩) فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى (٦٠) قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى (٦١)
قال يعني فرعون فمن ربكما يا موسى أي فمن إلهكما الذي أرسلكما قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى أي كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، وقيل أعطى كل شيء صلاحه وهداه، وقيل أعطى كل شيء صورته فخلق اليد للبطش والرجل للمشي واللسان للنطق والعين للنظر والأذن للسمع ثم هداه إلى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح، وقيل يعني جعل زوجة الرجل المرأة والبعير الناقة والفرس الرمكة وهي الحجرة والحمار الأتان ثم هدى ألهمه كيف يأتي الذكر الأنثى قال يعني فرعون فما بال القرون الأولى أي فما حال القرون الماضية والأمم الخالية مثل قوم نوح وعاد وثمود فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث، وإنما قال فرعون ذلك لموسى حين خوفهم مصارع الأمم الخالية فحينئذ قال فرعون فما بال القرون الأولى قال يعني موسى علمها عند ربي أي أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها، وقيل إنما رد موسى علم ذلك إلى الله تعالى لأنه لم يعلم ذلك لأن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون وقومه في كتاب يعني اللوح المحفوظ لا يضل ربي أي لا يخطئ وقيل لا يغيب عنه شيء ولا ينسى أي فيتذكر وقيل لا ينسى ما كان من أعمالهم حتى يجازيهم بها الذي جعل لكم الأرض مهدا أي فراشا وقيل مهدها لكم وسلك لكم فيه، سبلا أي أدخل في الأرض لأجلكم طرقا وسهلها لكم لتسلكوها وأنزل من السماء ماء يعني المطر ثم الأخبار عن موسى ثم قال الله تعالى فأخرجنا به أي بذلك الماء أزواجا أي أصنافا من نبات شتى أي مختلف الألوان والطعوم **والمنافع** فمنها ما هو للناس ومنها ما هو للدواب كلوا وارعوا أنعامكم أي أخرجنا أصناف النبات للانتفاع بالأكل والرعي إن في ذلك أي الذي ذكر لآيات لأولي النهى أي لذوي العقول، قيل هم الذين ينتهون عما حرم الله عليهم منها خلقناكم أي من الأرض خلقنا آدم، وقيل إن الملك ينطلق فيأخذ من التراب الذي يدفن فيه فيذره في النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة وفيها نعيدكم أي عند الموت والدفن ومنها نخرجكم تارة أخرى أي يوم القيامة للبعث والحساب.
قوله تعالى ولقد أريناه يعني فرعون آياتنا كلها يعني الآيات التسع التي أعطاها الله موسى فكذب." [1]

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/٢٠٦

"شئتم، فإنكم أهل ثروة ونعمة فأتبعهم بختنصر وأخذتهم السيوف، ونادى مناد من جو السماء يا لثارات الأنبياء فلما رأوا ذلك، أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين يعني لأنفسنا حين كذبنا الرسل وذلك أنهم اعترفوا بالذنب حين عاينوا العذاب، وقالوا ذلك على سبيل الندامة ولم ينفعهم الندم فما زالت تلك دعواهم يعني تلك الكلمة وهي قولهم يا ويلنا حتى جعلناهم حصيدا يعني بالسيوف كما يحصد الزرع خامدين يعني ميتين.

قوله عز وجل: وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين معناه ما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب للعب واللهو، سويناهما لفوائد منها التفكر في خلقهما وما فيهما من العجائب **والمنافع** التي لا تعد ولا تحصى لو أردنا أن نتخذ لهوا قال ابن عباس: اللهو المرأة وعنه أنه الولد لاتخذناه من لدنا يعني من عندنا من الحور العين لا من عندكم من أهل الأرض، وقيل معناه لو كان ذلك جائزا في حقنا لم نتخذه بحيث يظهر لكم بل نستر، ذلك حتى لا تتطلعوا عليه، وذلك أن النصارى لما قالوا، في المسيح وأمه ما قالوا رد الله عليهم بقوله لاتخذناه من لدنا لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره إن كنا فاعلين يعني ما كنا فاعلين، وقيل ما كنا ممن يفعل ذلك لأنه لا يليق بالربوبية بل يعني دع ذلك الذي قالوه فإنه كذب وباطل نقذف يعني نرمي ونسلط بالحق يعني بالإيمان على الباطل يعني على الكفر، وقيل الحق قول الله أنه لا ولد له والباطل قولهم اتخذ الله ولدا فيدمغه فيهلكه فإذا هو زاهق يعني ذاهب والمعنى أنا نبطل كذبهم بما نبين من الحق حتى يذهب ويضمحل، ثم أوعدهم على كذبهم فقال تعالى (ولكم الويل) يا معشر الكفار (مما تصفون) الله بما لا يليق من الصاحبة والولد وله من في السماوات والأرض يعني عبيدا وملكا وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم ومن عنده يعني الملائكة وإنما خص الملائكة وإن كانوا داخلين في جملة من في السموات لكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم لا يستكبرون عن عبادته يعني لا يتكبرون ولا يتعظمون عنها ولا يستحسرون يعني لا يعيون ولا يتعبون، وقيل لا ينقطعون عن العبادة ثم وصفهم الله تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون يعني لا يضعفون ولا يسأمون، وذلك أن تسبيحهم متصل دائم لا يفتر في جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ أو شغل أخر قال كعب الأحبار التسبيح لهم كالنفس لبني آدم أم اتخذوا آلهة من الأرض يعني الأصنام من الحجارة والخشب وغيرهما من المعادن وهي من الأرض هم ينشرون يعني يحيون الأموات، إذ لا يستحق الإلهية إلا من يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم والإنعام بأبلغ وجوه النعم، وهو الله عز وجل لو كان فيهما يعني في السماء والأرض آلهة إلا الله يعني غير الله (لفسدتا) يعني لخربتا وهلك من فيهما الوجود والتمانع من الآلهة لأن

كل أمر صدر عن الاثنين فأكثر لم يجر على النظام وقال الإمام فخر الدين الرازي قال المتكلمون القول بوجود إلهين يفضي إلى المحال، فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالا، وإنما قلنا إنه يفضي إلى المحال لأنا لو فرضنا وجود إلهين، فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات، ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه.

لو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه وأراد تسكينه، فإما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعن معا لوجدا معا وذلك محال أو يقع مراد أحدهما: دون الثاني وذلك أيضا محال لوجهين أحدهما أنه لو كان كل واحد منهما قادرا على ما لا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر، بل لا بد وأن يستويا في القدرة وإذا استويا في القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني وإلا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح. وثانيهما: أنه إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذي وقع مراده يكون قادرا والذي لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص، وهو على الإله محال. ولو فرضنا إلهين، لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضي إلى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد،." (١)

"سورة النمل

مكية وهي ثلاث وتسعون آية وألف وثلاثمائة وسبع عشرة كلمة وأربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفا

بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة النمل (٢٧): الآيات ١ الى ٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين (١) هدى وبشرى للمؤمنين (٢) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون (٣)

قوله عز وجل طس تلك آيات القرآن أي هذه آيات القرآن وكتاب مبين أي وآيات كتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين أي هو هدى من الضلالة، وبشرى لهم بالجنة الذين يقيمون الصلاة أي الخمس بشرائطها ويؤتون الزكاة أي إذا وجبت عليهم طيبة بها أنفسهم وهم بالآخرة هم يوقنون يعني أن هؤلاء الذين يعملون الصالحات

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٢٢/٣

هم الموقنون بالآخرة.

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٤ الى ١٠]

إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون (٤) أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون (٥) وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم (٦) إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون (٧) فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين (٨)

يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم (٩) وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون (١٠)

إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم أي القبيحة حتى رأوها حسنة وقيل: إن التزين هو أن يخلق الله العلم في القلب بما فيه **المنافع** واللذات ولا يخلق العلم بما فيه المضار والآفات فهم يعمهون أي يترددون فيها متحيرين أولئك الذين لهم سوء العذاب أي أشده وهو القتل والأسر وهم في الآخرة هم الأخسرون أي أنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وساروا إلى النار. قوله تعالى وإنك لتلقى القرآن أي تؤتاه وتلقنه وحيا من لدن حكيم عليم أي حكيم عليم بما أنزل إليك. فإن قلت: ما الفرق بين الحكمة والعلم.

قلت: الحكمة هي العلم بالأمور العلمية فقط والعلم أعم منه لأنه العلم قد يكون علما، وقد يكون نظرا والعلوم النظرية أشرف إذ قال أي واذكر يا محمد إذ قال موسى لأهله أي في مسيره بأهله من مدين إلى مصر إني آنست أي أبصرت نارا سآتيكم منها بخبر أي امكثوا مكانكم سآتيكم بخبر عن الطريق، وقد كان ضل عن الطريق أو آتيكم بشهاب قبس الشهاب شعلة النار والقبس النار المقبوسة منها، وقيل: القبس هو العود الذي في أحد طرفيه نار لعلكم تصطلون يعني تستدفئون من البرد وكان في شدة الشتاء فلما جاءها نودي أن بورك." (١)

"قيل قال الله تعالى لهما أخرجا ما خلقت فيكما من **المنافع** لمصالح العباد أما أنت يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك وأنت يا أرض فشقي أنهارك وأخرجي ثمرك ونباتك.

[سورة فصلت (٤١): الآيات ١٢ الى ١٤]

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/٣٣٧

فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم (١٢) فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (١٣) إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون (١٤)

وقوله تعالى: فقضاهن سبع سماوات أي أتمهن وفرغ من خلقهن في يومين وهما الخميس والجمعة وأوحى في كل سماء أمرها قال ابن عباس خلق في كل سماء خلقا من الملائكة وخلق ما فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلمه إلا الله تعالى وقيل أوحى إلى كل سماء ما أراد من الأمر والنهي وزينا السماء الدنيا أي التي تلي الأرض بمصابيح أي بكواكب تشرق كالمصابيح وحفظا أي وجعلناها يعني الكواكب حفظا للسماء من الشياطين الذين يسترقون السمع ذلك أي الذي ذكر من صنعه وخلقه تقدير العزيز أي في ملكه العليم أي بخلقه وفيه إشارة إلى كمال القدرة والعلم.

قوله تعالى: فإن أعرضوا يعني هؤلاء المشركين عن الإيمان بعد هذا البيان فقل أنذرتكم أي خوفتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود أي هلاكا مثل هلاكهم والصاعقة المهلكة من كل شيء إذ جاءتهم الرسل يعني إلى عاد وثمود من بين أيديهم يعني الرسل الذين أرسلوا إلى آبائهم ومن خلفهم يعني ومن بعد الرسل الذين أرسلوا إلى آبائهم وهم الرسل الذين أرسلوا إليهم وهما هود وصالح وإنما خص هاتين القبيلتين لأن قريشا كانوا يمرون على بلادهم ألا أي بأن لا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة يعني لو شاء ربنا دعوة الخلق لأنزل ملائكة بدل هؤلاء الرسل فإنا بما أرسلتم به كافرون روى البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبد الله قال: «قال الملأ من قريش وأبو جهل قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فأتاه فكلمه ثم أتينا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما وما يخفى علي إن كان كذلك، فأتاه فلما خرج إليه قال: يا محمد أنت خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا فإن كان ما بك للرياسة عقدنا لك ألويتنا فكنت رئيسا ما بقيت وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن من أي بنات قريش وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت لا يتكلم فلما فرغ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم:

حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته إلى قوله تعالى فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم فقال أبو جهل يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة

أصابته فانطلقوا بنا إليه فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم لا يكلم محمدا أبدا وقال: والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالا ولكني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله تعالى فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب» وقال محمد بن كعب القرظي: حدثت أن عتبة بن ربيعة كان سيدا حليما قال يوما وهو جالس في نادي قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده في المسجد يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا." (١)

"الخالية البعيدة من العمران والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادي والسفار فإن منفعتهم أكثر من المقيم فإنهم يوقدونها بالليل لتهرب الشماع ويهتدي بها الضال إلى غير ذلك من **المنافع** هذا قول أكثر المفسرين وقيل المقوين الذين يستمتعون بها في الظلمة ويصطلون بها من البرد وينتفعون بها في الطبخ والخبز إلى غير ذلك من **المنافع** وقيل المقوي من الأضداد يقال للفقير مقو لخلوه من المال ويقال للغني مقو لقوته على ما يريد والمعنى أن فيها متاعا ومنفعة للفقراء والأغنياء جميعا لا غنى لأحد عنها.

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٧٤ الى ٧٩]

فسبح باسم ربك العظيم (٧٤) فلا أقسم بمواقع النجوم (٧٥) وإنه لقسم لو تعلمون عظيم (٧٦) إنه لقرآن كريم (٧٧) في كتاب مكنون (٧٨)

لا يمسه إلا المطهرون (٧٩)

فسبح باسم ربك العظيم لما ذكر الله ما يدل على وحدانيته وقدرته وإنعامه على سائر الخلق خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم ويجوز أن يكون خطابا لكل فرد من الناس فقال تعالى فسبح باسم ربك أي برأ الله ونزهه عما يقول المشركون في صفته والاسم يكون بمعنى الذات والمعنى فسبح بذات ربك العظيم.

قوله عز وجل: فلا أقسم قال أكثر المفسرين معناه فأقسم ولا صلة مؤكدة وقيل لا على أصلها وفي معناها وجهان أحدهما أنها ترجع إلى ما تقدم ومعناها النهي وتقديره فلا تكذبوا ولا تجحدوا ما ذكرته من النعم والحجج.

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/٨٤

الوجه الثاني: أن لا رد لما قاله الكفار في القرآن من أنه سحر وشعر وكهانة والمعنى ليس الأمر كما تقولون ثم استأنف القسم فقال أقسم والمعنى لا والله لا صحة لقول الكفار وقيل إن لا هنا معناها النفي فهو كقول القائل لا تسأل عما جرى وهو يريد تعظيم الأمر لا النهي عن السؤال، بمواقع النجوم قال ابن عباس أراد نجوم القرآن فإنه كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم متفرقا وقيل أراد مغارب النجوم ومساقطها وقيل أراد منازلها وقيل انكدارها وانتثارها يوم القيامة وقيل مواقعها في اتباع الشياطين عند الرجم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم قيل هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن والمعنى إن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون عظمته لانتفعتم بذلك وقيل معنى لو تعلمون أي فاعلموا عظمته وقيل إنه اعتراض بين القسم والمقسم عليه والمعنى فأقسم بمواقع النجوم، إنه لقرآن كريم أي إن الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لقرآن كريم أي عزيز مكرم لأنه كلام الله تعالى ووحيه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم وقيل الكريم الذي من شأنه أن يعطي الكثير وسمي القرآن كريما لأنه يفيد الدلائل التي تؤدي إلى الحق في الدين وقيل الكريم اسم جامع لما يحمد والقرآن الكريم لما يحمد فيه من الهدى والنور والبيان والعلم والحكم فالفقيه يستدل به ويأخذ منه والحكيم يستمد منه ويحتج به والأديب يستفيد منه ويتقوى به فكل عالم يطلب أصل علمه منه وقيل سمي كريما لأن كل أحد يناله ويحفظه من كبير وصغير وذكي وبليد بخلاف غيره من الكتب، وقيل إن الكلام إذا كرر مرارا يسأمه السامعون ويهون في الأعين وتمله الآذان والقرآن عزيز كريم لا يهون بكثرة التلاوة ولا يخلق بكثرة الترداد ولا يمله السامعون ولا يثقل على الألسنة بل هو غض طري يبقى أبد الدهر كذلك في كتاب مكنون أي مصون مستور عند الله تعالى في اللوح المحفوظ من الشياطين من أن يناله بسوء وقيل المراد بالكتاب المصحف ومعنى مكنون مصون محفوظ من التبديل والتحريف والقول الأول أصح، لا يمسه أي ذلك الكتاب المكنون إلا المطهرون وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب والأحداث يروى هذا القول عن ابن عباس وأنس وهو قول سعيد بن جبير وأبي العالية وقتادة وابن زيد وقيل هم السفرة الكرام البررة وعلى القول الثاني من أن المراد بالكتاب المصحف فقيل معنى لا يمسه إلا المطهرون أي من الشرك وكان ابن عباس ينهى أن تمكن اليهود والنصارى من." (١)

"التفسير يكون معنى طرائق قددا أي سنصير طرائق قددا وهو بيان للقسمة المذكورة أي كنا ذوي مذاهب مختلفة متفرقة، وقيل معناه كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة وأنا ظننا الظن هنا بمعنى

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/٢٤١

العلم واليقين أي علمنا وأيقنا أن لن نعجز الله في الأرض أي لن نفوته إن أراد بنا أمرا ولن نعجزه هربا أي إن طلبنا فلن نعجزه أينما كنا وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به أي لما سمعنا القرآن آمنا به وبمحمد صلى الله عليه وسلم فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا أي نقصانا من عمله وثوابه ولا رهقا يعني ظلما وقيل مكروها يغشاه وأنا منا المسلمون وهم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ومنا القاسطون أي الجائرون العادلون عن الحق، قال ابن عباس وهم الذين جعلوا لله أندادا فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا أي قصدوا طريق الله وتوخوه أما القاسطون

يعني الذين كفرواكانوا لجهنم حطبا

يعني وقودا للنار يوم القيامة.

فإن قلت قد يتمسك بظاهر هذه الآية من لا يرى لمؤمني الجن ثوابا وذلك لأن الله تعالى ذكر عقاب الكافرين منهم ولم يذكر ثواب المؤمنين منهم.

قلت ليس فيه تمسك له وكفى بقوله فأولئك تحروا رشدا فذكر سبب الثواب والله أعدل وأكرم من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد.

فإن قلت كيف يعذب الجن بالنار وقد خلقوا منها.

قلت وإن خلقوا من النار فقد تغيروا عن تلك الهيئة وصاروا خلقا آخر والله تعالى قادر أن يعذب النار بالنار قوله عز وجل: وأن لو استقاموا على الطريقة.

اختلفوا فيمن يرجع الضمير إليه فقيل هو راجع إلى الجن الذين تقدم ذكرهم ووصفهم والمعنى لو استقام الجن على الطريقة المثلى الحسنى لأنعمنا عليهم وإنما ذكر الماء كناية عن طيب العيش وكثرة **المنافع** وقيل معناه لو ثبت الجن الذين سمعوا القرآن. على الطريقة التي كانوا عليها قبل استماع القرآن ولم يسلموا لأسقيناهم ماء غدقا أي لوسعنا الرزق عليهم.

[سورة الجن (٧٢): الآيات ١٧ الى ١٩]

لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا (١٧) وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا (١٨) وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا (١٩)

لنفتنهم فيه وقيل الضمير راجع إلى الإنس وتم الخبر عن الجن ثم رجع إلى خطاب الإنس فقال تعالى: وأن لو استقاموا يعني كفار مكة على الطريقة يعني على طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين

«لأسقيناهم ماء غدقا» يعني كثيرا وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين.
والمعنى لو آمنوا لوسعنا عليهم في الدنيا ولأعطيناهم ماء كثيرا وعيشا رغدا. وإنما ذكر الماء الغدق مثلا لأن الخير والرزق كله أصله من المطر وقوله «لنفتنهم فيه» أي لنختبرهم كيف شكرهم فيما خولوا فيه. وقيل في معنى الآية لو استقاموا أي ثبتوا على طريقة الكفر والضلالة لأعطيناهم مالا كثيرا ولوسعنا عليهم لنفتنهم فيه عقوبة لهم واستدراجا لهم حتى يفتنوا به فنعذبهم والقول الأول أصح لأن الطريقة معرفة بالألف واللام وهي طريقة الهدى والقول بأن الآية في الإنس أولى لأن الإنس هم الذين ينتفعون بالمطر ومن يعرض عن ذكر ربه أي عن عبادة ربه وقيل عن مواعظه يسلكه أي يدخله عذابا صعدا، قال ابن عباس شاقا وقيل عذابا لا راحة فيه وقيل لا يزداد إلا شدة.
قوله تعالى: وأن المساجد لله يعني المواضع التي بنيت للصلاة والعبادة، وذكر الله تعالى فيدخل فيه." (١)
"سورة والتين
(مكية وهي ثمان آيات وأربع وثلاثون كلمة ومائة وخمسة أحرف) بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة التين (٩٥): الآيات ١ الى ٥]
بسم الله الرحمن الرحيم
والتين والزيتون (١) وطور سينين (٢) وهذا البلد الأمين (٣) لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤) ثم رددناه أسفل سافلين (٥)
قوله عز وجل: والتين والزيتون قال ابن عباس: هو تينكم الذي تأكلون وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت، قيل إنما خص التين بالقسم لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص، وفيه غذاء ويشبه فواكه الجنة لكونه بلا عجم.
ومن خواصه أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يمكث في المعدة يخرج بطريق الرشح ويلين الطبيعة، ويقلل البلغم وأما الزيتون فإنه من شجرة مباركة فيه إدام ودهن يؤكل ويستصبح به وشجرته في أغلب البلاد ولا يحتاج إلى خدمة وتربية وينبت في الجبال التي ليست فيها دهنية ويمكث في الأرض ألوفا من السنين، فلما كان فيهما من المنافع، والمصالح الدالة على قدرة خالقهما لا جرم أقسم الله بهما، وقيل هما جبلان فالتين الجبل الذي عليه دمشق والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس، واسمهما بالسريانية طور تينا وطور

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣٥١/٤

زيتا لأنهما ينبتان التين والزيتون، وقيل هما مسجدان فالتين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس، وإنما حسن القسم بهما لأنهما موضع الطاعة، وقيل التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد إيلياء، وقيل التين مسجد نوح الذي بناه على الجودي والزيتون مسجد بيت المقدس وطور سينين يعني الجبل الذي كلم الله موسى عليه الصلاة والسلام وسينين اسم للمكان الذي فيه الجبل سمي سينين وسيناء لحسنه ولكونه مباركا وكل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سينين وسيناء وهذا البلد الأمين يعني الآمن، وهو مكة حرسها الله تعالى لأنه الحرم الذي يأمن فيه الناس في الجاهلية والإسلام لا ينفر صيده ولا يعضد شجره، ولا تلتقط لقطته إلا لمنشد وهذه أقسام أقسم الله بها لما فيها من **المنافع** والبركة وجواب القسم قوله تعالى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم يعني في أعدل قامة، وأحسن صورة، وذلك أنه تعالى خلق كل حيوان منكبا على وجهه يأكل بفيه إلا الإنسان فإنه خلقه مديد القامة حسن الصورة يتناول مأكوله بيده مزينا بالعلم، والفهم، والعقل، والتمييز، والمنطق. ثم رددناه أسفل سافلين يعني إلى الهرم وأرذل العمر فيضعف بدنه وينقص عقله والسافلون هم الضعفاء، والزمنى والأطفال والشيخ الكبير أسفل من هؤلاء جميعا لأنه لا يستطيع حيلة، ولا يهتدي سبيلا لضعف بدنه وسمعه وبصره وعقله، وقيل ثم رددناه إلى النار لأنها دركات بعضها أسفل من بعض ثم استثنى. فقال تعالى:." (١)

"[سورة العلق (٩٦): الآيات ٢ الى ١٠]

خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥) كلا إن الإنسان ليطغى (٦)

أن رآه استغنى (٧) إن إلى ربك الرجعى (٨) أرأيت الذي ينهى (٩) عبدا إذا صلى (١٠)

خلق الإنسان يعني آدم وإنما خص الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات لأنه أشرفها، وأحسنها خلقه من علق جمع علقة ولما كان الإنسان اسم جنس في معنى الجمع جمع العلق ولمشاكله رؤوس الآي أيضا اقرأ كرره تأكيدا وقيل الأول اقرأ في نفسك، والثاني اقرأ للتبليغ وتعليم أمتك ثم استأنف. فقال تعالى: وربك الأكرم يعني الذي لا يوازيه كريم ولا يعادله في الكرم نظير وقد يكون الأكرم بمعنى الكريم كما جاء الأعز بمعنى العزيز، وغاية الكريم إعطاؤه الشيء من غير طلب العوض، فمن طلب العوض فليس بكريم، وليس المراد أن يكون العوض عينا بل المدح والثواب عوض والله سبحانه وجل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه يتعالى عن طلب العوض ويستحيل ذلك في وصفه لأنه أكرم الأكرمين، وقيل الأكرم هو الذي لا الابتداء

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/٤٤٤

في كل كرم وإحسان وقيل هو الحليم عن جهل العباد فلا يعجل عليهم بالعقوبة، وقيل يحتمل أن يكون هذا حثا على القراءة، والمعنى اقرأ وربك الأكرم لأنه يجزي بكل حرف عشر حسنات الذي علم بالقلم أي الخط والكتابة التي بها تعرف الأمور الغائبة وفيه تنبيه على فضل الكتابة لما فيها من **المنافع** العظيمة لأن بالكتابة ضبطت العلوم، ودونت الحكم وبها عرفت أخبار الماضين، وأحوالهم وسيرهم ومقالاتهم ولولا الكتابة ما استقام أمر الدين والدنيا قال قتادة:

القلم نعمة من الله عظيمة. لولا القلم لم يقم دين ولم يصلح عيش، فسأل بعضهم عن الكلام، فقال ربح لا يبقى قيل له فما قيده قال الكتابة لأن القلم ينوب عن اللسان ولا ينوب اللسان عنه علم الإنسان ما لم يعلم قيل يحتمل أن يكون المراد علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، فيكون المراد من ذلك معنى واحدا، وقيل علمه من أنواع العلم، والهداية، والبيان، ما لم يكن يعلم، وقيل علم آدم الأسماء كلها، وقيل المراد بالإنسان هنا محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله عز وجل: كلا أي حقا إن الإنسان ليطغى أي يتجاوز الحد، ويستكبر على ربه أن أي لأن رآه استغنى أي رأى نفسه غنيا وقيل يرتفع عن منزلته إلى منزلة أخرى في اللباس والطعام وغير ذلك، نزلت في أبي جهل وكان قد أصاب مالا فزاد في ثيابه ومركبه وطعامه فذلك طغيانه إن إلى ربك الرجعى

أي المرجع في الآخرة وفيه تهديد، وتحذير لهذا الإنسان من عاقبة الطغيان، ثم هو عام لكل طاغ متكبر.

[سورة العلق (٩٦): الآيات ٩ الى ١٩]

أرأيت الذي ينهى (٩) عبدا إذا صلى (١٠) أرأيت إن كان على الهدى (١١) أو أمر بالتقوى (١٢) أرأيت إن كذب وتولى (١٣)

ألم يعلم بأن الله يرى (١٤) كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية (١٥) ناصية كاذبة خاطئة (١٦) فليدع ناديه (١٧) سندع الزبانية (١٨)

كلا لا تطعه واسجد واقترب (١٩)

أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى نزلت في أبي جهل وذلك أنه نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة (م) عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم، فقيل نعم فقال واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب قال فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليطأ على رقبته قال فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقيل له ما لك قال إن بيني وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة فقال النبي صلى الله عليه وسلم «لو دنا مني لاختطفته الملائكة

عضوا عضوا» فأنزل الله هذه الآية، لا أدري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه كلا إن الإنسان ليطغى إلى قوله كلا لا تطعه قال: وأمره بما أمره به زاد في رواية، فليدع ناديه يعني قومه (خ) عن ابن عباس قال قال أبو جهل لئن رأيت محمدا يصلي عند البيت لأطأن على عنقه. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة» زاد الترمذي عيانا ومعنى أرأيت تعجبا للمخاطب وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وفائدة التنكير في قوله عبدا تدل على أنه كامل العبودية، والمعنى أرأيت الذي ينهى أشد الخلق عبودية عن العبودية، وهذا دأبه وعادته، وقيل إن هذا الوعيد يلزم لكل من ينهى عن الصلاة عن طاعة الله تعالى، ولا يلزم منه عدم جواز المنع من الصلاة في الدار المغصوبة، وفي الأوقات المكروهة لأنه قد ورد النهي عن ذلك في الأحاديث الصحيحة، ولا يلزم من ذلك أيضا عدم جواز منع المولى عبده، والرجل زوجته عن قيام الليل، وصوم." (١)

"التعظيم لها، والتشويق إلى خيرها ثم ذكر فضلها من ثلاثة أوجه:

فقال تعالى: ليلة القدر خير من ألف شهر قال ابن عباس: ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك، وتمنى ذلك لأمته فقال: يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعمارا، وأقلها أعمالا، فأعطاه الله تبارك وتعالى ليلة القدر، فقال ليلة القدر خير من ألف شهر التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل الله لك ولأمتك إلى يوم القيامة، وعن مالك أنه سمع من يثق به من أهل العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم أرى أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته أي لا يبلغوا من العمل مثل الذي يبلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خيرا من ألف شهر أخرجه مالك في الموطأ قال المفسرون: معناه العمل الصالح في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وإنما كان كذلك لما يريد الله تعالى فيها من المنافع والأرزاق وأنواع الخير والبركة.

الوجه الثاني: من فضلها قوله عز وجل: تنزل الملائكة يعني إلى الأرض وسبب هذا أنهم لما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وظهر أن الأمر بخلاف ما قالوه وتبين حال المؤمنين وما هم عليه من الطاعة، والعبادة، والجد، والاجتهاد نزلوا إليهم ليسلموا عليها ويعتذروا مما قالوه، ويستغفروا لهم لما يرون من تقصير قد يقع من بعضهم والروح يعني جبريل عليه الصلاة والسلام قاله أكثر المفسرين: وفي حديث أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة يصلون، ويسلمون على

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤٤٨/٤

كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل» ذكره ابن الجوزي، وقيل إن الروح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا في تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وقيل إن الروح ملك عظيم ينزل مع الملائكة، تلك الليلة فيها أي في ليلة القدر بإذن ربهم أي بأمر ربهم من كل أمر أي بكل أمر من الخير والبركة، وقيل بكل ما أمر به وقضاه من كل أمر.

الوجه الثالث: من فضلها قوله تعالى: سلام أي سلام على أولياء الله وأهل طاعته قال الشعبي: هو تسليم الملائكة في ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر، وقيل الملائكة ينزلون فيها كلما لقوا مؤمنا أو مؤمنة يسلمون عليه من ربه عز وجل، وقيل تم الكلام عند قوله من كل أمر ثم ابتدأ فقال تعالى: سلام هي يعني القدر سلامة وخير ليس فيها شر، وقيل لا يقدر الله في تلك الليلة ولا يقضي إلا السلامة، وقيل إن ليلة القدر سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا أو يحدث فيها أذى حتى مطلع الفجر أي أن ذلك السلام أو السلامة تدوم إلى مطلع الفجر، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.." (١)

"سورة العاديات

وهي مكية في قول ابن مسعود وغيره مدنية في قول ابن عباس، وهي إحدى عشرة آية وأربعون كلمة ومائة وثلاثة وستون حرفا بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

والعاديات ضبحا (١) فالموريات قدحا (٢) فالمغيرات صبحا (٣) فأثرن به نقعا (٤)

قوله عز وجل: والعاديات ضبحا فيه قولان أحدهما، أنها الإبل في الحج قال علي كرم الله وجهه: هي الإبل تعدو من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى، وعنه قال كانت أول غزاة في الإسلام بدرا، وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون العاديات؟ فعلى هذا القول يكون معنى ضبحها مد أعناقها في السير وأصله من حركة النار في العود. فالموريات قدحا يعني أن أخفاف الإبل ترمي بالحجارة من شدة عدوها فيضرب الحجر حجرا آخر فيوري النار، وقيل هي النيران بجمع فالمغيرات صبحا يعني الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى والسنة أن لا يدفع حتى يصبح والإغارة سرعة السير،

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/٤٥٣

ومنه قولهم أشرق ثبير كيما نغير فأثرن به نقعا أي هيجن بمكان سيرها غبارا.

[سورة العاديات (١٠٠): الآيات ٥ الى ١١]

فوسطن به جمعا (٥) إن الإنسان لربه لكنود (٦) وإنه على ذلك لشهيد (٧) وإنه لحب الخير لشديد (٨) أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور (٩)

وحصل ما في الصدور (١٠) إن ربهم بهم يومئذ لخبير (١١)

فوسطن به جمعا أي وسطن بالنقع جمعا وهو مزدلفة، فوجه القسم على هذا أن الله تعالى أقسم بالإبل لما فيها من المنافع الكثيرة، وتعريضه بإبل الحج للترغيب وفيه تقريع لمن لم يحج بعد القدرة عليه، فإن الكنود هو الكفور، ومن لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك القول الثاني في تفسير والعاديات، قال ابن عباس وجماعة هي الخيل العادية في سبيل الله والضبح صوت أجوافها إذا غدت قال ابن عباس: وليس شيء من الحيوان ات يضبح سوى الفرس، والكلب، والثعلب، وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغير حالها من فزع أو تعب، وهو من قول العرب ضبحته النار إذا غيرت لونه، فالموريات قدحا يعني أنها توري النار بحوافرها إذا سارت في الحجارة، وقيل هي الخيل تهيج الحرب ونار العداوة بين فرسانها وقال ابن عباس: هي الخيل تغزو في سبيل الله ثم تأوي بالليل فيوري أصحابها نارا، ويصنعون طعامهم، وقيل هو مكر الرجال في الحرب، والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه أما والله لأقدحن لك ثم لأورين لك، فالمغيرات صبحا يعني الخيل تغير بفرسانها على العدو عند الصباح لأن الناس في غفلة في ذلك الوقت عن الاستعداد، فأثرن به أي بالمكان نقعا أي غبارا فوسطن به جمعا أي دخلن به أي بذلك النقع وهو الغبار، وقيل صرن بعدوهن وسط جمع العدو، وهم الكتيبة وهذا القول في تفسير هذه الآيات أولى بالصحة، وأشبه بالمعنى، لأن الضبح من صفة." (١)

"الخيل، وكذا إيراء النار بحوافرها، وإثارة الغبار أيضا، وإنما أقسم الله بخيل الغزاة لما فيها من المنافع الدينية، والدنيوية، والأجر، والغنيمة، وتنبيها على فضلها، وفضل رباطها في سبيل الله عز وجل، ولما ذكر الله تعالى المقسم به ذكر المقسم عليه. فقال تعالى: إن الإنسان لربه لكنود أي لكفور وهو جواب القسم قال ابن عباس: الكنود الكفور الجحود لنعمة الله تعالى، وقيل الكنود هو العاصي، وقيل هو الذي يعد المصائب، وينسى النعم، وقيل هو قليل الخير مأخوذ من الأرض الكنود، وهي التي لا تنبت شيئا، وقال

---

(١) تفسير ا لخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/٤٦٠

الفضيل بن عياض الكنود:
الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان، وضده الشكور الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة وإنه على ذلك لشهيد قال أكثر المفسرين: وإن الله على كونه كنود الشاهد، وقيل الهاء راجعة إلى الإنسان، والمعنى أنه شاهد على نفسه بما صنع وإنه يعني الإنسان لحب الخير أي المال لشديد أي لبخيل والمعنى أنه من أجل حب المال لبخيل، وقيل معناه وإنه لحب المال وإيثار الدنيا لقوي شديد أفلا يعلم يعني هذا الإنسان إذا بعثر أي أثير وأخرج ما في القبور يعني من الموتى وحصل ما في الصدور أي ميز وأبرز ما فيها من الخير والشر إن ربهم بهم أي جمع الكناية لأن الإنسان اسم جنس يومئذ لخبير أي عالم والله تعالى خبير بهم في ذلك اليوم، وفي غيره، ولكن المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم على كفرهم وإنما خص أعمال القلوب بالذكر في قوله، وحصل ما في الصدور لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب، فإنه لولا البواعث والإرادات التي في القلوب لما حصلت أعمال الجوارح والله أعلم.." (١)

"ذلك لا يجوز إلا على مذهب من أجاز وقوع الفاعل جملة، وليس مذهب جمهور البصريين.
وقد تقدمت المذاهب في ذلك عند الكلام على قوله تعالى: سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم، والمفعول الذي لم يسم فاعله في ذلك حكمه حكم الفاعل، وتخريجه على مذهب جمهور البصريين أن المفعول الذي لم يسم فاعله هو مضمر تقديره هو، يفسره سياق الكلام كما فسر المضمر في قوله تعالى: حتى توارت بالحجاب «١» سياق الكلام والمعنى، وإذا قيل لهم قول شديد فأضمر هذا القول الموصوف وجاءت الجملة بعده مفسرة، فلا موضع لها من الإعراب لأنها مفسرة لذلك المضمر الذي هو القول الشديد، ولا جائز أن يكون لهم في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله لأنه لا ينتظم منه مع ما قبله كلام، لأنه يبقى لا تفسدوا لا ارتباط له، إذ لا يكون معمولا للقول مفسرا له.
وزعم الزمخشري أن المفعول الذي لم يسم فاعله هو الجملة التي هي: لا تفسدوا، وجعل ذلك من باب الإسناد اللفظي ونظره بقولك ألف حرف من ثلاثة أحرف، ومنه زعموا مطية الكذب، قال: كأنه قيل: وإذا قيل لهم هذا القول وهذا الكلام، انتهى. فلم يجعله من باب الإسناد إلى معنى الجملة لأن ذلك لا يجوز على مذهب جمهور البصريين، فعدل إلى الإسناد اللفظي، وهو الذي لا يختص به الاسم بل يوجد في الاسم والفعل والحرف والجملة، وإذا أمكن الإسناد المعنوي لم يعدل إلى الإسناد اللفظي، وقد أمكن ذلك

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤٦١/٤

بالتخريج الذي ذكرناه. واللام في قوله: لهم، للتبليغ، وهو أحد المعاني السبعة عشر التي ذكرناها للام عند كلامنا على قوله تعالى: الحمد لله. وإفسادهم في الأرض بالكفر، قاله ابن عباس، أو المعاصي، قاله أبو العالية ومقاتل، أو بهما، قاله السدي عن أشياخه أو بترك امتثال الأمر واجتناب النهي، قاله مجاهد أو بالنفاق الذي صافوا به الكفار وأطلعوهم على أسرار المؤمنين، ذكره علي بن عبيد الله، أو بإعراضهم عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن أو بقصدهم تغيير الملة، قاله الضحاك، أو باتباعهم هواهم وتركهم الحق مع وضوحه، قاله بعضهم.

وقال الزمخشري: الإفساد في الأرض تهييج الحروب والفتن، قال: لأن في ذلك فساد ما في الأرض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدنيوية،

---

(١) سورة ص: ٣٨/ ٣٢.." [1]

"قال تعالى: ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل «١» ، أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء «٢» ، ومنه قيل لحرب كانت بين طيء: حرب الفساد، انتهى كلامه. ووجه الفساد بهذه الأقوال التي قيلت أنها كلها كبائر عظيمة ومعاص جسيمة، وزادها تغليظا إصرارهم عليها، والأرض متى كثرت معاصي أهلها وتواترت، قلت خيراتها ونزعت بركاتها ومنع عنها الغيث الذي هو سبب الحياة، فكان فعلهم الموصوف أقوى الأسباب لفساد الأرض وخرابها. كما أن الطاعة والاستغفار سبب لكثرة الخيرات ونزول البركات ونزول الغيث، ألا ترى قوله تعالى: فقلت استغفروا ربكم «٣» ، وأن لو استقاموا على الطريقة «٤» ، ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا «٥» ، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل «٦» ، الآيات.

وقد قيل في تفسيره ما

روي في الحديث من أن الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب، إن معاصيه يمنع الله بها الغيث، فيهلك البلاد والعباد لعدم النبات وانقطاع الأقوات.

والنهي عن الإفساد في الأرض من باب النهي عن المسبب، والمراد النهي عن السبب. فمتعلق النهي حقيقة هو مصافاة الكفار وممالأتهم على المؤمنين بإفشاء السر إليهم وتسليطهم عليهم، لإفضاء ذلك إلى هيج الفتن المؤدي إلى الإفساد في الأرض، فجعل ما رتب على المنهي عنه حقيقة منهيا عنه لفظا. والنهي عن الإفساد في الأرض هنا كالنهي في قوله تعالى: ولا تعثوا في الأرض مفسدين «٧» . وليس ذكر الأرض

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٠٦/١

لمجرد التوكيد بل في ذلك تنبيه على أن هذا المحل الذي فيه نشأتكم وتصرفكم، ومنه مادة حياتكم، وهو سترة أمواتكم، جدير أن لا يفسد فيه، إذ محل الإصلاح لا ينبغي أن يجعل محل الإفساد. ألا ترى إلى قوله تعالى: ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها»

وقال تعالى: هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه «٩» ، وقال تعالى: والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم «١٠» ، وقوله تعالى: أنا صببنا الماء صبا «١١» ، الآية. إلى غير ذلك من الآيات المنبهة على الامتنان علينا بالأرض، وما أودع الله فيها من المنافع التي لا تكاد تحصى.

---

(١) سورة البقرة: ٢/ ٢٠٥.

(٢) سورة البقرة: ٢/ ٣٠.

(٣) سورة نوح: ٧١/ ١٠.

(٤) سورة الجن: ٧٢/ ١٦. [.....]

(٥) سورة الأعراف: ٧/ ٩٦.

(٦) سورة المائدة: ٥/ ٦٦.

(٧) سورة البقرة: ٢/ ٦٠.

(٨) سورة الأعراف: ٧/ ٥٦.

(٩) سورة الملك: ٦٧/ ١٥.

(١٠) سورة النازعات: ٧٩/ ٣٠- ٣٣.

(١١) سورة عبس: ٨٠/ ٢٥.." [١]

"هاتين الجملتين اللتين هما: يجعلون أصابعهم، ويكاد البرق «١» ، وهما من قصة واحدة.

وقد تقدم لنا أن هذا التمثيل من التمثيلات المركبة، وهو الذي تشبه فيه إحدى الجملتين بالأخرى في أمر من الأمور، وإن لم يكن آحاد إحدى الجملتين شبيهة بآحاد الجملة الأخرى، فيكون المقصود تشبيه حيرة المنافقين في الدين والدنيا بحيرة من انطفأت ناره بعد إيقادها، وبحيرة من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق. وهذا الذي سبق أنه المختار. وقالوا أيضا: يكون من التشبيه المفرق، وهو أن يكون المثل

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٠٧/١

مركبا من أمور، والممثل يكون مركبا أيضا، وكل واحد من المثل مشبه لكل واحد من الممثل.

وقد تقدم قولان من جعل هذا المثل من التمثيل المفرق. والثالث: أن الصيب مثل للإسلام والظلمات، مثل لما في قلوبهم من النفاق والرعد والبرق، مثلان لما يخوفون به.

والرابع: البرق مثل للإسلام والظلمات، مثل للفتنة والبلاء. والخ١مس: الصيب: الغيث الذي فيه الحياة مثل للإسلام والظلمات، مثل لإسلام المنافقين وما فيه من إبطان الكفر، والرعد مثل لما في الإسلام من حقن الدماء والاختلاط بالمسلمين في المناكحة والموازنة، والبرق وما فيه من الصواعق مثل لما في الإسلام من الزجر بالعقاب في العاجل والآجل، ويروى معنى هذا عن الحسن. والسادس: أن الصيب والظلمات والرعد والبرق والصواعق كانت حقيقة أصابت بعض اليهود، فضرب الله مثلا بقصتهم لبقيتهم، وروي في ذلك حديث عن ابن مسعود، وابن عباس. السابع: أنه مثل ضربه الله للخير والشر الذي أصاب المنافقين، فكأنهم كانوا إذا كثرت أموالهم وولدهم الغلمان، أو أصابوا غنيمة أو فتحا قالوا: دين محمد صدق، فاستقاموا عليه، وإذا هلكت أموالهم وأولادهم وأصابهم البلاء قالوا: هذا من أجل دين محمد، فارتدوا كفارا. الثامن: أنه مثل الدنيا وما فيها من الشدة والرخاء والنعمة والبلاء بالصيب الذي يجمع نفعا بإحيائه الأرض وإنباته النبات وإحياء كل دابة والانتفاع به للتطهير وغيره من **المنافع**، وضرا بما يحصل به من الإغراق والإشراق، وما تقدمه من الظلمات والصواعق بالإرعاد والإبراق، وأن المنافق يدفع آجلا بطلب عاجل النفع، فيبيع آخرته وما أعد الله له فيها من النعيم بالدنيا التي صفوها كدر ومآله بعد إلى سقر. التاسع: أنه مثل للقيامة لما يخافونه من وعيد الآخرة لشكهم في دينهم وما فيه من البرق، بما في إظهار الإسلام من حقن دمائهم، ومثل ما فيه من الصواعق بما في الإسلام من الزواجر بالعقاب في العاجل والآجل. العاشر: ضرب الصيب مثل لما أظهر المنافقون

---

(١) سورة البقرة: ٢/ ٢٠.." [١]

"قال ابن فورك: ويحتمل أن يكون الخطاب للمؤمنين، المعنى: فلا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادا بعد علمكم أن العلم هو نفي الجهل بأن الله واحد. قال أبو محمد بن عطية، هذه الآية تعطي أن الله تعالى أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا، فقد أخذ بطرف من جعل ندا، انتهى. وقول أبي محمد يعطي أن الله أغنى

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٤٢/١

الإنسان، خطأ في التركيب، لأن أعطى لا تنوب أن ومعمولاها مناب مفعوليها، بخلاف ظن، فإنها تنوب مناب مفعوليها، ولذلك سر ذكر في علم العربية.

قال بعض المفسرين: اختص تعالى بهذه المخلوقات وهي: الخلقة البشرية، والبنيتان الأرضية والسماوية، لأنها محل الاعتبار ومسرح الإبصار ومواطن **المنافع** الدنيوية والأخروية، وبها يقوم الدليل على وجود الصانع وقدرته وحكمته وحياته وإرادته، وغير ذلك من صفاته الذاتية والفعلية، وانفراده بخلقها وأحكامها، وقدم الخلقة البشرية، وإن كانت للعالم الأصغر، لما فيها من بدائع الصنعة ما لا يعبر عنه وصف لسان ولا يحيط بكنهه فكر جنان، وظهور حسن الصنعة في الأشياء اللطيفة الجرم أعظم منه في الأجرام العظام، ولأن اعتبار الإنسان بنفسه في تقلب أحواله أقرب إلى ذهنه. قال تعالى: وفي أنفسكم أفلا تبصرون «١» ، أو لأن العرب عادتها تقديم الأهم عندها والمعتنى به، قال: وهو تعالى بإصلاح حال البنية البشرية أكثر اهتماما من غيرها من المخلوقات، لأنها أشرف مخلوقاته وأكرمها عليه. قال تعالى: ولقد كرمنا بني آدم «٢» الآية، ولأنه تعالى خلق هذه الأشياء منافع لبني آدم وأعدها نعما يمتن بها عليهم، وذكر المنعم عليه يتقدم على ذكر النعمة. ثم إنه تعالى لما عرفهم أنه خالقهم أخبرهم أنه جعل لهم مكانا يستقرون عليه، إذ كانت حكمته اقتضت ذلك، فيستقرون فيه جلوسا ونوما وتصرفا في معايشهم، وجعل منه سهلا للقرار والزرع، ووعرا للاعتصام، وجبالا لسكون الأرض من الاضطراب. ثم لما من عليهم بالمستقر أخبرهم بجعل ما يقيهم ويظلهم، وجعله كالخيمة المضروبة عليهم، وأشهدهم فيها من غرائب الحكمة بأن أمسكها فوقهم بلا عمد ولا طنب لتهتدي عقولهم، أنها ليست مما يدخل تحت مقدور البشر، ثم نبههم على النعمة العظمى، وهي إنزال المطر الذي هو مادة الحياة وسبب اهتزاز الأرض بالنبات، وأجناس الثمرات. وقدم ذكر الأرض على السماء، وإن كانت أعظم في القدرة وأمكن في الحكمة، وأتم في النعمة وأكبر في

---

(١) سورة الذاريات: ٥١/ ٢١.

(٢) سورة الإسراء: ١٧/ ٧٠.." (١)

"المقدار، لأن السقف والبنيان، فيما يعهد، لا بد له من أساس وعمد مستقر على الأرض، فبدأ بذكرها، إذ على متنها يوضع الأساس وتستقر القواعد، إذ لا ينبغي ذكر السقف أولا قبل ذكر الأرض التي تستقر عليها قواعده، أو لأن الأرض خلقها متقدم على خلق السماء، فإنه تعالى خلق الأرض ومهد رواسيها

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١/١٦٣

قبل خلق السماء. قال تعالى: قل أإنكم لتكفرون «١» إلى آخر الآيات، أو لأن ذلك من باب الترقي بذكر الأدنى إلى ذكر الأعلى.

وقد تضمنت هاتان الآيتان من بدائع الصنعة، ودقائق الحكمة، وظهور البراهين، ما اقتضى تعالى أنه المنفرد بالإيجاد، المتكفل للعباد، دون غيره من الأنداد، التي لا تخلق ولا ترزق ولا لها نفع ولا ضر، ألا لله الخلق والأمر. قال بعض أصحاب الإشارات: لما امتن تعالى عليهم بأنه خلقهم والذين من قبلهم، ضرب لهم مثلا يرشدهم إلى معرفة كيفية خلقهم، وأنهم وإن كانوا متوالدين بين ذكر وأنثى، مخلوقين من نطفة إذا تمنى، هو تعالى خالقهم على الحقيقة، ومصورهم في الأرحام كيف يشاء، ومخرجهم طفلا، ومربيهم بما يصلحهم من غذاء وشراب ولباس، إلى غير ذلك من **المنافع** التي تدعو حاجتهم إليها فجعل الأرض التي هي فراش مثل الأم التي يفترشها الزوج، وهي أيضا تسمى فراشا، وشبه السماء التي علت على الأرض بالأب الذي يعلو على الأم ويغشاها، وضرب الماء النازل من السماء مثلا للنطفة التي تنزل من صلب الأب، وضرب ما يخرج من الأرض من الثمرات بالولد الذي يخرج من بطن الأم، يؤنس تعالى بذلك عقولهم ويرشدها إلى معرفة كيفية التخليق، ويعرفها أنه الخالق لهذا الولد والمخرج له من بطن أمه، كما أنه الخالق للثمرات ومخرجها من بطون أشجارها، ومخرج أشجارها من بطن الأرض، فإذا أوضح ذلك لهم أفردوه بالإلهية، وخصوه بالعبادة، وحصلت لهم الهداية. قوله تعالى:

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٣ الى ٢٤]

وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين (٢٣) فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين (٢٤)

إن: حرف ثنائي الوضع يكون شرطا، وهو أصل أدواته، وحرف نفي، وفي إعماله إعمال ما الحجازية خلاف، وزائدا مطردا بعد ما النافية، وقبل مدة الإنكار، ولا تكون

---

(١) سورة فصلت: ٤١/ ٩. [.....]." (١)

"أبي الربيع في (كتاب التلخيص) من تأليفه: الظاهر من مذهب سيبويه أن النقل بالتضعيف سماع في المتعدي واللازم، وفيما علمه أقوال: أسماء جميع المخلوقات، قاله ابن عباس وابن جبير ومجاهد

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٦٤/١

وقتادة، أو اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وعزي إلى ابن عباس، وهو قريب من الأول، أو جميع اللغات، ثم كلم كل واحد من بنيه بلغة فتفرقوا في البلاد، واختص كل فرقة بلغة أو كلمة واحدة تفرع منها جميع اللغات، أو أسماء النجوم فقط، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، أو أسماء الملائكة فقط، قاله الربيع بن خيثم، أو أسماء ذريته، قاله الربيع بن زيد، أو أسماء ذريته والملائكة، قاله الطبري واختاره أو أسماء الأجناس التي خلقها، علما أن هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من **المنافع** الدينية والدنيوية، واختاره الزمخشري، أو أسماء ما خلق في الأرض، قاله ابن قتيبة، أو الأسماء بلغة ثم وقع الاصطلاح من ذريته في سواها، أو علمه كل شيء حتى نحو سيبويه، قاله أبو علي الفارسي، أو أسماء الله عز وجل، قاله الحكيم الترمذي، أو أسماء من أسمائه المخزونة، فعلم بها جميع الأسماء، قاله الجريري، أو التسميات. ومعنى هذا علمه أن يسمي الأشياء، وليس المعنى علمه الأسماء، لأن التسمية غير الاسم، قاله الجمهور، وحالة تعليمه تعالى آدم، هل عرض عليه المسميات أو وصفها له ولم يعرضها عليه قولان: قال بعض من عاصرناه: المختار أسماء ذريته، وعرفه العاصي والمطيع ليعرف الملائكة بأسمائهم وأفعالهم ردا عليهم قولهم:

أتجعل فيها من يفسد فيها، الأسماء كلها يحتمل أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه لدلالة الأسماء عليه. قال الزمخشري: وعوض منه اللام كقوله: واشتعل الرأس شيبا «١» ، انتهى.

وقد تقدم لنا أن اللام عوض من الإضافة ليس مذهب البصريين، ويحتمل أن يكون التقدير مسميات الأسماء، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويترجح الأول، وهو تعليق التعليم بالأسماء تعلق الإنباء به في قوله: أنبئوني بأسماء هؤلاء، والآية التي بعدها، ولم يقل: أنبئوني بهؤلاء، ولا أنبئهم بهم. ويترجح الثاني بقوله، ثم عرضهم إذا حمل على ظاهره، لأن الأسماء لا تجمع كذلك، فدل على عوده على المسميات نحو قوله تعالى: أو كظلمات في بحر لجي يغشاه «٢» ، التقدير: أو كذي ظلمات، فعاد الضمير من يغشاه على ذي المحذوفة، القائم مقامها في الإعراب ظلمات. والذي يدل عليه ظاهر

---

(١) سورة مريم: ١٩/ ٤.

(٢) سورة النور: ٢٤/ ٤٠. [.....]." [١]

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢٣٥/١

"القيد مأمورا به، لأنه ليس داخلا في حيز التكليف، وهذه الحال من هذا النوع، فلا يلزم أن يكون الله أمر بها، وهذه الحال من الأحوال اللازمة. وقوله: لبعض متعلق بقوله عدو، واللام مقوية لوصول عدو إليه، وأفرد عدو على لفظ بعض أو لأنه يصلح للجمع، كما سبق ذكر ذلك عند الكلام على بعض وعلى عدو حالة الإفراد.

ولكم في الأرض مستقر: مبتدأ وخبر. لكم هو الخبر، وفي الأرض متعلق بالخبر، وحقيقته أنه معمول للعامل في الخبر، والخبر هنا مصحح لجواز الابتداء بالنكرة، ولا يجوز في الأرض أن يتعلق بمستقر، سواء كان يراد به مكان استقرار كما قاله أبو العالية وابن زيد، أو المصدر، أي استقرار، كما قاله السدي، لأن اسم المكان لا يعمل، ولأن المصدر الموصول لا يجوز بعضهم تقديم معموله عليه، ولا يجوز في الأرض أن يكون خبرا، ولكم متعلق بمستقر لما ذكرناه، أو في موضع الحال من مستقر، لأن العامل إذ ذاك فيها يكون الخبر، وهو عامل معنوي، والحال متقدمة على جزأي الإسناد، فلا يجوز ذلك، وصار نظير: قائما زيد في الدار، أو قائما في الدار زيد، وهو لا يجوز بإجماع.

مستقر: أي مكان استقراركم حالتي الحياة والموت، وقيل: هو القبر، أو استقرار، كما تقدم شرحه.

ومتاع: المتاع ما استمتع به من **المنافع**، أو الزاد، أو الزمان الطويل، أو التعمير. إلى حين: إلى الموت، أو إلى قيام الساعة، أو إلى أجل قد علمه الله، قاله ابن عباس. ويتعلق إلى بمحذوف، أي ومتاع كائن إلى حين، أو بمتاع، أي واستمتاع إلى حين، وهو من باب الإعمال، أعمل فيه الثاني ولم يحتج إلى إضمار في الأول، لأن متعلقه فضلة، فالأولى حذفه، ولا جائز أن يكون من إعمال الأول، لأن الأولى أن لا يحذف من الثاني والأحسن حمل القرآن على الأولى. والأفصح لا يقال إنه لا يجوز أن يكون من باب الإعمال، وإن كان كل من مستقر ومتاع يقتضيه من جهة المعنى بسبب أن الأول لا يجوز أن يتعلق به إلى حين، لأنه يلزم من ذلك الفصل بين المصدر ومعموله بالمعطوف، والمصدر موصول فلا يفصل بينه وبن معموله، لأن المصدر هنا لا يكون موصولا، وذلك أن المصدر منه ما يلحظ فيه الحدوث فيتقدر بحرف مصدري مع الفعل، وهذا هو الموصول، وإنما كان موصولا باعتبار تقديره بذلك الحرف الذي هو موصول بالفعل، وإلا فالمصدر من حيث هو مصدر لا يكون موصولا، ومنه ما لا يلحظ فيه الحدوث، نحو قوله: لزيد معرفة بالنحو، وبصر بالطب، وله ذكاء ذكاء الحكماء. فمثل هذا لا يتقدر بحرف مصدري والفعل، حتى ذكر النحويون أن هذا." (١)

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١/٢٦٥

"المفسرون في فهم هذا على ستة أقوال: الأول: أنه لفظ عام لمعنى خاص، والمراد: الذين قالوا من بني إسرائيل نحن أبناء الله، وأبناء أنبيائه، وأنهم يشفعون لنا عند الله، فرد عليهم ذلك، وأويسوا منه لكفرهم، وعلى هذا تكون النفس الأولى مؤمنة، والثانية كافرة، والكافر لا تنفعه شفاعة لقوله تعالى: فما تنفعهم شفاعة الشافعين «١» . الثاني: معناه لا يجدون شفيعا تقبل شفاعته، لعجز المشفوع فيه عنه، وهو قول الحسن. الثالث: معناه لا يجيب الشافع المشفوع فيه إلى الشفاعة، وإن كان لو شفع لشفع. الرابع: معناه حيث لم يأذن الله في الشفاعة للكفار، ولا بد من إذن من الله بتقدم الشافع بالشفاعة لقوله: ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له»

، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى «٣» . الخامس:

معناه ليس لها شفاعة، فيكون لها قبول، وقد تقدم هذا القول. السادس: أنه نفي عام، أي لا يقبل في غيرها، لا مؤمنة ولا كافرة، في مؤمنة ولا كافرة، قاله الزمخشري.

وأجمع أهل السنة أن شفاعة الأنبياء والصالحين تقبل في العصاة من المؤمنين، خلافا للمعتزلة، قالوا: الكبيرة تخلد صاحبها في النار، وأنكروا الشفاعة، وهم على ضربين:

طائفة أنكرت الشفاعة إنكارا كليا وقالوا: لا تقبل شفاعة أحد في أحد، واستدلوا بظواهر آيات، وخص تلك الظواهر أصحابنا بالكفار لثبوت الأحاديث الصحيحة في الشفاعة.

وطائفة أنكرت الشفاعة في أهل الكبائر، قالوا: وإنما تقبل في الصغائر. وقال في المنتخب: أجمعت الأمة على أن لمحمد صلى الله عليه وسلم شفاعة في الآخرة، واختلفوا لمن تكون.

فذهبت المعتزلة إلى أنها للمستحقين الثواب، وتأثيرها في أن تحصل زيادة من **المنافع** على قدر ما استحقوه.

وقال أصحابنا: تأثيرها في إسقاط العذاب عن المستحقين، إما بأن لا يدخلوا النار، وإما في أن يخرجوا منها بعد دخولها ويدخلون الجنة، واتفقوا على أنها ليست للكفار، ثم ذكر نحوا من ست أوراق في الاستدلال للطائفتين، ورد بعضهم على بعض، يوقف عليها في ذلك الكتاب.

ولا يؤخذ منها عدل العدل: الفدية، قاله ابن عباس وأبو العالية، وسميت عدلا لأن المفدى يعدل بها: أي يساويها، أو البدل: أي رجل مكان رجل. وروي عن ابن عباس: أو حسنة مع الشرك ثلاثة أقوال. ولا هم ينصرون: أتى بالضمير مجموعا على معنى

---

(١) سورة المدثر: ٧٤/ ٤٨.

(٢) سورة سبأ: ٣٤/ ٢٣.

(٣) سورة الأنبياء: ٢١/ ٢٨.." [1]

"ومن ذريتي على الكاف في جاعلك فقال: فإن قلت: لم خص إبراهيم المؤمنين حتى رد عليه؟ قلت: قاس الرزق على الإمامة، فعرف الفرق بينهما، لأن الاستخلاف استرعاء مختص بمن ينصح للمرعي. وأبعد الناس عن النصيحة الظالم، بخلاف الرزق، فإنه قد يكون استدراجا للمرزوق وإلزاما للحجة له. والمعنى: وأرزق من كفر فأمتعه. انتهى كلامه. فظاهر قوله والمعنى: وأرزق من كفر فأمتعه يدل على أن الضمير في قال، ومن كفر عائد على الله، وأن من كفر منصوب بارزق الذي هو فعل مضارع مسند إلى الله تعالى، وهو يناقص ما قدم أولا من أن من كفر معطوف على من آمن. وفي قوله خص إبراهيم المؤمنين حتى رد عليه سوء أدب على الأنبياء، لأنه لم يرد عليه، لأنه لا يدعي، ويرغب في أن يرزق الكافر، بل قوله تعالى: قال ومن كفر، إخبار من الله تعالى بما يكون مآل الكافر إليه من التمتيع القليل والصيرورة إلى النار، وليس هنا قياس الرزق على الإمامة، ولا تعريف الفرق بينهما، كما زعم.

وقد تقدم تفسير المتاع، وأنه كل ما انتفع به، وفسر هنا التمتيع والإمتاع بالإبقاء، أو بتيسير **المنافع**، ومنه متاع الحياة الدنيا، أي منفعتها التي لا تدوم، أو بالتزويد، ومنه:

فمتعوهن أي زودوهن نفقة. والمتعة: ما يتبلغ به من الزاد، والجمع متع، ومنه: متاعا لكم. وللسيارة والهمزة في أمتع يجعل الشيء صاحب ما صيغ منه: أمتعت زيدا، جعلته صاحب متاع، كقولهم: أقبرته وأنعلته، وكذلك التضعيف في متع هو: يجعل الشيء بمعنى ما صيغ منه نحو قولهم: عدلته. وليس التضعيف في متع يقتضي التكثير، فينافي ظاهر ذلك القلة، فيحتاج إلى تأويل، كما ظنه بعضهم وتأوله على أن الكثرة بإضافة بعضها إلى بعض، والقلة بالإضافة إلى نعيم الآخرة. فقد اختلفت جهتا الكثرة والقلة فلم يتنافينا.

وانتصاب قليلا على أنه صفة لظرف محذوف، أي زمانا قليلا، أو على أنه صفة لمصدر محذوف، أي تمتيعا قليلا، على تقدير الجمهور، أو على الحال من ضمير المصدر المحذوف، الدال عليه الفعل، وذلك على مذهب سيبويه. والوصف بالقلة لسرعة انقضائه، إما لحلول الأجل، وإما بظهور محمد صلى الله عليه وسلم فيقتله، أو يخرجه عن هذا البلد، إن أقام على الكفر والإمتاع بالنعيم والزينة، أو بالإمهال عن تعجيل الانتقام فيها، أو بالرزق، أو بالبقاء في الدنيا، أقوال للمفسرين. وقراءة يحيى بن وثاب: ثم إضطره بكسر الهمزة.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١/ ٣٠٩

قال ابن عطية، على لغة قريش، في قولهم: لا إخال، يعني بكسر الهمزة. وظاهر هذا النقل في أن ذلك، أعني كسر الهمزة التي للمتكلم في نحو إضطر، وهو ما أوله همزة." [١]

"الكتاب أحكام الشرائع، والحكمة وجوه المصالح والمنافع فيها، وقيل: كلها صفات للقرآن، هو آيات، وهو كتاب وهو حكمة. انتهى ما لخص من المنتخب.

ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه:

روي أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجرا إلى الإسلام فقال لهما: قد علمتما أن الله قال في التوراة: [إني باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد، من آمن به فقد اهتدى ورشد، ومن لم يؤمن به فهو ملعون] ، فأسلم سلمة وأبى مهاجر، فأنزل الله هذه الآية.

ومن: اسم استفهام في موضع رفع على الابتداء، وهو استفهام معناه: الإنكار، ولذلك دخلت إلا بعده. والمعنى:

لا أحد يرغب، فمعناه النفي العام. ومن سفه: في موضع رفع بدل من الضمير المستكن في يرغب، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الاستثناء، والرفع أجود على البدل، لأنه استثناء من غير موجب، ومن في من سفه موصولة، وقيل: نكرة موصوفة، وانتصاب نفسه على أنه تمييز، على قول بعض الكوفيين، وهو الفراء، أو مشبه بالمفعول على قول بعضهم، أو مفعول به، إما لكون سفه يتعدى بنفسه كسفه المضعف، وإما لكونه ضمن معنى ما يتعدى، أي جهل، وهو قول الزجاج وابن جني، أو أهلك، وهو قول أبي عبيدة، أو على إسقاط حرف الجر، وهو قول بعض البصريين، أو توكيد لمؤكد محذوف تقديره سفه قوله نفسه، حكاه مكي. أما التمييز فلا يجيزه البصريون، لأنه معرفة، وشرط التمييز عندهم أن يكون نكرة، وأما كونه مشبها بالمفعول، فذلك عند الجمهور مخصوص بالصفة، ولا يجوز في الفعل، تقول: زيد حسن الوجه، ولا يجوز حسن الوجه، ولا يحسن الوجه. وأما إسقاط حرف الجر، وأصله من سفه في نفسه، فلا ينقاس، وأما كونه توكيدا وحذف مؤكدة ففيه خلاف. وقد صحح بعضهم أن ذلك لا يجوز أعني: أن يحذف المؤكد ويبقى التوكيد، وأما التضمين فلا ينقاس، وأما نصبه على أن يكون مفعولا به، ويكون الفعل يتعدى بنفسه، فهو الذي نختاره، لأن ثعلبا والمبرد حكيا أن سفه بكسر الفاء يتعدى، كسفه بفتح الفاء وشدها. وحكي عن أبي الخطاب أنها لغة. قال الزمخشري: سفه نفسه: امتهنها واستخف بها، وأصل السفه، الخفة، ومنه زمام سفيه. وقيل: انتصاب النفس على التمييز نحو: غبن رأيه، وألم رأسه، ويجوز أن يكون في شذوذ تعريف

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١/٦١٦

التمييز، نحو قوله:

ولا بفزارة الشعر الرقابا ... أجب الظهر ليس له سنام." (١)

"أبو عبد الله الرازي أن المحذوف هو المفعول الثاني، قال: فإن قيل: لم ترك المفعول الثاني؟ وأجاب بأن النعمة في التعليم، لا في تعليم شخص دون شخص، كما يقال: فلان يطعم الطعام، إشارة إلى كرمه، ولا يبين من يطعمه. انتهى. والمفعول الأول هو الذي كان فاعلا قبل النقل بالتضعيف أو الهمزة في علم وأطعم.

وأبعد من ذهب إلى أن معنى علم القرآن: جعله علامة وآية يعتبر بها، وهذه جمل مترادفة، أخبار كلها عن الرحمن، جعلت مستقلة لم تعطف، إذ هي تعداد لنعمه تعالى. كما تقول: زيد أحسن إليك، خولك: أشار بذكرك، والإنسان اسم جنس. وقال قتادة الإنسان: آدم عليه السلام. وقال ابن كيسان: محمد صلى الله عليه وسلم. وقال ابن زيد والجمهور:

البيان: المنطق، والفهم: الإبانة، وهو الذي فضل به الإنسان على سائر الحيوان. وقال قتادة: هو بيان الحلال والشرائع، وهذا جزء من البيان العام. وقال محمد بن كعب:

ما يقول وما يقال له. وقال الضحاك: الخير والشر. وقال ابن جريج: الهدى. وقال يمان:

الكتابة. ومن قال: الإنسان آدم، فالبيان أسماء كل شيء، أو التكلم بلغات كثيرة أفضلها العربية، أو الكلام بعد أن خلقه، أو علم الدنيا والآخرة، أو الاسم الأعظم الذي علم به كل شيء، أقوال، آخرها منسوب لجعفر الصادق.

ولما ذكر تعالى ما أنعم به على الإنسان من تعليمه البيان، ذكر ما امتن به من وجود الشمس والقمر، وما فيهما من المنافع العظيمة للإنسان، إذ هما يجريان على حساب معلوم وتقدير سوي في بروجهما ومنازلهما. والحسبان مصدر كالغفران، وهو بمعنى الحساب، قاله قتادة. وقال الضحاك وأبو عبيدة: جمع حساب، كشهاب وشهبان. قال ابن عباس وأبو مالك وقتادة: لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج، وغير ذلك حسبانات شتى.

وقال ابن زيد: لولا الليل والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئا يريد من مقادير الزمان.

وقال مجاهد: الحسبان: الفلك المستدير، شبهه بحسبان الرحى، وهو العود المستدير الذي باستدارته تستدير المطحنة. وارتفع الشمس على الابتداء وخبره بحسبان، فأما على حذف، أي جري الشمس والقمر

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٦٢٨/١

كائن بحسبان. وقيل: الخبر محذوف، أي يجريان بحسبان، وبحسبان متعلق بيجريان، وعلى قول مجاهد: تكون الباء في بحسبان ظرفية، لأن الحسبان عنده الفلك.

ولما ذكر تعالى ما أنعم به من منفعة الشمس والقمر، وكان ذلك من الآيات العلوية، ذكر في مقابلتهما من الآثار السفلية النجم والشجر، إذ كانا رزقا للإنسان، وأخبر أنهما." (١)

"وليحلفن جواب قسم، وهو قسم، لكنه لما لم يكن حلفهم حالا، بل مستقبلا، لزمت النون، وهي مخلصة المضارع للاستقبال. وقرأ الجمهور: بمواقع جمعا وعمر وعبد الله وابن عباس وأهل المدينة وحمزة والكسائي: بموقع مفردا، مرادا به الجمع. قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم: هي نجوم القرآن التي أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويؤيد هذا القول قوله: إنه لقرآن، فعاد الضمير على ما يفهم من قوله: بمواقع النجوم، أي نجوم القرآن. وقيل: النجوم: الكواكب ومواقعها. قال مجاهد وأبو عبيدة: عند طلوعها وغروبها. وقال قتادة: مواقعها: مواضعها من السماء. وقال الحسن: مواقعها عند الانكدار يوم القيامة. وقيل: عند الانفضاض إثر العفاري، ومن تأول النجوم على أنها الكواكب، جعل الضمير في إنه يفسره سياق الكلام، كقوله: حتى توارت بالحجاب «١» .

وفي إقسامه تعالى بمواقع النجوم سر في تعظيم ذلك لا نعلمه نحن، وقد أعظم ذلك تعالى فقال: وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. والجملة المقسم عليها قوله: إنه لقرآن كريم، وفصل بين القسم وجوابه فالظاهر أنه اعتراض بينهما، وفيه اعتراض بين الصفة والموصوف بقوله: لو تعلمون. وقال ابن عطية: وإنه لقسم تأكيد للأمر وتنبيه من المقسم به، وليس هذا باعتراض بين الكلامين، بل هذا معنى قصد التهمم به، وإنما الاعتراض قوله: لو تعلمون. انتهى. وكريم: وصف مدح ينفي عنه مالا يليق به. وقال الزمخشري: كريم: حسن مرضي في جنسه من الكتب، أو نفاع جم **المنافع**، أو كريم على الله تعالى. في كتاب مكنون: أي مصون. قال ابن عباس ومجاهد: الكتاب الذي في السماء. وقال عكرمة: التوراة والإنجيل، كأنه قال: ذكر في كتاب مكنون كرمه وشرفه، فالمعنى على هذا الاستشهاد بالكتب المنزلة. وقيل: في كتاب مكنون: أي في مصاحف للمسلمين مصونة من التبديل والتغيير، ولم تكن إذ ذاك مصاحف، فهو إخبار بغيب.

والظاهر أن قوله: لا يمسه إلا المطهرون وصف لقرآن كريم، فالمطهرون هم الملائكة. وقيل: لا يمسه صفة لكتاب مكنون، فإن كان الكتاب هو الذي في السماء، فالمطهرون هم الملائكة أيضا: أي لا يطلع عليه من سواهم، وكذا على قول عكرمة: هم الملائكة، وإن أريد بكتاب مكنون الصحف، فالمعنى: أنه لا ينبغي

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٥/١٠

أن يمسه إلا من هو

---

(١) سورة ص: ٣٨/ ٣٢.." (١)

"فإنه اجتمع فيها ما تفرق من **المنافع** في غيرها، من أكل لحمها، وشرب لبنها، والحمل عليها، والتنقل عليها إلى البلاد الشاسعة، وعيشها بأي نبات أكلته، وصبرها على العطش حتى إن فيها ما يرد الماء لعشر، وطواعيتها لمن يقودها، ونهضتها وهي باركة بالأحمال الثقال، وكثرة حنينها، وتأثرها بالصوت الحسن على غلظ أكبادها، وهي لا شيء من الحيوان جميع هذه الخصال غيرها. وقد أبان تعالى امتنانه عليهم بقوله: أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما «١» ، الآيات. ولكونها أفضل ما عند الغرب، جعلوها دية القتل، ووهبوا المائة منها من يقصدهم ومن أرادوا إكرامه، وذكرها الشعراء في مدح من وهبها، كما قال:

أعطوا هنيدة تحدوها ثمانية وقال آخر:

الواهب المائة الهجان برمتها وناسب التنبيه بالنظر إليها وإلى ما حوت من عجائب الصفات، ما ذكر معها من السماء والجبال والأرض لانتظام هذه الأشياء في نظر العرب في أوديتهم وبواديهم، وليدل على الاستدلال على إثبات الصانع، وأنه ليس مختصا بنوع دون نوع، بل هو عام في كل موجوداته، كما قيل:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وقال أبو العباس: المبرد: الإبل هنا السحاب، لأن العرب قد تسميها بذلك، إذ تأتي أرسالا كالإبل، وتزجى كما تزجى الإبل، وهي في هيئتها أحيانا تشبه الإبل والنعام، ومنه قوله:

كأن السحاب ذوين السماء ... نعام تعلق بالأجل

وقال الزمخشري: ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله إلا طلب المناسبة، ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب، كالغمام والمزن والرباب والغيم وغير ذلك، وإنما رأى السحاب مشبها بالإبل كثيرا في أشعارهم، فجوز أن يراد بها السحاب على طريقة التشبيه والمجاز، انتهى. وقرأ الجمهور: الإبل بكسر الباء وتخفيف اللام

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٩٢/١٠

(١) سورة يس: ٣٦/ ١٧١.." (١)

"ربك، ولم يأت بلفظ الجلالة لما في لفظ الرب من معنى الذي رباك ونظر في مصلحتك.

وجاء الخطاب ليدل على الاختصاص والتأنيس، أي ليس لك رب غيره. ثم جاء بصفة الخالق، وهو المنشئ للعالم لما كانت العرب تسمي الأصنام أربا. أتى بالصفة التي لا يمكن شركة الأصنام فيها، ولم يذكر متعلق الخلق أولا، فالمعنى أنه قصد إلى استبداده بالخلق، فاقتصر أو حذف، إذ معناه خلق كل شيء.

ثم ذكر خلق الإنسان، وخصه من بين المخلوقات لكونه هو المنزل إليه، وهو أشرف. قال الزمخشري: أشرف ما على الأرض، وفيه دسيسة أن الملك أشرف. وقال:

ويجوز أن يراد الذي خلق الإنسان، كما قال: الرحمن علم القرآن خلق الإنسان «١» فقيل: الذي خلق مبهما، ثم فسره بقوله: خلق تفخيما لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته، انتهى. والإنسان هنا اسم جنس، والعلق جمع علقة، فلذلك جاء من علق، وإنما ذكر من خلق من علق لأنهم مقرون به، ولم يذكر أصلهم آدم، لأنه ليس متقررا عند الكفار فيسبق الفرع، وترك أصل الخلقة تقريبا لأفهامهم.

ثم جاء الأمر ثانيا تأنيسا له، كأنه قيل: امض لما أمرت به، وربك ليس مثل هذه الأرباب، بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص. والأكرم صفة تدل على المبالغة في الكرم، إذ كرمه يزيد على كل كرم ينعم بالنعم التي لا تحصى، ويحلم على الجاني، ويقبل التوبة، ويتجاوز عن السيئة. وليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال:

الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على أفضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو. وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ولا مقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره دليل إلا أمر الخط والقلم لكفى به. ولبعضهم في الأقلام:

ورواقم رقش كمثل أراقم ... قطف الخطا نيالة أقصى المدى

سود القوائم ما يجد مسيرها ... إلا إذا لعبت بها بيض المدى

انتهى. من كلام الزمخشري. ومن غريب ما رأينا تسمية النصارى بهذه الصفة التي هي

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٠/٤٦٤

(١) سورة الرحمن: ٥٥/ ١- ٣.." [١]

"فاحتملت ما وجهين: أحدهما: أن تكون موصولة اسم إن، والعائد الضمير المستكن في حرم والميتة خبران. والوجه الثاني: أن تكون ما مهيئة والميتة مرفوع بحرم. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: إنما حرم، بفتح الحاء وضم الراء مخففة جعله لازما، والميتة وما بعدها مرفوع. ويحتمل ما الوجهين من التهيئة والوصل، والميتة فاعل يحرم، إن كانت ما مهيئة، وخبر إن، إن كانت ما موصولة. وقرأ أبو جعفر: الميتة، بتشديد الياء في جميع القرآن، وهو أصل للتخفيف. وقد تقدم الكلام على هذا التخفيف في قوله: أو كصيب «١» ، وهما لغتان جيدتان، وقد جمع بينهما الشاعر في قوله:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

قيل: وحكى أبو معاذ عن النحويين الأولين، أن الميت بالتخفيف: الذي فارقته الروح، والميت بالتشديد: الذي لم يمت، بل عاين أسباب الموت. وقد تقدم الكلام في الموت.

ولما أمر تعالى بأكل الحلال في الآية السابقة، فصل هنا أنواع الحرام، وأسند التحريم إلى الميتة. والظاهر أن المحذوف هو الأكل، لأن التحريم لا يتعلق بالعين، ولأن السابق المباح هو الأكل في قوله: كلوا مما في الأرض، كلوا من طيبات ما رزقناكم. فالممنوع هنا هو الأكل، وهكذا حذف المضاف يقدر بما يناسب. فقوله: حرمت عليكم أمهاتكم «٢» ، المحذوف: وطء، كأنه قيل: وطء أمهاتكم، وأحل لكم ما وراء ذلكم «٣» ، أي وطء ما وراء ذلكم. فسائر وجوه الانتفاعات محرم من هذه الأعيان المذكورة، إما بالقياس على الأكل عند من يقول بالقياس، وإما بدليل سمعي عند من لا يقول به.

وقال بعض الناس ما معناه: أنه تعالى لما أسند التحريم إلى الميتة، وما نسق عليها وعلقه بعينها، كان ذلك دليلا على تأكيد حكم التحريم وتناول سائر وجوه **المنافع**، فلا يخص شيء منها إلا بدليل يقتضي جواز الانتفاع به، فاستنبط هذا القول تحريم سائر الانتفاعات من اللفظ. والأظهر ما ذكرناه من تخصص المضاف المحذوف بأنه الأكل.

وظاهر لفظ الميتة يتناول العموم، ولا يخص شيء منها إلا بدليل. قال قوم: خص هذا العموم بقوله تعالى: أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة «٤» ، وبما

روي

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٠٧/١٠

(١) سورة البقرة: ٢/ ١٩.

(٢) سورة النساء: ٤/ ٢٣.

(٣) سورة النساء: ٤/ ٢٤.

(٤) سورة المائدة: ٥/ ٩٦.." [(١)]

"خطأ، لأن كلا من القراءتين كلام الله تعالى، فلا يجوز تفضيل شيء منه على شيء من قبل أنفسنا، إذ كله كلام الله تعالى.

وإثمهما أكبر من نفعهما في مصحف عبد الله وقراءته: أكثر، بالثاء كما في مصحفه: كثير، بالثاء المثلثة فيهما.

قال الزمخشري: وعقاب الإثم في تعاطيهما أكبر من نفعهما، وهو الالتذاذ بشرب الخمر، والقمار، والطرب فيهما، والتوصل بهما إلى مصادقات الفتيان ومعاشراتهم، والنيل من مطاعمهم ومشاربهم وأعطياتهم، وسلب الأموال بالقمار، والافتخار على الأبرام وفي قراءة أبي: وإثمهما أقرب، ومعنى الكثرة أن: أصحاب الشرب والقمار يقترفون فيهما الآثام من وجوه كثيرة. انتهى كلام الزمخشري.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك، ومقاتل: إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم، وقيل: أكبر، لأن عقابه باق مستمر **والمنافع** زائلة، والباقي أكبر من الفاني.

ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو تقدم هذا السؤال وأجيبوا هنا بذكر الكمية والمقدار، والسائل في هذه الآية، قيل: هو عمرو بن الجموح، وقيل: المؤمنون وهو الظاهر من واو الجمع.

والنفقة هنا قيل: في الجهاد، وقيل: في الصدقات، والقائلون في الصدقات، قيل:

في التطوع وهو قول الجمهور، وقيل: في الواجب، والقائلون في الواجب، قيل: هي الزكاة المفروضة، وجاء ذكرها هنا مجملا، وفصلتها السنة. وقيل كان واجبا عليهم قبل فرض الزكاة أن ينفقوا ما فضل من مكاسبهم عن ما يكفيهم في عامهم، ثم نسخ ذلك بآية الزكاة.

والعفو: ما فضل عن الأهل والمال، قاله ابن عباس، أو اليسير السهل الذي لا يجحف بالمال قاله طاووس، أو الوسط الذي لا سرف فيه ولا تقصير، قاله الحسن، أو: الطيب الأفضل، قاله الربيع، أو: الكثير، من قوله حتى عفوا «١» أي: كثروا، قال الشاعر:

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/١١١

ولكنا يعض السيف منها ... بأسوق عافيات اللحم كوم

---

(١) سورة الأعراف: ٧/ ٩٥.." [١]

"والمصدر الذي هو: دفع، أو: دفاع، مضاف إلى الفاعل، وبعضهم بدل من الناس، وهو بدل بعض من كل، والباء في: ببعض، متعلق بالمصدر والباء فيه للتعدية فهو مفعول ثان للمصدر، لأن دفع يتعدى إلى واحد ثم عدي إلى ثان بالباء، وأصل التعدية بالباء، وأصل التعدية بالباء أن يكون ذلك في الفعل اللازم: نحو: لذهب بسمعهم «١» فإذا كان متعديا فقياسه أن يعدى بالهمزة، تقول: طعم زيد اللحم، ثم تقول أطعمت زيدا اللحم، ولا يجوز أن تقول: طعمت زيدا باللحم، وإنما جاء ذلك قليلا بحيث لا ينقاس، من ذلك:

دفع، وصك، تقول: صك الحجر الحجر، وتقول: صككت الحجر بالحجر، أي جعلته يصكه. وكذلك قالوا: صككت الحجرين أحدهما بالآخر نظير: دفع الله الناس بعضهم ببعض فالباء للتعدية كالهمزة.

قال سيبويه، وقد ذكر التعدية بالهمزة والتضعيف ما نصه: وعلى ذلك دفعت الناس بعضهم ببعض، على حد قولك: ألزمت، كأنك قلت في التمثيل: أدفعت، كما أنك تقول: أذهبت به، وأذهبته من عندنا، وأخرجته، وخرجت به معك، ثم قال سيبويه:

صككت الحجرين أحدهما بالآخر على أنه مفعول من قولك: اصطك الحجران أحدهما بالآخر، ومثل ذلك: ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض. انتهى كلام سيبويه.

ولا يبعد في قولك: دفعت بعض الناس ببعض، أن تكون الباء للآلة، فلا يكون المجرور بها مفعولا به في المعنى، بل الذي يكون مفعولا به هو المنصوب، وعلى قول سيبويه يكون المنصوب مفعولا به في اللفظ فاعلا من جهة المعنى وعلى أن تكون الباء للآلة يصح نسبة الفعل إليها على سبيل المجاز، كما أنك تقول في: كتبت بالقلم، كتبت القلم.

وأسند الفساد إلى الأرض حقيقة: بالخراب، وتعطيل **المنافع**، أو مجازا: والمراد أهلها.

ولكن الله ذو فضل على العالمين وجه الاستدراك هنا هو أنه لما قسم الناس إلى مدفوع به ومدفوع، وأنه بدفعه بعضهم ببعض امتنع فساد ارض، فيهجس في نفس من غلب وقهر عن م ا يريد من الفساد في الأرض أن الله تعالى، غير متفضل عليه، إذ لم يبلغه مقاصده ومآربه، فاستدرك أنه، وإن لم يبلغ مقاصده هذا

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/٦٠٤

الطالب للفساد أن الله لذو فضل عليه،

---

(١) سورة البقرة: ٢/ ٢٠.." [1]

"وقرأ الحسن: جنات، بالجمع.

من نخيل وأعناب لما كان النخيل والأعناب أكرم الشجر وأكثرها منافع، خصا بالذكر، وجعلت الجنة منهما، وإن كان في الجنة غيرهما، وحيث جاء في القرآن ذكر هذا، نص على النخيل دون الثمرة. وعلى ثمرة الكرم دون الكرم، وذلك لأن أعظم منافع الكرم هو ثمرته دون أصله، والنخيل كله منافعه عظيمة، توازي منفعة ثمرته من خشبه وجريده وليفه وخوصه، وسائر ما يشتمل عليه، فلذلك، والله أعلم، اقتصر على ذكر النخيل وثمرة الكرم.

تجري من تحتها الأنهار تقدم شرح هذا في أول هذه السورة.

له فيها من كل الثمرات هذا يدل على أنه فيه أشجار غير النخيل والكرم، كما ذكرنا قبل هذا الظاهر، وأجاز الزمخشري أن يريد بالثمرات المنافع التي كانت تحصل له فيها.

وهذه الجملة مركبة من مبتدأ وخبر، فعلى مذهب الأخفش: من، زائدة، التقدير: له فيها كل الثمرات، على إرادة التكثير بلفظ العموم، لا أن العموم مراد، ولا يجوز أن تكون زائدة على مذهب الكوفيين، لأنهم شرطوا في زيادتها أن يكون بعدها نكرة، نحو: قد كان من مطر، وأما على مذهب جمهور البصريين، فلا يجوز زيادتها، لأنهم شرطوا أن يكون قبلها غير موجب، وبعدها نكرة، ويحتاج هذا إلى تقييد، قد ذكرناه في كتاب (منهج السالك) من تأليفنا. ويتخرج مذهب جمهور البصريين على حذف المبتدأ المحذوف تقديره، له فيها رزق، أو: ثمرات من كل الثمرات. ونظيره في الحذف قول الشاعر:

كأنك من جمال بني أقيش ... تقعقع خلف رجليه بشن

التقدير: كأنك جمل من جمال بني أقيش، حذف: جمل، لدلالة: من جمال، عليه، كما حذف ثمرات لدلالة: من كل الثمرات، عليه وكذلك قوله تعالى وما منا إلا له مقام معلوم «١» أي: وما أحد منا، فأحد مبتدأ محذوف، و: منا، صفة، وما بعد إلا جملة خبر عن المبتدأ.

وأصابه الكبر الظاهر أن الواو للحال، وقد مقدرة أي وقد أصابه الكبر، كقوله:

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/٥٩٥

(1) سورة الصافات: ٣٧/ ١٦٤.." [١]

"المعاني الغامضة، والإنجيل شبه لما فيه من اتساع الترغيب والترهيب والمواعظ والخضوع بالعين النجلاء، وجعل ذلك هدى لما فيه من الإرشاد، كالطريق الذي يهديك إلى المكان الذي ترومه، وشبه الفرقان بالجرم الفارق بين جرمين، وفي قوله: عذاب شديد شبه ما يحصل للنفس من ضيق العذاب وألمه بالمشدود الموثق المضيق عليه، وفي قوله:

يصوركم شبه أمره بقوله: كن أو تعلق إرادته بكونه جاء على غاية من الإحكام والصنع بمصور يمثل شيئا، فيضم جرما إلى جرم، ويصور منه صورة. وفي قوله: منه آيات محكمات جعل ما اتضح من معاني كتابه، وظهرت آثار الحكمة عليه محكما، وشبه المحكم لما فيه من أصول المعاني التي تتفرع منها فروع متعددة ترجع إليها بالأم التي يرجع إليها ما تفرع من نسلها ويؤمونها، وشبه ما خفيت معانيه لاختلاف أنحائه كالفواتح، والألفاظ المحتملة معاني شتى، والآيات الدالة على أمر المعاد والحساب بالشيء المشتبه الملبس أمره الذي وجم العقل عن تكييفه وفي قوله: في قلوبهم زيغ شبه القلب المائل عن القصد بالشيء الزائغ عن مكانه، وفي قوله: وهب لنا من لدنك رحمة شبه المعقول من الرحمة عن إرادة الخير، بالمحسوس من الأجرام من العوض والمعوض في الهبة وفي قوله: وقود النار شبههم بالحطب الذي لا ينتفع به إلا في الوقود. وقال تعالى:

إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم «١» والحصب الحطب بلغة الحبشة، وفي قوله: فأخذهم الله بذنوبهم شبه إحاطة عذابه بهم بالمأخوذ باليد المتصرف فيه بحكم إرادة الأخذ.

وقيل: هذه كلها استعارات، ولا تشبيه فيها إلا كدأب آل فرعون فإنه صرح فيه بذكر أداة التشبيه.

والاختصاص في مواضع، منها في قوله: نزل عليك الكتاب إلى وأنزل الفرقان على من فسره بالزبور، واختص الأربعة دون بقية ما أنزل، لأن أصحاب الكتب إذ ذاك: المؤمنون، واليهود، والنصارى، وفي قوله: لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء خصهما لأنهما أكبر مخلوقاته الظاهرة لنا، ولأنهما محلان للعقلاء، ولأن منهما أكثر المنافع المختصة بعباده. وفي قوله: والراسخون اختصهم بخصوصية الرسوخ في العلم بهم وفي قوله: أولوا الألباب لأن العقلاء لهم خصوصية التمييز، والنظر،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/٦٧٢

(١) سورة الأنبياء: ٢١/ ٩٨.." [١]

"ولأنه بإزاء من للمؤمنين من الشفعاء الذين هم الملائكة والأنبياء وصالحو المؤمنين، أي:

ليس لهم كأمثال هؤلاء، والمعنى: بانتفاء الناصرين انتفاء ما يترتب على النصر من **المنافع** والفوائد، وإذا انتفت من جمع فانتفاؤها من واحد أولى، وإذا كان جمع لا ينصر فأحرى أن لا ينصر واحد، ولما تقدم ذكر معصيتهم بثلاثة أوصاف ناسب أن يكون جزاؤهم بثلاثة، ليقابل كل وصف بمناسبة، ولما كان الكفر بآيات الله أعظم، كان التبشير بالعذاب الأليم أعظم، وقابل قتل الأنبياء بحبوط العمل في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بالقتل والسبي وأخذ المال والاسترقاق، وفي الآخرة بالعقاب الدائم، وقابل قتل الآمرين بالقسط، بانتفاء الناصرين عنهم إذا حل بهم العذاب، كما لم يكن للآمرين بالقسط من ينصرهم حين حل بهم قتل المعتدين، كذلك المعتدون لا ناصر لهم إذا حل بهم العذاب.

وفي قوله: أولئك، إشارة إلى من تقدم موصوفا بتلك الأوص ا ف الذميمة، وأخبر عنه:

بالذين، إذ هو أبلغ من الخبر بالفعل، ولأن فيه نوع انحصار، ولأن جعل الفعل صلة يدل على كونها معلومة للسامع، معهودة عنده، فإذا أخبرت بالموصول عن اسم استفاد المخاطب أن ذلك الفعل المعهود المعلوم عنده المعهود هو منسوب للمخبر عنه بالموصول، بخلاف الإخبار بالفعل، فإنك تخبر المخاطب بصدوده عن من أخبرت به عنه، ولا يكون ذلك الفعل معلوما عنده، فإن كان معلوما عنده جعلته صلة، وأخبرت بالموصول عن الاسم.

قيل وجمعت هذه الآيات ضروبا من الفصاحة والبلاغة. أحدها: التقديم والتأخير في: إن الدين عند الله الإسلام قال ابن عباس التقدير: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام، أنه لا إله إلا هو، ولذلك قرأ إنه، بالكسر: وأن الدين، بالفتح.

وأطلق اسم السبب على المسبب في قوله من بعد ما جاءهم العلم عبر بالعلم عن التوراة والإنجيل أو النبي صلى الله عليه وسلم، على الخلاف الذي سبق.

وإسناد الفعل إلى غير فاعله في: حبطت أعمالهم وأصحاب النار.

والإيماء في قوله: بغيا بينهم فيه إيماء إلى أن النفي دائر شائع فيهم، وكل فرقة منهم تجاذب طرفا منه.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣٩/٣

والتعبير ببعض عن كل في: أسلمت وجهي.

والاستفهام الذي يراد به التقرير أو التوبيخ والتقريع في قوله أأسلمتم.." [1]

"ما يسرون، فإني أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو مضمرات صدورهم لم يظهروه بألسنتهم.

والظاهر الأول أورد ذلك على أنه وعيد مواجهون به.

والذات لفظ مشترك ومعناه هنا أنه تأنيث ذي بمعنى صاحب. فأصله هنا عليم بالمضمرات ذوات الصدور، ثم حذف الموصوف، وغلبت إقامة الصفة مقامه. ومعنى صاحبة الصدور: الملازمة له التي لا تنفك عنه كما تقول: فلان صاحب فلان، ومنه أصحاب الجنة أصحاب النار. واختلفوا في الوقف على ذات. فقال الأخفش والفراء وابن كيسان: بالتاء مراعاة لرسم المصحف. وقال الكسائي والجرمي: بالهاء لأنها تاء تأنيث. إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها الحسنة هنا ما يسر من رخاء وخصب ونصرة وغنيمة، ونحو ذلك من **المنافع**. والسيئة ضد ذلك. بين تعالى بذلك فرط عداوتهم حيث يسوءهم ما نال المؤمنين من الخير، ويفرحون بما يصيبهم من الشدة.

قال الزمخشري: المس مستعار لمعنى الإصابة، فكان المعنى واحدا. ألا ترى إلى قوله:

إن تصبك حسنة تسؤهم، وإن تصبك مصيبة «١» الآية ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك «٢» إذا مسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا «٣» وقال ابن عطية: ذكر الله تعالى المس في الحسنة ليبين أن بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادل ذلك في السيئة بلفظ الإصابة، وهي عبارة عن التمكن.

لأن الشيء المصيب لشيء هو متمكن منه، أو فيه. فدل هذا النوع البليغ على شدة العداوة، إذ هو حقد لا يذهب عند نزول الشدائد، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين انتهى كلامه. والنكرة هنا في سياق الشرط بأن تعم عموم البدل، ولم يأت معرفا لإيهام التعيين بالعهد، ولإيهام العموم الشمولي. وقابل الحسنة بالسيئة، والمساءة بالفرح وهي مقابلة بديعة.

قال قتادة والربيع وابن جريج: الحسنة بظهوركم على العدو، والغنيمة منهم، والتتابع بالدخول في دينكم، وخصب معاشكم. والسيئة بإخفاق سرية منكم، أو إصابة عدو منكم، أو اختلاف بينكم. وقال الحسن: الحسنة الألفة، واجتماع الكلمة. والسيئة إصابة العدو، واختلاف الكلمة. وقال ابن قتيبة: الحسنة النعمة. والسيئة المصيبة. وهذه الأقوال هي على سبيل التمثيل، وليست على سبيل التعيين.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٧٨/٣

(١) سورة التوبة: ٩/ ٥٠.

(٢) سورة النساء: ٤/ ٧٩.

(٣) سورة المعارج: ٧٠/ ٢٠- ٢١.." [١]

"ليسليكم وينفس عنكم، كيلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله، ولا على ما أصابكم من غلبة العدو انتهى كلامه. وهو خلاف الظاهر. لأن المسند إليه الأفعال السابقة هو الله تعالى، وذلك في قوله: ولقد صدقكم الله وعده «١» وقوله: ثم صرفكم عنهم ليبتليكم «٢» ولقد عفا عنكم «٣» والله فيكون قوله: فأثابكم مسندا إلى الله تعالى. وذكر الرسول إنما جاء في جملة حالية نعى عليهم فرارهم مع كون من اهتدوا على يده يدعوهم، فلم يجيء مقصودا لأن يحدث عنه، إنما الجملة التي ذكر فيها في تقدير المفرد إذ هي حال. وقال الزمخشري: فأثابكم عطف على صرفكم انتهى. وفيه بعد لطول الفصل بين المتعاطفين. والذي يظهر أنه معطوف على تصعدون ولا تلوون، لأنه مضارع في معنى الماضي، لأن إذ تصرف المضارع إلى الماضي، إذ هي ظرف لما مضى. والمعنى: إذ صعدتم وما لويتم على أحد فأثابكم.

لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم اللام ﻻم كي، وتتعلق بقوله:

فأثابكم. فقيل: لا زائدة لأنه لا يترتب على الاغتمام انتفاء الحزن. فالمعنى: على أنه غمهم ليحزنهم عقوبة لهم على تركهم موافقتهم قاله: أبو البقاء وغيره. وتكون كهي في قوله: لئلا يعلم أهل الكتاب «٤» إذ تقديره: لأن يعلم. ويكون أعلمهم بذلك تبكيتا لهم، وزجرا أن يعودوا لمثله. والجمهور على أن لا ثابتة على معناها من النفي. واختلفوا في تعليل الإثابة بانتفاء الحزن على ما ذكر.

فقال الزمخشري: لكيلا تحزنوا لتتمرنوا على تجرع الغموم، وتضروا باحتمال الشدائد، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع، ولا على مصيب من المضار انتهى.

فجعل العلة في الحقيقة ثبوتية، وهي التمرن على تجرع الغموم والاعتياد لاحتمال الشدائد، ورتب على ذلك انتفاء الحزن، وجعل ظرف الحزن هو مستقبل لا تعلق له بقصة أحد، بل لينتفي الحزن عنكم بعد هذه القصة. وقال ابن عطية: المعنى لتعلموا أن ما وقع ﺑﻜﻢ إنما هو بجنايتكم، فأنتم آذيتم أنفسكم. وعادة البشر أن جاني الذنب يصبر للعقوبة، وأكثر قلق المعاقب وحزنه إنما وقع هو مع ظنه البراءة بنفسه انتهى. وهذا تفسير مخالف لتفسير الزمخشري. ومن المفسرين من ذهب إلى أن قوله: لكيلا تحزنوا متعلق بقوله:

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣/٣٢٢

ولقد عفا عنكم، ويكون الله أعلمهم بذلك تسلية لمصابهم وعوضا لهم عن ما أصابهم من الغم، لأن عفوه يذهب كل غم. وفيه بعد لطول الفصل، ولأن ظاهره تعلقه بمجاور، وهو فأثابكم.

---

(١) سورة آل عمران: ٣/ ١٥٢.

(٢) سورة آل عمران: ٣/ ١٥٢.

(٣) سورة آل عمران: ٣/ ١٥٢.

(٤) سورة الحديد: ٢٩/ ٥٧.." [١]

"مذهب أبي علي يكون في موضع المفعول الثاني. وذهب الزمخشري إلى القول الأول قال: تقول: سمعت رجلا يقول كذا، وسمعت زيدا يتكلم، لتوقع الفعل على الرجل، وتحذف المسموع لأنك وصفته بما يسمع، أو جعلته حالا عنه، فأغناك عن ذكره. ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد. وأن يقال: سمعت كلام فلان، أو قوله انتهى كلامه.

وقوله: ولولا الوصف أو الحال إلى آخره ليس كذلك، بل لا يكون وصف ولا حال، ويدخل سمع على ذات، لا على مسموع. وذلك إذا كان في الكلام ما يشعر بالمسموع وإن لم يكن وصفا ولا حالا، ومنه قوله تعالى: هل يسمعونكم إذ تدعون «١» أغنى ذكر ظرف الدعاء عن ذكر المسموع.

والمنادى هنا هو الرسول صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: وداعيا إلى الله بإذنه «٢» ادع إلى سبيل ربك «٣» قاله ابن جريج وابن زيد وغيرهما: أو القرآن، قاله: محمد بن كعب القرظي، قال: لأن كل المؤمنين لم يلقوا الرسول، فعلى الأول يكون وصفه بالنداء حقيقة، وعلى الثاني مجازا، وجمع بين قوله: مناديا ينادي، لأنه ذكر الأول مطلقا وقيد الثاني تفخيما لشأن المنادي، لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان. وذلك أن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أو لإطفاء الثائرة، أو لإغاثة المكروب، أو لكفاية بعض النوازل، أو لبعض **المنافع**. فإذا قلت: ينادي للإيمان فقد رفعت من شأن المنادي وفخمته. واللام متعلقة بينادي، ويعدى نادى، ودعا، وندب باللام وبإلى، كما يعدى بهما هدى لوقوع معنى الاختصاص، وانتهاء الغاية جميعا. ولهذا قال بعضهم: إن اللام بمعنى إلى. لما كان ينادي في معنى يدعو، حسن وصولها باللام بمعنى: إلى. وقيل: اللام لام العلة، أي لأجل الإيمان. وقيل: اللام بمعنى الباء، أي بالإيمان. والسماع محمول على حقيقته، أي سمعنا صوت مناد. قيل: ومن جعل المنادي هو القرآن،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣٨٨/٣

فالسماع عنده مجاز عن القبول، وأن مفسرة التقدير : أن آمنوا. وجوز أن تكون مصدرية وصلت بفعل الأمر، أي: بأن آمنوا. فعلى الأول لا موضع لها من الإعراب. وعلى الثاني لها موضع وهو الجر، أو النصب على الخلاف. وعطف فآمنا بالفاء مؤذن بتعجيل القبول، وتسبيب الإيمان عن السماع من غير تراخ، والمعنى: فآمنا بك أو بربنا.

---

(١) سورة الشعراء: ٢٦/ ٧٢.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٣/ ٤٦.

(٣) سورة النحل: ١٦/ ١٢٥.." [١]

"سليمان الدمشقي: نزلت في الأمراء أن يؤدوا الأمانة فيما ائتمنهم الله من أمر رعيته. وقيل: نزلت عامه، وهو مروي عن: أبي، وابن عباس، والحسن، وقتادة.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه تعالى لما ذكر وعد المؤمنين، وذكر عمل الصالحات، نبه على هذين العملين الشريفين اللذين من اتصف بهما كان أحرى أن يتصف بغيرهما من الأعمال الصالحة، فأحدهما ما يختص به الإنسان فيما بينه وبين غيره وهو أداء الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، والثاني ما يكون بين اثنين من الفصل بينهما بالحكم العدل الخالي عن الهوى، وهو من الأعمال العظيمة التي أمر الله بها رسله وأنبياءه والمؤمنين. ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب **المنافع** ودفع المضار، ثم يشتغل بحال غيره، أمر بأداء الأمانة أولا ثم بعده بالأمر بالحكم بالحق. والظاهر في: يأمركم أن الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة.

وقال ابن جريج: خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن مفتاح الكعبة.

وقال علي، وابن أسلم، وشهر، وابن زيد: خطاب لولاة المسلمين خاصة، فهو للنبي صلى الله عليه وسلم وأمرائه، ثم يتناول من بعدهم.

وقال ابن عباس: في الولاة أن يعظوا النساء في النشوز ونحوه، ويردوهن إلى الأزواج. وقيل: خطاب لليهود أمروا برد ما عندهم من الأمانة، من نعت الرسول أن يظهروه لأهله، إذ الخطاب معهم قبل هذه الآية. ونقل التبريزي: أنها خطاب لأمراء السرايا بحفظ الغنائم ووضعها في أهلها. وقيل: ذلك عام فيما كلفه العبد من العبادات. والأظهر ما قدمناه من أن الخطاب عام يتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤٧٣/٣

ورد الظلامات، وعدل الحكومات. ومنه دونهم من الناس في الودائع، والعواري، والشهادات، والرجل يحكم في نازلة. قال ابن عباس: لم يرخص الله لموسر ولا معسر أن يمسك الأمانة.

وقرىء: أن تؤدوا ، لأمانة على التوحيد، وأن تحكموا، ظاهره: أن يكون معطوفا على أن تؤدوا، وفصل بين حرف العطف والمعطوف بإذا. وقد ذهب إلى ذلك بعض أصحابنا وجعله كقوله: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة «١» وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا «٢» سبع سماوات ومن الأرض مثلهن «٣» ففصل في هذه الآية بين

(١) سورة البقرة: ٢/ ٢٠١.

(٢) سورة يس: ٣٦/ ٩.

(٣) سورة الطلاق: ٦٥/ ٢.." [١]

"إلى أنه ليس مصدرا بل هو اسم كالسواك فلذلك صحت الواو قال: قوام دنيا وقيام دين. إذا لحقت تاء التأنيث لزمت التاء قالوا القيامة واختلفوا في تفسير قوله قياما للناس فقيل باتساع الرزق عليهم إذ جعلها تعالى مقصودة من جميع الآفاق وكانت مكة لا زرع ولا ضرع، وقيل بامتناع الإغارة في الحرم، وقيل بسبب صيرورتهم أهل الله فكل أحد يتقرب إليهم، وقيل بما يقام فيها من المناسك وفعل العبادات، وروي عن ابن عباس، وقيل: يأمن من توجه إليها وروي عنه، وقيل بعدم أذى من أخرجوه من جر جريرة ولجأ إليها، وقيل ببقاء الدين ما حجت واستقبلت، وقال عطاء لو تركوه عاما واحدا لم ينظروا ولم يؤخروا. وقال أبو عبد الله الرازي لا يبعد حمله على جميع الوجوه، لأن قوام المعيشة بكثرة **المنافع** وبدفع المضار وبحصول الجاه والرئاسة وبحصول الدين والكعبة سبب لحصول هذه الأقسام انتهى.

وقرأ ابن عامر قيما بغير ألف فإن كان أصله قياما بالألف وحذفت فقيل حكم هذا أن يجيء في الشعر وإن كان مصدرا على فعل فكان قياسه أن تصح فيه الواو كعوض، وقرأ الجحدري قيما بفتح القاف وتشديد الياء المكسورة وهو كسيد اسم يدل على ثبوت الوصف من غير تقييد بزمان ولفظ الناس عام، فقيل المراد العموم، وقيل المراد العرب، قال أبو عبد الله بن أبي الفضل وحسن هذا المجاز أن أهل كل بلدة إذا قالوا الناس فعلوا كذا لا يريدون بذلك إلا أهل بلدتهم فلذلك خوطبوا على وفق عادتهم انتهى. والشهر الحرام ظاهره الإفراد، فقيل هو ذو الحجة وحده وبه بدأ الزمخشري قال لأن لاختصاصه من بين الأشهر المحرمة

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣/٦٨٤

برسم الحج شأنا قد عرفه الله انتهى، وقيل المراد الجنس فيشمل الأشهر الحرم الأربعة الثلاثة بإجماع من العرب وشهر مضر وهو رجب كان كثير من العرب لا يراه ولذلك يسمى شهر الله إذ كان تعالى قد ألحقه في الحرمة بالثلاثة فنسبه وسدده، والمعنى شهر آل الله وهو شهر قريش وله يقول عوف بن الأحوص:

وشهر بني أمية والهدايا ... إذا سيقت مصرحها الدماء

ولما كانت الكعبة موضعا مخصوصا لا يصل إليه كل خائف جعل الله الأشهر الحرم والهدي والقلائد قياما للناس كالكعبة.

ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض الظاهر أن الإشارة هي للمصدر المفهوم أي ذلك الجعل لهذه الأشياء قياما للناس وأمنا لهم ليعلموا أنه تعالى يعلم." (١)

"قطر منها آثارا لهالكين وعبرا للناظرين وجاء هنا خاصة ثم انظروا بحرف المهلة وفيما سوى ذلك بالفاء التي هي للتعقيب. وقال الزمخشري: في الفرق جعل النظر متسببا عن السير فكان السير سببا للنظر، ثم قال: فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين، وهنا معناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين ونبه على ذلك ب ثم لتباعد ما بين الواجب والمباح، انتهى.

وما ذكره أولا متناقض لأنه جعل النظر متسببا عن السير، فكان السير سببا للنظر ثم قال: فكأنما قيل: سيروا لأجل النظر فجعل السير معلولا بالنظر فالنظر سبب له فتناقضا، ودعوى أن الفاء تكون سببية لا دليل عليها وإنما معناها التعقيب فقط وأما مثل ضربت زيدا فبكى، وزنى ماعز فرجم، فالتسبيب فهم من مضمون الجملة لأن الفاء موضوعة له وإنما يفيد تعقيب الضرب بالبكاء وتعقيب الزنا بالرجم فقط، وعلى تسليم أن الفاء تفيد التسبيب فلم كان السير هنا سير إباحة وفي غيره سير واجب؟ فيحتاج ذلك إلى فرق بين هذا الموضع وبين تلك المواضع.

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٢ الى ١٣]

قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون (١٢) وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم (١٣)

قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله لما ذكر تعالى تصريفه فيمن أهلكهم بذنوبهم، أمر نبيه صلى الله

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٣٧٣

عليه وسلم بسؤالهم ذلك فإنه لا يمكنهم أن يقولوا إلا أن ذلك لله تعالى فيلزمهم بذلك أنه تعالى هو المالك المهلك لهم، وهذا السؤال سؤال تبكيت وتقرير ثم أمره تعالى بنسبة ذلك لله تعالى ليكون أول من بادر إلى الاعتراف بذلك. وقيل: في الكلام حذف تقديره فإذا لم يجيبوا قل لله وقال قوم: المعنى أنه أمر بالسؤال فكأنه لما لم يجيبوا سألوا فقيل لهم قل لله ولله خبر مبتدأ محذوف التقدير قل ذلك أو هو لله. كتب على نفسه الرحمة لما ذكر تعالى أنه موجد العالم المتصرف فيهم بما يريد، ودل ذلك على نفاذ قدرته أردفه بذكر رحمته وإحسانه إلى الخلق وظاهر كتب أنه بمعنى سطر وخط، وقال به قوم هنا وله أريد حقيقة الكتب والمعنى أمر بالكتب في اللوح المحفوظ. وقيل: كتب هنا بمعنى وعد بها فضلا وكرما. وقيل: بمعنى أخبر. وقيل: أوجب إيجاب فضل وكرم." (١)

"قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض لما تقدم أنه تعالى اخترع السموات والأرض، وأنه مالك لما تضمنه المكان والزمان أمر تعالى نبيه أن يقول لهم ذلك على سبيل التوبيخ لهم أي من هذه صفاته هو الذي يتخذ وليا وناصرا ومعينا لا الآلهة التي لكم، إذ هي لا تنفع ولا تضر لأنها بين جماد أو حيوان مقهور، ودخلت همزة الاستفهام على الاسم دون الفعل لأن الإنكار في اتخاذ غير الله وليا لا في اتخاذ الولي كقولك لمن ضرب زيدا وهو ممن لا يستحق الضرب بل يستحق الإكرام أزيدا ضربت، تنكر عليه أن كون مثل هذا يضرب ونحو، أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون «١» وآلله أذن لكم «٢» وقال الطبري وغيره: أمر أن يقول هذه المقالة للكفرة الذين دعوه إلى عبادة أوثانهم، فتجيء الآية على هذا جوابا لكلامهم، انتهى. وهذا يحتاج إلى سند في أن سبب نزول هذه الآية هو ما ذكره وانتصاب غير على أنها مفعول أول لا تخذ. وقرأ الجمهور فاطر فوجهه ابن عطية والزمخشري ونقلها الحوفي على أنه نعت لله، وخرجه أبو البقاء على أنه بدل وكأنه رأى أن الفصل بين المبدل منه والبدل أسهل من الفصل بين المنعوت والنعت، إذ البدل على المشهور هو على تكرار العامل وقرأ ابن أبي عبلة برفع الراء على إضمار هو. قال ابن عطية: أو على الابتداء انتهى. ويحتاج إلى إضمار خبر ولا دليل على حذفه وقرئ شاذا بنصب الراء وخرجه أبو البقاء على أنه صفة لولي على إرادة التنوين أو بدل منه أو حال، والمعنى على هذا أأجعل فاطر السماوات والأرض غير الله، انتهى.

والأحسن نصبه على المدح. وقرأ الزهري فطر جعله فعلا ماضيا.

وهو يطعم ولا يطعم أي يرزق ولا يرزق كقوله: ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون «٣» والمعنى أن

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٤٤٦

المنافع كلها من عند الله، وخص الإطعام من بين أنواع الانتفاعات لمس الحاجة إليه كما خص الربا بالأكل وإن كان المقصود الانتفاع بالربا. وقرأ مجاهد وابن جبير والأعمش وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وأبو عمرو وفي رواية عنه ولا يطعم بفتح الياء والمعنى أنه تعالى منزه عن الأكل ولا يشبه المخلوقين. وقرأ يمان العماني وابن أبي عبلة ولا يطعم بضم الياء وكسر العين مثل الأول فالضمير في وهو يطعم عائد على الله وفي ولا يطعم عائد على الولي. وروى ابن المأمون عن يعقوب

---

(١) سورة الزمر: ٣٩/ ٦٤.

(٢) سورة يونس: ١٠/ ٥٩.

(٣) سورة الذاريات: ٥١/ ٥٧. [.....]." [1]

"جملة منعقدة من مبتدأ وخبر، إنما هو منعقد من فعل وفاعل والفرق بين هذين الوجهين والأول أن في الأول الفعل متعد وفي هذين قاصر، وأن الكلام فيه خبر وهو في هذين إنشاء وجعل الزمخشري من باب بئس فقط فقال: ساء ما يزرون بئس شيئا يزرون وزرهم كقوله:

ساء مثلا القوم «١» ، وذكر ابن عطية هذا الوجه احتمالا أخيرا وبدأ بأن ساء متعدية وما فاعل كما تقول ساء في هذا الأمر وأن الكلام خبر مجرد. قال كقول الشاعر:

رضيت خطة خسف غير طائلة ... فساء هذا رضا يا قيس عيلانا

ولا يتعين ما قال في البيت من أن الكلام فيه خبر مجرد بل يحتمل قوله: فساء هذا رضا الأوجه الثلاثة وافتتحت هذه الجملة ب ألا تنبيها وإشارة لسوء مرتكبهم فألا تدل على الإشارة بما يأتي بعدها كقوله: ألا فليبلغ الشاهد الغائب ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه «٢» ألا لا يجهلن أحد علينا.

وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خيۭر للذين يتقون أفلا تعقلون لما ذكر قولهم وقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا ذكر مصيرها وأن منتهى أمرها أنها فانية منقضية عن قريب، فصارت شبيهة باللهو واللعب إذ هما لا يدومان ولا طائل لهما كما أنها لا طائل لها، فاللهو واللعب اشتغال بما لا غنى به ولا منفعة كذلك هي الدنيا بخلاف الاشتغال بأعمال الآخرة فإنها التي تعقب **المنافع** والخيرات. وقال الحسن: في الكلام حذف التقدير وما أهل الحياة إلا أهل لعب ولهو. وقيل: التقدير وما أعمال الحياة. وقال ابن عباس: هذه حياة الكافر لأنه يزجيها في غرور وباطل، وأما حياة المؤمن فتطوى على أعمال صالحة فلا تكون لعبا

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٤٥٢

ولهوا

وفي الحديث: «ما أنا من الدد ولا الدد مني»

، والدد اللعب واللعب واللهو قيل: هما بمعنى واحد وكرر تأكيدا لذم الدنيا. وقال الرماني: اللعب عمل يشغل عما ينتفع به إلى ما لا ينتفع به، واللهو صرف النفس عن الجد إلى الهزل يقال: لهيت عنه أي صرفت نفسي عنه ورد عليه المهدوي، فقال: هذا فيه ضعف وبعد لأن الذي معناه الصرف لامه ياء بدليل قولهم: لهيان ولام الأول واو انتهى. وهذا التضعيف ليس بشيء لأن فعل من ذوات الواو تنقلب فيه الواو ياء كما تقول: شقي فلان وهو من الشقوة فكذلك لهي، أصله لهو من ذوات الواو فانقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها فقالوا: لهي كما قالوا: حلي بعيني وهو من الحلو وأما استدلاله بقولهم في التثنية لهيان ففاسد لأن التثنية

---

(١) سورة الأعراف: ٧/ ١٧٧.

(٢) سورة هود: ١١/ ٥.." [1]

"الانقضاء، وتقدم النظر وهو الفكر على الأكل لهذا السبب وهذا أمر بإباحة الأكل ويستدل به على أن الأصل في **المنافع** الإباحة والإطلاق وقيده بقوله: إذا أثمر وإن كان من المعلوم أنه إذا لم يثمر فلا أكل تنبيها على أنه لا ينتظر به محل إدراكه واستوائه، بل متى أمكن الأكل منه فعل.

وآتوا حقه يوم حصاده والذي يظهر عود الضمير على ما عاد عليه من ثمره وهو جميع ما تقدم ذكره مما يمكن أن يؤكل إذا أثمر. وقيل: يعود على النخل لأنه ليس في الآية ما يجب أن يؤتى حقه عند جذاذه إلا النخل. وقيل: يعود على الزيتون والرمان لأنهما أقرب مذكور. وأفرد الضمير للوجوه التي ذكرناها في قوله مختلفا أكله وآتوا أمر على الوجوب وتقدم الأمر بالأكل على الأمر بالصدقة، لأن تقدم منفعة الإنسان بما يملكه في خاصة نفسه مترجحة على منفعة غيره كما قال تعالى: ولا تنس نصيبك من الدنيا «١»

«وأحسن كما أحسن الله إليك وابدأ بنفسك ثم بمن تعول، إنما الصدقة عن ظهر غنى» .

والحق هنا مجمل واختلف فيه أهو الزكاة أم غيرها؟ فقال ابن عباس وأنس بن مالك والحسن وطاوس وجابر بن زيد وابن المسيب وقتادة ومحمد بن الحنفية وابن طاوس والضحاك وزيد بن أسلم وابنه ومالك بن أنس: هو الزكاة واعترض هذا القول بأن السورة مكية وهذه الآية على قول الجمهور غير مستثناة. وحكى الزجاج:

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٤٨٤

أن هذه الآية قيل فيها إنها نزلت بالمدينة.

وقال محمد بن علي بن الحسين وهو الباقر وعطاء وحماد ومجاهد وإبراهيم وابن جبير ومحمد بن كعب والربيع بن أنس ويزيد بن الأصم والحكم: هو حق غير الزكاة.

وقال مجاهد: إذا حضر المساكين فاطرح لهم عند الجذاذ وعند التكديس وعند الدرس وعند التصفية، وعنه أيضا كانوا يعلقون العذق عند الصرام فيأكل منه من مس. وعن إبراهيم هو الضغث يطرحه للمساكين ولفظ ما يسقط منك من السنبل لا يمنعهم منه.

وروي عن ابن عباس وابن الحنفية و إبراهيم والحسن وعطية العوفي والسدي: أنها منسوخة نسخها العشر ونصف العشر. قال سفيان: قلت للسدي نسخها عن من قال عن العلماء. وقال أبو جعفر النحاس ما ملخصه: هل أريد بها الزكاة أو نسخت بالزكاة المفروضة أو بالعشر ونصف العشر أو هي محكمة يراد بها غير الزكاة أو ذلك على الندب؟

خمسة أقوال: وإذا كان معنيا به الزكاة فالظاهر إخراجه من كل ما سبق ذكره، فيعم جميع ما

---

(١) سورة القصص: ٢٨/ ٧٧.." (١)

"كالزرع والحصد والتجارة وما يجري مجرى ذلك وسماها معايش لأنها وصلة إلى ما يعاش به، وقيل المعائش وجوه **المنافع** وهي إما يحدثه الله ابتداء كالثمار أو ما يحدثه بطريق اكتساب من العدو وكلاهما يوجب الشكر.

وقرأ الجمهور: معايش بالياء وهو القياس لأن الياء في المفرد هي أصل لا زائدة فتهمز وإنما تهمز الزائدة نحو: صحائف في صحيفة، وقرأ الأعرج وزيد بن علي والأعمش وخارجة عن نافع وابن عامر في رواية: معائش بالهمزة وليس بالقياس لكنهم رووه وهم ثقات فوجب قبوله وشذ هذا الهمز، كما شذ في منائر جمع منارة وأصلها منورة وفي مصائب جمع مصيبة وأصلها مصوبة وكان القياس مناور ومصاوب. وقد قالوا مصاوب على الأصل كما قالوا في جمع مقامة مقاوم ومعونة معاون، وقال الزجاج: جميع نحاة البصرة تزعم أن همزها خطأ ولا أعلم لها وجها إلا التشبيه بصحيفة وصحائف ولا ينبغي التعويل على هذه القراءة. وقال المازني: أصل أخذ هذه القراءة عن نافع ولم يكن يدري ما العربية وكلام العرب التصحيح في نحو هذا انتهى. ولسنا متعبدين بأقوال نحاة البصرة. وقال الفراء: ربما همزت العرب هذا وشبهه يتوهمون أنها فعلية فيشبهون مفعلة

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٦٦٨/٤

بفعيلة انتهى. فهذا نقل من الفراء عن العرب أنهم ربما يهمزون هذا وشبهه وجاء به نقل القراءة الثقات ابن عامر وهو عربي صراح وقد أخذ القرآن عن عثمان قبل ظهور اللحن والأعرج وهو من كبار قراء التابعين وزيد بن علي وهو من الفصاحة والعلم بالمكان الذي قل أن يدانيه في ذلك أحد، والأعمش وهو من الضبط والإتقان والحفظ والثقة بمكان، ونافع وهو قد قرأ على سبعين من التابعين وهم من الفصاحة والضبط والثقة بالمحل الذي لا يجهل، فوجب قبول ما نقلوه إلينا ولا مبالاة بمخالفة نحاة البصرة في مثل هذا، وأما قول المازني أصل أخذ هذه القراءة عن نافع فليس بصحيح لأنها نقلت عن ابن عامر وعن الأعرج وزيد بن علي و ا لأعمش وأما قوله إن نافعا لم يكن يدري ما العربية فشهادة على النفي ولو فرضنا أنه لا يدري ما العربية وهي هذه الصناعة التي يتوصل بها إلى التكلم بلسان العرب فهو لا يلزمه ذلك إذ هو فصيح متكلم بالعربية ناقل للقراءة عن العرب الفصحاء وكثير من هولاء النحاة يسيئون الظن بالقراء ولا يجوز لهم وإعراب قليلا ما تشكرون كإعراب قليلا ما تذكرون.

ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين لما تقدم ما يدل على تقسيم المكلفين إلى طائع وعاص فالطائع ممتثل ما أمر الله به مجتنب ما نهى عنه والعاصي بضده أخذ ينبه على أن هذا التقسيم كان في البدء الأول من أمر الله للملائكة بالسجدة فامتثل من امتثل وامتنع من امتنع، وأنه أمر تعالى آدم ونهى فحكى عنه ما." (١)

"الغيبة،

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قتل دون ماله فهو شهيد»

والعجب إطباق من يتظاهر بالصلاح والدين والعلم على عدم إنكار هذه المكوس والضمانات وادعاء بعضهم أنه له تصرف في الوجود ودلال على الله تعالى بحيث إنه يدعو فيستجاب له فيما أراد ويضمن لمن كان من أصحابه وأتباعه الجنة وهو مع ذلك يتردد لأصحاب المكوس ويتذلل إليهم في نزع شيء حقير وأخذه من المكس الذي حصلوه وهذه وقاحة لا تصدر ممن شم رائحة الإيمان ولا تعلق بشيء من الإسلام، وقال بعض الشعراء:

تساوى الكل منا في المساوي ... فأفضلنا فتيلا ما يساوي

وعلى الأقوال السابقة يكون القعود بكل صراط حقيقة وحمل القعود والصراط الزمخشري على المجاز، فقال ولا تقتدوا بالشيطان في قوله لأقعدن لهم صراطك المستقيم «١» فتقعدوا بكل صراط أي بكل منهاج من

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٥/٥

مناهج الدين والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله وتصدون عن سبيل الله، (فإن قلت) : صراط الحق واحد وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله «٢» فكيف قيل بكل صراط، (قلت) : صراط الحق واحد ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة فكانوا إذا رأوا واحدا يشرع في شيء منه منعوه وصدوه انتهى. ولا تظهر الدلالة على أن المراد بالصراط سبيل الحق من قوله وتصدون عن سبيل الله كما ذكر بل الظاهر التغاير لعموم كل صراط وخصوص سبيل الله فيكون بكل صراط حقيقة في الطرق، وسبيل الله مجاز عن دين الله والباء في بكل صراط ظرفية نحو زيد بالبصرة أي في كل صراط وفي البصرة والجمل من قوله توعدون وتصدون وتبغونها أحوال أي موعدين وصادين وباغين والإيعاد ذكر إنزال المضار بالموعد ولم يذكر الموعد به لتذهب النفس فيه كل مذهب من الشر لأن أوعد لا يكون إلا في الشر وإذا ذكر تعدى الفعل إليه بالباء.

قال أبو منصور الجواليقي: إذا أرادوا أن يذكروا ما يهددوا به مع أوعدت جاؤوا بالباء فقالوا: أوعدته بالضرب ولا يقولون أعدته الضرب والصد يمكن أن يكون حقيقة في عدم التمكين من الذهاب إلى الرسول ليسمع كلامه ويمكن أن يكون مجازا عن الإيعاد من الصاد بوجه ما أو عن وعد المصدود **بالمنافع** على تركه ومن آمن مفعول بتصدون على إعمال الثاني ومفعول توعدون ضمير محذوف والضمير في به الظاهر أنه على

(١) سورة الأعراف: ٧/ ١٦. [.....]

(٢) سورة الأنعام: ٦/ ١٥٣.." (١)

"الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها أو ما طاب في الشريعة واللحم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح وما خلا كسبه من السحت انتهى، وقيل: ما كانت العرب تحرمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام واستبعد أبو عبد الله الرازي قول من قال: إنها المحللات لتقديره ويحل لهم المحللات قال وهذا محض التكذيب، ولخروج الكلام عن الفائدة لأنا لا ندري ما أحل لنا وكم هو قال: بل الواجب أن يراد المستطابة بحسب الطبع لأن تناولها يفيد اللذة والأصل في **المنافع** الحل فدلت الآية على أن كل ما تستطيعه النفس ويستلذه الطبع حلال إلا ما خرج بدليل منفصل.

ويحرم عليهم الخبائث قيل: المحرمات، وقيل: ما تستخبثه العرب كالعقرب والحية والحشرات، وقيل: الدم والميتة ولحم الخنزير، وعن ابن عباس ما في سورة المائدة إلى قوله ذلكم فسق «١» .

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٠٧/٥

ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. قرأ طلحة ويذهب عنهم إصرهم وتقدم تفسير الإصر في آخر سورة البقرة، وفسره هنا قتادة وابن جبير ومجاهد والضحاك والحسن وغيرهم بالثقل، وقرأ ابن عامر: آصارهم جمع إصر، وقرىء أصرهم بفتح الهمزة وبضمها فمن جمع فباعتبار متعلقات الإصر إذ هي كثيرة ومن وحد فلأنه اسم جنس، والأغلال مثل لما كلفوا من الأمور الصعبة كقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب وإحراق الغنائم والقصاص حتما من القاتل عمدا كان أو خطأ وترك الاشتغال يوم السبت وتحريم العروق في اللحم وعن عطاء: أن بني إسرائيل كانوا إذا قاموا إلى الصلاة لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة، وروي أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلا يحمل قصبا فضرب عنقه

وهذا المثل كما قالوا جعلت هذا طوقا في عنقك وقالوا طوقها طوق الحمامة، وقال الهذلي:

وليس كهذا الدار يا أم مالك ... ولكن أحاطب بالرقاب السلاسل

فصار الفتى كالكهل ليس بقابل ... سوى العدل شيئا واستراح العواذل

وليس ثم سلاسل وإنما أراد أن الإسلام ألزمه أمورا لم يكن ملتزما لها قبل ذلك كما

---

(١) سورة المائدة: ٥/ ٣.." [1]

"القرآن العظيم وساطع براهينه والاستثناء متصل أي إلا ما شاء الله من تمكيني منه فإني أملكه وذلك بمشيئة الله، وقال ابن عطية: وهذا الاستثناء منقطع انتهى، ولا حاجة لدعوى الانقطاع مع إمكان الاتصال. ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء أي لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واستغزار **المنافع** واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسني شيء منها وظاهر قوله ولو كنت أعلم الغيب انتفاء العلم عن الغيب على جهة عموم الغيب كما

روي عنه لا أعلم ما وراء هذا الجدار إلا أن يعلمنيه ربي

بخلاف ما يذهب إليه هؤلاء الذين يدعون الكشف وأنهم بتصفية نفوسهم يحصل لها اطلاع على المغيبات وإخبار بالكوائن التي تحدث، وما أكثر ادعاء الناس لهذا الأمر وخصوصا في ديار مصر حتى إنهم لينسبون ذلك إلى رجل متضمخ بالنجاسة يظل دهره لا يصلي ولا يستنجي من نجسته ويكشف عورته للناس حين يبول وهو ع ار من العلم والعمل الصالح وقد خصص قوم هذا العموم فحكى مكي عن ابن عباس: لو كنت

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥/١٩٥

أعلم السنة المجدبة لأعددت لها من المخصبة، وقال قوم: أوقات النصر لتوخيتها، وقال مجاهد وابن جريج: لو كنت أعلم أجلي لاستكثرت من العمل الصالح، وقيل: ولو كنت أعلم وقت الساعة لأخبرتكم حتى توقنوا، وقيل: ولو كنت أعلم الكتب المنزلة لاستكثرت من الوحي، وقيل: ولو كنت أعلم ما يريده الله مني قبل أن يعرفنيه لفعلته، وينبغي أن تجعل هذه الأقوال وما أشبهها مثلا لا تخصيصات لعموم الغيب والظاهر أن قوله وما مسني السوء معطوف على قوله لاستكثرت من الخير فهو من جواب لو ويوضح ذلك أنه تقدم قوله قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا فقابل النفع بقوله لاستكثرت من الخير وقابل الضر بقوله وما مسني السوء ولأن المترتب على تقدير علم الغيب كلاهما وهما اجتلاب النفع واجتناب الضر ولم نصحب ما النافية جواب لو لأن الفصيح أن لا يصحبهما كما في قوله تعالى ولو سمعوا ما استجابوا لكم «١» والظاهر عموم الخبر وعدم تعيين السوء، وقيل: السوء تكذيبهم له مع أنه كان يدعى الأمين، وقيل: الجدب، وقيل: الموت، وقيل: الغلبة عند اللقاء، وقيل: الخسارة في التجارة، وقال ابن عباس: الفقر وينبغي أن تجعل هذه الأقوال خرجت على سبيل التمثيل لا الحصر فإن الظاهر في الغيب الخير والسوء عدم التعيين، وقيل: تم الكلام عند قوله لاستكثرت من الخير ثم أخبر أنه ما مسه السوء وهو الجنون

---

(١) سورة فاطر: ٣٥/ ١٤.." [١]

"المضمر بالقراءة المتواترة وإن كلا لما وبنقل سيبويه عن العرب لكنه نصب في هذه القراءة خبرها نصب عمر بن أبي ربيعة المخزومي في قوله:

إذا اسود جنح الليل فلتأت ولتكن ... خطاك خفافا إن حراسنا أسدا

وقد ذهب جماعة من النحاة إلى جواز نصب أخبار إن وأخواتها واستدلوا على ذلك بشواهد ظاهرة الدلالة على صحة مذهبهم وتأولها المخالفون، فهذه القراءة الشاذة تتخرج على هذه اللغة أو تتأول على تأويل المخالفين لأهل هذا المذهب وهو أنهم تأولوا المنصوب على إضمار فعل كما قالوا في قوله:

يا ليت أيام الصبا رواجعا إن تقديره أقبلت رواجعا فكذلك تؤول هذه القراءة على إضمار فعل تقديره إن الذين تدعون من دون الله تدعون عبادا أمثالكم، وتكون القراءتان قد توافقتا على معنى واحد وهو الإخبار أنهم عباد، ولا يكون تفاوت بينهما وتخالف لا يجوز في حق الله تعالى وقرىء أيضا إن مخففة ونصب عبادا على أنه حال من الضمير المحذوف العائد من الصلة على الذين وأمثالكم بالرفع على الخبر أي إن

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢٤١/٥

الذين تدعونهم من دون الله في حال كونهم عبادا أمثالكم في الخلق أو في الملك فلا يمكن أن يكونوا آلهة فادعوهم أي فاختبروهم بدعائكم هل يقع منهم إجابة أو لا يقع والأمر بالاستجابة هو على سبيل التعجيز أي لا يمكن أن يجيبوا كما قال: ولو سمعوا ما استجابوا لكم «١» ومعنى إن كنتم صادقين في دعوى إلهيتهم واستحقاق عبادتهم كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا

«٢» .

ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها. هذا استفهام إنكار وتعجيب وتبيين أنهم جماد لا حراك لهم وأنهم فاقدون لهذه الأعضاء ومنافعها التي خلقت لأجلها فأنتم أفضل من هذه الأصنام أذلكم هذا التصرف وهذا الاستفهام الذي معناه الإنكار قد يتوجه الإنكار فيه إلى انتفاء هذه ا لأعضاء وانتفاء منافعها فيتسلط النفي على المجموع كما فسرناه لأن تصويرهم هذه الأعضاء للأصنام ليست أعضاء حقيقة وقد يتوجه النفي إلى الوصف أي وإن كانت لهم هذه الأعضاء مصورة فقد انتفت هذه **المنافع** التي للأعضاء والمعنى أنكم أفضل من الأصنام بهذه

---

(١) سورة فاطر: ٣٥/ ١٤.

(٢) سورة مريم: ١٩/ ٤٢.." [1]

"أن تكون داخلة في جواب القسم، فتكون معطوفة على الجواب قبلها. واحتمل أن تكون إخبارا، معطوفا على الجملة المقولة لا على جواب القسم. وأعجز الهمزة فيه للتعدية كما قال: ولن نعجزه هربا، لكنه كثر فيه حذف المفعول حتى قالت العرب: أعجز فلان إذا ذهب في الأرض فلم يقدر عليه، وقال الزجاج: أي ما أنتم ممن يعجز من يعذبكم.

ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون: ولما ذكر العذاب وأقسم على حقيقته، وأنهم لا يفلتون منه، ذكر بعض أحوال الظالمين في الآخرة. وظلمت صفة لنفس، والظلم هنا الشرك والكفر، وافتدى يأتي مطاوعا لفدى، فلا يتعدى تقول: فديته فافتدى، وبمعنى فدى فيتعدى، وهنا يحتمل الوجهين. وما في الأرض أي: ما كان لها في الدنيا من الخزائن والأموال **والمنافع**، وأسروا من الأضداد تأتي بمعنى أظهر. قال الفرزدق:

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥/٢٥١

ولما رأى الحجاج جرد سيفه ... أسر الحروري الذي كان أظهرا

وقال آخر:

فأسررت الندامة يوم نادى ... برد جمال غاضرة المنادي

وتأتي بمعنى أخفى وهو المشهور فيها كقوله: يعلم ما يسرون وما يعلنون «١» ويحتمل هنا الوجهين. أما الإظهار فإنه ليس بيوم تصبر ولا تجلد ولا يقدر فيه الكافر على كتمان ما ناله، ولأن حالة رؤية العذاب يتحسر الإنسان على اقترافه ما أوجبه، ويظهر الندامة على ما فاته من الفوز ومن الخلاص من العذاب، وقد قالوا: ربنا غلبت علينا شقوتنا. وأما إخفاء الندامة فقيل: أخفى رؤساؤهم الندامة من سفلتهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم، وهذا فيه بعد، لأن من عاين العذاب هو مشغول بما يقاسيه منه فكيف له فكر في الحياء وفي التوبيخ الوارد من السفلة. وأيضا وأسروا عائد على كل نفس ظلمت على المعنى، وهو عام في الرؤساء والسفلة. وقيل: إخفاء الندامة هو من كونهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه ولا خطر ببالهم، ومعاينتهم ما أوهى قواهم فلم يطيقوا عند ذلك بكاء ولا صراخا. ولا ما يفعله الجازع سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب، كما يعرض لمن يقدم للصلب لا يكاد ينبس بكلمة، ويبقى مبهوتا جامدا. وأما من قال: إن معنى قوله: وأسروا الندامة، أخلصوا لله في تلك الندامة، أو بدت بالندامة أسرة وجوههم أي: تكاسير جباههم ففيه بعد عن

---

(١) سورة البقرة: ٢/ ٧٧.." (١)

"ممكن مقدور عليه، وإنما الشأن في المكره من هو، وما هو إلا هو وحده ولا يشارك فيه، لأنه تعالى هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان، وذلك غير مستطاع للبشر انتهى. وقوله: مشيئة القسر والإلجاء هو مذهب المعتزلة. وقال ابن عطية:

المعنى أن هذا الذي تقدم ذكره إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته فيهم، ولو شاء الله لكان الجميع مؤمنا، فلا تتأسف أنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك، وادع ولا عليك، فالأمر محتوم. أتريد أنت أن تكره الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم، وتضطرهم إلى ذلك والله عز وجل قد شاء غيره؟ فهذا التأويل الآية عليه محكمة أي: ادع وقاتل من خالفك، وإيمان من آمن مصروف إلى المشيئة. وقالت فرقة: المعنى أفأنت تكره الناس بالقتال حتى يدخلوا في الإيمان؟ وزعمت أن هذه الآية في صدر الإسلام، وأنها منسوخة بآية

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٧٢/٦

السيف، والآية على كلا التأويلين رادة على المعتزلة انتهى. ولذلك ذهب الزمخشري إلى تفسير المشيئة بمشيئة القسر والإلجاء، وهو تفسير الجبائي والقاضي. ومعنى إلا بإذن الله: أي بإرادته وتقديره لذلك والتمكن منه. وقال الزمخشري: بتسهيله وهو منح الإلطاف.

ويجعل الرجس: وهو الخذلان على الذين لا يعقلون، وهم المصرون على الكفر. وسمي الخذلان رجسا وهو العذاب، لأنه سببه انتهى. وهو على طريق الاعتزال. وقال ابن عباس: الرجس السخط، وعنه الإثم والعدوان. وقال مجاهد: ما لا خير فيه. وقال الحسن، وأبو عبيدة، والزجاج: العذاب. وقال الفراء: العذاب والغضب. وقال الحسن أيضا: الكفر. وقال قتادة: الشيطان، وقد تقدم تفسيره، ولكن نقلنا ما قاله العلماء هنا. وقرأ أبو بكر، وزيد بن علي: ونجعل بالنون، وقرأ الأعمش: ويجعل الله الرجز بالزاي.

قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون. فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين:

أمر تعالى بالفكر فيما أودعه تعالى في السموات والأرض، إذ السبيل إلى معرفته تعالى هو بالتفكر في مصنوعاته، ففي العالم العلوي في حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب، وما يختص بذلك من **المنافع** والفوائد، وفي العالم السفلي في أحوال العناصر والمعادن والنبات والحيوان، وخصوصا حال الإنسان.

وكثيرا ما ذكر الله تعالى في كتابه الحض على الفكر في مخلوقاته تعالى وقال: ماذا في السموات والأرض تنبيها على القاعدة الكلية، والعاقل يتنبه لتفاصيلها وأقسامها. ثم لما أمر بالنظر أخبر أنه من لا يؤمن لا تغنيه الآيات.." (١)

"فلان، أي أنه مطيع له يصرفه كيف يشاء. ثم أخبر أن أفعاله تعالى في غاية الإحكام، وعلى طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم ولا يضيع عنده من توكل عليه، قوله الصدق، ووعده الحق.

وقرأ الجمهور: فإن تولوا أي تتولوا مضارع تولى. وقرأ الأعرج وعيسى الثقفي: تولوا بضم التاء واللام مضارع ولى، وقيل: تولوا ماض ويحتاج في الجواب إلى إضمار قول، أي: فقل لهم قد أبلغتكم، ولا حاجة تدعو إلى جعله ماضيا وإضمار القول. وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون تولوا فعلا ماضيا، ويكون في الكلام رجوع من غيبة إلى خطاب أي: فقد أبلغتكم انتهى. فلا يحتاج إلى إضمار، والظاهر أن الضمير في تولوا عائد على قوم هود، وخطاب لهم من تمام الجمل المقولة قبل. وقال التبريزي: هو عائد على كفار قريش، وهو من تلوين الخطاب، انتقل من خطاب قوم هود إلى الإخبار عمن بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٠٩/٦

وكأنه قيل: أخبرهم عن قصة قوم هود، وادعهم إلى الإيمان بالله لئلا يصيبهم كما أصاب قوم هود، فإن تولوا فقل لهم: قد أبلغتكم. وجواب الشرط هو قوله: فقد أبلغتكم، وصح أن يكون جوابا، لأن في إبلاغه إليهم رسالته تضمن ما يحل بهم من العذاب المستأصل، فكأنه قيل: فإن تتولوا استؤصلتم بالعذاب. ويدل على ذلك الجملة الخبرية وهي قوله: ويستخلف ربي قوما غيركم.

وقال الزمخشري: (فإن قلت) : الإبلاغ كان قبل التولي، فكيف وقع جزاء للشرط؟

(قلت) : معناه فإن تولوا لم أعاقب على تفريط في الإبلاغ، فإن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول. وقال ابن عطية: المعنى أنه ما علي كبيرهم منكم إن توليتم فقد برئت ساحتي بالتبليغ، وأنتم أصحاب الذنب في الإعراض عن الإيمان. وقرأ الجمهور: ويستخلف بضم الفاء على معنى الخبر المستأنف أي: يهلككم ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم. وقرأ حفص في رواية هبيرة: بجزمها عطفا على موضع الجزاء، وقرأ عبد الله كذلك، وبجزم ولا تضروه، وقرأ الجمهور: ولا تضرونه أي شيئا من الضرر بتوليتكم، لأنه تعالى لا تجوز عليه المضار **والمنافع**. قال ابن عطية: يحتمل من المعنى وجهين: أحدهما: ولا تضرونه بذهابكم وهلاككم شيئا أي:

لا ينقص ملكه، ولا يختل أمره، وعلى هذا المعنى قرأ عبد الله بن مسعود ولا تنقصونه شيئا. والمعنى الآخر: ولا تضرونه أي: ولا تقدرون إذا أهلككم على إضراره بشيء، ولا." [1]

"من الثمرات. ألا ترى إلى تقاربها في الأشكال، والألوان، والروائح، **والمنافع**، وما يجري مجرى ذلك؟ قيل: نبه الله تعالى في هذه الآية على قدرته وحكمته، وأنه المدبر للأشياء كلها. وذلك أن الشجرة تخرج أغصانها وثمراتها في وقت معلوم لا تتأخر عنه ولا تتقدم، ثم يتصعد الماء في ذلك الوقت علوا وليس من طبعه إلا التسفل، يتفرق ذلك الماء في الورق والأغصان والثمر كل بقسطه وبقدر ما فيه صلاحه، ثم تختلف طعوم الثمار والماء واحد، والشجر جنس واحد. وكل ذلك دليل على مدبر دبره وأحكمه، لا يشبه المخلوقات. قال الراجز:

والأرض فيها عبرة للمعتبر ... تخبر عن صنع مليك مقتدر

تسقى بماء واحد أشجارها ... وبقعة واحدة قرارها

والشمس والهواء ليس يختلف ... وأكلها مختلف لا يأتلف

لو أن ذا من عمل الطبائع ... أو أنه صنعة غير صانع

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٦٩/٦

لم يختلف وكان شيئا واحدا ... هل يشبه الأولاد إلا الوالدا

الشمس والهواء يا معاند ... والماء والتراب شيء واحد

فما الذي أوجب ذا التفاضلا ... إلا حكيم لم يرده باطلا

وقال الحسن: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، كانت الأرض طينة واحدة فسطحها، فصارت قطعا متجاورات، فنزل عليها ماء واحد من السماء فتخرج هذه زهرة وثمرة، وتخرج هذه سبخة وملحا وخبثا. وكذلك الناس خلقوا من آدم، فنزلت عليهم من السماء مذكرة، فربت قلوب وخشعت قلوب، وقست قلوب ولهت قلوب. وقال الحسن: ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان. قال تعالى: وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا «١» انتهى، وهو شبيه بكلام الصوفية. إن في ذلك قال ابن عباس: في اختلاف الألوان والروائح والطعوم، لآيات: لحججا ودلالات لقوم يعقلون: يعلمون الأدلة فيستدلون بها على وحدانية الصانع القادر. ولما كان الاستدلال في هذه الآية بأشياء في غاية الوضوح من مشاهدة تجاور القطع، والجنات وسقيها وتفضيلها، جاء ختمها بقوله: لقوم يعقلون، بخلاف الآية التي قبلها، فإن الاستدلال بها يحتاج إلى تأمل ومزيد نظر جاء ختمها بقوله لقوم يتفكرون.

---

(١) سورة الإسراء: ١٧/ ٨٢.." (١)

"سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله «١» واحتمل أن يكون قوله: وهو الواحد القهار، داخلا تحت الأمر بقل، فيكون قد أمر أن يخبر بأنه تعالى هو الواحد المنفرد بالألوهية، القهار الذي جميع الأشياء تحت قدرته وقهره. واحتمل أن يكون استئناف إخبار فيه يقال بهذين الوصفين: الوحدانية، والقهر. فهو تعالى لا يغالب، وما سواه مقهور مربوب له عز وجل.

أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال. للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد: قال الزمخشري: هذا مثل ضربه الله للحق وأهله، والباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير، والظلمات والنور، مثلا لهما. فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية للناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٦/٣٥٠

وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفى فيه، وإن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهرا يثبت الماء في منافعه، وتبقى آثاره في العيون والبئار والجبوب والثمار التي تنبت به مما يدخر ويكثر، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي يرمى به، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب. وقال ابن عطية: صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالى، وإقامة الحجة على الكفرة به، فلما فرغ ذكر ذلك جعله مثالا للحق والباطل، والإيمان والكفر، والشك في الشرع واليقين به انتهى. وقيل: هذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن، والقلوب، والحق، والباطل. فالماء مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب، وبقاء الشرع والدين والأودية مثل للقلوب، ومعنى بقدرها على سعة القلوب وضيقها، فمنها ما انتفع به فحفظه ووعاه وتدبر فيه، فظهرت ثمرته وأدرك تأويله ومعناه، ومنها دون ذلك بطبقة، ومنها دونه بطبقات. والزبد مثل الشكوك والشبه وإنكار الكافرين أنه كلام الله، ودفعهم إياه بالباطل. والماء الصافي المنتفع به مثل الحق انتهى. وفي الحديث الصحيح ما

---

(١) سورة لقمان: ٣١/ ٢٥.." (١)

"وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون. لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين. ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين. إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون: قال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أمية، والنضر بن الحرث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة. وقرأ زيد بن علي: نزل عليه الذكر ماضيا مخففا مبنيا للفاعل. وقرأ: يا أيها الذي ألقي إليه الذكر، وينبغي أن تجعل هذه القراءة تفسيرا، لأنها مخالفة لسواد المصحف. وهذا الوصف بأنه الذي نزل عليه الذكر قالوه على جهة الاستهزاء والاستخفاف، لأنهم لا يقرون بتنزيل الذكر عليه، وينسبونه إلى الجنون، إذ لو كان مؤمنا برسالة موسى وما أخبر عنه بالجنون. ثم اقترحوا عليه أن يأتيهم بالملائكة شاهدين لصدقك وبصحة دعواك وإنذارك كما قال: لولا أنزل إليه ملك «١» فيكون معه نذيرا أو معاقبين على تكذيبك، كما كانت تأتي الأمم المكذبة. وقرأ الحرميان والعربيان: ما تنزل مضارع تنزل أي: ما تتنزل الملائكة بالرفع. وقرأ أبو بكر، ويحيى بن وثاب: ما تنزل بضم التاء وفتح النون والزاي الملائكة بالرفع. وقرأ الأخوان، وحفص، وابن مصرف: ما ننزل بضم النون الأولى، وفتح الثانية، وكسر الزاي الملائكة بالنصب. وقرأ زيد بن علي: ما نزل ماضيا مخففا مبنيا للفاعل الملائكة

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣٧٢/٦

بالرفع. والحق هنا العذاب قاله الحسن، أو الرسالة قاله مجاهد، أو قبض الأرواح عند الموت قاله ابن السائب، أو القرآن ذكره الماوردي. وقال الزمخشري: ألا تنزلا ملتبسا بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم عيانا تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم، لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار. وقال ابن عطية: والظاهر أن معناها: كما يجب ويحق من الوحي **والمنافع** التي أرادها الله تعالى لعباده، لا على اقتراح كافر، ولا باختيار معترض. ثم ذكر عادة الله في الأمم من أنه لم يأتهم بآية اقتراح إلا ومعها العذاب في إثرها إن لم يؤمنوا، فكان الكلام ما تنزل الملائكة إلا بحق واجب لا باقتراحكم. وأيضا فلو نزلت لم تنظروا بعد ذلك بالعذاب أي: تؤخروا والمعنى، وهذا لا يكون إذ كان في علم الله أن منهم من يؤمن، أو يلد من يؤمن.

وقال الزمخشري: وادن جواب وجزاء، لأنه جواب لهم، وجزاء بالشرط مقدر تقديره: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذبهم. ولما قالوا على سبيل الاستهزاء: يا أيها الذي نزل عليه الذكر، رد عليهم بأنه هو المنزل عليه، فليس من قبله ولا

(١) سورة الأنعام: ٦/ ٨ (عليه بدل إليه) .." [١]

"أشرف الأجسام بعد الأفلاك والكواكب هو الإنسان، ثم ذكر الإنسان وأنه مركب من بدن ونفس في كلام كثير يوقف عليه في تفسيره، ولا نسلم ما ذكره من أن الأفلاك والكواكب أشرف من الإنسان. ولما ذكر خلق الإنسان ذكر ما امتن به عليه في قوام معيشته، فذكر أولا أكثرها منافع، وألزم لمن أنزل القرآن بلغتهم وذلك الأنعام، وتقدم شرح الأنعام في الأنعام. والأظهر أن يكون لكم فيها دفء استئناف لذكر ما ينتفع بها من جهتها، ودفء مبتدأ وخبره لكم، ويتعلق فيها بما في لكم من معنى الاستقرار. وجوز أبو البقاء أن يكون فيها حالا من دفء، إذ لو تأخر لكان صفة. وجوز أيضا أن يكون لكم حالا من دفء وفيها الخبر، وهذا لا يجوز لأن الحال إذا كان العامل فيها معنى فلا يجوز تقديمها على الجملة بأسرها، لا يجوز: قائما في الدار زيد، فإن تأخرت الحال عن الجملة جازت بلا خلاف، أو توسطت فأجاز ذلك الأخفش، ومنعه الجمهور. وأجاز أيضا أن يرتفع دفء بلكم أو نعتها بأل، والجملة كلها حال من الضمير المنصوب انتهى. ولا تسمى جملة، لأن التقدير:

خلقها لكم فيها دفء، أو خلقها لكم كائنا فيها دفء، وهذا من قبيل المفرد، لا من قبيل الجملة. وجوزوا

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤٦٧/٦

أن يكون لكم متعلقا بخلقها، وفيها دفء استئناف لذكر منافع الأنعام.

ويؤيد كون لكم فيها دفء يظهر فيه الاستئناف مقابلته بقوله: ولكم فيها جمال، فقابل المنفعة الضرورية بالمنفعة غير الضرورية. وقال ابن عباس: الدفء نسل كل شيء، وذكره الأموي عن لغة بعض العرب. والظاهر أن نصب والأنعام على الاشتغال، وحسن النصب كون جملة فعلية تقدمت، ويؤيد ذلك قراءته في الشاذ برفع الأنعام. وقال الزمخشري، وابن عطية: يجوز أن يكون قد عطف على البيان، وعلى هذا يكون لكم استئناف، أو متعلق بخلقها. وقرأ الزهري وأبو جعفر: دفء بضم الفاء وشدها وتنوينها، ووجهه أنه نقل الحركة من الهمزة إلى الفاء بعد حذفها، ثم شدد الفاء إجراء للوصل مجرى الوقف، إذ يجوز تشديدها في الوقف. وقرأ زيد بن علي: دف بنقل الحركة، وحذف الهمزة دون تشديد الفاء. وقال صاحب اللوامح: الزهري دف بضم الفاء من غير همز، والفاء محركة بحركة الهمزة المحذوفة. ومنهم من يعوض من هذه الهمزة فيشدد الفاء، وهو أحد وجهي حمزة بن حبيب وقفا. وقال مجاهد: ومنافع الركوب، والحمل، والألبان، والسمن، والنضج عليها، وغير ذلك. وأفرد منفعة الأكل بالذكر، كما أفرد منفعة الدفء، لأنهما من أعظم **المنافع**.

وقال الزمخشري: (فإن قلت) : تقدم الظرف في قوله: ومنها تأكلون مؤذن، بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها (قلت) : الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في." [1]

"رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم ... قطينا بهم حتى إذا أنبت البقل

أي نبت. وكان الأصمعي يأبى أنبت بمعنى نبت. وقرأ أبو بكر: ننبت بنون العظمة. وقرأ الزهري: ننبت بالتشديد قيل: للتكثير والتكرير، والذي يظهر أنه تضعيف التعدية. وقرأ أبي: ينبت من نبت ورفع الزرع وما عطف عليه. وخص الأربعة بالذكر لأنها أشرف ما ينبت، وأجمعه للمنافع. وبدأ بالزرع لأنه قوت أكثر العالم، ثم بالزيتون لما فيه من فائدة الاستصباح بدهنه، وهي ضرورية مع منفعة أكله والائتدام به وبدهنه، والاطلاء بدهنه، ثم بالنخل لأن ثمرته من أطيب الفواكه وقوت في بعض البلاد، ثم بالأعناب لأنها فاكهة محضة ثم قال: ومن كل الثمرات، أتى بلفظ من التي للتبعيض، لأن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكرة. ولما ذكر الحيوانات المنتفع بها على التفصيل أعقبه بقوله: ويخلق ما لا تعلمون، كذلك ذكر هنا الأنواع المنتفع بها من النبات، ثم قال: ومن كل الثمرات، تنبيها على أن تفصيل القول في أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها مما لا يكاد يحصر، كما أن تفصيل ما خلق

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٦/٥٠٦

من باقي الحيوان لا يكاد يحصر. وختم ذلك تعالى بقوله: لآية لقوم يتفكرون، لأن النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل واستعمال فكر. ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها مقدار من الزمان معين لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به، فينشق أعلاها فيصعد منه شجرة إلى الهواء، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى وهي العروق، ثم ينمو الأعلى ويقوى، وتخرج الأوراق والأزهار والأكمام، والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والطعوم والألوان والروائح والأشكال **والمنافع**، وذلك بتقدير قادر مختار وهو الله تعالى.

وقرأ الجمهور: والشمس وما بعده منصوبا، وانتصب مسخرات على أنها حال مؤكدة إن كان مسخرات اسم مفعول، وهو إعراب الجمهور. وقال الزمخشري: ويجوز أن يكون المعنى: أنه سخرها أنواعا من التسخير جمع مسخر بمعنى: تسخير من قولك: سخره الله مسخرا، كقولك: سرحه مسرحا، كأنه قيل: وسخرها لكم تسخيرات بأمره انتهى. وقرأ ابن عامر: والشمس وما بعده بالرفع على الابتداء والخبر، وحفص والنجوم مسخرات برفعهما، وهاتان القراءتان يعدان قول الزمخشري إن مسخرات بمعنى تسخيرات. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وابن مصرف: والرياح مسخرات في موضع، والنجوم وهي مخالفة لسواد المصحف. والظاهر في قراءة نصب الجميع أن والنجوم معطوف على ما قبله. وقال." (١)

"حيوان وحجر ونبات لأنه لا زينة فيه، ومن قال بالعموم قال فيه زينة من جهة خلقه وصنعته وإحكامه.

وقيل: المراد بما هنا خصوص ما لا بعقل. فقيل: الأشجار والأنهار.

وقيل: النبات لما فيه من الاختلاف والأزهار. وقيل: الحيوان المختلف الأشكال **والمنافع** والأفعال. وقيل: الذهب والفضة والنحاس والرصاص والياقوت والزبرجد والجوهر والمرجان وما يجري مجرى ذلك من نفائس الأحجار.

وقال الزمخشري: ما على الأرض يعني ما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها. وقالت: فرقة أراد النعيم والملابس والثمار والخضرة والمياه. وقيل: ما هنا لمن يعقل، فعن مجاهد هو الرجال وقاله ابن جبير عن ابن عباس وروى عكرمة أن الزينة الخلفاء والعلماء والأمراء. وانتصب زينة على الحال أو على المفعول من أجله إن كان جعلنا بمعنى خلقنا، وأوجدنا، وإن كانت بمعنى صيرنا فانتصب على أنه مفعول ثان.

واللام من لنبلوهم تتعلق بجعلنا، والابتلاء الاختبار وهو متأول بالنسبة إلى الله تعالى. والضمير في لنبلوهم

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥١٢/٦

إن كانت ما لمن يعقل فهو عائد عليها على المعنى، وأن لا يعود على ما يفهم من سياق الكلام وهو سكان الأرض المكلفون وأيهم يحتمل أن يكون الضمير فيها إعرابا فيكون أيهم مبتدأ وأحسن خبره. والجملة في موضع المفعول لنبلوهم ويكون قد علق لنبلوهم إجراء لها مجرى العلم لأن الابتلاء والاختبار سبب للعلم، كما علقوا سل وانظر البصرية لأنهما سببان للعلم وإلى أن الجملة استفهامية مبتدأ وخبر ذهب الحوفي، ويحتمل أن تكون الضمة فيها بناء على مذهب سيبويه لوجود شرط جواز البناء في أي. وهو كونها مضافة قد حذف صدر صلتها، فأحسن خبر مبتدأ محذوف فتقديره هو أحسن ويكون أيهم في موضع نصب بدلا من الضمير في لنبلوهم، والمفضل عليه محذوف تقديره ممن ليس أحسن عملا. وقال الثوري أحسنهم عملا أزهدهم فيها. وقال أبو عاصم العسقلاني: أترك لها. وقال الزمخشري:

حسن العمل الزهد فيها وترك الاغترار بها. وقال أبو بكر غالب بن عطية: أحسن العمل أخذ بحق مع الإيمان وأداء الفرائض واجتناب المحارم والإكثار من المندوب إليه. وقال الكلبي:

أحسن طاعة. وقال القاسم بن محمد ما عليها من الأنبياء والعلماء ليبلو المرسل إليهم والمقلدين للعلماء أيهم أحسن قبولا وإجابة. وقال سهل: أحسن توكلا علينا فيها. وقيل:

أصفى قلبا وأحسن سمتا. وقال ابن إسحاق: أيهم أتبع لأمري وأعمل بطاعتي.." (١)

"ثم أردف تلك النصيحة بترجية من الله، وتوقعه أن يقلب ما به وما بصاحبه من الفقر والغنى. فقال: إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا أي إني أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه أن يمنحني جنة خيرا من جنتك لإيماني به، ويزيل عنك نعمته لكفرك به ويخرب بستانك.

وقرأ الجمهور: أقل بالنصب مفعولا ثانيا لترني وهي علمية لا بصرية لوقوع أنا فصلا، ويجوز أن يكون توكيدا للضمير المنصوب في ترني، ويجوز أن تكون بصرية وأنا توكيد للضمير في ترني المنصوب فيكون أقل حالا. وقرأ عيسى بن عمر أقل بالرفع على أن تكون أنا مبتدأ، وأقل خبره، والجملة في موضع مفعول ترني الثاني إن كانت علمية، وفي موضع الحال إن كانت بصرية. ويدل قوله وولدا على أن قول صاحبه وأعز نفرا «١» عنى به الأولاد إن قابل كثرة المال بالقلة وعزة النفر بقلة الولد.

والحسبان، قال ابن عباس وقتادة: العذاب. وقال الضحاك: البرد. وقال الكلبي:

النار. وقال ابن زيد: القضاء. وقال الأخفش: سهام ترمى في مجرى فقلما تخطىء.

وقيل: النبل. وقيل: الصواعق. وقيل: آفة مجتاحة. وقال الزجاج: عذاب حسبان وذلك الحسبان حساب ما

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٤٠/٧

كسبت يداك، وهذا الترجي إن كان ذلك أن يؤتيه في الدنيا فهي أنكى للكافر وآلم إذ يرى حاله من الغنى قد انتقلت إلى صاحبه، وإن كان ذلك أن يؤتيه في الآخرة فهو أشرف وأذهب مع الخير والصلاح فتصبح صعيدا أي أرضا بيضاء لا نبات فيها لا من كرم ولا نخل ولا زرع، قد اصطلم جميع ذلك فبقيت يبابا قفرا يزلق عليها لإملاسها، والزلق الذي لا تثبت فيه قدم ذهب غراسه وبناؤه وسلب **المنافع** حتى منفعة المشي فيه فهو وحل لا ينبت ولا يثبت فيه قدم. وقال الحسن: الزلق الطريق الذي لا نبات فيه. وقيل: الخراب. وقال مجاهد: رملا هائلا. وقيل: الزلق الأرض السبخة وترجي المؤمن لجنة هذا الكافر آفة علوية من السماء أو آفة سفلية من الأرض، وهو غور مائها فيتلف كل ما فيها من الشجر والزرع، وغور مصدر خبر عن اسم أصبح على سبيل المبالغة وأو يصبح معطوف على قوله ويرسل لأن غؤور الماء لا يتسبب على الآفة السماوية إلا إن عنى بالحسبان القضاء الإلهي، فحينئذ يتسبب عنه إصباح الجنة صعيدا زلقا أو إصباح مائها غورا. وقرأ الجمهور غورا بفتح الغين. وقرأ البرجمي: غورا بضم الغين. وقرأت فرقة بضم الغين وهمز الواو يعنون وبواو بعد الهمزة فيكون غؤورا كما جاء في مصدر غارت عينه غؤورا، والضمير في له عائد على الماء أي لن يقدر على طلبه لكونه ليس مقدورا

---

(١) سورة الكهف: ١٨/ ٣٩.." (١)

"عليه فتردى يجوز أن يكون منصوبا على جواز النهي وأن يكون مرفوعا أي فأنت تردى.

وقرأ يحيى فتردى بكسر التاء.

وما تلك بيمينك يا موسى هو تقرير مضمنه التنبيه، وجمع النفس لما يورد عليها وقد علم تعالى في الأزل ما هي وإنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عز وجل في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة، ويتقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة وما استفهام مبتدأ وتلك خبره وبيمينك في موضع الحال كقوله وهذا بعلي شيخا «١» والعامل اسم الإشارة. قال الزمخشري: ويجوز أن يكون تلك اسما موصولا صلته بيمينك، ولم يذكر ابن عطية غيره وليس ذلك مذهبا للبصريين وإنما ذهب إليه الكوفيون، قالوا: يجوز أن يكون اسم الإشارة موصولا حيث يتقدر بالموصول كأنه قيل: وما التي بيمينك؟ وعلى هذا فيكون العامل في المجرور محذوفا كأنه قيل: وما التي استقرت بيمينك؟ وفي هذا السؤال وما قبله من خطابه تعالى لموسى عليه السلام استئناس عظيم وتشريف كريم.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٨٠/٧

قال هي عصاي. وقرأ ابن أبي إسحاق والجحدري عصي بقلب الألف ياء وإدغامها في ياء المتكلم. وقرأ الحسن عصاي بكسر الياء وهي مروية عن ابن أبي إسحاق أيضا وأبي عمرو معا، وهذه الكسرة لالتقاء الساكنين. وعن أبي إسحاق والجحدري عصاي بسكون الياء. أتوكؤا عليها أي أتحامل عليها في المشي والوقوف، وهذا زيادة في الجواب كما

جاء «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» .

في جواب من سأل أيتوضأ بماء البحر؟

وكما

جاء في جواب ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجر» .

وحكمة زيادة موسى عليه السلام رغبته في مطاولة مناجاته لربه تعالى، وازدياد لذاذته بذلك كما قال الشاعر:

وأملى عتابا يستطاب فليتني ... أطلت ذنوبا كي يطول عتابه

وتعداده نعمه تعالى عليه بما جعل له فيها من **المنافع**، وتضمنت هذه الزيادة تفضيلا في قوله أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي وإجمارا في قوله ولي فيها مآرب أخرى.

وقيل: أتوكؤا عليها جواب لسؤال آخر وهو أنه لما قال هي عصاي قال له تعالى فما تصنع بها؟ قال: أتوكؤا عليها الآية. وقيل: سأله تعالى عن شيئين عن العصا بقوله وما تلك وبقوله بيمينك عما يملكه، فأجابه عن وما تلك؟ بقوله هي عصاي وعن

---

(١) سورة هود: ١١/ ٧٢.." (١)

"قوله بيمينك بقوله أتوكؤا عليها وأهش إلى آخره انتهى. وفي التحقيق ليس قوله بيمينك بسؤال وقدم في الجواب مصلحة نفسه في قوله أتوكؤا عليها ثم ثنى بمصلحة رعيته في قوله وأهش.

وقرأ الجمهور وأهش بضم الهاء والشين المعجمة، والنخعي بكسرها كذا ذكر أبو الفضل الرازي وابن عطية وهي بمعنى المضمومة الهاء والمفعول محذوف وهو الورق. قال أبو الفضل: ويحتمل ذلك أن يكون من هش يهش هشاشة إذا مال، أي أميل بها على غنمي بما أصلحها من السوق وتكسير العلف ونحوهما، يقال منه: هش الورق والكلأ والنبات إذا جف ولان انتهى. وقرأ الحسن وعكرمة: وأهس بضم الهاء والسين غير معجمة، والهس السوق ومن ذلك الهس والهساس غير معجمة في الصفات. ونقل ابن خالويه عن

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٧/٣٢١

النخعي أنه قرأ وأهس بضم الهمزة من أهس رباعيا وذكر صاحب اللوامح عن عكرمة ومجاهد وأهش بضم الهاء وتخفيف الشين قال: ولا أعرف وجهه إلا أن يكون بمعنى العامة لكن فر من قراءته من التضعيف لأن الشين فيه تفش فاستثقل الجمع بين التضعيف والتفشي. فيكون كتخفيف ظلت ونحوه. وذكر الزمخشري عن النخعي أنه قرأ وأهش بضم الهمزة والشين المعجمة من أهش رباعيا قال: وكلاهما من هش الخبز يهش إذا كان يتكسر لهشاشته. ذكر على التفصيل والإجمال **المنافع** المتعلقة بالعصا كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها كما ينفع العيدان ليكون جوابه مطابقا للغرض الذي فهمه من فحوى كلام ربه، ويجوز أن يريد عز وجل أن يعدد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة كأنه يقول أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة. كنت تعتد بها وتحتفل بشأنها وقالوا اسم العصا نبعة انتهى.

وقرأت فرقة غنمي بسكون النون وفرقة على غنمي بإيقاع الفعل على الغنم.

والمآرب ذكر المفسرون أنها كانت ذات شعبتين ومحجن فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين، وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب، وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل، وإذا قصر رشاؤه وصل بها وكان يقاتل بها السباع عن غنمه.." (١)

"تحوي الآيات كلها، ويجوز أنه أراد بها الجمع فجعلها اسم الجنس، ودل على ذلك كثرة ما في السماء من الآيات. والمعنى وهم عن الاعتبار بآياتها معرضون وقال الزمخشري: هم يتفطنون لما يرد عليهم من السماء من **المنافع** الدنياوية كالاستضاءة بقمريها والاهتداء بكواكبها وحياة الأرض والحيوان بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على الخالق معرضون.

والتنوين في كل عوض من المضاف إليه، والفلك الجسم الدائر دورة اليوم والليلة. وعن ابن عباس والسدي: الفلك السماء. وقال أكثر المفسرين: الفلك موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر. وقال قتادة: الفلك استدارة بين السماء والأرض يدور بالنجوم مع ثبوت السماء. وقيل: الفلك القطب الذي تدور عليه النجوم وهو قطب الشمال. وقيل: لكل واحد من السيارات فلك، وفلك الأفلاك يحركها حركة واحدة من المشرق إلى المغرب. وقال الضحاك: الفلك ليس بجسم وإنما هو مدار هذه النجوم، والظاهر أنه جسم

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣٢٢/٧

وفيه الاختلاف المذكور والظاهر أن كلا يسبح في فلك واحد. قيل:

ولكل واحد فلك يخصه فهو كقولهم: كساهم الأمير حلة أي كسى كل واحد، وجاء يسبحون بواو الجمع العاقل، فأما الجمع فقيل ثم معطوف محذوف وهو والنجوم، ولذلك عاد الضمير مجموعا ولو لم يكن ثم معطوف محذوف لكان يسبحان مثنى.

وقال الزمخشري: الضمير للشمس والقمر، والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها وهو السبب في جمعها بالشموس والأقمار، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد انتهى. وحسن ذلك كونه جاء فاصلة رأس آية، وأما كونه ضمير من يعقل ولم يكن التركيب يسبحن. فقال الفراء: لما كانت السباحة من أفعال الآدميين جاء ما أسند إليهما مجموعا من يعقل كقوله رأيتهم لي ساجدين «١» قال أبو عبد الله الرازي:

وعلى قول أبي علي بن سينا سبب ذلك أنها عنده تعقل انتهى. وهذه الجملة يحتمل أن تكون استئناف إخبار فلا محل لها، أو محلها النصب على الحال من الشمس والقمر لأن الليل والنهار لا يتصفان بأنهما يجريان في فلك فهو كقولك: رأيت زيدا وهندا متبرجة والسباحة: العوم والذي يدل عليه الظاهر أن الشمس والقمر هما اللذان يجريان في الفلك، وأن الفلك لا يجري.

---

(١) سورة يوسف: ١٢/ ٤.." (١)

"وقرأ الجمهور يأتين فالظاهر عود الضمير على كل ضامر لأن الغالب أن البلاد الشاسعة لا يتوصل منها إلى مكة بالركوب، وقد يجوز أن يكون الضمير يشمل رجالا وكل ضامر على معنى الجماعات والرفاق. وقرأ عبد الله وأصحابه والضحاك وابن أبي عبلة يأتون غلب العقلاء الذكور في البداءة برجال تفضيلا للمشاة إلى الحج. وعن ابن عباس: ما آسى على شيء فاتني أن لا أكون حججت ماشيا، والاستدلال بقوله يأتوك رجالا وعلى كل ضامر على سقوط فرض الحج على من يركب البحر ولا طريق له سواه، لكونه لم يذكر في هذه الآية ضعيف لأن مكة ليست على بحر، وإنما يتوصل إليها على إحدى هاتين الحالتين مشي أو ركوب، فذكر تعالى ما يتوصل به إليها. وقرأ ابن مسعود فج معيق. قال ابن عباس وغيره من المنافع التجارة. وقال الباقر: الأجر.

وقال مجاهد وعطاء كلاهما، واختاره ابن العربي.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤٢٧/٧

قال الزمخشري: ونكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه ،لعبادة دينية ودنياوية لا توجد في غيرها من العبادات. وعن أبي حنيفة أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج، فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص، وكنى عن النحر والذبح بذكر اسم الله لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا، وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله إن يذكر اسمه وقد حسن الكلام تحسينا بينا أن جمع بين قوله ليذكروا اسم الله عليه. وقوله على ما رزقهم ولو قال لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام لم تر شيئا من ذلك الحسن والروعة انتهى.

واستدل من قال أن المقصود بذكر اسم الله هو على الذبح والنحر على أن الذبح لا يكون بالليل ولا يجوز فيه لقوله في أيام وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي. وقيل:

الذكر هنا حمده وتقديسه شكرا على نعمته في الرزق ويؤيده

قوله عليه السلام: «أنها أيام أكل وشرب»

وذكر اسم الله والأيام المعلومات أيام العشر قاله ابن عباس والحسن وإبراهيم وقتادة وأبو حنيفة، والمعدودات أيام التشريق الثلاثة. وقالت فرقة منهم مالك وأصحابه:

المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والمعدودات أيام التشريق الثلاثة، فيوم النحر معلوم لا معدود واليومان بعده معلومان معدودان،

والرابع معدود لا معلوم ويوم النحر ويومان بعده هي أيام النحر عند علي

وابن عباس وابن عمر وأنس وأبي هريرة وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وأبي حنيفة والثوري، وعند الحسن وعطاء والشافعي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، وعند النخعي النحر يومان، وعند ابن سيرين النحر يوم واحد، وعن أبي سلمة وسليمان بن." (١)

"المائدة، وأما هنا فقال ابن عباس ومجاهد وجماعة: هي البدن الهدايا، وتعظيمها تسمينها والاهتبال بها والمغالاة فيها. وقال زيد بن أسلم: الشعائر ست: الصفا، والمروة، والبدن، والجمار، والمشعر الحرام، وعرفة، والركن. وتعظيمها إتمام ما يفعل فيها. وقال ابن عمر والحسن ومالك وابن زيد: مواضع الحج كلها ومعالمه بمنى وعرفة والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغير ذلك، وهذا نحو من قول زيد بن أسلم.

وقيل: شرائع دينه وتعظيمها التزامها والمنافع الأجر، ويكون الضمير في فيها من قوله لكم فيها منافع عائدا على الشعائر التي هي الشرائع أي لكم في التمسك بها منافع إلى أجل منقطع التكليف ثم محلها بشكل

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٠٢/٧

على هذا التأويل. فقيل:

الإيمان والتوجه إليه بالصلاة، وكذلك القصد في الحج والعمرة، أي محل ما يختص منها بالإحرام البيت العتيق وقيل: معنى ذلك ثم أجرها على رب البيت العتيق قيل: ولو قيل على هذا التأويل أن البيت العتيق الجنة لم يبعدوا الضمير في إنها عائد على الشعائر على حذف مضاف أي فإن تعظيمها أو على التعظمة، وأضاف التقوى إلى القلوب كما

قال عليه الصلاة والسلام: «التقوى هاهنا» .

وأشار إلى صدره.

وعن عمر أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال: «بل اهدها» وأهدى هو عليه السلام مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب،

وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي فيتصدق بلحومها وبجلالها، ويعتقد أن طاعة الله في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد أن يقام به ويسارع فيه، وذكر القلوب لأن المنافق يظهر التقوى وقلبه خال عنها، فلا يكون مجدا في أداء الطاعات، والمخلص التقوى بالله في قلبه فيبالغ في أدائها على سبيل الإخلاص.

وقال الزمخشري: فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى من ليرتبط به، وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء انتهى.

وما قدره عار من راجع إلى الجزاء إلى من ألا ترى أن قوله فإن تعظيمها من أفعال القلوب ليس في شيء منه ضمير يعود إلى من يربط جملة الجزاء بجملة الشرط الذي أدانه من وإصلاح ما قاله أن يكون التقدير فأي تعظيمها منه، فيكون الضمير في منه عائدا على من فيرتبط الجزاء بالشرط.." (١)

"وقرىء القلوب بالرفع على الفاعلية بالمصدر الذي هو تقوى والضمير في فيها عائد على البدن على قول الجمهور، والمنافع درها ونسلها وصوفها وركوب ظهرها إلى أجل مسمى وهو أن يسميها ويوجبها هديا فليس له شيء من منافعها. قاله ابن عباس في رواية مقسم، ومجاهد وقتادة والضحاك. وقال عطاء: منافع الهدايا بعد إيجابها وتسميتها هديا بأن تركب ويشرب لبنها عند الحاجة إلى أجل مسمى أي إلى أن تنحر.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٠٦/٧

وقيل: إلى أن تشعر فلا تركب إلا عند الضرورة. وروى أبو رزين عن ابن عباس: الأجل المسمى الخروج من مكة. وعن ابن عباس إلى أجل مسمى أي إلى الخروج والانتقال من هذه الشعائر إلى غيرها. وقيل: الأجل يوم القيامة. وقال الزمخشري: إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها.

وثم للتراخي في الوقت فاستعيرت للتراخي في الأفعال، والمعنى أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم وإنما يعبد الله **بالمنافع** الدينية قال تعالى: تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة «١» وأعظم هذه **المنافع** وأبعدها شوطا في النفع محلها إلى البيت أي وجوب نحرها، أو وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت كقوله هديا بالغ الكعبة «٢» والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت لأن الحرم هو حريم البيت، ومثل هذا في الاتساع قولك: بلغنا البلد وإنما شارفتموه واتصل مسيركم بحدوده. وقيل: المراد بالشعائر المناسك كلها ومحلها إلى البيت العتيق يأباه انتهى.

وقال القفال: الهدي المتطوع به إذا عطب قبل بلوغ مكة فإن محله موضعه، فإذا بلغ منى فهي محله وكل فجاج مكة. وقال ابن عطية: وتكرر ثم لترتيب الجمل لأن المحل قبل الأجل، ومعنى الكلام عند هاتين الفريقين يعني من قال مجاهد ومن وافقه، ومن قال بقول عطاء ثم محلها إلى موضع النحر فذكر البيت لأنه أشرف الحرم وهو المقصود بالهدي وغيره، والأجل الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة وقوله ثم محلها مأخوذ من إحلال المحرم معناه، ثم أخر هذا كله إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق، فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه قاله مالك في الموطأ انتهى.

والمنسك مفعل من نسك واحتمل أن يكون موضعا للنسك، أي مكان نسك، واحتمل أن يكون مصدرا واحتمل أن يراد به مكان العبادة مطلقا أو العبادة، واحتمل أن يراد

---

(١) سورة الأنفال: ٨/ ٦٧.

(٢) سورة المائدة: ٥/ ٩٥.." [1]

"موضع بالدهن كان في موضع الحال أو في موضع المفعول، والصباغ كالدبغ والدباغ وفي كتاب ابن عطية. وقرأ عامر بن عبد قيس ومتاعا للآكلين كأنه يريد تفسير الصبغ.

ذكر تعالى شرف مقر هذه الشجرة وهو الجبل الذي كلم الله فيه نجيه موسى عليه السلام، ثم ذكر ما فيها من الدهن والصبغ ووصفها بالبركة في قوله من شجرة مباركة زيتونة «١» قيل: وهي أول شجرة نبتت بعد

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٠٧/٧

الطوفان وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها تقدم تفسير نظير هذه الجملة في النحل ولكم فيها منافع من الحمل والركوب والحرث والانتفاع بجلودها وأوبارها، ونبه على غزارة فوائدها وألزامها وهو الشرب والأكل، وأدرج باقي **المنافع** في قوله ولكم فيها منافع كثيرة ثم ذكر ما تكاد تختص به بعض الأنعام وهو الحمل عليها وقرنها بالفلك لأنها سفائن البر كما أن فلك

سفائن البحر. قال ذو الرمة:

سفينة بر تحت خدي زمامها يريد صيدح ناقته.

ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين قال رب انصرني بما كذبون فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين.

لما ذكر أولا بدء الإنسان وتطوره في تلك الأطوار، وما امتن به عليه مما جعله تعالى سببا لحياتهم، وإدراك مقاصدهم، ذكر أمثالا لكفار قريش من الأمم السابقة المنكرة لإرسال الله رسلا المكذبة بما جاءتهم به الأنبياء عن الله، فابتدأ قصة نوح لأنه أبو البشر الثاني كما ذكر أولا آدم في قوله من سلالة من طين «٢» ولقصته أيضا مناسبة بما قبلها إذ قبلها على الفلك تحملون

«٣» فذكر قصة من صنع الفلك أولا وأنه كان سبب نجاة من

---

(١) سورة النور: ٢٤/ ٣٥.

(٢) سورة المؤمنون: ٢٣/ ١٢.

(٣) سورة المؤمنون: ٢٣/ ٢٢.." [١]

"بمشفقون قاله الحوفي. وقال ابن عطية: ومن في من خشية هي لبيان جنس الإشفاق، والإشفاق إنما هو من عذاب الله، والآيات نعم القرآن والعبر والمصنوعات التي لله وغير ذلك مما فيه نظر. وفي كل

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٥٦/٧

شيء له آية.

ثم ذكر نفي الإشراك وهو عبادتهم آلهتهم التي هي الأصنام، إذ لكفار قريش أن تقول: نحن نؤمن بآيات ربنا ونصدق بأنه المخترع الخالق. وقيل: ليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشرك لله لأن ذلك داخل في قوله والذين هم بآيات ربهم يؤمنون المراد نفي الشرك للحق وهو أن يخلصوا في العبادة لا يقدم عليها إلا لوجه الله وطلب رضوانه.

وقرأ الجمهور يؤتون ما آتوا أي يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات وقلوبهم وجلة أي خائفة أن لا يقبل منهم لتقصيرهم أنهم أي وجلة لأجل رجوعهم إلى الله أي خائفة لأجل ما يتوقعون من لقاء الجزاء. قال ابن عباس وابن جبير: هو عام في جميع أعمال البر كأنه قال: والذين يفعلون من أنفسهم في طاعة الله ما بلغه جهدهم. وقرأت عائشة وابن عباس وقتادة والأعمش والحسن والنخعي يأتون ما أتوا من الإتيان أي يفعلون ما فعلوا

قالت عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر، وهو على ذلك يخاف الله قال: «لا يا ابنة الصديق ولكنه هو الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله أن لا يقبل» .

قيل: وجل العارف من طاعته أكثر من مخالفته لأن المخالفة تمحوها التوبة والطاعة تطلب التصحيح. وقال الحسن: المؤمن يجمع إحسانا وشفقة، والمنافق يجمع إساءة وأمنا. وقرأ الأعمش إنهم بالكسر. وقال أبو عبد الله الرازي ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن لأن الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز، والثانية على تحصيل الإيمان بالله، والثالثة على ترك الرياء في الطاعة، والرابعة على أن المستجمع لهذه الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع خوف من التقصير وهو نهاية مقامات الصديقين انتهى.

أولئك يسارعون جملة في موضع خبر إن. قال ابن زيد الخيرات المخافتة والإيمان والكف عن الشرك. قال الزمخشري: يسارعون في الخيرات يحتمل معنيين أحدهما أن يراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها، والثاني أنهم يتعجلون في الدنيا **المنافع**، ووجوه الإكرام كما قال فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة «١» وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين «٢» لأنهم إذا سورع بها لهم فقد

(١) سورة آل عمران: ٣/ ١٤٨. [.....]

(٢) سورة العنكبوت ٢٩/ ٢٧.." [(١)]

"الواو كذلك هذ لما حذفوا من تتوقد بالتاءين حذفوا التاء مع الياء وإن لم يكن اجتماع التاء والياء مستثقلا.

من شجرة أي من زيت شجرة، وهي شجرة الزيتون. مباركة كثيرة **المنافع** أو لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين. وقيل: بارك فيها للعالمين.

وقيل: بارك فيها سبعون نبيا منهم إبراهيم عليه السلام

، والزيتون من أعظم الشجر ثمرا ونماء واطراد أفنان ونضارة أفنان. وقال أبو طالب:

بورك الميت الغريب كما ... بورك نضر الرمان والزيتون

لا شرقية ولا غربية. قال ابن زيد: هي من شجر الشام فهي ليست من شرق الأرض ولا من غربها، لأن شجر الشام أفضل الشجر. وقال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم: هي في منكشف من الأرض تصيبها الشمس طول النهار تستدير عليها، فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية، ولا للغرب فتسمى غربية وقال الحسن: هذا مثل وليست من شجر الدنيا إذ لو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية. وعن ابن عباس: أنها في درجة أحاطت بها فليست منكشفة لا من جهة الشرق ولا من جهة الغرب، وهذا لا يصح عن ابن عباس لأنها إذا كانت بهذه الصفة فسد جناها. وقال ابن عطية: إنها في وسط الشجر لا تصيبها الشمس طالعة ولا غاربة، بل تصيبها بالغداة والعشي. وقال عكرمة: هي من شجر الجنة. وقال ابن عمر: الشجرة مثل أي إنها ملة إبراهيم ليست بيهودية ولا نصرانية. وقيل: ملة الإسلام ليست بشديدة ولا لينة. وقيل: لا مضحى ولا مفيأة، ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها، وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها.

وزيتونة بدل من شجرة وجوز بعضهم فيه أن يكون عطف بيان، ولا يجوز على مذهب البصريين لأن عطف البيان عندهم لا يكون إلا في المعارف، وأجاز الكوفيون وتبعهم الفارسي أنه يكون في النكرات. ولا شرقية ولا على غربية على قراءة الجمهور بالخفض صفة لزيتونة. وقرأ الضحاك بالرفع أي لا هي شرقية ولا غربية، والجملة في موضع الصفة.

يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار مبالغة في صفاء الزيت وأنه لإشراقه وجودته يكاد يضيء من غير نار.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٦٩/٧

والجملة من قوله ولو لم تمسسه نار حالية معطوفة على حال محذوفة أي يكاد زيتها يضيء في كل حال ولو في هذه الحال التي تقتضي أنه لا يضيء." (١)

"متعدية إلى واحد أو في موضع مفعولين إن كانت تعدت إلى اثنين، ويجوز أن تكون من موصولة مفعولة بيعلمون وأضل خبر مبتدأ محذوف أي هو أضل، وصار حذف هذا المضمر للاستطالة التي حصلت في قول العرب ما أنا بالذي قائل لك سواء.

أرأيت من اتخذ إلهه هواه هذا يأس عن إيمانهم وإشارة إليه عليه السلام أن لا يتأسف عليهم، وإعلام أنهم في الجهل **بالمنافع** وقلة النظر في العواقب مثل البهائم ثم ذكر أنهم أضل سبيلا من الأنعام من حيث لهم فهم وتركوا استعماله فيما يخلصهم من عذاب الله. والأنعام لا سبيل لها إلى فهم المصالح. وأ رأيت استفهام تعجب من جهل من هذه حاله وإلهه المفعول الأول لاتخذ، وهواه الثاني أي أقام مقام الإله الذي يعبده هواه فهو جار على ما يكون في هواه والمعنى أنه لم يتخذ إلها إلا هواه وادعاء القلب ليس بجيد إذ يقدره من اتخذ هواه إلهه والبيت من ضرائر الشعر ونادر الكلام فينزه كلام الله عنه كان الرجل يعبد الصنم فإذا رأى أحسن منه رماه وأخذ الأحسن.

قيل: نزلت في الحارث بن قيس السهمي، كان إذا هوي شيئا عبده، والهوى ميل القلب إلى الشيء أفأنت تجبره على ترك هواه، أو أفأنت تحفظه من عظيم جهله. وقرأ بعض أهل المدينة من اتخذ آلهة منونة على الجمع، وفيه تقديم جعل هواه أنواعا أسماء لأجناس مختلفة فجعل كل جنس من هواه إلها آخر. وقرأ ابن هرمز: إلاهة على وزن فعالة وفيه أيضا تقديم أي هواه إلاهة بمعنى معبود لأنها بمعنى المألوهة. فالهاء فيها للمبالغة فلذلك صرفت. وقيل: بل الإلاهة الشمس ويقال لها ألاهة بضم الهمزة وهي غير مصروفة للعلمية والتأنيث لكنها لما كانت مما يدخلها لام المعرفة في بعض اللغات صارت بمنزلة ما كان فيه اللام ثم نزعت فلذلك صرفت وصارت بمنزلة النعوت فتنكرت قاله صاحب اللوامح. ومفعول أرأيت الأول هو من والجملة الاستفهامية في موضع المفعول الثاني. وتقدم الكلام في أرأيت في أوائل الأنعام ومعنى وكيلا أي هل تستطيع أن تدعو إلى الهدى فتتوكل عليه وتجبره على الإسلام. وأم منقطعة تتقدر ببل والهمزة على المذهب الصحيح كأنه قال: بل أتحسب كأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حفت بالإضراب عنها إليها وهو كونهم مسلوبي الأسماع والعقول لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنا إلى تدبره عقلا، ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلالة، ونفي ذلك عن أكثرهم لأن فيهم من سبقت له السعادة فأسلم،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤٦/٨

وجعلوا أضل من الأنعام لأنها تنقاد لأربابها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب منفعتها وتتجنب مضرتها وتهتدي إلى." [1]

"مراعيها ومشاربها، وهم لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم ولا يرغبون في الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار ولا يهتدون للحق

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤٥ الى ٦٠]

ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا (٤٥) ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا (٤٦) وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا (٤٧) وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا (٤٨) لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا (٤٩)

ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا (٥٠) ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا (٥١) فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا (٥٢) وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا (٥٣) وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا (٥٤)

ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا (٥٥) وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا (٥٦) قل ما أسئلكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا (٥٧) وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا (٥٨) الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فسئل به خبيرا (٥٩)

وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا (٦٠)

لما بين تعالى جهل المعترضين على دلائل الصانع وفساد طريقتهم ذكر أنواعا من الدلائل الواضحة التي تدل على قدرته التامة لعلهم يتدبرونها ويؤمنون بمن هذه قدرته وتصرفه في عالمه، فبدأ بحال الظل في زيادته ونقصانه وتغيره من حال إلى حال وأن ذلك جار على مشيئته. وتقدم الكلام على ألم تر في البقرة في قصة

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١١٠/٨

الذي حاج إبراهيم.

والمعنى ألم تر إلى صنع ربك وقدرته. وكيف سؤال عن حال في موضع نصب." [1]

"بعد شيء من **المنافع** ما لا يعد ولا يحصى، ولو قبض دفعة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا فإن قلت: ثم في هذين الموضعين كيف موقعها؟ قلت: موقعها البيان تفاضل الأمور الثلاثة كأن الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم من الثاني تشبيها لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت. ووجه آخر وهو أنه بنى الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض لعدم النير.

ولو شاء لجعله ساكنا مستقرا على تلك الحالة ثم خلق الشمس وجعله على ذلك الظل سلطها عليه وجعلها دليلا متبوعا لهم كما يتبع الدليل في الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويقلص، ثم نسخه بها قبضه قبضا سهلا يسيرا غير عسير، ويحتمل أن يريد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تلقي الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله قبضناه إلينا يدل عليه وكذلك قوله يسيرا كما قال ذلك حشر علينا يسير «١» انتهى وقوله: سمى انبساط الظل وامتداده تحركا منه لم يسم الله ذلك إنما قال كيف مد الظل وقوله: ويحتمل أن يريد قبضه عند قيامه الساعة فهذا يبعد احتماله لأنه إنما ذكر آثار صنعته وقدرته لتشاهد ثم قال مد الظل وعطف عليه ماضيا مثله فيبعد أن يكون التقدير ثم قبضه عند قيام الساعة مع ظهور كونه ماضيا مستداما أمثاله.

وقال ابن عطية: ولو شاء لجعله ساكنا أي ثابتا غير متحرك ولا منسوخ، لكنه جعل الشمس ونسخها إياه بطردها له من موضع إلى موضع دليلا عليه مبينا لوجوده ولوجه العبرة فيه. وحكى الطبري: أنه لولا الشمس لم يعلم أن الظل شيء إذ الأشياء إنما تعرف بأضدادها. وقال ابن عباس: يسيرا معجلا. وقال مجاهد لطيفا أي شيئا بعد شيء، ويحتمل أن يريد سهلا قريب التناول. وقال أبو عبد الله الرازي: أكثر الناس في تأويل هذه الآية ويرفع الكلام فيها إلى وجهين.

الأول: أن الظل لا ضوء خالص ولا ظلمة خالصة، وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وكذلك الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأبنية الجدارات، وهي أطيب الأحوال لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس والضوء الخالص يحير الحس البصري

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١١١/٨

(١) سورة ق: ٥٠/ ٤٤.." (١)

"ويحدث السخونة القوية وهي مؤذية، ولهذا قيل في الجنة وظل ممدود «١» والناظر إلى الجسم الملون كأنه يشاهد بالظل شيئا سوى الجسم وسوى اللون والظل ليس أمرا ثالثا ولا معرفة به إلا إذا طلعت الشمس ووقع ضوءها على الجسم ثم مال عرف للظل وجود وماهية، ولولاها ما عرف لأن الأشياء تدرك بأضدادها، فظهر للعقل أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون ولذلك قال ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أي جعلنا الظل أولا بما فيه من **المنافع** واللذات، ثم هدينا العقول إلى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس فكانت دليلا على وجود الظل. ثم قبضناه أي أزلناه لا دفعة بل يسيرا يسيرا كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل من جانب المغرب، ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا كان زوال الأظلال كذلك.

والثاني: أنه لما خلق السماء والأرض وقع السماء على الأرض فجعل الشمس دليلا لأنه بحسب حركات الأضواء تتحرك ا لأظلال فهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما، فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر، فكما أن المهتدي يقتدي بالهادي والدليل ويلازمه فكذلك الأظلال ملازمة للأضواء، ولذلك جعل الشمس دليلا عليه انتهى. ملخصا وهو مأخوذ من كلام الزمخشري، ومحسن بعض تحسين. والآية في غاية الظهور ولا تحتاج إلى هذا التكثير.

وقال أيضا: الظل ليس عدما محضا بل هو أضواء مخلوطة بظلام، فهو أمر وجودي وفي تحقيقه دقيق يرجع فيه إلى الكتب العقلية انتهى. والآية في غاية الوضوح ولا تحتاج إلى هذا التكثير وقد تركت أشياء من كلام المفسرين مما لا تمس إليه الحاجة.

جعل لكم الليل لباسا تشبيها بالثوب الذي يغطي البدن ويستره من حيث الليل يستر الأشياء.

والسبات: ضرب من الإغماء يعتري اليقظان مرضا فشبه النوم به، والسبت الإقامة في المكان فكان السبات سكونا تاما والنشور هنا الإحياء شبه اليقظة به ليتطابق الإحياء مع الإماتة اللذين يتضمنهما النوم والسبات انتهى. ومن كلام ابن عطية وقال غيره: السبات الراحة جعل النوم سباتا أي سبب راحة.

وقال الزمخشري: السبات الموت وهو كقوله وهو الذي يتوفاكم بالليل «٢» فإن قلت: هلا فسرته بالراحة؟ قلت: النشور في مقابلته يأباه انتهى. ولا يأباه إلا لو تعين تفسير

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١١٣/٨

(١) سورة الواقعة: ٥٦/ ٣٠.

(٢) سورة الأنعام: ٦/ ٦٠.." [١]

"واجعل كل واحد إماما وإما أن يكون جمع آم كحال وحلال، وإما لاتحادهم واتفاق كلمتهم قالوا: واجعلنا إماما واحدا دعوا الله أن يكونوا قدوة في الدين ولم يطلبوا الرئاسة قاله النخعي. وقيل: في الآية ما يدل على أن الرئاسة في الدين يجب أن تطلب. ونزلت في العشرة المبشرين بالجنة.

أولئك إشارة إلى الموصوفين بهذه الصفات العشرة. والغرفة اسم معرف بأل فيعم أي الغرف كما جاء وهم في الغرفات آمنون «١» وهي العلالي. قال ابن عباس:

وهي بيوت من زبرجد ودر وياقوت. وقيل الغرفة من أسماء الجنة. وقيل: السماء السابعة غرفة. وقيل: هي أعلى منازل الجنة. وقيل: المراد العلو في الدرجات والباء في بما صبروا للسبب. وقيل: للبدل أي بدل صبرهم كما قال:

فليت لي بهم قوما إذا ركبوا أي فليت لي بدلهم قوما ولم يذكر متعلق الصبر مخصصا ليعم جميع متعلقاته. وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر والحرميان وأبو عمرو وأبو بكر ويلقون بضم الياء وفتح اللام والقاف مشددة. وقرأ طلحة ومحمد اليماني وباقي السبعة بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف. والتحية دعاء بالتعمير والسلام دعاء بالسلامة، أي تحييهم الملائكة أو يحيي بعضهم بعضا. وقيل: يحيون بالتحف جمع لهم بينهم **المنافع** والتعظيم. حسنت مستقرا ومقاما معادل لقوله في جهنم ساءت مستقرا ومقاما.

ولما وصف عباده العباد وعدد ما لهم من صالح الأعمال أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصرح للناس بأن لا اكتراث لهم عند ربهم إنما هو العبادة والدعاء في قوله لولا دعاؤكم هو العبادة والظاهر أن ما نفي أي ليس يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم ويجوز أن تكون استفهامية فيها معنى النفي أي، أي عبء يعبأ بكم، ودعاؤكم مصدر أضيف إلى الفاعل أي لولا عبادتكم إياه أي لولا دعاؤكم وتضرعكم إليه أو ما يعبأ بتعذيبكم لولا دعاؤكم الأصنام آلهة. وقيل: أضيف إلى المفعول أي لولا دعاؤه إياكم إلى طاعته. والذي يظهر أن قوله قل ما يعبؤا بكم خطاب لكفار قريش القائلين نسجد لما تأمرنا أي لا يحفل بكم ربي لولا تضرعكم إليه واستغاثتكم إياه في الشدائد.

فقد كذبتم بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فتستحقون العقاب فسوف يكون العقاب

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٨/ ١١٤

(١) سورة سبأ: ٣٤/ ٣٧.." [١]

"محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتبعهم المترسلون في أوائل كتب الفتوح والتهاني والحوادث التي لها شأن. وقيل: هو متصل بما قبله، وأمر الرسول عليه السلام بتحميد الله على هلاك الهالكين من كفار الأمم، والسلام على الأنبياء وأتباعهم الناجين.

وقيل: قل، خطاب للوط عليه السلام أن يحمد الله على هلاك كفار قومه، ويسلم على عباده الذين اصطفى. وعزا هذا القول ابن عطية للفراء، وقال: هذه عجمة من الفراء. وقرأ أبو السماك: قل الحمد لله، وكذا: قل الحمد لله سيريكم، بفتح اللام، وعباده المصطفون، يعم الأنبياء وأتباعهم. وقال ابن عباس: العباد المسلم عليهم هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، اصطفاهم لنبيه، وفي اختصاصهم بذلك توبيخ للمعاصرين من الكفار. وقال أبو عبد الله الرازي: لما ذكر تعالى أحوال الأنبياء، وأن من كذبهم استؤصل بالعذاب، وأن ذلك مرتفع عن أمة الرسول، أمره تعالى بحمده على ما خصه من هذه النعمة، وتسليمه على الأنبياء الذين صبروا على مشاق الرسالة. انتهى، وفيه تلخيص.

وقوله: آلله خير أما يشركون: استفهام فيه تبكيت وتوبيخ وتهكم بحالهم، وتنبيه على موضع التباين بين الله تعالى وبين الأوثان، إذ معلوم عند من له عقل أنه لا شركة في الخيرية بين الله تعالى وبينهم، وكثيرا ما يجيء هذا النوع من أفعل التفضيل حيث يعلم ويتحقق أنه لا شركة فيها وإنما يذكر على سبيل إلزام الخصم وتنبيهه على خطأ مرتكبه.

والظاهر أن هذا الاستفهام هو عن خيرية الذوات، فقيل: جاء على اعتقاد المشركين حيث اعتقدوا في آلهتهم خيرا بوجه ما، وقيل: في الكلام حذف في موضعين، التقدير: أتوحيد الله خير أم عبادة ما يشركون؟ فما في أم ما بمعنى الذي. وقيل: ما مصدرية، والحذف من الأول، أي أتوحيد الله خير أم شرككم؟ وقيل: خير ليست للتفضيل، فهي كما تقول:

الصلاة خير، يعني خيرا من الخيور. وقيل: التقدير ذو خير. والظاهر أن خيرا أفعل التفضيل، وأن الاستفهام في نحو هذا يجيء لبيان فساد ما عليه الخصم، وتنبيهه على خطئه، وإلزامه الإقرار بحصر التفضيل في جانب واحد، وانتفائه عن الآخر، وقرأ الجمهور: تشركون، بتاء الخطاب والحسن، وقتادة، وعاصم، وأبو عمرو: بياء الغيبة.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٣٤/٨

وأم في أم ما متصلة، لأن المعنى: أيهما خير؟ وفي أمن خلق وما بعده منفصلة. ولما ذكر الله خيرا، عدد سبحانه الخيرات **والمنافع** التي هي آثار رحمته وفضله، كما عددها في غير موضع من كتابه، توقيفا لهم على ما أبدع من المخلوقات، وأنهم لا يجدون بدا من الإقرار بذلك لله تعالى.." [١]

"ما بصاحبهم من جنة

«١» ، ومثله: وظنوا ما لهم من محيص «٢» ، فيكون في بمعنى الباء، ثم يتفكروا ما بصاحبهم من، كأنه قال: أو لم يتفكروا بقلوبهم فيعلموا. انتهى.

ويجوز أن يكون تفكروا هنا معلقة، ومتعلقها الجملة من قوله: ما خلق إلى آخرها.

وفي أنفسهم: ظرف على سبيل التأكيد، لأن الفكر لا يكون إلا في النفس، كما أن الكتابة لا تكون إلا باليد. وبالحق: في موضع الحال، أي وهي ملتبسة بالحق مقترنة به، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها أن تنتهي إليه وهو: قيام الساعة، ووقت الحساب والثواب والعقاب. ألا ترى إلى قوله: أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون «٣» .

كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثا؟ والمراد بلقاء ربهم: الأجل المسمى.

وقال ابن عطية: إلا بالحق، أي بسبب **المنافع** التي هي حق واجب، يريد من الدلالة عليه والعبادة له دون فتور، والانتصار للعبرة ومنافع الإرفاق وغير ذلك. وأجل عطف على الحق، أي وبأجل مسمى، وهو يوم القيامة. ففي الآية إشارة إلى البعث والنشور وفساد بنية هذا العالم. ثم أخبر عن كثير من الناس أنهم كفروا بذلك المعنى، فعبر عنها بلقاء الله، لأن لقاء الله هو عظيم الأمر، فيه النجاة والهلكة. انتهى.

وقال أبو عبد الله الرازي: قدم هنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق، وفي: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم «٤» دلائل الآفاق على دلائل الأنفس، وحكمة ذلك أن المفيد يذكر الفائدة على وجه يختارها، فإن فهمت، وإلا انتقل إلى الأبين. والمستفيد يفهم أولا الأبين، ثم يرتقي إلى الأخفى. وفي أولم يتفكروا بفعل مسند إلى السامع، فبدأ بما يفهم أولا، ثم ارتقى إليه ثانيا. وفي سنريهم «٥» أسند إلى المفيد، فذكر أولا الآفاق، فإن لم يفهموا، فالأنفس، إذ لا ذهول للإنسان عن دلائلها، بخلاف دلائل الآفاق، لأنه قد يذهل عنها، وهذا مراعى في الذين يذكرون الله قياما وقعودا «6» الآية. بدأ بأحوال الأنفس، ثم بدلائل الآفاق. وقال أيضا هنا: وإن كثيرا، وقبل، ولكن أكثر الناس، وذلك أن هنا ذكر كثيرا بعد ذكر الدلائل الواضحة، وهما: أولم يتفكروا في أنفسهم، وما خلق الله. والإيمان بعد الدلائل أكثر من الإيمان قبلها، فبعد

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢٥٦/٨

ذكر الدليل، لا بد أن يؤمن من ذلك الأكثر جمع، فلا يبقى الأكثر. انتهى، وفيه تلخيص. ولا

---

(١) سورة الأعراف: ٧/ ١٨٤.

(٢) سورة فصلت: ٤١/ ٤٨.

(٣) سورة المؤمنون: ٢٣/ ١١٥. [.....]

(٤) سورة فصلت: ٤١/ ٥٣.

(٥) سورة فصلت: ٤١/ ٥٣.

(٦) سورة آل عمران: ٣/ ١٩١.." [١]

"الزمخشري: وقيل الركوبة جمع. انتهى، ويعني اسم جمع، لأن فعولة بفتح الفاء ليس بجمع تكسير. وقد عد بعض أصحابنا أبنية أسماء الجموع، فلم يذكر فيها فعولة، فينبغي أن يعتقد فيها أنها اسم مفرد لا جمع تكسير ولا اسم جمع، أي مركوبتهم كالحلوبة بمعنى المحلوبة. وقرأ الحسن، وأبو البرهسم، والأعمش: ركوبهم، بضم الراء وبغير تاء، وهو مصدر حذف مضافه، أي ذو ركوبهم، أو فحسن منافعها ركوبهم، فيحذف ذو، أو يحذف منافع. قال ابن خالويه: العرب تقول: ناقة ركوب حلوب، وركوبة حلوبة، وركباة حلباة، وركبوب حلبوب، وركبي حلبي، وركبوتا حلبوتا، كل ذلك محكي، وأنشد:

ركبانة حلبانة زفوف ... تخلط بين وبر وصوف

وأجمل المنافع هنا، وفصلها في قوله: وجعل لكم من جلود الأنعام «١» الآية.

والمشارب: جمع مشرب، وهو إما مصدر، أي شرب، أو موضع الشرب. ثم عنفهم واستجهلهم في اتخاذهم آلهة لطلب الاستنصار. لا يستطيعون: أي الآل ه ة، نصر متخذيهم، وهذا هو الظاهر. لما اتخذوهم آلهة للاستنصار بهم، رد تعالى عليهم بأنهم ليس لهم قدرة على نصرهم. وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون الضمير في يستطيعون عائدا للكفار، وفي نصرهم للأصنام. انتهى. والظاهر أن الضمير في وهم عائد على ما هو الظاهر في لا يستطيعون، أي والآلهة للكفار جند محضرون في الآخرة عند الحساب على جهة التوبيخ والنقمة. وسماهم جندا، إذ هم معدون للنقمة من عابديهم وللتوبيخ، أو محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقودا للنار. قيل: ويجوز أن يكون الضمير في وهم عائدا على الكفار، وفي لهم عائدا على الأصنام، أي وهم الأصنام جند محضرون متعصبون لهم متحيرون، يذبون عنهم، يعني في الدنيا، ومع ذلك لا

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣٧٧/٨

يستطيعون، أي الكفار التناصر. وهذا القول مركب على أن الضمير في لا يستطيعون للكفار. ثم آنس تعالى نبيه بقوله: فلا يحزنك قولهم: أي لا يهمك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم، وتوعد الكفار بقوله: إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون، فنجازيهم على ذلك.

أولم ير الإنسان: قبح تعالى إنكار الكفرة البعث، حيث قرر أن عنصره الذي خلق منه هو نطفة ماء مهين خارج من مخرج النجاسة. أفضى به مهانة أصله إلى أن يخاصم الباري تعالى ويقول: من يحيي الميت بعد ما رم؟ مع علمه أنه منشأ من موات. وقائل ذلك

---

(١) سورة النحل: ١٦/ ٨٠. [.....]." [١]

"يرجعون بياء الغيبة مبنيا للمفعول وأبو عبد الرحمن، ويعقوب: بفتح الياء وطلحة بن مطرف، ويعقوب في رواية الوليد بن حسان: بفتح تاء الخطاب.

ثم رد تعالى على العرب في إنكارهم بعثة الرسل، وفي عدد الرسل اختلاف.

روي أنه ثمانية آلاف من بني إسراءيل، وأربعة آلاف من غيرهم.

وروي: بعث الله أربعة آلاف نبي

، منهم من قصصنا عليك: أي من أخبرناك به، أما في القرآن فثمانية عشر.

ومنهم من لم نقصص عليك،

وعن علي، وابن عباس: أن الله بعث نبيا أسود في الحبش، فهو ممن لم يقصص عليه.

وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله: أي ليس ذلك راجعا إليهم، لما اقترحوا على الرسل قال: ليس ذلك إلي لا تأتي آية إلا إن شاء الله، فإذا جاء أمر الله: رد ووعيد بإثر اقتراحهم الآيات، وأمر الله: القيامة. والمبطلون:

المعاندون مقترحون الآيات، وقد أتتهم الآيات، فأنكروها وسموها سحرا، أو فإذا جاء أمر الله: أي أراد إرسال رسول وبعثة نبي، قضى ذلك وأنفذه بالحق، وخسر كل مبطل، وحصل على فساد آخرته، أو فإذا جاء أمر الله: وهو القتل ببدر.

ثم ذكر تعالى آيات اعتبار وتعداد نعم فقال: الله الذي جعل لكم الأنعام، وهي ثمانية الأزواج، ويضعف قول من أدرج فيها الخيل والبغال والحمير وغير ذلك مما ينتفع به من البهائم، وقول من خصها بالإبل وهو

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٨٣/٩

الزجاج. لتركبوا منها: وهي الإبل، إذ لم يعهد ركوب غيرها. ومنها تأكلون: عام في ثمانية الأزواج، ومن الأولى للتبعيض.

وقال ابن عطية: ومن الثانية لبيان الجنس، لأن الجمل منها يؤكل. انتهى، ولا يظهر كونها لبيان الجنس، ويجوز أن تكون فيه للتبعيض ولابتداء الغاية. ولما كان الركوب منها هو أعظم منفعة، إذ فيه منفعة الأكل والركوب. وذكر أيضا أن في الجميع منافع من شرب لبن واتخاذ دثار وغير ذلك، أكد منفعة الركوب بقوله: ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم من بلوغ الأسفار الطويلة، وحمل الأثقال إلى البلاد الشاسعة، وقضاء فريضة الحج، والغزو، وما أشبه ذلك من **المنافع** الدينية والدنيوية. ولما كان الركوب وبلوغ الحاجة المترتبة عليه قد يتوصل به إلى الانتقال لأمر واجب، أو مندوب كالحج وطلب العلم، دخل حرف التعليل على الركوب وعلى المترتب عليه من بلوغ الحاجات، فجعل ذلك علة لجعل الأنعام لنا. ولما كان الأكل وإصابة **المنافع** من جنس المباحات، لم يجعل ذلك علة في الجعل، بل ذكر أن منها نأكل، ولنا فيها منافع من شرب لبن واتخاذ دثار وغير ذلك، كما." (١)

"يعني: أنهم أحبوا، فجذبوا أنفسهم بالبغي والفتن. ولكن ينزل بقدر ما يشاء، يقال: قدر بالسكون وبالفتح، أي: يقدر لهم ما هو أصلح لهم. وقرأ الجمهور: قنطوا، بفتح النون والأعمش، وابن وثاب: بكسرها، وينشر رحمته: يظهرها من آثار الغيث من **المنافع** والخصب، والظاهر أن رحمته نشرها أعم مما في الغيث. وقال السدي:

رحمته: الغيث، وعدد النعمة بعينها بلفظين. وقيل: الرحمة هنا ظهور الشمس، لأن إذا دام المطر سئم، فتجيء الشمس بعده عظيمة الموقع، ذكره المهدوي. وهو الولي:

الذي يتولى عباده، الحميد: المحمود على ما أسدى من نعمائه وما بث. الظاهر أنه مجرور عطفا على السموات والأرض. ويجوز أن يكون مرفوعا، عطفا على خلق، على حذف مضاف، أي وخلق ما بث. وفيهما يجوز أن يكون مما نسب فيه دابة إلى المجموع المذكور، وإن كان ملتبسا ببعضه. كما يقال: بنو فلان صنعوا كذا، وإنما صنعه واحد منهم، ومنه يخرج منهما، وإنما يخرج من الملح، أو يكون من الملائكة. بعض يمشي مع الطيران، فيوصف بالدبيب كما يوصف به الأناسي، أو يكون قد خلق في السموات حيوانا يمشي مع مشي الأناسي على الأرض، أو يريد الحيوان الذي يكون في السحاب. وقد يقع أحيانا، كالضفادع والسحاب داخل في اسم السماء.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٩/٢٧٥

وقال مجاهد: وما بث فيهما من دابة: هم الناس والملائكة. وقال أبو علي: هو على حذف مضاف، أي وما بث في أحدهما. وقرأ الجمهور: فيهما بالفاء، وكذا هي في معظم المصاحف. واحتمل ما أن تكون شرطية، وهو الأظهر، وأن تكون موصولة، والفاء تدخل في خبر الموصول إذا أجري مجرى الشرط بشرائط ذكرت في النحو، وهي موجودة.

وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر في رواية، وشيبة: بما بغير فاء، فما موصولة، ولا يجوز أن تكون شرطية وحذفت الفاء لأن ذلك مما يخصه سيبويه بالشعر، وأجاز ذلك الأخفش وبعض نحاة بغداد وذلك على إرادة الفاء. وترتب ما أصاب من المصائب على كسب الأيدي موجود مع الفاء ودونها هنا، والمصيبة: الرزايا والمصائب في الدنيا، وهي مجازاة على ذنوب المرء وتمحيص لخطاياه، وأنه تعالى يعفو عن كثير، ولا يجازي عليه بمصيبة.

وفي الحديث: «لا يصيب ابن آدم خدش عود أو عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو عنه أكثر» .

وسئل عمران بن حصين عن مرضه فقال: إن أحبه إلي أحبه إلى الله، وهذا مما كسبت يداي. ورؤي على كف شريح قرحة، فقيل: بم هذا؟ فقال: بما كسبت يداي.

وقال الزمخشري: الآية مخصوصة بالمجرمين، ولا يمتنع أن يستوفي الله عقاب." (١)

"وإن لم يصدر منه الذي خلق له، كما تقول: القلم مبري لأن يكتب به، وهو قد يكتب به وقد لا يكتب به، وقال الزمخشري: إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها. فإن قلت: لو كان مريدا للعبادة منهم، لكانوا كلهم عبادا. قلت: إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم. انتهى، وهو على طريقة الاعتزال. وقال مجاهد: إلا ليعبدون: ليعرفون. وقال ابن زيد: لأحملهم في العبادة على الشقاوة والسعادة. وقال الربيع بن أنس: إلا للعبادة، قال: وهو ظاهر اللفظ.

وقيل: إلا ليذلوا لقضائي. وقال الكلبي: إلا ليوحدون، فالمؤمن يوحده في الشدة والرخاء، والكافر في الشدة.

وقال عكرمة: ليطيعون، فأثيب العابد، وأعاقب الجاحد. وقال مجاهد أيضا: إلا للأمر والنهي.

ما أريد منهم من رزق: أي أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم. وما أريد أن يطعمون: أي أن يطعموا خلقي، فهو على حذف مضاف، فالإضافة إلى الضمير تجوز، قاله ابن عباس. وقيل: أن يطعمون: أن ينفعون، فذكر

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٩/٣٣٨

جزءا من المنافع وجعله دالا على الجميع. وقال الزمخشري: يريد إن شأني مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم، لأن ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا في تحصيل معايشهم وأرزاقهم بهم فإما مجهز في تجارة يبغي ربحا، أو مرتب في فلاحة ليقتل أرضا، أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته، أو محتطب، أو محتش، أو مستق، أو طابخ، أو خابز، أو ما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق. فأما مالك ملاك العبيد فقال لهم: اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ولا رزقكم، وأنا غني عنكم وعن مرافقكم، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي، فما هو إلا أنا وحدي. انتهى، وهو تكثير وخطابة. وقرأ ابن محيصن: الرزاق، كما قرأ:

وفي السماء رازقكم: اسم فاعل، وهي قراءة حميد. وقرأ الأعمش، وابن وثاب:

المتين بالجر، صفة للقوة على معنى الاقتدار، قاله الزمخشري، أو كأنه قال: ذو الأيد، وأجاز أبو الفتح أن تكون صفة لذو وخفض على الجوار، كقولهم: هذا جحر ضب خرب.

فإن للذين ظلموا: هم أهل مكة وغيرهم من الكفار الذين كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم، ذنوبا: أي حظا ونصيبا، مثل ذنوب أصحابهم: من الأمم السابقة التي كذبت الرسل." (١)

"وقوله:

١٤٧٠ -. . . . . تحية بينهم ضرب وجيع

جعل القيود والسياط بمنزلة العطاء، والضرب بمنزلة التحية. وقال الفراء: «الإثابة هنا بمعنى المعاقبة، وهو يرجع إلى المجاز» .

قوله: ﴿لكيلا﴾ هذه لام «كي» ، وهي لام جر، والنصب هنا ب «كي» لئلا يلزم دخول حرف جر على مثله. وفي متعلق هذه اللام قولان، أحدهما: أنه «فأثابكم» ، وفي «لا» على هذا وجهان، أحدهما: أنها زائدة، لأنه لا يترتب على الاغتمام انتفاء الحزن، والمعنى: أنه غمهم ليحزنهم عقوبة لهم على تركهم مواقعهم، قاله أبو البقاء. الوجه الثاني: أنها ليست زائدة، فقال الزمخشري: «معناه: لكي لا تحزنوا لتتمرنوا على تجرع الغموم، وتضروا باحتمال الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع، ولا على مصيب في المضار» وقال ابن عطية: «المعنى: أن ما وقع بكم إنما هو بجنايتكم، فأنتم ورطتم أنفسكم، وعادة البشر أن يصبر

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٦٢/٩

للعقوبة إذا جنى، وإنما يكثر قلقه إذا ظن البراءة من نفسه.

والثاني: أن اللام تتعلق ب» عفا «لأن عفوه أذهب كل حزن. وفيه بعد من جهة طول الفصل.." [1]

"وقال الزمخشري: «تقول: سمعت رجلا يقول كذا، وسمعت زيدا يتكلم، فتوقع الفعل على الرجل، وتحذف المسموع لأنك وصفته بما يسمع أو جعلته حالا منه فأغناك عن ذكره، ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد، وأن تقول: سمعت كلام فلان أو قوله» . وهذا قول الجمهور الذي قدمت لك ذكره. إلا أن الشيخ اعترض عليه فقال: «قوله: ولولا الوصف أو الحال إلى آخره ليس كذلك، بل لا يكون وصف ولا حال ومع ذلك تدخل» سمع «على ذات لا على مسموع» كقوله تعالى: ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون﴾ [الشعراء: ٧٢] فأغنى ذكر ظرف الدعاء من المسموع «.

وأجاز أبو البقاء في» ينادي «أن يكون في محل نصب على الحال من الضمير المستكن في» مناديا «.

فإن قيل: فما الفائدة في الجمع بين» مناد «و» ينادي «؟ فأجاب الزمخشري بأنه ذكر النداء مطلقا ثم مقيدا بالإيمان تفخيما لشأن المنادي لأنه لا منادي أعظم من مناد للإيمان، وذلك أن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب أو لإطفاء الثائرة أو لإغاثة المكروب أو لكفاية بعض النوازل أو لبعض **المنافع**، فإذا قلت:» ينادي للإيمان «فقد رفعت من شأن المنادي وفخمته.

وأجاب أبو البقاء عنه بثلاثة أجوبة/ أحدها: التوكيد نحو: قم قائما. الثاني: أنه وصل به ما حسن التكرير وهو» للإيمان «. الثالث: أنه لو اقتصر." [2]

"قوله تعالى: ﴿ثم انظروا﴾ : عطف على «سيروا» ولم يجئ في القرآن العطف في مثل هذا الموضع إلا بالفاء، وهنا جاء ب «ثم» فيحتاج إلى فرق، فذكر الزمخشري الفرق وهو: أن جعل النظر مسببا عن السير في قوله: ﴿انظروا﴾ كأنه قيل: «سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين» وهنا معناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من **المنافع** وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك ب «ثم» لتباعد ما بين الواجب «والمباح» .." [3]

"﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٤٤٣/٣

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٥٣٥/٣

(٣) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٥٤٧/٤

والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (١٦٤) ﴾

ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية [بتفرده] (١) بخلق السموات والأرض وما فيهما، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ يقول تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض﴾ تلك في [لطافتها و] (٢) ارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في [كثافتها و] (٣) انخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من **المنافع** ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا (٤) يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ [يس: ٤٠] وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ [الحج: ٦١] أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا ﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾

---

(١) زيادة من جـ، ط.

(٢) زيادة من أ.

(٣) زيادة من أ.

(٤) في ط: "ولا".." [١]

"طريق أبي هريرة أيضا (١) -عند قوله في سورة المائدة: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ [المائدة: ٩٠] الآيات.

فقوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إنه كل ما خامر العقل. كما سيأتي بيانه في سورة المائدة، وكذا الميسر، وهو القمار.

وقوله: ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾ أما إثمهما فهو في الدين، وأما **المنافع** فدنيوية، من حيث إن (٢) فيها نفع البدن، وتهضيم الطعام، وإخراج الفضلات، وتشحيذ بعض الأذهان، ولذة الشدة المطربة التي فيها، كما قال حسان بن ثابت في جاهليته:

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١/٤٧٤

ونشربها فتتركنا ملوكا ... وأسدا لا ينهنهها اللقاء ...

وكذا بيعها والانتفاع بثمنها. وما كان يقمشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله. ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال: ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ ؛ ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة؛ ولهذا قال عمر، رضي الله عنه، لما قرئت عليه: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] وسيأتي الكلام على ذلك في سورة المائدة إن شاء الله، وبه الثقة.

قال ابن عمر، والشعبي، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه (٣) أول آية نزلت في الخمر: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير [ومنافع للناس] (٤) ﴾ ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، ثم التي في المائدة، فحرمت الخمر (٥) .

وقوله: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ قرئ بالنصب وبالرفع (٦) وكلاهما حسن متجه قريب.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان، حدثنا يحيى أنه بلغه: أن معاذ بن جبل وثعلبة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يا رسول الله، إن لنا أرقاء وأهلين [فما ننفق] (٧) من أموالنا. فأنزل الله: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾ (٨) .

وقال الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ قال: ما يفضل عن أهلك.

---

(١) في جـ: "عنه".

(٢) في و: "إن كان فيها".

(٣) في أ: "هذا".

(٤) زيادة من جـ.

(٥) في أ: "فحرمت الخمر فلله الحمد".

(٦) في جـ: "بالرفع والنصب".

(٧) زيادة من أ.

(٨) وهذا منقطع، فإن يحيى بن سعيد بينه وبين معاذ قرن من الزمان.." [١]

"﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صادقين (١٤٣) ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين (١٤٤) ﴾

وهذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام، وجعلوها أجزاء وأنواعا: بحيرة، وسائبة، ووصيلة وحاما، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار، فبين (١) أنه تعالى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشا. ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز، ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإناثها، وبقر كذلك. وأنه تعالى لم يحرم شيئا من ذلك ولا شيئا من أولاده. بل كلها مخلوقة لبني آدم، أكلا وركوبا، وحمولة، وحلبا، وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال [تعالى] (٢) ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ الآية [الزمر: ٦] .

وقوله: ﴿أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ رد عليهم في قولهم: ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾

وقوله: ﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ أي: أخبروني عن يقين: كيف حرم الله عليكم (٣) ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك؟

وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ فهذه أربعة أزواج، ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين﴾ يقول: لم أحرم شيئا من ذلك ﴿ [أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين] ﴾

---

(١) في أ: "وبين".

(٢) زيادة من أ.

(٣) في م، أ: "عليهم".." [٢]

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١/٥٧٩

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣/٣٥١

"وتقول: هذه صرم، وتحرمها (١) عليك وعلى أهلك؟ " قال: نعم. قال: "فإن ما آتاك الله لك حل، وساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك" وذكر تمام الحديث. (٢)

ثم رواه عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص (٣) وعن بهز بن أسد، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي الأحوص، به (٤) وهذا حديث جيد قوي الإسناد.

وقد أنكر [الله] (٥) تعالى على من حرم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء، التي (٦) لا مستند لها ولا دليل عليها. ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ أي: ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

وقوله: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم (٧) بالعقوبة في الدنيا.

قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم.

﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ بل يحرمون ما أنعم الله [به] (٨) عليهم، ويضيقون على أنفسهم، فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم. وقال ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا رباح، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا موسى بن الصباح في قول الله عز وجل: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ قال: إذا كان يوم القيامة، يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل، فيقومون بين يدي الله عز وجل ثلاثة أصناف قال: فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول: عبدي، لماذا عملت؟ فيقول: يا رب: خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها، وحورها ونعيمها، وما أعددت لأهل طاعتك فيها، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقا إليها. قال: فيقول الله تعالى: عبدي، إنما عملت للجنة، هذه الجنة فادخلها، ومن فضلي عليك أن أعتقتك من النار، [ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي] (٩) قال: فيدخل هو ومن معه الجنة.

قال: ثم يؤتى برجل من الصنف الثاني، قال: فيقول: عبدي، لماذا عملت؟ فيقول: يا رب، خلقت نارا وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها ويحمومها، وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها

---

(١) في ت: "حرام ويحرمها".

(٢) المسند (٤٧٣/٣) .

(٣) المسند (١٣٧/٤) .

(٤) المسند (٣/٤٧٣) .

(٥) زيادة من ت، أ.

(٦) في أ: "الذي".

(٧) في ت: "معالجتهم".

(٨) زيادة من ت، أ.

(٩) زيادة من ت، أ.." [١]

"يرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه (١) وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السموات (٢) من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان **والمنافع**، وما فيها من جبال وسهول (٣) وقفار وعمران وخراب. وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا [مسخر] (٤) مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ أي: وأي شيء تجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كما قال: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس: ٩٦، ٦٩] .

وقوله: ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم، ﴿قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾ (٥) أي: ونهلك المكذبين بالرسل، ﴿كذلك حقا علينا ننج المؤمنين﴾ [أي] (٦) حقا: أوجبه تعالى على نفسه الكريمة: كقوله ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ [الأنعام: ١٢] كما جاء في الصحيحين، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت (٧) غضبي" (٨)

﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤/٢٧٦

يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين (١٠٤) وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين (١٠٥) ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين (١٠٦) ﴾

---

(١) في أ: "إلى التفكر في الآية لآياته".

(٢) في ت، أ: "السماء".

(٣) في أ: "وهول".

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) في ت: "فإني".

(٦) زيادة من ت، أ.

(٧) في ت، أ: "تغلب".

(٨) صحيح البخاري برقم (٧٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.." [1]

"﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار (٣٤) ﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السماوات سقفا محفوظا (١) والأرض فراشا، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح **والمنافع**، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هاهنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع **المنافع**.

﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ أي: يسيران لا يقران (٢) ليلا ولا نهارا، ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ [يس: ٤٠] ، ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤] ، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار عارضان (٣) فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير (٤) ﴾ [لقمان: ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤/٢٩٩

الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ [الزمر: ٥] .

وقوله: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم (٥) وقالكم.

وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه.

وقرأ بعضهم: "وأتاكم من كل ما سألتموه".

وقوله: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب، رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر (٦) من أن يحصيها (٧) العباد، ولكن أصبحوا توابين وامسوا توابين.

---

(١) في أ: "مرفوعا".

(٢) في أ: "لا يفتران".

(٣) في ت، أ: "يتعارضان".

(٤) في هـ، ت، أ: "ألا وهو العزيز الغفار" والصواب ما أثبتناه.

(٥) في ت، أ: "لحالكم".

(٦) في أ: "أكبر".

(٧) في ت، أ: "تحصيها".." [1]

"﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم (٧) ﴾

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح **والمنافع**، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون﴾ وهو وقت رجوعها عشيا من المرعى (١) فإنها تكون أمده (٢) خواصر، وأعظمه ضروعا، وأعلاه أسنمة، ﴿وحين تسرحون﴾ أي: غدوة حين تبعثونها إلى المرعى.

﴿وتحمل أثقالكم﴾ وهي الأحمال المثقلة (٣) التي تعجزون عن نقلها وحملها، ﴿إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤/١١٥

الاستعمال، من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢] ، وقال تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون﴾ [غافر: ٧٩، ٨١] ؛؛ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إن ربكم لرءوف رحيم﴾ أي: ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ [يس: ٧١، ٧٢] ، وقال: ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ [الزخرف: ١٢ -١٤] .

---

(١) في ت: "الرعى".

(٢) في ت، ف: "أعده".

(٣) في ت، ف، أ: "الثقيلة".." (١)

"قال ابن عباس: ﴿لكم فيها دفء﴾ أي: ثياب، **والمنافع**: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿دفء ومنافع﴾ نسل كل دابة.

وقال مجاهد: ﴿لكم فيها دفء﴾ قال: لباس ينسج، ومنافع تركب، ولحم ولبن.

وقال قتادة: ﴿دفء ومنافع﴾ يقول: لكم فيها لباس، ومنفعة، وبلغة.

وكذا قال غير واحد من المفسرين، بألفاظ متقاربة.

﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٨) ﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتن به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء -ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل -بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة، رحمه الله (١) ومن وافقه من الفقهاء (٢) ؛ لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٥٥٧/٤

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، أنبأنا هشام الدستوائي، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن مولى نافع بن علقمة، أن ابن عباس كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون﴾ فهذه للأكل، ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها﴾ فهذه للركوب (٣) .

وكذا روي من طريق سعيد بن جبير وغيره، عن ابن عباس، بمثله. وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة (٤) رضي الله عنه (٥) أيضا، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده:

حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا ثور بن يزيد، عن صالح بن يحيى بن المقدام بن معد يكرب، عن أبيه، عن جده، عن خالد بن الوليد، رضي الله عنه، قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل لحوم الخيل، والبغال، والحمير.

وأخرجه أبو داود والنسائي، وابن ماجه، من حديث صالح بن يحيى بن المقدام --وفيه كلام -به (٦) .

ورواه أحمد أيضا من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه فقال:

---

(١) في ف، أ: "رحمة الله عليه".

(٢) في ت: "العلماء".

(٣) تفسير الطبري (١٤/٥٧) .

(٤) في ت، ف، أ: "عيينة".

(٥) في ت: "رحمه الله".

(٦) المسند (٤/٨٩) وسنن أبي داود برقم (٣٧٩٠) وسنن النسائي (٧/٢٠٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣١٩٨) .." [1]

"ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات (١) [والجمادات] (٢) على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من **المنافع** والخواص ﴿إن في ذلك لآية لقوم يذكرون﴾ أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١٤) ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤/٥٥٨

(١) في أ: "والنبات".

(٢) زيادة من ف، أ.." [1]

"حديثه، وكان يضطرب فيه، فربما ذكر فيه عمر (١) وربما لم يذكره.

قال (٢) أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثني الصعب بن حكيم بن شريك بن نملة، عن أبيه عن جده، قال: ضفت عمر بن الخطاب ليلة عاشوراء (٣) ، فأطعمني (٤) من رأس بعير بارد، وأطعمنا زيتا، وقال: هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم (٥) .

وقوله: ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ : يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من **المنافع**، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، ويأكلون من حملانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها ويحملونها (٦) الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم﴾ [النحل: ٧] ، وقال تعالى: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون. وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون. ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾ [يس: ٧١-٧٣] .

﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون (٢٣) فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين (٢٤) إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين (٢٥) ﴾ .

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، حين بعثه (٧) إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله، ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به؟!

فقال الملأ -وهم السادة والأكابر منهم-: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ يعنون: يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى (٨) النبوة، وهو بشر مثلكم. فكيف أوحي إليه دونكم؟ ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ أي: لو أراد أن يبعث نبيا، لبعث ملكا من عنده ولم يكن بشرا! ﴿ما سمعنا بهذا﴾ أي: ببعثة

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٥٦٢/٤

البشر في آبائنا الأولين. يعنون (٩) بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم (١٠) الماضية.

---

(١) في أ: "عمرو".

(٢) في ف، أ: "وقال".

(٣) في ف: "ضفت ليلة عمر بن الخطاب".

(٤) في ف: فأطعمني "عودا". وفي أ: "عسورا".

(٥) المعجم الكبير (٧٤/١) والصعب بن حكيم لا يعرف كما قال الذهبي.

(٦) في ف: "ويحملون".

(٧) في ف، أ: "بعثه الله".

(٨) في ف، أ: "بدعوة".

(٩) في ف: "يعني".

(١٠) في ف، أ: "الدهور".." [1]

"﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون (١٤) من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون (١٥) ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر ﴿لتجري الفلك﴾ ، وهي السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر أن يحملها ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي: في المتاجر والمكاسب، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي: على حصول **المنافع** المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية.." [2]

"وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الكل (١) محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من **المنافع**. ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار، وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات. فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عاما في حق الناس كلهم. وقد يستدل له بما رواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبي خداش حبان بن زيد الشرعبي الشامي، عن رجل من المهاجرين من قرن، أن رسول الله صلى

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٧٢/٥

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٦٥/٧

الله عليه وسلم قال: "المسلمون شركاء في ثلاثة: النار والكلأ والماء" (٢) .
وروى ابن ماجه بإسناد جيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث لا يمنعن: الماء والكلأ والنار" (٣) .
وله من حديث ابن عباس مرفوعا مثل هذا وزيادة: "وثمنه حرام" (٤) . ولكن في إسناده "عبد الله بن خراش بن حوشب" وهو ضعيف، والله أعلم.
وقوله: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة الماء العذب الزلال البارد، ولو شاء لجعله ملحا أجاجا كالبحار المغرقة. وخلق النار المحرقة، وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم، وزاجرا لهم في المعاد.
﴿فلا أقسم بمواقع النجوم (٧٥) وإنه لقسم لو تعلمون عظيم (٧٦) ﴾ .

---

(١) في م، أ: "الجميع".
(٢) المسند (٥/٣٦٤) وسنن أبي داود برقم (٣٤٧٧) .
(٣) سنن ابن ماجه برقم (٢٤٧٢) .
(٤) سنن ابن ماجه برقم (٢٤٧٢) .." [(١)]

"يقول تعالى مخبرا عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائبا عن الناس، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله، بأنه له مغفرة وأجر كبير، أي: يكفر عنه ذنوبه، ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: "سبعة يظلهم الله تعالى في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله"، فذكر منهم: "رجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلا تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه" (١) .
وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا الحارث بن عبيد، عن ثابت، عن أنس قال: قالوا: يا رسول الله، إنا نكون عندك على حال، فإذا فارقناك كنا على غيره؟ قال: "كيف أنتم وربكم؟ " قالوا: الله ربنا في السر والعلانية. قال: "ليس ذلكم النفاق" (٢) .
لم يروه عن ثابت إلا الحارث بن عبيد فيما نعلمه.
ثم قال تعالى منبها على أنه مطلع على الضمائر والسرائر: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٥٤٣/٧

الصدور﴾ أي: بما خطر في القلوب.

﴿ألا يعلم من خلق﴾ ؟ أي: ألا يعلم الخالق. وقيل: معناه ألا يعلم الله مخلوقه؟ والأول أولى، لقوله: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾

ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد (٣) ولا تضطرب (٤) بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأها فيها من **المنافع** ومواضع الزروع والثمار، فقال: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها﴾ أي: فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئا، إلا أن ييسره الله لكم؛ ولهذا قال: ﴿وكلوا من رزقه﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، أخبرني بكر بن عمرو، أنه سمع عبد الله بن ہ بيرة يقول: إنه سمع أبا تميم الجيشاني يقول: إنه سمع عمر بن الخطاب يقول: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا".

رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن هبيرة (٥) وقال الترمذي: حسن صحيح. فأثبت لها رواحا وغدوا لطلب الرزق، مع توكلها على الله، عز وجل، وهو المسخر المسير المسبب. ﴿وإليه النشور﴾ أي: المرجع يوم القيامة.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٦٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) مسند البزار برقم (٥٢) "كشف الأستار" وقال الحافظ ابن حجر في مختصر الزوائد (٦٧/١) : "الحارث له مناكير وإن أخرج له في الصحيح".

(٣) في أ: "لا تميد".

(٤) في م: "لا تضطرب ولا تميد".

(٥) المسند (٣٠/١) وسنن الترمذي برقم (٢٣٤٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤١٦٤) .." [١]

"وقوله: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتا﴾ هذا اسم مصدر، والإتيان به هاهنا أحسن، ﴿ثم يعيدكم فيها﴾ أي: إذا متم ﴿ويخرجكم إخراجا﴾ أي: يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٧٩/٨

﴿والله جعل لكم الأرض بساطا﴾ أي: بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات.
﴿لتسلكوا منها سبلا فجاجا﴾ أي: خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها (١) أين شئتم، من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح، عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرزاق، جعل السماء بناء، والأرض مهادا، وأوسع (٢) على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد؛ لأنه لا نظير له ولا عديل (٣) له، ولا ند ولا كفء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير.

﴿قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا (٢١) ومكروا مكرا كبارا (٢٢) وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا (٢٣) وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا (٢٤)﴾

يقول تعالى مخبرا عن نوح، عليه السلام، أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة المتشملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى: أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام؛ ولهذا قال: ﴿واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا﴾ قرئ ﴿وولده﴾ بالضم وبالفتح، وكلاهما متقارب.
وقوله: ﴿ومكروا مكرا كبارا﴾ قال مجاهد: ﴿كبارا﴾ أي عظيما. وقال ابن زيد: ﴿كبارا﴾ أي: كبيرا. والعرب تقول: أمر عجيب وعجاب وعجاب. ورجل حسان. وحسان: وجمال وجمال، بالتخفيف والتشديد، بمعنى واحد.

والمعنى في قوله: ﴿ومكروا مكرا كبارا﴾ أي: باتباعهم في تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى، كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾ [سبأ:٣٣] ولهذا قال هاهنا: ﴿ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾ وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

قال البخاري: حدثنا إبراهيم، حدثنا هشام، عن ابن جريج، وقال عطاء، عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما ود: فكانت لكلب بدومة الجندل؛ وأما

---

(١) في م: "منها".

(٢) في م: "ووسع".
(٣) في م، أ: "ولا عدل"..". (١)

"يقول تعالى آمرا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ ؟ فإنها خلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها. ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت؟ أي: كيف رفعها الله، عز وجل، عن الأرض هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾ [ق:٦]

﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ أي: جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن.

﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ ؟ أي: كيف بسطت ومدت ومهدت، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته- على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه. وهكذا أقسم "ضمام" في سؤاله على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، إنه أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك. قال: "صدق". قال: فمن خلق السماء؟ قال: "الله". قال: فمن خلق الأرض؟ قال: "الله". قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: "الله". قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: "نعم". قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا. قال: "صدق". قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟." (٢)

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٨/٢٣٤

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٨/٣٨٧

"تشتد حيرته، وتعظم الظلمة في عينيه أكثر من الذي لم يزل في الظلمة، فشبه المنافقين في حيرتهم وجهلهم بالدين بهؤلاء الذين وصفهم، إذا كانوا لا يرون طريقا، ولا يهتدون.

وثانيها: أن المطر وإن كان نافعا إلا أنه لما وجد في هذه الصورة مع هذه الأحوال الضارة صار النفع به زائلا، فكذا إظهار الإيمان نافع للمنافقين لو وافقه الباطن، فإذا فقد منه الاخلاص، وحصل أنواع المخافة، فحصلت في المنافقين نهاية الحيرة في الدين، ونهاية الخوف في الدنيا؛ لأن المنافق يتصور في كل وقت أنه لو حصل الوقوف على باطنه لقتل، فلا يزال الخوف في قلبه مع النفاق. ورابعها: المراد من الصيب هو الإيمان والقرآن، والظلمات والرعد والبرق هي الأشياء الشاقة على المنافقين من التكاليف كالصلاة والصوم وترك الرياسات، والجهاد مع الآباء والأمهات، وترك الأديان القديمة، والانقياد لمحمد - عليه الصلاة والسلام - مع شدة استنكافهم عن الانقياد، فكأن الإنسان يبالغ في الاحتراز عن المطر الصيب الذي [هو] أشد الأشياء نفعا بسبب هذه الأمور المقارنة، كذلك هؤلاء. والمراد من قوله: ﴿كلما أضآء لهم مشوا فيه﴾ أنه متى حصل لهم شيء من **المنافع**، وهي عصمة أموالهم ودمائهم، وحصول الغنائم، فإنهم يرغبون في الدين.

قوله: ﴿وإذآ أظلم عليهم قاموا﴾ أي متى لم يجدوا شيئا من تلك **المنافع**، فحينئذ يكرهون الإيمان، ولا يرغبون فيه.

فصل في «أو»

في «او» خمسة أقوال:

أظهرها: أنها للتفصيل بمعنى: أن الناظرين في حال منهم من يشبههم بحال المستوقد، ومنهم من يشبههم بأصحاب صيب هذه صفته.

قال ابن الخطيب: «والثاني أبلغ؛ لأنه أدل على فرط الحيرة» .

والثاني: أنها للإبهام، أي: أن الله أبهم على عباده تشبيههم بهؤلاء أو بهؤلاء.

والثالث: أنها للشك، بمعنى: أن الناظر يشك في تشبيههم.

الرابع: أنها للإباحة.

الخامس: أنها للتخيير، قالوا: لأن أصلها تساوي شيئين فصاعدا في الشك، ثم اتسع فيها، فاستعيرت للتساوي في غير الشك كقولك: «جالس الحسن أو ابن سيرين»." (١)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٨٥/١

"هذا هو النعمة الثانية اليت عمت المكلفين بأسرهم.

«هو» مبتدأ، وهو ضمير موفوع منفصل للغائب المذكر، والمشهور تخفيف واوه وفتحها، وقد تشدد؛ كقوله: [الطويل]

٣٤٣ - وإن لساني شهدة يشتفى بها ... وهو على من صبه الله علقم

وقد تسكن، وقد تحذف كقوله: [الطويل]

٣٤٤ - فبيناه يشري رحله ... .

والموصول بعده خبر عنه. و «لكم» متعلق ب «خلق» ، ومعناها السببية، أي: لأجلكم، وقيل: للملك والإباحة، فيكون تميكا خاصا بما ينتفع به.

وقيل: للاختصاص، و «ما» موصولة، و «في الأرض» صلتها، وهي في محل نصب مفعول به، و «جميعا» حال من المفعول بمعنى «كل» ، ولا دلالة لها على الاجتماع في الزمان، وهذا هو الفارق بين قولك: جاءوا جميعا و «جاءوا معا» فإن «مع» تقتضى المصاحبة في الزمان، بخلاف «جميع» قيل: وهي - هنا - حال مؤكدة، لأن قوله: «ما في الأرض» عام.

فصل في بي ا ن أن الأصل في المنافع الإباحة

استدل الفقهاء بهذه الآية على أن الأصل في المنافع الإباحة.

وقيل: إنها تدل على حرمة أكل الطين، لنه خلق لنا ما في الأرض دون نفس الأرض، وفيه نظر؛ لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما عداه." (١)

"قال قوم: هذا نهي تنزيه؛ لأن هذه الصيغة وردت في التنزيه والتحريم، والأصل عدم الاشتراك فلا بد من جعل اللفظ حقيقة في القدر المشترك بين القسمين، وما ذلك إلا أن يجعل حقيقة في ترجيح جانب الترك على جانب الفعل، من غير أن يكون فيه دلالة على المنع من الفعل، أو الإطلاق فيه كان ثابتا بحكم الأصل، عدم الاشتراك فلا بد من جعل اللفظ حقيقة في القدر المشترك بين القسمين، وما ذلك إلا أن يجعل حقيقة في ترجيح جانب الترك على جانب الفعل، من غير أن يكون فيه دلالة على المنع من الفعل، أو الإطلاق فيه كان ثابتا بحكم الأصل، فإن الأصل في المنافع الإباحة، فإذا ضممنا مدلول اللفظ إلى هذا الأصل صار المجموع دليلا على التنزيه، قالوا: وهذا هو الأولى بهذا المقام؛ لأن على هذا التقدير يرجع حاصل معصية آدم - عليه الصلاة والسلام - إلى ترك الأولى، ومعلوم أن كل مذهب أفضى إلى عصمة

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٨٧/١

الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – كان أولى.

وقال آخرون: بل هذا نهي تحريم، واحتجوا عليه بأمور:

أحدها: أن قوله: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ كقوله: ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقوله: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ [الإسراء: ٣٤] فكما أن هذا للتحريم فكذا الأول.." (١)

"وبيان خطأ الاجتهاد أنه لما قيل له: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ [الأعراف: ١٩] فلفظ «هذه» يشار به إلى الشخص، وقد يشار به إلى النوع، كما روي أنه – عليه الصلاة والسلام – اخذ حريرا وذهبا بيده وقال: «هذان حلال لإناث أمتي حرام على ذكرها» وأراد به توعهما، وتوضأ مرة وقال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به» وأراد نوعه، فلما سمع آدم – عليه الصلاة والسلام – قوله: «ولا تقربا هذه الشجرة» ظن أن النهي إنما يتناول تلك الشجرة المعينة، فتركها وتناول من شجرة أخرى من ذلك النوع، فكان مخطئا في ذلك الاجتهاد؛ لأن مراد الله – تعالى – النهي عن النوع لا عن الشخص.

والاجتهاد في الفروع إذا كان خطأ لا يوجب استحقاق العقاب لاحتمال كونه صغيرة مغفورة كما في شرعنا.

فغن قيل: الكلام على هذا القول من وجوه:

أحدها: أن كلمة «هذا» في أصل اللغة للإشارة إلى الشيء الحاضر، وهو لا يكون إلا شيئا معينا، فإن أشير بها إلى النوع، فذاك على خلاف الأصل، وأيضا فأنه – تعالى – لا تجوز الإشارة عليه، فوجب ان يكون أمر بعض الملائكة بالإشارة إلى ذلك الشخص، فكان ما عداه خارجا عن النهي لا محالة، وإذا ثبت هذا فالمجتهد مكلف يحمل اللفظ على حقيقته، فأدم – عليه الصلاة والسلام – لما حمل لفظ «هذه» على المعين كان قد فعل الواجب، ولا يجوز له حمله على النوع، وهذا متأيد بأمرين:

أحدهما: أن قوله: ﴿وكلا منها رغدا حيث شئتما﴾ [البقرة: ٣٥] أفاد الإذن في تناول كل ما في الجنة إلا ما خصه الدليل.

والثاني: أن العقل يقتضي حل الانتفاع بجميع المنافع إلا ما خصه الدليل، والدليل المخصص لم يدل على ذلك المعين، وإذا ثبت هذا امتنع أن يستحق بسبب تناول غيره وغن كان من ذلك النوع المنهي عنه عتابا، فوجب على هذا أن يكون مصيبا لا مخطئا.

الاعتراض الثاني: هب أن لفظة «هذه» مترددة بين الشخص والنوع، ولكن هل قرن الله بہذا اللفظ ما يدل على أن المراد منه النوع دون الشخص أو لا؟

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١/٥٥٨

فإن قرن به، فإما أن يقال: إن آدم – عليه الصلاة والسلام – قصر في معرفة ذلك البيان، فحينئذ يكون قد أتى بالذنب وإن لم يقصر بل عرفه، فحينئذ يكون إقدامه على التناول من شجرة من ذلك النوع إقداما على الذنب قصدا.

الاعتراض الثالث: أن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لا يجوز لهم الاجتهاد؛ لأن الاجتهاد إقدام على العمل بالظن وذلك إنما يجوز في حق من لا يتمكن من تحصيل العلم، أما الأنبياء فإنهم قادرون على تحصيل اليقين، فوجب ألا يجوز لهم الاجتهاد؛ لأن الاكتفاء بالظن مع القدرة على تحصيل اليقين غير جائز عقلا وشرعا، وذا ثبت ذلك ثبت أن افقدام على الاجتهاد معصية.." (١)

"المؤمنين، إلا أن المؤمنين يحصل لهم آفة بسبب آخر، فلما قال: «وينصركم عليهم» دل على أنهم ينتفعون بهذا النصر والفتح والظفر.

ورابعها: قوله ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ . قرأ الجمهور بياء الغيبة، ردا على اسم الله تعالى، وقرأ زيد بن علي «نشف» بالنون، وهو التفات حسن، وقال: «قوم مؤمنين» شهادة للمخاطبين بالإيمان، فهو من باب الالتفات، وإقامة الظاهر مقام المضمر، حيث لم يقل «صدوركم» .

والمعنى: ويبرىء داء قلوب قوم مؤمنين مما كانوا ينالونه من الأذى منهم.

ومعلوم أن من طال تأذيه من خصمه، ثم مكنه الله منه على أحسن الوجوه، فإنه يعظم سروره به، ويصير ذلك سببا لقوة النفس، وثبات العزيمة.

وقال مجاهد والسدي «أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله، حيث أعانت قريش بني بكر عليهم حتى نكلوا بهم، فشفى الله صدورهم من بني بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم » .

وخامسها: قوله: ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ كربها ووجده ا بمعونة قريش بني بكر عليهم.

فإن قيل: قوله ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ وبين قوله: ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ فهذه **المنافع** الخمسة ترجع إلى تسكين الدواعي الناشئة من القوة الغضبية، وهي التبشفي، ودرك الثأر وإزالة الغيظ، ولم يذكر فيها وجدان المال، والفوز بالمطاعم والمشارب؛ لأن العرب جبلوا على الحمية والأنفة، فرغبهم في هذه المعاني لكونها لائقة بطباعهم.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٦٥/١

وقرأ الجمهور: «ويذهب» بضم الياء وكسر الهاء من: «أذهب» ، و «غيظ» مفعول به وقرىء «ويذهب» بفتح الياء والهاء، جعله مضارعا ل «ذهب» ، و «غيظ» فاعل به." (١)

"ولو قلت:» وأنا قائم «حالا من ضمير» ليفعلن «لم يجز، وكذا عكسه، نحو: حلف زيد لأفعلن يقوم، تريد: قائما، لم يجز.

وأما قوله:» وجاء به على لفظ الغائب؛ لأنه مخبر عنهم «فمغالطة، ليس مخبرا عنهم بقوله:» لو استطعنا لخرجنا «، بل هو حاك لفظ قولهم. ثم قال: ألا ترى لو قيل: لو استطاعوا لخرجوا، لكان سديدا ... إلى آخره. كلام صحيح، لكنه - تعالى - لم يقل ذلك إخبارا عنهم، بل حكاية، والحال من جملة كلامهم المحكي، فلا يجوز أن يخالف بين ذي الحال وحاله، لاشتراكهما في العامل، لو قلت: قال زيد: خرجت يضرب خالدا، تريد: اضرب خالدا، لم يجز. ولو قلت: قالت هند: خرج زيد أضرب خالدا، تريد: خرج زيد ضاراب خالدا، لم يجز، انتهى.

الرابع: أنها جملة استئنافية، أخبر الله عنهم بذلك.

فصل

معنى الآية: أنه لو كانت **المنافع** قريبة، والسفر قريبا لاتبعوك طمعا منهم في الفوز بتلك **المنافع**، ولكن طال السفر، وكانوا كالآيسين من الفوز بالغنيمة، بسبب استعظامهم غزو الروم، فلهذا تخلفوا، ثم أخبر تعالى أنه إذا رجع من الجهاد يجدهم: ﴿سيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ إما عند ما يعاتبهم بسبب التخلف، وإما ابتداء على طريقة إقامة العذر في التخلف، ثم بين أنهم يهلكون أنفسهم بسبب الكذب والنفاق، وهذا يدل على أن الأيمان الكاذبة توجب الهلاك، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام» اليمين الغموس تدع الديار بلاقع «ثم قال: ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ في قولهم ما كنا نستطيع الخروج فإنهم كانوا مستطيعين الخروج، فكانوا كاذبين في أيمانهم.

فصل

قالوا: الرسول - عليه الصلاة والسلام - أخبر عنهم أنهم سيحلفون، وهذا إخبار عن غيب يقع في المستقبل، والأمر لما وقع كما أخبر كان إخبارا عن الغيب، فكان معجزا.

قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ الآية.

لما بين تعالى بقوله: ﴿لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك﴾ أنه تخلف قوم عن ذلك الغزو، وليس

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٩/١٠

فيه بيان أن ذلك التخلف كان بإذن الرسول أم لا؟ فلما قال بعده: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ دل هذا، على أن فيهم من تخلف بإذنه.

قوله: ﴿لم أذنت لهم﴾ «لم» ، و «لهم» كلاهما متعلق ب «أذنت» ، وجاز ذلك؛ لأن معنى اللامين مختلف؛ فالأولى للتعليل، والثانية للتبليغ. وحذفت ألف «ما» الاستفهامية." (١)

"الباء بمعنى اللام أي: للحق، ولا حاجة إليه، والمعنى: لم يخلقه باطلا، بل إظهارا لصنعته، ودلالة على قدرته.

قوله: «يفصل» قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب «يفصل» بياء الغيبة جريا على اسم الله – تعالى –، والباقون: بنون العظمة، التفاتا من الغيبة إلى التكلم للتعظيم.

ومعنى التفصيل: هو ذكر هذه الدلائل الباهرة، واحدة عقب الأخرى مع الشرح والبيان، ثم قال «لقوم يعلمون» قيل: المراد منه: العقل الذي يعم الكل. وقيل: المراد منه تفكر وعلم فوائد مخلوقاته، وآثار إحسانه، لأن العلماء هم المنتفعون بهذه الدلائل، كقوله ﴿إنمآ أنت منذر من يخشاها﴾ [النازعات: ٤٥] مع أنه – عليه الصلاة والسلام – كان منذرا للكل.

قوله تعالى: ﴿ن في اختلاف الليل والنهار﴾ الآية.

اعلم أنه تعالى استدل على التوحيد والإلهية.

أولا: بتخليق السموات والأرض.

وثانيا: بأحوال الشمس والقمر.

وثالثا: في هذه الآية بالمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة عند قوله: ﴿إن في خلق السماوات والأرض﴾ [البقرة: ١٦٤] .

واعلم أن الحوادث الحادثة في هذا العالم أربعة أقسام:

أحدها: الأحوال الحادثة في العناصر الأربعة، ويدخل فيها أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار والثلوج، ويدخل فيها أحوال البحار، وأحوال المد والجزر، وأحوال الصواعق والزلازل والخسف.

وثانيها: أحوال المعادن وهي عجيبة كثيرة.

وثالثها: اختلاف أحوال النبات.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٠١/١٠

ورابعها: اختلاف أحوال الحيوانات، وكلها داخلة في قوله: ﴿وما خلق الله في السماوات والأرض﴾ .
ثم قال: ﴿لآيات لقوم يتقون﴾ خصها بالمتقين؛ لأنهم يحذرون العاقبة.." (١)

"قوله: «ويقولون» أي: كفار مكة، «لولا أنزل عليه» أي: على محمد «آية من ربه» على ما نقترحه، وذلك أنهم قالوا: القرآن الذي جئنا به كتاب مشتمل على أنواع من الكلمات، والكتاب لا يكون معجزا، كما أن كتاب موسى، وعيسى ما كان معجزا لهما، بل كان لهما أنواع من المعجزات، دلت على نبوتهما سوى الكتاب، وكان في أهل مكة من يدعي إمكان المعارضة، كما أخبر الله - تعالى - عنهم في قوله: ﴿لو نشآء لقلنا مثل هذا إن هاذآ﴾ [الأنفال: ٣١] .

فلذلك طلبوا منه شيئا آخر سوى القرآن؛ ليكون معجزا، فأمر الله - تبارك وتعالى رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - بأن يجيبهم بقوله: ﴿إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ [يونس: ٢٠] .

وتقرير هذا الجواب: أنه أقام الدلالة القاهرة على أن القرآن معجزة قاهرة؛ لأنه - صلوات الله وسلامه عليه - نشأ بينهم، وعلموا أنه لم يطالع كتابا، ولا تتلمذ لأستاذ، مدة أربعين سنة مخالطا لهم، ولم يشتغل بالفكر والتعلم قط، ثم إنه أظهر هذا القرآن العظيم، وظهور مثل هذا الكتاب على مثل ذلك الإنسان، لا يكون إلا بالوحي، وإذا كان كذلك، فطلب آية أخرى سوى القرآن يكون اقتراحا لا حاجة إليه وعنادا، ومثل هذا يكون مفوضا إلى مشيئة الله - تعالى -، فإن شاء أظهر، وإن شاء لم يظهر، فيكون من باب الغيب، فيجب على كل أحد أن ينتظر، هل يفعله الله أم لا؟ ولكن سواء فعل أم لم يفعل فقد ثبت نبوته، وظهر صدقه، وهذا المقصود لا يختلف بحصول تلك الزيادة وعدمها.

قوله تعالى: ﴿وإذآ أذقنا الناس رحمة﴾ الآية.

وهذا جواب آخر لسؤالهم، وطلبهم المعجزة، وذلك من وجهين:

الأول: أن عادتهم العناد، والمكر، وعدم الإنصاف، فبتقدير أن يعطوا ما سألوه، فإنهم لا يؤمنون، بل يبقون على كفرهم، وعنادهم؛ وبيانه أن الله - تعالى - سلط القحط على أهل مكة سبع سنين، ثم رحمهم، وأنزل المطر على أراضيهم، ثم إنهم أضافوا **المنافع** إلى الأنواء والكواكب.

الوجه الثاني: أنه لو أنزل عليهم المعجز لم يقبلوه؛ لأنه ليس غرضهم من هذه الاقتراحات التشدد في الدين،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٦٨/١٠

وإنما غرضهم الدفع، والمبالغة في صون مناصبهم الدنيوية؛ لأنه – تعالى – لما سلط البلاء عليهم، ثم أزاله عنهم، فهم مع ذلك استمروا على الكفر.." [١]

"أو بقطع المنافع، فبين فيما تقدم أنه لا يخاف شرهم، وبين في هذه الآية أنه لا يخاف منهم بسبب أن يقطعوا عنه خيرا؛ لأنه ما أخذ منهم شيئا، فكان يخاف أن يقطعوا منه خيرا، ثم قال: ﴿إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ وفيه قولان:

الأول: أنكم سواء قبلتم دين الإسلام، أو لم تقبلوا، فأنا مأمور بأن أكون على دين الإسلام.

الثاني: أني مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إلي لأجل هذه الدعوة، وهذا الوجه أليق بهذا الموضع؛ لأنه لما قال اقضوا إلي بين أنه مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إليه.

قوله: ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك﴾ .

لما حكى كلام نوح مع الكفار، ذكر – تعالى – ما آل أمرهم إليه: أما في حق نوح وأصحابه، فنجاهم وجعلهم خلائف، أي: يخلفون من هلك بالغرق، وأما في حق الكفار فإنه – تعالى – أهلكهم وأغرقهم، وهذه القصة إذا سمعها من صدق الرسول ومن كذب به، كانت زجرا للمكذبين فإنهم يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح، وتكون داعية للمؤمنين إلى الثبات على الإيمان؛ ليصلوا إلى مثل ما وصل إليه قوم نوح.

قوله ﴿في الفلك﴾ يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أن يتعلق ب «نجيناه» ، أي: وقع الإنجاء في هذا المكان.

والثاني: أن يتعلق بالاستقرار الذي تعلق به الظرف، وهو «معه» لوقوعه صلة، أي: والذين استقروا معه في الفلك، وقوله: «وجعلناهم» أي: صيرناهم، وجمع الضمير في «جعلناهم» حملا على معنى «من» ، و «خلائف» جمع خليفة، أي: يخلفون الغارقين.

قوله: ﴿ثم بعثنا من بعده﴾ أي: من بعد نوح، ﴿رسلا إلى قومهم﴾ ولم يسم الرسل، وقد كان منهم هود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، ﴿فجآءوهم بالبينات﴾ ، وهي المعجزات الباهرة، و «بالبينات» متعلق ب «فجاءوهم» أو بمحذوف على أنه حال أي: ملتبسين بالبينات، ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ أي: أن حالهم بعد بعثة الرسل، كحالهم قبلها في كونهم أهل جاهلية.

قال القرطبي: التقدير: بما كذب به قوم نوح من قبل، وقيل «بما كذبوا به» أي: من قبل يوم الذر فإنه كان

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٨٨/١٠

فيهم من كذب بقلبه، وإن قال الجميع: بلى.
وقال النحاس: أحسن ما قيل في هذا: أنه لقوم بأعيانهم، مثل: ﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة: ٦] . و «بالبينات» متعلق ب «جاءوهم» ، أو بمحذوف على أنه حال، أي: ملتبسين بالبينات.
وقوله: ﴿ليؤمنوا﴾ أتى بلام الجحود توكيدا، والضمير في ﴿كذبوا﴾ عائد على من عاد عليه الضمير في كانوا، وهم قوم الرسل.." (١)
"قوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ الآية.
قيل: إنها مختصة بالكفار لقوله: ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ [هود: ١٦] وهذا ليس إلا للكفار، فيكون التقدير: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط، أي: تكون إرادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها، ومن طلب السعادات الأخروية كان حكمه كذا وكذا.
واختلف القائلون بهذا القول فقال الأصم: المراد منكرو البعث فإنهم ينكرون الغنائم من غير أن يؤمنوا بالآخرة.
وقال أنس - رضي الله عنه -: المراد اليهود والنصارى.
وقال القاضي: المراد من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها.
وعمل الخير قسمان:
العبادات وإيصال المنفعة إلى الحيوان كالبر، وصلة الرحم، والصدقة، وبناء القناطر، وتسوية الطرق، ودفع الشر، وإجراء الأنهار، فهذه الأشياء إذا أتى بها الكافر لأجل الثناء في الدنيا، فإن بسببها تصل الخيرات **والمنافع** إلى المحتاجين، وهي من أعمال الخير، فقد تصدر من المسلم والكافر.
وأما العبادات فإما أن تكون طاعات بنيات مخصوصة، فإذا لم يؤت بتلك النية، وإنما أتى فاعلها بها طلبا لزينة الدنيا، وتحصيل الرياء والسمعة؛ فلا تكون طاعة ووجودها كعدمها بل هو شر منها.
وعلى هذا فالمراد منه الطاعات التي يصح صدورها من الكفار.
وقيل: الآية على ظاهرها في العموم؛ فيندرج فيه المؤمن الذي يأتي بالطاعات رياء وسمعة ويندرج فيه الكافر الذي هذا صفته.." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٨١/١٠
(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٥١/١٠

"وثالثها: خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة.

ورابعها: أنه كان لها شرب يوم.

وخامسها: أنه كان يحصل منها لبن كثير يكفي الخلق العظيم.

ثم قال: ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ من العشب، والنبات، فليس عليكم مؤنتها.

وقرىء «تأكل» بالرفع: إما على الاستئناف، وإما على الحال.

﴿ولا تمسوها بسواء﴾ ، ولا تصيبوها بعقر «فيأخذكم» إن قتلتموها «عذاب قريب» يريد اليوم الثالث.

﴿فعقروها فقال﴾ لهم صالح: ﴿تمتعوا في داركم﴾ أي: في دياركم، فالمراد بالدار: البلد، وتسمى البلاد بالديار، لأنه يدار فيها، أي: يتصرف، يقال: ديار بكر أي: بلادهم.

وقيل: المراد بالديار: دار الدنيا، وقيل: هو جمع «دارة» كساحة وساح وسوح، وأنشد ابن أبي الصلت: [الوافر]

٢٩٨٠ - له داع بمكة مشمعل ... وآخر فوق دارته ينادي

فصل

قال القرطبي: «استدل العلماء بتأخير الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يجمع على إقامة أربع ليال قصر؛ لأن الثلاثة أيام خارجة عن حكم الإقامة» .

والتمتع: التلذذ **بالمنافع** والملاذ. ﴿ذلك وعد غير مكذوب﴾ ، [أي: غير كذب] .

قوله: «مكذوب» يجوز أن يكون مصدراص على زنة مفعول، وقد جاء منه أليفاظ نحو: المجلود والمعقول والميسور والمفتون، ويجوز أن يكون اسم مفعول على بابه، وفيه حينئذ تأويلان:

أحدهما: غير مكذوب فيه، ثم حذف حرف الجر فاتصل الضمير مرفوعا مستترا في الصفة ومثله «يوم مشهود» وقول الشاعر: [الطويل]

٢٩٨١ - ويوم شهدناه سليما وعامرا ... قليل سوى الطعن النهال نوافله

والثاني: أنه جعل هو نفسه غير مكذوب؛ لأنه قد وفي به، فقد صدق.." (١)

"والعصبة: ما زاد على العشرة، عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ وعنه: مابين العشرة إلى الأربعين.

وقيل: الثلاثة نفر، فإذا زادت على ذلك إلى تسعة؛ فهو رهط، فإذا بلغوا العشرة فصاعدا، فعصبة.

وقيل: مابين الواحد إلى العشرة.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥١٥/١٠

وقيل: من عشرة إلى خمسة عشر.

وقيل: ستة. وقيل: سبعة. والمادة تدل على الإحاطة من العصابة؛ لإحاطتها بالرأس.

فصل

بينوا السبب الذي لأجله قصدوا إيذاء يوسف: وهو أن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان يفضل يوسف وأخاه على سائر أولاده في الحب، فتأذوا منه لوجوه:

أحدها: كانوا أكبر منه سنا.

وثانيها: أنهم كانوا أكثر قوة، وأكثر قياما بمصالح الأب منهما.

وثالثها: أنهم القائمون بدفع المضار والآفات، والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات، وإذا كانوا كذلك لا جرم قالوا: ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ .

قال ابن الخطيب: «وها هنا سؤالات:

السؤال الأول: أن من المعلوم أن تفضيل بعض الأولاد على بعض، يورث الحقد والحسد، وهما يورثان الآفات، فملا كان يعقوب عليه الصلاة والسلام عالما بذلك، فلم أقدم على التفضيل؟ وأيضا: فالأسن، والأعلم، والأنفع مقدم، فلم قلب هذه القضية؟ .

فالجوابك أنه عليه الصلاة والسلام ما فضلهما على سائر أولاده إلا في المحبة، والمحبة ليست في وسع البشر، فكان معذورا فيه، ولا يلحقه بسبب ذلك لوم، قال عليه الصلاة والسلام :» اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك «حين كان يحب عائشة رضي الله عنها.

السؤال الثاني: أن أولاد يعقوب كانوا قد آمنوا بكونه رسولا حقا من عند الله،." [١]

"وقيل: ينفى. والذي ورد في الحديث أنه لم ينف العائن، ولا أمره بلزوم بيته ولا حبسه، بل قالوا: يكون الرجل الصالح عائنا، وأنه لا يقدح فيه، ولا يفسق به ومن قال: يحبس، ويؤمر بلزوم بيته؛ فذلك للاحتياط، ودفع ضرره.

قال الجبائي: إن أبناء يعقوب اشتهروا، وتحدث الناس بهم، وبحسنهم، وكمالهم فقال: «لا تدخلوا» تلك المدينة «من باب واحد» على ما أنتم عليه من العدد، والهيئة، ولم يأمن عليهم حسد الناس، أو قالك لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك على ملكه، فحييسهم.

وهذا وجه محتمل لا إنكار فيه إلا أن القول الأول أولى؛ لأنه لا امتناع فيه بحسب العقل، والعرف كما بينا،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٣/١١

والمتقدمون من المفسرين أطبقوا عليه، فوجب المصير إليه.
ونقل عن الحسن أنه قال: خاف عليهم العين، فقال: ﴿لا تدخلوا من باب واحد﴾ ثم رجع إلى علمه، فقال: ﴿ومآ أغني عنكم من الله من شيء﴾ ، وعرف أن العين ليست بشيء.
وكان قتادة يفسر الآية بإصابة العين، ويقول: ليس في قوله: ﴿ومآ أغني عنكم من الله من شيء﴾ إبطال له؛ لأن العين، وإن صح فالله قادر على دفع أثره.
وقال النخعي: كان عالما بأن مالك مصر هو ولده يوسف إلا أن الله تبارك وتعالى ما أذن له في إظهار ذلك، فلما بعث أولاده إليه، وقال: ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ ، وكان غرضه أن يصل بنيامني إلى يوسف في وقت الخلوة، وقوله: ﴿ومآ أغني عنكم من الله من شيء﴾ فالإنسان مأمور بأن يراعي الأسباب المعتبرة في هذا العالم، ومأمور بأن يجزم بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى وأن الحذر لا ينجي من القدر، فإن الإنسان مأور بالحذر عن الأشياء المهلكة، والأغذية الضارة، وبالسعي في تحصيل المنافع، ودفع المضار بقدر الإمكان، ثم مع ذلك ينبغي أن يكن جازما بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله ولا يحصل في الوجود إلا ما أراد الله، فقوله عليه الصلاة والسلام ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة في هذا العالم، وقوله ﴿ومآ أغني عنكم من الله من شيء﴾ إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب وإلى الالتفات إلى التوحيد المحض، والبراءة عن كل شيء سوى الله تعالى.
فإن قيل: كيف السبيل إلى الجمع بين هذه القولين؟ .." (١)

"فأما الأفلاك فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع، وقد يستدل بكون بعضها فوق بعضه أو تحته، وقد يستدل بحركتها، إما بسرعة حركتها، وإما باختلاف جهة تلك الحركات.
وأما الأجرام الكوكبية، فتارة تدل على وجود الصانع بمقاديرها، وأجرامها، وحركاتها في سرعتها وبطئها، وتارة بألوانها وأضوائها، وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والظلال.
وأما دلائل الأجرام العنصرية: فإما أن تكون مأخوذة من بسائطها، وهو البر والبحر، وإما مأخوذ من [المواليد] ، وهي أقسام:
أحدها: العلوية كالرعد، والبرق، والسحاب، والمطر، والثلج، والهواء، وقوس قزح.
وثانيها: المعادن على اختلاف طابعئها وصفاتها، وكيفياتها.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥٤/١١

وثالثها: النبات وخاصية الخشب والورق بخصوصه.

ورابعها: اختلاف حال الحيوانت في أشكالها، وطبائعها، وأصواتها، وخلقها.

وخامسها: تشريح أبدان الناس، وتشريح القوى الإنسانية، وبيان **المنافع** الحاصلة منها، ومن هذا الباب أيضا قصص الأولين والملوك الذين استولوا على الأرض، وقهروا العباد، وخربوا البلاد. ماتوا ولم يبق لهم في الدنيا خبر، ثم بقي الوزر والعقاب عليهم، قال ابن الخطيب: فلهذا ضبط أنواع هذه الدلائل.

فصل

الجمهور على جر الأرض عطفا على السموات، والضمير في «عليها» للآية، فيكون «يمرون» صفة للآية، وحالا لتخصصها بالوصف بالجر.

وقيل: يعود الضمير في «عليها» للأرض فيكون «يمرون عليها» حالا منها.

وقال أبو البقاء: وقيل: منها ومن السموات، أي: يكون الحال من الشيئين جميعا، وهذا لا يجوز؛ إذا كان يجب أن يقال: عليهما، وأيضا: فإنهم لا يمرون في السماوات إلا أن يراد: يمرون على آياتها، فيعود المعنى على عود الضمير للآية، وقد يجاب عن الأول بأنه من باب الحذف؛ كقوله تعالى: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة: ٦٢] .

وقرأ السدي: «والأرض» بالنصب، ووجهه أنه من باب الاشتغال، ويفسر الفعل بـما يوافقه معنى، أي: يطوفون الأرض، أو يسلكون الأرض.." (١)

"ثم قال عز وجل: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ أي: أنه لم يقتصر على هذه النعم بل أعطى عباده من **المنافع** مالا يأتي على بعضها التعداد.

ثم قال ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ قال الواحدي: «النعة ههنا أسم أقسم مقام المصدر، يقال: أنعم الله عليه ينعم إنعاما، ونعمة، أقيم الاسم مقام الإنعام، كقوله: أنفقت عليك إنفاقا ونفقة شيئا واحدا، ولذلك يجمع لأنه في معنى المصدر» .

وقال غيره: «النعمة هنا بمعنى المنعم به» .

وختمت هذه الآية ب ﴿إن الإنسان لظلوم﴾ ونظيرها في النحل ب ﴿إن الله لغفور رحيم﴾ [النحل: ١٨] لأن في هذه تقدم قوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا﴾ [إبراهيم: ٢٨] وبعده ﴿وجعلوا لله أندادا﴾ [أبراهيم: ٣٠] فجاء قوله ﴿إن الإنسان﴾ شاهدا بقبح من فعل ذلك فناسب ختمها بذلك.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢٢/١١

والتي في النحل ذكر فيها عدة تفضيلات، وبالغ فيها، وذكر قوله جل ذكره ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ [النحل: ١٧] أي: من أوجد هذه النعم السابق ذكرها كمن لم يقدر منها على شيء، فذكر أيضا أن من جملة تفضلاته اتصافه بهاتين الصفتين.

وقال ابن الخطيب: «كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة؛ فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها؛ فحصل لك عند أخذها وصفان: وهما: كونك ظلوما كفارا، ولي وصفان عند أعطائها وهما: كوني غفورا رحيما، فكأنه تعالى يقول: إن كنت ظلوما فأنا غفور، وإنت كنت كفارا فأنا رحيم، أعلم عجزك، وقصورك، فلا أقابل جفاك إلا بالوفاء» .." [1]

"قال شهاب الدين: «قد تقدم الخلاف في تقدير متعلق الجار إذا وقع حالا أو صفة أو خبراص، هل يقدر فعلا أو اسما، ولعل أبا البقاء نحا إلى الأول فتسميته له جملة صحيح على هذا» .

والدفء: اسم لما يدفأ به، أي: يسخن.

قال الأصمعي: ويكون الدفء السخونة، يقال: اقعد في دفء هذا الائط، أي: في كنفه، وجمعه أدفاء، ودفئ يومنا فهو دفيء، ودفئ الرجل يدفأ فهو دفآن، وهي دفأى، كسكران، وسكرى.

والمدفئة بالتخفيف والتشديد، الإبل الكثيرة الوبر الكثيرة الوبر والشحم، وقيل: الدفء: نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها.

وقرأ زيد بن علي: «دف» بنقل حركة الهمزة إلى الفاء، والزهري: كذلك إلا أنه شدد الفاء، كأنه أجرى الوصل مجرى الوقف، نحو قولهم: هذا فرخ بالتشديد وقفا.

وقال صاحب اللوامح: «ومنهم من يعوض من الهمزة فيشدد الفاء وهو أحد وجهي حمزة بن حبيب وقفا» .

قال شهاب الدين: والتشديد وقفا: لغة مستقلة وإن لم يكن ثم حذف من الكلمة الموقوف عليها.

قوله «ومنافع» أراد النسل، والدر، والركوب، والحمل، وغيرها، فعبر عن هذا الوصف بالمنفعة؛ لأنه الأعم، والدر والنسل قد ينتفع به بالبيع بالنقود، وقد ينتفع به بأن تبدل بالثياب، وسائر الضروريات، فعبر عن جملة الأقسام بلفظ **المنافع** ليعم الكل.

فصل

الحيوانات قسمان:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٩٢/١١

منها ما ينتفع به الإنسان، ومنها ما لا يكون كذلك، والقسم المنتفع به [أفضل] من الثاني، والمنتفع به إما أن ينتفع به الإنسان في ضروراته، مثل الأكل واللبس أو في غير ضروراته، والأول أشرف وهو الأنعام، فلهذا يدأ بذكره فقال: ﴿والأنعام خلقها لكم﴾ وهي عبارة عن الأزواج الثمانية، وهي الضأن والمعز والبقر والإبل.

قال الواحدي: تم الكلام عند قوله: ﴿والأنعام خلقها﴾ ثم ابتدأ وقال: ﴿لكم فيها دفء﴾ .

قال صاحب النظم: أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله: «خلقها» ؛ لأنه عطف عليه ﴿ولكم فيها جمال﴾ والتقدير: لكم فيها دفء ولكم فيها جمال.." (١)

"ولما ذكر الأنعام، أتبعه بذكر المنافع المقصودة منها، وهي إما ضرورية، أو غير ضرورية، فبدأ بذكر المنافع الضرورية؛ فقال: ﴿لكم فيها دفء﴾ وقد ذكر هذا المعنى في آية أخرى، فقال سبحانه: ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارهآ أثاثا ومتاعا إلى حين﴾ [النحل: ٨٠] .

والمعنى: ملابس ولحفاء يستدفئون بها، ثم قال: «ومنافع» والمراد ما تقدم من نسلها ودرها.

ثم قال: ﴿ومنها تكلون﴾ ، «من» ها هنا لابتداء الغاية، والتبعيض هنا ضعيف.

قال الزمخشري: «فإن قلت: تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص، وقد يؤكل من غيرها، قلت: الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس، وأما غيرها من البط والدجاج ونحوها من الصيد، فكغير المعتد به؛ بل جار مجرى التفكه» .

قال ابن الخطيب: «ويحتمل أن غالب أطعمتكم منها؛ لأنكم تحرثون بالبقر، والحب والثمار التي تأكلونها، وتكتسبون بها، وأيضا بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها، وألبانها، وجلودها، وتشترون بها جميع أطعمتكم» .

فإن قيل: منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللبس، فلم أخر منفعة الأكل في الذكر؟ .

فالجواب: أن الملبوس أكثر من المطعوم؛ فلهذا قدم عليه في الذكر فهذه المنافع الضرورية الحاصلة من الأنعام، وأما المنافع غير الضرورية الحاصلة من الأنعام فأمور:

الأول: قوله ﴿ولكم فيها جمال﴾ كقوله ﴿لكم فيها دفء﴾ .

و «حين» منصوب بنفس «جمال» أو بمحذوف، على أنه صفة له، أو معمول لما عمل في «فيها» أو في «لكم» .

وقرأ عكرمة، والضحاك، والجحدري - رحمهم الله -: «حينا» بالتنوين؛ على أن الجملة بعده صفة له، والعائد محذوف، أي: حينا تريحون فيه وحينا تسرحون فيه، كقوله: ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه﴾ [البقرة:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٢/١٢

٢٨١] وقدمت الإراحة على [السرح] ؛ لأن الأنعام فيها أجمل لملء بطونها وتحفل ضروعها، بخلاف التسريح؛ فإنها عند خروجها إلى المرعى تخرج جائعة عادمة اللبن ثم تتفرق وتنتشر.

فصل

قد ورد الحين على أربعة أوجه:

الأول: بمعنى الوقت كهذه الآية.." (١)

"وصفها في آخر الآية بقوله – عز وجل – ﴿وتحمل أثقالكم﴾ وهذا لا يليق إلا بالإبل فقط.

والجواب: أن هذه الآيات وردت لتعديد منافع الأنعام، فبعض تلك **المنافع** حاصل في الكل، وبعضها يختص بالبعض، لأن قوله تعالى: ﴿ولكم فيها جمال﴾ حاصل في البقر والغنم أيضا.

﴿إن ربكم لرؤوف رحيم﴾ بخلقه حيث جعل لهم هذه **المنافع**.

فصل

احتج منكرو كرامات الأولياء بهذه الآية، لأن هذه الآية دلت على أن الإنسان لا يمكنه الانتقال من بلد إلى بلد إلا بشق الأنفس، وحمل الأثقال على [الجمال] ، فيكون الانتقال من بلد إلى بلد بعيد في ليلة واحدة من غير تعب، وتحمل مشقة خلاف هذه الآية، فيكون باطلا.

ولما بطل القول بالكرامات في هذه الصورة، بطل القول بها في سائر الصور؛ لأنه لا قائل بالفرق.

والجواب: أنا نخص هذه الآية بالأدلة الدالة على وقوع الكرامات.

قوله: ﴿والخيل والبغال والحمير﴾ العامة على نصبها؛ نسقا على الأنعام، وقرأ ابن أبي عبلة برفعها على الابتداء، والخبر محذوف، أي: مخلوقة ومعدة لتركبوها، وليس هذا مما ناب فيه الجار مناب الخبر لكونه كونا خاصا.

قال القرطبي: «وسميت الخيل خيلا لاختيالها في مشيها، وواحد الخيل خائل، كضائن واحد ضأن. وقيل: لا واحد له، ولما أفرد – سبحانه وتعالى – الخيل، والبغال، والحمير، بالذكر؛ دل على أنها لم تدخل في لفظ الأنعام. وقيل: دخلت؛ ولكن أفردها بالذكر لما يتعلق بها من الركوب، فإنه يكثر في الخيل والبغال والحمير» .

قوله: «وزينة» في نصبها أوجه:

أحدها: أنه مفعول من أجله وإنما وصل الفعل إلى الأول باللام في قوله تعالى: ﴿لتركبوها﴾ وإلى هذا بنفسه

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٢/١٣

لاختلاف الشرط في الأول، وعدم اتحاد الفاعل، وأن الخالق الله والراكب المخاطبون.

الثاني: أنها منصوبة على الحال، وصاحب الحال إما مفعول «خلقها» وإما مفعول «لتركبوها» فهو مصدر، وأقيم مقام الحال.." (١)

"الثالث: أن ينتصب بإضمار فعل، فقدره الزمخشري – رحمه الله – وخلقها زينة.

وقدره ابن عطية وغيره: وجعلها زينة.

الرابع: أنه مصدر لفعل محذوف أي: «ولتتزينوا بها زينة» .

وقرأ قتادة عن ابن أبي عامر: «لتركبوها زينة» بغير واو، وفيها الأوجه المتقدمة؛ ويريد أن يكون حالا من فاعل «لتركبوها» متزينين.

فصل

لما ذكر منافع الحيوان التي ينتفع بها من المنافع الضرورية، ذكر بعده منافع الحيوانات التي ليست بضرورية فقال: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ ، والخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل.

واحتج القائلون بتحريم لحوم الخيل؛ وهو قول ابن عباس، والحكم، ومالك، وأبي حنيفة – رضي الله عنهم – بهذه الآية، قالوا: منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب، فلو كان أكل لحوم الخيل جائزا؛ لكان هذا المعنى أولى بالذكر، وحيث لم يذكره الله – تعالى – علمنا تحريم أكله.

ويقوي هذا الاستدلال: أنه قال – تعالى – في صفة الأنعام ﴿ومنها تأكلون﴾ وهذه الكلمة تفيد الحصر، فيقتضي أن لا يجوز الأكل من غير الأنعام فوجب أن يحرم أكل لحوم الخيل بمقتضى هذا الحصر.

ثم إنه – تعالى – ذكر بعد هذا الكلام الخيل والبغال والحمير، وذكر سبحانه أنها مخلوقة للركوب، وهذا يقتضي أن منفعة الأكل مخصوصة بالأنعام.

وأيضا قوله تعالى: ﴿لتركبوها﴾ يقتضي أن تمام المقصود من خلق هذه الأشياء الثلاثة، هو الركوب والزينة، ولو حل أكلها لما كان تمام المقصود من خلقها هو الركوب، بل كان حل أكلها أيضا مقصودا؛ وحينئذ يخرج جواز ركوبها عن أن يكون تمام المقصود؛ بل يصير بعض المقصود.

وأجاب الواحدي – رحمه الله –: بأنه لو دلت هذه الآية على تحريم أكل الخيل؛ لكان تحريم أكلها معلوما في مكة؛ لأن هذه السورة مكية.

ولو كان الأمر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين إن تحريم لحوم الحمر الأهلية كان عام خيبر

---

(١) اللباب في علوم الكت ا ب ابن عادل ١٦/١٢

باطلا؛ لأن التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم، لم يبق لتخصيص هذا التحريم بهذه [السنة] فائدة.

وأجاب غيره: بأنه ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم؛ بل المراد منه أن." [١]

"إلى الملك القرم وابن الهمام

... ... فصل

ذهب ابن مسعود، وابن عمر، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد إلى أن السكر الخمر، والرزق الحسن الخل والرب والتمر والزبيب.

قالوا: وهذا قبل تحريم الخمر؛ لأن هذه السورة مكية، وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة.

قال بعضهم: ولا حاجة إلى التزام النسخ؛ لأنه - تعالى - ذكر ما في هذه الأشياء من **المنافع**، وخاطب المشركين بها؛ لأنها من أشربتهم، فهي منفعة في حقهم.

ثم إنه - تعالى - نبه في هذه الآية أيضا على تحريمها؛ لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر، فوجب أن السكر لا يكون رزقا حسنا؛ وهو حسن بحسب الشهوة، فوجب أن يقال: بأن الرجوع عن كونه حسنا بحسب الشريعة، وإنما يكون كذلك إذا كانت محرمة.

ثم إنه - تعالى - لما ذكر هذه الوجوه التي هي دلائل على التوحيد من وجه، وتعديد للنعم العظيمة من وجه آخر - قال - جل ذكره -: ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ أي: من كان عاقلا، علم بالضرورة أن هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله تعالى -، فيحتج بأصولها على وجود الإله القادر الحكيم.." [٢]

"الثاني: أنه من عطف الصفات لشيء واحد، أي: جعل لكم بنين خدما، والحفدة: الخدم.

الثالث: أنه منصوب ب «جعل» مقدرة، وهذا عند من يفسر الحفدة بالأعوان والأصهار، وإنما احتيج إلى تقدير «جعل» ؛ لأن «جعل» الأولى مقيدة بالأزوا، والأعوان والأصهار ليسوا من الأزواج، والحفدة: جمع حافد؛ كخادم وخدم.

قال الواحدي - رحمه الله -: «ويقال في جمعه: الحفد بغير هاء؛ كما يقال: الرصد، ومعنى الحفدة في اللغة: الأعوان والخدم» .

وفيهم للمفسرين أقوال كثيرة، واشتقاقهم من قولهم: حفد يحفد حفدا وحفودا وحفدانا، أي: أسرع في الطاعة، وفي الحديث: «وإليك نسعى ونحفد» ، أي: نسرع في طاعتك؛ وقال الآخر: [الكامل]

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٢/١٧

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٢/١٠٩

٣٣٤٤ - حفد الولائد حولهن وأسلمت ... بأكفهن أزمة الأجمال

ويستعمل «حفد» أيضا متعديا؛ يقال: حفدني فهو حافد؛ وأنشد أيضا: [الرمل]

٣٣٤٥ - يحفدون الضيف في أبياتهم ... كرما ذلك منهم غير ذل

وحكى أبو عبيدة أنه يقال: أحفد رباعيا، وقال بعضهم: الحفدة الأصهار؛ وأنشد: [الطويل]

٣٣٤٦ - فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحت ... لها حفد مما يعد كثير

ولكنها نفس علي أبية ... عيوف لإصهار اللئام قذور

ويقال: سيف محتفد، أي: سريع القطع؛ وقال الأصمعي: أصل الحفد مقاربة الخطى.

قوله: ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ ولما ذكر إنعامه على عبيده بالمنكوح وما فيه من **المنافع** والمصالح، ذكر إنعامه عليهم بالمطعومات الطبية، و «من» في «من الطيبات» للتبعيض.

ثم قال ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنه - يعني: بالأصنام وقال." [١]

"عليهم أحد، ولولا أنه موجب للذل، وإلا لما كان الأمر كذلك، فلما كان الوطء ذلا، كان السعي في تقليله موافقا للعقول، فاقتصار المرأة الواحدة على الرجل الواحد سعي في تقليل ذلك العمل، وما فيه ن الذل يجبر **بالمنافع** الحاصلة.

وأما الزنا، فإنه فتح لباب العمل القبيح، ولا يجبر بشيء من **المنافع**، فيبقى على أصل المنع.

وإذا ثبت ذلك، فنقول: إنه تعالى وصف الزنا بصفات ثلاثة: كونه ﴿فاحشة ومقتا﴾ [النساء: ٢٢] في آية أخرى ﴿وسآء سبيلا﴾ أما كونه فاحشة؛ فلاشتماله على الأمور المذكورة، وأما المقت فلأن الزانية تصير ممقوتة مكروهة؛ لما ذكرنا.

وأما كونه ساء سبيلا: فهو ما ذكرنا من أنه لا يبقى فرق بين الإنسان وبين البهائن في عدم اختصاص الذكران بالإناث، وبقاء الذل والعيب والعار على المرأة من غير أن يجبر بشيء من **المنافع**.." [٢]

"الملائكة؛ لأن استحقاق الله العبادة معلوم، وكون الملك كذلك مجهول؛ والأخذ بالمعلوم أولى، وسلك المتكلمون من أهل السنة طريقة أخرى، وهو أنهم أقاموا الحجة العقلية على أنه لا موجد إلا الله تعالى، ولا يخرج الشيء من العدم إلى الوجود إلا الله، وإذا ثبت ذلك ثبت أنه لا ضار ولا نافع إلا الله تعالى، فوجب القطع بأنه لا معبود إلا الله تعالى، وهذه الطريقة لا تتم للمعتزلة، لأنهم لما جوزوا كون العبد

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١١٩/١٢

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٧١/١٢

موجدا لأفعاله امتنع عليهم الاستدلال على أن الملائكة – عليهم السلام – لا قدرة لها على الإحياء والإماتة، وخلق الجسم، وإذا عجزوا عن ذلك، لا يتم لهم هذا الدليل، فهذا هو الدليل القاطع على صحة قوله: ﴿فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا﴾ ، والتحويل عبارة عن النقل من حال إلى حال، ومن مكان إلى مكان، يقال: حوله، فتحول.

قوله

تعالى

: ﴿أولئك

الذين يدعون﴾ : «أولئك» مبتدأ، وفي خبره وجهان:

أظهرهما: أنه الجملة من «يبتغون» ويكون الموصول نعتا، أو بيانا أو بدلا، والمراد باسم الإشارة الأنبياء أو الملائكة الذين عبدوا من دون الله، والمراد بالواو العباد لهم، ويكون العائد على «الذين» محذوفا، والمعنى: أولئك الأنبياء الذين يدعونهم المشركون، لكشف ضرهم – أو يدعونهم آلهة، فمفعولها أو مفعولاها محذوفان – يبتغون.

ويجوز أن يكون المراد بالواو ما أريد بأولئك، أي: أولئك الأنبياء الذين يدعون ربهم أو الناس إلى الهدى يبتغون، فمفعول «يدعون» محذوف.

والثاني: أن الخبر نفس الموصول، و «يبتغون» على هذا حال من فاعل «يدعون» أو بدل منه. وقرأ العامة «يدعون» بالغيب، وقد تقدم الخلاف في الواو؛ هل تعود على الأنبياء أو على عابديهم، وزيد بن علي بالغيبة أيضا، إلا أنه بناه للمفعول، وقتادة، وابن مسعود بتاء الخطاب، وهاتان القراءتان تقويان أن الواو للمشركين، لا للأنبياء في قراءة العامة.

فسل

إذا أعدنا «يدعون» للعابدين، و «يبتغون» للمعبودين، فالمعنى: أولئك المعبودون يبتغون إلى ربهم الوسيلة؛ لأن الملائكة يرجعون غلى الله في طلب المنافع، ودفع المضار، يرجون رحمته، ويخافون عذابه، وإذا كانوا كذلك، كانوا عاجزين محتاجين، والله – تعالى أغنى الأغنياء، فكان الاشتغال [بعبادته] أولى.

فإن قيل: لا نسلم أن الملائكة محتاجون إلى رحمة الله تعالى، وخائفون من عذابه.." [1]

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٢/٣١٤

"وأما على الوجه الرابع: فيجوز أن تكون التامة والناقصة بالتقديم والتأخير؛ لعدم المحذور؛ لأن «مقاما» معمول لغير الصلة.

وقوله: «محمودا» في انتصابه وجهان:

أحدهما: أنه منصوب على الحال من قوله: يبعثك، أي: يبعثك محمودا.

والثاني: أن يكون نعتا للمقام.

فصل في معنى «عسى» من الله

اتفق المفسرون على أن كلمة «عسى» من الله واجب.

قال أهل المعاني: لأنه لفظ يفيد الإطماع، ومن أطمع إنسانا في شيء، ثم حرمه، كان عارا، والله تعالى أكرم من أن يطمع واحدا في شيء، ثم لا يعطيه.

وفي تفسير المقام المحمود أربعة أقوال:

الأول: أنه الشفاعة.

قال الواحدي: أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية: «هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه» .

قال ابن الخطيب: واللفظ مشعر به؛ لأن الإنسان إنما يصير محمودا إذا حمده حامد، والحمد، إنما يكون على الإنعام، فهذا المقام المحموج يجب أن يكون مقاما أنعم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم، فحمدوه على ذلك الإنعام، وذلك الإنعام لا يجوز أن يكون تبليغ الدين، وتعليم الشرائع؛ لأن ذلك كان حاصلا في الحال، وقوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك﴾ تطميع، وتطميع الإنسان في الشيء الذي حصل له وعده محال؛ فوجب أن يكون ذلك الإنعام الذي لأجله يصير محمودا إنعاما يصل منه بعد ذلك إلى الناس، وما ذاك إلا شفاعته عند الله تعالى.

وأيضا: التنكير في قوله: ﴿مقاما محمودا﴾ يدل على أنه يحصل للنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل، ومن المعلوم أن حمد الإنسان على سعيه في التخليص من العذاب أعظم من حمده في السعي في زيادة الثواب؛ لأنه لا حاجة به إليها؛ لأن حاجة الإنسان في رفع الآلام العظيمة عن النفس فوق احتياجه إلى تحصيل **المنافع** الزائدة التي لا حاجة به إلى تحصيلها، وإذا." (١)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦٣٣/٢١

"قوله: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ الآية.

قال القاضي: وجه النظم كأنه يقول: يا محمد، إني خلقت الأرض، وزينتها، وأخرجت منها أنواع **المنافع** والمصالح، وأيضا، فالمقصود من خلقها بما فيها من المصالح ابتلاء الخلق بهذه التكاليف، ثم إنهم يكفرون ويتمردون، ومع ذلك، فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم، فأنت أيضا يا محمد لا يهمك الحزن؛ بسبب كفرهم إلى أن تترك الاشتغال بدعوتهم إلى الدين.

قوله: ﴿زينة﴾ : يجوز أن ينتصب على المفعول له، وأن ينتصب على الحال، إن جعلت «جعلنا» بمعنى «خلقنا» ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا، إن ك انت «جعل» تصييرية، و «لها» متعلق ب «زينة» على العلة، ويجوز أن تكون اللام زائدة في المفعول، ويجوز أن تتعلق بمحذوف صفة ل «زينة» .

وقوله: «لنبلوهم» متعلق ب «جعلنا» بمعنييه.." (١)

"أي: لا امتياز بيني وبينكم في شيء من الصفات إلا في أن الله تعالى، أوحى إلي أنه لا إله غلا هو الواحد الأحد.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: علم الله - عز وجل - رسوله صلى الله عليه وسلم التواضع، فأمره أن يقر، فيقول: أنا آدمي مثلكم إلا أني خصصت بالوحي.

قوله: ﴿أنمآ إلهكم إله واحد﴾ وهو يدل على مطلوبين:

أحدهما: أن كلمة «أنما» تفيد الحصر.

والثاني: كون الإله واحدا.

قوله: ﴿أنمآ إلهكم﴾ : «أن» هذه مصدرية، وإن كانت مكفوفة ب «ما» وهذا المصدر قائم مقام الفاعل؛ كأنه قيل: إنما يوحى إلي التوحيد.

قوله: ﴿فمن كان يرجوا لقآء ربه﴾ .

الرجاء: هو ظن **المنافع** الواصلة، والخوف: ظن المضار الواصلة إليه، فالرجاء هو الأمل.

وقيل: معنى «يرجو لقاء ربه» أي: يخاف المصير إليه، فالرجاء يكون بمعنى الخوف، والمل جميعا؛ قال الشاعر: [الطويل]

٣٥٧٦ - فلا كل ما ترجو من الخير كائن ... ولا كل ما ترجو من ا لشر واقع

فجمع بين المعنيين، وأهل السنة حملوا لقاء الرب على رؤيته. والمعتزلة حملوه على لقاء ثواب الله.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٢/٤٢٦

قوله تعالى: ﴿فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ .

قرأ العامة: «ولا يشرك» بالياء من تحت، عطف نهي على أمر، وروي عن أبي عمرو «ولا تشرك» بالتاء من فوق؛ خطابا على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ثم التفت في قوله «بعبادة ربه» إلى الأول، ولو جيء على الالتفات الثاني، لقيل: «ربك» والباء سببية، أي: بسبب. وقيل: بمعنى «في» .

فصل في ورود لفظ الشرك في «القرآن الكريم»

قال أبو العباس المقري: ورد لفظ الشرك «في القرآن بإزاء معنيين:

الأول: بمعنى الشرك في العمل؛ كهذه الآية.

الثاني: بمعنى العدل؛ قال تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ [النساء: ٣٦] . أي: ولا تعدلوا به شيئا.." (١)

"محبة في الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله - تعالى - ينزلها على أهل السماء، ثم على أهل الأرض. وتصديق ذلك في القرآن قوله: ﴿سيجعل لهم الرحمن ودا﴾ . وقال أبو مسلم: معناه يهب لهم ما يحبون. والود والمحبة سواء، يقال: آتيت فلانا محبته، وجعلت له وده، ومن كلامهم: يود لو كان كذا،» وودت أن لو كان كذا أي أحببت «، فالمعنى: سيعطيهم الرحمن ودهم، أي: محبوبهم في الجنة.

والقول الأول أولى، لتفسير الرسول - عليه السلام -، ولأن حمل المحبة على المحبوب مجاز،» ولأن رسول الله قرأ هذه الآية وفسرها بذلك فكانت أولى «.

قال أبو مسلم: القول الثاني أولى لوجوه:

أحدها: كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم التقي يبغضه الكفار، وقد يبغضه كثير من المسلمين.

وثانيها: أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر، فكيف يمكن جعله إنعاما في حق المؤمنين؟

وثالثها: أن محبتهم في قلوبهم من فعلهم لا أن الله - تعالى - فعله، فكان حمل الآية على إعطاء المنافع الأخروية أولى.

وأجيب عن الأول: بأن المراد يجعل له محبة عند الملائكة والأنبياء.

وعن الثاني: ما روي عنه - عليه السلام -: أنه حكى عن ربه - سبحانه وتعالى - أنه قال:» وإذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته «في نفسي، وإن ذكرني) في ملأ ذكرته في ملأ أطيب منهم وأفضل» والكافر والفاسق

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٧٩/١٢

ليسا كذلك.

وعن الثالث: أنه محمول على فعل الألطاف، وخلق داعية إكرامه في قلوبهم.." (١)

"رعى) يكون لازما ومتعديا، يقال: رعى دابته رعيا فهو راع، ورعى الدابة ترعى رعيا فهي راعية، وجاء في الآية متعديا، و «النهى» فيه قولان: أحدهما أنه جمع نهية كغرف جمع غرفة.

والثاني: أنها اسم مفرد، وهو مصدر كالهدى والسرى، قاله أبو علي وقد تقدم أول الكتاب أنهم قالوا لم يأت مصدر على «فعل» من المعتل اللام إلا سرى وهدى وبكى، وأن بعضهم زاد لقى، وأنشد عليه بيتا.

وهذا لفظ فيكون خامسا. والنهى: العقل سمي لعقل به، لأنه صاحبه عن ارتكاب القبائح.

فصل

لما ذكر موسى - عليه السلام - الدلالة الأولى، وهي (دلالة عامة «تتناول جميع المخلوقات من الحيوان والنبات والجماد ذكر بعده دلائل خاصة فقال:» الذي جعل لكم الأرض مهادا «أي جعلها بحيث يتصرف العباد، وغيرهم عليها من النوم، والقعود، والقيام، والزراعة، وجميع المنافع المذكورة في تفسير قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا﴾ [البقرة: ٢٢] .

﴿وسلك لكم فيها سبلا﴾ السلك: إدخال الشيء في الشيء، أي: أدخل في الأرض لأجلكم طرقا تسلكونها.

قال ابن عباس: سهل لكم فيها طرقا. ﴿وأنزل من السمآء مآء﴾ تقدم الكلام فيه في البقرة» فأخرجنا به أزواجا «تقدم أن هذا من كلام موسى تقديره: يقول ربي الذي." (٢)

"جعل كذا وكذا» فأخرجنا «نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراسة» أزواجا من نبات «.

وتقدم أن الصحيح أنه من كلام الله تعالى، لأن ما بعده لا يليق بموسى - عليه السلام -، ولأن أكثر ما في قدرته صرف المياه إلا سقي الأراضي والحراسة، فأما إخراج لنبات على أصناف طبائعه وألوانه وأشكاله فليس من موسى عليه السلام، فثبت أنه كلام الله تعالى.

وقوله:» أزواجا «أي أصنافا سميت بذلك، لأنها مزدوجة مقترنة بعضها ببعض.» شتى «مختلفة الألوان والطعوم والمنافع بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم.

» كلوا «أمر إباحة.» وارعوا أنعامكم «تقول العرب: رعيت الغنم فرعت أي أسيموا أنعامكم ترعى.» إن في

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٣/١٦٠

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٣/٢٧٨

ذلك «أي فيما أنزلت لكم من هذه النعم» لآيات «لعبرة ودلالات.» لأولي النهى «لذوي العقول.

(قال الضحاك) » لأولي النهى «الذي ينتهون عما حرم الله عليهم.

وقال قتادة: لذوي الورع.

قوله تعالى:» منها خلقناكم «الآية، لما ذكر منافع الأرض السماء بين أنها غير مخلوقة لذواتها، بل بكونها وسائل إلى منافع الآخرة، فقال:» منها خلقناكم «أي من الأرض.

فإن قيل: إنما خلقنا من النطفة على ما بين في سائر الآيات.

فالجواب من وجوه:

الأول: أنه لما خلق أصلنا وهو آدم - عليه السلام - من تراب كما قال تعالى: ﴿كمثل آدم خلقه من تراب﴾ [آل عمران: ٥٩] حسن إطلاق ذلك علينا.

الثاني: أن تولد الإنسان إنما هو من النطفة ودم الطمث، وهما يتولدان من." (١)

"الأصوات المطربة، ويشم من الروائح الطيبة، وغير ذلك من الملابس والمناكح، يقال: أمتعه ومتعه تمتيعا، والتفعيل يقتضي التكثير. ومعنى الزهرة فيمن حرك الزينة والبهجة، كما جاء في الجهرة قرئ» أرنا الله جهرة﴾ . وقيل: جمع زاهر وصفا لهم بأنهم زهرة هذه الحياة الدنيا لصفاء ألوانهم وتهلل وجوههم بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الألوان والتقشف في الثياب. ومعنى «نفتنهم» نعذبهم كقوله: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ [التوبة: ٥٥] .

وقال ابن عباس: لنجعل ذلك فتنة لهم بأن أزيد لهم في النعمة فيزيدوا كفرا وطغيانا. ثم قال: «ورزق ربك» في المعاد يعني في الجنة «خير وأبقى» أي: خير من مطلوبهم وأبقى، لأنه يدوم ولا ينقطع، وليس كذلك حال ما أتوه في الدنيا.

ويحتمل أن ما أوتيته من يسير الدنيا إذا قرنته بالطاعة، ورضيت به، وصبرت عليه كانت عاقبته خيرا لك. ويحتمل أن يكون المراد ما أعطي من النبوة والدرجات الرفيعة. قوله: ﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ أي: قومك. وقيل: من كان على دينك كقوله تعالى: ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة﴾ [مريم: ٥٥] وحمله بعضهم على أقاربه. «واصطبر عليها» أي: اصبر على الصلاة وحافظ عليها فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد نزول هذه الآية يذهب إلى فاطمة وعلي - عليهما السلام - في كل صباح ويقول: «الصلاة» . ثم بين تعالى أنما أمرهم بذلك لنفعهم وأنه متعال عن **المنافع**، فقال: ﴿لا نسألك

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٣/٢٧٩

رزقا﴾ أي: لا نكلفك أن ترزق أحدا من خلقنا، ولا أن ترزق نفسك، وإنما نكلفك عملا ففرغ بالك لأمر الآخرة،." (١)

"قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السمآء والأرض﴾ الآية. اعلم أنه لما بين إهلاك القرية لأجل تكذيبهم أتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلا منه، ومجازاة على ما فعلوا فقال: ﴿وما خلقنا السمآء والأرض وما بينهما لاعبين﴾ أي: وما سوينا هذا السقف المرفوع، وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب كما سوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم للعب واللهو، وإنما سويناهم لفوائد دينية ودنيوية. أما الدينية فليتفكر المكلفون فيها على ما قال: ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾ [آل عمران: ١٩١] . وأما الدنيوية فلما يتعلق بها من **المنافع** التي لا تعد ولا تحصى، وهو كقوله: ﴿وما خلقنا السمآء والأرض وما بينهما باطلا﴾ [ص: ٢٧] وقوله: ﴿ما خلقناهمآ إلا بالحق﴾ [الدخان: ٣٩] . وقيل: وجه النظم أن الغر منه تقرير نبوة محمد - عليه السلام - والرد على منكريه، لأنه أظهر المعجز عليه، فإن كان محمد كاذبا كان إظهار المعجز عليه من باب اللعب، وذلك منفي عنه، وإن كان صادقا فهو المطلوب وحينئذ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن و «لاعبين» حال من فاعل «خلقنا» .

فصل

قال القاضي عبد الجبار: دلت هذه الآية على أن اللعب ليس من قبله تعالى، إذ لو كان كذلك لكان لاعبا، فإن اللاعب في اللغة اسم لفاعل اللعب، فنفي الاسم الموضوع لفعل يقتضي نفي الفعل. والجواب يبطل ذلك بمسألة الداعي، وقد تقدم. قوله: ﴿لو أردنآ أن نتخذ لهوا﴾ .

قال ابن عباس: في رواية عطاء: اللهو: المرأة، وهو قول الحسن وقتادة وقال في رواية الكلبي: اللهو: الولد بلغة اليمن، وهو قول السدي. وهو في المرأة أظهر، لأن الوطأ يسمى لهوا في اللغة، والمرأة محل الوطأ.." (٢)

"قوله تعالى: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا﴾ الآية. لما بين في الآية السالفة حال عباده المنافقين وحال معبودهم، وأن معبودهم لا ينفع ولا يضر بين هاهنا صفة عباده المؤمنين وصفة معبودهم، وأن عبادتهم حقيقة، ومعبودهم يعطهم أعظم **المنافع** وهو الجنة، التي من كمالها جمعها بين الزرع والشجر وأن تجري من تحتها الأنهار، وبين أنه يفعل ما يريد بهم من أنواع الفضل والإحسان زيادة على أجورهم كما قال تعالى

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٣٠/١٣

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٦٠/١٣

﴿فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ [النساء: ١٧٣] . واحتج أهل السنة في خلق الأفعال بقوله: ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾ قالوا: أجمعنا على أنه تعالى يريد الإيمان، ولفظة «ما» للعموم فوجب أن يكون فاعلا للإيمان لقوله: ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾ .

وأجاب عنه الكعبي بأن الله تعالى يفعل ما يريد أن يفعله (لا ما يريد أن يفعله) غيره.

وأجيب: بأن هذا تقييد للعموم وهو خلاف النص.

قوله: ﴿من كان يظن﴾ . «من» يجوز أن تكون شرطية وهو الظاهر، وأن تكون موصولة، والضمير في «ينصره» الظاهر عوده على «من» ، وفسر النصر بالرزق، وقيل يعود على الدين والإسلام فالنصر على بابه. قال ابن عباس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدي واختيار الفراء والزجاج: أن الضمير في «ينصره» يرجع إلى محمد - عليه السلام - يريد أن من ظن أن لن ينصر الله محمدا في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته، والانتقام ممن كذبه، والرسول - عليه السلام - وإن لم يجر له ذكر في هذه." [١]

"**المنافع**: هي العفو والمغفرة وقال سعيد بن جبير: التجارة، وهي رواية ابن زيد.

وعن ابن عباس قال: الأسواق. وقال مجاهد: التجارة وما يرضى الله به من أمر الدنيا والآخرة. ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾ قال الأكثرون: هي عشر ذي الحجة قيل لها «معلومات» للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها.

والمعدودات: أيام التشريق. وروي عن علي: أنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده، وهو اختيار الزجاج. لأن الذكر على «بهيمة الأنعام» يدل على التسمية على نحرها. والنحر للهدايا إنما يكون في هذه الأيام. وروى عطاء عن ابن عباس: أنها يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق. وقيل: عبر عن الذبح والنحر بذكر اسم الله؛ لأن المسلمين لا ينفكون عن ذكر اسم الله إذا نحروا. ثم قال: ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ يعني الهدايا والضحايا تكون من النعم، وهي الإبل والبقرة والغنم. قال الزمخشري: البهيمة المبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر، فبينت بالأنعام وهي: الإبل والبقر والغنم.

قوله: «فكلوا منها» . قيل: هذا أمر وجوب، لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئا ترفقا على الفقراء.

وقيل: هذا أمر إباحة. واتفق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعا كان للمهدي أن يأكل منه، وكذلك

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/٣٧

أضحية التطوع؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر أن يؤخذ من كل جزور بضعه، فطبخت، وأكل لحمها، وحسي من مرقها، وكان هذا تطوعا. واختلفوا في الهدي الواجب في النذور والكفارات والجبرانات للنقصان مثل دم القران ودم التمتع ودم الإساءة ودم التقليم والحلق، والواجب بإفساد الحج وفواته وجزاء الصيد. فقال الشافعي وأحمد: لا يأكل منه. وقال ابن عمر: لا." (١)

"بها. وقيل: في بهيمة الأنعام، وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك. ورواه مقسم عن ابن عباس. وعلى هذا **فالمنافع** درها ونسلها وأصوافها وأوبارها وركوب ظهرها إلى أجل مسمى، وهو أن يسميها ويوجبها هديا؛ فإذا فعل ذلك لم يكن له شيء من منافعها.

وروي عن ابن عباس أن في البدن منافع مع تسميتها هديا بأن تركبوها إن احتجتم إليها، وتشربوا لبنها إن احتجتم إليه، إلى أجل مسمى إلى أن تنحروها. وهذا اختيار الشافعي ومالك وأحمد وإسحاق، وهو أولى؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - «مر برجل يسوق بدنة وهو في جهد، فقال عليه السلام:» اركبها «. فقال يا رسول الله إنها هدي. فقال:» اركبها ويلك «قال عليه السلام:» اركبوا الهدي بالمعروف حتى تجدوا ظهرا «واحتج أبو حنيفة على أنه لا يملك من منافعها بأنه لا يجوز له أن يؤجرها للركوب فلو كان مالكا لمنافعها لملك عقد الإجارة عليها كمنافع سائر المملوكات. وأجيب بأن هذا قياس في معارضة النص فلا عبرة به، وأيضا فإن أم الولد لا يملك بيعها ويمكنه الانتفاع بها فكذا ههنا. ومن حمل **المنافع** على سائر الواجبات يقول:» لكم فيها «أي: في التمسك بها منافع إلى أجل ينقطع التكليف عنده.

والأول قول جمهور المفسرين لقوله: ﴿ثم محلهآ إلى البيت العتيق﴾ أي: لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم وأعظم هذه **المنافع** محلها إلى البيت العتيق، أي: وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت كقوله ﴿هديا بالغ الكعبة﴾ [المائدة: ٩٥] .

وقوله:» محلها «يعني حيث يحل نحرها، وأما» البيت العتيق «فالمراد به الحرم كله لقوله: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة: ٢٨] أي: الحرم كله، فالمنحر على هذا القول مكة، ولكنها نزهت عن الدماء إلى منى، ومنى من مكة قال عليه السلام:»." (٢)

"قوله: ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/٧٥

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/٨٦

فإن قيل: ما الحكمة في الموت، وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم الدنيا فيكون ذلك في الإنعام أبلغ؟
فالجواب هذا كالمفسدة في حق المكلفين لأنه متى عجل للمرء الثواب فيما يتحمله من المشقة في الطاعات صار إتيانه بالطاعات لأجل تلك **المنافع** لا لأجل طاعة الله بدليل أنه لو قيل لمن يصوم: إذا فعلت ذلك أدخلناك الجنة في الحال فإنه لا يأتي بذلك الفعل إلا لطلب الجنة، فلا جرم أخره وبعده بالإماتة، وهو الإعادة، ليكون العبد عابدا لطاعته لا لطلب الانتفاع.

فإن قيل: هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر، لأنه قال: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ ولم يذكر بين الأمرين الإحياء في القبر والإماتة.

فالجواب من وجهين:

الأول: أنه ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة.

والثاني: أن الغرض من ذكر هذه الأجناس الثلاثة الإحياء والإماتة والإعادة والذي ترك ذكره فهو من جنس الإعادة.." (١)

"الخير والبركة، فالمذكور عقيبه لا بد وأن يكون سببا لكثرة الخير **والمنافع**، والإنذار يوجب الغم والخوف، فكيف يليق ذكره بهذا الموضع؟ فالجواب: أن الإنذار يجري مجرى تأديب الولد، كما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر (كان الإحسان إليه أكثر، لما أن ذلك يؤدي في المستقبل إلى **المنافع** العظيمة، فكذا ههنا كلما كان الإنذار كثيرا) كان رجوع الخلق إلى الله أكثر، وكانت السعادة الأخروية أتم وكثر، وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات إلى **المنافع** العاجلة؛ لأنه تعالى لما وصف نفسه بأنه معطي الخيرات الكثيرة لم يذكر إلا منافع الدين، ولم يذكر منافع الدنيا البتة.

قوله: ﴿الذي له ملك﴾ يجوز في «الذي» الرفع نعتا للذي الأول، أو بيانا، أو بدلا، أو خبرا لمبتدأ محذوف، أو النصب على المدح.

وما بعد بدل من تمام الصلة فليس أجنبيا، فلا يضر الفصل به بين الموصول الأول والثاني إذا جعلنا الثاني تابعا له.

فصل

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه حال حدوثها، وأنه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/١٨٥

﴿ولم يتخذ ولدا﴾ أي: هو الفرد أبدا، ولا يصح أن يكون غيره معبودا ووارثا للملك عنه، وهذا رد على النصارى. ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ أي: هو المنفرد بالإلهية، وإذا عرف العبد ذلك انقطع رجاؤه عن كل ما سواه، ولم يشتغل قلبه إلا برحمته وإحسانه، وفيه رد على الثنوية، والقائلين بعبادة النجوم والأوثان.

قوله: ﴿وخلق كل شيء﴾ الخلق هنا عبارة عن الإحداث والتهيئة لما يصلح له، لا." (١)

"وقوله: ﴿إلا من شآء أن يتخذ إلى ربه سبيلا﴾ استثناء منقطع معناه: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بإنفاق ماله في سبيله فعل ذلك.

والمعنى: لا أسألكم لنفسي أجرا، ولكن لا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل إلى جنته.

قوله: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ الآية. لما تبين أن الكفار يتظاهرون على إيذائه، وأمره أن لا يطلب منهم أجرا، أمره بأن يتوكل عليه في دفع جميع المضار، وفي جلب جميع **المنافع**، وإنما قال: ﴿على الحي الذي لا يموت﴾ ، لأن من توكل على الحي الذي يموت فإذا مات المتوكل عليه صار المتوكل ضائعا، وأما الله تعالى فهو حي لا يموت فلا يضيع المتوكل عليه.

«وسبح بحمده» قيل: المراد بالتسبيح الصلاة. وقيل: قل سبحان الله والحمد لله. ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيرا﴾ عالما، وهذه كلها يراد بها المبالغة، يقال كفى بالعلم جمالا، وكفى بالأدب مالا وهو بمعنى حسبك، أي لا يحتاج معه إلى غيره، لأنه خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وهذا وعيد شديد.." (٢)

"قوله تعالى: ﴿الذي خلق السماوات والأرض﴾ الآية. لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بأمور منها: أنه حي لا يموت، وأنه عالم بجميع المعلومات بقوله ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيرا﴾ [الفرقان: ٥٨] ومنها أنه قادر على كل الممكنات، وهو قوله: ﴿الذي خلق السماوات والأرض﴾ وهذا متصل بقوله: ﴿الحي الذي لا يموت﴾ [الفرقان: ٥٨] لأنه سبحانه لما كان خالقا للسموات والأرض ولكل ما بينهما ثبت أنه القادر على جميع **المنافع** ودفع المضار، وأن النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل إلا عليه. و «الذي خلق» يجوز أن يكون مبتدأ، و «الرحمن» خبره، وأن يكون خبر مبتدأ مقدر، أي: هو الذي." (٣)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٧٤/١٤

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٥٤/١٤

(٣) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٥٤/١٤

"نفسه بهذين الأمرين في قوله: ﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾ [الأعلى: ٢ - ٣] .
وقال: «خلقني» بلفظ الماضي، لأن خلق الذات لا يتجدد في الدنيا، بل لما وقع بقي إلى الأمد المعلوم.
وقال: «فهو يهدين» بلفظ المستقبل، لأن الهداية مما تتكرر كل حين وأوان، سواء كانت تلك الهداية من **المنافع** الدنياوية بتمييز الناف عن الضار، أو من المنافق الدينية بتمييز الحق عن الباطل والخير عن الشر.
قوله: ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾ . يجوز أن يكون مبتدأ وخبره محذوف وكذلك ما بعده، ويجوز أن تكون أوصافا ل «الذي خلقني» ودخول الواو جائز، وقد تقدم تحقيقه في أول البقرة كقوله:
٣٩١١ - إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم
وأثبت ابن إسحاق - وتروى عن عاصم أيضا - ياء المتكلم في: «يسقين، ويشفين، ويحيين» .
فصل
المعنى: يرزقني ويغدوني بالطعام والشراب، ونبه بذكر الطعام والشراب على ما عداهما.
قوله: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ أضاف المرض إلى نفسه، وإن كان المرض والشفاء كله من الله استعمالا لحسن الأدب كما قال الخضر: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ [." (١)
"قوله: ﴿أما ذا كنتم تعملون﴾ حين لم يتفكروا فيها، كأنه قال: ما لم تشتغلوا بذلك العمل المهم فأي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك ثم قال: ﴿ووقع القول عليهم﴾ ، أي: وجب العذاب الموعود عليهم «بما ظلموا» ، أي بسبب ظلمهم وتكذيبهم بآيات الله، ويضعف جعل «ما» بمعنى الذي ﴿فهم لا ينطقون﴾ ، قال قتادة، كيف ينطقون ولا حجة لهم، نظيره قوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات: ٣٥ - ٣٦] ، وقيل: «لا ينطقون» لأن أفواههم مختومة. ثم إنه تعالى لما خوفهم بأحوال القيامة ذكر كلاما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة، مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان والمنع من الكفر، فقال: ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ مضيئا يبصر فيه.
قوله: «ليسكنوا فيه» قيل: فقيه حذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول، إذا التقدير: جعلنا الليل و «لتتصرفوا» لدلالة «ليسكنوا» . وقوله: «مبصرا» كقوله: ﴿آية النهار مبصرة﴾ [الإسراء: ١٢] ، وتقدم تحقيقه في الإسراء، قال الزمخشري: فإن قلت: ما للتقاليل لم يراع في قوله: «ليسكنوا» و «مبصرة» حيث كان أحدهما علة، والآخر حالا؟ قلت: هو مراعى من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف يريد لم لا قال: والنهار لتتصرفوا فيها، وأجاب غيره بأن السكون في

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٤٣

الليل هو المقصود (من الليل وأما الإبصار في النهار فليس هو المقصود) لأنه وسيلة إلى جلب **المنافع** الدينية والدنيوية. ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ يصدقون فيعتبرون، وخص المؤمنين بالذكر - وإن كانت الأدلة للكل - لأن المؤمنين هم المنتفعون، كقوله: ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة: ٢] .." (١)

"يقال: أجرت فلانا عن عمله كذا أي: أثبته، والله يأجر العبد أي؛ يثيبه، والمستأجر يثيب المأجور عوضا عن بذل **المنافع**. قال الواحدي: قال المبرد: يقال أجرت داري ومملوكي غير ممدود، وآجرت ممدود قال المبرد: والأول أكثر) .

قوله: ﴿ومآ أريد أن أشق عليك﴾ أي؛ ألزمك تمام العشر. وأن أشق، مفعول «أريد» وحقيقة قولهم: شق عليه أي: شق ظنه نصفين فتارة يقول أطيق، وتارة لا أطيق، وهو من أحسن مجاز.

قوله ﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ قال عمر: أي في حسن الصحبة والوفاء ولين الجانب. وقيل: أراد الصلاح على العموم، وإنما قال ﴿إن شاء الله﴾ للاتكال على توفيقه ومعونته، فإن قيل: كيف ينعقد العقد بهذا الشرط، ولو قلت أنت طالق إن شاء الله لا تطلق؟ فالجواب: هذا ما يختلف بالشرائع.

قوله: «ذلك» مبتدأ، والإشارة به إلى ما تعاقد عليه، والظرف خبره، وأضيفت «بين» لمفرد لتكررها عطفا بالواو، فإن قلت: المال بين زيد فعمرو لم يجز، وأما قوله:

٣٩٨٩ - بين الدخول فحومل ... فكان الأصمعي يأباها، ويوري «وحوامل» بالواو، والصحيح بالفاء، وول البيت على أن الدخول وحومل مكانان كل منهما مشتمل على أماكن، نحو قولك: داري بين مصر، لأنه يريد به المكان الجامع، والأصل ذلك بيننا ففرق بالعطف.

قوله: «أيما الأجلين» أي شرطية وجوابها «فلا عدوان علي» . وفي «ما» هذه قولان:

أشهرهما: أنها زائدة، كزيادتها في أخواتها من أدوات الشرط.." (٢)

"قوله: ﴿ومآ أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾ ، أي فهو متاع، وقرىء فمتاعا الحياة بنصب «متاعا» على المصدر، أي: يتمتعون متاعا، «والحياة» نصب على الظرف، والمعنى: يتمتعون بها أيام حياتهم ثم هي إلى فناء وانقضاء ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ ، هذا جواب عن شبهتهم فإنهم إن قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا، فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم، لأن ما عند الله خير وأبقى (أما أنه خير) فلوجهين: الأول: أن **المنافع** هناك أعظم، والثاني: أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار، بل المضار

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٠٥/١٥

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٤٤/١٥

فيها أكثر، وأما أنها أبقى، فلأنها دائمة غير منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدما فظهر بذلك أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة، فلا جرم نبه على ذلك فقال: «أفلا تعقلون» أن الباقي خير من." (١)

"الجعل تصييرا، أو حال إن كان خلقا وإنشاء، والسرمد: الدائم الذي لا ينقطع قال طرفة:

٤٠١٥ - لعمرك ما أمري علي بغمة ... نهاري ولا ليلي علي بسرمد

والظاهر أن ميمه أصلية، ووزنه فعلل كجعفر، وقيل: هي زائدة واشتقاقه من السرد، وهو تتابع الشيء على الشيء، إلا أن زيادة الميم وسطا وآخرا لا تنقاس نحو: دلام، وزرقم، من الدلا والزرقة.

قوله: «إلى يوم» متعلق ب «يجعل» أو ب «سرمدا» أو بمحذوف على أنه صفة ل «سرمدا» وإنما قال: «أفلا تسمعون» ، «أفلا تبصرون» ، لأن الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر، فلما لم ينتفعوا أنزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر، قال المفسرون: «أفلا تسمعون» سماع فهم «أفلا تبصرون» ما أنتم عليه من الخطأ والضلال.

وقال الزمخشري: فإن قيل هلا قيل بنهار يتصرلإون فيه كما قيل بليل تسكنون فيه، قلنا: ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق بها متكاث‌رة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة، وإنما قرن بالضياء «أفلا تسمعون» لن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل «أفلا تبصرون» لن غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه.." (٢)

"خير﴾ إلا الصابرون) على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات، وعلى الرضا بضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار.

قوله: ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ المشهور كسر هاء الكناية في به وبداره لأجل كسر ما قبلها. وقرىء بضمها وقد تقدم أنها الأصل، وهي لغة الحجاز.

فصل

قيل: لما أشر وبطر وعتا خصف الله به وبداره الأرض جزاء على عتوه وبطره، والفاء تدل على ذلك، لأن الفاء تشعر بالعلية. وقيل: إن قارون كان يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٧٧/١٥

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٨٥/١٥

بينهما، حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم، وعن كل ألف شاة على شاة، فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه، فجمع بني إسرائيل وقال إن موسى يريد أن يأخذ أخوالكم، فقالوا: أنت كبيرنا فمرنا بما شئت فقال: ائتوا بفلانة البغي فنجعل لها جعلا حتى تقذف موسى بنفسها، فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل ؤرفضوه فدعوها فجعل لها قارون شطتا من ذهب مملوءا ذهبا، وقال لها: إن أمولك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غدا إذا حضر بنو إسرائيل، فلما كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل، ثم أتى موسى فقال إن بني إسرائيل ينتظرون خروجك فتأمرهم وتنهاهم، فخرج إليهم موسى وهم في براح من الأرض، فقام فيهم فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة، ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة، (ومن زنى وله) امرأة رجمناه حتى يموت، فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، قال: ادعوها فإن قالت فهو كما قالت: فلما جاءت قال لها موسى: يا فلانة أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء؟ وناشهدها بالذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصطق فتداركها الله فقالت في نفسها: أحدث اليوم توبة أفضل من أن أؤذي رسول الله، فقالت: لا، كذبوا بل جعل لي قارون جعلا على أن أقذفك بنفسي، فخر موسى ساجدا يبكي، وقال: يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي، فأوحى الله إليه ان مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك، قال: يا بني." (١)

"وحركة السجود عند كونه للجمع حركة معتبرة من حيث إن الجمع مشتق من الواحد وينبغي أن يلحق الشمتق تغيير في حرف أو حركة أو في مجموعهما، فساجد لما أردنا أن يشتق منه لفظ جمع غيرناه وجئنا بلفظ السجود فإذن السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الألفاظ المشتركة التي وضعت بحركة واحدة لمعنيين. وإذا عرف هذا فنقول «الفلك» عند كونه واحدا مثل: «قفل وبرد» وعند كونها جمعا مثل خشب أو برد أو غيرهما.

فإن قيل: فإذا جعلته جمعا ما يكون واحدها؟ .

فالجواب: نقول جاز أن يكون واحدها فلكة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء لم يستعمل وكذا القول في: «إمام مبين» إمام كزمام وكتاب عند قوله تعالى: ﴿كل أناس بإمامهم﴾ [الإسراء: ٧١] أي بأئمتهم إمام كسهام وحفان، وهذا من دقيق التصريف. وأما من جهة المعنى ففيه سؤالات:

السؤال الأول: قال ههنا: «حملنا ذريتهم» من عليهم بحمل ذرياتهم وقال تعالى:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٩٥/١٥

﴿إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية﴾ [الحاقة: ١١] من عليهم هناك بحمل أنفسهم.
فالجواب: أن من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ومن يدفع الضر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضر عن ذلك الغير بل يكون قد نفعه كمن أحسن إلى ولد إنسان وفرحة فرح بفرحه أبوه وإذا دفع الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباه ولا يكون في الحقيقة أزال الألم عن أبيه فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال: دفعت وههنا عنكم الضرر ولو قلا: دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بين دفع الضرر عنهم وههنا أراد بيان **المنافع** فقال: «حملنا ذرياتهم» لأن النفع حاصل بنفع الذرية، ويدل على هذا قوله: «في الفلك المشحون» فإن امتلأ الفلك من الأموال يحصل (بذكره)." [١]

"وقرأ الضحاك برفعهما على أحد وجهين، إما النعت» لقانت «وإما أنها خبر عبد خبر.
قوله: ﴿يحذر الآخرة﴾ يجوز أن يكون حالا من الضمير في» قانت «وأن يكون حالا من الضمير في» ساجدا «و» قائما «وأن يكون مستأنفا جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل: ما شأنه يقنت آناء الليل ويتعب نفسه ويكدها؟ فقيل: يحذر الآخرة ويرجو رحمه ربهن أي عذاب الآخرة. وفي الكلام حذف، والتقدير كمن لا يفعل شيئا من ذلك، وإنما حسن هذا الحذف دلالة ذكر الكافر قبل هذه الآية وذكر بعدها ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ والتقدير: هل يستوي الذين يعملون وهم الذين صفتهم أنهم يقنتون آناء الليل ساجدا وقائما والذين لا يعملون وهم الذين صفتهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغ يشركون، وإنما وصف الله الكفار بأنهم لا يعلمون لأنه تعالى وإن آتاهم آلة العلم إلا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم فلذها جعلهم الله كأنهم ليسوا أولي الألباب من حيث إنهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم.
قوله: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ قيل: الذين يعلمون» عمار «والذين لا يعملون أبو حذيفة المخزومي، وهذا الكلام تنبيه على فضيلة العلم قيل لبعض العلماء: إنكم تقولون العلم أفضل من المال (ثم نرى العلماء عند أبواب الملوك) ولا نرى الملكوك عند أبواب العلماء فأجاب بأن هذا أيضا يدل على فضيلة العلم لأن العلماء علموا ما في المال من المنفعة فطلبوه، والجهال لم يعرفوا ما للعلم من **المنافع** فلا جرم تركوه.
(قوله) : ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ قرئ: إنما يذكر بإدغام التاء في الذال.
قوله
: ﴿قل

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢٨/١٦

ياعباد

الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾ أي بطاعته، واجتناب معاصيه. قال." (١)

"الثاني: أنه تعالى جمعهما جمع العقلاء فقال: ﴿قالتآ أتينا طآئعين﴾ .

الثالث: قوله: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ [الأحزاب: ٧٢] وهذا يدل على كونها عارفة بالله، عالمة بتوجه تكليف الله تعالى.

وأجاب ابن الخطيب عن هذا القول: بأن المراد من قوله ﴿١٦٤٩؛ئتيا طوعا أو كرها﴾ الإثبات الى الوجود والحدوث والحصول، فعلى هذا التقدير فحال توجه هذا الأمر كانت السموات والأرض معدومة، إذ لو كانت موجودة فذلك لا يجوز، فثبت أن حال توجه هذا الأمر عليها كانت معدومة، وإذا كانت معدومة لم تكن فاهمة، ولا عارفة للخطاب، فلم يجز توجه الأمر عليها.

فصل

روى مجاهد وطاوس عن ابن عباس أنه قال: قال الله للسموات والأرض أخرجا ما فيكما من المنافع ومصالح العباد، أما أنت يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وأنت يا أرض فشققي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتك، وقال لهما: افعلا ما آمركما طوعا، وإلا ألجأتكما إلى ذلك (حتى) تفعلا فنقول: فعلى هذا التقدير لا يكون المراد من قوله: أتينا طائعين حدوثهما في ذاتهما، بل يصير المراد من هذا الأمر أن يظهرا ما كان مودعا فيهما، وهذا باطل؛ لأنه تعالى قال: ﴿فقضاهن سبع سماوات في يومين﴾ وذلك يدعل على حدوث السماء إنما حصل بعد قوله: ﴿١٦٤٩؛ئتيا طوعا أو كرها﴾ .

فصل

اعلم أن المقصود من هذا الكلام إظهار كمال القدرة، والتقدير ائتيا ذلك أو أبيتما كما يقول الجبار لمن تحت يده: لتفعلن هذا شئت أو أبيت، ولتفعلنه طوعا أو كرها.

وقيل: إنه تعالى ذكر السماء والأرض، ثم ذكر الطوع والكره فوجب أن ينصرف الطوع إلى السماء والكره إلى الأرض، وتخصص السماء بالطوع لوجوه:

أحدهما: أن السماء في دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف تشبه حيوانا مطعيا لله عز وجل بخلاف

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٦/٤٨٥

الأرض فإنها مختلفة الأحوال، تارة تكون ساكنة، وتارة تضطرب.

وثانيها: أن الموجود في السماء ليس إلا الطاعة، قال تعالى: ﴿يخافون ربهم من فوقهم." (١)

"تكون في ثلاثة مواطن، عند الموت وفي القبر وعند البعث.

قوله: ﴿ألا تخافوا﴾ يجوز في» أن «أن تكون المخففة، أو الفسرة، أو الناصبة و» لا «ناهية على الوجهين الأولين، ونافية على الثالث. وقد تقدم ما في ذلك من الإشكال. فالتقدير بأن لا تخافوا أي بانتفاء الخوف. وقال أبو البقاء: التقدير: بأن لا تخافوا، أو قائلين أن لا تخافوا فعلى الأول: هو حال، أي نزلوا بقولهم: لا تخافوا. وعلى الثاني: الحال محذوفة. قال شهاب الدين: يعني الباء المقدرة حالية، فالحال غير محذوفة وعلى الثاني الحال هو القول المقدر وفيه تسامح، وإلا فالحال محذوفة في الموضعين، وكما قام المقول مقام الحال كذلك قام الجار مقامها. وقرأ عبد الله» لا تخافوا «بإسقاط» أن «وذلك على إضمار القول، أي: يقولون لا تخافوا.

فصل

﴿أن لا تخافوا﴾ من الموت. قال مجاهد: لا تخافون على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة ولا تحزنوا على ما خلفتم من أهل وولد، فإنا نخلفكم في ذلك كله.

وقال عطاء ابن أبي رباح: لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم.

قوله: ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ .

فإن قيل: البشارة عبارة عن الخبر الأول بحصول **المنافع**، فأما إذا أخبر الرجل بحصول المنفعة ثم أخبر ثانيا بحصولها كان الإخبار الثاني إخبارا ولا يكون بشارة، والمؤمن قد يسمع بشارات الخير، فإذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخبارا ولا يكون بشارة، فما السبب في تسمية هذا الخبر بشارة؟

فالجواب: أن المؤمن قد يسمع بشارات الخير، (فإذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخبارا ولا يكون بشارة! قلنا: المؤمن يسمع أن من كان مؤمنا تقيا) كان له الجنة أما إذا لم (يسمع) ألبتة أنه من أهل الجنة فإذا سمع هذا." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١١٢/١٧

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٣٧/١٧

"بهم. وقال عكرمة: بار بهم. وقال السدي: رفيق بهم. وقال مقاتل: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعا بمعاصيهم بدليل قوله: ﴿بعباده يرزق من يشآء﴾ وكل من رزقه الله من مؤمن وكافر وذي روح فهو ممن يشاء الله أن يرزقه.

قال جعفر الصادق: اللطيف في الرزق من وجهين:

أحدهما: أنه جعل رزقك من الطيبات.

الثاني: أنه لم يدفعه إليك مرة واحدة.

و «هو القوي» القادر على ما يشاء «العزيز» الذي لا يغالب.

فصل

إنما حسن ذكر هذا الكلام هاهنا؛ لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة، فكان ذلك من لطف الله (تعالى) بعباده، وأيضا فالمتفرقون استوجبوا العذاب الشديد. ثم إنه تعالى آخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضا من لطف الله تعالى، فلما سبق ذكر إيصال أعظم **المنافع** إليهم (و) دفع أعظم المضار عنهم لا جرم حسن ذكره هاهنا.

قوله: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ... ﴾ الآية الحرث في اللغة الكسب، أي من كان يريد بعمله الآخرة نزد له في حرثه بالتضعييف بالواحد عشرة إلى ما شاء الله من الزيادة. قال مقاتل. وقيل: معناه إنا نزيد في توفيقه وإعانته وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات عليه.

وقال الزمخشري: إنه تعالى سمى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة حرثا على سبيل المجاز. واعلم أنه قد تقدم أن كون الشرط ماضيا والجزاء مضارعا مجزوما لا يختص مجيئه بكان خلافا لأبي الحكم مصنف كتاب الإعراب فإنه قال: لا يجوز ذلك إلا مع «كان» إلا في ضرورة شعر.

وأطلق النحويون جواز ذلك وأنشدوا بيت الفرزدق:." (١)

"روي: أن النبي صلى الله عليه وسلم استنشد (ب) قصيدتها هذه، فلما وصل (الراوي) (إلى) هذا البيت قال: قاتلها الله ما رضيت تشبيهه بالجبل حتى جعلت في رأسه نارا.

وقال مجاهد: الأعلام القصور، واحدها علم. وقال الخليل بن أحمد: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم وسمع: هذه الجوار، وركبت الجوار، وفي الجوار، بالإعراب على الراء تناسيا للمحذوف، وتقدم هذا في قوله تعالى: ﴿ومن فوقهم غواش﴾ [الأعراف: ٤١] .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٧/١٨٣

فصل

اعلم أن المقصود من ذكر هذه الآية أمران:

أحدهما: أن يستدل به على وجود الإله القادر الحكيم.

الثاني: أن يعرف ما فيه من النعم العظيمة لله تعالى على العباد، وأما وجه الأول فإن هذه السفن العظيمة التي كالجبال تجري على وجه البحر عد هبوب الريح على أسرع الوجوه وعنند سكون الرياح (تقف) وقد تقدم في سورة النحل أن محرك الرياح ومسكنها هو الله (سبحانه و) تعالى؛ إذ لا يقدر أحد من البشر على تحريكها ولا على تسكينها، وذلك يدل وجود الإله القادر مع أن تلك السفينة في غاية الثقل ومع ثقلها بقيت على وجه الماء أيضا. وأما دلالتها على النعم العظيمة، وهو مافيها من **المنافع** فإنه تعالى خص كل جانب من الأرض بنوع من الأمتعة، فإذا نقل متاع هذا الجانب إلى الجانب الآخر في السفن وبالعكس حصلت **المنافع** العظيمة بالتجارة، فلهذه الأسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفن.

قوله: ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ التي تجري بها ﴿فيظللن رواكد﴾ قرأ أبو عمرو والجمهور بهمزة: «إن يشأ» لأن السكون علامة الجزم، وورش عن نافع بلا همز وقرأ ناقع «يسكن الرياح» على الجمع والباقون «الريح» على التوحيد.

وقوله: «فيظللن» العامة على فتح اللام التي هي عين الكملة وهو القياس؛ لأن." (١)

"يصرح بذكره. والجعل في هذا تصيير، ولا يلتفت لخطأ الزمخشري في تجويزه أن يكون بمعنى خلقانه.

فصل

ذكر المفسرون في هذه الآية وجهين:

الأول: أن يكون التقدير هذه حم والكتاب المبين فيكون المقسم واقعا على أن هذه السورة هي سورة حم.

الثاني: أن يكون القسم واقعا على قوله: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾ .

وفي المراد بالكتاب قولان:

أحدهما: أنه القرآن فيكون قد أقسم بالقرآن أنه جعله عربيا.

والثاني: المراد بالكتاب الكتابة والخط، أقسم بالكتاب لكثرة ما فيه من **المنافع**، ووصف الكتاب بأنه مبين أي أبان طريق الهدى من طريق الضلال، وأبان ما يحتاج إليه الأمة من الشريعة وتسميته مبينا مجاز؛ لأن

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٧/٢٠٣

المبين هو الله تعالى وإنما سمي القرآن بذلك توسعا من حيث إنه حصل البيان عنده.

وقوله: «جعلناه» أي صيرنا قراءة هذا الكتاب عربيا. بيناه. وقيل سميناه وقيل وضعناه. يقال: جعل فلان زيدا عالما، أي وصفه بهذا، كقوله: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا﴾ [الزخرف: ١٩] و ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ [الحجر: ٩١] ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ [التوبة: ١٩] كلها مدفوع من وجهين: الأول: أنه لو كان المراد من الجعل التسمية لزم أن سماه عجميا أنه يصير عجميا، وإن كان بلغة العرب، وهذا باطل.." (١)

"والاختيار، لأنه تعالى لما ميز المجرم عن المحسن يدل على الاختيار وأيضا فيها بيان أن ببركة المحسن ينجو المسيء، فإن القرية ما دام فيها المؤمنون لم تهلك. والضمير في «فيها» عائد على القرية وهي معلومة وإن لم تكن مذكورة.

والمعنى: فأخرجنا من كان في قرى قوم لوط من المؤمنين، وذلك قوله: ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾ [الحجر: ٦٥] .

وقوله: ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ يعني لوطا وابنتيه وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعا، لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم، وفيه إشارة إلى أن الكفر إذا غلب، والفسق إذا فشا لا ينفع معه عبادة المؤمنين، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة، وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون، ومثاله أن العالم كالبدن، ووجود الصالحين كالأغذية الباردة والحارة والسموم الواردة عليه الضارة ثم إن البدن إن خلا عن **المنافع** وفيه الضار هلك وإن خلا عن الضار وفيه النافع طاب ونما، وإن وجدا فيه فالحكم للغالب.

وإذا علم أن إطلاق العام على الخاص لا مانع منه، لأن المسلم أعم من المؤمن فإذا سمي المؤمن مسلما، لا يدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال: أخرجنا المؤمنين، فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتا من المسلمين، ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين.

قوله: ﴿وتركنا فيهآ آية﴾ يجوز أن يعود الضمير على القرية، أي تركنا في القرية علامة أي عبرة كالحجارة أو الماء المنتن ويجوز أن يعود على الإهلاكة المفهومة من السياق.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢٧/١٧

وقوله: «للذين يخافون» أي ما ينتفع بها إلا الخائف، كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿لقوم يعقلون﴾ [العنكبوت: ٣٥] ومعنى الآية: أن «الآية» تدلهم على أن الله تعالى أهلكهم فيخافون مثل عذابهم.." (١)

"قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبي: «الرحمن» فاتحة ثلاثة سور إذا جمعن كن اسما من أسماء الله تعالى: «الر» و «حم» و «نون» ، فيكون مجموع هذه «الرحمن» .

ولله - تعالى - رحمتان:

رحمة سابقة بها خلق الخلق، ورحمة لاحقة بها أعطاهم الرزق والمنافع، فهو رحمن باعتبار السابقة، رحيم باعتبار اللاحقة، ولما اختص بالإيجاد لم يقل لغيره: رحمن، ولما تخلق بعض خلقه الصالحين ببعض أخلاقه بحسب الطاقة البشرية، فأطعم ونفع، جاز أن يقال له: رحيم.

قوله: «علم القرآن» فيه وجهان:

أظهرهما: أنه «علم» المتعدية إلى اثنين أي عرف من التعليم، فعلى هذا المفعول الأول محذوف.

قيل: تقديره: علم جبريل القرآن.

وقيل: علم محمدا.

وقيل: علم الانسان، وهذا أولى لعمومه، ولأن قوله: «خلق الإنسان» دال عليه.

والثاني: أنها من العلامة، والمعنى: جعله علامة، وآية يعتبر بها، أي: هو." (٢)

"فصل

لما ذكر خلق الإنسان وإنعامه عليه لتعليمه البيان، ذكر نعمتين عظيمتين، وهما: الشمس والقمر، وأنهما على قانون واحد وحساب لا يتغيران، وبذلك تتم منفعتهما للزراعات وغيرها، ولولا الشمس لما زالت الظلمة، ولولا القمر لفات كثير من المنافع الظاهرة، بخلاف غيرهما من الكواكب، فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ظهور نعمتهما، وأنهما بحساب لا يتغير أبدا، ولو كان مسيرهما غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها، ومعرفة فصول السنة.

ثم لما ذكر النعم السماوية وذكر في مقابلتها أيضا نعمتين ظاهرتين من الأرض، وهما: النبات الذي لا ساق له، وما له ساق؛ لأن النبات أصل الرزق من الحبوب والثمار، والحشيش للحيوان.

وقيل: إنما ذكر هاتين النعمتين بعد تعليم القرآن إشارة إلى أن من الناس من لا تكون نفسه زكية، فيكتفي

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٩٠/١٨

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٩٢/١٨

بأدلة القرآن، فذكر له آيات الآفاق، وخص الشمس والقمر؛ لأن حركتهما بحسبان تدل على الفاعل المختار.

ولو اجتمع العالم ليبينوا سبب حركتهما على هذا التقدير المعين لعجزوا، وقالوا: إن الله حركهما بالإرادة كما أراد.

وقيل: لما ذكر معجزة القرآن بإنزاله أنكروا نزول الجرم من السماء وصعوده إليها، فأشار تعالى بحركتهما إلى أنها ليست بالطبيعة.

وهم يقولون بأن الحركة الدورية من أنواع الحركات لا يكون إلا اختياريا، فقال تعالى: من حركهما على الاستدارة أنزل الملائكة على الاستقامة، والثقيل على مذهبكم لا يصعد، وصعود النجم والشجر إنما هو بقدرة الله تعالى، فحركة الملك كحركة الفلك جائزة.

فصل في جريان الشمس والقمر

قال المفسرون: [المعنى] يجريان بحسبان معلوم فأضمر الخبر.

قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك: يجريان بحساب في منازل لا تعدوها ولا يحيدان عنها.." [١]

"٤٦٣٥ - من كل مرجانة في البحر أحرزها ... تيارها ووقاها طينها الصدف

أراد اللؤلؤة الكبيرة. قاله علي، وابن عباس أيضا.

وقيل: «المرجان» : حجر أحمر.

وقيل: حجر شديد البياض، والمرجان أعجمي.

قال ابن دريد: لم أسمع فيه كلاما منصرفا.

و «اللؤلؤ» ، بناء غريب لم يرد على هذه الصيغة إلا خمسة ألفاظ: اللؤلؤ، و «الجؤجؤ» وهو الصدر، و «الدردؤ» ، و «اليؤيؤ» - لطائر - و «البؤبؤ» - بالموحدتين - وهو الأصل، و «اللؤلؤ» - بضمتين - والهمز هو المشهور.

وإبدال الهمزة واوا شائع فصيح وقد تقدم ذلك.

وقرأ طلحة: «اللؤلیء» - بكسر اللام الثالثة - وهي لغة محفوظة، ونقل عنه أبو الفضل: «اللولي» بقلب الهمزة الأخيرة ياء ساكنة، كأنه لما كسر ما قبل الهمزة قلبها ياء استثقالا.

وقرأ أبو عمرو في رواية: «يخرج» أي: الله تعالى، وروي عنه، وعن ابن مقسم: «نخرج» بنون العظمة.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٩٦/١٨

و «اللؤلؤ والمرجان» على هاتين القراءتين منصوبان.

فصل في مناسبة نعمة اللؤلؤ والمرجان للنعم السابقة

قال ابن الخطيب: فإن قيل: أي نعمة عظيمة في «اللولؤ والمرجان» حتى ذكرهما مع نعمة تعليم القرآن وخلق الإنسان؟ .

وأجاب بأن النعم منها خلق الضروريات كالأرض التي له مكانا، وكذا الرزق الذي به بقاؤه.

ومنها ما يحتاج إليه، وإن لم يكن ضروريا كالحيوان، وإجراء الشمس والقمر.

ومنها **المنافع** وإن لم يكن محتاجا إليها كالفاكهة، وخلق البحار، كقوله تعالى: ﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ [البقرة: ١٦٤] .." [١]

"وعن التاسع: أن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

قوله: ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ . لما ذكر منافع الكواكب، وذكر من جملة تلك **المنافع** أنها رجوم للشياطين قال بعد ذلك: ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ ، أي: وأعتدنا للشياطين بعد الإحراق بالشهب في الدنيا عذاب السعير في الآخرة، وهو أشد الحريق.

قال المبرد: سعرت النار فهي مسعورة وسعير، مثل قوله: مقتولة وقتيل.

وهذه الآية تدل على أن النار مخلوقة؛ لأن قوله: ﴿وأعتدنا لهم﴾ خبر عن الماضي.

قوله: ﴿وللذين كفروا﴾ خبر مقدم في قراءة العامة، و «عذاب جهنم» مبتدؤه.

وفي قراءة الحسن والأعرج والضحاك: بنصب «عذاب» فيتعلق ب «أعتدنا» عطفا على «لهم» و «عذاب السعير» ، فعطف منصوبا على منصوب، ومجرورا على مجرور، وأعاد الخافض، لأن المعطوف عليه ضمير.

والمخصوص بالذم محذوف، أي: وبئس المصير مصيرهم، أو عذاب جهنم، أو عذاب السعير.

فصل في معنى الآية

والمعنى لكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم عذاب جهنم؛ ليبين أن الشياطين المرجومين مخصوصون بذلك، ثم إنه - تعالى - وصف ذلك العذاب بصفات، أولها قوله تعالى: ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا﴾ يعني الكفار ﴿إذا ألقوا﴾ طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ﴿سمعوا لها شهيقا﴾ أي: صوتا.

قال ابن عباس: الشهيق لجهنم عند إلقاء الكفار فيها كشهيق البغلة للشعير.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٢٠/١٨

وقال عطاء: الشهيق من الكفار عند إلقائهم في النار.

وقال مقاتل: سمعوا لجهنم شهيقا.

قال ابن الخطيب: ولعل المراد تشبيه صوت لهب النار بالشهيق، وهو كصوت الحمار.

وقال المبرد: هو - والله أعلم - تنفس كتنفس التغيظ.

قال الزجاج: سمع الكفار للنار شهيقا، وهو أقبح الأصوات.." (١)

"ونقل القرطبي عن القشيري أنه قال: هذه الآية تدل على عذاب القبر، ومنكروه يقولون: صاروا مستحقين دخول النار، أو عرض عليهم أماكنهم من النار، كقوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا﴾ [غافر: ٤٦] .

وقيل: أشار إلى ما في الخبر من قوله: «البحر نار في نار» .

وروى أبو روق عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿أغرقوا فأدخلوا نارا﴾ ، قال: يعني عذبوا بالنار في الدنيا في حالة واحدة، كانوا يغرقون في جانب ويحترقون في الماء من جانب. ذكره الثعلبي.

وأنشد ابن الأنباري: [البسيط]

٤٨٩١ - الخلق مجتمع طورا ومفترق ... والحادثات فنون ذات أطوار

لا تعجبن لأضداد قد اجتمعت ... فالله يجمع بين الماء والنار

قال المعربون: «فأدخلوا» يجوز أن يكون من التعبير عن المستقبل بالماضي، لتحقق وقوعه كقوله: ﴿أتى أمر الله﴾ [النحل: ١] ، وأن يكون على بابه، والمراد عرضهم على النار في قبورهم كقوله في آل فرعون: ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا﴾ [غافر: ٤٦] .

قوله: ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾ ، أي: من يدفع عنهم العذاب، وهذا يدل على أنهم إنما عبدوا تلك الأصنام لتدفع عنهم الآفات، وتجلب **المنافع** إليهم فلما جاءهم العذاب لم ينتفعوا بتلك الأصنام، ولم يدفعوا عنهم العذاب وهو كقوله تعالى: ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ [الأنبياء: ٤٣] .

﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾ .

قال الزمخشري: «ديارا» من الأسماء المستعملة في النفي العام، يقال: ما بالدار ديار وديور، كقيام وقيوم، وهو «فيعال» من الدارة أصله: «ديوار» ففعل به ما فعل بأصل «سيد وميت» ولو كان «فعالا» لكان «دوارا» انتهى.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٩/٢٣٧

يعني أنه كان ينبغي أن تصح واوه ولا تقلب ياء، وهذا نظير ما تقدم له من البحث في «متحيز» وأن أصله: «متحيوز» لا «متفعل» إذ كان يلزم أن يكون «متحوزا» لأنه من «الحوز» ويقال فيه أيضا: «دوار» نحو «قيام وقوام» .

وقال مكي: وأصله «ديوار» ثم أدغموا الواو في الياء مثل «ميت» أصله «ميوت» ثم أدغموا الثاني في الأول، ويجوز أن يكون أبدلوا من الواو ياء، ثم أدغموا الياء الأولى في الثانية.." (١)

"والضمير في قوله ﴿وألو استقاموا﴾ ، قيل: يرجع إلى الجن الذين تقدم ذكرهم ووصفهم أي: هؤلاء القاسطون لو أسلموا لفعلنا بهم كذا وكذا.

وقيل: بل المراد الإنس لأن الترغيب في الانتفاع بالماء الغدق، إنما يليق بالإنس، لا بالجن وأيضا أن هذه الآية إنما نزلت بعد ما حبس الله المطر عن أهل مكة سنين، أقصى ما في الباب أنه لم يتقدم ذكر الإنس، ولكنه لما كان ذلك معلوما جرى مجرى قوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر: ١] .

وقال القاضي: الأقرب أن الكل يدخلون فيه.

قال ابن الخطيب: «ويدل على صحة قول القاضي، أنه تعالى أثبت حكما معللا بعلة، وهي الاستقامة فوجب أن يعم الحكم لعموم العلة» .

والغدق - بفتح الدال وكسرها -: لغتان في الماء الغزير، ومنه الغداق: للماء الكثير وللرجل الكثير الغدق، والكثير النطق.

ويقال: غدقت عينه تغدق أي: هطل دمعها غدقا.

وقرأ العامة: «غدقا» بفتحتين.

وعاصم فيما يروي عنه الأعشى، بفتح الغين وكسر الدال، وقد تقدم أنهما لغتان.

قوله: ﴿وألو استقاموا﴾ .

قال ابن الخطيب: إن قلنا: إن الضمير راجع إلى الجن ففيه قولان:

أحدهما: أن المعنى لو ثبت أبوهم على عبادته وسجد لآدم، ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم كقوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السمآء والأرض﴾ [الأعراف: ٩٦] الآية، ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ومآ أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم﴾ [المائدة: ٦٦] الآية، وقوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ [الطلاق: ٢] . وقوله: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٩/٤٠٠

يرسل السمآء عليكم﴾ [نوح: ١٠ – ١١] ، إلى قوله: ﴿ويمددكم بأموال وبنين﴾ [نوح: ١٢] الآية.

وإنما ذكر الماء كناية عن طيب العيش وكثرة **المنافع** وهذا هو اللائق بالجن لا الماء المشروب.

الثاني: أن المعنى لو استقام الجن أي الذين سمعوا القرآن على طريقتهم التي كانوا عليها، ولم ينتقلوا عن الإسلام لوسعنا عليهم الدنيا كقوله: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة﴾ [الزخرف: ٣٣] الآية.." [١]

"وثامنها: قوله: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم﴾

[الأنفال: ٥٣] . وتاسعها: قوله: ﴿هو الذي جعل الشمس ضيآء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ [يونس: ٥] . وعاشرها: قوله: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك﴾ [يونس: ٢٢] إلى قوله: ﴿يبغون في الأرض﴾ [يونس: ٢٣] . واعلم أن الخلاف في هذه المسألة لفظي؛ لأنه لا نزاع في أن الحياة والعقل والسمع والبصر، وأنواع الرزق، **والمنافع** من الله تعالى إنما الخلاف في أن أمثال هذه **المنافع** إذا حصل عقيبها تلك المضار الأبدية، هل يطلق عليها في العرف اسم النعمة أم لا؟ ومعلوم أن ذلك نزاع في مجرد عبارة. فصل في النعم المخصوصة ببني إسرائي وهي كثيرة منها: استنقذهم من فرعون وقومه، وخلصهم من العبودية وأولادهم من القتل ونساءهم من الاستحياء، وخلصهم من البلاء، ومكنهم في الأرض، وجعلهم ملوكا، وجعلهم الوارثين بعد أن كانوا عبيدا للقبط، وأهلك أعداءهم وأورثهم أرضهم وديارهم، وأموالهم، وأنزل عليهم [الكتب العظيمة، وجعل فيهم أنبياء، وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين، وظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم] المن والسلوى، وأعطاهم الحجر ليسقيهم ما شاءوا من الماء متى أرادوا، فإذا استغنوا عن الماء رفعوها فاحتبس الماء عنهم، وأعطاهم عمودا من النور يضيء لهم بالليل، وكانت رؤوسهم لا تتشعث وثيابهم لا تبلى. رواه «ابن عباس» . فصل في سبب تذكيرهم بهذه النعم قال ابن الخطيب: إنما ذكرهم بهذه النعم لوجوه: أحدها: أن جملة النعم ما يشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وهي التوراة، والإنجيل، والزبور. وثانيها: أن كثرة النعم توجب عظم المعصية، فذكرهم تلك النعم لكي يحذروا مخالفة ما دعوا إليها من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن. وثالثها: أن تذكر النعم الكثيرة يفيد الحيء عن إظهار المخالفة. ورابعها: أن تذكر النعم الكثيرة

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٢٨/١٩

يفيد أن المنعم خصهم من بين سائر الناس بها، ومن خص أحدا بنعم كثيرة، فالظاهر أن تذكر تلك النعم يطمع في النعم الآتية، وذلك الطمع مانع من إظهار المخالفة والمخاصمة.." [1]

"ففائدة تغيير الترتيب الإشارة إلى هذين الصنفين.

فصلل في سبب نزول الآية

ذكروا أن سبب هذه الآية أن بني إسرائيل قالوا: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة: ١٨] وأبناء أنبيائه، وسيشفع لنا آباؤنا، فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعات، ولا يؤخذ فيه فدية.

وإنما خص الشفاعة والفدية والنصر بالذكر، لأنها هي المعاني التي اعتادها بنو آدم ف يالدنيا، فإن الواقع في الشدة لا يتخلص إلا بأن يشفع له، أو يفتدى، أو ينصر.

فصل في الشفاعة

أجمعت الأمة على أن الشفاعة في الآخرة لمحمد صلى الله عليه وسلم ثم [اختلفوا في] أن شفاعته عليه الصلاة والسلام [لمن] تكون أي للمؤمنين المستحقين للثواب أم لأهل الكبائر المستحقين للعقاب؟

فذهب المعتزلة إلى أنها للمستحقين للثواب، وتأثير الشفاعة زيادة **المنافع** على ما استحقوه.

وقال أصحابنا: تأثيرها في إسقاط العقاب عن المستحقين العقاب ب أن يشفع لهم في عرصة القيامة حتى لا يدخلوا النار، فإن دخلوا النار، فشفع لهم حتى يخرجوا منها ويدخلوا الجنة.

واتفقوا على أنها ليست للكفار.." [2]

"وهذا الكلام حسن، إلا أن كون «القسوة» جوز بناء التعجب منها فيه نظر من حيث إنها من الأمور الخلقية أو من العيوب، وكلاهما ممنوع منه بناء البابين.

وقرىء: «قاسوة» .

فصل في أوجه شدة القسوة من الحجارة

إنما وصفها بأنها أشد قسوة من الحجارة لوجوه:

أحدها: أن الحجارة لو كانت عاقلة، ورأت هذه الآية لقبلتها كما قال: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾

[الحشر: ٢١] .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢/٨

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢/٥٢

وثانيها: أن الحجارة ليس فيها امتناع لما يحدث فيها من أمر الله فقال: وإن كانت قاسية، بل منصرفة على مراد الله تعالى غير ممتنعة، وهؤلاء مع ما وصفنا في اتصال الآيات عندهم، وتتابع نعم الله عليهم يمتنعون من الطاعة، ولا تلين قلوبهم بمعرفة حق الله.

وثالثها: أن الأحجار ينتفع بها من بعض الوجوه، أما قلوب هؤلاء فلا نفع منها ألبتة.

فصل في الرد على المعتزلة

قال القاضي: إن كان الدوام على الكفر مخلوق فيهم، فكيف يحسن ذمهم؟ فلو قال: إن الذي خلق الصلابة في الحجارة هو الذي خلق في قلوبنا القسوة، والخالق في الأحجار الأنهار هو القادر على أن ينقلنا عما نحن عليه من الكفر بخلق الإيمان فينا، فإذا لم يفعل فعذرنا ظاهر لكانت حجتهم على موسى أوكد من حجته عليهم، وهذا النمط قد تكرر مرارا.

قوله: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار﴾ .

واعلم أنه سبحانه وتعالى فضل الحجارة على قلوبهم بأنه قد يحصل في الحجارة أنواع من **المنافع**، ولا يوجد في قلوب هؤلاء شيء من **المنافع**.

فأولها: قوله: «وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار» واللام في «لما» لام الابتداء دخلت على اسم «إن» لتقدم الخبر، وهو «من الحجارة» ، وهي «ما» التي بمعنى «الذي» في محل النصب، ولو لم يتقدم الخبر لم يجز دخول اللام على الاسم؛ لئلا يتوالى حرفا تأكيد، وإن كان الأصل يقتضي ذلك، والضمير في «منه» يعود على «ما» حملا على اللفظ.

قال أبو البقاء: ولو كان في غير القرآن لجاز «منها» على المعنى.." [(١)]

"إسرائيل إلا عشرة: هود ونوح وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قوله: ﴿يتلوا عليهم آياتك﴾ فيه وجهان:

الأول: أنها الفرقان الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لأن الذي كان يتلوه عليهم ليس إلا ذلك، فوجب حمله عليه.

الثاني: يجوز أن تكون الآيات هي الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته سبحانه وتعالى، ومعنى تلاوته إياها عليهمك أنه كان يذكرهم بها، ويدعوهم إليها، ويحملهم على الإيمان بها.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢/١٨٦

قوله: «ويعلمهم الكتاب» أي: القرآن يعلمهم مافيه من الدلائل والأحكام.

وأما الحكمة فهي: الإصابة في القول والعمل.

وقيلك أصلها من أحكمت الشيء أي رددته، فكأن الحكمة هي التي ترد عن الجهل والخطأ، وهو راجع إلى ما ذكرنا من الإصابة في القول والعمل.

اختلف المفسرون [في المراد بالحكمة] هاهنا.

قال ابن وهب قلت لمالك: ما الحكمة؟ قال: معرفة الدين، والفقه فيه، والاتباع له.

وقال الشافعي رضي الله عنه: الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول قتادة.

وقال أصحاب الشافعي رضي الله عنه: والدليل عليه أنه تعالى ذكر تلاوة الكتاب أولا، وتعلميه ثانيا، ثم عطف عليه الحكمة، فوجب أن يكون المراد من الحكمة شيئا خارجا عن الكتاب، وليس ذلك إلا سنة الرسول عليه اسلام.

فإن قيل: لم لا يجوز حمله على تعليم الدلائل العقلية على التوحيد والعدل والنبوة؟

فالجواب: لأن العقول مستقبلة كذلك فحمل هذا اللفظ على ما لا يستفاد من الشرع أولى.

وقيل: الحكمة هي الفصل بين الحق والباطل.

وقال مقاتل: هي مواعظ القرآن الكريم، وما فيه منا لأحكام.

وقال ابن قتيبة: هي العلم والعمل به.

وقيل: حكمة تلك الشرائع، وما فيها من وجوه المصالح **والمنافع**.

وقيل: أراد بالكتاب الآيات المحكمة، واراد بالحكمة المتشابهات. [وقال بان دريد: كل كلمة وعظتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة] .." [١]

"وثالثها: قال القاضي هذا من التشبيه العجيب لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقا يكون أحسن في المنظر لوقوع شعاع بعضه على البعض فيكون مخالفا للمجتمع منه.

واعلم أنه تعالى لما ذكر تفصيل أحوال أهل الجنة، أتبعه بما يدل على أن هناك أمورا أعلى وأعظم من هذا القدر المذكور فقال ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا﴾ .

فصل

اعلم أن اللذات الدنيوية محصورة في أمور ثلاثة: قضاء الشهوة، وإمضاء الغضب، واللذة الخيالية التي يعبر

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٩٣/٢

عنها بحب المال والجاه، وكل ذلك مستحقر فإن الحيوانات الخسيسة قد تشارك الإنسان في واحد منها، فالملك الكبير الذي ذكره الله ههنا لا بد وأن يكون مغايرا لتلك اللذات الحقيرة، وما هو إلا أن تصير نفسه منتقشة بقدس الملكوت متحلية بجلال حضرة اللاهوت، وأما ما هو على أصول المتكلمين، فالوجه فيه أيضا أنه الثواب والمنفعة المقرونة بالتعظيم فبين الله تعالى في الآيات المتقدمة تفصيل تلك **المنافع** وبين في هذه الآية حصول التعظيم وهو أن كل واحد منهم يكون كالملك العظيم، وأما المفسرون فمنهم من حمل هذا الملك الكبير على أن هناك منافع أزيد مما تقدم ذكره، قال ابن عباس لا يقدر واصف يصف حسنه ولا طيبه. ويقال إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه وقيل لا زوال له وقيل إذ أرادوا شيئا حصل، ومنهم من حمله على التعظيم، فقال الكلبي هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله وهو في منزله فيستأذن عليه، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين إلا بعد الاستئذان.

فصل

قال بعضهم قوله ﴿وإذا رأيت﴾ خطاب لمحمد خاصة، والدليل عليه أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن دخلت الجنة أترى عيناي ما ترى عيناك؟ فقال نعم، فبكى حتى مات، وقال آخرون بل هو خطاب لكل أحد.

قوله: ﴿عاليهم﴾ . قرأ نافع وحمزة: بسكون الياء وكسر الهاء، والباقون: بفتح الياء وضم الهاء، لما سكنت الياء كسر الهاء، ولما تحركت ضمت على ما تقدم في أول الكتاب.

فأما قراءة نافع وحمزة، ففيها أوجه:." (١)

"وعن بعض الحكماء: أنه حدث عن البعير، وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها، ففكر، ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق.

قال ابن الخطيب: الإبل لها خواص، منها أنه - تعالى - جعل الحيوان الذي يقتني أنواعا، فتارة يقتنى ليؤكل لحمه، وتارة ليشرب لبنه، وتارة ليحمل الناس في الأسفار، وتارة لنقل المتاع من بلد إلى بلد، وتارة للزينة والجمال، وهذه **المنافع** بأسرها حاصلة في الإبل، ثم إنها فاقت في كل خصلة من هذه الخصال غيرها من الحيوان المختص ببعضها، مع صبرها على العطش، وقطع المفاوز بالأحمال الثقيلة، وقناعتها في العلف بنبات البر، ولقد ضللنا الطريق في مفازة، فقدموا جملا واتبعوه، فهداهم للطريق بعد زمان طويل، مع

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤١/٢٠

كثرة المعاطف والتلول، فانظر كيف ثبت واهتدى على ما عجزت عنه ذوو العقول.

ومنها: أنه في غاية القوة والصبر على العمل.

ومنها: أنها مع كونها كذلك منقادة للصب الصغير.

ومنها: أنه، تحمل وهي باركة، ثم تقوم بحملها، وهذه الصفات توجب على العاقل أن ينظر في خلقها وتركيبها، ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم جلت قدرته.

فصل

قال قتادة ومقاتل وغيرهما: لما ذكر الله – تعالى – السرر المرفوعة، قالوا: كيف نصعدها؟ فأنزل الله هذه الآية، وبين أن الإبل «تبرك» حتى يحمل عليها، ثم تقوم، فكذلك تلك السرر تتطامن، ثم يرتفع.

وقال المبرد: الإبل هنا: القطع العظيمة من السحاب.

وقال الثعلبي: ولم أجد لذلك أصلا في كتب الأئمة.

قال القرطبي: قد ذكره الأصمعي أبو سعيد بن عبد الملك بن قريب، قال أبو عمرو: من قرأها: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ بالتخفيف، عنى بها: البعير؛ لأنها من ذوات الأربع، يبرك، فتحمل عليه الحمولة، وغيره من ذوات الأربع، لا يحمل عليه إلا وهو قائم، ومن قرأها بالتثقيل فقال: «الإبل» عنى بها السحاب التي تحمل الماء والمطر.

وقال الماوردي: وفي الإبل وجهان:

أظهرهما: أنها «الإبل» .." (١)

"والثاني: أنها «السحاب» فإن كان المراد بها السحاب، فلما فيها من الآيات الدالة على قدرته، والمنافع العامة لجميع خلقه.

وإن كان المراد بها الإبل من النعم؛ فلأن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوان؛ لأن ضروبه أربعة: حلوبة، وركوبة، وأكولة، وحمولة، والإبل تجمع هذه الخلال الأربع، فكانت النعمة بها أعم، وظهور القدرة بها أتم. وقيل للحسن: الفيل أعظم في الأعجوبة فقال: العرب بعيدة العهد بالفيل ثم هو لا يؤكل لحمه ولا يركب ظهره، ولا يحلب دره.

فصل في الكلام على الإبل

الإبل: اسم جمع، واحده: بعير، وناقة، وجمل، ولا واحد لها من لفظها، وهو مؤنث، ولذلك تدخل عليه

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٠٠/٢٠

تاء التأنيث تصغيره، فيقال: أبيلة.

قال القرطبي: لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين، فالتأنيث لها لازم، وربما قالوا للإبل: إبل – بسكون الباء – للتخفيف، والجمع: آبال واشتقوا من لفظه، فقالوا: تأبل زيد، أي كثرت إبله. وتعجبوا من هذا، فقالوا: ما آبله ﴿أي: ما أكثر إبله﴾ وتقدم في سورة «الأنعام» .

قوله: «كيف» : منصوب ب «خلقت» على حد نصبها في قوله تعالى: ﴿كيف تكفرون﴾ ، والجملة بدل من «الإبل» بدل اشتمال، فتكون في محل جر، وهي في الحقيقة معلقة بالنظر، وقد دخلت «إلى» على «كيف» في قولهم: «انظر إلى كيف يصنع» ، وقد تبدل الجملة المشتملة على استفهام من اسم ليس فيه استفهام، كقولهم: «عرفت زيدا أبو من هو» على خلاف بين النحويين.

وقرأ العامة: «خلقت، ورفعت، ونصبت، وسطحت» مبنيا للمفعول، والتاء ساكنة للتأنيث.

وقرأ أمير المؤمنين، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة، قال القرطبي: وابن السميفع وأبو العالية: «خلقت» وما بعده بتاء المتكلم، مبنيا للفاعل.

والعامة على: «سطحت» مخففا.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو رجاء: «سطحت» بتشديد الطاء وإسكان التاء.." (١)

"وقال الكلبي: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يعجل بعقوبتهم، [وقيل: اقرأ أولا لنفسك، والثاني للتبليغ، والأول للتعميم من جبريل عليه السلام، والثاني للتعليم واقرأ في صلاتك.

وقيل: اقرأ وربك، أي: اقرأ يا محمد وربك يغنيك ويفهمك، وإن كنت غير قارئ] . [والأول أشبه بالمعنى، لأنه لما ذكر ما تقدم من نعمة، دل على كرمه] .

قوله: ﴿الذى علم بالقلم﴾ ، يعني: الخط والكتابة، أي: علم الإنسان الخط بالقلم.

قال قتادة: العلم نعمة من الله عظيمة، ولولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه تعالى، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة.

وسمي القلم، لأنه يقلم ومنه تقليم الظفر، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا.

وروى عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: «قلت: يا رسول الله أكتب ما أسمع منك من الحديث؟

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٠١/٢٠

قال:» نعم، فاكتب، فإن الله علم بالقلم «» .

ويروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتا عن الكلام فقال: ريح لا يبقى. قال: فما قيده؟ قال: الكتابة.

وروى مجاهد عن ابن عمر – رضي الله عنه – قال: خلق الله تعالى أربعة أشياء بيده، ثم قال تعالى لسائر الحيوان: كن فكان: القلم، والعرش، وجنة عدن، وآدم عليه الصلاة والسلام .

من علمه بالقلم؟ ثلاثة أقوال:

أحدها: قال كعب الأحبار: أول من كتب بالقلم آدم عليه السلام.

وثانيها: قول الضحاك: أول ما كتب إدريس عليه الصلاة والسلام .

والثالث: أنه جميع من كتب بالقلم، لأنه ما علم إلا بتعليم الله تعالى.." (١)

"الثالث من أوجه النصب: أن يكون منصوبا بفعل مقدر، أي: يضبح ضبحا، وهذا الفعل حال من «العاديات» .

الرابع: أنه منصوب ب «العاديات» ، وإن كان المراد به الصوت.

قال الزمخشري: «كأنه قيل: والضابحات، لأن الضبح يكون مع العدو» .

قال أبو حيان: «وإذا كان الضبح مع العدو، فلا يكون معنى والعاديات معنى الضابحات فلا ينبغي أن يفسر به» انتهى.

قال شهاب الدين: لم يقل الزمخشري إنه بمعناه، إنما جعله منصوبا، لأنه لازم لا يفارقه، فكأنه ملفوظ به. وقوله: كأنه قيل؛ تفسير التلازم لا أنه هو هو.

فصل في هذا القسم

قال ابن العربي: أقسم الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ [يس: ١، ٢] ، وأقسم بحياته فقال: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر: ٧٢] ، وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها، وقدح حوافرها النار من الحجر، فقال: ﴿والعاديات ضبحا﴾ .

وقال الشعبي: تمارى علي وابن عباس في «العاديات» فقال علي: هي الإبل تعدو في الحج.

وقال ابن عباس: هي الخيل، ألا تراه يقول: «فأثرن به نقعا» فهل تثير إلا بحوافرها وهل تضبح الإبل؟ .

فقال علي رضي الله عنه: ليس كما قلت لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للمقداد، وفرس لمرثد بن أبي مرثد.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٠/٤١٥

وعلى هذا فالقول: ﴿فالموريات قدحا﴾ أي: الحافر يرمي بالحجر من شدة العدو، فيضرب به حجارة أخرى فتوري النار، أو يكون المعنى: الذين يركبون الإبل، وهم الحجيج إذا أوقدوا نيرانهم ب «المزدلفة» ، وقوله تعالى: ﴿فالمغيرات صبحا﴾ ، والإغارة: سرعة السير، وهم يدفعون صبيحة يوم النحر مسرعين إلى «منى» .

﴿فوسطن به جمعا﴾ يعني «مزدلفة» ، لأنها تسمى بجمع، لاجتماع الحاج بها، وعلى هذا التقدير، فوجه القسم بها ما تقدم ذكره من **المنافع** الكثيرة في قوله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ [الغاشية: ١٧] .." [١]

"قال ابن عباس: نزلت في رؤوس اليهود: كعب بن الأشرف وكعب بن أسد، ومالك بن الصيف، وحيي بن أخطب، وأبي ياسر بن أخطب؛ كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم، فلما بعث محمد عليه الصلاة والسلام من غيرهم خافوا انقطاع تلك **المنافع**؛ فكتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم بأن غيروا صفته، ثم أخرجوها إليهم، فإذا ظهرت السفلة على النعت المغير، وجدوه مخالفا لصفته صلى الله عليه وسلم ، لا يتبعونه، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية.

قال القرطبي: ومعنى «أنزل» : أظهر؛ كما قال تعالى: ﴿ومن قال سأنزل مثل مآ أنزل الله﴾ [الأنعام: ٩٣] أي: سأظهر وقيل: هو على بابه من النزول، أي: ما أنزل به ملائكته على رسله.

قوله: «من الكتاب» : في محل نصب، على الحال، وفي صاحبها وجهان:

أحدهما: أنه العائد على الموصول، تقديره: «أنزله الله» حال كونه «من الكتاب» فالعامل فيه «أنزل» .

والثاني: أنه الموصول نفسه، فالعامل في الحال «يكتمون» .

قوله: «ويشترون به» : الضمير في «به» يحتمل أن يعود على «ما» الموصولة، وأن يعود على الكتم المفهوم من قوله: «يكتمون» ، وأن يعود على الكتاب، والأول أظهر،." [٢]

"وقيل: جعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم؛ حتى لا يوجد ما نهوا عنه.

قوله: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن المراد تزودوا من التقوى؛ لقوله ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ فتحقيق [الكلام فيه: أن] الإنسان له سفران، سفر فى الدنيا، وسفر من الدنيا.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦٤٥/٢٠

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٨٣/٣

فالسفر في الدنيا، لا بد له من زاد، وهو الطعام، والشراب، والمركب، والمال والإعراض عما سواه، وهذا الزاد خير من الزاد الأول لوجوه:

أحدها: أن زاد الدنيا [يخلصك من عذاب منقطع، وزاد الآخرة يخلصك من عذاب دائم، وزاد الدنيا] يوصلك إلى لذة ممزوجة بالآلام، والبلايا، وزاد الآخرة يوصلك إلى لذات باقية خالصة عن شوائب المضرة، وزاد الدنيا يوصلك إلى دنيا منقضية، وزاد الآخرة يوصلك إلى الآخرة، وهي كل ساعة من الإقبال، والقرب، والوصول غير منقضية وزاد الدنيا يوصلك إلى منصة الشهوة والنفس وزاد الآخرة يوصلك إلى حضرة الجلال والقدس؛ فلهذا قال: ﴿خير الزاد التقوى﴾ فاشتغلوا بتقواي يا أولي الألباب، يعني: إن كنتم من أولي الألباب الذين يعلمون حقائق الأمور فاشتغلوا بتحصيل هذا الزاد؛ لما فيه من كثرة **المنافع**؛ وفي هذا المعنى قال الأعشى: [الطويل]

٩٩٥ - إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على ألا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

والقول الثاني: أن هذه الآية الكريمة نزلت في أناس من أهل اليمن، كانوا يحجون بغير زاد، ويقولون إنا متوكلون وكانوا يسألون وربما ظلموا الناس وغصبوهم، فأمرهم الله تعالى أن يتزودوا ما يبلغون به، فإن خير الزاد ما تكفون به وجوهكم عن السؤال، وأنفسكم عن الظلم.

وعن ابن زيد، أن بعض قبائل العرب كانوا يحرمون الزاد على الحج، والعمرة؛ فنزلت الآية.." (١)

"فصل

يحتمل أن يكون المراد منه: ما يعطي في الدنيا لعبيده المؤمنين والكافرين، ويحتمل أن يكون المراد منه: رزق الآخرة، فإن حملناه على رزق الآخرة، كان مختصا بالمؤمنين، وهو من وجوه:

أحدها: أن الله يرزقهم بغير حساب، أي: رزقا واسعا رغدا لا فناء له؛ لأن كل ما دخل تحت الحساب، فهو متناه.

وثانيها: أن **المنافع** الواصلة إليهم في الجنة بعضها ثواب، وبعضها تفضل؛ كام قال: ﴿فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ [النساء: ١٧٣] فالفضل منه بلا حساب.

وثالثها: أنه لا يخاف نفادها عنده؛ فيحتاج إلى حساب ما يخرج منه؛ لأن المعطي إنما يحاسب، ليعلم مقدار ما يعطى وما يبقى كي لا يتجاوز في عطاياه إلى ما لا يجحف به، والله عالم غني، لا نهاية لمقدوراته.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٠٧/٣

ورابعها: «بغير حساب» ، أي: بغير استحقاق؛ يقال: لفلان على فلان حساب؛ إذا كان له عليه حق، وهذا يدل على أنه لا يستحق أحد عليه شيئا، وليس لأحد معه حساب، بل كل ما أعطاه، فهو مجرد فضل وإحسان، لا بسبب استحقاق.

وخامسها: «بغير حساب» ، أي: يعطي زائدا على الكفاية؛ يقال: فلان ينفق بغير حساب، أي: يعطي كثيرا؛ لأن ما دخله الحساب فهو قليل.

وهذه الوجوه كلها محتملة، وعطايها الله بها منتظمة، فيجوز أن يكون الكل مرادا والله أعلم.

فإن قيل: قد قال الله – تعالى – في صفة المتقين، وما يصل إليهم: ﴿عطآء حسابا﴾ [النبأ: ٣٦] على المستحق بحسب الوعد؛ كما هو قولنا، وبحسب الاستحقاق، كما هو قول المعتزلة، فالسؤال: وهذا كالمناقض لهذه الآية.

فالجواب: من حمل قوله: «بغير حساب» على التفضل، وحمل قوله: «عطاء حسابا» على المستحق بحسب الوعد، كماهو قولنا، وبحسب الاستحقاق، كما هو قول المعتمزلة، فالسؤال زائل، ومن حمل قوله: «بغير حساب» على سائر الوجوه، فله أن يقول: إن ذلك العطاء إذا كان يتشابه في الأوقات، فصح من هذا الوجه أن يوصف بكونه: «عطاء حسابا» فلا تناقض، وإن حملناه على أرزاق الدنيا، ففيه وجوه:

أحدها، وهو أليق بنظم الآية، أن الكفار كان يسخرون من فقراء المسلمين؛ لأنهم كانوا يستدلون بحصول السعادات الدنيوية، على أنهم على الحق، وبحرمان فقراء المسلمين على أنهم على الباطل؛ فأبطل تعالى استدلالهم بقوله: ﴿والله يرزق من يشآء بغير حساب﴾ يعني: يعطي في الدنيا من يشاء من غير أن يكون ذلك منبئا عن كون." (١)

"وأما قوله: ﴿لا يرجون لقآءنا﴾ [يونس: ٧] أي لا يرجون ثواب لقائنا، فالرجاء أيضا على بابه، قاله ابن عطية.

وقال الأصمعي: «إذا اقترن الرجاء بحرف النفي، كان بمعنى الخوف» كهذا البيت والآية.

وفيه نظر إذ النفي لا يغير مدلولات الألفاظ.

والرجاء مقصود ناحية البئر، وحافاته من كل ناحية، وجاؤوا بقوام من الناس يخطون في قولهم بأعظم الرجاء، فيقصرون، ولا يمدون، وكتبت «رحمة» هنا بالتاء: إما جريا على لغة من يقف على تاء التأنيث بالتاء، وإما اعتبارا بحالها في الوصل، وهي في القرآن في سبعة مواضع، كتبت في الجميع تاء، هنا وفي الأعراف:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٩٩/٣

﴿إن رحمة الله﴾ [آية: ٥٦] ، وفي هود: ﴿رحمة الله وبركاته﴾ [آية: ٧٣] ، وفي مريم: ﴿ذكر رحمة ربك﴾ [آية: ٢] ، وفي الروم: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾ [آية: ٥٠] ، وفي الزخرف: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير﴾ [آية: ٣٢] .

فصل

في تعلق هذه الآية بما قبلها، وجهان:

الأول: أن عبد الله بن جحش قال: يا رسول الله، هب أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا، فهل نطمع منه أجرا، وثوابا، فنطمع أن يكون سفرنا هذا غزوا؛ فأنزل الله هذه الآية؛ لأن عبد الله كان مؤمنا، ومهاجرا، وسبب هذه المقاتلة، كان مجاهدا.

الثاني: أنه تعالى أوجب الجهاد من قبل بقوله: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ [البقرة: ٢١٦] وبين أن تركه سبب الوعيد أتبع ذلك بذكر من يقوم به فقال: ﴿إن الذين آمنوا﴾ ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد.

فصل في المراد بالرجاء

وفي هذا الرجاء قولان:

الأول: عبارة عن ظن **المنافع** التي يتوقعها وأراد تعالى هنا: أنهم يظنون في ثواب الله؛ لأن عبد الله بن جحش ما كان قاطعا بالفوز والثواب في عمله، بل كان يتوقعه، ويرجوه.

فإن قيل: لم جعل الوعد مطلقا بالرجاء، ولم يقطع به، كما في سائر الآيات؟

فالجواب من وجوه.." (١)

"وثالثها: أن هذه المعصية من خواصها أن الإنسان إذا اشتغل بها وواظب عليها، كان ميله ونفسه عليها أقوى، بخلاف سائر المعاصي، فإن الزاني مثلا إذ فعل مرة واحدة فترت رغبته، وكلما زاد فعله؛ كان فتوره أكثر؛ بخلاف الشرب فإنه كلما كان إقدامه عليه أكثر كان نشاطه إليها ورغبته فيه أكثر، فإذا واظب عليه؛ صار غارقا في اللذات البدنية معرضا عن تذكر الآخرة، حتى يدخل في الذشين نسوا الله، فأنساهم أنفسهم.

وبالجملة إذا زال العقل؛ حصلت القبائح بأسرها، وكذلك قال عليه الصلاة والسلام :

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٦/٤

«اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث» . ويصدر عن الشارب المخاصمة، والمشاتمة وقول الفحش والزور.
وأما الإثم الكبير في الميسر، فإنه يفضي إلى العداوة أيضا لما يجري بينهم من الشتم، والمنازعة؛ لأنه أكل مال بالباطل، وذلك يورث العداوة؛ لأن صاحبه إذا أخذ ماله مجانا؛ أبغضه جدا، وهو يشغل عن ذكر الله، وعن الصلاة أيضا.
وأما **المنافع** المذكورة فيهما، فمنافع الخمر أنهم كانوا يتغالون بها إذا جلبوها من النواحي، وكان المشتري، إذا ترك المماكسة في الثمن؛ كانوا يعدون ذلك فضيلة، ومكرمة، وكانت تكثر أرباحهم بذلك السبب، ومنها أنها تقوي الضعيف، وتهضم الطعام، وتعين على الباءة وتسلي المحزون، وتشجع الجبان، وتسخي البخيل، وتصفي اللون وتنعش الحرارة الغريزية، وتزيد من الهمة، والاستعلاء. ومن منافع الميسر: التوسعة على ذوي الحاجات؛ لأن من قمر لم يأكل من الجزور شيئا وإنما يفرقه في المحتاجين؛ وذكر الواقدي أن الواحد كان ربما يحصل له في المجلس الواحد مائة بعير، فيحصل له مال من غير كد، ولا تعب، ثم يصرفه إلى المحتاجين، فيكتسب فيه الثناء، والمدح، وكانوا يشترون الجزور، ويضربون سهامهم، فمن خرج سهمه؛ أخذ نصيبه من اللحم، ولا يكون عليه شيء من الثمن، ومن بقي سهمه آخرا، كان عليه ثمن الجزور كله، ولا يكون له من اللحم شيء.." (١)
"في كيفية النظم وجهان:
الأول: أن تعالى لما ذكر الإنفاق في سبيل الله، وهو يوجب تنقيص المال، وذكر الربا، وهو - أيضا - سبب تنقيص المال، وختم هذين الحكمين بالتهديد بقوله ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله﴾ [البقرة: ٢٨١] والتقوى تسد على الإنسان أكثر أبواب المكاسب، **والمنافع** - أتبع ذلك بأن ندبه إلى كيفية حفظ المال الحلال، وصونه عن الفساد، فإن القدرة على الإنفاق في سبيل الله، وعلى ترك الربا، وعلى ملازمة التقوى، لا يتم إلا عند حصول المال؛ فلأجل هذا بالغ في الوصية بحفظ المال، ونظيره ﴿ولا تؤتوا السفهآء أموالكم التي جعل الله لكم قياما﴾ [النساء: ٥] فحث على الاحتياط في أمر الأموال؛ لكونها سببا لمصالح المعاش والمعاد.." (٢)
"قال القفال - رحمه الله تعالى - ويدل على ذلك: أن ألفاظ القرآن جارية في الأكثر على الاختصار، وفي هذه الآية بسط شديد؛ ألا ترى أنه قال تعالى ﴿إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ ، ثم قال

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٩/٤
(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٧٥/٤

ثانيا: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ ، ثم قال ثالثا: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾ ، فكان هذا كالتكرار لقوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ ؛ لأن العدل هو ما علمه الله، ثم قال رابعا: ﴿فليكتب﴾ وهذا إعادة للأمر الأول؛ ثم قال خامسا: ﴿وليملل الذي عليه الحق﴾ وفي قوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ كفاية عن قوله: ﴿وليملل الذي عليه الحق﴾ ؛ لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يمل عليه، ثم قال سادسا: ﴿وليتق الله ربه﴾ ، وهذا تأكيد، ثم قال سابعا: ﴿ولا يبخس منه شيئا﴾ ، وهذا كالمستفاد من قوله: ﴿وليتق الله ربه﴾ ، ثم قال ثامنا: ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله﴾ ، وهو أيضا تأكيد لما مضى، ثم قال تاسعا: ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾ ، فذكر هذه الفوائد الثلاثة لتلك التأكيدات السالفة، وكل ذلك يدل على المبالغة في التوصية بحفظ المال الحلال، وصونه عن الهلاك؛ ليتمكن الإنسان بواسطته من الإنفاق في سبيل الله، والإعراض عن مساخط الله: من الربا، وغيره، والمواظبة على تقوى الله.

الوجه الثاني: قال بعض المفسرين: إن المراد بهذه المداينة «السلم» فإن الله تبارك وتعالى لما منع من الربا في الآية المتقدمة؛ أذن في السلم في هذه الآية، مع أن جميع المنافع المطلوبة من الربا حاصلة في السلم، وبهذا قال بعض العلماء: لا لذة، ولا منفعة يوصل إيها بالطريق الحرام، إلا والله – صلى الله عليه وسلم – سبحانه وتعالى – وضع لتحصيل تلك اللذة طريقا حلالا، وسبيلا مشروعا.

فصل

قال سعيد بن المسيب: بلغني أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين.

التداين تفاعل من الدين كتبايع من البيع، ومعناه: داين بعضكم بعضا، وتداينتم: تبايعتم بدين.

يقال: داينت الرجل أي: عاملته بدين، وسواء كنت معطيا، أم آخذا؛ قال رؤبة: [الرجز]." (١)

"والزكاة، والصوم، والحج، والقصاص، والجهاد، والحيض، والطلاق، والعدة، والصداق، والخلع، والإيلاء، والرضاعة، والبيع، والربا، وكيفية المداينة – ختم هذه السورة بهذه الآية على سبيل التهديد.

قال ابن الخطيب: لما كان أكمل الصفات هو العلم والقدرة عبر عن كمال قدرته بقول ﴿لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ ملكا وملكا، وعبر عن كمال علمه، وإحاطته بالكليات، والجزئيات بقوله: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ ، وإذا اختص بكمال العلم، والقدرة، فكل من في السموات والأرض عبيد مربوبون له، وجدوا بتخليقه، وتكوينه، وهذا غاية الوعد للمطيعين، ونهاية الوعيد للمذنبين،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤/٤٧٦

ولهذا ختم السورة بهذه.

الثاني: قال أبو مسلم: إنه تعالى لما نزل في آخر الآية المتقدمة: «إنه بما تعملون عليم» ، ذكر عقيبه ما يجري مجرى الدليل العقلي فقال: ﴿لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ ومعنى هذا الملك أن هذه الأشياء لما كانت محدثة، فقد وجدت بتكوينه؛ وإبداعه، ومن أتقن هذه الأفعال العجيبة الغريبة المشتملة على الحكم المتكاثرة؛ **والمنافع** العظيمة، فلا شك أن ذلك من أعظم الأدلة على كونه عالما محيطا بأجزائها.

الثالث: قال القاضي: إنه تعالى لما أمر بهذه الوثائق - أعني الكتابة، والإشهاد، والرهن، وكان المقصود من الأمر بها صيانة الأموال، والاحتياط في حفظها - بين تعالى أن المقصود من ذلك إنما يرجع لمنفعة الخلق، لا لمنفعة تعود إليه سبحانه، فإن له ملك السموات، والأرض.

الرابع: قال الشعبي، وعكرمة، ومجاهد: إنه تعالى لما نهى عن كتمان الشهادة، وأوعد عليه، بين أن له ملك السموات، والأرض؛ فيجازي على الكتمانن والإظهار.

فصل في بيان سبب النزول

قال مقاتل: نزلت فيمن يتولى الكافرين من المؤمنين، يعني: وإن تعلنوا ما في أنفسكم من ولاية الكفار، أو تسروه، يحاسبكم به الله، كما ذكر في سورة آل عمران." (١)

"وثانيها: أن الانتفاع بهذه الشهوات وسائل إلى منافع الآخرة، والله تعالى ندب إليها، فكان تزيينا لها، أما كونها وسائل إلى ثواب الآخرة أنه يتصدق بها، ويتقوى بها على الطاعة وأيضا إذا علم أن تلك **المنافع** إنما تيسرت بتخليق الله حمله ذلك على الاتشغال بالشكر.

قال صاحب بن عباد: «شرب الماء البارد في الصيف يستخرج الحمد من أقصى القلب» وأيضا فإن القادر على التمتع باللذات إذا تركها واشتغل بالعبادة، وتحمل ما في ذلك من المشقة ك ان أكثر ثوابا.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ [البقرة: ٢٩] ، وقوله: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ [الأعراف: ٣٢] ، وقوله: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ [الكهف: ٧] وقال: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ [الأعراف: ٣١] ، وقال: ﴿وأنزل من السمآء مآء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾ [البقرة: ٢٢] ، وقال: ﴿كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ [البقرة: ١٦٨] ، وكل ذلك يدل على أن التزيين من الله تعالى.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥١٥/٤

القول الثالث – وهو اختيار الجبائي والقاضي –: وهو التفصيل، فإن كان حراما فالتزيين فيه من الشيطان، وإن كان واجبا، أو مندوبا، فالتزيين فيه من الله تعالى ذكره القاضي في تفسيره وبقي قسم ثالث، وهو المباح الذي ليس في فعله ثواب، ولا في تركه عقاب، وكان من حق القاضي أن يذكره فلم يذكره. ويبين التزيين فيه، هل هو من الله تعالى أو من الشيطان؟

وقرأ مجاهد: «زين» مبنيا للفاعل، و «حب» مفعول به نصا، والفاعل إما ضمير الله تعالى؛ المتقدم ذكره في قوله: ﴿والله يؤيد بنصره من يشآء﴾ [آل عمران: ١٣] ، وإما ضمير الشيطان، أضمر – وإن لم يجر له ذكر – لأنه أصل ذلك، فذكر هذه الأشياء مؤذن بذكره، وأضاف المصدر لمفعوله في ﴿حب الشهوات﴾ .

والشهوات جمع شهوة – بسكون العين – فحركت في الجمع، ولا يجوز التسكين إلا في ضرورة، كقوله: [الطويل]

١٣٥٨ – وحملت زفرات الضحى فأطقتها ... وما لي بوفرات العشي يدان

بتسكين الفاء. والشهوة مصدر يراد به اسم المفعول، أي: المشتهيات، فهو من." (١)

"فذلك هو كمال المحبة، فإن كان ذلك في جانب الخير، فهو كمال السعادة، كقول سليمان: ﴿إني أحببت حب الخير﴾ [ص: ٣٢] ، ومعناه: أحب الخير، وأحب أن أكون محبا للخير، وإن كان ذلك في جانب الشر فهو كما قال في هذه الآية؛ فإن قوله: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ يدل على ثلاثة أمور مترتبة:

أولها: أنه يشتهي أنواع المشتهيات.

ثانيها: أنه يحب شهوته لها.

ثالثها: أنه يعتقد أن تلك المحبة حسنة.

ولما اجتمعت هذه الدرجات الثلاث في هذه القضية بلغت الغاية القصوى في الشدة، فلا تنحل إلا بتوفيق عظيم من الله تعالى، ثم إنه أضاف ذلك إلى الناس، ولفظ «الناس» عام، دخله حرف التعريف فيفيد الاستغراق، فظاهر اللفظ يقتضي أن هذا المعنى حاصل لجميع الناس، والعقل – أيضا – يدل عليه؛ لأن كل ما كان لذيذا ونافعا فهو محبوب، ومطلوب لذاته، **والمنافع** قسمان: جسماني، وروحاني، فالجسماني حاصل لكل أحد في أول الأمر، والروحاني لا يحصل إلا في الإنسان الواحد على سبيل الندرة، ثم إن

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥/٧١

انجذاب نفسه إلى اللذات الجسمانية كالملكة المستقرة وانجذابها إلى اللذات الروحانية كالحالة الطارئة التي تزول بأدنى سبب، فلا جرم كان الغالب على الخلق هو الميل الشديد إلى اللذات الجسمانية، فلهذا السبب عم الله هذا الحكم في الكل.

قوله تعالى: ﴿من النساء﴾ في محل نصب على الحال من الشهوات، والتقدير: حال كون الشهوات من كذا وكذا، فهي مفسرة لها في المعنى.

ويجوز أن تكون «من» لبيان الجنس، لقول الزمخشري: «ثم يفسره بهذه الأجناس» .

كقوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ [الحج: ٣٠] ، والمعنى: فاجتنبوا الأوثان التي هي رجس.

وقدم النساء على الكل، قال القرطبي: لكثرة تشوق النفوس إليهن؛ لأنهن حبائل الشيطان، وفتنة الرجال، قال صلى الله عليه وسلم : «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» أخرجه البخاري ومسلم لأن الالتذاذ منهن أكثر، والاستئناس بهن أتم، ولذلك قال." (١)

"فإن قيل: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، هذه الصفات الثلاث كانت حاصلة في سائر الأمم، فمن أي وجه كانت هذه الأمة خير الأمم؟

والجواب: قال القفال: إن تفضيلهم على سائر الأمم الذين كانوا قبلهم إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر بآكد الوجوه – وهو القتال –: لأن الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب وباللسان، واليد، وأقواها القتال؛ لأنه إلقاء للنفس في خطر القتل، وأعرف المعروفات الدين الحق، والإيمان بالتوحيد والنبوة، وأنكر المنكرات الكفر بالله، فلما كان الجهاد في الدين تحملا لأعظم المضار؛ لغرض إيصال الغير إلى أعظم المنافع، وتخليصه من أعظم المضار، وجب أن يكون الجهاد أعظم العبادات، وهو في شرعنا أقوى منه في سائر الشرائع – فلا جرم – صار ذلك موجبا لفضل العبادات، وهو في شرعنا أقوى منه في سائر الشرائع – فلا جرم – صار ذلك موجبا لفضل هذه الأمة على سائر الأمم.

وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويقروا بما أنزل الله، وتقاتلونهم عليه، و «لا إله إلا الله» أعظم المعروف، والتكذيب هو أنكر المنكر.

ثم قال القفال: فائدة: القتال على الدين لا ينكره منصف، لأن أكثر الناس يحبون أديانهم بسبب الإلف والعادة، ولا يتأملون في الدلائل الواردة عليهم، فإذا أكره – بالتخويف بالقتل – على الدخول في الدين،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٧٣/٥

دخل فيه، ثم لا يزال يضعف في قلبه ما كان من حب الباطل، ويقوى حب الدين الحق في قلبه إلى أن ينتقل من الباطل إلى الحق، ومن استحقاق العذاب الأليم إلى استحقاق الثواب الدائم، والنعيم المقيم.

فإن قيل: لم قدم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على الإيمان بالله، في الذكر – مع أن الإيمان بالله – لا بد وأن يكون مقدما على كل الطاعات.

فالجواب: أن الإيمان بالله مشترك فيه بين جميع الأمم المحقة، ثم إنه – تعالى – ذكر أن فضل هذه الأمة أقوى حالا – في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر – من سائر الأمم، فالمؤثر – إذن – في هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأما الإيمان بالله فهو شرط لتأثير هذا المؤثر في هذا الحكم؛ لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يصر شيء من الطاعات وصفا من صفات الخيرية.

فإن قيل: لم اكتفى بذكر الإيمان بالله، ولم يذكر الإيمان بالنبوة، مع أنه لا بد منه؟

فالجواب: أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالنبوة، لأن الإيمان بالله لا يحصل إلا إذا حصل الإيمان بكونه صادقا، والإيمان بكونه صادقا لا يحصل إلا إذا كان الذي أظهر." (١)

"يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة، فلما رأوه وضع رجل سهما في قوسه، وأراد أن يرميه، فقال: أنا رسول الله، ففرحوا حين وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى من يمتنع به، فأقبلوا على المشركين، يذكرون الفتح وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا، فأقبل أبو سفيان وأصحابه، حتى وقفوا بباب الشعب، فلما نظر المسلمون إليهم همهم ذلك، وظنوا أنهم يميلون عليهم، فيقتلونهم، فأنساهم هذا ما نالهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لهم أن يعلونا، اللهم إن تقتل هذه العصابة لا تعبد في الأرض، ثم بدأ أصحابه، فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم.

وإذا عرفت هذا فكل واحد من المفسرين فسر هذين الغمين بغمين من هذه الغموم وقال القفال: وعندنا أن الله – تعالى – ما أراد بقوله: ﴿غما بغم﴾ اثنين، وإنما أراد مواصلة الغموم وطولها، أي: أن الله عاقبكم بغموم كثيرة، مثل قتل إخوانكم وأقاربكم، ونزول المشركين من فوق الجبل عليكم، بحيث لم تأمنوا أن يهلك أكثركم، ومثل إقدامكم على المعصية، فكأنه – تعالى – قال: أثابكم هذه الغموم المتعاقبة؛ ليصير ذلك زاجرا لكم عن الإقدام على المعصية، والاشتغال بما يخالف أمر الله تعالى.

والغم: التغطية، يقال: يوم غم، وليلة غمة – إذا كانا مظلمين – ومنه: غم الهلال – إذا لم ير، وغم الأمر،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٦٨/٥

يغمى – إذا لم يتبين.

قوله: ﴿لكيلا تحزنوا﴾ هذه لام «كي» وهي لام جر، والنصب – هنا – ب «كي» لئلا يلزم دخول حرف جر على مثله، وفي متعلق هذه اللام قولان:

أحدهما: أنه ﴿فأثابكم﴾ وفي «لا» على هذا وجهان:

الأول: أنها زائدة؛ لأنه لا يترتب على الاغتمام انتفاء الحزن، والمعنى: أنه غمهم ليحزنهم؛ عقوبة لهم على تركهم مواقفهم، قاله أبو البقاء.

الثاني: أنها ليست زائدة، فقال الزمخشري: معنى ﴿لكيلا تحزنوا﴾ لتتمرنوا على تجرع الغموم، وتتضرروا باحتمال الشدائد، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من **المنافع**، ولا على مصيب من المضار.

وقال ابن عطية: «المعنى: لتعلموا أن ما وقع بكم إنما هو بجنايتكم، فأنتم ورطتم أنفسكم، وعادة البشر أن جاني الذنب يصبر للعقوبة، وأكثر قلق المعاقب وحزنه إذا ظن البراءة من نفسه» .

ثانيهما: أن اللام تتعلق ب «عفا» لأن عفوه يذهب كل حزن، وفيه بعد؛ لطول الفصل.

ثم قال: ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أي: عالم بجميع أعمالكم وقصودكم ودواعيكم، قادر على مجازاتها، وهذا زجر للبعد عن الإقدام على المعصية.." (١)

"قوله: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ أي: ونكتب قتلهم، أي: رضاهم بالقتل، والمراد قتل أسلافهم الأنبياء، ولكن لما رضوا بذلك صحت الإضافة إليهم، حسن رجل عند الشعبي قتل عثمان، فقال الشعبي: قد شركت في دمه، فجعل الرضا بالقتل قتلا، قال القرطبي: وهذه مسألة عظمى، حيث يكون الرضا بالمعصية معصية، وقد روى أبو داود عن العرس بن عميرة الكندي، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها – أو فأنكرها – كمن غاب عنها، ومن غاب فرضيها كان كمن شهدها» وتقدم الكلام على إضافة قتل الأنبياء إلى هؤلاء الحاضرين.

والفائدة في ضم أنهم قتلوا الأنبياء إلى وصفهم الله تعالى بالفقر بيان أن جهلهم ليس مخصوصا بهذا الوقت، بل هم – منذ كانوا – مصرون على الجهالات والحماقات.

ثم قال: ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي: النار، وهو بمعنى المحرق – كالأليم بمعنى المؤلم – وهذا القول يحتمل أن يقال لهم عند الموت، أو عند الحشر، إن لم يكن هناك قول.

فإن قيل: إنهم أوردوا سؤالا، وهو أن من طلب المال من غيره كان فقيرا، فلو طلب الله المال من عبيده

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥/٦٠٨

لكان فقيرا، وذلك محال، فوجب أن يقال: إنه لم يطلب المال من وعبيده، وذلك قادح في كونه صلى الله عليه وسلم صادقا في ادعاء النبوة، فهذا هو شبهتهم، فأين الجواب؟ وكيف يحسن ذكر الوعيد قبل ذلك الجواب عنها؟ .

فالجواب: إن فرعنا على قول أهل السنة والجماعة قلنا: يفعل الله ما يشاء، ويحكم ما يريد، فلا يبعد أن يأمر الله عبيده ببذل الأموال، مع كونه تعالى أغنى الأغنياء. وأما على قول المعتزلة – فإنه تعالى يراعي المصالح – فلا يبعد أن يكون في هذا التكليف أنواع من المصالح العائدة إلى العباد؛ فإن إنفاق المال يوجب زوال حب المال عن القلب، وذلك من أعظم **المنافع**، وتتفرع عليه مصالح كثيرة:

منها: أن إنفاقه سبب للبقاء المخلد في دار الثواب.

ومنها: أن يصير القلب – بذلك الإنفاق – فارغا من حب ما سوى الله تعالى.

ومنها: أنه لو ترك الإنفاق لبقي حب المال في قلبه، فتتألم روحه لمفارقته.

قوله: ﴿ذلك بما قدمت﴾ مبتدأ وخبر، تقديره: ذلك مستحق بما قدمت، كذا قدره أبو البقاء، وفيه نظر. و «ما» يجوز أن تكون موصولة، وموصوفة، و «ذلك» إشارة إلى ما قدم من عقابهم، وهذه الجملة تحتمل وجهين:." (١)

"«سمع» إن دخلت على ما يصح أن يسمع – نحو: سمعت كلامك وقراءتك – تعدت لواحد، فإن دخلت على ما يصح سماعه – بأن كان ذاتا – فلا يصح الاقتصار عليه وحده، بل لا بد من الدلالة على شيء يسمع، نحو سمعت رجلا يقول كذا، وسمعت زيدا يتكلم، وللنحويين – في هذه المسألة – قولان: أحدهما: أنها تتعدى فيه – أيضا – إلى مفعول واحد، والجملة الواقعة بعد المنصوب صفة إن كان قبلها نكرة، أو حالا، إن كان معرفة.

والثاني: – قول الفارسي وجماعة –: أنها تتعدى لاثنين، والجملة في محل الثاني منهما، فعلى قول الجمهور يكون «ينادي» في محل نصب، لأنه صفة لمنصوب قبله، وعلى قول الفارسي يكون في محل نصب على أنه مفعول ثان.

وقال الزمخشري: «تقول: سمعت رجلا يقول كذا، وسمعت زيدا يتكلم، فتوقع الفعل على الرجل، وتحذف المسموع؛ لأنك وصفته بما يسمع، أو جعلته حالا منه، فأغناك عن ذكره، ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد، و أن تقول: سمعت كلام فلان أو قوله» .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦/٩٠

وهذا قول الجمهور المتقدم ذكره.

إلا أن أبا حيان اعترض عليه، فقال «وقوله: ولولا الوصف أو الحال ... إلى آخره، ليس كذلك، بل لا يكون وصف ولا حال، ويدخل» سمع «على ذات على مسموع، وذلك إذا كان في الكلام ما يشعر بالمسموع – وإن لم يكن وصفا ولا حالا – ومنه قوله تعالى: ﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون﴾ [الشعراء: ٧٢] فأغنى ذكر طرف الدعاء عن ذكر المسموع» .

وأجاز أبو البقاء في «ينادي» أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير المستكن في «مناديا» .

فإن قيل: ما الفائدة في الجمع بين «مناديا» و «ينادي» ؟

فأجاب الزمخشري بأنه ذكر النداء مطلقا، ثم مقيدا بالإيمان، تفخيما لشأن المنادي؛ لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان، ونحوه قولك: مررت بهاد يهدي للإسلام، وذلك أن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أو لإطفاء الثائرة، أو لإغاثة المكروب، أو لكفاية بعض النوازل، أو لبعض **المنافع** وكذلك الهادي يطلق على من يهدي للطريق، ويهدي لسداد الرأي، وغير ذلك فإذا قلت: ينادي للإيمان، ويهدي للإسلام فقد رفعت من شأن المنادي والهادي وفخمته.." (١)

"احكم بالحق﴾ [الأنبياء: ١١١] وقوله:

﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾ [غافر: ٧] .

الثاني: أن وعد الله لا يتناول آحاد الأمة بأعيانهم، بل بحسب أوصافهم، فإنه – تعالى – وعد المتقين بالثواب، ووعد الفساق بالعقاب، فقوله: ﴿وآتنا ما وعدتنا﴾ معناه: وفقنا للأعمال التي نصير بها أهلا لوعدك، واعصمنا من الأعمال التي نصير بها أهلا للعقاب والخزي.

الثالث: أن الله – تعالى – وعد المؤمنين بأن ينصرهم في الدنيا على أعدائهم، فهم طلبوا تعجيل ذلك.

فصل

دلت الآية على أنهم إنما طلبوا منافع الآخرة بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق؛ لقولهم: ﴿وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ ثم قالوا: ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ وهذا يدل على أن المقتضي لحصول منافع الآخرة هو الوعد لا الاستحقاق.

فإن قيل: متى حصل الثواب لزم اندفاع العقاب لا محالة، فلما طلبوا الثواب بقولهم: ﴿وآتنا ما وعدتنا﴾ كيف طلبوا ترك العقاب بقولهم: ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ بل لو طلب ترك العقاب – أولا – ثم طلب

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١١٩/٦

الثواب بعده لاستقام الكلام؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن الثواب شرطه أن يكون منفعة مرونة بالتعظيم والسرور، فقوله: ﴿وآتنا ما وعدتنا﴾ المراد منه **المنافع** وقوله: ﴿ولا تخزنا﴾ المراد منه التعظيم.

الثاني: ما تقدم من أن المقصود طلب التوفيق إلى الطاعة، والعصمة عن المعصية، كأنه قيل: وفقنا للطاعات، وإذا وفقتنا فاعصمنا عما يبطلها، ويوقعنا في الخزي. وعلى هذا يحسن النظم. و «الميعاد» مصدر بمعنى الوعد.

قوله: ﴿يوم القيامة﴾ فيه وجهان:

الأول: أنه منصوب ب ﴿ولا تخزن﴾ .

والثاني: أنه أجاز أبو حيان أن يكون من باب الإعمال؛ إذ يصلح أن يكون منصوبا ب ﴿ولا تخزن﴾ وب ﴿وآتنا ما وعدتنا﴾ إذا كان الموعود به الجنة.

﴿فاستجاب." (١)

"فقال عليه السلام «رضيت من نفسك بنعلين» ، فقالت: نعم؛ فأجازه النبي صلى الله عليه وسلم «والظاهر أن قيمة النعلين أقل من عشرة دراهم، فإن مثل هذا الرجل والمرأة اللذين تزوجا على نعلين يكونان في غاية الفقر فنعلهما تكون قليلة القيمة جدا.

وروى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:» من أعطى امرأة من نكاح كف دقيق، أو سويق، أو طعاما فقد استحل «، وحديث الواهبة نفسها أنه - عليه السلام -» قال للذي أراد أن يتزوجها التمس ولو خاتما من حديد «وذلك لا يساوي عشرة دراهم.

فصل [في الخلاف في المهر **بالمنافع]**

قال أبو حنيفة: لو تزوجها على تعليم سورة من القرآن لم يكن ذلك مهرا، ولها مهر مثلها ولو تزوجها على خدمة سنة، فإن كان حرا فلها مهر مثلها، وإن كان عبدا فلها خدمة سنة وقال غيره: يجوز جعل ذلك مهرا، واحتج أبو حنيفة بهذه الآية.

قال: لأنه تعالى شرط في حصول الحل ذلك الابتغاء بالمال، والمال اسم للأعيان لا للمنافع وأيضا قال: ﴿فآتوهن أجورهن﴾ وذلك صفة للأعيان لا للمنافع، وأيضا قال ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٢٣/٦

هنيئا مريئا﴾ [النساء: ٤] .

وأجيب عن الأول بأن الآية دلت على أن الابتغاء بالمال جائز، وليس فيه بيان أن الابتغاء بغير المال جائز أم لا.

وعن الثاني: بأن لفظ الايتاء كما يتناول الأعيان **المنافع** الملتزمة.

وعن الثالث: أنه خرج الخطاب على الأعم الأغلب.

واستدل المخالف بوجهين:

أحدهما: قصة شعيب في قوله لموسى ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج﴾ [القصص: ٢٧] وشرعهم شرع لنا ما لم يرد ناسخ.." (١)

"بولده، ويقال فيمن مات شابا: لم يتمتع بشبابه، قال تعالى ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ [الأنعام: ١٢٨] وقال ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾ [التوبة: ٦٩] يعني: بحظكم عليهن؛ فآتوهن أجورهن عليه، أو مهورهن عليه، وإنما سمي المهر أجرا؛ لأنه بدل **المنافع** كما سمي بدل منافع الدار والدابة أجرا.

فصل [في الخلاف في تقرير لمهر بالخلوة]

قال الشافعي: الخلوة الصحيحة لا تقرر المهر.

وقال أبو حنيفة وأحمد: تقرره، واحتج الشافعي بقوله تعالى ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن﴾ فجعل وجوب إتيانهن لأجل الاستمتاع بهن، فلو تقرر بالخلوة قبل الاستمتاع لمنع من تعلق النقود بالاستمتاع وهو خلاف الآية.

فصل

قال الحسن ومجاهد وأكثر العلماء: والمراد بهذه الآية ابتغاء بالأموال على طريق النكاح الصحيح.

وقوله ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن﴾ فجعل وجوب إتيانهن بالدخول أي ﴿فآتوهن أجورهن﴾ أي مهورهن بالتمام.

قال القرطبي: اختلف الناس في المعقود عليه في النكاح هل هو بدن المرأة، أو منفعة البضع، أو الحل على ثلاثة أقوال، قال: والظاهر المجموع؛ لأن العقد يقتضي كل ذلك فإن عقد النكاح آتاها نصف المهر، وقال آخرون: هو نكاح المتعة، وهو أن يستأجر امرأة بمال معلوم إلى أجل معين، فإذا انقضت تلك المدة باتت منه بلا طلاق وتستبرئ رحمها، وليس بينهما ميراث، وكان ذلك مباحا في ابتداء الإسلام ثم نهى عنه

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٠٧/٦

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى الربيع بن سبرة الجهني أن أباه حدثه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

«يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء فإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا» وروى علي بن أبي طالب «أن رسول الله عليه الصلاة والسلام نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية» وعامة أهل العلم على أن نكاح المتعة حرام منسوخ." (١)

"فكيف بالظرف وشبهه.

والثاني ممتنع أيضا؛ لأن الأمر ليس واقعا وقت الحكم، كذا قاله أبو حيان وفيه نظر وإذا بطل هذا فالعامل فيه مقدر يفسره ما بعده تقديره: «وأن تحكموا إذا حكمتم» ، و «أن تحكموا» الأخيرة دالة على الأولى.

قوله «بالعدل» يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أن يتعلق ب «تحكموا» ، فتكون الباء للتعدية، والثانية: أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من فاعل تحكموا، فتكون الباء للمصاحبة، أي: ملتبسين بالعدل مصاحبين له.

والمعنيان متقاربان.

فصل

اعلم أن الأمانة عبارة عن أداء ما وجب عليك لغيرك، والحكم بالحق عما إذا وجب لإنسان على غيره حق، فأمر من وجب عليه ذلك الحق بأن يدفعه إلى من له ذلك الحق.

ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع، ودفع المضار، ثم يشتغل بغيره، لا جرم أمر تعالى بأداء الأمانة أولا، ثم ذكر بعد الأمر الحكم بالحق، وهذا من اللطائف المودعة في ترتيب القرآن.

فصل في وجوب حكم الإمام بالعدل

أجمعوا على أنه يجب على الحكم أن يحكم بالعدل، لهذه الآية، ولقوله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ [النحل: ٩٠] وقوله ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقوله ﴿ياداوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾ [ص: ٢٦] ، وقال – عليه الصلاة والسلام : «لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت، وإذا حكمت عدلت وإذا استرحمت رحمت» وقال عليه الصلاة والسلام

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦/٣٠٩

«المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين؛ هم الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم ما ولوا» وقال عليه الصلاة والسلام «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأقربهم منه مجلسا إمام عادل وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا إمام جائر»

وقال عليه الصلاة والسلام «ينادي مناد يوم القيامة أين الظلمة، فيجمعون عليه في النار» .

يحقق ذلك قوله تعالى ﴿احشرو ا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ [الصافات: ٢٢] وقوله ﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون﴾ [إبراهيم: ٤٢] .." (١)

"ومنها: أن العامي يجب عليه تقليد العلماء في أحكام الحوادث.

ومنها: أن النبي - عليه الصلاة والسلام - كان مكلفا باستنباط الأحكام؛ لأن الله - تعالى - أمر بالرد إلى أولي الأمر، ثم قال: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ ولم يخصص أولي الأمر دون الرسول، وذلك يوجب الرسول وأولي الأمر كلهم مكلفون بالاستنباط.

فإن قيل: لا نسلم أن المراد ب ﴿الذين يستنبطونه منهم﴾ أولي الأمر، لكن هذه الآية إنما نزلت في بيان الوقائع المتعلقة بالحروب والجهاد، فهب أن الرجوع إلى الاستنباط جائز فيها، فلم قلتم بجوازه في الوقائع الشرعية؛ فإن قيس أحد البابين على الآخر، كان ذلك إثباتا للقياس الشرعي بالقياس، وأنه لا يجوز أن الاستنباط في الأحكام الشرعية داخل تحت الآية فلما قلتم يلزم أن يكون القياس حجة، فإنه يمكن أن يكون المراد بالاستنباط: استخراج الأحكام من النصوص الخفية، أو من تركيبات النصوص، أو المراد منه استخراج الأحكام من البراءة، الأصلية، أو مما ثبت بحكم العقل، كما يقول الأكثرون إن الأصل في **المنافع** الإباحة، وفي المضار الحرمة.

سلمنا أن القياس الشرعي داخل في الآية، لكن بشرط أن يكون القياس مفيدا للعلم؛ لقوله - تعالى -: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ . فاعتبر حصول العلم من هذا الاستنباط، ونزاع في مثل هذا القياس، إنما النزاع في القياس الذي يفيد الظن: هل هو حجة في الشرع، أم لا.

والجواب: أما الأول فلا يصح؛ لأنه يصير التقدير: أو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلموه، وعطف المظهر على المضمر، وهو قوله: «ولو ردوه» قبيح مستكره.

وأما الثاني فمدفوع من وجهين:

أحدهما: أن قوله: ﴿وإذا جآءهم أمر من الأمن أو الخوف﴾ حاصل في كل ما يتعلق بباب التكليف، فليس

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٣٩/٦

في الآية ما يوجب تخصيصها بأمر الحروب.

وثانيها: هب أن الأمر كما ذكرتم، لكن لما ثبت تعرف أحكام الحروب بالقياس الشرعي، وجب أن يتمسك بالقياس الشرعي في سائر لوقائع، لأنه لا قائل بالفرق.

وأما الثالث: وهو حمل الاستنباط على استخراج النصوص الخفية أو على تركيبات النصوص الخفية أو على تركيبات النصوص، فكل ذلك لا يخرجه عن كونه منصوصا، والتمسك بالنص لا يسمى استنباطا.

وأما قوله: لا يجوز حمله على التمسك بالبراءة الأصلية.." (١)

"في البهائم؛ لأن فيه غرضا، وكانت العرب إذا بلغت إبل أحدهم ألفا عوروا عين فحلها.

وحكى الزجاج عن بعضهم: التغيير هو أن الله - تعالى - خلق الأنعام للركوب والأكل، فحربوها، وخلق الشمس، والقمر، والنجوم، والأحجار لمنفعة العباد، فعبدوها من دون الله.

وقيل: التغيير هو التخنث؛ وهو عبارة عن الذكر يشبه الأنثى والسحق؛ عبارة عن تشبه الأنثى بالذكر.

ثم قال: ﴿ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله﴾ أي: ربا يطيعه، ﴿فقد خسر خسرانا مبينا﴾ لأن طاعة الله تعالى تفيد **المنافع** العظيمة، الدائمة، الخالصة عن شوائب الضرر، وطاعة الشيطان تفيد **المنافع** القليلة، المنقطعة، المشوبة بالغموم والأحزان، ويعمها العذاب الدائم، وهذا هو الخسار المطلق.

قال أبو العباس المقري: ورد لفظ الخسران [قي القرآن] على أربعة أوجه:

الأول: بمعنى الضلالة؛ كهذه الآية.

الثاني: بمعنى العجز؛ قال - تعالى -: ﴿لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنآ إذا لخاسرون﴾ [يوسف: ١٤] أي: عاجزون ومثله: ﴿لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون﴾ [الأعراف: ٩٠] .

الثالث: بمعنى الغبن؛ قال - تعالى -: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ [المؤمنون: ١٠٣] أي: غبنوا أنفسهم.

الرابع: بمعنى: المخسرون؛ قال - تعالى -: ﴿خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران [المبين] ﴾ [الحج: ١١] .

قوله: «يعدهم ويمنيهم» ، قرئ: «يعدهم» بسكون الدال تخفيفا؛ لتوالي الحركات، ومفعول الوعد محذوف، أي: يعدهم الباطل أو السلامة والعافية ووعده وتمنيته: ما يوقعه في قلب الإنسان من طول العمر، ونيل الدنيا، وقد يكون بالتخويف بالفقر، فيمنعه من الإنفاق، وصلة الرحم؛ كما قال - تعالى -: ﴿الشيطان

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦/٥٢٧

يعدكم الفقر﴾ [البقرة: ٢٦٨] و «يمنيهم» بأن لا بعث، ولا جنة، ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾ أي:." (١)

"وهذا دليل أيضا على فساد قول النصارى وذلك من وجوه:

الأول: أن اليهود كانوا يعادون عيسى - عليه الصلاة والسلام -، ويقصدونه بالسوء، فما قدر على إضرارهم، وكان له أيضا أنصار وصحابة يحبونه، فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الإضرار والنفع كيف يعقل أن يكون إلها؟ ﴾

الثاني: أن مذهب النصارى - لعنهم الله -: أن اليهود صلبوه ومزقوا أضلاعه، ولما عطش وطلب الماء منهم صبوا الخل في منخريه، ومن كان في الضعف هكذا، كيف يعقل أن يكون إلها؟﴾

الثالث: أن إله العالم يجب أن يكون غنيا عن كل ما سواه محتاجا إليه، فلو كان عيسى كذلك لامتنع كونه مشغولا بعبادة الله تعالى؛ لأن الإله لا يعبد شيئا، إنما العبد هو الذي يعبد الإله، فلما عرف بالتواتر أنه كان مواظبا على الطاعات والعبادات، علمنا أنه كان يفعلها لكونه محتاجا في تحصيل **المنافع**، ودفع المضار إلى غيره، ومن كان كذلك كيف يقدر على إيصال **المنافع** إلى العباد، ودفع المضار عنهم؟! وإذا كان كذلك كان عبدا كسائر العبيد، وهذا هو عين الدليل الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم - عليه السلام - ". (٢)

"قال كعب الأحبار - رضي الله عنه -: هذه الآية [الكريمة] أول آية في التوراة، وآخر آية في التوراة قوله تعالى: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك﴾ [الإسراء: ١١١] الآية الكريمة.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: فتح الله بالحمد، فقال: «الحمد الله الذي خلق السموات والأرض»، وختمهم بالحمد، فقال: «وقضى بينم بالحق» ، وقيل: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الرمز: ٧٥] .

فقوله: «الحمد لله» فحمد الله نفسه تعليما لعباده، أي: احمدوا الله الذي خلق السموات والأرض خصمها بالذكر؛ لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، وفيهما العبرة **والمنافع** للعباد.

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٧/٧

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٦٤/٧

وأعلم أن المدح أعم من الحمد، والحمد أعم من الشكر؛ لأن المدح يحصل للعاقل وغي العاقل، فكما يمدح الرجل العاقل بفضله، كذلك يمدح اللؤلؤ لحسن." (١)

"قوله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض﴾ كما صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآية الأولى، حذر القوم في الآية، وقال لرسوله: قل لهم: لا تغتروا بما وصلتم إليه من الدنيا ولذاتها، بل سيروا في الأرض لترعرفوا صحة ما أخبركم الرسول عنه من نزول العذاب بمن كذب الرسل من الأمم السالفة قبلكم. يحذر كفار «مكة» ، ويحتمل هذا السير أن يكون بالعقول والفكر، ويحتمل السير في الأرض.

قوله: «ثم» انظروا «: عطف على» سيروا «ولم يجئ في القرآن العطف في مثل هذا الموضوع إلا بالفاء، وهنا جاء ب» ثم «فيحتاج إلى فرق.

فذكر الزمخشري الفرق وهو: أن جعل النظر مسببا عن السير في قوله:» فانظروا «كأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين.

وهنا معناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه عل ذلك ب» ثم «لتبعد ما بين الواجب والمباح.

قال أبو حيان – رضي الله عنه –: وما ذكر أولا متناقض؛ لأنه جعل النظر متسببا عن السير، فكان السير سببا للنظر، ثم قال: فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، فجعل السير معلولا بالنظر، والنظر، سبب له فتناقضا، ودعوى أن» الفاء «سببية دعوى لا دليل عليها وإنما معناها التعقب فقط، وأما» زنى ماعز فرجم «ففهم السببية من قرينة غيرها.

قال:» وعلى تقدير [تسليم] إفادتها السببن فلم كان السير هنا سير إباحة، وفي غيره سير إيجاب؟ «.

وهذا اعترض صحيح إلا قوله:» إن «الفاء» لا تفيد السببية «فإنه غير مرض، [." (٢)

"هب أن هذين النوعين تشاركا في الفضل إلا أن الوصول إلى الخيرات الموعودة في [غد القيامة معلوم قطعا، وأما الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد] الدنيا فغير معلوم، بل ولا مظنون، فكم من سلطان قاهر في بكرة اليوم صار تحت التراب في آخر ذلك [اليوم] .

الأمر الثالث: هب أنه وجد الإنسان بعد هذا اليوم يوما آخر في الدنيا إلا أنه لا يدري هل يمكنه الانتفاع بما جمعه من الأموال والطيبات واللذات أم لا؟ . أما كل ما جمعه من السعادات، فإنه قطعا أنه ينتفع به

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤/٨

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٣/٨

في الآخرة.

الأمر الرابع: هب أنه ينتفع بتلك بها إلا أن انتفاعه بخيرات الدنيا لا يخلو عن شوائب المكروهات [والانتفاع بخيرات] الآخرة خال [عن] شوائب المكروهات.

الأمر الخامس: هب أنه ينتفع بتلك الأموال والطيبات من غير شائبه إلا أن ذلك الانتفاع [منقرض] ذاهب والمنافع المنقرصة تحزن الإنسان لمفارقتها، وكلما كانت تلك المنافع أكمل وألذ، كانت [تلك] الأحزان الحاصلة عن انقراضها وانقطعها أقوى وأكمل.

فصل في المراد بقوله: «وللآخرة خير»

قال ابن عباس: المراد بالآخرة الجنة، وأنها خير لمن اتقى الكفر والمعاصي.

وقال الحسن: المراد نفس دار الآخرة خير.

وقال الأصم: التمسك بعمل الآخرة خير.

وقال آخرون: نعيم الآخرة خير من نعيم الدنيا للذين يتقون المعاصي والكبائر، فأما الكافر والفاسق فلا [؛ لأن الدنيا] بالنسبة إليه خير من الآخرة لقوله عليه السلام: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» .

قوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ قد تقدم الكلام في مثل هذه الهمزة الداخلة على «الفاء» وأختها «الواو» و «ثم» .

وقرأ ابن عامر – رضي الله عنه – ونافع وحفص عن عاصم: «تعقلون» خطابا لمن كان بحضرته – عليه السلام – وفي زمانه.." (١)

"قال الزمخشري. وفيه نظر من حيث إنه يؤدي إلى أنه يصير التقدير: ولا أقول لكم: لا أعلم الغيب وليس بصحيح.

والثاني: أنه معطوف على» لا أقول «لامعمول، فهو أمر أن يخبر عن نفسه بهذه الجمل الثلاث فهي معمولة للأمر الذي هو» قل «، وهذا تخريج أبي حيان قال بعد أن حكى قول الزمخشري:» ولا يتعين ما قاله، بل الظاهر أنه معطوف على لا أقول «إلى آخرة.

فصل في معنى الآية

والمعنى: أن القوم يقولون: إن كنت رسولا من عند الله، فلا بد وأن تخبرنا عما سيقع في المستقبل من المصالح المضار حتى نستعد لتحصيل تكل المنافع، ولدفع تلك المضار، فقال تعالى:» قل إني لا أعلم الغيب ولا أقول: إني ملك «ومعناه: أنهم كانوا يقولون: ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٨/١٠٩

الأسواق﴾ [الفرقان: ٧] ويتزوج ويخالط الناس، فقال تعالى: قل بهم: إني لست من الملائكة.
فصل في بيان فائدة هذه الأحوال
اختلفوا في الفائدة من ذكر هذه الأحوال الثلاثة، فقيل: المراد منه أ، يظهر الرسول من نفسه التواضع لله، والاعتراف بعبوديته حتى لا يعتقد فيه مثل اعقاد النصارى في المسيح عليه الصلاة والسلام.
وقيل: إن القوم كاوا يقترحون عليه إظهار المعجزات القاهرة، كقولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ [الإسراء: ٩٠] فقال تعالى في آخر الآية: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ [الإسراء: ٩٣] يعني: أنا لا أدعي إلا الرسالة والنبوة، وهذه الأمور التي طلبتموها، فلا يمكن تحصيلها إلا بقدرة الله.
وقيل: المراد من قوله: ﴿لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ ، أي: لا أدعي كوني موصوفا بالقدرة، ولا أعلم الغيب، أي: ولا أدعي كوني موصوفا بعلم الله تعالى، وبمجموع هذين الكلامين حصل أنه لا يدعي الإلهية.
ثم قال: «ولا أقول لكم: إني ملك» وذلك؛ لأنه ليس بعد الإلهية درجة أعلى حالا من الملائكة فصار حاصل الكلام كأنه يقول: لا أدعي الإلهية، ولا أدعي الملكية، ولكن أدعي الرسالة، وهذا منصب لا يمتنع حصوله [للبشر] فكيف أطبقتم على استنكار قولي.." (١)
"وقوله:» ومن حولها «عطف على» أهل «المحذوف، أي: ولتنذر من حول أم القرى، ولا يجوز أن يعطف على» أم القرى «، إذ يلزم أن يكون معنى» ولتنذر «أهل من حولها ولا حاجة تدعو إلى ذلك؛ لأن» من حولها «يقبلون الإنذار.
قال أبو حيان: ولم يحذف» من «، فيعطف حول على» أم القرى «، وإنه لا يصح من حيث المعنى؛ لأن» حول «ظرف لا ينصرف، فلو عطف على» أم القرى «لصار مفعولا به لعطفه على المعفول به، وذلك لا يجوز؛ لأن العرب لا تستعمله إلا ظرفا.
فصل في تسمية» مكة «
اتفقوا على أن أم القرى» مكة «سميت بذلك؛ قال ابن عباس: لأن الأرضين دحيت من تحتها، فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل [النسل.
قال الأصم: سميت بذلك؛ لأنها قبلة أهل الدنيا، فصارت هي كالأصل] وسائر البلاد والقرى تابعة.
وأيضا من أصول عبادات أهل الدنيا الحج وهو إنما يكون في هذه البلدة، فلهذا السبب يجتمع الخلق

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥٧/٨

إليها، كما يجتمع الأولاد إلى الأم.

وأيضا فلما كان أهل الدنيا يجتمعون هناك بسبب الحج لا جرم يحصل هناك أنواع من التجارات **والمنافع** ما لا يحصل في سائر البلاد، ولا شك أن الكسب والتجارة من أصول **المنافع**، فلهذا السبب سميت» مكة «بأم القرى.

وقيل:» مكة «المشرفة أول بلدة سكنت في الأرض.

قوله: «من حولها» يدخل في سائر البلدان والقرى.

قال المفسرون: المراد أهل الأرض شرقا وغربا.

قوله: «والذين يؤمنون بالآخرة» يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أنه مرفوع بالابتداء، وخبره «يؤمنون» ولم يتحد المبتدأ ولاخبر لتغاير متعلقيهما، فلذلك جاز أن يقع الخبر بلفظ المبتدأ، وإلا فيمتنع أن تقول: «الذي يقوم يقوم» ، و «الذين يؤمنون يؤمنون» ، وعلى هذا فذكر الفضلة هنا واجب، ولم يتعرض النحويون لذلك، ولكن تعرضوا لنظائره.

والثاني: أنه منصوب عطفا على «أم القرى» أي: لينذر الذين أمنوا، فيكون «." (١)

"المبتدأ لو قلت:» من جاءني فأكرمته «لم يجز بخلاف تقديرنا، فإنه لا بد فيه من الفاء، ولا يجوز حذفها إلا في الشعر.

قال شهاب الدين: وهذا التقدير الذي قدره الزمخشري سبقه إليه الكلبين فإنه قال: فمن أبصر صدق وآمن بمحمد عليه الصلاة والسلام فلنفسه عمل ومن عمي فلم يصدق فعلى نفسه جنى العذاب» وقوله: إن الفاء لا تدخل فيما ذكر قد ينازع فيه، وإذا كانوا فيما يصلح أن يكون جوابا صريحا، ويظهر فيه أثر الجازم كالمضارع يجوز فيه دخول الفاء نحو:

﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ [المائدة: ٩٥] فالماضي بدخولها أولى وأحرى.

فصل في بيان عود **المنافع** للبشر

قال القاضي: إنه - تعالى - بين لنا أن **المنافع** تعودإليها لا لمنافع تعود إلى الله تبارك وتعالى - وأيضا إن المرء بعدوله عن النظر يضر بنفسه، ولم يؤت إلا من قبله لا من قبل ربه، وأيضا إنه متمكن من الأمرين، فلذلك قال: «فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها «قال: وهذا يبطل قول المجبرة [في أنه - تعالى - يكلف بلا قدرة] وجوابه المعارضة بسؤال الداعي.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٨/٢٨٥

قوله: ﴿ومآ أنا عليكم بحفيظ﴾ أي: برقيب أحي عليكم أعمالكم، إنما أنا رسوله أبلغكم رسالات ربي، وهو الحفيظ عليكم الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

فصل في معنى الآية

قال المفسرون: هذا كان قبل الأمر بالقتال، فلما أمر بالقتال صار حفيظا عليهم، ومنهم من يقول: آية القتال ناسخة لهذه الآية الكريمة، وهو بعيد؛ لأن الأصل عدم النسخ.." (١)

"مراعاته ، فيكون ذلك كقوله: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج﴾ [النور: ٤٠] أي: أو كذا ظلمات، ولذلك أعاد الضمير في يغشاه عليه» .

قال شهاب الدين: فيبقى التقدير: مختلفا أكل ثمر الجنات وما بعدها، [وهذا] يلزم منه إضافة الشيء إلى نفسه؛ لأن الأكل كما تقدم غير مرة أنه الثمر المأكول.

قال الزمخشري في الأكل: «وهو ثمره الذي يؤكل» .

وقال ابن الأنباري: إن «مختلفا» نصب على القطع، فكأنه قال: «والنخل والزرع المختلف أكلها» وهذا راي الكوفيين، وقد تقدم إيضاحه غير مرة.

وقوله: ﴿والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذآ أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ وقد تقدم إيضاحه [الأنعام: ٩٩] .

قال القرطبي: «والزيتون والرمان» عطف عليه، «متشابها وغير متشابه» نصب على الحال، وفي هذه أدلة ثلاثة:

أحدهما: ما تقدم من إقامة الدليل على أن المتغيرات لا بد لها من مغير.

الثاني: أن الدلالة على المنة منه - سبحانه وتعالى - علينا، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم، وإذا خلقه كذلك ألا يكون سهل الجني، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء؛ لأنه لا يجب عليه شيء.

الثالث: الدلالة على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرسوب، يصعد بقدرة علام الغيوب من اسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها، نشأ فيها أوراق ليست من جنسها، وثمر خارج من الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجنى الجديد، والطعم اللذيذ؛ فأين الطباع وأجناسها؟ وأين الفلاسفة أنسها؟ هل في قدرة الطبيعة أن تنقن هذاالا الإتقان، أو ترتيب هذا الترتيب العجيب؟ كلا لم يتم ذلك في العقول إلا بتدبير

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٥٤/٨

عالم قدير مريد، فسبحان من له في كل شيء آية ونهاية! .

فصل في المقصود من خلق المنافع

لما ذكر كيفية خلقه لهذه الأشياء، ذكرما هو المقصود الأصلي من خلقها، وهو انتفاع المكلفين؛ فقال: «كلوا من ثمره إذا أثم» واختلفوا ما الفائدة منه؟

قال بعضهم: فائدته الإباحة.

وقال آخرون: المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق؛ لأ، ه تعالى - لما أوجب الحق فيه، كان يجوز أن يحرم على المالك تناوله لمشاركة المساكين، بل هذا." (١)

"الظاهر، فأباح هذا الأكل وأخرج وجوب الحق فيه من أن يكون مانعا من هذا التصرف.

وقال بعضهم: بل أباح - تعالى - ذلك ليبين أن المقصد بخلق هذه النعم الأكل، وأما تقديم ذكر الأكل على التصدق؛ لأن رعاية النفس متقدمة على الغير؛ قال: ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ [القصص: ٧٧]
.

فصل في بيان الأصل في المنافع

تمسك بعضهم بقوله: «كلوا من ثمره إذا أثمر» بأن الأصل في المنافع: الإباحة؛ لأن قوله - تعالى -: «كلوا» خطاب عام يتناول الكل، فصار كقوله: ﴿خلق لكم ما في الأرض﴾ [البقرة: ٢٩] ويكن التمسك به على أن الأصل: عدم وجوب الصدقة؛ لأن من ادعى إيجابه، كان هو المحتاج إلى الدليل، فيتمسك به في أن المجنون إذا أفاق في أثناء الشهر، لا يلزمه قضاء ما قضى، وفي أن الشارع في صوم النفل يجب عليه الإتمام.

فصل

قال القرطبي: قوله - تعالى - ﴿كلوا من ثمره إذآ أثمر﴾ هذان بناءان جاءا بصيغة أفعل. أحدهما: للإباحة؛ كقوله: ﴿فانتشروا في الأرض﴾ [الجمعة١٠] والثاني: لوجوب، ولي يمتنع في الشريعة اقتران الإباحة والواجب وبدأ بذكر نعمة الأكل قبل الأمر بإيتاء الحق؛ ليبين أن الابتداء بالنعمة كان من فضله قبل التكليف.

وقال ابن الخطيب: وعلى أن صيغة الأمر ترد لغير الوجوب والندب، وعند هذا، قال بعضهم: الأصل في الاستعمال: الحقيقة؛ فوجب جعل هذه الصيغة مفيدة لرفع الحرج؛ فلهذا قالوا: الأمر يقتضي الإباحة إلا أن نقول: يعلم بالضرورة من لغة العرب، أن هذه الصيغة تفيد ترجيح جانب الفعل، فحملها على الإباحة لا

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٨/٤٦٩

يصار إليه إلا بدليل بفتح الحاء: «حصاده» والباقون بكسرها، وهما لغتان في المصدر؛ كقولهم؛ جداد وجداد، وقطاف وقطاف، وحران وحران والصرام والصرام.

قال سيبويه: جاءوا بالمصدر حين أرادوا انتهاء الزمان على مثال: «فعال» وربما." [(١)]

"حبسها، ولولا الحابس لها لأفسدت الحرث والنسل وأما التراب فالخير والبركة [فيه] ، كلما قلب ظهرت بركته وخيره. فأين أحدهما من الآخر؟

وأيضا فإن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه، وذكر منافعها وخلقها، وأنه جعلها: ﴿مهادا﴾ [النبأ: ٦] و ﴿فراشا﴾ [البقرة: ٢٢] و ﴿بساطا﴾ [نوح: ١٩] ، و ﴿قرارا﴾ [النمل: ٦١] و ﴿كفاتا﴾ [المرسلات: ٢٥] للأحياء والأموات ودعا عباده إلى التفكر فيها، والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها، ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلا موضعا أو موضعين ذكرها بأنها ﴿تذكرة ومتاعا للمقوين﴾ [الواقعة: ٧٣] بذكره لنار الآخرة، ومتاعا لبعض أفراد الناس وهم المقوون النازلون بالمفازة، وهي الأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله. فأين هذا من أوصاف الأرض. وأيضا فإن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في مواضع من كتابه، وأخبر أنه بارك فيها، وقدر فيه ا أقواتها، وقال: ﴿ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ [الأنبياء: ٧١] ، ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها﴾ [سبأ: ١٨] ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ [الأنبياء: ٨١] وأما النار فلم يخبر بأنه جعل فيها بركة أصلا بل المشهور أنها مذهبة للبركات مبيدة لها. فأين المبارك في نفسه من المزيل للبركة؟ وما حقها؟

وأيضا فإن الله – تبارك وتعالى – جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه، ويسبح له بالغدو، والآصال، وبيته الحرام الذي جعله قياما للناس مباركا، وهدى للعالمين.

وأيضا فإن الله أودع في الأرض من المنافع، والمعادن، والأنهار والثمرات والحبوب، وأصناف الحيوان ما لم يرد في النار شيء منه إلى غير ذلك.

وأما المقدمة الثانية، وهي من كانت مادته أفضل فهو أفضل، فهذا محل النزاع، والبحث؛ لأنه لما كانت الفضيلة عطية من الله – تبارك وتعالى – ابتداء لم يلزم من فضيلة المادة فضيلة الصورة، ألا ترى أنه يخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن من الكافر، والنور من الظملة والظلمة من النور، وذلك يدل على أن الفضيلة لا تحصل إلا بفضل الله، لا بسبب فضيلة الأصل والجوهر.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٨/٤٧٠

وأيضا، فالتكليف إنما يتناول الحي بعد انتهائه إلى حد كمال العقل فالمعتبر بما انتهى إليه لا بما خلق منه.

وأيضا فالمفضل إنما يكون بالأعمال، وما يتصل بها، لا بسبب المادة؛ ألا ترى أن الحبشي المؤمن مفضل على القرشي الكافر.." (١)

"المعطوف عليه وأيضا دلالة الاقتران ضعيفة، وأيضا الأكل والشرب قد يكونان واجبين أيضا في الجملة.

فإن قيل هذه الآية وردت في المنع من الطواف حال العري.

فالجواب: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

إذا ثبت ذلك فقوله ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ يقتضي وجوب اللبس التام عند كل صلاة؛ لأن اللبس التام هو الزينة.

ترك العمل به في القدر الذي لا يجب ستره من الأعضاء إجماعا، فبقي الباقي داخلا تحت اللفظ.

فصل في الأصل في الأكل الحل

قوله: ﴿وكلوا واشربوا﴾ مطلق، يتناول جميع المطعومات والمشروبات، فوجب أن يكون الأصل فيها الحل في كل الأوقات إلا ما خصه الدليل المنفصل، والعقل يؤكده؛ لأن الأصل في **المنافع** الحل والإباحة.

فصل في وجوب ستر العورة

قال القرطبي: دلت هذه الآية على وجوب ستر العورة، وعلى إباحة الأكل والشرب ما لم يكن سرفا، أما ما تدعو الحاجة إليه وهو ما يسد الجوعة ويسكن الظمأ مندوب إليه عقلا وشرعا؛ لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس، ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال؛ لأنه يضعف الجسد، ويضعف عن العبادة.

قوله: «ولا تسرفوا» .." (٢)

"بالترهب، فقال: إن ترهب أمتي القعود في المساجد لانتظار الصلاة فقال: تحدثني نفسي بالسياحة، فقال: سياحة أمتي الغزو والحج والعمرة، فقال إن نفسي تحدثني أن أخرج مما أملك، فقال: الأولى أن تكفي نفسك وعيالك، وأن ترحم اليتيم، والمساكين، فتعطيه أفضل من ذلك، فقال: إن نفسي تحدثني أن أطلق خولة، فقال: إن الهجرة في أمتي هجرة ما حرم الله، فقال: إن نفسي تحدثني ألا أغشاها، فقال:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣/٩

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٨٩/٩

المسلم إذا غشي أهله أو ما ملكت يمينه، فإن لمء يصب من وقعته تلك ولدا كان له وصيف في الجنة، وإن كان له ولد مات قبله أو بعده كان له قرة عين وفرحا يوم القيامة، وإن مات قبل أن يبلغ الحنث كان له شفيعا ورحمة يوم القيامة، قال: فإن نفسي تحدثني إلا آكل اللحم قال مهلا إني آكل اللحم إذا وجدتثه ولو سألت الله أن يطعمنيه فعل. قال: فإن نفسي تحدثني ألا أمس الطيب، قال: مهلا فإن جبريل أمرني بالطيب غبا وقال: لا تتركه يوم الجمعة، ثم قال: يا عثمان: لا ترغب عن سنتي فإن من رغب عن سنتي فمات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي»

وهذا الحديث يدل على أن هذه الشريعة هي الكاملة، وتدل على أن جميع الزينة مباح مأذون إلا ما خصه الدليل.

فصل في إباحة **المنافع** لأبن آدم

هذه الية تقتضي حل كل **المنافع**، وهو أصل معتبر في جميع الشريعة؛ لأن كل واقعة إما يكون النفع فيها خالصا أو راجحا، أو يتساوى فيها الضرر والنفع، أو يرتفعان.

أما القسمان الأخيران وهما: أن يتعادل الضرر والنفع، أو لم يوجدا قط، ففي هاتين الصورتين يجب الحكم ببقاء ما كان على ما كان، وإن كان النفع خالصا؛ وجب الإطلاق بمقتضى هذه الآية، وإن كان النفع راجحا والضرر مرجوحا يقابل المثل بالمثل، ويبقى القدر الزائد نفعا خالصا فيلتحق بالقسم الأول، وهو الذي يكون النفع فيه خالصا وإن كان الضرر خالصا كان تركه نفا خالصا، فبهذا الطريق صارت هذه الآية دالة على الأحكام التي لا نهاية لها في الحل والتحريم، ثم إن وجدنا نصا خالصا في الواقعة قضينا في النفع بالحل، وفي التضرر بالحرمة، وبهذا الطريق صار جميع الأحكام التي لا نهاية لها داخل تحت هذا النص.

فصل في دحض شبهة لنفاة القياس

قال نفاة القياس: لو تعبدنا الله بالقياس لكان حكم ذلك القياس إما أن يكون موافقا لحكم هذا النص العام وحينئذ يكون ضائعا؛ لأن هذا النص مستقل به، وإن كان مخالفا." (١)

"وأصل البركة المواظبة على الشيء، أي تابعنا عليهم المطر والمراد ب «بركات السماء» المطر، وب «بركات الأرض» النبات والثمار وكثرة المواشي والأمن والسلامة، وذلك لأن السماء تجري مجرى الأب، والأرض تجري مجرى الأم، ومنهما يحصل **المنافع**، والخيرات بخلق الله تعالى تدبيره.

ثم قال: ﴿ولكن كذبوا فأخذناهم﴾ بالجدب والقحط ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والمعصية، ثم إنه

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٩١/٩

تعالى أعاد التهديد بعذاب الاستئصال فقال: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ يعني «مكة» وما حولها ﴿أن يأتيهم بأسنا﴾ أي: العذاب، وهذا استفهام بمعنى الإنكار، خوفهم الله - تعالى - بنزول العذاب عليهم في وقت غفلتهم، وهو حال النوم بالليل، وحال الضحى بالنهار؛ لأنه وقت اشتغال المرء باللذات.

وقوله: «وهم يلعبون» يحتمل التشاغل بأمور الدنيا فهي لعب ولهو، ويحتمل في كفرهم؛ لأنه كاللعب في أنه يضر ولا ينفع.

قوله: «أفأمن» .

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما المعطوف عليه، ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ .

قلت: المعطوف عليه قوله:» فأخذناهم بغتة «، [وقوله: ﴿ولو أن أهل القرى﴾ إلى:» يكسبون «وقع اعتراضا بين المعطوف والمعطوف عليه وإنما عطفت بالفاء؛ لأن المعنى:» فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة، أبعد ذلك] أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى «.

قال أبو حيان: وهذا الذي ذكره رجوع عن مذهبه في مثل ذلك إلى مذهب الجماعة، وذلك أن مذهبه في الهمزة المصدرة على حرف العطف تقدير معطوف عليه بين الهمزة وحرف العطف، ومذهب الجماعة أن حرف العطف في نية التقدم، وإنما تأخر وتقدمت عليه همزة الاستفهام لقوة تصدرها في أول الكلام» .

وقد تقدم تحقيقه، والزمخشري هنا لم يقدر بينهما معطوفا عليه، بل جعل ما بعد الفاء معطوفا على ما قبلها من الجمل، وهو قوله: «فأخذناهم بغتة» .

قوله: «بياتا» تقدم أول السورة أنه يجوز أن يكون حالا، وأن يكون ظرفا.

وقوله: «وهم نائمون» جدملة حالية، والظاهر أنها حال من الضمير المستتر في «بيتا» ؛ لأنه يتحملأ ضميرا لوقوعه حالا، فيكون الحالان متداخلين.

قوله: «ضحى» منصوب على الظرف الزماني، ويكون متصرفا وغير متصرف، [." (١)

"وقيل: المنكر عبادة الأوثان، وقطع الأرحام.

السابعة: قوله: ﴿ويحل لهم الطيبات﴾ .

قيل: ما كانوا يحرمونه في الجاهلية: من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

قال ابن الخطيب: وهذا بعيد لوجهين:

الأول: أنه على هذا التقدير تصير الآية ويحل لهم المحللات وهذا محض التكرير.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٣٥/٩

والثاني: أن على هذا التقدير تخرج الآية عن الفائدة، لأن لا ندري الأشياء التي أحلها الله ما هي وكم هي؟
.

بل الواجب أن يكون المراد بالطيبات الأشياء المستطابة بحسب الطبع؛ لأن تناولها يفسد اللذة والأصل في المنافع الحل فدلت هذه الآية على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل إلا بدليل منفصل.

الصفة الثامنة – قوله ﴿ويحرم عليهم الخبآئث﴾ .

قال عطاء عن ابن عباس: يريد الميتة والدم وما ذكر في سورة المائدة إلى قوله: ﴿ذلكم فسق﴾ [المائدة: ٣] .

قال ابن الخطيب: وأقول ههنا: كل ما يستخبثه الطبع [وتستقذره النفس كان تناوله سببا للألم، والأصل في المضار الحرمة، فكان مقتضاه أن كل ما يستخبثه الطبع] فالأصل فيه الحرمة إلا بدليل منفصل، وعلى هذا يحرم بيع الكلب، قوله عليه الصلاة والسلام : «الكلب خبيث، وخبيث ثمنه» ، فدخل في قوله تعالى: ﴿ويحرم عليهم الخبآئث﴾ .

الصفة التاسعة: قوله ﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ .

قرأ ابن عامر آصارهم بالجمع، على صفة «أفعال» فانقلبت الهمزة التي هي فاء الكلمة ألفا لسبقها بمثلها، والباقون بالإفراد. فمن جمع فباعتبار متعلقاته وأنواعه، وهي كثيرة، ومن أفرد؛ فلأنه اسم جنس.

وقرأ بعضهم أصرهم بفتح الهمزة، وبعضهم أصرهم بضمها.

والإصر: الثقل الذي يأصر صاحبه، أي يحبسه من الحراك لثقله، أي: إن شريعة موسى كانت شديدة، وقد تقدم تفسير هذه المادة في قوله تعالى: ﴿ولا تحمل علينآ إصرا﴾ [البقرة: ٢٨٦] والأغلال جمع غل، وهو هنا مثل لما كلفوه كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم وجعلها الله." (١)

"كثيرا» وإن كان نكرة لتخصصه بالوصف، أو من الضمير المستكن في من الجن؛ لأنه تحمل ضميرا، لوقوعه صفة، ويجوز أن يكون لهم على حدته هو الوصف، أو الحال، وقلوب فاعل به فيكون من باب الوصف بالمفرد، وهو أولى.

وقوله: «لا يفقهون بها» وكذلك الجملة المنفية في محل النعت لما قبلهان وهذا الوصف يكاد يكون لازما،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٩/٣٤٣

لوروده في غير القرآن؛ لأنه لا فائدة بدونه؛ لو قلت: لزيد قلب وله عين، وسكت لم يظهر لذلك كبير فائدة.

فصل

المعنى: لهم قلوب لا يعلمون بها الخير والهدى، ولهم أعين لا يبصرون بها طريق الحق، ولهم آذان لا يسمعون بها مواعظ القرآن فيتفكرون فيها ويعتبرون. ثم ضرب لهم مثلا في الجهل والاقتصار على الأكل والشرب، فقال: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ أي: أن همتهم الأكل واشرب والتمتع بالشهوات ﴿بل هم أضل﴾ ؛ لأن الأنعام تميز بين المضار **والمنافع** فلا تقدم على المضار، وهؤلاء يقدمون بالشهوات على النار معاندة مع العلم بالهلاك.

وقيل: لأن الأنعام مطيعة لله تعالى والكافر غير مطيع.

وقال مقاتل: هم أخطأ طريقا من الأنعام؛ لأن الأنعام تعرف ربها، وهم لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه.

وقيل: لأنها تفر إلى أربابها ومن يقوم بمصالحها، والكافر يهرب عن ربه الذي أنعم عليه.

وقيل: لأنها تضل إذا لم يكن معها مرشد، فإن كان معها مرشد فقلما تضل، وهؤلاء الكفار قد جاءهم الأنبياء وهم يزدادون في الضلال: ﴿أولئك هم الغافلون﴾ .

فصل

دلت الية على أنه تعالى كلفهم مع أن قلوبهم، وأبصارهم، وأسماعهم ما كانت صالحة لذلك، وهو يجري مجرى المنع عن الشيء والصد عنه مع الأمر به.

قالت المعتزلة: لو كانوا كذلك لقبح من الله تكليفهم؛ لأن تكليف من لا قدرة له على الفعل قبيح لا يليق بالحكيم؛ فوجب حمل الآية على أن المراد منه كثرة الإعراض عن الدلائل وعدم الالتفات إليها، فأشبهوا من لا قلب له فاهم ولا عين باصرة ولا أذن سامعة.

وأجيبوا بأن الإنسان إذا تأكدت نفرته عن شيء صارت تلك النفرة المتأكدة الراسخة." (١)

"فاهمة، فلهذا وردت هذه الألفاظ وفق اعتقادهم؛ ولهذا قال: ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ [الأعراف: ١٩٤] .

وقال: «إن الذين» ولم يقل: «إن التي» .

وثانيها: أن هذا اللفظ ورد في معرض الاستهزاء بهم أي: أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم، ولا فضل لهم عليكم، فلم جعلتم أنفسكم عبيدا وجعلتموها آلهة وأربابا؟

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٩/٣٩٩

ثم أبطل أن يكونوا عبادا فقال: ﴿ألهم أرجل يمشون بهآ﴾ ثم أكد البيان بقوله ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ . ومعنى هذا الدعاء طلب **المنافع** وكشف المضار من جهتهم واللام ي قوله: ﴿فليستجيبوا لكم﴾ لام الأمر على معنى التعجيز، ثم لما ظهر لكل عاقل أنها لا تقدر على الإجابة ظهر أنها لا تصلح للعبادة، ونظيره قول إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾ [مريم: ٤٢] وقوله: ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أنها آلهة ومستحقة للعبادة.

وثالثها: قال مقاتل: الخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة.

قوله: ﴿ألهم أرجل يمشون بهآ أم لهم أيد يبطشون بهآ أم لهم أعين يبصرون بهآ أم لهم آذان يسمعون بها﴾ قرأ العامة بكسر الطاء، من بطش يبطش، وقرأ أبو جعفر وشيبة، ونافع في رواية عنه: يبطشون بضمها، وهما لغتان، وهما لغتان، والبطش، الأخذ بقوة.

واعلم أنه تعالى ذكر هذا الدليل لبيان أنه يقبح من الإنسان العاقل أن يعبد هذه الأصنام؛ لأن هذه الأعضاء الأربعة إذا كان فيها القوى المحركة والمدركة كانت أفضل منها إذا كانت خالية عن هذه القوى، فالرجل القادرة على المشي، واليد القادرة على البطش أفضل من اليد والرجل الخاليتين عن قوة الحركة والحياة، والعين الباصرة والأذن السامعة أفضل من العين والأذن الخاليتين عن القوة السامعة، والباصرة، وعن قوة الحياة.

وإذا ثبت ذلك ظهر أن الإنسان أفضل بكثير من الأصنام بل لا نسبة لفضيلة الإنسانه إلى فضيلة الأصنام ألبتة.

و إذا كان كذلك فكيف يليق بالأفضل والأكل الأشرف أن يعبد الأخس الأدون الذي لا يحصل منه فائدة ألبتة، لا في جلب منفعة ولا في دفع مضرة.

قوله: ﴿قل ادعوا شركآءكم ثم كيدون﴾ قرأ أبو عمرو كيدوني بإثبات الياء وصلا، وحذفها وقفا وهشام بإثباتها في الحالين، والباقون بحذفها في الحالين، وعن هشام.." (١)

"الذي بكى وأجهش «١» إليه: «إن هذا الجمل شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه» «٢» ، أي: تديمه في الخدمة والعمل، وظاهر الآية أن معناه: دائبين في الطلوع والغروب وما بينهما من **المنافع** للناس التي لا تحصى كثرة، وعن ابن عباس أنه قال: معناه: دائبين في طاعة الله «٣» ، وقوله سبحانه: وآتاكم من كل ما سألتموه المعنى: أن جنس الإنسان بجملته قد أوتي من كل ما شأنه أن يسأل وينتفع به، وقرأ ابن عباس

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٩/٤٢٧

«٤» وغيره: «من كل ما سألتموه» - بتنوين كل-، ورويت عن نافع، وقوله تعالى: وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها، أي: لكثرتها وعظمها في الحواس والقوى، والإيجاد بعد العدم والهداية للإيمان وغير ذلك، وقال طلق بن حبيب: إن حق الله تعالى: أثقل من أن يقوم به العباد، ونعمه أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين، وأمسوا توابين.

ت «٥» : ومن «الكلم الفارقية» : أيها الحريص على نيل عاجل حظه ومراده الغافل عن الاستعداد لمعاده تنبه لعظمة من وجودك بإيجاده وبقاؤك بإرفاده ودوامك بإمداده، وأنت طفل في حجر لطفه ومهد عطفه وحضانة حفظه، يغذك بلبان بره ويقلبك بأيدي أياديه وفضله وأنت غافل عن تعظيم أمره جاهل بما أولاك من لطيف سره وفضلك به على كثير من خلقه، واذكر عهد الإيجاد، ودوام الإمداد والإرفاد وحالتي الإصدار والإيراد وفاتحة المبدأ وخاتمة المعاد. انتهى.

وقوله سبحانه: إن الإنسان: يريد به النوع والجنس، المعنى: توجد فيه هذه

---

(١) الجهش والإجهاش: أن يفزع الإنسان إلى غيره، وهو مع ذلك كأنه يريد البكاء، كالصبي يفزع إلى أمه وأبيه وقد تهيأ للبكاء.

ينظر: «النهاية» (١/ ٣٢٢) و «لسان العرب» (٧١٣) .

(٢) ذكره السيوطي في «الخصائص الكبرى» (٢/ ٩٥) ، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وأبي نعيم، والبيهقي كلاهما في «الدلائل» .

(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٤٥٨) برقم: (٢٠٨٢٦) ، وذكره البغوي (٤/ ٣٦) ، وابن عطية (٣/ ٣٣٩) ، والسيوطي في «الدر المنثور» ، وعزاه لابن جرير.

(٤) وقرأ بها الحسن، وجعفر بن محمد، وسلام بن منذر، والضحاك، ومحمد بن علي، وعمرو بن فائد، ويعقوب، قال أبو الفتح: أما على هذه القراءة فالمفعول ملفوظ به، أي: وآتاكم ما سألتموه أن يؤتيكم منه، وأما قراءة الجماعة ... على الإضافة، فالمفعول محذوف: أي: وآتاكم سؤلكم من كل شيء.

ينظر: «المحتسب» (١/ ٣٦٣) ، و «الشواذ» ص: (٧٣) ، و «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٤٠) ، و «البحر المحيط» (٥/ ٤١٦) ، و «الدر المصون» (٤/ ٢٧٢) .

(٥) أخرجه الطبري (٧/ ٤٥٩) برقم: (٢٠٨٣٥) ، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٤٠) ، وابن كثير في «تفسيره»

(٢/ ٥٤٠) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٥٨) ، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، والبيهقي في «الشعب» .." [١]

"لو ما تأتينا: هلا تأتينا.

وقوله: إلا بالحق: قال مجاهد: المعنى: بالرسالة والعذاب «١» ، والظاهر أن معناه كما ينبغي ويحق من الوحي **والمنافع** التي أراها الله لعباده، لا على اقتراح كافر، ثم ذكر عادته سبحانه في الأمم من أنه لم يأتهم بآية اقتراح، إلا ومعها العذاب في إثرها إن لم يؤمنوا، والنظرة: التأخير.

وقوله سبحانه: إنا نحن نزلنا الذكر: رد على المستخفين في قولهم: يا أيها الذي نزل عليه الذكر، وقوله: وإنا له لحافظون: قال مجاهد وغيره: الضمير في «له» عائد على القرآن «٢» ، المعنى: وإنا له لحافظون من أن يبدل أو يغير.

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ١٠ الى ١٥]

ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين (١٠) وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن (١١) كذلك نسلكه في قلوب المجرمين (١٢) لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين (١٣) ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون (١٤)

لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون (١٥)

وقوله سبحانه: ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين الآية: تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم: أي: لا يضق صدرك، يا محمد، بما يفعله قومك من الاستهزاء في قولهم: يا أيها الذي نزل عليه الذكر، وغير ذلك، و «الشيعة» : الفرقة التابعة لرأس ما.

ت: قال الفراء في شيع الأولين إنه من إضافة الموصوف إلى صفته ك حق اليقين [الواقعة: ٩٥] ، و «جانب الغربي» [القصص: ٤٤] ، وتأوله البصريون على حذف الموصوف، أي: شيع الأمم الأولين. انتهى من ص.

وقوله سبحانه: كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين: يحتمل أن يكون الضمير في نسلكه يعود على الذكر المحفوظ المتقدم، وهو القرآن، ويكون الضمير في «به» عائدا عليه أيضا، ويحتمل أن يعود الضميران معا على الاستهزاء والشرك ونحوه، والباء في «به» : باء السبب، أي: لا يؤمنون بسبب شركهم واستهزائهم، ويحتمل أن يكون الضمير في نسلكه عائدا على الاستهزاء والشرك،

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣/٣٨٤

والضمير في «به» عائدا على القرآن، والمعنى، في ذلك كله، ينظر بعضه إلى بعض،

---

(١) أخرجه الطبري (٧/ ٤٩٣) برقم: (٢١٠٢٨) ، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٥١) ، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٤٧) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٧٥) ، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٥٢) .." [(١)]

"من أمر الله على صور بني آدم، وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه روح كالحفيظ عليه، لا يتكلم ولا يراه ملك، ولا شيء مما خلق الله، وعن مجاهد: الروح: خلق من خلق الله، لهم أيد وأرجل «١» . انتهى، والله أعلم بحقيقة ذلك، وهذا أمر لا يقال بالرأي، فإن صح فيه شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم، وجب الوقوف عنده انتهى، و «من» في قوله: من يشاء هي للأنبياء.

وقوله تعالى: خلق الإنسان من نطفة: يريد ب «الإنسان» الجنس، وقوله:

خصيم يحتمل أن يريد به الكفرة الذين يجادلون في آيات الله قاله «٢» الحسن البصري، ويحتمل أن يريد أعم من هذا، على أن الآية تعديد نعمة الذهن والبيان على البشر.

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٥ الى ١٢]

والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٥) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم (٧) والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٨) وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين (٩)

هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون (١٠) ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (١١) وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (١٢)

وقوله سبحانه: والأنعام خلقها لكم فيها دفء: ال دفء: السخانة، وذهاب البرد بالأكسية ونحوها، وقيل: ال دفء: تناسل الإبل، وقال ابن عباس: هو نسل كل شيء «٣» ، والمعنى الأول هو الصحيح، **والمنافع**:

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣/٣٩٥

ألبانها وما تصرف منها، وحرثها والنضح عليها وغير ذلك.
وقوله: جمال، أي: في المنظر، وتريحون: معناه: حين تردونها وقت الرواح إلى المنازل، وتسرحون: معناه: تخرجونها غدوة إلى السرح، و «الأثقال» :
الأمتعة، وقيل: الأجسام كقوله: وأخرجت الأرض أثقالها [الزلزلة: ٢] أي: أجساد بني آدم، وسميت الخيل خيلا لاختيالها في مشيتها.

لآدم بن إياس، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي.
(١) أخرجه الطبري (٧/ ٥٥٨) برقم: (٢١٤٥٤) ، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٠٥) ، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ. [.....]
(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٩) .
(٣) أخرجه الطبري (٧/ ٥٦٠) برقم: (٢١٤٦٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧٩) ، والسيوطي في «الدر المنثور» ، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.." [1]
"ت وفي الحديث في شأن النساء: «ويكفرن العشير» يعني الزوج.
قال أبو عمر بن عبد البر «١» : قال أهل اللغة: العشير: الخليط من المعاشرة والمخالطة، ومنه قوله عز وجل: لبئس المولى ولبئس العشير انتهى من «التمهيد» ، والذي يظهر: أن المراد بالمولى والعشير هو الوثن الذي ضره أقرب من نفعه، وهو قول مجاهد «٢» ، ثم عقب سبحانه بذكر حالة أهل الإيمان وذكر ما وعدهم به فقال: إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ... الآية، ثم أخذت الآية في توبيخ أولئك الأولين كأنه يقول: هؤلاء العابدون على حرف صحبهم القلق، وظنوا أن الله تعالى لن ينصر محمدا وأتباعه، ونحن إنما أمرناهم بالصبر وانتظار وعدنا، فمن ظن غير ذلك فليمدد بسبب، وهو الحبل وليختنق هل يذهب بذلك غيظه؟ قال هذا المعنى قتادة «٣» ، وهذا على جهة المثل السائر في قولهم: «دونك الحبل فاختنق» ، والسماء على هذا القول: الهواء علوا، فكأنه أراد سقفا أو شجرة، ولفظ البخاري: وقال ابن عباس: «بسبب إلى سقف البيت» «٤» ، انتهى، والجمهور على أن القطع هنا هو الاختناق.
قال الخليل: وقطع الرجل: إذا اختنق بحبل ونحوه، ثم ذكر الآية، ويحتمل المعنى من ظن أن محمدا لا

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٤١١/٣

ينصر فليمت كمدا هو منصور لا محالة، فليختنق هذا الظان غيظا وكمدا، ويؤيد هذا: أن الطبري والنقاش قالا: ويقال: نزلت في نفر من بني أسد وغطفان، قالوا: نخاف ألا ينصر محمد فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من يهود من المنافع «٥» ، والمعنى الأول الذي قيل للعابدين على حرف- ليس بهذا ولكنه بمعنى: من قلق واستبطأ النصر، وظن أن محمدا لا ينصر فليختنق سفاهة إذ تعدى الأمر الذي حد له في الصبر وانتظار صنع الله، وقال مجاهد: الضمير في ينصره عائد على من والمعنى: من كان من المتقلقين من المؤمنين «٦» ، وما في قوله: ما يغيظ بمعنى الذي، ويحتمل أن تكون مصدرية حرفا فلا عائد عليها، وأبين الوجوه في الآية: التأويل الأول وباقي الآية بين.

وقوله: وكثير من الناس، أي: ساجدون مرحومون بسجودهم، وقوله:

---

(١) ينظر «التمهيد» (٣/ ٣٢٤) .

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ١١٨) برقم (٢٤٩٥٨) ، وذكره ابن عطية (٤/ ١١١) ، وذكره ابن كثير (٣/ ٢١٠) .

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ١١٨) برقم (٢٤٩٥٩، ٢٤٩٦٠) نحوه، وذكره ابن عطية (٤/ ١١١) ، وابن كثير (٣/ ٢١٠) نحوه، والسيوطي (٤/ ٦٢٣) ، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ١١٩) برقم (٢٤٩٦٦) ، وذكره ابن كثير (٣/ ٢١٠) نحوه، وذكره السيوطي (٤/ ٦٢٥) ، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٥) ذكره ابن عطية (٤/ ١١١) .

(٦) ذكره البغوي (٣/ ٢٧٨) ، وابن عطية (٤/ ١١١، ١١٢) .." [(١)]

"معناه: البعيد قال الشاعر [الطويل] :

إذا الخيل جاءت من فجاج عميقة ... يمد بها في السير أشعث شاحب «١»

والمنافع في هذه الآية التجارة في قول أكثر المتأولين، ابن عباس «٢» وغيره، وقال أبو جعفر محمد بن علي: أراد الأجر ومنافع الآخرة «٣» ، وقال مجاهد بعموم الوجهين «٤» .

ت: وأظهرها عندي قول أبي جعفر يظهر ذلك من مقصد الآية، والله أعلم.

وقال ابن العربي: الصحيح: القول بالعموم، انتهى.

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١١٢/٤

وقوله سبحانه: ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ذهب قوم إلى: أن المراد ذكر اسم الله على النحر والذبح، وقالوا: إن في ذكر الأيام دليلا على أن الذبح في الليل لا يجوز، وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي.

وقالت فرقة فيها مالك وأصحابه: الأيام المعلومات: يوم النحر ويومان بعده.

وقوله: فكلوا ندب، واستحب أهل العلم أن يأكل الإنسان من هديه وأضحيته، وأن يتصدق بالأكثر، والبائس: الذي قد مسه ضر الفاقة وبؤسها، والمراد أهل الحاجة، والتفث: ما يصنعه المحرم عند حله من تقصير شعر وحلقه، وإزالة شعث ونحوه، وليوفوا نذورهم: وهو ما معهم من هدي وغيره، وليطوفوا بالبيت العتيق: يعني:

طواف الإفاضة الذي هو من واجبات «٥» الحج.

---

(١) لم أقف على قائله، والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسع في الجبل، والعميق البعيد سفلا، وهو محل الشاهد، والأشعث المتلبد شعره المتغير، والشاحب المتغير من هزال.

ينظر: «البحر المحيط» (٦/ ٢) ، و «الدر المصون» (٥/ ١٤٤) .

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ١٣٦) برقم (٢٥٠٦٣) ، وذكره البغوي (٣/ ٢٨٤) ، وابن عطية (٤/ ١١٨) ، وابن كثير (٣/ ٢١٦) ، والسيوطي (٤/ ٦٤٠) ، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ١٣٧) برقم (٢٥٠٧٤) بلفظ العفو، وذكره ابن عطية (٤/ ١١٨) .

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ١٣٧) برقم (٢٥٠٧٢) ، وذكره البغوي (٣/ ٢٨٤) ، وابن عطية (٤/ ١١٨) ، وابن كثير (٣/ ٢١٦) ، والسيوطي (٤/ ٦٤٠) ، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد.

(٥) من أركان الحج الطواف بالبيت، لقوله تعالى: وليطوفوا بالبيت العتيق، والمراد به: طواف الإفاضة، لانعقاد الإجماع على ذلك، ولهذا الطواف أسماء غير ذلك منها طواف الزيارة، وطواف الفرض، وقد يسمى طواف الصدر بفتح الدال: والأشهر أن طواف الصدر هو طواف الوداع. -." [١]

"تعظيم شعائر الله، -كان من البقع أو من البشر أو ممن شاء الله تعالى- زيادة في الإيمان وقوة في اليقين. انتهى.

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١١٧/٤

وقال العراقي في أرجوزته: [الرجز]

أعلام طاعة هي الشعائر ... .

٢٤ ب/ البيت.

وقالت فرقة: قصد بالشعائر في هذه الآية الهدي والأنعام المشعرة، ومعنى تعظيمها التسمين والاهتبال بأمرها، قاله ابن عباس «١» وغيره، ثم اختلف المتأولون في قوله سبحانه:

لكم فيها منافع ... الآية: فقال مجاهد وقتادة: أراد أن للناس في أنعامهم منافع من الصوف، واللبن، والذبح للأكل، وغير ذلك ما لم يبعثها ربها هديا، فإذا بعثها فهو الأجل المسمى «٢» ، وقال عطاء: أراد لكم في الهدي المبعوث منافع، من الركوب، والاحتلاب لمن اضطر، والأجل نحرها «٣» ، وتكون «ثم» من قوله: ثم محلها إلى البيت العتيق لترتيب الجمل لأن المحل قبل الأجل، ومعنى الكلام عند هذين الفريقين: ثم محلها إلى موضع النحر، وذكر البيت لأنه أشرف الحرم، وهو المقصود بالهدي وغيره.

وقال ابن زيد، والحسن، وابن عمر، ومالك: الشعائر في هذه الآية: مواضع الحج كلها، ومعالمه بمنى، وعرفة، والمزدلفة، والصفا والمروة، والبيت وغير ذلك «٤» ، وفي الآية التي تأتي أن البدن من الشعائر، **والمنافع**: التجارة وطلب الرزق أو الأجر والمغفرة، والأجل المسمى: الرجوع إلى مكة لطواف الأفاضة، ومحلها مأخوذ من إحلال المحرم، والمعنى: ثم أخروا هذا كله إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق، فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه، قاله مالك في «الموطإ» .

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٤٦) برقم (٢٥١٤٢) ، وذكره البغوي (٣/ ٢٨٦) ، وابن عطية (٤/ ١٢١) ، وابن كثير (٣/ ٢١٩) ، والسيوطي (٤/ ٦٤٧) ، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ١٤٨) برقم (٢٥١٥٦) عن مجاهد، وعن قتادة برقم (٢٥١٦٠) ، وذكره البغوي (٣/ ٢٨٧) ، وابن عطية (٤/ ١٢١) ، والسيوطي (٤/ ٦٤٧) ، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ١٤٨) برقم (٢٥١٦٢) ، وذكره البغوي (٣/ ٢٨٧) ، وابن عطية (٤/ ١٢١) ، والسيوطي (٤/ ٦٤٧) ، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك وعطاء.

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ١٤٦) برقم (٢٥١٤٨) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية (٤/ ١٢١) . [.....]."
(١)

"وقيل: بل هذا الاسم خاص بالإبل، والخير هنا قيل فيه ما قيل في **المنافع** التي تقدم ذكرها، والصواب عمومه في خير الدنيا والآخرة.

وقوله: عليها يريد عند نحرها، وصواف، أي: مصطفة، وقرأ ابن مسعود «١» ، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم: «صوافن» جمع صافنة، وهي التي رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب، ومنه في الخيل الصافنات الجياد [ص: ٣١] ، و «وجبت» معناه: سقطت.

٢٦ أوقوله: فكلوا منها: / ندب، وكل العلماء يستحب أن يأكل الإنسان من هديه، وفيه أجر وامتثال إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم، وتحرير القول في القانع: أنه السائل والمعتر المتعرض من غير سؤال قاله الحسن ومجاهد وغيرهما «٢» ، وعكست فرقة هذا القول، فحكى الطبري «٣» عن ابن عباس أنه قال: القانع:

المستغني «٤» بما أعطيته، والمعتر: هو المتعرض «٥» ، وحكي عنه أنه قال: القانع:

المتعفف، والمعتر: السائل «٦» .

قال ع «٧» : يقال: قنع الرجل- بفتح النون- يقنع قنوعا فهو قانع إذا سأل فالقانع: هو السائل بفتح النون في الماضي، وقنع- بكسر النون- يقنع قناعة فهو قنع إذا تعفف واستغنى ببلغته قاله الخليل بن أحمد.

---

(١) وقرأ بها النخعي، وأبو جعفر محمد بن علي، والأعمش.

ينظر: «الشواذ» (٩٧، ٩٨) ، و «المحتسب» (٢/ ٨١) ، و «المحرر الوجيز» (٤/ ١٢٢) ، و «البحر المحيط» (٦/ ٣٤٢) ، و «الدر المصون» (٥/ ١٥٠) .

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ١٥٧، ١٥٨) برقم (٢٥٢٣١، ٢٥٢٣٢، ٢٥٢٣٣، ٢٥٢٣٦، ٢٥٢٣٧) عن الحسن، وذكره البغوي (٣/ ٢٨٨) ، وابن عطية (٤/ ١٢٣) ، والسيوطي (٤/ ٦٥٤) ، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد عن الحسن، وعزاه أيضا للبيهقي في «سننه» عن مجاهد، وعزاه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

(٣) سبق تخريجه.

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١٢٢/٤

(٤) في ج: المستغنى والمستغني.
(٥) أخرجه الطبري (٩/ ١٥٦) برقم (٢٥٢١٩) ، وذكره البغوي (٣/ ٢٨٨) بنحوه، وابن عطية (٤/ ١٢٣) ، وابن كثير (٣/ ٢٢٢) ، والسيوطي (٤/ ٦٥٣) ، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.
(٦) أخرجه الطبري (٩/ ١٥٦) برقم (٢٥٢٢٢) ، وذكره ابن عطية (٤/ ١٢٣) ، وذكره ابن كثير (٣/ ٢٢٢) ، والسيوطي (٤/ ٦٥٣) ، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.
(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٢٣) .." [١]

"وقوله تعالى: إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء، قيل: معناه: إن الله يعلم الذين تدعون من دونه من جميع الأشياء، وقيل: ما نافية وفيه نظر، وقيل: ما استفهامية، قال جابر: قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: وما يعقلها إلا العالمون: العالم:
من عقل عن الله تعالى فعمل بطاعته وانتهى عن معصيته.
وقوله تعالى: خلق الله السماوات والأرض بالحق أي: لا للعبث واللعب بل ليدل على سلطانه وتثبيت شرائعه، ويضع الدلالة لأهلها ويعم **بالمنافع** إلى غير ذلك مما لا يحصى عدا. ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام بالنفوذ لأمره وتلاوة القرآن الذي أوحي إليه، وإقامة الصلاة، أي: إدامتها والقيام بحدودها. ثم أخبر سبحانه حكما منه أن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر.
قال ع «١» : وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع، والإخبات «٢» وتذكر الله، وتوهم الوقوف بين يديه، وإن قلبه وإخلاصه مطلع عليه مرقوب صلحت لذلك نفسه، وتذللت، وخامرها ارتقاب الله تعالى فاطرد ذلك في أقواله، وأفعاله، وانتهى عن الفحشاء والمنكر، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حاله فهذا معنى هذا الإخبار لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون، وقد روي عن بعض السلف: أنه كان إذا أقام الصلاة ارتعد، واصفر لونه، فكلم في ذلك، فقال: إني أقف بين يدي الله تعالى.
قال ع «٣» : فهذه صلاة تنهى- ولا بد- عن الفحشاء/ والمنكر، وأما من كانت ٦٢ ب صلاته دائرة حول الإجزاء، بلا تذكر ولا خشوع، ولا فضائل فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان.
وقوله تعالى: ولذكر الله أكبر قال ابن عباس «٤» وأبو الدرداء «٥» وسلمان «٦» وابن

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١٢٤/٤

(١) ينظر: «المحرر» (٤/ ٣١٩) .

(٢) أخبت لله: خشع. وأخبت إلى ربه أي اطمأن إليه. والإخبات: الخشوع والتواضع.

ينظر: «لسان العرب» ١٠٨٧.

(٣) ينظر: «المحرر» (٤/ ٣١٩) .

(٤) أخرجه الطبري (١٠/ ١٤٦) رقم (٢٧٧٩٠) ، وذكره البغوي (٣/ ٤٦٩) ، وابن عطية (٤/ ٣٢٠) ، وابن كثير (٣/ ٤١٥) ، والسيوطي (٥/ ٢٨٠) ، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري (١٠/ ١٤٧) رقم (٢٧٨٠١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/ ٣٢٠) ، وابن كثير (٣/ ٤١٥) ، والسيوطي (٥/ ٢٨١) ، بنحوه، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير عن أبي الدرداء.

(٦) أخرجه الطبري (١٠/ ١٤٧) رقم (٢٧٨٠٢) ، وذكره ابن عطية (٤/ ٣٢٠) ، وابن كثير (٣/ ٤١٥) .." [(١)]

"وقرأ الجمهور: وما آتيتم بمعنى: أعطيتم، وقرأ ابن كثير «١» بغير مد، بمعنى:
وما فعلتم، وأجمعوا على المد في قوله وما آتيتم من زكاة والربا: الزيادة.
قال ابن عباس «٢» وغيره: هذه الآية نزلت في هبات الثواب.
قال ع «٣» : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلم وغيره، فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى، وما أعطى الإنسان تنمية لماله وتطهيرا يريد بذلك وجه الله تعالى فذلك هو الذي يجازى به أضعافا مضاعفة على ما شاء الله له. وقرأ جمهور السبعة «ليربوا» بإسناد الفعل إلى الربا، وقرأ «٤» نافع وحده «لتربوا» وباقي الآية بين. ثم ذكر تعالى- على جهة العبرة- ما ظهر من الفساد بسبب المعاصي، قال مجاهد: البر البلاد البعيدة من البحر، والبحر السواحل والمدن التي على ضفة البحر «٥» ، وظهور الفساد فيهما: هو بارتفاع البركات، ووقوع الرزايا، وحدوث الفتن.
وتغلب العدو، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر، قال ابن عباس: الفساد في البحر:
انقطاع صيده بذنوب بني آدم «٦» ، وقلما توجد أمة فاضلة مطيعة مستقيمة الأعمال إلا يدفع الله عنها هذه الأمور، والأمر بالعكس في المعاصي، وبطر النعمة ليذيقهم عاقبة بعض ما عملوا ويعفوا عن كثير.
ولعلهم يرجعون، أي: يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة ربهم ثم حذر- تعالى- من يوم القيامة تحذيرا يعم

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٤/٢٩٥

العالم وإياهم المقصد بقوله فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله الآية ولا مرد له: معناه:

ليس فيه رجوع لعمل، ويحتمل أن يريد/ لا يرده راد. وهذا ظاهر بحسب اللفظ ٦٧ أويصدعون: معناه: يتفرقون بعد جمعهم إلى الجنة وإلى النار. ثم ذكر تعالى من آياته أشياء وهي ما في الريح من **المنافع** وذلك أنها بشرى بالمطر ويلقح بها الشجر، وغير ذلك،

---

(١) ينظر: «السبعة» (٥٠٧) ، و «الحجة» (٥/ ٤٤٦) ، و «إعراب القراءات» (٢/ ١٩٦) ، و «معاني القراءات» (٢/ ٢٦٤) ، و «العنوان» (١٥١) ، و «حجة القراءات» (٥٥٨) ، و «إتحاف» (٢/ ٣٥٧) . [.....]

(٢) ذكره ابن عطية (٤/ ٣٣٩) .

(٣) ينظر: «المحرر» (٤/ ٣٣٩) .

(٤) فالتاء هاهنا للمخاطبين، والواو واو الجمع. وحجته أنها كتبت في المصاحف بألف بعد واو. وحجة الباقين قوله بعده: فلا يربوا عند الله.

ينظر: «حجة القراءات» (٥٥٩) ، و «السبعة» (٥٠٧) ، و «الحجة» (٥/ ٤٤٧) ، و «إعراب القراءات» (٢/ ١٩٦) ، و «معاني القراءات» (٢/ ٢٦٥) ، و «شرح الطيبة» (٥/ ١٣٢) ، و «العنوان» (١٥١) ، و «شرح شعلة» (٥٤٠) ، و «إتحاف» (٢/ ٣٥٧) .

(٥) أخرجه الطبري (١٠/ ١٩٠- ١٩١) رقم (٢٧٩٩٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/ ٣٤٠) .

(٦) ذكره ابن عطية (٤/ ٣٤٠) .." [(١)]

"وسعد: يا رسول الله أفتنا في الخمر واليسر فإنهما مذهبة للعقل مسلبة للمال؟ فنزلت، واليسر: القمار، (قل فيهما)، أي: في تعاطيهما، (إثم كبير)، حيث يؤدي إلى مخاصمة وفحش وزور وهذا لا يدل صريحا على حرمتهما لأنه مؤدي إلى الإثم لا أن الإثم يحصل منه، والمحرمة ما في المائدة، (ومنافع للناس): من كسب المال والطرب وغيرهما، (وإثمهما أكبر من نفعهما)، فإن مفاسدهما التي تنشأ منهما أعظم من **المنافع** المتوقعة منهما، (ويسألونك ماذا ينفقون)، لما نزل قوله: " فللوالدين والأقربين " سأل عمرو بن الجموح عن مقدار ما ينفق فنزل، (قل العفو)، أي: ما فضل من المال عن العيال، أو أفضل مالك

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٤/٣١٥

وأطيبه، قيل: إنها منسوخة بآية الزكاة، وقيل: مبينة بها قاله مجاهد وغيره، (كذلك)، أي: مثل ما فصل وبين لكم هذه الأحكام، (يبين الله لكم الآيات)، أي: سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيده، أى يبين تبيينا مثل لهذا، (لعلكم تتفكرون في)، أمر، (الدنيا والآخرة)، لتعلموا زوالها وفناءها وإقبال الآخرة وبقاءها، وقيل: متعلق بـ يبين أي: يبين لكم الأيات في أمر الدارين لعلكم تتفكرون، (ويسألونك عن اليتامى)، لما نزل " إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما " [النساء: ١٠] إلخ، اعتزلوا مخالطة اليتامى ولا يأكل أحد معهم، فشق ذلك عليهم فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت، (قل إصلاح لهم." [١]

"(الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) أي: يعمون الأحوال بالخير، نزلت في ربط الخيل يعلفونها دائما في سبيل الله، أو في علي بن أبي طالب - رضى الله عنه -كان له أربعة دراهم فتصدق درهما ليلا، ودرهما نهارا، ودرهما سرا، ودرهما علانية، (فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم) في القيامة، (ولا هم يحزنون): على ما فات عنهم، قال تعالى: " لا يحزنهم الفزع الأكبر " [الأنبياء: ١٠٣]، (الذين يأكلون الربا) لما ذكر الأبرار المخرجين للصدقات، شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالظلم، وعبر عن الأخذ بالأكل، لأن الأكل أعظم **المنافع**، والربا شائع في المطعومات، (لا يقومون) من قبورهم، (إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان) أي: إلا قياما كقيام المصروع، (من المس)، أي: الجنون، وهو متعلق بـ لا يقومون، أو بيقوم، وفي الحديث " مر عليه." [٢]

"الماء في جميع الأحوال (وطعامه) أي: ما يتزود منه يابسا مالحا أو ما لفظه ميتا، (متاعا لكم وللسيارة): منفعة للمقيم، والمسافر، وهو مفعول (وحرم عليكم صيد البر) أي: مصيدها، وعن بعضهم المراد بالصيد في الموضعين فعله (ما دمتم حرما) وأما أكل لحم صيد غير المحرم لا لأجله في حال الإحرام فالأصح الجواز بدليل الحديث، (واتقوا الله الذي إليه تحشرون جعل الله الكعبة البيت الحرام)، عطف بيان للكعبة على جهة المدح، (قياما للناس): في أمر دينهم ودنياهم به الحج وبه يلوذ الخائف، وهو ثاني مفعولي جعل، (والشهر الحرام)، عطف على الكعبة جعل الأشهر الحرم قياما للناس فيه الحج، والأمن من القتال، (والهدي): ما أهدى إلى الكعبة، (والقلائد): ذوات القلائد من الهدي ما قلد به الهدي من نعل، أو لحاء شجر أي: علامة يعلم منها أنه هدي، وكانوا يؤمنون بتقليد الهدي فبه يحصل القيام، (ذلك) أي: الجعل وقيل إشارة إلى ما في السورة من أخبار الغيب، (لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض)،

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ١٥٣/١

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٢٠٤/١

فإن شرع الأحكام لدفع المضار قبل الوقوع، وجلب **المنافع** دليل كمال علمه أو لتعلموا أنا نعلم مصالح دينكم ودنياكم." (١)

"من حفى عن الشيء بالغ في السؤال عنه، والمبالغة في السؤال مستلزم للعلم أطلق الحفى وأريد العالم، أو كأنك بالغت في السؤال عنها حتى علمت، أو عنها متعلق بـ يسألونك أي: يسألونك عنها كأنك شفيق بهم من الحفاوة بمعنى الشفقة فإن قريشا قالوا يا محمد بيننا وبينك قرابة فأسر إلينا متى الساعة، وكأنك في موقع الحال أي: مشبها حالك بحال الحفي (قل إنما علمها عند الله) لا يطلع عليه أحد كرره تأكيدا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن علمها مختص بالله (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا) أي: جلب نفع ولا دفع ضر (إلا ما شاء الله) أي: لكن ما شاء يصل فمنقطع أو إلا نفعا وضرا يملكني الله ويوفقني به فمتصل (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) أي: لكانت حالي من استكثار الخير واستفراز **المنافع** واجتناب السوء على خلاف ما هي عليه، فلم أكن غالبا مرة ومغلوبا أخرى، ورابحا وخاسرا في التجارة (إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) أي: إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة لهم فإنهم المنتفعون بهما، أو ما أنا إلا نذير." (٢)

"قيل الهمزة للإنكار، وأم منقطعة، (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) أي: أي شيء ظنهم في ذلك اليوم أيحسبون أن لا يجازوا عليه وفي إبهام الوعيد تهديد شديد، (إن الله لذو فضل على الناس) حيث لا يستعجل عقوبتهم أو فيما أباح لهم **المنافع** ولم يحرم عليهم إلا المضار، (ولكن أكثرهم لا يشكرون) هذه النعمة فيحرمون ويحللون بمقتضى هواهم.

* * *

(وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين (٦١) ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٢) الذين آمنوا وكانوا يتقون (٦٣) لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم (٦٤) ولا يحزنك قولهم إن العزة

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٤٩٩/١

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٦٧٨/١

لله جميعا هو السميع العليم (٦٥) ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا." (١)

"وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور (٦٦) لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم (٦٧) وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون (٦٨) الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون (٦٩) ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير (٧٠) ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير (٧١) وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير (٧٢)

* * *

(ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض): فتنتفعون به، (والفلك) عطف على ما، (تجري في البحر بأمره)، حال، (ويمسك السماء): من، (أن تقع على الأرض إلا بإذنه): بمشيئته كما تقع يوم القيامة، (إن الله بالناس لرءوف رحيم) حيث أثبت لهم **المنافع**، ودفع عنهم المضار، (وهو الذي أحياكم): بعد ما كنتم جمادا ترابا ونطفة، (ثم يميتكم ثم يحييكم): في الآخرة، (إذ الإنسان لكفور): جحود لنعم ربه، (لكل أمة جعلنا." (٢)

"وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا (٥٣) وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا (٥٤) ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا (٥٥) وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا (٥٦) قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا (٥٧) وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا (٥٨) الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا (٥٩) وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا (٦٠)

* * *

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ١٤٢/٢

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٦٩/٣

(ألم تر)،: تنظر، (إلى ربك)،: إلى صنعه، (كيف مد الظل)، وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس جعله ممدودا؛ لأنه ظل لا شمس معه، قال تعالى: " وظل ممدود " [الواقعة: ٣٠]؛ (ولو شاء لجعله ساكنا)،: ثابتا دائما لا يزيله الشمس، (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا)، فإنه لو لم تكن لما عرف الظل، فإن الأشياء تعرف بأضدادها، أو جعلنا مستتبعة عليه تتلوه، وتتبعه كما يستتبع الدليل المدلول وثم لبيان أن هذا أعظم من الأول، (ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا)، أزلنا الظل قبضا على مهل أو سهلا أو سريعا بأن أوقعنا موقعه الشمس، وفيه من **المنافع** ما لا تحصى والقبض في مقابلة المد، وثم هنا أيضا لبيان أن الثالث أعظم من الأولين،." (١)

"الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥)

* * *

(الله الذي جعل لكم الأنعام): إنشاء الإبل والبقر والغنم (لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع): من الصوف والدر والوبر (ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم): من حمل أثقالكم إلى بلد والغنم للأكل وله **المنافع** والباقي من الأنعام يصلح للكل (وعليها): في البر، (وعلى الفلك): في البحر، (تحملون) دخول اللام في بعض دون بعض للفرق بين العين والمنفعة، والأظهر أن الأنعام هاهنا الإبل ولما كان العمدة في منافعها الركوب والحمل، أدخل اللام عليهما وأما الأكل والانتفاع بالألبان والأوبار وإن كان يصلحان للتعليل أيضا، لكنهما قاصران عنهما فجعلا مكتنفين لما بينهما من غير دخول لام عليهما وتقديم المعمول في منها تأكلون، وعليها وعلى الفلك لرعاية الفاصلة وزيادة الاهتمام، ومنها تأكلون عطف على جعل لكم الأنعام عطف جملة على جملة بتقدير وجعل لكم الأنعام منها تأكلون، حتى لا يلزم عطف الحال على العلة وكذلك وعليها وعلى الفلك (ويريكم آياته) الدالة على كمال القدرة والرحمة، (فأى آيات الله): أي آية منها (تنكرون)، هو العامل في." (٢)

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ١٥٩/٣

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٣٠/٤

"لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون (١٤) فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون (١٥) فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (١٦) وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون (١٧) ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (١٨)

* * *

(قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين) أي في حقيقة يومين معلومين عند الله، لا نعرف كيفيتهما أو في قدر يومين لأن الظاهر من قوله: " رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها " [النازعات: ٢٨ - ٢٩]، أن حدوث اليوم والليلة بعد خلق السماء وعن كثير من السلف أن اليومين: الأحد والاثنان وفيه إشكال، اللهم إلا أن يقال: إن الله تعالى لما خلق الأزمان عى أول يومه السبت ثم الأحد ثم الاثنان ثم وثم، وخلق السماء والأرض وما بينهما في مقدار ستة أيام قبل حدوث الزمان متصل بحدوثه بمعنى أنه لو كان الزمان حين الخلق موجودا لكانت مدة الخلق ستة أيام يكون أوله يوم الأحد ألبتة، وآخره يوم الجمعة (وتجعلون له أندادا ذلك): القادر العظيم، (رب العالمين وجعل فيها): في الأرض، (رواسي): جبالا ثوابت وهو عطف على محذوف، أي خلقها وجعل، وقيل: عطف على خلق والفصل بالجملتين كلا فصل؛ لأن الأولى بمنزلة الإعادة لتكفرون، والثانية اعتراضية كالتأكيد لمضمون الكلام، (من فوقها): مرتفعة ليظهر على الناظرين (وبارك فيها): بخلق المنافع فيها، (وقدر فيها أقواتها): أقوات أهلها، أو قدر في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى، (في أربعة أيام) أي: تتمتها لقوله: " خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ". " (١)

"فإنه يستدعي سابقة المخبر عنه لا محالة وأجيب بأنه من مقتضيات التعلق وحدوثه لا يستدعي حدوث الكلام كما أن حدوث تعلق العلم بالمعلوم لا يستدعي حدوث العلم

﴿سوآء﴾ هو اسم بمعنى الاستواء نعت به كما ينعت بالمصادر مبالغة قال تعالى ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ وقوله تعالى

﴿عليهم﴾ متعلق به معناه عندهم وارتفاعه على أنه خبر لأن وقوله تعالى

﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ مرتفع به على الفاعلية لأن الهمزة وأم مجردتان عن معنى الاستفهام لتحقيق

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن ا لإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٣٦/٤

الاستواء بين مدخوليهما كما جرد الأمر والنهي لذلك عن معنييهما في قوله تعالى ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ وحرف النداء في قولك اللهم اغفر لنا أيتها العصابة عن معنى الطلب المجرد التخصيص كأنه قيل إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه كقولك إن زيدا مختصم أخوه وابن عمه أو مبتدأ وسواء عليهم خبر قدم عليه اعتناء بشأنه والجملة خبر لإن والفعل إنما يمتنع الإخبار عنه بقائه على حقيقته أما لو أريد به اللفظ أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمنا على طريقة الاتساع فهو كالاسم في الإضافة والإسناد إليه كما في قوله تعالى ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ وقوله تعالى وإذاقيل لهم لا تفسدوا وفي قولهم بالمعيدي خير من أن تراه كأنه قيل إنذارك وعدمه سيان عليهم والعدول إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد والتوصل إلى إدخال الهمزة ومعادلها عليه لإفادة تقرير معنى الاستواء وتأكيده كما أشير إليه وقيل سواء مبتدأ ومابعده خبره وليس بذاك لأن مقتضى المقام بيان كون الإنذار وعدمه سواء لا بيان كون المستوي الإنذار وعدمه والإنذار إعلام المخوف للاحتراز عنه إفعال من نذر بالشئ إذا علمه فحذره والمراد ههنا التخويف من عذاب الله وعقابه على المعاصي والاقتصار عليه لما أنهم ليسوا بأهل للبشارة أصلا ولأن الإنذار أوقع في القلوب وأشد تأثيرا في النفوس فإن دفع المضار أهم من جلب **المنافع** فحيث لم يتأثروا به فلأن لايرفعوا للبشارة راسا أولى وقرئ بتوسيط ألف بين الهمزتين مع تحقيقهما وبتوسيطها والثانية بين بين وبتخفيف الثانية بين بين بلا توسيط وبحذف حرف الاستفهام وبحذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله كما قرئ قد أفلح وقرئ بقلب الثانية ألفا وقد نسب ذلك إلى اللحن

﴿لا يؤمنون﴾ جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها مبينة لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء فلا محل لها من الإعراب أو حال مؤكدة له أو بدل منه أو خبر لأن وما قبلها اعتراض بما هو علة للحكم أو خبر ثان على رأي من يجوزه عند كونه جملة والآية الكريمة مما استدل به على جواز التكليف بما لا يطاق فإنه تعالى قد أخبر عنهم بأنهم لايؤمنون فظهر استحالة إيمانهم لاستلزامه المستحيل الذي هو عدم مطابقة إخباره تعالى للواقع مع كونهم مأمورين بالإيمان باقين على التكليف ولأن من جملة ما كلفوه الإيمان بعدم إيمانهم المستمر والحق أن التكليف بالمتنع لذاته وإن جاز عقلا من حيث إن الأحكام لا تستدعي أغراضا لا سيما الامتثال لكنه غير واقع للاستقراء والإخبار بوقوع الشئ أو بعدمه لا ينفي القدرة عليه كإخباره تعالى عما يفعله هو أو العبد باختياره وليس ما كلفوه الإيمان بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم أن يكلفوا الإيمان بعدم إيمانهم المستمر بل هو الإيمان بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إجمالا على أن كون الموصول عبارة عنهم ليس معلوما لهم وفائدة الإنذار بعد العلم بأنه لا يفيد إلزام الحجة وإحراز الرسول صلى

الله عليه وسلم فضل الإبلاغ ولذلك قيل سواء عليهم ولم يقل عليك كما قيل لعبدة الأصنام ﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾." (١)

"تقرير للإنكار وتأكيد له من الحيثيتين المذكورتين غير سبكه عن سبك ما قبله مع اتحادهما في المقصود إبانة لما بينهما من التفاوت فإن ما يتعلق بذواتهم من الإحياء والإمانة والحشر أدخل في الحث على الإيمان والكف عن الكفر مما يتعلق بمعايشهم وما يجري مجراها وفي الضمير مبتدأ والموصول خبرا من الدلالة على الجلالة مالا يخفى وتقديم الظرف على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كونه نافعا للمخاطبين وللتشويق إليه كما سلف أي خلق لأجلكم جميع ما فى الأرض من الموجودات لتنتفعوا بها في أمور دنياكم بالذات أو بالواسطة وأمور دينكم بالاستدلال بها على شئون الصانع تعالى شأنه والاستشهاد بكل واحد منها على ما يلائمه من لذات الآخرة وآلامها وما يعم جميع ما في الأرض لا نفسها إلا أن يراد بها جهة السفل كما يراد بالسماء جهة العلو نعم يعم كل جزء من أجزائها فإنه من جملة ما فيها ضرورة وجود الجزء في ا لكل وجميعا حال من الموصول الثاني مؤكدة لما فيه من العموم فإن كل فرد من أفراد ما في الأرض بل كل جزء من أجزاء العالم له مدخل في استمراره على ما هو عليه من النظام اللائق الذي عليه يدور انتظام مصالح الناس أما من جهة المعاش فظاهر وأما من جهة الدين فلما أنه ليس في العالم شئ مما يتعلق به النظر وما لا يتعلق به إلا وهو دليل على القادر الحكيم جل جلاله كما مر في تفسير قوله تعالى ﴿رب العالمين﴾ وإن لم يستدل به أحد بالفعل

﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي قصد إليها بإرادته ومشيئته قصدا سويا بلا صارف يلويه ولا عاطف يثنيه من ارادة خلق شئ آخر في تضاعيف خلقها أو غير ذلك مأخوذ من قولهم استوى إليه كالسهم المرسل وتخصيصه بالذكر ههنا إما لعدم تحققه في خلق السفليات لما روي من تخلل خلق السموات بين خلق الأرض ودحوها عن الحسن رضي الله عنه خلق الله تعالى الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه ا دخان يلتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرضين وذلك قوله تعالى ﴿كانتا رتقا ففتقناهما﴾ وإما لإظهار كمال العناية بإبداع العلويات وقيل استوى استولى وملك والأول هو الظاهر وكلمة ثم للإيذان بما فيه من المزية والفضل على خلق السفليات لا للتراخي الزماني فإن تقدمه على خلق ما في الأرض المتأخر عن دحوها مما لا مرية فيه لقوله تعالى ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ ولما روي عن الحسن والمراد بالسماء إما الأجرام العلوية فإن القصداليها بالإرادة لا يستدعي

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣٦/١

سابقة الوجود وإما جهات العلو

﴿فسواهن﴾ أي أتمهن وقومهن وخلقهن ابتداء مصونة عن العوج والفطور لا أنه تعالى سواهن بعد أن لم يكن كذلك ولا يخفى ما في مقارنة التسوية والاستواء من حسن الموقع وفيه إشارة إلى أن لا تغيير فيهن بالنمو والذبول كما في السفليات والضمير على الوجه الاول للسماء فإنها في معنى الجنس وقيل هي جمع سماءة أو سماوة وعلى الوجه الثاني منهم يفسره قوله تعالى

﴿سبع سماوات﴾ كما في قولهم ربه رجلا وهو على الوجه الأول بدل من الضمير وتأخير ذكر هذا الصنع البديع عن ذكر خلق ما في الأرض مع كونه أقوى منه في الدلالة على كمال القدرة القاهرة كما نبه عليه لما أن المنافع المنوطة بما في الأرض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر وإن كان في إبداع العلويات أيضا من المنافع الدينية والدنيوية مالا يحصى هذا ما قالوا وسيأتي في حم السجدة مزيد تحقيق وتفصيل بإذن الله تعالى

﴿وهو بكل شيء عليم﴾ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله." (١)

"﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى

﴿الذين اشتروا﴾ أي آثروا

﴿الحياة الدنيا﴾ واستبدلوها

﴿بالاخرة﴾ وأعرضوا عنها مع تمكنهم من تحصيلها فإن ما ذكر من الكفر ببعض أحكام الكتاب إنما كان لمراعاة جانب حلفائهم لما يعود إليهم منهم من بعض المنافع الدنية الدنيوية

﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ دنيويا كان أو أخرويا

﴿ولا هم ينصرون﴾ بدفعه عنهم شفاعة أو جبرا والجملة معطوفة على ما قبلها عطف الاسمية على الفعلية أو ينصرون مفسر لمحذوف قبل الضمير فيكون من عطف الفعلية على مثلها." (٢)

"﴿إن في خلق السماوات والارض﴾ أي في إبداعهما على ما هما عليه مع ما فيهما من التعاجيب العبر وبدائع صنائع يعجز عن فهمها عقول البشر وجمع السموات لما هو المشهور من أنها طبقات متخالفة الحقائق دون الأرض

﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أي اعتقابهما وكون كل منهما خلفا للآخر كقوله تعالى وهو الذى جعل اليل

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٧٨/١

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٢٦/١

والنهار خلفة أو اختلاف كل منهما في أنفسهما ازديادا وانتقاصا على ما قدره الله تعالى

﴿والفلك التى تجرى فى البحر﴾ عطف على ما قبله وتأنيثه إما بتأويل السفينة أو بأنه جمع فإن ضمة الجمع مغايرة لضمة الواحد في التقدير إذا الأولى كما في حمر والثانية كما في قفل وقرئ بضم اللام

﴿بما ينفع الناس﴾ أي متلبسه بالذي ينفعهم مما يحمل فيها من أنواع **المنافع** أو بنفعهم

﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ عطف على الفلك وتأخيره عن ذكرها مع كونه أعم منها نفعا لما فيه من مزيد تفصيل وقيل المقصود الاستدلال بالبحر وأحواله وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه ولذلك قدم على ذكر المطر والسحاب لأن منشأهما البحر في غالب الأمر ومن الأولى ابتدائية والثانية بيانية أو تبيعضية وأياما كان فتأخيرها لما مر مرارا من التشويق والمراد بالسماء الفلك أو السحاب أو جهة العلو

﴿فأحيا به الارض﴾ بأنواع النبات والإزهار وما عليها من الأشجار

﴿بعد موتها﴾ باستيلاء اليبوسة عليها حسبما تقتضيه طبيعتها كما يوزن به إيراد الموت في مقابلة الإحياء

﴿وبث فيها﴾ أي فرق ونشر

﴿من كل دابة﴾ من العقلاء وغيرهم والجملة معطوفة على أنزل داخلة تحت حكم الصلة وقوله تعالى فأحيا الخ متصل بالمعطوف عليه بحيث كانا في حكم شئ واحد كأنه قيل وما أنزل في الأرض من ماء وبث فيها الخ أو على أحيا بحذف الجار والمجرور العائد إلى الموصول وإن لم يتحقق الشرائط المعهودة كما قي قوله ... وإن لساني شهدة يشتفى بها ... ولكن على من صبه الله علقم ... أي علقم عليه وقوله ... لعل الذي أصعدتني أن يردني ... إلى الأرض إن لم يقدر الخير قادره ...

على معنى فأحيا بالماء الأرض وبث فيها من كل دابة فإنهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا

﴿وتصريف الرياح﴾ عطف على ماأنزل أي تقليبها من مهب إلى آخر أومن حال إلى أخرى وقرئ على الإفراد

﴿والسحاب﴾ عطف على تصريف أو الرياح وهو اسم جنس واحده سحابة سمي بذلك لانسحابه في الجو

﴿المسخر بين السماء والارض﴾ صفة للسحاب باعتبار لفظه وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما في قوله تعالى سحابا ثقالا وتسخيره تقليبه في الجو بواسطة الرياح حسبما تقتضيه مشيئة الله تعالى ولعل تأخير

تصريف الرياح وتسخير السحاب في الذكر عن جريان الفلك وإنزال الماء مع انعكاس الترتيب الخارجي لما مر في قصة البقرة من الإشعار باستقلال كل من الأمور المعدودة في." (١)

"﴿أيود أحدكم﴾ الود حب الشئ مع تمنيه ولذلك يستعمل استعمالها والهمزة لإنكار الوقوع كما في قوله أأضرب أبي لا لإنكار الواقع كما في قولك أتضرب أباك على أن مناط الإنكار ليس جميع ما تعلق به الود بل إنما هو إصابة الإعصار وما يتبعها من الاحتراق

﴿أن تكون له جنة﴾ وقرئ جنات

﴿من نخيل وأعناب﴾ أي كائنة منهما على أن يكون الأصل والركن فيها هذين الجنسين الشريفين الجامعين لفنون **المنافع** والباقي من المستتبعات لا على أن يكون فيها غيرهما كما ستعرفه والجنة تطلق على الأشجار الملتفة المتكاثفة قال زهير

كأن عيني في غربي مفتلة ... من النواضح تسقى جنة سحقا

وعلى الأرض المشتملة عليها والأول هو الأنسب بقوله عز وجل

تجرى من تحتها الأنهار على الثاني لا بد من تقدير مضاف أي من تحت وشجارها وكذا لابد من جعل إسناد الاحتراق إليها فيما سيأتي مجازيا والجملة في محل الرفع على أنها صفة جنة كما أن قوله تعالى من نخيل وأعناب كذلك أو في محل النصب على أنها حال منها لأنها موصوفة

﴿له فيها من كل الثمرات﴾ الظرف الأول خبر والثاني حال والثالث مبتدأ أي صفة للمبتدأ قائمة مقامه أي له رزق من كل الثمرات كما في قوله تعالى وما منا إلا له مقام معلوم أي وما منا أحد إلا له الخ وليس المراد بالثمرات العموم بل إنما هو التكثير كما في قوله تعالى وأوتيت من كل شئ

﴿وأصابه الكبر﴾ أي كبر السن الذي هو مظنة شدة الحاجة إلى منافعها ومئنة كمال العجز عن تدارك أسباب المعايش والواو حالية أي وقد أصابه الكبر

﴿وله ذرية ضعفاء﴾ حال من الضمير في أصابه أي أصابه الكبر والحال أن له ذرية صغار لا يقدرون على الكسب وترتيب مبادى المعاش وقرئ ضعاف

﴿فأصابها إعصار﴾ أي ريح عاصفة تستدير في الأرض ثم تنعكس منها ساطعة إلى السماء على هيئة العمود

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١/١٨٤

﴿فيه نار﴾ شديدة

﴿فاحترقت﴾ عطف على فأصابها وهذا كما ترى تمثيل لحال من يعمل أعمال البر والحسنات ويضم إليها ما يحبطها من القوادح ثم يجدها يوم القيامة عند كمال حاجته إلى ثوابها هباء منثورا في التحسر." (١)

"﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ من تمام مقالة الراسخين أي لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه قال صلى الله عليه وسلم قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه وقيل معناه لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا

﴿بعد إذ هديتنا﴾ أي إلى الحق والتأويل الصحيح أو إلى الإيمان بالقسمين وبعد نصب بلا تزغ على الظرف وإذ في محل الجر بإضافته إليه خارج من الظرفية أي بعد وقت هدايتك إيانا وقيل إنه بمعنى أن

﴿وهب لنا من لدنك﴾ كلا الجارين متعلق بهب وتقديم الأول لما مر مرارا ويجوز تعلق الثاني بمحذوف هو حال من المفعول أي كائنة من لدنك ومن لابتداء الغاية المجازية ولدن في الأصل ظرف بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات نحو من لدن زيد وليست مرادفة لعند إذ قد تكون فضلة وكذا لدى وبعضهم يخصها بظرف المكان وتضاف إلى صريح الزمان كما في قوله ... تنتفض الرعدة في ظهيري ... من لدن الظهر إلى العصير ... ولا تقطع عن الإضافة بحال وأكثر ما تضاف إلى المفردات وقد تضاف إلى أن وصلتها كما في قوله ... ولم تقطع اصلا من لدن أن وليتنا ... قرابة ذي رحم ولا حق مسلم ... أي من لدن ولايتك إيانا وقد تضاف إلى الجملة الاسمية كما في قوله ... تذكر نعماه لدن أنت يافع ... وإلى الجملة الفعلية أيضا كما في قوله ... لزمنا لدن سالتمونا وفاتكم ... فلا يك منكم للخلاف جنوح ... وقلما تخلو عن من كما في البيتين الأخيرين

﴿رحمة﴾ واسعة تزلفنا إليك ونفور بها عندك أو توفيقا للثبات على الحق وتأخير المفعول الصريح عن الجارين لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة لوروده لاسيما عند الإشعار بكونه من المنافع باللام فإذا أورده يتمكن عندها فضل تمكن

﴿إنك أنت الوهاب﴾ تعليل للسؤال أو لإعطاء المسئول وأنت إما مبتدأ أو فصل أو تأكيد لاسم إن وإطلاق الوهاب ليتناول كل موهوب وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قبله تعالى وأنه متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب عليه شئ." (٢)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١/٢٦٠

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢/٩

"﴿إن الذين كفروا﴾ إثر ما بين الدين الحق والتوحيد وذكر أحوال الكتب الناطقة به وشرح شأن القرآن العظيم وكيفية إيمان العلماء الراسخين به شرع في بيان حال من كفر به والمراد بالموصول جنس الكفرة الشامل لجميع الأصناف وقيل وفد نجران أو اليهود من قريظة والنضير أو مشركو العرب

﴿لن تغنى عنهم﴾ أي لن تنفعهم وقرئ بالتذكير وبسكون الياء جدا في استثقال الحركة على حروف اللين

﴿أموالهم﴾ التي يبذلونها في جلب المنافع ودفع المضار

﴿ولا أولادهم﴾ الذين بهم ينتصرون في الأمور المهمة وعليهم يعولون في الخطوب الملمة وتأخير الأولاد عن الأموال مع توسيط حرف النفي بينهما إما لعراقة الأولاد في كشف الكروب أو لأن الأموال أول عدة يفزع إليها عند نزول الخطوب

﴿من الله﴾ من عذابه تعالى

﴿شيئا﴾ أي شيئا من الإغنياء وقيل كلمة من بمعنى البدل والمعنى بدل رحمة الله أو بدل طاعته كما في قوله تعالى إن الظن لا يغنى من الحق شيئا أي بدل الحق ومنه قوله ولا ينفع ذا الجد منك الجد أي لا ينفعه جده بدلك أي بدل رحمتك كما في قوله تعالى وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى وأنت خبير بأن احتمال سد أموالهم وأولادهم مسد رحمة الله تعالى أو طاعته مما لا يخطر ببال أحد حتى يتصدى لنفيه والأول الأليق بتفظيع حال الكفرة وتهويل أمرهم والأنسب بما بعده من قوله تعالى

﴿وأولئك هم وقود النار﴾ ومن قوله تعالى فأخذهم الله أي أولئك المتصفون بالكفر حطب النار وحصبها الذي تسعر به فإن أريد بيان حالهم عند التسعير فإيثار الجملة الاسمية للدلالة على تحقق الأمر وتقرره وإلا فهو للإيذان بأن حقيقة حالهم ذلك وأن أحوالهم الظاهرة بمنزلة العدم فهم حال كونهم فى الدنيا وقود النار بأعيانهم وفيه من الدلالة على كمال ملابستهم بالنار مالا يخفى وهم يحتمل الابتداء وأن يكون ضمير الفصل والجملة وإما مستأنفة مقررة لعدم الإغنياء أو معطوفة على خبر إن وأيا ما كان ففيها تعيين للعذاب الذي بين أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم منه شيئا وقرئ وقود النار بضم الواو وهو مصدر أي أهل وقودها." (١)

"﴿مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا﴾ بيان لكيفية عدم إغناء أموالهم التي كانوا يعولون عليها في جلب المنافع ودفع المضار ويعلقون بها أطماعهم الفارغة وما موصولة اسمية حذف عائدها أي حال ما ينفقه الكفرة قربة أو مفاخرة وسمعة أو المنافقون رياء وخوفا وقصته العجيبة التي مجرى المثل في الغرابة

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢/ ١٠

﴿كمثل ريح فيها صر﴾ أي برد شديد فإنه في الأصل مصدر وإن شاع إطلاقه على الريح الباردة كالصر صر وقيل كلمة في تجريدية كما في قوله تعالى ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾

﴿أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم﴾ بالكفر والمعاصي فباءوا بغضب من الله وإنما وصفوا بذلك لأن الإهلاك عن سخط أشد وأفظع

﴿فأهلكته﴾ عقوبة لهم ولم تدع منه أثرا ولا عثيرا والمراد تشبيه ما أنفقوا في ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود إليهم نفع ما بحرث كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه وهو من التشبيه المركب الذي مر تفصيله في تفسير قوله تعالى ﴿كمثل الذى استوقد نارا﴾ ولذلك لم يبال بإيلاء كلمة التشبيه الريح دون الحرث ويجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث وقرئ تنفقون

﴿وما ظلمهم الله﴾ بما بين من ضياع ما أنفقوا من الأموال

﴿ولكن أنفسهم يظلمون﴾ لما أنهم أضاعوها بإنفاقها لا على ما ينبغي وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص إذ الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول أي ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقد جوز أن يكون المعنى وما ظلم الله تعالى أصحاب الحرث بإهلاكه ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة ويأباه أنه قد مر التعرض له تصريحا وإشعارا وقرئ ولكن بالتشديد على أن أنفسهم اسمها ويظلمون خبرها والعائد محذوف للفاصلة أي ولكن أنفسهم يظلمونها وأما تقدير ضمير الشأن فلا سبيل إليه لاختصاصه بالشعر ضرورة كما في قوله ... ولكن من يبصر جفونك يعشق ...." (١)

"﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ أي من ثوابها جملة مستأنفة سيقت لبيان أن له صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من تحريض المؤمنين حظا موفورا فإن الشفاعة هي التوسط بالقول في وصول شخص إلى منفعة من **المنافع** الدنيوية أو الأخروية أو خلاصه من مضرة ما كذلك من الشفع كأن المشفوع له كان فردا فجعله الشفيع شفعا والحسنة منها ما كانت في أمر مشروع روعي بها حق مسلم ابتغاء لوجه الله تعالى من غير أن يتضمن غرضا من الأغراض الدنيوية وأي منفعة أجل مما قد حصل للمؤمنين بتحريضه صلى الله عليه وسلم على الجهاد من **المنافع** الدنيوية والأخروية وأي مضرة أعظم مما تخلصوا

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢/٧٥

منه بذلك منه بذلك من التثبط عنه ويندرج فيها الدعاء للمسلم فإنه شفاعة إلى الله سبحانه وعليه مساق آية التحية الآتية روي أنه صلى الله عليه وسلم قال من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثل ذلك وهذا بيان لمقدار النصيب الموعود

﴿ومن يشفع شفاعة سيئة﴾ وهي ما كانت بخلاف الحسنة

﴿يكن له كفل منها﴾ أي نصيب من وزرها مساو لها في المقدار من غير أن ينقص منه شئ

﴿وكان الله على كل شيء مقيتا﴾ أي مقتدرا من أقات على الشيء إذا اقتدر عليه أو شهيدا حفيظا واشتقاقه من القوت فإنه يقوي البدن ويحفظه والجملة تذييل مقرر لما قبلها على كلا المعنيين." (١)

"٨٧ – النساء وأصل الأصل تحيي بثلاث ياءات فحذفت الأخيرة وعوض عنها تاء التأنيث وأدغمت الأولى في الثانية بعد نقل حركتها إلى الحاء قال الراغب أصل التحية الدعاء بالحياة وطولها ثم استعملت في كل دعاء وكانت العرب إذا لقي بعضهم بعضا يقول حياك الله ثم استعملها الشرع في السلام وهي تحية الإسلام قال تعالى ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ وقال ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ وقال ﴿فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله﴾ قالوا في السلام مزية على التحية لما أنه دعاء بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية وهي مستلزمة لطول الحياة وليس في الدعاء بطول الحياة ذلك ولأن السلام من أسمائه تعالى فالبداءة بذكره مما لا ريب في فضله ومزيته أي إذا سلم عليكم من جهة المؤمنين

﴿فحيوا بأحسن منها﴾ أي بتحية أحسن منها بأن تقولوا وعليكم السلام ورحمة الله إن اقتصر المسلم على الأول وبأن تزيدوا وبركاته إن جمعها المسلم وهي النهاية لانتظامها لجميع فنون المطالب التي هي السلامة عن المضار ونيل المنافع ودوامها ونماؤها

﴿أو ردوها﴾ أي أجيبوها بمثلها روي أن رجالا قال أحدهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليك فقال وعليك السلام ورحمة الله وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله فقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال وعليك فقال الرجل نقصتني فأين ما قال الله تعالى وتلا الآية فقال صلى الله عليه وسلم إنك لم تترك لي فضلا فرددت عليك مثله وجواب التسليم واجب وإنما التخيير بين الزيادة وتركها وعن النخعي أن السلام سنة والرد فريضة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الرد واجب وما من رجل يمر على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردون عليه إلا نزع الله منهم روح القدس وردت عليه الملائكة ولا يرد في الخطبة وتلاوة القرآن جهرا ورواية الحديث وعند دراسة العلم والآذان والإقامة

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢/٢١٠

ولا يسلم على لاعب النرد والشطرنج والمغني والقاعد لحاجته ومطير الحمام والعاري في الحمام وغيره قالوا ويسلم الرجل على امرأته لا على الأجنبية والسنة أن يسلم الماشي على القاعد والراكب على الماشي وراكب الفرس على راكب الحمار والصغير على الكبير والقليل على الكثير وإذا التقيا ابتدرا وعن أبي حنيفة رضى الله عنه لا يجهر بالرد يعني الجهر الكثير وعن النبي صلى الله عليه وسلم إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم أي وعليكم ما قلتم حيث كان يقول بعضهم السلام عليكم وروي لا تبدأ اليهودي بالسلام وإذا بدأك فقل وعليك وعن الحسن أنه يجوز أن يقول للكافر وعليك السلام دون الزيادة وقيل التحية بالأحسن عند كون المسلم مسلما ورد مثلها عند كونه كافرا
﴿إن الله كان على كل شيء حسيبا﴾ فيحاسبكم على كل شئ من أعمالكم التي من جملتها ما أمرتم به من التحية فحافظوا على مراعاتها حسبما أمرتم به." (١)

"﴿جعل الله الكعبة﴾ قال مجاهد سميت كعبها لكونها مكعبة مربعة وقيل لانفرادها من البناء وقيل لارتفاعها من الأرض ونتوئها وقوله تعالى ﴿البيت الحرام﴾ عطف بيان على جهة المدح دون التوضيح كما تجيء الصفة وقيل مفعول ثان لجعل وقوله تعالى ﴿قياما للناس﴾ نصب على الحال ويرده عطف ما بعده على المفعول الأول كما سيجيء بل هذا هو المفعول الثاني وقيل الجعل بمعنى الإنشاء والخلق وهو حال كما مر ومعنى كونه قياما لهم أنه مدار لقيام أمر دينهم ودنياهم إذ هو سبب لانتعاشهم في أمور معاشهم ومعادهم يلوذ به الخائف ويأمن فيه الضعيف ويربح فيه التجار ويتوجه إليه الحجاج والعمار وقرىء قيما على أنه مصدر على وزن شبع أعل عينه بما أعل في فعله ﴿والشهر الحرام﴾ أي الذي يؤدى فيه الحج وهو ذو الحجة وقيل جنس الشهر الحرام وهو وما بعده عطف على الكعبة فالمفعول الثاني محذوف ثقة بما مر أي وجعل الشهر الحرام ﴿والهدى والقلائد﴾ أيضا قياما لهم والمراد بالقلائد ذوات القلائد وهي البدن خصت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر وبهاء الحج بها أظهر ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الجعل المذكور خاصة أو مع ما ذكر من الأمر بحفظ حرمة الإحرام وغيره ومحله النصب بفعل مقدر يدل عليه السياق وهو العامل في اللام بعده أي شرع ذلك ﴿لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الارض﴾ فإن تشريع هذه الشرائع المستتبعة لدفع المضار الدينية والدنيوية قبل وقوعها وجلب **المنافع** الأولوية والأخروية من أوضح

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢/٢١١

الدلائل على حكمة الشارع وعدم خروج شيء عن علمه المحيط وقوله تعالى ﴿وأن الله بكل شىء عليم﴾." (١)

"الأنعام آية ٦

من الدهر كما في قوله عليه الصلاة والسلام خير القرون قرني ثم الذين يلونهم الحديث وقيل هو عبارة عن مدة من الزمان والمضاف محذوف أي من أهل قرن وأما انتصابها على المصدرية أو على الظرفية على أنها عبارة عن المصدر أو عن الزمان فتعسف ظاهر ومن الأولى ابتدائية متعلقة بأهلكنا أي ألم يعرفوا بمعاينة الآثار وسماع الأخبار كم أمة أهلكنا من قبل أهل مكة أي من قبل خلقهم أو من قبل زمانهم على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه كعاد وثمود وأضرابهم وقوله تعالى ﴿مكناهم فى الارض﴾ استئناف لبيان كيفية الإهلاك وتفصيل مباديه مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل كيف كان ذلك فقيل مكانهم الخ وقيل هو صفة لقرن لما أن النكرة مفتقرة إلى مخصص فإذا وليها ما يصلح مخصصا لها تعين وصيفته لها وأنت خبير بأن تنوينه التفخيمي مغن له عن استدعاء الصفة على أن ذلك مع اقتضائه أن يكون مضمونه ومضمون ما عطف عليه من الجمل الأربع أمرا مفروغا عنه غير مقصود بسياق النظم مؤد إلى اختلاف النظم الكريم كيف لا والمعنى حينئذ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن موصوفين بكذا وكذا وبإهلاكنا إياهم بذنوبهم وأنه بين الفساد وتمكين الشيء في الأرض جعله قارا فيها ولما لزمه جعلها مقرا له ورد الاستعمال بكل منهما فقيل تارة مكنه في الأرض ومنه قوله تعالى ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وأخرى مكن له في الأرض ومنه قوله تعالى إنا مكنا له فى الأرض حتى أجري كل منهما مجرى الآخر ومنه قوله تعالى ﴿ما لم نمكن لكم﴾ بعد قوله تعالى مكناهم فى الأرض كأنه قيل في الأول مكنا لهم أو في الثاني ما لم نمكنكم وما نكرة موصوفة بما بعدها من الجملة المنفية والعائد محذوف محلها على النصب على المكصدرية أي مكناهم تمكينا لم نمكنه لكم والالتفات لما في مواجهتهم بضعف الحال مزيد بيان لشأن الفريقين ولدفع الاشتباه من أول الأمر عن مرجعي الضميرين ﴿وأرسلنا السماء﴾ أي المطر أو السحاب أو المظلة لأنها مبدأ المطر ﴿عليهم﴾ متعلق بأرسلنا ﴿مدرارا﴾ أي مغزارا حال من السماء ﴿وجعلنا الانهار﴾ أي صيرناها فقوله تعالى ﴿تجرى من تحتهم﴾ مفعول ثان لجعلنا أو أنشأناها فهو حال من مفعوله ومن تحتهم متعلق بتجري وفيه من الدلالة على كونها مسخرة لهم مستمرة على الجريان على الوجه المذكور ما ليس في أن يقال وأجرينا الأنهار من تحتهم وليس المراد بتعداد هاتيك النعم العظام

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٨٢/٣

الفائضة عليهم بعد ذكر تمكينهم بيان عظم جنايتهم في كفرانها واستحقاقهم بذلك لأعظم العقوبات بل بيان حيازتهم لجميعه أسباب نيل المآرب ومبادىء الأمن والنجاة من المكاره والمعاطب وعدم إغناء ذلك عنهم شيئا والمعنى أعطيناهم من البطة في الأجسام وزالامتداد في الأعمار والسعة من الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا في استجلاب المنافع واستدفاع المضار ما لم نعط أهل مكة ففعلوا ما فعلوا ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ أي أهلكنا كل قرن من تلك القرون بسبب ما يخصهم من الذنوب فما أغنى عنهم تلك العدد والأسباب فسيحل بهؤلاء مثل ما حل بهم من العذاب وهذا كما ترى آخر ما به الاستشهاد والاعتبار وأما قوله سبحانه ﴿وأنشأنا من بعدهم﴾ أي أحدثنا من بعد إهلاك كل قرن ﴿قرنا آخرين﴾ بدلا من الهالكين فلبيان كمال قدرته تعالى وسعة سلطانه وأن ما ذكر من إهلاك الأمم الكثيرة." (١)

"﴿وهذا كتاب أنزلناه﴾ تحقيق لنزول القرآن الكريم بعدج تقرير إنزال ما بشر به من التوراة وتكذيب لهم في كلمتهم الشنعاء إثر تكذيب ﴿مبارك﴾ أي كثير الفوائد وجم المنافع ﴿مصدق الذى بين يديه﴾ من التوراة لنزوله حسبما وصف فيها أو الكتب التي قبله فإنه مصدق للكل في إثبات التوحيد والأمر به ونفي الشرك والنهي عنه وفي سائر أصول الشرائع التي لا تنسخ ﴿ولتنذر أم القرى﴾ عطف على ما دل عليه مبارك أي للبركات وإنذارك أهل مكة إنما ذكرت باسمها المنبيء عن كونها أعظم القرآ شأنا وقبلة لأهلها قاطبة إيذانا بأن إنذار أهلها أصل مستتبع لإنذار أهل الأرض كافة وقرىء." (٢)

"الأنعام آية ٩٧ ٩٨

﴿والشمس والقمر﴾ معطوفان على الليل وعلى القراءة الأخيرة قيل هما معطوفان على محله والأحسن نصبهما حينئذ بفعل مقدر وقد قرئا بالجر وبالرفع أيضا على الابتداء والخبر محذوف أي مجعولان ﴿حسبانا﴾ أي على أدوار مختلفة يحسب بها الأوقات التي نيط بها العبادات والمعاملات أو محسوبان حسبانا والحسبان بالضم مصدر حسب كما أن الحساب بالكسر مصدر حسب ﴿ذلك﴾ إشارة إلى جعلهما كذلك وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته أي ذلك التيسير البديع ﴿تقدير﴾ البديع تقدير ﴿العزيز﴾ الغالب القاهر الذي لا يستعصي عليه شيء من الأشياء التي من جملتها

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١١١/٣

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٦٢/٣

تسييرهما على الوجه المخصوص ﴿العليم﴾ بجميع المعلومات التي من جملتها ما في ذلك التسيير من **المنافع** والمصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم." (١)

"﴿وهذا﴾ أي الذي تليت عليكم أوامره ونواهيه أي القرآن ﴿كتاب﴾ عظيم الشأن لا يقادر قدره وقوله تعالى ﴿أنزلناه مبارك﴾ أي كثير **المنافع** دينا ودنيا صفتان لكتاب وتقديم وصف الإنزال مع كونه غير صريح لأن الكلام مع منكريه أو خبران آخران لاسم الإشارة أي أنزلناه مشتملا على فنون الفوائد الدينية والدنيوية التي فصلت عليكم طائفة منها والفاء في قوله تعالى ﴿فاتبعوه﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن عظم شأن الكتاب في نفسه وكونه منزلا من جنابه عز وجل مستتبعا للمنافع الدينية والدنيوية موجب لاتباعه أي إيجاب ﴿واتقوا﴾ مخالفته ﴿لعلكم ترحمون﴾ بواسطة اتباعه والعمل بموجبه." (٢)

"﴿ولقد ذرأنا﴾ كلام مستأنف مقرر لمضمون ما قبله بطريق التذييل أيخلقنا ﴿لجهنم﴾ أي لدخولها والتعذيب بها وتقديمه على قوله تعالى ﴿كثيرا﴾ أي خلقا كثيرا مع كونه مفعولا به لما في توابعه من نوع طول يؤدي توسيطه بينهما وتأخيره وعنها إلى الإخلال بجزالة النظم الكريم وقوله تعالى ﴿من الجن والإنس﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لكثيرا أي كائنا منهما وتقديم الجن لأنهما أعرف من الإنس في الاتصاف بما نحن فيه من الصفات وأكثر عددا وأقدم خلقا والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ولكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يؤدي إلى ذلك بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبدا بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغيابها كما أن جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطري للعبادة وتمكنهم التام منها جعل ؛لقهم مغيابها كما نطق به قوله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون وقوله تعالى ﴿لهم قلوب﴾ في محل النصب على أنه صفة أخرى لكثيرا وقوله تعالى ﴿لا يفقهون بها﴾ في محل الرفع على أنه صفة لقلوب مؤكدة لما يفيده تنكيرها وإبهامها من كونها غير معهودة مخالفة لسائر أفراد الجنس فاقدة لكماله بالكلية لكن لا بحسب الفطرة حقيقة بل بسبب امتناعهم عن صرفها إلى تحصيله وهذا وصف لها بكمال الإغراق في القساوة فإنها حيث لم يتأت منها الفقه بحال فكأنها خلقت غير قابلة له رأسا وكذا الحال في أعينهم وآذانهم وحذف المفعول للتعميم أي لهم قلوب ليس من شأنها أن يفقهوا بها شيئا مما من شأنه أن يفقه فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولا أوليا وتخصيصه بذلك مخل بالإفصاح

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣/٦٥١

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣/٢٠١

عن كنه حالهم ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ الكلام فيه كما فيما عطف هو عليه والمراد بالأبصار والسمع المنفيين ما يختص بالعقلاء من الإدراك على ما هو وظيفة الثقلين لا ما يتناول مجرد الإحساس بالشبح والصوت كما هو وظيفة الأنعام أي لا يبصرون بها شيئا من المبصرا فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجا أوليا ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ أي شيئا من المسموعات فيتناول الآيات التنزيلية تناولا أوليا وإعادة الخبر في الجملتين المعطوفتين مع انتظام الكلام بأن يقال وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها لتقرير سوء حالهم وفي إثبات المشاعر الثلاثة لهم ثم وصفها بعدم الشعور دون سلبها عنهم ابتداء بأن يقال ليس لهم قلوب يفقهون بها ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها من الشهادة بكمال رسوخهم في الجهل والغواية ما لا يخفى ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الضلال أي أولئك الموصوفون بالأوصاف المذكورة ﴿كالانعام﴾ أي في انتفاء الشعور على الوجه المذكور أو في أن مشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها ﴿بل هم أضل﴾ فإنها تدرك ما من شأنها أن تدركه من **المنافع** والمضار فتجتهد في جلبها وسلبها غاية جهدها مع كونها بمعزل من الخلود وهؤلاء ليسوا." (١)

"الأعراف آية ١٨٠ ١٨١

كذلك حيث لا يميزون بين **المنافع** والمضار بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهوؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه وفي الخبر كل شيء أطوع لله من ابن آدم ﴿أولئك﴾ المعنوتون بما مر من مثلية الأنعام والشرية منها ﴿هم الغافلون﴾ الكاملون في الغفلة المستحقون لأن يخص بهم الاسم ولا يطلق على غيرهم كيف لا وإنهم لا يعرون من شئون الله عز وجل ولا من شئون ما سواه شيئا فيشركون به سبحانه وليس كمثله شيء وهو السميع البصير أصنامهم التي هي من أخس مخلوقاته تعالى." (٢)

"﴿ولا يستطيعون لهم﴾ أي لعبدتهم إ ١ احزبهم أمر مهم وخطب ملم ﴿نصرا﴾ أي نصرا ما بجلب منفعة أو دفع مضرة ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ إذا اعتراهم حادثة من الحوادث أي لا يدفعونها عن أنفسهم وإيراد النصر للمشاكلة وهذا بيان لعجزهم عن إيصال منفعة ما من **المنافع** الوجودية والعدمية إلى عبدتهم

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٩٥/٣

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٩٦/٣

وأنفسهم بعد بيان عجزهم عن إيصال منفعة الوجود إليهم وإلى أنفسهم خلا أنهم وصفوا هناك بالمخلوقية لكونهم أهلا لها وههنا لم يوصفوا بالمنصورية لأنهم ليسوا أهلا لها وقوله تعالى." (١)

"﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له﴾ إرشاد إلى طريق الفوز بما أشير إليه من **المنافع** الجليلة التي ينطوي عليها القرآن أي وإذا قرىء القرآن الذي ذكرت شئونه العظيمة فاستمعوا له استماع تحقيق وقبول ﴿وأنصتوا﴾ أي واسكتوا في خلال القراءة وراعوها إلى انقضائها تعظيما له وتكميلا للاستماع ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي تفوزون بالرحمة التي هي أقصى ثمراته وظاهر النظم الكريم يقتضي وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها وقيل معناه إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وجمهور الصحابة رضي الله تعالى عنهم على أنه في استماع المؤتم وقد روي أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في المكتوبة وقرأ أصحابه خلفه فنزلت وأما خارج الصلاة فعامة العلماء على استحبابهما والآية إما من تمام القول به أو استئناف من جهته تعالى فقوله تعالى." (٢)

"أي زادت أيكم زادته هذه الخ وإيراد الزيادة مع أنه لا إيمان فيهم أصلا باعتبار اعتقاد المؤمنين حسبما نطق به قوله تعالى إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا

﴿فأما الذين آمنوا﴾ جواب من جهته سبحانه وتحقيق للحق وتعيين لحالهم عاجلا وآجلا أي فأما الذين آمنوا بالله تعالى وبما جاء من عنده

﴿فزادتهم إيمانا﴾ بزيادة العلم اليقيني الحاصل من التدبر فيها والوقوف على ما فيها من الحقائق وانضمام إيمانهم بما فيها بإيمانهم السابق

﴿وهم يستبشرون﴾ بنزولها وبما فيه من **المنافع** الدينية والدنيوية

سورة براءة آية (١٢٥ ١٢٧)." (٣)

"﴿ويعبدون من دون الله﴾ حكاية لجناية أخرى لهم نشأت عنها جنايتهم الأولى معطوفة على قوله تعالى وإذا تتلى عليهم الآية عطف قصة على قصة ومن دون متعلق بيعبدون ومحله النصب على الحالية من

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣/٣٠٥

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣/٣١٠

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤/١١٣

فاعله أي متجاوزين الله سبحانه لا بمعنى ترك عبادته بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلها قرينا لعبادة الأصنام كما يفصح عنه سياق النظم الكريم ﴿ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي ما ليس من شأنه الضر والنفع من الأصنام التي هي جمادات وما موصولة أو موصوفة وتقديم نفي الضرر لأن أدنى أحكام العبادة دفع الضرر الذي هو أول **المنافع** والعبادة أمر حادث مسبوق بالعدم الذي هو مظنة الضرر فحيث لم تقدر الأصنام على الضرر لم يوجد لإحداث العبادة سبب وقيل لا يضرهم إن تركوا عبادتها ولا ينفعهم إن عبدوها كان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة عزى ومناة وهبل وإسافا ونائلة

﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ عن النضر بن الحرث إذا كان يوم القيامة يشفع لى اللات قيل إنهم كانوا يعتقدون أن المتولي لكل إقليم روح معين من أرواح الأفلاك." (١)

"﴿يا أيها الناس﴾ التفات ورجوع إلى استمالتهم نحو الحق واستنزالهم إلى قبوله واتباعه غب تحذيرهم من غوائل الضلال بما تلي عليهم من القوارع الناعية عليهم سوء عاقبتهم وإيذان بأن جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم

﴿قد جاءتكم موعظة﴾ هي والوعظ والعظة التذكير بالعواقب سواء كان بالزجر والترهيب أو بالاستمالة والترغيب وكلمة من في قوله تعالى

﴿من ربكم﴾ ابتدائية متعلقة بجاءتكم أو تبعيضة متعلقة بمحذوف وقع صفة لموعظة أي موعظة كائنة من مواعظ ربكم وفي التعرض لعنوان الربوبية من حسن الموقع ما لا يخفى

﴿وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ أي كتاب جامع لهذه الفوائد **والمنافع** فإنه كاشف عن أحوال الأعمال حسناتها وسيئاتها مرغب في الأولى ورادع عن الأخرى ومبين للمعارف الحقة التي هي شفاء لما في الصدور من الأدواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائغة وهاد إلى طريق الحق واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس وفي مجيئه رحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان وتخلصوا من دركات النيران وارتقوا إلى درجات الجنان والتنكير فى الكل للتفخيم." (٢)

"﴿وكلا﴾ أي وكل نبأ فالتنوين عوضا عن المضاف إليه

﴿نقص عليك﴾ يخبرك به وقوله تعالى

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤/١٣١

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤/١٥٥

﴿من أنباء الرسل﴾ بيان لكلا وقوله تعالى

﴿ما نثبت به فؤادك﴾ بدل منه والأظهر أن يكون المضاف إليه المحذوف في كلا المفعول المطلق لنقص أي كل اقتصاص أي كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من أنباء الرسل وقوله تعالى ما نثبت به فؤادك مفعول نقص وفائدته التنبيه على أن المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الأمم السالفة في تماديهم في الضلال وما لقي الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق

﴿وجاءك فى هذه﴾ السورة أو الأنباء المقصوصة عليك

﴿الحق﴾ الذي لا محيد عنه

﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ أي الجامع بين كونه حقا في نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ولكون الوصف الأول حالا له في نفسه حلي باللام دون ما هو وصف له بالقياس إلى غيره وتقديم الظرف أعني في هذه على الفاعل لأن المقصود بيان منافع السورة أو الأنباء المقصوصة فيها واشتمالها على ما ذكر من **المنافع** المفصلة لا بيان كون ذلك فيها لا في غيرها ولأن عند تأخير ما حقه التقديم تبقى النفس مترقبة إليه فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ولأن." (١)

"الرعد ٣١ مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المصحوب بهذه المعجزة الباهرة ﴿أرسلناك فى أمة قد خلت﴾ أي مضت ﴿من قبلها أمم﴾ كثيرة قد أرسل إليهم رسل ﴿لتتلو﴾ لتقرأ ﴿عليهم الذى أوحينا إليك﴾ من الكتاب العظيم الشأن وتهديهم إلى الحق رحمة لهم وتقديم المجرور على المنصوب من قبيل الإبهام ثم البيان كما في قوله تعالى ووضعنا عنك وزرك وفيه مالا يخفى من ترقب النفس إلى ما سيرد وحسن قبولها له عند وروده عليها ﴿وهم﴾ أي والحال أنهم ﴿يكفرون بالرحمن﴾ بالبليغ الرحمة الذي وسعت كل شيء رحمته وأحاطت به نعمته والعدول إلى المظهر المتعرض لوصف الرحمة من حيث أن الإرسال ناشيء منها كما قال تعالى وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين فلم يقدروا قدره ولم يشكروا نعمه لا سيما ما أنعم به عليهم بإرسال مثلك إليهم وإنزال القرآن الذي هو مدار **المنافع** الدينية والدنياوية عليهم وقيل نزلت في مشركي مكة حين أمروا بالسجود فقالوا وما الرحمن ﴿قل هو﴾ أي الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿ربى﴾ الرب في الأصل بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا ثم وصف به مبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعت أي خالقي ومبلغي إلى مراتب الكمال وإيراده قبل قوله ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا مستحق

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤/ ٢٤٨

للعبادة سواه تنبيه على أن استحقاق العبادة منوط بالربوبية وقيل إن أبا جهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول يا ألله يا رحمن فرجع إلى المشركين فقال إن محمدا يدعو إلهين فنزلت ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية ﴿عليه توكلت﴾ في جميع أموري لا سيما في النصرة عليكم لا على أحد سواه ﴿وإليه﴾ خاصة ﴿متاب﴾ أي توبتي كقوله تعالى واستغفر لذنبك أمر عليه السلام بذلك إبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وأنها صفة الأنبياء وبعثا للكفرة على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطفه فإنه عليه السلام حيث أمر بها وهو منزه عن شائبة اقتراف ما يوجبها من الذنب وإن قل فتوبتهم وهو عاكفون على أنواع الكفر والمعاصي مما لا بد منه أصلا وقد فسر المتاب بمطلق الرجوع فقيل مرجعي ومرجعكم وزيد فيحكم بيني وبينكم وقد قيل فيثيبني على مصابرتكم فتأمل." (١)

"(ولكم فيها) مع ما فصل من أنواع المنافع الضرورية (جمال) أي زينة في أعين الناس ووجاهة عندهم (حين تريحون) تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي (وحين تسرحون) تخرجونها بالغداة من حظائرها إلى مسارحها فالمفعول محذوف من كلا الفعلين لرعاية الفواصل وتعيين الوقتين لأن ما يدور عليه أمر الجمال من تزين الأفنية والأكناف بها وبتجاوب ثغائها ورغائها إنما هو عند ورودها وصدورها في ذينك الوقتين وأما عند كونها في المراعي فينقطع إضافتها الحسية إلى أربابها وعند كونها في الحظائر لا يراها راء ولا ينظر إليها ناظر وتقديم الإراحة على السرح لتقدم الورود على الصدور ولكنوها أظهر منه في استتباع ما ذكر من الجمال وأتم في استجلاب الأنس والبهجة إذ فيها حضور بعد غيبة وإقبال بعد إدبار على أحسن ما يكون ملأى البطون مرتفعة الضروع وقرىء حينا تريحون وحينا تسرحون على أن كلا الفعلين وصف لحينا بمعنى تريحون فيه وتسرحون فيه." (٢)

"النحل ٦ ٧ الظرف الأول خبر للمبتدأ المذكور وفيها حال من دفء إذ لو تأخر لكان صفة (ومنافع) هي درها وركوبها وحملها والحراثة بها وغير ذلك وإنما عبر عنها بها ليتناول الكل مع أنه الأنسب بمقام الامتنان بالنعم وتقديم الدفء على المنافع لرعاية أسلوب الترقي إلى الأعلى (ومنها تأكلون) أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم وغير ذلك وتغيير النظم للإيماء إلى أنها لا تبقى عند الأكل كما في السابق واللاحق فإن الدفء والمنافع والجمال يحصل منها وهي باقية على حالها ولذلك جعلت محال لها بخلاف الأكل وتقديم الظرف للإيذان بأن الأكل منها هو المعتاد المعتمد في المعاش لأن الأكل مما

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥/٢١

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥/٩٧

عداها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر من قبيل التفكه مع أن فيه مراعاة للفواصل ويحتمل أن يكون معنى الأكل منها أكل ما يحصل بسببها فإن الحبوب والثمار المأكولة تكتسب بإكراء الإبل وبإثمار نتاجها وألبانها وجلوده ا." (١)

"أي مضيئة يبصر فيها الأشياء وصفا لها بحال أهلها أو مبصرة للناس من أبصره فبصره وإما حقيقية وآية الليل والنهار نيراهما ومحو القمر إما خلقه مطموس التور في نفسه فالفاء كما ذكر وأما نقص ما استفادوا من الشمس شيئا فشيئا إلى المحاق على ما هو معنى المحو والفاء للتعقيب وجعل الشمس مبصرة إبداعها مضيئة بالذات ذات أشعة تظهر بها الأشياء المظلمة ﴿لتبتغوا﴾ متعلق بقوله تعالى وجعلنا آية النهار كما أشير إليه أي وجعلناها مضيئة لتطلبوا لأنفسكم في بياض النهار ﴿فضلا من ربكم﴾ أي رزقا إذ لا يتسنى ذلك في الليل وفي التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئا فشيئا دلالة على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وإنما الإعطاء إلى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلا بحكم الربوبية ﴿ولتعلموا﴾ متعلق بكلا الفعلين أعني محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط إذ لا يكون ذلك بانفراده مدارا للعلم المذكور أي لتعلموا بتفاوت الجديدين أو نيريهما ذاتا من حيث الإظلام والإضاءة مع تعاقبهما أو حركتهما وأوضاعهما وسائر أحوالهما ﴿عدد السنين﴾ التي يتعلق بها غرض علمي لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿والحساب﴾ أي الحساب المتعلق بما في ضمنها من الأوقات أي الأشهر والليالي والأيام وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققها مما ينتظمه الحساب وإنما الذي تعلق به العد طائفة منها وتعلقه في ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من الحيثية المذكورة أعني حيثية تحققها وتحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات مثلا فإن ذلك وظيفة الحساب بل من حيث إنها فرد من تلك الطائفة المعدودة يعدها أي يفنيها من غير أن يعتبر في ذلك تحصل شي معين وتحقيقه م ا مر في سورة يونس من أن الحساب أحصاه ماله كمية منفصلة بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص وحكم مستقل كما أشير إليه آنفا والعد إحصاؤه بمجرد تكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء كذلك ولما أن السنين لم يعتبر فيها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل أضيف إليها الغدد وعلق الحساب بما عاداها مما اعتبر فيه تحصل مراتب معينة لها أسام خاصة وأحكام مستقلة وتحصل مراتب الأعداد من العشرات والمئات

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٩٧/٥

والألوف اعتباري لا يجدي في تحصل المعدودات وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس للتنبيه من أول الأمر على أن متعلق الحساب ما في تضاعيف السنين من الأوقات أو لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم إجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلا أو لأن العدد من حيث إنه لم يعتبر فيه تحصل شيء آخر منه حسبما ذكر نازل من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب أو لأن العلم المتعلق بالأول أقصى المراتب فكان جديرا بالتقديم في مقام الامتنان والله سبحانه أعلم ﴿وكل شيء﴾ تفتقرون إليه في المعاش والمعاد سوى ما ذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من **المنافع** الدينية والدنيوية وهو منصوب بفعل يفسره قوله تعالى ﴿فصلناه تفصيلا﴾ أي بيناه في القرآن الكريم بيانا بليغا لا التباس معه كقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء فظهر كونه هاديا للتي هي أقوم ظهورا بينا." (١)

"﴿إنا جعلنا ما على الأرض﴾ استئناف وتعليل لما في لعل من معنى الإشفاق أي إنا جعلنا ما عليها ممن عدا من وجه إليه التكليف من الزخارف حيوانا كان أو نباتا أو معدنا كقوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ﴿زينة﴾ مفعول ثان للجعل إن حمل على معنى التصيير أو حال إن حمل على معنى الإبداع واللام في ﴿لها﴾ إما متعلقة بزينة أو بمحذوف هو صفة لها أي كائنة لها أي ليتمتع بها الناظرون من المكلفين وينتفعوا بها نظرا واستدلالا فإن الحيات والعقارب من حيث تذكيرهما لعذاب الآخرة من قبيل **المنافع** بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على وجود الصانع ووحدته فإن الأزواج والأولاد أيضا من زينة الحياة الدنيا بل أعظمها ولا يمنع ذلك كونهم من جملة المكلفين فإنهم من جهة انتسابهم إلى أصحابهم داخلون تحت الزينة ومن جهة كونهم مكلفين داخلون تحت الابتلاء ﴿لنبلوهم﴾ متعلق بجعلنا أي جعلنا ما جعلن لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أيهم أحسن عملا﴾ فنجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبين المحسن من المسيء وامتازت طبقات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز مراتب علوهم المرتبة ٢٠٥." (٢)

"﴿وإذ قال موسى﴾ نصب بإضمار فعل أي اذكر وقت قوله عليه السلام ﴿لفتاه﴾ وهو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليه السلام سمي فتاه إذ كان يخدمه ويتبعه وقيل كان يتعلم منه ويسمى التلميذ فتى وإن كان شيخا ولعل المراد بتذكيره عقيب بيان أن لكل أمة موعدا تذكير ما في القصة من موعد الملاقاة

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٦٠/٥

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٠٤/٥

مع ما فيها من سائر **المنافع** الجليلة ﴿لا أبرح﴾ من برح الناقص كزال يزال أي لا أزال أسير فحذف الخبر اعتمادا على." (١)

"﴿قال﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام مجيبا له ﴿ربنا﴾ إما مبتدأ وقوله تعالى ﴿الذى أعطى كل شيء خلقه﴾ خبره أو هو خبر لمبتدأ محذوف والموصول صفته وأيا ما كان فلم يريدا بضمير المتكلم أنفسهما فقط حسبما أراد اللعين بل جميع المخلوقات تحقيقا للحق وردا عليه كما يفصح عنه ما في حيز الصلة أي هو ربنا الذي أعطى كل شئ من الأشياء خلقه أي صورته وشكله اللائق بما نيط به من الخواص **والمنافع** أو أعطى مخلوقاته كل شئ تحتاج هي إليه وترتفق به وتقديم المفعول الثاني للاهتمام به أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة حيث زوج الحصان بالفرس والبعير بالناقة والرجل بالمرأة ولم يزوج شيئا من ذلك بخلاف جنسه وقرئ خلقه على صيغة الماضي على أن الجملة صفة للمضاف أو المضاف إليه وحذف المفعول الثاني إما للاقتصار على الأول أي كل شيء خلقه الله تعالى لم يحرمه من عطائه وإنعامه أو للاختصار من كونه منويا مدلول، عليه بقرينة الحال أي أعطى كل شيء خلقه الله تعالى ما يحتاج إليه ﴿ثم هدى﴾ أي إلى طريق الانتفاع والاتفاق بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله إما اختيارا كما في الحيوانات ولما كان الخلق الذي هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام متقدما على الهداية التي هي عبارة عن إيداع القوى المحركة والمدركة في تلك الأجسام وسط بينهما كلمة التراخي ولقد ساق عليه الصلاة والسلام جوابه على نمط رائق وأسلوب لائق حيث بين أنه تعالى عالم قادر بالذات خالق لجميع الأشياء منعم عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضل وضمنه أن إرساله تعالى إلى الطاغية من جملة هداياته تعالى إياه بعد أن هداه إلى الحق بالهدايات التكوينية حيث ركب فيه العقل وسائر المشاعر والآلات الظاهرة والباطنة." (٢)

"﴿ففهمناها سليمان﴾ عطف على يحكمان فإنه في حكم الماضي وقرىء فأفهمناها والضمير والضمير للحكومة أو الفتيا روي أنه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما إن غنم هذا دخلت في حرثي ليلا فأفسدته فقضى له بالغنم فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فأخبراه بذلك فقال غير هذا أرفق بالفريقين فسمعه داود فدعاه فقال له بحق البنوة والأبوة إلا أخبرتني بالذي أرفق بالفريقين فقال أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها والحرث إلى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتى

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٣١/٥

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٠/٦

يعود إلى ما كان ثم بترادا فقال القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك والذي عندي أن حكمها عليه السلام كان بالاجتهاد فإن قول سليمان عليه السلام غير هذا أرفق بالفريقين ثم قوله أرى أن تدفع الخ صريح في أنه ليس بطريق الوحي وإلا لبت القول بذلك ولما ناشده داود عليهما السلام لإظهار ما عنده بل وجب عليه أن يظهره بدء أو حرم عليه كتمه ومن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضا كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد بل أقول والله تعالى أعلم إن رأي سليمان عليه السلام استحسان كما ينبىء عنه قوله أرفق بالفريقين ورأي داود عليه السلام قياس كما أن العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبي حنيفة إلى المجني عليه او يفديه وببيعه في ذلك أو يفديه عند الشافعي وقد روي أنه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت وأما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بإزاء مافات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث إلى أن يزول الضرر الذي أتاه من قبله كما قال أصحاب الشافعي فيمن عصب عبدا فأبق منه أنه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من **المنافع** فإذا ظهر الآبق ترادا وفي قوله تعالى ففهمناها سليما دليل على رجحان قوله ورجوع داود عليه السلام إليه مع أن الحكم المبنى على الإجتهاد لاينقض باجتهاد آخر وإن كان أقوى منه لما أن ذلك من خصائص شريعتنا على أنه ورد في الأخبار أن داود عليه السلام لم يكن بت الحم في ذلك حتى سمع من سليمان ما سمع وأما حكم المسئلة في شريعتنا فعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى لاضمان إن لم يكن معبا سائق أو قائد وعند الشافعي يجب الضمان ليلا لا نهارا وقوله تعالى ﴿وكلا آتينا حكما وعلما﴾ لدفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم من عدم كون حكم داود عليه السلام حكما شرعيا أي وكل واحد منهما آتينا حكما وعلما كثيرا لاسليمان وحده وهذا إنما يدل على خطأ المجتهد لا يقدح في كونه مجتهدا وقيل بل على أن كل مجتهد مصيب وهو مخالف لقوله تعالى ففهمناها سليمان ولولا النقل لاحتمل توافقهما ما على أن قوله تعالى ففهمناها سليمان لإظهار ما تفضل عليه في صغره فإنه عليه السلام كان حينئذ ابن إحدى عشرة سنة ﴿وسخرنا مع داود الجبال﴾ شروع في بيان ما يختص بكل منهما من كرامته تعالى إثر بيان كرامته العامة لهما ﴿يسبحن﴾ أي يقدسن الله عزوجل معه بصوت يتمثل له أو يخلق الله تعالى فيها الكلام وقيل يسرن معه بأن السباحة." (١)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦/٧٩

"﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات﴾ استئناف جيء به لبيان كمال حسن حال المؤمنين العابدين له تعالى وأن الله عز وجل يتفضل عليهم بما لا غاية وراءه من أجل **المنافع** وأعظم الخيرات إثر بيان غاية سوء حال الكفرة ومآلهم من فريقي المجاهرين والمذبذبين وأن معبودهم لا يجديهم شيئا من النفع بل يضرهم مضرة عظيمة وأنهم يعترفون بسوء ولايته وعشرته ويذمونه مذمة عامة وقوله تعالى ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ صفة لجنات فإن أريد بها الأشجار المتكاثقة السائرة لما تحتها فجريان الأنهار من تحتها ظاهر وإن أريد بها الأرض فلا بد من تقدير مضاف." (١)

"﴿ليشهدوا﴾ متعلق بيأتوك لا بأذن أي ليحضروا ﴿منافع﴾ عظيمة الخطر كثيرة العدد أو نوعا من **المنافع** الدينية والدنيوية المختصة بهذه العبادة واللام في قوله تعالى ﴿لهم﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لمنافع أي منافع كائنة لهم ﴿ويذكروا اسم الله﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها وفي جعله غاية للإتيان إيذان بأنه الغاية القصوى دون غيره وقيل هو كناية عن الذبح لأنه لا ينفك عنه ﴿فى أيام معلومات﴾ هي أيام النحر كما نيبئ عنه قوله تعالى ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ فإن المراد بالذكر ما وقع عند الذبح وقيل هي عشر ذي الحجة وقد علق الفعل بالمرزوق وبين بالبهيمة تحريضا على التقرب وتنبيها على الذكر ﴿فكلوا منها﴾ التفات إلى الخطاب والفاء فصيحة عاطفة لمدخولها على مقدر قد حذف للإشعار بأنه أمر محقق غير محتاج إلى التصريح به كما في قوله تعالى فانفجرت أي فاذكروا اسم الله على ضحاياكم فكلوا من لحومها والأمر للإباحة وإزاحة ما كانت عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه أو للندب إلى مواساة الفقراء ومساواتهم ﴿وأطعموا البائس﴾ أي الذي أصابه بؤس وشدة ﴿الفقير﴾ المحتاج وهذا الأمر للوجوب وقد قيل به في الأول أيضا." (٢)

"سورة الحج (٦٦ ٦٧) أصلب من الحجر ولا أشد من الحديد ولا أهيب من النار وهي مسخرة لكم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم لتعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر ﴿والفلك﴾ عطف على ما أو على اسم أن وقرئ بالرفع على الابتداء ﴿تجرى فى البحر بأمره﴾ حال من الفلك على الأول وخبر على الأخيرين ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ أي من أن تقع أو كراهة أن تقع بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك ﴿إلا بإذنه﴾ أي بمشيئته وذلك يوم القيامة وفيه رد لاستمساكها بذاتها فإنها مساوية في الجسمية لسائر الأجسام القابلة للميل الهابط فتقبله كقبول

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦/ ٩٨

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦/ ١٠٤

غيرها ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ حيث هيأ لهم أسباب معاشهم وفتح عليهم أبواب **المنافع** وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية." [1]

"﴿وعليها﴾ أي على الأنعام فإن الحمل عليها لا يقتضي الحمل على جميع أنواعها بل يتحقق بالحمل على البعض كالإبل ونحوها وقيل المراد هي الإبل خاصة لأنها هي المحمول عليها عندهم والمناسب للفلك فإنها سفائن البر قال ذو الرمة [سفينة بر تحت خدي زمامها] فالضمير فيه كما في قوله تعالى وبعولتهن أحق بردهن ﴿وعلى الفلك تحملون﴾ أي في البر والبحر وفي الجمع بينها وبين الفلك في إيقاع الحمل عليها مبالغة في تحملها للحمل وهو الداعي إلى تأخير ذكر هذه المنفعة مع كونها من **المنافع** الحاصلة منها عن ذكر منفعة الأكل المتعلقة بعينها." [2]

"سورة المؤمنين (٥١ ٥٢) وهو النفع لأنه نفاع أومفعول من عانه إذا أدركه بالعين فإنه لظهوره يدرك بالعيون وصف ماؤها بذلك للإيذان بكونه جامعا لفنون **المنافع** من الشرب وسقي ما يسقى من الحيوان والنبات بغير كلفة والتنزه بمنظره الموفق." [3]

"﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ بعد ما زجر تعالى عن السفاح ومباديه القريبة والبعيدة أمر بالنكاح فإنه مع كونه مقصودا بالذات من حيث كونه مناطا لبقاء النوع خير مزجرة عن ذلك وأيامى مقلوب أيا يم جمع أيم وهو من لا زوج له من الرجال والنساء بكرا كان أو ثيبا كما يفصح من قال ... فإن تنكحي أنكح وإن تتأيمي ... وإن كنت أفتى منكم أتأيم ...

أي زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر ﴿والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ على أن الخطاب للأولياء والسادات واعتبار الصلاح في الأرقاء لأن من لا صلاح له منهم بمعزل من أن يكون خليفا بأن يعتني مولاه بشأنه ويشق عليه ويتكلف في نظم مصالحه بما لا بد منه شرعا وعادة من بذل المال **والمنافع** بل حقه أن يستبقيه عنده وأما عدم اعتبار الصلاح في الأحرار والحرائر فلأن الغالب فيهم الصلاح على أنهم مستبدون في التصرفات المتعلقة بأنفسهم وأموالهم فإذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة الأولياء لهم إذ ليس عليهم في ذلك غرامة حتى يعتبر في مقابلتها غنيمة عائدة إليهم عاجلة أو آجلة وقيل المراد هو الصلاح للنكاح والقيام بحقوقه ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾ إزاحة لما عسى يكون وازعا من النكاح من فقر

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١١٨/٦

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٢٩/٦

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٣٨/٦

أحد الجانبين أي لا يمنعن فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فإن في فضل الله عز وجل غنية عن المال فإنه فقر أحد غادروائح يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب أو وعد منه سبحانه بالإغناء لقوله صلى الله عليه وسلم اطلبوا الغنى في هذه الآية لكنه مشروط بالمشيئة كما في قوله تعالى وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء الله ﴿والله واسع﴾ غني ذو سعة لا يرزؤه إغناء الخلائق إذا لا نفاد لنعمته ولا غاية لقدرته مع ذلك ﴿عليم﴾ يبسط." (١)

"ابن أسلم رحمهم الله تعالى وجعله عبارة عن الحق وإن شاع استعارته له كا ستعارة الظلمة للباطل يأباه مقام بيان شأن الآيات ووصفها بما ذكر من التبيين مع عدم سبق ذكر الحق ولأن المعتبر في مفهوم النور هو الظهور والإظهار كما هو شأن القرآن الكريم وأما الحق فالمعتبر في مفهومه من حيث هو حق هو الظهور لا الإظهار والمراد بالمثل الصفة العجيبة أي صفة نوره العجيبة ﴿كمشكاة﴾ أي كصفة كوة نافذة في الجدار في الإنارة والتنوير ﴿فيها مصباح﴾ سراج ضخم ثاقب وقيل المشكاة الأنبوبة في وسط القنديل والمصباح الفتيلة المشتعلة ﴿المصباح فى زجاجة﴾ أي قنديل من الزجاج الصافي الأزهر وقرئ بفتح الزاي وكسرها في الموضعين ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ متلألئ وقاد شبيه بالدر في صفائه وزهرته ودراري الكواكب عظامها المشهورة وقرئ دريئ بدال مكسورة وراء مشددة وياء ممدودة بعدها همزة على أنه فعيل من الدرء وهو الدفع أي م بالغ في دفع الظلام بضوئه أو في دفع بعض أجزاء ضيائه لبعض عند البريق واللمعان وقرئ بضم الدال والباقي على حاله وفي إعادة المصباح والزجاجة معرفين إثر سبقهما منكرين والإخبار عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بأن يقال كمشكاة فيها مصباح في زجاجة كأنها كوكب دري من تفخيم شأنهما ورفع مكانهما بالتفسير إثر الإبهام والتفصيل بعد الإجمال وبإثبات ما بعدهما لهما بطريق الإخبار المنبئ عن القصد الأصلي دون الوصف المبني على الإشارة إلى الثبوت في الجملة ما لا يخفى ومحل الجملة الأولى الرفع على أنها صفة لمصباح ومحل الثانية الجر على أنها صفة لزجاجة واللام مغنية عن الرابط كأنه قيل فيها لمصباح الجر على أنها صفة لزجاجة واللام مغنية عن الرابط كأنه قيل فيها مصباح هو في زجاجة هي كأنها كوكب دري ﴿يوقد من شجرة﴾ أي يبتدأ إيقاد المصباح من شجرة ﴿مباركة﴾ أي كثيرة **المنافع** بأن رويت ذبالته بزيتها وقيل إنما وصفت بالبركة لأنها تنبت في الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين ﴿زيتونة﴾ بدل من شجرة وفي إبهامها ووصفها بالبركة ثم الإبدال منها تفخيم لشأنها وقرئ توقد بالناء على أن الضمير القائم مقام الفاعل للزجاجة دون المصباح وقرئ توقد على صيغة

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٧١/٦

الماضي من التفعل أي ابتداء ثقوب المصباح منها وقرئ توقد بحذف إحدى التاءين من تتوقد على إسناده إلى الزجاجة ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ تقع الشمس عليها حينا دون حين بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتي على قلة أو صحراء واسعة فتقع الشمس عليها حالتي الطلوع والغروب وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة وقال الفراء والزجاج لا شرقية وحدها ولا غربية وحدها لكنها شرقية وغربية أي تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين فيكون زيتها أضوأ وقيل لا ثابتة في شرق المعمورة ولا في غربها بل في وسطها وهو الشام فإن زيوتها أجود ما يكون وقيل لا في مضحى تشرق الشمس عليها دائما فتحرقها ولا في مقنأة نغيب عنها دائما فتتركها نيأ وفي الحديث لا خير في شجرة ولا في نبات في مقنأة ولا خير فيهما في مضحى ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ أي هو في الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضيء بنفسه من غير مساس نار أصلا وكلمة في أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء شيء في الزمان الماضي لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه ملاحظة قصدية إلا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعية بل هي لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفى كلما." (١)

"﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾ إضراب وانتقال عن الإنكار المذكور إلى إنكار حسبانه صلى الله عليه وسلم لهم ممن يسمع أو يعقل حسبما ينبيء عنه جده صلى الله عليه وسلم في الدعوة واهتمامه بالإرشاد والتذكير لكن لا على أنه لا يقع كالأول بل على أنه لا ينبغي أن يقع أي بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون ما تتلوا عليهم من الآيات حتى السماع أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية إلى المحاسن فتعتني بشأنهم وتطمع في إيمانهم وضمير أكثرهم لمن وجمعه باعتبار معناها كما أن الإفراد في الضمائر الأول باعتبار لفظها وضمير الفعلين لأكثر لا لما أضيف هو إليه وقوله تعالى ﴿إن هم إلا كالأنعام﴾ الخ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير النكير وتأكيده وحسم مادة الحسبان بالمرة أي ما هم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات إلا كالبهائم التي هي مثل في الغفلة وعلم في الضلالة ﴿بل هم أضل﴾ منها ﴿سبيلا﴾ لما أنها تنقاد لصاحبها الذي يعلفها ويتعهدها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وتأوي إلى معاطنها وهؤلاء لا ينقادون لربهم وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون إحسانهم إليهم من إساءة الشيطان الذي هو أعدى عدوهم ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٧٦/٦

المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والمورد العذب الروي ولأنها إن لم تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل وفرعوا عليها أحكام الشرور ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لاتتعدى إلى أحد وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفتنى والفساد وصد الناس عن سنين السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ولأنها غير معطلة لقوة من القوى المودعة بل صارفة لها إلى ما خلقت هي له فلا تقصير من قبلها في طلب الكمال وأما هؤلاء فهم معطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة الأصلية التي فطر الناس عليها مستحقون بذلك أعظم العقاب وأشد النكال." (١)

"﴿لنحيي به﴾ أي بما أنزلنا من الماء الطهور ﴿بلدة ميتا﴾ بإنبات النبات والتذكير لأن البلدة بمعنى البلد ولأنه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجري مجرى الجامد والمراد به القطعة من الأرض عامرة كانت أو غامرة ﴿ونسقيه﴾ أي ذلك الماء الطهور عند جريانه في الأودية أو اجتماعه في الحياض والمنافع أو الآبار ﴿مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا﴾ أي أهل البوادي الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الأنعام والأناسي وتخصيصهم بالذكر لأن أهل القرى والأمصار يقيمون بقرب الأنهار والمبالغ فيهم وبما لهم من الأنعام غنية عن سقيا السماء وسائر الحيوانات تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالبا مع أن مساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة فهو لتعداد أنواع النعمة والأنعام حيث كانت قنية للإنسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها وقرىء نسقيه وأسقى وسقى لغتان وقيل أسقاه جعل له سقيا وأناسي جمع إنسي أو إنسان كظرابي في ظربان على أن أصله أناسين فقلبت نونه ياء وقرىء أناسي بالتخفيف بحذف ياء أفاعيل كأناعم في أناعيم." (٢)

"سورة الشعراء (٨ ١٠) والواو للعطف على مقدار يقتضيه المقام أي افعلوا ما فعلوا من الإعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا ﴿إلى الأرض﴾ أي عجائبها الزاجرة عما فعلوا الداعية إلى الإقبال على ما أعرضوا عنه وإلى الإيمان به وقوله تعالى ﴿كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ استئناف مبين لما في الأرض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية إلى الإيمان وكم خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية والجمع بينها وبين كل لإفادة الإحاطة والكثرة معا ومن كل زوج أي صنف تمييز والكريم من كل شيء

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٢١/٦

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٢٤/٦

مرضيه ومحموده أي كثيرا من كل صنف مرضي كثير المنافع أنبتنا فيها وتخصيص إنباته بالذكر دون ما عداه من الأصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معا ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات نافعها وضارها ويكون وصف الكل بالكرم للتنبيه على أنه تعالى ما أنبت شيئا إلا وفيه حكمة فائدة كما نطق به قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا فإن الحكيم لا يكاد يفعل فعلا إلا وفيه حكمة بالغة وإن غفل عنها الغافلون ولم يتوصل إلى معرفة كنهها العاقلون." (١)

"﴿الذى خلقنى﴾ صفة لرب العالمين وجعله مبتدأ وما بعده خبرا غير حقيق بجزالة التنزيل وإنما وصفه تعالى بذلك وبما عطفه عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته تعالى للعالمين تصريحا بالنعم الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتفصيلا لها لكونها أدخل في اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى وقصر الالتجاء في جلب المنافع الدينية والدنيوية المضار العاجلة والآجلة عليه تعالى ﴿فهو يهدين﴾." (٢)

"﴿إن الذين لا يؤمنون بالأخرة﴾ بيان لأحوال الكفرة بعد بيان أحوال المؤمنين أي لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الأعمال الصالحة والعقاب على السيئات حسبما ينطق به القرآن ﴿زينا لهم أعمالهم﴾ القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس كما ينبئ عنه قوله صلى الله عليه وسلم حفت النار بالشهوات أو الأعمال الحسنة ببيان حسنها في أنفسها حالا واستتباعها لفنون المنافع مآلا وإضافتها إليهم باعتبار أمرهم بها وإيجابها عليهم ﴿فهم يعمهون﴾ يتحيرون ويترددون على التجدد والاستمرار فمع الاشتغال بها والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضر أو في الضلال والإعراض عنها والفاء على الأول لترتيب المسبب على السبب وعلى الثاني لترتيب ضد المسبب على السبب كما في قولك وعظته فلم يتعظ وفيه إيذان بكمال عتوهم ومكابرتهم وتعكيسهم في الأمور." (٣)

"﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة﴾ بإسكانها في وسط السماء أو بتحريكها على مدار فوق الأفق ﴿من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه﴾ استراحة من متاعب الأشغال ولعل تجريد الضياء عن ذكر منافعه لكونه مقصودا بذاته ظاهر الاستتباع لما نيط به من المنافع ﴿أفلا تبصرون﴾ هذه المنفعة الظاهرة التي لا تخفى على من له بصر." (٤)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٣٥/٦

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٤٨/٦

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى م ز ايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٧٢/٦

(٤) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٣/٧

"﴿ومن آياته أن يرسل الرياح﴾ أي الشمال والصبا والجنوب فإنها رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقرىء الريح على إرادة الجنس ﴿مبشرات﴾ بالمطر ﴿وليذيقكم من رحمته﴾ وهي **المنافع** التابعة لها وقيل الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذي هو مع هبوبها واللام متعلقة بيرسل والجملة معطوفة على مبشرات على المعنى كأنه قيل ليبشركم بها وليذقكم أو بمحذوف يفهم من ذكر الإرسال تقديره وليذيقكم وليكون كذا وكذا يرسلها لا لأمر آخر لا تعلق له بمنافعكم ﴿ولتجرى الفلك﴾ بسوقها ﴿بأمره ولتبتغوا من فضله﴾ بتجارة البحر ﴿ولعلكم تشكرون﴾ ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر من." (١)

"﴿خلق السماوات بغير عمد﴾ الخ استئناف مسوق للاستشهاد بما فصل فيه على عزته تعالى التي هي كمال القدرة وحكمته التي هي كمال العلم وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره وإبطال أمر الإشراك وتبكيت أهله والعمد جمع عماد كأهب جمع إهاب وهو ما يعمد به أي يسند يقال عمدت الحائط إذا دعمته أي بغير دعائم على أن الجمع لتعدد السموات وقوله تعالى ﴿ترونها﴾ استئناف جيء به للاستشهاد على ما ذكر من خلقه تعالى لها غير معهودة بمشاهدتهم لها كذلك أو صفة لعمد أي خلقها بغير عمد مرئية على أن التقييد للرمز إلى أنه تعالى عمدها بعمد لا ترونها هي عمد القدرة ﴿وألقى فى الارض رواسى﴾ بيان لصنعه البديع في قرار الأرض إثر بيان صنعه الحكيم في قرار السموات أي ألقى فيها جبالا ثوابت وقد مر ما فيه من الكلام في سورة الرعد ﴿أن تميد بكم﴾ كراهة أن تميل بكم فإن بساطة أجزائها تقتضي تبدل أحيازها وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته أو لشيء من لوازمه بحيز معين ووضع مخصوص ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ من كل نوع من أنواعها ﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾ هو المطر ﴿فأنبتنا فيها﴾ بسبب ذلك الماء ﴿من كل زوج كريم﴾ من كل صنف كثير **المنافع** والالتفات إلى نون العظمة في الفعلين لإبراز مزيد الاعتناء بأمرها." (٢)

"﴿وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾ مثل ضرب للمؤمن والكافر والفرات الذي يكسر العطش والسائغ الذي يسهل انحداره لعذوبته والأجاج الذي يحرق بملوحته وقرئ سيغ كسيد وسيغ بالتخفيف وملح ككتف وقوله تعالى ﴿ومن كل﴾ أي من كل واحد منهما ﴿تأكلون لحما طريا وتستخرجون﴾ أي من المالح خاصة ﴿حلية تلبسونها﴾ إما استطراد في صفة البحرين وما فيهما من

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦٣/٧

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٧٠/٧

النعم **والمنافع** وإما تكملة للتمثيل والمعنى كما أنهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث أنهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات من الماء لما خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته لا يساوي الكافر المؤمن وإن شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الأصلية وحيازته لكماله اللائق دون الآخر أو تفضيل للأجاج على الكافر من حيث أنه يشارك العذب في منافع كثيرة والكافر خلو من **المنافع** بالكلية على طريقة قوله تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان ﴿وترى الفلك فيه﴾ أي في كل منهما وإفراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق لان الخطاب الكل حد تتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط ﴿مواخر﴾ شواق للماء بجريها مقبلة ومدبرة بريح واحدة ﴿لتبتغوا من فضله﴾ من فضل الله تعالى بالنقلة فيها واللام متعلقة بمواخر وقد جوز تعلقها بما يدل عليه الأفعال المذكورة أي فعل ذلك لتبتغوا من فضله ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولتشكروا على ذلك وحرف الترجي للإيذان بكونه مرضيا عند الله تعالى." (١)

"﴿لا الشمس ينبغى لها﴾ أي يصح ويتسهل ﴿أن تدرك القمر﴾ في سرعة السير فإن ذلك يخل بتكون النبات وتعيش الحيوان أو في الآثار **والمنافع** أو في المكان بأن تنزل في منزله أو في سلطانه فتطمس نوره وإيلاء حرف النفي الشمس للدلالة على انها مسخرات لا يتيسر لها إلا ما قدر لها ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ أي يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه وقيل المراد بهما آيتاهما وهما النيران وبالسبق سبق القمر إلى سلطان الشمس فيكون عكسا للأول وإيراد السبق مكان الإدراك لأنه الملائم لسرعة سيره ﴿وكل﴾ أي وكلهم على أن التنوين عوض عن المضاف إليه الذي هو الضمير العائد إلى الشمس والقمر والجمع باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مطالعهما فإن اختلاف الأحوال يوجب تعددا ما في الذات أو إلى الكواكب فإن ذكرهما مشعر بها ﴿فى فلك يسبحون﴾ يسيرون بانبساط وسهولة." (٢)

"ص ٣٠ ٣٢ وقوله تعالى ﴿مبارك﴾ خبر ثان للمبتدأ أو صفة لكتاب عند من يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح وقرىء مباركا على أنه حال من مفعول أنزلنا ومعنى المبارك الكثير **المنافع** الدينية والدنيوية وقوله تعالى ﴿ليدبروا آياته﴾ متعلق بأنزلناه أي أنزلناه ليتفكروا في آياته التي من جملتها هذه الآيات

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٤٧/٧

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٦٨/٧

المعربة عن أسرار التكوين والتشريع فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من المعاني الفائقة والتأويلات اللائقة وقرىء ليتدبروا على الاصلى ولتدبروا على الخطاب أي أنت وعلماء أمتك بحذف احدى التاءين ﴿وليتذكر أولوا الالباب﴾ أي وليتعظ به ذوو العقول السليمة او ليستحضروا ماهو كالمركوز في عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته لما نصب عليه من الدلائل فإن الكتب الإلهية مبينة لما لا يعرف إلا بالشرع ومرشدة إلى مالا سبيل للعقل إليه." (١)

"﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ بيان لما لهم فى الآخرة من حسن المآب بعد بيان مالهم في الدنيا من محاسن الأعمال أي لهم كل ما يشاءون من جلب **المنافع** ودفع المضار في الآخرة لا في الجنة فقط لما أن بعض ما يشاءونه من تكفير السيئات والأمن من الفزع الأكبر وسائر أهوال القيامة إنما يقع قبل دخول الجنة ﴿ذلك﴾ الذي ذكر من حصول كل ما يشاءونه ﴿جزاء المحسنين﴾ أي الذين أحسنوا أعمالهم وقد مر تفسير الإحسان غير مرة وقوله تعالى." (٢)

"﴿ولكم فيها منافع﴾ أخر غير الركوب والأكل كألبانها وأوبارها وجلودها ﴿ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم﴾ بحمل أثقالكم من بلد إلى بلد ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ لعل المراد به حمل النساء والولدان عليها بالهودج وهو السر في فصله عن الركوب والجمع بينها وبين الفلك في الحمل لما بينهما من المناسبة التامة حتى سميت سفائن البر وقيل هي الأزواج الثمانية فمعنى الركوب والأكل منها تعلقهما بالكل لكن لا على أن كلا منهما يجوز تعلقه بكل منها ولا على أن كلا منهما مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن بعضها يتعلق به الاكل فقط كالغنم وبعضها يتعلق به كلاهما كالإبل والبقر **والمنافع** تعم الكل وبلوغ الحاجة عليها يعم البقر." (٣)

"والنيرات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى كما قاله قتادة والسدي فالوحي عبارة عن التكوين كالأمر مقيد بما قيد به المعطوف عليه من الوقت أو أوحى إلى أهل كل منها أوامره وكلفهم ما يليق بهم من التكاليف فهو بمعناه ومطلق عن القيد وأياما كان فعلى ما قرر من التفصيل لادلة في الآية الكريمة على الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء وإنما الترتيب بين التقدير والإيجاد وإما على تقدير كون الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة فهي وما في سورة البقرة من قوله تعالى هو الذى

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥٢/٧

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٥٤/٧

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٨٦/٧

خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات تدلان على خلق الأرض وما فيها على خلق السماء وما فيها وعليه إطباق أكثر أهل التفسير وقد روي أن العرش العظيم كان قبل خلق السموات والأرض على الماء ثم إنه تعلى أحدث في الماء اضطرابا فأزبد فارتفع منه دخان فأما الزبد فبقي على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات وروي أنه تعالى خلق جرم الأرض يوم الأحد ويوم الأثنين الاثنين ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وخلق السموات وما فيهن يوم الخميس ويوم الجمعة وخلق آدم عليه السلام في آخر ساعة منه وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة وقيل إن خلق جرم الأرض مقدم على خلق المسوات لكن دحوها وخلق ما فيها مؤخر عنه لقوله تعالى والأرض بعد ذلك دحاها ولما اروى عن الحسن رحمه الله تعالى أنه خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة القهر عليه دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما الآية وليس المراد بنظمها مع السماء في سلك الآمر بالإتيان إنشاءها وإحداثها بل إنشاء دحوها وجلعها على وجه خاص يليق بها من شكل معين ووصف مخصوص كأنه قيل ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه ائتي يا أرض مدحورة قرارا ومهادا لأهلك وائتي يا سماء مقبية سقفا لهم ومعنى الإتيان الحصول على ذلك الوجه كما تنبيء عنه قراءة آتيا وآتينا من المواتاة وهي الموافقة وأنت خبير بأن المذكور قبل الأمر بالإتيان ليس مجرد خلق جزم الأرض حتى يتأتى ما ذكر بل خلق ما فيها أيضا من الأمور المتأخرة عن دحوها قطعا فالأ ظهر أن يسلك مسلك الأولين ويحمل الأمر بالإتيان على تكوينهما متوافقين على الوجه المذكور وليس من ضرورته أن يكون دحوها مترتبا على ذلك التكوين وإنما اللازم ترتب حصول التوافق عليه ولا ريب في أن تكوين السماء على الوجه اللائق بها كاف في حصوله ولا يقدح في ذلك تكوين الأرض على الوجه المذكور قبل ذلك وأن يجعل الأرض في قوله تعالى والأرض بعد ذلك دحاها منصوبا بمضمر قد حذف على لا شرطية التفسير ويجعل ذلك إشارة إلى ذكر ما ذكر من بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وغيرها لا إلى أنفسها وتحمل البعدية إما على أنه قاصر عن الأول في الدلالة على القدرة القاهرة كما قيل وإما على أنه أدخل في الإلزام لما أن المنافع المنوطة بما في الأرض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهروا إحاطتهم بتفاصيلها أكمل وليس ما روي عن الحسن." (١)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦/٨

"﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ بدل من قوله تعالى إن الذين يحلدون الخ وخبر إن هو الخبر السابق وقيل مستأنف وخبرها محذوف وقال السكائي سد مسده الخبر السابق والذكر القرآن وقوله تعالى ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أي كثير **المنافع** عديم النظير أو منيع لا تتأتى معارضته جملة حالية مفيدة لغاية." (١)
(١)

"﴿واختلاف الليل والنهار﴾ بالجر على إضمار الجار المذكور في الآيتين قبله وقد قرئ بذكره والمراد باختلافهما إما تعاقبهما طولا وقصرا

﴿وما أنزل الله من السماء﴾ عطف على اختلاف

﴿من رزق﴾ أي من مطر وهو سبب للرزق عبر عنه بذلك تنبيها على كونه آية من جهتي القدرة والرحمة

﴿فأحيا به الأرض﴾ بأن أخرج منها أصناف الزروع والثمرات والنبات

﴿بعد موتها﴾ وعرائها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها وخلو أشجارها عن الثمار

﴿وتصريف الرياح﴾ من جهة أخرى ومن حال إلى حال وقرئ بتوحيد الريح وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدمه عليه في الوجود إما للإيذان بأنه آية مستقلة حيث لو روعي الترتيب الوجودي لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة وإما لأن كون التصريف آية ليس لمجرد كونه مبدألإنشاء المطر بل له ولسائر **المنافع** التي من جملتها سوق السفن في البحار

﴿آيات لقوم يعقلون﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ما تقدم من الجار والمجرور والجملة معطوفة على ما قبلها وقرئ بالنصب على الاختصاص وقيل على أنها اسم أن والمجرور المتقدم خبرها بطريق العطف على معمولي عاملين مختلفين هما أن وفي أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر في اختلاف والنصب في آيات وتنكير آيات في المواقع الثلاثة للتفخيم كما وكيفا واختلاف الفواصل لاختلاف مراتب الآيات في الدقة والجلاء." (٢)

"﴿ ٩ ٢٧

فإن كفرهم به ليس بسبب هذا القول ولو فرض صدوره عنهم سواء كان المقول لهم المنافقين أو المشركين على رأي القائل بل من حين بعثته عليه الصلاة والسلام ﴿للذين كرهوا ما نزل الله﴾ أي لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عملهم بأنه من عند الله تعالى حسدا وطمعا في نزوله

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٥/٨

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦٨/٨

عليهم لا للمشركين كما قيل فإن قوله تعالى ﴿سنطيعكم فى بعض الأمر﴾ عبارة قطعا عما حكي عنهم بقوله تعالى ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لاننصرنكم وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادونهم وأرادوا بالبعض الذي أشاروا إلى عدم إطاعتهم فيه إظهار كفرهم وإعلان أمرهم بالفعل قبل قتالهم وإخراجهم من ديارهم فإنهم كانوا يأبون ذلك قبل مساس الحاجة الضرورية الداعية إليه لما كان لهم في إظهار الإيمان من **المنافع** الدنيوية وإنما كانوا يقولون لهم ما يقولون سرا كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿والله يعلم إسرارهم﴾ أي إخفاءهم لما يقولنه لليهود وقرىء أسرارهم أي جميع أسرارهم التي من جملتها قولهم هذا والجملة اعتراض مقرر لما قبله متضمن للإفشاء في الدنيا والتعذيب في الآخرة والفاء في قوله تعالى." (١)

"﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا﴾ أي كثير **المنافع** شروع في بيان كيفية إنبات ما ذكر من كل زوج بهيج وهو عطف على أنبتنا وما بينهما على الوجه الأخير اعتراض مقرر لما قبله ومنبه على ما بعده ﴿فأنبتنا به﴾ أي بذلك الماء ﴿جنات﴾ كثيرة أي أشجارا ذوات ثمار ﴿وحب الحصيد﴾ أي حب الزرع الذي شأنه أن يحصد من البر والشعير وأمثالهما وتخصيص إنبات حبه بالذكر لأنه المقصود بالذات." (٢)

"﴿فيها فاكهة﴾ الخ استئناف مسوق لتقرير ما أفادته الجملة السابقة من كون الأرض موضوعة لمنافع الأنام وتفصيل **المنافع** العائدة إلى البشر وقيل حال مقدرة من الأرض فالأحسن حينئذ أن يكون الحال هو الجار والمجرور وفاكهة رفع على الفاعلية أي فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ هي أوعية الثمر جمع كم أو كل ما يكم أي يغطى من ليف وسعف وكفرى فإنه مما ينتفع به كالمكموم من ثمره وجماره وجذوعه." (٣)

"﴿فقلت استغفروا ربكم﴾ بالتوبة عن الكفر والمعاصي ﴿إنه كان غفارا﴾ للتائبين كأنهم تعللوا وقالوا إن كنا على الحق فكيف نتركه وإن كنا على الباطل فكيف يقبلنا بعد ما عكفنا عليه دهرا طويلا فأمرهم بما يمحق ما سلف منهم من المعاصي ويجلب إليهم **المنافع** ولذلك وعدهم بما هو أوقع في قلوبهم وأحب إليهم من الفوائد العاجلة وقيل لما كذبوه بعد تكرير الدعوة حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٨/ ١٠٠

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٨/ ١٢٧

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٨/ ١٧٨

أربعين سنة وقيل سبعين سنة فوعدهم أنهم إن آمنوا أن يرزقهم الله تعالى الخصب ويدفع عنهم ما كانوا فيه." (١)

"﴿والله جعل لكم الأرض بساطا﴾ تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم في بيوتكم وتوسيط لكم بين الجعل ومفعوليه مع أن حقه التأخير لما مر مرارا من الاهتمام ببيان كون المجعول من منافعهم والتشويق إلى المؤخر فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لا سيما عند كون المقدم ملوحا بكونه من **المنافع** تبقى مترقبة له فيتمكن." (٢)

"٧٩ سورة النازعات (٣٣ ٣٥)

الاثنين ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وخلق السموات وما فيهن يوم الخميس ويوم الجمعة وخلق آدم عليه السلام في آخر ساعة منه وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة فالأقرب كما قيل تأمويل هذه الآية بأن يجعل ذلك إشارة إلى ذكر ما ذكر من بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وغيرها لا إلى أنفسها ويحمل بعدية في الذكر كما هو المعهود في ألسنة العرب والعجم لا في الوجود لما عرفت من أن انتصاب الأرض بمضمر مقدم قد حذف على شريطة التفسير لا بما ذكر بعده ليفيد القصر وتتعين البعدية في الوجود وفائدة تأخيره في الذكر إما التنبيه على أنه قاصر في الدلالة على القدرة القاهرة بالنسبة إلى أحوال السماء وإما الإشعار بأنه أدخل في الإلزام لما أن **المنافع** المنوطة بما في الأرض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر وإحاطتهم بتفاصيل أحواله أكمل وليس ما روي عن الحسن نصا في تأخر دحو الأرض عن خلق السماء فإن بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلق السماء بالواو هي بمعزل من الدلالة على الترتيب هذا على تقدير حمل ما ذكر في آيات سورة السجدة من الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة وأما إذا حملت على تقديرها فلا دلالة فيها إلا على تقدم تقدير الأرض وما فيها على إيجاد السماء كما لا دلالة على الترتيب أصلا إذا حملت كلمة ثم فيها وفيما في سورة البقرة على التراخي في الرتبة وقد سلف تفصيل الكلام في السورة المذكورة وقوله تعالى." (٣)

"﴿والتين والزيتون﴾ هما هذا التين وهذا الزيتون خصهماالله سبحانه من بين الثمار بالإقسام بهما لاختصاصهما بخواص جليلة فإن التين فاكهة طيبة لا فضل له غذاء لطيف سريع الهضم ودواء كثير النفع يلين الطبع ويحلل البلغم ويطهر الكليتين ويزيل ما في المثانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح سدد الكبد

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣٨/٩

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣٩/٩

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٠٣/٩

والطحال وروى أبو ذر رضي الله عنه أنه أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم سل من تين فأكل منه وقال لأصحابه كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذا لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس وعن علي بن موسى الرضا التين يزيل نكهة الفم ويطول الشعر وهو أمان من الفالج وأما الزيتون فهو فاكهة وإدام ودواء ولو لم يكن له سوى اختصاصه بدهن كثير **المنافع** مع حصوله في بقاع لا دهنية فيها لكفى به فضلا وشجرته هي الشجرة المباركة المشهود لها في التنزيل ومر معاذ بن جبل رضي الله عنه بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيا واستاك به وقال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة وسمعته يقول هو سواكي وسواك الأنبياء قبلي وقيل هما جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية طور تينا وطور زيتا لأنهما منبتا التين والزيتون وقيل التين جبل ما بين حلوان وهمدان والزيتون جبال الشام لأنهما منابتهما كأنه قيل ومنابت التين والزيتون وقال قتادة التين الجبل الذي عليه دمشق والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس وقال عكرمة وابن زيد التين دمشق والزيتون بيت المقدس وهو اختيارالطبري وقال محمد بن كعب التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد إيليا وعن ابن عباس رضي الله عنهماالتين مسجد نوح عليه السلام الذي بناه على الجودي والزيتون مسجد بيت المقدس وقال الضحاك التين المسجد الحرام والزيتون المسجد الأقصى والصحيح هو الأول قال ابن عباس رضي الله عنهما هو تينكم الذي تأكلون وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت وبه قال مجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي وعطاء وجابر وزيد ومقاتل والكلبي." (١)

"﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ أي لم يغن عنه حين حل به التباب على أن ما نافية أو أي شيء أغنى عنه على أنها استفهامية في معنى الإنكار منصوبة بما بعدها أصل ماله وما كسبه من الأرباح والنتائج **والمنافع** والوجاهة والأتباع أو ماله الموروث من أبيه والذي كسبه بنفسه أو عمله الخبيث الذي هو كيده في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم أو عمله الذي ظن أنه منه على شيء كقوله تعالى ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما كسب ولده وروي أنه كان يقول إن كان ما يقول ابن أخي حقا فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي فأستخلص منه وقد خاب مرجاه وما حصل ما تمناه فافترس ولده عتبة أسد في طريق الشام بين العير المكتنفة به وقد كان عليه السلام دعا عليه وقال اللهم سلط عليه كلبا من كلابك وهلك نفسه بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال فاجتنبه أهله مخافة

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٩/١٧٤

العدوى وكانت قريش تتقيها كالطاعون فبقي ثلاثا حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه فكان." (١)

"قلت: (إن) : شرط، و (ما) زيدت لتقوية الشرط، ولذلك دخلت نون التوكيد، وعبر بإن دون (إذا) ، مع تحقق مجيئ الهدى لأنه غير واجب عقلا، وجملة الشرط الثاني وجوابه، الشرط الأول، و (جميعا) حال مؤكدة أي:

اهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يقتضى اجتماعهم على الهبوط في زمان واحد.

ولما أمر الحق جلا جلاله آدم أولا بالهبوط من الجنة، جعل يبكي ويتضرع ويقول: ألم تخلقني بيدك؟ ألم تسجد لي ملائكتك؟ ألم تدخلني جنتك؟ ثم ألهم الكلمات التي تلقاها من ربه، فتاب عليه ورحمه، فطمع آدم حين سمع من ربه قبول توبته في البقاء في الجنة، فقال له الحق جل جلاله: يا آدم لا يجاورني من عصاني، وقد سبقت كلمتي بهبوطك إلى الأرض لتكون خليفتي بذريتك، فكرر عليه الأمر بالهبوط ثانيا. فقال: اهبطوا منها جميعا أنتما بما اشتملتما عليه من ذريتكما. فمهما يأتينكم مني هدى أي: بيان وإرشاد إلى توحيدي ومعرفتي، على يد رسول أو نائب عنه، فمن تبع ذلك الإرشاد، واهتدى إلى معرفتي وتوحيدي، وعمل بطاعتي وتكاليفي، فلا خوف عليهم من لحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات محبوب، لأني أصرف عنهم جميع المكاره، وأجلب لهم **المنافع**، والذين كذبوا بآياتنا الدالة على قدرتنا المنزلة على رسلنا، واستكبروا عن النظر فيها، أو عن الخضوع لمن جاء بها، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

الإشارة: إذا سكنت الأرواح في عش الحضرة، وتمكنت من الشهود والنظرة، أمرها الحق تعالى بالنزول إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ، فتنزل بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، لا لطلب جزاء أو لقضاء شهوة، بل تنزل بالله ومن الله وإلى الله، فمن نزل منها على هذا الهدى الحسن فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن ركب بحر التوحيد مع غير رئيس عارف، ولم يأو إلى سفينة الشريعة، واستكبر عن الخضوع إلى تكاليفها لعبت به الأمواج، فكان من المغرقين. أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون لأن من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، ومن تشرع ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، جعلنا الله ممن تحقق بهما. وسلك على منهاجهما إلى الممات، آمين.

ولما ذكر الحق تعالى شرف كتابه، ونفى وجود الريب عن ساحته، ثم دعا إلى توحيده، وبرهن على وجوده، بابتداء خلق العالم من عرشه إلى فرشه، وذكر كيفية ابتداء عمارته، خاطب بني إسرائيل لأنهم أهل العلم

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٩/٢١٠

بالأخبار المتقدمة، وقد سمعوا هذه الأخبار من نبي أمي لم يعهد بقراءة ولا تعلم، فقامت الحجة عليهم، وتحققوا أنه من عند الله. وما منعهم من الإسلام إلا الحسد وحب الرئاسة، فلذلك أطال الحق الكلام معهم، تارة يقرعهم على عدم." (١)

"يقول الحق جل جلاله: الله الواجب الوجود لا يستحق العبادة غيره، فمن عبد غيره فقد أتى بظلم عظيم الحي أي: الدائم بلا أول، الباقي بلا زوال الذي لا سبيل عليه للموت والفناء، القيوم أي: دائم القيام بتدبير خلقه في إيصال **المنافع** ودفع المضار، وجلب الأرزاق وأنواع الارتقاء، لا تأخذه سنة ولا نوم السنة: ما يتقدم النوم من الفتور، والنوم: حالة تعرض للإنسان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، فتقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأسا.

وتقديم السنة عليه، على ترتيب الوجود، كقوله تعالى: ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، وجمع بينهما لأنه لو اقتصر على نفى السنة عنه لتوهم أن النوم يغلبه لأنه أشد، ولو اقتصر على نفي النوم لتوهم أن السنة تلحقه لخفتها. والمراد تنزيهه تعالى عن آفات البشرية، وتأكيد كونه حيا قيوما، فإن من أخذه نعاس أو نوم يكون مؤوف «١» الحياة، قاصرا في الحفظ و التدبير. ولذلك ترك العطف فيه وفي الجمل التي بعده لأنها كلها مقررة له، أي: للحي للقيوم.

وقد ورد أنه اسم الله الأعظم، وقال عليه الصلاة والسلام لفاطمة- رضي الله عنها: «ما منعك أن تسمعي ما أوصيك به تقولين إذا أصبحت وإذا أمسيت يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» . رواه النسائي. وأخرج مسلم عن أبى موسى رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات قال: إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور- وفي رواية. النار- لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه» .

له ما في السماوات وما في الأرض هذا تقرير لقيوميته تعالى، واحتجاج على تفرده في الألوهية.

والمراد بما فيهما: ما هو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما، المتمكنة فيهما، من العقلاء وغيرهم، فهو أبلغ من (له السموات والأرض وما فيهن) ، يعني: أن الله يملك جميع ذلك من غير شريك ولا منازع، وعبر ب- (ما) تغليبا للغالب.

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/ ٩٨

(١) أف الطعام أوفا وآفة: فسد، والبلاد: أصابتها آفة من قحط أو مرض أو غيرهما.." [١]

"قال عليه الصلاة والسلام: «ما شقى عبد بمشورة، وما سعد باستغناء برأى» . وقال أيضا: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار» . وقال أيضا- عليه الصلاة والسلام- «إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم أسخياءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم، ولم تكن أموركم شورى بينكم، فبطن الأرض خير من ظهرها» .

فإذا عزمت على شيء بعد الشورى، (فتوكل على الله) أي: ثق به وكيلا، إن الله يحب المتوكلين فينصرهم ويهديهم إلى ما فيه صلاحهم.

الإشارة: ما اتصف به نبينا- عليه الصلاة والسلام- من السهولة والليونة والرفق بالأمة، اتصفت به ورثته من الأولياء العارفين، والعلماء الراسخين، ليتهيأ لهم الدعوة إلى الله، أو إلى أحكام الله، ولو كانوا فظاظا غلاظا لانفض الناس من حولهم، ولم يتهيأ لهم تعريف ولا تعليم، فينبغي لهم أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا ويصبروا على جفوة الناس، ويستغفروا لهم، ويشاوروهم في أمورهم، اقتداء برسولهم، فإذا عزموا على إمضاء شيء فليتوكلوا على الله إن الله يحب المتوكلين.

قال الجنيد- رضي الله عنه-: (التوكل أن تقبل بالكلية على ربك وتعرض عمن دونه) . وقال الثوري: أن تفني تدبيرك في تدبيره، وترضى بالله وكيلا ومدبرا، قال الله تعالى: وكفى بالله وكيلا. وقال ذو النون: (خلع الأرباب، وقطع الأسباب.) وقال الخواص: قطع الخوف والرجاء مما سوى الله تعالى. وقال العرجي: رد العيش إلى يوم واحد، وإسقاط هم غد. هـ. وقال سهل: معرفة معطي أرزاق المخلوقين، ولا يصح لأحد التوكل حتى تكون عنده السماء كالصفر «١» والأرض كالحديد، لا ينزل من السماء قطر، ولا يخرج من الأرض نبات، ويعلم أن الله لا ينسى له ما ضمن من رزقه بين هذين. هـ. وقيل: هو اكتفاء العبد الذليل بالرب الجليل، كاكتفاء الخليل بالخليل، حين لم ينظر إلى عناية جبريل. وقيل لبهلول المجنون: متى يكون العبد متوكلا؟ قال: إذا كان بالنفس غريبا بين الخلق، وبالقلب قريبا إلى الحق.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده» .

قال ابن جزي: التوكل هو الاعتماد على الله في تحصيل المنافع وحفظها بعد حصولها، وفي دفع المضرات

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/٢٨٥

ورفعها بعد وقوعها، وهو من أعلى المقامات، لوجهين: أحدهما: قوله: إن الله يحب المتوكلين، والآخر:

---

(١) الصفر: النحاس.." (١)

"للأنصار: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر، وكتموا صفته- عليه الصلاة والسلام-. ووضع الظاهر موضع المضمر وكأنه يقول: وأعتدنا لهم، إشعارا بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى، ومن كفر بنعمة الله وأهانها استحق عذابا مهينا.

والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس طلبا لمدحهم وخوفا من ذمهم، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، يتحرون بإنفاقهم مراضية، فالشيطان قرينهم لا يفارقهم، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا، فلما كان الشيطان قرينهم زين لهم التهالك على الأموال والرياء في الأعمال، وإنما أشرك أهل الرياء مع البخلاء في الوعيد من حيث إنهما طرفا تفريط وإفراط، وهما سواء في القبح واستجلاب الذم.

وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله أي: لا ملامة عليهم ولا تبعة تحيق بهم لو أخلصوا الإيمان وأنفقوا مما رزقهم الكريم المنان. قال البيضاوي: وفيه تنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطا، فكيف إذا تضمن **المنافع**. وإنما قدم الإيمان هاهنا وأخره في الآية الأخرى: لأن القصد بذكره هنا التخصيص، وثم التقليل. هـ. وكان الله بهم عليما لا يخفى عليه شيء من أمورهم وقصدهم.

الإشارة: قال بعض الصوفية: (من أقبح كل قبيح صوفي شحيح) ، فالصوفية العارفون- رضى الله عنهم- الذين هم صفوة العباد متخلقون بأضداد ما وسم به الحق- تعالى- أهل العناد، فهم يجودون بأنفسهم وما خصهم الله بهم من العلوم اللدنية والأسرار القدسية، على من يستحقه من أهل التخلية والتحلية، ويأمرون الناس بالسخاء ومكارم الأخلاق، ويتحدثون بما منحهم الملك الخلاق، ويظهرون الغنى بالله والاكتفاء به عن كل ما سواه، وإذا بذلوا أموالهم أعطوها لله وبالله ومن الله وإلى الله وابتغاء مرضاة الله، هجم عليهم اليقين، وتمكنوا من شهود رب العالمين، فلا يقرب ساحتهم الشيطان، ولا يرون في الدارين إلا الملك الديان، تحبهم ملائكة الرحمن، ويحن إليهم الأنس والجان. نفعنا الله بمحبتهم، وخرطنا في مسلكهم، آمين.

ثم رغب الحق- تعالى- فى الإنفاق مع الإخلاص، الذي هو عنوان الدين الخاص، فقال:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٢٧/١

[سورة النساء (٤) : آية ٤٠]

إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما (٤٠)

قلت: الذرة: النملة الصغيرة الحمراء. وتطلق على جزء من أجزاء الهباء. ومن نصب (حسنة) فخبر كان. وأنث الضمير باعتبار الخبر. أو لإضافة مثقال إلى ذرة، فاكتسب التأنيث، ومن رفع فهي تامة، وحذف نونها على غير قياس، تشبيها لها بحروف العلة. وضاعف وضعف بمعنى واحد.." [١]

"من النار

وقال في أصحاب المائدة: فإني أعذبه عذابا لآ أعذبه أحدا من العالمين. وقال: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، ولن تجد لهم نصيرا يمنعهم من ذلك العذاب. إلا الذين تابوا عن النفاق وأصلحوا ما أفسدوا في سرائرهم وأعمالهم في حال النفاق، واعتصموا بالله أي: وثقوا به وتمسكوا به، دون أحد سواه، وأخلصوا دينهم لله لا يريدون بطاعته إلا وجه الله، لا رياء ولا سمعة فأولئك مع المؤمنين في الدين. قال الفراء: من المؤمنين، وقال العتبي: حاد عن كلامهم غيظا عليهم، ولم يقل هم المؤمنون. هـ. قلت:

إنما قال: مع المؤمنين ولم يقل: منهم، لأن التخلص من النفاق صعب، ولا يكون من المؤمنين، حتى يتخلص من جميع شعبه، وهو عزيز، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاث من كن فيه فهو منافق، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» .

وسوف يؤت الله المؤمنين المخلصين أجرا عظيما فيساهمونهم فيه إن تابوا وأصلحوا، فإن الله غني عن عذابهم، ولذلك قال: ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم أي: لا حاجة له في عذابكم، فلا يشفى به غيظا ولا يدفع به ضررا، أو يستجلب به نفعا لأنه غني عن المنافع، وإنما يعاقب المصر بكفره، لأن إصراره عليه كسوء المزاج يؤدي إلى مرض، فإن زال بالإيمان والشكر، ونقى منه قلبه، تخلص من تبعته. وإنما قدم الشكر لإن الناظر يدرك النعم أولا فيشكر شكرا مبهما، ثم يمعن النظر حتى يعرف المنعم فيؤمن به. قاله البيضاوي. وقال الثعلبي: فيه تقديم وتأخير، أي إن آمنتم وشكرتم، لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان. وكان الله شاكرا لأعمال عباده، يقبل اليسير ويعطي الكثير، عليما بحقيقة شكرهم وإيمانهم، ومقدار أعمالهم، فيضاعفها على قدر تخليصها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا شيء أصعب على النفس من الإخلاص كلما اجتهد العبد في قطع الرياء نبت على لون آخر،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٠٤/١

فلا يتطهر العبد منها إلا بتحقيق الفناء والغيبة عن السوى بالكلية. كما قال الششترى رضي الله عنه:
طهر العين بالمدامع سكبا ... من شهود السوى تزل كل عله
قال بعضهم: [لا ينبت الإخلاص في القلب حتى يسقط من عين الناس، ويسقط الناس من عينه] . والإخلاص من أعمال القلوب، فلا يطلع عليه إلا علآم الغيوب. فلا يجوز أن يحكم على أحد بالرياء بمجرد ما يرى عليه من الإظهار، وقد تدخل الرياء مع الإسرار، وتتخلص من القلب مع الإظهار، وفي الحكم: «ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق إليك» . فإذا تخلص العبد من دقائق الرياء، وأصلح ما بينه وبين الله، واعتصم به دون شيء سواه، كان مع المخلصين المقربين فيكون عمله موفورا، وسعيه مشكورا. وبالله التوفيق.." (١)

"للعباد، من آذاهم لا يعاجل بالعقوبة غالبا، كما كان نبيهم رحمة للعالمين، فقال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» . والله تعالى أعلم.
ثم جدد الأمر بالاعتبار، فقال:

[سورة الأنعام (٦) : آية ١١]
قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١١)
قلت: قال الزمخشري: فإن قلت: أي فرق بين قوله: (فانظروا) ، وبين قوله: (ثم انظروا) ؟ فالجواب: أنه جعل النظر مسببا على السير فى قوله: انظروا، كأنه قال: سيروا لأجل النظر، وأما قوله: قل سيروا في الأرض ثم انظروا، فمعناه: إباحة السير للتجارة وغيرها من **المنافع**، وإيجاب النظر في الهالكين. هـ. ولم يقل: كانت لأن العاقبة مجاز تأنيثها.
يقول الحق جل جلاله: قل لهم: سيروا في الأرض وجولوا في أقطارها، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين قبلكم، كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين، كيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال، كي تعتبروا وتنزجروا عن تكذيب محمد- عليه الصلاة السلام-.
الإشارة: يقال لأهل التنكير على أهل الذكر والتذكير: سيروا في الأرض، وانظروا كيف كان عاقبة المنكرين على المتوجهين، كانت عاقبتهم الخذلان، وسوء الذكر بعد الموت والخسران كابن البراء وغيره من أهل التنكير.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٨١/١

نعوذ بالله من التعرض لمقت الله.

لكن الأمر كله بيد الله، كما قال تعالى:

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٢ الى ١٣]

قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون (١٢) وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم (١٣)

قلت: جملة (ليجمعنكم) : مقطوعة، جواب لقسم محذوف، وقيل: بدل من الرحمة، وهو ضعيف لدخول النون الثقيلة في غير موضعها. و «إلى» : هنا، للغاية، كما تقول: جمعت القوم إلى داري. وقيل: بمعنى «في» ، و (الذين خسروا) : مبتدأ، وجملة: (فهم لا يؤمنون) : خبر، و (له ماسكن) : عطف على (لله) ، وهو إما من السكنى فلا حذف، أو من السكون، فيكون حذف المعطوف. أي: ما سكن وتحرك.." [1]

"يقول الحق جل جلاله: قل لهم: لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا، فكيف أملك لكم ما تستعجلون من طلب العذاب؟ إلا ما شاء الله: لكن ما شاء الله من ذلك يكون، أو: لا أملك إلا ما ملكني ربي بمشيئته وقدرته، لكل أمة أجل مضروب إلى هلاكهم، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون عنه ساعة، ولا هم يستقدمون عنه، فلا تستعجلوا، فسيحين وقتكم وينجز وعدكم، قل أرأيتم إن أتاكم عذابه الذي تستعجلون بياتا أي: وقت بيات واشتغال بالنوم، أو نهارا حين تشتغلون بطلب معاشكم، ماذا يستعجل منه المجرمون؟ أي شيء من العذاب يستعجلونه وكله مكروه لا يلائم الاستعجال؟

وهو متعلق بأرأيتم، لأنه في معنى أخبروني، و «المجرمون» وضع موضع المضمر للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من مجيء العذاب، لا أن يستعجلوه. قاله البيضاوي.

أثم إذا ما وقع آمنتم به أي: أثم تؤمنون إذا وقع العذاب وعاينتموه، حين لا ينفعكم إيمانكم، آلآن أي: فيقال لكم الآن آمنتم حين فات وقته، وقد كنتم به تستعجلون تكذيبا واستهزاء، ثم قيل للذين ظلموا بعد هلاكهم: ذوقوا عذاب الخلد أي: العذاب المؤلم الذي تخلدون فيه، هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون من الكفر والمعاصي.

الإشارة: لا يشترط في الولي أن يكاشف بالأمور المغيبة حتى يحترز من المكاره أو يجلب **المنافع**، إذ لم يكن ذلك للنبي، فكيف يكون للولي؟ بل هو معرض للمقادير الجارية على الناس، يجري عليه ما يجري

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٠١/٢

عليهم، نعم..

باطنه محفوظ من السخط أو القنط، يتلقى كل ما يلقى إليه بالرضا والتسليم. فمن شرط ذلك فيه فهو محروم من بركة أولياء زمانه. والله تعالى أعلم.

ثم استخبروا عن العذاب أو الوحى، هل هو حق أم لا؟ كما قال تعالى:

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٥٣ الى ٥٤]

ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين (٥٣) ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون (٥٤)

قلت: (أحق) : مبتدأ، والضمير فاعله سد مسد الخبر، و (إي) : حرف جواب، بمعنى نعم، وهو من لوازم القسم، ولذلك يوصل بواوه، فيقال: إي والله، ولا يقال «إي» وحده.." [1]

"وأمارات تستدلون بها وتستنبطون منها. ثم قال: فالمراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم:

«أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله.» والمعنى: أكمل علما وعملا. هـ.

قال المحشي: ويتجه كون المعنى: أيكم أكثر شكرا لله على تمهيد تلك **المنافع** والمصالح. والشكر يشمل الطاعات القلبية والبدنية. ويحتمل أنه كآية: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون «١» . وأن بقاء الدنيا وخلقها إنما هو للتكليف، فإذا لم يبق في الأرض من يعبد الله انقضت الدنيا، وجاءت الساعة، كما تقتضيه الأحاديث الصحاح «٢» والمتبادر ما قدمناه، وحاصله: أنه خلق الأشياء من أجل ابن آدم، ولتدله على خالقه فيجني بها ثمار معرفته تعالى، ويعترف بشكره، وإفراد عبادته. وقد جاء. «خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي» .

قلت: فيكون المعنى: هو الذي أظهر الوجود من عرشه إلى فرشه، ليختبركم أيكم أحسن عملا بالاشتغال بالله، والعكوف في حضرته دون الوقوف مع ظاهر الكون، والاشتغال بحسه، مع كونه خلق من أجله. ثم قال: وقوله تعالى: (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ...) الآية، هو: تنبيه على أن إنكار الكفار للبعث بعد إقرارهم بأن الله تعالى خالق العالم، الذي هو أعظم من البعث، تناقض منهم لأن إقرارهم بقدرته على الأكبر، ثم إنكارهم لما هو أيسر تناقض هـ أي: ولئن ذكرت لهم البعث بعد الموت لقالوا ما هذا إلا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٧٨/٢

سحر ظاهر. أي: ما البعث أو القول به، أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان. وقرأ حمزة ساحر أي: القائل بهذا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في صحيح البخاري قال صلى الله عليه وسلم: «كان الله ولا شيء معه، وكان عرشه على الماء» الحديث.

فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الحق جل جلاله كان في أزله لا شيء معه، ثم أظهر الأشياء من نوره بنوره لنوره، فهو الآن على ما ك١ن عليه. وعن أبي رزين: قلنا: يا رسول الله! أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما فوقه هواء، وما تحته هواء، وخلق عرشه على الماء» «٣» والعماء هو: الخفاء، قال تعالى: فعميت عليهم الأنباء «٤» ، أي: خفيت. ويقال للسحاب عماء لأنه يخفى ما فيه، وقال الششتري: في المقاليد «٥» : كان في عمى، ما فوقه هواء وما تحته هواء. هي الوحدة المصمتة الصمدية، البحر الطامس «٦» الذي هو الأزل والأبد، فلم يكن موجود غير الوجود الذي هو هو. هـ.

---

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

(٢) ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض: الله الله» . أخرجه مسلم (كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان) .

(٣) أخرجه الترمذي فى سننه، (كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة هود) ، وحسنه. وأخرجه ابن ماجه (المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية) . قلت: وهذا من حديث الصفات. نؤ٥ن به ونكل علمه إلى الله تعالى.

(٤) من الآية: ٦٦ من سورة القصص.

(٥) اسمه كاملا: المقاليد الوجودية فى أسرار الصوفية.

(٦) يقال: طريق طامس، أي: بعيد لا مسلك فيه.." [١]

"«مثل ما بعثني الله به من الهدى ... » الحديث «١» ، فإنه يشهد لذلك التأويل. وتقدم له بنفسه في قوله: أأرباب متفرقون «٢» ما يشير إلى تفسير أهل الإشارة والرموز. وراجع ما تقدم لنا في خطبة الكتاب يظهر لك الحق والصواب.

قال البيضاوي: مثل الحق في إفادته وثباته، بالماء الذي ينزل من السماء، فتسيل به الأودية على قدر الحاجة

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥١٢/٢

والمصلحة، فتنفع به أنواع المنافع، ويمكث في الأرض، فيثبت بعضه في منابعه، ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والآبار، وبالفلز الذي ينتفع به في صوغ الحلي، واتخاذ الأمتعة المختلفة، ويدوم ذلك مدة متطاولة.

والباطل، في قلة نفعه وسرعة ذهابه، بزبدهما، وبين ذلك بقوله: فأما الزبد فيذهب جفاء، أي: مرميا به، من جفاه: رمى به وأبعده، أي: يرمى به السيل والفلز المذاب. هـ. وأما ما ينفع الناس كالماء، وخالص الذهب أو الحديد، فيمكث في الأرض لينتفع به أهلها. كذلك يضرب الله الأمثال لإيضاح المشكلات المعنوية، بالمحسوسات المرئية.

للذين استجابوا لربهم بالإيمان والطاعة، الحسنى أي: المثوبة الحسنى، أو الجنة. والذين لم يستجيبوا له من الكفرة لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من هول ذلك المطلع. أو:

يضرب الأمثال للذين استجابوا الاستجابة الحسنى، وللذين لم يستجيبوا له. ثم بين مثال غير المستجيبين بقوله:

لو أن لهم ... إلخ: أولئك لهم سوء الحساب أقبحة وأشده، وهو أن يناقش فيه، بأن يحاسب العبد على كل ذنب، ولا يغفر منه شيء، ومأواهم: مرجعهم جهنم وبئس المهاد الفراش والمستقر، والمخصوص محذوف، أي: هذا.

الإشارة: قد اشتملت الآية على ثلاثة أمثلة: مثال للعلم النافع، ومثال للعمل الخالص، وللحال الصافي. فمثل الحق تعالى العلم النافع بالمطر النازل من السماء، فإنه تحيا به الأرض، وتجري به الأودية والعيون والآبار، ويحبس في الخلجان والقدور لنفع الناس، وتتطهر به الأرض من الخبث لأنه ترمى به السيول فيذهب جفاء، كذلك العلم النافع تحيا به النفوس بعد الموت بالجهل والشك، وتحيا به الأرواح بعد موتها بالغفلة والحجاب، وتمتلئ به القلوب على قدر وسعها وسعتها، وعلى قدر ما قسم لهم من علم اليقين، أو عين اليقين، أو حق اليقين، وتتطهر به النفوس من البدع وسائر المعاصي.

---

(١) لفظ الحديث كاملا: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصابت أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء فنفع الله الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه الله به، فعلم وعلم. ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل

هدى الله الذي أرسلت به» أخرجه البخاري فى (العلم، باب فى من علم وعلم) ومسلم فى) الفضائل، باب بيان ما بعث النبي به من الهدى والعلم) من حديث أبى موسى رضى الله عنه.

(٢) من الآية ٤٠ من سورة يوسف.." [١]

"الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته، ووسعت كل شيء رحمته، فلم يشكروا ما أنعم به عليهم، وخصوصا إرسالك إليهم، وإنزال القرآن عليهم، الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية. قيل: نزلت في أبي جهل، وقيل: في قريش حين قالوا: لا نعرف الرحمن، والمعنى: أرسلناك إليهم رحمة لتتلو عليهم ما هو مناط الرحمة، وهم يكفرون بالرحمن-، والحال: أنهم يكفرون ببليغ الرحمة. قل هو ربي أي: الرحمن خالقي ومتولي أمري، لا إله إلا هو لا مستحق للعبادة غيره، عليه توكلت في أموري، ومن جملتها نصري عليكم. وإليه متاب مرجعي في أموري كلها، لا أرجع إلى أحد غيره، ولا أتعلق بشيء سواه.

الإشارة: قد بعث الله في كل عصر عارفا بالله يحيي به الدين، ويعرف الطريق إلى رب العالمين فالأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة، غير أنهم تارة يخفون لفساد الزمان، وتارة يظهرون رحمة للأنام. فإذا وقع الإنكار عليهم، أو استغرب وجودهم، يقال لهم: كذلك أرسلنا في كل أمة نذيرا، وداعيا، فإرسالكم أنتم وإظهاركم ليس ببدع، لتعلموا الناس ما أوحي إليكم من طريق الإلهام فإظهاركم رحمة، وهم يكفرون هذه النعمة. فاعتمدوا على الرحمن، وثقوا بالواحد المنان، وارجعوا إليه في كل حال وشأن. فمن توكل عليه كفاه، ومن التجأ إليه حماه.

ثم رجع إلى تتميم الجواب عن قول الكفار: (لولا أنزل عليه آية من ربه) ، فقال:

[سورة الرعد (١٣) : آية ٣١]

ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد (٣١)

قلت: جواب لو: محذوف، أي: لم يؤمنوا لسابق الشقاء، أو: لكان هذا القرآن، وسيأتي بيانه.

يقول الحق جل جلاله: ولو أن قرآنا أنزل عليك، من صفته: سيرت به الجبال أي: زعزعت عن مقارها، أو قطعت به الأرض: تصدعت وتشققت من خشية الله عند قراءته، أو: تشققت فجعلت أنهارا وعيونا، أو

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٩/٣

كلم به الموتى فتجيب من قبورها جهرا، لما آمنوا لعنادهم وغلبة الحسد عليهم. فهذا كقوله تعالى: ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا «١» ،

---

(١) من الآية ١١١ من سورة الأنعام.." (١)

"فيها أيضا منافع أخر كنسلها وظهورها. وإنما عبر **بالمنافع** ليتناول عوضها. ومنها تأكلون أي: تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان. ولكم فيها جمال أي: زينة وبهجة حين تريحون تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي، وحين تسرحون تخرجونها إلى المرعى بالغداة فإن الأفنية والمشارع والطرق تتزين بها في الذهاب والرواح، ويجل أهلها في أعين الناظرين إليها. وقدم الإراحة لأن الجمال فيها أظهر لأنها تقبل ملأى البطون، حاملة الضروع، ثم تأوي إلى الحظائر حاضرة لأهلها.

وتحمل أثقالكم: أحمالكم عليها من الأمتعة وغيرها إلى بلد بعيد، لم تكونوا بالغيه عليها، فضلا عن أن تحملوها على ظهوركم، إلا بشق الأنفس إلا بكلفة ومشقة فديحة، أو: إلا بذهاب شقها، أي: نصف قوتها من التعب. إن ربكم لرؤف رحيم حيث رحمكم بخلقها وذللها للحمل، والركوب عليها، وأنعم عليكم بالأكل من لحومها وألبانها.

وخلق لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوها، وتتزينوا بها زينة، أو للركوب والزينة.

قال البيضاوي: وتغيير النظم- أي: حيث لم يقل: وللزينة- لأن الزينة بفعل الخالق، والركوب من فعل المخلوق- أي: باعتبار الحكمة-، ولأن المقصود خلقها للركوب، وأما التزين بها فحاصل بالعرض. وقرئ بغير واو، فيحتمل أن يكون علة لركوبها، أو مصدرا في موضع الحال من الضمير، أي: متزينين، أو متزينا بها. واستدل به على حرمة لحومها، ولا دليل فيه إذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه، غالبا، ألا يقصد منه غيره أصلا، ويدل عليه أن الآية مكية. وعامة المفسرين والمحدثين أن الحمر الأهلية حرمت عام خيبر. هـ. ويخلق ما لا تعلمون مما لا يحيط البشر بعلمها من عجائب المخلوقات، وضروب المصنوعات، مما يؤكل ومما لا يؤكل، وما خلق في الجنة والنار، مما لا يخطر على قلب بشر.

وعلى الله قصد السبيل أي: وعلى الله بيان السبيل القصد، أي: الطريق الموصل إلى المقصود. أو: على الله تقويم طريق الهدى بنصب الأدلة وبعث الرسل، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: السبيل القصد، أي: القاصد المستقيم الموصل إلى المطلوب كأنه يقصد الوجه الذي يقصده السالك لا يميل عنه.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٨/٣

والمراد من السبيل: الجنس، ولذلك أضاف إليه القصد، وقال: ومنها جائر عن القصد، أو عن الله، كطريق اليهود والنصارى وغيرهم. والسبيل بمعنى الطريق، يذكر ويؤنث، وأنث هنا. وتغيير الأسلوب- أي: حيث لم يقل: قصد السبيل والجائر- لأنه ليس بحق على الله أن يبين طريق الضلالة، ولأن المقصود، بالأصالة، بيان سبيله، وتقسيم السبيل إلى القصد والجائر إنما جاء بالعرض. ولو شاء لهداكم أجمعين أي: ولو شاء هدايتكم أجمعين لهداكم إلى قصد السبيل، هداية مستلزمة للاهتداء. قاله البيضاوي.." (١)

"وألقى في الأرض رواسي جبالا رواسي أرست الأرض كراهة أن تميد بكم تميل وتضطرب لأن الأرض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة، وكان من حقها أن تتحرك كالسفينة على البحر، فلما خلقت الجبال تقاومت جوانبها بثقلها نحو المركز، فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة. وقيل: لما خلق الله الأرض جعلت تمور- أي: تتحرك- فقالت الملائكة: ما يستقر أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال.

وأنهارا أي: وجعل فيها أنهارا تطرد لسقي الناس والبهائم، وسائر **المنافع**، وذكره بعد الجبال لأن الغالب انفجارها منها، وسبلا أي: وجعل فيها طرقا لعلكم تهتدون لمقاصدكم، أو لمعرفة ربكم، بالنظر في دلالة هذه المصنوعات المتقدمة، على صانعها.

وجعل فيها علامات: معالم يستدل بها السابلة على معرفة الطرق من الجبال، والمناهل، والرياح، وغير ذلك، وبالنجم هم يهتدون إلى الطرق بالليل، في البراري والبحار، والمراد بالنجم: الجنس، بدليل قراءة: «وبالنجم» بضمتين على الجمع. وقيل: المراد: الثريا، والفرقدان وبنات نعش «١» ، والجدي. والضمير لقريش لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة، مشهورين بالاهتداء في مسايرهم بالنجوم، وإخراج الكلام عن سنن الخطاب، وتقديم النجم، وإقحام الضمير للتخصيص، كأنه قيل: وبالنجم خصوصا، هؤلاء خصوصا يهتدون، يعني: قريشا، فالاعتبار بذلك، والشكر عليهم ألزم لهم وأوجب عليهم. هـ. وأصله للزمخشري.

الإشارة: هو الذي أنزل من سماء الغيوب ماء، أي: علما لدنيا تحيا به القلوب، وتتطهر به النفوس من أدناس العيوب. لكم منه شراب، أي: خمرة تحيا بها الأرواح، وتغيب عن حضرة الأشباح، ويخرج منه على الجوارح أشجار العمل، تثمر بالأذواق، فيه تسيمون، أي: في أذواق العمل ترعون بنفوسكم وقلوبكم، ثم ترحلون عنه إلى حلاوة شهود ربكم، فمن وقف مع حلاوة العمل، أو المقامات أو الكرامات، بقي محجوبا عن ربه، وعليه نبه صاحب البردة بقوله:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/١١١

وراعها، وهي في الأعمال سائمة ... وإن هي استحلت المرعى فلا تسم

وقال في الحكم: «ربما وقفت القلوب مع الأنوار، كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار» .

وقال الششتري:

وقد تحجب الأنوار للعبد مثل ما ... تبعد «٢» من إظلام نفس حوت ضغنا.

---

(١) الفرقدان: نجمان فى السماء لا يغربان، انظر اللسان (فرقد) . وبنات نعش: سبعة كواكب، تشاهد جهة القطب الشمالي. انظر (المعجم الوسيط/ نعش) .

(٢) فى ديوان الششترى: تقيد.." [1]

"يقول الحق جل جلاله: ويعبدون من دون الله أي: غيره ما لا يملك لهم رزقا من السماوات بالمطر والأرض بالنبات، فلا يرزقونهم من ذلك شيئا ولا يستطيعون: لا يقدرون على شيء من ذلك لعجزهم، وهم الأصنام، فلا تضربوا لله الأمثال لا تجعلوا له أشباها تشركونهم به، أو تقيسونهم عليه، فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال، إن الله يعلم ألا مثل له، أو فساد ما يقولون عليه من القياس، وأنتم لا تعلمون ذلك، ولو علمتموه لما تجرأتم عليه، فهو تعليل للنهي، أي: إنه يعلم كنه الأشياء، وأنتم لا تعلمون، فدعوا رأيكم، وقفوا عند ما ما حد لكم.

الإشارة: كل من ركن إلى شيء دون الحق تعالى، أو اعتمد عليه في إيصال **المنافع** أو دفع المضار، تصدق عليه الآية، وتجر ذيلها عليه، فلا تجعلوا لله أمثالا تعتمدون عليهم وتركنون إليهم، فالله يعلم من هو أولى بالاعتماد عليه والركون إليه، وأنتم لا تعلمون ذلك، أو تعلمون ولا تعملون، ولقد قال من علم ذلك وتحقق به:

حرام على من وحد الله ربه ... وأفرده أن يجتدي أحدا رفدا

فيا صاحبي، قف بي على الحق وقفة ... أموت بها وجدا، وأحيا بها وجدا

وقل لملوك الأرض تجهد ... فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

قال سهل رضي الله عنه: «ما من قلب ولا نفس إلا والله مطلع عليه في ساعات الليل والنهار، فايما نفس أو قلب رأى فيه حاجة إلى غيره، سلط عليه إبليس» . وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه: من علامة المعرفة: ألا تسأل حوائجك، قلت أو كثرت، إلا من الله سبحانه، مثل موسى عليه السلام اشتاق

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/١١٥

إلى الرؤية، فقال: رب أرني أنظر إليك، واحتاج مرة إلى رغيف، فقال: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير. هـ. وقال في التنوير: اعلم، رحمك الله، أن رفع الهمة عن المخلوقين، وعدم التعرض لهم، أزين لهم من الحلي للعروس، وهم أحوج إليه من الماء لحياة النفوس ... إلخ كلامه رضي الله عنه.
ثم ضرب مثلا لنفسه، ولمن يعبد معه، فقال:

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٧٥ الى ٧٦]
ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (٧٥) وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم (٧٦)." (١)

"بها من غير حقيقة ولا تحقيق لمعناها، إن يقولون إلا كذبا: ما يقولون في ذلك إلا قولا كذبا، لا يكاد يدخل فيه إمكان الصدق أصلا.
الإشارة: من كملت عبوديته لله، وصار حرا مما سواه، بحيث تحرر من رق الأكوان، وأفضى إلى مقام الشهود والعيان، أنزل الله على قلبه علم التحقيق، وسلك به منهاج أهل التوفيق، منهاجا قيما، لا إفراط فيه ولا تفريط، محفوظا في باطنه من الزيغ والإلحاد، وفي ظاهره من الفساد والعناد، قد تولى الله أمره وأخذه عنه، فهو على بينة من ربه فيما يأخذ ويذر. فإن أذن له في التذكير وقع في مسامع الخلق عبارته، وجليت إليهم إشارته، فبشر وأنذر، ورغب وحذر، يبشر أهل التوحيد والتنزيه بنعيم الجنان، وبالنظر إلى وجه الرحمن، وينذر أهل الشرك بعذاب النيران، وبالذل والهوان، نعوذ بالله من موارد الفتن.
ولما كانت قريش تتفوه بشيء من هذه الكلمات، التي شنع الله على من تفوه بها، وكان عليه الصلاة والسلام يتأسف من ذلك، خفف عنه ذلك، وأمره بالتسلى عنهم، فقال:

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٦ الى ٨]
فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا (٦) إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا (٧) وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا (٨)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٤٩/٣

قلت: (أسفا) : مفعول من أجله لباخع، أو حال، أي: متأسفا، وجواب «إن» : محذوف، أي: إن لم يؤمنوا فلعلك باخع نفسك.

يقول الحق جل جلاله: فلعلك يا محمد باخع: مهلك نفسك وقاتلها بالغم والأسف على تخلف قومك عن الإيمان وفراقهم عنك، على آثارهم إذا تولوا عنك، عند ما تدعوهم إلى الله. شبهه، لأجل ما تداخله من الوجد على توليتهم، بمن فارقته أعزته، وهو يتحسر على آثارهم، ويبخع نفسه وجدا عليهم. إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أي: القرآن الذي عبر عنه في صدر السورة بالكتاب، صدر ذلك منك أسفا أي: بفرط الحزن والتأسف عليهم.

ثم علل وجه إدب ا رهم عن الإيمان، وهو اغترارهم بزهرة الدنيا، فقال: إنا جعلنا ما على الأرض من الأشجار والأزهار والثمار، وما اشتملت عليه من المعادن، وأنواع الملابس والمطاعم، والمراكب والمناكح، زينة لها أي: مبهجة لها، يستمتع بها الناظرون، وينتفعون بها مأكلا وملبسا، ونظرا واعتبارا، حتى إن الحيات والعقارب من حيث تذكيرها بعذاب الآخرة، من قبيل **المنافع**، بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على الصانع، وكذلك الأزواج والأولاد، بل هم من أعظم زينتها، داخلون تحت الابتلاء. جعلنا ذلك لنبلوهم:." (١)

"أنفه برة من ذهب «١»

» . وأن عمر رضى الله عنه- أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار «٢»

. وقيل: شعائر الله: مواضع الحج، كعرفة ومنى والمزدلفة. وتعظيمها: إجلالها وتوقيرها، والتقصد إليها. وقيل: الشعائر: أمور الدين على الإطلاق، وتعظيمها: القيام بها ومراعاة آدابها، فإنها أي: فإن تعظيمها من تقوى القلوب أي: من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات. أو فإن تعظيمها ناشىء من تقوى القلوب لأنها مراكز التقوى.

لكم فيها منافع من الركوب عند الحاجة، ولبنها عند الضرورة، إلى أجل مسمى إلى أن تنحر. ومن قال: شعائر الله: مواضع الحج، **فالمنافع**: التجارة فيها والأجر، والأجل المسمى: الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة.

ثم محلها منتهية إلى البيت العتيق، قال ابن جزي: من قال: إن الشعائر الهدايا، فمحلها موضع نحرها، وهي منى ومكة. وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم، وهو المقصود بالهدي. و «ثم» ، عىل هذا،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٤٧/٣

ليست للترتيب في الزمان لأن محلها قبل نحرها، وإنما هي لترتيب الجمل. ومن قال: إن الشعائر مواضع الحج، فمحلها مأخوذ من إحلال المحرم، أي: آخر ذلك كله: الطواف بالبيت، أي: طواف الإفاضة إذ به يحل المحرم. هـ. أي:

محل شعائر الحج كلها تنتهي إلى الطواف بالبيت، طواف الإفاضة. ومثله في الموطأ.

ولكل أمة جماعة مؤمنة قبلكم، جعلنا منسكا أي: متعبدا وقربانا يتقربون به إلى الله- عز وجل- والمنسك- بالفتح: مصدر، وبالكسر: اسم موضع النسك، أي: لكل جعلنا عبادة يتعبدون بها، أو موضع قربان، يذبحون فيه مناسكهم، ليذكروا اسم الله دون غيره، على ما رزقهم من بهيمة الأنعام أي: عند نحرها وذبحها، فإلهكم إله واحد أي: اذكروا على الذبائح اسم الله وحده فإن إلهكم إله واحد، فله أسلموا أي:

فإذا كان إلهكم إلها واحدا فأخلصوا له التقرب، أو الذكر خاصة، واجعلوه له سالما، لا تشوبوه بإشراك.

وبشر المخبتين المطمئنين بذكر الله، أو المتواضعين، أو المخلصين، فإن الإخبات من الوظائف الخاصة بهم.

والخبت: المطمئن من الأرض. وعن ابن عباس رضى الله عنه: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقيل:

تفسيره ما بعده، وهو قوله: الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم: خافت منه هيبة لإشراق أشعة جلاله عليها. والصابرين على ما أصابهم من مشاق التكاليف ومصائب الزمان والنوائب، والمقيمي الصلاة في أوقاتها، ومما رزقناهم ينفقون في وجوه الخيرات.

---

(١) البرة- بضم الموحدة-: الحلقة تجعل فى أنف الجمل، وكانوا يتخذونها من نحاس أو غيره، انظر اللسان (برى ١/ ٢٧٢) ، والحديث: أخرجه البيهقي فى دلائل النبوة (باب عدد حجات النبي صلى الله عليه وسلم ٥/ ٤٥٤) عن جابر رضى الله عنه. وفيه: «من فضة» ، بدلا من ذهب» .

(٢) أخرجه أبو داود فى (المناسك، باب تبديل الهدى) عن سالم عن أبيه.." (١)

"ثم ذكر دليلا آخر على قدرته، فقال:

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٦٣ الى ٦٥]

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٣٣/٣

ألم تر أن الله أنزل من السماء مآء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير (٦٣) له ما في السماوات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد (٦٤) ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤف رحيم (٦٥)

قلت: (فتصبح) : عطف على «أنزل» ، والعطف بالفاء أغنى عن الضمير، وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بتجدد أثر الإنزال، وهو الاخضرار واستمراره، أو لاستحضار صورة الاخضرار، وإنما لم ينصب جوابا للاستفهام لأنه لو نصب لبطل الغرض لأن معناه في الرفع إثبات الاخضرار، فينقلب في النصب إلى نفيه، كما تقول لصاحبك: ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر، إن نصبته نفيت شكره، وشكوت من تفريطه، وإن رفعته أثبت شكره.

يقول الحق جل جلاله: ألم تر يا محمد، أو يا من يسمع، أن الله أنزل من السماء ماء مطرا فتصبح الأرض مخضرة بالنبات، بعد ما كانت مسودة يابسة، إن الله لطيف بعباده، أو في ذاته لا يدرك، خبير بمصالح خلقه ومنافعهم، أو اللطيف المختص بدقائق التدبير، الخبير بكل جليل وحقير، قليل وكثير. له ما في السماوات وما في الأرض ملكا وملكا، قد أحاط بهم قدرة وعلما، وإن الله لهو الغني عن كل شيء، المفتقر إليه كل شيء، الحميد: المحمود بنعمته، قبل ثناء من في السموات والأرض عليه، أو المستحق للحمد، أعطى أو لم يعط.

ثم ذكر موجب الحمد من عباده، فقال: ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض من الأنعام لتأكلوا منها، ومن البهائم لتركبوها في البر، والفلك تجري في البحر بأمره: بقدرته وإذنه، أي: وسخر لكم المراكب حال كونها جارية في البحر بإذنه، ويمسك السماء أن تقع على الأرض أي: يحفظها من السقوط، بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك، إلا بإذنه: إلا بمشيئته، وذلك يوم القيامة، وفيه رد لا ستمساكها بذاتها فإنها مساوية لسائر الأجسام في الجسمية، فتكون قابلة للميل الهابط قبول غيرها. إن الله بالناس لرؤف رحيم حيث هيأ لهم هذه الأسباب لقيام معاشهم، وفتح لهم أبواب **المنافع**، ودفع عنهم أنواع المضار، فأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية، فله الحمد وله الشكر.." (١)

"الإشارة: أهل الغفلة والبعد لا يرجعون إلى الله في السراء ولا في الضراء لا نهماكهم في الغفلة والقساوة، وأهل اليقظة يرجعون إلى الله في السراء والضراء، في السراء بالحمد والشكر، وفي الضراء بالصبر والرضا والتسليم، مع التضرع والابتهال عبودية، والمقتصدون يرجعون إليه- تعالى- في الضراء، ويغفلون عن

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٥٥٠

الشكر في السراء، والأول ظالم لنفسه، والثاني سابق، والثالث مقتصد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته- تعالى- وفى ضمنه استدعاؤهم إلى الرجوع إليه تعالى بالشكر، فقال:

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٧٨ الى ٨٣]

وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون (٧٨) وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون (٧٩) وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون (٨٠) بل قالوا مثل ما قال الأولون (٨١) قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون (٨٢)

لقد وعدنا نحن وآباؤن ا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين (٨٣)

يقول الحق جل جلاله: وهو الذي أنشأ: خلق لكم السمع والأبصار لتشاهدوا بها عجائب مصنوعاته ودلائل قدرته، أو لتتوصلوا إلى شهود آياته الكونية والتنزيلية، والأفئدة لتتفكروا بها فيما تشاهدونه منها وتعتبروا، وخصها بالذكر لأنه يتعلق بها من المنافع مالا يتعلق بغيرها، وقدم السمع لأن أكثر العلوم إنما تنال به، قليلا ما تشكرون أي: شكرا قليلا غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة لأن العمدة في الشكر: صرف تلك القوى- التي هي في أنفسها نعم باهرة- إلى ما خلقت له، وأنتم تنتحلون بها ضلالا عظيما. وهو الذي ذرأكم في الأرض أي: خلقكم وبثكم فيها بالتناسل، وإليه تحشرون أي: تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم، فيجازيكم على إحسانكم وإساءتكم.

وهو الذي يحيي ويميت، من غير أن يشاركه في ذلك أحد ولا شيء من الأشياء، وله اختلاف الليل والنهار أي: المؤثر في اختلافهما، أفلا تعقلون فتعرفون بالنظر والتأمل أن الكل منا، وأن قدرتنا تعم جميع الممكنات، التي من جملتها البعث والحساب، وقرئ «يعقلون» بالغيب، على الالتفات لحكاية سوء حال المخاطبين، بل قالوا عطف على مضمر يقتضيه المقام، أي: فلم يعقلوا بل قالوا مثل ما قال الأولون أي: آباؤهم ومن دان دينهم، قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون، هو تفسير لما أبهم قبله، أي:

قالوا: أنبعث بعد هذه الحالة، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا البعث من قبل: متعلق بالفعل من حيث إسناده إلى آبائهم لا إليهم، أي: وعد هذا آباؤنا من قبل، أو حال من آبائنا، أي: كائنين من قبل، إن هذا أي:." (١)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٥٩٢

"ثم ضرب المثل لذلك النور، حين يقذفه في قلب المؤمن، فقال: مثل نوره أي: صفة نوره العجيبة في قلب المؤمن- كما هي قراءة ابن مسعود- كمشكاة أي: كصفة مشكاة، وهي الكوة في الجدار غير النافذة لأن المصباح فيها يكون نوره مجموعا، فيكون أزهر وأنور، فيها مصباح أي: سراج ضخم ثاقب، المصباح في زجاجة أي: في قنديل من زجاج صاف أزهر، الزجاجة من شدة صفائها كأنها كوكب دري بضم الدال وتشديد الراء، منسوب إلى الدر لفرط ضيائه وصفائه، وبالكسر والهمز: «أبو عمرو» على أنه يدرأ الظلام بضوئه. وبالضم والهمز: أبو بكر وحمزة، شبهه بأحد الكواكب الدراري، كالمشتري والزهرة ونحوهما.

توقد «١» بالتخفيف والتأنيث، أي: الزجاجة، أو يوقد بالتخفيف والغيب، أو: توقد بالتشديد، أي: المصباح من شجرة أي: من زيت شجرة الزيتون، أي: رويت فتيلته من زيت شجرة مباركة كثيرة **المنافع**، أو: لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين، وهي الشام، وقيل: بارك فيها سبعون نبيا، منهم إبراهيم عليه السلام.

زيتونة: بدل من شجرة، من نعتها لا شرقية ولا غربية أي: ليست شرقية فقط، لا تصيبها الشمس إلا في حالة الشروق، ولا غربية، لا تصيبها إلا في حال الغروب، بل هي شرقية غربية، تصيبها الشمس بالغداة والعشي، فهو أنضر لها، وأجود لزيتونها. وقيل: ليست من المشرق ولا من المغرب، بل في الوسط منه، وهو الشام، وأجود الزيتون زيتون الشام.

يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار هو في الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضيء بنفسه من غير مساس نار أصلا. نور على نور أي: نور المصباح متضاعف على نور الزيت الصافي، فهذا مثال النور الذي يقذفه الله في قلب المؤمن فالمشكاة هو الصدر، والمصباح نور الإيمان أو الإسلام أو الإحسان، على ما تقدم، والزجاجة هو القلب الصافي، ولذلك شبهه بالكوكب الدري، والزيت هو العلم النافع الذي يقوي اليقين. ولذلك وصفه بالصفاء والإنارة. يكاد صاحبه تشرق عليه أنوار الحقائق، ولو لم يمسسه علمها. نور على نور أي: نور الإيمان مضاف إلى نور الإسلام، أو نور الإحسان مضاف إلى نور الإيمان والإسلام،

---

(١) قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، بياء من تحت مضمومة، مع إسكان الواو، وتخفيف القاف، ورفع الدال، على التذكير، مبنيا للمفعول من «أوقد» أي: المصباح. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب، بتاء من فوق، وفتح الواو والدال، وتشديد القاف، على وزن «تفعل» فعلا ماضيا، فيه ضمير يعود على

المصباح. وقرأ أبو بكر، وحمزة، والكسائي، بالتاء من فوق، مضمومة، وإسكان الواو، وتخفيف القاف، ورفع الدال، على التأنيث، مضارع «أوقد» مبنى على المفعول. ونائب الفاعل ضمير يعود على «زجاجة» . انظر الإتحاف (٢/ ٢٩٨) .." (١)

"إن كاد ليضلنا عن آلهتنا أي: ليصرفنا عن عبادتها صرفا كليا، والعدول إلى الإضلال لغاية ضلالتهم بادعاء أن عبادتها طريق سوي. لولا أن صبرنا عليها لصرفنا عنها، وهو دليل على مجاهدة الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوتهم، وإظهار المعجزات لهم، حتى شارفوا أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم وتقليدهم.

قال تعالى: وسوف يعلمون حين يرون العذاب الذي يستوجبه كفرهم وعنادهم، من أضل سبيلا، وأخطأ طريقا. وفيه ما لا يخفى من الوعيد والتنبيه على أنه تعالى يمهل ولا يهمل.

أرأيت من اتخذ إلهه هواه أي: أطاع هواه فيما يذر ويفعل، فصار معبوده هواه، يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: هذا الذي لا يرى معبوده إلا هواه، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى وتهديه إليها؟ يروى أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر، فإذا مر بحجر أحسن منه تركه وعبد الثاني. وقال الحسن: هو في كل متبع هواه. أفأنت تكون عليه وكيلا حفيظا تحفظه عن متابعة هواه وعبادة ما يهواه. والفاء لترتيب الإنكار على ما قبله، كأنه قيل: أبعد ما شاهدت من غلوه في طاعة الهوى، وعتوه عن اتباع الهدى، تقهره على الإيمان، شاء أو أبى، وإنما عليك التبليغ فقط.

أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، «أم» : منقطعة، بمعنى بل، أي: بل أتظن أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات حق السماع، أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ والأنكال؟ إن هم إلا كالأنعام أي: ما هم، في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات، وانتفاء التأثير بما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات، إلا كالبهائم، التي هي غاية في الغفلة، ومثل في الضلالة، بل هم أضل سبيلا لأن البهائم تنقاد لصاحبها الذي يعلفها ويتعاهدها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وتهتدي لمراعيها ومشاربها، وتأوي إلى معاطنها، وهؤلاء لا ينقادون لخالقهم ورازقهم، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، الذي هو أعدى عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم **المنافع**، ولا يتقون العقاب الذي هو أقبح المضار والمعاطب، ولا يهتدون إلى الحق، الذي هو الشرع الهني، والمورد العذب الروي، ولأنها، إن تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير، لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراب الشر،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٢/٤

بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل، وفرعوا أحكام الشرور، ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة عليها، لا تتعدى إلى أحد، وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفساد، وصد الناس عن سنن السداد، وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال، لعدم القوى العقلية، فلا تقصير من قبلها، ولا ذم، وهؤلاء متمكنون من القوى العقلية مضيعون الفطرة الأصلية، مستحقون بذلك أعظم العقاب، وأشد النكال. هـ. وأصله للبيضاوي.." (١)

"ثم عدد سبحانه الخيرات **والمنافع**، الدالة على انفراده بالخيرية، فقال: أمن خلق السماوات والأرض، «أم» هنا: منقطعة، بخلاف أما يشركون أي: بل أمن خلق العالم العلوي والسفلي، وأفاض من كل واحد ما يليق به من الخيرات، خير، أم جماد لا يقدر على شيء؟ فمن: مبتدأ، وخبرها: محذوف مع «أم» المعادلة للهمزة، كما قررنا.

وأنزل لكم من السماء ماء. مطرا فأنبتنا، التفت من الغيبة إلى التكلم تأكيدا لمعنى اختصاص الفعل به تعالى، وإيذانا بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان، والطعوم والأشكال، مع بهجتها، بماء واحد، لا يقدر عليه غيره، أي: فأخرجنا به حدائق: بساتين، فالحديقة: بستان عليه حائط، من: الإحداق، وهو الإحاطة، ذات بهجة أي: ذات حسن ورونق، تبتهج به النظار، ولم يقل: ذوات لأن المعنى: جماعة حدائق، كما تقول: النساء ذهبت. ما كان لكم ما صح وما أمكن لكم أن تنبتوا شجرها فضلا عن ثمارها وسائر صفاتها البديعة المبهجة، أإله مع الله؟ أي: أإله كائن مع الله، الذي ذكرت أفعاله، التي لا يقدر عليها غيره، حتى يتوهم جعله شريكا له تعالى في العبادة؟ أو: أإله مع الله يفعل ذلك؟ بل هم قوم يعدلون:

بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية، والانحراف عن الاستقامة في كل أمر من الأمور، فلذلك يفعلون ما يفعلون من الإشراك والجرائم، أو: يعدلون به غيره فيشركونه معه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قل الحمد لله، الذي كشف الحجب عن قلوب أوليائه، وسلام على عباده الذين اصطفاهم لحضرته، آلله خير، أي: أشهود الله وحده في الوجود خير، أم شهود الغير معه؟، فتشركون في توحيدكم. أمن خلق سموات أرواحكم، وهيأها لشهود الربوبية، وخلق أرض نفوسكم، وهيأها لآداب العبودية، وأنزل لكم من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية، فأنبتنا به في قلوب العارفين بساتين المعرفة، ذات بهجة ونزهة؟ ما كان لكم، وفي طوقكم، أن تنبتوا في قلوبكم شجر المعرفة، ولا ثمار المحبة، أإله مع الله يمن عليكم بذلك؟، بل هم قوم يعدلون عن طريق الوصول إلى هذه البساتين البهية لأنها محفوفة بالمكاره النفسية، لا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة 4/١٠٣

يقدر على سلوكها إلا الشجعان، أهل الهمم العلية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نوعا آخر من دلائل توحيده، فقال:

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦١]

أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون (٦١)." (١)

"تتصرفون فيه، كما قال: بليل تسكنون فيه، بل ذكر الضياء، وهو ضوء الشمس لأن **المنافع** التي تتعلق به متكاثرة، وليس هو التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس هو بتلك المنزلة، ومن ثم قرن بالضياء. أفلا تسمعون لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر، من ذكر منافعه، ووصف فوائده، وقرن بالليل أفلا تبصرون لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه.

ومن رحمته تعالى جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه في الليل ولتبتغوا من فضله بالنهار بأنواع المكاسب. وهو من باب اللف والنشر. وقال الزجاج: يجوز أن يكون معناه: لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من الله فيهما، ويكون المعنى: جعل لكم الزمان ليلا ونهارا لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون أي: ولكي تعرفوا نعمة الله فى ذلك فتشركوه عليها.

ثم قرعهم على الإشراك، بعد هذا البيان التام، بقوله: ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعم ون، وكرر التوبيخ على الشرك ليؤذن ألا شيء أجلب لغضب الله تعالى من الإشراك به، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده. وقال القرطبي: أعاد هذا لاختلاف الحالين، ينادون مرة، فيدعون الأصنام فلا تستجيب لهم، فيظهر كذبهم. ثم ينادون مرة أخرى فيسكنون، وهو توبيخ وزيادة خزي. ثم طرق كون المناداة من الله، أو ممن يأمره بذلك، لقوله: ولا يكلمهم الله «١» ، ويحتمل: ولا يكلمهم بعد قوله: اخسؤا فيها ولا تكلمون «٢» أو: ولا يكلمهم كلام رضا. هـ «٣» .

ونزعنا وأخرجنا من كل أمة شهيدا، وهو نبيهم، يشهد عليهم بما كانوا عليه لأن الأنبياء شهداء على أممهم، فقلنا للأمم: هاتوا برهانكم على صحة ما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول، فعلموا حينئذ أن الحق لله في الألوهية، لا يشاركه فيها غيره، وضل عنهم غاب غيبة الشيء الضائع ما كانوا يفترون من ألوهية غير الله وشفاعة أصنامهم. والله تعالى أعلم.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٠٧/٤

الإشارة: دوام ليل القبض يمحق البشرية، ودوام نهر البسط يطغي النفس، وتخالفهما على المريد رحمة، وإخراجه عنهما عناية، وفي الحكم: «بسطك كي لا يتركك مع القبض، وقبضك كي لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه» . وقال فارس رضي الله عنه: القبض أولا، ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقعان في الوجود، وأما مع الفناء والبقاء فلا. هـ.

---

(١) من الآية ١٧٤ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٠٨ من سورة المؤمنون.

(٣) بتصرف.." (١)

"قربهم وحضورهم مثل العامل في ليلة القدر، العمل فيها، لمن وافقها، خير من ألف شهر. وقد قال بعض العلماء:

كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر. هـ. منه.

ثم ذكر دلائل قدرته تتميما لقوله: إن ذلك على الله يسير، فقال:

[سورة فاطر (٣٥) : آية ١٢]

وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١٢)

يقول الحق جل جلاله: وما يستوي البحران في العذوبة والملوحة، بل هما مختلفان، والماء واحد، هذا عذب فرات أي: شديد العذوبة. وقيل: هو الذي يكسر العطش لشدة برودته، سائغ شرابه أي:

سهل الانحدار، مريء، لعذوبته، وهذا ملح أجاج شديد الملوحة، وقيل: الذي تحرق ملوحته. ومن كل أي: من كل واحد منهما تأكلون لحما طريا، وهو السمك، وتستخرجون حلية وهي اللؤلؤ والمرجان. قيل: من الملح فقط. وقيل: منهما. قال بعضهم: نسب استخراج الحلية إليهما لأنه تكون في البحر عيون عذبة، تمتزج بماء الملح، فيكون اللؤلؤ من ذلك هـ. تلبسونها أي: نساؤكم لأن القصد بالتزين هو الرجال.

وترى الفلك السفن، فيه مواخر شواق للماء بجريها، يقال: مخرت السفينة الماء: شقته، وهي جمع ماخرة، لتبتغوا من فضله من فضل الله، ولم يتقدم له ذكر في الآية ولكن فيما قبلها، ولو لم يجر له ذكر، لم يشكل

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٧٣/٤

لدلالة المعنى عليه. ولعلكم تشكرون الله على ما أولاكم من فضله.

وقيل: هو ضرب مثل للكافر والمؤمن، فالمؤمن، يجري عذب فرات، والكافر ملح أجاج. ثم ذكر- على سبيل الاستطراد- ما يتعلق بالبحرين من نعم الله وعطائه. ويحتمل أن يكون على غير الاستطراد، وهو أن يشبه الجنسين، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر، وهو ما خص به من **المنافع**، كاستخراج اللؤلؤ، والمرجان، والسمك، وجري الفلك فيه، وغير ذلك. والكافر خلو من **المنافع** بالكلية، فهو على طريقة قوله تعالى: ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ثم قال: وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار.. «١» .

---

(١) الآية ٧٤ من سورة البقرة.." [١]

"ليأكلوا من ثمره أي: من ثمر الله، أي: ليأكلوا مما خلق الله تعالى من الثمر، أو: من ثمرة، يخلقها الله من ذلك، على قراءة الأخوين «١» . وما عملته أيديهم أي: ومما عملته أيديهم من الغرس، والسقي، والتلقيح، وغير ذلك، مما تتوقف عليه في عالم الحكمة، إلى أن يبلغ الثمر منتهاه. يعني: أن الثمر في نفسه فعل الله، وفيه آثار من عمل ابن آدم، حكمة، وتغطية لأسرار الربوبية. وأصله: من ثمرنا، كما قال: وجعلنا وفجرنا، فالتفت إلى الغيبة. ويجوز أن يرجع الضمير إلى النخيل، ويترك الأعناب غير مرجوع إليها لأنه علم أنها في حكم النخيل. وقيل: «ما» نافية، على أن الثمرة خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس، ولا يقدرون عليه. أفلا يشكرون الله على هذه النعم الجسيمة، وهو حث على الشكر.

سبحان الذي خلق الأزواج الأصناف كلها مما تنبت الأرض من النخيل، والشجر، والزرع، والثمار، كيف جعلها مختلفة في الطعوم، والروائح، والشكل، والهيئة، واختلاف أوراق الأشجار، وفنون أغصانها، وأصناف نورها وأزهارها، واختلاف أشكال ثمارها، في تفردها واجتماعها، مع ما بسط فيها من الطبائع الأربع من الحرورة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، وما فيها من **المنافع** المتنوعة. ومن أنفسهم الأولاد ذكورا وإناثا، ومما لا يعلمون من أصناف لم يطلعهم الله عليها، ولم يتوصلوا إلى معرفتها، ففي البحار عجائب لا يعلمها الناس. قال تعالى: ويخلق ما لا تعلمون «٢» . وفائدة التنزيه: نفي تشبيه الذات بشيء من هذه الأزواج.

والله تعالى أعلم.

قال القشيري: والعجب ممن ينكر أصول الدين، ويقول: ليس في الكتاب عليه دليل، وأكثر ما في القرآن من الآيات تدل على سبيل الاستدلال، ولكن يهدي لنوره من يشاء، ولو أنهم أنصفوا واشتغلوا بأهم شيء

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/٥٢٦

لهم ما ضيعوا أصول الدين، ورضوا فيها بالتقليد، وادعوا في الفروع رتبة الإمامة والتصدير، وفي معناها قيل:

يا من تصدر في دست «٣» الإمامة من ... مسائل الفقه إملاء وتدريسا

غفلت عن حجج التوحيد تحكمها ... شيدت فرعا وما مهدت تأسيسا! هـ

قلت: وحاصله: مدح علم الأصول وترك علم أصل الأصل، وهو علم التوحيد الخاص، أعني الشهود والعيان. وقد قلت في ذلك، تذليلا:

---

(١) قرأ حمزة والكسائي (من ثمر) بضم المثلثة والميم. وهى إما جمع «ثمرة» مثل: خشبة وخشب. وإما جمع ثمار، وثمار جمع ثمرة، فيكون جمع الجمع. انظر: شرح الهداية للمهدوى (٢/ ٢٨٥) ، وإتحاف فضلاء البشر (٢/ ٢٥) .

(٢) من الآية ٨ من سورة النحل.

(٣) الدست: صدر البيت.." [1]

"ثم ذكرهم بالنعم، عليهم ينقادوا بملاطفة الإحسان فقال:

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧١ الى ٧٣]

أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون (٧١) وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون (٧٢) ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (٧٣)

يقول الحق جل جلاله: أولم يروا أي: أعملوا ولم يعلموا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أي: أظهرته قدرتنا، ولم يقدر على إحداثه غيرنا. وذكر الأيدي، وإسناد العمل إليها، استعارة، تفيد مبالغة في الاختصاص والتفرد بالإيجاد، أنعاما، خصها بالذكر لما فيها من بدائع الحكمة **والمنافع** الجمة. فهم لها مالكون أي: خلقناها لأجلهم، فملكناها إياهم، فهم يتصرفون فيها تصرف المالك، مختصون بالانتفاع بها. أو:

فهم لها حافظون قاهرون.

وذللناها لهم وصيرناها منقادة لهم. وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله وتسخيره لها. وبهذا أمر الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبح بقوله: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين «١» فمنها ركوبهم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/٥٦٨

أي: مركوبهم، وهو ما يركب منها، وقرىء بضم الراء، أي: ذو ركوبهم. أو: فمن منافعها ركوبهم. ومنها يأكلون ما يأكلون لحمه، أي: سخرناها لهم ليركبوا ظهرها ويأكلوا لحمها. ولهم فيها منافع من الجلود، والأوبار، والأصواف، وغير ذلك، ومشارب من اللبن، على تلونه من المضروب وغيره، وهو جمع: مشرب، بمعنى: موضع الشرب. أو: المصدر، أي: الشرب. أفلا يشكرون نعم الله في ذلك؟ إذ لولا إيجاده إيها لها ما أمكن الانتفاع بها.

الإشارة: قوم نظروا إلى ما من الله إليهم من المبرة والإكرام، فانقادوا إليه بملاطفة الإحسان، فعرفوا المنعم، وشكروا الواحد المنان، فسخر لهم الكون وما فيه، وقوم لم ينجع فيهم سوابغ النعم، فسلط عليهم المصائب والنقم، فانقادوا إليه قهرا بسلاسل الامتحان، «عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل» «٢» ، وكل هؤلاء سبقت لهم

---

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف.

(٢) لفظ حديث، أخرجه البخاري فى (الجهاد، باب الأسارى فى السلاسل، ح ٣٠١٠) من حديث سيدنا أبى هريرة رضي الله عنه.." [١]

"من صلبه ألف نبي، أولهم يعقوب، وآخرهم عيسى عليه السلام. ومن ذريتهما أي: إبراهيم وإسحاق، وليس لإسماعيل هنا ذكر، استغناء بذكر ترجمته في مريم «١» ، محسن مؤمن وظالم لنفسه بالكفر مبين ظاهر كفره. أو: محسن إلى الناس، وظالم لنفسه بتعديه عن حدود الشرع.

وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر، فقد يلد البر الفاجر، والفاجر البر. وهذا مما يهدم الطبائع والعناصر، وتنبيه على أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعيب، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله، ويعاقب بما كسبت يداه، لا على ما وجد من أصله وفرعه. قاله النسفي. قلت: قاعدة «العرق نزاع» أغلبية، لا كلية. وقيل: هو حديث، فيكون أغلبيا، فالشجرة الطيبة لا تنبت في الغالب إلا الطيب، إلا لعارض، والشجرة الخبيثة لا تجد فروعها إلا مثلها، إلا لسبب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: البشارة الكبيرة، والبركة العظيمة، إنما تقع في الغالب بعد الامتحان الكبير، فبقدر الامتحان يكون الامتكان، ويقدر الجلال يعظم الجمال، فإن مع العسر يسرا. فبقدر الفقر يعقب الغنى، وبقدر الذل يعقب العز، إن كان في جانب الله. وقس على هذا.. ويسري ذلك في العقب، كما هو مشاهد في عقب

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٨٤/٤

الصالحين والعلماء والأولياء. وبالله التوفيق.

ثم ذكر موسى وهارون، فقال:

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١١٤ الى ١٢٢]

ولقد مننا على موسى وهارون (١١٤) ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم (١١٥) ونصرناهم فكانوا هم الغالبين (١١٦) وآتيناهما الكتاب المستبين (١١٧) وهديناهما الصراط المستقيم (١١٨)

وتركنا عليهما في الآخرين (١١٩) سلام على موسى وهارون (١٢٠) إنا كذلك نجزي المحسنين (١٢١) إنهما من عبادنا المؤمنين (١٢٢)

يقول الحق جل جلاله: ولقد مننا أنعمنا على موسى وهارون بالنبوة وغيرها من **المنافع** الدينية والدنيوية، ونجيناهما وقومهما بني إسرائيل، من الكرب العظيم من الغرق والدهش الذي

---

(١) في قوله تعالى: واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا الآيتان: ٥٤- ٥٥.." [1]

"قيل: لما نفى التسوية بين الصالح المتقي، والمفسد الفاجر، بين ما تحصل به لمتبعيه السعادة الأبدية، ويحصل به الصلاح التام، والتقوى الكاملة. وهو كتاب الله فقال جل جلاله: هذا كتاب وهو القرآن أنزلناه إليك مبارك كثير **المنافع** الدينية والدنيوية، أنزلناه ليدبروا آياته أي: ليتفكروا في آياته، التي من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع، فيعرفوا ما في ظاهرها من المعاني الفائقة، والتأويلات اللائقة.

وقرىء: لتدبروا على الخطاب «١» ، أي: أنت وعلماء أمتك، بحذف إحدى التاءين. وليتذكر أولوا الألباب أي: وليتعظ به ذوو العقول الصافية، السليمة من الهوى، فيقفوا على ما فيه، ويعملوا به، فإن الكتب الإلهية ما نزلت إلا ليتدبر ما فيها، ويعمل به. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان، لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده. هـ.

الإشارة: كتاب الله العزيز بطاقة من عند الملك، والمراد من البطاقة فهم ما فيها، والعمل به، لا قراءة حروفها ورسومها فقط، فمن فعل ذلك فهو مقصر.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٦١٥/٤

وذكر في الإحياء أن آداب القراءة عشرة، أي: الآداب الباطنية:
الأول: فهم عظمة الكلام وعلوه، وفضل الله سبحانه بخلقه، في نزوله عن عرش جلاله، إلى درجة أفهام خلقه، فلولا استتار كنه جلال كلام الله تعالى، بكسوة الحروف، لما ثبت لكلام الله عرش ولا ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه، ولولا تثبيت الله موسى عليه السلام ما أطاق سماع كلامه، كما لم يطق الجبل مبادر نوره.
الثاني: تعظيم المتكلم به، وهو الله سبحانه، فيخطر في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن في تلاوة كتابه غاية الخطر، ولهذا كان عكرمة إذا نشر المصحف غشي عليه.
الثالث: حضور القلب، وترك حديث النفس، فإذا قرأ آية غافلا أعادها.
الرابع: التدبر، وهو وراء الحضور، فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن. ولكنه مقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره. قال على رضي الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها.
الخامس: التفهم «٢» ، وهو أن يستوضح كل آية ما يليق بها إذ القرآن مشتمل على ذكر صفات الله تعالى، وذكر أفعاله، وذكر أحوال أنبيائه- عليهم السلام-، وذكر أحوال المكذبين، وكيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن» ، أي: فإنه مشتمل على فعل الله، وصفاته، وكشف أسرار ذاته، لمن تأمله حق تأمله.

---

(١) وبذلك قرأ أبو جعفر.. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٤٢١) .
(٢) فى الأصول [التفهيم] والمثبت هو الذي فى الإحياء.." [(١)]
"ثم بين فريقى الاختصام، فقال:

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٣٢ الى ٣٥]
فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين (٣٢) والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون (٣٣) لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين (٣٤) ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون (٣٥)
يقول الحق جل جلاله: فمن أظلم ممن كذب على الله بأن أضاف إليه الشريك والولد، فإنه لا أحد أظلم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٣/٥

منه إذ هو أظلم من كل ظالم. وكذب بالصدق أي: الأمر الذي هو نفس الصدق وعين الحق، وهو ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عند الله إذ جاءه أي: كذب في أول مجيئه، من غير تأمل فيه ولا تدبر، أليس في جهنم مثوى للكافرين؟ أي: لهؤلاء الذين افتروا على الله، وسارعوا إلى التكذيب بالصدق، فأظهر موضع الإضمار تسجيلا وإيذانا بعلة الحكم الذي استحقوا به جهنم، والجمع باعتبار معنى" من"، كما أن الإفراد في الضمائر السابقة باعتبار لفظها، أو: لجنس الكفرة، وهم داخلون في الكفر دخولا أولياء.

والذي جاء بالصدق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وصدق به: وهم المؤمنون، أي: والفوج، أو: الفريق الذي جاء بالصدق، والفريق الذي صدق به. أولئك هم المتقون: المنعوتون بالتقى، [التي] «١» هي أجل الرغائب.

وقرىء «صدق» بالتخفيف «٢» ، أي: صدق به الناس، فأداه إليهم كما أنزل عليه، من غير تغيير، وقيل: صار صادقا بسببه لأن ما جاء به من القرآن معجزة دالة على صدقه صلى الله عليه وسلم.

لهم ما يشاؤن عند ربهم: هو بيان لما لهم في الآخرة من حسن المآب، بعد بيان مالهم في الدنيا من محاسن الأعمال، أي: لهم ما يشاءونه من جلب المنافع ودفع المضار، وتوالي المسار في الآخرة، لا في الجنة فقط

---

(١) فى الأصول [الذي] .

(٢) وبه قرأ أبو صالح، وعكرمة بن سليمان، ومحمد بن حجازة. انظر: مختصر ابن خالويه (ص ١٣٢) ، والمحتسب (٢/ ٢٣٧) .." [1]

"الإشارة: فاصبر أيها المتوجه إلى الله على الأذى وحمل الجفاء، فإما أن ترى ما وعد أهل الإنكار على الأولياء، من التدمير، وقطع الدابر، في حياتك، أو يلحقهم بعد موتك. ولقد أوذي من قبلك، منهم من عرفت ومنهم من لم تعرف، وما صح لأحد منهم أن يظهر كرامة إلا بإذن الله، فإذا جاء أمر الله وقامت القيامة، قضي بالحق، فيرتفع أهل الصبر من المقربين، في أعلى عليين، وينخفض أهل الإذاية في أسفل سافلين.

ثم ذكرهم بالنعم الحسية، فقال:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٧٧/٥

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٧٩ الى ٨١]

الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون (٧٩) ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون (٨٠) ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون (٨١)

يقول الحق جل جلاله: الله الذي جعل خلق لكم الأنعام الإبل لتركبوا منها، ومنها تأكلون أي: لتركبوا بعضها، وتأكلوا بعضها، وليس المراد: أن الركوب والأكل مختص ببعض معين منها، بحيث لا يجوز تعلقه بالآخر، بل على أن بعضا منها صالح لكل منهما. ولكم فيها منافع أخر غير الركوب، كألبانها وأوبارها وجلودها، ولتبلغوا عليها حاجة أي: ما تحتاجون إليه من حمل أثقالكم من بلد إلى بلد، في صدوركم في قلوبكم، وعليها وعلى الفلك تحملون أي: وعليها في البر، وعلى الفلك في البحر تحملون، ولعل المراد به: حمل النساء والولدان عليها بالهودج، وهو السر في فصله عن الركوب. والجمع بينها وبين الفلك في الحمل لما بينهما من المناسبة، حتى سميت الإبل: سفائن البر.

وقيل: المراد بالأنعام: الأزواج الثمانية، على أن المعنى: لتركبوا بعضها، وهي الإبل، وتأكلوا بعضها، وهي الغنم والبقر، فذكر ما هو الأهم من كل، والمنافع تعم الكل، وبلوغ الحاجة تعم الإبل والبقر. وقال الثعلبي: التقدير:

لتركبوا منها بعضا، ومنها تأكلون، فحذف «بعضا» للعلم به.

يريكم آياته

دلائله الدالة على قدرته ووفور رحمته، أي آيات الله

أي: فأي آية من تلك الآيات الباهرةنكرون

؟ فإن كلا منها من الظهور بحيث لا يكاد يجترىء على إنكارها من له عقل فى الجملة. وإضافة آية إلى الإسم الجليل لتربية المهابة، وتهويل إنكارها، و «آيات» نصب بتنكرون، وتذكير «أي» مع." (١)

"إن الذين كفروا بالذكر القرآن لما حين جاءهم مخلدون في النار، أو: هالكون، أو:

معاندون، فخبر «إن» محذوف، دل عليه ما قبله. وقيل: بدل من قوله: إن الذين يلحدون في آياتنا فخبر «إن» هو الخبر السابق، وقال عمرو بن العلاء: الخبر: أولئك ينادون «١» ، ورد بكثرة الفصل.

ثم فسر الذكر المذكور بقوله: وإنه لكتاب عزيز، منيع، محمي بحماية الله، لا تتأتى معارضته بحال، أو: كثير المنافع، عديم النظير، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أي: لا يتطرقه الباطل من جهة من

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥/١٥٥

الجهات، أو: لا يأتيه التبديل والتحريف، أو: التناقض بوجه من الوجوه، وأما النسخ فليس بمبطل للمنسوخ، بل هو:

انتهاء حكم إلى مدة وابتداء حكم آخر، خلافا لمن احتج بالآية على عدم النسخ في القرآن، انظر ابن عرفة.

تنزيل من حكيم حميد أي: تنزيل من حكيم محمود، ف «تنزيل» : خبر عن مضمر، أو: صفة أخرى لكتاب، مفيدة لفخامته الإضافية، كما أن الصلتين السابقتين، مفيدتان لفخامته الذاتية، كل ذلك لتأكيد بطلان الكفر به وبشاعة قبحه.

الإشارة: إن الذين يلحدون في آياتنا، فيطعنون في أوليائنا، الدالين علينا، لا يخفون علينا، وسيلقون في نار القطيعة والبعد مع عموم الخوف من هول المطلع، أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة؟ اعملوا ما شئتم من التسليم أو الانتقاد، وكل من لا يصحب الرجال لا يخلو خاطره من شك أو وهم في مواعيد القرآن، كالرزق وغيره، ينسحب عليه قوله: إن الذين كفروا بالذكر ... الآية، من طريق الإشارة. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: وإنه لكتاب عزيز قال الشيخ عبد الرحمن اللجاي في كتاب «قطب العارفين» : الكتاب عزيز، وعلم الكتاب أعز، والعلم عزيز، والعمل به أعز، والعمل عزيز، والذوق أعز، والذوق عزيز، والمشاهدة في الذوق أعز، والمشاهدة عزيزة، والموافقة في المشاهدة أعز، والموافقة عزيزة، والأنس في الموافقة أعز، والأنس عزيز، وآداب الأنس أعز. ثم قال: لكن لا يستنشق رائحة هذه المقامات من غلب جهله على علمه، وهواه على عقله، وسفهه على حلمه. هـ.

ثم سلى نبيه من تكذيب قومه، فقال:

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة فصلت.." (١)

"ثم حض على التمسك بكتابه لأنه جامع لما أنزل الله من كتاب، فقال

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ١٧ الى ١٩]

الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب (١٧) يستعجل بها الذين لا يؤمنون

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٨٣/٥

بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد (١٨) الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز (١٩)

يقول الحق جل جلاله: الله الذي أنزل الكتاب القرآن، أو: جنس الكتاب، بالحق ملتبسا بالحق في أحكامه وأخباره، أو: بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام، والميزان وأنزل العدل والتسوية بين الناس، أي: أنزله في كتبه المنزلة، وأمر به، أو: الشرع الذي يوزن به الحقوق، ويساوي بين الناس. وقيل: هو عين الميزان، أي: الآلة، أنزله في زمن نوح عليه السلام. وما يدريك أي شيء يجعلك عالما لعل الساعة التي أخبر بها الكتاب الناطق بالحق قريب مجيئها. وضمن الساعة معنى البعث فذكر الخبر، وقيل: وجه المناسبة في ذكر الساعة مع إنزال الكتاب: أن الساعة يقع فيها الحساب ووضع الموازين بالقسط، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية، والعمل بالشرائع، فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجئكم يوم حسابكم، ووزن أعمالكم.

يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها استعجال إنكار واستهزاء، والذين آمنوا مشفقون خائفون منها وجلون لهولها، ويعلمون أنها الحق الكائن لا محالة، ألا إن الذين يمارون في الساعة يجادلون فيها، من: المرية، أو: المماراة والملاحاة، أو: من: مريت الناقة: إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلا من المتجادلين يخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة. لفي ضلال بعيد عن الحق لأن قيام الساعة أظهر من كل ظاهر، وقد تواترت الشرائع على وقوعها، والعقول تشهد أنه لا بد من دار الجزاء، وإلا كان وجود هذا العالم عبثا.

الله لطيف بعباده أي: بربهم في إيصال **المنافع** ودفع المضار، أوصل لهم من فنون الألطاف ما لا تكاد تناله أيدي الأفكار والظنون. وقيل: هو من لطف بالغوامض علمه، وعظم عن الجرائم حلمه، أو: من ينشر المناقب." [١]

"والمباركة: الكثيرة الخير لما ينزل فيها من الخير والبركة، **والمنافع** الدينية والدنيوية، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن لكفى به بركة.

إنا كنا منذرين استئناف مبين لما يقتضي الإنزال، كأنه قيل: إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، فيها يفرق كل أمر حكيم استئناف أيضا مبين لسر تخصيص هذه الليلة بالإنزال، أي: إنما أنزلناه في هذه الليلة المباركة، لأنها فيها يفرق كل أمر حكيم، أي: ذي حكمة بالغة، ومعنى «يفرق» : يفصل ويكتب كل أمر من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم، من هذه الليلة إلى ليلة القدر المستقبلة، وقيل: الضمير في «فيها» يرجع لليلة النصف، على الخلاف المتقدم.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٠٦/٥

وروى أبو الشيخ، بسند صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنه فى قوله: يمحوا الله ما يشاء ويثبت قال: «ليلة النصف من شعبان، يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء ويثبت غيره الشقاوة والسعادة، والموت والحياة» . قال السيوطي: سنده صحيح لا غبار عليه ولا مطعن فيه. هـ. وروي عن ابن عباس: قال: إن الله يقضي الأقضية كلها ليلة النصف من شعبان، ويسلمها إلى أربابها ليلة القدر. وفي رواية: ليلة السابع والعشرين من رمضان، قيل:

وبذلك يرتفع الخلاف أن الأمر يبتدأ في ليلة النصف من شعبان، ويكمل في ليلة السابع والعشرين من رمضان «١» .

والله أعلم.

وقوله تعالى: حكيم الحكيم: ذو الحكمة، وذلك أن تخصيص الله كل أحد بحالة معينة من الرزق والأجل، والسعادة والشقاوة، في هذه الليلة، يدل على حكمة بالغة فأسند إلى الليلة لكونها ظرفا، إسنادا مجازيا.

وقوله: أمرا من عندنا: منصوب على الاختصاص، أي: أعني بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا، على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافية، بعد بيان فخامته الذاتية، ويجوز أن يكون حالا من كل أمر لتخصيصه بالوصف، إنا كنا مرسلين بدل من «إنا كنا منذرين» .

ورحمة من ربك: مفعول له. أي: أنزلنا القرآن لأن من عادتنا إرسال الرسل بالكتب لأجل إفاضة رحمتنا. ووضع الرب موضع الضمير، والأصل: رحمة منا للإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها، وإضافته إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لتشريفه وفخامته.

---

(١) على هامش النسخة الأم مايلى: كيف يرتفع، والله تعالى يقول فيها- أي: الليلة المباركة «يفرق كل أمر حكيم» وهى ليلة القدر؟

على أنه: أي إشكال لكلام الله تعالى مع كلام غيره، والمرفوع بذلك ضعيف أيضا، فلا إشكال من كل جهة، والله الحمد. هـ.." (١)

"وهو الأوفق بقوله: وفي خلقكم أي: من نطفة ثم من علقة متقلبة من أطوار مختلفة إلى تمام الخلق، وما يبث من دابة: عطف على المضاف دون المضاف إليه، أي: وفي خلق ما يبث، أي: ينشر ويصرف من دابة آيات ظاهرة على باهر قدرته وحكمته، لقوم يوقنون أي: من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٧٨/٥

عليه، ويعرفوا فيها صانعها، واختلاف الليل والنهار أي: تعاقبهما بالذهاب والمجيء، أو: تفاوتهما طولا، وقصرا، وفي ما أنزل الله من السماء من رزق مطر لأنه بسبب الرزق، فعبر عن السبب بالمسبب لأنه نتيجته، تنبيها على كونه آية من جهة القدرة والرحمة، فأحيا به الأرض بأن أخرج أصناف الزرع والثمرات والنبات بعد موتها أي: خلوها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها، وخلو أشجارها عن الثمار والأزهار.

وتصريف الرياح أي: هبوبها من جهة إلى أخرى، ومن حال إلى حال، وتأخيره عن نزول المطر مع تقدمه عليه في الوجود، إما للإيذان بأنه آية مستقلة، ولو روعي الترتيب الوجودي لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح ونزول المطر آية واحدة، أو: لأن كون التصريف آية ليس مجرد كونه مبتدأ لإنشاء المطر، بل له ولسائر **المنافع**، التي من جملتها: سوق السفن في البحار، وإلقاح الأشجار، آيات لقوم يعقلون يتدبرون بعقولهم، فيصلون إلى صريح التوحيد. وفي تقديم الإيمان على الإيقان، وتأخير تدبر العقل لأن العباد إذا نظروا في السموات والأرض نظرا صحيحا علموا أنها مصنوعة، وأنه لا بد لها من صانع، فآمنوا بالله، وإذا نظروا في خلق أنفسهم، وتنقلها من حال إلى حال، وفي خلق ما ظهر على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيمانا وأيقنوا، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت، كتعاقب الليل والنهار، ونزول الأمطار، وحياة الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح، جنوبا وشمالا، ودبورا وصبا، عقلوا، واستحكم في عقولهم، وخلص يقينهم، فكانوا من ذوي الألباب.

تلك آيات الله مبتدأ وخبر، ونتلوها عليك حال، والعامل: معنى الإشارة، أي: تلك الآيات المتقدمة هي آيات الله الدالة على وجوب وجوده واتصافه بأوصاف الكمال، حال كونها متلوة عليك، ملتبسة بالحق أو: نتلوها محقين في ذلك، فالجار والمجرور: حال من المفعول أو الفاعل. فبأي حديث من الأحاديث بعد الله وآياته أي: بعد آيات الله، كقولك: أعجبني زيد وكرمه، أي: أعجبني كرم زيد، أو: بعد حديث الله، الذي هو القرآن، وآياته العامة في كل شيء، فيكون على حذف مضاف، أو: يراد بها القرآن أيضا، والعطف للتغاير العنواني، فالأول من جهة كونه حديثا حسنا، والثاني باعتبار كونه معجزا، أي: فبأي حديث بعد أحسن الحديث وأبهر الآيات يؤمنون يصدقون؟! ومن قرأ بالخطاب «١» يقدر: قل يا محمد.

---

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب «يؤمنون» بالتاء، وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف ٢/ ٤٦٦) . [.....]." [1]

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥/٣٠٠

"وعندنا كتاب حفيظ لتفاصيل الأشياء، أو: محفوظ من التغيير، وهو اللوح المحفوظ، أو: حافظا لما أودعه وكتب فيه، أو: يريد علمه تعالى، فيكون تمثيلا لعلمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها، بعلم من عنده كتاب حفيظ يتلقى منه كل شيء.

بل كذبوا بالحق، إضراب وانتقال من بيان شناعتهم السابقة، وتكذيب البعث، الى ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم للنبوة الثابتة بالمعجزات الباهرة، لما جاءهم من غير تأمل وتفكر، وقيل: الحق: القرآن، أو: الإخبار بالبعث، فهم في أمر مريج مضطرب، لا قرار له، يقال: مرج الخاتم في أصبعه إذا اضطرب من سعته، فيقولون تارة: مجنون، وطورا: ساحر، ومرة: كاهن، ولا يثبتون على قول. أو: مختلط، يقال: مرج أمر الناس: اختلط. أو: ملبس، قال قتادة: من ترك الحق مرج عليه أمره، وألبس عليه دينه.

أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم بحيث يشاهدونها كل وقت كيف بنيناها رفعناها بغير عمد وزيناها بما فيها من الكواكب المترتبة على نظام عجيب، وما لها من فروج من فنوق لملاستها وسلامتها من كل عيب وخلل، والأرض مددناها بسطناها وألقينا فيها رواسي جبالا ثوابت، من: رسى الشيء ثبت، والتعبير عنها بهذا الوصف للإيذان بأن إلقاءها إنما هو للإرساء، وأنبتنا فيها من كل زوج صنف بهيج حسن. تبصرة وذكرى علتان للأفعال المذكورة، أي: فعلنا ما فعلنا تبصرا وتذكيرا لكل عبد منيب أي: راجع إلى ربه، متفكر في بدائع صنائعه.

ونزلنا من السماء ماء مباركا كثير **المنافع** فأنبتنا به جنات بساتين كثيرة وحب الحصيد أي: حب الزرع الذي شأنه أن يحصد من البر والشعير وأمثالهما، وتخصيص حب الحصيد بالذكر لأنه المقصود بالذات إذ به جل القوام.

والنخل باسقات طوالا في السماء، أو: حوامل، من: بسقت الشاة: إذا حملت. وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في «جنات» لبيان فضلها على سائر الأشجار، لها طلع نضيد منضود، بعضه فوق بعض، والمراد: تراكم الطلع، أو: كثرة ما فيه من الثمر، رزقا للعباد أي: لرزق أشباحهم، كما أن قوله: تبصرة وذكرى لرزق أرواحهم. وفيه تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بما ذكر من حيث التذكر والتبصر الذي هو رزق الروح أهم وأقدم من تمتعه من حيث الرزق الحسي، وأحيينا به بذلك الماء بلدة ميتا أرضا جدبة، لا نماء فيها أصلا، فلما أنزلنا عليها الماء ربت واهتزت بالنبات والأزهار، بعد ما كانت جامدة. وضمن البلدة معنى." (١)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٤٥/٥

"نفسا، فإذا تنفس مد البحر، وإذا هدأ نفسه جزر البحر، فلم يكن لقوائم الثور موضع قرار، فخلق الله صخرة خضراء، كغلظ سبع سموات وسبع أرضين، فاستقرت قوائم الثور عليها، وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه: ﴿فتكن في صخرة﴾ [لقمان: ١٦] الآية، فلم تستقر الصخرة، فخلق الله نونا ـ وهو الحوت العظيم ـ فوضع الصخرة على ظهره، وسائر جسده عار، والحوت على البحر، والبحر على متن الريح، والريح على القدرة الأزلية، يقل الدنيا بما فيها حرفان "كن فيكون ". هـ. من الثعلبي، وهذا من باب عالم الحكمة، وإلا فما ثم إلا تجليات الحق وأسرار الذات، والصفات الأزلية. وتفسير ﴿ن﴾ بهذا الحوت ضعيف.

قال ابن جزي: ويبطل قول من قال: إنه الحوت أو الدواة، بأنه لو كان كذلك لكان معربا، ولكان في آخره تنوين، فكونه موقوفا دليل على أنه حرف هجاء، نحو: ﴿الام﴾ وغيره. هـ.
ثم أقسم بالقلم، فقال: ﴿والقلم وما يسطرون﴾ ، قيل: هو القلم الذي كتب اللوح المحفوظ، فالضمير في ﴿يسطرون﴾ للملائكة، وقيل: القلم المعروف عند الناس، أقسم له بما فيه من **المنافع** والحكم. قال ابن الهيثم: من جلالة القلم أنه لم يكتب الله كتابا إلا به، ولذلك أقسم به. الأقلام مطايا الفطن ورسل الكرام، وقيل: البيان اثنان: بيان لسان، وبيان بنان، ومن فضل بيان البنان أن ما تبينته الأقلام باق على الأيام، وبيان اللسان تدرسه الأعوام، ولبعض الحكماء: قوام أمور الدين والدنيا: القلم، والسيف تحت القلم. وأنشد بعضهم في هذا المعنى:

قلم من القصب الضعيف الأجوف
أمضى من الرمح الطويل الأهيف
ومن النصال إذا انبرت لقسيها
ومن المهند في الصقال المرهف
وأشد إقداما من الليث الذي
يكوي القلوب إذا بدا في الموقف
وقال آخر:
قوم إذا عرفوا عداوة حاسد
سفكوا الدما بأسنة الأقلام
ولضربة من كاتب ببنانه
أمضى وأبلغ من رقيق حسام

فالضمير في ﴿يسطرون﴾ على هذا لبني آدم، فالضمير يعود على الكتبة المفهومة من القلم اللازمة له.
ثم ذكر المقسم عليه، فقال: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ أي: ليس بك جنون كما يزعمه الكفرة، ف (بنعمة ربك) : اعتراض بين " ما " وخبرها، كما تقول: أنت بحمد الله فاضل، وقيل: المجرور في موضع الحال، والعامل فيه معنى النفي، كأنه قيل: أنت بريء." (١)

"أعطاها عليه من الثواب الجسيم، أو: رضيت بعملها وطاعتها لما رأت ما أداهم إليه من الكرامة والثواب، ﴿في جنة عالية﴾ علو المكان أو المقدار، ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ أي: لغو، أو كلمة ذات لغو، أو نفس لاغية، فإن كلام أهل الجنة كله أذكار وحكم، أو: لا تسمع يا مخاطب، فيمن بناه للفاعل.
﴿فيها عين جارية﴾ أي: عيون كثيرة تجري مياهها، كقوله: ﴿علمت نفس﴾ [التكوير: ١٤] أي: كل نفس، ﴿فيها سرر مرفوعة﴾ رفيعة السمك أو المقدار، ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوله ربه من الملك والنعيم، ﴿وأكواب موضوعة﴾ بين أيديهم ليتلذذوا بالرؤية إليها، أو موضوعة على حافات العيون معدة للشرب، ﴿ونمارق﴾ ؛ وسائد ومرافق ﴿مصفوفة﴾ بعضها إلى جنب بعض، بعضها مسندة، وبعضها مطروحة، أينما أراد أن يجلس جلس على وسادة، وأستند إلى أخرى، ﴿وزرابي﴾ أي: بسط فاخرة، جمع " زربية "، ﴿مبثوثة﴾ ؛ مبسوطة، أو مفرقة في المجالس.
ولما أنزل الله هذه الآيات، وقرأها النبي صلى الله عليه وسلم فسرها بأن ارتفاع السرير يكون مائة فرسخ، والأكواب الموضوعة لا تدخل تحت حساب، لكثرتها، وطول النمارق كذا، وعرض الزرابي كذا، أنكر المشركون ذلك، وقالوا: كيف يصعد على هذا السرير؟ وكيف تكثر الأكواب هذه الكثرة، وتطول النمارق هذا الطول، وتبسط الزرابي هذا الانبساط، ولم نشهد ذلك في الدنيا؟ ! ذكرهم الله بقوله: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ طويلة عالية، ثم تبرك حتى تركب؛ ويحمل عليها، ثم تقوم، وكذا السرير يطأطىء للمؤمن كما تطأطىء الإبل حتى يركب عليها، أو: أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي نصب أعينهم، يستعملونها كل حين، كيف خلقت خلقا بديعا معدولا عن سنن سائر الحيوانات، في عظم جثتها وشدة قوتها، وعجيب هيئاتها اللائقة بتأتي ما يصدر منها من الأفاعيل الشاقة، كالنوء بالأوقار الثقيلة، وحمل الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة، وفي صبرها على الجوع والعطش، حتى إن ضمأها ليبلغ العشر فصاعدا، واكتفائها باليسير، ورعيها كل ما تيسر من شوك وشجر، وانقيادها إلى كل صغير وكبير، حتى إن فأرة أخذت بزمام ناقة فجرته إلى غارها، فتبعتها الناقة إلى فم الغار. وفي الإبل خصائص أخر تدل على كمال قدرته تعالى، كالاسترواح

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٠٥/٧

مع الحداء إذا عيت، إلى ما فيها من **المنافع** من اللحوم والألبان والأوبار والأشعار، وغير ذلك، والظاهر ما قاله الإمام، وتبعه الطيبي، من أنه احتجاج بشواهد قدرته تعالى على فاتحة السورة من مجيء الغاشية، وأن المخبر بها قادر عليها، فيتوافق العقل والنقل. هـ. قاله المحشي.

﴾

وإلى السماء كيف رفعت﴾ رفعا بعيدا بلا عمد ولا مساك، أو بحيث لا ينالها فهم ولا إدراك، ﴿وإلى الجبال﴾ التي ينزلون في أقطارها، وينتفعون بمياهها وأشجارها في رعي تلك الإبل وغيرها ﴿كيف نصبت﴾ نصبا رصينا، فهي راسخة لا تميل ولا تميد،." (١)

"بمقدح الطلب في حراقة قلب المحب الصادق في سلوكه وشجرتها هي العناية الإلهية، يدل على هذا قول العارف أبي الحسن المنصور - قدس الله سره - حين سئل عن حقيقة المحبة، فقال: هي العناية الإلهية السرميدة، لولاها ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فنحن جلعناها تذكرة لأرباب النفوس البشرية، ليهدتوا بها إلى سلوك طريق الحق، ومتاعا للموقين، أي غذاء أرواح المحبين، الطاوين أياما وليالي من الطعام والشراب، كا روي عن سهل التستري: أنه كان يطوي ثلاثين يوما، وعن أبي عقيل المغربي: أنه ما أكل ستين سنة وهو مجاور بمكة، وعن كثيرين من السالكين المرتاضين. هـ.

وقوله تعالى: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ قال الورتجبي: أمره أن ينزهه لا بنفسه بل بربه، ثم قال: والاسم والمسمى واحد، أي: قدسني بي فإني أعظم من أن تقدسني بنفسك، أو بشيء دوني، ألا ترى إشارة قوله: ﴿العظيم﴾ أي: عظم جلاله أن يبلغ إلى أن تمدحه ال خليقة، وأن تصفة البرية. هـ.

قلت: " فلا ": صلة، كقوله: ﴿فلا وربك ... ﴾ [النساء: ٦٥] . ومن قرأ باللام فهي لام الابتداء، دخلت على مبتدأ محذوف، أي: فلأنا أقسم، ولا يصح أن تكون للقسم؛ لأنها لا بد أن تقرن بنون التوكيد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ بمساقطها ومغاربها. وقرأ الأخوان " بموقع " على الإفراد، وتخصيصها بالقسم لما في غروبها من زوال أثرها، والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير، أو: لأن ذلك وقت قيام المجتهدين والمبتهلين إليه تعالى، وأوان نزول الرحمة والرضوان عليها، واستعظم ذلك بقوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ وهو اعتراض في اعتراض، لأنه اعتراض بين القسم والمقسم عليه بقوله: ﴿إنه لقرآن كريم﴾ أي: حسن مرضي، أو نفاع جم **المنافع**؛ لاشتماله على أصول العلوم المهمة في صلاح

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٧/٢٩٤

المعاش والمعاد، أو: كريم على الله تعالى، واعترض بين الموصوف وصفته بـ ﴿لو تعلمون﴾ وجواب " لو " متروك، أريد به نفي علمهم، أو: محذوف، ثقة، والتقدير: وإنه لقسم لو تعلمون ذلك، لكن لا تعلمون كنه ذلك، أو: لو تعلمون ذلك لعظمتموه، أو: لعملتم بموجبه، ﴿في كتاب مكنون﴾ مصون من غير المقربين من." (١)

"سورة التين

يقول الحق جل جلاله: ﴿والتين والزيتون﴾ ، أقسم بهما تعالى لما فيهما من **المنافع** الجمة. روي أنه صلى الله عليه وسلم أهدي له طبق من تين فأكل منه، وقال لأصحابه: " كلوا، فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة، بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير، وتنفع من النقرس ". وهو أيضا فاكهة طيبة لا فضل له، وغذاء لطيف سريع الهضم، كثير النفع، ملين الطبع، ويحلل البلغم، ويطهر الكليتين، ويزيل ما في المثانة من الرمل، ويسمن البدن، ويفتح سرد الكبد والطحال. وعن علي بن موسى الرضا: التين يزيل نكهة الفم، ويطيل الشعر، وهو أمان من الفالج. هـ.

وأما الزيتون فهو فاكهة وإدام ودواء، ولو لم يكن له سوى اختصاصه بدهن كثير **المنافع** لكفى به فضلا. وشجرته هي الشجرة المباركة، المشهود لها في التنزيل. ومر معاذ بن جبل بشجرة الزيتون، فأخذ منها قضيبا واستاك به. وقال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " نعم السواك الزيتون، هي الشجرة المباركة، يطيب الفم، ويذهب بالحفرة " وقال: " هو سواكي وسواك الأنبياء قبلي " وعن ابن عباس: هو تينكم هذا، وزيتونكم هذا. وقيل: هما جبلان بالشام ينبتانهما.

﴿وطور سينين﴾ ، أضيف الطور وهو الجبل إلى " سينين " وهو البقعة، وهو الجبل." (٢)

"إشارة إلى أن ابتداء الدين كابتداء خلق الإنسان، كان ضعيفا ثم تقوى شيئا فشيئا حتى انتهى كماله.

ثم كرر الأمر بالقراءة بقوله: ﴿اقرأ﴾ أي: افعل ما أمرت به، تأكيدا للإيجاب وتمهيدا لقوله: ﴿وربك الأكرم﴾ فإنه كلام مستأنف، وارد لإزاحة ما أظهر عليه السلام من العذر بقوله: " ما أنا بقارىء " يريد أن القراءة من شأن من يكتب ويقرأ، وأنا أمي، فقيل له: ﴿وربك﴾ الذي أمرك بالقراءة مستعينا باسمه هو ﴿الأكرم﴾ أي: من كل كريم، ينعم على عباده بغاية النعم، ويحلم عنهم إذا عصوه، فلا يعاجلهم بالنقم، فليس وراء التكرم بهذه الفوائد العظيمة تكرم. ﴿الذي علم﴾ الكتابة ﴿بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فدل على كمال كرمه

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٠٠/٧

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٢٤/٧

بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم. ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين، ولا كتب الله المنزلة، إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به وفي ذلك يقول ابن عاشر الفاسي:

لله في خلقه من صنعه عجب

كادت حقائق في الوجود تنقلب

كلم بعين ترى لا الأذن تسمعها

خطابها حاضر وأهلها ذهبوا

الإشارة: اقرأ بربك لتكون به في جميع أمورك، الذي أظهر الأشياء ليعرف بها، وأظهر المظهر الأكبر - وهو الإنسان - من علقة مهينة، ثم رفعه بالعلم إلى أعلى عليين، فرفعه من حضيض النطفة الخبيثة إلى ارتفاع العلم والمعرفة، ولذلكم قال: (اقرأ وربك الأكرم) الذي تكرم عليك وعلمك ما لم تكن تعلم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يكن يعلم. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿كلا﴾ ، هو ردع لمحذوف، دل الكلام عليه، كأنه قيل: خلقنا الإنسان من علق، وعلمته ما لم يعلم ليشكر تلك النعمة الجليلة، فكفر وطغى، كلا لينزجر عن ذلك ﴿إن الإنسان ليطغى﴾ ؛ يجاوز الحد ويستكبر عن ربه. قيل: هذا إلى آخر السورة نزل في أبي جهل بعد زمان، وهو الظاهر. وقوله: ﴿أن رآه استغنى﴾ مفعول له،." (١)

"سورة المسد

يقول الحق جل جلاله: ﴿تبت﴾ ، أي: هلكت ﴿يدا أبي لهب﴾ هو عبد العزى بن عبد المطلب، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإيثار لفظ التباب على الهلاك، وإسناده إلى يديه، لما روي أنه لما نزل: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين (٢١٤) ﴾ [الشعراء: ٢١٤] رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا، وقال: " يا صباحاه " فاجتمع إليه الناس من كل أوب، فقال: " يابني عبد المطلب! يابني فهر! أرأيتم إن أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقي؟ " قالوا نعم، قال: " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ما دعوتنا إلا لهذا؟ وأخذ حجرا ليرميه به عليه الصلاة والسلام، فنزلت،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٢٨/٧

أي: خسرت يدآ أبي لهب ﴿وتب﴾ اي: وهلك كله، وقيل: المراد بالأول: هلاك جملته، كقوله: ﴿بما قدمت يداك﴾ [الحج: ١٠] . ومعنى " وتب ": وكان ذلك وحصل، ويؤيده قراءة ابن مسعود " وقد تب ". وذكر كنيته للتعريض بكونه جهنميا، لاشتهاره بها، ولكراهة اسمه القبيح. وقرأ المكي بسكون الهاء، تخفيفا.

﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ أي: لم يغن حين حل به التباب، على أن " ما " نافية، أو: أي شيء أغنى عنه، على أنها استفهامية في معنى الإنكار، منصوبة بما بعدها، أي: ما أغنى عنه أصل ماله وما كسب به من الأرباح والمنافع، أو: ما كسب من الوجاهة والأتباع، أو: ماله الموروث من أبيه والذي كسبه بنفسه، أو: ما كسب من عمله الخبيث، الذي هو كيده في عداوته عليه الصلاة والسلام، أو: عمله الذي ظن أنه منه على شيء،." [١]

"الأولى مطلقا ولو سبي الزوج معها، وهو ظاهر الآية أو لا يبطله إلا إذا سبيت وحدها دونه؟ فإن سبي معها فحكم الزوجية باق، وهو قول أبي حنيفة وبعض أصحاب أحمد والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن الآية، يعني: كما أنكم تستمتعون بالمنكوحات فأعطوهن مهورهن في مقابلة ذلك، وهذا المعنى تدل له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض الآية [٤ \ ٢١] ، فإفضاء بعضهم إلى بعض المصرح بأنه سبب لاستحقاق الصداق كاملا، هو بعينه الاستمتاع المذكور هنا في قوله: فما استمتعتم به منهن الآية [٤ \ ٢٤] ، وقوله: وآتوا النساء صدقاتهن نحلة [٤ \ ٤] ، وقوله: ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الآية [٢ \ ٢٢٩] . فالآية في عقد النكاح، لا في نكاح المتعة كما قال به من لا يعلم معناها، فإن قيل: التعبير بلفظ الأجور يدل على أن المقصود الأجرة في نكاح المتعة ؛ لأن الصداق لا يسمى أجرا، فالجواب أن القرآن جاء في تسمية الصداق أجرا في موضع لا نزاع فيه ؛ لأن الصداق لما كان في مقابلة الاستمتاع بالزوجة كما صرح به تعالى في قوله: وكيف تأخذونه الآية، صار له شبه قوي بأثمان المنافع فسمي أجرا، وذلك الموضع هو قوله تعالى: فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن الآية [٤ \ ٢٥] ، أي: مهورهن بلا نزاع، ومثله قوله تعالى: والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن الآية [٥ \ ٥] . أي: مهورهن فاتضح أن الآية في النكاح لا في نكاح المتعة، فإن قيل: كان ابن عباس

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٦٧/٧

وأبي بن كعب، وسعيد بن جبير، والسدي يقرءون: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى، وهذا يدل على أن الآية في نكاح المتعة، فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن قولهم إلى أجل مسمى لم يثبت قرآنا ؛ لإجماع الصحابة على عدم كتبه في المصاحف العثمانية، وأكثر الأصوليين على أن ما قرأه الصحابي على أنه قرآن، ولم يثبت كونه قرآنا لا يستدل به على شيء ؛ لأنه باطل من أصله ؛ لأنه لما لم ينقله إلا على أنه قرآن فبطل كونه قرآنا ظهر بطلانه من أصله.

الثاني: أنا لو مشينا على أنه يحتج به كالاحتجاج بخبر الآحاد كما قال به قوم، أو على أنه تفسير منهم للآية بذلك، فهو معارض بأقوى منه ؛ لأن جمهور العلماء على." (١)

"مباحا.

وإنما رخص - صلى الله عليه وسلم - في كلب الصيد، والزرع، والماشية ؛ للضرورة، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: " من اتخذ كلبا، إلا كلب صيد، أو زرع، أو ماشية انتقص من أجره كل يوم قيراط "، ومنه أيضا ما أخرجه الشيخان في " صحيحيهما " من حديث سفيان بن أبي زهير الشنائي - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " من اقتنى كلبا لا يغني عنه زرعا، ولا ضرعا نقص من عمله كل يوم قيراط "، ورواه البخاري عن ابن عمر بثلاث طرق بلفظ: " نقص كل يوم من عمله قيراطان "، وأخرجه مسلم أيضا عن ابن عمر من طرق في بعضها قيراط، وفي بعضها قيراطان.

والأحاديث في الباب كثيرة، وهذا أوضح دليل على أن الكلب لا يجوز أكله، إذ لو جاز أكله لجاز اقتناؤه للأكل، وهو ظاهر، ومن ذلك ما ثبت في " صحيح مسلم " من حديث جابر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن المغفل - رضي الله عنهم: من أنه - صلى الله عليه وسلم - أمر بقتل الكلاب، ولو كانت مباحة الأكل لما أمر بقتلها، ولم يرخص - صلى الله عليه وسلم - فيها إلا لضرورة الصيد، أو الزرع، أو الماشية.

وإذا عرفت أن في كلب الصيد، وما ذكر معه، بعض **المنافع** المباحة، كالانتفاع بصيده، أو حراسته الماشية، أو الزرع، فاعلم أن العلماء اختلفوا في بيعه.

فمنهم من قال: بيعه تابع للحمه، ولحمه حرام ؛ فبيعه حرام، وهذا هو أظهر الأقوال دليلا ؛ لما قدمنا من أن ثمن الكلب خبيث، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهى عنه، مقرونا بحلوان الكاهن، ومهر البغي، وهو نص صحيح صريح في منع بيعه.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١/٢٣٦

ويؤيده ما رواه أبو داود بإسناد صحيح من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – مرفوعا، قال: " نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن ثمن الكلب "، وقال: " إن جاء يطلب ثمن الكلب، فاملأ كفه ترابا ".

قال النووي في " شرح المهذب "، وابن حجر في " الفتح ": إسناده صحيح، وروى أبو داود أيضا من حديث أبي هريرة مرفوعا: " لا يحل ثمن الكلب، ولا حلوان الكاهن، ولا مهر البغي "، قال ابن حجر في " الفتح ": إسناده حسن، وقال النووي في " شرح المهذب ": إسناده حسن صحيح.." [1]

"أن يعبد وحده.

وأوضح هذا في آيات أخر ؛ كقوله في «سورة فاطر» : ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك [٣٥ \ ٢٧] ، وقوله: ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم [٣٠ \ ٢٢] ، ولا شك أن اختلاف الألوان والمناظر والمقادير والهيئات وغير ذلك ؛ فيه الدلالة القاطعة على أن الله – جل وعلا – واحد، لا شبيه له ولا نظير ولا شريك، وأنه المعبود وحده.

وفيه الدلالة القاطعة على أن كل تأثير فهو بقدرة وإرادة الفاعل المختار، وأن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته – جل وعلا –.

كما أوضح ذلك في قوله: وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون [١٣ \ ٤] ، فالأرض التي تنبت فيها الثمار واحدة ؛ لأن قطعها متجاورة، والماء الذي تسقى به ماء واحد، والثمار تخرج متفاضلة، مختلفة في الألوان والأشكال والطعوم، والمقادير **والمنافع**.

فهذا أعظم برهان قاطع على وجود فاعل مختار، يفعل ما يشاء كيف يشاء، سبحانه – جل وعلا – عن الشركاء والأنداد.

ومن أوضح الأدلة على أن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته – جل وعلا –: أن النار مع شدة طبيعة الإحراق فيها ؛ ألقي فيها الحطب وإبراهيم – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام –، ولا شك أن الحطب أصلب وأقسى وأقوى من جلد إبراهيم ولحمه، فأحرقت الحطب بحرها، وكانت على إبراهيم بردا وسلاما ؛ لما قال لها خالقها: قلنا يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم [٢١ \ ٦٩] ، فسبحان من لا يقع شيء

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٥٣٠/١

كائنا ما كان إلا بمشيئته – جل وعلا –، فعال لما يريد.

وقوله في هذه الآية الكريمة: يذكرون [١٦ \ ١٣] ، أصله: يتذكرون، فأدغمت التاء في الذال. والادكار: الاعتبار والاتعاظ.

قوله تعالى: وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون،." [١]

"مسألة

أخذ بعض العلماء من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: وهزي إليك بجذع النخلة الآية، أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعا وأنه لا ينافي التوكل على الله جل وعلا، وهذا أمر كالمعلوم من الدين بالضرورة أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعا لا ينافي التوكل على الله بحال ؛ لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالا لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه، فهو متوكل على الله، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر، ولو شاء الله تخلف تأثير الأسباب عن مسبباتها لتخلف.

ومن أصرح الأدلة في ذلك قوله تعالى: قلنا يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم الآية [٢١ \ ٦٩] ، فطبيعة الإحراق في النار معنى واحد لا يتجزأ إلى معان مختلفة، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رمادا من حرها في الوقت الذي هي كائنة بردا وسلاما على إبراهيم، فدل ذلك دلالة قاطعة على أن التأثير حقيقة إنما هو بمشيئة خالق السماوات والأرض، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته جل وعلا.

ومن أوضح الأدلة في ذلك: أنه ربما جعل الشيء سببا لشيء آخر مع أنه مناف له، كجعله ضرب ميت بني إسرائيل ببعض من بقرة مذبوحة سببا لحياته، وضربه بقطعة ميتة من بقرة ميتة مناف لحياته؛ إذ لا تكسب الحياة من ضرب بميت، وذلك يوضح أنه جل وعلا يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، ولا يقع تأثير ألبتة إلا بمشيئته جل وعلا.

ومما يوضح أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل على الله قوله تعالى عن يعقوب: وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة [١٢ \ ٦٧] ، أمرهم في هذا الكلام بتعاطي السبب، وتسبب في

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣٤٢/٢

ذلك بالأمر به ؛ لأنه يخاف عليهم أن تصيبهم الناس بالعين لأنهم أحد عشر رجلا أبناء رجل واحد، وهم أهل جمال وكمال وبسطة في الأجسام، فدخولهم من باب واحد مظنة لأن تصيبهم العين فأمرهم بالتفرق والدخول من أبواب متفرقة تعاطيا للسبب في السلامة من إصابة العين ؛ كما قال غير واحد من علماء السلف، ومع هذا التسبب فقد قال الله عنه:." [١]

"الطبيعي من الحضارة الغربية، وبذلك الإيضاح التام يتميز النافع من الضار، والحسن من القبيح، والحق من الباطل، وذلك أن الاستقراء التام القطعي دل على أن الحضارة الغربية المذكورة تشتمل على نافع وضار: أما النافع منها فهو من الناحية المادية، وتقدمها في جميع الميادين المادية أوضح من أن أبينه، وما تضمنته من **المنافع** للإنسان أعظم مما كان يدخل تحت التصور، فقد خدمت الإنسان خدمات هائلة من حيث إنه جسد حيواني، وأما الضار منها فهو إهمالها بالكلية للناحية التي هي رأس كل خير، ولا خير ألبتة في الدنيا بدونها، وهي التربية الروحية للإنسان وتهذيب أخلاقه، وذلك لا يكون إلا بنور الوحي السماوي الذي يوضح للإنسان طريق السعادة، ويرسم له الخطط الحكيمة في كل ميادين الحياة الدنيا والآخرة، ويجعله على صلة بربه في كل أوقاته.

فالحضارة الغربية غنية بأنواع **المنافع** من الناحية الأولى، مفلسة إفلاسا كليا من الناحية الثانية.

ومعلوم أن طغيان المادة على الروح يهدد العالم أجمع بخطر داهم، وهلاك مستأصل، كما هو مشاهد الآن، وحل مشكلته لا يمكن ألبتة إلا بالاستضاءة بنور الوحي السماوي الذي هو تشريع خالق السماوات والأرض ؛ لأن من أطغته المادة حتى تمرد على خالقه ورازقه لا يفلح أبدا.

والتقسيم الصحيح يحصر أوصاف المحل الذي هو الموقف من الحضارة الغربية في أربعة أقسام لا خامس لها، حصرا عقليا لا شك فيه:

الأول: ترك الحضارة المذكورة نافعها وضارها.

الثاني: أخذها كلها ضارها ونافعها.

الثالث: أخذ ضارها وترك نافعها.

الرابع: أخذ نافعها وترك ضارها.

فنرجع بالسبر الصحيح إلى هذه الأقسام الأربعة، فنجد ثلاثة منها باطلة بلا شك، وواحدا صحيحا بلا شك.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣/٣٩٨

أما الثلاثة الباطلة: فالأول منها تركها كلها، ووجه بطلانه واضح ؛ لأن عدم الاشتغال بالتقدم المادي يؤدي إلى الضعف الدائم، والتواكل والتكاسل، ويخارف الأمر السماوي في قوله جل وعلا: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة الآية [١٨ \ ٦٠] .

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم." [١]

"سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون [٣٦ ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله شتى نعت لقوله: أزواجا [٢٠ ٥٣] . ومعنى قوله: أزواجا من نبات شتى أي أصنافا مختلفة الأشكال، والمقادير، **والمنافع**، والألوان، والروائح، والطعوم. وقيل شتى جمع لـ «نبات» أي نبات مختلف كما بينا. والأظهر الأول، وقوله شتى جمع شتيت. كمريض ومرضى. والشتيت: المتفرق. ومنه قول رؤبة يصف إبلا جاءت مجتمعة ثم تفرقت، وهي تثير غبارا مرتفعا:

جاءت معا وأطرقت شتيتا ... وهي تثير الساطع السختيتا

وثغر شتيت: أي متفلج لأنه متفرق الأسنان. أي ليس بعضها لاصقا ببعض.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: وسلك لكم فيها سبلا قد قدمنا أن معنى السلك: الإدخال. وقوله سلك هنا معناه أنه جعل في داخل الأرض بين أوديتها وجبالها سبلا فجاجا يمر الخلق معها. وعبر عن ذلك هنا بقوله: وسلك لكم فيها سبلا [٢٠ ٥٣] وعبر في مواضع أخر عن ذلك بالجعل، كقوله في «الأنبياء» : وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون [٢١ ٣١] وقوله في «الزخرف» : الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون [٤٣ ١٠] وعبر في بعض المواضع عن ذلك بالإلقاء كقوله في «النحل» : وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون [٣١ ١٥] لأن عطف السبل على الرواسي ظاهر في ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: كلوا وارعوا أنعامكم أي كلوا أيها الناس من الثمار، والحبوب التي أخرجناها لكم من الأرض بالماء الذي أنزلنا من جميع ما هو غذاء لكم من الحبوب، والفواكه ونحو ذلك، وارعوا أنعامكم. أي أسيموها وسرحوها في المرعى الذي يصلح لأكلها. تقول: رعت الماشية الكلأ، ورعاها صاحبها: أي أسامها وسرحها. يلزم ويتعدى. والأمر في قوله كلوا وارعوا للإباحة. ولا يخفى ما تضمنه من الامتنان، والاستدلال على استحقاق المنعم بذلك للعبادة وحده.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣/٥٠٥

وما ذكره في هذه الآية الكريمة: من الامتنان على بني آدم بأرزاقهم وأرزاق أنعامهم جاء موضحا في مواضع أخر. كقوله في سورة «السجدة» : فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون [٣٢ ٢٧] ، وقوله في «النازعات» : أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم [٧٩ ٣١ - ٣٣]] ،." (١)

"والقرعة ما يسمونه قرعة الأنبياء، وحاصلها جدول مرسوم في بيوته أسماء الأنبياء وأسماء الطيور. وبعد الجدول تراجم، لكل اسم ترجمة خاصة به، ويذكر فيها أمور من **المنافع**، والمضار، يقال للشخص غمض عينيك وضع أصبعك في الجدول. فإذا وضعها على اسم قرئت له ترجمته ليعتقد أنه يكون له ذلك المذكور منها. قال: وقد عدها العلماء من باب الاستقسام بالأزلام.

ومراده بالفأل: الفأل المكتسب. كأن يريد إنسان التزوج أو السفر مثلا، فيخرج ليسمع ما يفهم منه الإقدام أو الإحجام، ويدخل فيه النظر في المصحف لذلك: ولا يخفى أن ذلك من نوع الاستقسام بالأزلام. أما ما يعرض من غير اكتساب كأن يسمع قائلا يقول: ما مفلح، فليس من هذا القبيل كما جاءت به الأحاديث الصحيحة.

وعلم الكتف: علم يزعم أهل الشر، والضلال أن من علمه يكون إذا نظر في أكتاف الغنم اطلع على أمور من الغيب، وربما زعم المشتغل به أن السلطان يموت في تاريخ كذا، وأنه يطرأ رخص أو غلاء أو موت الأعيان كالعلماء، والصالحين، وقد يذكر شأن الكنوز أو الدفائن، ونحو ذلك. والموسيقى معروفة، وكلها من الباطل كما لا يخفى على من له إلمام بالشرع الكريم.

والرعديات: علم يزعم أهله أن الرعد إذا كان في وقت كذا من السنة والشهر فهو علامة على أمور غيبية من جدب وخصب، وكثرة الرواج في الأسواق وقلته، وكثرة الموت وهلاك الماشية، وانقراض الملك ونحو ذلك.

والفرق بين العرافة والكهانة مع أنهما يشتركان في دعوى الاطلاع على الغيب: أن العرافة مختصة بالأمور الماضية، والكهانة مختصة بالأمور المستقبلة اهـ منه.

وعلوم الشر كثيرة، وقصدنا بذكر ما ذكرنا منها التنبيه على خستها وقبحها شرعا، وأن منها ما هو كفر بواح، ومنها ما يؤدي إلى الكفر، وأقل درجاتها التحريم الشديد. وقد دل بعض الأحاديث، والآثار على أن العيافة، والطرق، والطيرة من السحر. وقد قدمنا معنى ذلك في «الأنعام» وعنه - صلى الله عليه وسلم - من حديث ابن عباس رضي الله عنه: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» رواه

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٣/٤

أبو داود بإسناد صحيح. وللنسائي من حديث أبي هريرة «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئا وكل إليه» .." [1]

"ومن ذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «لا تأكلوا في آنية الذهب والفضة، ولا تشربوا في صحافها؛ فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة» . وقوله: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم» وهذا التحريم لا يختص بالأكل والشرب، بل يعم سائر وجوه الانتفاع، فلا يحل له أن يغتسل بها، ولا يتوضأ بها، ولا يكتحل منها، وهذا أمر لا يشك فيه عالم.

ومن ذلك نهي النبي - صلى الله عليه وسلم - المحرم عن لبس القميص، والسراويل، والعمامة، والخفين، ولا يختص ذلك بهذه الأشياء فقط، بل يتعدى النهي إلى الجباب، والأقبية، والطيلسان، والقلنسوة، وما جرى مجرى ذلك من الملبوسات.

ومن هذا قوله - صلى الله عليه وسلم -: «إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليذهب معه بثلاثة أحجار» فلو ذهب معه بخرقة تنظيف أكثر من الأحجار، أو قطن أو صوف أو خز ونحو ذلك جاز. وليس للشارع غرض في غير التنظيف والإزالة، فما كان أبلغ في ذلك كان مثل الأحجار في الجواز أو أولى.

ومن ذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - «نهى أن يبيع الرجل على بيع أخيه أو يخطب على خطبته» . معلوم أن المفسدة التي نهي عنها في البيع والخطبة موجودة في الإجارة، فلا يحل له أن يؤجر على إجارته. وإن قدر دخول الإجارة في لفظ البيع العام وهو بيع **المنافع** فحقيقتها غير حقيقة البيع، وأحكامها غير أحكامه.

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى في آية التيمم: وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا [٥ \ ٦] فألحقت الأمة أنواع الحدث الأصغر على اختلافها في نقضها بالغائط. والآية لم تنص من أنواع الحدث الأصغر إلا عليه وعلى اللمس، على قول من فسره بما دون الجماع. وألحقت الاحتلام بملامسة النساء، وألحقت واجد ثمن الماء بواجده، وألحقت من خاف على نفسه أو بهائمه من العطش إذا توضأ بعادم الماء، فجوزت له التيمم وهو واجد للماء. وألحقت من خشي المرض من شدة برد الماء بالمريض في العدول عنه إلى البدل. وإدخال هذه الأحكام وأمثالها في العمومات المعنوية التي لا يستريب من له فهم عن الله ورسوله في قصد عمومها

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤/ ٤٩

وتعليق الحكم به، وكونه متعلقا بمصلحة العبد – أولى من إدخالها في عمومات لفظية بعيدة التناول لها ليست بحرية الفهم." (١)

"العمياء مما سكت الله عن حكم التضحية به فيكون ذلك عفوا. وإدخال العمياء في اسم العوراء لغة غير صحيح؛ لأن المفهوم من العور غير المفهوم من العمى؛ لأن العور لا يطلق إلا في صورة فيها عين تبصر، بخلاف العمى فلا يطلق في ذلك. وتفسير العور بأنه عمى إحدى العينين لا ينافي المغايرة؛ لأن العمى المقيد بإحدى العينين غير العمى الشامل للعينين معا. وبالجملة فالمعنى المفهوم من لفظ العور غير المعنى المفهوم من لفظ العمى، فوقوف الظاهرية مع لفظ النص يلزمه جواز التضحية بالعمياء؛ لأنها مسكوت عنها، وأمثال هذا منهم كثيرة جدا. وقصدنا التنبيه على بطلان أساس دعواهم، وهو الوقوف مع اللفظ من غير نظر إلى معاني التشريع والحكم والمصالح التي هي مناط الأحكام، وإلحاق النظير بنظيره الذي لا فرق بينه وبينه يؤثر في الحكم.

واعلم أن التحقيق الذي لا شك فيه أن الله تعالى يشرع الأحكام لمصالح الخلق، فأفعاله وتشريعاته كلها مشتملة على الحكم والمصالح من جلب المنافع ودفع المضار. فما يزعمه كثير من متأخري المتكلمين – تقليدا لمن تقدمهم – من أن أفعاله – جل وعلا – لا تعلل بالعلل الغائية، زاعمين أن التعليل بالأغراض يستلزم الكمال بحصول الغرض المعلل به، وأن الله – جل وعلا – منزه من ذلك لاستلزامه النقص – كله كلام باطل، ولا حاجة إليه ألبتة ؛ لأنه من المعلوم بالضرورة من الدين أن الله – جل وعلا – غني لذاته الغنى المطلق، وجميع الخلق فقراء إليه غاية الفقر والفاقة والحاجة: يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد [٣٥ \ ١٥] ولكنه – جل وعلا – يشرع ويفعل لأجل مصالح الخلق المحتاجين الفقراء إليه، لا لأجل مصلحة تعود إليه هو سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا.

وادعاء كثير من أهل الأصول أن العلل الشرعية مطلق أمارات وعلامات للأحكام ناشئ عن ذلك الظن الباطل. فالله – جل وعلا - يشرع الأحكام لأجل العلل المشتملة على المصالح التي يعود نفعها إلى خلقه الفقراء إليه لا إلى الله – جل وعلا – إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد [١٤ \ ٨] وقد صرح تعالى وصرح رسوله – صلى الله عليه وسلم – بأنه يشرع الأحكام من أجل الحكم المنوطة بذلك التشريع.

وأصرح لفظ في ذلك لفظة (من أجل) وقد قال تعالى: من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل الآية [٥] وقال

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤/١٩٨

- صلى الله عليه وسلم -: " إنما جعل الاستئذان من أجل البصر ".

وقد قدمنا أمثلة متعددة لحروف التعليل في الآيات القرآنية الدالة على العلل الغائية المشتملة على مصالح العباد، وهو أمر معلوم عند من له علم بحكم التشريع الإسلامي.." (١)

"أن معنى الزيادة الحاصلة في الأرض هي أن النبات لما كان نابتا فيها متصلا بها صار كأنه زيادة حصلت في نفس الأرض.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة: والاهتزاز: الحركة على سرور، فلا يكاد يقال: اهتز فلان لكيت وكيت، إلا إذا كان الأمر من المحاسن **والمنافع**. اهـ منه.

والاهتزاز أصله: شدة الحركة، ومنه قوله:

تثنى إذا قامت وتهتز إن مشت كما اهتز غصن البان في ورق خضر

وقوله: وأنبتت؛ أي: أنبت الله فيها من كل زوج؛ أي: صنف من أصناف النبات والزرع، والثمار: بهيج؛ أي: حسن، والبهجة: الحسن. ومنه قوله تعالى: فأنبتنا به حدائق ذات بهجة تقول: بهج بالضم بهاجة فهو بهيج: إذا كان حسنا، وقرأ عامة السبعة: وربت، وهو من قولهم: ربا يربو: إذا نما وزاد، وقرأ من الثلاثة أبو جعفر يزيد بن القعقاع: وربأت بهمزة مفتوحة بعد الباء؛ أي ارتفعت، كأنه من الربيئة أو الربيئي، وهو الرقيب الذي يعلو على شيء مشرف يحرس القوم ويحفظهم.

ومنه قول امرئ القيس:

بعثنا ربيئا قبل ذاك مخملا ... كذئب الغضا يمشي الضراء ويتقي

وما أشار إليه جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن إحياء الأرض بعد موتها برهان قاطع على قدرة من فعل ذلك على إحياء الناس بعد موتهم ؛ لأن الجميع إحياء بعد موت، وإيجاد بعد عدم بينه في آيات كثيرة، وقد قدمنا في سورة البقرة والنحل كثرة الاستدلال بهذا البرهان في القرآن على البعث، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك كقوله تعالى: ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير [٤١ \ ٣٩] ، وقوله تعالى: ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون [٣٠ \ ١٩] ؛ أي: من قبوركم أحياء بعد الموت، وقوله تعالى: وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج [٥٠ \ ١١] ؛ أي: خروجكم من القبور أحياء بعد الموت، وقوله تعالى: حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون [٧

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤/٢١٤

\ ٥٧] ، وقوله: فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير [٣٠ \ ٥٠] ، وقوله تعالى: فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور." [١]

"الجماع، وقد قدمنا حكم تعدد الجماع، وفيه للشافعية خمسة أقوال:

أصحها: تجب بالجماع الأول: بدنة، وبالثاني: شاة.

والثاني: تجب بكل جماع بدنة.

الثالث: تكفي بدنة واحدة عن الجميع.

الرابع: إن كفر عن الأول، قبل الجماع الثاني وجبت الكفارة للثاني: وهي شاة في الأصح، وبدنة في القول الآخر، وإن لم يكن كفر عن الأول كفته بدنة عنهما.

والخامس: إن طال الزمان بين الجماعين أو اختلف المجلس: وجبت كفارة أخرى للثاني، وفيها القولان. وإلا فكفارة واحدة، وإن وطئ مرة ثالثة ورابعة، أو أكثر ففيه الأقوال المذكورة، الأظهر: تجب للأول بدنة، ولكل جماع بعد ذلك شاة.

والثاني: تجب بكل جماع بدنة إلى آخر الأقوال المذكورة آنفا. هذا هو حاصل مذهب الشافعي في المسألة.

ولنكتف هنا بما ذكرنا من أحكام الحج في الكلام على آية الحج هذه خوف الإطالة المملة.

تنبيهان:

الأول: اعلم أن مسألة الإحصار والفوات وقد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة «البقرة» ، ومسألة الصيد وجزائه في الإحرام، أو أحد الحرمين، وأشجار الحرمين، ونباتهما ونحو ذلك وصيد وج - قد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة «المائدة» ، وأحكام الهدي سيأتي تفصيلها إن شاء الله في الآيات الدالة عليها من سورة «الحج» هذه.

التنبيه الثاني: اعلم أن جميع ما ذكرنا في هذا الفصل من تعدد الفدية، وعدم تعددها، إذا تعددت أسبابها لا نص فيه من كتاب ولا سنة فيما نعلم، واختلاف أهل العلم فيه كما ذكرنا من نوع الاختلاف في تحقيق المناط. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ليشهدوا منافع لهم. اللام في قوله: ليشهدوا [٢٢ \ ٢٨] : هي لام التعليل: وهي متعلقة بقوله

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٧٩/٤

تعالى: وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر الآية [٢٢ \ ٢٧] : أي إن تؤذن فيهم يأتوك مشاة وركبانا، لأجل أن يشهدوا: أي يحضروا منافع لهم، والمراد بحضورهم **المنافع**: حصولها لهم.." [١]

"وقوله: منافع جمع منفعة، ولم يبين هنا هذه **المنافع** ما هي. وقد جاء بيان بعضها في بعض الآيات القرآنية، وأن منها ما هو دنيوي، وما هو أخروي، أما الدنيوي فكأرباح التجارة، إذا خرج الحاج بمال تجارة معه، فإنه يحصل له الربح غالبا، وذلك نفع دنيوي.

وقد أطبق علماء التفسير على أن معنى قوله تعالى: ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم [٢ \ ١٩٨] أنه ليس على الحاج إثم ولا حرج، إذا ابتغى ربحا بتجارة في أيام الحج، إن كان ذلك لا يشغله عن شيء، من أداء مناسكه، كما قدمنا إيضاحه.

فقوله تعالى: ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فيه بيان لبعض **المنافع** المذكورة في آية «الحج» هذه وهذا نفع دنيوي.

ومن **المنافع** الدنيوية ما يصيبونه من البدن والذبائح، كما يأتي تفصيله إن شاء الله قريبا ؛ كقوله في البدن: لكم فيها منافع إلى أجل مسمى على أحد التفسيرين.

وقوله: فكلوا منها في الموضعين، وكل ذلك نفع دنيوي، وفي ذلك بيان أيضا لبعض **المنافع** المذكورة في آية «الحج» هذه.

وقد بينت آية «البقرة» على ما فسرها به جماعة من الصحابة ومن بعدهم، واختاره أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسيره، ووجه اختياره له، بكثرة الأحاديث الدالة عليه: أن من **المنافع** المذكورة في آية «الحج» غفران ذنوب الحاج، حتى لا يبقى عليه إثم إن كان متقيا ربه في حجه بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهي عنه.

وذلك أنه قال: إن معنى قوله تعالى: فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه [٢ \ ٢٠٣] أن الحاج يرجع مغفورا له، ولا يبقى عليه إثم، سواء تعجل في يومين، أو تأخر إلى الثالث، ولكن غفران ذنوبه هذا مشروط بتقواه ربه في حجه، كما صرح به في قوله تعالى: لمن اتقى الآية: أي وهذا الغفران للذنوب، وحط الآثام إنما هو لخصوص من اتقى.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٥/١١٠

ومعلوم أن هذه الآية الكريمة فيها أوجه من التفسير غير هذا.

ومن نقل عنهم ابن جرير أن معناها: أنه يغفر للحاج جميع ذنوبه، سواء تعجل في." [1]

"فمعنى الآية: النهي عن تخطئة المتأخر المتعجل كعكسه: أي لا يؤثمن أحدهما الآخر، أن هذا القول خطأ، لمخالفته لقول جميع أهل التأويل.

والحاصل: أنه أعني الطبري بين كثيرا من الأدلة على أن معنى الآية: هو ما ذكر من أن الحاج يخرج مغفورا له، كيوم ولدته أمه، لا إثم عليه، سواء تعجل في يومين، أو تأخر، وقد يظهر للناظر أن ربط نفي الإثم في قوله: فلا إثم عليه بالتعجل والتأخر في الآية، ربط الجزاء بشرطه يتبادر منه أن نفي الإثم إنما هو في التعجل والتأخر، ولكن الأدلة التي أقامها أبو جعفر الطبري، على المعنى الذي اختار فيها فيه مقنع، وتشهد لها أحاديث كثيرة، وخير ما يفسر به القرآن بعد القرآن سنة النبي – صلى الله عليه وسلم –.

فقوله في آية البقرة هذه: فلا إثم عليه، هو معنى قوله – صلى الله عليه وسلم –: «رجع كيوم ولدته أمه» ، وقوله: لمن اتقى، هو معنى قوله – صلى الله عليه وسلم –: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق» ؛ لأن من لم يرفث، ولم يفسق، هو الذي اتقى.

ومن كلام ابن جرير الطويل الذي أشرنا إليه أنه قال ما نصه: فإن قال قائل: ما الجالب للام في قوله: لمن اتقى وما معناها؟

قيل: الجالب لها معنى قوله: فلا إثم عليه ؛ لأن في قوله: فلا إثم عليه معنى: حططنا ذنوبه، وكفرنا آثامه، فكان في ذلك معنى: جعلنا تكفير الذنوب لمن اتقى في الله حجه، وترك ذكر «جعلنا تكفير الذنوب» اكتفاء بدلالة قوله: فلا إثم عليه، وقد زعم بعض نحويي البصرة أنه كأنه إذا ذكر هذه الرخصة، فقد أخبر عن أمر فقال: لمن اتقى أي هذا لمن اتقى، وأنكر بعضهم ذلك من قوله: وقد زعم أن الصفة لا بد لها من شيء تتعلق به ؛ لأنها لا تقوم بنفسها، ولكنها فيما زعم من صلة قول متروك.

فكان معنى الكلام عنده ما قلنا: من أن من تأخر لا إثم عليه لمن اتقى، وقام قوله: ومن تأخر فلا إثم عليه مقام القول. انتهى محل الغرض من كلام ابن جرير.

وعلى تفسير هذه الآية الكريمة بأن معنى فلا إثم عليه في الموضعين: أن الحاج يغفر جميع ذنوبه، فلا يبقى عليه إثم، فغفران جميع ذنوبه هذا الذي دل عليه هذا التفسير من أكبر **المنافع** المذكورة في قوله: ليشهدوا منافع لهم وعليه فقد بينت آية «البقرة» هذه بعض ما دلت عليه آية «الحج» ، وقد أوضحت السنة هذا

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٥/١١١

البيان بالأحاديث الصحيحة التي ذكرنا ؛ كحديث: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم. (١)

"ولدته أمه» . وحديث: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» ، ومن تلك **المنافع** التي لم يبينها القرآن حديث: «إن الله يباهي بأهل عرفة أهل السماء» الحديث، كما تقدم. ومن تلك **المنافع** التي لم يبينها القرآن تيسر اجتماع المسلمين من أقطار الدنيا في أوقات معينة، في أماكن معينة ليشعروا بالوحدة الإسلامية، ولتمكن استفادة بعضهم من بعض، فيما يهم الجميع من أمور الدنيا والدين، وبدون فريضة الحج، لا يمكن أن يتسنى لهم ذلك، فهو تشريع عظيم من حكيم خبير، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

قوله: ويذكروا منصوب بحذف النون ؛ لأنه معطوف على المنصوب بـ «أن» المضمرة بعد لام التعليل، أعني قوله: ليشهدوا منافع لهم.

وإيضاح المعنى: وأذن في الناس بالحج يأتوك مشاة وركبانا ؛ لأجل أن يشهدوا منافع لهم، ولأجل أن يتقربوا إليه بإراقة دماء ما رزقهم من بهيمة الأنعام، مع ذكرهم اسم الله عليها عند النحر والذبح، وظاهر القرآن يدل على أن هذا التقرب بالنحر في هذه الأيام المعلومات، إنما هو الهدايا لا الضحايا ؛ لأن الضحايا لا يحتاج فيها إلى الأذان بالحج، حتى يأتي المضحون مشاة وركبانا، وإنما ذلك في الهدايا على ما يظهر، ومن هنا ذهب مالك، وأصحابه إلى أن الحاج بمنى لا تلزمه الأضحية ولا تسن له، وكل ما يذبح في ذلك المكان والزمان، فهو يجعله هديا لا أضحية.

وقوله: ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم أي على نحر وذبح ما رزقهم من بهيمة الأنعام ؛ ليتقربوا إليه بدمائها ؛ لأن ذلك تقوى منهم، فهو يصل إلى ربهم كما في قوله تعالى: لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم [٢٢ \ ٣٧] ، وقد بين في بعض المواضع أنه لا يجوز الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه منها؛ كقوله: ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه. وقوله: وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه [٦ \ ١١٩] ، وقد بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه جعل الحرم المكي منسكا تراق فيه الدماء تقربا إلى الله، ويذكر عليها عند تذكيتها اسم الله، ولم يبين في هذه الآية، هل وقع مثل هذا لكل أمة أو لا، ولكنه بين في موضع آخر: أنه جعل مثل هذا لكل أمة من الأمم، وذلك في قوله تعالى:." (٢)

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١١٣/٥

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١١٤/٥

"قال مقيده – عفا الله عنه وغفر له –: أظهر القولين دليلا عندي في هذا الفرع قول مالك وأصحابه، وإن خالفهم الجمهور، وأن الأضحية لا تسن للحاج بمنى، وأن ما يذبحه هدي لا أضحية، وأن الاستدلال بحديث عائشة المتفق عليه المذكور آنفا لا تنهض به الحجة على مالك وأصحابه، ووجه كون مذهب مالك أرجح في نظرنا هنا مما ذهب إليه جمهور أهل العلم، هو أن القرآن العظيم دال عليه، ولم يثبت ما يخالف دلالة القرآن عليه سالما من المعارض من كتاب أو سنة، ووجه دلالة القرآن على أن ما يذبحه الحاج بمنى: هدي لا أضحية، هو ما قدمناه موضحا ؛ لأن قوله تعالى: وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها الآية [٢٢ \ ٢٧ – ٢٨] ، فيه معنى: وأذن في الناس بالحج يأتوك مشاة وركبانا لحكم منها: شهودهم منافع لهم، ومنها ذكرهم اسم الله: على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، عند ذبحها تقربا إلى الله، والذي يكون من حكم التأذين فيهم بالحج، حتى يأتوا مشاة وركبانا، ويشهدوا **المنافع** ويتقربوا بالذبح، إنما هو الهدي خاصة دون الأضحية لإجماع العلماء على أن للمضحي: أن يذبح أضحيته في أي مكان شاءه من أقطار الدنيا ولا يحتاج في التقرب بالأضحية إلى إتيانهم مشاة وركبانا من كل فج عميق. فالآية ظاهرة في الهدي، دون الأضحية، وما كان القرآن أظهر فيه وجب تقديمه على غيره، أما الاحتجاج بحديث عائشة المتفق عليه: «أنه ضحى ببقر عن نسائه يوم النحر صلوات الله وسلامه عليه» ، فلا تنهض به الحجة ؛ لكثرة الأحاديث الصحيحة المصرحة بأنهن متمتعات، وأن ذلك البقر هدي واجب، وهو هدي التمتع المنصوص عليه في القرآن، وأن عائشة منهن قارنة والبقرة التي ذبحت عنها هدي قران، سواء قلنا: إنها استقلت بذبح بقرة عنها وحدها، كما قدمناه في بعض الروايات الصحيحة، أو كان بالاشتراك مع غيرها في بقرة، كما قال به بعضهم، وأكثر الروايات ليس فيها لفظ: ضحى، بل فيها: أهدى، وفيها: ذبح عن نسائه، وفيها: نحر عن نسائه، فلفظ ضحى من تصرف بعض الرواة للجزم، بأن ما ذبح عنهن من البقر يوم النحر بمنى هدي تمتع بالنسبة لغير عائشة، وهدي قران: بالنسبة إليها، كما هو معلوم بالأحاديث الصحيحة، التي لا نزاع فيها، وبهذا الذي ذكرنا تعلم أن ظاهر القرآن مع مالك، والحديث ليس فيه حجة عليه.

وقال ابن حجر في «فتح الباري» : في باب ذبح الرجل البقر عن نسائه من غير أمرهن." (١)

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٠٦/٥

"يعني أعف من سؤال الناس، والطمع فيهم، وأن المعتر هو الذي يعتري متعرضا للإعطاء من غير سؤال وطلب، والله أعلم. وقد قدمنا حكم الأكل من أنواع الهدايا والضحايا، وأقوال أهل العلم في ذلك بما أغنى عن إعادته هنا.

قوله تعالى: كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون، قوله كذلك: نعت لمصدر أي: البدن لكم تسخيرا كذلك أي: مثل ذلك التسخير الذي تشاهدون أي: ذللناها لكم، وجعلناها منقادة لكم تفعلون بها ما شئتم من نحر وركوب، وحلب وغير ذلك من **المنافع**، ولولا أن الله ذللها لكم لم تقدروا عليها ؛ لأنها أقوى منكم ألا ترى البعير، إذا توحش صار صاحبه غير قادر عليه، ولا متمكن من الانتفاع به، وقوله هنا: لعلكم تشكرون قد قدمنا مرارا أن لعل تأتي في القرآن لمعان أقربها، اثنان: أحدهما: أنها بمعناها الأصلي، الذي هو الترجي والتوقع، وعلى هذا فالمراد بذلك خصوص الخلق ؛ لأنهم هم الذين يترجى منهم شكر النعم من غير قطع، بأنهم يشكرونها أو لا ينكرونها لعدم علمهم بما تؤول إليه الأمور، وليس هذا المعنى في حق الله تعالى ؛ لأنه عالم بما سيكون فلا يجوز في حقه - جل وعلا - إطلاق الترجي والتوقع لتنزيهه عن ذلك، وإحاطة علمه بما ينكشف عنه الغيب، وقد قال تعالى لموسى وهارون: فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى [٢٠ \ ٤٤] أي على رجائكما وتوقعكما أنه يتذكر أو يخشى، مع أن الله عالم في سابق أزله أن فرعون لا يتذكر ولا يخشى، فمعنى لعل بالنسبة إلى الخلق، لا إلى الخالق - جل وعلا -، المعنى الثاني: هو ما قدمنا من أن بعض أهل العلم، قال: كل لعل في القرآن فهي للتعليل إلا التي في سورة الشعراء وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون [٢٦ \ ١٢٩] قال: فهي بمعنى: كأنكم تخلدون، وإتيان لفظة لعل للتعليل معروف في كلام العرب، وقد قدمناه موضحا مرارا وقد قدمنا من شواهده العربية قول الشاعر:

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا ... نكف ووثقتم لنا كل موثق

يعني كفوا الحروب لأجل أن نكف، وإذا علمت أن هذه الآية الكريمة بين الله فيها أن تسخيره الأنعام لبني آدم نعمة من إنعامه، تستوجب الشكر لقوله: لعلكم تخلدون.

فاعلم: أنه بين هذا في غير هذا الموضع كقوله تعالى." (١)

"وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: بل هم أضل سبيلا، قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جعلوا أضل من الأنعام؟

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٦٠/٥

قلت: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها، وتهتدي لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إسارة الشيطان الذي هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم **المنافع**، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي، اه منه.

وإذا علمت ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فاعلم أن الله بينه في غير الموضع؛ كقوله تعالى في سورة «الأعراف» : ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون [٧ \ ١٧٩] وقوله تعالى في «البقرة» : ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون [٢ ١٧١] .

قوله تعالى: وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي جعل لخلقه الليل لباسا، والنوم سباتا، وجعل لهم النهار نشورا، أما جعله لهم الليل لباسا، فالظاهر أنه لما جعل الليل يغطي جميع من في الأرض بظلامه صار لباسا لهم، يسترهم كما يستر اللباس عورة صاحبه، وربما انتفعوا بلباس الليل كهروب الأسير المسلم من الكفار في ظلام الليل، واستتاره به حتى ينجو منهم، ونحو ذلك من الفوائد التي تحصل بسبب لباس الليل؛ كما قال أبو الطيب المتنبي:

وكم لظلام الليل عندي من يد ... تخبر أن المانوية تكذب

وقاك ردى الأعداء تسري إليهم ... وزارك فيه ذو الدلال المحجب

وأما جعله لهم النوم سباتا، فأكثر المفسرين على أن المراد بالسبات: الراحة من تعب العمل بالنهار؛ لأن النوم يقطع العمل النهاري، فينقطع به التعب، وتحصل الاستراحة، كما هو معروف.

وقال الجوهري في «صحاحه» : السبات النوم وأصله الراحة، ومنه قوله تعالى:." (١)

"**المنافع**، والعور لا يمنع ذلك؛ ولأنه لا يضر بالعمل فأشبه قطع إحدى الأذنين، ويفارق العمى فإنه يضر بالعمل ضررا بينا ويمنع كثيرا من الصنائع، ويذهب بمنفعة الجنس ويفارق قطع إحدى اليدين والرجلين، فإنه لا يعمل بإحداهما ما يعمل بهما، والأعور يدرك بإحدى العينين ما يدرك بهما.

وأما الأضحية والهدي فإنه لا يمنع منهما مجرد العور، وإنما يمنع انخساف العين وذهاب العضو المستطاب

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٦٠/٦

؛ ولأن الأضحية يمنع فيها قطع الأذن والقرن، والعتق لا يمنع فيه إلا ما يضر بالعمل، ويجزئ المقطوع الأذنين. وبذلك قال أبو حنيفة والشافعي.

وقال مالك وزفر: لا يجزئ ؛ لأنهما عضوان فيها الدية، فأشبها اليدين. ولنا أن قطعهما لا يضر بالعمل الضرر البين، فلم يمنع كنقص السمع، بخلاف اليدين، ويجزئ مقطوع الأنف لذلك، ويجزئ الأصم إذا فهم بالإشارة، والأخرس إذا فهمت إشارته وفهم الإشارة، وهذا مذهب الشافعي وأبي ثور.

وقال أصحاب الرأي: لا يجزئ ؛ لأن منفعة الجنس ذاهبة، فأشبه زائل العقل، وهذا المنصوص عليه عن أحمد ؛ لأن الخرس نقص كثير يمنع كثيرا من الأحكام، مثل القضاء والشهادة. أكثر الناس لا يفهم إشارته، فيتضرر في ترك استعماله، وإن اجتمع الخرس والصمم. فقال القاضي: لا يجزئ، وهو قول بعض الشافعية لاجتماع النقصين فيه وذهاب منفعتي الجنس، ووجه الإجزاء أن الإشارة تقوم مقام الكلام في الإفهام، ويثبت في حقه أكثر الأحكام فيجزئ ؛ لأنه لا يضر بالعمل ولا بغيره.

وأما المريض فإن كان مرجو البرء كالحمى وما أشبهها أجزأ في الكفارة، وإن كان غير مرجو الزوال لم يجز. وأما نضو الخلق يعني النحيف المهزول خلقة، فإن كان يتمكن من العمل أجزأ، وإلا فلا. ويجزئ الأحمق وهو الذي يصنع الأشياء لغير فائدة، ويرى الخطأ صوابا. وكذلك يجزئ من يخنق في بعض الأحيان، والخصي والمجبوب، والرتقاء، والكبير الذي يقدر على العمل ؛ لأن ما لا يضر بالعمل لا يمنع تمليك العبد منافعه، وتكميل أحكامه، فيحصل الإجزاء به، كالسالم من العيوب، انتهى من «المغني» ، مع حذف يسير لا يضر بالمعنى.

ثم قال صاحب «المغني» : ويجزئ عتق الجاني والمرهون وعتق المفلس عبده، إذا." (١)

"وأول سورة الحج، وذكرنا أن من الشواهد العربية لإطلاق النجم وإرادة النجم – قول الراعي:

فباتت تعد النجم في مستحيرة ... سريع بأيدي الآكلين جمودها

وقول عمرو بن أبي ربيعة المخزومي:

أبرزوها مثل المهاة تهادى ... بين خمس كواعب أتراب

ثم قالوا تحبها قلت بهرا ... عدد النجم والحصا والتراب

وقوله في هذه الآية الكريمة: يسجدان قد قدمنا الكلام عليه مستوفى في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال [١٣ \ ١٥] .

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢١٧/٦

قوله تعالى: والسماء رفعها ووضع الميزان.

قوله: والسماء رفعها قد بينا الآيات الموضحة له في سورة «ق» في الكلام على قوله تعالى: أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها الآية [٥٠ \ ٦] .

وقوله: ووضع الميزان، قد قدمنا الكلام عليه في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى: الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان الآية [٤٢ \ ١٧] .

قوله تعالى: وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها [٦ \ ١٥٢] ، وذكرنا بعضه في سورة الشورى.

قوله تعالى: والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية أنه وضع الأرض للأنام وهو الخلق، لأن وضع الأرض لهم على هذا الشكل العظيم، القابل لجميع أنواع الانتفاع من إجراء الأنهار وحفر الآبار وزرع الحبوب والثمار، ودفن الأموات وغير ذلك من أنواع **المنافع** من أعظم الآيات." [١]

"وأكبر الآلاء التي هي النعم، ولذا قال تعالى بعده: فبأي آلاء ربكما تكذبان [٥٥ \ ١٣] .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من امتنانه - جل وعلا - على خلقه بوضع الأرض لهم بما فيها من **المنافع**، وجعلها آية لهم، دالة على كمال قدرة ربهم واستحقاقه للعبادة وحده - جاء موضحا في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين الآية [١٣ \ ٣] .

وقوله تعالى: هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه الآية [٦٧ \ ١٥] .

وقوله تعالى: والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم [٧٩: ٣٠ - ٣٣] ، وقوله تعالى: والأرض فرشناها فنعم الماهدون [٥١ \ ٤٨] ، وقوله تعالى: الذي جعل لكم الأرض فراشا الآية [٢ \ ٢٢] .

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤٩٢/٧

وقوله تعالى: والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا الآية [٥٠ \ ٧] .

وقوله تعالى: هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا [٢ \ ٢٩] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: فيها فاكهة أي فواكه كثيرة، وقد قدمنا أن هذا أسلوب عربي معروف، وأوضحنا ذلك بالآيات وكلام العرب.

وقوله: والنخل ذات الأكمام ذات أي صاحبة، والأكمام جمع كم بكسر الكاف، وهو ما يظهر من النخلة في ابتداء إثمارها، شبه اللسان ثم ينفخ عن النور، وقيل: هو ليفها، واختار ابن جرير شموله للأمرين.

وقوله: والحب كالقمح ونحوه.

وقوله: ذو العصف قال أكثر العلماء: العصف ورق الزرع، ومنه قوله تعالى: فجعلهم كعصف مأكول [١٠٥ \ ٥] ، وقيل: العصف التبن.

وقوله: والريحان: اختلف العلماء في معناه، فقال بعض أهل العلم: هو كل." [١]

"وتعالى أنزل الحديد، أي: خلقه لبني آدم ليردع به المؤمنون الكافرين المعاندين، وهو قتلهم إياهم بالسيوف والرماح والسهام، وعلى هذا فقوله هنا: وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد [٥٧ \ ٢٥] ، توضحه آيات كثيرة، كقوله تعالى: قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم [٩ \ ١٤] ، وقوله تعالى: فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان [٨ \ ١٢] ، والآيات في مثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله: ومنافع للناس [٥٧ \ ٢٥] ، لا يخفى ما في الحديد من **المنافع** للناس، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع [١٣ \ ١٧] ، لأن مما يوقد عليه في النار ابتغاء المتاع - الحديد.

قوله تعالى: فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون بل متعت هؤلاء الآية [٤٣ \ ٢٨ - ٢٩] .

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤٩٣/٧

ويغفر لكم والله غفور رحيم.

قد قدمنا أن التحقيق أن هذه الآية الكريمة من سورة الحديد في المؤمنين من هذه الأمة، وأن سياقها واضح في ذلك، وأن من زعم من أهل العلم أنها في أهل الكتاب فقد غلط، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة أعظم مما وعد به مؤمني أهل الكتاب وإتيانهم أجرهم مرتين كما قال تعالى فيهم: الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين الآية [٢٨ \ ٥٢ - ٥٤] .

وكون ما وعد به المؤمنين من هذه الأمة أعظم، أن إيتاء أهل الكتاب أجرهم مرتين أعطى المؤمنين من هذه الأمة مثله كما بينه بقوله: يؤتكم كفلين من رحمته [٥٧ \ ٢٨] ، وزادهم بقوله: ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم [57 \ ٢٨] .

قوله تعالى: وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الفضل بيد الله وحده وأنه يؤتيه من يشاء - جاء." (١)

"فأنزل الله تعالى: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد. السورة [١٠٩ \ ١ - ٣] .

ومما هو صريح في قصدهم بالمداهنة، والدافع عليها والجواب عليهم قد جاء موضحا في قوله تعالى: ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق [٢ \ ١٠٩] ، ثم قال تعالى مبينا موقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - من هذه المحاولة بقوله: فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره [٢ \ ١٠٩] .

وقد جاء الله بأمره حكما بينه وبينهم، وهنا يمكن أن يقال: إن كل مداهنة في الدين مع المشركين تدخل في هذا الموضوع.

وقد جاء بعد قوله تعالى: ولا تطع كل حلاف مهين إشارة إلى أنهم لا يطاعون في مداهنتهم، وأنهم سيبذلون كل ما في وسعهم؛ لترويج مداهنتهم ولو بكثرة الحلف، وفرق بين المداهنة في الدين والملاطفة في الدنيا، أو التعاون وتبادل المنافع الدنيوية، كما قدمنا عند قوله تعالى: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم الآية [٦٠ \ ٨] . والله تعالى أعلم.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٧/٥٥٠

قوله تعالى: أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون

هذا استفهام إنكاري ؛ يدل على أنه لم يسألهم أجرا على دعوته إياهم.

وقال تعالى: قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى [٤٢ \ ٢٣] . فالأجر المسئول المستفهم عنه هو الأجر المادي بالمال ونحوه.

وقد تقدم للشيخ - رحمة الله تعالى علينا وعليه -: مبحث الأجر على الدعوة من جميع الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -، ومبحث أخذ الأجرة على الأعمال التي أصلها مزية الله ؛ بحثا وافيا عند قوله تعالى: ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله [١١ \ ٢٩] من سورة هود.

قوله تعالى: فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم

لم يبين هنا من هو صاحب الحوت، ولا نداءه وهو مكظوم، ولا الوجه المنهي عنه أن يكون مثله، وقد بين تعالى صاحب الحوت في (الصافات) في قوله تعالى: وإن يونس." [١]

"مؤمن» أخرجه أحمد (٣٦) / (٤٨٤) ((٢٢١٥٩))، (٤٦) / (٤٩٧) ((٢٢١٦٦))، (٤٦) / (٥٣٧) ((٢٢١٩٩))، وابن حبان (١) / (٤٠٢) ((١٧٦))، والحاكم (١) / (٥٨) ((٣٣)) - قال الحاكم: «وهكذا رواه علي بن المبارك، ومعمر بن راشد، عن يحيى بن أبي كثير» - وقال الهيثمي في المجمع (١) / (٨٦) ((٢٨٧)): «رجاله رجال الصحيح، إلا أن فيه يحيى بن أبي كثير، وهو مدلس، وإن كان من رجال الصحيح» - وقال المناوي في فيض القدير (٦) / (١٥٣): «قال العراقي: حديث صحيح» - .

(٢١٣٥٩) - عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «الإثم حواز القلوب: هي الأمور التي تحز فيها، أي تؤثر كما يؤثر الحز في الشيء، ورواه شمر: الإثم حواز القلوب بتشديد الواو: أي يحوزها ويتملكها ويغلب عليها - النهاية (حزز) - القلوب، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع» أخرجه أبو داود في كتاب الزهد ص (١٣٤) - (١٣٥) ((١٢٥))، والطبراني في الكبير (٩) / (١٤٩) ((٨٧٤٩)) - قال المنذري في الترغيب والترهيب (٣) / (٢٥) ((٢٩٣٢)): «رواه البيهقي وغيره، ورواته لا أعلم فيهم مجروحا، لكن قيل صوابه الوقوف» - وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢) / (٩٦):

---

[١] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٥٤/٨

«صح عن ابن مسعود» - وقال الهيثمي في المجمع (١) / (١٧٦) ((٨١٩)): «رواه الطبراني كله بأسانيد رجالها ثقات» - وقال الألباني في الصحيحة (٦) / (٢٢١) ((٢٦١٣)): «موقوف» - .

(٢١٣٦٠) - عن عبد الله بن مسعود، قال: الإثم حواز القلوب عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد - .

لله إن الله شديد العقاب (٢)) تفسير

(٢١٣٦١) - عن عبد الله بن مسعود، قال: الإثم حواز القلوب، فإذا حز في قلب أحدكم شيء فليدعه أخرجه البيهقي ((٧٢٧٧)) - .

(٢١٣٦٢) - عن عبد الله بن عباس - من طريق علي بن أبي طلحة - في قوله: (وتعاونوا على البر والتقوى)، قال: البر: ما أمرت به - والتقوى: ما نهيت عنه أخرجه ابن جرير (٨) / (٥٢) - (٥٣) - وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم - ذكر ابن عطية ((٣) / (٩٤)) أن قوما قالوا: البر والتقوى لفظان بمعنى، وكرر باختلاف اللفظ تأكيدا ومبالغة، إذ كل بر تقوى، وكل تقوى بر - ثم علق عليه بقوله: «وفي هذا تسامح ما، والعرف في دلالة هذين اللفظين أن البر يتناول الواجب والمندوب إليه، والتقوى رعاية الواجب، فإن جعل أحدهما بدل الآخر فبتجوز» - وقال ابن القيم ((١) / (٣٠٧) - (٣٠٨) بتصرف) في معنى البر والتقوى: «حقيقة البر: هو الكمال المطلوب من الشيء **والمنافع** التي فيه والخير، كما يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريفها في الكلام - وأما التقوى فحقيقتها: العمل بطاعة الله إيمانا واحتسابا، أمرا ونهيا، فيفعل ما أمر الله به إيمانا بالأمر وتصديقا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانا بالنهي وخوفا من وعيده» - .

(٢١٣٦٣) - ". [(١)]

"عن أبي العالية الرياحي - من طريق الربيع - في قوله: (وتعاونوا على البر والتقوى)، قال: البر: ما أمرت به - والتقوى: ما نهيت عنه أخرجه ابن جرير (٨) / (٥٣) - قال ابن القيم ((١) / (٣٠٧) - (٣٠٨) بتصرف) في معنى البر والتقوى: «حقيقة البر: هو الكمال المطلوب من الشيء **والمنافع** التي فيه والخير، كما يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريفها في الكلام - وأما التقوى فحقيقتها: العمل بطاعة الله إيمانا واحتسابا، أمرا ونهيا، فيفعل ما أمر الله به؛ إيمانا بالأمر، وتصديقا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه؛

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٣١٥/١١

إيمانا بالنهي، وخوفا من وعيده» - .

(٢١٣٦٤) - عن الربيع بن أنس، مثله عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد - وقد أورد السيوطي أحاديث عديدة عن فضائل أعمال تضمنت تعاونا على البر والتقوى، وأخرى في الترهيب من أعمال تضمنت تعاونا على الإثم والعدوان (٥) / (١٧٠) - (١٧٤) - .

(حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يىس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم (٣))

قراءات

(٢١٣٦٥) - عن عبد الله بن عباس: أنه قرأ: (وأكيل السبع) أخرجه ابن جرير (٨) / (٦٣) - وهي قراءة شاذة - انظر: مختصر ابن خالويه ص (٣٧)، والمحتسب (١) / (٢٠٧) - .

(٢١٣٦٦) - عن أبي ميسرة: أنه كان يقرأ: (والمنطوحة) أخرجه ابن جرير (٨) / (٦١) - وهي قراءة شاذة - انظر: مختصر ابن خالويه ص (٣٧) - .

- نزول الآية

(٢١٣٦٧) - عن عنترة، قال: لما نزلت هذه الآية: (اليوم أكملت لكم دينكم)، وذلك

". [1]

"(ما ننزل الملائكة إلا بالحق)، قال: بالرسالة، والعذاب تفسير مجاهد ص (٤١٥) من طريق ابن أبي نجيح، وأخرجه ابن جرير (١٤) / (١٧) - (١٨) - وعلقه البخاري (ت: مصطفى البغا) كتاب التوحيد - وما ذكر في خلق أفعال العباد وكسبهم (٦) / (٢٧٣٤) - وعزاه السيوطي إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم - ذكر ابن عطية ((٥) / (٢٧٤)) أن الظاهر أن قوله تعالى: (إلا بالحق) «معناه: كما يجب ويحق من الوحي **والمنافع** التي أراها الله لعباده، لا على اقتراح كافر، ولا باختيار معترض» - .

(٤٠١٥٧) - عن إسماعيل السدي، في قوله: (وما كانوا إذا منظرين)، قال: وما كانوا لو نزلت الملائكة

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٣١٦/١١

بمنظرين من أن يعذبوا عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم - .

(٤٠١٥٨) - قال مقاتل بن سليمان: (ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين)، يقول: لو نزلت الملائكة بالعذاب إذا لم يناظروا حتى يعذبوا، يعني: كفار مكة تفسير مقاتل بن سليمان (٢) / (٤٢٥) - .

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (٩))

(٤٠١٥٩) - عن مجاهد بن جبر - من طريق ابن أبي نجيح - في قوله: (وإنا له لحافظون)، قال: عندنا أخرجه ابن جرير (١٤) / (١٨) - وعلقه البخاري (٦) / (٢٧٣٤) - وعزاه السيوطي إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم - .

(٤٠١٦٠) - عن قتادة بن دعامة - من طريق سعيد - في قوله: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، وقال في آية أخرى: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) [فصلت: (٤٢)] - والباطل: إبليس - قال: فأنزله الله، ثم حفظه، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلا، ولا ينقص منه حقا، حفظه الله من ذلك أخرجه عبد الرزاق (١) / (٣٤٥) بنحوه من طريق معمر، وابن جرير (١٤) / (١٨) - (١٩) - وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم - اختلف في قوله تعالى: (له لحافظون) على من يعود الضمير؟ على قولين: الأول: أنه عائد على القرآن - الثاني: أنه عائد على محمد - صلى الله عليه وسلم - - ووجه ابن عطية ((٥) / (٢٧٥)) القول الأول بقوله: «والمعنى: لحافظون من أن يبدل أو يغير كما جرى في سائر الكتب المنزلة» - ووجه القول الثاني بقوله: «أي: نحفظه من أذاكم، ونحوطه من مكركم وغيره - وفي ضمن هذه العدة كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أظهر الله به الشرع وحان أجله» - ورجح ابن كثير ((٨) / (٢٤٦)) مستندا إلى دلالة السياق القول الأول، فقال: «والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق» - وزاد ابن عطية قولا أن المعنى: «لحافظون باختزانه في صدور الرجال» - ثم علق عليه بأن معناه متقارب مع القول الأول - .

." (١)

"(٤٠٨٣٧) - قال مقاتل بن سليمان: (لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس)، يعني: بجهد الأنفس تفسير مقاتل بن سليمان (٢) / (٤٦٠) - .

(٤٠٨٣٨) - قال يحيى بن سلام: (إلا بشق الأنفس) لولا أنها تحمل أثقالكم لم تكونوا بالغي ذلك البلد

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٣١٧/٢١

إلا بمشقة على أنفسكم تفسير يحيى بن سلام (١) / (٥١) - نقل ابن عطية ((٥) / (٣٣٠)) عن الفراء أن معنى «(بشق الأنفس) أي: بذهاب نصفها، كأنها قد ذابت تعبا ونصبا» - ثم علق عليه بقوله: «كما تقول لرجل: لا تقدر على كذا إلا بذهاب جل نفسك، وبقطعة من كبدك - ونحو هذا من المجاز» - .

(إن ربكم لرءوف رحيم (٧))

(٤٠٨٣٩) - قال مقاتل بن سليمان: (إن ربكم لرؤوف) يعني: لرفيق (رحيم) بكم فيما جعل لكم من الأنعام من المنافع تفسير مقاتل بن سليمان (٢) / (٤٦٠) - .

(٤٠٨٤٠) - قال يحيى بن سلام: قال: (إن ربكم لرءوف رحيم)، يقول: فبرأفة الله ورحمته سخر لكم هذه الأنعام، وهي للكافر رحمة الدنيا: المعايش، والنعم التي رزقه الله تفسير يحيى بن سلام (١) / (٥٢) - .

آثار متعلقة بالآية

(٤٠٨٤١) - عن أبي هريرة، عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، قال: «إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر؛ فإن الله تعالى إنما سخرها لكم لتبلغوا إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجاتكم» أخرجه أبو داود (٤) / (٢١٤) ((٢٥٦٧))، والبيهقي في الشعب (١٣) / (٤٢٤) ((١٠٥٧٢)) واللفظ له - قال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٥) / (٧٥) - (٧٦) ((٢٣١٩)): «وإنما الذي ينظر في أمره من هذا الإسناد أبو مريم؛ وهو مولى أبي هريرة، ولا يعرف له حال - ، فما مثل هذا الحديث صحح» - وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣) / (٣٥٩): «رواه أبو داود، وهو حديث حسن» - وقال المناوي في التيسير (١) / (٤٠٧) عن إسناد أبي داود: «إسناد ضعيف» - وقال الألباني في صحيح أبي داود (٧) / (٢٠٣) ((٢٣١٣)): «إسناده صحيح» - .

(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة)

قراءات

". [1]

"(٥٠١٧٥) - عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - من طريق ابن وهب - في قوله: (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة) فقرأ حتى بلغ: (هل يذهبن كيده ما يغيظ)، قال: من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم -، ويكايد هذا الأمر ليقطعه عنه ومنه، فليقطع ذلك من أصله من

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٤٤٦/٢١

حيث يأتيه، فإن أصله في السماء، فليمدد بسبب إلى السماء، ثم ليقطع عن النبي - صلى الله عليه وسلم - الوحي الذي يأتيه من الله، فإنه لا يكايده حتى يقطع أصله عنه، فكايد ذلك حتى قطع أصله عنه، (فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) ما دخلهم من ذلك، وغاظهم الله به من نصرة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وما ينزل عليه أخرجه ابن جرير (١٦) / (٤٧٩) - وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم مختصرا - علق ابن عطية ((٦) / (٢٢٣)) على قول ابن زيد بقوله: «والقطع - على هذا التأويل - ليس بالاختناق، بل هو جزم السبب» - .

(٥٠١٧٦) - قال يحيى بن سلام: قوله: (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) يعني: المنافق؛ أي: أنه يائس من أن ينصر الله محمدا، لا يصدق بما وعد الله رسوله من نصره في الدنيا والآخرة - ونصره في الآخرة الحجة في تفسير هود بن محكم (٣) / (١٠٤): الجنة.؛ (فليمدد بسبب) بحبل (إلى السماء) سماء البيت، يعني: سقف البيت، أي: فليعلق حبلا من سقف البيت فليختنق حتى يموت - يعني: بقوله: ف (ليقطع): فليختنق - وذلك كيده - قال: (فلينظر هل يذهبن) ذلك غيظه، أي: إن ذلك لا يذهب غيظه تفسير يحيى بن سلام (١) / (٣٥٧) - ساق ابن عطية ((٦) / (٢٢٣)) الأقوال، ثم ذكر أن الآية تحتمل معنى آخر، وهو أن يراد به: الكفار، وكل من يغتاظ بأن ينصره الله ويطمع أن لا ينصر، قيل له: من ظن أن هذا لا ينصر فليمت كمدا، هو منصور لا محالة، فليختنق هذا الظان غيظا وكمدا - ثم قال: «ويؤيد هذا أن الطبري والنقاش قالا: ويقال: نزلت في نفر من بني أسد وغطفان قالوا: نخاف أن ينصر محمد فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من يهود من **المنافع»** - وبين أن الضمير في قوله: (ينصره) عائد - على هذا الاحتمال - على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقط - وتقدم في نزول الآية أن ما أورده ابن جرير الطبري دون عزو وسند، وفيه (١٦) / (٤٨٤) قولهم: «نخاف أن لا ينصر محمد»، على النفي - .

(وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد (١٦))

(٥٠١٧٧) - ".[1]

"قال: أسواقا كانت لهم، ما ذكر الله منافع إلا الدنيا أخرجه ابن جرير (١٦) / (٥٢٠) مختصرا - وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم - .

(٥٠٤٦٠) - عن عبد الله بن عباس، في قوله: (ليشهدوا منافع لهم)، قال: منافع في الدنيا، ومنافع في

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٤٤/٢٧

الآخرة؛ فأما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البدن في ذلك اليوم والذبائح والتجارات عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم - .

(٥٠٤٦١) - عن أبي رزين [مسعود بن مالك الأسدي] - من طريق عاصم بن بهدلة - في قوله: (ليشهدوا منافع لهم)، قال: أسواقهم أخرجه ابن جرير (١٦) / (٥٢٠) - .

(٥٠٤٦٢) - قال سعيد بن المسيب: العفو والمغفرة تفسير الثعلبي (٧) / (١٩)، وتفسير البغوي (٥) / (٣٧٩) - .

(٥٠٤٦٣) - عن سعيد بن جبير - من طريق واقد - (ليشهدوا منافع لهم)، قال: التجارة أخرجه الثوري في تفسيره ص (٢١١)، وابن جرير (١٦) / (٥٢٠) - .

(٥٠٤٦٤) - عن مجاهد بن جبر - من طريق ابن أبي نجيح - (ليشهدوا منافع لهم)، قال: الأجر في الآخرة، والتجارة في الدنيا أخرجه يحيى بن سلام (١) / (٣٦٥) من طريق عاصم بن حكيم، وابن جرير (١٦) / (٥٢١) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد - وعقب عليه يحيى بن سلام بقوله: وذلك أنهم كانوا يتبايعون في الموسم، وكانت لهم في ذلك منفعة - .

(٥٠٤٦٥) - عن مجاهد بن جبر - من طريق ابن أبي نجيح - (ليشهدوا منافع لهم)، قال: فيما يرضى الله لهم من الدنيا والآخرة أخرجه الثوري في تفسيره ص (٢١١) - .

(٥٠٤٦٦) - قال عطية العوفي: العفو والمغفرة تفسير الثعلبي (٧) / (١٩) - .

(٥٠٤٦٧) - عن أبي جعفر محمد بن علي - من طريق جابر - (ليشهدوا منافع لهم)، قال: العفو - وفي لفظ: مغفرة أخرجه ابن جرير (١٦) / (٥٢١) - (٥٢٢) - .

(٥٠٤٦٨) - قال مقاتل بن سليمان: (ليشهدوا منافع لهم)، يعني: الأجر في الآخرة في مناسكهم تفسير مقاتل بن سليمان (٣) / (١٢٣) - أفادت الآثار اختلاف المفسرين في معنى «المنافع» على أقوال: الأول: أنها التجارة ومنافع الدنيا - الثاني: الأجر في الآخرة والتجارة في الدنيا - الثالث: العفو والمغفرة - ورجح ابن جرير ((١٦) / (٥٢٢)) مستندا إلى دلالة العموم شمول المعنى لجميع المنافع، فقال: «وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: عنى بذلك: ليشهدوا منافع لهم من العمل الذي يرضي الله والتجارة؛ وذلك أن الله عم (منافع لهم) جميع ما يشهد له الموسم، ويأتي له مكة أيام الموسم؛ من منافع الدنيا والآخرة، ولم يخصص من ذلك شيئا من منافعهم بخبر ولا عقل، فذلك على العموم في المنافع التي وصفت» - .

- (ويذكروا اسم الله)

(١) ".

"مسمى)، قال: في ظهورها، وألبانها، وأوبارها، وأشعارها، وأصوافها إلى أن تسمى: هديا، فإذا سميت: هديا ذهبت **المنافع** أخرجه ابن أبي شيبة (القسم الرابع من الجزء الرابع) ص (٢٩٥)، وابن جرير (١٦) / (٥٤٣)، (٥٤٨) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن أبي حاتم - ونحوه في تفسير مجاهد ص (٤٨١) إلا أن لفظ آخره: إلى أن تسمى: بدنا - ونحوه عند الثوري في تفسيره ص (٢١٢) - وأخرجه يحيى بن سلام (١) / (٣٧١) بلفظ: هي البدن ينتفع بها حتى تقلد - .

(٥٠٦٢٦) - عن الضحاك بن مزاحم=

(٥٠٦٢٧) - وعطاء [بن أبي رباح]، قالا: **المنافع** فيها: الركوب إذا احتاج، وفي أوبارها، وألبانها - والأجل المسمى: إلى أن تقلد فتصير بدنا عزاه السيوطي إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم - .

(٥٠٦٢٨) - عن ابن جريج، قال: قال عطاء بن أبي رباح في قوله: (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى)، قال: إلى أن تنحر - قال: له أن يحمل عليها المعي المعي: من الإعياء وهو الكلال، وأعيا الرجل في المشي فهو معي - اللسان (عيا).، والمنقطع به، من الضرورة؛ كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يأمر بالبدنة إذا احتاج إليها سيدها أن يحمل عليها، ويركب غير منهوكة - قلت لعطاء: ما؟ قال: الرجل الراجل، والمنقطع به، والمتبع، وإن نتجت أن يحمل عليها ولدها، ولا يشرب من لبنها إلا فضلا عن ولدها، فإن كان في لبنها فضل فليشرب من أهداها ومن لم يهدها أخرجه ابن جرير (١٦) / (٥٤٥) - .

(٥٠٦٢٩) - عن قتادة بن دعامة - من طريق ابن أبي نجيح - (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى)، يقول: في ظهورها، وألبانها، فإذا قلدت فمحلها إلى البيت العتيق أخرجه ابن جرير (١٦) / (٥٤٤) - .

(٥٠٦٣٠) - قال قتادة بن دعامة: (إلى أجل مسمى)، وهو أن يسميها، ويوجبها هديا، فإذا فعل ذلك لم يكن له شيء من منافعها تفسير الثعلبي (٧) / (٢٢)، وتفسير البغوي ، ٥) / (٣٨٤) - .

(5٠٦٣١) - عن ابن أبي نجيح - من طريق ابن علية - في قوله: (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى)، قال: إلى أن توجبها بدنة أخرجه ابن جرير (١٦) / (٥٤٤) - .

(٥٠٦٣٢) - عن محمد بن أبي موسى، في قوله: (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى)، قال: لكم في كل

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٩٦/٢٧

مشعر منها منافع حتى تخرجوا منه إلى غيره أخرجه ابن أبي شيبة (القسم الرابع من الجزء الرابع) ص (٢٩٤) - (٢٩٥)، وابن جرير (١٦) / (٥٤٦) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم -.

(٥٠٦٣٣) - قال إسماعيل السدي: (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى)، يقول: إلى أن تقلد، فإذا قلدت لم تركب لها ظهور، ولم يشرب لها لبن علقه يحيى بن سلام (١) / (٣٧١) - .

(٥٠٦٣٤) - عن عطاء الخراساني - من طريق يونس - في قول الله: (فيها منافع إلى أجل مسمى)، قال: الأجل المسمى: إذا قلدت البدن أخرجه أبو جعفر الرملي في جزئه ص (١١٧) (تفسير عطاء الخراساني) -.

(٥٠٦٣٥) - قال مقاتل بن سليمان: (لكم فيها) في البدن (منافع) في ظهورها وألبانها (إلى أجل مسمى) يقول: إلى أن تقلد، أو تشعر، أو تسمى: هدايا؛ فهذا الأجل المسمى، فإذا فعل ذلك بها لا يحمل عليها إلا مضطرا، ويركبها بالمعروف، ويشرب فضل ولدها من اللبن، ولا يجهد الحلب حتى لا ينهك أجسامها تفسير مقاتل بن سليمان (٣) / (١٢٦) - .

(٥٠٦٣٦) - قال سفيان الثوري، في قوله: (إلى أجل مسمى)، قال: إذا دعيت، وسميت: البدن أخرجه الثوري ص (٢١٢) - .

(٥٠٦٣٧) - قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - من طريق ابن وهب - في قوله: (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق)، فقرأ قول الله: (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب): لكم في تلك الشعائر منافع إلى أجل مسمى؛ إذا ذهبت تلك الأيام لم تر أحدا يأتي عرفة يقف فيها يبتغي الأجر، ولا المزدلفة، ولا رمي الجمار، وقد ضربوا من البلدان لهذه الأيام التي فيها **المنافع**، وإنما منافعها إلى تلك الأيام، وهي الأجل المسمى، ثم محلها حين تنقضي تلك الأيام إلى البيت العتيق أخرجه ابن جرير (١٦) / (٥٤٦) - أفادت الآثار اختلاف المفسرين في معنى: **«المنافع»** بناء على اختلافهم في معنى: «الشعائر» كالتالي: من قال بأن الشعائر: هي البدن: ذهب إلى أن معنى: **«المنافع»** أي: لكم في البدن منافع - ثم اختلف هؤلاء في «الحال» التي لهم فيها منافع، وفي «الأجل» في قوله تعالى: (إلى أجل مسمى)؛ فقيل: الحال: هي الحال التي لم يوجبها صاحبها ولم يسمها بدنة - **والمنافع** في هذه الحال: شرب ألبانها، وركوب ظهورها، وما يرزقهم الله من نتاجها وأولادها - والأجل المسمى: عند إيجابها وتسميتها بدنة، إذ بمجرد إيجابها يبطل الانتفاع بها - وقيل: الحال: بعد إيجاب البدنة - **والمنافع** بعد

إيجابها: ركوب ظهورها إن احتيج إلى ذلك، وشرب ألبانها إن اضطر إليه - والأجل المسمى: هو النحر - ومن قال بأن «الشعائر» هي مناسك الحج: اختلفوا أيضا في معنى: «المنافع»، فقيل: المنافع: التجارة - والأجل المسمى: الخروج من الشعائر إلى غيرها - وقيل: المنافع: الأجر والثواب في قضاء المناسك - والأجل المسمى: انقضاء أيام الحج - ورجح ابن جرير ((١٦) / (٥٤٧)) مستندا إلى دلالة العموم شمول الآية لكل هذه المعاني، بناء على ترجيحه لعموم معنى «الشعائر»، فبين أن معنى: (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى): «لكم في هذه الشعائر منافع إلى أجل مسمى، فما كان من هذه الشعائر بدنا وهديا فمنافعها لكم، من حين تملكون إلى أن أوجبتموها هدايا وبدنا، وما كان منها أماكن ينسك لله عندها فمنافعها التجارة لله عندها، والعمل لله بما أمر به إلى الشخوص عنها، وما كان منها أوقاتا فأن يطاع الله فيها بعمل أعمال الحج، وبطلب المعاش فيها بالتجارة، إلى أن يطاف بالبيت في بعض، أو يوافى الحرم في بعض، ويخرج من الحرم في بعض» - .

(ثم محلها إلى البيت العتيق (٣٣))

(٥٠٦٣٨) - عن ابن جريج، قال: أخبرني عطاء [ابن أبي رباح]، قال: كان ابن عباس يقول: لا يطوف بالبيت حاج ولا غير حاج إلا حل - فقلت لعطاء: من أين تقول ذلك؟ قال: من قول الله تعالى: (ثم محلها إلى البيت العتيق) - قلت: فإن ذلك بعد المعرف المعرف: الوقوف بعرفة - لسان العرب (عرف) - - قال: كان ابن عباس يقول: هو بعد المعرف وقبله أخرجه ابن حزم في المحلى (٧) / (١٠١)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢) / (١٨٩)، وزاد: وكان ابن عباس يأخذها من أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه أن يحلوا في حجة الوداع، قالها في غير مرة - .

(٥٠٦٣٩) - عن مجاهد بن جبر - من طريق ابن أبي نجيح - (ثم محلها) يقول: محل البدن حين تسمى (إلى البيت العتيق) أخرجه ابن أبي شيبة (القسم الرابع من الجزء الرابع) ص (٢٩٥)، وابن جرير (١٦) / (٥٤٨) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن أبي حاتم - .

(٥٠٦٤٠) - عن عكرمة مولى ابن عباس، في قوله: (ثم محلها إلى البيت العتيق)، قال: إذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر - .

(٥٠٦٤١) - عن الضحاك بن مزاحم=

". (١)

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ١٢٢/٢٧

"(٧٢٢٧٠) – عن أبي بكر الصديق – من طريق أبي سنان – قال: جاءت اليهود إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فقالوا: يا محمد، أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة؟ فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء، وخلق السماوات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات، يعني: من يوم الجمعة، وخلق في أول الثلاث الساعات الآجال، وفي الثانية الآفة، وفي الثالثة آدم» – قالوا: صدقت إن أتممت – فعرف النبي – صلى الله عليه وسلم – ما يريدون، فغضب؛ فأنزل الله: (وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون) أخرجه ابن جرير في تاريخ الرسل والملوك (١) / (٥٠)، وفي تفسيره (٢١) / (٤٦٥)، من طريق ابن حميد، قال: حدثنا مهران، عن أبي سنان، عن أبي بكر به – إسناده ضعيف؛ لانقطاعه، فيه أبو سنان هو الأصغر سعيد بن سنان البرجمى الشيبانى، أدرك صغار التابعين ولم يدرك أبا بكر، كما في ترجمته من تهذيب الكمال للمزي (١٠) / (٤٩٢)؛ فالإسناد منقطع – .

(٧٢٢٧١) – عن عبد الله بن عباس – من طريق أبي سعد البقال، عن عكرمة – : أن اليهود أتت النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فسألت عن خلق السموات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من **المنافع**، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر» – قالت اليهود: ثم ماذا، يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش» – قالوا: قد أصبت لو تممت: ثم استراح – فغضب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – غضبا شديدا؛ فنزلت: (ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون) أخرجه الحاكم (٢) / (٥٩٢) ((٣٩٩٧))، وابن جرير (٢٠) / (٣٨٢) – (٣٨٣)، وفي إسنادهما: أبو سعيد البقال – قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» – وتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: «أبو سعيد البقال، قال ابن معين: لا يكتب حديثه» – وقال ابن كثير في تفسيره (٧) / (١٦٨): «هذا الحديث فيه غرابة» – وقال الألباني في الضعيفة (١٢) / (٩٤٥) ((٥٩٧٣)): «منكر» – .

(٧٢٢٧٢) – عن الضحاك بن مزاحم، قال: قالت اليهود: ابتدأ الله الخلق يوم الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، واستراح يوم السبت؛

". (١)

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٣٧/٤٩٧

"(٧٢٧٨٥) - عن عبد الله بن عباس - من طريق عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء - (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون)، قال: يطعمون أنفسهم أخرجه ابن جرير (٢١) / (٥٥٥) - .
(٧٢٧٨٦) - عن أبي الجوزاء - من طريق عمرو بن مالك - (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون)، قال: يطعمون أنفسهم أخرجه إسحاق البستي ص (٤٣٧) - .
(٧٢٧٨٧) - عن أبي الجوزاء - من طريق عمرو بن مالك - في الآية، قال: أنا أرزقهم، وأنا أطعمهم، ما خلقتهم إلا ليعبدون أخرجه ابن أبي شيبة (١٤) / (٤٤) - .
(٧٢٧٨٨) - تفسير الحسن البصري، في التي في الذاريات: (ما أريد منهم من رزق): أن يرزقوا أنفسهم علقه يحيى بن سلام (١) / (٢٩٥) - .
(٧٢٧٨٩) - قال مقاتل بن سليمان: (ما أريد منهم من رزق) يقول: لم أسألهم أن يرزقوا أحدا، (وما أريد أن يطعمون) يعني: أن يرزقون تفسير مقاتل بن سليمان (٤) / (١٣٣) - ذكر ابن عطية ((٨) / (٨٢)) في الآية احتمالين: الأول: «أن يكون المعنى: أن يطعموا خلقي» - ووجهه بقوله: «فأضيف ذلك إلى الضمير على جهة التجوز - وهذا قول ابن عباس» - الثاني: «أن يكون الإطعام هنا بمعنى النفع على العموم» - ووجهه بقوله: «كما تقول: أعطيت فلانا كذا وكذا طعمة، وأنت قد أعطيته عرضا أو بلدا يحييه، ونحو هذا، فكأنه قال: ولا أريد أن ينفعوني، فذكر جزءا من **المنافع** وجعله دالا على الجميع» - .
آثار متعلقة بالآية
(٧٢٧٩٠) - عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «قال الله: ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا، ولم أسد
". (١)

"وكذا - ما أكلت من هكذا وكذا شيئا أخرجه ابن جرير (٢٢) / (٣٥٨) - اختلف في معنى: «المقوين» في هذه الآية على أقوال: الأول: المسافرون - الثاني: المستمتعون بها - الثالث: الجائعون - ورجح ابن جرير ((٢٢) / (٣٥٨)) مستندا إلى اللغة - القول الأول، وهو قول ابن عباس، والضحاك، والحسن، وقتادة، ومقاتل، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: عني بذلك: للمسافر الذي لا زاد معه، ولا شيء له - وأصله من قولهم: أقوت الدار: إذا خلت من أهلها وسكانها» - واستشهد ببيت من الشعر - وعلق ابن كثير ((١٣) / (٣٨٧)) على القول الثاني بقوله: «وهذا التفسير

---
(١) موسوعة التفسير المأثور ٨٧/٣٨

أعم من غيره، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير، الكل محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع - ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار، وخالص الحديد، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره فاطبخ بها واصطلى، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات؛ فلهذا أفرد المسافرون، وإن كان ذلك عاما في

حق الناس كلهم» - وذكر ابن عطية ((٨) / (٢٠٧)) أن معنى «المقوين» في هذه الآية: «الكائنون في الأرض القواء، وهي الفيافي» - ثم ذكر أن بعض الناس «عبر في تفسير» المقوين «بأشياء ضعيفة، كقول ابن زيد: للجائعين ونحوه» - ولم يذكر مستندا، ثم علق على القول الأول بقوله: «ومن قال: معناه: للمسافرين - فهو نحو ما قلناه، وهي عبارة ابن عباس، تقول: أصبح الرجل: دخل في الصباح، وأصحر: دخل في الصحراء، وأقوى: دخل في الأرض القواء، ومنه: أقوت الدار، أقوى الطلل، أي: صار قواء - » - وذكر ابن القيم ((٣) / (١١٤)) أن «المقوين»: هم المسافرون - ثم علق بقوله: «وخص المقوين بالذكر، وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيها لعباده - والله أعلم بمراده من كلامه - على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر» - .

(فسبح باسم ربك العظيم (٧٤))

(٧٥٢٩٢) - عن عبد الله بن عباس - من طريق السدي، عن أبي مالك وأبي صالح - (فسبح باسم ربك العظيم)، يقول: فصل لربك العظيم عزاه السيوطي إلى ابن مردويه - .

(٧٥٢٩٣) ." [(١)]

" - عن الضحاك بن مزاحم - من طريق عبيد - (على أن نسوي بنانه)، قال: البنان: الأصابع - يقول: نحن قادرون على أن نجعل بنانه مثل خف البعير أخرجه ابن جرير (٢٣) / (٤٧٣) - وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر بلفظ: على أن نجعل يديه ورجليه مثل خف البعير - .

(٨٠٠١٨) - عن الحسن البصري - من طريق أبي رجاء - أنه قرأ هذه الآية: (بلى قادرين على أن نسوي بنانه)، فقال: إن الله أعف مطعم ابن آدم، ولم يجعله خفا ولا حافرا، فهو يأكل بيديه، ويتقي بها، وسائر الدواب إنما يتقي الأرض بفمه أخرجه ابن جرير (٢٣) / (٤٧٢) بنحوه - وعزاه السيوطي إلى عبد بن

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٢٥٧/٣٩

حميد، وابن المنذر - .

(٨٠٠١٩) - عن قتادة بن دعامة - من طريق معمر - (بلى قادرين على أن نسوي بنانه)، قال: لو شاء لجعله كخف البعير أو كحافر الدابة، ولكن جعله الله خلقا سويا حسنا جميلا، تقبض به وتبسط به، يا ابن آدم أخرجه عبد الرزاق (٢) / (٣٣٣)، وابن جرير (٢٣) / (٤٧٣)، كذلك من طريق سعيد - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد - .

(٨٠٠٢٠) - قال محمد بن كعب القرظي - من طريق أبي صخر - (بلى قادرين على أن نسوي بنانه)، قال: لو شاء لجعله خنزيرا حمارا أخرجه عبد الله بن وهب في الجامع - تفسير القرآن (٢) / (١٤٧) ((٢٩٧)) - .

(٨٠٠٢١) - عن غيلان بن جرير، عن أصحابه، في قوله: (بلى قادرين على أن نسوي بنانه)، قال: قادرين على أن نجعلها مثل ربع أخرجه سعيد بن منصور في سننه - التفسير (٨) / (٢١٥) ((٢٣٤٧)) - قال محققه: «كذا في الأصل، لكن وضع ضمة على الباء» - والظاهر أن المراد: نجعلها مثل يد الربع أو قدمه، والربع هو ولد الناقة في أول النتاج، ولا أصابع له، ويؤيده رواية ابن عباس السابقة: «كفا ليس فيه أصابع» - .

(٨٠٠٢٢) - قال مقاتل بن سليمان: (بلى قادرين) كنا قادرين (على أن نسوي بنانه) أصابعه، يعني: على أن نلحق الأصابع بالراحة، ونسويه حتى نجعله مثل خف البعير، فلا ينتفع بها كما لا ينتفع البعير بها ما كان حيا تفسير مقاتل بن سليمان (٤) / (٥١٠) - ذكر ابن عطية ((٨) / (٤٧٢)) أن المعنى: أن الكفار لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل لهم: إنما تجمع ويسوى أكثرها تفرقا وأدقها أجزاء، وهي عظام الأنامل ومفاصلها، وهذا كله عند البعث - وبنحوه قال ابن القيم ((٣) / (٢٢٦)) - ثم ساق ابن عطية هذا القول بأن المراد: جعل بنان الإنسان في هذه الحياة بضعة أو عظما واحدا كخف البعير لا تفاريق فيه - وعلق عليه بقوله: «فكأن المعنى: قادرين الآن في الدنيا على أن نجعلها دون تفرق، فتقل منفعته بيده، فكأن التقدير: بلى نحن أهل أن نجمعها، قادرين الآن على إزالة منفعته بيده، ففي هذا توعد ما» - وعلق ابن القيم ((٣) / (٢٢٦)) على هذا القول بقوله: «والمعنى على هذا القول: إنا في الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها، فهذا وجه من الاستدلال غير الأول، وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام بعد تفريقها» - ورجح ابن عطية - مستندا إلى السياق - أن المراد بالجمع في الآخرة، فقال: «والقول الأول أجرى مع رصف الكلام» -

ثم قال: «ولكن على هذا القول الآخر [أي: تسوية البنان في الدنيا] جمهور العلماء» - وعلق ابن القيم ((٣) / (٢٢٧)) على القولين بقوله: «وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه؛ فيرجح الأول أنه هو المقصود، وهو الذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده، ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت - ويرجح القول الثاني - ولعله قول جمهور المفسرين - ، حتى إن فيهم من لم يذكر غيره، وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد وارتباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة، وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف، ففاته هذه **المنافع** والمصالح التي حصلت بتفريقها، ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت» - .

(بل يريد الإنسان ليفجر أمامه (٥))

(٨٠٠٢٣) - عن عبد الله بن عباس - من طريق أبي الخير بن تميم، عن سعيد بن جبير - في قوله: (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه)، قال: يمضي قدما أخرجه ابن جرير (٢٣) / (٤٧٥) - .

(٨٠٠٢٤) - عن عبد الله بن عباس - من طريق سعيد بن جبير - في قوله: (بل يريد ". [(١)]

"(٨٥٢٠٣) - قال مقاتل بن سليمان: (ويمنعون الماعون) يعني: الزكاة المفروضة، والماعون بلغة قريش: الماء - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «الماعون: الإبرة، والماء، والنار، وما يكون في البيت من نحو هذا فيمنع» تفسير مقاتل بن سليمان (٤) / (٨٧١) - .

(٨٥٢٠٤) - قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - من طريق ابن وهب - في قوله: (ويمنعون الماعون)، قال: هم المنافقون، يمنعون زكاة أموالهم أخرجه ابن جرير (٢٤) / (٦٧٠) - اختلف في المراد بالماعون على أقوال: الأول: الزكاة - الثاني: ما يتعاوره الناس بينهم من مثل الدلو والقدر ونحو ذلك - الثالث: المعروف - الرابع: المال - قال ابن جرير ((٢٤) / (٦٦٥)) مستندا إلى اللغة: "وقوله: (ويمنعون الماعون) يقول: ويمنعون الناس منافع ما عندهم، وأصل الماعون من كل شيء منفعته؛ يقال للماء الذي ينزل من السحاب: ماعون؛ ومنه قول أعشى بني ثعلبة: بأجود منه بماعونه إذا ما سماؤهم لم تغم ثم ذكر اختلاف

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٤٣٤/٤١

السلف في المراد به في هذا الموضع، ثم رجح ((٢٤) / (٦٧٨)) العموم، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، إذ كان الماعون هو ما وصفنا قبل، وكان الله قد أخبر عن هؤلاء القوم، وأنهم يمنعونه الناس، خبرا عاما، من غير أن يخص من ذلك شيئا؛ أن يقال: إن الله وصفهم بأنهم يمنعون الناس ما يتعاورونه بينهم، ويمنعون أهل الحاجة والمسكنة ما أوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق؛ لأن كل ذلك من **المنافع** التي ينتفع بها الناس بعضهم من بعض» - وذكر ابن كثير ((١٤) / (٤٧٤)) قول عكرمة: «رأس الماعون: زكاة المال، وأدناه: المنخل، والدلو، والإبرة» - ثم علق قائلا: «وهذا الذي قاله عكرمة حسن؛ فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلها إلى شيء واحد، وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة - ولهذا قال محمد بن كعب: (ويمنعون الماعون)، قال: المعروف - ولهذا جاء في الحديث: «كل معروف صدقة»» - .

- آثار متعلقة بالسورة

(٨٥٢٠٥) - عن أبي هريرة، وابن عباس، قالا: خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فذكر حديثا طويلا جدا، فيه: «ومن منع الماعون جاره إذا احتاج إليه منعه الله فضله يوم القيامة، ووكله إلى نفسه، ومن وكله إلى نفسه هلك آخر ما عليه، ولا يقبل له عذر» أخرجه الحارث في مسنده (١) / (٣٠٩) - (٣٢١) ((٢٠٥)) بطوله - قال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ((٢٥٨٤)): «هذا الحديث بطوله موضوع على رسول الله، والمتهم به ميسرة بن عبد ربه، لا بورك فيه» - وانظر: اللآلئ المصنوعة (٢) / (٣١١) -
.

* * *

سورة الكوثر

مقدمة السورة

". [(١)]

"(٧٦٧٧) - عن عبد الله بن عباس - من طريق علي بن أبي طلحة - في قوله: (ومنافع للناس)، يقول: فيما يصيبون من لذتها وفرحها إذا شربوها أخرجه ابن جرير (٣) / (٦٧٨)، وابن أبي حاتم (٢) / (٣٩٢) - وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر - .

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٨٩/٤٤

(٧٦٧٨) - عن سعيد بن جبير - من طريق عطاء بن دينار - في قول الله: (ومنافع للناس) يعني: - ، (أكبر من نفعهما)، يعني: قبل التحريم، فذمها ولم يحرمها، وكان المسلمون يشربونها على **المنافع**، وهي يومئذ لهم حلال أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٣٩١) ((٢٠٦٤)) وفيه سقط - .

(٧٦٧٩) - عن مجاهد بن جبر - من طريق عيسى، عن ابن أبي نجيح - في قوله: (ومنافع للناس)، قال: ثمنها، وما يصيبون من السرور أخرجه ابن جرير (٣) / (٦٧٧) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد - .

(٧٦٨٠) - عن مجاهد بن جبر - من طريق ورقاء، عن ابن أبي نجيح - (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس)، قال: منافعهما قبل أن يحرما أخرجه ابن جرير (٣) / (٦٧٨)، وابن أبي حاتم (٢) / (٣٩٢) ((٢٠٦٣)) بلفظ: ثمنها قبل أن تحرم - وفي تفسير مجاهد ص (٢٣٢): ما يصيبون فيها زمن الميسر - .

(٧٦٨١) - عن الضحاك بن مزاحم - من طريق جويبر - في قوله تعالى: (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس)، قال: **المنافع** قبل التحريم أخرجه النحاس في ناسخه (ت: اللاحم) (١) / (٥٧٥) - .

(٧٦٨٢) - عن قتادة بن دعامة: (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس)، قال: فذمهما ولم يحرمهما، وهي لهم حلال يومئذ - ذكره يحيى بن سلام - كما في تفسير ابن أبي زمنين (١) / (٢١٩) - - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد - .

(٧٦٨٣) - عن إسماعيل السدي - من طريق أسباط - : أما منافعهما فإن منفعة الخمر في لذته وثمنه، ومنفعة الميسر فيما يصاب من القمار أخرجه ابن جرير (٣) / (٦٧٨) - .

(٧٦٨٤) - قال مقاتل بن سليمان: ثم قال سبحانه: (ومنافع للناس)، يعني **بالمنافع**: اللذة، والتجارة في

ركوبهما قبل التحريم، - والمنفعة في الميسر: أن بعضهم ينتفع
." (١)

"به، وبعضهم يخسر، يعني: المقامر تفسير مقاتل بن سليمان (١) / (١٨٨) - .

(وإثمهما أكبر من نفعهما)

(٧٦٨٥) - عن عبد الله بن عباس - من طريق علي بن أبي طلحة - في قوله: (وإثمهما أكبر من نفعهما)، يقول: ما يذهب من الدين، والإثم فيه أكبر مما يصيبون من فرحتها، ولذتها أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٣٩٢) ((٢٠٦٦)) - .

(٧٦٨٦) - عن عبد الله بن عباس - من طريق العوفي - في قوله: (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس)، قال: منافعهما قبل التحريم، وإثمهما بعد ما حرما أخرجه ابن جرير (٣) / (٦٧٩)، وابن أبي حاتم (٢) / (٣٩٢) - وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر - .

(٧٦٨٧) - عن الضحاك بن مزاحم - من طريق عبيد بن سليمان - في قوله: (وإثمهما أكبر من نفعهما)، قال: إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم أخرجه ابن جرير (٣) / (٦٨٠) - .

(٧٦٨٨) - عن الربيع بن أنس - من طريق أبي جعفر - : (ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما)، ينزل **المنافع** قبل التحريم، والإثم بعد ما حرم أخرجه ابن جرير (٣) / (٦٧٩) - .

(٧٦٨٩) - قال مقاتل بن سليمان: - فلما حرمهما الله قال: (وإثمهما) بعد التحريم (أكبر من نفعهما قبل التحريم، وأنزل الله تحريمهما بعد هذه الآية بسنة تفسير مقاتل بن سليمان (١) / (١٨٨) - .

(٧٦٩٠) - عن مقاتل بن حيان - من طريق بكير بن معروف - قوله: (واثمهما أكبر من نفعهما)، يقول: إثمهما اليوم بعد التحريم أكبر من منفعتهما قبل التحريم أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٣٩٣) ((٢٠٦٧)) - رجح ابن جرير ((٣) / (٦٨٠)) هذا القول، وأن المراد بالإثم في هذه الآية: ما يحدث من اقتتال وشرور بسبب تعاطي الخمر والميسر، مستندا إلى أحوال النزول، فقال: «وإنما اخترنا ما قلنا في ذلك من التأويل؛

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ١٤/٥

لتواتر الأخبار وتظاهرها بأن هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر والميسر، فكان معلوما بذلك أن الإثم الذي ذكره الله في هذه الآية فأضافه إليهما إنما عنى به: الإثم الذي يحدث عن أسبابهما على ما وصفنا، لا الإثم بعد التحريم» - .

(ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو)

(٧٦٩١) - ." [١]

(١) موسوعة التفسير المأثور ٥/١٥